جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الخامس عشر

١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الخامس عشر

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

حولية تصدر عن
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية
بجامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

صدق الله العظيم

بيانات حول النشر في حولية كلية الانسانيات

١ - ترحب الحولية بالأبحاث التي لها صلة بتخصص كلية الإنسانيات وتولي الاهتمام بالموضوعات التي لها صلة بالخليج والجزيرة العربية ، وقد يقع الاختيار على أبحاث في تخصصات أخرى لها صلة بتخصصات المجلة .

٢ - تنشر حولية كلية الإنسانيات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوافر فيها شروط البحث ، في الإحاطة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي وخطواته ، والأمانة العلمية ، في الإشارة إلى الأفكار وذكر المراجع والمصادر ، ولا يلتفت إلى المقالات الوصفية والإنشائية ، ويتقيد مقدمو البحوث بالتسميات والحواشي والمراجع والرموز ، وذلك بالطريقة المتعارف عليها عربياً وعالمياً .

٣ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر ولا يكون جزءاً من كتاب منشور . والبحث المقبول للنشر يرفق بوثيقة تعهد من صاحب البحث بعدم نشره في مكان آخر .

٤ - تتلقى الحولية البحوث للنشر من داخل جامعة قطر ومن خارجها من الجامعات والمؤسسات العلمية الشقيقة والصديقة باللغة العربية والإنجليزية .

٥ - يقدم البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة بنسختين وألا يقل حجم البحث عن ١٥ صفحة وألا يزيد عن أربعين صفحة كوارتر (٢٧×٢١سم) أو ثلاثين صفحة فلوسكاب (٣٢×٢١سم) .

٦ - تقدم الرسوم والأشكال والخرائط مرسومة بالحبر (الصيني) على ورق مصقول أو ورق شفاف Tracing Paper ويراعى في مساحتها ألا تزيد على مساحة المجلة طولاً وعرضاً .

أما الصور الفوتوغرافية فتكون واضحة المعالم ومقدمة على ورق مصقول وبحجم البطاقة البريدية .

٧ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية تحددها جامعة قطر مع ٢٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور .

٨ - البحث المقبول للنشر يأخذ دوره للنشر سواء في أول عدد يصدر أو الأعداد التي تليه .

٩ - تعرض البحوث المقدمة على خبير متخصص سواء من داخل جامعة قطر أو من خارجها ويكون رأي الخبير ملزماً كما يبقى إسم الباحث وإسم الخبير مكتومين .

١٠ - الأبحاث والمواد التي ترسل إلى الحولية لا تعاد ولا تسترد سواء أنشرت أم لم تنشر .

١١ - ما ينشر في الحولية يعبر عن وجهة نظر صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر الحولية .

١٢ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .

١٣ ـ توجه الخطابات والمراسلات باسم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور ـ عمار الطالبي رئيس قسم الفلسفة ـ جامعة قطر ص.ب : ٢٧١٣ ـ الدوحة ـ دولة قطر .

كلمة التحرير

هذا العدد حافل بأبحاث في اللغة العربية وآدابها ، وفي الدراسات الإنسانية والاجتماعية ، والإعلامية ، وبأبحاث في اللغة الإنجليزية وآدابها .

نرجو أن تنال رضا الباحثين ومن نقدهم أيضاً وإذا كانت رسالة الأستاذ الجامعي تتلخص في أمرين : أحدهما البحث والتجديد ، والآخر التدريس وتكوين الباحثين إن في المنهج وإن في المادة ، فإن هذه الحولية تمثل الجانب الأول وهو الأصل والمصدر إذ لاتدريس دون بحث ، ولا جديد إذا غاب المنهج العلمي الأصيل .

ويسر أسرة التحرير ان تشكر السادة الباحثين على ما بذلوه من جهد ، وانفقوا من وقت ، راجين لهم مزيداً من المضي في هذا السبيل من الدرس والاجتهاد فيه .

أسرة التحرير

فهـرس الحوليـة

أرض الشهــداء

بين فن الملحمة والغنائية الرومانسية

د. محمـد عبـد الرحيـم كافـود

عميـد كليـة الإنسانيـات والعلـوم الاجتماعيـة

وقبل أن نتناول ملحمة أرض الشهداء بالدراسة والتحليل لابد لنا من الوقوف على معالم فن الملاحم بصورة موجزة لكي تتضح لنا أبعاد هذا الفن في هذه الملحمة ومدى استيفائها لعناصرها الأساسية.

فالملحمة ـ كما عرفها النقاد والدارسون ـ هي قصة تتسم بالطول وتحكى شعراً يصور فيها الشاعر بطولات قومية فردية أو جماعية ، وتحتوي على حوادث خارقة للعادة ، وأساطير ، ويطغى فيها الخيال والمبالغات على واقعية الحدث . وغالباً ماتمثل الملحمة سجلا حافلا للأمة التي قيلت فيها ؛ تتغنى بأمجادها وبطولاتها ، وتعبر عن آلامها وأشجانها ، أو تجسد آمالها وطموحاتها ، من خلال تفجير معطيات ماضيها . . .

ويرى بعض النقاد أن فن الملاحم قد انتهى بعد التقدم الحضاري ورقي العقل البشري وهم يربطون هذا الفن بالخرافة والأساطير ، والمعتقدات الفطرية الساذجة وهذه العناصر لامكان لها في حياتنا المعاصرة [1] . . .

والسؤال الذي نطرحه هنا لماذا نربط فن الملاحم بالأساطير والخرافة فحسب ؟ أو لماذا نقف عند تلك دون أي تغيير أو تجديد ؟ ألا يمكن أن تتحول الملحمة من حكاية أسطورية تصور البطولات الخارقة وتتحدث عن آلهة وأنصاف الآلهة إلى ملاحم واقعية تصور الواقع من خلال خيال علمي ؟

إن تاريخ الفنون يؤكد لنا أن جميع الفنون قد أصابها الكثير من التغيير والتطور على مر العصور ولم يظل أي فن ملتزماً بكل عناصره أو خصائصه التي عرف بها في بداية نشأته . وأقرب

(١) الأدب المقارن ، د. محمد غنيمي هلال ١٤٨ .

وهذا ماذهب إليه الدكتور مندور في كتابه الأدب ومذاهبه ٢٥ حيث يرى أن فن الملاحم لم يعد له وجود .

مثال إلى فن الملاحم فن المسرح فالمسرحية صنو الملحمة ، وكان للمسرحية قوانينها وخصائصها التي استخلصها أرسطو في كتابه فن الشعر ؛ ولكن هل ظلت هذه الخصائص والأسس كما هي عليه ؟ فأين الوحدات الثلاث التي نادى بها أرسطو ؟ وإذا كان فن الأدب المسرحي قد تجاوزها بمدارسه المختلفة فهل نقول أن فن المسرح قد إنتهى ؟

وإذا عدنا إلى تاريخ فن الملاحم فإننا نجد أن هذا الفن قد تطور ، وتحول موضوع الملحمة من الموضوعات القومية الأسطورية والخرافية ، والأبطال الأسطوريين وانصاف الآلهة ، إلى موضوعات ذات طابع ديني أو أدبي مثل (الكوميديا الإلهية) لدانتي ؛ فعلى الرغم من أن موضوعها ديني تصور رحلة الشاعر إلى الآخرة إلا أنها ـ مع ذلك ـ رمز أو تعبير عن واقع المجتمع الذي كان يعيش فيه ومافيه من اضطراب وظلم واضطهاد [٢] . وهكذا بالنسبة للفردوس المفقود (لملتون) الذي اعتمد في ملحمته على الكتاب المقدس [٣] .

إن تطور فن الملاحم لم يقف عند الموضوعات أو المضمون ؛ بل تحولت بعض الملاحم إلى نثر كما حدث بالنسبة لفن المسرحية [٤] . . فتنوعت موضوعات الملاحم وداخلها الكثير من التغيير والتطوير [٥] . والفنون بصفة عامة في تطور وتغير مستمر . . . وقد يحدث أن يتراجع أو ينكمش فن من الفنون في فترة زمنية ويطغى فن آخر بسبب ملاءمته لظروف العصر أو عدم الملاءمة ولكن لايعني ذلك انتهاء هذا الفن . . ونذكر مثالا آخر على ذلك .

فن الرواية وفن القصة القصيرة ؛ فمن المعروف أن فن الرواية كان له من الانتشار والرواج الشيء الكثير في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن الحالي ؛ ولكن في أيامنا هذه نجد أن فن القصة القصيرة قد لاقى رواجا أكثر وتراجع فن الرواية ، وهذا بطبيعة الحال يرجع إلى ظروف الحياة المعاصرة وسرعة وقعها . . . ولكن يظل فن الرواية فنا حيا يتطور ويتغير ويتنوع بما يتلاءم وروح العصر ، وكما يقول الدكتور عبد المنعم تليمة «وبطبيعة الحال فإن تغير الواقع والتقدم الإنساني عامة قد أثر تأثيراً عميقاً في مجرى التطور الفني ، إذ أمد الفنون بخبرة واسعة بالمادة وخصائصها وطاقاتها ، وبخبرة تكتيكية مساعدة في التنفيذ والتشكيل والعرض ، وبتراكم معرفي كبير» . . . [٦] .

---

(٢) الكوميديا الالهية ـ الفردوس ـ دانتي ٢٢ ، وانظر كتاب الأنواع الأدبية ـ د. شفيق البقاعي ٣٣٦ .
(٣) الأنواع الأدبية ـ د. شفيق البقاعي ٣٥٨ ، وانظر الأدب وفنونه ـ د. عز الدين اسماعيل ١٥١ .
(٤) الأدب المقارن ـ د. محمد غنيمي هلال ١٤٨ .
(٥) الأنواع الأدبية ـ د. شفيق البقاعي ٣٣٠ .
(٦) مقدمة في نظرية الأدب ـ د. عبد المنعم تليمة ١٢٦ .

وكما يقول أحد الباحثين أن سنة التطور تفرض علينا التجديد فرضاً «فهي إن لم تفرضه في شكل الفن وطريقة آدائه ؛ فقد تفرضه في مضمونه وغايته . . . أو تفرضه فيهما معا . . .» [٧] .

والذي نريد أن نؤكده هنا ـ وهو ليس بحاجة إلى تأكيد ـ أن موضوعات الملاحم التي اتخذت نماذج مثل الإلياذة والأوديسة كانت موضوعات واقعية وحقائق تاريخية ، ولكن دخلها الكثير من المبالغة والخيال ونسج حولها من الأساطير بحكم المعتقدات والطابع البدائي لتلك المرحلة . ولذا أرى أن واقعية الحدث . . . وتقلص الجانب الأسطوري في هذا الفن لايعني إلغاءه .

وهناك العديد من المحاولات في أدبنا العربي الحديث للخوض في فن الملاحم ؛ بل إن بعض هذه المحاولات قد حظي بعناية الدارسين والنقاد وتأتي محاولة الشاعر أحمد محرم في المقدمة في هذا المجال في ديوانه «ديوان مجد الإسلام» وقد أطلق عليها الإلياذة الإسلامية ويتناول في هذه المطولة القصصية سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبطولاته وغزواته [٨] .

ومثلها مطولة الشاعر أحمد شوقي تاريخ العرب وعظماء الاسلام وعمرية حافظ ابراهيم ، ومطولة الشاعر محمد عبد المطلب في علي بن أبي طالب وغيرها من المحاولات .

وإن كان بعض النقاد العرب يرفض أن تكون هذه المطولات ملاحم بالمعنى الدقيق لفن الملحمة [٩] .

والذي أميل إليه هو أن فن الملاحم يمكن أن نتسامح في بعض خصائصه خاصة فيما لا يتمشى مع طبيعة عصرنا ونعني به الأساطير والأمور الخوارق والمعتقدات البدائية . . وبهذا تصبح الملحمة تلك القصة الشعرية المطولة التي تمتزج فيها الحقائق والواقع والخيال الفني لتصوير مآثر الأمة ودورها وبطولاتها فالحاجة إلى هذا النوع من الشعر لازالت قائمة طالما كانت هناك أمم تخوض النضال وتسطر البطولات وتبني الحضارات فلابد أن تسطر قرائح مبدعيها هذه البطولات والإنجازات .

---

(٧) نظرية الفن المتجدد ـ عز الدين الأمين ١٨ .

(٨) تطور الأدب الحديث في مصر ـ د. أحمد هيكل ٢٨٦ .

(٩) الأدب وفنونه ـ د. عز الدين اسماعيل ١٥٢ .

ومن هذا المفهوم سوف أنطلق لدراسة مطولة الشاعر ابراهيم العُرَيِّض ملحمة (أرض الشهداء) وقد سبقني إلى هذه التسمية بعض الدارسين والنقاد ممن عرضوا لشعر الشاعر [١٠] . . .

و«ابراهيم العريض» كشاعر خليجي نستطيع القول أنه تجاوز حدود الزمان والمكان بفنه ؛ فمن حيث الزمان يعد في طليعة أو من أوائل الشعراء الرومانسيين أو الذين تأثروا بالاتجاه الرومانسي من شعراء المنطقة ، كما أنه يعد رائداً في شعره القصصي والمسرحي بالنسبة لشعراء المنطقة . أما من حيث المكان فهو أول شاعر استطاع أن يخترق حاجز المكان كشاعر خليجي ويصل أدبه إلى القارىء العربي في مصر ولبنان وغيرهما ؛ حيث نشرت له مجلة الرسالة ، والمقتطف ، والثقافة الوطنية ، والعروبة ، والمنهل وغيرها من المجلات العربية [١١] .

وقد كان لنشأة العريض خارج وطنه أثرها في شعره حيث ولد في الهند وقضى فترة من شبابه هناك وتعلم اللغة الأوردية والإنجليزية والفارسية ؛ فهذه الظروف أتاحت للعريض فرصة الاتصال بالآداب الأخرى وخاصة الآداب الشرقية والأدب الانجليزي على وجه الخصوص ، مما ترك أثره على الشاعر وفنه . وكانت النزعة القصصية سمة من سمات فن العريض ، لما اتسم به من رؤية فكرية ونظرة تحليلية تركت أثرها في شعره حتى الغنائي منه [١٢] . ومن ثم كان شعره مفعمًا بالنزعة القصصية حتى إذا اختفى أسلوب الحوار يظل البناء الداخلي للقصيدة وترتيبها فكرياً أو عاطفياً يوحي لك بهذه النزعة القصصية عنده وديوانه «العرائس» الذي يمثل انتاجه الشعري بين ١٩٣٤ - ١٩٤٠ م ونشره عام ١٩٤٦ م تمتزج فيه الروح الغنائية الرومانسية بالنزعة القصصية . وإذا كنا لانغفل أن النزعة القصصية سمة من سمات الرومانسية كما هو معروف إلا أن هذه النزعة عند العريض بدأت تنمو وتبلورت بصورة واضحة بعد ذلك في شعره الموضوعي (أرض الشهداء) والمسرحي كما في مسرحيته «وامعتصماه» [١٣] أو في مطولته القصصية «قبلتان» التي يصور فيها الشاعر مأساة العرب في الأندلس أو ما اطلق عليه بالفردوس المفقود . .

---

(١٠) أنظر في هذا الصدد إلى :

- دمقس وارجوان - مارون عبود ٢٠٨ .
- الشعر المعاصر في البحرين - د. علوي الهاشمي ٤٩٧ .
- دراسات في أدب البحرين - مجموعة من الباحثين - معهد البحوث والدراسات العربية ٢٨٣ .

(١١) كتابات - مجلة فصلية العدد (١٧) ١٩٨١ م .

(١٢) الحركة الشعرية في الخليج - د. نورية الرومي ٣٣١ .
وانظر : مجلة كتابات العدد (١٧) ١٩٨١ م ، ٩٢ .

(١٣) مجلة كتابات ، العدد السابق ، دراسة للدكتور ابراهيم غلوم حول المسرح عند العريض .

ونقف عند قضية أثارها بعض النقاد فيما يتصل بريادة العريض للقصة الشعرية ونفاها بعض الباحثين ورغم ماذكره الدكتور محمد جابر الأنصاريُ الذي أثار هذه القضية [١٤] ، إلا أني لم أجد أحداً من النقاد قد أشار إلى هذه الريادة ، وربما أشار مقدم ديوان العريض إلى أن العريض أول من كرس معظم شعره لهذا الفن ، وأنه أول شاعر يكتبها بأسلوب فني ، مع احتفاظه بمقومات الشعر [١٥] . ومع ذلك فإن كاتب المقدمة يؤكد أن هناك العديد من الشعراء قد سبقوا العريض في القص الشعري ، ولكن العريض وظف معظم شعره لهذا الغرض . ونحن لسنا بحاجة إلى التأكيد على أن الشعر العربي ومنذ العصر الجاهلي قد عرف أنماطاً من الشعر القصصي [١٦] ، ولكنه ـ كما أكد معظم النقاد ـ يتسم بالبساطة واسلوب الحكاية ويفتقر إلى الأسلوب الفني ، ونما هذا النمط من الشعر القصصي في العصر الأموي عند عمر بن أبي ربيعة في غزلياته المعروفة ، وبرز هذا الاتجاه بصورة واضحة عند الشعراء الصعاليك من أمثال عروة بن الورد والشنفري .

أما الشعر القصصي في الأدب الحديث فقد ظهر في شعر خليل مطران بصورة واضحة في اتجاهه الرومانسي أو بمعنى أدق في قصائده ذات الطابع الرومانسي مثل قصيدته (فنجان قهوة) ، (شهيد المروءة) ، (الجنين الشهيد) [١٧] .

وكانت للشاعر أحمد زكي أبو شادي إسهامات واضحة في مجال الشعر القصصي وهو قد سبق العريض في نشر هذه القصص حيث نشر بعض قصائده القصصية في عام ١٩٢٦ م وهما (عبده بك) و (مها) [١٨] . وقد أشار بعض النقاد إلى أن العريض قد تأثر بالشاعر أبي شادي في أسلوبه الشعري واتجاهه الرومانسي ، ويرى الناقد رجاء النقاش الذي أشار إلى هذا التأثر أن العريض ربما كان على اتصال بمجلة (أبوللو) التي أنشأها أبو شادي وما كان ينشر فيها من شعر أبي شادي ؛ حيث لاحظ الناقد أن هناك تشابهاً بين انتاج أبي شادي وبين انتاج العريض شعرا ونقدا ، من حيث الاهتمام بالقصة الشعرية ، والاهتمام بالتفاصيل والاستطراد في الشعر . . . [١٩] .

---

(١٤) مجلة كتابات ، العدد (١٧) ١٩٨١ م ، ٩٢ .

(١٥) ديوان العريض ، المقدمة (ح) .

(١٦) القصة في الشعر العربي ـ علي النجدي ناصف ، ١٨ ومابعدها .

(١٧) المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ـ د. نسيب نشاوي ، ٢٤٦ .

(١٨) تطور الأدب الحديث في مصر ـ د. أحمد هيكل ، ٣٦٧ .

(١٩) مجلة كتابات ـ العدد (١٧) ١٩٨١ م ، ١٢٩ .

والحقيقة أن ماذهب إليه الناقد النقاش مجرد افتراض أما ماذكره من تشابه في الانتاج ، فإننا نرى أن الأسلوب القصصي ظاهرة واضحة عند العديد من الشعراء الرومانسيين وقد أشرنا إلى خليل مطران ، كما أن شعراء المهجر كان لهم نصيب في ذلك ، وقد أكد العريض تأثره ببعض شعراء المهجر وفي مقدمتهم ايليا أبو ماضي ، كما أشار العريض إلى تأثره بالشاعر العراقي الزهاوي وهو شاعر له نصيب وافر في مجال الشعر القصصي . كما أن العريض قد تأثر ببعض الشعراء الغربيين من أمثال شيللي ، وكيتس . أما ماذهب إليه الناقد من التشابه في أن كليهما قد ترجم رباعيات الخيام ، فإن هذا الأمر قد أوضحه الشاعر العريض من أن صلته بالخيام كانت من خلال ترجمة الرباعيات إلى اللغة الانجليزية [٢٠] .

وعلى أية حال فإن ظاهرة الشعر القصصي في صورة قصائد قصيرة أو متوسطة قد برزت بصورة واضحة عند العديد من الشعراء وبالذات الرومانسيين منهم في هذه الفترة ، والعريض ذو ثقافة واسعة كما هو معروف من خلال سيرته الذاتية ونشأته وتنقلاته واتقانه لعدة لغات ، واطلاعه على آداب تلك اللغات ، كل هذه العوامل والروافد كان لها تأثيرها الواضح في أدب العريض ولايمكن حصر هذا التأثر في شاعر بعينه .

ومع ذلك يمكننا القول أن الشاعر العريض قد كان له فضل الريادة في الأدب العربي في منطقة الخليج في مجال الشعر القصصي والملحمي منه بصورة خاصة ؛ بالاضافة إلى تجديده فيما يتصل بالموضوعات وتجاوزه لشعر المناسبات والموضوعات التقليدية كالمديح والغزل ، والشعر التعليمي والوعظي ، إلى الشعر المعبر عن ذات الشاعر ومعاناته ؛ بالإضافة إلى نظراته التجديدية في النقد من خلال كتابه (نظرات جديدة في الفن الشعري) .

---

(٢٠) مجلة كتابات ـ العدد (١٧) ١٩٨١ م ، ٦٦ .

أرض الشهـــداء
وتسييــس الواقــــع

يبـدأ الشـاعـر ملحمتـه بفاتحة يؤكد فيها أن هذه الأرض لن تعود إلى أهلها إلا بالفداء والاستشهاد ، وأنه مهما طال الليل فلابد من بزوغ فجر النصر وتحرير الأرض :

هذه الـتربـة .. مـذ غنـى بهـا أهـل الحـداء
لم يطهـرهـا مـن الـرجـس سوى تلـك الـدمـاء
كـم زكـا المـسـجـد من أعـرافـهـم ، بعـد الـفـنـاء
كـم بكـى الـغـيـث على أجســادهم ، وسط العــراء
فكـأن الـلـيـل شـيء مالـه معـنـى انـتـهـاء
ثم ... جاء الـفـجـر يسعى بتبـاشـير الضيـاء [٢١]

وتمتد الفترة الزمنية للملحمة من ١٩٤٧ - ؟؟١٩ ولا يحدد الشاعر نهاية للملحمته لأنه يربطها بتحرير فلسطين حيث نهاية الحدث فيها تصور خيالي .

وتـدور أحـداث الملحمة على أرض فلسطين فتصور الصراع بين العرب واليهود الذين اغتصبوا الأرض ومارسوا شتى ألوان الضغط لإستبعاد أهلها ، ولكن أبناء فلسطين يهبون للدفاع عن وطنهم وتبدأ المعركة ، وينضم العرب إلى إخوتهم في فلسطين وتلعب المؤامرة والخيانة دورها فتفـرض الهدنة ويعلن التقسيم .. ولكن الثورة تستمر لاقتلاع جذور الخيانة وطرد المغتصب وتحـرير الأرض . وتبدأ أحداث الملحمة في ذلك اللقاء الذي يتم بين (ظافر) راعي الأغنام ، و(دعـد) ابنة عمه التي جاءت تحمل له الغذاء وهو يسرح بأغنامه للرعي ، ويمتزج ذلك اللقاء الرومانسي بالبعد والمعاناة الوطنية ، التي تنبثق من خلالها روح الفداء والتضحية فيعلن (ظافر) انضمامه إلى صفوف المقاتلين لتحرير الأرض ، بعد أن أثارت (دعـد) في نفسه مأساة الوطن ، وتشريد الأهل . وإلى جانب بطلي الملحمة (ظافر ، ودعـد) تبرز مجموعة من الشخصيات تلعب دوراً بارزاً في أحداث الملحمة مثل (مـاري) المسيحية التي تقف إلى جانب دعد في نضالها ضد المغتصب ، و (تامار) اليهودية التي تمثل الجانب الآخر في الصراع وهي نموذج للعدو في أساليبه اللا أخلاقية ، وأخيراً يقتل البطل (ظافر) شهيداً وهو يدافع عن القدس .

---

(٢١) ديوان العريض ٧ .

وتتكون الملحمة من فاتحة وخمسة أناشيد هي (جبل الزيتون ، نشيد الانشاد ، باب الواد ، هيكل سليمان ، قبة الصخرة) ويدور كل نشيد حول موضوع أو فكرة معينة ولكن تكون في النهاية وحدة متداخلة لمضمون الملحمة وفكرتها الأساسية وهو تصوير الصراع العربي الصهيوني على أرض فلسطين ، التي أطلق عليها الشاعر الفردوس المحفوظ . ومن خلال الفاتحة يحدد الشاعر موضوع ملحمته [٢٢] :

يافلسطين وما كنت سوى	بيعة الأرض على كف السماء
اشهدي أن بياني قد روى	فيك مايرضي قلوب الشهداء
. . . .	. . . .

هذه أرضك يادعد وأرض الشهداء

ويستهل الشاعر الأول (جبل الزيتون) بوصف البرق والمطر والطبيعة . وتعلق الشاعر بالطبيعة ظاهرة متأصلة عنده ففي معظم قصائده يبدأ بمناجاة الطبيعة سواء كانت تلك القصائد ذاتية أو ذات طابع موضوعي قصصي كما في مطولته القصصية (قبلتان) حيث يسترسل الشاعر في الامتزاج بالطبيعة ومناجاتها ثم ينتقل بعدها إلى موضوعه ، ولاشك أن ذلك يعود إلى النزعة الرومانسية التي تسيطر على الشاعر ، ويأخذ بها كاتجاه فني في الجانب الإبداعي والنقدي . وإن كان الناقد (مارون عبود) يرى أن وصف الشاعر للبرق والمطر في مستهل ملحمته هو جري أو تقليد لامرىء القيس في وصفه في معلقته للبرق والمطر [٢٣] .

وإن كنا نرى أن الشاعر العريض استطاع أن يوظف الطبيعة هنا ، ويشركها برؤية فكرية وجدانية مع أبطال ملحمته بأسلوب قصصي ممتع ، فتوجيه البرق إلى ضاحية القدس له دلالة على تعلقه بالمكان ، وتركيز بؤرة الحدث حول محور أساسي هو رمز للأرض الفلسطينية كلها :

صرف البرق إلى ضاحية القدس عنانه
بعد أن قهقه في آفاقها يعلن شانه
ماردا غام عليه الليل ، فاستعدى حصانه
وتجلى . . . ملقيا فوق روابيها جرانه [٢٤]

---

(٢٢) ديوان العريض ـ ٧ .

(٢٣) دمقس وأرجوان ـ مارون عبود ٢٠٩ .

(٢٤) ديوان العريض ١١ .

ولماذا لايكون البر ق هنا ليس على حقيقته وإنما هو رمز لذلك البطل الثائر الذي أطبق عليه ليل الظلم والاضطهاد فأعلن ثورته على جلاده والطامع في وطنه . وسوف نجد أن هناك ارتباطا وثيقا بين هذا البطل المارد أو البرق ، وبين القدس التي وجه الشاعر لها عنان جواده حيث يستشهد البطل (ظافر) في النهاية دفاعا عن القدس . .

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف الراعي (ظافر) وهو يسرح بأغنامه للرعي وسط تلك الطبيعة الخلابة ، ويستطرد الشاعر في وصف الراعي وعلاقته بالطبيعة ومن خلال هذا الوصف يمهد لموضوع الملحمة وطابعها الدرامي الحزين . فالطبيعة هنا يوظفها الشاعر لتكون مسرحا وأرضية تعبر عن طبيعة الأحداث التي سوف تتوالى في الملحمة . فإتخاذ الراعي (بطلا) للملحمة إيحاء بعمق الرابطة بين البطل والأرض وتأكيد على الانتماء الذي ينشأ من خلال مهنة الرعي ، وكما يقول أحد الدارسين أن شخصية الراعي تمثل قيمًا حضارية واجتماعية ونفسية لدى الإنسان العربي ، وتعبر عن التصاق حميم بالأرض [٢٥] . ومن هنا اتخذ الشاعر من الراعي شخصية رئيسية يتركز حولها ومنها الصراع على الأرض ، والدفاع عن الوطن .

ولكن يذهب الدكتور علوي الهاشمي إلى أن العريض لم يستطع توظيف شخصية الراعي توظيفاً فنياً وفكرياً موفقاً حيث بدت العلاقة النفسية بين الانسان والأرض علاقة ضعيفة ؛ حيث يرى أن الشاعر صور اللقاء بين الراعي وبين الجميزة التي رمز لها بالوطن أنه لقاء تم عن طريق الصدفة ؛ حيث خان الشاعر التعبير في استخدامه (إذا) وإيراده (جميزة) نكرة [٢٦] .

أقبــل الــراعي ضحى ـ بالنــاي ـ يستــاق ضيئنه
ناعــم الــبــال . . . كأن الحب قد زكى شؤونه
فإذا جميــزة خضراء في درب المــديــنــة
فوق مطلول غديــر غضـن الـعـشـب جبينـه [٢٧]

وما ذهب إليه الناقد حق حيث أن استخدام (إذا) التي تدل على الصدفة ، وتنكير (جميزة) يضعف الدلالة التي حاول الشاعر تضمينها وهو الرمز للوطن . .

---

(٢٥) الشعر المعاصر في البحرين ـ د. علوي الهاشمي ٤٩٨ .
(٢٦) المصدر السابق ٤٩٨ .
(٢٧) ديوان العريض ١٢ .

وهناك أكثر من قرينة توحي أن الشاعر يرمز للوطن بهذه الجميزة ، فوصفه لها بحماية معين النهر ، وحنانها على الظباء ورعايتها ، وتعاطفها مع أنين النبع وشجونه كلها قرائن تدل على ما ترمز له شجرة (الجميزة) وهو الوطن الذي يكتنف أبناءه بالعطف والرعاية والحنان ؛ ويؤكد الشاعر هذا المعنى في نهاية الملحمة عندما أحس أن الوطن قد ضاع :

قال :

يادعد لقد ضاق بنا فيها المقام لا مراعينا كما كانت ، ولا البيت الحرام

أين جميزتنا .. في ظلها كنت أنام ؟ سلم الجذع ، فقد قطعها القوم الطغام[٢٨] .

ولاشك أن عبارة ـ سلم الجذع ـ لها دلالتها العميقة في نفس الشاعر وما كان يرمي له من معنى فرغم تقطيع العدو لأغصان هذه الشجرة ومحاولته طمس معالمها إلا أن الجذع سوف يظل صلبا صامدا لكي يورق من جديد .

ومما يؤخذ على الشاعر في هذا المقطع ذلك التنافر في وصف الحالة النفسية للراعي (ظافر) حيث وصفه في البداية أنه ناعم البال قد زكى الحب شؤونه ، ثم في الأبيات التالية يصفه بالكآبة والحزن ، حيث يشبه الراعي حالته بحالة تلك الجميزة (الوطن) الحزينة :

شبكت راحتها تحمي من الشمس معينه

تتملى حسنها في زرقة الماء حزينه

أبدا .. ما أشبهت حيرتها إلا سكونه

هي مثلي .. أنزل الله على قبي السكينة[٢٩]

وإن استطاع أن يزاوج أحيانا بين مناظر الطبيعة والجو العام للملحمة حيث يغلب عليها جو الحزن ، إلا أن ميل الشاعر إلى الصورة الرومانسية للطبيعة وجمالها جعلته يقع في تلك الازدواجية بين الصورة النفسية التي يريد أن يرسمها لشخصيات الملحمة وبين ذلك الجو الرومانسي الحالم وسط جمال الطبيعة في مثل هذه الأبيات :

---

(٢٨) المصدر السابق ٦٥ .

(٢٩) ديوان العريض ١٢ .

لبث الراعي على مورده الصافي .. ضحاها

يرقب الضأن على ـ الضفة ـ ترعى والشياها

من رآه شارد الأنمل ، قد زم الشفاها

سادرا ، ينفخ في الناي هواه .. بلغاها

فإذا الظبى عليه يحسد المعزى شجاها

إنه يبدي هواه ، مثلما تبدي هواها

كلما بدع في أنغامه تاهت .. وتاها

فتود الريح لو طارت بعيدا بصداها

ومهاة ... مرغت في سندس الأعشاب فاها

ثم دارت تسأل الأخرى شرودا ، مادهاها

واستمر النبع في أذنيها يضحك هاها

وحسب اعتقادي أن هذه الازدواجية وعدم التجانس في الجو النفسي يرجع إلى محاولة العريض في الجمع بين موضوعية الحدث باعتباره رؤية سياسية لواقع وتاريخ .. وبين النزعة الرومانسية التي لاتستطيع الانعتاق من سحر وجمال الطبيعة ، ولكن العريض لم يستطع في حقيقة الأمر أن يتفاعل مع الطبيعة بوجدانه ومشاعره التي حاول أن يخلعها أو يبثها في شخصيات ملحمته ، أو حتى إيجاد نوع من التجانس بين مظاهر الطبيعة ، والجو العام للحدث الرئيسي في الملحمة .. ومن ثم اصبحت الطبيعة مستقلة بمظاهرها عن الجو العام للملحمة .

والذي نريد أن نقوله أن الشاعر الرومانسي عندما يتناول الطبيعة فإنه يصهرها بعاطفته ويمزجها بوجدانه وتتفاعل مع نفسه إن حزنا فحزن ، وإن فرحا ففرح وهكذا تصبح الطبيعة مشخصة ملونة بلون العاطفة وبلون الحدث الذي يعبر عنه .

وبعد هذا الوصف الرومانسي للطبيعة وما خلعه الشاعر على ذلك من جو الالفة بين الطبيعة ، والراعي وشياهه ، ينتقل الشاعر إلى لوحة أخرى فيصور ذلك اللقاء بين (ظافر) و(دعد) بطلة الملحمة ، حيث تأتي إليه حاملة له الغذاء ، ولكن اللقاء يتحول من جو رومانسي إلى معايشة للواقع فتستثير الفتاة بطلها ، وتذكره بمأساة الوطن . ومن هنا تبدأ أحداث الملحمة أو الخيوط الأولى لنسيج الحدث بتلك الأبيات التي ترددها (دعد) :

هاجت الذكرى أساها فهفت تتلع جيدا

ها هي «القبة» .. لاتبصرها إلا شرودا

فأدارت طرفيها للنبع ينساب برودا
ثم قالت : أفمن «تاه» كمن يمضي شهيدا؟
آه ياظافر ! لو كان لأنثى أن تريدا
جلجل الرعد على صوتي في الأرض بعيدا
قائلا : صهيون ! قف حدك ، جاوزت الحدودا
بقعة بورك في زيتونها غرسا وعودا [٣٠]

وتبدأ ردة الفعل لدى البطل (ظافر) بتلك النبرة الخطابية في روح حماسية ليؤكد لفتاته أن بني قومه أهل للمواجهة وتاريخهم شاهد على أفعالهم فكم أذاقوا أعداءهم الخزي والذل في كل مواجهة مع بني صهيون :

لاتراعي ليس كالفتنة مايجلو الغواية
ما على الأرض سوانا حمل التوحيد راية
طهر الله بنا «البيت» وهم تلك النفاية
كم دعوناه . . .فلبى فدعى أمر (الوصاية)
جعلوا من بوقها في الأرض سهما للنكاية
ما لما يضمره القوم من الخبث نهاية

. . . .

ليس دعواهم على «ميراثها» غير حكاية
نحن من في غرة الدهر وصمناه بآية [٣١]

ويلجأ الشاعر إلى أسلوب (الحلم) كوسيلة لتفجير أبعاد الصراع لدى البطل (ظافر) حيث يروي على لسانه أنه بينما كان نائمًا شاهد في منامه ذئبا يعدو على أغنامه فيفترس سخلة ، ويشتت بقية الأغنام ، فيهب ظافر لمطاردته ويرميه برمحه ولكن الذئب يفر بعيدا . ولاشك أن الذئب هنا رمز للعدو الذي يمثل الغدر ، والسطو تحت جنح الظلام .

ويمزج الشاعر هنا في ـ تصوير الرؤيا ـ بين وصف الطبيعة وعدوان الذئب ويعود الشاعر ليكرر ذكر الحلم مرة أخرى عندما يرويه لفتاته (دعد) :

---

(٣٠) ديوان العريض ١٥ .

(٣١) المصدر السابق ١٦ .

قال يا «دعد» لقد أفزعني حلم رأيته إنه ينذر بالشؤم ، فإن شئت رويته
كنت كالطائر فيه طاب في الأغصان بيته لبنة من ورق الورد ، بمنقاري بنيته

. . . .

وسعدنا حلما ، حتى إذا قلت : رعيته علقت بالروض نار فتهاوى ماهويته
أنا منه قلق ، دعد ، فلا يمكن فوته ثم . لاأنسى حديث الذئب، غال الذئب موته
إنه بيت بي غدرا ، فهلا إذا رميته (٣٢)

وفي نهاية النشيد الأول (جبل الزيتون) نجد أن الشاعر قد هيأ البطل معنويا للإنتقال لمرحلة النضال من خلال بنية خيالية تقوم على الرؤيا ، أضعفها ذلك الحوار الذي يدور بين البطل ظافر وبين فتاته (دعد) (٣٣) :

استعذ بالله يا ظافر ! من سوء المغبة كيف يخشى الأشباح من يعبد ربه ؟
إنها أضغاث أحلام ، وبالميتة أشبه ما على طيرك بأس بارك الجدول شربه

ولكن في النهاية يقرر البطل الانضمام إلى صفوف المقاومة ، وتحاول الفتاة أن ترافقه ؛ ولكن يصر على بقائها لكي تقوم على رعاية شياهه والمحافظة عليها . ولاشك أن الشاعر ربط في النشيد الأول بين الأرض والإنسان العربي ، واتخذ من الراعي محورا لهذه الرابطة ، ومن خلال صوره الرومانسية للطبيعة أراد أن يؤكد ذلك التفاعل بين مظاهر الطبيعة ، وحياة أبطاله وتعلقهم بتلك الأماكن .

وينقلنا الشاعر في النشيد الثاني الذي أطلق عليه (نشيد الانشاد) وهو اسم يوحي بالبعد الديني والتاريخي لليهود ، فيصور من خلاله مظاهر الحياة اليهودية وهنا لا يربطها الشاعر بالأرض ومظاهر الطبيعة ، وإنما يحاول أن يصورها من خلال مظاهر حضارية زائفة ومدنية مصطنعة .

ولاشك أن هذا المنحى يخدم أبعاد الرؤية التي يهدف الشاعر إلى الوصول لها من خلال ملحمته ، وهو أن الطرف الثاني في الصراع لا علاقة له بالأرض ، وإنما يقوم على دعوى زائفة ؛ ولذلك يبدأ تصوير شخصياته من خلال (ملهى ليلي) تمثل الأنوار المصطنعة والألوان الباهرة ، والأزياء الخليعة ، والمظاهر الزائفة ، أرضية ذلك الواقع . فالملهى يغص بالشباب والفتيات في سهرة راقصة تستعرض كل حسناء ماعندها من فن الغواية ، وإثارة الشهوة ، ويتخذ الشاعر من فتاة صهيونية تدعى «ثامار» نموذجا أو رمزا للرذيلة والخيانة والدعارة فيطيل الوقوف عندها واصفا

---

(٣٢) المصدر السابق ٢١ .
(٣٣) المصدر السابق ٢٢ .

إياها وصفا دقيقا يبرز مفاتنها وفنونها في إجادة الغنج والدلال وهي تتلوى راقصة فوق خشبة المسرح :

وقفت «ثامار» من زهو الصبا في حلتين   تجتلي بين المرايا قدها من جهتين
في شفيف ، لايوارى حلية منها بصون   فتراه . . . مس ما حاذى بياض العضدين
والقفا مسار رفيقا ثم عرى المنكبين   طالبا - في صدرها - برعم نهديها بدين [٣٤]

ويسترسل الشاعر في وصف تلك الاستعراضات والتباري بين الغانيات في استعراض جمالهن وتنافسهن في هذا الميدان . وإن كنت في الحقيقة لا أقر الشاعر لمبالغته في تصويره تلك العلاقة المنحرفة بين (ثامار) وأخيها ، فكان أجدر بالشاعر أن يبتعد عن هذه الصورة القبيحة لأنها تخلق لدى المتلقي إحساس بالتحامل من الشاعر وإن كانت ممكنة الحدوث ، الا ان في مثل هذه المواقف يجدر بالشاعر أن لايبتذل الموقف وإنما يمكن أن يوحي بالتفسخ والانحلال دون اللجوء إلى التصريح وقد أجاد الشاعر كما ذكرنا في وصفه الدقيق لجو المجون واللهو الذي تمارسه هذه الطغمة . . ومن هذا الجو الماجن والشخصيات المتهتكة العابثة وعلى رأسها (ثامار) تخرج عصابة «الهغانا» الإرهابية التي ترتكب جرائم القتل والتنكيل لاكتساب المزيد من الأرض وتشريد العرب من وطنهم :

والبس مايشتهي الناس ، ولاتأسى لغيبة   هذه الليلة يستهدف قوم لمصيبة
وسيلقى كل ذي هول من الهول نصيبه   فـ«الهغانا» . . إنني منهم على رأس كتيبة
قررت أن أنسف الركن الذي يحمي العروبة [٣١]

وفي النشيد الثالث «باب الواد» تبدأ المواجهة على أرض الواقع بعد أن أعد الشاعر طرفي الصراع في النشيدين السابقين . وفي مطلع هذا النشيد يبدأ الشاعر بوصف الطبيعة - أيضاً - وكانت ليلة مقمرة ، وأنجمها ساطعة ، وسماؤها صافية ، والسكون يخيم على المكان إلا أنين جدول ، وجرس صرصار الليل يخترقان ذلك السكون ، إنه سكون ينذر بحدث ما . . .

وها هما ظافر وحمدان يختبئان خلف السرحة وينتظران الفرصة لكي يقوما بواجبهما ، وما كاد ضوء الفجر ينبلج حتى بدت لهما أرتال من العصابات الصهيونية قادمة تريد (القدس) فيتصدى لها (ظافر) ويصليها بناره بينما يطلب من زميله (حمدان) أن يستنجد ببني قومه ويرمز

---

(٣٤) المصدر السابق ٢٨ .

(٣٥) نفسه ٣٧ .

لهم بأبناء (نـزار) ، فالبطل يريدها معركة قومية ، وهذا خلاف ماذهب إليه بعض الباحثين من أن الشاعر قد أجهض البطل الرمز (ظافـر) وحوله إلى شخصية عادية فردية [٣٦] .

ونحن لا نتفق مع هذا الرأي حيث أن البطولة الفردية هي في الحقيقة في مثل هذه الأعمال رمز للأمة بأسرها في نضالها وكفاحها . . . وفي معظم الملاحم العالمية نجد الشعراء يركزون على أشخاص معينين ويبرزون بطولتهم وخصائصهم بصورة فردية متخذين منهم رموزاً في التعبير عن آمـال وتـطلعـات بني قومهم ، أو نضالهم وكفاحهم والأمثلة على ذلك كثيرة . . كما أن طلب (ظافـر) من حمدان حث أبناء نزار للإلتحاق بصفوفهم للنضال يرمز إلى أن (الشاعر) قد صور المعركة أنها قضية أمـة وليست قضية فـرد .

وإليـك أنـت ـ وراء التـل ـ أبنـاء نزار إنها الـذؤبـان جاعـت وهـي في الجـوع ضوار

. . . .

ثم لم يلبث إن استشرى كمهـر مستـطار لا الحفـا يثنيـه عن عدو ، ولاطـول العثـار [٣٧]

ويؤكـد قومية المعركة ، وجماعية ـ الملحمة ـ في النضال أن الشاعر قد أشرك الكثير من القبائل في تلك الملحمة التي سطرها المناضلون والمدافعون عن الوطن . وليس صحيحا في أن ذكر أسماء بعض القبائل هنا يدل على رؤية تقليدية لتلك الحروب القبلية التي كانت تدور في جزيرة العرب [٣٨] . . . فالأسماء هنا لها مدلولها الرمزي ولأن الشاعر وظف تلك الأسماء التراثية لدلالة رمزية وهو يريد بذلك شمولية المعركة وأن جميع الدول العربية تشارك فيها :

وأفـاقت نفسـه من غشـوة طال كراهـا إن في أنـتـه «أيـن أنـا . .» بعـث رؤاهـا
وإذا (الفتيـة» معقـود على السفـح لواهـا من (لـؤى) و(تمـيـم) و(كـلاب) وسـواهـا
وعـلى رأسهم (حمـدان) يرعـاه انتبـاهـا لم يكـد يبصره يفـتـح عيـنـيـه شذاهـا [٣٩]

ويؤكد الشاعر في أكثر من موضع في ملحمته على أن النضال هنا نضال أمة بأسرها وما أسماء الأشخاص ، أو الأفراد ـ كأبطال ـ إلا نماذج ورموز لنضال الشعوب أو الأمة :

صرخ المـوت بأهـل القـدس ، فالكـل انـصيـات
أنـفـا . . . حتـى لقـد ملت مع الـصـبر الحـيـاة

---

(٣٦) الشعر المعاصر في البحرين ـ د. علوي الهاشمي ٥٠١ .

(٣٧) ديوان العريض ٤٧ .

(٣٨) الشعر المعاصر في البحرين ـ د. علوي الهاشمي ٥٠٣ .

(٣٩) ديوان العريض ٤٩ .

عنـدمـا الـتقـى إلـيـهـم نبـأ الـروع الـرعـاة
فإذا الأمـة كالـعـين وهـاجـتـهـا قـذاة
شاركـت (يـثـرب) فيهـا الشـام ، والنيـل الفـرات
هل خلت من أهلهـا القـريـة ، أم غاب الحـماة [٤٠] ؟

وهكذا تتضح رؤية الشاعر وتتسع لتصبح الملحمة معركة بين الصهيونية وبين الأمة العربية بأسرها ؛ فهو قد خرج بها حتى عن إطارها الإقليمي حيث لم يحصرها في أبناء الوطن السليب ، وإنما تحولت إلى معركة ـ ملحمة قومية ـ إنضم إليها أبناء العروبة من كل مكان يدافعون عن الأرض العربية في فلسطين . .

ومن خلال إحدى المعارك التي يخوضها (ظافـر) ورفاقه يكتشفون أن المقاتلين من الطرف الآخر فتيات من بني صهيون ، فكيف يتحول الجنس الرقيق إلى سفاك دماء ، وتزداد غرابتهم عندما يفاجأون أن قائدة الرتل هي (ثامـار) تلك الراقصة في الملاهي الليلية ! ولاشك أن هدف الشـاعـر هو تجسيـد الانحـلال الخلقي ، وضيـاع القيم ، وانحـراف السلوكيات في المجتمع الصهيوني من خلال اتخاذه لشخصية (ثامار) الراقصة رمزا للصهيونية وقائدة لتنظيماته العسكرية :

نسـوة أم شب من جمر الـقـضـا قلب أولاء
كيـف شذ الجـنس فيـهـن إلى سفـك الـدمـاء
قال حمدان : هنـا قائـدة الـرتـل . . . إزائـي
فلنـقـذفـهـا طعـم ما أنـزلـنـه بالأبـريـاء
ورآهـا ـ برزت في زيـهـا الـكـامـل ـ راء
فبـدت في وجـهـه الـدهـشـة ، يالـلـتـعـسـاء
هي (ثـامـار) وهـل أفـتـن منهـا في الـنـسـاء ؟
قال : ياقـوم ، ألا تدرون من ذات الـلواء [٤١]

وتهز (ظافـر) النخوة العربية ، والمروءة الإسلامية فيقرر إطلاق سراحهن رغم مافعلته هذه العصابة من جرائم يندى لها الجبين ، وترفضها كل القيم والشرائع ، فقد ارتكبت أفظع جرائمها في دير ياسين وغيرها من القرى العربية التي كانت تهاجمها تلك العصابات ، ولكن الموقف عند القائد العربي يختلف فهو يرفض أن يلطخ سيفه بمثل هؤلاء البغايا :

---

(٤٠) نفسه ٥٣ .

(٤١) ديوان العريض ٥٣

من سواه زج في الميدان - جندا - بنسائه
لم نثر نحن على البغي ليعدينا بدائه
أطلقوهن . . . فلا خوف علينا من إمائه (٤٢)

وينهي الشاعر النشيد الثالث (باب الواد) باستمرار المعارك بين العرب واليهود وتحولها من حروب عصابات إلى حروب مواجهة بين الجيوش ، حيث في النشيد الرابع (هيكل سليمان) يصور فيها الشاعر تلك المعارك التي دارت بين الجيوش العربية والجيش اليهودي ، وكيف أن المؤامرة لعبت دورا بارزا في ترجيح كفة الحرب لصالح العصابات الصهيونية فضاع الكثير من الأراضي العربية ، بسبب إعطاء الأوامر للجيوش العربية للإنسحاب من مواقعها التي كانت قد حررتها :

والتقى «الأردن» في ضاحية اللد بـ(مصر)
فإذا عين الثاني اثنين يلقاهم بنشر
اتركوا الوادي للجيش ، وعودوا للتحدي
بين أكام ، ففيها لـ (الهفانا) الف وكر
وسرى عنه أباة الضيم ، تنفيذاً لأمر
مفسحين الدرب للسيل (أما ساخ) ليجري
إذا (الرملة) و(اللد) معا ، مطلع فجر
في يد الباغي ، وقد عادا له من غير عذر
كيف هذا كان ؟ لا أدري ولا العصبة تدري (٤٣)

وخلال النشيد الرابع (هيكل سليمان) وبعد أن خسر العرب المعركة العسكرية يصور الشاعر ذلك الصراع السياسي وعمق الأزمة التي يمر بها الإنسان العربي فيركز على تجسيد تلك المعاناة ، وروح الإحباط التي أصيب بها الجندي العربي بعد أن انسحبت الجيوش العربية من ميدان المعركة ، واستولت العصابة الصهيونية على العديد من المدن والقرى العربية ، ثم أعلنت الهدنة ، وقضايا التقسيم .

---

(٤٢) نفسه ٥٣ .

(٤٣) ديوان العريض ٥٩ .

صرخـت في وجهـه دعـد : ألا بعـدا وسـحقـا
أفيضطرونا الآن إلى المدنة حقـا ؟

بعـد إن جزنـا لها كل دروب الـنصر سبـقـا
دربهـا المـفضي إلى نابـلس ، والآخـر شرقـا (٤٤)

. . . .

وأتمـت لجنـة الـتحـقـيـق تعـيـين الحـدود
فرأوا خير قراهـم ضمـهـا ملك الـيـهـود

فإذا الـقـائـم في أعـمالـه نصـف قعـيـد
وإذا الـغـائـب عن أوطـانـه مثـل الـفـقيـد (٤٥)

وهنا يعود الشاعر إلى (ظافر) رمز النضال للإنسان العربي ليحدد من خلال رؤيته وفلسفته صورة الموقف للإنسان العربي ، ويبرز السلبيات التي أدت إلى هذه النتيجة ـ وهي ضياع الوطن ـ ويأتي في مقدمة تلك الأسباب الاستهانة بقوة العدو ، وتغني العربي بماضيه دون العمل لحاضره ومستقبله .

غض عنهـا طرفـه ظافـر في غمـرة حزنـه
لم يكـن يؤمـن أن الـبيـد في الـعـقـم ، كمـدنـه

أيكـون ابـن الـبـغـايـا ـ أحفـل النـاس بأمنه
ضل عنـه رشـده ، من طول ما لاذ بسـجـنـه

إنـما قد صرع الـعـرب من الـعـجـل بقـرنـه
منـذ كانـوا . . . وهمـو ماضـون في توهـين شأنـه

لو أصـابـوا ذهـب الأرض ، لما اهـتـمـوا بوزنـه
فجـنـى الجـاني عليهـم من خبـايـا خلف فنـه

وابـتـلاهـم مجدهـم بالخـلف في ترجيـع لحنـه
ولـقـد عاش أبـونـا ناعـم الـبـال بقـرنـه

فإذا الفـردوس شـيء غير ماقـدر لابنـه (٤٦)

---

(٤٤) نفسه ٦١ .

(٤٥) نفسه ٦٣ .

(٤٦) ديوان العريض ٦٢

ويصور الشاعر حالة اليأس والأسى-التي سيطرت على نفسية بطله (ظافر) وقد استطاع الشاعر أن يرسم صورة مؤثرة لموقف ظافر بذلك الأسلوب الاستفهامي المعبر عن عمق الحزن على ضياع الوطن :

أين جميـزتنـا ... في ظلهـا كنت أنـام	سلم الجـذع ، فقد قطعها القوم الطغام ؟
أين شاء كنت أرعـاهـا ، وللشاء بغـام	لم تعـد منهـا ولا ثاغيـة ، فالكل هاموا ؟
أم غدت مسلوخة ، فاللحم غال والطعام	أين أصحـابي..حمـدان وفوزي وهشام ؟
بعضهم يسهر مثلي ثاكلا، والبعض ناموا	شتتت من شملنـا الأيـام،فالدنيا ظلام (٤٧)

وعلى الرغم من الصورة المؤثرة الحزينة التي رسمها الشاعر لبطله (ظافـر) من خلال ذلك الموقف التأملي الذي وقفه البطل بعد الهزيمة السياسية المرة التي تجرعها الانسان العربي نتيجة لانسحاب الجيوش العربية وتراجعها وتسليم معظم الأراضي العربية لليهود ، ثم ما ترتب عليه من اعلان الهدنة ـ إلا أنه تظل الروح الاستسلامية التي رسمها الشاعر لبطل ملحمته لا تتمشى فنيا مع الرؤية الفكرية والفنية التي يحملها هذا البطل كرمز للنضال والكفاح :

لاتـقـولـي : أيـن نمضي أين يمضي المستهـام ؟
وطـن ضـاع ... عليـه من ضحـايـاه السـلام (٤٨)

ولكن الشـاعـر يعود ليجعل من بطلة الملحمة (دعـد) حافزا ومشجعا للبطل ودافعا له لمواصلة النضال ، وربما كان هدف الشاعر من تلك الصورة التراجعية التي رسمها للبطل ، أن يجعل منها مدخلا لدور (دعـد) في سياق الحدث كمؤثر إيجابي في المعركة تلعب المرأة دورها في ذلك :

فأجابت دعد : كلا لم يضع منا، حبيب	هي ذي أعـرافـه ، مابـرحت تزكـو بطيب
وطن الزيتـون والتـين وأجران الزبيب	وطن النـاي ، وقلبـين ، والحـان الغروب

لا تقـل نتركـه نهبـا لكـل غريـب (٤٩)

وربما يذكرنا هذا التراجع والإنكاف عن مواصلة النضال عند البطل هنا بموقف (أخيـل) بطل ملحمة هوميروس ، حين انسحب من المعركة ، ولكن انسحابه هناك كان نتيجة لخلاف مع

---

(٤٧) نفسـه ٦٥ .

(٤٨) ديوان العريض ٦٥

(٤٩) نفسه ٦٦ .

القائد «أغا ممنون» ، بالاضافة لطول أمد المعركة الطروادية التي أدت إلى روح اليأس والإحباط التي أصيب بها جيش الإغريق [٥٠] . . .

ولكن مما يضعف البناء الفني هو ضعف العلاقة أو ضعف تمسك (دعد) بشجرة (الجميزة) التي هي رمز الوطن ، حيث ترى أن ضياع جميزة كانوا يستظلون بظلها لايعني النهاية واليأس ، فهناك غيرها من أخواتها (شجيرات) الجميز التي يمكن أن تلجأ إليها . . . ولاشك أن الشاعر يريد زرع الأمل ، والتأكيد على التشبث بالأرض مما دفعه إلى طرح البديل ، وأن الأمل موجود ولم يضع كل شيء ، كما أنه يمكن القول أن الجميزة عند الشاعر جزء من كل فهو لايرمز لجميزة بعينها ، ومن هذا المنطلق يمكن أيضا أن نقول أن ماذهب إليه أحد النقاد في إشارته إلى ضعف العلاقة بين الأرض والإنسان ، يعود إلى مفهوم الرمز أو دلالته الجزئية والكلية لدى الشاعر [٥١] .

ويؤكد الشاعر هذه الدلالة على لسان (دعد) :

وطني لو فيه شاة ما أخليها لذيب [٥٢] .

وكان لحديث (دعد) وحثها له ، وبث الأمل في نفسه أثر في قراره بالعودة إلى مواصلة الكفاح واجتثاث جذور الخيانة والغدر ، وتحرير الأرض . ففي نهاية النشيد الرابع يؤكد البطل على عودته لميدان المعركة ؛ ولكنه يقرر التخلص من أولئك الذين خانوا الوطن ، وباعوا الأرض ، ورضوا بالذل والهوان ، قبل مناجزته للعدو الإسرائيلي :

أنا يادعد له ، لاخانني فيه زماني
لتراح القدس من غدرته ، والحرمان [٥٣]

ونلتقي في النشيد الخامس والأخير من الملحمة والذي أطلق عليه الشاعر (قبة الصخرة) وإذا بالثورة قد شبت والتحمت الأمة العربية من مشرقها إلى مغربها للدفاع عن أرضها ومقدساتها ، وينضم (ظافر) إلى طلائع تلك الثورة لاسترداد وطنه والدفاع عن أمته :

شبت الثورة في أنحائها ، من غير عون
بعد أن جاوزت (الأردن) في طرفة عين

---

(٥٠) الأنواع الأدبية ـ مذاهب ومدارس ـ د. شفيق البقاعي ٢٧٣ .
وانظر الأدب المقارن ـ د. محمد غنيمي هلال ١٣٦ ـ الهامش .
(٥١) الشعر المعاصر في البحرين ـ د. علوي الهاشمي ٤٩٩ .
(٥٢) ديوان العريض ٦٦ .
(٥٣) نفسه ٦٧ .

من ربى الشام ، ولبنان ، ووادي الرافدين
وثرى مصر ، إلى القدس ، وأرض الحرمين [٥٤]

وبهذه الوحدة والتلاحم بين أبناء الأمة العربية تحقق النصر وسقطت (ثامار) (رمز الصهيونية) صريعة في أرض المعركة وتلتقي (دعد) المسلمة بـ (ماري) المسيحية فتجمعهما فرحة النصر وتحرير القدس رمز الوحدة والتآلف بين الأديان .

لحقت (ماري) بدير فلها فيه عزاء | بعد أن عاد بها للمسجد الأقصى الولاء
وجلا عن كل شبر من رباه الدخلاء | من رآها في مسوح غادرتها الكبرياء

. . . .

بزهور لم يزل يقطر من فيها الهناء | فتسيران إلى حيث بها دعد تشاء
ضمت الأوطان مابينهما . . . والشهداء [٥٥]

وينهي الشاعر ملحمته بعودة القدس ، واستشهاد البطل (ظافر) وتقف (دعد) في نهاية الملحمة على قبر (ظافر) تنثر على قبره الورد وتسكب الدمع وتزجي له تباشير النصر وتحرير الوطن ، وعودة الأرض .

وقفت (دعد) على قبر ثوي فيه الحبيب | في يديها وردة ، قبل فاها العندليب
فهي حمراء ، لها من زهوها حسن وطيب | أخذت تنثرها ، والدمع بالطل يذوب

. . . .

انها تذكر والذكرى لها لقط عجيب | صوته العذب ـ وقد مالت فتاها يجيب :
أنا يادعد له . . . ثم مضى لايستريب | ولقد ثار لها الشعب وتلتها حروب

. . . .

فليطب نفسا ، فما في الوطن الغالي غريب [٥٦] !!

وهناك عدة ملامح فنية وفكرية يمكن الوقوف عندها أو إثارتها في ملحمة أرض الشهداء للعريض ، أولها إشكالية التوفيق بين موضوعية الملحمة في بعدها السياسي والواقعي ، وبين النزعة الرومانسية والذاتية التي سيطرت على الشاعر ، ولم يستطع الافلات منها حتى في شعره

(٥٤) ديوان العريض ٧٥ .
(٥٥) نفسه ٧٩ .
(٥٦) نفسه ٨٠ .

الموضوعي ذي الطابع الملحمي حيث ظلت النزعة الغنائية ملازمة له . ولكن مع ذلك نقول أن العريض قد أفاد من هذا الخيال الرومانسي في تلاحم البناء الفني لمطولته ، ولولا تلك الصور الخيالية التي رسمها ، والطبيعة التي وظفها لتحولت مطولته إلى نظم سياسي فاتر . . ولكن الذي يؤخذ عليه هو الاسترسال والمبالغة في الغنائية ، وطغيان الجو الرومانسي في بعض المقاطع حتى تتحول بعض المقطوعات إلى لوحات فنية تصور الطبيعة بمعزل عن مجريات الحدث . وهذا يؤدي أحيانا - إلى تنافر الصور وعدم تجانسها فانظر إلى هذه الصورة الطبيعية التي تصور جمال الطبيعة كيف يتخذ منها مدخلا لمعركة شرسة تراق فيها الدماء ، وفي مقدمتها يدعو المرأة إلى أن تتخذ من تلك الأزهار والياسمين عقودا تزين به صدرها ، والبدر يحتفى مع النجم بجماله : (٥٧)

حمل الجدول - في منعرج الوادي - انهماله
عندما قابل في صفحة البدر خياله
من ذرى رابية . . توجها النور بهاله
فمضى يكسر - كالفضة - في الماء جماله

. . . .

عالم من أنجم شاركت البدر احتفاله
كلما صفق نجم رقص الثاني حياله
وتثنى العشب ، كي يسكب فوق العشب باله
ويبث البدر في الأغصان - كالشاعر - حاله

. . . .

ويرى الوادي . . قد فتق بالريحان طينه . . .
ورده بات ، من الكثرة ، يغلى ياسمينه
ياعذاري ! خذن ماشئتن من عطر وزينه
وهناك الطود قد عرى إلى الليل جبينه

هذه الصورة الرومانسية الغنائية الخيالية يتخذ الشاعر منها تمهيدا لمعركة (عسكرية) حيث هذه الأجواء الرومانسية تحيط (بظافر) ورفيقه (حمدان) وقد خرج كل منهما من خلال تلك اللوحة الفنية ليحملا سلاحهما ويمطرا العدو بوابل من نيرانهما . . ولكن الشاعر يسترسل كثيرا في وصف الطبيعة وجمالها والليل بنجومه وحركتها في جو شاعري ، لا علاقة له بجو القلق

---

(٥٧) ديوان العريض ٤٤ .

والترقب والتوتر الذي يسبق ـ عـادة ـ جو المعركة . والحقيقة أن العريض كشاعر رومانسي لم يستـطع التخلي عن نزعته الذاتية لجمال الطبيعة . ولكن هذه النزعة للطبيعة كانت نزعة تقليد ومجاراة ، فلو أن الشاعر استطاع أن يعيش الطبيعة بعاطفته ، ويتقمصها بروحه ، كما فهمها الرومانسيون لتحولت الطبيعة عنده إلى حياة مشخصة متفاعلة مع الحدث ، متجانسة في صورها مع البعد الفكري الذي يطرحه الشاعر أي التقمص الوجداني ـ وحلول الطبيعة . والحقيقة أن بعض الشعراء تعاملوا مع الطبيعة بمظهرها الخارجي دون أن يلجوا الى عالمها من خلال عواطفهم ومشاعرهم ، واحساسهم ، من هنا جاءت صور الطبيعة عندهم مجسدة في إطارها الخارجي ، لاعلاقة لهذه الصور بالعاطفة أو المضمون أو الموقف الذي يعبر عنه الشاعر ، أو بمعنى آخر ان الطبيعة لم تتلون بلون الموقف الذي يريد الشاعر تصويره .

وربما الصورة الأخيرة التي رسمها العريض لموقف (دعـد) في نهاية الملحمة وقد وقفت على قبر بطلها (ظافـر) توضح ما أشرنا إليه من تنافر بين توظيف الطبيعة وعلاقته بالموقف الذي يعبر عنه الشاعر :

وقـفـت دعــد على قبر ثوى فيــه الحبيب	في يديهــا وردة ، قبــل فاهــا الـعـنـدليب
فهي حمراء ، لها من زهـوها حسن وطيب	أخـذت تنثرهـا ، والدمع بالطل يذوب (٥٨)

ولنا أن نتوقف عند جملة (قبل فاها العندليب) والضمير طبعا يعود على الوردة ويمكننا أن نستسيغ إلى حد ما قضية نثر الورد على قبر الحبيب ، ولكن ما علاقة القبل ومن العندليب بالذات في هذا الموقف الدرامي الحزين ؟!

الملحمـة بيـن لغـة النظـم والتعبيـر الشعـري :

ولغة الصياغة عند العريض تتفاوت تفاوتا واضحا في هذه الملحمة كما هي تتفاوت في معـظم أشعـاره ، والسبب في ذلك يعود إلى أن العريض عندما ينتقل من الذاتية أو الغنـائيـة إلى المـوضـوعية فإنه يطغى الفكر على العاطفة ، والواقع على الخيال فتتحول الصياغة من تلك اللغة الشعرية التصويرية الايحائية إلى لغة نثرية تعنى بالفكرة ، وتتبع جزئياتها ، ومن ثم فإنه تتحول عنده الصياغة إلى تعبيرات مباشرة ، وتبرز النبرة الخطابية .

---

(٥٨) ديـوان العريـض ٨٠ .

والحقيقة أن الشعر القصصي ، والتعليمي ، والمسرحي ، تغلب عليه النزعة العقلية والـرؤيـة التنـظيمية التفسيرية ، ويجنح فيه الشاعر للوضوح . ومن هنا فإن موضوعية الملحمة وبعدها السياسي والواقعي قد جـر الشاعر أراد أو لم يرد إلى ذلك التقرير الذهني ، وطغيان الفكر على العاطفة في مواطن عديدة من ملحمته . مع أن الشعر الملحمي كما ذكرنا سابقا مرتع خصب للخيال ، والرمز وتوظيف الأسطورة ، ولكن الشاعر لم يلجأ إليها ، وإن لمسها في بعض المواطن لمسا خفيفا كما في في إشارته ، للعجل كرمز لبني اسرائيل ، أو لسامري ، وغيرها من رموز الاغواء والخديعة في تاريخهم .

والسؤال هل يمكن للشـاعـر أن يوفق بين موضـوعيـة الشعر القصصي وتسييس التاريخ والواقع ، وبين فن الشعر في لغته الخاصة ؟

والحقيقة أن العريض قد حاول في هذه الملحمة ولكنه راوح في هذه اللغة أو الصياغة بين تلك اللغـة الشـاعـريـة ، والصـور المعبرة ، خاصة عندما تنطلق شاعريته بغنائية رومـانسية في بعض مقطوعاته الوصفية فتمتاز برقة ألفاظها وسلاسة أسلوبها ، وبساطة صورها ؛ حيث يطلق الشاعر لخيالهُ العنان فيصور تلك اللوحة التي توحي بلحظة انسجام وتعايش ، وتفاعل ، بين الطبيعة ، والراعي ، وشياهه :

لبث الـــراعي على مورده الصـــافي . . . ضحـاهـا
يرقب الضـــأن على ـ الضفـــة ـ ترعى والشيـاهـا
من رآه شارد الأنـــمـــل ، قد زم الـــشـــفـــاهـا
سادرا ، ينـفـــخ في النـــاي هواه . . . بلغـــاهـــا
فإذا الـــظبى عليـــه يحســـد المـعـــزى شجـــاهـا
انـــه يـبـدي هواه ، مثـلـما تبـدي هواهـا

وهي صورة جميلة ، بلغـة سهلة ، وإن كانت التعبـيرات مبـاشرة ـ أحيانـاً ـ عن الأحاسيس والأفكار ـ إلا أن سلاسة اللغة ، وموسيقاها ورقة ألفاظها قد أعطى مثل هذه المقـطوعـات الغنائية التي يتخذها الشاعر كمقدمات للأفكار الرئيسية في ملحمته بعدا جماليا . ولكن كما أشرنا من قبل أن هذه الصور تأتي أحيانا غير متجانسة مع السياق العام لموضوعه . ومن هنا يمكننا القول أن الصور عنده صور آحادية أي أن كل صورة منفصلة

عن الأخرى ، وليست امتدادا لها ، في حين أن الصور إذا نبعت من تجربة الشاعر فلابد أن تكـون هذه الصور جزء من الصورة الكلية للموقف أو الموضوع . فوظيفة الصورة لاتتوقف عند تجسيد الفكرة أو حتى تلوينها ، وإنما تتجاوز ذلك إلى تعميق الأثر وإثارة العاطفة ، فتثير هذه الصور من ألوان الإحساس ، وعمق المعاناة ماتثيره بإيحاءاتها (٥٩) ، فيتولد من خلال ذلك الأثر العام الذي يتركه العمل الفني دون احساس بتناقض الصور أو تنافر الألفاظ .

فبعد وصف الشاعر لجو البهجة والأنس ، والطمأنينة ، والأمن الذي يعيشه الراعي مع أغنامه ، كنا نتوقع بعد أن قطعه بتلك الصورة المغايرة (للمهاة) التي نفرت وشردت فأثارت الرعب في نفس الأخرى ، كنا نتوقع أن تكون هذه الصورة بداية أسقاط للموقف على البطل وبني قومه ، بعد أن فزعوا بدخول الصهاينة فقلبوا الحياة إلى جحيم ، في تلك الأرض الوادعة الطيبة ، ولكن يقطع الشاعر هذه الصورة في البيت الذي يليها إلى صورة أخرى مغايرة لتلك :

ومهـاة مرغت في سنـدس الأعشـاب فاهـا   ثم دارت تسـأل الأخرى شرودا : مادهـاهـا ؟
واستمر النبع في أذنيها يضحك : هاها (٦٠)

ومع ذلك فإن مطولة الشاعر لاتخلو من تلك الصور الرومانسية الموحية والمعبرة كتصويره لحياة يحلم بها في بداية النشيد الأول (باب الواد) (٦١) ولكن كما ذكرنا صور آحادية تقوم على رسم لقـطات جزئية لاتشكل لبنات لصورة كلية . . ومنها هذه الصورة التي يرسمها لبطلة ملحمته (دعـد) عندما التقت بفتاها :

ومع ذلك فإن مطولة الشاعر لاتخلو من تلك الصور الرومانسية الموحية والمعبرة كتصويره لحياة يحلم بها في بداية النشيد الأول (باب الواد) (٦١) ولكن كما ذكرنا صور آحادية تقوم على رسم لقـطات جزئية لاتشكل لبنات لصورة كلية . . ومنها هذه الصورة التي يرسمها لبطلة ملحمته (دعـد) عندما التقت بفتاها :

---

(٥٩) حركة التجديد الشعرى في المهجر ، د. عبد الحكيم بلبع ١٣٤ .

(٦٠) ديوان العريض ١٣ .

(٦١) سبق الاشارة إليها في الدراسة .

خلع الحســـن على مارف منهـا كبريــاءه لاتــرى من شعــرهــا إلا الــعـنــاقيــد إزاءه
ورآهــا فرأى في قلبــه الــشــمس مضاءة قال : ياحــيــاك ! وافــتر لعــينــيـهــا فجــاءه
فإذا طرف حيــى يدهــا غطت حيــاءه ليت شعـري هل وعى الجميز، إذ مالت وراءه ؟

فهـذه المسحـة الغنـائية والذاتية الشفافة في بعض مقطوعاته تحتوي على صور مضيئة ، وموحية فوصف الطرف بالحياء وتصغيره ، ثم تغطيتها له باليد ، أو اتخاذها من أشجار الجميز سترا لها كلها صور تعمق من دلالة الموقف الذي يرسمه الشاعر لفتاة وماتتحلى به من حياء وعفة وبراءة ، فالشاعر بحسه الدقيق هو الذي يدرك مواطن الايحاء للصور والمفردات .

والعريض قد أطلق العنان لخياله في صور رومانسية عديدة طرز بها ملحمته إلى جانب المفردات التي يكثر منها الرومانسيون في أشعارهم ، ولاشك أن هذه الصور والمفردات قد كسرت من حدة النظم وواقعية الموضوع الذي تناوله الشاعر ؛ ومن هذه الصور ـ تثني الدوحة في الربى ـ غضن العشب جبينه ـ الغدير المطلول ، والوادي له شجون ، والنبع له أنين (٦٢) ، ويبث البدر في الأغصان كالشاعر حاله (٦٣) . «تتوارى عند تل لاح في الأفق شهيدا (٦٤)» .

وإلى جانب هذه الصور المستمدة من قاموس الشعر الرومانسي الذي يعد العريض أحد شعرائه ، نجد أن شعره لايخلو من تلك الصور التقليدية أو الصور التراثية التي شكلت مساحة في نسيج هذه الملحمة ولسنا بحاجة إلى ذكر مطلع القصيدة التي صور فيها الشاعر البرق والغيث ووجه إلى ناحية القدس . ولكننا نجده في أكثر المواقف عصرية يتخذ من الصور التقليدية وسيلة للتعبير ، فهـا هو يصف تلك الفتاة الصهيونية (تامـار) بلهوها ومجونها ، وجمال جسدها ودقة خصرها ، فإذا أدواته الظباء ، والآيل ، والحقل ، والرامة ، والرعى ، والبغام ، وكأنك تقرأ لشاعر جاهلي أو من شعراء بني عذرة وهو يصف فتاته :

أنــا ســور قـام ثديـاي كبرجــيــن أمــامــه
قد براني مرض الحــب ، فمــن يشــفــي سقــامــه ؟
ياظبــاء الحـقــل من حرمــون ، يرعــين وشــامــه
من رأى منكــن من أهــواه ، يجري خلف رامــه ؟

---

(٦٢) ديوان العريض ١٢ .
(٦٣) المصدر السابق ٤٣ .
(٦٤) المصدر السابق ١٥ .

ليتني في بيت خمر بيدي أملأ جامه
فأمليه مدامي ويمليني مدامه
صرة المر حبيبي لي ما أحلى ابتسامه
شفتاه سلكة القرمز ، والبطن رخامه
كله مشتهيات جعل المسك ختامه
هو ذا آت مع الأيل ، فاسمعن بغامه (٦٥)

وإذا انتقلنا من الصورة الشعرية إلى الأسلوب بصفة عامة فإننا نجد أن الشاعر قد استطاع أن يستخدم لغة اتسمت بالسهولة والبساطة مع محافظته على سلامة هذه اللغة وشاعريتها والنماذج التي ذكرنا توضح ذلك . ولكن مع ذلك لاتخلو الملحمة من تلك النبرة الخطابية ، والتعبيرات المباشرة خاصة عندما يلجأ الشاعر إلى التفاصيل فيتدخل بفكره ، وتفسيراته ، فتتحول الصياغة إلى جمل نثرية وكأنها مقحمة أو نابية عن وضعها في السياق كقوله :

طهر الله بنا «البيت» ، وهم تلك النفاية
كم دعوناه فلبى فدعى أمر الوصاية (٦٦)

فجملة (وهم تلك النفاية) قلقة هنا .

وكقوله :

ثم قالت «لاتغالي في ، فالجمهور أبله !» (٦٧)

فهذه جملة نثرية لا علاقة لها بالشعر .

وكذلك تضمينه لجزء من (الحديث الشريف) في وصف الشاعر ثورة ظافر :

ومضى الثائر في ثورته ، يسعى لثاره
ما شعار الحق ، في ماضيه ، إلا كشعاره ،
«لانبالي .. إنها الجنة حفت بالمكاره»
فيوافيهم رذاذ من رصاص في انهاره

فإذا نظرنا إلى البيت الثاني لانجد أن هناك أية علاقة بين الشطر الأول والثاني بل هو عبارة عن جملة نثرية لارابط بينها .

---

(٦٥) ديوان العريض ٣٩ .

(٦٦) المصدر السابق ١٦ .

(٦٧) المصدر السابق ٣٤ .

ومع ذلك فإن هذه الملاحظات لاتنتقص من قيمة ملحمة (أرض الشهداء) كعمل فني رائد في الأدب العربي في منطقة الخليج ، خاصة في الفترة التي ظهرت فيها الملحمة . كما أن الملحمة اسهام من أدب المنطقة في مسيرة ودور الأدب العربي في قضايا أمته ، وهي تمجيد للإنسان العربي ، ودافع له للعمل الجاد ومتابعة الجهاد في سبيل استرداد حقه ، فكان العريض وملحمة أرض الشهداء نقطة مضيئة في تاريخ أدب المنطقة المعاصر .

المراجـــــــع

١ ـ ديوان العريض ـ ابراهيم العريض ـ ط. الكويت ١٩٧٩ م .

٢ ـ الشعر المعاصر في البحرين ـ د. علوي الهاشمي ـ دار الحرية لطباعة ، بغداد ١٩٨١ .

٣ ـ دمقس وأرجوان ـ مارون عبود ـ دار الثقافة ببيـروت ١٩٧٩ .

٤ ـ الحركة الشعرية في الخليج العربي ـ د. نورية الرومي ـ الكويت ١٩٨٠ .

٥ ـ الأدب المقارن ـ د. محمد غنيمي هلال ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٣ .

٦ ـ الأدب ومذاهبه ـ د. محمد مندور ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٣ .

٧ ـ الكوميديا الالهية ـ الفردوس ـ دانتي اليجيري ـ دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ .

٨ ـ الأنواع الأدبية ـ د. شفيق البقاعي ـ مؤسسة عز الدين ، لبنان ١٩٨٥ .

٩ ـ الأدب وفنونه ـ د. عز الدين اسماعيل ـ دار الفكر العربي ط ٦ ، ١٩٧٦ .

١٠ ـ مقدمة في نظرية الادب ـ د. عبد المنعم تليمة ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٦ .

١١ ـ نظرية الفن المتجدد وتطبيقاتها على الشعر ـ عز الدين الأمين ـ دار المعارف بمصر ١٩٧١ .

١٢ ـ تطور الأدب الحديث في مصر ـ د. أحمد هيكل ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٩ .

١٣ ـ دراسات في ادب البحرين ـ مجموعة من الباحثين ـ معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٩ م .

١٤ ـ القصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري ـ علي النجدي ناصف ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر (بدون) .

١٥ ـ المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ـ د. نسيب نشاوي ـ دمشق ١٩٨٠ .

١٦ ـ حركة التجديد الشعري في المهجر ـ د. عبد الحكيم بلبع ـ الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٨٠ .

١٧ ـ كتابات ـ مجلة فصلية ـ العدد السابع عشر ١٩٨١ م تصدر في البحرين .

الأدب العربي والشاهنامه

أ. د. محمد السعيد جمال الدين
أستاذ بقسم اللغة العربية

تمهيد :

حين يطالع المرء الشعر العربي المعاصر ، يلفته على الفور عناية شعرائنا بالملاحم اليونانية بخاصة ، والغربية بعامة ، وانصرافهم عن (الشاهنامه)** برغم كونها منبعا ثرًا يرضي عندهم النزعة إلى اتخاذ (الأسطورة) مصدرا من أهم مصادر الإلهام الفني ، وبرغم سبقها إلى دخول الأدب العربي من خلال ترجمة البنداري لها في أوائل القرن السابع الهجري ، فضلا عن ما تنطوي عليه من تصوّر ذي طابع إسلامي متميز للحياة والقدر .

فما سبب إعراض شاعرنا المعاصر عن الشاهنامه ؟ وهل كان هذا موقف أدبائنا السابقين ؟

يقتضينا هذا التساؤل أن نحشد أنفسنا لإعداد دراسة في طبيعة العلاقة بين أدبنا العربي ـ في القديم والحديث ـ والشاهنامه .

ولأن موضوع البحث لم يُسبق إليه ـ فيما نعلم ـ فقد كان جمع مادته أصعب المراحل على الإطلاق ، إذ اقتضت منا مراجعة تكاد تكون شاملة لمظانّ التأثر في أدبنا العربي القديم والحديث ، في دواوين الشعراء وكتابات النقاد ، والمجلات الأدبية .

والدراسة تعتمد منهجا لا يقوم على استقصاء نقاط الالتقاء وحصرها فحسب ، بل يشتمل أيضا على طابعٍ تحليلي لتفسير الظواهر ومحاولةً لدمجها في مسار واحد .

** شُغل أبو القاسم الفردوسي (توفي حوالي سنة ٤١٦ هـ) بنظمها نحو ثلاثين عاما ، وأتمها سنة ٤٠٠ هـ ، وموضوع الشاهنامه (يعني كتاب الملوك) تاريخ إيران القديم منذ البداية حتى انهيار الامبراطورية الساسانية . وينقسم موضوعها الى ثلاثة عصور : الأسطوري ، والبطولي ، والتاريخي . وقد نالت الشاهنامه مكانة سامقة في الآداب العالمية كلها ، وترجمت الى لغات عديدة .

عرف أدباء العربية شاهنامة الفردوسي في القرن السادس الهجري ، فكانت بذلك أول ما عرفه العرب من أدب الملاحم ،على أنها أثارت إعجابهم ودهشتهم ، بما لها من خصائص لا تتوفر في أدبهم الذي كانوا يحسبونه أفضل الآداب كلها وأولاها بالتقدم ، ولا يخالون في الإمكان وجود شعر أعجمي يجاري قصائدهم بلاغة ودقة وإحكاما . فما بالهم يرون الفرس قد سبقوا في هذا المضمار إلى شيء لم يعهدوه هم ؟

يشير ضياء الدين بن الأثير (٥٥٨ ـ ٦٣٧ هـ) إلى هذا المعنى في كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) مبيّنا أن الشاعر العربي : « إذا أراد أن يشرح أمورا متعددة ذوات معان مختلفة في شعره واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتي بيت أو ثلاثمائة أو أكثر من ذلك ، فانه لا يُجيد في الجميع ولا في الكثير منه ، بل يجيد في جزء قليل ، والكثير من ذلك رديء غير مرضي » ، لكن ابن الأثير يشير إلى أن الأمر يجرى في الأدب الفارسي على غير هذا النحو ، ويقول :

« . . فإنّي وجدت العجم يفضُلون العرب في هذه النكتة المشار إليها ، فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى آخره شعرا ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاهنامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع القوم وفصحاؤهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه ».

ثم يعود ابن الأثير للمقارنة في هذا المجال بين العربية والفارسية ، فيقول : « وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر »[١] .

وقد نجد تفاوتا واضحا بين هذه الروح الناقدة المنصفة التي تحلّى بها ابن الأثير ، وبين ما ذهب إليه في عصرنا الحديث الدكتور طه حسين ـ في مرحلة من مراحل تطوره الفكري[٢] ، حين بيّن « أن الأدب الفارسي إنما نشأ في شكل رد فعل للأدب العربي ، ومقاومة له ، وكان الفرس في أول الأمر مقلّدين للعرب ، أخذوا عن العرب مذاهبهم في الشعر وعلومهم . أو يكفي أن

---

(١) ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق د. أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، ٤ : ١١ ـ ١٢ .

(٢) في مجموعة مقالاته التي نُشرت ثم طبعت بعد ذلك في كتاب (من حديث الشعر والنثر) لأول مرة في سنة ١٩٣٥ م ، انظر الكتاب المذكور طبع دار المعارف ١٩٥٠ م ، ص ١٨ ـ ١٩ .

تلاحظوا أن الشعر الفارسي يقال إلى الآن ، وإلى ما بعد الآن ، في أوزان الشعر االعربي ، والشاهنامه ، وهي فخر الفرس ، وآية من آيات الأدب ، منظومة على البحر المتقارب ، وهو بحر عربي[٣] ، ويكفي أن تقرأوا أي شاعر من شعراء الفرس ، لتروا جميعا أنهم متأثرون إلى حد بعيد جدا بناحية من أنحاء الأدب العربي»[٤] .

والتفاوت واضح في حكم كل من ابن الأثير وطه حسين على الشاهنامه (على اختلاف الزمن بين الرجلين) ، فبينما أقرّ ابن الأثير بتفرد الشاهنامه وخلوّ الأدب العربي من نظير لها ، وعدّ ذلك نقيصة بيّنة ، وعيبا واضحا في هذا الأدب ، حاول الدكتور طه حسين أن يجعل الأدب الفارسي برمّته ، بل وفي كل نواحي عبقريته وتفرده تابعا للأدب العربي ، الذي هو بعد صاحب اليد العليا والنصيب الأوفى ؛ وهذا يعني ـ في رأي طه حسين ـ أنه يجدر بأدباء العرب اذا أرادوا أن يفيدوا أدبهم ، أن ينصرفوا الى آداب أخرى لا تدور في فلك الأدب العربي التماسا للطرافة والجدّة .

ونحن نعلم أن طه حسين كان يتمتع بقوة توجيهيّة ذات تأثير بالغ على مسار الثقافة في مصر والعالم العربي ، ولذلك كانت نظرته هذه تجاه الأدب الفارسي واحدة من العوامل التي حملت عددا لا بأس به من أدبائنا العرب المعاصرين على الابتعاد حتى عن استلهام الأدب العربي القديم نفسه ، وغيره من آداب الشعوب الإسلامية التي تأثرت به ، وترسّمت خطاه ، ودفعتهم إلى الارتماء في أحضان الآداب الغربية بعامة والأدب اليوناني بخاصة ، ونشدان مثلهم الأعلى منها في شتى الفنون الأدبية .

وهكذا زُجّ بالشاهنامه في إطار قضية الأصالة والمعاصرة ، وفي أتون الصراع بين القديم والجديد ، وهو من أهم القضايا التي تواجه الأدب العربي المعاصر .

* * *

(٣) توصل عالم لغوي عربي الى أن نسبة المقارب في دواوين الشعراء العرب نسبة قليلة جدا لا تزيد عن ٢٪ . (راجع : ابراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، مصر ١٩٦٥ م ، الأمر الذي يؤيد ما ذهب اليه المستشرقون والدارسون الإيرانيون من أن هذا البحر الذي التزمه الفردوسي في نظم الشاهنامه ، ليس بحرا عربيا بقدر ما هو فارسي في أصوله) . (راجع : برويز ناتل خانلرى ، أوزان الشعر الفارسي ، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم ، مصر ١٩٧٨ م ، ص ٤٥ . ويوسف بكار ، دراسات نقدية ، قطر ١٩٨٨/) . لكن تأثير معايير العروض الربعية الدقيقة في العربية واضح في هذا الوزن وغيره من الأوزان الفارسية المتأصلة لدى الفرس من تذوقهم لشعرهم القديم . (انظر : محمد غنيمي هلال ، مختارات من الشعر الفارسي ، مصر ١٩٦٥ ، ص ١٢) .

(٤) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، مصر ١٩٥٠ م ، ص ١٩ .

ومهما يكن من أمر ، فقد ظلت مسألة خلوّ الأدب العربي من الملاحم تشغل كبار الأدباء والنقاد في العصر الحديث ، فرأى بعضهم أن العرب إنما زهدوا في نظم الملاحم بسبب ميلهم إلى الإيجاز والاختصار ، والتزام شاعرهم بالقافية الواحدة[٥] .

وقد عقّب الأستاذ عباس محمود العقاد على هذه الآراء[٦] مبيّنا أن السبب في عدم وجود الملاحم عند العرب الأقدمين يرجع إلى أنّ عناصر الملحمة لم تتكامل عند العرب ، ولذلك لم ينظموا فيها . ومن أهم عناصر الملحمة ـ في رأيه ـ البطولة الخارقة لأناس هم أقرب إلى خلائق ما فوق الطبيعة يحاربون قوما آخرين غير قومهم ، ولا تنحصر حروبهم بين قبيلة وقبيلة من أمة واحدة ، كما كان الحال عند العرب الأقدمين . فلم تكن القافية هي الحائل دون ظهور الملحمة ، وإلا لوجدت القصة المطوّلة المنثورة التي لا تحتاج إلى وزن ولا قافية . ومن ثم لا يمكن أن نصم الأدب العربي بالنقص والقصور الفني لعدم وجود الملاحم فيه ، بل كان من الطبيعي ـ في رأي العقاد ـ ألا توجد الملاحم في هذا الأدب «لأن الموضوع نفسه لم يوجد عند العرب لينظموا فيه » .

* * *

ومهما يكن من أمر ، فقد استدركت العامية على الفصحى ، واشتملت على العديد من الملاحم الشعبية كسيرة أبي زيد الهلالي، والزير سالم ، والظاهر بيبرس وغيرها ، وبينت دراسة نُشرت مؤخرا بالكويت (سنة ١٩٨٥م) ، أن إحدى الملاحم الشعبية العربية التي أُلفت في القرن الخامس الهجري ، وهي (سيرة فيروز شاه) ، ليست إلا ترجمة شعبية نثرية حرّة مبكرة لأهم أحداث شاهنامة الفردوسي ، وهي أسبق في الوجود من ترجمة البنداري[٧] ، التي أتمها سنة ٦٢١ هـ .

وربما كان للشاهنامه أثر في نشأة فن الملاحم الشعبيةوتطوره عند العرب ، ولكن هذه المقولة تحتاج الى دراسات مستفيضة متعمقة ، كما أن العناية بالأدب الشعبي ليست من أغراض هذا البحث .

* * *

(٥) انظر : عبد الوهاب عزام ، الشاهنامه ، مقدمة الترجمة العربية ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٣٢م (١٣٥٠ هـ) ، ص ٢٣ ، ٢٥ . والدكتور زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٦) في كتابه : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، طبع دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ م .

(٧) انظر : محمد رجب النجار ، سيرة فيروز شاه ، أو الرواية الشعبية العربية للشاهنامة الفارسية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ١٣ ، عدد ١ ، الكويت ١٩٨٥ م.

على أن محاولات عديدة قد بذلت في الأدب العربي على مرّ العصور للخروج من إسار القافية الواحدة ، فنشأت الموشحات والمزدوجات والرباعيات ، لكن بعض الشعراء المحدثين ابتـدعـوا ما سمـوه «بـالشعر المرسل» ، لا يلتزم فيه الشاعر قافية واحدة ، وإنما يرسل شعره إرسالا ، ورأوا أن هذا النوع يصلح للشعر القصصي .

وقد نظم « جميل صدقي الزهاوي » ـ وهو من شعراء العربية والفارسية معا ـ أول قصيدة عربية في الشعر المرسل سنة ١٩٠٥ م(٨) ، ثم ما لبث الأستاذ محمد فريد أبو حديد أن نظم بنفس الطريقة بعض قصص الشاهنامه ، كسهراب ورستم (١٩١٨ م)، ومسرحية «خسرو وشيرين » (١٩٣٢ م).

وبقدر ما كانت هذه المحاولات مظهرا من مظاهر اتصال أدبنا العربي الحديث بالآداب الأوروبيـة ، كانت بمثابة استجابة لتوجيه ابن الأثير في (المثل السائر) بالابتعاد في المطولات والقصص عن التزام القافية الواحدة .

* * *

لكَننا إذا تركنا القضايا التي أثيرت في الأدب العربي حول الشاهنامه ، ورحنا نتلمّس أثرها الفني والجمالي في الأدب العربي ، وجب علينا منذ البداية أن نتعرف على الوسائل التي بها اطلع الأدباء العرب ـ ممن لم تكن لهم معرفة بالفارسية ـ على شاهنامه الفردوسي .

ولقد تعرف الأدب العربي على الشاهنامه في القرن السابع الهجري من خلال ترجمة نهض بها الفتح بن علي البُنداري الإصفهاني(٩) . وأهم خصائص هذه الترجمة أنها منثورة صاغها المترجم في عبارة عربية بليغة ، غير أنه اختصر من الشاهنامه نحو ثلث حجمها ، وحذف منها ـ من بين ما حذف ـ ما يمكن أن نسميه بالجانب الغنائي الذي برع فيه الفردوسي ، وأضفى على عمله بهاء ورواء ورونقا ، كمقدمات الفصول التي يتحدث فيها الشاعر عن نفسه أو يعظ ويبين العبر من تقلب الأحـداث ، وأوصـاف الحـروب ، والمـآدب ، والخيول ، كما اختصر المترجم الرسائل

---

(٨) انظر : س . موريه ، حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث ، ترجمة سعد مصلوح ، ص ٢٥ .

(٩) لا نكاد نعرف من حياته إلا أنه ولد في إصفهان ، وأنه ترجم الشاهنامه الى العربية ـ بأمر الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، بين سنتي ٦٢٠ ـ ٦٢١ هـ . (انظر دائرة المعارف الإسلامية ، مادة البنداري ، وعزام : مقدمة الترجمة العربية ، ص ٩٦ ـ ٢٩٨).

والوصايا ، ونقل حوادث الشاهنامه « مجملة مجردة من أوصاف الشاعر المسهبة ، وما يتصل بها من تفصيل دقيق»[١٠] .

والظاهر أن صنيع البنداري بالشاهنامه قد قلل من أهميتها وأفرغها من جانب كبير من قيمتها الفنية والجمالية ، فبدت وكأنها لا تعدو أن تكون كتابا من الكتب التي اشتملت على تاريخ الفرس القدماء ، والتي تكثُر في المكتبة العربية كتاريخ الطبري والمسعودي والثعالبي وغيرهم .

فلقد قصّت الترجمة من أجنحة الشعر المرفرفة في الأصل الفارسي ، وغضّت من غنائيتها المنغّمة ، وبدّدَت ما فيها من الومضات والإشراقات الوجدانية .

ونحن نعرف أن الشاهنامه في أصلها الفارسي لا تكتفي من الحوادث بسردها فحسب ، بل هي عمل أدبي فذّ تنعكس فيه العاطفة الإنسانية في شتى أحوالها وسائر تقلباتها ، وترتبط فيه العلل بمعلولاتها والآثار بمؤثّراتها المباشرة وغير المباشرة ، وتتشكّل فيه صور الأبطال في المنشط والمكره ، وفي الحرب والسلم ، وتتجلى فيه الوقائع وكأنها تُرى رأيَ العين .

لكن البنداري أغفل ذلك كلّه ، ونقل الحوادث مجردة من التفصيل والتصوير الشعري ، فطغى فيها جانب السرد التقريري على الجانب الذاتي طغيانا واضحا ، فأصبحت الترجمة هيكلا من الأحداث ، مجرّدا من عوامل الإعمار الفنية والجمالية التي بذل فيها الفردوسي مُهجته وقضى فيها من عمره ثلاثين عاما أو يزيد .

ويحقّ لنا هنا أن نتساءل : ما الذي حمل البنداري على هذا الاختصار ، مع قدرته الكاملة على الترجمة (نثرا) من الفارسية إلى العربية وتملّكه لناصية اللغتين معا ؟

لعل ذلك يرجع إلى ميله الواضح إلى اختصار الكتب الكبيرة ، فالمعروف أنه اختصر كتابين عربيين للعماد الإصفهاني هما : (تاريخ السلاجقة) و (البرق الشامي)[١١] ؛ فهو بصنيعه في ترجمة الشاهنامه إنما يستجيب لهذا الميل عنده .

على أنه من اليسير علينا ـ برغم ندرة معلوماتنا عن البنداري ـ أن ندرك من خلال النّتف المتفرّقة التي ذكرها ـ عرضا ـ في التّرجمة أن البنداري كان في عجلة من أمره ، يريد أن يفرغ من

---

(١٠) عبد الوهاب عزام ، الشاهنامه ، ترجمة الفتح بن علي البنداري ، المقدمة ، طبع مصر ، ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣٢ م ، ص ٩٨ .

(١١) الترجمة العربية ، ص ١ : ٣ ، وانظر أيضا دائرة المعارف الإسلامية : بنداري.

الترجمة في أسرع وقت ، فقد استبد به الشوق إلى وطنه إصفهان ، وهو مقيم على الترجمة في دمشق ، يتطلع إلى اليوم الذي ينهي فيه مهمته التي كلّفه بها الملك المعظّم ، ويقبض جائزته ويأوب إلى وطنه .

ولقد بدأ إحساس البنداري بهذه الغربة ملحّاً وهو يترجم قصة ذهاب «كيوبن كودرز» الإصفهاني إلى تركستان باحثا عن كيخسرو ، ويقول : « ومكث «كيو» كذلك يدور في بلاد توران . . حتى أتت عليه سبع سنين لم يضع فيها ساعة سلاحه ، ولا أراح يوما فرسه . . . يسير بين الجبال والشعاب بعيدا عن الأحباب والأصحاب ، حليفا للوجوم ، أسيرا للهموم . وكأنما تكلم على لسانه مترجمُ الكتاب الفتح بن علي ، حيث باح بشكوى الاغتراب حين شطّت داره ، وامتدت أسفاره حيث قال في كلمة له كتبها إلى والده أبي الحسن البنداري ـ رحمه الله ـ بإصبهان :

فيا صاح استمع أبْثُثْك شَكوى نزيعٍ لايرى يوماً قرارا
بعيدِ الدارِ من أعلام جَيٍّ تغرّبَ يركبُ الخُطط الغمارا

وكما عاود « جيو » بلدىّ هذا العبد « إصبهان » بعد أن طالت سفرته ، وتمادت غربته مقرون السعي بالنجاح ، فائزا فوز المعلّى من القداح ، فكذلك هو يرجو أن يثني عنانه ويعاود أوطانه ، صاعد الجد ، واري الزند بسعادة مولانا السلطان الملك المعظم . . »[١٢] .

وربما كانت هذه العجلة التي تنطق بها هذه العبارات واحدة من العوامل التي دفعته ـ منذ أن وضع خطته لترجمة الكتاب ـ إلى الاختصار والاقتصار ، فتجنب الترجمة الكاملة للشاهنامه ، وعمد إلى نقل حوادثها مجملة مجرّدة ، فاستطاع في ثمانية عشر شهراً فقط إنجاز مهمته التي بدأها في جمادى سنة ٦٢٠ هـ ، وانتهى منها في شوال سنة ٦٢١ هـ . ولو أن البنداري تمهل واصطبر لاستطاع أن يترجم الشاهنامه برّمتها ، ولأحسن بذلك إلى الأدب العربي أعظم الإحسان .

* * *

ومن ثم لم تترك ترجمة البنداري منذ إتمامها في أوائل القرن السابع حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري أثراً واضحاً مذكوراً لهذه الملحمة على أدبنا العربي ، ورغم أن من الثابت أن بعض الأدباء والشعراء العرب في العصور السابقة كانوا حريصين على اقتناء هذه الترجمة ، حيث كان من بين النسخ الخطية التي اعتمد عليها الدكتور عبد الوهاب عزّام في تحقيق ترجمة البنداري للشاهنامه نسخة تملّكها ـ كما يظهر من صفحة العنوان فيها ـ الشاعر المعروف أبو شهاب الدين

---

(١٢) أيضا : ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

محمد الخفاجي المصري المتوفي سنة ١٠٦٩ هـ[١٣] ، لكن لم يظهر ـ مع ذلك ـ للشاهنامه من أثر بارز في آثار الأدباء العرب .

ويمتد هذا الحكم ليشمل الأدب في العصر الحديث نفسه قبل طبع ترجمة البنداري سنة ١٩٣٢ م (١٣٥٠ هـ)، فلم يتيسر لي العثور على شاعر اعتمد الترجمة العربية للشاهنامه وتأثر بها تأثراً مباشرا أو غير مباشر ، وإنما كان قصارى الشاعر ـ إن هو استعان على مسألة يعالجها أو قضية يعرضها بشاهد من تاريخ الفرس ـ أن يلتمس هذا الشاهد في الأفكار الشائعة بين عامة المثقفين أو فيما يرد بالتواتر في كتب التاريخ العام ، مثال ذلك تلك القصيدة الطويلة التي نظمها خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩م) ، بعنوان (مقتل بزرجمهر) ، والتي يقدّم لها الشاعر بكلمة يقول فيها : «اشتهر كسرى بالعدل ، وكان بلا نزاع أعدل ما يكون الحاكم المطلق اليد في أحكام بلاده : فإن كان ما وصفناه في هذه القصيدة إحدى جنايات مثله في العادلين فما حال الملوك الظالمين » . ويقول في مطلعها :

سجدوا لكسرى إذ بدا إجلالا   كسجودهم للشمس إذ تتلألأ[١٤]

ويكفي في هذا المجال أن نذكر من فحول شعرائنا أمير الشعراء أحمد شوقي ، الذي يخال المرء حين يطالع شعره أن بينه وبين الفردوسي شبها وقربي ، وربما كان أقرب شعرائنا إلى الانفعال بالشاهنامه إن وقف عليها وطالعها ، إذ أن « شعره ذو طابع ملحمي حافل »[١٥] ، يتدفق تدفق السيل المنهمر ، لا يتوقف أو ينثني إلا لكي يدلي بحكمة مأثورة أو يفصح عن عبرة بالغة ، لكن شوقي لم تبدر منه بادرة تدل على أنه تأثر بالشاهنامه أو حتى طالعها ، وكان مجمل ما ذكره عن الفرس في ديوانه نتفا متفرقة[١٦] لا تدل على أنه توقف عند آثارهم مليا .

أما الأستاذ محمد فريد أبو حديد فقد ترجم إحدى القصص المشهورة في الشاهنامه شعرا ، وهي قصة سهراب ورستم (سنة ١٩١٨ م) ، لكنه استعان في ذلك بترجمة الشاعر الإنجليزي ماتيو آرنولد .

---

(١٣) عبد الوهاب عزام ، مقدمة الترجمة العربية للشاهنامه ، ص ٨ .

(١٤) ديوان خليل مطران ، طبع بيروت ، ص ١٢٠ .

(١٥) إيليا حاوى : خليل مطران ، طليعة الشعراء المحدثين ، طبع بيروت ١٩٨١ م ، ص ١٩ .

(١٦) راجع ديوان شوقي ، تحقيق أحمد الحوفي ، مصر ١٩٧٩ ، ١ : ١٧٧ ، ٢٠٧ ، ٦٢٤ ، وقد توفي شوقي سنة ١٩٣٢ م .

فبدا وكأن الترجمة العربية للشاهنامه ، لم تُحدث أثرا ، وإنما ذهبت بددا وضاعت سدى .

وإلى هذا الرأي نفسه انتهى سليم البستاني ، فترجم الإلياذة الى العربية ، فقد لاحظ في مقدمة ترجمته التي نشرها سنة ١٩٠٤ م ، أن ترجمة البنداري للشاهنامه : « قد ذهبت ضياعا ، وبقيت أثرا بعد عين نقرأ عنها في كتب التاريخ ، وليس في الأدباء من روى لنا منها حديثا مذكوراً » ، غير أن البستاني قد عزا ذلك إلى سبب جوهري عنده ، وهو أن الشاهنامه إنما تُرجمت إلى العربية نثرا ، و « لا يخفى أن الشعر إذا تُرجم نثرا ذهب رونقه ، وبهت رواؤه ، والظاهر أن هذا الحكم انطبق على تعريب الشاهنامه فأهملها الناس»[١٧] . ولذلك جهد البستاني في ترجمته للإلياذة لكي يتفادى أخطاء البنداري ، فترجم الملحمة اليونانية برمّتها شعرا بديعا رائقا ، وقرّبها بكل ما أوتي من بيان وقدرة على الإبداع إلى الذوق العربي ، فراجت كل الرّواج ، وكادت أن تغني الأدب العربي من افتقاره إلى جنس الملحمة ، وملأت ذلك الفراغ الذي كان يُنتظر للشاهنامه أن تملأه فيما لو كانت قد ترجمت بتمامها ترجمة توائم ذوق العرب ، فتسد في أدب القوم ثغرة وتفي فيه بحاجة .

* * *

وفي سنة ١٩٣٢ م ، بدأ فصل جديد من فصول العلاقة بين الأدب العربي والشاهنامه ، حين نشر الدكتور عبد الوهاب عزام ـ المدرس بالجامعة المصرية آنذاك ـ ترجمة البنداري نشرة محققة ، وصدّرها بمقدّمة مستفيضة بلغت نحو مائة صفحة من القطع الكبير ، ينبغي أن تعد كتابا كاملا لاشتمالها على تحقيقات علمية دقيقة عن الشاهنامه ومصادرها وأقسامها ، وعن الفردوسي وسيرته ، وعن أشخاص هذه القصص وأبطالها ، وعما حوته من أخبار الأمم والشعوب ، كالروم والهند واليونان والعرب ، وأفرد المحقق في آخر المقدمة فصلا عن البنداري ، وبيّن قيمة الترجمة ومكانتها الأدبية والتاريخية .

ولا شك أن الدكتور عزام كان يدرك ما تنطوي عليه ترجمة البنداري من قصور وعوار ، ولذلك لم يشأ أن يقابل الترجمة كلها بأصلها الفارسي ، إذ «وجدتُ هذا متعذّرا أو مستحيلا ، فاكتفيت بمراجعة الأصل حين يضطرب سياق الترجمة ، أو يغمض الكلام . . الخ »، وانتهى من هذه المقابلة الجزئية إلى إضافات أضافها على ترجمة البنداري تمثلت في أن «عزام» :

---

(١٧) سليم البستاني ، مقدمة ترجمته للإلياذة ، طبع بيروت ، ص ٧٤ .

ـ أكمل الترجمة في عدة مواضـع .
ـ أثبت فصولا ونُبَذا حذفها المترجم
ـ جعل بعض الفصول التي ترجمها هو شعرا ، أراد بها : « أن تكون نموذجا من شعر الشاهنامه »[١٨] .

وكان لصنيع عزام أكبر الأثر في ارتفاع صيت الشاهنامه وناظمها إلى الأوج ، إذ تلقت المجـلات الأدبيـة الكـبرى في مصر والعـالم العربي كالهلال والمقتطف والرسالة[١٩] عمل عزام بالحفاوة والترحيب ، ودعت أدباء العرب إلى ضرورة اقتناء هذا الأثر العالمي الرائع الذي يتعين على كل أديب أن يقـرأه ، ويفيد به ، وأفسحت تلك المجلات صفحاتها للعديد من المقالات والدراسات والتعليقات في الموضوع ، ولم يكن كُتّاب هذه التعليقات من العرب وحدهم ، بل كان بينهم مستشرقون أعربوا عن إعجابهم بجهد عزام في تحقيق الترجمة العربية والتعليق عليها ، ومن بين المستشرقين الذين نشرت تعليقاتهم حينذاك : نيكلسون وجيب، وريتر[٢٠] .

وكان من الطبيعي أن تتسع دائرة الاهتمام فتتجاوز الشاهنامه إلى ميدان الأدب الفارسي الرحيب ، فانفسح المجال في المجلات الأدبية العربية للتعريف بروائع ذلك الأدب ، والحديث عن كبـار شعـراء الفـرس كحـافظ ، وسعـدي ، وجلال الدين الرومي ، والعطّار ، والخيّام وغيرهم ، ولبيان عمق الصلات بين الأدبين العربي والفارسي ، وما امتاز به الأدب الفارسي على الأدب العربي من سعة الخيال وكثرة التفصيل حتى في الموضوع المشترك بينهما[٢١] . وبدت هذه المقالات بمثابة قبسات نورانية تتلألأ في جو معبّأ بالمؤثرات الغربية الوافدة من الآداب الغربية .

* * *

ولم يمض أكثر من عامين على نشر الترجمة العربية حتى احتفلت إيران بالذكرى الألفية للفردوسي (سنة ١٩٣٤ م) ، ودعت إليها أربعة من الأدباء والمؤرخين العرب هم : الدكتور عبد

---

(١٨) عبد الوهاب عزام ، الشاهنامه (الترجمة العربية) ، طبع دار الكتب المصرية ، المقدمة، ص ١٥

(١٩) انظر : الهلال ، عدد يونيو ١٩٣٢ م ، المقتطف ، السنة ٨١ ، المجلد الثالث (أكتوبر ١٩٣٢)، ص ٣٥٢ - ٣٥٤ ، والمجلد الخامس من نفس السنة (ديسمبر ١٩٣٢)، ص ٦١١ . وانظر أيضاً الرسالة، العدد الأول من السنة الأولى (مايو ١٩٣٣) الصفحة الأولى .

(٢٠) انظر : الرسالة ، السنة الأولى ، العدد الثاني ، (مايو ١٩٣٣ م) ، ص ٤١ .

(٢١) راجع : في الهلال ، عدد يونيو ١٩٣٢ ، حديثاً أجراه الأديب طاهر الطناحي مع الدكتور عبد الوهاب عزام .

الوهاب عزام ، والمؤرخ الأديب الأستاذ عبد الحميد العبّادي من مصر ، والشاعر الكبير جميل صدقي الزّهاوي ، والأديب الأستاذ أحمد حامد الصّراف : من العراق .

فجهدت المجلات الأدبية أن تقدم لقرائها من المقالات حول الفردوسي وشاهنامته ما يرتفع إلى مستوى هذا الحدث الثقافي الكبير ، وأسهمت الإذاعة المصرية الناهضة بنصيب[٢٢] ، واستمر الاهتمام فترة من الزمن حتى شاركت فيه بعض الهيئات الشعبية ، إذ أقامت جمعية محبّي الفنون الجميلة معرضاً للفن الفارسي الإسلامي بهذه المناسبة بالقاهرة[٢٣] (٢٤ يناير ١٩٤٥) .

والحق أن الاحتفال بالذكرى الألفية للفردوسي قد عاد ـ مثلما عاد نشر عزام للترجمة العربية ـ على الأدب العربي بثمار بالغة الوفرة والنضج تمثلت في الأشعار العربية التي ألقيت في تلك المناسبة وبعدها ، فلقد ألقى الزهاوي قصيدة طويلة بعنوان : (أتينا محتفلين)[٢٤] ، كما نظم الدكتور عزام ـ بينما كان في (طوس) واقفا على قبر الفردوسي ـ قصيدة بلغت عدة أبياتها خمسة وثلاثين بيتا ، وسيأتي الكلام عن هاتين القصيدتين وغيرهما بعد قليل .

ولقد تدفق سيل من المقالات الأدبية الرائعة دارت كلّها حول الفردوسي والشاهنامه ، بذل فيها كاتبوها وسعهم ـ حين عرضوا للشاهنامه نفسها ـ لكي يستخرجوا من ترجمة البنداري العربية بعض الصور الفنية والمواقف الإنسانية المؤثرة التي تليق بجلال المناسبة ، وقد نجح بعض هؤلاء الكُتّاب (كالأستاذ عبد الحميد العبادي) في ذلك نجاحاً باهراً[٢٥] .

غير أن سيرة حياة الفردوسي كانت تبدو أكثر جاذبية وإثارة عند بعض الكتاب من موضوع الشاهنامه نفسه ، ولذلك انصرفت عنايتهم إلى الخوض في حياة الفردوسي والدفاع عنه ـ خاصة ـ بإزاء ما لحقه من ظلم وافتراء على يد المستشرق الإنجليزي إدوارد جرانفيل براون[٢٦] . والواضح أن هؤلاء الكتاب ما فعلوا ذلك إلا حين أعيتهم الحيلة في العثور في الشاهنامه ـ من خلال ترجمتها العربية ـ على ما يتناسب مع مقام هذا الشاعر الكبير من قيم جمالية إنسانية كانت

---

(٢٢) أذاعت محطة الاذاعة المصرية في ١٧ ديسمبر ١٩٣٤ حديثاً للأستاذ عبد الحميد العبادي عن (الفردوسي). راجع : مجلة الرسالة ، العدد ٨٣ ، ٤ فبراير ١٩٣٥ م .

(٢٣) مجلة الهلال ، فبراير ١٩٣٥ م .

(٢٤) انظر : ديوان جميل صدقي الزهاوي ، المجلد الأول ، طبع دار العودة ، بيروت ص ٦٩٣ .

(٢٥) راجع مقالية الرائعين في الرسالة ، العدد ٨٣ و٨٤ ، فبراير ١٩٣٥ م .

(٢٦) كان الأستاذ براون في الجزء الثاني من كتابه : « تاريخ الأدب في إيران» قد رأى أن الشاهنامة ليست في المستوى العظيم من الشعر ، وقد ترجم ذلك الجزء الى العربية المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ، ونشره في سنة ١٩٥٤ م

أو فنية . ولقد سلّم بعضهم ـ أمام عجزهم عن استنطاق الترجمة ـ بأنه لا بد للمرء أن يتعلم الفارسية « لأننا نعتقد أن الشطر الأعظم من قيمة الفردوسي (والشاهنامه) يضيع على الذين لا يتذوقون لغته حق التذوق»[٢٧] .

هذا ، وقـد شارك الأدباء العرب في كتابة مثل هذه المقالات بعض الأدباء الإيرانيين ، فكتب الأستاذ مرتضىٰ الحسيني الفاضلي الإيراني مقالا في «مجلة المقتطف»[٢٨] سنة ١٩٣٤ م ، بعنوان : «الفردوسي وشاهنامته»، سلك فيه نفس مسلك الكتاب العرب ، لكنه بيّن في ردّه على المستشرق براون : «أن كل شعب أعلمُ بأدبه وخصائص الشعر فيه وأقدر على التمييز بين الغث والثمين ، فإن ألحانه الفنية تقتضي امتزاجا بالبيئة التي صدر عنها ذلك الفن ، ونشأت فيها تلك الصور الأدبية » ، فبدا وكأن الأستاذ الفاضلي يزيد من غربة الشاهنامه بين العرب ، إذ يقرّ بأن عدم تذوّقهم لها أمر له وجاهته ، فهم ليسوا من أهل اللغة أو البيئة الفارسية حتى تكتمل عندهم ملكة التذوّق لذلك الأدب ولأهم آثاره الفنية .

أما الدكتور عزام ، فقد كان ـ رحمه الله ـ صاحب النصيب الأوفى ، والقدح المعلّى في هذا الميدان ، فعقب عودته من إيران بعد مشاركته في الاحتفال بالعيد الألفي لمولد الفردوسي ، نشر في العـدد الصادر في ٢٩ أكتوبر ١٩٣٤ م من مجلة الرسالة[٢٩] مقالا بعنوان : «الشاهنامه» ، ضمّنه ترجمة عربية للكلمة التي ألقاها بالفارسية في طوس ، ثم شرع بعد ذلك في نشر سلسلة من المقالات المتتابعة التي جعل عنوانها : إلى مؤتمر الفردوسي : بين القاهرة وطوس ، وصف فيها رحلته إلى إيران للمشاركة في الاحتفال بالعيد الألفي للفردوسي ، وظلت مجلة الرسالة زهاء ثلاثة أشهر تنشر تباعا هذه المقالات التي بلغت أربعة عشر مقالا[٣٠] .

وبرغم هذا الجهد الكبير الذي بذله الدكتور عزّام ، فقد كان يشعر بأن الترجمة العربية التي توفّر عليها سنوات طويلة ، فأخرجها محققة أفضل ما يكون التحقيق ، وأكمل بعض مواضعها ، وزوّدهـا بالهـوامش والتعليقات المفيّدة الضافية ، وقدّم لها بمقدمة طويلة رائعة ـ تلك الترجمة تنطوي على نقص واضح بيّن ، ولا يمكن أن تكون كافية للقارىء العربي . فقد رأى عزّام أن

---

(٢٧) من مقال للأستاذ أحمد قاسم جودة ، بعنوان : الفردوسي ناظم الشاهنامه ، الهلال مايو ١٩٣٤ م .

(٢٨) العدد الثالث ، السنة الخامسة والثمانون ، ص ٢٧٧ ـ ٢٨٠ ، ٣٩٥ .

(٢٩) العدد : ٦٩ .

(٣٠) من العدد ٧٥ في ١٠/١٢/١٩٣٤ الى العدد ٨٨ في ١١/٣/١٩٣٥ م.

البنداري « لم ينقل إلى العربية جمال شعر الفردوسي ، ولكن نقل حوادث الشاهنامه مختصرة» ، وانتهى عزّام إلى أنه « لا بد أن يُكمل نقص هذه الترجمة بترجمة منظومة للكتاب كلّه أو لفصول منه »[31] .

والحق أن هاجس الترجمة المنظومة للشاهنامه ظل يراوده منذ أن شرع في تحقيق ترجمة البنداري ، ولذلك جعل ترجمته لبعض الفصول التي أكملها ترجمة منظومة أراد بها « أن تكون نموذجا من شعر الشاهنامه »[32] والتي سبقت الإلياذة في الترجمة إلى العربية بنحو سبعة قرون ، ولكن الواضح أن الأسلوب الذي انتهجه البستاني في الترجمة كان له الأثر البالغ في ذيوع الإلياذة وانتشارها .

على أن الإحساس بحاجة الأدب العربي إلى ترجمة كاملة ومنظومة للشاهنامه لم يكن وقفا على الدكتور عزّام وحده ، بل راود هذا الإحساس كذلك أحد الأدباء الإيرانيين من أصحاب اللسانين ، وهو «ميرزا عباس خان الخليلي» ، صاحب جريدة (إقدام) الفارسية ، فلقد نشرت له مجلة المقتطف (ديسمبر ١٩٣٤م) ، قطعة من الشاهنامه ترجمها الى العربية وبعث بها من طهران ، وقدّمت المجلة للقطعة بأن الرجل قد «ترجم جانبا كبيرا من شعر الفردوسي إلى العربية نظما» ، غير أني لم أقف على أشعار مترجمة أخرى للميرزا خان الخليلي .

أما القطعة التي ترجمها من الشاهنامه نظما فقد جعل عنوانها : من كتاب «بيران» أحد قوّاد الترك إلى «كودرز» أحد أمراء الفرس ، وقد نظمها ميرزا خان الخليلي على هيئة الموشحات ذات الأقفال المختلفة القافية ، أو على نمط ما يسمى في فنون الشعر الفارسي بـ «التركيب بند» . وقسّم كل فقرة إلى خمسة أبيات . أربعة منها القافية فيها موحدة ، بينما هي في البيت الخامس (القفل) مغايرة ، ويبلغ عدد أبيات القطعة بذلك أربعين ، موزّعة على ثماني فقرات ، جاءت أولاها على النحو التالي :

أنذَروا « بيرانَ » بالموتِ وما   من يَدِ الموتِ مفرّ لو دَرَى
فانْبرى يحتالُ حَقنا للدِّما   ودعا كاتبَه كيْ يسطُرَا

---

(٣١) الدكتور عبد الوهاب عزام ، (مقال) ، مجلة الرسالة ، العدد ٦٩ سنة ١٩٣٤ م ، وربما كان هذا من بين الأسباب التي أدت الى فتور اهتمام الدكتور عزام بالشاهنامه فجأة منذ أوائل سنة ١٩٣٥ م فلم يكتب ـ فيما نعلم ـ إلا مقالا بعنوان «مكانة الشاهنامة بين الأمم» ، سنة ١٩٤٤ م ، وصرف النظر عن إعادة طبع الترجمة بعد نفادها .

(٣٢) مقدمة الترجمة العربية ، ص ١٥ .

(٣٣) راجع : مقاله عن الشاهنامه ، بالعدد ٦٩ من مجلة الرسالة .

قال : فابدأ حامدا ربَّ السما   واستعِذْ بالله منْ شرّ الورَى
أنا أرجوكَ إلهي كرما   وفؤادي مُعْلنٌ ما استترا

أن تُبيدَ الحرب من لَوْح الوجود
وتزيلَ الضّغنَ عن قلبِ الجنود

والمترجم يتراءى من وراء هذه « القطعة » بمختلف فقراتها مالكا لناصية الشعر العربي ، قد استطاع أن يقّدم لنا ـ من خلالها ـ نموذجا لكيفية ترويض الشاهنامه وتطويعها للشعر العربي ، أو قل استطاع أن يوطىء أكناف الشعر العربي لاستيعاب القيم الجمالية للشاهنامه . فقد أحسن بناء ترجمته وأحكم تركيبها في بساطة ووضوح لا يبدو فيه أثر الغرابة أو العجمة .

غير أن هذه المحاولة الرائعة لم تلفت انتباه أي من أدباء العرب ، بل ونقّادهم ، ومضت ـ برغم أهميتها ـ دون متابعة أو أثر .

***

فلنترك الآن هذه المحاولة الناضجة لترجمة قطعة من الشاهنامه ، وننطلق لننظر في مرآة الشعر العربي الحديث والمعاصر لنرى إلى أي مدى انعكست الشاهنامه بقيمها الإنسانية والفنية على هذا الشعر .

ولقد تتبعنا ـ في هذه الدراسة ـ المؤثرات المباشرة التي تعلن عن نفسها بصراحة ودون مواربة ، فأحصينا منها مسرحية شعرية وخمس قصائد ، أما المؤثّرات المحتملة المنبثّة بين ثنايا الرؤى فلم نعثر على شيء منها ، وإن كنا لا نزعم أن بوسعنا إدراك كل مؤثر محتمل ، لا سيّما وأن بعض شعرائنا المحدثين والمعاصرين قد أعلن أنه قد قرأ الشاهنامه ، كالشاعر الأستاذ أحمد رامي ، والشاعر السعودي المعروف حسن عبد الله القرشي[٣٤] ، لكننا ما وقفنا في أعمالهم على مردود يلفت النظر ، اللهم إلا إذا سلمنا مع شاعر كبير كالزهاوي بأن مشاعره الجمالية الأساسية نفسها وقيمه الفنية في الشعر والنثر على السواء ، إنما هي مكتسبة من الشاهنامة ، يقول مخاطبا الفردوسي :

(٣٤) انظر : أحمد رامي : مقدمة رباعيات الخيام ، طبع مصر ، ١٩٢٤ م ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ولا ريب أن رامي قرأ الشاهنامه بالفارسية . وديوان حسن عبد الله القرشي ، طبع بيروت ، ١٩٧٢ م ، المقدمة ، ص ٢٢ .

أنــت في سِفْــرك الــبــليــغ نبّــي وكـتــابُ الملوك من معـجــزاتــك
كل ما عنــدنــا من الــنــظم والنّــ ــثــر قبسنــاه من سنى آيــاتــك[٣٥]

أو كما يقرر الشاعر المغربي الأستاذ عبد القادر المقدّم بأنه مذ كان صبيا ، والفردوسي مثله الأعلى في الشعر يلهمه معانيه وأخيلته ، يخاطب الفردوسي قائلا :

أبــا الــعــرائس أدعــوه وأرمــقــه فوق المــلاحــم ، مرتَــقــىً دام مُرْتَـقَـبَـا
من يوم كنــتُ صبــيــا ، وهــو لي مثــل كم ذا أنــاجيــه ، بدرا يُلهِـم الأدبــا[٣٦]

فاعتراف الشاعرين الكبيرين بأن تأثير الشاهنامه عليهما تأثير معنوي وجمالي شامل لا يقف عند حد التفصيل قضية تحتاج الى تأمل ؛ ولعل باحثا متأنّيا يستطيع أن يحدّد لنا بدقة مفردات هذه المؤثرات الإبداعية الشاملة للشاهنامه على شعرنا العربي الحديث والمعاصر .

* * *

أما المسرحية فهي للأديب الكبير « الأستاذ محمد فريد أبو حديد »[٣٧] ، الذي كان من أشدّ أنصار الشعر المرُسَل خاصة في نظم المطوّلات والقصص ، احتيالا على القافية التي تمثل حجر عثرة لابد من إزالتها من طريق الشاعر في هذا النّوع من الشَعر .

ولقـد كان للأستاذ محمد فريد ولوع خاص بالشاهنامه منذ ريعان شبابه ، فترجم قصة سهراب ورستم إلى العربية شعرا مرسلا [٣٨] في سنة ١٩١٨ ، عن ترجمة الشاعر الإنجليزي ماتيو آرنـولـد . ثم ما لبث أبـو حديد بعد أن قرأ الترجمة العربية للشاهنامه [٣٩] التي صدرت سنة ١٩٣٢ م أن نشر مسرحيته الرائعة «خسرو وشيرين» في السنة نفسها .

و « خسرو وشيرين » مسرحية في الشعر المرسل تقع أحداثها في أربعة فصول تتابع بتتابع أحداث الشاهنامه نفسها مع وجود بعض الفروق الطفيفة بينهما ، كالتحوير الذي أجراه المؤلف في شخصية «شيرين» حين جعلها راعية غنم فقيرة من عامة الشعب ، وليست بأميرة أرمنية ، كما

---

(٣٥) من قصيدته « أتينا محتفلين » ، ديوان الزهاوى ، طبع دار العودة ، بيروت ، المجلد الأول ، ص ٦٩٥ .
(٣٦) من قصيدة بعنوان : الفردوسي ، مجلة دعوة الحق ، المغرب ، السنة ١٧ ، العدد ١٠ ، (١٩٧٦م).
(٣٧) ولد سنة ١٨٨٣ م ، وتوفي سنة ١٩٦٧ م .
(٣٨) حاولت العثور على نسخة من هذا العمل النادر عن طريق الأستاذ أمجد بن محمد فريد أبو حديد ، ويعمل بإدارة جامعة قطر ، فلم نوفق (١٩٩٠ م).
(٣٩) انظر : محمد عبد المنعم خاطر ، محمد فريد أبو حديد ، مصر ١٩٧٩ ، ص ٣٢ .

ورد في الشاهنامه . وتتميز لغة المسرحية بأنها لغة مشرقة ، جرسها الموسيقي واضح مميّز ، وتأتي بعض شطراتها مقفاة أحياناً دونما افتعال . فمثلا يقول خسرو حين يلتقي أول مرة بشيرين :

خســرو : زُهــور تلك أم عيناكِ إذ تَبدين في طُهر ؟
وصفحةُ وجهكِ اللألاء لاحَتْ أم سَنا البَدْرِ ؟
وأنفاسُكِ أم يَسري نسيمٌ ساعةَ الفجر[٤٠]

وقد لا يراعي فيها شرط القافية ، كقول كسرى :

لستُ أدري ماذا أصاب فؤادي
أنا بينَ الأنام كسرى ، ولكنْ
قد أراني بغير عهدي بنفسي
يعتريني عندَ الحفيظة غيـظٌ
فإذا ماسطوتُ عدتُ لنفْسي
نادماً جازعَ الفــؤاد[٤١] .

وكان الأستاذ أبو حديد قد طبع مسرحيته غُفْلا من اسم صاحبها[٤٢] ودفع بها إلى كبار النقاد والأدباء ليعلنوا عن رأيهم فيها . فقد كان معجبا بها يرى أنها تعدّ قمة ما وصل إليه نتاجه الشعري من جودة وتـوفيق[٤٣] . والحق أنه حقق نجاحا ملحوظا في رسم الشخصيات ودفع الأحداث للوصول إلى درجة التأزّم الذي انتهى بالثورة على خسرو وقتله ثم انتحار شيرين ، كل ذلك دون أن يضطرب العمل أو يختل التناسق .

لكن هذه المسرحية لم تنل من الشهرة والرواج ما كان حقيقا بها أن تنال ، ولعل الأستاذ أبا حديد نفسه ، قد ساهم بنصيب في خفوت ضوئها وخبوّ أوارها ؛ لأنه لم يقدمها إلى القارىء العربي باعتبارها عملا فنيا رائداً يجمع بين الأصالة والتأثير العميق بالشاهنامه ، وكان من المتوقع

---

(٤٠) المسرحية ، ص ١٤ .

(٤١) مسرحية خسرو وشيرين ، ص ٩٥ .

(٤٢) انظر : مقدمة المسرحية .

(٤٣) راجع : التحليل القيّم الذي كتبه الدكتور محمد عبد المنعم خاطر في كتابه المذكور، ص ٩٦ وما بعدها . ولابد لنا هنا أن نلاحظ أن أبا حديد كان عضوا بلجنة التأليف والترجمة والنشر التي تكفلت بنشر الترجمة العربية للشاهنامه، وهي الترجمة التي كان الدكتور عزّام قد حققها وقدّمها إلى اللجنة المذكورة لطبعها ، وربما يكون أبو حديد قد طالع أصول العمل قبل طبعه .

لها إذ ذاك أن تحقق من الرواج والتقدير عند القارىء ما يدفع النقاد الى دراستها وتناولها ، وإنما ضيّق الأستاذ مجالها حين احتكم في شأنها إلى مجموعة من النقاد في بداية الأمر ودعاهم إلى التأمل فيها ونقدها إن وجدوا فيها للنقد مجالا ، فأعلن واحد من كبارهم ، وهو الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة ، أنه لا يُسيغ الفن الذي نُظمت فيه (أي الشعر المرسل) ، لأنه لا يقع من نفسه موقعا حسنا ، يقول الزيات في نقده للمسرحية : « . . فالأبيات تُطربني بأجزائها المتسقة ، وألفاظها المختارة ، ومعانيها السامية ، ولكن أواخرها النواشز تتناكر مع الطبع والسمع ، فتذهب بحلاوة سياقها ، وعذوبة موسيقاها »[٤٤] . وكان من الطبيعي أن يتأثر القراء بهذا الحكم من نقّاد الفن والمتضلّعين فيه ، فيزهدون في قراءة المسرحية ولا يحرصون عليها ، ومن ثم لم يُكتب لها الرواج والانتشار ، لا سيما وأن المؤلف لم يكلّف نفسه مؤنة الردّ بعد ذلك على هؤلاء النقاد ، فلم يثر بسكوته قضية كان من شأنها أن تلفت انتباه القرّاء إلى مسرحيته وتدفعهم إلى الاهتمام بها .

* * *

أما القصائد الخمس ، فترجع اثنتان منها إلى مناسبة الاحتفال بالعيد الألفي للفردوسي (١٩٣٤)، وأولى القصيدتين للزهاوي ألقاها في احتفال طوس ، وتبلغ أربعة وثمانين بيتا ، ونشرتها مجلة الرسالة ، ثم نُشرت القصيدة بعد ذلك في ديوان الزهاوي بعنوان «أتينا محتفلين» ، قال في أولها :

أنت في شعرٍ كانَ فتحاً مبيناً ... واحدٌ من أولئك الخالدينا
بعد ألفٍ من السنين أتينا ... بكَ يا فردوسيُّ محتفلينا[٤٥]

والقصيدة الثانية نظمها الدكتور عبد الوهاب عزام ، بينما كان في طوس واقفا على قبر الفردوسي ، وتبلغ القصيدة خمسة وثلاثين بيتا ، جعلها على بحر المتقارب على غرار «الشاهنامه» في أصلها الفارسي ، ونشرتها مجلة الرسالة[٤٦] بعنوان : على قبر الفردوسي ، ومطلعها :

أبا القاسمِ اسمعْ ثناءَ الوفود ... تُنظِّم فيك عقودَ الدُّررْ

(٤٤) انظر مقال الزيات في مجلة الرسالة ، العدد (٣٧) ، السنة الثانية ، ١٩٣٣ م .
(٤٥) ديوان الزهاوي ، ١ : ٦٩٣ .
(٤٦) العدد ٧٠ ، في ٥/١١/١٩٣٤ م .

ومنها أبيات من الشاهنامه أبقى فيها على الشطرة الأولى بالفارسية ، وترجم الثانية الى العربية ، كقوله :

لقد صدّق الدهرُ ما قلتَ في كتابِ الملوكِ بغيب النظرْ
بَناهاى آبادْ كَردَدَ خرابْ بحرّ ذُكاءَ وصوبِ المطرْ
بِيْ افكَندْمْ از نَظْم كاخِى بُلَنْد على الريح والقطر ما إن يخرّ

أما القصائد الثلاث الأخر ، فهي متأخرة نسبيا ، ترجع أولاها ـ في الترتيب الزمني ـ إلى سنة ١٩٦١ م ، وهي للشاعر اللبناني شبلي الملّاط ، وقد نشرتها مجلة « الدراسات الأدبية »[٤٧] ، بعنوان من شاعر الأرْز إلى شاعر طوس (الفردوسية) ، تحية للفردوسي شاعر الفرس ، صاحب الشاهنامه ، ومطلعها :

ركن الخلودِ عَظائمٌ ومعالِ بقيتْ بقاء الدّهر للأجيال

والقصيدة التالية شدا بها الشاعر اللبناني الأخطل الصغير ، ونشرها في ديوانه[٤٨] بعنوان : «الفردوسي» ، ومطلعها :

يا نهرَ طوسَ أطلالَ واديها رسالةُ الشِّعر عني مَن يؤدّيها

أما القصيدة الثالثة فقد نشرها شاعر المغرب العربي الأستاذ عبد القادر المقدّم ، في مجلة «دعوة الحق» المغربية ، بعنوان : «الفردوسي : الشاعر العظيم ، أو شهيد المجد »[٤٩] . ومطلعها :

أبا الملاحم أهديتَ النُّهى عجباً أتحفتَ بالفنّ منه الفرسَ والعربا

* * *

اذا تأملنا هذه القصائد الخمس نجدها تشتمل على معانٍ تكاد تكون واحدة ، لكن يعبر عنها كل شاعر بطريقته ، ويتميز بعضهم على بعض في التعبير عن معنى من المعاني ، على أن الموضوع المحوري الذي التقى شعراء هذه القصائد جميعاً حوله هو «الفردوسي» .

---

(٤٧) مجلة كان يصدرها قسم اللغة الفارسية بالجامعة اللبنانية ، انظر العدد الثالث من السنة الثالثة (خريف ١٩٦١م = ١٣٤٠ هـ . ش)، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٦ .

(٤٨) انظر شعر الأخطل الصغير ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط الثانية ، ١٩٧٢ .

(٤٩) راجع هامش ٣٦ ، فيما سبق .

فالفردوسي بحقّ ـ عندهم جميعا ـ أبو الشّعر ، لاقى كل ما يمكن أن يلقاه الشعراء جميعا من ضروب الأهوال وصنوف المحن ، في سبيل فنّه ، لكنه برغم مكابدته للآلام متفائل مستبشر يحلّق من أفق إلى أفق ، تتجدد عنده المقاصد السامية دوما ، كلمّا نال منها مقصداً تطلّع الى مقصد أعلى منه وأسمى ، يخاطب عبد القادر المقدّم الفردوسيّ قائلا :

كأنّما الفنُّ آلى أن تكون له عرائسُ ، دونَ أن تغدو لهنّ أبا
حلّقتَ من أفقٍ توقاً الى أفقٍ منّقبا تَتَوَخّى للعُلا قُرُبا
وأنتَ من ضَرَمِ الأشواقِ في كَبدٍ ولا تكادُ تُرى للعين مكتئبا

وقد أمضى من حياته زهاء ثلاثين عاما ، وهو يتجملّ بالصبر ، يوجّه الدكتور عزّام حديثه إلى الفردوسي قائلا :

إمام البيان وربَّ القريض وأصبَرَ من للقريض صَبرْ
ثلاثينَ عاما نسجتَ القريض حليفَ الهموم أليف السَّهَر
ثلاثين عاماً مضتْ للفناء لهنّ اشتريتَ خُلودَ الدَّهَر

وأما «الشاهنامه» ، فهي فخر للشرق والغرب معا ، وزينة للإيرانيين جميعاً ، ودليل على صدق ما أنكره البعض على أهل الشرق من نبوغ ، يقول الزهاوي :

يا كتابَ الملوكِ أنتَ كتابٌ فيه للنّاس حكمةٌ وصوابُ
خلق الفردوسي منكَ خضمّاً فَاضَ يرغو كمايفيض العباب
بك للشرقِ ما اهتدى الشرقُ فخرٌ بك للغرب ما ارتقى إعجابُ
بك للشرقِ ما اهتدى الشرقُ فخرٌ بك للغرب ما ارتقى إعجابُ
بك في أمةٍ قد ازدادت الأخـ ـلاق طيبا وازدانت الآداب
واذا أنكر النّبوغ على الشر ق فريق فأنت أنت الجواب

والشاهنامه فيها من التنويع ما يرفع الملل والسأم عن القاريء، برغم طول قصصها ، هذا إلى ما حوته تلك القصص من عبر وأمثال ، يقول شبلي الملاط :

طَوْراً ترى سِيَر الملوك وتارة يُلقي عليكَ وقائعَ الأبطالِ
ويقصّ أحيانا عليكَ خُرافة في منطق عذبِ المقبّل حال
وعقائدُ العجمي في أربابه وغرائبُ العادات والأفعال
بملاحم تبدو لديك طويلةً فإذا قرأت ، فهنّ غيرُ طوال

والشاهنامه بعد ذلك وقبله نتاج إسلامي تبين إلى أي مدى خدم الفرس القرآن ، الذي لما شرّفهم وهداهم إلى الحق ، أرادوا أن يسدوا له الجميل فبذلوا مهجتهم في سبيله ، ينشد الأخطل الصغير :

ما عابـه أنّ سيـفَ الـله جَنْـدَ لَه ... بل شَرَّفَ الـفـرسَ لما جاء يهديهـا
مشى إليـهـا كتـابُ الله يَخطِبُهـا ... فأمـهـرتْـه الـغَـوالي من نَواصيـهـا
غزا الهدى الكفرَ، لا فرسٌ ولا عربُ ... يا وقـعـةً هزّت الـدنـيـا تَهانـيـهـا

واستبدّت بالشعراء جميعا فكرة المقارنة بين الشاهنامه والإلياذة ، فعدّوا الملحمة اليونانية ليست بشيء بجانب الشاهنامه ، يقول الزهاوي :

ما لإلـيـاذة الـتي حبرَتْهـا ... يدُ هومـير مثـلُ ذا الأسـلوب
تلك ليـل جَهْـم وهـذا صبـاحُ ... مسـفـرٌ ما بوجـهـه من شُحـوبِ

وقد تردد هذا المعنى عند سائر الشعراء الأربعة جميعاً[٥٠] ، فتناولوه وأكّدوا عليه ، بطرق مختلفة وأساليب متباينة ، وكأنهم ما وجدوا عملا أدبيا عالميا رفيعا ، يمكن أن يطاول الشاهنامة ويقبل المقارنة معها سوى الإلياذة ، أو لعلهم أرادوا جميعا أن يلفتوا الناس إلى روعة الشاهنامه بعدما راعهم الاهتمام الواسع النطاق بالملحمة اليونانية .

وبعد ، فقد دارت إشارات هؤلاء الشعراء حول الشاهنامه ، ولم تتطرق إلى موضوعاتها ، فلم يظفر موضوع من هذه الموضوعات ولو بإشارة من شاعر ، وبدا انفعال هؤلاء الشعراء بالفردوسي نفسه أبلغ وأعمق من انفعالهم بنتاجه الأدبي .

* * *

كان من الطبيعي أن يتم تبادل المواقع بين شعرائنا المحدثين الذين فُتنوا بالفردوسي : شخصيته وعبقريته وآلامه ، وما نال من صدود وجحود ونكران ، وبين الشعراء المعاصرين من أصحاب النزعة الجديدة في الشعر ، الذين كان مقتضى مذهبهم يدعوهم إلى الاحتفال بالشاهنامه ، واعتبارها واحدا من روافدهم .

---

(٥٠) لم يرد هذا المعنى في قصيدة عزام ، وانما عبرّ عنه في مواضع أخرى . راجع : مقدمته لترجمة الشاهنامه ، ص ٢٤ ، ومقالته في العدد (٧٠) ، سنة ١٩٣٤ م ، من مجلة الرسالة .

ولا غرو ، فقد جعلوا « الأساطير » أهم روافد الشعر عندهم ، لكونها تشتمل على مادة خصبة للرموز الأسطورية ، يرسم بها شاعرهم ما لم تستطع اللغة العادية أن تقوم به(٥١) . والشاعر يحاول أن يفيد بهذه الرموز الأسطورية في تخطي الواقع والانتقال إلى عالم سحري موهوم غير واضح المعالم ، يغوص فيه بتجربته متجاوزا الزمان والمكان ، « مبحرا في الشمول والكلية ، ومعانقة الرموز التي بها تتجسد التجربة »(٥٢) .

ولا شك أن العصرين الأسطوري والبطولي في الشاهنامه يوفّران لهؤلاء الشعراء مصدرا ثرّاً وموردا عذبا قريبا ، يُرضي عندهم النزعة إلى الإغراب ومباعدة الواقع ، ويستطيع الشاعر أن يستدعي منه من الشخصيات والرموز والأحداث ما يمكن أن يثري به تجربته ونزعته إلى تجاوز الواقع واقتحام عالم موهوم من الرؤى والصّور ، لكن الحاصل أن أشعار هؤلاء الشعراء قد بدأت وتواصلت ولم يبد للشاهنامه فيها من أثر .

وعكف شعراء الموجة الجديدة على الملاحم اليونانية والرومانية ، فاستدعوا في أشعارهم شخصياتها من بشر وآلهة وثنية شوهاء ، بل استدعى بعضهم ما كان بتلك الملاحم من حيوانات خرافية حتى الكلاب ، ولم يتركوا شاردة ولا واردة فيها الا وتمثلوها ، ورمزوا إليها وغمزوا بها ، حتى تهافتت هذه الرموز عندهم وخَلُقت ديباجتها ومـجّوها هم وعافوها . لكن لم تبدر منهم بادرة أو تندّ عنهم إشارة تدل على أنهم طالعوا الشاهنامة أو حتى عرفوا شيئاً عنها .

والعجيب أن هذا الوصف ينطبق على شعرائهم ممن كانت لهم صلة بايران وعاشوا فيها زمنا ، ومنهم رائدان من رواد هذا الاتجاه ، وهما بدر شاكر السياب ، وعبد الوهاب البياتي ، الذي أعلن عن تأثره ببعض شعراء الفرس الكبار كالرومي والعطار والخيام(٥٣) ، لكنه لم يذكر شيئا عن الفردوسي .

والأمر محيّر حقا حين يلجئنا أصحاب هذا الاتجاه إلى أن نفترض فروضا حول الأسباب التي حملتهم على الانصراف عن الشاهنامه جملة وتفصيلا ، فما كلّف أحد منهم نفسه وبـرّر الرفض لاستلهام هذا الأثر الانساني الرائع ، في الوقت الذي يُقبل فيه على استلهام آثار مناظرة له في الموضوع . فهل يمكن أن يكون السبب عائدا إلى دعوتهم إلى رفض الماضي بكل ما يحويه من

---

(٥١) انظر : عبد الحميد جيدة ، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، بيروت ١٩٨٠ م ، ص ١٠٨ .

(٥٢) ايليا حاوى ، خليل مطران ، ص ٢٠ .

(٥٣) راجع : مقالا للبياتي في ديوانه « صوت السنوات الضوئية » ، دار الشروق ، ١٩٨٥ م .

تراث ؟ . . بيد أنهم استدعوا رموز الماضي من مصادر اليونان والرومان ، فهل تعني كلمة التراث عندهم إذن التراث الإسلامي عربيا كان أو فارسيا ؟

أم كان انكبابهم على الملاحم الغربية دون سواها راجعا إلى شيوع تأثر الشعراء الغربيين المحدثين بهذه الملاحم ، وتأثر شعراء العرب المعاصرين بأولئك الشعراء في هذا المجال ؟

أم أن الأمر راجع إلى قصور الترجمة العربية للشاهنامه التي لم تستطع أن تُغري بمطالعتها أو تشجّع على استلهام موضوعاتها ، لاسيما وأن الترجمة العربية ـ التي نشرت سنة ١٩٣٢ م ـ ما لبثت أن نفدت بعد بضع سنوات ، وأصبحت كالكبريت الأحمر ، لا سبيل إلى اقتنائها ، ولا يمكن مطالعتها إلا في المكتبات العامة القديمة .

لعل هذه الفروض مجتمعة يمكن أن تفسر لنا موقف أصحاب هذا الاتجاه ، وان لم يكن هو موقف كل المعاصرين ، فلقد رأينا عددا من شعراء الحقبة المعاصرة نفسها ـ كعبد القادر المقدّم وشبلي الملّاط ـ قد احتفلوا بالفردوسي والشاهنامه ، ومن ثم اقتصر هذا الموقف ـ في الغالب ـ على دعاة الموجة الجديدة ، وهم بعد ليسوا بحجّة على الأدب العربي المعاصر ، وإنما يمثلون اتجاها واحدا من اتجاهاته المتعددة فحسب ، وإن كانوا أشدّها جَلَبَة وأكثرها نفيرا .

* * *

ولقد صح عزم طائفة من دارسي الآداب الفارسية من العرب في الآونة الأخيرة على مواصلة قرع الأجراس للتنبيه بأن الشاهنامه موجودة ها هنا ، فأصدروا عددا من الكتب تناولت العمل من زوايا جديدة لم تكن مطروقة من قبل . ومن بين ما نشر من هذه الكتب : كتاب « دراسات في الشاهنامه »[٥٤] للدكتور طه ندا ، أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بجامعة الإسكندرية ، وقد خص بعض قصص الشاهنامه بدراسة موضوعية ونقدية .

أما الدكتور أمين عبد المجيد بدوي فقد أخرج كتابين تناول فيهما الشاهنامه بعرض رائع مفصل لا يخلو من التحليل والنقد ، هما : «القصة في الأدب الفارسي »[٥٥] ، و « جولة في شاهنامة الفردوسي »[٥٦] ، وقد بين في مقدمة كتابه الأخير أنه راعى فيه التيسير والتبسيط لخدمة

(٥٤) طبع بالإسكندرية ، سنة ١٩٥٤ م .

(٥٥) طبع الكتاب طبعتان ، أولاهما بالقاهرة سنة ١٩٦٤ م ، والثانية ببيروت سنة ١٩٨١ م .

(٥٦) صدر بمصر سنة ١٩٧١ م ، عن مكتبة النهضة المصرية

المثقفين العرب ، وعرض مختارات مترجمة ترجمة نثرية لخمس قصص وأربع حكايات من الشاهنامة مشفوعة بالتفسير والتحليل والمقارنة .

وكان المرحوم الدكتور محمد غنيمي هلال ـ الأستاذ بجامعة القاهرة ـ أكثر النقاد عناية بالجانب المقارن من الشاهنامه ، فألمح إلى أهميتها في الآداب العالمية في كتابه «الأدب المقارن»[٥٧] ، ثم عاد مرة أخرى وخص الشاهنامه بدراسة متعمقة في كتابه « مختارات من الشعر الفارسي » ـ الذي نشرته وزارة الثقافة المصرية سنة ١٩٦٥ م ـ حيث عرض قطعتين من الشاهنامه هما : ميلاد سياوش ، وزال ورو دابه[٥٨] ، مبينا إلى أي مدى تأثر بهما الكاتب البلجيكي «موريس ماترلنك» في مسرحيته : بلياس وميليزاند .

أما المقالات ، فكان أهمها مقال الأستاذ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين ، الأستاذ بجامعة عين شمس ، الذي عرض لموضوع الإسكندر في الشاهنامه ببحث تحليلي مقارن ، نشر في سنة ١٩٦٩ م[٥٩] .

واليوم ، وبعد نفاد الترجمة العربية ، ونفاد معظم الكتب التي عرضت لبعض موضوعات الشاهنامه[٦٠] ، لا يجد القاريء العربي إلا كتابا صغيرا يشتمل على تلخيص نثري مبتسر لأحداث الملحمة الفارسية الكبرى ، ولا يزيد عدد صفحاته عن ٢٤٠ صفحة من القطع الصغير ، وجاء بصفحة العنوان : الشاهنامة ملحمة الفرس الكبرى ، لأبي القاسم الفردوسي ، ترجمة سمير مالطي[٦١] . وليس للكتاب مقدمة ، كما لا نعرف اللغة التي تُرجم عنها الكتاب ، ورغم أن الكتاب لا قيمة له من الناحية العلمية ، إلا أنه يبدو أنه سدّ حاجة ما عند القاريء العربي الذي يفتقد التعرف إلى الشاهنامه ، فُطبعت منه ثلاث طبعات خلال أربع سنوات فقط (١٩٧٧ - ١٩٨١) .

* * *

---

(٥٧) طبع الكتاب لأول مرة سنة ١٩٥٣ م ، ثم أعيد طبعه مرات عديدة ، راجع : ص ١٤٣ وما بعدها ، طبع بيروت ١٩٨٣ م .

(٥٨) انظر : ص ٢٣٧ وما بعدها .

(٥٩) انظر : حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس (١٩٦٩ م) : بحث في قصة الإسكندر ذي القرنين، كما صورها الأدب الفارسي الإسلامي .

(٦٠) لا نكاد نجد من تلك الكتب إلا الطبعة الثانية من كتاب : القصة في الأدب الفارسي للدكتور أمين عبد المجيد ، أما باقي الكتب فقد نفدت تماما .

(٦١) نشرته دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٧ م .

بيد أن انحسار الطابع الانساني العام والقيم الجمالية البالغة الروعة عن الشاهنامه ـ في صورتها العربية ـ وغلبة السّرد التاريخي عليها قد أدى بالضرورة إلى تركيز الروح القومي والوطنيّ فيها ،وأظهر أن غرضها ليس إلا العمل على أحياء العصبية القومية للفرس بتجلية أمجادهم القديمة ، والطعن على غيرهم من الأمم بمن فيهم العرب ، مما شجع على رواج مقولة بين بعض الدارسين المحدثين زعموا فيها أن الفردوسي كان شعوبيّا ، بل زعموا أن ترجمة البنداري نفسها عمل شعوبي صرف ، «وأن دعاة الشعوبية قد بادروا الى القيام بهذا العمل خدمة لقضيتهم العنصرية »(٦٢) .

أجل ، لقد لاحظ القدماء والمحدثون توافر الطابع القومي في الشاهنامه ، وأشار الدكتور عبد الوهاب عزّام إلى شيء من ذلك ، بينما لفتت قلة الألفاظ العربية في الشاهنامه بلغتها الأصيلة جماعة أخرى(٦٣) ، لكنهم ما ألقوا إلى ذلك بالا ، فطبيعة موضوع الشاهنامه ـ كملحمة قومية ـ تفرضُه ، ومن ثـمّ ، لم يروا فيه بأسا ، وما رفعوا له رأسا ، وإنما كان جُـلُّ الْتفاتِهم إلى ما تنطوي عليـه الشـاهنـامـه من قيم إنسانية وجمالية عامة ، وما تشتمل عليه من روح إسلامية وإيمانية عميقة(٦٤) ، ولم يسلكها أحد من قبل ـ فيما نعلم ـ في سلك الأدب الشعوبي .

غير أن هذه المقولة التي أطلّت برأسها مؤخرا ، يمكن أن تضرّ بقضية الشاهنامه في الأدب العربي إضرارا كبيرا ، لفرط الحساسية التي يشعر بها العرب تجاه كل ما يمتّ إلى روح الشعوبية بصلة .

* * *

وبعد ، فإن بوسعنا الآن أن نخلُص الى أن الشاهنامه ، ينبغي أن تعاد ترجمتها إلى العربية من جديد ترجمة كاملة . وحبّذا لو توفرّ شاعر كبير على هذه الترجمة التي لا شيء سواها يمكن أن يروي ظمأ الأدب العربي ، ويُرضي تطلّعه إلى أن يرى شاهنامة الفردوسي حقيقة واقعة فيه لا سرابا خادعا .

---

(٦٢) من مقال للدكتور أحمد كمال الدين حلمي : شاهنامة الفردوسي ، ملحمة الفرس الخالدة، مجلة عالم الفكر، الكويت ، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ص ٦٩ ـ ١٣٤ ، (١٩٨٥م). وانظر أيضا بنفس العدد من المجلة، مقال الدكتور محمد رجب النجار : سيرة فيروز شاه ، حيث يعتمد الباحث في دراسته تفسيرا شعوبيا صرفا ، ونظرة أحادية للأسباب التي دعت الى رواج الملاحم في الأدب الشعبي العربي تأثرا بالشاهنامه .

(٦٣) راجع : زكريا بن محمد القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، طبع بيروت ، ص ٤١٧ ، عبد الوهاب عزام، مقدمة الترجمة العربية للشاهنامه، ص ٨٩ـ ٩٠ ، ومحمد غنيمي هلال : مختارات من الشعر الفارسي ، ص ٢٣٧ وما بعدها .

(٦٤) انظر مثلا : مقال الأستاذ عبد الحميد العبادي عن الفردوسي ، العدد ٨٣ ، من مجلة الرسالة ١٩٣٥ م ، وقصيدة الأخطل الصغير، بعنوان : الفردوسي ، شعر الأخطل الصغير ، بيروت ١٩٧٢ م .

طاقة اللغة وتشكل المعنى في قصيدة « الربيع » للبحتري

« دراسة نصية »

أ. د. عبد القادر الربّاعي
أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة قطر

تمهيد نظري :

بعد أن كثرت المناهج النقدية التي تدعو إلى دراسة الأدب عامة ، والشعر منه خاصة دراسة نصيـة تستغـرق أبعاد المعنى الممكنة من خلال رؤية شمولية للتشكيل اللغوي المتعدد والمتنوع والمتشـابـك في العـلاقـات ، غدا الـتراث الشعـري العربي، الذي لم يحظ بوافر من مثل هذه الدراسات ، هو الأجدر بأن يطبق عليه خطابها النقدي، فلربما نرى في هذا الشعر الموروث أعماقاً للمعنى حالت دراساتنا التجزيئية له دون أن نرى أبعادها الغائرة ، وأن ندرك قيمها الجمالية . إن فحص مكـونـات النص الشعـري التراثي كاملاً ، وليس طروحات النقد حوله ، هو الكفيل بإرشادنا إلى مواطن الكنوز الثمينة المدّخرة في باطنه[1] .

والدراسة النصية ـ كما أراها ـ لا تقتضى عزل النص عن منشئه ، وجوه ، وواقعة ، ثم محاورته لذاته لمجرد استكشاف قضاياه اللغوية ، وتقنياته البلاغية ، ولكنها تعني تمثل التجربة الخلاقة للشاعر بكل أبعادها وامتداداتها الأفقية والعمودية ، على أساس أن هذه التجربة البعيدة الغـور في النص ، هي التي فجـرت طاقات اللغة واستخرجت أنواعاً من التشكيلات وصولاً للتكامل الجمالي الذي أمكنه حمل الأبعاد الفكرية والشعورية المختزنة . إننا في الدراسة النصية نعيـد فحص تلك التشكيلات ، وعلاقاتها ، وتفاعلاتها داخل النص كاملاً من أجل استجلاء خفايا المعنى المخبوء خلف الظواهر الخادعة أو المخاتلة في النص أو القصيدة . فقراءة النصوص تعني ـ كما قيـل ـ « دمج وعينا بمجرى النص »[2] ، أو « التفاعل بين موضوع النص والوعي الفردي »[3] ، من أجل استكشاف المعنى الأعمق .

انطلاقاً من فهمي هذا للدراسة النصية سأحاول قراءة قصيدة البحتري الميمية في مدح هيثم الغنوي ، أو قصيدة «الربيع» كما شاء بعضهم أن يسميها .

---

(١) قال ياروسلاف استيتكيفتش : « وهكذا إذا أردنا أن نحصل على الرؤية التاريخية لتكوين القصيدة العربية أو حتى لتشخيصها وتطورها الأفقي ، فعلينا ألا نسأل النقاد أسئلة لا جواب لديهم عليها . وإن كان ثمة حوار حول هذا المشكل فمحورنا الوحيد الذي يمكننا أن نناقش معه الشعر العربي ، على صعيد الشكل الكلي ـ أي القصيدة ـ إنما هو الشاعر نفسه دون وساطة ، ودون شفاعة . وبالتالي إذا أردنا أن نتوغل في مسائل تخص بناء قصيدة ما لشاعر ما من الشعراء الجاهليين فعلينا أن ننظر إلى تلك القصيدة . . » أنظر مجلة فصول مجلد ٧ العددان ١ ، ٢ .

(٢) وليم راي : المعنى الأدبي ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

النص :

سأثبت فيما يلي نص القصيدة موزعاً على مقاطع تشكل أوضاعاً نفسية وفكرية هي : الهجرة . والتكوين . والتوحد . كما سأحاول إبراز المواقف المختلفة في كل مقطع من خلال ترقيمها أبجديا مما سيساعد على إدراك بعض جوانب الدراسة .

أولا : مقطع الهجرة

أ ـ ١ ـ أكان الصِّبا إلا خيالاً مسلِّما — أقام كرجع الطَّرف ثم تصرّما

٢ ـ أرى أقصر الأيام أحمدَ في الصِّبا — وأطولها ما كان فيه مذمَّما

٣ ـ تُلُوِّمْتُ في غي التصابي فلم أرد — بديلاً به لو أن غيّاً تلوّما

ب ـ ٤ ـ ويومَ تلاقٍ في فراق شهدتُهُ — بعينٍ إذا نهنهتُها دمعت دما

٥ـ لحقنا الفريقَ المستقل ضحى وقد — تَيمّم من قصد الحمى ماتيمّما

٦ ـ فقلت: انعموا منا صباحا، وإنما — أردت بها قلت الغزالَ المنعّما

جـ ـ ٧ ـ ومابات مطويّاً على أرْيحيّة — بعقب النوى إلا امرؤ بات مغرما

٨ ـ غَنِيتُ جنيباً للغواني يقدنني — إلى أن مضى شرخُ الشباب وبعدما

٩ ـ وقِدْماً عصيتُ العاذلات فلم أطع — طوالع هذا الشيب إذ جئن لُوّما

ثانيا : مقطع التكوين

أ ـ ١٠ـ أقول لثجّاج الغمام وقد سرى — بمحتفل الشؤبوب صاب فعمما

١١ـ أقلّ وأكثر لستَ تبلغ غاية — تبين بها حتى تضارعَ «هيثما»

١٢ـ هو الموتُ!ويلٌ منه، لاتلق حدّه — فموتك أن تلقاه في النقْع معْلما

١٣ـ فتى لبستْ منه الليالى محاسناً — أضاء لها الأفقُ الذي كان مظلما

١٤ـ مُعاني حروب قوّمتْ عزم رأيه — ولن يصدق الخطيّ حتى يقوّما

ب ـ ١٥ـ ـ غداً وغدت تدعو نزار ويعرب — له أن يعيش الدهرَ فيهم ويسلما

١٦ـ تواضع من مجدِهم وتكرّمٍ — وكل عظيم لا يحب التعظّما

١٧ـ لكل قبيلٍ شعبة من نواله — ويختصُّهُ منهم قبيل إذا انتمى

١٨ـ تقصّاهُمُ بالجود حتى لأقسموا — بأن نداه كان والْبحْرَ توْأما

جـ ـ ١٩ـ أبا القاسم استعززتَ درّ خلائق — ملأن فجاج الأرض بوسى وأنعما

٢٠ـ إذا معشر جاروْك في إثْر سؤدد — تأخر من مسعاتهم ما تقدّما

٢١ـ سلام!وإن كان السلام تحيةً — فوجهك، دون الردّ، يكفي المسلّما

د ـ ٢٢ـ ألستَ ترى مدّ الفرات كأنه — جبال شروري جئن في البحر عُوّما

٢٣ ـ ولم يك من عاداته غير أنه — رأى شيمة من جاره فتعلّما

٢٤ـ وما نوّر الروضُ الشّآمي بل فتًى — تبسم من شرقيه فتبسما

ثالثا : مقطع التوحد

أ ـ ٢٥ـ أتاك الربيعُ الطلق يختال ضاحكاً ... من الحسن حتى كاد أن يتكلّما
٢٦ـ وقد نبّه النوروز في غلس الدجى ... أوائل ورد كن بالأمس نوّما
٢٧ـ يفتقها برد الندى فكأنه ... يبثّ حديثا كان أمس مُكتّما
٢٨ـ ومن شجر رد الربيعُ لباسَه ... عليه ، كما نشْرت وشياً منمنما
٢٩ـ أحلّ فأبدى للعيون بشاشة ... وكان قذى للعين إذ كان مُحرما
٣٠ـ ورقّ نسيم الريح حتى حسبته ... يجيىء بأنفاس الأحبة نعّما
ب ـ ٣١ـ فما يحبس الراح التي أنت خِلّها ... وما يمنع الأوتارَ أن تترنما
٣٢ـ ومازلتَ شما للندامي إذا انتشوا ... وراحوا بروراً يستحثون أنجما
٣٣ـ تكرّمتَ من قبل الكؤوس عليهم ... فما اسطْعْن أن يحدثن فيك تكرّما[٤]

الدراسة :

عناوين المقاطع الثلاثة التي وزعت أبيات القصيدة استنتاجية ، وقد برزت من خلال استقراء مجرى النص ، فكانت بديلاً لعناوين مباشرة مثل : المقدمة الغزلية ، والمديح ، ووصف الربيع ، وذلك لأن التمسك بهذه العناوين المباشرة قد يبدو تكريسا للتباعد بين مسميات لموضوعات تشكل وحدة متكاملة ، قد أفرغت في نص واحد بتأثير حالة شعورية واحدة سيطرت على مؤلفه حتى أخرجه في قصيدة . فالتجربة في قصيدة شعرية لا تتجزأ بل تظل تجربة موحدة حتى مع تعدد موضوعاتها وتنوعها أو تعارض بعضها أيضاً .

١/أ

في الأبيات التسعة الأولى التي شكلت مقدمة للقصيدة تنوع في أساليب القول ، وتعقيد في المواقف الذاتية للشاعر تحفزنا لأن نتجاوز السفوح إلى الأغوار . وقد يكلفنا هذا نسيان ما قرأنا أو سمعنا من شروح سابقة للقصيدة ، فنحن إزاء قراءة جديدة تخترق الكلمات كي ترى ما تخبئه في حواشيها وبين جوانبها . فالمقطع كله قائم على أساس نفسي هو الصراع الداخلي بين الحلم والواقع ، أو الهجرة من جحيم الواقع إلى جنة الأحلام .

كلمة « الصّبا » في المقطع كانت للشاعر كلمة سحرية كررها في البيتين الأولين ، واستخدمها حدثاً تعلق به في الثالث « التصابي » ، كما أوحى بمعناها في الثامن « شرخ

---

(٤) ديوان البحتري ، ج ٤ ص ٢٠٨٧ ـ ٢٠٩٢ .

الشباب » . ولكي نعي أبعاد هذه الكلمة في مجرى تفكير الشاعر الباطني ، علينا أن ننظر إليها في سياقاتها المختلفة ، ونمايز بين استعمالاتها هنا وهناك حتى نكون قادرين ـ بالتالي ـ على الاستبطان والاستنباط .

قد ينصرف الذهن أولاً إلى المعنى اللغوى لكلمة « الصّبا » وهو ربيع العمر ، وأبهج ما فيه حيث تجتمع صفتا القوة والجمال ، لكن « الصّبا» قد تعني ـ مجازاً ـ القوة والجمال أينما وجدا أو أينما أمكن أن يوجدا ؛ فصبا الأيام بداياتها أو ساعات النشاط والعمل فيها ، وصبا الليالي وقت اكتمال البدر منها حين يلذ السمر ويطيب السهر . وصبا الأمة فترات قوتها وازدهارها التي تجلب معها مظاهر البهجة والأمان ، إن تلك الفترات اللامعة من تاريخ الأمة تصبح حلمًا لذيذاً حين يعيش ناسها واقعا مضاداً لها . والأحلام اللذيذة مناط الشعراء ، فإليها يقذفون شباك مواهبهم ، يبدعون منها أخيلة تعيشها عواطفهم ، وتستدرجها رؤاهم حتى ليشعرون أنهم يوجدونها واقعاً ، ويستوطنونها أرضاً . وإذا عدنا إلى البحترى وجدنا أن هناك احتمال أن تكون قوة الدولة العربية الإسلامية حلمًا راوده وشكل عنده هاجساً يسّر نظم قصيدة أو مجموعة من القصائد ، فلقد وجد البحترى في زمن كانت فيه الدولة تنزلق نحو منعطف سحيق يخالف ما كان لها من قوة ومجد . لعل حادثة قتل المتوكل التي قيل إن البحترى شهدها بأم عينيه وكاد أن يكون واحداً من ضحاياها[٥] ، نبهت إحساسه كي يرى ببصيرة الشاعر النافذة انهيار القيم الروحية العليا التي بنت مجد الأمة فأعلت كلمتها ، وإحلال المنافع الذاتية محلها ، خصوصاً أن شكاً قوياً ساوره باشتراك المنتصر ابن المتوكل في المؤامرة التي نفذت في أبيه[٦] . بل ربما أوصلته شفافية إحساسه ذاك إلى أن يرى انهيار القيم وسيطرة النزعة النفعية على قادة الأمة انهياراً للنظام والدولة . وإذا صح استنتاج محقق ديوان البحتري أنه قال هذه القصيدة عام مئتين وخمسة وخمسين للهجرة[٧] ، أي بعد قتل المتوكل بثماني سنوات ـ وأظنه استنتاجاً صحيحاً ـ فإنه يكون قد وقف على بعض من

---

(٥) أحمد أحمد بدوي ، البحتري ص ٨ ، ٢٧ .

(٦) قال ، من قصيدته الرائية التي رثى فيها المكتوكل ، يشير إلى ضلوع ولي العهد المنتصر في المؤامرة ، كما في الديوان ج ٢ ص ١٠٤٨ وما بعدها :

وهل أرتجي أن يطلب الدّم واتر	يدَ الدهر ، والموتور بالدم واتره
أكان ولي العهد أضمر غدرة	فمن عجب أن وُلِّيَ العهد غادره
فلا وُلِّيَ الباقي تراث الذي مضى	ولا حُملت ذاك الدعاء منابرُه

(٧) ديوان البحتري ج ٤ ص ٢٠٨٧ .

سلوك القادة الترك في تلعبهم بالخلافة والخلفاء ومقدرات الأمة والعباد[٨] ، وأدرك أنهم ينحدرون بالدولة ، وبمبادئها الرفيعة التي تأسست عليها . ألا يجوز لنا بعد هذا كله أن نقول : إن صبا الدولة العربية الإسلامية ، في مجدها الشامخ الذي امتد قروناً أصبح - بعد أن دمره التناحر والتخاذل - في خيال البحترى مجرد حلم يتغنى به ، ويتمنى عودته ، ثم يجتهد في أن يرسم لهذه العودة طريقاً في وجدانه :

أكان الصبا إلا خيالاً مسلما ‏ ‏ ‏ ‏ أقام كرجع الطرف ثم تصرما

لم يعد هناك فرق بين « صبا » الإنسان ، و « صبا » الدولة مادام كل منهما في موضعه يعني القدرة والبهجة ، وإذا ما أصبح هذا « الصبا » محور الذكريات الجميلة في زمن يفتقده المتعلق به ، فإن الإحساس بقيمته يغدو كبيراً ومثيراً . من هنا تولد ذلك الاستفهام المثير للدهشة والاستجهان الذي بدأ البحتيرى قصيدته به (أكان . . ؟) ، ومن هنا أيضا أصبح في خاطره طيفاً يمر دون أن يطيل الإقامة . إن المدة الطويلة التي استمرت فيها دولة العرب والمسلمين عزيزة اختصرت الآن إلى لحظة عابرة مرت في ذاكرة الشاعر فكانت نقطة ضياء لمعت في كم هائل من الظلام. كأنها جاءته وقت حاجته إليها ، لكن الواقع المضاد الذي يعيشه سرعان ما يحاصره ويدفعه إلى أن يفيق من أحلامه، وأن يرى ببصره حقيقة ما يحدث . لقد وقع الشاعر فريسة لهذا الصراع الذي كان يمزق داخله : واقع مؤلم يفرض نفسه عليه وهو له كاره ، وحلم جميل يتعلق به لكنه يتفلت منه ، ولا يستطيع - على حبه إياه - استبقاءه . لعل كلمة «تصرّما» في بيته السابق توحى بهذا الصراع الذي استوجبته حاجة الاستبقاء وضرورة الارتحال ، لذلك لم يكن ارتحال الحلم سهلاً على الحالم . ربما كان الأقرب أن يستخدم الشاعر كلمة (التصرم) التي على وزن المطاوعة (انفعل) ، لكنه فضل كلمة تصرّم التي على وزن «تفعّل»، وهو وزن يوحى بالتتابع والشدة التي قد يتطلب إتمام حدوث الفعل معها فترة من الوقت لاحتواء المشاعر المتأججة بين حبيبين أفسدت روعة وصالهما حتمية الفراق . إن كلمة « تصرّم » لم تعد في موضعها من البيت مجرد مفردة ذات دلالة لغوية محددة ، ولكنها أصبحت صورة يغذيها انفعال ، وحدثاً يحركه موقف[٩] . فتخلي الشاعر عن الخيال الجميل بعد أن أمتلكه لم يكن أمراً هيناً ، لذا تمسك به ما أسعفه الجهد والحظ ، وحين تفلت من قدرته تابعة بشوق وهو يتلاشى شيئاً فشيئاً .

---

(٨) يقول ابن الطقطقي في نفوذ الترك : « استولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه» أنظر كتابه «الفخري في الآداب السلطانية» ص ١٩٧

(٩) تغير العملية الشعرية الناجحة من طبائع الأشياء الداخلة فيها ، إذ تصبح الألفاظ والمعاني أحداثاً أو علاقات صورية . أنظر في ذلك كتابنا : الصورة الفنية في النقد الشعري ص ١٦٧ وما بعدها .

عندما غاب الخيال ، وصحا الشاعر من حلمه ، هدأت المشاعر وأخذ العقل مكانه منه ، فامتد في عالم من الإدراك تحول معه الشاعر الهائم إلى حكيم أو فيلسوف يربط حاله بحال الإنسان عامة ، متخطياً بذلك حواجز الزمان والمكان فجاءت رؤيته صائبة حول إحساسنا بالزمن في البيت الثاني . لقد ألغى معرفتنا العلمية المباشرة بالحدود الثابتة لأوقات الزمن ، ووجه أنظارنا إلى حساب جديد يتحول فيه الزمن إلى نقيض نفسه ، فاليوم الواحد قد يعد قصيراً حيناً وطويلاً حيناً آخر ، إنه الزمن التجريبي الذي تحدده ، طولاً أو قصراً حالاتنا النفسية فرحاً أو ترحاً ، حمداً أو ذماً[١٠] . فالساعات التي نعيشها بفرح لا نشعر بمرورها ، فهي سريعة لانفيق إلا على لحظاتها الأخيرة ، أما اللحظات التي يعصرنا فيها الألم ، فإننا نعد ثوانيها ظانين أن عبء الثانية أكبر من عبء يوم ، وأن عبء اليوم الواحد أكبر من عبء شهر أو سنة . هذه هي طبيعة النفس الإنسانية : عالمها لا يخضع للحسابات الدقيقة الموزونة بقدر ، لذلك لا يجوز أن نتعامل معها إلا بموازينها الخاصة ، وحساباتها الخاصة . لقد أدرك البحترى هذا كله لا من علم تعلمه ، وإنما من خبرة عاشها مع السعادة حيناً ، ومع الألم أحياناً . لعل كلمة «أرى» القلبية ـ كما يقول النحويون ـ جاءت في البيت كي توحى بهذه الخبرة العميقة التي علمته حدوداً من المعرفة الخاصة والعامة معاً حتى أصبح شاعراً لنفسه وللناس أجمعين . بيت البحتري هذا أوحى لنا بحكمة تصلح أن تقال في كل آن ، لكن صاحبه ـ مع ذلك ـ لم ينس أن يربط نفسه والموضوع الذي يشغله في هذه الحكمة من خلال الصياغة الدقيقة ، واختيار الكلمات المعبرة والمترابطة ، ففضلاً عن كلمة «أرى» السابقة لدينا ثلاث كلمات أخرى متشابكة العلاقة هي كلمة « أحمد » ، وكلمة « مذمم » ، وكلمة « الصبا » مرة أخرى .

أتت كلمة « أحمد » بديلة لكلمة أقرب منها إلى الذهن هي كلمة «أجمل» كما أتت كلمة «مذمم» بديلة لكلمة «أقبح»، وقد عدل الشاعر عن الأقرب إلى الأبعد لغاية مهمة هي إدخال العنصر البشري المتلقي للحدث ، المتأثر به جمالاً أو قبحاً ، فالحمد يأتي بعد تقبل الإنسان للأمر الجميل ، والذم يأتي بعد نفوره من الأمر القبيح . لقد سبق أبو تمام إلى مثل هذا حين قال :

نزلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديدة لا تكفر[١١]

فعدل عن كلمة جميلة إلى « حميدة » كي يجمع بين متعة الناس وجمال الصيف . فمتعة الناس

---

(١٠) يعرف هانز مرهوف الزمن في الأدب بقوله : « هو الزمن الإنساني . . هو خاص، شخصي ، ذاتي ، أو كما يقال : نفسي . وتعني هذه الألفاظ أننا نفكر بالزمن الذي نخبره بصورة حضورية مباشرة». وهو يفرق بينه وبين الزمن في علم الفيزياء الذي يراه عاماً وموضوعياً ، ويمكن تحديده بوساطة التركيب الموضوعي للعلاقة الزمنية في الطبيعة . أنظر كتابه : الزمن في الأدب ص ١٠ وما بعدها .

(١١) ديوان أبي تمام ، ج ٢ ص ١٩١ .

هي التي دفعتهم إلى الحمد .

أما كلمة « الصبا » في بيت البحترى فكانت تكراراً لمثيلتها في البيت الأول . والتكرار يوحى ـ عادة بأهمية المعنى المكرور ، وتأكيد رمزيته ، وهو يكسب الشعر ـ حين يستخدم بنجاح كما هو الحال هنا ـ نغمة إيقاعية خاصة لذاتها من جهة ، ورابطة تجمع بين نغمات صوتية أخرى من جهة أخرى . كأن عملها داخل البيت أو الأبيات شبيه بعمل القافية الموحّدة للنغمات المختلفة في القصيدة كلها . و«الصّبا » ـ فضلاً عن وظيفتها الموسيقية هذه ـ لها في موضعها وظيفة أخرى تخص المعنى ، فهي القاعدة التي تلتقى عليها الكلمتان السابقتان (أحمد / ومذمم) . فإذا كان الجمال حميداً في كل زمان فإنه في أيام الصبا أكثر حمداً ، وإذا كان القبح ذميًا في كل آن فإن الأحساس به زمن الصبا أشد ذماً . ويجب ألا تفوتنا فائدة هذه المقابلة الضدية التي عقدها الشاعر في بيته ، وإنما علينا أن نربطها بما كان يعانيه في عصره من محنة انهيار القيم الأخلاقية والنظام المرتبط بها ، مما ولد إحساسه ببطء الزمن وثقله وذمه (مذموم)، وكذلك تشوفه لتراثه المجيد الحميد (أحمد)، الذي مر في خاطره خيالاً سريعاً رغم طول أيامه . ويبدو أن ذلك التراث الخالد ـ رغم كل شيء ـ ظل يشكل لديه بارقة أمل قد تعود واقعاً معاشاً في يوم ما .

كأن نقطة الأمل هذه أصبحت مفتاحاً لموقفه من الحياة ، ومن هنا نفسر ورود كلمة « التّصابي » في البيت الثالث . لا يخفى أن المعنى اللغوى المباشر لهذه الكلمة ينصرف إلى محاولة استرجاع القدرة على صنع بهجة الحياة بتخطى سلوك المرحلة المتقدمة من العمر إلى سلوك من هم في مقتبله . لقد استفاد البحترى من هذا المعنى اللغوى ، ولكنه حوله إلى مجال الأمة أو الدولة ، فأصبحت كلمة « التّصابي» في سياقها تعني عنده تخطي الإحساس بمرحلة الانهيار التي تعيشها الأمة في زمنه إلى الإحساس بمراحل سابقة كانت الأمة فيها عزيزة شامخة . وإذا كان «التصابي» في معناه اللغوي المباشر يعد عيباً ، فإنه في معناه المجازى يصبح موقفاً إيجابياً يفتخر به صاحبه . من هنا تغير منطق الأشياء ، وأصبح مهيأً لاستقبال كلمات تدل على عكس معانيها المعجمية تماما . ومن هذه الكلمات كلمة «غَيّ» المصاحبة «للتصابى» في النص ، إذ لم يعد معناها : الميل نحو فعل ذميم ، وإنما أكسبها السياق معنى مضاداً فأصبحت تعنى في موضعها : الميل جهة فعل حميد هو عهد الأمة المجيد . لقد تحقق في نص البحترى هذا ، ما أكده الخطاب النقدي السديد من أن الكلمات داخل النص يرتد بها السياق إلى معان قد تنحرف عن معانيها الحرفية في المعجم .

كان الشاعر فرحاً بتصابيه المجازى هذا ، وكان فخوراً بغيه فيه ، بل اتخذه موقفاً حياتياً ثابتاً لا يحيد عنه . وحين يقف الإنسان مثل هذا الموقف الثابت في مجتمع يسير في خط معاكس

فإنـه يختـار التحـدى أسلوب حياة ، والتحدى طريق ملىء بالأشواك والنذر التي تحرك مشاعر الخائفين المشفقين على المتحدى ، لذا فهم يحاولون إثناءه رحمة به من عواصف عاتية قد تقتلعه .
إن هذا ما يوحى به الفعل الذي استهل الشاعر به بيته الثالث «تُلُوِّمْتُ» ، فبناء الفعل للمجهول من جهة ، واستخدام صيغة التضعيف «تفعّل» من جهة أخرى ، يدلان على كثرة اللائمين وشدة اللوم معـاً . ولا يكون ذلك إلا إذا كان الموقف موقفاً مبدئياً مصيرياً . والواضح أن مسؤولية الموقف المتخذ ـ كما شاء الشاعر أن يصورها ـ كانت جسيمة ومصيرية ، لأن إصراره ، في سياق البيت ، قد وضـع في أطـر تصـاعـديـة مختلفة . فإذا كان الفعل «تلومت» قد جعل اللائمين مجهولين ، فإنه أتبع بصيغة أعمق في الدلالة حين استخدم الشاعر عبارة «لو أن غَيّاً تلوما» . وهذا «الغيّ» ـ انطلاقاً من تفسيرنا السابق لغيّ التّصابي» ـ ينبغي أن يكون أحد «المتصابين» الذين وافقوا الشاعر وشاركوه موقفه . لكن المواقف الواحدة تختلف في درجة صلابتها ، فقد يكون موقف أحد الشريكين متهاوناً ، بينما يكون موقف شريكه الآخر متعنتاً . وقد يفرض الظرف على المتهاون المعتدل محاورة المتعنت كي يميل به نحو الاعتدال ، إشفاقا عليه مما قد تجلبه الأيام من متاعب .
وكـلام الشريـك ، الـذي لا يشـك في نواياه ، يكون عادة أكثر تأثيراً في النفس ، وأقدر على الإقناع ، لكن المواقف الثابته التي تصبح مبدءاً حياتياً لا تتحول بالمشاعر ، حتى لو كانت مشاعر الـرأفـة والرحمة بأصحابها . وهكذا كان موقف شاعرنا : تعلق بماضي أمته العريق ولم يرد أن يستبدل به غيره « ولم أرد بديلاً به» ، لأن البديل هو استمرار ارتباطه بفساد الواقع المؤلم الذي كان النـاس في زمنـه يعيشون أوصابه . كان مثل هذا الموقف العنيد بحاجة لأن يتحول إلى حركة وفعل ، وهذا ما توحي به الكلمتان المتضادتان : (تلاق / فراق) في البيت الرابع . وإذا ما ضممنا كلاً منهما إلى ما يلازمها من كلمات ، فإننا نصبح أمام صورتين تشكل كل منهما عالماً مثيراً .
من الذي التقاه الشاعر ، ومن الذي فارقه حتى غدت حاله في التلاقي والفراق تدعو إلى عذاب أليم يتحول معه البكاء من دمع إلى دم ؟!

١/ ب

الموقف المبدئي الذي وجدنا الشاعر يتخذه هو توحده مع حلمه أكثر من توحده مع واقعه ، بل إن ذلك التوحد بالحلم أثار في نفسه شعوراً بالغربة عن حاضره ، فالتوحّد تلاق/ والغربة فراق . لكن توحده ذلك كان مع عالم غير حاضر ومحبوب ، أما الفراق فكان انفصالاً عن عالمه القائم الذي يستوجب منه حباً . أليس في هذا ما يدعو للعجب ؟! بل أليس فيه ما يدعو للشجى والشجن ؟! . إن أسـاس المعاناة التي كانت تعتمل داخله هو حاجته للتوحد مع حاضره على

أساس أنه امتداد لماضيه التليد الحبيب ، لكن لما كان هذا الحاضر عاجزاً عن تحقيق ذلك المطلب الروحي أصبح الانفصال عنه ضرورة تحولت بعد ذلك إلى مبدأ فموقف . لقد اجتمع في نفس الشاعر إذن موقفان متنافران : لقاء من أحب ، وهو لقاء يتصعد فيه شعور الفرح إلى حد البكاء ، وفرق من يستوجب الحب وهو فراق أهون ما فيه البكاء . لعل مما زاد في حجم المأساة أن هذين الشعورين انتابا الشاعر في آن معاً ، فكأن حدوث أحدهما كان مدعاة لحدوث الآخر ؛ فموقف الألم المصاحب للفراق لم يترك للشاعر فرصة كافية كي يستغرق لحظات الفرح التي جاء بها اللقاء ، فأضاف للألم ألماً جديداً متراكماً . إنها لحظة بالغة الحزن كان الشاعر فيها القتيل والقاتل معا ، بل كان فيها شاهد القتل أيضاً كما توحي بذلك كلمة «شهدته» في البيت ، وأي ألم أشد على النفس من هذه الحالة التي يكون فيها الإنسان قاتلا وقتيلاً وشاهداً على القتل في لحظة واحدة ! وأي براعة شعرية أقدر من براعة هذا الشاعر الذي كون من كلمات معدودة صورة استطاعت بعلاقاتها المتشابكة ، أن تجسدهذه الحالة المثيرة ! . لقد حاول الشاعر حقاً أن يسخر كل طاقاته الشعرية للتعبير عن هذا الوضع الذي يكاد أن يكون مستحيلاً ، فاستخدم كل وسائل اللغة المتاحة كالتصوير ، والتضاد ، والإيقاع . ففضلاً عما يمكن أن يطلق عليه تجانس الحروف ، أو التناسب الموسيقى بين كلمتي «تلاق/ وفراق»، هناك ترديد الحروف في كلمة «نهنهتها». إن هذه الكلمة تثير في الذهن صورة سميعية عندما توجه انتباهنا إلى حالة البكاء المصحوب بالنشيج المخنوق وبخاصة بكاء الرجال الذين تفرض عليهم عزتهم كبت بكائهم ، وتغويره داخل صدورهم ، كأني بالشاعر أراد أن تكون النهنهة هذه ـ بترديد حرف الهاء ثلاث مرات مقطوعة بحرف النون ـ ترجيعاً لأصوات البكاء المكبوت المتقطع .

يبدو أن الشاعر استطاع بعزيمته أن يتجاوز هذا الألم ، وأن يرسم بخياله صورة هجرته عن ذلك المجتمع الذي لم يتوافق معه ، وأن يلتحق بمجتمع آخر وجد فيه ما يحقق طموحه وحلمه ، كما توحي بذلك مقدمة بيته الخامس : «لحقنا الفريق المستقل » . إن هذا انعطاف جديد في موقف الشاعر ؛ فقد كنا رأيناه فيما مضى يسجل انفصاله روحاً عن مجتمعه ، وهجرته خيالاً خارج محيطه ، لكنه الآن بدأ يتحول إلى هذا الانفصال جسداً ، وغدا يحدثنا عن هجرة عملية إلى مجتمع آخر . فالمبدأ الذي أتخذه منهج عقيدة في السابق أصبح الآن يتلمس له طريقاً أرضية للفعل والعمل ، ولهذا هاجر إلى حيث «الفريق المستقل» . ولكى نحاول أن نعايش موقف الشاعر هذا علينا أن نقف عند حدود أوصافه لهذا الفريق الذي هاجر إليه ، وأن نستشرف آفاق الأماني التي عقدها عليه . لقد حرص أن يصف هذا الفريق أو مجتمعه الجديد بأوصاف حميدة تتناقض ونقائص المجتمع الذي هاجر عنه أو التي فرضت عليه تلك الهجرة . قال : إنه «فريق»

وكأنه أراد أن يجعل وحدة الهدف ، أو غاية العمل المشترك سبباً مباشراً لتأليفه وتآلفه . وقال : إنه «مستقل» . والاستقلال ـ كما توحي أفكار البحتري في سياقاتها ـ يعني التحرر من عبودية ذلك المجتمع التائه . وكأنه أراد أن يوحي بأن تجربة «الفراق» التي مَر هو بها ، وعبر عن قسوتها على النفس هي تجربة عاناها كل فرد من أفراد الفريق فكانت الثمن الباهظ الذي دفعه مقابل استقلاله .

استقـلال رأي الإنسـان يريـه ـ عادة ـ مواقـع الخطأ والصواب ، وإرادته الحرة العاقلة المصاحبة لاستقلال رأيه توجهه صوب هذا الموقع أو ذاك . ولكي يبين الشاعر أن الجهة التي قادته إليهـا إرادتـه هي الصـواب ، قال واصفاً نبل غاية هذا الفريق : «وقد تيمم من قصد الحمى ماتيمما » . إن كلمة «قصد» في العبارة هي تشكيل آخر لكلمة «صدق» ، وهذا يوحي بأن وجهة هذا الفريق هي الخير والصدق . وكلمة «الحمى» هنا رمز للمجتمع الكبير أو الأمة . كأن الشاعر أراد القول بأن هذا الفريق استقل برأيه ، وانفصل عن مجتمعه الأكبر لهدف قاصد صادق هو العمل على تكوين قوة تكون قادرة في يوم ما على العودة لإنقاذ ذلك المجتمع مما هو فيه من تيه وضلال . ولما كانت العبارة السابقة تحمل غاية هجرة الشاعر ومقصد الفريق المستقل فقد صاغها بعناية فائقة كي يرسم بها أوفى صورة يمكن أن يوضع فيها صفاء تلك الغاية ونبل ذلك المقصد . فلو أخذنا الفعل المكرر «تيمم» لوجدنا أنه يعني ـ إضافة إلى ما يحويه من ظلال دينية ـ التوجه للغاية بالقلب والجوارح . وقد ورد في صيغة الماضي ليدل على أن هذا التوجه القلبي هو ما عرف عن الفريق ماضياً ، وهو مازال المعروف عنه حاضراً . كما جاء هذا الفعل الماضي مسبوقاً بـ «قد » لإفادة التحقق والتأكيد . أما «ما» المقترنة بالفعل فجاءت مطلقة من التحديد كي تعني استغراق ذلك التيمم القاصد بكل أشكاله ومعاييره ، أما «الواو » في بداية العبارة فجاءت خالية كي تربط تأكد الشاعر من ذلك التيمم القاصد باتخاذ موقفه الصعب بالانفصال عن مجتمع أهله وقوفه ، والانحياز إلى الفريق المستقل .

نقاء المقصد إذن هو الذي أخرج الشاعر من مجتمع أهله ، لذا لم يكن خروجه يستوجب تستراً وتعتيمًا . من هنا جاءت كلمة «ضحى» في البيت لتدل على أن التحاقه بالفريق المستقل كان جهاراً نهاراً ، فهي معادل حسي للمخزون النفسي النقي الذي كان يعمر لبه المتحرر المنطلق . بقي في البيت دلالة الضمير «نا» الذي أحدث ما يشبه أسلوب الالتفات . فقد كان الشاعر في البيت السابق يتحدث بضمير المتكلم «شهدته» ، ثم تحول في هذا البيت إلى ضمير المتكلمين «لحقنا» . لا أريد أن أتحدث عن أن المألوف أحياناً أن يعطي الإنسان نفسه قيمة كبرى باستخدامه ـ وهـو يتحـدث عن نفسـه ـ ضمـير الجـماعة بدلاً من ضمير الإفراد، فهذا هو الحل الأقرب

والأبسط ، لكنني أظن أن البحتري لم يستخدم ضمير المتكلمين هنا لهذه الغاية ، ولكنه قد يكون فعل ذلك لغاية أخرى هي أن هجرته لم تكن هجرة فرد ولكنها كانت أيضاً هجرة جماعة ، ذلك لأن الذين خاضوا تجربته في التغلب على الذات وهجروا المجتمع الأم إلى الفريق المستقل كانوا جماعات ، وما حديث البحتري عن تجربته الفردية إلا تصوير للرحلة النفسية الشاقة التي عاشها حتى تم له ذلك التحول . وهي أيضاً نموذج لكل تجربة مر بها الآخرون الذين شاركوه هذه الهجرة . ثم إن في كون هذه الهجرة هجرة جماعة لا فرد تشجيعاً للمترددين في اتخاذ مواقف شجاعة كغيرهم ممن رأوا الانقاذ فيها . . وهجرة الجماعة أكثر إقناعاً وتأثيراً من هجرة الفرد . هجرة البحتري الخيالية هذه تعيد إلى أذهاننا الهجرة الفعلية التي أتمها الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ هاجر ـ كما نعلم ـ بدينه وبالجماعة الذين اتبعوه من مكة بلده وموطن أهله وعشيرته إلى المدينة موطن الذين عاهدوا الله على نصرة الدين الجديد ونبيه . وليس غريباً أن يتذكر البحتري تلك الهجرة التي عاد بها الإسلام عزيزاً فدخل المسلمون مكة فاتحين منتصرين ، فهو يعيش ظرفاً تاريخيا شبيهاً ، بما فيه من فساد وجحود ، بذلك الظرف التاريخي الذي استوجبها . كما أن انعطاف حياة المسلمين إلى القوة والتمكين والعلو بعد الهجرة المحمدية خلّد صورتها في أذهان الشعراء المسلمين ، لذا لا تُستغرب استعادة البحتري تلك الصورة والاستعانة بعناصرها في رسم حدود هجرته وأبعادها في القصيدة .

سلامة الأمة أو إنقاذها من التردي كان الهدف الذي التقى عليه البحتري مع ذلك الفريق المستقل ، وقد رمز لهذه الأمة السالمة الآمنة في البيت السادس «بالغزال المنعم» . قد تكون المرأة المنعمة هي الايحاء الأقرب لصورة هذا الغزال ، وذلك لأن تشبيه المرأة بالغزال صورة مألوفة في الشعر العربي ، ولكن لما كان تأمين الأمان للمرأة هو غاية الرجل العربي الذي رهن حياته به في مواقف كثيرة ، فإن التقاء المرأة والأمة على رمز شعري واحد أمر يمكن تصوره أو تحقيقه . وربما كان المألوف في الشعر العربي هو أن تشبه المرأة بالغزال في جمال قده ، أو عنقه ، أو عينيه أو ما شابه ذلك من أوصاف مادية ، لكن ليس الشائع تشبيهها به في التنعم ، كما ورد في بيت البحتري . إن صفة التنعم هذه قد تساعدنا على تحويل الرمز إلى الأمة بدلاً من المرأة ، وعلى ربط موقف الشاعر المبدئي الذي اتخذه بعد صراع داخلي مرير بهذا الرمز . لقد أوحى هو نفسه بذلك حين جعل تحيته للفريق المستقل عند أول لقاء كلمة «انعموا» وهي من جنس الهدف الذي جمعه بهم والمتمثل بكلمة «المنعّما» الواردة صفة «للغزال» رمز الأمة كما اتفقنا . وصيغة تحيته «انعموا منا صباحاً» لها في موضعها من الأبيات دلالة . إنها تذكرنا بموقف مشابه وقفه شاعر جاهلي قبله هو زهير بن أبي سلمى حين قال بعد أن تعرف إلى دار أحبته المهدمة :

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم[١٢]

وزهير ـ كما قلت في تحليلي لقصيدته في مكان آخر[١٣] ، كان ينشد السلام للمكان الذي هدمه صراع الإخوة (عبس وذبيان) بعد أن انقسموا إلى عدوين يحاول كل منهما جاهداً إفناء الآخر . فالسلام كان غاية زهير كما هو هنا غاية البحتري . وتحية البحتري « انعموا منا صباحاً » تشعرنا أن قائلها كان ـ وهو يقولها ـ مملوءاً بفرح غامر ، وحق له أن يفرح ، فقد وجد ذاته أخيراً بعد أن توحد بهذا الفريق النابه ، وأنقذها من التيه الذي ترك مجتمعه يدور فيه فلا يجد منفذاً .

١/ حـ

وكان ـ إلى جانب فرحه ذاك ـ مملوءاً بنشاط متحفز إلى عمل جاد تحقيقاً للمبتغى الذي هاجر من أجله . وما كلمة «صباحاً» في عبارة التحية السابقة إلا إشعار بالأمل المشرق كالصباح ، المعقود على هذا النشاط وأمثاله . وحين يعمر الأمل قلب الإنسان يكون دافعه للعمل قوياً ، وقد كان الشاعر محفوزاً إلى العمل السريع وإلى حث الآخرين عليه ، ذلك لأن مجتمعه الذي تركه غارقاً في الظلمة كان بحاجة إلى إنقاذ سريع ، فالسوء فيه كما النار المسعورة التي تلتهم كل ما يصادفها ، وكل من يحاول أن يسد عليها الدرب . وإذا لم تجد هذه النار قوة سريعة تدفع شرها قبل أن ينتشر يصبح الإنقاذ بعد ذلك غير ممكن ، ولا ميسور . من هنا جاءت تحيته مقرونة بالمغزى من التحاقه بالفريق : «وإنما أردت بها قلت الغزال المنعما» . نعم ! هذا هو الهدف الذي يجمعه بهم ، فهم ليسوا ذوي قربى ، وهم ليسوا أصدقاء معشر ، وإنما هم إخوة مبدأ ، وفريق عمل وحدته بهم مسؤولية مشتركة ، وأخرجه وإياهم من ديارهم ، همّ واحد فلينجزوه إذن حتى يعودوا للأهل فاتحين ومكللين بالظفر والنور والسلام . لعل ماقاله في البيت السابع يوحي بدافع روحي قوي لمثل هذه العودة . لقد جاء هذا البيت على شكل حكمة تضع مقياساً إنسانيا عاماً للوفاء في الحب ، هو الاستعداد الذاتي لبذل أقصى درجات التضحية من أجل الالتقاء بالأحبة الذين أبعدهم عنك أو أبعدك عنهم النوى . لكن مجيء هذه الحكمة بعد الأبيات السابقة يجعل الشاعر ضمن دائرة الصدق لهذا المقياس ، فهو وحده من بين الناس جميعاً القادر على معرفة ذاته وما تحس به نحو من نأى عنهم ، وقد حكم ، انطلاقاً من تلك المعرفة ، على أنه «أمرؤ بات مغرماً» بهم ، لأنه «بات مطوياً على أرْيحيّة» ، فقد اعتدنا على مواجهة هذه الكلمة في مجال الكرم ، بل جاء تفسيرها في المعجم مقروناً به حيث قيل : «أخذته الأريحيه : ارتاح للندى»[١٤] . ولعل

---

(١٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٤ .

(١٣) الصورة الفنية في النقد الشعري ، ص ٢٤٤ وما بعدها .

(١٤) الزبيدي : تاج العروس ، مادة (روح) .

ورودها في مجال الحب هنا حافظ على ظاهر معناها ، لكنه حوّل نوع الندى من مجاله المادي إلى مجاله الروحي ، فغدت في موضعها من البيت تعني ارتياح الشاعر لبذل أقصى طاقة في العمل ، بل لبذل النفس إن اقتضى تحقيق أمله ذلك . وبهذا انتحى الشاعر بالكلمة إلى أبعد مستوى في البذل والفداء . ولكي يوازن بين الكلمات المتوائمة في البيت أحتاج إلى كلمة في الحب تدل على أقصى درجة فيه فكانت كلمة «مغرم» التي تعني «أسير الحب»[١٥] ، فمثل هذا الحب الآسر يلزم صاحبه مثل ذلك الفداء حقاً ، أو هكذا أراد الشاعر أن يقول . وإذا ما عدنا إلى ما عبر عنه في البيت الرابع من صراع نفسي حاد ، وهو يفارق أهله وأحبته ، أدركنا صدق اندفاعه وتفانيه في العمل من أجل عودة ذات قيمة له ولهم .

إن الشاعر لم يكتف بتلك الدقة في اختيار تلكما الكلمتين المتوائمتين فقط ، ولكنه قرن إلى ذلك دقة في اختيار الكلمات الأخرى المصاحبة لهما ، فكلمة «مطوياً» تشير في موضعها إلى أن ذلك المغرم خلا من أي تفكير آخر سوى إنجاز العمل الذي هاجر لإنجازه ، فقد طوى نفسه عليه وحده . وكلمة «عقب» التي وضعت بديلاً لكلمة «بعْد» الأقرب منها إلى الذهن توحي بأن اندفاعه إلى العمل تلا النوى مباشرة ، تأكيداً على وفائه لمن أحب . ومثل هذا الإيحاء لا تفي به كلمة «بعد» لأنها قد تدل على تراخي زمن النوى أكثر من قربه ، وفي ذلك إخلال بشروطه للوفاء . ولعل كلمة «بات» المكررة في العبارتين توحي بالظرف الأنسب لاختبار المشاعر ، وهو وقت المبيت حيث ينفرد الانسان فلا يجد من يناجيه سوى نفسه ، وفي مناجاة الإنسان لنفسه تبدو كل الخفايا والأسرار ، فتغدو صفحة واضحة الخطوط يقرؤها صاحبها دونما خوف أو وجل . هذا هو الاختبار الحقيقي لمكنونات القلب ، وهو المقياس الداخلي الذي لا يكذب صاحبه ولا يخدعه ، وكناّ قد وجدنا البحتري يسبر به غور نفسه ، ويصدر حكما خلاصته أنه امرؤ «بات مغرماً» لأنه بات مطوياً على أريحية» . ولعل ورود حالتي الغرام والأريحية متزامنتين ومتوازيتين في النفس أوجب اقترانهما بفعل واحد هو «بات» ليتكرر مع كل واحدة منهما . لكن هذا التكرار أفاد إلى جانب القيمة الموضوعية ـ قيمة موسيقية ، إذ توحدت به كل حالة على نقرة إيقاعية واحدة . واهتمام الشاعر بالإيقاع الموسيقي المعبر غير خاف في هذا البيت . لعل تكرار الشدات من ناحية وأحرف الاطلاق من ناحية ثانية يوحي بضغط الشعور وشدته في جانب من الذات ، وبمحاولة التفلّت من هذا الضغط بإطلاق النفس في جانب آخر منها . وقد يمتد هذا الايحاء إلى منطقة أبعد في المعنى تجعل منه تصويراً للجهد الشاق الذي كلف الشاعر به نفسه وحث فريقه عليه (دلالة الشدات) من أجل تحقيق ذلك الحلم الذي ستنطلق معه آماله (دلالة أحرف الإطلاق) ؛ فالشدة في العمل مقدمة النجاح الموعود . ألا يمكن أن يكون مثل هذا المعنى الخفي وراء الدقة العجيبة لصياغة الشاعر فعلاً ؟!

كان الشعور الذي سيطر على الشاعر بعد الهجرة هو نشوة الانتصار على الذات ، وتغليب الإرادة على التخـاذل . والإنسان في مثل هذا الشعور يراجع مواقفه السابقة ليقارن بين حالة ضعفه وحالة اقتداره ، نادماً على الأولى ، مغتبطاً بالثانية . لقد وقف الشاعر مثل هذه الوقفة مع الذات في نهاية هذا المقطع ، فبعد أن اجتمع له قدر كبير من الاعتزاز بمضاء عزيمته بعد الهجرة راح يحاسب نفسه على غفلتها وتفريطها بحقه في موقفين سابقين : الأول حين تركت أمرها بيد غيرها يسيرها كيف شاء (البيت الثامن) . والثاني : حين عصت من جاءوا ناصحين لها محذرين إياها من سوء ما تفعل (البيت التاسع) . هذا إيجاز نثري لموقف المراجعة ، لكنه لا يبرز العبقرية الفذة التي تمثلت بصياغة البيتين والعلاقة الفنية التي أحدثها ازدواج الكلمات والصور داخلهما . لندقق في العلاقة بين كلمتي : غنيت / والغواني في البيت الثامن ، فهما كلمتان تتجانسان في ترديد بعض أحرفهما ، لكنهما، في الدلالة ، يوحيان بسلوكين متغايرين متباينين لشخصيتين مختلفتين : أولاهما شخصية الشاعر زمن التيه ، وقد بدت غافلة عما يجرى حولها ، معتمدة على غيرها في تصريف أمورها (غنيت) . وثانيتهما شخصية الغواني التي أحكمت بيدها زمام الأمور ، ومنحت نفسهـا حريـة التصرف ، مستغلة غفلة الأولى واستسـلامهـا لتقودها إلى حيث تهوى وترغب (يقدنني) . فإليها بات اختيار الزمان والمكان واتجاه المسار . وحين تترك القيادة في أيدي الغواني لا نتوقع أن يكون المسار صالحاً أو خالياً من المزالق والعثرات . ألا يوحي لنا هذا بما كان يجرى واقعاً في المجتمع العباسي : فئة غوتها القوة التي وضعت في أيديها فتحكمت في البلاد والعباد ، وقادتها معاً إلى الضياع . لقد التقت شخصية الغواني مع هذه الفئة على أساس القيادة الطائشة ، وهي الهـوى ، والبعد عن التعقل ، ومراعاة المصلحة الفردية الغريزية وإعلاؤها على مصالح الآخـرين . كما التقت شخصيـة الشاعر الغافلة مع المجتمع المغلوب على أمره بعد أن سلبت إرادته ، وفقئت عيناه وغدا أعمى عن رؤية ما يقترف من آثام بحقه ، مع أن الجناة كانوا فئة منه وأقرب ما يكونون إليه . لعل الشاعر أراد أن يوحي بهذا القرب القريب من خلال كلمة «جنيباً» ، فقد أوردها بوزن «فعيل» كي تعني المبالغة في القرب . والإنسان ـ عادة ـ يرى ما يدور حول وبخاصة حين يكون هذا الذي يدور قريباً منه وبجانبه ، لكن الغفلة ، والاستسلام ، والثقة الحمقاء يمكن أن تحجب عنه الرؤية ، حتى رؤية أقرب الأشياء إليه . ولكي يزيد الشاعر من سوء الغفلة جعلها تمتد عبر زمن أطول من المحتمل ، كما في عبارته « إلى أن مضى شرخ الشباب وبعـدمـا » . فإذا قارنـا بين عبـارة «شرخ الشباب» وعبارة «وبعدما . . . » لمسنا إيحاء مهمًا . فالإنسان قد تقوده رغباته في مرحلة الشباب إلى أن يتجاهل صوت العقل ، ويغفل عن خطايا وبخاصة إذا كان في إصغائه لصوت العقل قطع للذاته ومتعه ، لكنه لا يُعذر أبداً حين يظل ساد

في غيه بعد هذه المرحلة . من هنا كان تأنيب الشاعر لنفسه مخجلاً ، ومن هنا أيضاً غدت غفلة المجتمع عما فيه من مظالم ومآسٍ كل هذه المدة الطويلة ـ كما توحي بها الصورة ـ مؤلمة ومهلكة ، ولهذا أصبح خروج الفريق المستقل مسوّغاً ، ومقنعاً ، بل لازماً .

إن لوم الذات يعني لستعادة مهلسل الأخطاء ، والاعتراف بها عسى أن يكون في ذلك محو لآثارها النفسية القاسية التي تلاحق الإنسان كل لحظة . لأجل هذا استمر الشاعر في كشف أسراره حين كان غافلاً مسلوبَ الإرادة . لقد احتاج إلى أن يعيد للأذهان الجدل الأزلي بين العاشقين والعاذلة ، وهو الجدل الذي قد يفسر تفسيرين متضادين : فالعاشق الغارق في ملذاته أو هواه يرى من العاذلة الجانب السلبي فيفسر سلوكها بالغيرة أو الحسد أو غيرهما من صفات مشؤومة . لكن غيره قد يرى منها الجانب الإيجابي ويعد عذلها صوت العقل الذي يوجه الانتباه إلى ما يجب أو إلى ما لا يجوز . والشاعر في استعراضه أخطاء ماضيه تعامل مع العاذلة في زمنين مختلفين فوقف منها الموقفين السابقين : السلبي زمن غفلته ، والإيجابي زمن صحوته ، لهذا رأيناه بعد الصحوة يعترف بخطئه ، ويلوم نفسه لأنه عصا من كان يعذله عاداً ذلك العذل نصحاً أميناً « وقدماً عصيت العاذلات » . إنه لم يعص العاذلات فقط ، ولكنه أيضاً لم يطع شيبه الذي تمثل له في يوم من الأيام إنساناً طلع عليه يلومه وينير له سبل الرشد والصواب . قد يبدو للقاريء المتعجل أن عدم طاعته للشيب تكرار لعصيان العاذلات على أساس أن عبارة «لم أطع» تشير عنده إلى معنى كلمة «عصيت» . لكن التدقيق في المعنى هنا وهناك قد يثير فرقاً جوهرياً يمنع التكرار . فالعاذلات تمثل صوت الآخرين الذين قد لا يتحقق الإنسان تماماً من نواياهم أو مقاصدهم . أما الشيب فيمثل صوت الذات الذي لا يمارى ، ولا يكون ، قطعاً ، موضع شك من صاحبه ، ولربما أعطى الشاعر العاذلات فعل العصيان ، بينما أعطى الشيب عدم الطاعة لغاية نفسية لها علاقة بهذا التفسير ، فالطاعة قد تنصرف إلى خضوع مستحب لأهل القرابة القريبة منك كالأبوين ومن هم في منزلة قريبة منهما ، وعدم الطاعة يصبح هنا تمرداً معيباً ، ولما كان الشيب في البيت يمثل صوت الذات فإنه أدرج في المنزلة القريبة هذه . أما العصيان فقد ينصرف إلى الخروج على نصائح الآخرين ونواهيهم ، وهو أمر قد يكون خطأ ، لكنه قد لا يكون معيباً دائمًا ، ولما كانت العاذلة تمثل صوت الآخرين فقد أدرجت في هذه المنزلة .

بقي أن الشاعر لم يتحدث هنا عن الشيب عامة ، ولكنه خص « طوالع هذا الشيب» ، فهل كان يهدف من ذلك إلى أمر ما ؟

إننا لو راجعنا أقواله في الأبيات السابقة لوجدنا أنه لم يكن من أوائل الخارجين على غفلة المجتمع ، وإنما لحق بمن خرجوا عليها (الفريق المستقل) ، بعد أن أمضى فترة كان فيها غافلاً مع الغافلين . ألا يمكن أن يكون الشاعر قد رمز بطوالع شيبه إلى طوالع هذا الفريق المستقل ؟ إذا كان هذا الاستنباط ممكناً ـ وأظنه كذلك ـ فإن شعوره الآن بعد صحوته نحو هذا الفريق هو شعور الإنسان نحو أهله وأحبته ، كما أنه أصبح يعد عدم طاعته لمن جاءه منهم ناصحاً ، أمراً معيباً يقرّع نفسه عليه ، ولعل الايقاع الصادر من ترديد حرفي (الطاء / العين) في كلمتي (أطع / وطوالع) في البيت يوحي بأن الشاعر أصبح بعد توحده بالفريق ، وخبرته لمقاصدهم النبيلة ، يشعر بأن الطاعة كانت تليق بطوالعه حقاً ، فهم الفئة النابهة الحكيمة (الشيب يصلح رمزاً للحكمة) التي أحست بالخطر قبل استفحاله .

٢/أ

أما المقطع الثاني ـ وهو مقطع تكوين القوة وتمكينها في النفوس ـ فيرتبط ارتباطاً عضوياً بما كان يدور في المقطع الأول من معان ، ويؤلف معه شبكة من العلاقات متلاحمة الخطوط متماسكة الأطراف . إن الفريق المستقل الذي تألف وتآلف في المقطع الأول لم يهاجر كي يظل خارج حدود مجتمعه الذي هاجر عنه ، وإنما كانت هجرته مرهونة بالمدة التي يحتاجها لينظم نفسه ويقوي ذاته كي يعود فاتحاً عهداً جديداً يصلح فيه ما أفسده المفسدون في ذلك المجتمع . هكذا تخيل الشاعر غاية الهجرة ومهمة ذلك الفريق ، وهو ـ هنا ـ يتابع رسم خطتها الخيالية فيحدثنا عن الوسائل التي يراها ناجعة لتكوين القوة القادرة على إنجاز ذلك الفتح الموعود . إن أول ما يلفت الأنظار إليه شرط توافر القيادة القادرة على حمل هذه المسؤولية الكبيرة . لأن أفراد الفريق ، الذين كان قد صور معاناة هجرتهم من أجل غاية نبيلة أصبحوا الآن بحاجة إلى من ينظمهم ويسوسهم ويقود جهودهم كي يحقق وإياهم تلك الغاية . لقد كانوا بحاجة إلى رجل تجتمع فيه صفات القيادة والبطولة التي تؤهله لأن تلتقي عليه كلمة الفريق ، وتتوحد قوته بقوتهم . من أجل هذا أدار البحتري هذا المقطع على صفات القائد العربي «هيثم الغنوى» فرسم لشخصيته صفات مثالية أبرزته قائداً نموذجياً لا يبارى في قيادته . لا نعرف ـ تاريخيا ـ عن الهيثم سوى أنه كان قائداً عربياً من أهل الجزيرة اشترك في حرب بابك الخرمي[١٦] ، وأن الحياة امتدت به حتى زمن

---

(١٥) المصدر السابق ، مادة (غرم) .

(١٦) ذكره الطبري في حوادث سنة ٢٢٠ هـ وقال : «إنه من أهل الجزيرة ، اشترك في حرب بابك الخرمي حيث أنزل الأفشين في رستاق يقال له «أرشق» ، فرم حصنه وحفر حوله خندقاً » أنظر كتابه : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ٣٠٨ ـ ٣١٠ .

البحتري ، فمدحه بهذه القصيدة ، وبقصيدة أخرى بعد عودته من الحج عام خمسة وخمسين ومئتين للهجرة ومطلعها[١٧] :

هذي المعاهد من «سعاد» فسلّم واسأل ، وإن وجمت فلم تتكلّمّ

وفيها أبيات توحي بمعان لا تبتعد كثيراً عن بعض المعاني التي وجدناها في المقطع الأول من هذه القصيدة ، يقول :

وبمسقط العلَمينْ ناعمة الصّبا حيرى الشباب تبين إن لم تصرم
بيضاء تكتمها الفجاج وخلفها نَفَس يصعّده هوى لم يكتم
هل ركْبُ مكة حاملون تحية تهدى إليها من مُعَنّى مغرم

فناعمة الصّبا ، إن لم تكن رمزاً لذكرى الرسول عليه السلام ، فهي رمز لرسالته الخالدة التي تتمتع بشباب متجدد لا يبلى ، وهي ـ وإن نأت مكاناً أو زماناً ـ حريصة على ألا تقطع مودة من تحب ، لأنها نقية صافية (بيضاء) . وقد تمنع الحواجز والعقبات (الفجاج) صوتها (تكتمها) عن مسامع أولئك المحبين ، لكن أنفاسها تتصعد حاملة لهم هوى لا تستطيع تلك الحواجز كتمانه . ولما كان الشاعر واحدا من هؤلاء المحبين الذين قد وصلتهم أنفاس حبها ، فإنه يحمل الحجيج (ركب مكة) وصف حاله : فهو «مُعَنّى» ، وهو «مغرم » . وقد يكون لهاتين الكلمتين في موضعهما من النص دلالة عميقة توحي بالفجوة الواسعة البعيدة ما بين واقعه المعذب «مُعَنّى» وحلمه المحبب «مغرم» . وقد رأينا فيما حللنا من أبيات أن تلك الفجوة الواسعة هي التي ألفت خيوط تجربته فيها .

ما يهمنا من هذا كله أن ندرك أن هيثمًا قائد ينتمي ، واقعاً وروحاً ، إلى ذلك التراث العظيم الذي وقفنا على شدة تشوق الشاعر إلى أمجاده الخالدة ، ولعل هذا هو الذي جعل منه ـ في خيال البحتري ـ قائداً نموذجاً يحقق طموح الفريق المستقل في القيادة المنشودة .

لعل أولى الملاحظات على اهتمام البحتري بهذا القائد هنا هي بناء روي القصيدة على حرف «الميم» الذي ينتهي به اسم «هيثم» ، لكن إعجاب الشاعر بصفاته تعدى كثيراً هذا الاهتمام الذي قد يبدو شكلياً . في ذهن الشاعر صفات للقائد النموذج القادر على إنجاز الهدف الصعب الذي ارتهن به مصير الأمة . وقد جعل كل صفة من هذه الصفات تأخذ وضع البطولة عند هيثم . لقد وضع الخير الذي ينفع الناس في يده دون غيره ، يوزعه بالعدل والمساواة ، وذلك من خلال صورة الغيث التي رسمها في البيتين العاشر والحادي عشر ، وقارن بين نفع أمطاره ، وفائدة أفعال هيثم

(١٧) ديوان البحتري ، ج ٤ ص ٢٠٨٠ .

للناس ، ملبسا هذه الأفعال ثوب الكمال الذي لا يجاريه فضل ذلك الغيث . ولكي يصل إلى أبعاد غايات هذا المعنى استغل طاقة اللغة ، وصاغ عباراته بدقة ، مستخدماً أسلوبي التصوير والحوار : تخيل الغمام رجلاً يحاول بلوغ أفضل السبل إلى نفع الناس ، فأنزل نفسه منه بمنزلة الناصح له ، فكانت نصيحته هي أن مقياس الكمال في ذلك النفع المرغوب هو عمل «هيثم» ، فحين تماثل «تضارع» أفعالك في الخير أفعاله تكون قد بلغت «غاية» تشتهر «تبين» بها عند الناس . والغمام الذي يحاوره الشاعر ليس أي غمام . إنه ذو مطر فريد أعطاه صفات كثيرة كي يبرز تفرده ، فهو غزير جداً «ثجاج الغمام» تحرك منذ الصباح الباكر «سرى» وهو ممتلىء خيراً كثيراً «بمحتفل الشؤبون» ، وقد جاء لوقته فأصاب هدفه «صاب» وكان عاماً على كل الأنحاء «فعمما» وعادلاً في توزيع حمولته يعطي كل ناحية قدراً قليلاً أو كثيراً حسبما تحتاج أو ترغب «أقل وأكثر» ، ومع ذلك يظل فعله ـ كما أراد له الشاعر ـ أقل من مستوى فعل هيثم نفعاً ، فهو بحاجة إلى خير أكثر وجهد أكبر حتى يصل إلى ذلك المستوى المتطاول . هيثم إذن هو منمي الخير ومكثره . وتكثير الخير فضيلة كانت الأمة بحاجة إليها في ذلك الوقت العقيم .

بث الخير في الأرض إذن كانت الصفة المثالية الأولى التي أضفاها الشاعر على هيثم ، لكن هذه الصفة يكتمل جمالها حين تظل بعيدة عن يد الشر التي تريدها للهلاك ، وهذا ما تنبه له البحتري حين جعل عداوة هيثم للشر تتساوى وحبه للخير . فإذا كانت وظيفته الأولى إحياء الخير في الناس ، فإن وظيفته الثانية كانت تدمير الشر قبل أن يستفحل أذاه فيهم ، لذلك شبه في الأبيات بالموت «هو الموت» . ولما كان الموت لا يقاوم ، فإن حق من شبه به ألا يقاوم أيضاً ، لهذا جاء تحذير الشاعر لمن يحاول اعتراض طريقه وهو يؤدي مهمته «ويل منه ، لا تلق حده » ، فمن يحاول ذلك إنما يحاول مستحيلاً ، ويكون كمن يستعجل منيته «فموتك أن تلقاه في النقع معلما» . وقطع دابر الشر بداية طريق الإصلاح في ذلك المجتمع المتهاوي . كان ذلك المجتمع الغافل بحاجة إلى رجل يستطيع أن يدخل إليه النور كي يتبين درب النجاة . ولما كانت إحدى صفات هيثم المجربة هي القدرة على تغيير الأمور للأجمل والأفضل فإنه غدا ذلك القائد المرتجى . لقد أوحى الشاعر بهذا في صورة «الأفق» الذي كان «مظلما» فأصبح بأفعاله «مضيئاً» ، وما كلمة «الأفق» هنا إلا رمز للمجتمع الذي كان غارقاً في بحر من قتامة الظلم ينتظر من يقتحم جوه بإشراقات من العدل تنير جوانبه . لقد أصاب الشاعر هدفه بصورة أخرى هي صورة «الليالي» التي ألبسها هذا «الفتى» «محاسناً» . وقد أورد الشاعر فعل الإلباس ماضياً للإيحاء بقدرة هيثم على تكرار الفعل نفسه بنجاح في مهمته الجديدة . فالذي أنجز مهمات ناجحة وغير القبح إلى جمال بعد تجريبه وسائل ناجعة ، يستطيع بها أن ينجح في إنجاز مهمات مماثلة . وحين احتاج أن يعبر

عن تعدد تجارب هيثم هذه بتفصيل أكثر قال في بيت آخر : إنه «معانى حروب» . فالمعاناة تعني استمرار حمل المسؤولية بثبات واقتدار ، وهي ـ بالنسبة لهيثم ـ لم تكن معاناة واحدة وإنما معاناة متكررة مع كل حرب من الحروب الكثيرة التي خاضها ، لذلك أتى الشاعر بالحرب مجموعة لا مفردة . والموقف النفسي يستدعي مثل هذه التجربة القاسية الأمينة المتكررة ، لأن مسؤولية الحرب القادمة تتجاوز إنقاذ أفراد إلى إنقاذ أمة .

إن إحساس الشاعر بخطر هذه المسؤولية دفعه لأن يباعد بين القائد والخطأ الذي قد تقع فيه شجاعة غر مندفع ، وهو الاحساس الذي ألهمه معادلة عزم رأى هيثم بعدما قوّمته التجربة بالرمح (الخطي» المقوّم بعد اعوجاج . فهذه الصورة المتقنة فنياً تؤكد أهمية التجارب في تأهيل القائد ، فهي التي تؤمن النجاح في تحقيق الهدف «ولن يصدق الخطى حتى يقوما» . ولعل تكراره للفعل «قوّم» في البيت يؤكد هذه الحقيقة . من المهم هنا الالتفات إلى عبارة «قوّمت عزم رأيه» . فهو لم يقف عند تقويم االرأي بل أضاف إليه العزم أيضاً . فالقائد لا يغنيه الرأي االصائب فقط ، فأصحاب مثل هذا الرأي كثيرون ، لكنهم ليسوا جميعاً قادرين على تنفيذ آرائهم ، فالقادر على ذلك هو من امتلك عزيمة ماضية ، بالإضافة إلى رأي راشد «قويم» . إنهما معاً أساس الفلاح ، ولا يغنى أحدهما عن الآخر في مثل هذا الأمر الصعب الذي يتطلب إدارة الفرص بحكمة وقدرة . وهاتان خصلتان حرص الشاعر أن يوجدهما في هيثم على أكمل ميزة ، إنه جعلهما نابعين من معاناة هذا القائد لمسؤوليات سابقة ناجحة . ولعل في تقديمه العزيمة على الرأي في صورته الشعرية «قومت عزم رأيه» دليلاً على أهمية العزيمة للغاية العظمى التي يسعى هيثم ومن معه لإنجازها ، فعلى «قدر أهل العزم تأتي العزائم» . والنتيجة أن معاناة هذا القائد في تجاربه المتكررة مع الحروب أهلته لأن يكون رجل المهمات الصعبة ، لذلك كانت معاناة فاعلة ونافعة وتبشر بنجاح كبير.

إن تكثير الخير وقتل الشر ، ونزعة التغيير للأجمل والأفضل ، وتقويم عزم الرأي بالتجارب المنتجة ، صفات كلها ذاتية داخلية أهلت هيثًا لقيادة ذلك الفريق ، وإعادة «صبا» الأمة من جديد . وهذه الصفات الذاتية الخاصة تلتقي على قاعدة أخلاقية واحدة هي الروح السمحة والحازمة في آن واحد . فالروح بهاتين الصفتين تكون قادرة على حفظ توازن القائد أو استقامة الذات ، كما تكون قادرة على حفظ توازن الجماعة التي يقودها أو انتظام المجتمع . وإذا كان الشاعر قد أكد استقامة الذات لدى هيثم في الأبيات السابقة من مقطع التكوين فإنه سيركز في أبيات لاحقة من المقطع على صفاته التي أدت إلى انتظام المجتمع وحققت له تكويناً مثالياً .

٢/ب

إن توحيد القوى المختلفة وبخاصة المتصارعة منها على وحدة المبدأ جعله البحتري الإنجاز الأكبر الذي أتمه هذا القائد الملهم . ف «نزار ويعرب» ـ وهما جذر العرب المتنازعان ـ غالباً ـ تصالحا عليه واستبدلا بالفرقة وحدة وتماسكاً . وقد كان البحتري واعياً حين جعل توحيد هاتين القوتين الخطوة الأولى التي خطاها هذا القائد على طريق المهمة الجليلة التي أقدم على إتمامها . إنه بذلك ربط بين خطة هيثم لإعادة بناء الأمة ، والخطة المثلى التي انتهجها نبي الأمة محمد عليه السلام فحقق بها عملياً مجتمعاً موحداً بعد طول شتات وفرقه وتناحر . وقد رأينا البحتري من قبل يربط أسباب صلاح الحاضر بأسباب صلاح الماضي حين التفت وهو يصور هجرته والفريق المستقل إلى هجرة الرسول الكريم وأصحابه . فالماضي بقيمه ومجده وعزته كان ـ كما لاحظنا ـ حلم الشاعر الذي يطوف حوله خياله ، وترتد إليه مشاعره . ولما كان توحد العرب على مبدأ روحي هو السبيل إلى إحرازهم كل الانتصارات التي شكلت مجد الأمة ، فقد جعله الشاعر هدف هيثم الذي تصدى له . ويبدو أن مبدأ العصبية وضرورتها في الحكم ، كما بلوره ابن خلدون في زمن تال ، كان هاجساً يراود البحتري في قصيدته هذه . وسأقتطف بعضاً من أقوال العلامة ابن خلدون في العصبية لنرى كيف تتطابق أفكاره مع رؤية الشاعر . قال في مقدمته الشهيرة « . . . إن العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يُجتمع عليه . . وقدمنا أن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلابد أن يكون متغلباً عليهم بتلك العصبية وإلا لم تتم قدرته على ذلك»[١٨] . وقال أيضا : « . . . ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة ، فلابد من عصبية تكون أقوى من جميعها ، تغلبها وتستتبعها ، وتلتحم جميع العصبيات فيها ، وتصير كأنها عصبية واحدة كبيرة ، وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع»[١٩] .

يبدو أن البحتري كان يراوده بعض من هذه الأفكار في العصبية وهو يسترجع في ذاكرته أسباب ارتقاء الأمة ونجاحاتها لذلك اهتم قبل كل شيء بوحدة العرب «نزار ويعرب» على أساس أن العرب هم المؤهلون لهذه المهمة الآن ، كما كانوا المؤهلين لها بالأمس . ولعله في هذا يوحي بتنبه بعض من الناس في عصره ، ومنهم الخليفة المتوكل ، إلى خطر وضع القوة في يد غير

---

(١٨) تاريخ ابن خلدون (المقدمة) ج ١ ص ٢٤٤ .

(١٩) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

العرب ، وعزمهم على تجميع القوى العربية من جديد حتى يدرأوا انهياراً محتملاً على يد الترك[٢٠] .

والبحتري ـ وهو العربي صليبة ـ لا يمكنه ـ بعد أن رأى ما فعله الترك بالمتوكل ـ إلا أن ينتصر لقومه ، ويرى في إبعادهم عن قيادة الجيش ، خلو الساحة لقوم آخرين مشكوك في أهدافهم ونواياهم ووسائلهم .

ومثل هذا الشعور لا يتعارض مع نزعته الإنسانية التي تجلت في سينيته الشهيرة . قال بعد أن سجل إعجابه بإيوان كسرى وحضارة الفرس[٢١] :

ذاك عندي وليست الدار داري ... باقتراب منها ولا الجنس جنسي

وأراني من بعدُ أكلف بالأشـ ... ـراف طراً من كل سنخ وأس

فالشاعر ينتصر للروح العالية التي شيدت حضارات ظلت باقية تذكرها الأجيال على الأزمان وفي كل أرض ومكان ، وينفر بل يعادي كل وضع مادي نفعي قد يقود ، بوضاعة غايته ، إلى تدمير حضارات عظيمة قائمة . كان هذا وراء انتصاره للعرب بعد أن حملوا شعلة الإسلام وشيدوا حضارته ، ولآل ساسان الذين بنوا في الماضي حضارة عريقة مجيدة . وحين التفت إلى الترك في عصره ووجد أنهم يوجهون القوة التي تجمعت في أيديهم لمنافع مادية ذاتية لا تقيم حضارة ، ولا تبنى ملكاً ، عاداهم في داخله ، ورسم في خياله منهاجاً للخروج عليهم كما أوحت بذلك أبيات هذه القصيدة التي نُشغل باستجلاء أبعادها . فالترك ـ كما قال الجاحظ : «أصحاب عمد ، وسكان فياف ، وأرباب مواش ، وهم أعراب العجم . . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ، ولاغرس ، ولابنيان ، ولاشق أنهار ، ولاجباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة ، والصيد ، وركوب الخيل وطلب الغنائم وتدويخ البلدان»[٢٢] .

إن من هم على هذا النحو لا يشيدون حضارة ، ولا يعلون في الأرض قيمة . لعل وصف الجاحظ للترك بأنهم «أعراب العجم» ينبهنا إلى مغزى مقارنة البحتري إيوان كسرى بأطلال سعدى في قوله :

---

(٢٠) يعلق الدكتور شوقي ضيف على محاولات المتوكل التخلص من الترك ، كعزمه نقل دواوين الخلافة إلى دمشق ، وضمه اثنى عشر ألفاً من العرب إلى وزيره الفتح بن خاقان قائلا : «وكأنه يريد أن يعيد العرب إلى الجيش وقيادته» . العصر العباسي الثاني ص ظ ١ .

(٢١) أنظر القصيدة في ديوان البحتري ج ٢ ص ١١٥٢ .

(٢٢) رسائل الجاحظ ، ج ١ ص ٧٠ وما بعدها .

حلل لم تكن كأطلال سعدى في قفار من البسابس ملس
ومساع لولا المحاباة مني لم تطقها مسعاة «عنس» و«عبس»

كأن البحتري كان ضد روح التوحش أينما حلت ، فإذا كان جنسه لم يمنعه من أن ينكر هذه الروح لدى أعراب الجاهليين كعنس وعبس ، فإن إنكارها لدى غيرهم كالترك ـ أعراب العجم ـ أحق وأولى . فالقوة التي لا تؤسس على قاعدة أخلاقية سامية هي قوة هدم لا قوة بناء . هكذا نظر إلى قوة الترك الغاشمة التي تتحكم في مصير الأمة في زمنه لذا رآها خطراً داهماً ، وقد استدعى ذلك منه أن يستنهض قوة عربية إسلامية قادرة على إزالة ذلك الخطر وقهر أهله ، فكان هيثم طليعة تلك القوة التي تفاءل بها ، كما كان إجماع كل القوى العربية «نزار ويعرب» ، عليه ، وتوحدهم به خطوة كبيرة على الطريق السليم المؤدى إلى تكوين قوة ذات مبدأ وأخلاق تكون البديل للقوة الغاشمة . لقد أوحى بذلك في البيت الخامس عشر ، بل أوحى فيه بأكثر من ذلك . إن دعوات نزار ويعرب المتكررة «أن يعيش الدهر فيهم ويسلما» لتدل على ثقتهما المطلقة بعدله في قيادته ، وتخوفهما من أن يخلفه آخر لا يعدله في أخلاقه فتضيع الفرصة التي أتت على يديه ، ويعود الأمر فوضى وقهراً من جديد . ومثلما أمتلك هيثم عقول الناس بجهده وجهاده من أجل توحيد قواهم على الخير وللخير ، أمتلك قلوبهم بتواضعه ومساواة نفسه بهم على ما فيه من خصاصة . فهو ككل العظماء ، لا يحب الترفع أو التعظيم . والبحتري في عبارته : «وكل عظيم لا يحب التعظما» يناقش حقيقة العظمة الأصيلة ، والعظمة الزائفة ؛ فالأولى تتشبث بالجوهر المتمثل في السلوك السوى للإنسان ، وهو السلوك الذي يرى الناس متساوين في الكرامة ، وإن اختلفوا في المواطن والمراتب والطبقات . وصاحب هذه العظمة إن حكم ساوى بين المحكومين وبنى بهم ولهم مجداً مؤثلا . أما الثانية فتنتسب نفسها بالترفع ، والتطاول على الآخرين ، وامتهان كراماتهم لتأكيد تميزها الموهوم . وصاحب هذه العظمة المصطنعة إن حكم تجبر وقاد محكوميه إلى الفشل والانهيار . ولما كان هيثم ممثلاً للعظمة الأصيلة ـ كما أبرزته صور البحتري ـ تعلقت به آمال الناس في الإنقاذ من تلك القوة المتغطرسة التي تذلهم .

وهيثم ـ كما صوره البحتري أيضاً ـ كان عادلا بين رعيته ، وقد تمثل عدله في جمعه خصوصية النسب إلى عمومية النفع . وهذا يعني أن القيم المتوازنة في نفسه تدفعه إلى أن يكون نفعه للجميع بحيث يغدو «لكل قبيل شعبة من نواله» مع أنه ـ في الانتماء القبيلي ـ «يختصه منهم قبيل» واحد لا غير . ونفعه أيضا ليس في مكان دون آخر ، وإنما عم كل الأماكن حتى أوصله إلى أقاصيها «تقصاهم بالجود» . مما كان له وقع طيب في نفوس متلقيه «حتى لأقسموا بأن نداه كان والبحر توأما» . لعل هذا القسم ، وتوأمة نداه والبحر ـ كما أوردها الشاعر على ألسنتهم ، يوحيان باستغرابهم هذا الخير الذي يأتيهم منه لأنهم لم يتعودوا مثله من غيره .

إن القدرة على ضبط هذا التوازن في القيم أمر لا يستطيعه إلا العظماء الذين يستشعرون جسامة المسؤولية ، فيقدرون تأثير سلوكهم في الأفراد والجماعات ، لذلك كان انعدام وجود من يمتلك هذا التوازن سبباً في الخلل وتردي المجتمع ثم انزلاقه نحو هاوية سحيقة .

٢/ حـ

إن المعضلة التي كانت تواجه أمته في ذلك الوقت ـ كما جسدتها أبياته هنا ـ معضلة أخلاقية قبل كل شيء ، فقد كانت هذه الأمة تملك كل أسباب القوة المادية ، لكن الذي كان ينقصها في عصره قيم أخلاقية توجه قوتها المادية هذه وجهة الصواب والعدل . من هنا جاءت صفات هيثم في البيتين التاسع عشر والعشرين تؤكد امتلاكه لتلك القيم الأخلاقية المرتجاة . ففحوى النداء الذي استهلهما به «يا أبا القاسم» يثير في ذهن كل مسلم كنية الرسول الكريم بكل ما تتضمنه من أخلاق وقيم . وسواء أكانت هذه الكنية لهيثم حقيقة أم استعارها الشاعر له فإن إصراره على مناداته بها هنا ليوحي بأنه كان ، وهو يرسم خطوات هيثم في القيادة. يتوسم خطوات المصطفى والقيم التي أعلاها وهو يسير نحو التغيير والفتح الجليل . وقد يؤيد هذا الصورتان اللتان تلتا النداء السابق : أما الأولى فالصورة الاستعارية «استغزرت درّ خلائق» التي تجاوز فيها الشاعر الحديث عن أخلاق هيثم إلى الحديث عن إكساب الناس هذه الأخلاق ، وذلك باستعماله وزن «استفعل» الذي صيغت عليه كلمة «استغزرت» ، وهو وزن يعني ـ كما نعلم ـ طلب فعْل الفعل من الآخرين . ولعل في استعارته كلمة «در» الحليب صفة للأخلاق تحديداً لنوعية هذه الأخلاق ، فهي من الخير جاءت وإلى الخير تسير وتمتد .

وأما الثانية : فالصورة الاستعارية « ملأن فجاج الأرض بؤسى وأنعما» إذ تعيد هذه الصورة إلى الذهن بعض أوصاف هيثم السابقة كإنماء الخير . . وإهلاك الشر ، لكن الإضافة الجديدة في هذه الصورة هي أن الأوصاف التي رسمت فيما مضى صورة لطبيعة هيثم الذاتية المجردة ، قد تحولت فيها إلى العمل وأصبحت ذات فاعلية مؤثرة في مسار الأمة . وهذا يعني أن عزائم هيثم جاءت على قدر عزمه ، أو أن فعله قُدّ من طبعه ، وبذلك تحول الفعل من خير الذات إلى خير الجماعة ، وهذا ما كانت الأمة بحاجة إليه حقاً . لقد تأسست أفعال هيثم على القواعد الأخلاقية المكينة، لذلك غدا البؤس الذي سببته هذه الأفعال هو بؤس الشر أو قصاصه الذي كتبه الله عليه ونفذه هيثم ليكون في قصاصه هذا «حياة» للناس ، وراحة وأمان . إن هذا هو «السؤدد» الذي كونه هيثم بهمة ونبل ، وهو السؤدد الذي حرص الشاعر أن يجعل صاحبه فيه مبرزاً ، وتاركاً خلفه في مسافة بعيدة جداً ، كل من حاول أن ينافسه عليه ، كما أكد ذلك في البيت العشرين .

المعنى الحقيقي لهذا السؤدد ، في الـواقـع ، هو «السـلام» الذي ورد في البيت الحادي والعشرين . وكلمة «سلام» التي ذكرها الشاعر نكرة هنا تعني أموراً كبيرة مغيبة في القصيدة . إن العبارات التي تلت هذه الكلمة في البيت تنفي أن يكون الشاعر قد عني بها مجرد إلقاء التحية ، لأن «السلام» إن كان «تحية» فإن إشراقة وجه هيثم ردّ «يكفي المسلمًا» . لكن السلام الذي قد يعنيه البحتري هنا هو تحقيق الغاية من تكوين القوة وتمكينها بعد الهجرة . إنه «الفتح الجليل» الذي تحقق على يدي هيثم قائد المهاجرين . إنه العودة المظفرة لذلك الفريق المستقل بعد أن اندحر الشر وحل الخير في ساحات الأمة .

٢/ د

كان فتـح مكة توحيداً لقوى الأمة وتغيراً للنفوس والمواقف القديمة ، وانطلاقة جديدة للامتـداد خارجـاً ، ومثل ذلك كان السلام الذي حققه هيثم وفريقه ، فقد وحد القوى وغير النفوس والمواقف ، وغدا مثلاً يقتدى به في مواقع أخرى . لقد عمق الشاعر مفهوم التغيير هذا في صورتين تاليتين هما صورة «مد الفرات» وصورة «الروض الشآمى» . أما الفرات فقد غدا مده هائلاً حتى صارت أمواجه تشبه «جبال شروري جثن في البحر عُوما» . وتكملة لمغزى الصورة نفى الشاعر أن يكون الفرات قد اعتاد هذا المد الغزير من قبل ، مشيراً بذلك إلى أن مده هذا كان بعد توحيد هيثم للأمة . لقد شخص النهر وجعله إنسانا يتعلم من فعل هيثم فقام بعمل يوازي عمله : «ولكنه رأى شيمة من جاره فتعلما» . والشاعر ينطلق هنا من قاعدة نفسية صحيحة هي أننا نرى الأشياء ، ونحن نخبرها ـ شعورياً ـ ببصيرتنا أكثر مما نراها ببصرنا ، فالفرات هو الفرات ، لكن الناس قبل السلام الذي جلبه هيثم لم يكونوا يشعرون بمده ، وربما لم يكونوا ينتفعون به أيضاً ، إذ كانوا وقتذاك مشغولين بآلامهم عن رؤية آمالهم فيه ، لكنهم بعد أن أزيح عنهم كابوس الآلام أصبحوا لا يرون إلا ما يغذي آمالهم ويقويها . وهكذا فقد التفتوا إلى الفرات وتملوا مدّه الذي جلب معه إكسير الحياة .

ومثـل ذلـك كان فعل « الروض الشآمى» . فقد ربط الشاعر تفتح نوْره أو ابتسامته ، مجازاً ، بابتسامة هيثم التي هلّت من شرقيه في العراق . «بل فتى تبسم من شرقيه فتبسما» .

إن في هاتين الصورتين إيماءً بأن إصلاح شأن الأمة في مكان ما يمتد سريعاً إلى إصلاح شأنها في مكان آخر . . . وهكذا حتى يعم الأمان والسلام كل بقعة فيها . كان هذا بعد فتح مكة ، وأصبح واقعاً حياً بعد إصلاح حال العراق كما تخيله الشاعر .

٣/ أ

لقد أخذ الشاعر بعودة المهاجرين إلى مجتمعهم وأهلهم ومحبيهم وتحقيق التوحد الذي كان أمنيتـه في بدايـات القصيدة ، لذا أصبح في مقطع التوحد من القصيدة لا يرى إلا من خلال

إحساسه بجمال الحياة ، وحيوية الوجود ، وبهجة الأشياء . وهذا واضح في الصور التي رسمها للربيع وبعض مظاهره ؛ فهذه الصور لا تنقل لنا أشكالاً زاهية فقط ، وإنما تفيض أيضاً بأفكار صاحبها ورؤاه بعد أن تحقق في خياله حلمه السعيد كما حملته رحلة الصراع العنيف التي رسم مسارها في المقطعين السابقين .

يمكن أن نناقش جماليات هذه الأشكال وما تضمنته من معان ، من خلال اللوحات التالية التي رسمها الشاعر بدقة بعيدة المرمى .

أولا : صورة الربيع عامة في البيت الخامس والعشرين : وهي صورة تشخيصية ، وضع الشاعر فيها الربيع في صورة بصرية فتخيله إنسانا «يختال ضاحكاً من الحسن» ، ثم في صورة سمعية «حتى كاد أن يتكلما» وقبل ذلك في صورة حركية «أتاك الربيع الطلق يختال» . لعل هذا التعدد في الأوضاع الصورية التي اختيرت للربيع تومىء إلى فرحة عظمى بقدوم الربيع الذي أصبح عنده ملء السمع والبصر . ولكي نتقصى أبعاد هذا المعنى الكبير علينا أن نقرن «الربيع» إلى «الصّبا» في مقدمة القصيدة ، فإن في اجتماعهما لدى الشاعر تآلفاً واختلافاً معاً . أما التآلف فلأنهما كانا يشعران بتوحد الماضي «الصبا» بالحاضر «الربيع» أو الحلم بالواقع . وفي هذا فرحة لا تَعدلها فرحة أخرى ، لكن هذه الفرحة أصبحت كذلك في المرحلة الأخيرة من القصيدة، ولو عدنا لمراجعة مشاعر البحتري في بداياتها لوجدنا أن «الربيع» كان «كالصبا» تماما في كون كل منهما حلمًا غير محقق ، لذا كانا في خاطره وقتها طرفين متباعدين : طرفاً في الماضي الذي ذهب ، وطرفاً في المستقبل الذي لم يأت بعد ؛ لكنهما، مع ذلك ، توحدا في داخله على أساس أنهما أثارا فيه مشاعر الشوق والمكابدة والألم ، ودفعاه إلى جدية العمل ، وجني الثمر .

ها هنا يكمن الاختلاف بين الصبا والربيع حين كانا مفترقين . وبينهما حين أصبحا متحدين ، وهو الاختلاف بين الحلم حين يمسى حلمًا لذيذاً ، وبينه حين يصبح واقعاً محققاً ومعاشا . من هنا جاءت كلمة «أتاك» التي افتتح بها مقطع التوحد هذا ، وكأنه يوحي بأن الذي كان يراودك أمس حلمًا ، قد غدا اليوم أمامك حقيقة ، فها هو يتحرك إليك بكل الصور الجميلة التي تخيلتها فيه .

الربيع في وجدان الشاعر وخياله إذن ، هو ربيع الحياة الذي بدأت تعيشه الأمة بعد توحدها ، وبعد أن حل السلام ربوعها ، وجرى الخير والجمال في عروقها، لذا بات هذا الربيع محور كل الحركات والسكنات في لغة الشاعر ومحاوراته التالية . وأول ما قد يُلتفت إليه في هذه اللغة الأفعال التي منحتها لهذا الربيع حتى غدت أوصافه بها ذات حياة وحركة تثير في متلقيها

فيضاً من المعاني الإنسانية البعيدة المرامي . فكلمة «الطلق» التي وصف بها تثير في الذهن مشاهد حاضرة وأخرى غائبة ، بعضها متوافق وبعضها متنافر ، لكن الانعتاق من القيود ، والانطلاق في فضاء الحرية محور تلتقي عنده تلك المشاهد فتتآلف أو تتخالف . إن مجتمع الشاعر ، قبل أن تدخله نسمات الحرية «الربيع الطلق» كان مجتمعاً مقيداً بقيود تركته حبيس واقع مرير يعيش أزمات فكرية وأخلاقية تسحق كرامته ، لكنه بعد «الفتح المبين» المتخيل تحطمت قيوده وانطلق يستنهض ذاته وكبرياءه ، فتغيرت حاله وأصبح يرى ما لم يكن قادراً على رؤيته . فالحرية التي أثارتها كلمة «الطلق» إذن كانت مفتاح النور الذي أضاء لهذا المجتمع الدروب إلى النشوة العارمة بالحياة الحميدة الجديدة ، لذلك حق له أن يكتسي جمالاً كجمال الربيع وأن «يختال ضاحكاً من الحسن» فيه ومن حوله ، فقبل الربيع استبدل بضحكه بكاء ، وبحسنه بلاء .

أما عبارة « حتى كاد أن يتكلما » فتشير إلى أن المحيا قد يكون أبلغ في التعبير عما في النفس من الكلام نفسه ، وقد سبق للشاعر أن صرح بذلك حين جعل بشاشة هيثم كافية للرد على التحية بأحسن منها ، فاللغة ، التي تخيل الشاعر أن الربيع كاد أن ينطق بها ، تحمل معاني كثيرة قد لا تكون الكلمات وحدها كافية للتعبير عنها ، لذلك استعان بهيئة الاختيال والضحك والجمال . ومن المعاني المحتملة تجاوز الشاعر لمظاهر إحساس الناس بالنشوة والسعادة إلى العرفان بفضل أولئك الذين غيروا صورة المجتمع إلى الأبهج ، وانتشلوا الأمة من المنحدر السحيق الذي كانت تدُفع إليه دفعاً قوياً .

ثانيا : صورة « أوائل الورد » التي نبهها « النيروز» في «غلس الدجى» . فقد شخصت هذه الورود ، واكتسبت أفعالاً من الإنسان كالنوم والصحو . لكن تجدر الإشارة إلى صورة «النوروز» المصاحبة كي يتكامل معنى الصورتين في الدلالة والإيحاء . فالنوروز ـ كما جاء في تاج العروس ـ هو أكبر أعياد الفرس ، ومعناه بالفارسية اليوم الجديد»[٢٣] . وهذا يعني أن الناس أصبحوا يخطون خطواتهم الأولى في عالمهم المتحرر مع هذا اليوم الجديد الذي أصبحت له حركة جديدة تستنهض كل نائم لينظر إلى الحياة وهي تتشكل ألقاً ونعيمًا ، وهكذا أعطى الشاعر النوروز وظيفة المنبه ، والمحرك للسكون الراكد ، بغية امتلاء الكون ـ بعد الإفاقة الجماعية ـ حياة وأملاً وعملاً . من هنا كان الشاعر نبيهاً حين حصر الصورة في «أوائل» الورد لا في الورد كله . فكلمة أوائل هذه تتناسب مع بداية التنبيه في اليوم الأول الجديد الذي هلت بركاته على الأمة ، كما أنها توحي بأن وظيفة «النوروز» ليست تنبيه كل مفردات الأشياء ، وإنما يكفي أن يبدأ بمجموعة منها

(٢٣) تاج العروس ، مادة (نرز) .

حتى يتواصل الفعل منها إلى غيرها فتغدو الحركة جماعية بعد أن بدأت فردية. فالصورة مثالية في رمزيتها إلى استنفارهم الناس وأشواقهم بعد أن طال انتظارهم لبزوغ فجر جديد النسمات . لعل هذا هو ما كان في خيال الشاعر وهو يرسم أبعاد هذه الصورة ، ويحدد ألفاظها ، ولكي نقترب من عالمه أكثر علينا أن ننظر إلى ظرف ذلك التنبيه ، فقد جاء في «غلس» الدجى. والغلس يعني «ظلمة آخر الليل»[٢٤] ، أي غاية ظلامه ، كما علينا أيضا أن ننظر إلى ظرف نوم «أوائل الورد» ، فقد كان «بالأمس» . إن اجتماع كلمتي «غلس» و«أمس» يثير في موضعه من الأبيات صورة أخرى تتضاد معهما في الهيئة (الصباح/ مقابل/ الدجى) ، وفي الزمن (اليوم/ مقابل/ الأمس) ، وفي الفعل (الصحو/ مقابل/ النوم) لقد تخطّى الناس بـ «الربيع الطلق» بؤس الأمس حتى أصبح ذلك البؤس تاريخاً مندثراً في حياتهم بعد أن انتقلوا إلى ما يحيي في وجدانهم «ربيع»» أمتهم أو «صباها» الجميل .

ثالثا : صورة « الندى » التي أثارت في الذهن حواس اللمس «برد الندى» ، والسمع «يبث حديثاً» ، والبصر مصحوبة بالحركة «يفتقها». وكأن الشاعر أراد في تصويره مظاهر الربيع إثارة كل الحواس كي يكتمل الجمال بتراسلها. وهو ، في هذا ، ينسجم مع توجهه العام في القصيدة كلها ؛ لأن مقطع الربيع ـ كما قلنا ـ هو الذي توحد فيه الحلم مع الواقع والحقيقة ، لذا فهو ، في داخل الشاعر ، المنطقة المبهجة التي يسري شعاعها في كل ذرة من جسده .

إذا كانت صورة « الورد » قد أثارت في النفوس صحوة عامة ، فإن صورة «الندى» تتقدم بإثارة أكثر تخصيصاً . إنها توحي بحرية التعبير بعد أن كان ذلك محرماً . «يبث حديثاً كان أمس مكتماً» . لعل التضاد الذي عقده الشاعر بين «يبث» و«مكتما» يومىء إلى الانفعال النفسي المصاحب للسلوك الإنساني المجرب للحالتين معاً . فبث الحديث يعني الانتقال به وسط مجموعة كبيرة من الناس قد تتجاوز حد الإحصاء ، لأن صاحب الحديث لا يشبعه التعبير عما في نفسه لواحد أو اثنين ، وإنما هو بحاجة إلى أن يُسمع صوته الناس أجمعين . فالصوت الذي صيره الشاعر حديثاً يبث في كل ناحية الآن كان أمس صوتاً مخنوقاً في داخل أصحابه ، بل ظل يعيش معهم صراعاً عنيفاً ، فحين كان ينازعهم الخروج كانوا ، من خوف العاقبة ، يكتمونه ويغورونه في أجوافهم . إن كلمة «مكتّما» التي جاءت على وزن «مفعّل» بتضعيف حرف العين للمبالغة في فعل التكتم . لتشعرنا بهذه المنازعة الطويلة القاسية كما عاشها إنسان ذلك العهد مع صوته المكبوت ، وهي أيضا

(٢٤) المصدر السابق ، مادة (غلس) .

التي سوغت إيراد كلمة «يبث» بالمعنى الذي أوّلناه . كما أن إيقاع كل من الكلمتين (مكتما/ يبث) يوحي بدلا لتيهما ، إذ لا يخفى أن أحرف كلمة «يبث» توحي بخفة الحركة وانتشارها ، بينما أحرف كلمة «مكتما» توحي بمحدودية الحركة، وحصرها في التردد ما بين حرف الميم المكرر في بداية الكلمة ونهايتها ، كأن في الأولى حركة منطلقة نحو الخارج أما الثانية فحركتها نحو الداخل تقييداً وإكراهاً . لعل هذا ينسجم تماماً مع كلمة «يفتّقها» التي أتت في بداية الصورة ؛ ففعل التفتيق هنا هو فض للقيود التي تغلف الورود ، وتبديل لفاعلية الحركة بين زهرات الورد والأكمام حولها ، إذ كانت الحركة قبل عملية التفتيق هذه معطاة للأكمام كي تتجه بها نحو خنق الزهرات أو منعها من الخروج ، أما الآن فإن هذه الحركة قد أعطيت للزهرات التي استعانت بقوة الندى على تحطيم قيودها (أكمامها) واندفاعها بشوق نحو هواء أنظف وعالم أرحب . بقي أن دقة البحتري وجهته إلى أن يركز في الصورة على «برد الندى» ، فكأنه يشير بذلك إلى أن هذه البرودة توحي بالجو الطبيعي الذي أصبح يملأ الفضاء ، ويدفع كل مسجون أو معزول في جو حارق خانق إلى أن يطمح للعيش فيه ، هكذا كانت حال زهرات الندى وهي مغلقة بأكمامها ، وهكذا كانت نفسية الناس في المجتمع المنغلق على القهر والإذلال . فكل كان يشتاق إلى جو تنعشه برودة الندى مع كل فجر يوم جديد . إن في هذا استكمالاً لرسم جماليات الحركة المنطلقة نحو عالم أرحب وأبهج .

رابعاً : صورة « الشجر » الذي «رد الربيع لباسه عليه » . لقد اتبع الشاعر في هذه الصورة الأسلوب نفسه الذي انتهجه في الصور السابقة ، إذ أبرز الشجر في حالتين متضادتين : الشجر عارياً / والشجر مكسواً ، لكنه أضاف إلى هاتين الحالتين ما يشعر بأن العرى والاكتساء ليستا حالتين طبيعيتين لحقتا بالشجر نتيجة ظروف خاصة ، أو عوامل بيئية معتادة ، وإنما كانتا تجسيداً لممارسة الآخرين عليه أو له ، وبذلك غدا عريه نوعاً من سلب خصوصيته أو حق من حقوقه ، كما غدت إعادة كسوته إليه تعني إعادة تلك الخصوصية وذلك الحق . إن هذه الصورة بوضعيها المتقابلين تقربنا من إدراك رمز الشجر في خيال الشاعر ؛ فالشجر عنده ، كالندى وكالورد ، مظهر لأحوال الناس بعد أن تغيرت من الأسوأ إلى الأفضل ، ومن الحبس إلى الشمس .

لما كان رد لباس الشجر إليه أنموذجاً للعدل فقد نسب الشاعر فعله للربيع ، «ومن شجر رد الربيع لباسه عليه» ، والربيع - كما قد رأينا - هو الجو الذي أصبحت الحياة تتنسم عبقه بعد أن حجب عنها لفترة . إن اكتساء الشجر بردائه من جديد يمنحنا فرصة للتأمل في الأبعاد الجمالية التي يثيرها ، وبخاصة حين يكون هذا الجمال في «شجر» مجموع لا شجرة مفردة ، فلك أن تتخيل أشكالاً وألوانا في مساحات من الأرض مختلفة التضاريس والأبعاد والإضاءة والظلال . كأن

الشاعر فكر في هذا كله ولم يجد ما يماثله من صورة متكاملة الجمال خيراً من لوحة «الوشي» التي تؤلفها أشكال وألوان مزركشة تنتشر بفنية عجيبة محسوبة الأبعاد والأحجام «كما نشرت وشياً منمنما» . وهذا جمال تستمتع بروعته تلك النفوس التي غدت ـ بعد أن تحررت ـ تنظر إلى الأشياء بروح ملأى بحب الحياة والخير والجمال .

إن انعكاس ذلك التغيير الأخاذ في عيون الناس ونفوسهم صوره الشاعر في صورتين أخريين بناهما من تقابل الحلال / والحرام(٢٥) . وهاتان حالتان توحي الأولى منهما بالحركة نحو الخارج (أحل) لأن السلوك الحلال سلوك يقع في ساحة الفعل المشروع ، لذلك يقترن بالسير في النور بحرية غير مقيدة ، بل يبعث الرضا ويثير الحبور في نفوس الآخرين «أحل فابدى للعيون بشاشة» ، أما الحالة الثانية فتوحي بالحركة نحو «الداخل» لأن السلوك الحرام يقع في منطقة العمل المكروه والممنوع ، لذلك يقترن بالاختباء في العتمة ، وخلف الغفلة ، ويعيش في عالم الحذر والارتباك والتخفي بعيداً عن عيون المجتمع المنضبط الذي تسبب رؤيته له جروحاً محرجة ومؤلمة ، «وكان قذى للعين إذ كان محرما» . ثم إن هاتين الصورتين تتوافقان والوضعين اللذين أثارتهما صورة الشجر قبل قليل . فسلب الشجر لباسه يقع في دائرة الحرام ، بينما يقع رده عليه في مضمار الحلال . إن مثل هذه المقارنة أو المقاربة تدفعنا لأن نحاول فك إيحاء التوافق والتضاد من خلال دلالات السياق العام للقصيدة كلاً . كنا قد كررنا سابقاً أن هجرة الفريق المستقل عن جسد المجتمع المقهور لم تكن قطيعة دائمة وإنما كانت هجرة مرهونة بالزمن الذي يحتاجه تكوين القوة وتمكينها بما يكفل نجاح العودة وتحقيق التوحد ثانية على الأسس الأخلاقية التي تقوم الاعوجاج ، وتصحح الأخطاء وتسير بالأمة نحو التحرر . وتأسيساً على هذا يصبح تجريد الشجر من لباسه إيحاء بخلو المجتمع من أبنائه الذين أرغموا على الهجرة عنه ، وهو تجريد «محرم» لأنه فصل للولد عن أمه ، كما أنه فعل قبيح تتأذى منه كل عين تراه « قذى للعين » لأنه يسبب آلاماً غائرة في الأعماق . كما يغدو رد لباس الشجر إليه إيحاء بعودة المهاجرين ، وهي عودة مشروعة تملأ العيون المتلهفة لها «بشاشة» وحبوراً . ثم إن انتشار أفراد الفريق في المجتمع وقد تزينوا بالأخلاق الحميدة ، وراحوا يزينون بها جنبات ذاك المجتمع وأمكنته ، يمكن أن يمثل بنشر لوحات موشاة دقيقة النمنمة ، بعد أن كان قد مثل في مكان آخر بلوحة الربيع التي وقفنا عند روعة جمالها . إن

---

(٢٥) أحل : تعني هنا : دخل في الحلال ، وأحرم : دخل في الحرام ، وكان زهير بن أبي سلمى قد استعملها بهذا المعنى في معلقته الشهيرة حين قال :

جعلن القنان عن يمين وحزنه ... وكم بالقنان من محلّ ومحرم

لذلك يخطيء ـ حسب رأيي ـ من يفسر أحرم ، هنا ، بمعنى دخل في ثوب الإحرام . وأحل : خرج منه وتحلل .

الشاعر ـ كما يبدو هنا ـ حريص على أن يستغل مظاهر الجمال المألوفة ليستعين بها على حمل ما بداخله من جمال نفسي وسيع بعد الفتح المبين كما تخيله . لذلك التفت إلى جمال الطبيعة فجلب أبهى صوره فكانت صورة «الربيع» ، كما التفت إلى جمال الفن فجاء بأشمل وأبهج رسومه فكانت «اللوحة الموشاة» .

خامساً : صورة نسيم الريح ، وهي صورة لمسية تنبىء بلطف هذا النسيم «ورق نسيم الريح» في هذا الجو الدافىء الذي غدا سمة الحياة الجديدة . وقد أضاف الشاعر إلى هذه الصورة التي ختم بها وصف مظاهر الربيع ، ما يوحي باكتمال التوحد ، إذ تخيل هذا النسيم وهو يأتيه بأنفاس أحبته الذين خبر نعيم حالهم ، وعذوبة أنفاسهم «حتى حسبته يجيء بأنفاس الأحبة نعما» . لقد جمع البحتري في هذه الصورة التي تبدو بسيطة ، عدة خيوط ، وألف بين مجموعة من علاقاتها المتشابكة ، ثم وزعها على ما يمكن أن نطلق عليه : التوازن بين حالتي الغياب / والحضور . ولكي نحاول أن نعيش تجربة الشاعر علينا ، ونحن نتملى أبعاد هاتين الحالتين عنده ، أن نسترجع بعض الصور القديمة ، التي ترددت في أبيات سابقة ، وبخاصة أبيات المقدمة ، لعل أقرب تلك الصور ، من الوجهة الشكلية على الأقل ـ صورة «الغزال المنعّم» في البيت السادس ، إذ أن لفظة «الغزال» هناك ، التقت مع لفظة «الأحبة» هنا . لكن صورة «الغزال» وصورة «الأحبة» التقتا أيضاً على أبعاد نفسية عميقة الغور داخل الشاعر . فالغزال المنعم ، كان التوحد به هدف الشاعر الأمثل الذي استدعى هجرته ، وبمعنى آخر كان غيابه دافعاً للعمل من أجل حضوره حتى تتواءم نوازع الذات بتوحيد الحلم بالواقع أو الغياب بالحضور . كان هذا شعور الشاعر في المقدمة ، أما شعوره في النهاية بعد تنفيذ المهمة بنجاح فهو إلغاء الغياب والتهيؤ لاستقبال ذلك الحلم الذي أصبح المكان المحرر صالحاً لحضوره ، لهذا تخيله قادماً إليه مع «نسيم الريح» الرقيق للتوحد به . بل لعله جعل رقة هذا النسيم تمثل استشعار حضور ذلك الحلم الذي غدا في خيال الشاعر واقعاً وممثلاً بصورة حبيب ناعم منعم . فالرقة هي التي تتناسب والتنعم الذي وصف به هذا الحبيب .

في صورة « الغزال المنعم » كان هذا الغزال معادلاً موضوعياً لذلك الخيال الذي زار الشاعر لحظة ثم اختفى مأسوفاً على رحيله (أقام كرجع الطرف ثم تصرما) . إذن كانت حركة ذلك الخيال وقتئذ ـ أي قبل الدخول في حياة ما بعد الفتح ـ بادئة من عند الشاعر ومتجهة نحو البعيد (غياب) ، لذلك كان ألم الشاعر يومها هو المسيطر على مشاعره . أما الآن ـ وبعد إتمام الفتح ـ فقد أصبحت حركة ذلك الخيال قادمة من عمق التاريخ ومتجهة نحو الشاعر (حضور) ، لذلك غدت الفرحة

هي السمة الغالبة على أساريره . ولكي نستكمل صورة العلاقات في غيابها وحضورها يلزمنا أن نؤكد ما قلناه في المقدمة من أن الخيال المتصرّم، والغزال المنعّم كانا هناك صورتين «للصّبا» الذي ربطنا رمزه بمجد الأمة الغابر (غياب) ، كما يلزمنا أن نؤكد أقوالنا في نهاية حديثنا من أن «الربيع» هو صبا الحياة الجديدة (حضور) . ولما كان «نسيم الربيع» ـ وهو جزء من الربيع أو «الصبا» للحياة الحاضرة ـ يندمج ـ حسب تخيل الشاعر وإحساسه ـ «بأنفاس الأحبة نعما» أو «صبا» الأمة ماضياً ، فإن النتيجة الممكنة غدت نفي الغياب نهائياً ، وإثبات الحضور الدائم للماضي والحاضر معاً أو الدخول في عالم التوحد بكل أبعاده الواقعية والتاريخية . لم يعد الشاعر يعاني من تمزق الذات بين الماضي والحاضر ، أو الغياب والحضور ، لأنه أصبح يعيش حياة ألغيت فيها الحواجز النفسية بين ما كان وما يمكن أن يكون ، وأصبحت متوائمة ومتوحدة على ما هو كائن فعلاً في حياة لم يعد فيها أحد يفكر في التمييز بين «صبا الربيع» و«ربيع الصبا» وإنما يعيش متعة رؤيتهما عالمين في عالم واحد .

٣/ب

واستكمالاً للمّ أطراف هذا العالم المتوحد في نهاية القصيدة التفت الشاعر إلى هيثم : قطب هذا التوحد وصانعه وأدار حوله معاني الأبيات الثلاثة التي اختتم بها القصيدة . ويمكن لهذه المعاني أن تجتمع على محور فكري واحد هو «فلسفة القيادة» . لكن الشاعر ناقش هذا المحور بمنطلق شعوري واع أو ما يمكن أن يطلق عليه «الانفعال المتعقل» ، فكانت مناقشته فنية فكرية تضع أمام البصيرة المفارقة الكبرى بين القيادة أصالة / والقيادة زيفاً ، ويمكننا متابعة هذه المناقشة من خلال الصور الثلاث التالية :

أولا : صورة الراح : من المهم ، بداية إدراك أن الراح تثار هنا معنى لا مادة ، وذلك لأن الخمر في الشعر أخذت دلالات وإيحاءات لها قيم جمالية لا تربط ، ضرورة ، بين إيحاءاتها والممارسة الفعلية لشربها ، ومثل ذلك الطرب أو الغناء ، فهو في الشعر ينتمي إلى الفن أكثر من انتمائه إلى الفعل . في صورة الراح هذه أوحى الشاعر بجو الفرحة الكبرى التي غمرت الأمة بعد تحقيق حلم التوحد ، وهو جو يستدعي الاحتفاء به ، والاحتفال له أكلاً وشرباً ورقصاًوغناء . واختيار الشاعر كلمة «الراح» من أسماء الخمر الكثيرةربما كان اختياراً نفسياً للدلالة على ارتياح عام لهذا الجو المنطلق . وتأسيساً على هذا تتجاوز كلمة الراح هنا الدلالة الخاصة لشرب الخمر إلى دلالة أعم وهي أي شراب يتداوله المحتلفون . وقياساً على هذا لا تعني كلمة «الأوتار» المصاحبة لصورة الراح في البيت الواحد والثلاثين نوعاً محدداً من الغناء ضرورة ، ولكنها توحي بما يصاحب الأكل والشرب في الفرح الجماعي من موسيقى ورقص وغناء . لقد كان البحتري منسجمًا مع معنى القصيدة العام حين جعل هيثما مركز صورة الراح في قوله «فما يحبس الراح التي

أنت خلها» ، لأن لذلك دلالات بعيدة في فلسفة القيادة . فهيثم في هذا الوضع اللغوي يعني القائد الذي يهب الأمة فرحتها في تحقيق أمانيها وانتصاراتها بإخلاصه لمبادئها ، وحسن إدارته لقيادة قوتها ، وإيثارها على النفس في المواقف التي تستدعي الفداء . إن هيثما في هذا يمثل الأصالة في القيادة ، وهو يثير في الذهن صورة مضادة هي القيادة الزائفة التي تسلب بجشعها وطغيانها البهجة من أفئدة الناس فلا يجدون في أنفسهم شوقاً للاحتفال حتى في الأعياد والمواسم التي تستدعيه .

لعل هذين النموذجين المتضادين للقيادة كانا في خيال الشاعر وهو يشكل صورة الراح هنا ، فاستخدامه فعلَي الحبس ، والمنع مقرونين بالاستفهام الإنكاري (فما يحبس ؟ . . وما يمنع؟) يوحى بأن هذين الفعلين من عمل القيادة السابقة الذي أدبر وولى مع من كان يقوده ، أما الحاضر الذي أقبل بقيادة جديدة مختلفة فبحاجة إلى أفعال مختلفة كالطلاقة والسماحة .

ثانياً : صورة الشمس : لم يشبه البحتري هيثًما بالشمس شكلاً ، وإنما شبهه بها قيمة ومعنى حين وضعه في موقع الملهم والمستقطب في آن واحد . فهو مازال شمس «الندامى» حتى في حالة انتشائهم (إذا انتشوا) وهم متحررون من الانضباط الوظيفي أو الرسمي ، ومنغمسون كلياً ، في بهجة المرح (وراحوا بدوراً يستحثون أنجما) . إن لهذا التشكيل اللغوى الدقيق دلالة تبرز ، في ناحية ، عظمة هيثم التي حفرت لها أثرا طيباً لا ينمحي في نفوس من عرفوه وتعاملوا معه ، كما تبرز ، في ناحية ثانية ، تقدير أولئك المحتفلين ، بيوم النصر العظيم لكل ما فعله هيثم من أجلهم ، ولم ينسهم إياه ما هم فيه من نشوة قد تصرف الإنسان عن أهم واجباته . لقد برز هيثم في هذه الصورة ملهم أخلاق وقيم ، ومستقطب قلوب وعقول غدت متعلقة به تعلقاً روحياً ، أو تدور في فلك مبادئه دوراناً تلقائياً .

لعل من المهم هنا الوقوف عند بعض الكلمات والألفاظ التي صاحبت هذه الصورة للتعرف على إحساس البحتري ، وأبعاد مراميه وهو يشكل معانيها . فعبارة «مازلت» التي استهل بها الصورة فيها إشعار بزمن ماض وآخر حاضر ، أي أن تغير الزمن لا يؤثر في استمرار فاعلية الفعل ، وهذا يعني أن استحواذ هيثم على عواطف الناس لم يكن استحواذاً آنياً ، وإنما غدا موقفاً مستمراً بل ثابتاً لا يتغير بتغير الأوقات . ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا بني على أساس مكين يدعمه عمل مجيد يستحق التخليد . وكلمة «الندامى» ، التي أطلقت على المبتهجين الذين كان هيثم بمثابة الشمس لهم ، تشي بالاقتراب الروحي بينهم وبينه ، فكأنهم اقتربوا منه روحاً وفكراً حتى أصبحوا ينهجون نهجه ، ويحثون غيرهم على سلوك دربه . ولعل صورة البدور والنجوم

«وراحوا بدوراً يستحثون أنجما» توحي بهذا التواصل في تلقي مبادىء هيثم . ولقد كان الشاعر بارعاً في تصوير درجات هذا التواصل ؛ إذ بدأ بالشمس مفردة كي تمثل أصل الريادة عند هيثم ، ثم أتبع بها البدور مجموعة كي تمثل الندامى الذين يستلهمون مبادىء هيثم عنه مباشرة ، وختم هذه الحلقات بالنجوم مجموعة أيضاً كي تمثل مريدي البدور . وهكذا تتكامل الحلقات لتجسد دوران الأمة كلها في دائرة هيثم والأخلاق والقيم التي يمثلها . لعل المعنى الكبير الذي يمكن استخلاصه من الصورة هو أن القيادة الأصيلة هي قيادة روحية يكون القائد فيها ملهما وقادراً على استحواذ عقول مريديه وأفئدتهم ، وليس مثلها القيادة الزائفة التي تسوق الناس بالعصى والإكراه .

ثالثاً : صورة الكؤوس : وهي ، بالوضع اللغوي الذي أتت عليه ، صورة رمزية توحي بكل المباهج والمفاتن التي قد تذهب العقول ، وتبدل النفوس ، لذا تصلح أن ينظر إليها من خلال ثبات الكريم على ما فطر عليه من أخلاق سوية أمام زينة الحياة ، وتحول سلوك الوضيع إلى ما تسوقه إليه ملذاته حتى لو كان في سلوكه الطائش هذا مخالفاً لطبائع الأمور والناس . إن ما يحكم الأول إحساس داخلي مكين لا يستطيع الفكاك منه حتى لو أرادت غرائز نفسه ذلك ، بينما يحكم الثاني منفعة آنية خارجية تستجيب ـ بلا تردد ـ لغرائز النفس الأمارة بالسوء . ولما كان البحتري قد أبرز مريدي هيثم ذوي قيم أخلاقية ثابتة كما في صورة الشمس السابقة ، فقد أصبح من بدهيات الأمور أن يضع رائدهم (هيثم) في صورة الثبات الفضلى هذه . لقد فعل ذلك حقاً في صورة الكؤوس حين ذكرنا بأن القيم الأخلاقية الكريمة التي كان هيثم قد زرعها في نفوس المحتفلين قبل أن يصل وإياهم إلى مرحلة الاحتفال بالنصر ، فقال : «تكرمت من قبل الكؤوس عليهم» . فليست تلك القيم عنده حالة طارئة ندّت بعد أن وصلت الأمة إلى ما هي عليه ، وإنما هي طبع أصيل فيه ، وقد عمل على أن تظل بعيدة عن أية منفعة أو منقصة . كما أن العبارة السابقة التي شكلت الصورة قد تعني أمراً آخر هو أن الخلق الكريم يبرز في لحظات الشدة أكثر من بروزه في لحظات الرخاء ، لأن الحاجة إليه هناك تكون أكبر ، وهكذا كان هيثم ، فقد نهض بالعبء الثقيل ، على ما كان يتطلبه من تضحيات جسام يوم أن كانت الأمة بحاجة إلى من يحمل ذلك العبء . ولعل عبارة «فما استطعن أن يحدثن فيك تكرما» تشير إلى ذلك العمل المجيد لهيثم ، كما توحي بأمر آخر أيضاً هو أن صفات هذا القائد التي بدت في أثناء تأليفه للقوى المختلفة على هدف نبيل واحد ، وقيادته لهذه القوى قيادة سوية عادلة ، ثم مخاطرته الكبرى في اقتحام أهوال «الفتح» الذي حققه ، كانت كلها صفات تشي بتميز خاص في الأخلاق الحميدة ، بل ببلوغ أقصى حد ممكن من النبل فيها ، حتى لم تعد هناك إمكانية لإحداث درجة في القيمة أعلى من الدرجات التي وصلت إليها ، لذا لم تكن «الكؤوس» قادرة على أن تحدث فيه كرماً زائداً عن

هذا الحد من كرم الأخلاق . ولعل هذا يذكرنا بما كان قد قاله البحتري في البيتين التاسع عشر والعشرين ، إذ جعل هيثمًا هناك باعثاً على بث الأخلاق في فجاج الأرض ، كما صور من يحاول منافسته في بناء المجد كمن يحاول مستحيلاً ، لأن هيثما وصل في ذلك حداً لا يمكن لأحد أن يطاله .

هذه هي أصالة القائد التي تجسدت في ثبات أخلاقه على فطرتها من الطهر ، إذ لاتغيّر في صفاتها الحسنة حتى في المواقف التي تغري بذلك . وعلى النقيض من ذلك القيادة الزائفة التي ترتد إلى فطرة فاسدة ، فهي تعمل لمنفعة ذاتية ، لذا تظل أخلاقها في تحول دائم تبعاً لهذه النفعية حتى لو كان في ذلك ضرر للمجموع .

بقي أن نقول : إن حرص البحتري على أن يظل هيثم حاضراً في نهاية القصيدة لدليل على رغبته في أن ينسب كل فعل حميد صورته أبياتها إلى تلك القيم النبيلة التي جسدها هذا القائد . فما هيثم إلا نموذج فريد من البشر أبرزه الشاعر كي يشخص المباديء والأخلاق التي كان يحلم بتحقيقها فوق أرضه بعد أن فسد هواؤها ، وأصاب العقم تربتها وإنسانها حين ابتليت بفئة لا تحسب لمثل تلك المباديء والأخلاق أي حساب .

٤/أ

لقد رأينا أن أفكاره المشحونة بالانفعال العميق كانت وراء رسم الصور ، واقتران الألفاظ ، وتنوع أشكال التركيب ، أو ما سمي بالتشكيل المكاني للمعنى الشعري . وسنرى فيما يلي أنها كانت أيضاً وراء توزيع الدوائر الوزنية(٢٦) للبحر الذي نظمت عليه القصيدة أو ما سمى بالتشكيل الزماني للمعنى الشعري(٢٧) . وفيما يلي لوحة تمثل توزيع الدوائر وخطوط مسارها في داخل القصيدة . وهي اللوحة التي سأعتمدها أساساً لما يتلو من موازنات وافتراضات ونتائج .

لوحة الخطوط

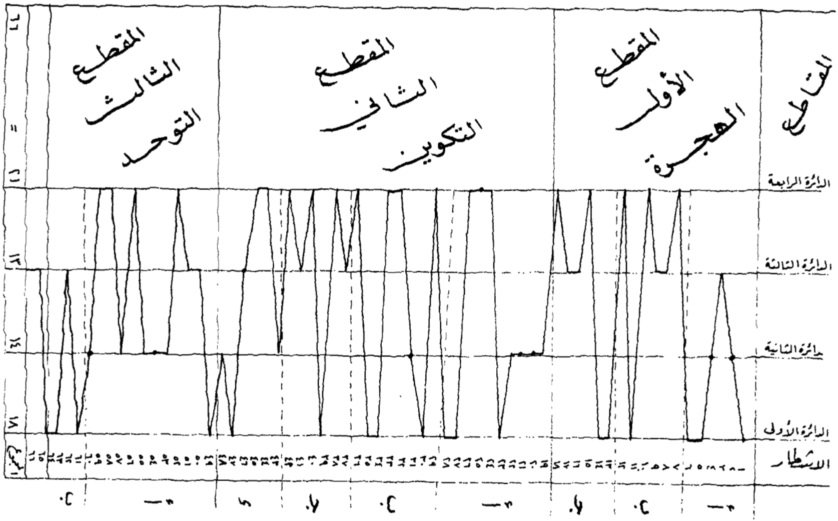
---

(٢٦) أعني بالدائرة الوزنية هنا الشكل الإيقاعي الذي تتخذه تفعيلات البحر الواحد ، في شطر البيت الواحد من القصيدة ، على أساس أن الشطر هو محور البناء الموسيقي للقصيدة العربية .

أنظر تفصيلات هذا الرأي في كتابنا « الصورة الفنية في شعر أبي تمام ص ٢٢٢ ـ ٢٤١ .

(٢٧) أنظر « التشكيل المكاني والزماني » في كتابنا : « الصورة الفنية في النقد الشعري» ص ١٦٧ ـ ٢١٥ .

لوحة مسار الدوائر الوزنية في القصيدة



نظم الشاعر قصيدته على البحر الطويل ، وقد استعمل منه أربع دوائر وزنية جاء ترتيبها حسب تتابع ورودها في القصيدة على النحو التالي :

الدوائر	التفعيـــــلات	رموزها	عدد التكرارات في القصيدة
الأولى	فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن	3121	١٨ مـرة
الثانية	فعول مفاعيلن فعول مفاعلن	3424	١٤ مرة
الثالثة	فعولن مفاعيلن فعول مفاعلن	3421	١٣ مرة
الرابعة	فعول مفاعيلن فعولن مفاعلن	3124	٢١ مـرة
	مجمــوع الأشطــار		٦٦

من الـواضح أن الدائرة الوزنية الرابعة هي التي تتفوق في عدد تكراراتها ، على الدوائر الأخرى ، تليها الدائرة الأولى ، فالثانية ، ثم الثالثة التي جاءت أخيراً ، مع أنها تقترب في شكل تفعيـلاتهـا من الـرابعـة المتفـوقة على كل الدوائروالاختلاف بينها هو في موضع ورود كل من التفعيلتين : فعول وفعولن . لكن هذا التوزيع العددي لم يكن واحداً في المقاطع الثلاثة التي تألفت منها القصيدة ، فقد نرى الدائرة التي تتفوق في مقطع تتراجع لتتفوق عليها دائرة أخرى في مقطع آخر ، كما في اللوحة التالية :

الدوائر	مقطـع الهجرة	مقطـع التكوين	مقطـع التوحد	مجمـــوع التكرارات
الأولى	٦	٨	٤	١٨ مـرة
الثانية	٢	٧	٥	١٤ مـرة
الثالثة	٥	٣	٥	١٣ مرة
الرابعة	٥	١٢	٤	٢١ مـرة
مجموع الأشطار	١٨	٣٠	١٨	٦٦

نلاحظ أن الدائرة الأولى كانت لها الغلبة في مقطع الهجرة ، وتقترب منها الثالثة والرابعة خلافاً للثانية . أما في مقطع التكوين فقد تفوقت الرابعة على غيرها بشكل بارز . وأما في مقطع التوحد فقد تقاربت الدوائر ، إذ اشتركت الدائرتان الثانية والثالثة في الغلبة ، لكن الدائرتين الأولى والرابعة لم تبتعدا عنها كثيراً . وهذا يعني أن التقارب الوحيد بين كل الدوائر في المقاطع الثلاثة لم يحدث إلا في مقطع التوحد . إن هذا قد يفسر على أنه انعكاس لتوافق المشاعر التي غلبت على نفسية الشاعر في هذا المقطع .

وإذا وضعنا في حسابنا نسبة عدد كل دائرة إلى مجموع الدوائر في كل مقطع فإننا نجد أن الأولى التي كان لها التفوق في المقطع الأول قد حافظت على وجودها في الثاني على الرغم من تنازلها عن التفوق فيه للرابعة ، لكنها تراجعت في الثالث . أما الثانية التي كانت آخر الدوائر في المقطع الأول فقد نمت في المقطعين الثاني والثالث حتى كان لها السبق في الأخير . أما الثالثة التي اشتركت في المركز الثاني مع الرابعة في المقطع الأول فقد تراجعت إلى ذيل القائمة في الثاني ، لكنها عادت إلى البروز في الثالث ، واحتلت فيه المركز الأول مع الثانية . أما الرابعة فقد جاءت متقاربة الأعداد في الأول والثالث ، لكنها برزت بروزاً قوياً ومتفوقاً في الثاني . من المهم هنا تأكيد أن أعداد الدوائر في كل مقطع حافظت على استقلالها وتنوعها، حتى بدا لكل مقطع ذاتيته الخاصة في الدوائر التي اختير عددها وتوزيعها على نحو ينسجم وحالة الشاعر فيه .

وحالة الشاعر في كل مقطع لم تكن واحدة أيضاً ، وإنما كانت تخضع لمؤثرات نفسية تصعّد من انفعالها تارة ، وتهديء من روعها تارة أخرى ، وقد اقتضى هذا تنوعاً في الحالات النفسية تبعه تنوع آخر في توزيع الدوائر وترتيبها . فلو أخذنا المقطع الأول مثلا ، لوجدنا فيه ثلاثة مواقف واضحة الاختلاف ، فالأبيات الثلاثة الأولى منه تحمل موقف الإنسان الحالم الذي هاجر فيه الشاعر هجرة نفسية إلى حيث «صبا» الأمة . أما الأبيات الثلاثة التالية لها ، فتحمل موقف الذات الرافض للواقع المهين ، وهو ـ بالنسبة للشاعر ـ موقف الهجرة الفعلية التي ألحقته بالفريق المستقل . أما الأبيات الثلاثة الأخيرة من المقطع ففيها مراجعة للنفس وتقويم لمواقفها السابقة واللاحقة من خلال شعور الرضا بالموقف الجديد الذي أصبح فيه الشاعر ثائراً مع الثائرين ، لقد أتى توزيع الدوائر الوزنية على هذه المواقف الثلاثة كالتالي :

الدوائر	الهجـرة النفسيـة	الهجرة الفعلية	مراجعة المواقف	مجمـــوع التكرارات
الأولى	٣	١	٢	٦
الثانية	٢	—	—	٢
الثالثة	١	٢	٢	٥
الرابعة	—	٣	٢	٥
مجموع الأشطار	٦	٦	٦	١٨

إذا دققنا النظر في الموقفين الأول والثاني وجدناهما متعاكسين في وضع الدوائر (فعدد الأولى في الأول تساوى عدد الرابعة في الثاني ، والثانية في الأول تساوى الثالثة في الثاني ، والثالثة في الأول تساوي الأولى في الأول ، والرابعة في الأول تتساوى في السلب مع الثانية في الثاني) . إن هذا التعاكس قد يوحي بأن الهجرة الفعلية كانت ردة فعل عملي للهجرة النفسية التي سبقتها . أما الموقف الأخير فقد توافقت فيه أعداد الدوائر المستخدمة ، مما قد يوحي بأن هذا التوافق يمثل انسجاماً داخلياً ، أو الرضا عن الذات بعد أن أطمأنت إلى موقفها العملي الجديد .

وأما المقطع الثاني فيمكننا أن نلاحظ فيه أربعة مواقف نفسية متنوعة : أولها إبراز الصفات الذاتية المتميزة التي أهلت هيثما للقيادة (خمسة أبيات) . وثانيها : إبراز نجاح تلك الذات القيادية عملياً (أربعة أبيات) ، وثالثها : نتائج قيادة هيثم في الناس (ثلاثة أبيات) ، ورابعها : نتائج السلام موزعة على هذه المواقف الأربعة كالتالي :

الدوائر	الذات القيادية	القيادة عملياً	تغير الناس	تغيرالأرض والبلاد	مجموع التكرارات
الأولى	٣	٣	١	١	٨
الثانية	٤	١	—	٢	٧
الثالثة	—	—	٢	١	٣
الرابعة	٣	٤	٣	٢	١٢
مجموع الأشطار	١٠	٨	٦	٦	٣٠

نلاحظ أن كل موقف استقل بأعداد الدوائر المختارة ، مما جعله متميزاً عن غيره من المواقف الأخرى ، لكننا نلاحظ أيضاً أن كل موقف من المواقف الثلاثة الأولى أسقط واحدة من الدوائر ما عدا الموقف الأخير الذي جمع كل الدوائر فيه ، ثم وازن ـ إلى حد مختلف عن غيره ـ بين أعداد هذه الدوائر مما يتيح لنا مجال الاجتهاد في أن الشاعر بدأ يميل في نهاية المقطع ، إلى تجميع أطراف الدوائر المتفرقة داخل أقسامه الثلاثة السابقة ، ويتجه بها نحو التواؤم والتوافق ، وهذه صنعة تنسجم مع ما رأينا في نهاية المقطع الأول .

وأما المقطع الثالث فيمكن أن نلاحظ فيه موقفين : أولها استغراق مظاهر التوحد من خلال وصف مظاهر الربيع (ستة أبيات) ، وثانيها : العودة إلى هيثم ، قطب التغيير والتوحد (ثلاثة أبيات) . وها هو توزيع الدوائر على هذين الموقفين .

الدوائر	مظاهر التوحد	هيثم قطب التوحد	عدد التكرارات
الأولى	١	٣	٤
الثانية	٥	—	٥
الثالثة	٢	٣	٥
الرابعة	٤	—	٤
مجموع الأشطار	١٢	٦	١٨

يلاحظ أن الموقفين متغايران في توزيع الدوائر ، مما يشير إلى استقلال كل موقف عن صاحبه ، لكن يلاحظ أيضاً أن الموقف الأخير حافظ على نهج الشاعر في نهايات المواقف ، فهو ـ كما رأينا ـ كان يميل بها نحو التواؤم والتوافق بين الدوائر المستعملة ، والموقف الأخير من هذا المقطع ومن القصيدة كلها أيضاً قد واءم بين الدائرتين : الأولى والثالثة . وإذا عدنا إلى فحص المواقف الأخيرة من المقاطع الثلاثة كلها ، فإننا نجد الشاعر قد حافظ على المواءمة بين هاتين الدائرتين دون سواهما .

وإذا تركنا هذا ونظرنا في المواقف المتعددة للمقاطع الثلاثة ، وجدنا أنه ليس هناك اتفاق تام في توزيع الدوائر بين هذه المواقف إلا في موقفين هما : الموقف الثاني من المقطع الأول ، والموقف الثالث من المقطع الثاني . وبالعودة إلى القصيدة نجد موقف المقطع الأول في الأبيات : الثالث والرابع والخامس من القصيدة ، وهي الأبيات التي أعلن فيها الشاعر التحاقه بالفريق المستقل قائلاً في نهاية الموقف :

فقلت انعموا منا صباحاً وإنما　　　أردت بها قلت الغزال المنعما

أما موقف المقطع الثاني ففي الأبيات التي يثنى فيها الشاعر على هيثم لأنه غير نفوس الناس فكثر الأخلاق وحقق الأمان والسلام ، وقد ختم الموقف بهذا البيت :

سلام ؛ وإن كان السلام تحية　　　فوجهك دون الرد يكفي المسلما

وكنا رأينا ـ في أثناء التحليل ـ أن هذين البيتين يمثلان محور المعنى في القصيدة كلها ، فالأول إشعار بنهاية الصراع الداخلي في نفس الشاعر والوصول بها إلى اتخاذ موقف جاد يعمل فيه مع الفريق المستقل لتحقيق الأمل المرجو ، وهو إنقاذ الأمة وتحقيق السلام . إنه نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة في حياة الشاعر ، ولذلك جاءت تحيته (انعموا منا صباحاً) مشعرة بنية العمل الجاد . وقد ظلت الأبيات بعد هذا البيت توحي بمثل هذا العمل الجاد . أما البيت الثاني فكان نهاية الصراع الكبير الذي قاده هيثم حتى تحقق حلم الشاعر وحل السلام ، لذلك أصبحت تحيته هنا ممثلة بقوله : سلام ! وأصبح السلام هو منطق شعور الشاعر في الأبيات التي تلت هذا البيت . لعل التوافق في هذين الموقفين اللذين انتهيا إلى هذين البيتين قادا إلى توافقهما وتناغمهما إيقاعياً ، فالتقيا على نوعية الدوائر الوزنية المختارة وأعدادها ، وإذا ضممنا هذا التناغم في هذين الموقفين المحوريين داخل القصيدة إلى التواؤمات التي وجدناها في نهايات المقاطع الثلاثة تبين لنا أن الدوائر الوزنية ، مهما تعددت وتنوعت داخل القصيدة، فإنها قادرة على توجد نفسها في شكل أو أشكال من التوحد .

وأعتقد أن البحتري لم يكتف بشكل واحد من هذه الأشكال الإيقاعية المتوحدة والمتناغمة ، وإنما نوع فيها وعدد كي يعكس الحالات الشعورية المتعددة داخل نفسه ، فإذا تجاوزنا البحر والقافية ، والإيقاعات الداخلية التي رأينا بعضاً منها ممثلا في الأصوات المتناغمة الصادرة من الكلمات مفردة أو مركبة ، إلى تشكلّ الدوائر في القصيدة كلاً ـ كما في لوحة مسارها السابقة ـ وقفنا على بعض التوافقات الإيقاعية المتناغمة ، فهي أشبه ما تكون برنات موسيقية متعددة الأبعاد الزمنية ـ طولاً أو قصراً ـ تتجاوب متقاربة أو متباعدة أو متناظرة أو متعاكسة داخل هذا التشكل العجيب المتحد . من ذلك ـ مثلاً ـ توافق الشكل الذي تؤلفه الدوائر ابتداء بالسادسة وانتهاء بالعاشرة مع الشكل الذي تؤلفه الدوائر ابتداء بالرابعة عشرة حتى التاسعة عشرة ، وكذلك شكل الخامسة والثلاثين حتى التاسعة والثلاثين مع شكل التاسعة والثلاثين حتى الثالثة والأربعين ، وقد يناظره شكل الخامسة والأربعين حتى الخمسين . وهناك أشكال أخرى من التوافقات تتماثل أو تتناظر أو تتخالف مما لا يخفي على المتفحص الحصيف . ولكن كل هذه الأشكال تظل جزئية تتساند وتتناغم كي تؤلف الشكل الموسيقى الكلي الذي تقوم وحدته على أساس الانسجام بين النغمات الجزئية والنغمة الكلية الجامعة لها فيما يمكن أن يطلق عليه الوحدة في التنوع ، وهي وحدة تسري داخل وحدة أخرى تؤلفها الكلمات والصور على مبدأ الجزء في الكل والوحدة في التنوع أيضاً . أما الذي يضبط الوحدتين ويجمعهما معاً فهو شعور الشاعر المسيطر على كل حركة وسكون في القصيدة .

لقد كان الشكل الكلي الذي ألفته الدوائر الوزنية ـ كما في اللوحة ـ يميل نحو التعقيد في البناء ، وهو شكل تكثر فيه الرؤوس المدببة عمودياً **(M)** أكثر من الرؤوس الممتدة أفقياً **(Z)** وإذا اعتمدنا أشكال نبضات قلب الإنسان أساساً للمقايسة ، استنتجنا أن الشكل الذي تكثر فيهالرؤوس االمدببة يشير إلى شدة في انفعال الشاعر ، لكننا إذا تملينا اللوحة جيداً وجدنا تقارباً في شكلي البداية والنهاية ، فقد كانت البداية صاعدة نحو الصراع الذي أخذت حدته تتعمق منذ الدائرة الرابعة في الشطر السادس ، لكن النهاية بدأت في الهبوط نحو النهاية منذ آخر ترديد للدائرة الرابعة في الشطر التاسع والخمسين ممتدة في ستة أشطر متساوية لأشطر البداية . أما ما بين تلك البداية وهذه النهاية فألوان من الصعود والهبوط والتجاذب والتناغم . إنها من السكون انطلقت واشتدت ، لكنها إلى السكون عادت واستقرت بعد أن حققت كل طموحات الشاعر وآماله في الحياة والكون .

الخاتمة :

بسطت قصيدة البحتري ـ كما قدرأينا ـ أبعاد معضلة أصبح مجتمعه ، بعد مقتل الخليفة المتوكل ، يعاني من شرورها وهي ما يمكن أن تسمى بالقهر الإنساني ، الذي غابت فيه القيم العـظيمـة فلم يعد لكلمات الرحمة ، والعدل ، والمساواة ، والتضحية أي وجود في عالم رجاله المتحكمـين بأمـره ، وإنما أصبحت مفردات الجشع ، والبغي ، والغل ، والغدر ، والدمار ، والهلاك هي الرائجة في سوق أنانيتهم ، ونفعيتهم ، وجبروتهم .

ولما كان مثل هذا القهر الإنساني سلوكاً شهدته أمة الشاعر ، واستطاعت التغلب عليه والخروج من محنته في الماضي ، فقد تمثل المبادىء والوسائل التي اتبعت هناك لتكون الأسلوب الأنجع في حل مأساة مجتمعه في الحاضر ، وبذلك انتقل بخياله إلى هجرة الرسول الكريم وما اعتمدته من أسلوب في التحدي ، وتكوين القوة المتآلفة على الحق العدل والمساواة حتى تحقق الفتح المبين وتغير كل شيء إلى الضد الحسن ، فانقلب الشر خيراً ، والقطيعة لحمة ، والحرب أمناً وسلاماً .

لقد سخر الشاعر كل قدراته اللغوية والفنية كي يغلف أفكاره البعيدة تلك ، متستراً ببعض الأسـاليب الشعـريـة المعهـودة كالحـديث عن الشيب والشباب ، وسرد أوصاف الممدوحين ، ووصف جمال الربيع ، ووسائل الشراب ، لكن قدراً من التفكير النقدي التحليلي في الطريقة الشعرية الكلية التي تعامل فيها الشاعر مع لغة هذه الأساليب وغيرها ، يمنحنا فرصة للكشف عما تخفيه وما ترمي إليه حتى لو كانت مراميها قصيّة .

إننا ـ في نهاية هذا التحليل ـ نؤكد ما لمسناه من براعة الشاعر في الربط بين أفكاره الانفعالية ومعالجاته اللغوية ـ صورة وإيقاعاً وما تبعهما من فنون القول ـ مما مكن المعنى ، في قصيدته هذه ، أن يتشكل في أعمق مستوياته الجمالية ، وأكملها فنية .

المصادر والمراجع :

١ ـ البحتري ، أحمد أحمد بدوي ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة .

٢ ـ تاج العروس ، السيد محمد مرتضى الزبيدي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ١٩٦٦ م .

٣ ـ تاريخ الأمم والملوك ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت .

٤ ـ تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٥ ـ ديوان أبي تمام ، بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة .

٦ ـ ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، الطبعة الثانية ، ذار المعارف ، القاهرة .

٧ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى ، بشرح أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٨ ـ رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٦٤ م .

٩ ـ الزمن في الأدب : هانز ميرهوف ، ترجمة الدكتور أسعد رزق ، نشر مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

١٠ ـ سينية أحمد شوقي وعيار الشعر العربي الكلاسيكي ، مجلة فصول ، مجلد ٧ العددان ١ ، ٢ أكتوبر ١٩٨٦ ، مارس ١٩٨٧ ، القاهرة .

١١ ـ الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، عبد القادر الربّاعي ، نشر جامعة اليرموك ، إربد ، ١٩٨٠ م .

١٢ ـ الصورة الفنية في النقد الشعري : دراسة في النظرية والتطبيق ، عبد القادر الربّاعي ، دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨٤ م .

١٣ ـ العصر العباسي الثاني ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة .

١٤ ـ الفخري في الآداب السلطانية ، مكتبة صبيح بالقاهرة د.ت .

١٥ ـ المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية ، وليم راى ، ترجمة يونيلل يوسف عزيز ، دار المأمون للترجمة والنشر ، بغداد ، ١٩٨٨ م .

الحدود النحوية
مدخل إلى وظائف الاسم في التركيب

د. علي أحمد الكبيسي
مدرس بقسم اللغة العربية - جامعة قطر

يهدف التحليل النحوي إلى الكشف عن الوظيفة التي تؤديها الكلمة في الكلام أي إلى التعرف على المعنى النحوي لها فيه، ويجد كثير من المتعلمين صعوبة في الوصول إلى ذلك المعنى الوظيفي لأنهم لا يهتمون بالقرائن المبثوثة في السياق الموصلة إلى ذلك المعنى الوظيفي أو يهتمون بواحدة ويهملون الأخر، في حين أن المعنى الوظيفي لا يكتمل إلا بمجموعة من القرائن (السمات) التي إذا توفرت في كلمة ما هيأتها لأدائه .

لقد أشار النحاة إلى أن الإعراب في الأسماء موضوع بإزاء معان يدل عليها، ولا تكون هذه المعاني إلا فيها، أي أن الاسم - لا الفعل ولا الحرف - ينفرد بأدائه المعاني الوظيفية النحوية في التراكيب، من هنا برزت فكرة هذا البحث إذ قامت على أنه إذا كان للاسم وظيفة في الجملة فهل نجد في حدود الوظائف ما يعين على الكشف عنها والوصول إليها ؟ إذا كان «المبتدأ» - مثلا - وظيفة للاسم فهل نجد في حده ما يعيننا على الوصول إليه وتحديده .

يتناول هذا البحث دراسة حدود الوظائف النحوية الأساسية والمكملة والتوابع في محاولة للكشف عن القرائن اللفظية والمعنوية التي يتضمنها كل حد، وقد استعان في ذلك بنظرية د. تمام حسان في القرائن النحوية وتضافرها من أجل تحديد المعنى النحوي الوظيفي[1] .

يتضمن هذا البحث تحليلا لحدود الوظائف النحوية مقسمة حسب حالاتها الإعرابية (المرفوعات - المنصوبات - المجرورات - التوابع) ويقدم في النهاية نظرة عامة تناولت دور تلك القرائن في التمييز بين تلك الوظائف .

---

(١) انظر القرائن النحوية بحث بمجلة اللسان العربي، المجلد ١١، ج ١، واللغة العربية معناها ومبناها . ولم يأخذ البحث بقرينة العلامة الإعرابية بل أخرج الأحكام الإعرابية من الحدود لأن المقصود الأول من الحد معرفة ماهية المحدود ثم يأتي بعد ذلك الحكم عليه .

حدود الوظائف النحوية

الفاعل :

قيل في حده : هو «المسند إليه فعل تام مقدم فارغ باق على الصوغ الأصلي ، أو ما يقوم مقامه[1]» . يوضح هذا الحد القرائن الموصلة إلى تحديد الفاعل وهي :

١ ـ المسند إليه .	(إسناد)
٢ ـ تمام الفعل .	(بنية)
٣ ـ تقدم الفعل أو شبهه .	(رتبة)
٤ ـ خلو الفعل من الإضمار مع تقدمه .	(بنية)
٥ ـ بقاء الفعل على صيغته الأصلية .	(بنيّة)

وهذه القرائن يمكن توزيعها على نوعين :

(أ) قرائن في الفعل وهي :

ـ أن يكون تاما تمييزا له من الناقص فلا يسمى مرفوعه فاعلا إلا على سبيل التوسع [٢]

ـ أن يكون متقدماً ، وهذه رتبة لازمة ، وبها يتميز الفاعل من المبتدإ .

ـ أن يخلو من الضمير مع تقدمه ، وهذه قرينة تميزه من المبتدإ الذي قُدم خبره المتضمن ضميره نحو : قائمٌ زيدٌ ، نجحوا الطلابُ .

ـ أن يبقى على صيغته الأصلية ، فيكون هذا دليلا على وجود الفاعل في التركيب نفسه بخلاف ما إذا حدث تغيير في البنية فهذا دليل على حذف الفاعل .

(ب) قرائن في الفاعل :

وتتمثل في كونه مسندا إليه ، ولا يكون ذلك إلا اسما أو ما يقوم مقامه ، وأن يكون المسندُ الفعلَ أو شبهَه بقرائنه المذكورة .

وبهذه القرائن مجتمعة يتحدد الفاعل فيعطى حكما إعرابيا لضبط آخره وهو الرفع بالعلامات الموضوعة لذلك . والفعل أهم ما يوصِل إلى الفاعل ، فمتى وجدنا فعلاً في التركيب نظرنا في خصائص بنيته فإن وجدناه تاما ، خالياً من الإضمار ، باقيا على أصله فلابد أن يكون له فاعل بعده في التركيب نفسه وعلينا أن نبحث عن اسم يكون مسندا إليه ذلك الفعل ، فيكون هو الفاعل .

---

(١) شرح الكافية الشافية ٢/ ٥٧٦ ، التسهيل ٧٥ .

(٢) التذييل والتكميل ٢/ ١١١ ب .

قال الشاعر :

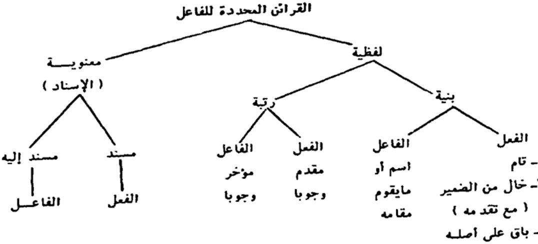
مَضَى عهد الإِستبدادِ واندَكّ صرحُه　　وولّت أفـاعيـه ومـاتت عقـاربُـه

لتحديد الفاعل في البيت السابق علينا أن نبحث عن الأفعال وننظر في صفاتها . الأفعال هي (مضى ، اندك ، وَلّت ، ماتت) وهي كلها مستوفية لما ذكرناه من (التمام ، التقدم مع الخلو من الإضمار ، البقاء على الأصل) وعليه فمع كل منها فاعل نتعرف عليه بأمرين : أنه اسم مسند إليه .

ما الذي مضى ؟	عهـدُ . . .
ما الذي اندك ؟	صرحُه
ما التي ولت ؟	أفاعيه
ما التي ماتت ؟	عقاربُه

وسبب الاعتماد على الفعل بخصائصه المذكورة في تحديد الفاعل أن وقوع الاسم مسنداً إليه لا يوجب له الفاعلية ، بل قد تكون له وظائف أخرى (نائب فاعل ، مبتدأ ، اسم كان ، اسم كاد ، اسم الأحرف المشبهة بليس) . ومن هنا لا يصح الاقتصار على قرينة الإسناد في تحديد الفاعل بل يجب أن تتضافر معها قرائن أخرى حتى يتميز الفاعل من غيره مما يكون مسندا إليه ، وسبيلنا إلى ذلك قرائن في الفعل :

فتقدمه خاليا من الإضمار يخرج المبتدأ .
وتمامه يخرج أسماء الأفعال الناقصة وأسماء الأحرف المشبهة بليس .
وبقاؤه على صيغته الأصلية يخرج نائب الفاعل .
وبهذه القيود في المسند لا يكون المسند إليه إلا الفاعل .



نائبالفاعل :

اختلف النحاة في تسمية هذه الوظيفة النحوية ، فمنهم من سمّاها «مفعول ما لم يسم فاعله»[1] وهم أكثر المتقدمين ، ومنهم من سمّاها «نائب الفاعل»[2] وهم المتأخرون ، قال أبو حيان : «لم أر مثل هذه الترجمة لغير ابن مالك والمعروف باب المفعول الذي لم يسم فاعله»[3] . وقد فضّل ابن هشام ترجمة ابن مالك وقال : إنها أنسب لأن النائب عن الفاعل يكون مفعولا وغيره ، ولأنها تخرج المنصوب في نحو «أُعطِي زيدٌ درهما» وإن كان مفعولا لما لم يسم فاعله»[4] .

ومن النحاة[5] من أدخله في باب الفاعل ولم يخصص له بابا مستقلا في المرفوعات وحجته أنه يجري مجرى الفاعل في أنه مسند إليه فِعلٌ قبله «وليس من شرط الفاعل أن يكون موجدا للفعل أو مؤثرا فيه»[6] وإذا كان الأمر كذلك فلا فرق بين ضَرَبَ زيدٌ وضُرِبَ زيدٌ في جواز تسمية (زيد) في كل منهما فاعلا لأنه قد أُسنِدَ إليه فعلٌ متقدم عليه[7] .

أما الذين خصوه بباب فقد عرفوه بأنه « كل مفعول حذف فاعله وأقيم هو مقامه وشرطه أن تغير صيغة الفعل[8] » .

ويكشف هذا الحد القرائن المساعدة على تحديد نائب الفاعل في التركيب وهي أنه :

١ ـ مفعول حذف فاعله (أصل معناه)

٢ ـ قائم مقام الفاعل (رتبة ، بنية ، إسناد)

٣ ـ مغيرة من أجله صيغة الفعل (بنية)

وأهم هذه القرائن وأدلها على نائب الفاعل هي تغيير صيغة الفعل ، وهي السمة الحاسمة في تمييز نائب الفاعل من غيره ، أي أنه مفعول أسند إليه فعل مغير عن أصله .

---

(١) الكتاب ١/ ٤١ ، المقتضب ٤/ ٥٠ ، الأصول ١/ ٧٦ ، الجمل ١/ ٧٨ ، المقتصد ١/ ٣٤٥ ، اللمع ١١٧ ، أسرار العربية ٨٨ .

(٢) التوطئة ٢٣٩ ، شرح الكافية الشافية ٢/ ٦٠٣ ، التسهيل ٧٧ ، أوضح المسالك ١/ ١٣٥ .

(٣) شرح التصريح ١/ ٢٨٦ .

(٤) شرح اللمحة البدرية ١/ ٣٠٩ ، شرح الشذور ١٥٩ .

(٥) نسبة الأهدل إلى كثير من البصريين والجرجاني والزمخشري ، الكواكب الدرية ١/ ٧١ ، وانظر شرح الكافية ١/ ٧١ ، المقتصد ١/ ٣٤٦ وشرح المفصل ١/ ٧٤ .

(٦) شرح المفصل ١/ ٧٤ .

(٧) المقتصد ١/ ٣٤٦ .

(٨) شرح الكافية ١/ ٨٣ .

وإذا لم يحدث تغيير في بنية الفعل فلا يجوز الحكم عليه بأنه نائب فاعل[1] .

والمقصود بالمفعول هنا هو المفعول به حقيقة أو حكما لأن المصدر والظرف والمجرور لا يقعن في هذا الموقع إلا بتقدير كونها مفعولات به على السعة «وهذا اتساع لفظي أما المعاني فإنها لا تستحيل أبدا»[2] .

لننظر في الأمثلة الآتية :

١ ـ «قُضِيَ الأمرُ»[3] .

٢ ـ «فإذَا نُفِخَ في الصور نفخةٌ واحدةٌ»[4] .

٣ ـ صِيم رمضانُ .

٤ ـ «ولما سُقِطَ في أيديهم . . . »[5] .

المتأمل فيها يجد أن لنائب الفاعل صورتين صورة ظاهرة ، وأخرى معنوية مستترة هو في الأولى مشابه للفاعل (بنية ورتبة وإسنادا) أما في الأخرى فهو غير فاعل بل مفعول به أو مصدر أو ظرف أو مجرور بحرف . وقد اعتمد بعض النحاة على الصورة اللفظية الظاهرة فجعلوا نائب الفاعل داخلا مع الفاعل ولم يفردوا له بابا بل سموه «فاعلا» في حين أخذ غيرهم في الاعتبار الصورة المعنوية ومن أجلها فصلوا نائب الفاعل من الفاعل وخصصوا له بابا وألحوا في الحد على ذكر هذه الخاصية تنبيها على الأصل .

مقارنة بين الفاعل ونائب الفاعل :

يتفق الاثنان في كون كل منهما ركنا أساسيا في الجملة الفعلية مسندا إليه، متأخراً عن الفعل ، مرفوعا ويطلبها فعل تام فارغ .

ويبقى الفصل بينهما ببنية الفعل فإن كان باقيا على أصله فالمسند إليه فاعل ، وإن غيرت صيغته فالمسند إليه نائب فاعل . يتضح هذا من الجدول التالي :

---

(١) التذييل والتكميل ٢/ ١٢١ ب .

(٢) شرح اللمع ١/ ٤٦ .

(٣) يوسف ٤١ .

(٤) الحاقة ١٣ .

(٥) الأعراف ١٤٩ .

القرينة / الوظيفة	الفاعـــــل	نائب الفاعـــــل
السمات المشتركة	مسند إليه (اسم أو ما يقوم مقامه) متأخر عن الفعل التام الخالي من الإضمار	مسند إليه (اسم أو ما يقوم مقامه) متأخر عن الفعل التام الخالي من الإضمار
السمات الفاصلة	(١) فعله باق على صيغته (٢) فعله متصرف أو جامد	(١) فعله محول عن صيغته الأصلية (٢) فعله متصرف .

المبتـــدأ :

قيل في تعريفه : إنه «الاسم المجرد عن العوامل اللفظية مسندا إليه أو الصفة الواقعة بعد حرف النفي وألف الاستفهام رافعة لظاهر»[1] .

يكشف هذا الحد سمات المبتدإ وهي :

١ ـ الاسمية (اسم أو صفة) (بنية)

٢ ـ التجرد من العوامل (بنية)

٣ ـ طرف أساسي في الإسناد (مسند إليه أو مسند) (إسناد)

٤ ـ الافتقار إلى جزء يتم به الكلام (وهو الخبر) (تضام)

وتعد قرينة «التجرد من العوامل اللفظية غير الزائدة» سمة حاسمة في تمييز المبتدإ من غيره فليس هناك اسم مسند أو مسند إليه مجرد عن العوامل اللفظية غير الزائدة إلا وهو مبتدأ .

أما « اسمية » المبتدأ فتظهر في صورتين :

(أ) اسم غير مؤول بالفعل .

(ب) اسم مشتق (صفة) بمعنى الفعل .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٨٥ ، وانظر شرح الكافية الشافية ١/ ٣٣٠ ، أوضح المسالك ١/ ١٨٤ .

وهذا التنوع في البنية يؤثر في الدور الذي يؤديه المبتدأ في الإسناد ، ذلك أنه إنْ كان اسما غير مؤول بالفعل فهو مسند إليه مفتقر إلى جزء ثان هو المسند ، وإن كان صفة فهو مسند مفتقر إلى مسند إليه . يتضح ذلك من خلال المثالين التاليين :

١ ـ الصبرُ طيبٌ مسند إليه + مسند

٢ ـ أناجحٌ المجِدُّ ؟ مسند + مسند إليه

ومن هنا قال النحاة : إن المبتدأ على قسمين[١] : مبتدأ له خبر ، ومبتدأ له مرفوع سد مسد الخبر ، يقصدون بالأول الاسم الذي ليس في معنى الفعل فهو محتاج إلى خبر ، ويقصدون بالثاني الصفة ولأنها في معنى الفعل احتاجت إلى مسند إليه فاعل أو نائب فاعل ، ولذا يشترطون فيها أن تكون نكرة مسبوقة بنفي أو شبهه حتى يمكن تأويلها بفعل ، أما الوصف المعرف مثل : المجد فائز ، فهو اسم صريح في غير تأويل الفعل لأنه اقترن بخاصة من خصائص الاسم وهي (ال) . الفرق بين النوعين في البنية أدى إلى فرق بينهما في الوظيفة الإسنادية وإن اتحد مسمى المعنى النحوي لهما .

ويمكن تلخيص القرائن لكل منهما في الجدول الآتي :

المبتدأ الذي له خبر	المبتدأ الذي ليس له خبر
اسم غير مؤول بالفعل	صفة (بمعنى الفعل)
مجـــرد	مجـــردة
مسند إليه	مسند

الخبـــر :

قيل في حده : إنه «المسند الذي تتم به مع المبتدإ فائدة»[٢] .

يلخص هذا الحد أهم سمتين تميزان الخبر وهما أنه :

١ ـ مسند (إسناد)

٢ ـ مع مبتدإ (تضام)

(١) المصادر السابقة .

(٢) شرح قطر الندى ١١٧ .

ويمكن توضيحها من خلال مقارنة الأمثلة الآتية :

١ ـ زيدٌ قائمٌ	مسند إليه (مبتدأ) + مسند (خبر)
٢ ـ أقَائمٌ زيدٌ	مسند (مبتدأ) + مسند إليه (فاعل)
٣ ـ قامَ زيدٌ	مسند (فعل) + مسند إليه (فاعل).

فليس في هذه التراكيب مسند مع مبتدإ إلا الخبر ، وبذا خرج المسند مع الفاعل فهو إما فعل أو مبتدأ ، وأما الفاعل مع المبتدإ فهو مسند إليه لا مسند .

اسم كان وأخواتها ، واسم كاد وأخواتها ، واسم الحروف المشبهة بليس :

هو « مسند إليه بعد دخولها الذي كان في الأصل مبتدأ »[1] .

يبين هذا الحد أهم القرائن الموصلة إلى معرفة « اسم هذه النواسخ »، وهي أنه :

١ ـ مسند إليه	(إسناد)
٢ ـ بعد دخولها	(أداة ـ رتبة ـ تضام)
٣ ـ كان في الأصل مبتدأ	تنبيه على الأصل

أي أنه مسند إليه مسبوق بناسخ معين . فأول القرائن الموصلة إليه هي الناسخ فعلا كان أو حرفا ، فهذه النواسخ مفتقرة إلى اسم لابد ان يكون مسندا إليه متأخرا عنها وجوبا بفاصل أو بغير فاصل ، يتضح ذلك من الآيات الكريمة الآتية :

١ ـ « وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسى فارغاً . . . »[2] .

٢ ـ « عسَى اللّـهُ أنْ يَكُفَّ بأسَ الذين كَفروا . . . »[3] .

٣ ـ « ما هذا بَشَراً »[4] .

وعليه فمتى جاء ناسخ من تلك النواسخ في تركيب ما فإن التركيب يتخذ الشكل الآتي :

الناسخ ←—— اسمه ←—— خبره

---

(١) انظر شرح الكافية ١/١١٢ .

(٢) القصص ١٠ .

(٣) النساء ٨٤ .

(٤) يوسف ٣١ .

فالاسم من مقتضيات الناسخ وملازم له ، ورتبته متأخرة عنه وجوبا ، أما وظيفته الاسنادية فباقية كما هي في التركيب الأصلي دون تغيير إذ هو مسند إليه قبل الناسخ وبعده .

ويمكن تمثيل ما يجرى من تحويل على النحو الآتي :

مبتدأ + خبر جملة اسمية

الناسخ (مبتدأ + خبر)

الناسخ+اسم الناسخ + خبر الناسخ جملة اسمية منسوخة

يمكن التعرف على اسم هذه النواسخ بقرينتين أساسيتين إحداهما لفظية وهي الناسخ (فعل أو حرف) والأخرى معنوية وهي كون الاسم مسندا إليه .

خبر إن وأخواتها وخبر لا النافية للجنس :

هو « المسند بعد دخولها الذي كان في الأصل خبر المبتدإ »[1] .

يوضح هذا الحد أهم قرائن خبر هذه النواسخ وهي أنه :

١ ـ مسند	(إسناد)
٢ ـ بعد دخولها	(أداة ، تضام ، رتبة)
٣ كان في الأصل خبراً لمبتدإ	(تنبيه على الأصل)

أول القرائن المساعدة في التعرف على هذه الوظيفة النحوية هي الحرف الناسخ (إنَّ أو إحدى أخواتها ـ لا النافية للجنس) . فهذه الأحرف تطلب اسما هو المسند إليه ، وخبرا هو المسند ، ولابد أن يتأخر وجوبا عن الناسخ والاسم أي أن تركيب الجملة يكون بهذا الشكل (الناسخ + اسمه + خبره).

ويظهر هذا المسند في عدة صور : مفرد ، جملة ، شبه جملة ، قياسا على أصله وهو خبر المبتدإ .

---

(١) شرح الكافية ١/ ١٠٩ .

جدول المرفوعات
حدودها وقرائنها

الوظيفة	التعريف	القرينة المميزة	القرائن المساعدة
الفاعل	«المسند إليه فعل تام مقدم فارغ باق على الصوغ الأصلي . أو ما يقوم مقامه»	الفعل الباقي على صيغته الأصلية (بنية الفعل)	١ ـ تمام الفعل ٢ ـ تقدمه ٣ ـ خلوه من الإضمار مع تقدمه ٤ ـ مسند إليه ٥ ـ البنية (اسم . . .)
نائب الفاعل	«كل مفعول حذف فاعله وأقيم هو مقامه وشرطه أن تغير صيغة الفعل»	الفعل المبني للمفعول (بنية الفعل)	١ ـ حذف الفاعل ٢ ـ افتقار الفعل إلى مسند إليه ٣ ـ مسند إليه لفظا ، مفعول معنى ٤ ـ تقدم الفعل المبني للمفعول ٥ ـ البنية (اسم . . .)
المبتدأ	«الاسم المجرد عن العوامل اللفظية مسندا إليه أو الصفة الواقعة بعد حرف النفي وألف الاستفهام رافعة لظاهر»	الاسم المجرد عن العوامل اللفظية غير الزائدة	١ ـ الإسناد ٢ ـ البنية
الخبر	«المسند الذي تتم به مع المبتدإ فائدة»	مسند مع مبتدإ (إسناد + تضام)	١ ـ الافتقار إلى مسند إليه ٢ ـ البنية (اسم مفرد ، جملة ، شبه جملة)
إسم كان وأخواتها اسم كاد وأخواتها اسم الأحرف المشبهة بليس	«المسند إليه بعد دخولها الذي كان في الأصل مبتدأ»	١ ـ الأداة (الناسخ) ٢ ـ الإسناد (مسند إليه)	١ ـ الرتبة ٢ ـ التضام ٣ ـ مراعاة الأصل ٤ ـ البنية
خبر إن وأخواتها خبر لا النافية للجنس	«المسند بعد دخولها الذي كان في الأصل خبراً لمبتدإ» .	١ ـ الأداة (الناسخ) ٢ ـ الإسناد (مسند)	١ ـ الرتبة ٢ ـ التضام . ٣ ـ مراعاة الأصل ٤ ـ البنية

المفعول المطلق :

هو « مصـدر فضلة أو نائب عنه سلط عليه عامل من لفظه ومعناه أو معناه فقط»[١] .
وقيل : هو «المصدر الفضلة المؤكد لعامله أو المبين لنوعه أو لعدده»[٢] .

أهم سمات المفعول المطلق أنه :

١ ـ مصدر أو نائب عنه	(بنية)
٢ ـ فضلة	(معنى)
٣ ـ سلط عليه عامل	(تضام)
٤ ـ من لفظه ومعناه أو معناه فقط	(مطابقة)
٥ ـ مؤكد لعامله أو مبين لنوعه أو لعدده	(تخصيص)

الأصل أن تجتمع هذه القرائن لتسهل التعرف على «المفعول المطلق» كما في قوله تعالى : «وكَلّمَ الله موسى تكليما»[٣] ، «فاصبِر صبراً جيلا»[٤] ، «فدُكتا دَكّةً واحدةً»[٥]إلا أنه قد يعرض في بعض التراكيب غياب بعض هذه القرائن، فالمصدر يمكن أن يأتي مفعولا به نحو : أحِبّ الصبرَ الجميلَ ، ومفعولا له نحو تصدقتُ رغبةً في الأجر ، ومفعولا معه نحو : خرجتُ وطلوعَ الشمس ، ونائبا عن ظرف الزمان نحو : أزورُك غروبَ الشمس ، وحالا نحو : جاءَ ركضاً ، ومن هنا لا تصلح «المصدرية» قرينة حاسمة في تمييز المفعول المطلق من غيره .

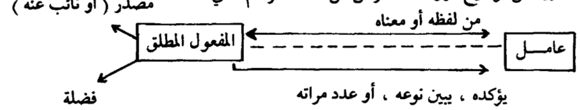
ومكملات الجملة كلها فضلات أي ليست من الاركان الأساسية في بناء الجملة ، وكل معمول له عامل .

أما ما يتميز به المفعول المطلق فهو قرينة «المطابقة بينه وبين العامل» حقيقة أو تقديرا وقرينة «تحديده للعامل» فمثلا في قولنا : ضربتُه سَوطاً ، كلمة «سوطا» مفعول مطلق مع أنها ليست مصدراً ، وهي فضلة معمولة لعامل مثل كل الفضلات ، أما الذي يبر ر القول بذلك الإعراب فهو أن بينها وبين الفعل مطابقةً في اللفظ ، لأن الأصل «ضربتُه ضرباً بسوط ثم توسع في الكلام فحذف المصدر وأقيمت الآلة مقامه وأعطيت ما له من إعراب . . »[٦] وفيها أيضا تحديد للفعل

(١) شرح اللمحة ٢/١٦٢ ، شرح القطر ٢٢٤ .
(٢) شرح الشذور ٢٢٥ .
(٣) النساء ١٦٤ .
(٤) المعارج ٥ .
(٥) الحاقة ١٤ .
(٦) شرح التصريح ١/٣٢٨ .

ببيان نوعه ، لأنه ضرب حاصل بسوط لا ضرب مطلق .

ويمكن توضيح دور تلك القرائن من خلال الرسم الآتي :



المفعول به :

هو «الذي يقع عليه فعل الفاعل»[1] ، وقيل : «كل اسم تَعَدّى إليه فعلٌ»[2] .

في هذين الحدين أهم سمات المفعول به :

١ ـ اسم (بنية)

٢ ـ وقع عليه فعل (تعلق + بنية)

يعد الفعل المتعدي مدخلا إلى المفعول به «لان الأفعال المتعدية لا تتم ولا توجد إلا بوجود المفعول به»[3] أي أنها لا تفهم ولا تعقل إلا بمتعلق ، وسمي هذا المتعلق مفعولا به «لأنه لما قال القائل : ضَرَبَ وقَتَلَ ، قيل له : هذا الفعل بمن وقع ؟ فقال : بزيد أو بعمرو ، فهذا إنما يكون في المتعدي ولا يقال فيها لا يتعدى»[3] . التلازم واضح بين الفعل المتعدي وما يستدعيه من متعلق وجهة التعلق هي وقوع الفعل عليه .

والوقوع على نوعين : حسي نحو : ضربتُ زيداً ، ومعنوي نحو ذَكَرْتُ زيداً ، «لأنك إن قلت : ذَكَرْتُ ولم يكن مذكور فهو محال»[4] .

وبهذا النوع من التعلق يتميز المفعول به عن غيره من المفاعيل ، لأن الفعل ليس واقعا عليها بل المفعول له واقع لأجله الفعل ، والمفعول فيه واقع فيه الفعل ، والمفعول معه واقع معه الفعل ، والمفعول المطلق عَينُ فعله[4] .

(١) المفصل ٣٤ ، شرح الكافية ١/ ١٢٧ ، شرح اللمحة ٢/ ٧١ ، شرح القطر ٢٠١ .

(٢) أسرار العربية ٨٥ .

(٣) الأصول ١/ ١٧١ .

(٤) الفوائد الضيائية ١/ ٣٢٠ .

المفعول له :

هو « المصدر المعلل لحدث شاركه في الزمان والفاعل »[1] .

أهم القرائن الدالة على المفعول له هي :

١ ـ المصدريـــة	(بنية)
٢ ـ التعليل	(معنى)
٣ ، ٤ اتحاد الزمان ، اتحاد الفاعل	(مطابقة)

نحو قوله تعالى : «يَجعلون أصابِعَهم في آذانِهم من الصواعِقِ حَذَرَ الموتِ»[2] .

الأصل في التعليل أن يكون باللام الدالة عليه لكن يجوز حذفها إذا وجدت في الكلمة القرائن السابقة لانها تدل عليه . قال ابن الحاجب : «ومعلوم أن كونه فعلا ، وكونه لمن فعل الفعل الأول وكونه مقارنا مما يغلب على الظن كونه علة فجاز حذف الحرف الدال على العلية لقيام غيره مقامه ، فإن فقد شيء منها رجع إليه كقولك : جئتك للسِّمنِ ، وقعدت عنك اليوم لمخاصمتِك لي أمسِ . . »[3] .

المفعول فيه :

«ما فُعِلَ فيه فِعلٌ مذكورٌ من زمان أو مكان »[4] .

وقيل : « ما ضُمِّنَ ـ من اسم وقت أو مكان ـ معنًى في باطراد لواقعٍ فيه مذكورٍ أو مقدر . . »[5] .

أهم قرائن المفعول فيه أنه :

١ ـ اسم زمان أو مكان	(بنية) ، (معنى)
٢ ـ متضمن معنى في باطراد	(معنى)
٣ ـ وقع فيه فعل مذكور أو مقدر	(تضام)

---

(١) التسهيل ٩٠ ، شرح الشذور ٢٢٦ .

(٢) البقرة ١٩ .

(٣) الأمالي النحوية (الأملية ٧٦) و «فعلا» يعني بها مصدرا . وانظر الإيضاح في شرح المفصل ١/ ٣٢٦ .

(٤) شرح الكافية ١/ ١٨٣ ، شرح ألفية ابن معطي ١/ ٥٣٩ .

(٥) التسهيل ٩١ .

الوظيفة الأساسية للاسم هنا أن يبين الزمان أو المكان الذي وقع فيه الفعل ، ولذا فلابد أن يكون فيه ما يشعر بذلك .

(أ) أن يكون اسم زمان أو مكان .

(ب) أن يتضمن معنى (في) أي أن يدل على الظرفية بمعنى أن يشير إليها ويقارنها وإن لم يقبلها لفظا كبعض الظروف التي لا تتصرف . وهذا القيد مهم في تحديد الوظيفة (المفعول فيه) لأن اسم الزمان أو المكان غير المتضمنين معنى «في» لا يؤديان هذه الوظيفة ، ففي قوله تعالى «يَخافون يوماً . . . »[١] وقوله تعالى «لِيُنذِرَ يومَ التَّلاق»[٢] ليس المعنى على ان الخوف يقع في ذلك اليوم ، ولا أن الإنذار يقع في يوم التلاقي وإنما الفعل واقع عليهما لا فيهما ، فكلاهما مفعول به لا مفعول فيه وإن كان اسم زمان .

ولابد أن تكون دلالته على الظرفية مطردة بمعنى أن يدل عليها مع كل عامل ولا يختص بها مع عامل دون عامل أو في استعمال دون استعمال إلا ما استثنى من ذلك[٣] . وبهذا خرج قولهم : «مُطِرنا السهلَ ، والجبلَ» لأنه لا يقاس عليه لا في الفعل ولا في الأماكن فلا يقال : أخصَبْنا السهلَ والجبلَ ، ولا مُطِرنا القِيعانَ والتُّلولَ»[٤] وقولهم : «دخلتُ الدارَ» إذ لا يطرد نصبه مع سائر الأفعال فلا يقال : «نِمتُ البيتَ ولا قَرأتُ الدارَ»[٥] .

وتمـام قرائن المفعـول فيه أن يقع فيه فعل أي لابد له من متعلق مذكور أو مقدر وبهذه الخصائص مجتمعة يعرف المفعول فيه .

---

(١) النور / ٣٧ .

(٢) غافر / ١٥ .

(٣) استُثنى من ذلك أسماء المقادير المكانية فعامِلُها أفعال السير ، وأسماء المكان المشتقة فعامِلُها ما اتحد معها في المادة الاشتقاقية .

(٤) الكتاب ١/ ١٥٩ . الأصول ٢/ ٥٤ ، شفاء العليل ١/ ٤٦٤ ، حاشية يس ١/ ٣٣٧ .

(٥) الأصول ١/ ٩٧ ، الاشموني ٢/ ٣٥٦ .

المفعول معه :

هو «المذكور بعد الواو لمصاحبةِ معمولِ فعلٍ لفظا أو معنى»[1] .

وقيل هو : « الاسم المذكور فضلة بعد واو بمعنى مع مسبوقة بفعل أو شبهه»[2] .

أهم سمات المفعول معه أنه :

١ ـ اسم صريح (بنية)

٢ ـ بعد واو بمعنى مع (رتبة ، أداة، معنى)

٣ ـ مسبوق بفعل أو شبهه (تضـــام)

أول القرائن التي يمكن التعرف من خلالها على هذه الوظيفة النحوية هي الأداة «الواو» ولابد فيها أن تكون لمعنى واحد محدد هو المصاحبة أي أن تفهم المصاحبة منها لا من غيرها وبذا خرج العطف في نحو : جاء زيدٌ وعمرٌو , والحال في : جئتك والشمسُ ساطعةٌ .

وثاني هذه القرائن هو الكلمة الواقعة بعد تلك الواو فلابد أن تكون اسما صريحا وبهذا خرج نحو : لا تأكلِ السمكَ وتشربَ اللبنَ .

وثالث تلك القرائن هو ما قبل الواو إذ لابد أن يكون جملةً بها فعل أو ما يشبهه يتعلق به الاسم الواقع بعد الواو ، ومن هنا قال النحاة بتقدير العامل في نحو قولهم : ما أنت والبردَ ؟ كيف انت وقَـصْـعَـةً من ثريد ؟ لعدم وجود عامل ظاهر قبل الواو[3] .

أما ترتيب تلك القرائن فعلى هذا النمط :

جملة + واو بمعنى مع + اســـم

نحو : خرجت و أذانَ الفجر .

---

(١) شرح الكافية ١/ ١٩٤ .

(٢) شرح الكافية الشافية ٢/ ٦٨٧ ، شرح قطر الندى ٢٣١ .

(٣) الكتاب ١/ ٣٠٣ .

الحـال :

هو «ما يبين هيئة الفاعل أو المفعول به لفظا أو معنى»[1] .

وقيل : «مادل على هيئةٍ وصاحبها متضمنا ما فيه معنى في غير تابع ولا عمدة»[2] .

وقيل : «وصف فضلة مسوق لبيان هيئة صاحبه أو توكيده أو تأكيد عامله أو مضمون جملة قبله»[3] .

وقال ابن جني : «اعلم أن الحال وصف هيئة الفاعل أو المفعول به . وأما لفظها فإنها نكرة تأتي بعد معرفة قد تم عليها الكلام ، وتلك النكرة هي المعرفة في المعنى»[4] .

توضح هذه الحدود أن السبيل إلى معرفة «الحال» ثلاث قرائن متضافرة هي :

١ ـ البنية (وصف ، نكرة) ، صاحبها (معرفة) .

٢ ـ المعنى (بيان الهيئة ـ التوكيد ـ صاحبها معنى) .

٣ ـ التضام (العامل ـ الصاحب) .

فمن حيث البنية يغلب في الحال أن تكون اسما مشتقا نكرة مسبوقة باسم معرفة هو صاحبها وهي تأتي إما لبيان هيئته أو لتوكيده أو لتوكيد عاملها أو لتوكيد مضمون جملة قبلها .

ومع كل حال لابد من صاحب وعامل حقيقة أو تقديراً . وعلى مستوى التركيب ليست الحال ركنا أساسياً من أركان الجملة بل هي من مكملاتها .

بهذه القرائن مجتمعة تعرف الحال ، فمثلا في قوله تعالى «فلما رأى القمرَ بازغاً . .»[5] لو تأملنا كلمة «بازغا» مراعين القرائن الثلاث السابقة لوجدنا أنها :

١ ـ وصف ، نكرة .

٢ ـ تبين هيئة ما قبلها .

٣ ـ ليست ركنا أساسيا في الجملة الفعلية .

٤ ـ صاحبها معرفة « القمر » .

٥ ـ عاملها « رأى » .

---

(١) شرح الكافية ١/١٩٨ .

(٢) التسهيل ١٠٨ .

(٣) شرح شذور الذهب ٢٤٤ .

(٤) اللمع ص ١٤٥ .

(٥) الأنعام ٧٧ .

وأبسط تراكيب الحال أن تأتي على هذه الصورة :

العامل + الصاحب + الحـال

الصاحب ← معرفـة

الحال:
١ ـ وصف ، نكرة
٢ ـ مبين للهيئة أو مؤكد
٣ ـ يطلب عاملا وصاحبا

وأهم سمات الحال الموصلة إليها اثنتان :

(أ) التنكير

(ب) بيان الهيئة (الغرض من الحال)

التمييــز :

« ما يرفع الإبهام المستقر عن ذات مذكورة أو مقدرة »[1] .

وقيل : « اسم فضلة نكرة جامد مفسر لما انبهم من الذوات »[2] .

و « اسم نكرة بمعنى مِنْ مبين لإبهام اسم أو نسبة »[3] .

أهم قرائن التمييز أنه :

١ ـ اسم نكرة جامد	(بنية)
٢ ـ بمعنى من / مفسر للإبهام	(معنى)
٣ ـ يفسر ذاتا أو جملة	(تضام)

الغرض من التمييز رفع الإبهام الحقيقي الذي يحصل في بعض التراكيب ويكون في ذات مفردة أو في نسبة بأن تحتمل الذات أو النسبة أشياء كثيرة يتردد المخاطب فيها ولا يرتفع الإبهام إلا بالنص على أحد المحتملات .

وسبب الإبهام حدوث تغيير في التركيب الأصلي قصدا إلى ضرب من المبالغة والتأكيد ، فقولهم : عندي رطلٌ زيتاً أصله : عندي زيتُ رطلٍ فقصدوا إلى التغيير ليحصل الإبهام الذي

---

(١) شرح الكافية ٢/ ٢١٥ .

(٢) شرح قطر الندى ٢٣٧.

(٣) أوضح المسالك ٢/ ٣٦ .

يستلزم التشوق إلى تفسيره ثم فسروه ليعلم موقعه وليكون كأنه ذكر مرتين مبهما ومفسرا . .[1] ، وقولهم : طابَ زيدٌ علمًا أصله : طابَ علمُ زيدٍ، وحصل التغير ليكون الإبهام ثم التفسير .

يفهم من هذا أن أول قرينة تدل على التمييز هي حصول الإبهام في الذات أو النسبة . ولذا يصبح مهماً التعرف على مظانها ، فالذات المبهمة تكون في المقادير ، والعدد ، ومادل على مماثلة أو مغايرة . أما النسبة ففي الجملة ومايضاهيها من الصفة المنسوبة إلى معمولها[2] وهي على قسمين محولة ، وغير محولة[3] . وهذه كلها قرائن تعين على معرفة التمييز .

والقرينة المهمة أيضاً في التعرف على التمييز هي المعنى الذي يدل عليه وهو رفع الإبهام وإزالة اللبس .

فالإبهام ورفعه قرينتان مهمتان في تحديد وظيفة التمييز ، تضاف إليها قرينة البنية بسماتها الثلاث : الاسمية ، والتنكير ، والجمود .

المستثنى :

« المستثنى متصل ومنقطع ، فالمتصل هو المخرج من متعدد لفظا أو تقديرا بإلاّ وأخواتها والمنقطع المذكور بعدها غير مخرج »[4] .

وقيل : « هو المخرج تحقيقا أو تقديرا من مذكور أو متروك بإلاّ أو ما بمعناها بشرط الفائدة»[5]

وقيل : « هو المذكور بعد إلاّ وأخواتها مخالفا لما قبلها نفيا أو إثباتا»[6] .

يدخل في الحدود السابقة المستثنى لفظا ومعنى ، والمستثنى معنى فقط ، والحقيقة أن الأول هو المنصوب وهو الذي يعرب بمستثنى أما الثاني فلا يعرب مستثنى لأنه إما أن يكون بدلا أو بحسب وظيفته في الجملة ، ومن هنا فسوف يكون التركيز على استنباط ما يعرب مستثنى فقط .

---

(١) شرح الوافية ٣٢٨ . وانظر المفصل ٦٦ ،شرح المفصل ٢/ ٧٤ ، الإيضاح في شرح المفصل ٣٥٨/١ .
(٢) الإيضاح في شرح المفصل ١/ ٣٥٠ .
(٣) شرح قطر الندى ٢٣٨ .
(٤) شرح ا لكافية ١/ ٢٢٤ .
(٥) التسهيل ١٠١ .
(٦) شرح الكافية ١/ ٢٢٤ .

أهم سمات المستثنى أنه :

١ ـ اســـم	(بنية)
٢ ـ مُخْـــرَج	(معنى)
٣ ـ من مذكور	(تضـــام)
٤ ـ بإلاّ	(الأداة)

وهذه السمات لازمة ، ولعل أوضحها دلالة عليه هي الأداة (إلاّ) بشرط أن تكون للاستثناء مسبوقة بالمستثنى منه سواء أكان الحكم موجبا أم غير موجب . أي أنه لابد لأداء هذه الوظيفة النحوية من أربعة عناصر مهمة وهي :

الحكم + مستثنى منه + إلاّ + مستثنى

نحو : « فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم»[1] .

والحكم على نوعين : موجَب وغير موجَب ، فالموجب قرينة على أن ما بعد إلاّ مخرجٌ مما قبلها معنى ويؤدي وظيفة المستثنى لفظا . أما غير الموجب فيدل على أن ما بعد إلا مخرج معنى لكنه على مستوى اللفظ لا يتعين لوظيفة (مستثنى) بل يجوز أن يؤدي وظيفة (البدل) من المستثنى منه . نحو : «مافعلوهُ إلا قليلٌ منهم»[2] .

والمستثنى منه لابد أن يوجد مهما كان الحكم ، أما إذا حذف فلا يؤدي ما بعد إلا وظيفة المستثنى نحو «وما يُضِلُّ به إلاّ الفاسقين» [3] .

والمَعنى الذي يتميز به المستثنى أنه مخرج من حكم ما قبله أي مخالف له إيجابا ونفيا ، والذي دل على تلك المخالفة هو الحرف (إلا) وبهذا يصبح لهذا الحرف دور وظيفي مهم لكونه أول قرينة لفظية دالة على معنى المستثنى بشرط وجود قرينتين أُخريين هما : الحكم الموجب والمستثنى منه .

---

(١) البقرة ٢٤٩ .

(٢) النساء ٦٦ .

(٣) البقرة ٢٦ .

خبر (كان وأخواتها ـ كاد وأخواتها ـ الأحرف المشبهات بليس) :

هو « المسند بعد دخولها »[1] .

من أهم سمات خبر هذه النواسخ أنه :

١ ـ مسنـــــــد (معنى)

٢ ـ بعد دخولها (الأداة)

تعد هذه الأفعال أو الأحرف قرائن لفظية على معمولاتها ، وهي لا تدخل على مفرد بل على جملة اسمية ، والظاهر أنها لا تغير العلاقة بين طرفي الإسناد بل يبقى لكل منهما وظيفته ، فاسمها «مسند إليه» كما كان قبل دخولها وخبرها «مسند» كما كان قبل دخولها . ومن هنا صح الاعتماد على هاتين الوظيفتين في تمييز المعمولين ، لأن هذه الأفعال أو الحروف غير مرتبطة بالمعاني الجزئية للإسناد وإنما بالمعنى الكلي للتركيب فكأنها قيد له بما تضيفه من معان خاصة بها «فإنك إذا قلت : زيدٌ قائمٌ احتملت هذه الجملة معاني كثيرة غير محصلة من لفظ الجملة ، فتدخل عليها هذه العوامل لِيُحَصّل كل واحد منها معنى من تلك المعاني التي كانت غير محصلة فإذا قلت : كان زيد قائمًا أفادت أنه كان فيما مضى وإذا قلت : أصبح أفادت أنه وقع في الصباح . . . فلما كان كل عامل منها يحصل معنى من تلك المعاني المبهمة التي كانت الجملة تحتملها قبل دخوله من غير تغيير للخبر أشبهت حروف المعاني التي تفيد المعاني المختلفة في الجملة الواحدة»[2] .

ومع هذه السمات المشتركة في خبر هذه النواسخ ، توجد بعض السمات الخاصة بخبر بعضها فالبنية قرينة مهمة في التعرف على خبر كاد لأنه لا يكون إلا جملة فعلية فعلها مضارع ولا يأتي اسما مفرداً أو جملة اسمية أو فعلية فعلها ماض إلا نادرا .

أما خبر المشبهات بليس فيمكن إضافة الرتبة قرينة لفظية لأنه يجب تأخيره عن الاسم ، وكل ما ذكر من شروط لإعمال هذه الأحرف يعد قرائن يمكن الاستعانة بها في تحديد خبرها .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٢٥١ .

(٢) إصلاح الخلل ١٣٦ .

« المسند إليه بعد دخولها »[1] .

١ ـ مسند إليه (معنى)
٢ ـ بعد دخولها (أداة)

أول قرينة مهمة في معرفة هاتين الوظيفتين هي الأداة ، التي تختص بالدخول على جملة اسمية فلا تغير معنى الإسناد بل يبقى للاسم معناه السابق وهو أنه مسند إليه . وتعد الأداة قرينة حاسمة في تمييز المعاني التي تحملها التراكيب ، ومع هاتين القرينتين هناك قرائن إضافية لم يكشف عنها الحد لكونها خارجة عن الماهية ، ومن أهمها :

ـ المعنى الخاص الذي تدل عليه لا وهو نفي الجنس . والمعاني الخاصة لـ (إنّ وأخواتها) .
ـ الرتبة وهي لازمة مع لا النافية للجنس فلا يجوز التصرف في ترتيب معموليها بتقديم أو تأخير ، ولا يجوز تقديم خبر إن وأخواتها على اسمها إلا إذا كان شبه جملة .
ـ البنية ذات دور مهم في تحديد معمولي لا النافية للجنس إذ يجب أن يكونا نكرتين .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٢٥٥ .

المنصوبات ـ حدودها وقرائنها

الوظيفة	التعريف	القرائن المميزة	القرائن المساعدة
المفعول المطلق	مصدر فضلة أو نائب عنه سلط عليه عامل من لفظه ومعناه أو معناه فقط .	١ ـ مطابقة الفعل (لفظا أو معنى) ٢ ـ تحديد العامل (توكيد ، بيان نوع ، أو عدد)	١ ـ مصدر أو نائب عنه (بنية) ٢ ـ فضلة (معنى) ٣ ـ عامله فعل أو مايشبهه (تضام)
المفعول به	كل اسم تعدّى إليه فعل .	وقوع الفعل عليه (معنى)	ـ اسم (بنية) ـ الفعل المتعدي (بنية)
المفعول له	مصدر معلل لحدث شاركه في الزمان والفاعل .	١ ـ المصدرية (بنية) ٢ ـ التعليل (معنى)	المشاركة في الفاعل والزمان مع الحدث (مطابقة)
المفعول فيه	ماضمن من اسم وقت أو مكان ـ معنى في باطراد لواقع فيه مذكور أو مقدر .	١ ـ بيان زَمان أو مكان الفعل (معنى ـ تضام) ٢ ـ تضمن معنى في باطراد (معنى)	ـ اسم (بنية) ـ وقع فيه فعل (تضام)
المفعول معه	الاسم المذكور فضلة بعد واو بمعنى مع مسبوقة بفعل أو شبهه .	١ ـ بعد واو بمعنى مع (رتبة + أداة + معنى)	١ ـ اسم (بنية) ٢ ـ مسبوق بفعل أو مايشبهه (رتبة + تضام)
الحال	وصف فضلة مسوق لبيان هيئة صاحبه أو توكيده أو توكيد عامله أو مضمون جملة قبله .	١ ـ بيان الهيئة ، التوكيد (معنى) ٢ ـ لها عامل وصاحب (تضام)	ـ اسم (بنية) ـ وصف (بنية)
التمييز	اسم فضلة نكرة جامد مفسر لما انبهم من الذوات .	١ ـ مفسر الإبهام (معنى) ٢ ـ في الذات (تضام)	١ ـ اسم نكرة جامد (بنية)
المستثنى	المذكور بعد إلا مخالفا لما قبلها نفيا وإثباتا .	١ ـ بعد إلا (رتبة) ، (أداة) ٢ ـ المخالفة (معنى)	اسم (بنية)

الوظيفة	التعريف	القرائن المميزة	القرائن المساعدة
خبر كان وأخواتها خبر كاد وأخواتها خبر المشبهات بليس	المسند بعد دخولها	(١) مسند (معنى) (٢) بعد دخولها (أداة + تضام)	البنية ، ط شروط العمل . . .
اسم إن وأخواتها اسم لا النافية للجنس	المسند إليه بعد دخولها	(١) مسند إليه (معنى) (٢) بعد دخولها (أداة + تضام)	أ ـ البنية (نكرة) ب ـ الرتبة

المجرور بالحرف :

لم يحده النحاة استغناء بما دل عليه من اسمه : اسم مجرور بحرف جر، ولظهور القرينة الدالة عليه وهي حرف الجر .

وأطلق عليه سيبويه[1] والمبرد[2] وابن الحاجب[3] لفظ «المضاف إليه» اعتمادا على المعنى اللغوي لأنهم يعدون حروف الجر حروف إضافة بمعنى أنها تضيف أي توصل معاني الأفعال إلى الأسماء المجرورة فهي واسطة بين المضاف وهو الفعل ، وبين المضاف إليه وهو الاسم المجرور بالحرف ، وهذا على خلاف ما هو مشهور عند المتأخرين حيث خصوا «المضاف إليه» بالاسم المجرور بإضافة اسم مثله إليه[4] .

وأهم القرائن الدالة عليه أنه :

١ ـ اسم (بنية)
٢ ـ مسبوق بحرف جر (رتبة + أداة + تضام) .

وتعد الأداة « حرف الجر » القرينة الحاسمة في تحديده ، إذ لا يكون بعدها إلا الاسم المجرور لفظا ومعنى أو لفظا فقط ،، ولذا اعتنى النحاة بها وبوبوا لها في كتبهم وبينوا معانيها .

المضاف إليه :

المشهور بين النحاة أنه وظيفة المجرور بإضافة اسم إليه ، وأطلقه بعضهم على المجرور بالحرف أيضا[5] ، وليس له حد عند أكثرهم اكتفاء بدلالة لفظه على معناه ، وبما يفصلونه في باب «الإضافة» من تفسيرها وبيان أقسامها .

الإضافة عندهم «اتصال آخر الاسم الأول بأول الاسم الثاني من غير فصل غالبا اتصالا يعقبه جر الثاني لفظا أو محلا»[6] .

---

(١) الكتاب ١/ ٤١٩ .
(٢) المقتضب ٤/ ١٣٦ .
(٣) شرح الكافية ١/ ٢٧٢ .
(٤) السابق ، والفوائد الضيائية ٢/ ٣ .
(٥) المصادر السابقة ، وشرح الكافية ١/ ٢٧٢ .
(٦) شرح ألفية ابن معطي ١/ ٧٢٩ .

وقيل : هي «إسناد اسم إلى ما أُقيم مَقامَ تنوينه أو نونه التالية للإعراب»[1] أو «نسبة تقييدية بين اسمين توجب لثانيهما الجر»[2] .

تؤكد مثل هذه التعريفات أن الإضافة لا تتحقق في مفرد بل في مركب من اسمين ، لكنه غير مفيد لأنه يدل على معنى لا يحسن السكوت عليه .

يتألف المركب الإضافي من اسمين أولهما المضاف والآخر المضاف إليه .

وقد عرّف ابن مالك المضاف بقوله : «هو الاسم المجعول كجزء لما يليه خافضا له»[3] .

وعرّف ابن الحاجب المضاف إليه بقوله : هو « ما ينسب إليه اسم قبله بواسطة حرف جر مراد »[4] .

يؤخذ من هذين الحدين أن قرائن المضاف إليه هي أنه :

١ ـ اسم (حقيقة أو حكما)	(بنية)
٢ ـ منسوب إليه اسم قبله	(معنى ، بنية ، رتبة ، تضام)
٣ ـ بواسطة حرف جر مراد	(معنى)

أول القرائن الموصلة إلى هذه الوظيفة هي «التضام» بين اسمين فالمضاف إليه ملازم دائما للمضاف ، يليها المعنى الذي يحدد شكل التضام على أنه نسبة المضاف إلى المضاف إليه بواسطة أداة هي حرف الجر المقدر[5] .

ويتحقق معنى النسبة بقرائن لفظية أهمها : البنية والرتبة .

أما البنية فتتمثل في أن المضاف لا يكون إلا اسما[6] نكرة[7] ، محذوفا منه التنوين أو ما يقوم مقامه غيرَ مقترن بأل .

---

(١) شرح اللمحة ٢/ ٢٦٨ .

(٢) الهمع ٤/ ٢٦٤ .

(٣) التسهيل ١٥٥ .

(٤) شرح الوافية ٢٤٨ .

(٥) هذا في الإضافة المعنوية ، أما اللفظية فلا يحسن تقدير حرف الجر فيها . انظر شرح الكافية ١/ ٢٧٢ .

(٦) كشف المشكل في النحو ١/ ٥٨٦ ، وحاشية يس بهامش شرح التصريح ٢/ ٢٤ .

(٧) المقتصد ٢/ ٨٧٢ ، شرح المفصل ٢/ ١٢١ .

وحـذف التنـوين منه قرينة دالة على إرادة معنى الإضافة ، أي الاتصال والنسبة وتوقع المضاف إليه بعده إن لم تقترن به أل ، ذلك أن التنوين أصل في الاسم المعرب ولا يحذف إلا إذا كان الاسم ممنوعاً من الصرف أو معرفة بأل أو مضافا وإذا انتفى الأولان تعين الثالث .

كما يعد اقتران أل بالاسم قرينة مانعة من تنوينه ومن إرادة معنى الإضافة الحقيقية .
والمضاف إليه يكون اسما صريحا نكرة ومعرفة ومصدراً مؤولا وجملة .
وأما الرتبة فتقضي أن يكون المضاف إليه أبداً بعد المضاف بلا فصل غالبا .
بهذه القرائن مجتمعة (التضام والمعنى والبنية والرتبة) يتحدد المضاف إليه .

قرائن المجرورات

الوظيفة	التعريف	القرائن المميزة	القرائن المساعدة
المجرور بالحرف	اسم مسبوق بحرف جر ١	١ ـ اسم (بنية) ٢ ـ حرف جر (أداة + تضام)	ـ الرتبة
المضاف إليه	ماينسب إليه اسم قبله بواسطة حرف جر مراد	١ ـ منسوب إليه (معنى) ٢ ـ اسم مثله (تضام)	ـ الرتبة ـ البنية (المضاف اسم بلا تنوين ، المضاف اليه (مفرد ، مصدر مؤول ، جملة)

التابع :

لم يحده جمهور النحويين لأنه محصور بالعد[1] .

وقيل في حده : «كل ثان بإعراب سابقه من جهة واحدة»[2] .

وقيل : هو «المشارك ما قبله في إعرابه الحاصل والمتجدد غير خبر»[3] .

يؤخذ من هذين الحدين أن التابع :

١ ـ ثان	(تضام ، رتبة)
٢ ـ بإعراب سابقه	(مطابقة ، رتبة)
٣ ـ من جهة واحدة	(مطابقة)
٤ ـ غير خبر	(معنى)

أهم سمات التابع أنه مقترن دائمًا بسابق له يسمى اصطلاحا «المتبوع»، ولا يمكن أن يوجد تابع بلا متبوع ، ويتميز التابع أيضاً بأنه موافق لمتبوعه في الحالة الإعرابية بحيث يتغير إعرابه بتغير إعراب المتبوع ، وهو مع هذه الموافقة غير خبر .

وتبعية التابع للمتبوع على صور[4] تحدد أنواعه : بواسطة حرف فهو «عطف النسق أو بلا واسطة : على نية تكرار العامل فهو «البدل» ، أو ليس على نية تكرار العامل : بألفاظ محصورة فهو «التوكيد» ، أو بغير ألفاظ محصورة ؛ مشتق فهو النعت، أو جامد فهو «عطف البيان» . وفيما يلي تخطيط لما سبق :

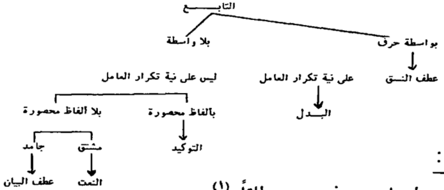
---

(١) التذييل ٤/ ١٠١ أ ، الهمع ٥/ ١٦٥ .

(٢) شرح الكافية ١/ ٢٩٨ .

(٣) توضيح المقاصد ٣/ ١٣٠ .

(٤) التذييل ٤/ ١٠١ ب ، شرح التصريح ٢/ ١٠٨ ، الهمع ٥/ ١٦٥ .



النعـــت :

« تابع يدل على معنى في متبوعه مطلقاً »[1] .

وقيل : « التابع المقصود بالاشتقاق وضعا أو تأويلا »[2] .

وقيل : « التابع الموضح لمتبوعه والمخصص له بكونه دالا على معنى في المتبوع أو متعلقه»[3] .

أهم سمات النعت أنه :

١ ـ تابـــع	(تضام ، رتبة ، مطابقة)
٢ ـ مشتق	(بنية)
٣ ـ يدل على معنى في متبوعه أو متعلقه	(معنى)
٤ ـ مطلقا (بلا قيد)	(معنى)
٥ ـ لتوضيحه أو تخصيصه	(معنى)

الوظيفة الأساسية للنعت أن يوضح متبوعه ويخصصه[4] ببيان معنى فيه أو في متعلقه وهذا البيان إنما يكون باسم مشتق أو مؤول به لأن الجامد لا دلالة له بوضعه على معنى منسوب إلى غيره . ودلالة المشتق تلك مطلقة غير مقيدة بعامل دون آخر . فإذا قلت مثلا : سلمت على رجلٍ عالِمٍ فـ «عالم» خصصت «رجل» بأحد معانيه وهو «العلم»، وهذا المعنى حاصل له مطلقاً نحو هذا رجلٌ عالم ، أكرمت رجلاً عالماً ، فـ (عالم) في كل الحالات تابع أي ملازم لاسم قبله ، مطابق له في إعرابه وتنكيره . ولذا يعرب «نعتا» .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٣٠١ .

(٢) التسهيل ١٦٧ .

(٣) شرح ابن الناظم ٤٩٠ .

(٤) إذا استغنى المتبوع عن التوضيح أو التخصيص جاء النعت لأغراض أخرى كالمدح والذم والترحم والتوكيد والإبهام والتعميم والتفصيل . راجع شفاء العليل في إيضاح التسهيل ٢/ ٧٤٧ ، شرح ابن الناظم ٤٩١ ، توضيح المقاصد ٣/ ١٣٣ .

بهذه السمات (المعنى - البنية - التضام - الرتبة - المطابقة) يعرف النعت . ويتميز عن غيره من التوابع بقرينتين أساسيتين هما (المعنى - البنية) فليس شيء من التوابع يدل على معنى في متبوعه إلا النعت ، ولا تابعَ مقصودَ بالاشتقاق إلا هو .

التوكيـــد :

التوكيد على قسمين : معنوي ولفظي . وقد ذهب بعض النحاة إلى جمعهما في تعريف واحد ، في حين ذهب آخرون إلى حد كل منهما على حدة .

قال ابن الحاجب في حده : « تابع يقرر أمر متبوعه في النسبة والشمول» [1] .

وقال ابن مالك : « تابع يعتضد به كون المتبوع على ظاهره »[1] .

فهذان الحدان يعمان التوكيد بنوعيه .

وقيل المعنوي هو : « التابع الرافع توهم إضافة إلى المتبوع أو أن يراد به الخصوص» [2]

واللفظي هو : « إعادة اللفظ أو تقويته بموافقه معنى» [3] .

يفهم من هذه الحدود أن سمات التوكيد هي :

١ - تابـــع	(تضام ، رتبة ، مطابقة)
٢ - يُمَكِّن معنى متبوعـه	(معنى)
٣ - بإعادة اللفظ أو بمرادفه	(بنية)

المعنى والبنية والتبعية قرائن مهمة في التعرف على التوكيد ، ذلك أن المتكلم يظن أحيانا أن السامع غافل عنه، أو يظن به الغلط ، أو استعمال المجاز[4] ، ولذا يورد المتكلم في كلامه ما يدفع به تلك الأمور عنه ، فيعلم السامع أن اللفظ على ظاهره ويتمكن معناه في نفسه .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٣٢٨ . وانظر شرح شذور الذهب ٤٢٨ .

(٢) شرح الكافية الشافية ٣/ ١١٦٩ .

(٣) التسهيل ١٦٤ ، ١٦٦ . وانظر شرح ابن الناظم ٥٠١ ، ٥٠٩ .

(٤) شرح الكافية ١/ ٣٢٨ .

وسيلة المتكلم إلى ذلك أن يستعمل ألفاظا معلومة عند العرب لا يعدل عنها إلى غيرها ، وهي ألفاظ التوكيد المعنوي[1] ، أو يكرر اللفظ بعينه أو بمرادفه وهذا هو التوكيد اللفظي .

وكل هذه الألفاظ مرتبطة بالمتبوع ، متأخرة عنه ، موافقة له في الحالة الإعرابية .

البدل :

هو «تابع مقصود بما نُسب إلى المتبوع دونه» [2] .

وقيل : « تابع مقصود بالحكم بلا واسطة » [3] .

أهم قرائن البدل أنه :

١ - تابـع	(تضام ، رتبة ، مطابقة)
٢ -مقصود بالحكم	(معنى)
٣ - بلا واسطة	(معنى)

التضام والمعنى قرينتان مهمتان في تحديد هذه الوظيفة . أما التضام فلأن البدل مسبوق بمبدل منه دائمًا ، وأما المعنى فلأن البدل هو المقصود بالحكم دون المبدل منه ، وهذا يعني أن النسبة قد صرفت عن المبدل منه إلى البدل ، وكأن المتكلم حين ذكر المبدل منه ظن أن السامع قد يحمله على ما فيه من عموم أو ما وقع فيه من غلط ، فجاء بلفظ آخر أخص في دلالته وهو مراده حقيقة وهو «البدل» . وبهذا المعنى تميز البدل من النعت والتوكيد وعطف البيان «لأن كل واحد منها مكمل للمقصود بالنسبة لا مقصود بها»[3] .

ومما يميز البدل أيضا أنه يؤدي ذلك المعنى بلا واسطة بينه وبين المبدل منه ، وبهذا خرج عطف النسق والمعطوف ببل في نحو : نجحَ خالدٌ بل سعيدٌ «لأن كل واحد منهما مقصود بالنسبة ولكن بواسطة»[4]

---

(١) وهي النفس ، والعين ، وكل ، وجميع ، وعامة ، وكلا ، وكلتا . الهمع ٥/ ١٩٧ .

(٢) شرح الكافية ١/ ٣٣٧ .

(٣) شرح الكافية الشافية ٣/ ١٢٧٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٣٩٩ .

(٤) شرح ابن عقيل ٢/ ١٩٣ .

عطف البيان :

« تابع غير صفة يوضح متبوعه »[1] .

وقيل : «جريان اسمٍ جامدٍ معرفةٍ على اسم دونه في الشهرة أو مثله يبينه كما يبينه النعت ولا يشترط فيه أن يكون مشتقا ولا في حكمه ، وأكثر استعماله في الأسماء الأعلام إذا جرت على الكُنى وفي الألقاب إذا جرت على الكُنى»[2] .

وقيل : التابع الموضح والمخصص متبوعه غير مقصود بالنسبة ولا مشتقا ولا مؤولا بمشتق»[3] .

أهم قرائن هذه الوظيفة :

١ ـ تابع	(تضام ، رتبة ، مطابقة)
٢ ـ غير صفة (اسم جامد معرفة)	(بنية)
٣ ـ يوضح متبوعه	(معنى)

تتضافر هذه القرائن لتوصل إلى «عطف البيان» ذلك أنّ الغرض هنا إيضاح المتبوع وإزالة الاشتراك الواقع فيه باستعمال اسم جامد معرفة بعده أشهر منه . قال ابن السراج : «وإنما سمي عطف بيان ولم يقل إنه نعت لأنه اسم غير مشتق من فعل ولا هو تحلية ولا ضرب من ضروب الصفات فعدل النحويون عن تسميته نعتا وسموه عطف بيان لأنه للبيان جيء به ، وهو مفرق بين الاسم الذي يجرى عليه وبين ما له مثل اسمه[4]» . ومن هنا نزله الزمخشري من متبوعه «منزلة الكلمة المستعملة من الغريبة إذا ترجمت بها»[5] أي أنه أشهر من متبوعه عرفا واستعمالا .

وللبنية دور مهم في تحديد «عطف البيان » لأنه لا يكون إلا بالأسماء الجامدة ، المعرفة ، الظاهرة (عند البصريين)، وأكثر استعماله أن يكون علما ومتبوعه كنية نحو : قام أبو حَفْصٍ عُمَرُ ، أو يكون لقبا ومتبوعه كنية نحو : قام أبو حَفصٍ قُفَةُ ، أو يكون لقبا ومتبوعه علم مضاف نحو : قام عبد الله قُفَةُ[6] .

---

(١) شرح الكافية ١/ ٣٤٣ .

(٢) المقرب ٢/ ٢٤٨ .

(٣) شرح ابن الناظم ٥١٤ .

(٤) الأصول ٢/ ٤٥ .

(٥) المفصل ١٢٢ . وانظر شرح المفصل ٣/ ٧١ .

(٦) إصلاح الخلل ٦٧ ، شرح الجمل لابن عصفور ١/ ٢٩٧ ، المقرب ١/ ٢٤٨ .

وأكثر ما يلتبس عطف البيان بالبدل حتى قال الرضي : « وأنا إلى الآن لم يظهر لي فرق جلي بين بدل الكل من الكل وبين عطف البيان بل لا أرى عطف البيان إلا البدل . . »[1] . يفهم من هذا أنه لا توجد قرائن فارقة بينهما لا لفظا ولا معنى .

وقال غيره : « كل اسم صح الحكم عليه بأنه عطف بيان مفيد للإيضاح أو للتخصيص صح أن يحكم عليه بأنه بدل كل من كل مفيد لتقرير معنى الكلام وتوكيده لكونه على نية تكرار العامل»[2] ، ومعنى هذا اختفاء القرائن اللفظية الفارقة بينهما ولم يبق سوى المعنى وهو أمر يصعب على المخاطب إدراكه من غير تصريح المتكلم به .

ومع هذا التداخل بين الوظيفتين أشار النحاة إلى وجود فرق جوهري بينهما وهو «أن عطف البيان تقديره تقدير النعت التابع للاسم الأول ، والبدل تقديره أن يوضع موضع الأول»[3] أي أن عطف البيان ليس مقصوداً أن يحل محل متبوعه بل هو مبين وموضح له ، أما البدل فعلى تقدير أن يحل محل المبدل منه أو على نية تكرار العامل فالكلام مع عطف البيان جملة واحدة ، أما مع البدل فجملتان[4] . ومن هنا قالوا : متى امتنع أن يحل التابع محل المتبوع فالتابع عطف بيان ولا يجوز البدل، وإذا لم يمتنع فالوجهان جائزان كما في نحو جاءني زيدٌ أخوك .

ينفرد عطف البيان في مثل[5] : يا زيدُ الحارثُ ، فـ «الحارث» عطف بيان وليس بدلا لأنه لو حل محل المنادى لاقترن حرف النداء بها فيه أل وهو غير جائز .

وينفرد أيضاً في نحو : يا أخانا زيدا ، إذ لا يصح كون «زيدا» بدلا ، لأنه إذا حل محل المنادى صار مبنيا على الضم لأنه علم مفرد .

وينفرد أيضا في نحو قول المرار الفقعسي :

أنا ابنُ التاركِ البكريِّ بِشْرٍ ... عليه الطيرُ تَرقُبه وُقوعا[6] .

فبشر عطف بيان لـ (البكري) ، ولا يجوز كونه بدلا إذ يلزم منه إضافة الصفة المفردة المعرفة

---

(1) شرح الكافية ١/ ٣٣٧ .

(2) شرح القطر ٢٩٨ .

(3) الأصول ٢/ ٤٦ .

(4) شرح المفصل ٣/ ٧٢ ، المغني ٥٩٧ .

(5) الأصول ٢/ ٤٦ ، إصلاح الخلل ٦٨ ، شرح الشذور ٤٣٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٣٥٠ .

(6) من الوافر ، للمرار الفقعسي في الكتاب ١/ ١٨٢ ، والمفصل ١٢٣ ، وشرح المفصل ٣/ ٧٣ ، والخزانة ٤/ ٢٨٤ ، ٥/ ١٨٣ ، ٢٢٥ وبلا نسبة في الأصول ١/ ١٣٥ ، شرح الشذور ٤٣٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٣٥١ .

بأل إلى اسم مجرد منها وهو غير جائز نحو (أنا ابنُ التاركِ بِشرٍ) .

قال ابن السيد البطليوسي : ومن أجل هذه المواضع احتيج إلى عطف البيان[1] .

عطف النسق :

«تابع مقصود بالنسبة مع متبوعه يتوسط بينه وبين متبوعه أحد الحروف العشرة[2]» .

يوضح هذا الحد أهم سمات المعطوف عطف النسق وهي أنه :

١ ـ تابـــع	(تضام ، رتبة ، مطابقة)
٢ ـ مقصود بالنسبة مع متبوعه	(معنى)
٣ ـ يتوسط بينهما أحد (حروف العطف)	،(أداة)

التبعية والأداة قرينتان واضحتان في تحديد هذه الوظيفة النحوية ، فالتبعية تميزه عن غيره من الوظائف ، والأداة تميزه من التوابع .

---

(١) إصلاح الخلل ٦٧ ، ٦٨ .

انظر . الهمع ٥/١٩٣ ـ ١٩٦ . المغني ٥٩٣

(٢) الايضاح في شرح المفصل ١/ ٤٥٤ ، شرح الكافية ١/ ٣١٨ ، شرح ابن الناظم ٥١٩ ، شرح ألفية ابن معطي ١/٧١٣

الوظيفـة	التعريـــــف	القرائن المميزة
النعـت	تابع يدل على معنى في متبوعه مطلقـا	١ ـ التبعية (تضام، رتبة، مطابقة) ٢ ـ البنية (مشتق) ٣ ـ المعنى (الدلالة على معنى المتبوع)
التوكيد	تابع يقرر أمر متبوعه في النسبة والشمول	١ ـ التبعية ٢ ـ المعنى (تقرير المتبوع) ٣ ـ البنية (ألفاظ مخصوصة ـ أو إعادة اللفظ نفسـه)
البـدل	تابع مقصود بالحكم بلا واسطة	١ ـ التبعية ٢ ـ البنية (الجمود) ٣ ـ المعنى (مقصود بالحكم بلا واسطة).
عطف البيان	تابع غير صفة يوضح متبوعه	١ ـ التبعية ٢ ـ البنية (اسم معرفة جامد) ٣ ـ المعنى (توضيح المتبوع)
عطف النسق	تابع مقصود بالنسبة مع متبوعه يتوسط بينه وبين متبوعه حرف عطف	١ ـ التبعية ٢ ـ الأداة (حرف عطف) ٣ ـ المعنى (مقصود بالنسبة مع متبوعه).

القرائن ودورها في التمييز بين الوظائف النحوية

اتضح من التحليل السابق للحدود أهميتها الكبرى في الكشف عن ماهية الوظيفة النحوية وتمييزها من غيرها بما تتضمنه من سمات عامة مشتركة وأخرى خاصة بالمحدود ، وأن لكل وظيفة نحوية مجموعة من القرائن اللفظية والمعنوية تعين على الوصول إليها في التركيب . ويأتي الآن السؤال عن التمييز بين الوظائف كيف يحدث ؟

يتم التمييز بينها من جهتين : المعنى واللفظ .

الفروق المعنوية تكمن في المعاني الخاصة ، فلكل وظيفة نحوية معنى خاص بها لا يشاركها فيه غيرها ، وهو السمة الفاصلة (القيمة الخلافية) بينها وبين غيرها من الوظائف ، أي أن لقرينة المعنى النحوي الوظيفي دورا مهما جدا في تمييز الوظيفة وتحديدها ، وفيما يلي جدول بأهم الوظائف ومعانيها الأساسية :

القرائن ودورها في التمييز بين الوظائف النحوية

المعنى الخاص	الوظيفة
بيان من فعل الفعل (المسند إليه)	الفاعل
بيان ما يقوم مقام الفاعل	نائب الفاعل
بيان ما ابتدىء به ليخبر عنه	المبتدأ
بيان ماحكم به على المبتدأ	الخبر
بيان المحكوم به على اسمها مقيدا بمعانيها	اسم كان وأخواتها اسم كاد وأخواتها اسم الحروف المشبهة بليس
بيان المحكوم عليه بخبرها مقيدا بمعانيها	خبر إن وأخواتها خبر لا النافية للجنس
توكيد الفعل، بيان نوعه، أو عدد مراته	المفعول المطلق
بيان من وقع عليه فعل الفاعل	المفعول به
بيان سبب وقوع الفعل	المفعول له
بيان مَن فعل معه الفعل (مصاحبة الفاعل)	المفعول معه
بيان زمان أو مكان حدوث الفعل	المفعول فيه
بيان هيئة الفاعل أو المفعول	الحال
تفسير المبهم مفردا أو جملة	التمييز
مخالفة حكم المستثنى منه	المستثنى
بيان المحكوم به على اسمها، مقيدا بمعانيها	خبر كان وأخواتها خبر كاد وأخواتها خبر الحروف المشبهة بليس
بيان المحكوم عليه بخبرها مقيدا بمعانيها	اسم إن وأخواتها اسم لا النافية للجنس
إيصال معنى الفعل إلى الاسم بواسطة حرف الجر (منسوب إليه معنى الفعل بواسطة حرف الجر)	الاسم المجرور
منسوب إليه المضاف	المضاف إليه
الدلالة على معنى في متبوعه مطلقا	النعت
تقرير أمر المتبوع في النسبة والشمول	التوكيد
مقصود بالحكم دون متبوعه بلا واسطة	البدل
توضيح المتبوع بما هو أشهر منه	عطف البيان
مقصود بالنسبة مع متبوعه بواسطة حرف معين.	عطف النسق

أما الفروق اللفظية فتتمثل فيما تطلبه كل وظيفة من صفات لفظية معينة في الكلمة التي تؤديها من حيث البنية أو الأداة أو الرتبة أو التضام أو المطابقة .

أ ـ البنية :

تشترك الوظائف كلها في جنس البنية وهو «الاسم» لكنها تختلف في نوع البنية الذي يمثلها ، ذلك أن البنية على أنواع : مفردة (اسم صريح) أو مؤولة بالمفرد (مصدر مؤول ـ جملة) أو متعلقة بمفرد (شبه جملة)، وليست الوظائف سواء في قبول هذه الأنواع بل تختلف فيما بينها اختلافا يميز بينها ، بل إن بعض الوظائف تضع قيودا صارمة على البنية فتحصرها في شكل معين (مفرد) ، (مشتق) ، (جامد) ، (نكرة) ، (معرفة) . وتعد هذه القيود قرائن بنيوية تميز بين الوظائف .

وإلى جانب هذه القيود في البنية الخاصة بالوظيفة ، توجد في التراكيب أبنية تساعد في التعرف على الوظيفة النحوية دون أن تؤديها ، فبنية الفعل التام الأصلية قرينة مميزة للفاعل ، وبنية الفعل التام المحولة عن أصلها قرينة على نائب الفاعل ، وبنية الفعل المتعدي قرينة على المفعول به وبنية الفعل الناقص قرينة على اسمه وخبره ، بل إن بنية الفعل توحي أحيانا بمتعلقاته لأنه متعلق بها لفظا أو معنى ، فيكون وجوده قرينة على اسم «قد فُعِل ، أو فُعِل به ، أو فُعِل فيه ، أو فُعِل لأجله ، أو فُعِل معه»[1] .

ب ـ الأداة :

وهي تميز الوظائف التي تؤدى بواسطتها ، فحرف الجر قرينة على الاسم المجرور ، والحروف الناسخة قرينة على اسمها وخبرها ، وواو المعية قرينة على المفعول معه ، وحرف العطف قرينة على المعطوف ، وإلا الاستثنائية قرينة على المستثنى .

ج ـ الرتبة :

لكل وظيفة رتبة تحدد موقع الكلمة التي تؤديها في التركيب ، لكنها تختلف فيما يقتضيه المعنى الوظيفي من حفظ الرتبة أو عدم حفظها .

ويعد حفظ الرتبة قرينة مميزة لبعض الوظائف ، فالفاعل ونائب الفاعل بعد الفعل ، والمفعول معه بعد واو المعية ، والمستثنى بعد إلا ، والمجرور بعد حرف الجر ، والمضاف إليه بعد المضاف والتابع بعد المتبوع ، وأسماء النواسخ لا تتقدم عليها .

---

(١) شرح ألفية ابن معطي ١/ ٥٢٤ .

د ـ التضـــام :

تحتـاج كل وظيفة إلى نوع من التضام يحقق المعنى المراد منها لكنها تختلف في خصوصية العنـاصر المتضامة ، ويصبح التضام قرينة مميزة للوظيفة بتحديده التلازم بين العناصر التي بها يكتمل معناها ، كالتلازم بين الفعل ومرفوعه ، والخبر والمبتدإ ، والناسخ واسمه وخبره ، وحرف الجـر ومجـروره ، والمضـاف والمضاف إليه ، والتابع ومتبوعه ، والمستثنى وإلا والمستثنى منه ، والتمييز والمميَّز .

هـ ـ المطابقة :

وهي تميز الوظائف التي تحتاج إلى نوع من المطابقة اللفظية أو المعنوية بين الكلمة التي تؤديها وأحد العناصر في التركيب ، كالذي بين المفعول المطلق وفعله من اشتراك في اللفظ والمعنى أو المعنى فقط والذي بين المفعول له وفعله من اشتراك في الزمان والفاعل ، وكالمطابقة في الإعراب بين التابع والمتبوع .

هكذا تتميز الوظائف بالمعنى النحوي أولا ثم بقيود في البنية الحاملة لذلك المعنى ثم بما تفرضه من قيود على الرتبة أو التضام أو المطابقة أو الأداة .

ولما كان المعنى النحوي دقيقا وخفيا ، صار من اللازم الاستعانة بما يحمله السياق من قرائن متعلقة بألفاظه ، وأهمها البنية ، فهي المدخل إلى تحديد الوظيفة ، لأن المبنى هو الناقل للمعنى ، ثم تأتي القرائن الأخرى (الرتبة ـ التضام ـ الأداة ـ المطابقة) وتكون قيودها صفات لتلك البنية ، أي أن المعنى النحوي ينقل إلينا في التركيب من خلال بنية ذات سمات محددة . أما الحكم الإعرابي فمتأخر عن معرفة الوظيفة ، لأن المطلوب الأول تحديد وظيفة الكلمة ثم تضبط بما يناسبها من علامات الإعراب .

المصادر والمراجع

١ ـ الأزهري (خالد بن عبد الله ت ٩٠٥ هـ) .

شرح التصريح على التوضيح ـ دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٣١٢ هـ .

٢ ـ الأشموني (نور الدين أبو الحسن علي بن محمد ت ٩٢٩ هـ)

منهج السالك إلى ألفية ابن مالك . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٧٠ م .

٣ ـ ابن الأنباري (أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٥٧٧ هـ)

أسرار العربية . تحقيق محمد بهجة البيطار . مطبعة الترقي ـ دمشق ١٩٥٧ م .

٤ ـ الأهدل (محمد بن أحمد بن عبد الباري) ت ١٢٩٨ هـ) .

الكواكب الدرية شرح متممة الأجرومية ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة . د. ت .

٥ ـ ابن برهان (أبو القاسم عبد الواحد بن علي ت ٤٥٦ هـ)

شرح اللّمع . جزآن . تحقيق د. فائز فارس . المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ ١٩٨٤ م .

٦ ـ البغدادي (عبد القادر بن عمر ت ١٠٩٣ هـ)

خزانة الأدب . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مكتبة الخانجي . القاهرة .

٧ ـ تمام حسان (دكتور)

ـ القرائن النحوية بحث منشور بمجلة اللسان العربي مج ١١ ج ١ ـ الرباط ـ ١٩٧٤ م .

ـ اللغة العربية معناها ومبناها . الهيئة المصرية العامة ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ م .

٨ ـ الجامي (نور الدين عبد الرحمن ت ٨٩٨ هـ)

الفوائد الضيائية . تحقيق د. أسامة الرفاعي . مطبعة وزارة الأوقاف ـ العراق ـ ١٩٨٣م .

٩ ـ الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ت ٤٧١ هـ)

المقتصد في شرح الإيضاح . تحقيق د. كاظم المرجان . وزارة الثقافة والإعلام ـ العراق ١٩٨٢م .

١٠ ـ ابن جني (أبو الفتح عثمان ت ٣٩٢ هـ)

اللمع في العربية . تحقيق د. حسين محمد شرف ـ عالم الكتب ـ القاهرة ١٩٧٩ .

١١ ـ ابن الحاجب (أبو عمرو عثمان بن عمر ت ٦٤٦ هـ)

ـ الإيضاح في شرح المفصل . تحقيق د. موسى بناي العليلي . مطبعة العاني . بغداد ـ ١٩٨٣ م .

ـ الأمالي النحوية . تحقيق هادي حسن حمود . دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٥م .

ـ شرح الوافية . تحقيق د. موسى العليلي . مطبعة النجف الأشرف . العراق ١٩٨٠م .

١٢ ـ الحيدرة (علي بن سليمان ت ٥٩٩ هـ)

كشف المشكل في النحو . تحقيق د. هادي مطر . مطبعة الإرشاد . بغداد ١٩٨٤ م .

١٣ ـ أبو حيان (أثير الدين محمد بن يوسف ت ٧٥٤ هـ)

التذييل والتكميل في شرح التسهيل . مصورة بمكتبتي عن مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠١٦ هـ ، ٦٢ نحو .

١٤ ـ الرضي (رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي ت ٦٨٦ هـ)

شرح الكافية . دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨٢ م .

١٥ ـ الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق ت ٣٣٧ هـ)

الجمل تحقيق د. علي الحمد . مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٨٤م .

١٦ ـ الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر ت ٥٣٨ هـ)

المفصل صححه محمد النعساني - دار الجيل - بيروت ١٣٢٣ هـ

١٧ - ابن السراج (أبو بكر محمد بن سهل ت ٣١٦ هـ) .

الأصول . تحقيق عبد الحسين الفتلي . مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٥ م .

١٨ - السلسيلي (أبو عبد الله محمد بن عيسى ت ٧٧٠ هـ)

شفاء العليل في إيضاح التسهيل ، تحقيق د. الشريف عبد الله علي البركاتي . المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة - ١٩٨٦ م .

١٩ - سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان ت ١٨٠ هـ)

الكتاب . تحقيق عبد السلام هارون . الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٧م .

٢٠ - ابن السيد البطليوسي (عبد الله بن محمد ت ٥٢١ هـ)

إصلاح الخلل الواقع في الجمل تحقيق د. حمزة النشرتي . دار المريخ ، الرياض ١٩٧٩م .

٢١ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ)

همع الهوامع تحقيق د. عبد العال سالم مكرم . دار البحوث العلمية . الكويت (١٩٧٥ - ١٩٨٠ م) .

٢٢ - الشلوبين (أبو علي عمر بن محمد ت ٦٤٥ هـ)

التوطئة . تحقيق يوسف المطوع . دار التراث العربي . القاهرة ١٩٧٣ م .

٢٣ - ابن عصفور (علي بن مؤمن بن محمد ت ٦٦٩ هـ)

- شرح الجمل (الشرح الكبير) . تحقيق د. صاحب أبو جناح . منشورات وزارة الأوقاف - الموصل ١٩٨٢ م .
- المقرب تحقيق أحمد الجواري وعبد الله الجبوري . مطبعة العاني - بغداد - ١٩٧٢م .

٢٤ - ابن القواس (عبد العزيز بن زيد بن جمعة الموصلي ت ٦٩٦ هـ)

شرح ألفية ابن معطي . تحقيق علي الشوملي . مكتبة الخريجي . الرياض ١٩٨٥ م .

٢٥ - ابن مالك (أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله ت ٦٧٢ هـ)

- تسهيل الفوائد . تحقيق محمد كامل بركات . دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٨م .
- شرح الكافية الشافية . تحقيق د. عبد المنعم هريدي . دار المأمون للتراث ١٩٨٢ م.

٢٦ - المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد ت ٢٨٥ هـ)

المقتضب . تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة (١٣٨٦ هـ - ١٣٩٩ هـ)

٢٧ - المرادي (حسن بن قاسم بن عبد الله ت ٧٤٩ هـ)

توضيح المقاصد . تحقيق د. عبد الرحمن علي سليمان . مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة ١٩٧٦ م .

٢٨ - ابن الناظم (أبو عبد الله بدر الدين محمد بن محمد ت ٦٨٦ هـ)

شرح ألفية ابن مالك . تحقيق د. عبد الحميد السيد . دار الجيل . بيروت . د. ت .

٢٩ - ابن هشام (أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف ت ٧٦١ هـ)

- أوضح المسالك تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة دار السعادة بمصر ١٩٦٧م .
- شرح اللمحة البدرية . تحقيق د. صلاح راوي . مطبعة حسان - القاهرة ١٩٨٥ م .
- شرح شذور الذهب . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الثقافة . القاهرة .
- شرح قطر الندى . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية . القاهرة ١٩٦٣! م
- المغني (مغني اللبيب) تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله . دار الفكر . بيروت ١٩٧٩ م

٣٠ - ابن يعيش ((موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي ت ٦٤٣ هـ)

شرح المفصل تعليق مشيخة من الأزهر الشريف . دار المطبعة المنيرية . القاهرة . (د. ت).

التحولات العالمية المعاصرة والاهتمامات البحثية الجديدة في مجتمعات العالم الثالث

دكتور السيد الحسيني *

منذ مطلع الثمانينات من القرن الحالي ، والعالم يشهد تحولات سريعة وشاملة إما بسبب صعود الرأسمالية المحافظة في الغرب متمثلة في «الريجانية» «والتاتشرية» ، أو بسبب انهيار إيديولوجية ومعتقدات ونظم سياسية فرضت نفسها على العالم فرضا منذ مطلع القرن العشرين متمثلة في الماركسية كأيديولوجية ، والاتحاد السوفيتي كدولة إشتراكية رائدة ، أو بسبب سيطرة النزعة العالمية **Globalisation** التي تجسدها الأسواق العالمية ، ووسائل الاتصال الكونية التي قلصت المكان واختزلت الزمان ، أو بسبب إنهيار أنساق ثقافية ظلت سائدة ومسيطرة لحقب طويلة ، ثم ما لبثت أن فقدت شرعيتها وقدسيتها ووظيفتها . إن من الصعب حصر التحولات العالمية المعاصرة التي شهدها وسيشهدها العالم خلال الربع الأخير من القرن العشرين ، كما أن من الصعب بدرجة أكبر التعرف على انعكاساتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والبيئية على المجتمعات القومية[1] . ولاشك أن ذلك يفرض مهام جديدة على العلماء الاجتماعيين . إذ لا يجب أن تقتصر مهمتم على فهم وتحليل ما حدث بالفعل ، بل يجب أن تتعدى ذلك الى محاولة استشراف المستقبل ورسم المشاهد المحتملة له .

وفي هذا المقال أود أن أطرح في البداية بعض ملامح التحولات المعاصرة التي شهدها العالم منذ منتصف الثمانينات والتي كان لها تأثيرات بالغة على النظام الدولي بمكوناته المختلفة ، على أن أشير بعد ذلك إلى انعكاس تلك التحولات على مجتمعات العالم الثالث ، والاهتمامات البحثية التي يجب أن تظهر في محاولة لتحليلها وفهمها وطرح البدائل المختلفة لمواجهتها . والواقع أن دراسة انعكاس التحولات العالمية على المجتمعات القومية تتطلب تبني تصورات ورؤى أوسع نطاقا من تلك التي درج عليها عدد كبير من الباحثين ، كما تحتاج الى خيال خاص يستطيع أن يربط بين المتغيرات والأبعاد على المستويات العالمية والقومية والمحلية . لقد برهن ما أطلق عليه «النظام العالمي الجديد» في سياق «عاصفة الصحراء» ، أن العالم المعاصر قد تقلص وانكمش وأصبح صغيرا ، وأن النظام الرأسمالي الذي استوعب العالم منذ القرن السادس عشر ما يزال باقيا قادرا على الضم والاتساع والاحتواء والمناورة ، وطرح نفسه كبديل تنموي دائم .

* أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس .

أولا : تحولات عالمية معاصرة

١ ـ بعـد انهيـار الاتحاد السوفيتي وتراجع الاشتراكية كمذهب فكري ، واختفاء النظام العـالمي القائم على الثنائية القطبية ، بدأت معالم عملية إعادة تشكيل العلاقات الدولية داخل النظام الرأسمالي[٢] . ويمكننا التمييز في هذا المجال بين مجموعة من القوى السياسية الرأسمالية : الولايات المتحدة وكندا والمكسيك ومن ورائها أمريكا السطى وأمريكا الجنوبية ، واليابان والدول الصناعية الجديدة في جنوب شرق آسيا ومن ورائها الصين والهند والقارة الآسيوية ذاتها التي تشكل أكبر قارات العالم سكانا وسوقا ، وأوروبا الموحدة في عام ١٩٩٢ وما ستسفر عنه من امكانيات اقتصادية هائلة يمكن ان تزداد تدعيما بانضمام أوروبا الشرقية اليها بعد نجاحها في عملية إعادة التكييف الهيكلي لاقتصادها طبقا لقوانين التطور الرأسمالي . ومن شأن ذلك كله التأثير على موقع أقطار العالم الثالث داخل تلك المنظومة الدولية الجديدة . ذلك أن دول أوروبا الشرقية سوف تحصل في ظل تلك التحولات على مكانة «الدول الأولى بالرعاية» ، وبالتالي سوف تتعرض مكانة الـدول النامية للتدهور . وإذا ما تمكنت دول أوروبا الشرقية من التكامل السريع مع النظام الاقتصادي العالمي الجديد ، فإن الحوار بين الشمال والجنوب لابد وأن يكتسب أبعادا جديدة بعد انتهاء الصراع الايديولوجي بين الشرق والغرب .

٢ ـ من المتوقع في ظل التكتلات الرأسمالية الضخمة أن تظهر منافسة شديدة بينها من أجل كسب مزيـد من الأسواق ، وتحقيق مزيد من النمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي . وهناك شواهد تشير الى ظهور تلك المنافسة إذا ما تأملنا واقع الولايات المتحدة واليابان وأوروبا الغربية . فبينما تميل الأولى الى الاستثمار وتحقيق الربح من خلال دوران رأس المال لا توظيفه في عمليات إنتاجية ، نجد الثانية (اليابان) تميل الى تدعيم تفوقها التكنولوجي ، ورفع معدلات إنتاجها ، والسيطرة على الصناعات العريقة في بريطانيا وأوروبا وأمريكا وتشغيلها لحسابها[٣] . أما أوروبا التي ما تزال في حالة سيولة شديدة بعد أحداث دولها الشرقية واتحاد الألمانيتين ، فإنها تتأهب لأداء أدوار جديدة من منطلق ضخامة حجمها ومواردها وعراقة تقاليدها الصناعية . والقضية الهامة التي يثيرها هذا النظام الرأسمالي الجديد هو التفاوت الملحوظ في امتلاك عناصر القوة . فالكتلة القوية عسكريا (الولايات المتحدة) ليست هي بالضرورة المسيطرة اقتصاديا ، كما ان الكتلتين اللتين تحققان سيطرة اقتصادية تعانيان من ضعف عسكري ظاهر . إن مواجهة هذا التفاوت في القوة سوف يظل أحد القضايا الهامة التي يثيرها النظام العالمي الجديد .

٣ ـ على الرغم من أن دانيل بيل Bell قد أشار قبل ثلاثين عاما الى فكرة «نهاية الايديولوجيا»(٤) ، فإننا نجدها الآن قد أصبحت واقعا فعليا مع مطلع التسعينيات . بل إننا قبل شهور قليلة نجد مفكرا أمريكيا من أصل ياباني مثل فوكوياما يذهب الى أننا قد أصبحنا في مواجهة «نهاية التاريخ» . ويحاول فوكوياما أن يوفق بين فكرتين متعارضين : الفكرية الهيجيلية الذاهبه الى ان التاريخ عملية إنسانية ارتقائية مستمرة ، والفكرة الرأسمالية الذاهبة الى أن قيم الرأسمالية هي قمة القيم التي تعبر عن نهاية الكمال الإنساني . وإذا كان لنا أن نستنتج من ذلك شيئا فهو ؛ أن حقبة الصراع الايديولوجي بين الغرب الرأسمالي والشرق الاشتراكي قد ولت ، وأن الرأسمالية قد بدت وكأنها الايديولوجية العالمية الملائمة لعالم المستقبل . إن جيلين على الأقل من العلماء الاجتماعيين قد وجدو أنفسهم في حاجة ماسة إلى إعادة النظر في المفاهيم والنظريات والمسلمات التي اعتادوا العمل والتفكير في ضوئها . ولا يقتصر الأمر على العلماء الاجتماعيين ، بل يصل الى حد المراجعة الفكرية للاشتراكيين ، والمصلحين الاجتماعيين ، وقطاعات واسعة من المثقفين في أماكن مختلفة من العالم(٥) . ولكنها أيضا مواجهة واقعية وتهديد سافر لحلم جيل طالما راود أصحاب النزعات الإنسانية الذين أملوا في إقامة واقع مثالي يقوم على العدالة وتكافؤ الفرص . كذلك فإن «نهاية الايديولوجية هي بداية طريق طويل صعب ومتشعب لابد وان يؤدي الى ظهور جيل جديد من المعتقدات السياسية والاجتماعية القادرة على حشد الموارد البشرية في اطار صيغ انسانية ملائمة .

٤ ـ ربما كانت الثورة الصناعية الثالثة واحدة من أبرز التحولات التي شهدها النظام العالمي المعاصر منذ عقد السبعينيات على أقل تقدير(٦) . فعلى الرغم من أن جذور تلك الثورة تعود الى عقد الأربعينيات حينما ظهر الجيل الأول من الحاسبات الالكترونية ، وتطورت بقدر ملموس مع غزو القضاء في نهاية الخمسينات والسينيات ، حين شارك فيها الاتحاد السوفيتي ، إلا أن السبعينيات قد شهدت انطلاقة واسعة الى آفاق غير مسبوقة في الولايات المتحدة واليابان وبدرجة أقل في أوروبا الغربية ، لقد جاءت الثورة الصناعية الثالثة لكي تمنح المعسكر الرأسمالى الغربى قدرات جديدة في المجالات الاقتصادية والاتصالية والدعائية على مستوى النظام العالمي ، ومنذ عقدالسبعينيات واجه النظام الاشتراكي صعوبات شديدة في مجال تنمية التكنولوجيا ، مما دفعه الى استيرادها من الغرب وظهور أنماط من التبادل تتسم بسمات التبعية الذائعة في علاقات العالم الغربي بالعالم الثالث . وحتى منتصف الثمانينات لم يستطع النظام الاقتصادي والاجتماعي (وبالتأكيد السياسي) في العالم الاشتراكي من استيعاب التكنولوجيا الغربية أو التفوق عليها كما

فعلت اليابان وذلك برغم الشراء أحيانا والسرقة أحيانا أخرى . وإذا كانت الثورة الصناعية الثانية قد أنجزت بواسطة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي من خلال الاسلحة النووية فإن الثـورة الصناعية الثالثة تركز على التحكم في العقل الانساني وتنميته، وتعتمد على ثورة المعلومات والتـدفق الـلامتنـاهي واللامحدود للمعرفة والأفكار ويكفى أن نشير في هذا المجال الى الثورة المعلوماتية **Informatics** ، وثورة التكنولوجيا الحيوية **Biotechnology** وما ترتب عليهما من تطبيقات في مجال الهندسة الوراثية ، وإنتاج الغذاء ، وتخليق المواد الجديدة ، ان كمية المواد الخام المطلوبة لوحدة من المنتج الصناعي لا تتعدى الآن ٥/ ١ الكمية التي كانت مطلوبة في سنة ١٩٠٠ ، فاليـابـان ـ مثلا ـ استهلكت في سنة ١٩٨٥ أقل من ٦٠٪ فقط من المواد الخام التي استهلكتها في سنة ١٩٧٣ لإنتاج نفس الكمية من المنتجات الصناعية . كذلك يمكننا الإشارة الى الإنجازات الهامة التي تمت في مجال الأتمته **Automation** ، والروبتة **Robotization** بعد أن ظلت الميكنة وتطبيقاتها هي دعامة الصناعة العالمية ، والى جانب ذلك هناك الثورة التكنولوجية في مجال الزراعة ، وزيادة إنتاج الغذاء واستحداث محاصيل جديدة غزيرة الإنتاج يمكنها النمو في ظل ظروف بيئـات قاسية ، واستحداث بدائل جديدة للطاقة والوقود(٧) . وباختصار فإنه إذا كانت الثورة الصناعية الأولى قد اعتمدت على الاستخدام المكثف للعمل ، وإذا كانت الثورة الصنـاعيـة الثانية قد ارتكزت على رأس المال المكثف ، فاننا نجد الثورة الصناعية الثالثة تجد دعائمها في ثلاثة مجالات أساسية هي : الالكترونات الدقيقة ، والهندسة الوراثية ، وتطبيقات علوم الفضاء .

٥ ـ مع التحولات العالمية المتسارعة ، بدأت كثير من الصراعات الاقليمية تأخذ طريقها الى الحـل وعـلى الأخص منذ نهاية الثمانيات ومطلع التسعينينات . فلقد قبل الإتحاد السوفيتي انسحابه من افغانستان بعد اتفاق مع واشنطن على وقف المساعدات . كما قبل الإتحاد السوفيتي بمشروع سلام أمـريكـا الـوسـطى لوقف الحـرب الأهلية في السلفادور ونيكاراجوا ، وإقامة حكومات ديموقراطية في دول المنطقة . كذلك قبلت أنجولا ـ بتأثير سوفيتي ـ بمبدأ انسحاب القوات الكوبية منها ، كما أعلنت فيتنام عن سحب جزء من قواتها من كمبوديا . وفي الشرق الأوسط حرصت الولايات المتحدة في أعقاب «عاصفة الصحراء» على تشجيع أطراف النزاع في الشرق الأوسط على الدخول في مفاوضات سلام منذ أكتوبر ١٩٩١ ، في الوقت الذي تحقق فيه اسرائيل إنجازات متسارعة منذ مطلع التسعينيات بدءاً من استيعاب مئات الألوف من اليهود السـوفييت المهـاجرين إليها ، حتى تبادل علاقاتها الدبلوماسية مع الإتحاد السوفيتي والصين ، وانفراج علاقاتها بالعالم الخارجي .

٦ ـ انعكست التحولات العالمية المعاصرة على فرص تنمية دول العالم الثالث ومواقعها داخل النظام العالمي الجديد ، إذ يصعب الحديث الآن بشكل مطلق عن هذه الدول بسبب تنوعاتها الشديدة ، ومواقعها المتباينة من القوى الكبرى ، والفرص المتاحة أمامها لتحقيق تنمية اقتصادية ملموسة . واذا كانت بعض الدول النامية مثل كوريا وتايوان والبرازيل قد استطاعت كسر الدوائر الجهنمية للتخلف والفقر ، فإن الفرص ستكون محدودة في هذا المجال بالنسبة لغالبية الاقطار النامية الأخرى(٨) . ومع ذلك فهناك فئة أكبر نسبيا من الدول النامية ذات الإمكانيات والقاعدة الاقتصادية الأكبر (مثل الارجنتين والهند ومصر وباكستان) تستطيع الإفادة من النظام العالمي الجديد من خلال تجسيد مزاياها النسبية ؛ إما لكونها تشكل أسواقا كبرى ، أو لدورها الاقليمي المتميز ، أو لقدرتها على التكامل الوظيفي مع القوى الرأسمالية العالمية . وهناك فئة ثالثة من الدول ذات القاعدة الاقتصادية المحدودة ، ولكنها تتمتع برخاء نسبي لأسباب استثنائية وأهمها مجموعة الدول المصدرة للبترول . وأخيرا فان هناك القاعدة الواسعة من الدول النامية ذات الامكانيات الاقتصادية المحدودة ، والقاعدة الاقتصادية الطبيعية ، ومستوى الدخل الفردى المنخفض . وتضم هذه الفئة الغالبية العظمى من الدول النامية ، وخاصة تلك الأفريقية منها . والواقع ان عقد التسعينيات لن يشهد تحسنا ملحوظا في الأوضاع الاقتصادية لمعظم تلك الدول ، حيث لن يحقق الدخل الفردي فيها زيادة تتجاوز ١٪ سنويا على أقصى تقدير . أما الفئتان الثانية والثالثة من الدول النامية فلا تستطيعان تحقيق تنمية اقتصادية ملموسة أو واعدة ، إلا إذا قررت الشركات متعددة الجنسية تكثيف وتوسيع حجم استثماراتها فيها خلال عقد التسعينيات . إلا أنه مع تراجع معدل نمو الإستثمارات الأجنبية (بسبب الركود الاقتصادي الأمريكي ، وانهيار الكتلة الاشتراكية ، وإتحاد الالمانيتين) ، فإن فرص النمو الاقتصادي السريع في هاتين الفئتين من الدول النامية لن تكون كبيرة ، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار تدفق رؤوس الأموال الغربية الى دول الإتحاد السوفيتي (سابقا) ، وأقطار أوروبا الشرقية بعد تكييف هياكلها الاقتصادية لتتلاءم مع متطلبات النظام الرأسمالي الجديد . وهكذا تقودنا أغلب الاحتمالات الى توقع المزيد من تهميش غالبية دول العالم الثالث ، وعلى الأخص الأفريقية داخل النظام الاقتصادي الدولي ، وإن ظلت الفرصة متاحة أمام بعض الدول النامية ذات الامكانيات الاقتصادية الكبيرة والموارد البشرية الماهرة من تحقيق معدلات نمو اقتصدي عالية نسبيا .

ثانيا : اهتمامات بحثية في مجتمعات العالم الثالث

من الطبيعي ان تنعكس التحولات العالمية المعاصرة التي أشرنا اليها على واقع مجتمعات العالم الثالث . والواقع ان ما نسعى اليه هنا هو الإشارة الى بعض القضايا والتساؤلات الملحة المرتبطة بتلك التحولات ، والتي تفرض نفسها فرضا على واقع هذه المجتمعات . ولسوف نركز على القضايا والتساؤلات ذات الصفة العامة ، والتي تتجاوز ـ بطبيعة الحال ـ الاختلافات والفروق بين الدول النامية . ونحن نسلم بأن بعضها قد طرح من قبل بعض الباحثين ، إلا أن مناقشتها في ضوء التحولات العالمية التي أشرنا اليها هو أمر بالغ الأهمية .

١ ـ مع السيطرة العالمية للنظام الرأسمالي ، تبدو الليبرالية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية نزعة فكرية أساسية ومدخلا تنموياً في كثير من أقطار العالم الثالث . ومن الطبيعي ان تنعكس تلك الليبرالية على التكوينات الاجتماعية في تلك الأقطار . إذ تظهر جماعات طبقية جديدة مستفيدة من الليبرالية تمارس تأثيرات سياسية واجتماعية وثقافية ، بينما يتقلص نفوذ الطبقة الوسطى القديمة . إن فهم تكوين تلك الجماعات الطبقية الجديدة هو مسألة بالغة الأهمية ، كما ان فهم موقفها من التنمية القومية هو أيضا أمر حيوي . ان الجانب الاقتصادي من الليبرالية قادر على إفراز جماعات جديدة من الملاك وأصحاب المشروعات ، بينما الجانب السياسي منها قادر على تحديد القوى السياسية الجديدة التي تلعب دوراً هاما في عملية اتخاذ القرارات القومية . أما الجانب الاجتماعي من الليبرالية فيتجسد من خلال الحراك الاجتماعي المحدود المتاح لقطاعات من الطبقة الدنيا الى الطبقة الوسطى[٩] . والقضية الهامة هنا هي : أن الليبرالية في كثير من دول العالم الثالث سوف تتحقق على أنقاض قطاع عام ساد وسيطر منذ تحقيق الاستقلال السياسي ، وبالتالي فإن من الضروري التعرف على ديناميات عملية تصفية القطاع العام ، وتحويله الى مشروعات اقتصادية كبرى ، والكشف عن القوى المستفيدة من ذلك في مقابل القوى المعارضة لعملية تحويل القطاع العام الى قطاع خاص .

٢ ـ مع التحول الى القطاع الخاص والدعم الداخلي والخارجي الذي سيلقاه ، يصبح من الضروري تحليل ديناميات تحقيق الاستقرار الاجتماعي ، خاصة وأن معظم الدول النامية سوف تشهد معدلات بطالة عالية ، وانخفاضا ملموسا في القوى الشرائية ، وارتفاعا ملحوظا في معدلات التضخم ، وتهميشا اجتماعيا واسع النطاق . وفي ضوء تلك الظروف يصبح من الضروري فهم موقف الدولة في مجتمعات العالم الثالث فهما دقيقا ، كما يصبح من الضروري أيضا تحليل آليات الاستقرار الاجتماعي في غياب الوظائف التقليدية التي كانت تؤديها الحكومات . إن

الحكومات بتخليها عن كثير من التزاماتها التقليدية مطالبة بأداء أدوار جديدة ، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار «ثورة التوقعات» ، «ثورة الاتصال» ، و«حركات الشباب» ، واتجاهات الاحياء الديني والقومي والعرقي في مناطق مختلفة من العالم الثالث .

٣ ـ من المتوقع أن يحدث النظام الاتصالي العالمي تأثيرات بالغة على مجتمعات العالم الثالث ، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتحول الحوار الثنائي الى مونولوج فردي ، ويزداد الآن تأثير الرسالة الاعلامية للدول الصناعية الغربية من خلال وكالات الأنباء الأربعة الرئيسية (الاسوشيتدبرس ، واليونايتدبرس ، ورويتر ، ووكالة الانباء الفرنسية) ، حيث تتحكم في الأنباء التي تراها عالمية ، وتوزعها على نطاق عالمي . وبالنسبة للصفوات الثقافية والسياسية في كل أقطار العالم الثالث ، فإن قراءة الصحف الصادرة غن مؤسسات مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست والنيوزويك والتايمز الأمريكية ، والصانداي تايمز والجارديان البريطانية ، ودي فيليت الالمانية ، واللوموند والفيجارو الفرنسيتين ، قد أصبح من الأمور البالغة الأهمية في تشكيل وعيهم السياسي والثقافي (عالميا وقوميا ومحليا) . ولا نستطيع أن نغفل في هذا المجال الدور الاعلامي الجماهيري الذي تلعبه محطات الاذاعة البريطانية ، وصوت أمريكا ، ومونت كارلو الفرنسية باعتبارها مصادر أساسية للأنباء والثقافة للعالم أجمع . إن التسعينات سوف تشهد قفزة كيفية في البث التليفزيوني العالمي ، بعد ان ظل لفترة طويلة ظاهرة محلية . ومن المتوقع أن تختفي أو تضعف القيود القومية على رسائل شبكات التلفزيون العالمية من أمثال CNN و CBS ، حيث سيصبح في مقدورها الوصول الى المشاهد أينما كان وحيثما وجد على هذا الكوكب[١٠] . ومن الطبيعي ان يطرح هذا الواقع الاعلامي العالمي الرأسمالي تساؤلات حول مصير الثقافات الوطنية في مجتمعات العالم الثالث ، خاصة وان تفكك الأنساق الثقافية االقائمة لا يصاحبه ظهور انساق ثقافية تكاملية جديدة . ويتحدث بعض المفكرين عن ظاهرة «العالمية» الناجمة عن ثورة الاتصال العالمي في مجالات عديدة كالاستهلاك ، والمعرفة ، والنقود ، والنظم السياسية ، والقضايا العامة ، إلا ان ذلك ـ في نظرنا ـ لا يعدو ان يكون فرضا لمعايير «ثقافية مسيطرة» على «ثقافة خاضعة» ان كان لنا ان نستخدم تلك الثنائية

٤ ـ في ظل عالم تسيطر عليه عقيدة سياسية واحدة مدعمة بنماذج عديدة من النجاح والانجاز ، تثار تساؤلات عديدة حول المعتقدات السياسية والاجتماعية والثقافية التي ظلت سائدة لفترات طويلة في مجتمعات العالم الثالث . وربما كان مثقفو العالم الثالث (وعلى الأخص التقدميين منهم) هم أكثر الفئات الاجتماعية حرجا وانزعاجا ودهشة واحساسا بالاغتراب بسبب التحولات العالمية الأخيرة ، وعلى الأخص بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية في سنوات معدودات

دون نضـال أو صراع ظاهـر[١١] . لقد وجدوا أن المفاهيم والتصورات والنظريات والأدوات التحليلية التي اعتادوا عليها قد أصبحت غير ملائمة الى حد كبير ، وان عليهم ان يواجهوا موقفا جديدا : إما الدفاع العنيد عن واقع يصعب الدفاع عنه ، أو اعلان الافلاس الفكري والبحث عن اهتمامات بحثية جديدة محايدة . وباختصار فإذا كانت التحولات العالمية قد شهدت انتكاسة شديـدة في النظرية والممارسة الاشتراكيين ، فإن المثقفين الإشتراكيين في أقطار العالم الثالث قد فقدوا الحلم ، وتسارعت الأحداث حتى وجدوا صعوبة في متابعتها والربط بينها في سياق منطقي متكامل . ويشبه هذا الموقف ـ ولكن بطريقة عكسية ـ ما حدث للمثقفين الليبراليين الصينيين في أعقاب الثورة الصينية في سنة ١٩٤٩ . إذ وجدوا أنفسهم ـ وعلى الأخص العلماء الاجتماعيين منهم ـ يمارسون مهام بحثية «برجوازية» لا تتفق مع متطلبات المجتمع الاشتركي الجديد ، حتى انتهى الأمر ببعضهم الى التخلي عن معتقداتهم الخاصة والتكامل مع النظام السياسي الجديد ، في حين هرب البعض الآخـر الى أقـطار أخرى يمارس فيها اهتماماته البحثية الليبرالية ، بينما آثر البعض الثالث الانسحاب كلية من الموقف والعيش في عالم خاص .

٥ ـ من الـطبيعي أن يطرح المثقفـون والعلماء الاجتماعيون تساؤلات كثيرة حول مصير الثقـافـات الشعبيـة ، والمعتقـدات الدينية والاخلاقية ، وأساليب الإنتاج والتفكير السائدة في مجتمعات العالم الثالث في ظل «النظام العالمي الجديد» الذي أشرنا الى أهم ملامحه ومعالمه . إن السيطرة الرأسمالية العالمية لن تقتصر على فرض أنماط عالمية من التفكير والسلوك ، بل ستؤدي ـ بشكـل مباشر أو غير مباشر ـ الى طمس كثير من الثقافات الشعبية في مناطق مختلفة من العالم النامي . ويكفي الإشارة الى مجال الاستهلاك لندرك مدى تأثير الثقافة الرأسمالية عليه : من نمط إنتـاج السلع ، الى طريقـة استخـدامهـا وتـذوقهـا ، الى الارتباط بها واعتبارها رمزا للحداثة والمعاصرة . لذلك فإن علماء الاجتماع والانثربولوجيا مطالبون بدراسة أساليب الانتشار الثقافي ، بما في ذلك السلع والأفكار في إطار علاقات عدم التكافؤ[١٢] . ومن الضروري أن يعيد هؤلاء العلماء النظر في كوكبة المفاهيم المحافظة التي اعتادوا العمل في ضوئها . ذلك أن الانتشار الثقافي على صعيد عالمي ليس عملية حيادية ، وإنما هو تعبير عن علاقات قوة تتخذ أشكالا مختلفة . ولابد من أن نطرح في هذا المجال أيضا مصير المعتقدات السياسية ذات النشأة الوطنية في مجتمعات العالم الثالث . ففي مجتمعاتنا العربية نجد المعتقدات السياسية السائدة (كالاشتراكية ، والقومية) ذات أصول غربية ، بينما نجد الاسلام (في صورته السياسية) هو المعتقد السياسي الذي نبت من أرض عربيـة . وفي ظل التحـولات العالمية المعاصرة لابد من طرح تساؤلات حول مصير المعتقدات السيـاسيـة الـوطنيـة في مواجهـة الـرأسـماليـة العـالمية وفي حالة الإسلام بالذات يمكننا طرح تساؤلات إضافية بعد إنهيار الإتحاد السوفيتي ، واستقلال الجمهوريات ذات الأغلبية الإسلامية ،

واحتمالات تفاعلها مع أقطار إسلامية مجاورة مثل افغانستان وايران وتركيا ، والأقطار العربية الإسلامية المجاورة .

٦ ـ في ظل التحولات العالمية المعاصرة تظهر أشكال جديدة من العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني في الأقطار النامية التي تأخذ بنظام التعددية السياسية والمشروع الخاص . إن هيمنة النظام الرأسمالي على مستوى عالمي وافتقار نماذج تنموية أخرى مؤثرة سوف يفرض ضغوطا متزايدة على تلك الأقطار من أجل اختزال التاريخ وتجاوز الخصوصيات الثقافية والاجتماعية . وإذا كانت الدولة كجهاز سياسي على إستعداد لتشجيع مبادرات القطاع الخاص وتدعيم المجتمع المدني من خلال النقابات والأحزاب السياسية والنوادي والجماعات الوسيطة الأخرى ، فإنها يجب أن تكون على إستعداد ـ في الوقت ذاته ـ لتقليص سلطاتها وقص بعض أجنحتها ، وتلك معضلة تواجه الدولة في علاقتها بالمجتمع المدني ، وستظل تفرض نفسها بقوة في ظل «النظام العالمي الجديد» الذي تشكل الديمقراطية أحد رموزه القوية .

٧ ـ من الضروري تحليل الدور السياسي للقوى الإجتماعية التي لن تستطيع تحقيق مزايا اقتصادية واجتماعية من الليبرالية الجديدة في الأقطار النامية . وربما كانت أبرز تلك القوى الاجتماعية : فقراء المدن ، ومعدمو الريف ، وصغار الموظفين ، والعاطلون والمهمشون العاجزون عن الدخول في فلك تلك الليبرالية . إن المشاركة السياسية لتلك القوى الاجتماعية هي مسألة ضرورية ، وان كانت تكلفتها الاجتماعية سوف تكون باهظة بالنسبة للحكومات . لذلك فإننا نتوقع وصول تلك الحكومات الى صيغ سياسية جديدة ملائمة لم تشهدها الدول الرأسمالية الغربية خلال تاريخها الديموقراطي . وفي كل الأحوال ، فإن التعددية السياسية التي تميل الى الأخذ بها الأقطار النامية في ظل «النظام العالمي الجديد» ، سوف تطرح تساؤلات حول مصير الحركات الراديكالية ، والاتجاهات الاشتراكية ، والنزعات القومية ، فضلا عن المعتقدات السياسية القادرة على حشد الجماهير وتوجيهها نحو أهداف تنموية عامة .

٨ ـ يستطيع العلماء الاجتماعيون الوصول الى دلالات هامة إذا ما تأملوا نمط التنمية الصناعية التي شهدتها الدول الصناعية الجديدة **NIC** في جنوب شرق آسيا ، وعلى الأخص النمور الأربع : تايوان ، وسنغافورة ، وكوريا الجنوبية ، وتايلاند ، بالإضافة الى دول نامية أخرى مثل المكسيك والبرازيل[١٣] . ومهما قيل من دوافع سياسية خارجية لدعم تلك الدول ، إلا أن الحقيقة تظل باقية وهي ؛ أن مجموعة من الدول النامية قد تمكنت من كسر حلقة التخلف الجهنمية لا عن طريق التثوير ، بل عن طريق التحديث . إن هذه التجارب التنموية يجب أن تشكل معامل حقيقية للعلماء الاجتماعيين في الأقطار النامية ، بهدف التعرف على الظروف الملائمة للنمو

الاقتصادي ، وديناميات التحول الاجتماعي ، والقوى الاجتماعية التي تلعب دورا قياديا في مجال التنمية الاقتصادية ، فضلا عن الوزن النسبي لكل من العوامل الداخلية والخارجية في إنجاز التنمية الاقتصادية والتغيير الثقافي .

٩ ـ انقضى وقت طويل مارس فيه العلماء الاجتماعيون في الاقطار النامية مهامهم البحثية في ضوء تعصب فكري ، أدى الى تجاهل كثير من المشكلات الاجتماعية والبيئية التي تواصل فرض نفسها يوما بعد يوم . فقبل عقدين من الزمان كان الحديث عن تلوث أو تدهور البيئة في الأقطار النامية يبدو في نظر بعضهم ضرب من الترف الفكري أو «التجهيل الايديولوجي » . وقبل عقد واحد فقط كان الحديث عن قضية التصحر ضربا من اللغو ، لأنه لا يتصل في نظر البعض الآخر ـ بشكل مباشر ـ بطبيعة التكوين الاجتماعي في الأقطار النامية[١٤] . والواقع أنه منذ مطلع عقد الثمانينيات من القرن الحالي ، والأقطار النامية تواجه مشكلات بيئية واجتماعية بالغة الحدة والشدة : التلوث البيئي ، وأحزمة الفقر حول المدن ، والجفاف ، والتصحر ، والديون الخارجية ، والتكنولوجيا الملائمة ، والصراعات الاقليمية والدينية ، والمشكلات العرقية . إن هذه المشكلات بحاجة الى مزيد من اهتمام الباحثين الاجتماعيين المعاصرين ، خاصة وان معظمها يتصل ببنية مجتمعات العالم الثالث ، والتحولات التي مرت بها بعد حصولها على استقلالها السياسي .

١٠ ـ على الرغم من أن الفرص المتاحة أمام الأقطار النامية للإفادة من «النظام العالمي الجديد» تبدو محدودة على الأقل في المدى القصير ، إلا أن باستطاعة بعضها الإفادة من بعض تلك الفرص ، وذلك باستثمار دورها الاقليمي ، وقدرتها على التعبير عن نموذج ديموقراطي رائد ، فضلا عن الدور الذي يمكن أن تلعبه في أية ترتيبات أمنية مقبلة . وفي عصر تسوده الكتل الاقتصادية الرأسمالية الكبرى ، فإن التعاون أو التكامل الاقليمي بين الأقطار النامية يصبح مصيرا حتميا يصعب تفاديه . وينطبق ذلك على أكثر الأقطار النامية فقرا ، وهي الأقطار الأفريقية التي يجب أن تواجه اعتمادها على منتج واحد، وتخلف هياكلها الإنتاجية ، وصغر قواعدها السكانية بشكل عام ، من خلال تجمعات إقليمية تتيح لوحداتها الإفادة من مزايا التكامل الاقتصادي . إلا أن تجارب العالم الثالث قد برهنت على أن التكامل الاقتصادي ليس نزهة جماعية سهلة ، بقدر ما هو تضحيات متبادلة تتطلب نضجا سياسيا وتطورا اجتماعيا على نحو ما حدث في أوروبا الموحدة . إن أمام الأقطار النامية الآن فرصا عديدة للإفادة من النظام العالمي الجديد دون الوقوع في أخطاء تعرضت لها الأقطار الرأسمالية عبر مسيرتها منذ مطللع القرن التاسع عشر. هناك إمكانية الإفادة من التكنولوجيا العالمية ، وثورة المعلومات والاتصال ، على أن يواكب ذلك عمل نشط من أجل حل معضلة التكنولوجيا وخلقها . إن هذا الانتقال هو خطوة أساسية وضرورية على طريق التنمية الحقيقية .

المراجـــــع

(١) يمكن الرجوع الى عدد من الدراسات والبحوث التي تناولت آفاق النظام الدولي خلال عقد التسعينات ، أنظر على سبيل المثال : محمد السيد سعيد ، آفاق النظان الدولي في التسعينات ، سلسلة بحوث سياسية (١٨) ، جامعة القاهرة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، اغسطس ، ١٩١٩ ، وكذلك عبد المنعم سعيد : مصر والنظام الدولي في التسعينات ، في أعمال المؤتمر السنوي الثالث للبحوث السياسية ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ص ٢٣٧ - ٢٩٥ .

(٢) لمزيد من التفصيل أنظر إرنست مانديل ؛ الإتحاد السوفيتي الى أين في ظل جورباتشوف ؛ ترجمة كميل داغر ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٩١ . ويمكن الوقوف على تحليل أكثر دقة لنتائج تفكك الإتحاد السوفيتي بالرجوع الى المقدمة المستفيضة التي كتبها المترجم .

(٣) أسامة خالد ؛ المستقبل العربي في العصر الأمريكي ، مركز القادة للكتاب والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ص ٢٥ - ٢٨ .

(4) Bell, D; The End of Ideology : On The Exhaustion of Political Ideas in The Fifties , The Free Press , New York , 1960 .

(٥) اتخذت تلك المراجعة أشكالا مختلفة . إلا أن ما يعنينا هنا هي تلك التي ظهرت من داخل أقطار أوروبا الاشتراكية (سابقا) . وفي هذا المجال يمكننا الإشارة الى المحاولة المبكرة التي قدمها ديجلاس Djilas في كتابه الصغير الحجم : الطبقة الجديدة (١٩٥٧) The New Class ، حيث كشف عن تناقضات المجتمع الاشتراكي اليوغسلافي من خلال خبراته الشخصية والسياسية ، خاصة وأنه قد ظل لفترة طويلة نائباً للرئيس اليوغوسلافي جوزيف بروز تيتو . أنظر :

Djilas, M; The New Class London , 1957

وهناك الى جانب ذلك تحليلات جيدة تناولت البناء الطبقي في الإتحاد السوفيتي سابقاً ، أنظر على سبيل المثال .

Lane , D ; Politicsand Society in The USSR , Weidenfeld and Nicolson , 1970

Armstrong , J ., The Soviet Bureaucratic Elite : A Casa Study of The Ukranian Apparatus , Praeger , 1059 ; Parkin , F ; "Class Stratification in Socialist Societies" , British Journal of Sociology - December , 1969 .

(٦) أنظر سلوى شعراوي جمعة ؛ مصر والنظام الدولي : سيناريو التسعينات ، في : مصر وتحديات التسعينات ، مرجع سابق ، ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

(٨) هناك محاولات حديثة لفهم تأثير التحولات العالمية على فرص التنمية في أقطار العالم الثالث ، إنظر :

Hettne . B ; Development Theory and Three Worlds , Longman Group Limited , London . 1990 ; Galtung ; J. Development Theory : Netes For an Alternative Approach , Institute For Environment and Society , Berlin , 1985 ; George , S ; A Fate Worse Than Dept , Penguin , London , 1988 ; Redclift , M ; Sustainable Development , Exploring The Contradictions , Meuthuen , London , 1987 .

(٩) أنظر السيد الحسيني ؛ التنمية والتخلف ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٢ ، وعلى الأخص الفصل الأول .

(١٠) عبد المنعم سعيد ؛ مصر والنظام الدولي في التسعينات ، مرجع سابق ، ص ٢٦٢ .

(١١) منذ ظهور البروسترويكا في عام ١٩٨٥ وهناك جدل شديد حولها من جانب مثقفي العالم الثالث ، ويمكننا الإشارة في هذا المجال الى : وجهة نظر عربية إلى البيروسترويكا ، عرض مها صالح ، الفارابي ، بيروت ، ١٩٩٠ ، البيروسترويكا في عيون الآخرين ، تقديم فؤاد موسى ، مركز البحوث العربية ، القاهرة ، غير وارد تاريخ النشر ؛ وانظر أيضاً المقالات الواردة في مجلة قضايا فكرية ، نوفمبر ١٩٩٠ ، والتي تناولت البروسترويكا ومستقبل الاشتراكية .

(١٢) طرحت بعض هذه الأفكار منذ مطلع السبعينات في نطاق الانثروبولوجيا .

أنظر : Asad, T; Antropology , The Colonial Encounter , Ithaca Press , London , 1975 .

(١٣) أنظر : Cline, W; "Can The East Asian Model of Development be Generalized ? World Development, 10, (2), pp. 81-90; Harris, R; The End of The Third World : Newly Industrializing Countries and the Decline of an Ideology, Penguin Books, 1987., Haggard, S., "The Newly Industrializing Countries in The International System , World Politics XXXVIII (2), Jan 1986 .

(١٤) أنظر على سبيل المثال :

Timberlake, L; Africa in Crisis , Earthscan , London , 1985 , George , S; From The World Food Conference to 1984 : a Decade of Failure., Third World Affairs , Third World Foundation , London , 1985 .

التأثير السلوكي لوسائل الاعلام :
تحليل من المستوى الثاني

د . محمد عرفه
جامعتا القاهرة وقطر

مقدمة :

« وسائل الإعلام والسلوك الإنساني » مجال بحثي ، رغم أنه قديم قدم البحث الإعلامي الجاد منذ بداية االأربعينات من هذا القرن ، يبدو أنه لن تتقادم تساؤلاته بحيث يأتي اليوم الذي نقرر فيه أن كل تلك التساؤ لات قد تمت الاجابة عليها بالفعل ، ويبدو أنه لن تموت قضاياه مهما إستهلكها النقاش على المستويين العام والعلمي . فاجراءات البحث الإعلامي أو الاجتماعي في هذا المجال الحيوي مازالت بعيدة عن الكمال ، في الوقت الذي تتعامل فيه مع تساؤلات صعبة ومعقدة . وقضايا هذا المجال البحثي ذات أهمية متجددة بحيث يصعب تجاهلها في أي وقت . وأهم من ذلك كله فان كلا من طرفي هذا المجال : أي وسائل الإعلام والسلوك عرضة للكثير من أوجه التغيير والتغير ، وهو ما يجعل العلاقة بينهما هي الأخرى دائمة التغير .

والوضع في هذا المجال البحثي اليوم مازال بعد واحد وثلاثين عاما أبعد ما يكون عما تنبأ به برنارد بيرلسون عام ١٩٥٩[1] في بداية حلقة دراسية حول مستقبل البحث الاتصالى أو الإعلامي من أن باحثي العلوم الاجتماعية قد ينصرفون قريبا عن البحث في الإعلام أو الاتصال الجماهيري ذلك أن التساؤلات الرئيسية ستكون قد تمت الإجابة عليها . فالواقع اننا اليوم أقرب إلى مقولة ولبور شرام في نفس تلك الحلقة الدراسية منا إلى مقولة بيرلسون . ومقولة شرام هي أنه أنه ليس من قبيل المبالغة ان نقرر أن البحث الإعلامى في مجال التأثير السلوكي لوسائل الإعلام يبدو وكأنه قد بدأ الآن فقط[2] . رغم أنه بدأ منذ أكثر من خمسين عاما .

(1) berelson, B.R., 1959, "The State of Communication Research", Public Opinion Quarterly, vol. 23, pp. 1 – 15.

(2) Comstock, et al., 1978, **Television and Human Behavior,** New York: Columbia University Press. p XIV

وأنا لا أقصد هنا أن البحوث التي تناولت التأثير السلوكي لوسائل الإعلام نادرة أو حتى قليلة . فالواقع عكس ذلك . ولكن ما أقصده هو أن هذا الموضوع مازال يحظى باهتمام العديد من الباحثين وكأنه موضوع جديد ليس في مجال الإعلام (الاتصال) فقط بل في مجالات عديدة نذكر منها علوم النفس والطب النفسي والاجتماع والتربية والاجرام والسياسية .

ودراسة التأثير المقصود وغير المقصود لوسائل الإعلام كما يظهر في سلوك مستهلكي تلك الوسائل كانت ومازالت مليئة بالجدل والخلاف حول قدرة العلوم الاجتماعية والسلوكية ، التي يعد علم الاتصال أحد أعضائها ، على الوصول إلى نتائج تؤكد أو تنفي بشكل قابل للتحقيق العلاقة السببية بين محتوى وسائل الإعلام بشكل عام وبين سلوك المستهلكين الدائمين **Heavy Consumers** لمحتوى تلك الوسائل مقارنة بسلوك غير المستهلكين أو المستهلكين النادرين **Light Consumers** لذلك المحتوى . وربما ضاعف من الضجيج حول هذا الموضوع حقيقة أن القليل النادر فقط من باحثي العلوم الاجتماعية والسلوكية ، بل من الجمهور العام ، هم الذين لا يعتبرونَ أنفسهم خبراء في وسائل الإعلام وتأثيرها على جماهيرها **Audiences** . ويكفي أن أذكر هنا أنه بعد أن نشرت في الصحافة العامة نتائج دراسة قام بها بعض علماء الاتصال الجماهيري لحساب المركز القومي للصحة النفسية بالولايات المتحدة ، كتب أحد القراء إلى لجنة البحث بالمركز يقول «لو أنكم سألتموني عن تأثير مضمون العنف بوسائل الإعلام وبالذات التليفزيون على سلوك المشاهدين لاسترحتم ووفرتم مبالغ طائلة أنفقتموها من عوائد ضرائبنا على هذا البحث[1] .

لكن ما هي أسباب اختيار هذا الموضوع ليكون محورا لورقة بحث في بداية التسعينات ؟

خمسة أسباب على الأقل كانت وراء اختياري لهذا الموضوع :

١ ـ ان هناك اليوم في العالم كله درجة عالية من الاهتمام بالتحقيق الامبريقي **Empirical verification** من تأثير وسائل الاعلام على سلوك الفردوالمجتمع ، وذلك بتأثير إتساع نطاق البث الاذاعي المباشر بالأقمار الصناعية في مناطق عديدة من العالم . هذا البث الذي جعل استقبال اشارات الراديو أو التليفزيون يسيرمباشرة من القمر الصناعي إلى أجهزة الاستقبال دون حاجة إلى وساطة محطة القمر الصناعي الأرضية والتي كانت تعمل كأحد أكبر حراس البوابة **Gate Keepers** في عملية الاتصال الدولي بالوسائل الالكترونية فتستقبل الاشارات الاذاعية وتعيد

(1) Comstock et al., Op., cit. p. 1.

بث ما تريـد فقط إلى أجهزة الاستقبال الاذاعي من راديو وتليفزيون . هذا الاهتمام بالتحقق الامبريقي من تأثير وسائل الإعلام بدأ يظهر في عمليات اعادة تقويم الدراسات السابقة في مجال تأثير وسائل الإعلام في مستهلكيها بعامة وفي سلوك هؤلاء المستهلكين بشكل خاص واعادة النظر في الافتراضات التي بنيت عليها تلك الدراسات وفي المناهج والأدوات التي استخدمتها في البحث .

٢ ـ إن الوقت الذي مر على البحوث التي ركزت على أحد جوانب هذا الموضوع وهو صلة مضامين العنف في وسائل الاعلام بالسلوك العدواني أو العنيف لمستهلكي تلك المضامين والتي تم نشر معظمها في تقريرين صدرا عن المفوض الصحي العام بالولايات المتحدة Surgeon General في عامي ١٩٧٢ ، ١٩٨٢ . . هذا الوقت يعد كافيا لاعادة النظر في تلك البحوث وتقويمها تقويمًا أقرب إلى الدقة .

٣ ـ إن هناك تغيرا أساسيا في بنية الاعلام العالمي . وأبرز مظاهر هذا التغيير هو بروز وسائل الإعلام متعددة الجنسية والتي تعطي للفرد المستهلك للرسائل وللجمهور فرصة للاختيار ليس فقط من بين الرسائل التي تبثها وسائل الاعلام القومية بل الوسائل الدولية . هذا التغير في البنية الإعلامية الدولية بدأ يؤثر على مضمون وأداء وسائل الإعلام القومية . وهو ما يثير العديد من المشاكل التي سوف تكون بؤر اهتمام باحثى الاتصال في المستقبل القريب . وهذا البحث المستقبلي يجعل عملية مراجعة التجارب البحثية السابقة أمرا ضروريا .

٤ ـ إن اهتماما متزايدا بدرجات متفاوتة قد بدأ يظهر داخل حدود كل دولة وبين الدول بترجمة البحوث الاجتماعية والسلوكية إلى سياسات فعلية . ولما كان الباحثون في الإعلام ، بل في العلوم الاجتماعية كلها ، مازالوا يعيشون في عوالم مستقلة تبدو قليلة الصلة بما يحيط بهم ، ومازالوا يستخـدمون لغة بحثية بعيدة عن لغة التطبيق فإن هناك حاجة اليوم إلى اعادة النظر في مناهج البحث وأدواتـه حتى يصبـح قادرا على اعارة نفسه بسهولة للتطبيق . ونجاح عملية استخدام البحث العلمي كأسـاس لوضع السياسة التطبيقية يعتمد في جزء منه على إعادة النظر في تركة التجارب البحثية الماضية . فاعادة النظر هذه سوف تزيد من ايضاح بؤر الاهتمام التي ينبغي أن يتركز عليها البحث المستقبلي الذي يصلح أن يكون مرشدا للسياسة الإعلامية إن لم يكن أساسها .

٥ ـ ان هنـاك جدالا بدأ منذ سنوات طويلة ومازال يتردد في بحوث الإعلام حول أحد جوانب التأثير السلوكي لوسائل الإعلام وهو علاقة العنف الذي يظهر في تلك الوسائل وبالذات

التليفـزيون بالسلوك العدواني لبعض جماهير تلك الوسائل وبالذات الأطفال والمراهقون[1] . فالبعض يرى أن هناك علاقة سببية بين الاثنين ـ أي ان جرعة العنف الاعلامي الضخمة التي تقدمها وسائل الإعلام تسبب تزايدا في السلوك العدواني لمن يستهلك تلك الجرعة بكثافة وبالذات الأطفال . البعض الآخر يجد علاقة إرتباط فقط **Association** وليس علاقة سببية . وهؤلاء يقررون أن اتجاه علاقة الارتباط قد يأخذ عكس علاقة السببية أي أن فئات الجمهور ذات السلوك العدواني هي التي تبحث عن مضامين العنف في وسائل الإعلام وتستهلكها لأسباب نفسية تتعلق بالتبرير . بل إن البعض الثالث يرى انه ليس هناك مبرر علمي كاف للاعتقاد بوجود علاقة على الاطلاق ـ أيا كانت طبيعتها ، سببية أو ارتباط . ونحن نأمل من خلال هذه الدراسة أن نجمع دلائل علمية من البحوث المتوافرة تساهم في حسم هذا الموضوع .

اجراءات البحث **Procedures** :

لأن العـلاقـةبـين مضـامـين وسائل الإعلام وسلوك مستقبلي تلك المضامين ، أو التأثير السلوكي لوسائل الإعلام هو أوسع مجالات البحث الاتصالي ، وهو في الواقع الهدف النهائي لكل بحوث الإعلام سواء تعلقت تلك البحوث بالقائم بالاتصال أو بالوسيلة أو بالرسالة أو المستقبل ، فإن من الصعب أن نحصر كل الـدراسـات التي أجريت في هذا المجال . فقد ذكر كومستوك وزمـلاؤه مثـلاً أن الـدراسات التي عالجت تأثير وسيلة واحدة فقط هي التليفزيون على سلوك مشـاهديه قد زادت عام ١٩٧٨ على ٢٣٠٠ دراسة منشورة ما بين كتاب ومقالة وتقرير بحث ووثيقة باللغة الانجليزية فقط[2] . ودلت خدمات المعلومات **Information Service** التي استخدمتها خلال صيف ١٩٩٠ على أن هذا العدد قد وصل هذا العام إلى أكثر من ٣٤٥٠ دراسة باللغة الانجليزية فقط بعد أن كان شيرون لويري وميلفين دي فلير قد قدراها عام ١٩٨٨ بأكثر من ٢٩٠٠ دراسة[3] .

فاجـراء تحليـل من المستوى الثاني أو حتى مجرد الحصول على كل هذا الكم الهائل من الدراسات والاطلاع عليه إذا يخرج عن نطاق ما هو ممكن انسانيا **Humanly Impossib-le** حتى بالنسبة لفريق كبير من الباحثين ولا أقول باحثا واحدا .

(1) Ibid, p. XV.

(2) Ibid, p. XVII

(3) Lowery, Shearon A. and Melvin L. Fleur, 1988, **Milestones in Mass Communication Research,** 2nd ed. New York: Longman Inc., pp. 353 - 424.

لهذا فقد ركزت البحث على موضوعين اثنين فقط من الموضوعات ذات البروز **Most Selient Topics** في مجال التأثير السلوكي لوسائل الإعلام . هذان الموضوعان هما : الأول هو التأثير السلبي لمضامين العنف في وسائل الإعلام ، وعلى الأخص في التليفزيون على سلوك مستهلكي تلك المضامين ، كما يظهر هذا التأثير في شكل أنماط عدوانية للسلوك **Aggress-ive Behavioral Patterns** . والثاني هو التأثير الايجابي لوسائل الإعلام على سلوك جمهور تلك الوسائل كما يظهر في أربعة أنماط هي بالتحديد الإيثار **Altruism** أو سلوك المشاركة **Sharing Behavior** ، السلوك الودي **Friendly Behavior** تجاه فرد أو جماعة أو تنظيم اجتماعي ، ضبط النفس **Self - Control** ثم سلوك الاطفال والبالغين في مواجهة مشاعر الخوف **Effects of showing people coping with Fears** .

واقتصر التحليل على الدراسات التي استخدمت واحدا أو كلا من تصميمين منهجيين اثنين فقط هما : التصميم التجريبي **Experimental Design** والدراسات الحقلية **Field Studies** سواء كانت تلك الدراسات الحقلية عادية أو طولية **Longitudinal Field Studies** . وسبب الانتقاء واضح . فهذين النوعين من الدراسات هما اللذان يقيسان بالفعل إما التأثير السلوكي لمضمون معين على سلوك متلقي هذا المضمون وبذلك يفحص علاقة السببية ، أو التأثير المقصود أو غير المقصود لتجربة التعرض بشكل عام **Exposure Experience** لوسيلة أو مجموعة من الوسائل خلال فترة زمنية معينة على سلوك الجمهور ذى الاستخدام المكثف لهذه الوسائل **Heavy Users** وبذلك يبحث علاقة الارتباط .

وقد مكنت الاستعانة بخدمات المعلومات المتوافرة في إحدى جامعات الولايات المتحدة خلال الصيف الماضي من الحصول على الدراسات التي ينطبق عليها التحديد المنهجي السابق . وتركزت خدمات المعلومات على نوعين : الأول هو استخدام نظام الفهارس المميكنة **Automated Indexes** التي قدمت قائمة بالكتب التي نشرت في هذا الموضوع وتم تضمينها في قوائم مكتبة الكونجرس حتى عام ١٩٩٠ . ومن هذه الكتب تم اختيار الكتب والتقارير التي نشرت بالانجليزية خلال السبعينات والثمانينات على أساس أن تلك المواد أعادت مراجعة المواد التي نشرت قبل ذلك وبنت عليها أو اكتشفت الثغرات المختلفة في هذا التراث وحاولت ملأها .

الثانى : هو أسلوب فيرجو **Vergo** الذي تستخدمه جامعة فرجينيا في البحث البيلوجرافي بالكمبيوتر **On - line Search** والذي يقدم كل البحوث التي نشرت في الموضوع في شكل

مقالات أو بحوث وغيرها من ملخصات بحوث الماجستير والدكتوراه التي لم يتم جمعها بين دفتي كتاب . واقتصر البحث الببلوجرافي بالكمبيوتر على المواد التي ظهرت في السبعينات والثمانيات لنفس السبب السابق، إضافة إلى ما لاحظته خلال دراستي وعملي في مجال بحوث الاتصال في السنوات الأخيرة من تغير في محور الاهتمامات البحثية خلال هذين العقدين في مجال التأثير السلوكي لوسائل الاعلام. فقد شهدت السبعينات وما قبلها تركيز باحثي الاتصال المهتمين بهذا المجال على صلة المضامين العنيفة لوسائل الاعلام بالسلوك العدواني أو السلوك العنيف لجمهور تلك الوسائل. أما الثمانينات فقد شهدت تقسيما لاهتمامات الباحثين بشكل متوازن بين دراسة التأثير السلبي لوسائل الاعلام على انماط سلوك جماهير تلك الوسائل والذي يظهر في شكل عنف وسلوك غير مقبول اجتماعيا **Antisocial Behavior** من جهة وتأثير هذه الوسائل في خلق أو تدعيم أنماط سلوكية مقبولة اجتماعيا **Prosocial Behaviors** من جهة أخرى .

وكانت محصلة هذه الاجراءات الانتقائية هي ١٢٣ دراسة منها ٤٧ دراسة عن العلاقة بين العنف في وسائل الاعلام والسلوك العنيف لجمهور تلك الوسائل والباقي عن علاقة مضامين معينة لوسائل الإعلام بالسلوك المقبول اجتماعيا . وهذه المجموعة الأخيرة من الدراسات كان توزيعها كالتالي : ١٣ دراسة عن تأثير وسائل الإعلام في خلق سلوك الايثار و ٧ دراسات عن التأثير الإعلامي في خلق وتدعيم السلوك الودي لجمهور المستقبلين و ١٤ دراسة عن علاقة مضمون وسائل الإعلام بسلوك لبالغين للتغلب على مشاعر الخوف و ٤٢ دراسة عن تأثير وسائل الإعلام في تنمية سلوك ضبط النفس .

والتحليل من المستوى الثاني الذي استخدمه الباحث هنا ليس هو النمط البسيط من هذا الاجراء المنهجي والذي يقوم فيه الباحث بتحليل مادة أو بيانات **Data** كان بحث آخر قد قام بجمعها والوصول إلى مجموعة من النتائج قد تتفق أو تختلف عن النتائج التي توصل إليها الباحث الأصلي ان كان هذا الأخير قد تخطى مرحلة جمع البيانات إلى صياغة مجموعة من النتائج ، بل أنه أقرب إلى النمط الذي استخدمه باحثو الاتصال لي بيكر **Lee B. Becker** وراندي بيم **Randy Beam** وجون روشيال **John Russial** [1] في تحليلهم لأكثر من مئة بحث لتقويم آداء الصحف اليومية في بعض الولايات الامريكية في منطقة نيو انجلند بالساحل الشمالي

(1) Becker, Lee B., Randy Beam, and John Russial, 1978, "Correlates of Daily Newspaper Performance in New England", Journalism Quarterly, vol 55 pp. 100-108.

الشرقي والتي كانت قد نشرت أصلا في كتاب حررته لورين حيجلوين **Loren Ghigloine** عام ١٩٧٣ [1] . هذا النمط من التحليل من المستوى الثاني **Type of Secondary Analysis** والذي يعد لي بيكر أشهر المتحمسين له في بحوث الإعلام اليوم [2] هو ببساطة وضع مجموعة من الدراسات أو البحوث جنباً إلى جنب بهدف المقارنة بينها عن طريق استخدام تحليل مضمون تلك البحوث وهو الاجراء الذي تحدد فئاته المتغيرات التي قاستها تلك الدراسات ، وأساليب القياس ، ثم النتائج التي توصلت إليها بحيث تقود تلك المقارنة في النهاية ليس فقط إلى تقويم تلك الدراسات ونقدها بل إلى الوصول إلى بناء نظري أوسع وأكثر صقلا **A More Substantive and Sophisticated Theorectical structure** من الابنية النظرية التي توصلت إليها كل دراسة على حدة .

النتائج ومناقشتها Results and Discussions

أولاً : العنف في وسائل الإعلام والسلوك العدواني للجمهور المستقبل :

رغم أن علاقة المضامين الإعلامية التي يصفها البعض بأنها عنيفة بظهور أنماط من السلوك العدواني أو غير المقبول إجتماعيا لدى مستهلكي تلك المضامين سبب قلقا في الأوساط العامة وبين الباحثين في الإعلام منذ ظهور قوة التليفزيون في الخمسينات إلا أن الستينات والسبعينات شهدت أعلى درجات القلق والاهتمام العام والعلمي بهذا الموضوع .

ففي عام ١٩٧٧ حدث بمدينة ميامي الأمريكية أثناء محاكمة روني زامورا **Ronnie Zamora** [3] والذي كان متهما مع صديق له بقتل سيدة مقعدة في الثمانين من عمرها ، حدث أن دفع محامي المتهم بأن موكله قد تعلم من التليفزيون أن القتل هو أفضل وسيلة يتم بها فرض الصمت على مصدر التهديد . فقد كانت الضحية قد شاهدت المتهم أثناء ارتكابه جريمة سطو على أحد المنازل المجاورة وهددته بأنها سوف تبلغ الشرطة بما رأت . وكان زامورا قد تعلم من التليفزيون ـ كما قال محاميه ـ أن الأموات لا يتكلمون ، وأن النموذج السلوكي الذي يقدمه التليفزيون للمشاهد هو نفس السلوك الذي سلكه موكله . الخلاصة هي أن محامي زامورا قدم

---

(1) Ghigloine, Loren, 1973, **Evaluating the Press: The New England Daily Newspaper Survey,** South Bridge, MA: Published by the editor.

(2) Becker, Lee B., 1989, "secondary Analysis" in Stempel, Guido H. and Bruce H. Westley, eds.. 1989, 3nd (ed(, **Research Methods in Mass Communication,** Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall, pp. 247–261.

(3) Lowery, Shearon A. and Melvin L. Fleur, 1988, Op. Cit., p. 353.

دفـاعـاً جديـداً في نوعـه للقضـاء الأمـريكي بل وللقضاء في العالم كله انه ما أسماه «التخدير بالتليفزيون Television Intoxication أو التغييب عن الوعي بالتليفزيون» . وحجته هي أن من يفعل شيئاً وهو تحت تأثير التخدير الإعلامي لايكون مسئولا بشكل كامل عما يفعل . فالتعرض لمضامين العنف المكثفة في التليفزيون هو الذي قاد زامورا إلى ارتكاب جريمته التي تصور أنها سلوك شائع يشاهده كل يوم تقريبا على الشاشة الصغيرة . فجريمته تنحصر في تقليد سلوك شاهده ويشاهده الملايين غيره كل يوم . ففي نظر الدفاع كان زامورا مدمنا للتليفزيون Television Addict وتربى على جرعات تليفزيونية وإعلامية يومية هي في معظمها عنف وجريمة ودراما ذات إيقاع سريع وصاخب High Action Drama . لهذا فإن المذنب الحقيقي في جريمـة القتل البشعة التي راحت السيدة العجوز ضحية لها هو التليفزيون وليس موكله الذي هو في الحقيقة أحد ضحايا التليفزيون وغيره من وسائل الإعلام المزدحمة بالمحتوى العنيف .

صحيح أن القاضي حكم بإدانة زامورا وزميله مقررا في حيثيات الحكم أن التعرض للعنف والجريمة في التليفزيون أو غيره من وسائل الإعلام لايمكن إعتباره سببا أو مبررا للقتل العمد ، إلا أن العديد من الباحثين في الاتصال الجماهيري ، بل والجمهور العام في الولايات المتحدة وفي الدول العديدة التي تلتهم بشراهة مضامين وسائل الإعلام الأمريكية في معظم أنحاء العالم بدأوا يتساءلون بإلحاح عما إذا كانت مشاهدة التليفزيون سبباً مباشراً أو لعبت دوراً ما في تشكيل سلوك زامورا الذي جنح للعنف بل بدأنا جميعا نردد سؤالا جوهريا هو : ألا يمكن أن يكون أطفالنا ومراهقونا الجالسون أمام التليفزيون هم الآخرون زامورا صغاراً ـ أي قنبلة موقوتة تنتظر الظرف المناسب للانفجار كما كان زامورا الذي ما أن توفرت له الظروف المناسبة للسلوك العنيف حتى قلد بالضبط السلوك الذي تعلمه من التليفزيون . . ؟!

وزادت درجة الاهتمام بموضوع العنف في وسائل الإعلام والسلوك العدواني أو غير المقبول إجتماعياً حينما حدث بعد ذلك بشهور أن أشعلت جماعة من المراهقين في ولاية فلوريدا النار في بعض المشردين المسنين مباشرة بعد أن شاهد هؤلاء المراهقون حدثا مماثلا في فيلم تليفزيوني أذيع في إحدى أمسيات نهاية الأسبوع . وتكرر نفس الشيء في بوسطن حينما استدرجت عصابة من الصبية فتاة في العشرين من عمرها إلى مكان خال وإنهالت عليها ضربا ثم صبت البنزين عليها وأشعلت النار فيها وذلك بعد يومين فقط من إذاعة فيلم تليفزيوني صور سلوكا مماثلا [1] .

(1) Ibid, p. 353.

رغم أن أحداً من الباحثين في الإعلام أو في علم النفس والاجرام أو الاجتماع أو الطب النفسي لم يلق باللوم كله على وسائل الإعلام وعلى الأخص التليفزيون كسبب وحيد لظاهرة انتشار العنف بين أفراد المجتمع الأمريكي أو غيره من المجتمعات التي تعد جرعات المضامين العنيفة في وسائل إعلامها عالية بشكل ملحوظ ، إلا أن علاقة تلك المضامين بالسلوك العدواني أو العنيف أو غير المقبـول إجتماعياً لقطاعات معينة من جماهير تلك الوسائل اصبحت مصدر قلق متزايد للجمهور العام وللعديد من باحثي الاتصال الجماهيري والعلوم الأخرى المهتمة بالموضوع خلال السبيعنات .

وقد انحصرت فئات التحليل للعلاقة بين العنف الإعلامي والسلوك العنيف لمستهلكيه في الدراسات التي تناولتها خلال السبعينات والثمانينات في أربع هي نفسها الفئات التي استخدمها تقـرير المفوض الصحي العام للولايات المتحدة **Surgeon General** الثاني المنشور عام ١٩٨٢ فيما عدا الفئة الأولى وهي المراجعة التاريخية للجدال حول العنف الإعلامي والسلوك العدواني لجماهير وسائل الإعلام . هذه الفئات الأربع هي :

أ ـ قياس العنف في مضامين وسائل الإعلام وبالذات التليفزيون .

ب ـ الاتجاهات الكمية للعنف الإعلامي في تلك المضامين .

ج ـ تأثير العنف وبالذات المتلفز **Televised Violence** على سلوك المتلقي .

د ـ العمليات التي تنتج العلاقة بين العنف الإعلامي والسلوك العدواني [(١)] .

أ ـ قياس العنف في مضامين وسائل الإعلام :

إحـدى المشـاكل المنهجية الرئيسية في دراسة تأثير مضامين العنف الإعلامي على سلوك الجمهور المستقبل هي تعريف العنف أو المضمون العنيف . فقبل أن يتم فحص العلاقة بين هذين المتغـيرين لابد من تحديد المتغير المستقل : أي العنف . لابد للباحث أن يوضح ما هو المقصود بالعنف ؟ وما هي المعايير التي يمكن على أساسها اعتبار المضمون الإعلامي عنيفا أو غير عنيف ؟ وكيف يمكن حساب درجات العنف المختلفة حتى يمكن دراسة العلاقة بين درجات العنف المختلفة وبين درجات السلوك العدواني المختلفة ؟ فسواء كانت الدراسة معملية أو حقلية

---

(1) Pearl, David, Lorraine Bouthilet and Joyce Lazar, (eds.), 1982, **Television and behavior: ten Years of Scientific Progress and Implications for the Eighties** vol.II, Washington, D.C.: Government Printing Office.

لابد أن يتم أولا تعريف العنف . ولابد من قياسه بمقاييس مقبولة وبعدها يمكن اختبار العلاقة سواء كانت سببية أو ارتباط أو نفي وجود علاقة على الاطلاق بين مضمون معين والسلوك الذي أبداه مستقبل هذا المضمون . فالقياس الموضوعي والثابت **Objective and Reliable Measure** للعنف هو الخطوة الأولى نحو اختبار العلاقة بين المتغيرين .

والمشكلة في تعريف العنف وبالتالي تحديد السلوك العدواني الذي قد ينتج عنه وقياس هذا العنف هي ماذكرته احدى باحثات الإعلام من أن الباحثين قدموا خلال العشرين سنة الماضية تعريفات للعنف تعددت بتعدد هؤلاء الباحثين [١] . ومع ذلك فكل التعريفات التي استخدمها الباحثون أجمعت على عناصر للعنف تبدو واحدة تقريباً وهي : التعبير الصريح **Overt Expression** عن استخدام القوة الجسدية **Physical Force** ، ضد الآخرين أو الذات ، لاحداث قتل أو جرح أو اصابة [٢] . وأضافت بعض التعريفات أعمال التخريب للممتلكات والحوادث غير المتعمدة ، بينما ضمنت تعريفات أخرى العنف السيكولوجي مثل السب والاهانة . وضمن عدد نكاد يكون نادراً من الدراسات الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والبراكين والفيضانات في العنف .

ويزيد من تعقيد هذه المشكلة الاجرائية صعوبة تحديد وحدات العد **Unitization** . فحتى يمكن عد أحداث العنف الإعلامية لابد من معرفة أين يبدأ حدث عنيف وأين ينتهي ليبدأ حدث آخر ، خصوصا فيما يتعلق بالدراما التليفزيونية . ورغم أن هذا التحديد قد يكون تعسفيا يقرره الباحث كجزء من التعريفات الاجرائية فإنه قد يؤدي إلى تضليل في النتائج إذا لم تكن عملية التحديد هذه معقولة وواقعية . لهذا فقد قدم مشروع المؤشرات الثقافية والتأثير المزروع **Cultivation Effect** الذي بدأه جورج جربنر وزملاؤه في مدرسة الاتصالات بجامعة بنسلفانيا تحديداً معقولاً للحدث العنيف في التليفزيون وبالذات في الدراما التليفزيونية بأنه «المشهد الذي يتضمن واحداً أو أكثر من أشكال العنف ويقتصر على نفس المشاركين» [٣] . معنى ذلك أن أي مشهد يضم مشاركين جددا يعد حدثا مستقلا جديدا قائما بذاته .

---

(1) Signiorelli, Nancy, Larry Gross and Michael Morgan, 1982, "Violence in Television Programs: Ten Years Later", in Pearl, D. et al., op. Cit., p. 158.

(2) Gerbner, George, 1971, "Violence in TV Drama: Trends and Symbolic Functions", in Comstock, G. and E.A. Rubinstein, eds., **Television and Social Behavior, Vol.I, Media Content and Control,** Washington, D.C.: Government Printing Office.

(3) Gerbner, George and Larry Gross, 1976, "Living with Television: The Violence Profile", Journal of Communication, vol. 26, no. pp. 173–199.

المشكلة الثالثة التي يثيرها قياس العنف هي مؤشرات العنف **Violence Indices** في كل حدث يعد عنفا . والمؤشر كما عرفه جربنر وزملاؤه هو «المقياس المركب **Composite Measure** الذي يلخص عدة ملاحظات ويمثل بعدا أكثر عمومية في قياس العنف . وهو يشمل ثلاثة مكونات من البيانات هي : البروز **Prevalence** ، المعدل **Rate** ودور العنف **Role of Violence** [1] ، والبروز هو النسبة المئوية للمواد الإعلامية التي تحتوي على عنف من المضمون الكامل لوسيلة ما خلال فترة زمنية أو ضمن عينة معينة للدراسة . أما المعدل فهو تكرار أحداث العنف في وحدات البرامج أو وحدات الوقت وبذلك يمكن قياس المعدل في الساعة أو المعدل في العدد الواحد من الصحيفة أو البرنامج . وأخيراً فإن الدور هو تصوير الشخصيات كمرتكبي لأعمال العنف أو ضحايا لتلك الأعمال وبذلك يمكن حساب نسبة الشخصيات العنيفة أو نسبة ضحايا العنف إلى مجموع الشخصيات في البرنامج أو العرض أو القصة الخبرية أو الدراما الاذاعية أو التليفزيونية . صحيح أن مؤشر العنف بهذا الشكل يعد مؤشراً تعسفياً ـ أي حدده مستخدموه وقد يختلف عليه الآخرون ، لكن هذه هي حال كل المؤشرات التي تستخدم في العلوم الاجتماعية أو حتى في الاقتصاد مثل مؤشر الناتج القومي **GNP** [2]

ب ـ الاتجاهات الكمية للعنف الإعلامي :

يتطبيق التعريف ووحدات العد ومؤشرات القياس السابقة نجد أن وسائل الإعلام الأمريكية ، وبالذات التليفزيون ، هي الوحيدة بين وسائل الإعلام في العالم التي تم قياس العنف في مضمونها خلال فترات زمنية طويلة [3] . فمنذ ١٩٦٧ ومشروع المؤثرات الثقافية أو ما أسماه جورج جربنر وزملاؤه «ملف العنف **"Violence Profile"** يقدم قياسا كميا للعنف في التليفزيون أمكن من خلاله بيان اتجاهات مضامين العنف خلال سنوات طويلة وفي أوقات بث مختلفة . ودون الدخول في التفاصيل نستطيع أن نؤكد أن مستوى العنف في وسائل الإعلام الأمريكية ـ التي تشكل مضامينها جزءاً غير قليل من محتويات وسائل الإعلام في الدول

---

(1) Signiorelli, N., L. Gross and Michael Morgan, 1982 "Violence in Television Programs: Ten Years Later", in D. Pearl et al, Op. Cit., p. 165.

(2) Lowery, S. and M. De Fleur, Op. Cit., p. 367.

(٣) مع العلم بأن هناك دراسات محدودة لقياس العنف في بريطانيا والسويد واسرائيل .

الأخرى [١] في ارتفاع مطرد [٢] . صحيح أن مستوى العنف قد انخفض في فترات قصيرة في أوقات بث معينة خلال المدة من ١٩٦٧ الى ١٩٧٩ بشكل عام ، إلا أنه تزايد خلال تلك الفترات في أوقـات ذروة المشـاهـدة **Prime-time** وأثنـاء نهار عطلات نهاية الأسبوع . ولم يقتصر الارتفاع على المستوى العام للعنف فقط بل ان عدد أحداث العنف في كل برنامج على حده شهد هو الآخر تزايداً منذ بدأ القياس للمحتوى في التليفزيون الامريكي بشبكاته الرئيسية . ولم يهبط متوسط عدد أحداث العنف في أي برنامج تم دراسته عن ٤ر٤ أحداث منذ عام ١٩٧١ .

وأخطر من النتيجة السابقة نتيجة أخرى تسبب المزيد من القلق وهي أن مستوى العنف في برامج الأطفال التي تتركز أوقات بثها في نهار عطلة نهاية الأسبوع ظل عالياً نسبياً . صحيح أن ارتفـاعـه لم يأخـذ اتجـاهـا خطيـا **it was non-linear** فقـد تأرجـح بين الارتفاع الحاد والانخفاض الحاد من سنة إلى أخرى ، إلا أنه بشكل عام كان عالياً . ووصل أعلى مستوياته عام ١٩٧٨ في حين شهد العالم التالي أدنى تلك المستويات [٣] .

ج ـ تأثير العنف الإعلامي على سلوك الجمهور المستقبل للرسالة :

قد لانكـون مبـالغين اذا قررنا أن البحث الاتصالي لم يحقق للآن تقدما في أي مجال من مجالاته ، ربما باستثناء مجال تكنولوجيا الاتصال ـ يوازي التقدم الذي حققه في مجال دراسة علاقة العنف الإعـلامي بسلوك المستهلكين الدائمين له . ولايظهر هذا التقدم فقط في نوعية المناهج والأدوات التي استخدمت في البحث ، بل انعكس نتيجة لكفاءة تلك المناهج والأدوات على دقة صياغة النتائج وقابليتها للتعميم . فهناك فارق كبير بين الطريقة التي صاغ بها باحثو الاتصال الأوائل نتائج دراساتهم وبين دقة الصياغة التي نجدها اليوم في بحوث الاتصال . ويكفي أن نذكر مثالا هنا . ففي أشهر دراسة تم نشرها عام ١٩٦١ بعنوان «التليفزيون في حياة أطفالنا» [٤] ذكر الباحثون أن أهم النتائج هي «أن بعض محتوى التليفزيون قد يكون له تأثير ضار على سلوك بعض

---

(١) هذه الظاهرة يطلق عليها بعض الدارسين أمركه التليفزيون الدولي **"Americanization of World Televisi-on"**

(2) Gerbner, G., L. Morgan and N. Signorelli, 1980, "The Mainstreaming of America: Violence Profile No 11 Journal of Communication, vol. 30, pp. 10 – 27.

(3) Pearl, David, Lorraine Bothilet and Joyce Lazar, (eds.), 1982, Op. Cit., p. 168.

(4) Schramm, Wilbur, jack Lyle and Edwin B. Parker, 1961, **Television in the Lives of our Children,** Stanford Cal.: Stanford University Press, p. 13.

الأطفال تحت بعض الظروف : **television is harmful For some children under some conditions some** .

ومع ذلك فإن نفس ذلك المحتوى قد يكون نافعاً أو مفيداً لبعض الأطفال الآخرين تحت نفس الظروف أو لنفس الأطفال تحت ظروف مختلفة . **be beneficial or for the same children under other conditions it may for other children , under the same conditions** . ومن هنا فإن معظم المحتوى التليفزيوني في أغلب الظروف ربما لايكون له تأثير لا ضار ولا نافع بشكل واضح على معظم الأطفال !! **particularly beneficial Most television is probably neither harmful nor** . وبعدها بعشرة أعوام أي عام ١٩٧١ استطاع ثلاثة باحثين في الاتصال أن يدرسوا نفس العلاقة وان يصلوا إلى نتائج محددة صاغوا بعضها كما يلي :

١ ـ أن مضمون وسائل الإعلام وعلى الأخص التليفزيون مشبع بالعنف بشكل مكثف **Heavily saturated with violence** .

٢ ـ أن الأطفال والبالغين يقضون وقتا يتزايد يوما بعد يوم في التعرض لهذا المحتوى العنيف .

٣ ـ ان هناك دلائل تؤكد الفرض القائل بأن التعرض للعنف الظاهر في محتوى المواد الترفيهية في وسائل الإعلام وبالذات التليفزيون يزيد من احتمال ظهور درجة أكبر من العدوانية في سلوك الجمهور . هذه الدلائل اثبتتها كل من التجارب المعملية التي تسمح بالاستدلال السببي أو العلي **Causal Inference** والمسوح الاجتماعية التي وفرت دلائل من واقع الحياة اليومية على علاقات الارتباط الايجابية بين المتغيرين : أي العنف الإعلامي والسلوك العدواني [1] .

وبعد ذلك بعشرة أعوام أخرى توصل باحثو الإعلام مثل رويل هوزمان **Rowell Huesmann** [2] وج . ل . سنجر و د . ج سنجر [3] إلى أن الدراسات التجريبية قد أثبتت بما لايدع مجالاً للشك **It is beyond challenge** أن هناك علاقة سببية بين العنف

---

(1) Comstock, george and E.A. Rubinstein, (eds.), 1971, **Television and Social Behavior,** vol. III: Television and Adolescent Agressiveness, Washington, D.C.: Government Printing Office.

(2) Huesmann, Rowell, 1982, "television Violence and Aggressive Behavior", in Pearl, D., L. Bothilet and J Lazar, Op. Cit., p. 127.

(3) Singer, J.L. and D.G. Singer, 1980, **Television, Imagination and Aggression: A Study of Preschoolers, Play,** Hillsdale, N.J.: Erlbaum.

الإعلامي والسلوك العدواني للجمهور المستقبل . وان الجدال الذي يدور بشأن تلك العلاقة يتعلق بمنهج البحث في الدراسات الحقلية التي تعتمد على استمارات الاستبيان أو الملاحظة بالمشاركة أو جماعات المناقشات المحورية .

يبدو من تحليلنا للدراسات المختلفة التي شملتها دراستنا أن معظم الباحثين سواء في السبعينات أو الثمانينات يوافقون على أن هناك علاقة سببية بين العنف الإعلامي وبين السلوك العدواني الذي يبديه الجمهور سواء تم قياس هذا السلوك بعد التعرض مباشرة أو في مرحلة تالية من العمر . وقد أكدت هذه النتيجة معظم دراسات الثمانينات وهي في غالبيتها العظمى دراسات حقلية حيث لم يعد إثبات تلك العلاقة في المعمل محل خلاف ، وأذكر هنا بعض الأمثلة لتلك الدراسات الحقلية .

أول تلك الدراسات هي تلك التي قام بها سنجر وسنجر [1] وفيها نفذا بحثين مستقلين استخدما فيهما الملاحظة بالمشاركة لسلوك عدد كبير من الأطفال في سن الثالثة والرابعة وذلك لمدة عام كامل . وقاست الدراسة عدداً من المتغيرات في أربعة فترات زمنية خلال العام . وتوصلت إلى أن مشاهدة الأطفال للتليفزيون في المنزل ارتبطت بأنماط السلوك المختلفة التي أبداها الأطفال في أوقات اللعب الحر في مراكز الرعاية اليومية **Day Care Centers** . وأظهرت تحليلات التباين للبيانات التي جمعها الباحثان أن مشاهدة التليفزيون وبالذات مشاهدة العنف هي أحد أسباب العدوانية البارزة **Hightened Aggressiveness** في سلوك الأطفال في هذه السن [2] .

الدراسة الثانية هي تلك التي قام بها مكارثي **E. D. Mc Carthy** وزملاؤه وهي دراسة طولية **Longitudinal** إستغرقت خمس سنوات قام فيها الباحثون بجمع بيانات عن عينة من الأطفال بلغت ٧٣٢ مفردة . وأيدت تلك البيانات الفرض القائل بأن مشاهدة العنف مرتبطة ارتباطاً إيجابياً بالسلوك العدواني للأطفال . فأنماط السلوك العدواني المختلفة التي تمت ملاحظتها مثل الشجار مع الزملاء ، والخلاف مع الوالدين أو حتى الانحراف **Delinquency** كانت كلها مرتبطة ارتباطاً إيجابياً مع مشاهدة العنف على شاشة التليفزيون . وتلك نتيجة ليست جديدة . لكن الجديد هو أن الباحثين توصلوا إلى أن هناك علاقة إرتباط إيجابية بين حجم مشاهدة

---

(1) Singer, J.L. and D.G. Singer, 1980, Op. Cit.

(2) Ibid, p. 127.

العنف وبين درجة العدوانية التي ظهرت في سلوك الطفل [1] فأيا من الدراسات السابقة لم تقس العلاقة بين كم التعرض (المشاهدة) ودرجة العدوانية التي يبديها الطفل .

أما الدراسة الثالثة فهي التي قام بها ايرون **Eron** وهيوزمان[2]وفيها جمع الباحثان بيانات مكثفة عن سلوك الاطفال في ثلاث دول هي : الولايات المتحدة وفنلندا وبولندا . ودلت البيانات على انه في كل دولة من الدول الثلاث كانت هناك علاقة ارتباط ايجابية بين العنف في وسائل الإعلام وعلى الأخص التليفزيون وبين السلوك العدواني لكل من الاولاد والبنات في المرحلتين الابتدائية والإعدادية . وتميز هذه الدراسة هو في أنها استطاعت أن تثبت العلاقة الايجابية بين العنف الإعلامي والسلوك العنيف ليس عبر الثقافات فحسب ، ولكن لدى البنين والبنات أيضا بعد أن كانت كل الدراسات السابقة تبحث في تلك العلاقة بالنسبة للبنين فقط .

باختصار تلك عينة صغيرة من الدراسات التي أثبتت علاقة العنف الإعلامي بالسلوك العدواني . وهناك اليوم ثلاثة باحثين على الأقل أعدوا حديثا مصنفات تشمل ملخصات للبحوث التي تربط التعرض للعنف الإعلامي بالسلوك العدواني للمتعرضين وبالذات بالنسبة للأطفال والمراهقين[3] . ومع أن تلك المصنفات لا تخلوا من الشوائب إلا أنها تؤكد بشكل مقنع الأدلة القاطعة على وجود علاقة ايجابية بين التعرض للعنف في وسائل الإعلام والسلوك العدواني للمتعرضين بكثافة لذلك العنف .

وإذا كانت غالبية الباحثين تؤكد وجود علاقة إيجابية بين العنف الإعلامي والسلوك العدواني للجمهور المستقبل ، فان ذلك يعني بالضرورة أن هناك أقلية من الباحثين لا تقبل وجود تلك العلاقة . . هؤلاء الباحثون جاء معظمهم من علوم اجتماعية غير الاتصال . ونقدهم ورفضهم لوجود تلك العلاقة لا يأتيان من مراجعتهم لدراسات بعينها بل من التوجه العام في مناهج البحث في العلوم الاجتماعية ، هذا التوجه الذي يشكك في امكانية اثبات علاقة السببية في العلوم الاجتماعية والانسانية . فهم يجادلون في أن أساليب الاستدلال والتحليلات الاحصائية التي تستخدم فيها هي أساليب وتحليلات جامدة يصعب استخدامها للتعامل مع الظاهرة الاجتماعية أو الانسانية .

---

(1) McCarthy. E.D . et al . 1975 "Violence and Bahavior Disorders", Journal of Communication. vol 25. no 4. pp. 71-85.

(2) Eron. E.D and L.R. Huesmann. 1980. "Adolescent Aggression amd Television". Annals of the New York Academy of Sciences, 347. pp. 319-331

(3) Huesmann. Rowell L . Op Cit . p 128

هل هناك دراسات نفت وجود علاقة ، سواء كانت سببية أو علاقة ارتباط ايجابي ، بين العنف الإعلامي وبين السلوك العدواني ؟

في مقابل وفرة المقالات النقدية **Critiques** التى شككت في نتائج البحوث التي أثبتت وجود علاقة سببية عن طريق التصميم التجريبي أو وجود علاقة ارتباط إيجابية عن طريق الدراسة الحقلية باستخدام أدوات بحثية عديدة ، فان هناك ندرة في الدراسات الامبريقية التي نفت وجود تلك العلاقة سواء بالاختبار في المعمل أو بمسحها في الواقع . وحتى تلك الدراسات النادرة لم تستطع أن تنفي وجود أية علاقة على الاطلاق ، بل شككت في قوة تلك العلاقة أو قصرتها على نمط واحد ونفت الأنماط الأخرى . فبعض تلك الدراسات نفت وجود تأثير تراكمي طويل الأمد **Cumulative long - term effect** فقط للمحتوى الإعلامي العنيف ولكنها أقرت بوجود تأثير مباشر وقصير المدى على سلوك الجمهور المستقبل اذا تم القياس بعد التعرض مباشرة[1] . وأشهر تلك الدراسات هي دراسة رونالد ميلافسكي **Ronaldmed Milavsky** وزملاؤه . والبعض الآخر نفى وجود التأثير المباشر **Immediate short - term** قصير المدى وأقر بوجود تأثير تراكمي طويل المدى وغير مباشر يتمثل في إعادة تشكيل الحقيقة الاجتماعية **Social Reality** التي ترشد السلوك الانساني[2] .

د ـ العمليات التي تنتج العلاقة بين العنف الاعلامي والسلوك العدواني :

لم يعد الاهتمام الأساسي اليوم للعديد من باحثي الاتصال هو البحث في وجود علاقة بين العنف الإعلامي والسلوك العدواني بل يذهب هؤلاء الباحثون إلى ما وراء ذلك ليبحثوا في العمليات التي تنتج تلك العلاقة . وهناك اليوم أربع عمليات ممكنة لانتاج تلك العلاقة هي :

---

(1) Milavsky, Ronald J., Ronald Kessler, Horst Stipp, and William S. Rubens, 1982, "Television and Aggression: Results of a Panel Study", in Pearl, D , L. Bouthilet and J. Lazar, Op. Cit., pp. 138–157.

(2) Gerbner, George, L. Gross, M. Morgan and N. Signiorelli, 1986, "Living with Television: The Dynamics of the Cultuvation Process", in Bryant, J. and D. Zillmann, eds., **Perspectives On media Effects,** Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum, pp. 17–40.

Hawkins, Robert et al., 1987, "Searching for Cognitive Processes in the Cultivation Effect", Human Communication Research, vol. 13, No. 4, pp. 553–577. Hawkings, R.P. and S. Pingree, 1986, "activity in the Effects of Television on Children", in Bryant, J. and D. Zilimann., Cit., pp. 233–250.

التعليم بالملاحظة **Observational Learning** أو التعلم الاجتماعي **Social Learning** أو النمذجة وتغيير الاتجاهات **Attitude Changes** والاستثارة الفسيولوجية **Physiological Arousal** ، وأخيرا عمليات التبرير **Jusification Processes** [1] .

١ ـ التعلم بالملاحظة أو التعلم الاجتماعي والنمذجة **Modeling** :

ويقرر نموذج التعلم بالملاحظة أو التعلم الاجتماعي الذي يعد ألبرت **Albert Bandura** أشهر رواده[2] أن الاطفال (والبالغين) يتعلمون من وسائل الإعلام السلوك العدواني بنفس الطريقة التي يتعلمون بها المهارات المعرفية والسلوكية من الوالدين والاسرة والرفاق والمدرسة وغيرها من مؤسسات التنشئة الاجتماعية .

ولو أننا ينبغي عند مناقشة النمذجة أو التعلم الاجتماعي أن نميز بين اكتساب سلوك جديد **Acquision** وقبول ذلك السلوك . بمعنى آخر ينبغي أن نميز بين القدرة على تكرار سلوك كان غير مألوف من قبل (إكتساب) وبين القيام الفعلي بسلوك هو نفس السلوك أو يشبه السلوك الذي تم ملاحظته (قبول) . فامكانية اكتساب سلوك ما من خلال الملاحظة وإستبقائه **Retain It** دون القيام به مباشرة أو أدائه على الاطلاق لها مغزاها في فهم تأثيرات وسائل الإعلام . فاذا استطاع الفرد أن يكتسب سلوكا جديدا خلال التعلم الاجتماعي من وسائل الإعلام فلديه القدرة على إعادة إنتاجه خصوصا اذا وجد نفسه في موقف يجعل هذا الانتاج أو الآداء يبدو مفيدا أو مرغوبا فيه ـ على سبيل المثال موقف يشبه الموقف الذي تم تعلم السلوك فيه . ومن هنا ، فمع أن تعلم سلوك ما لا يعني بالضرورة أداء هذا السلوك إلا أنه يزيد من احتمال هذا الأداء الذي كان غير محتمل بدون هذا التعلم .

فالتعلم الاجتماعي يغير في إطار السلوكيات المحتملة التي قد يبديها الطفل إذا تمت اثارته أو وقع تحت ضغط ما خصوصا في موقف جديد عليه . ولهذا فيمكن أن نتصور عملية التعلم الاجتماعي أو النمذجة على أنها مراحل ثلاث[3] :

---

(1) Lowery, Shearon A. and Melvin L. Fleur, 1988, Op. Cit., p. 361.

(2) Bandura, Albert, 1965, "Influence of Models: Reinforcement Contingencies on the Acquision of Imitative Responses", Journal of Personality and Social Psychology, vol. 1, pp. 589–595.

(3) Lowery, Shearon and Melvin De Fleur, 1988, Op. Cit., p. 305.

١ ـ في الأولى يتعرض الفرد **Is Exposed** لسلوك فرد آخر سواء كان هذا الآخر نموذجا حيا مثل التعرض المباشر لسلوك الآخرين أو نموذجا رمزيا **Symbolic Model** كما هو الحال في السلوكيات المعروضة في وسائل الأعلام .

٢ ـ في الثانية يكتسب الفرد السلوك ويصبح قادرا على أداء ما سمع أو شاهد أو قرأ .

٣ ـ في الثالثة يقبل الفرد أو يرفض النموذج السلوكي الذي اكتسبه وأصبح قادرا على آدائه كمرشد لسلوكه أو أفعاله هو .

واذا طبقنا ذلك على العنف في وسائل الإعلام نجد أن الجمهور المستقبل يتعرض له (المرحلة الأولى) وأن هذا الجمهور وبالذات الاطفال والمراهقين يتعلمون بلا شك من هذا التعرض وما كان غائبا هو دراسة الظروف التي تجعل الجمهور يقبل ذلك السلوك حتى جاء بندورا **Bandura** [١] وأجرى دراسة معملية أثبت فيها أن مجموعة الأطفال التي شاهدت فيلما تليفزيونيا تقوم فيه عارضة أزياء ببعض الأعمال العدوانية ضد دمية دون أن تعاقب على ذلك ومجموعة الأطفال التي شاهدت نفس العارضة ترتكب تلك الأعمال العدوانية ضد الدمية وتكافأ عليها . . هاتان المجموعتان من الأطفال قلدتا نفس السلوك أثناء ساعات اللعب . أما مجموعة الأطفال التي شاهدت عارضة الازياء تعاقب على أعمالها العدوانية ضد الدمية فقد أبدت استجابات عدوانية وتقليدا أقل بكثير في ساعات اللعب وهي نتيجة لا تحتاج إلى مزيد من الايضاح . ومع ذلك فحينما طلب الباحث من كل المجموعات فيما بعد أن يقلدوا ما أمكنهم من الأفعال العدوانية لعارضة الازياء **Reproduce As Many Acts** وكانت هناك مكافأة على ذلك أبدت كل المجموعات درجة عالية ومتشابهة من التعلم . وهو ما يثبت بما لا يدع مجالا للشك بأن الاطفال تتعلم السلوك العدواني من العنف الاعلامي .

هذه التجربة وغيرها كثير ركزت على نوعين من التأثير للعنف في مضامين الإعلام على سلوك الجمهور المستقبل . هذا النوعان هما : التقليد **Imitation** والتحريض **Instigation** [٢]

والتقليد هو الأثر الذي يحدث حينما ينسخ الطفل أو البالغ نفس ما شاهده أو سمعه وقرأه . أما التحريض فهو ما يحدث حينما يتبع التعرض للعنف تزايد عام في النزعة العدوانية للفرد

---

(1) Bandura, Albert, Op, Cit., p. 590-595.

(2) Lowery. S and M De Fleur Op Cit . p. 306

المستقبل للرسالة . فحينما يشاهد طفل مباراة في الملاكمة على شاشة التليفزيون قد يقدم على القيام بعدد أكبر من الأفعال العدوانية التي قد لا تشبه السلوك الذي شاهده على الشاشة . معنى ذلك أن السلوك الذي يبديه الطفل بعد التعرض قد يختلف في طبيعته ودرجته عن السلوك الذي شاهده أو تعرض له لكن الاتجاه العام هو تزايد أعداد ودرجات الأعمال العدوانية في هذا السلوك .

ولكن هل يقلد كل الأطفال أو البالغين سلوك كل النماذج العنيفة التي يتعرضون لها في وسائل الإعلام ؟ بالطبع لا . فتقليد السلوك العدواني يعتمد إلى حد كبير على :

أ ـ درجة توحد المستقبل مع النموذج الرمزي

Receiver's Identification With the Symbolic Model

الذي يعرض في وسائل الاعلام .

ب ـ مدى إدراك الجمهور المستقبل لامتلاك النموذج الذي يتم تقليده لخصائص واقعية وذات قيمة

Pereived Realistic and Valued Characteristics .

ج ـ مدى تطابق إشارات الموقف **Cues** الذي تم فيه تعلم السلوك مع الموقف الذي يجد فيه المستقبل نفسه . فاذا وجد الفرد نفسه في موقف مماثل للموقف الذي شاهد فيه النموذج وقدم هذا الموقف حلا للمشكلة التي يواجهها المتعرض فان هناك احتمالا أكبر لاسترجاع السلوك الذي تم تعلمه والاقدام عليه . وهنا نتذكر حالة حادثة بوسطن التي أشعلت فيها عصابة من الصبية النار في الفتاة حينما توفر لها نفس الموقف الذي شاهدته في الفيلم التليفزيوني(١) .

٢ ـ تغيير الاتجاهات **Attitude change** :

الطريقة الثانية التي يعتقد الباحثون أن العنف الإعلامي يؤثر بها على سلوك الجمهور وبالذات جمهور الاطفال والمراهقين هي التأثير على اتجاهاتهم **Favorable Attitudes** نحو العنف لدى أفراد ذلك الجمهور وعلى الأخص الأطفال والمراهقين(٢) . ويميل المشاهدون الدائمون للتليفزيون بشكل عام إلى اظهار اتجاه أكثر إيجابية **More Positive Attitude** نحو

---

(1) Ibid., p. 362.

(2) Heusmann, L R., L.D Eron, R. Klein, P. Brice, and P. Fischer, 1981, "Mitigating the Imitation of Aggressive Behaviors", Technical Report, Chicago: Department of Psychology, University of Illinios.

العنف من ذلك الذي يبديه المشاهدون النادرون للتليفزيون . ذلك أن المشاهدين الدائمين يدركون السلوك العدواني على أنه عادي **It Is the Norm** [(١)] وهو ما يسميه البعض تقليل حساسية الجمهور نحو العنف **Desensitization** . ذلك أن المشاهدين الدائمين للتليفزيون أكثر قابلية لتصور الواقع على أنه أقرب إلى الواقع التليفزيوني **Reality Is More Like Tv Reality** [(٢)] ، صحيح أن بعض الدراسات أثبتت أن مشاهدة العنف تؤدي إلى اتجاه أكثر رفضا للعنف إلا أن الغالبية العظمى من البحوث أثبتت أن الاتجاه العام هو أن التعرض للعنف بشكل مستمر يؤثر على اتجاه المشاهدين بزيادة قبولهم للعنف على أنه طبيعي . المشكلة الرئيسية هنا هي أن الاتجاهات في بعض الأحيان قد تتناقض في طبيعتها مع طبيعة السلوك .

فالاتجاه المواتي للعنف لدى الطفل أو المراهق لا يتبعه بالضرورة سلوك عدواني ، ومازلنا في حاجة إلى دراسات تؤكد أو تنفي مدى إتساق الاتجاه مع السلوك لدى الفرد .

٣ ـ الاستثارة الفسيولوجية والانفعالية
Physiological and Emotional Arousal :

يفترض بعض الباحثين[(٣)] أن عمليات الاستثارة الانفعالية والفسيولوجية هي العامل الوسيط **Interveing Factor** بين التعرض للعنف وتغيير الاتجاهات نحوه . ومع أن بحث تأثير التعرض للعنف على عمليات الاستثارة شهد تزايدا ملحوظا في السبعينات[(٤)] والثمانينات نتيجة لتطور المفاهيم النظرية وأدوات القياس في بحث ذلك الموضوع ، فمازالت هناك درجة كبيرة من الغموض والاختلاط حول طبيعة تأثير التعرض للعنف الإعلامي على عمليات الاستثارة أو الاثارة الفسيولوجية والانفعالية . فبينما قرر بعض الباحثين أن العنف الإعلامي وبالذات في التليفزيون يجعل الأطفال نشيطين بشكل مفرط أو مرضي **Hyperactive** وذلك بشحنهم الزائد بالمثيرات **Overloading Them With Stimulation** ، خلص باحثون آخرون إلى أن العنف في التليفزيون «يخدر **Anesthetize** » الأطفال بشحنهم بالاثارة[(٥)]

---

(1)Lowery, S. and M. De Fleur, Op. Cit., p. 363.

(2) Hawkins, R., S. Pingree and I. Adler, 1987, Op. Cit., p. 573.

(3) Ibid . pp. 363 - 364.

(4) Ibid, pp. 376-377.

(5) Cline, V.B., R.G. Croft and S. Courrier, 1973, "Desensitization of Children to Television Violence", Journal of Persornality and Social Psychology, vol. 27, pp. 360-365.

ويتم قياس الاستثارة بطرق مختلفة طبقا للاطار النظري الذي يستخدمه الباحث. ومع ذلك فإن غالبية البحوث حددت الاستثارة بأنها « القوة المتكاملة **Unitary Force** التي تستحث **Energizes** وتزيد حدة **Intensifies** أي سلوك توجه وسيلة مستقلة **Means Behavior That Receives Direction by Independent**[١].

معنى ذلك أن الاستثارة يمكن تصويرها على أنها حالة منشطة لسلوك وليست مرشدة لهذا السلوك **An Energizer, Not A guide to Behavior**.

وبشكل عام، تشير البحوث إلى أن التعرض لوسائل الإعلام يقلل من حالة الاستثارة التي قد يشعر بها المتعرض سواء كانت استثارة فسيولوجية أو انفعالية. فالحياة اليومية للانسان العصري تشحنه بالاثارة ولهذا فقد يعرض نفسه لوسائل الإعلام في محاولة لتفريغ تلك الشحنة أو للتقليل منها. على أن محتوى الرسالة الإعلامية هو الذي يحدد اذا ما كانت ستؤدي الى تقليل حالة الاثارة أو التوتر لدى المستقبل أو تزيد منها أو قد تخلقها لدى المستقبل غير المتوتر. فقد توصلت دراسة تعرضت فيها مجموعة من البالغين المتوترين لبرنامج عنيف في التليفزيون بينما تعرضت مجموعة أخرى مماثلة في الخصائص لبرنامج خال من العنف إلى أن البرامج العنيفة تزيد من استثارة المستقبل المتوتر بينما أبدى المستقبلون المتوترون الذين تعرضوا لبرنامج محايد، أي لا صلة له بالعنف درجة أقل من التوتر والعدوانية[٢]. وأشارت دراسة أخرى إلى أن التعرض للعنف يؤدي إلى استمرار حالة النزوع للعدوان الموجود لدى المتعرض بالفعل[٣] **"Media Violence Tends To Perpetuate an Existing Propensity for Aggression"**. اذا كان ذلك صحيحا لماذا إذن يلجأ الجمهور المستقبل إلى التليفزيون أو الى الصحيفة من أجل الاسترخاء اذا كانت هناك محتويات في الوسيلتين قد تزيد من حالة التوتر؟ دلت البحوث الحديثة على أن المستقبلين الذين يشعرون بحالة من الاستثارة **Arousal** ينتقون من مضامين وسائل الإعلام المواد التي لا تؤدي إلى استمرار حالة التوتر أو المحافظة على درجتها[٤].

---

(1) Zillmann D., 1982, "Television Viewing and Arousal", in Pearl, D., L. Bothilet and J. Lazar, Op Cit, Vol. II, p. 53.

(2) Zillmann, D. and R C. Johnson, 1973, "Motivated Aggressiveness Perpetuated by Exposure to Non-Aggressive Films and Reduced by Exposure to Aggressive Films", Journal of Research in Personality, Vol. 7, pp. 261–267.

(3) Donnerstein, E., M. Donnerstein and G. barret, 1976, "Where is the Faciliation of Media Violence: The Effects of Non – Exposure and Placement of Arousal". Journal of Research in Personality, Vol. 10.

(4) Lowery, S and M. De Fleur, Op Cit, p. 378

ما علاقة حالة الاستثارة **Arousal** بالسوك ؟

دلت البحوث على أن التأثير السلوكي العاجل والمباشر للعنف الإعلامي قدلا يأتى من مضمون العنف نفسه بل قد يكون سببه هو حالة الاستثارة التي حافظ عليها التعرض للعنف[1] .

ماذا عن فرضية التطهير**Catharsis Hypothesis** التي تقول ان التعرض للعنف في وسائل الإعلام يؤدي إلى تقليل حالة العدوانية لدى المتعرض ذلك أن التعرض يعد نوعا من المشاركة في العنف وبالتالي ينفس عن الفرد دون اللجوء إلى المشاركة الفعلية في العنف . حقيقة الأمر أن هذه الفرضية تعارضها كل البيانات التي جمعتها كل البحوث في الموضوع سواء كانت بحوثا تجريبية أو مسوحا ودراسات حقلية . ولهذا فليس هناك أي دليل على صحتها .

٤ ـ عمليات التبرير **Justification Processes** :

وطبقا للفرض الذي يقف خلف تلك العمليات فان الأفراد ذوى النزعة العدوانية يرغبون في التعرض للمضامين العنيفة في وسائل الإعلام ويفضلونها ، ويبحثون عنها ، في تلك الوسائل لأنهم يستخدمونها لتبرير سلوكهم العدواني على أنه سلوك سوى عاد طالما أنه متعدد النظائر في وسائل الاتصال الجماهيري . وتلك العمليات أشبه بتغيير الاتجاهات لكنها تعمل في الاتجاه المعاكس . فالعنف في وسائل الإعلام لا يسبب السلوك العدواني لدى المستقبل طبقا لهذا الفرض ، بل ان الشخص العدواني هو الذي يبحث عن العنف ويستهلكه . . والعنف الإعلامي بذلك لا يسبب السلوك العدواني بل ينتج عنه بالنسبة للفرد المستقبل له[2] . فالسلوك العدواني لدى الفرد يؤدي إلى خلق شعور بالذنب **Guilt** . وهذاالشعور بالذنب يتم تخفيفه بالتعرض لوسائل الإعلام التي تتعامل مع العنف وتعطي له بروزا **Salience** وتكرره في رسائلها بشكل يجعله عاديا **Normalize** .

هذا الفرض إذن يقول إن الطفل أو المراهق أو البالغ ذا السلوك العدواني**Who Behaves Aggressively** لم يتعلم العنف من وسائل الإعلام وانما يتعرض للعنف الإعلامي حتى

---

(1) Tannebeaum, P.H. and D. Zillmann, 1975, "Emotional Arousal in the Faciliation of Aggression through Communication", in Berkowitz, L., ed., **Advances in Experimental Social Psychology**, Vol 8, New York: Academic Press.

(2) Lowery, S and M De Fleur, Op Cit., p.364.

يبرر عنفه هو أو عدوانيته هو . فما صحة هذا الفرض ؟ ان البحوث التي حاولت اختبار هذا الفرض تعد نادرة . ولهذا فليس بالامكان الآن ان نؤكد صحة هذا الفرض أو ننفيه بناء على التراث العلمي المتوفر حاليا .

ويعد هذا المجال من المجالات البحثية التي ينبغي أن يتجه إليها باحثو الاتصال بالدراسة والتمحيص .

ثانيا : وسائل الإعلام والسلوك المقبول اجتماعيا **Prosocial Behavior** :

إذا كانت السبعينات والعقود الثلاثة السابقة عليها قد شهدت تركيزا على دراسة التأثير السلبي لوسائل الإعلام في خلق أو تدعيم أنماط السلوك غير المقبولة اجتماعيا وبالذات السلوك العدواني من جهة ودراسة تأثير تلك الوسائل في السلوك السياسي للمستقبلين الناخبين أو في سلوك مستهلكي السلع والخدمات **Consumer Behaviors** من جهة أخرى ، فإن الثمانينات شهدت إجراء عدد لا بأس به من البحوث حول تأثير تلك الوسائل في خلق أو تدعيم أنماط السلوك المقبولة اجتماعيا بين المستقبلين المتعرضين بكثافة لتلك الوسائل .

فإذا قبلنا بحقيقة أن التعرض لوسائل الإعلام قد ينتج سلوكا غير مقبول اجتماعيا فإن من المعقول أن نقبل افتراض أن التعرض لتلك الوسائل يمكن أن ينتج أو يساهم في انتاج سلوك مقبول اجتماعيا تبعا لمضمون الرسائل التي تنشرها أو تبثها . فوسائل الإعلام يمكن أن تقدم لجماهيرها نطاقا واسعا من خبرات التعلم بالملاحظة أو النمذجة يمتد من السلوك غير المقبول اجتماعيا إلى ذلك السلوك المرغوب فيه من قبل المجتمع .

وقد عرف فيليبيه راشتون **Philipe Rushton** السلوك المقبول اجتماعيا بانه [1]« السلوك الذي يؤديه الفرد ويبدو مرغوبا فيه من جانب المجتمع **Socially Desirable** أو يمكن أن يفيد منه بطريقة أو بأخرى فرد آخر أو المجتمع بشكل عام» . وقد اقتصر تحليلنا على دراسة تأثير وسائل الإعلام في خلق أو تدعيم أربعة أنماط فقط من السلوك المقبول إجتماعيا على النحو التالي :

---

(1) Rushton, Philipe Z., 1982, "Television and Prosocial Behavior", in Pearl, D., L. Bouthilet, and J. Lazar, Op. Cit., vol. II p. 249.

أ ـ الايثار **Altruism** : أو سلوك المشاركة **Sharing Behavior** ' والتعاون **Cooperation** ، وسلوك المساعدة **Helping Behavior** :

تتفق الدراسات التي بحثت تأثير التعرض لوسائل الإعلام على خلق أو تدعيم سلوك الإيثار على أن الاطفال الذين تعرضوا لهذا النمط من السلوك في وسائل الإعلام أظهروا درجة أعلى من الإثار في سلوكهم من أولئك الذين لم يتعرضوا لنفس الرسائل ، أو تعرضوا لرسائل تتبنى سلوكا عكس الايثار ، أي سلوكا تبدو فيه درجة عالية من الانانية **Selfishness** .

ففي مجموعة من التصميات التجريبية ـ على سبيل المثال ـ تم تعريض عدة مئات من البنين والبنات الذين يتراوح عمرهم بين السادسة والتاسعة لبرنامج تليفزيوني كانت الشخصية الرئيسية فيه طفلا يلعب مباراة في البولينج مع مجموعة من اقرانه ثم يفوز ويحصل على بعض شهادات الهدايا **Gift Certificates** . بعد ذلك تم تقسيم الأطفال عشوائيا إلى مجموعتين وتعريض المجموعة الأولى لبقية البرنامج وفيها يقوم الطفل الذي يكسب مباراة البولينج بالتبرع بها كسبه لأحد المشروعات الخيرية . أما المجموعة الثانية فتتعرض لجزء ثان مختلف من البرنامج لا يقوم فيهالطفل البطل بالتبرع بما كسب . وفي النهاية تتم ملاحظة سلوك المجموعتين في موقف مشابه لما شاهدوه في البرنامج يكسبون فيه بعض الأموال لتحديد مقدار ما يتبرعون به لأعمال الخير . وأشارت النتائج إلى أن الأطفال قد تأثروا بشكل واضح بما شاهدوه في البرنامج وأن نمذجة سلوك الايثار قد ظهرت بشكل واضح . فالأطفال الذين شاهدوا الطفل البطل يتبرع بما كسب تبرعوا بمبالغ أكبر كأفراد وكجماعة في حين أن الأطفال الذين شاهدوا نموذجا لسلوك أناني كانوا أقل ايثارا وأميل إلى الانانية[1] .

وقد أعيد إثبات نفس النتائج في عدة دراسات أخرى استخدمت نفس الاجراءات المنهجية . فقد توصلت احدى الدراسات إلى أن الأطفال قد تأثروا بالنماذج الإعلامية السلوكية وذلك باظهار درجة أعلى من سلوك المشاركة باقتسام الحلويات والنقود التي كانت لديهم مع الأطفال الآخرين .

على ان النقد الأساسي الذي وجه لمثل تلك الدراسات هو أنها توصلت إلى نتائجها في بيئة معملية وأن تلك النتائج قد لا تكون هي نفسها التي يتم الوصول اليها في بيئة المنزل أو الحياة اليومية الطبيعية .

---

(1) Bryan, J. H., 1975, "Children's Cooperation and Helping Behavior", in Hetherington, E.M., ed., **Review of Child Development Research,** Vol. 5, Chicago: University of Chicago Press.

ومع ذلك فقد أجريت ثماني دراسات[1] تناولت بحث العلاقة بين التعرض لنماذج سلوكيات الايثار في وسائل الإعلام ودرجة التدعيم لنفس السلوكيات لدى المتعرضين في الواقع ، وفي حين لم تكن النتائج بنفس الوضوح والقطع **Clear - Cut** الذي ظهر في نتائج الدراسات المعملية الا أن اجمالي تلك النتائج يؤيد النتيجة الرئيسية التي تم التوصل اليها في المعمل وهي أن سلوك الايثار يمكن تعلمه وتقليده أو اعادة انتاجه من النماذج التي يتم عرضها في وسائل الإعلام وبالذات التليفزيون .

ب ـ السلوك الودي **Friendly Behavior** :

دلت كل الدراسات السبع التي تناولت علاقة التعرض لوسائل الإعلام بخلق أو تدعيم السلوك الودي نحو الآخرين ، وكلها أجريت على أطفال في سن ما قبل المدرسة ، أن المحتوى التليفزيوني الذي يبر ز نماذج من السلوك الودي بشكل صريح أو ضمنى مفهوم للأطفال قد أدى إلى تزايد السلوك الودى للأطفال المتعرضين نحو أطفال الأقليات العرقية الأخرى[2] . فقد أظهرت دراسة أجريت في كندا على مجموعة من الأطفال البيض الناطقين بالانجليزية انهم أبدوا درجة أعلى من التفضيل للعب مع أطفال الأقليات غير البيضاء بعد مشاهدة أجزاء من برنامج شارع السمسم **Seasme Street** تصور أطفالا بيضا يلعبون مع أطفال من اقليات عرقية غير بيضاء . في حين لم تبد مجموعة أخرى من الأطفال لها نفس الخصائص لم تتعرض للبرنامج مثل هذه الدرجة من التفضيل[3] .

وتوصلت دراسة مسحية[4] إلى ان الأطفال من ذوي الميول الانعزالية في الحضانة يؤدي تعرضهم لبعض المواد التليفزيونية التي تظهر التفاعل مع الاقران على أنه سلوك يستحق المكافأة إلى ابداء درجة أعلى من التفاعل . وقد وصف البعض نتائج تلك الدراسة المسحية بأنها درامية .

---

(1) Rushton, J.P. and D. Owen, 1975, "Immediate and Delayed Effects of TV Modeling and Preaching on Children's Generosity". British Journal of Social and Clinical Psychology, Vol. 14, pp. 309-310

(2) **Lowery, S. and M. De Fleur, Op. Cit., P. 370.**

(3) Gorn, G.J. M.E. Goldberg and R.N. Kanungo, 1976, "The Role of Educational Television in Changing the Intergroup Attitudes of Children". Child Development, Vol. 47, pp. 277-280.

(4) O'Conner, R.D., 1969, "Modification of Social Withdrawal Through Symbolic Modeling", Journal of Applied Behavior Analysis, Vol. 2, pp. 15 -22.

فقد زاد معدل التفاعل لدى مجموعة الأطفال التي تعرضت للبرنامج من تفاعل واحد في اليوم إلى اثنى عشر تفاعلا بعد التعرض . ولم تظهر المجموعة الضابطة التي لم يتم تعريضها للبرنامج أية زيادة في عدد تفاعلاتها مع الأطفال الآخرين [١] .

ج ـ ضبط النفس **Self - Control** :

أثبتت التجارب المعملية أن مضامين وسائل الإعلام يمكن أن تؤثر على قدرة الطفل على ضبط النفس . وقد استخدمت تلك التجارب مواد تليفزيونية لدراسة أو وصف مظهر أو آخر من مظاهر ضبط النفس . فقد صممت احدى تلك الدراسات لفحص علاقة مضامين وسائل الإعلام بقدرة الأطفال على مقاومة الاغراء **Resistance to Temptation** [٢] وذلك بوضع مجموعة من الأطفال في الخامسة من عمرهم داخل حجرة كبيرة ووضع قاموس لغوي ومجموعة من لعب الأطفال معهم في نفس الحجرة . وقيل للأطفال ان بامكانهم استخدام القاموس في اللعب بالنظر إليه لمعرفة معاني الكلمات أو مشاهدة الصور التي يتضمنها القاموس وهو عمل لايعد بحال مفضلا من جانب أطفال في الخامسة من عمرهم . وفي نفس الوقت قيل لهم إنه غير مسموح لهم بالاقتراب من لعب الأطفال الموجودة معهم في نفس الحجرة . بعد ذلك تم تقسيم الأطفال إلى ثلاث مجموعات . تم تعريض المجموعة الأولى منها إلى برنامج تليفزيوني يظهر فيه طفل وأمه إلى جواره يلعب بلعب أطفال مماثلة للعب التي كانت بالحجرة (أي نموذج التشريط الجزائي **Mo-del-Rewarded Conditioning)** بينما لم تتعرض المجموعة الثانية إلى أي برنامج . في حين تم تعريض المجموعة الثالثة إلى برنامج تليفزيوني يظهر فيه طفل يلعب بنفس اللعب ولكن يتم معاقبته بالتوبيخ **Scolding** (أي نموذج التشريط العقابي **Model-Punished Condit-ioning**) بعد ذلك ترك كل طفل وحده في الغرفة وسجل الباحثون من مكان لايراهم فيه الطفل قياسهم للوقت الذي أمضاه الطفل في اللعب باللعب الممنوعة والوقت الذي استغرقه كل طفل في مقاومة الاغراء قبل أن يلعب باللعب الممنوعة . وقد أبدى الأطفال الذين شاهدوا النموذج التليفزيوني يعاقب على سلوكه في اللعب بالممنوع درجة أعلى من المقاومة للاغراء وسجلوا وقتاً أطول قبل الاستسلام للاغراء وقضوا وقتاً أقل في اللعب بالممنوع وهي نتيجة متوقعة . بل ان

---

(1) Lowery, S. and M. De Fleur, 1982, Op. Cit., p. 370.

(2) Dominick, Joseph R.. 1987, **The Dynamics of Mass Communication,** New York: Random House, p. 540.

بعض اطفال هذه المجموعة قاوموا الاغراء طول الوقت ولم يقتربوا من اللعب الممنوعة . وكما هو متوقع قضى الاطفال الذين شاهدوا النموذج يكافأ على اللعب بالالعاب الممنوعة أطول وقت في اللعب بالممنوع .

د ـ سلوك الأطفال والبالغين في مواجهة مشاعر الخوف
Effects of Showing People Coping With Fears :

أشارت أربع عشرة دراسة إلى قدرة بعض المضامين الإعلامية على تخفيف مشاعر الخوف وتعديلها **To Modify Fears** لدى الجمهور المستقبل لتلك المضامين . وقد أجريت عدة دراسات على مبحوثين من فئات عمرية متنوعة . فقد أثبتت دراسة رائدة[1] أن وسائل الإعلام يمكن أن تساعد الأطفال في التغلب على بعض مشاعر الخوف المرضي مثل الخوف من طلاب **Dog Phobias** . وأثبتت دراسات أخرى قدرة وسائل الإعلام على تخفيف مشاعر الخوف المرضي من زيارة طبيب الاسنان **Dentophobia** لدى الأطفال ، في حين توصلت دراسات من نوع ثالث إلى أن للتليفزيون قدرة على تخفيف مشاعر الخوف من الثعابين لدى المراهقين والبالغين[2] .

هذه النتائج بالطبع تعد درامية بشكل كبير وتثير الكثير من الجدل خصوصا انها تنسب لوسائل الإعلام القدرة على تغيير السلوك سواء كان تغيرا كبيرا أو طفيفا . والمعروف أن معظم البحوث في مجال التأثير السلوكي لوسائل الإعلام تؤكد على أن قدرة تلك الوسائل على تدعيم **Reinforcement** أنماط السلوك الموجودة بالفعل تفوق قدرتها على خلق انماط جديدة . وأن قدرتها على خلق أنماط جديدة تفوق بلا شك قدرتها على تعديل أو تغيير تلك الأنماط . فليس هناك أصعب على وسائل الإعلام من التغيير السلوكي . وهذه النتائج تعد درامية أيضا اذا عرفنا أن تغيير السلوك يتطلب جلسات عديدة من العلاج النفسي المكثف من علماء الطب والعلاج النفسي !![3] .

---

(1) Bandura, A and F.L. Menlove, 1968. " Factors Determining Vicarious Extinction of Aviodance Behavior Through Symbolic Modeling", Journal of Personality and Social Psychology, Vol. 8, pp. 99-108.

(2) Bandura, A., E.B Blanchard and D.E. Mott, 1969. "the Relative Efficacy of Desensitization and Modeling Approaches for Inducing Behavioral, Affective and Attitudinal Changes", Journal of Personality and Social Psychology, Vol. 13, pp. 173-199.

(3) Dominick, 1987, Op. Cit., p. 540.

بعد هذا العرض المفصل لنتائج تحليل المستوى الثاني ومناقشتها يصبح من الضروري التأكيد على الملاحظات التالية :

١ ـ ان معظم بحوث الإعلام حول التأثيرات السلوكية لوسائل الإعلام تركز بشكل أساسي على دراسة تلك التأثيرات في سلوك فئتين أساسيتين من فئات جماهير تلك الوسائل وهما : الأطفال سواء من كانوا في سن ما قبل المدرسة **Preschoolers** أو من كانوا في سن المدرسة الابتدائية **Grade schoolers** ، ثم المراهقون **Adolescents** .

٢ ـ منذ بداية الستينات وحتى النصف الثاني من الثمانينات من هذا القرن دارت معظم الدراسات بشكل عام حول تأثير وسيلة واحدة هي التليفزيون . وكان موضع الدراسة هو المواد الترفيهية والدرامية في هذه الوسيلة . معنى ذلك أن المواد الاخبارية أو مواد وبرامج الشئون العامة لم تحظ بإهتمام كاف من الباحثين . وكان المنطق الذي يقف خلف هذا التركيز على المواد الترفيهية والدرامية في التليفزيون بالذات هو أن ما ينبغي دراسته هو أكثر المواد الإعلامية التي تتعرض لها أغلبية الجمهور معظم الوقت .

٣ ـ تركز معظم بحوث الإعلام المتعلقة بالتأثير السلوكي حتى عام ١٩٨٦ على التأثير السلبي لوسائل الإعلام المتمثل في خلق وتدعيم أنماط السلوك غير المقبولة اجتماعيا **Antisocial Behaviors** وبالذات تأثير التعرض للعنف في وسائل الإعلام على خلق وتدعيم أنماط السلوك العدواني للمتعرضين بكثافة للمضامين العنيفة . وأثبتت الدراسات المعملية بما لا يدع مجالا للشك وجود علاقة سببية بين التعرض للعنف وزيادة وتدعيم السلوك العدواني للمتعرض . كما أثبتت الدراسات الحقلية وجود علاقة إرتباط ايجابي بين التعرض للعنف في وسائل الإعلام وتزايد اتجاهات السلوك العدواني وتدعيمه لدى المتعرضين بكثافة لهذا النوع من المضمون .

٤ ـ اذا كان الأمر كذلك فهل نتخذ الاجراءات التي تمنع ظهور المضامين العنيفة في وسائل إعلامنا ؟ بالطبع لا . فالعنف الذي يعكس الصراع الإنساني فضلا عن كونه جزءاً أساسياً من الفن الإعلامي وبالذات فن الدراما التليفزيونية فهو جزء من الحياة الإنسانية ذاتها . والمشكلة الأساسية ليست هي العنف الذي يعكس الصراع الانساني الذي لا يخلو منه عصر ، ولا مكان يقطنه إنسان . بل ان المشكلة هي العنف التجاري **Commercialized Violence** . العنف الذي يتم تعليبه في وسائل الإعلام ليساعد في بيع محتوى تلك الوسائل كسلعة **Violence as Commodity** . المشكلة هي في العنف الذي يتم تعليبه وتغليفه في وسائل الإعلام وتقديمه للجمهور على انه الواقع . . العنف الذي يشوه الواقع ويقود إلى تشويه ادراكات الجمهور الذي

يعيش في هذا الواقع ويعايشه . المشكلة هي في تقديم العنف في وسائل الإعلام لمجرد الاثارة والتسلية . ذلك أن مثل هذا العنف قد ينقلب في نهاية التسلية والاثارة إلى واقع . . وواقع مؤلم .

٥ ـ ان علاقة مضامين وسائل الإعلام بالسلوك المقبول اجتماعيا أصعب في الدراسة **More Difficult to Detect** وتبـدو اضعف من علاقـة تلك المضـامـين وبالذات المضامين العنيفة بالسلوك العدواني . ربما يكون السبب هو أن العنف يتم تقديمه في وسائل الإعلام بشكل مجسد وشديد الوضوح **Blatant** في حين أن المضامين التي تروج للسلوك المقبول اجتماعيا غالبا ما تكون أقل وضوحا وأكثر ضمنية **More Subtle** ويتم تقديم معظمها في شكل سلوك لفظي **Verbal Begavior** . ولهذا فنحن في حاجة إلى مزيد من البحوث في هذا المجال قبل أن نكون قادرين على تحسين أداء وسائل الإعلام في تحقيق أهداف التنمية في بلداننا النامية .

REFERENCES

- Bandura, A., E.B. Blanchard and D.E. Mott, 1969, "Relative Efficacy of Desensitization, and Modeling Approaches for Inducing Behavioral, Affective and Attitudinal Changes", Journal of Personality and Social Psychology, vo. 13, pp. 173-199.
- Bandura, A. and D.L. Menlove, 1968, "Factors Determining Vicaruous Extinctions of Avoidance Behavior Through Symbolic Modeling", Journal of Personality and Social Psychology, vol. 8, pp. 99-108.
- Bandura, Albert, 1965, "Influence of Models: Reinforcement Contingencies on the Acquisition of Imitative Responses", Journal of Personaliry and Social Psychology, vol. 1, pp. 589-95.
- Becker, Lee B., 1989, "Secondary Analysis" in Stempel, Guido H. and Bruce H. Westley, eds., **Research Methods in Mass Communication,** Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall.
- Becker Lee B., Randy Beam, and John Russial, 1978, "Correlates of Daily Newspaper Performance in New England", Journalism Quarterly, vol. 55, pp. 100-108.
- Berelson, Bernard R., 1959, "The State of Communication Research", Public Opinion Quarterly, vol. 23, pp. 1-15.
- Bryan, J.H., 1975, "Children's Cooperation an Helping Behavior", in Hetherington, E.M., ed., **Review of Child Development Research,** vol. 5, Chicago: University of Chicago Press.
- Cantor, J. and G. Sparks, 1984, "Children's Fear Responses to Mass Media: Testing Some Piagetian Predictors", Journal of Communication, vol. 34, pp. 90-103.
- Chaffee, Steven H., "Television and Adolescent Aggressiveness", In Comstock, G., and E. Rubinstein, eds., 1971, **Television and Social Behavior,** vol. III: Televiosion and Adolescent Aggressiveness, Washington, D.C.: US Government Printing Office.
- Cline, V.B., R.G. Croft and S. Courrier, 1973, 'Desensitization of Children to Television Violence",Journal of Personality and Social Psychology, vol. 27, pp. 360-365.
- Comstock, G., et al., 1978, **Television and Human Behavior,** New York: Columbia University Press.

- Comstock, George and E.A. Rubinstein, (eds.), 1971, **Television and Social** Government Printing Office.
- DeFleur, Melvin and Everette Dennis, 1981, **Understanding Mass Communication,** Boston: Houghton Mifflin.
- Dominick, Joseph R., 1987, **The Dynamics of Mass Communication,** New York: Random House.
- Donnerstein, E., M. Donnerstein and G. Barret, 1976, "Where is the Facilitation of Media Violence: The Effects of Non-Exposure and Placement of Arousal", Journal of Research in Personality, vol. 10, pp. 241-267.
- Eckman, Paul et al., 1971, "Facial Expressions of Emotion While Watching Televised Violence as Predictors of Subsequent Aggression", in Comstock et al., **Television and Social Behavior,** vol. V: Television's Effects: Further Explorations, Washington, D. C.: US Government Printinf Office.
- Eron, E.D. and L.R. Huesmann, 1980, "Adolescent Aggression and Television", Annals of the New York Academy of Sciences, 347, pp. 319-331.
- Foulkes, David, E. Belvedere and Terry Brubaker, 1971, "Televised Content and Dream Content", in Comstock, R. and P. Murray, Op. Cit.
- Gerbner, George, L. Gross, M. Morgan and N. Signiorelli, 1986, "Living with Television: The Dynamics of the Cultivation Process", in Bryant, J. and D. Zillmann, (eds.), **Perspectives on Media Effects,** Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum, pp. 17-40.
- Gerbner, G., L. Gross M. Morgan and N. Signiorelli, 1980, "The Mainstreaming of America: Violence Profile No. 11", Journal of Communication, vol. 30, pp. 10-27.
- Gerbner, George and Larry Gross, 1976, "Living with Television: The Violence Profile", Journal of Communication, vol. 26, no. 2, pp. 173-199.
- Gerbner, George, 1971, "Violence in TV Drama: Trends and Symbolic Functions", in Comstock, G. and E.A. Rubinstein, eds. **Television and Social Behavior, vol. 1 Media Content and Control,** Washington, D.C.: US Government Printing Office.
- Ghigloine, Loren, ed., 1973, **Evaluating The Press: The New England Daily Newspaper Survey,** South Bridge, Ma.: Published by the editor.

- Hawkins, R. and S. Pingree, 1982, "Television's Influence on Social Reality" in Pearl, D., L Bouthilet and J. Lazar, Op. Cit., pp. 224-247.

- Huesmann, Rowell, 1982, "Television Violence and Aggressive Behavior", in Pearl, D., L. Bouthilet and J. Lazar, Op. Cit.
- Huesmann, L.R., L.D. Eron, R. Klein, P. Brice, and P. Fischer, 1981, "Mitigating the Imitation of Aggtessive Behaviors", Technical Report, Chicago: Department of Psychology, University of Illinios.
- Lefkowitz, Monroe M., et al., 1971, "Television Violence and Child Aggression: A Follow-up Study" in Comstock and Rubinstein, eds., **Television and Social Behavior,** vol. III, Television and Adolescent Aggressiveness, Washington, D.C.: US Government Printing Office.
- Liebes I. and E. Katz, 1986, "Patterns of Involvement in Television Fiction: A Comparative Analysis" European Journal of Communication, vol. 1, No. 2, pp. 151-172.
- Liebert, Robert M. and Robert Baron, 1971, "Television and Social Learning: Some Relationships Between Viewing Violence and Behaving", in Murray, Rubinstein, and Comstock, Op. Cit.
- Lowery, Shearon A. and Melvin L. DeFleur, 1988, **Milestones in Mass Communication Research, 2nd., New York: Longman, Inc.**
- **Lill, J., 1982, "The Social uses of Television" in Whitney, D.C. et al, Mass Communication Review Yearbook,** Beverly Hills: Sage Publications, pp. 397-409.
- McCarthy, E.D. et al., 1975, "Violence and Behavior Disorders", Journal of Communication, vol. 25, No. 4, pp. 71-85.
- McQuail, D., 1986, "Is Media Theory Adequate to the Chalenge of New Communications Technologies?" in Ferguson, M., ed., **New Communication Technologies and the Pubic Interest,** Beverly Hills: Sage Publications, pp. 1-17.
- Milavsky, Ronald J., Ronald Kessler, Horst Stipp, and William S. Rubens, 1982, "Television and Aggression: Results of a Panel Study" in Pearl, D. L. Bouthilet and J. Lazar, Op. Cit., pp. 138-157.
- Murray, J.P., 1972, "Television in Innercity Homes: Viewing Behavior of Young Boys", in Rubinstein, E.A., G.A. Comstock and J.P. Murray, (eds.), **Television and Social Behavior,** vol. 4, Television in Day-to-Day Life: Patterns of Use, Washington, D.C.: Government Printing office, pp. 345-394.

- Newcomb H., 1978, "Assessing the Violence Profile of Gerbner and Gross: A Humanistic Critique and Suggestion", Communication Research, vol. 5, No. 3, pp.
Behavior, vol. III: Television and Adolescent Aggressiveness, Washington, D.C.:
264-282.
O'Conner, R.D., 1969, "Modification of Social Withdrawal Through Symbolic Modeling", Journal of Applied Behavior Analysis, vol. 2, pp. 15-22.
Palmgreen, P. and J.D. Rayburn, 1985, "An Expectancy-Value Approach to Media Gratifications", in Rosengren, K.E. et al., **Media Gratification Research,** Beverly Hills: Sage Publications, pp. 61-72.
Pearl, David, Lorraine Bouthilet and Joyce Lazar, eds., 1982, **Television and Social Behavior: Ten Years of Scientific Progress and Implications for the Eighties,** vol. II, Washinfton, D.C.: Government Printing Office.
Rayburn, J.D. and P. Palmgreen, 1984, "Merging Uses and Gratifications and Expectancy - Value Theory", Communication Research, vol. 11, pp. 537-562.
Richardson, K. and J. Corner, 1986, "Reading Reception: Mediation and Transference in Viewers' Accounts of TV Programme", Media, Culture and Society, vol. 8, No. 4, pp. 485-508.
Rushton, Philipe Z., 1982, "Television and Prosocial Behavior", in Pearl, D., L. Bouthilet, and J. Lazar, Op. Cit., vol. II.
Rushton, P. and D. Owen, 1975, "Immediate and Delayed Effects of TV Modeling and Preaching on Children's Generosity", British Journal of Social and Clinical Psychology, vol. 14, pp. 309-310.
- Schramm, Wilbur, Jack Lyle and Edwin B. Parker, 1961, **Television in the Lives of our Children,** Stanford Cal.: Stanford Univcersity Press.
Signiorelli, Nancy. Larry Gross and Michael Morgan, 1982, "Violence in Television Profeammes: Ten Years Later", in Parl, D. et al., Op. Cit.
- Singer, J.L. and D.G. Singer, 1980, **Television, Imagination and Aggression: A Study of Preschoolers Play,** Hillsdale, N.J.: Erlbaum.
Snow, R.P., 1984, **Media Power,** Beverly Hills: Sage Publications.
Sprafkim, Joyce and Eli Rubinstein, 1979, "Children's Television Viewing Habits and Prosocial Behavior: A Field Correlational Study", Journal of Broadcasting, vol. 23, No. 3, pp. 265-276.
- Tannebaum, P.H. and D. Zillmann, 1975, "Emotional Arousal in the Facilitation of Aggression through Communication", in Berkowitz, L., ed., **Advances in Experi-**

mental Social Psychology, vol. 8, New York: Academic Press.
- Wartella, E. et al., 1983, **Mass Communication Review Yearbook,** Beverly Hills: Sage Publications.
- Winick, Charles, ed., 1978, **Deviance and Mass Media,** Beverly Hills: Sage Publications.
- Wobor, J.M., 1978, "Televised Violence and the Paranoid Perception: The View from Great Britain", Public Opinion Quarterly, vol. 42, pp. 315-321.
- Zillmann, D. and J. Bryant, eds., 1985, **Selective Exposure to communication,** Hillsdale, N.J.: LEA.
- Zillmann, D., 1982 "Television Viewing and Arousal", in Pearl, D., L. Bouthilet and J. Lazar, Op. Cit., vol. II.
- Zillmann, D. and R.C. Johnson, 1973, "Motivated Aggressiveness Perpetuated by Exposure to Aggressive Films and Reduced by Exposure to Non-Aggressive Films", Journal of Research in Personality, vol. 7, pp. 261-267.

المعوقات التي تواجه دور المرأة السعوديةفي التنمية
دراسة مطبقة بمدينة مكة المكرمة

د . عواطف فيصل بياري

جامعة ام القرى

المقـــدمة :

منـذ بدايـة القـرن العشرين والمرأة السعودية ومؤيدوها من الرجال يكافحون من أجل حصولها على حقوقها ومساواتها بالرجل ، ايمانا بما لها من قدرات خلاقة وادوار مؤثرة في تطور المجتمـع والنهـوض به في مختلف المجـالات ، ولا شك ان الاهتـمام بالنهوض بها والعمل على مشـاركتها بايجابية في الانشطة العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها يدفع عملية التنمية الى الامام لتحقيق الرخاء والحياة الفضلى للجميع .

وأعطت المملكة في الأونة الأخيرة اهتماما بالغا بالمرأة السعودية ، فحصلت على مزيد من الفـرص في مجالات التعليم والعمـل ووضعت القـوانين لحمايتها وحماية الأسرة وقد واكب هذا الاهتمام اهتمام مماثل على الصعيد الدولي بدأ بنداء عالمي من هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٧٥ بالدعوة الى النهوض بالمرأة ثم عقد المؤتمر العالمي للمرأة عام ١٩٧٥ الذي كان نقطة تحول هامة على طريق النهوض بالمرأة ، اذ ان من نتائجه ان تكونت المجالات الاجتماعية والاقتصادية واللجنة التشريعية . . الخ .

ولقد أدركت كثير من البلدان النامية عندما حاولت ان تجند ثروتها البشرية وتستفيد منها من أجل نموها ، انها لا تستطيع ان نغض النظر عن نصف هذه الثروة البشرية الا وهي طاقة المرأة وجعل جميع البلدان العربية على وجه التقريب تعتمد على المرأة في اقتصادها القومي كسياسة وطنية عامة .

ومما لا شك فيه ان خروج المرأة العربية الى ميدان العمل واسهامها في شتى مجالات التنمية في العصر الحديث أصبح ظاهرة تسترعي الانتباه ، فضلا عن احاطة موضوع مساهمة المرأة في النشاط العام للمجتمع بالاعتراف بالكثير من التقدير والتشجيع ، وكذلك بالدعوة عن طريق المفكرين وادوات الاعلام وغيرها لحث المرأة على الأسهام في مشروعات وبرامج الخطط المختلفة للتنمية .

الا ان خروج المرأة السعودية الى ميدان التنمية واشتراكها في كثير من الانشطة ظاهرة جديدة في المجتمع السعودية ، اذ لم يكن من المألوف ان تخرج المرأة وتشق طريقها في مجالات التنمية ، فالمرأة التي تمثل نصف المجتمع وهي التي يقع عليها أساسا مهمة تربية النشء ظلت بعيدة عن ميدان العمل والانتاج ومجالات التنمية الأخرى أجيالا طويلة مقتنعة بتربية الصغار والاشراف على مجتمعها الكبير الذي لم يكن على دراية بكل ما يجرى به ، فما ان تهيأت لها فرص التعليم خلال العشرين سنة الأخيرة حتى أغتنمتها وقد ترتب على ذلك تغيير في وضعها الاجتماعي ودورها في الأسرة والمجتمع على السواء .

واندفعت نحو ميدان التنمية الشائعة ومارست الوظائف التي حددها لها المجتمع في اطار من تقاليده التي لا تتعارض مع تعاليم الشريعة الاسلامية ، وخروج المرأة الى ميدان التنمية لا يعنيها وحدها ولا تنعكس اثاره عليها بمفردها انها تنعكس على المجتمع على سعته .

لذا تهدف هذه الدراسة الى تحديد دور المرأة السعودية كطاقة بشرية في عمليات التنمية لاسيما وقد ثبت بالدليل العملي ان دور المرأة الاجتماعي والاقتصادي قد تحول تحولا كبيرا في بعض الدول وقد أشارت كثير من الدراسات التي أجرتها الهند وسيرالنكا ، وغانا عن المرأة في المجتمعات المحلية المختلفة ان الادوار الاقتصادية والاجتماعية التي تقوم بها المرأة في هذه المجتمعات لاسيما في الريف لا تنال التقدير الكافي[1] .

ولا شك ان الوضع الاجتماعي للمرأة في المجتمع السعودي يتصل اتصالا وثيقا بالتطور الحضاري وبالانماط الثقافية التي يمر بها المجتمع السعودي ، ولما كان المجتمع العربي السعودي يواكب حركات التغير المعاصرة في باقي المجتمعات فإن تغيره أصبح حقيقة واضحة جديرة بالدراسة ، خاصة بعد اكتشاف البترول في أواخر الثلاثينات من هذا القرن وأخذ المملكة بأسباب التعليم منذ بداية الستينات واستجابت الاسرة شأنها في ذلك شأن نظم النسق الاجتماعي الأخرى لهذا التغير .

وقد ساعد تعليم المرأة وخروجها الى ميدان العمل على تعدد دورها في مجالات التنمية ، وبدأت تظهر صعوبات التعارض ومحاولة التكيف بين أدوارها المختلفة ، وترتب على ذلك أهمية التناول العلمي لهذا الموضوع .

الأهمية القومية لدراسة الموضوع :

أكد كثير من العلماء على أن دور المرأة في التنمية يغير من وضع المرأة التقليدي في المجتمع فبعد ان كان هذا الوضع يتسم بالخضوع والتبعية أدى العمل والمشاركة من جانب المرأة في شتى مناشط التنمية ، الى رفع مكانتها في الاسرة والمجتمع . واضافة أبعاد جديدة الى دورها .

ولاشك ان تطور المجتمع السعودي قد أسهم أسهاما مباشرا في تغيير الدور الوظيفي التقليدي للمرأة وذلك بوسائل شتى أولها تمكين المرأة من التعليم وقبول فكرة تعليمها العالي وحصولها على مؤهلات متخصصة ثم تقبل المجتمع لانشغالها ببعض المهن كالتدريس والطب
وحصولها على مؤهلات متخصصة ثم تقبل المجتمع لانشغالها ببعض المهن كالتدريس والطب
والرعاية الاجتماعية والتمريض ، والوظائف الادارية في مجالات التعليم ، كما فتح لها مجالات جديدة ، وقد بدأت حركة أشتغال المرأة السعودية في أعمال البنوك والاعلام ، ومازال التغيير يأخذ ابعاده المختلفة وخاصة وان المجتمع السعودي أخذ ينظر الى النساء على أنهن قوة عمل يمكن أن تكون فعالة وتستطيع المشاركة في البناء والتنمية في المجتمع .

وتتركز أهمية هذه الدراسة في كونها أول دراسة في هذا الميدان فهي تعتبر رائدة في الكشف عن أهم المعوقات التي تواجه قيام المرأة السعودية بدورها في مجالات التنمية .

فروض البحث :

ويدور موضوع البحث حول سؤال رئيسي :

هل توجد معوقات تحول دون قيام المرأة السعودية بدورها في مجالات التنمية ؟

وترتب على هذا التساؤل بعض الفروض الفرعية هي : -

- هناك علاقة بين المعوقات الخاصة من بالقيم السائدة في المجتمع السعودي وقيام المرأة بدورلاها في البيئة .
- هناك علاقة تبين المعوقات الخاصة بالزوجة وقيام المرأة السعودية بدورها في التنمية .
- هناك علاقة بين المعوقات الخاصة بعمل المرأة وقيامها بدور في أنشطة التنمية .

خطة البحث ومناهجه :

وقد استخدمت الباحثة في معالجة الجانب الاميريقي للبحث المنهج الوصفي اذ استهدفت الباحثة باديء ذي بدء ان تتأكد ان ثمة علاقة بين الخدمات التي تواجه المرأة بالمجتمع السعودي ومدى قيامها بدورها في التنمية الاجتماعية .

وقد استهدفت الباحثة أيضا تقرير خصائص هذه الظاهرة وتحديدها تحديدا كيفيا وكميا .

مناهج الدراسة :

هذه الدراسة احتاجت الى الاستعانة بمنهج **Method** وأساليب أو نماذج **instruments** وأدوات **Technoque** بحثية تتسق مع طبيعة الوحدات الاجتماعية موضوع الدراسة .

لذا أثبتت الباحثة المنهج الوصفي **Descriptive** والهدف من اختيار هذا المنهج هو الحصول على بيانات ومعلومات عن المعوقات المختلفة المؤثرة في دور المرأة في التنمية بالمملكة العربية السعودية ، لاسيما وان البيانات المتاحة حالياً لا توصل بقدر كاف لاطار تصوري ـ يعطى تفسيرا لقضية البحث الأساسية .

كما يتلاءم هذا المنهج على الوضوح المدرسي حيث ان جهد الباحثة لا يقتصر على أبعاد الظاهرة على الدراسة وجوانبها المختلفة ، وانما سيتعداه الى تحديد العلاقات الارتباطية بين المتغيرات النوعية التي تم تحديدها ، أي الاهتمام بالمستوى الوصفي والتفسيري معا ، وذلك لاستخلاص التعليمات حول الظاهرة المدروسة من خلال الوصف المنظم والتحليل المنسق لجميع الجوانب ذات الأهمية في الدراسة وهذا يتفق مع الرأي الدي يرى ان البحث الوصفي لا يقتصر على جمع البيانات وتبويبها وانما يعني الى ما هو أبعد من ذلك لانه يتضمن قدرا من التفسير لهذه البيانات لاستخلاص دلالتها(٢) .

في ضوء ذلك فان الباحثة تهتم بالمستوى الوصفي والتفسيري لموضوع الدراسة وتكمل هذه العملية تنظيم البيانات بتحليلها واسنخراج الاستنتاجات ذات الدلالة بالنسبة للمشكلة المطروحة للبحث والتي تخدم أهداف الدراسة ، وذلك مثل الكشف عن أهم المعوقات التي تواجه المرأة السعودية في دورها في التنمية الاجتماعية للمملكة .

لذلك كان المنهج الوصفي هو المطلب الأساسي للوصول الى حقائق حول مشكلة البحث من حيث اعتباره احد المناهج الأساسية في البحث الاجتماعي لدراسة الحقائق الراهنة المتعلقة بطبيعة ظاهرة أو موقف أو مجموعة من الناس أو مجموعة من الأحداث أو مجموعة من الأوضاع(٣) .

وبناء عليه ، كانت النماذج أو الأساليب المستخدمة **The instruments Designs** في اطار المنهج الوصفي التحليلي متعددة وكانت على النحو التالي : ـ

(١) المسح الاجتماعي بطريقة العينة .

(٢) الوثائق والمستندات .

(٣) استمارة البحث .

١ ـ المسح الاجتماعي :

المسح الاجتماعي كنموذج للبحث الوصفي(٤) هو النموذج الأول المختار للدراسة ، عن طريق العينة للطالبات بجامعة أم القرى والموظفات بالمصالح المختلفة بمكة المكرمة .

كما استخدمت الاستمارة كأداة لجمع البيانات عن طريق المقابلة .

٢ ـ الوثائق والمستندات :

وقد اختارت الباحثة ، البحث الوثائقي The Documen tary Research كأسلوب في الدراسة الوصفية وفقا لتصنيف Whitney (٥) بهدف الاستفادة من الوثائق والتقارير المطبوعة المتاحة من خطط الخدمات الاجتماعية بالمملكة وذلك للحصول منها على بيانات ومعلومات تتصل بمشكلة البحث ، خاصة المراحل الأولى لتخطيط الدراسة ، والرجوع اليها كمحك خارجي لصدق المعلومات التي تذكرها المبحوثات في مرحلة العمل الميداني وفي اطار تحليل البيانات الامبريقية التي تم الحصول عليها .

وقد قامت الباحثة بالاستعانة بتلك النماذج التي أتاحت لها الفرصة لاستخدام أسلوب البحث الكيفي Qualitative technique وأسلوب البحث الكمي Quantitative Technigue في آن واحد أي استخدام الأسلوب التعاملي في البحث Trianqulation Techique .

وبذلك تحددت مصادر البيانات والمعلومات في تلك الدراسة على النحو الآتي :

— الطالبات بجامعة أم القرى .

— الوثائق والمستندات .

— المراجع العلمية .

الاطار المكاني للدراسة :

تحدد المجال الجغرافي ـ عموما ـ لهذه الدراسة في مدينة مكة المكرمة وخصوصا جامعة أم القرى وذلك لعدة اعتبارات .

ان هناك عدداً كبيراً من الطالبات من مختلف أجزاء المملكة يدرسن في هذه الجامعة إنهن يعملون في قطاعات عديدة يمكن ان تسهم في مجالات التنمية المتعددة .

- الحصول على تسهيلات يمكن للباحث معها اجراء الدراسة الحقلية بسهولة .

المجال البشري « عينة البحث » :

أخذ في الاعتبار عند تعميم الاطار المنهجي للدراسة الحصول على بيانات ومعلومات كمية - كيفية ، تتسق مع موضوع وأهداف البحث وذلك من عدة مصادر تشمل عينة من الطالبات الموظفات بالمملكة .

حيث قامت الباحثة باجراء حصر شامل للطالبات الدارسات بجامعة أم القرى حيث بلغ عددهن ٦٠٠ طالبة ثم قامت باختبار عينة قدرها ٣٠٪ من الطالبات حيث بلغ عدد العينة ٢٠٠ طالبة .

وبذلك بات المجال البشري للدراسة يشمل :

الطالبات اللائي يدرسن بجامعة أم القرى ويعملن أيضا في قطاعات الانتاج والخدمات المختلفة بالمملكة .

المجال الزمني للدراسة :

من يناير ١٩٨٣ الى نهاية ديسمبر عام ١٩٨٤ .

أدوات جمع البيانات :

استعانت الدراسة للوصول الى أهدافها ، بأدوات جمع البيانات التالية :

(١) استمارة البحث .

(٢) دراسة الوثائق والمستندات

وفيما يلي نبذة مختصرة عن كل من هذه الوسائل السابق ذكرها :

١ - استمارة البحث :

وهي أداة جمع البيانات في المسح الاجتماعي ، وقد تم تصميم الاستمارة الخاصة بمعوقات دور المرأة في التنمية والموجهة الى الطالبات الدارسات والعاملات بالقطاعات المختلفة بالمملكة .

وتشكل هذه الوسيلة المصدر الأساسي للحصول على بيانات حول طبيعة المتغيرات التي تضمنتها فروض الدراسة ، وللاجابة على تساؤلاتها .

وأهم الاعتبارات المنهجية التي اعتمدت عليها الباحثة في اختيارها لأداة الاستمارة كوسيلة أساسية لجمع بيانات الدراسة الحقلية تتلخص في :

١ - ان الاستمارة نموذج يضم مجموعة اسئلة توجه الى المبحوثات من أجل الحصول على معلومات حول موضوع أو مشكلة أو موقف .

٢ ـ الاتساق بين استخدام استمارة المقابلة وطبيعة هذه الدراسة من حيث اعتمادها على آراء الطالبات .

٣ ـ تساعد المقابلة الشخصية والتي تم بها جمع بيانات الاستمارة في تبصير المبحوثين بأغراض البحث وتفسير مما قد يثور في ذهنهم من تساؤلات .

وقد اتبعت الخطوات التالية في تعميم استمارة البحث ما يلي :

محاولة : تحديد نوع المعلومات والبيانات الواجب الحصول عليها من المبحوثين والتي يمكن من خلالها الكشف عن تأثيرات المتغيرات المختلفة التي تتضمنها فروض البحث . ولقد لجأت الباحثة من أجل هذا الى عدة مصادر للمعلومات في صورة مراجع علمية وبحوث وتقارير رسمية ، وكذلك في صورة خبراء ممن لهم اهتمام بموضوع البحث .

تحديد النقاط الرئيسية والفرعية التي سوف تتناولها الاستمارة .

تحديد الشكل الذي سوف تصاغ فيه هذه الاسئلة كل على حدة والشكل الذي سوف تصاغ فيه الاستمارة في مجملها .

وقد روعي في بناء الاستمارة ما يلي :

ـ ان تكون تتضمن البيانات الوثيقة الصلة بموضوع البحث وأهدافه .

ـ البعد عن الاسئلة التي تشير الى حساسية المبحوثات وتضعف الثقة بينهن وبين الباحثة وتمنع المبحوث من الأداء بالبيانات الوافية .

أما عن توافر الشروط المنهجية في استمارة البحث ، فقد خضعت الاستمارة للتجربة المبدئية وكان الهدف من وراء ذلك :

ـ التأكد من أن البنود التي تم اختيارها ، تتصل مباشرة بمشكلة البحث وتخدم أغراضه .

ـ التعرف على الصياغة الملائمة للاسئلة من حيث وضوحها وفهم المبحوثين لها .

ـ الوقوف على ما قد يكون قد احتوته الاستمارة من أسئلة مكررة يمكن الاستغناء عنها .

ـ الوقوف على ترتيب الاسئلة وعما اذا كان الأمر يستلزم البدء بأسئلة متأخرة أو ترتيب اسئلة وردت في المقدمة .

ـ الزمن الذي تستغرقه الباحثة في ملء الاستمارة .

ـ استجابة المبحوثات للبحث بصفة عامة وللاستمارة بصفة خاصة .

ولقد أجريت دراسة استرشادية على عينة عشوائية من الطالبات عددهن ١٠ من أفراد مجتمع البحث وقد ساهم هذا الاختيار في اجراء بعض التعديلات قبل طبع الاستمارة بصورتها النهائية

أما فيما يتعلق بصدق الاستمارة أي تحقيقها للهدف الذي صممت من أجله ، فلقد لجأ الباحث الى اختبار الصدق الظاهري **Face Validity** ويعتمد هذا النوع من الاختبارات على مدى وضوح السؤال واتصاله مباشرة بالظاهرة التي تستفسر عنها[٦] حيث عرضت الاستمارة على بعض المسئولين في مناهج البحث كهيئة محلفة للتحقق من صدق الاستمارة المنطقي ، وارتباط اسئلتها مباشرة بتساؤلات البحث وفروضه .

دراسة الوثائق :

يقصد بالوثائق أي مواد مكتوبة يمكن ان تستخدم كمصدر للمعلومات بما يخدم اغراض الدراسة[٧] وتشير الوثائق هنا والتي ليست نتيجة لجهد الباحثة ـ الى مجالات التنمية المتاحة بالمملكة بالنسبة للمرأة االسعودية وكذلك القرارات المنظمة للاستفادة بجهود المرأة السعودية في التنمية .

وقد استفادت الباحثة من دراسة الوثائق فيما يلي :

ـ مرحلة التخطيط والبحث حيث اعطت مؤشرات استفادت منها الباحثة في بلورة مشكلة البحث .

ـ مرحلة تحليل البيانات حيث تم الرجوع اليها في سياق هذا التحليل كمحك خارجي لصدق المعلومات التي ذكرتها المبحوثات .

ثانيا ـ الدراسة السابقة :

ولقد قامت الباحث بالاطلاع على بعض الدراسات التي لها اتصال مباشر أو غير مباشر بموضوع الدراسة وهي : ـ

١ ـ د. كاميليا عبد الفتاح ، خروج المرأة الى ميدان العمل ج.م.ع دراسته ونتائجه دكتوراة ، كلية الأداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٦٧ .

٢ ـ رقيه محمد رشدي بركات ، علاقة التغير التكنولوجي بدور المرأة في الاسرة ، ماجستير ، كلية الآداب ، عين شمس ، ١٩٧٠ .

٣ ـ جلال اسماعيل ، المرأة والعمل : دراسة ميدانية في القاهرة لبعض العاملات المؤهلات تأهيلا عاليا ، ماجستير ، كلية البنات ، عين شمس ١٩٧٣ .

٤ ـ محمد سلام آدم ، صراع الـدور لدى المـرأة العاملة ، دراسة نفسية اجتماعية لتصور المرأة العاملة لدورها الاجتماعي في ضوء بعض سمات الشخصية ، (دكتوراة ، كلية التربية ، عين شمس ، ١٩٨٠) .

٥ ـ عواطف فيصل بياري ، التصنيع والمتحضر في مدينة جدة ، دراسة لأثر التصنيع على البناء الاجتماعي للمدينة ، ماجستير ، جامعة القاهرة كلية الأذاب ١٩٧٢ .

٦ ـ أمية سليمان البسام ، دور المرأة في تنمية المجتمع المحلي ، دراسة في منطقة الدرعية بالمملكة العربية السعودية ، ماجستير ، قسم الاجتماع ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٧ .

٧ ـ فريال بهجت عزيـز ، عمل المرأة وأثره على دورها في الأسرة ، دراسة ميدانية مع النساء العاملات وغير العاملات في مدينة بغداد (ماجستير ، عين شمس ، كلية البنات ، ١٩٨١) .

هذا وقد قامت الباحثة بوضع تعريف لبعض المفاهيم مثل :

— مفهوم المعوقات
— مفهوم الدور
— مفهوم المرأة العاملة
— مفهوم التنمية .

ثالثا ـ الاطار النظري للبحث :

ولقد تعرضت الدراسة لوجهة نظر المدارس المختلفة التي تناولت مفاهيم الدور وحاولت الباحثة من خلاله ان تربط بين ادوار وسلوك المرأة السعودية داخل بناء الاسرة والمجتمع وأصبح لا يمكن عزل المرأة عن البناء الاجتماعي الذي تتواجد فيه . . ولهذا كانت وجهة نظر الباحثة شاملة لكل وجهات النظر سواء كانت المدرسة النفسية . حيث رأى البورت ان تصور الدور وقبوله وتوقعاته يختلف من فرد الى آخر[٨] .

وترى الباحثة ان الادوار الاجتماعية أحد جوانب الشخصية ، فالطفل يتعلم منذ تنشئته أداء الادوار ويكتسب التوقعات والسلوك ويتوحد مع القيم والعرف والثقافة التي تكون احدى نتائجها الجانب الاجتاعي للشخصية[٩] .

هذا وقد اهتمت المدرسة الاجتماعية بتعريف الدور حيث يشير سبيجل **Speigel** لمفهوم الدور بقوله إن دراستنا لمفهوم الذور تعطينا فرصا لدراسة تفاعل شخصية الفرد مع الجماعات الاجتماعية المختلفة التي ينتمي اليها أثناء علاقاته بهم وفي اطار البناءات الاجتماعية[١٠] .

ومن مختلف الآراء التي عرضت حول مفهوم الدور سواء وجهة نظر جود **Good** لينتون وود ورث وسوتر لايتر بتذكيت **Land and Bendeet wood worlh, southern** ناديل **Nadil** وغيرهم .

وقد علقت الباحثة من ذلك الى ان الدور هو الوحدة الصغيرة المميزة للحدث السلوكي داخل البناء الاجتماعي ومن ثم تنظم وتصف الأفعال الانسانية في أدوار وان الأشخاص يؤدون الدور الواحد بطرق متقاربة مما يؤدي الى تماسك الاشخاص داخل البناء الاجتماعي .

ولقد تعرضت الباحثة لاتجاهات المدرسة النفسية الاجتماعية التي تحاول أن تربط بين الفرد والمجتمع لتحقيق الترابط بين الشخصية والبناء الاجتماعي ومن أهم الكتاب الذين تزعموا هذا الاتجاه في علم الاجتماع بارسونز **Parsons** وقد رأى أن كل دور من الأدوار التي يؤديها الشخص تكون جزء من شخصية(١١) .

وقد اتجه دانيل لينفسون **Livenson** اتجاها مماثلا لبارسونز يشمل الجوانب النفسية والاجتماعية ويشير الى ان الدور هو أفكار الأفراد وأفعالهم وفي نفس الوقت يرتبط بتأثير المطالب البنائية الاجتماعية على الأفراد(١٢) .

وقد أشار **Newlomb** في كتابه علم النفس الاجتماعي إلى أن : هناك مجموعة عوامل تساعد على أداء الدور وهي :

١ ـ العوامل البيولوجية .

٢ ـ الظروف المميزة التي يتعلم من خلالها الانسان أداء دوره .

٣ ـ وعي الذات بأدوارها وأدوار الآخرين .

هذا وقد عرضت الباحثة في الاطار النظري دراسة عدة موضوعات تتعرض من خلالها للاتجاهات والمداخل النظرية للتنمية . حيث لوحظ ان مجال التنمية مجال فسيح ومتشعب والعنصر البشري بينه هو الاتصال بالجانب البشري(١٣)فهي تتعامل مع كافة احتياجات الانسان . وتقوم سياسة التنمية على أساس من الاستخدام المثمر المفيد لطاقات الناس .

ويحمل مصطلح تنمية **Deve lopment** في مضمونه اللفظي معنى المساعدة على تغيير الظروف القائمة ، التي يعيشها الفرد والحاجة الى ما هو أحسن من ذلك ومعنى هذا ان مصطلح تنمية يعني تحديد امكانيات الفرد والحاجة لاستخدامها الاستخدام الأمثل الذي يجعلها تعطي أعلى درجة ممكنة من الفائدة ، ومعنى ذلك أيضا ان مصطلح التنمية يحمل معنى الوعي ، والارادة في عملية التغيير فالانسان هو منطلق لانهائية وهدمها(١٤) .

والدراسة هذه تبحث عن دور المرأة السعودية في البيئة لذا يعتمد مفهوم التنمية المرتبط بالتغيير والمرتبط بالارادة هو الأنسب لهذه الدراسة كما ان التغيير لا يحدث طفرة واحدة بين يوم

وليلة وانما يحتاج الى مراحل وتفكير سابق ودراسة شاملة وذلك لان المجتمع الذي نعمل من خلاله هو الـذي يحدد ظروف العمليات الانمائية وأسسها كما ان دور المرأة السعودية مازال في بدايته يتحسس الخطى ويحاول بقدر الامكان المساهمة في تنمية المجتمع السعودي .

هذا وقد أشارت الباحثة الى النهج العلمي والتخطيط للتنمية من أجل مجتمع عربي أفضل(١٥) .

وفيما يلي عرض النتائج الدراسية والتعليق عليها :

رابعا ـ نتائج الدراسة الميدانية :

ابـرزت نتائج الدراسة المتعلقة بمعوقات دور المرأة في االتنمية عدداً من النتائج بعضها متعلق باعطاء وصف عام لمجتمع البحث والبعض الآخر يتعلق بالاجابة على فروض البحث

وفيما يتعلق بالوصف العام لمجتمع البحث أبرزت نتائج الدراسة : ـ

١ ـ نسبة ٤٥٪ من المبحوثات يقع عمرهن في الفئة العمرية (٢٥ ـ ٣٠) سنة بينما انخفضت نسبة كبار السن الى ٥٪ .

٢ ـ ان ٦٧٪ من المبحوثات ممن تلقين تعليمًا عالياً بالنسبة للحالة التعليمية بينما انخفضت نسبة التعليم الابتدائي الى ٢,٥٪ .

٣ ـ ان نسبة ٤٩٪ من مجتمع البحث من المتزوجات .

٤ ـ ان ما يقرب من نصف مجتمع البحث (٤٧,٥٪) يحصلن على مرتب شهري ما قدره ٦٠٠٠ ريال ، ٧٠٠٠ فأكثر .

٥ ـ فيما يتعلق بمدى وجود دور المرأة في التنمية أبرزت الدراسة ان نسبة ٨٥٪ من المبحوثات ترى ان هناك دوراً للمرأة في التنمية . وان نسبة ١٥٪ ترى انه لا يوجد للمرأة دور في التنمية .

٦ ـ كما أبرزت نتائج الدراسة (جدول رقم ٧) ان أهم المجالات التي تساهم فيها المرأة لأحداث التنمية هي :

- المجال التعليمي (٨٥٪) يلي ذلك المجال الطبي (٨٠٪)
- المجال الثقافي (٥٩٪) المجال الأسري (٥٦٪)
- مجال الخدمة الاجتماعية (٥٤٪) مجال الخدمة العامة (٥٥٪)

بينما انخفض دور المرأة في المجالات الأخرى مما يوضح ان غالبية المجالات التي تعمل فيها المرأة تتعلق بالتعليم والصحة والخدمة الاجتماعية .

٧ ـ وفيما يتعلق بمدى وجود معوقات تواجه المرأة أثناء قيامها بدورها في مجالات التنمية الاجتماعية والاقتصادية بالمجتمع السعودي أشارت النتائج الى ما يؤكد صدق الفروض الموضوعة للبحث حيث أبرزت النتائج : ـ

ـ ان هناك معوقات تتصل بالعمل وذلك بنسبة ٦٥٪ من الآراء وان أهم هذه المعوقات تتمثل في :

— عدم تقدير الرؤساء لعمل المرأة .

— عدم الاهتمام بالنواحي الابتكارية لدى المرأة .

— عدم اعطاء المرأة الحرية الكافية في ابداء الرأي .

— عدم توافق الآراء مع زملاء العمل .

— الروتين الذي يسود العمل .

— النظرة الروتينية لدور المرأة في برامج التنمية .

٨ ـ ان هناك معوقات تتصل بالأسرة ومدى تقبل الأزواج لقيام المرأة بالعمل كأحد جوانب التنمية ويتمثل ذلك في :

— رفض بعض الازواج لعمل المرأة لان ذلك يجعلها تتغيب كثيرا من المنزل .

— ارهاق المرأة ، وعدم اهتمامها بأمور منزلها وزوجها .

— كما ان وجود أبناء وضرورة العناية بهم من العوامل التي تعوق قيام المرأة بدورها في التنمية .

٩ ـ وفيما يتعلق بتقبل المجتمع السعودي لدور المرأة في التنمية أبرزت النتائج ان نسبة ٦٤,٥٪ ترى ان هناك تقبلا بينما رأت نسبة ٣٥,٥٪ انه لا يوجد تقبل لدور المرأة في التنمية . وان ذلك يرجع إلى : ـ

— النظرة المحدودة لدور المرأة في برامج التنمية .

— عدم الاهتمام بالاعلام عن دور المرأة في التنمية .

— النظرة الى ان مكان المرأة هو المنزل .

— الثقافة السائدة في المجتمع السعودي كلها تركز حول الحد من دور المرأة في التنمية .

— سيادة بعض التقاليد والقيم التي لا تجيز قيام المرأة بأي دور في التنمية .

١٠ ـ وفيما يتعلق بالمعوقات التي ترجع الى أجهزة الاعلام تبين ان نسبة ٤٧,٥٪ ترى ان أجهزة الاعلام لا تقوم بدور واضح في الاعلام عن دور المرأة في التنمية بينما رأت نسبة ٢,٥٪ ان هناك اهتماما من جانب الأجهزة الاعلامية متمثلا في عمل جريدة للمرأة ، نشر برامج اذاعية وتليفزيونية عن المرأة ، عقد الندوات والمحاضرات ، وانشاء الجمعيات النسائية .

توصيات الدراســـة

١ ـ ضرورة فتح مجالات جديدة لعمل المرأة وخصوصا ان هناك ثورة صناعية تجتاح المملكة فلم لا تشارك المرأة في هذه النهضة . ٢ ـ الاهتمام بانشاء الوسائل التي تيسر قيام المرأة بدورها في التنمية مثل انشاء دور الحضانة وبعض الخدمات الأسرية الأخرى .

٣ ـ الاهتمام من خلال وسائل الاعلام بما يؤدي الى تغيير نظرة المجتمع نحو عمل المرأة .

٤ ـ الاكثار من البعثات الدراسية الخارجية للمرأة للاطلاع على الحديث في العلوم

٥ ـ عقد الندوات والمحاضرات لايضاح أهمية دور المرأة في مجالات التنمية .

المراجع المستخدمة في البحث

1. Clinord, M. Community Development in slums (N.Y. Free press, 1970) p. 305.

٢ ـ د. عبد الباسط حسن : أصول البحث الاجتماعي (الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار البيان العربي ، ١٩٦٦) ص ٢٢٠ .

٣ ـ جمال زكي وسيد ياسين : أسس البحث الاجتماعي (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٣) ص ٨٣ ـ ١٩٨٤ .

4. Kerclienger, Fred N., Foundation of Behevioral (N.Y., Pinehert and winston, inc, 1973) pp. 410-426.

5 - Bernards. Phillips Sulial resoreh Shatrgy and Tacticl (N.Y. the Macmillars Cervary 1961) P. 147 - 157

6 - Bernard S. Pbillips, IBID, P. 147.

7 - Allport, G. Pattern and Growth in personality (N.Y., Hold, Pinehart and winston, 1961) P. 184.

٨ ـ فرج سعيد : البناء الاجتماعي للشخصية (دكتوراه ، كلية الآداب ، الاسكندرية ، ١٩٧١) ص ٣٥٤ ـ ٣٤٦ .

9 - Spiegel, J., The Resolution of Role conflict within the familly (chicago, Free press, 1960) pp. 361-380.

10 - Parsons, T., Toward a theory of social Action (N.Y. Howed University press, 1951) pp. 23-26.

11 - Livenson, D., Role of personality and Social atucture in the organizational setting (N.Y., prentic-Hall, 1961) pp. 500-304.

١٢ ـ د. محيي الدين صابر ، البيئة الاجتماعية طبيعتها ، وأهدافها ، بحث مقدم الى مؤتمر الشئون الاجتماعية والعمل ، القاهرة مايو ، ١٩٦٧ ، ص ٦١ .

١٣ ـ المفاهيم الحديثة للآثار في لبنان ، أبحاث قدمت في الحلقة الدراسية الاثانية ٦٥/١٩٦٦ ، لبنان ، ص ١٣ .

١٤ ـ أنظر البحث الرئيسي الخاص بالباحثة ، ص ٩٥ .

استمارة بحث عن

المعوقات التي تواجه دور المرأة السعودية

في التنمية

دراسة مطبقة بمدينة مكة المكرمة

النوع : ....

السن : ....

محل الميلاد الأصلي : ....

محل الاقامة الحالي : ....

الحالة التعليمية : ....

تاريخ إجراء المقابلة : ....

الباحثة

د. عواطف فيصل بياري

المعلومات التي سترد في هذه الصحيفة سرية . ولايجوز الاطلاع عليها أو استخدامها الا في الاغراض العلمية للبحث .

الباحثة

أولا — بيانـات أوليـة :

١) الاسم : ....

٢) السـن : ٢٠ - ( ) ٢٥ - ( ) ٣٠ - ( ) ٣٥ - ( ) ٤٠ - ( ) فأكثر ( )

٣) الحالة التعليمية : ابتدائية ( ) اعدادية ( ) متوسط ( ) فوق المتوسط ( ) عالي ( )

٤) الحالة الاجتماعية : بدون زواج ( ) متزوجة ( ) مطلقة ( ) أرملة ( )

٥) الدخل الشهري ان وجـد ( ) بالريال .

ثانيـا — دور المرأة في التنميـة :

٦ ـ هل تعتقدين أن للمرأة دوراً في التنمية : نعم ( ) لا ( )

٧) هل هذا الدور هام وحيوي في احداث التنمية : نعم ( ) لا ( )

٨) ما هي فكرتك عن دور المرأة السعودية في التنمية ؟

١) المساهمة في عملية التنمية الاجتماعية ( )

٢) المساهمة في النشئة الاجتماعيـة ( )

٣) المساهمة في العمل بالمصانـع ( )

٤) العمل في الجمعيات الخيرية الاسلامية ( )

٥) العمل في جمعيات خدمة المجتمع ( )

٦) أخرى تذكـــر

٩) ما هي المجالات التي يمكن أن تساهم فيها المرأة بصورة افضل في عملية التنمية ؟

ضعي ترتيباً تصاعدياً حسب أهمية كل مجال بأن يعطى أهم مجال رقم (١) ثم المجال الذي يليه (٢) وهكذا . . . .)

— مجال طبـي ( ) — مجال سياسي ( ) مجال ترويحي ( )

— مجال صناعي ( ) — مجال تجاري ( ) أخرى تذكر ( )

— مجال زراعي ( ) — مجال خدمة اجتماعية ( ) أخرى تذكر ( )

—ـ مجال تعليمي ( ) — مجال ثقافي ( ) أخرى تذكر ( )

ثالثا — معوقات دور المرأة السعودية في التنمية :

١٠) هل توجد معوقات أمام تأدية المرأة لدورها في التنمية نعم (   ) لا (   )

في حالة الاجابة بنعم فهل هذه المعوقات تتصل بـ :

أ) تتصل بالعمل (   )

ب) تتصل بالنواحي الثقافية (   )

ج) تتصل بالنواحي الاجتماعية (   )

د) تتصل بالنواحي الاجتماعية (   )

هـ) تتصل بنواحي خاصة بالمجتمع (   )

أ) المعوقات التي تتصل بالعمل :

(١) هل يتقبل زوجك عملك نعم (   ) لا (   )

إذا كانت الاجابة بلا تسأل لماذا ؟

— لأنك تتغيبين في العمل عن المنزل كثيرا (   )

— لأنك تعودي مرهقة من العمل (   )

— أخرى تذكــــــــــر (   )

١٢) هل يقدر رؤساؤك في العمل مجهوداتك نعم (   ) لا (   )

١٣) هل روتين العمل يؤدي الى اعاقة دورك في التنمية نعم (   ) لا (   )

١٤) هل هناك معوقات أخرى تتصل بعملك :

—

—

ب) المعوقات المتصلة بالناحية الثقافية :

١٥) هل يتقبل السعودي دوركن في التنمية نعم (   ) لا (   )

١٦) في حالة (نعـم) ما هي الأسباب ؟

— لأن المجتمع اصبح يخدم عمل المرأة (   )

— لأن جهدنا بجانب الرجل يدفع المجتمع الى الامام (   )

— لأن المجتمع يوزع برامج ثقافية مناسبة توضح دور المرأة (   )

— أخرى تذكــــــــر

١٧) في حالة (لا) ما هي الاسباب ؟

— المجتمع لايقبل عملنا ( )

— لا توجد برامج ثقافية مناسبة ( )

— ينظرون الى عملنا على أنه معطل للانتاج ( )

— أخرى تذكـــــر ( )

١٨) هل توجد دورات تدريبية لزيادةكفاءتكن في العمل ( ) لا ( )

١٩) في حالة الاجابة بنعم هل هذه الدورات والبرامج كافية نعم ( ) لا ( )

٢٠) في حالة الاجابة بلا ما هي اسباب عدم كفاية هذه البرامج :

— ضعف محتويات هذه البرامج ( )

— الوقت والجهد المخصص لها غير كافي ( )

— وقت العمل لايساعد الاشتراك في هذه الدورات ( )

— عدم وجود حوافز مادية أو معنوية لهذه الدورات ( )

— أخرى تذكـــــــر ( )

٢١) هل تقوم أجهزة الاعلام بإيضاح دوركن في التنمية نعم ( ) لا ( )

٢٢) في حالة الاجابة بنعم ما هي مظاهر هذا الاهتمام من جانب أجهزة الاعلام :

— عمل جريـدة خاصة ( )

— برامج الاذاعـــة ( )

— برامج التليفزيـون ( )

— أخـرى تذكـــر ( )

المعوقات المتصلة بالناحية الاجتماعية :

٢٣) هل لديك ابناء نعم ( ) لا ( )

٢٤) إذا كان لديك فكم عدد أبنائك؟

١ ( ) ٢ ( ) ٣ ( ) ٤ ( ) ٥ فأكثر ( )

٢٥) هل تعتقدين أن مسئولية تربية ألاولاد تحول دون تأدية المرأة لدورها في التنمية :

نعم ( ) لا ( )

٢٦) هل توجد حضانة بالمنطقة السكنية التي تقيمين فيها : نعم ( ) لا ( )

٢٧) في حالة الاجابة (بـلا) فأين تتركين أبنائك عند ذهابك للعمل :

١) عند الجيران ( ) عند أهلك ( ) أخرى تذكر ( )

٢) عند أهل الزوج (   ) عند الأقارب (   )

٢٨) هل تحول ظروفك الأسرية دون اسهامك بفاعلية في تنمية المجتمع : نعم (   ) لا (   )

٢٩) في حالة الاجابة (بنعـم) لماذا تحول ظروفك الأسرية دون المساهمة في تنمية المجتمع ؟

لأنه لايبقى لديك وقت المساهمة في مشروعات تنمية المجتمع (   )

لأنك مثقلة بأمور المنزل والعمل (   )

لأنه لايوجد أي رغبة من الزوج في ذلك (   )

أخــرى تذكـــر (   )

المعوقات المتصلة بالناحية الاقتصادية :

٣٠) إذا طلب منك الاسهام في بناء دار حضانة فهل تساهمين ؟

نعم (   ) لا (   )

٣١) عندما يكون لديك مبلغ من المال فهل تفضلين :

— صرفه على أشياء خاصة بالمنزل (   )

— التبرع لبناء مشروع يفيد المجتمع (   )

— وضعه في البنك (   )

— أخـرى تذكـــر (   )

معوقـات خاصـة بالمجتمـع :

٣٢) ضع علامة أمام العبارة التي تؤيد وجهة نظرك :

ان المجتمع لايحترم عمل المرأة (   )

المجتمع يحترم عمل المرأة (   )

يتيح المجتمع فرصة للمرأة لكي تعمل في غالبية المجالات (   )

يتيح المجتمع اي فرصة للمرأة للعمل في مجالات التنمية (   )

يتيح المجتمع بعض المجالات للعمل في مجالات التنمية (   )

أخرى تذكـــر (   )

٣٣) ما هي المعوقات التي يصفها المجتمع أمام دوركن في التنمية ؟

٣٤) ما هي مقترحاتكن للتغلب على المعوقات التي تقف أمام دوركن في التنمية ؟

ردود الفعل الشعبية في امارات الخليج تجاه العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ من واقع الوثائق البريطانية

د. ابراهيم محمد ابراهيم شهداد
قسم التاريخ ـ جامعة قطر

لعل أهم ما شهدته منطقة الخليج العربي خلال وبعد الحرب العالمية الثانية هو ذلك التنامي في الوعي السياسي الذي أصاب نسبة كبيرة من أبنائها ، والذي كان للنشاط الدعائي السياسي الذي مارسته الأطراف المشاركة في الحرب دور جلي في ميلاده ولو بشكل غير مباشر ، حيث أججت الحرب الدعائية للحرب بين دول المحور والحلفاء مشاعر أبناء المنطقة واسهمت في تعديل نظرتهم لواقعهم الذي أضحوا ينظرون إليه بعين الناقد المتفحص .

وكانت الصحف والاذاعات أهم وسائل الحرب الدعائية ، حيث ان السلطات البريطانية بغية مواجهة ما كانت تبثه اذاعة برلين من دعاية مضادة ضد الحلفاء ، وادراكاً منها بأن مثل هذه الدعاية ستؤثر على استقرار المنطقة لما سوف تؤدي اليه من اضطرابات بالرغم من الرقابة المباشرة عليها قامت بإصدار أول صحيفة محلية وهي صحيفة «البحرين اليومية» التي بدأت في الصدور في شهر مارس ١٩٣٩ لاستغلالها كوسيلة دعاية مضادة للمحور ، وفي الوقت ذاته تقوم بالدعاية للحلفاء ، حيث اصطبغت من أول يوم لها بخطوط الدعاية الانجليزية ومقاومة الدعاية الالمانية والحد من تعاطف الخليجيين معها ، وأصبحت الحرب الدعائية سجالاً بين هذه الصحيفة وبين اذاعة برلين التي أخذت تجذب انظار العرب بعد ان ضمت إليها بعض المحاضرين العرب المعروفين والمثقفين من فلسطين والعراق وبقية الاقطار الواقعة تحت النفوذ البريطاني ، عاملة من خلال بثها التركيز على البرامج المؤثرة والجذابة ، مركزة خطوط دعايتها الموجهة الى العالم العربي في تقوية الاتجاهات القومية ، واثارة الشعور الاسلامي ، وبعث الثقافة العربية وتحريض العرب من أجل استخلاص استقلالهم بالقوة مركزة على قضيتين مهمتين لاثارة التناقض بين موقف الرأي العام العربي وبين بريطانيا .

أما القضية الأولى : فهي الوطن القومي لليهود في فلسطين الذي تتعاطف معه بريطانية وأمريكا .

والقضية الثانية : الوحدة العربية التي استطاعت الدعاية الالمانية استغلالها لبث الشك والريبة ضد بريطانيا واستقطاب الرأي العام العربي .

فقد بدا تأثير ما كانت تطرحه الاذاعة المذكورة واضحاً على الجمهور الخليجي المستمع لها وبالذات في البحرين والكويت حيث تهاتف الناس على الإستماع إلى تعليقاتها في المقاهي والأماكن العامة ، ويمكننا تأكيد ذلك من الصراع الذي خاضته صحيفة البحرين في ردها على الدعاية الالمانية ومحاولة إحباط تأثيرها ، مطلقة على الاذاعة الالمانية بالمحامي المتطفل(١) .

والجدير بالاشارة انه على الرغم من تغلب أخبار الحرب على صحيفة البحرين والدعاية المضادة لدول المحور إلا انها وظفت بإقتدار من قبل رئيس تحريرها عبد الله الزايد لاثارة بعض القضايا التي كانت تمس منطقة الخليج كالقضايا الاجتماعية والاقتصادية ، وتوجيه النقد لممارسات شركات النفط العاملة في المنطقة كشركة بابكو «شركة نفط البحرين» والكشف عن مساوىء سياسات الحكومة البحرينية ولو بأسلوب مبطن ، كما أن بعض صفحاتها أصبحت في الوقت ذاته قبلة لمستنيري المنطقة كعبد الرزاق البصير من الكويت ومحمد لقمان من السعودية ، اذ قامت بنشر آرائهم وأفكارهم .

ومن ناحية أخرى باتت السلطات البريطانية بعد مرور فترة على اقتناع بأهمية تدعيم الدعاية المضادة لدول المحور عن طريق الإذاعة لكونها أبلغ تأثيراً على الجمهور ، وفي الوقت ذاته فإن تأثيرها يمس جميع فئات المجتمع من متعلمين ، وغير متعلمين بالاضافة لإحكام القبضة على دعاية اذاعة برلين وللرد كذلك على بعض ما كانت تبثه بعض الاذاعات الاقليمية كاذاعة قصر الزهور العراقية التي انشأها الملك غازي وجعل توجهها العام معبرا عن الاتجاه القومي العربي وآراء الملك نفسه في القضية العربية بشكل عام . مما حدا بالكثيرين من معتنقي فكرة القومية العربية للاهتمام بما كانت تبثه وتحبيذ برامجها(٢) ، فبناء على ذلك قامت بريطانيا بإنشاء أول اذاعة محلية في البحرين حيث بدأت ارسالها في نوفمبر ١٩٤٠ ، واستغلت لنفس الاغراض التي استغلت فيها صحيفة البحرين ، الا انها في الوقت ذاته كانت تقدم بعض البرامج التعليمية والاجتماعية والترفيهية(٣) .

وقد تأثر أبناء الخليج كثيراً بالشعارات الدعائية التي كانت تطرحها أدوات الدعاية من اذاعة

---

(١) هلال الشايجي . الصحافة في الكويت والبحرين منذ نشأتها حتى عهد الاستقلال ، البحرين ، مطبوعات بانوراما الخليج ، ١٩٨٩ ص ٩٨ ـ ١٠٣ .

(٢) مصطفى عبد القادر النجار . التاريخ السياسي لعلاقات العراق بالخليج العربي ، البصرة ، مركز دراسات الخليج بالبصرة ، ١٩٧٥م ، صص ٢٥٣ ـ ٢٥٥ .

(٣) محمد الرميحي . البحرين مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي ، بيروت ، دار ابن خلدون ١٩٧٦ ص ٢٢٨ .

وصحف ، فمثلا تأثر أبناء البحرين بشعارات الدعاية البريطانية وخاصة تلك التي كانت تتعلق بالحرية والديموقراطية تجد صدى لدى البحرينيين حيث كانوا يأملون تطبيق مثل هذه الشعارات على أنفسهم[٤] .

ونتيجة لذلك النشاط الدعائي السياسي الذي ساد المنطقة خلال الحرب بدأ في التبلور وعي سياسي فيها لعبت مجموعة كبيرة من العوامل دوراً في تأطيرها كإنفجار مشكلة تقسيم فلسطين ، وزيادة الرقعة التعليمية في الخليج الى جانب انتشار عدوى الوعي القومي العربي بعد ان أضحى له مفهـوم مغاير لما كان عليه عن ذي قبل في عقول أبناء الخليج خاصة في أعقاب ولادة حركة القوميين العرب على أثر نكبة ١٩٤٨ ، حيث تحول هذا المفهوم من فكرة سياسية أساسها وحدة اللغـة والتـاريخ والثقافة المشتركة والانتماء لأمة واحدة إلى مفهوم يحمل طابعاً ثورياً كمناهضة الاستعمار وتصعيد النضال ضده من أجل الحرية والاستقلال والتصدي للقوى المعوقة للتقدم ، وجاءت ثورة ٢٣ يوليو المصرية لتزيد من توقد هذا المفهوم لدى الجماهير حينما ربط قائد الثورة جمال عبد الناصر حركة القومية العربية بفكرة معاداة الاستعمار وقيامه بتطبيق أحد مبادىء هذا المفهوم ، عند إعلانه تأميم قناة السويس .

وبحكم الربط السابق الذي أوجده عبد الناصر ، وتصعيده هو وأجهزة اعلامه التي كانت اذاعة صوت العرب احدى ركائزها في الهجوم على الاستعمار ، واعلان وقوفه مع كافة حركات التحرر في الوطن العربي وعلى رأسها حركة التحرير الجزائرية . بدأ الوعي السياسي في منطقة الخليج يدخل في طور جديد يمكن تسميته ان صح التعبير «طور التعبير والانطلاق» ، كان أبرز مظاهره تزايد روح السخط المشحون بالانتقام ضد كل شيء يرمز الى الاستعمار وتوابعه ومواجهة تردي الأوضاع الداخلية التي كانت شعوب المنطقة تعتقد بأن الاستعمار هو مهندس استمرارها وتغذيتها عن طريق تدعيم أدوات الحكم فيها وحمايتها ، ولذلك لم يكن من الغريب بأن تستلهم كل النخب الـواعية والمعبرة عن ذلك السخط جل تحركاتها من القاهرة ، وان تتمحور أغلب توجهاتها السياسية حول الاطروحات السياسية التي كان يطرحها عبد الناصر من خلال خطاباته السياسية والتي كثيراً ما كانت تتميز بمهاجمة الاستعمار والدعوة الى القضاء على الحكومات الفاسدة التي كانت تتلاعب بمقدارات الأمة . وأصبح الشارع الخليجي السياسي مع مرور الإيام أسيرا لتوجهات الثورة المصرية وقائدها ذي الشخصية الكرزمية ، بل أن هذا الشارع أصبح متحفزا

---

(4) Rosemarie Said Zahlan The Gulf states And The PALESTINE PROBLEM 1936 - 48 Arab studies Quaterly Vol 3 No 1, winter, 1981 P 16

لدرجة بذل النفس والنفيس ضد كل من كان يحاول ضربها ويعمل على الاطاحة بها ، ولعل ردود الفعل الشعبية العارمة والغاضبة التي حدثت في المنطقة خلال العدوان الثلاثي على مصر ضد المصالح الأجنبية وبالذات البريطانية والتي كشفتها لنا وثائق الخارجية البريطانية والمذكرات اليومية لمندوبيها في المنطقة ركائز أساسية لادراك مدى حجمها والوقوف على الاجراءات التي اتخذت من قبل السلطات المحلية بغية عدم تطورها ، خير ترجمة لتبيان ذلك الالتصاق السياسي والشعبي في الخليج بحكومة ناصر الثورية في ذلك الوقت .

ردود الفعل الشعبية :

جاءت ردود الفعل الشعبية تجاه العدوان الثلاثي سريعة في الشارع الخليجي نتيجة للكراهية المطلقة للتدخل الأجنبي الذي جاء من اطراف كانت تمثل في الضمير العربي ووجدانه بل في واقعه ألد أعدائه ، ولعل ردود الفعل التي شهدتها أمارات الخليج والتي سوف نسرد تفاصيلها كانت تمثل جزءاً من ذلك الضمير الذي بات متحفزا للرد على ذلك العدوان بالكيفية المقتدرة غير مبال بالنتائج المترتبة عنه ، ولذلك فإنه بمجرد وصول أنباء ذلك العدوان بدأت عواصم تلك الامارات تشهد مظاهرات وأعمال مناهضة ضد دول العدوان متفاوتة الحدة والطابع ، الأمر الذي دفعنا الى سردها بشكل مسهب في كل امارة على حدة :

أولا : البحرين :

شهدت العاصمة البحرينية المنامة صباح يوم أول نوفمبر أول رد فعل على التدخل الأجنبي ضد مصر في ٣١ أكتوبر ، حيث أخذت جموع طلاب المدرسة الثانوية والصناعية مع غيرهم من الشباب في التجمهر حول الوكالة السياسية والمستشارية البريطانية واستراحة شركة الخطوط الجوية البريطانية مرددين هتافات معادية للغرب ، وبمرور الوقت كانت اعداد المتظاهرين في تزايد مما أدى إلى انقطاع الطريق الموصل بين المنامة والمحرق وظل الحال كذلك حتى منتصف الليل مما دفع قوات الشرطة لإرسال عرباتها لمواجهة المتظاهرين ، والعمل على مكافحة أعمال الشغب وحماية العائلات الأوروبية وبالاخص الامريكية والبريطانية ، التي كان أفرادها يعملون في شركة الخطوط الجوية البريطانية وطيران الخليج والقوات الجوية البريطانية ، وذلك بالعمل على ترحيلهم من مساكنهم التي يسكنونها في ضواحي مدينة المنامه ، اذ كان من الصعب السيطرة على المتظاهرين ، وبالفعل تم تنفيذ الخطة التي سبق ان وضعتها الوكالة البريطانية لترحيل العائلات عن المنامه قبل ان يمتد الموقف المعادي الى مدينة عوالي حيث وافقت شركة نفط البحرين

على استضافة هذه العائلات حيث بذل متطوعوها جهدا كبيرا لانجاح خطة الترحيل وفي وقت قياسي(٥) .

ويبدو لنا من وحي خطة ترحيل العائلات التي وضعتها الوكالة البريطانية ، أن الأجهزة البريطانية السياسية العاملة في البحرين كانت على علم بمدى تغلغل الدعوة الناصرية وتوجهاتها في الشارع البحريني ولذلك أعدت العدة لأي طارىء يتولد نتيجة أية خطوة مضادة تتخذ ضد قيادتها .

وانسجاما مع الوضع الناشيء ، قامت لجنة هيئة الاتحاد الوطني بإصدار منشورها رقم (٧٧)(★) الذي دعت فيه المواطنين الى القيام بإضراب عام وشامل واستمراره الى أشعار آخر تعبيراً عن الرغبة الشعبية العارمة في مد يد العون لأخوانهم أبناء مصر الخالدة ، محملة بريطانيا مسؤولية ما سيحدث من تطورات من جراء عدوانها على الشعب المصري وفي الوقت ذاته طالب أعضاء الهيئة ، الحكومة البحرينية بالسماح لهم بتنظيم مسيرة منظمة في نفس اليوم الذي دعي فيه للأضراب .

وقد تمت المسيرة بشكل طبيعي في صباح اليوم المذكور ، وكانت الأمور هادئة ولم تتعرض الأعداد القليلة من الأوربيين الذين اتجهوا الى مكاتبهم لأية متاعب ، غير أن وقوع مظاهرة في أعقاب المسيرة اربكت الوضع حيث خرجت عن نطاقها عندما اندفعت مجموعات من الشباب يقدر عددها بالمئات الى محاصرة الوكالة البريطانية ودار المستشارية وشركة الخطوط البريطانية محاولة الحاق الضرر بها ، الا ان وصول قوات شرطة إضافية لحمايتها حالت دون ذلك ، اذ نجحت في صد تلك المحاولات وتفريق المجموعات المندفعة رغم تكرار محاولات الهجوم ، غير أن الأمر لم يتوقف عند ذلك ، فبحلول الساعة الثانية بعد الظهر وردت الأنباء عن توجه المتظاهرين نحو الشرق حول شارع الحكومة حيث اشعلوا النار في عدة شركات ومكاتب أجنبية ، محاولين حرق أحدى محطات النفط في وسط السوق ، كما قاموا بقذف بعض المحلات التجارية والشركات الأجنبية بالحجارة بعد ان عجزت قوات الشرطة عن إزالة الحواجز التي وضعها المتظاهرون في الشارع المسمى بشارع البحر المؤدى الى المطار ، وبالاضافة الى ذلك فقد تعرضت بحسب قول الوثائق البريطانية شقق شركة الخطوط الجوية البريطانية للسلب والحرق .

---

5) Political Diaries of Persian Gulf Vol 20 1955-1958 Archive Editions 1990 P 233

★ قامت الهيئة المذكورة منذ ولادتها في أكتوبر ١٩٥٤ الى ان قضى عليها في نوفمبر ١٩٥٦ باصدار ثمانية وسبعين بياناً عالجت فيها شؤون الساعة . لمعرفة المزيد عن تلك البيانات يمكن الرجوع إلى عبد الرحمن الباكر . من البحرين الى المنفى (سانت هيلانه) بيروت ، دار مكتبة الجهاد ، ١٩٦٥

وفي ضوء أحداث يوم ٢ نوفمبر اجتمع في صباح اليوم التالي عدد من رؤساء الشركات البريطانية في المنامة داخل الوكالة البريطانية للتعبير عن مخاوفهم من ان السلطة الحكومية عاجزة عن حماية ممتلكاتهم بدليل ما حدث في شقق شركة الخطوط الجوية البريطانية في المحرق ، ولبعض الشركات والمكاتب في المنامة ، وبخاصة وان هذه الشركات لا توجد بها قوات حراسة ، واتفق الحاضرون على انه لو تفاقم الوضع أكثر من ذلك فلابد من الاستعانة بالقوات البريطانية على الفور .

وقد كان الوضع مستقراً قبيل الساعة التاسعة صباح ذات اليوم إذ كانت الشوارع هادئة والأمن مستتباً فيها مما دفع بعض الموظفين الأجانب إلى الذهاب الى أعمالهم ومن بينهم بعض الكتبة من أبناء البحرين ، ولكن سرعان ما بدأ التوتر من جديد قبيل الظهيرة ، وكان من أبرز علاماته ان اشتعلت النيران في أربعة مبان لشركات بريطانية وادارة الاشغال العامة على طريق المحرق حيث التهمت النيران الطابق العلوي ، وكذلك جرى تحطيم قوارب وماكينات احدى الشركات البريطانية ، كما تعرضت مكاتب صحيفة الخليج وهي صحيفة بريطانية ، بالاضافة الى تعرض الكنيسة لعدوان كبير على حد قول الوكالة البريطانية ، وقد استخدم بعض المشاركين في المظاهرة في تلك الأعمال قنابل المولوتوف التي لم تستخدم من قبل في البحرين .

ونتيجة لذلك بدأت القوات البريطانية في الساعة الحادية عشر والنصف بالتمركز في شارع عيسى بناء على طلب الحكومة البحرينية ، فارضة حظر التجول بدءاً من الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، عاملة في الوقت ذاته على ازالة الحواجز والاحجار عن طريق المحرق البحري مما نتج عنه إنسياب المرور فيه من جديد . وقد تولد شعور بالثقة لدى الأجانب عند وصول أول طلائع قوات المشاه الملكية البريطانية .

ونتيجة لانتشار القوات المذكورة في الشوارع وتمركزها حول بعض الشركات والمكاتب الأوروبية شهد الوضع الداخلي تحسناً نسبياً . وتم رفع حظر التجول من الساعة الثامنة صباحاً حتى العاشرة قبيل الظهر يوم ٤ نوفمبر من أجل توفير وقت ملائم للتحرك حول مدينة المنامة ، ولتسيير المواصلات من المحرق لاحضار تعزيزات اضافية وكافية لحماية العاملين في الشركات المنعزلة في منطقة المطار[٦] .

---

6) Political Diaries, OP. cit., P. 235

ويعود طلب الحكومة البحرينية نزول القوات البريطانية الى اتفاق مسبق بينها وبين المقيم السياسي البريطاني في البحرين نص على انه في حالة عجز قواتها عن السيطرة على الأوضاع فإنها سوف تقوم بإستدعاء القوات البريطانية من أجل اعادة الأمور الى ما كانت عليه .

وكان مبعث الطلب المسبق لنزول تلك القوات بحسب ما أورده المقيم السياسي الآتي :

أولا : انه كان هناك انطباع لدى الأوساط الشعبية بأنهم ـ أي البريطانيين ـ ومعهم الفرنسيين قد شجعوا الهجوم الاسرائيلي حتى يكون لهم مبرر لاعادة احتلال القناة .

ثانيا : انه كان هناك انتقاد لموقفهم الذي تم بالتعاون مع الفرنسيين الذين يأتون في المرتبة الثانية من الكراهية بعد اسرائيل .

ثالثا : ظهور تعليقات من أشخاص حكماء تقول إن معظم الجماهير العربية تقف مع عبد الناصر سواء كان على حق أو على باطل ، وإنهم اذا هاجموا مصر في الظروف الراهنة سوف يكون العالم العربي كله ضدهم(٧) .

فبناء على ذلك سارع المقيم السياسي الى تنبيه الحكومة البحرينية على ضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة ، وفي حالة عدم نجاحها فلابد من طلب القوات البريطانية ادراكاً منه على ما يبدو لنا لصعوبة الموقف الذي هم فيه .

والجدير بالاشارة انه على الرغم من سيطرة القوات البريطانية على الوضع الا ان بعض المجموعات استغلت فترة رفع حظر التجول فقامت بمظاهرة على طريق البحر بالمحرق قاذفة الحجارة على بعض المصالح الأجنبية مما حدا برجال الشرطة إلى استخدام الغاز المسيل للدموع واطلاق الرصاص لتفريق المتظاهرين ، وعدم رفع حظر التجول في المساء ، ولذا شهد مساء ذلك اليوم هدوءاً تاماً بإستثناء توزيع منشور جديد أصدرته لجنة هيئة الاتحاد الوطني رقم (٧٨) كان فحواه على شكل قرارات اتخذت من قبل الهيئة المذكورة تدعو الى :

أولا : مقاطعة السلع الانجليزية والفرنسية .

ثانيا : الامتناع عن شحن أو تفريغ السفن التابعة للدولتين .

ثالثا : عدم تموين الطائرات التابعة لهما .

رابعا : عدم تموين القوات البريطانية بالطعام والمؤن المختلفة وانسحاب الموظفين والعمال من خدمة تلك القوات .

---

7) F.O. 371 120567, Tel. No 971, From P.R. in Bahrain To F.O. in London, October 31. 1956

وتضمن المنشور أيضاً احتجاجاً على إلقاء القبض على ابراهيم فخرو أحد أعضاء الهيئة الوطنية(٨) .

ونتيجة لصدور ذلك المنشور وتفادياً من تأزم الموقف بسببه ، بدأت السلطات المحلية بفرض غرامة مالية على مخالفي حظر التجول ، منشئة من أجل ذلك محاكم خاصة الحقت بمقر رئاسة الشرطة ، ومع ذلك تعرض الحظر للخرق ، ولكن على نطاق ضيق وطبقت على مخترقيه غرامة حظر التجول وبخلاف ذلك قامت السلطات المحلية بإصدار قرار آخر يمنع تجمع أكثر من عشرة أفراد معاً كإجراء احترازي كما يبدو لنا عندما قامت تلك السلطات بالاعلان :

أولا : بأنها قامت بالقبض على الأعضاء البارزين لهيئة الاتحاد الوطني وهم عبد الرحمن الباكر وعبد العزيز الشملان وعبد العلي عليوان وابراهيم موسى★ موجهة إليهم عدة تهم كالتآمر على قتل الحاكم وقلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة وتدمير قصر الحاكم والمطار .

ثانيا : حل هيئة الاتحاد الوطني(٩) .

مبررة سبب الحل بحسب ادعائها بفشل الهيئة في الوفاء بالالتزامات التي تعهدت بها عند الاعداد لمسيرة الجمعة ـ ١ نوفمبر ـ وللتخريب الذي نجم عن ذلك ، وفي المساء اذاع الحاكم ـ شيخ البحرين ـ بياناً ندد فيه بهيئة الاتحاد الوطني لعدم نجاحها في التعاون مع الحكومة لتهديدها لكل مواطن يريد التعامل مع الحكومة ، مؤكداً على ضرورة ايجاد هيئة مسؤولة لتمثيل مصالح الشعب والتعاون مع الحكومة داعياً مواطنيه في نهاية البيان إلى وجوب عودتهم لأعمالهم .

واستجابة لنداء الحاكم من أجل عودة المواطنين لأعمالهم ، رفع حظر التجول عن الفترة الصباحية حتى الخامسة مساءً ، ففتحت المكاتب والشركات الأوربية أبوابها واقبل بعض الموظفين البحرينيين على العمل ، وفتحت الأسواق أيضاً وان بقيت الحوانيت الكبرى مغلقة أبوابها وذلك بسبب الشائعات عن وقوع مزيد من الاضطرابات ، حيث كان بعض التجار غير مستعدين للمخاطرة ببضائعهم ما لم تتواجد قوات شرطة كافية في السوق .

---

8 F O 371 126871 Monthly Diary Nouvember 1956 Britsh Residency BAHRAIN. January 10 1957

★ لمعرفة المزيد حول كيفية القاء القبض على الأشخاص المذكورين يمكن الرجوع الى عبد الرحمن الباكر : المرجع السابق .

9) F O 371 12549. manthly Diary. December 1956, Britsh Residency, Bahrain. January 25.1957

وفي ٨ نوفمبر ، ولهدوء الأحوال فتحت المزيد من الحوانيت أبوابها ، واعلنت الحكومة انتهاء الاضطرابات وعودة الموظفين إلى أعمالهم بحيث عادت الحياة في ١٠ نوفمبر بشكل ما يشبه الوضع الطبيعي مع عودة غالبية الأوربيين من عوالي(★) وهي المنطقة التي تحصنوا فيها خلال تلك الاضطرابات الى المنامة من جديد(١٠) .

مما سبق يمكن القول إن ردود الفعل تلك والتي أخذت في بعض أطوارها طابع العنف تكشف لنا عن مدى تعلق الشارع البحريني بالثورة الناصرية وتوجهاتها ، كما قدمت لنا في الوقت ذاته مؤشرات تعطينا تفسيراً صادقاً عما كان يكنه ذلك الشارع من حقد دفين ضد الوجود البريطاني في بلاده ، وقد وجد في العدوان البريطاني على مصر فرصة من الفرص للتعبير عن ذلك الحقد ورفضه الشديد لكل أشكال تواجده .

ثانيا : الكويت :

تواردت إليها أنباء العدوان الثلاثي في نفس اليوم الذي تواردت إلى البحرين ، فكان لها صدى عميق واثارت مشاعر الكراهية بشكل ملحوظ ضد البريطانيين وبخاصة في أوساط الفلسطينيين والمصريين وغيرهم من المواطنين العرب الذين كانوا يعملون في الكويت ، وبالرغم من انه لم يظهر رد فعل شعبي فوري ، فإن الوكيل السياسي ذكر حاكم الكويت بمسؤولياته وواجبه نحو حماية الأجانب المقيمين في الكويت والحفاظ على حياتهم وممتلكاتهم ، فأكد له الحاكم إنه يدرك جيداً ما يحدث داخل البلاد ، ووعده بانه لن تقع أية متاعب .

غير انه مع كل التأكيدات والضمانات التي قدمها الحاكم للوكيل السياسي الا ان الأخير كزيادة في الحرص ، التقى مرة أخرى بحاكم الكويت وبالشخصين المسؤولين عن ادارة الأمن العام وادارة الشرطة ، فأكد له الجميع مرة أخرى سيطرتهم على الموقف وإستتباب الأمن في بلدهم(١١) ويمكن تفسير شدة حرص الوكيل السياسي في الحصول على تلك الضمانات والتأكيدات من السلطة فيما يبدو لنا بالآتي :

★ يعود تحصن الاوربيين في منطقة عوالي لكونها منطقة خاصة لشركة بابكو البحرينية ويبدو انها كانت منطقة مغلقة بحيث لا يستطيع أحد الدخول فيها الا بتصريح خاص .

(10) F.O. 371/12549. BAHRAIN monthly INTELLIGENCE Sumerly, November 1956

(11) F.O. 371/120551. Confidential Annex To kuwait Diary No - 8 covering THe Period July 31-August 26 1956

أولا : ادراكه لتصاعد تعاطف الرأي العام في الكويت مع عبد الناصر نظراً لوقوفه موقفاً قوياً ضد الغرب ، وكانت لديه شواهد على ذلك يمكن ذكر واحد منها على سبيل المثال وهو استجابة الكويتيين لنداء عبد الناصر عندما دعا البلاد العربية الى الاضراب احتجاجاً على مؤتمر قناة السويس في لندن ، حيث تجمع حوالي ٤٠٠٠ شخص مساء يوم ١٤ أغسطس ١٩٥٦ في النادي الثقافي الوطني ، القيت خلال ذلك التجمع خطب تمجد عبد الناصر وتطالب بالاضراب في اليوم التالي وهو اليوم الذي حدده عبد الناصر للاضراب(١٢) .

ثانيا : ما ساد الكويت في يوم ٢٨ أكتوبر من جو مشوب بالحنق والغضب احتجاجاً على اعتقال فرنسا لخمسة جزائريين ، اذ شهدت الكويت في ذلك اليوم بطوله اضراباً عاماً حيث ظلت المحلات التجارية والاسواق والمكاتب مغلقة فيه ، بالاضافة الى عقد اجتماع في مساء اليوم نفسه في قاعة مدرسة الشويخ الثانوية تحت اشراف ادارة التعليم بالتعاون مع الاندية الكويتية ، حضره أكثر من ٤٠٠٠ شخص من مختلف المستويات والجنسيات بما فيهم بعض أفراد الأسرة الحاكمة ، وعلى رأسهم الحاكم بالانابة عبد الله بن مبارك الصباح . ولقد القيت عدة خطب كان من بينها خطبة الدكتور أحمد الخطيب الذي كان يعتبر من أبرز الشخصيات الشعبية في الكويت ، اذ وصفت خطبته بإنها كانت نارية وصفق له الحاضرون كثيراً عندما أشار الى ضرورة استخدام الأموال الكويتية المجمدة في دعم القضايا العربية ، وانتهى الاجتماع بدعوة الجمهور الى التبرع للثورة الجزائرية ، وبعد ذلك تجمع عدد محدود من الجمهور في موكب سار في الشارع العام بإتجاه المدينة وكانوا يرددون الهتافات التي تطالب بدعم الجزائر .

والجدير بالتنويه ان مشاركة الحاكم بالانابة في الاجتماع المذكور قد فسرت من ناحيتين :

الناحية الأولى : رحب بها كبادرة لتلاحم الكويت مع الدول العربية الأخرى وهو ما كانت تتعاطف معه العائلة الحاكمة .

12) Loc cit.

أما الناحية الأخرى : فقد فسرها البعض بضعف الحكومة في مواجهة المد المتزايد لتيار القومية(١٣) .

وقد ظهر أول رد فعلي من جراء العدوان الثلاثي على مصر في ٢ نوفمبر من جانب لجنة الاندية(★) التي كثيرا ما كانت تتبنى في ذلك الوقت الدفاع عن القضايا الداخلية في الكويت نفسها والخارجية ذات الصلة بالقضايا العربية ، إذ وزعت منشوراً ادانت فيه التصرف البريطاني ضد مصر ، ودعت إلى اضراب واجتماع جماهيري في يوم ٣ نوفمبر .

إلا أن الشرطة اذاعت بياناً للجماهير عند الظهيرة تؤكد فيه عدم السماح بتنظيم أية مظاهرات أو حدوث أية اضطرابات ، فبناء على ذلك بقى الوضع على ما هو عليه إلى اليوم التالي حيث ظلت أغلبية المتاجر فاتحة أبوابها الى ان تم عقد اجتماع جماهيري غاضب في مسجد السوق الرئيسي ، فأخذت المتاجر في أغلاق أبوابها تدريجياً ، وأخذت قوات الأمن العام والشرطة في الاشتباك مع الجماهير لتفريقها ، واستمر ذلك نحو ساعتين في قلب المدينة واسفر الاشتباك عن إصابة رأس اثنين من المتظاهرين ، ولم تكن هناك حاجة للخوض في المزيد من العنف ، فقد تمت السيطرة على الموقف بإستثناء مظاهرة أو اثنتين استمرتا بعض الوقت قذفت خلالها الحجارة على دار الوكيل السياسي البريطاني ، واستطاع أحد أفراد العائلة الحاكمة وهو الشيخ مبارك بن عبد الله الأحمد السيطرة على الموقف بفاعلية(١٤) .

وفي محاولة من قبل لجنة الأندية في استثمار النجاح المحدود الذي حققته في اليوم السابق عندما استجابت الجماهير لدعوتها ، أصدرت منشوراً جديداً تحض فيه على استمرار الاضراب ، وبالفعل استجابت لذلك أغلب الجماهير والمدارس نظراً لسيطرة العناصر الموالية لمصر والاصلاحية على ادارة التعليم .

---

13) F O 371/120555. Eyewitness Report Of The strike and Meeting Held in Kuwait on October-28-1956 in Protest A Gainst The French Action in Arresting Five ALGERIAN Leaders.

★ الاندية المذكورة كانت ممثلة في نادي المعلمين والخريجين والنادي الثقافي القومي وقد اغلقت في أواخر الخمسينات من قبل الحكومة نظراً لتعرضها في مناقشاتها واجتماعاتها لمسائل كان يعتبرها المسؤولون خارجة عن قوانينها .

14) F O 371 120549. Confidential Annex To Kuwait Diary No 11 Covering The Period October 28 To November 18 1956

وفي نهاية اليوم ذاته ناشدت اللجنة الجماهير التي استجابت لدعوتها لانهاء هذه الاضرابات مؤكدة استمرار الحملة بالأساليب السلمية أوضحتها في نشرة لاحقة تضمنت في جملتها الآتي :

أولا : تنظيم المظاهرات مستقبلاً واعداد المزيد لها .

ثانيا : مقاطعة البضائع والسفن والطائرات البريطانية والفرنسية .

ثالثا : تجنيد متطوعين لخوض الحرب مع مصر .

رابعا : جمع الأموال وتقديمها لمصر(١٥) .

وتأكيدا لما جاء في المنشور الأخير ، فقد تقدم ممثلو الأندية وادارة التعليم بمجموعة من المطالب للحاكم والشيوخ المسؤولين الآخرين كانت على النحو التالي :

١ ـ جمع التبرعات لمصر .

٢ ـ فتح باب التطوع للقتال مع المصريين .

٣ ـ الغاء عقود الشركات البريطانية .

٤ ـ مقاطعة السلع البريطانية والفرنسية وسحبها من السوق .

٥ ـ طرد كل البريطانيين العاملين في الحكومة والشركات الكويتية .

وقد قبل الحاكم المطلبين الأولين ، الا انه رفض بقية المطالب متذرعاً بأن التجار يمكنهم اختيار السلع من أية دولة يريدونها والمستهلكين احرار فيما يشترون(١٦) .

ظل الجو العام يومي ٥ و٦ نوفمبر متوتراً وان كان هادئاً ، فقد كانت الشوارع وجدران المنازل مغمورة بلافتات تحض على مقاطعة السلع البريطانية والفرنسية وعدم التعامل مع رعايا الدولتين وتحث على التبرع لاخوانهم المصريين الابطال ، وبالقرب من دار المندوب السياسي البريطاني كتبت باللغة الانجليزية على جدران المنازل عبارة «الموت للاعداء» .

ونتيجة لظهور تلك اللافتات في الشوارع بدأ التوتر في التزايد رغم الهدوء النسبي ضد البريطانيين في شوارع الكويت حيث انصبت عليهم النظرات الغاضبة من قبل فئات الشعب الكويتي . وفي الوقت ذاته سعت لجنة الاندية وبتشجيع من ادارة التعليم وبخاصة من مديرها عبد العزيز حسين ، وبدعم من مدير ادارة الشرطة المقدم جاسم القطامي في العمل على تنفيذ المطالب الأخيرة التي قدمت للحاكم .

---

15) F O 371-120557 Tel. No. 304 From P A. Kuwait To F o , London. November 4,1956

16) F O 371 120567 Tel No 310 From P A Kuwait To F O London November 7 1956

وفي سعي آخـر لاتخـاذ اجراءات مناهضة للدول المعتدية استطاعت لجنة الاندية إقناع خمسين من كبار التجار في المدينة بعقد اجتماع يوم ٨ نوفمبر لبحث فرض المزيد من اجراءات المقـاطعة ، وسبق ذلك عقد اجتماع مع الوكلاء التجاريين للمطالبة بعدم عرض نماذج للسلع البر يطانية والفرنسية في الأسواق ، وبقطع العلاقات مع الشركات حاملة جنسيتي الدولتين ، وبوضع السلع التي سبق التعاقد عليها لاستيرادها منها في القائمة السوداء ، والأكثر من ذلك اعداد سجل بأسماء الوكلاء المخالفين لهذه المطالب بغية وضع أسمائهم في القائمة السوداء حتى لا يتعامل التجار معهم مستقبلاً .

وتلافياً لتعقد الأمور حسب إعتقادنا مع لجنة الاندية وخوفاً من اتهامهم بعدم التعاون قرر التجار تشكيل لجنة مصغرة تتكون من ستة عشر عضواً ، لبحث الوسائل اللازمة لمواجهة الموقف حيث أشار التجار من خلالها بصراحة انهم سيتعرضون لخسائر فادحة اذا نفذوا المقاطعة ، كما ان تخليهم عن الوكالات التجارية لسلع الدولتين مسألة ضارة جداً بالاقتصاد الوطني لإن الدول الأخرى المجاورة والمنافسة للكويت ستحصل على هذه التوكيلات ، ومع ذلك فقد أبدوا رغبتهم في ايجاد حلول توفيقية تتمشى مع قرارات لجنة الأندية .

والجدير بالاشارة انه على الرغم من مطالب لجنة الأندية الجدية وتأكيدها على عدم التعامل مع البر يطانيين ، فقد ظلت الائتمانات المالية مفتوحة بين الكويت وبر يطانيا ، بالاضافة الى ذلك فإن العقـود البـر يـطانيـة مع الادارات الحكومية لم تلغ بإستثناء ادارة التعليم التي قررت عدم الاستمـرار في تنفيذ عقود الموردين البر يطانيين ، كذلك رفضت أغلب الحوانيت سواء أكانت عربية أم هندية التعامل مع البر يطانيين ، الا ان بعض التجار رحبوا بتوصيل السلع لزبائنهم البر يطانيين واستمروا في التعامل بحرية مع خدمهم .

وقد بدأت موجة الغضب الشعبي في التراخي مع وقف اطلاق النار في مصر ، وكان أبرز دليل على ذلك هو الغاء العمل في مشروع التطوع بعد ان تطوع ما بين ١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ شخص تولى صندوق مصر الانفاق عليهم(١٧) .

مما سبق يمكن القول إن رد الفعل الشعبي في الكويت قد اتخذ طابع تنظيم وسائل مناهضة ذات فاعلية في التأثير على مصالح الدول المعتدية في المستقبل القريب أكثر من طابع المظاهرات والاضطرابات كما في حالة البحرين

---

17) Political Diaries Of The Persian Guf OP. Cit., P P. 237-241.

ثالثا : قطر :

كان وصول أنباء العدوان الثلاثي إليها في الوقت نفسه الذي وصلت فيه إلى بقية الامارات المجاورة ، ولذلك فبمجرد وصول تلك الأنباء سارع المندوب السياسي البريطاني في نفس اليوم لابلاغ الشيخ أحمد ابن الحاكم بها حدث طالباً منه ضمانات مؤكدة بأنه ووالده سيفعلان كل ما هو ممكن للحفاظ على سلامة الأجانب وحماية ممتلكاتهم ، فما كان من الشيخ أحمد الا ان أكد له نيابة عن والده الذي كان آنذاك متواجداً في الريان تحقيق ذلك ، كما تحدث المندوب السياسي وفي اليوم ذاته أيضاً مع المستشار وقائد الشرطة اللذين كان من رعايا بريطانيا ، ومديري شركة نفط قطر وشركة شل لاتخاذ الاحتياطات اللازمة تجاه أي طاريء .

وتأسيسا على ذلك ، فقد بدأت قوات الأمن منذ الساعة الخامسة صباح اليوم التالي بالانتشار حول المنشآت الحيوية والوكالة البريطانية ، ورغمًا عن ذلك وزيادة في الحرص قام المندوب السياسي بالتحدث مع الحاكم نفسه في اليوم ذاته ، حيث ابدى الحاكم الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني ، خلال ذلك امتعاضه الشديد من التصرفات البريطانية مشيراً الى انه لا يصدق بأن حكومة صاحبة الجلالة قد فعلت ما تذيعه الاذاعات ملوحاً له بإنه لن يكون هناك شيء مستحيل في المستقبل ، في اشارة منه فيها يبدو انه لا يستطيع كبح جماح شعبه أزاء ذلك العدوان ، ذاكراً ان العرب مثل المصريين تماماً ، والعرب متفقون في كراهيتهم لليهود منوهاً بأن الحكومة البريطانية بعدوانها تعمل ضد المعاهدات والمواثيق الدولية ، ومع ذلك وعد ببذل أقصى جهده للحفاظ على الأمن والسلام في قطر ، وانه اذا ساءت الأمور وخرجت عن نطاق سيطرته فسوف يطلب المساعدة في أي وقت(١٨) .

وقد تمثلت أولى علامات عدم الرضا في الأوساط الشعبية في اغلاق السوق الكبير وقطع أنابيب النفط على بعد ١١ ميلاً شرق منطقة أم باب حيث قام سائق بلدوزر قطري بعمل ذلك ، ويمثل هذا العمل بحسب اعتقادنا أول عملية تخريب لخطوط الانابيب في المنطقة ويأتي في المرتبة الثانية بعد عملية تدمير خطوط أنابيب التابلاين الذي قام به العمال السوريون أثناء العدوان .

وكانت الدلائل تشير الى ان حمد عبد الله العطيه هو مدبر هذه الأعمال التخريبية ، وبالاضافة الى عملية قطع خط انابيب النفط قام العاملون من الجنسية اللبنانية عند الظهر في شركة الدرويش وشركة لوفانتين ارتيزان - **Levantine Artisan** - بالاضراب عن العمل ، وفي اليوم ذاته قامت مظاهرة قام بها طلاب المدارس رددوا خلالها الهتفات المعادية لدول العدوان .

---

18) F O 371 120567. Tel No 965 From. P R . Bahrain To A London. November 2, 1956

وفي صباح اليوم التالي شهدت منطقة السوق مظاهرة بدأت تتجه نحو الوكالة البريطانية يترأسها حمد العطيه وأخوه خليفة ، الا ان وصول الشيخ أحمد الى مكان المظاهرة استطاع ان يحول مسارها الى الضواحي الشرقية للمدينة وبالتالي منعها من الوصول الى مقر الوكالة ، ومع ذلك استمرت المظاهرة قرابة ساعتين[١٩] .

وفي خطوة من قبل السلطات المحلية للتقليل من الاندفاع الشعبي على ما يبدو لنا القى القبض على الاخوين حمد وخليفه العطيه على أساس انهما المحرضان للمظاهرات ويقومان بتشجيع الجماهير وتم حجزهما في منزل والدهما في الدوحة ، مع انه كان هناك اتجاه لسجنهما أو ابعادهما من البلاد[٢٠] ومن ناحية أخرى فقد سرت شائعة مفادها بأن العمال الفنيين سيدمرون المشروع الضخم في أم سعيد★ الا ان مجموعة من حرس الحاكم والضباط البريطانيين تم ارسالها من الدوحة الى أم سعيد ، ولم تجد أية متاعب هناك . وبعد الظهر قامت مجموعة من الفلسطينيين بتنظيم مظاهرة في قلب الدوحة بعد اعلان سقوط غزة ، وللمرة الثانية استطاع الشيخ أحمد تفريقها مع مجموعة أخرى كانت توقف السيارات وتردد الشعارات المعادية .

وفي ٣ نوفمبر أعلن عن اضراب عام ، وان كان العمل في أم سعيد ودخان قد سار بشكل طبيعي نظراً لوجود عمالة غير عربية في هذه المشروعات الحيوية . والغريب في الأمر انه على الرغم من ان المدرسين عادة يقودون عملية اثارة المشاعر الوطنية الا انهم لم يلعبوا دوراً بارزاً في تهييج الرأي العام القطري .

وفي تطور آخر وكنوع من ابداء عدم الرضا من قبل الحكومة القطرية تجاه العدوان الثلاثي على مصر رفض الحاكم السماح بتصدير النفط القطري الخام الى البحرين ، وفي الوقت ذاته قام ٢٠٠ شخص بتقديم اسمائهم للتطوع معلنين عن رغبتهم في التطوع للقتال بجانب المصريين وكان من بينهم بعض رجال الشرطة .

والجدير بالاشارة انه على الرغم من تزايد الغضب يوماً بعد يوم ضد بريطانيا سواء على مستوى الحاكم أو الشعب الا ان ذلك لم يمنع الحاكم وابنه من بذل أقصى جهد لحماية الأمن في قطر لدرجة ان الحاكم انفق مبالغ طائلة لاغراء الناس بإلتزام الهدوء بحسب ادعاء احدى الوثائق البريطانية .

---

19) Political Diaries Of The Persian Gulf. OP cit. P P 241-243

20) Records Of Qatar. Primary Documents 1820 1960. vol 7 1949-1960 Archive Edotions. 1991. P P 447-448

★ ميناء تصدير النفط والمصفاة

والسؤال لماذا اتخذ حاكم قطر موقفاً حازماً ومتشدداً ضد المظاهرات المعادية لبريطانيا بالرغم من عدم تعاطفه معها ؟

وقد فسرت الوثائق والمصادر البريطانية ذلك الموقف كالآتي :

أولا : ان أحداث البحرين قد أعطته مؤشراً انه عندما يتساهل الحاكم مع الاضطرابات الشعبية فإن الأمور تخرج عن سيطرته .

ثانيا : اقتناعه بأن حياة شعبه تتوقف على التدفق المستمر للنفط لكون بلاده فقيرة من الناحية الزراعية والصناعية[٢١] .

هذا وقد بدأت الأوضاع تستقر بعد اعلان وقف اطلاق النار وبالتالي عودة الحياة كسابق عهدها .

رابعا : الامارات المتصالحة(★) :

كان الموقف فيها متوتراً وبصفة عامة في امارتي دبي والشارقة ، وظهر رد الفعل فيهما بعدما حدث في البحرين وقطر من أحداث بعدة أيام ولقد تعاون كل من الشيخ راشد بن سعيد حاكم دبي والشيخ صقر القاسمي حاكم الشارقة مع الوكالة البريطانية لضمان الحفاظ على الأمن العام .

وقد التقى في ٣ نوفمبر الشيخ راشد بأعيان دبي ووجهائها حيث أعلن أمامهم انه لن يسمح بأية مظاهرات أو أي حديث معاد لبريطانيا ، بينما هدد الشيخ صقر بإعتقال المعلمين المصريين والأردنيين .

ومع ذلك حدث اضراب عام ومظاهرات في يومي ٥ و٦ نوفمبر في دبي وقد اتخذت على وجه السرعة التدابير اللازمة والمناسبة ، فأحاطت فرق كشفية «كشافة عمان **Lavy - Oman Group** -(★)بدار الوكالة البريطانية وانتشرت دوريات الشرطة في مختلف ارجاء المدينة وبخاصة في الأماكن التي ينتظر ان تقع فيها المتاعب والشغب ، الا ان شيئاً لم يحدث في الواقع بإستثناء اشعال النار في كراج منزل مساعد الوكيل السياسي والتي أخمدتها قوات الحراسة وبعض أفراد الشعب مما قلل من حجم الخسائر كثيراً .

★ دولة الامارات العربية المتحدة حالياً .

★ هذه الفرق قامت بانشائها السلطات البريطانية في الامارات المتصالحة وكانت بمثابة قوات جيش محلية رادعة وكان يقودها بريطاني .

21) Loc Cit

أمـا في الشـارقـة فقـد تجمع طلاب المدارس محاولين إحراق المنشآت العامة في القاعدة الـبر يـطانيـة الجوية الموجودة في الشارقة مرددين شعارات معادية لبر يطانيا ، مما دفع بالمندوب السياسي البر يطاني الى تحذير مدير المدرسة بأنه سيكون مسؤولاً عن تصرفات طلابه وخاصة وان بعض المعلمين كانوا يحرضون الطلاب بالفعل ، فهدأت الأحوال بعد ذلك باستثناء تجمهر بعض الـطلاب مرددين هتـافـاتهم المعـادية لبر يطانيا في وجوه الضباط البر يطانيين العاملين في جمعية الكشافة العمانية ، وحتى ٢٦ نوفمبر ظهرت ثلاث محاولات لاشعال الحريق مرة واحدة : منها على سبيل المثال محاولة احراق منزل قائد كشافة عمان ، وقد بذل حاكم الشارقة جهوداً كبيراً لتتبع المجرمين المسؤولين على حد قول المصادر البر يطانية عن حوادث الحريق الا ان تلك الجهود باءت بالفشل مما حدا بالحاكم ان يعلن عن مكافأة قدرها ٥٠٠ روبية لمن يقدم له اسماء المسؤولين عن تلك الحوادث .

أما في أبو ظبي فإن شيوخ آل أبو فلاح وجمهور المدن فيها كانوا مشغولين كالعادة بأمورهم الخاصة والشؤون المحلية حتى انهم كانوا لا يهتمون كثيراً بالشؤون الدولية ، ولهذا فقد رحبوا وبشكل غريب بالتدخل الثلاثي ، ويعود ترحيبهم فيما يبدو لتشككهم كثيراً في الروابط الوثيقة القائمة آنذاك بين القاهرة والرياض وخاصة فيما يتعلق بموضوع مشكلة البر يمي المحتدمة في ذلك الوقت بين كل من السعودية من جهة وأبو ظبي وعمان من جهة أخرى وتدعيم بر يطانيا لهما في ذلك وأكثر من ذلك فإن موقف المسؤولين في أبو ظبي لم يتوقف عند حد عدم الترحيب بل انهم أبلغوا المندوب السياسي انه يجب على الاسرائيليين تلقين عبد الناصر درساً قاسيا مع تمنيهم بالمضي قدماً في تنفيذ خطتهم ـ أي البر يطانيين ـ حتى تتحقق النتيجة المنطقية الا وهي القضاء على حكومة ناصر ، فإنسجاما مع ذلك الموقف لم تحدث أية أحداث شغب أو أعمال عدائية على الاطلاق[٢٢] ، ويبدو لنا ان سبب ذلك يرجع الى ان المجتمع في امارة أبو ظبي لم يكن سوى مجتمع بدوي منغلق على نفسه في ذلك الوقت ولم تكن معالم التحديث التي مست اقطار الخليج المجاورة قد اطلت بوجهها في ذلك المجتمع .

والجدير بالاشارة ان ردود الفعل بدأت بالانكماش في الامارات المتصالحة وبالذات في دبي والشارقة اللتين كانت فيهما ردود الفعل أكثر وضوحاً عن باقي الامارات المتصالحة بعد دخول وقف اطلاق النار حيز التنفيذ .

---

22) Political Diaries Of Persian Gulf. Op cit . P P 243-246

خامسا : عمان :

لم يسفر العدوان الثلاثي على مصر أي رد فعل فيها حيث كان السلطان العماني شخصياً يبدي هو وأسرته وأفراد الشعب الموالين له ، وبخاصة عرب الساحل والعاصمة انتقادات لناصر ، ويرجع هذذا الموقف أساساً الى محاولات المصريين التدخل في السياسات العمانية من خلال تشجيع المناوئين لحكومته وهم جماعة الامامة الذين كانوا في حرب دائمة مع سلطان عمان بغية الحصول على استقلال تام لعمان الداخل(٢٣) .

تلك هي أهم ردود الفعل الشعبية التي حدثت في اقطار الخليج من جراء العدوان الثلاثي والتي جاءت متفاوته من امارة لأخرى من حيث طابعها ودرجة حدتها .

ومن الأهمية بمكان ان نجيب على السؤالين التاليين قبل ان نسدل الستار على الموضوع :

أولها : هل كانت الأوساط البريطانية المسؤولة في المنطقة تتوقع مثل تلك ردود الفعل الشعبية في حالة قيام بريطانيا بإي اعتداء على مصر ؟

وثانيها : لماذا جاءت ردود الفعل الشعبية عنيفة الطابع في كل من البحرين والكويت بينما كانت أقل عنفاً في قطر وباقي الامارات الأخرى ؟

بالنسبة للسؤال الأول فإن الاجابة عليه تكمن في ما تكشفه لنا احدى الوثائق البريطانية الخاصة بأحداث السويس حيث أوضحت تلك الوثيقة بأنه سرت مجموعة من المخاوف في أوساط المسؤولين البريطانيين من ذوي الاطلاع على الشؤون المحلية في المنطقة بعد تأميم جمال عبد الناصر قناة السويس ووجود بوادر استخدام القوة من قبل بريطانيا ضد مصر مفادها بأن استخدام القوة من قبل الحكومة البريطانية ضد مصر سوف يزيد من متاعبهم في المنطقة بسبب :

أولا : ان عبد الناصر يعتبر بطلا في انظار جميع العرب ، وستعتبر هزيمته اذلالاً لجميع العرب الأمر الذي سيؤدي الى ازدرائهم وكراهيتهم وليس احترامهم .

ثانيا : ان موقفهم في امارات الخليج يتوقف جزئياً على معرفة امكانية تدخلهم بالقوة ومدى قبول ذلك التدخل من السكان المحليين وحتى أولئك المستفيدين من وجودهم في المنطقة مثل الحكام وأسرهم حيث سيجدون من الصعب كبح شعورهم اذ انه من المستحيل ان يشعروا بما يشعر به بقية العرب ويكونوا على علاقة وثيقة بهم ـ البريطانيين ـ في نفس الوقت .

---

23) IBID.P 246

ثالثا : اذا استمرت الاضطرابات فإنهم سيضطرون الى اجلاء رعاياهم ، وهذا من شأنه ان يؤدي الى الارتياب والى فقدان مواقعهم في الحكومات المحلية وفي قطاع التجارة ، وقد يكون من الصعب استرداد هذه المواقع مرة أخرى .

رابعا : ان أي عمل ناجح من جانبهم ضد القوات المصرية قد يبدو للعرب انه مفيد لاسرائيل ، ففلسطين هي المسألة الوحيدة التي تجلب الكراهية لسياستهم في مختلف انحاء العالم ، وسيتم أحياء ككل الشكوك السابقة التي أساسها بأن الصهيونية هي المؤثرة في سياستهم .

خامسا : في ضوء تلك التفاعلات المحتملة فإن كل امارات الخليج العربية ستفعل ما في وسعها لانهاء العلاقة الخاصة بينها وبين بريطانيا وسيشمل ذلك تعطيل الامتيازات النفطية وعليه سيضطرون الى المحافظة على مواقعهم في المنطقة بالقوة في مواجهة شعوب عدوانية ولزمن غير محدود .

سادسا : أما في حالة قبولهم للحل السلمي بالرغم من انه لا يخدم متطلباتهم سينظر إليه مؤقتاً على انهم قد فقدوا مكانتهم ولكن سيكون هناك احترام كبير لصبرهم وقدرتهم الدبلوماسية الأمر الذي سيعوضهم عن فقدانهم المكانة ، وستستمر العلاقات الطيبة مع السلطات المحلية والشعوب ، ولأسباب تتعلق بالمصالح الذاتية فلن تكون هناك محاولات جادة لانهاء مشاركتهم في موارد النفط المحلية(٢٤) .

أما بالنسبة لاجابة السؤال الثاني ، فإن تميز ردود الفعل في كل من البحرين والكويت من حيث حدة طابعها عن باقي الامارات كان راجعاً بحسب أعتقدنا الى :

أولا : ان كلتا الامارتين كانتا أسبق امارات الخليج في ذلك الوقت من ناحية الانفتاح الداخلي سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أولا بسبب زحف التيار القومي اليها . وثانيا : الى الطفرة التي حدثت فيها في المجال الاقتصادي والثقافي ، وذلك بعد تزايد تدفق النفط وعودة بعض الطلاب المبعوثين وتدفق كثير من الوافدين على منطقة الخليج هذا اذا ما استثنينا دور الصحافة فيها وما كانت تلعبه من دور في نقل التيارات الموجودة في الساحة الوطنية والعربية .

---

24) F O 371 120571. Tel No. 723. From P R . Bahrain To F.O . London, August 13. 1056. "repercussions Of The Suez canal Dispute"

ثانيا : وجود هيئات وطنية ذات طابع اصلاحي مثل هيئة الاتحاد الوطني البحريني ولجنة الاندية في الكويت والتي كان لها بلا شك دور كبير في تعميق الحس الوطني لدى الجماهير وتعبئتها عن طريق منظريها بالاضافة الى لعبها دور الجماعات الضاغطة في مجتمع كل منهما ، مما جعل حكومتيهما تضع مطالبها في الاعتبار الى حد ما .

ثالثا : وجود طبقة عمالية أكثر تسييساً من الامارات الأخرى حيث كانت توجد في تلك الفترة وبالأخص في البحرين نواة لاتحاد عمالي نظراً لوجود طبقة عمالية كبيرة من المواطنين لعبت دوراً كبيراً في الأحداث الوطنية الداخلية بالاضافة الى مساهمتها في الوقوف إلى جانب القضايا العربية التحررية .

تلك هي جملة الأسباب التي لعبت دوراً في أخذ ردود الفعل في البحرين والكويت طابع العنف فيما يبدو لنا بخلاف أمارات الأخرى التي لم تتوفر فيها نفس الظروف ونفس الهيئات المذكورة حيث كانت على سبيل المثال في قطر تتسم ردود الفعل فيها بالعشوائية والتي كان من أبرزها كما مر بنا قطع احد أنابيب النفط ، إلى جانب المظاهرات التي كان يتبناها أشخاص لهم ثقل اجتماعي كالآخوين حمد وخليفه العطيه ، ولكن مع هذا فإن ذلك لا ينفي بأن تأثير المد الناصري الثوري كأن قليل التغلغل والتجذر في أوساط شعوب تلك الامارات ويكفينا ان نتوقف عند المثال القطري على سبيل المثال لا الحصر لنقيس من خلاله مدى تغلغل ذلك المد فيها سواء قبل العدوان الثلاثي أو خلاله والذي يمكن تجسيده من خلال الآتي :

أولا : كانت قطر في مقدمة امارات الخليج بأكملها في جمع التبرعات لتسليح الجيش المصري(★) اذ بلغت تلك التبرعات في حدود ٩٣٠ ٤٣٥ روبية حتى يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٥٥[٢٥] وهذا التهافت الشعبي على جمع تلك التبرعات الضخمة قياساً بأيام الخمسينات كان مردها تولد قناعة لدى الشعب القطري على اعتبار الجيش المصري جيشا عربيا قبل ان يكون جيشا مصريا ودليلاً على مدى تغلغل الناصرية فيه .

ثانيا : كثرة الاضرابات التي شهدتها قطر في أوساط عمال النفط لدرجة ان ذلك دفع المدير العام لشركة نفط قطر المحدودة الى ابداء عدم ارتياحه لكثرة الاضرابات التي وقعت في مناطق

★ صفقة الأسلحة التشكيلية .

(٢٥) جريدة الوطن البحرينية ، العدد ١٦ ، ٣٠ ديسمبر ١٩٥٥ .

عمال الشركة في عام ١٩٥٥ حيث أعرب للحاكم عن ذلك الاستياء بقوله ان استمرار هذه الاضرابات وعدم التعرض للمضربين سوف يعرض مصالحه ـ الحاكم ـ ومصالح شركته للخسارة معاً(٢٦)

ثالثا : انسجاما مع شعارات عبد الناصر الثورية وايمانا بها قام الشباب القطري باطلاق اسماء ثورية على الأندية الرياضية التي قاموا بإنشائها في تلك الفترة كنادي الوحدة والنصر والعروبة والكفاح والتحرير والاحرار .

وانسجاما مع ما سبق يمكن التأكيد على ان تأثير الدعوة الناصرية كان متغلغلاً في نفوس جميع أبناء الخليج وان اختلفت أساليبهم وامكاناتهم في التعبير عن مدى تعلقهم بها .

خلاصة القول انه من خلال دراستنا هذه عايشنا واقعا عربيا تمثل في ردود الفعل التي شهدتها امارات الخليج نتيجة العدوان الثلاثي على مصر التي كانت قد خرجت عن طاعة الدول الاستعمارية والتي حاولت بدورها عن طريق استراتيجية الاجهاض ارجاعها الى فلكها مرة أخرى ولكن تصميم القيادة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر وشخصيته الكرزمية جعل الشعب المصري يتكاتف عن بكرة أبيه للدفاع عن ثورته ومنجزاتها والى جانبه الشعب العربي من المحيط الى الخليج الذي توسم في الزعيم الذي كان يقود رد العدوان صورة البطل التاريخي الذي طال انتظار ظهوره على الساحة العربية منذ أمد بعيد .

(٢٦) ابراهيم شهداد . تطور العلاقة بين شركات النفط ودول الخليج العربية منذ عقود الامتياز الأولى حتى عام ١٩٧٣ ، الدوحة، مطابع قطر الوطنية ، ١٩٨٥ ، ص ١٩٦ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع العربية :

١ ـ ابراهيم شهداد . تطور العلاقة بين شركات النفط ودول الخليج العربية منذ عقود الامتياز الأولى حتى عام ١٩٧٣ ، الدوحة ، مطابع قطر الوطنية ، ١٩٨٥ .

٢ ـ محمد الرميحي . البحرين ، مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي ، بيروت ، دار ابن خلدون ، ١٩٧٦ .

٣ ـ مصطفى عبد القادر النجار . التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج ، البصرة ، مركز دراسات الخليج بالبصرة ، ١٩٧٥ .

٤ ـ هلال الشايجي . الصحافة في الكويت والبحرين منذ نشأتها حتى عهد الاستقلال ، البحرين ، مطبوعات بانوراما الخليج ، ١٩٨٩ .

ثانيا : الدوريات العربية :

١ ـ جريدة الوطن البحرينية ، العدد ١٦ ، ٣٠ ديسمبر ١٩٥٥ .

ثالثا : المصادر والمرجع الأجنبية :

أولا : الوثائق :

- F.O. 371/120567, Tel. No. 971, From P.R. in Bahrain To F.O. in London October, 31, 1956.
- F.O. 371/126871, Monthly Diary November 1956, Britsh Residency, BAH-RAIN, January 10, 1957.
- F.O. 371/12549, manthly Diary, December 1956, Britsh Residencym Bah-rain, January 25, 1957.
- F.O. 371/120551, Confidential Annex To Kuait Diary No.-8 convering The Period July 31-August-26, 1956.
- F.O. 371/120555, Eyewitness Report of The strike and Meeting Held in Kuwait on October-28-1956 in Protest A gainst The French Action in Arrest-ing Five Algerian Leaders.
- F.O. 371/120549, Confidential Annex To Kuwait Diary No. 11 Covering The Period October 28 To November 28. 1956.
- F.O. 371/120557, Tel No. 304 From P.A. Kuwait To F.O., London, November 4, 1956.
- F.O. 371/120567, Tel. No, 310 From P.A., Kuwait To. F.O., London, November 7, 1956.
- F.P. 317/120567, Tel. No. 965 From. P.R., Bahrain To. A London, November 2, 1956.
- F.O. 371/120571, Tet. No. 723, From P.R., Bahrain To F.O., London, August 13, 1956, "Respercussions Of The Suez canal Dispute"
- Political Diaries Of Persian Gulf, Vol. 20, 1955-1958, Archive Editions, 1990.
- Recored Of Qatar, Primary Documents 1820-1960 Vol. No. 7, 1949-1960 Archive Editions, 1991.

ثانيا : الكتب والدراسات :

- Rosemarie Siad Zahlan, The Gulf States And Palestine Problem 1036-1948, Arab Studies Quaterly, Vol. 3 No. 1 Winter, 1981.

حركة الشيخ عثمان بن فودى الاصلاحية
في غرب أفريقيا واثارها الدينية

د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
بجامعتي القاهرة وقطر

تمهيد :

انتشر الدين الإسلامي في مناطق كثيرة من غرب أفريقيا ، وقامت دول إسلامية على أنقاض الإمارات الوثنية مثل دولة مالي التي ساهمت بنصيب كبير في نشر الدعوة الاسلامية خصوصا عندما ذهب ملوكها إلى أداء فريضة الحج في مكة المكرمة ، وعادوا حاملين لواء هذه الدعوة ومنهم على وجه الخصوص نذكر السلطان منسي موسى (١٣٠٧ - ١٣٣٢) والذي كان موكب حجه في عام ١٣٢٤ ومروره على مصر والبلدان الإسلامية الأخرى من أهم العوامل التي جعلته من أكبر دعاة الإسلام في غرب القارة بعد أن أمتدت دولته إلى مدينة جاو في بلاد النيجر حاليا . واخترق الصحراء الكبرى وتوغل في المنطقة الاستوائية جنوبا .[١]

وبعد انهيار دولة مالي ظهرت دولة صنغي على انقاض هذه الدولة وحمل ملوكها لواء الدعوة الإسلامية ابتداء من القرن الرابع عشر وتوسعوا أيضاً ناحية الجنوب ، وظلوا يمارسون هذا الدور حتى أواخر القرن السادس عشر عندما تعرضت هذه الدولة للغزو المراكشي من بلاد المغرب بعد الحملة التي قام بها القائد جودار باشا ، ودخل عاصمة هذه الدولة (مدينة تمبكت) وقضي على ما بقي من ملوك صنغي في عام ١٥٩١ م وذلك عندما أرسل المنصور السعدي سلطان مراكش بعد انتصاره على البرتغاليين في معركة وادي المخازن في عام ١٥٧٨ هذه الحملة الى صنغي للحصول على الذهب الذي اشتهرت به هذه الدولة . واستطاع جيش المنصور السعدي المكون من أربعة آلاف جندي أن يدخل تمبكت وينهي دور هذه الدولة الاسلامية . ولتصبح قصة الغزو المغربي أحلك حلقة من حلقات التاريخ الدامي بالنسبة للمالك الاسلامية في القارة .

لقد كان أثر هذا الغزو مدمرا حيث ساءت أحوال السودان الغربي ، وعاش الناس في عزلة اقتصادية ، وتشرد العلماء ، وتم سجن رجال الدين ، وصادر المغاربة أملاكهم ، وهرب أغلب المشتغلين بالعلم الى المشرق الاسلامي ، وعاث المغاربة فسادا في هذه المناطق الاسلامية ، وصارت طبقة الرماة المغاربة هي الطبقة الارستقراطية ، وبدأت غارات البدو من الطوارق على هذه المدن الاسلامية ، وانقسمت الدولة إلى عدد من القبائل المتنافرة ، بل والمتنافرة ، ولم تعد هناك دولة تجمع شعوب المنطقة تحت زعامة واحدة ، وعاد السكان إلى الديانات المحلية الوثنية ، وصار الدين الإسلامي غريبا بين سكان هذه المناطق ، وبالتالي اختلطت البدع والعادات الوثنية بالقيم الدينية . ولم يعرف السودان الغربي سوى السلب والسطو والنهب والحرب المستمرة ، والصراعات الدائرة على السلطة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر . وباختصار جاءت حملة المنصور السعدي إلى غرب أفريقيا تحمل معها الخراب والدمار بدلا من العلم والمعرفة ، وقطعت أواصر النسب والارتباط بين شعوب المنطقة .

ولم ينقـذ هذه المنطقة من حالة الفساد والفوضى إلا بعد ظهور جماعات الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودى الذي أعلن ثورة الجهاد الاسلامي ضد الوثنيين ، وضد الحكام المسلمين الذين عرفوا من الإسلام مظاهره ، ونسوا تطبيق الشريعة في أمور حياتهم ، وكان ظهور هذا الشيخ بداية الصحوة الإسلامية الكبرى في غرب أفريقيا ، كما كان إعلانه الجهاد الإسلامي في أوائل القرن التاسع عشر بداية مرحلة جديدة في تاريخ غرب أفريقيا ، وفي منطقة شمال نيجيريا التي كون فيها إمبراطورية الفولاني التي حملت عبء هذه الدعوة الإسلامية[٢] .

وقبل الحديث عن دعوة الشيخ عثمان وجهاده للقضاء على البدع والخرافات ، يجدر بنا أن نلقي نظرة عن شعب الفولاني الذي قاد الجهاد ، وأحوال المنطقة سياسيا واجتماعيا ، وعلاقة هذه الحركة بالدعوة السلفية الكبرى في شبه الجزيرة العربية ، وذلك حتى تكتمل صورة هذا الجهاد في غرب القارة .

من هو شعب الفولاني الذي قاد الجهاد الاسلامي ؟

لقد اختلف المؤرخون حول أصل هذا الشعب ، وانقسموا شيعا وأحزابا ، ويرى المؤرخ الفـرنسي ديبـوا (Dubois) بأنهم من الـبربـر ، وأنهم انحدروا من منطقة أدورار شمال بلاد السنغال ، وأنهم اندفعوا الى غرب أفريقيا بعد طرد المسلمين من الأندلس ، واشتغلوا بالزراعة والرعي[٣] .

ويرى عالم الأجناس البريطاني سلجمان (Seligman) أن الفولاني قد انتشروا تدريجيا في السودان الغربي وأعالي السنغال خلال امبراطورية غانا ، وأنهم شقوا طريقهم الى بلاد الهوسا في نهاية القرن الثالث عشر ، وأصبحوا قوة مسيطرة في هذه المنطقة بعد إعلان الجهاد الإسلامي في القرن التاسع عشر[٤] .

ويرى المؤرخ المصري ابراهيم طرخان أن الفولاني من مصر العليا ، وأنهم هاجروا غربا عبر ساحل شمال أفريقيا إلى المحيط الاطلنطي ، حيث استقر البعض منهم ، وواصل البعض الآخر رحلته جنوبا واختلطوا ببلاد الهوسا ، واعتنقوا الدين الإسلامي ، ولكنهم ظلوا من الرعايا المناوئين لحكام الهوسا أو غيرهم[٥] .

أما المؤرخ البريطاني فيج (Fage) فيرى أنهم نزحوا من حوض النيل وأنهم من أصل حامي وأنهم دخلوا بلاد السودان عن طريق مصر[٧] .

ويـطالعنـا مؤرخ آخـر يدعى جونستون (Johnston) بأنهم جاءوا أساسا من الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا ، وأنهم شعب شق طريقه تدريجيا حول القارة الافريقية حتى منطقة سانجامبيا في مصب نهر السنغال ، ومع مرور الزمن تحركت هذه الجماعات نحو الشرق على طول بلاد السودان الغربي[٦] .

وتتشعب الآراء ، وتختلف التفسيرات حول أصل هذا الشعب ، بل ويرى بعض المؤرخين أنهم ينتمون الى ذرية سيدنا ابراهيم واسحق عليهما السلام في الوقت الذي يعتقد الفولاني أنهم من سلالة عقبة بن نافع [٧] .

لكن مهما اختلفت الآراء ، فإن الفولاني انتشروا في كل السودان الغربي كرعاة بدو مستقلين ، وأنهم كانوا يدفعون الضرائب الى الحكام المحليين ، وأنهم اعتنقوا الدين الإسلامي منذ القرن الحادي عشر على أيدي المرابطين ، وأنهم تحمسوا للدعوة الإسلامية ونشروها في دولة غانا ، وعاشوا في ظل دولة مالي يمارسون حياتهم الخاصة ، وكانت جماعة منهم قد انتقلت الى بلاد الهوسا منذ القرن الثامن عشر ، واستقرت جماعة منهم في إمارة جوبير ، وهي الامارة التي شهدت ميلاد أكبر حركة إصلاحية في غرب أفريقيا في القرن التاسع عشر بزعامة الشيخ عثمان بن فودى .

وإذا كنا قد تحدثنا عن الشعب الفولاني الذي قاد مسيرة الجهاد في القرن التاسع عشر ، فإن الأمر يتطلب استعراضا للمنطقة التي ستكون مسرح هذا الجهاد ونواة الدولة الاسلامية الكبرى ، وبداية انطلاق حركات الإصلاح في جميع مناطق غرب القارة .

إن منطقة جهاد الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودى هي بلاد الهوسا التي تقع حالياً ضمن الجزء الشمالي من دولة نيجيريا . والهوسا ليسوا مجموعة قبلية ، بل انهم ينتمون إلى أصول جنسية مختلفة ، يتحدثون لغة مشتركة هي لغة الهوسا ، وقد ظهرت هذه الجماعة نتيجة الهجرات من شمال أفريقيا إلى السدوان الغربي ربما في القرن العاشر الميلادي ، ثم اختلط المهاجرون مع السكان المحليين ، ونتج عن ذلك ظهور مجتمع جديد اتخذ من النظام العشائري أسلوباً له في الحياة ، ولم يخضع لأي سلطة مركزية ، وقام المهاجرون ببناء المدن المسورة ، ونشأت المدينة الدولة التي سيطرت على الريف المجاور .

وفي القرن السادس عشر سيطرت أمبراطورية البرنو على هذه الدويلات التي صارت تعرف باسم دويلات الهوسا السبع وهي دورا وكانو ورانو وكاتسينا وزازو وجوبير وجارون جاباس .

ودخل الدين الإسلامي الى هذه الامارات في أوائل القرن الرابع عشر ، وقامت نظم ثابتة للحكم استمدت نصوصها وتعاليمها من الشريعة الإسلامية ، وتكونت المدينة الدولة ، وقامت صناعات على خام الحديد ، وراجت التجارة عبء الصحراء الكبرى إلى شمال أفريقيا .

ورغم انتشار الإسلام في هذه الامارات ، إلا أن الوثنية ظلت سائدة بل واختلطت البدع والخرافات مع المفاهيم والتعاليم الإسلامية ، وتبادل الحكام الوثنيون السلطة ومراكز القوة في هذه

الامارات ، وظهرت المنافسة التجارية بين إمارات الهوسا ، وكانت السلطة السياسية هي التي تحدد مصير كل إمارة لأن الصراع كان يتركز حول كيفية الوصول الى حدود آمنة وثابتة ، وبرزت قوة كل من إمارات كانو وكاتسينا وكيبي وجوبير . وفي القرن السابع عشر انهارت إمارة كيبي وبـرزت زمفـرا كأقوى الامارات في أوائل القرن الثامن عشر وبسطت نفوذها على غيرها من الامارات ، ورغم هذا فقد فشلت في تكوين دولة موحدة في تلك الفترة لأن الضعف كان قد انتاب الإمارات ، وصار الصراع طابع الحياة السياسية ، كما كان ظهور إمارة جوبير من أهم العوامل التي ساعدت على القضاء على إمارة زمفرا[٨] .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، استطاعت امارة جوبير انتزاع السيادة من إمارة زمفرا ، وتصارعت مع كل من كاتسينا وكيبي وكانو . وقد أدى هذا الصراع المستمر الى خلق جو من الانقسـام والتفكك وعدم الاستقرار . وأدى ذلك الى استنزاف موارد الامارات ، وتضييع الطاقات البشرية في هذه الصراعات ، ورغم نجاح جوبير في ضم إمارة زمفرا عام ١٧٦٤ إلا انها لم تتمكن من توحيد بقية الامارات أو تكوين دولة واحدة تشمل كل بلاد الهوسا .

في هذا الجـو الـذي تحكمـه الصراعات المحلية والمفاسد الدنيوية ، نسي الناس أصول الدين ، وتفشت البدع والعادات الوثنية ، وصار الحكام المحليون لا يعرفون كثيراً عن دينهم ، بل وتقلد السلطة بعض الوثنيين . وكانت الجماعة الوحيدة التي ظلت متمسكة بالقيم الاسلامية هي جماعـة الفـولاني التي مارس رجـالهـا أعبـاء نشر الدعوة ، وصار منهم القضاة والمدرسون والأئمة . وبذلت هذه الجماعة جهدا كبيرا لنشر الدعوة الاسلامية بين حكام يدينون بالاسلام شكلا ومظهرا ، وتصدى رجال الدين لهذه القيادات الوثنية ، وأصبح الطريق ممهدا لنشر مبادىء الدين الحنيف على أسس سليمة هو طابع الحياة في هذه المرحلة ، وكان التحدي من جانب الحكام المحليين في امارات الهوسا وخاصة في امارة جوبير الدافع الأساسي لقيام أكبر حركة جهاد شهدتها المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر .

وعنـدمـا أحس أحـد أبناء الفولاني المسلمين بما ألم بالدين على أيدي هؤلاء الحكام شبه الـوثنيين ، أعلن الجهاد في سبيل الله لاعادة الدين الاسلامي أصوله وقواعده ، وصارت أمارة جوبير هي الساحة التي انطلقت منها هذه الثورة الاسلامية ، التي غيرت مجرى حياة السكان ، وأعادت للدين الاسلامي هناك مكانة لم يحققها في القرون السابقة ، وصار الجهاد الفولاني لاخماد البدعة وأحياء السنة هو العمل الكبير الذي قام به الداعية والمجاهد عثمان بن فودى .

ويجدر بنا ان نتوقف قليلا لنستعرض سيرة هذا الزعيم الذي كان له ولحركته الاصلاحية

فضل كبير في نشر الدين الاسلامي على نطاق واسع في غرب أفريقيا ، ولازالت نيجيريا تدين حتى يومنا هذا لحركة ذلك المجاهد الذي جعلها أكبر دولة اسلامية في غرب أفريقيا .

لم يتوقف جهاد هذا الرجل عند حدود اعلان حرب على الوثنيين ، بل تعداه الى إقامة دولة اسلامية حملت لقب الخلافة الاسلامية في سوكوتو ، وظل أبناؤه يحكمون في هذه الدولة الواسعة طوال قرن من الزمان ، وكان لأحفاده شرف النضال والكفاح ضد الأوروبيين الذين جاءوا غازين لديار الاسلام والمسلمين ، فكانوا حماة الدين وشهداء العقيدة الاسلامية في غرب أفريقيا أوائل القرن العشرين .

أولا : ظهور الشيخ عثمان واعلان الدعوة الاسلامية :

لقد كان ظهور الشيخ عثمان بن فودى في امارة جوبير ، ايذانا بقيام دولة اسلامية في غرب أفريقيا . ولد هذا الشيخ في مكان يدعى مارتا في أرض جالى بامارة جوبير في ١٥ ديسمبر عام ١٧٥٤ ، واشتهر والده باسم فودير أو فودي **(Fodi)** التي تعني بلغة الفولاني «المتعلم» ، وانتقلت أسرته الى ديجل **(Degel)** حيث حفظ القرآن الكريم ، وعاش في بيئة متدينة ، وعندما بلغ مرحلة الشباب تفتح عقله وازدادت مداركه ، واندهش لحال المسلمين في تلك الجهات حيث ظهر الدين أمامه وقد شابته البدع ، واختلطت به الخرافات وعبثت به أيدي المضللين(٩) .

ولما بغ العشرين من عمره بدأ حلقات التعليم ، وسلك طريق القادريين حيث كانت الطريقة القادرية أكثر انتشاراً في غرب أفريقيا ، ويصفه أبنه بأنه نشأ عفيفا متدينا ، ذا خلال مرضيـة ، وهو عالم العلماء ورافع لواء الدين ، أحيا السنة ، وأمات البدعة ، ونشر العلوم ، وكشف الغمـوم ، وبهـر علمه العقول ، فسر القرآن سنين عديدة ، وبث العلوم فملأ القطر المغربي معارفا وتلاميذا وكان فصيحا ، فاضلا ، حسن الخلق جميل العشرة(١٠)

ونظراً لأن الحديث عن الشيخ طويل ، وحياته حافلة بالنضال والكفاح ، لانه وهب نفسه لخدمة الدين الاسلامي ، وأعلن حربا لا هوادة فيها على المشركين ، فسنحاول التركيز على دوره الجهادي والأحداث التي جعلت منه قطبا لكل أفريقيا الغربية . فبعد ان حفظ كتاب الله واهتدى بسنته ، واحتك بعلماء عصره سواء بطريق مباشر أو غير مباشر توافدت عليه جموع المسلمين ، وازداد اتباعه يوما بعد يوم . الأمر الذي أقلق مضجع أمير جوبير ، فحاول اعتراض طريقه ، بل ووافق على قيام مجتمع اسلامي في مدينة ديجل وبدون ان يتعرض للشيخ واتباعه ، لأنه أحس أن الشيخ عثمان لم يكن طامعا في ملك أو سلطان ، بل كان عاكفا على العلم والتعليم(١١) .

مات حاكم امارة جوبير وجاء من بعده حاكم آخر يدعى نافاتا (Nafata) أدرك قوة اتباع الشيخ عثمان ، وأحس بالخطر على ملكه فما كان منه إلا أن أصدر مرسوما يتضمن من الأمور ثلاثة :

أولها : عدم السماح لأي شخص باعتناق الدين الاسلامي إلا من ورثه عن أجداده .

ثانيها : لا يسمح لأحد بلبس العمامة بعد تاريخ المرسوم ، وألا تضرب امرأة بخمارها على وجهها .

ثالثها : عدم السماح لأحد بالوعظ إلا الشيخ عثمان .

واذا حللنا بنود هذا المرسوم النافاتي نجد انه حركة للحد من نشاط الشيخ وعدم السماح لدخول أناس جدد في الدعوة المحمدية ، وعودة النساء الى السفور والخروج عن تقاليد الشريعة الاسلامية ، وقصر الوعظ والارشاد على الشيخ نفسه وكل هذه الأمور تعرقل مسيرة الكفاح والجهاد ، ونشر الدعوة .

كان من الطبيعي أن يعارض فريق من اتباع الشيخ هذه الأوامر ، وخصوصاً عبد الله بن فودى الأخ الاصغر للشيخ وساعده الايمن في حركته الاصلاحية ، فقرر الوقوف بعنف ضد هذه الاجراءات مهما كلفهم ذلك من مشاق ، لكن الشيخ عثمان عارض استخدام القوة لأنه في بداية طريق طويل ، ولا يريد الدخول في صراع مع الطبقة الحاكمة حتى لا تتشتت جهوده ، وتتبدد محاولاته ، وينصرف عن هدفه الاسمي نحو إعلاء كلمة الدين ، ورفع راية الاسلام والمسلمين خفاقة بين السكان الوثنيين . وفي نفس الوقت أدرك الشيخ أن الصدام مع الحكام مؤجل الى حين ، وأن الوقت لم يحن للقضاء على اعداء الدين ، فقبل المرسوم وهو يعلم علم اليقين ان الدائرة سوف تحل على هؤلاء المشركين ، لأنه يؤمن بانتشار الدعوة الاسلامية بالطرق السليمية حتى يحين الوقت لاعلان الجهاد المسلح ضد كل من يقف في سبيل الله والدين .

كان هذا المرسوم بداية مرحلة جديدة من جهاد المسلمين في غرب أفريقيا ، حتى أن بعض المؤرخين يعتبره الطلقة الأولى التي أشعلت نار الجهاد ، لكن شاءت الاقدار أن يموت هذا الحاكم في عام ١٨٠٣ بعد قليل من إصدار مرسومه وخلفه ابنه يونفا (Yunfa) أحد تلاميذ الشيخ عثمان ، ووعد الحاكم الجديد بانهاء ما جاء في المرسوم وطاعة أوامر أستاذه والسماح له بحرية الوعظ والارشاد ، لكن شعر هذا الحاكم بخطر الشيخ فانقلب رأساً على عقب ، ووصلت به الحال الى التفكير في قتل سيده وأستاذه ، والتآمر على أتباعه وأعوانه ، وتعقدت الأمور وازدادت العلاقات سوءاً بعد رفض الشيخ أن يسلم أحد رجاله ويدعى عبد السلام لهذا الحاكم الجوبيري الذي هاجم بلدة عبد السلام وقتل الناس وهم نيام في شهر الصيام .

وتمادى هذا الحاكم في إذلال المسلمين وعلى رأسهم الشيخ عثمان ، حيث طلب منه ترك الجماعة ، والعيش في المنفى وحيداً ، لكن الشيخ رفض ترك جماعته ، وقرر التحرك بهم الى مكان بعيد يدعى جودو (Gudo) ، وهنا أصدر الحاكم أمراً بالقبض على الشيخ ، وطلب من حكام الامارات قتل المسلمين ومصادرة أموالهم ، وغزو القرى الاسلامية ، ونهب ما فيها ، فكان هذا العمل بداية الجهاد وإعلان قيام الدولة الاسلامية(١٢) .

بعد هذا أصبح الشيخ قائداً وإماما لجماعة المسلمين من الفولاني الذين وجدوا فيه ارتفاعا لشأنهم ، وتمجيداً لآمال طالما كانوا يحلمون بها فصاروا عدته وصلاحه ضد قوى البغي والضلال(١٣) .

ثانيا : قيام الجهاد وتأسيس الدولة الاسلامية :

كانت الهجرة الى مدينة جودو بداية تأسيس امبراطورية الفولاني التي اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها ، وأخذ الشيخ معه الأنصار والاتباع الى أطراف الصحراء ، وهناك اقروا له بالطاعة والولاء ، وحلفوا اليمين على طاعته على الكتاب والسنة ، وحمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ، ذلك اللقب الذي استمر مع الخلافة حتى نهايتها في عام ١٩٠٣ ، كما حمل لقب خليفه في بعض الأحيان ، وهو اللقب الذي حمله أبناؤه وذريته من بعده .

كانت هذه البيعة بداية الجهاد ، وايذانا بتأسيس الخلافة الاسلامية ذلك لأن البيعة كانت تعني نقل الجهاد من الدور السلبي الى الدور الايجابي الجديد ، وانتشرت أخبار الجهاد ضد حكام الهوسا ، وأصدر الشيخ وثيقة «أهل السودان» التي صارت اعلانا رسميا للجهاد حيث حدد الشيخ الأسس التي بني عليها الجهاد ، مثل الهجرة من بلاد الكفار . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واتباع الكتاب والسنة باعتبارهما أهم مصادر التشريع . وقد أقرت الوثيقة هذه المباديء بشكل مفصل ، وأعلنها الشيخ حرباً على الكفار والوثنيين حيث أصر على قتال البغاة . والملك المرتد الذي خرج عن دين الاسلام إلى دين الكفر .(١٤) .

كان الرد العملي على هذه الوثيقة أن أرسل الحاكم الى أخوانه الأمراء في كاتسنا وكانو ودورا يطلب منهم المساعدة لأنه أهمل اطفاء شرارة من النار في امارته حتى اتسعت رقعتها وزادت حدتها ، وصارت فوق احتماله القضاء على خطورتها .

وتعتبر وثيقة أهل السودان من الوثائق التاريخية الهامة التي قام السير بالمر بجمعها والتعليق عليها ، وهي من المخطوطات النادرة التي وقع ناسخها اسمه تحتها ، ويدعى محمد ساعي ابن أمير دورا واسمه اسحق .

وسميت وثيقة أهل السودان لأنها عبارة عن رسالة موجهة ليس فقط إلى أهالي جوبير بل الى كل سكان السودان الغربي ، حيث أعلن الشيخ من خلالها الحرب على كل الوثنيين . وقد تضمنت الوثيقة سبعة وعشرين بندا هي خلاصة المباديء والتعاليم التي نادى بها الشيخ في الفترة الأواى من جهاده . وانتهت الوثيقة كغيرها من وثائق غرب أفريقيا بدون تاريخ مكتوب في آخرها ، كما أنها لا تشير الى شخص معين . ولا موقف محدد ، ولا مكان ما . ومن أهم هذه التعاليم أن الأمر بالمعروف واجب إجماعا ، وأن النهي عن المنكر واجب إجماعا ، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة أجماعا ، وأن تأمير الأمراء في البلدان واجب إجماعا ، وأن الجهاد وأجب إجماعا .

وقد صدرت هذه الوثيقة بعدأن اشتد النزاع ، وتفاقم الخلاف بين الشيخ وحاكم جوبير ، وأصبح التفاهم صعبا بين الطرفين . وهي باختصار خطاب مفتوح يحدد النقاط الرئيسية لتعاليم الشيخ عثمان وشكواه من معارضيه ، كما انها المبررات لاعلان الجهاد الإسلامي ضد الحكام الوثنيين .

تزعم سلطات جوبير جبهة المعارضة ضد الشيخ عثمان ، وصارت الحرب وشيكة بين المؤمنين والوثنيين ، ولم يجد الشيخ بدا من اعلان الجهاد في سبيل الله ، فلبي تلاميذأ النداء ، لأن ارتباطهم به لم يكن مجرد حلقات درس بل كان الارتباط عميقاً بالحب والتقدير ، فكانوا له مؤيدين تكبدوا المعاناة وتحملوا عيء الكفاح عندما هاجم الشيخ أمارة جوبير وقرر حاكمها تأديب الشيخ عثمان ، فحدث الالتحام وبدأت الحرب وانتقلت الدعوة من مرحلة السلم الى مرحلة الهجوم المسلح ، بعد ان أغار حاكم جوبير على قرى وممتلكات الموحدين[١٥] .

وفي الرابع من يونية عام ١٨٠٤ تقدمت قوات الجهاد بزعامة عبدالله بن فودى ، الذي أخلى مواقعه في جودو توقعاً لهجوم من سلطان جوبير واتجه إلى بحيرة تابكين كوتو ، وعلى ضفاف هذه البحيرة أطبق المسلمون على قوات خصومهم ، ودارت عليهم الدائرة ، فهرب من وجد سبيلا لذلك ، وسقط في ساحة المعركة الكثير ، وتفرق شمل الاعداء في أول مواجهة حاسمة في الجهاد ، لكن النصر لم يكن نهائياً ، لأن قوات المشركين عادت بعد أن جمعت قواتها في ١٨٠٥ وبدأت الهجوم من جديد على الشيخ وجماعته ، ودارت معركة تسونسو التى هزم فيها المسلمون ، وراح منهم أكثر من ألف شهيد ، لكن المسلمين صدوا الهجوم . استمرت الحرب سجالا بين الطرفين دون تفوق طرف على الآخر ، وتمكنت قوات الجهاد من السيطرة على امارة كيبي (Kebbi) واتخذتها عاصمة للجهاد ، وتوالى سقوط امارات الهوسا في أيدي المسلمين حيث سقطت زاريا عام ١٨٠٥ ، واستمر النصر حليفا للشيخ واتباعه حتى تحقق النصر ودخل عاصمة

وتسمى الكالاوا في عام ١٨٠٨ ، وتم قتل السلطان يونغا مع عدد من اتباعه ، وانتهت مقاومة الوثنيين ، وصارت كلمة الذين آمنوا هي العليا ، وتوافدت القبائل ذرافات ووحدانا إلى معسكر الشيخ تعلن الولاء والدخول في الاسلام ، والانضمام الى حلف المسلمين ، وتوسعت امبراطورية الفولاني ، وتكونت أمارات جديدة ، وأعطى الشيخ اشارات وأعلام الى اعوانه الذين واصلوا الجهاد في مختلف المناطق من بلاد الهوسا ، وتوسعت الدولة ، ودخل الناس تحت رايات الجهاد ، وانتقل الشيخ إلى مدينة سيفاوا في عام ١٨٠٩ ، بينما استقر ابنه محمد بلو في مدينة سوكوتو .

والملاحظ ـ في معظم دول غرب أفريقيا ـ استخدام اصطلاح امبراطورية مثل امبراطورية البرتو وامبراطورية التوكولور وامبراطورية الفولاني ، واستخدام هذا اللفظ يعني فقط بناء دولة تخضع في سيادتها الى زعيم واحد ، يسيطر على كل مناطقها وعلى كل الحكام الداخلين تحت لوائه ، وقد اختلفت مساحة الامبراطورية من مكان لآخر حسب قدرة زعيم الجهاد على ضم مناطق إلى نفوذه .

ثالثا : الغرض من الجهاد :

تعتبر حركة جهاد الشيخ عثمان من الحركات الاصلاحية الرائدة في غرب أفريقيا ، وكان لنجاحها بهذا الشكل الحاسم ، وانتشارها على نطاق واسع ، وتقبل الناس للمباديء التي نادى بها الشيخ أثر في اختلاف وجهة نظر المؤرخين حول الأهداف الأساسية لهذا الجهاد ، ولكن قبل أن نخوض في هذه الأهداف نلقي نظرة شاملة على أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الشيخ عثمان بن فودى في شمال نيجيريا وهي :

١ ـ ساعد على نجاح هذه الحركة الضعف الذي استشرى في امارة جوبير بعد حروب مستمرة ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر مع امارتي زمفرا وكاتسينا ، كما واجهت هذه الامارة مشكلات داخلية نتيجة ازدياد نشاط حركة الاصلاح التي قام بها الشيخ عثمان من مقره في مدينة ديجل ، ومحاولاته نشر دعوته في الامارات المجاورة مثل مغرا ، هذا بالاضافة الى المشاكل الداخلية والخارجية بسبب قيام كل من كيبي وزمفرا بغاراتها على جوبير في السنوات الأولى من حكم يونغا في عام ١٨٠٢ .

٢ ـ وجود جماعات اسلامية في مناطق متفرقة من الامارة ، حيث كان الشيخ نشطا لمدة ثلاثين عاما قبل اعلان جهاده في عام ١٨٠٤ ، وانضم إليه عدد كبير من الاتباع المخلصين في ديجل وفي مختلف أنحاء امارة جوبير ، وعندما أعلن الشيخ الجهاد صارت هذه الجماعات محور الارتكاز

لنشاطه وساعده الايمن في جهاده ، ومصدر الطاقة البشرية التي استند عليها ، وصار قواد هذه الجماعات وكلاء عنه في حرب الجهاد ضد الوثنيين[1] .

٣ ـ لقد كان لأحياء الثقافة العربية في أواخر القرن الثامن عشر أثره في قيام حركة الجهاد حيث ساهم زعماء الحركة بقسط وافر في التمهيد لهذه الحركة ، مما جعل الناس يتقبلون هذا الجهاد ، وكانت الكتب والقصائد الشعرية قد بصرت المسلمين بأحوالهم ، وأخذت ترثي حالهم في السودان الغربي ، وتدعوهم الى قبول حركة الاصلاح ، والعودة الى المثل والقيم التي تضمنتها الشريعة الاسلامية ، وهكذا هيأت المؤلفات الأدبية والدينية ـ لزعماء الجهاد ـ النفوس للجهاد الاسلامي .

٤ ـ من العوامل الهامة التي ساعدت على نجاح الجهاد ذلك الدور القبلي في بلاد الهوسا ، ورغم ان الجهاد لم يكن حربا بين قبائل الهوسا والفولاني ، إلا أن الاختلافات القبلية قد زادت من حدة الصراع ، وكان علماء الفولاني هم الركيزة الأساسية في الجهاد حيث يمثلون طبقة الصفوة ، نظراً لما كان لديهم من مهارات وقدرات في النواحي الادارية والعسكرية ، بالاضافة الى ذلك القدر من الثقافة والعلم ، مما مكنهم من تقلد المناصب الرئيسية في الوعظ والارشاد والتعليم . وبسبب روابط الاخوة والجنس فقد مالوا الى اخوانهم من الفولاني الرعاة الذين تعاطفوا مع بني جنسهم عند اعلان الجهاد .

أما عن الأسباب الحقيقية لجهاد الشيخ عثمان فيمكن أن نحددها في النقاط التالية :

(أ) يرى فريق من المؤرخين المعاصرين للشيخ عثمان بن فودى وعلى رأسهم الشيخ محمد الأمين الكانيمي في بورنو ان الجهاد يخفي وراءه أطماعا سياسية غلفها الشيخ بثوب الاصلاح الديني ، لكن محمد بلو بن فودى قام بالرد على هذه الافتراءات على الشيخ وحركته في سلسلة من الرسائل فند فيها تلك الحجج موضحاً ان الجهاد حركة دينية هدفها الأساسي تحويل إمارات الهوسا الى الدين السلامي الحنيف .

(ب) يرى فريق آخر أن حركة الجهاد هي ببساطة ثورة لرفع شأن الفولاني ضد سياسة الهوسا ، أي أنها ثورة خططت ووضعت من أجل مساعدة الفولاني للسيطرة على أمور البلاد ، والسعي نحو تحقيق امتيازات كانوا قد حرصوا منها في عصور سابقة[1]

(جـ) حاول بعض المؤرخين تفسير الجهاد على أنه حركة اجتماعية ، وأنه حرب ضد الفساد والارهاب والظلم الذي كان سائداً في تلك الفترة ، ويضيف أصحاب هذا الرأي أن الجهاد

يعتبر تمرداً من الفلاحين ضد أسيادهم من حكام الهوسا ، وأن الشيخ عثمان كان يهدف الى الاصلاح الاجتماعي ، ومحاربة كل الأمور التي تخالف الشريعة الاسلامية .

(د) حاول أحد المؤرخين التوفيق بين كافة الآراء المختلفة ، فحدد أهداف الجهاد في أنه يمثل مرحلة استطاعت الأفكار الاسلامية ان تشق طريقها الى المجتمع ، وان تؤسس مجتمعا اسلاميا في أفريقيا جنوب الصحراء ، مثل المجتمعات التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية (الوهابية) ، أو في شمال أفريقيا (السنوسية) ، أو حركة الحاج عمر الفوتي (السنغال) ، وأن هذه الحركة لم تكن قاصرة على الفقهاء من الفولاني ، بل هي حركة شمولية لقيت استجابة من الهوسا والفولاني على حد سواء . فهي محاولة جادة للاصلاح مجردة من شبهة الجنس أو الرغبة في الملك ، وان الشيخ اضطر الى الاستعانة ببني جنسه حين حق عليه الجهاد ، فاتخذت طابعاً قومياً دينيا اصلاحياً[١٨] .

لقد لخص الشيخ عثمان بين فودى الهدف من هذا الجهاد حيث أوضح في (وثيقة أهل السودان) أن الغرض الأساسي من الجهاد هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والهجرة من بلاد الكفار ، وتنفيذ أحكام الشرع .

وعلى كل حال ، ومهما اختلفت الآراء حول الجهاد والاصلاح الديني الذي أعلنه الشيخ عثمان بن فودى في غرب أفريقيا ، فإن هذه الحركة قد غيرت أسلوب الحياة السائد في بلاد الهوسا ، وظهر مجتمع جديد تحكمه طبقة جديدة من رجال الدين والعلماء الذين لم يكونوا من أصول ملكية . بل رفعهم الدين الإسلامي إلى مصاف الأمراء . وبالتالي اختلف طابع الحياة السياسية . وبدلاً من سيطرة الحكام المحليين على أمور هذه البلاد ظهرت طبقة جديدة تسير وفق انماط جديدة في الحياة تختلف عما كانت سائدة في هذه الأرجاء من نظم وتقاليد ، وقد ساعد هذا على نشر الدين الاسلامي وتطبيق شريعته في كل منحى من مناحي الحياة ، ويرجع هذا الى جهود الشيخ عثمان الذي أخلص في عقيدته ، وكرس جهده من أجل نجاح حركته ، فكانت حركة مباركة ، انتهت بتأسيس دولة اسلامية كبرى ، تضم أقاليم شاسعة في غرب أفريقيا في كل بلاد الهوسا والمناطق المجاورة في برنو والكانم ، والمناطق الجنوبية في كيبي واللورين ، أي مناطق تمتد من بحيرة تشاد شرقا حتى منحنى النيجر غربا ، ومن الغابات الاستوائية جنوبا حتى الصحراء الكبرى شمالا[١٩] .

أما عن الأوضاع الاجتماعية في الدولة التي أقامها الشيخ عثمان بن فودى فقد ترتب على جهاده في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن صار الدين الاسلامي أساس النظام السياسي

والاجتماعي في الدولة حيث تقلد رجال الدين والعلماء مناصب التدريس والقضاء ، وكان طبيعيا أن يتمتع الحكام في الإمارات المختلفة بثقافة إسلامية تمكنهم من ممارسة أعباء وظائفهم ، وتيسر لهم سبل مباشرة تطبيق الشريعة الاسلامية .

ولم تكن طبقة رجال الدين قاصرة على فئة معينة من السكان ، بل كانت مفتوحة لكل من تعمق في الدين ، وثبت أقدامه على طريق النصح والإرشاد والحجة القوية . وقد ظهر الدين الاسلامي في هذه الدولة . وصار أساس تشكيل طبقات المجتمع التي حملت مشعل الحضارة الى القبائل الوثنية ، وساهم التجار المسلمون في عملية التبادل التجاري بين هذه الشعوب والعالم الخارجي وصار الدين الاسلامي أيضاً أداة لتطوير النظام الاقتصادي في الدولة ، وصارت المعاملات الإسلامية أساس التعامل في الأسواق ، وحرم الإسلام شرب الخمر ، وأكل لحوم البشر ، والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات السيئة التي كانت سائدة في المجتمع ، كما أعطى الدين الإسلامي للمواطن الزنجي الحق في أن يصبح مواطناً حراً كريمًا بعد أن حرره من ربقة الرق ، وقضي على التجارة في الجنس البشري[٢٠] .

وظهر أثر الإسلام في جعل القرابة الدموية من ناحية الأب بدلاً من سيطرة السلطة الأمومية في تلك المجتمعات . كما ساعد الدين الاسلامي على تفتيت النظام القبلي تدريجيا ، وانخراط الناس في الدولة الإسلامية ، واتحدت كل القبائل سوياً تحت لواء دولة واحدة .

وبعد أن أقام الشيخ عثمان المجتمع الإسلامي بدأ الناس يحتفلون بالمناسبات الإسلامية الكبرى مثل عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، والمولد النبوي الشريف . وحاول الشيخ عثمان القضاء على كثير من العادات السيئة الخاصة بتعدد الزوجات ، وعادات التشريط والندب على الأموات وأحل محلها عادات قراءة القرآن في حجرة المتوفي ، والصلاة عليه ودفنه في مدافن عامة حيث لا توجد شواهد على القبور ، كما حرم الشيخ إشراك النساء في تشييع الجنازة ، وصارت ملابس الحداد الثوب الأبيض للرجال ، أما النساء فليس لهم زي خاص ، ولكن ينبغي أن تظل المرأة في بيتها لا تقابل فيها الرجال ، ولا تتزين طوال فترة الحداد[٢١] .

ومن العادات الإسلامية التي سادت في مجتمع سوكوتو تسمية المولود في اليوم السابع وسط حفل كبير يذبح فيه والد الطفل خروفا أو ثورا ، وجرت العادة على تسمية الطفل باسم أحد الأنبياء أو الصحابة .

وبإختصار فإن المجتمع الذي أقامه الشيخ عثمان بن فودى التزم بتطبيق الشريعة الإسلامية

خصوصا في مسائل الزواج والطلاق ، وتعدد الزوجات ، والاحتفالات الإسلامية الكبرى ، وعليه يمكن القول إن دعوة الشيخ عثمان كانت دعوة خالصة لتنقية الدين الإسلامي من العادات الوثنية التي أقرها حكام الهوسا السابقين لحركة الشيخ الإصلاحية .

رابعا : مؤلفات الشيخ بن فودى :

لقد كان الشيخ عثمان بن فودى أحد الزعماء المسلمين القلائل الذين أثروا في شعوبهم ، وأدوا الأمانة على وجه طيب ، وقادوا شعوبهم بشكل سليم وسط الأمواج المتلاطمة والظلمات الدامسة ، حتى وصلوا الى بر الأمان ، وأنشأوا دولة اسلامية كبرى شملت بلاد الهوسا وغيرها من أقاليم نيجيريا الحالية ، وكانت دعوته شاملة ومتنوعة ، وكان طبيعيا أن يصاحب هذا التحول الثوري في مجمعات غرب أفريقيا الوثنية ومع بداية تأسيس الدولة الاسلامية أن يوضح قائد الجهاد ورائد مسيرة النضال في تلك المجتمعات الزنجية بايضاح وجهة نظره حول أهم المشكلات التي تواجه الناس في حياتهم ، بل وكل القضايا التي تعترض قيام الدولة وتوسعاتها ، فجاءت مؤلفات الشيخ عثمان لتكون نبعا للفكر وينبوعاً للثقافة ، ومرشداً للناس في عالم صار الجهل أبرز سماته ، ولتكون مصدراً للفتوى والتشريع ، وكانت هذه الكتب تشرح الدعوة وتفسر مختلف النظريات ، وتعالج كافة القضايا الفقهية ، وترد على افتراءات الناس حول الدعوة الاصلاحية .

إن من يطلع على مؤلفات الشيخ المتعددة ، يدرك عمق ثقافة هذا العالم الذي كان بليغا ، خطيباً ، شاعراً ، فصيحاً ، فاضلا ، جميل العشرة كريم الصحبة ، شديد المعارضة ، مقطوعاً بولايته وقدراته القيادية .

وتؤكد هذه المؤلفات أن الشيخ عثمان كان واسع الاطلاع على الأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الخلفاء الراشدين واتباعهم ، وآراء الائمة الأربعة ، وآراء العلماء المشهورين في غرب أفريقيا مثل الامام السيوطي والامام المغيلي ، والشيخ محمد مختار الكنتي وأستاذه الحاج جبريل بن عمر وغيرهم من العلماء .

وكان الشيخ يهدف من هذه المؤلفات الى اصلاح أحوال العلم والعلماء وتطبيق أحكام الله ، وتصحيح الايمان بشكل يؤدي الى إقامة الشريعة فيها أمر الرسول ونهى عنه والتبصر في الدين ، وأخيراً العلم بأصول الطريق الذي يريد سلوكه[٢٢] .

ولهذا لم يكن غريبا أن تتنوع مؤلفات الشيخ ، وأن تعالج موضوعات شتى تتناسب مع حجم الجهاد ، وطبيعة المناطق التي انتشر فيه الدين الاسلامي ، وكانت الموضوعات الدينية تحظى

باهتمام الشيخ عثمان ، لأن دعوته كانت إحياء السنة واخماد البدعة الشيطانية . فألف عدداً كبيراً من الكتب حول هذا الموضوع ، ولعل أشملها وأهمها كتاب «احياء السنة واخماد البدعة» الذي تضمن ثلاثا وثلاثين بابا دارت كلها حول أمور العقيدة ، وأصول الدين ، والى جانب هذا الكتاب ألف الشيخ عدداً آخراً من المؤلفات الدينية مثل «حصن الافهام من جيوش الأوهام» ، «نجم الاخوان يهتدون به باذن الله في أمور الزمان» وكتاب «سراج الاخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان» ، وأيضاً كتاب «إقتحام المنكرين في الزجر عن البدع والاهواء» . وكتاب «نصيحة أهل الزمان» ، وكتاب «أصول الدين» ، وغيرها من الكتب التي عالجت أمور العقيدة المحمدية .

ولم تقتصر مؤلفات الشيخ على الأمور الدينية ، بل راح يناقش مسائل تتصل بالنظم الاجتماعية والسياسية ، وكانت «وثيقة أهل السودان» حربا على الكفرة والوثنيين ، كما وضح الشيخ أسس المجتمع الاسلامي في كتابه «ضياء السياسات وفتاوي النوازل في فروع الدين من المسائل» كما تناول الحديث عن بلاد الهوسا وأسباب الصراع بين زعمائها في كتابة «تنبيه الاخوان على أحوال أرض السودان» ، وعالج أيضاً بعض الموضوعات الاجتماعية في مقالة تحت عنوان «مسائل المعاملة» ، ومقالة بعنوان «نور الالباب» ، وأخرى بعنوان «ارشاد الاخوان الى أحكام خروج النسوان» ، وغيرها من المؤلفات التي دارت حول الكثير من المشكلات الاجتماعية والقضايا السياسية[٢٣] . وباختصار عالج الشيخ عثمان كل الأمور الاجتماعية التي تضمن بناء مجتمع متكامل يعرف فيه كل الأمور الاجتماعية التي تضمن بناء مجتمع متكامل يعرف فيه كل فرد ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، في اطار من التكافل الاجتماعي والسير على السنة النبوية الشريفة .

ونظراً لآن الشيخ عثمان كان صوفيا يتبع الطريقة القادرية ، فقد نالت هذه الطريقة قسطا كبيرا من مؤلفاته ، وعالجها في الكثير من المناسبات ، حتى يزيل اللبس حول كافة القضايا الصوفية ، فأعلن مع بداية جهاده انه شاهد رؤيا وهو في سن الأربعين وأنه جالس في اجتماع يضم سيد البشر ، ومعه الصحابة والشيخ عبد القادر الجيلاني ، الذي قلده سيف الحق ، وطلب الصحابة منه إعلان الجهاد ضد أعداء الله[٢٤] .

وقد شرح الشيخ عثمان الطريقة القادرية في كتاب «السلاسل القادرية للأمة المحمدية» ، وأيضاً في مقالة بعنوان «تطييب قلوب الأمة المحمدية بذكر بعض القصائد القادرية» ، وأيضاً في مقالة «السلاسل الذهبية للسادات الصوفية» وبالطبع ساعدت هذه المؤلفات على جعل الطريقة القادرية أكثر الطرق شيوعا في غرب أفريقيا .

وعالج الشيخ عثمان بن فودى قضية أخرى شاعت في زمانه بشكل واضح ، الا وهي قضية المهدي المنتظر في غرب أفريقيا ، خصوصاً بعد أن كثرت مؤلفاته حول هذه القضية ، وأعتقد الناس أنه المهدي المنتظر ، فكان الواجب يحتم عليه الحديث عن المهدي وخصائصه ، ولكي ينفي عن نفسه فكرة أنه المهدي المنتظر ، حدد الشيخ صفات المهدي ، وأنه من ذرية فاطمة الزهراء ، وان وقت ظهوره متأخر حتى قدوم الدجال ونزول عيسىء بن مريم . وقد تناول الشيخ هذه الأفكار عن المهدي والمهدية في كتاباته «النبأ الهادي الى أحوال الامام المهدي» ، و«تحذير الاخوان من إدعاء المهدية الموعود به آخر الزمان» ، «والقول المختصر في المهدي المنتظر» .

ولقد ساعدت مؤلفات الشيخ عثمان بن فودى على تقبل أفكار المهدية عندما ظهر محمد أحمد المهدي في سودان وادي النيل ، بعد أن تأثر بكتابات الشيخ عثمان وتأييد أحد أحفاد الشيخ عثمان ـ ويدعى حيات بن سعيد ـ لمحمد أحمد المهدي كما ظهرت آثار الأفكار المهدية في حركة الشيخ أحمد لوبو في منطقة ماسينا ، حيث ادعى بأنه المهدي المنتظر ، وأنه قد جاء لانقاذ المجتمع الاسلامي في أفريقيا ومجاهدة الوثنية بكل ما يملك من قوة .

ولم يتوقف الشيخ في مؤلفاته عند هذا الحد ، بل كان يقرض الشعر وله بعض القصائد المشهورة مثل «مرآة الفرائض» وقصيدة «في مدح الرسول» والتي استهلها بقوله :

هل لي مسيرة نحو طيبة مسرعا   لأزور قبر الهاشمي محمد
لما فشا رباه في أكنانها   فتكمش الحجاج نحو محمد

كما ألف قصيدة يعبر فيها عن حبه لأستاذه محمد المختار الكنتي العالم الصوفي الورع والتي جاء فيها :

بلغ تحياتي الى المختار   سراجنا في هذه الامصار
وقل له ليدع بالخيرات   في هذه الدنيا وفي الممات
وفي حلول القبر والقيام   بلغه يا شريف بالسلام
يارب زد لشيخنا المختار   كرامة التوفيق في الاخبار

وألف أيضاً قصيدة يمدح فيها أستاذه جبريل بن عمر ويقول في مطلعها :

ان قيل مني بحسن الظن ما قيلا   فموجة أنا من أمواج جبريلا

وهكذا غلبت على مؤلفات الشيخ عثمان بن فودى التكامل والشمول والتنوع ، حيث عالج

شتى جوانب الحياة الانسانية ، وقضايا المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما اتسمت هذه المؤلفات بكثرة التكرار حتى في الموضوع الواحد وفي أكثر من مؤلف ، كما غلب عليها كثرة النقل من كتب العلماء والائمة وهذا ما يوحي بأن الشيخ عثمان كان واسع الاطلاع محيطا بأصول الدين ، وحفظ الحديث الشريف والقرآن الكريم ، والى جانب كل هذا أتسم أسلوبه بالبساطة في كل مؤلفاته ، وكذلك المرونة في التعبير باللغة العربية ، مما ساعد على نشرها في معظم أرجاء غرب أفريقيا .

خامسا : آثار الجهاد ودعوة الشيخ في غرب أفريقيا :

مما لا شك فيه ان حركة الشيخ عثمان بن فودى قد تركت آثارها في كل منحى من مناحي الحياة ليس فقط في دولة سوكوتو وشمال نيجيريا ، بل تخطتها الى كل السودان الغربي ، وصارت الدعوة الأم لكل الحركات الاصلاحية التي أجتاحت المنطقة طوال القرن التاسع عشر ، وسوف نذكر أهم آثار جهاد عثمان بن فودى في النقاط التالية :

أولا : ساعـدت حركة جهاد عثمان بن فودى على جعل اللغة العربية لغة التعليم والدراسة ، وصارت مناهج التعليم في دولة سوكوتو تعتني أساسا بتحفيظ القرآن الكريم ، وتفسيره باللغة العربية ، وصار معهد الشيخ عثمان من أكبر المعاهد الدينية في نيجيريا ، بالاضافة الى عدد آخـر من المدارس القرآنية ، التي ساهمت في نشر الثقافة العربية وتطوير اللغة العربية ، مما أحدث ثورة ثقافية في مجتمعات غرب أفريقيا ، وأقبل الناس على تعلم هذه اللغة ، وقام العلماء بشرح وتحليل هذه المؤلفات والتعليق عليها ، بل وترجمة عدد منها الى اللغات الأجنبية ، وبفضل مؤلفات الشيخ عثمان باللغة العربية صارت اللغة تتفوق من حيث سعة الانتشار باعتبارها لغة القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

ثانيا : ساعدت حركة جهاد عثمان بن فودى على نشر الطريقة الصوفية القادرية التي صارت تنافس الطرق الصوفية الأخرى ، وخاصة الطريقة التيجانية حيث كان لكتاباته أثرها في انتشار الأفكار الصوفية ، والتي لعبت دوراً في نشر التعليم والثقافة الاسلامية ، والتصدي الى البـدع والخـرافـات التي سادت مجتمعـات غرب أفـريقـا ، جنبا الى جنب مع الدراسة والتعليم ، وتحملت الطريقة القادرية عبء التعليم في المنطقة .

ثالثا : ساعدت دعوة الجهاد التي قام بها عثمان بن فودى على أحياء مجد الدولة الاسلامية في ذلك الجزء من القارة الافريقية ، حيث انشأ الشيخ في دولته مناصب عربية مثل الوزير والقاضي

والمحتسب والوالي والحاجب وشيخ الاسلام ، وغيرها من الالقاب التي شاعت في صدر الدولة الاسلامية أيام الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين فأحدث ذلك أحياء للخلافة الاسلامية في غرب أفريقيا بعد ان حمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ، وحتى بعد وفاة الشيخ عثمان في عام ١٨١٧ استطاع أمير المؤمنين ، وحتى بعد وفاة الشيخ عثمان في عام ١٨١٧ استطاع أبناؤه مواصلة مسيرة الجهاد ، وتطبيق الشريعة الاسلامية التي حمل لواءها أبناء الشيخ وأحفاده حتى سقوط الدولة في ايدي القوات البريطانية في عام ١٩٠٣ ، ولا تزال مدينة سوموتو تمثل العاصمة البريطانية في عام ١٩٠٣ ، ولا تزال مدينة سوكوتو تمثل العاصمة الروحية للدين الاسلامي في دولة نيجيريا .

رابعا : كانت حركة جهاد الشيخ عثمان بن فودى أول تجزبة اسلامية تجمع تلك المنطقة الشاسعة تحت لواء دولة واحدة ، بل كانت أول دولة اسلامية تجمع تحت راياتها عدة ممالك وأوطان من بلاد الهوسا وتفرض السكينة والأمان في ربوع منطقة كانت الفوضى والحروب والصراعات الدموية أبرز سماتها في القرون السابقة لحركة الجهاد والدعوة الاسلامية ، كما استطاعت هذه الحركة الاصلاحية ان تكسب هذه المنطقة طابعا اسلاميا لازال أثره باقيا حتى يومنا هذا ، حيث لا تزال نيجيريا أكبر دولة اسلامية في القارة الافريقية على الاطلاق ، ببفضل تلك الجهود المباركة لدعوة الشيخ عثمان بن فودى ، تلك الدعوة التي بددت الظلام ، وجعلت نور الاسلام يشرق من جديد على غابات وصحاري غرب أفريقيا .

خامسا : صارت دعوة الجهاد الفولاني التي قادها عثمان بن فودى وحمل لواءها أخوه عبد الله بن فودى وابنه محمد بلو النموذج والمثل الأعلى لغيرها من حركات الجهاد والدعوة الاسلامية في غرب أفريقيا ، بل وأصبحت أم الحركات الاصلاحية ، ورائدة التحرر والجهاد الاسلامي لنشر الدين الحنيف في كثير من مجتمعات غرب أفريقيا ، حيث صارت المنهل العذب والمورد الكافي الذي استقى منه أحمدو لوبو حركته الاصلاحية في منطقة ماسينا ، وأيضاً الحاج عمر الفوتي التكروري في السنغال ، وحركة زعماء بورنو والشيخ الكانيمي ، وأيضاً حركات الجهاد الأخرى مثل حركة مابا دياهو في جامبيا ، وحركة ساموري نموذجاً لحركات الاصلاح والتجديد ، ونشر الدين الاسلامي في غرب القارة الأفريقية .

سادسا : كان لحركة جهاد الشيخ وما أعقبها من حركةفكرية ونهضة علمية شاملة أثرها في تغير المفاهيم والأفكار بين الناس ، كما كانت السبب في انتشار فكرة المهدية وذيوع صيتها ، وتقبل الناس لها والالتفاف حول من ادعوا المهدية فيها بعد ، فلقد اضطر الشيخ عثمان الى نفي فكرة انه المهدي المنتظر ، لكن هذا النفي ساعد على انتشار الفكرة في المناطق المجـاورة ، بل وكانت مؤلفات الشيخ من ممهدات قيام محمد أحمد المهدي بحركته في سودان وادي النيل وتقبل الناس للفكرة حيث تعاطف معها مكان دولة سوكوتو ، وسكان حوض بحيرة تشاد ، كما ساعدت أفكار الشيخ على ظهور حركات مهدوية أخرى في ماسينا وغرب القارة .

وباختصار ساعدت دعوة الجهاد الشيخ عثمان على تغير جذري وشامل في كل مجتمعات غربي أفريقيا طوال القرن التاسع عشر ، حيث ترسخت العقيدة الاسلامية . وانتشرت اللغة العربية ، وصارت مؤلفات زعماء الجهاد أساس النهضة الفكرية والثقافية في غرب القارة ، وحتى بعد سقوط الدولة الاسلامية في مطلع القرن العشرين في أيدي القوات البريطانية ، لم يتمكن المستعمر من طمس هذه الحضارة الراسخة ، وحاول الابتعاد عن نظم ثابتة تسير وفق الشريعة الاسلامية ، واعتادها الناس فترة من الزمان ، ولم يجد البريطانيون إلا الابقاء على هذه النظم السيـاسيـة المتكـاملة ، وراحـوا يـدعون بأنهم طبقوا نظام الحكم غير المباشر في هذه المناطق الاسلامية ، حفاظا على تراثها الاسلامي العريق ، وظلت نظم الاسلام وتعاليم الشيخ عثمان يتوارثها المسلمون جيلا بعد جيل ، حتى تحقيق الاستقلال لهذه الأراضي الاسلامية ، وعادت سوكوتو ومراكز الحضارة الكبري في شمال نيجيريا تواصل المسيرة على نهج الشيخ عثمان بن فودى زعيم حركة الاصلاح والدعوة الاسلامية في غرب أفريقيا .

والسـؤال :

كيف كان نظام الحكم في هذه الدولة الإسلامية التي أسسها الشيخ عثمان بن فودى ؟ وما هو مفهوم الخلافة ولقب أمير المؤمنين لدى الشيخ عثمان ؟

بعد أن نجح الجهاد وتكونت الدولة الاسلامية ، وضم الشيخ مختلف إمارات بلاد الهوسا داخل إطار واحد ، قام الشيخ بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وقسم الدولة الى عشرين ولاية . وحمل لقب أمير المؤمنين خاصة بعد اعلانه وثيقة أهل السودان ، وقبل وفاة الشيخ وضع نظام الخلافة الاسلامية تشبها بالخلفاء الراشدين ، ووجد الشيخ عثمان أن نظام الخلافة العباسي هو أفضل النظم لحكم هذه الدولة المترامية الاطراف ، ولذا نجد التشابه بين نظام الحكم في دولة

الفولاني والنظام العباسي ، فالعباسيون اتجهوا الى الأخذ بالنظام الاتحادي وقنعوا بمجرد الإشراف والتوجيه وهو ما طبقه الشيخ . كما أن الخلافة العباسية استجابت للمتغيرات في الدولة ، وجمع الخليفة بين الخلافة والأمامة ، وتحول الامام الداعية الى خليفة يحكم ، وهو نظام سارت عليه دولة الفولاني . وكانت الخلافة في العصر العباسي الأول قاصرة على البيت العباسي دون غيره يتولاها أفضلهم بشرط بيعة الناس له ، وفي خلافة الفولاني اقتصر اختيار الخليفة على سلالة عثمان ، كما كانت الخلافة العباسية للأقدر وليست وراثية مستقرة في الأبناء ، وهو ما ساد عند خلفاء عثمان .

والخليفة في العصر العباسي عام الولاية ، عام الاختصاص ، يسري حكمه على كل أنحاء الدولة ، وهو يمارس حكمه في كل مجال من الأمور الدينية والسياسية والمدنية والحربية ، وله الحق في تفويض من يشاء بما يشاء من الاختصاصات . وقد طبق هذا النظام في خلافة الشيخ عثمان . وإذا كان العباسيون قد ساروا على مبدأ اختيار الخليفة لوزير يتولى تنفيذ أوامره كاملة ، فإن عثمان انتهج نفس الطريقة مع إعطاء الوزير سلطات أكثر .

ومع كل هذا ، فإن بعض الاختلافات قد حدثت عند التنفيذ ، ومنها أن الهيئة المختصة باختيار الخليفة وهم أهل الحل والعقد وأهل الشورى كانوا من أفراد البيت العباسي ، ولكن في خلافة الفولاني كان مجلس الاختيار يتكون من أفراد من خارج أسرة عثمان ، وكان الوزير صاحب الكلمة النهائية في الاختيار . وأيضاً نجد أن الخلافة العباسية سارت على نظام ولاية العهد كما كان في عصر بني أمية حيث كان الخليفة يختار ولي عهده من البيت العباسي على أساس القدرة وليس على أساس الرشد لكن في خلافة عثمان لم نجد نظام ولاية العهد ، وكان اختيار الخليفة الجديد يتم بعد وفاة الخليفة الحاكم عن طريق مجلس الاختيار الذي يعين الخليفة حسب قواعد عامة[٣٥] .

وبعد اختيار الخليفة في دولة الفولاني ، فإنه يحمل لقب أمير المؤمنين ذلك اللقب الذي حمله الشيخ في بداية الجهاد ، وقد استعان الخليفة بمجلسين أحدهما استشاري وهو يضم أبرز أعوانه ومساعديه ، والآخر تنفيذي يقوم بتنفيذ تعليمات الخليفة الذي يعين أعضاء هذا المجلس ويضم الوزير والقاضي والمحتسب وتحددت اختصاصات الخليفة في حماية حقوق الرعية داخل المجتمع الاسلامي ، وحماية الدولة عن طريق بناء المدن المسورة المحصنة حتى يتفادى هجمات الأعداء ، وأيضا العمل على نشر الدعوة الاسلامية بين القبائل الوثنية واعداد الجيوش للتصدي للغزاة ، وهو الذي يعين الشخصيات في الوظائف الهامة ويختار الأمراء وحكام المديريات . وقد حدد عثمان نظام الحكم في الدولة وضمنها في خمسة أسس هي :

أولا : ألا يعطي الولاية طالبها .

ثانيا : الالتزام بمبدأ الشورى .

ثالثا : التخلي عن القسوة والعنف .

رابعا : إقامة العدل بين الناس .

خامسا : الاحسان والأعمال الصالحة[٢٦] .

لذا يمكن القول إن الخلافة في رأي الشيخ عثمان هي المجال الذي يرى فيه الناس ترجمة مباديء الاسلام وتعاليمه في أسلوب عملي لواقع الحياة ، وفي رأيه أن الخلافة يقيمها المسلمون في أي مجتمع اسلامي[٢٧] .

وكان الشيخ يعرض الألقاب والمناصب على أساس انها أمور دنيوية عارضة ، وباستثناء منصب الوزير لقتصرت المناصب في ستة فقط هي القائد العام ، وقاض القضاة ، ورئيس الشرطة ، وحامل اللواء ، وصاحب الخراج ، والإمام[٢٨] .

وهكذا وضع الشيخ نظاما فريدا للحكم في هذه الدولة التي قامت في غرب أفريقيا في القرن التاسع ، وظلت تطبق هذا النظام الخلافي حتى سقوط الدولة في أيدي القوات البريطانية في عام ١٩٠٣ ودخلت الدولة ضمن نيجيريا الحالية ، ولكن لازال المسلمون يلعبون دوراً هاما في نشر الثقافة الإسلامية ، ولازالت المعاهد والمدارس التي أسسها عثمان ومن خلفه ينبوع الفكر والثقافة في غرب أفريقيا .

سادسا : عوامل انهيار الامبراطورية الفولانية :

يرجع انهيار امبراطورية الفولاني الى عدة عوامل تجمعت لتسهم في سقوط هذه الدولة في أوائل القرن العشرين وهي :

(أ) اعتماد الخلافة طوال القرن التاسع عشر على مجرد توجيهات الخليفة في أمور الارشاد والدفاع ، وكانت كل امارة تعتمد على نفسها في أمورها الدفاعية ، ولم يقدم الخليفة دعمها عسكريا لأي إمارة بل لم يكلف الامارات المجاورة بمساعدة أية إمارة تتعرض للاخطار ، وبالتالي انشغلت كل إمارة في شئونها الخاصة

(ب) عدم وجود جيش مركزي يتولى أمور الدفاع عن الدولة ، وظلت الإمارات طوال القرن التاسع عشر تعيش على مواردها وعلى المساعدات من الامارات المجاورة .

(جـ) اعتمدت جيوش الدولة على الأسلحة التقليدية والقديمة ، وكانت الحروب التي مارستها الجيوش تقوم على أساس المدن المسورة التي يقف المدافعون خلفها للدفاع عنها ضد أي اعتداء . لكن هذه الجيوش المسلحة واجهت لأول مرة جيوشا أوربية بالاضافة الى المدافع والبنادق المتطورة ، مما غير سير المعارك لصالح القوى الأوربية .

(د) لم يسبق لجيش دولة الخلافة أن حارب ضد جيش أوربي ، ومن ثم كان يجهل خططه وأسلحته ، هذا في الوقت الذي كانت الجيوش الانجليزية على دراية كاملة بكل الخطط في الامارات ، وقد سهل هذا على البريطانيين مهمة الاستيلاء على الامارات الواحدة تلو الأخرى ، طبقاً للسياسة التي رسمها القواد البريطانيون .

(هـ) أن دولة الخلافة لم تستطع ان تنسق عمليات المقاومة مع الامارات التابعة لها ، مما جعل هذه الامارات فريسة سهلة أمام هذا الغزو الأوربي ، ولم يشعر الخليفة بهذا القصور في خططه إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن أطبق الأوروبيون على الدولة من كل جانب ، فسقطت الامبراطورية في أيدي البريطانيين ، رغم البسالة والمقاومة الوطنية الباسلة التي قادها الخليفة وأعوانه المخلصين .

لكن رغم سقوط الخلافة ، وضم المنطقة الى النفوذ البريطاني ، فقد ظلت الأسس التي وضعها الشيخ عثمان وخلفاؤه هي دعائم الحضارة الاسلامية في نيجيريا ، ولازال المسلمون يمارسون دورهم في الحفاظ على الدين الاسلامي ، وفي تطبيق الشريعة الغراء في أكبر منطقة إسلامية ، من حيث عدد السكان في القارة الأفريقية .

وخلاصة القول إن الخلافة الاسلامية في سوكوتو قد اتخذت من الدولة العباسية نموذجا لها في الحكم ، كما أنها أقامت نظاما فريداً من نوعه في غرب القارة ، استقى من كل النظم الإسلامية ، وصار نموذجا لكل الحركات الجهادية في غرب القارة ، وتمسك المسلمون بمباديء الشريعة الاسلامية ، وطبق الخلفاء على مدى قرن من الزمان هذا النظام الاسلامي ، وتعود الناس عليه وألفوه حتى بعد الغزو البريطاني ، وصارت الأسس التي وضعها الشيخ عثمان دستورا للحياة ، كما أصبحت مؤلفات الشيخ وأتباعه مصدر الفكر والإلهام الثقافي .

إن خلافة الشيخ عثمان بن فودى تعتبر رائدة حركات الإصلاح والجهاد في سبيل الله في غرب أفريقيا ، وحامية الدين الإسلامي ضد كل من سولت له نفسه العبث بأحكامه ، وحتى عندما جاء المستعمر البريطاني وأخضع الدولة لسلطانه ، لم يتمكن من إحداث أية تغييرات في هذه الأسس الراسخة ، التي لازالت تشع بنورها حتى اليوم .

الهوامش :

(١) ابراهيم طرخان . دولة مالي الإسلامية ، ص ٥٢ ـ ٥٩ ، وشكل رقم (٤) .

(٥) لمزيد من الدراسة عن انتشار الإسلام في أفريقيا : انظر حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا . الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

(٣) Dubois, F : Tomboctu, La Mysterieuse, Paris 1899, P, 153 -

(٤) Seligman, c. : Races of Africa, London 1970, P. 96 -

(٥) ابراهيم علي طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٣٠

(٦) Johnston, H. A. S. : The Fulani Empire of Sokoto, London 1967, P. 18 -

(٧) محمد بلو : انفاق اليسور في تاريخ بلاد التكرور ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٥٨ .

(٨) تحدث الشيخ عبد الله بن فودى عن الجهاد ومراحل تكوين الدولة الاسلامية في كتاب تزيين الورقات ، نيجيريا عام ١٣٨٣ ها (بالخط المغربي) . كما تحدث أيضا عن الجهاد الشيخ محمد بلو : إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، القاهرة ١٩٦٤

(٩) Martin, B. G. : Muslim Brotherhoods in 19th century Africa, London 1976, PP - 1 - 13 -

(١٠) محمد بلو : انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٧ ـ ٢٥ .

(١١) عثمان سيد أحمد اسماعيل : حركتا الشيخ عثمان بن محمد بن فودى ومحمد أحمد بن عبد الله المهدي وأثارهما : مجلة دراسات أفريقية بالخرطوم ، العدد الثاني ، ابريل ١٩٨٦ ، ص ٣٥ ـ ٥٣ .

(١٢) Ki Zerbo, Joseph : Histoire de 1' Afrique Noir, P - 175 -

(١٣) Panikkar, k - Madhu : Journal of African History, P - 175 -

(١٤) عثمان بن فودى (وثيقة أهل السودان) تحقيق
Bivar, A. D. H. : Journal of African History' Vol II, 1961, P - 235 -

(١٥) عبد الرحمن زكي : الاسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ٩٢ .

(١٦) Smaldone, J - P - : Warfare in the Sokoto Calliphate, P - 23 -

(١٧) Meek, C. K. The Northern Trides of Nigeria. Vol. I., P, 100 -

(١٨) Hodgkin, T. ? Nigerian Perspectives, PP - 3840 -
وأيضا حسن أحمد محمود ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩ .

(١٩) توماس أرنولد : الدعوة الى االاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٦٠ .

(٢٠) Meek, C. R. : Tridal Studies in Northern Nigeria, vol. II, P. 5 -

(٢١) محمود سلام زناتي : الاسلام والتقاليد القبلة في أفريقيا ، ص ٩٤ .

(٢٢) عثمان بن فودى : حصن الافهام من جيوش الاوهام (مخطوط ، ص ٣ ، ٣ .

(٢٤) عثمان بن فودى : ولما «بلغت في الذكر والورد» ، وهو كتاب نشرته لجنة النشر بوزارة المعارف بنيجيريا الشمالية ضمن سلسلة ضمت كتاب «أصول الولاية» و«هداية الطلاب» .

(٢٥) أنظر نظام الحكم في : عبد الله عبد الرازق : الاسلام والحضارة الاسلامية في نيجيريا ، ص ١١١ وما بعدها .

وللمزيد من الدراسة عن الخلافة العباسية انظر : حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، الطبعة السابعة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(٢٦) عثمان بن فودى : الفرق بين ولاية أهل الاسلام وأهل الكفر ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٢٧) السر سيد أحمد العراقي : نظام الحكم في الخلافة المكتبية : مطبوعات جامعة الخرطوم ، السودان ١٩٨٧ ، ص ١١ .

(٢٨) Last, M. : Op. Cit. P. 107 -

الجغرافيا الكبرى والجغرافيا الصغرى للخليج

أ . د . محمد رياض
جامعة قطر

مقـــدمة :

درجنا نحن سكان هذا الكوكب ـ عربا كنا أو غير ذلك ـ ان نسمع ونقرأ ونتكلم عن الخليج وليس في ذهن كل منا مضمونا واضحا لما نعنيه بالخليج . ومع ذلك فكلنا نشير إلى منطقة ذات ملامح عامة بالقدر الكافي الذي يجعلنا نفهم اننا نتكلم جميعا عن منطقة بذاتها . هذه الملامح العمومية لدى الغربيون تدور حول منطقة البترول العالمية الكبرى في جمع من الدول الشرقية الاسلامية بغض النظر عن كونها دولا عربية أو ايران . لكن الازمة الامريكية الايرانية في أول الثمانينات والحرب العراقية الايرانية خلال عقد الثمانينات قد اضافت لدى الغرب تمييزا لازما للتفريق داخل الخليج بين العرب وغيرهم .

أما نحن العرب فمفهومنا الأساسي من مصطلح الخليج انه يشير الى المنطقة البترولية العربية التي تكاد ان تلتقي فيها بكل أبناء العالم : فإلى جانب أصحابها هناك وافدون كثر من البلاد العربية ومن ايران ومن اقليم الهند ومن أوربا وأمريكا ومن الفلبين وكوريا وتايلاند واليابان . الخليج بالنسبة لنا عوالم متعددة متحوصلة على نفسها داخل الدول التي تعيش فيها . وهي دول صغيرة المساحة قليلة السكان كثيرة الثراء لديها فرص عمل لمن يحلم سواء كان عربيا أو أمريكيا .

ولعلنا نحن العرب ـ في سبيل تحديد أكثر لمفهوم الخليج ـ نميز بين السعودية والخليج . فانت بالنسبة لمعارفك في بلدك تعمل في الخليج باطلاق أو في السعودية بتحديد وربما كان هذا التمييز راجعا إلى كبر مساحة السعودية وقدمها النسبي في فرص العمل .

وفي عالم السياسة والجيوبولتيكا لا يميز الغرب والشرق بين خليج عربي أو فارسي . بل ان بعضهم ، كالفرنسيين يريحون بالهم بتسمية مزدوجة ، فهو الخليج العربي الفارسي . واخرون يكتفون بالخليج دون اضافة ملكية للعرب أو الفرس . وعند ذكر الخليج تتداعى لديهم مجموعة قيم أولها حول الاوبك والسوق الحر والمخزون العالمي للنفط . لكن من ثوابت الأمور ان الخليج هو المياه الدافئة التي تقود للمحيط الهندي بالنسبة لجيواستراتيجيات الشرق منذ قياصرة روسيا . وفي مواجهة ذلك التهديد يتداعى الدور الايراني لدى جيواستراتيجيات الغرب كدرع يحمي هذه المياه وبترولها منذ امبراطورية الانجليز . والامتداد الجيوبولتيكي لهذين الاتجاهين المتصادمين مازال يمر حتى الآن بمنطقة الخليج والشرق الأوسط . ومن ثم فإن الشرق الأوسط والخليج يحملان في الأفكار الجيوبولتيكية العالمية اسماء عدة ليست كلها حسنة : هي منطقة الصدام وهي منطقة الاهتزاز ، وهي منطقة التشتت والارتجاج . ولكن حيث ان الجيوبولتيكا تتغير كل فترة ، فلعل لدينا أمل ان نصنع لمنطقتنا ثبات يخرجها من دائرة التشتت والاهتزاز .

تحديد منطقة الخليج :

إذا بدأنا منطقيا باتخاذ التراكيب الجغرافية مقياسا في محاولة تحديد اقليم الخليج ، فإننا نرى ان المنطقة هي كل الأراضي التي تطل على خليجي عمان والعربي ، (أو الخليجين الأعلى والأسفل أو الخارجي والداخلي) . وليس الأمر مجرد الاطلالة على هذا المسطح المائي ، وانما يمتد إلى أكثر من ذلـك . فهناك تفاعل حياتي وحضاري تاريخي ومعاصر لهذه الأراضي على الجانبين الشرقي والغربي للخليج (خريطة ١) .

وبهذا التحديد فاننا ندخل نطاق رأس الخليج وشرق الخليج ـ أي أجزاء من ايران والعراق فضلا عن كل دول مجلس التعاون العربي الصغيرة (الكويت ـ البحرين ـ قطر ـ الامارات) والجزء الشمالي من عمان والجزء الشرقي من العربية السعودية . وربما اعتبرنا منسوب ٢٠٠ متر نطاق تخوم غربية لاقليم الخليج داخل شبه الجزيرة . ويسهل التعامل مع هذه التخوم في الربع الخالي بينما يصعب التعامل مع هذه التخوم في الشمال حيث يتغلغل منسوب ٢٠٠ متر في غرب الكويت لكنه يعود حدا معقولا يفصل البادية عن رأس الخليج .

وإذا كانت نطاقات الخليج في جنوب العراق وخوزستان والساحل الايراني بسهوله الضيقة وتداخلاته البحرية وجزره من الخرج حتى هرمز هي أقسام حقيقية من تفعيلات اقليم الخليج الجغرافي ، الا انه يجب علينا ان نقيم حسابا يعتد به لتكامل هذه الاقسام العراقية والايرانية مع دولتيهما في نسيج يثقل موازناته لصالح الدولة في ايران أو العراق اللتان تمتدان في سعة خارج اقليم الخليج وما يحمله ذلك من ثقافة وسياسة خاصة وجيواستراتيجية شرق أوسطية نتيجة لامتدادات ايران إلى القوقاز وبحر قزوين ووسط آسيا ، وامتداد العراق في الشمال إلى بادية الشام والنطاق التاريخي الموصل ـ حلب عند اقدام طوروس وكردستان .

وإذا أردنا تميزا تاريخيا حضاريا لتخوم الخليج الشرقية فربما كان الفارق اللغوي هو رائدنا في ذلك . فإذا أخذنا اللغة العربية كميزة أساسية للخليج فإن الحد الشرقي للغة العربية كان في أحيان كثيرة ملتزم باجزاء كثيرة من ساحل فارس بين لنجه وشط العرب .

هنا في هذه البيئة الفقيرة الجافة البحرية الصخرية الحارة سكن عرب كثيرون عماد حياتهم البحر ، مولين ظهورهم لداخلية البلاد ـ تماما كما فعل أقربائهم على الساحل العربي ، ميممين البحر . لكن علينا ان نحسب ان عرب الساحل الايراني قد وقعوا تحت تأثير فارسي لغوي وربما سلالي أيضا . فهم ـ وان طال بهم الزمان خلال قرون طويلة من الاستقلال النسبي ـ قد أصبحوا جزءاً من الدولة الفارسية أو الايرانية منذ ق ١٩ . وقد تأكد ذلك بعد أن أصبح اقليم البترول الايراني هو على مشارف المنطقة عربية الأصل سابقا ، وبخاصة خوزستان (عربستان) .

واضح من هذه المعالجة أننا نهتم بتحديد التخوم الشرقية لمنطقة الخليج . أي تلك الواقعة في الجانب الايراني . ذلك ان غرب الخليج هو جزء لا يتجزأ من النطاق الحضاري العربي في قلب الجزيرة العربية . وان أي مقياس حضاري نتخذه لتمييز الخليج عن الجزيرة هو مقياس غير ناجح

التطبيق . فهناك لحمه سلالية حضارية لغوية دينية مذهبية متدرجة من وسط الجزيرة بدون حدود عبر مياه الخليج الى شاطئه الشرقي .

وربما كان التحديد السياسي لمفهوم الخليج أنسب وأكثر وضوحاً من التدرج المتداخل في الجوانب الجغرافية والحضارية . فالحدود السياسية ـ برغم انها اصطناع بشري ـ الا انها فوق أي ظواهر أخرى هي الحدود الفاعلة . وفاعليتها واضحة : فهناك خطوطا تفصل بدقة بين بلد وآخر (اذا كانت الحدود مرسومة باتفاق الدولتين) . وبرغم ان الحدود السياسية في غالب الأحيان تتجاهل القيمة الجغرافية لمفهوم الاقليم ، الا ان لها مزية الحصول على المعلومة والرقم ، وهي مزية هامة في الدراسة الجغرافية . وفضلا عن ذلك ذإن مجرد وجود شخص ما داخل حدود سياسية معينة يعني انه يمارس كل ما تتيحه الدولة من مزايا ، ويخضع لكل ما تضعه الدولة من قوانين وتشريعات وحوافز وضرائب وحماية جمركية وحماية عسكرية .

فإذا أخذنا مجلس التعاون الخليجي معياراً لتحديد منطقة الخليج ، فانه يقصر عن ادخال أجزاء جغرافية في الخليج ، ويدخل أجزاء أخرى غير خليجية هي ظفار ونجد والحجاز وعسير . وبرغم ذلك فلعله من المستحسن الاتفاق على ان الخليج هو في الأغلب المفهوم السياسي لدول مجلس التعاون الخليجي . فهو أكثر تشابها من أراضي الخليج العراقية والايرانية . فهناك جمع من الظروف الجغرافية الشاملة في الميدان الطبيعي والسكاني والاقتصاد والسياسي تصبغها بتشابهات عامة هي ما يمكن ان نطلق عليه الجغرافيا الكبرى للخليج **Macro - Geography** . صحيح ان هناك تفرد في ظاهرات تفصيلية في أجزاء من دول مجلس التعاون تشكل الجغرافيا الصغرى في الخليج **Micro - Geography** ، الا ان هذه التفردات هي أجزاء من كل متكامل . وستقتصر هذه الورقة على مفهوم دول مجلس التعاون الخليجي ، مع الحفاظ على البنية الجغرافية بترك اقاليم وسط وغرب السعودية لبعدها وظروفها المكانية المغايرة .

الجغرافيا الكبرى للخليج :

سبق ان ناقشنا ان الخليج هو منطقة تخوم ثقافية لغوية . وأن وجود المسطح المائي لم يقم حداً فاصـلا انما أعطى تدرجا واضحا لنفوذ اللغتين العربية والايرانية وتداخلهما على الساحل الايراني . ولكنه معروف ان الالتقاء اللغوي يداخل مفردات لغوية على الجانبين ومن ثم فإن في منطقة الخليج العربية مصطلحات ومفردات أخذت شكلا عربيا أو بقيت على حالها ومردها لغات ايرانية إما هي فارسية أو بلوشية أو اردية أو مما يلي بمباي من لغات قديمة كالملايلم في كيرالا وملبار وهما من أكثر شعوب الهند هجرة والتصاقا بالخليج . وكذلك هناك مؤثرات لغوية أخرى

مصدرها شرق أفريقيا نتيجة علاقات تاريخية واستيطانية طويلة . والخلاصة ان التداخل اللفظي من مصادر لغوية محيطة هي سمة لهجات الخليج وأن المؤثرات الفارسية اشيع في الشمال والأفريقية والبلوشية أشيع في جنوب الخليج ، بينما تغطى الالفاظ الهندية كل الخليج بقدر متقارب (شكل ٢) .

هذه العلاقة المكانية للخليج لم تؤثر فقط في تعريب الفاظ غربية ، وانما أثرت على مجموعة من الصفات الخليجية . من هذه الصفات وعلى رأسها ظاهرة «أنا وغيري» . أي ظاهرة التقاء الشعوب والنظرة المتسامحة أزاء عادات وممارسات غريبة عن «أنا ومجتمعي فقط» وتقبل سحن وأشكال وألوان الشعوب المحيطة ، بل والتزاوج معها أيضاً . وذلك عكس عزلة المجتمع البدوي أو الجبلي الذي يعيش في بواديه أو وديانه متفاعلا مع ذاته ومجتمع اقرانه بدرجة يستغرب فيها غير ما يألفه ، بل قد يصده وربما يعاديه . صحيح ان العزلة البدوية والجبلية قطعتها الآن الطرق الحديثة والسيارات ، وأصبحت الأبل في متاهة وجودية ، هل تبقى أم تتقلص الى هجن السباق ؟ والأخيرة مهمة تجارية طارئة ، بينما الابل والبدو سابقا كانا صنوان حياة كاملة . ونحن الآن نفتش بصعوبة عن بدو في بادية الزمان الكلاسيكي . فالبدو استقروا جوار المدرسة والمستشفى ومعسكر القوات المسلحة والحرس الوطني . والتليفزيون قطع صلاتهم الوثيقة بالرمل والطعن ومهارة البحث عن الماء والمرعي ، ورسم لهم أفق أحلام المدينة والوظيفة نموذجا جديداً للحياة .

ويوضح الشكل (٣) نموذجا تجريديا لتراتب الحياة قديما وحديثا في الخليج . ففي الماضي - الذي هو تقريبا حتى منتصف هذا القرن - أي منذ جيل واحد فقط - كان التراتب عادة يبدأ من شريط ساحلي متقطع من السكن الدائم في مدن وبلدات ومستوطنات باحجام متعددة . يليه نطاق واسع من البداوة يمتد حسب ترحاله من الشواطيء قرب المدن إلى النطاق الايكولوجي الثالث الذي يتكون من الواحات الداخلية الكبيرة كبر الحسا أو البريمى والعين ونزوى أو الصغيرة كمحاضر ليوا وحرض .

ثم حدث التغيير بدخول البترول موردا جديدا للثروة وما يتبعه من متغيرات أدت إلى نظام اقتصادي جديد (ونظام سياسي جديد يقوم على أساس الدولة) . ويوضح النموذج ٣ ب كيف فقد الخليج أنشطة البحر التقليدية الاقليمية (عدا السماكه التي لم تعد الغذاء الأساسي ، بل جزء من قائمة أغذية مستوردة) . وبدلا من التجارة البحرية التقليدية ، أو وساطة النقل البحري أصبحت الصادرات والواردات عالمية التوجه . وهو ما كان له انطباعات نمطية على أفق الرحلة لأهل الخليج ، فقد حلت أمريكا وبريطانيا محل الهند وشرق أفريقيا خلال حياة جيل واحد .

كذلك فقد الخليج استخدام داخلية أراضيه بفقدان البداوة بالمعنى الشامل ؛ نظام حياة ونظام استخدام لايكولوجية البر في شرق الجزيرة . وسيكون صعبا استعادة هذا النمط الحياتي والاقتصادي الذي اكتسبه الانسان خلال عدة آلاف من السنين ، فلم يعد الفرد يكبر وينمو من خلال تجربة الاجداد وممارسة الآباء . وستظل البادية خالية من معنى العطاء الاقتصادي السابق بعد ان خطتها الطرق الحديثة ، وتجارب الاستزراع ، والسكن الترفيهي لعطلات نهاية الأسبوع أو أجازات الربيع .

وفي نطاق الواحات الداخلية حدث تغيير آخر بمقضاه لم يعد النخيل وحده هو المحصول الأساسي ، فقد أصبحت الخضروات هي المحصول التجاري اليومي جنبا إلى الاعلاف . وهي ظاهرة متكررة في كل الخليج حولت الواحة الكلاسيكية إلى ممارسة تجارية حديثة . وهو شيء محمود لولا كثرة الدعم الذي تقدمه دول الخليج للمنتجين في هذا الاتجاه مما يفسد مساعي الناس للتغلب على مصاعب البيئة والانتاج والتسويق بالممارسة والتجربة والفشل والنجاح .

ولكن أكبر ما حدث من تغيير هو ما حل بالشريط الساحلي الذي كان يمثل دعامة السكن الدائم في المنطقة . فقد كان الناس منتشرون في عدالة مقبولة بين مدن وبلدات ومستوطنات عديدة على طول الساحل ، يواجهون البحر حيث مصادر حياتهم . وكان لكل مستوطنة ذات شأن أسطولها الصغير من أنواع القوارب والسفن الشراعية لأغراض السماكة أو الغوص على اللؤلؤ وكان الأسطول يضم سفنا أكبر للملاحة البحرية الطويلة في بعض المدن الكبيرة كما يوضحه الجدول التالي :

قطـر : نموذج لأساطيـل المـدن الخليجيـة الكلاسيكيـة

المدينة	قوارب السماكة	مراكب اللؤلؤ	سفن أعالي البحار
الدوحة	٩٠	٣٥٠	٦٠
الوكرة	٣٠	١٥٠	٢٠
الخـور	٣٠	٨٠	٢٠
الظعاين	١٠	٧٠	١٠
سميسمة	١٠	٥٠	١٠
فويرط	١٢	٣٥	٩
الخوير	٥	٢٠	—
أبو الظلوف	١٠	٢٠	٥
الرويس	١٠	١٨	٢
الذخيرة	٥	١٥	٢
الوسيل	٣	٩	٢

المصدر: لوريمر ـ دليل الخليج ص ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ طبعة الديوان الأميري ـ الدوحة .

والملاحظ من هذا الجدول عدة أمور أهمها :

١ ـ ان هذه الاعداد من القوارب والمراكب كانت فعلا مركزا لنشاط الناس جيئة وذهابا من القرية إلى السيف (الشاطيء) أو الفرضه حسب أهمية المدينة . وعلى السيف ورش القلافين (نجاري السفن) وغيرهم من العاملين في اصلاح (أو بناء) السفن . فضلا عن اشغال السكان المتخصصين في عمل الشباك والمصايد العائمة (القراقير) وعمل واصلاح اقمشة الشراع . هذا فضلا عن الحركة المكثفة وقت الخروج في مواسم اللؤلؤ ووفود مرتزقين من هذه الحرفة من بدو الداخل وسكان ساحل فارس . ومثل هذه الكثافة في الحركة عند قفال المراكب للشاطيء . لهذا لم تكن خطة المدن والقرى الساحلية من النوع الشريطي بدون سبب . فالبيوت في أغلبها تمتد في مواجه البحر وسمك المستوطنات كان دائما يتسم بنحافة واضحة .

٢ ـ من بين أسماء المدن الأحدى عشرة الواردة في الجدول أعلاه لم يبق ذو أهمية في الوقت الحاضر سوى ثلاث هي الدوحة والوكرة والخور . وهجرت تماما الظعامين والفويرط والخوير والوسيل . وعاد الاهتمام مؤخراً بالبقية كسكن رخيص للعاملين في الدوحة من أهل البلدة الأصليين . فسكان سميسمه أو أبو الظلوف أقل من ٤٠٠ شخص بينما الرويس فيه ٧٠٠ والذخيرة ٨٠٠ شخص (فضلا عن ان بعضاً من هؤلاء السكان هم من الوافدين العاملين في خدمة البيوت) . وظاهرة المدن والقرى المهجورة هي ظاهرة متكررة في غالبية دول الخليج . والسبب في ذلك هو هيراركية الاقتصاد الجديد التي تسحب السكان الموزعين بعدالة نسبية على الاقليم وتركزهم في نقاط مركزية هي العواصم الجديدة التي تستحوذ على أكثر من ثلاثة أرباع سكان الدول .

ومن ثم فإن ظاهرة المدينة المهيمنة هي احدى أهم مواضيع الدراسة الخليجية باعتبارها ظاهرة من ظاهرات الجغرافيا الكبرى في الوقت الحاضر . فالعواصم الخليجية اليوم أشبه بتركيب دولة المدينة التي كانت شائعة في المدن الاغريقية أو الفينيقية أو السومرية . فالعواصم الآن هي قلب الدولة الاقتصادي والسكاني والصحي والتعليمي والخدمي والترفيهي . هي الميناء والمطار ومركز اشعاع الطريق ، هي تجارة الجملة ومخازنها ومركز توزيع التجارة في انحاء الدولة . هي مركز الحكم ومركزية الادارة والمال والاستثمار الداخلي والخارجي .

ولاعتبارات النظام الاقتصادي الجديد ، والتحول من اقتصاديات الأسرة الممتدة الى استقلال الفرد وتكوين بيوت منفصلة فقد حدث انفجار مساحي للمدن الخليجية . لكن الأهم من ذلك ان انسحاب الناس من الانشطة التقليدية في البحر والبادية والواحة قاد البعض إلى ميدان تأسيس أعمال حديثة تجارية ومقاولات وصناعة خفيفة ، بينما قاد الغالبية إلى مصيدة الوظيفة الحكومية بصفة خاصة . وبقيت أعمال كثيرة مكتبية وفنية وادارية تحتاج إلى تدريب كوادر خاصة . وإلى ان تم ذلك جزئيا فقد كانت احدى مجالات الدراسة الجغرافية الكبرى في الخليج هي الطفرة الكبرى في السكان نتيجة الحشود الكبيرة من العمالة الوافدة العربية والاسيوية والاوربية وهي التي جاءت تشغل فراغ النقله إلى النظام الاقتصادي الجديد .

وان اختلفت اقدار الدول الخليجية من الوافدين عددا وجنسية ، فإن ذلك مرده حجم الدولة وحجم السكان الأصليين وحجم المشروعات الجديدة وسرعة أو تأني الدولة في تخطيط وتنفيذ المشروعات المختلفة الادارية والتعليمية والصحية والاسكانية والعمرانية ومشروعات تعدد مصادر الدخل القومي بالتوجه إلى مؤسسات صناعية كثيفة المال المستخدم .

ولهذه الاغراض جاء الفنيون والمكتبيون والاداريون من الوافدين ، ومعهم اتت اعداد وافدة كبيرة من العمالة نصف الماهرة . ومن ناحية أخرى فإن تضخم المدينة ببيوت الأسر النووية الجديدة ، واحتياجات الحياة المنزلية والتسويقية والتعليمية لأعضاء الأسرة ، فقد ظهرت حاجة ملحة إلى عمالة منزلية وافدة كبيرة العدد .

وعلى هذا فإن دراسة البنية السكانية المتفجرة نموا بدرجة ونوعية لا مثيل لهما (نمو بلغ في المتوسط ٧ ـ ١٠٪ سنويا) جذبت الجغرافيين والاجتماعيين منذ البداية . والموضوع لا يقتصر على الجوانب الديموجرافية فقط ، بل يمتد أيضاً إلى دراسة العلاقة والمنافسة للجنسيات والسلالات المختلفة في سوق العمل الخليجي . فالهنود يحتكرون أعمالا خدمية لا يمكن زحزحتهم عنها لا بالمنافسة ولا باللوائح . والعرب الوافدون يحتكرون أعمالا كتابية وادارية وتعليمية . والاوربيون يحتكرون الاستشارات والادارات العليا في الشركات . وغير ذلك كثير من أوجه الدراسة في مجال المنافسة بين الجنسيات العربية بعضها البعض ، وكذلك المنافسة بين العرب والأوربيون ، وبين الهنود وجنسيات شرق آسيا .

وتبنى بعض الدراسين موضوع تأثير العمالة الآسيوية المنزلية على تربية النشء . ولكن المبالغة في مخاطر ذلك كانت سببا في سقوط هذا الموضوع إلى درجة اهتمام ثانوية . فالنشء لا يعيش في عزلة انما يتعرض لمؤثرات الرفقة والاقران في المدرسة والشارع مما يعطيه طابع النشأة المحلية والقومية .

ومن بين الدراسات السكانية تقع دراسة القوة العاملة الآن في بؤرة اهتمام دوائر المخططين في جوانب التعليم والتدريب والتوظيف والخدمة المدنية . فبعد الدراسات المرحلية للوافدين واعدادهم ، وبعد ربع قرن من التعليم الحديث وانشاء التعليم الفني والمتوسط والتأهيل العالي في شتى الميادين . . وبعد ربع قرن من التعليم الحديث وإنشاء التعليم الفنى والمتوسط والتأهيل العالى في شتى الميادين كل هذا أتى الآن الوقت الذي يمكن فيه مقارنة هذا التأهيل والتعليم بنتائجه في ميادين العمل . أين النقص ؟ ولماذا ؟ هل لأسباب تتمثل في تراث مجتمعي مثل عدم الرغبة في أي عمل يدوي أو فني كامتداد لتراث يقلل من شأن العمل اليدوي ويرفع من قدر العمل المكتبي أو التجاري حتى لو كان أقل عائداً ؟ أو مثل العزوف عن مهنة التدريس لما لا يصاحبها من ابهة المكتب وما يداخلها من مواجهة المسئولية أمام ادارة المدرسة والتلاميذ يوميا ؟ أم ان ذلك راجع إلى استراتيجية تعيين المحليين في القيادات الادارية التي سادت عقدا من الزمان (الثمانينات) ؟ هناك لا شك مدخلات كثيرة في موضوع القوة العاملة ولكن مما لا شك فيه ان حقولا في قائمة الأعمال سيتولاها الخليجيون المؤهلون بمزيد من الخبرة والتدريب ، الا حقول الخدمة الخاصة التي يصعب ملئها محليا اليوم أو في المستقبل القريب .

ومن الموضوعات الكبرى في جغرافية الخليج أشياء كثيرة على رأسها النفط الذي حرك المنطقة كلها باتجاهاتها الحالية في المجالات العالمية والمتغيرات الداخلية . والنفط موضوع درس واشبع بحثا . كم واين وعمر النفط . . اسئلة هامة اجاباتها تعطي الدول الخليجية استراتيجياتها الخاصة للمستقبل . فعلى سبيل المثال أدت قلة النفط الناتج والمخزون منه في دولة البحرين إلى مزيد من مشروعات الدول الخليجية المشتركة في تلك الدولة وإلى مزيد من تكثيف الخدمة المركزية المالية والبنكية والاتصالات والنقل الجوي . وعلى سبيل المثال أيضاً تتوازن ثروة الغاز القطرية مع احتياطي نفط غير متنام في دولة قطر . لكن الشيء الهام في نفط الخليج من الآن ومستقبلا هو الأهمية الجيوبوليتيكية للمنطقة باعتبار أنها تحتوي على أكبر احتياطي نفطي عالمي وأطوله عمرا . وإذا كانت استراتيجيات عالمية قد ميزت الخليج على خرائطها كمنطقة ذات اهتمام ، فانها الآن تضع الخليج في دائرة اهتمام أكثر مركزية . ويشكل ذلك أحد مهام الجغرافيا الكبرى لمنطقة الخليج . ما هو دور أصحاب المنطقة تجاه استراتيجية النفط العالمية ؟ وما هو الاستخدام الأمثل لفوائض النفط والغاز بالنسبة لاستراتيجيات التنمية الخليجية والعربية ؟ واسئلة أخرى كثيرة عن الاوبك والاوابيك والسوق العالمي وبدائل النفط وفتح أسواق جديدة في العالم النامي وما هو دور تناقص النفط السوفيتي على توجهات السوق الخليجية ؟

وقد أدت الظروف المناخية الى تشابه الانعكاسات البشرية تجاه المناخ . فكون الخليج جزء من المناخات الجافة الحارة ، مع سيادة للرياح الشمالية وفلول أعاصير طارئة شتوية كان لذلك آثار في ملبس الناس وتوجيه المسكن وطريقة الحصول على الماء الجوفي بحفر الآبار التقليدية أو بالزراعة البعلية (غير المؤكدة المحصول) . وكذلك استمدت الأشكال السابقة لاستغلال الأرض جذورها من الظروف المناخية . فتراتبت البداوة في ظل عبقرية الاستخدام الأمثل لبيئة الصحاري الهشة ، وكثف الانسان الناتج النباتي الضعيف بانتقال الرعيان والرعية بين المراعي كل في «ديرة» واسعة تشتمل على أراضي الكلاء وعلى مجال حيوي من الأرض للتوسع عند الازمات . لكن الهجرة الكاملة كانت هي الملجأ النهائي لجفاف سنين متعاقبة ، كما حدث في أواسط القرن ١٨ حينما تحركت قبائل عدة من نجد إلى قطر والبحرين والكويت وغيرت الأوضاع السكانية والسياسية التي كانت قائمة من قبل .

واستقرار السكان الدائم في شريط القرى والمدن الساحلية الخليجية ارتبط بامكانية الحصول على مياه عذبة من آبار قريبة من اقليم الساحل . فهنا نهاية المطاف لعدسة المياه الجوفية السطحية قبل ان تخالطها المياه المالحة بدرجة غير مقبولة . وعلى الساحل تعلم الناس فنون الملاحة بالارتباط بالرياح السائدة الشمالية (أو الكوس الشرقية في مواسم معينة) وتعلموا فنون الابحار مع

الرياح الموسمية صعودا وهبوطا في المحيط الهندي . أما كيف عرف الناس اللؤلؤ ، وكيف أصبح مطلبا عزيزا لدى بلاط الملوك والزعماء ، وكيف سوقه الخليجيون ولماذا في بمباي ، فانها أسئلة محيرة . لكن الذي مارسه الناس هو ما نعرفه من تكنولوجية معينة للحصول على اللؤلؤ ، وتركيب هيراركي في طاقم مراكب اللؤلؤ وتنظيم مالي «للطواشة» يستثمر في السفن والاعداد لمواسم الغوص السابقة واللاحقة (البشيرية والقفال) والموسم الرئيسي (الغوص الكبير)، إلى آخره من تراتب تجار اللؤلؤ وضرائب الحكام وشيوخ الاقاليم والقبائل ، والتركيب الاجتماعي الشامل للسكان والعلاقات المالية بين الناس وأشكال القروض وما قيل عن سخرة معينة في هذا المجال خاصة وقت الازمات المالية في الخليج .

وصحيح ان تفجر الينابيع التي تنبنى عليها مقومات الواحات هي حدث جيولوجي أو مورفولوجي على الأقل ، الا ان تكنولوجية الزراعة هي التي تحول هذه الأحداث في هذه الأماكن الى واحات . وحيث ان المتعارف عليه ان القبائل العربية - بادية ومستقرة - تعاف ممارسة الزراعة باعتبارها عملا يدويا ليس في منزلة التجارة والرعي شرفا - فإن الأمر يحتاج من الدارسين الى تقصي حقيقة من هم الذين كانوا يزرعون الواحات الضاربة في الغنى والرخاء الى عصور قديمة . فاذا كانت هناك أجابة سريعة عن العمالة الزنجية المسترقة والمحررة في القرون القليلة الماضية ، فهل كان الأمر كذلك في الألف الأولى قبل الميلاد ؟ ومن هم ارقاء الماضي ؟ من كل لون أن لون محدد ؟ وهل كان بينهم احرار فقدوا حريتهم لديون عليهم لم يوفوها ، كما كان الحال في اليونان وروما وحضارات شرقية أخرى ؟ وهذا ، وغيره من ظواهر حضارية ، كأنواع من مذاهب الموسيقى الراقصة والاغاني وآلات موسيقية ، تحتاج إلى مزيد من الدراسة كوضوعات كبرى في الجغرافية التاريخية للخليج أقصاه وادناه . وما هو تأثير الهنود والافارقة والفرس في فنون الملاحة والزراعة وأنظمة الرى . ما هو تركيب السلالة في واحات ذائعة الصيت كالاحساء (اليمامة سابقا على الأغلب) أو القطيف أو البريمي ؟ وتحتاج مثل هذه المباحث الى تفاصيل أخرى دقيقة كأن نعرف هل كان النخيل اختصاص عمل زراعي للعرب بينما اعداد الحقول وتنظيم المساقي والمحاصيل الزراعية الأخرى من نصيب الأفارقة ؟ أم ان الأفارقة احتكروا كل العمل الزراعي بحيث أصبح لا غنى عنهم في هذا المجال الغذائي الهام ؟

ومثل هذا ينطبق على أبحاث أخرى عن موضوعات شارك فيها الخليجيون باقدار متفاوتة في الاستخدام والصناعة . مثال ذلك أنواع المراكب التي نقلت تجارة العرب من جنوب آسيا إلى شرق أفريقيا (الشكل رقم ٢) وكذا نقلت اعدادا من المستوطنين الخليجيين الى شرق أفريقيا وبدرجة أقل إلى الهند وأبعد من ذلك إلى جزر جنوب شرق آسيا .

وفي العصر الحديث أصبحت هناك موضوعات متكررة في الخليج ، دراسة نموذج منها يعطي الكثير من المؤشرات الحسنة عن مثيلها . وهكذا فإن دراسة نمو الطاقة الكهربائية والمياه المحلاة في غالبية الخليج متكررة من حيث النوع وليس الكم . وكذا عدد مشتركي التلفون والتلكس والفاكس وربما بعد قليل المشتركين في ارسال التلفزيون بالاقمار الخاصة . وتعطي دراسة مثل هذه الظواهر الحياتية ووسائل الاتصال نسبا للفرد الخليجي مماثلة (أو أعلى) من نصيب الفرد في كثير من دول متقدمة ، برغم ان ممارسات اجتماعية كثيرة مازالت تضرب جذورها في التقاليد والعادات السابقة على عصر الاتصالات . مثال ذلك ان مشاركة المرأة في ميادين من العمل مازالت قاصرة على نحو ٥٪ أو أقل من مجموع القوة العاملة . وبهذه المناسبة فإن التقاليد والعادات التي تقال لتبرير ذلك هي في الواقع ليست في تفصيلاتها دقيقة . فعمالة المرأة في عصر الغوص وفاعليتها المجتمعية كانت كبيرة داخل البيت وداخل الفريق (الحي) ، وربما كان لبعضهن أنشطة على الشاطيء أيضاً .

ومن الموضوعات المتشابهة في جغرافية الخليج نمو وشكل ومورفولوجية المدينة الحديثة . فحيث ان أوجه الشبه الوظيفي والعمراني والخدمي مفقودة بين المدينة القديمة والحديثة ، فإن المدينة الحديثة هي نبت عصر جديد صلتها العضوية بالأرض قريبة من الصفر . فبديل «الفريق» المترابط أسريا ، بل قرابيا على الأغلب ، تحتفظ أحياء المدينة الحديثة باسماء «الفرقان» القديمة بدون الدلالة القرابية . وكانت المدينة القديمة تتكون من بيوت صغيرة المساحة متلاصقة فيما بنيها بدون خطة طريق واضحة ، بل سككا ضيقة تلتوى وتنثني مع أسوار وابنية البيوت التي تزيد أو تقل كلما أضاف صاحب البيت اضافة ، أو كلما تقادم العهد بجزء من البيت فتساقطت احجاره لقلة الرعاية بسبب ضائقة ، أو موت الرجال أو هجرة الناس .

أما مدينة اليوم فقد صادفها أمران سهلا قيامها بشكلها الفاخر الحالي . أولهما أن المدينة تجاوزت الأحياء القديمة بهجرة أصحابها إلى أحياء جديدة بيوتها ذات مساحات واسعة وذلك نتيجة الدخول الجيدة من العمل التجاري أو الوظيفة ذات الايراد الشهري الثابت . وفي غالب الحالات تمت مثل هذه النقلة مرتين خلال حياة جيل واحد . ارتبط ذلك بتزايد المدخولات وخاصة بعد تأميم البترول ونشأة دولة الرفاه بحق ، مما ساعد على ترك البيوت التي بنيت منذ عشر إلى خمسة عشر سنة مرة أخرى إلى بيوت أوسع وأغلى معمارا وبناءًا وأثاثا ، بينما تحولت البيوت القديمة (نسبيا) إلى مخازن أو مساكن للعمال تؤجر بالغرفة لعدد كبير . وساعد ذلك على كثافة سكانية عالية جداً في وسط المدينة الخليجية المعاصرة ، بينما تناثرت المدينة في اتجاهات متباعدة

مكونة من مساكن كبيرة وفيلات ذات حدائق وكثافة سكانية منخفضة . وأدى هذا التباعد إلى طلب شديد على الخدمات الأساسية ـ كهرباء ، مياه ، تلفونات وأخيراً صرف صحي ، مما أرهق الدولة فعلا في هذه المجالات .

أما الأمر الثاني فراجع إلى استملاك الدولة لمعظم الأراضي . وذلك لأن القليل كان هو الملك الخاص في المدينة القديمة ذات المساحة الصغيرة . وقد ساعد ذلك على انه كان بامكان الدولة ان تخطط لمدنها في كل الخليج دون مشاكل تعويض تذكر . بل ان أراضي «الفرقان» القديمة عوضتها الدولة بفرقان أكبر وارحب مرات متعددة ، وهي فوق هذا مقام عليها البنية الأساسية من طرق وكهرباء وما إلى ذلك . صحيح ان بعض الخطط لتنمية المدينة قد تعرضت لتعويضات مالية كبيرة بحيث كانت هناك مضاربات على قيمة الأراضي بصفة عامة ، الا ان ذلك كان لفترة محدودة ، وفي مناطق محدودة حينما تشق طرق خدمة أسرع . وموضوع ملكية الدولة للأراضي هو في حد ذاته عامل حاسم في تخطيط وتنفيذ بناء المدن بتكلفة أقل بكثير مما لو كانت غالبية الأرض مستملكة للأفراد . ومن ثم ظهرت مدن الخليج الحديثة في نحو عشر سنوات مدنا متشابهة من حيث الاتساع وشبكة الطرق العريضة الحديثة المشجرة على الأغلب (برغم تكلفة الشجرة العالية) . وفي أحيان خصت الدولة بعض الأحياء بنماذج معمارية معينة . ونذكر على سبيل المثال منطقة العاصمة في عمان ، فمسقط محتفظة بمبان شبه تاريخية وألوان بيض ومطرح بسوقها وكورنيشها شبيه بالمعمار القديم ، وروى وقابوس والقرم لكل منها معمار خاص ومساحات خاصة ونمط حياة خاص . فالقرم نمط القصور عكس مدينة قابوس نمط الحياة شبه الأوربية وروى بعمائرها أصبحت مركز الأعمال والتجارة الحديثة . ومثل هذا ، وبصور أقل تشددا ، نجد المدن الخليجية الأخرى .

ويمكن ان نستمر في تعداد جوانب كبرى متشابهة في جغرافية الخليج . ويكفي هنا ان نذكر ان الجوانب الاقتصادية الحديثة متشابهة تشابها أشد وأقوى . فهناك في المدينة أرض وناس ونوازع وقيم جمالية تترك حرية لتفرد بعض الظاهرات العمرانية في دولة عن أخرى . فالقوس الرائع لكورنيش الدوحة بجزيرته الوسطى (المنظر العام كله ، وخاصة في الليل يذكر بانحناءة جنيف على قوس بحيرة ليمان مع نافورة المياه بديل جزيرة النخيل) ، يختلف عن النظام الشبكي لمدينة أبو ظبي بأشجار شوارعها المستقيمة شديدة الاتساع (بعضها شبيه الشانزليزيه) . وهذا وذاك غير التفاعل البيئي بين المدينة والجبل والوادي والبحر في مسقط . أما في الجوانب الاقتصادية فالنمطية واضحة بلا مزيد : سيطرة صادرات النفط على مكونات الناتج المحلي العام وعلى

الصادرات ، واستراتيجية الصناعة الحديثة قليلة العمالة كثيفة رأس المال والتي تقوم على أساس الطاقة الرخيصة ، والمكان ورأس المال الاستثماري . وكذلك هناك دائماً محاولات في اتجاه الأمن الغذائي وشركات للزراعة المحمية والانتاج الحيواني .

وأخيراً فإن دول الخليج تتشابه في موضوع الجغرافيا السياسية من حيث المكونات والمقومات وانماط الحكم والمواقف السياسية المتماثلة أزاء العالم المحيط ، فضلا عن الارتباط الوثيق بالجامعة العربية واطار التعاون من خلال مجلس التعاون الخليجي .

الجغرافيا الصغرى في الخليج :

تتناول الجغرافيا الصغرى موضوعات الدراسات التفصيلية وفي أماكن محدودة . وذلك لاستجلاء أثر العلاقات المحلية في تراكيب معينة سكانية أو سياسية أو ممارسات اقتصادية أو خلفيات تاريخية .

وربما كان أول وأكبر موضوعات الجغرافيا الصغرى في الخليج هو التمييز الواضح بين اقليمين كبيرين هما الاقليم الجبلي العماني من رأس مسندم والامارات الشمالية الى بحر العرب عند الحافة الشمالية لرملة وهيبة ، وبقية اقليم الخليج الذي يطل فعلا على الخليج العربي (شكل رقم ١) . وليس سبب هذا التمييز الارتفاع العام لتضاريس المنطقة العمانية أو تاريخها الجيولوجي المختلف عن بقية النطاق الخليجي فقط . بل هناك مبررات عديدة ترتبت على هذا النوع من التكوين . فعناصر المناخ المحلية من حرارة ورطوبة وتساقط مختلفة ومؤثرة في أشكال الحياة النباتية والحيوانية على سطوح الجبال ووديانها العليا والسفلى ومنحدراتها وترباتها . ولكن من النقاط الهامة ان خزان المياه الجوفي في المنطقة العمانية هو جزئياً فوق مناسيب الأودية والهضاب المحيطة بالمنحدرات الجبلية . وهذا ما جعل في الامكان ، بواسطة تكنولوجية الافلاج ، جر المياه تحت السطح عدة كيلومترات دون أن تتأثر بالبخر ، تنحدر بقوة الجاذبية إلى الحقول والمستوطنات في صورة «الغيل» (المساقي أو القناة المفتوحة على سطح الأرض) . وبالمناسبة هناك تفسيرات عدة في أجزاء عمان الشرقية والغربية حول المقصود بالفلج والغيل . وبعضها هو كما ذكرنا : الفلج للمسار التحتي والغيل للمسار السطحي) .

عمر تكنولوجية الافلاج ضارب في القدم ربما للالف الأولى قبل الميلاد . وهي شبيه بنظام «القناة في ايران» ، و«الكهريز» في مناطق أخرى جافة . وهذا يشير إلى تناقل معرفة قديمة في هذه المنطقة الجافة . وليست كل الافلاج في عمان قديمة . بل ان لبعضها تاريخ معروف منذ ق ١٦ أو ١٨ نتيجة جهود أئمة أو استثمار قباطنة البحر لأموالهم في استعمار أرض وزراعتها في داخلية البلاد .

وتتكرر كلمة « مسفاه » في مناطق معينة على سفوح الجبال عند ارتفاعات مختلفة . فهناك مسفاه العبرين التي تقع على ارتفاع ربما جاوز ١٥٠٠ متر على السطح الجنوبي لكتلة الجبل الأخضر (قرب الحمرا) ، وربما كانت المسفاه عند مستوطنة «سيتال» على السفح الشمال للجبل الأخضر في أعالي وادي بني خروص على نفس الارتفاع . والمسفاه هي المكان الذي تسفى فيه المياه . وهي بذلك مناطق تخرج منها المياه طبيعيا في المنحدرات العليا وتعطي مصدراً مستمراً للمياه في تلك الأعالي . والأغلب ان سبب ذلك هو اختلاف مسامية الصخور في بنية الطبقات الحاملة للمياه داخل الجبال . والأمر يحتاج إلى دراسة مستفيضة ومقارنة بين جمع من مسافي عمان والمستوطنات البشرية التي نشأت بسببها ومصير هذه المستوطنات حينما يذهب الجيل الذي مارس زراعة المدرجات ، ويأتي جيل غير متمرس في هذا النوع الشاق من الزراعة ويفضل عليها أعمالا أخرى في المدينة القريبة أو البعيدة .

على العموم فإن الافلاج قد ساعدت على زراعة مساحات كبيرة من أراضي الوديان المتسعة عند أقدام الجبال فنشأت سلسلة الواحات الكبرى العمانية في شمال وجنوب الجبال ، من الكامل وجعلان في الشرق الى البريمي والعين في الغرب ، مروراً بابرا والمنترب إلى المضيبي وآدم ونزوة وبهلا وعبرى وضنك . بينما أكبر واحات السفوح الشمالية تتركز في منطقة بيدمونت جبل نخل والجبل الأخضر حول الرستاق وعوابي ونخل . ويمكننا اعتبار شريط الباطنة الزراعي ومدنه وقراه الساحلية من السيب في عمان حتى كلبا والفجيرة في الامارات ، بمثابة سلسلة متصلة من الواحات شمال الجبل الأخضر والحجر الغربي في مقابل مجموعة واحات السفوح الجنوبية المذكورة سابقا .

هذه الصورة من التداخل الزراعي الكثيف نتيجة الوديان والافلاج تختلف تماما عن صورة اقليم الخليج العربي . فالزراعة هنا هي الواحة الكلاسيكية كالاحساء ، أو زراعات قليلة ومحدودة مساحيا حول البئر لصعوبة رفع المياه من الآبار التقليدية . وحينما أضيفت المضخات الحديثة (على ما عليها من آثار عدم التوازن البيئي والاخلال بالمخزون الجوفي من الماء) فقد كان ذلك في مزارع غالبا للأثرياء ينشئونها أساسا للترفيه ، والبعض يستغل جزئياً لانتاج محاصيل تجارية ـ غالبا خضروات وطماطم .

ويلخص شكل رقم (٤) والقطاع التتابعي للانشطة الاقتصادية الاختلاف الفعلي في صورته العامة بين الاقليمين الفرعيين في الخليج . فهناك في منطقة الخليج العربي يتتابع شريط الساحل الدائم السكن ، مع نطاق الرمال والبداوة الواسع الذي يتخلله واحات مختلفة الاقدار .

بينما في المنطقة العمانية نجد النطاق الساحلي يتميز بالسكن الدائم المتوجه إلى أنشطة البحر والزراعة معاً . ثم نطاق غير عريض من الرمال والبداوة فيما بين السيب والامارات ، ونطاق صخري وعر مع أودية ضيقة حول الجيوب السهلية التي بنيت فيها مدن عمانية لها تاريخ طويل هي صور وقلهات وقريات ومسقط ـ مطرح . وفي هذه الأودية الجبلية انتشر الرعاة من الشواوى (نسبة للشياه ـ أي مربي الاغنام والقليل من الابقار) كما انتشروا في وديان الجبل الأخضر والحجر الغربي خلف سهل الباطنية وباديته الصغيرة . وفي الوديان حيث الافلاج الكبرى تتناثر المستوطنات العمانية داخل واحاتها الكبرى مثل سمايل وازكى ونفجه أو الواسط وهايل في وادي الجزى .

وفي النموذج الخاص بالتحولات في سهل البطانة (الشكل ٥) شبه بنموذج التغير العام (شكل ٣) في الاطار العام ، الا ان هناك متغيرات خاصة تجعل دراسة التحولات في البطانة مختلفة كما ونوعا . ففي الحالتين كان هناك مستوطنات تواجه البحر وتشتغل بأعمال البحر وبخاصة السماكة والسفر عبر البحار ـ الا ان اللؤلؤ كان نشاطا بحريا مقتصراً على سكان الخليج العربي . ومقابل ذلك كان سكان البطانة يمارسون أعمال الزراعة في هذا السهل الغني وفير الماء ـ آبارا وأفلاجا . ولكن علاقة سكان البطانة بالظهير الذي تكونه مستوطنات بيدمونت الجبل ووديانه الشمالية وثيقة لقرب المسافة وتبادل المصالح والغذاء . (الحبوب والتمور والليمون في البطانة ، والتمور وفواكه المنطقة الجبلية من عنب ومشمش وتين فضلا عن الثوم ولحوم الاغنام في البيدمونت المتمركزة حول الرستاق وغيرها) . وفوق ذلك فقد كانت البطانة تقع غالبا تحت ظل ادارة عمانية مركزية مرة في صحار وتارة في الرستاق مما خلق مدنا حاكمة في الاقليم ، ومازالت لها هذه الوظيفة للآن . فالوشائج سميكة بين الساحل والظهير بينما قد لا نجد هذه القوة في علاقة الساحل والداخل في منطقة الخليج العربي ، وبخاصة في الجوانب السياسية ، فقد كانت القبائل البادية في الظهير قوية وكثيرة الترحل مما خلق عوالم مخلخلة شبه منفصلة . لكن الأمر لم يخل أبدا من علاقة اقتصادية ونقل تقوم بها البادية من الساحل للداخل مع تبادل الغذاء بين منتجات البادية ومستوردات الغذاء في مدن الساحل .

وحينما حدث التغيير بقدوم عصر البترول ، ومدت الطرق الرئيسية على طول المناطق الساحلية أو بموازاتها كان هناك نمطان متميزان في الجغرافيا الصغرى . نذكر نموذجين منهما من البطانة ومن قطر . وليس معنى هذا ان النموذجين قد تكررا في المنطقتين العمانية وتلك المطلة على الخليج العربي . فكل مكان محلي له مدخلاته ، ومجالاته الخاصة .

أولا : نموذج التغيير في منطقة البطانة الشرقية وبيدمونت الرستاق :

المقصود هي المنطقة الممتدة من بركاء إلى المصنعة في مواجهة البحر ، ويختطها إلى الداخل طريقين احدهما من بركاء إلى نخل والعوابي وينتهي عند الرستاق ليبدأ الطريق الثاني من الرستاق إلى الحزم إلى المصنعة . ويتكون الحد الفعلي من جبل نخل الموازي للطريق من نخل إلى العوابي ، والجبل الأخضر من العوابي إلى الرستاق . في هذه المنطقة ثلاث مناطق ايكولوجية أولها الساحل وسهل الباطنة الذي يمتد في شريط يتراوح عرضه بين ٥ و١٥ كيلومترا . وتحتل الزراعة فيه نطاق أقرب إلى البحر في حدود عرض ٢ - ٤ كم فقط . وتقع قرى الصيادين والمستوطنات الأصلية للبطاقة على التكوين الرملي للساحل تاركين الحقول خلفهم . وبين الحين والآخر توجد مدينة أو مستوطنة كبيرة إلى الداخل قليلا تتمركز حول سوق وحصن . وفي ١٩٧٤ مدت الدولة طريق السيب صحار إلى الجنوب من النطاق الزراعي كي لا تخل بالحقول قدر الامكان .

ولكن ما ان تم انشاء الطريق حتى بدأ الناس في استخدام واجهته أولا كمحلات صغيرة جوار محطات البنزين ، ثم تحولت المدن والمستوطنات الساحلية تدريجيا إلى واجهة الطريق مقتطعة أجزاء غالية من الحقول . لكن الابنية والعقار على الطريق وقريب منه أعلا غلة من الأرض الزراعية . وفي أول الثمانينات كان المار على هذا الطريق يرى الحقول والنخيل باستمرار بشمال الطريق . واليوم تحجب المباني أكثر من نصف الحقول عن الطريق وبخاصة في البطانة الشرقية حيث نقترب من العاصمة ، وترتفع قيمة الأرض .

ولم يكن ارتفاع قيمة الأرض لهذا السبب وحده . ففي منطقة السيب تحولت الحقول إلى فيلات وقصور صغيرة لقضاء عطلات نهاية الأسبوع واجازات الربيع والصيف . صحيح ان المنظر الأخضر مازال قائماً ، لكنه أفقد هذه المنطقة القريبة من العاصمة وظيفة انتاج الالبان والخضروات . كما أدى العمران الترفيهي والسكن على طول الطريق إلى كثافة حركة أكثر من قدرة الطريق السريع حين انشيء . ومن ثم أضيف للطريق في جزء منه طريقا آخر ليصبح أوتوستردا قادراً على تحمل عبء الحركة .

أما المنطقة الثانية فهي الهضبة التي تتدرج ببطء غير محسوس إلى اقدام الحوائط الجبلية والوديان التي تشقها . وتنقسم هذه الهضبة إلى قسمين : الأقرب إلى السهل يسيطر عليها جزئياً التكوين الكارستي بحيث لا تظهر الوديان على السطح . وهذه الهضبة وجزء من السهل كانت مجال تنقل البادية بابلهم شمالا وجنوبا ، وبموازاة محور البحر شرقا وشمالا بغرب . لهذا لا نجد عمرانا قديما أو حديثا في هذه الهضبة . وفي أجزاء أخرى من شمال البطانة استقر هؤلاء البدو في بيوت من الطوب قريبا من الدروب التي تخترق البطانة إلى المدن الساحلية .

وإلى الجنوب مباشرة نجد البيدمونت الحقيقية حيث الوديان تخرج زاخرة بالمياه أو تظهر بها برك من الماء حسب موسم وقدر الامطار . وعلى جانبيها زراعة ارصفة يجتهد الفلاح في المحافظة عليها من الفيضانات العالية . وقد سهل الطريق الاسفلتي نجاح الزراعة والاستقرار في هذا الجـزء كامتـداد لسكن واستغلال تاريخي قديم . وقد زاد الاستقرار بتمركز وامتداد الخدمات الأساسية لمراكز الولايات وبخاصة الرستاق ، فهنا الادارة والمدارس والوحدة الصحية والرعاية الاجتـماعيـة ، ومصنع التمور ، ومنحل العسل . ولقرب الرستاق من مخارج أودية كبيرة فإن الراجح ان جزءاً من تبادل ثروة الشواوي (رعاة الاغنام والابقار) يتم في سوقها .

والخلاصة ان التغيرات الحديثة في هذه المنطقة قد أدت إلى تحول مكان المدن الى الطريق ، وفقدان جزء من حقول الانتاج الزراعي نتيجة لذلك ونتيجة للاستخدام الترفيهي ، وان الهضبة الكارستية أصبحت خالية من النشاط الانتاجي بعد استقرار البدو ، وان البيدمونت قد تأكدت أهميتهـا بامتـداد الـطريق الاسفلتي اليهـا ووصول الخدمات الأساسية واسيطان القائمين بهذه الخدمات في المنطقة .

ثانيا : منطقة الخور في دولة قطر :

كانت منطقة الخور من المناطق التاريخية الهامة في قطر . وتقع مدينة الخور على نهاية الخور الذي هو في الواقع تتمة غارقة لوادي يمتد غرب هذا الخور بحوائط شبه عمودية الى ارتفاع محدود (٥ - ٧ متر) . وعلى جزء من الحائط الجنوبي اكتشفت آثار وهياكل تعود إلى نحو الألف الرابعة ق.م. مما يدل على سكن قديم حينـما كان منسـوب البحـر أعلا بنحو ٢ - ٣ متر عن منسوبه الراهن . ومن جملة ما وجد من لقي أثرية في هذا المكان أنواع من فخار يعود إلى حضارة «العبيد» المنتشرة في سومر وشرق السعودية وأماكن أخرى خليجية .

وفي عصر اللؤلؤ كان لمواني اقليم الخور (الذخيرة وسميسمة والظعاين والخور) اسهام يصل ٢٦٪ من أسطول اللؤلؤ القطري ، ونحو ٣٠٪ من سفن النقل البحري القطرية (راجع جدول سابق اعلاه) . ومازالت الخور للآن من أهم مراكز صيد السمك في قطر .

في الماضي كان حول الخور مزارع محدودة في عدة روضات (الروضة تطلق على المنخفضات ذات تربات جيدة للزراعة) أهمها العقدة وأم قين وتنبكك . وكانت هناك مراكز استيطان ساحلية مجاورة هي الذخيرة شمال الخور وسميسمه والظعاين جنوبها . وفي الداخل كثير من مضارب البدو من النعيم والكعبان وبعض المهاندة والحسن من المهاندة. هذه المضارب كانت تختار عند آبار في روضات متفاوتة الاحجام مثل البويرده ، أم القهاب ، أم بركة ، والخريص والوعب إلى الشمال أكثر . وبعض هذه المضارب تحولت تدريجيا إلى مساكن بدوية شبه دائمة (شكل ٦) .

ثم جاء عصر البترول . وشق طريق الشمال القديم من الدوحة إلى الرويس . وعند أم سويجة كان مفرق الطريق المتجه لمدينة الخور وعند هذا المفرق نشأت قرية أم سويجه عند آبار عذبه تغذي الخور . وكان هذا الطريق يمر عند أم بركة وسمسمة . وبتحول الكثير من الناس إلى وظائف في الدوحة وبتقديم خدمات التعليم والصحة الى مدينة الخور جاءت فترة الستينات وأوائل السبعينات لتشهد تهجير سكان أم سويجه وأم بركة وأم القهاب والعقدة الخ إلى الخور والذخيرة حيث تركزت المدارس والوحدة الصحية والبلدية وخدمات الهاتف ، والبنك والسوق والجمعية التعاونية لبيع المواد الغذائية . ثم أنشيء الرصيف الجديد للميناء في الخور وتركز أسطول المستثمرين من أهل المنطقة على هذا الرصيف الذي يشتمل على أكثر من ١٥٠ مركبا من أنواع السنبوك القديمة المجهزة بالمحركات ، بالاضافة الى «طرادات» قوارب أصغر وأسرع بعضها من االمواد المصنعة (فيبرجلاس).

وقد أدى إلى عودة سكان كثيرين من أهل الخور والذخيرة وسميسمه الى السكن فيها بانشاء المساكن الحديثة . بل ان تزايد المداخيل الفردية لدى البعض قد أدى إلى اعادة تعمير مناطقهم القديمة في روضات أم القهاب وأم بركة والرحيه وأم الغاف . فأصبحت هناك مساكن ترفيهية داخل البر لعطلات نهاية الأسبوع والربيع . وتتداخل في هذه المناطق مزارع ومساكن ترفيه لملاك من خارج الاقليم (غالبا من الدوحة).

وإلى جانب هذا فإن شواطيء كثيرة في رأس النوف وعريدة ورأس لفان قد بنيت عليها فيلات لملاك كبار لعطلات نهاية الأسبوع مما يهدد الشواطيء الطويلة لمنطقة الخور بالاستملاكات الفردية .

هذه الطفرة ـ بعد تفريغ السكان ـ ربما يزيدها كثافة ان حقل غاز الشمال البحري يقع شمال اقليم الخور مباشرة . وحيث ان الشواطيء القريبة في لفان والحويلة ملكيات خاصة ،وحيث ان أنابيب الغاز الممتدة إلى بقية قطر تخترق اقليم الخور عند أم القهاب ، وحيث

ان الخور هي المركز الحضري الكبير في المنطقة ككل (٥٣٠٠ شخص ١٩٨٦) فربما كانت الخور مرشحة لأن تصبح مكان لبناء حي سكني للعمالة التي ستعمل في موضوع الغاز ومصنع تسييل الغاز وربما أيضاً انشاءات أخرى كمحطة تحلية وطاقة جديدة . هذا فضلا عن المنطقة الصناعية الحالية بين الخور والذخيرة وهي مازالت في أول عهدها .

والخلاصة ان اقليم الخور بعد ان فقد نشاط اللؤلؤ وفقد البداوة بعد دخول عصر البترول وحدث له تفريغ سكاني (الا مدينة الخور) قد عادت له أهميته السكنية بعد انشاء طريق الاوتواستراد الجديد، مع القرب المكاني في الدوحة (نحو ٥٠ كم فقط) ثم مع الطفرة في المدخول خلال السبعينات وأوائل الثمانينات بدأ الاستثمار في سفن الصيد أولا ، ثم المزارع ثانيا ، بحيث أصبحت منطقة انتاج غذائي منوع سمكي ودواجن بكمية جيدة ، وخضر بكميات محدودة . ثم جاء السكن الترفيهي الخاص على الشواطيء أو في الروضات الداخلية . والمنطقة بعد مؤهلة لأن تكون مقرا سكنيا للعمالة في النشاط الصناعي الذي سوف يقوم على استخراج الغاز وتسييله (شكل ٧) .

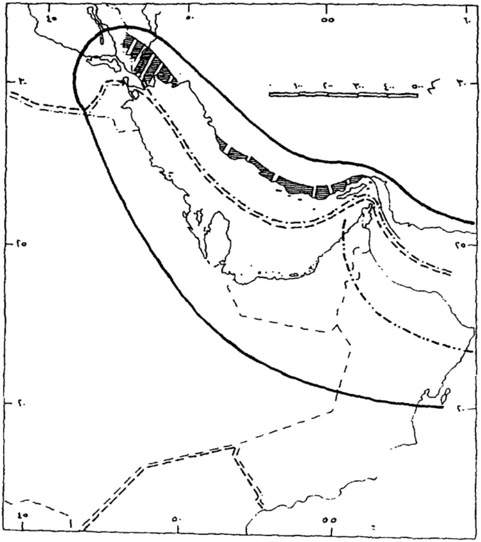
ختام :

ليست كل عناصر الجغرافيا الصغرى مرتبطة باقاليم أو مناطق ذات تمايز في مقوماتها تؤدي بها إلى توجهات وتحولات معينة فقط . بل ان هناك عناصر أخرى للدراسة الصغرى وبخاصة في الجوانب الحضارية في الخليج . ولا تتسع الورقة الا لذكر بعض هذه العناصر مثال ذلك دراسة علاقة المكان في اختلاط السلالة المهاجرة والمستوطنة داخل الخليج . فتوجهات وعلاقات عمان المكانية قد أدت الى تداخلات من بلوش مكران وعرب وبانتو الساحل الشرقي لأفريقيا ، وذلك فضلا عن الوشائج القوية بسكان جنوب الجزيرة العربية القدماء كالمهرة والجبالية . ومثل دراسة غطاء الرأس الخليجي . فهو في معظم الخليج العربي العقال والغطرة البيضاء غالبا ، بينما هو في عمان ـ بل جنوب الجزيرة ـ العمامة ذات الربطة المعينة والألوان المتعددة . وهناك بعض دراسات تشير إلى ان الغطرة والعقال قد غزت المنطقة آتية من الشمال ـ ربما من بادية الشام والدهناء .

وثمة عنصر آخر . فسكن الواحة الغالب على عمان ، ومن أجل الحماية وتوفير الأرض للزراعة ، أدى إلى مورفولوجية القرى العمانية المسورة ذات المساكن المتلاصقة . ويؤدي هذا إلى تفاعل ابناء المجتمع من الجنسين في الكثير من الانشطة اليومية ، من ملء جرار الماء إلى أنشطة متعددة في ساحة القرية . وذلك عكس البيوت المستقلة ذات الاسوار في قرى النطاق الساحلي حول الخليج العربي مما يؤدي الى فصل واضح في الانشطة بين الجنسين . هناك أيضاً نظام «البادجير» للتهوية في بيوت الخليج العربي ، بينما يستخدم سطح البيت في ساحل عمان للحصول على أجواء مفتوحة .

والخلاصة ان منطقة الخليج مليئة بامكانات الدراسة التي يمكن ان تبرز الشخصية الخليجية تاريخيا وحديثا من خلال موضوعات كبرى ، مع التمييز المحلي لأماكن أو اقاليم فرعية نتيجة علاقات مكان ومدخلات بيئية وحضارية متعددة . وقد آن الأوان لنطرق موضوعات صغري في دراساتنا أو دراسات تلامذتنا في أبحاث الماجستير والدكتوراة بدلا من اطروحات متكررة لموضوعات عامة منفصلة عن الكيان الشمولي للدراسة الجغرافية، قليلة الأهمية في اعطاء المؤشرات الحقيقية لتوجهات التنمية وتخطيط التكامل الاقليمي على أسس صحيحة من المدركات الجغرافية والحضارية .

شكل (١) مفاهيم متعدده للخليج



الإقليم الجغرافي الخليجي

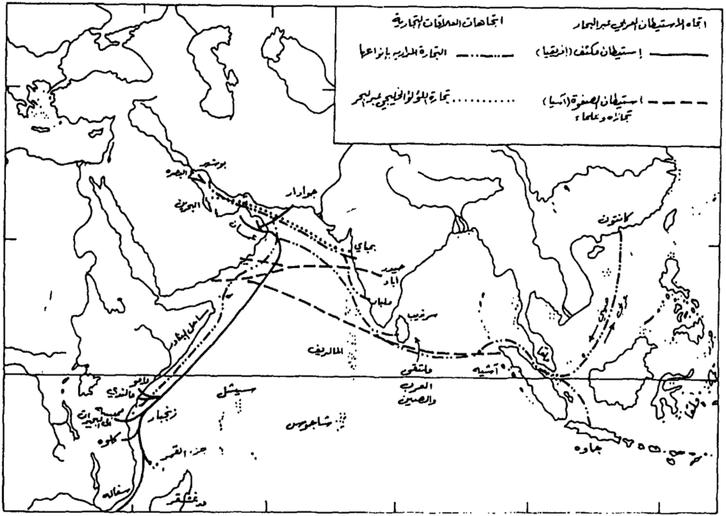
الحد الشرقي للغة العربية (مع تداخل لغات إيرانية)

الحد السياسي الشرقي للمنطقة العربية

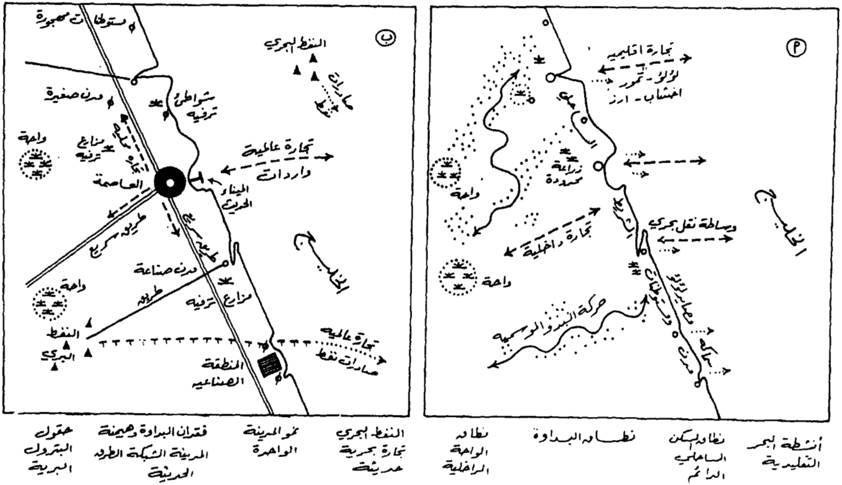
حدود دول مجلس التعاون الخليجي

تخوم تقريبية للإقليم الفرعي العماني داخل الإقليم الخليجي

الجغرافيا الكبرى لعرب الخليج : الخليج عبر البحار — شكل (٢)

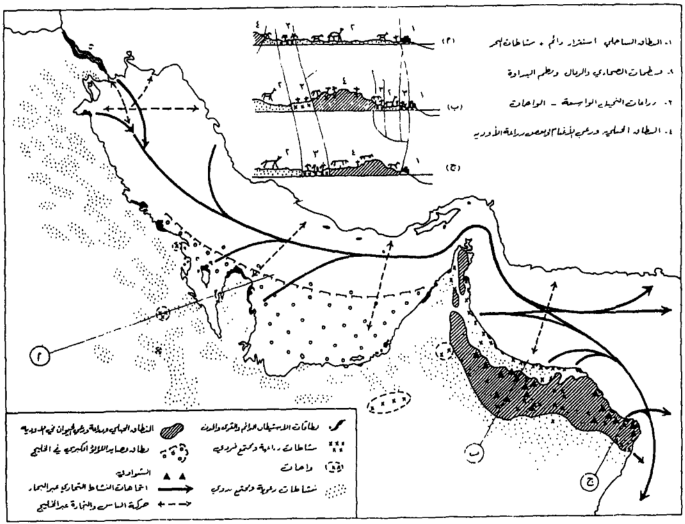


شكل (٣) تجـريد لنمودج التغـيير في الخليـج



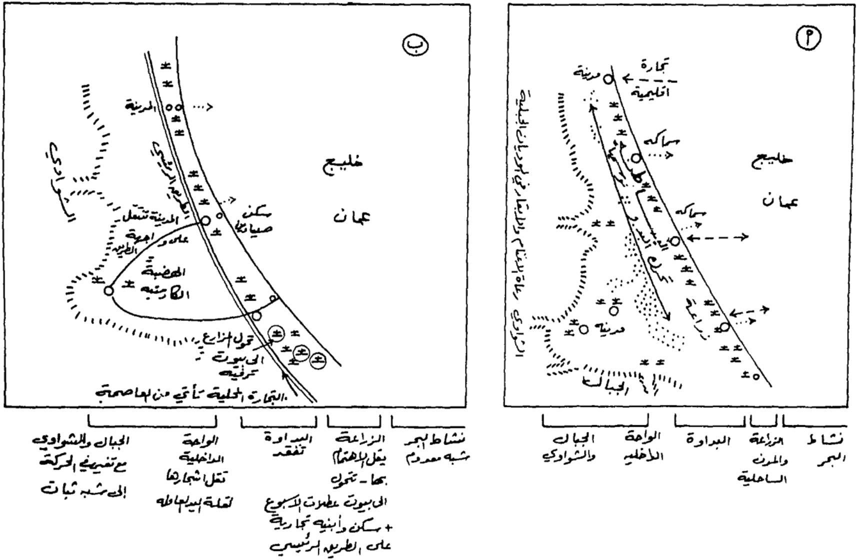
إيكولوجيا الانسان في الخليج
(قبل البترول)

شكل (٤)

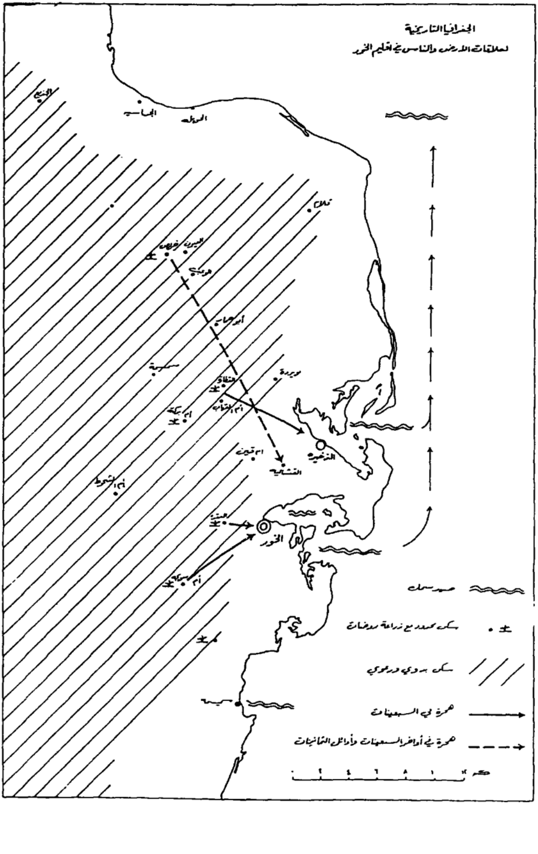


شكل (٥)

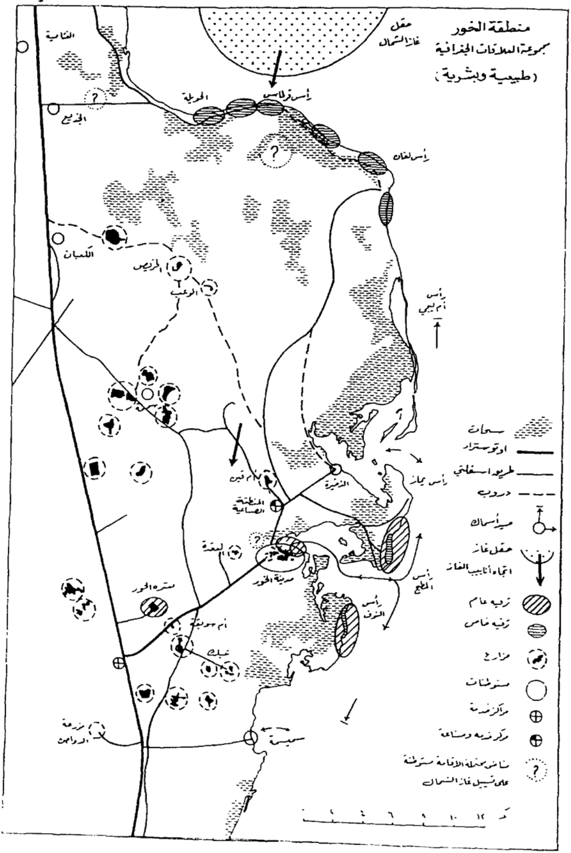
تجريد لنموذج التغيير في الخليج : ساحل الباطنة واقدام الجبال العمانية



شكل (٦)


الجغرافيا التاريخية
لعلاقات الارض والناس في اقليم الخور
الخور
الذخيرة
صيد سمك
سكن محدود مع زراعة روضات
سكن بدوي ورعوي
هجرة في السبعينات
هجرة في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات
كم

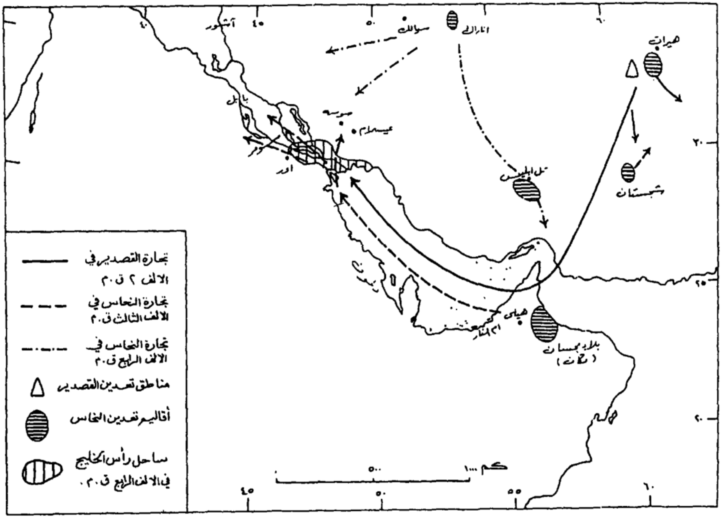
شكل (٧)



منطقة الخور
مجموعة العلاقات الجغرافية
(طبيعية وبشرية)
حقل غاز الشمال
رأس لفان
الحويلة
الذخيرة
مدينة الخور
المنطقة الصناعية
سميسمة
سبخات
اوتوستراد
طريق اسفلتي
دروب
مرفأ أسماك
حقل غاز
اتجاه أنابيب الغاز
رصيف عام
رصيف خاص
مزارع
مستوطنات
مراكز خدمة
مركز خدمة وصناعة
مناطق محتملة للإقامة مترتبة على تسييل غاز الشمال

شكل (٨)

علاقات الانتاج والتجارة الخليجية فيما قبل الميلاد



مورفولوجية مدينة الدوحة وعلاقتها بارتفاع منسوب المياه الجوفية

د. أحمد عبدالله أحمد بابكر

ود. علي ابراهيم الشيب

مقدمـــة :

تعاني مدن كثيرة في العالم من ظاهرة ارتفاع منسوب المياه الجوفية وبالأخص تلك المدن التي تقع على السواحل والشواطىء أو التي تحيط بها مياه البحار من أكثر من جانب أو التي تكون منخفضة نسبياً عن مستوى البحر فضلاً عن المناطق التي تهطل فيها الأمطار بمعدلات عالية ، ولا تجد تلك المياه طريقها الى الطبقات الدنيا من الأرض لأسباب تتعلق بخواص التربة وبتدني نسبة التبخر (أنظر Wilkinson, 1985; Poal, 1984) . ففي بعض مناطق وسط مدينة القاهرة ، على سبيل المثال ، ظهرت المياه الجوفية فوق السطح خاصة في المناطق ذات الطبوغرافية المنخفضة (كمال حفني ، ١٩٩٠) . وقد أصبحت هذه الظاهرة ملموسة ومتزايدة في الآونة الأخيرة في مدن مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، وخاصة الكبيرة منها ، ومدن السواحل باستثناء مدن سلطنة عمان حيث لاتسمح طبيعة تضاريس السلطنة التي تتكون من تلال ومرتفعات صخرية تمتد على طول ساحل خليج عمان من ارتفاع مناسيب المياه الجوفية (بلدية مسقط ، ١٩٩٠) . أما في المدن الكبرى في بقية دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية فقد أصبحت ظاهرة ارتفاع منسوب المياه الجوفية ظاهرة خطيرة ترتبت عليها مشكلات ومخاطر جمة ـ مشكلات عمرانية وصحية وبيئية ومشكلات قانونية ومشكلات اقتصادية . ففي مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية وجد أن المعدل اليومي لارتفاع المياه الجوفية يتراوح مابين ٠,٧ ـ ١,٥ ملم (المملكة العربية السعودية ـ وزارة الشؤون البلدية والقروية ، ١٩٩٠) ، وفي أجزاء من مدينة الكويت تصدعت المباني والمنشآت (Al-Sanad and Shaqour, 1990) . وقد لوحظ في البحرين أن المناطق المنخفضة بدأت تكون مستنقعات دائمة حيث بدأت المشكلة تتفاقم بعد دفن مساحات كبيرة في الجهة الشمالية الشرقية من جزر البحرين الأمر الذي أدى الى انسداد المجاري ومن ثم الى بطء تصريف مياه التربة (يوسف الصائغ ، ١٩٩٠) . وفي مدينة أبوظبي حيث مسامية التربة منخفضة جداً ما بين الماء محدودة ارتفع منسوب المياه الجوفية الى مابين متر واحد تحت سطح الأرض نفسه (ابراهيم باقر وصالح محمود عمر ، ١٩٩٠) . وفي مدينة دبي أدى وجود طبقة غير منفذة قريبة من سطح الأرض الى ارتفاع منسوب المياه الجوفية بصورة خطيرة الأمر الذي أثر على

الهياكل الخرسانية وأساسات المباني واتلف المساحات الخضراء . وزاد تثبيت الدعامات الحديدية على طول جانبي خور دبي الأمر سوءاً حيث أدى الى إغلاق مناسيب الصرف الطبيعي الصحية (حسين لوتاه ، ١٩٩٠) .

ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدينة الدوحة :

يرتبط تباين منسوب المياه الجوفية أو مستوى سقف الخزان الجوفي ارتباطا وثيقا بالوضع الطبوغرافي للمنطقة . فلاشك أن الارتفاع عن سطح البحر ودرجة الانحدار ووجود المنخفضات والمسيلات المائية عوامل تؤثر بطرائق مباشرة وغير مباشرة على كميات المياه المتسربة وعلى حركة انسياب المياه السطحية والجوفية على سطح الأرض .

وعلى الرغم من عدم وجود تباين شديد في التضاريس وتواضع التضرس بصفة عامة في مدينة الدوحة حيث أن الفارق لايتعدى بضعة أمتار قليلة ، إلاّ أن ذلك الفارق الطفيف يلعب دوراً لايستهان به في تحديد اتجاهات الانسياب السطحي وتجمع مياه الأمطار في المنخفضات والأودية السيلية ، ومن ثم في منسوب المياه الجوفية .

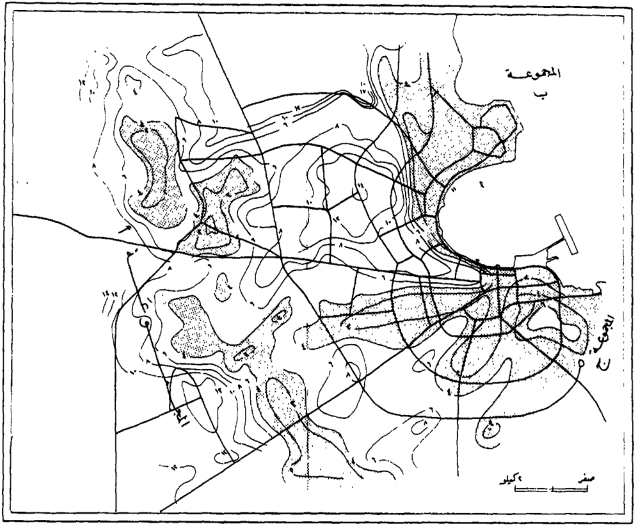
خلفية تاريخية :

تعتبر ظاهرة ارتفاع منسوب المياه الجوفية تحت مدينة الدوحة نتاجاً طبيعياً لحركة العمران والتشييد التي تشهدها الدوحة منذ بداية السبعينيات . فبعد أن كان منسوب المياه في فترة ما قبل النفط (ما قبل ١٩٥٠) ينحدر من ارتفاع متر واحد فوق سطح البحر تحت المدينة الى مستوى البحر على الساحل - ومن ثم كانت المياه تسيل بسهولة الى نقاط منافذها على سطح البحر - ارتفع ارتفاعا هائلا وبلغ ارتفاعه في بعض الأحيان أكثر من ٨ أمتار في عقد واحد (مدينة خليفه واسكان الهتمي) وأصبح عمق المياه أقل من المتر الواحد تحت السطح في بعض المواقع . فبعد أن كان الارتفاع محصورا في نطاق الطريق الدائري الثاني حيث كانت توجد كثافة العمران ارتفع في السبعينيات الى ٨ أمتار وبلغ ٩ أمتار في الثمانينيات في بعض أجزاء المدينة كمدينة خليفة وفريق الهتمي ووصل الى السطح في المناطق المنخفضة وادي مشيرب والريان (أنظر الشكلين ١ و ٢) . ويعتقد والتون (Walton, 1983) أن منسوب الماء الجوفي كان بين ٨ - ١٠ أمتار تحت مستوى سطح الأرض قبل سنة ١٩٥٠ ولكنه ارتفع في بداية الثمانينيات الى ما بين ٢ - ٤ أمتار تحت مستوى سطح الأرض وفي بعض المناطق المنخفضة كوادي مشيرب ومنطقة المنتزه ما بين متر واحد الى مترين (أنظر الشكلين ١و ٢) . وتفيد تقارير وزارة الشؤون البلدية أن منسوب الخزان الجوفي يرتفع بمعدل ٠,٨٢ من المتر في السنة (أنظر دولة قطر - وزارة الشؤون البلدية ، بلدية الدوحة ،

١٩٨٧) . وبمقارنة الشكلين ١ و ٢ يتضح أن المناطق التي يقل فيها عمق منسوب الماء الجوفي عن ٤ أمتار في زيادة كبيرة . وقد جاء في وثائق لجنة حصر ومراجعة التقارير والدراسات الخاصة بتطوير المياه الجوفية في دولة قطر (١٩٨٧) أن التخزين المتنامي للتكوينات الحاملة للماء الجوفي سوف يرتفع من ٣,٧٥ مليون متر مكعب في السنة الى ١٠ مليون متر مكعب في السنة بحلول عام ٢٠٠٠ .



شكل رقم ١٠ : عمق منسوب الماء الجوفي بالأمتار تحت سطح الأرض
خارطة الأشغال : أسكو ١٩٨٢ .



شكل رقم -٢- عمق منسوب الماء الجوفي ١٩٨٧م بالأمتار تحت سطح الأرض (بلدية الدوحة ١٩٨٧م)

ويؤدي ارتفاع منسوب المياه الجوفية الى مخاطر شديدة على الانشاءات التحتية للمباني وامدادات الخدمات (ككوابل الكهرباء والهاتف وخطوط الصرف حيث يقدر أنها تمثل ٤٠٪ من المياه الموجودة فيها) ، ويقصر من الفترة الحياتية للطرق الاسفلتية ، فضلاً عن تدمير الحياة النباتية والروائح الكريهة واحتمالات التلوث ومايترتب عليها من أخطار وتهديدات للصحة العامة . وقد قسّم تقرير جايكا (JICA, 1987) الأضرار المترتبة على ارتفاع منسوب الماء الجوفي الى ثلاثة أنواع هي : أولاً الأضرار بسبب المياه الراكدة كتلوث المياه وتوالد الحشرات . وثانياً "الأضرار في المناطق المتأثرة بنشاط الخاصية الشعرية كتجمع الأملاح والتأثير على المنشآت . وثالثاً الأضرار في المناطق التي ارتفع المنسوب فيها وأصبح قريبا من السطح كالآثار الضارة على الطرقات والمباني .

وسائــل البحـــث :

قامت الدراسات السابقة (آسكو ١٩٨٣ و١٩٨٦) وبرنامج التعاون التقني والفني التابع للأمم المتحـدة (١٩٨٦) والـوكـالـة اليـابانية للتعاون الدولي (جايكا ١٩٨٧) بدراسة وتحليل جيولوجية وهيدرولوجية المياه الجوفية وميزانية المياه من حيث تجديد العائد والفاقد ، كما اهتمت بتحديد خصائص التكوينات الحاملة للماء من حيث درجة نفاذيتها ومساميتها وعلاقة ذلك بحركة الميـاه الجـوفيـة وتغيـير منـاسيبها . واهتمت تلك الدراسات أيضا بتحليل الخواص الكيميائية والهيدرولوجية فضلا عن وضع التوصيات والخطط المستقبلية للحد من خطورة الوضع .

وتهدف الدراسة الحالية الى إبراز العلاقة بين مورفولوجية مدينة الدوحة وارتفاع منسوب المياه الجوفية فيها . وتحاول الدراسة أن تتوصل لذلك عن طريق تحليل الخرائط الكنتورية من أجـل التعرف على أشكال سطح الأرض ومن ثم ربطها بوضع منسوب المياه الجوفية . وتعتبر دراسة الخريطة الكنتورية وتحليلها من أهم المبادىء الأساسية التي تقوم عليها الدراسات الجغرافية التفصيليـة حيث يستطيع الجغرافي من خلال دراسة خطوط الكنتور على الخريطة الوقوف على خصائصها الشكلية من أجل التعرف على مدلولاتها الجيومورفلوجية . وأن البيانات التي يمكن الحصول عليها من خلال تحليـل الخريطـة الكنتورية تمثل الأساس الذي تقـوم عليه الدراسـات

الجغرافية المتخصصة والتفصيلية لمختلف الأغراض ، طبيعية كانت أم بشرية (أنظر Miller, 1949) .

واعتمدت هذه الدراسة بالدرجة الأولى على خريطة قطر الكنتورية مقياس ١ : ٥٠,٠٠٠ لوحة رقم ٢٠٠ / ٣٧٥ . واستخدمت أيضا «خرائط آسكو (١٩٨٣ ، ١٩٨٦) وجايكا (١٩٨٧) وادارة الكهرباء والماء بوزارة الكهرباء والماء (١٩٨٧) وأدخلت عليها بعض الاضافات والتعديلات . وكذلك تم استخدام الصور الجوية لمدينة الدوحة للسنوات ١٩٧٣ و١٩٧٨ و١٩٨٠ و١٩٨٨ والتركيب الفسيفسائي (موازييك) الملون للصور الفضائية مقياس رسم ١ : ١٣,٠٠٠ وذلك لتحديد المنخفضات والأدوية السيلية . ولأجل المقارنة فقد استخدمت المنطقة التي حددتها دراسة جايكا للدوحة الكبرى (١٩٨٧) كمنطقة للدراسة .

جيولوجية الدوحة الكبرى وهيدرولوجيتها :

تقع مدينة الدوحة على طرف الجناح الشرقي لقبة قطر الرئيسة وهي طية محدبة تمتد على طول شبه جزيرة قطر بمحور شمالي ـ جنوبي وبميل خفيف نحو الشرق والغرب . وعلى الرغم من أن هذا التحدب يتميز بانحداره الخفيف عبر قمته ، إلاّ أن ميوله يشتد نسبياً عند الأطراف حيث تقع مدينة الدوحة . وقد أثبتت الدراسات الجيولوجية (Cavelier and Salat, 1970; FAO, 1981) أن تكوينات السطح في منطقة الدوحة تنتمي الى الزمن الثلاثي والرباعي والحديث ، متمثلة في رواسب الزمن الثلاثي من الصخور الجيرية من تكوينات الرس التابعة لأسفل الأيوسين وصخور الحجر الجيري الطباشيري والدولوميت التابعة لتكوين الدمام الأعلى والتي تنتمي الى عصر الأيوسين الأوسط ، كما تشتمل على الرواسب الحديثة من الزمن الرباعي والحديث والمتمثلة في الرمال الجيرية الشاطئية والسبخات مع رواسب فيضية في المنخفضات والوديان الصغيرة . ومعظم هذه الرواسب مستمدة من مواد متعرية من طبقة الدمام وهي مواد طباشيرية وحجر جيري دولوميتي وطين صفحي .

وتمثل طبقة الدمام العليا التكوين الحامل للماء تحت مدينة الدوحة وتتحكم في حركة المياه مجموعة الشروخ والانكسارات الناتجة عن وفرة الدولوميت فيها . وقد ساعدت كثرة هذه الشقوق والمفاصل على زيادة معدلات التسرب (أنظر حرحش وعبد الرحمن يوسف ، ١٩٨٥) . وتمثل طبقة الطين الصفحي الطبقة الكتمية أسفل التكوين الحامل للماء . ويبلغ متوسط سمك طبقة الدمام العليا ما بين ٢٠ ـ ٣٠ متراً ونسبة لأن انحدارها بسيط جداً فإن حركة الماء نحو البحر بطيئة جداً . وبما أن نفاذيتها ليست جيدة تماماً فإن سعتها لتخزين المياه ليست سعة كبيرة ، أي أن

معامل التخزين صغير جداً ، ومن ثم فإن أي اضافة بسيطة من الماء تملأ مساحة كبيرة (أنظر دولة قطر ، وزارة الشؤون البلدية ، بلدية الدوحة (١٩٨٧) .

مورفلوجية الدوحة الكبرى :

من خلال دراسة خرائط الدوحة الكنتورية نلاحظ أن الفارق الرأسي بين خطوط الكنتور يتفاوت بين مترين الى ٢٠ متراً . وبشكل عام تخلو خريطة الدوحة الكنتورية من التعقيد حيث لم يظهر فيها تقارب في خطوط الكنتور سوى في الحد الفاصل بين الأراضي المرتفعة نسبياً والسهل الساحلي حيث تبدو خطوط الكنتور متقاربة اذا ما قورنت ببقية منطقة الدوحة الكبرى . وعموماً تبدو خطوط الكنتور متباعدة ومنتظمة باستثناء مناطق المنخفضات الداخلية التي يصل التضرس فيها الى ١٥ متراً .

وتعكس الخارطة الكنتورية بصفة عامة بساطة السطح وتموجه البسيط . فالطبوغرافيا بسيطة ومنتظمة الى حد كبير حيث يحدث تغير الارتفاع من نقطة الى أخرى على مسافات متباعدة (يفصل بين أي خط وآخر حوالي ٥٠٠ متر) مما يوحي بأن التضرس بسيط نحو الساحل وأن الانحدار يتراوح ما بين نصف درجة ودرجة واحدة (أنظر الشكل رقم ٣) .

وقد قسمت الدراسات السابقة الدوحة الكبرى الى عدة أقاليم طبوغرافية . فجاء تقسيم آسكو (ASCO, 1983) إلى ثلاثة أقاليم هي المناطق المرتفعة والأحواض والأودية ثم السهل الساحلي ، في حين أن دراسة جايكا (JICA, 1987) قسّمتها الى اقليمين فقط هما اقليم المناطق المرتفعة التي تتخللها الأحواض واقليم السهل الساحلي . أما في الدراسة الحالية فقد قسمت الدوحة الكبرى طبوغرافيا إلى أربعة أقاليم هي :

١ ـ الأراضي المرتفعة .
٢ ـ الحافة الصخرية .
٣ ـ المنخفضات والأودية .
٤ ـ السهل الساحلي .

١ ـ الأراضي المرتفعة :

وتمثل الأراضي المرتفعة (أكثر من مترين فوق سطح البحر) أكبر الأقاليم الطبوغرافية حيث تبلغ مساحتها حوالي ١٦٣ كيلو متر مربع أي بنسبة ٦٠٪ من مساحة منطقة الدراسة (أنظر الشكل رقم ٣) . والمقصود هنا بالأراضي المرتفعة تلك التي تعلو ما يجاورها من منخفضات أو وديان أي

أن ارتفاعها نسبي . وتمتد الأراضي المرتفعة بصفة عامة امتداداً شمالياً جنوبياً وتنحدر تدريجياً نحو البحر . ويمكن تقسيمها الى نطاقين رئيسين الأول يتبع خط الساحل في شكل قوس من جهة الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ويتراوح ارتفاعه بين ٢ ـ ٢٠ متراً ، ويتراوح عرضه بين ١٨



شكل رقم ٣٠ طبوغرافية مدينة الدوحة وما حولها (معدلة من خارطة جيبكا ١٩٨٩م)

كيلومتر في الشمال الى حوالي كيلومتر في جنوب الدوحة الكبرى . ويتميز هذا النطاق بالتدرج في الانحدار نحو خط الساحل وتتخلله المنخفضات وفي الأطراف الشرقية تقطعه المسيلات المائية القصيرة التي تنحدر نحو السهل الساحلي . وفي أماكن متفرقة يرتفع السطح قليلاً عن ٢٠ متراً عن سطح البحر كما في منطقة المرخية (راجع الشكل رقم ٣) . هذا السطح الذي يتكون من الصخور الجيرية ، ذو الانحدار البسيط ، هو الذي يعطي مدينة الدوحة شخصيتها التضاريسية .

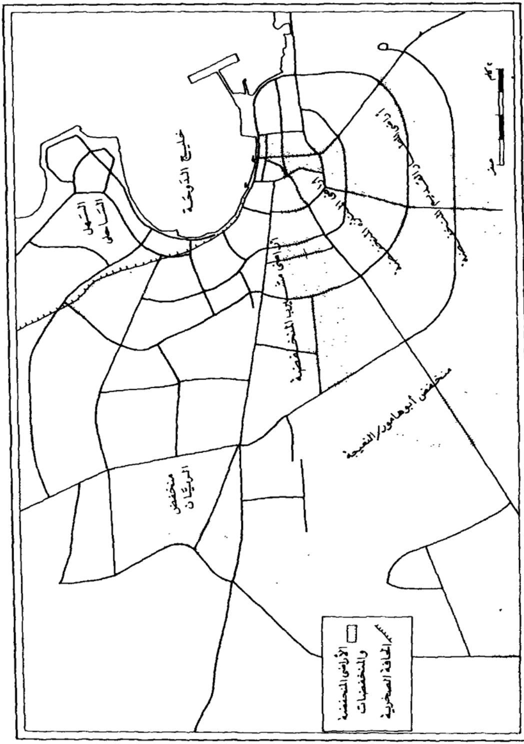
أما المحور الثاني فهو المحور الداخلي الذي يقع على الهامش الغربي من الدوحة الكبرى . ويمتد هذا المحور في اتجاه شمالي جنوبي وتبلغ مساحته والي ٥٠ كيلو متر مربع اي بنسبة ١٨,٩٪ من المساحة الكلية لمنطقة الدراسة . ويرتفع هذا المحور أكثر من ٢٠ متراً عن سطح البحر ويتميز بالانحدار البسيط وتوضع التضاريس .

٢ ـ الحافة الصخرية :

وتفصل بين المنطقة المرتفعة والسهل الساحلي حافة صخرية تقع على بعد كيلو متر واحد عن الساحل القديم وحوالي ثلاثة كيلومترات عن ساحل المنطقة المستصلحة بواسطة الردم (الدفنة) . وبالنظر الى الخارطة الكنتورية نلاحظ أن خطوط الكنتور تبدأ في التقارب بصورة ملحوظة وتكاد تلتصق بعضها مع بعض . ويصل اقصى ارتفاع لهذه الحافة ١٠ أمتار عن سطح البحر ثم يحدث هبوط مفاجىء الى حوالي مترين عن سطح البحر (أنظر الشكلين رقم ٣ و٤) . وتمتد هذه الحافة في نفس اتجاه المحور الشرقي للمنطقة المرتفعة اي من جهة الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي . ويعتقد أن هذه الحافة حافة بحرية متعرية أو قد تكون ذات طبيعة جيولوجية ، أي أنها حافة صدعية أو مصطبة انثنائية (أنظر أسكو ASCO, 1983 وجايكا JICA, 1986) . ونسبة لأن اتجاه الحافة الصخرية يتماشى مع اتجاه الظاهرات التركيبية والبنيوية الأخرى كالمنخفضات الداخلية ومجموعة الانكسارات الصغيرة فإن من المرجح أن تكون ذات أصل انكساري . ويتماشى هذا الاستنتاج مع التحليل الذي أجري على الصور الجيولوجية التي أرسلتها سفينة الفضاء لاندسات سنة ١٩٧٦ لشبه جزيرة قطر والتي أظهرت أن هناك تكسرات تظهر على شكل خطوط مستقيمة تنتظم في محورين احدهما شمالي شرقي جنوبي غربي والآخر شمالي غربي ـ

جنوبي شرقي (أنظر **Pike, 1977** وكذلك أنظر القصاص وعاشور (**Kassas and Ashour, 1984**) .

وبمراجعة الشكلين رقم ١ و ٢ نلاحظ أن الحافة الصخرية تمثل حدوداً واضحة بين المنطقة التي يقل فيها عمق الخزان الجوفي عن ٤ أمتار والمنطقة التي يبعد فيها المنسوب ما بين ٦ و١٠ أمتار عن سطح الأرض . ومن ناحية أخرى أيضا تساعد هذه الحافة في انسياب الجريان السطحي باتجاه السهل الساحلي المنخفض خاصة عند حدوث العواصف الرعدية العنيفة .



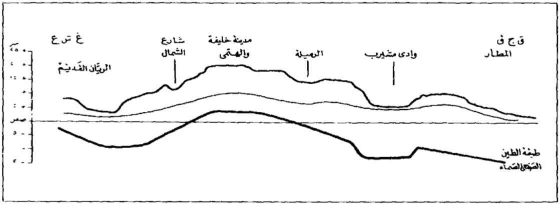
شكل رقم -٤- الأراضي المنخفضة والمنخفضات (المصدر جيكا ١٩٨٧م)

٣ ـ المنخفضات والأوديـة :

أ ـ المنخفضات : أما أكثر الظواهر الطبوغرافية ارتباطاً بموضوع ارتفاع منسوب الماء الجوفي فهي المنخفضات التي تتوزع على شكل خطى على طول المحور الشرقي من النطاق المرتفع من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، أي بشكل مواز لخط الساحل والحافة الصخرية . ويعتقد أن هذا الشكل الخطي مرتبط بتواجد الشروخ والمفاصل . فقد أوضحت الصور الجوية التي التقطتها سفن الفضاء لشبه جزيرة قطر وكذلك الخرائط الطبوغرافية امتداد المنخفضات بشكل خطي الأمر الذي يؤكد احتمال توافق هذه الظواهر في مواقع لبعض الشروخ والمفاصل التي تكونت خلال حركة الرفع التي تعرضت لها قطر في نهاية الزمن الثلاثي (أنظر الشلالدة ، ١٩٨٦) (راجع الشكل رقم ٣) . ويعتقد بعض الباحثين (JICA, 1983) أن الحركات التكتونية قد لعبت دورا بجانب التركيبة الجيولوجية حيث أن المنخفضات الحوضية تتوافق في اتجاهاتها مع الصدوع والانكسارات في الاتجاه الشمالي الغربي / الجنوبي الشرقي .

وتمثل المنخفضات نسبة ١٢,٦٪ من مساحة منطقة الدراسة ، وتتباين بشكل واضح من حيث الاتساع والعمق والشكل فهي تتراوح مساحاتها ما بين بضعة أمتار مربعة إلى أكثر من ٨ كيلومترات مربعة ويتراوح الارتفاع عن سطح البحر داخل هذه المنخفضات بين ٥ و١٠ أمتار أي ان قيعانها تقع دون ما يحيط بها من أرض على أعماق قد تصل إلى حوالي عشرين مترا (راجع الشكلين رقم ٣ ورقم ٥) . وبصفة عامة معظم المنخفضات داخل حدود الدوحة الكبرى هي من المنخفضات الضحلة التي تتميز بضآلة الفارق الرأسي بين قاعها والأرض المحيطة بها . وتتميز أيضا معظم هذه المنخفضات بالتصريف المركزي (الداخلي) حيث لا تصل مياهها إلى البحر .

وفي واقع الأمر أن ظاهرة المنخفضات هي احدى الظواهر المميزة لسطح شبه جزيرة قطر ككل وقد قدرت بعض الدراسات ان عددها يفوق ١٨٠٠ منخفض (انظر الأمم المتحدة ١٩٨٦ - U.N,1986 والشلالده ١٩٨٦) . وترجع معظم الدراسات أصل المنخفضات إلى هبوط في الطبقات الصخرية بسبب التجوية الكيميائية في الصخور الجيرية . وقد أطلق كافيليه (Cavel- ier, 1970) عليها «البنيات الانهيارية» ''Collapse Structures'' . وقد جاء المصطلح الذي استخدمه مشابها للمصطلح الذي استخدمه عالم الجيومورفولوجيا المشهور ثورنبرى (Thornbury, 1959) وهو حفر الانهيار ''Collapse Sinks'' . ويعتقد أنها تكونت نتيجة عمليات الاذابة الداخلية لفرشات الجبس والانهداريات ضمن تكوينات الرس حيث تسربت المياه الجوفية عبر شقوق وفواصل في الصخور السطحية التي تغلب عليها التكوينات الجيرية . وقد عملت هذه المياه المتسربة عبر الشقوق والمفاصل على اتساع الشقوق بسبب عمليات



شكل رقم -٥- قطاع غربي شرقي يبين طبوغرافية السطح وتوافقها مع طبقة الطين الصفحي الصماء
(المصدر اسكو ١٩٨٣م)

الاذابة ، كما عملت المياه التي وصلت الى فرشات الجبس ضمن تكوين الرس على إذابة فرشات الجبس ونتج عن ذلك تكوين الكهوف المخفية والتي استمرت فيها عمليات الاذابة الكارستية حتى اتسعت واستغرقت سقوفها وانهارت ونتجت عنها حفر كبيرة اطلق عليها صلاح بحيري (١٩٧٩) «فجوات الاذابة» وتعرف في قطر بالدخول والتي منها تتطور البنيات الانهيارية. وبالنظر الى الشكل رقم (٥) نلاحظ التوافق الكبير بين هبوط سطح الأرض والهبوط الذي يتواجد أسفله في طبقة الطين الصفحى الأمر الذي يدعم الرأي القائل بأن إذابة الجبس المتوافر في تكوينات الرس تحت طبقة الدمام السفلى هي السبب المباشر للهبوط الذي يحدث فوق سطح الأرض . ويعتقد خبراء جايكا (JICA, 1987) والشلالده (١٩٨٦) أن أصل بعض المنخفضات يرجع الى غسيل الواجهات الكربونية أو السلفاتية التي هي عبارة عن سطوح اتصال تفصل بين تكوينات الدمام وتكوينات الرس . ونتيجة لذلك الغسيل تبدأ النبيات الانهيارية في التشكل .

وبذلك فإن بنية التكوينات الصخرية في شبه جزيرة قطر هي التي أوجدت ظروف مناسبة في مواضع عدة لتكوين تلك المنخفضات وخاصة في ظل ظروف سابقة سادت فيها العصور المطيرة . وتعتبر تكوينات الرس (الايوسين الاسفل) سواء كانت مكشوفة على السطح أو مخفية تحت تكوينات الدمام الأحدث ـ كما هي الحال تحت الدوحة ـ هي أفضل التكوينات الصخرية فوق شبه جزيرة قطر لحدوث البنيات الانهيارية.

والمنخفضات داخل حدود منطقة الدراسة (الدوحة الكبرى) نوعان : منخفضات حوضية وهي عبارة عن حوض مغلق بخطوط كنتور مغلقة امتلأت بالرواسب الطينية ، ومنخفضات الفيضانات الغطائية التي تتكون على أرض منبسطة وعلى خطوط كنتور مختلفة وعلى مساحات مفتوحة . ومنخفضات الاحواض هي في الأصل حفر اذابة كارستية نشأت نتيجة عمليات الاذابة والانهيارات في الصخور الجيرية وتتمثل في منخفضات الغرافة / الريان ومنخفضات نعيجة وابوهامور ، في حين أن النوع الثاني يتمثل في منخفضات المنتزه ووادي مشيرب وقد ميزت

الدراسات السابقة أيضاً بين النوعين حيث سمى الشلالده (١٩٨٦) النوع الأول منخفضات والثاني روضات . وفرق خبراء جايكا (JICA, 1987) بين الاثنين وسموا الأولى منخفضات حوضية والثانية أراضي منخفضة .

وتتواجد المنخفضات الغطائية (نسبة الى الفيضانات الغطائية التي تغطيها عقب الامطار) عادة على أطراف قبة قطر الرئيسية وتقع في مجاري المسيلات المائية ذات التصريف الخارجي الذي عادة ماينتهي في السبخات الداخلية . وتمتد هذه المنخفضات في شكل أذرع تتفق واتجاه المسيلات المائية كما في وادي مشيرب والمطار القديم (راجع الشكل رقم ٤) . وترتبط هذه المنخفضات والمطار القديم (راجع الشكل رقم ٤) . وترتبط هذه المنخفضات بالأدوية والمسيلات المائية كما هي الحال في وادي مشيرب .

ب ـ الادوية : إن أثر الجريان السطحي خارج نطاق المنخفضات الغطائية أثر محدود جدا ، وذلك لأن شبه جزيرة قطر تقع مناخياً ضمن الاقليم الجاف حيث ترتفع نسبة الفاقد من مياه الامطار بالبخر النتحى . ويتمثل الجريان السطحي في مسيلات مائية محدودة الجريان ينتهي غالبها في أحواض التصريف الداخلي ، وقليل منها ينحدر نحو السهل الساحلي كالمسيلات الى الشرق من رأس أبو عبود والى الشمال منن الخليج الغربي (الفنة) . وعموماً لاتتجاوز فترة جريان المياه في هذه المجاري فترة سقوط الامطار حيث تجف ويتوقف جريانها بمجرد توقف الأمطار . أما بالنسبة للجريان السطحي للأودية المتسببة في المنخفضات الغطائية كوادي مشيرب فإنه في حالة الامطار الغزيرة يفيض الوادي وينقل كميات كبيرة من المياه الا أن ذلك الجريان تأثر كثيرا بإقامة السد في منطقة السد وبالتوسع العمراني الهائل .

٤ ـ السهل الساحلي :

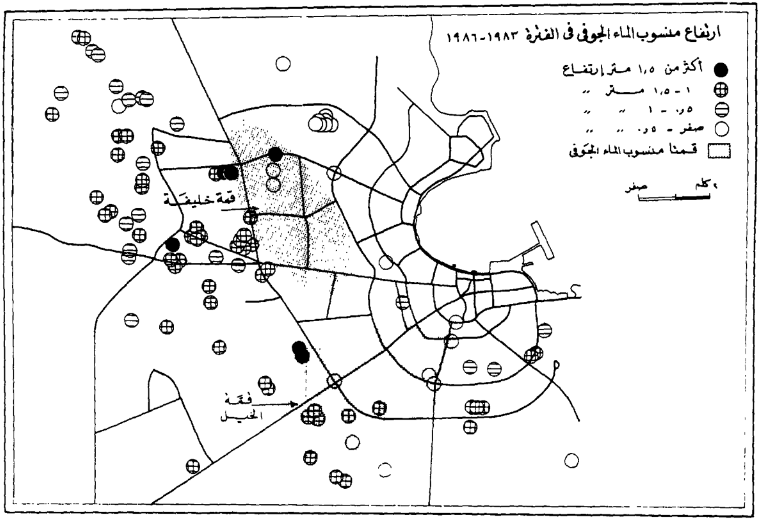
كان السهل الساحلي في الأصل شريطا ضيقا يمتد في الاتجاه الشمالي الغربي الى الجنوبي الشرقي تبعا لخط الساحل ، ولايتعدى عرضه بضعة أمتار . الا أن الانسان لعب دورا كبيرا في توسيع السهل الساحلي وذلك بردم مساحات من البحر ، ومن ثم اصبح السهل الساحلي ممتدا الى حوالي ٤ أو ٥ كيلومترات الى الشرق من الحافة الصخرية في شمال مدينة الدوحة . ولايتعدى ارتفاع الهل الساحلي في كل أجزائه المترين عن سطح البحر . ويتميز السهل الساحلي بالاستواء وانعدام التضرس ، ونسبة لارتفاع الطاقة التسريبية في المنطقة المستصلحة فإن الجريان السطحي محدود جداً .

المورفولوجية وارتفاع منسوب المياه الجوفية :

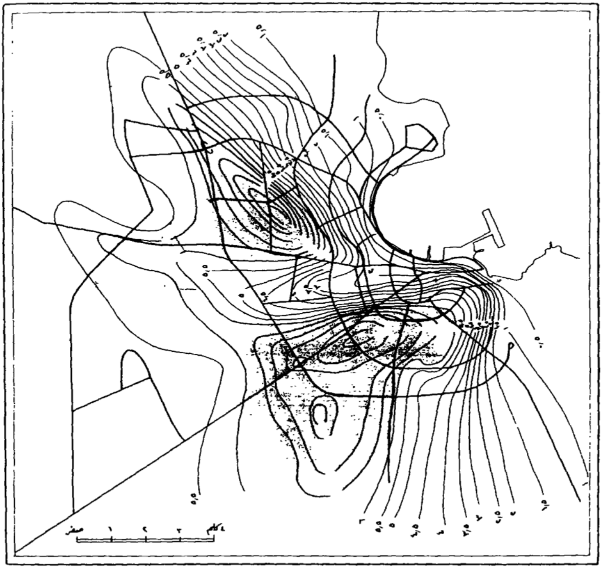
يقتصر أثر مورفولوجية مدينة الدوحة على ارتفاع منسوب الماء الجوفي في عدة نقاط . أولاً : بما أن تضاريس منطقة الدوحة تضاريس بسيطة ومنتظمة بصفة عامة ، وان تغيير الارتفاع من منطقة إلى أخرى يحدث على مسافات بعيدة مما يعني أن الانحدار تدريجي فإن ذلك كله أدى الى بطء شديد في حركة انسياب المياه الجوفية الأمر الذي أدّى الى حدوث ظاهرة التلينّ المائيين تحت مدينة الدوحة ونموهما وزيادة المساحة التي يغطيانها . ففي الفترة ما بين سنة ١٩٨٣ ونهاية ١٩٨٧ م زادت المسافة التي يغطيها تل مدينة خليفة بنسبة ٦٥ ٪ وتل الخيل بنسبة ١٦٩ ٪ (أنظر الشكلين رقم ٦ و٧) . ويعتبر عامل بطء الانسياب الناتج عن الانحدار البسيط عاملاً مساعداً بجانب زيادة استهلاك الماء ومن ثم التسرب وصغر السعة التخزينية للتكوينات الحاملة للماء .

أما بالنسبة للسهل الساحلي فبما أن منسوب الماء لايزال يبعد مترين عن سطح الأرض وأن قابلية التخزين والنفاذية لمواد الردم أعلى من مثيلتيها في التكوينات الحاملة للماء ، فإن من المرجح أن يكون هناك رشح نحو البحر . لكن مع زيادة كميات المياه المتسربة وبخاصة في المنطقة المستصلحة فإن الرشح نحو البحر سيتوقف .

وتتجلى العلاقة بين طبوغرافية السطح ومنسوب الماء الجوفي عند النظر الى المنخفضات . فالمناطق المنخفضة تسهم اسهاماً فعالاً في تسرب المياه السطحية الى باطن الارض وفي الوقت ذاته هي أول المناطق المتضررة بارتفاع منسوب الماء الجوفي . فكما سبق ذكره فإن معظم المنخفضات التي تقل أعماقها عن ٥ أمتار عن سطح البحر تغمرها المياه وتغطيها المستنقعات .



شكل رقم -٦- إرتفاع منسوب الماء الجوفى فى الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٦ (مصدر خارطة الأساس جيكا ١٩٨٧)
وقمتا منسوب المياه الجوفية (قمة مدينة خليفة وقمة الخيل)



شكل رقم -٧- خطوط كنتور المياه الجوفية - نهاية عام ١٩٨٧م (بالأمتار فوق مستوى الأساس القطري) (مصدر خارطة الأساس : أكلستون ١٩٨٧م)

ونسبة لانحدار السطح فوق الأماكن المرتفعة ووجود الصخور والحصى المتهاسك فإن الماء ينساب بسرعة ولاينفذ للطبقات الحاملة للماء بينما يبقى لفترة أطول في المنخفضات . وتسهم منخفضات الفيضانات الغطائية ذات الرواسب الغرينية اسهاماً كبيراً في رفع منسوب الماء الجوفي . وكذلك يزداد تسرب المياه السطحية في الأطراف الهامشية للمنخفضات الحوضية حيث تزداد النفاذية بسبب وجود التكوينات ذات القوام الخشن . ويعتقد أن معظم تغذية التكوينات الحاملة للماء تحدث هنا . وقد أثبتت ذلك بعض التجارب التي أجريت في المنخفضات الحوضية لزيادة معدلات التغذية الجوفية عن طريق حفر آبار للتغذية .

كذلك تلعب هذه المنخفضات دور المصارف الطبيعية للجريان السطحي والمياه الجوفية في وقت واحد . فعلى سبيل المثال يلعب وادي مشيرب دور المصرف الطبيعي لكل المنطقة التي تقع بين تل المياه الجوفية الشمالي (مدينة خليفة) والتل الجنوبي (تل الخيل) .

خاتمـــــة :

لقد شهدت دولة قطر خلال العقود الثلاثة المنصرمة نمواً عظيًا أسفر عن تغيرات كبيرة - هي في معظمها ايجابية - الا أنها لاتخلو من بعض السلبيات . ويأتي موضوع هدر المياه على رأس قائمة السلبيات حيث تقدر كميات الماء الضائع بأكثر من ٣٠ مليون متر مكعب في السنة تكلف خزينة الدولة أكثر من ٥٠ مليون ريال قطري في السنة (أنظر ASCO, 1986) . ومرتبط بذلك الهدر موضوع ارتفاع منسوب الماء الجوفي الذي تترتب عليه آثار خطيرة بالنسبة للأبنية والمنشآت والطرقات والنباتات والصحة العامة وغيرها .

ويلعب العاملان الجيولوجي والمورفولوجي (الطبوغرافي) بجانب زيادة الاستهلاك والهدر الدور الأساسي في تعقيد وضع ارتفاع منسوب المياه الجوفية . فوجود طبقات الطين الصفحي الصماء على أعماق قريبة من سطح الأرض أسفل التكوين الحامل للماء (أعلى تكوينات الدمام السفلى) وفرشات الجبس والمارل ذات النفاذية المنخفضة في تكوينات الرس أدى الى سرعة تشبع رواسب الطفل والدولوميت ذات النفاذية العالية في تكوينات الدمام الأعلى . وكما أن العامل الجيولوجي أدى الى سرعة التشبع ، فإن العامل الطبوغرافي يعقد الوضع أكثر عن طريق بطء انسياب الماء الناتج عن قلة الانحدار فضلا عن تجمع مياه الأمطار وبقائها لفترات طويلة في المنخفضات . وفوق ذلك فإن قيعان المنخفضات أول المناطق التي تظهر فيها المياه الجوفية نتيجة تصغر سمك التكوينات الحاملة للماء أسفل المنخفضات ومن ثم قرب سقف الخزان الجوفي من السطح .

وعمـوماً فإن العلاقة بين الجيولوجيا والوضع الطبوغرافي في مدينة الدوحة علاقة معقدة ومتشـابكة ويصعب أحياناً فصل أثر بعضهما عن بعض . بل أنه وفي أحيان كثيرة أيضاً يكون العامل الطبوغرافي امتداداً للعامل الجيولوجي كما في حالة المنخفضات الحوضية التي هي سبب المشكلة وأول المتأثرين بالنتيجة .

المراجــــع

أولا : باللغـة العربيــة :

١ ـ ابراهيم باقر وصالح محمود عمر (١٩٩٠) ورقة بلدية أبوظبي لندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدن مجلس التعاون ـ الدوحة ـ قطـر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

٢ ـ إبراهيم حرحش وعبد الرحمن يوسف (١٩٨٥) المياه الجوفية في قطـر ، ادارة البحوث الزراعية والمائية ، وزارة الزراعة والصناعة ، الدوحة .

٣ ـ المملكـة العـربية السعودية ـ وزارة الشؤون البلدية ـ وكالة الوزارة للشؤون الفنية (١٩٩٠) ، المشـاكل الناجمة عن ارتفاع مناسيب المياه الجوفية في مدينة جـدة والطرق العلمية لحلها ـ ورقة عمل قدمت في ندوة مشاكل إرتفاع منسوب المياه الجوفية في مدن مجلس التعاون ـ لدول الخليج العربية ـ الدوحة ـ قطـر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

٤ ـ بلدية مسقط (١٩٩٠) بحث حول ارتفاع منسوب المياه الساحلية ـ قدم في ندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدن مجلس التعاون لدول الخليج العربية ـ الدوحة ـ قطـر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

٥ ـ حسين لوتـاه (١٩٩٠) ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدينة دبي بحث قدم في ندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مـدن مجلس التعاون لدول الخليج العربية ـ الدوحة ـ قطـر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

٦ ـ دولة قطر ، وزارة الشؤون البلدية ، بلدية الدوحة (١٩٨٦) مشكلة ارتفاع منسوب المياه الجوفية بالدوحة ـ الدوحة ، قطـر .

٧ ـ دولة قطر ، وزارة الشؤون البلدية ، بلدية الدوحة (١٩٨٧) وضع المياه الجوفية في دولة قطر ـ تقرير قدم الى اللجنة الخاصة بدراسة تطوير مصادر المياه الجوفية والحفاظ عليها في دولة قطـر ـ الدوحة ، قطـر .

٨ ـ دولة قطر ، وزارة الصناعة والزراعة ، إدارة البحوث الزراعية والمائية قسم المياه الجوفية (١٩٨٨) تقرير عن مصادر المياه الجوفية بدولة قطر ـ الدوحة ، قطر .

٩ ـ دولة قطر ، وزارة الكهرباء والماء ـ إدارة الكهرباء والماء (١٩٨٧) تقرير احصائي عن الكهرباء والماء لعام ١٩٨٧ ، الدوحة ، قطر .

١٠ ـ دولة قطر ، وزارة الكهرباء والماء ، إدارة الكهرباء والماء (١٩٨٧) ، وثائق لجنة حصر ومراجعة التقارير والدراسات الخاصة بتطوير المياه الجوفية في دولة قطر ـ الدوحة ، قطر .

٢٢ ـ صلاح بحيري (١٩٧٩) نحو تصنيف مورفولوجي لمنخفضات الصحراء . مجلة الجمعية الجغرافية الكويتية ـ قسم الجغرافيا ـ جامعة الكويت ـ العدد ١٠ .

١٢ ـ كمال حفني (١٩٩٠) ظاهرة ارتفاع منسوب المياه الجوفية وأثرها على المباني بمدينة القاهرة . بحث قدم في ندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدن مجلس التعاون لدول الخليج العربية ـ الدوحة ـ قطر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

١٤ ـ محمد كمال محمود الشلالده (١٩٨٦ الروضات في شبه جزيرة قطر ـ دراسة جغرافية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ، كلية البنات للعلوم والآداب والتربية ، القاهرة .

١٤ ـ محمود محمد عاشور (١٩٨٩) سطح قطر بين الماضي والحاضر ـ دراسة في تغيير ملامح السطح . مجلة الجمعية الجغرافية الكويتية ـ قسم الجغرافيا ـ جامعة الكويت ـ العدد ١٢٦ .

١٥ ـ هالكرو بلفور المحدودة (١٩٨١) المخطط الشامل لموارد المياه والتنمية الزراعية ـ وزارة الصناعة والزراعة ـ دولة قطر .

١٦ ـ يوسف الصائغ (١٩٩٠) مشكلة ارتفاع منسوب المياه السطحية في البحرين ـ بحث قدم في ندوة مشاكل ارتفاع منسوب المياه الجوفية في مدن مجلس التعاون الخليجي ـ الدوحة ـ قطر ـ ٥ ـ ٧ مارس .

ثانياً : باللغــة الأجنبيــة :

17 - Al-Sanad, H.A. and Shagour, F.M. (1990). geotechnical implication of subsurface water rise in Kuwait A -paper Presented in the Rising Water Table Seminar in G.C.C Cities - Doha - March.

18 - ASCO (1983) Rising water table under Doha. Final report. Vol II water Department, Ministry of Electricity and Water, Doha, Qatar.

19 - ASCO (1986) Doha Water Loss Control report, Electricity and Water Department - Ministry of Electicity and Water, Doha. Qatar.

20 - Cavelier, C. and Salat, Y.H (1970) Geological description of Qatar Peninsula department of Petroleum Affairs, Doha.

21 - Eccleston, B.L. (1982) The Hydro-geology of Qatar, Department of Agriculture and Water Research - Ministry of Industry and Agriculture, Doha, Qatar.

22 - F.A.O. (1981) Qater resources and agricultural development project Qatar, Project Findings and Recommendations, Rome.

23 - JICA - Japan International Co-operation Agency :1987) The study on drainage improvement plan, Doha City - Supporting Report - Vol, II, Qatar.

24 - Kassas, I.A. and Ashour, M.M. (1984) Lineaments analysis of Qatar Peninsula. based on landsat imagery, Presented at the International Conference on Remote sensing for Resource Management and Environmental Planning, Bayreuth, West Germany.

25 - Miller, A.A. (1949) The dissection and analysis of maps-Institute of British Geographers. London.

26 - Pike, J.G. (1977) The water resources of Qatar and their development - Rec. Rep. No. 1. U.N.D.P. and F.A.O., Rome.

27 - Poal, T. (1984) Change in ground water level - change of design Parameters, Proceedings of 6th Budapest Congerence on Soil Mechanics and Foundation Engineering, Budapest.

28 - Thornbury, W.D. (1959) Principles of geomorphology - John Wilex and Sons - London.

29 - United Nations - Department of technical Co-Operation for Development (1986) Assistance in ground- water development and conservation - Project Findings and Recommendations. DP/UN/QAT-82 001/1, Qatar.

30 - Wilkinson, W.B. (1985) Rising Groundwater levels in London and possible effects on engineering structures. International Association of Hydrologists, 18th Congress Proceedings, Cambridge, U.K.

"Greene's target is the superior sort of journalist who sets up as an arbiter of the international scene: 'he gets hold of an idea and then alters every situation to fit the idea' ". **Graham Greene,** Calder and Boyars, London, 1957, revised edition 1966, p. 230.

31. Sharrock, **Saints, Sinners and Comedians,** p. 207.
32. Pryce - Jones, **Graham Greene,** p. 91.
33. Sharrock, **Saints, Sinners and Comedians,** p. 218
34. **The End of the Affair** was published in 1951, while work on **The Quiet American** began in March 1952.
35. Atkins, **Graham Greene,** p. 204.
36. Stratford, **Faith and Fiction,** p. 313.
37. Cf. **The Comedians,** pp. 83, 106 and p. 134 where Señor Pineda sums up his "carpe diem" outlook on life thus: " 'Come on, cheer up, let us all be comedians together. Take one of my cigars. Help yourself at the bar....".
38. Stratford, **Faith and Fiction,** pp. 314-315.
39. See the narrator's comment on Vigot's reaction to the fly crawling over his hand: "A fly crawled over the back of his hand and he did not brush it away-any more than Dominguez would have done" **(Q.A.,** p. 168).
40. Mahood, **The Colonial Encounter,** p. 121.
41. See Greene's epigraph - taken from Hardy - to the 1973 novel. 'All things merge in one another - good into evil, generosity into justice, religion into politics...'
42. Atkins, **Graham Greene,** p. 231.
43. **Ibid.,** pp. 82-87.
44. Greene's film reviews of the period are to be found in **The Pleasure Dome: The Collected Film Criticism 1935-40,** edited by John Russell Taylor, Secker and Warburg, London, 1972.
45. **The Other Man,** p. 93.
46. **Ibid.,** p. 94.
47. It is naturally tantalizing not to have Greene's comments on the most recent developments in the former Soviet Union. It should be borne in mind, though, that he never hesitated to condemn Soviet aggression and injustice, as perusal of his letters to the press reveals. See Graham Greene, **Yours Etc.,** Penguin, 1991 (e. g. his defence of Daniel and Sinyavsky, pp. 135-137, and his expression of abhorrence over the Soviet invasion of Czechoslovakia, p. 165).

16. **Author's Choice: Four Novels by Graham Greene,** Penguin, 1985, p. 7 (Introduction).
17. J. P. Kulshrestha, **Graham Greene: The Novelist,** Macmillan, New Delhi, 1977, p. 144. The novel was written in the wake of Greene's own periods of reporting in French Indochina.
18. **The Quiet American,** p. 187.
19. **Saints, Sinners and Comedians,** p. 218. For David Pryce-Jones "The some-one .... can only be God". **Graham Greene,** Oliver and Boyd, Edinburgh and London, 1963, revised edition 1973, p. 93.
20. One feels it is not by chance that Fowler's Christian name should be that of the doubting apostle, it naturally being appropriate for the man who will not become involved. It is of interest to note that Greene himself chose the name of Thomas, "after St. Thomas the doubter", on being received into the Roman Catholic Church. See **A Sort of Life,** Penguin, 1972 (1975 reprint), p. 121.
21. On war and its brutalizing effect, Raymond Williams's first - hand testimony is noteworthy. See **Politics and Letters,** Verso, London, 1981, pp. 58-59.
22. **The Other Man,** p. 83.
23. Philip Stratford, **Faith and Fiction: Creative Process in Greene and Mauriac,** University of Notre Dame Press, Notre Dame, 1964 (paperback edition 1967), p. 312. And see Gwenn R. Boardman, **Graham Greene: The Aesthetics of Exploration,** University of Florida Press, Gainesville, 1971, p. 103.
24. **Faith and Fiction,** p. 312.
25. Fowler's attitudes to the Americans and to the French will be discussed later in this article.
26. **Faith and Fiction,** pp. 310-311
27. Molly Mahood. **The Colonial Encounter: A Reading of Six Novels,** Rex Collings, London, 1977, p. 122.
28. **Ibid.,** p. 122.
29. See, for example, **La France et son armée.** It is legitimate to assume that Trouin has been influenced by de Gaulle's work.
30. Harding's books - **The Advance of Red China, The Challenge to Democracy** and **The Role of the West** - occupy a prominent place on Pyle's bookshelves. See **Q. A.,** p. 28. On Harding's function in the novel, John Atkins writes:

NOTES

Page references in the text without any accompanying title are to **The Quiet American** (Penguin edition).

1. Julien Green, **OEuvres complètes,** III, Bibl. de la Pléiade, Gallimard, Paris, 1973, p. 1522.

"L'intéressante tour d'ivoire de jadis a dû disparaître au cours d'un bombardement."

2. The Holy Office's condemnation of the book on the grounds that it was "paradoxical" and "dealt with extraordinary circumstances" **(Ways of Escape,** Penguin, Harmondsworth, 1981 (1982 reprint), P. 67) in no way diminishes its authentic spirituality.
3. See Samuel Hynes, **The Auden Generation: Literature and Politics in England in the 1930s,** Faber, London, 1976 (Faber Paperbacks 1979), p. 138.
4. **Ibid.,** p. 138.
5. Roger Sharrock, **Saints, Sinners and Comedians: The Novels of Graham Greene,** Burns and Oates, Tunbridge Wells, 1984, p. 69.
6. **Ibid.,** p. 70.
7. Marie-Françoise Allain, **The Other Man: Conversations With Graham Greene,** trans. Guido Waldman, The Bodley Head, London, 1983, p. 88.
8. **Ibid.,** p. 81.
9. **Ibid.,** p. 81.
10. The decade of course includes the less serious novels, the 'entertainments', **Loser Takes All** (1955) and **Our Man in Havana** (1958), the 1950 film script **The Third Man** and the three plays: **The Living Room** (1953), **The Potting Shed** (1957) and **The Complaisant Lover** (1959). To this list should be added **The Lost Childhood and Other Essays** (1951) and **Twenty-One Stories** (1954).
11. **Collected Essays,** Penguin edn. 1970, pp. 279-282 and pp. 284-298.
12. **Collected Essays** ("The Paradox of a Pope"), p. 297.
13. **Ibid.,** ("The Man as Pure as Lucifer"), p. 303.
14. **The Quiet American,** Penguin, 1962 (1973 reprint), pp. 95-96.
15. **The Comedians,** Penguin, 1967 (1968 reprint), p. 286.

admission that the true object of his hatred is indeed American liberalism. The author considers that his animosity to the United States does not stem from his negative attitude to Hollywood, but rather originates from his first visit to the country in 1937-38, adding: "I have always felt very ill at ease in the States, except in San Francisco, a much more European city than New York. The terrifying weight of this consumer society oppresses me". [46]

It is not difficult to take Greene to task for such remarks, and the reader may well consider more oppressive "the terrifying weight" of Gulag society. [47]The fact is, however, that this strain of anti-Americanism remains a constant in the author's committed writing, although there was a switch to a more muted form of his irritation in the mid sixties with the publication of **The Comedians.**

brashness and vulgarity Greene so often associates with Americans, the main American protagonist Pyle is himself utterly beyond redemption in Fowler's eyes. After his death, the narrator ironically laments, musing on his first meeting with Pyle: "He didn't even hear what I said: he was absorbed already in the dilemmas of Democracy and the responsibilities of the West: he was determined- I learnt that very soon - to do good, not to any individual person but to a country, a continent, a world" (pp. 16-17). And Pyle will be seen as tragically incapable of escaping the clutches of the watch-words and slogans to which, albeit a young man, he has too long been a prey.

As for the American journalists in Saigon, they are nothing but a loud-mouthed rabble, epitomized as we have observed in the irrepressible Granger (p. 22 and pp. 32-33). Yet the criticism extends beyond the assault on the more important official representatives of the United States to encompass the more ordinary, such as the American girls at the Pavillon coffee centre:

> Two young American girls sat at the next table, neat and clean in the heat, scooping up ice-cream. They each had a bag slung on the left shoulder and the bags were identical, with brass eagle badges. Their legs were identical too, long and slender, and their noses, just a shade tilted .... It was impossible to conceive either of them a prey to untidy passion ... Did they take deodorants to bed with them? (pp. 158-159).

We are back in the world of **The Pleasure Dome:** the extrapolation is the same; whether it be Greene's emanating from a Grace Moore, or Fowler's from two American girls, it leads to a general indictment against a nation.

Over the years Greene made little attempt to tone down or moderate his hostile feelings towards American capitalism and imperialism. So dangerous is the United States that anti-Americanism becomes a necessary component in the author's own commitment. However simplistic it may seem, Greene tells us (in conversation with Marie-Françoise Allain): "I would go to almost any length to put my feeble twig in the spokes of American foreign policy" [45] And in the same paragraph we read Greene's

side, but I never saw him take a drink-perhaps that would have been to admit that it was his own thirst, and his own body which suffered" (p. 122). If we can talk of the Catholicism of Vigot and Dominguez in the same breath, despite their differences, there is nonetheless strongly present in the one as in the other a moral rigorism reminiscent of Jansenism coupled with a respect for life in all its manifestations that so marks the Hindu and Buddhist religions. [39]

As M. Mahood remarks, the Goan's Catholicism "has been grafted on to the good stock of Buddhist-Hindu civilization". [40] This is significant in that it is indicative of a commitment to Catholicism on Greene's part that is no longer Europe-centred, but open to the influences of the Third World. At the same time, it is a Catholicism that will become more and more coloured by progressive political considerations, culminating fictionally in **The Honorary Consul** with the highly personal liberation theology of León Rivas, where religion does in fact merge into politics. [41] For Rivas the Gospels no longer make any sense in a country like Paraguay **(H. C.,** p. 116) where the Church's official representatives socialize with the dictators, "when the Archbishop sits down to dinner with the General" **(H. C.,** p. 220).

In such contexts, the emphasis must be on cohesive political revolt, to the extent that it is the idealistic Communist, such as Dr. Magiot in **The Comedians,** who is invested by his creator with the qualities of hope and compassion we would earlier have expected to emanate from a man of the Church. And from Indochina, through the Caribbean, into Latin America, the essential enemy and threat to the development and progress of these downtrodden peoples is perceived as coming from one source.

The anti-Americanism that marks Greene's work of the period under discussion has been commented on at some length by John Atkins, who writes concerning **The Quiet American** that "the over-riding impression one gets from this novel is Greene's intense irritation with the Americans" [42]. Atkins traces the author's anti-Americanism back to the days of his film-reviewing in the mid and late thirties. [43], when he regularly inveighed against Hollywood and its glossy and titillating offerings. [44]

In **The Quiet American** the narrator's judgment is severe regarding every American character. Despite his modesty and shyness that stand in such contrast to the

ing him with a volume of Pascal on his desk: "His eyes were on a page of **Les Pensées** as though he were still absorbed in those sad arguments" (p. 14). Much later in the novel Vigot will quote Pascal's Wager at Fowler (p. 136). The grave Vigot's association with Pascal, with his "property", recalls the association of other Greeneian characters with their particular properties. In **The Comedians,** for example, the less serious Ambassador Pineda is always associated with his cigars. [37]

In the case of Vigot, Greene continues to emphasize certain Christian attributes in the police-officer, having his narrator refer more than once to the man's priest-like qualities. As he questions him following Pyle's murder, Fowler cannot resist commenting to the policeman who reads and quotes Pascal: "perhaps you ought to have been a priest' ... I thought after he had turned and gone that he had looked at me with compassion" (pp. 137-138). Later, when Vigot calls on Fowler in his room to continue his questioning (pp. 165-169), the police officer obviously has a shrewd idea of what has happened, he knows that Fowler has left the sidelines and become involved. He questions and elicits responses with understanding and sympathy, prompting the narrator to make a remark which does not just echo but reinforces his earlier comment: "You would have made a good priest, Vigot. What is it about you that would make it so easy to confess .... is it because like a priest it's your job not to be shocked, but to be sympathetic?" (p. 166). The narrator's homage to Vigot, his admiration for those qualities he associates with the "good priest", is taken a step further in the course of this interview when he speaks of having, in the police officer's presence, "the feeling of some force immobile and profound. For all I knew, he might have been praying" (p. 168). It is difficult not to interpret these words as Fowler's recognition of the influence of a higher presence, and as Greene's own acknowledgement of the workings of Grace in a man.

Similar qualities to those observed in Vigot are discerned in Dominguez, the narrator's Goan assistant whom he believes to be a Roman Catholic (p. 121), and Philip Stratford has noted the humility that they have in common, [38] quoting Fowler's words emphasizing his "gentleness and humility" together with his "absolute love of truth" (p 121). There is a stoicism, an asceticism, about Dominguez which is kept up even during sickness: ".... you had less the impression of visiting a sick man than of being received by a rajah or a priest .... His landlady kept a jug of fresh lime by his

to a lot of things..'" (p. 184). The commitment to a political cause has already been recognized by Fowler- "I had become as engage as Pylé" (pp. 181-182) - but at this juncture notions of political involvement are overshadowed by more metaphysical considerations.

Early on in this article we referred to the closing lines of the novel which express the narrator's regret at what has happened coupled with his wish to have "someone" to apologize to. Whether Fowler is here seen to be "approaching the threshold of belief", whether this "someone" is in fact God, cannot obviously be conclusively proved, though a degree of aspiration to the transcendent can clearly be discerned. For the creator of **The Quiet American,** the composition of which was begun such a short space of time after the publication of his intensely Catholic **The End of the Affair,** [34] the continuing presence of Christian inspiration, if not explicit Christian content, would seem in the nature of things. If John Atkins is correct in his pronouncement that 1952 and 1953 "probably constituted the peak period of Greene's religious enthusiasm" [35] - and in support of Atkins's statement 1951 had already seen the composition of the essay "The Paradox of a Pope", while in 1953 **The Living Room** appeared together with the French version of his essay devoted to the Virgin Mary, "Notre Dame et son Assomption" - then it would seem legitimate and instructive to seek out elements in **The Quiet American** which testify to this strong Catholic commitment.

For Philip Stratford, there is no doubt regarding the importance of Christianity in this novel. "Not less than in the Catholic novels," writes Stratford "though not so explicitly stated, the central attitude in **The Quiet American** is a Christian one. It is not embodied in Pyle or Fowler but does briefly appear in two minor characters in the novel, in Captain Trouin, the French pilot, and in Vigot, the French officer at the Sûreté" [36]. In Trouin's case, although as we have seen above the pilot clearly possesses an ideal and an integrity in his aspiration to defend the values of European civilization, it is less clear whether these qualities may be termed specifically Christian except in the most nominal and traditional sense of the term, to the extent that defence of Europe can be understood as defence of Western Christian civilization, of **fides historica.**

In his presentation of Vigot, Greene deliberately encourages speculation about the influence and place of religion in the police officer's life and actions by introduc-

tower, in his final conversation with Pyle such is the American's lack of human feeling for the individuals struck down in the Place Garnier bomb attack that Fowler has little difficulty in giving the go-ahead to Heng's men. For Pyle, the bomb victims "'were only war casualties... It was a pity, but you can't always hit your target. Anyway they died in the right cause... In a way you could say they died for Democracy,' he said" (p. 177).

The retreat behind words, behind grand but empty concepts, serves only to increase the narrator's annoyance and impatience with Pyle: "I was suddenly very tired. I wanted him to go away quickly and die. Then I could start life again - at the point before he came in" (p. 178). If outrage and a sense of legitimate moral indignation are strongly present in Fowler's decision to help neutralize Pyle and thus take sides in the Vietnamese conflict, the personal motivation to remove the rival responsible for taking away his mistress is also strong. The desire to begin life anew is clearly expressed in the above quotation, "at the point before he (Pyle) came in", that is with Phuong sharing his life. For Roger Sharrock, the personal motivation due to sexual jealousy is every bit as important as commitment to a side in the Vietnamese conflict: "Fowler is, after all, a jealous rival who wants Phuong back quite as much as he is a man who has at last chosen to support a distinct political cause" [33]. Be that as it may, the narrator is clearly ill at ease with himself after his decision.

Ostensibly waiting for Pyle at the Vieux Moulin though knowing full well that the odds on his reaching the restaurant are less than negligible- "did I - I of all people - hope for some kind of miracle: a method of discussion arranged by Mr. Heng which wasn't simply death?" (p. 181) - so disturbed and guilty does Fowler feel that he would even be prepared to accept not just a browbeating but actual blows from the fists of the brash American journalist, Granger, a man the narrator normally deems unbearable (p. 182). Then, in the face of suffering again, a degree of solidarity and sympathy is established between the two journalists, as Granger tells Fowler of the gravity of his son's illness. Once more the narrator's cynical mask slips away and the humanitarian impulse takes over, a token of what can be interpreted as Fowler's increasing commitment to individuals and concern for their suffering. It is as though the scales are falling away from Fowler's eyes enabling him to see and understand with fresh and deepened perception: "'I don't dislike you, Granger. I've been blind

takes him time to come to terms with the reality of what has happened, with the concrete consequences of war; previously this specific reality has eluded him. Now his shoes are bespattered with the blood of others, with the blood of the innocent: "He was seeing a real war for the first time: he had punted down into Phat Diem in a kind of schoolboy dream, and anyway in his eyes soldiers didn't count" (p.161). Soldiers were meant to be the victims of the blast, but the military parade which was Pyle's target and which should have taken place at that time had been cancelled unknown to the American (pp. 161-162). This is hardly an excuse for Pyle, however, since evidence of his uncertainty and fear about what could occur has been furnished by his warning to Phuong to keep away from her favourite milk-bar on the square. It is Pyle who calmly informs a distraught Fowler that Phuong has not incurred any risk of hurt: "I warned her not to go'... the word 'warn' reached my consciousness. I took Pyle by the arm... 'What do you mean "warn"?' 'I told her to keep away this morning" (p. 160). The American has protected his Vietnamese beloved but, as the narrator bluntly tells his "friend", dozens of her country people are tragically beyond concern (p. 162). And the picture of horror which Pyle's involvement has brought about is evoked by Greene in a couple of simple but telling sentences: "A woman sat on the ground with what was left of her baby in her lap... The legless torso at the edge of the garden still twitched, like a chicken which has lost its head" (p. 161).

The scene is an unanswerable indictment of Pyle and what he stands for, and David Pryce-Jones is surely correct in writing that "in many ways Pyle's innocence is really ignorance Since it acts on other people - for Pyle is no longer a child - it is unforgivable". [32]. And whatever Fowler's own reservations about Pyle's personal guilt, he has come to a clear realization that the American must at all costs be neutralized. The narrator's resolve is such that he immediately proceeds to a meeting with his Communist contact, Heng, obsessed by the image of the woman covering up the remains of her baby (p. 172). Fowler will commit himself, then, as Captain Trouin had prophesied, following a moment of intense emotional agitation, in which the basic humanitarian impulse is very much to the fore, and it is this impulse which Heng exploits in his exhortations to Fowler: "Sooner or later... one has to take sides. If one is to remain human" (p. 172). And although Fowler may be seen to hesitate at the prospect of consigning Pyle to the attentions of Heng and his fellow Communists, certainly aware of what these attentions will entail as well as being conscious of the fact that his "friend" had saved his life after the attack on the watch-

If there is truth in Pyle's reading of the situation as far as the old colonial powers are concerned, his simplistic conviction of the United States's ability to conjure up an untainted 'Third Force' inspired by American liberal ideas and capable of regenerating Indo-China is manifestly wide of the mark. Pyle's theoretical, text book solution ignores the Vietnamese reality; in Roger Sharrock's words, "he can never come to terms with the real world which is not black and white but grey" [31]. It is this inability to perceive or take note of intermediate shades and nuances which will make Pyle an accomplice in the killing and maiming of a number of innocent Vietnamese civilians. Pyle's commitment to his image of the United States, his white and pure America with its "clean hands", is total; this coupled with his lack of any deep personal experience of the Indochinese reality causes him to be hoodwinked into an alliance with the unscrupulous Thé who callously exploits his new and strengthened position by perpetrating a civilian massacre. (pp. 159-163). Pyle's blinkered outlook has not allowed him to see beyond his view of the Communist resistance as a negative and evil organization, utterly opposed to the Western concept of the frèedom of the individual - "They (the Vietnamese)'ll " [11]be forced to believe what they are told, they won't be allowed to think for themselves" (p. 93) - a freedom for which one has to fight: "You have to fight for liberty". (p. 95)

An illustration of what happens when Pyle's theories are given practical application is provided in the scene of the civilian massacre referred to above. In Saigon's Place Garnier where the bomb has exploded, Fowler comes across the American, whose complicity in and responsibility for the explosion rapidly become apparent. The scene is crucial for revealing to the narrator precisely what Pyle's enthusiasm for liberty is capable of producing and for leading directly to Fowler's decision to become directly involved in the Vietnamese political situation.

Although Fowler is appalled by what Pyle has done-he has given General Thé and his men the means of creating the explosion - he will continue to refer to Pyle's innocence: "he'll always be innocent, you can't blame the innocent, they are always guiltless. All you can do is control them or eliminate them. Innocence is a kind of insanity". (p. 162) This insistence on the American's innocence or blamelessness certainly appears paradoxical in the light of what has occurred.

It is true that Pyle is deeply shocked by the carnage around him, incredulous at the idea of his Third Force being responsible for this horror: "Thé wouldn't have done this. I'm sure he wouldn't. Somebody deceived him. The Communists..." (p. 162) It

a position of commitment. "One day something will happen. You will take a side... We all get involved in a moment of emotion and then we cannot get out' ". (p.150) Indeed, Fowler's own "moment of emotion" which will jolt him willy-nilly into taking decisive action against Pyle and what he stands for is close at hand, though ironically it follows a scene of reconciliation between the two men in which Fowler appears to come to terms with his loss of Phuong.

Lucidly, the Englishman analyzes his reactions to Pyle, for once able to perceive the positive aspects of his personality: "All the time that his innocence had angered me, some judge within myself had summed up in his favour, had compared his idealism, his half-baked ideas founded on the works of York Harding, with my cynicism". (p. 155) This indulgence is far removed from the earlier attitude of the jealous rival; there is present too an element of the protective, as Fowler puts Pyle on his guard concerning his involvement with the Third Force inspired by his reading of the aforementioned theoretician, York Harding (p. 156) [30].

The warning is, however, quite ineffectual; the American has already thrown in his hand with the war-lord The, and limited as his experience is he is nonetheless convinced of the validity of his actions and of his government's policies. Earlier, Fowler's Indian assistant, Dominguez, ever a fund of accurate information, had informed Fowler of the briefing Pyle had given to a group of visiting Congressmen:

> 'He was talking about the old colonial powers - England and France, and how you two couldn't expect to win the confidence of the Asiatics. That was where America came in now **with clean hands** ... There was always a Third Force to be found free from Communism and **the taint of colonialism** - national democracy he called it; you only had to find a leader and keep him safe from the old colonial powers.' (p. 123 Our emphasis)

Particularly striking here is the naive trust and faith in the purity of American intentions, in the integrity of the young superpower, which is seen to stand in stark and simple contrast with the corruption of old colonial France, like Britain in other areas of the globe, too discredited to have any chance of taking positive action in favour of oppressed and vulnerable peoples.

for the professional man of war the conscience is untroubled, the strafing was justified: "In those reaches of the river we have orders to shoot up anything in sight". (p. 149) Yet, at the same time, Trouin does protest at certain aspects of the war he is waging, confessing to his hatred at having to drop napalm bombs, releasing innumerable flames of death and destruction from the safety of 3000 feet: "You see the forest catching fire... The poor devils are burnt alive, the flames go over them like water. They are wet through with fire" (p. 149). The simple, graphic terms of Trouin's description underscore the horror of the situation, as the pilot proceeds to outline the nature of his own commitment, which is not, he considers, to the pursuit of a colonial war but to the defence of European civilization (pp. 149,150). Yet as Molly Mahood puts it, "the simple, traditional French patriotism of the bomber pilot Trouin is betrayed when he is dispatched on napalm raids" [27]. This betrayal marks an irreversible change in the nature of colonialism in Vietnam, the napalm bombing being symptomatic of the pervasive corruption that has crept into the whole undertaking. Trouin has explicitly stated that he is not fighting a colonial war, making clear to Fowler what he feels about the **colons:** "Do you think I'd do these things for the planters of Terre Rouge? I'd rather be court-martialled". (p. 149) A distinction is made between the egotism and grasping nature of many of the settlers and the disinterestedness and integrity of men like Trouin who continue to fight for their noble if out-of-date ideal. The latter are men for whom Graham Greene has a manifest sympathy, men whose ideal is to be treated with respect. Drawing a parallel with Joseph Conrad, Molly Mahood interestingly refers to "suggestions" in **The Quiet American** that "colonial conquest and rule had once had a cultural dynamism akin to Marlow's 'real idea' " [28]. This particular "cultural dynamism" has now irrevocably vanished, and the mantle has been taken on by the Communists.

For the French, time is strictly limited, and Trouin has no illusions about this inescapable fact. Any idea of a French victory is out of the question (p. 151). If the armed forces' mission is a futile one, however, it remains a mission that demands the highest notions of duty and self-sacrifice, and we are close here to De Gaulle's concept of the army as the purest part of the nation [29].

Albeit weakened when he is compelled to drop napalm, Trouin's sense of purpose and involvement is basically intact, and he is unimpressed by Fowler's own protestations of non-involvement. For the Frenchman, Fowler will inevitably be forced into

boy (p. 52) and the French bomber's strafing of the sampan (p. 148) [26].

Examination of the sampan episode sheds a certain amount of light on the heart of our subject. Fowler has gone north following Phuong's desertion, and thanks to his connections in the Squadron Gascogne he is invited to join a French pilot on a vertical bombing raid over territory that has recently passed into Vietminh hands (p. 146). Initially, Fowler's taking part in a potentially hazardous mission can be viewed as a wish to blot out the misfortune that has befallen his private life, a will to remove thoughts of his rival, Pyle, from his mind. Indeed, as the plane descends to release its bombs, physical sensation has taken over Fowler's organism and being, to the extent that "for forty seconds Pyle had not existed: even loneliness hadn't existed" (p. 148). To the physical discomfort of the raid, there is added the realization of danger, that a single machine-gun on the ground could readily bring about the plane's destruction. Despite this, however, and the seemingly interminable length of the mission, "it had been free from the discomfort of personal thought" (p. 148).

At this point, Fowler expresses no criticism of the raid itself, as an act of war; he has referred to the possible danger to which Trouin, the pilot, and he himself were exposed, and would doubtless go along with the Frenchman's reasoning on that part of the operation: "Over the village they could have shot us down. Our risk was as great as theirs" (p. 149). It is the incident which follows this bombing raid that dismays Greene's protagonist, that is the strafing of the sampan. When Trouin opens fire on the small defenceless river boat, the thoughts of the supposedly impassive and hardened war correspondent are filled with indignation and revulsion:

> I thought again as I had thought when I saw the dead child at Phat Diem, 'I hate war.' There had been something so shocking in our sudden fortuitous choice of a prey. (p. 148).

This is an example of the gratuitous act of war that amounts to crime, to which Fowler can only respond with the humanitarian's sense of outrage and revolt.

During their session at the local opium-house following the mission, the seemingly innocuous and casual question Fowler puts to Captain Trouin - "That sampan - this evening- was it doing any harm?" (p. 149) - obviously betrays an uneasy conscience. And here the outlooks and attitudes of the two men are clearly differentiated:

novel, the French colonialists themselves often receiving quite fulsome praise.[25]

It is in this watch-tower sequence, then, that Fowler's own ivory tower of detachment is seen to crumble. Whether intentional or not there is considerable irony in Greene's use of the tower image: here the tower, far from providing "ways of escape" or protection from a harsh and unrelenting reality, is a symbol of the precarious nature, of the constant vulnerability, of the post World War II nuclear age poised on the brink of destruction. Fowler attempts to blot out the hideous reality - in this specific case the Vietnamese war machine in the midst of which the journalist finds himself enmeshed and sandwiched - by thinking back to a world of hope and blue skies before Hitler and the holocaust (p. 99).

This bout of nostalgia is, however, short-lived; the real world of suffering of Fowler's maturity is omnipresent, oppressive. The pain of war naturally, but also the pain of personal and private conflict which clearly emerges in the long conversation with Alden Pyle. (see, for example, p. 103). If Fowler has broken his commitment to his High Anglican wife, he has replaced it - as we have seen above-in his relationship with Phuong, and all his attempts to denigrate or deny any elevated sentiments on his part in this relationship - "I only want her body" (p. 58) - cannot disguise this involvement which goes far beyond what he will admit to Pyle. Were the Annamite just "a body", it is hardly conceivable that Fowler's jealousy over Pyle's involvement with Phuong should reach such a pitch, that he should break down into tears in the American Legation after her departure from his room in the rue Catinat (p. 146).

Thomas Fowler's commitment to the Vietnamese and to Vietnam is certainly deeper than he imagines. He is shown by Greene to be far closer to the Vietnamese reality than the great majority of other foreigners in the country. He knows the discomfort and hardship at first-hand, not just on account of his various sallies into the battle zones, but also through his own life-style and union with Phuong lived out in the bareness of his 'flat', just a room with no refrigeratcr (p. 165) and the 'urinoir' outside on the landing (p. 114).

The stages in Fowler's coming to a position of active personal involvement in the Vietnamese struggle have been traced by Philip Stratford. Apart from the crucial watch-tower scene which we have just commented upon, Stratford refers to other incidents of pain and suffering in this war which have awakened Fowler's compassion and sympathy, such as the sight of the dead Vietnamese woman and her small

his activity right up to his violent death, the "inert non-commitment" of Fowler is far from being a static characteristic. Indeed, the narrator's outlook on involvement will undergo quite considerable modification in the course of the novel. The watch-tower scene - to which we alluded a little earlier - and its aftermath is significant in this respect, in that it first presents the reader with a seemingly totally uncommitted Fowler during the discussion with Pyle rapidly revealing himself to be a man of compassion personally involved in, and concerned about, what is happening. The cynical, hard-headed journalist for whom politics are supposedly without interest- "... I'm a reporter. I'm not **engagé**" (p. 95) - gives himself up following the Vietminh destruction of the watch-tower to feelings of guilt and responsibility for the Vietnamese victims, the two watch-tower guards, one of whom has not been killed outright by the enemy fire (p. 112). And the injured Fowler's wish is vainly to join the young Vietnamese soldier, "to share his pain". Suffering brings about a solidarity amongst men, brotherhood is created in pain. In the feelings of responsibility he experiences for the soldier, Fowler admits to a degree of involvement and concern that his subsequent attempt to play down is unable to diminish. "I know the depth of my selfishness. I cannot be at ease... if someone else is in pain" writes the narrator. "Sometimes this is mistaken by the innocent for unselfishness, when all I am doing is sacrificing a small good-in this case postponement in attending to my hurt - for the sake of a far greater good, a peace of mind when I need think only of myself." (p. 113). In such a passage, Fowler's endeavour to undervalue his eminently humane response to suffering serves only to emphasize this very response and its positive nature. If Fowler is right in his disparaging analysis of his feelings and reactions in such a case, then in a wider sense the logical inference could well be that many humanitarian actions in the face of pain are in fact prompted by selfishness on account of an inability to be at ease knowing that somebody else is suffering. If an element of egoism does enter into Fowler's, and other men's reactions, in such circumstances, at the same time surely more altruistic motivations are involved. Do Fowler's priest and commissar act out of selfishness in trying to reduce the tribulations of Vietnamese peasants so that they (priest and commissar) can attain a peace of mind in which only thoughts of self need engage their attention? The doubting Fowler would be the last to accept this, his admiration for both Catholic priest (p. 94) and Communist commissar (pp. 95-96) being conveyed as genuine and unequivocal. Fowler's censure is reserved for himself and for the American characters in the

authentic involvement with the war situation that differentiates him from Bill Granger, the brash American journalist, who flies north to the battle zone with his cronies at approved times when it is safe to do so (e.g. pp. 32, 34), though to be fair to Granger he has no illusions about the authenticity of his reporting or his commitment to truth.

If Granger's reporting is shown to be counterfeit, so too is his relationship with the Vietnamese, largely confined to "knocking the girls" in the local brothels (p. 35). The contrast with Fowler is again revealing, the Englishman being committed to his Vietnamese mistress, Phuong, in spite of his cynicism in general and concerning love in particular. For Fowler, Phuong is certainly important as a sexual being, but she is far more than this: "she was the hiss of steam, the clink of a cup, she was a certain hour of the night and the promise of rest (p. 10). She is the great comforter, the bringer of solace to Fowler, and the woman he will seek to marry, as soon as he is able to secure a divorce from his first High Anglican wife.

Fowler's ideological adversary and his rival for Phuong's affections, the young American, Alden Pyle, is presented at the outset of the novel as possessing a naive and unbreakable commitment to his country and its American values:

> Pyle was very earnest and I had suffered from his lectures on the Far East, which he had known for as many months as I had years. Democracy was another subject of his, and he had pronounced and aggravating views on what the United States was doing for the world (p. 10)

In Greene's anti-American first-person narrator, for whom Pyle sums up most of the United States's defects, many readers have assumed they have a mirror image of the author himself. Graham Greene has not been particularly helpful in this respect with his somewhat cryptic "I'm not entirely Fowler" in conversation with Marie-Françoise Allain [22], though Philip Stratford is surely correct when he writes that "it is fair to expect the total novel to carry Greene's viewpoint, but fatal to equate Fowler and Greene, the narrator and the author" [23]. And to this caveat the critic rightly adds that "Fowler's inert non-commitment is no more compatible to him (Greene) than Pyle's high-principled meddling" [24] .

However, whereas Pyle's "high-principled meddling" is an unchanging feature of

We are able to observe Fowler "in the field" comparatively early in the novel as he goes about the grisly business of amassing material concerning the state of the war in the north. Joining a French patrol on reconnaissance, he is rapidly able to perceive some of the concrete effects of hostilities in this battle zone. A canal they come upon is "full of bodies: I am reminded now of an Irish stew containing too much meat. The bodies overlapped: one head, seal-grey, and anonymous as a convict with a shaven scalp, stuck up out of the water like a buoy. There was no blood..." (Q.A., 50-51). The horror of war is directly conveyed to the reader by the use of vivid, graphic, highly unpleasant images that elicit revulsion. In this spectacle of mass carnage, the bodies are bloodless, just objects to be negotiated as Fowler and some of the soldiers make their way across the canal in a punt: "... but we ran on a shoal of bodies and stuck. He (a soldier) pushed away with his pole, sinking it into this human clay, and one body was released and floated up all its length beside the boat like a bather lying in the sun". (Q.A., 51). The 'clay' may be termed 'human', but it is treated in the most callous, inhuman way, the narrator here adding to the horror of the situation by the use of a simile which is particularly striking and macabre in its audacity.

What rapidly becomes apparent in lines such as the above is the dehumanizing effect of war, of carnage taken for granted. [21]. For combatants the sight of violent death is merely part of the routine. Close to the canal with its overlapping bodies, the soldiers go about what is for them ordinary business:

> There was an odd comradeliness about all their movements, as though they were equals engaged on a task they had performed together times out of mind. (Q.A., 51).

It should be noted that Fowler, for his part, is momentarily part of this unit: albeit an observer, unlike most of his fellow journalists he is knowingly in the firing line and exposed to the same risks as the army regulars about him.

In this sense Fowler is involved, and despite his own disparaging comments on the fear he experiences (e.g. pp. 51, 90, 106) he displays considerable courage in difficult and dangerous situations. Indeed, Fowler regards it as a war correspondent's duty to be involved in the fighting at first hand, for "if one writes about war, self-respect demands that occasionally one share the risks" (p. 146). It is this

Communism besides the politics" [13]. The sentiments expressed in the first two sentences of this quotation are to be found in **The Quiet American,** in Fowler's words to Pyle as they pursue their ideological debate in the Vietnamese watch tower, [14] while the final sentence is re-echoed in **The Comedians,** in a line from Dr. Magiot's letter to the narrator Brown: "But Communism, my friend, is more than Marxism..." [15].

The continuity and the consistency of thought are clear, a number of Greene's progressive ideas and sentiments aired in passages of the **Collected Essays** being expressed and espoused by protagonists in his fiction, as here by Fowler and Magiot. The actual probing of political **and** spiritual conflict will reach a climax in the seventies, in **The Honorary Consul,** a favourite novel of Greene's because it combines his religious interest with his political interest [16].

As it stands, Graham Greene's "committed" novel of the fifties, **The Quiet American,** would appear on the surface to be essentially secular. Ideological and political questions are of course to the fore in this work; it is a story set in, and about, a war with all its attendant horrors, in particular pain and death, death which dominates the novel, as J.P. Kulshrestha has underlined, aptly reminding readers that Conor Cruise O'Brien has called death "the fourth character in the story" [17]. This concern with suffering and death is a means of lifting the novel out of the realm of the merely secular and placing it in a broader framework with at least implications of the transcendental. Fowler's remorse over Pyle's death at the end of the novel, his wish that "there existed someone to whom I could say that I was sorry" [18] could quite conceivably be interpreted as a yearning for God, or as Roger Sharrock puts it, "the narrator **might** be interpreted as approaching the threshold of belief merely through need" [19].

Before dealing with such metaphysical considerations, however, there is the specific concern with the here and now, with the reality of the day-to-day horror of war. Greene's first person narrator, Thomas Fowler [20], believes himself to be an impersonal reporter of atrocity, able to stand indefinitely on the sidelines as an impartial observer. "I'm not involved" is his watchword:

> It had been an article of my creed. The human condition being what it was, let them fight, let them love, let them murder, I would not be involved. (Q.A.,27).

> I have always inclined to the Left, ever since my first books, and my sympathies have consolidated with age. There's a certain continuity between **It's A Battlefield, Brighton Rock** and **The Honorary Consul:** it's my concern with the possibility of social change. [7]

This "concern with the possibility of social change" does not necessarily imply aiming at actually changing society, as Greene specifies in the same series of conversations with Marie-Françoise Allain. The author claims that he expresses "a sense of injustice", his aim being "not to change things but to give them expression" [8]. At the same time, he allows that "writing is certainly a kind of action" [9].

In the post-war years, this "action" reaches out particularly in spiritual and political directions. The fifties themselves encompass works that searchingly probe both political and spiritual conflicts and dilemmas. If the novel which appeared at the beginning of the decade **(The End of the Affair,** 1951) is explicitly religious - and more specifically Roman Catholic - in much of its content, the novel from the middle of this period **(The Quiet American** 1955), which we are going to discuss in some detail, although overtly concerned with political and ideological issues, does in fact transcend the merely secular. [10]

The years of publication of **The End of the Affair** and of **The Quiet American** were also years in which Greene produced essays of interest dealing with similar themes. In 1951 the spiritual preoccupation comes to the fore in "Simone Weil" and more especially in "The Paradox of A Pope", [11] where the author's intense admiration for Eugenio Pacelli is manifest. To the superficial reader of Graham Greene, such admiration from a progressive novelist for an apparently arch-conservative Pontiff may initially startle, seeming much more apt coming from the pen of an Evelyn Waugh or a Julien Green. Yet it is surely the mark of a writer who is truly free and impartial, unfettered by doctrinaire allegiance to party or faction. The man who perceives Pius XII as "the servant of the servants of God, and not impossibly one feels, a saint" [12] is equally able to write in the year of publication of **The Quiet American,** a glowing tribute to Ho Chi Minh and his achievements. Thanks to Ho Chi Minh and his comrades, "the anonymous peasant has never been treated so like an individual before. Unless a priest, no one before the Commissar has approached him, has troubled to ask him questions, or spent time in teaching him. There is something in

ASPECTS OF COMMITMENT IN GRAHAM GREENE'S **THE QUIET AMERICAN**

BY

ANTHONY H. NEWBURY

Following the Second World War and its attendant unparalleled barbarity, it has become a virtual impossibility for the writer to remain uncommitted. Even a Catholic writer as reputedly aloof from the events and preoccupations of the world as Greene's namesake and fellow convert from Protestantism, Julien Green, could state in the sixties that such a stance was no longer possible, that the attractive ivory tower of former times must have disappeared during an air raid. [1]

Graham Greene's own personal commitment had already made itself apparent in a number of novels written before the Second World War. If the most notable example of his commitment to the Roman Church in this period is to be found in **The Power and the Glory** [2], published in 1940, and in his documentary account of his 1938 Mexican journey, **The Lawless Roads** (1939), in which a faith however downtrodden and oppressed is seen to offer a degree of solace and hope to a beleaguered population, his social and political involvement-never narrowly tied to the doctrines of any one party - is clearly revealed in **It's A Battlefield** (1934). The latter work was widely regarded as revolutionary by reviewers at the time [3]. Although Samuel Hynes is right to assert that a revolutionary interpretation is not evident or clear [4], as Roger Sharrock states, quoting the character Caroline Bury's left-wing sentiments: "Greene was certainly some sort of socialist when he wrote this" [5]. For Sharrock, however, Greene's first concern here is with alienation, "with the alienation of individuals and not directly with attempts to change society" [6].

Referring to this period in his writing in conversation with Marie-Françoise Allain, Graham Greene corroborates what he views as coherence and consistency in his Left wing position opted for as a young man, emerging in the works of the 30s and being kept up in the works of the 80s:

MacNeilage, P. and DeClerk, J.L (1969). "On the motor control of coarticulation in cvc monosyllables" **Journal of the Acoustical Society of American:** 45, pp. 1217-1233.

Maeda, S (1990). "Compensatory articulation during speech: Evidence from the analysis and synthesis of vocal-tract shapoes using an articulatory mode." **In speech production and speech modeling** (W. J. Hardcastle and A. Marchal, editors). pp. 131-150. Pordrech: Kluwer Academic Publishers.

Ohde, R N. and Sharf, D.J. (1975) "Coarticulatory effects of voiced stops on the reduction of acoustic vowel tragets". **Journal of the Acoustical Society of American:** 58, pp. 923-927.

Ostreicher, H. J. and Sharf, D. J. (1976). "Effects of coarticulation on the identification of deleted consonant and vowel sounds". **Journal of Phonetics:** 4, pp. 285-301.

Peterson, G E and Lehiste, I. (1960). "Duration of syllable nuclei in English" **Journal of the Acoustical Society of American:** 32, pp. 693-703.

Recasens, D (1985) "Coarticulatory patterns and degrees of coarticulatory resistance in Catalan cv sequences "**Language and Speech:** 28, pp. 97-114.

-------- (1987). "An acoustic analysis of v-to-c and v-to-v coarticulatory effects in Catalan and Spanish vcv sequences" **Journal of Phonetics:** 15, pp. 299-312.

Sharf, D J and Hemeyer, T. (1972). "Identification of place of consonant articulation from vowel formant transitions". **Journal of the Acoustical Society of American:** 51, pp 652-658

Stevens, K N and House, A. S. (1963). "Perturbations of vowel articulations by consonantal context An acoustical study **Journal of Speech and Hearing Research:** 6, pp 111-128

Steens, K N and Klatt, D (1969) "Pharyngeal Consonants . **Research Laboratory of Electronics. M.I.T. Quarterly Progress Report:** No 93, pp.208-216.

Strange, W Jenkins, J I and Johnson, T L. (1983) "Dynamic specification of coarticulated vowels **Journal of the Acoustical Society of American:** 74, pp. 695-705.

Wood, S. (1982). "Radiographic and model studies of the palatal vowels . **In x-ray model studies of vowel articulation.** Vol. 23, pp. 119-115 Working Papers, University of Lund.

REFERENCES

Al-Ani, S. { S. 1970}. **Arabic Phonology.** The Hague: Mouton.

Al-Gazali, S. {1977} **Back Consonants and Backing Articulation in Arabic.** Ph.D. Thesis, The University of Tesas, Austin.

Ali, L. and Daniloff, R. {1972} "A Cinefluorographic-phonological invetigation of emphatic sound assimilation in Arabic "**Proceedings of the International Congress of Phonetics Sciences. 7th.** pp. 639-648.

Broad, D. J. and Fertig, R.H. {1970} "Formant-frequency trajectories in selected cvc-syllable nuclei **Journal of the Acoustical Society of American:** 47, pp. 1572-1582.

Carney, P. J. and Moll, K.L. {1971} "A cinefluorographic investigation of fricative consonant-vowel coarticulation" **Phonetica** 23, pp. 193-202.

Cooper, F. S., Delattre, P. C., Liberman, A. M., Borst, J.M. and Gerstman, L. J. {1952}. "Some experiments on the perception of synthetic speech sounds". **Journal of the Acoustical Society of American:** 24, pp. 597-606.

Delattre, P., Liberman, A. and Cooper, F. {1955}. "Acoustic loci and Transitional Cues for Consonants". **Journal of the Acoustical Society of American:** 27, pp. 769-773.

El-Halees, Y. {1985}. "The role of F1 in the place-of-articulation distinction in Arabic". **Jurnal of Phonetics:** 14, pp.287-298.

Fant, G. {1960}. **Acoustic Theory of Speech Production.** The Hague: Mouton.

Heinz, J.M. and Stevens, K.N. {1961}. "On the properties of voiceless fricative consonants" **Journal of the Acoustical Society of American:** 33, pp. 589-596.

House, A. S. and Fairbanks, G. {1953}. "The influence of consonant environment upon the secondary acoustical characteristics of vowels" **Journal of the Acoustical Society of American:** 25, pp.105-113.

Jenkins, J. I., Strange, W. and Edman, T. R. {1983} "Identification of vowels in vowel-less syllable". **Perception and Psychophsics:** 34, pp. 441-450

Kuehn, D. P. and Moll, K. L. {1972} "Perceptual effects of forward coarticulation" **Journal of the Acoustical Society of American:** 15, pp. 654.

Lindblom, B. E. F. {1963}. "Spectrographi study of vowel reductrion" **Journal of the Acoustical Society of American:** 35, pp. 1773-1781

in GAD. The second formant frequency of the vowels showed significant variation as a function of the preceding fricative place of articulation. In general it appears that the amount of c-to-v coarticulation is inversely related to the degree of fricative articulators involvement in the production of the follwing vowel. Thus, on the one hand, the large decrease in the F2 frequency of the front high vowel in the vicinity of emphatic and pharyngeal fricatives reflects the antagonistic demand on the articulatory movements during the production of such sequences; wheres. the emphatic and pharyngeal fricatives involve lowering and retracting the tongue, the front high vowel requires tongue fronting and raising towards the palatal region of the oral cvity. On other hand, the relatively small decrease in the F2 frequency of the front high vowel in the vicinity of alveolar and palatal fricatives reflects the complementary demand on the tongue movement during the proudtion of such sequences, whereas the articulation of both the consonant and the following vowel involves tongue fronting and raising towards the palatal region.

However, it should be noted that the fricative carryover coarticulatory effects on the vowels can be explained more accurately by means of electropalatography study which provides detailed information on the articulators movement and position during the production of fricative-to-vowel sequence. Apoint which can be considered for future investigation of Arabic fricative consonants. Another point which needs further study is whether native speaker of Arabic language can detect formant transitions in the vowel space as belonging to specific fricative consonants, without those fricative consonants being actually present in speech signal.

the palatal region of the oral cavity which causes some reduction in the front cavity size, thus yeilding acoustically to an increase in the F2 onglide frequency. Wood {1982} reported that advancing the dorsal constriction for {u} from the back or mid soft palate to the front soft palate or to even more anterior region causes a large F2 increase, similar results obtained by Maeda {1990} for the vowel {o}. The emphatic fricatives influenced the back vowels by lowering their F2 onglide transition which reflects that the tongue is somewhat further retracted during the production of the sequence emphatic fricatives plus back vowels. However, the vowel {u:} showed insignificant amount of F2 onglide lowering {less than 50Hz} which indicates that this vowel resists further backing. The carryover coarticulatory effects of the pharyngeal fricatives on the back vowels probably reflects some reduction in the back cavity size, and the small amount of F2 onglide raising before uvular fricatives may reflect that the tongue movement is minimum during the articulation of the sequence uvular fricatives plus back vowels.

4- The increas in the F2 onglide frequencies of the low vowel {a:} in the vicinty of the alveolar and palatal fricatives reflects some tongue raising towards the palatal region of the oral cavity during the formation of these fricative constrictions. Carney and Moll {1971} found that the x-ray data showing more tongue dorsum raising for {a} when it is adjacent to {s} in the sequence {hisa} than when it is adjacent to {v} in the sequence {hiva}. The decrease in the F2 onglide frequency reflects some tongue backing and lowering induced by the preceding emphatic uvular and pharyngeal fricatives.

5- All vowels showed small amount of carryover coarticulatory effects in the vicinity of the glottal fricative and the labio-dental fricative which reflects the nuetral demand on the tongue movement duringthe articulation of these consonants and the following vowels. The production of {h} involves tongue readiness for the articulation of the following vowel, and the production of {f} require no tongue movements.

CONCLUSIONS

The results of the present investigation reveal that the fricative consonants induced carryover coarticulatory effects on the following vowels in the cv:c syllables

13. The glottal voiceless fricative {h} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {i:} 30Hz, {a:} 167Hz and {e:} 243Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {u:} 46Hz and {o:} 79Hz.

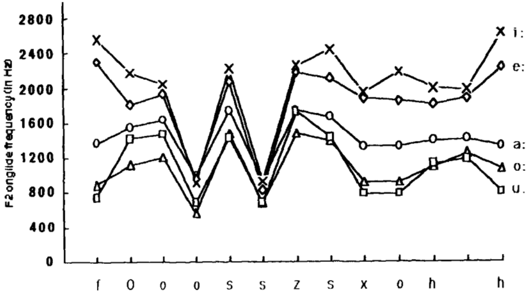
A few tendencies emerge from the carryover coarticulatory effects of the fricative consonants on the F2 onglide transition:

1- All fricatives influenced the front vowels by lowering their F2 onglide frequencies compared to their steady state values in similar context. The F2 lowering for the vowel {i:} decreased in the progression <h <f <s <z <s <e <y <o <h <x <? o s, and for the vowel {e:} the F2 lowering decreased in t he progression <f <z < h < s < s < y < x < h < d < ? < e <s <o. The back vowels showed raising F2 onglide transition before all fricatives except emphatic fricative which showed F2 lowering effects The F2 onglide raising of the vowel {o:} increased in the progression < f < y < x < h < h < ? < e <o <z <s <s, and for the vowel {u:} the F2 raising increased in the progression <f < h <y <x <h < ? < e <o <s <s < z. The low vowel {a:} showed lowering F2 onglide transition berore all fricatives except alveolar and palato-alveolar fricatives which showed F2 raising effects. The lowering of F2 onglide decreased in the progression e< o< f< h< h< y< x< o< ?< s, and the rasing of F2 onglide increased in the progression s« z« s.
2- The decrease in the F2 onglide frequencies of the high and mid front vowels reflects some tongue lowering induced by the preceding fricatives. According to Fant {1960} F2 frequency correlates with front cavity size and therefore with the degree of tongue raising towards the palate. Wood {1982} found that an increase in the distance between the tongue and the palate at the place of primary constriction for front vowels causes significant decrease in the F2 frequency. The large amount of F2 onglide lowering for the high front vowels in the emphatic context is then understandable since the front cavity size is inhanced by the tongue lowering and retracting for the articulation of the emphatic fricatives. The relatively small amount of the F2 onglide lowering before dental, alveolar and palatal fricatives reflects less demand on the tongue movement during the articulation of these fricatives and the front vowels.
3- The increase in the F2 onglide frequncies of the back vowels reflects some tongue raising induced by the preceding fricatives. The friction constriction for dental, alveolar and palatal fricatives involves tongue fronting and raising towards

2. The dental voiceless fricative {e} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 31Hz. and {e:} 591Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition? {o:} 223Hz and {u:} 36bHz.
3. The dental voiceless fricative {o} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 46Hz, and {e:} 486Hz and {i:} 531Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {o:} 318Hz and {u:} 667Hz.
4. The dental voiced emphatic fricative {o} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {u:} 38Hz. and {o:} 181Hz, {a:} 198 Hz, {:e} 1224Hz and {i:} 1364Hz.
5. The alveolar voiceless fricative {s} showed downward shift in the F2 transition of the front vowels: e:} 258Hz, and {i:} 364Hz. The low and back vowels showed upward shift in the F2 transition: {a:} 60Hz, {o:} 546Hz and {u:} 683Hz.

6. The alveolar voiced freicative {s} showed downward shift in the F2 transition of all vowels: {u:} 10Hz, {o:} 100Hz, {a:} 319Hz, {e:} 1076Hz and {i:} 1464Hz.
7. The alveolar voiced fricative {z} showed downward shift in the F2 transition of the front vowels: {e:} 235Hz, and {i:} 349Hz. The low and back vowels showed upward shift in the F2 transition· {a:} 100Hz, {o:} 477Hz and {u:} 848Hz.
8 The palato-alveolar voiceless freicative {s} showed downward shift in the F2 frequency of the front vowels: {i:} 228Hz, and {e:} 379Hz. The low and back vowels showed upward shift in the F2 transition: {a:} 172Hz, {o:} 486Hz, and {u:} 682Hz
9. The uvular voiceless fricative {x} showed downward shift in the F2 transition of the vowels· {a·} 191Hz {e.} 454Hz and {e:} 652Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {u:} 56Hz and {o:} 63Hz.
10 The uvular voiceless fricative {b} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 182Hz, {i:} 424Hz and {e:} 425Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {o:} 30Hz and {u:} 51Hz.
11. The pharyngeal voiceless fricative {h} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 161Hz, {e:} 470Hz and {i:} 591Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {o:} 115Hz and {u:} 325Hz.
12 The pharyngeal voiceless fricative {?} showed downward shift in the F2 transition of the vowels: {a:} 252Hz,{e:} 508Hz and {i:} 726Hz. The back vowels showed upward shift in the F2 transition: {o:} 212Hz and {u.} 364Hz.

FIG. (2). Mean values of F2 onglide transition frequency (in Hz) of the long vowels as a function of preceding fricative place of articulation.



emphatic fricatives show systematic upward shift in the F1 transition of these vowels. Althought the amount of the F1 transition for the low vowel |a:| did not exceed 50Hz range but it showed consistent upward shift after fricatives with posterior place of articulation and dwnward shift after fricatives with interior place of articulation. The vowel |u:| showed hardly any movements in the F1 transition as a function of ficative place of articulation. El-Halees |1985| reported that the F1 transition plays a major role in the distinction between the uvular and pharyngeal place of articulation in Jordanian Arabic.

Figure |2| shows the mean values of the F2 onglide transition of the vowels as a function of preceding fricative place of articulation. A glance at the figure shows large amount of variations in the F2 onglide transition but the degree of varition varies amoung fricatives with different places of articulation. To get better understanding of such coarticulatory constraint let us examine in more details the behavior of the F2 onglide transition before individual fricative:

1. The labio-dental voiceless fricative |f| showed downward shift in the F2 transition of the front and low vowels. The F2 transition mean values decreased as follows |u:| 19Hz. |a:| 25Hz.

former, and the blade of the tongue and the alveolar ridge for the latter. A secondary articulation involves tongue retraction towards the pharyngeal cavity {Ali and Daniloff, 1972; Al-Gazali, 1979}. The insignificant amount of F2 steady state lowering of the vowel {u:} reflects that this vowel is interinsically back and probably resists further backing of the tongue.

{2} - The degree of lowering in the pharyngeal fricatives construction is also systematically influenced the F2 steady state frequencies of the following vowels. Pharyngeal fricatives in Arabic language are produced by retracting and lowaring the root of the tongue and making a low narrow constiriction with the back wall of the pharynx in the laryngopharyngeal cavity {Delattre, 1971; Ali and Daniloff, 1972; Al-Ghazali, 1979}. The constriction for the voixeless pharyngeal {h} is lower and narrower than for the voiced pharyngeal {?}. In the present data the lowering of {h} constriction caused the F2 steady state frequencies of the vowels to decrease as follows: {i:} 120Hz, {a:} 110Hz, {e:} 105Hz, {o:} 54Hz, and {u:} 7Hz; compared to their mean values preceding the voiced counterpart. The F2 lowering is associated with the size of the oral cavity: the wider the oral cavity, the lower the F2 frequency {Fant, 1966}. Once again the relatively small amount of the F2 steady state lowering of the vowel {u:} shows that back vowels are less sensitive to backing coarticulation effects.

As mentioned earlier a number of studies have shown that the formant transitions between the consonants and the steady state part of the vowel provide important acoustic cues for the perception of vowels and consonants. In the present study fromant transition will be examined to find out any regularities in the upward or downward shift in the values of formant transition as a function of preceding fricative pace of articulation.

The reaults showed no significant carryover coarticulatory effects on the F1 onglide transition for the vowels {i:, e:, o:} in the vicinity of fricative with anterior place of articulation {i.e. dentals, alveolars and palatals}. The amount of F1 transition variation did not exceed 50Hz, and more importantly the variation was inconsistent among tokens repetitions. Consistent with the data reported here, Delattre et al {955} found that the locus of the F1 is identical for {b, d, g}, and suggested that the F1 locus has nothing to do with consonant place of articulation. However, fricatives articulated in the posterior place of articulation {i.e. uvulars, pharyngeals} and

effects on the F2 steady state frequencies of the following vowels. Figure {1} shows the mean values of F2 steady state frequency as a function of preceding fricative place of articulation. A glance at the figure tells us that vowels are shown to differ in their amount of F2 steady state variation. The difference between the highest and the lowest mean values of F2 steady state for each vowel is as follows: {i:} 408 Hz, {e:} 576Hz, {a:} 499Hz, {o:} 288Hz, and {u:} 172Hz. However, the carryover coarticulatory effects did not produce a progressive increase or decrease in F2 steady state freguency of the vowel as the place of fricative articulation moves from anterior to posterior position in the oral cavity, nevertheless the following tendncies emerge:

{1}-F2 steady state frequencies of the vowels are lowered considerably in the vicinity of the emphatic fricatives compared to the values in nonemphatic counterpart fricatives. The amount of F2 steady state lowering induced by the emphatic dental fricative {o} increases in the progression {u:} « {o:} « {e:} « {i:} « {a:}, and by the emphatic alveolar fricative {s} increases in the progression {u:} « {o:} « {i:} « {a:} « {e:}. The present result is inagreement with the findings reported by Fant {1960} that F2 frequency is inversely related to the degree of tongue backing. The production of emphatic fricatives {o} and {s} involves a primary articulation involoving a narrow constriction between the tip of the tongue and the upper front teeth for the

FIG. (1). Mean values of steady state frequency (in Hz) of the long vowels as a function of preceding fricative place of articulation.

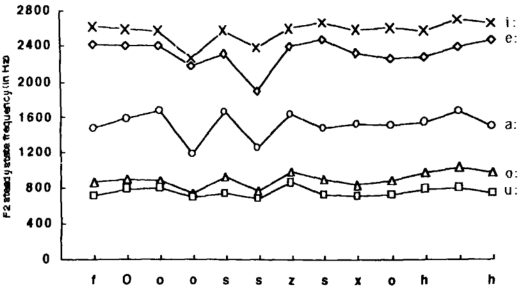


Table (3). Means and standard deviation (in Hz) of the back vowl [o:,u:] F1 and F2 frequencies in various initial fricatives context.

Token	F1 frequency				F2 frequency			
	onglide		steady state		onglide		steady state	
	m	SD	m	SD	m	SD	m	SD
fo:t*	439	14	424	8	888	24	863	27
θo:t*	394	9	413	13	1121	48	898	25
ðo:t*	452	12	460	16	1197	32	879	29
ð̣o:t*	495	6	410	5	561	18	742	34
so:d	394	17	439	10	1470	40	924	37
ṣo:t	486	14	441	21	673	37	773	29
ẓo:d	401	15	428	26	1470	13	993	26
šo:t	394	7	430	18	1380	40	894	43
xo:t*	500	24	485	20	902	15	839	30
ɣo:t*	512	11	469	26	909	28	879	18
ḥo:t*	636	31	515	16	1091	27	876	46
ʕo:d	652	18	518	10	1242	18	1030	26
ho:t*	455	21	456	28	1061	26	982	35
fu:t	352	16	348	24	735	26	716	32
θu:t*	364	10	333	8	1424	42	788	26
ðu:t*	361	12	336	12	1470	18	803	31
ð̣u:t*	374	24	404	18	667	40	705	36
su:d	350	32	348	17	1425	36	742	18
ṣu:t*	364	19	368	14	682	31	692	45
zu:d	379	16	385	24	1712	18	864	27
šu:t	365	21	365	29	1409	31	727	40
xu:t*	376	31	380	37	768	48	712	28
ɣu:t*	382	18	379	11	778	29	727	17
ḥu:d	348	27	346	20	1121	20	796	42
ʕu:d	424	19	396	16	1167	37	803	20
hu:d	394	14	395	17	788	18	742	36

voiced pharyngeal fricative {?} shows consistent increase in F1 within the range of 75Hz. The vowels {a:, o:, u:} also show no significant variation in their F1 steady state frequency in the vicinity of fricative consonants, but once again the pharyngeal fricatives induced systematic increase in the vowel {o:} F1 frequency within the range of 70Hz.

On the other hand, fricative consonants induced systematic large coarticulatory

Table (2). Means and standard deviations (in Hz) of the front vowels [i:, e:] F1 and F2 frequencies in various initial fricatives context.

Token	F1 frequency				F2 frequency			
	onglide		steady state		onglide		steady state	
	m	SD	m	SD	m	SD	m	SD
fi d	318	31	321	26	2571	46	2621	48
θi t*	320	14	313	21	2182	28	2592	37
ð̆i.t*	305	18	301	16	2045	44	2576	21
ð̣i:t	394	12	318	17	909	36	2273	41
si:t	360	6	348	11	2212	27	2576	45
ṣi.t	424	12	318	18	915	43	2379	32
zi.d	319	24	316	11	2242	24	2591	39
ši.d	310	9	303	11	2424	44	2652	47
xi t*	373	17	305	15	1924	41	2576	30
ɣi t*	411	21	312	20	2167	31	2591	30
ḥi.d	492	13	386	10	1970	38	2561	20
ʕi d	505	20	418	28	1955	43	2681	40
hi·t	341	17	326	24	2606	57	2636	48
fe t*	424	8	426	5	2315	23	2424	37
θe t*	450	12	424	10	1818	46	2409	56
ð̆e.t*	379	9	425	15	1924	43	2410	43
ð̣e t*	576	13	485	10	955	21	2179	18
se d	475	18	434	21	2061	13	2319	27
ṣe d	561	5	485	12	818	10	1894	28
ze t	515	21	500	18	2159	21	2394	23
še.t*	519	23	515	22	2091	48	2470	51
xe t*	621	16	485	13	1864	31	2318	35
ɣe t*	515	18	481	12	1833	46	2258	50
ḥe.t*	636	14	485	19	1803	41	2273	21
ʕe t*	652	26	530	17	1870	27	2378	20
he t	485	18	495	11	2212	20	2455	44

One the one hand, comparing the average mean of F1 steady state of the vowel {i:} with the individual fricative context mean it appears that no systematic variation has been induced on F1 {the range does not exceed 50 Hz} as a function of fricative place of articulation. The pharyngeal fricatives show consistent increase in F1 frequency within the range of 100 Hz. Similarly, the F1 steady state of the vowel {e:} shows no significant varition as a function of fricative place of articulation. Only the

Table (1). Means and standard deviations (in Hz) of the low vowel [a:] F1 and F2 frequencies in various initial fricatives context.

Token	F1 frequency				F2 frequency			
	onglide		steady state		onglide		steady state	
	m	SD	m	SD	m	SD	m	SD
fa:t	712	16	773	12	1364	20	1470	37
θa:t*	742	12	781	14	1545	18	1576	46
ða:t	710	21	758	17	1636	42	1682	23
ð̣a:t	646	9	682	15	985	39	1183	52
sa:d	636	25	712	10	1727	21	1667	24
ṣa:d	667	18	685	19	939	37	1258	20
ẓa:d	683	11	716	13	1736	47	1636	54
ša:t	685	20	715	24	1652	42	1480	46
xa:t*	768	7	727	11	1324	56	1515	36
ɣa:t	786	15	740	14	1318	29	1500	19
ḥa:d	758	26	712	17	1384	38	1545	45
ʕa:d	788	31	758	21	1403	44	1655	54
ha:t	697	14	716	18	1318	37	1485	48

* nonsense cv:c syllables.

Five native speakers of GAD took part in this experiment. Each speaker was asked to read the word from individual cards presented by the experimenter. Cards were arranged in random order, all tokens were printed on the cards using normal Arabic orthography. Subjects were told to produce each token five times at a speaking rate they considered to be representative of their normal conversational speech. The speech material was recorded in a sound-treated room on a professional-quality portable cassette tape recorder (Sony model TCD5M) using an electrect condensor microphone positioned about six inches from the talker's mouth. The recordings were processed at the University of Texas Speech Laboratory, they were digitized at a sampling rate of 10 KHz, after preemphasis and low-pass filtering. The frequencies of vowel formants were estimated using linear predictive coding (LPC) analysis on a VAX computer.

The segmentation criteria for the vowels and fricative consonants boundaries are similar to those employed by Peterson and Lehiste (1960), and Al-Ani (1970). The vowel portion of each cv:c syllable was divided into two segments: (1) the transition from the initial fricative consonant to the steady state part of the vowel, (2) the steady state part of the vowel.

RESULTS AND DISCUSSION

Tables (1),(2) and (3) show the carryover coarticulatory effects of initial fricative consonants on the steady state and formant transitions of the following long vowels in GAD It is assumed that the average means of the vowel formant frequencies in various fricative contexts will capture at best the one-to-one mapping relationship between the underlying phonemic representations and their corresponding articulatory gestures. Therefore, it is hoped that, the comparison of average means with the mean of individual fricative will provide us better insight to the magnitude of consonantal effects on the target fromant frequencies of vowels. The average means of the vowels steady state F1 and F2 frequencies as a function of various fricatives context is as follows: for the vowel (i:) the average mean of F1 is 330Hz (SD 35), F2 2562Hz (SD 112); for the vowel (e:) the averae mean of F1 is 472Hz (SD 35) F2 is 2322Hz (SD 154); for the vowel (a:) the avergae mean of F1 is 729Hz (SD 31), F2 1512Hz (SD 150); for the vowel (o:) the average mean of F1 is 453Hz (SD 36), 2F 898Hz (SD 84); and for the vowel (u:) the average F1 is 368Hz (SD 24), F2 755Hz (SD 50).

to American subjects to identify the deleted preceding or following sounds. Subjects were able to determine the tongue height and tongue advancement features of vowels from consonants.

Jenkins et al {1983} and Strange et al {1983} reported that the steady state portion of the vowel is not necessary for good vowel identification. They excised the relatively steady state portion from natural vowels spoken in cvc syllables, and obtained high degrees of accuracy when only the initial and final transitions and relative timing of these portions were left intact. Identification accuracy for these "vowelless" syllables was equal to or greater than that for the steady state portions extracted from the syllables.

MATERIAL AND PROCEDURE

The linguistic material consisted of 65 cv:c syllables. Arabic possesses a phonotactic constraint which limits the monosyllabic words to cv:c or cvcc structures {Swadesh', 1973; Flege', 1981}. In order to separate the influence on the syllable nucleus that are attributable to the initial consonant from those attributable to the final consonant only various initial consonants are examined in the context of the similar final consonants. In fact, MacNeilage and DeClerk {1969} reported that the cv unit is a more cohesive than the vc unit on the basis of greater coarticulation effects of the initial consonant on the medial vowel, than of the final consonant on the medial vowel. Their results support Kozhevnikov and Chistovich {1965} who suggested that the cv syllable is the basic unit of articulation. Similarly Recasens {1985} has shown that the magnitude of carryover coarticulatory effects is greater than anticipatory effects in Catalan.

In each cv:c syllable the initial consonant represents one of the following GAD fricative consonants: {f, e, o, o, s, s, z, s, x, h, , h}, the vowel one of the following long vowels: {i:, e:, a:, o:, u:}, and the final consonant represents either voiceless or voiced alveolar stop consonants. Our selection was based on the wish to make the test material as representative as possible of all GAD fricative-to-vowel sequences. However, by using real words it was not possible to have a uniform set of fricatives with each long vowel cluster, especially with the vowels {e:, o:}, therefore 29 cv:c nonsense syllables were used to fill the gap, but all these nonsenes syllables conform to the phonology of Arabic.

ken in the United Arab Emirates {henceforth GAD} in monosyllabic words vary systematically as a function of the neighbouring fricative consonants. There are phonological and phonetic differences between Arabic and Indo-European languages in particular, and between languages in general. However, that might lead one to postulate cross-language differences with respect to the effects of consonsnt context on the target formant frequency of vowels. Schouten and Pols {1979} reported that the steady state portion of Dutch vowels was found not to vary systematically with consonantal context, but the cv and, to a lesser extent, the vc transitions turned out to combine into pattern that was quite consistent over speaders and conditions.

A second purpose of the present investigation is to measure and describe, in acoustical terms, any regularities in the transitions from fricatives to vowels in the tested utterances. Transitions are usually seen as rapid shifts in the frequency position of the vowel formants where vowel and consonant join and are typically most marked for the F2 {Cooper et al, 1952}.

Studies of natural and synthesized speech have shown that the transitions between the consonant and the steady state portion of the vowel provided important cues for the perception of vowels and consonants. Heinz and Stevens {1961} exposed thier listeners to isolated friction {constant duration of 200 ms}, isolated friction plus the steady state portion of {a}, and friction plus transition plus vowel. On the basis of fricative cues alone, listeners reliably sorted their response into three groups: {s} for low frequency poles, {s} for mid frequency poles, and {f-o±} for high-frequency poles. Adding the synthetic vowel to these friction portions still resulted in {f-o} confusion. They indicated that F2 transition seemed to be a necessary cue for distinushing between these two consonants.

Sharf and Hemeyer {1972} used cv - and vc- stimuli from which the consonant portion had been deleted. They found that vowel formant transitions provided sufficient perceptual cues for fricative consonant identification.

Kuehn and Moll {1972} progressively deleted portions of the consonants and transitions in syllables consisting of fricatives or nasals followed by a vowel on either side of the cv transitions. They found that listenes were able to identify most consonants and all vowels above chance level even though the steady state portions had been deleted.

Ostreicher and Sharf {1976} presented portions of cv, vc, cvc and vcv utterances

Stevens and House {1963 investigated the formant frequency of 8 vowels and 14 consonants that can appear both initially and finally in American English cvc syllables. They found that consonantal context causes systematic shifts in the vowel formant frequencies depending upon the place of articulation of the consonant, its manner of articulation, and its voicing characteristics. The shifts in F1 value of vowels toward a neutral configuration correspond to an increase in F1 for close vowels and decrease for open vowels. Frot vowels in the environment of labial and postdental consonants show downward shift in the values of F2, no shift for velar consonant environment. Back vowels show upward sift in the value of F2 in the postdental consonant environments.

Lindblom {1963} examined the extent to which formant frequencies in the Swedish vowels reach their target values as a function of vowelseqgent duration. He found that vowels did not reach the target values but they wee modified and reduce in consonantal context.

Öhman {1966} reported that the formant frequencies of the initial vowel in vcv Swedish and English utterances are influenced not only by te medial consonant but also by the nonadjacent vowel.

Broad and Fertig {1970} measured the frequencies of the first three vowel formants in cvc syllable nuclei in American English. They found that the influence of both initial and final consonants are highly significant throughout the vowel.

In their study of vowel reduction Ohde and Sharf {1975} established vowel targets for American English vowels on the basis of spectrographic measurements of F2 from the isolated vowels and compared them with the vowels in context. They found vowel reduction for combined hvcv and cvhv utterances was somewhat greater than for symmetrical cvcv utterances.

Recasens {1987} studied the coarticulatory effects in F2 frequency for Catalan and Spanich vcv sequences, and found that the anticipatoy coarticulation effects appear to be primarily associated with the degree of tongue dorsum constraint upon initial vowel, the extent of carryover coarticulatory effects is dependent on the requirements on the tongue dorsum activty for the entire cv gesture.

One of the purposes of the present investigation is to find out whether the spectral characteristics of the steady state portions of vowels in the Gulf Arabic Dialect spo-

AN ACOUSTIC STUDY OF FRICATIVE-TO-VOWEL COARTICULATION IN ARABIC

Abstract:

This study examines th carryover coarticulatory effecrs of consonantal context upon the acoustic characteristics of voqwla in Arabic. Five speaders read a list of 65 ev:c syllables containing various initial fricatives, five long vowels, and either final voiceless or voiced alveolar stop consonants. Formant frequency analysis have shown that fricative consonants induced significant coarticuatory effects on the F2 steady state frequency of the variation varies significantly as a function of fricative place of articulation. The degree of fricative-to-vowel coarticulation appears to be related to the amount of articulatory constraint on the tongue activity during the production of fricativeee consonant. Thus the large amount of F2 transition may reflect the antagnoistic demand on the articulatory movements during the production of fricative-to-vowel sequence as in emphatic or pharyneal fricatives andfront high vowels combinations, whereas therelatively small amount of F2 transition may reflect the complementary devand on the articulatory movements as in the sequence of alveolar or palatal fricatives and front high vowels. The insignificant F2 transition variation in the sequence of labio-dental or glottal fricative and vowel may be interpreted to mean neutral demand on the articulatory movements.

Introuction

Studies on the acoustic characteristics of vowels across languages have revealed that the abstract vowel phonemes have arange of phonetic variants across segmental and prosodic contexts. Vowel formant variation has been of particular interest. Vowel quality is usually described by its acoustic information of the first two formant frequencies.

House and Fairbanks (1953) studied te influence of consonant environment upon the secondary acoustical characteristics of vowels in American English. They found that the fundamental frequency of vowels varied significantly in respose to changing consonant environment.

AN ACOUSTIC STUDY OF FRICATIVE-TO-VOWEL COARTICULATION IN ARABIC

By

Dr. ABDULLA AHMED AL-BANNAI
Assistant Professor

Department of Foreign Languages
United Arab Emierates University

NOTES

1. George Steiner, "Lawrence Durrell: The Baroque Novel" in **The World of Lawrence Durrell,** ed. H.T. Moore, New York, 1964, pp, 15-16.
2. Angus Wilson, "There's a Tyrant in the Critic's Corner" in **Opinions and Perspectives,** ed. Francis Brown, Cambridge, Mass., 1964, p. 227.
3. G.S. Fraser, **Lawrence Durrell,** London, 1970, pp. 11-12.
4. Gilbert Phelps, "The Novel Today" in **The Pelican Guide to English Literature,** v.VII ed. Boris Ford, London, 1964, p. 492.
5. V.S. Pritchett, "Alexandria Hothouse" in **The Working Novelist,** London, 1965, p. 33.
6. Walter Allen, **Tradition and Dream,** London, 1965, p. 307.
7. Bernard Bergonzi, **The Situation of the Novel,** London, 1970, pp. 42-43.
8. See Scholes and Kellog, **The Nature of Narrative,** New York, 1971, p. 203.
9. Lawrence Durrell, "The Kneller Tape" in **The World of Lawrence Durrell,** p. 163.
10. Lawrence Durrell, Interview in J. Mitchell and G. Andrewski, **Writers at Work: The Paris Review Interviews,** New York, 1963, p. 278.
11. This and all subsequent references to **The Alexandria Ouartet** are to the one-volume edition (London, Faber 1970). Page references are preceded by J for **Justine,** B for **Balthazar,** M for **Mountolive** and C for **Clea.**
12. Lawrence Durrell in **Lawrence Durrell and Henry Miller; A Private Correspondence,** ed. G. Wickes, New York, 1964, p. 326.
13. John Bayley, "Character and Consciousness" In **New Literary History: A Journal of Theory and Interpretation,** v. 2, (Winter 1974).
14. Lionel Trilling, **"The Quartet:** Two Reviews" in **The World of Lawrence Durrell",** p. 57.
15. Alan Friedman, **Lawrence Durrell and The Alexandria Quartet: Art for Love's Sake,** University of Oklahoma Press, 1970, p. 76.
16. Lawrence Durrell, "Landscape and Character" in **Spirit of Place,** ed. A.G. Thomas, New York, 1971, p. 156.
17. Lawrence Durrell, Interview with Kenneth Young in **Encounter** XIII:6, (December 1959), p. 64.
18. Lawrence Durrell, Interview in **Writers at Work,** p.279.

In this third volume of the tetralogy, there are a number of brief character sketches of minor figures representing the different ethnic communities of Alexandria, as well as expatriates and diplomats connected with various foreign missions. Several of the latter are comic characters verging on caricatures, as Durrell exaggerates national characteristics and eccentricities. Metaphoric language and animal imagery one again used to suggest the characters' dominant features, or often a single dominant trait. Most of these secondary characters do indeed fit Forster's category of 'flat' characters or types.

To conclude, it could be suggested that there is a certain discrepancy between Durrell's theoretical pronouncements and his actual practice as a novelist. Durrell repeatedly stated that he did not believe in the conventions of the realistic novel of character still upheld by the majority of British novelists in the fifties. In **the Alexandria Quartet** he introduced innovative narrative techniques to create, as he put it, "prismatic" or "stereophonic" characters, reflecting his view that personality as something with fixed attributes is an illusion. Nevertheless, most of Durrell's fictitious people remain in the reader's memory as well-defined individuals with certain distinct and persistent characteristics. In this respect, Durrell is much more traditional than some American and European novelists who were his contemporaries, such as the "nouveau roman" writers. Although Durrell's later novels marked a more radical departure from the conventions of realistic fiction, **The Quartet** can be seen as occupying a middle position between the traditional and the experimental works of the period. In its blending of these two approaches, **The Alexandria Quartet** remains an interesting attempt to cope with the problems facing novelists in the second half of our century.

> Everything about her person is honey-gold and warm in tone; the fair, crisply-trimmed hair which she wears rather long at the back, knotting it simply at the downy nape of her neck. This focuses the candid face of a minor muse with its smiling grey-green eyes. The calmly disposed hands have a deftness and shapeliness which one only notices when one sees them at work, holding a paint-brush perhaps or setting the broken leg of a sparrow in splints made from match-ends.
>
> I should say something like this: that she had been poured, while still warm, into the body of a young grace: that is to say into a body born without instincts or desires (J., p. 107).

This passage summarises all the dominant features of Clea - her warm nature, good humour, inner calm, candour, innocence, and kindness towards all living creatures. In fact Clea has all the qualities required of the ideal nurse, and she is frequently portrayed in situations where she brings comfort to those physically or mentally ill. This association of Clea with healing processes is enforced by the fact that she is the clinic painter, employed by Balthazar to record in paint certain medical anomalies. Darely describes seeing her in the clinic garden, dressed in a white medical smock and painting with her "capable and innocent fingers" one of her "large coloured drawings of terrifying lucidity and tenderness" (J., p. 109). Clea's "generous innocence" (J., p. 239) is referred to repeatedly; it is also evident in her behaviour towards others. The predominant traits of her character are also expressed in her artistic work - we are told that her "bold yet elegant canvasses radiate clemency and humour" (J., p. 108).

Apart from the portraits of female characters, we find in the **Quartet** several extended character sketches of the male protagonists - for instance Balthazar (J., pp. 78-79), Nessim (J., pp. 29-30) or Narouz (B p. 252). In most of these portraits a similar technique is used: a brief description of the character's external appearance in which the most striking features are indicated (e.g., Balthazar's hypnotic eyes, or Narouz's hare-lip), followed by the narrator's explicit statement pointing to the character's dominant personality traits. There is no essential difference between the character sketches in the three novels narrated by Darley and those in **Mountolive,** although Darley's character sketches tend to be more impressionistic than the ones in **Mountolive.**

- dominated", a "slender stalk of the neck" (J., p. 50): and she is once described as a "pale waif of the Alexandrian littoral" (B., p. 30). We also learn that she had a light, effortless and candid laugh (J., p. 55).

Melissa's character is more fully revealed by her behaviour, and especially in her relation with Darley. She is always eager to help and she never tries to assert her rights or fight for Darley's love when he neglects her. As Darley puts it "In her there was a pliancy and resilience which was Oriental - a passion to serve" (J., 48). Another characteristic feature of Melissa is her sadness, her "profound and consuming world-weariness" (M., p. 529), which occasionally drives her to hashish-smoking and leads to periods of complete lethargy (J., p. 49). In the "Character Squeezes", she is named a "patron of sorrow", and it is her melancholy and passive acceptance of her fate that makes her such a poignant figure.

Our overall impression of Melissa is also greatly influenced by the use of flower and animal imagery in connection with her. Thus, for instace, Darley gives the following poetic description of his mistress: "Melissa was a sad painting from a winter landscape contained by a dark sky; a window box with a few flowering geraniums lying forgotten on the window-sill of a cement-factory" (J., p. 46). The image conveys Melissa's humbleness and sadness, the **cafard** which is part of her attitude to life. Later in the tetralogy, Pursewarden defines her beauty as "the soft bloom of phthisis" (M., p. 526) and describes her "slender body with its slanting ribs (structure of ferns) ..." (M., p. 529).

In addition to flower imagery, bird imagery is repeatedly used to characterise Melissa. Recalling his first meeting with the girl, Darley reflects: "I found Melissa, washed up like a half-drowned bird, on the dreary littorals of Alexandria, with her sex broken..." (J., p. 26). The image expresses the pathos and hopelessness of Melissa's situation; it also emphasizes her fragility and vulnerability. Melissa is also compared to a gull – "... that shabby room where Melissa lay, breathing as lightly as a gull" (J., p. 27) and a sparrow (M., p. 526). Finally, her timidity and delicate charm, quite out of place in the sordid night club where she has to work, are evoked by the description of her dancing with "the air of a gazelle harnessed to a water wheel" (J., p. 27).

Clea is not only the main female character in the last volume of the tetralogy but has an important role to play from the very beginning of the **Quartet**. The other characters turn to her with their problems, knowing that she is always ready to help and give advice. She is, in effect, a kind of "good spirit" of the city, warm-hearted and generous. Her essential qualities are suggested in the first description of her.

(**Clea**, p. 699). The image is reminiscent of the earlier description of Melissa as a "half-drowned bird" (J., p. 26), but it does not call forth the same sympathy on the part of the narrator and of the reader. Our pity for Justine is tempered by the reminder that even in defeat and misfortune she has retained some traces of her predatory character - suggested in the quoted passage by the use of the word "claws".

Apart from establishing certain dominant character traits, Durrell's descriptions create in the reader's mind an image of Justine as a beautiful woman using her beauty to manipulate men. We are told that she had "magnificent troubled eyes" (J., p. 28), "glossy black hair" (J., p. 59), a "lovely head" (J., p. 30), and beautifully shaped hands with long fingers (p. 114). She is referred to as a "dark-browed, queenly beauty" (M., p. 506), a "magical dark mistress" (C., p. 691), and in the so-called "Character-Squeezes" at the end of **Justine** as an "arrow in darkness". Although in **Clea** Justine is presented as looking less attractive as a result of her long illness, she remains in the reader's memory as a beautiful "femme fatale" surrounded by admiring men.

The portrait of Melissa, another important female figure in the **Quarter**, is drawn by similar methods. Melissa is introduced to the reader at the beginning of **Justine**, and the initial sketch of the character comes again from Darley as he recalls his first impressions of the girl: "I used to see her, I remember, pale, rather on the slender side, dressed in a shabby sealskin coat, leading her small dog about the winter streets. Her blue-veined phthisic hands, etc. Her eyebrows artificially pointed upwards to enhance those fine dauntlessly candid eyes..." (J., p. 21). In the same paragraph we are told that Melissa won Darley's affection "not by any qualities one might enumerate in a lover - charm, exceptional beauty, intelligence - no, but by the force of what I can only call her charity, in the Greek sense of the word" (Ibid.).

Thus already in this introductory description of Melissa all her essential qualities are suggested - her poverty, humility, courage, honesty and charity. The desired effect is achieved by a careful choice of adjectives and the selection of significant details. Adjectives like pale, slender, shabby, phthisic are used to create the impression of Melissa's fragility and poverty, while the phrase "fine dauntlessly candid eyes" suggests someone courageous and free from guile. These features of Melissa remain unchanged thoughout the **Quartet**.

The initial sketch of her character is confirmed by further descriptive passages and the comments of different narrators. The delicacy of her classical type of features is conveyed in a number of lyrical descriptions - as when Darley recalls her "long bereft Greek face, with its sane pointed nose and candid eyes", her "pale reflective fingers". (J., p. 50). Her child-like qualities are also frequently hinted at: she has "the satiny skin that is given only to the thymus

revelations about her past and her relations with several of the protagonists. However, even though she plays different roles and wears different masks, to use Durrell's phrase, she is a well-defined character with certain constant characteristics and patterns of behaviour.

In our first glimpse of Justine as she passes below Darley's window, she is smiling to herself "as if at some private satisfaction" (**Justine**, p. 22) with a mischievous smile which reminds Darley of the way she laughs, "showing these magnificent white teeth" (Ibid). This apparently irrelevant remark of the narrator takes on a somewhat sinister and ominous meaning as we turn to the next page and learn that Justine seemed to belong to "that race of terrific queens which left behind them the ammoniac smell of their incestuous loves to hover like a cloud over the Alexandria subconscious ... The giant man-eating cats like Arsinoe were her true siblings" (**Justine**, p. 23).

Thus from the very beginning of the **Quartet** we are made to feel that Justine is potentially a dangerous woman, a **femme fatale**, a "man-eater". Our initial feelings about her are confirmed later as Justine proves to be a destructive force in the lives of many of the **Quartet** characters. The first description of Justine also gives us a hint of her narcissism and her total absorption in the private world of her feelings and obsessions, while the mention of her mischievous smile foreshadows later revelations about her unlimited capacity for mischief, treachery and intrigue. Destructiveness, mischief, narcissism - these are the dominant traits of Justine's character. They are still manifest in the last glimpse that we have of her at the end of **Clea**. Here Justine is seen in the full exercise of her power to charm and subdue men. After a long period of imprisonment and illness she triumphs again, leading the once formidable Memlik Pascha "like a poodle on a leash". We are told that she looked radiant and her eyes sparkled with impish mockery and clever malevolence. "It was as if, like some powerful engine of destruction, she had suddely switched on again" (**Clea**, P. 876).

The predatory character of Justine is underlined in **The Quartet** by means of figurative language. Justine is several times compared to birds and animals of prey, such as the eagle, panther or leopard. We are told that she "looked and seemed an eagle" (J., p. 46) and "gazed about her like a half-trained panther" (J., p. 30). When Justine decides to make use of Darley, she sets out to destroy his love for Melissa and starts by obliterating all traces of the girl's presence in Darley's flat: "She walked over to the dressing-table with its row of photos and powder-boxes and with a single blow like that of a leopard's paw swept it clean" (J., p. 75). The bird imagery is used again in the description of Justine in **Clea**. At that time Justine is under house arrest, ill and broken down by the failure of the political intrigue engineered by her husband. Darley, now emotionally detached and even faintly disgusted, watches his former love "lying there, soiled and tattered, like a dead bird in gutter, her hands crumpled into claws"

in the past. It is the city which should be judged, though we, its children, must pay the price" (J., P. 17)

At this point the following question could be asked: moral judgments apart, are Durrell's characters as chameleon-like and elusive as the writer himself suggests, or are there some constant elements in their make-up, some dominant personality traits that remain stable? As was mentioned before, Durrell seems to reject the traditional concept of human personality as a stable and definable entity. In one of his interviews he says: "They (the novels) should raise one terrific problem, namely, personality. In this stereophonic context, I think it does raise a question in your mind as to whether the human personality is not a selective fiction or a polite figment ..."(17) In his comments on the subject, Durrell often echoes ideas current in modern psychology, as when he talks about the concept of the ego as "a series of masks, which Freud started, a depersonalisation which was immediately carried over he border by Jung and Groddeck and company ..."(18).

The questioning of the traditional concept of the self as something solid and substantial is reflected in a number of modern experimental novels in which character often 'dissoves' or becomes symbolic. Durrell saw himself as an experimental novelist, following in the footsteps of the great modernist writers. I would argue, however, that in his approach to characterisation Durrell is more traditional than his comments would lead us to believe. Although the writer rejected the notion of the "old stable ego of the character", his protagonists remain throughout the **Quartet** recognisable individuals with certain constant attributes of personality as well as appearance. This is mainly due to the use of the method of characterisation which consists in the presentation of an initial portrait, later supplemented by other descriptions and confirmed by events.

Durrell is a writer endowed with a strong visual imagination, as can be seen both in his descriptions of landscapes and in his portraits of people. Durrell's "portraits" are among the best passages of his writing. In a few phrases he can create a suggestive image and capture the essence, the specific "aura", of a given character. Some of Durrell's character sketches are but brief impressions, more like poet's notes than complete prose portraits; others are more extended. The characters' dominant traits are often suggested by means of startling comparisons and metaphors. These first images or 'vignettes' have a haunting power and are instrumental in shaping the reader's response to a given character. This is especially the case with Durrell's portrayal of Alexandria's women, in particular Justine, Melissa and Clea.

The figure of Justine dominates the **Quartet**, especially in the first three volumes of the tetralogy. Justine is the character that surprises us most as each successive novel brings new

religious traditions, a city harbouring "communities cut down like the branches of trees, lacking a parent body, dreaming of Eden" (J., P. 57).

This suspension of moral judgement is also connected with what could be described as the lack of autonomy of Durrell's characters. If a character is to be judged on the basis of his behaviour, we must assume that he has at least some freedom of action and can be held personally responsible for what he does. By contrast, Durrell's characters appear to be strangely will-less; things seem to just happen to them as if they had no control over their lives. Lionel Trilling has remarked that "all the novels, and the **Quartet**, as a whole, stand in a peculiar negative relation to the will".(14) And another American critic comments:

> In the **Quartet**,... character becomes, in effect, anti-character: it does not so much impose itself upon its surroundings as it is imposed upon, and all the qualities normally associated with the traditional literary hero are either lacking or are attributed to something other than individual characters - largely to the city of Alexandria.(15).

Alexandria is presented in the **Quartet** as an all-pervasive force, dominating and shaping the lives of its inhabitants who seem to be "trapped in the projection of a will too powerful and too deliberate to be human - the gravitational field which Alexandria threw down about those it had chosen as its exemplars..." **(Justine, P. 22)**. The dominant role of the city of Alexandria is the result of Durrell's belief in the close relation between people and their natural environment, reflected in the writer's travel writing as well as in his poetry and fiction. In his essay "Landscape and Character" Durrell says: "... I will willingly admit to seeing 'Characters' as functions of a landscape"(16); similar ideas are expressed in the tetralogy through the mouths of Durrell's characters. In **Justine**, for instance Darley comments: "... We are the children of our landscape; it dictates behaviour and even thought..." (J., P. 40); "... man is only an extension of the spirit of place" (J., P. 143).

The inhabitants of Alexandria are presented as vicitims of this city "impregnated with the sense of deracination and failure" (J., P. 147), where the air is "dry, palpitant, harsh with static electricity", (J., P. 18) with a dry desert wind blowing through its "dust-tormented streets", a city which is said to drain away life energy and undermine the will.

The notion that people are products, and often helpless victims, of their environment leads to the denial of any moral responbsibility for their actions: "I return ... to the city which used us as its flora, precipitating in us conflicts which were hers and which we mistook for our own: beloved Alexandria ... I see at last that none of us is properly to be judged for what happened

Clea, the last volume of **the Quartet**, is the only one which moves forward in time. Darley, now again the central character and the first person narrator of the novel, goes back to Alexandria and meets his former friends and lovers. Thepast is never absent from his narration as Darley's mind moves constantly between the present and his past experiences; there are also scenes which are an almost exact repetition of situations from the preceding novels, giving us an uncanny sens of 'déja vue'. Most of the characters first introduced in **Justine** reappear in **Clea;** some seem unchanged others are clearly marked by the passage of time. Talking about his past misjudgements, Darley hopes to "strip the opaque membrane which stands between me and the reality of their (his friends)actions - and which I suppose is composed of my own limitations of vision and temperament. My envy of Pursewarden, my passion for Justine, my pity for Melissa. distorting mirrors, all of them...". Yet, having reached this point in the tetralogy the reader knows that Darley is hoping for the impossible. The 'opaque' membrane which stands between him and reality can never be removed; his vision of reality will always be subjective, and so his account of other people's actions can be only one of many possible interpretations.

As can be seen, Durrell's narrative technique results in giving the reader multiple 'images' of his characters as seen from a number of viewpoints. On some occasions it is not just the interpretation of the characters' actions and motives but the factual evidence itself that seems to differ from one narrator to another, so that we can't tell what really happened and what the narrator ony imagines might have happened. A good example of this is the fate of Justine's daughter; we find several conflicting accounts of her mysterious disappearance and at some point it is even implied that the child may have never existed.

The multiplicity of viewpoints within the tetralogy raises the question of the reader's response to Durrell's characters. Is no final judgement possible because each interpretation is subjective, and sometimes we cannot even be sure of the facts themselves? Or are we entitled to form our own conclusions, and judge the characters on the basis of their actions and the kind of moral choices they make? In traditional novels, to quote John Bayley, "the most fundamental thing about characters in fiction is that by a complex process of rapport between the author and ourselves we know what to think of them..."(13) In many modern novels, including the **Quartet**, this kind of 'collusion' of reader and author is no longer possible.

While reading the tetralogy, the reader is frequently warned off any attempt at forming moral judgements, however unconventional and questionable the conduct of some of the characters. In fact, the world created by Durrell is in many ways strikingly amoral; there is a marked absence of any moral judgements in the narrative, and the characters seem to live outside any system of accepted norms and values. Most of them are uprooted people, living away from their original communities, in a city which is a meeting-place of different cultures and

pletely different light revealing their secret motives and providing unexpected answers to questions asked in **Justine**. Looking at an old photograph which shows most of his Alexandrian friends, Darley realises that the familiar scene has assumed an entirely different meaning for him. On the surface, all the characters are stil there, in the same postures as before, but now Darley - and the reader - can project upon the familiar figures the new knowledge of their hidden motives and complex relationships.

In trying to re–tell his story, Darley follows Balthazar's advice : "I suppose ... that if you wished somehow to incorporate all I am telling you into your own **Justine** manuscript now, you would find yourself with a curious sort of book ... the story would be told, so to speak, in layers ... like some medieval palimpsest where different sorts of truth are thrown down one upon another, the one obliterating or perhaps supplementing another ..." (B. 388). Apart from Balthazar's comments, the voices of other characters are again heard through extracts from their writings and recalled conversations giving us different interpretations of the same events and people, sometimes overlapping and complementing each other, sometimes contradictory.

Mountolive, the third novel of the Quartet, differs considerably from the first two volumes. According to Durrell, it is "as tame and naturalistic in **form** as a Hardy ; yet it is the fulcrum of the quartet and the rationale of the thing" ; [12] First–person limited point of view has been replaced by what some critics call 'multiple selective omniscience' ; that is, third person narration in which the story comes directly through the minds of the characters with the author remaining in the shadow and rarely, if ever, intruding with his own comments. The chief figure in the novel is Mountolive, the British Ambassador to Egypt, and most of the other characters are seen through his eyes. However, Mountolive is not the only third person "reflector", to use Henry James's term, as parts of the novel are related from the standpoint of other characters, in particular Nessim, an Oxford–educated Copt and Justine's husband, and Pursewarden, yet another character who is a writer.

The change of narrative perspective in **Mountolive** results in an entirely different picture of the events and people known to us from the preceding novels. There is a shift of emphasis from their love affairs to their involvement in politics and power struggles in Egypt just before World War II. Moreover, some previously minor figures move to the foreground while others are relegated to the background - most strikingly Daley, the main narrator of the first two volumes, who in **Mountolive** appears briefly as a minor and insignificant character. In spite of its more objective tone and use of traditional techniques of story telling, **Mountolive** does not purport to give us the final and the only true interpretation of **Quartet's** characters and their behaviour. Like **Justine** and **Mountolive,** it helps to light the characters from yet another angle, revealing more clearly their place in the complex pattern of human interrelations, where private and public lives are different sides of the same coin, and where everything is relative and there is no such thing as an absolute truth.

The Alexandria Quartet consists of four volumes , each of which could be read as an independent novel , but can be fully understood only as a part of a larger pattern . The key to the tetralogy is the concept of individual consciousnesses as so many separate mirrors , each producing different images of the phenomena they reflect . In the very first pages of **The Quartet** , Durrell uses the symbolism of mirrors to alert the reader to his method of character portrayal . As she looks at her reflection in the multiple mirrors in a lobby of an Alexandria hotel , Justine , the main character in the novel , becomes the writer's mouthpiece :

> *Look ! five different pictures of the same subject . Now if I wrote I would try for a multi–dimensional effect in character , a sort of prism–sightedness . Why should not people show more than one profile at a time? (J ., p . 28)* [11]

The narrator in **Justine** , Darley , is a young teacher and writer , who from the vantage point of his voluntary exile on a small Greek island looks back at his experiences in Alexandria a few years earlier . He hopes that from a distance in time and space he can impose some meaningful pattern on this strange and confusing period of his life , and that reality can be "reordered, reworked and made to show its significant side "(J ., p . 20) In recording his reminiscences Darley shows no concern for chronology or for cause–effect sequence ; his narration ranges in an apparently random way all over the period of his stay in Alexandria and seems to follow the strange logic of dream or reverie rather tham that of consious recollection .

Even though **Justine** is basically a record of Darley's personal experiences , his is not the only voice heard in the novel . Other characters' points of view are incorporated into the main stream of narration in the form of excerpts from letters and diaries that Darley apparently had access to , passages from an autobiographical novel by Arnauti , Justine's first husband and another writer–character in the novel , as well as conversations Darley claims to remember almost verbatim . However , the interpretation of people and events rests ultimately with Darley , who selects and rearranges facts to fit into his version of reality .

While reading **Justine** , a perceptive reader should become aware that Darley is an unreliable narrator, and detect certain gaps and inconsistencies in his story . It is only in **Balthazar** , however , that the full extent of Darley's bias is made obvious . Durrell uses the following quotation from de Sade as a motto to this second volume in the tetralogy : "The mirror sees the man as beautiful , the mirror loves the man ; another mirror sees the man as frightful and hates him and it is alwas the same being who produces the impression" . At the beginning of the novel Balthazar , an Alexandria doctor and a friend of most of the characters introduced in **Justine** , reads Darley's account of events and 'corrects' it by supplying his own version of what really happened . Balthazar's "Interlinear" shows the main actors of the drama in a com-

The terms used by the British critics ('flat' ; 'three–dimentional' ; 'non–realistic') reveal their traditional assumptions about characters in fiction . As Bergonzi remarks in **The Situation of the Novel,**

> *On the Continent it seems to be assumed that the realistic novel of character has had its day... But in Britain it is widely held that such novels can and should go on being written, with few overt concessions to the changed Weltanschauung of the twentieth century. Here character is seen, not as an obsolescent feature of the novel whose existence can no longer be justified... but as something self–**evidently essential.*** [7]

On the other hand, Durrell rejected the tenents of the conventional realistic novel and placed himself in the tradition of modern experimental fiction . According to Erich Auerbach, "One of the major trends in twentieth–century characterization is away from the attempt to penetrate the individual psyche and toward a focus on the apprehension of 'impressions' which claim no absolute validity as facts" . This approach "dissolves reality into multiple and multivalent reflections of consciousness" . [8] Durrell himself commented on several occasions on his characters and the concept of human personality which underlines the **Quartet** . In one of his interviews he says :

> *Human character ? A sort of rainbow , I should say , which includes the whole range of the spectrum . I imagine that what you call personality may be an illusion , and thinking of it as a stable thing we are trying to put the lid on a box with no sides.* [9]

And in another interview , he counters his critics' objections to his characters , saying :

> *If in the Quartet my people tend , as some people complain , to be dummies , it's because I'm trying to light them from several different angles , I'm trying to give you stereoscopic narrative with stereophonic personality ...* [10]

CHARACTERS AND CHARACTERISATION IN DURRELL'S THE ALEXANDRIA QUARTET

Dr. Anna Pratt

When **The Alexandria Quartet** appeared in the late fifties (**Justine** 1957; **Balthazar** 1958; **Mountolive** 1958; **Clea** 1960) it was given a very mixed reception. Some critics were enthusiastic, making sometimes exaggerated claims for Durrell's originality and greatness; others were more sceptical. George Steiner for instance praised the richness of Durrell's style, saying : "No one else writing in English today has a comparable command of the light and music of language ... Who is to say ... that **The Alexandria Quartet**will not lead to a renascence of prose" ? [1] , while Angus Wilson disagreed, claiming that "Durrell's aims are magnificent, but his execution is often slipshod and pretentious, and the language floridly vulgar" . [2] It is interesting to note that Durrell's most severe critics tended to be British, and his popularity was much greater in America and on the Continent than in his own country. Durrell's biographer, G.S. Fraser, says that the prevailing view in England was that the **Alexandria Quartet** "is a most impressive but in some ways flawed or imperfect work, extraordinarily vivid, but too rich, too gaudy" . [3]

A similar difference of opinion can be noticed in critical comments on Durrell's methods of characterisation and his ability to create convincing characters . Here again, most British critics were not impressed by characters in **The Quartet** . The following quotations illustrate the dominant attitude :

> *"For the most part the characters in these novels remain flat surfaces ... they never become three-dimensional figures ..."* [4]

> *"His leading people are not people at all ... They are vehicles of events, they are poet's notes; they are fables, subjects of one another's conversations ..."* [5]
>
> *"(Durrell's characters) are inhabitants of a fairyland that seems, the more one examines it, the less related to life as commonly experienced anywhere in the world ... "* [6]

CONTENTS

10. Typescripts and accompanying materials (whether or not accepted for publication) will not be returned to the authors.

11. Opinions expressed in an article are those of the author and do not necessarily represent the views of the Editorial Board.

12. Order of articles published within each issue of the Bulletin is based on technical considerations and bears no relation either to their relative importance or to the author's academic status.

13. All Correspondence should be addressed to the Editor.

Professor Ammar G. Talbi

Chirman of the Editorial Board

University or Qatar

P. O. Box 2713

Doha, State of Qatar

Arabian Gulf

PUBLICATION OF RESEARCH IN THE BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES

1. The Editorial Board invites contributions based on research within the areas covered by the Bulletin of The Faculty of Humanities. Articles on topics relating to the Gulf and the Arabian Peninsula are particularly welcome, but the results of research in other fields of specialization may also qualify for acceptance.

2. To be accepted an article must fulfil the normal requirements for contributions to learning. (e.g. sound knowledge, accuracy, originality) and include full references to sources and other material used. Articles containing descriptive work only will not be accepted. Footnotes and other annotations and references must follow international rules.

3. Contributions which have already appeared in print are not acceptable. After an article has been approved for publication in the Bulletin, the author is required to sign an undertaking not to publish it elsewhere.

4. The Bulletin is open to contributors not only from the University of Qatar but also from universities\and institutions of higher learning in other countries. Articles should normally be written either in Arabic or in English.

5. Articles should be typed in double spacing and submitted in two copies. The length of an article should not exceed thirty quarto (27 by 21 cm) or twenty-five foolscap (32 by 21 cm) pages (= about 10,000 words) and not be less than fifteen pages of similar dimensions.

6. Diagrams, figures and maps should be drawn in Indian ink on transparent or glossy paper of the same size or less than a page of the Bulletin. Photographs should be clear and printed on glossy paper no larger than postcard size.

7. The author of an article published in the Bulletin will receive twenty offprints, together with an honorarium fixed by the University of Qatar.

8. An Article approved for publication may not necessarily appear in the issue of the Bulletin next following.

9. Contributions are considered by assessors from the University of Qatar or elsewhere, and in each case the assessor's verdict is binding and final. The author's and the assessor's identities will not be disclosed.

The Bulletin is issued annually by the Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Qatar.

UNIVERSITY OF QATAR

BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 15

1992

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٤١١ لسنة ١٩٩٢ م

طبع بمطابع مؤسسة العهد
الدوحة - قطر

UNIVERSITY OF QATAR

BULLETIN
OF THE
FACULTY OF HUMANITIES
AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 15

1992

كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية
جامعة قطر

جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد السابع عشر

١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية
جامعة قطر

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد السابع عشر

١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي

ومماتي لله رب العالمين

صدق الله العظيم

حولية تصدر عن
كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية
بجامعة قطر

بيانات حول النشر في حولية كلية الانسانيات

١ - ترحب الحولية بالأبحاث التي لها صلة بتخصص كلية الإنسانيات وتولي الاهتمام بالموضوعات التي لها صلة بالخليج والجزيرة العربية ، وقد يقع الاختيار على أبحاث في تخصصات أخرى لها صلة بتخصصات المجلة .

٢ - تنشر حولية كلية الإنسانيات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوافر فيها شروط البحث ، في الإحاطة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي وخطواته ، والأمانة العلمية ، في الإشارة إلى الأفكار وذكر المراجع والمصادر ، ولا يلتفت إلى المقالات الوصفية والإنشائية ، ويتقيد مقدمو البحوث بالتسميات والحواشي والمراجع والرموز ، وذلك بالطريقة المتعارف عليها عربياً وعالمياً .

٣ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر ولا يكون جزءاً من كتاب منشور . والبحث المقبول للنشر يرفق بوثيقة تعهد من صاحب البحث بعدم نشره في مكان آخر .

٤ - تتلقى الحولية البحوث للنشر من داخل جامعة قطر ومن خارجها من الجامعات والمؤسسات العلمية الشقيقة والصديقة باللغة العربية والإنجليزية .

٥ - يقدم البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة بنسختين وألا يقل حجم البحث عن ١٥ صفحة وألا يزيد عن أربعين صفحة كوارتر (٢٧×٢١سم) أو ثلاثين صفحة فلوسكاب (٣٢×٢١سم) .

٦ - تقدم الرسوم والأشكال والخرائط مرسومة بالحبر (الصيني) على ورق مصقول أو ورق شفاف Tracing Paper ويراعى في مساحتها ألا تزيد على مساحة المجلة طولاً وعرضاً .

أما الصور الفوتوغرافية فتكون واضحة المعالم ومقدمة على ورق مصقول وبحجم البطاقة البريدية .

٧ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية تحددها جامعة قطر مع ٢٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور .

٨ - البحث المقبول للنشر يأخذ دوره للنشر سواء في أول عدد يصدر أو الأعداد التي تليه .

٩ - تعرض البحوث المقدمة على خبير متخصص سواء من داخل جامعة قطر أو من خارجها ويكون رأي الخبير ملزماً كما يبقى إسم الباحث وإسم الخبير مكتومين .

١٠ - الأبحاث والمواد التي ترسل إلى الحولية لا تعاد ولا تسترد سواء أنشرت أم لم تنشر .

١١ - ما ينشر في الحولية يعبر عن وجهة نظر صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر الحولية .

١٢ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .

١٣ - توجه الخطابات والمراسلات باسم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور - عمار الطالبي رئيس قسم الفلسفة - جامعة قطر ص . ب : ٢٧١٣ - الدوحة - دولة قطر .

فهرس الحولية

نظرية الجاحظ في الشعر

أ. د. توفيق الفيل
أستاذ النقد والبلاغة بجامعة قطر

أحاول فيما يلي أن ألقي بعض الأضواء على ما أطلقنا عليه نظرية الجاحظ في الشعر ، وذلك لما نراه من الأهمية لهذه النظرية التي فهمت على غير ما قصد إليه أبو عثمان الجاحظ ، وانحرف بعض النقاد بغاياتها ، فجعلوها مجرد تفضيل للفظ على المعنى وخلقوا بذلك مشكلة نقدية أطلق عليها مشكلة اللفظ والمعنى ، ثم أسلمت هذه المشكلة إلى مشكلة أخرى أطلق عليها مشكلة « السرقات الأدبية » .

وقبل أن نبين تصورنا عن نظرية الشعر عند الجاحظ نذكر بعض المقدمات الضرورية التي قد تساعدنا في بيان الصورة .

أولاً : أبو عثمان الجاحظ أحد رجال المعتزلة ، وهؤلاء يعنون بالمعاني ، وتحديدها ، وذلك يظهر لنا من حديث بشر بن المعتمر في صحيفته . حيث يجعل من حق المعنى الشريف أن يعبر عنه باللفظ الشريف . كما يجعل شرف المعنى محصوراً في أمور ثلاثة ، إصابة الغرض ، وتحقيق المنفعة وما يجب لكل مقام من المقال .

ثانياً : كان الجاحظ عندما أطلق عبارته يرد على تيار غالي فيه أصحابه في قيمة المعاني في الشعر وذلك من خلال تلك الحفاوة التي أظهرها أبو عمرو الشيباني بقول الشاعر :

لاتحسبن الموت موت البلى ... إنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ، ولكن ذا ... أمرٌ من ذاك لذل السؤال

ولهذا قال : وحسب الشيخ أن الشعر بمعناه ، والمعاني مطروحة في الطريق الخ .

لقد وجد الجاحظ هذين البيتين يخلوان من الشاعرية . . إنهما من قبيل النظم ، وإن تضمنا معنى جيداً . وقد يعجب الجاحظ بمثل هذا المعنى لو أن صاحبه أورده في خطبة أو رسالة مثلاً . لكن أن يُعَدَّ شاعراً فذلك ما لايوافق عليه ، لأنه يفتقد إلى عناصر أخرى يعدها الجاحظ مكونات حقيقية لفن الشعر .

وبعد أن ردَّ الجاحظ ما اعتقده أبو عمرو الشيباني . ذكر المبادىء التي يراها ضرورية لما يراه شعراً فقال : « وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وجودة السبك ، وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحة الطبع فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج ونوع من التصوير » .

وهذه العبارة تحمل العناصر الأساسية للشعر ، فهي تحدثنا عن ضرورة الوزن وأهميته ، وكيف أنه يفرق بين ما يعد من الشعر ، وما يعد من سواه . والحق أن عنصر الوزن من أكثر العناصر تأبياً وعناداً ، ولايستطيع الوفاء بمتطلباته إلا أصحاب المواهب الشعرية .

وليس الوزن عنصراً هامشياً أو لا أثر له على المعنى . بل على العكس من ذلك فإن الوزن يقوي المعنى ، ويجعل له قوة في التأثير ويضمن له النفاذ إلى قلوب سامعيه ، ومنشديه ، ويؤازر ما في لغة الشعر من الإيحاء .

وإذا كان الإيقاع والوزن هما العنصر الذي يلتقي به الشعر مع الموسيقا ـ وأنه لاخلاف في الأثر النفسي الذي تحدثه الموسيقا ، فإن هذا الأثر ينسحب لامحالة على الشعر ، وفي حال افتقاد الشعر له ، يفقد جانباً مهماً من جوانب الإيحاء .

لقد أدرك القدماء طرب الإنسان إلى النغم . واللجوء إليه في مواقف الشدة على نحو ما نلاحظ من نغمات يرددها العمال وهم يقومون ببعض أعمالهم الشاقة . وقد لمس ذلك صاحب العقد الفريد حين قال : « وزعمت الفلسفة أن النغم فضل بقى من المنطق ، ولم يقدر اللسان على استخراجه ، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيح لا على التقطيع ، فلما ظهر عشقته النفس ، وحن إليه الروح . ولذلك قال أفلاطون : لا ينبغي أن نمنع النفس من معاشقة بعضها

بعضا . ألا ترى أن أهل الصناعات كلها إذا ضاقت الملالة والفتور على أبدانها ترنموا بالألحان »[1]

ويخضـع الشعـر العـربي ـ الذي يستخلص منه الجاحظ نظريته ، إلى تلك القـواعد التي استخلصها الخليل بن أحمد فيها سمي بعلم العروض والقافية ، ويمكن القول بأن الخضوع لتلك القواعد كان تاماً . . وهو يشتمل على ثلاث ركائز .

الأولى ما يطلق عليه « التفعيلة » مثـل : فعـولن ، أو مفـاعيلن في بحـر الطويل ، ومفاعلتن في بحر الوافر . أو نحو ذلك وتلك التفعيلة تمثل الإيقاع ، فهي ليست الوزن ، لأن الوزن هو مجموعة التفاعيل في البحر الشعري ، وهنا نقف على فرق جوهـري بين النـظام في الشعر العربي وما يطلق عليه « الشعر الحديث » في أرقى تصور له ، وهو الذي يعتمد على التفعيلة . هذا الفرق هو أن الشعـر الحديث يعتمد على الإيقاع ، ويخرج على الوزن ، وهو الجزء الذي يكشف عن قوة الموهبة .

وتتكون التفعيلة ـ كما هو معروف ، من مجموعة من المتحركات والسواكن في نوع من التـوالي يختلف بطبيعـة الحـال من تفعيلة لأخـرى فقد يكون متحركاً فساكناً ـ كما في المقطع الأول والثاني في « مستفعلن ، ثم متحركين ، وقد يكون غير ذلك ـ كما في التفعيلات الأخرى ـ ويتكرر هذا النظام في البحر مع ما فيه من « التنـاسب » الذي يعد أصلا جماليا يحدث أثره في النفس الإنسانية وقد أدرك العـربي القـديم بفـطرتـه قيمـة هذا التنـاسب على التأثير ، وبخاصة إذا كان متساوياً ، فحرص عليه في كامل القصيدة ، واعتبره مظهراً لقدرته الشعرية ، وتمكنـه من فنـه ، وسيطرته على أدواته ، بل نجده قد أضاف إلى ذلك التزامه للقافية الموحدة في القصيدة كلها . وبذلك يمكننا أن نقول : , إن أسس الوزن التي أشار إليها الجاحظ ، والتي التزمها الشعراء ، واعتد بها النقاء ، هي الإيقاع [التفعيلة] والوزن [البحر الشعري والتزام عدد تفعيلاته] والقافية ، وقد يظن أن القافية لا أثر لها في موسيقا الشعر . والأمر على خلاف ذلك يقول الدكتور

محمد غنيمي هلال : « وللقافية قيمة موسيقية في مقطع البيت . وتكرارها يزيد في وحدة النغم ولدراستها في دلالتها أهمية عظيمة . فكلماتها في الشعر الجيد .

ذات معان متصلة بموضوع القصيدة بحيث لايشعر المرء أن البيت مجلوب من أجل القافية ، بل تكون هي المجلوبة من أجله . ولاينبغي أن يأتي بها لتتمة البيت بل تأتي طبيعية تكملة للبيت ، بحيث لايسد غيرها مسدها في كلمات البيت قبلها[1] » .

ونخلص من هذا إلى أن الوزن في الشعر العربي الذي عناه الجاحظ يشتمل على التفعيلة ، وعددها والقافية . مع وضع الضوابط التي تحدد إطار هذه الموسيقا ، وأنها عنصر من عناصر الشعر ، وليست كل الشعر ، وأنها ليست غاية في ذاتها . وإلا لو كان الوزن هو الغاية ما اعترض الجاحظ على البيتين اللذين امتدحهما أبو عمرو الشيباني لاشتمالهما على الوزن . وقد تحدث النقاد العرب عن النظم والشعر . ومع يقيننا بحاجة هذه المسألة إلى مزيد بيان أجد نفسي مضطراً إلى الانتقال إلى غيرها من مفردات نظرية الشعر عند الجاحظ . وهو الذي أشار إليه بقوله : « وتخير اللفظ » .

وتخير اللفظ حديث في لغة الشعر ، فمن المسلم به أن للشعر لغته الخاصة التي تقوم على الاختيار وعموماً فإن الألفاظ هي مادة الشاعر الأولى ، ولايمكن أن يكون من الشاعرية وضع الألفاظ حسبما اتفق ، فلكل لفظ دلالته الخاصة ، ولكل لفظ مع غيره دلالة ، كما أن اللفظ يتكون من حروف لها مخارجها . وأصوات ، ولابد أن تكون حروف اللفظ غير متنافرة أو ثقيلة في النطق ، أو غير مؤتلفة في الأصوات ، وعلى الجملة لابد أن تكون حسنة الجرس غير ثقيلة أو معيبة بوجه من الوجوه ولئن كان النقاد القدامى لم يقفوا طويلاً عند فصاحة اللفظ المفرد . فلم يهملوا جانب الفصاحة فيه إهمالاً كاملاً .

إن منشىء الكلام ينظر في المفردات ليختار أليقها بغرضه ، وأولاها بالتعبير عنه ، فإذا أراد أن يمدح أو يذم مثلاً نظر في الأفعال أو الأسماء التي تدل على ذلك ، واختار أوقعها وأنسبها للمعنى الذي يريد . وإذا كنا نتفق مع ما ذهب

إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني من أن اللفظ المفرد ليس له كبير مزايا قبل أن يسلك في نظام ، فإنا لا نجرد اللفظ كلية من أمور تحدث له المزية ، أوعلى الأقل تساعد على تحقق بلاغة الكلام . .

إن انسجام الحروف في نطقها ، والتناغم بين أصواتها ، بل إن الحروف وإن اتفقت معانيها يكون لكل منها خصوصية تجعلها تليق بكلام ، ولا تليق بآخر ، وتصح في موضع ، ولا تصح في سواه .

وعلى أية حال لم يقف الجاحظ في نظريته عند اختيار الألفاظ ، فقد أضاف إلى هذا الأمر أموراً أخرى . أي أن العملية الإبداعية لاتتوقف عند هذه القضية ، ولن يكون الشاعر شاعراً لأنه أحسن اختيار ألفاظه وخلصها من الغرابة والسوقية ، وضمن لها سلاسة النطق ، وانسجام الحروف ، وصحة البنية ، وصواب الصياغة بل لأنه قام بأمور أخرى لم يتجاهلها الجاحظ ، وإنما نص عليها فيما أطلقنا عليه ـ دون مبالغة ـ نظرية الجاحظ في الشعر والعناصر الأخرى ما أطلق عليه « جودة السبك » .

وجودة السبك هذه لاتعني من وجهة نظرنا غير نظم الكلام ووضعه في علاقات بحيث تتآزر معانيه ودلالاته ـ ويتولد منها دلالات جديدة تؤدي إلى الغرض .

ولعل جودة السبك هذه من أعقد العمليات الشعرية ، وهي ليست سوى نظرية النظم التي جعلها عبد القاهر الجرجاني أساس التفاضل بين كلام وكلام ، وأرجع إليها المزية في حسن الحسن ، فليس للكلام فضل إلا بالنظم ، وهكذا انتهى رأي العلماء ، وتم إجماعهم ، ومهما بلغت غرابة معنى الكلام . فلا تمام له دونه ، ولا قوام له إلا به . .

أما النظم فهو وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، والسير على قوانينه وأصوله ، وقد يظن أن عبد القاهر يقف بالأمر عند مجرد صحة القواعد النحوية . والأمر على خلاف ذلك ، فإن ما يريده بوضع الكلام على أصول النحو ومناهجه أن ينظر فيما يتيحه علم النحو من إمكانات في التراكيب ، ويختار

من بينها الوجه الذي يلائم غرضه ، ويساعده على مايريد . .

إن على الناظم أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه . فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : « زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، والمنطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق .

وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : « إن تخرج أخرج ، وإن خرجتَ خرجتُ ، وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج إن خرجت ، وأنا إن خرجت خارج » .

وكذلك الأمر في وجوه الحال ، بل والنظر في معاني الأدوات ، وما يشترك منها في أصل المعنى ، وما يتميز به هذا عن ذاك من خصوصية .

إن الحديث عن النظم ، أو عن جودة السبك هو حديث عن تلك العلاقات التي يتوخاها منشىء الكلام بين بعضها وبعض ، والأسباب التي يجعلها سبباً للضم .

إنها عبارة عما نطلق عليه الموضعية في اللغة الشعرية ، فليس كل موضع يتقبل اللفظ ويتآلف معه ، بل ليس كل لفظ يتقبل ما نريد أن ننشىء من العلاقات بين الألفاظ .

وقد يظن مثلاً بأن حسن الكلام وجماله يعود إلى أمور تتعلق بالبيان ، أو الموسيقى اللفظية كتلك التي تأتي عن طريق الجناس والمشاكلة ونحوها ، والأمر لايرجع إلى ذلك تماماً بل إن حسن هذه الأشياء لأنها جاءت للتعبير عن معنى تطلبها ، ووضعت في موضع تقبلها وكانت العلاقة بينها وبين سوابقها ولواحقها علاقة صحيحة . لقد حدثنا النقاد القدامى عن شعر دخله خلل ، وكان ذلك بسبب فساد النظم فيه وقد عرفنا كيف عابوا قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

وقد حدث في البيت تقديم وتأخير عقد المعنى وأفسد النظم ، وجعله غير مقبول . ومثله قول الشاعر

أنَّى يكون أبا البرية آدم   وأبوك والثقلان أنت محمد

وغير ذلك مما أرجعوا فيه الخلل إلى التعقيد اللفظي والمعنوي . وعبد القاهر يسوق مجموعة من الأبيات أصابها الخلل أو ضعف التأليف ، ويرجع السبب في فسادها إلى عدم تحقيق الصواب في وجه من وجوه النحو ، أو بعبارة أخرى عدم إصابة جهة صحيحة ، يقول بعد ذكر الأمثلة : وفي ظاهر ذلك مما وصفوه بفساد النظم ، وعابوه من جهة سوء التأليف ـ أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب ، وصنع في تقديم وتأخير أو حذف وإضمار ، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه ، وما لايسوغ ولايصح على أصول هذا العلم[1] . ومادام الفساد يأتي عن طريق هذه الجهة ، فإن الحسن والجمال نلتمسهما أيضاً من هذه الجهة وذلك حين يقع المنشيء على الوجه الصحيح ، وعبد القاهر الجرجاني يسوق أمثلة تبين ذلك ، أي تكشف أن حسن الحسن وجماله لايعود إلا إلى نظمه . فقول البحتري :

بلونا ضرائب من قد نرى   فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا   ت عزما وشيكا ورأيا صليبا
تنقل في خُلُقَي سؤدد   سماحاً مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخا   وكالبحر إن جئته مستثيبا

ويعلق عليها بقوله : « فإن راقتك ، وكثرت عندك ، ووجدت لها اهتزازا من نفسك ، فعد وانظر في السبب ، واستقص في النظر ، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا إنه قدَّم وأخر ، وعرَّف ونَكَّر وحذف وأضمر ، وأعاد وكَرَّر ، وتوخَّى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو ، فأصاب في ذلك كله ، ثم لطف موضع صوابه ، وأتى مأتى يوجب الفضيلة . أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله : « هو المرء أبدت له الحادثات » ثم قوله : تنقل في خلقى سؤدد . بتنكير السؤدد ، وإضافة الخلقين إليه ، ثم قوله « فكالسيف » وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ لأن المعني لامحالة فهو كالسيف . ثم تكريره الكاف في قوله « وكالبحر » ثم أن قرن كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه . ثم أن أخرج

من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر . وذلك قوله : [صارخاً] هناك و [مستثيبا] هنا .

وهكذا يجمع أسباب الحسن ، ويرجعها كما نرى إلى أمرين : صحة الوجه ، وحسن اختيار الجهة . ويمضي فيؤكد هذه القضية من خلال الكشف عن الجمال في أمثلة أخرى مثل قول إبراهيم بن العباس الصولي في قصيدة يمدح بها ابن عبد الملك الزيات :

فلو إذ بنا دهر وأنكر صاحب	وسلط أعداءٌ وغاب نصير
تكون من الأهواز داري بنجوة	ولكن مقادير جرت وأمور
وإني لأرجو بعد هذا محمداً	لأفضل ما يرجى أخر ووزير

إن عبد القاهر يؤكد على صحة العلاقة وإصابة الموضع في الحسن . فحسن دلالة اللفظ وتمام الدلالة وكل مزية نراها فيه إنما تأتي بسبب ذلك . « إنها إتيان المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته واختيار اللفظ الذي هو أخص به ، وأكشف له وأتم له ، وأجْرى أن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية » وذلك لايتأتى إلا بالنظر إلى المكان الذي يقع فيه اللفظ من التأليف والنظم ، وحسن ملاءمة معناه لمعاني جاراته ، وما بينها من الإيناس[1] .

لقد وهم الذين تناولوا عبارة الجاحظ ، وغفلوا عن الأهمية الكبرى لها ، وانساقوا وراء معركة وهمية صنعوها بأنفسهم ، وتَحَزَّبُوا حولها وهي قضية اللفظ والمعنى . والحقيقة أن الجاحظ لم يرفض المعنى أو يقلل من أهميته وقيمته في ذاته . ولكنه رأى المعنى يدور في أذهان كل الناس ويختلج في نفوسهم ، ولكنه لايتحول إلى شعر إلا حين تجتمع له العناصر الشعرية الأخرى المكونة للشعر .

لقد كانت الفكرة واضحة عند الجاحظ . وأعني بها فكرته عن جوهر الشعر وحقيقته ، ولهذا كرر القول حولها . فعلماء اللغة في رأيه ليسوا من أهل البصر بالشعر ، لأنهم ينظرون إلى شعر المحدثين نظرة ازدراء ، بل هم يسقطون مَنْ رواها . ومن يفعل ذلك غير بصير بالشعر . ومن بينهم أبو عمرو الذي فضل شعرا من جهة غير الجهة التي يفضل بها ، ويقدم على أساسها . ولم يكن الجاحظ

وحده الذي يقف مثل هذا الموقف من علماء اللغة . فعبد القاهر الجرجاني يبين لنا أن الداء الدوى خَطَأ من قدَّم الشعر بمعناه . وأَقَلَّ الاحتفال باللفظ ، وجعل لايعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى يقول : « ما في اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام إلا بمعناه ؟

ومثل هذا لايقدم شعراً إلا إذا كان هذا الشعر قد أودع حكمة وأدباً ، أو اشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر . فإن مال إلى اللفظ شيئاً ، ورأى أن ينسب إليه بعض الفضيلة أوقفها على الاستعارة دون نظر إلى ما حسنت به هذه الاستعارة .

وإذا كان هذا الكلام وجيها من حيث الظاهر وأنه قد جرى عليه العرف . وأصبح عِلْمَ العامة ، وما يهجس به ضميرهم ، وأن القول يجب ألا يكون بخلافه ، فإن عبد القاهر يجعل الأمر على الضد من هذا . وهذا ما يراه علماء البلاغة ، والمبرزون في البيان يقول : « واعلم أنا وإن كنا إذا اتبعنا العرف والعادة ، وما يهجس في الضمير ، وما عليه العامة ، أرانا ذلك أن الصواب معهم ، وأن التعويل ينبغي أن يكون على المعنى ، وأنه الذي لايسوغ القول بخلافه ، فإن الأمر بالضد إذا جئنا إلى الحقائق ، وإلى ما عليه المحصلون ، لأنا لا نرى متقدما في علم البلاغة مبرزا في شأوها ، إلا وهو ينكر هذا الرأي ويعيبه ، ويزرى على القول به (1) » .

وسبب هذا العيب والازراء على قائله أنه تقديم للشعر من الجهة التي لايقدم على أساسها فالشعر كالشيء الذي يقع فيه التصوير والصوغ . كالفضة والذهب حين يصاغ منهما خاتم أو سوار فكما أن التقديم لايكون من جهة أن فضة هذا أجود ، أو ذهبه أحسن إذا كان النظر في جوهر العمل ، وحقيقة الصنعة . فالأمر كذلك في الشعر إذا أردت أن تنظر فيه من جهة صنعته ، لأن المعنى يمثل الذهب والفضة فيما شأنه الصوغ .

وعيب العلماء للمعنى ليس جهلا منهم أن المعنى إذا كان أدبا وحكمة ، أو غريبا نادرا كان أفضل مما ليس كذلك . « ولكن لأن من أراد أن يقضي في جنس

من الأجناس بفضل أو نقص ألا ينظر في قضيته إلا في الأوصاف التي تخص ذلك الجنس ، وترجع إلى حقيقته ، وألا ينظر فيها إلى جنس آخر ، وإن كان من الأول بسبيل ، أو متصلا به اتصال ما لاينفك »(١) .

وعبارة عبد القاهر تحسم الخلاف حول هذه القضية التي كثر اللغط حولها ، فليس المعنى قليل الأهمية أو موضع عيب ، ولايمكن أن ينكر عاقل التفاوت بين المعاني من حيث العمق والجدة والندرة ، وأنها تفوق ما لم يكن كذلك ، لكن الحكم على الشعر ، وتفضيل بعضه على بعض من هذه الجهة ، لايكون تفضيلا له من حيث هو صناعة فنية تقدم المعنى ، أو تحاول الوصول إلى الغرض على نحو مّا . وشدة إنكار العلماء وأهل البيان والعارفين بأسرار الصناعة الشعرية لتفضيل الشعر من حيث معناه ، وما يتضمنه من حكمة أو غرابة إنما جاء لشدة ما وقع فيه الناس من الخطأ ، وأن هذا الخطأ يؤدي إلى نتائج خطيرة ، لأنه « يقضي بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ، ويبطل التحدي من حيث لايشعر . وذلك أنه إذا كان العمل على ما يذهبون إليه ، من أن لايجب فضل ومزية إلا من جانب المعنى وحتى يكون قد قال حكمة أو أدبا ، واستخرج معنى غريبا أو تشبيها نادراً ، فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس في الفصاحة والبلاغة ، وفي شأن النظم والتأليف وبطل أن يجب بالنظم فضل ، وأن تدخله المزية ، وأن تتفاوت فيه المنازل . وإذا بطل ذلك فقد بطل أن يكون في الكلام معجز ، وصار الأمر إلى ما يقوله اليهود ، ومن قال بمثل مقالهم في هذا الباب ، ودخل في تلك الجهالات ، ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار(٢) » .

ولا يظن من له عقل أن المعنى لايشكل عنصراً من عناصر الشعر ، فلا يوجد لفظ لايحمل دلالة ومن مجموع دلالات الألفاظ ، وما يتولد عنها يكون الوصول إلى الغرض الذي من أجله ينشأ القول . إن النظم لايكون في المطلق ، ولا إلى المطلق ، بل إن الكلام على اختلاف درجاته ومستوياته يكون من أجل غاية .

ولن نستطيع الإحاطة بما أطلق عليه الجاحظ جودة السبك . إلا إذا عرفنا كل مفردات النظرية الأخرى التي جاء بها عبد القاهر الجرجاني ، وأطلق عليها نظرية

النظم وأرجع إليها السبب في الإعجاز وأفضلية شعر على شعر . أو بعبارة أخرى لايمكننا الإحاطة بالأمر ، وتحرير القول فيه ما لم نحط خبراً ببلاغة التراكيب المختلفة . لكن حين نقوم بذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى إعادة ما سبق لنا بيانه في كتابنا : « بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني » .

صحة الطبع

من المصطلحات التي لم تفهم على وجه صحيح ما يطلق عليه « الطبع » ففي بعض الأوقات نجد من النقاد من يجعل الطبع مقابلا للصنعة . فالشاعر المطبوع هو من يأتيه القول سهلاً دون تكلف أو تعمل . هو ذلك الذي تسعفه البديهة بالقول ، أو يرتجله ارتجالا .

وربما أدى إلى ذلك الفهم حديث الآمدي [1] عنه في معرض موازنته بين أبي تمام والبحتري فقد جعل البحتري أعرابي الشعر مطبوعاً ، وعلى مذهب الأوائل ، ولم يفارق عمود الشعر المعروف . أما أبو تمام فهو عنده صاحب صنعة يأخذ شعره بالتثقيف ، ويعمل فكره في معانيه حيث يعمق هذه المعاني ، ويسعى إلى ألوان من البديع ، يركب بعضها فوق بعض فإذا ما أضيف إلى تفلسفه في معانيه ، وتعمقه فيها ، إغرابه في تراكيبه المجازية ظهر التفاوت الشديد بين الشاعرين .

لكن مفهوم الآمدي حول ما يطلق عليه الطبع لم يكن القول الأخير وإن اتبعه بعض النقاد المحدثين حيث وجدناهم يقسمون الشعر إلى مطبوع ومصنوع ، ذلك لأننا وجدنا من النقاد القدامى من يقدم لنا فهماً مختلفاً لما يطلق عليه الطبع .

ولعل أول ما يلفت النظر ما نجد عند القاضي الجرجاني معاصر الآمدي . فهو حين يحدثنا عن الشعر يجعل قوامه الطبع . يقول : « أنا أقول ـ أيدك الله ـ إن الشعر علم من علوم العرب . يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرّز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان [2] » وحين نتأمل

هذه العبارة نجد الطبع يرادف ما نطلق عليه « الموهبة » وهي الاستعداد الفطري الـذي يكـون عند الشاعر ذلك الاستعداد الذي يختلف من شخص لآخر في نوعه . فمن الناس من يكون طبعه ، أو استعداده للموسيقى ، أو الرسم أو أي لون من ألـوان الفن ، ومنهم من يكـون استعداده للشعر . وحين يوجد ذلك الاستعداد وتكتمل الأدوات يبدع الشاعر شعره ، أو الفنان فنه .

ولأبي عثـمان نص صريح في هذا يقـول فيه « وقـد يكون للرجل طبيعة في الحساب ، وليس له طبيعة في الكلام ، وتكون له طبيعة في التجارة ، وليست له طبيعة في الفلاحة ، وتكون له طبيعة في الحداء أو التغيير أو في القراءة بالألحان . وليست له طبيعـة في الغنـاء ، وإن كانت هذه الأنـواع كلها ترجع إلى تأليف اللحون . وتكون له طبيعة في الناي ، وليس له طبيعة في السرناي[١] وتكون له طبيعة في قصبة الراعي ، ولاتكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين . ويكون له طبـع في صناعة اللحون ، ولايكون له طبع في غيرهما ، ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ، ولايكون له طبع في قرض بيت شعر . ومثل هذا كثـير جداً[٢] ويضرب مثلاً بابن المقفع وعبد الحميد بن يحيى ، وأنهما مع بلاغتهما قلماً ولساناً لايقولان من الشعر « إلا مالا يذكر مثله » ـ هكذا عبارة الجاحظ ـ

ويسـاعـدنـا على هذا الفهم ما نجده في صحيفة بشر بن المعتمر حين كان يتحدث عن الإبداع وعن الوقت الذي يساعد عليه . وانتهى إلى أن المحاولة إذا تهيأت لها ظروف الإبداع . وتأبت على صاحبها المرة بعد الأخرى ، تحتم عليه أن يترك هذا الذي يحاوله حيث لايتمتع بطبع فيه،والتمس له صناعة أخرى توافق طبعه .

كما يساعد على هذا التصور ما نجد عند أبي الفرج الأصفهاني الذي يقول عن أبي تمام إنه شاعر مطبوع ، وهو صاحب مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء . فلو كان الطبع مقابلاً للصنعة لما صح ذلك الأمر منه .

وعدا ما سبق نرى العرب يجعلون الشعر صناعة مثل كل الصناعات ، ولها ثقافتها ، كما أن لكل صناعة ثقافتها . ولما كان المعهود المشاهد في زماننا وفي كل زمان أن هذا يميل إلى تلك الصنعة ، وذاك يميل إلى صنعة أخرى . فكذلك الأمر بصنعة الشعر .

إن أي صنعة لابد فيها من استعداد فطري عند من يزاولها ، وبخاصة إذا كان ممن يؤمل منه الإبداع فيها . أما إن كان مجرد مقلد لغيره في تلك الصنعة فإنه يمكن بقليل من الاستعداد اكتساب ذلك . وملاحظة أن الشعر صناعة لم تغب عن فكر الجاحظ ، وهو يرسم حدود نظريته في الشعر تلك التي نتناولها في هذه السطور .

ونخلص من هذا إلى القول بأن المراد بالطبع هو الاستعداد الفطري ، أو ما نطلق عليه الموهبة وهي من الشروط الأساسية التي لايستحق الشاعر هذه الصفة ما لم تتحقق فيه على نحو من الأنحاء ، وعلى قدر ما فيها من الأصالة والعمق ، وبقدر ما يوفر لها من أدوات الفن ووسائله الأخرى تكون قيمته الفنية ، وقيمة إبداعه الفني ، ولعل ذلك ما عناه الجاحظ ، حين تحدث عن صحة الطبع وجعله من مقـومـات الشاعرية . وربما كان الطبع الصحيح هو العنصر الأول الذي يتصـدر أي حديث عن الشـاعر . ذلك لأن فقدانه . يجعل العناصر الأخرى عديمة الفائدة . فالطبع الصحيح يوقف الشاعر على اللفظ المعبر ، ويهديه إلى المكان الملائم الذي يتطلبه ، ويتناغم معه ، ويرشده إلى الصورة المؤثرة الآسرة ، ويقوده إلى التركيب اللغوي الذي يثير معاني ودلالات توصل إلى الغرض وعلى الجملة يلعب الطبع الصحيح الدور الخلاق في العملية الإبداعية ، ولهذا يكون أحق العناصر بتصدر القول في الشعر . وهذا ما اهتدى إليه القاضي الجرجاني وهو يتحدث ، كما سبق القول .

والحـديث عن الطبع وماله من قيمة يسلمنا إلى الحديث عن أمر آخر ذكره الجاحظ في نظريته ، وهو ما أطلق عليه

« سهولة المخرج »

ولعل الجاحظ يعني بذلك اهتداء الشاعر إلى اللفظ الملائم ، والتركيب المناسب ، والصورة الدالة دون اقتسارر أو افتعال . إن سهولة المخرج تعنى عدم الافتعال ، وقد حدثنا بشر بن المعتمر في صحيفته عن شيء من ذلك حين بيّن لنا أن ما يأتي من الفن عن فراغ البال ، واستجابة الطبع في الوقت القصير أفضل مما يعطيه الوقت الطويل مع المكابدة والمجاهدة . وهو يحدثنا عن تجربة الفرزدق فيقول عنه : أنا أشعر تميم عند تميم ، وقد يمر علي يوم وخلع ضرس أهون علي من قول بيت من الشعر .

إن استجابة الطبع للمثير الفني ، والانفعال بهذا المثير يجعل التعبير عنه بعيداً عن التكلف والافتعال ومن ثم يكون أشد تأثيراً على المتلقي . فسهولة المخرج دليل على الصدق في التجربة والإيمان بها ، أما الافتعال فدليل على عدم الصدق . إن سهولة المخرج تجعل الشاعر يقول الشعر على البديهة في بعض الأوقات وقد اعتدوا بما يأتي به الشاعر على البديهة . والقاضي الجرجاني يحدثنا عما كانت تفاضل به العرب بين الشعراء . فيما أطلق عليه عمود الشعر . ويقول إنهم كانوا يسلمون السبق لمن بده فأغزر . أي لمن يأتي بالكثير من شعره على البديهة ودون إمهال .

وحين يأتي الشعر بعيداً عن الشعور لايكون شعراً ، وإنما يعد نوعاً من النظم . ولعل هذا الأمر هو ما حدا بالجاحظ الاشتراط فيما يسمى شعراً « أن يكثر فيه الماء أو حسب عبارته كثرة الماء » .

وقبل إلقاء الضوء على هذه الجزئية من الأمور التي جعلها الجاحظ شرطاً في هذا الفن الأدبي أقول :

إن عبارات النقاد القدامى كانت في غالب الأمر تتصف بالاختزال والتركيز . فكثيراً ما وجدناهم يطلقون الكلمات ويريدون بها أموراً كثيرة . وإذا أردنا معالجة مثل هذه المصطلحات تعين علينا أخذ الأمور بالتؤدة والأناة . والاستعانة بمصطلحات أخرى ، أو عبارات أخرى وصفوا بها هذا الشعر أو ذاك .

وعبد القاهر الجرجاني ينبهنا إلى شيء من ذلك حين يحدثنا عن أن بعض ما يقول العلماء يشبه الرموز بينهم ، وأنه من الصعب على من لم يكن مثلهم ، فهم مرادهم « فليس في جملة الخفايا والمشكلات أغرب مذهبا في الغموض ، ولا أعجب شأناً من هذه التي نحن بصددها ، ولا أكثر تفلتا من الفهم وانسلالا منها ، وأن الذي قاله العلماء والبلغاء في صفتها والإخبار عنها رموز لايفهمها إلا من هم في مثل حالهم من لطف الطبع ، ومن هو مهيأ لفهم تلك الإشارات ، حتى كأن تلك الطباع اللطيفة ، وتلك القرائح والأذهان ، قد تواضعت فيما بينهما على ما سبيله سبيل الترجمة يتواطأ عليها قوم فلا تعدوهم ، ولايعرفها من ليس منهم[1] وذلك المصطلح الذي بين أيدينا من هذه المصطلحات . وعلى سبيل المثال يحدثنا ابن طباطبا العلوي في عيار الشعر عن بعض العلل المؤثرة في الشعر . فيرى من بينها لطف المعنى ، وحلاوة اللفظ ، وتمام البيان واعتدال الوزن . ويجعل هذه الأشياء سبباً في تأثيره وإثارته . والعبارة لاتزيد عما قال الجاحظ ، بل تقل عنه . لكنا سنقف عند قوله : « إذا ورد عليك الشعر على ذلك كان كالخمر في لطف دبيبه وإلهائه ، وهزه وإثارته » .

والحقيقة أن الأمور التي ذكرها ابن طباطبا قد توجد في الشعر ، لكن لايكون له قوة التأثير على المتلقي « لقلة مائه » ومعذرة إذا استمر استعمالنا لهذا المصطلح على ما فيه من الغموض ، ذلك لأن للقدماء تعبيرات شتى حوله ، من بينها اعترافهم بشيء في الشعر يجعل له تأثيراً على المتلقي ، ولكن لاتعرف له صفة . أو حسب قولهم من الحسن ما لاتحيط به الصفة .

وقد يفيدنا فيما نحن بصدده عدم قبولهم لشعر العلماء لقلة مائه ، أو لقلة تأثيره ، وكونه أقرب إلى النظم منه إلى الشعر . نعم تكتمل لشعر العلماء أدوات النظم من صحة اللغة ، وسلامتها وصواب القصد ، وصحة الوزن ، وسلامة القافية ، ولكن لايجعلون ذلك من الشعر المقبول .

بل إن البيتين اللذين استوقفت الجاحظ حفاوة الشيخ بهما من هذا القبيل . ففيهما ما يقترب من الحكمة ، وفيهما صحة اللغة وصواب التراكيب ، واستعمال

الألفاظ فيما وضعت له وبعدها عن الغرابة والحوشية ، وترفعها عن السقوط والدونية إلى غير ذلك من الجوانب التي أرضت متطلبات عالم من علماء اللغة ، لكنها وقفت دون طموحات أديب يعرف قواعد الفن وأصوله .

كما نجد القدامى لايقبلون الشعر إذا طغت عليه الفكرة ، ولهذا أخروا ابن عبد القدوس ، ولم يتقبلوا شعره لأنه أثقله بالحكمة ، فجعلته جافا لايثير عواطف المتلقي ومشاعره . وقالوا لو أنه فرّق حِكَمَهُ في الشعر لكان أفضل .

ويقربنا القاضي الجرجاني من الوضوح في هذه المسألة حين يقول : « والشعر لا يُحَبَّبُ إلى النفوس بالنظر والمحاجَّه ، ولا يُحَلَّى في الصدور بالجدال والمقايسة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة . ويقربه منها الرونق والحلاوة . وقد يكون الشيء متقناً محكماً . ولا يكون حلواً مقبولاً . ويكون جيداً وثيقاً . وإن لم يكن لطيفاً شيقاً .

وقد تجد الصورة الحسنة ، والخلقة التامة ممقوتة ، وأخرى دونها مستحلاة مرموقة . ولكل صناعة أهلٌ يرجع إليهم في خصائصها ، ويُسْتَظْهرُ بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها[1]؟ .

وتحليل هذه العبارة يوقفنا على مجموعة من الأمور .

أولها ما يجعل الشعر مقبولاً تنعطف عليه النفس ، وتتأثر به ، ولايكون ذلك بجمال لفظه واستقامة عبارته ، وحسن وصفه ، أو بما يتضمن من أفكار ، وما يشتمل عليه من الأقيسة المنطقية . وذلك يعد تقنيناً لما رفضه أبو عبادة البحتري في قوله :

كلفتمونا حدود منطقكم	والشعر يغني عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج	بالمنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفي إشارته	وليس بالهذر طولت خطبه

إن الذي يعطف النفوس على الشعر « القبول والحلاوة ، ويقربها منه الرونق والطلاوة »[1] .

والنفس لاتقبل إلا ما وافقها . أو ما يمس وتراً فيها ، ويعبر عن شيء بداخلها . « والرونق » الذي يتحدث عنه القاضي الجرجاني في رأينا هو « الماء » الذي أشار إليه الجاحظ ، والذي أشار إليه غيره .

إن الماء من الكلمات التي أطلقت وأرادوا بها لازمها . فحين يشرب الكائن الحي الماء يرتوي وينطفىء عطشه . وهو من هذه الجهة يلتقي مع الشعر الجيد الذي يستمع إليه المرء فيروى ظمأه النفسي ، ويعبر عن الأحاسيس والتجارب التي عجز عن التعبير عنها .

إن القبول لايتوقف على إحكام الصنعة . فإن الشيء ـ كما يقول القاضي الجرجاني ـ قد يكون متقناً محكماً ، ولا يكون حلواً مقبولاً ، ويكون جيداً وثيقاً ، وإن لم يكن لطيفاً ـ شيقاً ، مثله مثل الصورة الحسنة ، والخلقة الكاملة التي ينظر المرء إليها فلا يجد فيها عيباً ، ولكنه لا يتقبلها ولا يميل إليها . ويستملح أخرى دونها وتتقبلها نفسه ، ويميل إليها .

ويلتقي القاضي الجرجاني مع الجاحظ حين يذكر عدداً من الأمثلة غير المستحسنة من شعر المتنبي ويرى كثيراً منها يسقط عن المختار في الشعر . وأن منها « ما غلب عليها الضعف . ومنها ما أثر فيه التعسف ، ومنها ما خانه السبك ؟ فساء ترتيبه ، وأخل نظمه . ومنها ما حمل عليه التعمق ، فخرج إلى الغثاثة والبرْد ، وإن كان أكثرها لم يأت من قبل المعنى وشرفه . وكنا نجد لكل واحد منها مثالاً يحسنه ، وشبيهاً يعضده ويسدده »[1] .

فسقوط ما سقط من شعر المتنبي لم يكن من جهة المعنى ، وإنما كان من جهات أخرى منها افتقاده لحرارة الشعور وقوته ، بالإضافة إلى أمور أخرى ألصق بالشعر من المعنى ، وهذا ما ذهب إليه الجاحظ .

وإذا تناولنا عدداً من الأمثلة التي مثل بها القاضي الجرجاني للشعر المختار المستحسن من وجهة نظره . وحاولنا الوقوف على الأسس التي كان عليها هذا الاستحسان ، تأكد لنا أن ما يعنيه النقاد « بكثرة الماء » هو ما يضاد قولهم جفاف

الشعـر ، وأنه لا ماء فيه ، وهذا هو ما أطلقنا عليه حرارة الشعور ، أو بعبارة أخرى قوة العاطفة .

فمن الأمثلة التي ساقها في هذا الشأن قول البحتري :

أجـدك ما ينفـك يسرى لزينبـا	خيال إذا آب الـظلام تأوبـا
سرى من أعالي الشام يجلبه الكرى	هبـوب نسيم الـروض تجلبـه الصبَّا
ومـازارني إلا ولهـت صبـابـة	إلـيه وإلا قلت أهـلا ومـرحبـا
ولـيلتنـا بالجَـرْع بات مسـاعفـا	يريني أنـاة الخـطو ناعمـة الصِبّا
أضرت بضـوء البـدر ، والبـدر طالـع	وقـامـت مقـام البـدر لما تغيبـا
ولـو كان حقـا ما أتـاه لأطفـأت	غليلا ولا افـتكـت أسـيرا مقـيدا
علمـتـكِ إن مَنَّيْتِ منَّيْتِ موعـدا	جَهَـامـاً وإن أبـرقت أبـرقت خُلبَّا
وكنت أرى أن الصـدود الـذي بدا	دلالا فما إن كان إلا تجنـبـا
سأثنى فؤادي عنـك أو أتبـع الهوى	إلـيك . إن استعفى فؤادي أو أبـا

ويفيدنـا فيما نحن بصدده تعليق الجرجاني على هذا النموذج وعلى غيره من النـماذج التي أتى بها . يقـول في هذا التعليق : « ثم انـظر : هل تجد معنى مبتذلا ، ولفظاً مشتهراً مستعملاً ! وهل ترى صنعة وإبداعاً ، أو تدقيقاً وإغراباً ! ثم تأمـل كيف تجد نفسـك عنـد إنشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفـك من الـطرب إذا سمعتـه ، وتـذكر صبوة إن كانت لك تراها ممثلة لضميرك ـ ومصورة تلقاء ناظرك [١] .

لقد اكتملت للأبيات شروط الحسن والجودة كما قلنا ، وتحققت فيها عناصر الشعر ، فقد بعدت عن التكلف والتعمل والافتعال ، وتم لها اختيار الألفاظ وحسن المواضع فتآخت وتآزرت وأسهمت في التعبير عن المشاعر والعواطف التي جاشت في نفس الشاعر ، وكان لهذه العواطف من القوة ما جعلها تثير التجارب السـابقـة المشـابهـة لها عند المستمع . إن علينا أن نتأمل ما طلب منا القاضى الجرجاني أن نتأمله . . . نتأمل أنفسنا عند إنشاده . وننظر ما داخل أنفسنا من

الارتياح والتعاطف مع هذا القول . الذي مسَّ وتراً حيًّا في داخلنا ، وجعلنا نطرب ، بل يستخفنا الطرب . . . كما أنه بعث فينا التجارب المشابهة .

ويعترض القاضي الجرجاني ، ويرد على الاعتراض ، وينوع في الأمثلة التي يسوقها ، وهو في كل مرة يوضح لنا جانباً من جوانب تلك الرموز الغامضة التي كانت تشبه اللغة الخاصة بين العلماء . فيقول إذا قلت إن الأمثلة السابقة من النسيب . وهذا فن تعطف عليه النفس ، وتهش له ، وللقلب علق به . والهوى يسرع إليه . أحيلك على غرض آخر من الأغراض الشعرية عند البحتري . ثم يسوق لنا قصيدته في مدح الفتح بن خاقان التي يقول فيها :

بلونا ضرائب من قد نرى ... فما إن رأيت لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا ... ت عزماً وشِيكا ورأيا صليبا
تنقل في خُلُقَىْ سؤدد ... سماحاً مُرَجَّى وبأساً مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخاً ... وكالبحر إن جئته مُسْتثيباً
فتىً كرَّم الله أخلاقه ... وألبسه الحمدَ بُرْداً قشيبا

ويأتي على جزء كبير منها بين المدح والاستعطاف والعتاب . ولايكتفي بهذا وكأنه سيجد من يعترض ويقول ولماذا سقت ما سقت للبحتري ؟ فيجيب بأن ذلك لقرب البحتري عهدا به ، والمرء يأتنس بمن قرب عهده به ، ووافق زمانه لأنه سيكون مشاكلا له ، وتتشابه عندهما العادات ، واللغة . لكن ليس معنى ذلك أنه يفضل المحدث على القديم ، ويكون بذلك ردَّ فعل على تلك النظرة التي كان ينظر بها غيره من النقاد إلى الشعراء . فليس ذلك من أسس التفضيل عند هذا الناقد ، بل المقياس المعتد به عنده جودة الشعر في أي زمان كان . يقول :

« وإنما أحلتك على شعر البحتري ، لأنه أقرب بنا عهدا ، ونحن أشد به أُنْساً ، وكلامه أليق بطباعنا ، وأشبه بعاداتنا ، وإنما تألف النفس ما جانسها ، وتستقبل الأقرب فالأقرب إليها . فإن شئت أن تعرف ذلك في شعر غيره ، كما عرفته في شعره ، وأن تعتبر القديم كاعتبار المولد فأنشد قول جرير :

ألا أيها الوادي الذي ضم سَيْلُهُ ... إلينا نوى ظمياء حُيِّيتَ واديا
إذا ما أراد الحيُّ أن يتفرقوا ... وحَنَّت جمالُ الحي حنَت جماليا

فياليت أن الحي لم يتزيلوا ... وأمسى جميعا جيرة متدانيا
إلى الله أشكو أن بالغور حاجةً ... وأخرى إذا أبصرت نجدا بدا ليا
نظرت برهبا والظعائنُ باللوى ... فطارت برهبا شعبة من فؤاديا
وما أبصر النار التي وضحت لنا ... وراء جُفَافِ الطير إلا تماريا
إذا ذكرت ليلى أتيح لي الهوى ... لقلت سمعنا من عقيلة داعيا

إلى آخر هذه القصيدة التي تستحق دراسة مستقلة . ثم يقول في الختام : « وإنما أثبت لك القصيدة بكاملها ، ونسختها على هيئتها . لترى تناسب أبياتها ، وازدواجها . واستواء أطرافها واشتباهها وملاءمة بعضها لبعض مع كثرة التصرف على اختلاف المعاني والأغراض »[1] .

إن انعطاف النفس على الشعر ، وقبولها له ، وتأثرها به لايتأتى إلا إذا كان نابعاً عن شعور صادق . وليس ما ذهب إليه الجاحظ من القول « إلا إشارة إلى هذا الأمر الذي يطلق عليه في نقدنا الحديث ، صدق العاطفة وحرارة الشعور .

فالنقد الحديث يجعل « مجال الشعر الشعور ، سواء أثار الشعر هذا الشعور في تجربة ذاتية ، أو نفذ من خلال التجربة الذاتية إلى مسائل الكون أو مشكلة من مشكلات المجتمع تتراءى من ثنايا شعوره وإحساسه . ولهذا فإن إثارة الشعور في الشعر مقدمة فيه على إثارة الفكر »[2] .

والعرب يقولون : « الشعر من الشعور » والمادة التي يرجع إليها الشعر مادة « شعر » وقائل الشعر شاعر لأنه يشعر ما لا يشعر غيره .

والشعر عند العرب بمعنى العلم . يقول صاحب التاج « والشعر بالكسر : هو كالعلم وزناً ومعنى وقيل هو العلم بدقائق الأمور ، وقيل هو الإدراك بالحواس . وبالأخير فسرّ قوله تعالى : « وأنتم لاتشعرون » ثم يقول : « وغلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية ، أي بالتزام وزنه على أوزان العرب ، والإتيان بالقافية التي تربط وزنه ، وتظهر معناه »[3] .

وفي اللسان يأتي الشعر أيضاً بمعنى العلم . « والشعر : منظوم القول ،

غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل علم شعرا »[٤] . قالوا : إنما سمى الشاعر شاعرا لفطنته .

ويهمنا من هذه الأقوال المجال الذي يحددونه للشعر ، والأصل الذي ينبع منه وهو الشعور ، وأن الشاعر إنما سمى بهذا الاسم لأنه يحس بها لا يحس به غيره ، ويشعر بما لايشعر به سواه ، كما أن كلام الجاحظ يلتقي مع النقد الحديث في الفكرة القائلة بأن إثارة الشعور في الشعر مقدمة فيه على إثارة الفكر . وقد لاحظ القدماء أن الفكر ما لم يختلط بالشعور يجعل الشعر يصاب بالجفاف ، ويتحول إلى نوع من النظم ، وإن اشتمل على الحكمة .

سهولة المخرج

حين نريد الوقوف على ما أراده الجاحظ بهذا المصطلح لابد لنا أن نستحضر كثيراً من الأحكام السريعة الموجزة التي تكثر في النقد العربي : من أمثال قولهم : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر . وكانوا يمثلون بهذا القول لشدة معاناة الفرزدق في إبداعه وسهولة ذلك على جرير . كما نستحضر اهتمام النقاد القدامى بالبديهة والارتجال ، أو حديثهم عن السمح المنقاد ، والعصى المستكـره ، ومن خلال هذه الأقوال وغيرها يمكننا القول بأن الجاحظ إنما أراد بسهولة المخرج ألا يكره الشاعر نفسه على القول . ولعل القاضى الجرجاني كان يريد ذلك حين أراد الاستشهاد على موقع الشعر من النفس ، فأحال إلى شعر جرير وذي الرمة والمتغزلين من العرب . ثم انتهى إلى القول بأن ملاك الأمر في القبول والتفضيل إنما يكون في « ترك التكلف ، ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه ، والعنف به[١] » والطبع الذي يعتد به هو الطبع الذي تم صقله بالشعر الرفيع والثقافة العالية ، وجلته الفطنة وألهم التمييز بين الرديء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبيح » .

إن الكـد والمجـاهـدة ، وإكراه النفس لا تأتي إلا بالشعر المصنوع ، الذي لاتهش له النفس ولا تطرب عنـد تلقيه ، ولعـل المقـارنة التي أجراها القاضى

الجرجاني بين مقطوعتين إحداهما لأبي تمام وأخرى لبعض الأعراب وتنسب للصمة ابن عبد الله ـ يؤيد فهمنا هذا يقول أبو تمام :

دعني وشرب الهوى ياشارب الكاس ... فإنني للذي حَسَّيْتَهُ حاسي
لايوحَشِنَّك ما استعجمت من سقمي ... فإن منزله من أحسن الناس
من قطع ألفاظه توصيل مهلكتي ... ووصل ألحاظه تقطيع أنفاسي
متى أعيش بتأميل الرجاء إذا ... ما كان قطعُ رجائى في يَدَيْ ياسي

وأما أبيات الصِّمة ، فيقول فيها :

أقول لصاحبي والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار
ألا ياحبذا نفحات نجد ... وريا روضة غب القطار
وعيشك إذ يحل القوم نجدا ... وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولاسرار
فأما ليلهن فخير ليل ... وأقصد ما يكون عند النهار

ثم يعلق على أبيات أبي تمام فيقول : « لم يخل بيت منها من معنى بديع ، وصنعة لطيفة ، طابق وجانس ، واستعار فأحسن ، وهو معدود في المختار من غزله ، وحق لها ، فقد جمعت على قصرها فنوناً من الحسن ، وأصنافاً من البديع ، ثم فيها من الإحكام والمتانة والقوة ما تراه » .

أما الأبيات الأخرى فتخلو من الصنعة ، والشعر فيها فارغ الألفاظ سهل المأخذ ، قريب التناول لكن الجرجاني لايجد لأبيات أبي تمام ما يجد لها من سورة الطرب ، وارتياح النفس[1] » .

وبعد أن يفرغ أبو عثمان الجاحظ من بيان مفردات نظريته في الشعر . تلك المفردات التي حاولت أن أحرر القول فيها . يجمل الأمر في قوله « فإنما الشعر صياغة وضرب من النسج ونوع من التصوير » . أو فإنما الشعر صناعة .

وهذه العبارة ـ كما نفهم منها ـ تشير إلى أن الشعر لا يكون شعراً لمجرد وجود هذه المفردات كلها أو بعضها . بل لابد أن تنصهر جميعاً ، وتتداخل . وتتحول

إلى ذلك الشيء الجديد الذي يطلق عليه شعر . إن النسج الذي يشبه به الناقد الشعر ، ويجعله نوعاً منه لا يسمى بهذا الاسم ما لم تتداخل الخيوط وتتماسك . وعبد القاهر الجرجاني يلقي لنا مزيداً من الضوء على هذه العبارة . حين يقول : « إنه لا تكون الفضة خاتماً ، أو الذهب أسواراً أو غيرها من أصناف بأنفسها ، ولكن بما يحدث فيها من الصورة ، كذلك لا تكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف كلاماً وشعراً من غير أن يحدث فيها النظم »[1] .

ومن المؤكد أن قيمة الشعر سوف تتوقف على تحول هذه العناصر المفردة إلى شيء واحد متداخل لاينفك عن غيره من العناصر . دون أن تفسد الصورة .

ومثل الفضة والذهب كمثل خيوط الحرير لا تكون نسيجاً ، ولا تستحق أن يطلق عليها هذا الاسم قبل أن تتداخل وتتشابك ، وتتخذ ألوانها . وفي الصورة الأخيرة يكون التمييز والتفاضل بين ثوب وثوب . وسوار وسوار .

وقبل أن أنهي القول في هذه النظرية التي قدم من خلالها الجاحظ مفهوماً متكاملاً لكل عناصر الشعر من وجهة نظر أديب . يعرف الفن على حقيقته . أشير إلى هذا الاختلاف في العبارة فقد جاءت رواية « فإنما الشعر صياغة » وهنا يربطها بصياغة الجواهر ، وإحكام صنعتها . وجاءت في أخرى « فإنما الشعر صناعة » . وكون الشعر صناعة ليس بعيداً عن تصور العرب إذ يجعلونه صناعة ككل الصناعات . وهو يحتاج إلى ما تحتاجه أي صناعة . ولهذا ربطوه بصناعة النسج أو الابريسم . كما أن كلمة الصناعة يتخذ منها أبو هلال العسكري عنواناً لكتابه في الشعر والنثر ، إذ يسميه كتاب الصناعتين .

وآمل أن أكون في كل ما قدمت قد ألقيت ضوءاً أو أسهمت في بيان قيمة هذه النظرية . التي لم تكن مجرد رأي عابر أملاه موقف ، بل كانت حصيلة خبرة طويلة ، ومعايشة مستمرة ، ومعرفة بفن الشعر عند العرب .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سبيل الرشاد .

المصادر والمراجع

(١) البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ ت : عبد السلام هارون ـ القاهرة
(٢) تاج العروس : الزبيدي ـ منشورات وزارة الاعلام ـ الكويت
(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : د. إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ط ٥ .
(٤) الحيوان : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ ت : عبد السلام هارون ـ القاهرة .
(٥) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ـ ت : محمد محمود شاكر ـ القاهرة .
(٦) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ـ ت : محمد عبد المنعم خفاجي ـ القاهرة ١٩٦٩ .
(٧) سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي ـ ت : عبد المتعال الصعيدي ـ القاهرة ١٩٥٣ .
(٨) الشعر والشعراء : ابن قتيبه ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٤ .
(٩) العقد الفريد : ابن عبد ربه ـ لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة .
(١٠) علم النص وبلاغة الخطاب : د. صلاح فضل ـ عالم المعرفة ـ الكويت .
(١١) الفصاحة مفهومها : بم تتحقق : قيمها الجمالية : د. توفيق الفيل ـ حولية كلية الآداب ـ الكويت .
(١٢) القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي : د. توفيق الفيل ـ منشورات جامعة الكويت .
(١٣) كتاب الصناعتين : أبو هلال العسكري صبيح ـ القاهرة ١٩٥١ .
(١٤) لسان العرب : ابن منظور ـ الثقافة ـ بيروت
(١٥) من قضايا النقد والبلاغة : د. توفيق الفيل ـ مكتبة الشباب ـ القاهرة ١٩٨٠ .
(١٦) الموازنة بين أبي تمام والبحتري ـ ت : السيد أحمد صقر . ط٢ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٢ .
(١٧) نظرية الأدب ـ رينيه ويليك ـ ترجمة : د. حسام الخطيب ـ صفاء خلوصي .
(١٨) النقد الأدبي الحديث : د. محمد غنيمي هلال ـ ط ٤ ـ الأنجلو ـ القاهرة .
(١٩) الوساطة بين المتنبي وخصومه : القاضى علي بن عبد العزيز الجرجاني ـ ت : أبو الفضل إبراهيم ـ مصر ١٩٦٦ .

الهوامش :

(١) العقد الفريد حـ ٣ صـ ١٧٧ المطبعة الشرقية .
(٢) النقد الأدبي الحديث . ٤٧ .
(٣) دلائل الأعجاز ١١٥ .
(٤) دلائل الأعجاز ٤٤ ـ ٤٥ شاكر .
(٥) دلائل الإعجاز ٢٥١ ـ ٢٥٢ ـ شاكر .
(٦) دلائل الإعجاز ٢٥٤ ـ شاكر .
(٧) السابق ٢٥٧ .
(٨) الموازنة بين أبي تمام والبحتري .
(٩) الوساطة ١٥ .
(١٠) بضم السين ، كلمة فارسية معناها البوق الذي ينفخ فيه .
(١١) البيان والتبيين صـ١ ٢٠٨ .
(١٢) دلائل الإعجاز .
(١٣) الوساطة ١٠٠ .
(١٤) الوساطة ٢٧ .
(١٥) السابق ٢٩ .
(١٦) الوساطة ٢٧ .
(١٧) الوساطة ٣١ .
(١٨)النقد الأدبي الحديث ٣٧٧ .
(١٩) تاج العروس مادة شعر .
(٢٠) لسان العرب مادة شعر .
(٢١) الوساطة ٢٥ .
(٢٢) الوساطة ٣٢ ـ ٣٣ .
(٢٣) دلائل الإعجاز ٤٣٠ .

لفـظ « الأم »
وتجذر بنيته في لغات البشر

الدكتور/ عمـر الدقاق
أستاذ في قسم اللغة العربية ـ جامعة قطر

قلّما عرفت لغات أهل الأرض لفظاً مشتركاً فيما بينها يضارع كلمة « الأم » . ففي بنية هذا اللفظ ، حيث حرف الميم هو العمدة ، يلاحظ أن هذا الحرف أيضاً قاسم مشترك بين كثير من لغات الأمم ، يدور على ألسنتها ولاسيما على ألسنة طفالها على الدوام ، مع اختلاف يسير في نطق سائر حروف الكلمة .

ومن المرجح ، وفقاً لمعطيات علوم الصوتيات واللسانيات وعلم نفس الطفل والأنتروبولوجيا ، أن ما فطر عليه الطفل البشري في أي مكان من هذه الدنيا ، من مناغاته لأمه بصوت : « ما » أو « مو » أو « مام » أو « مم » ، أو « مامي » أو « ماما » . . أو ما كان من هذا القبيل ، إنما هو أصل اطلاق تسمية « الأم » على ذلك الكائن الإنساني الذي هو الوالدة عبر العصور ، وعلى اختلاف الأماكن وتباين الأقوام .

ويقسم بعض الباحثين في علم اللغة حروف الهجاء التي نطقت بها الأقوام الغابرة إلى ثلاث فئات : هيجانية وايمائية وايحائية . وهذا التقسيم ينطبق على اللغة العربية[1] .

فالحروف الهيجانية هي الهمزة والألف اللينة والواو والياء ، أي حروف العلة . وهي أصوات أصلاً ، ومتوارثة منذ أزمان موغلة في القدم . وتتوافق نهاياتها مع نهايات العصر الجليدي الأخير ، أي حوالي الألف الثاني عشر قبل الميلاد .

« فالهمزة انفجار صوتي ، ولذا ظل للنداء ، والواو إلى فوق ، والياء إلى تحت . . .[2] »

والحروف الايمائية ، أو في اصطلاح أدق دلالةً ، الشفوية ، هي الميم والفاء والبـاء . . . ، وهي موروثة من المرحلة التالية المنتهية حوالي الألف التاسع أو الثامن قبل الميلاد ، حين كان الولاء والزعامة للمرأة الأم في طور زراعة الأرض . وكان لزاماً على الرجل عهدئذ أن يعبد المرأة واعتباره اياها ربة للخصب .

أما الأحرف الايحائية فهي الحروف الباقية التي تمخضت عنها المرحلة الرعوية الواقعة في حقبة الألف التاسع أو الثامن قبل الميلاد ، حين تحول الولاء بعد ذلك إلى الرجل .

وما نحن بصدده في هذا المجال متصل بالحقبة المتوسطة التي توصل الإنسان القديم خلالها إلى زمرة أولى من الحروف الصامتة وهي حروف الميم والفاء والباء التي يمكن تسميتها بالحروف الايمائية .

(١)

وإذا عدنـا إلى اللغـة السنسكريتية القديمة ، وهي الأصل البعيد لفصيلة اللغـات الهنـدية ـ الأوروبية تبـين لنـا أن الجـذر (ما MA) يعني فيهـا فعـل (الصنع) ، وهو يدل على معاني التكوين ، والعمل ، والايجاد ، والخلق . . . وهذا الفعل (صنع) انما يتضمن في الحقيقة الدلالة الأساسية لمهمة الأم في الحياة ووظيفتهـا البيولـوجية في الـوجود ، وهي مهمة الانجاب ، أي صنع الأطفال وتكوين النشء واستمرار النوع .

وهذا الجذر نفسه (الميم M) مشترك أيضاً في مجموعة اللغات السامية القديمة ، مثل كلمة (أم) العربية ، و(ايما EMA) الآرامية ، و(ايم EM) العبرية . . . كما ظهر هذا الجذر في العديد من اللغات ، ولاسيما فصيلة اللغات الهندية ـ الأوروبية .

فمن بين اللغـات الهنـدو ـ أوربية يطلق على الأم في اللغـة الفـارسية لفظ

(مادر) . كذلـك يطلق عليهـا في الألمـانية لفظ MUTTER) . وفي الانجليزية (ماذر MOTHER) ، وفي الأرمنية ، وهي أيضاً من زمرة اللغات الهندو- أوروبية (ماير MAYER) .

وإذا تتبعنا على صعيد آخر اللفظ الدال على معنى « الأم » في مجموعة اللغات السلافية مثلا وجدنا أن الجذر (م M) يشكل فيها أيضاً الأساس البنيوي لكلمة الأم ، وتلفظ مات (MAT) باللغة الروسية ، وفي البولونية : (MATKA) .

أما في الأصل اللاتيني فتدل على معنى الأم كلمة (ماتر MATER) . ثم سرت هذه الكلمة إلى سائر لغات الأسرة اللاتينية ، فأصبحت تلفظ بالبرتغالية (مادري MADRE) ، وفي الأسبـانية أيضاً (مادري MADRE) ، وفي الايطالية (مادري MADRE) ، وفي الفرنسية (ماتر MATER) وأيضاً (مير MERE) [٣]

وهذا كله يرجح أن حرف الميم M هو الأصل الثابت الراسخ في الألفاظ الدالة على الأم في العديد من لغات الأمم . وأما ماعداه من الحروف الأخرى الملتصقة بهذه الكلمات فهـو من قبيل الحروف المزيدة أو الملحقة ، ومثال ذلك التصاق الحرف المزيد آ في بعض اللغات بالحرف الأصلي المجرد (م M) ، كما هو الحال في الكلمة اللاتينية MATER والألمانية MUTTUR . والشأن نفسه في التصاق حرف د ، D بالجذر م M وهو مقارب في المخرج الصوتي لحرف T إذ يقترن أيضاً بكلمة (مادر) الفارسية وكلمة (مادري MADRE) الايطالية . وقريب من ذلك حال الكلمة الانجليزية في حرف ذ : (MOTHER) .

ومن جهة ثانية ثمة حروف مغايرة من هذا القبيل وهي مزيدة أيضاً ، منها حرف الراء الملتصق بألفاظ الأم ضمن لغات عديدة ، إذ يكاد يوجد في جميع نهايات كلماتها ، مثل : مادر الفارسية ثم MATER و MUTTUR و : MADRE ، و : MOTHER ، و : MERE . . . أي في الكلمات الدالة على الأم في اللاتينية وفي الألمانية وفي الاسبانية والبرتغالية ، وفي الانجليزية وأخيراً في الفرنسية .

وعلى هذا الغرار نجد في فصيلة الساميات كلمات مشابهة أيضاً داخل الاطار

البنيوي المعهود ، وضمن المفهوم الدلالي المطرد على صعيد الألفاظ التي تنطوي على معنى الأم والأمومة .

وإذا ما أوغلنا في لغات أخرى بدت لنا كلمة ماما معروفة في عدد من لغات أفريقيا وآسيا ، فنحن نراها في البنغالية (أما AMA) ، كما نراها في السواحلية واليوربا وفي لغة شعب أوغندا ، وتعرف باسم (لوغندا) ، وأيضاً في لغة الفولاني والماندي ولغة اللينولو والهوسا والمالديفية (٤) .

وهنالك أقوام آخرون ينطقون بكلمة « أم » قريبة من النطق العربي أو من نطق غالبية الشعوب ، فأهل بنجلاديش ، وكذلك البوذيون في بلاد سيريلانكا ينطقون بلغتهم البنغالية كلمة الأم هكذا : أمّاه AMMAH . وفي لغة المالايالام ما يقارب ذلك أي امّا UMMA ، كذلك في لغة البنجاب ما : MA (٥) .

وبوسعنا ـ تبعاً لما تقدم ـ أن نجنح إلى الاعتقاد من خلال ما أوردناه ، وقياساً عليه ، أن ثمة أقواماً آخرين ممن لم نذكرهم ينطقون كلمة أم على هذا الغرار أو نحوه ، وذلك يتيح لنا القول ان هذه الكلمة عالمية لدى شعوب الأرض ، وتكاد تكون مشتركة في معظم لغاتها ، ولعل هذا الأمر يبدو أكثر غرابة إذا عرفنا أن عدد لغات البشر يبلغ عدة آلاف(٦) .

ومن هذا المنطلق فإن جذر الميم وحده دون سواه هو السائد ، فهو العمدة من الوجهة البنيوية في الدلالة على مفهوم الأم في اللغات المتعددة .

ولما كان الميم حرفاً صامتاً وجب أن يقترن بحرف آخر صائت ، سواء أكان الصائت سابقاً PREFIXE ، أم لاحقا SUFFIXE ، فالسوابق تغلب على اللغات السامية مثل أم وإم العربيتين ، وإيما وإيمو السريانيتين ، ومثل إيم EM العبرية . . . على حين تغلب اللواحق SUFFIXES على ألفاظ الأم في اللغات الهندية الأوروبية وسواها ، إذ تبدأ عادة بالجذر الميمي نفسه مباشرة ، مثل (مادر ، MOTHER ، MADRE ، MERE ، MUTTER ،) . . . وكلها مبني على الجذر (م) أو على المقطع (ما) . . . وقد تعزى غلبة السوابق على ألفاظ

العربية ـ وهي حروف نافلة مزيدة ـ إلى كون الحرف الأخير هو عمدة الكلمة ، وبه ينتهي اللفظ ويختتم . وهذا ما تؤكده الطبيعة الاشتقاقية في كلام العرب التي تجعل الحرف الأخير هو الأظهر والأثبت . مثال ذلك فعل (كتب) ، إذ تتوالد منه الكلمات : يكتب ، اكتب ، استكتب ، مكتوب ، مكتب . . . الخ . ولعل هذه السمة ، أي الثبوت والرسوخ ، هي التي جعلت أكثر اللغويين العرب يؤثرون اعتماد الحرف الأخير بدلاً من الأول في تصنيف معاجمهم الكبرى ، وخلافاً للمعهود في سائر اللغات .

غير أن هذه الظاهرة التي تكاد تكون متفردة في لغة العرب لاتبدو دائمة الاطراد ، فكلمة (أم) وما شاكلها في المعنى تبين وجود بعض التداخل بصدد السوابق واللواحق في بعض اللغات أو بعض اللهجات . ففي العامية المصرية مثلاً يغدو الجذر (م) مقترناً بلاحق هو الألف بديلاً عن الحرف الأول المعهود ، أي عن السابق الذي يلتصق بالجذر الثابت في بداية الكلمة الدالة على الأم ، ويبدو ذلك في كون المقطع (ما) هو البديل للفظ (أم) ، ولعل ذلك يتجلى على نحو أوضح في صيغة النداء (يمّا) ، وشبيه بذلك حال العامية السورية في كون الحرف اللاحق واواً وليس ألفاً في المقطع (موMO) ، ويتجلى هذا أيضاً في صيغة النداء (يامو) ، ويقابلها مناداة الأب بصيغة (يابو) . . . وقد حدث مثل هذا التبادل بين السوابق واللواحق في بعض اللهجات العربية ، إذ انقلبت أم إلى مو ، كما انقلب أب إلى بو ، وغدا هذا المنحى الصوتي سائداً على الألسن عند أهل المغرب العربي في قولهم « بومدين » وهو علم لشخص ، وبورقيبة ، وأيضاً عند سكان حوض الفرات في المشرق مثل قولهم « بوكمال » علما لبلدة « وموحسن » علماً لقرية . . .

والذي تقدم ، عبر هذه المفردات اللغوية المقارنة يفضي بنا إلى القول ان حرف الميم وحده هو دوماً المحور الدلالي لمفهوم الأم في أغلب فصائل لغات الأمم ، على حين لاتعدو سائر الحروف الملتصقة بالجذر الميمي ان تكون سوابق PRE-FIXES أو لواحق SUFFIXES ، هي في جميع الأحوال نوافل أو زوائد قد تثبت في

ألفاظ الأم أو تحذف ، وقد تغيب في تلك الكلمات أو تظهر . .

ذاك هو الاطار البنيوي المعهود الذي يتوضع داخله المعنى الدلالي السائد في لفظ الأم على صعيد كثير من لغات الأرض .

هذا التشارك البنائي ، أو في أدنى الأحوال ، هذا التشابه في الحروف بين الألفاظ الدالة على الأم والذي يكاد يبلغ مستوى التواتر ضمن كثرة بالغة من لغات البشر ، جدير بأن يلفت الانتباه ويسترعي النظر . فكيف يتسنى لنا الآن تفسير هذه الظاهرة اللغوية عند الإنسان ، هذا الحيوان الناطق ، أي المفكر .

هل بوسعنا أن نعزو ذلك إلى قانون التأثر والتأثير الذي يشمل أيضاً ، في جملة ما يشمل ، جانباً من لغات الشعوب ، وما يكون عادة من تأثير بعضها في بعض ؟ في رأينا أنه من المستبعد إلى حد كبير حدوث ذلك على صعيد الألفاظ الدالة على الأم على أقل تقدير ، وإلا كان علينا أن نفترض أن قوماً أو أقواماً نشؤوا أول عهودهم في أحضان أمهاتهم ثم عاشوا حقبة من الدهر معهن ، دون أن يكون في كلامهم منذ فجر وجودهم اسم لهذا الكائن البشري العطوف الذي أنجبهم وأرضعهم ورعاهم وكان محور حياتهم الأولى ، وكيف يكون هناك مسمى أساسي دون أن يستلزم في الوقت نفسه وجود اسم خاص به دال عليه . وهل يصح في هذا الحال قانون التأثر والتأثير ، بحيث ينبغي على أولئك القوم ان يعيشوا آماداً قد تطول ، حتى يتاح لهم أن يقبسوا التسمية من أقوام أخرى ويطلقوها على عنصر جوهري أصيل في كيانهم الاجتماعي الأول . . ؟ وبافتراض وجود جماعة مؤثرة وأخرى متأثرة ، فالسؤال يظل قائماً ، أي كيف اهتدت هذه الجماعة المؤثرة الأولى أو الرائدة إلى النطق بكلمة أم ؟ . .

الحق ان المبدأ السائد (الحاجة أم الاختراع) ينطوي على الوجاهة كلها ولاسيما في مجال اللغة ، إذ من الطبيعي لدى وجود الشيء ان يتلبس اسما بعينه فيلتحم به ويلزمه ، وبذلك يتم التطابق بين الاسم والمسمى ، فيتكاملان بنيوياً ودلالياً . وكما أنه لايوجد في المدركات كائن بلا اسم يسمه ويحدده ويؤطره ، كذلك لا وجود أيضاً في العقل لاسم مجرد دون مسمى يقوم به ويتجسّد فيه .

(٢)

والآن ، هل المصادفة إذن هي التي جعلت لمدلول الأم نطقاً متقارباً على ذلك النحو الذي ينطوي عليه العديد من ألسنة البشر ؟ صحيح أن ثمة ألفاظاً بعينها تبدو من حيث بنيتها ودلالتها متآخية بين لغتين أو بين عدد محدود من اللغات ، مثل كلمة قَطَّ أو قَطَعَ وكلمة CUT الانجليزية ، ومثل كلمة كسر وكلمة CASSER الفرنسية ، ومثل كلمة قِط وكلمة CAT الانجليزية . . الخ . غير أن هذه الحالات تبقى في النهاية ضيقة النطاق لاتتعدى مجال الاحتمالات أو المصادفات . وبوسعنا القول على نحو يقارب اليقين ان عامل المصادفة في هذا الشأن غير قادر على تفسير انتشار جذر الميم إلى هذا المدى من الكثرة البالغة في لغات البشر .

كذلك ، وعلى صعيد آخر ، هل مرد هذا التشابه النطقي في لفظ الأم بين اللغات إلى عامل الاكتساب أو التلقي ؟ يبدو لنا أن الطفل الرضيع ، حين ينطق بالمقطع (ما) أو المقطع المكرر (ماما) منادياً أمه خلال الأشهر الأولى من عمره ، فإن نطقه هذا لايمكن ان يكون لفظاً من الألفاظ التي يكسبها من محيطه الخارجي ، أي من أمه أو ممن حوله في أسرته . وان صح ذلك ينجم أمامنا سؤال آخر يعيدنا إلى نقطة البدء ، وهو كيف اتفقت الأمهات لدى الأقوام والشعوب على وضع اسم واحد تقريباً هو ماما أو أم أو نحو ذلك ثم اكتسبه منهن أطفالهن ؟ . يبدو جلياً أن العفوية والفطرة هما وحدهما اللتان تتحكمان في مسلك الطفل الرضيع في هذه المرحلة المبكرة من نموه وليس التلقي أو الاكتساب .

وتأسيساً على ما تقدم يغدو من اليسير على الباحث أن يستبعد في هذا الصدد عامل المصادفة ، وأيضاً العامل الاجتماعي أو الاكتسابي ، وعامل التلقي والتقليد في تفسير وجود جذر الميم المشترك في جمهرة اللغات السائدة . وهكذا لابد لنا أن نجنح في آخر الأمر إلى الاعتقاد بأن التعليل الوحيد الذي يمكن قبوله أو الركون إليه ، والذي بوسعه أن يفسر وجود الجذر الميمي في أسماء الأم على هذا الصعيد الواسع من لغات البشر انما هو التعليل الفيزيولوجي ـ الطبيعي ، أي الناجم عن

تكوين أعضاء الإنسان نفسه ، وعن طبيعة الطفل الرضيع وآلية امتصاصه اللبن من ثدي أمه . ان الطفل الرضيع في هذا الطور من حياته ومن تكونه الجسدي لايمتلك من حيث الأساس إلا أدنى أدوات الكلام . وفمه ـ وهو جهاز النطق ـ لايحتوي أية أسنان نابتة ، ولما يستكمل تكوينه بعد . والحروف المحدودة التي يتيسر له في البدء ان يلفظها هي التي تنفرج عنها الشفتان ، مثل حروف الميم والباء والفاء ، على حين لايستطيع أن ينطق بحروف أخرى تخرج من تحت اللسان أو من خلال الأسنان ، أو من بعض أطراف الفم وأقاصيه كالحروف اللثوية ، مثل : الثاء والذال والظاء ، أو حروف الزلق كالراء واللام والنون ، أو بعض حروف الحلق كالعين والحاء والخاء ونحو ذلك من سائر الحروف ، إذ لا يستطيع الطفل أن يتلفظ بها إلا في مراحل تالية من نموه الفيزيولوجي المتكامل .

وعلى ذلك ، إذا كانت الحروف الشفوية هي أسبق سائر الحروف نطقاً لدى الطفل الرضيع ، وكذلك لدى الانسان الغابر في أحقابه الموغلة في القدم التي تمخضت عن نطقه بالحروف الايمائية أو الشفوية ، فان حرف الميم هو الأسبق من بينها على الإطلاق . بل اننا نذهب إلى مدى أبعد حين نقرر أيضاً أن بعض الحيوان قادر وبيسر على نطق حرف الميم بفضل سهولة مخرجه من الفم ، ومن هذا القبيل الغنم والماعز التي تدأب على التفوه بالمقطع الصوتي (ماء أو ماه أو ماع . .) ، وهنا نلمس بإعجاب إحدى لفتات الجاحظ البارعة حين قال[٧] : « وأما الغنم فليس يمكنها أن تقول الا « ماء » ، ثم يقول بذكاء لماح : « والميم والباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال ، كقولهم ماما وبابا ، لأنهما خارجان عن عمل اللسان ، وانما يظهران بالتقاء الشفتين » . وقد استطاع مؤخراً أحد هواة الكلاب في الولايات المتحدة الأمريكية أن يدرب كلبه على النطق بالمقطع الصوتي المضاعف (ماما) كما ينطق به الطفل البشري تماماً ، وقد أنطقه بذلك على ملأ من الناس ووسط استحسانهم واعجابهم[٨] . وهذا يعني أن النطق بالميم معهود لدى بعض الحيوانات وميسور لدى بعضها الآخر ، ولعله الحرف الوحيد دون سائر حروف الهجاء الذي يتمتع بهذه الظاهرة الفريدة .

ونحن حين نقـرر ان حرف الميم هو الأسبق نطقاً بين حروف الهجاء لدى الطفل وأيضاً لدى الإنسان الغابر والأقوام البدائية ، فإننا نعني حروف الهجاء الصامتة التي كانت الميم منطلقها الأول لدى الرضيع ، إذ لابد في هذا الصدد ان نستبعـد من مجالنـا مجمـوعـة الحروف الصائتة أو ما سماه بعضهم الحروف الهيجانية ، أي حروف العلة ، فهي الأسبق بطبيعة الحال على الاطلاق ، لأنها لا تعدو ان تكون لدى الوليد أو الرضيع ، وكذلك لدى الإنسان البدائي أصواتاً عفوية أو صيحات انفعالية لاتكاد تختلف في شيء عما يصدر من مثلها عن سائر الأحياء في عالم الحيوان ، ومثـل هذه الحـروف الصـائتة تند عن الطفل خلال ضحكه وبكائه ، بل انها لتخرج من فمه منذ لحظة خروجه من رحم أمه وصرخته المعهودة لدى انتقاله إلى المحيط الخارجي المغاير .

فالميم المتبوعة بحرف مد أي « ما » هي عند الرضيع مجرد مقطع بسيط يتفوه به بسهولة ويسر اعراباً عن حاجة عضوية لديه ، وذلك حين يطلق من فمه بعض الهواء الحبيس على نحو ضاغط عبر الشفتين ، فهو تعبير صوتي أولي يتخذه الطفل وسيلة إلى إشعار أمه بالرغبة في الغذاء .

ولـما كانت الميم في طليعـة الأحـرف الأولى الملفـوظة في حياة الإنسان لأنها الأسهل نطقاً ، فقد نجم عن ذلك أنها أيضاً حرف أصيل راسخ في معظم لغات البشر سواء أكانت هذه اللغات قديمة أم حديثة ، بدائية أم متطورة ، على حين لاتنطوي حروف أخرى عديدة على مثل هذا الشمول ، فتكون في لغة ولا تكون في أخـرى . وثمـة أمم لاتعـرف في لغـاتها وجوداً لحرف الراء كما في لغة أهل الصين ، أو لحروف سواه في لغات أخرى مثل العين والغين والثاء والخاء والذال والصاد والقاف . . . إلخ . كذلك لا تعرف لغات أخرى حروفاً مثل G أو V أو P أو E أو U . . . الـخ ، ومـا ذلـك إلا لأن نطقهـا ينـطوي أيضـاً من النـاحية الفيزيولوجية على صعوبة أكبر من النطق بسائر الحروف .

وقـد فطن الأصمعي منـذ القديم إلى هذه الظاهرة في بعض لغات عصره ومغـايرتهـا أحياناً في عدد من حروفها للعربية فقال (٩) : ليس للروم ضاد ، ولا

للفرس ثاء ، ولا للسريان ذال » . وعلة ذلك في رأينا صعوبة نطق هذه الأحرف وكون مخرجها غير يسير من الفم اذا قيست بسائر الحروف . وآية ذلك أن الطفل في أية أمة ليس بوسعه في أول عهده ان ينطق بأكثر هذه الحروف المذكورة ، أي غير المطردة في كثير من لغات البشر . من هذا القبيل حرف الراء ، اذ لايتيسر نطقه لدى الطفل إلا بعد حين من نموه واكتمال جهاز النطق لديه . بل قد يتعذر على الكبار النطق بالراء على النحو القويم ، فيما يعرف باللثغة ، وأشهر هؤلاء عند العرب واصل بن عطاء المعتزلي الذي كان يحرص على إخفاء هذا العيب لديه ويجهد في تجنب النطق بالراء في كلامه . وقد عجب الجاحظ من ذكائه واقتداره في هذا الصدد وأورد له خطبة كان ارتجلها دون ان يرد فيها اطلاقا كلمة تنطوي على حرف الراء . وقد فصّل الجاحظ القول في هذه الظاهرة اللسانية ضمن كتابه البيان والتبيين وكان مما قاله(١٠) : « وأما اللثغة التي تقع في الراء فان عددها يضعف على عدد لثغة اللام ، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف » . ثم يبين الجاحظ ان منهم من يجعل الراء غينا ، ومنهم من يجعل الراء ذالا أو ظاء ، ويأتي بمثال من شعر عمر بن أبي ربيعة في قوله :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لايستبد

فيذكر أبو عثمان أن بعضهم يلفظ كلمة (مرة) مية أو مغة أو مذة أو مظة . غير أن الجاحظ فاته أن يذكر حالة خامسة من اللثغة وهي جعل الراء لاما . فالألثغ ، لعيب في نطقه ، حين يعجز عن التلفظ بالراء يعمد إلى ما هو قريب من مخرجها فيلفظها لاماً ، وهذا ما يعمد إليه الأطفال بسبب قصور نطقهم في أوائل عهدهم بالكلام ، وكذلك حال أهل الصين عامة في كلامهم . وقد أتيح لي أن أجد جمهرة منهم من دارسي العربية تلفظ هذا الحرف لاماً ويتعذر عليها النطق بالراء على النحو المنشود(١١) . وعلى ذلك يمكن ان نضيف إلى مثال الجاحظ ان كلمة (مرة) في البيت قد ينطقها الألثغ أو نحوه لاماً ، أي (ملة) ، وما يؤكد صعوبة النطق بالراء أن ثمة شعوباً عديدة تضم لغاتها هذا الحرف ولكن

كلا منها تلفظه على نحو خاص يغاير بطبيعة الحال لفظ العرب له . فالاسبان والـطليان يشدون ألسنتهم إلى أعلى حلوقهم بقدر من التوتر لتخرج الراء قوية جلية ، على حين نجـد هذه الـراء لدى الفرنسيين لطيفة خفيفة تقارب حرف الغـين ، أمـا الانجليز فيكـاد يغيب هذا الحرف من لغتهم المنطوقة ، وكأنهم يبتلعـونـه عنـد الكلام . كذلك يصعب على العربي ان ينطق ببعض الحروف الأجنبية التي ليس لها مثيل في لغته إلا بعد مران طويل ، ولعل الأمر أكثر صعوبة لدى غير العـرب حين يحاولـون النطق ببعض حروف العربية مما ليس له نظير عنـدهم . بل ان العرب أنفسهم لاينطقون بعض حروف لغتهم العربية على النحو المنشود تبعاً لأقاليمهم وبيئاتهم مثل حرف الضاد والجيم والقاف . . . (١٢)

كل ما تقدم يفضي بنا إلى ما توصل إليه علم اللغة ولاسيما في مجال الدراسات اللسـانية LINGUISTICS والبحـوث الصـوتية PHONETICS ، وفحوى ذلك أن الأقـوام الغابرة في طور نشوئها السحيق ، شأنها كشأن الأطفال ، لم تعرف في بواكير حياتها سوى عدد ضئيل من الحروف ، وهي الحروف الجوفية أو الصوتية أو حروف العلة ، وذلك في مرحلة الصيد الغابرة التي استمرت من بداية العصر الجليدي حتى قرابة بضعة عشر قرناً قبل الميلاد ، وقد تولدت لدى انسان ذلك العصر بعد آماد طوال بعض الحروف التي تقع مخارجها الصوتية قريباً من الشفتين لسهـولـة النـطق بها وهي م ، ب ، ف ، د ، حين أخـذ يلفظ ماما ، بابا ، دادا(١٣) . . ففي مرحلة تالية نشأت لدى الإنسان القديم حروف أخرى لعل أولها كان حرف الفاء القريب من الشفة السفلى ، ولم يستكمل ذلك الانسان سائر حروف الهجـاء إلا بعـد آماد أخرى حين دخل مرحلة الرعي ، فأبدع حروفاً جديدة أكثر تعقيداً ، لتلبي حاجاته المستحدثة وتعبر عن تجاربه التي كانت تغتني باطراد .

- ٣ -

واعتماداً على ما سبق التوصل إليه من أن حرف الميم يحتل حيزاً واضحاً ضمن

زمرة الأحرف السهلة النطق التي عرفها الطفل كما عرفها الانسان الغابر في طور نشوئه قبل ان يتمكن هذا أو ذاك من الاهتداء إلى نطق سائر حروف الهجاء ، فإننا نجد أنفسنا أخيراً في مواجهة سؤال ملح آخر في هذا الصدد وهو : لماذا كان حرف الميم وحده وليس حرفاً آخر سواه من زمرته كالباء والدال والفاء ، وما إلى ذلك من بواكير الحروف السهلة النطق ، ليكون هو الجذر الدال على الأم في أصل اللغة . وهل كان وجود الميم في الكلمات الدالة على الأم في لغات البشر مجرد ظاهرة عارضة ؟ . . .

نحن نجنح إلى الاعتقاد بأن وجود الجذر « م » المتمثل في المقطع « ما » مفرداً أو « ماما » مضعفا انما يعني قيامه بوظيفة محددة عند الطفل الرضيع لزمته منذ الخليقة وصاحبته من الأزل . وهذه الوظيفة هي تلبية حاجة عضوية أساسية لديه ، وهي اشباع غريزة حفظ الذات نتيجة الشعور بالجوع والعطش ، وعندئذ يعمد الرضيع إلى الاعراب عن حاجته بأن يظهر رغبته بطلب الغذاء ، أي امتصاصه اللبن من ثدي أمه ، فيقوم بزم شفتيه ، أي شد احداهما إلى الأخرى تعبيراً عن رغبته في تناول غذائه ، وبذلك يكون قد لفظ على نحو عفوي وغريزي حرف الميم . . « فآلية لفظ الميم وهو حرف شفوي أو ايمائي ، كما سبق بيانه ، تنطلق من الشفتين حبساً وانفراجاً في حركة ايمائية تمثل فعل المص والرضاع والحلب والاستخراج من الجوف (١٤) » .

فالطفل في هذه الحالة التعبيرية حين زم شفتيه ثم فتحهما ، على ذلك النحو المفرد « ما » أو المتوالى بين الفتح والإطباق « ماما » قد قام سلفا بإحداث حركة الشفتين ، بقصد توليد صوت الامتصاص المعهود ، أي الصوت الذي ينجم عن انفراج الشفتين واطلاق الهواء من الفم ، بعد أن كان حبيساً مدة لحظة أو نحوها ، وهذه هي في حقيقة الأمر وسيلة نطق الانسان بحرف الميم .

وهكذا فإن الرضيع كلما اعتراه الجوع والعطش عبّر عن حاجته إلى لبن أمه بتقليد آلية الامتصاص من خلال معادلها الموضوعي في أذنه ، أي بنطقه حرف الميم ، وهو في حقيقة الأمر انما ينادي أمه بلفظه المقطع « ما » ويطلب لبنها في

الوقت نفسه . ومعنى ذلك أن الطفل الرضيع في هذا الطور المبكر من مرحلة نشوئه انما يستخدم هذا الجذر الصوتي قاصداً به اللبن وصاحبة اللبن معاً دون تمييز ، وعلى نحو من التداخل المبهم . إذ من الطبيعي آنئذ أن لاتكون لدى الطفل في هذا الطور قدرة على الفصل بين العنصرين الأساسيين في عالمه البسيط المحدود وهما اللبن والأم ، لأنهما بالنسبة إليه متلاحمان متمازجان متحدان . ولهذا كان من الطبيعي ان يكونا في مدارك الطفل المحدودة - إن صح أن نعدها مدارك - عنصراً واحداً يقتضي منه تبعاً لذلك اسماً واحداً هو « ما » .

ثم لايلبث هذا الطفل الرضيع في مرحلة تالية من نموه ان يركّب مع الجذر « م » مقطعاً لاحقاً فيلفظ المقطع « مام » أو « مم » على طريقة التضعيف أو التكرار . وبذلك تكون هذه (الكلمة - المقطع) لسهولة التلفظ بها باكورة نطق الإنسان وفاتحة لغته ، كما كان حرف الميم بكر حروفه ورائد عباراته .

وانه لمما يقوّي هذه المقولة التي ترتكز إلى فيزيولوجيا الطفل وامتصاصه ، إلى جانب احداث صوت معين تقليداً لآلية هذا الامتصاص في الطبيعة ، بوسعنا القول اضافة إلى ما سبق ان التلفظ بالجذر (الميم) لدى الطفل انما يعتمد في جانب منه على تقليد صوت المص . فهذا الصوت يحدث بطبيعة الحال في إثر وضع الرضيع حلمة الثدي في فمه وشروعه في ابتلاع اللبن . غير أن ما نلحظه بعد ذلك ان الطفل يعمد إلى افتعال هذا الصوت وهو بعيد عن ثدي أمه ، أي انه يتكلم بأن يلفظ المقطع (ما) منادياً به أمه ، فما يفعله هو محاكاة حالة يطلب استعادتها ووضع يبغي استرجاعه ، وهذا الأمر في جوهره هو أصل من أصول نشوء اللغة لدى الانسان .

وهذه الظاهرة العفوية الغريزية لدى الطفل الرضيع تشكل مصداقاً لاحدى النظريات البارزة في تفسير منشأ اللغة عند الانسان وهي نظرية محاكاة أصوات الطبيعة . أي أنَّ تلفظ الطفل بالمقطع « ما » وهو جذر كلمة « أم » انما هو في أصله محاكاة لآلية امتصاصه للثدي . انها محاكاة ذاتية داخلية لصوت الطفل نفسه وقت الرضاع وليست محاكاة لصوت آخر خارج عن ذاته . على ان هذه

المحـاكاة للأصوات تتنامي مع الزمن ومع نمو الطفل خلاله ، وتتسع لتشمل أصواتاً عديدة يحس بها الطفل أولاً ، ثم يقارب ادراكها بعد حين . ولعل من طريف ما أشار إليه الجاحظ في صدد نزعة الطفل إلى اغناء لغته عن طريق محاكاة الأصوات ، ما رواه من أنه « قيل لصبي من أبوك ؟ فقال : وَو ، وَو ، لأن أباه ـ كما علق الجـاحظ ـ كان يسمى كلبا (١٥) . وبـوسعنا أن نجد نظيراً لما لاحظه الجـاحظ في أمثلة عديدة من واقع لغة أطفالنا اليوم حين ينادون الكلب بلفظ (عَو) والقط بلفظ (نَو) والخروف بلفظ (ماع) . . الخ .

واذا كان تلفظ الانسان الأول لهذا الحرف « الميم » انما يرتكز أصلا إلى ظاهرة فيزيولوجية قوامها الارتباط بغريزة الجوع والعطش والتعبير عن ذلك بحركة المص بوسيلة الفم ، فانه لايبعد عندئذ أن نرجع أيضاً فعل « مص » نفسه المرتكز إلى الجذر الميمي أيضاً ، في اللغة العربية على الأقل ، إلى هذا الأصل البعيد نفسه . اذ أن مرد الأمر في هذا الفعل « مص » كما في شأن المقطع « ما » أو « ماما » نفسه قد يعود إلى محاكاة الطفل للصوت الناجم عن آلية المص ، وفقاً لنظرية المحاكاة في نشوء اللغة .

ولعل من المفيد هنا استكمالا لهذا الظن أننا نلاحظ أيضاً في اللغة العربية كون كلمة « ماء » ترتكز إلى جذر الميم كما هو الحال في بنية كلمة « أم » . وقد يعني هذا أيضاً ان الرضيع حين يجوع أو يعطش (ولا فرق لديه عهدئذ بين العطش والجوع) . فانه يلفظ كلمة (ما) مقصورة ، قاصداً إلى ماء الثدي . ولعل لفظ (ماء) في العـربية بانطوائه أيضاً على الجذر الميمي نفسه انما يشارك في أهميته البنيوية والدلالية لفظ (أم) فكلاهما أصيل ، وكلاهما سبب الحياة . . .

ان كل هذا يتيح لنـا قدراً وافياً من الاعتقـاد بأن حرف الميم ، من حيث التحامه الشديد بعالم الطفولة ، واتصاله الوثيق بأسباب بقاء الطفل متمثلة في دلالات الأم واللبن والماء ، انما هو حرف متأصل في كيان الانسان ، متجذر في لغات البشر . أليس بوسعنا بعد ذلك ، وفي ضوء ما تقدم ان نقول بثقة : إن المقطع (ماما) اختراع انجزه الطفل منذ الأزل ، وسوف يدأب على ابتداعه إلى الأبد .

(٤)

وعلى هذا الغرار يمضي الطفل في إغناء لغته تبعاً للغنى المتزيد في تجاربه . فهو لا يلبث ، بعد أن يقارب استكمال سنته الأولى ، حتى يبدأ في حال شعوره بالعطش وحاجته إلى الماء ، إلى احداث صوت من شفتيه يقلد به صوت آلية الشرب ، وليس الامتصاص . وهو صوت قريب من حرف (الباء) وذلك بأن يحبس بعض الهواء داخل فمه ثم يدع شفتيه تنفلقان عنه بشكل ضاغط . وهذا ما يؤدي إلى النطق بحرف الباء المراد ، وهو شقيق الميم وشريكه في زيادة الحروف المنطوقة في حياة الانسان . وقد سبقت الإشارة في هذا الصدد إلى قول الجاحظ « الميم والباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال كقولهم ماما وبابا[١٦] . . »

ولعل النطق بهذا الجذر الصوتي المبكر عند الانسان هو ما يفسر أيضاً وجود حرف الباء في عدد من اللغات السامية واللاتينية للدلالة على تناول الماء ، كما هو الحال في لغة العرب ، كفعل « شرب » و« عب » وأيضاً فعل « غب » الذي يعني شرب الابل يوماً وعدم شربها يوماً تالياً . كذلك نجد الباء نفسها في فعل شرب بالفرنسية BOIRE . . .

ويبدو على هذا الصعيد أيضاً أن في طليعة الكلمات الأولى التي يبدأ الطفل بتلفظها بعد كلمة ماما هي كلمة بابا باعتبار النطق بالباء يسيراً على الطفل ، وكذلك الفاء لأن هذه الأحرف الثلاثة أي الميم والباء والفاء هي جميعاً حروف شفوية وهي ـ كما تبين لنا ـ أسهل حروف الهجاء نطقاً وأسبقها خروجاً من فم الانسان .

ولعل هذا أيضاً ما يفسر وجود حرف الباء وشقيقه حرف الفاء في العديد من اللغات سامية أو هندية ـ أوروبية مثل أب العربية و : أبا ABA الآرامية و : أب AP العبرية ، وباتر BATER اللاتينية ، ومنها بير PERE الفرنسية ، وبادري BADRE الايطالية والأسبانية . . ثم فاذر FATHER الانجليزية . . .

كذلـك يدعى « الأب بابا BABA في اللغة البنغالية وفي بعض مناطق الهند

وبنجـلاديش . كما توجد هذه الكلمة في اللغة التركية وفي السواحلية وفي لغة تنزانيا وكينيا وزائير وشرق افريقية ، وأيضاً في الملايوية ، وفي اليوربا والهوسا بنيجيريا . . »[١٧] .

وقد فطن اللغويون العرب في القديم إلى أصالة هذا الحرف ، أي الباء في بواكير كلام الطفل ، ففي لسان العرب « بأبأ الصبيَّ أبوه ، اذا قال له : بابا . وباباه الصبي ، اذا قال له : بابا . والبأباة أيضاً معناه ترقيص المرأة ولدها . . » وهذا الترقيص ، كما هو معلوم ، مصحوب عادة بنطق الأم بكلمة ماما أو بابا على مسمع رضيعها .

واذا كانت ثمة حصيلة لكل ما تقدم بصدد بنية لفظ الأم في اللغة العربية وفي سائـر لغـات البشر فهي ان هذه الكلمـة تفضي بنا من وجهة علم الصوتيات والفيزيولوجيا وعلم النفس والتاريخ إلى مقولتين متكاملتين متلاحمتين هما : بكرية جذر الميم بين حروف الهجاء المنطوقة ، وفطرية كلمة الأم بين الألفاظ الأصيلة .

الهوامش :

(١) انـظر بحث « الحـرف العربي ، بين الأصالة والحداثة » بقلم حسن عباس ، مجلة « التراث العربي » الفصلية ، العددان ٤٢ ـ ٤٣ ، كانون الثاني (يناير) ـ نيسان (ابريل) ١٩٩١ ـ اتحاد الكتاب العرب ، دمشق .

(٢) المرجع نفسه ، بحث حسن عباس : « الحرف العربي بين الأصالة والحداثة » .

(٣) حرف التاء هنا سقط من هذه الكلمة الفرنسية المتداولة MERE بعد أن كان موجوداً في الأصل اللاتيني MATER ، ولعله هو ، أو ما يقاربه كحرف الدال قد سقط أيضاً من الكلمة الأرمنية (ماير) . ومعنى ذلك أن هذا الحرف أي (T) ليس عمدة في ألفاظ الأم في كثير من اللغات ، وهو على أية حال يعاود الظهور في صيغة اسم المصدر لهذه الكلمة في اللغة الفرنسية وهي MATERNITE أي الأمومة ، وأيضاً في الصيغة الوصفية عند النسبة إلى أم في لفظ MATERNEL أي أمومي .

(٤) انظر مقالة : « هل كلمتا أب وأم غير عربيتين » بقلم الدكتور شوقي النجار ، المجلة العربية ، الرياض ، العدد ٨٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ٨٤ .

(٥) انـظر أيضـاً مقـاله « هل كلمتا أب وأم غير عربيتين » بقلم الدكتور شوقي النجار ، المجلة العربية ، الرياض ، العدد ٨٥ ، تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩٨٤ .

(٦) يقدر عدد لغات البشر بما يقارب خمسة آلاف لغة أو أكثر من ذلك . وفي بلاد الهند وحدها ٨٤٥ لغة .

(٧) البيان والتبيين ١ : ٦٢ تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ١٩٦٨ .

(٨) تم عرض هذا المشهد صورة وصوتاً في التلفاز الأمريكي وبعدئذ في قنوات خارجية أخرى ، وقد بثه التلفزيون السوري من دمشق في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩١ وذلك ضمن برنامج دوري ذائع يحمل اسم (طرائف الفيديو المنزلي الأمريكي) : AMERICA's FUNNIEST HOME VIDEOS

(٩) البيان والتبيين ، الجاحظ ١ : ٦٥ ، تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦٨ .

(١٠) البيان والتبيين ، الجاحظ ١ : ٣٤ تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦٨ .

(١١) لمست هذه الظاهرة حين تم ايفادي من جامعة حلب عام ١٩٧٩ إلى معهد اللغات في بكين بقصد تأهيل مجموعة من دارسي العربية وتقويتهم فيها نطقاً وكتابة ، فعلى حين تمكن بعضهم من نطق الراء على وجهها المنشود بعد محاولات عديدة ، فإن بعضهم الآخر لم يستطع ذلك قط ، وقد لفظوا كلمات مثل عمر وجرح ورسم . . هكذا : عمل وجلح ولسم ، كما لفظوا عبارة الجمهورية العربية السورية هكذا : الجمهولية العلبية السولية .

(١٢) بعض السودانيين مثلا ينطقون الضاد قريبة من الدال وكثير من عرب الجزيرة والخليج وسكان العراق وبعض أهل الشام والمغرب يلفظونها ظاء والعكس أحياناً صحيح . وشبيه بهذا حرف الطاء الذي يلفظه بعضهم قريباً من التاء . كذلك حال حرف الجيم في لهجة أهل القاهرة واليمن ، وأيضاً حال حرف القاف الذي يتعدد نطقه على ألسنة العرب في أقطارهم المتباعدة حتى ليبلغ نحو سبع حالات تتراوح بين حرفي الهمزة والكاف .

(١٣) مقالة « الحرف العربي والشخصية العربية » بقلم حسن عباس . مجلة الكاتب العربي ، العدد ٦ ، دمشق ١٩٨٣ .

(١٤) الحرف العربي بين الأصالة والحداثة ـ حسن عباس . مجلة التراث العربي ، كانون الثاني (يناير) نيسان (ابريل) ١٩٩١ ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق .

(١٥) البيان والتبيين ١ : ٦٤ تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٨ .

(١٦) البيان والتبيين ١ ـ ٦٢ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٨ .

(١٧) مقالة « هل كلمتا أب وأم غير عربيتين » بقلم د. شوقي النجار . « المجلة العربية » العدد ٨٥ ، نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٤ .

المصادر والمراجع

- الأصوات اللغوية ، الدكتور ابراهيم أنيس - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦١ .
- البيان والتبيين ، عمرو بن بحر الجاحظ - ج١ . تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٨ .
- الحرف العربي بين الأصالة والحداثة ، حسن عباس ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، يناير ابريل ١٩٩١ .
- الحرف العربي والشخصية العربية ، حسن عباس ، مجلة الكاتب العربي - دمشق ، العدد ٦ - ١٩٨٦ .
- دارسة الصوت اللغوي ، الدكتور أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- علم اللغة العام ، الأصوات ، الدكتور كمال بشر - دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- لسان العرب ، ابن منظور (أمم) ، (أبب) ،
- المدخل إلى علم الأصوات - صلاح الدين حسين - دار الاتحاد العربي - القاهرة ، ١٩٨١ .
- نظرية حق الأم ، اريك فروم - ترجمة محمود منقذ الهاشمي ، مجلة المعرفة ، دمشق ، فبراير ١٩٨٣ .
- هل كلمتا أب وأم غير عربيتين ، الدكتور شوقي النجار - المجلة العربية ، الرياض ، نوفمبر ١٩٨٤ .

النظام المقطعي وهمزة الوصل في العربية

د . محمد علي رباع
الجامعة الأردنيـــة

ينشأ المقطع من تتابع الصوامت والحركات ، ويكون عدد المقاطع في البنية العربية مساوياً لعدد الحركات فيها . وبناء على تفاوت كمية الحركة ، واختلاف تجمعات الصوامت ، فإن العربية تشتمل على ستة أنواع من المقاطع ، بعضها يُسلَّم بوجوده ، وبعضها حوله خلاف قديم جديد .

وحين نرمز للصامت بـ « ص » ، وللحركة بـ « ح » عندما تكون قصيرة ، و « ح : » عندما تكون طويلة ، فإنّ المقاطع الستة المذكورة تُحدّد على النحو التالي :

١ - ص ح　　٢ - ص ح :　　٣ - ص ح ص
٤ - ص ح : ص　　٥ - ص ح ص ص　　٦ - ص ح : ص ص

والثلاثة الأول منها هي من أكثر مقاطع العربية شيوعاً ؛ إذ لا توجد أيّة قيود على توزيعها ، فهي تقع في بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها ، بصرف النظر عن أحجام الكلمات التي تدخل في تشكيلها ؛ ولذا تُعدّ هذه المقاطع المقاطع الأساسية في اللغة العربية[1] ؛ فالمقطع الأول هو المسيطر في الفعل الماضي المجرّد غير المعتل والمضعف . . والمقطع الثاني يطّرد في بداية الماضي المعتل الأجوف ، ونهاية المعتل الناقص ، كما يطّرد في بداية اسم الفاعل ؛ « فاعل » . والمقطع الثالث يطّرد في بدايات كل من مصدر المجرّد الذي على وزن « فعْل » ، ما لم يوقف على آخره بالتسكين ، واسم المفعول ؛ « مفعول » ، والفعل الماضي المضعف ؛ « شدّ » ، والفعل المضارع ساكن الفاء[2] .

وأما المقاطع الأخرى . فهي تأتي في مواقع محددة ، وجل ما جاء من شذوذ مقطعي في بعض القراءات القرآنية ، أو في بعض الصيغ المروية عن الأعراب ، يرتد إلى هذه المقاطع ، ويأتي في سياقات مقاربة لها في سماتها الصوتية ؛ لذلك فإنّ استجلاء خصوصياتها يلقي الضوء على كلّ ما عد من باب الشذوذ الصوتي في اللغة العربية .

فالمقطع الرابع ؛ « ص ح : ص » يوجد في حالتين : أولاهما في الوقف على الكلمات التي تنتهي بمقطعين ، أوّلهما طويل مفتوح ؛ « ص ح : » وثانيها قصير مفتوح ؛ « ص ح » ، كما هو الحال في الفعل الأجوف ؛ « قال » . وثانية الحالتين في وسط الكلمة ، ويشترك (أن يتلوه مقطع آخر صامته الأول مماثل للصامت المغلق لهذا المقطع : شابْ ـ بُن . بدون توافر هذا الشرط لا يتأتى . . . إلا في حالة الوقف فقط .)[٢] وهي صيغة قياسية تتمثل في اسم الفاعل من المضعف ، كما يوجد هذا المقطع في صيغة المضارع المسند إلى ألف الاثنين المؤكد بالنون الثقيلة ؛ « يلعبانّ » ، وثمة بعض الصيغ المأثورة ، يوافق هذا الشرط ، وثمة صيغ أخر تخرج عليه ، على ما سيتضح .

غير أنّ « هنري فليش » يرى تقسيماً آخر لمقاطع الكلمات المشتملة على هذا المقطع ، أو على المقطع الخامس في غير الوقف ؛ فهو يرى أنّ السلوك المقطعي يضطرب إذا نشأ عنه وجود مصوت طويل في مقطع مقفل ؛ (وذلك عندما يقفل المقطع بنفس الصامت الذي يفتح المقطع التالي ، فينشأ صوت مضعف وذلك نحو : احمارّ (ihmarra) ولا الضالين (wala - ddallina) « القرآن نهاية الفاتحة » وخُويصّة (huwayssatun) تصغير « خاصّة » . والسؤال الذي يحضرنا الآن هو كيف يتم التقسيم المقطعي في هذه الحالة ؟ أغلب الظن أنه يتم بأن نترك المصوت الطويل أو المزدوج في مقطع مفتوح هكذا : اِحْـ ـ مـا ـ رْرَ 'ih-ma-rra' لا ـ ضّـا ـ لّيـ ـ نَ (la-dda-lli-na) ، خُـ ـ وَيْـ ـ صّـ ـ تُن 'hu-way-ssa-tun' .)[٤]

وبهذا يكون « فليش » قد تخلّص من هذين المقطعين وجاء بمقطع جديد هو

« ص ص ح » ، وهذا غير ممكن البتة في النطق التلقائي لمثل هذه الكلمات ، ولا يتأتى ذلك إلّا إذا نطقنا الكلمة مُجَزّأة . ووقفنا على كل مقطع ، ثم تكلفنا النطق بالمقطع الذي جاء به ، وهذا قد يتأتى له هو ـ بأثر من لغته الأم ـ ولكنه لم يكن ممكناً لأبناء العربية . وينبغي أن ننبه إلى أنه ليس هناك ما يسوغ تحليله « ولا الضالين » بهذه الصورة . فالمقطع الأول ينبغي أن يتحد مع المقطع الذي يليه ، كما ينبغي أن تقصر حركته هكذا : 'lad' ، فهذا هو المقطع الأول .

أما المقطع الخامس ؛ « ص ح ص ص » فيتفق جلّ المحدثين على إمكان وقوعه في موضعين ؛ أحدهما في الوقف ، والآخر في تصغير الكلمات المشتملة على المقطع الرابع من مثل : شابّة ودابّة . ويؤكد عصام أبو سليم إمكان وقوعه في وسط الكلمة ، وإن كان ذلك أقل من الموقع الأخير ؛ يقول (يمكن القول إن هذا المقطع يتكرر وقوعه في آخر الكلمة أكثر منه في وسطها في الكلمات القصيرة ، ولا يقع على الإطلاق في الكلمات الطويلة المكونة من تسعة أو عشرة مقاطع[٥] ، هذه النتيجة المستندة إلى إحصاءات دقيقة للبنية المقطعية لجميع الكلمات الموجودة في معجم اللغة العربية المعاصرة ، والتي يزيد عددها على (٤٥) ألف كلمة تنفي الاعتقاد السائد من أن هذا المقطع يقع فقط في نهاية الكلمة)[٦] .

بيد أنه لم يأت بأي مثال من نواتج تلكم الإحصاءات ، مما جاء مشتملاً على هذا المقطع ، فإذا قصد ما يماثل « دُوَيْبّة » التي ذكرها ، فليس ثمة اعتقاد سائد ينفي وجودها ، وإذا كان هذا المقطع قد جاء في بعض القراءات القرآنية ، فإن هذه القراءات غير موجودة في مصدره .

في مقابل ذلك فإن أحد الباحثين يرفض وجود هذا المقطع في العربية ، بصرف النظر عن موقعه ، ويستند في ذلك إلى إجمال اللغويين العرب على القول بعدم جواز الجمع بين الساكنين في الكلام ، أمّا وجوده في حالة الوقف ، فهو يرى أن المقصود بذلك الخط والكتابة وليس النطق ،

ويستشهد بمقولة لابن يعيش ظنها خادمة له ، ثم يردفها قائلاً : (وهكذا يكون المراد من قول ابن يعيش بجواز الجمع بين سكونين الجمع بينهما في الرسم والكتابة لا في هذا النطق)(٧) ، فالوقف ـ عند الباحث ـ لا يتم إلا بحركة « بين بين » ؛ إمّا بين الصامتين ، وإما بعد الصامت الأخير ؛ (لأن الوقف يمكن الحرف ويستوفي صوته ويوفره على الحرف الموقوف عليه فيجري ذلك مجرى الحركة « المصوت » لقوة الصوت واستيعابه ، كما جرى المد في حروف المد مجرى الحركة)(٨) . كما يقول ابن يعيش ، وأما « دُويبّة » فهو يرى أن ثمة حركة « بين بين » تقع بعد الياء ، كما نص على ذلك ابن منظور ، إذ رأى أن الياء ساكنة وفيها إشمام من الكسر ، وهذا الإشمام يلزمها حيث وقعت في التصغير قبل حرف مشدّد ، وبذلك يكون هذا المقطع قد قسم إلى مقطعين ، ويخلص الباحث من هذه الموازنات إلى أن العربية لا تعرف هذا المقطع ، قال : (وقد بحثنا في بنية العربية الفصحى عن ما يمكن أن نستشهد به على وجود الشكل هـ [يقصد : ص ح ص ص] فلم نجد ما يمكن اعتماده في هذا الباب ، وعليه وجب حذف هذه البنية من لائحة الأشكال المقطعية الفصحى والاكتفاء بأربع أبنية فقط إثنان منها مفتوحة وإثنتان مقفولة « كذا كذا* »)(٩) . هذا مجمل ما استدل به في إنكاره .

وهذا الذي جاء به الباحث مردود جملة وتفصيلاً ، وبيان ذلك :

أ ـ إن الباحث تلقف مقولتي سيبوبة وابن منظور وبني عليهما تحليله لـ « دويْبّة » ، فحللها 'du-wa-yeb-ba-tun' وهو بذلك يُحمّل كلامهما ما لا يحتمل ، فالإشمام تهيئة العضو للحركة ، وليس حركة بحال من الأحوال . ولو تابع الباحث ابن منظور في غير هذا الموضع لوجده يقول عن الإشمام : (والحرف الذي فيه الإشمام ساكن أو كالساكن ، مثل قول الشاعر :

متى أنام لا يؤرقْني الكَرِي ليلاً ، ولا أسمعُ أجراس المطي

قال سيبوية : العرب تشم القاف شيئاً من الضمة ، ولو اعتددت بحركة الإشمام لانكسر البيت)[١٠] . وعلى الرغم من ذلك فإنّ تقسيم هذه الكلمة مقطعياً على ذلك النحو قد يصلح على المستوى النظري . أما في النطق ، فإذا اعتددنا الإشمام أو ما قيل عنه إنه إشمام ـ إذا اعتددناه حركة فعلينا أن نلحظ أن المقطعين يخرجان دفعة واحدة ، وبالتالي لا يجوز هذا التقسيم ، ويصبح لدينا مقطع جديد . ينطوي على حركتين هكذا (du - wayeb - ba - tun) ولا سبيل لحلّه إلى مقطعين البتة ، فأعضاء النطق تأبى الفصل بين الياء والفتحة التي تسبقها !

ب ـ أما استدلاله بأنّ المقصود بالتسكين هو الكتابة والرسم وليس النطق ، فهذا ما لم يقل به ابن يعيش بهذا الإطلاق ؛ ذلك أن ابن يعيش كان قد تكلم على أنواع الوقف فجعلها أربعة : الروم والإشمام والتسكين والتشديد ؛ أما التشديد فلا يوقف به على مثل هذا المقطع ، وأما التسكين فهو سلب الحركة ، وأما الإشمام فهو (تهيئة العضو للنطق بالضم من غير تصويت وذلك بأن ضتم شفتيك بعد الإسكان وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج منه النفس فيراهما المخاطب مضمومتين . . وأما الروم فصوت ضعيف كأنك تروم الحركة ولا تتمها وتختلسها إختلاساً ، وذلك مما يدركه الأعمى والبصير ؛ لأن فيه صوتاً يكاد الحرف يكون به متحركاً)[١١] . وعلى ذلك فإن ابن يعيش يكون قد أفصح عن قصده النطق لا الكتابة ؛ ذلك أنّ حديثه عن الكتابة جاء بعد أن أتم حديثه عن النطق ، فقال : (وقد جعل سيبوية لكل شيء من هذه الأشياء علامة في الخط)[١٢] . ثم أخذ يفصّل القول فيها .

وإذا ثبت هذا فلا يوجد ما يدل على حركة « بين بين » غير الروم ، إذ لو كان يؤتى بهذا الحركة في الإشمام لما كان هناك ما يسوغ هذا التفريع في أنواع الوقف .

ج ـ وأمّا قوله « وقد بحثنا . . . » فهو تعميم لا مسوغ له ألبتة ، فقد وجد هذا المقطع في بعض القراءات القرآنية ؛ فقد قرأ نافع « يخْصّمون » من قوله تعالى : « ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون » ساكنة الخاء مشددة الطاء(١٣) . وقرأ حمزة : (« فما اسْطّاعوا » مشددة الطاء ، يريد فما استطاعوا ثم يدغم التاء في الطاء ، وهذا غير جائز ؛ لأنه جمع بين السين وهي ساكنة والتاء المدغمة وهي ساكنة) . [وأثبت المحقق في الحاشية] (على هامش الأصل : ومن ثم طعن الزجاج وأبو علي في القراءة ، وأجيب بأنها متواترة وبأن الجمع بين الساكنين وصلاً جائز مسموع مثله)(١٤) . وقد كان أبو عمرو (يدغم الدال في الذال إذا سكن ما قبل الدال وكان الحرف في موضع خفض مثل قوله تعالى : « منْبعد ذلك » [سورة البقرة : ٥٢] . . . وكذلك الدال في الضاد مثل قوله تعالى : « من بعد ضراء » .)(١٥) وقد قرأ ـ أيضاً ـ « شهرْ رمضان » بإدغام الراء في الراء(١٦) ، وذكر الفراء أن بعض قراء المدينة قرأ « يخْطّف » بالجمع بين الساكنين(١٧) ، وثمة قسم من تاءات البزي ينطوي على هذا المقطع ، وهذا القسم يتمثل في تاءات قبلها ساكن صحيح مثل قوله تعالى : « إذ تلقونه بألسنتكم » وقوله عز وجل : « فهل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » وقوله جل ثناؤه : « وإن تولوا فإني أخاف عليكم » وما أشبه ذلك حيث يقرأ هذه التاءات بالتشديد .(١٨)

وأما المقطع السادس ؛ « ص ح : ص ص » فهو من أكثر المقاطع تقييداً ، وأقلها وجوداً عند من يرون وجوده في اللغة العربية(١٩) ، فهو خاص بالوقف على الكلمات التي تشتمل على المقطع الرابع ، يتلوه مقطع قصير ، تنتهي به الكلمة . ومثاله المقطع الذي تتكون منه صيغة فاعل » من المضعف ؛ « شادّ » ، وذلك في حالة الوقف .

ولكن سعد مصلوح يرى أن الوقوف على هذا المقطع يجعله من النوع الرابع ؛ قال : (وقد رجحت التجارب المعملية التي أجريناها على هذين النوعين من

المقاطع ومقارنتها بالأنواع الأخرى في تكوينات مثل : سدّ وأسدّ » أفعل التفضيل « وأسد » الحيوان المعروف نقول : رجحت هذه التجارب أن ما يميّز المقطع ذا الساكن المشدد إنما هو الطول النسبي في الحركة ، وزيادة شدتها ودرجتها أما طول الساكن الأخير ، وهو في هذا المثال (d) فلا يطرأ عليه تغيير ذو قيمة)[٢٠] . ولا يشك في صحة هذا التحليل ؛ إذ إن مطلق الملاحظة تؤكد ذلك ، فلا فرق بين وقوفنا على « شاد » ووقوفنا على « شادّ » ، إذا قلنا : « الحبل زيدٌ شادّ » و « البنيان زيد شاد » ، هذا إذا وقفنا عليهما وقوفاً طبيعياً ، ولا نلمس أي تفاوت إلا إذا تكلفنا التشديد ، والتكلف حالة طارئة ؛ ولذا فلا قيمة لهذا المقطع ، ولا وجود له في العربية ، ولقد أحسن صنعاً من أهمله ولم يحتسبه من بنية العربية المقطعية[٢١] ، وما كان لنا أن نذكره مع الإمكانات المقطعية في العربية إلا لنختبر وجوده فيها ، إذ وجدنا من يعده مقطعاً من مقاطعها .

في مقابل هذا فإننا تغافلنا ثمة عن مقطع آخر جاء به تمام حسان[٢٢] . وهو « ح ص » ويتمثل هذا المقطع في « أل » التعريف ، ومثلها الكلمات التي تبدأ بهمزة وصل عندما تقع في بداية الكلام .

وعلى الرغم مما قيل من رد على إمكان وقوع هذا المقطع ، استناداً إلى أقوال القدماء التي ترى أن الحركة لا تكون قبل الصامت ، أو استناداً إلى أن هذا المقطع لا يتشكل إلا إذا حذفت الهمزة وبقيت حركتها[٢٣] . ـ على الرغم من ذلك فإن هذا المقطع ؛ « ح ص » يبقى محتملاً ومقبولاً لدينا ، فالقضية لا تتعلق بحذف الهمزة . كما أنها لا تتعلق بأسبقية الصامت على الحركة ، وإنما تتعلق بماهية همزة الوصل ، وحقيقة نطقها ، على ما سيتضح .

إنّ الكلمة العربية تحتفظ باستقلالها المقطعي في درج الكلام بصرف النظر عن شكل مقاطعها أو عددها ، وهذا الاستقلال لا يتخلّف إلّا في حالة واحدة ، وذلك حين تُتبع كلمة ما بكلمة مبدوءة بهمزة وصل ، حينئذ لا بد من اتحاد المقطع الأخير من الكلمة السابقة بالمقطع الأول من الكلمة اللاحقة ، وذلك على

النحو التالي :

أ ـ الكلمات التي تنتهي بمقطع قصير مفتوح ؛ « ص ح » ، مثل : « كتبَ » و « يكتبُ » ، يتحد مقطعها الأخير بمقطع همزة الوصل مشكلاً مقطعاً قصيراً مغلقاً ؛ « ص ح ص » ، مثل : « يكتبُ الولدُ 'yak - tu - bul - wa - la - du ' فالمقطع الثالث ؛ 'bul' هو اتحاد المقطع الأخير من « يكتب » ؛ 'bu' والمقطع الأول من « الولد » ؛ 'al'[٢٤] .

ب ـ الكلمات التي تنتهي بمقطع طويل مفتوح ؛ « ص ح : » ، مثل : المضارع المعتل الآخر غير المجزوم ، والمضارع المسند إلى ألف الاثنين أو ياء المخاطبة أو واو الجماعة حين يكون مجزوماً ، يتحد المقطع الأخير منها مع مقطع همزة الوصل ويُقصّر وجوباً ؛ قال ابن يعيش : (وتقول في المنفصل : يغزو الجيش ، ويدعو الله ، فحذفت الواو للساكنين . . . وكذلك « لم يضربا القوم » و « لم يضربوا الآن » و « لم تضربي ابنك » حذفت النون للجزم ثم دخل الساكن بعدها من كلمة أخرى فحذفت الألف والواو والياء لالتقاء الساكنين وتعذّر الحركة)[٢٥] ، أي يتم تشكل مقطع قصير مغلق من المقطعين المتحدين هكذا ؛ « يغزو الجيش » :

(yag-zu: + al-jay-su) → (yag-zul-jay-su)

ج ـ الكلمات التي تنتهي بمقطع قصير مغلق « ص ح ص » ، مثل : « مَن » و « عن » و « كم » ، والفعل المضارع المجزوم ، ما لم يكن معتل الآخر أو مضعفاً ـ يحل مقطعها الأخير ، ليتحد صامته الأخير مع مقطع همزة الوصل مشكلاً مقطعاً قصيراً مغلقاً هكذا :

(min + al-bay-ti) → (mi-nal-bay-ti) = « من البيت »

ويُلحظ أن المقطع المتشكّل في الأوضاع السابقة مقطع قصير مغلق ، بصرف

النظر عن نوع المقطع الذي تنتهي به الكلمة الأولى ، وعلى ذلك يجوز لنا أن نسميه مقطع الوصل في العربية ، فلا يتم الاتصال المقطعي بين كلمتين إلاّ كان هذا المقطع مرتكز الاتصال .

ويُلحظ ـ أيضاً ـ أن التتابع المقطعي في الحالة الثانية كان من الممكن أن يقود إلى تولد المقطع الرابع ؛ « ص ح : ص » ولكن العربية آثرت التخلص منه ، مما يدل على قلة وجوده ، فإذا كان هذا المقطع قابلاً للتشكل في درج الكلام بشرط أن يكون متلواً بصامت مماثل للصامت الذي أغلق به ، فإن العربية لم تبق عليه حتى في ضوءو توافر هذا الشرط ؛ إذ إن مجيء المقطع الثاني (ص ح :) متلواً بكلمة لم تبدأ بـ « أل » التعريف ، متلوة بصامت من الصوامت الشمسية ، يعد تحقيقاً لظروف تشكله ، مثل : « لم يكرما السائل » فالمقطع الذي كان ينبغي تحققه مقفل بصوت متبوع بمثله ؛ 'lam-yuk-ri-ma:s-sa:-i-la' فالمقطع الرابع ؛ 'ma:s' مقطع طويل مغلق ، توافر له شرط تكوّنه ؛ إذ إن قفله ؛ 'S' يماثل مطلع المقطع التالي له . وعلى الرغم من ذلك فإن العربية آثرت تقصير هذا المقطع ليصبح من النوع الثالث ، وقد شذ عن ذلك قولهم : « حلقتا البطان »[٢٦] ، فقد نطقوها : 'ha - la - qa - ta:l - bi - ta: - ni' ، كما أن العربية عمدت إلى المجيء بهذا المقطع بصورة قياسية في الموقع الذي تدخل فيه همزة الاستفهام على الأسماء المعرفة بـ « أل » ، وعلى واحد من الأسماء العشرة ، هو « ايمن » في القسم[٢٧] ، وإذا كان شرط تشكل هذا المقطع متحققاً في الأسماء التي تبدأ بصوت شمسي ، فإنه لا يتحقق في تلك التي تبدأ بـ « أل » القمرية ، أو في « ايمن » ، أو في « حقلتا البطن » .

إن شيوع استخدام هذه الصيغ القياسية ؛ « أل التعريف + اسم مُعرَّف مبدوء بحرف قمري » لا يقل عن شيوع استخدام كلمات مثل : « شابّ » ، التي تشتمل على المقطع الرابع ، أو كلمات مثل : « شويّبة » ، التي تشتمل على المقطع الخامس ، وليس استخدام هذه الأخيرة بأولى من مجيء بعض القراءات

القرآنية بمقطع مماثل لهذا المقطع خارج على شرط توافره بحسب نظرة القدماء والمحدثين ؛ لذلك لا بد من إعادة النظر في ظروف تشكل هذين المقطعين في ضوء هذا الذي يظهر بمظهر الشذوذ .

وأحسب أن معاينة الخصائص الصوتية للأصوات المشكِّلة لهذين المقطعين ، والأصوات المحيطة بهما من شأنها أن تضع وصفاً رائقاً ، وتحديداً أكثر مناسبة لهذين المقطعين ، وأحسب ـ أيضاً ـ أن تعليل ابن جني لمجيء المقطع الخامس في « حلقتا البطان » يعد ركيزة رئيسة يعلّ عليها في هذا الجانب ، فهو يرى أن هذا المقطع قد بقي في هذه الصيغة ؛ لأن اللام حرف خفي يجري مجرى الحرف المدغم في شويْبّة[٢٨] ، فاستمرارية الصوت هي المفصل في هذين المقطعين ، وهذا من شأنه أن ينسف غير قليل من الأفكار والتعليلات في هذا السياق .

فنحن إذا أعدنا النظر في كل ما نقلناه سابقاً من شذوذ مقطعي في بعض القراءات القرآنية ، أو في بعض العبارات المأثورة ، أو في الصيغ القياسية في الاستفهام ، وجدنا الأصوات التي جاءت في تلكم المواقع هي من الأصوات الاحتكاكية الرخوة ؛ (والرخو هو الذي يجري فيه الصوت ، ألا ترى أنك تقول : المس والرش والشح ونحو ذلك ، فتمد الصوت جارياً مع السين والشين والحاء)[٢٩] .

ولكن ينبغي أن ننبه إلى أن الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة تأخذ مصاف الأصوات الرخوة في هذا السياق ، إذ يلحظ استمرار النفس مع هذه الأصوات ، وهي : (ل ، ر ، م ، ن ، ع ، و ، ي) ، ولكن النفس معها يجري على نحو مخصوص ، مما جعل القدماء يفصلونها عن الأصوات الرخوة[٣٠] .

وعلى ذلك فإن ما ظنه ابن يعيش ـ وحليلي من بعده ـ إشماماً في ياء (دويْبّة) ليس من الإشمام في شيء ، بل هو أثر يتبع الأصوات الاحتكاكية عندما تأتي غير متبوعة بحركة ، ثم إن ما قاله ابن يعيش من أن الوقف على الصامت يمكنه

ويجري معه النفس لا ينطبق إلا على الأصوات الاحتكاكية حسب ، أما الأصوات الشديدة فلا يجري معها النفس البتة ؛ (ومعنى الشديد : أنه الحرف الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه ، ألا ترى أنك لو قلت الحق والشط ثم رمت مدّ صوتك في القاف والطاء لكان ذلك ممتنعاً ؟)[٣١] .

في ضوء هذا ـ أيضاً ـ لم يكن من الشذوذ في شيء كل ما جاء في القراءات القرآنية ، أو الصيغ المروية ، إذ لم يكن ذلك خارجاً على نهج العربية المقطعي ، بل كان مماثلاً للمواضع التي تأتي فيها المقاطع المماثلة ، ولكن القوم لم يلحظوا هذا التماثل ؛ ولذا فإن المقطعين الرابع ؛ « ص ح : ص » ، والخامس ؛ « ص ح ص ص » يقعان في العربية على النحو التالي :

أ ـ المقطع الرابع : يأتي في الوقف ، ويأتي في درج الكلام بشرط أن يكون مقفلاً بصامت مماثل لمطلع المقطع اللاحق ، مثل : « شابّ » ، أو أن يكون مقفلاً بصوت إحتكاكي مثل : « حلقتا البطان » و « آلقمر رأيت ؟ » ، وغالباً ما يجتمع هذا ن الشرطان مثل : « شاذّ » ، و « آلله أذن لكم ؟ » ، و « آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ » .

ب ـ المقطع الخامس : يأتي في الوقف ، ويأتي في درج الكلام بشرط أن يكون الصامت قبل الأخير صوتاً احتكاكياً ، وأن يكون الصامت الأخير فيه مماثلاً لمطلع المقطع اللاحق ، وهذان الشرطان متحققان في كل ما جاء في القراءات القرآنية تحققهما في « شويبّة » وبابها . .

وهكذا يمكن القول : إن النظام المقطعي في العربية يتصف بأنه لا يقبل الجمع بين صامتين في مقطع واحد إلاّ في سياقات صوتية محدودة . كما أن المقطع الرابع لا يأتي هو الآخر إلا في سياقات محدودة أيضاً .

وقد اتخذت العربية ثلاثة إجراءات للمحافظة على اتساقها المقطعي ، وللتخلص من المقاطع قليلة الدوران فيها ، وهذه الإجراءات هي :

أ ـ تقصير الحركة الطويلة ، وأحياناً تحول إلى صامت ؛ « همزة قطع » .

ب ـ نقل الحركة في حالة الوقف .

ج ـ جلب همزة الوصل في المواضع التي تفتتح فيها الصيغة بمقطع مبدوء بصامتين ، أو جلب حركة التخلص من التقاء الساكنين في درج الكلام . وهذان الإجراءات يعدان إجراء واحداً .

وسنكتفي في هذا المقام بمعالجة هذا الإجراء ؛ لأنه يُتّبع على نحو تلقائي صارم ، أما نقل الحركة فإن ذلك إجراء جائز لا يضير تركه ، ولا ينشأ عنه خلل مقطعي ، كما أن تحويل الحركة إلى همزة ليس إجراءً لازماً أيضاً ، وأما تقصيرها فقد أشرنا إلى ملابساته سابقاً .

ونحن لن نكتفي بمعالجة أهمية همزة الوصل في النظام المقطعي حسب ، بل سنختبر كل ما يتراءى لنا من الأوهام التي صاحبت درسها ، وسنولي عنايتنا لوهم النطق أولاً ، ولوهم المصطلح ثانياً ، ولوهم الكتابة أخيراً ، وذلك ضمن تتابعات صوتية محدودة تخص هذه الأوهام .

همزة الوصل : اضطراب المقطع ووهم النطق

تقسم الأصوات في اللغة العربية من حيث طبيعة نطقها إلى صوامت وحركات ، ولكلّ قسم منها وظيفة رئيسة على المستوى التمييزي ؛ فالصوامت تتحكم في تمييز جذور الصيغ ، بحيث يؤدي تغيّر أي صوت تغيّراً فونيمياً إلى تغيّر الجذر كله ؛ فـ « أمل » تختلف عن « عمل » ، وهما يختلفان عن « حمل » و « سمل » و « شمل » . . . في هذا الصدد يمكن أن نشير إلى أن الإبدال اللغوي في مثل : « السقر » و« الصقر » ، لا يعد تغيراً فونيمياً إذا كان هذا الإبدال قد وقع في إطار اللهجة الواحدة ؛ فأحد الصوتين ألفون للآخر .

أما الحركات فهي تتحكم في تمييز الاشتقاق والتصريف لهذه الجذور ، فـ

« ضَرَبَ » تختلف عن « ضُرِب » و « ضَرْب » و « ضارب » . . . وقـد تشرك الصوامت الحركات في هذه الوظيفة ، كما هو الحال في حروف الزيادة ، كما أن الحركات قد تشرك الصوامت في وظيفتها ، كما هو الحال في مثل : « البُر » و « البَر » و « البِر » .

هذا لا يمنع أن يأتي بعض هذه الأصوات لوظيفة صوتية بحتة ، من غير أن يكون لها أي أثر تمييزي ، كما هو الحال في تنوين الترنم ، والتنوين الغالي ، وكما هو الحال في جلب الهاء في مثل : « عه » و « قه » ، في الوقف .

وسواء أعتقدنا أن همزة الوصل همزة على الحقيقة ، كما يشير جل القدماء ، أم اعتقدنا أنها مخففة ، كما يشير بعضهم ـ أيضاً ـ وبصرف النظر عن مجيء هذه الهمزة بحركة الفتح أو الكسر أو الضم ـ فإن همزة الوصل في العربيـة تفارق الصوامت والحركـات من حيث وظيفتها اللغـوية ، فهي الصـوت الوحيـد ـ بأوضاعها المختلفة ـ الذي ليس له أي أهمية تمييزية ، فهي لا تعدو أن تكون ركيزة صوتية يستعان بها على أطراد النظام المقطعي ليس غير ؛ إذ (لاحظ لها في الكلام أكثر من التوصل إلى التكلم بما بعدها ، فإذا وصل إلى ذلك بغيرها فلا وجه لذكرها)[٣٢] . وبما أنه لا قيمة لها على المستوى التمييزي فينبغي ألا تعد فونيماً من فونيمات العربية الرئيسة ، فهي فونيم ثانوي ؛ ولذلك فهي صوت قلق مضـطرب ، تنطق حينـاً وتختفي حيناً آخـر ، تبعاً لـطبيعـة التشكـلات المقطعية .

تتصف البنية العربية بأنها لا تبدأ بمقطع مبدوء بصامتين ؛ « ص ص . . » ، فلا وجود لمثل هذا المقطع البتة ، ولهذا فلقد كانت همزة الوصل مخرجاً من هذا الإشكال فعمد العربي إلى المجيء بها ليتمكن من النطق بصيغ يتحقق فيها هذا الإشكال ، وهي صيغ محدودة في العربية ، تتمثل في الأسماء العشرة ، و « أل » التعـريف ، وصيغ الـزيادة ؛ « انفعـل » و « افتعل » و « استفعـل » . . . ، ومصادر هذه الصيغ ، وفعل الأمر منها ، وفعل الأمر من المضارع المبدوء بمقطع

من نوع « ص ح ص » ، مثل : « يدرس = ادرس » ، مالم يطرأ عليه تغيّر مثل : « أكل = يأكل = كل » و « سأل = يسأل = سل » ، فإذا كان المضارع مبدوءاً بمقطع من نوع « ص ح » فإن الأمر منه بدون همزة وصل ، كما هو الحال في المعتل المثال ، والمعتل الأجوف ، والمضعف ، مالم يفك إدغامه ، وكما هو الحال في الأمر من صيغ الزيادة مثل : « تفاعل » و « تفعّل » . . .

وقد سبق القول : إن « تمام حسان » رأى أن همزة الوصل هذه تشكل مع الصامت الذي يليها مقطعاً من نوع خاص هو « ح ص » ؛ فعدها ـ بذلك ـ حركة خالصة ، وقد يصعب علينا أن نؤكد هذا تأكيداً لا يخامره شكل ؛ ليس بسبب مشكلات التحليل الصوتي حسب ، بل لأننا نمتلك القدرة على نطق همزة الوصل بطرائف شتى ، إذ نستطيع أن ننطقها همزة خالصة ، كما نستطيع أن ننطقها حركة خالصة ، بل بوسعنا أن نأتي بها بين الصامت والحركة ، ولا يسعفنا قراء الذكر الحكيم في تجنب هذا الإشكال ، لأننا لم نجدهم ينطقون الضاد أو اللام بصورة مطابقة لوصف القدماء لهذين الصوتين ، ولن تكون همزة الوصل أسلم حالاً من هذين الصوتين ، وهي الأكثر اضطراباً في العربية ؛ ولذلك لا نعتد بمثل هذا التحليل .

وعودتنا إلى وصف القدماء لهذه الهمزة لا تحل شيئاً من هذا الإشكال ، فإذا كان المبرد ـ مثلاً ـ يصفها بأنها همزة على الحقيقة(٣٣) ، فإن الفراء ـ مثلاً مقابلاً ـ يصفها بأنها مخففة(٣٤) .

غير أن معاينة سلوكها ترجح ما ذهب إليه « تمام حسان » ، فهي الصوت الوحيد في العربية الذي لا يمكن أن يستغني عن صامت يليه في تشكله المقطعي ؛ فهي لا تقع إلا في مقطع مقفل ، فلا تقوم بذاتها ، ولا يمكن أن تكون قفلاً لمقطع ، ثم إن مجيء هذه الهمزة حركة خالصة في درج الكلام ؛ كما هو الحال في مثل : « آلله » يرجح ذلك ؛ إذ لو كانت همزة على الحقيقة ، وكان ثبوتها هنا للتمييز بين الخبر والاستفهام لكان من الأولى أن تثبت كما هي ؛ « أألله » ،

لتكون بذلك أكثر تمييزاً .

على أن هذا المقطع ؛ « ح ص » لا يثير إشكالاً بمفرده ، ولكن الإشكال يتولد حين تدخل « أل » التعريف على الأسماء المبدوءة بهمزة وصل ، حينئذ تصبح الكلمة مبدوءة بهمزة وصل يليها صامت ، تليه همزة وصل أخرى ، يليها صامت آخر ، كما يظهر مثلاً في :

« الـ + استقبال = الاستقبال » و « الـ + اسم = الاسم »

ولكي نقف على التشكّل المقطعي في هذه الصيغ ينبغي أن نقف على طرائق نطقها ؛ فالتشكل المقطعي يبنى على النطق ، ولا يبنى على الرسم والكتابة .

لم يتطرق القدماء لوصف نطق مثل هذه الصيغ في أي موقع من مواقعها ، إلا ما كان من ذكرهم العارض لوضع مشابه في مثل « الحَمر »(٣٥) بعد حذف الهمزة ونقل الحركة من « الأحمر » ، ولكنهم لم ينسوا التقنين لأوضاع ثبوت همزة الوصل أو حذفها .

إن مراجعة نطق هذه الصيـغ في أوساط المثقفـين ، والمتخصصين منهم في العربية على وجه التحديد ، تبين أنهم ينطقونها على نحو لا يختلف عن نطقهم للصيغ غير المبدوءة بهمزة وصل عند دخول « أل » التعريف عليهـا ، مثل : « الرجل » و « البيت » .

غير أن فحص هذه الصيغ في المواقع المختلفة في ضوء كلمة يتيمة جاءت في الذكر الحكيم ، وأخرى مقاربة جاءت في قراءة قرآنية ، وتأمل تنظير القدماء لهذه الهمزة ـ يؤكد أن نطق « أل » التعريف مع هذه الصيغ ليس مماثلاً لنطقها مع الأسماء غير المبدوءة بهمزة وصل قبل تعريفها . وبيان ذلك :

أولاً : إن مقابلة « أل » التعريف في الأسماء غير المبدوءة بهمزة وصل بتلك في الأسماء المبدوءة بها ، يؤكد أن بينهما اختلافاً بيناً من حيث الأهمية الصوتيـة ،

فالأولى تثبت في بداية الكلام وفي درجه حين تسبق بساكن ، أما الثانية فليس لها أي وجود إلا في الرسم ؛ وبمعنى آخر : إن « أل » التعريف في الحالة الأولى في مثل : « الرجل » تتكون من همزة وصل ولام ، وقد تسقط الهمزة في بعض المواقع ، وأما « أل » التعريف في الحالة الثانية في مثل : « الاستقبال » فهي لا تتكون نطقاً إلا من لام مكسورة وجوباً ، بأثر من همزة الوصل التي كان الاسم مبدوءاً بها قبل التعريف ؛ فالأولى تنطق 'al' والثانية تنطق 'li' . وهذا ما يتضح من الموازنات التالية :

١ ـ حين تأتي الكلمات المعروفة بـ « أل » في درج الكلام مسبوقة بحركة ، أي مسبوقة بكلمة تنتهي بمقطع من نوع « ص ح » أو « ص ح : » ، وهذا الأخير يعود ليصبح مقطعاً قصيراً في درج الكلام ـ إلا ما سبق بيانه ـ وفي هذه الحالة يكون التشكل المقطعي على النحو التالي :

أ ـ المجموعة الأولى : الكلمات التي لم تكن تبدأ بهمزة وصل قبل تعريفها ، مثل « قال الولد » ، و « لم يدرسا الكتاب » ، و « كالبيت » .

ب ـ المجموعة الثانية : وتمثلها الكلمات التي تبدأ بهمزة وصل قبل تعريفها ، مثل : « كَتبَ الاسم » ، و « درسا الاشتغال » ، و « للاسم » .

في المجموعة الأولى تسقط همزة الوصل ؛ لأنه لم يعد هناك حاجة لنطقها حيث سُبقت بحركة ؛ ولذلك يتشكل مقطع من نوع « ص ح ص » بين الكلمة المبدوءة بـ « أل » والكلمة السابقة هكذا :

١ ـ قال الولد (&a:-la+al-wa-la-du) → (qa:-lal-wa-la-du)

٢ ـ لم يدرسا الكتاب (lam+yad-ru-sa:+al-ki-ta-ba) → (lam-yad-ru-sal-ki-ta-ba)

٣ ـ كالبيت : (ka+al-bay-ti) → (kal-bay-ti)

أما في المجموعة الثانية ، فمع أن همزة الوصل الأولى تسقط ، إلا أنها تسقط لِعلّة غير العِلّة السابقة ، في الاتجاه ، إذ لم يعد هناك حاجة إلى نطقها ؛ ليس لأن الحرف السابق لها جاء متحركاً ، بل لأن الحرف الذي يليها ، وهو « اللام » ، قد تحرك وجوباً ، يؤكد هذا أنها لا تتحد مع الصوت السابق مقطعياً ، بل تحافظ على استقلالها ، ولا يمتد أثر المقطع السابق إليها ، على النحو التالي :

١ ـ كتبَ الاسم : (ka-ta-ba+lis-ma)

٢ ـ درسا الاشتغال = (da-ra-sa:+-lis-ti-ga:-ls) → (da-ra-sa:-lis-ti-ga:-la)

٣ ـ كالاشتغال =(ka-lis-ti-ga:ti) → (ka+lis-ti-ga:-li)

وننبه إلى أننا لم ننطق الأسماء المعرفة مسبوقةً بحركة ، بل بلام مكسورة حسب ، وهذا ما سيتأكد لاحقاً ، وننبه ـ أيضاً ـ إلى أن المقطع الطويل المفتوح في « درسا » لا يقصّر بعد أن تتبعه هذه الصيغ ، ومن الخطأ أن ينطق على نحو مماثل لنطقه في « درسا التصغير » . هذا الاستقلال المقطعي يؤكد أنه ليس هناك أي أثر للصوت السابق على سقوط الهمزة السابقة على « أل » التعريف في هذه المجموعة .

وعلى الرغم من ذلك فإن قسماً كبيراً من المتخصصين ينطقون التتابعات الصوتية في المجموعة الثانية على نحو مطابق لنطقهم إياها في المجموعة الأولى . فيقولون : (ka-ta-bal-is-ma) و (da-ra-sal-is-ti-ga:-la) و (kal-is-ti-ga:-li) ، إن هذا النطق خطأ صراح ، وإن النطق الذي وصفناه هو الصواب لا غير ، وهذا ما يؤكده النص القرآني الذي حفظ حفظاً صوتياً تسجيلياً ؛ قال تعالى في الآية الحادية عشرة من الحجرات : « بئس الاسم الفسوق » ، فبئس « تحتفظ باستقلالها المقطعي ، و « الاسم » تحتفظ هي

الأخرى باستقلالها المقطعي ، دون أن يكون لهمزة الوصل قبل اللام أي أثر ، وإنما يؤتى بلام مكسورة هكذا 'bi'-sa-lis-mu' ، ولم تقرأ الآية على غير هذا الوجه .

٢ ـ حين تأتي الكلمة المعرفة بـ « أل » مسبوقة بصوت صامت ، أي بكلمة تنتهي بمقطع مقفل ، فإن التشكّل المقطعي يكون على النحو التالي :

أ ـ المجموعة الأولى مثل : كتبتِ البنتُ ، ودخلتِ البيتَ

ب ـ المجموعة الثانية مثل : البنتُ/كتبت الاسم ، ودرست الاشتغال

المجموعة الأولى تتخذ تشكلاً مقطعياً واحد في موقع « أل » التعريف ، بحيث يتم الاتحاد بين المقطع الأخير من الكلمة الأولى والمقطع الأول من الكلمة الثانية ؛ ليتشكل مقطع قصير مغلق ؛ « ص ح ص » نواته حركة التخلص من التقاء الساكنين ، كما يقول القدماء ، وهي همزة الوصل ذاتها في منظورنا ، على ما سيأتي البيان . وتوضيح هذا التشكل المقطعي :

ـ كتبت البنت = (ka-ta-bat+al-bin-tu) → (ka-ta-ba-til-bin-tu)

ـ دخلت البيت = (dz-ha-lat+ al-bay-ta) → (da-ha-la-til-bay-ta)

أما المجموعة الثانية فثمة ثلاث طرائق لنطقها :

الطريقة الأولى : كسر التاء مع الإبقاء على همزة الوصل الثانية في مقطع مستقل هكذا :

البنت/كتبت الاسم = (ka-ta-bat+lis-ma) →(ka-ta-ba-til-is-ma)

ودرست الاشتغال = (da-ra-sat +lis-ti-ga:-ls) + (da-ra-sa-til-is-ti. ga:-la)

الطريقة الثانية : كسر التاء والاحتفاظ بها في مقطع مستقل ، هكذا :

البنت/كتب الاسم = (ka-ta-bat + lis-ma) → (ka-ta-ba-ti-lis-ma)

ودرست الاشتغال = (da-ra-sat+lis-ti.ga:-la) → (da-ra-sa-ti-lis-tiga:-la)

والطريقة الأولى هي المطّردة في هذا العصر ؛ إذ تنسجم مع المقابلات السابقة ، حين تسبق لام التعريف بمقطع مفتوح ، ومع ذلك فإن هاتين الطريقتين ـ معاً ـ خاطئتان ؛ إذ ليس هناك ما يدعو إلى كسر التاء ، أي الإبقاء على همزة الوصل الأولى ؛ لأن الصامت الذي يليها ؛ « اللام » ينبغي أن يكسر وجوباً بسبب همزة الوصل الثانية . وليس هناك ما يدعو إلى تسكين اللام وفصلها عن همزة الوصل اللاحقة ؛ لأن ذلك يعد خروجاً على ما ثبت في القرآن الكريم ، ولو كان سبق لام التعريف بحرف متحرك يوجب تسكينها ، لكان من الأولى أن تسكن وهي مسبوقة بحركة أصلية في الآية القرآنية ، فضلاً عن هذا كله فإن هذين التشكيلين شاذان نافران عن التشكلات المقطعية العربية ، ذلك أن عدد المقاطع المشكّلة للكلمات المتجاورة لا يمكن أن يزيد ، بعد اتصالها ، عن عددها قبل هذا الاتصال ، فإما أن يبقى كما هو ، وإما أن يقل ، أما أن يزيد مقطعاً كما هو واضح في التحليل أعلاه فهذا ما لامثيل له .

وعلى ذلك فإن الطريقة الثالثة هي الطريقة الصحيحة . وهي تتمثل في احتفاظ كل كلمة باستقلالها المقطعي كما كانت قبل التجاور ، وذلك على النحو التالي :

البنت/كتبت الاسم = (ka-ta-bat + lis-ma) → (ka-ta-bat- lis-ma)

ودرست الاشتغال = (da-ra-sat + lis-ti-ga:-la) → (da-ra-rat-lis-ti-ga:-ls)

وإذا كان الذكر الحكيم قد فصل القول في طريقة نطق اللام الداخلة على همزة الوصل المسبوقة بمتحرك ، فإن مجيء قراءة قرآنية بنقل حركة همزة القطع ـ بعد حذفها ـ إلى لام التعريف ، يرجح القول في هذا الجانب ، إذ إن الصيغة ـ حينئذٍ ـ تصبح مماثلة تمام المماثلة للصيغ المبدوءة بهمزة وصل

أصلاً ، قال ابن المجاهد : (وقرأ نافع وأبو عمرو : (عاداً لُّولى) موصولة مدغمة)[٣٦] . وذلك من قوله تعالى : « وأنه أهلك عاداً الأولى » . فقراءتهما أبقت على انفصال مقاطع الصيغتين هكذا :

عاداً لُّولى : (a:-dan + lu:-la:) → (a:-dal-lu:la:)

ولم يقرأ أي قارىء هذه الصيغة ، بعد نقل الحركة ، على نحو مماثل لنطقها في هذه الأيام ، أي بالإبقاء على همزة الوصل الأولى ، إذ لو أبقي عليها لقرئت هكذا (a:danilu:la) . وهذا مالم يرد حتى في شواذ القراءات ، وجلي أن « الأولى » بعد نقل الحركة تماثل « الاسم » ، من حيث تحرك اللام في كل منهما ، واستغناؤهما عن همزة الوصل السابقة .

٣ - والموازنة الثالثة والأخيرة تقوم بين هاتين المجموعتين حين تقع ألفاظهما في بداية الكلام ، وهي تشبه الموازنة السابقة ، ويكون التشكل المقطعي على النحو التالي :

أ - المجموعة الأولى : الولد ، الشمس ، البنت .

ب - المجموعة الثانية : الاسم ، الاشتغال ، الاستقبال .

لقد بَيّنت الموازنات السابقة أن « اللام » في صيغ المجموعة الأولى تثبت قفلاً لمقطع تكون نواته همزة الوصل السابقة ، كما بَيّنت تلكم الموازنات أن اللام في المجموعة الثانية تتخلى عن همزة الوصل السابقة ، حيث تسقط هذه الهمزة ، ثمّ تُشكِّل اللام مطلعاً لمقطع نواته همزة الوصل الثانية .

ومن هنا فإن الصيغ في المجموعة الأولى يجب أن يؤتى فيها بهمزة الوصل ، هكذا :

'la-bin-tu' و 'as-sam-su' و 'la-wa-la-du'

أما صيغ المجموعة الثانية فيجب أن تنطق مبدوءة بلام تتبعها كسرة ، بإسقاط همزة الوصل السابقة ؛ لأن سبب المجيء بها قد زال ، فهمزة

الوصل التي كانت بداية الاسم قبل تعريفه أدت مفعولها المقطعي ، وجعلت اللام تنطق مكسورة ، وبهذا لم يعد هناك حاجة لجلب همزة وصل قبل لام التعريف ، وعلى ذلك فإن نطق تلكم الصيغ ينبغي أن يكون على النحو التالي :

'lis - mu' و 'lis-ti-ga:lu' و 'lis-tiq-ba:LU'

وقد يحسن أن نختبر التشكل المقطعي الناتج عن جلب همزة الوصل قبل هذه الصيغ ، فجلبها يؤدي إلى واحد من التابعين التاليين :

أ - المجيء بها في مقطع مستقل أي هكذا : 'a-lis-mu' أي بمقطع يتكوّن من حركة ، وهو بحسب رأي من يعدها صامتاً يكون مكوناً من صامت وحركة هكذا 'a-lis-mu' والمجيء بها في مقطع مستقل . ضرب من العبث غير المسوغ ؛ لأنها لا تؤدي أثراً البتة . فهمزة الوصل يؤتى بها للتمكن من النطق بالساكن الذي يليها ، ولذلك من الواجب وجوباً لا مداخلة فيه أن تتحد مع هذا الصامت في المقطع ، وإلا كان استحضارها ضرباً من العبث .

ب - إن إخفاق التتابع السابق يقود إلى عرض تتابع آخر ، يتمثل في دمج مقطع همزة الوصل مع اللام . وهنا نتسائل عن طبيعة التشكل المقطعي الناتج : هل تفصل اللام عن المقطع اللاحق هكذا : 'al - is - mu' أم تتحد معه هكذا 'alis-mu' ؟ من الواضح البين أن التشكل الأول متكلّف لا يتأتى في النطق التلقائي ، وهو يتأتى لأولئك الذين يأخذهم الوهم فيحاولون إظهار الحركة على نحو تحكمي ، ظناً منهم أنهم يميزون بين همزة الوصل وهمزة القطع . ومن الواضح البين أن التشكل الثاني هو التشكل المطرد في هذه الأيام ، وهو تشكل خاطىء ، فلا وجود لهذا المقطع 'alis' ؛ « ح ص ح ص » في العربية ، وهو عند من يعدون همزة الوصل صامتاً هكذا : 'alis' ، « ص ح ص ح ص » وهذا الآخر غير موجود .

لهذا كله ، واستناداً إلى الموازنات التي سبقت فإن النطق المقول ، بل الواجب للأسماء المعرفة بالمبدوءة بهمزة وصل قبل تعريفها ، يكون بكسر لام التعريف بصرف النظر عن مواقع هذه الكلمات سواء أكانت في درج الكلام مسبوقة بمقطع مفتوح أو مقطع مقفل ، أم كانت في بدايته ، فهذه الصيغ تحتفظ باستقلالها المقطعي ، وتحفظ للصيغ التي تسبقها استقلالها ، أيضاً .

ثانياً : إن الوصف الذي نقترفه لنطق تلكم الصيغ لا يتأكد في الموازنات السابقة حسب ، بل يجد مستنداً له في التراث اللغوي التنظيري ، فتقنين القدماء لهمزة الوصل يعزز هذا الوصف ، ويؤكده ، فثمة توافق مطرد في تقنينهم ، يؤكد أن وظيفة همزة الوصل وظيفة صوتية محضة ، يؤتى بها للتخلص من البدء بالساكن ، غير أنهم لا ينفكون يلحون على وجوب إسقاطها إذا زال سبب المجيء بها ، يقول المبرد : (وإنما دخلت هذه الألف لسكون ما بعدها ، لأنك لا تقدر على أن تبتدىء بالساكن . فإذا وصلت إلى التكلم بما بعدها سقطت . وإنما تصل إلى ذلك بحركة تلقى عليه ، أو يكون قبل الألف كلام فيتصل به ما بعدها ، فإذا وصل إليه فلا معنى لها)[٣٧] ، وقال : (. . . وكذلك إن تحرك الحرف الذي بعدها لعلّة توجب ذلك سقطت الألف للاستغناء عنها بتحريك ما بعدها ؛ لأن ابتداءه ممكن ، فإنما تدخل في الكلام للضرورة إليها)[٣٨] .

ولست هنا بحاجة إلى القول : إن مضمون هاتين العبارتين يتوارد عليه كل من يتحدث عن همزة الوصل بدءاً من سيبوية وحتى يومنا هذا ، ولست بحاجة - أيضاً - إلى القول : إن لام التعريف في مثل هذه الصيغ تلقى عليها الكسرة التالية ؛ « الهمزة » ، وفي جميع المواقع ، وقد جاء ذلك مؤكداً في الذكر الحكيم ، غير أن القدماء لم يتنبهوا لخصوصية هذه الصيغ ولم يميّزوها على مستوى تنظيرهم .

إن إغفال القدماء لخصوصية هذه الصيغ من جانب ، ووهم الكتابة من

جانب آخر ، أدى إلى القياس الخاطىء في نطقها ، وساعد على ذلك قلة استخدامها ، فإذا ما عددنا النص القرآني ممثلاً للواقع اللغوي وجدنا أن الاسم المعرف ، غير المبدوء بهمزة وصل قبل تعريفه ، يتردد في الذكر الحكيم بمعدل ثلاث مرات ـ على الأقل ـ في الآية الواحدة ـ في حين لم يرد الاسم المبدوء بهمزة وصل معرفاً بـ « أل » غير مرة واحدة في القرآن كله .

وتأسيساً على هذا كله فإن هذه الصيغ تحتفظ باستقلالها المقطعي ولا تتأثر بما يسبقها ، وتبدأ دائماً بمقطع مطلعه اللام ، ونواته همزة الوصل التي كانت قبل التعريف ، أي يبدأ بلام مكسورة ؛ 'li' بصرف النظر عن موقعه ، أي ينطق على نحو مماثل تماماً لنطق عوام الناس لهذه الصيغ ؛ فهم يقولون : 'listiqba:l' ، ولا يقال هاهنا : إن ذلك يؤدي إلى اختلاط الاسم المعرف بمقابله غير المعرف حين تدخل عليه لام الجرّ ؛ ليس لأن الكلمات لا تقوم إلا في سياقات لغوية حسب ، بل لأن التصرف الإعرابي يحول دون ذلك اللبس ، فهذه الصيغ كلها صيغ معروفة ، تُنوّن في حالة الجر ، ولا تنون وهي معرّفة . فضلاً عن ذلك فنحن نتحدث عن مستوى النطق ، ولا ندعو إلى تعديل الكتابة . ولكن ينبغي أن نتخلص من وهم الكتابة في توجيه نطق هذه الصيغ .

وإذا كنا نعتقد أن نطق العوام لهذه الصيغ هو النطق الصحيح المماثل للنطق الفصيح ، فقد يحسن أن نلقي ضوءاً على مسالك . « أل » التعريف في اللغة العامية ، ونتحدث في هذا المقام عن عاميات مخصوصة ، في الأردن وفلسطين ، فهذه العاميات تأتي بـ « أل » التعريف مع الأسماء غير المبدوءة بهمزة وصل على نحو يطابق مقطعياً صورتها في الفصيحة : فيقولون : « الولد : ilwalad » و « الباب : ilba:b » ، بصرف النظر عن اختلاف همزة الوصل ، ولكن هذه العاميات لا تأتي بهذه الهمزة في كل ما ينطق فيها مبدوءاً بهمزة وصل ، مثل : « لستقبال » معرفة « listiqba:l » و « لسم = lisim » غير أن هذا المسلك لا يقتصر على الأسماء المبدوءة بهمزة وصل في العربية ، بل يتجاوز ذلك إلى غير قليل من الصيغ التي تبدأ بهمزة قطع في الفصيحة ، مثل « أحمر » و « أخضر » و « ألواح »

و « أفراح » فيقولون عند تعريف هذه الصيغ : « لِحمر : lihmar » و « لِخضر lihdar » و « لِلواح : lilwa:h » و « لِفراح = lifra:h » .

بل إن هذه العاميات تتمادى أكثر من ذلك فتنحو هذا المنحى في صيغ لا تبدأ بهمزة في الفصيحة ، فتأتي بها بعد تعريفها على نحو مماثل للصيغ السابقة ، فيقولون بعد تعريف كلمات مثل : « حمار » و « كتاب » ـ : « lihma:r » و « likta:b » .

هذا الصنيع قد يبدو ـ في ظاهره ـ تخليطاً غير منتظم ، ولكن تأمله يؤكد أنه ليس من التخليط في شيء ، بل هو اتساق لغوي عجيب ؛ ذلك أن الذين يسلكون هذا المسلك في نطق هذه الصيغ إنما سلكوه لأنهم ينطقونها مبدوءة بهمزة وصل قبل التعريف ؛ فهم يقولون : « احمر : ihmar » و « الواح : ilwah » بدأ من « أحمر » و « ألواح » . ويقولون : « اكتاب : ikta:b » و « احمار : ihma:r » ، بدلاً من « كِتاب » و « حِمار » .

يعزز هذا الاتساق أن الذين ينطقون هذه الصيغ غير مبدوءة بهمزة وصل يأتون بها بعد تعريفها على نحو منسجم مع الفصيحة ، مماثل لنطق « الولد » و « البيت » في النسق المقطعي ، فالذين يقولون : « حُمار » و « حُصان » يقولون على نحو متسق : « الحمار alhuma:r » و « الحصان = al husa:n » ولكنهم لا يقولون أبداً « lihma:r » مثل السابقين ، كما أن هؤلاء لا يقولون : « alhuma:r » مثلهم .

وبعد : فهل يقال في هذا المقام : إن اللهجات العامية قد حافظت على شيء من الفصيحة لم يتأت لدارسيها الحفاظ عليه ؟

وهم المصطلح

همزة الوصل وحركة التخلص من التقاء الساكنين :

لقد قلنا سابقاً إن همزة الوصل هي الركيزة الرئيسة للتخلص من التقاء

الساكنين ، إن في بداية الكلام وإن في درجه ، وأشرنا ثمة إلى أن اللغويين يذهبون إلى أنه لا يستعان بهذه الهمزة إلا في بداية الكلام ، أما في درجه فهم يرون أنها تحذف ويُجاء بحركة للتخلص من التقاء الساكنين ، ما لم يكن المقطع السابق مقطعاً مفتوحاً ، حيث يكتفي بحذفها .

لربما دفعهم إلى هذا التغير اعتقادهم أن همزة الوصل صوت صامت ، وأن حذفها يستوجب حذف حركتها ؛ لأن الحركة لا تقوم دون الصامت ، وأنها تكون بعده ، وربما دفعهم إليه أنهم وجدوها محذوفة حين تسبق بمقطع مفتوح ، فآثروا طرد الباب على وتيرة واحدة . . .

إنّ فحص مجاري هذه الحركة يؤكد أنه ليس ثمة ما يدعو إلى هذا الإجراء المزدوج ، المتمثل في إسقاط همزة الوصل ثم المجيء بحركة التخلص من التقاء الساكنين .

إنّ حركة التخلص هي همزة الوصل ذاتها ، ولا فرق . وعند من يـثرّ على صامتية همزة الوصل فإن حركة التخلص تكون حركة همزة الوصل بعد حذف الهمزة وبقاء حركتها .

يؤكد هذا : أن التقاء الساكنين في درج الكلام يأتي دوماً في صورة تكون فيها كلمة منتهية بمقطع مقفل متبوعة بكلمة مبدوءة بهمزة الوصل . ثم إن مقابلة مسالك همزة الوصل في هذه المواقع يثبت أنها توازي المسالك التي تأخذها في بداية الكلام من حيث طبيعة نطقها ، ما لم يطرأ عارض صوتي .

فالقدماء يجمعون على أن الكسرة هي الأصل في التخلص من التقاء الساكنين(٣٩) وفي مقابل ذلك يجمعون ـ أيضاً ـ على أن الأصل في همزة الوصل أن تكون مكسورة(٤٠) .

إجماعهم الأول يعوّلون في تأكيده على تعليلات منطقية كثيرة ، أما إجماعهم الثاني فيعولون في تأكيده على تعليلات استقرائية ؛ إذ إن الصيغ التي ترد فيها همزة

الوصل تكون بكسر هذه الهمزة في مجملها . كما هو الحال في صيغ الزيادة ومصادرها ، والأسماء العشرة خلا « ايمن » ، وثمة لغة بكسرها أيضاً[٤١] ، ولا تأتي همزة الوصل فتحة إلا مع لام التعريف و« ايمن » ، كما أنها لا تأتي مضمومة إلا في فعل الأمر من الأفعال مضمومة العين في المضارع ، عندما يكون فعل الأمر بحاجة إلى همزة وصل ، هذا يعني أن حركة التخلص التي قال بها القدماء كان الأصل فيها أن تكون كسرة ، ليس لتلكم العلل التي قالوا بها ، بل كان ذلك انعكاساً واقعياً لعلاقتها بهمزة الوصل في الأوضاع المقابلة . ولكننا لا نقول : إن الكسرة هي الأصل في الموضع الذي يلتقي فيه صامتان . بل نقول : إن الأصل في ذلك أن تكون هذه الحركة مماثلة لصوت همزة الوصل قبل التقاء الصيغتين ، فإن كانت كسرة فالكسرة هي الأصل ، وإن كانت فتحة فالفتحة ، وإن كانت ضمة فالضمة .

ولربما زاد من تعميق اعتقاد القدماء أن الكسرة هي الأصل في التخلص من التقاء الساكنين أنهم وجدوا الصامت الذي يسبق « إل » التعريف يكسر ولا يفتح ، على الرغم من أن همزة لام التعريف مفتوحة ، والصيغ المعرّفة تكثر في الكلام كثرة بالغة تطغى على الصيغ الأخر .

في ضوء هذا قد يحسن أن نختبر المواضع التي تأتي فيها حركة التخلص . لنستظهر علاقتها بهمزة الوصل ، وهذه المواضع هي :

١ - إن لام التعريف تكسر حين تدخل على الأسماء العشرة ، عدا « ايمن » . وحين تدخل على مصادر الأفعال التي تبدأ بهمزة وصل ؛ لأن همزة الوصل في أصل هذه الأسماء ؛ قبل تعريفها ، كانت كسرة ، فليس هناك حذف للهمزة ، وكسرة اللام هي همزة الوصل ذاتها .

٢ - إن الكلمات المختومة بمقطع مقفل التي تسبق « أل » التعريف كلمات محدودة ، كان ينبغي أن تتخذ الفتحة حركة لصامتها الأخير ، ولكنها تحولت إلى كسرة لعلل صوتية ، فهذه الكلمات تنتظم في المجموعات التالية :

أ ـ تاء التأنيث : وكان ينبغي أن تفتح عندما تلحقها صيغ معرّفة ، ولكنها كسرت ؛ ليس لأن همزة الوصل قد حذفت وجيء بالكسرة ، بل جاءت الكسرة لعلة صوتية محضة ؛ لمخالفة الفتحة التي تسبقها ، فتاء التأنيث لا تأتي إلا مسبوقة بفتحة ، ومما يؤكد فاعلية تجاور الحركات وتأثير بعضها في بعض ، ما نجده في حركة ضمائر الجمع ؛ « هم وأنتم » وتشكيلاتها « لكم ، عليهم ، عليكم » .
وإذ نتخذ القراءات القرآنية موجهاً ؛ نطقاً وتفسيراً ، فإن قراءة القراء تؤكد أن الذي يتحكم في حركة الميم عندما تتلوها همزة لام التعريف هو الإيقاع الداخلي لهذه الصيغ ، دون التفات إلى « أل » التعريف ، فعل ذلك ابن مجاهد على امتداد خمس صفحات ، ومن ذلك قوله : (. . فإذا لقي الميم حرف ساكن اختلفوا ، فكان عاصم ونافع وابن كثير وابن عامر يمضون على كسر الهاء ويضمون الميم إذا لقيها ساكن [يقصد ابن مجاهد أنهم ينطقونها كذلك ولو وليها محترك] مثل قوله : (عليهِمُ الذلة) . . . وكان أبو عمرو يكسر الهاء أيضاً ويكسر الميم ، فيقول : (عليهِمِ الذلة) . . . وكان حمزة والكسائي يضمان الميم والهاء معاً فيقولان : (عليهُمُ الذلة) . . . وكل هذا الاختلاف في كسر الهاء وضمها إنما هو في الهاء التي قبلها كسرة أو ياء ساكنة ، فإذا جاوزت هذين لم يكن في الهاء إلا الضم . وإذا لم يكن قبل الميم هاء قبلها كسرة أو ياء ساكنة لم يجز فيها إلا الضم أو التسكين)(٤٢) . ثم يمضي في التعليل فيقول : (وأما من ترك الهاء مكسورة وضم الميم عند لقائها الساكن فلأن الميم لا بد من حركتها للساكن الذي لقيها فردت ـ لما احتيج إلى حركتها ـ إلى أصل قد كان لها وهو الضم . . . والذين كسروا الميم للساكن الذي لقيها والهاء مكسورة فإنهم أتبعوا الكسر الكسر . .)(٤٣) .

هذا يعني أن تجاور الحركات هو الذي تحكم في توجيهها .

ب ـ كلمات مبنية على السكون ؛ أسماء وحروف ، من مثل : « كم » و « عن » و « مِن » ، ويُلحظ أن الحركة التي تسبق الصامت الأخير هي الفتحة ،

وهي بذلك تماثل تاء التأنيث في قصد المخالفة ، يؤكد هذا ما تراءى للقدماء شاذاً ، وهو « مِنَ القوم »[٤٤] ، حيث فُتحت النون ولم تكسر ، فهي في هذا الموقع ـ خلافاً للقدماء ـ جاءت على الأصل ، ولم تُغيَّر ؛ لأن الصامت الأخير لم يكن مسبوقاً بفتحة ، وثمة لهجة آثرت كسرها في هذا الموقع[٤٥] ؛ ليس لأن الكسر هو الأصل ، بل لقصد المماثلة ، وربما طردوا الباب على وتيرة واحدة .

ج ـ أفعال مجزومة : ويُلحظ أن حركة عين المضارع يغلب عليها الفتح ؛ فبابا « فرح يفرح » و « فتح يفتح » أكثر اطراداً في العربية من حيث عدد النظائر من جملة الأبواب الأخرى مجتمعة وهي أبواب : « ضرب يضرِب » و « حسب يحسِب » و « نصر ينصُر » و « كرم يكرُم » ؛ ولذا فإن كسر آخر المضارع المجزوم أو الأمر عندما تليه « أل » التعريف يعد من باب المخالفة ، كما هو حال تاء التأنيث ، فطردوا الباب على وتيرة واحدة في الأبواب الأخرى ، فضلاً عن أن قصد المخالفة متحقق حين تكون عين الفعل مضمومة .

٣ ـ إن مجيء الصيغ المذكورة في المجموعات السابقة متبوعة بهمزة وصل غير التي في « أل » التعريف يكون بحركة الكسر ، وهي همزة الوصل ذاتها .

٤ ـ يؤكد هذا كلَّه ما جاء من موقف القراء في اختلافاتهم بين الضم والكسر عندما تُتبع هذه الصيغ بفعل أمر من مضارع مضموم العين ، أو بفعل ماض مبني للمجهول من صيغ الزيادة التي تبدأ بهمزة وصل ، قال ابن مجاهد : (واختلفوا في ضم النون في قوله : « فمن اضطر » وأخواتها ، فقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي (فمنُ اضطر) و (أنُ اقتلوا) أوُ اخرجوا) [النساء ٦٦] (ولقدُ استهزىء) [الأنعام ١٠ والرعد ٣٢ والأنبياء ٤١] (وقالتُ اخرج) [يوسف] و (قلُ ادعوا الله أوُ ادعوا الرحمن) [الإسراء ١١٠] وما كان مثله بضم ذلك كله . . . وكان عاصم وحمزة يكسران ذلك كله لالتقاء الساكنين)[٤٦] .

لقد حاول سيبويه تعليل هذه الضمة مستنداً إلى تجاور الحركات ، غير أنه أعرض عن تعليل الكسر ، لاعتقاده أنه الأصل في التخلص من التقاء

الساكنين[٤٧] .

وعلى الرغم من صحة ما قاله سيبويه[٤٧] ، فأحسب أن الضم لم يكن بحاجة إلى هذا التعليل ، لأنه هو الأصل في هذه المواضع ، وإلا لما قرأ به خمسة من السبعة ، فألف الوصل كانت مضمومة قبل أن تسبق بمقطع مقفل .

وإذا كان التعليل الصوتي يسوّغ قراءة الكسرة التي قرأ بها عاصم وحمزة ؛ وذلك بقصد المخالفة للحركات السابقة ، فأحسب أن ذلك كان لسبب أقوى من هذا ، وأنهم كسروا بناء على نطقهم همزة الوصل مكسورة في هذه المواضع ، فكسر همزة الوصل في مثل هذه الصيغ لغة للعرب كما يشير ابن يعيش[٤٨] هذا يعني أن من ضم أبقى على همزة الوصل كما كانت عليه قبل الوصل ، ومن كسر أبقى على همزة الوصل كما كانت عليه قبل الوصل ، مُتّبعاً لغة قوم من العرب[٤٩] .

وخلاصة هذا كله ، فلا وجود لشيء يقال له « حركة التخلص من التقاء الساكنين » في العربية وهذه الحركة هي همزة الوصل ذاتها وهي تتخذ المسالك التالية :

أ - ثبوتها في بداية الكلام ما لم يحرك الصامت الذي يليها .

ب - ثبوتها في درج الكلام كما كانت تنطق في بداية الكلام ، وذلك عندما تُسبق بمقطع مقفل ، وقد تتحول من حركة إلى أخرى وفقاً لطبيعة التتابع الصوتي .

ج - حذفها في درج الكلام عندما تسبق بمقطع مفتوح ، ما لم يكن هذا المقطع همزة استفهام ، كما هو الحال في « آلله أذن لكم » .

وقد يخيل لبعضهم أننا قد وافقنا « تمام حسان » وقلنا بأن همزة الوصل حركة وليست صامتاً ، لكي ننفي وجود حركة التخلص ، ولكن الأمر بعكس هذا تماماً ، فنحن نتخذ من هذا التجاذب بين همزة الوصل وحركة التخلص دليلاً على حركية همزة الوصل .

وسواء اعتقدنا أن همزة الوصل حركة أم اعتقدنا أنها صامت ، فإن شيئاً من ذلك لا يطعن في علاقة همزة الوصل بحركة التخلص من التقاء الساكنين . فبحسب الاعتقاد الأول ، فهي هي . وبحسب الاعتقاد الثاني ، لمن يصر على صامتيتها ، تكون الهمزة قد حذفت وبقيت حركتها . بـ « استغفر » و « استرحم » وليس ثمة صيغة سداسية لا تبدأ بهمزة وصل[٥٠].

إن هذا الوصف ، وإن كان أمراً شكلياً غير مؤثر ، يعد خرقاً صارخاً لقيمة همزة الوصل ؛ ذلك أن صيغ الزيادة لا توازي « أل » التعريف أو الأسماء العشرة أو است حسب ، بل تنحط عنها درجة في هذا السياق ؛ إذ إنها مسقطة بإطلاق في الفعل المضارع ، فلا تظهر في الرسم البتة .

في ضوء هذا ، نصف صيغ زيادة الأفعال في العربية فنقول : ليس في هذه الصيغ أي صيغة سداسية البتة : فالفعل الثلاثي . يزاد بحرف ويكون رباعياً ، وصيغه : فعّل ، وفاعل ، وأفعل و انفعل وافتعل وافعلّ . ويزاد الثلاثي بحرفين ويكون خماسياً ، وصيغه : تفعّل ، وتفاعل ، و استفعل ، وافعوعل وافعالّ . . ولكنه لا يزاد بثلاثة أحرف .

والفعل الرباعي يزاد بحرف واحد فقط ، وصيغه : تفعلل ، وافعنْلَلَ ، وافْعَلَلّ ، وملحقات الرباعي التي أصلها من الثلاثي ليس بينها أي صيغة سداسية ، أيضاً[٥١].

وما دمنا بصدد معالجة الأوهام فثمة خطأ شكلي آخر يتسبب عن همزة الوصل ، يتراءى هذا الخطأ في قوائم المصادر والمراجع ، حيث نجد الكتب التي تحمل أسماء معرَّفة بـ « أل » التعريف الداخلة على همزة وصل تحشر في خانة حرف الهمزة ، عند من يسقطون « أل » التعريف ، فتجدهم يضعون « الأغاني » و « الاقتراح » و « الأشباه والنظائر » في باب الهمزة ، جاعلين همزة الوصل آخذة مصاف همزة القطع[٥٢]. وهذا خطأ ؛ ذلك أن إسقاط « أل »

التعريف يوجب الاعتماد على الصوت الذي يليها ـ والصوت الـذي يليها في « الاقتراح » هو القاف ، ولذا ينبغي أن يدرج « الاقتراح » وما ماثله في باب القاف لا في باب الهمزة [٥٣].

الهوامش

١ ـ انظر : عصام أبو سليم : البنية المقطعية في اللغة العربية : ٤٨ ـ ٤٩ . وإبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية : ١٦٤ ، ١٦٦ ، ومالمبرج : علم الأصوات : ١٦٦ .

٢ ـ تغريد السيد عنبر : الفعل الماضي مسنداً إلى ضمائر الرفع المتصلة : ٦٢

٣ ـ انظر : جنى : الخصائص ، ٢ : ٩٦٤ .

٤ ـ هنري فليش : العربية الفصحى : ٤٤ ـ ٤٥

٥ ـ لم يسق الباحث في دراسته كلها أي مثال لهذه الكلمات التي تتكون من تسعة مقاطع أو عشرة ، وهذا يقود إلى استحضار مقولة إبراهيم أنيس [المرجع السابق : ١٦٢] إذ يقول : (والكلمة العربية مهما اتصل بها من لواحق (Suffixes) أو سوابق (Prefixes) لا تزيد عدد مقاطعها على سبعة . ففي كل من المثالين (فسيكفيكهمو) أو « أنلزمكموها » مجموعة مكونة من سبعة مقاطع . على أن هذا النوع نادر في اللغة العربية « [وانظر : أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي : ٢٦٠]

٦ ـ عصام أبو سليم : المرجع السابق : ٥٠ ـ ٥١

٧ ـ عبدالعزيز حليلي : البنية المقطعية العربية : ٥٠

٨ ـ نفسه : ٥٠ . والنص مقتبس عن ابن يعيش : شرح المفصل ، ٩ : ٦٨

٩ ـ نفسه : ٥٣ . و (كذا*) ذكّر العدد مع « أبنية » ظنها جمع « بنية » ، وإنما هي جمع « بناء » فحق العدد أن يؤنث ، فبنية تجمع على « بنى » . . . ثم تردد وأعاد على هذا الجمع « اثنان » مرة ، و « اثنتان » مرة أخرى ، ثم همزهما وهما بلا همزة ، ثم وصف المثنى بمفرد ، بل أنّث وصف المذكر ، فضلاً عن إفراده .

١٠ ـ لسان العرب : شمم

١١ ـ ابن يعيش : شرح المفصل ، ٩ : ٦٧

١٢ ـ نفسه ، ٩ : ٦٨

١٣ ـ ابن مجاهد : كتاب السبعة في القراءات : ٥٤١

١٤ ـ نفسه : ٤٠١ ؛ المتن والحاشية

١٥ ـ نفسه : ١١٨ ـ ١١٩

١٦ ـ انظر : أحمد مكي الأنصاري : سيبويه والقراءات : ٥٩

١٧ ـ الفراء : معاني القرآن ، ١ : ١٨

١٨ ـ انظر : أحمد مكي الأنصاري : المرجع السابق : ٥٣ ـ ٥٤

١٩ ـ انظر مثلاً : أحمد مختار عمر : المرجع السابق : ٢٥٦ وتغريد السيد عنبر : المرجع السابق : ٦٣

٢٠ ـ سعد مصلوح : دراسة السمع والكلام : ٢٧٥ ـ ٢٧٦ . وانظر بسام بركة : علم الأصوات العام : ١٤٦

٢١ ـ انظر : إبراهيم أنيس : المرجع السابق : ١٦٣ ، وعبد الصبور شاهين : المنهج الصوتي للبنية العربية : ٣٨ ـ ٤٠ .

٢٢ ـ انظر : تمام حسن : مناهج البحث في اللغة : ١٧٣ .

٢٣ ـ انظر : عبد العزيز حليلي : المرجع السابق : ٤٦ ـ ٤٨ ، وبسام بركة : المرجع السابق : ١٤٣ ، وأحمد مختار عمر : المرجع السابق : ٢٥٦ .

٢٤ ـ نحن نمثل همزة الوصل في الكتابة الصوتية بحركة فقط .

٢٥ ـ ابن يعيش : المرجع السابق ، ٩ : ١٢٣ ، وقوله بحذف الواو والياء والألف مبني على اعتقاد القدماء بوجود حركة سابقة على هذه الحركات ؛ كل واحدة من جنسها ، والصواب أنها قصرت حسب .

٢٦ ـ انظر : ابن جني : الخصائص ، ١ : ٩٣ ، وابن يعيش : المرجع السابق ، ٩ : ١٤٣ .

٢٧ ـ انظر : سيبويه : الكتاب ، ٤ : ١٥٠ ، والمبرد : المقتضب ، ١ : ٨٥ ، ٢٣٥ و٢ : ٩٠ ـ ٩١ .

٢٨ ـ انظر : ابن جني : الخصائص ، ١ :٩٣ .

٢٩ ـ ابن جني : سر صناعة الإعراب ، ١ : ٦١ .

٣٠ ـ انظر وصفاً لهذه الأصوات : كمال بشر : علم اللغة العام ، الأصوات : ١٠٦ وسعد مصلوح : المرجع السابق : ٢٠٤ ـ ٢١١ .

٣١ ـ ابن جني : سر صناعة الإعراب ، ١ : ٦١ .

٣٢ ـ المبرد : المرجع السابق ، ٢ : ٩٢ ، وانظر منه : ١ : ٨٠ و ٢ : ٨٧ ، وسيبويه ، ٤ : ١٤٦ ، ١٥٠ وابن يعيش : المرجع السابق ، ٩ : ١٢٥ ـ ١٣٦ .

٣٣ ـ انظر : المبرد : المرجع السابق ، ٢ : ٨٧

٣٤ ـ انظر : الفراء : المرجع السابق ، ٢ : ٣٥٤

٣٥ ـ انظر : المبرد : المرجع السابق ، ١ : ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

٣٦ ـ ابن مجاهد : المرجع السابق : ٦١٥ .

٣٧ ـ المبرد : المرجع السابق ، ١ : ٨٠

٣٨ ـ المبرد : المرجع السابق ، ٢ : ٨٧

٣٩ ـ انظر : سيبويه ، ٤ : ١٢٦ ، ١٥٢ ، وابن يعيش : المرجع السابق ، ٩ : ٣٥ ، ١٢٥ ، ١٢٧ والسيوطي : الأشباه والنظائر ، ٣ : ١٣٧ .

٤٠ ـ انظر : ابن يعيش : المرجع السابق ، ٩ : ١٣٦ ـ ١٣٧ ، والسيوطي : المرجع السابق ، ٣ : ٣٠٩ .

٤١ ـ انظر : ابن يعيش : المرجع السابق ، ٩ : ١٣٧ .

٤٢ ـ ابن مجاهد : المرجع السابق : ١٠٩ .

٤٣ ـ نفسه ، ١١٠ .

٤٤ ـ انظر : سيبويه ، ٤ : ١٥٤ ـ ١٥٥ ، وابن يعيش : المرجع السابق ، ٩ : ١٢٤ ، والمقصود بالشذوذ الخروج على النظائر حسب ، أي شذوذ في القياس واطراد في الاستعمال .

٤٥ ـ انظر : سيبويه ، ٤ : ١٥٤ ، وابن يعيش : المرجع السابق ، ٩ : ١٢٤ ، ١٣١ .

٤٦ ـ ابن مجاهد : المرجع السابق : ١٧٤ ـ ١٧٥ .

٤٧ ـ انظر : سيبويه ، ٤ : ١٥٢ ، وابن يعيش : المرجع السابق ، ٩ : ٣٥ ، ١٢٧ .

٤٨ ـ انظر ابن يعيش : المرجع السابق ، ص : ١٣٧

٤٩ ـ سيبويه ، ٤ : ١٤٥ ـ ١٤٦ .

٥٠ ـ المبرد : المرجع السابق ، ٢ : ٩٢ .

٥١ ـ ابن عقيل : شرح ابن عقيل ، ١ : ١٧٧ .

٥٢ ـ محمد محيي الدين عبدالحميد : منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل [مع شرح ابن عقيل] ، ٢ : ٥٩٧ .

٥٣ ـ بل وفي الدراسات الصوتية المختصة كذلك ، انظر مثلاً : عبدالصبور شاهين : المرجع السابق : ٦٩ ، وما بعدها ، وتغريد السيد عنبر : المرجع السابق : ٧٠ .

ثبت المراجع

- ابراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ـ الطبعة الخامسة ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٧٩ .
- أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ـ الطبعة الثالثة ، عالم الكتب ـ ١٩٨٥ .
- أحمد مكي الأنصاري : سيبويه والقراءات دراسة تحليلية معيارية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢ .
- برتنيل مالمبرج : علم الأصوات ، تعريب ودراسة عبدالصبور شاهين ، مكتبة الشباب .
- بسام بركة : علم الأصوات العام ، أصوات اللغة العربية ، مركز الإنماء القومي ـ بيروت ـ ١٩٨٨ .
- تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٥٦ .
- ابن جني : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
  - سر صناعة الإعراب ، تحقيق حسن هنداوي ، الطبعة الأولى ، دار القلم ـ دمشق ١٩٨٥ .
- سعد مصلوح : دراسة السمع والكلام ، عالم الكتب ١٩٨٠ .
- سيبويه : الكتاب ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، عالم الكتب . بيروت .
- السيوطي : الأشباه والنظائر ، تحقيق عبدالعال سالم مكرم ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥
- عبدالصبور شاهين : المنهج الصوتي للبنية العربية ، رؤية جديدة في الصرف العربي ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٠ .
- ابن عقيل : شرح ابن عقيل : تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، الطبعة الرابعة عشرة ، دار العلوم الحديثة ، بيروت ـ ١٩٦٤ .
- الفراء : معاني القرآني ـ الطبعة الثالثة ـ عالم الكتب ١٩٨٢ .
- كما بشر : علم اللغة العام ، الأصوات ـ الطبعة السابعة ، دار المعارف ١٩٨٠ .
- المبرد : المقتضب ، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة ، عالم الكتب ـ بيروت .
- ابن مجاهد : كتاب السبعة في القراءات ، تحقيق شوقي ضيف ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٨٠ .
- محمد محي الدين عبدالحميد : منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل [ضمن شرح ابن عقيل السابق]
- ابن منظور : لسان العرب .

- هنري فليش : العربية الفصحى ، نحو بناء لغوي جديد ، تعريب وتحقيق عبدالصبور شاهين ، الطبعة الأولى ، المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٦٦ .

الدراســــات :

- تغريد السيد عنبر الفعل الماضي مسنداً إلى ضمائر الرفع المتصلة ، المجلة العربيـة للدراسات اللغوية المجلد الرابع ، العدد الأول - ١٩٨٥ .
- عبدالعزيز حليلي : البنية المقطعية العربية ، المجلة العربية للدراسات اللغوية - المجلد الرابع ، العدد الأول - ١٩٨٥ .
- عصام أبو سليم : البنية المقطعية في اللغة العربية ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني السنة الحادية عشرة ، العدد (٣٣) ، ١٩٨٧ .

المتنبي والتوحيد

دكتور/ مرزوق بن صنيتان بن تنباك
قسم اللغة العربية ـ جامعة الملك سعود

عرفت بعض شعر أبي الطيب قبل أن أعرف الكثير عن أبي الطيب نفسه وحفظت له أبياتاً يحفظها شداة الأدب لقربها من سلوكيات الناس وشيوع معناها وسهولة تلقينها ومساسها للتجربة العامة كالبيت المشهور :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

والآخر :

لاتشتري العبد إلا والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيد

وغيرهما كثير . ثم عرفت الشاعر وقرأت له وحفظت من الشعر له ولغيره ما كان لزاماً علينا حفظه في بعض مراحل حياتنا الدراسية ، ثم كانت الدراسة الواسعة للشعر ، بحكم الانقطاع إلى هذا الفن والتخصص فيه وقراءة نقاد الأدب العربي منذ الأصمعي وابن سلام حتى يومنا هذا . فوقفت على آراء النقاد في الشاعر وأهمها إجماعهم على أنه « مالىء الدنيا وشاغل الناس » وهو أقرب وصف ينطبق على حاله بين شعراء العربية في تاريخها الطويل كله ، فليس في هذه الجملة السابقة حكم له أو عليه ولكنها وصف صادق لحاله ولما أحدث من اختلاف لم يصل إلى إجماع حتى يوم الناس هذا . بل إن الخلاف يشتد كلما تقدم الزمن به وطال الأمد بين حياته في النصف الأول من القرن الرابع ومدار السنين بعد ذلك . فشغل الناس في شعره مرة وفي نسبه أخرى وفي دينه ثالثة وفي علويته رابعة وفي كل شيء عنه . شغل في حياته كبار شعراء عصره وعلماء زمانه مثل ابن جني والسيرافي وغيرهما ممن يحطب في حبله ويمجده وينتصر له . وشغل كبار النقاد من أعدائه مثل الحاتمي والتنيسي وغيرهما . ثم شغل على مرِّ العصور وتتابع الأيام النقاد الذين أتوا بعده بقرون قلت أو كثرت . مثل المعري والقاضى الجرجاني وغيرهم في العصور القديمة . واستمر الجدل مرة أخرى ويشغل كبار علماء هذا العصر ونقاده تماماً كما هو الحال في حياته وبعدها . فشغل عبد الوهاب عزام رحمه الله وشغل عميد الأدب العربي طه حسين وشغل شيخ المحققين محمود محمد شاكر

وشغـل شيخ النحويين سعيد الأفغاني ، فانشغلوا به وشغلوا الناس أيضاً .(١)
واختلفوا حوله أشد من اختلاف معاصريه وما سلم أحد من المتقدمين والمعاصرين للآخر بقول وما انقطع الجدل ولا أقرَّ واحدٌ لصاحبه برأي .

وما خطر ببالي أن أشغل نفسي بشيء مما شُغِلَ به الناس عن شخص المتنبي ولا شعره ولا نسبه أو نبوته أو علويته أيضاً ، ذلك كله ما لم أرِدْهُ ولن يرد عندي ، فأنـا لست ناقداً ولكنني دارس للشعر معنيٌّ به ، فقد شغلني وجرني إلى ساحة المتنبي الـواسعـة بيت واحـد من شعره عرض له ناقد خصم أراد عنت المتنبي وإفحامه فوهم وهماً علمياً في معنى البيت أو تظاهر بالوهم ليوهم الآخرين فمرَّ وهمه عبر العصور مرور السهم ، وتداوله الناس وأخذوا الوهم حقيقة ورتبوا عليها موقفاً نفذ حتى أخذه النقاد والعلماء حكماً فصلاً لم يعرض للنقض أو النظر أو التدقيق فيها عسى أن يكون عناه الشاعر . وشرع كل ناقد أو راوٍ يسلمه إلى من بعده لاينظر فيه ولايدقق في معانيه حتى إن أنصار الشاعر الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عنه جرفهم تيار الوهم الأول فبددوا جهودهم في الدفاع والتماس الحجج الواهية له وتبرير خطئه في بيته هذا وفي غيره . ويكفي أن يكون من بين أنصاره ابن جني الشارح الأول لشعره ومفسر ديوانه الذي أقرَّ له المتنبي بفهم مايريد فقال الكلمة المشهورة « ابن جني أعلم بشعري مني » ومن أنصاره أيضاً أستاذ الأساتيذ وعبقري النقاد علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي صنع الوساطة عصبية للمتنبي وانتصاراً له و أعلن رأيه على الملأ منتقداً معارضي الشاعر واصفاً حالهم بقوله .(٢)
حتى إذا ذكرت أبا الطيب ببعض فضائله وأسميته في عداد من يقصر عن رتبته ، امتعض امتعاض الموتور ونفر نفار المضيم ، فغض طرفه ، وثنى عطفه وصعر خده وأخذته العزة بالإثم ، وكأن ما زويّ بين عينيه عليك المحاجم . ومنهم الناقد الكبير عبد القاهر الجرجاني الذي عرض له في كتابه أسرار البلاغة واتخذ من شعره بعض شواهده وحسبك بهذين الجهبذين علماً وفقهاً في بلاغة العربية وأساليب البيان وغيرهم عشرات تناولوا جانباً من حياة الشاعر وشعره عبر عصور العربية .
أتى الوهم الأول على لسان الخصم عندما شكك في دينه وتساءل أمسلم هو عندما يقول :(٣)

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيْهِ أَحْلَى مِنَ التَّوحِيْدِ

وهو سؤال استنكاري لم يجد جواباً بل لا يراد له جواب في وضعه الأصلي وإنما أريد تأكيده وترسيخه في الأذهان وتثبيت دلالته ، فأغلق السؤال منافذ النظر فيما عسى أن يكون عناه الشاعر وقد انشعبت آراء النقاد فيه إلى شعبتين :

أعداء ينعون عليه كفره ومروقه من الدين وخروجه عن الإسلام بهذا البيت .

وأنصار يبررون شاعريته ويبحثون عن عذر له مقرين بدعوى الفريق الأول وبما ارتكب من زلل في العقيدة فيما قال ، فجاء الدفاع عنه على لسان أقوى أنصاره حجة وأشدهم عارضة أوهى من خيوط العنكبوت فكان جهده مع الاقرار التماس الأعذار لصاحبه فقال :(٤)

« والعجيب ممن ينقص أبا الطيب ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة كقوله :

يترشفن من فمي رشفات هنَّ فيه أحلى من التوحيد

ثم يردف الجرجاني مزيداً من التبرير فيقول :(٥)

« فلو كانت الديانة عاراً على الشعر وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخير الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبعري وأضرابهما ممن تناول رسول الله ﷺ وعاب من أصحابه بكماً خرساً وبكاء مفحمين ولكنَّ الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر » . ويأتي ابن وكيع التنِّيسي فلا يزيد على أن يورد البيت فيقول :

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

هذه ألفاظ فيها قلة ورع وامتهان للدين لا أحب له استعمالها وأحسن من هذا وأبعد من الإثم قول ابن المعتز :

يقــول الــعــاذلــون تســلَّ عنهــا   وطــفٌ غليل قلبــك بالـســلوِّ
وكــيف وقـبـلة منهــا اختــلاســاً   ألــذُّ من الــشــماتــة بالــعــدوِّ

وعندما يعرض عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة لتشبيه الحقيقة بالمجاز نجده يقول :(٦)

« مما كأنه يدخل في هذا الجنس قول المتنبي :

يترشفن من فمي رشفات .   البيت

ثم يعلق قائلاً :

« وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق إذا دعته شهوة الإغراب إلى أن يستعير للهزل والبعث من الجدِّ ويتغزل بهذا الجنس » .

أمـا العُكبري شارح الديوان ومفسره وأعظم من حصلَّ شعره شرحاً واهتم اهتماماً كبيراً بمعاني ألفاظه فيشرح البيت كما يلي :(٧)

يترشفن من فمي رشفات   البيت

قال الواحدي : كنَّ يمْصصُنْ ريقي لحبهن إيَّاي فكانت الرشفات في فمي أحلى من كلمة التوحيد . وهي لا إله إلا الله وهذا إفراط وتجاوز حد . أي يترشفن من فمي رشفات هنَّ قريب من التوحيد . وروى الأكثر : أحلى من التوحيد ، ومن روى حلاوة التوحيد . أراد هي عندي مثل حلاوة التوحيد فحذف المضاف ورفع . قال أبو الفتح : يروى أنه أنشده حلاوة التوحيد » .

أما الثعالبي فيعدد في يتيمة الدهر عيوب الشاعر والمآخذ عليه فيقول :(٨)

« ومنها الايضاح عن ضعف العقيدة ورقة الدين على أن الديانة ليست عاراً على الشعـراء ولا سوء الاعتقـاد سببـاً لتـأخر الشاعر ولكن للإسلام حقه من الإجلال الذي لايسوغ الإخلال به قولاً وفعلاً ونظماً ونثراً ومن استهان بأمره ولم

يضع ذكره وذكر ما يتعلق به في موضع استحقاقه فقد باء بغضب من الله تعالى وتعرَّض لمقته في وقته وكثيراً ما قرع المتنبي هذا الباب بمثل قوله :

يترشـفـن من فمـي رشـفـات هنَّ فيه أحـلى من الـتـوحـيد »

هذا موقف النقاد القـدامى ، وعندما يصل بنا التتبع والبحث إلى عصرنا الحاضر ونقادنا المعاصرين نجد الدكتور إحسان عباس مثلاً يتابع نشاط النقاد في جميع العصور منذ نشأة النقد في كتابه القيم تاريخ النقد الأدبي عند العرب فيقول : (٩)

« ولابد في ختام هذا الفصل من أن نقف وقفة قصيرة عند نظرة عبد القاهر إلى العلاقة بين الشعر والدين لا من حيث اشتراكهما في التأثير بل من حيث تعمد الشاعر الاستهانة بالمعتقد الديني . ففي هذا المقام نجد عبد القاهر يمرُّ بهذه المسألة مروراً سريعاً فيقول : وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق إذا دعته شهوة الإغـراب إلى أن يستعـير للهـزل والعبث من الجـدِّ « يعني الـدين » ومـع أن عبـد القـاهـر خالف كثيراً من النقاد السابقين الذين رأوا ألا يحكم على الشعر والشاعر من الزاوية الدينية فإنه كان أصرح منهم موقفاً لأن أولئك النقاد وضعوا نظرية دفـاعية خالفوها عند التطبيق ، أما هو فإنه قد تحرج من إطلاق العنان لنفسه في خوض هذا الموضوع » .

ومن الواضح أن الدكتور إحسان عباس لم يخالف النقاد الأقدمين في شيء وقد عرض نقد عبد القاهر الجرجاني للبيت وحكمه عليه فأقرَّه كما جاء ، ولم يشر إلى خلاف ما أجمعت عليه أراؤهم في قراءة هذا البيت . وجاء الدكتور عبد الباسط بدر وهو أحد المنظرين لمنهج الأدب الإسلامي فأيد ما تعرض له النقد والنقاد في القـديم فقـال : (١٠) ونجـد النـاقـد المشهور عبد القاهر الجرجاني يرفض عبث الشعراء بالمفهومات الدينية في سبيل الإغراب أو المبالغة . ويعلق على بيت المتنبي :

يترشفن من فمي رشفات البيت

فيقول : « وأبعد ما يكون الشاعر عن التوفيق إذا دعته شهوة الاغراب إلى أن يستعير الهزل والعبث من الجد ويتغزل بهذا الجنس » .

بعـد هذا الاستعراض لرأي النقاد والأدباء لبيت الشاعر وما رتبوا عليه من حكم جائـر نتيجة فهم خاطيء يجد الباحث أن مناقشة معنى مضى على وفاة صاحبه أكثر من ألف سنة . وقد طعن في دينه وأنكر عليه فعله . وأخذه ناقل عن ناقل وكل أخذ لايلتفت إليه ولايتوقف عنده بل يمُّره كما سمعه على الرغم من أن هذا البيت يحتاج إلى النظر المتأني في مسلمات الفهم المباشر كما يحتاج إلى محاولة لاستقراء عميق في معناه وفيما عسى أن يكون وراءه من معنى غير ظاهر لكلمة « التوحيد » لم يتضح للذين أخذوه وفسروه على ما قرَّ في أذهانهم من معنى مباشر للكلمة دون نظر في مجمل السياق ودلالة التشبيه وغرضه ومعهود العرب . ورأيهم فيه . وسنحاول في هذه الصفحات أن نقرأ البيت قراءة أخرى لعلها ترد بعض اللجج وتصحح فحوى الحكم الذي صدر ضد الشاعر منذ قال ذلك البيت إلى اليوم .

ومن سوء حظ المتنبي أن كلمـة « التوحيد » التي أنهى بها الشطر الثاني من البيت كانت سبباً في انغلاق المعنى المراد بالتوحيد ، وإبهامه على الناس ، لأنها جاءت مُعَرَّفَةً باللام العهدية وعهد الناس الذين سمعوا البيت وخاطبهم الشاعر به متعلق كله بالجدل المنطقي المحكم الذي أصَّله المعتزلة وهم يزعمون أنهم أهل العدل والتوحيد ـ الذي هو إفراد الله بالعبادة ـ ومن لازم التوجه الذهني المسيطر على مدارك الناس ألا يخطر في أذهانهم عند سماع كلمة التوحيد إلا المعنى المتردد في حياتهم المشحون به جدل مجالس العلم وقراء الأدب وشراح النظم أي المعنى الإصـطلاحي لكلمـة التوحيد وهو لاشك الظاهر للناس منذ بعث محمد ﷺ بكلمة « لا إله إلا الله » . وأنىّ لبيئة علمية مثقفة ثقافة دينية يحتدم فيها مذهب الجدل والفلسفة حول العدل والتوحيد والعلم والنظر ، أنىّ لهذه البيئة أن تنظر في غير ما هو معهود لها فاتجهت أذهانهم إلى المعنى المباشر وأخذوا به وحملوا على المتنبي زلل فهمهم ووهم تقديرهم واستمر هذا الحمل وسوء الفهم للبيت حتى

اليوم . ولكي نتجنب الهجوم المباشر على ذهن القارىء ونخفف من إيجابية الإيحاء ووضعية الذهن المتهيء لقبول المعنى المتبادر إليه أو رفض ما يفاجئه دون استعداد للتقبل ، سنبدأ بقراءة الأبيات الآتية محاولة لإثارة التهيئة المعقولة للنظر الواعي فيما نزعم أنه عناه أو الرفض المسبب لما نقول على بَيِّنةٍ ووعي وعلم ، يقول الشاعر : (١١)

برد الليل والنهار أبا وهـ ـب وهبت عليك ريح برود
وأتاك الشتاء يسعى وما عنـ ـدك إلا الأخلاق والتوحيد
وثياب لبستها أول الصيـ ـف إلى أن علاك برد شديد

فما التوحيد الذي أتى به الشاعر هنا معطوفاً على الأخلاق الباليات ؟ وما علاقة برد الشتاء الذي أتى يسعى إلى أبي وهب بالتوحيد الذي فسر النقاد والمفسرون والشراح به بيت أبي الطيب وحملوا عليه فيه معنى الكفر وقلة الورع وضعف العقيدة والاستهزاء بالدين ؟

إن التوحيد الذي لذَّ حتى شبه به أبو الطيب رشفات ثغر الحبيب هو هذا التوحيد الذي جمعه الشاعر عند أبي وهب مع الأسمال الباليات أي إنه شيء يعرفه الناس ويدركونه بحسهم ويعقلونه بوعيهم ويرونه بأعينهم . وهذا الشاعر رآه بعينه عند صديقه أبي وهب فما هو إذن هذا التوحيد ؟ . الذي يظهر من الأبيات أن هذا التوحيد لايغني شيئاً ولا يدفع برد الشتاء ولا يقي منه . أفيعقل أن يكون هو كلمة التوحيد التي هي لا إله إلا الله . وإذا كانت كذلك فكيف رآها الشاعر مع الأسمال الباليات عند صاحبه أبي وهب وما علاقتها به ؟ قطعاً ليس هو التوحيد الذي هو كلمة لا إله إلا الله . لأن هذا التوحيد مادي محسوس قرنه الشاعر مع الأخلاق الباليات ، وهو متاع من متاع الدنيا لا اعتقاد عقلي مجرد وعمل قلبي خالص إذن فما هو ؟

إنه نوع من التمر في العراق ولعله كان في الكوفة منشأ أبي الطيب وموطنه الأصلي وهو معروف حتى نسب إليه بعض أهل العراق ممن يبيعونه ويتّجرون به وأشهر من نسب إليه أبو حيان التوحيدي الفيلسوف المتكلم الأديب المعتزلي

المعروف لأن أباه كان يبيع هذا النوع من التمر فسمي به ونسب إليه .

يقول مترجمو أبي حيان : أبو حيان التوحيدي بالحاء المهملة نسبة إلى نوع من التمر يسمى التوحيد(١٢) . جرياً على عادة الانتساب إلى المهن التي يشتهر بها الناس وينسبون إليها كالتمار لمن يبيع التمر . ولا أظن أحداً يشك بأن التوحيد الذي قرن بالأسمال الباليات في الأبيات الثلاثة المذكورة هو التمر أو هو نوع منه معروف بالعراق خاصة موطن أبي الطيب وهو أعلم بأنواع التمور في بلده وقد ذكره في شعره إمَّا لأنه نوع متميز بحلاوته كما نسمي في الوقت الحاضر نوعاً من التمر ونتلذذ بطعمه وبشدة حلاوته مثل « السكرية » ، أو لأن القافية اضطرته إلى ذكره خاصة لانتهاء اسمه بالدال التي هي قافية القصيدة فجاء بذكره لهذا السبب ضرورة ، وحتى إن لم يكن هذا هو السبب فقد اعتادت العرب التشبيه بلذة التمر وحلاوته وطعمه ومذاقه حساً وتجريداً ومن تتبع الشعر يجد الدليل القاطع على أن العرب كانت تشبه اللذة اللذيذة والمتعة وشدة الحلاوة بطعم التمر ومن ذلك قول أبي الطيب نفسه في قصيدة أخرى يمدح فيها مساور بن محمد الرومي ويهجو خصمه :(١٣)

طلب الإمارة في الثغور ، ونشؤه ما بين كرخايا إلى كلواذا
فكأنه ظنَّ الأسنة حلوةً أو ظنها البرنيَّ والآزاذا

والبرني والآزاذ نوعان من التمر من جيده والآزاذ أجود من البرني لقلته ، والنوعان بالعراق ، والبرني كثير فربما رأيت في الكوفة البستان فيه مائة بَرْنيَّة وفيه أزاذة أو ثلاث أو أربع بالكثير . وهذا دليل آخر على شغف أبي الطيب بذكر أنواع من التمور في العراق غير « التوحيد » فقد ذكر في بيت واحد ثلاثة أنواع من التمر وهي الحلوة والبرني والآزاذ بأنواعها ولم يذكر جنس التمر جملة ولم يجد لمقارنة الممدوح بخصمه إلا أن يصم الخصم بجهل الحرب وعدم التفريق بينها وبين السلم ثم يزيد الأمر وضوحاً عندما يزعم أن خصم ممدوحه رَبُّ نعيم مترف متمرغ في لذيذ العيش لايعرف شدة الحرب وقسوتها ولم يكن من رجالها ، ولم يزد على أن شبهه بأنه متردد بين طعمي البرني والآزاذ ليبين المفارقة بين حاله وحال

الممدوح وأن وراء طلب الإمارة حرباً تجعلها مرة صعبة المنال وليست كأكل التمر والتلذذ به . فإذا كان أشد ما شبه به لذة المترفين هو طعم التمر فإنه من باب أولى أن يشبه حلاوة رشفات ثغر الحبيب بنوع آخر من أنواع التمر في العراق .

ولم يكن المتنبي بدعاً من العرب ولا من الشعراء فقد شبهت العرب بطعم التمر وحلاوته ولذة مذاقه ؛ وهاهو الحطيئة يشبه أحلى ما في حياة المرء وما يثيره ويجلب إليه السعادة التي لايستطيع وصف طعمها في خياله ووجدانه إلا أن يقارنها بلذة التمر ليقربها إلى الحس والواقع ، بعد أن هزته لذَّة النصر ففدى قومه بأغلى ما يفدي به العربي عند الفرح والإعجاب الذي يبطر عن الحقيقة ويبعث الخفة حتى يكاد من شدة هزة الفرح ولذة النصر أن يفقد الاتزان وتخرجه النشوة عن صوابه فيقول :(١٤)

فدى لبني دبيان أمي وخالتي عشية يُدى بالرماح أبو بكر
فإن الذي أعطيتم أو منعتم لكا لتمر أو أحلى إليَّ من التمر

إذن لم يكن أبو الطيب مبتدعاً تشبيهه اللذة المتناهية والسعادة الغالبة والطعم الذي لاتنقطع حلاوته من الوجدان إذا انقطعت من اللسان إلا أن يقربه للناس بوصفه وتشبيهه بطعم التوحيد ، بل قد سبقه إلى التشبيه به شعراء آخرون جاءوا قبله وشبهوا بطعم التمر وحلاوة المذاق الحسي أو المجازي . وغير الحطيئة نجد كُثَيِّر عزة يأخذ فيما أخذت به الشعراء واعتادت العرب التشبيه به لحلاوة طعمه ولذة ذوقه فيقول :(١٥)

وهم أحلى إذا ما ذقت يوماً على الأحناك من رطب ابن طاب

والعرب قد اعتادت تجسيد المجرد وتقريبه إلى ما تألفه في الحس والواقع . والتمر أحلى ما تعرف من أنواع المأكولات وهو لذتها وطعامها والتشبيه به أقرب المدركات إلى وجدانها وقد فخروا بأكثره حلاوة وأشده طعماً وقال أحدهم يصف تمره ويمدح ما لديه منه « تمرنا جرد فطس عراض كأنها ألسنة الطير ، تمضغ التمرة في شدقك فتجد حلاوتها في عقبك »(١٦) وقد ضربوا الأمثال به وغنيت بحلاوته

الأشعار في قصور الخلفاء وأهل السلطان والمترفين ، ومن لايحتاجون التمر قوتاً ولايعرفون شظف العيش ، ولكن الشعراء مثلوا بحلاوته لمعهود العرب منذ القدم ومدلول تشبيهاتهم فجاء من أمثالهم : « ألذ من زبد بنرسيان »[١٧] و« ألذ من زبد بزب »[١٨] والمثل الأول كوفي والثاني بصري . فأما النرسيان فتمر من تمور الكوفة وأمّا الزب فتمر من تمور البصرة ويسمى هذا التمر أيضاً بزب رباح ذكر ذلك ابن دريد وحكي أن أبا الشمقمق دخل على الهادي وعنده سعيد بن سلم فأنشد :

شفيعي إلى موسى سماح يمينه | وحسب امرىء من شافع بسماح
وشعري شعر يشتهي الناس أكله | كما يشتهي زبد بزب رباح

وعلى رأس الهادي خادم اسمه رباح فقال له الهادي : ما عنيت بزب رباح ؟ فقال : تمر عندما بالبصرة إذا أكله الإنسان وجد طعمه في كعبه قال : ومن يشهد لك بذلك ، قال :

القاعد عن يمينك ، قال هكذا هو ياسعيد قال نعم ، فأمر له بألفي درهم » . والعرب تقول : التمر فاكهة الفقير . وقال الشاعر وهو يفخر بنفسه وقومه :[١٩]

لسنا من القوم الذين إذا | جاء الشتاء فجارهم تمر[٢٠]

وشارح البيت يقول : إنهم يأكلون مال جارهم ويَسْتَحْلُونَهُ كما تَستَحْلي الناس التمر في الشتاء ويروى .

لسنا كأقوام إذا كلحت | إحدى لسنين فجارهم تمر

ويقول شاعر آخر :[٢١]

فإنك لم تشبه لقيطا وفعله | وإن كنت أطعمت الأرُزَّ مع التمر

والتمر عندهم هو العيش كما يقول الحطيئة عندما عرض عليه الزبرقان جواره

ووعده أن يوفر له التمر واللبن فما زاد على أن قال « ذاك العيش » ومعناه هنا غنى الدنيا ولذتها وعليه جاء قول الشاعر :

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

ومادام للتمر هذا الاحساس الذوقي وهو طعام العرب ولذة عيشها الذي يقتاتون به في شدة الحياة وطعمه أحلى ما يصفون به طعماً على الإطلاق . وقد مرَّ ما فيه شاهد من الشعر والأمثال والأقوال عنهم .

إذن فليس المتنبي إلا شاعراً من العرب يأخذ عنهم وينهج نهجهم ويشبه بما يسوغ به التشبيه عندهم . والتوحيد نوع من التمر اختاره للتشبيه بحلاوته ونحن لانعدم مثالاً فيما نعرف الآن من أنواع التمور وأحلاها « السكري » وهو معروف ويضرب بحلاوته المثل وبطعمه وتبلغ قيمته في السوق أضعاف قيمة غيره من أنواع التمور مع ما في أنواع الأطعمة في الوقت الحاضر من الملذات التي تفوق طعم التمر أضعاف المرات . ولكنها التقاليد والأعراف وما اصطلح على لذته أول مرة .

رأي النقاد في عقيدة المتنبي

بعد أن بين البحث الاحتمال الأول لمعنى البيت وهو أن المراد تشبيه رشفات ثغر الحبيب بطعم التمر ودلل على مايذهب إليه بشعر ونثر ومثل ورواية من موروث العرب . نضع الافتراض الآخر أو البحث عما يمكن أن يكون دليلاً على أن أبا الطيب لايعني التوحيد . ونفترض أننا لم نعثر على معنى نوجه إليه بيت المتنبي ولم تتسع مفردات اللغة العربية لمعنى آخر للتوحيد غير الكلمة التي تعني الإيمان بالله وحده دون شريك وبها جاء الإسلام حتى على هذا الفرض فإن الباحث الجاد في الأمر سيلتفت إلى المتنبي نفسه ليعرف حياته ويغوص في أعماقه ويبلو معتقده وينظر في قوله وعمله ورأيه في الإسلام حتى يقبل عن بينة من أمره معنى للبيت يستقر له

النظر فيه وهذا ما سيحاول البحث تتبعه على الرغم من التوضيح الذي سبق لكلمة التوحيد في اللغة غير الكلمة التي توجه إليها رأي النقاد وشراح الشعر . وأول ما نعرض له ونبينه هو إجماع أهل زمانه على استخفافه بالدين وبالنبي وبالقرآن والإسلام وسنورد نصوصاً نقلها عنه معاصروه ومن جاء بعدهم ممن تعرض لفكر أبي الطيب وشعره ومن ذلك ما نقل الباقلاني في كتابه اعجاز القرآن إذ يقول :

« وقد حكي عن المتنبي أنه كان ينظر في المصحف فدخل إليه بعض أصحابه ، فأنكر نظره فيه ، لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده فقال له : هذا المكي على فصاحته كان مفحماً !! فإن صحت هذه الحكاية عنه في إلحاده ، عرف بها أنه كان يعتقد أن الفصاحة في قول الشعر أمكن وأبلغ »[٢٢] . فالباقلاني يصفه بالإلحاد وأن صاحبه ـ أي صاحب المتنبي ـ كان يستغرب نظره في المصحف لما يعرف من سوء اعتقاده في الدين وقد سأله عن أسباب النظر في القرآن فكان جوابه مؤيداً لرأي الناس فيه .

أما علي بن حمزة البصري فيقول إنه عرف أبا الطيب شخصياً وابتلاه فعرف له خصالاً طيبة وأخرى ذميمة وأنه تيقن ذلك عنه حقيقة وتجربة وعلماً فيقول :[٢٣]

« بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط ، وبلوت منه ثلاث خلال ذميمة وتلك أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن » .

ويورد الحاتمي في رسالته الموضحة في موضعين مختلفين حديثين يدوران بينه وبين أبي الطيب يزعم أنه كفر بهما في كل مرة فيقول :[٢٤] فقلت : الأمر على ما ذكرته وقد احتذيت هذا المعنى من أبي تمام فقلت :

وهل تغني الرسائل في عدو ... إذا ما لم يكنَّ ظبى رقاقا

وقلتُ في هذه القصيدة يقول أبو تمام :

بِكْــرٌ فما افــترعتْها كفٌّ حادثـة ولا ترقــت إلـيهـا همة الـنــوب
رَمى بك الله برجيهـا فهــدمهـا ولــو رمـى بك غير الله لم تصـب

فقال أما هذا في كتابكم ؟ فكفر لعنه الله ـ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

ويقول في الموضع الآخر :(٢٥)

قلت أخبرني عن قولك :

خف الله واستـر ذا الجـمال ببرقـع فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

أهكذا ينسب في المحبين ؟ فقال : أما هذا في كتابكم ؟ فكفر لعنه الله .

والحاتمي يزعم أنه يتحدث إلى الشاعر نفسه ويرادُّهُ فيما ينقل عنه . وعلى الرغم من الشك الكبير في حدوث هذه المناقشة على الحقيقة لما يظهر فيها من تنفج بالمعرفة عند الحاتمي واستخذاء أمام هذا الإدعاء لم يعرف عن المتنبي مثله إلا أن الشاهد قائم فيما استفاض عند الناس وعرف عن أبي الطيب من قلة الدين والاستخفاف بالعقيدة مما جعل الحاتمي يقرره في نقده سواء تمت هذه المناظرة على أرض الواقع كما زعم الحاتمي أو كانت مختلقة عليه مصنفة بعده منقحة على روية ومهل .(٢٦) وليست هذه الأقوال والآراء عن إيمانه وعقيدته هي كل ما جاء في سيرته وتردد على ألسنة معاصريه ومن بعده لكن جاء في شعره ما لايقبل التأويل وما هو صريح في معناه مثل قوله :

وعــرَّف أنــك من همه وأنــك في نصره ترفــل

يقول الوحيد في معنى هذا البيت :(٢٧) أحسب أن المتنبي كان محتاجاً إلى أن يدرس شيئاً في التوحيد فينقبض عن مثل هذه الألفاظ ، ويعلم ما يجب أن يذكر الله سبحانه به » . أما ابن وكيع التنيسي فقد تعلق بأبيات له هي الأخرى مجال للحديث عن إلحاده واستخفافه بالدين يقول فيها :

يا أيها الملك المصفى جوهراً من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لا هوتيه فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

فحمل عليه يطعن في دينه ويقول معلقاً عليهما .[٢٨]

« هذا مدح متجاوز وفيه قلة ورع وترك للتحفظ لأنه جعله من ذات الباري وذكر أنه حلَّ فيه نور لاهوتي ، ثم قال : بعد هذا كله « فتكاد تعلم » فأتى بلفظ المقاربة ولم يطلق عليه علم الغيب » .

ونعود إلى الحاتمي مرة أخرى ونعرض ما نقل عن علي بن هارون الذي أورد أبياتاً للمتنبي وزعم أنه غير مسلم حيث يقول :[٢٩]

وأفضل آيات التهامي أنه أبوك وإحدى مالكم من مناقب

وحين يقول في أبيات أخر :

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

فزعم أن في هذه الأبيات خروجاً على الإسلام وبلوغاً إلى درجة الكفر .

وينقل ابن العديم في بغية الوعاة حديثاً هو أقرب إلى الواقع وقد دار بين أبي الطيب وصديقه أبي نصر قبل مقتله بوقت قصير وهو يحذره فتك بني أسد به ، وأبو الطيب يقسم أنهم لن يمسوه بسوء خوفاً منه فيقول له أبو نصر :[٣٠] « قل إن شاء الله فيقول : كلمة مقولة لاتدفع مقضياً ولاتستجلب أتياً » .

وحتى طه حسين في العصر الحديث يعلق على بيته المشهور :[٣١] « يا أيها الملك المصفى جوهراً » ، فيقول نحن هنا بإزاء رأي صريح في الحلول . . . وهذا الكلام صريح في انحراف المتنبي عن الجادة الدينية واندفاعه إلى هذا اللون من ألوان الفلسفة التي هي إلى الالحاد أقرب منها إلى أي شيء آخر .

ننتهي هنا إلى أمرين في ما عرف عن أبي الطيب من رأي في العقيدة والدين وهما :

● **الأول :**

إذا كان هذا هو رأي المعاصرين للمتنبي والشراح لديوانه وهم جميعهم يطعنون في دينه وإيمانه ، ومنهم من صرح باستخفافه بالقرآن وزعم أنه من عند المكي المفحم ، وأنه يتهكم بالكتاب وينسبه إلى من يؤمن به « أو ما هذا في كتابكم » وأن النبي محمد ما هو إلا آية من آيات ممدوحه ومنقبة من مناقبه :

وأبهر آيات التهامي أنه   أبوك وإحدى مالكم من مناقب

وأن من عرفه وابتلاه عن قرب يشهد أنه « ما صلى ولا صام ولا قرأ القرآن » وأن مشيئة الله عنده لاتدفع مقضياً ولاتستجلب أتياً » وما إلى غير ذلك مما تقرره المصادر القديمة منسوباً إليه من قول وشعر .

أيصح مع كل هذا أو مع بعضه شيء من التوحيد أو من الإسلام للرجل ؟ . إن من يعرف طعم التوحيد في وجدانه ويشرق نور الإيمان في تخييله هو من ينقاد إلى الإسلام ويخضع للدين ويتورع عن البغي في القول والعمل حتى يلامس فؤاده برد الإيمان ويشرق في وجدانه فيتلذذ به عندئذ ولايجد تشبيهاً لما يحب سواء كانت رشفات ثغر الحبيب أو غيره إلا طعم التوحيد فيسوغ التشبيه عنده بما أحب .

أمَّا أبو الطيب إذا صدق ما قيل عنه بل إذا صدق بعض ما قيل عنه وآخره حديث صديقه أبي نصر عن المشيئة فإنه يستحيل على من هذا رأيه في الإسلام جملة أن يشبه لذته بلذة التوحيد أو أن يكون عنى كلمة الاخلاص لانه لايذوق طعم الإيمان وحلاوة التوحيد من لايقرُّ له أحد ممن عرفه بدين فضلاً عن التقوى والورع والانقياد للعبادة والخضوع للإسلام التي يجد بها المرء المسلم طعم الإيمان وحلاوة التوحيد . بل لايقبل هو أن يشبه لذته وبهجته بشيء لايعرفه ولا يؤمن به ويسخر منه ويستهزىء به .

أما الثاني :

فهو اجماع كل من عرف أبا الطيب على أنه عالم باللغة عارف بأسرار العربية

مدرك لأساليب البيان ، محقق لمذهب العرب في بناء الكلام وحسن تأتيه للمعنى . ولايختلف اثنان على سعة علمه وإحاطته بدقائق العربية وفهمه لها حتى زعم بعضهم أنه يحفظ جمهرة اللغة حفظاً عن ظهر قلب ، وأن بعض النحاة الذين قضوا حياتهم في دراسة اللغة عرفوا له هذا الفضل والإحاطة فكان منهم من يسأله فجأة عن بعض دقائق التصريف في الأسماء وما يتصرف منها ـ وهو علم لايعني أحداً غير النحويين ـ فيجيبهم بداهة دون نظر فيبحثون عما قال فلايجدون في اللغة كلها غيره .(٣٢)

ومن يقر له خصومه ونقاد شعره بسعة الإطلاع وعبقرية الحفظ وسرعة الفهم المفرط لأسرار اللغة وأساليب العربية لايحتمل أن يخالف بلاغة التشبيه ويعاظل في المعنى فيشبه الحسي بالمجرد بينما العكس هو الصحيح أي أن المتبع أن يشبه ما تخيله تخييلاً وما يقوم في الذهن مجرداً بما يعرفه السامع ويدركه في الحس المادي إذا كان ذلك مما يمكن إدراكه حسياً . فالبلاغيون يقولون إن(٣٣) « اعتماد الصناعة الشعرية على تخييل الأشياء التي يعبر عنها بالأقاويل وبإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة » . كما عللوا بلاغة التشبيه وأسباب اللجوء إليه وضرورته فقالوا إن التشبيه يأتي :(٣٤) « لما يحصل للنفس من الإنس باخراجها من خفي إلى جلي كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة إلى ما يعلم بالفطرة وباخراجها مما لم تألفه إلى ما ألفته أو مما تعلمه إلى ماهي به أعلم ، كالانتقال من المعقول إلى المحسوس فإنك قد تعبر عن المعنى بعبارة تؤديه ، وتبالغ نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالقصر يوم كأقصر ما يتصور فلا يجد السامع له من الإنس ما يجده لنحو قولهم « أيام كأباهيم القطا » فإذا قرىء بيت أبي الطيب القراءة الأولى كما قرىء على مرّ العصور :

يترشفن من فمي رشفات   هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وحمل على أنه قد شبه حلاوة رشفات ثغر الحبيب بحلاوة كلمة التوحيد ـ التي هي لا إله إلا الله ـ كما يقول النقاد والشراح للشعر فيما سلف من النصوص وأن

حلاوة هذه الكلمة هي المشبه به وحلاوة رشفات ثغر الحبيب مشبه . هنا يكون قد جعل المجرد التخييلي أوضح من المحسوس المادي فقلب وظيفة التشبيه وغير دلالته وعطل بلاغته وزاده بعداً وغموضاً بدل أن يأتي بالمشبه به أوضح وأبين في الأذهان من المشبه ليكون دليلاً عليه ، فيقربه إلى الإدراك ويقوم تصوره في الوجدان ويجعل المحسوس شاهداً للمجرد المتخيل فتنتظم المحاكاة كما قال القرطاجني في النص الأول . ولاشك أن هذه القراءة للبيت تتعارض مع الغرض من التشبيه والمراد منه وتعطل وظيفته البلاغية التي تجعل الخفي جلياً والمبهم واضحاً والمعلوم بالفكرة معلوماً بالفطرة كما جاء في النص الثاني عند السكاكي .

أما إذا قرىء البيت كما نزعم أن أبا الطيب عناه في التشبيه وهو أنه شبه رشفات ثغر الحبيب بطعم هذا النوع من التمر الذي يسمى « التوحيد » عندئذ يصدق الغرض من التشبيه وتقوم وظيفته البلاغية إذ إن تشبيه طعم رشفات ثغر الحبيب بطعم تمر التوحيد يوافق البيان المقصود من التشبيه عند البلاغيين وهو واضح قائم بتقريب المجرد المتخيل في الوجدان والإدراك الذهني إلى ما يعلم عند من هذه حالة من العشاق المتيمين والمحبين خاصة وإلى ما هو أعم عند الناس كافة ، وهم أي (الناس) على تصوره أقدر . وطعم التمر وحلاوته في أذهانهم أبلغ وأبين من طعم رشفات ثغر الحبيب . لخصوصية هذا الأخير عند العشاق وعموم طعم التمر لكل ذائق من الناس .

ننتهي إلى أنه قد أجمع النقاد منذ عهد أبي الطيب حتى عصرنا الحاضر على معنى واحد للبيت وتتابعوا على تقبيحه من وجهة النظر الدينية وصاروا بين منكر على أبي الطيب استهتاره بالدين وبُعده عن الورع والتقوى وبين عاذر له ملتمساً له مخرجاً متكلفاً له معنى كقولهم : إنه ليس من الضرورة أن يلتزم الشاعر بالآداب الدينية « وأن الدين بمعزل من الشعر » وانصرفوا جملة عن النظر في موروث العرب ومواقع التشبيه في شعرهم ونثرهم ونسق كلامهم وما يمكن أن يحمل عليه معنى البيت غير الدين والعقيدة . إن كلمة التوحيد هي التي أحاطت بهم وأوقعتهم في شباك الحرج فأجمعوا على أنه ارتكب في بيته محذوراً دينياً ولم يخالف

منهم أحد حتى هذه اللحظة ـ فيما نعلم ـ وهذا الإجماع من المتقدمين والمعاصرين سيثقل كاهل الباحث ويبطىء بقبول الاجتهاد الذي يحاول تصحيح الوهم العلمي الذي تتابعت عليه أجيال من طبقات العلماء وعباقرة النقاد وشراح الشعر وحقب من الزمن تتحجر في طواياها ذرات النسيم وقطرات الماء الزلال . ومع شعور الباحث بعبء هذا الجهد ووقوعه نفسياً تحت هذا الهاجس إلا أنه أخذ في مناقشة كل ما أقرّه النقاد السابقون والمعاصرون أيضاً وحاول أن يبين معنى البيت بعيداً عن الانسياق مع المسلمات التي أخذوها دون نظر وما رتبوا عليها من أحكام نال الشعر والشاعر منها شيء عظيم . وقد عرض الحجج التي قد تسفر عن رأي مقنع أو اجتهاد مصيب أو جدل معقول إن لم يكن قائماً بالأدلة القاطعة على براءة البيت من شوائب الشرك والاستهزاء بالدين فلا أقل من أنه سيثير سؤالاً يضعه قراء الشعر كله وقراء أبي الطيب خاصة في وعيهم عندما يناقشون الشعر وينظرون في شروح الشراح واجتهاد النقاد مهما علا شأنهم وقوي سلطانهم ، وقد قلب المعنى على وجوهه قبل الجزم برأي دون آخر وتجاوز القريب المباشر والمهيع المطروق إلى محاولة لتصحيح البيت على ضوء الشاهد والفقه المراد ، وقدم دليلا على ما يذهب إليه ولا يدعي أنه أصاب ولكنه يزعم أنه قدم للمناقشة رأياً معقولاً وفهماً مقبولاً لما أراد الشاعر من تشبيه وما ذكر من معنى وترك للقارىء الخيار في أن يأخذ أو يدع .

مصادر البحث

الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب ، إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف .

بدر ، عبد الباسط ، مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي ، دار المنار ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

البديعي ، يوسف ، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، تحقيق مصطفى السقا وعبده زياد عبده ، دار المعارف ، ١٩٦٣م .

الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق محمد مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

الجاحظ ، أبو عمرو ، البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، الطبعة السادسة ، دار المعارف .

الجرجاني ، عبد القاهر ، أسرار البلاغة في علم البيان ، تحقيق السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

الجرجاني ، علي بن عبد العزيز ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، وعلي محمود البجاوي ، المكتبة العصرية .

الحاتمي ، أبو علي محمد بن الحسن ، الرسالة الموضحة في سرقات أبي الطيب وساقط شعره ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م .

الحطيئة ، ديوان الحطيئة ، تحقيق نعمان محمد أمين طه ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

الحموي ، ياقوت الرومي ، معجم الأدباء ، مرجيلوث ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

الخطيب القزويني ، الإيضـاح في علوم البلاغة ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

شاكر ، محمود محمد ، المتنبي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

أبو الطيب المتنبي ، ديوان أبو الطيب ، شرح أبي البقاء العكبري ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي .

عباس ، إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

القرطاجني ، أبي الحسن حازم ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد حبيب بن الخوجه ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦م .

كثير ، ديوان كثير عزة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

وكيع ، أبي محمـد الحسن بن علي ، المنصف للسـارق في اظهار سرقات أبي الطيب المتنبي ، تحقيق محمد يوسف نجم ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

ابن منظور ، محمد ، لسان العرب ، تأليف يوسف خياط ، دار لسان العرب .

الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد ، مجمع الأمثال ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

هارون ، عبد السلام ، تحقيق النصوص ونشرها ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

الهوامش :

(١) انظر كتاب الدكتور طه حسين « مع المتنبي » وكتاب الدكتور عبد الوهاب عزام « ذكرى أبي الطيب » وكتاب محمد كمال عن أبي الطيب والمتنبي للأستاذ شفيق جبري و« المتنبي » لمحمود محمد شاكر ، و« نبوة المتنبي » لسعيد الأفغاني ، « دين المتنبي » لسعيد الأفغاني أيضاً وغير ذلك مما كتب في هذا العصر . وما دبج من مقالات وآراء حلفت بها صحف أول هذا القرن ومجلاته كالمقتطف والرسالة وغيرهما .

(٢) الوساطة ص ٥٣ .

(٣) الرسالة الموضحة ص ١٢٢ .

(٤) الوساطة ص ٦٣ .

(٥) المنصف جـ١ ص ١٢٧ .

(٦) أسرار البلاغة ص ٢٠٣ .

(٧) الديوان شرح العكبري جـ ١ ص ٣١٤ .

(٨) يعني ابن جني ، يتيمة الدهر جـ١ ص ٢١٠ .

(٩) انظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٤٣٨ .

(١٠) مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي ص ١٢٢ .

(١١) ألمح الأستاذ عبد السلام هارون عند قراءته لهذه الأبيات إلى ما نحن بصدده ولكنه لم يتوغل فيه أو يدقق النظر ولو فعل رحمه الله لشفى وكفى في هذا الموضوع إلا أنه مع الأسف عندما استدعى هذه الأبيات للتمثيل اكتفى بالتعقيب عليها بقوله :

« والتوحيد ضرب من التمر يكون بالعراق ، وبه قد يفسر قول المتنبي ».

يترشفن من فمي رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيد

انظر تحقيق النصوص ، ص ١١٠

(١٢) معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٥ وانظر لسان العرب مادة « تمر »

(١٣) انظر شرح العكبري للديوان جـ ٢ ص ٨٤ .

(١٤) ديوان الحطيئة ص ١٢٩ .

(١٥) الرسالة الموضحة ص ٤٢ ونص ما في ديوان كثير عزة كالتالي :

وهم أحلى إذا ما لم تثرهم ... على الأحناك من عذق ابن طاب

الديوان ص ٢٨٢ .

(١٦) نشوة الطرب ، جـ ٢ ص ٦٨٥ .

(١٧) كانت شرارة الفتنة الكبرى التي ذهبت بخلافة الراشدين ، قد بدأت على مأدبة في الكوفة على (تمر وزبد) ولعله هذا النرسيان الكوفي ، وذلك في مجلس سعيد ابن العاص أمير الكوفة لعثمان بن عفان إذ على مأدبته القراء أصحاب البرانس وهم يأكلون تمراً وزبداً إذ قال سعيد : السواد بستان قريش فما شئنا أخذنا وما شئنا تركنا . فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي ـ وكان على شرطته ـ صدق الأمير فوثب عليه القراء يضربون ، وقالوا ياعدو الله يقول الباطل وتصدقه .

انظر كتاب العفو والاعتذار جـ١ ص ٣٠٦ .

(١٨) مجمع الأمثال جـ ٢ ص ٢٥٤ .

(١٩) لسان العرب مادة « تمر » وقد يكون معنى البيت أنهم يحمون جارهم فلا يتركونه للناس تنهب ماله وتعتدي عليه فلا يمنع منه أحد .

انظر كتاب الجوار عند العرب ص ١٠٤ .

(٢٠) البيت بهذه الرواية لمسكين الدارمي انظر ديوانه ص ٤٥

(٢١) البخلاء ص ٢٢٢ .

(٢٢) اعجاز القرآن ، ص ١٥٥ .

(٢٣) الصبح المنبي ، ص ٩٤ .

(٢٤) الرسالة الموضحة ، ص ١٧٠ .

(٢٥) انظر رأي الدكتور محمد يوسف نجم في مقدمة الرسالة الموضحة وإلماحه عن الشك في المناظرة .

(٢٦) تاريخ النقد الأدبي ص ٢٩٣ .

(٢٧) المنصف جـ ١ ص ١١٠ .

(٢٨) الرسالة الموضحة ص ١٢٢ .

(٢٩) نقل من كتاب بغية الوعاة لإبن العديم وقد أضافها محمود محمد شاكر إلى كتابه المتنبي ص ٣٠٧ .

(٣٠) مع المتنبي ص ٦٩ .

(٣١) معاهد التنصيص ، جـ ١ ص ١١

(٣٢) منهاج البلغاتء ، ص ٦٢

(٣٣) الايضاح ص ٣٢١

التبعية الفكرية والاستقلال المعرفي
تحليل نقدي لرؤى وطنية من داخل العالم الثالث

الأستاذ الدكتور/ السيد الحسيني

* استاذ علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة عين شمس ـ مصر

منذ مطلع السبعينيات من القرن الحالي وهناك جهود مكثفة داخل أقطار العالم الثالث تسعى إلى التعرف على أبعاد الهيمنة الثقافية التي مارسها ومايزال يمارسها الغرب ، والبحث عن بدائل فكرية تأخذ في اعتبارها الخصوصيات الثقافية ، والمتغيرات التاريخية القومية . وما لبثت تلك الجهود أن ازدادت اتساعاً خلال الثمانينيات بسبب أزمة الفكر التنموي التقليدي الذي وصل إلى طريق مسدود بالنسبة للعالم الثالث ، مما دفع كثيراً من مفكريه ومثقفيه إلى المطالبة بضرورة تصحيح مفاهيمهم وتصوراتهم حول الاستقلال الفكري كأحد أبعاد التنمية المستقلة . وسوف نحاول في هذه الدراسة التعرف على رؤية بعض مفكري العالم الثالث للتبعية الفكرية ، وكيفية التصدي لها ، على أن نتناول بعد ذلك تناولاً نقدياً الجهود التي بذلتها « نظرية التبعية » في تحقيق الاستقلال الفكري باعتبارها نتاجاً فكرياً ظهر من داخل العالم الثالث . وفي نهاية هذه الدراسة نناقش مناقشة نقدية الاستقلال الفكري في عدد من أقطار العالم الثالث .

أولاً : الهيمنة الأكاديمية والتبعية الفكرية :

أشار طلال أسد في معرض نقده للأنتروبولوجيا البريطانية التقليدية إلى أن « الموقف الاستعماري » من شأنه أن يسهم في تشكيل بنية البحث الأنتروبولوجي وتحديد أولوياته وأهدافه النهائية[1] . كما أشار إلى فكرة مماثلة عدد كبير من علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، حيث كشفوا عن ملامح الفكر الاجتماعي والسياسي خلال الحقبة الاستعمارية في الأقطار المتخلفة . ومن بين تلك الملامح

الاستخدام غير النقدي للنظريات الغربية ، والعجز عن تكوين رؤية مستقلة للواقع المحلي ، والانبهار الشديد بنموذج العلم الغربي ومحاكاته دون إدراك عميق بالخصوصيات القومية . ولاشك أن الرؤية النقدية داخل العلوم الاجتماعية قد حققت انتشاراً واسعاً في الأقطار النامية ، مما دعا بعض النقاد إلى ضرورة مجابهة ما أطلق عليه « الامبريالية الأكاديمية » باعتبارها أحد مصادر التبعية الفكرية . وفي مجال دراسة التنمية والتخلف ذهب أحد النقاد إلى « أن تحليل مشكلات التنمية في أقطار أمريكا اللاتينية يحتاج إلى نظرية خاصة تستند إلى قاعدة واسعة ومنظمة من الملاحظات والبيانات الخاصة بالواقع الأمريكي اللاتيني . وهكذا فإن نظريات التنمية المصاغة في الغرب الصناعي لاتستطيع فهم وتحليل وتفسير تلك المشكلات ، وبالتالي لاتصلح أساساً لصياغة استراتيجية تنموية ، أو رسم سياسة اجتماعية ملائمة لتلك الأقطار[٢] .

وفي الوقت الذي تبلورت فيه رؤى نقدية واضحة للعلم الاجتماعي الغربي ، بدأت أصوات قوية من داخل العالم الثالث تطالب بضرورة تأسيس علوم اجتماعية وطنية قادرة على فهم خصوصية واقع الأقطار النامية[٣] . ولم تقتصر تلك الرؤى النقدية على الفكر الاجتماعي الغربي ، بل امتدت ـ وبقوة ـ إلى الفكر الاشتراكي . ففي الصين ظهرت منذ منتصف السبعينيات أصوات محتجة على الفكر الماركسي ـ اللينيني في مجال الاقتصاد ، وضرورة إعادة النظر في الممارسات الاشتراكية التي نُقلت حرفياً من الاتحاد السوفيتي . كذلك طالبت تلك الأصوات بفتح باب الاجتهاد الصيني في مجال الفكر الاجتماعي[٤] . وفي أفريقيا عبر تيمو Temu عن شيء قريب من ذلك حينما ذهب إلى ان العلوم الاجتماعية هي بطبيعتها علوم « قيمية معيارية » ، وأن أفريقيا سوف تظل تعاني من وطأة سيطرة الفكر الاجتماعي الغربي عليها ، ما لم تعلن رفضها للهيمنة التي يمارسها ، وتسعى إلى ايجاد بدائل فكرية وطنية[٥] . وتعبر كل تلك الآراء عن مشكلة عامة في أقطار العالم الثالث أطلق عليها سيد حسين الأتاسي « العقل السليب » Captive Mind الذي هو نتاج لمؤسسات جامعية غربية الفكر ، وأنماط تفكير غير نقدية ، وعجز فكري عن إقامة حوار بناء مع الواقع الاجتاماعي والثقافي في تلك الأقطار .

وهكـذا تصبح مهمة العلوم الاجتماعية في العالم الثالث هي إعادة انتاج القيم الغربية بما في ذلك نماذج التنمية ذاتها . وربما كان النيجيري كلود إيك Ake من أبرز علماء الاجتماعي الذين طرحوا تلك الاشكالية بشكل واضح وصريح حين تساءل : « لماذا تقبل نيجيريا علماً اجتماعياً مغترباً عن بيئتها ، عاجزاً عن إحداث تقـدم علمـي ، يقـف موقـف الحـارس والضـامن لاستمـرار التخلف في بلدنا ؟ »[٦] . وعلى الرغم من أن تساؤل إيك يعبر بوضوح عن حالة نيجيريا ، إلا أنه يكتسب شرعية أيضاً بالنسبة لأغلب أقطار العالم الثالث ، حيث اكتسب المتعلمـون والمثقفـون قيم المستعمـرين ، وتبنى العلماء الاجتماعيون النظريات والمفاهيم الغربية دون تحليل نقدي وطبقوها تطبيقاً آلياً على مجتمعاتهم .

وهكـذا بدأ عقد الثمانينيات يشهد احتجاجاً واسع النطاق من جانب دوائر أكاديمية متزايدة الاتساع داخل العالم الثالث على استخدام النظريات الاجتماعية الغربية في تشخيص المشكلات الاجتماعية ، وصياغة الأهداف التنموية ، ورسم السياسات الاجتماعية والاقتصادية . كما بدأت تظهر محاولات لتحقيق ضرب من الاستقـلال الفكـري يقـوم على إكساب العلوم الاجتماعية طابعاً قومياً ، وقيام الباحثين الوطنيين بانجاز البحوث الاجتماعية اللازمة ، وتأسيس دعائم أكاديمية تضمن تحديد الأولويات البحثية ، والعمل على صياغة نماذج نظرية أكثر قدرة على فهم واقع مجتمعات العالم الثالث[٧] .

ويمكننا التعرف على الجهود التصحيحية في مجال الاستقلال المعرفي في أقطار العـالم الثـالث ، إذا ما فحصنـا موقف مؤسسـاتهـا التعليمية وعـلى الأخص جامعـاتها . ففي تلك الأقطار أقيمت الجامعات في فترات متباينة ، ولأسباب مختلفة . أما أقدمها فهي جامعات أمريكا اللاتينية التي تأسست خلال القرن السادس عشر لكي تقوم أساساً بحماية الثقافة المسيحية للغزاة الأيبيريين في تلك البيئة الموحشة آنئذ . وهذا يعني أن الجامعات في أمريكا اللاتينية كانت تؤدي دوراً محافظاً للغاية ، مما جعلها هدفاً لانتقادات الحركات الليبرالية خلال القرن التاسع عشر ، وبالتالي كان من الضروري إعادة النظر في أهدافها وبرامجها التعليمية بعد

الحصول على الاستقلال السياسي مع مطلع الربع الثاني من القرن التاسع عشر . أما في آسيا فلقد ظهرت الجامعات في أواخر القرن التاسع عشر وعلى الأخص في اليابان والصين لكي تقدم ما أطلق عليه « التعليم الغربي » بينما كان هدف إنشائها في الهند هو تخريج جيش من الموظفين والكتبة لإحكام السيطرة الاستعمارية على هذا البلد الضخم . وإذا كانت الجامعات في أمريكا اللاتينية قد واكبت ظهور الاستعمار ، بينما دعمته وأعادت إنتاجه الجامعات الآسيوية في مرحلة لاحقة ، فإننا نجد الجامعات الافريقية عند نشأتها تشهد مغيب السيطرة الغربية المباشرة وتحول الاستعمار التقليدي إلى أساليب امبريالية جديدة للتأثير والتحكم من بعيد(٨) . والملاحظ ان الجامعات في أقطار العالم الثالث قد شهدت تغيرات ملموسة في وظائفها في أعقاب الاستقلال السياسي . إذ ظهر وعي واضح بضرورة تحويلها من أداة لاعادة الانتاج الفكري إلى أداة للتنمية . والواقع أن هذا التحول لايعد فقط ابتعاداً عن الدور الذي كانت تلعبه جامعات العالم الثالث خلال الحقبة الاستعمارية ، بل يعد أيضاً ابتعاداً عن الدور التقليدي الذي تؤديه الجامعات الغربية ذاتها . ومن الواضح أن الدور التنموي الجديد الذي تحاول جامعات العالم الثالث إنجازه يواجه عقبات ضخمة . فما تزال ملامح التنمية المنشودة غائبة ، وماتزال نتائج البحوث التنموية بعيدة عن التطبيق بسبب الفجوة العميقة التي تفصلل الأكاديميين عن التنفيذيين . بل إن تلك الجامعات في ممارستها لدورها الجديد تواجه صعوبة التوفيق بين وظيفتها التنموية التي تفرض عليها الارتباط بالأنظمة السياسية الحاكمة من ناحية ، ووظيفتها النقدية التي تتطلب منها قدراً كبيراً من الاستقلال في اتخاذ القرار والممارسة من ناحية أخرى .

ثانياً : نظرية التبعية والاستقلال الفكري في العالم الثالث

اكتسبت نظرية التبعية مكانة خاصة داخل أدبيات العلوم الاجتماعية خلال عقد السبعينات على وجه الخصوص . ولقد ظهرت تلك النظرية من خلال الجدل الذي ثار في أمريكا اللاتينية خلال الأربعينيات حول مشكلات وقضايا التخلف ، وبدا من الواضح أنها تشكل ملامح نظرية متكاملة في تفسير التبعية

نابعة من داخل العالم الثالث . والواقع ان كُتاب نظرية التبعية لم يقصروا اهتمامهم فقط على كشف عجز نظريات التحديث وتمركزها حول الذات الأوروبية ، بل حاولوا أيضاً طرح منظور فكري بديل نابع من العالم الثالث ، ويشكل في الوقت نفسه بدايات نظرية تنموية بديلة عن الفكر التنموي الغربي . ولقد تجاوز هذا المنظور الفكري البديل مشكلة التحليل البنائي للتبعية ، ليطرح فكراً تنموياً ينطلق من مدخل الاعتماد على الذات ، وامكانية الوصول إلى نظرية ملائمة في التطور الاجتماعي والاقتصادي .

ولايعنيني هنا استعراض ملامح نظرية التبعية . فلقد سبق ان ناقشتها في مواضع عديدة منذ مطلع السبعينيات(٩) . لذلك فان مناقشتي هنا لتلك النظرية تتعلق أساساً بمناقشتنا الحالية لموقع تلك النظرية من قضية التبعية الفكرية والاستقلال المعرفي من منظور أقطار العالم الثالث . لقد تطورت نظرية التبعية من خلال جهود علماء وباحثي اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية (ECLA) منذ نهاية الأربعينيات . ففي سنة ١٩٤٨ ، اتخذت اللجنة من سنتياجو في البرازيل مقراً لها ، وبدا لأول وهلة أن المبادىء والأفكار التي تبنتها تتعارض مع مبادىء الأمم المتحدة آنئذ ، والمتمثلة في التصورات الاقتصادية التي صاحبت عملية الانشاء والتعمير في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وهكذا أصبحت مبادىء وأفكار اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية بقيادة راؤول بريبش Prebisch ثورية تقدمية في عالم تسيطر عليه الأفكار الرأسمالية التقليدية . لقد هاجم بريبش وزملاؤه النظام الاقتصادي العالمي وما يتضمنه من تحيز صارخ لصالح القوى الرأسمالية على حساب الأقطار المتخلفة . وفي هذا السياق بدأت فكرة المراكز - التخوم - Centre Periphery تظهر إلى حيز الوجود . فطبقاً لها ، فإن الدول التي تشكل المراكز هي تلك التي تستطيع تحقيق أقصى الفوائد من نظام التجارة العالمية ، بينما تعاني الدول التي تشكل الأطراف من القيود التجارية المفروضة عليها ، وتعرض سلعها ومنتجاتها الأولية لتقلبات سريعة في أسعارها . كذلك فإن بريبش وزملاءه قد طرحوا - ولأول مرة - استراتيجية الاحلال محل الواردات - Import Substituttion Strategy ، والتخطيط القائم على تدخل الدولة ، وبالتالي

التكـامـل الاقليمي . وعـلى الصعيد الايديولـوجي ، فإن آراء علماء اللجنـة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية قد أكدت الطابع القومي للتنمية ، والدور الذي يمكن ان يلعبـه التحـالف الشعبي في تحقيق النهضـة القومية[٩] ، وهكذا بدا التصنيع القـائم على الاحـلال محل الـواردات أسـاسـاً لتنمية يمكن ان تحقق الاستقلال الاقتصادي ، ومن ثم يمكن أن تسهم - بالتالي - في ظهور مراكز قومية لصنـع القرارات . وتفترض تلك الاستراتيجية أن التصنيع يؤدي إلى إضعاف موقف الـطبقـات الاجتماعية الاستغلالية (كبار الملاك ، وكبار التجار ، وكبار المصدرين) ، وإتاحة الفرصة لمشاركة الطبقتين الوسطى والدنيا في عمليات صنع القرار . كذلك ذهب علماء اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية إلى ان استراتيجية التصنيع والتحـول نحو الداخل تضمن مواجهة التخلف في كافة المجالات : العلمي ، والتكنـولـوجي ، والثقـافي ، ومن ثم تمثـل نقـطة انـطلاق لصياغة ايديولـوجية للتنمية تستنـد إلى توحيد المصالح الوطنية في اطار هدف عام هام منشترك هو : إقامة مجتمع وطني مستقل .

ويبدو أن تجارب التنمية والاستقلال الوطني في أقطار امريكا اللاتينية على مدى العقود الثلاث (من الخمسينيات حتى الثمانينيات) قد برهنت على أن استراتيجية الاحـلال محل الـواردات لم تكن حلاً تنمـوياً ملائماً للتنمية . فلم تشهد تلك الأقطار استقلالاً واضحاً في تجارتها الخارجية ، ولم تتحول أيضاً إلى مراكز وطنية لاتخـاذ القرار ، كما أن القوى التقليدية المسيطرة (في مجالات الزراعة والتجارة والصناعة) لم تفقد جانباً من نفوذها ، فضلاً عن أن ظروف الغالبية العظمى من الفلاحين وفقراء المدن لم تشهد تحسناً ملحوظاً ، ذلك لأن المشروعات الصناعية كانت موجهـة أسـاساً لاشباع احتياجات الطبقتين العليا والوسطى في المناطق الحضرية . وربـما كانت نتيجـة ذلـك كله أن أصبحت الانقلابات العسكرية المتعاقبة هي وسيلة التغير السياسي الوحيدة في أقطار أمريكا اللاتينية على مدى عقدي الستينيات والسبعينيات .

ثالثاً : نظرية التبعية من الداخل : مواقف فكرية متباينة

خلال عقدي السبعينيات حققت نظرية التبعية ذيوعاً كبيراً في الغرب والعالم النامي على السواء . ومع ان علماء هذه النظرية قد عبروا عن مواقف فكرية متباينة بسبب الأطر النظرية المختلفة التي انطلقوا منها ، إلا ان تعريف سانتوس Santos للتبعية قد شكل نقطة انطلاق لهم ، حيث عرفها بأنها « موقف مشروط يتوقف فيه نمو اقتصاد معين أو اقتصاديات معينة على نمو وتوسع اقتصاديات أخرى . ومن شأن هذا الموقف أن يحكم على الاقتصاد التابع بالعجز وعدم الحركة ، بينما يستطيع الاقتصاد المسيطر تحقيق النمو والاتساع[١٠] . ومن الواضح ان العمليات الاقتصادية كانت هي نقطة الانطلاق النظري لدى أصحاب نظرية التبعية ، وأن العلاقة الاقتصادية بين المركز والمحيط هي علاقة سببية وذات اتجاه واحد بيد أن علماء نظرية التبعية ما لبثوا أن وسعوا من نطاق تحليلاتهم في أو اخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، في محاولة لتقديم تفسير شامل لظاهرة التخلف . ولقد كان علماء الاجتماع الذين تبنوا نظرية التبعية هم السباقون في هذا المجال . فلقد حاول كاردوسو Cardoso وفاليتو Fekeho تحليل التبعية ومعالجتها كظاهرة اجتماعية سياسية . ففي مقدمة كتابهما قالا : « نحن ننظر إلى العلاقة بين القوى الخارجية والداخلية بوصفها كلاً مركباً مؤلفاً من روابط بنائية لاتتحدد فقط في ضوء العوامل الخارجية المتمثلة في الاستغلال والقهر ، بل تتحدد أيضاً في ضوء ترابط المصالح بين الطبقات المحلية المسيطرة من ناحية ، والطبقة الرأسمالية العالمية من ناحية أخرى »[١١]

وأياً كانت المنطلقات الفكرية والأساليب التحليلية والاستراتيجيات المقترحة التي تبناها أصحاب نظرية التبعية ، فإنهم يتفقون جميعاً حول مجموعة من القضايا الأساسية نوجزها على النحو الآتي :

(أ) أن عقبات التنمية في أقطار العالم الثالث لاتتمثل في قلة رؤوس الأموال والمهارات التنظيمية ، بل تتمثل في تقسيم العمل الدولي . أي أنها خارجة

عن نطاق الاقتصاد المتخلف ، وليس داخله .

(ب) ان تقسيم العمل الدولي ما هو إلا علاقة بين أقاليم يطلق عليها مراكز ، وأخرى يطلق عليها تخوم .

(جـ) ولأن التخوم محرومة من فائضها الاقتصادي الذي يتجه صوب المراكز ، فإن تنمية الأخيرة (المراكز) ترتبط عادة بتخلف الأولى (التخوم) ، وبالتالي يمكن النظر إلى التنمية والتخلف باعتبارهما مظهرين لعملية عالمية واحدة . ويعني ذلك أن كل المناطق التي تشارك في هذه العملية هي مناطق رأسمالية ، على الرغم من إمكانية التمييز بين رأسمالية المراكز ورأسمالية التخوم .

(د) لما كانت علاقة التبعية تفرض على التخوم أن تظل متخلفة بحكم استغلال المراكز لها ، فإن السبيل الوحيد لتجاوز ذلك هو أن تكسر (أي التخوم) علاقتها بالسوق العالمية ، وأن توقف عملية إمتصاص فائضها الاقتصادي ، وأن تناضل من أجل تحقيق الاعتماد الذاتي . ولكي يتحقق ذلك ، لابد من إحداث تحول سياسي ثوري . وهنا يلعب الصعيد السياسي دوراً قيادياً . وعندما تُزال العقبات الخارجية ، فإن التنمية الذاتية تصبح متاحة وممكنة .

هذا وقد خضعت كتابات نظرية التبعية لانتقادات حادة منذ نهاية السبعينيات . وربما كان كولين ليز Leys هو أول من وجه سهام نقده لها حينما قال : « لقد أصبح من الواضح أن نظرية التبعية لم تعد تنطوي على فائدة ذات بال بالنسبة لنا ، وأن من الضروري تجاوزها[١٢] » . ولقد اعتمد ليز في حكمه القاسي هذا على مجموعة من الاعتبارات منها ، أن كتابات علماء نظرية التبعية تتصف بالتكرار والجمود والدوران حول نغمة واحدة ووحيدة ، وأنها (أي النظرية) لم تستطع الاسهام في حل كثير من المشكلات ، فضلاً عن أن قيمتها العملية في مواجهة موقف التبعية محدودة للغاية . وإلى جانب انتقادات ليز ترددت انتقادات أخرى من بينها ، أن مفهوم التنمية أو الاستقلال ـ كما يبدو عند علماء

نظرية التبعية ـ يتصف بالغموض الشديد ، كما أنه ليس من الواضح لديهم ما إذا كانت الأقطار التابعة ككل هي التي تعاني من الاستغلال أم جماهيرها الفقيرة فقط هي التي تعاني منه . وفضلاً عن ذلك فإن النظرية ـ كما يرى النقاد ـ تبدو اقتصادية خالصة ، حيث لاتأخذ فيها الطبقات ، والدولة ، والسياسة ، والايديولوجية مكاناً بارزاً . كذلك فإن نظرية التبعية لاتبرز الأسباب الحقيقية المختلفة للتخلف ، حيث تقصر اهتمامها على المركز باعتباره العامل الحاكم والمحدد لموقع الدول المتخلفة داخل النظام العالمي .

والواقع ان الانتقادات التي تعرضت لها نظرية التبعية تحتاج إلى حيز أوسع من ذلك الذي نخصصه لها هنا ، خاصة وأن تلك الانتقادات ذات أبعاد مختلفة : نظرية ، وامبيريقية ، وتطبيقية . ومع وجاهة بعض تلك الانتقادات ، إلا أن نظرية التبعية قد حققت انجازات معرفية واستراتيجية هامة. ومن بين تلك الانجازات ان نظرية التحديث قد كشفت عن ضعفها الشديد منذ السبعينيات بسبب عجزها عن تقديم بديل تنموي لأقطار العالم الثالث . كذلك شجعت نظرية التبعية عدداً كبيراً من الدارسين على الاستعانة بها في إجراء دراسات ميدانية في عدد كبير من أقطار العالم الثالث ، فضلاً عن الدور الذي لعبته في ظهور استراتيجيات تنموية جديدة في بعض تلك الأقطار . لقد كان فرانك Frank بمقاله الكبير الشهير « سوسيولوجيا التخلف ، وتخلف علم الاجتماع »(١٣) الذي نشر في أواخر الستينيات أشهر ناقد لنظرية التحديث ، مما أسهم في خلق مناخ فكري تنموي جديد . وعلى طول السبعينيات بدأ جيل جديد من العلماء الاجتماعيين يتبنون نظرية التبعية في دراساتهم حول العالم الثالث . وعلى صعيد عالمي نجد فكر نظرية التبعية يفرض وجوده بقوة . ففي مناقشات النظام الاقتصادي العالمي الجديدNIEO) 6 طرحت فكرة الاعتماد الجماعي على الذات .

وخلال عقد الثمانينيات بدأ بعض كتاب نظرية التبعية وعلى رأسهم فرانك Frank يعبرون عن يأسهم الشديد من قدرة النظرية على مساعدة العالم الثالث في ظل سيطرة حكومات اليمين على الغرب ، وظهور علامات الضعف على الأنظمة

الاشتراكية . ولقد اعترف فرانك نفسه بأن ما أطلق عليه « أزمة النظام العالمي » خلال الثمانينيات قد جعلت من المحتم ظهور توجهات نظرية جديدة أكثر ملاءمة ، حيث أن بديل الثورات الاجتماعية في العالم الثالث قد أصبح صعب التحقيق(١٣) . ولاشك أن الضعف الذي أصاب نظرية التبعية قد أحدث فراغاً نظرياً كبيراً ، خاصة وأن نُقادها لم يستطيعوا حتى الآن طرح بدائل نظرية جديدة . ومع ذلك فإن الحوار الطويل المحتد الذي دار حول نظرية التبعية خلال السبعينيات قد طرح عدداً من المفاهيم والتصورات الجديدة ، وأعطى ـ بالتالي ـ دفعة قوية للمحاولات الرامية إلى صياغة مداخل نظرية وطنية من أجل النهضة والتطور الاجتماعي .

رابعاً : رؤى وطنية من داخل العالم الثالث : حالة الفكر التنموي

ربما كان أعظم انجازات نظرية التبعية أهمية هو نقل جانب من الحوار حول التنمية والتخلف إلى أقطار العالم الثالث . إلا أن معالجة مفكري ومثقفي تلك الأقطار لم تكن معالجة أكاديمية خالصة ، بقدر ما كانت محاولة لمواجهة ما أطلق عليه « الامبريالية الأكاديمية » العالمية .

وهكذا تحولت قضية التبعية إلى قضية عامة شغلت اهتمام قطاع واسع من المثقفين ، مما سبب إزعاجاً لبعض العلماء الاجتماعيين « المحترفين » الذين وجدوا أن إحدى قضاياهم المفضلة قد اعتربت عنهم ، وأصبحت موضوعاً أثيراً من موضوعات الثقافة العامة . وسأحاول فيما تبقى من هذه الدراسة مناقشة بعض المحاولات التي سعت إلى تحليل قضية التنمية في أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا من منظور قومي .

وسوف تكون محاولتي انتقائية إلى حد كبير ، ومحكومة ـ بالدرجة الأولى ـ بقدرتي على تتبع المحاولات الوطنية التنموية في القارات الثلاث .

١ ـ أمريكا اللاتينية تبحث عن ذاتها

لأسباب تاريخية معروفة هناك وجوه شبه ثقافية بين أمريكا اللاتينية والغرب ، كما أن تلك القارة تتميز بدرجة ملحوظة من التطور الاكاديمي ، وعلى الأخص في أقطارها الكبرى كالمكسيك ، والأرجنتين ، والبرازيل ، وشيلي . وهذا يعني أن القيم الغـربية لاتمثل إشكالية خاصة في أمريكا اللاتينية كما هو الحال في آسيا وأفريقيا . إن الاشكالية الهامة المطروحة في أمريكا اللاتينية تتمثل في مدى قدرة العلوم الاجتماعية على تقديم وصف دقيق وصادق لواقع التخلف ، والاسهام في صياغة استراتيجية عامة ملائمة للتغير والتطور . وربما كان الشاعر المكسيكي الشهير أوكتافيو باز Paz هو أول من أشار إلى وجود ثقافة مضادة تعبر عما أطلق عليه « المكسيك الأخرى » .

ويفـترض باز أن كل حضارة تتضمن مركبات واستعدادات وبناءات عقلية معينـة صامدة تقاوم التغيرات التاريخية المتعاقبة(١٥) وفي حالة المكسيك بالذات وبسبب جيرتها المباشرة مع الولايات المتحدة ، فإن الازدواجية قد أصبحت حقيقة واقعة . وفي ذلك يقول باز : « لقد أصبحنا الآن عاجزين عن صياغة نموذج تنموي يستوعب المتغيرات الفعلية التي نعيشها . إن التنمية في المكسيك لاتعني أكثر من اكتساب بعض الرموز والعلامات التي أفرزتها تجربة الغرب في التقدم الاقتصادي والتغير الثقافي » . وربما كان العمق التاريخي بالنسبة لأمريكا اللاتينية هو أحد أزماتها الفكرية . فحينما يطالب المثقفون بضرورة البحث عن الذات عبر التاريخ ، يواجهون حقيقة الوجود الهندي الذي ارتبط في نظر بعضهم بالعنف والقهـر والـلاإنسانية . وحينما يحاول البعض الآخر تجاوز ذلك ودراسة خبرات الاستعـمار الايبيري ، فإن التاريخ يكشف عن عنف وقهر ولا إنسانية يصعب وصفها(١٦) . وهكذا يبدو التاريخ في أمريكا اللاتينية إشكالية فكرية تنموية تحتاج إلى جهد خاص لمعالجتها وتجاوز نقاطها غير المضيئة .

وربـما كان مفهـوم الهامشية Marginality من أهم المفاهيم التي ابتكرها علم الاجتماع المكسيكي . ذلك أن بابلو كازانوفا Casanova هو أول من صك هذا

المفهـوم في سنة ١٩٦٥ للاشارة في البداية إلى فقراء الفلاحين المهمشين الذين يعانون معاناة صارخة من الفقر ، والذين ينتمون في معظمهم إلى أصول هندية . والواقع أن المكسيك تمثل حالة خاصة في مجال التنمية ، وذلك إذا ما أخذنا في الاعتبـار ثورتهـا في سنـة ١٩١٠ ومـا أحـدثتـه من تعديلات بنائية ، والتنمية الاقتصادية التي شهدتها منذ مطلع القرن ، فضلاً عن جيرتها للولايات المتحدة وعلاقتها الخاصة بها . والواقع ان اتساع نطاق الهامشية في المكسيك (في الريف والحضر على السواء) هو دليل على أن « المكسيك المهمشة » قد دفعت ثمن تنمية « المكسيك المتطورة » ، مما يفرض ضرورة البحث عن تنمية بديلة تضمن تقدمهما معاً . ومن هذه الزاوية يمكننا فهم دلالة مفهوم « التنمية العرقية » Ethnodevelopment الذي يمثل أهمية خاصة بالنسبة لأمريكا اللاتينية ، وجنوب شرق آسيا ، وبعض الأقطار الأفريقية[١٧] .

وفي كولومبيا ظهر في أواخر الثمانينيات اتجاه واضح لدى علماء الاجتماع يحاول سد الفجوة بين نظريات التنمية الغربية ، والممارسات البحثية الميدانية الموجهة في مجال السياسـة الاجتماعية . وفي هذا المجال نجد أولاندو بوردا Borda يطالب بضرورة تحليل البنـاء الـطبقي في الأقليم موضـوع الـدراسـة من أجل تحديد الجماعات التي تلعب دوراً تنموياً هاماً . وفي أعقاب ذلك يمكن التعرف على القضايا ذات الأهمية الخاصة التي تعبر عنها تلك الجماعات ، والتي تتطابق مع وعي المجتمع ككل .

ويحاول الباحث بعد ذلك تتبع الجذور التاريخية للتناقضات المحركة للصراع الـطبقي داخـل الأقليم ، ثم يطرح على الجماعات الهامة نتائج البحث بهدف ترشيد موقفهم التنمـوي واكسـاب سلوكهم مزيداً من الوضوح والفعالية[١٨] . والواقع أنه إذا كانت أمريكا اللاتينية قد لعبت دور الريادة بالنسبة للعالم الثالث فيما يتعلق بنظرية التبعية ، فإنها قد لعبت دوراً مماثلاً بالنسبة للبحوث الاجتماعية التطبيقية .

٢ ـ الهند والصين والبديل الحضاري

إذا كانت نظرية التبعية في أمريكا اللاتينية قد أثارت إشكالية التحرر الفكري على نحو ما رأينا ، فإننا نجد الاشكالية ذاتها تفرض نفسها فرضاً على آسيا ، ولكن في توقيت مختلف وسياق بنائي متباين . إن مضمون نظرية التبعية كان قد طُرح ـ بقوة وفي وقت مبكر ـ خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر في إطار نظرية « الاستنزاف الاقتصادي » التي كان قد صاغها المفكر الهندي الشهير نوروجي Naoroji في سنة ١٨٦٧ . وطبقاً لتلك النظرية ، فإن بريطانيا كانت تستنزف موارد الهند بفرض ضرائب سنوية عالية على سكانها . ولقد حرم هذا الاستنزاف الاقتصادي الهند من تطوير بنيتها الأساسية وخدماتها الاجتماعية ، ومن ثم نشأت علاقة وثيقة بين « الاستنزاف الاقتصادي » من ناحية ، والتخلف بمظاهره المتعددة كالفقر والتدهور البيئي والمجاعات والأمراض من ناحية أخرى[٢٠] . ومن الواضح أن نظرية نوروجي تعكس موقفه كوطني هندي مشتغل بالعمل السياسي ، عاش الجانب الأكبر من حياته في لندن . والواقع أن هذا المثقف قد عكس وعبر عن هموم كثير من المناضلين السياسيين الهنود في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ويمكننا مقارنة تأثير نظرية نوروجي على المجتمع الهندي بالتأثير الذي أحدثته نظرية التبعية على أقطار أمريكا اللاتينية ، وعلى الأخص في مجال تحليل آثار الاستعمار الجديد ، والتمهيد لفكرة النظام الاقتصادي العالمي الجديد[٢١] .

والملاحظ ان نظرية التبعية لم تجد لها صدى قوياً في الهند . وربما يعود ذلك إلى نظرة المثقفين الهنود نحو بلدهم ، حيث يميلون إلى النظر إليها على انها قارة ضخمة الموارد ، وأكبر من أن يستوعبها نموذج نظري بعينه حتى ولو كان نموذج التبعية . ويعتقد كثير من المثقفين الهنود ان المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها بلدهم تتجاوز بكثير الاستغلال الخارجي . وفي هذا السياق يقول عالم السياسة الهندي كوثاري Kothari : « إن نظرية التبعية تنطوي على فوائد عديدة ، ولكنها لاتفسر لنا لماذا لاتحدث التنمية الذاتية . إننا نستطيع توجيه اللوم للمستغلين

الخارجيين ، ولكننا لانقف طويلاً أمام الاستغلال الداخلي الذي يُمارس بواسطتنا وداخل مجتمعنا . ، ومع ذلك كله ، فما لم تحدث تغيرات في مراكز العالم ، فإن التخوم سوف تظل تعاني ثقافياً ، وفكرياً ، وقبل ذلك اقتصادياً »(٢٢) .

وخـلال سبعينيات القرن الحالي شهدت الهند حواراً خصباً وممتعاً دار حول إمكانية إقامة علم اجتماع هندي وطني . وكان عالم الاجتماع الهندي أوبيروي Uberoi قد عبر في أواخر الستينيات عن شيء من هذا القبيل حين قال : « إن تصفية مظاهر وبقايا الاستعمار في مجتمعنا شيء ضروري ، ولكن علينا أيضاً أن نأمم مشكلاتنا ، ونتجه مباشرة لمواجهتها بالطرق التي تتناسب مع أهدافنا .

ومن هنا يجب تأسيس مدرسة فكرية وطنية واعية بمشكلاتنا الداخلية ، غير منعزلة عن التيارات الفكرية العالمية (٢٣) . ويجد المثقفون الهنود المعنيون بالتنمية الاقتصادية والتغير الثقافي أنفسهم في مواجهة رصيد حضاري ضخم ومعقد ، مما دفع بعضهم إلى إعادة إحياء بعض العناصر الحضارية ، كما هو الحال في الدعوة إلى السنسكـرتية Sanscritization عنـد شرنفاس Srinivas التي من شأنها تدعيم الحراك الاجتماعي في ظل نظام الطوائف الهندية ، وإيجاد علاقات دينامية بين الثقـافـة الهندو سية السائدة والثقافات المحلية الأخرى في الهند(٢٤) ، وفي بلد كالهنـد ذات تقـاليد حضـارية قديمة ، نلمس اتجاهات فكرية رافضة لنظرية التحديث الغربية التي تنظر باستخفاف إلى التقاليد والأعراف الوطنية على أنها عقبات تحول دون التنمية ، مما دفع أنثروبولوجي هندي شهير هو ديوب Dube إلى القـول : « إن التقـاليد في مجتمعنـا الهنـدي هي معيننا الحضاري ، ورصيدنا التاريخي ، الذي بواسطته يمكن ادراك الحاضر والتطلع إلى المستقبل » .

ومن الصعب تحليل الرؤى الوطنية الهندية للاستقلال الفكري دون الاشارة إلى التأثير الذي أحدثه المهاتما غاندي . لقد كان نضال غاندي من أجل التحرر السياسي هو نضـال من أجل إحياء الحضارة الهندية ، تلك قضية درج العلماء الاجتماعيون الهنود على تكرارها عند ذكرى ميلاد أو وفاة غاندي . وعلى الرغم من وعي غاندي الشديد بهندوسيته ، إلا أن فكره يعكس انفتاحاً شديداً . لقد

كان غانـدي ينظر إلى البيئة الهندية على أنها معمل للعمل الاجتماعي ، ومجال لتطبيق السياسات الاجتماعية . أما الفقراء الهنود فكانوا ـ في نظره ـ هدف التنمية الأقصى ، كما أن النظام العالمي القائم على السلم والتضامن كان هو الأمل الذي طالما راود خياله .

وربما كان تأثير ماوتسى تونج في الصين في مواجهة التبعية الفكرية والاستقلال المعرفي أكثر وضوحاً ونضجاً وعمقاً من تأثير المهاتما غاندي في الهند . فإذا كان غاندي قد شكل رمزاً لتوطين العلوم الاجتماعية وطبعها بطابع وطني ، فإن الدور الذي لعبه ماو في هذا المجال كان مباشراً وصريحاً . لقد واجه ماو ضرورة التوفيق بين المـاركسية كايديولوجية عالمية ، وبين الممارسة السياسية الخاصة التي ميزت التجربة الاشتراكية الصينية . لقد سعى ماو إلى القضاء على التناقضات الثلاث المعروفة التي كان إحداها التناقض بين العمل اليدوي والعمل الفكري . وعلى الـرغم من أن ماو كان ينـظر باستخفـاف إلى الجـوانب الاكاديمية من العلوم الاجتماعية ، إلا أنه كان يعتقد في الوقت نفسه أن البحوث الاجتماعية تشكل أساساً هاماً من أسس العمل السياسي . وفي هذا المجال يقول ماو : « لاتستطيع القيادة الجيدة أن تمارس مهامها دون معرفة دقيقة بالظروف الواقعية التي تعيشها الطبقات في المجتمع الصيني . ولايمكن الوصول إلى تلك المعرفة إلا من خلال دراسة المجتمع والتعرف على أحوال طبقات المجتمع المختلفة »[٢٥] .

ولقد أكد ماو على دور البحوث التطبيقية الموجهة لخدمة الأغراض العملية ، حتى أنه اعتبرها الانجاز الأساسي للعلوم الاجتماعية وتسهم نتائج تلك البحوث إلى جانب العمل في المزارع والمصانع في تشكيل شخصية العامل على المستويين الفكري والانتاجي . وهكذا نجد ماو لايفرق بين أدبيات العلوم الاجتماعية من ناحية ، وبـرامـج الحـزب وسياساته من ناحية أخرى . وصل إصرار ماو على تأسيس مصـادر وطنية للمعرفة إلى قمته خلال الثورة الثقافية . ويميز ماو بين نمطين من البحوث الاجتماعية . أما النمط الأول فهو علاجي وتربوي يقوم على إعـادة كادرات الحزب والموظفين والدارسين إلى المزارع الجماعية والمصانع حتى يظلوا على صلة دائمة بالواقع المعاش ، ولتتاح لهم فرصة إعادة اكتساب المهارات

والتقاليد المحلية . وبهذه الطريقة تضيق الهوة بين العمل العقلي والعمل البدني ، وبين المدينة وبين الريف .

أما النمط الثاني من البحوث الاجتماعية فهو ذلك الذي يوجه نحو دراسة موضوع أو مشكلة بعينها من خلال فرق بحثية . والهدف من تلك البحوث هو الحصول على بيانات دقيقة حول الظروف المحلية المختلفة . وهكذا يبدو واضحاً ان التجربة الصينية الاشتراكية قد اكتفت بالبحوث الاجتماعية الموجهة لخدمة الأغراض العملية ، ولم تشجع ـ بالتالي ـ محاولات التنظير على النمط الغربي . والواقع أن البحوث الاجتماعية الصينية قد لعبت دوراً هاماً في دعم التجربة الاشتراكية ، وإقناع الجماهير بجدواها العملية . ومن الطبيعي أن تتغير أولويات البحث الاجتماعي في الصين الآن في ضوء التحولات الهامة الصامتة التي يشهدها هذا البلد . وإذا كان لنا أن نختتم هذا التحليل قلنا ، إنه إذا كانت العلوم الاجتماعية في أمريكا اللاتينية قد قدمت إنجازات هامة متمثلة في نظرية التبعية ، متجاهلة إلى حد ما تحليل البنية الداخلية لمجتمعاتها ، فإننا نجد العلوم الاجتماعية في آسيا تبدي اهتماماً أكبر بالطاقات والامكانيات المحلية التي تعوق التنمية ، واكتشاف الدعائم الثقافية التي تكفل انطلاقتها . إنها محاولة البحث عن بديل حضاري ملائم لمجتمعات عميقة الجذور .

٣ ـ أفريقيا ومسيرة التحرر الفكري

أفريقيا مثال واضح على الاختراق الفكري الحديث مع قاعدة أكاديمية ضعيفة . لقد تزامنت عملية الاختراق الفكري الغربي لافريقيا مع عملية التحرر الفكري ، على الرغم من أنها تمت في سياق مختلف . وكان العصر الذهبي للفكر الاجتماعي الافريقي الوطني هو ذلك الذي واكب النضال من أجل الاستقلال السياسي والفترة اللاحقة على تحقيقه[٢٦] . فخلال تلك الفترة ظهرت الأفكار السياسية التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ الافريقي الحديث . ويكفي أن نتأمل الاسهامات الفكرية المختلفة التي قدمها مفكرون وزعماء من أمثال كوامي نيكروما ، وسيكوتوري ، ونيريري ، وسنجور ، وكينياتا ، ولومومبا ، وفانون ،

وكـابـرال . إن مجموع ما قدمه هؤلاء المفكرون يشكل علم اجتماع « شعبي » لايقل أهمية وخصوبة عن مدرسة التبعية في أمريكا اللاتينية ، والبحث الاجتماعي عنـد ماوتسي تونـج . لقد كانت إسهامات المفكرين الأفارقة سياسية بالدرجة الأولى ، اهتمت بتحليل الموقف الاستعماري ، والكشف عن الهوية الأفريقية ، وصياغة الاستراتيجيات المختلفة القادرة على تحقيق الاستقلال السياسي والتحرر الفكري .

ولقـد ارتبط الفكر الاجتماعي والسياسي الأفريقي المبكر بمواجهة التحدي الغربي والتعامل بشكل مباشر مع الخبرة الاستعمارية . ولقد أشار توماس هودجن Hodgein (وهو أحد علماء السياسة البريطانيين المعنيين بالشئون الأفريقية) إلى أن هنـاك اختـلافـاً ملحوظاً بين النظريات الغربية المعنية بالامبريالية وقريناتها الأفـريقية . فبينـما تركـز النـظريات الأوروبية على الأسباب التي دفعت العالم الـرأسمالي إلى الامبريالية والسيطرة ، نجد النظريات الافريقية تركز على الآثار السلبية للامبريالية على أفريقيا[٢٧] . ولقد بذل المثقفون والمفكرون الأفارقة جهداً كبيراً لكشف الزيف والعنصرية والتحيز الكامن في العلوم الاجتماعية الغربية ، كما حاولوا منح بعض المفاهيم السياسية الغربية طابعاً إفريقياً كما هو الحال بالنسبة لمفهوم الاشتراكية الافريقية[٢٨] .

وخـلال عقد السبعينيات شهدت أفريقيا مرحلة جديدة على طريق التحرر الفكـري ، ليس فقط على الصعيد الثقـافي العـام ، بل أيضاً في نطاق العلوم الاجتـماعية ذاتها ، ولاشك أن الجدل العالمي الذي ثار حول قضية التبعية قد أعطى دفعة قوية للفكر الاجتماعي الأفريقي ، ومنح « مدرسة دار السلام » قدراً كبيراً من الحيوية . وكنتيجة لذلك بدأت عملية « أفرقة » العلوم الاجتماعية على مستوى العلماء والمفاهيم والنظريات . وربما كان أوضح مثال على ذلك ما حدث لمعهد الدراسات التنموية Institute of Development Studies في نيروبي ، الذي نشـأ نشـأة استعـمـارية ، ثم « تأفـرق » تدريجياً . ولايعني ذلـك أن العلماء الاجتـماعيين الأفـارقـة قد اتخـذوا مواقف نقدية حاسمة من العلوم الاجتماعية

الغـربية ، ذلـك أن التغييرات التي طرأت على برامـج المقـررات الدراسية في الجـامعـات الافريقية ، وأنماط البحوث التي أجريت لا تكشف عن مثل تلك المواقف على وجه العموم . ومع ذلك كله فلقد بدأت الجامعات الأفريقية تشهد منذ عقد الثمانينيات احتجاجات متزايدة على تقليدية المقررات الدراسية والبحوث الاجتماعية ، ومطالبات دائمة بضرورة التفاعل مع المشكلات الافريقية الملحة كالفقـر ، والتصحـر ، والتدهور البيئي ، والنمو العشوائي الحضري ، وعدم الاستقرار السياسي ، وتدهور الهياكل الانتاجية .

أما الدراسات الافريقية التي انطلقت من منظور التبعية فقد أجرى معظمها علماء أفارقة يعيشون إما في أوروبا أو في منطقة الكاريبي . وربما كان الاستثناء البارز من هؤلاء هو عالم الاقتصاد المصري سمير أمين الذي أجرى مجموعة من الدراسات الهامة حول شمال وغرب أفريقيا وذلك في سياق عالمي . ويقف سمير أمين في أفريقيا صامداً مدافعاً عن نظرية التبعية ، وان كان قد بدأ يغير اهتماماته وأولوياته البحثية خلال النصف الثاني من الثمانينيات ، شأنه في ذلك شأن عدد كبير من ممثلي هذه النظرية . ويعد سمير أمين وأندر فرانك Frank ، ووالرشتاين Wallerstein من أظهـر الـذين طوروا مفهـوم النـظام العـالمي ، وبالتالي اتجهوا بفكرهم نحو العالمية ، وابتعدوا كثيراً عن المحلية . ومع ذلك كله فلقد بدأ سمير أمين منذ نهاية الثمانينيات يبدي اهتماماً واضحاً بقضايا الأمة العربية ومكوناتها الحضارية ، بل إنه قد أخذ مؤخراً يطرح مفهوم « التحالف الشعبي » كمدخل للتنمية ، وهو تحول درامي يعكس اليأس الشديد الذي يستشعره مفكر ظل يبني أحلامه الفكرية على حتمية حدوث تحولات جذرية داخل النظام العالمي القائم على التناقض .

والـواقـع أن محاولات الاستقـلال الفكـري الأفريقي خلال الثمانينيات قد واجهت ظروفـاً قومية بالغـة السوء . فالعقد شهد صراعات إقليمية عديدة ، وتـدهـوراً اقتصـادياً شديداً ، وهجـرات جماعية اضطرارية على نطاق واسع ، وأنظمة سياسية تسلطية تكافح من أجل الاستمرار في السلطة مستخدمة كل ما هو متاح من أساليب القمع والقهر . وربما كانت حالة الصومال في الشرق وليبيريا

في الغرب مثالين صادقين على ما نذهب إليه هنا ، وفي مواجهة تلك الظروف القاسية ، وعجز النظريات العالمية الكبرى عن تقديم عون تنموي لتلك القارة ، نجـد عدداً من علمائها الاجتماعيين يلجأون مباشرة لتحليل الواقع الاقتصادي والاجتماعي لمجتمعاتهم . ولعل أوضح مثال على ذلك عالم الاقتصاد الغاني كوفي Kofi الذي تأثر في البداية بنظرية التبعية ، لكنه ما لبث أن طالب بضرورة دراسة القطاع « التقليدي » في الريف والحضر الأفريقي ، بدلاً من التركيز على القطاع « الحديث » وذلك بهدف صياغة نظرية ملائمة تضمن مشاركة اقتصادية فعالة للقوى المنتجة الأساسية . والملاحظ أن الأقطار الأفريقية قد شهدت تحولاً أساسياً فيل أعقـاب حصـولها على الاستقـلال السياسي ، يتمثـل في ضمـور القطاع « الحـديث » وابتـلاع القـطاع « التقليدي » له ، مما يعني أن الـدور التنموي للقطاع « الحديث » قد أصبح محل شك وتساؤل . ولقد عبر عن ذلك باحث غاني هو لوكي Lukey حيث قال : « لم يتحقق الحلم الذهبي طالما حلمنا بتحقيقه وهـو أن ينتشر ويتسع القطاع الاقتصادي الحديث في مجالات الانتاج والتجارة والخدمات . وبدلاً من ذلك وجدناه ينقرض ويتحول إلى نقطة مضيئة تخبو تدريجياً »(٣٠) .

والـواقـع أن الأزمـة الاقتصـادية الشـديدة التي عانت منهـا أفـريقيا خلال الثمانينيات لم تنعكس سلبياً على أحوال الشعوب فقط ، بل انعكست سلبياً أيضاً على محاولات الاستقلال الفكري . لقد كان عمر تلك المحاولات قصيراً جداً ، كما أن فترة الـوفاق بين الجامعات والحكومات الأفريقية كانت محدودة للغاية . وحينما بدأ صندوق النقد الدولي والبنك الدولي يتدخلان بنشاط في تلك القارة ، بدت جهود العلماء الاجتماعيين من أجل التحرر الفكري عبثية وخالية من المعنى بالنسبـة للأنـظمـة السياسية من ناحية ، وجمـاهـير الشعوب الفقيرة من ناحية أخرى . وهكذا يمكننا القول إن المحاولات الشجاعة التي بذلت في مجال التحرر الفكـري في أفـريقيا خلال السبعينيات قد واجهت عقبـات محلية ودولية . إن الاستقلال الفكري هو مظهر للاستقلال الاقتصادي الذي يجب أن يبدأ بتبني

استراتيجية الاعتماد على الذات . وإذا كانت ملامح التحرر الفكري في أفريقيا قد بدت قوية خلال فترة مقاومة الاستعمار ، فإن الانتكاسات المتتالية التي منيت بها تلك القارة قد أضعفت من فرص نمو وانتشار المحاولات المستميتة التي بذلها المفكرون والمثقفون الأفارقة من أجل إيجاد مجتمع قادر على إعادة إنتاج نفسه فكرياً على نحو يضمن له التكيف السريع مع التطورات العالمية دون أن يفقد توازنه الفكري أو أولوياته التنموية .

المراجع والهوامش :

(1) Asad, T; (ed.) Anthropology and the Colonial encounter, Ithaca Press, London, 1973, p. 10.

(2) Cockroft, J; Frank, A; Johson, D. (eds), Dependence and underdevelppment : Latin America's Political Economy, New York, 1972. P. 308.

(3) Atal, Y, (ed), Social Sciences in Asia, Abhinav Publications, New Delhi, 1974, P. 23.

(4) Mac Farquhar, R; (ed) The hundred Flowers Campaign and the Chinese Intellectuals, Octagon Books, New York, 1974, PP. 28-29.

(5) Temu, P, "Reflections on the Role of Social Scientists in Africa", International Social Science Journal, XXVII (1), 1975, P. 83.

(6) Ake, C; Social Sciene in Nigeria, workimg Paper, CODESRIA, 1979. P. 3.

(7) Atal, Y; "The call for Indigenization" International Social Science JOurnal, 32 (1), 1981, PP. 189-197.

(8) Friberg,, M; et al; Societal change and Development Thinking: an Inventory of Issues, United Nations University, GPID Project, Tokyo, 1979.

(٩) انظر السيد الحسيني ، التنمية والتخلف ؛ دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٣ ، وكذلك مقالي « نظرية التبعية : حوار وجدل » ، الكتاب السنوي لعلم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

(١٠) انظر الفصل الثاني من كتابي التنمية والتخلف ، المرجع السابق ، حيث نجد استعراضاً مستفيضاً لأفكار علماء اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية ، وأنظر كذلك

(11) Dos Santos, "The struture of dependency, American Economic Review, 60 (21) May 1970.

(12) Cardoso, F; Falitto, E, Dependency and development in Latin America, University of California Press, Berkley, 1979, P. 8.

(12) Leys, C; "Underdevelopment and dependency: Critical notes", Journal of Contemporary Asia, 7 (1), 1977, P. 68.

(١٣) ترجمت هذا المقال إلى العربية في سنة ١٩٧٣ تحت عنوان علم اجتماع التنمية ، ونشر في كتاب ميادين علم الاجتماع ؛ تحرير محمد الجوهري وآخرون ، دار المعارف ، ١٩٧٤ .

(14) Frank, A; Reflections on the World Economic Crisis, Monthly Review Press, New York, 1981,

(15) Paz, O; The other Mexico: Critique of the Pyramid, Grove Press, New York, 1972, P. 75.

(16) Jorrin, M; Martz, J; Latin American Political Thought and Ideology, University of North Caroline Press, Chapel Hill, 1970.

(17) Collier, d; The New Authoritarianism in Latin America, Princeton University Press, 1979.

(18) Rudgvist, A; Peasant Struggle and Action Research in Columbia, Department of Sociology, Uppsala, 1986.

(19) See Aguilar, L; (ed.) Marxism in Latin america, as Alfred A Knopf, New york, 1968.

(20) Hettne, B; Development Theory and the Three Worlds, John Wiley & Sons, N. Y.; 1990, P. 103-104.

(21) Baran, P; The Political Economy of Growth, Monthly review Press, New York, 1957, P. 149.

(22) Kothari, politics in India, Little Brown, Boston, 1970, P. 39.

(23) Uberoi, J; Science and Swarea: Contributions to Indian Sociology, New Series, 1968, : 2, P. 123.

(24) Srinivas, M; "'Reflections on the Study of One's own Society" in social Change in Mofdern Indian, University of California Press, California, 1968, p. 214.

(25) Wreng, Siu, Lun, Sociology and Sociolism in Contemporary China, Routtedge Pregan Paul, 1979.

(26) Atta - Mills, L; The Role of Social Scientists in Development : The Rise, Fall and Rebirth of Social Science in Africa, CODSERIA, workinf Paper No. 10, Dakar.

(27) Hodgkin, T; Some African and Third World Theories of Imperialism, in Owen, R; Sutcliffe, (eds.) Studies in the Theory of Imperialism, Longman, London, 1972.

(28) Klinghoffer, A; Soviet Perspectives on African Socialism, Rutherford Fairleigh Dickinson University Press, Cranbury, N. J. 1969, P. 16.

(29) Uchendu, V; (ed.) Dependency and Underdevelopment in West Africa, Brill, London, 1980.

(30) Lukey, F; Independence and into the 21st Century – an Appraisal of the future in Ghana, UST, Kumasi, 1979.

انماط التفاعل بين وحدات المعيشة واقتصاد السوق في قرية مصرية

د. فوزي عبد الرحمن
مدرس بقسم الاجتماع ـ جامعة قطر

هذا البحث هو عرض لدراسة ميدانية اجريت في إحدى القرى المصرية ، وذلك بهدف الكشف عن أنماط التفاعل بين وحدات المعيشة واقتصاد السوق ، ولقد اشتمل على جزئين الأول وهو التحليل النظري الذي انطلق من بعض الأفكار والآراء التي تضمنها التراث السوسيولوجي لرواد مدرسة التبعية حول عمليات التغير والتطور التاريخي التي تحدث في المجتمعات النامية كانعكاس لذلك ، والآثار المترتبة على هذه الآثار في الأبنية الاجتماعية المختلفة بالمجتمع ، في إطار عملية التنمية الشاملة .

ووفقاً لهذه الرؤية اقتضى التناول التعرض للسياق التاريخي الذي تشكلت فيه المتغيرات المختلفة بالقرية المصرية في إطار المجتمع المصري والمؤثرات العالمية . مع ملاحظة أن تناولنا للأفكار النظرية لرواد التبعية قد اقتصر على الجزء الخاص بوحدات المعيشة دون التعرض لكافة أفكار هذه النظرية .

وفي الجزء الثاني من البحث تضمن التحليل نتائج الدراسة الميدانية على إحدى القرى المصرية وذلك للكشف عن أنماط التفاعل بين الانتاج المتغير بالريف المصري والذي يكاد يمثل استجابة للمؤثرات التي وفدت من خارجه حيناً ومن داخله حيناً آخر لتنسحب على القرية بدورها ، وليس ذلك فحسب ، بل استجابت وحدات المعيشة لهذه المتغيرات لتلعب دورها في هذا التفاعل بمستوياته المختلفة .

ولقد استخدمناً في إنجاز هذه الدراسة المنهج الانثروبولوجي وذلك لإتساق هذا المنهج وطبيعة الدراسة في الوحدات الاجتماعية المحدودة النطاق وهي وحدات المعيشة ، وإذا كان التحليل السوسيولوجي يهتم برصد الظواهر وتأثيرها في عموميتها بمجتمع من المجتمعات ، فإن التحليل الانثروبولوجي يحاول فحص آثار هذه الظواهر في الأبنية الاجتماعية المحدودة في نطاقها دون انتزاعها من سياقها العام الذي شكلها ، عندئذ يصبح التحليل السوسيولوجي والانثروبولوجي معاً ضرورة تمليها طبيعة الموضوع ، كما يصبح كل منها مكمل للآخر .

وسوف نتناول الموضوع في العناصر التالية :

أولاً : القرية المصرية والسياق المحيط :

أ ـ روافد التأثير بين وحدات المعيشة والمؤثرات الخارجية .

ب ـ روافد التأثير والتفاعل بالقرية المصرية

ج ـ التركيب المحصولي بالقرية ومتغيرات السوق (تحليل نظري وميداني) .

ثانياً : الاطار المنهجي للدراسة :

أ ـ مجتمع القرية (الخصائص الاجتماعية والثقافية) .

ب ـ المنهج والأدوات وعينة الدراسة .

ج ـ تحليل لنتائج الدراسة الميدانية :

- وحدات المعيشة بقرية الدراسة بين الوفاء بحاجاتها الأساسية وتطلعات السوق .
- وحدات المعيشة والإنتاج والإستهلاك .

أولاً : القرية المصرية والسياق المحيط :

من الملائم ونحن نتناول موضوع انماط التفاعل بين وحدات المعيشة واقتصاد السوق في قرية مصرية أن نتناوله في سياقه الأكثر اتساعاً ودون انتزاعه من الإطار العام الذي يشكل هذا التفاعل ، فوحدات المعيشة مرآة صادقة ينعكس فيها الكثير من هذه التأثيرات التي تدور في مجتمع القرية كما سبق ان ذكرنا ، والتي هي بدورها قد تسللت إلى القرية من المجتمع الكبير ، ولا نبالغ إذا قلنا أن بعضها قد وفد إلى المجتمع الكبير من مؤثرات خارج نطاقه الجغرافي ، وتقتضي الدراسة هنا الوعي بالجوانب المختلفة التي تشكلت في إطارها موقف وحدات المعيشة أو هذه الأبنية الاجتماعية كالقرية والتكوينات الاجتماعية بداخلها ، كما يقتضي البحث التنقيب داخل هذه التكوينات لرصد موقف التفاعل بشكله الجديد ، والذي يتشكل دائماً في ضوء هذه المؤثرات سواء عبر مراحل التاريخ بالنسبة للقرية ، أو في الوقت الراهن .

أ - روافد التأثير بين وحدات المعيشة والمؤثرات الخارجية :

يحفل التراث الانثروبولوجي والسوسيولوجي بالكثير من الرؤى النظرية التي بذلت من قبل الباحثين لرصد عمليات التغير والتطور التاريخي التي تحدث في البلدان النامية في إطار الرأسمالية بإعتبارها مركزاً للتأثير وفي توجيه الحركة الاجتماعية لهذه البلدان ، وتأتي في مقدمة هذه الرؤى أفكار رواد مدرسة التبعية بدءاً من أعمال جوندر فرانك وسمير أمين وايمانويل والرستين وانتهاءً بمقولات رواد التبعية الجديدة الممثلة في أفكار فرناندو كاردوسو وأنزو فاليتا[1] .

وفي سياق آخر يقدم بعض الباحثين أفكارهم حول أهمية تحليل النظم الانتاجية واسهامات وحدات المعيشة في ذلك بمجتمعات العالم الثالث في إطار السياق الخاص بالتنمية القومية لهذه البلدان ومبررهم في ذلك هو ارتباط تلك المجتمعات وتأثرها بتقسيم العمل الدولي ويوضحون تلك العلاقة في الشكل التالي للتفاعل :

يقسم العمل دوليا	رأسمال دولي
تجمعات طبقية بناء الانتاج	
يقسم العمل حسب الجنس	رأسمال قومي
انماط اقليمية للانتاج تنوع في عملية العمل الاجتماعي	الأسرة والمنزل

عندئذ يصبح من الملائم لفهم هذه العلاقات دراسة البناء الاجتماعي للمجتمع الذي تتم فيه الدراسة وذلك في إطار التطور التاريخي للرأسمالية الدولية ، إذ أن دول المحيط التي هي على هامش الدول الكبيرة قد خضعت لمتطلبات الدول المسيطرة في ميدان التراكم الرأسمالي الدولي ، وقد يحدث في لحظة تاريخية معينة ان تصبح احدى دول العالم الثالث مورداً للمواد الخام اللازمة للتصدير أو سوقاً لاستقبال منتجات دول المركز ، وقد يحدث في فترة تاريخية أخرى أن تقوم دولة أخرى بدور المورد للعمالة الرخيصة لانتاج السلع الدولية ، ويرى كل من « بول باران وفرانك » أن هذه هي الأشكال المتغيرة لتكامل اقتصاديات الدول التابعة مع اقتصاديات الدول الكبيرة(٢)

وجدير بالذكر أن هذه التحليلات النظرية قد قدمت العديد من الفروض التي أمكن اختبارها في كثير من دول العالم الثالث ، كما اسهمت هذه الجهود إلى حد كبير في كشف أشكال العلاقة والتأثير المتبادل بين قوى اجتماعية غير متوازنة بدرجات متفاوتة وتظل قيمة هذه الأفكار رهناً بتفسيرها لواقع العالم الثالث ذات الخصوصية التاريخية المتميزة .

يضاف إلى رؤية رواد التبعية تلك الآراء التي طرحها رواد المادية التاريخية في القائهم الضوء على تأثير العلاقات الاقتصادية الرأسمالية وما تحدثه من تناقضات

في الأبنية الاقتصادية للمجتمعات النامية وبشكل خاص عند دخول رأس المال ، إذ أن ذلك يقوض من دعائم الانتاج في الأبنية الصغيرة ، وتتحول في غضون ذلك من وحدات منتجة إلى وحدات مستهلكة ، ويتم ذلك في إطار خلق ثقافة للاستهلاك يتم عن طريقها تداول السلع بناء على طلبها مهما كان أساس هذا الطلب وقد تكون المنتجات المتبادلة فائضاً عن الحاجات المباشرة لمنتجين مستغلين أو أنها انتجت خصيصاً لهذا الغرض ، كما أن تطور الرأسمالية التجارية وانتقالها إلى ارجاء المجتمعات التقليدية يؤدي إلى اكتساب الانتاج بما يعرف بصفة الانتاج من أجل القيمة التبادلية ، كما تتحول المنتجات في هذا الإطار إلى سلع ، ويؤدي جزء من فائض التجارة إلى توسيع دائرة التجار وليس توسيع دائرة الانتاج . كما يصبح سكان المجتمعات التقليدية منخرطين في البحث عن دخول نقدية لمواجهة الاحتياجات النقدية المتزايدة ، وغير ذلك من الآثار السلبية كتدهور الانتاج المحلي واختلال خريطة الأنشطة الاقتصادية والمهن ، وظهور أنشطة اقتصادية تتفق وطبيعة النشاط الاقتصادي الوافد على المجتمع[٣] .

وتستشهد هذه الدراسات ببحوث امبيريقية برهنت على أن مساهمات أفراد الوحدة المعيشية في المجتمعات الزراعية في إطار الظروف التي تتحرك في غضونها إنما تعكس وتوضح الأوضاع التي تساعد على الاحتفاظ بأرخص مصدر للعمالة من أجل التوزيع الاقتصادي ، وثمة فروق واضحة بين الآثار التي تترتب على الانتاج المعيشي والعمل المنزلي تنعكس على انتاج القوة العاملة واعادة انتاجها في الانماط الاقتصادية المتباينة بين دول المركز ودول المحيط وتتبدى هذه الفروق في أن الوحدة المنزلية في الدول المتقدمة اقتصادياً يزيد استفادتها من الاجر وذلك بتحويل السلع إلى سلع ذات قيمة استعمالية ولذلك فهي تحتفظ للعامل بمستوى معيشي أفضل ، أما الوحدة المعيشية الريفية فتنتج السلع والخدمات والتي تشترى بالاجر في مكان انتاجها في ضوء التحولات التي تحدث كمحصلة لتأثيرات التحول الرأسمالي في هذه المجتمعات ، وبشكل عام فان الوحدة المعيشية بالنسبة للمنتجين الزراعيين هي الوحدة الأساسية للإنتاج والاستهلاك .

ويذهب مياسو (Meillassouh) إلى القول بأن قوة العمل الزراعية يمكن أن تكون رخيصة إذا ما تم إنتاجها خارج نطاق الأساليب الرأسمالية للانتاج ، أي أنها تبقى كذلك طالما أن عملية إنتاجها واعادة انتاجها تتم في إطار الوحدة المعيشية ، والتي مازالت منظمة بوصفها وحدة للانتاج والاستهلاك[٤] .

ويقدم بعض الباحثين[٥] تحليلاً آخر حول دور الأسرة كوحدة انتاجية ريفية في دول المحيط التابع ، وكيف تؤدي العديد من الوظائف المختلفة لخدمة عملية التراكم الرأسمالي من خلال مؤشرات تاريخية من بلدان مختلفة ، ووسائل اندماج الأسرة واستجابتها لمتغيرات السوق ، وذلك من خلال تحليل العلاقة بين التغير الاقتصادي وسعي الأسرة للانجاب ، ويؤكد وجهة النظر هذه من موقف الأسرة في بدايات عصر التصنيع بفرنسا ، وبشكل خاص لدى الأسر التي هاجرت إلى المدن بحثاً عن العمل المأجور ، وكيف سعت هذه الأسر إلى زيادة عدد أفرادها الذين يمكن أن يحصلون على أجر ، وغير ذلك من النماذج التي تعكس مظاهر ذلك التفاعل بين الأسرة كوحدة معيشية وعمليات التغير الاقتصادي كما حدث للاسرة في انجلترا ، وعلاقة ذلك بالنمو السكاني السريع والذي صاحب دخول قوة العمل الزراعية إلى ميدان العمل المأجور واندماجها في النظام التجاري الواسع .

وفي التحليل المعاصر للمجتمعات الريفية في بلدان العالم الثالث تؤكد بعض الدراسات أن استراتيجية البقاء لدى وحدة المعيشة في المستويات الطبقية الدنيا تقتضي المزيد من الانجاب ، والمزيد من بذل الجهد والعمل المتواصل ، حيث تفتقد الأسرة في هذه المستويات الطبقية القدرة على امتلاك وسائل الانتاج ، ومن ثم تصبح أكثر ميلاً لتأكيد مكانتها بين غيرها من الطبقات الاجتماعية الأخرى من خلال الانجاب والعمل في كافة مجالات النشاط الزراعي بالاجر[٦] .

معنى ذلك أن وحدة المعيشة كوحدة للانتاج والاستهلاك تعد ذات أهمية بالغة ، وتحليلها من هذا المنظور يتيح لنا فهم الكثير من عمليات الانخراط في

عمليات السوق بمفهومه الواسع المحلي والعالمي وكيف تكون استجابتها للكثير من المتغيرات والتي تتسلل إلى كافة الأبنية الاجتماعية أكبرها واصغرها حجماً ، كما يلقى الضوء على عمليات التكامل التي تتحقق بين الأبنية الاجتماعية المحدودة النطاق والمتغيرات العالمية ، ويمكن للبحوث الانثروبولوجية أن تلقي الضوء على هذه العلاقات وتختبر مدى تحققها في واقع بلدان العالم الثالث إذ أن ذلك يتسق ومجال اهتمامها وأسلوب البحث فيها من حيث تركيزها على دراسة المجتمعات الصغيرة و الأبنية الاجتماعية المحدودة .

ب - روافد التأثير والتفاعل بالقرية المصرية :

تفاعلت مجموعة من العوامل التاريخية والمعاصرة كان لها أكبر الأثر في تشكيل نمط الحياة بالريف المصري عامة والقرية بوجه خاص ، بعض هذه العوامل تاريخي والبعض الآخر تشكل في عقود زمنية معاصرة ، ولقد انصهرت هذه المؤثرات في وعاء القرية المصرية ليشكل الحركة الاجتماعية بها ، فالريف المصري اعتمد في نشاطه الاقتصادي لقرون طويلة على الانتاج الزراعي ، ومثلت محاصيل الغذاء أساس التركيب المحصولي للانتاج ، والقطن كان ركيزة هذه المحاصيل النقدية التي كان يتم تسويقها لتحقق قدر من الرواج بالقرية وكان يستهلك جزء من إنتاجه داخل المجتمع المصري ، والجزء الآخر كان يصدر إلى الخارج ، واستحوذت انجلترا أبان فترة الاحتلال على الجزء الأكبر منه .

ولقد تباينت اشكال العلاقة بين الدولة كسلطة حاكمة والفلاح منذ حكم محمد علي وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ما بين مركزية سلطة الدولة المطلقة على الانتاج الزراعي ، وترك ما يكفيه لبقائه على قيد الحياة وما بين صياغات أخرى لهذه العلاقة ، فتاريخ المعاناة التي عاشته القرية المصرية طويل ممتد بجذوره إلى الماضي السحيق ، ففي قرابة القرن الخامس عشر شهدت القرية المصرية صراع المماليك والعثمانيين على أرض مصر ، وقدمت القرية من الأموال التي فرضت على أهلها ما أثقل كاهلهم ، والذين لم يكن لهم حرية التصرف في الأرض ولا فيما تغله من محاصيل ، ثم جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ لتعيد صياغة

استغلال الأرض ومن عليها ، وتفنن الفرنسيون في جمع الضرائب . وفي عهد محمد علي أصبحت كافة الأراضي مملوكة للدولة ، وعملت مجموعة كبيرة من الفلاحين كعمال زراعيين بأجر زهيد في مزارع الدولة ، وتشكلت في سياق الاجراءات التي اتبعتها حكومة محمد علي ملامح التكوينات الطبقية في الريف ، وفي غضون ذلك تحولت الزراعة من زراعة محاصيل الحاجات الغذائية إلى انتاج القطن الذي وجه إنتاجه إلى الأسواق العالمية حيث مصانع الغزل والنسيج في أوروبا .

وإذا كنا نعرض هذه الأحداث التاريخية التي مر بها الريف المصري في عجالة شديدة فإن هذه الأحداث قد حملت في طياتها الكثير من مؤثرات التشكيل لبنية الحياة في الريف ، فقد أفرزت جماعات المصالح الخاصة من جباة الضرائب ، ورجال الاقطاع الذين اتيحت لهم فرصة شراء مساحات من الأرض في لحظات فقدان السيطرة عليها من قبل النظم الحاكمة ، كما انتجت غالبية عظمى من الفقراء والمعدمين الذين التصقوا بالأرض وتحملوا أوزار هذه النظم .

وفي الفترة التي اعقبت سنة ١٩٥٢ توالت القوانين التي أعادت صياغة العلاقة بين الفلاح والأرض ، وكان آخرها هو قانون الاصلاح الزراعي ، وتحديد نطاق الملكية وإعادة توزيع الأرض ، وكمحصلة لذلك اتسع نطاق الحائزين بعد أن ظلت مساحات كبيرة من الملكية الزراعية تتمركز في يد مجموعة قليلة من الأفراد ، والجدول التالي يوضح خريطة الملكية قبل صدور قوانين ١٩٥٢ :

جدول رقم (١)[٧]
يوضح خريطة الملكية قبل صدور قوانين ١٩٥٢

حجم الملكية	عدد الملاك بالألف	المساحة بالألف فدان	النسبة المئوية لعدد الملاك	النسبة المئوية للمساحة
أقل من خمسة أفدنة	٢٦٤٢	٢١٢٢	٩٤,٢٪	٣٥,٤٪
٥ ـ أقل من ٢٠	١٢٦	١١٦٤	٤,٥	١٩,٥٪
٢٠ ـ أقل من ١٠٠	٢٨	١٠٨٤	١٪	١٨,١٪
١٠٠ فأكثر	٥	١٦١٤	٠,٠٢٪	٢٧٪

ومن الملاحظ أن خريطة الملكية قد تغيرت إلى حد كبير بعد صدور القوانين التي كان آخرها قانون ١٩٦٩ لسنة ١٩٧٧م وأصبحت كما يوضحها الجدول التالي :

جدول رقم(٢)[٨]
يوضح شكل الملكية بعد صدور قوانين الاصلاح الزراعي

حجم الملكية	عدد الملاك بالألف	المساحة بالألف فدان	النسبة المئوية لعدد الملاك	النسبة المئوية للمساحة
أقل من خمسة أفدنة	٣٠٣٣	٣٨٧٦	٩٥٪	٥٣٪
٥ ـ أقل من ٢٠	١٣٨	١١٨٨	٤٪	٢١,٤٪
٢٠ ـ ١٠٠	٣١	١٤٧١	١٪	٣٦,٦٪

وفي تقدير آخر للملكية الزراعية خلال الفترة من ١٩٦١ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٤ ، ١٩٨٤ لشكل الملكية الزراعية بالريف المصري يوضحها الجدول رقم (٣) .

ولم يكن ذلك هو فصل الختام في صفحات الحوار على أرض الواقع بالقرية المصرية ، بل شهدت القرية تحولات بنائية جارفة في غضون سنوات العقدين السابع والثامن من هذا القرن اسهمت بدورها في اعادة تشكيل الحياة على أرضها ، ومن هذه المؤثرات :

١ - التعليم :

حيث تأثرت القرية المصرية بالتعليم الذي بدأت توليه ثورة يوليو ١٩٥٢ المزيد من الاهتمام ، وقد انعكس ذلك الاهتمام في نشر المدارس والمعاهد في الغالبية العظمى من القرى ، وما أن انقضت بضع سنوات على ذلك الاهتمام إلا وخرجت أجيال من المتعلمين من أبناء القرى ، وقد تأثرت وحدات المعيشة بالتعليم وبشكل خاص في المستويات الطبقية الدنيا والوسطى وذلك لما أحدثه بينها من حراك مهني كثيف بين أبناء هذه المستويات الطبقية من مجال الزراعة إلى المجالات الأخرى ، حيث ادركت وحدات المعيشة منذ وقت مبكر أن تطلعاتها باتت محاصرة بين ملكياتها القزمية المحدودة ونموها المضطرد على أرض القرية ، كما وجد أبناء وحدات المعيشة بهذه المستويات أنه لا وسيلة للخروج من هذا المأزق إلا بالانخراط في التعليم ، ولذلك فقد حرصت غالبية الأسر بالقرية على الحاق ابنائهم بالتعليم ، بل وتسابقت بعض هذه الأسر وبشكل خاص في السنوات الأولى للثورة ، حيث كان المناخ الإجتماعي حينذاك يعطي للتعليم مكانة هامة ، وترتب على ذلك زيادة في عدد المتعلمين من أبناء الريف ، استوعبتهم منافذ التشغيل في البداية ، ويمكن القول ان وحدات المعيشة الريفية في هذا السياق قد أصبحت مصدراً هاماً لافراز قوة العمل المؤسسي ، وهي قوة ضاقت أنشطة القرية المحدودة عن استيعابها في فترات لاحقة ، ومن المتوقع في إطار عمليات الطرد المستمرة التي تحدث بالقرية المصرية أن تتعرض مهنة الفلاح

المتفـرغ للزراعـة إلى الانقـراض ، وذلك لامتناع أبناء القرية من المتعلمين أو لعزوفهم عن هذا العمل ، في الوقت الذي لم تنقطع صلتهم بالقرية تماماً ، بل أدت مشكلات الاسكان بالحضر القريب أو البعيد إلى عودتهم بشكل منتظـم إلى القرية واتخاذ بعضهم منها مكان للإقامة ، أي أنهم قد أصبحوا من قاطني القرية الـذين يشغلون حيزاً مكـانياً بها ، ولايشـاركون في أنشطتها الاقتصادية ولكن يشاركون في إستهلاك المتاح من مصادرها .

جدول رقم (٣)
شكل الملكية في سنوات متباينة [٩]

السنوات	١٩٥٠				١٩٦١			(١)	١٩٦٥			(٢)	١٩٧٤			(٣)	١٩٨٤			(٤)
فئات الحيازة	عدد الملاك	٪	المساحة	٪	عدد الملاك	٪	المساحة	٪	عدد الملاك	٪	المساحة	٪	عدد الملاك	٪	المساحة	٪	عدد الملاك	٪	المساحة	٪
أقل من ٥ أفدنة	٢٦٠٠	٩٤,٢	٢١٠٤	٣٥,٣	٢٩١٩	٩٤,٦	٣١٧٢	٥٢,١	٣٠٣٣	٩٥,١	٣٦٩٣	٥٧,١	٣١٧١	٩٤,٩	٢٧٧٠	٤٩,٧	٣٣١٧	٩٥,٣	٢٨٨٧	٥٣
٥ إلى أقل من ١٠	٨١	٢,٩	٥٣١	٨,٩	٨٠	٢,٦	٥٢٦	٨,٦	٧٨	٢,٤	٦١٤	٩,٥	٩١	٢,٧	٦,٥	١٠,٩	٨٧	٢,٥	٥٦٨	١٠,٤
١٠ إلى أقل من ٥٠	٦٨	٢,٥	١٢٩٢	٢١,٧	٧٤	٢,٤	١٤٥٦	٤١	٦٩	٢,١	١٣٤٢	٢٠,٨	٧١	٢,١	١٢٨٤	٢٢	٦٩	٢	١٤٢١	٢٢,٨
أكثر من ٥٠	١٢	٠,٤	٢,٣٦	٣٤,١	١١	٠,٤	٩٣٠	١٥,٣	١٠	٠,٢	٨١٣	١٢,٦	٨	٠,٢٤	٩١٠	٦,٣	٨١	٠,٢	٧٥٧	١٣,٨
الجملة	٢٧٦١	١٠٠	٥٩٦٣	١٠٠	٣٠٨٤	١٠٠	٦٠٨٤	١٠٠	٣١٩٠	١٠٠	٦٤٦٢	١٠٠	٣٣٤١	١٠٠	٥٥٦٩	١٠٠	٥٥٥٤	١٠٠	٥٦٣٣	١٠٠

ولقد وجدت بعض وحدات المعيشة بالقرى في هؤلاء الريفيين المنتسبين إليها مصدراً هاماً لتحقيق التوازن المفقود في الدخول النقدية لهذه الوحدات ، وقدمت لهم الكثير من احتياجاتهم ، فمعظم أسر المتعلمين قد اتخذت لنفسها نمطاً هامشياً للسكنى على أطراف القرية من خلال شراء قطعة من الأرض وبناء مسكن حضري عليها يكاد يخلو من مقومات البيت الريفي ، ويعتمد في احتياجاته أما على الحضر المجاور أو على ما تقدمه وحدات المعيشة من إنتاج فرعي أو من منتجات البيت .

٢ ـ الهجرة :

وهي من المؤثرات التي أعادت تشكيل الحياة بالقرية المصرية فإذا كان التعليم قد أفرغ القرية من محتواها البشري خلال بعض المراحل التاريخية فإن الهجرة قد اكملت على ما تبقى فيها ، وقد تصاعدت ظاهرة الهجرة إلى بلدان النفط خلال العقدين السابع والثامن من هذه القرن . والهجرة والتعليم هما ظاهرتان قد تلازم ظهورهما مع ظاهرة التضخم السكاني الذي شهده المجتمع المصري كما سبق أن ذكرنا والذي لم يواكبه زيادة في مصادر الدخل أو في رقعة الأرض المنزرعة يضاف إلى ذلك غيبة التنمية الشاملة كمشروع قومي وكمحاولة لاستيعاب هذه الزيادة أو ذلك التضخم أو جزء منه على الأقل وغير ذلك كضعف حركة التصنيع بالمجتمع المصري بشكل عام وفي الريف المصري بشكل خاص . كل هذه العوامل قد أدت إلى حدوث خلل في التوازن الذي ظل قائماً بين الإنسان والأرض بالقرية ، ويتأكد لنا صدق هذا الزعم إذا عرفنا أن سكان مصر كان عددهم عام ١٨٠٠ حوالي ٥ مليون نسمة ، ثم زادوا إلى ١٠ مليون نسمة سنة ١٩٠٠ ثم زاد هذا العدد إلى ٤٢ مليون في عام ١٩٨٠ ثم إلى ٥٨ مليون نسمة ، وفي المقابل زادت الأرض من ٥ مليون فدان إلى ٧ مليون فدان خلال الفترة ذاتها .

وقد أدت هذه المتغيرات إلى زيادة عدد الفقراء بالريف المصري ولولا نوافذ الهجرة التي فتحت أمام هذه الزيادة لتجسدت ملامح الفقر بالقرية المصرية ، ولكن يمكن القول أن هذه النوافذ قد حركت ركود الحياة بالقرية بالرغم مما تركته

من آثـار على شتى جوانب الحياة فيها . ويشكـل خاص على الإنتـاج والاستهلاك ، وطريقة الحياة وغير ذلك من التغيرات التي لم تكن نتيجة مباشرة للهجرة في ذاتها ولكن للمناخ الذي تهيأ في سياق الهجرة .

وتؤكد العديد من البحوث والدراسات التي تناولت الهجرة أن هذه الظاهرة قد ترتب عليها تغيرات في مستويات الدخول للعديد من الأسر الريفية وكمحصلة لذلـك قد انخفضت معـدلات الفقـر ، وطبقاً للنتائج التي انتهى إليها المسح بالعينة على ألف أسرة ريفية في ١٨ قرية مصرية والذي قامت به منظمة العمل عام ١٩٧٧ وجد انخفاض لنسبة من كانوا يعانون من حالة الفقر الشديد بهذه القرى لتصل نسبتهم إلى ٣٥,٣٪ بعد أن كانت هذه النسبة ٤٤٪ بين عامي ١٩٧٤ - ١٩٧٥ [١٠] .

كما تنـوعت الـدخول بالقرية ما بين الزراعة والأنشطة الاقتصادية الأخرى وأصبحت القرية في غضون التحولات التي اعقبت الهجرة والتعليم وغيرهما من المؤثرات الخارجية مهيئة للاستجابة لطابع الانتاج الرأسمالي وتجاوز طموح الأفراد الذي تشكل خارج نطاقها الجغرافي وحدودها الفيزقية - حدود المكان - وأصبح سكان القرية منخرطين في البحث عن دخول نقدية لمواجهة الاحتياجات النقدية المتـزايدة ، وأعيد صياغـة العلاقة بين الإنسان والأرض ، فلقد ظلت الأرض محوراً لحياة الإنسـان الـريفي تشكل الكثير من سلوكه من خلال تفاعله معها ورغبتـه للبقـاء فيهـا ، إلا أن هذا الأمـر قد تغـير لتصبح الأرض سلعة تباع وتشترى ، كما لم تعد مخزوناً للقيمة بشكل مطلق كما كانت من قبل .

وتباينت كذلك أشكال العلاقة بين الأفراد والأرض الزراعية والانتاج لنجد بالقـرية ما يعـرف بالمـالـك الغائب والحاضر ، وكلاهما لايزرع الأرض بنفسه ويفضل استغلالها بشكل قصير الأمد حتى لايقع في مأزق التحديد الايجاري المجحف ، كذلك نجد أن أفراد القرية قد ابتكروا الكثير من أشكال الاستغلال للأرض والعـلاقات الايجارية التي لايعرفها قانون الايجار ، كاستئجار الأرض لمحصول واحد أو لمحصولين ولكل محصول حساب خاص في القيمة الايجارية .

وفي هذا السياق شهدت القرية المصرية تنوعاً في الأنشطة الاقتصادية الرأسمالية والتي قد تكون منفصلة في جزء منها عن الانتاج الزراعي للريف المصري بشكله التقليدي ، وتفرغ لهذه الأنشطة بعض أفراد من المجتمع الريفي مما خلق في بعض الأحيان أزمة في العمل المطلوب لزراعة بعض المحاصيل أو جنيها ، ومن هذه الأنشطة التي استحوذت على جهد الأفراد تربية نحل العسل ، والدواجن ، ومواشي التسمين وهي في مجملها أنشطة تعمل على التوسع في استخدام أدوات للانتاج تختلف عن تلك التي كانت تستخدم في النشاط الزراعي من قبل عمليات التغلغل الرأسمالي ، كما ظهرت في العلاقات الاقتصادية بالريف المصري ملامح لسيطرة رأس المال كظاهرة إجتماعية وما يصاحبها من ظواهر ملازمة لها في عمليات الانتاج والتكوين الاجتماعي ، وان كان ذلك لايظهر في داخل الوحدة الانتاجية ذاتها ، فالعمل أساساً هو عمل أفراد الوحدة المعيشية ، إلا أن رأس المال يسيطر على الوحدة الإنتاجية من خلال سيطرته على السوق وآلياته ، حيث يصبح الشغل الشاغل لوحدات المعيشة بالقرية هو السعي نحو تحقيق العائد المادي وبذلك تتجه إلى انتاج سلع ذات قيمة تسويقية عالية ، وتتخلى بذلك عن انتاج منتجات الغذاء أو الإنتاج المعيشي الذي هو جزء أساسي في دورها ، وفي المقابل يكون لجؤها إلى السوق للحصول على حاجياتها من هذه المواد ، عندئذ يعاد امتصاص عائد القيمة التسويقية العالية والتي حصلت عليه وحدات المعيشة عندما تطلعت إلى الانتاج للسوق الكبير ، ومن خلال هذه العلاقات يتحقق قدر من الاندماج بين هذه الوحدات الانتاجية الريفية ومتغيرات السوق الاقتصادية بمفهومه الواسع .

وجدير بالذكر أن هذه التفاعلات قد حدثت وبلغت مداها في ظل محاولات الدولة لتنظيم العلاقة بين أفراد القرية والدولة ، وفي ظل صدور العديد من القوانين حول تنظيم الإنتاج الزراعي ، وتحديد الدورات الزراعية ، بيد أن هذه القوانين بسبب عدم ملاءمتها أحياناً ، وأمام تيارات الغزو العالمية التي أصبحت المجتمعات المحلية في ضوئها بلا حدود قيمية تحميها ـ قد تآكلت أو اندثرت على أرض الواقع ، بشكل يجعلنا نقول أن هذه القوانين وما فرضته من علاقات

بالقرية ، والمشكلات التي جسدتها بين الفلاح والمؤسسات الرسمية قد لعبت دوراً هاماً في الترويج لاقتصاديات الهامش والتي تخدم في الأساس مراكز التراكم الرأسمالي أكثر من خدمتها لمجتمعات المحيط أو المجتمعات الريفية ذاتها ، وقد انعكس ذلك في كثير من التناقضات التي ظهرت في مجال الإنتاج وما آلت إليه القرية من عزوف عن انتاج محاصيل الغذاء والاتجاه إلى استغلال الأرض بأشكال مختلفة لانتاج محاصيل ذات عائد نقدي أحياناً أو استئجارها لدورة زراعية واحدة بأجر مرتفع والتعفف عن زراعتها أو استغلالها في أنشطة اقتصادية أخرى أو استخدامها في اقامة مساكن عليها بسعر مرتفع .

جـ - التركيب المحصولي بالقرية ومتغيرات السوق (تحليل نظري وميداني) :

تحول القرية عن محاصيل الغذاء :

تسللت روافد التأثير الرأسمالي إلى كافة أرجاء الريف المصري واستجابت وحداته المتنوعة لذلك التأثير ، وأن تفاوتت هذه الاستجابة في درجاتها ، وانعكست ذلك على ملامح التغيير في الأنشطة الاقتصادية ، وفي نمط الحياة ، وفي طموحات الأفراد ، وما كادت سنوات العقد الثامن من القرن الحالي تنتهي إلا وكانت موجات من المهاجرين قد عادت إلى القرية ثانية بعد أن ضاقت فرص العمل في بلدان الاستقبال ، وساعدت هذه العودة على توفر للأموال التي تحتاجها زراعة محاصيل السوق بالإضافة إلى أن الأفراد بالقرية من الذين لم يهاجروا قد أصبحوا أكثر ميلاً نحو الاتجاه لزراعة هذه المحاصيل من فاكهة وخضروات ومن الطبيعي أن تكون المبادأة في هذه التحولات الانتاجية من قبل أصحاب الملكيات الكبيرة ، ثم تكون المحاكاة من أصحاب الملكيات الصغيرة ، وساعد على هذه التغييرات التي حدثت في التركيب المحصولي سياسات الدولة التي تعلنها تارة حول دعم القدرات التصديرية واطلاق العنان للقطاع الزراعي لكي يؤدي دوره في هذه المهمة ، أو قد تكون هذه السياسات غير معلنة وذلك عندما تغمض الدولة عينيها عن الكثير من التجاوزات التي تحدث في إطار المساحات المحصولية من قبل أفراد المجتمع الريفي ، يضاف إلى ذلك أن القرية لم تعد في عزلة عن متغيرات السوق الاقتصادية ولا نبالغ إذا قلنا أن آليات السوق بكافة أبعادها

كعوامل الندرة والعرض والطلب والقيمة التبادلية والتسويقية أصبحت محركاً هاماً للإنتاج المحصولي بالقرية ، وتصدرت الفاكهة والخضروات مكانتها في قائمة المحاصيل ، وقد أدى ذلك بدوره إلى ارتفاع في سعر محاصيل الغذاء بسبب قلة المنتج منها أو قلة المعروض منها وزيادة الطلب عليها ، وجدير بالذكر أن الانتاج بالقرية لايحدث وفقاً لتخطيط واع أو وفق استراتيجية شاملة تأخذ في الاعتبار عوامل الانتاج المختلفة ، والمزايا النسبية لانتاج بعض الحاصلات في أجزاء من الريف المصري ، ودون مراعاة للخصائص الطبيعية لبعض المناطق ، وأمام ذلك تحدث الكثير من الاضطرابات في الانتاج بالنسبة لبعض المحاصيل غير التقليدية والتي تقل خبرة الأفراد بشأنها ، أو عدم ملاءمة الظروف لزراعتها .

وكان أحرى بواضعي السياسات الزراعية الوعي بكافة المتغيرات المحلية والخارجية لحماية الانتاج الزراعي وسد النقص الذي يعاني منه المجتمع ، وتوجيه الاستثمارات إلى تطوير زراعة محاصيل الغذاء وذلك حتى لايتعرض المزارع الصغيرة إلى ضغوط السوق ، ولاشك أن سياسة الحكومة التي تتبعها بشأن تحرير أسعار المنتجات الزراعية وتركها لقوى السوق تتفاعل دون ضوابط محددة ومتكاملة قد انعكست على الانتاج الزراعي وتركت الكثير من الآثار السلبية ومن هذه الآثار[11] :

تدهور الدخول الحقيقية لهؤلاء المنتجين الزراعيين بسبب :

- زيادة تكاليف الانتاج التي سجلت ارتفاعاً كبيراً خلال السنوات الأخيرة كرد فعل لزيادة أسعار هذه المواد في السوق العالمية ، بالإضافة لزيادة معدلات التضخم بالنسبة لافراد المجتمع الريفي لعدم التوازن في أسعار المنتجات الزراعية مع الزيادة في أسعار المواد الغذائية التي يعتمد الزراع في شرائها على السوق .

- أن ترك المزارع لقوى السوق لايعني بالضرورة حصوله على نصيب عادل من سعر المستهلك ، ولكن من الملاحظ أن نصيب المزارع يتدهور بسبب تعدد الوسطاء والمنافسة الحادة وأحياناً زيادة المعروض من المنتج وبشكل خاص من الخضر والفاكهة .

- أن قوى السوق في ظل نظام غير فعال للمعلومات يمكن أن يؤدي إلى تقلبات حادة في المساحات المزروعة ومن ثم في كمية الانتاج الأمر الذي سينعكس في انخفاض الاسعار في ظل الزيادة للكميات المعروضة عن حجم الطلب الحقيقي ، كما قد يؤدي إلى ارتفاع حادة فيها عند نقص هذه الكمية مما يضر بمصالح المنتج والمستهلك .

ويبدو أن الدولة في ظل هذه المتغيرات الاقتصادية الجديدة قد أثرت ترك العلاقة بين المزارع والسوق ليتفاعلا معاً في ضوء المتغيرات الاقتصادية للسوق كالعرض والطلب ، والندرة ، والقيمة . كما تضاءل دور الدولة في تحريك التركيب المحصولي بما يلائم الظروف الاقتصادية للمجتمع المصري خلال الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٨٦ وتبدو في استجابة القرية من ذاتها أو من خلال منتجين من داخلها إلى السوق الخارجية ، والجدول رقم (٤) يعكس ملامح التركيب المحصولي ، ونصيب أهم المحاصيل من المساحة الاجمالية ٪ لسنوات الفترة ذاتها .

وتشير الأرقام الواردة في هذا الجدول إلى زيادة نصيب الفاكهة والخضروات ، والتي تمثل استثمارات لاغنياء المزارعين ، وفي المقابل قد نقصت المساحة المخصصة للحبوب من ٤٢,٧ ما بين فترة السنوات ١٩٥٢ - ١٩٨٦م .

جدول رقم (٤)

نصيب أهم المحاصيل من المساحة المحصولية الاجمالية ٪ لسنوات مختارة من ١٩٥٢ ـ ١٩٨٦ [١٢]

السنة	القطن	الأرز	القمح	البرسيم	الفول	القصب	الذرة	العدس	البصل	الشعير	الفاكهة	الفاكهة + الخضروات	الخضروات
١٩٥٢	٢١,١٣	٥,٥٥	١٥,٠٦	٢٣,٦٦	٣,٦	٠,٩٩	٢٢,٩٦	٠,٦٢	٠,٢٣	٠,٤٧	١,٠١	٣,٧٢	٢,٧١
١٩٦٠	١٨,٠٦	٦,٨١	١٤,٠٤	٢٣,٢٨	٣,٤٦	٠,٩٢	٢١,٩٣	٠,٨٢	٠,٣٩	١,٤٣	١,٢٦	٦,٠٤	٤,٨٧
١٩٦٦	١٧,٧٣	٨,٠٢	١٢,٣١	٢٤,١٤	٣,٧٦	١,١٢	١٩,٩٦	٠,٣٨	٠,٥١	٠,٩٣	١,٨٦	٨,٠٨	٦,٢٢
١٩٧٤	١٣,١٨	٩,٤٥	١٢,٤٣	٢٥,٣٨	٢,٥٣	١,٩	٢٠,٤٥	٠,٦٠	٠,٣٣	٠,٧	٢,٤٨	-	-
١٩٧٧	١١,٢٣	٩,٣٦	١٠,٨٦	٢٥,٦٩	٢,٩٢	٢,٢٥	١٩,٥٦	٠,٤٣	٠,٢٨	٠,٨٦	٢,٨٩	١١,٢٦	٨,٣٧
١٩٨٢	٩,٥٣	٩,١٨	١٢,٢٩	٢٤,١٩	٢,٨١	٢,٢٧	٢٠٧٣	٠,١١	٠,١٩	٠,٩٧	٣,٤٩	١١,٣٩	٧,٧٥
١٩٨٦	٩,٤٤	٩,٠٢	١٠,٨	٢٤,٥	٢,٧٥	٢,٢٤	١٦,٥٨	٠,١٩	٠,٢٦	١,١٦	٤,٩١	١٤,٢٣	٩,٣٢

المصدر : محسوبة ومجموعة من نشرة الاقتصاد الزراعي (اعداد متفرقة) .

عوامل التحول في انتاج المحاصيل التسويقية من منظور أفراد القرية (تحليل ميداني) :

وحـول هذا الاختلال في التركيب المحصولي لخريطة الانتاج بالقرية وتفوق محاصيل السـوق على المحاصيل التقليدية أفصحت الدراسة الميدانية أن دوافع التحول هذه مردها العائد المادي والذي أصبح غاية يصبوا إليها الأفراد ، ومن جانب آخر فان هذه المحاصيل تخفف من وطأة الارتباط والعلاقة بين الفلاح وبين المؤسسات التعاونية بالقرية كالجمعية وبنك التسليف . كما أن الجهد الذي يبذله الأفـراد بالنسبـة للمحـاصيل التقليدية كبـير قياسـاً إلى عائدها ، ويقول أحد المزارعين « الفلاح بيحاور الدولة ولكن من غير صوت أو في صمت ، وكل واحد بيعمل اللي في مصلحته ، والفلاح إذا شاف أن زراعة القطن سوف تكسبه لابد أن يزرع القطن ، ولو شاف أن القمح سعره ارتفع يزرع كل أرضه قمح ، لكن كل هذه المحاصيل مبتجيبش همها » .

ويقول فلاح آخر « القطن تعب على الفلاح من يوم زراعته لغاية يوم جنيه ويحتاج من الفلاح مشاوير إلى الجمعية وسلف ونقاوة للدودة ورش وعزق وخف وجني ، وساعة الجني منلقيش حد يجنيه وياريت بيجيب ثمنه أو يغطي تكاليفه » .

ويقول فلاح ثالث « بصراحة لجأت إلى زراعة الفاكهة لسببين الأول أن دخلها مرتفع وعائد الفدان منها بالنسبة للبرتقال ٣٠٠٠ جنيهاً ، ومن ناحية أخرى لأن جزء من أرضى كان بها ناس يستغلونها بالايجار من مدة كبيرة وعلشان أخرجهم من الأرض زرعتها شجر فاكهة » ، وتطرق للحديث عن مشاكل الايجار وغيبة سلطة الـدولـة أو تركهـا للأطراف تتفاعل معاً على أرض القرية والوصول إلى صياغات للتعامل ودون تدخل من القانون وافراز علاقات لا علاقة لها بالقوانين فيقول : « أن الايجار بالنسبة للفدان كان سنة ١٩٥٣م سبعة أمثال الضريبة أي حوالي ٧٥ جنيهاً ، وبعـد التعديلات التي دخلت على القانون أصبح المالك

بالنسبة للايجار الجديد يحصل على ٢٢ مثل للضريبة أي حوالي ٦٢٠ جنيهاً للفدان في السنة ، ولكن هذا التحديد لايلتزم به الفلاح ، والأمر يخضع للظروف وظهرت أشكال متنوعة للايجار خارج نطاق التحديد القانوني وبلغت قيمة الايجار من خلال التعاقد لمحصول واحد ٦٠٠ جنيهاً أو لعام كامل ١٢٠٠ جنيهاً ، وأصبح المالك يفضل الايجار بالزرعة ويتم تحديد العقد كل زرعة خوفاً من سيطرة المستأجر على الأرض كما حدث بالنسبة للتعاقدات الايجارية القديمة ، والتي يورثها الأفراد أو يورثون حق الانتفاع باستغلال الأرض بعد موتهم إلى الأبناء ، ويكون التخلي عنها مقابل ترك نصفها أو التنازل عنها نهائياً أو تقدير قيمة الأرض المؤجرة ودفع ثلث الثمن كخلو مقابل ترك استغلال الأرض لصاحبها .

دوافع أخرى وراء التحول نحو محاصيل السوق :

وقد حدث هذا التحول في كثير من جوانب الانتاج التقليدية ، وعلى الرغم من أن ذلك قد أدى إلى بعض المشكلات بالمجتمع الكبير بيد أن التحليل المتأني لهذه الظاهرة يؤكد كما قلنا من قبل في مواضع متفرقة أن ذلك يفصح عن استجابة سكان القرية للمتغيرات القائمة بالمجتمع الكبير ، فعندما وفد إلى القرية العديد من أنماط السلوك التي لم يعهدها الأفراد والتي جاءت في طيات غيرها من المؤثرات تحرك الأفراد سعياً إلى الهجرة محاولين بذلك تحقيق طموحهم الذي ضاقت به القرية كما سبق أن ذكرنا ، ومن لم تتحقق له فرصة الهجرة تفاعل بشكل آخر مع المتاح من الامكانيات ولذلك كان التحول إلى زراعة المحاصيل التي تحقق له عائداً مادياً مباشراً ، ويؤكد ذلك عدم صحة الكثير من الآراء التي ظلت شائعة حول الفلاحين في إطار العلاقة بين الإنسان الريفي والموارد المتاحة حوله ، ومن هذه الأفكار فكرة « تصور الخير المحدود » (The image of limited good) والتي تؤكد على نظرة الفلاحين الضيقة إلى العالم وتمركزهم حول الذات ، ومن ناحية أخرى يجعلنا نعيد النظر في مفهوم الاقتصاد المعنوي الذي اقترن بقطاع الانتاج التقليدي والقيم الفلاحية .

ويؤكـد القـائلين لهذه الآراء عدم رغبـة الأفـراد في هذا النطاق في المغامرة وتفضيلهم البقاء على حافة الفقر ـ من أن يدخلوا في أعمال غير مضمونة النتائج ، ويجعلنـا أيضاً نأخذ بمفهوم (Popkin) « بوبكين » الذي يقول بمفهوم الاقتصاد السياسي للفلاحين والذي يختلف عن المفهوم المسابق ، ومؤدى هذا الرأي أن الفـلاحـين يتجاوزون في سعيهم مجرد الحفاظ على وجودهم على حافة الفقر ، ويحاولون دائماً السعي لتحسين أوضاعهم الاقتصادية ، ويخططون في سبيل ذلك لاستثمارات طويلة وقصيرة الأجل ومتنوعة وفقاً لظروف المتغيرات التي تحيط بهم كما يتفاعلون في سبيل تحقيق ذلك مع هذه المتغيرات بوعي منهم (١٣) .

وبالفعل نجد أن الأفراد على وعي بحساب تكلفة الانتاج وعائده فنجد أحد المـزارعـين يوضح بشكل عقلاني ومستخدماً الأرقام في تبرير ذلك التحول إلى المحاصيل غير تقليدية ويوضح الحساب التالي :

« المـوالح تحتاج إلى ١٥٠٠ جنيهاً لتكاليف الفدان الواحد ، والري وعزق الأرض والتسميد وتقليم الأغصان ، ويتم بيعه بحوالي ٢٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ جنيهاً . والموالح لاتحتاج إلى رعاية مستمرة ومكثفة كما هو الحال بالنسبة للمحاصيل الأخرى » .

ويقارن هذا الحساب مع زراعة القطن :

تكلفة زراعة الفدان :

٧٢ جنيه حرث

١٠٠ جنيه بذور وتجهيز

٦٠ جنيه عزق الأرض بعد الانبات

١٠٠ جنيه أسمدة كيماوية

١٢٠ جنيه ري والقطن يحتاج إلى عدة مرات للري

٤٠ جنيه مقاومة آفات

٢٤٠ جنيه للجني (٨٠ عامل × ٣ جنيهات ليوم واحد »

(٧٣٢) جنيهاً يضاف إلى ذلك القيمة الايجارية للفدان لزراعة القطن (٦٢٠)

جنيها فيصبح الاجمالي (١٣٥٢) جنيهاً .
متوسط انتاج الفدان من ٦ ـ ٧ قنطار .

ويذكر مزارع آخر أن الدولة تشتري القمح من الخارج بسعر مرتفع وتشتريه منا كفلاحين بسعر أقل ويتساءل « أيه اللي حيحصل لو الدولة اشترت من الفلاح القمح الذي يزرعه بسعر قريب من سعر شراؤه من الخارج ويستطرد قائلاً القمح هنا بخسارة على الفلاح ويستطرد قائلاً : فدان القمح يحتاج لزراعته عدد (٦) كيلة قمح (بذور للزراعة) ثم الكيلة الواحدة ١٥ جنيهاً معنى ذلك أنه يحتاج إلى ٩٠ جنيهاً ، كما يحتاج إلى تجهيز الأرض ويتم ذلك عن طريق استخدام الجرارات ويتكلف ٦٠ جنيهاً . يضاف إلى ذلك تكاليف الري حيث يحتاج ٤ مرات ويتم الري عن طريق استئجار ماكينات الري حيث يتكلف في المرة الواحدة ٢٠ جنيهاً معنى ذلك تكون تكلفة الري ١٠٠ جنيهاً . كما يحتاج إلى أسمدة كيماوية بحوالي ٧٢ جنيهاً وحصاد ٢٤٠ جنيهاً .

وإذا أضفنا إلى هذه التكاليف القيمة الايجارية للفدان وهي ٦٢٠ جنيهاً تصبح التكلفة مرتفعة وهي :
١٠٧٠ = ٦٢٠ + ٤٥٠

ويكون انتاج الفدان في المتوسط ١٥ أردب ويصل سعر الأردب إلى ٧٥ جنيهاً معنى ذلك أن ثمن القمح الذي ينتج من الفدان هو ١٥ × ٧٥ = ١١٢٥ ، وفي بعض الأحيان يكون الانتاج أقل من ذلك ليصل إلى ١٢ أردب ، مع الوضع في الاعتبار المجهود الذي يقوم به المزارع والذي لم يتم تقديره ضمن هذه التكلفة .

ويقول مزارع ثالث « الفلاح النهاردة لم يعد يعتمد على الزراعة في الأكل ، وكل أكله من السوق بيشتري القمح وبيشتري الذرة وبيشتري الخبز الجاهز من المخبز وكل ده أوفر له ، وأصبح بيزرع حاجات ثانية ويبيعها للسوق زي الليمون والبرتقال والخضروات ، ولازم يبقى معاه قرش يصرف منه والمحاصيل (القمح والذرة والقطن) مبقاتش تنفع توفر معاه القرش » .

ويستطرد قائلاً أن تكلفة فدان الذرة تساوي ثمن العائد من الانتاج فيحتاج إلى ٧٠ جنيهاً للحرث وتجهيز الأرض للزراعة ، ويحتاج إلى تقاوي بحوالي ٤٨ جنيهاً ، ويحتاج إلى ري بحوالي ١٠٠ جنيهاً . والذرة من المحاصيل التي تحتاج عزق واهتمام مكثف ويتطلب عزقه عدة مرات وتسميده بأسمدة كيماوية وبلدية بحوالي ٢٠٠ جنيهاً وحصاد ٥٠ جنيهاً ، ويذكر أن الفدان يستأجره الفلاح لدورة القمح والذرة بحوالي ١٠٠٠ جنيهاً .

ثانياً : الاطار المنهجي للدراسة :

١ ـ الهدف من الدراسة :

تسعى هذه الدراسة إلى رصد ملامح التفاعل بين الاقتصاد التقليدي ، واقتصاد السوق في إطار وحدات المعيشة بالقرية ، وفي ضوء المتغيرات المحلية والخارجية .

٢ ـ المنهج والأدوات :

هذه الدراسة استخدمت المنهج الانثروبولوجي بوسائله الكمية والكيفية (كالاستبيان والمقابلات المتعمقة والاستعانة بالاحصاءات المتاحة ، فالاستبيان من الممكن أن يحقق الفهم لبعض الجوانب الكمية حول وحدات المعيشة بالقرية عن الانتاج والاستهلاك والتسويق كما أن الوسائل الكيفية من شأنها اثراء الدراسة وتعميق التحليل نحو بعض الموضوعات .

٣ ـ محددات اختيار مجتمع الدراسة :

روعي في اختيار مجتمع البحث عدة اعتبارات كالحجم المتوسط وطبيعة النشاط الاقتصادي المتنوع لامكان تحقيق هدف الدراسة وكذلك انتشار ظاهرة الهجرة والتعليم ، وتباين الملكيات ، وغير ذلك من التسهيلات التي تساعد على اجراء البحث .

٤ ـ اختيار عينة الدراسة :

اجريت الدراسة الكمية من خلال الاستبيان على ١٤٠ أسرة من القرية وهذا العدد يمثل حوالي ٥٪ من نسبة الأسر بمجتمع القرية التي يبلغ تعداد سكانها ١٥٢١٩ ألف نسمة . وروعي في اختيار هذه الأسر الانتشار الجغرافي لها على أرض القرية .

كما أجريت المقابلات المتعمقة على ١٠ أسر تم اختيارها لتمثل الأنماط الشائعة لأسر القرية . بحيث تعكس التباين الطبقي والمهني وغير ذلك من الخصائص .

٥ ـ الخصائص الاجتماعية والاقتصادية لقرية الدراسة :

أ ـ الموقع :

قرية شبرا بخوم هي إحدى قرى مركز قويسنا بمحافظة المنوفية بالجزء الشرقي من الدلتا وبالقرب من فرع النيل دمياط وعلى خط السكة الحديد الواصل ما بين بنها وميت غمر ، والمنطقة التي تقع فيها القرية تكاد تكون ملتقى لثلاث محافظات وهي محافظات الغربية والقليوبية والشرقية بالإضافة إلى انها تتبع إدارياً محافظة المنوفية ، وترتبط بالمركز الحضري بطريق بري ممهد طوله حوالي ١٢كم إلى قويسنا ، وكذلك يربطها بعاصمة القليوبية بنها طريق ممهد طوله حوالي ١٥كم وكذلك بمركزي زفتى وميت غمر طريق ممهد طوله حوالي ٣٠كم بالنسبة لزفتى و٤٠كم بالنسبة لميت غمر .

وقد أدى ذلك إلى علاقات تجارية ربطت القرية بهذه المدن منذ وقت مبكر بسبب سهولة الانتقال إلى هذه الأماكن والتي مثلت بالنسبة لها أسواق لتصريف منتجاتها من الليمون الذي تشتهر به هذه القرية والموالح من البرتقال بأنواعه المختلفة .

ب ـ السكان :

يبلغ تعداد سكان قرية شبر بخوم ١٥٢١٩ ألف نسمة منهم ٧٨٣٣ من الذكور و٧٢٨٦ من الاناث موزعين على الفئات العمرية التالية ، وذلك حسب تعداد ١٩٨٢ :

جدول رقم (٥) تعداد السكان [١٤] .

فئات السن/ النوع	٦-	-٦	-١٢	-٢٠	-٣٠	-٤٠	-٥٠	-٦٠	٦٥ ض .	غ.م	الجملة
ذكور	١٣٧٠	١٠١٢	١٤٦٦	١٤٣٩	٨٥٠	٤٩١	٤٨٧	٢٣٩	٤٢٣	٥٦	٧٨٣٣
إناث	١٢٧٥	٩٥٦	١٣٢٥	١١٣٦	٧٩٦	٦٠٨	٥٤٣	٢٥٧	٤٣٣	٥٧	٧٢٨٦
المجموع	٢٦٤٥	١٩٦٨	٢٧٩١	٢٥٧٥	١٦٤٦	١٠٩٩	١٠٣٠	٤٩٦	٨٥٦	٩١١٣	١٥٢١

وهذه النسبة من السكان لاتمثل حقيقية تعداد سكان القرية فهذه القرية من القرى الطاردة ، حيث يقدر تعدادها بضعف هذا العدد ولكنهم في تحرك دائم ما بين مناطق الحضر المجاور حيث يلتحقون بوظائف متنوعة في هذه المناطق وتكون عودتهم أما بشكل يومي أو أسبوعي أو على مراحل زمنية متفاوتة خلال العام .

وتمتاز القرية بالتنوع المهني ما بين الزراعة وغيرها من المهن والوظائف والجدول التالي يوضح ذلك :

جدول رقم (٦) الحالة المهنية [١٥]

المهنة/ النوع	مهن فنية وعلمية	المديرون وأصحاب الأعمال	أعمال كتابية	العاملون البيع	العاملون بالخدمات	عمال في الزراعة وتربية الحيوانات	أفراد الانتاج	الجملة بحسب تصنيفهم	غير	الجملة بالعمل	
ذكور	٣٨٤	١١	٢٣٩	١٨٥	١٧٣١	٢٧٧	٥٣٢	٣٦٣٦	١٢٧٨	٤٩١٤	
إناث	٨٣	٥	١٠٩	٣	٥	١٩	٨	٢١٨	٤٥٠	٤١٨٨	٤٦٣٨
المجموع	٤٦٧	١٦	٢٤٨	١٨٠	١٩٠	١٧٥٠	٢٨٥	٧٥٠	٤٠٨٦	٥٤٦٦	٩٥٥٢

حيث تأتي أعمال الزراعة في مقدمة الأعمال وبالرغم من ذلك فهي لاتحظى بنسبة كبيرة إذا ما قورنت بإجمالي عدد السكان من الذكور إذ تصل نسبة من

يعملون بالزراعة من السكان ٢٢٪ ونسبة من يعملون في مهن علمية وفنية من الذكور ٥٪ من إجمالي السكان وتوزع باقي النسبة على الأعمال الكتابية والخدمات وأعمال البيع وأعمال الانتاج كما هو موضح بالجدول .

ولعل السبب في ضآلة نسبة الذين يعملون بالزراعة هو ضآلة الملكيات وتفتها ، حيث دعا ذلك أفراد القرية إلى اعتبار الزراعة مهنة مكملة أو مهنة غير أساسية بينما انتشرت الأعمال التجارية والمهن الأخرى كالتجارة وبيع الفاكهة والخضروات والموالح والوظائف التي ترتبت على التعليم الذي انتشر بالقرية منذ وقت مبكر ، وكذلك ترتفع نسبة الهجرة بشكل ملحوظ بالنسبة لهذه القرية ، جزء منها داخل المجتمع المصري وجزء منها خارجه .

جـ ـ التعليم :

بدأ التعليم بشكل مبكر منذ حوالي الاربعينيات في هذه القرية وتولى مهمة التعليم فيها مدرستين ابتدائيتين وعدد من الكتاتيب التي أدت مهمة تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن ، وما أن انتصف القرن الحالي إلا وكانت بالقرية مجموعة كبيرة من المدارس الابتدائية بلغت خمس مدارس ثم زادت في السنوات التالية المدارس بالمراحل المختلفة لينشأ بالقرية مدرسة ابتدائي أزهري للبنات ومدرستان أعدادي أزهري للبنات وأخرى للبنين وثالثة اعدادي عام وثانوية أزهرية ، وثانوي عام وثانوي تجاري ، ومعهد للقراءات وهو كم هائل من المدارس الغالبية العظمى منها انشئت بجهود الأهالي الذاتية ، كما أن معظم المدرسين وإدارة هذه المدارس من نفس القرية ويعكس ذلك قيمة التعليم بالنسبة لأهالي هذه القرية بشكل مبكر ، والذي وجد فيه أفراد القرية مخرجاً من ضيق الرقعة الزراعية بها ، وطريقاً لتحقيق الطموح لابنائها منذ وقت مبكر ، ووسيلة للحراك المهني من الزراعة التي لم تعد محققة لآمالهم في هذا الحيز المحدود . والجدول التالي يوضح موقف التعليم بالقرية :

جدول رقم (٧) الحالة التعليمية [١٦]

	امي	يقرأ ويكتب	ابتدائي	أقل من المتوسط	متوسط	فوق المتوسط	جامعي	دبلوم عالي	ماجستير	دكتوره	غير مبين
ذكور	١٨٤٣	١٣٠١	٥٧٤	٧٠٩	١١٣٤	٧٠	١٩٦	٢	-	-	٢٣
إناث	٣٣٧٨	٧٥١	٤٦٤	٣١٩	٤٨٠	٤٥	٣١	-	-	-	٣١
المجموع	٥٢٢١	٢٠٥٢	١٠٣٨	١٠٢٨	١٦١٤	١١٥	٢٢٧	٢	-	-	٥٤

ومن الملاحظ أن التعليم قد أفرغ هذه القرية بشكل واضح ، حيث يهاجر المتعلمـون في الغـالب إلى العواصم ويستقرون بها وتنقطع صلة بعضهم بهذه القرية ويتخذون من العواصم مستقراً لهم ، وبعضهم الآخر يتخذ من القرية مكاناً للاقامة فحسب ، ويتردد عليها بشكل يومي أو أسبوعي .

وحدات المعيشة بقرية الدراسة بين الوفاء بحاجاتها الأساسية وتطلعات السوق :

(تحليل ميداني)

تقـــديم :

خلقت المؤثـرات المختلفة التي تمر بها القرية (الزحف الرأسمالي ـ التعليم ـ الهجرة ـ الانفتاح على العالم الخارجي) تطلعات لابنائها ضاقت عن استيعابها أرض القرية ، وعجزت الزراعة كنشاط تقليدي الوفاء بطموحات الأفراد ، أو في تحقيق الحاجات الأساسية من الغذاء ، ومن الأجحاف اطلاق القول بأن القرية المصرية قد أصبحت مستهلكة لا منتجة ، ويجعلنا ذلك نثير تساؤلا هاما مؤداه كيف يطلب من القــرية أن تؤدي دورهـا الانتـاجي في معـزل عن المؤثـرات الاقتصادية والسياسية بالمجتمع الكبير ، والذي يتحدد في إطارها شروط الانتاج وعلاقاته ، والاستراتيجيات المطروحة التي تتبناها الدولة والتي شكلت في النهاية مناخاً ملائماً أفرز هذه الخصائص الانتاجية الجديدة للقرية ، لتتخلى عن ذلك الدور التقليدي الذي لعبته تاريخيا كحقل لانتاج احتياجات المدينة من الحبوب ، وهي أدوار لعبتها القرية المصرية عبر مراحل تاريخية في علاقتها بالمدينة ، حيث

استنـزف الفـائض الاجتماعي لها في ثنايا هذا الدور . يضاف إلى ذلك غياب مشروع قومي للانتاج يصيغ دور للقرية وللمدينة ، وضعف الاستثمارات القومية في قطاع الـزراعـة ، كلها عوامل دفعت إلى البحث عن مخرج من قبل الأفراد بوسائل متنوعة .

ولقد اظهرت الدراسة الميدانية تآكل الملكيات بشكل واضح أمام ثبات الرقعة المنزرعة وزيادة عدد السكان فبلغت نسبة من يملكون أقل من فدان ٣٧,٩٪ ومن يملكون فدان إلى أقل من فدانين ١٥,٧٪ ونسبة من يملكون فدانين إلى أقـل من ثلاثـة أفدنة ١٣,٦٪ ونسبة من لايملكون ٢٩,٢٪ ، وتبلغ مساحة الأرض المنـزرعـة بالقرية ٣٠٤٤ فدان تزرع في معظمها بالموالح ، فقد كانت المساحة المنزرعة في سنة ١٩٧٥ بمحصول القطن ١٠٠٠ فدان كما كانت المساحة المنزرعة بالقمح في العام نفسه (١٩٧٥) ٩٠٠ فدان ، ولكنها تضاءلت إلى ٣٥٠ فدان بالنسبـة لمحصـول القمـح ، وتضاءلت بنفس الدرجة بالنسبة لمحصول القطن . كما كانت مساحة الأرض التي تزرع بالموالح سنة ١٩٧٥ ١٠٠٠ فدان ولكنها زادت لتصل إلى ١٥٠٠ فدان خلال الأعوام ١٩٩٠/١٩٩١م . ويعكس ذلك مدى انصراف أهل القرية عن المحاصيل التقليدية وزراعة الموالح لأسباب سبق أن ذكرناها حول ربحية محاصيل الفواكه عن المحاصيل التقليدية .

تنوع الأنشطة الاقتصادية بالقرية :

وهناك أشكال أخرى للملكية كملكية أدوات العمل الزراعي المتطورة من الجـرارات ومـاكينـات الـري والعـزّاقـات الآلية ومشروعات التسمين الخاصة بالحيوانات وتربية الدواجن وغير ذلك من المشروعات كنحل العسل .

ومن الملاحظ وجود هذه المعدات الزراعية لدى أفراد لايمكنون أرض زراعية أو يمتلكون جزء لايتسع لمثل هذه الوسائل التكنولوجية ولكن يكون اقتنائها بدافع استثمارها وتأجيرها للأفراد نظير أجر محدد ، وهي صورة جديدة للاستثمارات بالقرية التي شهدت تنوعاً في الدخول في ضوء المتغيرات السابق ذكرها ، ويتسق

ذلك مع دراسة اجراها « هويكنز » من الجامعة الأمريكية بالقاهرة في احدى قرى أسيوط وهي قرية « موشى » والتي يظهر فيها ذلك التنوع كما هو في الجدول التالي :

جدول رقم (٨) يوضح التنوع في الدخول
بقرية موشى بأسيوط[١٧]

	مجموع الأسر	أسر تمتلك	١ـ٣	٣ـ٥	٥ فأكثر	مجموع
الدخل من الزراعة	-	-	١٩	٩	٧	٣٥
الدخل من العمل بأجر	١٣	٨	١	-	-	٢٢
الدخل من الوظيفة الحكومية	١٥	٢	٣	١	-	٢١
الدخل من التجارة الصغيرة	١٢	١	٢	١	-	١٦
الدخل من وظائف غير زراعية	٥	١	-	-	-	١٦
تحويلات من الخارج	١	١	٢	-	-	٤
معاش	٢	-	١	-	-	٣
اجمالي العينة	٤٨	١٣	٢٨	١١	٧	١٠٧

وتكاد تقترب هذه النتائج من نتائج دراسة اجريناها بقرية سنتهاي بمحافظة الدقهلية والتي أظهرت ذلك التنوع في الدخول بالقرية من غير العمل الزراعي كما يوضحها الجدول التالي :

جدول رقم (٩) يوضح التنوع في الدخول بقرية سنتماي بمحافظة الدقهلية[١٨]

الملكية الزراعية / مصادر الدخل	النسبة ٪	أقل من فدان	١-٢	٢-٣	أكثر من ذلك	الجملة
الزراعة	٤٧,٥	١٥	٦١	١٧	٢	٩٥
وظائف مؤسسية وحكومية	٣٥	٥٥	٧	٥	٣	٧٠
العمل بأجر في الزراعة	١٤	٢٨	-	-	-	٢٨
أعمال غير زراعية	٣,٥	٧	-	-	-	٧
المجموع	١٠٠	١٠٥	٦٨	٢٢	٥	٢٠٠

كما تنوعت صور استغلال الأرض فلم تعد للزراعة فحسب بل تحولت المساحات المتأخمة لحدود القرية إلى تقسيمات للمباني ، وبلغ سعر القراط فيها ١٠ آلاف جنيهاً ، وآثر ملاك هذه الأرض استغلالها كأرض للمباني بدلاً من الزراعة لوعيهم أن المبلغ الذي سيحصلون عليه من هذه الصفقة يصعب الحصول عليه عن طريق استغلال الأرض للزراعة عبر سنوات طويلة ، ولقد أظهرت الدراسة الميدانية بالقرية التي نحن بصدد دراستها أن الذين مازالوا يعملون بالزراعة كمهنة أساسية من أرباب الأسر التي شملتها العينة يتناقصون بشكل واضح حيث بلغت نسبتهم ٣٩٪ من العينة ونسبة من يعملون بالوظائف ٣٣٪ ونسبة من يعملون بالتجارة ١٣٪ ونسبة من يعملون بالأجر في أنشطة القرية ١٢٪ ونسبة ٣٪ بالمعاش ومن المتوقع إذا ظل التغير يسير في معدله بالقرية أن تنقرض مهنة الفلاح المتفرغ للزراعة خلال سنوات قليلة مقبلة كما سبق ان ذكرنا ، كما تشهد القرية أيضاً عزوف عن العمل بالزراعة من قبل الشباب والأجيال الحالية لا لشيء كما قلنا ولكن لصغر المساحات المتاحة للاستغلال والتي لاتتلاءم مع طموحات الأجيال الموجودة ، ومن شأن هذه القيم الجديدة التي صيغت نحو العمل الزراعي أن تحدث بعض الاختلالات في سوق العمل الزراعي في بعض فترات

العام نتيجة لقلة المعروض من قوة العمل المطلوبة ، وقد ساعد ذلك على افساح المجال داخل هذا السوق للنساء والأطفال ليصبحوا جزء من عرض العمل وبشكل خاص من المستويات الطبقية الدنيا ، كما ساعد على ذلك طبيعة الأعمال الجديدة التي ظهرت بالقرية والتي تتلاءم وقدراتهم كجني ثمار الفاكهة وتجهيزها واعدادها للنقل والتسويق ، وغير ذلك من الجهود كالعناية بمحاصيل الخضروات وجمعها واعدادها للنقل وأحياناً تسويقها داخل القرية . وفي المقابل تولت القلة المحدودة من الذكور الذين يساهمون في النشاط الزراعي بذل الجهد من خلال استخدام وسائل التكنولوجيا الحديثة في مجال الحرث والعزق والحصاد .

وفي هذا السياق تنوعت استجابات وحدات المعيشة بالقرية للمتغيرات التي حدثت حولها ، وذلك وفقاً لقدرات هذه الوحدات ، فنجدها بالمستويات الطبقية الدنيا قد تحددت استجاباتها من خلال دفع ابنائها إلى العمل عندما أفرغت الهجرة والتعليم القرية من محتواها البشري ، وليس ذلك فحسب بل فقد تغذت روافد الهجرة على أبناء هذه المستويات الطبقية لفترة طويلة ومازالت كذلك ، عندما أدركت هذه الوحدات المعيشية أن تطلعاتها بالقرية باتت محاصرة بين ميراث اجتماعي محدود ومستقبل يخلوا من الآمال وسط تحولات جارفة في وعاء القرية الاجتماعي وغير ذلك فقد سلبت الحياة من هذه الأسر مقومات الوفرة المادية لتهبها قدرات عالية على التكيف والتفاعل السريع بشكل يفوق غيرها من وحدات المستويات الطبقية الأخرى ، وقد انعكس ذلك في حركتها وتفاعلها مع غيرها من الأسر في المستويات الطبقية التالية لها ، فنجد نسائهن قد احترفن بعض الأعمال المنزلية كصناعة الخبز بالأجر لدى أسر المستوى الطبقي الأوسط والأعلى ممن قلت خبرتهن بهذه الأعمال ، ومنهن أيضاً من عملن في تجارة الخضروات بشكل يومي داخل القرية وفي أعمال البناء وبشكل خاص الأعمال المساعدة ، وكذلك في تربية الطيور والدواجن في بيوتها أو شرائها من بعض القرى التي تتوفر فيها هذه المنتجات ، واعادة تسويقها إما بالقرية أو بالحضر القريب ، وينسحب ذلك على منتجات الألبان من الزبد والجبن والبيض حيث تؤدي هذه الأدوار نسوة من وحدات المعيشة بالمستويات الطبقية الدنيا بالقرية .

ويبـدو أن المتغـيرات الجـديدة التي تشهـدهـا القـرية في ضوء قدرات هذه المستويات الطبقية قد جاءت لصالحها فقد تحققت لهذه الجهود الدخول المادية التي أعادتت التوازن لصالحها سواء من قبل الهجرة الخارجية أو من خلال الاتجار في الأنشطة الاقتصادية المتصلة بسلع الغذاء بالقرية ، وانفردت وحدات المعيشة في هذا المستـوى الطبقي بهذه الجهود والتي يعزف عن القيام بها أفراد وحدات المعيشة بالمستويات الطبقية المتوسطة والعليا ، وفي الوقت ذاته فانها قد أصبحت فرصة مواتية لتصريف منتجات الحقل التي تم جمعها من القرية أو من قرى مجاورة بين هذه المستويات الطبقية التي عزفت عن القيام بها .

وحدات المعيشة بالقرية والانتاج والاستهلاك :

تجاوزت تطلعات أفراد المجتمع الريفي حدود انتاج الغذاء والذي لم يعد يمثل مشكلة من منظور أفراد القرية ، فإذا كان انتاج القمح والذرة بالنسبة للفلاح هو بهدف الحصول منه على الغذاء لنفسه أو لحيواناته ، فإن الأمر لايحتاج كل هذا الجهـد فبـامكانه الحصول على الخبز والدقيق من مصادر التوزيع بالقرية والتي أقامتها الدولة ، ولايحتاج الأمر منه إلا توفير بعض النقود التي يصعب توفيرها من بيع المحاصيل التقليدية . وفي هذا السياق يتطلب الأمر اعادة طرح المفاهيم التي ارتبطت بالفلاح المصري حول الارتباط بالأرض ، والصياغة الجديدة التي توصل إليها الإنسان المصري بالقرية حول علاقة الأرض بالنقود ، حيث ظلت الأرض مخزونـاً وحيداً أو مطلقـاً للقيمـة عبر مراحل التاريخ ويحضرنا هنا المعادلة التي صيغت في مجال الاقتصاد السياسي حول العلاقة بين الأرض والنقود وكانت على النحو التالي : (ض ـ ن ـ ض) حيث (ض) هي الأرض و(ن) هي النقود لكي يعاد صياغتها مرة ثانية وتصبح (ن ـ ض ـ ن)[١٩] وتعني في صياغتها المعادة أو المعدلة خروج رأس المال من الأرض بالقرية أو بالاحرى انفصاله عنها بعد أن ظل حبيساً فيها لسنوات طويلة ليتفاعل مع أنشطة أكث تنوعاً ، سواء بالقرية أو خارجها ولكن في ظل صياغة جديدة في العلاقة معها .

وفي إطارالانتاج للسوق الخارجية عن حيز القرية تكون استجابة وحدات المعيشة بالمستويات الطبقية العليا أسرع لما تتمتع به هذه الوحدات من مقومات الانتاج للسوق ، من حيث المساحات المتسعة نسبياً بالقياس إلى المستويات الطبقية الدنيا والوسطى ، وانعكس ذلك في زراعة محاصيل الفاكهة من الموالح وزراعة الخضروات ، يضاف إلى ذلك استثمارات هذه المستويات الطبقية داخل القرية والتي تركزت في اقتناء بعض المعدات وتشغيلها بالأجر في المزارع ، ومن الملاحظ أن عمليات الانفصال بين الانتاج الريفي واحتياجات القرية من الغذاء ، وتجاوز الحدود الاقليمية للقرية في مجال الانتاج قد بدأت من خلال تفاعل هذا المستوى الطبقي مع السوق ، فقد اتجهت وحدات المعيشة بشكل مبكر إلى انتاج الموالح والفاكهة وهي محاصيل يتم تسويقها خارج القرية بمنافذ التوزيع بالقاهرة والاسكندرية ، وفي أحيان أخرى نجد تعاقدات بين بعض المنتجين والسوق الخارجية عن طريق شركات التصدير ، يضاف إلى ذلك بعض الزراعات الأخرى من المحاصيل ذات القيمة التسويقية العالية كالسمسم والكراوية ونباتات الزينة ، وزراعة البرسيم لاستخدامه كغذاء للحيوانات والتي ترتفع قيمته النقدية ليصل الفدان إلى ٥٠٠ جنيهاً في الوقت الذي لايحتاج إلى جهد كما لايستمر في الأرض طويلاً .

وكمحصلة لذلك تحملت وحدات المعيشة بالمستويات الطبقية الوسطى في إطار ملكياتها المحدودة تبعة انتاج الغذاء ، ولايعني ذلك تعفف هذه الوحدات المعيشية عن السعي نحو السوق ، ولكنها تقدم الحبوب ومنتجات الألبان إلى أسر المستويات الطبقية الأخرى ، وبشكل خاص بعد أن بدأت ظاهرة الاحتفاظ بحيوانات الحقل تندثر فقد تأكد من الدراسة الميدانية أن نسبة من الأسر بلغت ٤٣٪ من أفراد العينة هي التي مازالت تقتني حيوانات للحقل ، وهذه النسبة لاتستطيع الوفاء باحتياجات القرية من منتجات الألبان ، ولقد دفع ذلك هذه الأسر إلى تكثيف جهودها للوفاء بمتطلبات السوق بالقرية، كما تحولت هي الأخرى في ظل ارتفاع أسعار الزبد والجبن إلى التخلي عن استهلاك ما تنتجه وبيعه في سوق القرية والحصول على عائد نقدي ، وشراء احتياجاتها أو على الأقل جزء منها من المنتجات المصنعة .

وقـد انعكس ذلـك في استجـابـات وحـدات المعيشة بالقرية حول مصادر الحصـولـل على منتجات الحقل من القمح والذرة والألبان ومنتجاتها من الزبد والجبن لنجد أن نسبة بلغت ٣٥٪ هي التي تحصل على القمح من انتاج أرضها ، والنسبة الباقية تحصل على احتياجاتها من القمح ومشتقاته من الدقيق من السوق وبشكل خاص من مصادر التوزيع ، أو قد تكتفي باستهلاك الخبز من مصادره الكائنة بالقرية أو من مخابز الدولة بالمناطق الحضرية .

ويبدو أن هناك اتجاه لدى الغالبية العظمى من وحدات المعيشة ، في ضوء ارتفاع أسعار المحاصيل وندرة انتاجها إلى العزوف عن اعداد الخبز في البيت إلا في نطاق محدود ، وذلك لأن معظم المساكن الجديدة بالقرية قد خلت من المكان التقليدي لاعداد الخبز ، ومن جانب آخر لارتفاع تكلفة انتاج الرغيف مقارناً بالرغيف الذي يتم الحصول عليه من مخابز الدولة ويبدو ذلك واضحاً في أقوال احـدى الـريفيات بقولها : « الخبيز في البيت أصبح غالي ومكلف ومتعب لأن كيلةالقمح بنشتريها من السوق بثمانية جنيه لأن محدش بيزرع دلوقتي وبيتكلف طحنها جنيه وخبزها ٣ جنيهات ، يعني تكلف ١٢ جنيه وبتعمل ١٥٠ رغيف تكفي أسرة مكونة من أربع أفراد لمدة ١٠ أيام ، ولازم نحجز الخبارزة والفرن الخاص بها ونقولها قبلها بيوم . لكن المبلغ ده ممكن نشتري به ٢٤٠ رغيف أول بأول من فرن الحكومة ويكفي الأسرة ٢٠ يوم » .

ويكاد ينطبق نفس الشيء على احتياجات وحدات المعيشة من الذرة والذي أصبح استخدامه في الغذاء الآدمي محدود .

أما بشأن منتجات الألبان فان نسبة بلغت حوالي ٧٤٪ من أفراد العينة التي اجـرى عليهـا الـدراسة أكدوا أنهم يحصلون على منتجات الألبان من السوق وبشكل خاص من منافذ توزيع الزبد الصناعي وغيرها ، ومن الواضح أن هذه النسبة تضم البعض ممن يمتلكون حيوانات للحقل ونسبة ممن لايمتلكونها .

وقد انعكس ذلك أيضاً في أقوال احدى الفلاحات بقولها : « الفلاحة النهاردة عارفـة كل حاجـة وشاطرة وعارفة تتصرف ازاي واللي عندها حيوانات بتحلب

لاتستهلك الـزبـدة ولا الجبنة ولكن بتبيع الكيلو بستة جنيهات وتشتري زبدة مستوردة أرخص من البلدي » .

ولقد أدى ذلك إلى زيادة تحمل الدولة إلى مبالغ طائلة للانفاق الاستهلاكي بالنسبة لقطاع الريف خلال السنوات التي واكبت هذه التحولات منذ بدايات انفتـاح القـرية المصرية ، بعد أن كان ذلك الجهد قاصر على توفير احتياجات المناطق الحضرية ، بيد أن السنوات التي اعقبت هذه التغيرات بالريف قد اقترنت بزيادة المبالغ المنفقة على الاستهلاك كما يظهرها أرقام الجدولين التاليين :

جدول رقم (١٠)
يوضح معدلات الزيادة في الاستهلاك
في الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٨٢[٢٠]

(القيمة بالمليون جنيه)

السنة	جملة الاستهلاك السلعي والخدمي بالريف (بالمليون)	معدل الزيادة
١٩٧٤	١١٠٠	
١٩٧٥	١٢١٨,٣	٪١١
١٩٧٦	١٤٦٤	٪٢٠
١٩٧٧	١٧٨١,٤	٪٥١
١٩٧٨	٢١٨٥,٩	٪٥٣
١٩٧٩	٣١٧٤,٤	٪٤٥
١٩٨١/١٩٨٠	٤٨٧٨,٦	٪٥٣
١٩٨٢/١٩٨١	٥٥٥٩,٨	٪١٣

جدول رقم (١١)
يوضح الزيادة في الانفاق على الاستهلاك
في الفترة ١٩٨٦ - ١٩٩٢[٢١]

(القيمة بالمليون جنيه)

السنة	المنفق على الطعام (بالمليون جنيه)	المنفق على غير الطعام	المنفق على الاستهلاك الخدمي	اجمالي الاستهلاك
٨٧/٨٦	١٠٠٤٧,٤	٣٧٥٩,١	١٦٧٢	١٥٤٧٨,٥
٨٨/٨٧	١٠٣٩١,٧	٣٨٩٩,٣	١٨٠٩,١	١٦١٠٠,١
٨٩/٨٨	٩٩٩٤,٧	٤١١٢	١٨٩٣	١٥٩٩٩,٧
٩٠/٨٩	١٠٢٨٦,٤	٤٣٧٦,٥	٢٠٢٦,١	١٦٦٨٩
٩١/٩٠	١٠٤٦٠	٤٤٧٩,٢	٢١٦٠,٦	١٧٠٩٩,٨
٩٢/٩١	١٠٦٣٧,٢	٤٥١٩,٦	٢٣٣٠,٦	١٧٤٨٧,٤

ومن الواضح أن الدولة أصبحت تتحمل ملايين الجنيهات لتوفير الغذاء الذي لم تعد تنتجه القرية أو المدينة ، ليثقل من كاهلها ويزيد من أعبائها .

كما أدت الندرة في انتاج المحاصيل التقليدية أيضاً إلى ارتفاع سعرها وبشكل خاص الذرة والقمح والذي أصبح يستخدم كغذاء للإنسان والحيوان ، كما خصصت أسر المستوى الطبقي الأوسط بعض أجزاء لزراعة الخضروات بعد أن كانت تحملها على محاصيل أخرى وتعمل على مواصلة تسويقها خلال موسم نموها ولكن التسويق يتم في إطار القرية لمحدودية الانتاج منها ، وانعكس ذلك في استجابات أفراد المجتمع حول هذا الموضوع .

وإذا كانت وحدات المعيشة بالمستويات الطبقية الدنيا قد غذت بأبنائها روافد الهجرة للعمالة بأشكالها المختلفة فإن وحدات المعيشة بالمستويات الطبقية الوسطى قد غذت روافد الهجرة بالمهن المختلفة والوظائف المتنوعة ، فالحراك المهني الذي

يحدث في القرية وفي مجال الزراعة ينطلق من خلال تطلعات أبناء هذا المستوى الطبقي من خلال التعليم الذي لجأت إليه وحدات المعيشة بهذا المستوى بشكل مبكر لاحساسهم بقيمته بالنسبة للأبناء في ظل انخفاض قيمة العمل الزراعي بالنسبة لهذه الوحدات .

ولاينبغي أن يتبادر إلى الأذهان أننا نفضل بقاء القرية المصرية أسيرة في تقاليدها التي عاشتها لسنوات طويلة ، بل العكس من ذلك فان هذه الانماط المتباينة من التفاعل مع المتغيرات المحلية والعالمية تؤكد مقدرة أهل الريف على سرعة استيعاب هذه المتغيرات والتعامل معها ، ولكن من الضروري الا يترك التغير يغزو الوحدات الانتاجية بشكل تلقائي والا يترك الافراد في هذه الوحدات لتقديم الحلول لمشكلاتهم والتي قد تلائم ظروف المجتمع أو لا تلائمه ، كما قد يضطرهم ذلك إلى استحداث أنشطة انتاجية لايستفيد منها المجتمع الكبير ولكنها مولدة للدخل فحسب ، لأن ذلك من شأنه أن يجعل من هذه الوحدات التي ظلت منتجة لفترة طويلة يجعلها عبء على الاقتصاد القومي .

تحليل ومناقشة :

من الواضح أن وحدات المعيشة بالريف المصري قد نالها بعض الآثار التي ترتبت على التحولات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع بشكل عام والريف بشكل خاص ، وهو أمر طبيعي إذ أن هذه الوحدات لاتعيش في معزل عن المجتمع الكبير ، وقد أدى ذلك إلى أن تسللت مجموعة من العوامل جزء منها من خارج الحدود الجغراية للقرية ، وجزء منها نبت من داخلها كتلك العوامل البنائية والتاريخية ، أسهمت في تغيير الدور التقليدي بالنسبة لوحدات المعيشة ، فقد ظلت هذه الوحدات هي الأساس أو نقطة البداية بالنسبة للانتاج والاستهلاك بالمجتمع الريفي عبر قرون طويلة ، إلا أن هذه الأبنية التقليدية للانتاج لم تستطع مقاومة هذه التأثيرات ، فالرأسمالية العالمية مدت سيطرتها إلى بقاع الريف ، وانخرطت القرية في علاقات السوق الاقتصادية ، وتطلعات الهجرة والحراك المهني للتعليم ، والطموحات الجديدة للانفتاح ، وحوصرت هذه الآمال بين

أسوار الرقعة الزراعية المحدودة ، وبهذا المعنى فيصبح تحول الأدوار بين وحدات المعيشة ظاهرة سوية تحاول فيها الأسرة الريفية اعادة التوازن الذي فقدته في ضوء التحولات السريعة على أرض القرية .

ويقودنا ذلك إلى تساؤلات أخرى حول موقف الريف المصري في ضوء عمليات التغير التلقائي أو العشوائي الذي يشكل حركته الاجتماعية ، وما هو الدور الذي ينتظر منه ، وهل من العدل أو من الانصاف أن يظل الريف منتجاً للغذاء في ضوء سياسات قومية لاتراعي متغيرات السوق العالمية ، أو تكلفة مستلزمات الانتاج المرتفعة لمحاصيل الغذاء ، والتي لاتتلاءم مع سعر توريدها .

وعلى الرغم من ذلك فمازالت القرية المصرية تتحمل وزر الكثير من مشكلات المدينة عندما نجد أن سكان الحضر المجاور قد وجدوا فيها مهرباً من وطأة الحياة فيه ، ووجدوا في الاستقرار بالقرية حلولا لأزمة المساكن ومصدراً أيسر للحصول على الغذاء كما آثر بعض هؤلاء الأفراد الاقامة الدائمة بالقرية والانتقال بشكل يومي إلى المدينة وترتب على ذلك زيادة الاعباء الملقاة على القرية التي ضاقت بأهلها ، وضمت أفراد من غير القطاع الزراعي بين حدودها ، يوجهون انماط الاستهلاك فيها ولاينتمون إلى وعائها الانتاجي باعتبارهم وافدين عليها من الخارج ومن ثم فهم عبء عليها ، ومن خلال هؤلاء وغيرهم من الحالات المشابهة ارتفع حجم الاستهلاك بالقرية وتنوع ليبتلع معظم انتاج المحاصيل الخاصة بالغذاء والتي انحسرت في ضوء علاقات الانتاج للسوق ، وكيف اذن يطلب من القرية أن تؤدي دورها الانتاجي للوفاء بحاجات المجتمع المصري من الغذاء في معزل عن المؤثرات الاقتصادية والسياسية بالمجتمع الكبير .

والأمر بذلك يحتاج إلى مزيد من العناية بالقرية المصرية وتوجيه المزيد من الاستثمارات إلى مجال الزراعة ، واستخدام أفكار العلم الحديث للتوسع الرأسي وزيادة المحاصيل ، وفتح آفاق جديدة بالمناطق الصحراوية المستصلحة لامتصاص الفائض البشري من وادي النيل والدلتا ، وتنظيم زراعة محاصيل الغذاء وفق سياسة قومية تدعم ذلك .

المراجــع

١ ـ انظر في هذا الصدد :

- Frank Andre Gunder, Economic Crisis and the State in the third world (Development Discussion paper no-30 University of East Anglia, England, February 1979.
- Amien, Samir, class and nation, Historically and in the Current crisis, New York and London, Monthly Review Press, 1980.

٢ ـ انظر : ريتشارد انكر في : المرأة والمشكلة السكانية في العالم الثالث ، ترجمة علياء شكري وزملاؤها ، مراجعة محمد الجوهري ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٣٠ .

3 - Young Kate : Modes of appropriation and Sexual division of labour : A Case study from Ouxaca, Mexicao, in Annette Kuhn and Ann Maire Wolpe (eds) Feminism and Materialism, women and Modes of Production Roultedge and Kegem Paul, London, Henley and Posten, 1977, P. 124.

4 - Meillassouh. C, Maidens, Meal and Money, Capitalism and the Domestic Community, Cambridge University press 1984.

٥ ـ ريتشارد انكر ، في المرأة والمشكلة السكانية في العالم الثالث ـ ترجمة علياء شكري وزملاؤها ، مرجع سبق ذكره ص ١٤٥ .

٦ ـ انظر : علياء شكري وآخرون في ، المرأة في الريف والحضر ، دراسة لحياتها في العمل والأسرة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨م .

٧ ـ المصدر : الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء ، الكتاب السنوي للاحصاءات العامة عصر من ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠ يونيو ١٩٧١ ، ص ٦٠ .

٨ ـ المصدر : الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء ، الكتاب السنوي للاحصاءات العامة لحصر ، مرجع سابق ص ٦٠ .

٩ ـ المصدر : ١و٢ ـ الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء ، الكتاب الاحصائي السنوي (ج . م . ع) (٥٢ ـ ١٩٧٧) يوليو ١٩٧٨ والارقام لاتشمل املاك الحكومة والأراضي الصحراوية والبور تحت التوزيع .

٣ ـ الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء ، الزمام والمساحات المنزرعة في ج . م . ع عام ١٩٧٤ ، مرجع ١٩٧٧/١١/٢٥٦١ نوفمبر ١٩٧٧ .

عدد الملاك في الفئة (١٠ أفدنة إلى أقل من ٥٠) معد طبقاً لما جاء في Samir

٤ Radwan. Agrain Reform and Kwal Pouerty 1977. ـ وزراة الزراعة ـ إدارة شئون المديريات . (نقلاً عن : محمود منصور عبد الفتاح ـ الدولة والمسألة الفلاحية والزراعية في مصر ـ أبحاث ومناقشات الندوة التي عقدت بالقاهرة ، مركز بحوث الوحدة العربية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ ص ٩٨ .

١٠ ـ انظر : جلال أمين واليزابيث تايلور عوني في : هجرة العمالة المصرية : دراسة نقدية للبحوث والدراسات الخاصة بهجرة العمالة المصرية للخارج تقرير بحثي رقم ١٠٨ مركز بحوث التنمية بكندا ، يناير ١٩٦٦ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

١١ ـ انظر : محمد أبو مندور في : التكيف الهيكلي في الزراعة المصرية والتوجهات والآثار المحتملة ، مقال مقدم إلى ندوة المسألة الفلاحية والزراعية في مصر في الفترة من ٢٨ ـ ٢٩ ابريل ١٩٩١ ـ ونشرت في منشورات مركز البحوث العربية ص ١٧٣ .

١٢ ـ المصدر : محسوبة مجموعة من نشرة الاقتصاد الزراعي (اعداد متفرقة) نقلاً عن عمرو أسعد خليل ـ مرجع سبق ذكره .

١٣ ـ انظر :

Foster George (Peasent Society and image of limited good) American Anthropoloist Vol. 27, 1965.

Popkin,S: The Rational Peasant, The Political economy of peasant society theory and society Vol. 9N. 1985.

١٤ ـ الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء ، التعداد العام للسكان لعام ١٩٨٢ ص ٦١ محافظة المنوفية .

١٥ ـ المصدر السابق ص ١٩٣ .

١٦ ـ المصدر السابق ص ١٩٣ .

17 - Hopkins, N., The Social Impact of mechanization (in Richard and martin (eds) Mechanizaition and agriculture marketes in Egypts, Wastview Avepress, 1983, P.194.

١٨ ـ فوزي عبد الرحمن : الانثروبولوجيا الاقتصادية (النظرية ـ المنهج ـ التطبيق) مطبعة القاهرة ، الفجر الجديد ، ١٩٩٢ ، ص ٢٦٠ .

١٩ ـ انظر : محمد عبد الشفيع عيسى : في التغير الاقتصادي في الريف المصري ، دراسة ميدانية لقرية مصرية ، مقال بمجلة دراسات عربية السنة العشرون ، ١٩٨٤ ص ١٣٣ .

٢٠ ـ المصدر : وزارة التخطيط : الإدارة المركزية لسياسات وبحوث الاستهلاك .

٢١ ـ نفس المرجع السابق .

القرطاس في الحضارة العربية

أ. د. يحيي وهيب الجبوري
أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة قاريونس ـ بنغازي

القرطاس (البردي)

ترد في كتابات القدامى ، وفي الشعر الجاهلي خاصة عدة ألفاظ تدل على المكتوب وما كُتب عليه ، من هذه الألفاظ : الصحيفة ، الكتاب ، الزبور ، وينبغي أن نقف عندها قليلاً قبل الكلام على القرطاس .

أ ـ الصحيفة :

وتدل على المكتوب وما يكتب به ، ولم تخصص بمادة معينة ، فقد تكون جلداً أو قماشاً أو نباتاً أو حجراً أو عظماً أو ورقاً ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي .

فقد جاءت في القرآن الكريم بصيغة الجمع ثماني مرات في قوله تعالى : ﴿ رسولٌ من الله يتلو صُحُفاً مُطَهَّرَة ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ إن هذا لفي الصُحُفِ الأولى صُحُفِ إبراهيمَ وموسى ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ كلاَّ إنَّها تذكرةٌ فمن شاء ذكره في صحفٍ مكَرَّمة مرفوعة مطهرَّة ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآيةٍ من ربِّه أوَ لَمْ تأتِهم بيِّنةُ ما في الصُحُفِ الأولى ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ أو لم يُنَبَّأ بما في صُحُفِ موسى ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ بل يريدُ كلُ امرىءٍ منهم أن يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرة ﴾[6] ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا الصُحُفُ نشرت ﴾[7] .

أما ما جاء من ذكر الصحيفة والصحف في أقوال الرسول والصحابة فكثير جداً يفوت الحصر ، ويكفي أن نقرأ في الصحيفة التي وضعها الرسول ﷺ أول

الهجرة (بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم) ، وقد عرفت بصحيفة الرسول أو الوثيقة ، وقد تكررت كلمة الصحيفة فيها سبع مرات بلفظ الإفراد[٨] .

وقد جاءت (الصُّحُف) في الشعر الجاهلي لتعني العهود والمواثيق ، من ذلك قول حسان بن ثابت :[٩]

وإنَّ ما بيننا وبينكمُ حينَ يُقالُ الأرْحَامُ والصُّحُفُ

ومثله قول قيس بن الخطيم :[١٠]

لمَّا بدتْ غُدْوةً جِباهُهمُ حَنَّتْ إلينا الأرحامُ والصُّحُفُ

وأبيات لقيط بن يعمر الإيادي مشهورة إذ قيد بالكتابة على الصحيفة وأنذر قومه :[١١]

سلامٌ في الصحيفةِ من لَقيطٍ إلى مَنْ بالجزيرةِ من إيادِ

ويذكر علباء بن أرقم الدَّيْن الذي ثَّبته في صحيفة :[١٢]

أخذتُ لدَيْنٍ مطمَئِنٍ صحيفةً وخالفتُ فيها كلَّ مَنْ جارَ أو ظَلَمْ

ويسجل أبو ذؤيب الهذلي كيف كان الكاتب الخميري يسجل دينا على رجل آخر ، ويثني عليه :[١٣]

فنَمْنَمَ في صُحُفٍ كالرِّيَا طِ فيهنَّ إرْثُ كتابٍ مَحِيُّ

وقد كتبت الأحلاف والمواثيق والعهود في الصحف في الجاهلية ، من ذلك حلف خزاعة بين عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ ورجال من خزاعة ، وكتب لهم الحلف أبو قيس ابن عبد مناف بن زهرة وعلقوا الكتاب في الكعبة[١٤] ، ومن أشهر هذه العهود والمواثيق صحيفة قريش التي تعاقدوا فيها « على بن هاشم بن عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم »[١٥] .

ب ـ الكتاب :

أما كلمة (الكتاب) فهي أعم من الصحيفة وتدل على الشيء المكتوب ، وقد وردت في القرآن الكريم إحدى وستين ومائتي مرة إفراداً وجمعاً[١٦] ، وجاءت في كتب النبي وصحابته كثيراً ، وقد مرت بنا الصحيفة التي وضعها الرسول ﷺ أول الهجرة ، وقد جاء فيها لفظ (الكتاب) مرتين ، والكلمة من الكثرة والشيوع في كتب النبي وأخبار الصحابة بما لايدع مجالاً للاستشهاد على ذلك .

أما في الشعر الجاهلي فقد ورد ذكرها كثيراً في أشعار الجاهلين ، من ذلك قول لقيط ابن يعمر الايادي :[١٧]

هذا كتابي إليكم والنذيرُ لكم … لِمَنْ رأى رأيَهُ منكم ومن سَمِعَا

وفي شعر سلامة بن جندل :[١٨]

لِمَنْ طَلَلٌ مثلُ الكتابِ المنمَّقِ … خَلا عَهْدُهُ بين الصُّلَيْبِ فمُطْرَقِ

وقول زهير :[١٩]

يؤخر فيوضع في كتاب فيدَّخرْ … ليوم ِ الحسابِ أو يعَجِّلْ فيُنْقَم ِ

وقول عبيد بن الأبرص :[٢٠]

لِمَنْ الدارُ أقفرتْ بالجَنَاب … غيرَ نُؤيٍ ودِمْنَةٍ كالكِتَابِ

وفي شعر عدي بن زيد العبادي :[٢١]

تعرفُ أمس من لَمِيْسَ الطَّلَلْ … مثلَ الكتابِ الدارسِ الأحْوَلْ

وقوله أيضاً :[٢٢]

ناشَدْتَنا بكتاب اللّهِ حُرْمَتَنا … ولم تكُنْ بكتابِ اللّهِ تَرْتَفعُ

وقول تميم بن أبَيَّ بن مقبل :[٢٣]

منهنَّ معروفُ آياتِ الكتابِ وقد … تعتادُ تكذبُ ليلى ما تُمَنِّينا

جـ ـ الزَّبور :

وأما كلمة (الزَّبور) فقد جاءت في الشعر الجاهلي بمعنى الكتاب

الديني ، وقد تطلق الكلمة على غيره من الكتب أيضاً ، وقد استعملها الشعراء بالمعنيين ، فمن المعنى الديني قول أمية ابن أبي الصلت :[٢٤]

وأُبرِزُوا بصعيدٍ مُسْتَوٍ جُرُزٍ   وأُنْزِلَ العَرْشُ والميزانُ والزُّبُرُ

وقول عمرو بن أحمر :[٢٥]

أتَتْ حِجَجٌ بعدي عليها فأصبحتْ   كخَطِّ زَبُورٍ في مصاحفِ رُهْبَانِ

وقول عمرو بن أحمر :[٢٦]

أم لا تَزَالُ تُرَجِّي عيشةً أُنُفَاً   لم تُرْجَ قبلُ ولم يُكْتَبْ بها زُبُرُ

ومن المعنى الثاني الذي يراد بالكلمة مطلق الكتاب قول لبيد :[٢٧]

وجلا السيولُ عن الطُّلولِ كأنَّها   زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقلامُهَا

وقوله أيضاً :[٢٨]

فنعافِ صارةَ فالقَنَانِ كأنَّها   زُبرٌ يُرَجِّعُهَا وليدُ يَمَانِ

وقول امرىء القيس :[٢٩]

لمن طَلَلٌ أبصَرْتُهُ فشَجَاني   كخَطِّ زَبُورٍ في عسيبِ يماني

واستعمل أبو ذؤيب الهذلي كلمة الزبور فعلا هو (يُزَبِّر) بمعنى يكتب في قوله :[٣٠]

عرفتَ الديارَ كرَقْمِ الدَّوَا   ةِ يُزَبِّرُهَا الكاتبُ الحميري

وجاءت كلمة الزبور في القرآن الكريم تسع مرات وكلها بمعنى الكتاب الديني ، وجاءت في موضعين خاصة بكتاب داود ، في قوله تعالى : ﴿ وآتينا داودَ زَبُورا ﴾[٣١] ، وجاءت في الآيات الأخرى بمعنى الكتاب الديني في قوله تعالى : ﴿ وإنَّه لفي زُبُر الأولين ﴾[٣٢] ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزَّبُوْرِ من بعدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يرثُها عباديَ الصالحون ﴾[٣٣] ، وقوله تعالى : ﴿ أكفارُكُمْ خَيْرٌ من أولئكم أم لكم براءةٌ في الزُّبُر ﴾[٣٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وكلُّ شيء فعلوه في الزُّبر ﴾[٣٥] ، وقوله تعالى : ﴿ بالبِّينات والزُّبُر ﴾[٣٦] ، وقوله تعالى : ﴿ فان كذَّبوكَ فقد كُذِّبَ رُسُلٌ من قبلك جاءوا بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكتابِ

المنير ﴾[٣٧] . ولكن كلمة (الزبور) ومشتقاتها لم تشع ويكثر استعمالها بعد الإسلام شيوع واستعمال الكتاب والصحيفة .

ونعود لنقف عند القرطاس والبردي الذي كان وسيلة الكتابة والتدوين لفترة طويلة .

البَرْدي :

عرف العرب البردي منذ العصر الجاهلي باسم (القرطاس) وهي كلمة يونانية (CHARTES) ومعناها ما يكتب فيه ، ويقابلها في العربية ورقة وصحيفة[٣٨] ، وجاءت كلمة القرطاس في شعر طرفة بن العبد في معلقته يصف ناقته ويشبه حدها بالقرطاس الشامي :[٣٩]

وخَدٍ كقِرْطَاسِ الشآمي ومِشْفَرٍ   كسِبْتِ اليماني قَدُّهُ لم يُجَرَّدِ

ونسب القرطاس إلى الشام لأنه كان منتشراً هناك ، ويأخذه الروم من مصر .

إن كلمة قرطاس وجمعها قراطيس قد أطلقت على ورق البردي ، وقد عرف المصريون القدماء البردي وصنعوا منه أوراق الكتابة ، يقول ابن النديم : « وكتب أهل مصر في القرطاس المصري ، ويعمل من قصب البردي »[٤٠] ، وهو « كاغد أبيض يقال له القراطيس » كما يقول ابن البيطار[٤١] وكانت هذه القراطيس أحسن ما كتب فيه ، كما يقول السيوطي[٤٢] ، وقد سمى البيروني قصب البردي : « الريش الذي يعمل منه القراطيس »[٤٣] . وتنسب بعض المصادر الإسلامية صناعة البردي إلى النبي يوسف ، قيل : « إنه أول من عمل القراطيس »[٤٤] .

كانت أوراق البردي تصنع على هيئة لفائف يبلغ طول الواحدة منها ثلاثين ذراعاً وأكثر في عرض شبر ، ويقول ابن المدبِّر عن صنع هذه اللفائف : « ولم أر شيئا في إلصاقها ألطف من أن ينقع الصمغ العربي في الماء ساعة حتى يذوب ، ثم يلصق به ، وكذلك ماء الكثير أو النشاستج[٤٥] ، ثم تطويه طياً رقيقاً وتجعله في منديل نظيف ، ويوضع تحت وسادة حتى يجف »[٤٦] ، وقد وصف

الفرد بتلر كيفية صناعة أوراق البردي فقال : « كان في مصر السفلى عدد عظيم من غياض فسيحة تنبت البردي ، ذلك النبات الطويل الحسن ، وكان الورق يتخذ من لبابه ، يشق شرائح تجعل منها صحائف بالضغط ، ثم تصقل بآلة من العاج ، وكانت الصحائف بعد ذلك يوصل بعضها ببعض فتكون لفائف يسهل استعمالها ، وكانت مقادير عظيمة من البردي تصدر من مصر من مرسى الاسكندرية المزدحمة ، ولسنا ندري متى ضعف أمر هذه التجارة ، ولا الأسباب التي أدت إلى القضاء على هذا النبات في مصر »(٤٧)

وكانت مصر تمد سائر الأقطار بأوراق البردي ، ومنها تنقل إلى بلاد الروم وإلى غيرها من الجهات (٤٨) ، وكان لقيام الدولة الأموية في الشام قد أتاح للقرطاس أن يأخذ طريقه إلى الديوان وتكتب فيه الكتب السلطانية ، فقد كانت الشام قديمة العهد بالقرطاس لصلتها بالدولة البيزنطية ووقوعها على الطريق التجاري الذي يحمل القراطيس من مصر إلى بلاد الروم .

ووصف السيوطي البردي المصري بقوله : « إن من خصائص مصر القراطيس ، وهي الطوامير ، وهي أحسن ما كتب فيه ، وهو حشيش أرض مصر ، ويعمل طوله ثلاثون ذراعاً وأكثر في عرض شبر »(٤٩) وقد وصفت قراطيس مصر بالجودة واللين ، وذكرها الشعراء من ذلك قول أحدهم :(٥٠)

حملت إليك عروسَ الثناءِ   على هودجٍ ما له من بعيرِ
على هودجٍ من قراطيس مصـ   ـرَ يلينُ على الطيِّ لينَ الحريرِ

ولم تكن مصر وحدها تنتج ورق البردي ، بل كانت هناك جزيرة صقلية التي ينبت فيها نبات البردي ، ولكنه لم يكن مستغلاً في الصناعة بشكل كبير ، يقول ابن حوقل في القرن الرابع الهجري في ذكر جزيرة صقلية : « وفي خلال أراضيها بقاع قد غلب عليها البربير ، وهو البردي المعمول منه الطوامير ، ولا أعلم لما بمصر من هذا البربير نظيراً على وجه الأرض ، إلا ما بصقلية منه ، وأكثره يفتل حبالاً لمراسي المراكب ، وأقله يعمل للسلطان منه طوامير القراطيس ، ولن يزيد على قلة كفايته »(٥١) .

أما في الإسلام ، فقد عرف المسلمون القرطاس وجاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ ولو أنزلنا عليكَ كتاباً في قِرْطاس ﴾[٥٢] ، وقوله تعالى : ﴿ تجعلونَها في قراطيسَ تبدونَها ﴾[٥٣] قيل : أي طوامير ، وعَدَّ بعض اللغويين كلمة القرطاس من الألفاظ الدخيلة ، قال الجواليق : « والقِرطاس (بضم القاف وكسرها) قد تكلموا به قديماً ، ويقال إن أصله غير عربي »[٥٤] ، وقد نقل الصولي كثيراً من الأقوال القديمة الواردة في القرطاس[٥٥] ، وقد مر بنا آنفاً أن الكلمة يونانية .

ومنذ عهد أبي بكر عرف المسلمون القراطيس ، ويبدو أنها كانت تأتيهم من بلاد الشام قبل فتح مصر ، وقيل إن أبا بكر جمع القرآن في قراطيس ، وكان سأل زيد بن ثابت في ذلك فأبى ، حتى استعان بعمر ، ففعل[٥٦] ، وذكر السجستاني كذلك حديثاً في جمع القرآن في قراطيس[٥٧] .

وكان بعض الصحابة يكتب في القراطيس منذ زمن مبكر ، من ذلك إن خالد بن الوليد كتب كتاب الأمان لأهل الشام في سنة ٦٣٥م (٢٥هـ) في القرطاس ، وكان عمرو بن العاص في زمن عمر بن الخطاب يكتب في القراطيس ، جاء في كتاب قصة البهنساة : « فاستدعى عمرو بن العاص رضى الله عنه بدواة وقرطاس ، وكتب كتاباً لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . . »[٥٨] .

أما في العصر الأموي فقد كثر استعمال القرطاس ، وأصبحت أكثر مكاتبات الأمويين على البردى والقباطي[٥٩] ، وقد نقل محمد بن عمر المدائني أن الخلفاء منذ عهد معاوية لم تزل تستعمل القراطيس امتيازاً على غيرها[٦٠] ، وكذلك نقل البلاذرى عن أبي الحسن المدائني قوله : « أخبرني مشايخ من الكتاب أن دواوين الشام إنما كانت في قراطيس من البردي ، وكذلك الكتب إلى ملوك بن أمية في حمل المال وغير ذلك[٦١] . وقيل إن أول من كتب من الخلفاء في الطوامير هو الوليد بن عبد الملك ، وأمر أن تعظَّم كتبه ويجلَّل الخط الذي يكاتب به ، وكان يقول : تكون كتبي والكتب إلي خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض »[٦٢] ، ومعنى هذا أن القرطاس كان مستعملاً منذ أول العصر الأموي وأن الوليد أمر أن تكون

المكاتبات منه وإليه بالقطع الكبير من القرطاس ، وليس في جزازات كما كان شأن الكتابة إلى الخلفاء قبله ، ويفسر القلقشندي ذلك بقوله : « إن كلامه لا يؤدي صورة الطومار القرطاسي ، المراد بالطومار الكامل من مقادير قطع الورق أصل عمله ، وهو المعبر عنه في زماننا بالفرخة »[٦٣] ، ولما جاء عمر بن عبد العزيز الذي عرف بالزهد والتقشف وايثار القصد ، فقد أنكر ما كان من هذا الاسراف في القرطاس وأمر » كتابه بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير ، فكانت كتبه انما هي اشبر أو نحوه »[٦٤] ، وقد رأى عمر أن الولاة يسرفون في استعمال القراطيس فأمرهم بالاقتصاد ، من ذلك ان عمر حين ولي الخلافة وجد كتاباً كان والي المدينة أبو بكر محمد بن عمر بن حزم قد وجه به إلى سلفه سليمان بن عبد الملك يسأله فيه أن يبعث إليه بقدر من القراطيس لحاجة الديوان إليها ، فكتب عمر إليه جواباً على كتابه هذا ، يقول فيه : « أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر أنه قد يجرى على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا ، فابتليت بجوابك فيه ، فإذا جاءك كتابي هذا فأرِقَّ القلم ، واجمع الخط ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة ، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضر بيت مالهم ، والسلام عليك »[٦٥] .

وأصبحت هذه القراطيس في العصر الأموي تثبت في الدواوين وتحفظ على شكل أوراق ، ثم جعلت في دفاتر ، يقول الثعالبي : « وكان سبيل ما يكتب (يثبت) في الدواوين أن يكتب (يثبت) في صحف ، فكان خالد أول من جعله في دفاتر »[٦٦] .

وكذلك استعمل خالد الختم في الصكوك ، قال اليعقوبي : « وأمره أن يكتب لهم صكاكاً في قراطيس ، ثم يختم أسافلها ، فكان أول من صك وختم أسف الصكاك »[٦٧] .

وكانت قراطيس البردى هي مادة الكتابة التي شاعت في العصر الأموي والفترة الأولى من العصر العباسي ، وقد تيسر البردي في هذا العصر ورخص ثمنه وكثر تداوله ، ويذكر الجهشياري أن الطومار في أيام أبي جعفر المنصور (توفى سنة

١٥٨هـ) كان يباع بدرهم[٦٨] ، وقد كثرت قراطيس البردي في خزانة المنصور ، حتى أنه أمر أن يتخلص منه بثمن بخس ، قال الجهشياري : « إن الخليفة أبا جعفر المنصور وقف على كثرة القراطيس في خزائنه ، فدعا بصالح صاحب المصلى ، فقال له : اني أمرت باخراج حاصل القراطيس من خزائننا ، فوجدته شيئاً كثيراً جداً ، فتول بيعه ، وان لم تُعْطَ بكل طومار إلا دانقاً ، فإن تحصيل ثمنه

ومن وجوه قلة ذات اليد هذه أن بعضاً من الكتاب كانوا يعتذرون إلى من يكتبون إليهم في عدم الإطالة أو رداءة الخط بسبب ضيق القرطاس أو قلته أو عدم نقاوته ، فقد ذكر محمد بن عبد المعطي الاسحاقي بعضاً من اعتذارات الكتاب في ذلك من مثل قولهم :

« اعذرني ياسيدي في القرطاس فلم يحضر نقي . . »

« واعذرني في القرطاس فأنا في ضيق من القراطيس . . »

أول المسألة أعزك الله التفضل بقبول العذر في القرطاس »[٧٨]

أماكن صناعة القرطاس :

كانت مصر مصدر القرطاس ، ففيها يصنع ويصدر إلى سائر الأقطار ، وكانت القراطيس تنتقل من مصر إلى بلاد الروم وإلى غيرها من الجهات[٧٩] ، وقد رأينا أن القرطاس صار يعمل في بغداد ، وصار له حي اسمه درب القراطيس ، وفي أيام المعتصم انتقلت صناعة القراطيس إلى مدينة سامراء ، يقول اليعقوبي : (أواخر المائة الثالثة للهجرة) : إن المعتصم حين ابتنى مدينة سامراء أقدم جماعات من أرباب المهن والصنائع لتعمر بهم مدينته ، ومن جملتهم أنه « حمل قوماً من أرض مصر يعملون القراطيس ، فعملوها فلم يأت في تلك الجودة »[٨٠] . وقد ظلت قراطيس مصر هي الأكثر والأجود ، فبلاد مصر هي أصل صناعة القراطيس ، وقد شهرت بعض مدنها بهذه الصناعة منها : بنها ، وبوصير ، وسمنود ، ودهقلة ، وكورتها التي يعمل فيها القرطاس والطومار الذي يحمل إلى أقاصي بلدان الإسلام[٨١] ، وفي كتاب البلدان[٨٢] أسماء بلدان أخرى

تعمل بها القراطيس ، منها : وسمة ، وبورة ، وهي حصن على ساحل البحر من عمـل دمياط تعمل بها الثياب والقراطيس ، ومدينة اخنو وهي في الجانب الغربي شمالي الدلتا دلتا النيل عند رشيد ، وقد ذكر عنها أنها يقال لها (وسيمة) .

وكان هناك بردي صقلية الذي استغل الأمراء الأغالبة صناعته والانتفاع به ، وحصروا استعمـاله في مكاتيب الحكومة وطوامير الدولة ، وكذلك اتبع الخلفاء الفاطميون سياسة سلفهم في احتكار استعمال البردي الصقلي ، ولهذا السبب لم يكن له أثر كبير في المظهر العلمي الأفريقي أو غيره من الأمصار ، واستعيض عنه بالرق .

وظل الرق مستعملاً في المناطق التي لم يكن يثبت فيها البردى ، كالمغرب التي بقي فيها استعمال الرق إلى ما بعد القرن الرابع حتى وصول الورق ، ولذلك يسجل المقدسي في سنة ٣٧٥هـ أن المغاربة كانت : « كل مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة في رقوق »(٨٣) .

أمـا في مصر فقد ظل البردي هو المادة التي يكتب فيها لفترة طويلة ، ففي النصف الأول من القرن الثالث كان لايزال يجلب من مصر(٨٤) ، وعلى الرغم من محاولة المعتصم صناعة البردي في سامراء إلا أنه : « لم يخرج منه إلا الخشن الذي يتكسر »(٨٥) ، وظل البردي يصنع في مصر حتى أواخر القرن الثالث ، فقد ذكر اليعقوبي أن القراطيس كانت لاتزال تصنع في مدينة بورة وهي حصن على ساحل البحر من عمل دمياط ، وفي مدينة اخنو التي يقال لها وسيمة ، وتقع على ساحل البحر في الجانب الغربي من شمال الدلتا عند رشيد(٨٦) .

ويبدو أن دخول الورق وانتشاره في مصر قد قضى على القرطاس وصناعته ، ويمكن أن نحدد انتهاء صناعة ورق البردي في مصر في القرن الرابع الهجري (العـاشر الميلادي) ، يقول آدم متز : « إن الورق البردي المؤرخ ينتهي عام ٣٢٣هـ (٩٣٥هـ) انتهاء تاماً ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠هـ (٩١٢م)(٨٧) ، وهناك من الدلائل التي تشير إلى قرب

انتهاء عهد القراطيس ي مصر ودخول الورق كمنافس شديد ، ما حكاه ياقوت في سياق ترجمته لابن حنزابة ، جعفر بن الفرات وزير الاخشيديين في مصر ، إذ يقول : « كان يعمل للوزير أبي الفضل الكاغد بسمرقند ويحمل إليه في مصر كل سنة ، وكان في خزائنه عدة من الوراقين »[٨٨] ، وقد وزر ابن حنزابه للاخشيديين سنة ٣٣٤ ـ ٣٤٩ ، وقد انتهت دولة الاخشيديين سنة ٣٥٧هـ .

وبانتشار صناعة الورق وتيسره تطوى صفحة البردي ويحل محلها ما كان يعرف بالكاغد ، ويحسن بنا قبل أن نختتم الحديث عن القرطاس أن نذكر صورته في الشعر :

يقول أبو نواس يصف فتى من فتيان الديوان قد نشر الطومار بين يديه :[٨٩]

إنَّ الـذي تَّيمـني حُبُّـهُ أمـردُ من نشء الـدواوين
قد نشَرَ الـطُّومَـارَ في حجـرِه مبـتـدئـا بالـياءِ والـسـينِ

وقد مر بنا أنه أعرب عن حاجته إلى قطعة قرطاس وليس هو من أصحاب القراطيس :[٩٠]

أريدُ قِطْعـةَ قِرْطَـاسٍ فتـعجـزني وجُـلُّ صحبيَ أصحابُ القراطيسِ
لحاهُـمُ الـلهُ من ودٍ ومـعـرفـةٍ إنَّ المـياسرَ منهـم كالمـفـاليسِ

ويذكـر أبـو نواس أيضـاً أدوات الصبيان التي يستعملونها في الكتـابة ومنها قرطاس الوليد :[٩١]

واحتـازَهـا لونٌ جَرى من جلدِهـا يَقَقٌ كقـرطـاسِ الـوليدِ هِجَـانِ

ويذكر أبو تمام القرطاس في سياق ذكر القلم وهو يمدح محمد بن عبد الملك الزيات :[٩٢]

إذا استعـزرَ الـذهن الجـلي وأقبلتْ أعـاليه في القـرطـاسِ وهي أسافلُ

أمـا أبـو بكر محمد بن يحيى الصولي فيذكر القرطاس في سياق مدحه لأبي القاسم الوزير :[٩٣]

ينـظمُ دُرّاً في قراطـيسـهِ أفْـدِي أبـا الـعبَّـاسِ من ناظمِ

الهوامش :

(١) البينة ٢ .
(٢) الأعلى ١٨ ، ١٩ .
(٣) عبس ١١ ـ ١٤ .
(٤) طه ٣٣ .
(٥) النجم ٣٦ .
(٦) المدثر ٥٢ .
(٧) التكوير ١٠ .
(٨) انظر : محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ص١ ـ٧ ، الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ص ٩٤ .
(٩) ديوان حسان ، مخطوط ورقة ٢٠ مكتبة أحمد الثالث استانبول رقم ٢٥٤٣ .
(١٠) ديوان قيس بن الحطيم ص ١٩ .
(١١) الشعر والشعراء ١/١٥٢ .
(١٢) الأصمعيات ص ٦٣ ط برلين ١٩٠٢م .
(١٣) ديوان الهذليين ١/٦٤ .
(١٤) ديوان حسان : السابق ورقة ١٥ ـ ١٦ .
(١٥) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٣٥٧ ـ ٣٧٦ .
(١٦) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٥٩٢ ـ ٥٩٥ .
(١٧) مختارات ابن الشجري ص ٧ .
(١٨) ديوان سلامة بن جندل ص ١٥ .
(١٩) ديوان زهير ص ١٨ .
(٢٠) مختارات ابن الشجري ص ١٠٥ .
(٢١) الأغاني ٢/١٥٣ .
(٢٢) شعراء النصرانية ص ٤٧٢ .
(٢٣) جمهرة أشعار العرب ص ٣١٨ .
(٢٤) ديوان أمية بن أبي الصلت ص .
(٢٥) ديوانه ص ١٢٥ .
(٢٦) جمهرة أشعار العرب ص ٣١٥ ، أنف : أي مستأنفة .
(٢٧) ديوان لبيد ص ٢٩٩ .
(٢٨) ديوانه ص ١٣٨ .
(٢٩) ديوان امرىء القيس ص ٨٥ ط أبي الفضل إبراهيم .

(٣٠) ديوان الهذليين ١ / ٦٤ .
(٣١) الاسراء ٥٥ ، والنساء ١٦٣ .
(٣٢) الشعراء ١٩٦ .
(٣٣) الأنبياء ١٠٥ .
(٣٤) القمر ٤٣ .
(٣٥) القمر ٥٢ .
(٣٦) النحل ٤٤ .
(٣٧) فاطر ٢٥ ، وآل عمران ١٨٤ .
(٣٨) دوزى : تكملة المعاجم العربية ٢ / ٣٣١ ، القس طوبيا العنيسي : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية ص ٥٥ .
(٣٩) ديوان طرفة بن العبد ص ١٩ ـ ٢٠ .
(٤٠) الفهرس ص ٢١ .
(٤١) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١ / ٨٦ .
(٤٢) السيوطي : حسن المحاضرة ٢ / ٣٢ .
(٤٣) تاريخ الهند ص ٢٩٤ .
(٤٤) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤١ ، ابن النديم : الفهرست ١ / ٢١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٢ / ٢٣٠ .
(٤٥) الكثير : طلع النخل . النشاستج : هو النشا ، فارسي معرب حذف شطره تخفيفاً .
(٤٦) ابن المدبر : الرسالة العذراء ص ٢٧ ـ ٢٨ .
(٤٧) فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ص ٩٥ .
(٤٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٠ ط ليدن ١٨٦٦م .
(٤٩) حسن المحاضرة ٢ / ١٧٣ .
(٥٠) الثعالبي : ثمار القلوب ص ٤٢١ .
(٥١) صورة الأرض ١ / ١٢٢ ـ ١٢٣ ط ليدن ١٩٣٨م ، وص ١١٧ ط بيروت .
(٥٢) الأنعام ٧ .
(٥٣) الأنعام ٩٠ .
(٥٤) المعرب ص ٢٧٦ ، والخفاجي : شفاء الغليل ص ١٨٠ .
(٥٥) الصولي : أدب الكتاب ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، وقد أطلق المسلمون كلمة القرطاس على ورق البردي وكذلك أطلقوا عليه اسم الطومار وجمعها طوامير ، اطلقوها على قطع منه فصارت اسماً له ، وكلمة الطومار كثيرة التداول في المصادر العربية ، ويسمى ابن النديم ورق البردي : القرطاس المصري والطومار المصري (القاموس واللسان : قرطس) .

(٥٦) السيوطي : الاتقان .
(٥٧) المصاحف ص ٩ .
(٥٨) محمد بن محمد المعز : قصة البهناسة وما فيها من العجائب والغرائب ص ١٨ .
(٥٩) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ١/٢٥٩ .
(٦٠) القلقشندي : صبح الأعشى ٣/٤٩ .
(٦١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٧٠ ط مصر ١٩٠١م .
(٦٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٤٧ .
(٦٣) صبح الأعشى ٣/٤٩ .
(٦٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٥٧ .
(٦٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٤ .
(٦٦) الثعالبي : لطائف المعارف ص ٢٠ .
(٦٧) تاريخ اليعقوبي ص ١٧٧ ط ليدن ١٨٨٣م .
(٦٨) الوزراء والكتاب ص ١٣٨ .
(٦٩) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٣٨ ، وانظر كوركيس عواد : الورق ص ٤١٤ ، وكان طول الطومار ثلاثين ذراعاً وأكثر في عرض شبر . والدانق : سدس الدرهم .
(٧٠) الجهشياري : السابق ص ١٣٨ .
(٧١) ديوان أبي نواس ص ٦٠٤ .
(٧٢) ديوانه ص ٤٠٤ .
(٧٣) الجاحظ : المحاسن والأصداد ص ٣٣٦ - ٣٣٧ د ليدن ١٨٩٨م ، الطبري : تاريخ الطبري ٨/٥٤٤ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٩/٨٦ .
(٧٤) الأنساب وجه الورقة ٤٤٥ ط مرجليوت ليدن ١٩١٢م .
(٧٥) تاريخ بغداد ٢/٩١ ، ٤/٤٣٠ ، ١١/٢٣٣ ، ١٢/٣ ، ١٥١ ، ١٣/٤٥ .
(٧٦) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ١/٩٨ ، ابن ابي حاتم : آداب الشافعي ومناقبه ص
(٧٧) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ص ١٥٢ .
(٢) الاسحاقي : لطائف الأخبار في من تشرف في مصر من أرباب الدول ، مخطوط عن كروهمان : بحوث في الخطوط الإسلامية والتاريخ الحضاري ١/٧٤ .
(٧٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٠ ط ليدن .
(٧٩) تاريخ اليعقوبي ٢//٥٧٧ ط هوتسهان ، ليدن ١٨٨٣م ، وكتاب البلدان ص ٢٦٤ ط ليدن ١٨٩٢ .
(٨٠) ابن ذولاق : كتاب فضائل مصر ، عن محمود رمزي : القاموس الجغرافي ط القاهرة ١٩٥٨م .

(٨١) اليعقوبي ص ٢٦٤ .
(٨٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٣٩ .
(٨٣) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٧ .
(٨٤) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٢٥٣ .
(٨٥) كتاب البلدان ص ٩٢ .
(٨٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، الترجمة العربية ٢٦٨/٢ ـ ٢٦٩ .
(٨٧) ياقوت : معجم الأدباء ١٧٦/٧ .
(٨٨) ديوان أبي نواس ص ٣٥٣ .
(٨٩) ديوان أبي نواس ص ٦٠٤ .
(٩٠) ديوانه من ٤٠٤ ، والصولي : أدب الكتاب ص ١٠٦ .
(٩١) ديوان أبي تمام ص ١٩٤ .
(٩٢) الصولي : أدب الكتاب ص ٤٧ .

هندسة الخطوط والرسوم
في
تراثنا المنظوم

دراسة وثائقية

للأستاذ الدكتور جلال شوقي
كلية الهندسة ـ جامعة قطر

إنَّ تزايد الاهتمام بالخط العربي يمكن أن يُعزى إلى الحاجة المتنامية لتدوين القرآن الكريم حفاظاً عليه من الضياع من جهة ، ولنشره في الممالك والأقطار التي دخلت في الإسلام مع الفتوحات العربية من جهة أخرى ، ولقد أُدخلت تطوراتٌ عظيمةُ الشأن في هندسة حروف الكتابة ، فتنوعت أشكالها ، وتعددت أقلامها ، وتباينت رسومها ، وعن الخط العربي أُلفت مصنفات كثيرةٌ ما بين منثورة ومنظومة ، كما نجت من الضياع والهلال آثارٌ خطية هامة .

من تراثنا التليد في الخط العربي نقدم في هذا البحث دراسةً وثائقية للأعمال المنظومة في الخط وأدواته فحسب ، وقد تحصل لنا منها ستٌ وعشرون قصيدة على سبيل المثال لا الحصر ، وقد أُلفت هذه المنظومات سعياً وراء ثبت وجمع الخطوط وصورها ، والأقلام وأنواعها ، والأشكال وهندستها ، والرسوم ونسبها ، ذلك إلى جانب أداء الكتابة وأدواتها .

ولعله من المناسب هنا أن نشير إلى أنَّ عِدَّة أبيات بعض المنظومات قد بلغت بضع مئات ، بل إن هناك ألفية في الخط نظمها شعبان بن محمد الآثاري محتسب مصر في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد) .

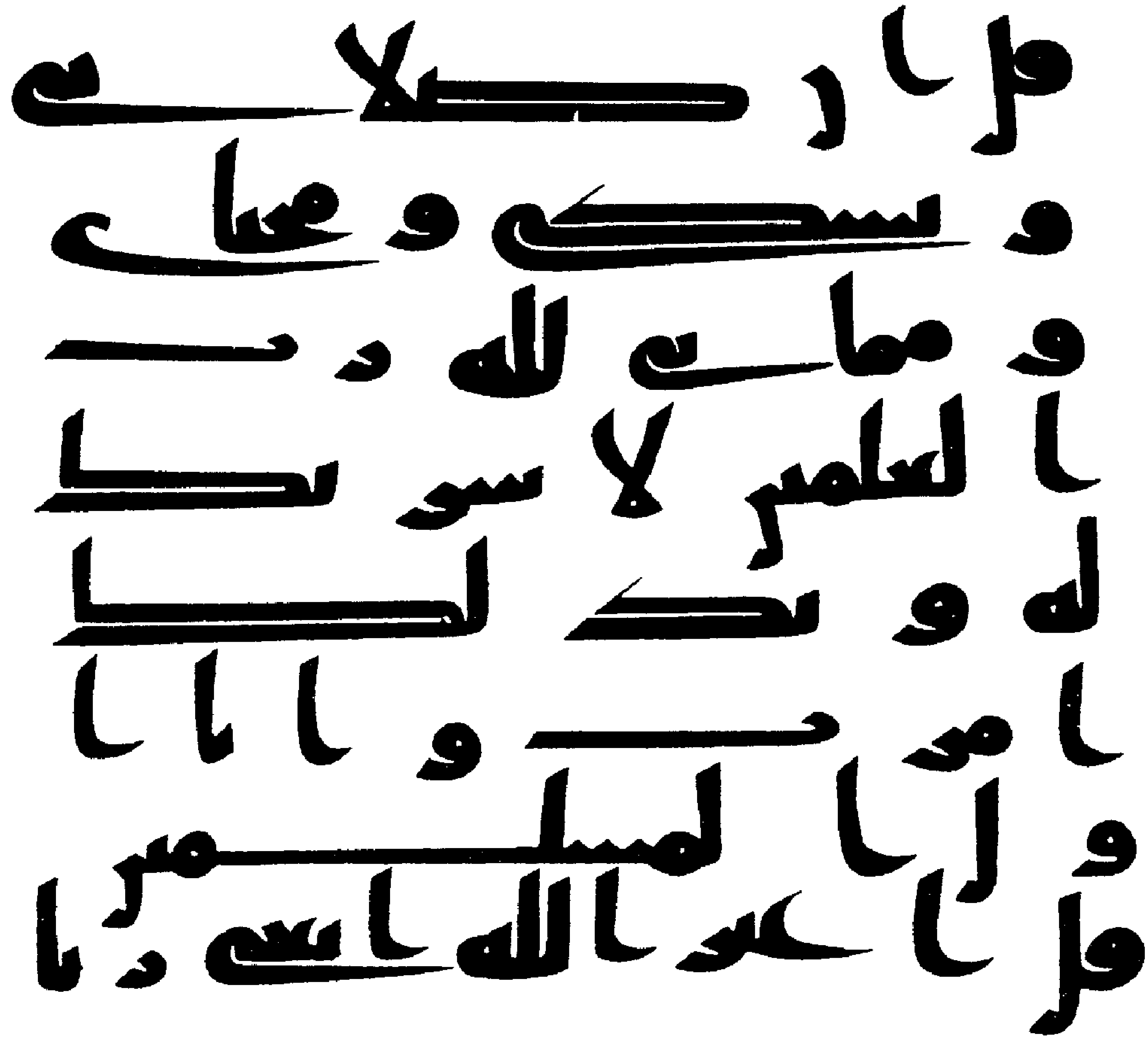
إن المنظومات تهدفُ عموماً إلى تقديم مُتُون علميةٍ سهلة المآخذ ، يتيسر على الطالب حفظها واستذكارها ، والرجوع إليها والاستعانة بها[1] .

هذا وتعرض دراستنا الحالية لبعض المنظومات الهامة التي أُلفت في الخط والكتابة مما تمكنا من الوقوف عليه ، ولعل ما نسوقه هنا يعكس مدى الاهتمام بهذا المجال والعناية به ، ونحن لاندعي استقصاءً لكل ما نظم ، ولانزعم شمولية للمصادر والمراجع الأصلية ، وحسبنا أن نرسم بعض قسمات « هندسة الخط العربي » وما يتعلق بها من قواعد وأداء ، ومواد وأدوات .

ولما كانت أقدم منظومةٍ وصلت إلينا في الخط والكتابة هي « القصيدة الرَّائية » لابن البوَّاب (من القرن الخامس الهجري » ، فقد أفردنا لها دراسةً مفصلةً في صدر هذا البحث حيث أُوردنا النصَّ مع « شرح وبيان » لما جاء بها من خاصِّ الكلمات ودقيق المواضعات ، علَّ ذلك يُلقي الضوء على حال هذا الفنِّ في أهم مراحلِ تطوُّره ونموِّه .

ولقد ارتأينا من المنطقي أن نبدأ بالتعريف بأصحاب المنظومات الست والعشرين التي تعرض لها هذه الدراسة مرتبين بحسب تتابعهم الزمني ، ونود الإشارة إلى أن بعض هؤلاء المصنفين قد مارس الخط والكتابة ، ومن هنا كان التدوين عن علم وممارسة ، وتعرج الدراسة بعد ذلك إلى ثبت المنظومات وشروحها وبيان مصادرها المخططة والمطبوعة ، وإيراد بعض نصوصها .

ولما كان أول ظهورٍ لمنظومات الخط العربي قد جاء على يد ابن البواب في صدر القرن الخامس الهجري ، فإن بعض النظم لابد وأن يشير إلى التحول من الخط الكوفي أو الخط المربع الذي ساد في القرون الأولى للهجرة ، شكل (١) ، إلى الشكل اللين ، و« المنسوب » الذي طلع به ابن مُقْلَة (ت : ٣٢٨ هـ = ٩٤٠م وهندس به الخط العربي كما جاء ذلك في رسالته الموسومة (رسالة علم الخط والقلم » والتي لاتتعدى صفحاتها العشر ، شكل (٢) .

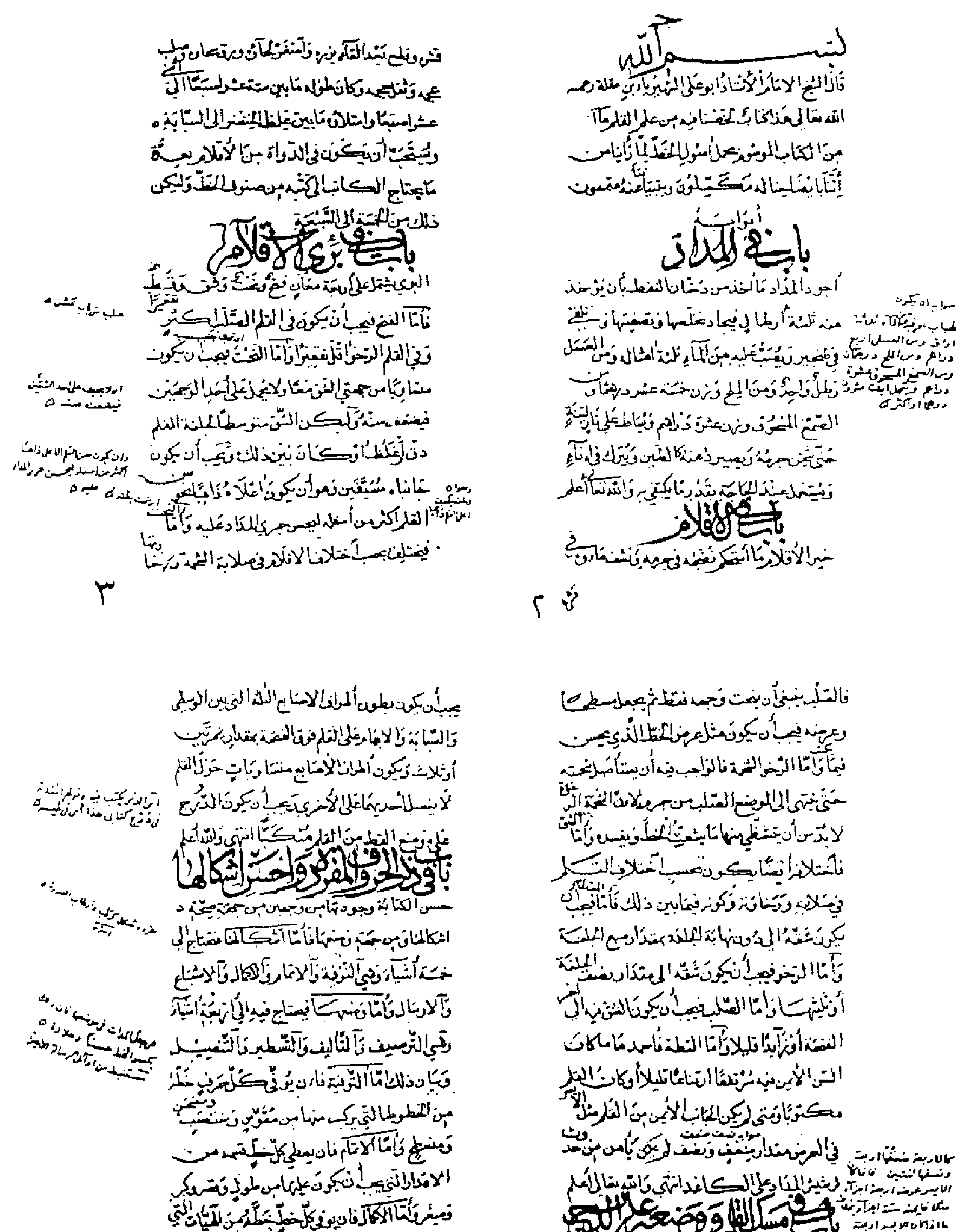


شكل (١) ـ مثالٌ للخط الكوفي كما ظهر في المصاحف العثمانية الأئمة (مصاحف الإمام) في القرن الأول للهجرة .

(عن مُصوَّر مُصحف سمرْقَنْد الذي جرى تصويره سنة ١٩٠٥م في مدينة بطرسبرج بروسيا ، وتوجد نسخةٌ مُصوَّرة لهذا المصحف بدار الكتب القطرية بالدوحة بدولة قطر) .

النصُّ من سورة الأنعام : الآيات ١٦٢/١٦٣/١٦٤ . . .

« قل إن صلاتي/ونسكي ومحياي/ومماتي لله رب/العالمين * لاشريك/ له وبذلك/ أمرت وأنا أ/ول المسلمين/* قل أغير الله أبغي ربا/ »



شكل (٢) ـ الصفحاتُ الأربع الأُولى من « رسالة عِلمْ الخطِّ والعَلَم » لابن مُقْلَة مؤسِّس « الخط المنْسُوب » (عن مخطوط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ـ رقم : ١٤ ـ صناعات) .

أصحاب المنظومات[٢]

نُقدِّم فيما يلي بياناً بأصحاب المنظومات التي تعرض لها هذه الدراسة ، وتردُ الأسماءُ مرتَّبةً بحسب سني الوفاه ، بدءاً بابن البوَّاب (من القرن الخامس الهجري) ، وهو أوَّل من نظم في الخط والكتابة .

القرن الخامس الهجري

١ - علي بن هلال ، المعروف بابن البوَّاب ...... (ت : ٤٢٣هـ = ١٠٣٢م)
٢ - المعزّ بن باديس .... (ت : ٤٥٣ هـ = ١٠٦١م)

القرن السادس الهجري

٣ - يحيى بن محمد الوزير .... (ت : ٥٦٠هـ = ١١٦٤م)
٤ - ابن الخشاب النحوي .... (ت : ٥٦٧هـ = ١١٧١م)

القرن السابع الهجري

٥ - ابن أبي الربيع .... (ت ٦٧٢هـ = ١٢٧٣م)
٦ - رضي الدين الاستراباذي .... (ت : أواخر القرن ٧هـ = ١٣م)
٧ - شرف الدين محمد بن شريف ، المعروف بابن الوحيد (ت : ٧١١هـ = ١٣١١م)
٨ - الوزير ابن هُبيرة .... (القرن ٧هـ = ١٣م)

القرن الثامن الهجري

٩ - برهان الدين ابراهيم الجعبري .... (ت : ٧٣٢هـ = ١٣٣١م)
١٠ - ابن الدُّريهم الموصلي .... (ت : ٧٦٢هـ = ١٣٦٠م)
١١ - علاء الدين السرّمرّي .... (ت : القرن ٨هـ = ١٤م)

القرن التاسع الهجري

١٢ ـ شعبان بن محمد الآثاري .... (ت : ٨٢٨هـ = ١٤٣١م)
(صاحب الألفية في الخط)
١٣ ـ ابن خطيب الدَّهشة الحموي .... (ت : ٨٣٤هـ = ١٤٣١م)
١٤ ـ محمد بن حسن السنجاري .... (كان حيًّا ٨٤٦هـ = ١٤٤٢م)

القرن العاشر الهجري

١٥ ـ رضيُّ الدين الغزّي .... (ت : ٩٣٥هـ = ١٥٢٩م)
١٦ ـ عبد الله العجمي الشِّنشوري .... (ت : ٩٩٩هـ = ١٥٩٠م)

القرن الحادي عشر الهجري

١٧ ـ نور الـدين علي بن زين العابدين الأجهوري (ت : ١٠٦٦هـ ـ ١٦٥٦م)
١٨ ـ قوام الدين محمد بن محمد مهدي .... (القرن ١١هـ = ١٧م)
١٩ ـ حسين بن حسين بن محمد .... (تمَّ التأليف : ١٠٨٨هـ = ١٦٧٧م)
٢٠ ـ عبد القادر العيّداوي .... (عاش قَبْل القرن ١٢هـ = ١٨م)

القرن الثالث عشر الهجري

٢١ ـ صالح بن يحيى السَّعدي الموصلي ...... (ت : ١٢٤٥هـ = ١٨٢٩م)
٢٢ ـ يوسف الحسني المدني .... (تمَّ النظم : ١٢٥٤هـ = ١٨٣٨م)
٢٣ ـ أحمد بن محمد الرِّفاعي القسْطَالي ...... (ت : ١٢٥٦هـ = ١٨٤٠م)
٢٤ ـ محمد بن علي البِبْلَاوي .... (تم النظم : ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م)
٢٥ ـ مؤلف غير معلوم .

القرن الرابع عشر الهجري

٢٦ ـ عيسوي قنديل النّكلاوي .... (من القرن ١٤هـ = ٢٠م)

ثبت المنظومات وشروحها

من تراثنـا المنـظوم نقـدم فيما يأتي أهم ما وقفنا عليه من مخطوطات وشروح وتعليقات وحواش لمجموعة من المشتغلين والمهتمين بإرساء قواعد كتابة الحروف والكـلمات ، وتـدبير وتهيئة أدوات تدوينها ، ذلك كله مصاغ في قوالب شعرية حفظت الكثير من أصول الخط العربي من الضياع أو التحريف ، كما أنها قدمت مادة يتيسر استظهارها شأنها في ذلك شأن المنظومات عموماً .

القرن الخامس الهجري

(١) . « المنظومة الرائية في الخط »[٣]

نظم أبي الحسن علاء الدين علي بن هلال الكاتب البغدادي المعروف « بابن البوّاب » ، كذا ، « بابن السِّتْريّ »[٤] (المتوفي سنة ٤٢٣هـ = ١٠٣٢م ، وفي قول آخر سنة ٤١٣هـ = ١٠٢٢م) ، وهي قصيدة رائية في الصناعة الخطية وأدوات الكتابة ، وتقع في ٢٧ بيتاً ، وعلى هذه المنظومة شروح ثلاثة هي :

(١) شرح بان الوحيد

وهو شرف الدين محمد بن شريف بن يوسف الزرعي الدمشق مولداً ، المصري نشأة ومدفناً (٦٤٧ ـ ٧١١هـ) = (١٢٤٩ ـ ١٣١١م) .

(٢) شرح الجعبري

وهو الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣١م) .

(٣) شرح ابن بصيص

وقد عاش قبل القرن ١٠هـ = ١٦م .

من مخطوطات المنظومة

١ ـ مخطوط دار الكتب والـوثـائق القومية بالقاهرة ـ رقم : ١١٩ مجاميع م ، الكتاب الأول في المجموعة المكوّنة من ١٥ ورقة ، كُتبت بخط نسخ بقلم علي بن أحمد الحلبي ، فرغ من نسخها سنة ٨٥٥هـ = ١٤٥١م ، وعليها شرح لابن الوحيد .

٢ ـ مخطوط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ـ رقم : ١٥ صناعة ، كتب بقلم نسخ جيد في ورقتين في القرن ١١هـ = ١٧م تقريباً .

٣ ـ مخطوط مكتبة بايزيد عمومية باستانبول ـ رقم : ٨٠١٢ ، ويقع في ورقتين ضمن مجموعة ، وهو مكتوب بخط نسخ جميل ، ويرجع تاريخ كتابته إلى القرن ١١هـ = القرن ١٧م .

٤ ـ مخطوط مكتبة مهرشاه سلطان بتركيا ـ رقم : ٣٣٥ ، ويقع في ١١٣ ورقة ، كُتبت في القرن ١١هـ = القرن ١٧م .

٥ ـ مخطوط بخزانة تيمور باشا بالقاهرة ، وبه شرح ابن الوحيد (راجع أحمد تيمور باشا بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٣٦٦/٣ ، كذا بروكلبمان ، القاهرة ثان ١٥٣/٦ .

٦ ـ مخطوط مكتبة المسجد الأقصى بالقدس الشريف ـ رقم : ١٠٠ ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ١٣٤١هـ = ١٩٢٢م .

متن المنظومة

[المَطْلَع]

[١] يَامَنْ يَرُومُ إجادَةَ التَّحرير ... ويريدُ حُسْنَ الخطِّ والتصَّوير
[٢] إنْ كَانَ عَزْمُكَ في الكتابةِ صادقاً ... فارْغَبْ إلى مولاكَ في التَّيْسِير

[بابُ البَرْى وأحكامه والقطّ وأقسامه]

[٣] أَعْدِد مِنَ الأقْلامِ كُلَّ مُثقَّفٍ ... صلْبٍ يصُوغ صياغَةَ التَّحبير
[٤] وإذَا عَمَدْتَ لِبَرْيِهِ فَتَوَخَّهُ ... عندَ القياسِ بأوْسَطِ التَّقدير
[٥] أُنظُرْ إلى طَرَفَيْه واجْعَل بَرْيَهُ ... مِنْ جانبِ التدَّقيقِ والتَّخصير
[٦] واجْعَل لجلْفَتِهِ قَواماً عَادلاً ... يخْلوُ من التطويلِ والتقصير
[٧] وكذلك شَحْمَتَهُ اعْتَمِدْ تَوْسِيطَها ... لتكوُنَ بيْنَ النَّقْصِ والتَّوفير
[٨] والشَقَّ وَسِّطْه لِيَبْقى جِبْرُهُ ... من جَانِبَيهِ مُشاكِلَ التقدير
[٩] حتَّى إذَا أَحْكَمْتَ ذَلك كلَّهُ ... إحْكَامَ طَبٍّ بالمراد خبير
[١٠] فاصْرِفْ لشأنِ القَطِّ عَزْمَكَ كُلَّهُ ... فالقَطُّ فيه جُملةُ التَّدبير
[١١] لَا تَطْمَعَنْ في أنْ أبوحُ بذكرهِ ... إنيِّ أَضِنُّ بِسرِّهِ المْستوُرِ
[١٢] لكنَّ جُملَةَ ماَ أقولُ بأنَّه ... مَا بينَ تحريفٍ إلى تدْويرَ
[١٣] فابذلْ لهُ مِنك اجتهاداً كافياً ... فعسَاك تْظفَرُ منهُ بالمأثورِ

[باب تَدْبيرُ المداد]

[١٤] وألْقِ دَوَاتَك بالدُّخانِ مُدبِّراً ... بالخَلِّ أو بالحِصْرِمِ المعْصُورِ
[١٥] وأَضِفْ إليه مَغْرَةً قد صُوِّلَتْ ... مع أصْغَرِ الزَّرنيخِ والكافورِ
[١٦] حتىَّ إذَا خَمرَّتها فاعْمَد إلى الـ ... ـورقِ النقيِّ الناعمِ المخبورِ
[١٧] فاكبسه بعدَ القطعِ في المِعْصَارِ كَيْ ... يَنْأي عن التَّشعيبِ والتغييرِ

[باب الدُّرْبَةِ عَلىَ الكِتَابة]

[١٨] ثمَّ اجْعَل التمثيلَ دأْبَكَ صَابراً ما أدركَ المأمولَ مثلُ صَبُورِ

[١٩] إبْدأ بِهِ في اللَّوح أوَّل مرَّةٍ فكذاك فِعْلُ الماجدِ النحرِّيرِ

[٢٠] ثمَّ انتقلْ للدُّرْجِ مُنْتَضياً لَهُ عَزْماً تجدِّدُهُ من التَّشْمِيرِ

[٢١] وابْسُط يمينَك بالكتابةِ مُقْدماً ما أدركَ المطلوبَ مثلُ جَسُورِ

[٢٢] لاتخجلنَّ مِنَ الرديءِ تخُطهُ في أوَّل التمثيلِ والتَّصويرِ

[٢٣] فالأمرُ يصْعُبُ ثمَّ يرجع هَيِّناً ولَرُبَّ سَهْلٍ جاءَ بعد عَسِيرِ

[٢٤] فإذَا بَلَغْتَ مناكَ فيما رُمْتَهُ وغَدَوْت حِلْفَ مَسَرَّةٍ وحُبُورِ

[٢٥] واشكر إلَهكَ واتَّبع رِضْوانَه إنَّ الإلَه يُحبُّ كلَّ شكورِ

[الخاتمة]

[٢٦] وارْغَبْ لكفِّك أن تخُطَّ بَنَانُها خيراً تُخَلِّفُه بدارِ غرُوُرِ

[٢٧] فجميعُ فِعْلِ المَرءِ يلقاهُ غداً عند التقاءِ كتابهِ المنشورِ

شرح وبيان :

إجادة التحرير : إجادة الكتابة ، أي رسم الحروف والكلمات .

القَلَم : سمِّي قلماً لأنه قُلِمَ ، أي قُطع منه ، ولايُسمى قلماً حتى يُبرى وإلاّ فهو قصبة .

مُثَقَّف : بمعنى مُقوَّم

التحبُّير : التحرير بالحبر ، والحبر نوعان : نوع للكاغد (الورق) ، ونوع للرَّق .

البَرْيُ : أصلهُ الإرهاف ، ويجرى البَرْيُ على رأس الأنبوبة لأنه أصلب أجزائها ، وقيل إنَّ « جودةَ البِرَاية نصفُ الخط » .

التَّدقيق : توخيِّ الدقَّة والصحَّة .

التَّخْصير : الخَصْر وسطُ الإنسان ، والمقصود بالتَّخْصير هنا السعيْ في طلب النَّحافة لوسط القلم .

الجِلْفة : في الأصل الجَلْفُ : القَشْر ، الجُلفْة : ما جَلَفْتَ منه ، والجِلْفُ من القلم ما بين مَبْراه إلى سِنّته .

الشَّحمة : ما يلي قشرة القصبة .

الشقّ : الأصل في الشقِّ : الصَّدْعُ البائن ، ويُفضل أن يكون شقُّ القلم في وسطِهِ حتى ينزلَ الحبرُ في وسطِ الخط .

التَّقرير : بمعنى القطع بالرأى والثبات عليه .

الطَّبُّ : الحاذقُ الماهرُ بعمله ، الخبيرُ العارف .

القَطُّ : أصل القطِّ : القطع ، وهو هنا قطعُ سِ ن القلم بالسكين أو المدْيَة بْعد حزِّه حزّاً مستقيماً ، فالقطَّةُ الحادة تعطي كتابةً سلسة ، والقطةُ عليها جلُّ العمل ، ولكلِّ قلم قطةٌ تخصُّه ، وتكونُ القطَّة على صفات منها : المحرَّف والمستوي والقائمُ والمُصَّوب .

التحريف : حرْفُ كلِّ شيء طرفه وحدُّه ، والحرفُ من الجبل ما نَتَأ في جَنْبه منه ، والتحريف هنا بمعنى القطع الحاد ، ويُقصد دقَّه الكتابة وهُزالها ، وتحريفُ القلم : قطهُ محرَّفاً .

التَّدوير : تدوير الشيء : جعلهُ مُدوَّرا ، وهو هنا بمعنى سلوك الاستدارة المُنسابة .

الدَّواة : ما يُكتب منه ، وهو هنا بمعنى المحبرة ، ويكون عمقها مناسباً لمقدار القلم .

المِدَاد : يَسميّ مداداً لأنَّه القَلمَ ، أي يُعينهُ .

المَغْرَة : طينٌ أحمرٌ يُصبغ به ، المُغْرة : لونٌ إلى الحمرة .

والمَغرة : ويُقصد بالمَرْة هنا المَغْرة العراقية ، فهي تكسو المداد حُمرة ، وتزيده سيولة ورطوبة .

الزَّرنيخ : يحسِّن لونَ المداد .

الكافوُر : يحفظ المدادَ من الفساد ويطيِّبهُ .

الورق المخبُور : المخبور : الطيِّب الأدَام ، والورقُ المخبور يُقصد به الورقُ القابل للصِّقال الطيِّب لمشي القلم .

التَّمثيل : تحريرُ مثال لما سيكون عليه الخط في المبيضة .

المِعْصَار : اسم آلة من المصدر : عَصَرَ ، والمِعْصار هو الذي يُجعل فيه الشيء ، ثم يُعصر حتى يتحلَّب ماؤه .

التشعيب : التَّشتيت والتَّفريق .

الماجد : الذكي .

الدَّرْجُ والدَّرج : الذي يُكتبُ فيه ، أي الورقُ المنسوبُ للكتابة .

الإنْتِضاء : الأصل : نَضَاهُ من ثوبه جرَّده منه ، وانتضى السيفَ سَلَّه ، وانتضاءُ الورق يُقصد به سحْبهُ .
هنا التهيؤ للأمر والجديَّة في تَلَقِّيه .

الحِلْفُ : الحِلْفُ والحَليف المُلازم ، والأصل فيها مُلازمةُ الضعيف للقوي .

من شروح المنظومة

١ - شرح ابن الوحيد

ويوجد في المخطوطات الآتية :

القاهرة ١١٩ ، مهرشاه سلطان ٣٣٥ ، تيمور باشا

وللشارح المؤلفات الآتية :

١ - « سرد اللام » ، وهي قصيدة عارض بها لامية العجم للطغرائي ،

٢ - منظومة نونية في الخط ،

٣ - رسالة « نصف العيش » .

وقد نُشر الشرح مع الرائية في كتاب لهلال ناجي ، صدر في تونس سنة ١٩٦٧م من مطبعة المنار ، ويقع في ٢٢ صفحة .

٢ - شرح الجعبري

وهو برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣١م) صاحب نظم « روضة الطرائف » .

(كشف الظنون ـ ٢ : ١٣٣٩) .

٣ - شرح بان بصيص

جاء ضمن مجموع نفيس بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ـ الرقم الخاص ٨٠ ، والرقم العام ٢٢٧ ، الصفحات : ١٧٧ ـ ١٨٠ ومسطرتها ٢١ سطراً ، الرسالة الثامنة والعشرون في المجموع ، وهي بعنوان : « شرح المنظومة المستطابة في علم الكتابة » ، وتجمع بين شرحي ابن الوحيد وابن البصيص ، ولم يُعرف اسم جامعهما ، ولعله هو الذي وضع عنوان الشرح المتقدم بيانه .

وقد اكتشف هذا الشرح هلال بن ناجي زين الدين الخطاط

البغدادي ، وتمكنَّ من فصل شرح ابن الوحيد عن شرح ابن البصيص ، ونشر هذا العمل في مجلة « المورد » ببغداد ، المجلد ١٥ ، العدد الرابع ، شتاء ١٩٨٦ ، الصفحات : ٢٥٩ ـ ٢٧٠ .

(٢) ـ قصيدة « عدة الكتاب وعِدة ذوي الألباب »

نَظْمُ المعزِّ بن باديس (المتوفى سنة ٤٥٣هـ = ١٠٦١م) في فنّ الخط .
ـ مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن بأيرلندا ـ رقم : ٤٥٨٧ ، ويقع في ١٦ ورقة ، وهذه النسخة غير مؤرَّخة ، ولعلَّها ترجع إلى القرن ١٢هـ = ١٨م .

القرن السادس الهجري

(٣) ـ أرجوزة في الخط

لعـوْن الـدين أبي المـظفرَّ يحيى بن محمد الوزير (المتوفى سنة ٥٦٠هـ = ١١٦٤م) .
(كشف الظنون ـ ١ : ٦٣) .

(٤) ـ « القصيدة البديعة العربية ، الجامعة لشَتَات الفضائل والرموز العلمية »

نَظْم أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد ، المعروف بابن الخشَّاب النَّحوي (المتوفى في شهر رمضان سنة ٥٦٧هـ = ١١٧١م) ضمَّنها عشرة مطالب ، يهمنا منها في هذه الدراسة المطلب الثاني : « في أسئلة تتعلَّق برسم الكتابة » .
ـ مخطط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، فهرس آداب اللغة العربية ـ رقم : [٣٩٠٨] ، ضمن مجموعة كتبت بقلم معتاد ، بخط عبد الفتاح البنا الدمياطي من علماء الأزهر الشريف .

القرن السابع الهجري

(٥) . منظومة في شكل الكلمات

لأبي عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي ، المعروف بابن أبي الرَّبيع بن موسى العبسي (المتوفى بالإسكندرية سنة ٦٧٢هـ = ١٢٧٣م) ، ومطْلعُ النَّظم :

« الحمدُ لِلَّه الَّذي اصْطَفَانا بذكِرْه العَزيزِ واجْتَبانا »

ـ مخطوط مكتبة الإسكوريال باسبانيا ـ رقم : ٦٣٦ (١) ، الكتاب الأول ضمن مجموع ، الأوراق : ١ ـ ٣٢/ب ، كُتبت بخطّ مغربي دون بيان التاريخ .

(٦) . «نَظْمُ اللآلي المبدعة في صفةِ الكتابة المختَرَعة »

تأليف العلامة الرضى ، وهو رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذي ، من علماء آخر القرن ٧هـ = ١٣م ، وهي منظومةٌ في صناعة الكتابة مُرتَّبة على ثمانية أبواب ، وأول النظم :

« قالَ الرَّضى الحمدُ للَّهِ كَما عَلَّم بالقَلَمِ من قَدْ كرَّماَ »

١ ـ مخطوط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، فهرس الكتاب الثالث ـ رقم : [٢٣٣٢٧ ب] ، ضمن مجموع ، الأوراق : ١٥٣ ـ ١٥٥ ، كُتبت بقلم معتاد بخطّ عبد الله بن زين الدين بن أحمد البصروي الشافعي ، ومسطرتها مختلفة ، وهي نسخةٌ بها تلويث .

٣/٢ مخطوطا المكتبة الأزهرية بالقاهرة ـ المجلد (٦) ـ الخط والرسم والإملاء :

٢ - رقم : [١٨١ مجاميع] ٤٤٦٦ ، نسخة ضمن مجموعة في مجلد ، كتبت بقلم معتاد ، الأوراق : ١ ـ ٥ ، ثم نسخها سنة ١١٨٠هـ = ١٧٦٦م بخط عبد الله النوتشري ، ومسطرتها مختلفة .

٣ ـ رقم : [١١٨١ مجاميع] أباظه ٧٣٢٣ ، نسخة ضمن مجموعة في
مجلد ، كتبت بقلم معتاد ، ومسطرتها ٢٧ سطراً ،
الأوراق : ٦٤ ـ ٦٨ .

(٧) منظومة ابن الوحيد

منظومة نونيَّة في الخطِّ وأصوله وأدواته ،
لشرف الدين محمد بن شريف بن يوسف الزرعي المعروف بابن الوحيد(٥) ، الدمشق مولداً ، المصري إقامةً ، ولد بدمشق سنة ٦٤٧هـ = ١٢٤٩م ، وتتلمذ على « ياقوت المستعصمي » بالعراق ، وقد اشتهر بإبداعه في أقلام النسخ والمحقق والريحان ، عَمل في ديوان الإنشاء بمصر ، وتوفى في شهر شعبان سنة ٧١١هـ = ١٣١١م .

وهو صاحب شرح ابن الوحيد على رائية ابن البواب (أورد محمد بن الحسن الطيبي مقتطفات من هذه المنظومة في كتابه : « جامع محاسن كتابة الكتاب » ، على صحيفة ١٨) .

- توجد نسخة مخطوطة من هذه « العقيدة في علم الكتابة » في مكتبة جون ريلاندز بجامعة مانشستر بانجلترا ـ رقم ٧٧١ (٩٧) ، ضمن مجموع ، الأوراق : ٣٣/ب ـ ٣٧ ، ومطلع القصيدة في هذه النسخة المخطوطة :

« إذاَ اشْتَبَهَ الخطَّان في الحُسْن
فَالَّذي يَسرُّك فَاعْلَم أنَّه مَظْهَرَ الحُسْن »

وتُنسب القصيدة في هذا المخطط « للشيخ شمس الدين محمد اَبن الوحيد » .

(٨) ـ أرجوزة في علم الخطّ

للوزير ابن هُبيرة .
ذكرها ابن خلِّكان (٦٠٨ ـ ٦٨١هـ) = (١٢١١ ـ ١٢٨٢/١م) في كتابه : « وَفَيات الأعيان وأنْبَاء أبْنَاء الزّمان » .

القرن الثامن الهجري

(٩) ـ « روضة الطرايف »

نظم في رسم الخط للشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (المتوفى سنة ٧٣٢هـ = ١٣٣١م) ، وصاحب شرح على (رائيّة ابن البوّاب » .
(كشف الظنون ـ ١ : ٩٢٧) .

(١٠) ـ قصيدة في المترجَم

نَظْمُ لتاج الدين علي بن محمد ابن الدُّريهم الموصلي (المتوفى سنة ٧٦٢هـ = ١٣٦٠م) في الكتابة الرَّمزية (الشّفرة)
- مخطوط بخزانة تيمور باشا بالقاهرة .
- في الخزانة الزكية بالقاهرة مجموعة رسائل في المترجم ، تعدُّ من أثمن الكنوز (من مقال لأحمد باشا تيمور بعنوان : « نوادر المخطوطات وأماكن وجودها » بمجلة الهلال المصرية السنة ٢٨ ، من أكتوبر ١٩١٩ حتى يوليو ١٩٢٠م) .
- راجع مقال لتيمور باشا عن القصيدة في مجلة الهلال المصرية ، سنة ١٩٢٤م ، صفحة ٤٦٤ .
(كشف الظنون ـ ٢ : ١١٩٠) .

(١١) ـ أرجوزة في الخط

للشيخ علاء الدين السُرَّمَرِّي .
ذكرها أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١هـ = ١٤١٨م) في كتابه : « صُبْح الأعْشى في صناعةِ الإنشا » ، وأورد بعض نصوصها على الوجه الآتي[٦] :

« وطُولُها كعقدة الإبهام لا — أعْلَى ولاَ أدْنَى يكونُ أرذْلَا
واعْلَم بأنَّ الشقَّ أيضاً يختلف — بَحسَب الأقلام فافْهم ما أصِف
فإنْ يكنْ معتدلاً شقّ إلى — مقدار ثلثِ الجَلفة انقل واقبلا
والرَّخوَ للنصفِ أو الثلثين زد — والصَّلب بالفتحةِ أُلْحِق تَسْتَفِد
وربَّما زادوُا على ذاك إذا — أفْرط في الصَّلابة اعرفْ ذاوَذاَ
وجدِّد اللّيقة كل شهرِ — فشيخُنا كانَ بهذا يُغري
لأجْلِ ما يقع فيها قَذَىَ — فينْتَشي من ذاكَ في الخطِّ أذىَ
إذا بَدَت وَعْدُ رقَا سَنَاهاَ — لعاشقٍ ناحَ علىَ هَواَهاَ »

كذلك وردت عن الزفتاوي صاحب « منهاج الإصابة » الأبيات الآتية منسوبة للسُرَّمَرِّي(٧) :

« وإنْ أتَتْ ياآنَّ مثل : لي صلي — فَرُدَّ بالآخِر لا بالأوَّلِ
وإنْ تَشَأ عرِّقهما معاً وذا — هو الَّذي اختارَ الوزيرُ المجتبىَ
والياءُ بعْدَ ألِفٍ ولام — تُرَدُّ في الخفيفِ في الأقلامِ
نَحْوَ « الَّتي » فالردُّ فيها أحسنُ — من التي قد عُرِّقت وأمْتَنُ
وإن أَتَتْ « يَاءٌ » أخير الخطِ — فلا تَمُدُّ قبْلَهَا فَتُخطي
كالمدِّ بعدَ السِّين في اسم مُوسى — كذاك قبل السِّين في اسم عيسى
ولَيْسَ كلَّما إليه يُحتاجُ — يمكنُ أنْ يُرفع عنه الارتاجُ
لأنَّه بحسبِ المَوَارِدِ — وحَسَبِ الأقلامِ والمقاصِدِ
وإنَّما يُؤخذَ بالإفادة — ممَّنْ له الرسوخُ في الإجاده
فإنَّه قد جاءَ في الأواخرِ — منْ فَاقَ في الخطِّ على الغَوابِر
ومنهمُ من اجتبى واقتطفاَ — محاسناً قررَّها مَنْ سَلَفاَ
صَيَّرهاَ لنفْسِهِ طريقه — كأنَّه أنشأهاَ حَقيقَه
فاسْلُك سبيلَ من أردْتَ منهُمِ — وانقلْ لما أحببتَ منه عنهمُ
وكُنْ علَىَ المحْسِنِ ذَا تعويلِ — فماَ عَلَى المُحْسِنِ من سَبِيلِ »

القرن التاسع الهجري

(١٢) ـ « العناية الربانية في الطريقة الشعبانية »

ألفيَّةٌ في فنِّ الخط ، من نَظْم زين الدين شعبان بن محمد بن داود الآثاري (المتوفى سنة ٨٢٨هـ = ١٤٢٤م) مُحتسب مصر ، وهو من تلامذة محمد بن أحمد الزفتاوي[٨] (٧٥٠ ـ ٨٠٦هـ) = (١٣٤٩ ـ ١٤٠٣م) .
نَشَر الألفيَّة ببغداد سنة ١٩٧٩ هلال ناجي[٩] .
وعن الألفية يقول أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١هـ = ١٤١٨م) في كتابه : « صُبح الأعشى في صناعة الإنشا » :
« إنّه لَمَ يُسْبَق إلى مثلها »
عن أنواع الخط يقول الآثاري في ألفيَّته :

« الثُّلث والرِّقاع المحقّق والنّسخ والتوقيع حيث يُطلق
وبعْد الوضّاح والطُّومار ثمّ الفروع سبعة أشعار
غُبارها ريحانها المنثور خفيف ثلث خطها المنشور
ثمّ الحواشي تمّت المُسلسلة وكلها في هذه مُحصَّلَه »

(١٣) ـ قصيدة « وَسِيلة الاصَابة إلى طريق الكتَابَة »[١٠]

نَظْم في الكتابةِ العربية لنور الدين أبي الثَّناء محمود بن محمد ابن خطيب الدَّهشة الحموي الشافعي (المتوفى سنة ٨٣٤هـ = ١٤٣١م) ، وله شرح على نظمه بعنوان :
« شرح وسيلة الإصابة إلى طريقة الكتابة » .

١ ـ مخطوط مكتبة شستربيتي بدبلن بأيرلندا ـ رقم : ٤٤١٣ ، ويشتمل على ٤٦ ورقة ، ولعلّ تاريخ كتابته يرجع إلى القرن ٩هـ = ١٥م .
وتضم هذه النسخة شرح الناظم على منظومته .

٢ ـ مخطوط دار الكتب والـوثائق القومية بالقاهرة ـ فهرس الجزء الثاني ـ النحو ، رقم : [١٢٩٠] ، وأول النظم في هذه النسخة :

« الحمدُ لِلَّه علىَ أنْ علَّما . . . »[١١]

وعدد أبيات القصيدة مائة بيت وخمسة أبيات ، وتضمُّ هذه النسخة شرح المؤلِّف عليها .

٣ ـ مخطوط خزانــة قلج علي بتركيا ـ رقم : ٧٨٦ ، ضمن مجمــوع ، الـصـفـحــات : ٥٨/ب ـ ٥٩/ب ، كُـتبت سنــة ١٠١٢هـ = ١٦٠٣م ، وأول المنظومة في هذه النسخة :

« هذه وَسـيلةُ الإِصَـابـة إلى طريق صَنْـعَـةِ الـكـتـاَبَـه
وبَـعْـدُ فالهـجـاءِ علمٌ يُنـدب إلـيه أهَـلُ الخطِّ حين يُكْـتَب »

وتخلو هذه النسخة من الشرح .

٤ ـ مخطوط خزانة قوغشلر بتركيا ـ رقم : ١/٩٤٥ ، الكتاب الأول ضمن مجموع ، ويقع في ٣٠ ورقة ، كُتبت سنة ٨٢٠هـ = ١٤١٧م ، أي في حياة الناظم الفاضل .

شرح منظوم
وهو بعنوان : «عظم وسيلة الإصابة في صنعة الكتابة »

« منـظومـة للشيخ برهـان الـدين إبراهيم بن عمر البقاعي (المتوفى سنة ٨٨٥هـ = ١٤٨٠م) ذكر فيها أن منظومة نور الدين أبي الثناء محمود بن أحمد ابن خطيب الــدهشــة المصري (الحنفي) الحمـوي في الخط والشكـل والنقط ، نظَر في شرحها فرأى فيه زيادات ، فنَظَم . »

(كشف الظنون ـ ٢ : ١١٤٢) .

(١٤) . أرجوزة « بضاعة المجود في الخط وأصوله »

نظم في الخط العربي وأنواعه وأصوله وأدواته من أقلام وأحبار ، لمحمد بن حسنٍ السنجاري[١٢] ، وكان حياً سنة ٨٤٦هـ = ١٤٤٢م ، ويقع في ١٣٥ بيتاً .

١ ـ مخطوط مكتبة بايزيد عمومية باستانبول ـ رقم : ٨٠١٢ ، ويقع في خمس ورقات ، كتبت بقلم نسخ جميل ، ويرجع تاريخ نسخها إلى القرن ١١هـ = القرن ١٧م .

ومطلع النظم :

« يقولُ راجي كَرَم الغَفَّار ... محمَّدُ بنُ حَسَنِ السِّنْجارَي
الحمدُ للَّه الَّذِي عَلَّمنا ... ما لَم نكُنْ نعْلَمُ بلْ أَلْهمنا
علَّمنَا الخَطَّ القويَّ المُعْرَبِ ... وخصَّنا بالهَاشِمي العَرَبي »

وآخره :

« فهَذه الأصُولُ للكتابَهْ ... من حَازَها يَفُوزُ بالطَّلابهْ
والحمدُ لِلَّه عَلىَ التَمام ... والشكْرُ لِلَّه علىَ الإسْلاَم »

وهذا المخطوط ممَّا أوقفتهُ والدة السلطان عبد المجيد خان سنة ١٢٦٦هـ = ١٨٤٩م .

٢ ـ مخطوط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ـ رقم [٣٠٣هـ] ، نسخة بقلم معتاد منقولة من آخر كتاب « خطٌّ وخطَّاطَان » المطبوع باللغة التركية في الآستانة سنة ١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م ، في ٩ ورقات مكتوبة من وجه واحد ، ومسطرتها مختلفة .

من منشورات الأرجوزة

١ ـ ظهرت أرجوزة « بضاعة المجوِّد في الخطِّ » أول الأمر في كتاب « خط وخطَّاطان » ، صنَّفه باللغة التركية حبيب أفندي ، وطُبع في مطبعة أبي الضياء في الآستانة سنة ١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م ، وجاءت الأرجوزة على الصفحات : ٢٧٨ ـ ٢٨٥ ، وقد أورد الناظم آراء إمَامَيْن من أئمة الخطِّ العربي هما :

١ ـ علي بن هلال ، الشهير بابن البوَّاب (ت : ٤٢٣هـ = ١٠٣٢م) ،

٢ ـ ياقوت النوري (؟) (ت : ٦١٨هـ = ١٢٢١م) .

ومن هنا جاء عنوان الكتاب « خط وخطَّاطان » .

هذا وتفتقر هذه الطبعة لشروط التوثيق العلمي .

٢ ـ ظهرت الأجوزة مرة ثانيةً ـ كما هي ـ في ذيل كتاب : « مُصوَّر الخط العربي » الذي صنَّفه ناجي بن زين الدين الحسني الخطَّاط البغدادي (المتوفى سنة ١٩٨٥م) ، وطُبع في بغداد سنة ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م ، وجاء منَ الأرجوزة مطابقاً لنشرتها الأولى دون تحقيقها تحقيقاً علمياً ، وذلك على الصفحات : ٣٩٢ ـ ٣٩٥ .

٣ ـ طُبعت الأرجوزة بتحقيق هلال ناجي (ابن ناجي بن زين الدين الحسني المتقدم ذكره) في مجلة « المورد » الصادرة في بغداد : المجلد ١٥ ، العدد ٤ ، شتاء ١٩٨٦م ، الصفحات : ٢٤٩ ـ ٢٥٨ .

محتويات الأرجوزة

١ ـ الخطبة .... ٢١ بيتاً

٢ ـ الباب الأول : (٣٥ بيتاً)

في شروط الكتابة واتخاذ آلاتها ،

وفيه فصول : .... ٣ أبيات
- فصل في انتخاب القلم ، .... ٣ أبيات
- فصل في البراية ، .... ١٤ بيتاً
- فصل في القَطّة ، .... ٥ أبيات
- فصل في اتخاذ السكين ، .... بيتان
- فصل في المقطّ ، .... بيت واحد
- فصل في المِداد ، .... بيتان
- فصل في الورق ، .... بيت واحد
- فصل في إمساك القلم ، .... ٤ أبيات

الباب الثاني : (٧٧ بيتاً)

في الحروف المفردة والمركبة والمولدة ،

وفيه فصول : .... ٧ أبيات
- فصل في الإتمام .... بيتان
- فصل في التقويس والتسطيح والانكباب ، .... بيتان
- فصل في الإشباع ، .... ٤ أبيات
- فصل في التفصيل ، .... بيتان
- فصل في الحروف المركبة والمولدة والمفردة ، .... بيتان
- الألف ، .... ٤ أبيات
- الباء ، .... ٤ أبيات
- الجيم ، .... ٣ أبيات
- الدال ، .... ٤ أبيات
- الراء ، .... ٣ أبيات
- السين ، .... بيتان
- الصاد ، .... ٣ أبيات
- الطاء ، .... بيت واحد

- العين ، .... ٥ أبيات
- الفاء ، .... ٣ أبيات
- القاف ، .... بيتان
- الكاف ، .... ٥ أبيات
- اللام ، .... بيت واحد
- الميم ، .... بيت واحد
- النون ، .... بيتان
- الهاء ، .... ٥ أبيات
- الواو ، .... ٥ أبيات
- اللام ألف ، .... ٤ أبيات
- الياء .... بيت واحد

الخاتمة .... بيتان

جملة أبيات الأرجوزة : ١٣٥ بيتاً

القرن العاشر الهجري

(١٥) . منظومة في علم الخط

لمحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله العامري ، أبي الفضل ، رضى الدين الغزِّي (٨٦٢ ـ ٩٣٥هـ) = (١٤٥٨ ـ ١٥٢٩م) . (الأعلام للزركلي ـ ٧ : ٢٨٤) .

(١٦) . نظمْ الأشكال التسعة الغبارية

يشيرُ الشيخ عبد الله العجمي الشِّنشوري (المتوفى سنة ٩٩٩هـ = ١٥٩٠م) في معرض شرحه لكتاب ابن الهائم المصري المقدسي (ت : ٨١٥هـ = ١٤١٢م) : « مُرشدة الطالب إلى أسْنى المطالب » لمجموعتي أشكال العدد ، أعني « الأشكال التسعة الهندية » و« الأشكال التسعة الغبارية »[١٣] ، فيقول :

« وقد نَظَمها بعضهم ، فقال :

ألـفٌ وحَـا ثمّ حج بعـدَه ... عوُ وبعـد العـوُ عينٌ ترسُـمُ
هَا وبعْـدَ الهـا شكـلٍ ظاهـر ... يبـدو كخـطَّافٍ إذ هو يُرقـمُ
صِفْـران ثامنُهـا وقـد ضُماً معـا ... والـواوُ تاسـعـهـا بذلـك تُختـمُ

ونظمها بعضهُم في بيتٍ واحدٍ فقال :

ألـفٌ وحَـاحـج فـ عو عين ها ... مقـلوبُ واوٍ صِفْـرانَ ووَاوُ »

القرن الحادي عشر الهجري

(١٧) . نَظمْ قَوانين الكتابة

لأبي الإرشاد نور الدين علي بن زين العابدين محمد بن أبي محمد زين الدين عبد الرحمن بن علي الأجهوري المالكي[١٤] .

(٩٦٧ ـ ١٠٦٦هـ » = (١٥٦٠ ـ ١٦٥٦م) ، وله عليه شرح . ومطلع النظم :

« يقــولُ ذو العجْـزِ وذو التَّقصـيرِ علِيٌّ الــشـهـيرُ بالأجـهــوري »

ـ مخطوط دار الكتبِ والوثائق القومية بالقاهرة ـ فهرس آداب اللغة العربية ـ الجزء الثاني ، رقم : [٣٣٠] ويشتمل على كلٍّ من النظم والشرح .

(١٨) ـ « رمح الخط في نظم رسم الخط »

نَظمْ لقوام الدين محمد بن محمد مهدي ، من القرن ١١هـ = ١٧م تقديراً ، أوله :

« قَالَ قُوام شُاكــراً للنِّـعــم

حمداً لِمَنْ علَّمــنــاَ بالــقَــلَم »

ـ مخطوط المكتبة الطبية الأمريكية بواشنطن ، مجموعة سومر ، رقم : ٨٦ أ ، ضمن مجموع ، الأوراق : ٨١ ـ ٨٤ .

(١٩) ـ « كتاب لمحة المختطف في صناعة الخط الصلف »

لحسين بن حسين بن محمد ، وهي رسالة في أصول الخط العربي وكتابته ، والأقلام والأدوات المستعملة في ذلك ، وضبط عرض الخط على عرض القلم .

تمت الأرجوزة في شهر جمادى الأولى سنة ١٠٨٨هـ = ١٦٧٧م .

ـ مخطوط مكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ـ رقم : ٧٥٠ ـ مجموعة جاريت ، ويقع في ٩ ورقات .

(٢٠) ـ « وضاحة الأصول في الخط »

نَظمْ عبد القادر الصَّيداوي ، قبل القرن الثاني عشر الهجري = ١٨م .

ـ مخطوط بمكتبة سيد بن إبراهيم الخطاط المعروف بمصر ، كتبه الخطاط

محمد الأزهري[١٥] سنة ١١٥٧هـ = ١٧٤٤م ، وهذه نسخة تامة من المنظومة .

- مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ، وهذه نسخة ناقصة .

هذا وقد نُشِر النظم بتحقيق هلال ناجي في مجلة « المورد » ببغداد ، المجلد ١٥ ، العدد ٤ ، شتاء ١٩٨٦م ، الصفحات : ١٥٩ ـ ١٧٢ ، ويقع النظم في ٢٤٦ بيتاً ، ومطلعه :

« الحمدُ لِلَّه الَّذِي أجْرَى القَّلَم وزاده فخراً بإجراء القسم

قالَ تعَالَى فيه ن والقَلَم وعلَّم الإنسانَ ماَ لَمْ يَعْلَم »

وآخره :

« ولجميع المُسلمين عَامَّه ومَنْ رآهاَ من جميع الأمَّه

وَصَلِّ ياربِّ علىَ المختار وآلِهِ وصَحْبِهِ الأَطْهارَ »

ويشتمل منَ النظم على ما يأتي :

- الخطبة .... ٩ أبيات
- باب في اختيار الاقلام واختيار السكين .... ٦ أبيات
- فصل في معرفة بَرْى القلم .... ٨ أبيات
- فصل في معرفة قط القلم .... ١٩ بيتاً
- فصل .... ٧ أبيات
- فصل في معرفة كيفية مسك القلم .... ٩ أبيات
- فصل في معرفة قواعد الكتابة .... ١٠ أبيات
- فصل .... ٣ أبيات
- حرف الألف .... ٢١ بيتاً
- حرف الباء .... ٨ أبيات
- حرف الجيم وأخواتها .... ٨ أبيات
- حرف الدال والذال .... ٩ أبيات
- حرف الراء والزاي .... ٨ أبيات

- حرف السين والشين .... ٣ أبيات
- حرف الصاد والضاد .... ٤ أبيات
- حرف الطاء .... بيت واحد
- العين والغين .... ١٨ بيتاً
- حرف الفاء .... ٩ أبيات
- حرف القاف .... بيتان
- حرف الكاف .... ١٢ بيتاً
- حرف اللام .... ٥ أبيات
- حرف الميم .... ٧ أبيات
- حرف النون .... ٣ أبيات
- حرف الهاء .... ١٦ بيتاً
- حرف لام ألف .... ٤ أبيات
- حرف الياء .... ١٠ أبيات
- الخاتمة .... ٦ أبيات

جملة عدد أبيات النظم : ٢٤٦ بيتاً

القرن الثالث عشر الهجري

(٢١) . أرجوزة في عِلم رَسْم الخط

نَظْمْ صالح بن أحمد بن يحيى السَّعدي الموصلي ، من آل محضر باشي[١٦] (المتوفى سنة ١٢٤٥هـ = ١٨٢٩م) ، وهي أرجوزة في فن الخط وقواعده وأنواعه ، وتقع في ٩٠ بيتاً ، وأول النظم :

« يقولُ صالحُ بن يحيى الموصلي   عَامَلَه بلطْفِه المولَى العَلِي
حمداً لمن أوْلَى جليلَ النعِّم   وعلَّم الإنسان ما لم يعلم »

وآخره :

« وأحمدُ اللَّه كماَ قَدْ أنْعَماِ   بجمعه مُصلِّيا ومُسَلِّما
علىَ النبِّي خيرِ من قد أُرسِلا   والآل والصَّحب ومَنْ لهم تلاَ »

وللناظم شرح على منظومته .

١ ـ مخطوط مكتبة الأوقاف العامة في بغداد ـ رقم : ٥١٨٥ [٥٧٣٤/١ مجاميع] ، كتبه الناظم الفاضل بخطِّ التعليق المتقن سنة ١٢٣٠هـ = ١٨١٤م ، ويقع في ٧ ورقات ، ولا يضمُّ إلاَّ الشرح فحسب .

٢ ـ مخطوط في خزانة يعقوب سركيس المهداة إلى جامعة الحكمة ببغداد ضمن المجموع رقم : ٩٥ ، وهذه نسخة تامة جامعة للنظم والشرح معا ، تشغل الصفحات : ١٥ ـ ٤٤ ، فُرغ من نسخها في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ = ١٨٨٣م .

٣ ـ مخطوط المكتبة القادرية ببغداد ـ رقم : ١/١٤٨٢ ، الأوراق : ١ ـ ٣ ، ومسطرتها ٢٣ سطراً ، ويشتمل على النظم فقط .

٤ ـ مخطوط المكتبة القادرية ببغداد ـ رقم : ٢/١٤٨٢ ، نسخة مشتملة على الشرح ، الأوراق : ٣ ـ ١٤ ، ومسطرتها ٢٣ سطراً ، كُتبت بخط نسْتعليق ، وتمَّ نسخها في شهر شوال سنة ١٢٨٠هـ = ١٨٦٣م .

هذا وقد نُشرت هذه الأرجوزة مع شرحها بتحقيق الدكتور/ زهير زاهد ، والسيد/ هلال ناجي ، وذلك في مجلة « المورد » ببغداد ، المجلد ١٥ ، العدد ٤ ، شتاء ١٩٨٦م ، على الصفحات : ٣٤٥ ـ ٣٧٦ .

(٢٢) ـ « تحفة الطلاب في صناعة الكتاب »

أرجوزة في رسم الكتابة ، من نظم يوسف الحسني المدني ، أتمَّها نظماً سنة ١٢٥٤هـ = ١٨٣٨م برسم السلطان محمود العثماني ، وأولها :

« حَمْداً لِمَنْ مَنَّ عَلَيْنَا بالقَلَم وعلَّم الإِنْسَانَ مَا لم يَعْلَم »

ـ مخطوط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ـ رقم : [٥١٧١هـ] ، ويقع في ٨ ورقات ، مسطرتها مختلفة ، وقد كُتبت بقلم معتاد ، وبهذه النسخة تعليقاتٌ في بعض أوراقها ، وتشكو من بعض التلويث .

(٢٣) ـ « نظم لئالىء السمط في حسن تقويم بديع الخط »

نَظمْ أبي العباس أحمد بن محمد الرفاعي القسطالي (المتوفى سنة ١٢٥٦هـ = ١٨٤٠م) ، أتمه سنة ١٢٢٤هـ = ١٨٠٩م ، ويقع في ١٤٧ بيتاً ، ومطلعُه :

« قالَ الرِّفَاعِي الفقيرُ أحمدُ اللَّهَ جَلَّ وتعالَى أَحْمَدُ
مُصلِّيا علَى الرَّسول الهادي المُصْطفى سيِّد كلِّ هَادِ »

وآخره :

« صلىَّ عليه ربُّنا وسَلَّما وآله مَاسَحَّ سُحْبٌ وهَماَ
وصحِبهِ ذَوي العُلاَ ومَنْ تَلاَ فنَاَل مِنْ حُسْنِ الختام أمَلاَ »

وعلى الأرجوزة شرحٌ بعنوان :

« حِلْيَةُ الكُتَّاب ، ومُنيةُ الطُّلاَّب »

للناظم الفاضل .

١ ـ مخطوط الخزانة العامة بالرباط ـ رقم : D254 ، ويشتمل على النص (الصحائف : ٢٩١ ـ ٢٩٨) والشرح .

٢ ـ مخطوط الخزانة العامة بالرباط ـ رقم : 1649 ، ولا تضم سوى الأرجوزة .

هذا وقد نُشرت الأرجوزة وشرحها بتحقيق هلال ناجي في مجلة « المورد » بغداد ، المجلد ١٥ ، العدد ٤ ، شتاء ١٩٨٦م ، الصفحات : ١٧٣ ـ ١٨٤ .

محتويات الأرجوزة

- الخطبة .... ٢٠ بيتاً
- تقويم السُّطور وتسويتها .... ٦ أبيات
- تقويم القلم وكيفيّة قبضه .... ١١ بيتاً
- الدواة وما يتعلق بها .... ٣ أبيات
- تقويم الحروف القائمة .... ١١ بيتاً
- تقويم الحروف المفتوحة .... ١٦ بيتاً
- تقويم الحروف المشقوقة .... ١٧ بيتاً
- تقويم الحروف المعرَّفة .... ١٣ بيتاً
- التساق الحروف وانتظامها .... ٢٤ بيتاً
- الخاتمة .... ١٠ أبيات

جملة عدد الأبيات : ١٤٧ بيتاً

(٢٤) ـ « بهجة اللاطب وتحفة القراء والكتاب »
وهي « منظومة فن الرسم »

تأليف السيد محمد بن علي الببلاوي المالكي ، وكيل الكتبخانة الملوكية المصرية ، ونقيب البضعة المصطفوية ، وقد أتمَّ نظمها في ٧٢ بيتاً سنة ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م ، ومطلعها(١٦) :

« أفْضَلُ مَا يُرسَمُ بالبَنَانِ	حَمْدُ الإلَهِ دَائم الإحْسانِ
ثُمَّ صَلاَةُ رَبِّنَا الرَّحمن	على (محمدٍ) عَلَيِّ الشَّانِ
وَآلِهِ وصَحْبِهِ مَنْ شَيَّدُوا	آثارَهُ وَدِينَهُ قَدْ أيدُّوا
وبَعْدُ ـ فالقَصْدُ بهذاَ النَّظْمِ	تَقْرِيبنا للنَّاسِ (فَنَّ الرسَّم)
سَمَّيتُهُ « ببَهْجَةَ الطُّلاَبَ	وَتُحْفَةِ القُرَّاءِ والكتَّابِ »
وأَرجُو الرُّشْدَ والسَّداَداَ	والنَّفْعَ حتى أبْلُغَ المرادَاَ »

ويختم الناظم قصيدته بالأبيات :

« نَاظُمُهُ مُحمَّدٌ نَجْلُ عَلِي	المَالكي الببلاَويِّ مَرتَجي العَلي
في رابِعِ الشُّهُورِ عَامَ ستَّةِ	مِنْ بَعْدِ أَلْفٍ وَثَلَثمائَةِ
فالحِمْدُ للهِ الذي قد يسَّرا	كَمَا لَهُ حتىَّ بَداَ مُحرَّراَ »

(٢٥) ـ « المنظومة في فن الكتابة »

لم يُعلَم مُؤلِّفها .

ـ مخطوط مكتبة جون ريلاندز بجامعة مانشستر ـ رقم : ٧٧١ (٩٧) ، ضمن مجموع ، الأوراق : ١٦ ـ ١٩ .

القرن الرابع عشر الهجري

(٢٦) ـ « مرشد الطلاب »

منظومةٌ في وصف الحروف ، للشيخ عيسوي قنديل النكلاوي (من رجال القرن الرابع عشر الهجري) .

ـ طَبْع مطبعة النجاح بالقاهرة ، وتقع في ٣٦ صفحة . (توجد بالمكتبة الأزهرية ـ المجلد (٦) ـ الخط والرسم والإملاء ـ نسخة في مجلد ـ برقم : [٣٩] ٠٢٤٠٩٣)

ولعله لايكون من غير المناسب هنا أن نختم هذه الدراسة بالإشارة إلى منظومة تعرض لهيئة الكتاب بعد اكتمال أركانه من حيث المضمون والتدوين ، فتشير إلى أهمية تجميل الكتاب والمحافظة عليه بتسفيره (أي بتجليده) ، الأمر الذي لايدل على اهتمام علماء العرب والمسلمين باتقان العمل فحسب ، وإنما على سعيهم الدؤوب في طلب الكمال ، وهذه المنظومة هي :

« تدبير السَّفير في صناعة التسَّفير »

نظمْ في فضل صناعة تسفير الكتب ، لعبد الرحمن بن أبي حميده .
ـ مخطوط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ـ رقم : ٣١٩ مجاميع ـ الكتاب (٨) ، ويقع المجموع في ١٣٠ ورقة ، كُتب بقلم معتاد بخط حسن بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم .

خلاصَــة

لعلَّ هذه الدراسة الموُجزة لبعض ما دُوِّن نَظْماً عن الخطِّ العربي وأدواته ، تكون قد رَسَمت ملامحَ واضحةً لما صنَّفه المؤلفوُن وأبدْعَهُ الخطَّاطون في الحضارة الإسلامية في هذا المجال ، ولاشكَّ أن المنظومات قد حفظت لنا أصُولاً كثيرةً للخطِّ العربي ، وذلك من حيث القواعد والأصول ، والأداة والأداء ، وعسى أن تكون هذه الدراسةُ حافزاً لمزيدٍ من الدراسات في هندسة الخطوط العربية .

أهم المصادر والمراجع

- ابن بصيص ، شرح ابن بصيص ، المورد مجلد ١٥ العدد ٤ بغداد ١٩٨٦ ، ص ٢٥٩ ـ ٢٧٠ .

- ابن البواب أبو الحسن علاء الدين ، المنظومة الرائية ، مخطوط دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، رقم ١١٩ مجاميع .

- ابن الخشاب أبو محمد عبد الله بن أحمد النحو ، القصيدة البديعة العربية الجامعة شتات الفضائل والرموز العلمية ، مخطوط دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة رقم ٣٩٠٨ .

- ابن مقلة ، رسالة في علم الخط والقلم مخطوط دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، رقم ١٤ صناعات .

- ابن الوحيد ، شرف الدين محمد بن شريف ، القصيدة في علم الكتابة ، مخطوط جون بلاندز ، جامعة مانشستر ، بريطانيا رقم ٧٧١ (٩٧) ضمن مجموع من ٩٣٣ ـ ٣٧ بريطانيا .

- أحمد بن محمد الرفاعي أبو العباس ، نظم لآلى السمط في حسن تقويم بديع الخط ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ٢٥٤ D ورقم ١٦٤٩ . حققها هلال ناجي ، المورد ، مجلد ١٥ العدد ٤ بغداد ١٩٨٦ .

- تاج الدين علي بن محمد بن الدريهم الموصلي ، قصيدة في المترجم ، في « نوادر المخطوطات وأماكن وجودها » لتيمور باشا ، مجلة الهلال أكتوبر ١٩١٩ إلى يوليو ١٩٢٠ ومقال تيمور باشا عن القصيدة في مجلة الهلال المصرية ١٩٢٤ ص ٤٦٤ .

- جلال شوقي ، العلوم العقلية في المنظومات العربية ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت ١٩٩٠ .

- حسين بن حسين بن محمد ، لمحة المختطف في صناعة الخط الصلف ،

مخطوط مكتبة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة الامريكية ، رقم ٧٥ مجموعة جاريت .

- الـرضي ، رضي الـدين محمـد بن الحسن ، نظم الـلآلي المبدعة في صفة الكتابة المخترعة ، مخطوط دار الكتب والوثائق القومية القاهرة رقم ٣٣٢٧ ، ضمن مجموع من ١٥٢ ـ ١٥٥ (انظر ص ١٩ من هذا البحث) .
- زين الدين شعبان بن محمد الآثاري ، العناية الربانية في الطريقة الشعبانية تحقيق هلال ناجي ، بغداد ، ١٩٧٩ .
- صالح بن أحمد بن يحيى السعدي ، الموصلي ، أرجوزة في علم رسم الخط ، مخطوط مكتبـة الأوقاف العامة ، بغداد ، رقم ٥١٨٥ (انظر ص ٤٠ من هذا البحث) حققه زهير زاهد وهلال ناجي ، المورد مجلد ١٥ العدد ٤ بغداد ١٩٨٦ .
- عبد الرحمن بن أبي حميدة ، تدبير السفير في صناعة التسفير ، مخطوط دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، رقم ٣١٩ مجاميع الكتاب (٨) .
- عبد القادر الصيداوي ، وضاحة الأصول في الخط مخطوط مكتبة سيد بن إبراهيم الخطاط المعروف بمصر ، حققه هلال ناجي ، المورد ، المجلد ١٥ العدد ٤ بغداد ١٩٨٦ ص ١٥٩ ـ ١٧٢ .
- العـز بن باديس ، عدة الكتاب وعدة ذووي الألباب مخطوط مكتبة شستري بيتي بدبلن بايرلندا رقم ٤٥٨٧ .
- عيسـوي قنـديل النكـلاوي ، مرشد الطلاب ، مطبعة النجاح ، القاهرة (دون تاريخ) مخطوط المكتبة الأزهرية مجلد ٦ رقم [٣٩ (٢٤٠٩٣) .
- قوام الدين محمد بن محمد مهدي ، رمح الخط في نظم رسم الخط ، مخطوط المكتبة الطبية الأمريكية ، واشنطن ، مجموعة سومر رقم ٨٦أ ضمن مجموع من ٨١ ـ ٨٤ .
- محمد بن أحمد الزفتاوي ، منهاج الإصابة في معرفة الخطوط وآلات الكتابة ، تحقيق هلال ناجي ، المورد مجلد ١٥ العدد ٤ ، بغداد ١٩٨٦ من ١٨٥ ـ ٢٤٨ .
- محمد بن حسن السنجاري ، بضاعة المجود في الخط وأصوله ، مخطوط مكتبة بايزيد استانبول رقم ٨٠١٢ .

- محمد بن حسن السنجاري ، الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم ، مخطوط مكتبة الأحمدية ، تونس رقم ٤٥٨٢ حققها هلال ناجي ، المورد مجلد ١٥ العدد ٤ بلغداد (١٩٨ من ٢٤٩ - ٢٥٨) .
- محمد بن سليمان أبو عبد الله المعافري ، منظومة في شكل الكلمات مخطوط الاسكوريال رقم ٦٣٦ .
- محمد بن علي البيلاوي ، بهجة الطلاب وتحفة القراء والكتاب ، ضمن مجموعة المنون في مختطف الفنون ، طبعة دولة قطر ١٤٠٢هـ/١٩٨١ .
- نور الدين أبو الثناء محمود بن محمد بن خطيب الدهشة ، وسيلة الاصابة إلى طريق الكتابة ، مخطوط شستر بيتي بدبلن بايرلندا رقم ٤٤١٣ .
- نور الدين أبو الإرشاد علي بن زين العابدين الأجهوري ، نظم قوانين الكتابة ، مخطوط دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، رقم ٣٣٠ .
- يوسف الحسني المديني ، تحفة الطلاب ، في صناعة الكتاب ، مخطوط دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، رقم ٥١٧١ .

الهوامش :

(١) راجع كتابنا الموسوم : « العلوم العقلية في المنظومات العربية » ، نشر مؤسسة الكويت للتقدُّم العلمي ، الكويت ، سنة ١٩٩٠م ، ٩٣٤ صفحة .

(٢) نودُّ الإشارة هنا إلى أننا نعثرُ على منظوماتٍ يرجعُ تاريخها إلى القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) .

(٣) تعرف أيضاً « بالقصيدة الرائية في آلات الخط المنسوب » .

(٤) يُعتبر ابن البواب مؤسس القلم الريحاني والقلم المحقِّق . وقد نسخ القرآن الكريم ٦٤ مرة ، ولا توجد من هذه النسخ حالياً سوى نسخة وحيدة بمكتبة شستر بيتي بدبلن بأيرلندا ـ رقم : ك ـ ١٦ ، ويرجع تاريخها إلى سنة ٣٩١هـ = ١٠٠٠م .

(راجع « تاريخ الأدب العربي » لبروكلمان ، الطبعة العربية ، دار المعارف بالقاهرة : جـ ٤ ـ ص ٣٣١) .

(٥) صاحب قصيدة « سرْد اللاَّم » عارضَ بها « لاميَّة العَجَم » لفخر الكتاب أبي اسماعيل الحسين بن علي بن محمد ابن عبد الصمد الملقَّب مؤيد الدين الاصبهاني المنشىء المعروف بالطُّغرائي (ت : ٥١٤هـ = ١١٢٠م) ، له ديوان شعر ، كما أن له اشتغالاً بالكيمياء .

(٦) « صبح الأعشى . . . » ، الصفحات : ٤٥٨/٢ ، ٤٦١/٢ ، ٤٧٠/٢ ، ٣٥/٣ .

(٧) راجع مجلة المورد ، بغداد ، المجلد ١٥ ، العدد ٤ ، شتاء ١٩٨٦م ، الصفحتان : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٨) صاحب « منهاج الإصابة في معرفة الخطوط وآلات الكتابة » بتحقيق هلال ناجي ـ مجلة « المورد » بغداد ، المجلد ١٥ ، العدد ٤ ، شتاء ١٩٨٦م ، الصفحات : ١٨٥ ـ ٢٤٨ .

(٩) هلال ناجي هو ابن الخطاط البغدادي : ناجي ابن زين الدين الحسني (ت : ١٩٨٥م) .

(١٠) يرد العنوان أيضاً على النحو الآتي :

« وسيلة الإصابة إلى طريق صنعة الكتابة » .

كذا « وسيلة الإصابة في صنعة الكتابة »

(١١) هذا البيت يخص أرجوزة « بضاعة المجوِّد » وليس « وسيلة الإصابة » .

(١٢) صاحب « الثَّغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم » ، فَرغَ منه سنة ٨٤٦هـ = ١٤٤٢م ، مخطوط بالخزانة الأحمدية بتونس ـ رقم : ٤٥٨٢ .

(١٣) عن كتاب « بُغية الراغب في شرح مُرشدة الطالب » ، مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب ـ رقم : ١٢٤٢ ، الصحيفة ٦ .

وقد غلب استعمالُ الأشكال التسعة الغُبارية عند المغاربة ومن تابعهم .

(١٤) (سركيس ـ ١ : ٣٦٤ ـ ٣٦٥)
(الأعلام ـ ٥ : ١٦٧ ، ١٦٨)

(١٥) أخذ الخط عن سليمان الشاكري ، الذي أخذه بدوره عن حسين الجزائري ، وهذا أخذه عن الدرويش علي الذي توفي سنة ١٠٨٦هـ = ١٦٧٥م .

(١٦) راجع « هدية العارفين » ـ ١ : ٤٢٤ .

(١٧) كتاب « مجموع المتون في مختلف الفنون » طَبْعَة دولة قطر ، سنة ١٤٠٢هـ = ١٩٨١م ، الصفحات : ٤٤٧ ـ ٤٥١ .

الشيخ مصطفى عبدالرازق | ١٨٨٨ ـ ١٩٤٧ |
وآراؤه الاصلاحية والفلسفية

دكتور أحمد زكريا الشلِّق
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

بيئته العلمية والاجتماعية وتكوين ثقافته
آراؤه في تحديث الثقافة والمجتمع الاسلامي
آثاره في الفلسفة الاسلامية وتدريسها

- ١ -

ليس بوسعنا أن نتفهم أفكار كاتب أو مصلح دون أن نتحدث عن بيئته العلمية والاجتماعية التي نشأ فيها ، للالمام بينابيع ثقافته وأصولها ، لفهم أسس تكوينه العلمي والفكري ، وليس من شأننا هنا أن نترجم للشيخ مصطفى عبدالرازق ترجمه شاملة وافية ، فقد تغنينا عن ذلك تلك الدراسة التي صدَّربها شقيقه علي عبدالرازق كتابه « من آثار مصطفى عبدالرازق » وحسبنا ، في حيز دراستنا هذه ، أن نستجمع من خيوط حياته ما اتصل بابراز العوامل الرئيسية في تشكيل قسمات فكره .

ولد مصطفى عام (١٨٨٨) في أبي جرج ببني مزار[١] بمحافظة المنيا في صعيد مصر ، وكان ذلك في بداية عهد الاحتلال البريطاني ، على أثر هزيمة الثورة الوطنية (العرابية) ، لأب من أعيان المصريين القادرين مادياً ، والذين لعبوا

دوراً في السياسة ، هو حسن باشا عبدالرازق ، الذي كان عميداً للأسرة الشهيرة ، وكان الأب قد تلقى ثقافة أزهرية ، انخرط بعدها في سلك المجالس شبه النيابية التي عرفتها مصر منذ عهد الخديوي اسماعيل ، وكان صديقاً للاستاذ الامام محمد عبده ، يرى رأيه في قضايا السياسة والاصلاح ، كما اشترك في تأليف حزب الأمة واختير وكيلاً له .

وسيكون لانتماء مصطفى لبيئة الأعيان من أرباب البيوتات ، ولميلاده في أعقاب الاحتلال ، سيكون لذلك أثره في تكوينه الفكري وتوجهاته فيما بعد ، خاصة عندما اختار سبيل الاصلاح في مجال السياسة والمجتمع ، كما ستكون لثقافة والده الأزهرية ، وصداقته لمحمد عبده ، أثرهما كذلك في اختيار مجالاته ومناهجه . وكانت مصر حينئذ منتكسة بالاحتلال مهيضة الجناح تتلمس سبل الخلاص في غير طريق الثورة ، ومن هنا تفتح وعي مصطفى على بيئة الأزهر وثقافته ، ومحاولات محمد عبده اصلاح الأزهر ، فاقترب من بيئة جديدة من المثقفين ثقافة مدنية ، غير أزهرية من أبناء الأعيان ، الذين تربوا في بيئة صحيفة « الجريدة » وحزب الأمة ، من تلاميذ الامام محمد عبده ، مثل لطفي السيد وفتحي زغلول وعبدالعزيز فهمي وقاسم أمين وغيرهم ، وان كان شيخنا قد آثر استكمال دراسته بالأزهر والاستمرار فيه .

التحق مصطفى بكتاب قريته ، كعادة أبناء جيله ، فتعلم القراءة والكتابة وحفظ بعضاً من القرآن الكريم ، ثم رحل إلى الأزهر في نحو العاشرة ، وفي ظل علاقة والده الحميمة بالاستاذ الامام ، تتلمذ مصطفى عليه فيما بعد ، رغم أنه لم يكن في بداية أمره ، ممن يرشحه ظاهر حاله لأن يكون من تلاميذه أو ممن يأنسون إلى تعاليمه ، ذلك أنه بدأ في الأزهر الدراسة على مشايخ أزهريين أقحاح ، أحبهم وصاروا مثله الأعلى ، وظهرت آثارهم في توجيه طبيعته . ولكن عام ١٩٠٣ يمثل نقطة تحول في حياته ، عندما بدأ يختلف إلى دروس الاستاذ الامام محمد عبده في الرواق العباسي ، عندما كان يقرأ فيها « دلائل الاعجاز للجرجاني » ، و « أسرار البلاغة » ويلقى دروسه في تفسير القرآن الكريم(٢) .

وبعد أن تجاوز المراحل الأولى والمتوسطة من دراسته ، اضطربت بنفسه نزعات الشباب ، فلم يسغ ثمار دراسته الأزهرية ، كما كان يلقيها علماء زمنه ، فثار على طريقتهم وكتب إلى أستاذه يشكو من أنه قضى ما قضى في الأزهر في طلب العلم فلم يجد ثمرة لما بذل سوى « حشد من الصور والخيالات ، لايضيء البصيرة ولا يبعث العزيمة . . طلبت السبيل إلى الكمال والعلم النافع ، فما وجدت الدليل ولا اهتديت إلى السبيل » .

وقد أخذ الامام على عاتقه توجيه تلميذه إلى قراءة كتب عينها له منها « حماسة أبي تمام بشرح التبريزي » ونهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده ، فضلاً عن متابعة أعداد مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا ، كما لم يكن يفته درس من دروس الامام أو آثار قلمه ، وكان له شغف خاص « برسالة التوحيد » حتى حفظ أكثرها ، وقدر له فيما بعد أن يترجمها إلى الفرنسية وكان مما قرأ كذلك خلال هذه المرحلة « تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده » ، وشطراً كبيراً من « دلائل الاعجاز » ، « أسرار البلاغة » ، » البصائر النصيرية » ، « العقائد العضدية » وغيرها .

وكعادة الأزهريين حينئذ بدأ بدراسة النحو ، وفقه المذهب الشافعي ، الذي اتخذه مذهباً له ، وقدر له فيما بعد أن يعد دراسته العليا عنه في باريس ، ثم أضاف إلى ذلك الحساب والجبر ومبادىء الهندسة والجغرافية ، ثم أبدل بالفقه والنحو أصول الفقه وعلوم البلاغة ، وقد أضاف إليهما دراسة المنطق والتوحيد والفلسفة وتفسير القرآن الكريم والحديث وعلى هامش ذلك كله درس الأدب والعروض .

ومن أشهر شيوخه في الفقه الشيخ بسيوني عسل وهو من علماء الشافعية الذين عرفوا بالتصوف ، والشيخ محمد حسنين البولاقي ، ومن أساتذته في النحو الشيخ محمد شقير والشيخ محمد الغريني ، أما أساتذته في البلاغة فمنهم الشيخ محمد الحلبي ثم الاستاذ الامام محمد عبده ، أما أساتذته في أصول الفقه فمنهم الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي ، شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد

بخيت ، مفتي الديار المصرية ، ومن أساتذته في المنطق والحكمة الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى والشيخ أحمد أبو خطوة .

وقد كان من قراء الأفغاني المهتمين بتراثه ، فاقتنى مجموعة مجلة العروة الوثقى بعد أن كلف من ينسخها له ، كما وجدت بين أوراقه مخطوطة عنوانها « الشيخ جمال الدين الأفغاني ودخائل صاحب الجلالة الامبراطورية السلطان عبدالحميد الثاني لجورج كوتشي المصري » أغلبها كتب بخط مصطفى نفسه ، وهي رسالة مختصرة تضم كثيراً من أسرار ودخائل حياة الأفغاني ، كما وجدت صورة مقال كتبه الأفغاني بالعربية إلى مدير جريدة « الديبا » ، وكذلك نصوص ردود « ارنست رينان » على الأفغاني التي كتبت عام ١٨٨٣ مما يدل على اهتمام مبكر لدى مصطفى بقضية الاسلام والعلم . وقد استمر على اهتمامه بالأفغاني حتى أنه ألقى محاضرة مطولة عنه في الجامعة المصرية في ٢٠ مارس ١٩٢٣(٣) .

ومن أساتذة الشيخ مصطفى عبدالرازق ، الذين أثروا في نفسه ، بعد وفاة الامام محمد عبده ، الشيخ أحمد أبو خطوة ، الذي تعهد تلاميذ ا لامام حيناً من الدهر ، وربما كان لقراءته لهم كتبا من نوع « طوالع الأنوار للبيضاوي » ، وهو كتاب يعتبره الأزهريون من كتب الحكمة ومذاهب فلاسفة الاسلام وغيرهم ، ربما كان لذلك أثره في استمرار اهتمام مصطفى بدراسة الفلسفة ، كما قرأ عليه واخوانه ، الشيخ أبو خطوة ، رسالة الجامي في الصفات وهي رسالة في صفات الله تعالى بأسلوب يجمع بين الفلسفة والتصوف .

وقد حصل مصطفى على عالمية الأزهة في يوليو عام ١٩٠٨ على نحو ما هو معروف ، ليبدأ بعد ذلك حياته العامة وحياة الوظائف ، وقبل أن نحيط بذلك على نحو مختصر ، نلاحظ اهتمام الشيخ المبكر بتأليف الجمعيات العلمية والأدبية ـ دون السياسية ـ والانخراط فيها ، فعندما أراد تلاميذ الامام محمد عبده إنشاء جمعية تجمع شملهم وتهدف إلى النهوض بالأزهر كما كان يريد ، أسموها « الجمعية الأزهرية » واختاروا مصطفى رئيساً لها ، وكانوا يجتمعون في كل اسبوع أو اثنين يتناقشون في قضايا علمية واصلاحية ، حتى توزع أعضاؤها

إلى فريقين ، فريق التحق بمدرسة القضاء الشرعي وفريق آثر البقاء في الأزهر وكان مصطفى من الفريق الأخير .

وعندما قامت حركة اصلاح الأزهر عام ١٩٠٧ ، أحاط جماعة من العلماء بمصطفى وكان مدرساً بمدرسة القضاء الشرعي حينئذ وألفوا « جمعية تضامن العلماء » عام ١٩٠٨ للعمل على تحقيق نفس رسالة النهوض بالأزهر ، وكان لهذه الجمعية صدى مدوٍ في دوائر الحكومة والرأي العام ، وبرغم أن مصطفى لم يكن رئيسها ، إلا أنه كان بلا شك من أهم عقولها ، رغم أن الأزهريين كانوا يطالبون بإلغاء مدرسة القضاء الشرعي . لكن حرباً عنيفة قامت ضد الجمعية وأصبح مصطفى غرضاً لخصومة قوية ، ويذكر أن الخديوي غضب منه لانضمامه للجمعية ، حيث كان يعتقد أن سبب الحركة الأزهرية هم مدرسو المدرسة من علماء الأزهر ، فاستقال مصطفى من المدرسة في مارس عام ١٩٠٩ . وعلى أثر استقالته قرر أن يسافر إلى باريس على نفقة أسرته لدراسة اللغة الفرنسية وبعض العلوم وهناك لمدة عام يحضر خلاله دروس الفلسفة في السوربون وبالفعل سافر في يونيو من نفس العام ، لكنه قضى ثلاث سنوات متتابعات(٤) فعاد في يوليو عام ١٩١٢ ، حيث غيرت هذه السنوات في مجرى حياته تغييراً جوهرياً ، وبشكل خاص في ثقافته واتجاهاته الفكرية ، على نحو ما سنرى .

وخلال عام ١٩٠٨ أيضاً انخرط مصطفى في « جمعية ترقية اللغة العربية » التي أنشأها لفيف من العلماء والأدباء ، وأن كانت الجمعية لم تستمر طويلاً . وخلال الفترة التالية أنشأ الشيخ عبدالعزيز جاويش ، بالتعاون مع بعض الهيئات التي تعمل على نشر اللغة الفرنسية وبث ثقافتها في مصر ، مدرسة ذات نظام خاص يجعل للأزهريين الحق في أن يلتحقوا بها لاعدادهم لاتمام الدراسة بفرنسا ، واختير مصطفى عضواً بمجلس إدارة المدرسة وقد استمرت المدرسة تعمل لنحو عامين .

كانت السنوات الثلاث (١٩٠٩ ـ ١٩١٢) التي قضاها الشيخ في باريس جد خصيبة ومؤثرة في ثقافته واتجاهاته تأثيراً بالغاً ، فقد درس علم الاجتماع على

الأستاذ أميل دوركايم ، كما حضر دروساً في الآداب وتاريخها ، ثم انتقل عام ١٩١١ إلى مدينة ليون ليدرس أصول الشريعة الاسلامية مع الأستاذ إدوارد لامبير بكلية القانون بها وإلى جانب ذلك حضر دروس الأستاذ جوبلو في تاريخ الفلسفة ، فضلاً عن استكمال دراسة تاريخ الأدب الفرنسي . وفي كلية الآداب بليون تولى مهمة تدريس اللغة العربية مكان مدرسها الاستاذ فييت الذي ندب للتدريس بالجامعة المصرية .

وقد عاد مصطفى إلى فرنسا مرة أخرى في اكتوبر عام ١٩١٢ لاتمام دراسته ، وتذكر المصادر أنه خلال إقامته بفرنسا أعد رسالة للتقدم بها لامتحان الدكتوراه في الآداب موضوعها ، « الامام الشافعي أكبر مشرعي الاسلام » ، وأنه أصيب بداء الصدر منذ أوائل عام ١٩١٤ ، ثم قامت الحرب العالمية الأولى في يوليو من نفس العام ، وكان مصطفى بمستشفى ليون ، فجعل المصريون الذين يدرسون بأوربا يغادرونها إلى بلادهم ، وعاد مصطفى إلى مصر في أواخر عام ١٩١٤ . قبل مناقشة الرسالة وإجازتها(٥) .

وامتداداً لاهتمامه بفكر الامام محمد عبده نلاحظ أنه اشترك مع صديقه الاستاذ برنار ميشيل في ترجمة رسالة التوحيد للامام إلى الفرنسية ، وكان قد أنشأ قبيل ذلك يدون مذكراته وذكرياته عن حياته اليومية ، يستودع بها ما مر به من حوادث وخواطر ، نشر بعضاً منها في صحيفة « الجريدة » حين كان يراسلها بتوقيع (طالب مصري في أوربا) ثم جمعت فيما بعد في كتاب « من آثار مصطفى عبدالرازق » تحت عنوان « صفحات من سفر الحياة »(٦) .

وسيتضح أثر دراسته بفرنسا وتجربته مع الثقافة الفرنسية خلال تحليلنا لفكره خلال فترة مراسلته للجريدة (١٩١٤) ثم في فترة كتابته في مجلة السفور (١٩١٥ - ١٩١٧) لنرى أثر توجهاته الثقافية الجديدة . لكننا نستشهد هنا بما ذكره شقيقه الشيخ علي عبدالرازق عندما تحدث عن التحول الجديد في طبيعة وفكر مصطفى فذكر أن « أثر هذه المرحلة في حياته كان كبيراً جداً ، أكبر مما كنت أتوقع ، وأكبر من أن تطيب به نفسي يومذاك ، وأذكر أنني نازعته في بعض

ما حسبته يومئذ تغيراً غير جميل . . فكان يحسم الجدل بيننا وكأنه يقول : رويدك حتى ترى وتعرف كما رأيت وعرفت . . » .

وكانت صحيفة « الجريدة » عند عودة مصطفى على وشك أن تتوقف عن الصدور بفعل انصراف مموليها من الأعيان عنها ، وبسبب اجراءات الحرب العالمية الأولى من حماية ورقابة وأحكام عرفية ، وتوقف دور حزب الأمة كحزب سياسي ، وعندما توقفت الجريدة بالفعل نهض شباب الحزب والموالين للجريدة ومديرها أحمد لطفي السيد ، يتقدمهم مصطفى ، آخذين على عاتقهم الاستمرار في الترويج لمذاهب الاصلاح ، فالتقى جمعهم وكان يضم لفيفاً من الكتاب يضم الدكاترة محمد حسين هيكل ومنصور فهمي وطه حسين ، والاستاذ محمود عزمي واتفقوا مع عبدالحميد حمدي صاحب مجلة « السفور » على أن يشتركوا في تحريرها ، بعد أن حملوا اسمها وصاروا « جماعة السفور » وأصبحت المجلة لسان حالهم ومظهر نشاطهم ، وكانوا يتحدثون في السياسة دون الكتابة فيها ، فاتجهت كتاباتهم وجهة اجتماعية اصلاحية(٨) ، فضلاً عن معالجة الأفكار الأوروبية الحديثة في هذا الاتجاه ، وقد صدم اسمها الذوق العام وأثار حفيظة دعاة الاصلاح الديني الصادقين منهم وغير الصادقين ، فحسبوا أن جماعة السفور يدعون إلى الالحاد في دين الله .

وعموماً ظهر العدد الأول من المجلة في ٢١ مايو ١٩١٥ والغالب أن عدداً من أعدادها لم يخل من مقال لمصطفى عبدالرازق(٩) وقد حملت مقالاته فيها اتجاهاته في الاصلاح الاجتماعي ، وخاصة في مجال التعليم والمرأة والأدب والنقد وتطور الفنون . وقد كتب مصطفى في العدد الرابع منها مقالاً حول معنى السفور ، يبين توجهات كتاباته فيها تعرض فيه لما وجه إليها من نقد فذكر « أن بعض الفضلاء يقولون بأن اسم السفور يخيل للناس أن هذه الصحيفة ليست إلا صيحة مكررة إلى تمزيق البرقع عن وجه المرأة ، ولكنهم يريدون أن يفهم الناس أن السفور معنى أشمل مما قد يتبادر إلى الذهن عند سماع هذه الكلمة . . إن هذه الصحيفة تريد أن تكون مظهر التقدم الفكري في هذه البلد ، ومضماراً لكل دعوة حرة

صالحة ، وإذا كانت جريدتنا تنادي باصلاح حال المرأة فهي ، أيضاً صحيفة اجتماعية نقدية أدبية تنادي بالسفور الشامل في كل باب من أبواب التقدم والاصلاح »[١٠] .

لقد عاد مصطفى إلى مصر في أواخر عام ١٩١٤ منهياً عهد طلب العلم وبادئاً حياة الوظيفة ، التي سنعرض لها بإيجاز ، لما لها من انعكاس على توجهاته الفكرية ونشاطاته ، وكان قد ندب للتدريس في مدرسة القضاء الشرعي لعدة أشهر (من أغسطس ١٩٠٨ حتى مارس ١٩٠٩) عقب حصوله على عالمية الأزهر ، ثم استقال على نحو ما مر بنا . وجاء تعيينه الجديد في اكتوبر عام ١٩١٥ موظفاً بالمجلس الأعلى للأزهر ، بتوصية من السلطان حسين كامل ، الذي كان صديقاً لوالده ، حين رئاسته للجمعية الزراعية ، كما كان يعرف مصطفى شخصياً بعدما التقى به بفرنسا وأعجب به وقد كتب عنه مقالاً يروي فيه ذكرياته معه عندما كان أميراً[١١] ، حتى لقد قصدته إحدى بنات السلطان ، وهي الأميرة بدرية ، لترجمة كتاب لها عن الفرنسية ، طبع منه عدد محدود وعنوانه ، « طيف خيال ملكي » ثم ما لبث مصطفى أن ترقى إلى وظيفة سكرتير للمجلس الأعلى للأزهر .

وقد أصبح مصطفى عضواً عاملاً بالجمعية الخيرية الاسلامية عام ١٩١٦ ، ثم عضواً بمجلس إدارتها عام ١٩٢٠ فوكيلاً لها (١٩٤١) ثم رئيساً منذ عام ١٩٤٦ وحتى وفاته . وفي عام ١٩١٧ أنشأ رجل سويدي يدعى بروزدر ، وكان موظفاً بصندوق الدين بمصر ، جمعية من صفوة الشباب المثقف من مصريين وأوربيين ، لاقامة ما سمي حينئذ « بجامعة الشعب » بهدف إلقاء محاضرات عامة ودراسات ليلية بلغات شتى لتثقيف الجمهور ورفع مستواه العلمي وكان مصطفى من أشهر أعضائها بل كان عضواً بمجلس إدارتها ، وقد ألقى فيها محاضرات كثيرة[١٣] . كما اختير عضواً بمجلس إدارة دار الكتب المصرية شطراً كبيراً من حياته ، وفي عام ١٩٤٠ اختير عضواً بمجمع اللغة العربية .

وقـد رأينا أن مصـطفى نشأ عـلى اتجاه الامـام محمد عبـده وحـزب الأمـة الاصلاحي ، وإن لم يكن عضواً بالحزب ، رغم أن والده كان وكيلاً للحزب ، ولم تعرف السنوات التي أعقبت تخرجه من الأزهر (١٩٠٨) دوراً سياسياً أو وطنياً له ، سوى تأييده لمطالب الأزهريين الثائرين . لكنه منذ عام١٩١٨ بدأ كغيره من شباب مصر المثقف يشترك في موجة وطنية عارمة ، أعقبت الحرب العظمى ، تألف على أثرها الوفد الوطني للمطالبة باستقلال البلاد ، وقد أرادت جماعة السفور أن تشترك ببعض أعضائها في هيئـة الوفـد المسافـرة إلى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمـر السلام ، إلا أن سعـد زغلول اعترض عليهم باعتبارهم ليسوا حزباً سياسياً ، ثم وافق على ضم مصطفى عبدالرازق بصفته الشخصية ولمكانة أسرته ، لكن الجماعة رفضت كما رفضت الأسرة ، فكان أن ألّفت جماعة السفور حزباً سياسياً أسمته « الحزب الديمقراطي المصري » وكان معظم أعضائه من الشباب الذين تعلموا في فرنسا ، وقد بدأوا يمارسون دوراً يتفق وحجم الحزب المحدود ، حتى انتهى أمره إلى الانقسام فالتسرب إلى جماعتي سعد زغلول وعدلي يكن . وقد غضب السلطان أحمد فؤاد على مصطفى بسبب نشاطه في الحزب الديمقراطي واتجاهاته الاجتماعية والسيـاسية ، فصـدر قرار مجلس الوزراء في سبتمبر ١٩٢٠ ، بناء على رغبة السلطان ، بإبعاد مصطفى عن الأزهر وتعيينه مفتشاً بالمحاكم الشرعية ، لحرمانه من الاتصال برجـال الأزهر الذين يؤيدون الثورة ولتقييده في وظيفة تضعف تأثيره . وقد قضى مصطفى في وظيفته الجديدة بضع سنوات (٢٠ ـ ١٩٢٧) مرت عادية في حياته ، اشترك خلالها أقطاب أسرته في تأسيس حزب الأحرار الدستوريين في اكتوبر ١٩٢٢ ، ولم يكن مصطفى من المندمجين في النشاط السياسي للحزب ، بحكم طبيعته الهادئة ، ورغم أنه كان من أعضائه ، إلا أنه كان عزوفاً عن التورط في حركته السياسية ، ولا في أحاديث السياسة بمعناها العملي المباشر[١٥] .

وكان يكتفي بأن ينشر مقالاتـه الفكريـة والاصلاحيـة في صحيفة الحـزب (السياسة) بين الحين والآخر . منذ عام ١٩٢٣ ، وقد تناول في بعضها سيرة

الشيخ محمد عبده ووجهته في الاصلاح الديني وتحرير الفكر ، وصلته بالأفغاني ، الذي ألقى محاضرة خاصة عنه ركز فيها على ردوده على الفيلسوف الفرنسي رينان(١٦) ، فضلاً عن نشر بعض مذكراته عن رحلاته إلى أوربا ، وكذلك بعض المقالات التي تتصل بالمناسبات الدينية والاجتماعية . ولكن من الملفت للنظر حقاً أنه عندما نشر شقيقه الأصغر ، الشيخ علي عبدالرازق ، كتابه الشهير « الاسلام وأصول الحكم » عام ١٩٢٥ الذي ذهب فيه إلى أن الخلافة نظام تعارف عليه المسلمون ولا يوجد في نصوص الشريعة ما يلزم به ، وما أعقب ذلك من أزمة فكرية وسياسية ، انتهت بإبعاد علي عن وظيفته كقاضي شرعي وفصله من هيئة العلماء ، وبينما كان حزب الأحرار ومثقفوه يقفون ظهيراً للشيخ علي يعضدونه ويؤيدونه ، نجد أن مصطفى قد ابتعد عن مجال المعركة ، مؤثراً التلميح واستخدام سلاح الدعابة والسخرية الرقيقة على نحو ما سوف نعالج فيما بعد عندما نناقش موقفه من اصلاح الأزهر وقضية الحرية الفكرية ، وربما كان لطبيعته المسالمة الهادئة ، العزوفة عن النضال ، دخل في ذلك على كل حال .

وجاء انتقاله إلى الجامعة بمثابة مرحلة تحول هامة في حياته ، فكان أول مصري يدرس الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية ، وتوالت خلال هذه المرحلة اسهاماته الفكرية في مجال الفلسفة الاسلامية ، حتى لقد أصبح الأستاذ الأول للفكر الفلسفي الاسلامي في التاريخ المعاصر ، على نحو ما يذكر الدكتور بيومي مدكور(١٧) ، وعندما خلا كرسي أستاذ الفلسفة ، اختير مصطفى عبدالرازق للمنصب ومنح اللقب العلمي في اكتوبر ١٩٣٥ ، ثم منح رتبة البكوية بعد ذلك بعامين . وكان منهجه لا يعتمد على التلقين وانما على ايجاد وصلة عقلية بينه وبين طلابه ، يشركهم من خلالها في بحث الموضوعات واستخراجها من مظانها ، وفي فهم النصوص وتحرير الآراء ، وقد استفاد في طريقته تلك مما شاهده وتعلمه في جامعتي باريس وليون ، وما عرفه عن بعض الجامعات الأوربية الأخرى .

وجاءت الخطوة التالية في حياته عندما دخل الوزارة وزيراً للأوقاف ، فكان أول شيخ أزهري يتولى الوزارة في مصر ، عندما اختير كحر دستوري في عهد

وزارات الائتلاف اللاوفدية في مرحلتيه (٣٧ ـ ١٩٤٢) ثم (٤٤ ـ ١٩٤٦) لم يقطع توليه للمنصب ثماني مرات . سوى وزارة الوفد (٤٢ ـ ١٩٤٤)[١٨] وقد منح خلال ذلك لقب الباشوية ، لكنه آثر عليه لقب « شيخ » ولم يخلع عمامته ويتخذ اللباس الأوربي .

وأخيراً اختير شيخاً للأزهر في ديسمبر ١٩٤٥ ، بعد أن أثيرت أزمة بسبب ترشيحه ، حيث لم يكن ضمن هيئة كبار العلماء ، التي ينص قانون المشيخة على قصر الترشيح على أعضائها ، فعدل القانون وعرض التعديل على مجلس الشيوخ الذي أقره ، وتولى مصطفى المنصب وظل به حتى توفي في فبراير ١٩٤٧[١٩] .

وقبل أن نعرض لآراء الشيخ الاصلاحية نرى لزاماً علينا أن نعرض لأهم مؤلفاته وكتاباته المنشورة ، لنتبين آثاره الفكرية ، لتلقي بعضاً من الضوء حول اهتماماته واتجاهاته . وفيما يتعلق بالمؤلفات المكتملة فيأتي في مقدمتها كتابه عن « البهاء زهير » وفيه تناول دراسة الشاعر المصري من زاوية تجديده في الشعر وقد نشر عام ١٩٣٠ ، ثم كتاب « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٤ ، وسيحظى بعناية خاصة في بحثنا ، وفي عام ١٩٤٥ صدرت له ثلاثة كتب هي على التوالي : الدين والوحي والاسلام ، الذي درس فيه بموضوعية علمية آراء المستشرقين حول المسائل الثلاث ، ثم كتاب « الامام الشافعي » الذي استكشف فيه مذهباً جديداً في الفلسفة الاسلامية ، له خطره العظيم كما يقول طه حسين[٢٠] ، والكتاب الثالث بعنوان « فيلسوف العرب والمعلم الثاني » ويقصد بفيلسوف العرب الكندي ، أما المعلم الثاني فهو الفارابي ، على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول . وقد ضم هذا الكتاب فصولاً عن المتنبي ، وابن الهيثم (بطليموس العرب) وفضلاً عن آراء شيخ الاسلام ابن تيمية .

وفي عام ١٩٤٦ جمع مصطفى عبدالرازق مقالاته ودراسته عن أستاذه الامام محمد عبده في كتاب حمل اسمه ركز فيه على الجانب الاصلاحي والفلسفي من

حياة الامام . ثم لم يؤلف بعد ذلك شيئاً حيث توفى في العام التالي . وله دراسة هامة عن الصوفية والفرق الاسلامية ، كانت نص محاضرة ألقاها في مؤتمر تاريخ الأديان في لندن عام ١٩٣٢ ونشرت فيما بعد في مقدمة كتاب فخر الدين الرازي « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » الذي حققه د . سامي النشار . أما مترجماته فقد سبق أن أشرنا إلى اشتراكه في ترجمة رسالة التوحيد لمحمد عبده مع برنار ميشيل (١٩٢٥) ثم ترجمة كتاب طيف ملكي ، خواطر تاريخية (١٩٣٠) وقد كتب مقدمة لترجمة كتاب تشارلز آدمس عن « الاسلام والتجديد في مصر » (١٩٣٥) ، ومقدمته لكتاب اسرائيل ولفنسون عن « موسى بن ميمون ، حياته ومصنفاته » (١٩٣٦) وهناك الكثير من تراثه ومحاضراته الموجود في باطن الدوريات ولم يجمع منه سوى مجموعة نشرها شقيقه علي عبدالرازق عام ١٩٥٧ بعنوان « من آثار مصطفى عبدالرازق »وهي تضم كتاباته في الصحف والمجلات خلال الفترة من (١٩١٤ ـ ١٩٢٧) . فضلاً عن أن له مذكرات كان يدونها لسنوات كثيرة من حياته ، تركها وديعة لأبنائه ولم يقدر لها أن تنشر (علي عبدالرازق ص ٥١) ، وهناك إشارة إلى كتابات له في المنطق والتصوف والأدب لم تر النور بعد(٢١) .

ـ ٢ ـ

قبل أن نستعرض ونناقش آرء مصطفى عبدالرازق الاصلاحية ، المتصلة بتحديث الثقافة والمجتمع ومؤسساته التعليمية والدينية ، ينبغي التأكيد على أهمية انتمائه لمدرسة الامام محمد عبده في اصلاح المجتمع الاسلامي ، بل إنه يمثل بدرجة كبيرة في تقديرنا أفضل نموذج لامتداد آراء الامام وتواصلها ، من حيث توفيقيتها ووسطيتها ودعوتها إلى الاعتدال والتدرج . فإذا قدرنا أن مدرسة محمد عبده قد خرج منها رافدان أساسيان ، أحدهما سار في اتجاه عصري ، يميل إلى اللبرالية والتحرر . والآخر سار في اتجاه سلفي محافظ ، فإن مصطفى عبدالرازق قد عمق المجرى الأصلي للنهر وسار به شوطاً كبيراً حتى أواخر النصف الأول من القرن العشرين ، بل وأسهم بتفرد ، في تجديد دراسة الفكر الفلسفي

للاسلام ، ليتميز عن غيره من تلاميذ الامام بهذا المجال .

ومما تجدر الاشارة إليه أيضاً أن مصطفى لم يكن نسخة متكررة من أستاذه برغم التواصل ، فإذا كان طبع محمد عبده قد تميز بحدة وجرأة عرفت عنه ، فإن تلميذه كان يميل بطبعه إلى الرفق واللين والسماحة ، التي تكره الغضب وترهب الثورة ، وإن تكن همومها واحدة(٢٢) . ويؤكد المعنى السابق أن مصطفى لم ينضم إلى جماعات سياسية ذات طابع ثوري ، وانما لعب دوراً فكرياً ثقافياً من خلال حزب أقامه المثقفون المصريون وهو الحزب الديمقراطي ، كما انحصرت اسهاماته فيما بعد في حزب الأحرار الدستوريين المعتدل بحكم تكوينه وطبيعته ، في معالجة قضايا الفكر والاصلاح على صفحات جريدته . وليس بالضرورة أن يكون المصلح صاحب تيار ، متفرداً ، أو رائداً ، فقد يكون دوره عظيماً إذا كان ممثلاً صادقاً وأميناً لتيار فكري ، مكرساً حياته له ، دائباً على نشره وقادراً على تعميقه وجعله متواصلاً ، وكان مصطفى عبدالرازق بحق من هذا الطراز من المصلحين .

وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالاعتبار هي أن مصطفى ، رغم ارهاصات قلقه المبكر ، واغترابه بروحه وفكره عن الوسط الذي نشأ فيه وتعلم ، فإنه لم يكن صاحب رأي أو أنشأ شيئاً من كتاباته ومؤلفاته ، إلا بعد زيارته الأولى لأوربا (١٩٠٩ ـ ١٩١٢) ولهذا الأمر دلالته على كل حال ، بل وكأن أوربا ، كنموذج حضاري طاغ ومؤثر ، قد فجر لديه أزمة مواجهة الذات والمجتمع ، كضرورة أولية لتحديث وتمدين مجتمعه الاسلامي ، وكانت نقطة البداية هي تعرية العيوب ونقدها ، وتصوير النموذج المغاير المتصل بالآخر (أوربا) . والدعوة إلى إقامة الجسور بين القديم والجديد على نحو غير مألوف . ولعلنا نحاول التعرف على الجديد الذي قدمه مصطفى من خلال اهتمامه بعدة قضايا معينة تأتي في مقدمتها قضية تحديث المجتمع الاسلامي وعلاقة ذلك بالنموذج الحضاري للغرب .

لقد ارتحل مصطفى عبدالرازق إلى فرنسا للدراسة والتعلم ، على نحو ما مربنا ، فكانت أوروبا هي قبلة البعثات التعليمية سواء كانت حكومية أو أهلية ، وخاصة لأبناء الأعيان ، وحتى الذين حصلوا على عالمية الأزهر ، منذ آمن محمد علي بضرورة الاستفادة من علوم الغرب وحضارته خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر . وأقام جسوراً انتقلت خلالها آثار المدنية الأوربية إلى مصر . وقد سافر مصطفى إلى فرنسا في إطار الوعي بأهمية هذه التجربة . وكتب هناك بعضاً من مذكراته ثم نشرها على لسان فتى مغترب (باسم مستعار) مدفوعاً إلى ذلك برغبة عارمة في الاصلاح ، وقد ذكر فيها أنه ذهب « إلى أوربا ثقة بأن الغرب خطا بالعلم خطوة كبيرة ، وأننا أصبحنا عيالاً عليه في نهضتنا ، فلا غنى لنا عما عند القوم من مدنية وعرفان »(٢٣) .

ولم تمنعه أزهريته الصرفة من حضور محاضرات المستشرقين في الجامعة المصرية ، وقد كتب مرة عن محاضرة حضرها للأستاذ كليمان ، أستاذ الأداب الفرنسية بها ، وكانت عمامته الوحيدة بين الحاضرين ، ومرة أخرى ردَّد شكوى المستشرقين من قلة ما يعرفه الطلاب المصريون من آداب لغتهم العربية وقد أرجع ذلك إلى ضعف مستوى التأليف فيها ، وعيوب ترتيبها وأساليبها وسقم بيانها(٢٤) . لقد كان مصطفى يؤمن إيماناً راسخاً بضرورة السفر للاستفادة من نهضة الغرب ، وقد كتب مرحباً برحلة طه حسن إلى فرنسا ورأى فيها « خيراً كبيراً لنهضتنا الفكرية الحديثة . . فللأسفار فائدتها في تكميل المعارف وتزكية الفطر . . ولعل أحوج الناس إلى الانتفاع من الأسفار في إنضاج مواهبهم الكامنة أولئك الأفراد المتفوّقون بفطرهم ، الذين تعجز الأوساط التي نشأوا فيها عن أن تسير بهم إلى ما استعدوا له من الكمال . . سافر طه وعكف على الاستفادة من علم القوم ومن عشرتهم(٢٥) .

ولقد أعجب مصطفى بالنهضة العلمية الحديثة التي بلغتها مصر في عهد محمد علي إعجاباً شديداً « حين جعل يختار من المتعلمين في المعاهد الدينية من يستطيع تحصيل العلوم الحديثة والاستفادة من الرقي الفكري في بلاد الغرب ، فيوفدهم

إلى أوربا » وقد أبدى سعادته عندما رأى تزايد أعداد الطلاب المصريين الذين يدرسون في أوربا ، وأشاد أكثر « بإقدام فتيان من خريجي الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي ودار العلوم على السفر إلى أوربا شوقاً إلى الكمال العلمي ، من غير سابق تأهب للحياة والدراسة في تلك البلاد ، ومن غير بسطة في الرزق ولا مورد . . أولئك الشيوخ المجاهدون في سبيل العلم يستحقون عطفاً وتشجيعاً »[٢٦] .

كانت أوربا ونهضتها العلمية مثار اهتمامه وإعجابه ومن هنا نادى في هذه المرحلة المبكرة من حياته ، بضرورة الاستفادة من علومها ، ثم انتقل إلى الحديث عن نهضة مصر ، وضرورة استفادتها من المدنية الغربية ، « فلا غنى لنا في الكمال المدني الذي ننشده عن الاستفادة من الأمم التي سبقتنا في ميدان الرقي ، وأن الشرق والغرب هما شطرا الانسانية ، فمن سعى بينهما بالفرقة كان عاقاً ، جانياً على الانسانية . . إنما نحن مصلحون نمهد للمودة والقربى بين شعوب البشر كلها » . ورأى كذلك أن شعوب الشرق تتصل بالفكر الغربي ، الذي يقتحم فجاج الأرض بمدافع الجنود وبضاعة التجار وكتب العلماء[٢٧] .

انظر إلى مصطفى وهو يكتب عن باريس بلغة عاشق متيم ، وكأنما صاغ إعجابه بها وجدانه صياغة جديدة ، فأنطقه بإحساس شاعر حين يقول « ليست باريس صنع شعب من الشعوب ، ولا عمل عصر من العصور ، ولكنها جماع ما استصفاه الدهر من نفائس المدنيات البائدة ، وما تمخض عنه ذوق البشر وعقلهم وعملهم من آيات الفن والعلم والجمال . باريس جنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، فيها للأرواح غذاء وللأبدان غذاء ، وفيها لكل داء في الحياة دواء . فيها كل ما ينزع إليه آدم من جد ولهو ، ونشوة وصحو ، ولذة وطرب ، وعلم وأدب ، وحرية في دائرة النظام لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود . باريس عاصمة الدنيا ، ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس[٢٨] » .

ولعلنا نتساءل : إذا كان شيخنا مؤمناً ومعجباً بتفوق أوربا ورقيها في العلوم

المدنية ، فما الذي يمكن أن نستفيده من المجتمع الأوربي ذاته في نواحي الحضارة الأخرى وفي مظاهر السلوك ؟ وهنا نلاحظ أنه لم يترك مناسبة إلا ويعبر عن ناحية من تلك النواحي ، فقد بهرته بعض الجوانب التي رآها إيجابية في الأسرة الأوربية ، وكانت من المسائل التي يبتعد عن الخوض فيها أنداده ، فلم يستنكف أن يبدي إعجابه بما رآه في الأسرة الأوربية من الحياة والنظام والصراحة ومظاهر السعادة « ولقد شعرت من غير حاجة إلى فضل تنبه بما لحال المرأة هناك من الأثر العظيم في ترقية معيشة الأسرة » . كما أعجب بدور الصحافة الفرنسية ورقيها في تأدية رسالتها ، وجعل يقارن بين صحفنا وصحيفة الطان ، ويجد في ذلك « فرقاً متناسباً مع ما بين فرنسا ومصر من التفاوت العظيم في الرقي العلمي والاجتماعي ، ويخيل إلي أنني أصبحت ألمح هذا التفاوت في كل شيء ، في حديث الناس وحركاتهم . وفي كل وجه من وجوه الحياة ، بل في هذه الطبيعة التي نالتها نفحة من بركة المدنية والرقي(٢٩) .

وحين زار مصطفى لندن بهرته صورة الحرية عندما رأى حديقة الهايدبارك الشهيرة ، ولفت نظره أكثر منابر دعاة الأديان ، ولاحظ أن لا يوجد منبر للدعوة للاسلام وأنه حدث نفسه بأن يتولى ذلك بنفسه ، لولا أن تذكر أنه ليس من اللائق أن تكون هيئة كبار العلماء منصرفة إلى تفكير المسلمين في مصر (يقصد في قضية شقيقه علي عبدالرازق) فيخرج لها في لندن من يدعو الكفار إلى الاسلام(٣٠) .

لكنه كان يرفض تقليد الغرب في مظاهر السلوك الاجتماعي تقليداً أعمى ، ففي حديث له عن حفلة خيرية وجد فيها مكاناً خاصاً للسيدات المصريات يرقصن فيه معاً تساءل باستنكار : لست أدري كيف رضيت سيداتنا بهذا ؟ أفهم أن ترى السيدة المصرية أن الرقص ليس له مساغ من عادات قومنا ولا آدابهم ، وأنه ليس ضربة لأزب لنهضة المرأة الجديدة ، أو ليس عنصراً من عناصر الرقي الأولى التي يبدأ بها ، فتعف عنه السيدة المصرية كما يعف عنه بعض الناس في بلاد الغرب نفسها ، وعندما رأى ظاهرة انتشار لبس البرانيط بين الفتيان تساءل

في دهشة : « ما بال فتياننا يشبون طفرة إلى محاكاة الفرنجة ؟ » وقد حزَّ في نفسه رؤية طلاب دار العلوم يتخلون عن لبس العمامة » فقد كانوا زينة المعممين رشاقة ونظافة ، يتجلى في ملابسهم نوع من التأنق هو مظهر من مظاهر الذوق الشرقي الجميل ، الذي يريد أن يتلاشى في أذواق غربية فلا يبقى لنا منها إلا ما هو خال من الذوق الحسن[٣١] . ومن المعروف أنه لم يخلع عمامته ، وظل يعتز بلقب شيخ طوال حياته .

كان يؤمن بأن لكل مجتمع طبيعته الخاصة ، وأنه إذا كان لمجتمعنا أن يأخذ عن الأوربيين عملاً بسنة التطور ، فإن عليه حينئذ ألا يأخذ بالمسببات دون الأسباب وقد كتب معلقاً على تقليد المصريات للأوربيات في نوع جديد من المشي ، فذكر « أنه إذا كان ثمة سبب أو آخر لمنشأ تلك البدعة في أوربا فإن هذه الأسباب لا وجود لها في مصر . . ومن عجب أن تأتينا المسببات بلا أسبابها . . مهلاً بنات النيل فما كل جميل عند القوم يكون عندنا جميلاً » . لقد كان يؤمن أن بإمكاننا مزاحمة الغرب وأن نكون أنداداً له أقوياء ، ولم يخف سعادته عندما تحدث له أحد الأطباء الفرنسيين بأنه سمع الفيلسوف « برجسن » يشيد بأحد تلاميذه المصريين ، وهو الدكتور منصور فهمي ، فعلق « شعرت يومئذ بشيء من الفخر لمصر الناهضة التي يشهد لفيلسوفها الشاب ، إمام فلاسفة العصر »[٣٢] .

لقد كانت نظرية مصطفى عبدالرازق في الأخذ عن الغرب تتمثل في تعلم العلوم المدنية على إطلاقها ، أما ما يتعلق بمظاهر السلوك الاجتماعي ونشاطه ، فهو يدعو إلى أخذ ما يناسب طبيعة المجتمع الاسلامي ، وبما لا يؤثر على خصوصيته وتميزه ، كما لم يخف إعجابه بالحرية الفكرية ، وكان مؤمناً بمقدرة الشرق الاسلامي على أن ينهض ليصبح نداً قوياً للغرب الأوربي .

ولما كان الأزهر هو بيته ، الذي تفتح وعيه فيه وتلقى ثقافته الأولى عن شيوخه وعلمائه ، فإن قضية إصلاحه ، كمؤسسة تعليمية وفكرية ، ستكون مجال اهتمامه الرئيسي ، حيث شغلت حيزاً كبيراً من فكره واسهامه ، بنفس القدر الذي شغلته قضية الفهم العقلاني للدين وحرية الفكر . وشيخنا إذ يدعو

لاصلاح الأزهر ، فإنما يدعو لذلك من داخله وبأسلوب خبير به وبأحواله ، فلم يخرج عليه أو ينشق عنه ، وإنما ارتحل ورأى ودرس ووعى ، ثم عاد إلى بيته ، الذي قدر له ، فيما بعد ، أن يكون شيخه الأكبر ، ومن هنا تكتسب آراؤه أهميتها ، ويكتسب نقده مغزاه وقيمته .

بدأ مصطفى برصد الخلل في البناء الثقافي لمصر الحديثة بسبب ازدواجية مؤسسات التعليم ، فأنشأ يتحدث عن تجربة محمد علي المتعلقة بتأسيس مدارس التعليم المدني (النظامية) بجانب المعاهد الدينية ، ودافع عما وجه إليه من نقد تمثل في أنه أخلّ بوحدة التعليم ، فجعله دينياً وغير ديني ، وأنه كان ينبغي عليه أن يصلح المدارس الدينية لتحقق أغراض المدارس الجديدة ، فيكون الأطباء والمهندسون ورجال القانون والصنائع وقواد الجيش وأمراء البحار شيوخاً كأهل الدين ! فعلق مصطفى على ذلك بقوله « إن المصلح الأمي كان أبصر بمواقع الرشد من أولئك الناقدين ، فإن إصلاح الأنماط التعليمية وتهذيب النظم في مدارس الدين ، من غير إحراج لها عن موضوعها قد أعجز المرحوم الشيخ محمد عبده بعد أن قضى حياته الغالية فيه ، وما فتيء حتى اليوم مطلباً عسيراً . . ولو أن نهضة محمد علي سارت في سبيلها على النحو الذي بدأت به لكنا اليوم نزاحم الغرب بالمناكب في الرقي العلمي لكن عوامل كثيرة شوشت حركات رقينا المنتظم وانتهى الأمر بنا إلى المدارس الحكومية تعد للحكومة ما يلزم من العمال وإلى المعاهد الدينية تخرج من يحتاج إليهم في وظائف الدين . وأهملت العناية بتربية الروح العلمية في الأمة وترقية المستوى العقلي[٣٣] .

وقد أوضح الشيخ ما نتج عن ذلك من إيجاد عنصرين مكونين للطبقة العلمية في مصر ، هما طبقة الأفندية وطبقة الشيوخ ، ينظر لكل فريق إلى صاحبه نظرة سخط لاتغضى عن عيب ولا ترى حسناً ، وأصبح ذلك داء عضالاً يصل شره إلى نهضتنا العلمية نفسها . وأضاف أنه « لو أمكن اعتبار الأزهريين رجال كنيسة اسلامية ، فوقف دورهم في الحياة الاجتماعية عند حدود المظاهر الدينية ،

وأمكن اعتبار المدرسيين علماء دنيا ، لا يدخلون في الشئون الدينية بيد ولا رجل ، لو أمكن هذا ، لهان الخطب . . لكن أبناء المدارس يأبون إلا أن يحملوا ، مع راية العلم الدنيوي ، لواء الدين ليكونوا زعماء الدنيا والآخرة . . أما رجال المعاهد الدينية فهم أيضاً لا يقنعون بأن يكونوا حملة القرآن ورواة السنن بل يريدون أن يكونوا هم العلماء من غير قيد ولا حد ، والذي يسترعي نظري بوجه خاص هو أمر الانقسام الأخلاقي الواضح في فتياننا من أثر التربية المدرسية والتربية الأزهرية . أرجو أن يأتي يوم يخلص فيه شبابنا العلمي من حدة الأفندية وضعف الشيوخ »(٣٤) .

وجعل مصطفى يحلل الأثر الذي نجم عن ازدواجية التعليم ، وما حدث له من قصور وتأخر ، فرأى أن « العلم القديم « أو علم الأزهريين ومن إليهم من أهل العلوم الدينية ، كان في نجوة من حركة الرقي العالمي . يطوف في دائرة ضيقة . . فالكتب التي كانوا يتدارسونها في عهد محمد علي هي الكتب التي لا يزالون عليها عاكفين لعهد السلطان حسين ، وطريقهم في الدرس لم يتبدل ، ولست ترى فرقاً بين ما يؤلفه جيل اليوم منهم وما ألَّفه آباؤهم من قبل . . ولم يقتصر نقده على طريقة التعليم وأساليبه عند الأزهريين ، بل امتد لما أسماه « المدرسة الجديدة » التي بدأت حياتها بالتقريب ، ثم ارتفعت درجة فأخذت في التصنيف على أنماط جديدة ، ووجد فينا مؤلفات أعارها الغرب التفاتاً وحدث من الحوادث الاجتماعية والسياسية ما عاق سيرنا إلى الرقي ونهوضنا العلمي . . ولقد أحيا آمالنا المرحوم قاسم أمين وفتحي زغلول بما كان لتصانيفهما من الحياة العلمية والشخصية الممتازة ، فلما توفيا لم يبق إلا الجيل الناشىء نرجوه ونرقبه ، وقد بدأ يخطو خطواته الأولى في سبيل الانتاج العلمي . رأينا كثيراً من الرسائل التي كتبها شبابنا الدكاترة في الحقوق والأدب فاستبشرنا بها . . »(٣٥) .

هكذا رأى شيخنا أن المدرسة الجديدة أكثر تقدماً ورقياً ، بخلاف المدرسة القديمة التي أعيا أستاذه (الامام محمد عبده إصلاحها ، والتي لم تتحرك قيد خطوة ومن هنا راح يأخذ على عاتقه اتمام الرسالة ، لقد بدا ساخطاً حانقاً على

دروس الأزهر وطريقة التعليم فيه ، التي تحشو الأدمغة بشروح التلخيص وحواشيه وتقريراته ، والتي أصبحت خلوا من ذوق البيان بعيدة عن فهم أسرار البلاغة ، لقد كان الشيخ يشعر أنها تجني على عقله وذوقه ، ولا تكون ملكة ولا تهذب ذوقاً[٣٦] .

وكان أكثر ما يحزنه طريقة تأليف الكتب في الأزهر ، فضلاً عن طريقة تدريسها ، ومن هنا انتقد بشدة عدم حب المطالعة عند القائمين بالتدريس « فنحن أقل الأمم قراءة واطلاعاً يستوي في ذلك جاهلنا وعالمنا . . وإن من علمائنا من يصاب بنوع خاص من المرض يجعله يصبر على درس كتاب واحد ممل ثلاثين مرة ، فهذا أحد شيوخ الأزهر ظل نحو ثلاثين عاماً يدرس شرح الكفراوي على الأجرومية . . وواجبنا أن نعمل على ترغيب الناس في الاطلاع ونزيل كل ما من شأنه أن يجعل المطالعة مملة ، ففي تأليف كتبنا وفي ترتيبها وأساليبها عيوب تبعث إلى نفس قارئها فتوراً وتضعف من نشاطه . . »[٣٧] .

لقد كان فهم الشيخ مصطفى للدين فهماً مستنيراً ، عقلياً ، يتعجب من إقحام أشياء على الدين ليست فيه ، ثم يلاحظ أن كل ما يتصل بالدين من الشئون الاجتماعية يبطىء عن متابعة الحركة السارية في أجزاء العمران ، وتعجب من أن هذه الشئون وإن لم تكن بذاتها ديناً ، فإن اتصالها بالدين على أي وجه يكاد يجعلها مقدسة لا تقبل تغييراً إلا بوحي السماء ! وراح يضرب الأمثلة على ذلك ببيوت الدين التي نراها ذات سحنة متميزة عن سائر الهياكل والمباني ولا يتغير شكلها فيما يتغير من أشكال البناء ، ونرى ثياب المنتسبين إلى الدين كثياب سائر الناس تتبع ما يتجدد من الأنماط وتسير مع ما يكتشفه الذوق الانساني من أسرار الجمال أو ما ينتبه إليه بهداية العلم والتجربة من دقائق الحاجات الصحية والمعونة على النشاط ، كأن هذه الأشياء التي لاحرفة دينية لها في الواقع ، أصبحت من شعائر الأديان ، فمن مسها أهاج سخط السماء . . »[٣٨] .

ولم يكن مصطفى غافلاً عن طبيعة التطور وضرورته ، أو متجاهلاً لخصوصية الذات وخطورة الاندفاع نحو الجديد في غير تروٍ أو تبصر ، فها هو يعبر عن ذلك بنص غاية في الوعي والوضوح إذ يقول : قد يكون من خير الأمم لأول نزوعها إلى الرقي في الميعة الأولى أن يتجاذب حماستها للتجديد بطء من جانب القديم يحفظها من خطر التقحم . ولكن اسراف بعض مرافق العمران في القعود عن مسايرة الناهض من شئون الحياة يضر بتلك المرافق ضرراً يصل إلى الحياة الاجتماعية كلها . . »(٣٩) . فهو بذلك يؤمن بالتطور ويتحمس له ، لكنه التطور المتدرج المحسوب ، في غير اندفاع وانما في أناة ورفق .

انتقل مصطفى عبدالرازق إلى مقاومة ما دخل باسم الدين من خزعبلات في سلوك المسلمين ، والدين من ذلك براء ، فذكر أن بعض الفقهاء يقول في كتبنا الدراسية : إن المرء إذا لم يسم في أول طعامه أكل الشيطان من طعامه فنقص ، فإذا ذكر اسم الله بعد ذلك قاء الشيطان ما أكله ! وروى في مناسبة أخرى أن أحد أصدقائه الأطباء قدم لمريضته مبصقة تسعل فيها فتجاهلتها ولفظت بصاقها على الأرض ، فلما لامها بلطف على الاخلال بأبسط قواعد الصحة والأدب انبرى زوجها يصيح به ألست تعلم أن الله يقول « ولا على المريض حرج » فعلق : معاذ الله أن يكون الدين الذي جعل الطهارة من الايمان مسوغاً للناس أن ينشروا في الأرض الجراثيم(٤٠) .

وقد كان يتعجب من تزاحم المجاورين في الأزهر ليقبلوا يد أستاذهم في مفتتح الدرس ومنتهاه ، وأوضح ما في هذه العادة من مضار صحية ونفسية « من أولئك الذين يعدون أيدهم طويلة إلى الأفواه لينشروا جراثيم الأمراض ويبذروا معها بذور الذلة في أنفس طيبة ساذجة »(٤١) .

لقد كان الشيخ مؤمناً إيماناً راسخاً بسنة التطور الذي لا يتعارض مع جوهر الدين وفهمه فهماً عقلياً وقد تعجب مرة من تحسر رجال الآثار لاضاءة جامع المؤيد بالكهرباء ، لأنهم يرون من حسن الانسجام أن تشعل جوانبه الفتائل ،

لكن تيار الزمن لا ينظر إلى أماني عشاق الآثار . . وتذكر الضجة الدينية التي أصموا بها الآذان يوم أريد جعل الحنفيات في المساجد مكان الميضات ، لقد ذهبت الضجة ، وذهبت الميضأة ، وألفنا الأسلوب الجديد في أماكن الطهارة »[٤٢] .

ولم يفته انتقاد أسلوب الوعظ فوق المنابر والموضوعات التي يتعرض لها الوعاظ ، فيروى على لسان الشيخ حسان الغزاوي أنه ألقى خطبة الجمعة وجعل يحدث الناس خلالها في أمر الزواج ليبين لهم أن تعدد الزوجات يقلع الحب من أساسه ، لأن الحب موحد لا يقبل الشرك وأنه إذا ذهب الحب فعلى السعادة العفاء ، وأضاف أنه لم يكد ينطق بذلك حتى وقف له المأذون والفقهاء وصاحوا هذا هو علم آخر الزمن ، لم يبق إلا أن نسمع من فوق منابر الوعظ الديني الكلام عن النسوان والحب . وماذا جرى من خطب الشيخ البولاقي والشيخ السقا التي تذكرنا بالموت وتحبب إلينا الفقر ؟ . وفي مناسبة أخرى أبدى الشيخ مصطفى دهشته وتعجبه من فتى نهض يخطب بعد صلاة العيد ، وكان يدب دبيب الشيوخ ويتهدج صوته تهدج أصواتهم ، فوعظ ما وعظ ، ثم ذكر الموت والأموات فسالت عبرته وأتم خطبة العيد باكياً . فعلق شيخنا : كذلك نحن نبكي في بيوت الله ونبكي في بيوتنا ! ويا ليت شعري متى نبسم للحياة وتبسم لنا ؟»[٤٣] .

وقد استعاذ بالله مما يحدث في حلقات الذكر ، ورآها دخيلة على دين الفطرة ، فكتب عن « تلك الهزات المضطربة ، وذلك الهدير تفيض به الحناجر ، وددت لو أن أولئك المساكين إذا لم يستفيدوا من هذا العبث لأرواحهم جعلوا منه نفعاً لأجسامهم . فنظموا حركاته على وجه يمرن عضلاتهم العاملة حتى يصير نوعاً من الألعاب الرياضية المفيدة . . إنهم حرصوا على حركات تقليدية تشوه جمال الخلقة الانسانية ونظامها وتشوش التناسب في النمو بين أعضاء البدن . . »[٤٤] .

أما بالنسبة لموقفه من قضية الخلافة ونظام الحكم في الاسلام ، التي أثارها شقيقه الشيخ علي عبدالرازق في كتابه الخطير « الاسـلام وأصول الحكم » في أبريل ١٩٢٥ ، والذي حاول فيه أن يثبت أن الخلافة ليست أصلاً من أصول الحكم في الاسلام ، وأنها ليست ضرورية ، وقد نتج عن هذا الكتـاب أزمة فكرية وسياسية معروفة ، حوكم على أثـرها الشيـخ علي أمـام هيئة من كبـار العلماء ، بإدارة المعاهد الدينية ، والتي حكمت بإخراجه من زمرة العلماء وفصله من وظيفته في أغسطس من نفس العام . وكان الكتاب قد ظهر في وقت كان العلماء في مصر يتنادون بعقد مؤتمر ديني اسلامي لبحث قضية الخلافة والترشيح لها (في مارس ١٩٢٥) بعد أن ألغاها الكماليون في تركيا (في مارس ١٩٢٤) ، بل وتشكل في مصر مؤتمر دائم هو « المؤتمر الاسلامي العام للخـلافة » وكـان يصدر مجلة « الخلافة الاسلامية » فماذا كان موقف الشيخ مصطفى عبدالرازق من محاكمة شقيقه ، ومن مسألة الخلافة ومؤتمرها ؟

فيما يتعلق بمسألة محاكمة شقيقه نلاحظ أن مصطفى لم يكتب عنهـا بشكل مباشر وصريح مدافعاً عن موقف أخيه ، بل لجأ كعادته إلى سلاح السخريـة المرة ، يبثها أشجانه وآراءه ، فنشر في صحيفة السياسة بعضاً من مذكراته(٤٥) روى خلالها أن صديقاً اقترح عليه أن يذهبا من باريس إلى لندن بالطائـرة ، فأجابه مصطفى متهكماً : وهل يناسب وصف العالمية أن نرقى بطائرة إلى الأفق الأعلى فنزاحم الملائكة بالمناكب عند أبواب السماء أو نتشبه بـالجن في استراق السمع ؟ فقال صديقه : نستفتي شيخ الجامع الأزهر أو مفتي مصـر ، فيعلق مصطفى بأنهما واخوانهما لم يردوا تحية الاسلام في إدارة المعاهد الدينية وقالوا لمن ألقى إليهم السلام لست مؤمناً ، فهـل تطمـع في الرد عـلى استفسار يـرسل لحضرات أصحاب الفضيلة من باريس ؟(٤٦) .

وأضاف مصطفى « ثم قضينا أن نذهب إلى لندن بطريق البر والبحر ، وتركنا سبيل الجولمن لا يدخلون في حكم المادة (١٠١) من القانون نمرة ١٠ للأزهر والمعاهدة الدينية . . »(٤٧) .

بـل أكثر من هـذا اعتبر مصـطفى أن المحاكمـة فتنة ستهـدم حريـة مصر وتقدمها . فها هو يكتب وهو في طريق عودته إلى مصر « دنونا من مصر تفيض جوانحنا رحمة وحنيناً ، كما تدنو من عزيز موجع ، تسمع أنينه مكظوماً وترى قروحه تمج دماً ، وهل تبتلى أمة في بداية عهدها بالحرية والتقدم بشر من فتن تريد أن تهدم كل حرية فيها وكل تقدم[٤٨] ؟ » لقد كان واضحاً أن مصطفى ينتصر لما يعتقده حرية في الرأي والاجتهاد ، ويرفض مبدأ التكفير والرمي بالالحاد من جانب هيئة كبار العلماء .

لقد كتب مصطفى في مناسبة أخرى « رضينا بدين هيئة كبار العلماء ، الذي إن جمد مرة استرخى مراراً ، ثم هـو لم يبلغ بعد أن يقـذف رصاصـاً ويرمي أحجاراً . . . . سنترك هيئـة كبار العلماء تبحث في أنحـاء الأرض عن مسلم تكفره . . . . إلخ »[٤٩] .

أما بالنسبة لمسألة الخلافة ومؤتمرها ، فكان مفتي مصر حينئذ وهو الشيخ محمد بخيت يضع كتاباً في الرد على كتاب علي عبدالرازق ، يتناول فيه اثبات وجود الخلافة كأساس لنظام الحكم في الاسلام ، في الوقت الذي كان مؤتمر الخلافة « الدائم » يواصل عقد جلساته بمصر ، بهدف مبايعة أحد الملوك والأمراء لخلافة المسلمين ، وقد أثارت هذه التطورات مصطفى عبـدالرازق فكتب بسخـريته المعهودة يذكر أن « جو مصر مكهرب بالمؤتمرات . . فهذا هو مؤتمر الخلافة يريد أن يبايع إماماً ينوب عن الرسول ﷺ في إقامة الدين وسياسة الدنيا به . . وأن كتاب الشيخ بخيت المنتظر سوف يحل الله به الاشكال ويكفي المؤمنين القتال . ومن أجدر من الشيخ يرفع عن الخلافة كل أسباب الخلاف ويوفق بـين جميع الأصناف . . ! »[٥٠] ، وعندما نشرت الصحف أن رجلاً حاول الانتحار لأنه لم يجد عملاً ، كتب مصطفى بأنه « كانت للرجل مندوحة للخلاص من هم الفقر والعطلة ، أن يأوي إلى مؤتمر الخلافة ، فإن فيه للعاطلين مـرتعاً يـدر السمن والعسل ولا يجشم عناء فيما يتطلب من عمل »[٥١] .

وعندماأصدر علماء « الرياسة الاسلامية العليا » كتاباً منشوراً في لبس البرنيطة متضمناً نصوص المذاهب الأربعة في تكفير من لبس القبعة ، علق مصطفى عبدالرازق على ذلك بقوله « إننا نذكر بكل خشوع لمقام الرياسة الاسلامية العليا أنه منذ نيف وعشرين سنة أفتت رياسة اسلامية عليا في مصر بجواز لبس البرنيطة ، وألف أساطين علماء الأزهر لذلك العهد كتاباً معروفاً يتضمن نصوص المذاهب الأربعة في حل لبس القبعة(٥٢) .

ومما أثار دهشة مصطفى أكثر أن فتوى هؤلاء العلماء « قد ألحت في الكلام على مسألة تغيير الشيب إلحاحاً ، حتى لتوهم قارئها أن الغرض الأهم هو إيجاب صبغ الشعر الأبيض ، لا تحريم البرنيطة ، فقررت الفتوى أن التشبه بالكفار كفر وأن اليهود لايصبغون شيبهم وأن من لا يغير شيبه متشبه باليهود ، فاستقام لهم أن من لا يغير شيبه فهو كافر ، وقد تحدث الناس أن بعض الشركات الغنية التي تتجر بصبغات الشعور تحتال لترويج بضاعتها بحيل مختلفة ، وتحدثوا أن شركة لبن (نسلة) أذاعت منذ سنين في أقطار الأرض فتوى صدرت لها خصيصاً من الرياسة الدينية العليا للترغيب في تجارتها . فإذا صح أن بين هذه الأحاديث صلة وأنها ترجع إلى أصل غير مكذوب ، فطوبى لصبغة الشعر ويا أسفي على الشيب في الاسلام . . !»(٥٣) .

لم يكتب مصطفى في قضية الخلافة ونظام الحكم في الاسلام ، وكانت قضية الساعة منذ عام ١٩٢٤ بعد أن ألغاها الكماليون ، وانعقدت مؤتمراتها ، وألَّفه شقيقه كتابه الشهير عنها ، وكانت حديث المثقفين والسياسيين والرأي العام جميعاً ، لكننا نستطيع أن نستشف رأيه بشأنها من تعليق هنا أو هناك ، فقد استرعى نظره أن شيخ الجامع الأزهر ـ وكان حينئذ الشيخ محمد أبو الفضل ـ وكذلك المفتي قد أعلنا في المسلمين أنهما « الرياسة الدينية العليا » فكتب : كنا نعرف أن الرياسة الدينية العليا نصف الخلافة ، إذ الخلافة هي الرياسة العليا في الدين والدنيا ، وكنا نعرف أن الخلافة وحدة غير مجزأة ، سينعقد لها مؤتمر ينظر في من يكون الخليفة للمسلمين يتولى زعامة الدنيا والدين ، فهل جدَّ للسادة

العلماء مطمع في اقتسام الاسلاب ، جعلهم يرون أن تكون الخلافة جزأين ، فاستأثروا لأنفسهم بالرياسة الدينية العليا وتركوا للمؤتمر خلافة الدنيا ؟ »[٥٤] .

وعندما التقت صحيفة بريطانية (الليدي دراموند هاي) بفضيلة المفتي ، واعتقدت أنه في مصر « أشبه ببابا محلي تسير كلمته ورغباته على المؤمنين وقراراته لا تقبل مناقشة » علّق الشيخ مصطفى عبدالرازق على ذلك بقوله « وليس المفتي الأكبر يا سيدتي شبيهاً بساكن الفاتيكان . . فهو موظف تابع لميزانية وزارة الحقانية ، يتقاضى كسائر الموظفين راتباً شهرياً ، وكل عمله أن يجيب من يسأله عن حكم فقهي كما يجيب أي فقيه يسأل من حكم يعرفه » وعلى ذلك رأى مصطفى ألا ضرورة لهذه الوظيفة ، بل إن ألغاها يوفر لميزانية الدولة مالاً من غير أن يضيع على الأمة نفعاً في دينها أو دنياها ، ويمكن أن يستخدم ذلك الوفر في إنشاء ما تقتضي حالة المحكمة العليا الشرعية إنشاء « من وظائف ضماناً لسير العدل من غير ابطاء »[٥٥] .

لعلنا لا نجانب الصواب إذا استنتجنا مما سبق أن مصطفى لم يعد يؤمن بضرورة الخلافة كأساس لنظام الحكم في الاسلام ، وأن الدعوة إليها إنما هي لأسباب سياسية أكثر منها دينية ، ومن هنا كانت سخريته المريرة من مؤتمرها ، ومن ثم كان يعتقد أن يترك الحكم في الأمور الدنيوية للحكام والأمراء ، بينما يختص العلماء بشئون الدين والفتوى فيها ، وأنهم بذلك لا يشكلون « اكليروسا » دينياً وأن رئاستهم لا تمثل في سلطتها وقراراتها سلطة بابوية على كل حال .

لقد كان فهم مصطفى للدين فهماً عقلانياً متطوراً ومستنيراً ، ينكر الجمود العقلي والجمود الديني على حد سواء « فشر ما حارب به الجمود أهل النظر في الفكر المستقل في جميع الأزمان هو الرمي بالالحاد . فالدين ليس غلاً للقلوب ولا قيداً للأفكار . . وإن من أسمى فضائل الدين الجدال بالحكمة والموعظة الحسنة والبعد عن التكفير والتفسيق ورفث القول ، خصوصاً في مقام البحث والنظر .

إن الذين يخدمون الحرية الفكرية هم خدام الحق وأنصاره ، فإن العقول المستعبدة لا تسمو إلى جلال الحقيقة وجمالها . وإن الذين يفكون العقول من أغلالها إنما يمهدون لها السبيل إلى الحق والدين من أسمى الحقائق في هذا الوجود . »(٥٦) .

لم يكن مصطفى عبدالرازق يرى تعارضاً بين الدين والعقل ، فلكل منهما دوره في إسعاد الانسان ، وكان ضد الفهم الشكلي للدين ومايثيره من جدل عقيم وخلاف بين العلماء نتيجة عدم التماسهم للمعنى والجوهر ، مما يسم فكرهم بالسطحية والسذاجة فينسجون الأساطير والخرافات حول الدين ويجعلونها أصلاً من أصوله ، مما يضر بحقائق الدين ضرراً بليغاً . إن مصطفى لا يعزل الدين عن التطور الاجتماعي ، حيث أن له رسالته في تنظيم حياة المجتمع ومسايرة تقدمه ، مما يبعده عن التخلف . لقد ترك الدين للناس أمر تنظيم حياتهم وفقاً لتعاليمه الأساسية ، كما ترك باب الاجتهاد مفتوحاً أمام أصحاب النظر والرأي ، إن الاسلام في رأيه « جمع بين الدين والشريعة أما الدين فقد استوفاه الله كله في كتابه الكريم ، ولم يكل الناس إلى عقولهم في شيء منه ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهادي تفاصيلها »(٥٧) . لقد كان الشيخ معنياً بإقامة التعليم الديني على أسس علمية متطورة ، وفي أثناء مشيخته للأزهر حقق بعض ما يريد من ذلك الاصلاح ، فأدخل اللغات الأجنبية إلى الأزهر ، وأرسل البعثات الأزهرية إلى الخارج وكانت أعماله تحقيقاً لرسالة أستاذه الامام محمد عبده(٥٨) .

- ٣ -

ثمة جانب هام في فكر ونشاط الشيخ مصطفى عبدالرازق يقتضينا أن نفرد له فصلة خاصة في هذا البحث ، وهذا الجانب يتمثل في اسهاماته في مجال تدريس ودراسة الفلسفة الاسلامية . وإذا كان قد حظي بدراسة المتخصصين ، فإننا لا نرى بأساً من الالمام به على ضوء دراستنا لفكر الشيخ وآرائه ، وفي إطار التأريخ لأحد جوانب الفكر المصري الحديث . لقد شغل هذا الجانب حيزاً كبيراً

في فكر مصطفى واهتماماته ، وكانت أسهاماته فيه رائدة بالنسبة لعصره . بل لعله تفرد بهذا المجال من تلاميذ الامام محمد عبده ، وربما كان لذلك صلة وثيقة باهتمام مصطفى بالجانب العقلي في النهضة التي أنشأها الامام ، والتي يرى أحد نقاده(٥٩) أنه اهتم به أكثر من عنايته بالجانب الديني ، بينما اهتم رشيد رضا وجماعة المنار بالاصلاح الديني ، وأن هذا الاهتمام بالجانب العقلي الذي أظهره مصطفى هو الذي ربطه بالمحدثين ، الذين جعلوا غرضهم الأول حرية الفكر ، واستقلال الرأي في البحث العلمي .

سافر مصطفى إلى فرنسا لدراسة الفسلفة الاسلامية ، بعد أن نال عالمية الأزهر ، وشرع كما رأينا يعد رسالته عن الامام الشافعي ، وأن لم يقدر له اتمامها ومناقشتها . وكان مصطفى على شغف شديد بدراسة الشافعي ، لأنه كان يذهب مذهبه في الفقه ، ويذكر طه حسين أن ذلك قد أثر في حياته العقلية وفي نهجه الفلسفي تأثيراً شديداً ، فدراسته للشافعي ألقت في روعه رأياً خصباً ، فقد رأى أن الشافعي يفلسف في أصول الفقه وما يتصل به من المشكلات المختلفة في الدين واللغة واستنباط الأحكام من النصوص ، فارتقى برأيه هذا إلى أن من سبق الشافعي من المفكرين المسلمين الذين لم يجادلوا في أصول الفقه وحدها ، بل جادلوا في مسائل الدين أيضاً قبل أن يعرفوا الفلسفة اليونانية ، بل قبل أن يحسنوا العلم باللاهوت عند المسيحيين واليهود . ومعنى ذلك أن المسلمين قد أنشأوا فلسفتهم الأولى من عند أنفسهم ، وكانت فلسفة يسيرة سمحة كالاسلام نفسه ، ثم لقيت الفلسفة اليونانية بعد ذلك فأدركها مافي هذه الفلسفة من العسر والتعقيد . . لقد استكشف مصطفى بذلك مذهباً جديداً في الفلسفة الاسلامية له خطره العظيم(٦٠) وقد نشر فيما بعد نتائج دراسته عن الامام الشافعي في كتاب يحمل نفس الاسم عام ١٩٤٥ ، كما ضمن بعضها في كتابه الشهير « تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » حيث عرض لمذهبه وأفكاره الفقهية واعتبره أول من وضع مصنفاً في العلوم الدينية على منهج علمي ، كما اعتبره واضع علم الأصول(٦١) .

لقد انشغل بالفلسفة وعلاقتها بالدين منذ انفتح وعيه على روافد الثقافة الحديثة ، فعندما قدم عرضاً نقدياً ممتازاً لكتاب « الواجب » لجيل سيمون (الذي ترجمه طه حسين ومحمد رمضان) أثنى مصطفى على المترجمين رغبتهما في أن يزيلا ما علق بأوهام الناس من سوء الظن بالفلسفة وأن يجعلاها صناعة عملية تشترك الطبقات كلها في تناول مباحثها والانتفاع بها ، وأنه - أي مصطفى - لم يكن من رأيهما في القول بأن حق الفلسفة أن تتخذ نصيراً للدين ووسيلة إلى تأييده ، فإن ذلك ضار بالدين والفلسفة جميعاً . أما ضرره بالدين فلأنه يعرض عقائده ، وهي عواطف قدسية تتأثر بها النفس ، كما تتأثر بلهجة الجمال لمناقشات العقل ومناقضاته . . أما ضرره بالفلسفة فلأنه يحدد لمقدماتها نتائج تقليدية ويجعل بحثها عن الحقائق موجهاً إلى تأييد الدين فتأخذ شكلاً مقدساً لا يتناسب مع حرية البحث والنقد . ويرى مصطفى أن أقصى أماني الدين والفلسفة أن يتعاونا على إسعاد الانسان ، لا أن يتلاقيا في ميدان واحد وجهاً لوجه . . فللعقول حريتها في الفهم وللقلوب حريتها في الايمان وما كانت الفلسفة لتعادي الدين ، ولكنها أيضاً لا تخدمه(٦٢) .

ورغم اختلاف نظرة مصطفى عن نظرة مؤلف الكتاب بهذا الشأن إلا أنه بعقليته المتفتحة يرى أن حركتنا العلمية ينبغي أن يتسع لها المجال فتتناول جميع المذاهب الفلسفية بالدرس والمقارنة ، حتى إذا سلكت منها منهجاً سلكته عن بصيرة لا يضيق بها اختيار(٦٣) .

وفي كتابه « فيلسوف العرب والمعلم الثاني » الذي ضمنه دراسته عن الكندي الذي نعته بفيلسوف العرب ، كما ضمنه دراسته عن الفارابي ، الذي لقب بالمعلم الثاني ، على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول ، لم يخصص الكتاب لدراستهما فقط وإنما خصص فصولاً أخرى لدراسة المتنبي الشاعر الحكيم ، ودراسة بطليموس العرب ، عالم الرياضيات والفلك ابن الهيثم ، فضلاً عن دراسته لآراء شيخ الاسلام ابن تيمية .

ومن الملاحظ أن مصطفى عبدالرازق وهو يعرض أفكار هؤلاء الفلاسفة لم يعزلهم عن بيئاتهم السياسية والاجتماعية ، وإنما برهن على أنهم لم يعيشوا في أبراج عاجية منعزلة عن تطورات عصرهم ، فهو عندما يتحدث عن حكمة المتنبي فإنه يربطها بتأثره بآراء الفارابي وفلسفته ، بل يرى أن شعر المتنبي كان من أسباب عناية الكتاب والشعراء بالدراسات الفلسفية ، وعندما كتب عن ابن تيمية عرض لتقييمه لمنطق اليونان وفلسفتهم ورأى أن كتبه مملوءة بالرد على مذاهبهم ، من جهة مخالفتها للدين وللعقل ، بل أن مصطفى يبين لنا أن العلوم الفلسفية إذا كان لها أثرها في تفكير شيخ الاسلام ابن تيمية ، فإن تفكيره أحياناً لا يستوفي في التمحيص الفلسفي(٦٤) .

لقد لاحظ مصطفى عبدالرازق بحق أن التوحيد والتصوف بابان من أبواب الحياة العقلية في الاسلام ، ولهما صلة بالبحث الفلسفي الخالص . وقد أخذت المدارس الكلامية والصوفية عن الفلسفة ما أخذت ، وذهب إلى أبعد من ذلك ورأى أن علم أصول الفقه ضرب من مناهج البحث في التشريع الاسلامي ، وقد أثرت في تكوينه عوامل مختلفة منها منطق أرسطو بخاصة والفلسفة بعامة . فبدت صورة الحياة العقلية في الاسلام على يديه جلية واضحة ، واتسع فيها مجال البحث والدرس ، ففتح بهذا أبواباً فسيحة كان من ثمارها تلك الدراسات المتصلة في الكلام والتصوف والفلسفة(٦٥) .

لقد أراد مصطفى أن يؤرخ لنشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، وقد اقتضى منه ذلك أولاً أن يفند كتابات المستشرقين بهذا الخصوص ، وأن يدحضها ، قبل أن يقدم لنا نظريته حول نشأة هذا الفكر ويستكشف ـ على حد تعبيره ـ جراثيمه الأولى . فعرض مصطفى لكتابات تنمان وكوزان ورينان على وجه الخصوص ، والتي تنكر أصالة الفكر الفلسفي في الاسلام ، ورأى أنها مجرد ترديد وشرح لفلسفة أرسطو وتطبيق لمذهبه على قواعد دينهم تطبيقاً أعمى ، وكانوا يعتقدون ـ خطأ ـ بأن القرآن الكريم إنما يعوق النظر الحر ، ويتحدثون عن سيطرة حزب

أهل السنة ، ويرونه متمسكاً بحرفية النصوص ، بل أكثر من هذا أنكروا وجود فلسفة عند الجنس السامي ، الذي منه العرب ، واعتبروا الفلسفة عند الساميين مجرد اقتباس وتقليد .

وقد ردَّ مصطفى عبدالرازق على هذه الآراء وبين ما فيها من أخطاء علمية ومنهجية تستند إلى التعصب الجنسي والديني ، فضلاً عما فيها من اضطراب ، وأثبت أن العلم الحديث قد أثبت فساد تفوق الأجناس . واعتبرها نوعاً من الشطط ، لا يتفق مع العقلية العلمية التي يدعيها الغرب . وكان منطق مصطفى هادئاً وعلمياً رصيناً حين أضاف « إن الناظر فيما بذله الغربيون من جهود في دراسة الفلسفة الاسلامية وتاريخها لا يسعه إلا الاعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم ، وإن كنا قد ألمعنا إلى نزوات من الضعف الانساني تشوب أحياناً جهودهم في خدمة العلم ، فإنا نرجو أن يكون في تيقظ عواطف الخير في البشر وانسياقها إلى دعوة السلم العام والنزاهة الخالصة والانصاف والتسامح مدعاة للتعاون بين الناس جميعاً على خدمة العلم باعتباره نوراً لا ينبغي أن يخالط صفاءه كدر »(٦٦) .

انتقل مصطفى بعد ذلك لاسترداد حقائق التاريخ ، باحثاً عن أسس وأصول التفكير الفلسفي عند المسلمين ليبلور نظريته ، فجعل يستكشف الجراثيم الأولى للنظر العقلي في الاسلام ، في سلامتها وصفائها ، ثمساير خطاها في أدوارها المختلفة قبل أن تدخل في نطاق البحث العلمي ، وبعد أن صارت تفكيراً فلسفياً ، فدرس الفكر العربي واتجاهاته حين ظهر الاسلام ، وعرض للديانات التي كانت سائدة في العرب حال ظهوره ، حين كان منهم يهود ونصارى وصابئة ومجوس ومشركون ، وشرح مصطفى هذه الديانات والمذاهب وعلق عليها بقوله « كل ذلك يدل على أن العرب عند ظهور الاسلام كانوا يتشبثون بأنواع من النظر العقلي يشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية ، لاتصالها بما وراء الطبيعة من الألوهية وقدم العالم أو حدوثه ، والأرواح والملائكة والجن والبعث ونحو ذلك »(٦٧) .

ثم انتقـل مصطفى إلى دراسـة أحوال العـرب بعد الاسـلام ، مؤكداً أن الاسلام دين وشريعة « أما الدين فقد استوفاه الله في كتابه الكـريم ولم يكل الناس إلى عقولهم في شيء منه ، وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ، ثم ترك للنظر الاجتهادي تفصيلها » لذا فإن القرآن لم يشجع المسلمين على الجدل في الأمور الاعتقادية إلا عند الحاجة ، ودعا إلى الأخذ في هذا الجدل برفق ، كما أن القرآن قد ذكر الحكمة وأثنى عليها وشجع عـلى نموهـا ، واعتبر مصـطفى أن الحكمة هنا هي العلم النافع والفقه في شئون الحياة بتعرف الحق فيها وامضائه ، ذلك أن القرآن قد شجع على الحكمة العملية المتصلة بحياة الانسان ، ولقد كان لهذا التوجيه القرآني أثره العظيم في توجيه النظر العقلي عند المسلمين في عهدهم الأول ، وتوقف أهل السلف عن الجدل في العقائد كمباحث القدر والاستطاعة وغيرها(٦٨) .

وخلص مصطفى من ذلك كله إلى أن النـظر العقلي في الاسـلام كان من المسائل الشرعية العملية ، فقد نشأ في الاسلام مؤيداً من الدين ، وقد ورد في الكتاب والسنة الثنـاء على الحكمـة والحكم والتنويـه بفضلهما ، فمهـد ذلك لانتعاش النظر العقلي في الشئون العملية . . ووجدت الحاجة إلى هذا النظر في استنباط الأحكام للوقائع المتجددة التي لم يكن من الممكن أن تحيط بها النصوص الشرعية(٦٩) .

وهكـذا انتهى مصطفى عبـدالرازق إلى أن الاجتهـاد بالـرأي في الأحكام الشرعية يمثل بداية النظر العقلي عند المسلمين ، وأنه نما وترعرع في رعاية القرآن وبسبب من الدين ، ونشأت فيه المذاهب الفقهية وأينع في جنباته علم فلسفي هو علم أصول الفقه ، ونبت في تربته التصوف ، وذلك من قبل أن تلعب الفلسفة اليونانية دورها في توجيه النظر العقلي عند المسلمين إلى البت فيها وراء الطبيعة والالهيات ، وعلى ذلك فالعقل عند المسلمين يعد أصلاً من أصول التشريع فيما لم ينزل به تنزيل(٧٠) .

وقد عرفنا أنه كان يعتبر الامام الشافعي فيلسوفاً اسلامياً لأنه حاول أن يجعل أصول الاستنباط الفقهي وقواعده علماً ممتازاً ، وأن يجعل الفقه تطبيقاً لقواعد هذا العلم ، بل اعتبر مصطفى أن علم أصول الفقه يصطبغ بفلسفة ليس إلى انكارها سبيل ، وهو يدخل علم الكلام والتصوف في إطار الفلسفة الاسلامية بمعناها العام ، ولم يسبقه ـ فيما نعلم ـ أحد إلى هذا الرأي(٧١) .

ومع ذلك فإن هناك من المؤلفين الاسلاميين من لا يعدون هذين العلمين من العلوم الفلسفية في حقيقة أمرهما ، ويرونهما قريبي الشبه بهذه العلوم ، ويرون أن الفلسفة طغت عليهما وصبغتهما بصبغتها . . والذين ردوا الفلسفة الاسلامية إلى اليونان قالوا أن الفلسفة الحقيقية تلتمس في مذاهب المتكلمين باعتبارها الفلسفة العربية الحقيقية . . أما التصوف فقد استبانت صلته بالفسلفة منذ القرن الثالث الهجري حين نشأ التصوف النظري الاشراقي على يدي ذي النون والبسطامي والحلاج ، وسرعان ما ظهرت في التصوف نظريات فلسفية في الوجود وفي المعرفة ، وبدا بوضوح أثر الفلسفة الدخيلة في صوفية المسلمين(٧٢) .

لم يغفل مصطفى عن أثر العوامل الخارجية في الفلسفة الاسلامية ولم يتجاهلها ، وانما حدد تأثيرها تحديداً علمياً واضحاً ، وحصره في نطاق نماذج الحضارات وتأثرها ببعضها ، ومع اثباته بالقرائن التاريخية والنصوص أن للفلسفة الاسلامية كيانها الخاص ، الذي يميزها عن مذهب أرسطو ومفسريه ، فانه أقر أن في هذه الفلسفة عناصر يونانية وهندية وفارسية « ثم أن فيها من ثمرات عبقرية أهلها ظهرت في تأليف نسق فلسفي قائم على مذهب أرسطو ، مع ما في هذا المذهب من نقص ، باختيار آراء من مذاهب أخرى ، وبالتخريج والابتكار ، كما ظهرت أيضاً في أبحاثهم في الصلة بين الدين والفلسفة . . »(٧٣) .

لقد كان مصطفى يرى أن هذه العوامل الأجنبية التي أثرت في الفكر الاسلامي وتطوره « مهما يكن من شأنها ، فإنها عوامل طارئة ، صادفته شيئاً قائماً بنفسه ، فاتصلت به ولم تخلقه من عدم ، وكان بينهما تمازج أو تدافع ، لكنها على كل حال لم تمح جوهره محواً »(٧٤) . وتلك على كل حال سمة أصيلة في الفكر الاسلامي ، الذي يتفاعل بوعي مع العناصر الحضارية الأخرى ، ، فيستمد منها قدرة على النمو والازدهار ويفيد من الجوانب الايجابية فيها ، محتفظاً بذاتيته وخصوصيته .

لقد نجح مصطفى في دحض مازعمه المستشرقون ، وعلى رأسهم رينان ، من أن الفلسفة الاسلامية لم تكن اسلامية ولا عربية بأي معنى جوهري ، كما نجح في تأكيد المركز الرفيع الذي احتله العقل في الاسلام ، وأثبت ذلك بتحليل علمي لمكانة الرأي في الفقه الاسلامي ، ومع التوسع في معناه بقدر المستطاع دون تحوير أو تشويه ، مستشهداً في ذلك بالمفكرين المسلمين منذ عهد النبي ﷺ ، وبالنبي نفسه ، الذي استعان بالرأي وسمح لصحابته بأن يتذرعوا به . وكان مصطفى يعالج المصادر التاريخية بدراية كبيرة ، ويعتمد مفهوم التطور التاريخي مما يدل على تأثير دراسته الأوربية فيه ، وإن كان هذا التأثير بقى منضبطاً بإحساسه بما هية الاسلام بالفعل وما كان عليه من قبل(٧٥) .

لقد نجح الشيخ مصطفى في نشر أفكاره وآرائه في الفلسفة الاسلامية ، سواء من خلال كتابته في الصحف والمجلات أو القاء المحاضرات العامة أو التدريس داخل الجامعة ، حتى يذكر عنه أنه عندما كان يدرس في فرنسا قبيل الحرب العالمية الأولى ، اختير لالقاء محاضرات عن الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة ليون ، خلفاً لاستاذها الذي كان منتدباً آنذاك للتدريس بالجامعة المصرية(٧٦) . ثم قدر له ، كما أشرنا ، أن يكون أول استاذ مصري مسلم يدرس الفلسفة الاسلامية لأكثر من عشر سنوات بالجامعة المصرية (٢٧ - ١٩٣٨) ، وأنه عندما استوزر ، لم تنقطع صلته بطلابه من دارسي الفلسفة ، حتى لقد انتخب رئيساً فخرياً للجمعية الفلسفية المصرية(٧٧) .

ولمسألة اشتراكه مع برنار ميشيل في ترجمة رسالة التوحيد إلى الفرنسية ، ثم اشتراكه مع المستشرق ماسينيون في كتابه دراسة عن « الاسلام والتصوف » لدائرة المعارف الاسلامية ، لهذا الاشتراك في جهد علمي مع المستشرقين الأوربيين ، دلالة على مقدرته ووعيه بالتوفيق بين التراث الاسلامي والحضارة الحديثة ، أو على حد تعبير الدكتور بيومي مدكور ، دليل على جهده في « التقريب بين الأزهر والسوربون »(٧٨) .

وفوق ما تركه شيخنا من تراث اصلاحي وفلسفي ، ذلك التراث الذي حفل به تلاميذه ، ترك مدرسة مرموقة ، وكون جيلاً من الباحثين والدارسين عمرت بهم كليات الجامعة المصرية ، وكان مصطفى حريصاً على أن يعود تلاميذه ، ومنهم من لم يمر بالدرس الأزهري ، على دراسة المتون والنصوص ، وفي ذلك ما فيه من صقل وتمرين على استخلاص مدلولاتها الصحيحة ، فاستطاع كثيرون منهم أن يكونوا أصحاب أسلوب عربي سليم ، بجانب تمكنهم من اللغات الأجنبية(٧٩) . ومنذ أن أعلن دعوته إلى دراسة الفلسفة الاسلامية من مظانها الحقيقية ، وتلامذته الأقدمون قد نفروا إلى أهم موضوعاتها في تؤدة واتقان ، وانطلق كل في نطاقه يعرض لأصالة الفكر الاسلامي في ناحية من نواحيه(٨٠) .

وهكذا أهلت دراسة مصطفى عبدالرازق ، العميقة والواعية ، للتراث الاسلامي ، في جوانبه الفقهية والفلسفية بشكل خاص ، فضلاً عن اطلاعه على الثقافة الأوربية الحديثة واستفادته من مناهجها ، أهله ذلك كله ، إلى جانب فكره المتفتح ، لأن يكون من دعاة التوفيق بين النافع والجيد من تراثنا ، واستخراج قيمه الأصيلة ، وبين ما يوائم طبيعة المجتمع الاسلامي من ضرورات الحياة العصرية ، ومعطيات الحضارة الحديثة . ومن هنا كان مصطفى يخضع القديم والجديد ، معاً ، لأعمال النقد والعقل والمصلحة ، في منهج جلي واضح ورؤية متفتحة ، كما دعا إلى اليقظة لمحاولات تشويه تراثنا الفكري

الاسلامي ، وإلى ضرورة أن نثق بأنفسنا وبتراثنا الحضاري ، الذي أثبت بمنطق علمي أنه لا يخلو من عناصر الأصالة والابتكار والتجدد ، وأن له مكـانته في التراث الفلسفي العالمي ، وأن ما علينا إلا أن نعيد اكتشافه ، على ضوء المنهج الحديث ، وأن ننشر منه مالم ينشر ، وهي دعوة تظل جديرة بالتقدير والاهتمام .

الهوامش والمراجع

(١) ملف خدمة الشيخ مصطفى عبدالرازق ، بدار المحفوظات العمومية بالقلعة برقم ٢٥٧ ، مسلسل ٥٦٣٤٢ محفظة رقم ١/١٩١/٥٤٦٥ ويذكر على عبدالرازق في مقدمته لكتاب « من آثار مصطفى عبدالرازق » دار المعارف بمصر عام ١٩٥٧ ، أنه ولد عام ١٨٨٥ بينما ورد في ملف خدمته أنه ولد عام ١٨٨٨ وأن شهادة ميلاده سجلت باعتباره من سواقط القيد .

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، جـ (١) ، القاهرة ١٩٣١ ، ص ٧٥٧ .

(٣) السياسة في ٢١ ، ٢٢ مارس ١٩٢٣ حيث يوجد نص محاضرته .

(٤) كان لطفي السيد بصحبته عندما سافر وقد مهد له الاقامة فيها وربما كان له دور في توجيه دراسته ، راجع مقدمة علي عبدالرازق لكتاب « من آثار مصطفى عبدالرازق » ص ٤٩ .

(٥) ملف خدمة الشيخ مصطفى ، المصدر السابق .

(٦) وقد طبعت ترجمة رسالة التوحيد في باريس عام ١٩٢٥ ، أما رسائل مصطفى ومقالاته في صحيفة الجريدة فكانت من ٢ مايو حتى ٢٧ أغسطس ١٩١٤ ، وتضم مذكرات الشيخ حسان الغزاري ، وهي شخصية خيالية يلقي الكاتب عليها بعضاً من ظلال شخصيته هو ، وكان يوقع مقالاته بتوقيع : طالب مصري بأوربا .

(٧) علي عبدالرازق ، مقدمته لكتاب من آثار مصطفى . . ، ص ٥١ .

(٨) عن جماعة السفور راجع ، محمود عزمي : خبايا سياسية ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٤٠ - ٤١ ، محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٩) السفور مجلة اجتماعية نقدية أدبية أسبوعية وقد كتب مصطفى منذ أول أعدادها في ٢١ مايو ١٩١٥ وكانت آخر مقالاته بها في العدد ٣٦ في ٢٧ ديسمبر ١٩١٧ .

(١٠) السفور في ١١ يونيو ١٩١٥ مقال (نقد السفور) .

(١١) السياسة في ٦ أغسطس ١٩٢٣ مقال (السلطان حسين كامل بمناسبة ذكرى وفاته) .

(١٢) علي عبدالرازق ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(١٣) مصطفى عبدالرازق : مقدمته لترجمة كتاب تشارلز آدمس « الاسلام والتجديد في مصر » ترجمة عباس محمود ، القاهرة ١٩٣٥ .

(١٤) أحمد زكريا الشِّلق : حزب الأحرار الدستوريين ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٣٦ .

(١٥) محمد زكي عبدالقادر : أقدام على الطريق ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٢٣ .

(١٦) راجع ، السياسة ، اعداد ٢١٩ ـ ٢٢٤ في ١١ ـ ١٧ يوليو ١٩٢٣ م مقالاته الافتتاحية عن محمد عبده وكذلك العددين ١٢٣ ، ١٢٤ في ٢١ ـ ٢٢ مارس ١٩٢٣ ، نص محاضرته عن الفيلسوف رينان وجمال الدين الأفغاني .

(١٧) ابراهيم بيومي مدكور : مع الأيام ، شيء من الذكريات ، كتاب الهلال القاهرة اكتوبر ١٩٩٠ ، ص ١١٧ .

(١٨) يونان لبيب رزق : تاريخ الوزارات المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٤٠٧ وما بعدها .

(١٩) ابراهيم بيومي مدكور : المصدر السابق ، ص ١١٧ ـ ١١٨ وكان المؤلف عضواً بالشيوخ عندما عرض عليه مشروع القانون وذكر أنه لم يقره « لأنني كنت أرفض التعديلات القانونية المصنوعة التي تدفع إليها غايات خاصة » .

(٢٠) راجع تقديم طه حسين لكتاب « من آثار مصطفى عبدالرازق » .

(٢١) انظر محمد عبدالغني حسن : الشيخ الامام مصطفى عبدالرازق بين الأدب والشعر والنقد ، مجلة الثقافة مارس ١٩٨٢ ص ١٤ .

(٢٢) يحيى حقي : فجر القصة المصرية ، المؤلفات الكاملة (٢) ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥ ، ص ١٨٠ وله دراسة قيمة عن مذكرات الشيخ الغزاري لمصطفى عبدالرازق حيث يعتبرها لوحات قلمية ساهمت في بذر بذور القصة القصيرة في مصر ، ص ١٨١ .

(٢٣) الجريدة في ٢ مايو ١٩١٤ نقلاً عن (مذكرات الشيخ حسان الغزاري) وهو الاسم الذي استعاره .

(٢٤) من آثار مصطفى عبدالرازق ، ص ١٩٩ ، ص ٢٠٢ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ .

(٢٧) من خطبة مصطفى عبدالرازق في حفل الرابطة الشرقية ، السياسة ٢٠ مارس ١٩٢٥ .

(٢٨) السياسة ٢٦ أغسطس ١٩٢٤ .

(٢٩) من آثار مصطفى ، ص ٣٢٠ ، ٤٣٦ .

(٣٠) السياسة ١١ اكتوبر ١٩٢٥ .

(٣١) السياسة ٧ ، ١٤ فبراير ، ٧ مارس ١٩٢٥ .

(٣٢) من آثار مصطفى عبدالرازق ، ص ٤٢٢ ، ٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

(٣٣) السفور في ١٦ يوليو ١٩١٥ .

(٣٤) من آثار مصطفى ، ص ٩١ ـ ٩٣ .

(٣٥) السفور في ٧ يناير ١٩١٦ .

(٣٦) من آثار مصطفى ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ، ٩٤ ، ١١١ ـ ١١٣ .

(٣٧) السفور في ١٠ ديسمبر ١٩١٥ .

(٣٨) السفور في ٢٣ يونيو ١٩١٦ .

(٣٩) نفس المصدر .

(٤٠) من آثار مصطفى ص ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٤١) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٤٢) السياسة في ٧ فبراير ١٩٢٦ .

(٤٣) من آثار مصطفى ، ص ١٠٣ ، ٢٥٩ .

(٤٤) المصدر السابق ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٤٥) السياسة ٢٨ سبتمبر ١٩٢٥ ، من آثار مصطفى ص ٤٣٠ .

(٤٦) وكان الشيخ علي قد ألقى السلام على أعضاء هيئة كبار العلماء عندما دخل قاعة المحاكمة فلم يجبه أحد منهم ، انظر وصف جلسة المحاكمة بنصه في « السياسة » ١٣ أغسطس ١٩٢٥ .

(٤٧) وتنص مادة هذا القانون الصادر في ١٣ مايو عام ١٩١١ على أنه إذا وقع من أحد العلماء أياً كانت وظيفته أو مهنته مالايناسب وصف العالمية ، يحكم عليه شيخ الجامع الأزهر باجماع تسعة عشر عالماً من هيئة كبار العلماء . . باخراجه من زمرة العلماء ، ولا يقبل الطعن في هذا الحكم ويترتب عليه محو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى وطرده من وظيفته وقطع مرتباته في أية جهة كانت وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية دينية كانت أو غير دينية » راجع كتاب أحمد محمد حسين وآخر (جمع وترتيب) : مجموعة القوانين واللوائح المعمول بها في مصر ، الجزء الأول ، القاهرة يونيو ١٩٢٦ ، ص ٥٧ .

(٤٨) من آثار مصطفى ، ص ٤٤٩ .

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ .

(٥٠) المصدر السابق ، ص ٤٤٦ .

(٥١) المصدر السابق ص ٤٦٧ .

(٥٢) يقصد الفتوى الترنسفالية ، التي أفتى فيها الامام محمد عبده عام ١٩٠٤ م بجواز لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج عن الاسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفراً . وإذا كان اللبس لحاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك « راجع محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام ، جـ ١ ، ص ٦٧٦ وما بعدها .

(٥٣) من آثار مصطفى ص ٤٧٤ ـ ٤٧٦ ، السياسة ٣٠ مارس ١٩٢٦ .

(٥٤) نفس المصدر .

(٥٥) المصدر السابق ، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ ، السياسة ٧ يوليو ١٩٢٦ .

(٥٦) المصدر السابق ، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢ ، السياسة ٢٠ مارس ١٩٢٧ .

(٥٧) مصطفى عبدالرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٥٨) علي عبدالفتاح : المفكر الاسلامي المعاصر مصطفى عبدالرازق ، دار المعارف بمصر ١٩٨٥ ، ص ٧٧ .

(٥٩) تشارلز آدمس : الاسلام والتجديد في مصر ، ص ٢٤٦ ،

(٦٠) مقدمة طه حسن لكتاب « من آثار مصطفى » .

(٦١) مصطفى عبدالرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٢١٧ ـ ٢٣٢ .

(٦٢) من آثار مصطفى ، ص ١٢٥ .

(٦٣) نفس المصدر ، ص ١٢٦ .

(٦٤) محمد عاطف العراقي : مصطفى عبدالرازق ودوره في الفكر الفلسفي ، مجلة الثقافة مارس ١٩٨٢ ص ٢٣ ـ ٢٤ . وراجع كتاب مصطفى « فيلسوف العرب والمعلم الثاني » دار احياء الكتب العربية ١٩٤٥ .

(٦٥) ابراهيم بيومي مدكور : مصطفى عبدالرازق رئيس مدرسة ، مقال بكتاب المجلس الأعلى للثقافة « الشيخ الأكبر مصطفى عبدالرازق » الصادر بالقاهرة ١٩٨٢ ، ص ٩ ـ ١٠١ .

(٦٦) مصطفى عبدالرازق : تمهيد ، ص ٢٧ .

(٦٧) المصدر السابق ، ص ١٠٥ وراجع توفيق الطويل « شيخنا الأكبر أستاذاً للفلسفة الاسلامية » بكتاب المجلس الأعلى للثقافة ، ص ١٨ ـ ٢٢ .

(٦٨) علي عبدالفتاح : المفكر الاسلامي ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٦٩) مصطفى عبدالرازق : تمهيد ، ص ١٢٢ .

(٧٠) توفيق الطويل : شيخنا الأكبر أستاذاً للفلسفة الاسلامية ، ص ١٨ ـ ٢٢ من كتاب المجلس الأعلى للثقافة .

(٧١) أبو الوفا التفتازاني : مدرسة مصطفى عبدالرازق ص ٤٩ بكتاب المجلس الأعلى للثقافة .

(٧٢) توفيق الطويل ، المرجع السابق ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٧٣) مصطفى عبدالرازق ، تمهيد . . ص ٢٥ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٧٥) ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، ترجمة كريم عزقول ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(٧٦) ملف خدمته بدار المحفوظات العمومية ، رقم ٢٥٧ ، مسلسل ٥٦٣٤٢ ، محفظة ١/١٩١/٥٤٦٥ .

(٧٧) يروي محمد مصطفى حلمي أنه وزملاءه كانوا يتلقون محاضرات الفلسفة على يد أستاذ من السوربون هو أميل برييه ثم تعاقب عليهم لالاندوربي وأسرتييه وروجيه وبوابيه ، إلا أن طه حسين أبى إلا أن يدرس الفلسفة الاسلامية أستاذ مصري مسلم فعين لها الشيخ مصطفى عبدالرازق (عن مقال التفتازاني السابق ذكره ، ص ٤٠) .

(٧٨) ابراهيم بيومي مدكور : مصطفى عبدالرازق رئيس مدرسة ، مقال بكتاب المجلس الأعلى للثقافة ، ص ١٠ وقد نشرت دار الشعب دراسته مع ماسينيون عام ١٩٧٩ بدائرة المعارف الاسلامية .

(٧٩) ابراهيم بيومي مدكور : مع الأيام ، شيء من الذكريات ص ١١٧ ـ ١١٨ .

(٨٠) علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، جـ ١ ، ط (٧) دار المعارف بمصر ، ص ٢٤ ـ ويذكر التفتازاني (في مقاله السابق ص ٥٠) عن مدرسة الشيخ مصطفى أن عثمان أمين اتجه إلى دراسة محمد عبده وأثره في حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية ، ومحمود الخضيري وعبدالهادي أبو ريده اللذين اتجها إلى علم الكلام ، ومحمد مصطفى حلمي وتوفيق الطويل اللذين اتجها إلى دراسة التصوف وشخصياته ، وأحمد فؤاد الأهواني الذي اتجه إلى دراسة التربية عند المسلمين ، وعبدالعزيز عزت الذي درس ابن مسكوية وآراءه الاخلاقية ، وعلي سامي النشار الذي عنى بدراسة مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، وكثير غيرهم .

أساسيات في
منهج دراسة دورة الحياة

د. نبيل صبحي حنا
أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

مقدمة :

المطالع للتراث البحثي في مجال دراسة الثقافة سوف يجد اهتماماً متزايداً على الساحة العلمية بدورة الحياة ، خاصة بعد أن نشطت حركة الدراسات الفولكلورية في المنطقة العربية بصفة عامة .

وقد تمثل هذا الاهتمام في تزايد أعداد الكتاب في موضوعات دورة الحياة ، وفي اجراء البحوث ، أو في تسجيل رسائل الماجستير والدكتوراه حيث تتخصص الرسالة في دراسة جزئية أو ظاهرة من الظواهر التي تذخر بها دورة الحياة . كذلك هناك من حاولوا الاسهام في صياغة وتحديد وتنقيح الأساليب المنهجية والأدوات التي تجمع بها البيانات وتصنف وتحلل كما سنذكر فيما بعد .

ولا عجب في تزايد هذا الاهتمام فدراسة دورة الحياة ـ كما يتضح من تسميتها ـ هي ذلك الاطار الذي يحوي ممارسات الناس من الميلاد إلى الوفاة ، فدورة الحياة ظاهرة اجتماعية ثقافية ترتبط بعوامل بيولوجية وتتمتع بقدر من العمومية لاتنافسها فيها ظواهر أخرى عديدة .

من هذا المنطلق ، وادراكاً لهذه الأهمية ، أقدم هذا الجهد المتواضع الذي حاولت فيه توضيح آفاق وأبعاد المنهج في دراسة هذا الموضوع بدءاً من التفكير في الباحث وموقعه من المجتمع الذي يدرسه إلى القدرات التي يجب أن يكتسبها ، والأدوات التي يستخدمها لكي يجمع المعلومة ، ثم كيف يفسرها ويحللها ويقارن

بينها للوصول إلى التعميمات ، ثم التنبؤ بمستقبل الظاهرة . وقد أوليت اهتماماً خاصة لموضوع « الدليل » الذي شاع استخدامه كأداة رئيسية لجمع البيانات .

وناقشت بصورة مستقلة أيضاً فكرة وجود لهجات محلية متنوعة . كيف يتعامل معها الباحث في مرحلة العمل الميداني لجمع المادة ومرحلة التدوين وكتابة التقرير النهائي للبحث ؟

ونظراً لأن التغيرات قد لحقت حتى تلك المناطق التقليدية ، فقد خصصت جزءاً مستقلاً لايضاح ضرورة أخذ التغيرات في الاعتبار عند دراسة دورة الحياة ، وقدمت أمثلة لحدوث تغيرات تكنولوجية وتغيرات في بنية المجتمع وأثرها على تغير ظواهر ثقافية في دورة الحياة .

أما القسم الرابع فقد ناقشت فيه الروافد العلمية التي لاغنى للباحث عن التزود منها عند دراسته لظواهر دورة الحياة ، وهي علم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس وعلوم الطب والصحة .

واختتمت هذا الجهد بثلاثة نقاط محورية هي :

- توجيه الباحث لكي يكون واعياً بجدوى دراسة دورة الحياة .
- التوسع في بحوث المستقبل لكي لاتقتصر دراسات دورة الحياة على مجرد العادات والتقاليد .
- توجيه الانتباه إلى امكانيات وضرورة التفكير في كيفية انتفاع المجتمع من نتائج هذه البحوث .

أرجو أن أكون قد قدمت شيئاً بسيطاً متواضعاً كاسهام في مجال دراسات دورة الحياة .

وفقنا الله ،،،

د. نبيل صبحي حنا

المحتويات

رابعاً : روافد المعرفة اللازمة لدراسة دورة الحياة :

- المفاهيم والتوجهات السائدة في الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع .
- معطيات علم النفس .
- المعلومات الطبية والصحية .

خامساً : خاتمة وتطلعات :

- لماذا البحوث في دورة الحياة ؟
- بحوث المستقبل ، هل هي عادات وتقاليد ؟
- الجدوى العلمية اضافة إلى التسجيل الثقافي .

- المراجع .

أولاً
الباحث وأدواته ومنهجه

- الباحث : الانتماء والقدرات .
- الأدوات والمنهج : مسألة الأدوات (الجمع بين أكثر من أداة ، المرونة في استخدام الأدوات) ، ضرورة التفسير ، المقارنة والتعميمات ، التنبؤ .
- الدليل .

الباحث
الانتماء والقدرات

الانتماء :

المسألة الجديرة بالمناقشة في أداء العمل الميداني لجمع مادة عن دورة الحياة هي انتماءات الباحث أو الجامع الميداني ، هل هو/ أو هي من أبناء الوطن ، وهل هو/ أو هي غرباء عن الثقافة . ان كل موقف من الموقفين له مميزاته وعيوبه . فالباحث ابن الثقافة يمكن أن يكون مدخله سهلاً إلى دراسة الجماعة ، ويمكن ألا يتحمل عناء الحاجة إلى ترجمة الكلمات والمفاهيم المحلية المستخدمة مثل الباحث الخارجي عن المجتمع وهو قادر أيضاً على فهم الخلفية الثقافية أو الوعاء الثقافي الاجتماعي الذي يحدث فيه الفعل أو توجد به الظاهرة التي يدرسها .

ولكنه أيضاً عرضة لأن يعتبر بعض الظواهر « عادية » لأن الظواهر التي يدرسها تعتبر هي الحياة التي يعيشها فيمكن أن تمر عليه دون التفات قوي مثل الباحث الغريب الذي يلفت انتباهه كل صغيرة وكبيرة[1] .

ونحن في حاجة دائماً أن نذكر أنفسنا ونحن نعمل في الميدان بأن الأخطاء التي يقع فيها **والصعوبات التي يواجهها أبناء المنطقة** يجب الحذر منها دائماً ، كما أن المشكلات التي تواجه الباحث الغريب مثل صعوبة تحقيق قبوله في المجتمع وطريقة تقديم نفسه وشرح مهمته بنجاح بطريقة تضمن تجاوب المجتمع هي كلها مسائل يجب أن تراعى في البحث الميداني . وبصفة عامة نحن في حاجة إلى تعاون الباحث ابن المنطقة مع الباحث الخارجي في أي بحث يجرى .

وسواء كان الباحث من أبناء المنطقة أو كان غريباً فعليه أن يتجنب خطأ **التمركز حول السلالة** ethnocentrism بمعنى ألا ينظر إلى الظواهر والأشياء وأنماط

السلوك السائدة في الثقافة التي ينتمي إليها كما لو كانت هي محور الثقافات أو هي الثقافة الرئيسية التي يقاس عليها كل ما يوجد في ثقافات أخرى ، فكل أبناء ثقافة ينظرون إلى ثقافتهم على أنها الثقافة الصحيحة ، وإلى مقدساتهم كما لو كانت هي المقدسات الوحيدة وإلى أسلوب حياتهم وطرق سلوكهم كما لو كانت هي التي يجب أن تحتذى . ويؤدي هذا الأمر إلى أن يبالغ أبناء كل ثقافة في اظهار ما يميزهم عن غيرهم[٢] .

القـــدرات :

من الطبيعي أنه يصعب حصر القدرات التي يجب توفرها في الباحث في هذا المجـال . ولكن هناك عدة قدرات أساسية يمكن أن تقدم كنماذج لما يجب أن يملك الباحث ناحيته :

أ ـ اكتساب القدرة المهنية في العمل الثقافي :

وهي تلك القـدرات التي يجب أن يكتسبهـا البـاحث بالمعـرفة والمران لكي يستطيع أن يكون متمكناً في اجراء البحث ، وهي تكتسب بالجمع بين المعرفة النظرية والممارسة الميدانية معاً .

ب ـ الخبرات الشخصية :

فهو لن يستطيع أن يصبح باحثاً جيداً ، إلا إذا اكتسبت الخبرة الشخصية من العمـل الميداني الـذي يقـوم به بنفسه ، سواء تحت إشراف آخرين أو بصورة مستقلة ، وكلما زادت كثافة الطلعات الحقلية كلما تعمقت الخبرة .

جـ ـ الالتزام بتقاليد العمل في العلم « العلمية » :

بمعنى أن يكـون عالمـاً ، يلتـزم بالمنهج العلمي ، ويعي أغراض الدراسة

العلمية ، ويصدر تقريره النهائي في شكل علمي ويلتزم بأخلاقيات العمل العلمي .

د ـ الأصالة في التعبير :

لابد أن ينمي الباحث قدراته التعبيرية ، فإذا كان الباحث ملاحظاً جيداً ، وإذا أجاد استخدام طرق البحث المتعارف عليها في التخصص وإذا كان جيد الفهم قوي التحليل لكنه غير متمكن من القدرة على التعبير فلن يستطيع صياغة خبراتـه ولن يتمكن من توصيلهـا للنـاس . بل أن ذلـك يمكن أن يؤدي إلى التشكيك في قدراته بصفة عامة لأن عدم القدرة على التعبير قد تضعف المعاني التي يتحدث عنها وتشوهها .

وتنمو وتتحسن القدرة على التعبير بالمران وتلقي الارشاد والتوجيه وبمراجعة ما يقوله وما يكتبه عن طريق من سبقوه في الخبرة[٣] .

الأدوات والمنهج
مسألة الأدوات

أدوات جمع البيانات هي الوسائل التي ستمكن الباحث من جمع مادة وفيرة أو قاصرة . لهذا فإن عنـاية خاصـة يجب أن يوجهها الباحث إلى الأدوات وطرق استخدامها . وينصح الباحث بما يأتي :

١ ـ الجمع بين أكثر من وسيلة لجمع المادة الميدانية :

يصعب أن نتصـور أن وسيلة واحـدة كافية لجمـع المـادة الميدانية عن دورة الحياة ، ويرجع هذا إلى التنوع الشديد الخصب في المادة المتعلقة بها الأمر الذي لايجعل جمع المادة يمكن أن يتم بكفاءة عالية باستخدام أسلوب واحد ، فهناك

العادات وهناك التقاليد ، وهناك أيضاً المعتقدات ، وكلها تحتاج إلى طرق مباشرة وغير مباشرة للجمع والتحليل .

بالاضافة إلى ذلك فإن المادة التي نجمعها بطريقة من الطرق لابد أن نتأكد من صدقها باستخدام طريقة أو أداة أخرى . ذلك أن الهدف ليس جمع مادة ميدانية فقط وانما الهدف أيضاً أن تكون هذه المادة صادقة .

وتتضح أهمية ذلك نظراً لأن هناك العديد من التفاصيل المغايرة التي تروى من الناس عند سؤالهم عن ممارسة واحدة تتعلق بحدث من أحداث دورة الحياة الأمر الذي يحتاج إلى اعادة التأكد من أن ما ذكر من اختلاف يرجع إلى التنوع والتعدد في أشكال الظاهرة أكثر مما يرجع إلى زيف أو عدم دراية من المبحوث .

٢ ـ المرونة في استخدام وتطوير أدوات البحث وأساليب جمع البيانات :

ذلك أن بعض الأدوات والأساليب التقليدية لم تعد صالحة أبداً أن تطبق كما كانت تطبق في فترة سابقة . كما أن ما يصلح للتطبيق منها في دراسة جماعة معينة قد يصلح لا غير في دراسة جماعة أخرى . كذلك فإن الطريقة المباشرة في القاء الأسئلة وتلقي الاجابات قد تصلح لجمع بعض أنواع المادة أو التساؤل عن بعض جوانب دورة الحياة بينما الطرق غير المباشرة لاغنى عنها ولا بديل لها للحصول على أنواع أخرى من المادة ، أو عند التساؤل عن جوانب أخرى من دورة الحياة .
بل الأكثر من ذلك أن كل باحث لابد أن يطور أساليب ليست جديدة تماماً انما مطورة في العمل الميداني ، والواقع أن كل باحث جاد مهتم يندمع في الواقع المعاش ويحاول جمع مادة تفصيلية من واقع وعي بطابع وحياة الجماعة ، سوف يجد نفسه قد أقدم على تطوير الأداة التي يستخدمها لجمع المادة وربما يستحدث الجديد .

لذلك فإن الملاحظات التي تكتب حول البعد المنهجي في البحث من حيث الاعداد للبحث ، والتهيئة لنزول الميدان ، ثم العمل مع الأخباريين

ومشكلاته ، بالاضافة إلى توضيح كيفية التغلب على هذه المشكلات وعلى صعوبات العمل الميداني : مثل كيفية مواجهة الباحث تشكك الناس في مقاصده أو محاولاتهم التخلص من أسئلة . . . هذه كلها ذات قيمة لاتقل أبداً عن المادة قيمة التي تم جمعها عن دورة الحياة ذاتها . . . فهي التي تلقي الضوء على صدق وقيمة المعلومات ، وهي أيضاً تفيد بذاتها في ترشيد الاجراءات المنهجية في بحوث تالية حول نفس الموضوع .

ضرورة التفسير

لم يعد الوقت ملائماً الآن في ظل تقدم علوم دراسة الثقافة ، وفي ظل الضرورة الملحة لأن يكون علم الثقافة له جدواه الواضحة أن نقتصر على الوصف ونهمل المعنى والسبب والأبعاد خاصة بالنسبة لتلك الظواهر التي يظن الناس أنها « غرائب » في حياة الشعوب . واذا كنا يمكن أن ندين من كتبوا عن ثقافات الشعوب تحت عناوين - اعتقدوا أنها جذابة - تشير إلى الغرابة ، فإن الباحث الذي لايقدم التفسير يعطي للقارىء فرصة أن ينظر للظواهر على أنها غرائب .

ويلاحظ أن فهم الاطار الاجتماعي للسلوك الثقافي (العادات والتقاليد مثلاً) يساعد على التفسير الصحيح ، كما أن التفسير الصحيح لابد وأن يلقي مزيداً من الضوء على الواقع الاجتماعي .

وتبرز أمامنا قضية هامة لابد أن يكون الباحث الذي يقدم التفسير على وعي بها وهي **قضية العلاقة بين المعنى الذي يخلعه الباحث الانثروبولوجي على الظواهر والممارسات وبين المعنى الذي يدركه من يمارسون العادات والتقاليد وغيرها** . فقد اتضح أن بعض الانثروبولوجيين قدموا تفسيرات لأفعال الناس واتضح بعد ذلك أنها غير ملائمة . وترجع صعوبة تقديم تفسيرات للممارسات إلى أمرين :

أولاً : ليست هناك في الواقع مجموعة معان متكاملة يتفق عليها أبناء أي جماعة بالنسبة للممارسات والشعائر التي يمارسونها .

ثانياً : أن بعض معاني الممارسات تكون معلنة وصريحة وواضحة ، بينما معان أخرى عديدة تكون مخفاة وتحتاج إلى أساليب عميقة غير مباشرة للتعرف عليها .

ولكي يتوصل الباحث إلى المعنى الحقيقي للفعل عليه أن يتبع ما يأتي :

أ - أن يبحث عن توزيع المعرفة (معرفة المعنى) لدى الناس ، وأن يبحث عن كيفية تقنينها والميكانزمات المتضمنة في ذلك .

ب - أن يتساءل عن أسباب تجنب الناس لتفسير الظواهر في بعض الأحيان[٤]

جـ - أن يجتهد لكي يعرف كيف يستطيع كملاحظ أن يرى بطريقة أكثر عمقاً . فهو كملاحظ خارجي قد يكون أكثر قدرة على رؤية معاني الأشياء عما يستطيع القائمون بالفعل .

وأود أن أشير إلى أنه إذا لم يستطع الباحث الانثروبولوجي التحقق من صدق المعاني التي يعزوها لأفعال وممارسات الناس بطريقة واضحة تمكن الغير من اعادة التأكد مرة أخرى متى أرادوا فلن يكون تفسيره للظاهرة أو للفعل أكثر من مجرد نتاج لخياله الخصب ، ولكنه لايعبر مطلقاً عن الواقع[٥] .

المقارنة والتعميمات

نظراً أنه كثرت دراسات دورة الحياة في مجتمعات عربية عديدة ، وقد ظهرت نتائجها ونشرت وأصبحت في متناول الجميع فقد أصبحت هناك ضرورة لقيام دراسات مقارنة تعتمد على المادة التي تم جمعها من أكثر من مجتمع ، بحيث تتم المقارنة مثلاً بين عادات الميلاد في مجتمعات متشابهة أو في مجموعة قرى تم جمع المادة منها .

ويرتبط بذلـك مبـاشرة ضرورة التفكير في الوصول إلى تعميمات من خلال الدراسات التي أجريت ، وغني عن التعريف أن أحد أهداف الدراسات العلمية الوصول إلى تعميمات من خلال دراسة الحالات الفردية والواقعية .

ويجب ألا ننكـر أو نتجـاهل أن هناك صعوبة في الوصول إلى تعميمات في الـظواهـر المتعلقة بدورة الحياة ، نظراً للتعدد والتنوع غير القابل للاحصاء ، للظواهر والممارسات الخاصة بكل مناسبة من المناسبات . فهناك مئات الآلاف من الاجراءات ونماذج السلوك النوعية الخاصة بمناسبة معينة مثل الختان وغيره من الـظواهـر . ويلاحظ أن هذا التنوع لايوجد بين الظواهر السائدة في مجتمعات متبـاينة ، بل أنه يوجد داخل المجتمع الواحد ، خاصة تلك المجتمعات التي تتصف بالاتساع والكثافة وتعدد الجماعات المكونة للمجتمع .

وسوف نأخذ مثالاً واحداً وهو « احتفالات ومراسيم الزواج » . لكي نوضح كيف تتنوع الممارسات التي تتعلق بها ، ثم نرى كيف ندرسها .

تعد مراسيم واحتفالات واجراءات الزفاف شديدة التباين من مجتمع لآخر ـ كما سبق وذكرنا ـ وهي تتضمن في نفس الوقت جزئيات عديدة يمكن تتبع بعضها بسهولة ، لكن تتبع البعض الآخر يبدو أنه أمراً يحتاج إلى مجهود كبير .

وتكمن الصعوبة في دراسة وممارسات الزواج وتحليلها والوصول إلى تعميمات أيضاً في تحديد وتعريف الزواج لا يتم في كثير من المجتمعات بالاشارة إلى حدث واحد ، أو عندما يتم اجراء زواجي معين سواء كان الاجراء شعائرياً أو اقتصادياً أو . . . . . الخ . فالزواج عبارة عن بناء يتم تأسيسه ببطء عن طريق عمليات عديدة من التراكم المادي والحقوق والالتزامات والشعائر والطقوس وما إلى ذلك[٦] .

لهذا يحتاج الباحث دائماً أن يكون دقيق الملاحظة فيتعرف على ما يستطيع من العنـاصر الجـزئيـة المكـونـة للحدث الثقافي ، مع الاحتفاظ بالصورة الشاملة

والقـدرة على النـظرة الكليـة التي لاتفصـل الأجزاء عن سياقها الطبيعي وعن ارتباطها ودورانها في الفلك العام للمناسبة أو الاحتفال لكي يستطيع أن يقدم تحليلاً عميقاً صادقاً وصورة واضحة تمكن من المقارنة والوصول إلى تعميمات .

التنبـــؤ

الامتداد بطموح الباحث في دورة الحياة إلى أن يستطيع التنبؤ بمستقبل الظواهر التي يدرسهـا أصبـح ضرورة أيضاً . فنحن أحياناً نصف عادات وتقاليد دورة الحياة في الوقت الحاضر ، وقد نشير إلى الصور التقليدية ، لكننا نادراً ما نحاول أن نشير إلى المستقبل .

ربما كان للباحث عذره في الماضي أما الآن فتراث علم الاجتماع يمدنا بعون كبـير لكي نستـطيع أن نتعـرف على كيفية التنبؤ بمستقبل الظواهر الاجتماعية والثقافية . والعمل العلمي عادة تكتمل أركانه إذا استطاع أن يدرس الظاهرة بمنهج ملائم وأن يحدد القوانين التي تتحكم في وجودها على نحو ما ، ثم يؤدي إلى تنبؤ مناسب بمستقبل الظاهرة .

- ولابد أن نذكر أيضاً أن الدراية بالواقع الاجتماعي والوعي بالتطور التاريخي للظواهر موضوع الدراسة (في هذه الحالة ظواهر دورة الحياة » هو السبيل إلى تنبؤ صادق .

الدليـــل

يعتبر دليل الجمع الميداني من بين أبرز الوسائل التي يستخدم لجمع المادة في موضـوعـات ثقـافية عديدة . وقد درج الباحثون على اعداد واستخدام الدليل بكثافة في المنطقة العربية حتى أنه أصبح أحد الأدوات الرئيسية في جمع المادة الحقلية(٧) .

أما بالنسبة لدورة الحياة (خاصة عادات وتقاليد دورة الحياة) فقد كانت من أهم الموضوعات التي طبق فيها الدليل كأداة للجمع[٨] . وهذا هو السبب في أننا سوف نشير إلى بعض الملاحظات التي يجب أن يكون الباحث على وعي بها في استخدام الدليل .

وأهم هذه الملاحظات ما يأتي :

١ - **أن الدليل الذي أعد لجمع مادة عن دورة الحياة عن طريق باحث معين من مجتمع ما في زمن سابق يجب أن يعاد النظر فيه حين نود استخدامه مرة أخرى** ، أو للتطبيق عن طريق باحث آخر . وعلى ذلك فإن تعديل الدليل يجب أن يتم في ثلاثة حالات :

أ - عند اعادة استخدامه لدراسة نفس الجماعة في زمن تال .
ب - عند اعادة استخدامه لدراسة جماعة أخرى .
جـ - عند اعادة استخدامه عن طريق باحث آخر غير الذي أعده .

وعلى ذلك لايجب أن يسر أي باحث بأن يجد دليلاً معداً يستخدمه دون أن يبذل أي جهد ، ودون أن يعيش معاناة « توليد » الأسئلة - إذا جاز لنا أن نسميها كذلك - . ولا يجب أن تجعل صعوبة صياغة الأسئلة الباحث يتراجع عن أن يشتمل الدليل الذي يستخدمه على أسئلة قام بصياغتها بنفسه . حقيقي أنه لا مانع من استعارة أسئلة من دليل آخر غير الباحث الذي سيطبقه ، لكن لابد أن يكون محتوياً على جهده الشخصي اضافة لما يستعيره من صياغات أخرى .

٢ - يرتبط بالنقطة الأولى أن **هناك ثلاثة أبعاد يجب أن يراعيها الباحث عند اعداده للدليل أو استخدامه لأدلة أخرى وهي :**
أ - التغيرات التي تحدث للجماعة عبر الزمن في عناصر الثقافة (التغيرات بسبب عوامل تاريخية) .
ب - أثر التنوعات الأقليمية على اختلاف عناصر الثقافة .

جـ - أثر تنوع الجماعات البشرية ذاتها من حيث الانتماءات القبلية أو من حيث انقسامها إلى جماعات ريفية وحضرية وبدوية على تنوع العناصر الثقافية .

تتطلب هذه التنوعات المجتمعة خصوصية في اعداد الدليل لكي يكون أكثر ملائمة للجماعة التي يطبق عليها ، وتكون نتائجه نافعة .

٣ - **يتطلب اعداد الدليل خبرة ميدانية سابقة - وان لم يكن ضرورياً أن تكون خبرة مكثفة** . ذلك أن صياغة الأسئلة سوف تكون سهلة وملائمة اذا كان الباحث على دراية بالواقع الذي يعيشه ويحتاج أن يدرسه .

وعلى ذلك فان **الدليل عبارة عن حلقة بين عملين من نفس النوع لكن يختلف كل منهما عن الآخر في الكثافة** . فالدليل يسبقه العمل الميداني ويعقبه أيضاً العمل الميداني . والعمل الميداني في المرحلة الأولى يساعد على « ولادة » الدليل ، ثم يقوم الدليل بدورة في المساعدة على توليد الكثير من المعلومات بسبب أن النقاط التي يرشد إلى البحث عنها سوف تكون عديدة ومتنوعة .

٤ - **أن الدليل أداة نعدها لنستخدمها أكثر منها أداة نخضع لها خضوعاً تاماً وتتسلط علينا** . فوظيفة الدليل تنظيم جمع مادة مكثفة صادقة ولكن ان لم يخدم هذا الغرض فيجب تعديله .

ولعل من أبلغ الارشادات التي تفيد في هذا الموضوع ما ذكره كل من الدكتور/ محمد الجوهري والدكتور/ عبد الله الخريجي عن دليل العمل الميداني كموجة للملاحظة . فهما يقولان : « ان أسئلة ذلك الدليل عبارة عن نوتة عمل لتفتيح الموضوع في ذهن الجامع وليست ملزمة بنصها . كما أنها ليست جامعة مانعة إذ أن له أن يضيف معالجة كل النقط الجديدة التي يرى اضافتها ولم يرد ذكر لها في الدليل . . . ويفيد أعظم الفائدة لو أنه تناول نفس النقطة المسئول عنها من أبعاد ووجهات نظر مختلفة[٩] .

الخلاصـــــة :

أن الباحث هو الذي يصنع الدليل ، وهو الذي يجب أن يعدله وقت أن يرى لذلـك ضرورة ، وأن يستغن عنـه تماماً أو يستبدله بأداة أخرى إذا كان عديم الفائدة أو فائدته محدودة . وبهذا يمكن أن يكون الدليل خادماً مطيعاً أميناً . . . هذا إذا كان الباحث واعياً متيقظاً يدرك **القيمة المحدودة للأدوات الجامدة والقيمة العالية لعقله** . أما بالنسبة للباحث الذي لايتمتع بذلك فسوف يصبح الدليل سيداً مسيطراً يخاف الباحث منه ويخضع له فلا يجني منه إلا أقل الفوائد .

ثانياً
اللهجة المحلية

- مرحلة اعداد الباحث للعمل الحقلي وجمع المادة .
- مرحلة التدوين .

اللهجة المحلية

أصبح المجتمع الحديث هو مجتمع تعدد اللغات واللهجات حتى داخل الوطن الـواحـد . ويرجـع ذلـك إلى عمليات الهجـرة وكثافة الاتصال بين الجماعات البشرية . لقد أدت كثافة الهجرة وتنقل الانسان إلى أن يضم كل مجتمع جماعات تتكلم لهجات محلية متنوعة ، كما أدت كثافة الاتصال والاحتكاك بالمجتمعات الخارجية إلى تغير بعض جوانب التراث اللغوي لدى الأجيال الحديثة عن الأجيال القديمة خاصة بالنسبة للجماعات التي عاشت فترات طويلة في شبه عزلة .

وتعـد قضية استخدام اللهجة المحلية في اجراء البحوث الثقافية على درجة هامة من الحيوية إلى الحد الذي تحتاج فيه إلى مناقشة قبل اجراء البحث .

ويقصد باستخدام اللهجة المحلية ما يأتي :

الأول : أن يستطيع الباحث التحدث بنفس اللهجة السائدة في المجتمع المحلي الذي يدرسه .

الثاني : أن يستطيع التعرف على الكلمات والأسماء والمفردات المحلية المستخدمة للتعبير عن الأشياء .

والهـدف من ذلـك أن يتمكن البـاحث فهم ما يقـوله الناس وأن يكلمهم فيفهمونه ، وأن يشرح المعاني ويفسرها حينما تأتي مرحلة التدوين واعداد التقرير النهائي للبحث .

ولاجدال أن استخدام اللهجة المحلية بالمعنى الأول ، أي أن يتدرب الباحث على التحدث باللهجة المحلية لا خلاف على فائدته وجدواه ، ولا يحتاج إلى شرح وتفصيل ، أمـا الذي سوف نخوض في مناقشته وايضاحه هنا هو المعنى الثاني المرتبط بالمسميات والكلمات المحلية المعبرة عن الأشياء والظواهر .

وسوف نوضح ذلك فيما يتعلق بجانبين :

أ - اعداد الباحث الميداني وقيامه بعملية الجمع الحقلي .
ب - في التدوين وكتابة التقرير النهائي للبحث .

أ - مرحلة اعداد الباحث وقيامه بالجمع الحقلي :

* في المرحلة التي يعد فيها الباحث نفسه لاجراء دراسة عن موضوع يتعلق بدورة الحياة ، يجب عليه أن يقرأ التراث المتوفر والبحوث السابقة التي أجريت وتتضمن ايضاحات للكلمات المحلية المعبرة عن الظواهر موضوع الدراسة ، ذلك أن كثيرمن البحوث درجت على كتابة الكلمات بالعربية الفصحى بجوار اللهجة المحلية . كما أن بحوثاً أخرى تعد قاموساً خاصة يوضع في نهاية البحث يتضمن الكلمة بالعربية الفصحى وما يقابلها باللهجة المحلية .

ومن المفيد أن يستخرج الباحث من هذه المصادرر المدونة ما يتوقع أن يرتبط ببحثه من قريب أو من بعيد ثم يصنفها وفق ترتيب منظم (سواء أكان ترتيباً أبجدياً أو موضوعياً أو غيره) بحيث تشكل الكلمات قاموساً خاصاً به يحاول الرجوع إليه دائماً لحفظ الكلمات ومعانيها لكي يكون أكثر كفاءة في التعامل مع اللهجة المحلية . وتقل بهذا صعوبات الفهم ، ومقاطعته لأبناء المجتمع المحلي وهم يتكلمو . لكي يستفسر عن معنى كلمة .

* من المفيد أيضاً أن يرتب الباحث لقاءات للمناقشة مع من أجروا بحوث في مثل هذه الموضوعات أو في موضوعات قريبة منها وذلك للافادة من خبراتهم في الموضوع ، وسوف تساعد المناقشات في هذا المجال على زيادة خبرة الباحث المبتدء في دراسة موضوعات دورة الحياة بالكلمات والتعبيرات والأمثال الشعبية التي تقال باللهجة المحلية حول الموضوع . وتزداد الفائدة إذا حاول الباحث باجتهاد أن يسأل عن المزيد ، فدائماً من يخبر بالمعلومات يدلي بالجزء الذي يتذكره ، أما إذا سألناه عن المزيد فسوف يتمكن من تذكر المزيد .

* لايجب أن يتوقف الأمر على تحصيل المعرفة باللهجة المحلية عن دورة الحياة

من الآخرين ، بل يجب أن يمتد تدريب الباحث إلى النطق والتحدث بنفس اللهجة كما ينطقها أبناء المجتمع المحلي وباستخدام نفس التعبيرات وهذا يتم عن طريقتين :

أ ـ أن يحاول الباحث أن ينطق الكلمات وأن يصيغ تعبيرات تستخدم فيها الكلمات وأن ينطقها جميعاً بصوت عال حتى ولو كان منفرداً لكي يتعود النطق ، وتألف أذنه سماع الكلمة والتعبير المحلي الدال على الظاهرة .

ب ـ ان يتحدث في وجوده مع الآخرين باستخدام نفس الكلمات والتعبيرات دون حرج أو تردد لأن هذا هو السبيل الصحيح لمزيد من الاندماج والنجاح في العمل الميداني . ويلاحظ أن بعض الباحثين قد ينطقون الكلمات بطريقة تثير ضحك الآخرين من أبناء المجتمع المحلي . ولكن لايجب أن يؤدي ذلك أيضاً إلى تراجعه عن النطق . وسوف يتحسن الأداء كلما استمرت الممارسة .

ويجب أن نأخذ في اعتبارنا أن مثل هذه المسائل ضرورة على الرغم من أنها تبدو بالنسبة للبعض كما لو كانت هامشية . وحتى هذه التدريبات على النطق يجب أن يقبل الباحث أن يماثل فيها التمليذ الصغير الذي يتعلم لغة أجنبية . . فهو يحفظ ويخطيء ، ثم يصحح له الناس . . وهكذا إلى أن يتعلم . وبدون ذلك حتى إذا قرأ الباحث قاموساً عن اللهجة المحلية فسوف يظل غريباً عنها . لأن الهوة واسعة بين قراءة اللهجة وبين نطقها .

ملحوظة :

كل ما ذكر من تفاصيل عن اعداد وتدريب الباحث على استخدام الكلمات المحلية يهدف إلى خدمة عمليتي الجمع والتدرين . والتدريب الجيد سوف يؤدي إلى زيادة قدرة الباحث على فهم ما يقال والتحدث إلى الناس ، الأمر الذي

سيمكن من استمرار الحديث والذهاب به إلى آفاق أبعد .

التدوين :

عملية التدوين عملية فنية تتطلب من الباحث أن يدرب نفسه على الجمع بين الكتابة الفصحى وبين ادراج اللهجة المحلية في النص . والمهارة تكمن في وجود حس صحيح لدى الباحث بمقتضاه يستطيع أن يتعرف على توقيت ومكان ادراج الكلمات والتعبيرات المستخدمة في اللهجة المحلية .

وترجع ضرورة الجمع بين الاثنين إلى أن الكتابة بالفصحى تعطي فرصة لمزيد من المتخصصين والقراء أن يفيدوا مما كتب أما إذا اقتصرنا على كتابة كل النصوص باللهجة المحلية فسوف يجدها عدد قليل من الناس ذات معنى ، وسيجدها العدد الأكبر من المستفيدين مجرد طلاسم .

كما أن ادراج كلمات وتعبيرات ونصوص باللهجة المحلية يعطي تصوراً عن الواقع السائد ، ويتيح الفرصة للباحثين أن يتعلموا اللهجة . ويمكن أن تجرى مقارنات للمعاني والمدلولات الخاصة بكل لفظ من الألفاظ المستخدمة في منطقة محلية ما مع منطقة أخرى .

ويجب مراعاة الملاحظات الآتية عند التدوين وكتابة التقرير النهائي للبحث :

أ - ضرورة أن يحدث الباحث **الاتزان المناسب بين استخدام العربية الفصحى واستخدام اللهجة المحلية** . لكن المبالغة في عرض اللهجة المحلية أو أغفالها التام - كما سبق وذكرنا - سوف لايكون مقبولاً .

وفي هذا الموضوع لايمكن وضع قاعدة على الاطلاق ، ذلك أن حس الباحث العلمي هو الذي يتيح له فرصة التعرف على الموضوع الصحيح والحجم النسبي المناسب لاستخدام اللهجة المحلية داخل نص الفصحى .

ب ـ **يجب أن يكون هناك اتساق في كل أجزاء البحث المكتوب في استخدام الفصحى واللهجة المحلية** . ذلك أن بعض الباحثين يتبعون طريقة معينة في جزء من البحث . وعلى سبيل المثال اذا اتبع الباحث طريقة كتابة الاسم المحلي الشائع في البيئة لظاهرة معينة مثل « العقم » فيجب عليه أن يتبع نفس الأسلوب عندما يتناول ظواهر أخرى في دورة الحياة . ولايجوز أن يستخدم الباحث طريقتين نظراً لأن ذلك يؤدي إلى ارباك القارىء . فاما أن يوضع الاسم المحلي داخل النص في السياق واما أن تفرد قائمة بالكلمات والتسميات المحلية المستخدمة للتعبير عن الظواهر في نهاية البحث .

مصطلح أم تعبير ؟ :

شاع استخدام كلمة « مصطلح » للتعبير عن الكلمات المحلية المستخدمة الدالة على ظواهر دورة الحياة . ولكن هناك وجهة نظر أخرى ـ وهذا مجرد رأي شخصي ـ أن مفهوم « مصطلح » يجب أن يظل متميزاً يستخدم للتعبير عن الكلمات العلمية التي اصطلح عليها في تخصص معين ، وهذا يعرف في اللغة الانجليزية بالمفاهيم concepts أو المصطلحات terminology ولا يجب أن نوسع من نطاق استخدام كلمة « مصطلح » بحيث تنطبق على الكلمات المستخدمة في اللهجات المحلية للتعبير عن الأشياء أو الظواهر .

في ضوء ذلك يمكن أن نطلق على كلمة الثقافة culture أنها مصطلح ، وكلمة النمط الثقافي cultural pattern أنه مصطلح ، والزواج من الخارج أو الزواج الاغترابي exogamy أنه مصطلح . ولكن لايطلق على استخدام كلمة « البياب » ككلمة معبرة عن الزغاريد ، أو كلمة « المشموم » بمعنى الريحان الأخضر الذي يوضع تحت قدم العروس لكي تدوس عليه وهي داخله إلى بيت الزوجية لكي يكون قدومها سعيداً مباركاً[١١] . كل هذه تعد كلمات محلية وليست مصطلحات .

ثالثاً
التغير الاجتماعي ودراسات دورة الحياة

- تقاليد الزواج من الأجنبيات .
- المربيات الأجنبيات وتنشئة الطفل .
- تغير عادات وتقاليد الزفاف .

التغير الاجتماعي
ودراسات دورة الحياة

أدى التغيـير التكنولوجي والمادي إلى حدوث تغيرات اجتماعية عديدة ، منها تلك التغيرات التي حدثت في حياة الأسرة . وامتد هذا الأثر إلى التغير في عادات وتقاليد دورة الحياة بل انها أثرت في ظواهر أخرى ، غير العادات والتقاليد . لهذا وجب على الباحث حينما يزمع أن يدرس دورة الحياة بعاداتها وتقاليدها وما يوجد بها من ظواهر أخرى أن يعي وعياً أساسياً الاطار الأشمل للحياة الاجتماعية وما يحدث فيها من تغيرات ثم يدرس بعمق تلك التغيرات التي تحدث في حياة الأسرة مثل التغيرات في البعد الاقتصادي والبعد المادي والعلاقات بين الآباء والأبناء ومكانة كل جنس بالنسبة للجنس الآخر والتغير الذي يحدث فيها إذ أن كل هذا سوف يؤثر على عادات وتقاليد دورة الحياة . وعلى سبيل المثال فإن طبيعة مكانة كل من الرجل والمرأة في الأسرة التقليدية تؤثر في تحديد تقاليد الاختيار للزواج . « من يطلب من ؟ » ، « ومن ينتظر حتى يطلبه الآخر ؟ » ، ثم « من له حق القبول أو الرفض ؟ » ، فإذا كانت المرأة تشغل مكانة متدنية عن الرجل فسوف تحدد التقاليد أن من حق الرجل أن يتقدم للزواج ومن حق رجال أسرة الفتاة أن يقبلوا أو يرفضوا وسوف تبقى هي صاحبة الشأن والحق بعيدة عن ابداء الرأي . وفي الثقـافـات التي حدث فيهـا تغـير في مكـانة المرأة نحو مزيد من الارتفاع وتـأرجحت (بين ماض يغفـل حقها وحاضر ينادي بحقها لكنه لايستطيع أن يستوعب التغير) ، كان ابداء رأي الفتاة في الزواج المفضل بالنسبة لها مجرد شكل صوري وواجهة تؤكد المساواة بينما ظلت عمليات الاجبار والقهر تمارس من وراء الستار .

وسـوف نحاول هنا أن نذكر بعض الأمثلة العملية لحدوث تغيرات في بناء الأسرة والظواهر السائدة فيها ثم نشير إلى جدوى الوعي بذلك في دراسات دورة الحياة :

١ - ظاهرة الزواج من الأجنبيات :

أدت التغيرات التي اجتاحت بعض مناطق الخليج إلى وجود ظاهرة الزواج من الأجنبيات . فتشير بعض الدراسات إلى أقدام الشباب في البحرين على الـزواج من أجنبيات(١١) . الأمـر الذي يجعلنا نفترض تغير عادات الزواج وتغير طابع العلاقة بين الزوجين عن الشكل التقليدي .

وقد أشارت الدكتورة/ موزة غباش إلى الآثار السلبية لاستخدام المربيات في المجتمع الخليجي ، فذكرت أن ذلك يؤدي إلى اضعاف علاقة الطفل بأمه . ويسـاعـد على تعليم الأمهات الاتكالية والاعتماد على الغير ، ثم غرس المربية لعـاداتهـا وقيمهـا الأمر الذي يؤثر على اكتساب الطفل للثقافة والهوية العربية الواحدة الذي يمكن أن يؤدي المرء أن يصبح لا منتمي قومياً ولا ثقافياً(١٥) .

٢ - ظاهرة الزواج :

حدثت تغيرات أيضاً في عادات وتقاليد الزفاف في منطقة الخليج ولنأخذ مثـالاً لتغـير هذه العـادات والتقاليد من أسرة البحرين . فقد تم التأثر بثقافات أخرى مثل الثقافات الأوروبية وتم ادخالل عادة « شهر العسل » حيث استبـدل اقـامة حفل كبير مكلف بإقامة حفل زفاف رمزي يعقبه السفر إلى الخارج لقضاء شهر العسل(١٦) .

كذلك أصاب تقاليد حفل الزفاف في البحرين التغير ففي حين كانت الدعوة إلى الحفل تتم عن طريق النساء اللائي كن يقمن بايصالها من بيت إلى بيت يقوم الأهـالي حالياً بطبـع بطاقـات الدعوة وتوزيعها على المدعوين . كما أن الحرية النسبية التي حصـل عليهـا الأبنـاء أعـطتهم فرصة اختيار مكان وطريقة اقامة الحفل ، فقد أصبح مكان الحفلة في المدن هو النادي أو الفندق(١٧) .

رابعاً

روافد المعرفة اللازمة لدراسة دورة الحياة

- المفاهيم والتوجيهات السائدة في الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع .
- معطيات علم النفس .
- المعلومات الطبية والصحية .

روافد المعرفة اللازمة لدراسة دورة الحياة

المفاهيم والتوجيهات
السائدة في الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع

يعد الباحث المهتم بدراسة دورة الحياة هو باحث يعمل في مجال أكبر هو مجال الانثروبولوجيا الثقافية . وهو إذا كان يبحث مسائل ثقافية تتعلق بدورة الحياة ، فهو يبحثها داخل الأسرة التي تعد أحد الموضوعات الرئيسية في دراسات علم الاجتماع ، ولهذا فهو يقف ويضع قدم من قدميه في مجال الانثروبولوجيا والقدم الأخرى في مجال علم الاجتماع .

ومعنى ذلك أن الباحث المهتم بدورة الحياة يجب أن يكون على وعي بالمفاهيم الأساسية والتوجهات السائدة في مجال الانثروبولوجيا ، ثم في مجال علم الاجتماع ، فهو لن يستطيع الاستغناء عنها إذا أراد أن يكون تحليله للظواهر عميقاً .

الثقافة : الكائن الحي :

ولعل أول ما يجب عليه أن يعيه هو فهم طبيعة الثقافة كما تشرحها الانثروبولوجيا الثقافية . فهو لايجب أن ينظر إلى الثقافة كعناصر جزئية متناثرة يستمتع بملاحظتها وتسجيلها ، بل ينظر إليها ككائن حي ينشأ وينمو ويتحرك ويتغير ، ويمكن ملاحظته . . ورصد حركته ، ويتميز هذا الكائن الحي المتميز بالسمات الآتية :

أ - **الوحدة والترابط الداخلي** : فهو كائن يرتبط فيه كل جزء بالجزء الآخر ويستمد منه استمراره ويؤثر فيه ويتأثر به . ولهذا فإن دراسة ممارسة معينة يتطلب التعرف على ما يرتبط بها من عناصر جزئية ارتباطاً عضوياً ،

فعادات وتقاليد الزواج ترتبط بالمستوى الاقتصادي من ناحية وترتبط بتاريخ الجماعة من ناحية أخرى .

ب ـ **الميل إلى حفظ البقاء واستمرار النمو** : **فالثقافة تميل إلى أن تحافظ على** وجودها واستمرارها . وسوف تبقى عناصر عديدة من تلك التي ندرسها في دورة الحياة مثل المعتقدات الخاصة بالموت تقاوم التغير على مدى أجيال . وحتى هذه العناصر التي يمكن أن تتغير بفعل عوامل عديدة مثل الشكل الخارجي لاحتفالات الزواج تحل محلها عناصر بديلة لكي تبقى الثقافة .

جـ ـ **العلاقة مع البيئة علاقة حيوية** : **فهناك تفاعل دائم بين البيئة الطبيعية** والاجتماعية وبين الثقافة وعناصرها . ذلك أن أساليب تنظيم الأسرة وعلاج الطفل الوليد سوف تكون من خلال أعشاب ومواد توفرها البيئة ، كما أن تقاليد الاختيار للزواج يمكن أن تخضع لعوامل بنائية مثل محددات القرابة في المجتمعات القبلية .

أكثر من ذلك أن ما تحتوي عليه الثقافة له جذوره في الهوية العامة للشعب ، فالناس الأحياء يجدون أن الثقافة تعبر عن هويتهم ويرون فيها الجيل بعد الجيل نسق أفكارهم ومعتقداتهم ، ويؤدي استمرار هذا النسق والمعتقدات الذي يشارك فيه الناس إلى تأكيد الروابط التي تجمع بين أبناء المجتمع المحلي(١٨) .

نسبية التعبير : منظار البقاء والاندثار :

من البديهي أن ينتبه الباحث أشد الانتباه إلى فكرة نسبية التغير في عادات دورة الحياة . فإذا عم المجتمع التغير التكنولوجي والاجتماعي فسوف ينعكس أثر ذلك ولاشك على تغير عناصر الثقافة وعلى تغير السلوك الثقافي بصفة عامة والسلوك المتعلق بدورة الحياة بصفة خاصة . فالتغير في عادات الموت مثلا سوف يكون أبطأ

من التغـير في معـظم عادات الزواج . وبعض عادات الميلاد قد تبقى راسخة وغيرها يمكن أن يتغير .

وقد أوضح ذلك الدكتور/فاروق العادلي في دراسته للعادات الاجتماعية في قبلية المهاندة بالخور في دولة قطر التي أجراها سنة ١٩٨١م ، فقد أشار في الجزء الخاص بالثبات والتغير في عادات دورة الحياة إلى أن العادات الاجتماعية المتعلقة بالموت محدودة(١٩) . أما عادات وتقاليد الزواج فقد أشار فيها إلى تغيرات عديدة مثل التغير الذي طرأ على ظاهرة المهر ، وليلة الحناء وحفل الزفاف(٢٠) .

الطهارة والنجاسة : محددات لعلاقات التحاشي :

اذا وضـع البـاحث في مجال دورة الحياة في اعتباره مفهوم الطهارة والنجاسة (النقاء والتلوث) الذي قدمه أميل دوركيم Emily Durkheim فسوف يستطيع أن يرى أشياء كثيرة ربما لم يكن موجها للتفكير فيها . فقد افترض دوركايم أن لكل مجتمع معتقداته ورموزه وشعائره المقدسة ، ويقابل ذلك في نفس المجتمع عالم الأشياء والأحداث اليومية والأفعال النجسة(٢١) . وعادة ما يكون بين الإنسان وبين ما هو نجس علاقات تحاشي avoidance relationship هذه يمكن أن تظهر ظهوراً واضحاً في عادات الميلاد من حيث تجنب أو تحاشي لمس بعض الأشياء الناجمة عن الولادة مثل المشيمة أو مخلفات الولادة . ذلك أن بعض الجماعات تعتبر أن كل مخلفات الولادة نجسه لا يجب الاقتراب إليها ، بل يمكن أن توجد بين الإنسان وبين بعض المقدسات علاقات تحاشي ، فنحن نطالب بأن نقترب بحذر من الأشياء المقدسة ولانتعامل معها مثل باقي الأشياء .

المعاني الكامنة : ضرورة التعرف عليها :

هناك دائماً بعض الأغراض والأهداف الكامنة وراء العناصر الثقافية هي تمثل أغراض الجماعة التي تتحقق عن طريق اختيار وتبني عناصر الثقافة . وحتى تلك

العناصر التي تبدو لنا وكأنها لاترتبط بمعنى أساسي لدى الجماعة أو تخدم غرض وجودي هي ذات معنى يجب أن نبحث عنه .

ويتضح ذلك في مجال دورة الحياة في « تسمية الوليد » . فالأسماء التي تعطى للوليد تختار في معظم المجتمعات من المخزون الثقافي السابق ، ولكن في بعض الأحيان يختار الاسم لكي يحيي ذكرى شخص ما أو مناسبة خاصة . وفي حالات ثالثة يختار الاسم لكي يؤكد بعض السمات التي اكتسبها الطفل الوليد أو تمثلت فيه[٢٢] .

معطيات علم النفس

قد لايتصور الباحث في مجال الثقافة أنه بحاجة إلى أن يتعرف على مجال علم النفس . أو أن بعض المعطيات التي يقدمها علم النفس تعد معطيات ضرورية بالنسبة لدارس الثقافة . اننا اذا استعرضنا التراث العلمي فسوف نجد أن هناك محاور التقاء عديدة بين مجال الثقافة ومجال علم النفس ، بل أن الالتقاء يتم بصورة أعم وأوسع في تلك الدراسات التي دلت على الصلة القديمة بين علماء النفس وعلماء دراسة المجتمع . ولعل ظهور فروع علمية مستقلة تحمل أسماء تشير إلى حتمية ونفع هذا اللقاء مثل دراسات « علم النفس الاجتماعي » ودراسات « الثقافة والشخصية » هي أبرز الدلالات على وجود هذه العلاقة الوثيقة .

والباحث في مجال دورة الحياة هو باحث في الثقافة يرتبط بميدان الانثروبولوجيا الثقافية . وأود أن أشير إلى أن الجمع بين علم النفس والانثروبولوجيا واستخدام المفاهيم السيكولوجية في اجراء الدراسات الانثروبولوجية ليس أمراً جديداً أو دعوة مستحدثة ، فحينما كان مالينوفسكي Malinowski دارساً كانت الانثروبولوجيا وعلم النفس يمثلان معاً مجالاً واحداً للبحث والدراسة . وقد ظهر أكثر من دارس يجمع في نفس الوقت بين التخصص في الانثروبولوجيا وعلم النفس مثل

مالينوفسكي نفسه ، وريفرز Rivers وفندت Wundt ولكن بعد مرور ما يقرب من ٤/٣ قرن ، انفصـل كل مجال عن الآخـر ، ان علم النفس والانثـروبولوجيا يرتبطان بعائلة واحدة حتى أن البعض يذكر أن الانثروبولوجيا وعلم النفس هي مجرد أسماء تطلق على قسمين علميين بالجامعة أكثر مما تشير إلى تخصصين منفصلين[٢٣] .

وسوف نحاول الاشارة هنا إلى كيفية افادة الباحث في دورة الحياة من معطيات علم النفس :

يقسم علماء النفس مراحـل حياة الإنسـان كتقسيم عام إلى طفـولة ونضج وشيخوخة . ثم يعيدون تقسيم كل مرحلة إلى عدة مراحل فتقسم مرحلة الطفولة إلى المهـد والطفولة المبكرة والطفولة المتأخرة ، ثم يقسمون المراهقة إلى مراهقة مبكرة ووسطى ومتأخرة . . وهكذا .

ويتحتم على الباحث في دورة الحياة عند دراسته لتنشئة الطفل أن يكون على دراية بهذه التقسيمات والسمات التي تتصف بها كل مرحلة للأسباب الآتية :

أولاً : **يقدم علم النفس مجموعة معطيات تتيح للباحث فرصة فهم خصائص كل مرحلة يمـر بها الـطفـل** . وهـذا يسـاعـده على صياغة الأسئلة وملاحظة الظواهر وهو أكثر وعياً بما يجب أن يلاحظ عما لو كان ذهنه خالياً تماماً من أي معرفة عن خصائص كل مرحلة ينمو فيها الطفل .

ثانياً : **يقدم علم النفس معلومات عن طبيعة النمو الجسمي والعقلي والحركي والاجتـماعي والنفسي** . وهـذا يساعد الباحث على تقييم مدى وعي المجتمع بهذه الأبعاد وهو يقوم بتنشئة الطفل ويتيح له الفرصة أن يقارن بين طبيعة العناصر الثقافية والمطالب الاجتماعية التي يطلبها المجتمع من الطفل في ضوء افتراضه لامكانيات معينة للمرحلة وبين التحديد العلمي الواقعي لطبيعة المرحلة وقدرات الطفل فيها ، ومن هنا يستطيع

الحكم على مدى ملاءمة المادة الثقافية لطابع مرحلة نمو الطفل . ويؤدي التعرف على هذا الجانب إلى مزيد من اثراء التحليل .

ثالثاً : يهتم أيضاً علم النفس بالمشكلات النفسية التي يمكن أن يعاني منها الأطفال مثل مشكلات الخوف والتبول اللاارادي وغيرها . ويؤدي وعي الباحث بهذا الجانب إلى أن يضمن بحثه الاشارة إلى هذه المسائل الهامة التي تؤثر في شخصية الفرد وترتبط في نفس الوقت من قريب ومن بعيد بطابع التنشئة وعناصر الثقافة السائدة . وعلى سبيل المثال فإن ظاهرة الخوف المرضى لدى الأطفال تتسب فيه عمليات التخويف التي يقوم بها الآباء أثناء عملية التنشئة للتخلص من بكاء الطفل أو لاخضاعه لأي أمر لم يكن يريد أن يخضع له .

كذلك أدت أشكال الحرمان من الآباء أو الأمهات سواء بسبب الوفاة أو الطلاق أو عمل الأب لعدة سنوات بعيداً عن الأسرة إلى متاعب نفسية بالنسبة للأطفال .

وبصفة عامة فإن المشكلات النفسية التي يعاني منها الأطفال تتأثر بشكل مباشر بالسلوك الثقافي للكبار في هذه المرحلة . كما تتأثر أيضاً بالأوضاع الاجتماعية التي يعيش فيها الطفل . ولهذا فإن انتباه الباحث إلى فكرة المشكلات النفسية للطفل سوف يجعله يلتفت إلى العديد من أشكال السلوك الثقافي الكامن في عملية التنشئة الاجتماعية .

ويتضح ضرورة الوعي بمراحل النمو في علاقتها بموضوع التنشئة الاجتماعية الذي يهتم به الباحث في دورة الحياة أشد الاهتمام إذا نظرنا إلى أربعة فروض رئيسية يقدمها علم النفس وتتعلق بنمو الإنسان وبتأثره بالمحيط الثقافي الذي يوجد فيه .

الفرض الأول :

يرى أن كل يوم يمر على الطفل يصبح أكثر تأثراً بأفعال الآخرين ، وتمثل أفعال الآخرين وسلوكهم الثقافي والمواقف التي يتفاعلون فيها ويلاحظها الطفل خبرات يختزنها ، وتصبح العلاقة بين هذه الخبرات وبين سلوكه في المستقبل ، ونموه الأخلاقي ، ودوافعه علاقة مؤكدة ومطلقة .

الفرض الثاني :

أن نمو الإنسان ابتداءاً من مرحلة المهد إلى النضج والشيخوخة ، يعتبر سلسلة من المراحل المتميزة لكل منها سماتها الخاصة ، وحينما يبلغ الكائن كل مرحلة يكون قد تكون الشيء الجديد الذي يمثل مزيجاً بين الخبرات وبين النضوج .

وعلى ذلك فإن هناك ضرورة لأن يهتم الباحث في دورة الحياة بأن يبحث أنماط السلوك الثقافي التي يمكن أن تمثل مخزون الخبرات بالنسبة للشخص منذ مراحل الطفولة المبكرة . وهنا نكون قد حاولنا ـ من خلال دراسة دورة الحياة ـ رؤية العناصر الثقافية المؤثرة في نمو ونضج الشخصية .

الفرض الثالث :

وهو يعتبر نتيجة طبيعية للفرض الثاني ، ويحدد الفرض أن المرور بنجاح خلال مرحلة معينة من مراحل النمو يجعل أمر الوصول إلى المرحلة التالية ثم عبورها أمراً أكثر سهولة . وعلى العكس من ذلك فإن فشل الطفل في مواجهة متطلبات كل مرحلة والآمال التي تسند إليه فيها تعرقل عملية الانتقال إلى المراحل الأعلى .

وإذا كان الباحث في موضوع التنشئة الاجتماعية للطفل في المجتمع الذي يقوم بدراسته على وعي بهذه الحقيقة فسوف يضمن دليله وأسئلته ما يؤدي به إلى

التعرف على تفاصيل دقيقة في اجراءات التنشئة الاجتماعية مثل : كيف يتعامل من يقومون بتنشئة الطفل معه اثناء مواجهته للصعوبات أو تعرقله في أداء دور تحدده له الثقافة ؟ وكيف يتقبلون صور العجز والقصور في أداء الأدوار في مرحلة معينة ؟ ثم كيف يقومونها .

الفرض الرابع :

وهـو الفرض الأكثر عمقاً وجدلية ، ويتلخص في أن الإنسان يتضح أمامه « الشخص البالغ النموذجي » خلال عمليات التنشئة الاجتماعية طويلة المدى . بحيث يستطيع أن يعرف ماهي سمات البالغ النموذجي في هذا المجتمع . وإذا كانت هنـاك عمليات وقـوى تؤدي إلى تنـافـر النغمات في تحديد سمات البالغ النموذجي . فإن ولادة وظهور الشخصية النموذجية كما تحددها الثقافة ومقدار تبدى السمات الأساسية فيها سوف يعتمد على نوعية الخبرات التي يكتسبها هذا الشخص اثناء مرحلة نموه[٢٤] .

ويدعـو هذا الفرض الباحث إلى أن يضمن دليله عناصر تسأل عن سمات الشخصية التي تود الأسرة أن تراها في طفلها ، وعن عناصر الثقافة التي تلقنها للطفل لتحقيق هذا الفرض ، وتسأل قبل ذلك عن مدى توفر هذا الوعي لدى الأسرة وهي تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية والثقافية من عدمه .

كذلك يمكن للباحث أن يتطرق إلى مسألة أساسية وهي مدى ونوعية توفر اتجاهات ومواد ثقافية متصارعة في تنشئة الطفل . ففي بعض الأسر أحياناً تتوفر اتجاهات شديدة التصارع بسبب الفروق بين الأجيال المختلفة التي تتعامل مع الطفل ، وأحياناً بسبب اختلاف التوجهات والمحتوى القيمي لأفراد الأسرة نتيجة تعدد الجماعات المرجعية reference group لافرادها ، خاصة في المجتمع الحديث .

المعلومات الطبية والصحية

يتطلب الأمر من الباحث في موضوعات دورة الحياة أن تكون لديه بعض المعلومات الطبية عن الظواهر المتعلقة بموضوع الدراسة . ويكون ذلك بقدر اذ هو لايحتاج إلى دراية بالمسائل الصحية الا في نطاقات محددة ـ سنذكرها الآن ـ إذا ما قارناه بالباحث العامل في مجال الطب الشعبي الذي يحتاج إلى قدر أكبر من معرفة المسائل الصحية .

وترجع هذه الضرورة إلى مايأتي :

* **أن الباحث في مجال دورة الحياة يتعرض لمسائل عديدة تتعلق بالصحة ، فهو** في دراسة **فترة الحمل** يتعرض لموضوعات صحية بحته مثل الاجهاض ، والولادة ، والنفاس ، وأمراض الطفل المولود . كذلك في دراسته لموضوع **الزواج** يتعرض لبحث مسائل العلاقات الزوجية وفض البكار ومسائل تمثل تغيرات بيولوجية في حياة الزوجين . ثم يتعرض لفكرة **الشيخوخة** وهي تتضمن عدد من الأبعاد الثقافية والاجتماعية التي ترتبط بالانهيار الفيزيقي للصحة .

أما موضوع **الموت** فهو يرتبط بالأمراض المفضية إلى الوفاة وتحلل الجسم وما إلى ذلك .

وتعد معرفة الباحث بهذه الجوانب مساعدة له على اعداده لأدوات جمع البيانات ، كما تسهم في وضوح الرؤية أمامه ولاتجعله غافلاً عن بعض الظواهر الثقافية التي ترتبط أساساً بظواهر صحية .

* لم يعد تناول الإنسان بمنظور تجزيئي متفقاً مع الاتجاهات العلمية الحديثة في دراسة الإنسان . **فالإنسان مكون من أبعاد جسمية ونفسية واجتماعية وثقافية وروحية** ، ويجب أن ينظر إلى أي ظاهرة ترتبط ببعد من أبعاد الجسم في ضوء

المفهوم الشامل الذي يرى هذه الأبعاد الأربعة مندمجة معاً ومتفاعلة تفاعلاً مستمـراً . وربـما هذا ما جعل الطب يطلق على بعض الأمراض مصطلح الأمراض النفسجسمية Psychosomatic Diseases فهي تلك الأمراض التي تشير إلى ارتباط البعد النفسي بالجسمي والعكس .

لهذا فالباحث في مجال الثقافة لايمكن أن يذهب إلى العمق إذا تجاهل بقية الأبعاد المؤثرة في الظواهر الثقافية وفي سلوك الإنسان الثقافي الذي يهتم به .

المنفعة المباشرة :

أ ـ ويمكن لباحث أن يجني بعض الفوائد العملية نتيجة درايته بالأبعاد الصحية لدورة الحياة . وعـلى سبيل المثال تعد معرفة الباحث للمسائل الصحية مسـاعدة له على اعداده لأدوات جمع البيانات ، خاصة دليل المقابلة ، ذلك أنه طالما أن السلوك الثقافي يدور أحياناً حول مسائل صحية ويرتبط بها فلن يستطيع الباحث الذي يعد دليلاً للمقابلة أن يكون الدليل الشامل إذا نقصت لديه هذه المعرفة .

ب ـ في مرحلتي التحليل والتفسير يمكن أن يقع الباحث في أخطاء في تفسير الظواهر الثقافية أو في توقعاته لنتائج سلوك الناس في مناسبة ما إذا كان يجهل تماماً المسائل الصحية . فهو يمكن أن يتوقع أذى صحي نتيجة تناول الناس لأنواع من المواد الغذائية في الأفراح ، أو يتوقع الضرر البدني للطفل الذي تجرى له ممارسات شعائرية معينة وربما هي لاتؤدي إلى ذلك .

وهناك تحذيراً يجب أن يوجه إلى الباحثين بصفة عامة :

أ ـ أن يبتعدوا عن أية آراء أو تحليلات أو تفسيرات لايكونوا على يقين منها .

ب ـ لايجب أن يقدموا استنتاجات حول أحوال الناس الصحية دون الاستناد إلى حجج علمية .

جـ - يجب أن يلتزموا عندما يكتبوا أية معلومة طبية بتوثيقها بالرجوع إلى مصادر طبية معتمدة .

د - أن يتأكدوا أن ترجمتهم للمصطلحات الطبية صحيحة وذلك بالرجوع إلى القواميس الطبية المعتمدة .

هـ - يفضل أن تتم مراجعة أي مسألة طبية تعرض لها الباحث من أطباء أكاديميين متخصصين . وفي حالة استخدام مواد أو أعشاب (تعطى للأطفال الرضع مثلاً) يمكن أن يستشار الصيادلة .

مصادر المعرفة :

هناك مصادر عديدة يمكن أن يتعلم منها الباحث منها :

١ - **المصادر الطبية الثقافية** : وهي عبارة عن كتب تصدر باللغة العربية تهدف أساساً إلى التوعية الصحية وتتضمن شرحاً لمسائل طبية عديدة . وقد صدرت في المنطقة العربية العديد من هذه الكتب تتناول موضوعات تهم الباحث في دورة الحياة مثل موضوع الختان ، وأمراض الأطفال وغيرها .

٢ - **الكتب والنشرات والمجلات** : تلك التي تصدر عن قطاع التثقيف الصحي بوزارة الصحة . وهي تكون هادفة ومركزة وبياناتها واضحة وصحيحة .

٣ - **المصادر والكتب الأساسية في الطب** : وهذه اذا كان يصعب على معظم الباحثين الاجتماعيين والثقافيين الرجوع إليها نظراً لاستخدامها لمصطلحات طبية غير متداولة الا بين من يشتغلون بالطب ، فإن الفائدة منها تكون محققة نظراً لأنها تقدم المعلومة الطبية بطريقة علمية مفصلة .

خامســاً
خاتمــة وتطلعــات

- لماذا دورة الحياة ؟
- بحوث المستقبل .
- الجدوى العلمية اضافة إلى التسجيل الثقافي للظواهر .

خاتمة وتطلعات
لماذا دورة الحياة

لا يجب أن يتصور أحد أن اختيار دورة الحياة لكي يكون موضوعاً للدراسة هو من قبيل استسهال اختيار الموضوعات وضمان الحصول على النتائج دون عناء . ذلك أن موضوعات دورة الحياة مثلها مثل أي موضوعات أخرى سوف تحتاج إلى جهد في الجمع والتحليل ومحاولة الغوص إلى مزيد من العمق للتعرف على المعاني الكامنة خلف العناصر الثقافية الظاهرة التي قد تبدوا بسيطة بلا عمق .

كذلك لا يجب أن نتصور أن دراسة موضوعات دورة الحياة مجرد نزهة ممتعة يستعرض فيها الباحث شريط حياته منذ الميلاد إلى الممات ، أو انها تتيح فرصة التعرف على أشياء محببة مثل الميلاد والزواج أو أشياء مخفاة مثل الممارسات الشعبية لعلاج العقم أو اجراءات فض البكارة .

كل هذه التصـورات خاطئـة تمامـاً ، إذا كانت تمثل أحد الدوافع الرئيسية للباحث فسوف يفشل ويخفق ، واذا كانت تتوارد لدى غير الباحثين فقد جانبهم الصواب . ولهذا فإن الباحث الذي يقدم على اختيار موضوعات دورة الحياة (أو أحدها) للدراسة لابد أن يجيب على الأسئلة التالية اجابات واضحة :

- لماذا دورة الحياة ؟
  بمعنى ما هو الغرض من الدراسة ، وما هي الدوافع ؟

- لماذا في هذا المجتمع بالذات ؟
  ماهي السمات النوعية التي تميز المجتمع بحيث يتوقع أن يرتبط تنوع الممارسات بتنوع طابع المجتمع .

- ما معنى دورة الحياة وماهي أبعادها ؟
  بمعنى أن يحاول الباحث التعرف على الأبعاد الظاهرة الواضحة وعن الظواهر

الكامنة لدورة الحياة ، وأن يتعرف على التفاصيل العديدة التي يحويها .

- كيف أدرس دورة الحياة ؟
أي أن يلتجيء الباحث إلى التعرف على الأساليب المنهجية الأكثر ملاءمة لدراسة هذه الظواهر .

بحوث المستقبل

لوحظ في السنوات الماضية أن معظم الدراسات التي تناولت دورة الحياة إهتمت بجانب العادات والتقاليد فقط ، بينما أهملت جوانب أخرى مثل المعتقدات والثقافة المادية وغيرها . حقيقي أنه أثناء العرض للعادات يحدث تعرض لموضوع المعتقدات أو الثقافة المادية ، مثلما الحال عندما نصف الاحتفال بسبوع الطفل ، أو الاحتفال بالختان ، فإننا نذكر بعض المعتقدات التي تكمن وراء العادات ، أو نذكر بعض الأشياء المادية التي تستخدم في اتمام مراسيم الاحتفال ، ولكن في كل ذلك يكون الاهتمام الأكبر منصباً على دراسة العادات ولا تذكر العناصر الثقافية الأخرى الا بطريقة نادرة وعارضة .

هناك جوانب أخرى عديدة يجب أن تركز عليها البحوث التي تهتم بدورة الحياة منها كما ذكرنا المعتقدات ، ذلك أن المعتقدات تكمن دائماً - كما سبق وذكرنا - وراء الممارسات والعادات التي نلاحظها يومياً . . بل أن رسوخ العادات واستمرارها غالباً ما يرتبط بمعتقد راسخ مخفي تم توارثه عبر أجيال . وغني عن البيان أن دراسة المعتقدات تساعد على فهم وتفسير بعض العادات التي تبدو غريبة .

أما موضوع الثقافة المادية المتعلقة بدورة الحياة فهو واجب الدراسة أيضاً إذ أن وجه الثقافة المادية هو أكثر الوجوه تغيراً وفق التغيرات العصرية والاقتصادية والتكنولوجية ، فعناصر الثقافة المادية المستخدمة في احتفالات

الزواج مثلاً تتغير بتغير المستوى الاقتصادي ، وتتأثر باستحداث الجديد من التكنولوجيا .

وهناك أحد الموضوعات الهامة واجبة الدراسة هي موضوع « بناء العلاقات » فلابد أن تجرى دراسات توضح الطابع البنائي للعلاقات بين الناس وهي تتضح من دراسة العديد من ظواهر دورة الحياة ، ويكفي النظر إلى عملية التنشئة الاجتماعية للطفل - وهي ضمن الموضوعات التي تدرس في دورة الحياة - فهي تظهر لنا كيف يتعلم الطفل تنظيم وبناء علاقاته مع المجتمع المحيط من الكبار والصغار ومن الأقارب والأباعد .

الجدوى العملية في مقابل التسجيل الثقافي للظواهر

لاشك أن هدف التسجيل الثقافي والحفظ الأرشيفي الجيد يعتبر هدفاً من الأهداف العلمية المقبولة . ولكن لابد بجوار ذلك أن يفكر الباحث في الجدوى العملية لدراسة الظواهر الثقافية . حقيقي أن بعض الباحثين يمكن أن يقتصروا على الجمع والتصنيف والتحليل والأرشفة للعناصر الثقافية التي يتم جمعها ، ولكن يمكن أن تقوم دراسات أخرى على الافادة من نتائج الدراسات الأولى في عمليات الاصلاح بصور مختلفة ، وفي العمل على احداث تغيرات في عادات الناس .

- وأود أن أشير إلى أن من يجري الدراسة الأولى (الجمع الثقافي والتحليل) يكون أكثر قدرة على أداء العمل الثاني (رؤية الجدوى العملية لدراسة الثقافة) .

وفي دراسات دورة الحياة يمكن أن يستفاد من نتائج الدراسات في توجيه الناس إلى نبذ المعتقدات أو الممارسات الضارة التي يمارسونها في تربية أطفالهم أو علاج أمراضهم ، مثل العقم ، وموت الأطفال الرضع . . . . الخ .

المراجـــع

المراجع العربية :

١ ـ د.ء علياء شكري ، **الدراسة الميدانية لعادات الطعام وآداب المائدة في الوطن العربي** ، ندوة التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية ، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية ، الدوحة ـ دولة قطر ، سنة ١٩٨٥م .

٢ ـ د. فاروق محمد العادلي ، **الملامح الاجتماعية الأساسية المميزة لدورة الحياة** . دراسة اثنوجرافية للعادات الاجتماعية في قبيلة المهاندة بالخور ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، سنة ١٩٨١م .

٣ ـ د. فاروق أمين ، **دراسة حول واقع الأسرة البحرينية** ، سلسلة الدراسات الاجتماعية « ٣ » ، جمعية الاجتماعيين البحرينية ، البحرين ، سنة ١٩٨٣م .

٤ ـ د. محمد الجوهري ، د. علياء شكري ، وعبد الحميد حواس ، **الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية** ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠م .

٥ ـ د. محمد الجوهري ، د. عبد الله الخريجي ، **طرق البحث الاجتماعي** ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣م ، ص ٣٧٨ .

٦ ـ د. موزة عبيد غباش ، **الهجرة الخارجية والتنمية** ، دراسة تطبيقية لآثار الهجرة الوافدة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ، مطبعة الوفاء ، البساتين ، سنة ١٩٨٦م .

٧ ـ وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ـ ادارة التخطيط والمتابعة ، **أثر المربيات الأجنبيات على الأسرة الكويتية** ، الكويت ، سبتمبر ١٩٨٣م .

المراجع الأجنبية :

1. Arlene S. Sholnick and Jerome H. Sholnick, Family in the Transaction, little Brown Company, Canada, 1986.

2. Dan Sperper, Anthropology and Psychology, Towards an Epedemiology of Representations, MAN, The Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. 20, No. 1, March 1985.

3. Glass R.M., Huli Names and Naming, ETHNOLOGY, Journal of the Cultural and Social Anthropology, Vol. XXVI, No. 3.July 1987.

4. Laurel Bossen, Toward a Theory of Marriage Transactions, ETHNOLOGY, The International Journal of Cultural and Social Anthropology, Vol. XXVII, No. 2, April 1988.

5. Louis Dumont, Are Cultures Living Beings? German Identity in Interaction, MAN, The Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. 21, No. 4, December 1986.

6. Marry Louis Pratt, Fieldwork in Common Places. in Writing Cultures, ed. by James Clifford and George Marcus, University of California Press, U.S.A., 1986

7. Marvin Harris, Cultural Anthropology, Harper and Row, Second Edition, New York, 1987.

8.Ronald A. Reminick, Theory of Ethnicity, University Press of America, U.S.A., 1983

8.Simon Charsley, Interpretation and Custom: The Case of the Wedding Cake, MAN, The Journal of the Royal Anthropological Institute, VOl. 22, No. 1, MArch 1987.

10. Soraya Altorki, The Antropologist in the Field: A Case of Indigenous Anthropology, In Indigenous Anthropology in Non-Western Countries, ed. by Hussein Fahim, Carolina Academic Press, U.S.A. 1982.

الهوامش :

١ - أنظر المناقشة الجادة التي قدمتها ثريا التركي لمسائل عديدة تواجه الباحث ابن المنطقة حينما يود القيام بعتمل ميداني . اذ واجهت هي نفس الموقف حينما عادت إلى مجتمعها - المملكة العربية السعودية - وحاولت أن تدرس مكانة المرأة التي تنتمي إلى عائلات الصفوة (ادراكها لنفسها) . في مدينة جدة :

Soraya Altgorki, The Antropologist in the Field: A Case of Indigenous Anthropology, From Saudi Arabia, in Indigenous Antropology in Non-Western Countries, ed. by Hussein Fahim, Carolina Academic Press, U.S.A., 1982, 167-165.

٢ -

Ronald A. Reminick, Theory, Theory of Ethnicity, University Press of America, U.S.A., 1983, P. 7.

٣ - ورد اختصار للعناصر المذكورة عن قدرات الباحث في سياق آخر في المرجع التالي :

Marry Louise Pratt, Fieldwork in Common Places, in Writing Culture, ed. by James Cifford and George Marcus, University of California Press, U.S.A., 1986, P. 29.

٤ -

Simon Charsloy, Interpretation and Custom: The Case of the Wedding Cake, MAN, The Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. 22, No. 1, March 1987, P. 94.

٥ -

Op. Cit., P. 108.

٦ -

Laurel Bossen, Toward a Theory a Theory of Marriage, the Economic Anthropology of MArriage Transactions, ETHNOLOGY, The International Journal of Cultural and Social Anthropology, Vol. XXVII, No. 2, April 1988, P. 127.

٧ - هناك أكثر من دليل حاول من اهتموا بالعمل الميداني الثقافي أن يعدونه حول موضوعات معينة مثل الطب الشعبي والمعتقدات وغيرها . وقد تم نشر بعض هذه الجهود بحيث يستطيع الباحث أن يفيد منها ، مثل الدليل المعنون « الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية الذي سوف نشير إليه في الفقرة التالية ، ودليل الدراسة الميدانية لعادات الطعام وآداب المائدة في الوطن العربي » الذي قدمته الدكتورة/ علياء شكري في ندوة التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية . بالدوحة قطر . ونشره مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية ضمن سلسلة الندوات المنشورة عن التخطيط لدراسة التراث الشعبي لمنطقة الخليج والجزيرة العربية ، من يناير سنة ١٩٨٥م . وقد وقع هذا الدليل (الأسئلة والايضاحات المتعلقة) به في ٨٥ صفحة (صفحات ٧٩ - ١٦٤) .

٨ - ومن الأمثلة البارزة لمحاولات اعداد دليل لجمع المادة العلمية عن دورة الحياة الدليل الذي أعده

كل من الدكتور/ محمد الجوهري والدكتورة/ علياء شكري والأستاذ/ عبد الحميد حواس ، بعنوان « الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية » ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٧٠ ، ويقسم الدليل دورة الحياة إلى التقسيمات الثلاثية الكبرى (الميلاد - الزواج - والوفاة) ، ويقدم للقارىء مئات الأسئلة ، ويلفت نظره أيضاً إلى مئات المسائل التي يجب أن يبحثها في الموضوع .

٩ - د. محمد الجوهري ، د. عبد الله الخريجي ، طرق البحث الاجتماعي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣م ، ص ٣٧٨ .

١٠ - فاروق محمد العادلي ، الملامح الاجتماعية الأساسية المميزة لدورة الحياة ، دراسة اثنوجرافية للعادات الاجتماعية في قبيلة المهاندة بالخور ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة سنة ١٩٨١م ، ص ١٥٤ .

١١ - فاروق أمين ، دراسة حول واقع الأسرة البحرينية ، سلسلة الدراسات الاجتماعية « ٣ » ، جمعية الاجتماعيين البحرينية ، البحرين ، سنة ١٩٨٣م ، ص ٦١ .

١٢ - موزة عبيد غباش ، الهجرة الخارجية والتنمية . دراسة تطبيقية لآثار الهجرة الوافدة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ، مطبعة الوفاء ، البساتين ، سنة ١٩٨٦م ، ص ٢٣٠ .

١٣ - فاروق أمين ، المرجع السابق ، ص ٧٨ .

١٤ - المرجع السابق ، ص ٧٩ .

١٥ -
Louis Dumont, Are Cultures Living Beings? German Identity in Interaction, MAN, The Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. 21, No. 4, December 1986, P. 587.

١٦ - د. فاروق محمد العادلي ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

١٧ - د. فاروق محمد العادلي ، المرجع السابق ، أنظر عادات الزواج ، ص ١٨٨ ، ١٩٤ .

١٨ -
Marvin Harris, Cultural Anthropology, Harper & Row, Second Edition, New York, 1987, P. 259.

١٩ -
Glasse R. M., Huli Names and Naming ETHNOLOGY, An Intenational Jounal of Cultural and Social Anthropology, Vo. XXVI, No. 3, July 1987, pp. 205, 206.

٢٠ -
Dan Sperper, Anthropology and Psychology, Towards an Epidemiology of Representations, MAN, Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. 20, No. 1, March 1985, P. 73.

٢١ -
Arlene S. Sholnick and Jerome H. Sholnick, Family in Transaction, Little Brown Company, Canada, 1986, P. 373.

علاقة التخطيط الأقليمي والعمراني بشبكة الطرق

أ . د . إسماعيل عبد العزيز عامر
أستاذ تخطيط المدن (المعار) قسم الجغرافيا/التخطيط
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ـ جامعة قطر

مقدمة :

حاول الإنسان على مر العصور ومازالت محاولاته جارية للعمل على الوصول لافضل السبل التي تحقق له الراحة والرفاهية في حياته وعلاقاته وتنقلاته وذلك من خلال التطورات والاختراعات المستمرة ومنها اكتشاف وتطوير المركبات المختلفة والطرق الخاصة بها .

وعلى الرغم مما اعطته هذه الاختراعات وعملت على تقارب البشرية وربط الدول ببعضها البعض إلا أن سوء استخدامها تسبب في أضرار كثيرة أدى إلى أذى وفقدان الكثير من الأرواح وجعلها أحد الأسباب الرئيسية للضرر أكثر من النفع فكلما تطورت زاد معدل الحوادث على الطرق وتلوث الهواء سواء للإنسان أو البيئة .

لذلك كان من الواجب البحث والدراسة للمشاكل والأسباب التي أدت لذلك مع التعرف على أفضل السبل التي تقي الإنسان والبيئة وحمايتهم من الآثار السلبية الناجمة عن تطور وزيادة الطرق وأعداد المركبات المختلفة .

المركبات باختلاف أنواعها تعد أحد الوسائل التي تعمل على نقل الإنسان والأخبار والبضائع من مكان لآخر لذلك فهناك علاقة بين الطرق والمرور ومناطق العمران (التجمعات العمرانية) وكلاهما يؤثر ويتأثر بالآخر . فكلما وجد العمران ظهرت الطرق كذلك كلما وجدت الطرق زحف العمران وامتد على طولها ـ فالعلاقة وثيقة ودائمة وكلاهما الطرق والعمران يكملان بعضهما ولايمكن

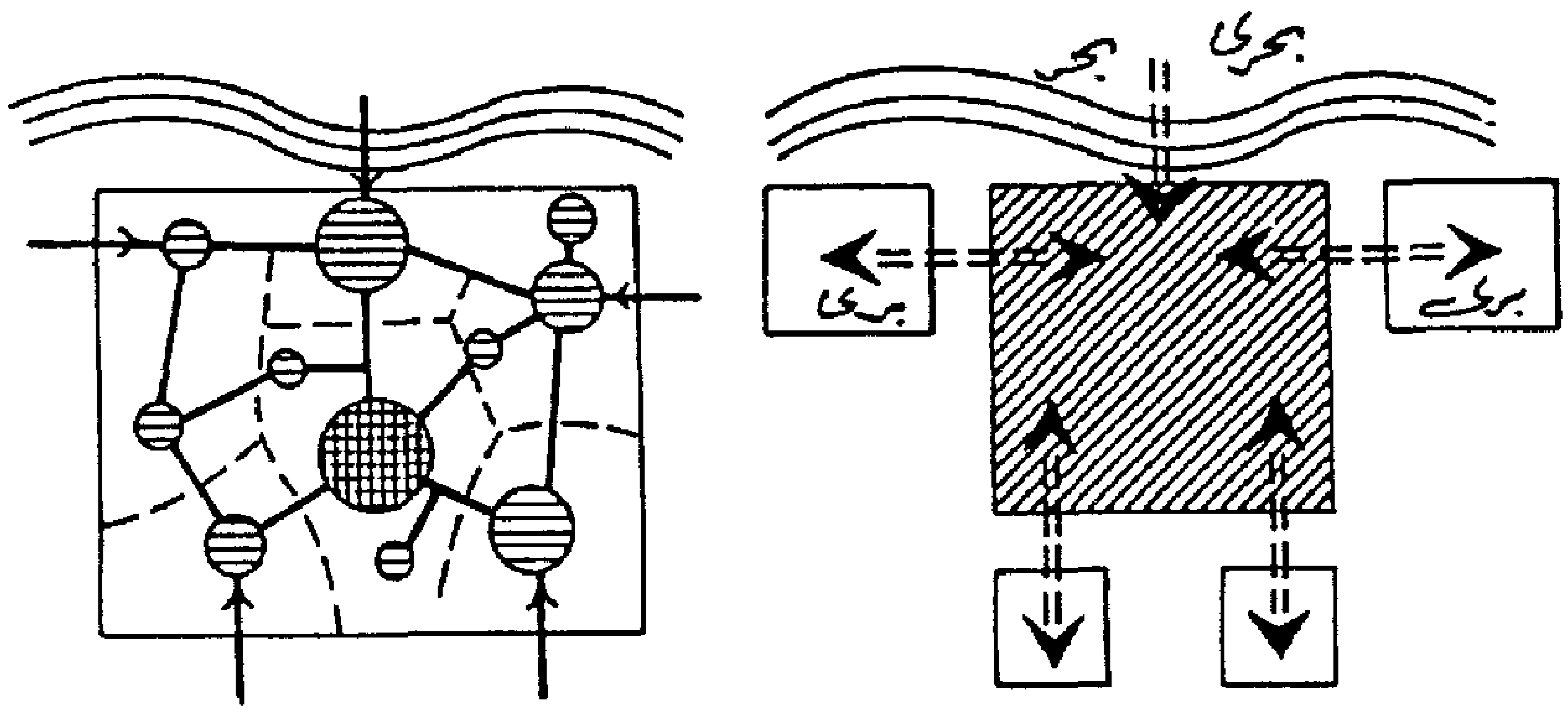
الفصل بينهم وإذا لم يخطط لتلك العلاقة ظهرت المشاكل واخطرها حوادث المرور وازدياد معدلاتها .

هذه العلاقات يمكن تصنيفها كالآتي :

* على المستوى القومي :

علاقة الحركات والتحركات بين الدول المختلفة المتجاورة .

علاقة الحركات المختلفة بين التجمعات العمرانية للدولة الواحدة .



(أ) العلاقة بين الدول المجاورة لتحديد مداخل ومخارج الدول على المستوى القومي (بريا وبحريا)

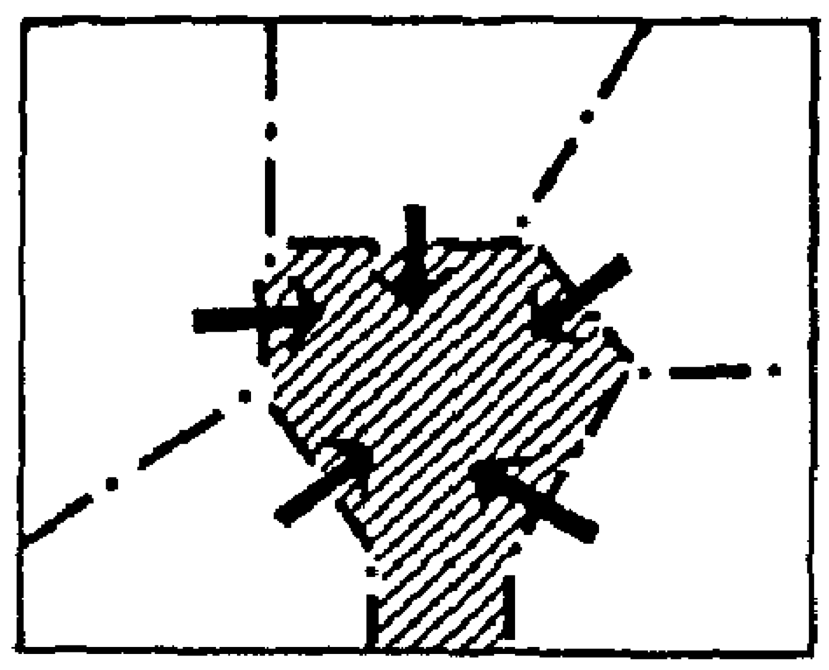
(ب) العلاقة بين التجمعات العمرانية للدولة الواحدة وشبكة التجمعات العمرانية

(شكل ١)

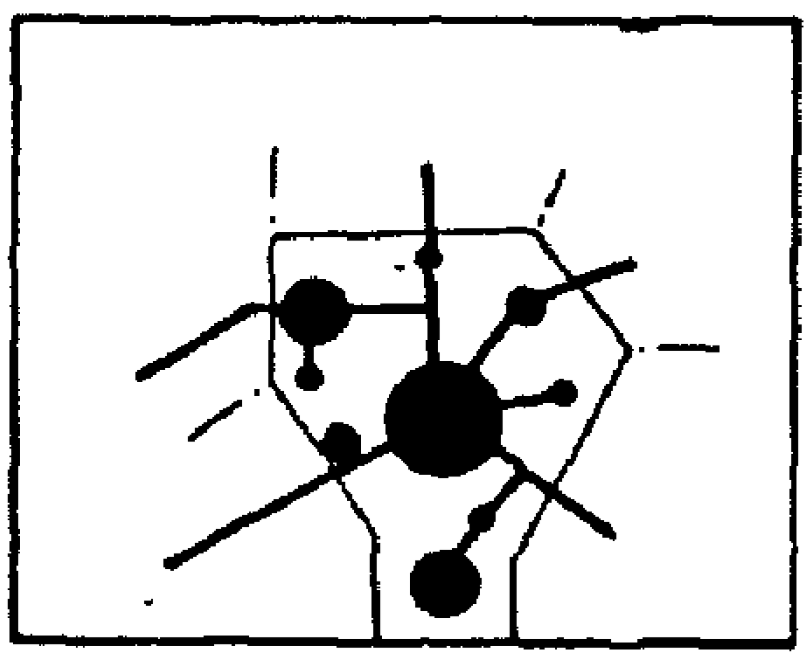
* على المستوى الاقليمي :

علاقة الحركات المختلفة بين أقاليم الدولة الواحدة .

علاقة الحركات بين التجمعات العمرانية للاقليم الواحد .



(٢ أ) علاقة الاقليم بالأقاليم المجاورة



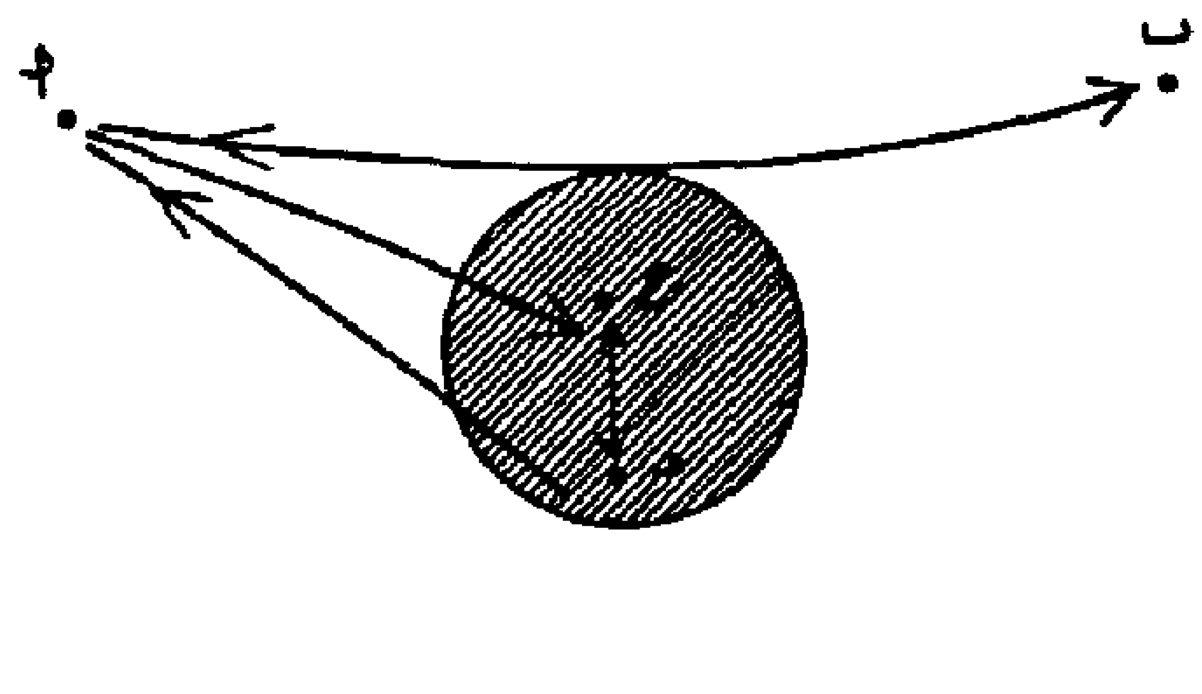
(٢ ب) علاقة بين التجمعات العمرانية للاقليم الواحد وشبكة التجمعات الاقليمية

(شكل ٢)

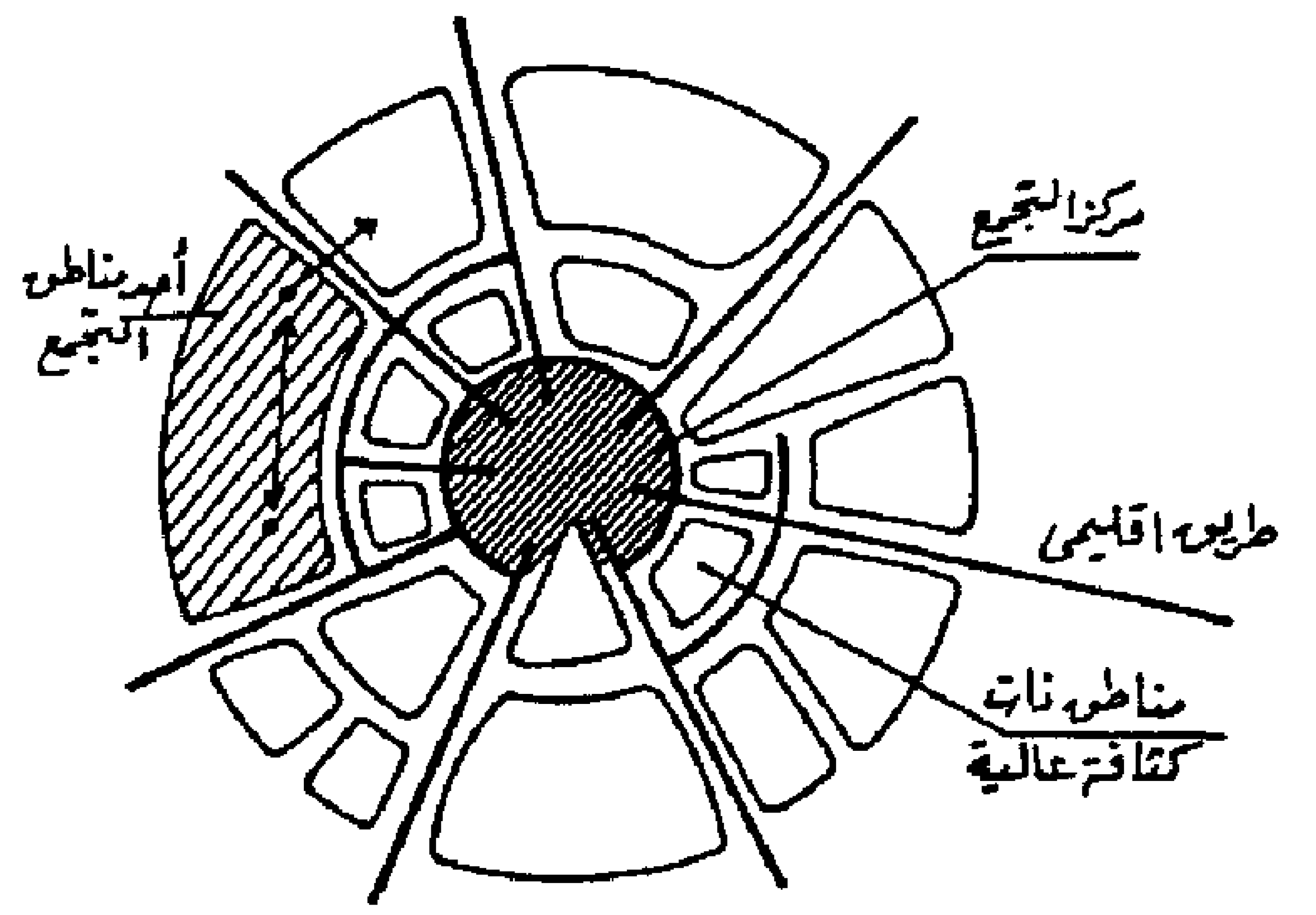
* **على المستوى المحلي :**

علاقة الحركات المختلفة من وإلى التجمع العمراني أو داخل التجمع نفسه .
علاقة الحركات المتنوعة داخل مناطق التجمع العمراني نفسه بتفاصيلها .

(شكل ٣)
على المستوى المحلى



(٣ أ)
أ إلى ب من خارج التجمع لخارج التجمع مارا به .
أ إلى جـ من خارج التجمع لداخله .
د إلى أ من داخل التجمع لخارجه .
جـ إلى د من داخل التجمع لداخله .



(٣ ب) علاقة المناطق ببعضها داخل التجمع وكذا الحركات داخل المنطقة الواحدة .

(شكل ٣)

من هذا التصنيف يمكن البدء في تحليل للأوضاع المختلفة للتعرف على ماهو تأثير العمران الممثل في التجمعات العمرانية الموزعة ومنتشرة ، كذا المرور الممثل في شبكة الطرق التي تربط هذه التجمعات ببعضها البعض على جميع المستويات سالفة الذكر .

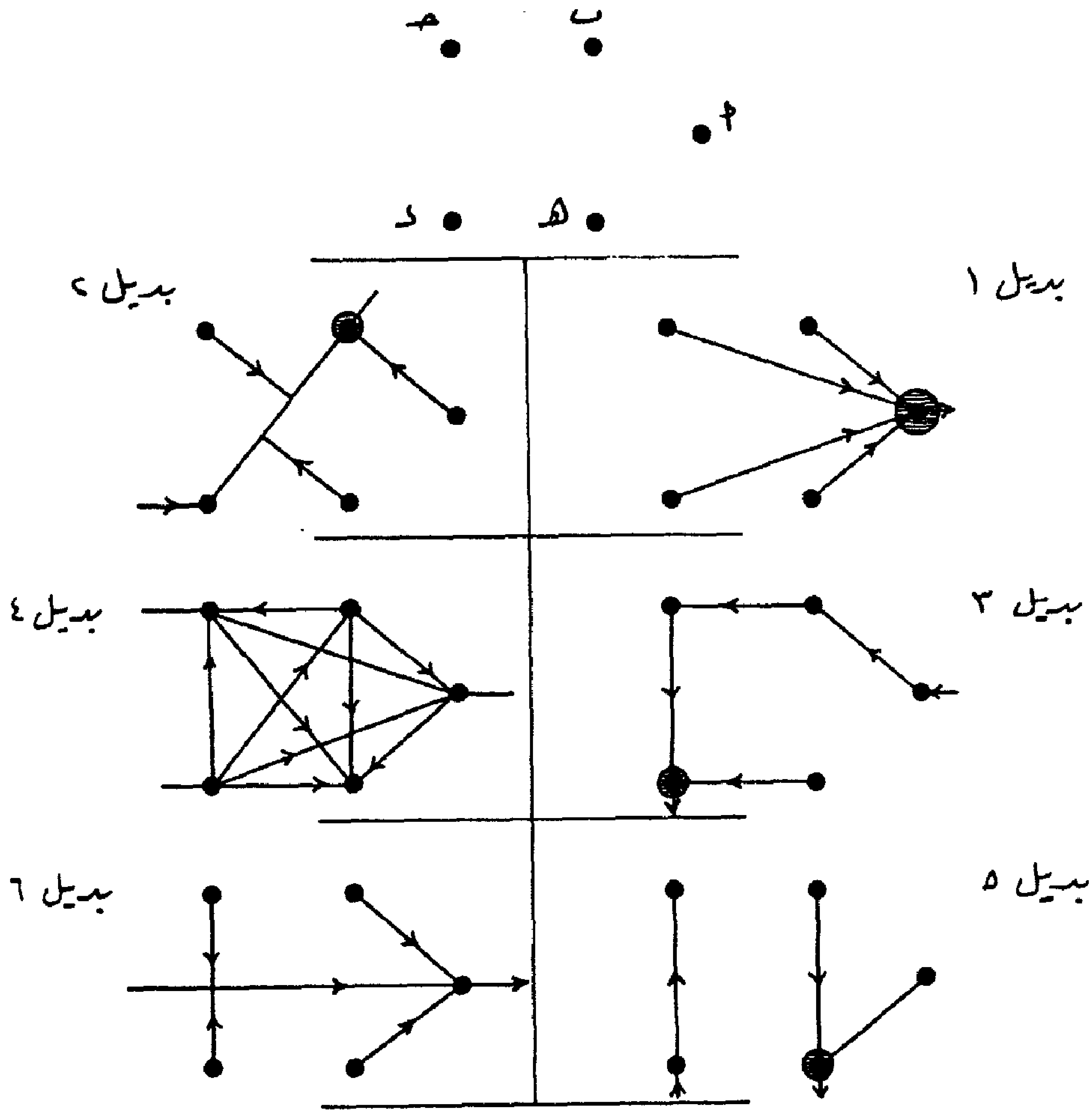
الجزء الأول : « التخطيط الاقليمي وشبكة الطرق وحوادث المرور »

١ ـ العلاقات المختلفة للحركات على المستوى القومي والاقليمي :

يتوزع وينتشر العمران في أي دولة على اقاليمها المختلفة في هيئة تجمعات عمرانية متعددة الأحجام والوظائف ونتيجة لتمركز العمران في مناطق معينة تظهر طرق لربط تلك المناطق بالدولة المجاورة ممثلة في مداخل ومخارج الدولة أو منافذها الرسمية سواء برياً أو بحرياً .

ثم تأتي شبكة الطرق التي تربط جميع التجمعات العمرانية بهدف سهولة تنقل ووصول السكان والبضائع والأخبار للسكن والأنشطة والخدمات بين التجمعات وبعضها وهي ما تسمى من الوجهة التخطيطية بشبكة التجمعات العمرانية .

بدائل مختلفة لشبكة الربط بين خمس تجمعات سكنية



(شكل ٤)

هذه الشبكة تصمم على أسس وقواعد وليس فقط من الوجهة المرورية من أنواع الطرق وكثافاتها وخلافه بل يجب أن يكون هناك تدرج هرمي للتجمعات العمرانية بناءاً على أهمية ووظيفة كل تجمع وحجمه ودوره في هذه الشبكة فهناك علاقة وثيقة بين المرور والتجمعات وتظهر أحياناً بعض المشاكل التي تتسبب في ظهور الاختناقات وارتفاع معدلات الحوادث المرورية .

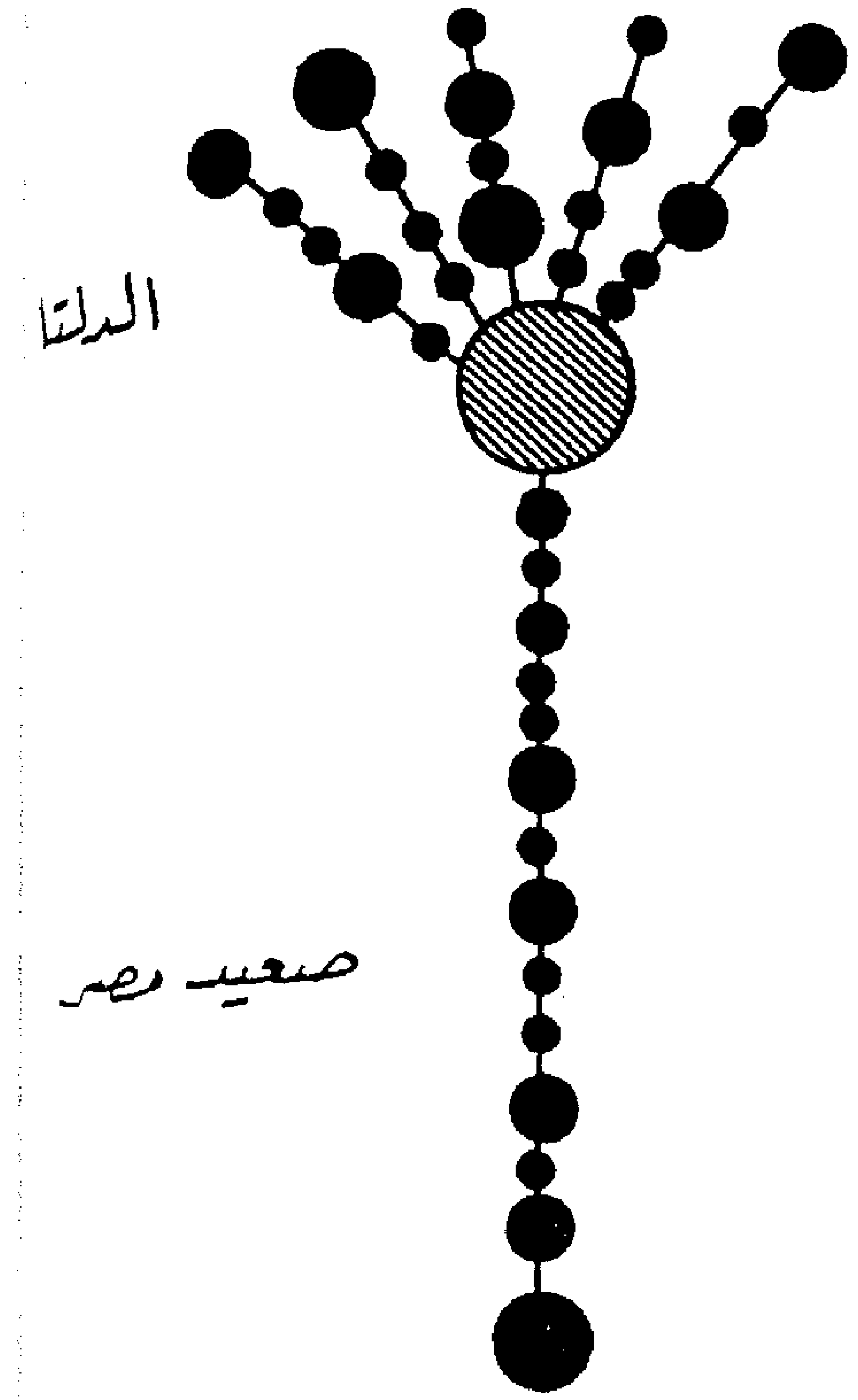
ومن تلك المشاكل :

١ / ١ عدم وضوح المداخل والمخارج الرئيسية للدولة :

عدم وضوح المداخل والمخارج يعمل على صعوبة الوصول لمنطقة هدف الرحلة مما يتسبب في مشاكل عدة ، ونظراً لعدم وجود تدرج للطرق أحياناً وعدم ملائمتها لشبكة التجمعات يحدث خلط في تحديد أهمية الطرق وكثافته المرورية فمن طريق رئيسي إلى فرعي ثم رئيسي ومن طريق سريع فمتوسط إلى سريع مما يتسبب في رفع نسبة الحوادث وخاصة لعربات نقل البضائع والشاحنات .

١ / ٢ مركزية الشبكة :

المركزية لشبكة الطرق الخارجية لاحد التجمعات (غالباً ما تكون العاصمة) سواء الشبكة الواصلة بين باقي التجمعات المجاورة وهذا التجمع أو بينه وبين الدول المحيطة وهو ما يطلق عليه اشعاعية الشبكة ومن أمثلة ذلك :
- تمركز الشبكة (شبكة التجمعات العمرانية) وتلاقيها عند مدينة القاهرة - ج . م . ع

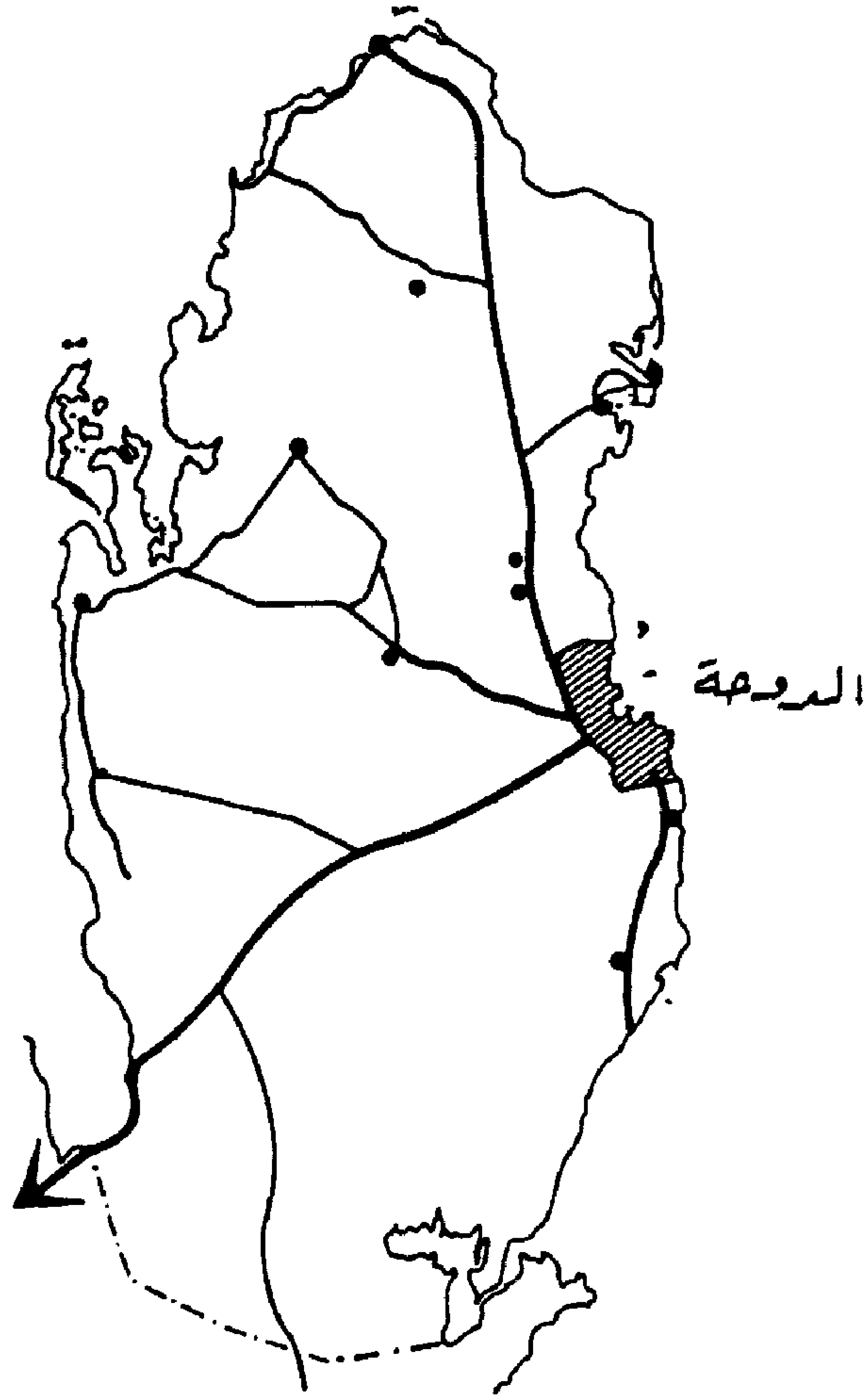


شبكة التجمعات العمرانية فى ج.م.ع وتمركزها فى مدينة القاهرة .

(شكل ٥)

هذا من أكبر الأسباب التي أدت إلى ازدياد حجم التجمع وخدماته وبالتالي زادت المشاكل المرورية سواء على الطرق المؤدية إليها أو داخلها .

ـ كذا تمركز شبكة الطرق الاقليمية عند مدينة الدوحة ـ قطر



شكل (٦)
تمركز شبكة التجمعات
عند مدينة الدوحة العاصمة بقطر

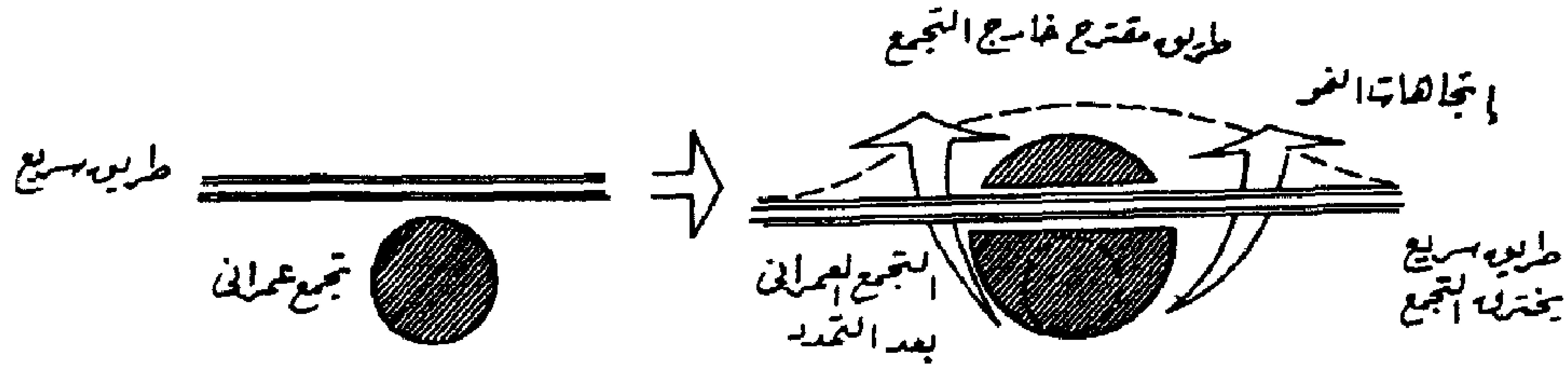
أدى ذلـك لزيادة الكثافة المرورية على المستوى القومي والاقليمي على هذه الشبكـة نظراً للأهمية القصـوى التي اعطاها التركيز الزائد للشبكة على هذا التجمع بالذات مما تسبب في زيادة اعداد المركبات سواء القادمة أو المغادرة

وعمل بالتالي على رفع نسب الحوادث والاختناقات بتلك النقط الهامة لمداخل التجمع وداخله .

١/٣ الزحف العمراني تجاه الطرق الاقليمية السريعة :

التجمعات العمرانية كأي كائن حي فهي دائمة ومستمرة النمو والتمدد لذلك إذا لم يحدد التخطيط اتجاهات النمو المستقبلية من الممكن ان يمتد التجمع عشوائياً في أي اتجاه وغالباً ما يكون تجاه الطرق السريعة ـ لذلك هناك محددات تخطيطية لنمو التجمعات من خلالها يمكن التحكم في اتجاهاته تفادياً للمشاكل الناجمة عن ذلك .

من أهم تلك المشاكل هي الامتداد والزحف نحو الطرق السريعة وبعد مدة يصبح هذا الطريق مخترقاً للكتلة العمرانية وعليه سرعة مرورية عالية مما يتسبب في حوادث مرورية سواء للمركبات أو المشاه أو الحيوانات والماشية خاصة إذا ما كان التجمع على طريق سريع زراعي .



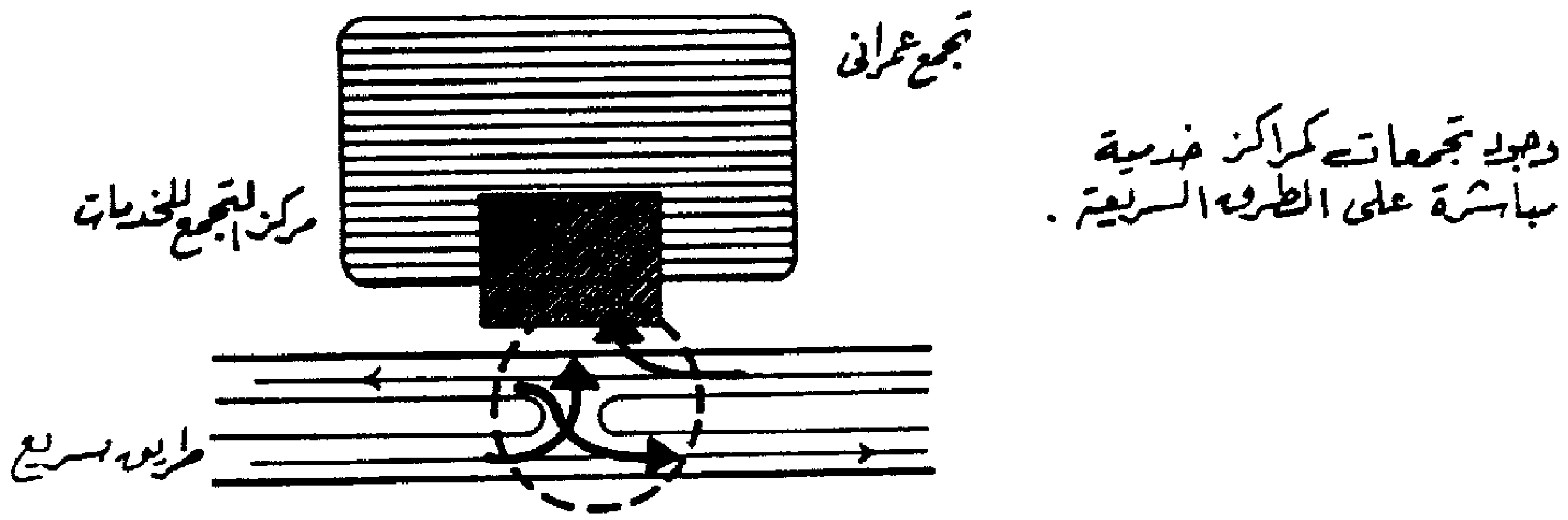
(٧ أ)　　(٧ ب)

(شكل ٧)

١/ ٤ وجود تجمعات تعمل كمراكز خدمة على الطرق السريعة :

تقع بعض التجمعات العمرانية في مواقع متوسطة بين تجمعين رئيسيين يصلهم ببعض طريق سريع وهذه التجمعات المتوسطة غالباً ما تلعب دور مركز

خدمة على الطريق السريع ، ومن هنا تكمن المشكلة حيث تصبح مواقع هذه التجمعات نقاط تقاطع على الطريق نظراً لدخول وخروج المركبات للتزويد بالخدمات علماً بأن الطرق ذات سرعة مرورية عالية وبذلك تكون هذه المواقع بمثابة نقط الخطر على الطرق السريعة .



(شكل ٨)

١/ ٥ فصل الحركات المختلفة للنقل :

في بعض أجزاء الطرق السريعة بين تجمعيين رئيسيين يوجد أكثر من نوع من مركبات النقل (خصوصي ـ تاكسي ـ أتوبيس ـ شاحنات) ولكل نوعية سرعة وشروط تصميمية خاصة لذلك في حالة عدم فصلهم تزداد معدلات الحوادث على الطرق علماً بأنه يمكن فصلهم وذلك يتأتى عن طريق دراسة استخدامات الأرض المحيطة ومواقع التجمعات العمرانية والمناطق الصناعية والزراعية ومواقع المواني وتخصيص طرق للنوعيات المتشابهة من مركبات النقل والمتمشية مع الاستخدامات التي تمر بها .

١/ ٦ ثبات عروض الطرق خارج وداخل التجمع :

الطرق السريعة لها تصميم خاص لقطاعاتها نظراً لعوامل عدة لذلك تظهر في عروض محددة وملائمة للهدف من تصميمها كطرق سريعة . لكن المشكلة في ثبات عروض هذه الطرق بعد أن تصل للتجمع (منطقة الهدف) وتصبح طرق

داخلية أي داخل الحيز العمراني بنفس العرض السابق علماً بأن تصميم الطريق الداخلي يختلف عن سابقه . وبذلك لايشعر سائقي المركبات أنهم انتقلوا إلى حدود العمران مما يتسبب في مشاكل مرورية وأغلبها نابع من سرعة المركبات .

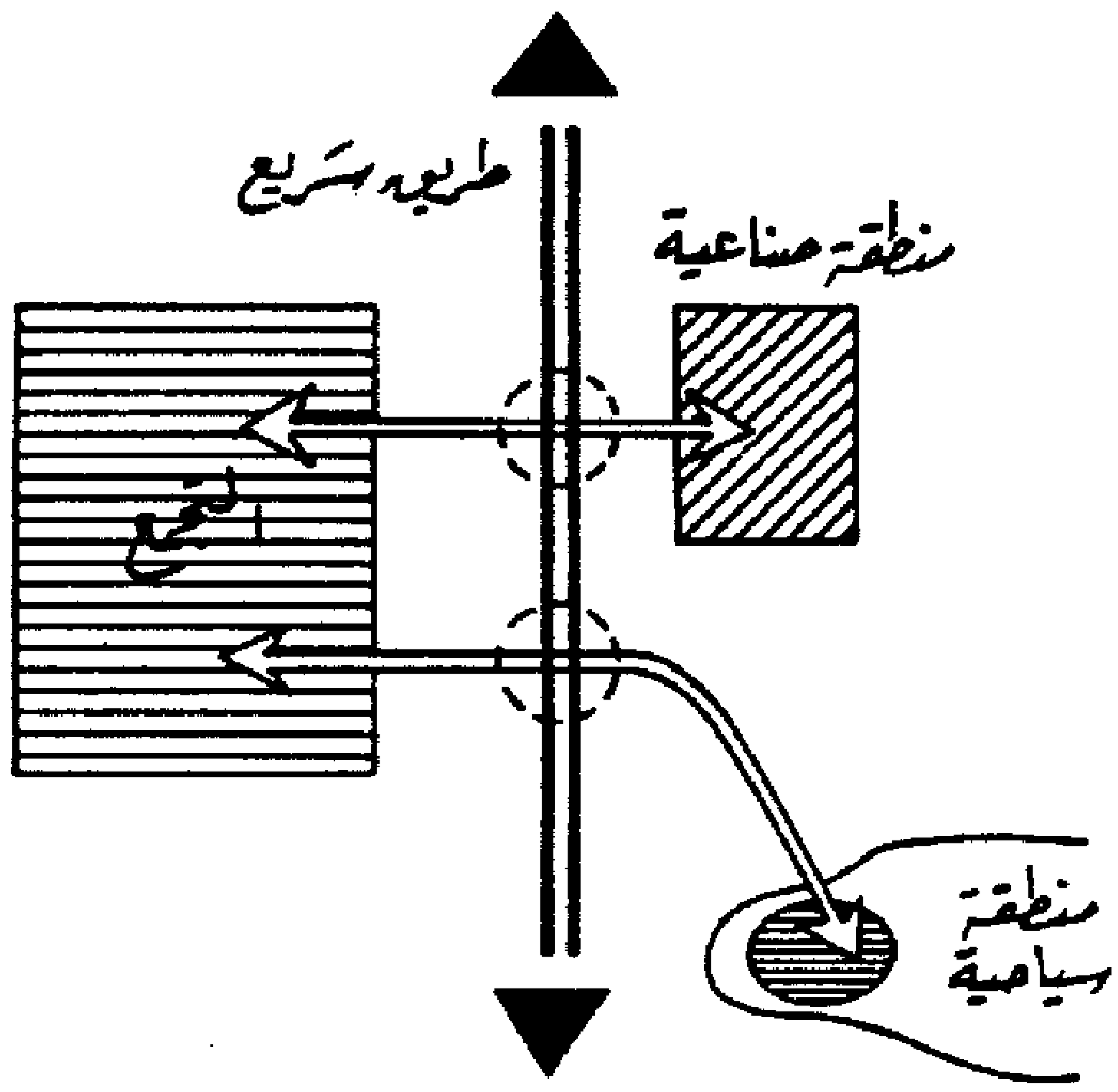
ومن أمثلتها الواضحة بمدينة العين ـ إمارة أبوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة .

- في بعض الحالات تكون الشبكة الاقليمية لها اتصال مباشر بمركز التجمع العمراني مخترقة المناطق السكنية مباشرة للمركز وغالباً ما تكون شاحنات .

هذا يعني نقل حركة المرور والشحن من المستوى الاقليمي للمستوى المحلي الداخلي دون أي تدرج بالطريق أو تعديل في قطاعاته مما يتسبب عنه العديد من الاختناقات والمشاكل المرورية .

١/٧ عدم تكامل شبكة الطرق الاقليمية وتخطيط التجمع وشبكة الطرق الداخلية :

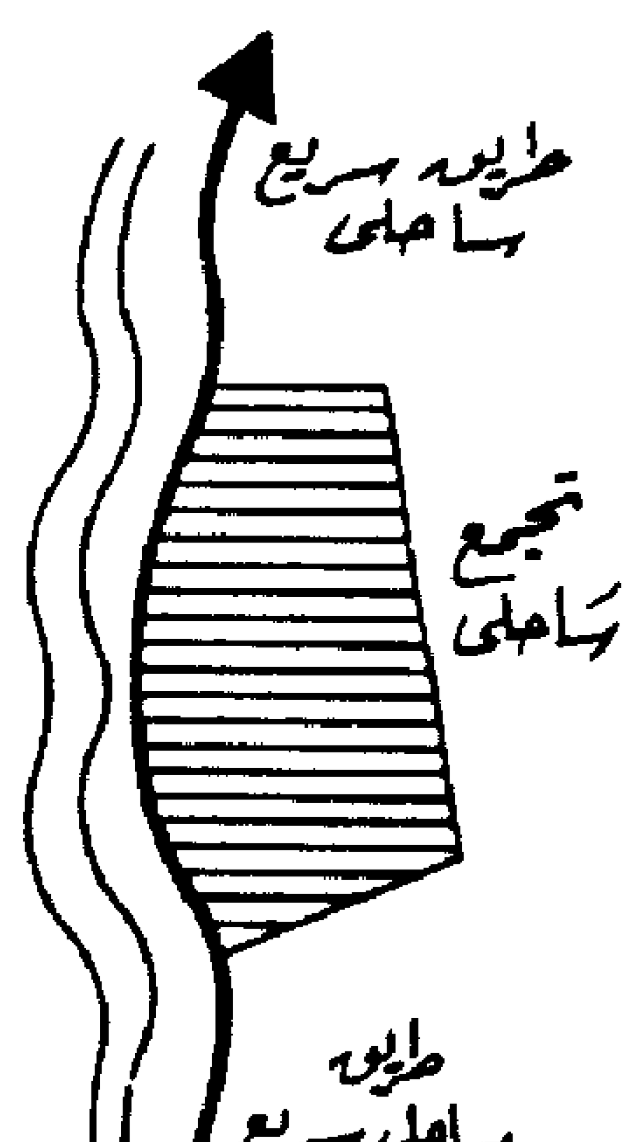
مما لاشك فيه أنه يجب العمل على تكامل شبكة الطرق الاقليمية وتخطيط التجمع نفسه أي شبكة الطرق الداخلية ففي بعض الحالات يكون التخطيط عمل على فصل بعض الاستعمالات مثل الاستعمال الصناعي أو موقع سياحي أثري متواجد خارج الحيز العمراني وبذلك تظهر حركات وعلاقات مستمرة بين التجمع وتلك الاستعمالات المنفصلة لكن في كثير من الأحيان تقطع مسارات الطرق الاقليمية هذه العلاقات دون أي تكامل بين تخطيط التجمع واستخداماته المنفصلة والطرق الاقليمية مما يتسبب في مشاكل تخطيطية من نمو تجاه تلك الطرق هذا بخلاف الحوادث الناجمة عن تقاطع الشبكتين الداخلية والاقليمية .



(٩أ): وجود بعض الاستعمالات التابعة للتجمع من جهة أخرى لطريق سريع .

(شكل ٩ أ)

وفي حالة أخرى عندما يكون هناك طريق ساحلي سريع ثم يعترض مساره تجمع ساحلي ويستمر الطريق داخل التجمع ويكمل رحلته على الساحل وبذلك يكون قد لعب دور الكورنيش للتجمع بالرغم من أن وظيفته الغالبة طريق سريع دون أي تكامل مع الشبكة الداخلية للتجمع نفسه والاعتبارات التصميمية لكل وظيفة من الطرق .



(٩ب) إمتداد واستمرارية الطريق الساحلي مخترقاً التجمع نفسه على كورنيش الحيز العمراني

(شكل ٩ ب)

٢ ـ العلاقات المختلفة على المستوى المحلي والتفصيلي :

العلاقة بين شبكة الطرق الداخلية بالتجمعات العمرانية وثيقة وحساسة حيث أن التلاحم بين السكان والمرور على أعلى درجاته داخل التجمع نفسه والذي يتكون من أنشطة مختلفة واسكان وسكان وتتم العلاقة بينهم عبر القنوات المرورية .

لذلك فهناك علاقة بين الثلاث عناصر الرئيسية ـ تتجسد تلك العلاقات وتظهر في هيئة استعمالات للأراضي موزعة طبقاً للتخطيط المقترح للتجمع وتنحصر في :

أ ـ الاستعمال السكني : بأنواعه المختلفة وكثافاته المتدرجة .

ب ـ الاستعمال الخدمي : ويتمثل في الخدمات ومراكزها المتدرجة والموزعة على التجمع نفسه من خدمات : دينية ـ إدارية ـ تجارية ـ تعليمية ـ صحية ـ ثقافية ـ ترفيهية واجتماعية ـ رياضية ـ سياحية . .

جـ ـ الاستعمال الصناعي : ويتمثل في المناطق الصناعية بأنواعها ودرجاتها المختلفة .

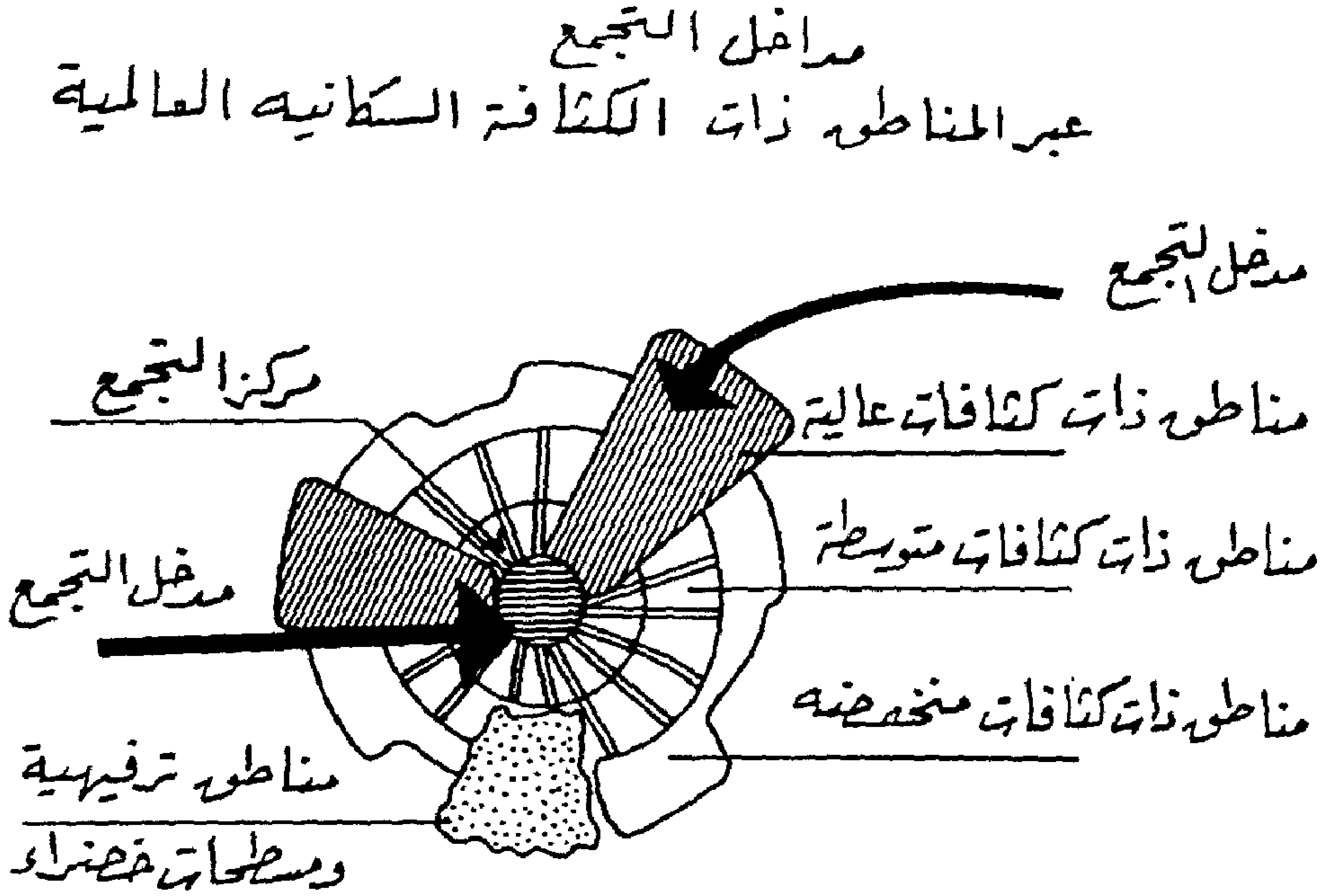
د ـ المناطق الخضراء : وهي تتمثل في المسطحات الخضراء بادئة بالحديقة الخاصة بالمسكن فحديقة المجاورة وتنتهي بالحديقة العامة للتجمع .

هـ ـ المقابر : وهي مساحات مخصصة للدفن .

وهناك حركات دائمة ومستمرة بين تلك الاستعمالات وبعضها داخل التجمع عبر شبكة المرور ويتأتى من تلك العلاقات بعض المشاكل منها :

٢/١ مداخل التجمع من المناطق ذات الكثافة المرتفعة :

عدم تكامل الشبكة الاقليمية والداخلية للطرق خارج وداخل أي تجمع يعمل على ظهور مشاكل مرورية تؤدي بالتالي لزيادة معدلات الحوادث ومنها وجود مداخل ومخارج التجمع نفسه من خلال مناطق الاستعمال السكني ذات الكثافات السكانية المرتفعة ـ أي منطقة بها حركات مرورية عالية تخترقها طرق أيضاً ذات كثافات وسرعات مرورية عالية مما يحدث تعارض وتصادم بين الحركتين ـ ومن أمثلة ذلك المدخل الزراعي للقاهرة من شبرا .



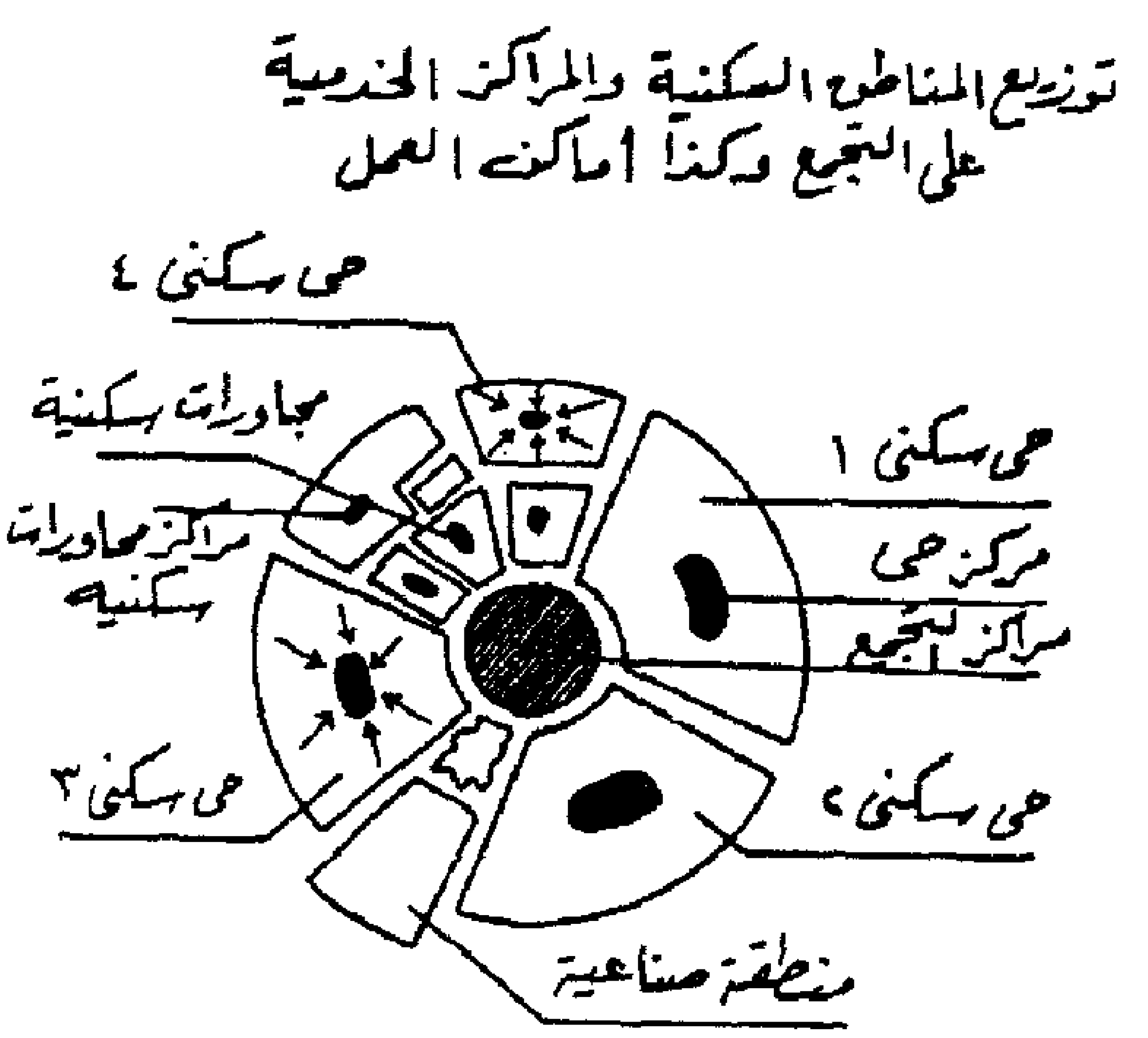
(شكل ١٠)

٢/٢ عدم تحديد تدرج لمناطق الاسكان والخدمات :

لكل استعمال من الاستعمالات سابقة الذكر تدرج هرمي فالسكان تتدرج مناطقهم السكنية طبقاً للكثافة (اسكان ذو كثافة مرتفعة ـ اسكان متوسط ـ اسكان منخفض الكثافة) وبالتالي ارتفاع المباني يختلف أيضاً ـ وكذا الخدمات الممثلة في مراكز خدمية من مركز رئيسي للتجمع ـ مركز حي ـ مركز مجاورة سكنية

وأحيانـاً مركـز مجمـوعة سكنية ومن خلال هذا التدرج تتحدد المناطق السكنية ومراكزها الخدمية وهكذا يمكن العمل على الاقلال من حركة النقل والمواصلات داخل التجمع عن طريق توفير الخدمات الفرعية بالقرب من المناطق السكنية وداخلها .

أما في حالة عدم وجود هذا التدرج وتحديده نجد أن هناك تشابك بين الحركات المرورية بجميع المناطق سواء لرحلة العمل أو لمركز الخدمة من تجارية ـ تعليمية ـ صحية . . . وناتج هذا التشابك الغير مخطط وشبكة الطرق غير ممهدة لاستيعاب هذا المرور مما يتسبب عند حوادث واختناقات داخل المناطق السكنية وبالمراكز .





(شكل ١١)

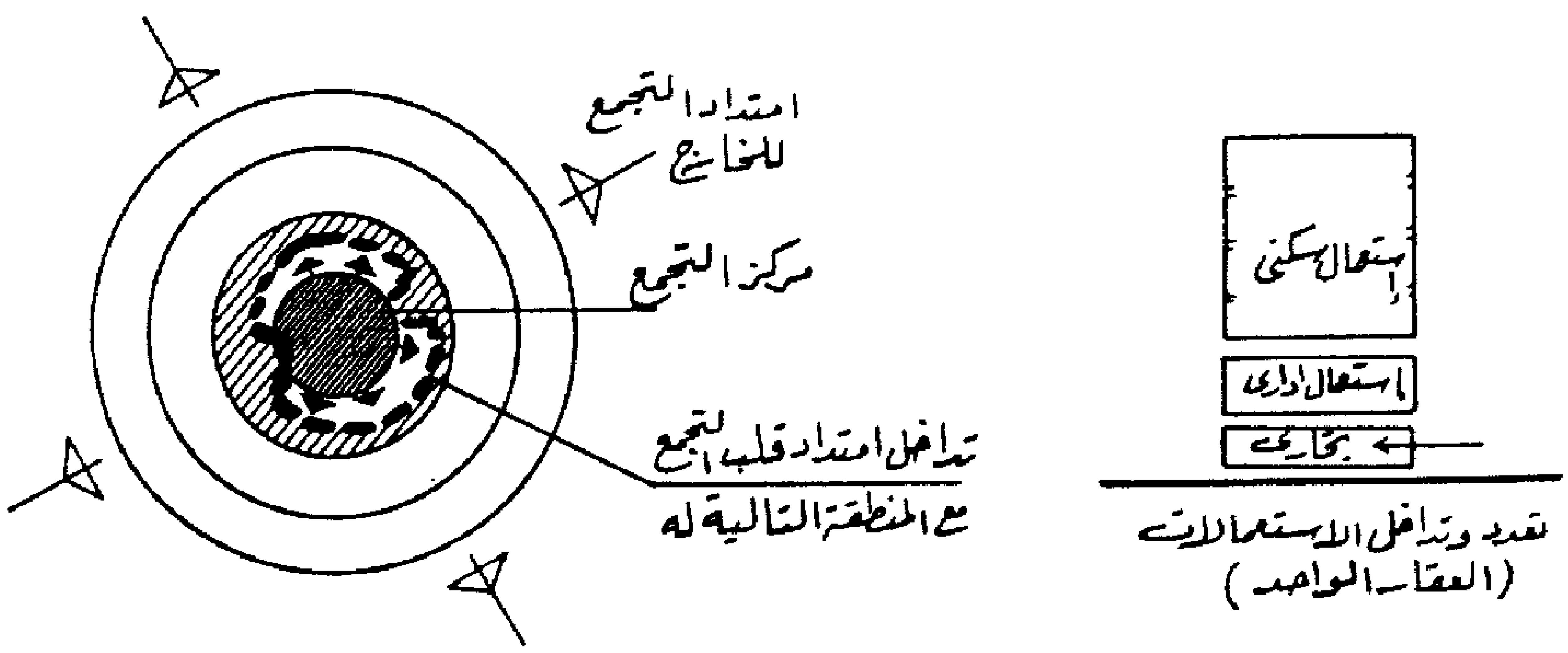
٣/٢ تداخل الاستعمالات بمنطقة مركز التجمع ببعضها وبالاستعمالات المجاورة :

يحدد التخـطيط لأي تجمـع المنـاطق الـلازمـة للامتداد المستقبلي حيث ان التجمعات العمرانية كما ذكر من قبل كأي كائن حي دائمة الامتداد وعليه في حالة ما إذا لم يحدد مكان لامتداد كل استعمال خاصة للمنطقة المركزية تتداخل هذه الاستعمالات .

التداخل في حد ذاته ليس مشكلة حيث أنه يكون مطلب في بعض الحالات وأحياناً تداخل للاستعمالات في المبنى الواحد لكن للاستعمالات المتجانسة والمتكاملة وليس المتنافرة التي لايمكن تداخلها مثل الاستعمال الديني والترفيهي يجب العمل على تباعدهم عن بعض .

وفي حالات أخرى إذا لم يكن هناك أماكن محددة لامتداد قلب التجمع كوحدة واحدة يحدث تداخل بينه وبين الاستعمال التالي له وفي أغلب الحالات خاصة في التجمعات ذات التاريخ تكون أول منطقة ملاصقة لمنطقة المركز هي منطقة انتقالية ذات تداخلات من خدمات مركزية واسكان وتجارة جملة وورش وخلافه بجانب المكاتب المهنية والإدارية .

وبما ان شبكة الطرق تختلف من استعمال لآخر خاص للمناطق المركزية التي تتطلب طرق للكثافات العالية كذا حركات للشحن والتفريغ علاوة على المساحات الكبيرة من مواقف انتظار السيارات وكذا الطرق ذات الاتجاه الواحد - لذلك إذا ما تداخلت الاستعمالات أصبح من الصعب متابعة هذا التداخل وتوفير متطلبات كل استعمال من الوجهة المرورية مما يتسبب في سوء التخطيط على شبكة الطرق وظهور الاختناقات التي تعمل على طول زمن الرحلة للمركبات المختلفة .



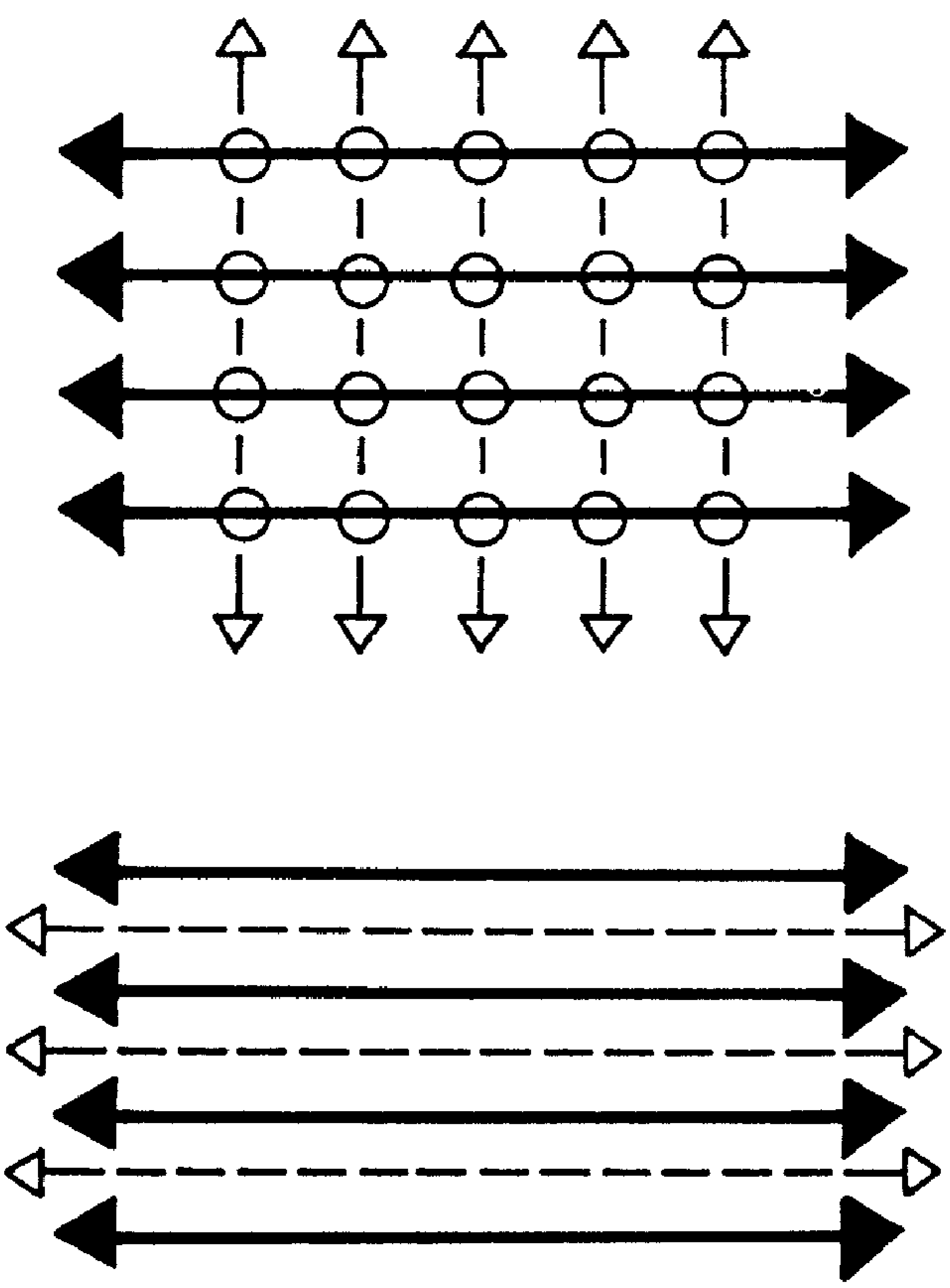
(شكل ١٢)

٢/ ٤ عدم وجود شبكة مشاه محددة وتداخلها مع شبكة الطرق داخل التجمع :

التحركات المختلفة داخل أي تجمع ليست بالدرجة الأولى للمركبات بأنواعها ولكن أولاً وأخيراً للمشاه والمترددين والقاطنين والمستعملين للاستعمالات العديدة في أي تجمع عمراني وليس لمستخدمي السيارة فقط .

لذلك فهناك رحلات تتم للمشاه ـ ومن هنا كان على التخطيط دور رئيسي في تحديد شبكة للمشاه تماثل شبكة المركبات ومتدرجة أيضاً بحيث يمكن الوصول من استعمال لآخر عبر تلك الشبكة وخاصة في التجمعات العمالية أو المخصصة للعاملين بالصناعة على مختلف أنواعها .

ويعمل التخطيط على الا تتقاطع شبكة المشاة مع شبكة الطرق بل تكون موازية لها كلما أمكن ذلك للاقلال من نقاط التقاطع والتي تتطلب لاعمال مدنية خاصة (انفاق ، كباري)



محاولة جعل شبكة المشاه متمشية وشبكة الطرق وليست متقاطعة لتجنب الأعمال المدنية الكثيرة سواء أنفاق أو كباري والعمل على منع الحوادث المرورية للعابرين (المشاة)

(شكل ١٣)

وفي حالة عدم وجود ووضوح لشبكة المشاة على مستوى التجمع تزداد معدلات الحـوادث المرورية للمشاة وخاصة في المنطقة المركزية التجارية والإدارية حيث ترتفع نسب المترجلين في تلك المناطق .

٢/ ٥ عدم تحديد لاماكن انتظار السيارات والجراجات متعددة الطوابق :

هناك استعمالات ذات نسب عالية من المترددين عليها بالسيارات والمركبات المختلفة لذلك عند توزيع استعمالات الأراضي يجب أخذها في الاعتبار وتوفير الأماكن اللازمة لانتظار المركبات مع دراسة لحركة دخول وخروج تلك المركبات وشبكـة الـطرق واتجاهات الحركة عليها حتى لاتتسبب في ظهور نقاط اختناق وبـالتالي حوادث مرورية واعاقة للحركة ومن تلك المناطق (الأسواق التجارية المجمعـة ـ منـاطق البنـوك ورجـال الأعمال ـ الفنادق في مركز التجمع . . . . المنشآت الرياضية) وتفادياً لاستخدام الدوارات والميادين العامة أحياناً كمواقف لانتظار السيارات كما هو في أغلب المدن المليونية مثل ميدان التحرير بالقاهرة .

٢/ ٦ عدم مراعاة العوامل البيئية والاجتماعية والاقتصادية للتجمع :

عند تصميم شبكة الطرق يجب الأخذ في الاعتبار للعوامل البيئية المحلية سواء عوامل طبيعية من خطوط كنتور أو مرتفعات أو أودية ومخرات سيول وأحياناً عدم إساءة للعناصر الطبيعية الموجودة بموقع التجمع من أشجار وخلجان . . . . على ان يتعامل معها التخطيط بحيث تكون الحلول نابعة من البيئة وغير ملوثة أو مدمرة لها بل متمشية ومتكاملة معها .

كذا العوامل الاجتماعية سواء كان التجمع عاصمة حضرية أو مدينة أو قرية ومدى تأثير ذلك على معدلات نمو السكان المستمرة ومعدلات امتلاك السيارات للأسر ـ والتغييرات الاجتماعية ذات التأثير المباشر للمناطق المختلفة واستعمالاتها على شبكة الطرق والمرور بالتجمع .

أما العوامل الاقتصادية وذلك من خلال دراسة لتصميم الأعمال المدنية من كباري وانفاق وتقاطعات على مستويات وعلاقتها بحجم ووظيفة التجمع ومدى أهمية دوره في شبكة التجمعات العمرانية ـ كل هذا لسهولة سيولة المرور وأمن المواطنين ومنعاً للحوادث المرورية والحفاظ على البيئة خاصة في المواقع ذات الطبيعة الواعرة .

الجزء الثالث : « الخلاصة والتوصيات »

مما سبق يتضح أن هناك علاقة بين توزيع التجمعات العمرانية لأي دولة وشبكة الطرق والحركة المرورية على المستوى القومي والاقليمي فكلما زاد تمركز هذه التجمعات زادت الشبكة والعكس صحيح كلما تواجدت الشبكة ممثلة في الطرق المختلفة زحف العمران على امتدادها حيث أن الطريق هو شريان الحياة لأي تجمع وللعمران فهو الذي يمده بوسائل العيش من خدمات واتصالات وأخبار وخلافه كذلك يربطه بما حوله قومياً ودولياً .

شبكة الطرق لايقتصر دورها على وصل التجمعات العمرانية ببعضها لكن هي أيضاً التي تعمل داخل التجمع على ربط السكان بمكان العمل والخدمات أي الرحلات اليومية التي تتم عبر القنوات المرورية وذلك على المستوى المحلي والتفصيلي للمناطق بالتجمع .

أي أن من مكونات وعناصر أي تجمع عمراني هي شبكة الطرق خارجياً وداخلياً وتكاملها مع باقي العناصر يعمل على نجاح التخطيط بهدف راحة السكان وآمانهم وتفادياً للمخاطر الناجمة عن الحوادث المرورية التي تزداد معدلاتها بزيادة وتطور المركبات المختلفة .

ومن بعض نتائج أبحاث تمت على شبكات الطرق وعلاقتها بالعمران في ج.م.ع سواء طرق اقليمية (طريق زراعي يخترق تجمعات عمرانية بها كثافة

سكـانية ضخمـة وآخر صحراوي خالي من حركة المشاة . . .) أو طرق محلية تشمل أحياء سكنية لذوي الدخل المرتفع وأخرى تضم فئات من السكان الأقل في الـدخل وأحياء أخرى ذات الأنشطة التجارية المكثفة والبنوك والمستشفيات وأماكن اللهو . . . .

* **ومن نتائج هذه الأبحاث عام ١٩٨٥ (ج.م.ع)(٩) :**

اجمالي عدد الحوادث المرورية هي ٣٥٦٢ حادث منها على الطرق الاقليمية ١٣٦٥ حادث أي يمثل ٣٨,٣٪ من اجمالي عدد الحوادث و٢١٩٧ حادث داخل التجمعات نفسها بنسبة ٦١,٧٪ من اجمالي عدد الوحدات في الفترة التي تم فيها البحث .

وتعتـبر الـطرق الـزراعية التي تخترق تجمعـات عمرانية عليها أعلى نسبة في حوادث الـطرق الاقليمية فتمثل ٣٠,٨٪ من الحوادث أما الطرق الصحراوية فهي أقل بمتوسط ٩,٤٪ .

كذلك وطبقاً لنوع التصادم يتضح ان الطرق الخارجية الزراعية بها أعلى نسبة تصـادم مع المشـاة حيث تمثل ٢٧,١٪ من اجمالي الحوادث ويرجع ذلك لمرور الـطرق بالتجمعـات العمـرانية وقـرى مزدحمـة ولوقوع المساكن واستخدامات الأراضي الهامة على جانبي الطريق مع كثرة حركة عبور المشاة في مناطق غير آمنة .

أما بالنسبة للحوادث داخل التجمع :

أعلى نسبة حوادث في المناطق ذات الداخل المرتفع وتمثل ٥١,١٪ والسبب هو ارتفاع معدل ملكية السيارات التي يمتلكها الشباب حيث تمثل اعداد المركبات المشتركة في الحوادث بتلك المناطق حوالي ٥٢,٢٪ من اجمالي عددها .

وتمثل حوادث التصادم من الجانب أكثر أنواع الحوادث في الطرق الداخلية للتجمع هي ٤١,٣٪ من اجمالي عدد الحوادث .

* أما في دولة قطر (١٠) فأعلى نسبة حوادث في إدارة مرور العاصمة حيث تمثل الحـوادث المـرورية (قضايا) لعام ١٩٩٠ حوالي ٧٧,٤٪ من اجمالي نسبة الحوادث . ويتبين من هذا مدى تأثير تركيز السكان وشبكة الطرق على ارتفاع معدل نسبة الحوادث في منطقة العاصمة التي زادت من عام ٨٧ ـ ٩٠ بنسبة ٣٠,١٪ ونسبة المصابون في حوادث الطرق زادت من ٨٧ ـ ٩١ بنسبة ٥,٣٪ .

نستنتج من تلك المؤشرات الاحصائية مدى خطورة العلاقة بين التجمعات العمـرانية وشبكـات الـطرق الخارجية والداخلية والتي يجب العمل على تلافي أسباب حدوثها وحل لمشاكلها وذلك بهدف الاقلال من معدلات الحوادث حفاظاً على سلامة وأمن السكان .

٣/ ٢ التوصيات :

- التجمعات العمرانية موزعة بصور مختلفة على الدول ويربطها ببعضها كما سبق الذكر شبكة طرق سواء قومية أو اقليمية أو داخلية والتجمعات العمرانية تؤثر وتتأثر بشبكة الطرق فالعلاقة وثيقة ومن هذا المنطلق من اللازم والواجب عند وضع تخطيط سواء قومي أو أقليمي للدولة مراعاة تصميم الشبكة حيث أنها ناتـج فاعليات دينـاميكية للسكـان ـ أنشـطة (صنـاعة ـ زراعة ـ سياحة ـ خدمات . . . .) لذلك من خلال العلاقات القومية والأقليمية يمكن تحديد أنسب المداخل والمخارج للدولة وامكانية سهولة الربط بالتجمعات العمرانية الرئيسية وخاصة العاصمة مركز الحكم .
- العمل على وضع تدرج هرمي لشبكة الطرق طبقاً للتدرج الهرمي للتجمعات العمرانية من جهة تعدادها ـ أهميتها ووظيفتها ـ الكثافة المرورية منها وإليها تفادياً لمركزية الشبكة لأحد التجمعات دون الباقي .
- تحديد لاتجـاهات النمو لكل تجمع حتى لايتعدى على الأراضي الزراعية أو

مناطق ذات ثروات طبيعية أو اهدارها كذلك عدم زحف التمدد على طول الطرق السريعة .

- العمل على تكامل الشبكة الداخلية والخارجية بالتجمعات طبقاً لتوزيع استخدامات الأراضي المقترح ويتأتى ذلك من خلال العمل على توزيع السكان والأنشطة والخدمات بحيث يكون هناك خطة مدروسة متكاملة مع شبكة الطرق المقترحة .

كل هذا بهدف الاقلال من الرحلات المرورية داخل التجمع مع سلامة وأمن السكان عند التنقل .

- العمل على تحديد شبكة مشاه على مستوى التجمع بحيث تسمح للتنقل دون أي اخطار عند نقط تلاقي الشبكتين المشاه والطرق ومنعاً للحوادث ذات المعدل المتزايد .

- اعداد الخطة المستقبلية لاستيعاب التطورات الدائمة سواء للمركبات أو الطرق حيث يتماشى ويساير التخطيط تكنولوجيا العصر الحديث .

المراجـــع

١ ـ أحمد خالد علام ، **تخطيط المدن** ، مطبعة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٠م .

٢ ـ عبد الحميد عبد الواحد ، **مقدمة في تخطيط النقل الحضري** ، القاهرة ١٩٨٧م .

٣ ـ محمود حسن نوفل ، **التخطيط العمراني في الماضي والحاضر** ، أسيوط ١٩٩١م .

٤ ـ إسماعيل عامر ، **أهمية سياسة التخطيط الاقليمي لتطوير شبكات التجمعات العمرانية وتطبيقها على ج.م.ع** ، رسالة دكتوراه ، المجر ١٩٧٣م .

٥ ـ إسماعيل عامر ، **زيادة السكان وتوزيعهم على أقاليم الجمهورية** ، بحث مجلة جمعية المهندسين المصرية ، العدد الأول ، ١٩٧٨م ، المجلد السابع عشر ، القاهرة ١٩٧٨م .

٦ ـ إسماعيل عامر ، **التخطيط الاقليمي ومدى الاستفادة من تجارب الدول المختلفة وإمكانية تطبيقه في الدول النامية** ، بحث ، مجلة جمعية المهندسين المصرية ، العدد الأول ، ١٩٧٩ ، المجلد الثامن عشر ، القاهرة ١٩٧٩م .

٧ ـ إسماعيل عامر ، **تمركز السكان في ج.م.ع والانفجار السكاني** ، بحث مجلة الجمعية الافروآسيوية للسكان ، العدد الأول ١٩٧٩م ، المجلد التاسع ، القاهرة ١٩٧٩م .

٨ ـ إسماعيل عامر ، **الانفجار السكاني للتجمعات العمرانية والنمو العشوائي** ، بحث في مؤتمر مستقبل التجمعات العمرانية في مصر في إطار التخطيط الاقليمي ٢٢ ـ ٢٣ مارس ، القاهرة ١٩٨٨م .

٩ ـ بيانات إحصائية ، إدارة مرور القاهرة ، ج.م.ع ١٩٨٥م ، القاهرة ١٩٨٥م .

١٠ ـ بيانات احصائية ، المجموعة الاحصائية السنوية ، الجهاز المركزي للاحصاء ، قطر ١٩٩٢م .

الاستشعار عن بعد وتطبيقاته
في التخطيط العمراني

د . محمد الخزامي عزيز
مدرس بقسم الجغرافيا - جامعة قطر

١) مقدمــــة

بالرغم من أن عملية التصوير الجوي باستخدام الطائرات تعتبر عملية مسح سريعة لسطح الأرض بالمقارنة بتلك الطرق التقليدية أي عمليات المسح الأرضي ، إلا أنها تتأثر بعامل رئيسي وهو الطقس وحالة الجو ، حيث يلزم لاجراء التصوير الجوي الناجح والضروري لانتاج خرائط أن يكون الجو صحواً وخالياً من الغيوم حتى تكون الصور صالحة للتحليل الفوتوجرامتري ، ولذلك لا يمكن إجراء المسح الجوي إلا في أيام الصيف ويبدو تأثير هذا العامل واضحاً في الأقاليم الواقعة في العروض المعتدلة حيث تندر الأيام ذات الطقس الصحو الصالحة للتصوير .

وإلى جانب عامل الطقس يوجد هناك التأخير الناتج عن الوقت اللازم لاعداد خطة الطيران ، كما أن عملية المسح الجوي تعتبر مُكلفة لما تحتاجه من تجهيزات ومعدات قبل وأثناء وبعد الطيران خاصة أجهزة تحليل الصور الجوية . وللتغلب على تلك المشاكل اتجه الانسان إلى تصوير سطح الأرض من الفضاء بواسطة السفن الفضائية التي بواسطتها وفي دقائق معدودة يمكن الحصول على صور لاقليم جغرافي على نحو متكامل دون التقيد بأحوال الطقس على سطح الأرض ، وكان من نتاج ذلك أن أضافت هذه التكنولوجيا الحديثة الكثير إلى الجغرافيا وإنتاج الخرائط .

وتسمى عملية التصوير من الفضاء باسم « الاستشعار عن بعد » وهي ترجمة للمصطلح الانجليزيRemote Sensing والذي استخدم لأول مرة في مركز الأبحاث العسكرية بسلاح البحرية الأمريكية بواسطة E. Velyn Pruitt في عام ١٩٦٠ .

ويعتبر التخطيط العمراني من أهم المجالات التطبيقية التي تستفيد من تكنولوجية الاستشعار عن بعد وذلك لاعتماد الخطة العمرانية على العديد من المعلومات المتنوعة وأهمها تصنيف استخدامات الأرض ، التركيب الجيولوجي لاقليم التخطيط ، الوضع البيئي ومظاهر التصحر إلى جانب التعرف على احتمالية تعرض الاقليم لكوارث طبيعية مفاجئة كالزلازل والبراكين .

ويهدف اختيار موضوع البحث تغطية ثلاثة جوانب أساسية هي :

أ) تعريف الجغرافي بمفاهيم تكنولوجيا الاستشعار عن بعد وخاصة المتعلقة منها بالأقمار الصناعية وكيفية الحصول على البيانات وطرق تحليلها في خدمة العلوم التطبيقية المختلفة .

ب) تحليل بعض جوانب الاستفادة من بيانات الاستشعار عن بعد في مجال التخطيط العمراني من الوجهة الجغرافية .

جـ) تفسير بعض نماذج تطبيقية لمرئيات فضائية بما يخدم الخطط العمرانية .

٢) مفهوم الاستشعار عن بعد

عند تفسير مفهوم الاستشعار عن بعد يجب علينا أن نفرق بين الاستشعار عن بعد كعملية تطبيقية وبين الاستشعار عن بعد كعلم حديث . فتعريفه كعملية تطبيقية تكمن في أنه الوسيلة العملية للتصوير (أو للاستشعار) من الفضاء أو من الجو للحصول على معلومات عن أهداف بعيدة دون أن تكون هناك ضرورة

إلى الاقتراب المباشر منها . أما تعريفه كعلم فهو ذلك العلم الذي يهتم بإنجاز تطبيقي لأجهزة الطاقة الكهرومغناضيسية لامكانية الحصول بواسطتها على معلومات عن أهداف بعيدة على سطح الأرض ودراسة امكانية الاستفادة من تلك المعلومات في الأغراض العلمية والتطبيقية المتعددة .

وإذا كان مفهوم الاستشعار عن بعد يعني رؤية الأشياء دون الحاجة إلى الاقتراب منها ، فإننا يمكن أن نؤكد بأنه إذا قرأ الإنسان في كتاب ما أو نظر إلى فيلم معين أو راقب بعينيه هدفاً ما ، فإنه بهذا يطبق من حيث المبدأ فكرة الاستشعار عن بعد ، إذاً تلعب العين عمل جهاز الاستشعار عن بعد حيث تستجيب للضوء المنعكس من الهدف الذي تنظر إليه ، وإن هذه المعلومات أو هذه الاستجابات أو هذه القيم من الانعكاسات الضوئية يتم تحليلها ضمن عقل الانسان ، هو الذي يقوم بدوره بشرح كل هذه القيم من الاستجابات ، فهو أي العقل يدل على أن هذا الجزء مضيء وهذا الجزء معتم وبذلك نستطيع فهم وإدراك هذه الأشياء دون أن تتم عملية الملامسة الفعلية ، والذي يتم بعد ذلك هو عمل فيزيائي بحيث يتم خلال موجات الضوء التي تنعكس من الهدف إلى العين . وتعتمد عملية الاستشعار عن بعد بواسطة الأقمار الصناعية على خمسة عناصر أساسية وهي (انظر شكل ١) .

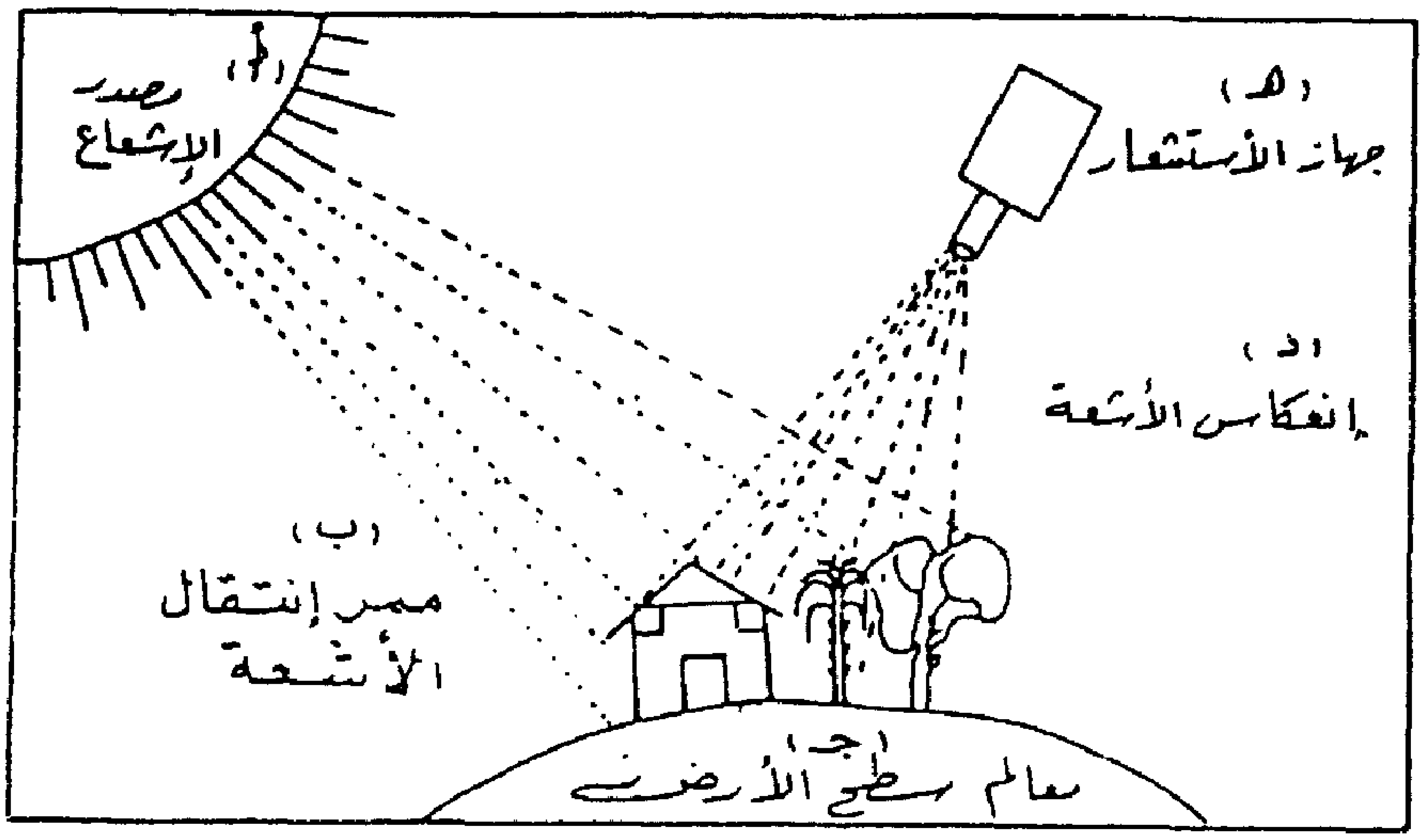
أ - مصدر الاشعاع Radiation Soutce وهو في هذه الحالة الشمس .

ب - ممر انتقال الأشعة Transmission path وهو الغلاف الجوي المحيط بالأرض .

جـ - تفاعل الأشعة مع معالم سطح الأرض Interaction between light and the traget on the surface of the land.

د - الطاقة المنعكسة من معالم سطح الأرض Reflected energy .

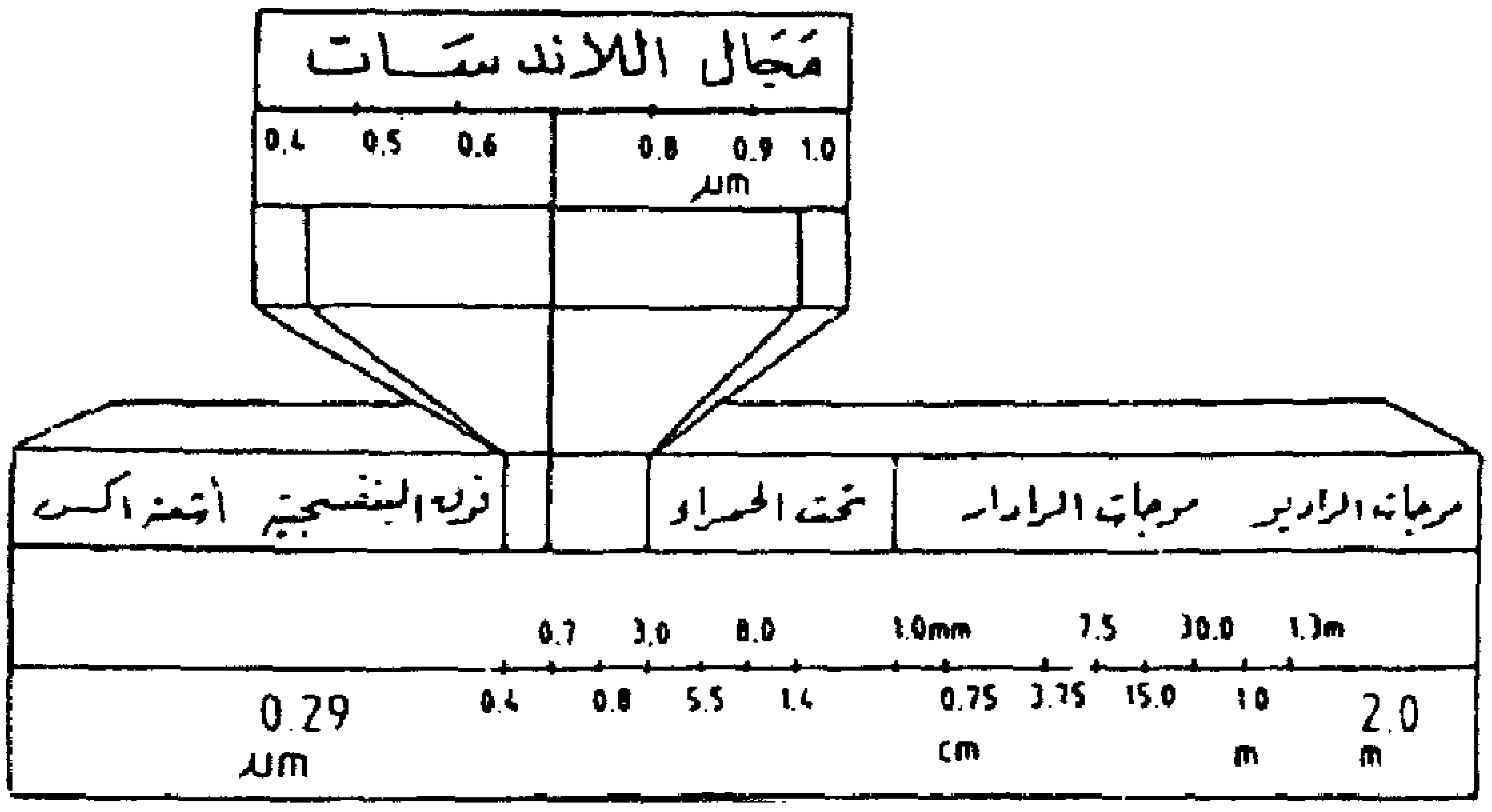
هـ - جهاز الاستشعار على متن الأقمار الصناعية Sensor on board the Satellite .



شكل (١) : يوضح العناصر الأساسية لعملية الاستشعار عن بعد

المصدر (عن هاشم سلامة ، ١٩٨٨ ص ٥٦)

وتبعث الشمس بطاقاتها من الفضاء بدرجة حرارة في المتوسط حوالي ٦٠٠ م° والتي تقع أطوال موجات أشعتها ما بين تحت البنفسجي وما فوق الحمراء ، وتصدر هذه الأشعة الشمسية عديمة اللون عندما تسقط على أي جسم تتغير صفاتها ولونها حسب خصائص الجسم المصطدمة به حيث يحدث تسرب لجزء من الأشعة خلال الجسم نفسه والجزء الآخر يعكسه الجسم لنراه تحت مفهوم « لون » . والرسم التالي (شكل ٢) يوضح مجالات الأشعة الكهرومغناطيسية المتسخدمة في مجال الاستشعار عن بعد والتي تنحصر ما بين ٠,٤ - ١,٤ ميكروميتر وذلك ما بين موجات الأشعة فوق البنفسجية وموجات الأشعة تحت الحمراء .



شكل (٢) : يوضح مجالات الأشعة التي تتعامـل معها الأقمـار الصناعيـة وسط الهيكل العـام للموجات الضوئية والاشعاعية في الفضاء الكوني

المصدر (عن Bertelsmann' Grosse Weltatlas, Munich, 1989)

فعندما تصدر الأشعة الشمسيـة من الفضاء الكـوني يحدث تسـرب الجزء الأزرق من هذه الأشعة في طبقة الغلاف الجـوي المحيط بالأرض ، وتستمـر الأجـزاء الأخرى في رحلتهـا إلى سطح الأرض فتعكسهـا الظواهـر الطبيعيـة والبشرية إلى أجهزة الاستشعار ، وهذا الجزء الذي ينعكس يتكون من الألوان الرئيسية الثلاثة الأخضر والأحمر واللون الواقع في مجال الأشعة تحت الحمراء التي لا يمكن للعين المجردة رؤيته . هذه الألوان الثلاثة تحتل ثلاث موجات مختلفة والتي يتم تصويرها بواسطة أجهزة الاستشعار الموجودة على الأقمار الصناعية في صور أبيض وأسود ، ولتحويل هذه المجالات الثلاثة والتي يتم استشعارها في أبيض وأسود إلى ألوان يتم اتباع التالي :

أ - إدخال اللون الأزرق على المرئيات للحصول على المجال الأخضر .

ب - إدخال اللون الأخضر على المرئيات للحصول على المجال الأحمر .

جـ - إدخال اللون الأحمر على المرئيات للحصول على المجال تحت الأحمر .

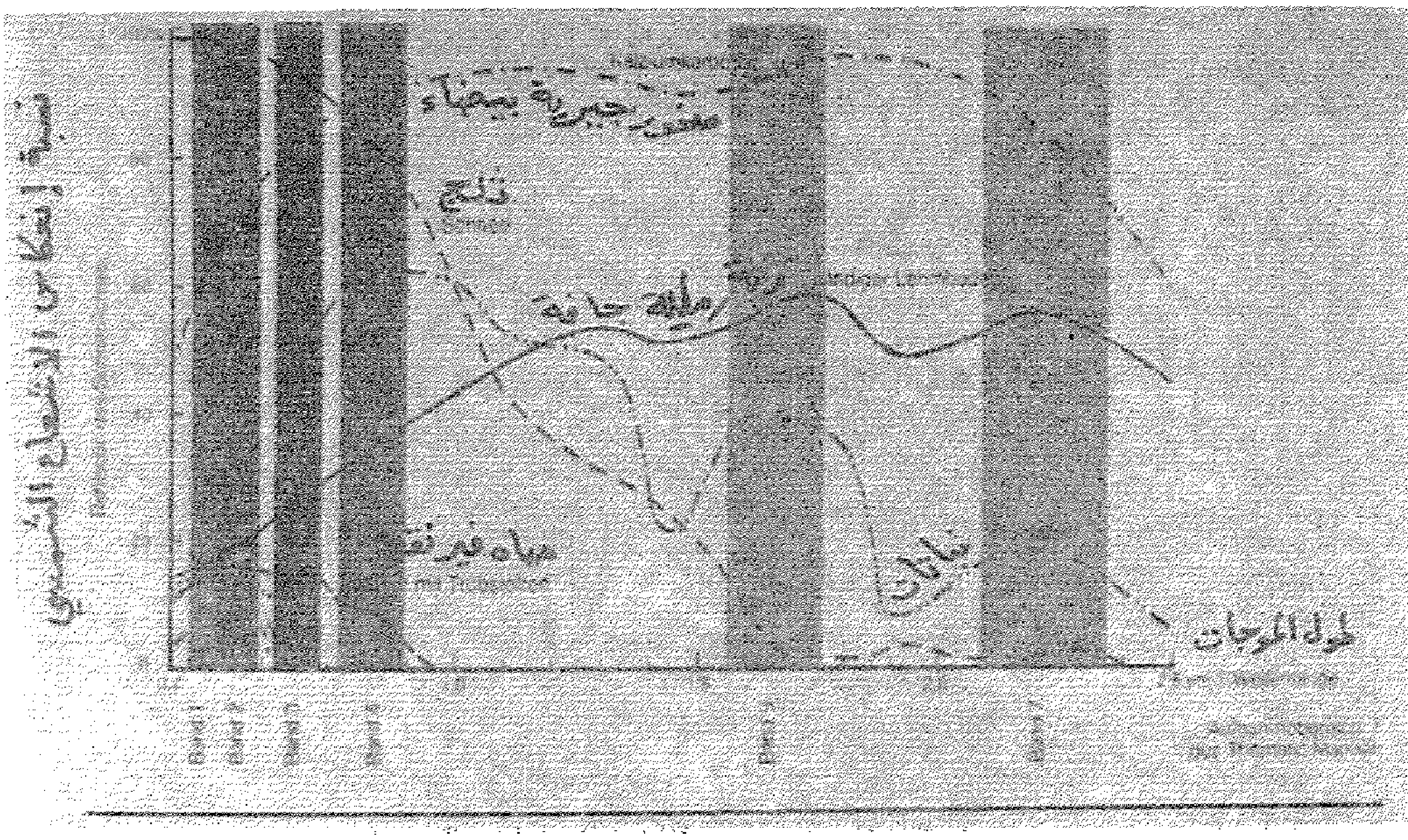
وعليـه تحصل عـلى التركيب اللوني المسمى « صـور الألوان الخـطأ أو غير

الطبيعية Unnatural Colours بسبب عدم انطباق الألوان مـع اللون الطبيعي للظاهرات فمثلاً تظهر النباتات الطازجة الخضراء بلون أحمر والسبب في ذلك أن مادة الكوروفيل التي تحتويها أوراق النباتات تعكس بشدة موجات الأشعة القريبة من تحت الحمراء ، أما النباتات المريضة تفقد هذه الخاصية حيث تزيد عملية الانعكاس من مجال الأشعة الخضراء ولذلك نحصل على تدرج لوني يبدأ من الأحمر ثم البنفسجي ثم الأزرق . والرواسب المعلقـة أو المياه الضحلة تـظهر باللون الأبيض حتى الأزرق الفاتح بينما الطبقات الجيرية باللون الأخضر والرمال باللون الأبيض حتى الأصفر والمدن والقرى باللون الأسود حتى الرمادي .

ولإمكانية الاستفادة من تكنولوجية الاستشعـار عن بعد تم إعـداد أجهزة استشعـار ذات قـدرات متعـددة أو متعـددة الأطيــاف مثـل المسمى بــاسم « Thematic Mapper » والذي يعمل على تصوير ظاهرات سطح الأرض كل حسب خصائصه في انعكاس أشعة الشمس وكل قيمة انعكاس تسجل في قناة خاصة ، حيث يعمل هذا الجهاز بسبع قنوات (مجالات) كالتالي : (الشكل ٣) .

رقم القناة (المجال)	طول موجات الأشعة بالميكروميتر
١	٠,٤٥ـ٠,٥٢ أزرق
٢	٠,٥٢ ـ ٠,٦٠ أخضر / أصفر
٣	٠,٦٣ ـ ٠,٦٩ أحمر
٤	٠,٧٦ ـ ٠,٩٠ تحت الأحمر الفوتوغرافي
٥	١,٥٥ ـ ١,٧٥ قريب من تحت الأحمر
٦	١٠,٤٠ ـ ١٢,٥٠ تحت الأحمر الحراري
٧	٢,٠٨ ـ ٢,٣٥ تحت الأحمر المتوسط

والتي تبدو واضحة في خصائصها حسب نوع ظاهرات سطح الأرض كما يوضح شكل (٣) .



شكل (٣) يوضح الانعكاسات المختلفة لأشعة الشمس من قبل ظاهرات سطح الأرض ومجالات استيعابها بأجهزة الاستشعار 'Thematic Mapper'

المصدر : (عن : 'Bertelsmann's Grosse Weltatlas, 1989

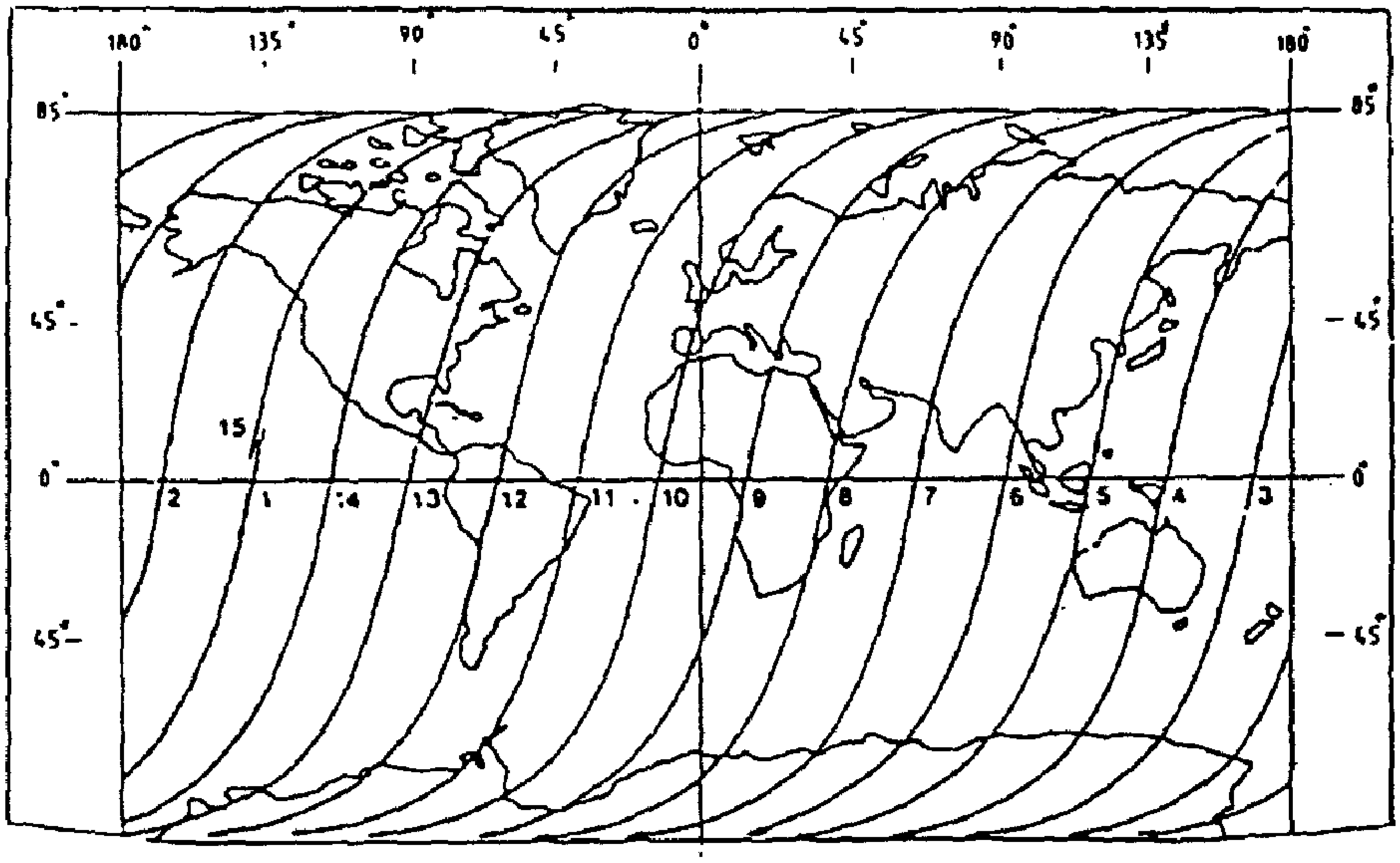
يتبين من الشكل (٣) أن القنوات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ تسجل أشعة الشمس المنعكسة أما القناة ٦ فهي تسجيل الإشعاع الحراي لسطح الأرض أي درجة حرارة سطح الأرض ، والسبب في هذا التشعب هو التباين الكبير بين طبيعة الأشعة المنعكسة من سطح الأرض والتي من خلالها تسهل عملية التعرف على ظواهر سطح الأرض فعلى سبيل المثال في القناة (٣) تعكس الصقيع والثلج والصخور نفس الأشعة تقريباً ولذلك لا يمكن تفريقهما عن بعض ، أما في مجال القناة (٤) يمكن فصل هذه الظواهر عن بعضها ، كما في مجال (٧) يظهر الثلج والصقيع ولذا يبدو باللون الأسود ونشير بأن المسطحات المائية تعطى في مجالين هما ١ ، ٣ انعكاسات للأشعة يمكن بواسطتها التعرف

عليها حسب درجة النقاوة ، أما في مجـال (٤) فيتسرب الاشعـاع الشمسي بالكامل منها لذلك تبدو المسطحات المائية باللون الأسود ، أي كلما كان لون الظواهر فاتحاً ، كلما كان لونها قاتماً على الصورة ، وفي المنـاطق الجبلية تـظهر الجوانب التي بها ظل قاتمة عن غيرها لانخفاض درجة حرارتها .

٣) القمر الصناعي وجمع المعلومات

منذ أن أطلق القمر الصناعي الأول Landsat 1 في عام ١٩٧٢ م استمرت عمليات تطوير كفاءة أجهزة الاستشعار للحصول على أدق المعلومات ، وأحدث تلك النظم هي المستخدمة على القمرين الرابع والخامس Landsat 4,5 ولذلك سنركز عليهما .

يدور القمران حول الأرض في مدار دائري على ارتفاع يتراوح ما بين ٧٠٥ - ٩٢٠ كم مع ميل قـدره ٩٨,٢° عند خط الاستـواء وتمر المـدارات في شكل متسامت مع الشمس أي أن كل نقطة على الأرض يمر عليها القمر الصناعي في نفس التوقيت ، وكل مدار يحتاج وقت قدره ٩٨,٩ دقيقة وذلك لحصر معلومات عن نطاق على سطح الأرض أبعاده ١٨٥ × ١٨٥ كم وقد صممت المدارات بحيث يتم للقمر الصناعي حصر سطح الأرض بالكامل في ١٦ يوم (انظر شكل ٤) .



شكل (٤) : يوضح مدارات القمر الصناعي لاندسات حول الكرة الأرضية

المصدر (عن : هاشم سلامة ، ١٩٨٨ ص ٦٢) .

أما عن طبيعة المعلومات فهي ليست في هيئة صور ولكن في هيئة صورة رقمية الكترونية « إشارات الكترونية » Electronic Signal ويساعد القمرين المذكورين جهازان استشعاران الأول هو جهاز متعـدد الأطياف Multispectral Scanner والذي يرمز بالرمز (MSS) والذي كان مرفق بالأقمار الصناعية الثلاثة الأولى وقام باستشعار الظاهـرات بدقـة تصل إلى ٨٠ × ٨٠ مـتر في أربعة مجـالات إشعاعية . أما الثاني هو المسمى باسم 'Thematic Mapper' أو (TM) والذي يقوم بتصوير سطح الأرض بدقة تصل إلى ٣٠ × ٣٠ متر وذلك في ٧ مجالات إشعاعية كما سبق ذكره .

بعد حصر المعلومات وهي على هيئة شفرات الكترونية مرتبة على هيئة أحزمة تغطي كل منها نطاق عرضه ١٨٥ كم وترسل المعلومات إلى الأرض بواسـطة إحدى الطريقتين التاليتين :

الأولى : ترسل مباشرة إلى محطات الاستقبال على سطح الأرض حيث تقوم كل محطة باستقبال معلومات في محيط قطره ٤٠٠٠ كم وهي في كندا والولايات المتحدة والبرازيل وايطاليا وزائير وايران واليابان والهند والرياض بالسعودية .

الثانية : ترسل إلى أقمار صناعية مرافقة والتي بدورها تقوم بإرسال المعلومات كافة إلى المحطة المركزية في الولايات المتحدة .

وفي محطة الاستقبال يتم تخزين المعلومات مرتبة على أساس شبكة احداثيات تناظر مدارات القمر الصناعي مع تقسيم كل مدار من الشمال إلى الجنوب إلى ٨٠ جزءاً وعليه يمكن الحصول على المعلومات المقابلة للمنطقة المرغوبة بواسطة تحديد المدار والصف أو الاحداثيات الجغرافية للمنطقة المرغوبة .

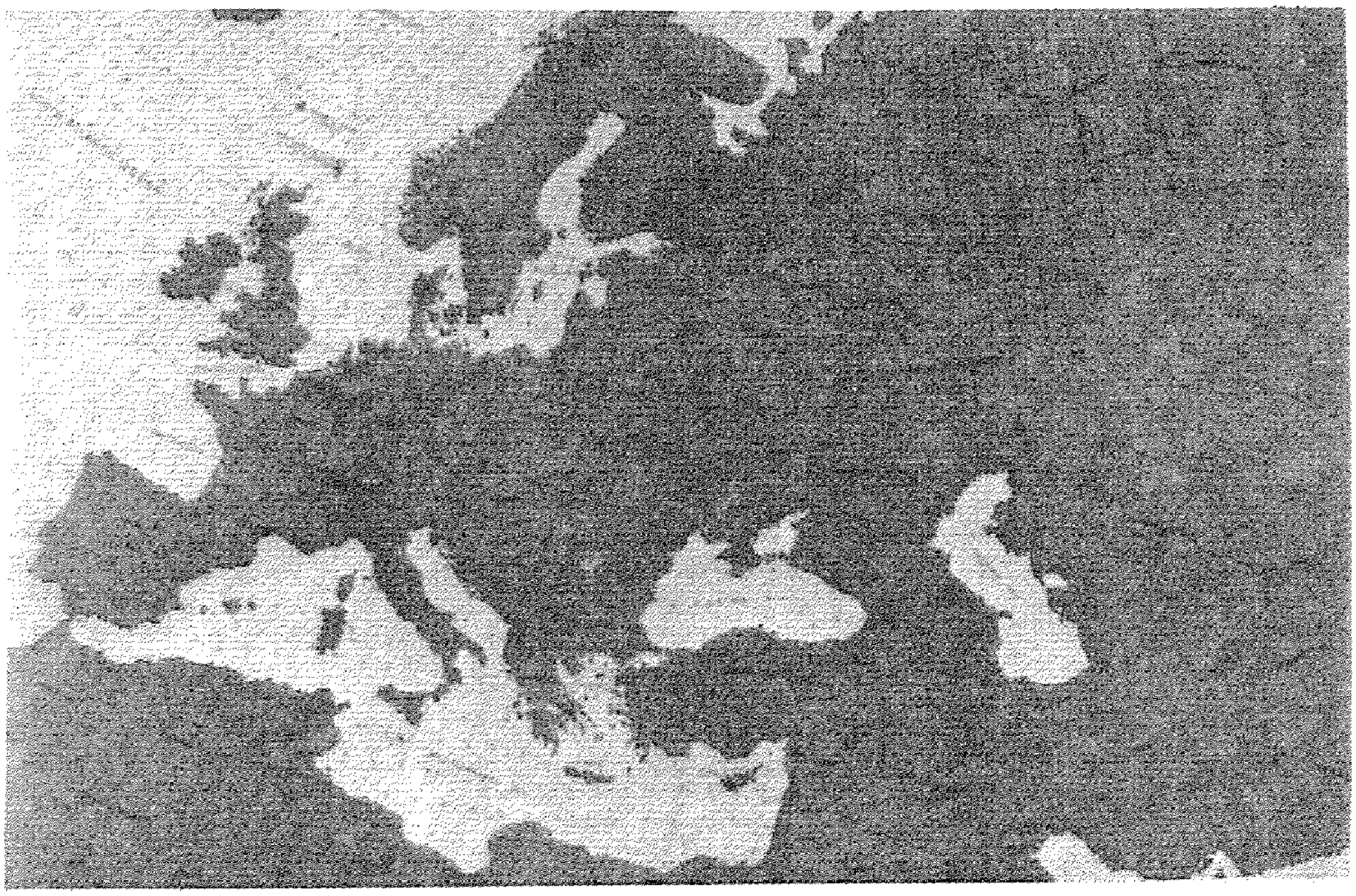
ففي بنك المعلومات الفضائية لمنظمة 'ESA' المسماة Earthnet (انظر صورة ١) ترتب المعلومات حسب الآتي :

أ ـ الموقع الجغرافي لوسط الصورة (المرئية)

ب ـ تاريخ الاستشعار .

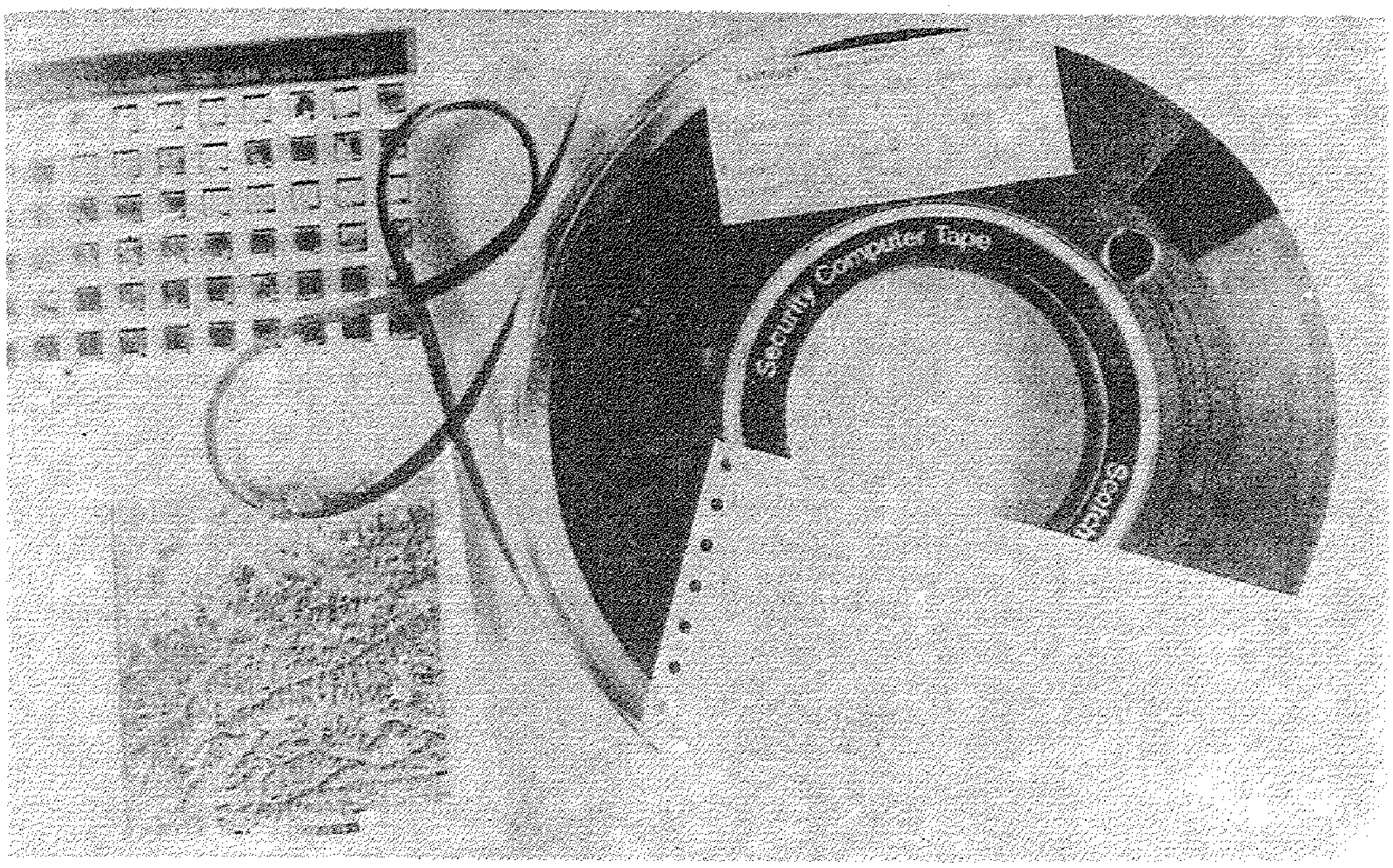
جـ ـ درجة السحب .

د ـ نوعية الصورة .



صورة (١) : توضح شبكة ترتيب المرئيات الفضائية في منظمة Earthnet الأوربية لبيانات القمر الأوريكي لاندسات ٤ ، ٥

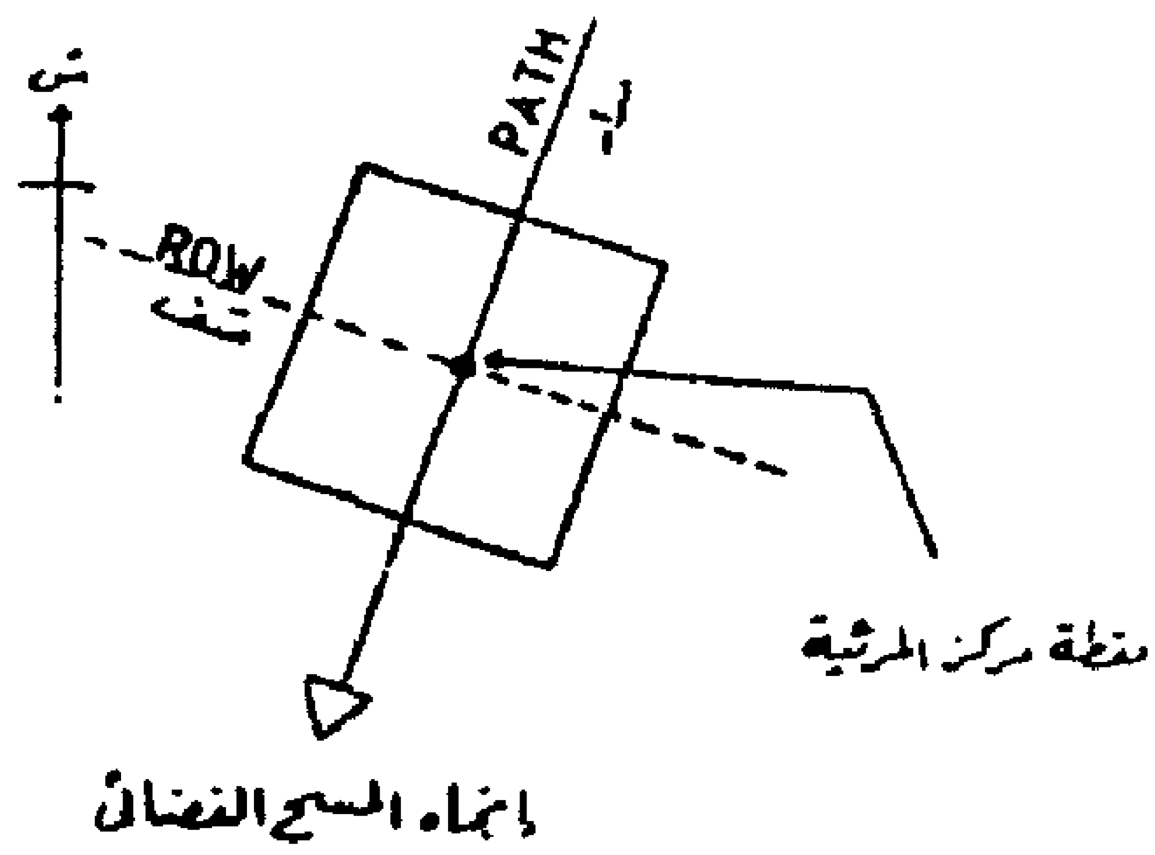
وهذه البيانات يمكن قراءتها مباشرة بواسطة الحاسب الآلي وعليه يتم إعداد وتخزين المعلومات على شرائط مغناطيسية Magnetic tapes (انظر صور ٢) أو اسطوانات Disks هذا إلى جانب إعداد صور أو تطبع على ورق سواء بالألوان أو بالأبيض والأسود بمقاييس رسم مختلفة .



صورة (٢) : شرائط مغناطيسية لتخزين بيانات الاستشعار عن بعد وتصلح لقراءتها بواسطة الحاسب الآلي مباشرة

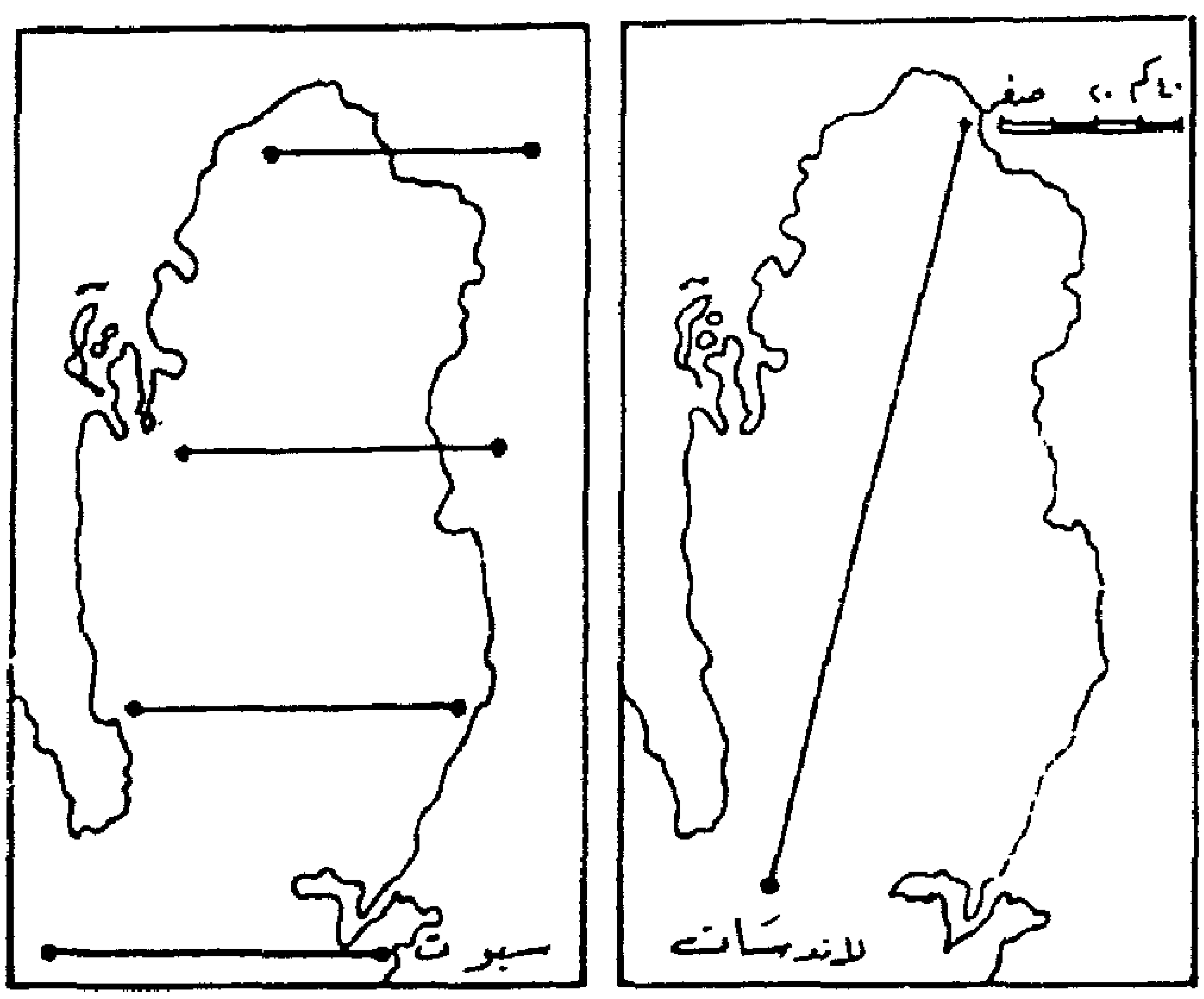
٤) كيفية الحصول على المعلومات والاستفادة منها

يتم ترتيب المرئيات الفضائية على دليل عالمي يطلق عليه اسم World Refer- ence System أو (WRS) حسب نظام ثابت فمثلاً ترتب المرئيات الفضائية للقمر الصناعي الرابع Landsat 4 بحيث تبدأ ترقيمات المدارات من ١ - ٢٣٣ من الشرق للغرب تسمى باسم PATHS أي مدارات ثم يقسم كل مدار من الشمال إلى الجنوب إلى ٨٠ منطقة بأبعاد ١٨٥ × ١٨٥ كم على الطبيعة ويسمى الخط المار بالمناطق المتجاورة على مدارات متتابعة باسم ROW أي صف وتعتبر نقطة تقاطع المدار مع الصف باسم النقطة المركزية للمرئية Scene Centre point والتي بواسطتها يتم الحصول على المرئيات من وكالة الفضاء وتسمى المنطقة المذكورة باسم « مرئية فضائية » أو Scene (انظر شكل (٥)) .



شكل (٥) : يوضح موقع المرئية الفضائية على مدار القمر الصناعي في الدليل العالمي (WRS) لاندسات ٤ .

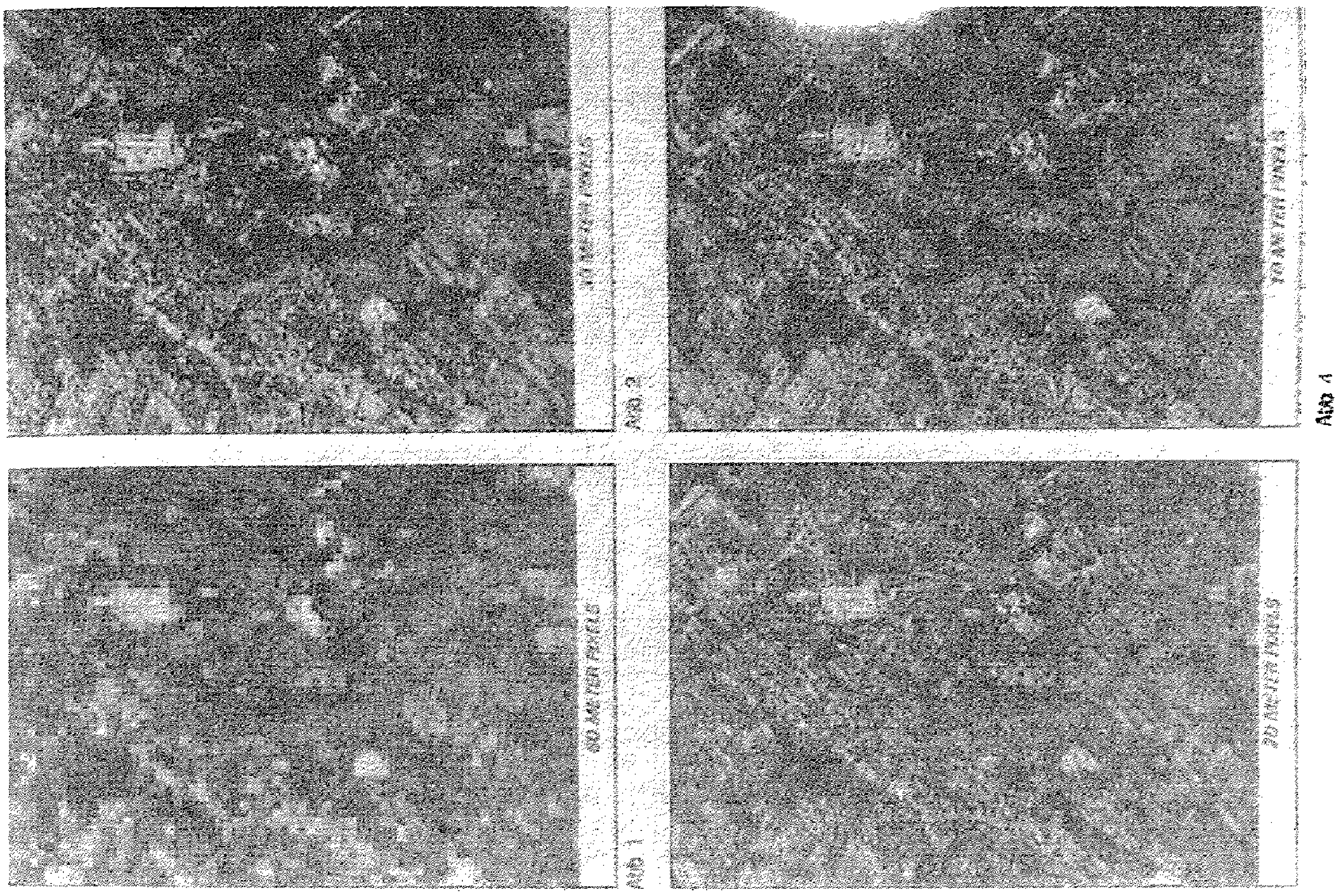
وعلى هذا الأساس تغطي منطقة شبه جزيرة قطر في نظام أقمار لاندسات الأمريكية لوكالة ناسا NASA في مقياس ١ : ١,٠٠٠,٠٠٠ في لوحتين وفي نظام القمر الصناعي سبوت SPOT تغطي المنطقة في ٨ لوحات بسبب اختلاف مساحة المرئية (انظر شكل ٦) .



شكل (٦) : يوضح عدد المرئيات الفضائية التي تغطي شبه جزيرة قطر في النظامين الأمريكي (لاندسات) والفرنسي (سبوت)

المصدر : أحمد عبدالسلام ١٩٨٧ ص ١٢

وعندما يتم الحصول على تلك المعلومات وذلك بتحديد النقطة المركزية للمرئية وتاريخ الاستشعار وهدف الدراسة لتحديد نوع المجال الطيفي المطلوب ، بعد ذلك تحصل على معلومات في حالة رقمية Image digital data وهي عبارة عن مجموعة من الوحدات المساحية Pixels الدقيقة جداً والمتجاورة لتشكل المنطقة بالكامل (انظر صورة ٣) .



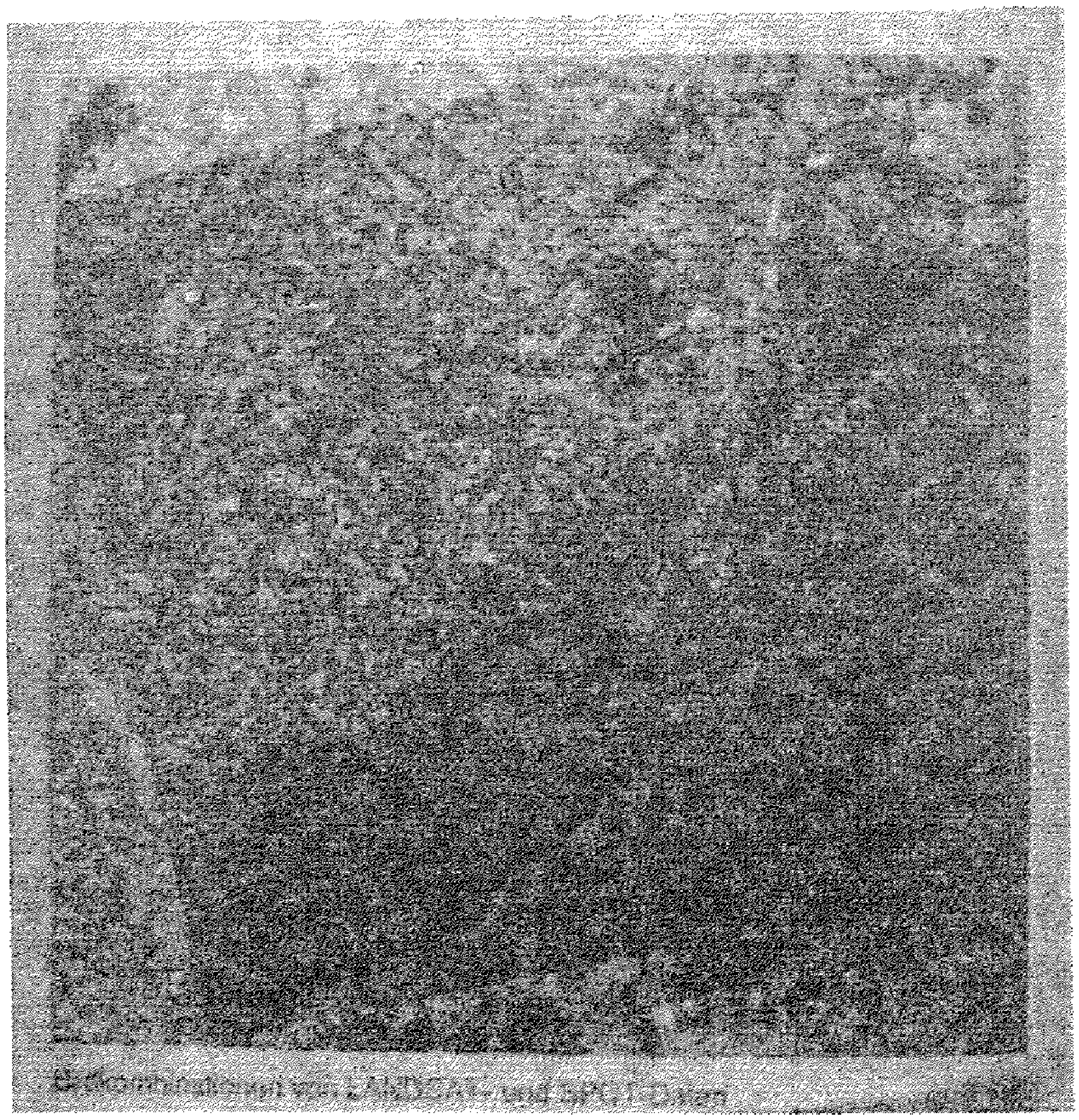
صورة (٣) : توضح صورة مكبرة جداً للوحدات المساحية Pixels التي تحتويها المرئية الفضائية وذلك بدقة أرضية مختلفة .

ويلزم للتعامل مع المرئيات الفضائية الحصول على نظم الكترونية لمعالجة الصورة Image data Processing باستخدام الحاسب الآلي وذلك لقراءتها وإجراء تصنيفات علمية على محتواها العلمي حسب الغرض المطلوب .

ويوجد نظم عديد لمعالجة هذا النوع من المعلومات ، فبالاضافة إلى النظم التجارية الكبرى توجد نظم على الحاسب الشخصي PC مثل ERDAS و MIC-ROSOFT PIPS والتي يمكن بواسطتها الحصول على نفس الجودة كالحاسبات الكبرى إلا أن سرعتها وحجمها محدود ولكن تناسب أعمال البحث العلمي

والتدريس وكذا الاستخدامات الخاصة .

ومن أهم مراحل العمل في نظم معالجة الصور (المرئيات الفضائية) هي مرحلة حساب تدرج اللون الرمادي وحساب الأركـان والزوايـا واختيار فيلتر للمعلومات للحصول على أدق النتائج . كما تمكنا هذه النظم بتوجيـه المرئيـة الفضائية بحيث تتطابق على مساقط الخرائط أو مع مرئيات أخرى من فترات زمنية سابقة أو مرئيات أخرى من قمر صناعي آخر مثل تطابق مرئيات لاندسات مع مرئيات سبوت (انظر صورة ٤) وبهذا يمكن الاستفادة من نـظم معالجـة الصور على أكمل وجه .

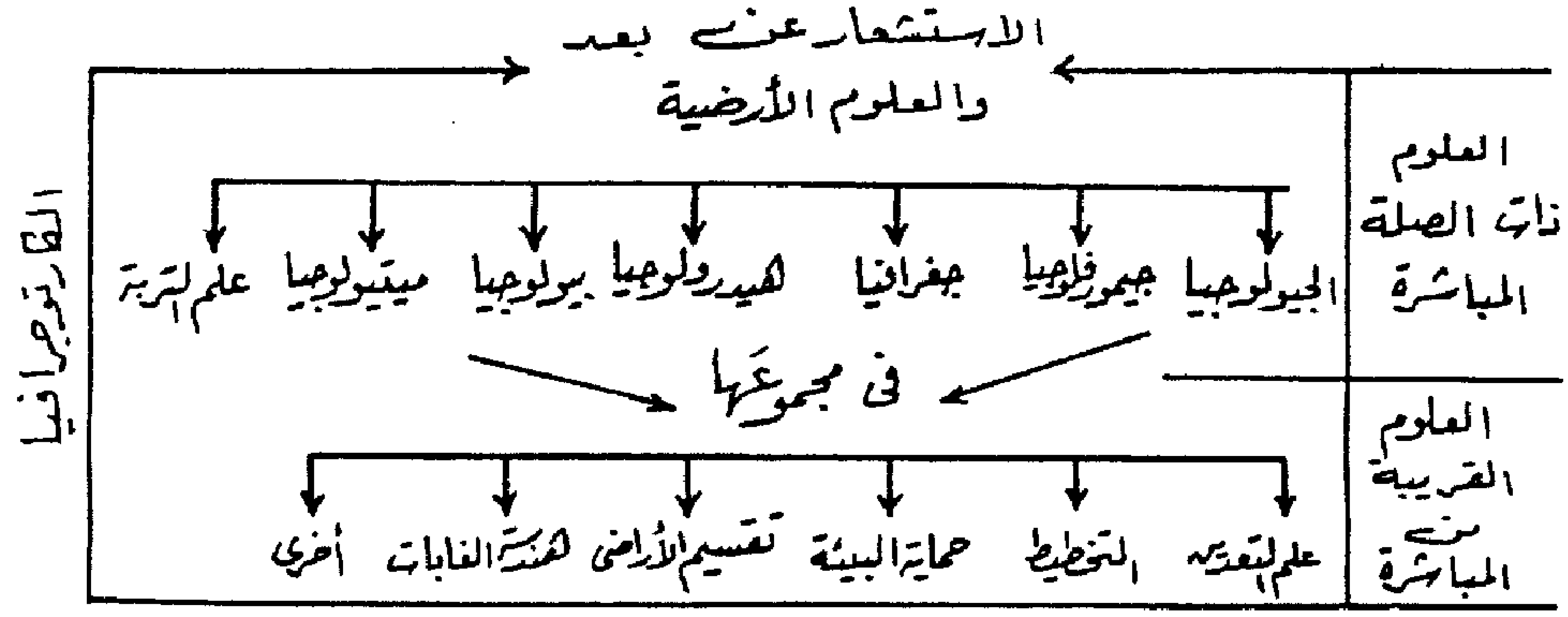


صورة (٤) : توضح تطابق مرئيتين فضائيتين من القمر الصناعي الأمـريكي لاندسـات والقمر الصناعي الفرنسي سبوت لمنطقة جغرافية واحدة .

بعد أن تجري معالجة بيانات المرئية بإحدى النظم المذكورة على شاشة الحاسب الآلي يمكن طبعها أو نسخها مباشرة وذلك بواسطة رسام خاص للصور يطلق عليه Raster Plotter وذلك على أفلام أو على ورق عادي .

٥) الاستشعار عن بعد والعلوم الأرضية

لقد دخلت مجالات بحث الأرض عصراً جديداً منذ أن ثبت نجاح استشعار سطح الأرض من الفضاء ، فقد ترتب على سرعة البث للأقمار الصناعية كثرة المعلومات المرسلة إلى الأرض والتي أصبحت في متناول معاهد البحوث والمؤسسات العلمية وكذلك في متناول الأفراد . وتبث الأقمار الصناعية اليوم العديد من المعلومات الحديثة باستمرار وخاصة في مجالات العلوم الأرضية كالجيولوجيا الجيومورفولوجيا والجغرافيا والهيدرولوجيا والبيولوجيا والميتيولوجيا وعلم التربة والتي تخدم بدورها العلوم الأخرى القريبة منها مثل علم التعدين وخاصة في مجال البحث عن المعادن وأيضاً في مجال التخطيط وفي مجال حماية البيئة وفي تحديد المناطق ذات الامكانيات (انظر شكل ٧) .



ومن أهم المجالات التي تستفيد من الاستشعار عن بعد هي الكارتوجرافيا حيث يسود العالم نقص في الخرائط الحديثة لعدم استطاعة

المعاهد الكارتوجرافية والهيئات الحكومية ملاحقة التغييرات السريعة التي تطرأ على سطح الأرض بواسطة مسوحاتها الميدانية . هذا بالاضافة إلى أعباء مسح الأرض لتجديد الخرائط الطبوغرافية . وتعتبر عملية الاستشعار عن بعد من أهم الوسائل للحصول على المادة العلمية اللازمة لانتاج الخرائط وتجديدها بسرعة وبأقل التكاليف .

إلى جانب ذلك كله لا يجب أن نتغاضى عن دور الاستشعار عن بعد وأهميته في مجال تدريس الجغرافيا التي أصبح بإمكانها كشف الكثير من العلاقات المكانية الجديدة بالاضافة إلى استخدام خرائط للكرة الأرضية أكثر دقة ولموضوعات عديدة مثل استخدام الأرض ، والغطاءات النباتية وخرائط الطقس والمناخ ، إلى جانب امكانية إجراء مقارنات بين مناطق طبيعية في مقياس رسم واحد كما أن الشكل الحقيقي لسطح الأرض وتقسيماته تبدو واضحة باستخدام صور الأقمار الصناعية حيث تتأكد الروابط الجغرافية والعوامل الطبيعية الأخرى المؤثرة على أكمل وجه .

٦) مجالات تطبيق الاستشعار عن بعد في التخطيط العمراني

يعتمد التخطيط العمراني على بيانات أساسية ومتنوعة ، وتسهم تكنولوجية الاستشعار عن بعد في دعم مجالات علمية هامة للتخطيط العمراني والتي يمكن تحديدها كالتالي :

أ ـ مجال تحليل استخدامات الأراضي .

ب ـ مجال التعرف على التركيب الجيولوجي .

جـ ـ مجال دراسة تلوث البيئة والكوارث الطبيعية .

د ـ مجال علمي بحثي للربط بين الخلفيات العلمية للتخطيط العمراني

وتتعرض الورقة بإيجاز لكل مجال كالتالي :

أ ـ مجال تحليل استخدامات الأراضي :

تعتمد الخطة العمرانية على ضرورة التعرف على تفاصيل استخدامات الأراضي في داخل الاقليم المراد تخطيطه عمرانياً ، فتتيح مرئيات الأقمار الصناعية إمكانية الحصول على معلومات متعددة الزوايا مثل : حصر المساحات والارتفاعات بالاقليم ، التعرف على نوعية الاستخدامات الأرضية وأيضاً درجة كثافة الاستغلال . وكذلك تساعد على إجراء مراقبة زمنية متتابعة لمناطق معينة وذلك لرصد التغيرات الديناميكية والفعلية للظاهرات الطبيعية بالاضافة إلى رصد التغيرات طويلة المدى الناجمة عن امتداد الوحدات السكنية أو إنشاء طرق المواصلات أو إدخال تغييرات على الشكل العام للمساحات الزراعية مثل تغير أنواع الزراعات ، وبواسطة تحليل المرئيات الفضائية يمكن الحصول على معلومات متعددة وتفصيلية في مجال التعرف على استخدامات الأراضي مثل :

١) تحديد مجموعات (أنماط) استخدامات الأراضي ، كالمساحات المعمورة ، المساحات المزدحمة بالعمران ، مساحات قليلة العمران ، مساحات الصناعة والمهام التجارية ، مساحات مختلطة ومساحات خضراء . . . . إلخ .

٢) تحديد أنواع استخدامات الأراضي الزراعية ، كمناطق مزروعة ، مساحات خضراء ومساحات بور وأشكال الحقول ونوعية المحاصيل .

٣) التعرف على أنواع الغابات ، كالغابات الشوكية ، الغابات النفضية ، الغابات المختلطة ، الغابات التي بها مستنقعات ، نباتات الشواطىء ، مناطق نمو الحشائش والمناطق التي أزيلت أشجارها .

٤) تحديد مساحات المستنقعات والمساحات الغرقة .

٥) تحديد المساحات والمسطحات المائية ، كمناطق تجميع المياه ، الروافد الجارية ، المياه الراكدة مثل البحيرات والبرك ، بالاضافة إلى المنخفضات المليئة بالمياه الجوفية .

٦) مساحات للنقل والطرق ، كمساحات المطارات ومساحات الطرق الحديدية ومساحات محطات القطارات ومساحات الطرق بدرجاتها المختلفة .

٧) تحديد المساحات المغطاة بالرمال أو بالجليد والصقيع .

ب) مجال التعرف على التركيب الجيولوجي :

يلزم للخطة العمرانية التعرف على التركيب الجيولوجي للمنطقة المراد تعميرها وتعتبر مرئيات الأقمار الصناعية أسرع وأدق وسيلة للتعرف على خصائص التركيب الجيولوجي إلى جانب تحديد أنواع الصخور المختلفة وتحديد مواقعها الحقيقية . كل ذلك يساعد على رفع مستوى دقة الخرائط الجيولوجية والتي بالطبع تخدم الخطة العمرانية .

جـ) مجال دراسة تلوث البيئة والكوارث الطبيعية :

تفيد مرئيات الأقمار الصناعية في تحديد مصادر رواسب العواصف الرملية والترابية ودراسة التركيب المعدني والتوزيع الحجمي لحبيباتها وكذلك دراسة نمط الانتشار الرأسي لها تحت الظروف المناخية المختلفة . وأيضاً التعرف على أنواع الرواسب الهوائية وخاصة الكثبان الرملية وتحديد اتجاه انتشارها وتأمين العمران من خطورة امتدادها .

وتعتبر المرئيات الفضائية هامة في التعرف على الرواسب البحرية مثل الرواسب الساحلية والكثبان الرملية الساحلية ورواسب السبخات ورواسب

الشاطىءومنطقة المد والجزر لما لذلك من أهمية كبيرة نحو تأمين العمران من خطورة هذه الرواسب البحرية أو النحت البحري للسواحل وخاصة في العمران الساحلي .

كما تفيد المرئيات الفضائية في التعرف على موارد المياه الجوفية التي يمكن أن تعتمد عليها المنطقة العمرانية في الشرب ، وأيضاً في تحديد منسوب ارتفاعها ومدى تأثيره على صلابة وعمر المباني .

وفي مجال الطقس والمناخ توفر لنا إمكانية ملاحظة امتداد السحب وتحديد أشكالها المختلفة وغطاءات الضباب وارتفاعها وعلاقات درجات الحرارة بالاشعاع الشمسي وسطوع الشمس ، واختلافات درجات الحرارة على سطح الأرض منها في باطنها ، كما تفيد في التعرف على الروابط والعلاقات والمؤثرات الناجمة عن الاستغلال البشري للبيئة الطبيعية والتأثير المتبادل بين البيئة والإنسان .

ومن أهم ما يمكن أن تفيدنا به هو التعرف على المناطق التي يمكن أن تتأثر بالكوارث الطبيعية مثل الانزلاقات الأرضية ، ثوران البراكين ، وقوع الزلازل ومناطق الانكسارات الصخرية الناتجة عن الحركات التكتونية .

د) مجال دراسات الربط بين الخلفيات العلمية للتخطيط العمراني والتنبؤات :

باستخدام نظم المعلومات الجغرافية Geographical Information Systems في معالجة وتحليل البيانات اللازمة للتخطيط العمراني مثل البيانات الطبوغرافية والمساحية والاقتصادية والاجتماعية والسكانية وأيضاً إدخال مرئيات الأقمار الصناعية إل يهذه النظم ومطابقتها على المعالم الطبيعية للاقليم العمراني ، يساعدنا ذلك على تحقيق الربط بين تلك الخلفيات العلمية المذكورة وما تحتويه المرئيات الفضائية من معلومات طبيعية وبشرية تمتاز بالدقة والشمولية . ونتيجة

لمثل هذا الربط العلمي ومطابقة البيانات على النطاق الاقليمي يمكن التنبؤ بحالة الموارد الطبيعية بالاقليم العمراني ومدى تأثير ذلك في تشكيل التركيب السكاني والمهني .

٧) نماذج تطبيقية لبيانات الاستشعار عن بعد في مجالات التخطيط العمراني

٧/١) نموذج في مجال النحت والارساب البحري :

المرئية الفضائية (صورة رقم ٥) لمنطقة غرب فرنسا حول اقليم ميناء روشيل بمقياس رسم ١ : ١٠٠,٠٠٠ من بيانات القمر الصناعي الفرنسي سبوت SPOT والمأخوذة في ١٩٨٦/٤/٣٠ م الساعة ١١,٠٩ صباحاً بالمساح متعدد الأطياف 'MSS' بدقة أرضية ٢٠ × ٢٠ متر .



صورة (٥) : مرئية فضائية لمنطقة غرب فرنسا من القمر الفرنسي سبوت SPOT توضح النحت والارساب البحري .

وتفيدنا المرئية في مجال التخطيط العمراني بتوفير المعلومات التالية :

أ ـ التوزيع الكامل لاستخدامات الأراضي حول إقليم ميناء روشيل

الفرنسي .

ب ـ درجة كثافة الغطاء النباتي وأنواعه .

جـ ـ الامتداد العمراني للمدينة والمدن والقرى المجاورة .

د ـ النحت البحري وخاصة على الساحل الجنوبي الغربي للميناء بسبب تأثير التيارات البحرية القادمة من مناطق الضغط المرتفع الدائم فوق مدار السرطان ، وهذا النحت يهدد سواحل المدينة وعليه يلزم إجراء دراسة لحماية المدينة من أثر النحت البحري في سياق الخطة العمرانية .

هـ ـ الارساب البحري وخاصة في خليج نيبورت في مصب النهر إلى الشمال من ميناء روشيل في أعلى المرئية .

وتخضع عمليات تحليل وتفسير المرئيات الفضائية إلى طرق عديدة تعتمد في الأساس على إمكانيات معالجة المرئيات بواسطة الحاسب الآلي وخاصة إذا كانت في حالة رقمية على شرائط أو اسطوانات مغناطيسية ، أما إذا كانت في حالة ملموسة Analog form كما في النموذج المذكور فإنه توجد طريقتان يمكن الإعتماد عليهما لإنجاز عملية التحليل وهما :

أ ـ طريقة آلية :

وتعتمد على مسح المرئية بواسطة جهاز مساح الصور Scanner وإدخالها إلى برامج معالجة الصور لتحويلها إلى خريطة خطية Vector map لتسهيل تحديد معالمها والتمييز بين استخدامات الأراضي المختلفة عليها ومن ثم الاستفادة المباشرة منها في التعرف على الملامح الحضرية المتواجدة ودراسة مؤثراتها في الخطط العمرانية المستقبلية .

ب ـ طريقة نصف آلية :

وهي تلك الطريقة التي اتبعت في تفسير المرئيات في هذا البحث حيث تعتمد

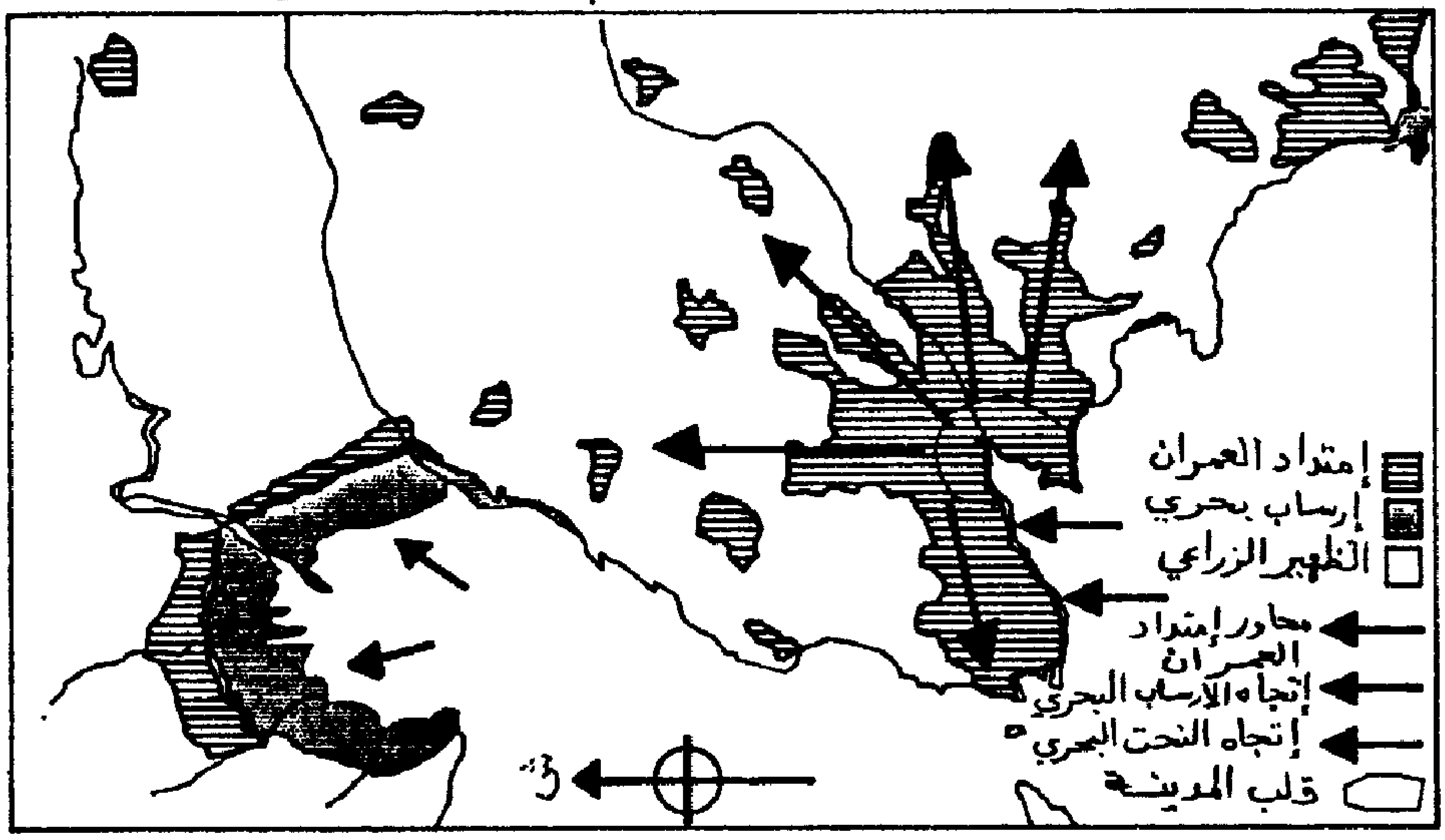
على الدراسة التحليلية الدقيقة لمحتويات المرئية بمساعدة خرائط أساسية وأطالس تفصيلية للاقليم للتعرف على المعالم والظاهرات التي تحتويها المرئية ورسم خريطة خطية تفسر المساحات التي تغطيها الاستخدامات المختلفة للأراضي ثم يلي ذلك إدخال الخرائط إلى الحاسب الآلي بواسطة جهاز مرقم الخرائط Digitizer لمطابقة الاستخدامات المختلفة للأراضي على أهم المعالم الطبوغرافية الأساسية للخريطة بغرض تحديد الآتي :

١ - محاور إمتداد العمران وتداخله في الظهير الزراعي المتاخم .
٢ - شبكات الطرق الاقليمية التي تربط المنطقة العمرانية بالاقليم .
٣ - المؤثرات البيئية التي تتعرض لها المنطقة العمرانية .
٤ - تحديد قلب المدينة .

ويوضح شكل (٨) التفسير الخطي للمرئية السابقة صورة (٥) حيث تظهر المحاور الخمسة لامتداد مدينة روشيل بما يتفق مع وجود تجمعات سكنية متفرقة تكاد تلتحم بالكتلة العمرانية للمدينة مما يوضح مدى إعتماد التجمعات العمرانية على الظهير الزراعي حيث تعتبر المنطقة من أخصب أراضي غرب فرنسا لانتشار الأنهار وروافدها .

ويوضح الشكل أيضاً جانباً هاماً من المؤثرات البيئية على مورفولوجية الشواطىء التي تطل عليها المدينة وخاصة النحت أو النحر البحري في جنوب وغرب المدينة وأيضاً الارساب البحري والنهري عند سواحل التجمعات السكنية في شمال مدينة روشيل .

تحليل الامتداد العمراني بإقليم ميناء روشـيل



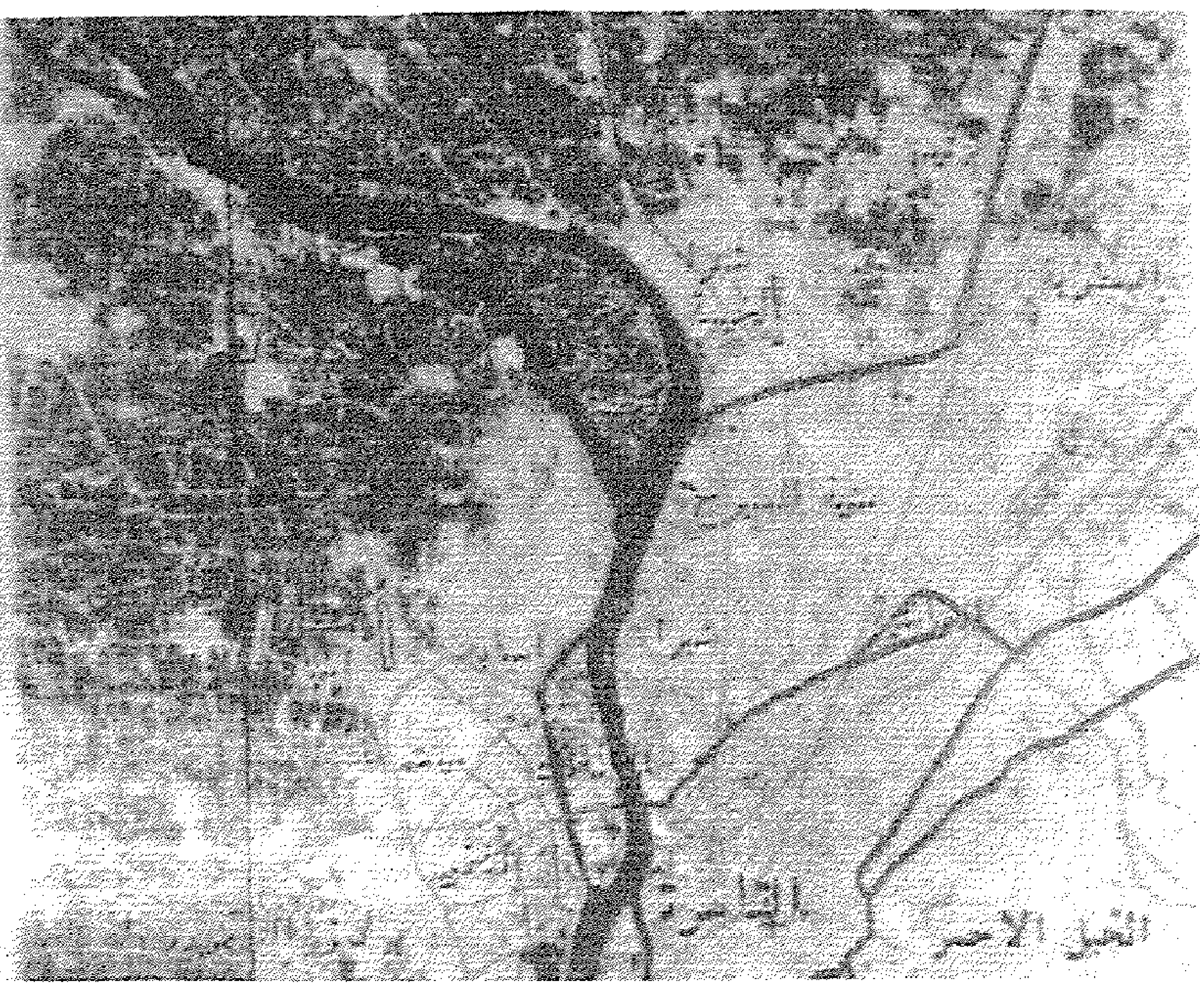
شكل (٨) : خريطة تحليلية للمرئية الفضائية صورة (٥)

رسمت بمعمل الخرائط الآلية

ونظم المعلومات الجغرافية قسم الجغرافية ـ جامعة قطر

٧ / ٢) نموذج في مجال الامتداد العمراني :

المرئية الفضائية (صورة رقم ٦) لجزء من القاهرة الكبرى والاقليم الزراعي المجاور في الشمال والغرب للمدينة بمقياس رسم ١ : ١٠٠,٠٠٠ من بيانات القمـر الصناعي الأمـريكي لاندسـات بنظم الاستشعـار النوعيـة Thematic Mapper .



صورة (٦) : مرئية فضائية لجزء من القاهرة الكبرى من القمر الصناعي الأمريكي لاندسات توضح الامتداد العمراني بالاقليم المجاور .

ويمكن إعطاء الجغرافي نبذة مختصرة عن المراحل الفنية التي مرت بها المرئية حتى وصلت بالمستوى الحالي في النقاط الآتية :

أ - تم الحصول على بيانات المرئية في حالة رقمية على شرائط مغناطيسية صالحة للقراءة والمعالجة بواسطة برامج خاصة كما سبق ذكره .

ب - بالاعتماد على نقاط تحكم أرضية Control Points تم ترقيم خرائط طبوغرافية للاقليم بنفس مقياس الرسم للمرئية .

جـ - إجراء تعديلات هندسية Geometric Corrections على المرئية بحيث تنطبق تماماً على الخرائط الطبوغرافية .

د - إجراء تعديلات طيفية Radiometric Corrections على المرئية للحصول

على تفاصيل استخدامات الأراضي المختلفة ولإظهار النطاق العمراني للإقليم .

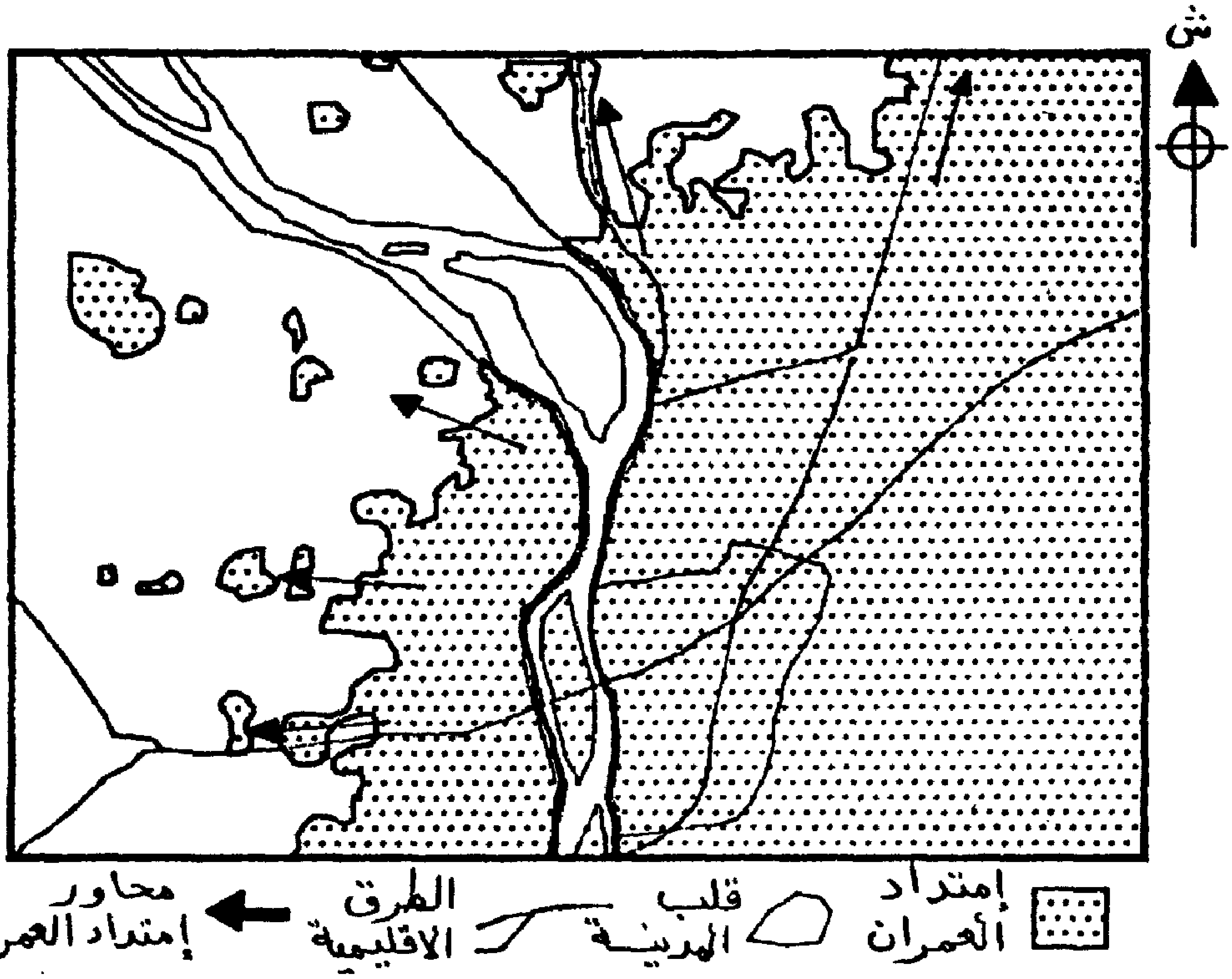
هـ - تم إدخال الكتابات العربية بالنمط المساحي Raster Mode وإعداد أفلام طباعة للمرئية .

وقد أجريت الخطوات الفنية السابقة بقسم الاستشعار عن بعد بالمعهد الجغرافي الفرنسي بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للمساحة وذلك في عام ١٩٨٥ م .

بالاعتماد على الطريقة النصف آلية التي تتبع في مجال الاستفادة التطبيقية للمرئيات الفضائية المطبوعة تم إعداد الخريطة الخطية شكل (٩) والتي يتضح عليها الآتي :

أ) التوزيع العمراني في الإقليم والذي يبدأ بقلب المدينة ويتحدد بالخط الأخضر ثم امتداد العمران في جميع الاتجاهات ليتوغل في الظهير الزراعي المتاخم ليظهر العلاقة الاقليمية فيما بينهما .

ب) شبكة الطرق الاقليمية التي تمثل بمثابة اتجاهات محاور الامتداد العمراني .



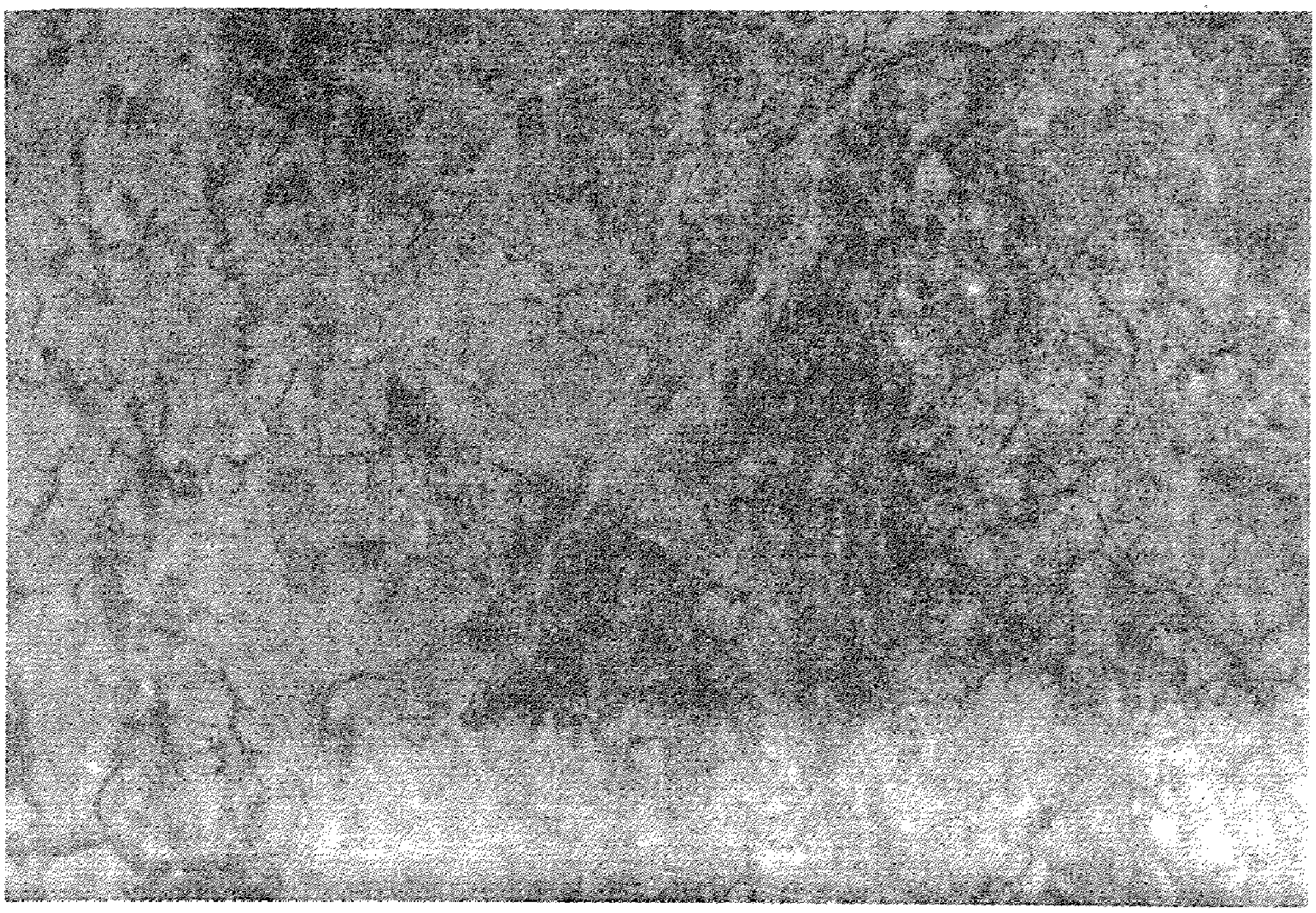
شكل (٩) : خريطة تحليلية للمرئية الفضائية

صورة (٦) رسمت بمعمل الخرائط الآلية

ونظم المعلومات الجغرافية قسم الجغرافيا ـ جامعة قطر

٣/٧) نموذج من مجال الجيولوجيا والهيدرولوجيا :

كما سبق ذكره أن دراسة التفاصيل الجيولوجية والامكانيات الهيدرولوجية من أهم دعائم تنفيذ الخطط العمرانية ، وعليه أختيرت مرئية فضائية (صورة ٧) لاقليم الحدود بين جمهوريات النيجر وبوركينافاسو ومالي والذي يجري فيه نهر النيجر وهي مرئية مركبة للمجالات ٤ ، ٥ ، ٧ من بيانات القمر الصناعي الأمريكي لاندسات بنظم الاستشعار متعدد الأطراف 'MSS' وذلك بمقياس رسم ١ : ١٠٠,٠٠٠ تقريباً .



صورة (٧) : مرئية فضائية لاقليم الحدود بين جمهوريات النيجر وبوركينافاسو ومالي من القمر الصناعي الأمريكي لاندسات وتوضح التركيب الجيولوجي والهيدرولوجي للاقليم .

وتساهم المرئية في مجال التخطيط العمراني بالبيانات التالية :

أ - إظهار مدى أثر اتساع صخور ما قبل الكمبري بالاقليم وبالتالي تقليل نسبة المخزون من المياه الجوفية حيث تظهر في مساحات محدودة تبدو باللون الأسود على المرئية وهذا أمر يهدد إمكانية إعتماد وحدات عمرانية على موارد مائية غير مياه نهر النيجر .

ب - تظهر المرئية الكتل الرملية المتحركة أو الزاحفة بشكل عرضي والتي تزيد من خطورة التصحر وتعرض العمران بالمنطقة للمخاطر البيئية .

وبالاعتماد على الخريطة الخطية التحليلية للمرئية صورة (٧) يمكن توضيح تفاصيل التركيب الجيولوجي للاقليم وتحديد إمكانياته الهيدرولوجية كالآتي :

أ) يسود في الاقليم التي تغطيه المرئية الصخور المتحولة على مساحة تزيد عن

٣٨٪ من مساحة الاقليم ، بينما تليها الصخور الرملية على مساحة تصل إلى ٣٠٪

ب) تمتد الصخور النارية ما قبل الكمبري في إتجاه طولي يتفق مع إمتداد نهر النيجر من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وأيضاً في إتجاه عرضي في جنوب المرئية لتصل مجموع مساحتها إلى حوالي ٢٠٪ من مساحة الاقليم وهي التي تؤثر في مسار النهر وتعوق تسرب مياهه إلى الباطن مما يقلل من نسبة المياه الجوفي على جانبيه .

جـ) تتركز المساحات المغطاة بالصخور الجيرية في الجانب الغربي لوسط الاقليم والتي لا تزيد مساحتها عن ١٠٪ .

د) تظهر الخريطة إتجاهات تجمع المياه الباطني في نقاط معدودة في النصف الجنوبي الغربي للاقليم .



شكل (١٠) خريطة تحليلية للمرئية صورة رقم (٧)

رسمت بمعمل الخرائط الآلية

ونظم المعلومات الجغرافية قسم الجغرافيا ـ جامعة قطر

وإذا إعتبرنا أن دراسة المرئية تهتم بإظهار المقاييس الطبيعية للاقليم والتي تعتبر معايير لقياس درجة صلاحية الاقليم أو جزء منه للتخطيط العمراني فإنه يمكن القول بأن الدائرة المرسومة على الخريطة تحدد أنسب مساحة للتخطيط العمراني لما يتوفر فيها من مياه جوفية تنتشر في بعض أجزاء المساحة ، ومرور رافد من روافد نهر النيجر بها .

٨) الخلاصـــة

تعتبر تكنولوجيا الاستشعار عن بعد من أهم دعائم التقدم العلمي والبحثي في مجالات علمية كثيرة ، والتخطيط العمراني هو أحد هذه المجالات . فالخطة العمرانية تعتمد على بيانات متنوعة ومختلفة المصادر فمنها حصيلة دراسات طبيعية وأخرى دراسات بشرية وثالثة دراسات اقتصادية . فباستخدام المرئيات الفضائية يمكن تغطية الجزء الأكبر من الدراسات الطبيعية للاقليم وأهمها الملامح المورفولوجية والجيمورفولوجية والتركيب الجيولوجي للطبقات إلى جانب التعرف على الموارد الطبيعية بالاقليمي هذا بالاضافة إلى دراسة الموقف البيئي والتعرف على مصادر التلوث .

ولا تقتصر أهمية الاستشعار عن بعد على دراسة الأقاليم الخالية من العمران ، ولكن أيضاً تفيدنا في مجال دراسة التجمعات العمرانية القائمة للتعرف على اتجاهات التوسع ومتغيراته من فترة زمنية إلى أخرى بالتالي توفير البيانات اللازمة لإعادة التخطيط بما يتناسب مع خصائص الوحدة العمرانية وعلاقاتها الاقليمية ، وأيضاً للتعرف على درجة التلوث الصناعي بالمدينة ومتابعته لاتخاذ التدابير اللازمة .

فبالرغم من تعدد مجالات الاعتماد على المرئيات الفضائية في التخطيط العمراني إلا أنه وكما يتضح في البحث سيادة منهج التحليل الشامل والعام للمرئيات دون التعرض إلى التفاصيل الهامة التي هي في غاية الضرورة للتخطيط

العمراني مثل :

- إمكانية تحديد الشكل والتركيب الداخلي للمستوطنات وذلك بسبب صغر مقياس رسم المرئية الفضائية مما يصعب علينا الإعتماد عليها لإظهار التفاصيل والتي يمكن أن تتيحها لنا الصور الجوية والتي تمتاز بكبر مقياس الرسم .
- لا يمكن أن تساعدنا المرئيات الفضائية على التعرف على نوعية المساكن وذلك لعدم وجود مرشح لألوان المرئية مما يجعل ذلك يعتمد على التقدير الشخصي للمحلل .
- عند وجود ضرورة دراسة التطور التاريخي لكتلة عمرانية ما وذلك بالإعتماد على المرئيات الفضائية فإنه يجب الوضع في الحسبان ضرورة الإعتماد على أكثر من مرئية لفترات زمنية مختلفة وهذا أمر مكلف وخاصة وأن ثمن المرئية الواحدة تصل إلى خمسة آلاف دولار أمريكي من القمر الصناعي الأمريكي لاندسات ، ولهذا الغرض يمكن أن تكون الصور الجوية أقل تكلفة .
- تعتمد عملية تحليل المرئيات الفضائية على التحليل الآلي بواسطة أجهزة الحاسوب ولكن أيضاً على الدراسات الحقلية لوضع قاعدة لتصنيف معالم المرئية ولهذا الغرض يتطلب وجود الخبرة لدى الدارسين بإقليم الدراسة .

ومن أهم الدراسات الحقلية التي يجريها المخططون هي التعرف على استخدامات الأراضي في إقليم التخطيط ومدى صلاحية التربة لانشاء العمران عليها وكذا تحديد الغطاءات النباتية ونوعيتها ومدى تأثيرها على التجمعات العمرانية .

وعند الاعتماد على الاستشعار عن بعد في التخطيط العمراني يجب ملاحظة الدقة في اختيار نوع المرئيات حسب المجال الطيفي ووقت الاستشعار كما يجب ملاحظة الحصول على برامج تطبيقية للحاسب الآلي تعمل على معالجة الصور Image data Processing وذلك لإمكانية تحقيق الاستفادة المطلوبة .

٩) المراجـــــع

أحمد عبدالســلام (١٩٨٧) :

منخفضـات شبـه جـزيـرة قـطر ـ دراسـة جيمورفولوجية ، رسـالة مـاجستير منشـورة ، جامعة عين شمس ١٩٨٧ .

عادل أحمد السيد عمر (١٩٨٨) :

التقرير الوطني لدولة الكويت عن الاستشعـار عن بعد ، مجلد الندوة الفرنسية القطرية الاقليمية للاستشعار ، جامعة قطر . ص ١٣٩ ـ ١٥٨ .

محمد الخزامي عزيز (١٩٩٠) :

- الاستخـدام التطبيقي للتكنـولوجيـا الحـديثـة في العلوم الاجتماعية بحث قدم في سيمنار كلية الانسانيات جامعة قطر .

هشام سلامة (١٩٨٨) :

التصوير المساحي الضوئي والاستشعار عن بعد في دراسة علوم الأرض ، مجلد الندوة الفرنسية القطرية الاقليمية للاستشعار ، جـامعة قطر . ص ٥١ ـ ٩٥ .

المراجـــع الأجنبيـة

BERTELSMANN's Grosse Weltatlas (1989) : RV Reise & Verkehrsverlag, Muenchen, Germany.

BUCHROITHNER, M.F. (1989) : Fernerkundungskartographie mit Satellitenaufnahmen, Franz deutike, 523p.

DENE' GERE, J. (Ed.) (1988) : Thematic Mapping from Saltellite Imagery, An International Report, Elsevier Applied Science Publishers LTD, New York, 224p.

DENIS, M. P. (1988) : General Satellite Image Map on France with SPOT data, in: DENE'GRE J.(Ed.) 1988 , pp. 6-9.

MUELLER, R. & H.H. VOSS (1989) : Digitale Verarbeitung von Fernerkundungsdaten zur Erkennung von Umweltschaeden, Wichmann-GIS, Heft 4,pp 13-26

NAKAMURA, H. & E. SHIMIZI U (1990) : Development and Utilization of Geographical Information System in Urban Management, Reviewed from Examples in Japan, WichmannGIS, Heft 3,pp. 10-14

NOWEIR,A.M. & I.A. EL-KASSAS (1989) : SPOT Imagery Surveys of Qatar peninsula and its Environs in the Arabian Gulf Region. In: Proceedings of French-Qatar Regional Symposium on Remote Sensing, University of Qatar, pp. 89-123.

PAUSADER,M.M. & F. PANTRUA (1988): Urban and Industrial Lands Mapping. In: DENE'GRE J. (Ed) 1988, pp. 179-183.

23. Ismail, pp 109 – 132.

24. Ismail, pp 184 – 186.

25. Ismail, pp 133 – 181.

26. For 'Imarat al-Istilaa' see Abu Yaali or Mawardi, al-, al-Ahkam al-Sultaniyya.

Bibliography

Duri, Abd-al-Aziz al-, al-Asr al-Abbasi al-Awwal, Beirut, 1988.

E.I. Encyclopedia of Islam.

Ibn Khaldun, Abd-al-Rahman, Kitab al-Ibar, vol III, Beirut, 1979.

Ismail, Osman S.A., Prelude to the Generals, Doha, 1988.

Ismail, Osman S.A., Min Baghdad li-Samara, Khartoum, 1964.

Lewis, B., The Arabs in History, London, 1950.

Masudi, al-, kitab al-Tanbih, Leiden, 1894.

Mawardi, al-, al-Ahkam al-Sultaniyya, Cairo, 1909.

Omar, Faruq, al-Khilafa al-Abbassiya, Baghdad.

Tabari, al-, Tarikh, vol 9, Cairo.

Tiqtaqa, Ibn al-, al-Fakhri, Paris, 1895, Cairo 1927.

Shaaban, M.A., The Abbasid Revolution, Cambridge, 1970.

Yaqubi, al-, Buldan, London, 1861.

Yaali, Abu-, al-Akham al-Sultaniyya, Cairo.

NOTES

1. For the "Abbasid Revolution" see Duri, pp. 36 – 54; E. I. s. v. Abbasids; B. Lewis, The Arabs in History; Shaaban, The Abbasid Revolution.
2. For Dawa, see Duri pp 9 – 34; Omar pp 7 – 22; E.I. s.v. Dawa.
3. As above.
4. Ibn Khaldun, p. 170.
5. Tabari, years 132 – 136 A.H; Omar, pp 23 – 29.
6. E. I. s. v. Abu Bakr.
7. Shakespeare, Richard III act S, Scene 7.
8. Omar, pp 25 – 26.
9. E. I. s. v. Abna, Khurasanis.
10. Omar n. 8 above; E. I. s. v. Baghdad.
11. Duri, pp 70; Omar, p 114. See also E.I. s.v. Rawandiyya.
12. Duri, pp 75 – 78.
13. Of such are the works of Ibn Al–Muqaffa, Abu Yusuf, Jahiz, Jahshiyari, Imam Malik, Ibn Qutaiba, Suli and many others.
14. Duri, p 78; Tiqtaqa see al-Mansur; Tabari, p 297.
15. Duri, pp 81 – 82.
16. Masudi, p 357; Ismael, pp 109 – 115.
17. Ismail, pp 109 – 132.
18. Yaqubi, s.v. Baghdad.
19. For al–Maarri see E.I.
20. For all these see E.I.
21. Ismail,pp 19–58, 109–132.
22. Ismail, pp 109 – 132.

affected the Caliphs, the troops and the court and the administration. The Caliphate remained till its lasting days Sunni and Abbasid. The fate of the Caliphate was so much tied to the fate of its two capitals that often people speak of the sack of Baghdad in 1258 A.D. and not the effective end of the Abbasids at that date. This it seems is not because a kind of a shadow Abbasid Caliphate continued for long in Cairo under the Mamluks but because people rightly grasped the meaning of the sack of Baghdad. That meant the end of a long and glorious period in the history of the Abbasid Caliphate.

match to Baghdad or its rulers. Its Caliphs did not succed in patronizing dfistingueshed administrators, literary personalities or learned men. What it did have was military commanders including its founder Caliph Mutasim himself whose ascendancy to the seat of Caliph ushered in the ascendancy of the generals in Islamic history, a phenomenon which seems to die hard amongst muslim communities[24]. Its importance is in the way it came to be founded and the circumstances which brought about that sharp turn in Baghdad the city which fought so hard to keep itself as the capital of the Abbasids. The turn came when the presence of the Caliph, his court, his guards and his entourage were a menace to all that Baghdad stood for. No wonder it decided that it was better without them. Not for good, however. Baghdad continued to maintain a posture of opposition and challenge to the new capital as when its Caliphs supported the Mutazila, favoured the Alids or threatened its well-being. Sammara had the pomp and the power but only for sometime. Baghdad had the best of the Abbasid world. It continued to be the centre of culture and commerce very much unlike Samarra whose history is one of plots, murders and rebellions, although under its founder Al-Mutasim it celebrated resounding victories against internal and external enemies of the Caliphate[25]. In Samarra and after the return to Baghdad, the Caliphs were gradually losing power to their generals and provincial governors. Descendants of Caliph Al-Mutasim continued to plot againts each other thereby openning the door of intrigue amongst the soldiers, the administrators and the courtiers. This encouraged provicial governors and ambitious power seekers to capitalize on the situation especially in distant parts of the Caliphate as such parts were vulnerable at a time when the centre wasd weak and divided and could not afford to give any support to border provinces. Notwithstanding all this the Caliphate and the Caliphs continued to survive, reigning but not ruling. In that way provincial govrnment had its legitimacy as it was maintained in the name of both Caliphate and Caliphs. Such was the case even when Abbasid Calipphs in Baghdad were under the Buyids (932 - 1062 AD) who were shiite. The jurists were quick to legitimise the situation recognizing the 'emirate by seizure' (Imarat-Al-Istila) so long as it maintained the Sharia[26]. The move to Samarra was thus not the result of a changce of dynasty or a shift in the balance of power as had been the case with Ali's move to Kufa, Muawiya's stay in Damascus or Al-Mansur's founding of Baghdad. The founnding of Samnarra was a result of internal developments in the ruling circles of the Abbasid Caliphate. These

ambitious but impatient or unwise Caliphs or the unruly behavior of troops[21]. Those were the guidelines. When Al-Mamum opted for an Alid Successor, changed the colour of the state to the green of the Alids in place of the black of the Abbasids, made his capital Marw and championed the cause of the Mutazila, Baghada had no choice but to fight his policies to the bitter end[22]. Defending itself against the siege of Tahir b. Al-Husayn in the last days of Al-Amin (809 - 813 AD) and managing its affairs by al-Urat and al-Ayyarun, the city elders put up their Caliph on the death of al-Amin and called him the Sunni Caliph. that was Ibrahim b. Al-Mahdi (817 - 819). Al-Mamun had to come to termrs with Baghdad before entering Iraq. His religious policy, carried on after him by his successor al-Mutasim (833 - 842 AD) and the latter's son al-Wathig (842-847 AD), was partly the cause that made Baghdad to willingly ask Al–Mutasim to leave it in peace having realised that the cause of the Abbasids had won and that he would not go far from Baghdad[23]. Here one does not fail to notice the important change in respect of the rulers and the ruled in relationship to the office of Caliph if not the Caliphate itself. The previous civil wars ending in the Abbasid revolution itself were a matter of concern to all the Muslim community. Now during the long period of the Abbasids in Baghdad and Samarra succession became a family affair. As one poet put it, "If life comes our way, we do not care who becames Imam". Can it be said then that the Dawla, the ruling institutions, the Sharia and the social structures resulting from these is the key to understading the development? Is this something approaching the "withering of the state" envisaged by the Marxists? The Caliphate did not wither away. It was knocked on the head, the 'coup de grace', by the Mongols (1258 AD) and passed away unnoticed under the Mamluks (1518AD). However, having its capital move to our second city it continued to reign but only occasionally ruled.

Our second city is of course Samarra. Its fate is very much reflected in the different names by which it was known. First 'Surur-man-raa' then shotened to Surra-man-raa' and finally 'Saa man raa'. Respectively these meant "the delight of the seer ", "delighted is the seer" and "grieved is the seer"! Better still it is often referred to as the 'Askar, the camp. A camp capital as it was founded Samarra remained during its years as Abbasid Caliphal Capital no more than a camp. Neither the city nor any of its Caliphs was in any sense a

rivers the Tigris and the Euphrates. Supplies and merchandise come to it by land and water in the easest of ways that it has in it all articles of trade from the Islamic and non-Islamic Worlds. Merchandise is carried to it from India, Sind, China, Tibet, the lands of the Turks, the Daylamites and the Khazars; from Abysinia and all other places. The situation is such that Baghdad will have from the merchadise of other places more than is found in the place of origin of that merchandise. It will be more easily available as if the fruits of all the world, its treasures, as well its blessings are gathered there. It has the famous name and repute. It is the centre of the world. Its people have good manners, resplendent faces and open minds that they exelled all others in learning and understanding; in literature, in comprehension, in expertise and in crafts[18]." Much later Al-Maarrai (973-1058 AD) was very much involved in the intellectual, literary and social life of Baghdad. His love for the city and its life is reflected in many references to it in his "Luzumiyyat" and other poems. Some scenes in his Risalat Al-Ghufran are probably drawn from that experience[19].

What is worthy of note in this respect, relative to the growth of Baghdad is that in fact Baghdad grew to be much more than Dar-Al-Salam which Al-Mansur founded in the first place. The round, walled, gated, guarded administrative city, prescribed for a clear purpose, was gradualy being swallowed up by the great city that grew around it between the rtivers having strong links to the hinter land beyond as far as Kufa, Basra and other cities. And while one can look for Caliphs, vizirs, courtiers, commanders and clients and the trasditions that belong to them in Al-Zawra it is to Baghdad the city at large that one looks for the traditions of learning, industry, commerce, political thought, literature, 'la dolci vita' and such aspects of the rich urban society that had been in Baghdad. Thus it is not in one place that one looks for traces of Ibn Al-Muqaffa, Abu Nuwas, Bashshar, Jahiz, Al-Khalil, Buhturi, Abu-Tamman, Dibil, the Barmicides, the Banu Sahl, Tabari, Yaqubi, Al-Isfahani or Al-Mawsili[20].

It was that Baghdad that supported the Abbasids and always defended their cause, sometimes against the whims and policies of some Abbasid Caliphs such as Al-Mamun and Al-Mutasim. The city grew to have a will of its own. For Baghdad the Caliphate had to remain Sunni and Abbasid. The city had to continue to be a cirty of peace where people could live, earn their living and go about their ways uncoerced or molested by the whims of

Abbasid history ever since. Al Mansur's concern for his capital city and its inhabitants, rulers, civil servants and the common people (Al–Amma) did not leave him till his dying days. Thus Baghdad's future in that all-embracing concept figures out very prominently in Al-Mansur' wasiyya (testimony) to his son and successor Al-Mahdi (775-785 AD). In the different versions of this reported by Tabari and others Al Mansur is said to have repeatedly advised Al-Mahdi to take care of Baghdad being the seat of his rule and the abode of his honour, to take care of his relatives, of his civil servants, of his troops, of his clients, of the Khurasanis, and of the common people. He is reported to have warned him not to seek an alternative capital[(15)].

Baghdad was of course not the first administrative city founded in Islam. But it was the first to be founded to be the Caliphate Capital, not a provincial capital like Kufa, Fustat, Qairawan, Ramla and others[(16)]. It was not the first or only Caliphal Capital as the Abbasid were not the first or only Caliphs in Islam. Not even as an Abbasid capital did it remain unchallenged as the capital city. For a few years it was rivalled by Al-Raqqa at the time of Harun Al-Rashid (786–808 AD), challenged by Marw during the time of Al–Mamun (813 – 820 AD) and for about half a century it was replaced by Sammara (835 – 892 AD)[(17)]. But Baghdad was the longest ruling and reigning capital in Islam as so was the Abbasid Caliphate. The sack of Baghdad by the Mongols in 1258 AD spelt the effective end of the Abbasid Caliphate. But notr that of the city of Baghdad which is still with us. And it was in Baghdad that the "Dawla" the rtevolution in the affairs of state abd society took root and flourished influencing other Islamic and non-Islamic cities and peoples and playing the major and leading role in what came to be known as the Islamic civilization.

Yaqubi in his "Buldan" gives a graphic description of Baghdad. "I have begun with Iraq because it is the centre of the world and the umbilical cord of th e earth. I have mentioned Baghdad as it is the centre of Iraq and the great city whivh has no equal, east or west, in its expanse, its greatness, its buildings, the abundance of its water and healty climate. And because it was inhabited by different groups of people as well as people from other cities and hamlets. People from different places, far and near, moved to live in it prefering it to their homelands. No people from any country but they have a place, a shop or a quarter in it. Thus there gathered in Baghdad people like in no other city in the world. Then there ran on both sides of it the two great

quest for other more basic qualities, requirements which reflect the dept of his thought and foresight. Healthy environment, expanse, easy spread, a complex strategy that catered for defence, economic growth, supply roots, easy access to and from, centrality were amongst the many qualities he looked for before committing himself to the site of this new capital city. Indeed as he wanted it "to be a communication centre, a gateway for the world (mashratun li-al-dunya)" show clearly that al-Mansur's concerns were not transitory, local or regional but universal in a fashion relative to his age[(12)]. Such thoughts could not have been but the results of long and deep reflection. In this respect one finds evidence in the many political speeches and addresses of both Al-Saffah and Al-Mansur in which they presented their credetials, defended their legitimacy and explained the nature of their state and basis of their rule. Al-Dawla Al-Mubaraka (the blessed state) the appellation given to their Caliphate, coming as a result of the "Revolt of Islam" as modern scholars describe the revolt againts the Umayyads, was to be a state tailored on accepted Islamic traditions for good rule and correct practices. This in its turn demanded good administration carried out from an imposing centre, the capital, by able and loyal rules and civil servants and within the laws of Islam.

The new capital was thus not only the physical structures of the city, magnificent, impressive and praiseworthy as they were, but what went inside the minds of those who lived and worked in them and the deeds that were the fruits of their thoughts and endeavours. The literature of the period shows that good government, state-craft and office practice had been the concern of many a writer and a ruler[(13)].

Al-Mansur who according to Ibn Al-Tiqtaqa was the one who founded the state, fully controlled the realm and laid the bais of Abbasid rule is reported by Tabari to have said: "How much do I, need to have before my door four persons unsurpassed by any others in their propriety. Such are the pillars of my rule. A judge who will fear the blame of none in administering justice. The other is a commander of police who protects the weak from the strong. The third is a master of revenues who exerts himself without being unjust to the subjects as I have no need to be unjust to them. The fourth is a director of intellegence service (sahib barid) who writes accurate reports about these[(14)]". Both Baghdad and its founder Al-Mansur have been the subject of many chronicles and writers of old, and many scholars and students of

Al-Saffah did not stay long in office dying at the young age of 28 or 36, only four years after his accession. Those four years were however long enough for him to see the end of the fugitive Umayyad Caliph Marwan II in Egypt (750 AD), to have the succession secured in the Abbasids and to have that firmly in his own house by passing the Caliphate in style to his half-brother al-Mansur (754–775 A.D.). It was also at the beginning of those four years of his rule that he started the move to a new capital. Before that in his accession speech he declared the new state (dawla) open to all those who could prove their ability and loyality. The old bond of kinship (asabiyya) then broken and discredited was to be replaced by a new bond of fidelity to the cause and service of the state. In the context a new bond of allegiance (wala al-istina) was being forged when (Abna al-Dawa) sons of the cause and the Khurasanis were coming to the fore[9]. It was on the shoulders of these that the Abbasids took the Caliphate. Their continuous support was crucial in preserving the Abbasid Caliphate and advancing its cause. A new capital for the new state and its supporters was thus not a matter of luxury but one of crucial importance.

Leaving Kufa as a result of an estrangement between him and his minister Abu Salama Al-Khallal whom he had to liquidate soon after al-Saffah started the building of his new capital, not far from Kufa, giving it the significant name Al-hashimiyya. But this did not satisfy him. Abandoning the place but keeping the name he tried again, this time near Al-Anbar. But both were as ephemeral as was the reign of their initiator. It was Al-Mansur ruling for a long period (754–775 A.D.) who was destined to found near the old site of Baghdad, the capital city of the Abbasids, which was given the name Dar-al-Salam (the abode of peace). So Dar-al-Salam, Al-Zawra (the slanted) or Baghdad is our first city[10].

The immediate events that provoked Al-Mansur to start the search for a suitable site for his capital were those related to the unpredictable, unruly, heretical and dangerous behaviour of the Rawandiyya that nearly cost him his life and threatend the stability of his state[11]. It may be assumed then that the need for safety and security was first as well as foremost in his quest for a new capital. The round, walled, gated and guarded city that came to be may strengthen this asumption. But true and important as those reasons were they do not seem to have been the only or the most important ones. Spelling out the qualities he looked for in determining the site one notes his

to succeed after them. But the Abbasids had all the chances. They had control of the military wing if not the political council of the secret organisation that led the revolution., They were united in themselves and many members of the Abbasid family were field commanders chasing the Umayyads in Iraq, Syria and Egypt. Most of the rest of the commaders were their clients. They had their candidate ready to be declared and assume command at the right time. They knew that as far as of the main stream muslims were concerned the Alids' cause was bedeviled by their implication with the Shia. Not only did the Alid leadership stand aloof during the revolution but they did not aspire to make use of it or even agree on a single candidate to lead their cause. All this is clearly demonstrated from the succession of events leading to the proclamation of Al-Saffah as Imam. It was in the eloquent and powerful accession speech which he delivered on that occassion that he gave himself the title of Saffah leaving people to wonder which meaning of that word he had in mind; the eloquent, the generous, the kind shedder of tears or the bloodshedder. Or did he mean all of them? The speech was in the fashion of accession speeches noted from the time of the first Caliph Abu-Bakr (632 - 634 AD).[6] But since both circumtances and atmosphere were radically different, so was the speech. The Abbasid candidate was brought out from hiding. He was not known to most up to that time. The revolution was not yet complete. Wars were still being waged. He had to make good his venture when he had no refuge to go to; neither city nor province or by then a distinct party to look to for support except for his house, his clients and the loyals from their troops. All these the Abbasids had to make. Hence the search for a capital was almost like Shakespeare's Richard III's cry "A horse! A horse! My kingdom for a horse!".[7]

Kufa in which al-Saffah was declared Caliph and had homage paid to him was known to be pro-Alid. Basra was compromised. Iraq as a province was anti-Umayyad. It was the most suitable for the Muslim world with the situation described above by Ibn Khaldun and with the tilt in all aspects of power, peoples, wealth and strategy, in favour of the eastern provinces of ther Caliphate. So the capital had to be in Iraq, and not far away from both two older muslim cities Kufa and Basra. The search for a suitable place for a capital to be founded a new started from the time of the declaration of the new Caliph Al-Saffah, a declaration ushering in its wake a new dynasty, the Abbasid[8].

base or province or city like the Umayyads. They had no sects, provinces or cities inclined to their cause like the Alids. But the rebellion was a succes and they had control of its leadership especially the military commanders who brought them out of hiding and paid homage to them prior to the public declaration of their succession to the Caliphate once the end of the Umayyads was assured. One of their immediate problems was the choice of a capital.

By then Syria had lost its validity as a ruling province, Damascus its position as the most suitable for the Caliphate Capital. The 'drang nach osten' which culminated in the expansion of both state and relegion well into Transoxania showed that the "New World" of Islam was in the east, and that the balance of power had shifted in that direction.

Appreciating the situation of the Muslim world on the eve of the Abbasid take-over Ibn Khaldun concluded that the fate of the Umayyads brought about in its wake the end of the unity of that world. He advanced his own explanition for that: "The affairs of Islam were all under one state during the time of the Four Caliphs and the Umayyads because of the unity of the Arab bond (asabiyya). But after that the cause of the Shia, and these are the ones who call for the rule of the members of the House of the Prophet, became apparent. But then the agents of the Abbasids prevailed, turning the Caliphate into a monarchical institution. A group from the Umayyads made it to Andalusia where they were taken care of by their clients as well as by those who fled with them. They did not recognise the Abbasids. The State of Islam was for that reason divided into two parts because of the rifts in the Arab bond. Then after that the agents of the Alids from amongst the members of the House of the Prophet appeared in the Magherb and Iraq challeging the Abbasid Caliphs and taking under their control distant parts of the lands of the Caliphate. The State of Islam was divided into several States." So said Ibn Khaldum.[4]

The first two Abbasid Caliphs Al-Saffah (749 – 754 AD) and Ai-Mansur (754 – 775 AD) came at a critical period in that development noted by Ibn Khaldun. It was one thing to bring about the end of the Umayyads, exploiting a situation in which many took part. It was quite another thing to succeed in their place in the face of many odds,and to stay in power in reality or in name for five centuries and a few years more (750 – 1258 AD). The Umayyads had fallen. As things stood, the Alids compared to their cousins had a better claim

A TALE OF TWO CITIES AND THE ABBASID CALIPHATE 132 - 656/750 - 1258

(Prof. Dr.) **Osman Sid-Ahmed Ismail Al-Bili**
Director, D.H.R.C. University Of Qatar

The murder of Ali B. Abi Talib (661 AD) the fourth of the Patriarchal Caliphs left Muawiya, his arch enemy, with no serious rival to the position of Caliph albeit there were other contenders. Equally unrivalled for the position of Chaliphal Capital was Damascus, the ancient capital of Syria, from which Muawiya ruled as governor since the days of the second Caliph Umar I (634 - 644 AD) and from which he challenge Ali B. Abi Talib to a stalemate situatiuon till the assassination of Ali did them part, the latter to heavens, the former to the positiobn of Caliph for a good many years (662 – 680 AD).

Mauwiya in the circumstances had no problem of a choice of a capital let alone the need to found one. From all aspects, political, military, strategic, economic, cultural etc. Syria was second to none as ruling province. Damascus had no rival as Caliphal Capital. The fate of the Umayyads, Sufyanids and Marwanids, was tied to the fate of both city and province. The fall of these to the rebel forces of what came to be known as the Abbasid Revolution (750 Ad) meant the fall of the Umayyads except for what survived far away in Muslim Spain.[(1)]

Not so was the case with the Abbasids (750 – 1258 AD) in regard to the choise of a capital city if not of a ruling province. They did succeed in imposing themselves as the ultimate beneficiaries from the movement and the military engagements that brougth about the downfall of the Umayyads. But strictly speaking neither the movement (Dawa)[(2)] nor the wars were carried in their name. For most people the rebellion was supported more for its cause than for its leadership. Only a chosen few of the activists and the commanders knew that the undeclared leaders of the movement, carried out in the name of the "Accepted One from the House of the Prophet" - Al-Rida Min Ahl Al-Bayt- were Abbasid.[(3)] In fact all evidence show that the majority of those involed in the clandestine movement and its wars expected an Alid succsessor as the movement was of Shiite origins. The Abbasids had control of the movement and mastermined the revolution. But they had no popular

فليست مصادفة إذن أن تختفى فى سنة ١٩٤٠ مجلة الأدب المقارن .Revue de Litt *comparée* التى أنشئت عام ١٩٢٠ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى لتؤكد حاجات العقل وضرورات الاتحاد الثقافى ضد ما كان يسود الناس من بغض . «فما هو الأدب المقارن إذا لم يكن دراسة التبادل الحر ؟ فلو قد ظهرت هذه المجلة أثناء الاحتلال ، لقضت على نفسها بأن تقطع أوصالها ، وألا تفحص من المؤثرات إلا ما يسير فى اتجاه واحد ، وألا تدرس من الآراء إلا ذات الاتجاه الواحد . ولو قد فعلت ذلك لفرضت على نفسها أن تصمت عما يحدث فى انجلترا وفى أمريكا. كلا ! لم يكن هناك مكان لهذا النوع من الدراسة ، لا مكان لدراستنا فيما دعى « النظام الجديد » ، لا مكان لها فى نظام من الأوتوقراطية الفكرية حيث كان المرء يلقى فى كل طرق المدينة . اللافتة « ممنوع » Verboten التى تحدد ما يسمح للمرء برؤيته . وما أكثر ما كرر المعهد الألمانى بباريس دعواته لى ، ولكن عبثا ! كانت ترسل لى باستمرار فى السوربون الكراسات الفرنسية الألمانية *Cahiers Franco allemands* ، والكتيبات التى كانت تصدرها جماعة التعاون Collaboration وعديد من المطبوعات الأخرى الآتية رأسا من برلين . لقد صمتنا » (١) وليست مصادفة أيضا أن يكون مارسيل باتايون ، وجان مارى كاريه J. M. Carré — وهما المديران الحاليان للمجلة واللذان أبانا عن حبهما للدراسات البشرية الأجنبية humanismes étrangers أحدهما بكتاباته عن جوته Goethe والآخر ببحوثه عن أرزمس Erasme فى أسبانيا — أثناء فترة احتجاب المعرفة ، فى قمة النضال الجامعى .

أسفاً ! إن أول كراسة من المجلة هى رثاء لبول هازارد P. Hazard (الذى مات قبل أن يرى عودة المجلة التى أسسها وأدارها طيلة عشرين عاما . مات قبل أن يقرأ التجارب الأخيرة لكتابه : « الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر » *La pensée européenne au XVIIIe Siècle*) وتقرأ فيها آخر دراسة أعدها هذا الأستاذ العالم ، وهى مقدمة لكتاب إرزمس « ثناء على الجنون » *Eloge de la folie* وفيها يمتدح روح النقد . وإنه لأمر « رائع ومنقذ » فى نفس الوقت أن تظهر روح النقد فى ساعات التاريخ التى تكون فيها الآراء التقليدية قد استنفدت أغراضها . وإنه لمن الخير أن تعود مجلة الأدب المقارن إلى الحياة لتحيا فى إرزمس « هادم الآراء الزائفة » ، ذلك لأننا اليوم فى حاجة إلى اثنين أو ثلاثة من طراز إرزمس .

وقد ظهرت أربع من تلك الكراسات : ديدرو وهولانده ، برانجيه فى ألمانيا Béranger en Allemagne ؛ جوته وفاليرى Goethe et Valry ؛ كامونس فى ألمانيا Camoëns en Allemagne ؛ بوكاس والقصة الفرنسية فى عهد النهضة ؛ ريلكه وفان جوج Rilke et Van Gogh ؛ رسكين وبروست Ruskin et Proust ؛ فنكلمان وأندريه شنييه Winckelman et Chénier كوستيس بالاماس وأوربا Costis Palamas et l'Europe ؛ مونتانى عند أصدقائه الأنجلوسكسون Montaigne chez ses amis anglo-saxons ؛ جوته والأدب فى العالم Goethe und die

---

(١) هذا ما كتبه كاريه J. M. Carré فى مقدمته للعدد الأول من المجموعة الجديدة .

٧ ـ وثيقة فريدة: مقال إيتامبل في (الكاتب المصري)، ١٩٤٨م.

من كتب الشرق والغرب

RENOUVEAU DE LA LITTÉRATURE COMPARÉE

ETIEMBLE

نهضة الأدب المقارن*

حين انتوى مونتانى Montaigne أن يرحل إلى إيطاليا ، لم يكن عليه إلا أن يعد كيسا مليئا ، وحصانا وخادما . أما عن جواز السفر فلا تسل . وقبل حرب ١٩١٤ كان يستطيع من يريد رؤية الدنيا أن يراها دون عائق يعوق حريته اللهم إلا ما كانت تفرض عليه تركيا وروسيا من قيود . أما فى عام ١٩٣٦ ، فما أكثر الأختام والمرور بالجمارك التى تفرض على من يريد السفر من باريس إلى هولندا . وعندما كنت أقيم بشيكاجو عام ١٩٤٠ ، أردت أن أمضى بضع أسابيع فى المكسيك ، فكان على أن أعد فى حقائبى حقيبة خاصة للوثائق اللازمة لتلك الحملة . ولقد وجد المتصنعون snobs فى هذا فائدة لهم ومسرة : فهم يعددون تراخيص السفر إلى البلاد الأجنبية كما لو كانوا يحصون أجدادهم من الأشراف ، ويصطنعون الكثير من ذلك العبث الذى كان يدفعهم إلى جمع بطاقات الفنادق . أما الآخرون، أولئك الذين يريدون أن يحيوا حياة الرجال ، حياة بسيطة ومليئة أيضا ، فما برحوا يسائلون أنفسهم لم تكون الصلات اليوم من وطن إلى آخر أكثر صعوبة مما كانت فى زمن الحريات .

ولا يصح الادعاء بأن كثرة تلك التراخيص والأوراق قد منع اللصوص الدوليين ، أو الجواسيس الأعداء من تأديتهم مهمتهم فى سلام . فان أى رجل من رجال الشرطة ، وأى عضو من أعضاء الأحزاب الثورية يعرف كيف يصنع أوراقا مزيفة . وقد أثبت التاريخ الحديث لجماعات مقاومة الاضطهاد النازى ، أن رجالا أقوياء قد استطاعوا أن يجوسوا خلال أوربا ساخرين من رجال الجستابو . ولم يكن عبثا تقسيم الأرض وتفريقها بهذه الصرامة وخاصة فى عهد الاستبداد . فما كان تقطير الأجانب إلا لوقف الآراء التى سرعان ما تنتشر بانتشار الكلمات السيارة mots-voyageurs (ولنذكر تاريخ الكلمة الصينية تشا tch'a التى صارت فى الروسية تشاى tchai وفى العربية شاى ، وفى الفرنسية ، تيه thé الخ) . فالحواجز الجمركية تستخدم إذن فى وقف الكتب والمجلات والأفكار . وقد ساعد تشويش الأمواج اللاسلكية (أو بمنع استخدام أجهزة الراديو التى تستطيع التقاط المحطات الضعيفة والبعيدة) على جعل حدود الدول أسوار سجن بدلا من أن توحد بين الشعوب .

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصري ». مجلد ٧ ـ العدد ٢٨، يناير ١٩٤٨م.

٣ ـ فهرس العدد الأول من مجلة (دفاتر جزائرية في الأدب المقارن)

١٩٦٤

CAHIERS ALGÉRIENS
DE
LITTERATURE COMPARÉE

Annuels.

Directeur : J. E. BENCHEIKH

SOMMAIRE

FACULTÉ DES LETTRES ET SCIENCES HUMAINES
ALGER

العـــدد ١٥٣ « القاهرة في يوم الاثنين ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٥٥ — ٨ يونيه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي

اشتغال العرب بالأدب المقارن

أو ما يدعوه الفرنج « littérature comparée »

في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر

لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد*

— تلخيص وتحليل —

للأستاذ خليل هنداوي

مقدمة:

إن الإنسان لمولع جداً بإظهار الحقائق عن طريق المقارنة، والمقارنة قد تكون مقارنة فرد بفرد أو شعب بشعب. أما الأولى فقد تكاد تكون شائعة في كل عهد لأنها رأس كل نقد. والأوائل لم يغمروا مثلاً امرأ القيس بما غمروه من فيض عبقريته إلا بعد أن قرنوا شاعرية غيره إلى شاعريته. والإنسان مسوق بطبعه الموروث إلى مثل هذه المقارنة التي قد تكون غريزية في كل كائن يفكر ويشعر. أما المقارنة الثانية فهي حديثة النشأة، لأن النقد لم يكن ليخطر في باله أن يقيم الأوزان بين أدباء أمتين مختلفتين ثقافة واتجاهاً وشعوراً. ومن كان يفكر في المقارنة بين شكسبير وراسين، ودانتي وميلتون، وبين ميزات الأدب الألماني والأدب الفرنسي؟ وكل واحد منهم يمت بوسائله إلى أمة مستقلة في تطورها وبيئتها. ولكن الأدب — كما يبدو — له سلطان قاهر، يرمي بالحواجز التي تفصل بين الحدود الصناعية ويقتحم في عوالم الفكر والخيال دون أن يصد اقتحامه شيء، لأنه الأدب...

وهكذا نشأت الصلات الأدبية بين الأمم إلا ما شاء ربك... وربطت بين المفكرين ربطاً لا يقوم على المصالح سياسية أو مطامع مادية، وإنما يقوم على رفع منارة الفكر وإعلاء كلمة الفكر. فما أطهر هذه الرابطة لو أنها تخرج من هذا العالم غير المحدود إلى العالم الذي سودته الحدود! فتجد الأديب الفرنسي يجالس الأديب الألماني دون أن تطغى على قلبه سورة الحقد. وتجد الأديب الألماني يكتب عن الأديب الفرنسي من غير أن تغلب عليه موجدة. ذلك أن عالم الفكر سما بهما فوق عالمهما المحدود الذي عمرته الحزازات وتقطعت بين وشائجه الأسباب. فهما يتفاهمان في ذلك العالم ويصافح بعضهما بعضاً

هذا هو الأدب بالمقارنة يعمل على درس ميزات أدب كل أمة بمقارنتها مع ميزات غيرها من الأمم. وهو أدب – كما قلت – حديث الخلق، شجع على نشره شيوع رسالة الأدب الإنساني. ولعل رسالة الفلسفة كانت أسبق من الأدب إلى هذه الرسالة. لأنها تنعتق من قيود العاطفة ولا تتخذ مطيتها إلا الفكر. والفكر أصلب عوداً من العاطفة. والفلسفة وحدها كانت أبعد العلوم الفكرية شيوعاً وذيوعاً في كل عصر، تكتسبها الأمم الغالبة من الأمم المغلوبة دون أن يلحقها عار الاكتساب، ودون أن تتحوط له. كما نقل العرب الفلسفة اليونانية بحذافيرها، وطبقوها على عقائدهم الفكرية والاجتماعية، حتى غدا اليونان أساتذة العرب في الفلسفة. أما الأدب اليوناني فلم يكتب له حظ الانتقال في كثير ولا قليل. ولعل ذلك يعود إلى اختلاف الإحساس والتعبير عند الأمتين. ومن عجب الأيام أن يمتزج المنطق اليوناني مع العقل، ويتبدل حتى يغدو جزءاً من العقل العربي. والأدب اليوناني لا يكتب له إلا الخيبة

ألم يتدارس العرب الأدب اليوناني، كما تدارسوا الفلسفة اليونانية؟ قد يُظن أنهم درسوا شيئاً منه وسمعوا ألحان هوميروس فيه، ولكن ألحانه لم تطب لهم، لأن هذه الأساطير التي يطفح بها أدبهم جاءت في العهد الذي كان يسيطر فيه المنطق اليوناني على العقل العربي، فصموا عن هذه الألحان ولم يعيروها التفاتاً. وقد يظن أن الأدب العربي الذي كانت معجزة البلاغة منه كان سيد نفسه، لا يميل إلى اقتباس قواعد البلاغة من غيره، وما

* لقد وقفنا على مقالات متفرقة من هذا الكتاب النفيس اعتمدنا عليها في دراستنا هذه. ونرجو (الرسالة) أن تحيلنا علماً بهذا الكتاب وحبذا لو تصل لجنة التأليف والترجمة والنشر على نشر هذا الأثر الكريم

(الرسالة) تلخيص كتاب أرسطو في الشعر لابن رشد طبع في مدينة فلورنسة سنة ١٨٧٢ ووقف على طبعه (فوسطو لازينيو). ومنه نسخة محفوظة في الخزانة الزكية تحت رقم ١١٠٤

تاريخ علم الأدب

عند الافرنج والعرب

وفيكتور هوكو

وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية

في علم الادب عند الافرنج وما يقابله من ذلك عند العرب من
ابان تمدنهم الى عصورهم الوسطى . وما اقتبسه الافرنج عنهم
في الادب والشعر في نهضتهم الاخيرة وخصوصاً على يد
فيكتور هوكو . ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر
الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته
ومنظوماته وغير ذلك

الطبعة الثانية

تأليف

روحي بك الخالدي

الوكيل الاول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف فيه

طبع بنفقة ادارة الهلال

الطبعة الثانية

طبع بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩١٢

تاريخ علم الأدب

عند الافرنج والعرب

وفيكتور هوكو

وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية

في علم الادب عند الافرنج وما يقابله من ذلك عند العرب من
ابان تمدنهم الى عصورهم الوسطى · وما اقتبسه الافرنج عنهم
في الادب والشعر في نهضتهم الاخيرة وخصوصاً على يد
فيكتور هوكو · ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر
الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته
ومنظوماته وغير ذلك

الطبعة الاولى

تأليف

« المقدسي »

طبع بنفقة ادارة الهلال

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٤

نجم ، د . محمد يوسف :
- « الفنون الأدبية » و « الأدب المقارن » في : الأدب العربي في آثار الدارسين . بيروت ١٩٦١ .

هلال ، د . محمد غنيمي :
- الأدب المقارن . القاهرة ١٩٥٣ .

هنداوي ، خليل :
- « اشتغال العرب بالأدب المقارن ، أو مايدعوه الفرنجة (La litterature Comparee) ، في كتاب *تلخيص كتاب أرسطو في الشعر* لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد » .
الرسالة، الأعداد ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، في ٨ ، و ١٧ ، و ٢٢ ، و ١٩٣٦/٦/٢٩ .

ملحق وثائقي Documents

١ - تاريخ علم الأدب . . . . الخالدي .
٢ - مقال خليل هنداوي .
٣ - فهرس العدد الأول من دفاتر جزائرية .
٤ - مقال إيتامبل في الكاتب المصري .

- « المؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن » .
مجلة جامعة دمشق ، ع ٧ ، ١٩٨٩/٩ .

- *آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً* . دمشق وبيروت ، (دار الفكر المعاصر) ١٩٩٢ .

سلامة ، إبراهيم :
- *تيارات أدبية بين الشرق والغرب ، خطة ودراسة في الأدب المقارن* .
القاهرة (مكتبة الانجلو – مصرية) ١٩٥١ .

شحيد ، د . جمال :
- *« رينيه إيتامبل ، من أعلام المدرسة الفرنسية الحديثة في الأدب المقارن »* .
ملحق الثورة الثقافي ، دمشق ، ع ٢٧ ، س ٢ ، ١٩٧٧/١٢/١ .

عامر ، عطية :
- « تاريخ الأدب المقارن في مصر » .
فصول ، القاهرة ، ع ٤ ، م ٣ ، ١٩٨٣ .

العقيقي ، نجيب :
- *من الأدب المقارن* . مصر (دار المعارف) ١٩٤٨ .

غويار ، م – ف :
الأدب المقارن . تر . د . محمد غلاب ، سلسلة ألف كتاب ، القاهرة ١٩٥٦ .

فان تييغم ، بول :
- *الأدب المقارن* تر . سامي الدوري ، القاهرة (دار الفكر العربي) ، بلا تاريخ ، الأرجح عام ١٩٤٨ :
- *الأدب المقارن* ، تر . سامي مصباح الحسامي . صيدا – بيروت ، بلا تاريخ .

ليفن ، هاري :
- *انكسارات : مقالات في الأدب المقارن* . تر . عبد الكريم محفوض ، دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٨٠ .

List of References in Arabic

قائمة المؤلفين العرب
وأهم مراجعهم

أبو السعود ، فخري :

- « الأثر الأجنبي في الأدبَيْن العربي والانجليزي » . **الرسالة** ، ع ١٦٨ ، س ٤ ، ١٩٣٦/٩/٢١ .

وسلسلة مقالاته في **الرسالة** ، ١٩٣٥ - ١٩٣٧ .

البستاني ، سليمان :

- *الإلياذة* . مصر (دار الهلال) ١٩٠٤ .

حميدة ، عبد الرزاق :

- *في الأدب المقارن* . القاهرة ، فبراير ١٩٤٨ .

الخالدي ، روحي :

- *تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو* . مصر (دار الهلال) ١٩٠٤ - ط ١ ، ١٩١٢ - ط ٢ ، دمشق ١٩٨٤ - ط ٤ ، تحرير حسام الخطيب مع مقدمة .

الخطيب ، د . حسام :

- *الأدب المقارن ، ج - ١ في النظرية والمنهج ، ج - ٢ تطبيقات* . دمشق (جامعة دمشق) ١٩٨١ .
- *روحي الخالدي ، رائد الأدب العربي المقارن* . عمان (دار الكرمل) ١٩٨٥ .
- « الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الإنساني » . *المعرفة* ، دمشق ، ع ٢٠٤ ، ١٩٧٩/٢ ، ع ٢٠٥ - ٢٠٦ ، ٣-١٩٧٩/٤ ، ع ٢٠٧ ، ١٩٧٩/٥ .
- « ملتقى الأدب المقارن في عنابة : هل يكون بداءة تاريخية » . **المعرفة** ، ع ٢٥٧ ، ١٩٨٣/٧ .

24. Accounts on these discussions appeared in Syrian literary periodicals (1986-1987). See in particular outlines of these accounts in *al–Ma'rifa* (9/1986) and *al-Usbû' al-Adabi* (24.7. 1986). For a documented account on the 2nd conference of ACLA, see: Dr. Hussam Alkhateeb. "The 2nd Conference of the Arab Association for Comparative Literature", *Majallat Jami'at Dimashq* (Damascus University Review), No. 7, September 1986.

quarterly and bilingual (Arabic and English). It is very limited in circulation.

14. 'Amir. "Tarikh..", *Fusul*, 13-22.
15. Information to be obtained either from Yearbooks of related universities or from answers to a questionaire arranged by the present author.
16. Najib al-'Aqiqi. *Min al-adab al-muqaran* [On Comparative Literature], Cairo, 1948. Later expanded and printed in three volumes with detailed literary biographies of famous European literary figures, Cairo 1975.
17. Abd al-Razzaq Himideh. *Fi al-adab al-muqaran,* [on Comparative Literature], Cairo, 1948.
18. Hilal. "Les étûdes . . ", p. 11.
19. Ibrahim Salama. *Tayyarat Adabiyya byn al-sharq wa al-gharb, khitta wa dirasa fi al-adab al-muqaran,* Cairo, 1951.
20. M. Ghonemi Hilal. *Al-adab al-muqaran* [Comparative literature], Cairo, 1953.
21. I may be the first Arab author to introduce the details of the methodical controversy of CL to the Arab reader. The matter started directly after attending the VIIIth ICLA Budapest Conference of 1976; and in the TV, radio and press interviews which I later gave in Syria on the subject of the conference I was eager to explain the nature of the controversy. Later I published a series of three articles in *al-Ma'rifa* where I summed up the differences and introduced in detail H. Remak's view's with a translation of the main part of Remak's well known article of 1961 and its supplement of 1971. The title of this series of articles translates: "Compartative Literature between Methodical Dogmatism and Humane Openness", *al-Ma'rifa,* Nos. 204–207, 1979.... Later, the treatment was expanded and published in my book on CL already referred to in Note 1, above.
22. References denote date and place of publication of Arabic translations. Many other translations and re-translations came out in the late eighties, with Iraq joining the Egyptian and Syrian efforts.
23. See, for example, an article on Etiémble by Jamál Shuhayyid in *al-Thawra Cultural supplement,* 27-II, 1 Jan. 1977, Damascus.

2. Due to this fact in particular, I have been encouraged by both H. Remak and U. Weisstein to write the present article.
3. Mohamed Ghonemi Hilal. "Les étûde de littérature comparée dans le République Arab Unie", *Yearbook of Comparative and General Literature,* Chapel Hill, VII, 1959, pp. 10-13.
4. Gilbert Tutungi. "Comparative Literature in the Arab World", *Yearbook..*, XII, 1964, pp. 64-67.
5. First appeared in 1966, *Cahiers Algériens de Littérature Comparée,* Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Alger, I, 1966.
6. Much has been written on al-Bustani in Arabic. As for al-Khâlidí's early role in Arabic CL, I have been the first to draw attention to this fact through many articles and one book about him. In English see:
   - Wajih Fanus. "Sulayman al-Bustani and Comparative Literary Studies in Arabic", *Journal of Arabic Literature,* XVII, 1986, pp. 105–117.
   - H. Al-Khateeb. "Ruhi al-Khalidi, a Pioneer of Comparative Literature in Arabic", *JAL,* XVIII, 1987, pp. 81-87.
7. See note 1, above. 'Amir's article was originally read at the Preparatory Conference on Arabic Comparative Literature, and later published in its *Acts. . .* , Annaba, Algeria, 1983.
8. In Arabic: Fakhri Abu al-Su'ud. "Fi al-adab al-muqaran, al-athar al-ajnabi fi al-adabayn al-Arabi wa al-Inglizi", *al-Risala,* IV–186, 21 September 1936, pp. 1534-1535.
9. *al- Risala,* 153-IV, 8 June 1936, p. 938. See the 'Arabic title in Document 2, below.
10. Ibid.
11. In Arabic: "al-Tashabuh wa al-ikhtilaf fi al-adabyn al- Árabi wa al-Inglizi", *al-Risala,* 208–V, 28 June 1937.
12. The first article appeared in 1947, whereas the second-which is more important-appeared in 1948:
    Etiémble. "Renouveau de la littérature comparée" (tr. into Arabic), *al-Katib al-Misri,* VII-28, January 1948, pp. 646-649.
13. Not a single article on the theoretical aspect of CL appears in this review. Even the applied studies do not show awareness of the discipline. *Alif* is

not been received with the degree of welcome that is expected in view of their flexibility, perhaps because they are a priori taken to be an extension of the original 'Western' Euro–centrism.

Finally, both in the special issues of Arab literary periodicals and ACLA(25) Conferences an increased discussion has recently been noticed regarding the possibility of the emergence of an Arab comparative viewpoint inspired by the specific experience of Classical Arabic culture as well as by modern Arabic literature in the absorption and assimilation of foreign ideas. This quest takes its legitimacy from the public aspiraton throughout the Arab World for a synthesis between the past and the present. It is, of course, too early to make any comments on the credibility of these expectations in the field of CL. But it is probably fair to say that they indicate a serious Arab approach to comparative scholarship which is, by and large, regarded as the more suitable approach for treating the rather tangled problems of the growth of modern Arabic literature under the impact of a multiplicity of influences and relations coupled with strong affinities to the past. In view of these obstacles, it is probably wise to suppose that the ability of CL in Arabic to meet the challenge would depend to a certain degree upon the advancement of the descipline on the international level. To all appearances, however, comparative studies in the broader sense seem to be well established in the Arab world and bode well for the future.

NOTES

1. The only account that deserves mention before the eighties is: Muhammad Yusuf Najm, "al-Adab al-Muqaran" in *al-Adab al-'Arabi fi athar al-darisin,* Beirut, 1961, p. 270 in particular. Unfortunately, very little attention has been given to this early account. As from 1981 more interest in the subject is demonstrated. The following accounts may be the most important:

   Hussam Al-Khateeb. *al-Adab al-muqaran,* Damascus University, 1981–1982, Vol. I, pp. 95–133.

   'Atiyya 'Amir, "Tarikh al-Adab Al-muqaran fi Misr", *Fusul,* 4-III, 1983, pp. 31-32.

   Sa'id. Allush. "Waqi' al-dirasat al-'Arabiyya al-muqarana", a paper read at the 2nd Conference of the Arab Comparative Literature Association (ACLA), Damascus, 1986, then published in *al-Ádab al-Ajnabiyya,* Nos 51–52, Vol. 14, 1987, pp. 163-190.

acculturation, and–above all–debating the struggle between the inherited and the 'imported' in modern Arabic culture, often reffered to as the 'problematic' of autocthony (al-assalah) and modernity (al-mu'asarah).There are also some specifically comparative topics which seem more appealing to Arab acholars than the traditional ones of: travels, images, intermediaries, reception of certain authors or topics, etc. Among these appealing topics are the questions of both Literary schools and literary genres, especially in their appearances in modern Arabic Literature. Contemporary scholars, moreover, seem to be so pre-occupied with the question of the universalism of literature and the chance of Arabic literature to gain international recognition without sacrificing either its identity or its local color. Arabic litrature in its relation to Western literatures and also to Islamic old and modern literatures is one of the familiar subjects. In general, the study of influences remains at the heart of applied comparative studies in Arabic.

In the Arab World today, the ideological controversy is automatically projected onto every aspect of cultural life. Any bit of discussion can easily lead to the roots of the matter either in Islam or in Marxism or in Arab nationalism, the three poles of the ideological controversy. Comparative literature, thanks to both its cosmopolitan nature and its still pending major tenets, is an ideal platform for ideological confrontations. Thus, as soon as Arabic CL began to get some airing outside university classrooms in the late seventies, many suspicious questions regarding its message and objectives were posed, not so much from an epistimological viewpoint as from preconceived ideological standpoint. Etiémble, of course, has been widely cited, though more eclectically than systematically, by Leftist writers who tend to brand the early French comparative ideas as Euro-centric and rather nationally chauvinistic. The question of influences is constantly coming under fire to the extent that in the Second Conference of the Arab Comparative Literature Association (ACLA), Damascus 1986, the organizer had to stand as if in trial and apologetically give an explanation why the agenda of the Conference was 'overloaded' with entries on influences. He later had to beg for just a slight distinction between two different approaches: The mere objective discussion of influence on the one hand and the propagation and advocation of them on the other.(24) Scholars of Islamic disposition naturally have also their own objection to influences, but when it comes to the worse they would call for concentration of investigation on the Islamic relations of Arabic literature. The American ideas, in their turn, flexible as they are, have

To complete the picture, there remain some important features which need not be disscussed through th. historical method. Since these features are interrelated, and also for the sake of brevity, they will be disscussed through the following intergrated points:

- the recurrent topics and issues
- the ideological and methodical controversy
- the present situation.

From the theoretical perspective, Arabic Comparative Literature shows more or less the same concerns concurrently voiced by Western scholars regarding such issues as: The dilemma of the definition of the discipline, its cognitive boundaries and consequently its specific message, its perplexity between literary history and criticism, value judgement, the aesthetic question, etc. But it should be clearly stated here that such issues have only arison since the late 1970s by both the introduction of American views on the subject and Etiémble's critique of his French colleagues. (23)

Before the seventies there were no traces in Arabic of such discussions, simply due to the certainty of Hilal and other disciples of Van Tiéghem and Guyard. In fairness to the position of these enthusiastic disciples, one should remember that they were involved in a rather difficult combat against the traditional non-specialized view which tended to level the new discipline with any simple act of comparison. They were also preoccupied with disciplinary struggle inside the academic institution with a view towards establishing identity and relative independence for the new discipline at a time when so many new courses were combating to have a place in university curricula as a response to the necessities of modernization. the theoretical discussion of the discipline, however, is still in an elementary phase and should not be overemphasized. Apart from one or two books, the discussion is still limited to some periodicals and has not yet crystallised in the form of trends or integrated positions.

Applied studies in CL seem to enjoy better chances. Due to the complexity of foreign influences that entered into the shaping of modern Arabic literature, there has always been a necessity for scholars and literary historians to indulge in such hot topics as the investigation of influences, the study of ways of reception, checking literary translations and the question of

III a. Any account on the development of CL in Arabic would be incomplete and crippled if it ignored the role of translation, if only for the reason that most textbooks in Arabic are either free translations or adaptations (from French sources). The first translated book was *La Littérature comparée* by Paul Van Tiéghem. No mention of the name of the translator or the date and place was made, but most probably it was translated by Dr. Sami al-Durubi and printed in Cairo in 1948. Ironically, this anonymity has allowed it to be reprinted several times in Cairo and later in different Arab capitals as though it had been a sort of public property. A fresh translation, however, by al-Hussami has appeared in the eighties in Beirut. The influence of van Tiéghem has so far been paramount; it may be the only individual influence to match Ghonemi Hilal's and even to outstrip it. After all, Van Tiéghem is the 'ustadh' (teacher) and he is also a foreign scholar on a foreign discipline; and both disciple and teacher represent one and the same case. In 1956 M-F. Guyard's *La littérature comparée* came out in Cairo but had a poor reception partly because of the inadequacy of the Arabic version and its endless missprints. For the following three decades some translated arrticles appeared in periodicals together with two or three books translated in the eighties. English replaces French in the recent translations. Following is a selective list.

La littérature comparée, Paul Van Tiéghem, Cairo, 1948

La Littérature Comparée, M-F. Guyard, Cairo, 1956

"General, Comparative and National Literature", in *Thoery of Literature,* Wellek and Warren, Damascus, 1973

"Comparative Literature, its Definition and Function", H. Remark, in *Comparative literature, Method and Perspective.* Damascus, 1979

"Influence and Imitation", U. Weisstein, from *Einfuhrung in die Vergleichende Literaturwissenschaft.* Cairo, 1983

Refractions: Essays on Comparative literature, Hary Levin. Damascus, 1980

Comparative Literary Studies: an Introduction, S. S. Prawer. Damascus, 1986 (22)

inspiration; and the second a discussion of some Arabic poetic subjects such as love, description and panegyric, with a brief mention of some artistic schools. A title like 'Elementary Principles of the Criticism of Poetry' would have been more descriptive and less misleading. Yet, this book has so far reprinted twice. The third edition, expanded to 439 pages, includes *mélanges* of Arabic and foreign literatures without any order. Worse still there are neither a list of references nor a table of contents.

The second book, by Adb al-Razzaq Himideh(17), constitutes an attempt to present comparisons between a few Arabic poems and some similar ones in English and French. The author stresses resemblances rather than differences and has nothing to say beyond his superficial comparison of themes, as if literature consisted of themes and subjects only. Ghonemi Hilal has considered this book very superficial.(18)

In 1951, Ibrahim Salamah publishes the third Arabic textbook on CL under the title: *Literary Trends Between East and West, a plan and a Discussion of Comparative Literature.*(19) Salamah's introduction reveals how terribly confused his ideas were regarding the conception of the new discipline. Both Ghonemi Hilal and 'Atiyya 'Amir have treated this book rather contemptuously on the ground that the author had no specialization in the discipline [of course as designed by the French school], whereas one of the more serious historians of modern Arabic Literature, Muhammad Yusuf Najm, spoke highly of it, probably in part because Salamah was then at the top of the literary Academic hierarchy. The perplexity regarding these pioneer books reflects how confused the understanding of CL and how limited in number and influence its specialists have been.

In 1953 a new phase was initiated with the publication of Hilal's celebrated book *Al-Adab al muqaran* (CL).(20) This book, reprinted more than ten times since, has become the major source on CL in most Arab universities probably up to the present. its influence has been outstanding, and thus Van Tiéghem's orthodox concept of CL continued until very recently to be the official creed of the Academic establishment in the Arab world.

In the 1970s the center of interest seems to have shifted from Cairo to Beirut, where almost every two years a new textbook on CL appears but without much change in concept. In the eighties Baghdad, Damascus and Djedda enter the competition and the average of publishing rises up to one book per year, coupled with some challenges to the established conception.(21)

average of hours (Kuwait, Bahrain).

– Two Arab universities (at least until 1983) do not offer a CL course (Imam M. Ibn Su'ud in Riyadh, Najah University in Nablus).

– Recommended essential Sources in Departments of Arabic:

1. The most familiar is M. Ghonemi Hilal, *Comparative Literature.* (in many cases plus other works by Hilal).

2. Then comes Van Tiéghem, *La Littérature comparée* (Arabic translation–there are two Arabic translations and both translators are Syrians).

3. Then a textbook written by the course professor himself or printed by the university.

4. In very few cases some readings in foreign languages are recommended.

Departments of English and French:

In the traditionally structured universities no course under the title CL is usually offered, the more familiar nomenclature being World Literature, though recently many departments incline to adopt the title CL (Syrian universities) in both English and French Departments. Many of the English departments were initially modelled after British universities and consequently showed long hesitation before adopting the term, whereas it appeared on the curricula of some French departments fairly earlier (Damascus University for example). There are still, however, some departments of English where no courses on Comparative Literature or even on world literature are offered, such as the University of Qatar and some universities in the Gulf area.

II – d. Of course book writing comes usually as a culmination of various factors and needs. That is why the first CL book in Arabic appeared as late as 1948. That year witnessed interesting developments first through the publication of Etiémble's two special articles already referred to, and then through the appearance of two books with the plain title 'Comparative Literature', both printed in Cairo.

The first of these, by Najib al–'Aqiqi(16), cannot claim reasonable affinity with CL beyond the title. it consists of two parts, the first being a collection of essays on some problems of poetics, such as beauty, feeling, imagination,

start to appear on the literary pages of the daily press, thus reflecting the growing interest of the public in CL. In 1981, the first Arab periodical to bear the title CL comes out: *Alif/Journal of Comparative Poetics,* Cairo, but it shows no awareness of the discipline at least until 1987.(13)

II - c. But the real haven of comparative literature in the Arab world, as much as in the West, has always been the university and not the literary review. According to 'Atiyya 'Amir, the technical use of the term 'comparative' is believed to have started in 1924 at Dar al-'Ulum (Cairo) with the inception of a new language course described as 'The Herbrew language, the Syriac, and their comparison with the Arabic Language.' In 1938, at the same institute, a new course was offered under the clear title 'Arabic Comparative Literature' and was confined to 'the specialization class'–postgraduates. It was not until 1945 that CL became fully recognized in Där al-'Ulum, this time as an independent course for third and fourth years students of Arabic in a newly established section named: 'Section of Comparative Literature, Criticism and Rhetorics'. Ibrahim Salama occupied the chair, aided by 'Abd al-Razzaq Himideh. Later each one of them published a textbook on CL for the benefit of students, thus becoming the earliest Arab scholars ever to publish books with the title 'Comparative Literature'. Other Egyptian Universities followed suit but not rapidly enough, probably because of lack of specialized instructors.(14) Outside Egypt other Arab universities did not show much enthusiasm to introduce this new course. The Department of Arabic at Damascus University, for example, waited until 1971 to introduce it, whereas the Department of English introduced it ten years later.

From 1980 onward CL seems to have increasing appeal and there are indications that it may soon turn to be a favorable branch of literary specialization in Arab universities at least from the viewpoint of postgraduate students. Here is a brief account of the findings of a survey on the subject recently accomplished by the present author (not published in Arabic yet).(15)

Departments of Arabic:

– Most Arab universities are modelled after the French system of a standard curriculum. In these universities a basic course for CL is offered for fourth–year students with an average of two hours weekly during the academic year. (Egypt, Syria, Iraq, Sudan, Algeria, etc.)

– In more modernized universities, CL is an optional course with the same

some editorial ornaments like: Of Western Literature, Of Arab and Persian Literature, Fiction, Drama, etc.

There is, however, further evidence to indicate that 'Amir's account has not been free from hasty judgements. For example, he states that the series of articles by Su'ud with the sub-heading 'Comparative Literature' concluded at the end of 1936, whereas in fact it continued until June 26, 1937 and ended with his article: "Resemblance and Discord between Arabic and English Literature".(11) Without any apparent reason, the editor, after this article, ceases to use the sub-heading (Comparative Literature), and the term itself totally disappears until the first stoppage of *al-Risala* in 1953 (in the aftermath of the Egyptian Revolution of 1952).

I am, of course, aware of the fact that such historical conclusions usually engender heated discussions and challenges. In support of my conclusions and in completion of the history of the term in Arabic, here are some other findings reached after an inspection of the most important Arab literary periodicals of the twentieth century:

- No mention of the term exists in the entries of *al–Muqtataf* (1876–1952).

- The term appears in *al-Thaqafa* (the rival of *al-Risala)* in 1941 but also as a sub-heading and as an isolated practice very rarely repeated.

- It was only by the late fourties that the term has returned to the pages of literary periodicals but also rather feebly. Among the outstanding entries in this decade are two titles by Etiémble published in *al-Katib al-Misri* and especially written for this highly intellectual monthly, founded and edited by Taha Hussain.(12) The date of the second article by Etiémble, 1948, coincides with the appearance of the first book in Arabic ever to bear the title 'Comparative Literature', to be discussed below. Inspite of the relative progress of the discipline in Arab universities after the 1950s, Arab periodicals have not shown any genuine interest in it. *Al-Adab,* for example, being a leading literary monthly in the Arab world throughout the fifties and sixties, continues to ignore the discipline. As from mid–1970's a kind of invigoration is noticed in periodicals, especially in Damascus where *al-Ma'rifa* first, then *al-Adab Al-Ajnabiyya,* show relative interest in the discipline, to be followed by *Fusül* (Cairo). As from the late seventies also some major Arab periodicals have managed to issue special numbers on Comparative Literature: *Fusul* (Cairo); *'Alam al-Fikr* (Kuwait);*al-Adab al–Ajnabiyya, al-Ma'rifa, al-Mauqif al-Adabi (Damascus).* In the eighties also, some discussion

history of the discipline 'Amir considers Fakhri Abu al-Su'ud the first scholar to have used this term and refers to an article by the latter published in *al-Risala*, September 21, 1936, under the title: "on Comparative Literature: The Foreign Influences in Both English and Arabic Literatures."(8) This definition went unquestioned until the present writer had the chance, when preparing this article (in 1988), to go through the complete collection of *al-Risala* and subsequently discover that Abu al-Su'ud's title had been preceded in the same year by a 4 - article series publised in *al-Risala* itself by Khalil Hindawi under the lengthy title: "A New Light on a Certain Aspect of Arabic Literature: The Arab engagement in Comparative Literature (al-adab al-muqaran) or what Europeans call Littérature comparée, through the Summarizing of Aristotles' *Poetics* by the Philosopher of the Arab's Abu al-Walid ibn Rushd [Averros]."(9) Comparing the two titles and articles I have come at the following conclusions:

1. From a strictly chronological viewpoint, Hindawi should be considered the precursor since his article appeared June 8, 1936 whereas Abu al-Su'ud's article appeared three months later, September 21, 1936.

2. From a methodical viewpoint, Hindawi also is ahead of Abu al-Su'ud because he has written as an introduction to his article a discussion of the term 'littérature comparée'. Until new evidence appears, this introduction by Hindawi can rightly be considered the first indication of the Arab awareness of the new discipline, and it is really an awareness of distinction. He fairly objectively points to the importance of the newly established inter-literary comparative approach, states that the Arabs have had only limited experiences in this field of which Averros' work on Aristotles' *poetics* is an outstanding example, draws atention to the difference between internal and out-of-boundaries comparisons and Finally urges Arab scholars to follow suit and abandon the idea of the absolute supremacy of Arabic literature. Moreover, he discusses the coinage of the term and calls for a better wording suggesting such terms as 'Literature through comparison' or the 'study of literature based on comparison'.(10)

Abu al-Su'ud only mentions the term in the subheadings of his above-mentioned article and a series of subsequent articles and never cares to point to it in his text. Relying on careful research, I am convinced that the sub-heading 'Comparative Literature' has been added to Su'ud's articles by the editor of *al-Risala* who rarely lets an article pass without adding to it

following example may, hopefully, clarify what is meant by it. *Les Cahiers Algériens de Littérature Comparée (1966)* is not unknown in the history of French comparatism, but very little reference has so far been made to it in the works of leading Arab comparatists albiet it has been the first, and until 1981, the only periodical in the Arab World to bear a title related to comparative Literature.(5)

In general, this article focuses on Comparative Literature as a discipline: theory, methodology, history, thematology, etc. Whenever necessary, reference will be made to some applied studies but only when these show evidence of certain theoretical awareness of the discipline.

II - a. The root 'qarana' – compare is very rich and familiar in the Arabic language. It is also widely used in modern literary scholarship, probably due to the varied relations Arabic literature enjoys with different literatures of the modern world. The technical term 'comparative literature' appeared in the late thirties in Egypt but many years before that date, comparisons– especially between West and East – had been fashionable in literary studies. In fact, works by such *Nahda* (Rising) pioneers as R. R. al-Tahtawi, Adib Ishaq, A. F. al-Shidyaq, Najib Al-Haddad, Sulayman Al-Bustani, and Ruhi al-Khalidi – together with the works that followed in the 1920's and early 1930s – have laid a solid basis for the emergence of the discipline, at least in the following two senses:

1. They helped early to absorb some of the expected opposition by the conservatives to the idea of influence and inter-relation initiated by the pioneers in an area characterized by deep-rooted literary traditionalism and feeling of superiority at least in the domain of poetry. Among these pioneers, al-Khalidi and al-Bustani were vehement advocates of the study of literary inter-relations and influences, and-subsequently-were the closest to the discipline.(6)

2. They furnished sufficient proof that modern Arabic literature has a scope of external relations wider by far than anything known in the past and that it should consequently be treated in a different manner.

II - b. 'Atiyya 'Amir's article on "The History of Comparative Literature in Egypt" published in 1983 (7) has hitherto been a major source on the history of the term "comparative literature" in Arabic. In this pioneer pursuit of the

Comparative Literature in Arabic: History and Major Issues

Dr. HUSSAM AL-KHATEEB
University of Qatar

It is well known that Comparative Literature in Arabic can not look back at a long history; but still this fact should not be allowed to stand as a vindication of the paucity of writings that deal with the background and development of this young field of literary scholarship. Apart from two or three attempts at introducing some aspects of the emergence of the discipline, there is almost nothing on the subject, especially before the 1980's.(1) That is in Arabic of course, but when it comes to accounts on Arabic Comparative Literature in other languages nothing of any significance exists. If one takes as an example *The Yearbook of Comparative and General Literature,* which regularly reports on the development of comparative studies throughout the world, one finds in the whole series (1952-1985) only two entries on Arabic Comparative Literature.(2) Under the first entry (1959) there is something of an account,(3) whereas under the second entry (1964) there is nothing more than a misleading broad title(4) that turns to be simply a review of a small comparative book written by the author of the first entry, Mohamed Ghonemi Hilal. In other European languages, and even in French and Russian, nothing exists, to the best of my knowledge. In view of all this, the present paper has no choice but to pay the historical background more attention than what its author has originally wished.

For the sake of brevity, this paper will deal only with works published in Arabic and will make no reference to contributions by Arabic speaking scholars who have touched upon the subject in English or French which are the only foreign languages expected to harbor such material. These contributions, scarce as they are in the theoretical field of which the mainstream of the present article consists, have made very scanty, if any, effect on Arabic comparative scholarship despite the fact that most, if not all, Arab comparatists are graduate of Western universities and are predominantly Anglophone or Francophone. Due to the limited scope of this study, no further discussion of this specific point will be made but the

CONTENTS

10. Typescripts and accompanying materials (whether or not accepted for publication) will not be returned to the authors.

11. Opinions expressed in an article are those of the author and do not necessarily represent the views of the Editorial Board.

12. Order of articles published within each issue of the Bulletin is based on technical considerations and bears no relation either to their relative importance or to the author's academic status.

13. All Correspondence should be addressed to the Editor.

Professor Ammar Talbi

Chirman of the Editorial Board
University of Qatar
P. O. Box 2713
Doha, State of Qatar
Arabian Gulf

PUBLICATION OF RESEARCH IN THE BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES

1. The Editorial Board invites contributions based on research within the areas covered by the Bulletin of The Faculty of Humanities. Articles on topics relating to the Gulf and the Arabian Peninsula are particularly welcome, but the results of research in other fields of specialization may also qualify for acceptance.
2. To be accepted an article must fulfil the normal requirements for contributions to learning. (e.g. sound knowledge, accuracy, originality) and include full references to sources and other material used. Articles containing descriptive work only will not be accepted. Footnotes and other annotations and references must follow international rules.
3. Contributions which have already appeared in print are not acceptable. After an article has been approved for publication in the Bulletin, the author is required to sign an undertaking not to publish it elsewhere.
4. The Bulletin is open to contributors not only from the University of Qatar but also from universities and institutions of higher learning in other countries. Articles should normally be written either in Arabic or in English.
5. Articles should be typed in double spacing and submitted in two copies. The length of an article should not exceed thirty quarto (27 by 21 cm) or twenty-five foolscap (32 by 21 cm) pages (= about 10,000 words) and not be less than fifteen pages of similar dimensions.
6. Diagrams, figures and maps should be drawn in Indian ink on transparent or glossy paper of the same size or less than a page of the Bulletin. Photographs should be clear and printed on glossy paper no larger than postcard size.
7. The author of an article published in the Bulletin will receive twenty offprints, together with an honorarium fixed by the University of Qatar.
8. An Article approved for publication may not necessarily appear in the issue of the Bulletin next following.
9. Contributions are considered by assessors from the University of Qatar or elsewhere, and in each case the assessor's verdict is binding and final. The author's and the assessor's identities will not be disclosed.

The Bulletin is issued annually by the Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Qatar.

UNIVERSITY OF QATAR

BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 17

1994

رقم الايداع بدار الكتب القطرية : ٤٠١ لسنة ١٩٩٤م
الرقم الدولي (ردمك) : ٩ - ٣١ - ٢١ - ٩٩٩٢١

طبع في المطبعة الأهلية

UNIVERSITY OF QATAR

كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية
جامعة قطر

BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 17

1994

عدد خاص

بمناسبة العيد العاشر

لجامعة قطر

حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد السابع

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

اهداءات ٢٠٠٠

أد. محمد وجيه بدوي

الأستاذ بهندسة الإسكندرية

تصميم / محمد زيدان

عدد خاص بمناسبة العيد العاشر لجامعة قطر

حولية
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد السابع
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

حولية تصدر عن

كلية الإنسانيات والعلوم الإجتماعية

بجامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحیم

قل ان صلاتی ونسکی

ومحیای ومماتی

للہ رب العالمین

قرآن کریم

بيانات حول النشر في حولية كلية الانسانيات

١ - ترحب أسرة التحرير بالأبحاث التي لها صلة بتخصص حولية كلية الانسانيات وتولي الاهتمام بالموضوعات التي لها صلة بالخليج والجزيرة العربية وقد يقع الاختيار على أبحاث في تخصصات أخرى لها صلة بتخصصات المجلة .

٢ - تنشر حولية كلية الانسانيات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوافر فيها شروط البحث في الإحاطة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي وخطواته والأمانة العلمية في الإشارة إلى الأفكار وذكر المراجع والمصادر ولا يلتفت إلى المقالات الوصفية والإنشائية ويتقيد مقدمو البحوث بالتسميات والحواشي والمراجع والرموز وذلك بالطريقة المتعارف عليها عربياً وعالمياً .

٣ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر . والبحث المقبول للنشر يرفق بوثيقة تعهد من صاحب البحث بعدم نشره في مكان آخر .

٤ - تتلقى الحولية البحوث للنشر من داخل جامعة قطر ومن خارجها من الجامعات والمؤسسات العلمية الشقيقة والصديقة باللغة العربية والانجليزية .

٥ - يقدم البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة بنسختين وألا يقل حجم البحث عن ١٥ صفحة وألا يزيد عن ثلاثين صفحة كوارتر (٢١×٢٧ سم) أو ٢٥ صفحة فولسكاب (٢١×٣٢ سم) .

٦ - تقدم الرسوم والأشكال والخرائط مرسومة بالحبر (الصيني) على ورق مصقول أو ورق شفاف Tracing Paper ويراعى في مساحتها ألا تزيد على مساحة المجلة طولاً وعرضاً .
أما الصور الفوتوغرافية فتكون واضحة المعالم ومقدمة على ورق مصقول وبحجم البطاقة البريدية .

٧ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية تحددها جامعة قطر مع ٥٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور .

٨ - البحث المقبول للنشر يأخذ دوره للنشر سواء في أول عدد يصدر أو الأعداد التي تليه .

٩ - تعرض البحوث المقدمة على خبير متخصص سواء من داخل جامعة قطر أو من خارجها ويكون رأي الخبير ملزماً كما يبقى اسم الباحث واسم الخبير مكتومين .

١٠ - الأبحاث والمواد التي ترسل إلى الحولية لا تعاد ولا تسترد سواء أنشرت أم لم تنشر .

١١ - ما ينشر في الحولية يعبر عن وجهة نظر صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر الحولية .

١٢ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .

١٣ - توجه الخطابات والمراسلات باسم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور يحي الجبوري وكيل كلية الإنسانيات - جامعة قطر ص . ب ٢٧١٣ الدوحة - دولة قطر .

جامعة قطر في عيدها العاشر

كانت هناك جملة أهداف تمثلت أمامنا منذ بدأنا نرسم مسيرة هذه الحولية وجعلنا لها أولويات أو دوائر ، فالدائرة الأولى التي نُعنى بها هي الدائرة القطرية ، وقد انصرفت العناية فيها إلى البحث عن فكر قطر وأدبها وتاريخها وآثارها وطبيعة أرضها وأحوال مجتمعها وماضيها وحاضرها ، والدائرة الثانية هي الدائرة الخليجية التي تكمل صورة قطر في محيطها الواسع ، أما الدائرة الثالثة فهي الدائرة العربية التي تبحث في الفكر العربي الإسلامي في شتى مناحيه تراثاً ومعاصرة ، ولم ننس الفكر العالمي فقد كانت له ومازالت إسهامات في حوليتنا .

وقبل كل هذا وذاك فإن البحث العلمي الموثق المحكم الأصيل الرصين هو الأساس والمنطلق ، فعلى ركنه الراسخ تقوم الجامعات وتنهض الحضارات وتترسخ المعرفة وتتهيأ أسبابها .

والجامعة – لاريب – مؤسسة علمية لها دور حضاري في قيادة الأمة ، وإن الأساتذة العلماء الواعين المخلصين هم الذين يخططون للرقي بالأمة ، ويرسمون لها سبل التطور الحضاري الذي يقوم على دعامتين أساسيتين هما التعليم ، والبحث العلمي ، والتعليم وحده لا يكفي والجامعات التي تقتصر على التعليم وحده تسير برجل واحدة ، وكذلك فإن دور الجامعة لا يقتصر على تعليم الأجيال وتخريجهم ، بل يتضمن أيضاً إيجاد الحلول لمشكلات العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بحيث تؤدي تلك الحلول إلى التطور الحضاري الذي تسعى إليه الأمم .

إن الجامعات في الدول المتقدمة تحشد كل الكفاءات العلمية والامكانات المالية والبشرية في سبيل البحث العلمي ، لأنه ضرورة من ضرورات التقدم ، وان كثيراً من الجامعات الأوربية والأمريكية وكذلك مراكز البحوث والمؤسسات العلمية ، تتسابق في اقتناص الكفاءات من شتى أنحاء المعمورة وتوفر لها الامكانات المطلوبة سعياً للوصول إلى أحدث منجزات العلم وقد استطاعت أن تحرز تقدماً عظيماً في مختلف مجالات الحياة .

وقد كان لهذه الحولية دور مرموق في التفاعل مع المجتمع والاستجابة لمطالبه على قدر ما أتيح لها ، وكانت استجابتها لحاجات المجتمع القطري والخليجي بأن أسهمت في أبحاث في مجالات البيئة والاجتماع والسكان والمدن والآثار والتاريخ والفكر والأدب وما إلى ذلك ، ونستطيع أن نكون

فكرة واضحة عن هذه المعالجات من خلال استعراض عنوانات الأبحاث الخاصة بالقضايا القطرية والخليجية ، فمن ذلك :

- المجتمع القطري ومؤشرات التنمية .
- دراسة عن التصحر في الوطن العربي .
- قضية التحديث في ضوء الاتجاهات المعاصرة لعلم الاجتماع .
- ملامح عن الشخصية الخليجية ، دراسة في التحليل الاجتماعي للأدب .
- مدن الخليج ، تطورها ومشكلاتها المعاصرة .
- تميم تحركها وسياستها في العراق والخليج العربي في العصر الجاهلي .
- الوطن العربي ، دراسة في السكان والأرض والغذاء .
- الحركة الأدبية والفكرية في قطر .
- أشكال الأرض وحياة النبات في قطر .
- الاتجاهات والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطري .
- المقومات الفنية والاقتصادية للتنمية الصناعية في المجتمعات النامية .
- الكفاءات اللازمة للمعلم في قطر .
- تميم في الإسلام .
- المشكلات التي تعترض الخدمات الاجتماعية العمالية في الوطن العربي .
- اللؤلؤ القطري .
- الثبات والتغير في عادات القطريين .
- الشكل والمضمون ، وجهة نظر في النقد الخليجي .
- استخدام المؤشرات الاجتماعية في نظام النقل العام في المجتمع الكويتي المعاصر .
- ملامح القصة القصيرة في الأدب القطري .
- البحرين والقوى المتنافسة في الخليج .
- الخرائط في دولة قطر .
- الجوانب الاجتماعية والايكولوجية للتكامل الإداري والتنظيمي بين المدن المعاصرة .
- الحاجة إلى تصورات وتوجهات جديدة ومتوائمة في التعليم العالي والجامعي .

- دراسة عن النقوش الصخرية في قطر .
- ديوان أبزون العُماني .
- الآثار الاجتماعية والنفسية للتحضر .
- مشكلة نمو المواهب الابداعية عند الأطفال .
- التنشئة الاجتماعية الأسرية للطفل القطري .

وبعد فهذا غيض من فيض .. وكلنا ثقة وأمل بأن تتواصل الجهود وتتضافر الهمم لمواصلة المسيرة العلمية الخيرة ، وان عافية هذه الحولية وازدهارها ان هي إلا أقباس متألقة من عافية جامعة قطر وازدهارها .

وما أبحاث هذا العدد إلا اضامة أزاهير فواحة الأريج تقدمها كلية الانسانيات إلى جامعة قطر في عيدها الميمون عيد الأم الرؤوم التي غرست فأحسنت الغرس ورعت فأحسنت الرعاية وقد آن لها أن تقطف الزهر وتجني الثمر .

نسأل الله سبحانه أن يحقق لجامعة قطر وهي تودع عيدها العاشر كل ما يخفق في جنباتها من طموح كبير وأمل واسع وغاية علمية نبيلة ، مهتدية أبداً بالآية الكريمة التي اتخذتها هدفاً وسلوكاً وشعاراً : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين** ﴾ .

يحيى الجبوري

فهرس الحولية

الحاجة إلى تصورات وتوجهات جديدة

ومتوائمة في التعليم العالي والجامعي

الأستاذ الدكتور

محمد ابراهيم كاظم

مدير جامعة قطر

١ - عندما نفكر في قضايا التعليم العالي في مثل هذه الندوة ، فنحن نمسح ببصائرنا منطقة الخليج العربية في حاضرها وواقعها الذي هو ثمرة تفاعلات عديدة بين عناصر شتى ، بعضها ينتسب إلى الماضي الذي انقضى ، وبعضها ينتسب إلى الماضي المستمر وفي جميع الحالات فالمنطقة في حركة ، تسير بتفاعلاتها وعناصرها شاقة طريقها نحو المستقبل .

وقبل الحديث عن التصورات والمفاهيم والتوجهات في التعليم العالي ، ربما يبدأ الحوار مع النفس حول هذا الموضوع بسؤال مبدئي عن مدى الحاجة إلى تعليم عال . وطبيعي أن يكون في الإجابة عن هذا السؤال بعض عناصر الإطار الذي لابد من تحديد ملامحه ، عند التوجه إلى التعليم العالي والتفكر في قضاياه .

والتعليم العالي يقوم شكلاً أو موضوعاً ، أو شكلاً وموضوعاً ، بناء على مدى ونوعية الحاجة إليه . بدءاً من المعالم أو الصروح التي لابد منها لاستكمال شكل مجتمعات القرن العشرين ، بصرف النظر عن مضمونها ووظيفتها ، أو يقوم مبتسراً متخفياً دون إعلان أو إعلام كإضافة ملحقة بالتعليم العام استجابة لحاجة موضوعية وموضعية ، كأن يكون المجتمع

* اللفظ الانجليزي لكلمة موائم هو relevant

وكلمة توائم هو relevancy

قد وصل إلى المرحلة الحضارية التي لم يعد التعليم العام بوظائفه وطاقاته قادراً على الوفاء باحتياجاتها ، ودون أن يكون المجتمع قد أعد نفسه بصورة واعية لقيام تعليم عال مستكمل العناصر .

وأخيراً أن يعي المجتمع سرعة حركته واتجاهاتها ، وما يترتب على ذلك من تصور لاحتياجات المجتمع ، واحتياجات سرعة التغير ، من منطلق مقوماته الأصلية وديناميا ته وأيديولوجياته ، ومن منطلق الوعي باحتياجات العصر ، ونوعية واتجاه حركة المجتمعات الأخرى المعاصرة والمتفاعلة معه .

٢ – وباختصار فمن المتفق عليه أن التعليم العالي والجامعي مقوم أساسي من مقومات الدولة والمجتمع العصري وعندما تتقدم الدولة والمجتمع لهذه المرحلة يصبح التعليم العالي حاجة أساسية ، يترتب على تأخر قيامه عواقب محسة . وبالنسبة للمجتمع العربي في الخليج بانتمائه إلى الأمة العربية – مع تفاوت أقطارها في مراحلها الحضارية – وبانتمائه للإسلام كطريق وكحياة متكاملة ومسئولية عقائدية حضارية ، وبانفعاله بآثار حركات التقدم في مجتمعات العالم المعاصر مع مجمل الظروف الخاصة به ، والامكانات التي أتيحت له ، هذا المجتمع مرتبط بظرف تاريخي نادر هو وجود البترول كسلعة استراتيجية هائلة الأثر بالغة القيمة . فهو مصدر الطاقة والمال والتكنولوجيا وعنصر من عناصر السياسة الإقليمية والدولية والاقتصاد العالمي ومجال لنشاط القوى العاملة وعنصر من عناصر إعادة توزيع البشر ، وتغير البنيات الاجتماعية والأطر القيمية ، وهو مع ذلك ، ومهما بلغت أبعاده ، محدود مؤقت ، كما أن آثاره ليست بالضرورة إيجابية فحسب .

وظرف تاريخي نادر آخر ، هو أن العديد من الأقطار العربية القريبة والبعيدة تمر بمخاض حضاري واقتصادي وتحديات جسام ، جعل من الممكن توافر القوى البشرية العربية بالإضافة إلى العمالة الأجنبية التي يمكن أن تحتشد للمشاركة في برامج التنمية وتحمل أعباء النمو .

وعندما نقول إن التعليم العالي والجامعي هو مقوم أساسي من مقومات الدولة والمجتمع العصري ، فنحن نلمح إلى أن المجتمع العربي في الخليج وصل إلى المرحلة الحضارية التي برزت فيها الحاجة إلى قيام هذا التعليم بتولى مسئوليات ووظائف محددة ، وغير محددة لا تتم بدونه .

٣ – هذه الوظائف المحددة على وجه الخصوص هي :

(أ) تنشيط وتوجيه التفاعل الاجتماعي ، بحيث يؤدي إلى قيام البنية الاجتماعية المناسبة والصالحة للمجتمع العصري مع الحفاظ على هويته المتميزة .

(ب) تحقيق التوازن بين البنية الاجتماعية المتحركة إلى الأمام وقياداتها في مجالات التخصص المختلفة ، وبين باقي القوى البشرية من القاعدة العريضة في المجتمع ، وذلك ببرامجها المخصصة للوقاية من ظواهر اغتراب الخريجين ، وتقليل الفجوة بين الأجيال .

(جـ) إعداد القوى البشرية اللازمة من الخريجين والمتخصصين التي يعتمد عليها في تحقيق الأهداف الدينامية المتطورة للمجتمع ، وحمل آماله قدماً بصورة مطردة .

(د) وإذا كان إعداد القوى البشرية يدخل في نطاق المهام التعليمية للجامعة ، فهذه المهمة ترتبط أشد الارتباط بمهمة العمل على زيادة الحصيلة البشرية من المعرفة وتطبيقاتها بصورة منهجية متدفقة ، أو ما يسمى بالبحث العلمي والتطبيقي ، ونشره واذاعته وتداوله ووضعه موضع التطبيق .

٤ – وإلى جانب الوظائف المحددة للتعليم العالي والجامعات فللجامعات أيضاً وظائف غير محددة . بعضها سوف يبرز في المستقبل أي أنه مجهول في الوقت الحاضر . وهي ليست موضعية الأهداف محدودة المقاصد ، بل هي مجتمع يتسم بكل ما تتسم به المجتمعات البشرية والكائنات الحية وديناميات‌ها . الجامعة مجتمع بشري ، لا يعد للحياة ، بل هو الحياة نفسها ، في بعض مراحلها التي تتتابع لتكون حياة البشر : الفرد والجماعة . بمعنى أنه أحد أنماط الحياة وصيغها . وهي ليست عدداً من طلاب العلم : دارسين ومدرسين وبعض العاملين ، ولكنها أيضاً تفاعل بين هؤلاء وأولئك جميعاً . وبقدر حيوية هذا التفاعل ونشاطه وصحيته واستمرار المقومات اللازمة لذلك ، بقدر ذلك تكون للجامعة القدرة على العطاء الإيجابي – تميزاً عن مجرد إثارة الزوابع . والتفاعل الجامعي يتميز بميزات خاصة ترتبط بهذه النوعية الخاصة من البشر ، في مرحلة خاصة من الحياة ، وباهتماماتهم الخاصة بالعلم والتعلم والتعليم ، وبأولوياتهم وطموحاتهم كأفراد وكمجتمع .

ولكن ، ولهذه الخصائص ذاتها ، يتميز المجتمع الجامعي بقابلية عظيمة للنشاط والحركة والاندماج والانتماء والعطاء ، يفتح لها – إذا استوفيت الشروط – مجالات لا نهاية لها من

التجديد والتغير والتدفق والقدوة والقيادة ، يحدد للجامعة أبعادها وموقعها من التفاعل المحلي والقومي والانساني الشامل .

وهو أيضاً ككل مجتمع وكل تفاعل ، قابل أيضاً – إذا قصرت الشروط – قابل للضعف والتفكك والهوان والتصلب .

٥ – وكمجتمع منتم إلى دوائر مجتمعية أكبر ، بدأ بالمجتمع المحلي والاقليمي والقومي والأمة والمجتمع الإنساني المعاصر والماضي كله ، وبتطلعه إلى آفاق المستقبل وتفاوت وعيه لبعد الزمن والتاريخ ، وامتداداته الطولية والعرضية ، يكون لانتمائه أو انتماءاته المتفاوتة الحدود ، المتشابكة العناصر ، المتراوحة بين الغموض والوضوح والتحديد واللامية ، يكون لهذا الانتماء غير المحدود أثر يؤدي إلى تلقائية دينامية تتجاوز الموضعية والحدود الثابتة .

هذا التجاوز لا يعني حركة عشواء ، ولكنه يشير إلى حدود الإنسان وقصور قدراته وبصائره ، أي وجود حدود ، أياً كانت ، لهذه القدرات والبصائر ، عندما تنفذ إلى ما وراء الحجب . ولكنه يشير أيضاً إلى أن الإنسان يستطيع أن يرى ما وراء الحجب عندما يتجاوزها فلا تصبح حجباً ، ثم يتطلع إلى الأمام مرة أخرى فلا تمتد بصيرته إلا إلى أمد محدود يكون ما وراءه محجوباً عنه وهكذا .

وبناء عليه يكون الوعي بهذه الحركية في وظائف الجامعة رؤية لابد منها لأي توجه حكيم في العمل الجامعي اليوم ، والإعداد للمستقبل في نفس الوقت . ويكون التخطيط الحكيم مؤسسا على التعامل مع المعلوم اليوم ، والمعلوم غداً ، وهو الذي سوف يظل مجهولاً إلى حين .

٦ – لابد الآن من وقفة نجلو فيها أبصارنا ونتطلع إلى المستقبل . عندما نتحدث عن القرن الحادي والعشرين والإعداد له ، يجب أن نتخلص من آثار المبالغات السينمائية والمسلسلات التلفزيونية ، وما تلح عليه في تضخيم عناصر اختلاف الحاضر عن المستقبل وسرعة التغير المتوقعة .

ومن المهم أن نؤكد على أن المستقبل لا يتكون فجأة ، بل إن ملامحه تتحدد وتتكشف بالتدريج – أياً كانت سرعة هذا التدرج – ومن ناحية أخرى فان المستقبل لا يقع علينا

من اطار خارج عنا ، وكأننا مشاهدون سلبيون ينظرون الأحداث تتتابع في معزل عنهم . فالواقع أن المستقبل يتكون في الحاضر ، الحاضر هذا الذي تكون تدريجياً عبر زمن مضى ، ومن عناصر تكونه : أفكارنا وأعمالنا وتوقعاتنا ورؤانا .

والقرن الحادي والعشرون على بعد يقل عن عشرين عاماً ، والأرجح أن غالبية منا سوف تشهده. كما أن من بين أطفال اليوم وشبابه من ستكون بأيديهم مقاليد الأمور في عقود عديدة منه .

وصحيح أن التغير التكنولوجي والاجتماعي تتزايد سرعته إلى درجة مقلقة ، ولكن لابد من إدراك أن سرعة التغير في نهاية المطاف مرتبطة بقدرة الإنسان على احتمالها . وهي لا تتجاوز أبداً احتمال الإنسان . فالتغير في نهاية المطاف مفهوم إنساني لا يستقل عن الإنسان ولا يكون إلا منسوباً له . وإذا كان النمو لا نهائياً ، فان سرعة النمو رغم تسارعها المشاهد اليوم ، مسألة أخرى لأنها متزامنة مع تغير الإنسان وقدرته على التعامل مع السرعة في التغير .

٧ - والتعامل مع التغير يحتاج إلى الخيال والطموح والثقة بالنفس وبالآخرين ، فالتغير يفاقم مشاعر القلق والتوتر التي لا يخلو منها الإنسان . وخصوصاً وان التغير المشاهد اليوم يرتبط بالتكنولوجيا والمعلومات والسكان ، وهي عناصر تزيد من سرعته ومن الاحساس بمدى هذه السرعة .

ولقد كان من آثار سرعة التغير على المجتمعات الخليجية العربية المسلمة ، في تعاملها مع نفسها وتعاملها مع المجتمعات الأخرى ، بروز عناصر الاتفاق والاختلاف في النظرة ، والأطر القيمية ، والتطلعات الحياتية والأهداف ، وتجاوز الأنماط التقليدية مع الأنماط الحديثة وبخاصة الصيغ الغربية ، مما يحتم النظرة المتأملة إلى تقييم العلاقة بين الإسلام والحضارة الغربية والتحديث .

٨ - يتمثل في اسلوب الحياة الغربية في الوقت الحاضر أبرز النماذج للحياة العصرية المتطورة . ولا يعني هذا أن هذه الثقافة لا تتميز فيما بينها باختلافات جوهرية أحياناً ، ولكن المقصود أن الخطوط الرئيسية في كل صورها واحدة ، ويتضمن ذلك الصيغ المشاهدة في أوربا وأمريكا

والاتحاد السوفيتي ، بل واليابان(*) مع بعض التحفظات .

وتكاد صيغ هذا النموذج حيثما حل تشترك في :

(أ) إنتاجية عالية في القطاع الصناعي والزراعي ترتبط باستخدامات تكنولوجية دائمة التطور ليس من حيث استخدام الآلة فحسب ، بل من حيث تواؤم البشر والآلة في مسيرتها الدائبة التطور ، متضمنة بالنسبة للبشر تطورات سريعة في الثقافة ، تتجلى بالنسبة للفرد في التعليم والتدريب والكفاءة في العمل من ناحية ، ومن ناحية أخرى من حيث القيم والاتجاهات والاهتمامات والسلوك ، وبالنسبة للمجتمع في العلاقات والمؤسسات .

(ب) استهلاك عال انتقائي في مجالات الحياة المختلفة ، بدأ بالطعام واللباس والسكن وأوقات الفراغ وازدهار الفنون والآداب والنواحي الجمالية واللبرالية ، والاهتمام الواضح بالأمن والتأمين .

مما تقدم يتضح أن الانتاج الرفيع ومستوى المعيشة العالية وما يرتبط بها يكادان يتصدران كل ما يهم الإنسان في الثقافة الغربية في حياته على الأرض باعتبارها هي « الحياة » ، وهذا بيت القصيد .

٩ - إن المجتمع الصحي المترابط في حاجة إلى صيغ من مستوى رفيع من التعليم أي إلى مستوى من تعليم جامعي ، في صورة متطلب جامعي عام ، بهدف تأكيد عناصر الثقافة المشتركة في المجتمع وقياداته الفكرية والروحية . وبالنسبة للمجتمع العربي المعاصر بظروفه وتفاعلاته المعروفة ، وفي ظل التوجه الواضح إلى الفردية والعمل على المحاور الذاتية تشتد حاجة المجتمع إلى تدعيم الوعي العام ، والتوجه المجتمعي . إن الحاجة المجتمعية إلى قيمة العطاء عطاء الأفراد ، تكون أعظم الحاحاً عندما يكون التوجه السائد في المجتمع هو « الأخذ » والفردية ، والعمل لصالح الذات وعدم الانشغال الكافي بالصالح العام .

وعندما نعود إلى الحديث عن عناصر الثقافة المشتركة ، نذكر بأن التعليم في البلاد العربية ، في الماضي ، كان يرتكز على العديد من المصادر ، بعضها قراءات مشتركة من

(*) لاحظ دلالة تدريس الموسيقى الكلاسيكية الغربية في التعليم العام في اليابان .

المحيط إلى الخليج . ورغم غيبة التخطيط القومي الثقافي ، ورغم عدم وجود المنظمات الثقافية الاقليمية والقومية ، فأن كبار أبناء الجيل الحالي قد استمعوا إلى بعض الموسيقى الواحدة ، وقرأوا بعض الكتب المشتركة . وأقروا بالقيادة الفكرية والثقافية العامة لعدد من الأعلام لا يختلفون حول قيمهم الثقافية . وكان القرآن الكريم مقرراً عاماً يحفظ الأطفال بعض سوره ويقرأونه جميعاً . وما زال النظام التعليمي في كل مراحله في أشد الحاجة إلى القرآن الكريم : قراءة وحفظاً وفهماً - ليس كواجب إسلامي فحسب - ولكن كرابطة أساسية لثقافة مجتمع عربي يدين بالإسلام ، ويميز هذا الدين هويته وما يترتب على هذه الهوية من منطق وسلوك . وإذا كنا نتحدث عن أهمية التربية الحرة Liberal education ومصادر الثقافة في الغرب في بناء هوية المجتمع الغربي والحضارة الغربية ، فلا محيص من الاشارة إلى أن التوراة والإنجيل وتعاليم الكنيسة وكتابات الاعلام والمفكرين ، على تنوع توجهاتها ، مثل : شكسبير والقديس توما وديكارت وكانت ومنتسكيو وفولتير وشوبنهور وهيجل وجيته وتلستوي وفرويد ودارون وماركس وكينز وشو ورسل وديوي ، وموسيقى : باخ وبتهوفن وتشيكوفسكي ، بل وخشادوريان ، بل ودالي وبيكاسو ، بل والفرق الحديثة بأنغامها الصاخبة ، محل اعجاب الأجيال الحديثة ، كل هذه العناصر التي تنتشر على ساحة الحياة الغربية العريضة ، والتي تتعارض أحياناً ضمن اطار الانتماء المشترك لهذه الساحة الثقافية العريضة ، هي ماتميز الهوية المشتركة للفكر الغربي والحضارة الغربية ، وتجعل لها ضمن اطارها معنى وقيمة يدركها الغربي وتدفعه إلى الائتلاف أو النفور من أنماط الحياة القريبة أو البعيدة عن ثقافته .

ولا يعني هذا الحديث أن عناصر التعليم المشترك ، أو حتى الهوية والثقافة المشتركة ، تصنع من البشر قوالب متكررة أو متشابهة ، فحتى عناصر التعليم المشترك تؤكد أحياناً على حاجة المجتمع إلى أفراد يختلفون لكي يتكاملوا ، وتؤكد على اختلافاتهم حتى يفسح المجال لكل منهم للقيام بدوره في صنع النسيج الموحد من العناصر المختلفة . ولكن العناصر المختلفة إذا تنافرت استحال تكون النسيج الواحد . والمجتمع الذي ينحرف أفراده عن الحد الذي يتحمله المجتمع فإما أن تستوعب طاقته في الصراع والمقاومة الداخلية فلا يبقى منها شئ لعمل ايجابي يجعل لاستمرار بقاء المجتمع وظيفة أو رسالة أو معنى ، وإما أن ينخفض مستوى تفاعله ويصل تفككه به إلى درجة العجز عن أي انجاز حضاري يبرر استمرار وجوده .

وإن نوع التعليم وكمه ليميز بين الانسان والانسان بل يمكنه أن يباعد بينهما إلى غير لقاء أكثر مما تميز الطبيعة بين الانسان والحيوان الأعجم . ومعنى ذلك أنه مع تقدم نوعية التعليم وحملات التعليم العام الشامل الالزامية فانه ما لم ينتبه إلى دور العناصر والقيم المشتركة في التعليم المشترك يصبح هذا التعليم المتطور أدوات للتفريق بين الأفراد والجماعات ، بدلاً من أن يكون أحد عناصر الترابط والاستقرار المجتمعي .

والمجتمع يحتاج إلى المتخصص ، ولكنه يحتاج إلى المتخصص المدرك لدوره الاجتماعي وانتمائه المجتمعي وهويته الذاتية . وانطلاقاً من هذا المفهوم يمكن أن نرى بوضوح معنى تعريض العربي المسلم – أو غير الغربي بعامة – إلى تربية غربية وثقافة غربية . إن الحضارة الغربية والتربية الحرة بالمعنى الغربي – الذي أسلفنا الاشارة اليه – تؤكد هوية الانسان الغربي ولكنها لا تجعل من غير الغربي غربياً أبداً ، الا أنها تستطيع أن تغلف هويته الأصلية بغلاف كثيف من الغموض ، تحجب عن بصيرته الاحساس بالاتجاه وتقعده عن النمو والتطور ، وتفقد حركته وضوح الرؤية والهدف .

ويؤكد الواقع وجهة نظرنا هذه بالنسبة لآثار محاولات تغريب المجتمعات غير الغربية ، ليس من ناحية عدم قدرتها على الالتحاق بمسيرة الحضارة الغربية فحسب ، بل من ناحية القصور في القدرة على النمو والتنمية ، ضمن اطار الثقافة الأصلية التي فقدت من أصالتها حسب درجات اهمال مقوماتها .

١٠ – ومما لاشك فيه أن التقدم والعصرية والتنمية ، والتغريب – بمعنى من المعاني – أحد نماذجها ، ترتبط بالانتاج الرفيع والقدرة عليه من ناحية ، والاستهلاك المؤدي إلى رفع مستوى المعيشة من ناحية أخرى . وعندما يكون الاستهلاك الرفيع المؤدي إلى رفع مستوى المعيشة أثراً للإنتاج الرفيع تكون المعادلة الطبيعية ان هذا المستوى الإنساني الرفيع مؤد هو الآخر لمزيد من القدرة على الانتاج . ومما يلاحظ أن استخدام التكنولوجيا المتقدمة في الدول المتقدمة يؤدي الى زيادة الانتاج بالدرجة الأولى ومزيد من أوقات الفراغ بالدرجة الثانية ، في حين ينظر الى التكنولوجيا المتقدمة في العالم الثالث وكأنها وسيلة للتقليل من جهد الفرد أو المجتمع ، الذي هو محدود أصلاً ، أو لتغطية هذا الجهد المحدود ، بدلاً من الزيادة الكلية في الانتاج لمزيد من التقدم . وعلى ذلك يرتبط التقدم والتنمية بمدى الاستفادة ، والقدرة على الاستفادة ، من أقصى ما يصل إليه الانسان . وهذه الاستفادة تشير

الى الاستهلاك كما تشير الى الاستفادة في عملية الانتاج أيضاً . وهذا هو الشق الاستهلاكي والانتاجي معاً . كذلك يرتبط التقدم والتنمية بتوافر البشر المتطور وتوافر سبل تطوره لدفع طاقات الإنتاج ، بمعناه الشامل ، الى مزيد من التطور الى الأكثر والأفضل ، وإذا كانت التنمية والتقدم مفهوماً انسانياً اجتماعياً فلابد أن ترتبط بانسان قادر ، أو قادر على أن يعد ليتطور وليكون البنية الاجتماعية القادرة على التغير وتحمل تبعاته . ومن الواضح أن التقدم والتنمية ترتبطان بالضرورة بدرجة تماسك المجتمع وصحته وحيويته وأمنه . ومن ثم قدرته على العمل الإيجابي والإنتاج . وواضح أيضاً أن القدرة على العمل الإيجابي مفهوم يتغير بتقدم علم الإنسان ومهارته وتصوراته . وكما ذكرنا ، فالإنتاج المتقدم هو الإنتاج الذي يتم باستخدام أقصى ما وصل اليه عقل الإنسان وعلمه ، من الآلات والوسائل والطرق اللازمة لاستخدام هذه الآلات والوسائل .

فإذا كان عقل الإنسان وخياله ومعامل أبحاثه تخرج لنا كل يوم تحسيناً جديداً لوسائل الإنتاج ، مما يزيد من فعاليتها وكفاءتها ، فمعنى هذا أن التقدم لابد أن يتطور هو أيضاً للاستفادة من هذا الجديد . وهكذا يصبح الإنتاج المتقدم والاستهلاك الرفيع - بنفس القياس - بل والتقدم والتنمية بعامة : عملية واجراء ونتيجة معاً وهما دائما التغير ، والحركة ، والتطور .

١ - والأمم ، كمجتمعات ، هي تفاعلات بين أفراد . وكلما كان التفاعل سلساً ميسراً ايجابياً صحياً يستند إلى أسس واضحة - معلنة أو غير معلنة - كانت الأمة أقرب إلى الاستقرار والقوة والقدرة على الفعل الإيجابي ، أي رؤية رسالتها والتوجه لأدائها ، أو ما يسمى بالعطاء الحضاري ، وهو المعيار الذي يميز التاريخ به الأمم العظيمة من الأمم العابرة .

إن تركيبة المجتمع ، وعناصره ، ونوعية تفاعله ، تفرز نظمه السائدة في الميادين المختلفة وتؤثر في مستوى كفاءتها . وهذه النظم في الميادين الاقتصادية والاجتماعية ونظم القيادة والحكم ، بدورها تغذي - تعزيزاً أو كبحاً - عناصر القوة والضعف المجتمعي ، خصماً أو اضافة لفائض طاقات المجتمع وقدراته ، ومن ثم قدره .

والمجتمعات التي ينشغل أفرادها بهموم اليوم والساعة ، والقضايا الملحة المتلاحقة ، وما يترتب على ذلك من الاستغراق في قرارات آنية ، سريعة ، اسعافية لا مفر منها ، هذه المجتمعات تتجه لأن تكون هشة ضعيفة غير قادرة على العطاء الحضاري الكافي .

وهذه الظواهر من سمات المجتمعات التي تنوء تحت وطأة فقدان الوجهة وحس الاتجاه الذي يرتبط بالغربة الثقافية الراجعة الى عدم مواءمة الثقافة بما فيها من عدم مواءمة التعليم .

١٢ - إن المظهر السلوكي للأصالة هو العفوية والتلقائية والبديل في حالات التقليد - تغير التربة - هو السلوك الذي يتسم ، بالضرورة ، بالكثير من الحساب والمحاكاة . والجهد المبذول في هذا النمط من الحياة يصل الى الدرجة التي لا يتبقى فيها للأفراد ولا للمجتمع فضل ، أو بقية من طاقة ، يمكن أن توجه لعمل ايجابي أو جهد خلاق .

ومن هذا التعميم يصبح التغريب أو التحديث غير المنبثق عن الجذور والأصالة عبئاً على التنمية ، وغطاً للتغير يوقف - بالمنطق وبالواقع - حركة التطور الايجابي والنمو السلس .

وإذا كانت البيروقراطية بالمعنى الدارج ، وسوء الإدارة مثلاً ، احدى السمات الشائعة والأمراض المعوقة لحركة دول العالم الثالث في العصر الحديث ، فهذه البيروقراطية ، وهي بالمناسبة ليست احتكاراً للعالم الثالث ، مع تفاوت في المستوى ، نتيجة حتمية لتفاوت مواءمة الثقافة والتعليم ، وتفاوت ترابطهما ونتيجة للاستخفاف بالأصالة وهوانها وحجبها البيروقراطية بالمعنى الدارج وسوء الإدارة مثلاً هي صعوبة اتخاذ القرار ، والتخبط والتناقض في البت ، وعدم الاهتمام بربط القرار بآثاره ، والتأكيد على النظرة الجزئية والمراحل ، وغيبة النظرة الكلية ، والسلبية بالنسبة للعمل والعاملين والمجتمع ، وتأكيد معاني اليأس والقعود والفردية ، والتشرذم .

وكمثل آخر من السمات الشائعة في دول العالم الثالث ، المرتبطة بعدم مواءمة الثقافة والتعليم وعدم ترابطهما ، هو صعوبة القيادة . وفي صياغة أخرى : تناقضات الظروف التي تتم فيها القيادة ، وعدم ترابطها ، وبمنظور آخر : غيبة القيادة القادرة .

وكلما تخلف مجتمع صعبت قيادته ، وان سهل التحكم فيه . والحديث هنا عن قيادة نحو انجازات ايجابية وعطاء حضاري ، وعن تحكم يضعف التلقائية ويعجز عن الفعل .

ذلك أن القيادة الناجحة هي عملية تعليم بالدرجة الأولى . والقائد السياسي المحنك هو أولاً وقبل كل شئ ، معلم موهوب صقل مواهبه وتعلم باتقان مستلزمات التعليم ، وتمكن من شرائط التعلم .

وفي الثقافة المتوائمة لا يحتاج القائد المعلم إلى تركيز القوى أو الصلاحيات بين يديه ، فهو قادر على نقل وجهة نظره ، وهي قابلة للتعديل والتطوير ، وهم قادرون على تقبلها وقبولها أو تعديلها وتبنيها كما هي أو بعد تعديلها باعتبارها وجهتهم جميعاً ، وبذا يتحرك الجميع حركة مطردة متناغمة .

والمجتمعات المتخلفة في العصر الحديث مجتمعات غير متوائمة ثقافياً ، وهي تفرز قيادات محدودة الكفاءة ، بمستوياتها المتفاوتة ، ويسمح لها تفككها بأن تكون في مقدمته . وعندما تعجز القيادة عن التفاهم والاتصال يفقد التقبل من الجماعة ، وعند ذلك اما أن تعرقل المسيرة ويرتفع التوتر ، واما أن تطالب القيادة بمزيد من الصلاحيات واطلاق اليد ، أي اتخاذ قرار لا يشارك فيه الآخرون ولا يهم اعتراضهم عليه . وبذا تزيد الفجوة بين القيادة والجماعة ، وتضطرب أحوال المجتمع وتهن قواه ، ويقل عطاؤه ، وينهمك المجتمع في صراعات داخلية ، وقضايا جانبية ، وتوتر وضياع .

١ – بعد كل هذا وفي اطار الحديث عن المواءمة في الثقافة والتعليم والهوية ، لابد من وقفة – ولو قصيرة – عن الإسلام والعروبة . والإسلام بالنسبة لأمة تدين به هو هويتها الثقافية ، ومنطلق عطائها الحضاري الذي يتحدد على أساسه وأساسها مكانتها بين الأمم .

وبدهي أن الإسلام يقبل من أبناء القوميات المختلفة دون فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . وعندما يدين ويلتزم به أبناء قومية معينة ينفعلون به ، فلا يكون لهم رسالة غيره ، وان اختلفت صيغة العطاء الحضاري بحكم حدود قدراتهم الأصلية أو المكتسبة ومقومات وخلفيات تميز الأقوام بعضهم عن بعض . ومن هذا المنطلق فان القومية لا تتعارض بالضرورة مع الإسلام ، ولا تتنافس معه ، ولا تتقاسم معه ولاء اتباعه ، طالما كان الالتزام الديني والثقافي والسلوكي بالإسلام يمثل توجهاً لا يعترض بل يتضمن ، كواقع وحقيقة ، مشاعر انتماء الأفراد إلى القومية التي ينتمون إليها ، في حدود الاطار الإسلامي .

وطريق الإسلام يتضمن النظرة الدينامية إلى الحياة على أساس :

(أ) الإيمان بالله ، خالقاً واحداً قادراً على كل شئ عادلاً ورحيماً وذا فضل عظيم ، وفعالاً لما يريد ، واليه وحده يرجع الأمر كله ، سبحانه وتعالى .

(ب) ان الدين الإسلامي رغم اتساع مداه ومجالاته لـه ملامحـه المحـددة وقسماتـه الواضحـة كما نزلت في القرآن الكريم وبينتها سنة الرسول ﷺ .

(جـ) ان الحياة لها معنى وغايـة وهـدف وهي ملـك لله (**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**) (سورة الذاريـات : ٥٦) ، والعبـادة هنـا أوسع من الشعـائر ، بل إنها تشمل السعي لتحقيق أمر الله عز وجل . وإن المرء يثاب على هذا السعي ، ويتحمل مسئوليتـه في تحـديـد نـوع السعي وكمـه ، وقراءة هـذا الأمر في آيـات القرآن الكريم وأوامر الرسول ﷺ واجتهادات الصحابة والتابعين والعلمـاء ، والجمهرة من العـامـة من المستنيرين الملتزمين .

(د) ان الحيـاة مستمرة بعـد الموت ، وإن السعي في الأرض لتعميرهـا وتطـويرهـا وكشف حجبهـا ، وتحقيق تسخير مواردهـا ، وتـوسيـع آفـاق العلم بعنـاصرهـا ، والتصرف بها وفيها ، وتطوير النفس لمزيـد من النمو في تحقيق قـدرات أكبر على ذلـك ، كل ذلـك يرتبط بالعلم بوجود الحياة الآخرة والحساب . (**أيحسب الإنسان أن يترك سـدى**) (سورة القيامة : ٣٦) .

وعلى ذلك فواجب المسلم أن يعمل للآخرة وهو يعمل للدنيا ، وأن يعمل للدنيـا وهو يعمل للآخرة . وأن الحياة الموقوتة على الأرض ليست نهاية المطاف .

(هـ) في ضوء ما سبق وفي ضوء أن الإيمان بالله مرتبـط بـالسلوك ، يكون لهـذه المعتقـدات انعكاسات سلوكية في :

١ - علاقة الفرد بالفرد .

٢ - علاقة الفرد بالجماعة .

٣ - علاقة الجماعة بغيرها من الجماعات .

وهذا ما يعنى به التشريع الإسلامي .

(و) ان الإنسان مسئول عن عمله ، ومخير ضمن نطاق ما يستطيع .

(ز) حيـاة الإنسـان وفكره ، رجلاً أو امرأة - عنـدمـا يخطىء وعنـدمـا يصيب - مصونـة وآمنة ، وهو مسئول عنها . كذلك فان ، كرامته والعدل معه واجب وحق . الانسان حر ومسئول .

وإذا كان هذا التصور السهل للإسلام مقبولاً ، فالإسلام :

- يشكل تحدياً لأي فكر ينظر إلى الحياة على الأرض ، باعتبارها الغاية النهائية .
- يشكل تحدياً لأي فكر ينظر إلى الحياة باعتبارها قضية مادية فحسب .
- يشكل تحدياً لأي فكر ينظر إلى الحياة نظرة جزئية .
- يشكل تحدياً لأي فكر ينظر إلى الحياة على أنها عبث لا طائل تحته - وليس بعدها شئ .
- كما يشكل تحدياً لأي فكر ينظر إلى الحياة باعتبارها مجرد إعداد للحياة الآخرة ، وأنه يجوز الاستهانة بها واهمالها ، والقعود عن السعي الطبيعي فيها ، واتقاء التعامل مع عناصرها وناسها . **(يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون)** (سورة الأعراف : ٣١ ، ٣٢) .

(هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) (سورة الملك : ١٥) .

وإذا كان الإسلام يشكل تحدياً لهذه الأفكار فليس بمستغرب أن تمثل هذه الأفكار تحدياً له ، وإذا كان القرن العشرون قرن سيادة الحضارة الغربية ، بالأسس التي تقوم عليها ، والتي أشرنا اليها ، فيكون هذا هو مضمون الحوارات الشهيرة بعنوان « الإسلام وتحديات العصر ، أو تحديات القرن العشرين » .

ومن هنا نجد أن كلمة « تحدي » ليست أفضل التعابير فالتحديات المتبادلة هي صميم الصراع وهي سمة أية حياة طبيعية . دون وجه للاستنكار أو الاستغراب .

والصراع بين ثقافة الإسلام والثقافات الأخرى حدث منذ قام ولم يتوقف ولن يتوقف .

١٤ - والقضية إذن ليست قضية الاشفاق من الصراع الحضاري الحادث ، ولكنها البحث حول مقومات النجاح في هذا الصراع .

وأهمية النجاح في الصراع الحضاري قضية تهم المسلم ، لأنها ترتبط بوجوده ، لأنها ترتبط بهويته .

ومن غير المعقول أن تكون أدوات النجاح في مثل هذا الصراع : الاشفاق ، أو اليأس ، أو الشك البالغ ، أو الاتجاه نحو التحلل من الهوية ، أو الاندفاع نحو الثقافة الأخرى ، غربية كانت أو غير ذلك .

وإذا كان الغزو الثقافي أحد معالم الصراع المعاصر ، فان التعامل معه لا يكون باهماله ، ولا بالاستسلام له ، أو الهلع منه وانكاره ، بل يكون مدخل التعامل مع هذا الموقف هو : الأمل والثقة بالنفس الذي يقوم على أسس موضوعية ، وليس أحاديث الأماني ، وأحلام اليقظة ، وفي السعي لتوثيق الصلة بالله عز وجل ، والسعي لمزيد من التعرف على الإسلام والعلم به ، والتفقه والتفكر فيه ، وتميز الحقائق الإسلامية عن الانطباعات والخرافات ، والنظر المتفرس المقيّم في قضايا الحياة المعاصرة ، وتنقية الساحة من المشكلات المستوردة غير المواءمة والتفرغ للمشكلات الحقيقية .

وفي مجال العلوم والتكنولوجيا مثلاً يمكن تجلية نظرة إنسانية إسلامية بعيدة عن النظرة الغربية التي تأثرت بتاريخ العلاقة بين العقل والعلم والدين ، فمفهوم مثل « علمانية العلم والمعرفة » في الغرب مفهوم دارج ومبرر إلا أنه لا يقوم على أساس ولا ينبغي أن يمثل قضية في مجتمع مسلم . فالإسلام بعقلانيته لم يصطدم بالعلم ولا بتطوره ولا بتقدمه ، بل أمر بالعقل وبالعلم بل وبتطبيقاته .

(وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) (الأنبياء : ٨٠) .

(ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنّا له الحديد . أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير) (سبأ : ١٠ ، ١١) .

وعندما كان العلم بتطبيقاته في الصناعة والزراعة والانتاج الاقتصادي والثقافي ، فكراً وفناً ، وفي الحرب والسلام والحل والسفر ، عندما كان العلم السائد في العالم صادراً عن أمة الإسلام ، كانت انطلاقته باسم الإسلام ، ولم تكن على حسابه . بل إن الأرجح أن الحركات

العلمية في أوربا ارتبطت في قيامها وتقدمها ، بانفعالها بالفكر الإسلامي ومنطقه ، وليس بمجرد ممارساته . وكان مفهوم التجريب ، واحكام العقل ، وتنظيم الأحكام والتوجه نحو العمران والتحسين ، والتحكم في موارد الطبيعة ، والاستفادة من خيراتها ، والاستمتاع بطيبات الحياة ، في غير خيلاء ولا اسراف ، لرفع مستوى المعيشة ، على أساس من زيادة الانتاج لتوفير الخير واستهلاكه على نطاقات أوسع ، كل هذه المعاني والحقائق كانت معروفة عند بناة النهضة الأوربية الذين تعلموا في الجامعات الإسلامية ، وعرفوا العربية ودرسوا الإسلام بما يتضمنه من هذه الأفكار والمبادئ . وإن الأرجح أن علمانية العلم وحيادية التكنولوجية إذا كان لها وجود بيننا ، فهو وجود مستورد لم يمحص ولم يقيم ولم ينقد .

بل الأرجح أن التبعية العلمية القائمة ، والتخلف التكنولوجي الحادث ، إن هي إلا أثر من آثار هذا الفكر الطارئ على ثقافتنا دون جذور أو روافد .

إن مفهوم التنمية بالنسبة لنا لا يمكن أن يكون مجرد الزيادة في الانتاج أو الدخل بل يجب أن يكون متوائماً مع احتياجات مجتمعنا وتطلعاته من ناحية وامكاناته ومقوماته من ناحية أخرى . ومسئولية الجامعة واضحة في تحديد ثقافة المجتمع وتطلعاته في ضوء هويته ، ثم محاولة استشراف خطى المستقبل .

وعلى هذا الأساس فان قضية التنمية المتوائمة ليست قضية بسيطة ولا ثابتة ، لأنها لا تمثل طريقاً مطروقاً ، بل نهجاً مستحدثا مليئاً بالكثير من الغموض في الرؤية .

ومفاهيم التنمية ونماذجها تتغير بتغير أهدافها وصيغها . ومهمة الجامعة في هذا المجال تتضمن تحقيق عناصر المواءمة بين المجتمع والتنمية ، وتحديد مساره لتحقيق الالتحاق بالعصر والسير المطرد قدماً الى الأمام ، مع الحفاظ على هوية المجتمع ، حيث أن أية حركة تفقد معناها إذا تنازلت عن الحفاظ عن هويتها .

١ – إن الهوية التي نتحدث عنها مثل المواءمة مفاهيم دينامية بالضرورة . فالهوية ليست تشبثاً بالماضي ، وليست عداء لصيغ معاصرة يمكن أن نتفاعل معها كما يمكن أن نؤثر فيها .

فالعالم اليوم يتجه إلى التميز والتقارب ، بالمعنى الحضاري ، في نفس الوقت ، مما يكسب الصراع الحضاري المعاصر أبعاداً جديدة عندما نصر على هويتنا الإسلامية العربية الدينامية المتميزة في الوقت الذي نحيا فيه على مائدة تكنولوجيا الغرب . والواقع أن أية حضارة تستمد

قيمتها من قدرتها على العطاء الحضاري فاذا كان العطاء الحضاري للثقافة الغربية ملموساً ولا يمكن ولا يصح إنكاره ، فان قدرتنا على العطاء الحضاري في مثل هذا الواقع قابلة للتطوير والبروز ، ليس بما يبرر استمرار وجودنا فحسب ، بل بما يدعونا الى أن يكون لنا دور اثرائي في حركة الحياة الغربية التي تقف عاجزة أمام كثير من تساؤلات الفكر الجاد .

وبهذا المعنى يكون للتنوع الحضاري القائم والمحتمل معنى بالغ القيمة والأهمية .

وإذا كانت جامعاتنا العربية المعاصرة نتاجاً غربياً أكثر منها نتاجاً لتطور حضاري أصيل ، فان النظرة المستقبلية لجامعة الخليج يجب أن تتفادى آثار سلبيات هذا الاتجاه ، مع وضوح في اتجاهها نحو تكوين جامعة عصرية وأصيلة في نفس الوقت ، وإذا كانت الحضارة التقدمية الجديدة - العربية الإسلامية - الموازية والمتميزة والمتعاملة في نفس الوقت مع الحضارة الغربية ، تستمد أهميتها مما تستطيع أن تقدمه ، فان طبيعة الصراع الحضاري يمكن أن تكون صراعاً غير عدواني ، بمعنى ألا يقصد الى انتصار يؤدي الى القضاء على الطرف الآخر . أو أن يقصد الى حسمه بمعنى بقاء حضارة وحيدة ، بل توازن يقود الى صيغة جديدة من صيغ السلام المتجدد الحي القادر على الاعتراف بالعطاء الحضاري للحضارة الغربية دون الاستسلام والانصهار فيها .

ودور الجامعة هنا أن تبلور ، من منطلق أصالتها وثقتها في هذه الأصالة ، ملامح تطبيقات متطورة للثقافة العربية الإسلامية الديناميية المعاصرة . وإذا استطاعت جامعة الخليج أن تفعل ذلك فقد أثبتت وجودها بحسم نادر . ويكون عطاؤها حينئذ في تقديم ثقافة بديلة تكون عنصر اثراء للجميع بمجرد صياغتها ، وذلك بالتعبير عن وجودها الذي يتجه الى ازدهارها وازدهار الانسان .

وتكون الجامعة قد تجاوزت الأحاديث الطويلة في نقد الحضارة الغربية مع استمرار الدوران في أفلاكها . وإذا كانت الحكمة تؤكد على أن تقود الإرادة القدرة فعلى الإرادة ، وهي تفعل ذلك ، أن تكون ضمن نطاق هذه القدرة .

إن حقيقة الجامعة تستمد من ضروريتها ، وضروريتها معناها قدرتها على تقديم شئ لا تقدمه المؤسسات الأخرى ، أو لا تقدمه بنفس الكفاءة . وإذا كنا نتحدث عن جامعة الخليج كجامعة لا تكرر ولا تنافس ، بل كعنصر إثراء للجامعات القائمة في المنطقة ، بل مجال

العطاء العربي الإسلامي للمجتمع الجامعي الدولي الكبير ، فالمطلوب من هذه الجامعة العصرية الإسلامية الهوية ، العربية الجنسية ، أن ينعكس في برامجها ومناخها وتوجهها ، هذه العناصر كما تؤكد بالضرورة على بعدها العالمي .

والواقع أن العالم المعاصر قد تبين بجلاء أن الجامعة التي لا تحافظ على بعدها العالمي المتوائم بالضرورة مع وضوح هويتها وقسماتها ، هذه الجامعة لا تسقط إلى مستوى المحلية والإقليمية فحسب ، بل تتردى خطوة خطوة في برامجها التعليمية والبحثية ، مهما حسنت النيات المعلنة .

إن الجامعة الحقيقية – تميزاً عن الجامعة الشكل – جامعة حية لها مضمون وقدرة وهي لا تطيق عزلة العلم ولا التعليم ويصدق ذلك بالنسبة لجامعة الخليج كما يصدق على جامعات الشرق والغرب جميعاً .

وكما قد يعني ذلك تبعية الأضعف ثقافياً للأقوى ، فان الحالة التي نحن بصددها ليست كذلك ، إلا أنها تحتاج إلى تجلية ثقافتها المتميزة وإيجاد الصيغ التطبيقية والسلوكية لها . وهي عندئذ مصدر للعطاء والاثراء ، وصيفة للاحتكاك الحميد ، والتحول العاقل ، بدلاً من الصراع المدمر لقوى تكون رغبتها في الفوز الضيق الأفق أكبر من الرغبة في التقدم نحو الأفضل .

١٦ – والجامعة قد تكون مؤسسة للماضي كما يمكن أن تكون مؤسسة الحاضر أو المستقبل ويتوقف ذلك على حقيقة دورها . وإذا أرادت جامعة الخليج أن تكون جامعة المستقبل فعليها من منطلق جذورها الضاربة في أعماق تاريخ الحضارة أن تنظر إلى المستقبل لتكون أحد عناصر تشكيله والإعداد للتعامل معه . وأن تعلم أن الجامعة لا تستطيع وليس من مهمتها أن تجهز الخريج لعمل معين ، وإلا أصبح على التعليم الجامعي أن يعد برامج شخصية وجامدة لكل طالب وهذا أقرب إلى مهمة مركز تدريب منه للجامعة . ولكن على الجامعة – كمجتمع – أن تعد برامجها ومناخها لتتاح للخريج أفضل الفرص ليكون قادراً على سرعة اتقان مهام عمل محدد ، بالإضافة إلى القدرة على سرعة تطوير نفسه لعمل آخر ، عندما يستدعى الأمر ذلك ، أو عندما تتطور ظروف العمل وامكاناته .

على أن من مهام الجامعة المتطورة أن تدخل في برامجها البرامج التدريبية والتجديدية

وبرامج الخدمة العامة لمساعدة الخريج على التطور بنفسه وتجديد امكاناته . ولقد كانت هذه المهمة مسئولية الخريج وحده حتى الماضي القريب . ولكن تحقيقها اليوم يزداد صعوبة بدون هذه البرامج . وليس الحديث هنا مقصوراً على برامج مهنية تخصصية فحسب فان التطورات السريعة حتى في حقول أساليب البحث وتصميماته والأجهزة بل وطرائق التدريس والاتصال ، تجعل الساحة التي نتحدث عنها تتسع لتشمل حتى عمل استاذ الجامعة ومهامه .

وهكذا يتبين كل يوم أن المعرفة التخصصية يحتاج نموها وتطورها إلى خلفية بشرية عريضة يدخل فيها المعلومات والمعارف والاتجاهات والقيم والمهارات والسلوكيات ، وهذا يقود إلى تأكيد ما سبق ذكره من أهمية التربية الحرة المنبثقة عن الثقافة الإسلامية العربية ، والتي تنفتح ، انتقائياً ، على التربية الحرة بالمعنى الغربي أيضاً ، طالما بقيت الملامح الحالية للحياة العصرية السائدة اليوم ، والثقافة المتنوعة والاهتمام والفضول وحب الاستطلاع في المجالات المتعددة .

إن جامعة الخليج التي تستمد حقيقيتها من ضروريتها جامعة تحتاج إلى أن تتوجه إلى المستقبل وهي تعرف دورها في الصراع الحضاري ، ومن هذا الدور تحدد ديناميأ – برامجها لخدمة المجتمع العربي والخليجي والمساهمة في تأكيد هويته وهي تجهز طلابها وأساتذتها لمسئولياتهم التي يتصدون لحملها ، وهي مسئوليات يمليها طموح عال وآمال عراض . أما إعدادها لطلابها فهو إعداد لقادة قادرين ، مع العناية بالموهوبين منهم خاصة ، على تولي مسئوليات متخصصة ومتطورة في نفس الوقت على أساس تركيز الجامعة على مساعدة طالب العلم على التعلم والنمو أكثر من التعليم ، كما تضفي على قيادتهم شعوراً أصيلاً بالانتماء العربي والالتزام الإسلامي . ومعيارها في جودة أساليب الإعداد فيها هو مدى تمكنها من تحقيق أهدافها ، ومدى تقبلها لتعديل مساراتها نحو أهدافها .

كما أن مسئولياتها تتضمن أيضاً اقامة مجمع من العلماء والباحثين يستطيع أن يستشعر الخبرات التي يتطلبها المجتمع ويرتب للحصول عليها والتطور بها .

وهي قبل ذلك وبعد ذلك مجتمع تتسم تفاعلات أفراده بالإيمان ، والتقوى ، والتجرد ، والثقة ، والقدرة على العطاء الحضاري المتواصل .

١٧ – أن مرحلة قيام الجامعة مرحلة حاسمة باقية الأثر . وان الأعمال العظيمة لا تبدأ كاملة ولكنها تبدأ تامة ، والعمل العظيم لا يبدأ كبيراً ولكن يبدأ جيداً .

التنشئة الاجتماعية الأسرية
للطفل القطري

الأستاذ الدكتور
فاروق محمد العادلي
أستاذ بقسم الاجتماع

حول تعريف التنشئة الاجتماعية وأهمية موضوع البحث :

ترجع أهمية عملية التنشئة الاجتماعية إلى أن البناء الاجتماعي يهدف إلى تحقيق التوازن بين التأثيرات الثقافية وأساليب الضبط الاجتماعي لدى الأفراد أعضاء البناء ، وإلى إيجاد التوافق بين حاجات الشخصية ومطالب البناء الاجتماعي ، وإلى إيجاد نوع من السلوك يحقق رغبات الأفراد ويرضى عنه الآخرون . وينيب البناء عنه الوالدين منذ الميلاد لتنشئة الصغار تنشئة اجتماعية ، ولتكوين بيئة اجتماعية تحيل الطفل من كائن عضوي إلى كائن اجتماعي[١].

وعملية التنشئة هي عملية تعلم بالمعنى العام . وتهدف إلى إعداد الطفل ثم الصبي ، فالراشد للاندماج في أنساق البناء والتوافق مع المعايير الاجتماعية المقبولة ومطالب الأدوار الاجتماعية واكتساب قيم المجتمع . ومن هنا تدل التنشئة الاجتماعية على « العملية الكلية التي يُنمّي بها الفرد الذي يولد ولديه إمكانيات هائلة ومتنوعة ، سلوكاً فعلياً مقبولاً لديه ، ومعتاداً وفق معايير الجماعة التي ينتمي إليها »[٢].

ويرى تـالكوت بـارسـونـز Talcott Parsons عـالم الاجتماع الأمريكي الشهير أن التنشئـة الاجتماعية هي عملية « تعلُّم » تعتمد على التلقين والمحاكاة والتوحُّد مع الأنماط العقلية والعاطفية والأخلاقية عند الطفل والراشد ، وهي عملية تهدف إلى إدماج عناصر الثقافة في نسق الشخصية[٣]. والتنشئة عملية مستمرة تبدأ من الميلاد داخل الأسرة وتستمر في المدرسة ، وتتأثر بجماعات الرفاق ونسق المهنة . ومن ثم تستمر عملية التنشئة الاجتماعية باتساع دائرة أنساق التفاعل كلما كبر المرء . فالتنشئة الاجتماعية عملية تبغي تحقيق التكامل في مجموعة من أنساق التفاعل والتوحُّد مع العناصر الثقافية والاجتماعية . ويستخلص بارسونز من هذا أن عملية التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة لا نهاية لها ، تعبّر عن نشاط البناء الاجتماعي . فالبناء الاجتماعي يضغط على الشخص لكي يتكيف مع الآخرين ، ويتعلَّم كل يوم شيئاً جديداً[٤].

ويستبين لنا من تفسير بارسونز لعملية التنشئة الاجتماعيةأن الوالدينأثناء تفاعلهما مع الطفل في المواقف المختلفة لا يقومان بأدوارهما الشخصية ، بل يؤديان أدواراً ينظمها المجتمع ، كما لا يحكم سلوكهما قيم شخصية ، بل يمثلان قيم المجتمع السائدة أثناء تفاعلهما مع الطفل . والموقف الذي تتم فيه عملية التنشئة الاجتماعية ، موقف مستقر منظم ، نظمه الأبوان حسب ثقافة المجتمع ، ويتقبّله الطفل . وحصاد التفاعل الاجتماعي المستمر في مواقف التفاعل المنظمة ، وهو حصاد عملية التنشئة الاجتماعية ، شخصية تتوحَّد مع الأهداف الثقافية والمعايير الاجتماعية في المواقف المنظمة . ويذهب بارسونز إلى أن عملية التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة ، ولكنه يؤكد كما أكد عدد آخر من العلماء ، على أن سنوات الطفولة المبكرة (الست سنوات الأولى) هي أهم سنوات التنشئة في تكوين الشخصية ، لأن الطفل في هذه المرحلة لايعدو أن يكون عجينة خام ، تشكلها الأسرة حسب القيم وأشكال السلوك السائدة . كما أن العناصر المتعلَّمة في فترة الطفولة هي أكثر العناصر الاجتماعية المكتسبة استقراراً[٥].

ولا شك في أن الوظيفة الظاهرة Manifest function لعملية التنشئة الاجتماعية هي تدريب الطفل على أداء أنماط معينة من السلوك ، والتي يرضى عنها المجتمع ، ويتخذها الشخص دعامة لسلوكه طوال الحياة . أما وظيفتها الكامنة Latent function فهي توحُّد الطفل مع مجموعة من الأنماط الثقافية للمجتمع تعرف باسم (القيم الاجتماعية) التي يتكون منها البناء الأساسي للشخصية .

ويعرِّف قاموس الاجتماع (فيرتشيلد) القيم الاجتماعية بأنها « مواضيع Objects تتعلق بها النفس ، وتشعر بالحاجة إليها ، أو باستحسانها ، أو بضرورتها . وقد تكون هذه المواضيع حيَّة ، أو غير حيَّة ، مصنوعة أو غير مصنوعة . والمهم أنه يوجد اتفاق على أهميتها في المجتمع »[٦].

والقيمة الاجتماعية Social Value هي كل ما يستثير في مجتمع انساني اهتماماً عامًّا ، سواء كانت القيمة متمثلة في موضوع حسّي ملموس ، أو في صفة معنوية مستحبَّة . ومن شأن القيمة الاجتماعية أن تسد حاجة اجتماعية حيوية ، أو ترضى اتجاهات نفسية عامة في عدد كبير من الأفراد . والشعور نحو القيمة والاهتمام بها يتصف بالديومة وبالاستمرار النسبي . ويتمثل هذا الاهتمام في وجود قواعد سلوكية تبيِّن كيفية التعبير عن أهمية القيم ، مع وجود جزاءات[٧] Sanctions (مثوبات وعقوبات) الأولى لمن يحترم القيم والثانية لمن ينتهكها ، ووجود رموز اجتماعية يتم بها التعبير عن احترام هذه القيم واكتسابها[٨].

ويتضح من العرض السابق أهمية الموضوع الذي نتصدَّى لدراسته . وتنبع تلك الأهمية من خطورة دور التنشئة الاجتماعية كميكانيزم لنقل الثقافة وبقائها ، مما يؤكد ويبرز أهمية دراسة التنشئة الاجتماعية كجزء هام من ثقافة الجماعة الإنسانية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه لا يخفى ما للتنشئة الاجتماعية – وخصوصاً في نطاق الأسرة – على الشخصية ذاتها ، حيث تجعل الفرد يساير مطالب ثقافية محدَّدة، مما يؤدي في النهاية إلى مسايرة «لشخصية منوالية» تميز جماعة بعينها . وهكذا تكون الأسرة عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية مسئولة مسئولية شرعية عن تكوين الطابع القومي للشخصية . وبالتالي تكون دراسات التنشئة بما تحويه من ضرورة توحُّد الطفل مع قيم مجتمعه مقدمة لاستنتاج الخصائص العامة المميزة لنمط الشخصية السائد Predominant أو الأكثر شيوعاً في المجتمع . أي الذي يطلق عليه سوسيولوجيا مصطلح الشخصية الأساسية Basic personality ، أو الشخصية القومية National character إذا كان المقصود بذلك الشخصية الأساسية لشعب أو أمة . ويقترح عالم النفس كورا دي بوا Cora du Bois مصطلح الشخصية المنوالية[٩] Modal personality مستفيداً من المفهوم الإحصائي للمنوال ، على أساس أن الشخصيات الاجتماعية في مجتمع معين ، تكثر نماذجها المشتركة وتتلاقى في شخصيات عامة . وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا لهم منهجهم في هذا الصدد الذي يقوم على فهم الثقافة ككل ، والنظم الاجتماعية التي تحتويها ، ومنها يستخلصون أو بالأحرى يركِّبون Synthesize نمط

الشخصية الأساسية ، ثم يتحققون من وجود هذا النمط في الحياة الفعلية . وهنا يجدي كثيراً أن يتعاون علماء النفس والأنثروبولوجيا والاجتماع في دراسات التنشئة والقيم . وذلك ماتحقق بالفعل ، كما نجد على سبيل المثال من تعاون عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا رالف لينتون Ralph Linton مع عالم النفس ابراهام كاردنر[١٠] Abraham Kardiner .

دور التنشئة الاجتماعية الأسرية في نقل الثقافة وبقائها :

يمكن تعريف الثقافة بأنها أساليب السلوك النمطية التي يتعلمها المرء من خلال عضويته في جماعة اجتماعية . وهذه الأساليب السلوكية عبارة عن نظم وأنساق تسهل على الفرد عمليات التكيف العديدة مع مواقف الحياة المختلفة[١١].

تلعب الأسرة دوراً بارزاً من أجل نقل الثقافة والإبقاء عليها ، عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية والثقافية . وتكمل الجماعات والمؤسسات الأخرى الرسمية وغير الرسمية وظيفة الأسرة في هذا الصدد . ولاشك أن الوظيفة الحقيقية للأسرة ذات طابع تربوي في المقام الأول بما تتضمنه من عمليات الترويض والتنشئة والصقل الاجتماعي لأفرادها . وتتمثل تلك الوظيفة في بناء وتكوين الشخصية الثقافية الاجتماعية للإنسان في إطار جماعة صغيرة ، تتميز علاوة على هذا بأن أفرادها تجمع بينهم مشاعر وأحاسيس شديدة الألفة والقوة . ويوضح لنا تراث الأنثروبولوجيا الثقافية بجلاء أن الإنسان لايستطيع أن يعيش بعد مولده أكثر من ساعات قليلة دون مساعدة الغير ، وذلك على خلاف أغلب الفقريات العليا التي تولد شبه « جاهزة » أو مستعدة للحياة معتمدة على نفسها دون مساعدة كبيرة من ذويها . ويقرر مالينوفسكي Malinowski بوضوح أنه « كلما ارتقى الحيوان في مدارج التطوُّر ، كلما زاد عجز الوليد الصغير وازدادت حاجته إلى رعاية وتدريب طويل من والديه »[١٢].

ويخضع البناء البيولوجي للإنسان إذن للظروف والاعتبارات الاجتماعية التي تصيغه وتكيفه . وهنا تبدأ الوظيفة الحقيقية لجماعة الأسرة ، والتي لم يكن هناك أي مؤسسة أو نظام آخر يستطيع أن يحققها ولا حتى بشكل جزئي ، خاصة في فجر الإنسانية .

ولهذا السبب ينتهي عالم الاجتماع الألماني الشهير « رينيه كونينج » René Köning إلى القول بأن الميلاد البيولوجي للفرد ليس هو الأمر الحاسم في وجود واستمراره ، وإنما العامل الحاسم هو

« الميلاد الثاني » أي تكونه كشخصية اجتماعية ثقافية ينتمي إلى مجتمع بعينه وتدين بثقافة بعينها . والأسرة بطبيعة الحال هي صاحبة الفضل في تحقيق هذا « الميلاد الثـاني »[١٣] The Second birth

وتتم عملية تكوين وإعداد الشخصية الإنسانية للحياة في المجتمع على مرحلتين أساسيتين هما :

(أ) مرحلـة التهيئـة أو تنسيق القوى والاستعـدادات البيـولـوجيـة والنفسيـة وغيرهـا ، بحيث يصبح الفرد مهيئاً لعملية التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي Socialization .

(ب) عملية التنشئة الاجتماعية ذاتها .

ومن العناصر الأساسية التي تقوم على تحقيقها مرحلة التهيئة للتنشئة الاجتماعيـة تنميـة القـدرات الأساسية - التي تكون في حالـة كمون أو قصور عنـد الولادة . وكـذلـك بـذر البـذور الأولى لثقـة الإنسان في نفسه وتكوين إيقاعات الحياة الأسـاسيـة التي يختلف شكلهـا اختلافـاً بعيـداً من ثقـافـة لأخرى (كالجــوع ، والعمــل ، والاسترخــاء ، والنــوم ، والعطش ، والأمن الجسمي والنفسي ... الخ) . وكذلك تـدريب الفرد على النظـافـة بمفهومهـا الواسع . وتعـد العمليـة الأخيرة من أصعب عمليات التهيئة لما تنطوي عليـه من تنظيم عمليـات إخراج البول والبراز . ويضطلع بـالـدور الأكبر - وربما الوحيد - في إنجاز مرحلة التهيئة هذه والإشراف عليها الأم . وقد قام عدد كبير من علماء الأنثروبولوجيا الثقافية منذ ثلاثينيات هـذا القرن ولاسيا في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ببحوث هـامـة حول هـذا المـوضـوع ، ومن أشهرهم في هـذا المجـال رالف لينتـون Ralph Linton وكـلايـد كـلاكهـون Clyde Kluckhohn وهنري مــوراي Henry Murray وديفيـد شنيــدر[١٤] David Schneider .

وتمثل المرحلة الثانية صلب عملية التنشئة الاجتماعية الحقيقية ، والتي تعدُّ إيـذانـاً بـدخول الفرد عالم العلاقات الاجتماعية المنظمة . وهنا يبدو بأقصى درجة من الوضوح مدى ضخامـة وتنوع تـأثير الأسرة على الفرد . وتلخص علياء شكري هذه العملية بقولها :

« إن أعماق طباع الفرد وشخصيته تتكوّن في نطاق الأسرة الضيق ، أي في مجال العلاقـات بين الطفل ووالديه واخوته وأقاربه المقربين الذين يشاركون الأسرة معيشتها داخل نفس البيت »[١٥].

وهكذا تتولّى الأسرة الطفل بالترويض على أن يكون كائناً اجتماعياً ومواطناً فاضلاً ، فتعلمه لغة الجماعة وعاداتها وعرفها وتقاليدها . وتكمل الجماعات الأخرى « حلقات اللعب ، الزمالة ، المدرسة ، الجمعيات والهيئات » وظيفة الأسرة في تنشئة الأفراد .

ويختلف الأفراد في مبلغ قابليتهم للاندماج في حياة الجماعة باختلاف التربية التي يتلقونها في الأسرة والجماعات التي تحيط بهم في نشأتهم الأولى . وهذا يفسّر لنا أن بعض الأطفال ينشأون اجتماعيين Social وبعضهم الآخر غير اجتماعيين Anti–Social .

وخلاصة القول أن الطفل يولد في أسرة تعطيه مكانته في المجتمع . ومنذ لحظة ميلاده ، وقبل أن يستطيع القيام بأية أفعال من جانبه ، يوجد في مجتمع ، وينتمي لطبقة معينة ، وينتسب لجماعة عرقية مسيطرة أو تابعة ، ويصبح عضواً في أسرة يحترمها جيرتها أو تحتقرها . وتؤثر أسرته ووضعه في هذه الجماعات العرقية على الخبرات التي سوف يكتسبها عندما ينضج . وسوف تحدّد أسرته ، إلى درجة واضحة جداً ، الفرص المتعلقة بالتنشئة الاجتماعية بالنسبة له . ومن ثم يتضح أن الأسرة جماعة هامة في حد ذاتها تمارس تأثيراتها المباشرة على الطفل[١٦].

وخلال مختلف أنواع التفاعل بين أعضاء الأسرة – ككون الطفل شخصاً يهتم به ، أو يتعلّم النظام ، أو يقبل كزميل أو رفيق في اللعب ... الخ ينمّي الطفل قدراته الأولى لإقامة علاقات مع الآخرين . وسوف تجد تلك القدرات فيما بعد تعبيرات وتطورات تالية في العلاقات الأسرية مع رفاق اللعب ، ومع العمال والموظفين ، ومع الشخصيات التي تملك السلطة ، ومع الأصدقاء ، وأخيراً مع ذريته وأبنائه .

والأسرة التي يولد فيها الطفل هي الجماعة المرجعية الأولى ، أي الجماعة الأولى التي يشير إلى قيمها ومعاييرها وطرق عملها عند تقييمه لسلوكه . ويتضمن ذلك أن الطفل يثبت شخصيته مع أسرته كجماعة لدرجة أن طرقها تصبح جزءاً من نفسه ، كما قرّر كل من تالكوت بارسونز Talcott Parsons وروبرت بيلز[١٧] Robert Beals . وهذه الطرق تنتج أساساً نتيجة التفاعل بين أعضاء الأسرة ، مما يؤكد أن أفراد الأسرة ليسوا هم الذين يكونون نماذج لسلوك الطفل ذاته . بل إن نمط التفاعل بين الأعضاء أنفسهم بعضهم البعض يصبح نموذجاً . ولا تتأثر التنشئة الاجتماعية للطفل بمجرّد أن له أبا جادًّا في عمله أو أباً يتعاطى المشروبات الكحولية ، أو أماً محبة أو غير عابثة ، أو أخوة أو أخوات كبار مستبدين أو متباعدين . وإنما تتأثر التنشئة الاجتماعية بصورة واضحة بما إذا

كان التفاعل في الأسرة يتميز بالهدوء والطبيعة الجيدة أو التوتر والمراهقة ، وعما إذا كانت تتسع أو تضيق المسافة بين الآباء والأطفال أو بين الذكور والإناث ، وبما إذا كانت طبيعة العلاقات والتفاعلات داخل الأسرة تتسم بالتعاون أو التنافس[١٨].

التنشئة الاجتماعية الأسرية وغرس القيم في نفس الفرد[١٩] :

يمكن تحليل هذه العملية الهامة إلى العناصر الثلاث الآتية :

(أ) طريقة إشباع العائلة لحاجات الطفل البيولوجية .

(ب) أثر المعاملة في الحياة الوجدانية للطفل .

(جـ) غرس القيم عن طريق الجزاءات (المثوبات والعقوبات) .

(أ) أثر التنشئة الاجتماعية العائلية وطريقة إشباع حاجات الطفل :

يقول أوجبرن و نيمكوف Ogburn & Nimkoff إن للحياة العائلية أثرها في تشكيل الشخصية الأساسية ، وذلك لأن مرحلة الطفولة الأولى ، يتحدَّد فيها الطابع العام لنوع الاتجاهات الوجدانية ، هل تجعل الشخص سعيداً أو شقياً ، متكيفاً أو سيِّىء التكيف ؟ وتتكون هذه الاتجاهات في السنوات الأولى التي تسمَّى بالفترة التكوينية Formative period . وقد تمت دراسة طرق التربية في شعوب مختلفة الثقافات ، وجرت أسس المقارنة وفقاً للعناصر التالية :

حظ الطفل من الرعاية أو الإهمال ، وما إذا كانت معاملة الأسرة للطفل تتسم بالرقة أو الشدة في الأمور التي لها صلة بنوع المولود (الجنس : ذكر - أنثى) Sex والإخراج Elimination والفطام وما إليها . ذلك أن طريقة معاملة المولود أو الطفل في هذه النواحي هي التي تحدِّد نوع الأنا الذي يتميز بها الطفل : أهو أنا قوي ؟ أم أنا ضعيف ؟ ومعنى هذا أن قوة الثقة بالنفس ، ودرجة الاتزان العاطفي ترتبط بمعاملة الأسرة ، وبما تبديه من حب أو من جفاف في المعاملة .

ويلاحظ أن طريقة إشباع الحاجات البيولوجية للطفل ، تعكس مقدار ونوع ما تضفيه الأسرة من رعاية . ويسهم هذا وذاك في استثارة ردود أفعال نفسية معينة في الطفل ، ينتج عنها نمط معين من الشخصية الأساسية . وعلى سبيل المثال فإن الأم التي تتلقف طفلها ، فتحتضنه ، وتلقمه حلمة ثديها ، وهي تداعبه لا ترضعه لبناً فحسب ، بل تسكب في شخصيته أمناً نفسياً ، وحباً لها ، وتعلقاً بالحياة ، وتبعد عنه شتى مظاهر القلق مثل عصبية المزاج أو حدَّة الطبع أو الخوف أو التوتر ... الخ .

(ب) أثر المعاملة في الحياة الوجدانية للطفل :

إن قيم المجتمع تـدخل إدخـالاً (بصيغـة المجهول) Introjected في نفس الإنسـان ، عن طريـق التنشئة الاجتماعية من خلال السلطة الوالدية (خاصة من جانب الأم في مرحلة الطفولـة المبكرة) سواءً كان ذلك بطرق مقصودة أو غير مقصودة . ولا شك في أن لحاجة الطفل إلى أمه ، ولخدماتها له ، وحنوها عليه ، وإعجابه بها وحبه لها ، دور في تقمصه لشخصيتها ، فهو يحول نفسه موضوعاً يصدر إليـه أوامر والـديـه . ومن مظـاهر ذلـك على سبيل المثـال - أن يمسـك الطفل بـدميتـه ، فيأمرها ألا تكشف عن ساقيها ، وأن تكون مؤدبة ، وأن تـأمر الصغيرة دميتهـا أن تنـام في الموعـد المحدَّد . وباختصار يمتص الطفل السلطة الوالدية ، لتتحوَّل هذه السلطة الممثلة للمجتمع إلى مانسمِّيه نحن بالضمير ، أو ما تطلق عليه مـدرسـة التحليل النفسي اسم الأنـا الأعلى Super-ego أو الـذات العليـا أو الرقيب Censorship . وبحسب أنـواع القيم التي يمتصهـا الطفـل ، والأدوار التي يراهـا ويحاكيها يكون نوع ضمير الطفل ، ونوع شخصيته والأهم من هذا : طريقة معاملـة الطفل وأخـذه بالقيم والقواعد السلوكية يكون لها أثرها البالغ في نمط شخصيته ، فحتى حين تكون القيمـة المطلوب غرسها واحدة بالنسبة لطفلين : مثل قيمة النظافة ، فـإن الاختلاف في أسلوب تربيـة الطفل تنجم عنه ردود أفعال مختلفة .

● إذا كان ذلك مصحوباً بإشعار الطفل بـالاشمئزاز منـه والتقزز ، فـإن هـذا قـد يولِّـد حـالـة نفسيـة كالفزع من القـاذورات Misophobia تجعل الشخص البـالغ ، يبـالغ في النظـافـة بـأسلوب مرضي Pathological فيغسل يده مثلاً بعد مصافحة الآخرين ... الخ .

● وإذا كان تعويد الطفل على النظافة يتم بأسلوب فيه تدرج وتلطف ، شب الطفل متزناً في سلوكه وفي تقديره للنظافة كقيمة .

● وإذا كان في المعاملة تذبـذب وعـدم ثبـات Inconsistency كان الطفل متردِّداً ، مضطرب الاهتمام بهـذه القيمـة ... الـخ . وبطبيعـة الحـال فـإن الأسرة ليست هي وحـدهـا التي تغرس القيم الاجتماعية ، بل تشاركها في ذلك كل الجماعات التي يدخل الفرد في عضويتها أو يكوِّن علاقات مع أفرادها مثل : جماعة اللعب ، جماعة العمل ، والجماعة الـدينيـة ، والمجتمع المحلي ككل . ولكن ممـا لا شك فيه أن دور الأسرة هام للغاية وبارز بصفة خاصة في مرحلـة الطفولـة المبكرة ، حيث يتـأثر بالجو العائلي وبـالمنـاخ الاجتماعي النفسي الـذي يضفيـه عليـه هـذا الجو العـائلي ، ولا سيا الجـانب الوجداني .

ومن المعروف أن الفرد يستجيب في خبراته بكل جوانب نفسه ، يستجيب فكرياً وسلوكياً ووجدانياً . ولكن أقوى جوانب التأثر فيه ، وأدومها آثاراً في حياته هي حياته الوجدانية . ومن ثم كانت القيم مصحوبة دائماً بشحنة انفعالية قوية ، حيث ترتبط القيم – ولو في تصوراتنا – بالعواطف العائلية وبالولاء للجماعة وبالدين ... الخ ولذلك فإن الشحنة الوجدانية التي ترافق غرس هذه القيم في نفس الفرد ، تكون من شدة الحرارة ، بحيث يصعب عليه أن يضع يديه عليها ، بقصد فحصها في هدوء يتسم بالعقلانية والمنطق .

ويتأثر الفرد في تكوين قيمه وشخصيته الأساسية بنوعين من الخبرات . ويقول في هذا الصدد ايموري بوجاردس Bogardus :

« إن الاتجاهات النفسية والقيم الاجتماعية تتكوّن نتيجة للخبرات الشخصية . والخبرة الشخصية هي مايحدث لإنسان في موقف ، مضافاً إلى ذلك مايستثيره الحادث في نفسه من استجابات ، ومن ردود أفعال . والشيء المهم في التجربة الشخصية هو المعنى الذي يسبغه الإنسان عليها ونوع رد الفعل ، أهو ودّي قائم على الحب ؟ أم سلبي عدائي ؟ وما هي التطورات التي حدثت في نفس الشخص وفكره وسلوكه نتيجة لرد الفعل الناتج عن الخبرة الشخصية »[٢٠].

وثمة نوعان من الخبرة يؤثران في القيم التي يمتصها أو يتعلمها الإنسان[٢١] :

(أ) الخبرة المباشرة Direct experience

وهي تجربة ذات طابع شخصي ، أو رد فعل على حادث يقع للشخص ذاته أو لشخص آخر على مرأى منه أو في حضوره . وتأتي الإنسان المعلومات في هذه الحالة عن طريق واحدة أو أكثر من حواسه . فإذا كانت الخبرة أو التجربة مصحوبة بانفعال شديد (كالفرح أو الحزن أو الغضب أو القهر أو الخوف) كان تأثيرها بالغاً فيا يتصل بعملية تكوين الاتجاهات النفسية والقيم الاجتماعية .

(ب) الخبرة المشتقة Derivative experience

وهي التجربة التي سمع الشخص أو قرأ عنها ، أو علم بها من آخر . ونظراً لأن مثل هذا النوع من التجارب يكون أبعد خطورة على الأقل من شعور من يمر رأساً بالتجربة ، فمن المحتمل ألا يتأثر بها الإنسان بنفس العمق والحرارة والانفعال التي يستشعرها نفس الشخص في حالة التجربة المباشرة .

وعلى أية حال ، فإن أخطر عامل في تطعيم الإنسان بالثقافة (بما فيها من قيم وقواعد سلوكية) يعتمد أول مايعتمد على التربية والتنشئة الاجتماعية سواء في نطاق الأسرة أو في غيرها ، والتي تعمل على تكييف الدوافع الفردية مع قيم المجتمع وقواعد السلوكية . وبحيث يمتص الإنسان في النهاية معايير ثقافته ، فيتصرف بعد ذلك وهو يعتقد أنه يسلك السلوك القويم إرضاءاً لضميره وخضوعاً لإرادته الذاتية ، أو بحسب تعبير اريك فروم Erick Fromm :

« إنه لكي تؤدّي أية ثقافة وظائفها بكفاءة عليها أن تحمل أفرادها أن يكتسبوا الخلق الذي يجعلهم يريدون أن يتصرفوا على النحو الذي يجب عليهم القيام به ، وعليهم أن يرغبوا أو يريدوا بطريقة ذاتية أن يتعلّموا ما هو مطلوب منهم أداؤه بطريقة موضوعية » .

ونحن نجد هذا الشرط أشد انطباقاً على البدائيين من المتمدينين أو المتحضرين . فإن الفرد البدائي ليقتل نفسه راضياً ، أو يعرّض حياته لأشد الأخطار دفاعاً عن جماعته أو معتقداته على نحو وبإخلاص لاتجدهما في كل المتدينين[٢٢] .

(ج) غرس القيم عن طريق الجزاءات الاجتماعية Social Sanctions

تشتمل الجزاءات الاجتماعية على كل من الإثابات والعقوبات ، أي الأحكام الموجبة Positive sanctions (الإثابات) ، والأحكام السالبة (العقوبات) Negative Sanctions . والجزاء بصفة عامة هو عبارة عن رد فعل المجتمع أو عدد من أفراده إزاء أي شكل من أشكال السلوك . وهذا الجزاء كما يرى رادكليف براون Radcliffe–Brown يكون موجباً إذا ماتم الامتثال للسلوك ، ويكون سالباً إذا ماتم الإعراض عنه[٢٣].

والجزاءات الاجتماعية التي تفرض في عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية ليست كلها ذات طابع عقابي ، بل تشتمل على العقوبات المادية والمعنوية ، كما تشتمل أيضاً على المكافآت أو الإثابات . والالتجاء إلى العقوبات المادية بغرض توقيع العقاب على منتهكي القيم هو أدنى المستويات . ولذلك يمكن الرجوع به إلى أصول سلوكية حيوانية ،[٢٤] بحيث أن هذه الطريقة هي التي تلجأ إليها الحيوانات الأدنى من الإنسان . وهكذا نجد مثلاً بين قردة البابون Baboons أن حاكم الحريم المزواج يهاجم أي ذكر آخر يحاول أن ينتزع منه إحدى إناثه .

أما الإنسان فعلى العكس ، يستخدم الجزاءات المادية بصورة أقل ، ويستخدم الجزاءات النفسية والاجتماعية بصورة أعظم كثيراً ، أي هي الغالبة السائدة . ويرجع الفارق بين الإنسان والحيوان في هذا الاختلاف ، إلى أن البشر هم الذين يتميزون بأنهم ينتجون الحضارة ويعيشون بها ولقيمها . بالإضافة إلى أن الإنسان أكثر قدرة على استخدام الرموز Symbols في مجال الاتصال الاجتماعي . وعادة فإن البشر يستخدمون الجزاءات الرمزية أولاً ، ثم لا يلجأون إلى الجزاءات الأخرى إلا إذا فشلت الأولى . وآية ذلك أن تقول الأم لابنها المشاكس محذرة : كن مهذباً وإلا ضربتك . أو إذا لم تكفّ عن سوء السلوك فسأحرمك مصروفك . وكثيراً ما تندمج أنواع الجزاءات الثلاثة (المادية أي البدنية ، والنفسية ، والاقتصادية) . والعقوبة المادية (الجسدية) مثلاً تنطوي في ذاتها على قدر غير قليل من الإذلال النفسي أو العقوبة النفسية ، كما يحدث بين الهنود الحمر (الهوبي) Hopi حين يأتي عم الطفل أو خاله ، فيحمل الصبي أو الطفل سيء السلوك ، ويطوف به في أنحاء القرية ، فيروح القرويون يرشون وجه الطفل بالماء لتقويم سلوكه[٢٥].

كما تعني الجزاءات الاجتماعية نمط الإثابة أو المكافأة ، لمن يتمشى مع القيم الاجتماعية . وتختلط في المكافأة : النواحي المعنوية ، مع النواحي الجسمية أو المادية . وفي كثير من الأحيان لا تعدُّ النواحي المادية شيئاً ذا بال إذا هي قورنت بالجوانب المعنوية . خذ على سبيل المثال إعرابك عن الرضا أو الإعجاب أو الحب بمصافحة شخص أو تقبيله أو احتضانه ... الخ . كل هذه حركات جسمية ، ولكنها حركات رمزية ، والمعنى النفسي والاجتماعي فيها هو الأكثر بروزاً وسيادة وأهمية .

هذا وقد دلت الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية أن المجتمعات البدائية تعرف وتمارس التنشئة الاجتماعية السلبية عن طريق الأساليب التربوية المعنوية ، بقصد حفز الصغار على الالتزام بالقيم العليا للجماعة . ومن ذلك مايفعله الهنود الحمر الكرو (أي الغراب) Crow حيث يولم الأب وليمة لابنه إذا قام هذا الأخير بعمل جدير برضا الجماعة وتقديرها . وفي أثناء هذا الحفل يتبارى الضيوف والمدعوون في امتداح الإبن ، وحث اخوانه على أن يحذوا حذوه[٢٦].

وثمة أسلوب معنوي آخر هو أسلوب التوبيخ والتكبيت للطفل إذا هو حاد عن جادة السلوك القويم . وفي أحيان أخرى يكون التأنيب غير موجَّه للشخص رأساً وجهاً لوجه ، بل عن طريقة (إياك أعني واسمعي ياجارة) ، وليست هذه الطريقة مجهولة حتى عند البدائيين . فإن بعض

جماعات الهنود الحمر - إذا ارتكب فيها شخص مايشين - التقت الجماعة كلها في الليل ، وراحوا يذكرون أشياء مرذولة أو مستقبحة ، أتاها شخص معيَّن ، دون أن يحدِّدوا اسمه ولكنه هو يكون شديد الإحساس بالذنب ، فيعلم أنه هو المقصود من بين إخوانه . وفي الأغلب يكون رفاق له ، وبعض أقاربه ، ومن يعرفون خفايا أموره ، هم الذين يقومون بعملية التنديد هذه ، فيهتفون مردّدين ما ارتكب من أمور معينة ، ويشفعون ذلك بالنكات اللاذعة . ويكون لهذا التأنيب العلني تأثيره العميق في نفس الخاطىء ، لأن الشخص يتربَّى في هذا المجتمع على رأي المحيطين به ، والحساسيَّة لكلمات الذم والمدح على السواء منذ طفولته المبكرة . وهكذا الشأن دائماً بالنسبة للمجتمعات الصغيرة عموماً . أي أن الشخص يعيش في جوٍّ تسوده علاقات مباشرة تتم وجهاً لوجه Face to face relations فيكون شديد الحساسية لرأي الناس فيه ، مهتماً باحترامه لنفسه ، حريصاً على احترام الناس له . وتصبح الوسائل المعنوية قهرية ومنها « القيل والقال ، والنبز بالكلمات والألقاب الكريهة لمن يرتكبون الأفعال المستنكرة » ومن شأن هذه الطرق أن تضعف من مكانة الشخص ومن مركزه الاجتماعي ، ومن إحساسه بالانتماء للجماعة . وفي جماعة أولية Primary group كجماعة الأسرة ، فإن هذه الوسائل المعنوية تكون فعالة في حمل الأفراد على التوافق مع معايير الجماعة والعمل وفقاً لقيمها الاجتماعية .

الأسرة والتنشئة الاجتماعية : تصوُّرٌ نظري عام .

سبق وأن نوهنا بالدور الوظيفي لعملية التنشئة الاجتماعية في مجال نقل الثقافة والمحافظة والإبقاء عليها ، كما أبرزنا أهمية التنشئة الاجتماعية الأسرية في مجال غرس القيم في نفس الطفل . ونتابع في هذه الفقرة الحديث بتركيز عن عملية نمو الشخصية لدى الطفل . ولاشك أن عملية نمو الشخصية هي عملية نفسية تضع الأسرة دعامتها في فترة الطفولة . ورغم أن فترة الطفولة هي المرحلة الأولى من مراحل تكوين الشخصية ، إلا أن عدداً لا يستهان به من علماء النفس والاجتماع قد عضّدوا أهمية مرحلة الطفولة المبكرة بالذات في تكوين ونمو الشخصية الإنسانية وفق خطوط متميزة . ورغم إيماننا بأن دراسة طور الطفولة لا يمكن أن نعتبره عملية تقتصر على الأسرة وحدها ، كما أنه لايمكن إرجاع السلوك الإنساني إلى طور الطفولة الأولى فحسب ، ذلك لأن توحُّدات الشخص مع القيم وأنماط السلوك عملية مستمرة ، وتبغي دائماً تحقيق تكيف الشخص مع المجتمع . ومن ثم فإن السلوك لن يستقر في طور معيَّن من أطوار الطفولة . كما أن من طبيعة عملية التنشئة

الاجتماعيــة ذاتهــا أنهــا عمليــة تراكميــة ، ومستمرة ، ومتغيرة من مكان إلى مكان ومن زمــان إلى زمـان ... الخ . ورغم إيمـان الكاتب بكل هـذه الحقـائق إلا أن دور الأسرة يبرز دائمـاً على السطـح كأول جماعة أولية تتلقف الطفل بالترويض والتهذيب والتثقيف .

وعلى هذا الأساس يرى جون كلوزين John Clausen أن عالم الطفولـة يبـدأ من الأسرة . ثم يتسع هذا العالم بعد ذلك ليضم عالم الرفـاق والزملاء في المـدرسـة . ويعمل الوالـدان عـادة لصـالح الطفل ، وهمـا يستجيبـان عـادة للمطـالب التي يفرضهـا المجتمع على الطفل النـامي من أجل إيجـاد الطابع الاجتماعي المرغوب حتى طور الرشد . وقد حدَّد كلوزين المسئوليـات الاجتماعيـة التي يتعيَّن على الوالدين أن يحققاها إذا ما أرادا لابنهما الطفل أن يعيش مقبولاً من والديه ومن الآخرين على النحو التالي[٢٧]:

(١) توفير العون والتربية للطفل .
(٢) توجيه وإعلاء الحاجات الفيزيولوجية مثل الحاجة إلى الطعـام والحـاجـة إلى الإخراج ليحقق التكيف مع الوالدين ولمواجهة المعايير الثقافية .
(٣) تعليم الطفل وتدريبه على المهـارات وإتـاحـة الفرصـة لممارسـة المهـارات الحركيـة والقـدرات العقليـة والمهـارات الاجتماعيـة ، بمـا يكفـل لـه الحمـايـة وتعـزيـز الأمـان ، وتنميـة القـدرات والإمكانيات على أداء السلوك المستقل .
(٤) توجيه الطفل إلى عـالم الرفـاق توجيهـاً مبـاشراً ، وإلى المجتمع المحلِّي والمجتمع الأكبر من خلال مجموعة من المواقف الاجتماعية .
(٥) نقل مجموعة من الأهداف الثقافية والقيم ودفع الطفل نحو الأهداف الوالدية والاجتماعية .
(٦) إبراز وصقل المهارات الشخصية والاهتمام بمشاعر الآخرين والاستجابة لها .
(٧) ضبط مجال سلوك الأطفال وتحديد الأخطاء وتصويبها ، وتقديم النصح والتفسيرات لهم .

وتحدِّد معايير كل مجتمع أغلب هـذه المسئوليـات والمهـام ، فـالمجتمع عـادة يحـدِّد كيف ومتى يقوم الوالدان بهذه المهام ؟ ومن منهما يؤدِّيها ؟ فمثلاً على الأم أن ترضع صغيرها وتغذِّيه ، وعلى الوالدين معاً أن يستثمرا الوقت والجهد لمراعاة أولادهما ، ويتأكدا من أنهم يتعلمون مهارات خاصـة مقبولـة ، ويتحاشون أداء أنماط معينة من السلوك الخاطىء والمرفوض في سن معينة[٢٨].

ويقسّم تالكوت بارسونز أطوار التنشئة الاجتماعية إلى أربعة أطوار ، ويربط كل طور منها بأنساق اجتماعية معينة . ويهمنا بصفة خاصة الطور الأول من هذه الأطوار ، أي ذلك الطور الذي يتم داخل الأسرة ذاتها . أما الطور الثاني فيتم أثناء مراحل الدراسة المتعدّدة ، بينما يبدأ الطور الثالث من الخروج من دور التعليم إلى العمل ، ويبدأ الطور الرابع بتكوين الفرد أسرة جديدة . والطور الرابع يتداخل مع الطور الثالث وقد يسبقه عند بعض الأفراد . والمهم أن كافة الأطوار تتأثر بتجارب الفرد الأسرية المبكرة .

أما بالنسبة للطور الأول من أطوار التنشئة الاجتماعية ، وهو الطور الذي يتم داخل الأسرة وحتى دخول الطفل المدرسة ، فإن بارسونز يقسّمه إلى أربعة أزمنة على النحو التالي(٢٩):

(الزمن الأول) : يعيش الطفل في هذا الزمن في جنة عدن ، ولا تمارس عليه أية ضغوط اجتماعية ، ويعيش في مرحلة كمون في بداية هذا الزمن . وتتحمل الأم فور ميلاد الطفل مسئولية رعايته وتنشئته ، وتمنحه الأم والأسرة كل الرعاية والحنان ، ولا تتوقع منه أية مشاركة إيجابية على الإطلاق . وتحاول الأم جاهدة أن تحافظ على التوازن بين الأدوار الأسرية وحبها لطفلها . كما يبدأ أنا الطفل في هذه الفترة في التكامل مع الأم من أجل استمرار حصوله على اللذة . ويتميز سلوك الطفل أثناء تفاعله مع الأم المتوحّد معها حينئذ ، بأنه سلوك ازدواجي يتقبل الرعاية من الآخرين الذين يعتمد عليهم ويحبونه ، ويستطيع في الوقت نفسه أن يمنحهم الحب .

(الزمن الثاني) : تبدأ في هذا الزمن رياح التغيير ، وينتزع الطفل من جنة عدن التي كان يعيش فيها ، فقد بدأ ينضج فسيولوجياً واجتماعياً ، وبدأ أعضاء الأسرة يشعرون بأنه صار قادراً على أداء مستويات من الفعل أرقى من أدائه في الزمن الأول . كما تبدأ شخصية الطفل في النضوج ويتعلّم بعض المهارات الجديدة ويكتسب بعض الكلمات التي تسهل له عملية الاتصال بأعضاء الأسرة . وتبدأ الأم في هذا الزمن في تحقيق مطالب الأسرة بالسيطرة على سلوك الطفل . وتتحمّل الأم مسئولية التنشئة في هذا الزمن ، وتنوب عن الأسرة في تقويم سلوك الطفل القطري ، وإعلاء سلوكه الغريزي إلى سلوك اجتماعي . ويشعر الطفل بأن سلوك أمه اتجاهه بدأ يتغير ، ولكن حجب الأم بعض حبها عن الطفل في هذا الزمن لا يتبعه أن يتحمل مسئولياته كاملة عن أفعاله ، إذ تتوقع الأم أن يؤدّي الطفل أشكالاً من السلوك المنحرف والمستهجن احتجاجاً على فقدانه حب الأم . وتسمح الأم للطفل في هذا الزمن بأداء أنواع من السلوك ، وتبدأ من هنا مرحلة مايسميه

بارسونز طور السماح Permissive في التنشئة الاجتماعية . وتستمر شخصية الطفل في هذا الزمن في التكامل مع الأم ، وتنمو بعض العناصر العقلية عنده .

(الزمن الثالث) : وهو مرحلة تحصيل الأهداف عند الأسرة . ويحمل دور الأم في هذا الزمن الكثير من المعاني التعبيرية والمساعدة للطفل ، ولم يعد دورها دوراً نفعياً كما كان الحال في الزمن الأول . وتبدأ قدرة الطفل على تعميم الحب إلى ماوراء الأم والمشاركة في نسق الأسرة . وهذا يعني أن الأسرة قد نجحت في تحقيق هدفها من التنشئة الاجتماعية . ويبدأ الطفل في إدراك معنى عضويته للأسرة ، ومعرفة أن الأب والأم يمثلان موضوعاً واحداً عنده ، لاتفاق مواقفهما نحوه . وتبدأ مرحلة توحد الطفل مع أفراد الأسرة وقيمها . وتشجع الأم الطفل على أداء سلوك يتسم بمزيد من الاستقلالية والإيجابية . وتتخلّى الأم في هذا الزمن عن مسئولياتها للأب ، ويتم قبول الطفل كعضو مشارك في الأسرة . ويمنع حب الأم للطفل كل مايهدّد من تفكك الشخصية أو يهدّد الأنا ، ويعطيه هذا الحب الراحة والطمأنينة ، ويساعد هذا على نمو الأنا نمواً طبيعياً . فالأنا في تلك الفترة يعيش في مرحلة من الاضطرابات ، بعد أن فقد الاستقرار القديم في الزمان الأول الذي كانت تشبع فيه اشباعاته الأولى الفطرية . إذ تلاحق الطفل الآن مجموعة من الأوامر والنواهي التي تقيد حركاته وتضبط سلوكه ، التي يعجز عن فهمها رغم إدراكه لها . ويساعد مايحصله الطفل من خبرات ومهارات في هذا الزمن على اتاحة الفرصة للطفل على اكتساب مراكز جديدة في الأسرة .

(الزمن الرابع) : يبدأ الزمن الأخير في تنشئة الطفل في محيط الأسرة بالتوحّد مع الأب كموضوع جديد . ويبدأ دور الأم في التغيير ويصبح دوراً والدياً . ويبدأ تكوين العنصر الجديد في بناء الشخصية ، أي نشوء الضمير ، وتدعيم نسق الجزاءات ، ويصبح الأب والأخوة موضوعاً هاماً عند الطفل يتبادل معهم العلاقات . وفي هذا الزمن تعترف الأسرة بالعضو الجديد اعترافاً كاملاً ، ويقبل هو هذه العضوية لتحقيق إشباعات جديدة غير التي تعوّد عليها . ويبدأ دور الأب في البروز والتأثير على الطفل . ويؤدي الأب في هذا الزمن دوراً هاماً كموضوع للإشباع العاطفي ، كما تصبح الأم أكثر إيجابية نحو الطفل ، وأقل مساعدة له . وتؤيد الأسرة الأم في تحولها عن الطفل إلى وظيفتها الجديدة كإنسان قادر على الثواب والعقاب . ويدرك الطفل عقلياً معنى دور الأب والأم في الأسرة . ويدرك أن الأب والأم يكونان « نُسَيْقاً » يختلف عن نسيق الأم والطفل في الزمن الأول والثاني . ويفهم الطفل الفروق بين أفراد الأسرة على أساس الجنس والسن . وتبدأ مرحلة توافق الطفل مع أعضاء الأسرة ، وتكامل العلاقات الأسرية .

ونلاحظ أثناء عملية التنشئة الاجتماعية في الأزمنة المتتالية ، أن الإخوة والأب والرفاق يبـدون للطفل مُثُلاً ونماذج تجسّم شخصياتها وأفعالها القيم التي يتوحّد بها . ويصاحب أطوار عملية التنشئة الاجتماعية تغيرات بنـائيـة لنسق أدوار الطفل وأدوار الأسرة . وفي كل طـور تـزداد الأدوار التي يعرفها الطفل ، كما تحدث تغيرات في الأنساق التي ينتمي إليها . ولعلّ من أهم أهداف عملية التنشئة الاجتماعية تكوين القيم لتحقيق توقعات الأدوار . فعملية التنشئة الاجتماعية تهدف إلى إعداد الفرد لأداء الأدوار المختلفة التي سيواجهها يوماً ما . فمن أهدافها إعداد الطفل لأداء دور الإبن والأخ والزميل والأب ، وإعداده لأداء دوره المهني . أي من وظيفة التنشئة الاجتماعية تعليم الطفل أشكال السلوك المرتبطة مع أداء الدور . فالفرد ينشأ داخل الأسرة على مجموعة من الحقوق والواجبات تعرف بعلاقات الأدوار . ويعي الفرد هذه الأدوار بعد فترة طويلة من التنشئة الاجتماعية . وهذا الوعي عملية يدرك بها الطفل أن الآخرين يتوقعون منه أن يسلك سلوكاً معيناً في موقف معيَّن حتى لا ينال عقاباً . ويتعلّم أيضاً أن هذا السلوك المتوقع هو السلوك المقبول لمجتمعه . ويرى بارسونز أن عملية التنشئة الاجتماعية لا تعد أفراداً لأداء الأدوار على الوجه الأكمل ، بل تمنحهم التوجيهات العامة والتوقعات التي تساعد على إضافة مايراه الأفراد مناسباً بتأثير التعلُّم لتحقيق التوافق الاجتماعي .

الطفل القطري : بعض الجوانب الأساسية في عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية .

حاولت الفقرات السابقة أن تقدّم إطاراً نظرياً متكاملاً لدراسة عملية التنشئة الإجتماعية الأسرية وأطوارها المختلفة . ودور الأسرة في عملية التنشئة الاجتماعية إجمالاً دور لا يمكن إنكاره ، لأنها المسئولة تماماً عن عملية التنشئة في مرحلة الطفولة ، بل أكثر من ذلك فإنها مسئولة مسئولية شرعية ، كما يرى عدد من علماء النفس والاجتماع ، عن تكوين الطابع القومي للشخصية(٣٠).

وبناءً عليه ، سنختبر في هذه الفقرة ذات الطابع التطبيقي أو الامبيريقي بعض الجوانب الأساسية في عملية التنشئة الاجتماعية العائلية للطفل القطري ، مستمدين من الفقرات السابقة التي قدّمت إطاراً نظرياً وافياً نقطة الانطلاق والبداية على أساس علمي سليم . ولن يمكن في الصفحات القليلة المتبقية من هذا المقال أن نذكر كل شيء . لذلك وجب التركيز على بعض الجوانب الأساسية من عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية تعكسها عدة من الشواهد الإمبيريقية أو الواقعية ، المستمدة أساساً من دراسة انثروبولوجية مكثفة عن دورة حياة الفرد قام بها الكاتب في قطر خلال عام ١٩٨٠/١٩٨١(٣١).

وسيتم عرض هـذه الشواهـد والحقـائق متبعين منهج التسجيـل الـوصفي الإثنـوجرافي ، ومنهـج الاستدلال والاستنتاج الثقافي .

● إنجـاب الأطفــال :

يحظى انجاب الأطفـال في المجتمع القطري عمومـاً بقيمـة اجتماعيـة عـاليـة . لـذلـك يعـدُّ انجـاب الأطفـال أهم حـدث في حيـاة الزوجين . ولا يخفى مـا لإنجـاب الأطفـال من أهميـة في استمرار اسم الرجل وأسرته ، حيث يحمل الأطفال اسمـه ، بـالإضـافـة إلى حفـظ ممتلكاتـه لاسيما إذا كان غنيـاً ، وبذلك لايحصل الغرباء على ماله وممتلكاته . وبعد وفاة الزوج لا يوجد رابط يربط الزوجة بـأسرة الزوج ممـا يجعلهـا تعود لأهلهـا . ولعلَّ هـذا هو السبب في تفضيل زواج أبنـاء العمومـة ، وهو مـا اصطلح الأنثروبولوجيون على تسميته باسم « الزواج التفضيلي » Preferential marriage .

وإذا ظلت المرأة دون إنجـاب لمـدة خمس سنوات تبـدأ أسرة الـزوج في القلـق على ابنهـا ، ويطلبون منه الزواج بغيرها لأنهـا عـاقر لا تنجب أطفـالاً . وفي الغـالب لا يطلق الرجل زوجتـه بسبب عدم الانجاب ، بل يتزوج عليها دون أن يطلقها بعد استنفـاذ الأسـاليب المختلفـة لعلاج عقم الزوجة والذي يتجه في معظمه إلى الوصفات الشعبية أو السحرية في المناطق القبلية . بل إن هـذه الوصفات الشعبية أو السحرية موجودة ومعروفة أيضاً في المدينة (مدينة الدوحة) ولكن كمحاولـة أخيرة بعد فشل الإجراءات الطبيـة في علاج العقم عنـد المرأة . ومن أهم الوصفـات الشعبيـة تنـاول الخروع « والعشرج » وهي شربة سهلة للجهاز الهضمي ، وكذلـك الـذهـاب للمشـايخ وقراءة القرآن وعمل الأحجبة ، أو الاغتسال بماء غسل الميت ، أو نذر النذور .

ولا توجـد وسيلـة أكيـدة لمعرفـة سبب العقم سوى أن يقوم الرجـل بـالـزواج من امرأة أخرى « حتى يشوف العوار منـه ولا منهـا » أي حتى يعرف هـل العيب من زوجتـه أو منـه شخصيـاً أي الزوج . وإذا تمَّ التأكـد من أن الزوج هو السبب في عـدم الإنجـاب ، فـإنـه يصبح في نظر النـاس خاوي الظهر « مافيه رجا لعيال » نظراً لمرضه . أما إذا كانت المرأة لاتنجب ، وانتظر الزوج مـدة طويلة ولم يتزوج نظراً لحبه لها مثلاً ، فإن الناس يعتقـدون أن الزوج « مـافيـه عيـال ، ولو فيـه عيـال لتزوج » . ومن الصعوبـة بمكان حتى الآن أن يـذهب الـزوج بنفسـه للطبيب أو للمستشفى لمعرفة هل هو سبب العقم أم لا ؟ فالرجل مازال يستكثر كثيراً أن يقوم بمثل هذا العمل حتى الآن إلا إذا استدعاه الطبيب مع زوجته .

ويحذر الناس حذراً شديداً من أن تقوم المرأة العاقر بزيارة امرأة أخرى قد وضعت حديثاً ، ثم تذهب في نفس الوقت لتهنئة عروس ، لأن نتيجة مثل هذا التصرف أن « تنكبس » العروس ولا تحمل . وعموماً فإن المرأة في معظم الأحوال هي سبب العقم .

ويتعلق بالحمل عموماً ظاهرة الوحم التي تحدث في الشهور الأولى من الحمل وخصوصاً ابتداء من الشهر الثاني . ويطلق على الوحم مصطلح (نساه) ويقولون عن المرأة الحبلى التي تتوحَّم « فيها نساه » . ويعتقد الأهالي أن من تميل لأكل الأطعمة (الحامضة) ستنجب ذكراً ، أما من تميل إلى أكل الأطعمة المالحة ستنجب بنتاً . كما قد تتوحَّم المرأة وتميل إلى أكل أشياء غريبة مثل أكل الفحم الأسود أو الطين الأحمر . وتأكل المرأة مثل هذا الأشياء الغريبة التي تميل إليها عن طريق الوحم خوفاً من ظهوره على جسم وليدها إذا لم تأكله . كما أن بعض النساء يملن في أثناء الوحم إلى كراهية معاشرة أزواجهن لهن[٣٢].

● ميلاد الطفل وأهمية الوليد الذكر :

هناك تمييز واضح بين الذكور والإناث في المجتمع القطري بصفة عامة ، حيث يفضل دائماً إنجاب الأولاد الذكور . وهي سمة واضحة في كافة المجتمعات القبلية بصفة خاصة . وعلى العموم فإن الطفل الذكر في المجتمعات العربية أكثر تفضيلاً من الطفل الأنثى[٣٣]. وقد عرضت الدراسات الفلكلورية القليلة المنشورة عن المجتمعات العربية لهذه الملاحظة بكل جلاء ودون أي لبس[٣٤]. ويعرف المعتقد الشعبي في المجتمع العربي عموماً كثيراً من التفاصيل التي تجب مراعاتها والممارسات التي يجب اتباعها لإنجاب طفل ذكر[٣٥]. وأهم خبر يترقبه أفراد الأسرة بمجرَّد أن تضع الوالدة طفلها هو معرفة جنس المولود من حيث كونه ذكراً أو أنثى ، رغم إيمان القطريين عموماً بأن الذرية هي من عند الله ، وكل شيء بأمره .

إلا أن طبيعة الحياة البدوية هي التي جعلت السلطة للرجل ، كما أن طبيعة حياة البحر جعلت الأهمية للذكور . وبالتالي فإن الناحية الاقتصادية هي التي حدَّدت مركز الذكور . وقد جرت العادة على أن المولود الأول يولد في بيت أهل والدته ، وعلى المرأة أن تذهب إلى بيت أهلها قبل الولادة بمدة ، أو عندما تشعر بالطلق أي المخاض . وأثناء هذه الفترة يكون أهل الزوج قد جهزوا كل مستلزمات الولادة من غذاء أو قماش . وتبقى المرأة الولود في بيت أهلها فترة النفاس

وهي أربعين يوماً ، ولها أن تبقى أكثر من هـذا إذا اقتضت الظروف ذلـك حتى تستريح جسمانياً ونفسياً .

وأثناء المخاض أي بـداية الولادة تستـدعي القـابلـة (الولاّدة المختصـة) إلى بيت أهل المرأة التي ستضع ، وذلك لكي تشرف على عملية الولادة بحكم خبرتها الطويلة في هذا المجال . وفي هـذه الأثنـاء يدق عمود في الغرفة التي ستلد فيها المرأة ، ولا يقل ارتفاع هذا العمود عن مترين تقريباً ، وذلـك لكي تمسك به المرأة التي ستلد ، وفي نفس الوقت تقوم امرأتان بمساعدة الولاّدة ، وتمسكان بـالمرأة من كتفيها لمساعدتها أثناء عملية الوضع . وتقوم القابلـة بعمليـة الوضع ، وتقطع الحبل السرّي للمولود ، ويفرح الجميع بـالمولود وخـاصّـة إذا كان ذكراً لأنـه سيحمل اسم والـده ، ويكون (عزوة) لأسرتـه وقبيلته وعوناً لهم في المستقبل . وعندما يكون المولود ذكراً يذهب (المبشّر) وغالبـاً القـابلـة لأنهـا أول شخص تعرف جنس المولود إلى والـد الطفل لتخبره بـأنـه قـد رزق مولوداً ذكراً ، فيقوم والـد الطفل بتقديم هـديـة تسمّى (البشـارة) إلى أول شخص أخبره بهـذا النبـأ السعيـد . ويختلف حجم الهدية وقيمتها حسب استطاعة الوالد .

وتقتصر البشارة على الوليد الذكر دون الأنثى ، فعنـدمـا يرزق الأب ببنت تكون الفرحـة أقل بكثير ممـا لو رزق ذكراً . ويرجع ذلـك بطبيعـة الحـال إلى أن البنت أقل شـأنـاً من الولـد الـذكر وذلك نظراً للدور المتدنّي الذي تحتله سواءً من الناحية الاقتصاديـة والاجتماعيـة . وتسـاعـد عمليـة التنشئة الاجتماعية الأسرية على تأصيل هذا الـدور المتـدنّي للفتـاة . ودائمـاً تنـادي المرأة بـاسم أكبر أولادهـا الـذكور سنّـاً . وإذا كان أول أولاد المرأة ذكراً تقـام لـه عرضـة أو رزيف ، وهو احتفـال غنائي يقام بهذه المناسبة وتطلق فيـه الأعيرة النـاريـة . ويستخـدم تعبير « صبيّ » بتشـديـد اليـاء للدلالة على الذكر ، و « بنيّة » بتشـديـد اليـاء للـدلالـة على الأنثى . ويؤثر نوع المولود على مركز الأم ، حيث أنه يفضل إنجاب الذكور كما سبق وأن نوهنا ، فنرى أنه إذا رزق الرجل بصبي وعندما يبشَّر بذلك يقال له « بشارة بالطارش » أي أن الولد سيقوم بجميع ما يوكل إليـه الأب من أعمـال أو شئون . فالطارش تعني المبعوث .

وتجـدر الإشـارة إلى أنــه في السنـوات الأخيرة تتم كثير من عمليـات الـوضـع في المستشفيـات وخصوصاً مستشفى النساء بمدينـة الـدوحـة ، حيث تنقل إليـه الحوامل اللاتي على وشـك الوضع ، وإن كان بعض الأهالي مازال يفضل أن يتم الوضع بالمنزل .

ومن العادات الإسلامية المرعية عندهم الآذان في أذن المولود من قبل والده حينما يراه للوهلة الأولى بعد الولادة ، فيقف بجانبه واضعاً فمه على أذنه اليمنى ليؤذن بها آذاناً كاملاً ، ومن ثم يقيم الصلاة في الأذن اليسرى حتى يشب الطفل مسلماً حنفياً ، ويكون قد سمع أول ماسمع اسم الله ، وذلك ليقوي الوازع الديني في الطفل وينشأ متمسكاً بأهداب الدين والصوم والصلاة . وهكذا تحرص عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية على أن يشب الطفل متديناً . وتعكس الكلمات المتداولة في مجال الحياة اليومية هذه السمة « سمة التدين » كإحدى أبعاد الشخصية القطرية[٣٦]. فاسم الله (سبحانه وتعالى) يتردّد دائماً في مجال التعامل اليومي ، مثل حياك الله ، الله يسلمك ، الله يبارك فيك ، الله يطوّل في عمرك ، والله ماقصَّرت ، الله يزيد إيمانك ، حسبي الله عليك ، في أمان الله ، الله يرحم والديك ، الله هداك ، والله ماتستاهل ... الخ .

كما يفضل من الأسماء أسماء الله الحسنى ، والرسول ﷺ . ثم يأتي في نفس الدرجة الأعزاء من الأقرباء المتوفين وخاصة الجد الأول . وأكثر الأسماء شيوعاً في المنطقة هي : محمد ، عبد الله ، عبد الرحمن ، خليفة ، حمد ، خالد ، سعد ، إبراهيم ، يوسف ، ناصر .

أما بالنسبة للإناث فأكثر الأسماء شيوعاً : مريم ، لولوه ، فاطمة ، عائشة ، نوره ، حصة ، شيخة ، لطيفة ، موزة . كما أنه يطلق على الأسماء المختلفة كلمات خاصة بالمنطقة فنجد أن خليفة يكنى بأبو دعيج ، وعبد الرحمن يكنى بو راشد ، ومحمد ابو جاسم ، ويوسف ابو يعقوب ، وعبد العزيز بو سعيد .

وتستطيع الواضعة الجديدة أن تغادر مخدعها في أي وقت تشاء ، إلا أنها لا تخرج من البيت إلا بعد « الأربعين » أي تجلس في البيت مُدَّة أربعين يوماً هي « فترة النفاس » . وبعد أسبوع من الولادة تذبح الذبائح وتوزع على الجيران والأقارب والأهل وتسمَّى « التميمة » ويقدَّر عددها على حسب نوع المولود . وتزداد كلما كان المولود ذكراً . وهكذا تبرز نظرة الأسرة من خلال عملية التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية فوارق الجنس منذ خروج الطفل بعد الولادة إلى الحياة بصورة واضحة وقاطعة . وهذا يرجع إلى مايتمتع به الذكر من مكانة عالية عموماً كما سبق وأن أوضحنا ، بل إن مكانة الأم تزداد كلما أنجبت ذكوراً . بالإضافة إلى بعض القيم البدوية التقليدية المتوارثة الخاصة بمفهوم الشرف والمحافظة على البنت إجمالاً . وهكذا ينمو الشعور لدى الطفل الذكر بأنه أعلى من الطفل الأنثى نتيجة لانتمائه لجنس معيَّن ، ويتولَّد عند الطفل الذكر الاعتزاز

بذكورته منذ الصغر ، ويتولّد عند الأنثى الشعور بالنقص منذ إدراكها المبكر لنوع جنسها ، مما يجعلها تتمنى أن تتغير الأوضاع والأدوار ويحل كل منهما محلّ الآخر ، ولكن هيهات ! فالمجتمع القطري مثل غيره من المجتمعات العربية والإسلامية بصفة عامة مجتمع أبوي يعطي للرجل دائماً مكانة أعلى من المرأة .

وعلى الرغم من انتشار التعليم واعتباره مطلباً عاماً في الوقت الحاضر على الأقل ، فلا تزال هناك نسبة كبيرة من الأهالي ترى أن الوضع الطبيعي للمرأة هو الزواج وحياة البيت . وعلى الرغم من مكانة المرأة القطرية الثانوية في المجتمع ، من حيث مساهمتها في قوة العمل حتى الآن ، إلا أنها ولاشك تقوم بالدور الرئيسي في مجال الأسرة والتطبيع الاجتماعي للطفل نظراً لارتباطها بالبيت وارتباط الأطفال بها بالضرورة على الأقل حتى سن معينة (أي الزمن الأول والثاني على الأقل على النحو الذي حدَّده بارسونز)[٣٧].

هذه العناصر السابقة مجتمعة ، يمكن اعتبارها مسئولة مسئولية مباشرة عن كثير من الملامح الإيجابية والسلبية في شخصية الإنسان القطري ، فضلاً عن أنها تحدِّد الكثير من مظاهر سلوكه . وهو موضوع سنعرض له بالتفصيل في بحث مستقل . ولكن يمكن الإشارة إجمالاً إلى بعض الجوانب الإيجابية والسلبية الناجمة عنها . فمن النواحي الإيجابية الناجمة عنها الإعلاء من قيم الرجولة في تنشئة الأطفال الذكور وبخاصة في المناطق الصحراوية أو القبلية ، والعمل على غرس هذه القيم فيهم ، حيث ينشأ الطفل الذكر منذ الصغر على تحمل المشاق والمسئوليات والاضطلاع بكثير من الالتزامات والواجبات إزاء بقية أعضاء العائلة خاصة من يصغرونه سناً من ناحية وإزاء الجنس الآخر (النساء) من الناحية الأخرى . وكذلك شعور الفتاة بالانتماء إلى عائلة أبيها وعدم الانسلاخ عنها تماماً حتى بعد الزواج ، وأن أعضاء تلك العائلة خليقون بأن يمدوا إليها يد العون والمساعدة بل والحماية طيلة حياتها . وهذا يعطي المرأة إحساساً عميقاً بالأمن والاطمئنان لا نجده عند المرأة الغربية التي لا تشعر بالانتماء إلى عائلة أبيها ، والتي لا تقيم لروابط القرابة الأبوية كل هذه الأهمية . هذا إلى تنشئة الفتاة منذ طفولتها المبكرة على أنها ستكون زوجة وأماً وربة بيت ، واعتبار الأم العامل الأساسي في استمرار الحياة العائلية .

أما النواحي السلبية التي تنجم عن تلك العناصر فمنها المغالاة في الإعلاء من مكانة الرجل الاجتماعية ، والتسلط والاستبداد برأيه في كثير من الأحيان خصوصاً في الجماعات القبلية المحلية ،

حيث تكاد كلمة الرجل تكون هي القانون بالنسبة للمرأة داخل العائلة وبالنسبة لمن يصغرونه في السن ، وعدم مشاركة النساء في تحمل نصيبهن من الالتزامات والواجبات ، والتفرقة الواضحة في المعاملة بين الذكور والإناث منذ الولادة ، وإحساس الفتاة بالضياع إذا تقدمت بها السن دون أن تتزوج . وهذا معناه أن الزواج يعتبر مطلباً أساسياً تعطيه الفتاة أولوية مطلقة على أيّ مطلب آخر بما فيه العمل . ويترتب على ذلك أن تعطي المرأة المتزوجة العاملة أولوية لحياتها الأسرية على حساب العمل ودرجة اتقانه والدقة فيه والالتزام بمتطلباته . أضف إلى ذلك تصور الرجل نفسه مسئولاً عن حياة المرأة وأمنها والمحافظة على أخلاقياتها وشرفها باعتبارها (عورة) ، وعجز المرأة في كثير من الأحيان عن التوفيق بين دوريها كزوجة وأم وربة بيت من ناحية ، وعضو في المجتمع القومي بكل مايتطلبه ذلك من واجبات ومسئوليات من ناحية أخرى .

● **الرضاعة والفطام والتدريب على النظافة الشخصية :**

تعدُّ الرضاعة بالنسبة للطفل تعويضاً له عن الراحة التي كان ينعم بها أثناء وجوده في بيئة الرحم الهادئة . والرضاعة ولو أنها وسيلة لإشباع حاجات فسيولوجية ، فهي تفاعل اجتماعي بين الرضيع وأمه . وهي تعدُّ لذلك أساس تكوين الروابط العاطفية بين الطفل وأمه من ناحية ، كما أنها وسيلة لاكتساب الطفل القيم والعادات والمعتقدات والمعايير السائدة في المجتمع والتي تمثلها الأم .

وبصفة عامة تحرص الأم القطرية على إرضاع طفلها من ثديها مباشرة ، أي عن طريق الرضاعة الطبيعية . وقد أثبتت الأبحاث والدراسات العديدة أن لبن الأم هو أفضل طعام للطفل الرضيع ، من حيث التعقيم ودرجة الحرارة المناسبة ونسبة الأملاح ، بالإضافة إلى احتوائه على كثير من الأجسام المضادّة للأمراض المختلفة . ولذلك فهو سهل الهضم على معدة الطفل . ولكن في حالة الرضاعة الطبيعية يتعذر على الأم – في بعض الأحيان – الاستمرار في إرضاع الطفل الوجبات الكاملة ، ويكون السبب إما عدم كفاية اللبن لدى الأم أو لخروج الأم إلى العمل وغيابها لفترات طويلة بعيدة عن الصغير (وهذا تطوُّر حديث نتيجة لخروج المرأة القطرية للعمل في السنوات الأخيرة) مما يصعب معه الاستمرار في الرضاعة الكاملة لمدة طويلة .

وقد كان غذاء الطفل دائماً في الماضي هو الحليب (اللبن) من ثدي أمه . وإذا مانضب ثدي الأم لأي سبب من الأسباب ، لجأت إلى النسوة من قريباتها أو نساء الجيران ممن يستطعن مساعدتها ، وذلك لإرضاع طفلها من ثديهن ، لأنه لم يكن في الماضي يوجد أو يتوفر طرق

الرضاعة الصناعية عن طريق الحليب المجفف أو السائل ، وإنما كان غذاء الطفل الأساسي هو حليب الأم أو إرضاعه من ثدي امرأة أخرى . أما الآن فقد انتشرت الرضاعة الصناعية ولاسيا في مدينة الدوحة حيث تخرج المرأة للعمل ، وقد تضطر الأم إلى فطام الطفل قبل الأوان ، أو اعطائه أطعمة أخرى مساعدة قد تكون صعبة الهضم على معدته الرقيقة ، مما يؤدي إلى متاعب صحية ونفسية للطفل .

ومع استمرار نمو الطفل يضاف إلى غذائه الرئيسي وهو لبن الأم غذاء أكثر صلابة يسمى « النطوع » وهو مكون من السكر والزبدة واللوز ، وذلك بعد طحنه جيداً لكي يصبح ناعماً كالبودرة . كما تعطى للطفل الأدوية السائلة التي تتكون من مجموعة من بذور الأعشاب مثل الجلجلات والقرنفل والقرفة وغيرها من حبوب الأعشاب . وتغلى هذه الحبوب سالفة الذكر في الماء لفترة معينة ، ثم يبرّد الماء وتصفّى بواسطة قماش رقيق ونظيف ، وبعد ذلك تعطى للطفل خاصة بعد أن يضاف إليها السكر . وفي الماضي كانت تعطي هذه السوائل للطفل بواسطة وعاء صغير من النحاس ، وذلك لصب السوائل في فم الطفل بواسطته . أما الآن فالسائد استخدام زجاجة الحليب « الرضاعة » .

ويتدرج شيئاً فشيئاً طعام الطفل ، حيث يصبح أكثر صلابة كلما اقترب موعد الفطام ، فيعطى « الأرز المهروس » ، إلى أن يفطم عندما يبلغ عمره من سنة ونصف إلى سنتين . وعملية الفطام أهم مايطرأ على حياة الطفل ، حيث يعاني بسببها من بعض الاضطرابات الانفعالية ، نتيجة منعه من الرضاعة وهي امتصاص سائل غير محتاج إلى جهد من حيث تناوله ، إلى جهد يجب أن يبذله في الطعام مثل المضغ والبلع . وقد لا تقوّى أسنان الطفل بعد على طحن الأطعمة الجافة حيث يأخذ في البكاء . وهذه التغيرات التي تحدث وتتأثر بها عملية الإحساس في المعدة والأمعاء ، بالإضافة إلى التغير في طريقة الغذاء نفسها حيث كانت تتم في السابق قبل الفطام في حضن الأم الدافىء بالحنان ، والمشاعر والحب ، ولكنها تتم الآن بعيداً عن حضن الأم ، مما يؤدي إلى مزيد من الاضطرابات الانفعالية . وهذه الاضطرابات تزداد حدّة إذا تمت عملية الفطام بصورة مفاجئة لا تدرُّج فيها ، كما تفضل الأمهات العاملات في الوقت الحاضر .

وهناك طريقتان للفطام الأولى وهي الحادّة ، يمنع الطفل فيها من الرضاعة الطبيعية مرة واحدة ، وهذه الطريقة تسبّب ألماً نفسياً للأم والطفل . والطريقة الثانية هي التدريجية حيث يتم

استبدال الرضاعة الطبيعية بالأغذية الخارجية المناسبة تدريجياً . وتتم عملية الفطام عن طريق وضع الأم قليلاً من البهار الحار على حلمة ثديها ، أو تضع على حلمة الثدي قليلاً من « الصبر » المر الناعم المعجون . ولذلك فعندما يتناول الطفل الثدي لامتصاص اللبن ، يجد أن طعمه متغير : مُرًّا أو حامياً من شدة البهار مما يؤدّي إلى بكائه وإصابته بالقلق على مصدر غذائه الطبيعي . وعموماً لا يتم فطام الطفل قبل نهاية السنة الأولى من عمره . ويبدأ تدريب الطفل بعد فطامه على عمليات التحكم في تبوله وتبرزه ، وعندما يصل الطفل عادة إلى السنة الثانية يكون قد تعلّم التحكم في قضاء حاجاته في أوقات النهار ، أما في أثناء فترة الليل ، فإن مثل هذا التحكُّم لا يتم إلى اعتباراً من العام الثالث من عمر الطفل أو بعد ذلك بقليل . ويتم التدريب على هذا التحكم بواسطة الأم بصورة فيها قدر كبير من اللين وعدم العنف . وقد ثبت أن التدريبات القاسية على النظافة في مرحلة الطفولة تساعد بما لايدع مجالاً للشك على نمو الاتجاهات العدائية وغيرها من أعراض الأمراض العصابية(٣٩).

● الختـــــان :

تجري عملية الختان الآن للذكور فقط . وقد علم الباحث من بعض الإخباريين المحليين أن عادة ختان البنات كانت تجري في السر في الماضي ، حينما يكون الرجال في الصيد . وكانت تقوم بهذه العملية امرأة متخصّصة . ولا يجوز للرجال في داخل أو خارج دائرة العائلة أن يتكلموا عن ذلك ، لأن هذه مسألة من اختصاص النساء فقط . أما في الوقت الحاضر ، فقد ذكر كل الإخباريين الذين قابلهم الكاتب أنه تمّ الإقلاع تماماً عن هذه العادة بالنسبة للإناث . ومعنى هذا أن الختان في المجتمع القطري يقتصر على الذكور دون الإناث . ويرجع السبب في ختان الذكور دون الإناث كما يرى بعض الباحثين(٤٠) إلى « روح محافظة متشدّدة ترى الأنثى عورة في كل حياتها من صغرها إلى كبرها ، فصورتها عورة ، وجسمها عورة ، والنظر إليها يسبب المشكلات والصعوبات فيما بينهم ، فكيف بفتاة تعرض أمام إنسان كائناً من كان للختان ، على الرغم من أن هذه العادة جازت وتأصلت في بعض المجتمعات الخليجية ، وبقيت حتى وقت قريب في بعض المناطق كعُمان وغيرها » .

وكان يقوم بعملية ختان الذكور في الماضي أناس متخصصون يمارسون إلى جانب ذلك حلاقة الشعر . ويجري ختان الطفل حالياً وهو صغير ، بعد أن كان يتم تختينه من قبل وقت البلوغ .

وعند الختان يوضع الطفل في مكان مرتفع ، ثم يقوم الختّن بمعالجة رأس العضو أي بنزع الجلد عن الحشفة ، ثم يدخل خشبة ملساء ويقطع جلد الغلفة بالموس .

وأثناء الختان يقال للولد الذكر أنظر فوق ، أي إلى الطير أو الحمام حتى ينشغل أثناء عملية قطع الغلفة ، ويصرخ الأطفال عادة من شدة الألم . وحتى يقوى عزم الطفل ولا يبكي يُطلب منه بأن يعزو أباه أو أخاه أثناء القطع فيقول : « أنا خو فلان ، أو ابنك يافلان » وذلك حتى يتشجع على رؤية الدم الذي ينزف أثناء عملية الختان . وإعزاز الولد بأبيه مثل أعلى للرجولة والشجاعة ، ودليل انتسابه لأهل كرام . وتكاد شعائر الختان تقترب من شعائر الزواج بحكم النظرة العصيبة والقبلية ، حيث تقام الزينات وحلقات الرزيف (والرزيف هي رقصة الحرب والتي تصاحبها الأغاني الحماسية . وشعر الرزيف وكان ينشد في المعارك من أجل الافتخار بالقبيلة ويساير حركة الخيل وصخب الجماعة) .

وتوضع بعض الأدوية المرطبة على العضو بعد الختان مباشرة مثل الزيت ومسحوق محلّي وقطنة ، ويبقى كل ذلك لمدة سبعة أيام . ويستعان في الوقت الحاضر بصبغة اليود . وبعد اليوم السابع يؤخذ الولد إلى البحر عادة لانتزاع القطنة من على ذكره بواسطة ريشة من جناح أو ذيل دجاجة أو حمامة ، لأن الريشة أكثر مرونة من يد الإنسان ، علاوة على أن يد الإنسان قد تكون ملوثة . ويتم تختين الطفل عادة في بداية الصيف ، وهي أنسب فترة للختان حيث يعتقد الأهالي أن الجرح يجف أسرع في موسم الصيف .

وبعد الختان بأيام قلائل تذبح الذبائح ، ويدعى الأقارب والجيران لتناول العشاء وتسمّى وليمة الختان ، وهي مكونة من الأرز واللحم . وتقتصر على الرجال دون النساء . أما بالنسبة للمختون ، فيقيّد طعامه وشرابه ، حيث يقتصر طعامه على أكلات معينة ، كما يعطى الماء بمقادير قليلة وفي أوقات منتظمة مع كل وجبة . وبعد أن يلتئم الجرح يتناول كل وجبات الطعام والشراب بصورة طبيعيّة . ويلاحظ أنه في أول يوم في الختان يمنع الطفل من الحركة تماماً ، وينام على ظهره ، ثم يبدأ في التحرك قليلاً في الأيام التالية حفاظاً على سلامته .

ويعتقد الأهالي أن الختان مفيد للذكر بصفة خاصة ، حيث أنه عبارة عن عملية نظافة ويقي العضو من الفضلات . فالأوساخ قد تتسرّب من الفتحة الأمامية بين الغلفة والحشفة ، وينتج عن ذلك بعض الأمراض والروائح الكريهة ، كما أن إزالة الغلفة في اعتقادهم يسهل عملية الإثارة الجنسية

مما يسعد الرجل . أما بالنسبة لختان الأنثى ، فكما سبق القول لا تمارس على الإطلاق الآن حيث يعتقدون أنها ضارة صحياً ونفسياً ، كما أنها تصيب الفتاة بالبرود الجنسي الذي يؤثر عليها مستقبلاً عند الزواج(٤١).

وهناك أغاني للختان ، وهي تصف الطفل الصبي بأنه عريس ، وتذكر اسم الله عليه كثيراً . ومن أمثلة أغاني الختان :

بـذكر الله أول مـا نبتـدي بـه
على المختـار سـيـدنـا حبيبـه
من ذا اختـانـه عبطـوه من ذا — (عبطوه أي ضموه بين الذراعين)
وأخنـان (فـلان) عبطـوه
حشـيتـه لأمـه وأبـوه — (حشيته أي كرامته لأهله)
على (فـلان) اظـلال العرش ينثر — (اظلال العرش أي حماية الله)
لعـلـه في حيـاتـه مـا يرى الشـر
لعـلـه في منـامـه يضعـونـه — (يضعونه أي يبقونه)
أسـعيـد وتقصـر العيفـات دونـه — (أسعيد أي سعيد ، والعيفات أي الرزايا)

كما تطلب أغاني الختان من الله أن يسلم المختون من كل شر ويبارك لهم فيه .

تبـادينـا بـذكر الله
نبينـا يـا رسـول الله
عبـد الله صغير ونرجيـه
يـارب سلمه وبـارك فيـه

ويلاحظ في أغاني الختان عموماً ذكر اسم الله واسم نبيه حتى يحفظ الله المختون من كل سوء ويجنبه كل شر ومكروه . وذكر الله في أغاني الختان يجنب المختون الشر ويبارك الله فيه . كما أن الأهالي تيمناً بميلاد الرسول عليه السلام ، حيث ولد يوم الإثنين ، ولذلك فهو يوم مبارك تجري فيه المناسبات السعيدة ، ومنها الختان .

بعض العادات الاجتماعية المصاحبة لنمو الطفل :

يتعلّم الطفل من واقع مجتمعه المحلّي ، ومن خلال العادات والتقاليد التي يغرسها في ذهنه الأهل أثناء المراحل المختلفة لعملية التنشئة الاجتماعية في نطاق الأسرة[٤٢]. فهو يتعلّم مثلاً ما ينبغي توقعه من الآخرين أي من الناس المحيطين به ، كما سبق أن أوضحنا عند عرضنا للإطار النظري الشامل لموضوع التنشئة . وفي مقدمة من يتعلّم الطفل منهم الوالدين والرفاق والأصدقاء . ويتعلّم التفاعل الاجتماعي مع جماعة الرفاق وتكوين الصداقات معهم والاتصال والتوافق مع الآخرين . وكذلك يتعلم الطفل التميز بين الخطأ والصواب والخير والشر . وينمو لديه هذا التمييز بشكل واضح عاماً بعد عام . ويتعلم عن طريق والديه معايير الأخلاق والقيم[٤٣]. كما يتعلم التوحُّد مع أفراد نفس الجنس ، ومعرفة الدور الجنسي في الحياة . كذلك يتعلم تكوين اتجاهات سليمة نحو الجماعات والمؤسسات التي ينتمي إليها في مجتمعه المحلّي الصغير . ويتعلم ممارسة الاستقلال لشخصي وتكوين مفاهيم عن الواقع الاجتماعي ، وتنمية ذاته واكتساب اتجاه سليم نحو الذات والإحساس بالثقة في الذات وفي الآخرين .

وهناك بعض التعبيرات الحانية التي يطلقها الأهل على الطفل عندما يهدهد ، حيث يقولون (عشت وعشعشت ... في بيت البابا بنشت » . أما إذا تجشأ الطفل فيقال له « عافية » .

ويعطى الأطفال « قرقاشة » وهي عبارة عن الشخشيخة في الثقافة المصرية . ولا يوجد تمييز واضح من أي نوع بين الأطفال حتى سن التاسعة تقريباً . كذلك يعطى الطفل « اللهاية » أي البزازة وذلك حتى يسكت ولا يبكي .

ويطلق تعبير « التسنين » عندما تظهر للطفل أسنان وضروس ، وعندما (يسنن) الطفل تنثر على رأسه الحلويات والقريضات (المكسّرات) والنقود . وعندما يبدأ الطفل خلع أسنانه اللينة يقوم برميها في الصباح ويقول للشمس : « خذي ضرس الحمار واعطيني ضرس الغزال » فجميع الأسنان تسمّى أضراساً .

ويسمى الطفل الكبير « البكر » والطفل الذي يليه « الثنى » والباقون حسب ترتيبهم الثالث والرابع والخامس ... الخ . وكأي أسرة يوجد بها طفل واحد ، فإنه يكون هناك وضع خاص للطفل الوحيد في الأسرة من حيث زيادة العناية به وتدليله .

ومن الشائع إجراء احتفال بسيط لحلاقة شعر البطن ، ولا يتأثر ذلك بترتيب الطفل . ويوزن شعر الوليد الذكر ، ومقدار وزن هذا الشعر يكون نقوداً توزع على الأطفال . كما يحلق شعر الفتيات بالموس حتى يقوى ويزداد طولاً .

ومن العادات الشعبية المتبعة والواجبة الأداء الدعاء الذي يقال في مناسبة ختم القرآن على يد المطوّع وتلامذته الصغار من أولاد وبنات لم يتجاوزوا العاشرة من عمرهم . فلقد جرت العادة أن يرسل الآباء أبناءهم الصغار ليتعلموا قراءة القرآن وفهمه عند المطوع (شيخ الكتاب) حيث يجلس المطوع ومن حوله الصبية يقرئهم القرآن بالطريقة التي تعلمها هو وبالأسلوب الذي اتخذه لنفسه حاملاً عصاً طويلة بيده يحركها باتجاه هذا الطفل أو ذاك ، تماماً كما هو متبّع لوقت خلا في معظم البلدان العربية . ويتقاضى المطوع أجراً معلوماً من العيش (الأرز) والتمر والسمك وما إلى ذلك من الأشياء العينية أو بعض النقود المعدنية أو الورقية إن وجدت[٤٤].

وعند ختم القرآن يلبس الصبي لباساً جديداً واضعاً خنجره في وسطه ومتقلّداً سيفه ، يذهب هذا الصبي مع زملائه ، وهم يحيطون به من كل ناحية – وكأنها زفة عريس – إلى البيوت يدعون بأدعية معينة ، وأصحاب البيوت يعطونهم نقوداً إلى أن يمتلىء كيسهم ، فيأخذونه إلى المطوع مكافأة له على ماقام به من تحفيظ للصبي . وقد يحدث أن يكون صوت الصبي الخاتم للقرآن ضعيفاً ، فيعهد إلى صبي آخر من زملائه بالدعاء ، وإذا امتنع هذا السبب أو لآخر ، يبادر المطوّع بقول الأدعية والجميع يردّدون من ورائه كله آمين ، حيث يقسّم الدعاء إلى أقسام صغيرة أو فقرات أو شطرات يقف الصبي عند نهايتها ليؤمن الجميع (أي يقولوا آمين) . وهكذا إلى أن ينتهي الدعاء . عندئذ يقفل الجميع راجعين إلى بيوتهم بعد إعطاء النقود للمطوع .

أغاني الأطفال :

تعدُّ أغاني الأطفال مادة غنية وخصبة يمكن أن يستقي منها كثيراً من العادات المصاحبة لعملية التنشئة الاجتماعية الأسرية للطفل . كما أن تلك الأغاني تحتل مكاناً متميزاً داخل تراث الأغاني الشعبية . فهي أقدم أنواع الأغاني الشعبية على الإطلاق وأوسعها انتشاراً . كما نجدها تتشابه فيما بينها إلى حدٍّ بعيد من حيث النغم ومن حيث المضمون بين الثقافات على امتداد العالم . وهي من أغنى المصادر التي تحفظ لنا بقايا معتقدات وممارسات ومناسبات درست ولم يعد لها وجود في عالمنا المعاصر .

ويمكن تقسيم أغاني الأطفال من حيث المضمون إلى أربع مجموعات أو فئات كبيرة هي[٤٥]:

(أ) المجموعة الأولى هي تلك الأغاني التي تتردَّد في أثناء التعامل بين الطفل والكبار المحيطين به ، خاصة أولي الأمر . وتنتمي إلى تلك المجموعة أغاني المهد ، وأغاني ملاعبة وهدهدة الطفل والأغاني ذات المضمون التربوي بصفة عامة .

(ب) المجموعة الثانية هي تلك التي تتردَّد من خلال تعامل الطفل مع البيئة ، وخاصة البيئة المحيطة . فالطفل يغني لكثير من الظواهر والتغيرات الطبيعية التي تلفت نظره أو تخيفه أو تعجبه أو تفاجئه ... الخ . فهو يفرح للمطر ، ويمضي تحت وابله منتشياً فيتمنى أن يشتد ليزدهر الزرع ويفيض الإنتاج فيمتلىء بطنه . كما يغني الطفل للقمر وللشمس وهو يرمي إليها بضرسه ، ويغني للرعد والبرق ... الخ . كما يغني للحيوانات والطيور المعروفة في بيئتها .

(ج) المجموعة الثالثة هي تلك الأغاني التي تنشأ نتيجة العلاقة الوثيقة بين الإيقاع واللعب ، فتنشأ أغاني اللعب ، وأغاني الرقص ، والأغاني التنافسية ... الخ .

(د) أما المجموعة الأخيرة فتنشأ نتيجة التفاعل بين الطفل والمجتمع المحيط به في مناسبات العادات الشعبية المختلفة في مراحل دورة الحياة Life Cycle (كأغاني السبوع ، والختان ، والزواج ... الخ) ، والمناسبات التي ترتبط بمرور العام وتتابعة (كأغاني الأعياد الدورية ورمضان ... الخ) .

ولا يتَّسع المجال هنا لإيراد نماذج من أغاني الأطفال التي تقال في هذه المناسبات المختلفة ، ويمكن لمن يريد الاستزادة الرجوع لبحث آخر للكاتب[٤٦] ولمراجع أخرى متعدِّدة .

ألعاب الأطفال الشعبية :

تعتبر الألعاب الشعبية ضرورة أساسية من ضرورات الطفولة ، لأنها تصاحب الطفل من بداية تكوُّن القدرات الحركية عنده ، وتتطوَّر عنده تبعاً لتطور قدراته الجسمية والنفسية والاجتماعية ، فهي بذلك خاصة طبيعيَّة لديه ، لا تحتاج إلى تربية معينة لتعويده عليها أو جذبه إليها ، وربما فقط لتنظيم ممارسته لها . ويتم هذا التنظيم بشكل تلقائي عادة من خلال التفاعل مع أمه في البداية ، ثم مع رفاقه بعد ذلك[٤٧].

والألعاب الشعبية متنوعة تنوعاً كبيراً ، ومتدرجة كي تصلح لكل الأعمار والقدرات ويمكن تدبيرها بسهولة بأبسط الإمكانيات وبما هو متاح في البيئة المحلية . وهي تهدف من بين ما تهدف إليه إلى إظهار المهارة وسرعة البديهة وأحياناً القوة ، فتشدُّ الأطفال إلى ممارستها ، وتحقق لهم بذلك قدراً من الإشباع هم في حاجة طبيعيّة إليه . ولذلك تعمل تلك الألعاب على تكوين الشخصية الناضجة ، وتتيح الفرصة للطفل لتنمية استعداداته وقدراته ، ومتابعة احتياجاته الأساسية بدنية ونفسية واجتماعية . ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن دلالة التراث والمجتمع بالنسبة لعالم الطفل وألعابه دلالة واضحة وقوية ، فقد حفظت لنا ألعاب الأطفال كثيراً من عناصر التراث القديم ، التي كان يمكن أن تختفي دون أثر لولا ارتباطها بألعاب الأطفال . ويؤكد فريق من الباحثين أن دراسة ألعاب الأطفال تعدُّ إسهاماً تربوياً هامًّا بعيد الأثر في تأسيس فهم انثروبولوجي شامل ومتكامل للإنسان .

وهناك ألعاب كثيرة يلعبها الأطفال في المجتمع القطري مثل التيلة ، والحق واركب ، وألعاب الدمى ، وألعاب المخازد ، والبروى ، والبلبول ، وبيوت الرمل ، وجب لو كتب التي تستخدم فيها النقود المعدنية ... الخ .[٤٨] وقد أخذت هذه الألعاب في الانقراض شيئاً فشيئاً بعد نشأة المدارس الحديثة في قطر ، وبسبب ميل الأطفال الذي بدأ يزداد نحو لعب كرة القدم وغيرها من الألعاب الحديثة في الوقت الحاضر ، ومن هنا يجب الالتفات إلى تطوير ألعاب الأطفال والترويج للمفيد منها من خلال وسائل الثقافة الرسمية أيضاً .

خاتمة : الآثار المترتبة على استخدام المربيات الأجنبيات .

لا يسع الكاتب في نهاية هذا البحث إلا أن يشير ، ولو مجرَّد إشارة سريعة ، إلى الآثار المترتبة على الاعتماد المتزايد على المربيات الأجنبيات في عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية . وهي ظاهرة تكاد تكون عامة بالنسبة للمجتمعات الخليجية بصفة عامة خصوصاً في مرحلة مابعد النفط . ولاشك أن قضية الاعتماد على المربيات الأجنبيات في الأسرة العربية الخليجية من أجل تنشئة الأطفال وتربيتهم ، قضية تحتاج إلى دراسات أمبيريقية شاملة لتحديد حجم المشكلة ، وليس من مجرَّد انطباعات أو دراسة حالات فردية . وقد فتحت الدكتورة جهينة سلطان العيسى الباب لدراسة هذه المشكلة الاجتماعية والتربوية الخطيرة ، من خلال دراستها لظاهرة العمالة الأجنبية ، وبالذات

المحاولة التي قدّمتها لدراسة التأثيرات الاجتماعية للمربية الأجنبية على الأسرة في المجتمعات الخليجية[٤٩]. وهي محاولة طيّبة ، وتعدُّ بحثاً غير مسبوق ، باللغة العربية ، على حدّ علم الكاتب .

ولسنا هنا في مجال مناقشة الآثار الإيجابية والسلبية للعمالة الأجنبية على المجتمع القطري ، ولاسيما العمالة غير العربية . ولكن مايعنينا هنا هو التنبيه والتحذير من الآثار الضارة ، بل والمدمّرة ، لاستخدام المربية الأجنبية على عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية . فالمفروض أن الذين يقومون بعملية التنشئة الاجتماعية الأسرية هما الأبوين أساساً ، ويأتيان بطبيعة الحال في المرتبة الأولى . والأبوان ينقلان للطفل ثقافة المجتمع ومعاييره وعاداته وتقاليده وقيمه . ومن الملاحظ أن المربية أثناء فترة جلوسها مع الطفل تحادثه بلغتها وتحكي له الحكايات وتسمعه أغانيها ، وعن هذا الطريق يتعلّم الطفل لغة المربيّة على حساب اللغة العربيّة ، وهي لغة مجتمعه الأصلية . بل إن الخطورة تزداد حينما تبدأ المربيّة بالتحدث باللغة العربيّة ، إذ يتعلم الطفل اللغة العربية بأسلوب وبطريقة المربيّة الأجنبية . ومن جانب آخر فإن محاولة بعض المربّيات التحدث مع الطفل باللغة الإنجليزية أفقد اللغة الإنجليزية مضمونها ومحتواها ، إذ أن المربية تتكلم الإنجليزية دون التزام بقواعد اللغة من جهة ، وبلكنة خاصة من جهة ثانية ، فيلتقط الطفل الكلمات كما تتكلمها المربية[٥٠].

ناهيك عن تأثير المربية على قيم وعادات الطفل العربية ، فهي من خلال احتكاكها بالطفل تنقل إليه ثقافتها بطريقة مباشرة . فنجدها تمارس عملية التنشئة الاجتماعية كما تمارسها في مجتمعها الأصلي ، وتنقل للطفل حصيلة من القيم والعادات وأنماط السلوك المغايرة للقيم والعادات وأنماط السلوك السائدة في مجتمعه ، مما يتأثر معه بناء شخصية الطفل ، الذي تلعب تجارب الطفولة فيه دوراً لا يمكن انكاره ، إذ تندمج هذه التجارب في شخصية الطفل،وتظهر فيما بعد في اتجاهات فعله وتفكيره وشعوره ، مما يكون له أثره في تغير بناء شخصيته عن الصورة التي تتفق مع النمط الثقافي القائم ، والسمات الثقافية الشائعة بين أفراد المجتمع . ومن المعروف أن هذه السمات ما هي إلا النواة الأساسية لبناء الشخصية الاجتماعية ، أو الشخصية الغالبة بين أعضاء المجتمع التي تتكون وتنمو نتيجة التجارب الأساسية التي يمارسها الفرد حسب طريقة الحياة السائدة في المجتمع[٥١].

ولما كانت الأسرة هي النسق الاجتماعي المسئول عن تربية الأولاد وبلا منازع ، حتى طور المدرسة ، إذ تعكس تجارب الطفولة الأولى داخل الأسرة ، كما ألمعنا ، المضمون الاجتماعي للمجتمع ، وتلعب دورها في ربط الشخصية بالبناء الاجتماعي ، لتبيّن لنا مدى خطورة الاعتماد على المربية

الأجنبيـة الـذي من المتوقع أن يتزايـد مـع مرور الـوقت نتيجـة خروج المرأة القطريـة إلى ميـدان العمل . بل إن وجود ظاهرة استخدام المربيات الأجنبيات يرتبط أيضاً بالمكانة الاجتماعيـة Social status ، باعتبـار أن المربيـة تقع ضمن عنـاصر الوجـاهـة الاجتماعيـة[٥٢]. Social prestige ولهـذا الوضع خطورته ، فالطفل مثلاً في حالة كون المربية هندية نجده يتكلم بلغة المربية أو بلغة عربيـة ركيكة تدخلها كلمات هندية ، ويهتم بالأفلام والأغـاني الهنـديـة ، بل وتسـاهم المربيـة في غرس قيم غريبة عن ثقافة الطفل القطري . أضف إلى ذلك أنه نتيجة لمستوى المربيـات التعليمي والاجتمـاعي المتدنّي ، فإنهن يقمن في الغالب بنقل عناصرها مشية من ثقافتهن إلى الأطفال تعتمد في المقام الأول على الخرافات والغيبيّات[٥٣].

ويؤيـد عـالم الاجتماع روبرت ميرتون Robert Merton المقولـة القـائلـة بـأن كل قيم الشخص كالاعتماد والاستقلال والطمأنينـة والحريـة والصـدق ... الخ تشكّل حسب نـوع مشـاركـة الطفـل وتفاعله مع أعضاء الأسرة وبخاصة الوالدين ، على اعتبار أن الأسرة إحدى الوسائل الفعـالـة في نقل التراث الثقافي للأجيال المتعاقبة ، وأداة لتنظيم سلوك الطفل حول الأهداف الثقافيـة والإجتماعيـة ، ولتكوين الوازع الخلقي عنده[٥٤]. ولمّا كانت الشخصية نسقاً نفسيًّا متميزاً لا وجود حقيقي له بـدون الثقافة والبناء الاجتماعي[٥٥] ، بتعبير تالكوت بارسونز ، يتبين أيضاً مدى خطورة استخدام المربيـة الأجنبية لا على عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية وحدها ، بل أيضـاً على تكوين وبنـاء الشخصيـة القومية ككل .

قائمة المراجع والملاحظات

(١) للوقوف على تفصيلات وافية حول هذه النقطة أنظر :

- فاروق محمد العادلي : الأنثروبولوجيا التربوية ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٩٨١ .
- محمد سعيد فرح : الطفولة والثقافة والمجتمع ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٠ .
- محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعي والشخصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

Levon Melikian : Jassim, A Study in the Psychological Development of a Young Man in Qatar, Longman, London, 1981.

(٢) جابر عبد الحميد وآخر ، دراسات نفسية في الشخصية العربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٩ .

(٣) أنظر : Talcott Parsons, Social Structure & Personality, 2nd. ed., The Free Press, Londn, 1965, p. 16.

(٤) أنظر : Ibid., pp. 16–18.

(٥) محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعي والشخصية ، مرجع سابق ، ولا سيا التحليل الذي أورده في الفصل الثالث عن علاقة التنشئة الاجتماعية بكل من البناء الاجتماعي والشخصية .

(٦) أنظر : H. P. Fairchild, Dictionary & Sociology, The Philosophical Cibrary, New York, 1944, p. 266.

(٧) الجزاء الاجتماعي Social Sanction هو ردّ فعل المجتمع أو عدد من أفراده إزاء أي شكل من أشكال السلوك ، وهذا الجزاء يكون موجباً إذا ما تمّ الامتثال للسلوك ، ويكون سالباً إذا ما تمّ الإعراض عنه . وتنقسم الجزاءات الاجتماعية إلى جزاءات منتشرة وجزاءات منظمة . أما عن الأولى فهي ردود الأفعال التلقائية التي يقوم بها الأفراد حين يوافقون على نمط السلوك أو يعارضونه ، بينما تمثل الثانية فيا يقوم به المجتمع من إجراءات تقليدية منظمة إزاء أنماط السلوك . وثمة حقيقية هامة وهي أن كل المجتمعات تتميز بأن أحكامها السالبة أي

(العقـوبـات) Negative sanctions تكـون أكثر تحـديـداً وَ حَسْماً من أحكامهـا المـوجبـة Positive Sanctions أي (الإثابات) .

للوقوف على تفصيلات وافيـة وقيمـة حول هـذا الموضوع يراجع الفصـل (الحـادي عشر) من المرجع الآتي :

A. R. Radcliffe – Brown : Structure & Function in Primitive Siciety, Six Impression, Cohen and West Ltd., London, 1965.

(٨) انظر : Alexander Golden weiser, Anthropology, Geory G. Harrap & Co. Ltd., London, 1937, p. 68 ff.

وانظر كذلك ، محمد الزلباني : الخليفة النظرية للقيم ، مكتبـة النهضـة المصريـة ، القـاهرة ، ١٩٧٣ .

(٩) يطبق مفهوم الشخصية المنوالية على أي منهج يحدّد الشخصية المميزة لأي جماعة ثقـافيـة عن طريق الميل المركـزي لأي تـوزيـع تكراري معين . وبمـا أنـه لايمكن استنتـاج التـوزيعـات الإحصائية لسمات الشخصية من المادة الثقافية المتمثلة في التقارير الإثنوجرافية ، اتجه البحث عن مـادة أخرى لاستنتـاج الشخصيـة المنواليـة . وتتمثل تلـك المـادة في نتـائج الاختبـارات النفسية لعينة من الجماعة الثقافية قيد الدراسة .

(١٠) قدّم العلامة «كاردنير» مفهوم البناء الرئيسي للشخصيـة . وهو مفهوم غير احصـائي يركز على البناء الجوهري للشخصية ، ويفترض وجود هذا البناء عنـد كل أفراد الجمـاعـة قيـد البحث . وهو في تركيزه على إبراز هذا البناء الجوهري أهمل السمات الهـامشيـة والانحرافـات . ويختلف الوضع في مفهوم الشخصية المنوالية الذي يمثل التركيب الإحصائي المتناظر . ويقصـد بصفـة « المنوالية » أن متغيراً ما يتمتع بأعلى تكرار في توزيع ما .

للوقوف على تفضيلات أوفى ، انظر ، عاطف وصفي : الثقافـة والشخصيـة ، دار المعـارف ، ١٩٧٥ .

(١١) للوقوف على تفصيلات وافيـة ودقيقـة حول هـذا الموضـوع ، أنظر الفصـل السـابـع عشر من كتاب رالف بيلز وهاري هويجر : مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ، الترجمة العربيـة أنجزهـا الدكتور محمد الجوهري وزملاؤه ، الجزء الثاني ، دار نهضة مصر للطبـاعـة والنشر ، القـاهرة ، ١٩٧٧ .

(١٢) أنظر : Bronislaw Malinowski, «Marriage», in Encyclopaedia Britannica, London, 1962, p. 930.

وكذلك أنظر ، علياء شكري : الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٤٧ وما بعدها .

(١٣) علياء شكري ، نفس المرجع الذي سبقت الإشارة إليه ، ص ٢٤٨ .

(١٤) فاروق محمد العادلي : الأنثروبولوجيا التربوية ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(١٥) علياء شكري ، مرجع سابق ، ص ٢٤٩ .

(١٦) حول هذه النقطة الهامة أنظر المراجع الآتية على سبيل المثال :

– Jill korbin : Anthropological Contributions to the Study of child Abuse, International Child Welfare Review, No. 35, December 1977, pp. 23–31.

– Charles Harring Gton & John Whiting, «Socialization Process & Personality» in Francis Hsu (ed.), Psychological Anthropology, Cambridge, 1972.

(١٧) أنظر : R. J. Bell, «A Reinterpretation of the Direction and Effects in Studies of Socialization», in Danzinger (ed.), Reading in Child Socialization, Oxford Pergamon Press, London, 1970.

(١٨) فاروق العادلي : الأنثروبولوجيا التربوية ، مرجع سابق ، ص ٢٣٥ .

(١٩) لمعرفة تفصيلات مفيدة عن كيفية غرس القيم في نفس الفرد ، انظر ، محمد الزلباني : الخلفية النظرية للقيم ، مرجع سابق ، وبصفة خاصة الفصول الثلاثة الأولي من الكتاب . وكذلك أنظر : – William F. Ogburn & M. F. Nimkoff : A Handbook of Sociology, The International Library of Sociology and Social Receonstruction, Kegan & Paul Ltd., London, 1946.

(٢٠) أنظر : – E. Bogardus : Sociology, 4th. ed., The Macmillan Co., New York, 1954, p. 27.

(٢١) أنظر : Ibid., p. 27.

(٢٢) أنظر : P. B. Horton & C. L. Hunt : Sociology, 2nd. ed., Mc Graw Hill Book Co., New York, 1968, p. 128.

(٢٣) أنظر : A. R. Radclilffe – Brown, op. cit., Ch. 11.

وانظر كذلك الحاشية رقم (٧) من قائمة المراجع والملاحظات الخاصة بهذا البحث .

(٢٤) محمد الزلباني : مدخل للنظم الاجتماعية ، الجزء الأول ، الأسس البيولوجية والسيكلوجية في الإنسان وعلاقتها بإنتاج الحضارة ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٢٥) أنظر : Ogburn & Nimkoff, op. cit., p. 152.

(٢٦) أنظر : H. Hoijer & R. Beals : An Introduction to Anthropology, The MacMillan Company, New York, 1972, p. 289.

(٢٧) أنظر : John Clausen : Perspective on Childhood Socialization, in John Cluusen Socialization and Society, 1979, p. 137.

وكذلك انظر ، سعيد فرح : الطفولة والثقافة والمجتمع ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .

(٢٨) محمد سعيد فرح : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٢٩) اعتمدنا في عرض هذا الطور على ما أورده سعيد فرح في كتابه البناء الاجتماعي والشخصية ، ص ص ٢٥٧ – ٢٦٥ . وللوقوف على تفصيلات يرجع إلى المؤلفين الآتيين لتالكوت بارسونز :

- Talcott Parsons : Family, Socialization and International Process, The Free Press, London, 1955.
- Talcott Parsons : Social Structure and Personality, 2nd. ed., The Free Press, London, 1965.

(٣٠) أنظر على سبيل المثال :

- J. Honigmann : Culture and Personality, Harper, New York, 1954.
- C. Kluckhohn & H. Murray (eds.) Personality in Nature, Society and Culture, Alfred A. Knopf, New York, 1959.

(٣١) فاروق محمد العادلي : دراسات انثروبولوجية في المجتمع القطري ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٣٣) محمد الجوهري : الطفل في التراث الشعبي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثالث ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٦٤٤ .

(٣٤) أنظر بيانات اثنوجرافية مفصلة أوردتها علياء شكري في دراستها لبعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية . علياء شكري : بعض ملامح التغير الاجتماعي الثقافي في الوطن

العربي ، دراسات ميدانية لبعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(٣٥) أورد أحمد أمين في « قاموسه » أن الرجل إذا أراد أن تلد امرأته الذكور فليضع يده اليمنى على سرتها وهي نائمة ، ويمسح على السرة وهي في ابتداء حملها ويقول ثلاث مرات ، وهو يديم المسح بيديه : « اللهم إن كنت خلقت خلقاً في بطن زوجتي هذه فكونه ذكراً وأنا أسميه محمداً . رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين . فبشرناه باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ، وبشروه بغلام عليم » .

أنظر ، أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد المصرية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٤١٥ .

(٣٦) هناك دراسة يقوم بها الكاتب في الوقت الحاضر عن « الخلفية الثقافية للشخصية ، مع محاولة لتحديد السمات الشائعة للشخصية القطرية وستنشر في العدد القادم من مجلة الإنسانيات بإذن الله .

(٣٧) راجع وجهة نظر بارسونز بالتفصيل في الفقرة التي أفردناها للحديث عن الأسرة والتنشئة الاجتماعية : تصور نظري عام .

(٣٨) عبد المنعم المليجي وآخر : النمو النفسي ، الطبعة الرابعة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٠٢ .

(٣٩) أنظر ، G. Gorer : «Themes in Japanese Culture», in D. Haring (ed.), Personal Character and Cultural Milieu, A Collection of Readings, Syracuse University Press, Syracuse, 1949, pp. 273–290.

(٤٠) محمد طالب الدويك : الأغنية الشعبية في قطر ، الجزء الثاني (أغاني الحياة) ، وزارة الإعلام ، قطر ، ١٩٧٥ .

(٤١) هذا الاعتقاد صحيح وله مايبرّره ، وهو ما أثبتته تجارب ختان الأنثى Female circumcision في عدد من المجتمعات الإفريقية مثل السودان وغيرها ، وفي بعض الجماعات المحلية المنعزلة في بعض المجتمعات الإسلامية في السعودية وماليزيا واندونيسيا ، حيث تتم ممارسة مايطلق عليه الختان الفرعوني Pharaonic circumcision حيث يزال البظر Clitoris والشفرين الصغيرين Labia minora والشفرين الكبيرين Labia majora أو أجزاء كبيرة منها . وقد ثبت بصفة قاطعة أن ختان الفتاة على هذا النحو يسبب لها متاعب صحية عنيفة نظراً لقسوة هذه العملية والطريقة البدائية التي تتم بها ، علاوة على

ما تجره عملية الختان من متاعب نفسية واجتماعية خطيرة فيما بعد .

للوقوف على تفصيلات ثرية حول ظاهرة ختان الأنثى وآثارها ، يراجع المقال التالي :

Taha Baasher, «Female Circumcision and Women's Health», in Draper Fund Report, Improving the Status & Women, No. 9, Washington, October, 1980, pp. 19–20.

(٤٢) يراجع ماذكرناه في هذا البحث بخصوص دور التنشئة الاجتماعية الأسرية في نقل الثقافة وبقائها .

(٤٣) للوقوف على تأصيل نظري مفصل وعميق لعملية التطبيع الاجتماعي التي يمارسها الوالدين ، راجع كتاب عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي الأشهر توماس ويليامز :

Thomas R. Williams : Introduction to Socialization, St. Louis : Mosby, 1972.

وانظر كذلك على سبيل المقارنة ، فوزية دياب : القيم والعادات الاجتماعية ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

(٤٤) فاروق محمد العادلي : دراسات انثروبولوجية في المجتمع القطري ، مرجع سابق ، ص ١٠٨ .

(٤٥) للوقوف على تفصيلات عديدة وهامة أنظر ، محمد الجوهري : الطفل في التراث الشعبي ، ص ٦٦٨ وما بعدها .

(٤٦) فاروق محمد العادلي : دراسات انثروبولوجية في المجتمع القطري ، وكذلك محمد طالب الدويك : الأغنية الشعبية في قطر .

(٤٧) محمد الجوهري ، الطفل في التراث الشعبي ، مرجع سابق ، ص ٤٨ ومابعدها .

(٤٨) فاروق محمد العادلي : دراسات انثروبولوجية في المجتمع القطري ، ص ١٢٣ ومابعدها .

(٤٩) جهينة سلطان العيسى : آثار العمالة الأجنبية على الأسرة العربية : التأثيرات الاجتماعية للمربية الأجنبية على الأسرة في المجتمعات الخليجية – محاولة منهجية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، المعهد العربي للتخطيط ، الكويت ، ١٩٨٣ .

(٥٠) المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٥١) أنظر :
Ralph Linton : The Cultural Background of Personality, Appleton Century–Crofts, INC., New York, 1945, pp. 128–130.

(٥٢) جهينة سلطان العيسى ، مرجع سبقت الإشارة إليه ، ص ٨ .

(٥٤) سعيد فرح : البناء الاجتماعي والشخصية ، ص ٢٤٢ .

(٥٥) أنظر : Talcott Parsons : Social Structure and Personality, Op. Cit.

ظاهرة الأنا في شعر المتنبي
بين النظرية والتطبيق

الأستاذ الدكتور
ماهر حسن فهمي
أستاذ بقسم اللغة العربية

كان الشاعر الجاهلي والإسلامي يرسم في ممدوحه المثالية الرفيعة التي تقدرها الجماعة ، وإذا كان مؤثراً في حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو والياً عرض لأعماله وللأحداث التي شارك فيها ، أما إذا كان بطلاً يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك ، وقد اضطردت هذه الغايات للمدحة في العصر العباسي ، إذ نرى الشعراء يبدأون ويعيدون في تصوير المثل تصويراً حياً ناطقاً . ويضيق الحصر عما استنبطوه من معان طريفة ، في السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس . وقد جسموها في عين الممدوحين تجسيماً قوياً ، حتى لتصبح وكأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كي يحتذوها ويحوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء . وبذلك ظلت المدحة تثبت في الأمة التربية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة . والذي لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفيسة . وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها في النفوس بما رفدوها به من عقولهم الخصبة وأخيلتهم البارعة . وقد أمضى الشعراء في مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة ، لا تصلح حياة الأمة بدونها ، وبذلك كان صوتاً قوياً لها ، صوتاً ما ينى يهتف في آذان الحكام بما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم وسياستهم .

وقد يكون الخليفة سيء السلوك مثل الأمين ، ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة للخلفاء ، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو ، وإنما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم ، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينيه الشعارات التي تطلبها الأمة في خليفتها وراعيها ، لعله يثوب إلى طريق الرشاد . ولم يصور الشعراء مثاليتنا الخلقية العامة في مدائحهم ، وكذلك مثاليتنا السياسية فحسب ، بل صوروا أيضاً الأحداث التي وقعت في عصور الخلفاء ، وخاصة الفتن والثورات الداخلية وحروب أعداء الدولة من الروم والترك ، وبذلك قامت قصيدة المديح في هذا العصر مقام الصحافة الحديثة ، فهي تسجل الأحداث التي عاصرها الشاعر ، والأعمال الكبرى التي ينهض بها الخلفاء وربما كان أهم ما سجلته صحف المديح في هذا العصر صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها من الترك والبيزنطيين فقد أشادت إشادة رائعة بكل معركة خاضوا غمارها وكل حصن اقتسموه ، حتى كادت لا تترك موقعة ولا بطلا دون تصوير يضرم في النفس العربية الاستبسال والمضاء وجلاد الأعداء جلاداً عنيفاً ، وكل كاتب في هذه الصحف أو قل كل شاعر يتفنن في رسم بطولة القائد الذي يمدح رسماً يشعل الحماسة في نفوس جنوده ونفوس الشباب العربي من ورائهم ، فإذا هم يترامون على منازلة أعدائهم ترامي الفراش على النار يريدون أن يسجلوا نصراً حاسماً .

وكانت المدحة قديماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها ، وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتاً ما يركبه من بعير أو فرس وكثيراً ما يضمنها بجانب ذلك حكماً تبصر السامع بأطراف من سنن الحياة ، وكل ذلك استبقاه شاعر المدحة في العصر العباسي ، ولكن مع إضافات كثيرة حتى يلائم بينه وبين عصره . وقد تتسع الإضافة أحياناً أخرى ولكنها دائماً تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسي . وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ، غير أنهم اتخذوها رمزاً ، أما الأطلال فلحبهم الداثر ، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان في الحياة وقد استعملوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لايزال يترقرق في أشعارهم .

وعلى هذا النحو ازدهرت المدحة على لسان الشاعر العباسي لا بما رسم فيها من مثاليتنا الخلقية ، وسجل من الأحداث وصور من البطولات العربية فحسب ، بل أيضاً بما تمثل من العناصر القديمة وأذاع فيها من ملكاته وما أضافه إليها من عناصر جديدة استمدها من بيئته الحضارية ومن نفسيته وملكاته العقلية . ودفعتهم دقتهم الذهنية إلى أن يلائموا بين مدائحهم

وممدوحيهم ، فإذا مدحوا الخلفاء نوهوا ، بتقواهم وعدلهم في الرعية ، وإذا مدحوا القواد أطالوا في وصف شجاعتهم ، وإذا مدحوا الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم ، وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة والمغنين ، فلكل أوصافه التي تخصه ، وهي أوصاف طلبوا فيها وفي كل مدائحهم عمق الفكر وفنية العبارة(١) .

ولا شك أن النابغة والأعشى كانا من أوائل شعراء المديح في أدبنا العربي ، ترى كيف كانت قصيدة المديح ؟ قال الأعشى يمدح الأسود بن المنذر اللخمي :

فرع نبـــع يهتز في غصن المجـــــد	عـزيـز القـوى شـديـد المحـال
عنـده الحـزم والتقى وأسـا الصرع	وحمـل لمضلـع الأثقـال
وصـلات الأرحـام قـد علم النـا	س وفـك الأسرى من الأغـلال
وهـوان النفس العـزيـزة للـذكر	إذا مـا التقت صـدور العـوالى
وعطـاء إذا سـألت إذا العِـذرة	كانت عطيـة البُخّـال(٢)

ثم يستمر متحدثاً عن وفائه وإجارته وعزمه ، إذا طلع على القوم سكتوا قائمين وإن عاقب كان قاسياً ، فكم من قوم أشقاهم وقوم نالوا نعمه الوفيرة . ثم يدعو له في نهاية القصيدة بطول البقاء .

هذا هو الأصل في المديح ، وهو أصل له مبرراته المستمدة من معايير الفن فالرسام الذي يصور عظيماً أو بطلاً لا يضع نفسه إلى جواره في الصورة ، ولكنه يقصر صورته على العظيم أو البطل ، فيجلوها ويمنحها التناسب في المسافات والتناسق في الألوان ويضفي عليها من عنده أرضية أو خلفية تعين على إبراز الصورة ، ويسكب عليها من روحه ما يجعلها تحفة فنية .

وهكذا الشأن مع تطور فن المديح في العصر العباسي ، فنجد بشارا يمدح قائلاً :

وزرت همـامـا بصبـح القـوم حـولـه	عكـوفـا عليهم ذلـة وخضـوع
ولما التقينـا سـابـق الحمـد جـوده	فـأجـدى وجـود الطـالبين سريـع
وأمـلاك صـدق البستي طرازهم	قصـائـد مـالي غيرهن شفيـع
وغيث إذا مـا لاح أومض برقـه	كما أومضت تحت الرداء خريـع

(١) العصر العباسي الأول ص ١٦٠ وما بعدها - للدكتور شوقي ضيف .

(٢) ديوان الأعشى - تحقيق د . محمد حسين ص ٥٩ .

على خشبات الملك منه مهابة — وفي الدرع عبل الساعدين قروع
تروح بأرزاق وتغدو بغارة — فأنت ذعاف مرة وربيع[3]

وهو في البيت الثالث يفخر بشعره ، ولكن من طرف خفي ، أو هو فخر المتواضع الذي يدرك أن وجوده في مجلس الخلفاء كان السبيل إليه هو تقديرهم لشعره وحسب ، فهو شفيعه إليهم ، وهم أملاك صدق حتى لا يختلطوا بغيرهم وحتى لو لبس ملبسهم أو جلس مجلسهم . أما بقية القصيدة فتتناول الممدوح متحدثة عن مهابته وخضوع الناس له كأنما ينظر إلى معنى الأعشى ، إذا طلع على القوم سكتوا قائمين ، وعن جوده ومقدرته الحربية ، ثم نعمه ونقمه ، كأنما ينظر في هذا أيضاً إلى بيت الأعشى .

ولم يتغير الوضع حتى في بيئة أخرى كالأندلس ففي ديوان ابن خفاجة مدائح عديدة ربما تغيرت المقدمة فيها من الأطلال إلى وصف الطبيعة الأندلسية وهو تغير طبيعي ، ولكن الشاعر متى انتقل إلى المديح انصرف نظره عما سواه ومهما طالت القصيدة وتجاوزت أبياتها الستين أو السبعين يظل الشاعر ينتقل من صفة إلى صفة كأنما يقيم حقيقة مثلاً أعلى يحتذى[4]

وإذا لم يكن للمكان تأثير كبير في قصيدة المديح ترى هل للزمان تأثير ؟ إن ديوان شوقي يجيب عن هذا السؤال ، ولعل من أشهر قصائده في المديح مطولته « صدى الحرب » التي ينظر فيها إلى قصيدة المتنبي « أغالب فيك الشوق والشوق أغلب » ومطلعها :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب — وينصر دين الله أيان تضرب

والقصيدة تزيد على مائتي بيت وتبدأ مباشرة بمدح الخليفة العثماني وتستمر على هذا النحو ، وإن حاول أن يوشيها بقصة جانبية (قصة زينب بنت عثمان) التي رأى معها قيام الفتنة ، ولكنه يخلص من ذلك إلى الخليفة الذي قضى على هذه الفتنة بحزم . ولكن الذي يهمنا هو ختامها :

أمولاي غنتك السيوف فأطربت — فهل ليراعي أن يغني فيطرب ؟؟
مدحتك والدنيا لسان وأهلها — جميعاً لسان يمليان وأكتب
أناول من شعر الخلافة ربها — وأكسو القوافي ما يدوم فيقشب

---

(٣) ديوان بشار تحقيق بدر الدين العلوي ص ١٥١ .

(٤) ديوان ابن خفاجة – راجع قصيدته في مدح الأمير أبي يحي بن إبراهيم – على سبيل المثال ص ١٢٨ .

وإني لطير النيــــــــل لا طير غيره | ومـا النيـل إلا من ريـاضـك يحسب
فـلا زلت كهف الـدين والهـادي الـذي | إلى الله بـــالـــزلفى لـــه نتقرب[٥]

ومن المؤكد أن تأثره بشخصية المتنبي في هذه القصيدة هو الذي دفعه إلى تلك النهاية ، بـدليل أننا لا نجد هذه الوقفة في ديوانه الأول (المطبوع ١٨٩٨) ، وكله في المـديح ، وعلى الرغم من ذلـك فأين هذه الوقفة المتواضعة من وقفات المتنبي ، إن الاستفهام نفسـه (هل ليراعى أن يغني ؟) فيـه معنى الخضوع ، بل هو ينظم مايردد الناس من مديح ، وهو بذلـك لا يكسو الخليفـة أو المـدوح قلائده ولكنه يكسو القوافي ، بمعنى أنه يأخذ ما يردد الناس فيصوغه شعراً يدوم بترديد النـاس لـه إما لأنه يسجل للخليفـة صفحـة نـاصعـة ، أو لجمـال الشعر نفسـه أو لكلا الأمرين . وحتى عنـدمـا افتخر بشعره ، عاد فرد الفخر كله إلى الخليفة ، لقد صور نفسه بعيـداً عن شعراء عصره ، ولكنـه لم يصور نفسه قريباً من الخليفة . وهكذا عرفنا المديح في الشعر العربي ، وهكذا كانت تقـاليـد هـذا الفن قبل أن ينضب معينه بعد جيل شوقي . وقد تتبدل صفات المديح أو الممدوح أو المثل العليا ، ولكن يبقى الفارق بين المادح والممدوح ملحوظاً ومرعياً .

ولعل أهم قضيـة تحتـاج إلى وقفـة طـويلـة ونحن نـدرس المتنبي هي مـوقفـه من سيف الـدولـة وشعره لـديـه في ضـوء نظريـة « جيرار » في الرغبـة المثلثـة واحتـذاء الغير التي عرضهـا في كتـابـه « الكذب الرومانتيكي والحقيقة الروائية » فهو يرى أن الإنسان لا يخلق رغبـاتـه بمعنى أنهـا لا تنبع من ذاتـه ولكن الرغبـات دائمـاً مستعـارة من الآخرين ، شيء أشبـه « بـالأصل والصـورة » . فكل واحـد منـا صـورة لـلآخر الـذي يـوحي لنـا برغبـاتنـا . وهـذا الآخر هـو مـايطلـق عليـه جيرار « الوسيط » فعنده أنه باستثناء حاجاتنا العضوية الخالصة كالجوع والعطش ، فكل رغباتنا مستعارة من الآخر .

لقد اعترف علم النفس منذ أمد طويل بأهمية المحاكاة في الحياة النفسية ، ولكنه قصر أثرهـا على القشرة العليا من الشخصية ، ولكن تحت هذه القشرة الخارجيـة يكمن الجزء الحقيقي من الشخصيـة أو « الأنا العميقة » ويمكن تمثيل ذلـك بمثلث لـه رؤوس ثلاثـة هي الـذات (الإنسـان الراغب) ، الموضوع (الشيء المرغوب) الوسيط (الآخر الذي يملي على الإنسان الرغبة أو يدفعه إليها) .

وإذا كان الـوسيـط أسمى من الـذات فـإن الـذات لا تطمـع في المنـافســة ويقتصر الجهـد على

---

(٥) الشوقيات جـ ١ ص ٦٠ .

التقليد . وهذه هي الصورة الخارجية للوساطة ، حيث لا يختلط مجال الآخر بمجال المقلد ، فهناك بعد كاف بينهما . غير أن هذا البعد قد يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى يحدث اندماج كامل ، وهذه هي صورة الوساطة الداخلية ، الوساطة الخارجية إذن بغير منافسة ، فالطفل يمكن أن يقلد البالغ ولكن بغير إرادة تجريده مما يملك ، ولذلك فالصورة الخارجية للوساطة صورة طيبة . ولكن في الصورة الداخلية للوساطة نجد أن الوسيط والمقلد يريدان نفس الشيء ، فتقليد من يساويك يعني في نفس الوقت أن تعجب به وأن تكرهه . وقد يولد ذلك ، الشعور بالغيرة لأن الآخر أو الوسيط الذي يمتلك الشيء المطلوب يصبح النموذج والعقبة في الوقت نفسه .

ولكن التدرج الاجتماعي الصارم والحواجز الطبقية المتبعة في المجتمع القديم كانت تخلق للمكانة في المجتمع سمواً ورفعة معترفاً بها من الكافة . كان يسمح لمن هو أدنى أن يقلد النموذج بغير أن يتنافس معه . كان أعضاء الطبقة الأرستقراطية مثلاً يقلدون الملك بغير أن يتنافسوا معه من ناحية ، ومن غير أن يحسوا بالمهانة من ناحية أخرى . كان التقليد شعورياً ومقبولاً ، والمجتمع القديم بذلك كانت تسوده الوساطة الخارجية في كثير من الأحيان . ولكن في المجتمع الحديث تحطمت كثير من الحواجز الطبقية ، ولم يعد للتدرج الاجتماعي القائم على عراقة المنبت والأصل سطوته القديمة . ومعنى ذلك أن الوسيط أو النموذج أصبح هو « النظير » بمعنى أن الإنسان يتطلع الآن أساساً إلى نظرائه ، وهكذا تتغير صورة الوساطة فهي تنتقل من الشعور إلى اللاشعور ويجهد الإنسان في إخفائها . وتصبح الرغبة أكثر عمقاً كلما كان الوسيط أقرب إلى الذات الراغبة . وإذا كانت المنافسة يمكن أن تؤدي إلى الحصول على المزايا المادية ، إلا أنها مصدر لآلام روحية لا نهاية لها . لأن الرخاء لا يتحقق بمجرد توافر السلع مثلاً مهما كانت رغبة الإنسان فيها ، ولأن سعي الإنسان للحصول على المكانة في المجتمع أكثر أهمية والمكانة لا يمكن تقاسمها مع ما يترتب عليها من مميزات اقتصادية . والمساواة لا توجد أبداً لأنها تقتل الرغبات الإنسانية ، فحينما تشبع حاجات الإنسان المادية ، سرعان ما يسعى لاختراع امتيازات جديدة ، ويظل يخلق بلا انقطاع طوائف متميزة جديدة ، ودوائر مغلقة جديدة ، مقصورة على بعض أعضاء المجتمع دون غيرهم .

أليس معنى كل هذا أن الإنسان ضعيف ويعلم أنه ضعيف ، وأن الإعجاب الذي يمنحه للآخرين ليس سوى انعكاس لإحساسه الخفي وضآلة شأنه . مهما حاول أن يغطي هذا الإحساس بضروب من العظمة الشكلية أو الوهمية . وجيرار هنا يحاول أن يحلل الصيغة الإنسانية ويربط

ذلك بالنفاذ إلى جوهر العمل الأدبي في تطبيقاته على الرواية[٦] ولكن هل معنى ذلك أن هذه النظرية لا تقدم أي فلسفة للتقدم ؟ أليس في الصراع الإنساني الأزلي من أجل المنافسة أو التفوق أو حتى الوصول إلى النظائر ما يدفع الإنسانية كلها إلى التقدم بغض النظر عن حسد القاعدين ؟ تلك هي على أية حال نظرية جيرار ، وهي جديرة بالوقوف عندها مرة ثانية عند التطبيق وفي ضوء الدراسة لشعر المتنبي .

تشكل مرحلة اتصال المتنبي بسيف الدولة مرحلة وجود الذات ، وسوف نتتبع شعره في رحابه ، ونرى تطوره لندرك سمات هذا الوجود وحقيقته . كانت أول قصيدة مدح بها المتنبي سيف الدولة ، تلك التي مطلعها : « وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه » ، وإذا تركنا هذه المحاولة التي قصد بها المتنبي أن يتعب اللغويين في أبياته الأولى وجدنا رغبة دفينة تفصح عن نفسها على لسانه :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها	وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

إنه ما يزال يذكر قصة يوم أن ذهب يشتري البطيخ ، ورفض البائع أن يبيعه إياه بكل ما معه من دراهم ، وباعه في نفس اللحظة بسعر أقل لتاجر ثري يملك مائة ألف دينار . إن المال إذن هو مقياس الناس ، ومائة ألف دينار يمكن أن ترفع الإنسان فوق مصاف الناس . ولكنه أيضاً ما يزال يغطي كل أحاسيسه الدفينة بغطاء من العظمة يستعرضها أمام الممدوح :

كئيباً توقاني العواذل في الهوى	كما يتوقى ريض الخيل حازمة ...
فلا يتهمني الكاشحون فإنني	رعيت الردى حتى حلت لي علاقمه

فما صورة الممدوح أو البطل في عيني المتنبي ؟ صاحب الملك الذي يطمع فيه ولا يستطيعه ، صاحب الكرم الذي يجني من ورائه الغني ، أما ما وراء ذلك فكان لديه : القوة والشجاعة ، وإن اختلف الموقف لأن الأمير قائد جيش ، والمجد الذي يحققه الأمير لنفسه بانتصاراته يحققه المتنبي الآن لنفسه عن طريق الفن . « تقبل أفواه الملوك بساطة » « له عسكرا خيل وطير إذا رمى ، بها عسكرا لم تبق إلا جماجه » ، « وخاطبت بحرا لا يرى العبر عائمه » « لقد سل سيف الدولة المجد معلما » . وفي غمرة حديثه عن البطل وخلال مديحه له ، يحس أن مجده هو الآخر يحتاج إلى وقفة إلى جواره أمجاد الأمير ، فيرتفع صوته ليسكت الصوت الخفي في أعماقه الذي أحس بشيء من

(٦) راجع الفصل الأول بعنوان « الرغبة المثلثة » من كتاب « الكذب الرومانتيكي والحقيقة الروائية » تأليف رينيه جيرار – طبعة باريس – ١٩٨٢ .

المهانة وهو يضع القلائد واحدة إثر الأخرى على صدر الممدوح ، فهو ليس عاطلاً منها :

غضبت لـه لمـا رأيت صفـاتــه بـلا واصف والشعر تهـذي طماطمـه
وكنت إذا يممت أرضـاً بعيـدة سريت فكنت السر والليـل كاتمـه[٧]

وهكذا تنتهي القصيدة والذات واضحة ولكن المسافة بينها وبين الأمير (الآخر) موجودة فهو الأمنية وهو الحائل كما يقول جيرار .

ويمدحه في قصيدة أخرى بحلول العيد ، ثم يتوقف قرب نهاية القصيدة قائلاً :

أزل حسـد الحسـاد عني بكبتهم فـأنت الـذي صيرتهم لي حسـدا
إذا شـد زنـدي حسن رأيـك في يـدي ضربت بنصـل يقطـع الهـام مغمـدا
ومـا أنـا إلا سمهري حملتـه فـزين معروضـا وراع مسـددا
ومـا الـدهر إلا من رواة قصـائـدي إذا قلت شعراً أصبـح الـدهر منشـدا
فسـار بـه من لا يسير مشمرا وغنى بـه من لا يغنى مغـردا
أجـزني إذا أنشـدت مـدحـا فـإنمـا بشعري أتـاك المـادحـون مـرددا
ودع كل صـوت بعـد صـوتي فـإنـني أنـا الصـادح المحكى والآخر الصـدى[٨]

تبرز « الأنا » قوية ، فتشكل هذه الظاهرة الغريبـة في فن المـديح ، أو بعبـارة أخرى المـديح المعكوس الذي يتناول فيه الشاعر ذاتـه مبلوراً عبقريتـه « ضربت بنصل يقطع الهام مغمـداً » ولو مدح الأمير بهذا لكان ذلك السيف الـذي يقطع الرقـاب وهو في الغمد من جيـد المـديح . وهكـذا الشأن في « السمهري الذي يروع مسدداً » .

إنه بطل آخر يحكي عن أمجاده ، ويتغنى الدهر بأناشيده التي يرددها النـاس – ومنهم الأمير – وتخلد على الزمن قصائده شاهـدة على عبقريتـه . وهنـا يلتفت إلى الأمير – وهو مـا يزال في غمرة انفعاله بـأمجـاده – طـالبـاً منـه أن يجيزه ، ويـأتي الفعل عـالي النغم كأنـه الأمر ، ويتكرر الطلب العنيف أو الأمر « ودع كل صوت بعد صوتي » فقد ردد الشعراء أصداء أقوالـه . إنـه لا يضع نفسـه إلى جوار الممدوح وحسب ، ولكنه يسجل أيضاً أمجـاد الأمير وأمجـاده ، وعظمـة الأمير وعظمتـه .

---

(٧) الديوان ص ٢٤٨ .
(٨) الديوان ص ٣٦١ .

ولكن بماذا وصف الأمير ؟ أبا الذكاء وعلو الهمة والجود ؟ لقد وصف نفسه بالذكاء في قصيدة أخرى « تصفوا الحياة لجاهل أو غافل .... » وبعلو الهمة « وتركك في الدنيا دويا كأنما ، تداول سمع المرء أنمله العشر » ، لعل الأمر الوحيد الذي لم يستطع أن يجاري فيه الأمير هو العطاء ، ولكنه عطاء فان مقابل مديح خالد .

ولكننا نلاحظ أيضاً في السيفيات صورة البطل واضحة إلى حد كبير وإشاعة الحركة الدرامية فيها ، فهي ليست مجرد مدائح أو تعديد أوصاف ولكنها أقرب إلى المشاهد والصورة المتحركة المعتمدة على النقلات المفاجئة والالتفات . فهو في قصيدته « إذا كان مدح النسيب المقدم » يسترجع بطولاته ثم يخلص منها إلى قوله :

ضلالا لهذي الريح ماذا تريده ؟ ... وهديا لهذا السيل ماذا يؤمم ؟[٩]
ألم يسأل الوبل الذي رام ثنينا ... فيخبره عنك الحديد المثلم

إن هذه الالتفاتات وتلك الاستفهامات المتلاحقة ، تنقل السامع من الاستعراض البطولي الماضي إلى الحاضر ، وتشيع في الموقف حيوية الحوار ، الذي ندرك منه توقف الجيش حتى تهدأ الطبيعة ، ثم يعود إلى السرد :

ولما تلقاك السحاب بصوبه ... تلقاه أعلى منه كعبا وأكرم
فباشر وجها طالما باشر القنا ... وبل ثيابا طالما بلها الدم

إن الصورة الداكنة للدم تملأ السيفيات وترمز إلى الحروب المتصلة التي خاضها البطل العربي . ولكن صورة السحاب والماء ليست أقل تردداً في السيفيات ، وهي كفيلة بأن تغسل تلك الدماء ، إنها السلام والخير والعطاء الكثير مما تنتزع السيوف في الحرب من أسلاب . ثم تبرز في النهاية صورة البطل :

على كل طاو تحت طاو كأنه ... من الدم يسقى أو من اللحم يطعم
لها في الوغى زي الفوارس فوقها ... فكل حصان دارع متلثم
أتحسب بيض الهند أصلك أصلها ... وأنك منها ؟ ساء ما تتوهم
إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا ... من التيه من أغمادها تتبسم

---

(٩) الديوان ٢٩٢ .

إنها صورة الفرسان أنحلهم طول القتال ، فوق خيلهم الضامرة ، وتعود لغة الدم ثانية ، ولكن عنف الصورة يبدو من هؤلاء الملثمة ومن هاتيك الدروع ، ثم يأتي الاستفهام والالتفات فيدفعان إلى شيء من التأمل في هذا البطل الذي تتيه السيوف في أغمادها إذا انتهت إليه أو ذكر اسمه .

وتبرز صور البطل في أبيات أخرى وفي موقف آخر ، حين تشتد المعركة ويفر كل ضعيف ، ويندفع جواده من عنف الطعان محاولاً الهرب وقد غطت الدماء جسده فيثبته الفارس ويوقفه عن التراجع :

وفارس الخيل من خفت فوقرها   في الدرب والدم في أعطافها دفع[١٠]
وأوحدته وما في قلبه قلق   وأغضبته وما في لفظه قذع

ثم تتضح معالم البطل بعض الشيء ، فيبدو سيف الدولة قائداً للجيش ، كل هذا وسط المونولوج « أأطرح المجد عن كتفي وأطلبه ، وأترك الغيث في غمدي وأنتجع ؟ » « وما الحياة ونفسي بعد ما علمت ، أن الحياة كما لا تشتهي طبع ؟ » ثم يحكي وقائع البطل كأنه يقوم بدور « الجوقة » هنا :

لا يعتفي بلد مسراه عن بلد   كالموت ليس له ري ولا شبع

ثم يشيع الحركة السريعة بهذه المصادر المتلاحقة :

للسبي وما نكحوا والقتل ماولدوا   والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وينتقل المشهد إلى الجانب الآخر ، إلى الدمستق[١١]وهو منفعل يسب لأن عينيه خانتاه فظن الجيوش سحاباً متفرقاً . ثم يبدأ مشهد ثالث والمعركة دائرة . وتنتهي الملحمة الحربية بموسيقى الجيش وقرع طبولها يصم الآذان على الرغم من كل شيء :

الدهر معتذر والسيف منتظر   وأرضهم لك مصطاف ومرتبع

وتتكرر صورة البطل دون تبديل تقريباً فهو دائماً غائم الملامح أو ملثم كما صرح قبل ذلك ، وهو دائماً خفيف على فرسه الضامر مسلح بالدروع والسيوف عنيد في القتال سريع البديهة في

---

(١٠) الديوان ص ٣٠٢ .

(١١) الدمستق تعريب للكلمة الفرنسية بمعنى خادم المسيح Domestique .

المعركة شجاع مغامر في قتاله صبور على حر القتال :

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدى ... وما علموا أن السهام خيول[12]
همام إذا ما هم أمضى همومه ... بأرعن ، وطء الموت فيه ثقيل
وفي كل نفس ما خلاه ملالة ... وفي كل سيف ما خلاه فلول
فلما رأوه وحده قبل جيشه ... دروا أن كل العالمين فضول

ولا تتم الصورة في كثير من الأحيان إلا ونرى إلى جوار البطل صورة المتنبي الشاعر الخالد ، الذي أتعب حساده كما أتعب البطل أعداءه ، كلاهما تفرد بعبقرية خاصة .

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله ... إذ القول قبل القائلين مقول
أعادي على ما يوجب الحب للفتى ... واهدأ والأفكار في تجول
وإنا لنلقي الحادثات بأنفس ... كثير الرزايا عندهن قليل

ويستمر في شعره واضعاً صورته إلى جوار صورة سيف الدولة ، بعد أن يتحدث عن بطولة الممدوح ، ويستغرق في ذلك استغراقاً رائعاً ، ألم يكن ممن شاركوا بسيوفهم في ذلك المجد فكان إلى جوار سيف الدولة في معاركه ؟

إنه حديث عام ينسى الشاعر فيه نفسه ويتحدث عن البطولة في المعارك والمغالبة في القتال ، فإذا انتقل إلى سيف الدولة بعد أن يعود إلى الموقف - موقف المديح - تناول الشجاعة في الميدان .

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

ولكن هذه الصورة على روعتها ، صورة البطل في خضم الموت وقد ابتلع الموت كل شيء سوى البطل ، كأنه يقدر البطولة أو كأنه في جفن الموت وهو غافل عنه ، ألم يصف بها نفسه أو يقترب عنها حين أفرد نفسه بالشجاعة النادرة التي دفعت الدنيا إلى الإعجاب به والتعجب من جرأته ؟

صحبت في الفلوات الوحش منفرداً ... حتى تعجب مني القور والأكم[13]

---

(١٢) الديوان ٣٤٨ .

(١٣) الديوان ص ٣٢٤ .

هكذا نراه في نهاية القصيدة على أية حال ، يقف إلى جوار سيف الدولة :

لك الحمد في الدر الذي لي لفظة ... فإنك معطيه وإني ناظم
وإني لتعدو بي عطاياك في الوغى ... فلا أنا مذموم ولا أنت نادم

إننا نحس أمراً آخر جديداً في هذا المديح ، فسيف الدولة شاب والمتنبي شاب وسيف الدولة شاعر والمتنبي شاعر ، وسيف الدولة عربي متعصب لعروبته والمتنبي عربي متعصب لعروبته وسيف الدولة فارس والمتنبي فارس ، ولذلك فصورة البطل تجمع أهم هذه الصفات المشتركة وتتوارى فيها ملامح الوجه ، أتراه سيف الدولة أم تراه المتنبي نفسه ، إن المسافة تزول ويحدث شيء يشبه التطابق ، خاصة إذا كان الأمر أمر بطولة وعلو همة .

« وقال يمدحه ويذكر هذه الغزاة وأنه لم يتم قصد خرشنة بسبب الثلج وهجوم الشتاء » :

أهم بشيء والليالي كأنها ... تطاردني عن كونه وأطارد[14]
وحيد من الخلان في كل بلدة ... إذا عظم المطلوب قل المساعد
وتسعدني في غمرة بعد غمرة ... سبوح لها منها عليها شواهد
تثنى على قدر الطعان كأنما ... مفاصلها تحت الرماح مراود
وأورد نفسي والمهند في يدي ... موارد لا يصدرن من لا يجالد
ولكن إذا لم يحمل القلب كفه ... على حاله لم يحمل الكف ساعد

أتراه يتحدث هنا عن سيف الدولة وقد هم بالمعركة فمنعته الأقدار ، وعن وحدته في جهاد الروم بينما الملوك من حوله ينغمسون في لذاتهم ؟ إنها صورة بطل فوق فرسه يخرج من معمعة ليدخل أخرى والسيف في يده ، يلقي بنفسه إلقاء ويقتحم اقتحاماً موارد الموت ، ولكن ملامح هذا الفارس مازالت غائمة بعض الشيء ، بل هي صورة المتنبي نفسه وقد هم بالملك فأعجزته الليالي . وتركته وحيداً ، انفض عنه الثائرون بعد فشله وخرج مطارداً وحيداً ، يتكسب بفنه ، حتى الشعراء من أمثاله حسدوه على نبوغه ، ولكن الأمل مايزال يداعبه ، والقوة لم تفارقه ، والشجاعة زاده والفروسية صورته في معركة الحياة الضارية .

ويتكرر الموقف في معركة أخرى من المعارك التي لا تهدأ حين ينشد المتنبي الأمير في الميدان :

---

(١٤) الديوان ص ٣١١ .

نـزور ديـــاراً مـــا نحب لهـــا مغنى ... ونســأل فيهـا غير ســاكنهـا الإذنـــا[15]
نقـود إليهـا الآخـذات لنـا الصـدى ... عليهـا الكمـاة المحسنـون بهـا ظنـا
وقـــد علم الروم الشـقيـون أننـــا ... إذا مـا تركنا أرضنا خلفنـا عـدنـا
وأنــا إذا مــا المـوت صرح في الـوغى ... لبسنا إلى حـاجـاتنـا الضرب والطعنـا
قصـدنــا لـه قصـد الحبيب لقـاؤه ... إلينـا وقلنـــا للسـيـوف هلمنـــا
وخيـل حشونـاهـا الأسـنـة بعـــد مـا ... تكـدس من هنـا علينـا ومن هنـا
ضربن إلينـا بـالسـيـاط جهـــالـة ... فلمـا تعـارفنـــا ضربن بهـا عنـا
تعـدّ القرى والمس بنـا الجيش لمســة ... نبـــار إلى مـــا تشتهي يـــدك اليمـنى
فقـــد بردت فـوق اللقــان دمــاؤهـم ... ونحن أنــاس نتبـع البـــارد السـخنـا
وإن كنت سيف الـدولـة العضب فيهـم ... فدعنا نكن قبـل الضـراب القنـا اللـدنـا

إن « نا الفاعلين » تجول في القصيدة جولات لها ماوراءها ، لقد تضخمت الأنا حتى استحالت الرؤية ، أو حتى حدث التطابق بين الـذات والمطلوب والغير - كما يقول جيرار - فمن الـذي يزور ويقود ويقصـد ويحشـو الأسنـة ؟ « نحن » ، ومن الـذي يصـادم الروم ويعـود إليهم مرة بعـد مرة وينتصر عليهم ؟ نحن ، أو على وجه الدقة المتنبي وسيف الدولة كلاهما فـارس شجـاع ذاق المعـارك مع الروم وعرف الهزيمة حيناً والنصر أحياناً كثيرة . لقـد وجـد نفسـه أخيراً وحقق ذاتـه إلى جوار سيف الدولة ، فلم تعد الثورة المكبوتة تجد مكانها في شعره . ما الذي نتوقع إذن عندمـا تحس هـذه الذات بأنها جرحت أو مست ؟ إنها تتجاوز الآخر وتعلو عليه . وهـذا مـاحـدث ومـا عبر عنـه في قصيدته التي هدد فيها بالرحيل عن سيف الدولة والتي مطلعها :

« واحــر قلبـاه ممن قلبـه شبم » :

أنـــــا الـــــذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلمـــــاتي من بـــــه صمـــم[16]
أنـــام مـلء جفـوني عن شـواردهـــا ... ويسهر الخلـــق جراهـــــا ويختصـم
وجـــاهـــل مـــده في جهلـــه ضحكي ... حتى أتتـــــه يـــــد فراســـــة وفـــم
إذا رأيت نيــــوب الليث بـــــارزة ... فـــــــــلا تظنن أن الليث يبتسـم
ومهجـــة مهجتي من هم صـــاحبهـــا ... أدركتهـــــــا بجـــــواد ظهره حـــرم

(١٥) الديوان ص ٣٠٨ .

(١٦) ديوان المتنبي ص ٣٢٣ .

رجلاه في الركض رجل واليدان يد — وفعله ما تريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الموجتين به — حتى خرجت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني — والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفردا — حتى تعجب مني القور والأكم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم — ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي — أنا الثريا وذان الشيب والهرم
أرى النوى تقتضيني كل مرحلة — لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا — ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا — ألا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد بلاد لا صديق بها — وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتي قنص — شهب البزاة سواء فيه والرخم

لقد طعن فيا بقى له ، في فنه ، وقد كان يجد في سيف الدولة العوض عن الملك والبطولة ، وتتحقق ذاته عن طريق التطابق مع الآخر – مع سيف الدولة – ولذلك تأخذ الذات الجانب المقابل إلى نهايته لرد الاعتبار والتعويض . « أنا الذي نظر الأعمى إلى إدبي » ثم تتجاوز هذا الموقف في محاولة اجتياز ميزات الآخر وسلبها » . « فالخيل والليل والبيداء تعرفني » تماماً كما تعرف سيف الدولة الذي كان يجتازها بجيوشه ، ولذا يأتي البيت التالي « صحبت في الفلوات الوحش منفردا » إنه لم يصحب بشرا ولكنه صحب الوحش ، ولم يحمه جيش في الفلوات ، ولكنه اعتمد على سيفه وحده ، وتلك قمة الشجاعة والبطولة لأنه بغير حاجة إلى حماية . ثم تشتد نبرته وهو يحاول ستر نقائصه أو بعبارة أخرى ليعلو صوته فوق صوت الذات في موقف ضعفها « ما أبعد العيب والنقصان من شرفي » « أنا الثريا » . ثم تهدأ انفعالاته وهو يتصور الفراق ، ويتخيل سيف الدولة نادماً لأنه الطرف الخاسر والجانب الضعيف . وهكذا نرى نظرية « جيرار » صحيحة في هذه المحاولة لتطبيقها ، خاصة إذا كان الشاعر المتنبي والممدوح سيف الدولة ، فنقاط الالتقاء كبيرة ، بالرغم مما بينهما من فروق . ولعل النظرية بحاجة إلى إشباع قبل أن ننتهي منها ، فلننظر في هذه القصيدة التي قالها بعد فراق سيف الدولة :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً — وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى — صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا

إذا كنت ترضى أن تعيش بـــــذلــــة	فــلا تستعـــدن الحســـــام اليمانيـــا
ولا تستطيلن الرمـــــاح لغـــــارة	ولا تستجيـــدن العتــاق المـــذاكيـــا
فمــا ينفــع الأســد الحيــاء من الطـــوى	ولا تتقى حتى تكــون ضــواريـــــا
حببتــك قلبي قبــل حبــك من نـــأى	وقـــد كان غـــداراً فكن لى وافيــــا
وأعلم أن البين يشكيــــك بعـــــده	فلست فـؤادي إن رأيتــك شـــاكيــا
فـــإن دمــوع العين غـــدر بربهـــا	إذا كن إثر الغـــادرين جـواريـــــا
إذا الجـود لم يرزق خــلاصــا من الأذى	فـلا الحمـد مكسـوبـا ولا المـال بـاقيـــا
قـــواصــــد كافــور تـــوارك غـــيره	ومن قصـد البحر استقــل الســواقيـــا
وغير كثير أن يـــــزورك راجــــل	فيرجــــع ملكا للعراقين واليـــــــا[١٧]

انفصلت ذاته عن التلبس وأبى التوحد بشخصيـة الأمير العربي سيف الـدولـة وعـاد إلى نفسـه ، فأحس بكل نقاط ضعفه عارية فتمنى الموت . ليس له في الآبـاء مـا يفخر بـه وإنمـا لـه مـا يؤذيـه وليس لـه من كل آمـالـه إلا الحطـام ، وليس لـه حتى من الأصـدقـاء إلا من تحول قلبـه أو جـاهر بالعداء ، ثم يحس أن كبرياءه قد جرحت فيأبى الضيم أو يرفض الـذل كما يرفضـه الأسـد الجريح ، وتدفعه عزة نفسه إلى الثورة ، ولكنه يعـود فيتهالك لأنـه يثـور على شقـه الآخر المتمم لـه أو على ذاته ، ولأول مرة نرى عبرة البطل تسقط ، غير أنه يمسحها بسرعة الغـاضب لأنهـا تكشف عواطفـه وتظهره ضعيفـاً ، وهـو مـا لا ينبغي أن يظهر بـه حتى أمـام نفســه ، مهما كانت تحمـل من معنى الوفاء . ومن الواضح أن شعاعاً من الأمل يلمع في نهايـة الموقف ، ترى أيتحقق حلمـه الأول الـذي نسيه أيام سيف الدولة ؟ أيمكن أن يكون أميراً أو والياً عن طريق القلم بعد أن توقف عن تحقيقـه عنوة عن طريق السيف منـذ التقي بـالأمير العربي ؟ أتراه يحقق هـدفـه عنـد كافـور ؟ لقـد سعى كافور إليه ولم يسع هو إلى كافور ، كما سعى من قبل سيف الدولة إليه . إنه يداور ويجس الأرض تحت قدمه مع كافور « وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يرى من الشعراء »[١٨]!

أحس بذاته منفصلة عن ممدوحه وبآماله ترتد إليه وبعزيمتـه في صورتهـا السـابقـة ، ولكن أين مضاء تلك العزيمة وأين قدرتها على الفعل العظيم ، فتخرج من أعماقه تلك الآهة :

ليت الحــوادث بــاعتني الــذي أخـــذت	منى بحلمي الـــــــذي أعطت وتجريبي

(١٧) الديوان ص ٤٣٩ .

(١٨) الديوان ص ٤٤٦ .

وما قيمة التجارب في حياة الإنسان إذا كانت كلها مرة الطعم نهايتها الإخفاق . لقد ضاعت أحلى أيام العمر في هذه التجارب ، ضاع الشباب والفتوة والثورة ، وإن لم تضع الأحلام ولا وهنت الإرادة . وكل صلته بكافور محورها المداورة كأنه يتحسس نواياه :

كأن كل سؤال في مسامعه	قميص يوسف في أجفان يعقوب
قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم	إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته	ولا يمن على آثار موهوب
وجدت أنفع مال كنت أذخره	ما في السوابق من جرى وتقريب
لما رأين صروف الدهر تغدر بي	وفين لي ووفت صم الأنابيب
فتن المهالك حتى قال قائلها	ماذا لقينا من الجرد السراحيب ؟
تهوى بمنجرد ليست مذاهبه	للبس ثوب ومأكول ومشروب
يرمي النجوم بعيني من يحاولها	كأنها سلب في عين مسلوب

لقد رد قميص يوسف إلى يعقوب العافية ترى هل يتفتح قلب الممدوح ويهم بالعطاء الكبير، كما تفتح قلب يعقوب وعينه لقميص يوسف ؟ « إلى الذي تهب الدولات راحته » إنه الحلم الكبير الذي لا يزال يحلم به . أراد أن يجرب السيف حيناً في المرحلة الأولى من أجله ومن أجل آماله العريضة فعجز ، ثم أحس أنها تحققت هناك في رحاب الأمير العربي يوم كان يقوله له « رضاك رضاي الذي أوثر ، وسرك سرى فما أظهر »[19]أو بعبارة أخرى يوم تطابقت الشخصيتان ، أما اليوم فقد ارتكزت آماله حول حلم كبير من أحلامه القديمة ، فليس همه « لبس ثوب ومأكول ومشروب » وإنما همه الملك ، همه المجد ومطاولة النجوم وسبيله إلى ذلك فرسه وقلمه « أعز مكان في الدنى سرج سابح ، وخير جليس في الزمان كتاب »[20]

ويحوم حول آماله مرة ومرات :

إذا كنت في شك من السيف فابله	فإما تنفيه وإما تعده
وما رغبتي في عسجد أستفيده	ولكنها في مفخر أستجيده[21]

(١٩) الديوان ٣٤٤ .

(٢٠) الديوان ٤٨٠ .

(٢١) الديوان ٤٥٤ .

أين ذلك الفتى الثائر الذي عهدناه من قبل وأين ذلك البطل الذي أراد أن يخترق حاجز المكان والزمان ويفرض نفسه على سمع الدنيا وبصرها ؟ حقيقة هو مايزال ذلك السيف القديم ولكنه اليوم في يد غيره وإن لم يطامن كثيراً من مطامحه . إن الطموح هو عذاب البشرية ولذتها وحلمها في نفس الوقت ، ولكنه يفقد أمله يوماً بعد يوم ، ويحن إلى الماضي الذي يجذبه جذباً عنيفاً ، ويحس نفسه مضيعة فهل تبرر الغاية الواسطة ؟ هل يمدح كافورا وهو لا يحترمه ؟ إنه ساخط على نفسه وعلى ممدوحه « أريك الرضا لو أخفت النفس خافياً ، وما أنا عن نفسي ولا عنك راضياً »[٢٢] بل هو حزين حتى الموت يتلاعب بالألفاظ ويتعزى بوصف فرسه أو صديقه ورفيقه في رحلة الحياة الشاقة :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب	وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
أما تغلط الأيام فيّ بأن أرى	بغيضاً تنائى أو حبيباً تقرب
ويوم كليل العاشقين كنته	أراقب فيه الشمس أيان تغرب
وعيني إلى أذنيْ أغر كأنه	عن الليل باق بين عينيه كوكب
وما الخيل إلا كالصديق قليلة	وإن كثرت في عين من لا يجرب
لحى الله ذي الدنيا مناخا لراكب	فكل بعيد الهم فيها معذب[٢٣]

وفي غمرة هذه الحيرة يبلغ به الضعف النفسي منتهاه فيمد يده إلى كافور مستجدياً في بيت مازال يأخذه عليه النقاد والدارسون « أبا المسك هل في الكأس فضل أناله ، فإني أغنى منذ حين وتشرب ؟[٢٤]» لو قاله غيره لسكت الناس عنه . لقد كان جرير يستجدي العطاء فيقول : « أشكو إليك فأشتكي ذرية ، لا يشبعون وأمهم لا تشبع . كثروا عليّ فما يموت كبيرهم حتى الحساب ولا الصغير المرضع » أو يقول : « أغثني يافداك أبي وأمي » ولكننا لا نحب أن نرى الأبطال في مواقف الضعفاء وإن كانوا بشراً مثلنا .

إنه التهالك ومحاولة فلسفة الموقف عن طريق اللامبالاة . ولكن أحزانه تهز كيانه كله هزاً عنيفاً والغربة والوحدة تفعلان بنفسه الأفاعيل وإن حاول أن يبدو متماسكاً :

بِمَ التعلل لا أهل ولا وطن	ولا نديم ولا كأس ولا سكن

(٢٢) الديوان ٤٤٣ .

(٢٣) الديوان ص ٤٦٥ .

(٢٤) الديوان ص ٤٦٥ .

أريـــــــد من زمني ذا أن يبلغني	مـا ليس يبلغه من نفسه الزمن
لا تلـــــق دهرك إلا غير مكترث	مادام يصحب فيه روحك البدن
فما يديم سروراً ما سررت به	ولا يرد عليك الفائت الحزن[٢٥]

وتستمر محاولة فلسفة الموقف لتغطية التراجع بل الهزيمة أمام الزمن ، ألم ينل الزمن منه بينما هو عاجز عن تحقيق أمجاده وانتصاراته التي كان يحلم بها ، والعمر يجري مسرعاً عجلا لا يتأنى ولا يتلبث ، يفنيه الزمن . فما قيمة الصراع إذن ؟ إنه مجرد خاطر يمر بذهنه ولكنه قد يعني الاستسلام الكامل للزمن ، ولذلك ينفيه على وجه السرعة ، لأن الشجاعة تتناقض مع الاستسلام . والموت أكرم من الرضى بالهوان :

صحب النـاس قبلنا ذا الزمانا	وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه	وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه	ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم نرض فينا بريب الدهر	حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة	ركّب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن	تتعادى فيه وأن تتفانى
غير أن الفتى يلاقي المنايا	كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحي	لعددنا أضلنا الشجعانا[٢٦]

ولكن أي هوان هذا الذي يذوقه في حياته بمصر ؟ فلا هو راض عن مديحه لكافور ولا هو يحقق آماله لديه مهما طال به الزمن ، ولا هو حتى بقادر على الرحيل إلا أن يركب جناح الليل ويفر فراراً كالسجين « إذا سرنا عن الفسطاط يوماً ، فلقنى الفوارس والرجالا . لتعلم قدر من فارقت مني ، وأنك رمت من ضيمي محالاً »[٢٧]وتلوح له فرصة الرحيل أو الهرب سنة خمسين وثلثمائة » فيفرغ كل ما في نفسه من انفعالات في أبياته التي تركها قبل رحيله :

عيد بأية حال عدت يا عيد	بما مضى أم لأمر فيه تجديد[٢٨]

(٢٦) الديوان ص ٤٧٠ .

(٢٧) الديوان ص ٤٨٥ .

(٢٨) الديوان ص ٤٨٥ .

أمـا الأحبـة فـالبيـداء دونهـم فليت دونـك بيـدا دونهـا بيـد

فالعيد يأتي على منوال الأيام الماضية يأتي نكرة كحاضره ، أليس من نسيج الزمن الذي يعانده ؟ لا جديد فيه سوى العزم على الرحيل وحنينه حنين طويل يصل إلى أن يذيب الشاعر نفسه في أثر أحبابه وإن كنا لم نعرف له أحباباً من قبل ولا شك أنه يشير إلى سيف الدولة ، أليس القائل : « فلو كان ما بي من حبيب مقنع ، عذرت ولكن من حبيب معمم »[٢٩] إن ذكر سيف الدولة يدفعه دفعاً إلى التلفت للماضي ، فتنبعث أحزانه وتتفاوح شجونه ، ويدرك أن الزمن قد هزمه هزيمة مروعة ولم يترك في كأسه سوى الهموم التي ذوبها له ليتجرعها :

لم يترك الـدهر من قلبي ولا كبـدي شيئـاً تتيمـه عين ولا جيـد
يـا سـاقيي أخمـر في كئووسـكما أم في كئـووسكـما هم وتسهيـد ؟
أصخرة أنـا ، مـالي لا تحركني هـذي المـدام ولا هـذي الأغـاريـد ؟
إذا أردت كميت اللـون صـافيـة وجـدتهـا وحبيب النفس مفقـود
مـاذا لقيت من الـدنيـا وأعجبهـا أني بمـا أنـا بـاك منـه محسـود

إن محك الانهيار هو الهوان ، فإذا قبل الذل كان معناه الانهيار الكامل . لقد ترك سيف الدولة ، لمجرد الإحساس بما يمس الكبرياء ، فكيف يقبل أمام كافور استمرار المديح مع المراوغة في الوعود ؟ أليس القائل : « واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوي به الأجسام »[٣٠] « إن مجرد ذكر كافور يدفعه إلى الثورة وإلى السباب » ، ويلوذ بعزة نفسه التي كاد يلطخها كافور :

جـوعـان يـأكل من زادي ويمسكني لكي يقـال عظيم القـدر مقصـود
إن امرأ أمـة حبلى تـدبره لمستضـام سخين العين مفـؤود
ويلمهـا خطـة ويلم قـابلهـا لمثلهـا خلـق المهريـة القـود
وعنـدهـا لـذّ طعم الموت شـاربـه إن المنيـة عنـد الـذل قنـديـد

في مصر أحس بذاته مرة أخرى إحساساً عميقاً ولكنه أحس بها ضائعة عاجزة مهما صنعت كبرياؤه . كان الأمل الكبير يجتاحه في المرحلة الأولى من عمره ، كان يبحث عن ذاته وكان يرى الطريق مليئاً بالصعاب ، ولكن همته أكبر من كل صعب وإرادته أقوى من كل ممتنع وذاته أقدر

---

(٢٩) الديوان ص ٤٥٦ .

(٣٠) الديوان ص ١٤٩ .

على تحقيق الأمل ووسيلته هي الثورة أو الكلمة والسيف . الذات والآخر والدافع الموصل كلها تتفاعل . ثم حدث التطابق كما قلنا وحققت الذات نفسها عن طريقه ، الذات والآخر شيء واحد يتحقق في المرحلة الثانية من حياته بحيث توارى الدافع الملح ، ولكن ذاته اليوم عارية من جديد والدافع موجود والآخر موجود ، غير أنها مرحلة ضعف الذات وهزيمتها وإحساسها بهذا الضعف وبتلك الهزيمة ، ومن هنا تولد السخط الحاقد لا السخط الثائر الذي كنا نراه في المرحلة الأولى ويتجلى ذلك في هجائه لمدوحه وسخريته منه وعدم رضائه عن نفسه . وهكذا تتحقق نظرية جيرار ، تلك التي طبقها على مجموعة من الكتّاب الفرنسيين مثل ستندال وفلوبير وغير الفرنسيين مثل ديستوفسكي .

دراسة عن النقوش الصخرية في قطر

دكتور فتحي عفيفي بدوي
أستاذ مساعد بقسم التاريخ

لم يلق تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم ما يستحقه من جهود العلماء ودراساتهم المتعمقة على الرغم من الأهمية الواضحة لهذه المنطقة من بلاد العالم بصفة عامة والعالم الإسلامي والعربي بصفة خاصة ، فلا زالت تكمن في ربوع شبه الجزيرة وفي بطون رمالها آثار حضارات عربية قديمة لم يبدأ العلم الحديث في الكشف عنها والتعرف على كنهها بعد .

وأثبتت الدراسات الأثرية التي أجريت بها حتى الآن أن عهد الاستيطان البشرى فيها يعود إلى أقدم عصور ما قبل التاريخ ، كما أوضحت الدراسات الانثروبولوجية الحديثة أن جنوب شبه الجزيرة العربية يعتبر المنبت الأصلي للعناصر السامية الأولى . وهي العناصر التي أخذت موجاتها تنتشر تباعاً ، تارة باتجاه الهلال الخصيب شمالاً حيث الحضارات الشرقية القديمة وفي مقدمتها البابلية والآشورية والكلدانية والكنعانية والعبرانية ، وتارة أخرى باتجاه افريقيا عبر بوغاز باب المندب غرباً حيث الحضارات الافريقية القديمة وفي مقدمتها الحضارة الفرعونية ، هذا بالإضافة إلى ما ظهر في شبه الجزيرة العربية ذاتها من حضارات قامت في معين وسبأ وحمير وامتد شعاعها نحو الحيرة وغسان فأضاءت شعلة الحضارة العربية الإسلامية بكل مقوماتها وأبعادها المعروفة . ولعل من الدلائل التي تشير إلى ذلك تلك النقوش الصخرية التي تم التعرف عليها في دولة قطر والتي سجلها الإنسان العربي القديم على سطوح عدد من تلالها الصخرية معبراً بها عن أفكاره وارادته خلال إحدى مراحل تاريخه القديم .

ويمكن أن نستعرض هذه النقوش ومواقعها على النحو التالي :

أولاً : نقوش الوكرة :

وتوجد على سطح تل صخري يقع شمالاً غرب مدينة الوكرة التي تبعد حوالي ١٦ كم إلى الجنوب من مدينة الدوحة على الشاطىء الشرقي لقطر ، ويرتفع هذا التل إلى حوالي ٢١ متراً فوق سطح البحر حيث يوجد على سطحه عدد من الوحدات المنقورة في الصخر ، وتشكل كل وحدة صفين متوازيين من الحفر الصغيرة المستديرة التي يصل عددها إلى ١٤ حفرة ، ويتراوح متوسط طول قطر كل حفرة ما بين ١٠ - ١٢ سم ، وعمقها ما بين ٦ - ١٤ سم .

هذا وقد تأثر سطح التل كثيراً بفعل عوامل التعرية الطبيعية (١) التي يمكن ملاحظتها بسهولة ، مما يشير إلى ضياع الكثير من الوحدات التي حفرت عليه .

ثانياً : نقوش القصار :

وتوجد على سطح تل صخري يبعد حوالي ٨ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة الدوحة ، حيث عثر على عدد قليل من الوحدات المنقورة في الصخر على شكل دائرة تتكون من مجموعة من الحفر الصغيرة المستديرة ، ويحتمل أن يكون عدد كبير منها قد اندثر بفعل عوامل التعرية الواضحة على سطح الصخر . غير ذلك فقد عثر إلى الغرب منها على نقوش محفورة تعتبر الوحيدة من نوعها التي اكتشفت في قطر ، وهي تتألف من أشكال آدمية وحيوانية تمثل ناقتين وفارسين رافعين رمحيهما وهما في حالة هجوم . ونقشت بأسلوب مختزل فيه الكثير من الواقعية . وقد تم نقل هذه النقوش إلى متحف قطر الوطني عام ١٩٧٩ بسبب استحالة المحافظة عليها في موقعها الأصلي .

ثالثاً : نقوش سميسمة :

تقع قرية سميسمة على مسافة ٤٥ كم إلى الشمال من مدينة الدوحة . ويوجد بالقرب منها مجموعة من التلال الصخرية التي تمتد بمحاذاة الساحل الشرقي لقطر . وقد عثر على سطح إحدى هذه التلال على وحدات منقورة في الصخر متناثرة فوق السطح وتتكون عناصرها من عشرات الحفر الصغيرة التي يتراوح طول قطرها مابين ١٠ - ١٢ سم ، ويبلغ عمقها مابين ٦ -١٥ سم وهي في مجملها تكون أشكالاً مختلفة ، فالبعض من هذه الوحدات يأخذ شكلاً دائرياً ويتكون من مجموعة من الحفر المستديرة التي تلتف حول حفرة مركزية أكبر قطراً وأكثر عمقاً ، والبعض الآخر يأخذ شكل صفين متوازيين وأحياناً أربعة صفوف متوازية من الحفر الصغيرة المستديرة ، والبعض الآخر من

هذه الوحدات عبارة عن خطوط غير منتظمة الشكل ومحفورة حفراً غير عميق . إذ يتراوح طولها مابين ٨٠ - ١٤٠ سم ، بينما تبلغ أعماقها في سطح الصخر مابين ٢ - ٤ سم ، وتلتقي جميعها بحفرة كبيرة يبلغ طول قطرها ٢٠ سم وعمقها ١٨ سم .

رابعاً : نقوش الجساسية :

يقع تل الجساسية على بعد ٨٠ كم إلى الشمال من مدينة الدوحة ، وفي محاذاة الشاطىء الشرقي لقطر ، ويتناثر على سطح صخورة مئات من الوحدات المنقورة التي تتميز بتعدد أشكالها . إذ توجد وحدات من الحفر الصغيرة على شكل صفين متوازيين ومتجاورين ويحتوي كل صف ما بين ٧ - ١١ حفرة . كما توجد إيضاً وحدات على شكل دائرة تتكون من مجموعة من الحفر الصغيرة المستديرة البالغ عددها مابين ٦ - ١٠ حفر ، وتلتف حول حفرة مركزية أكبر حجماً وأكثر عمقاً ، إذ يبلغ طول قطرها حوالي ١٤ سم وعمقها حوالي ٦ سم ، إلى جانب ذلك توجد وحدات أخرى بعضها على شكل حفر بيضاوية أو مستديرة (٢) والبعض الآخر على شكل قوارب (٣) يتراوح أطوالها مابين ٩٠ - ١٢٠ سم ، وقد حفر بالقرب من جانبيها وفي داخلها حفر صغيرة مستديرة الشكل يصل فيا بينها مجرى ضيق غير عميق الحفر . فضلاً عن ذلك توجد وحدات أخرى منقورة على سطح الصخر تمثل خطوطاً ممتدة لكنها غير عميقة الحفر ، وتتصل بما يشبه الأحواض أو الحفر الاسطوانية البالغ طول قطرها حوالي ٢٥ سم ، وعمقها حوالي ١٢ سم .

خامساً : نقوش فويرط :

يقع تل فويرط على مقربة من الساحل الشرقي لقطر ويبعد أكثر من ٨٥ كم إلى الشمال من مدينة الدوحة ، ويوجد على سطح صخوره العديد من الوحدات التي تتكون من حفر صغيرة على شكل صفين متوازيين ومتجاورين ويحتوي كل صف منها على حوالي ٧ حفر ، وفي حالة قليلة توجد وحدات تشبه في شكلها تلك الوحدات الموجودة على سطح تل الجساسية (٤) .

سادساً : نقوش الغارية :

يقع تل الغارية على مسافة ٥ كم إلى الشمال من تل فويرط على الساحل الشرقي لقطر . وقد نقش على سطحه مجموعة من الوحدات المختلفة ، بعضها على هيئة دائرة تتألف من حفرة مركزية كبيرة يلتف حولها مجموعة حفر أقل اتساعاً وعمقاً ، والبعض الآخر يمثل مجموعة من أحرف اللغة الإنجليزية ، فضلاً عن ذلك يوجد نص باللغة العربية يتكون من الكلمات الآتية :

« عيسى بن ناصر البوكوارة المولود سنة ١٣٠١ »

سابعاً : نقـوش الجبيـلات :

تقع قريـة الجبيلات على بعـد عـدة كيلو مترات إلى الجنوب من قريـة العريش على السـاحـل الغربي لقطر . ويوجـد على بعـد ٤ كم إلى الجنوب منهـا تـل صخري حفر على سطحـه مجموعـة من الـوحــدات المختلفــة الأشكال . فنرى وحــدات من حفر صغيرة على شكل صفين متــوازيين ومتجاورين ، وأحياناً أربعـة صفوف متجـاورة ويضم كل صف منهـا مـابين ٦ – ١١ حفرة . وفي حـالـة واحـدة يلاحـظ وجود مجرى محفور في الصخر يؤدي إلى حفرة كبيرة مستـديرة يبلغ طـول قطرها ١٨ سم ، وعمقها ١٤ سم . فضلاً عن ذلك توجد وحـدات على هيئـة دائرة تتـألف من حفرة مركزية كبيرة مستديرة وعميقة ، ويلتف حولها حفر أقل اتساعاً وعمقـاً . ويتراوح عـددهـا مـابين ٦ – ٨ حفر . بينما يبلغ طول قطر كل منهـا مـا بين ١٤ – ١٨ سم ، في حين يتراوح عمقهـا مـابين ١٠ – ١٤ سم .

ثامناً : نقـوش الفريحـة :

توجـد هـذه النقوش على سطح تل صخري قليل الارتفـاع يقع بـالقرب من الشـاطىء الغربي لقطر على بعد ٣ كم إلى الشمال من قلعة الزبارة المشهورة . ويحيط بـه مسـاحـة واسعـة من الأراضي الرملية الصالحة لإقامة خيام البدو . وتكسوها نباتات صحراوية قصيرة . وتتنـاثر فوق سطح التل الصخري عشرات من الوحدات المختلفة الأشكال .

فنرى البعض على هيئة صفين متوازيين ومتجاورين من الحفر الصغيرة ويتراوح قطرهـا مـابين ٥ – ٢٠ سم ، بينما يتراوح سمكها مابين ٢ – ١٠ سم ، والبعض الآخر عبارة عن تجاويف بيضـويـة الشكل تتراوح أطوالها مابين ٣٠ – ٥٠ سم ، وعمقهـا حوالي ١٦ سم وفي حـالـة واحـدة يوجـد حفرة كبيرة مستـديرة يبلـغ طـول قطرهـا ٥٠ سم وعمقهـا ٢٦ سم . وفي حـالـة أخرى يـوجـد ثماني حفر مستديرة يربط فيما بينها مايشبه قناة رفيعة يبلغ عرضها حوالي ٣ سم . بالإضافـة إلى ذلـك يوجـد أربعة وحدات متناثرة فوق سطح التل على هيئة خـط يبلغ طولـه حوالي ١٧ سم ، وعرضـه حوالي ٢ سم ، ويتوج طرفه خط منحني على هيئة القوس () (٥) . إلى جـانب ذلـك توجـد وحـدة أخرى تتكون من أربعـة خطوط محفورة حفراً بسيطـاً على سطح الصخر ، ويتراوح طولهـا مـابين ١٩ – ٣٤ سم . وتنتهي جميعهـا بحفرة مستـديرة يبلغ عمقهـا ١٥ سم فضلاً عن ذلـك عثر على

طبعات محفورة تمثل أقدام بشرية منقورة في الصخر يترواح طولها ما بين ١٠ – ٢٧ سم (٦) .

تلـك هي النقوش الصخريـة التي أمكن التعرف عليهـا فوق سطوح بعض تـلال قطر . ويمكن تصنيف أشكالها إلى عدة مجموعات على النحو التالي :

المجموعة الأولى :

وحدات تتكون من حفر مستـديرة تكون صفين متوازيين ومتجـاورين ، وأحيـانـاً من أربعـة صفوف ، ويمتاز بعضها بوجود استدارة بسيطة تشبه إلى حـد كبير شكل الهلال البسيـط . (صورة ١ ، ٣) .

المجموعة الثانية :

وحدات دائرية تتكون من حفرة مركزيـة مستـديرة وعميقـة يحيـط بهـا مجموعـة من الحفر أقل اتسـاعاً وعمقاً . تشبه في شكلها العام الوردة أو الشمس المشعة (صورة ٢ ، ٥) .

المجموعة الثالثة :

وحـدات تتكون من خطوط محفورة حفراً بسيطـاً تتكرر أحيـانـاً في شكل خـط صغير يتـوج نهايته خط منحني آخر على هيئة القوس ، وأحيـانـاً أخرى تبـدو في شكل مجموعـة من الخطوط غير منتظمة في أشكالها وأطوالها ، وتتجمع عند حفرة كبيرة عميقة تشبـه شكل النجم المـذنب . (صورة ٨) .

المجموعة الرابعة :

وحدات من حفر كبيرة الحجم والعمق ، بعضها على شكل بيضوي ، والبعض الآخر على شكل قوارب ذات مجاديف على كلا الجانبين ، ويوجد حولهـا وفي داخلهـا حفر مستـديرة الشكل مختلفـة الحجم . (صورة ٤ ، ٦ ، ٧) .

المجموعة الخامسة :

وحدات تمثل أشكالاً آدمية أو حيوانية .

التعليـــق :

يتضح من استعراض الوحدات الخاصة بهذه المجموعات المحفورة أنها تتميز بوجود عنصر رئيسي هام ومشترك بينها جميعاً ، وهو ماسبق وصفه بالحفر المستديرة أو الأشكال الدائرية ، والتي يمكن اعتبارها بمثابة عنصر حضاري مفضل في كل الوحدات المحفورة ، الأمر الذي يلزم بحثه ودراسته ومحاولة تفسيره . فمن استعراض نتائج أعمال البحث الأثري لمناطق خليجية عربية يتبين بوضوح أن الشكل الدائري وجد كعنصر رئيسي مفضل في العديد من المواقع الأثرية التالية :

أولاً : المملكة العربية السعودية :

فقد عثر في منطقتها الشمالية الغربية على الكثير من الوحدات التي تشبه وحدات المجموعتين الثالثة والرابعة في قطر ، وهي تتكون من حفر مستديرة منقورة على سطح صخور جبل غنيم الواقع على مسافة ٩ كم إلى الجنوب الشرقي من تيماء أحد مراكز الحضارة العربية القديمة . وقد كان هذا الجبل أحد أماكن العبادة القديمة خاصة في عهد الثموديين (٧) .

ثانياً : البحـــرين :

لعب الشكل الدائري دوراً هاماً كعنصر معماري في الكثير من المعابد والمقابر القديمة التي كشف عنها في البحرين ، فقد عثر في تل باربار الواقع شمال جزيرة البحرين على بقايا معبد يعتبر من أقدم المعابد المعروفة في منطقة الخليج العربي ، ووجد في وسط فنائه الداخلي بناءان صغيران شكل كل منهما على هيئة دائرة ، وإلى الجنوب منهما توجد قاعدتان حجريتان مستديرتان عرفتا بصخرتي المذبح ويبلغ ارتفاع كل منهما حوالي ٨٠ سم (٨) ، كما عثر أمامهما على كتلة حجرية حفر على سطحها حفرة مستديرة الشكل ، وكشف في الزاوية الشمالية الشرقية للفناء على حفرة كبيرة أحيطت بسياج من الحجر وقد اتصل بها مايشبه القناة الصغيرة مما يدعو إلى الاعتقاد بأنها تمثل مكان تقديم القرابين . وبالحفر أسفل البنائين المستديرين الموجودين في وسط فناء المعبد عثر على بقايا معبد أقدم عهداً من مباني المعبد العلوية . ويرى بعض الباحثين أن معابد باربار تمثل فترة حضارية تمتد من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد (٩) .

ومن ناحية أخرى وجد الشكل الدائري سبيله في تخطيط مواقع مقابر الدفن الأثرية التي تم التعرف عليها بالجزيرة . فقد أقيمت مباني المقابر حول بعض التلال الصخرية على هيئة دائرة صغيرة أحيطت بدائرة أخرى أكبر (١٠) ، مما يؤكد أهمية تمثيل الشكل الدائري في هذه المباني

وصلته الوثيقة بالعقائد الدينية القديمة .

وفي مجال الآثار المنقولة نجد أن الأختـام التي عثر على الكثير منهـا في البحرين والمعروفـة بـاسم « أختـام الخليج العربي (١١) » قـد تميزت بشكلهـا الـدائري وبنقوشهـا التي تضمنت رمـوزاً وشـارات دائرية ونصف دائرية ، مما جعل بعض المهتمين يرى فيها رموزاً تعبر عن الطبيعة وعلى الأخص إلـه القمر ، ويؤرخها بفترة ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد وبداية الألف الثانية قبل الميلاد (١٢) .

ثالثاً : دولة الإمارات العربية :

كذلك كان للشكل الدائري صلـة كبيرة بمواقع الـدفن التي تم الكشف عنهـا في دولـة الإمـارات العربية . فقد أسفرت أعمال البعثة الدانماركية في منطقة واحـة البريمي (١٣) عن العثور على بقـايـا بناء دائري يبلغ قطره حوالي ٢٠ متراً فوق سطح أحـد التلال الصخريـة ، كما عثر بجواره على كتل حجرية كبيرة حفر فوق سطوحها وحـدات من حفر دائريـة الشكل تشبـه إلى حـد كبير وحـدات المجموعة الثالثة والرابعة القطرية ، وقد تبين أن هذا المبنى عبارة عن مدفن دائري شبيـه بمـدافن أم النار الدائريـة المشهورة (١٤) والتي يربو عـددهـا على الخمسين (١٥) . ممـا يـدعو إلى ضرورة اعتبـار المدافن الدائرية بمثابة نمط عام لكل مدافن المنطقة والذي ساد خلال فترة الألف الثالث قبل الميلاد (١٦) .

رابعاً : دولة الكويت :

كذلك يمكن متابعة الشكل الدائري في بقـايـا المبـاني التي كشف عنهـا مؤخراً في جزيرة فيلكا بالكويت ، وهي الجزيرة التي يعتبرها الكثير من المهتمين بمثابة حلقـة الوصل بين حضـارات الخليج والبحرين وجنوب بلاد الرافدين ، كما يرجعون تاريخ بقايا مبانيها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . (١٧) . فقد عثر في هذه الجزيرة على بقايا المعبـد الخـاص بكبير آلهـة دلمون والمعروف بـاسم « انزاك » (١٨) ويتكون هذا المعبد من فناء مربع مكشوف يوجد بداخله ثلاث كتل حجرية ذات شكل دائري يعتقد أنها استخدمت كمذابح لقرابين هذا الإله . وفي مجال الآثـار المنقولـة عثر في هـذه الجزيرة على ما يزيد عن ٤٠٠ ختماً من أختـام الخليج العربي التي تتميز بشكلهـا الـدائري والتي تعود إلى منتصف الألف الثـالث قبـل الميـلاد . وقـد حملت معظم هـذه الأختــام نقـوشـاً تمثــل أشـكال الخطوط والدوائر (١٩) والنجوم والأفلاك والكواكب (٢٠) . وتبين من دراستها أنها ذات طابع ديني يوضح محـاولات الإنسـان العربي القـديم للتعبير عن أفكاره ومعتقـداتـه الـدينيـة خلال هـذه الفترة الزمنية .

من ذلك تبين أن الشكل الدائري أو الوحدات الدائرية المحفورة لعبت دوراً كبيراً في الأفكار والمعتقدات الدينية العربية القديمة ، الأمر الذي وضح بجلاء في الكثير من المخلفات الدينية الثابتة منها والمنقولة على السواء والتي عثر عليها في العديد من بلدان الخليج العربي المحيطة بقطر .

وفي الحقيقة لم تقتصر صلة الأشكال الدائرية أو الوحدات المحفورة على سطح الصخر بالمعتقدات والمباني الدينية على هذا الجزء من آسيا بل يمكن متابعة هذه الصلة في أجزاء أخرى من هذه القارة كالهند مثلاً وفي قارات أخرى من العالم كأفريقيا وأمريكا وأوروبا (٢١) ، ولا غرابة في ذلك إذ أنها بمثابة تعبيرات بدائية لأفكار دينية ساذجة ظهرت في بعض مناطق العالم القديم خلال إحدى مراحل تطورها التاريخي ، واتسمت بالبساطة في التعبير والسذاجة في الفكر . ولن يتسع هنا المجال لسرد تلك الأماكن بالتفصيل وإنما يمكن الاكتفاء بالإشارة إلى بعض المناطق الموجودة في قارة أوروبا . فقد عثر في بريطانيا على وحدات تمثل أشكالاً دائرية محفورة على سطح الصخر بالقرب من مناطق اخنابريك Achnabreck وأرجيل Argyll واسكوتلاند Scotland ويوركشير Yorkshire ، وكذلك عثر على العديد من الوحدات الدائرية في مناطق عديدة من أسبانيا وشمال البرتغال وجدت بالقرب من مواقع الدفن المعروفة باسم « المقابر ذات الممرات » (٢٢) .

كذلك عثر في إيطاليا على وحدات دائرية مماثلة في مناطق عديدة أشهرها تلك التي تقع بالقرب من فالكامونيكا Valcamonica (٦٤ كم شمال ميلانو) والتي احتوت على ما يزيد عن ١٣٠ر٠٠٠ وحدة من هذه الدوائر . ومما هو جدير بالملاحظة أن معظم الوحدات الدائرية الأوروبية حفرت على سطح كتل حجرية تمثل شواهد قبور ولوحات جنزية عمودية ورأسية ، ووجدت بالقرب من مراكز التجمع الدينية القديمة ، وقد أرجع المهتمون بدراستها تاريخها إلى ماقبل الألف الثانية قبل الميلاد .

وما دام الأمر يتصل بالعقائد الدينية بصفة عامة فلابد من استعراض ذلك في ضوء ما هو معروف من العقائد الدينية العربية القديمة .

فمن المعلوم أن الكثير من طوائف العرب الجنوبيين عبدوا الظواهر الطبيعية لاعتقادهم أن فيها قوى روحية كامنة تؤثر في حياة البشر وسائر الكائنات الأخرى (٢٣) . فكانت الشمس والقمر أول الأجرام السماوية التي جذبت أنظار هذه الطوائف ، واتضح لهم أن للشمس أثراً كبيراً في حياتهم اليومية بما تبعثه من حرارة شديدة في النهار تسبب الكثير من المتاعب . كما ظهر لهم أن للقمر

سحراً عظيماً في نفوسهم بما يبعثه من ضوء هادىء ينير طريق القوافل في الليل ، ولذلك كان هذان الكوكبان في مقدمة الأجرام السماوية التي ألهها العربي الجنوبي القديم ، ففي بادىء الأمر عبدهما مجردين ودون أن يتصور فيهما مايبدو له من صفات وأمور غير ملموسة تنتمى ألى ماوراء الطبيعة . وعندما تطورت أفكاره واتسعت مداركه في أمور ماوراء الطبيعة تصور أن لهما قوى خفية وروحاً حية وقدرات فائقة وصفات إلهية . وبذلك أخرجها من صفاتها المادية البحتة وأضفى عليهما مظهراً لقوى روحية يمكن إدراكها من خلال ما تحدثه من آثار ملموسة على الأرض وسكانها . ثم حدث توسع في هذا التصور وصل إلى حد تقديس بعض النجوم والأحجار والآبار والأشجار وغيرها .

وإذا ما أردنا أن نستعرض الكتابات الأثرية التي يمكن جمعها في بلاد العرب وكذلك المؤلفات الكلاسيكية والعربية التي أشارت إلى الديانة العربية القديمة لوجدنا أن المحور الأساسي الذي ارتكزت عليه هذه الديانة يتمثل في وجود الثالوث الفلكي الذي يجمع بين القمر والشمس والزهرة باعتبارهم أكبر أجرام السماء . ويمكن تتبع أثر هذا الثالوث الديني وانتشاره الفكري حتى القرون الأولى الميلادية . فلقد انفرد إله القمر بالكثرة المطلقة من الأسماء والألقاب التي تضمنتها نصوص اللوحات المكتوبة (٢٤) واحتل عند العرب الجنوبيين مكانة أسمى من مكانة الشمس (٢٥) . واعتبروه الأب السماوي والجد الأكبر للقبيلة . ولذلك أطلقوا عليه لقب (أب) أحياناً ولقب (عم) أحياناً أخرى مثلما حدث عند القنيانيين تعبيراً عن عطفه على المتعبدين له ورحمة بهم ، فضلاً عن ألقاب أخرى كلقب (ود) عند المعينيين و (المقه) عند السبئيين والتي تعني (حب) ويقصد بها الحب الإلهي ، ولقب (المقه) عند السبئيين ثم الأحباش والذي يحمل معنى (اللمعانِ والقوة) . ولذلك اختير الثور عندهم كحيوان مقدس نظراً لقوته ولقرنيه اللذين يذكران بالهلال (٢٦) ، كما يوجد لقب (ورخ) بالعربية اليمنية والحبشية والذي يعني (القمر والهلال) ، ومنه جاء الفعل (أرخ) في العربية الفصحى والذي يعني دورة القمر حسب الأيام والشهور ، وكان العرب الجنوبيون يستخدمون بكثرة ألقاب الآلهة دون أسمائها تعبيراً عن التكريم والتقديس والتأدب والاحترام ، إذ كان من غير المقبول أن يخاطب العربي القديم رب الأرباب بذكر اسمه مثلما يخاطب غيره من بقية البشر (٢٧) .

كذلك أشار القرآن الكريم ألى هذه العبادة بقوله سبحانه وتعالى في سورة فصلت (آية ٣٧) :
﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله

الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

أما الشمس فقد نظر إليها على أنها انثى وزوجة لإله القمر ولذلك احتلت المرتبة الثانية بعد إله القمر . وقد عبدت في أماكن متعددة من شبه الجزيرة العربية منها قتبان وحضر موت وسبأ . كما عرفت عند السبئيين باسم (ذات حميم) ، (ذات حمى) بمعنى المتقدة أو الساخنة أو ذات الحرارة القوية ، وهو اسم لا يحمل أي معنى عقلي لهذا المعبود ، بل يصفه كما هو في الطبيعة كجرم سماوي (٢٨) ، مما يشير إلى أن الاسم قديم ويعود إلى عصور سحيقة . أما في النقوش القتبانية فعرفت باسم (ذات صهرون) و (ذات رحبن) وفيه مايشير إلى الحرارة الشديدة وإلى أنه زوج الإله (ود) .

ويكمل الزهرة باعتباره أكثر نجوم السماء تألقاً ولمعاناً هذا الثالوث الفلكي ليكون ابناً للعائلة المقدسة والمشكلة من القمر الوالد والشمس الأم . وقد عرف هذا الإله باسم (عثتر) لدى سكان المناطق الجنوبية لشبه الجزيرة العربية (٢٩) وهو يقابل الإله عشتار عند البابليين والآشوريين و (عشتارت) لدى الكنعانيين والفينيقيين والأحباش (٣٠) مما يدل على أنه كان من الآلهة الشائعة حتى القرون الأولى الميلادية .

ومن ناحية أخرى يتفق الفن العربي القديم مع الأسماء والألقاب التي تضمنتها الكتابات العربية القديمة في تأليه وعبادة هذه الكواكب الثلاثة . ويتبين ذلك في كثير من الرسوم والنقوش التي سجلها العربي القديم في كل مناسباته . ولم يكن أسلوب تسجيله وتعبيره ممثلاً في هيئة تماثيل مجسمة مثلما كان الحال في بعض بلدان العالم القديم الأخرى . إذ أنها لم تكن معروفة في مناطق العرب الجنوبية - وإذا كانت التماثيل قد وجدت في المناطق الشمالية فمن الثابت أنها كانت دخيلة ، جاءت من شعوب شمالية ذات حضارة متقدمة (٣١) . ولذلك عبر الإنسان العربي القديم عن هذه الآلهة الثلاثة برموز وشارات بدائية تشبه في شكلها العام تلك الصورة التي كان يراها عليها في السماء الصافية وقد تضمنت رسوم بعض اللوحات والنصب التذكارية جانباً من هذه الرموز . فنراها ترسم إله القمر بشكله الكامل وأحياناً ترمز إليه بشكل هلال أفقي ، بينما ترمز إلى آلهة الشمس بشكل دائرة وترمز إلى إله الزهرة بشكل نجم مذنب . (٣٢) .

ولا شك أن ارتباط الإنسان العربي بهذه الأمور أو الشارات الدينية كان قوياً باعتبارها أحد المستلزمات الضرورية لأداء الطقوس الدينية كي يتقرب بها إلى الآلهة ويعمل على استرضائها . لكنه كثيراً ما كانت الرموز الدينية تحتل مكانة عالية في بعض مراحل التطور الحضاري للشعوب البدائية بدرجة تجعلها تطغى على الأهداف والمعاني الدينية التي تمثلها ، ومن ثم تصبح في حد ذاتها

هدفاً مقصوداً يقيم الإنسان لها الصلوات والرقصات والأهازيج والأفراح .

وعلى هذا الأساس يود المرء أن يستنتج مما سبق استعراضه النتائج الآتية :

أولاً : أن العثور على نقوش صخرية في منطقة قطر ليس بالأمر المستغرب . فقد أثبتت الدراسات الأثرية لمناطق ساحل الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية وجود مراكز حضارية قديمة لعبت دوراً هاماً بالمنطقة منذ بداية مرحلة الاستقرار ، وقد ساعد على ازدهارها ماتميزت به من موقع استراتيجي هام كان يربط بين حضارات بلاد مابين النهرين من جهة وحضارات وادي السند من جهة أخرى ، فضلاً عما تمتعت به من مميزات طبيعية وإمكانيات محلية دفعت السكان نحو الأنشطة التجارية وإقامة العديد من الموانى والمراسي المحمية . وبالتدريج أصبح الخليج العربي ممراً رئيسياً للسفن المحملة بالبضائع المختلفة وشرياناً حيوياً لإنعاش اقتصاديات المنطقة .

ويمكن تتبع بقايا هذه المراكز (٣٣) في مواقع أثرية عديدة تمثلت في جزيرة فيلكا والبحرين وتاروت وأم النار والبريمي وغيرها . ولقد تميزت هذه المواقع بوفرة عطائها الأثري الذي يمثل فترة زمنية طويلة تبدأ من الألف الثالث ق . م وتستمر حتى أواخر الألف الثانية ق . م . بينما لم يعثر حتى الآن على مادة أثرية منتمية إلى الألف الأول ق . م وربما يرجع السبب في ذلك إلى وقوع المنطقة تحت سيطرة الامبراطورية الآشورية ، ومن بعدها الامبراطورية الفارسية الاكمينية حتى أواخر الألف الأولى ق . م .

ثانياً : يميل المرء إلى الاعتقاد بأن النقوش الصخرية الموجودة في قطر تمثل رموزاً أو شارات بدائية ذات صلة وثيقة بنظرية الثالوث الفلكي الدينية السابق الإشارة إليها والضاربة بجذورها في أعماق التاريخ العربي القديم ، وقد حفرها سكان قطر القدماء على سطح التلال السابق ذكرها على أساس أنها أماكن صخرية مكشوفة للسماء ومرتفعة عن مستوى سطح الأرض الرملية وصالحة لتجمعاتهم ولمناسباتهم ولاحتفالاتهم ، ثم مالبث بمرور الوقت ان اكتسبت من وجهة نظرهم قدسية خاصة دفعتهم إلى حفر رموزهم وشاراتهم الدينية على سطحها وإجراء مايلزم من طقوس وصلوات ونحر للذبائح وتقديم القرابين لآلهتهم الفلكية حولها . وهي الآلهة المتمثلة في الثالوث المقدس المكون من القمر والشمس والزهرة والذي عبر عنه الفن العربي القديم برموز الهلال والدائرة والنجم المذنب .

وبـالتـالي يعتقـد المرء ان وحـدات المجموعـة الأولى في محفـورات قطر المؤلفـة من صفين متوازيين تمثل في حقيقتها الشكل الهلالي البسيط للقمر ، وتلك المؤلفة من أربعـة صفوف تمثل شكلين متجاورين لهذا الهلال القمري البسيط .

أما وحدات المجموعة الثانية التي تتكون من حفرة مركزية عميقة يحيط بها مجموعة من الحفر الأقل عمقاً فهي تمثل الرمز أو الشـارة الخـاصـة بـآلهـة الشمس ، ووحـدات المجموعة الثـالثـة التي تتكون من خطوط تنتهي إلى حفرة عميقـة فهي تمثـل الرمـز الخـاص بإله الزهرة .

وبناء عليه يمكن القول بأن هذه الوحدات الدائرية المتباينة الشكل والمحفور بعنـاية كبيرة فوق سطح التلال الصخرية لا تخرج عن كونها رموزاً بسيطة لأفكار وعقائد دينية ويحتمل أنها تمثل مرحلة ساذجة من مراحل نظريـة الثـالوث الفلكي الـدينيـة التي سـادت جنوب شبه الجزيرة العربية إن لم تكن كل أرجـاء هـذه الجزيرة . فقـد حفرت بـأسلوب قطري بسيط يتفق إلى حـد كبير مع أسلوب التعبير الفني البـدائي عنـد العربي القـديم ، فضلاً عن أنها تتشابه في أشكالها العامة المتمثلة في أشكال الهلال والدائرة والنجم المـذنب مع ما تظهر عليه صور وأشكال هذه الكواكب في سماء الجزيرة العربية الصـافيـة أمـام العين المجردة للإنسان صاحب الفكر البسيط .

ثـالثـاً : إذا ما حاول المرء تحديد الفترة الزمنية لهـذه المرحلـة البـدائيـة التي حفرت اثناءها هـذه الوحدات فإنه من الصعب تعيين ذلك بدقة ، لكنه على الرغم من ذلك فإنـه توجـد عـدة اعتبارات جديرة بالملاحظة والاهتمام نسردها على الوجه التالي :

١ - تبين من الفحص الـدقيق لجوانب وأعمـاق الحفر المستـديرة التي تتشكل منهـا هـذه الوحدات أن الأدوات المستخدمة في تنفيـذ عمليـات الحفر فوق السطح الصخري لا يمكن أن تكون أدوات حجرية نظراً لما تتمتع به من صلابة محدودة لا تساعـد على تشكيل هذه الوحدات ، ومن ثم فإن استخدام أدوات معدنيـة أمر لا يتطرق إليه شك . وغالبـاً مـاتكون هـذه الأدوات المعـدنيـة مصنوعـة من مـادة البرونز الأكثر صلابـة وذات أطراف مـدببـة لكي تتنـاسب مع تنفيـذ عمليـات الحفر فـوق سطـح الصخر .

ومن ناحية أخرى يرى معظم المؤرخين أن بداية عصر استخدام المعادن في مناطق العراق والشام وغيرها من المناطق المحيطة بشبه الجزيرة العربية تعود إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد ، حيث تم اكتشاف معدن النحاس وتلاه معدن البرونز الذي استخدم فترة زمنية طويلة قبل أن يتم اكتشاف معدن الحديد حوالي عام ١٢٠٠ ق . م وحيث أن المرء يميل إلى الاعتقاد باستخدام آلات برونزية في عمليات الحفر فإن ذلك يتفق مع مرحلة انتشار هذا المعدن وشيوع استخدامه بالمنطقة وهي المرحلة التي ظهرت خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد (٣٤) .

٢ – عثر في معابد باربار بالبحرين على محفورات تشبه بعض الوحدات المحفورة في قطر ، وذلك في الفناء الداخلي للمعبد الذي كان يضم مباني المذبح المقدسة . كذلك عثر على محفورات مشابهة على سطح بعض كتل حجرية وجدت في أحد المستويات القديمة للمعبد . وقد أرجع المكتشفون تاريخ بناء هذه المعابد إلى تلك الفترة الحضارية التي تمتد من منتصف الألف الثالث حتى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد .

٣ – امتازت الأختام ذات الشكل الدائري والمعروفة باسم « أختام الخليج العربي » التي عثر عليها بالمئات في كل من البحرين والكويت بنقوشها التي تمثل أشكال الدوائر ونصف الدوائر والخطوط المختلفة ، وهي تشبه في شكلها العام بعض الوحدات المحفورة في قطر . وقد تبين من دراسة هذه الأشكال أنها رموز أو شارات دينية مقدسة أغلب الظن أنها لكوكبي القمر والشمس وبعض النجوم التي اعتاد العربي القديم رؤياها . وقد أرجع المهتمون تاريخ هذه الأختام إلى منتصف الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد .

بناء على ذلك يميل المرء إلى الاعتقاد بأن نقوش قطر تعاصر تلك الفترة الزمنية التي شهدت استخدام الأدوات البرونزية والتي سبقت بقليل مرحلة ازدهار المراكز الحضارية الخليجية ذات الموقع الاستراتيجي بين حضارة بلاد ما بين النهرين ووادي السند . وهي فترة يمكن تحديد زمنها على وجه التقريب من بداية الألف الثالث إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد .

رابعاً : يود المرء أن يرى في تمثيل الحفر المستديرة لدى كافة وحدات المجموعات المحفورة مايمثل اطباقاً أو كؤوساً تقدمها القرابين البسيطة التي كانت تملأ بدماء الذبائح المقدمة قرباناً لالهة السماء المقدسة . ولا شك في أنه كان يتم إجراء الكثير من الطقوس والصلوات على سطح التلال أمام وحول هذه الرموز . إلا أنه ليس من السهل خصوصاً في ضوء الأبحاث الأثرية المتوافرة الآن التحدث عن نوع هذه الطقوس أو طبيعتها أو أسلوب أدائها .

على أية حال فإن كل ما ذكر عن النقوش الصخرية في دولة قطر لا يعدو سوى كونه محاولة قصد بها التعرف على طبيعة هذه النقوش ودوافعها وكشف النقاب عن الأغراض التي من أجلها حفرت على سطح التلال السابق ذكرها ، وذلك في ضوء ما هو متوافر من أدلة أثرية قليلة . وقد يتطلب الأمر إعادة المحاولة من جديد عندما يتم مسح ودراسة كافة المراكز الحضارية لساحل الخليج العربي دراسة علمية أثرية شاملة . وهذا ما نرجو أن تضطلع به الأجهزة العلمية المهتمة بأبحاث التراث القديم في كل أرجاء المنطقة الخليجية .

الهوامـــش

١ – H. Kapel, Atlas of the Stone–Age Cultures of Qatar Vol. 1 Page 31.

٢ – A. Ghosh, Qatar, Unesco, P.6.

٣ – B. De Cardi, Qatar Archaeological Report, P. 190.

٤ – B. De Cardi, Ibd, P. 190.

٥ – J. Kuml, Prehistoric Discoveries in Qatar, P. 175.

٦ – J. Kuml, Ibd, P. 176.

٧ – وزارة المعارف السعودية : مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ص ١١٢ .
(الثموديون نسبة إلى ثمود من عرب البائدة ، وهم قوم النبي صالح الذي دعاهم إلى عبادة الله فخالفوه . وقد ورد اسم ثمود مع اسم عاد في عدة سور من القرآن الكريم) .

٨ – سليمان البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين ٤ ، ٣ ق . م ص ١٢٤ .

٩ – سليمان البدر : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

١٠ – سليمان البدر : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

١١ – سليمان البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين ٢ ، ١ ق . م ، ص ١٢٧ .

١٢ – سليمان البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين ٤ ، ٣ ق . م ١٠٦ ، ١٣٤ .

١٣ – G. Bibby, Looking for Dilmun, London, P. 150.

١٤ – سليمان البدر : المرجع السابق ص ١٦٠ .

١٥ – سليمان البدر : المرجع السابق ص ١٦٥ .

١٦ – سليمان البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين ٢ ، ١ ق . م ص ٣٥ .

١٧ – وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية : تقرير شامل عن الحفريات الأثرية في جزيرة فيلكا ، ص ٢٠ .

١٨ – وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية : التقرير السابق ص ٩٧ ، ٩٨ .

١٩ – وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية : التقرير السابق ، شكلي ٧٦ ، ٧٧ ص ١٤٣ .

٢٠ – سليمان البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين ٤ ، ٣ ق . م .

٢١ - J. Mc Mann, Riddles of the Stone Age, P. 98.

٢٢ - J. Mc Mann, Ibd, P. 88-91.

٢٣ - جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جزء ٦ ، ص ٢٢ ، ٥٠ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، ص ٤٧٨ .

٢٤ - محمد بيومي مهران : دراسة حول الديانة العربية القديمة . ص ١٩ .

٢٥ - السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، ص ٤٦٢ .

٢٦ - فؤاد حسنين علي : ترجمة التاريخ العربي القديم ، ص ٢٠٧
، السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٤٦٣ .

٢٧ - جواد علي : الجزء ٦ ، ص ٥٣٦ .
، محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢٢ .

٢٨ - فؤاد حسنين علي : ترجمة : التاريخ العربي القديم ، ص ٢١٨ .

٢٩ - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٤٦٢/٤٦١ .

٣٠ - محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢٤ .

٣١ - فؤاد حسنين علي : ترجمة : التاريخ العربي القديم ١٩٦ .

٣٢ - فؤاد حسنين علي : المرجع السابق ص ١٩٧ .

٣٣ - سليمان البدر : المرجع السابق . ص ١٩٢ .

٣٤ - رشيد الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا . ص ٢٩١/٢٩٠ .

مصـــادر البحـــث

باللغة العربيــة :

١ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية . بيروت ١٩٧١ .

٢ – جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٩ أجزاء) بيروت – بغداد ١٩٧٦ .

٣ – د يتلف نيسلن – ترجمة : فؤاد حسنين علي : التاريخ العربي القديم . القاهرة ١٩٥٨ .

٤ – سليمان سعدون البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد . الكويت ١٩٧٤ .

٥ – سليمان سعدون البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد . الكويت ١٩٧٨ .

٦ – عمر فروخ : تاريخ الجاهلية . بيروت ١٩٦٤ .

٧ – ج.ج لوريمز – ترجم وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر : دليل الخليج – الجزء السادس .

٨ – محمد بيومي مهران : دراسات حول الديانة العربية القديمة ١٩٧٨ .

٩ – وزارة المعارف السعودية : مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية إدارة الآثار والمتاحف . الرياض ١٩٧٥ .

١٠ – وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية : تقرير شامل عن الحفريات الأثرية في جزيرة فيلكا . الكويت ١٩٦٣ .

مراجــع أجنبيــة

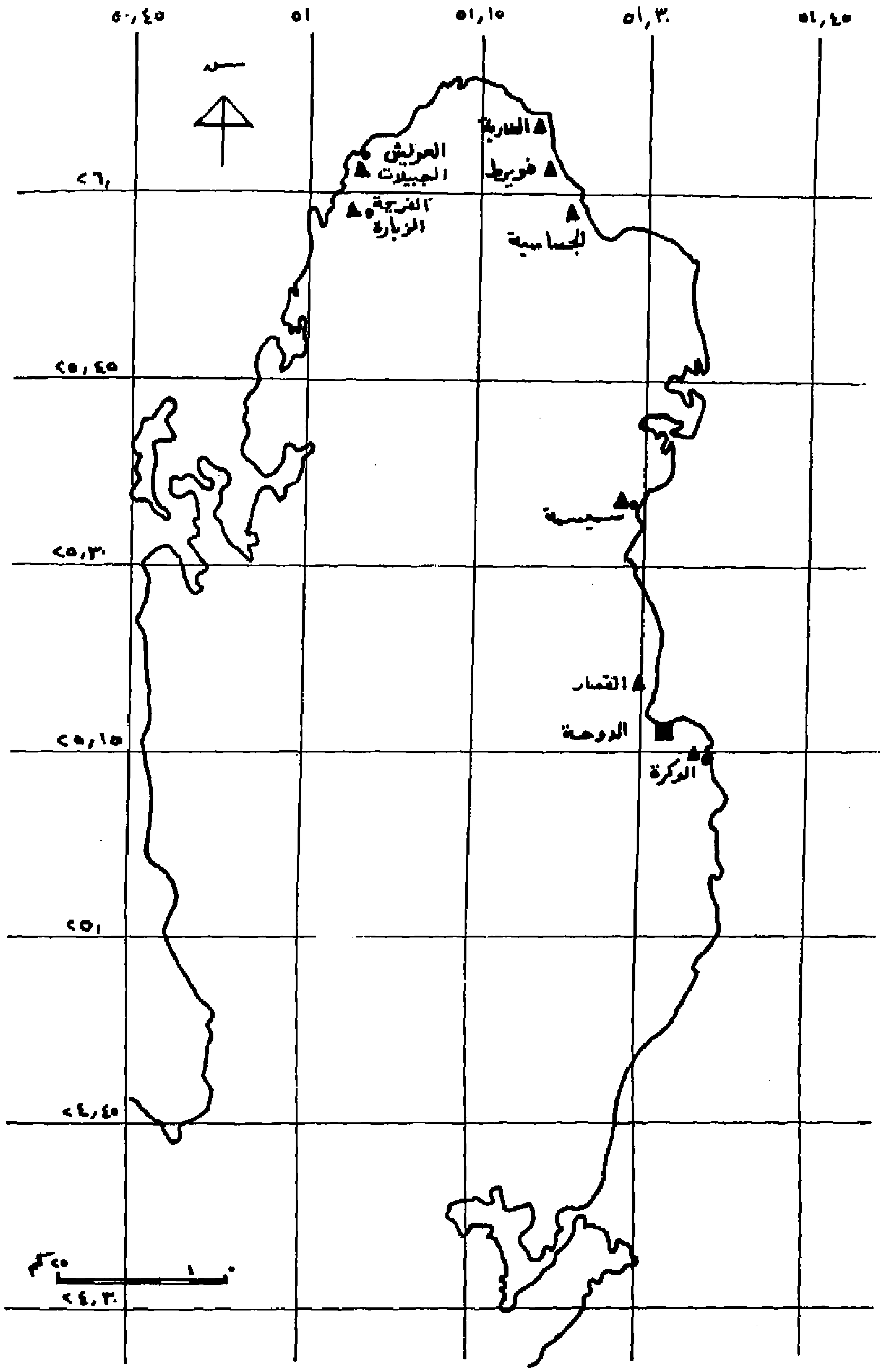
1. **B. De Cardi** : Qatar Archaeological Report, State of Qatar, 1978.

2. **A. Ghosh** : Qatar, Report on the protection of cultural heritage and development of a Museum, Unesco, Paris 1968.

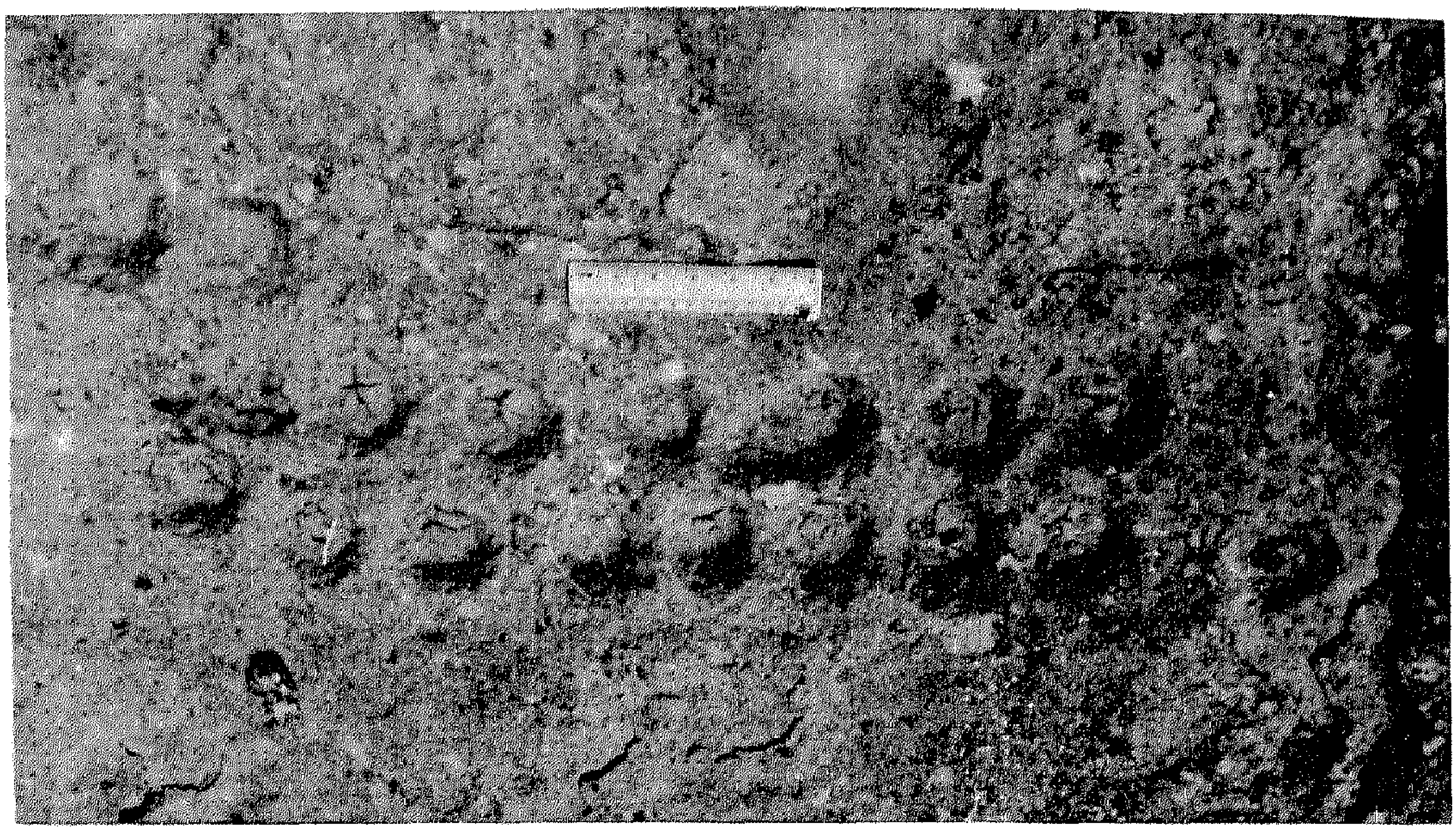
3. **J. Kuml** : Prehistoric Discoveries in Qatar, 1957.

4. **Jean Mc Mann** : Riddles of the Stone Age. London 1980.

5. **G. Bibby** : Looking for Dilmun. London 1970.



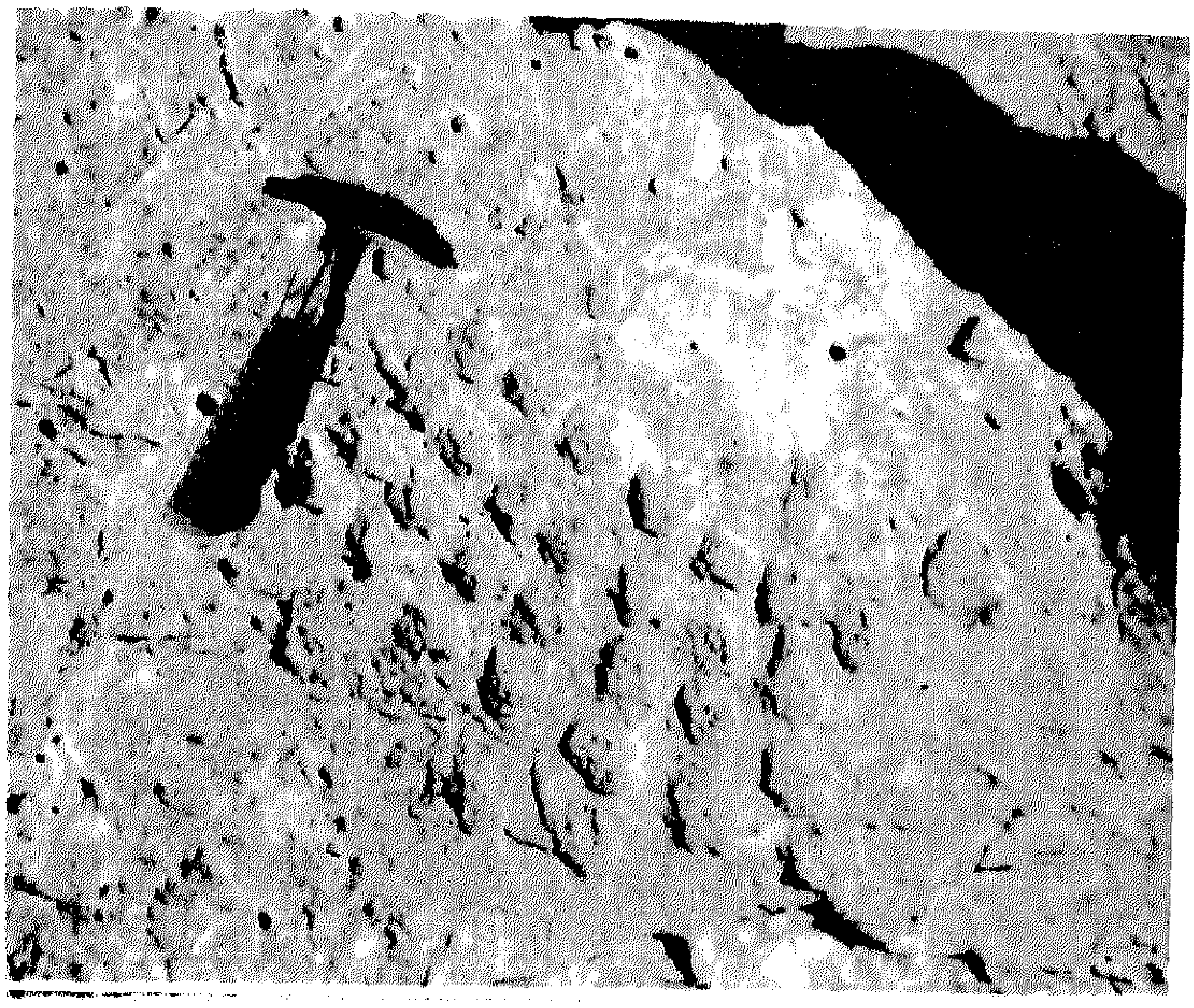
خريطة قطر لتوضيح مواقع النقوش الصخرية القديمة



(١) إحدى وحدات المجموعة الأولى المكونة من صفين منقوشة على سطح تل الجساسية .



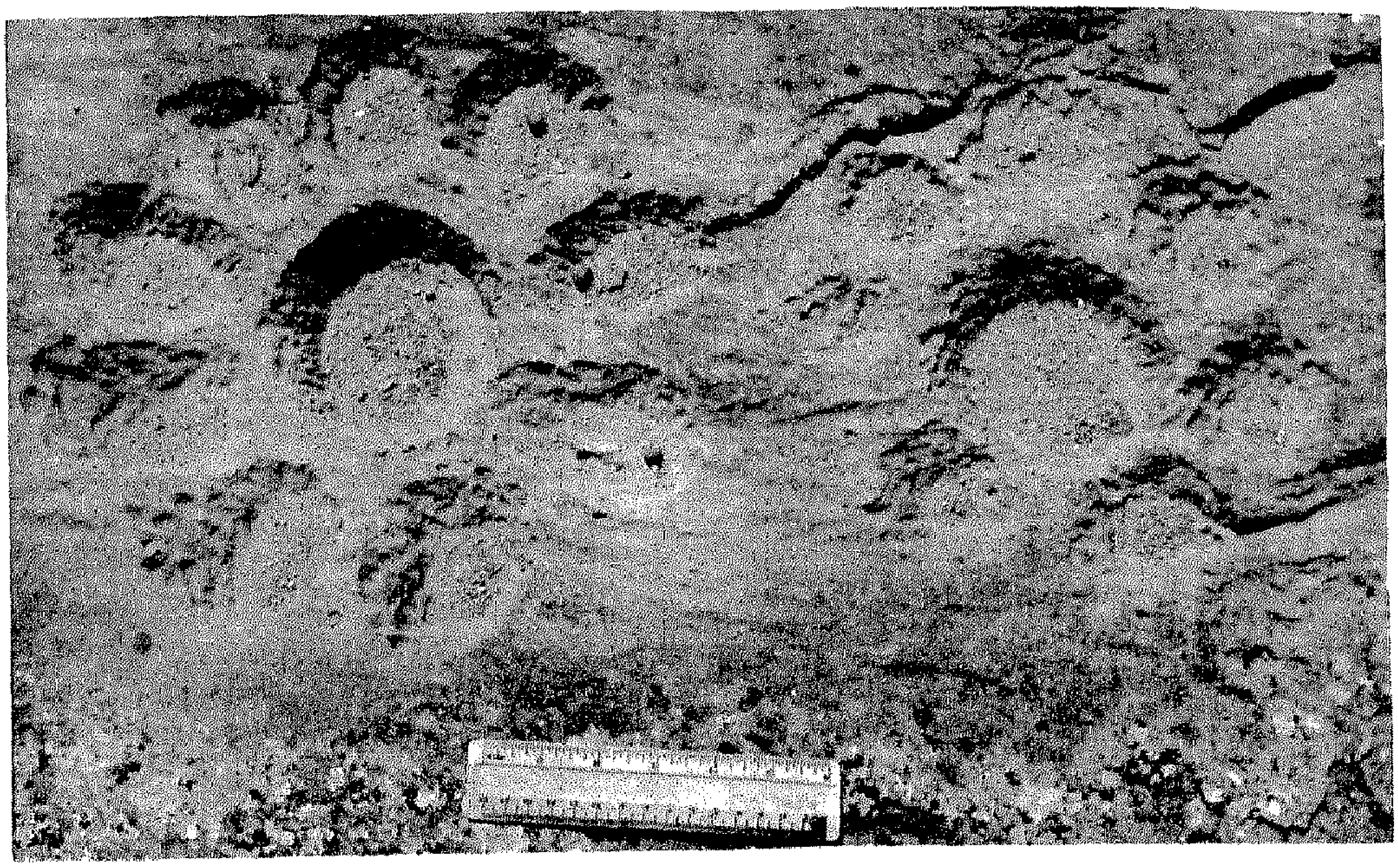
(٢) إحدى وحدات المجموعة الأولى المكونة من صفين تتوسط وحدتين من وحدات المجموعة الثانية وقد نقشت على سطح تل فويرط .



(٣) إحدى وحدات المجموعة الأولى المكونة من أربعة صفوف منقوشة على سطح تل الجبيلات .



(٤) إحدى وحدات المجموعة الرابعة على هيئة قارب بمجاديف وإلى جواره وحدة من المجموعة الأولى المكونة من صفين منقوشة على سطح تل الجساسية .



(٥) بقايا وحدتين من وحدات المجموعة الثانية منقوشة على سطح تل الغارية .



(٦) عدد من وحدات المجموعة الرابعة التي تمثل عدد من القوارب المختلفة الأحجام منقوشة على سطح تل الجساسية .



(٧) إحدى وحدات المجموعة الرابعة على هيئة حفرة بيضوية منقوشة على سطح تل الفريحة .



(٨) إحدى وحدات المجموعة الثالثة على هيئة نجم مذنب منقوشة على سطح تل الجساسية .

ديوان أبزون العماني

تحقيق الأستاذ
هلال ناجي

كان أول عهدي بهذا الشاعر ، محاضرة ألقيتها عنه في الندوة العلمية العالمية الثانية المنعقدة في البصرة عام ١٩٧٧ باشراف مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، وقد كُرِّسَتْ تلك الندوة لدراسة الأدب في الخليج العربي .

ولم أكن آنذاك قد ظفرت بمخطوطة ديوانه - أو بالمختار منها على وجه الدقة - فعمدت إلى جمع ما تناثر من شعره من المخطوطات والمطبوعات ، فتجمع لدي مائة بيت ، ذيَّلْتُ بها المحاضرة بعنوان - الصَّبابة من شعر أبزون - .

وقد أثارت المحاضرة جدلاً ومناقشة ، بقدر ما أثارت من تقدير واستحسان ، مردُّهما أنها كشفت وللمرة الأولى عن شاعر لم يدرس من قبل ، ولا نَهَدَ أحدٌ لجمع شعره ، بل وكان مجهولاً من قبل الكثيرين .

إلاّ أنّ أملي لم ينقطع في الظفر بمزيد من شعره في المخطوطات الدفينة ، حتى وفقني الله - تعالى - عام ١٩٨٢ إلى الحصول على مصورة مخطوط أصله في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء (كتب الوقف) ٣٤ أدب ، وهو مجموع شعري يضم مختارات لعدة شعراء ، والكتاب الثاني في هذا المجموع يضم المختار من شعر الكافي أبي علي افزون بن مبهزد الكَرّاني العُماني .

ويحتجن المختـار ثلاثمـائـة وتسعـة وخمسون بيتـاً ، وهو بخـط نسخي نفيس جـداً ، من خطوط القرن السابع تقديراً .

ويقع كتاب المختار هـذا في عشرة ورقـات معـدل سطور الورقـة الواحـدة ٢١ سطراً وقيـاسهـا ١٥ × ٢٤ سم .

لقد كان الظفر بهذا المخطوط الفريد ، منطلقاً لاحيـاء هـذا النص ، ونشره ، وتطوير دراستي عن الشاعر في ظل النصوص الجديدة ، ثم تذييل النص بمختارات من شعر الشاعر تناثرت في بعض المخطوطات والمطبوعات ممّا ليس لـه وجود في « المختـار من شعره » ، وقـد ضمّ هـذا الـذيلُ سبعين بيتاً .

• • •

كُنيته : أبو علي ، واسمه ابزون ، ولقبه الكافي العماني . هذا مـاأجمعت عليـه المصـادر[١] . وشذّ صاحب كشف الظنون إذ سمّاه « ابزمون »[٢] وهو من تحريف النساخ فيما أحسب .

ووقع الخلاف في اسم أبيه ، صاحب الدمية لم يُسَمِّـه ، والصفـدي سمّـاه مهبرد وحـاجي خليفـة سماه مهمرد ، ويـاقوت سماه « مهنبرذ »[٣] وفي المختـار من ديوانه انه « مهبزد » . ولعـل الصـواب : مِهْمَرْد .

لم تحفظ لنا المصادر تـاريخ ميلاده ولا مكانهـا ، وانفرد صـاحب كشف الظنون بـذكر تـاريخ وفاته عام ثلاثين واربعمائة[٤] .

وتنفرد مخطوطـة ديوانـه بنسبتـه إلى كرَّان ، فهو الكرَّاني أولاً ثمّ العُماني . وكرَّان بفتح أولـه وتشديد ثانيه ، محلة مشهورة باصبهـان ، وقـد نُسب اليهـا من لا يُحصى من أهل العلم والروايـة ، وكرَّان أيضاً بلد من بلاد الترك من ناحية التبت[٥] فيما وراء نهرجيحون.

---

(١) دميـة القصر : البـاخرزي . تحقيق د . سـامي مكي العاني ١٧٩/١ ، والوافي بـالوفيـات : الصفـدي : تحقيق س . ديـدرنغ ١٨٤/٦ ، ومعجم البلدان ٧١٩/٣ .

(٢) كشف الظنون ١/ العمود ٧٧٢ .

(٣) معجم البلدان ٧١٩/٣ (٤) كشف الظنون ١/العمود ٧٧٢ .

(٥) معجم البلدان ٢٤٩/٤ وبلدان الخلافة الشرقية ٤٨٠ .

ومما رواه أبو الحاجب محمد بن أحمد نعلم انه كان مُقيماً بجبل من جبال عُمان ، كما ذكر الباخرزي[٦] . وفي « نزوى »[٧] بالذات على ما ذكر حاجي خليفة[٨] .

ومن استقراء شعره نعلم أنه كان يتردد على العراق أحياناً ويقيم فيها ويتخذها ملاذاً حين كانت الأحداث تتجهم في وجهه في عُمان . يعزز هذا قوله :

وإذا أحبتني العراق فَهَيِّنٌ عنـدي إذا نشـزت عليَّ عُمانُ

وفي شعره إشارة إلى أيام لهو أمضاها بجرجرايا ، وهي بلدة من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي كانت مدينة وخربت[٩] . لكنّ عُمان كانت أثيرة عنده ، فهو يتطلع اليها بحسرة :

فـارقتُ أربعـةً لهـا يهـوى المنيـة من يفـارقْ

شرخَ الشبيبـة والغـنى وعُمـان ، والإلفَ المـوافـقْ

وحين كانت أمانيه تخيب في العراق ، كان يُنشد وهو يتطلع إلى عُمان :

وإذا الأمـاني لم تنلهـا مُعْرقـا فـاثنِ العنـان ، وسِرْ تنلهـا مُعْمِنـا

وهكذا ظلّ يتوجه بقلبه إلى عُمان ، أنّى كان مهجره :

فمـؤيـد السلطـان زر ، ودع الـورى وعُمان يَمِّمْ ، واهجر الآفـاقـا

عاش « أبزون » زمن البويهيين ، وفي مدحه « فخر الملك » وزير آل بويه ما يعزز ذلك :

أرضى ملـوك بني بـويـه بنُصحـه والنجـح جسمٌ روحُـه الإيمـانُ

ولـو أن أمر الملـك نيـط بغيره أبت الأسرّة ذاك والتيجـان

أيـام فخر الملـك أكثر بهجـة من أن يقـوم بـوصفهنّ لسـانُ

---

(٦) دمية القصر ١٧٩/١ .

(٧) نزوى ، وفي معجم البلدان « نَزْوَةُ » جبل بعُمان عنده عدة قرى كبار يسمّى مجموعها بهذا الاسم ، فيها قوم من العرب كالمعتكفين عليها وهم خوارج أباضية يعمل فيها صنف من الثياب منقة بالحرير جيدة فائقة لا يعمل في شيئ من بلاد العرب مثلها ، ومئازر من ذلك الصنف يبالغ في اثمانها ، رأيت منها واستحسنتها . قاله ياقوت في معجم البلدان ٧٧٦/٤ .

(٨) كشف الظنون ١ / عمود ٧٧٢ .

(٩) معجم البلدان ٥٤/٢ .

وفي شعره مدائح لآل مكرم ، وقد وزر منهم أبو محمد الأوحد ابن المكرم لسلطان الدولة البويهي ما بين عامي ٤٠٤ – ٤٠٧ هـ ، كما وزر مرة ثانية لعماد الدين البويهي سنة ٤١٥ هـ[١٠] .

قال أبزون :

وغرائب الكرم التي إن فُتِّشت   في آل مكرم فهي غيرُ غرائب

والملك يشهد انهم بولائهم   يكفون شرّ الخالع المتشاغب

وقال :

يا آل مكرم يا أولي الكرم اسعدوا   أَمِنَ الشقاوة من بكم قد آمنا

فولاؤنا مالم يكن لكم سُدى   ومديحنا مالم يكن فيكم خنا

وقال :

لله درُّ المكرميين الأُلى   خَرَّ الكرامُ لهم على الاذقان

الناصحين الملك علماً منهمُ   انّ النصيحة حليةُ الايمان

فمديحهم سببٌ الى نيل العلا   وولاؤهم أمنٌ من الحدثان

وفي عدد من قصائده اشارة إلى ممدوحه مؤيد السلطان حاكم عُمان فهو تارة يعيش بقربه وفي كنفه :

ها انّ أرض عمان أنس بقعة   ومؤيّدُ السلطان أكرم صاحب

وإلى أياديه صرفت مطامعي   وعلى معاليه وقفتُ مطالبي

وهو تارة أخرى يستنجد به لوجوده في مكان يزري بهمته ويورثه الأذى :

أمؤيد السلطان دعوة صارخ   قد نال منه عدّوه فتسلطنا

يشكو اليك مقامه في بقعةٍ   تزري بهمته وتورثُه الضّنا

ويصرح أبو الحاجب : انّ جلّ قصائد أبزون كانت مدائح في الأمير ناصر الدين ، ونشر محاسن أيامه[١١] .

(١٠) معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(١١) كشف الظنون ١ / العمود ٧٧٢ .

وحين سعى أبو الحاجب للقائه بجبل عمان ليروي شعره عنه ، وجده كثير الاشتغال بالأمور السلطانية والأعمال الديوانية[١٢] .

شاعرنا اذن كان ذا جاه كبير في زمنه ، وكان على جانب كبير من المعرفة والذكاء[١٣] ، ومع ذلك كان غير مُعْجَبٍ بشعر نفسه على ما روى الباخرزي[١٤] .

وتلك خصلة نادرة من خصل التواضع ، فالمعروف عن شعراء عصره ومن تلاهم انهم مفتونون بأشعارهم :

الابيوردي يصف شعر نفسه قائلاً :

كلماتي قلائد الاعناق	سوف تفنى الدهور وهي بواقي

وقال في قصيدة أخرى :

فكلّ من قال بعدي بالقريض أتى	بما تقيَّل في تحبيره أثري

والطغرائي يعلنها مدوّية :

اليك عماد الدين غراء طلقة	تنافَسُ فيها أعينٌ وعقولُ
إذا أُنشدت حلّ الحبا طرباً لها	وأصغى اليها عالِمٌ وجهول

والغزّي يفخر بشعره قائلاً :

لو امتلأت بها أذنُ ابنِ حُجْرٍ	لعلّقها مع السبع الطوالِ

والأرّجاني يؤكد :

ومنّي اقتباس المحدثين معانيا	ولم اقتبس معنى من القدماء

وحين تكون المغالاة هي الصفة الغالبة على شعراء عصره في تقدير أشعارهم ، فاننا نعجب حقاً حين نظفر بواحد منهم لا يزدهيه شعره ، بل يصرّح انه غير معجب بشعر نفسه .

وربَّ قائل يقول : ولِمَ لا يكون شعره غيرُ معجبٍ حقاً ؟!

---

(١٢) دمية القصر ١٧٩/١ .

(١٣) كشف الظنون ١ / عمود ٧٧٢ .

(١٤) دمية القصر ١٧٩/١ .

والجواب : انّ من وقفوا على ديوانه من أعلام عصره سجّلوا غير هذا .

قال الباخرزي[١٥] : « كنت أسمع له بالفقرة فالفقرة ، فافتقر الى اخواتها ، ويلتهب حرصي على إثباتها ، ثم ظفرت بديوان شعره في خزانة الكتب النظامية بنَيسابور ، وكنت على جناح الانصراف إلى الناحية ، فلم اتمكن من احتلاب دررها ، ولم أتوصل إلى اجتلاب دُررها » .

وقال في موضع آخر معلقاً على بيتين للشاعر : « هذا معنى ماله نهاية ، وغاية في الافتراع ليس وراءها غاية[١٦] .

وشهادة أخرى اثبتها محمد بن أحمد المعروف بأبي الحاجب : « كنت قبل حصولي بعمان ، أسمع بأشعار الكافي ابي علي ، وتمرّ بي القصيدة بعد القصيدة ، وكنت لفرط اعجابي بها اودّ لو ظفرت بمن يرويها عن مؤلفها .. » حتى قال بعد لقائه بالشاعر : « وإذا ديباجة شعره مع بهائها ورونقها ، متناسبة الألفاظ ، متناضرة المعاني »[١٧] .

ويكشف لنا أبو الحاجب هذا صفة خلقية رفيعة من صفات ابزون حين يقول :

« وإذا هو يتجنّب إيراد ما يمجّه السمع ، وتأباه النفس »[١٨] .

ويضيف أبو الحاجب في موضع آخر في وصف شعر شاعرنا : انه خالٍ عن ايراد الغريب الذي يبعد عن الافهام ، فما تخلو قصيدة من مصاريع تجرى مجرى أمثال مخترعة[١٩] .

ثم قال أبو الحاجب بعد هذا : « فجمعت ديوانه ، وبدأت بمدائحه في الأمير الأجل ناصر الدين إذ كانت جلّ قصائده في نشر محاسن أيامه ، ولم أجد نسخته عنده »[٢٠] .

ابزون اذن كان له ديوان مخطوط رآه الباخرزي في خزانة الكتب النظامية بنيسابور ، ولسنا

---

(١٥) دمية القصر ١٧٩/١ .

(١٦) دمية القصر ١٨٢/١ .

(١٧) دمية القصر ١٧٩/١ .

(١٨) دمية القصر ١٧٩/١ .

(١٩) كشف الظنون ١ / عمود ٧٧٢ .

(٢٠) كشف الظنون ١ / عمود ٧٧٢ .

ندري هل أن الذي رآه الباخرزي في نيسابور هو الديوان الذي جمعه أبو الحاجب محمد بن أحمد[٢١] أم سواه ، ولسنا نعرف عدد ورقاته . ثم انّ ديوانه المخطوط هذا قد ضاع مع ما ضاع من تراث سلفنا الصالح ، فلا توجد له أية إشارة في فهارس المخطوطات المطبوعة على كثرة بحثي وتنقيري .

ومن هنا تنبع اهمية المختار من ديوانه ، الذي ننشره اليوم أول مرة ، مميطين اللثام به عن شاعر كبير من شعراء عُمان ، كانت له الصدارة بين شعراء بلده في عصره .

ولقد كان عصرُ « أبزون » عصرَ كَلَفٍ بفنون من البديع كالجناس والطباق والمقابلة ، طغت عند بعضهم حتى اصبحت غرضاً في ذاتها ، وكان لابُدّ أن يطبع ذوقُ العصر وذوقُ نقّاده شعرَ صاحبنا .

وإذا كان من الشطط أن نحكّم مقاييس القدماء في شعرنا المعاصر ، فانه من الغلط كذلك أن نحكّم مقاييسنا النقدية المعاصرة في شعر الأقدمين .

إن القول ان هذا الشعر الذي وشّاه الصبغ البديعي ليس شعراً أصيلاً ، بل هو شعر صنعة ، كلام مردود .

ذلك أن الصبغ البديعي يكسبُ الشعر جمالاً إذا ما توفرت الأصالة والصدق الفني والخيال المجنّح .

ورغم ان الشاعر عاش في فترة شاع فيها « الدوبيت » إلاّ أننا لم نظفر له فيما وقفنا عليه من شعره بنماذج منه . ولعلّ مردّ ذلك فقدان ديوانه .

وأبزون كان يعرف الفارسية ، ذكر الباخرزي انّ له وهو منقول من الفارسية :

وصحراء ردّتْها الظِّباءَ حفائراً ... بأظلافها أَحْسِنْ بها من حفائر

فهبّت رياح للصبا فطممنها ... بمسكٍ ، فعادت نزهة للنواظر[٢٢]

---

(٢١) حول ابي الحاجب ، يحيلنا محقق الدمية على الوافي بالوفيات فيقول في الهامش ٤٢ ج ١ ص ١٧٩ ما نصه : « ترجمة في الوافي ٤٨/٢ » . وبالرجوع للوافي نجد الترجمة تخص محمد بن احمد بن نصر ابو شجاع الحاجب . فهذا أولا : الحاجب ، وليس أبو الحاجب . وكنية المترجم في الوافي (ابو شجاع) وكنية جامع ديوان ابزون (ابو الحاجب) . وثمة دليل علمي آخر خلاصته : انّ المترجم لَهُ في الوافي قد سمع من الحسين بن عبد الرحمن الغزي في رجب سنة سبع عشرة وخمسائة ، مما يبعد به عن عصر شاعرنا قرابة قرن من الزمن . والخلاصة التي نخرج بها ان جامع ديوان ابزون هو غير المترجم له في الوافي ، وبالتالي فان إحالة محقق الدمية مغلوطة علمياً .

(٢٢) الدمية ١٨٢/١ .

وعبارة الباخرزي فيها غموض ، فلسنا نعرف على وجه الدقّة هل انّ الأصل المترجم عنه هو لأبزون أم لسواه . فإن كان الأصل له فهذا يعني انه نظم الشعر للغتين العربية والفارسية ، وإن لم يكن فهو يعني انه كان متمكناً من الفارسية مطلعاً على آدابها ، ضليعاً بها ، مما سهل له نقل المعنى إلى العربية شعرا .

وفي القليل الذي وصلنا من شعر ابزون نفثات وجدانية أصيلة ، لعلّ في مقدمتها قصيدته العذبة المثناة التي أولها :

عصر الصِّبا عُمدُ فالهوى ... باقٍ ، ورَكْبُ الشوق طارقْ
ما كنت إلاّ رَجْعَ طرفٍ ... لا بثاً ، أو لَمْحَ بارقْ
سوّدتَ من عجل أمانينا ... ، وبيَّضْتَ المفارق

وأبياته الوجدانية الرقيقة :

أفدي الذي زارني والليل معتكرٌ ... والأفق ممّا اكتسى من عَرْفِه عَطِرُ
فلم نَزَلْ نتجارى في العتاب معاً ... اشكو اليه جفاهُ وهو يعتذرُ
حتى إذا ما اعتنقنا واستتبَّ لنا ... على ارادتنا عيشٌ له خَطَرُ
ناديتُ : ياليل دُمْ ليلاً بلا سَحَرٍ ... فقال : ليلك هذا كُلُّه سَحَرُ

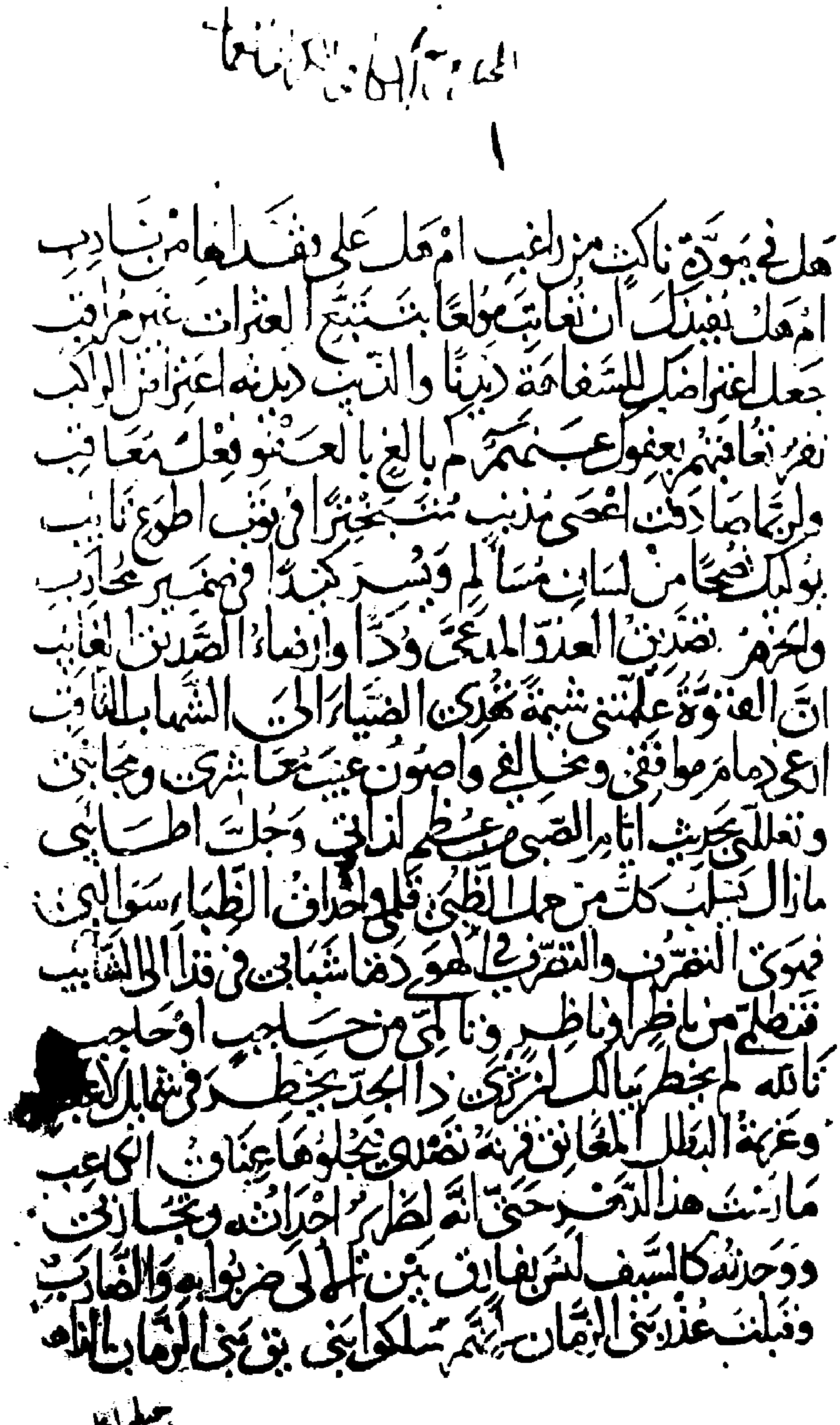
وكفاه شاعرية أن يكون صاحب البيتين الرائعين :

يقولون لي : ألفاظُ هجوك عندنا ... إلى القلب من ألفاظ مدحك أسبقُ
فقلتُ لهم : كذبٌ مديحي فيكمُ ... وهجوي لكم صدقٌ ، وللصدق رونقُ

• • •

وبعد : فانّي لأرجو أن يكون نشر هذا المختار من ديوان الشاعر ، اضافة لديوان الشعر العربي عامة ، والشعر العُماني خاصة .

والحمد لله على ما أنعم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .



١

هل في مودة ناكث من راغب ام هل على نقض لها من نادب
ام هل لقلبك ان تعاتب مولعا بتتبع العثرات غير مراقب
جعل [illegible] للسفاهة دينا والتيه [illegible] الراكب
نفر [illegible] بعقول عيبهم [illegible] بالعتو [illegible] معاقب
ولربما صادفت اعصى مذنب متبخترا في ثوب اطوع تائب
يوليك نصحا من لسان مسالم ويسر كيدا في ضمير محارب
[illegible] العدو المبتغى ودا وارضاء الصديق لغاضب
ان الفتوة علمتني شيمة تهدي الضياء الى الشهاب الثاقب
ارعى ذمام موافقي ومخالفي واصون غيب معاشري ومجانبي
وتعللي بحديث ايام الصبى [illegible] لذاتي وجل مطالبي
مازال يسلب كل من [illegible] قلبي واحداق الظباء سوالبي
فهوى التغرب والتقرب في الهوى [illegible] شبابي في [illegible]
[illegible] من ناظر او ناظر [illegible] من حاجب او حاجب
تالله لم يحظ [illegible] ذا الجد يخطر في شمائل لاعب
[illegible] المعاني [illegible] يجلوها [illegible]
[illegible] هذا الدهر حتى انه [illegible] احداثه [illegible]
ووجدته كالسيف [illegible] بين [illegible] والضارب
[illegible] عذر بني الزمان لانهم [illegible]

جعلوا

صورة من الأصل المخطوط

المختـــارات

من أشعار الكافي أبي علي أبزون بن مهبزد الكرّاني العُماني

(١)

١ - هـل في مَـودَّةِ نـاكثٍ من راغبِ ... أمْ هـل على فقـدانها من نـادبِ
٢ - أمْ هَـلْ يُفيـدُكَ أن تُعـاتِبَ مُـولعـاً ... بتَتَبُّـــعِ العثراتِ غير مُراقبِ
٣ - جعـل اعتراضـك للسَّفـاهَـةِ ديـدنـاً ... والـذئبُ ديـدنـةُ اعتراضُ الراكبِ
٤ - نفرٌ تُعـاقبُهم بعفـوكَ عنهمُ ... كمْ بـالـغٍ بـالعَفْـو فِعْـلَ مُعـاقبِ
٥ - ولـربَّما صـادفتَ أعْصَى مُـذْنبٍ ... مُتَبَخْتِراً في ثـوب أطـوعِ تـائبِ
٦ - يُـوليـكَ نُصحـاً من لسـان مُسـالِمٍ ... وَيُسِرُّ كيـداً في ضميرِ مُحـاربِ
٧ - والحـزمُ تصـديقُ العـدوّ المـدّعي ... وُدّاً ، وإرضـاءُ الصـديـق العـائبِ
٨ - إنَّ الفتـوَّةَ علَّمتني شـيمـةً ... تُهـدي الضيـاءَ الى الشهـاب الثـاقبِ
٩ - أرعـى ذمـامَ مـوافقـي ومخـالفي ... وأصـونُ غيبَ مُعـاشِري ومُجـانبي
١٠ - وتعـلّلي بحـديث أيّـامِ الصِّبـا ... من عَظم لـذّاتي وجُـلّ أطـايبي
١١ - مـا زال يسلبُ كلٌّ من حمـل الظُّبـا ... قلبي ، وأحـداقُ الظِّبـاء سـوالبي
١٢ - فهـوى التصرُّفِ والتصرفُ في الهـوى ... دفنـا شبـابي في قـذالي الشـائبِ
١٣ - فتظلّمي من نـاظرٍ أو نـاظرٍ ... وتـألُّمي من حـاجبٍ أو حـاجبِ
١٤ - تـاللهِ لم يخطر ببـالـك أن ترى ... ذا الجـدِّ يخطر في شمائـل لاعبِ
١٥ - وعـزيمـةُ البطـل المُعـانـقِ قرنَـهُ ... تَصْـدى فيجلُـوهـا عنـاقُ الكاعبِ
١٦ - مـارَسْتُ هـذا الـدهرِ حتّى أنّـه ... لضـرائرٌ أحـداثـهُ وتجـاربي
١٧ - ووجـدتّـه كالسيفِ ليس بفـارقٍ ... بين الألى ضربـوا بـهِ والضـاربِ
١٨ - وقبلتُ عُـذْرَ بني الـزمـان لأنَّهم ... سلكـوا طريـقَ بني الـزمـان الـذاهبِ

١٩ - جُبِلُوا على رفض الوفاء لغيرهم ... وتَمَسّكوا بالغَدْرِ ضربةَ لازب (١)

٢٠ - ومركّبٌ في طبع كلّ مُكلَّفٍ ... حمل الرجاء طلابُ فوقِ الواجب

٢١ - والرزقُ يطلع من رفاهة قاعدٍ ... لطلوعه من سعي آخر طالب

٢٢ - وسجيّةُ الأيّام ستر فضائلي ... عن عَيْنِ رامقها وبثّ مثالبي

٢٣ - أيّامُ عمري في تلوّن جَزْيِها ... تحكي الرياح فهل لها من عاتب

٢٤ - الحال تهزل بين جذب شمائلٍ ... منها ، وتَسْمَنُ بينَ خصب جنائب

٢٥ - قُسِمَتْ وتلك غنيمةٌ فَنَسيمُها ... لأباعدٍ وسمومُها لأقارب

٢٦ - أخذَ الحضورُ من المُنى بحظوظهم ... ورموا وراءَهُمُ بحظٌ الغائب

٢٧ - لو نلتُ عزٌ متوّجٍ في توّج ... لم أخل من دلّ وظنٍ كاذب

٢٨ - ما إنْ أسأتُ الاختيار وإنّما ... قاد الضّلالُ الى اللئام ركائبي

٢٩ - نَهبوا وألجوا في اقتضاء مديحهم ... وقضيّةٌ شنعاء مَدْحُ الناهب

٣٠ - من دأبهم منع الحقوق فهل لهم ... منع اللسان عن الملام الذاهب

٣١ - الآن ما بيني وبين بصيرتي ... رُفِعَ الحجابُ فالنجاح مآربي

٣٢ - أكفى المؤنةَ في مذمّةِ مانعٍ ... نفسي ، وفي حملي لمنّةِ واهب

٣٣ - ها انّ أرضَ عمانَ أنفسُ بقعةٍ ... ومؤيّدُ السلطان أكرم صاحبِ

٣٤ - مازال إمّا في صدور مجالسٍ ... يبني العُلا [أ](١) وفي قلوب مواكب

٣٥ - والى أياديه صرفتُ مطامعي ... وعلى مَعاليه وقفتُ مطالبي

٣٦ - أأُعاتبُ الأخوان في استبدادهم ... دوني بها فأكون شرّ معاتب

٣٧ - كلاّ فما خدموهُ الاّ للعُلى ... والخرُ لذّةُ سُكرها للشارب

٣٨ - لبسوا بخدمتهمْ لديه مواهباً ... لا كالمواهبِ طُرِّزَتْ بمراتب

٣٩ - فاذا التقتْ آمالهم بصِلاتِه ... فصِفِ التقاء أجنّةٍ بجنائب

(١) مابين عضادتين زيادة يستقيم بها الوزن .

(٢) ٤٠ - قمرٌ سرادقُه لِلَحْظِك بُرجةُ | يرمي العدا بعزائمٍ ككواكبِ
٤١ - فَلَةُ المنابرُ والمحاربُ حَبَّذا | من كان رَبَّ مآثرٍ ومَحاربِ
٤٢ - وأهلَّة الراياتِ تطلع تحتها | أبَداً نجومُ أسِنَّةٍ وقواضبِ
٤٣ - والخيل مازالت تشبّهُ والعدا | بالليل ان طلبتهمُ والهاربِ
٤٤ - فالأرض تشكو ركضَها من جانبٍ | والجوّ يشكو نقعها من جانبِ
٤٥ - وسرى السرايا تحت كلّ دجُنّةٍ | كُسِيَ الخيالُ هناك ثوبَ الهائبِ
٤٦ - من كلّ أروع للحياة مُطَلِّقٍ | تحت العجاج وللحميَّةِ خاطبِ
٤٧ - ما زال يجمعُ بين بأسٍ صادقٍ | يجلى به الجُلّى ورأيٍ صائبِ
٤٨ - والمشرفيّاتُ التي بشفارها | هلكتْ ملوكُ أعاجمٍ وأعاربِ
٤٩ - طُبِعَتْ شُموساً فَهْيَ في أغمادها | والهام بين مشارقٍ ومغاربِ
٥٠ - تنقادُ أبكار البلاد لحدِّها | بعد النشوز وبعد منع الجانب
٥١ - ومناقبٌ ودَّتْ مَصابيحُ الدُّجى | حَسَداً لها لو لُقِّبَتْ بمناقب
٥٢ - وغرائب الكَرَم التي إن فتشت | في آل مُكرم فَهْيِ غيرُ غرائب
٥٣ - والملك يشهد انهم بولائهم | يكفون شرَّ الخالع المتشاغب
٥٤ - أنصارَهُ في كُلّ خطبٍ فادحٍ | وحُماتُه في كُلّ أمرٍ حازبِ
٥٥ - هذا العُلى حقاً فهل من شاعرٍ | يصفُ العُلى وصفي لها أم كاتب ؟

التخريج :

الابيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩ . له في دمية القصر ١٨٠/١ .

رواية التاسع :

أرعى ذمام مرافقي ومعارفي | وأصون عرض مُقاربي ومجانبي

ورواية الثاني عشر : في عذارى الشائب .

والأبيات ١٢ ، ١٣ ، ٣٥ في مخطوطة لمح الملح للحظيري الورقة ١٦ .

ورواية الثاني عشر :

فهو التصرف . . . . في عذارى الشائب

(٢)

١ – الـزَمْ جفـاءك لي ولـو فيـه الضَّنـا ... وارفـع حـديثَ البين عَمّـا بيننـا

٢ – فسمـومُ هجرِكَ في هـواجرِه الأذى ... ونسيمُ وَصْلِـكَ في أصـائِلِـه المُنى

٣ – ليسَ التلـوُّن من امـارات الرضـا ... لـكن إذا مَـلَّ الحبيبُ تَلَـوَّنـا

٤ – تُبـدي الاسـاءة في التيقُّظِ عـامـداً ... وأراك تُحسِنُ في الكرى أن تُحْسِنـا (٣)

٥ – مـا لي إذا استعطفتُ رأيـك رمتَ لي ... عيبـاً جـديـداً من هنـاك ومن هنـا

٦ – مُثْنٍ عليـك ومـا استفـاد رغيبـةً ... عجبٌ ، ومعتـذرٌ اليـك ومـاجنـا

٧ – مـا جرَّ هـذا الخطب غير تَغَـرُّبي ... ومن التغـرُّب مـا أذلّ وأهـونـا

٨ – أزكى بقـاع الأرض وهي فسيحـةٌ ... مـا كان سِرْبُ العيش فيهـا آمنـا

٩ – والرزقُ أنـواعٌ فـما صـادفتَـهُ ... أَحْلى من التبعـات أحْلَى مُجْتَنى

١٠ – والـدهرُ لا يفشي غـوامضَ سِرِّهِ ... إلاّ الى ذي الفقر من بعـد الغنى

١١ – أدْمِنْ مُصـاحبـةَ الرجـالِ فلم يخب ... سعي امرئٍ صحب الرجـال فـأَدْمَنـا

١٢ – لا تغـرّر بـالمـانعين قلـوبَهم ... إنْ سـالمـوا ، والمـانحين الألسنـا

١٣ – الحرُّ أدنى مـا يكـون اذا نـأى ... والوغـد أنـأى مـا يكون أذا دنـا

١٤ – وإذا الأمـاني لم تنلهـا مُعْرِقـاً ... فـاثن العنـان وسرْ تَنَلْهـا مُعْمِنـا

١٥ – أوصـالَ سلطـانُ الحـوادث فـارْمِـه ... بمـؤيـد السلطـان حتى يـذعنـا

١٦ – مَلِـكٌ مُنى فلـك السماء لـو انّـه ... بجـلالـه بـدل الكـواكب زُيِّنـا

١٧ – ألِفَ العُـلـوَّ فكاد يـأبى حَلّـةً ... إلاّ السنـاء ، وحِلّـةَ الاّ السَّنـا

١٨ – سـائلتَ بعـد[1] الـلائـذين بظـلّـه ... عَنْـهُ ، فقـال لي المقـال البيِّنـا

---

(١) كذا في الاصل ولعلها (بعض) .

١٩ - هــــذا الــذي أمضى الغرار فمــا ثنــا — وجرى الى أمَــد الفخــار فمــا ونــا
٢٠ - كالشمس مخـلـوعـاً عليـك شعـاعُهـا — أبَـداً ، وليسَ لقـاؤهـا لـك ممكنـا
٢١ - فـإذا تراءى في مـواكبـه لنـا — حسـدَتْ جـوارحُنـا هنـاك الأعينـا
٢٢ - وإذا حُجبْنَـا عنـه في خـلـواتِـه — فـالشُّغـلُ في خَلَـواتِـه عنّـا بنـا
٢٣ - يخـلـو ليخترعَ النّـدى فيَسُرُّه — ويجيـلُ فينـا الفكـر كيف يسرُّنـا
٢٤ - وتـراهُ أوْسَـعَ قـاصـديـه بيـابـه — جـاهـاً ، وفي نـاديـه أوسَعُهم مُنى
(٤) ٢٥ - تسري إلى [ ][٢] الأعـادي خيلُـه — مَسْرى الخيـالِ الى الأَحِبَّـة مـوهنـا
٢٦ - لا وَطْئُهـا ممّـا يحسّ ، ولا يُرى — لعجـاجهـا أثراً إذا الرائي رنـا
٢٧ - حتى إذا انبلـج الصبـاح تنتهُمُ — والسيفُ يمطـر في فنـائهم الفنـا
٢٨ - فـأرتـك ذلّـة من غـدا متعـززاً — منهم وبـذلـة من غـدا مُتَحصّنا
٢٩ - خَلِعَتْ قلـوبُ الخـالعين بـذكره — فـإذا هُمُ سمعـوا بـه عـدمـوا الهنـا
٣٠ - وعلى الرعيّـة رأفـةٌ لـو انّهـا — ثنت القضـاءَ السـوءَ عنهـا لانثنى
٣١ - فمحيّرٌ فطـن العقـولِ بكُنْهِـه — حتى يـودّ المـرء أن لا يَفْطـنـا
٣٢ - سِيَرٌ أعـدنَ إلى الصـدور شفـاءهـا — وإلى الـوجـوه رواءهـا المستحسنـا
٣٣ - أوردتُ أيسـرهـا ليحسن نَظْمُهـا — وكتمتُ مُعْظَمهـا لئـلا يَفْتِنـا
٣٤ - فـاعتـادني طربٌ لـذاك وهـاجني — شـوقٌ إلى العليـاء فيَّ تمـكّنـا
٣٥ - حتى عـدلتُ عن الظبـاء الى الظُّبـا — كبراً ، وغـادرتُ القنـاني للقنـا
٣٦ - وجعلتُ مـدحي لابن أوحـدِ دهرِه — نـذراً عليَّ ، فصـار نـذري ديـدنـا
٣٧ - ثم أقتنيتُ تمسُّكي بـولائـه — ذخـراً فكان أجـلُّ ذُخرٍ يُقتنى
٣٨ - ولئن نسيتُ فَخَيْرُ أشجـار الرُّبـا — مـا كان بين الظـلّ يجمـع والجنى

---

(٢) سقط في الاصل المخطوط بمقدار كلمة .

٣٩ – ولقـــد أرى الغـزل الرقيـق يروقُ مَنْ | لم يَهْـوَ غـزلان الحجـــاز ولا منى

٤٠ – ومُجَـــدِّداً حـــادي المطـيِّ خببنَ مَنْ | لا بـــالعقيـــق نشـــا ولا بـــالمنحنى

٤١ – أمـؤيِّـد السلطـان دعـوة صـــارخٍ | قـد نـــال منـه عـدوُّه فتسلطنـــا

٤٢ – عـــاتٍ يُعـــاني في الـزمـان مكارهـــاً | شتّى ، ويطـوي عنـك إلاّ مـا عنـــا

٤٣ – يشكـو إليــك مقـــامَــةً في بقعـــةٍ | تُـزري بهمَّتـــهِ وتـورثُـــه الضَّـنـــا

٤٤ – والخطبُ مـا هـزمَ الـدُّجى بظـلامِـه | إمّـــا ألمَّ ، فليس خَطْبـــاً هَيِّنـــا

٤٥ – والمجـــدُ كُـلُّ المجـــد في استنقـــاذه | فمُبَيِّنٌ مغـــــــــزاهُ صَرَّحَ أو كنى

٤٦ – أمسى يَـــدُلُّ على عَـلاك بخـــاطرٍ | لا يستطيـع الـدهر يهـدمُ مـا بنـــا (٥)

٤٧ – إن مرَّ في طلب القـــــوافي لم يقف | أو ســـار في طلب المعـــاني أمْعَنـــا

٤٨ – مـــا تضمن الأيـــامُ لي نَيْـلَ العَـــلا | وإذا أمرتَ فبـــالحَري أن تضمنـــا

٤٩ – وكـــذا كتـــابُ البشر ليس يسرّني | مـا لم يكن بنـدي يـديـك معنـونـا

٥٠ – يـــا آل مكرم يـــا أولي الكَرَمِ اسعــدوا | أمِنَ الشقـــاوةَ من بكم قـــد آمنـــا

٥١ – فـولاؤنـــا مـــالم يكن لكمُ سُـــدى | ومـــديحُنـــا مـــا لم يكن فيكم خَنـــا

التخـريج :

الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٥ في مخطوطة لمح الملح الورقة ١٤٣ .

رواية الأول : فيما بيننا . ورواية الثالث : في امارات .

ورواية السابع عشر : الفتَ العلاء وكان يأبى حله .. وحلية إلا السنا .

ورواية الخامس والثلاثين : في القنا .

والأبيات ١ – ٥ في دمية القصر ١٨١/١ وروايتها مماثلة لمخطوطتنا .

(٣)

١ - كم ترسلــون أعنّـــــة الهجرانِ	فقــدُ الحيــاة وَفْقــدكُمْ سيّــان
٢ - فصلوا جناحي بــالوصــال فَمُنْكَرٌ	إخــلالُ أهــلِ الفضــلِ بــالخلاّن
٣ - انّي أغـــارُ عليكم أن تسلكــوا	في الــودّ غيرَ طـرائــق الفتيـــان
٤ - وأخــافُ مُرَّ عِتــابكم مــا لم أخَفْ	تحت العجـــاج عــوالِيَ المُرّان
٥ - لم أجْــن فاستعطفتكم لكنَّ [بي] [1]	شـوقــاً الى استعطــافكم الجــاني
٦ - وهبــوني الجـــاني ألَسْتُ شقيقكمْ	هــلاّ غفرتم للشقيــق الجــاني ؟
٧ - غَطُّــوا بأذيــال التجــاوز منكم	صـفحات جــانٍ للنــدامة جــاني
٨ - ولربّمــا كـرهَ العقــوبةَ حــازمٌ	كيمــا يفــوز بلـــذّةِ الغُفـران
٩ - مــا كان أيمن طــائري بلقـــاكمُ	أيــام عــودي أنضر العيــدان
١٠ - لـولا الفراق لمــا فرقت ولــو هـوى	نجم الهــوى ، أمن الجنــون جنــاني
١١ - ببعــــادكم أبغضت دار كرامتي	وبقــربكم أحببتُ دارَ هـــواني
١٢ - فـاستـأنفـوا بتعهــدي احســانكم	انّ التعهُّــدَ صـيقـلُ الاحســان
١٣ - وتبيّنـــوا انّي بليتُ بمعشـرٍ	طلبُ التملّس منهم ايــلاني [كـــذا]
(٦) ١٤ - حتى أعــود من المسرَّة نـاسيــاً	أن كنت يــومـــاً من بني الأحــزان
١٥ - ويعـود بعـد اليـأس فكري طـامعـاً	في كُـــلِّ بكرٍ للمـنى وعَـــوان
١٦ - ويشــوقني بعــد السلـوّ عن الصّبــا	حَـــدَقُ المهــا وسـوالفُ الغـزلان
١٧ - للهِ درُّ المـكرميّين الأُلى	خَـــرَّ الكرامُ لهم على الأذقـــان

(١) مابين عضادتين ساقط في الاصل المخطوط واستضفناه من الدمية .

١٨ - النـاصحين المـلك علمـاً منهمُ ان النصيحة حليةُ الإيمـان
١٩ - والسـالكين بحُبٍّ آل محمـدٍ سُبُلَ الهـدى في السرّ والاعلان
٢٠ - فـديحهم سَبَبٌ إلى نيـل العُـلا وولائهم أمْنٌ من الحـدثـان

التخـريج :

البيت الأول في هامش الصحيفة ١٨١ من الجزء الأول من دمية القصر ،
أشار المحقق الى انه في احدى مخطوطاتها وفي طبعة محمد راغب الطباخ .
وروايته في الهامش المذكور : وهجركم سيّان .
والأبيات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١١ في دمية القصر ١٨١/١ .

(٤)

١ - كم ذا يُنـاصِحُ في الهـوى ويُخـادعُ سَكَنٌ يُـواتي مَرَّةً ويمـانـعُ
٢ - جزت الخيام وقد أحاط بها الـدجى فَجـلا الـدجى قمرُ الخيـام الطـالـعُ
٣ - فـدنـوتـهُ منـه فـاعترتـه نفـرةٌ فمضى يقـول وليس غيري سـامـعُ
٤ - وذمـام قـومي لا رجعتُ ولا الكرى يـومـاً إلى أجفـان عينـك راجـعُ
٥ - فـأجبتُـهُ والـدمـع يخـدمُ لـوعتي ولكُـلِّ عضـو لي هنـاك مـدامـعُ
٦ - يا ربّةَ الخـدر الـذي بفنـائـه أبـداً لافئـدة الرجـال مصـارعُ
٧ - فـاخرتُ قـومـك فـاعتقـدت ضغينـةً بِرَمـاتِهـا من لحـظ عينـك سـاطـعُ
٨ - لا تُضمري حِقْـداً عليّ فـانّني لكـلاب حبّـك دون قـومـك تـابـعُ
٩ - أخليتَ صـدرك من هـواي كأنني في صـدر برِّك عنـد ذكرك دافـعُ
١٠ - ومللتني حتى كأن لم تعلمي انّي لمفـترق المحـاسن جـامـعُ
١١ - لّمـا مَنَعْتِني الـوداد فبعـدمـا حكم التطـوُّل أن يـذمّ المـانـعُ
١٢ - أو ضـاع دمعي في هـواك فطـالمـا أنـا بين أربـاب الممالـك ضـائـع

(٧) ١٣ - فـدنَتْ تقبلُني وتَمْسَحُ عَبْرتي — وتقول لي مذعورةً وتُطالع

١٤ - أنَّأى القلوب الجازعاتِ إصابةً — قلبٌ على ما لم يَفُتْهُ جازعُ

١٥ - مهلاً فقد تكبو الزناد وحشوُها — نارٌ، وقد يَنْبو الحُسامُ القاطع

١٦ - والمرءُ يُولَعُ بالمُنى وبلوغها — والدهرُ يأبى ذاك ثُمَّ يُطاوع

١٧ - لك في معاتَبةِ الملوك طرائقٌ — هي للخدود إلى السعود سوافع

١٨ - ومؤيِّد السلطانُ يلبسك الغنى — فلباسُ موعِده الوفاء الناصع

١٩ - قد كان منكَ اليه[1] ما هو سائرٌ — في الأرض تنقلهُ الرواةُ وشائع

٢٠ - وبعَقْبِ هذا الرشّ سيلٌ دافعٌ — ووراء هذا النثّ[2] روضٌ يانعُ

٢١ - وكذا الكتائب تلتقي لقراعها — ولها أمام الالتقاء طلائع

٢٢ - فشكرتُ عطفَتَها وما كشفَتْهُ لي — بحَديثها فكلامُها لي نافعُ

٢٣ - ورجعتُ موفوراً وجأشي ساكنٌ — وهجعتُ مَسْروراً وقلبي وادعُ

٢٤ - وعلمتُ أن سَيُفيقُ لي غبَّ الكرى — بمؤيِّد السلطانِ جدٌّ هاجع

٢٥ - ملكٌ غذاء العَدْل منه والنَّدى — شكر الرعية والمديح الرابع

٢٦ - جُعِلَتْ مُرَوَّتُهُ ضجيعَةَ فكرهِ — هِمَمٌ لها هامُ النجوم مضاجعُ

٢٧ - صولاتُه للنائبات مآفلٌ — وصِلاتُهُ للمأثرات مَطالعُ

٢٨ - ولذكرِ ما صنعَتْ قديماً خيلُهُ — قبلَ الوقائعِ في النفوس وقائع

٢٩ - والنصر حيثُ ترى هلالَ لوائهِ — لك طالعاً وسط العجاجة طالعُ

٣٠ - ولهُ إذا صرع العَزائمَ حادثٌ — لألأُ عَزْمٍ للحوادث صارعُ

٣١ - ومكيدةٌ في الروع سُلطانيَّةٌ — هي قبل نَقْعِ الخيل سَمٌّ ناقعُ

٣٢ - وطريقةٌ في المكرمات غريبةٌ — حُمِدَ الحريصُ بها وذُمَّ القانعُ

٣٣ - يولي صنائعَهُ الرجال وعندَهُ — علَّلُ السؤال إذا فصلن صنائعَ

---

(١) في الاصل المخطوط : قد كان اليه منك

(٢) في الاصل : النبت

٣٤ - وأجلّهم حَظّـــاً وقــــد وسعتهمُ　　من لا يُــزايلُــهُ الرجـــاءَ الــواســعَ (٨)

٣٥ - فكــأنّما كانتْ لــدى آبــائـه　　قــدمــاً لآبــاء العُفــاة ودائــعُ

٣٦ - شِيَمٌ لــو اتَّبــع الأكابرُ هَــدْيَهــا　　لغَــدَتْ هــوادي الكبر وهي تــوابــعُ

٣٧ - والفعــلُ مــالم ينتفــع في سيرةٍ　　بريــاضَــةِ الانصــافِ فعــلٌ طــالــعُ

٣٨ - لم يعتمــد هــذا الــزمــان مسـاءتي　　حنقـــاً عليَّ بــل اتفــــاقٌ واقــعُ

٣٩ - مـا كان ينــأى أن يُصـانعني الرضـا　　لـو كان يَــدْري كُنْــهَ مــا هــو صــانــعُ

٤٠ - أفنى الاعــــزَّةَ غير كلّ مُسَرْبَــــلِ　　بــالعجــز يركبُ أخــدعيه الخــادع

٤١ - يبكي إذا سجــع الحمــامُ صَبــابــةً　　نجــوى فيُسْعِــدُه الحمــامَ الســاجــعَ

٤٢ - وتــذكرّ الأوطــان أمْــرٌ فــادحٌ　　وتشـوُّق الاخــوان خَطْبٌ فــاجــع

٤٣ - وكــذاك عُمرانُ الــديــارِ إذا خَلَتْ　　ممَّن تُحِبُّ فــإنَّهُنَّ مَســـامــع

٤٤ - أمــؤيّــد السلطــانَ عــاوِدْ نظـرةً　　بمكانها يــدنــو المكــان الشــاسـعُ

٤٥ - واسمــع مُحَبَّرَةً[1] إذا هي أنْشِــدَتْ　　وَدَّ الجــوارحُ انهــنَّ مســـامــع

٤٦ - ارسلــتُهــا كيمــا تكــونُ ذريعــةً　　وقصــائــدي حيث اتجهن ذرائــعُ

٤٧ - ولئن بقيتُ لتــأتيَنْــكَ غرائبٌ　　تَسْبي عقــول رُواتهــا وبــدائــع

٤٨ - بل لا يُطيــقُ صفــاتَ مجــدك واصفٌ　　مــا لم يُطــق ذرع البسيطــة ذارع

٤٩ - فــذراك لــلأمــوال فيــه منــاهبٌ　　أبــداً ، ولــلآمـــال فيــه مراتــع

التخـريج :

البيت الثالث والعشرين لوحده في مخطوطة لمح الملح الورقة ٩٠ .

(١) في الأصل : مخبّرة .

(٥)

وأعـــزّةٌ عَـــزَّيتُ بعـــــد فراقهم   بـــاليـــأس قلبي أن يكـون لقـــاءُ
أشتـــــــاقُهم والى الترنّم مَفْـــزعي   والى الترنّم يفـــــزعُ الادبــــــاءُ
ولربّمـــــــا شَيّعْتُـــــــه بتنفُّسٍ   فيكاد يَصْـــدَع قلبيَ الصعـــداءُ

(٩) فـــــــــاذا أضفتُ الى التنفس عَبْرةً   فـالجـوُّ نـارٌ والبسيطـة مـاءُ
كم أنـدبُ القُرنـاء شَجْـواً والصِّبـا   فـاتَ الصِّبـا وتفـرَّقَ القُرنـاءُ
والجمـع مَـع فقـد الشَّبيبـة بيننـا   قبـل الممـــات مُرَوَّةٌ عـــذراءُ

(٦)

لا تحسـبُوني نـاسيـاً عَهْـدكمْ   نسيــــانكُمْ ضـربٌ من السُّخْفِ
سـيّـــان أن أفْتَر عن ذكركم   أو أعبُـــــد الله على حَرْفِ
وكيف أنســـــاكم وفي وَصْلكُمْ   عَيْشـي وفي هجـرانكُمْ حَتْفي
لهـفي على عُمْـرٍ مضى لم يكُنْ   ذلـــك في خـــدمتكم لهـفي
هــذا ويـدنـو في غـدٍ دارنـا   وكُـلُّ حـزنٍ فـــالى كَشْفِ
ورُبّمـا يجـلـو صـدا أُنسـنـا   تشـاغـلٌ بـاللهـو والقصـفِ

(٧)

١ - وُعودٌ[1] وصالها عادَتْ نَسايا ... وعاد نوالُها الميسورُ وايا

٢ - إذا أنشدتُ في التعريض شِعراً ... تَلَتْ من سُورة الإعراض آيا

٣ - ولستُ أخافُ حَيْفَ الدهر ما لمْ ... تُبَدِّلْ دارُها بالقُرْبِ نايا

٤ - ورُبَّ قَطيعةٍ كَانَتْ دلالاً ... وكم في الحُبِّ من نُكَتٍ خَفايا

٥ - شَكَتْ فعْلي إليَّ فآنَسَتْني ... وبعضَ الأُنس في بعض الشكايا

٦ - فلا مَلَّتْ مُعاتبتي فإنّي ... أعُدُّ عتابَها إحدى الهدايا

٧ - ألا يا حبَّذا يوماً جَرَرْنا ... ذيولَ اللهو فيه . بجرجرايا

٨ - ويومَ مَشَتْ تميلُ من التصابي ... وتضحك بين أتْرابٍ صبايا

٩ - ثَنَيْنا السوءَ عن ذاك التثنّي ... وأثْنَيْنا على تلك الثنايا (١٠)

١٠ - ألَمَّ خيالُها وَهْناً فَحَيّا ... باحسنَ ما يكونُ من التَّحايا

١١ - وقال صُنِ الدموعَ لوَ شْكِ بَيْنٍ ... يُـؤَلِّفُ بين عَيْشِك والرزايا

١٢ - لئن حَلَّى وَصِيَّتَهُ بنُصْحٍ ... فإنَّ النُّصْح حَلْيٌ للوصايا

١٣ - وما استتمتُ رؤيا الطيفِ حتى ... تَرَنَّم بالسُّرى حادي المطايا

١٤ - وفاضَ الدمعُ في أثناء جَفْنٍ ... تردَّد للكرى فيه بقايا

١٥ - وما خُلِقتْ عيونُ العين إمّا ... نَظَرْتَ سوى بلايا للبرايا

١٦ - فمنها ما يبيحُ لكَ الأماني ... ومنها ما يُتيحُ لكَ المنايا

١٧ - ألا يا صاحبيَّ دعا كلامي ... فليس اللُّوْمُ من كَرَمِ السَّجايا

١٨ - إذا طرقَتْنيَ الأشواقُ ليلاً ... فَرَشْتُ لهُنَّ أفكاري خبايا

---

(١) في الاصل المخطوط (تعود) ولا معنى له .

١٩ - وفي بعض القُلوبِ عيون فكْرٍ — بِكُنْهِ عواقب الدنيا جَلايا

٢٠ - وأوضحَ لي طريقَ العيش شُغلي — بمدح أغرَّ وضّاح العشايا

٢١ - ومن شاع اسمه بالعدل حتى — أُمُرَّ به الأعادي والولايا

٢٢ - ومن رضي التُّقى خُلُقاً فأرْضَى — « قوامَ الدين » بالخُلق الرضايا

٢٣ - عميدَ جيوشِه عزماً وبأساً — وحارس ملكِه حَزْماً ورايا

٢٤ - تُرجِّيه على بُعْدٍ فيكفي — بما يرجوه أشباب البلايا

٢٥ - ونقصِدُه فلا جَهْمَ المحيّا — نُصادِفُه ولا نَزْرَ العطايا

٢٦ - نصاحبُ كلّ مجدٍ صاحبيٌّ — مزيَّتُه تتيهُ على المزايا

٢٧ - لنا منهُ إذا سرنا إليه — سناء الذكر والخلعُ السَّنايا

٢٨ - على أيدي الملوك عَلَتْ يداهُ — علوّ الباسقات على الودايا

٢٩ - لقد نُظمت لاعناق المعالي — قلائدُ من خلائقه الرِّضايا

(١١)

٣٠ - وأيُّ فَضيلةٍ جُعِلَتْ لقومٍ — له المرباعُ منها والصَّفايا

٣١ - أقول لمن خراسانٌ ومصرٌ — بأيديهم ، وأنفُسُهم دَنايا

٣٢ - دنا نَبْشُ الخبايا فاستنيموا[1] — إلى قولي ، دنا نبش الخبايا

٣٣ - أزيلوا الشكَّ وانتظروا وشيكاً — سُرى يقظان ميمون السَّرايا

٣٤ - سيرمي أرضكم بجنود صدْقٍ — فوارسُكم لرجلهم رمايا

٣٥ - وتأخذكم[2] سيوفهم فتقضي — على هاماتكم نَثْر القضايا

٣٦ - رجالٌ كلَّما غنموا فآبوا — رؤوس الخالعين لهم سبايا

٣٧ - رأوا انَّ الاصابةَ في رداهم — كأنَّ حياتهم احدى الخطايا

---

(١) استنام : سكن .

(٢) في الاصل : ويأخذكم .

٣٨ - ألا يـا صـاحب الأصحـابِ أنّي — أرى الايمـان بـاسمـك لي ألايـا

٣٩ - وإنَّ من الجنـايـات التقـاطي — سـوى ثمـرات أنعُمـك الجنـايـا

٤٠ - فعنـد أبيـك عـاينتُ الأمـاني — فخـانتني بَكـايـاهـا مـرايـا

٤١ - ورُبَّ فتىً ينـالُ النجـح لـكن — إذا عـادَتْ ركـائبـه ردايـا

٤٢ - وأنتم معشرٌ خُلِقُـوا لتبقـى — على الـدنيـا أكُفُّهُم السَّخـايـا

٤٣ - تُقَبِّـل بسطكم قِـدْمـاً فَقِـدْمـاً — يعيشُ ببسـط عـدلكم الرعـايـا

٤٤ - فقـايسـكم إلى نفـرٍ سـواكُم — يقيس الـزاخـرات إلى الركـايـا

٤٥ - وحظّـكم الصـدور من النـوادي — وحـظّ سـواكم منهـا الـزوايـا

٤٦ - وفيـكم سـار لا في الغير شعري — وكيف تسير في البرِّ الخـلايـا(١)

التخـريج :

الأبيات ٢ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ له في مخطوطة لمح الملح الورقة ١٥٤

رواية الثامن : الى التصابي .

ورواية الخامس عشر : نظرن

ورواية عجز الثامن عشر : جعلتَ لهنّ احشائي حشايا

والبيت السابع في معجم البلدان مادة (جرجرايا) .

والبيت السادس في دمية القصر ١٨٤/١

(١) الخلايا جمع خَلِيَّة ، وهي العظيمة من السفن .

(٨)

١ - أتـذيـلُ دَمْعـك كُلَّـهُ انْ بـانـوا صَنْ بعضَـةَ فـوراءك الاوطـانُ
٢ - حَـقّ الـديـار كحـقّ من عـاشرتَهمْ فيهـا ، كـذا حكَمَتْ بـه الفتيـانُ
(١٢) ٣ - سَلْني أقفـك على الهـوى وشروطـه لا عـار أنْ يستسـقي الظمـآنُ
٤ - أبـدي السُلـوّ عن الأحبّـة إنْ نـأوا عمـداً ، وأنْـأى منهمُ السـلـوانُ
٥ - غـالطتُ عـاذلتي بـذاك ولم يـزَلْ لي في مُغـالطـةِ العـواذل شـانُ
٦ - ومن البـليّـةِ انّ كتمـانَ الهـوى دأبي ، وإن اودي بيَ الكتمـانُ
٧ - ومَلـولـةٍ ألِفَتْ فنـافـعُ بـذلهـا شـرٌ ، وضـائرُ مَنْعِهـا إعـلانُ
٨ - وقف الجنـون على جنـان مُحبّهـا انّ المجـانـةَ عنـدهـا مُجّـانُ
٩ - غـازلتُهـا سَحَراً وقلتُ لهـا اسحري قـد طـالمـا سَحَرَتْني الغـزلانُ
١٠ - عِينُ الصَّـريم عُيـونُهنّ صـوارمٌ مسـلـولـةٌ أجفـانهـا الأجفـانُ
١١ - فَخُـذي الى ديـوان عطفِـك وقّعي يُكْتَبْ لنـا من مُقْلتيـك أمـانُ
١٢ - أمن الحبيب تعلُّـلٌ وتعـزّزٌ ومن الرقيب تهـدُّدٌ وهـوانُ
١٣ - فتبسَّمَتْ واستعجلَتْهـا عَبْـرةٌ واضـاء دُرٌّ واستهـلَّ جُمـانُ
١٤ - وقفَتْ تعضُّ على الـوشـاة بَنـانَهـا فـاخُـطُّ خـدّي والـدمـوعُ بَنـانُ
١٥ - تشكـو الصَّبـابـةَ بـامتـداد تَنَفُّسٍ تشكـو غـوائـلَ حرّه النيـرانُ
١٦ - حَـرٌّ لـو انَّ المشركين بلـوا بـه فيما مضى لم تعبـدِ الأوثـانُ
١٧ - فكم التصبّرُ والـوداع حقيقـة وكم التجلّـدُ والفـراق عيـانُ
١٨ - وكم امتعـاضُ الكاشحينَ من النّـوى كانـوا هُمُ سَبَبُ النـوى لا كانـوا

١٩ - وأعِـــزَّةٍ قـــــد كنتُ دِنْتُ بحبّهم ولـــذاك ســـــائرهم بحبّي دانـــوا
٢٠ - كنتُ المُفَــــدّى بينهم ولــــديهم بحيـــاةِ رأسي كانت الايمـــان
٢١ - فَسَعى الأعـــادي بـالنمـــائم بيننـــا حتى تنـــافرنـــا فبنتُ وبـــانـــوا
٢٢ - نَـأت المســافـةُ والتــذكّر حظّهُم منّي ، وحظي منهمُ النسيـــــــانُ
٢٣ - دعـوى الاخـــاء على الرجـــاء كثيرةٌ بـل في الشـــدائـــد تعرف الأخـــوانُ
٢٤ - الـــدمـعُ وافٍ إنْ وفـــوا أو أخْلَفـــوا والشـوقُ راعٍ إن رَعَـوا أو خـــانُـــوا (١٣)
٢٥ - مــالي على الأيّــام إن بخـلـوا يـــدٌ وعلى الـزمـــان اذا نبـــوا سُلطـان
٢٦ - كالمـوج اثـر المـوج ليس بفـــاترٍ فقـــــدانُ إلْفٍ اثرَهُ فقــــــدانُ
٢٧ - ولقـــد فـرى حـــالي بمخلب ضـيمـــه ليثٌ خـلى عن مثلـــه خفّـــانُ
٢٨ - يُبدي الشجـاعـةَ في اقتنـاص ذوي النُّهى وعن اقتنـــــاص المقترين جَبـــانُ
٢٩ - نَـــزع الغـني عـنّي ليصـــــدأ شيمتي عَجَبـاً لـــه هـــل يصـــدأ العِقْيـانُ
٣٠ - وأهـــانني ، والمســـكُ طيبُ نسيمـــه يـزداد تحت السـحـق حـين يُهـان
٣١ - لمّـــا حَرمْتُ بـــه الثّراءَ حَرَمْتُـــــهُ منّي الثنـــــاءَ فَعَمَّنـــا الحـرمـــانُ
٣٢ - أرْبِـحْ بصفقـــة تــاجــرٍ يبتـــاعني ولمن سـعـى في بَيْعي الخسرانُ
٣٣ - مثلي يُضَنُّ بـــه ويحمـــل جـــاهُـــه طـــوعـــاً على حَـدَقِ العَلى ويُصـــان
٣٤ - وأنـــا الـــذي أضْنَتْـــهُ هِمَّـــةُ نَفْسِـــه لا الهَمُّ أضـنــــــــاهُ ولا الاحــــزانُ
٣٥ - عطـل المـروّةِ خَـــانَـةُ إمكـــانُـــه إنّ المـروّة حَلْيُهــــا الامكـــــانُ
٣٦ - واذا أَحَبَّتْني العـراقُ فَهَيِّنٌ عنـــــدي إذا نشـزَتْ عليَّ عمـــانُ
٣٧ - سَيُعيــدُ أيـــامي كأيّـــام الصِّبـــا حُرٌّ أعَـــزُّ من الملـــوك هجـــانُ
٣٨ - قَمراً يُســـــــــامرُ فكره تحت الأجى في المــكرمـات وبرجُـــه الايـــوانُ
٣٩ - وينـــام حين ينـــام غِبَّ سُهـــادِه والمجـــدُ بين ظـلـوعــه يقضـــان

٤٠ - أرضى ملـوك بني بُـوَيْـه بِنُصْحِـه والنجـحُ جسمٌ روحُـه الايمـان

٤١ - ولـو انّ أمر الملـك نيـطَ بغيره أبت الاسـرّةُ ذاك والتِّيجـان

٤٢ - بَشَّرْتَ آمـالي ببشـرك أنّـه لكتـاب ادراك الغنى عنـوانُ

(١٤) ٤٣ - أيّـامُ « فخر الملـك » أكثر بهجـةً من أن يقـومَ بـوصفهنّ لسـانُ

التخـريج :

البيت الحادي عشر في دمية القصر ١ / ١٨٤

(٩)

وقـومٍ أخَلُّوا بـالـذمـام لمنْ رَعى لَهُمْ ونسـوا حفـظَ المـودَّةِ في القُربى

مَحَضْنـا لهم نُصْحـاً فجـاءوا بغَـدْرَةٍ وكُنّـا لهم سِلْماً وكانـوا لنـا حَرْبـا

ولم نجـزهمْ بـالسُّـوءِ سُـوءاً ولم نَلُمْ ولم نُظهرِ الشكـوى ولم نُظهر العُتْبـا

وقُلنـا : عَسى أن يَنْتهـوا عن فعـالِهم فيستَـوْجِبـوا منّـا لأن نغفرَ الـذَّنْبـا

فلمّـا أبـوا إلاّ اعتمـاداً لشرِّهم وبَغْيـاً ، جَـذَبْنـاهم الى شَرِّنـا جَـذْبـا

وقلنـا لهم : ذُوقـوا وبـال أمـوركم فمن يَشُـق مُرَّ المـاء لا يشرب العَـذْبـا

(١٠)

أفي الركب قَلْبي أمْ ترى سَبَقَ الرَّكْبا ... فلست أرى [ما][1] بين احشائي القلبا

هوى إثر من يهوى فأودى وإنّما ... لسائر أعْضائي على اثره العُقبى

وقالوا : ادعيتَ الحقّ غير مُسَهَّدٍ ... ولا يستلذُّ النوم من عالج الحُبّا

فقلتُ لهم : لو كنتُ اعلم انّني ... على يقظتي أو في الكرى لم أكن صَبّا

يذكّرني عهدَ الصّبا ونسيمَهُ ... نسيمُ الصَّبا من نحو نجدٍ إذا هَبّا

وماضي شباب ينثر الدمع كُلّما ... تصوّرْتُه في النفس أو ينظم الكربا

(١١)

عَسى و عَسى من بعد طولِ التفرُّقِ ... على كُلّ ما نرجوا من العَيْش نَلْتَقي

ولو ظَفِرتْ عيني بشخصِكَ ساعة ... لكنتُ على عيني من العين أتَّقي

فيا ليتَ شعري كيف انت ، أشَيِّقٌ ... فؤادك كالمعهود أم غير شَيِّقِ

فما روضُ عهدي في ضميري بمجدوبٍ ... ولا رَبْعُ وُدّي في فؤادي بمخلقِ

فيا حبّذا عصر الصّبا [ ][2] ... عذارى أمانينا وناهيه لو بَقي. (١٥)

زمانٌ نَظَمْنا عقْد كُلّ تَيَسُّرٍ ... به ، وحَلَلْنا عَقْدَ كل تَعَوُّقِ

---

(١) ما بين عضادتين زيادة يقتضيها السياق .

(٢) سقط في الأصل المخطوط بمقدار كلمة .

(١٢)

عَصْرُ الصِّبا عُدْ فالهوى باقٍ ، وركبُ الشوقِ طارقْ
ما كنتَ الاّ رَجْعَ طَرْفٍ لا بثاً ، أو لَمْحَ بارقْ
سَوَّدْتَ من عَجَلٍ أما نينا وَبيَّضْتَ المفارقْ
ومضَيْتَ باللذّات مَرْ تجلاً وخلَّفْتَ العوائق
ما هكذا [كُنّا][1] نظنّ وايُّ ظنٍ فيك صادقْ
فارقتُ أرْبعةً لها يهوى المنيَّة من يُفارق
شرخَ الشبيبة والغنى وعُمانَ والإلفَ الموافق
هذا على أنّي قديماً كنتُ مفتاح المغالقْ
وبلغتُ غاياتِ العُلى سبقاً ، وصلتُ على البوائق
زَمَنٌ خلا وعيون حُسّادي الى نِعَمي روامقْ
أيّام رَيْبُ الدهر عنّي ساكتٌ والعيشُ ناطقْ
يا سادةٌ نكثوا العهودَ على النّوى ونسوا المواثق
الحزنُ معتقلٌ لديّ ببُعْدكم ، والصّبْرُ آبقْ
أنا من بَلَوْتُمْ فِعْلَهُ وخلائقي تلك الخلائق
فكما علمتم في معا تبة الأحِبَّة لا أُضايقْ
حاشاكُمُ أن تذنبوا الذنبُ للزمن المنافق
ما الغَدْرُ من أخلاقكم لكن قضاء الله سابق

(١٦)

---

(١) ما بين عضادتين ساقط في الاصل المخطوط فاجتهدنا .

(١٣)

وقال أيضاً يمدحه :

١ –	فرق الفراقُ لطــول مــا نَتَــلاق	من أنْ أُصَبَّ على الفراق فراقـــا
٢ –	فعـلام تحسبُني الـوشــاة مُنَـزَّهــاً	في الشـوق . عمــا يتلفُ المشتــاقــا
٣ –	أوَ مــا يرونَ الجَفْنَ خــاطب لـوعــةٍ	بكْرٍ ، وقـد بـذل الـدمـوع صـداقـا
٤ –	يــــا عين إن لم يكفهم أن تسكبي	دمعــاً ، فــذوبي واسكبي الآمــاقـا
٥ –	تَرْكُ اصفراري والنحــولُ كــلاهـــا	في العشــق جسمي يُنْــذِرُ العَشَّــاقـا
٦ –	فكأنَّـــهُ أَلِفٌ بخَـــطٍ مُـــذْهَبٍ	جَعَـلَ الـــدُّجى أرقي لـــه ورّاقـا
٧ –	لام الحسـودُ وقــالَ دَعْ عنــكَ الهـوى	ليزيـــدني بـــلامِــه أشــواقـا
٨ –	وعــزيـزةٍ قــالت مقــال مُجَرِّبٍ	ســاوى الحـكيمَ بفَهْمِــه أو فــاقـا
٩ –	كم مُضْمِرٍ كيـــداً إذا جـــاَلسْتَـــهُ	أبـــدى الحُنُـوَّ وأظـهر الإشْفــاقـا
١٠ –	والنــار نـورٌ مـلء عينـك ســاطـعٌ	لـو لم تجــدْ في طبعهــا الاحراقـا
١١ –	ومن الضَّـلالــــةِ أن تُعـــاشِرَ مَعْشراً	ســاقـوا الى سُوقِ النِّفــاقِ نفـاقـا
١٢ –	تَسْعَى ولـو اعطيتَ سَعْيَــكَ حقَّــهُ	لبلَغْتَ مـــا أمَّلْتَـــهُ استحقـــاقـا
١٣ –	فـؤيِّـدُ السلطـــان زُرْ ، ودع الـورى	وعمـــانَ يَمِّمْ ، واهجُرِ الآفـــاقـا
١٤ –	فيــه يروقـك وجـهُ جـاهِـك منظـراً	وبهــا تطيبُ لــك الحيــاةُ مَـذاقـا
١٥ –	عــاود بـلادك ، واقصـد الملـك الـذي	يكســو دُجى(١) آمــالــك الاشراقـا
١٦ –	مَلِــكٌ اذا لسعتْــك يــومــاً نكبـــةٌ	صـــادفتَ من إنعــامِــه دِرْيــاقـا
١٧ –	يستعـــذبُ الاطـــلاق حتى انَّــه	لِيرى غــذاءَ سماحِـه الاطــلاقـا
١٨ –	لـو سرتَ فُـزْتَ من اليســار بطـائـلٍ	تسرو(٢) بـه عن قـومــك الامـلاقـا

(١) في الاصل المخطوط : الدجى ، وهو وهم من الناسخ . (٢) كذا في الاصل .

١٩ - هـذا وقلتُ لعـاذلٍ لـك عنـدمـا تهبُّ الهبـاتِ فتكثر الانفـاقـا

(١٧) ٢٠ - يـا مَنْ يلـوم على السَّماح رفيقـه رفقـاً فلم أرَ كالغنى إرْفـاقـا

٢١ - فلئن رآك رآك اطـوعَ خـادمٍ إن حَـلَّ راق ، وإن ترحَّـلَ شـاقـا

٢٢ - لـو حُمِّـلَ الأمْرَ الجسيمَ وفَـا بـهِ أو حُمِّـلَ العبءَ الثقيـلَ أطـاقـا

٢٣ - في السِّلم يخـدم بـاللسـان وفي الـوغى بـالسيف ليس بهـائبٍ مـا لاق

٢٤ - فعلمتُ انّي إن اخـذتُ برأيهـا لم أعْـدُ في ترك الخـلاف وفـاقـا

٢٥ - ووجـدتُ من قبـل الرَّحيـل جـوارحي يُرهِقْنَ عـزمي في السُّرى ارهـاقـا

٢٦ - حَبّـاً لطـلعـة ذلـك القمر الـذي لا يكتسي غبَّ التمـام مُحـاقـا

٢٧ - ومصـالـح الاقـليم في قلمٍ لـهُ يتكفَّـلُ الآجـال والارزاقـا

٢٨ - يقظـان يرعى المـكرمـاتِ كأنَّـه وجـد الرقـادَ أمَرَّ شيءٍ ذاقـا

٢٩ - ويُطـالـع العليـاءَ حتى انَّـه عنـد الرَويَّـة يكرهُ الاطـراقـا

٣٠ - وتخـالُ تحت الليـل ضـوءَ جبينـهِ صُبْحـاً يَمُـدُّ على الظـلام رواقـا

٣١ - ويكادُ من فرط التنـاهي في العُلى يَرْقَى مـع الهِمَمِ التي تتراق

٣٢ - وسيـوفُـه في كُـلِّ يـوم كريهـةٍ تَسْقى العـدى كاسَ الحِمام دهـاقـا

٣٣ - مـا في خـلائقها هنـالـك رقَّـةٌ لكن مضـاربهـا خُلِقْنَ رقـاقـا

٣٤ - ولـو اسـتطـاع النـاسُ يـومَ ركـوبـهِ فرشـوا لِـوَاطْ جيـادِه الاحـداقـا

٣٥ - ولقـد نـذرتُ لئن رأيت وقـد حـدا بركـائبي حـادٍ اليـه فَسـاقـا

٣٦ - لا زوِّجَنْ بنت السرور بخـاطري ولاعطيَنْ بنت الهمـوم طـلاقـا

٣٧ - ولا غفِرَنْ للدهـر سـالف ذنبـهِ ولا وسِعَنْ من عُـذره مـا ضـاقـا

٣٨ - ولا منحَنْ مـا عشتُ هجري غُصَّـةً جعلـوا بغَـدْرهم الـزلال زُعـاقـا

٣٩ - وكأنَّمـا أخَـذَ الإلَـهُ عليهم ميثـاقَـه أنْ ينقضُوا الميثـاقـا

٤٠ - مـــا أن دَهـــاني قَـــطٌّ مكرّ سَيّئٌ | إلاّ رأيتَ بـاهِـلـه قـد حـاقـا

٤١ - يـا أيُّهـا الملـك الـذي عـزمـاتُـه | تركَتْ زئـير الخـالعين نُهـاقـا (١٨)

٤٢ - طَرَّزْتَ خُلقـك بـالعفـاف وحبَّـذا | من بـالعفـاف يُطرِّزُ الاخـلاقـا

٤٣ - وجعلتَ عفـوكَ حَلْيَ سطـوتـك التي | من دأبهـا أن تضربَ الاعنـاقـا

٤٤ - فلذاك لم يسمع بـذكرك خـالعٌ | إلاّ صحـا من ذكـره فـأفـاقـا

٤٥ - لا زلتَ مثـل أبيـك أوحـد دهرِهِ | سبْقـاً الى أمـد العُلى سَبّـاقـا

التخـريج :

الأبيات ٥ ، ٦ ، ١١ في مخطوطة لمح الملح الورقة ١٠٤

ورواية البيت السادس : ارقي له اوراقا

(١٤)

يقـولـون لي : ألفـاظٌ هجـوك عنـدنـا | الى القَلْب من ألفـاظِ مـدحِـك أسْبَـقُ

فقلت لهم : كـذبٌ مـديحيَ فيكُمُ | وهجـوي لكم صِـدْقٌ ، وللصـدق رَوْنَـقُ

تمت المختـارات من أشعـار الكافي أبي علي ابـزون بن مهبزد الكرّاني اولاً ثم العُماني وهي ثلثمـايـةٍ وتسعةٌ وخمسون بيتاً ..

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمّدٍ وآل عترته وصحبه .

(١٩)

ذيـل المختــارات

صنعة : هـلال ناجي

(١)

رقَّ خلـق الـزمـان واعتـدل الجـوّ اعتـــــدالاً وخفَّ وزنُ المـــــاء
وترى الأرض بعـــدمـــا هـــرمت عـــادت الى ســنٍّ كاعبٍ حسنـــــــــاء
فتحــــــارُ العيـــونُ في كلّ روضٍ نَسَجَتْ وَشْيَـــهُ يـــدُ الانـــواء

التخريج :

(١) الابيات في مخطوطة حدائق الانوار الورقة ١٠ .

(٢)

فهجــرنــا القنــا وَزُرنــا القنـــاني واشتغلنـــا عن الظُّبـــا بـــالظِّبـــاء

التخريج :

(٢) البيت في دمية القصر ١٨٤/١

(٣)

على منبر العليـــــاء جَـــدُّكَ يخطبُ وللبلـــدة العـــذراء سَيْفُـــك يخطبُ

التخريج :

(٣) نهاية الارب ١٣٤/٧ .

(٤)

اذا الجــدّ لم يُسعــد فجــدّ الفتى لعبْ وابطــل سَعْيٍ سَعْيُ من جــدّ في طَلَبْ
فكم ضيعــةٍ ضــاعت وكم خلّــةٍ خَلَتْ وكم فضّـــــــة فضّتْ وكم ذهبٍ ذَهَبْ

التخريج :

(٤) مخطوطة لمح الملح للحظيري الورقة ١٩ .

(٥)

انتِ يــا نرجســـة الروض لمـــــا في الروض سِتٌ
ودليـــل القـــول فيـــه انّ اوراقـــــــك سِتٌ

التخريج :

(٥) مخطوطة لمح الملح الورقة ٣٣ ومخطوطة حدائق الانوار الورقة ٥٢ .

(٦)

ليهنِــكَ أنَّ ملكـــكَ في ازديـــادِ وانّ عُــلاكَ واريـــةُ الـزنـــادِ
وأنّـــــك مَنْ اذا وصف المُـــوالي منــاقِبَــهُ أقــرَّ بـــه المعـــادي
حـــديثُ قِــراك مَتّــع كلّ سَمْــعٍ وذكرُ نـــداك عَطّــر كلّ نـــادِ
وينقـــاد الملـــوكُ لـــك اعتقـــاداً ومـــا انقـــادوا لغـيرك بـــاعتقـــاد
ملكتَ رقـــابهم بـأســـاً وجـــوداً فهم مِلْــكُ السـيـوف أو الأيـــادي
إذا استعرضتَ جيش الرأي ليـــــلاً جعلتَ عطـــاءَهُ طـول السُّـهـــادِ

إذا ادَّرعــوا الــدُّجى والهـولُ بـادٍ		ســروا ونجــومُهم غُررُ الجيــادِ

فبــالسُّمْرِ اللّــدان إذا تمــاروا		ألنتهُمْ وبــالبيض الحــداد

التخريج :

(٦) دمية القصر ١٨٣/١ - ١٨٤

(٧)

على سيبــك المــأمول يعتكفُ الحمــدُ		وعن سيفــك المسلـول ينكشف الجــدّ

التخريج :

(٧) مخطوطة لمح الملح الورقة ٥٨ .

(٨)

سَكَنٌ ســاكنُ ســوادَ الفــؤادِ		مـلٌ قُربي ومــال نحـو بعــادي

قــال : لِمْ لا تنــام ؟ قلت : لاعرا		ضـك ، وهـو الخـلافُ للمعتــادِ

إنّمــا اشتهي الكـرى لأرى		طيفَــكَ فيــه وأنت سَهْـلُ القيــادِ

فــاذا لم يَــزُر خيــالــك إلاّ		مُغضبـاً فـالـكرى فـداء السُّهـادِ

التخريج :

(٨) دمية القصر ١٨٢/١ - ١٨٣

(٩)

متى أردت أيـــادي راحتيـــك كَسَتْ حَيـا الغـوادي حيـاءَ الغـادةِ الرودِ
فكان عيشٌ على السرّاء مُطَّرِدٌ يُـزري بِهمٍ عن الاحشـاء مطرودِ

التخريج :

(٩) مخطوطة لمح الملح الورقة ٥٨ .

(١٠)

أفـدي الـذي زارني والليـلُ معتكرٌ والأفـقُ مّمـا اكتسى من عَرْفِـه عَطِرُ
فلم نَـزَلْ نتجـارى في العتـاب معـاً أشكـو اليـه جفـاهُ وهـو يعتـذرُ
حتى إذا مـا اعتنقنـا واستتبَّ لنـا على ارادتنـا عيشٌ لـه خَطَرُ
ناديتُ يـاليـل دُمْ ليـلاً بـلا سَحَرٍ فقـال : ليلـك هـذا كلُّـه سَحَرُ

التخريج :

(١٠) رسالة الطيف للاربلي ص ١٥٥ – ١٥٦ .

(١١)

قـد كنتُ أرجـوك للبلـوى إذا عرضتْ فصـرتُ أخشـاك والأيـامَ للغِيَرِ
أخشى وحكميَ أن ارجـو ولا عجب وربّمـا يتـأذّى الروضُ بـالمَطَرِ

التخريج :

(١١) دمية القصر ١٨٢/١ .

(١٢)

وله ، وهو منقول من الفارسية :

وصحراءَ رَدَّتْهـا الظِّبـاءُ حفـائراً بـأظـلافهـا أَحْسِنْ بهـا من حفـائرِ
فَهَبَّتْ ريـاحٌ للصبّـا فطممنهـا بمسـكٍ ، فعـادتْ نُـزهـةً للنـواظر

التخريج :

(١٢) دمية القصر ١٨٢/١ .

(١٣)

١ - جـاء الربيـعُ وبحرك الفيّـاضُ فَغَـدَتْ قفـارُ الأرضِ وهي ريـاضُ
٢ - والروضُ أصبـحَ بعـد صفرةِ لـونـهِ وبـوجنتيـه حمـرةٌ وبيـاضُ
٣ - وكأنَّ نـوارَ الحـدائـقِ في الضُّحى حَـدَقٌ لـدى عُشّـاقهنَّ مراض
٤ - فـانظر ترى الـدنيـا عروسَ منصَّـةٍ يصبيـك بُردُ شبـابها الفضفـاضُ
٥ - والمـزعجـاتُ جفـونهنّ غضيضـةٌ والمبهجـاتُ غصـونهنّ غضـاض
٦ - بنـداك يصبـغ ثـوب شرّتـه الغنى أبـداً ويصبـغ صـبغـه الايقـاض

التخريج :

(١٣) الابيات ١ - ٤ في مخطوطة حدائق الانوار الورقة ١١ .
والابيات ٣ و ٥ و ٦ في مخطوطة لمح الملح الورقة ٨٧ .

(١٤)

وبقعـــــةٍ من أحسنِ البقـــاعِ
يُبَشِّرُ الرائـــدُ فيهـــا الراعي
بـالخصب والمـرتبع الـوســاع
كـأنّمـا يسـترُ وجــه القـــاع
من ســـائر الالـــوان والانـواع
من صـنعة الخـالق لا الصـنـاع
والمـــاء منحـــطٌ من التـــلاع
كمــــا تســــلُّ البيض للقـراع
وغَـرَّدَ الحمـــامُ بـــالسـماع
ورقص المـــاء على الإيقـــاع
ونُشِـرَ البهـــارُ بـاليفـــاع

التخريج :

(١٤) مخطوطة حدائق الانوار الورقة ٢٢ .

(١٥)

تـــــأبى قبـــولي أيُّ أرضٍ زرتهــــــا   قـــدمي رجــائي وافتقــاري ســائقي
فكـــأنّها الـــدنيـــا يــــدا متحـرِّزٍ   وكأنني فيهـــا وديعـــةُ ســــارق

التخريج :

(١٥) دمية القصر ١ / ١٨٤ .

(١٦)

بـــأبي حبيبٌ كلّمـــا عـــانقتـــه عـــادتْ اليّ شبيبتي بعنـــاقـــهِ

كالراح يجمـــع بين طيب نسيـــمه وبهـــاء منظـــره وطيب مـــذاقـــه

أخـلاقـــه نُـزهُ القـلـوب وبـــالحَري أن يستعير الروض من اخـــلاقـــه

أيقنتُ أنْ لاعيش غيرُ لقـــائـــه أبـــداً وأن لا مـــوتَ غيرُ فراقـــه

التخريج :

(١٦) دمية القصر ١ / ١٨٣ .

(١٧)

ويلـك يـا ثـابت مـا اخمـلـكْ ولّلـذي يعـلـوك مـا أحمـلـكْ

مـــا كان من فـــألِ جميـــلٍ فـلي أو فَلَـــكِ دار بنحسٍ فَلَـــكْ

التخريج :

(١٧) مخطوطة لمح الملح الورقة ١٠٦ .

(١٨)

لثبـات حكمـك كاد يـذبـل يـــذبلُ ويشمّ رائحـــة الـــزوال شـــامُ

واذا كتـــائبـــهُ انبـرت أو كتبـــه فُلِقَتْ هنـــاك الهـــامُ والاوهـــامُ

التخريج :

(١٨) مخطوطة لمح الملح الورقة ١٢٣ .

(١٩)

أراكَ على العِـــلاّت غيرَ مـــوفّـــقِ ... ومـــا أحسنَ التـوفيـق حيث تكـونُ

تريـدُ تـلافي الأمر من بعـد فـوتـهِ ... ولـو شئتَ كان الصعب منـــه يهـون

كبلهـــاء قـومٍ حين بلّت طحينهـــا ... بـــدت تنخـل المبلـول وهــو عجين

التخريج :

(١٩) دمية القصر ١ / ١٨٢ .

(٢٠)

وقال يُعَمّي في الدواة والقلم :

يـا حسن عـاطلـةٍ بـالحسن حـاليـةٍ ... سـوداء يشفي بينهـا الـدهرُ من فيهـا

لكن بنـوهـــا إذا قيست طبـــائعهم ... الى طبـاع بني الـدنيـا نبـوا فيهـا

يلقون إن أُرضِعوا كـداً ، وإن فُطموا ... كان الفطـــامُ لهم في الحـــال يرقيهـا

خرسٌ إذا رَعَفَتْ آنـــافُهم نطقـــوا ... فـأحسنـوا صفـة الـدنيـا ومـا فيهـا

التخـريج :

(٢٠) مخطوطة الإلغاز في الاحاجي والأُلغاز الورقة ٢٠٩

(٢١)

الى ملــــكٍ يجلـو بثـــاقب رأيــــهِ صدا الخطب والصـادي برؤيتــه يروى
فكمْ من أخى فقرٍ نفى بـاسمـه الطـوى وكم مَهْمَـــهِ قَفْرٍ الى بـــابــــه يُطـوى

التخريج :

(٢١) مخطوطة لمح الملح الورقة ١٤٧ .

(٢٢)

ايّهـــا العـــاذلُ مهـــلاً ليس هـــذا العـــذلُ شيّـا
لا تُكَلِّفْني سُـلُـــــوّاً إنّ ذا لا يَتَهَـيّــــــا

التخريج :

(٢٢) دمية القصر ١ / ١٨٣ .

● ● ●

المجاعة والطاعون وأثرهما على سلطنة المماليك

في الفترة ما بين عامي ٦٩٤-٦٩٥هـ ١٢٩٤-١٢٩٥م

دكتورة حياة ناصر الحجي
أستاذ مساعد - قسم التاريخ - جامعة الكويت

بعد النصر الكبير الذي حققته سلطنة المماليك في طرد الصليبيين من « عكا » آخر معقل صليبي في بلاد الشام منيت هذه الدولة الإسلامية بمجاعة مميتة ، ووباء ساحق ، الأمر الذي ألحق بها الضرر الكبير في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية[١]. ولعله من المؤسف حقاً أن ذلك حدث في أعقاب الجهاد المملوكي ضد الصليبيين الذي كلفهم من البشر ، والجهد ، والمال الشيء الكثير ، وجعل السلطنة أرضاً خصبة لما يمكن أن ينمو فيها من أسعار باهظة وندرة في الغذاء[٢].

ويشير ابن الفرات إلى أن ذلك الوباء الكبير شمل معظم بلاد مصر والشام والحجاز[٣]. هذه العبارة توضح - بما لا يدع مجالاً للشك - أن الوباء كان عظيماً بحيث أنه اجتاح الولايات الكبرى الثلاث التي تشكل سلطنة المماليك . ولا ريب أنه كان بعيد التأثير على الجيش المملوكي[٤]. صاحب الفضل الكبير في تتويج الانتصار الإسلامي في بلاد الشام .

(١) نزهة ، ورقة ٢٥ ب ، ٢٧ أ ، مالك ، ورقة ٤٢ أ ، مصر ، ورقة ٣٨ أ ، مرآة ، جـ ٤ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ ، درة ، ورقة ٧١ أ ، ٧٣ أ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٣ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٧ ، ٨١٠ ، الخطط ، جـ ٣ ، القسم ٢ ، ص ١٧٧ ، الدرر جـ ٣ ، ص ٢٦٣ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ ، ٦٨ .

(٢) تركية ، ورقة ٢٠ أ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، إغاثة ، ص ٣٢ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(٣) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٣ ، ١٩٩ .

(٤) Ayalon «The plague and its effects upon the Mamluk army» B.S.O. A. S., xv (1953) p. 68.

ويعدد المقريزي بعض المناطق التي تعرضت للجفاف والجوع لعدم توفر القوت ، فيذكر برقة ، وبلاد الشام ، والقدس ، والساحل إلى جانب مصر(٥). كما يضيف ابن الفرات برقة وأعمالها ، وبلاد المغرب ونواحيها ، والحجاز ، وجميع الحدود الشرقية والغربية(٦).

وقد كانت بداية هذه الحوادث المفجعة مع تولي السلطان كتبغا المنصوري(٧) ولاية الحكم في دولة المماليك . ومن ثم بدأ يتردد على ألسنة الناس أن حكم كتبغا شؤم ، وأيامه نحسات(٨)، الأمر الذي يدل على ظهور رد الفعل السريع عند مشاعر الناس نتيجة انتشار الوباء مع الأيام الأولى لعهد السلطان العادل كتبغا المنصوري ، خاصة مع ظهور الزيادة المطردة في أسعار الغذاء « فبلغ كل إردب من القمح إلى مائة درهم ، والشعير إلى ستين ، والفول إلى خمسين ، واللحم إلى ثلاثة دراهم الرطل »(٩). ثم تزايدت الأسعار حتى وصل سعر القمح إلى مائة وخمسين درهم للأردب الواحد(١٠).

ويفسر اليافعي أسباب حدوث الوباء المميت والمجاعة المهلكة أن ذلك يرجع إلى القحط الشديد ، والجفاف غير المحدود ، مما أدى إلى ظهور الغلاء ، وصعوبة الحصول على الغذاء ، خاصة القمح والخبز ، حتى بلغ الأمر بالناس إلى أكل الجيف من شدة الجوع ، واستحالة الحصول على الغذاء . كما تزايد عدد الموتى نتيجة الجوع ، ثم الإصابة بالوباء حتى بلغ أن دفن في يوم واحد ألف وخمسمائة جنازة . كما حدث الشيء نفسه في دمشق ، وبقية المدن الواقعة تحت حكم السلاطين المماليك(١١). وهكذا بليت سلطنة المماليك بحدوث تلك المجاعة المهلكة التي عانى منها المجتمع المصري(١٢).

---

(٥) اغاثة ، ص ٣٢ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(٦) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(٧) أنظر ترجمته ، تالي ، ورقة ٦١ ب - ٦٢ أ ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٣٤٨-٣٥٠ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٧ ، ٨ ، ٤٢-٤٣ ، ٤٤-٤٥ ، ٤١-٥٠ ، ٥٥-٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣-٦٧ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٢-١٩٣ ، ٢٠٣-٢٠٥ .

(٨) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٧ .

(٩) اغاثة ، ص ٣٣ ، قارن تركية ، ورقة ٢٠ أ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(١٠) جواهر ، ورقة ٥٩ أ ، قارن ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(١١) مرآة ، جـ ٤ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ ، أنظر كذلك ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(١٢) نزهة ، ورقة ٢٥ أ - ب ، مصر ورقة ٣٦ ب - ٣٧ أ ، ٣٨ أ ، مرآة ، جـ ٤ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ ، مالك ، ورقة ٤٢ أ ، درة ، ورقة ٧١ ب ، خير ، جـ ٥ ، ص ٢٨٠ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٣ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٦-٨٠٧ ، ٨١٠ ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٣٤٩ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧-٥٨ .

ويشير المقريزي إلى سوء الأحوال الاقتصادية فيذكر أن ما حفظ من التقاوي للموسم الزراعي المقبل قد استولى عليه . إلى جانب أن خلو « الأهراء السلطانية »[١٣] من الغلال التي سبق أن وزعها السلطان الأشرف خليل بن قلاون على الأمراء قد زاد الأمر سوءاً . بل أن الوزير لجأ إلى الأسواق العامة والدكاكين لشراء العليق للدواب السلطانية[١٤]. وهذا يبين إلى حد ما أن المجاعة والطاعون لم يشمل جميع الطبقات في المجتمع المصري ، وإنما أصاب بشكل واضح الجماعات الفقيرة والأطفال والغرباء ، بينما كانت الطبقة الغنية والأمراء المماليك وأهل الجاه في مأمن من أضرار هذا الغلاء وما أعقبه من وباء مميت[١٥].

كما يؤكد المقريزي انتشار الجوع والطاعون بين الناس إلى حد أن بعضهم أكل الميتة والقطط والحمير بل أكل بعضهم لحم بعض[١٦]، كما تزايد عدد الوفيات إلى درجة العجز عن إثبات اسم كل متوفي في « ديوان المواريث الحشرية »[١٧]، فما كان من السلطان كتبغا المنصوري أمام هذا الوضع الصعب إلاّ أنه فرق الفقراء على أصحاب الأموال رفقة بأحوالهم وسوء أوضاعهم[١٨]. وهذا الوضع يثبت أن السلطان المملوكي كان شديد الاهتمام بما يواجه السلطنة آنذاك من ندرة في الغذاء ومعاناة الوباء[١٩].

ويفسر المقريزي هذه الواقعة في كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » فيقول : « فلما تجاوز الأمر الحد أمر السلطان بجمع الفقراء وذوي الحاجات ، وفرقهم على الأمراء ، فأرسل إلى أمير المائة

(١٣) الأهراء : جمع « هرى » بضم الهاء وكسر الراء وتشديد الياء ، وهي بيت كبير تجمع فيه الغلال التي للسلطان . وكانت الفسطاط هي مقر الأهراء السلطانية ، كما كان اقليم المنفلوطية يزرع قمحاً وفولاً وشعيراً تحمل جميعها مع غيرها من الغلال إلى الأهراء السلطانية بالفسطاط . أنظر صبح ، جـ ٣ ، ص ٣٩٥ ، ٤٥٢ .

(١٤) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٨-٨٠٩ .

(١٥) Ayalon, op.cit., p. 69.

(١٦) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٠ .

(١٧) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٠ . أما عن « ديوان المواريث الحشرية » فكان يختص بجمع مال من يموت وليس له وارث . وكان لهذا الديوان ناظر يولي من قبل السلطان بتوقيع شريف ومعه مباشرون من شاد وكاتب وشهود . وكان كاتب « ديوان المواريث الحشرية » يكتب يوماً تعريفاً بن يموت بمصر منذ الصباح حتى وقت العصر ، فمن توفى بعد العصر أضيف إلى سجل اليوم التالي . ولمزيد من التفاصيل أنظر صبح ، جـ ٣ ، ص ٤٦٠ ، الخطط ، جـ ١ ، قسم ٢ ، ص ١٩٧ .

AL-HAJJI, Internal Affairs of Egypt, pp. 166, 167.

(١٨) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٠ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٠ .

(١٩) Ayalon, op.cit. p. 71.

مـائـة فقير ، وإلى أمير الخمسين خمسين ، حتى كان لأمير العشرة عشرة . فكان من الأمراء من يطعم سهمه من الفقراء لحم البقر مثروداً في مرقة الخبز ، يمده لهم سماطاً يأكلون جميعاً ، وفيهم من يعطي فقراءه رغيفاً رغيفاً ، وبعضهم كان يفرق الكعك ، وبعضهم يعطي رقاقـاً ، فخف مـا بـالنـاس من الفقر »[٢٠].

يمكن أن نستنتج من هذه البادرة عـدة أمور ، أولاً : محـاولـة ممثلـة في شخص السلطـان حصر أعداد الفقراء والمحتـاجين في المجتمع المصري في سبيل توزيعهم توزيعـاً عـادلاً بين الأمراء كلاً حسب رتبته وقدرته المالية . ثانياً : وضع الأمراء ضمن دائرة المسئولية تجـاه مـا كان يكابـده المعسرون من الجوع وعدم توفر القوت اليومي . ثالثاً : مراعاة الحالة المـاديـة لكل أمير بحيث يكون مسئولاً عن عدد من الفقراء يتناسب مع مايستطيع أن يوفره لهم من الطعـام اليومي مع الأخـذ بعين الاعتبار أنه ربما تطول الأزمة أكثر مما كان يتوقع . رابعـاً : أن كل أمير كان حراً في كيفيـة العنـايـة بهؤلاء الفقراء الذين تولى مسئولية رعايتهم بحيث يوفر لهم الغذاء اليومي حسبما يراه مناسبـاً سواء في نوع الطعام المقدم ، أو في كيفية حصول كل منهم على نصيبه . وذلك إما مشاركة في مائدة واحدة ، أو مقداراً يحمله معه إلى منزله حيث أصبح الأمر مقروناً بشخص الأمير ، وقدرتـه المـاليـة ، ورغبتـه في كسب الأجر والثواب في مساعدة أولئك المحتاجين . فالأمير على ذلـك ملزم برعـايـة عـدد مفروض عليه من المعسرين ، ولكنه مخير في كيفية توفير تلك العنـايـة . ولاشـك أن في ذلـك الحل المؤقت تفريجاً للبعض عما حل بهم من الكرب والضيق .

بالإضافة إلى ذلك وجد من أصحاب الأراضي الزراعية من عمل على بذل محصولـه الزراعي كله صدقة يأكل منه الجائع متى أراد ، وحيثما شـاء . فـالأمير فخر الـدين الطنبغـا المسـاحي كان يملك مائة فدان زرعت جميعهـا فولاً جعلـه مشـاعـاً يـأكل منـه الفقراء متى أرادوا حتى نفـذ المحصول عن آخره . بل أن الأمير الطنبغـا عنـدمـا زار أجران الفول لم يجـد سوى تل كبير من القشر حيث أكل الفقراء فوله أخضر فأمر « أن يدرس لينتفع بتبنه ، فحصل منه سبعمائة وستون إردبـاً . فعـد ذلـك من بركة الصدقة وفائدة أعمال البر »[٢١]

وبالإضافة إلى ذلـك يـذكر المقريزي في كتـابـه « إغـاثـة الأمـة بكشف الغمـة » – استطراداً لحوادث عـام ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م ومـا جرى فيـه من غـلاء في الأسعـار ونـدرة في الغـذاء – فيقـول :

(٢٠) اغاثة ، ص ٣٥ .

(٢١) اغاثة ، ص ٣٦ .

« فأخرجت الغلال من الأهراء ، وفرقت في المخابز والجرايات لكل صاحب جراية ست جرايات في شهرين . وكان راتب البيوت والجرايات لأرباب الرواتب في كل يوم خمسين وستمائة إردب ، ما بين قمح وشعير ، وراتب الحوائج خاناه عشرين ألف رطل لحم في اليوم . وكان قد ظهر الخلل في الدولة لقلة المال ، وكثرة النفقات ، فتعددت المصادرات للولاة والمباشرين ، وطرحت البضائع بأغلى الأثمان على التجار »[٢٢].

وعلى ذلك يمكننا أن نستخلص بعض الاستنتاجات من هذا النص ، فنجد أن « الأهراء السلطانية » أو مخازن الغلال لم تكن خاوية تماماً ، وإنما كان بها كميات قليلة تم إخراجها وتفريقها على المحتاجين والمعسرين ، وفق خطة منظمة بالتعاون مع المخابز العامة ، والأفران المتفرقة في مختلف المناطق . كما أخذت الحكومة بنظام التقشف في توزيع الجرايات والرواتب بين الأمراء وأصحاب الرتب السلطانية والأميرية والديوانية بحيث قلت كمية الجراية المعتادة ، وتباعدت الفترة بين الواحدة والأخرى ، ضماناً لحسن الصرف بما يتناسب مع الأحوال العسرة التي كانت تمر بها سلطنة المماليك بشكل عام والمجتمع المصري بشكل خاص .

ولكن يظهر واضحاً أن هذه المحاولات للتخفيف من الأزمة لم تأت بنتيجة ملموسة ، الأمر الذي تطلب من الحكومة القيام بإجراء غير عادي نحو بعض الإداريين وخاصة ممن يتولون جمع الضرائب من الأقاليم والمدن والقرى فعملت على مصادرة أموالهم ، واستخدامها في سبيل التخفيف عمن ضاقت بهم الأحوال . ولا يغيب عن ذهن الدارس أن هؤلاء الإداريين والمباشرين كانوا يأخذون من جباية المال ، وجمع الضرائب عنوة الشيء الكثير ، ويدخلونه إلى خزائنهم الخاصة . بالإضافة إلى ذلك بدأت الحكومة تعمل وفق نظام الإشراف المباشر في توزيع البضائع على التجار بأثمان غالية ، وذلك لكي تسنح لها فرصة جمع مبالغ مالية مناسبة تستغل في الصرف اللائم للتغلب على الأزمة . وقد يخيل للدارس أن بيع هذه البضائع بأثمان مرتفعة سيزيد الوضع سوءاً ، وسيعرضها التجار بأضعاف أثمانها الكبيرة فتصبح فرصة الحصول عليها ، أو شراؤها مستحيلة ، إلا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال تخيل حدوث ذلك بسبب حالة العسر التي كانت عليها الطبقات الفقيرة حيث بات التفكير في شراء مثل هذه البضائع غير وارد ، واقتصر الشراء على الأثرياء الذين كانت لديهم القدرة على شراء هذه البضائع الغالية ، فإن تم ذلك توفر في الخزائن السلطانية مال

(٢٢) اغاثة ، ص ٣٣ ، أنظر كذلك ص ٣٨ .

كثير يمكن الإفادة منه في شراء المواد الغذائية من البلاد المجاورة ، أو حتى ممن يخزنها في بيوته وأجرانه من الأمراء المماليك .

وقد استفاد من هذا الغلاء في أسعار جميع أنواع الأغذية فئة من التجار الذين كانوا يخزنون البضائع المختلفة من حبوب وبقول ، فلما حلت الأزمة كان في ذلك لهم مناسبة طيبة لبيعها بأسعار باهظة ، فجنوا من وراء ذلك الأرباح الطائلة ، وبلغوا مقداراً كبيراً من الثراء السريع خلال فترة وجيزة(٢٣). وهذا يدل على عدم وجود الإحساس بالمسئولية عند البعض ، حيث وجدوا في معاناة الخلق فائدة لهم ، وكان يجدر بهم الإسهام في التخفيف من آثار الأزمة ببيع ما يملكون من مواد غذائية بأسعار مناسبة أملاً في مساعدة المحتاج ، ورغبة في الأجر والثواب ، ولكن يبدو أن الأطماع المادية فاقت في استحواذها على نفوس البعض تلك القناعات الروحية التي يسمو بها الأخيار .

ثم بلغ الوضع من السوء أن قام بعض المسئولين بأعمال تضمنت كثيراً من أوجه الظلم في سبيل التخفيف عن أنفسهم من آثار الأزمة ، من ذلك مثلاً أن الوزير الصاحب فخر الدين بن الخليلي استولى على قدر كبير من الأموال الموروثة التي كانت تتحصل « لديوان المواريث الحشرية » لصرفها على مايريده من الأطعمة اللذيذة في غذائه وعشائه ، فكان يحرم الورثة من حقهم في ميراث أهلهم حيث يتحول كل ما يحق للوارث إلى « ديوان المواريث الحشرية » ، ومن هناك إلى بيت الوزير . في حين يضيع الورثة الكثير من الجهد والوقت في سبيل إثبات حقهم في إرثهم فلا ينالهم بعد العناء الطويل والمشقة سوى الفشل في إثبات حقهم وتحصيل ميراثهم(٢٤).

وعلى ذلك يمكن أن نستخلص من هذه الأقوال على لسان مؤرخي العصر المملوكي أن الأقاليم المملوكية في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي قد بليت بجفاف وقحط نتج عنه تلف كبير في المزروعات والمحاصيل الغذائية(٢٥). وقد زاد الوضع سوءاً انتشار المرض والوباء بين الناس ، وبصفة خاصة بين الفقراء والعامة(٢٦)، فتفشى الموت بين الخلق إما بسبب الجوع أو المرض ،

(٢٣) اغاثة ، ص ٣٦ – ٣٧ .

(٢٤) اغاثة ، ص ٣٧ – ٣٨ .

(٢٥) Dols, Plague in Early Islamic History, Journal of the American Oriental Society, Vol. 94.3 (1974) p.374

(٢٦) Ayalon, op.cit. p. 69.

وبلغ درجة كبيرة حتى كان يموت في القاهرة والفسطاط « كل يوم ألوف ، ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ، ملقى في الممرات والقوارع اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه لاشتغال الأصحاء بأمواتهم والسقاء بأمراضهم »[٢٧]. الأمر الذي جعل كتبغا يحرص على توزيع الفقراء بين الأغنياء ليكونوا في رعايتهم ويمكن تأمين الغذاء لهم .

وزاد من تفاقم الأزمة انتشار الأمراض في القاهرة والفسطاط إلى جانب معظم المناطق الريفية والقرى النائية ، فكثر الطلب على الأدوية الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أسعارها « فباع عطار برأس حارة الديلم[٢٨] من القاهرة في شهر واحد بمبلغ اثنين وثلاثين ألف درهم ، وبيع من دكان يعرف بالشريف عطوف من سوق السيوفيين[٢٩] بمثل ذلك ، وكذلك حانوت بالوزيرية[٣٠]، وآخر خارج باب زويلة[٣١] – بيع في كل واحد منها بنحو من مثل ذلك »[٣٢] . إذن كان هناك إقبال هائل على طلب الدواء بسبب تفشي الأمراض بين الناس ، فاستفاد من ذلك العطارون حيث تمادوا في رفع سعر الأدوية ، وكسبوا من وراء ذلك الأرباح الطائلة . وهنا يظهر واضحاً عدم وجود الرقابة الحكومية في الإشراف الدقيق على عملية بيع الأدوية وفق أسعار معقولة يقدر الناس على دفعها خاصة أن الوضع المادي كان متدهوراً . لقد كانت تلك الأزمة الصحية فرصة طيبة لأصحاب دكاكين العطارة للثراء السريع على حساب المريض والمحتاج .

ولم يقتصر ذلك على العطارين بل شمل الطلب الأطباء « وبذلت لهم الأموال ، وكثر تحصيلهم ، فكان كسب الواحد منهم في اليوم مائة درهم »[٣٣]. مما يدل على معاناة الناس من الأمراض المختلفة وبذل الغالي والنفيس في سبيل الاستشفاء والراحة .

---

(٢٧) السلوك ، جـ ١ ص ٨٠٩ .

(٢٨) أنظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٨ – ١٠ .

(٢٩) أنظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٧ .

(٣٠) أنظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥ – ٨ .

(٣١) أنظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٨٠ – ٣٨١ .

(٣٢) اغاثة ، ص ٣٥ .

(٣٣) اغاثة ، ص ٣٥ .

وتطورت الأمور من سيء إلى أسوأ حيث ارتفع سعر القمح حتى بيع كل إردب بمائة وعشرين درهماً بعد أن كان بخمسة وعشرين درهماً[٣٤]، ثم تزايد السعر إلى مائة وستين درهماً للإردب الواحد[٣٥].

كما فشى الموت في القاهرة بسبب الوباء فأحصى من مات بها ، وثبت اسمه في « ديوان المواريث الحشرية » في ذي الحجة سنة ٦٩٤هـ / تشرين الأول - أكتوبر سنة ١٢٩٤م ، فبلغوا سبعة عشر ألفاً وخمسمائة[٣٦].

كذلك عم الغلاء والقحط ممالك المشرق والمغرب والحجاز وبرقة حتى بلغ سعر إردب القمح بمصر مائة وخمسين درهماً فضة .

ولا نملك هنا إلاّ أن نلخص الوضع الإقتصادي في سلطنة المماليك وبالذات في عهد السلطان العادل كتبغا المنصوري على النحو التالي : أولاً : ارتفاع كبير في اسعار المواد الغذائية الأساسية مثل القمح والخبز واللحوم بأنواعها ، ثانياً : ندرة المواد الغذائية المعروضة في الأسواق والدكاكين العامة وصعوبة الحصول عليها ، ثالثاً : خلو المخازن السلطانية من الغلال أو المخزون الاحتياطي من الغذاء للاستعاضة به وقت الأزمات الاقتصادية ، رابعاً : إنتشار الوباء في جميع الأقاليم المملوكية مصر ، والشام ، والحجاز ، وتلا ذلك انتشار الطاعون بشكل واسع ، وعلى نطاق كبير ، بين جميع الطبقات وخاصة الفقيرة . وإذا ماتجاوزنا عن لوم السلاطين المماليك نتيجة لما حدث من جفاف في الأراضي الزراعية ، وندرة في هطول الأمطار ، وقصر مد النيل ، وعدم حدوث الفيضان المنتظر ، فلا نستطيع أن نتجاوز عن اتهامهم بالتقصير في عدم توفير الغذاء المخزون ، أو الاحتياطي من المحاصيل الزراعية للاستفادة منه في وقت الحاجة بحيث يتم توزيع الغذاء المخزون وفق نظام يقوم على التوزيع العادل للغذاء بين المحتاجين تدريجياً حتى تنتهي الأزمة ، لا كما حدث حين قام سلطان بعينه بتوزيع ما في الأهراء السلطانية من مخزون بين الأمراء[٣٧]، فلما وقعت الأزمة كانت تلك المخازن خاوية ، وهذا مالا يغفره التاريخ لأولئك السلاطين .

---

(٣٤) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(٣٥) النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ ، قارن ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(٣٦) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(٣٧) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٨ .

كذلك لا يمكننا أن نغفل التقصير الواضح في بناء السدود وبحيرات الماء العذب من ماء النيل للاستفادة منه في حالة عدم حدوث الفيضان . ويظهر واضحاً في الحقبة التالية إدراك السلاطين المماليك لأهمية هذه الانجازات حيث شهد عصر الناصر محمد بن قلاون بناء العديد من السدود وبحيرات الماء العذب مثل الخليج الكبير أو الخليج الناصري بين بولاق والقاهرة[٣٨].

وعلى أية حال فلم تنته الأزمة مع نهاية عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م بل اشتد الغلاء[٣٩] والمجاعة والطاعون حتى بات من المستحيل الحصول على القمح ، والفول ، والترمس وغير ذلك من الغذاء ، كما اختفى اللحم بأنواعه ، وندرت الفواكه[٤٠] ، وهلك الحيوان إلى جانب الإنسان نتيجة عدم توفر الغذاء وارتفاع الأسعار ، « ثم تفاقم الأمر ، فأكل الناس الميتة من الكلاب ، والمواشي وبني آدم ، وأكل النساء أولادهن الموتى »[٤١]. وبذلك يكون الطاعون قد قضى على أعداد كبيرة من الكثافة السكانية في السلطنة المملوكية[٤٢].

ويبدو أن من المحاولات التي اجتهد المشرفون الحكوميون في إنجازها جلب الغلال من الأقاليم المملوكية التي كانت في مأمن من المجاعة والوباء حيث بات الناس يمنون أنفسهم بمجيء المحاصيل الجديدة ، إلا أن هذه المحاولة فشلت والأماني تبخرت بوصول الأنباء بفساد الزرع في مناطق برقة ، وإقليم البحيرة الغربية ، وإقليم الشرقية ، والصعيد الأعلى[٤٣]. الأمر الذي يقطع بوقوع الأزمة في مختلف الأقاليم المصرية[٤٤] بسبب تلف المزروعات نتيجة هبوب رياح سوداء حملت معها تراباً أصفر[٤٥]، ففسدت جميع المحاصيل . إذن كانت العوامل المناخية أسباباً رئيسية لما وقع في مصر من أزمة اقتصادية . كما كانت هذه التغيرات المناخية سبباً في انتشار الأمراض والحميات بأنواعها بين الناس[٤٦].

(٣٨) السلوك ، جـ ٢ ، ص ٤٥٠ – ٤٥١ ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٢٤ – ١٢٨ .

(٣٩) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، اغاثة ، ص ٣٣ .

(٤٠) جواهر ، ورقة ٥٩ أ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٨ .

(٤١) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٤ ، قارن ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(٤٢) Ayalon, op.cit. p. 68.

(٤٣) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، اغاثة ، ص ٣٣ – ٣٤ .

(٤٤) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(٤٥) اغاثة ، ص ٣٣ .

(٤٦) اغاثة ، ص ٣٤ .

وقد ترتب على تلف المحاصيل الزراعية قلة المعروض في الأسواق من الأرز ، والسمسم ، والقلقاس ، وقصب السكر ، فارتفعت الأسعار ، وصعب الشراء ، واتسعت المجاعة[٤٧]. كما ارتفعت أسعار جميع أنواع الحبوب والخضروات والفواكه والطيور والحيوانات[٤٨].

إلى جانب ذلك أصبح هناك قلة في أنواع المطروح من المحاصيل في الأسواق ، فندر السكر والعسل ، واختفت الفواكه من الدكاكين ، وارتفع سعر البيض والدجاج واللحوم بأنواعها ، وحدث الشيء ذاته مع الفول والعدس والشعير والقمح[٤٩]. مما يظهر أن الندرة في المعروض من المواد الغذائية شمل العناصر الأساسية والثانوية ، حيث عم الضرر الفقير والغنى المقتدر على دفع المبالغ الكبيرة في سبيل الحصول على مختلف الأنواع الغذائية فكان في ذلك نهاية لمظهر الرفاهية في غذاء الأمراء المماليك ، والأغنياء ، والأعيان .

كما جاءت الأنباء إلى مصر بأن الحوادث ذاتها قد وقعت في القدس ، وحلب ، والكرك ، والشوبك ، وبلاد الساحل الشامي ، وكذلك في مكة ، وقرى الحجاز ، وبلاد اليمن[٥٠]. فقد أكدت الأخبار الارتفاع الهائل في الأسعار حيث عم القحط الأراضي الزراعية ، وفسدت الغلال ، وتلفت المحاصيل[٥١] لدرجة أن كمية ما كان يرصد من الغلة للحملات الحربية المفاجئة قد استهلك بتوزيعه بين سكان هذه المناطق بسبب معاناتها من الجوع والمرض[٥٢]. ويذكر المقريزي أن كمية تلك الغلة المحفوظة كانت تزيد « عن عشرين ألف غرارة »[٥٣]. الأمر الذي يوضح أن الوضع حينذاك كان قاسياً وصعباً لدرجة التضحية بما كان يحفظ من الغلة لحالات الحرب الطارئة حيث كانت السلطنة المملوكية في حالة طوارىء تشابه ، بل تفوق ، في ضراوتها حالة الحرب أو الغزو المباغت . ومن النتائج التي ترتبت على ذلك ظاهرة الهجرة التي عمت سائر الناس في مختلف الأقاليم المملوكية شرقاً وغرباً[٥٤] طلباً للغذاء والأمان والسلامة .

---

(٤٧) اغاثة ، ص ٣٤ .
(٤٨) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٨ .
(٤٩) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٨ ، اغاثة ، ص ٣٤ .
(٥٠) اغاثة ، ص ٣٤ - ٣٥ ، ٣٨ .
(٥١) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .
(٥٢) اغاثة ، ص ٣٤ .
(٥٣) اغاثة ، ص ٣٤ .
(٥٤) اغاثة ، ص ٣٤ .

وأصبحت مصر مقصد عدد كبير من المهاجرين من مختلف البقاع المملوكية والأقاليم الشرقية ، إذ كان الناس يعتقدون بأن مصر بما اتصفت به من خيرات . وما عرف عنها من النشاط التجاري المزدهر بمنجاة من تلك الكوارث ، فبدأ الزحف السكاني نحوها غير أنّ حقيقة الحال تؤكد أن مصر أيضاً كانت تقاسي أزمة اقتصادية عصيبة[٥٥].

وقد كان من الطبيعي نتيجة عجز الناس عن الحصول على قوتهم اليومي ، إلى جانب اكتظاظ القاهرة بالناس المهاجرين من مختلف المناطق ، مع شدة الجوع ، وارتفاع الأسعار ، وندرة الغذاء أن عمت البلاد ظاهرة الفوضى والنهب فبات الناس يتجمهرون عند المخابز والأفران ، فينهب العجين وهو محمول إلى الفرن قبل أن يتم خبزه مما استدعى إعلان حالة الحراسة المشددة ترافق العجين إلى الفرن ، ثم تحمي الخبز حتى يتم توزيعه على المخابز ، بحيث ينال من يحاول الاقتراب من هذا أو ذاك الضرب بالعصى دون رحمة[٥٦]. كل ذلك في سبيل تأمين نظام يتناسب مع حالة الطوارىء هذه ، فينال كل واحد نصيبه ولو كان قليلاً . ومع ذلك فإن شدة الجوع جعلت البعض لا يبالي بالحرس أو الضرب فيلقي بنفسه على الخبز ليخطف شيئاً فلا ينوبه سوى العقاب الشديد والضرب دون هوادة .

ورغم أن المبالغة تظهر واضحة في سطور هذه الكتابات المملوكية[٥٧]، إلاّ أنها تدل دلالة واضحة على سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، وأن الوضع بلغ على مختلف الأصعدة ، حداً لا يحتمل فكان مقلقاً للسلطان ، مؤلماً للأمراء والمقتدرين ، مميتاً للفقراء والمعسرين .

وهكذا شهدت سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م معاناة اقتصادية مريرة[٥٨] تفاقم فيها الوضع إلى درجة عجز عن احتمالها كثير من الناس[٥٩]، وبات الأمير والغني يخشى نفاذ القوت من بيته فيجد نفسه وأهله في مواجهة أزمة الغلاء ثم الجوع والهلاك[٦٠].

---

(٥٥) اغاثة ، ص ٣٥ .

(٥٦) اغاثة ، ص ٣٥ .

(٥٧) Ayalon, op.cit. p. 69.

(٥٨) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٨ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٣ ، اغاثة ، ص ٣٣ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(٥٩) جواهر ، ورقة ٥٩ أ .

(٦٠) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٣ – ٨١٤ .

وتشهد الحوادث مشاركة السلطان العادل كتبغا المنصوري ، والأمراء المماليك ، ومحتسب القاهرة ، والأعيان في العمل للخلاص من هذه الأزمة المهلكة ، إلاّ أن الوضع بدأ يائساً مع انتشار وباء الطاعون وكثرة الوفيات في المدن والأعمال والقرى[٦١]. وتفشى الموت بشكل واضح في القاهرة وظواهرها حيث كان فناء عظيم ، إذ زاد عدد الخارجين من الأموات ، في اليوم الواحد ، من باب واحد من أبواب المدينة ، على سبعمائة نفس ناهيك عن الأبواب الأخرى والظواهر المتعددة[٦٢].

« ثم أعيا الناس كثرة الموت ، فبلغت عدة من يرد إسمه الديوان السلطاني في اليوم ماينيف عن ثلاثة آلاف نفس ، وأما الطرحاء فلم يحصر عددهم بحيث ضاقت الأرض بهم ، وحفرت لهم الآبار والحفائر وألقوا فيها ، وجافت الطرق والنواحي والأسواق من الموتى »[٦٣].

وربما يكون في هذه التعبيرات شيء من المبالغة في وصف ما حدث ، إلاّ أن هذه المبالغة تصور مدى ما كان الناس يشعرون به من القسوة والأسى نحو تلك الأزمة بحيث بات الوضع يفوق قدرتهم على احتمال الألم والحزن . ويضيف المقريزي أنه نتيجة انتشار الوباء خلت الضياع من أهلها ، وتناقصت أعداد سكان القرى المختلفة[٦٤].

وهكذا مر عام كامل والأزمة قائمة بل في تزايد مما أدى إلى تدهور واضح في اقتصاد الدولة ، نتج عنه تضخم مالي شديد حيث « كثرت الفلوس ، فعملت كل أوقية بسدس درهم »[٦٥]. الأمر الذي يظهر قلة القيمة الشرائية للدرهم حيث كانت تلك السيولة النقدية لا تغطي أية قيمة شرائية تذكر . ولكن الوضع تحسن قليلاً حينما استقر « الرطل منها بدرهمين ، وزنة الفلس درهم ، هذا أول ماعرف من وزن الفلوس »[٦٦]. ولا شك أن هذا يدل على قلة الاحتياطي أو المحفوظ في الخزائن السلطانية أو بيت المال من الذهب والفضة ، فبلي المجتمع المصري بندرة الغذاء ، وغلاء الأسعار ، إلى جانب المرض والطاعون ، إضافة إلى خزائن خاوية من الاحتياط المعدني الثمين الذي

---

(٦١) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٠ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٤ – ٨١٥ .

(٦٢) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٩ .

(٦٣) اغاثة ، ص ٣٥ – ٣٦ ، أنظر كذلك النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(٦٤) اغاثة ، ص ٣٦ .

(٦٥) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٠ .

(٦٦) اغاثة ، ص ٣٧ .

ربما يعين على انفراج الأزمة . إلاّ أن الحكومة نجحت في أن يستقر سعر الرطل من الفلوس درهمين رغبة في تحقيق شيء من الاستقرار الاقتصادي في المجتمع(٦٧).

كذلك وصلت الأخبار من بلاد الشام بتزايد الأسعار ، وجفاف المياه ، وندرة الأمطار(٦٨)، وحدث الشيء ذاته في الحجاز(٦٩). وأصبح الوضع عصيباً ومحيراً فكان المتنفس الروحي لعامة الناس هو الدعاء ، وإقامة الصلاة متوجة بالدعوات لنزول الغيث حيث ظهر العجز واضحاً في إمكانية قيام الحكومة بأية خطوة أو إجراء تجاه حل الأزمة(٧٠).

وعلى ذلك كان الطابع العام للأحوال الاقتصادية والاجتماعية في هذه الفترة ارتفاع هائل في الأسعار مع انتشار المجاعة ، ثم الوباء والطاعون الذي بليت به سلطنة المماليك في عهد العادل كتبغا حيث جاع الفقراء حتى الموت ، وعانى المريض حتى الفناء الأمر الذي جعل من هذا الوضع محوراً رئيسياً يميز أوضاع هذه الحقبة من تاريخ سلطنة المماليك(٧١).

وانتهى عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م دون أن يحدث أي تغيير على الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي ، أما من الناحية السياسية فقد تم عزل السلطان العادل كتبغا المنصوري على يد نائبه حسام الدين لاجين المنصوري(٧٢) الذي أصبح السلطان الجديد لدولة المماليك .

ولعله من المصادفات الغريبة أن انخفضت الأسعار مع تولي السلطان الجديد حسام الدين لاجين المنصوري زمام الحكم إلى نصف السعر الذي كانت عليه ، فسر الناس بذلك(٧٣)، فقد كان

---

(٦٧) Ayalon, The system of payment in Mamluk Military Society, J.E.S.H.O. (1958) p. 49.

(٦٨) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢١١ ، جواهر ، ورقة ٥٩ أ ، اغاثة ، ص ٣٨ .

(٦٩) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢١١ - ٢١٢ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٥ .

(٧٠) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٥ .

(٧١) نزهة ، ورقة ٢٥ ب ، ٢٧ أ ، مالك ، ورقة ٤٢ أ ، مصر ، ورقة ٣٨ أ ، مرآة ، جـ ٤ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ ، درة ، ورقة ٧١ أ ، ٧٢ أ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٣ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٠ ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٢٤٨ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٦٨ .

(٧٢) أنظر ترجمته : ذيل ، ورقة ٤٣ ب - ٤٤ أ ، خبر ، جـ ٥ ، ص ٢٨٦-٢٨٧ ، ٣٨٩-٣٩٠ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٢٢-٢٢٣ ، العبر ، جـ ٥ ، القسم ٥ ، ص ٨٧٩-٨٨٢ ، ٨٨٣-٨٨٤ ، ٨٨٥ ، تشريف ، ص ٦٠ ، ٧١-٧٢ ، السلوك ، جـ ١ ، ٨٢٠-٨٢٨ ، ٨٢٩-٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣-٨٣٧ ، ٨٤٨-٨٤٩ ، ٨٥٢ ، ٨٥٦-٨٥٧ ، ٨٥٩-٨٦٥ ، النجوم ، ٨ ، ص ١٢ ، ١٧ ، ٨٥ ، ٩٢-٩٩ ، ١٠١-١٠٩-٢٢٤ .

(٧٣) جواهر ، ورقة ٥٩ أ ، تركية ، ورقة ٢٠ أ ، اغاثة ، ص ٣٩ .

إردب القمح بأربعين درهماً فانحط سعره إلى عشرين درهماً ، وبلغ سعر إردب الشعير عشرة دراهم بدلاً من ثلاثين[٧٤].

من هذه الدراسة يمكننا أن نوضح النتائج التالية :

(١) بليت سلطنة المماليك طوال سنتين ٦٩٤ - ٦٩٥هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٥م بغلاء فاحش في أسعار المواد الغذائية ، فانتشرت المجاعة بشكل واسع ، ثم استفحل الوباء بين الناس حتى ابتلوا أخيراً بالطاعون . وقد كان عدم فيضان النيل عاملاً أساسياً في وقوع هذه المحنة الشاملة في مصر .

(٢) تعتبر العوامل الاقتصادية هي الأسباب الرئيسية لحدوث هذه الأزمة التي عانى منها جميع سكان سلطنة المماليك وبخاصة الشعب المصري .

(٣) عمت المجاعة ثم الوباء معظم أقاليم سلطنة المماليك مثل بلاد الشام ، الحجاز ، اليمن وبرقة .

(٤) شمل الغلاء جميع المواد الغذائية الأساسية والثانوية إلى جانب السلع الأخرى نتيجة قلة العرض في الأسواق العامة والدكاكين .

(٥) كان حدوث هذه الأزمة مع تولي السلطان العادل كتبغا المنصوري كرسي الحكم فاعتبره الناس نذير شؤم وقدوم شر .

(٦) كشفت الحوادث عن مظاهر الترف التي حظى بها الأمراء المماليك دون الشعب المصري حيث نجد السلطان المملوكي لا يتردد في توزيع المحفوظ من المحاصيل في الأجران بين الأمراء المماليك دون خشية حدوث أزمات مفاجئة تجعل الحاجة لهذه المحاصيل ملحة وضرورية .

(٧) ظهر تأثير هذه الأزمات الاقتصادية الاجتماعية بشكل واضح وخاص على الطبقات الفقيرة وعامة الناس والأطفال والغرباء وعابري السبيل .

(٨) حصول كبار الإداريين من الموظفين الرسميين في الدولة على مبالغ مالية طائلة ظلماً وبهتاناً ، من ذلك مثلاً استيلاء الوزير على أموال الورثة الذين يعجزون نتيجة العقبات الإدارية عن إثبات حقهم في إرثهم من خلال المعاملات التي لابد أن تتم في « ديوان المواريث الحشرية » .

(٩) كان هناك تسجيل احصائي للوفيات في سلطنة المماليك في « ديوان المواريث الحشرية » ، ويظهر قيام هذا الجهاز الإداري بعمله واضحاً عند بدء الأزمة ، إلاّ أن عملية التسجيل باتت مستحيلة مع تكاثر الوفيات نتيجة انتشار الطاعون .

(٧٤) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٢٣ .

(١٠) روايات المؤرخين المماليك لحوادث الغلاء والوباء والطاعون تحمل بين سطورها الكثير من المبالغة سواء في وصف الأزمة وتأثيرها ، أو في أعداد الوفيات ، إلاّ أنه لا يفوت الدارس أن هذه الأرقام ليست دقيقة تماماً ، وإنما تعبر عن تأثر المعاصرين لما حدث من نكبات متتالية بليت بها الطبقات السفلي بشكل خاص .

(١١) إزاء هذه الأزمة كان لابد من حل عاجل يخفف من آثارها عند الناس فقام السلطان المملوكي بتوزيع الفقراء بين الأمراء المماليك الأغنياء كي يقوموا بمسئولية العناية بهم حتى ينفرج الحال .

(١٢) كان للأمراء المماليك دور كبير في رعاية المحتاجين والمعسرين ضمن مشاركة جماعية موحدة لمواجهة نتائج هذه الكارثة الاقتصادية الوخيمة .

(١٣) لعب رجال الدين دوراً كبيراً في تحقيق الاطمئنان النفسي عند المتضررين حيث كانت الصلوات الجماعية سبيلاً لرفع الروح المعنوية عند المؤمن الذي لابد أن يرى في تلك المحنة امتحاناً للصبر والإيمان .

(١٤) كان هناك من الأمراء والأغنياء من تبرع بكل ما يملك من محاصيل زراعية للتخفيف عن الناس من آثار المجاعة .

(١٥) وضع السلطان خطة منظمة ومحكمة في توزيع ما تم جمعه من بقايا المحاصيل الزراعية في المخازن السلطانية حيث اتخذت الاحتياطات اللازمة لتوزيعه بين الأفران والمخابز والدكاكين بشكل منظم وتدريجي لتمكين كل محتاج من الحصول على جزء مما يلزمه من قوت ضروري .

(١٦) لم تتردد السلطة العليا مطلقاً في مصادرة أموال أولئك المباشرين وجامعي الضرائب الذين اغتنوا على حساب الشعب الذي يدفع الضرائب مضاعفة للمباشر عنوة وقهراً ولا يملك حق التظلم ، فكان في أموال أولئك مصدراً جديداً للسلطان يحاول به مساعدة الناس في مواجهة هذه الأزمة ونتائجها الفادحة .

(١٧) كذلك يظهر واضحاً تدخل الحكومة المباشر في السيطرة المطلقة على كل مايرد إلى السلطنة من بضائع ، أي بعبارة أخرى التضييق على عملية الحرية التجارية في الحصول على البضائع ، ثم تقوم الحكومة بعد ذلك بتفريقها بين التجار بأسعار مضاعفة عن التي اعتادوها من أجل الحصول على السيولة النقدية لشراء المحاصيل الغذائية من البلاد المجاورة ، ثم توزيعها على الفقراء والمعسرين حتى تنتهي المجاعة .

(١٨) هناك فئات من الناس استفادت من هذه النكبة مثل الأطباء والعطارين حيث كان المصاب يضاعف الأجر للطبيب في سبيل العلاج ، ويدفع السعر المضاعف للحصول على الدواء ، فظهر في المجتمع طبقة غنية جديدة لم تكن موجودة من قبل . وهذا الوضع يعكس موقفاً سلبياً من الحكومة في عدم مواجهة هذه الظواهر الانتهازية ومحاولة القضاء عليها .

(١٩) في الفترة الأخيرة من المحنة انتشر الطاعون بشكل كبير بين مختلف الطبقات الاجتماعية ، الأمر الذي أنهك عملية التكافل الطبقي والمساعدات المتنوعة من مختلف الناس في مواجهة الحالة العصيبة التي نكب بها المجتمع المملوكي على جميع المستويات ، إذ بليت البيوت الغنية والفقيرة على حد سواء بهذا الوباء الأسود .

(٢٠) بدا تقصير الحكومة المملوكية واضحاً في بناء السدود وبحيرات الماء العذب لمواجهة الجفاف حيث ظهر تقصير الحكومة للجميع إذ كان القحط أحد الأسباب التي أدت إلى هذه المحنة .

(٢١) كان عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م أشد قسوة في جميع مظاهر الضرر النفسي والمعنوي والمادي حيث خلت الدكاكين من مختلف البضائع ، وزاد الغلاء ، وندرت المواد الغذائية ، إلى جانب انتشار الوباء الأسود الذي حصد الخلق في جميع الأوساط الاجتماعية دون تفريق .

(٢٢) كانت سلطنة المماليك حريصة على تخزين فائض كبير من المحاصيل الزراعية الغذائية المتنوعة في « الأهراء السلطانية » بحيث تكون بعيدة عن الاستهلاك مهما كانت الأسباب ، بل تحفظ لحالات الحروب المفاجئة فإذا كان هناك غزو مباغت ضد الدولة ، أو حملة عسكرية تقصد الفتح الإسلامي خارج حدود السلطنة تم إخراج هذه الكميات المحفوظة لمثل هذه الحالات العسكرية الاضطرارية . ولكن عندما وقعت هذه المصيبة الاقتصادية التي نتناولها بالدراسة تم إخراج هذه المحاصيل لهدف مساعدة من أصابهم الضرر . وهذا الأمر يبين دون ريب مدى شدة الوضع الاقتصادي وما ترتب على ذلك من نتائج اجتماعية أليمة .

(٢٣) كان الانتقال بين الأقاليم المملوكية المتعددة أمراً عادياً وسهلاً سواء بقصد الحج أو الانتقال الشامل لهدف الاستقرار في مكان آخر ، ولكن حينما وقعت هذه الكارثة بدأت ظاهرة الهجرة الجماعية بين المناطق المختلفة طلباً للرزق ، وكانت مصر منطقة جذب رئيسية لمقوماتها الاقتصادية المعروفة ، ولكنها حينذاك كانت تعاني أيضاً من نتائج المجاعة والطاعون .

(٢٤) تطلبت ضراوة الحالة الاقتصادية وقساوتها توفير وضع سياسي يمكن أن نطلق عليه صفة « الأحكام العرفية » حيث كان لابد من توفير الحراسة العسكرية المشددة عند الأفران

والمخابز والدكاكين والمخازن بأنواعها لحمايتها من أيدي العامة الذين كانوا يعانون الجوع والمرض . فأخذت الحكومة على عاتقها مسئولية الحيلولة دون وقوع الفوضى الاجتماعية التي ربما تقضي على البقية الباقية من استقرار المجتمع آنذاك . إذن فإنه من المؤكد أن هذه المراكز الغذائية كانت هدفاً للنهب والسرقة من عامة الناس بسبب الجوع .

(٢٥) كان لهذا الطاعون تأثير كبير على تناقص الكثافة السكانية في المدن والقرى على حد سواء ، وكان المهاجر الميت البعيد عن أهله يبقى مطروحاً في الطريق حتى يأتي من الأخيار من يعمل على دفنه .

(٢٦) وضحت ظاهرة تناقص احتياطي الدولة من الذهب عندما قلت القيمة الشرائية للدرهم ، حيث ظهر التضخم المالي ، ووقع التلاعب بالفلوس ، فما كان من الحكومة إلاّ التدخل العاجل لتحديد القيمة النقدية للدرهم في محاولة للحيلولة دون تدهور الاقتصاد العام لسلطنة المماليك . لقد كان من الممكن أن يؤدي العجز الواضح في خزانة الدولة إلى ظهور اضطراب جذري في كلا الوضعين السياسي والاقتصادي للسلطنة .

(٢٧) تحملت جميع طوائف المجتمع وقتذاك جانباً من المسئولية في سبيل تخفيف الضرر ، فالسلطان تحمل مسئولية الخطوات التنفيذية التي اعتقد أنها تؤدي لهذا الهدف سواء في توزيع البضائع العينية ، أو في مصادرة الكبار لإعانة الصغار ، أو في توفير الأمن الاجتماعي ، كما كان للأمير أسلوبه في مساعدة المحتاجين إما بالتبرع أو توفير القوت اليومي ، وتحمل الأثرياء الأخيار مهمة إطعام الفقراء ودفن الطرحاء . أما رجال الدين فاجتهدوا في تحقيق طمئنة النفوس وحمايتها من الفزع والهلع نتيجة ما حدث فالتف الناس حولهم في المساجد يقيمون الصلاة طلباً للغيث ، وترتفع أصواتهم بالتهليل والتكبير أملاً في إنفراج الأزمة .

(٢٨) سياسة العزل التي كان يجسر عليها كبار الأمراء المماليك ضد السلطان الضعيف تبدو واضحة ضمن حوادث هذه النكبة بل يبدو أن هذا الوضع كان عاملاً مساعداً في إقدام أمير قوي على عزل سلطان كانت الوقائع المفجعة المتتالية سبباً رئيسياً في تشتيت جهوده في مختلف الجهات .

قائمة الاختصارات العربية
الأرقام هنا تدل على رقم المصدر في قائمة المصادر والمراجع

إغاثـــة	المقريــزي	(٣٠)
تالـــي	الصقاعي	(٨) ، (٢٥)
تركيــة	مجهــول	(١٠)
تشــريف	ابن عبد الظاهر	(٢٦)
جواهــر	مجهــول	(٩)
خــبر	الذهـــبي	(٢٤)
الخطـط	المقريــزي	(٣٢)
الــدرر	ابن حجــر	(٢٠)
درة	ابن حبيب	(٤)
ذيـــل	اليونيني	(١٤)
الســلوك	المقريــزي	(٣٣)
صبــح	القلقشــندي	(٢٨)
العـــبر	ابن خلدون	(٢٣)
مــالك	الصفــدي	(٧)
مــرآة	اليــافعي	(١٣) ، (٣٤)
مصـــر	مغلطـــاي	(١٢)
ملـــوك	ابن الفــرات	(٢٧)
النجــوم	ابن تغري بردي	(١٩)
نزهـــة	مجهـــول	(١١)

اختصارات المجلات العلمية الأجنبية :

B.S.O.A.S.	= Bulletin of.school of Oriental and African studies.
J.A.O.S.	= Journal of the American Oriental Society.
J.E.S.H.O.	= Journal of the economic and social history of the Orient.
J.R.A.S.	= Journal of the Royal Asiatic Society.

المصــادر والمراجــع

أولاً : مصــادر مخطوطة :

ابن اياس — محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)

(١) جواهر السلوك في أخبار الخلفاء والملوك
مخطوط كيمبرج Qq. 74
مخطوط دار الكتب ٦٢٠٣ ف ٦٤٨

ابن تغرى بردى — أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م)

(٢) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور
مخطوط ببرلين 9462

(٣) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ج ٥
مخطوط المكتبة الوطنية بباريس 2072

ابن حبيب — الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

(٤) درة الأسلاك في دولة الأتراك
مخطوط اكسفورد March 223

(٥) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه
مخطوط المتحف البريطاني Add. Rich 7335

السيوطي — جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

(٦) كتاب مارواه الواعون في أخبار الطاعون
مخطوط كيمبرج Or 172 (8)

الصفــدى — الحسن بن عبد الله (٨هـ / ١٤م)

(٧) نزهة المالك والمملوك
مخطوط المتحف البريطاني Or. 6267

الصقــاعي		فضل الله بن أبي بكر (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م)
	(٨)	تالي كتاب وفيات الأعيان
		مخطوط المكتبة الوطنية بباريس 2061
مجهـــول ؟	(٩)	تاريخ جواهر السلوك في سياسة الخلفاء والملوك
		مخطوط المتحف البريطاني Or. 6854
مجهـــول ؟	(١٠)	تاريخ الدولة التركية (٦٥٠ –٨٠٥هـ / ١٢٥٢ – ١٤٠٢م)
		مخطوط كيمبرج Qq. 147
مجهـــول ؟	(١١)	نزهة الإنسان في ذكر الملوك والأعيان
		مخطوط المكتبة الوطنية بباريس 1769
مغلطــاى		ابراهيم (عاش في النصف الأول من القرن ٨هـ / ١٤م)
	(١٢)	تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب
		مخطوط برلين 9835
اليــافعي		أبو محمد عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م)
	(١٣)	مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفـة حوادث الزمـان وتقلب أحوال الإنسان .
		مخطوط أكسفورد March 176
اليونيني		موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م)
	(١٤)	ذيل مرآة الزمان
		مخطوط مصور الجامعة الجامعة العربية ٢/٢٥٧ تاريخ ، ج ٤

ثانياً : مصــادر مطبوعــة :

ابن اياس		محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)
	(١٥)	بدائع الزهور في وقائع الدهور
		٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٨٩٣ – ١٨٩٦م

ابن تغرى بردى

أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)

(١٦) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور
جزئين تحقيق ويليام بوبر
لوس انجلوس ، ١٩٣٠ – ١٩٤٢م

(١٧) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي
الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٥٦م

(١٨) مورد اللطافة في من ولى السلطنة والخلافة .
باشراف ج . د . كارليل
طبعة أوروبا ، ١٧٩٢م

(١٩) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
١٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٢٩ – ١٩٥٦م

ابن حجـــر

أحمد علي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)

(٢٠) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة
٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٦م

(٢١) أنباء الغمر في أبناء العمر
جزءان ، حيدر آباد ، ١٩٦٧م

(٢٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري
١٣ جزء ، القاهرة ، ١٣١٩هـ / ١٩٠٩م

ابن خلدون

عبد الرحمن بن محمد (ت ٨١٨هـ / ١٤٠٦م)

(٢٣) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
٧ أجزاء ، بيروت ، ١٩٦٥م

الذهـــبي

شمس الدين محمد بن أحمد الشافعي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م)

(٢٤) العبر في خبر من غبر
٥ أجزاء ، الكويت ، ١٩٦٠ – ١٩٦٦م

الصقاعي
فضل الله بن أبي الفخر
(٢٥) تالى كتاب وفيات الأعيان
تحقيق جاكلين سوبله
دمشق ١٩٧٤م

ابن عبد الظاهر
محي الدين أبو الفضل عبد الله (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)
(٢٦) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور
تحقيق م . كامل
القاهرة ، ١٩٦١م

ابن الفرات
محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م)
(٢٧) تاريخ الدول والملوك
ج ٨ ، تحقيق قسطنطين زريق وآخرين .
بيروت ١٩٣٩م .

القلقشندي
أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)
(٢٨) صبح الأغشى في صناعة الانشا
١٤ جزء القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٢م

المقريزي
أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)
(٢٩) البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب
تحقيق م . عابدين
القاهرة ، ١٩٦١م .
(٣٠) إغاثة الأمة بكشف الغمة
حمص ، ١٩٥٦م .
(٣١) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام
القاهرة ، ١٨٩٥م .

(٣٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار « الخطط المقريزية »
جزءان ، القاهرة ، ١٨٥٣م ، ٣ أجزاء في ٦ أقسام - بيروت
١٩٥٩م .

(٣٣) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .
ج ١ ، ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة
ج ٣ ، ٤ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور
القاهرة ، ١٩٣٩ - ١٩٧١م .

اليافعي — عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م)

(٣٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان
٤ أجزاء
حيدر آباد ١٣٣٧ - ١٣٣٩هـ / ١٩١٨ - ١٩٢٠م

ثالثاً : مراجع أجنبيــة :

(i) Books

Arberry, A.J.
The Chester Beatty library, A Handlist of the Arabic Manuscripts, 7 vols, Dublin 1955–64.

Ashtor, Eliyaho.
Histoire des prix et des salaires dans L'Orient Medieval, Paris, 1969.

Balog, Paul.
The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria, New Yourk, 1964.

Cook, M.A.
Studies in the Economic History of the Middle East from the rise of Islam to the present day, London1970.

Al–Hajji, Hayat Nasser
The Internal Affairs in Egypt Durig the third reign of Sultan Al–Nasir Muhammad B. Qalawun
Kuwait, 1978.

Lapidus, Ira Marvin.
Muslim Cities in the later middle Ages, Harvard Univ. Press, Cambridge, Massachusetts, 1967.

Poliak, A. N.
Feudalism in Egypt, Syria. Palestine and Lebanon, London, 1939.

Rabie, Hassanein.
The Financial system of Egypt, A.H. 564–741 A.D 1169–1341, London, 1972.

(ii) Encyclopaedias and articles in periodicals.

The Encyclopaedia of Islam, iv vols. first edition, Leiden 1913. Second edition, Leiden 1960–in progress.

Ashtor, E.
(1) «Debat sur l'evolution economico-sociale de l'Egypt a la fin du moyen age, a propos d'un livre recent», J.E.S.H.O., xii (1969), pp, 102–109.
(2) «Some unpublished sources for the Bahri Period» Studies in Islamic history and civilization, (Scripta Hierosolymitana, ix), Jerusalem, 1961, pp. 11–30.

Ayalon David.
(1) «The Muslim city and the Mamluk military aristocarcy» Proceeding of the Israel Academy of Sciences and Humanities. ii (1968), pp. 217–259.
(2) «Notes on the Furusiyya exercises and games in the Mamluk Sultanate».
Studies in Islamic history and civilization (Scripta Hierosolymitana, ix) Jerusalem, 1961. pp. 31–62.
(3) «The plague and its effects upon the Mamluk Army» J.R.A.S. 1964. pp. 67–73.
(4) «The system of payment in Mamluk military society», J.E.S.H.O.i (1958), pp. 37–65.
(5) «Studies on the structure of the Mamluk army».
B.S.O.A.S.xv (1953), pp 203–228, 448–476, xvi (1954).
pp. 57–90.
(6) «Studies on the transfer of the Abbasid caliphate from Baghdad to Cairo», Arabica. 7 (1960), pp. 41–59.
(7) «The wafidia in the Mamluk kingdom», Islamic Culture, XXV (1951), pp. 89–104.

Dols, Michael W.
«Plague in early Islamic history». J.A.O.S. xciv (1974) pp. 371–383.

Holt, P.M.
«The Sultanate of al-Mansur Lachin (696–8/1296–9)», B.S.O.A.S. xxxvi (1973), pp. 521–532.

Labidus, I.M.
«The grain economy of Mamluk Egypt», J.E.S.H.O. xii (1969). pp. 1–15.

Poliak, A.N.
«Some notes on the feudal system of the Mamluks», J.R.A.S. (1937), pp. 97–107.

الخيل في الأدب القديم

الأستاذ الدكتور
إبراهيم السامرائي
أستاذ في قسم اللغة العربية بالجامعة الأردنية

ما أظن أن أمة احتفلت بالخيل على نحو ما احتفل العرب ، لقد كرّموا الخيل ووصفوا محاسنها وخَلْقها وخُلُقها وبحثوا في أنسابها وأصولها فكان من جملة ذلك أدب أصيل ومعجم حافل بالفوائد والأوابد .

ولم يُصنَّف في الخيل على نحو ما صنف فيها العرب ، لقد أدرك الاوائل عناية العرب بالخيل فكان لهم من ذلك مصنفات كثيرة نعرف غير قليل من المطبوع منها ، وما زال قدر آخر منها مخطوطاً . وقد ورثنا في عصرنا هذا تلك العناية القديمة فانبرى نفر من أهل الفضل في عصرنا في الكتابة في هذا الأدب الأصيل[1] .

لقد صنف في الخيل خَلْقها وصفاتها وفضائلها وأنسابها جمهرة من علماء الغرب المتقدمين ، وكان منهم ابن الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، والأصمعي المتوفى سنة ٢١٥ هـ وابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ هـ ، ومحمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ هـ وابو محمد الأعرابي المعروف بالاسود الغندجاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

(١) اسماء خيل العرب وأنسابها للأسود الغندجاني ص ١٥ – ٢٠ .

على أن آخرين قد خصوا « الخيل » بشئ من مصنفاتهم ومن هؤلاء : ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ في كتابه « عيون الأخبار » ، وابو على القالى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ في كتابه « النوادر » وابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ .

وآخر من عرفت ممن ألّف في الخيل في عصرنا المغفور له الملك عبد الله بن الحسين والسيد قدري الارضر وعلي البغدادي من محبي الخيل في عصرنا أيضاً .

والعناية بالخيل قديمة في أدب العرب فقد احبّوا الخيل وأجلّوها وحبوا أكرم الاسماء والصفات فالخيل « كرائم » والفرس الكريم جواد ، وحسبك ان تعلم ان « الجواد » واحد من الأجواد أي المساميح الكرام . وكما تعلق العرب بأنسابهم معرفتها وضبطها كان لهم دأب في ذلك بأنساب الخيل ، فقد اجتهدوا في معرفتها وحصرها وألفوا في ذلك مصنفاتهم المعروفة المشهورة « أنساب الخيل » كما فعل ابن الكلبي الذي أشرنا اليه .

وآية أنهم عنوا بأنساب الخيل وفضائلها ما نعلم من أسماء خيلهم وجمهرتها اعظام للخيل ومدح « لخَلْقها » وثناء على « صفاتها » ومنها : الأغرّ ، والاسطَع ، والاشقر ، والأدهم ، والأحوَى ، والأبلق ، والأحزم ،.. ومنها ما يشير الى عظم منزلته فراحوا ينسبون اليه كأعوَج الاصغر ، وهو « سيّد الخيل » (كذا) كان لأحد ملوك كندة ، انظر أخباره في « أنساب الخيل » لابن الكلبي ، وكتب الخيل لأبي عبيدة والأصمعي ، وابن الأعرابي وغير هؤلاء واشتهرت هذه الخيل بـ « الأعوَجيّات » .

وأظن ان السادة ملوك الجزيرة وبلاد العرب وأمراءها مازالوا معنيين بالخيل اكراماً لها ، وقد كان الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام قد أكرم الخيل فقال : « الخيل معقود بنواصيها الخير » ، وقال : « اركبوا الخيل فانها ميراث أبيكم اسماعيل (ذكره صاحب « جامع الأصول » ٥/٤٥) .

وقد أشار محقق كتاب « أسماء الخيل وأنسابها » للأسود الغندجاني ، وهو الزميل الدكتور محمد على سلطاني في « مقدمته » الى « مكانة الخيل في العصر الجاهلي » وكيف كان الجاهليون ينظرون اليها .

جاء في « العمدة »[٢] لابن رشيق : ان العرب « لا يهنّئون الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج » .

وقد سوّى زيد الخيل فرسه « المطّال » بمِكْنَف ابنه ، وفي ذلك يقول :

أقرّبُ مَربِطَ المطّال إنّي ... أرى حَرْباً تلقح عن حِيال
أسوّيه بمِكْنَفَ إذ شَتَونا ... وأوثره على جُلِّ العِيال[٣]

مثل ذلك قول خالد بن جعفر بن كلاب في فرسه حَذفة التي سوّاها بجاره أو بابنه جزء ، وفي ذلك يقول :

أريغوني إراغتكم فإنّى ... وحَذْفَةَ كالشّجا تحتَ الوريدِ
أسوّيها بجاريَ أو بجَزءٍ ... وأُلحفُها ردائي في الجليدِ[٤]

وكيف تقول في مالك بن نويرة الذي رضي أن يبيت صغاره خِماصا جياعا لتنعم فرسه بما يكون لها من « الغذاء » كما في قوله :

جزانى دوائي « ذو الخِمار » وصنعتي ... اذا نامَ أطواءً بنيَّ الأصاغرُ[٥]

و « ذو الخمار » فرس مالك بن نويره .

وأعجب من هذا أن يؤثر العربي القديم فرسه على نفسه ، وفي هذا يقول فضالة بن هند بن شريك الأسدى في فرسه « ناصح » :

---

(٢) العمدة ٦٥/١ .
(٣) حلية الفرسان ص ١٥٩ عن كتاب « أسماء خيل العرب وأنسابها » للغندجاني .
(٤) أنساب الخيل ص ٦٦ .
(٥) أسماء خيل العرب وأنسابها رقم ٢٤٩ .

أنـاصِـحَ شمّـرْ للرهـان فـإنّهـا غَـداةَ حفـاظٍ جمَّعتْهـا الحَـلائبُ
أتـذكر إلبـاسيـكَ في كل شَتْـوةٍ ردائي وإطعاميكَ والبطنُ ساغِبُ(٦)

وقد ينقطع العجب حين ترى ثعلبة بن أم حَزْنة العبدي يرضى ان يجعل نفسه جُنَّةً فيموت ليبقى عريب وهو فرسه ، حيّاً كما في قوله :

إن عَـريبـاً وإن سـاءني أحَبُّ حبيبٍ وأدنى قـريبِ
سـأجعـل نفسي لـه جُنّـةً بشـاكي السـلاح نَهيبِ أريبِ(٧)

وقد يكون من المفيد أن نعرض لأحدهم الذي رضي لنفسه الحاجة والفقر فلم يـدفعه ذلك الى ان يبيع فرسه ، ولو أدّى الحال الى ان يتخلص من ثقل العيال بتطليق أزواجه ، وهكذا يحكي لنا عيينة بن أوس المالكي حوار « النسوة » فيقول :

تقـول : أنـا الحرى لقيتُ مشقّـةً من الحشّ والإخلافِ فـالـوجهُ سـاهِمُ
فقـالت لهـا الأخرى لأسمعَ قـولهـا هو اليـوم إن بـاع « النَّعـامَـة » نـاعِمُ
ومـا النـاعمُ المغبـوطُ الا الـذي لـه غِنىً وهـو مكفيُّ المـؤونـةِ طـاعِمُ
وقـالت : سيُعطَى بـالفَلُوَّةِ أربعـاً وبـالمُهْرة الأخرى ثَمـانٍ جـوازم

وكأن عُيَيْنة يستمع الى حِوارهنّ فيخرج اليهنّ وكأنه يَرُدُّ عليهنّ فيقول :

ولستُ بشـاريهنَّ مـالم تُطَلّقي ولـو لُمتِنى أو لامَني لـكِ لائمُ(٨)

ونأتي الى عصرنا هذا بخيره وشرّه فنجد أهل هذا العصر في الغرب قد ابتـدعوا ضربـا من اللعب الحرام وهو السباق بـالخيل والمراهنـة على السـابق واللاحق والـذي يليـه فكان « ميسر » جديـد ،

---

(٦) أنساب الخيل ص ٣٩ - ٤٠ .
(٧) أسماء خيل العرب وأنسابها رقم ١١ .
(٨) أسماء خيل العرب وأنسابها رقم ٧٤٠ .

وتجارة حرام . وقد قلد المشارقة الغربيين في هذا العبث المحرم ، ولم تنج ديار الاسلام من هذه الممارسة الملعونة المقيتة واذا كان أهل هذا العصر قد عنوا بالخيل ، فانما يكون ذلك لعنايتهم بهذه الممارسة المحرمة سعيا وراء الربح الحرام لا اكراما للخيل وتكريما على نحو ما عرفنا في « الأثر » .

وقد يقال إن الجاهليين قد مارسوا هذا الضرب من « السباق » والجواب عن هذا ان « الاسلام » قد أبطل ان يتخذ من خلق الله من الحيوان وسائل تقودهم الى الشر فقد قرأنا في الحديث الشريف أنه - ﷺ - قال :

الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للانسان ، وفرس للشيطان ، فأما فرس الرحمن فما اتّخذ في سبيل الله تعالى ، وقوتل عليه أعداؤه ، وفرس الانسان ما استطرق عليه ، وفرس الشيطان ما روهِنَ عليه[9] .

وقال - عليه الصلاة والسلام - في هذه الخيل المباركة : الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة[10] .

وليس أدل على فضل هذه الخيل التى وصفت بـ « خيل الرحمن » من قوله - ﷺ - :

من احتبس فرساً في سبيل الله تعالى ، ايمانا واحتسابا وتصديقا بوعده ، فان شِبعَه وريَّه ورَوثه وبوله في ميزانه يوم القيامة[11] .

قلت : قد أبطل الاسلام ان يتخذ العرب خيولهم في السبق ، وأنه استنكر هذه الرياضة غير المباركة ، وما كانت لتبلغ من النكر والفساد ما بلغته « رياضة » السباق في عصرنا ، فكيف نقول اليوم وقد صارت هذه « الممارسة » مصدر إفقار لأسر كثيرة استهوى الشيطان رجالها فخسروا الدنيا والآخرة .

ومن أدب هذه الممارسة الجاهلية أننا نقف في الأدب القديم على :

السابق وهو الذي يجيء أوّلَ في السبق ، والمُصلّي هو الثاني ، وقيل له : مُصَلٍّ لأنه يكون عند

---

(٩) الترغيب والترهيب ٢٦١/٢ .

(١٠) مجمع الزوائد للهيثمي ٢٥٨/٥ .

(١١) رياض الصالحين ص ٥١٠ .

صَلا الأول ، وصَلاه جانبا ذَنَبه عن يمينه وشماله ، قال أبو عبيد : ولم أسمع في سوابق الخيل ممن يوثق بعلمه اسما لشئ منها الا الثاني ، والسُّكَيْت ، وما سوى ذلك انما يقال : الثالث والرابع وكذلك الى التاسع .

وقال غيره :

المصّلي في كلام العرب السابق المتقدم ، قال وهو مشّبه بالمصلّي من الخيل ، وهو السابق الثاني ، قال : ويقال للسابق الاول من الخيل المُجَلّي ، وللثانى المصلّي ،وللثالث المُسلّي، وللرابع التالى ، وللخامس المرتاح ، وللسادس العاطف ، وللسابع الحظي ، وللثامن المؤمَّل ، وللتاسع اللطيم ، وللعاشر السُّكَيْت ، وهو آخر السُّبّق[١٢] .

ومن المفيد أن أنوه بما كان لهم من « انسانية » الخيل ، وذلك أنهم احتفظوا للفرس بكنى عدة هى من كَنَى العاقل فقالوا فيه : أبو شجاع ، وأبو مدرك ، وأبو مضي ، وأبو المضار ، وأبو المنجي .

وقد تقف على شيء من عنايتهم بالخيل يتبين في درسه ومعرفته وضبط أحواله وما يعرض له فقالوا :

ومن الخيل مالا يبول ولا يروث مادام راكبه عليه[١٣] . ومنها ما يعرف صاحبه ولا يُمكّن غيره من الركوب عليه .

وفرقوا بين البرذَون (وهو الهجين من الخيل) والخيل فقالوا :

الخيل نوعان : هجين وعتيق ، والفرق بينهما ان عَظْم البرذون أعظم من عظم الفرس ، وعظام الفرس أصلب وأثقل من عظم البرذون ، والبرذون أحمل من الفرس ، والفرس أسرع من البرذون ، والعتيق بمنزلة الغزال ، والبرذون بمنزلة الشاة[١٤] .

وحسبك ان تعرف ان « العتيق » في العربية هو الكريم من كل شئ والخيار من كل شئ .

(١٢) لسان العرب (صلو) .

(١٣) حياة الحيوان للدميرى ٢٠٩/٢ .

(١٤) حياة الحيوان ٢١٠/٢ .

وقال الزمخشري في « الكشاف » في تفسير قوله تعالى :

﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ﴾ ٦٠ سورة الأنفــال . . .

وفي الحديث « ان الشيطان لا يضرب صاحب فرس عتيق ولا دارا فيها فرس عتيق »[١٥] .

ولابد لنا أن نمر على مافي كتاب الاسود الغندجانى الدى أسلفنا الكلام عليه فنقول :

والأسود الغندجاني هو أبو محمد الأعرابي :

قال ياقوت : كان علامة نسّابة عارفاً بأيام العرب وأشعارها وأحوالها مستندة فيا يرويه عن محمد بن احمد أبى الندى ، وهذا رجل مجهول لا يعرف .

وكان أبو يعلى ابن الهبّارية الشاعر يعيّره بذلك ، ويقول : ليت شعرى ، من هذا الأسود الذى قد تصدّى للردّ على العلماء والأخذ على القدماء . بما نصحح قوله ونبطل قول الأوائل ، ولا تعويل له في الرواية الا على أبى الندى ، ومن أبو الندى في العالم ! لا شيخ مشهور ، ولا ذو علم منشور .

قال ياقوت : ولعمرى ان الأمر كما قال (ابو يعلى) فان هذا يقول : اخطأ ابن الاعرابي في أن هذا الشعر لفلان انما هو لفلان ، بغير حجة واضحة ، ولا أدلة لائحة ، وكان لا يقنعه ان يردّ على أهل العلم رداً جميلا ، انما يجعله من باب السخرية والتهكم وضرب الامثال . وكان يتعاطى تسويد لونه بالقطران ، ويقعد في الشمس ليتحقق تلقيبه بـ « الأعرابى » . ورزق في أيامه سعادة من الوزير ابى منصور بَهرام .

وله من التصانيف : الردّ على ابن السيرافي في شرح أبيات « الكتاب » ، الردّعليه في شرح أبيات « الاصلاح » ، الردّ على أبي علي في « التذكرة » ، الردّ على ابن الاعرابي في « النوادر » ، أسماء الاماكن ، « الخيل » على حروف المعجم وهو كتابنا هذا ، و « فرحة الأديب » الذي أشرنا اليه . قال ياقوت : رأيت في بعض تصانيفه أنه صنفه في شهور سنة اثنتي عشرة وأربعمائة وقرئ عليه سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة[١٦] .

---

(١٥) الكشاف للزمخشرى .

(١٦) بغية الوعاة للسيوطى ٤٩٨/١ – ٤٩٩ .

وقدم الاستاذ المحقق لكتابه فأتى بفوائد كثيرة بسطها بين يدى الكتاب فكانت معينة على فهم أشياء كثيرة مما ورد فيه .

غير أنى كنت أوثر ألا يشوب هذه « المقدمة » ، وهي تتصل بأدب أصيل قديم ، شئ من لغة هذه الايام فينال ذلك من بهاء هذا الدرس المفيد .

جاء في الصفحة ٢٠ من المقدمة :

. . . . فقال عبد الملك بن مروان : عجبى من اختلاف أيمانه أشد من عجبى من معرفته بأنساب الخيل . . . . .

ثم عقب الاستاذ المحقق على ذلك بقوله : . . . علما بأن « عيّاشا » هذا رجل عادى (كذا) ولم يكن من العلماء المختصين المنقطعين (كذا) كالاصمعي مثلا .

اقول : كنت أود ان تخلو هذه المقدمة من قول المحقق : « علما » وهي كلمة ترد في السائر الدارج من لغة الدواوين وأشباهها .

ثم ما معنى قوله : « رجل عادى » ، وهذا شئ من عامية أخذت بخناق الفصيحة المعاصرة .

ومن غير شك انه أراد العلماء المختصين « المنقطعين » أى المنقطعين الى العلم .

ولنقف قليلا على « أبى الندى » الذى روى عنه مؤلف الكتاب كثيرا في كتابه هذا وفي كتاب آخر هو « فرحة الاديب » الذي أحسن الاستاذ الدكتور سلطانى بتحقيقه .

أقول : روى المؤلف الغندجانى عن أبى الندى هذا كثيرا .

وأحسب ان « أبا الندى » هذا هو « هيّ بن بيّ » كما يقول الأقدمون ، لقد اختلقه المؤلف وأراد ان يقول على لسانه في « فرحة الأديب » أشياء كثيرة رد فيها على « ابن السيرافي » وجهّله وتهكم عليه مبينا فساد ما ذهب اليه ابن السيرافي في فهم الشعر القديم والادب القديم عامة .

وحلا للمؤلف وهو الغندجاني ان يروى عنه أيضا في هذا الكتاب فيأتى بأدب يتصل بالخيل تفرّد به أبو الندى على ما زعم المؤلف ، وكأنه أومأ في ذلك الى تفرده هو بكثير من الأخبار مما

يتصل بالجاهلين وغيرهم .

والذى يقوّي هذا عندى أنى لم أقف على أبي الندى ، ولم يشر اليه غيري من المنقطعين الى درس الأدب القديم ، فهل يصح ألا يشير الى هذا العلم أحد من المتقدمين وقد انقطعوا الى الدرس وحصلوا على حظ وافر من المعرفة القديمة كأبي عبيدة والأصمعي وابن الأعرابي وغيرهم ، وهل يصح ألا يشير الى أبي الندى أحد من معاصرى الغندجاني من علماء القرن الخامس الهجري ، ويتفرد هو وحده بالأخذ عنه .

وجاء في الصفحة ٣١ من أسماء الخيل :

الأعرابيّ : لعبّاد بن زياد بن أبيه ، وكان مُقتَضبا لا يعرف له أب ..

أقول : ودلالة « المقتضب » على الذي لا يعرف أبوه شئ لا نجده في « المعجم » القديم ، والمقتضب هو المقطوع ، ولعل هذه الدلالة هى التى سوغت هذا المعنى الجديد .

وجاء في الصفحة ٣٩ الرجز :

يعدو به الأدهم منتاط الصَّغَنْ

أقول : والأدهم من اسماء الخيل ، وهو فرس هاشم بن حرملة المرّيّ . وقوله : « منتاط الصغَن » صوابه « منتاط الصَّفَن » بالفاء لا الغين ، والصَّفَن وعاء الخصية .

وجاء في الصفحة ٤٠ في الكلام على « إجراء » الخيل ، والقيام عليها سياسة ورياضة :

ثم صنعه حتى اجذَعَ فأرسله فلم يصنع شيئاً .

اقول : وقوله : « صنعه » اى رَوَّضَه ودرَّبه من أجل أن يفوز في السبق ، وهذا من مصطلحهم القديم في ترويض الخيل .

وجاء في الصفحة ٧٠ ثلاثة أبيات :

وقائلةٍ يوم الحفاظ لبعلها - لا يُعدَل الصُّراع في الحدثان

وقد علمت جَلْوَى بأنْ ليس رَبُّها بُعتَلِثٍ دونٍ ولا تعبـان

وجَلْوَى اسم فرس .

وقوله : « تَعبان » وكان يجب ان يكون « تَعبام » والعَبام الثقيل العَيي .

وقلب الميم نونا للقافية ، وليس على البدل . وهذا يعنى ان سلطان الشعر متحكّم جبّار ؛ ومن ذلك أشياء كثيرة في الشعر القديم ولاسيا في أراجيز الرجّاز .

وجاء في الصفحة ٧١ في حاشية للمحقق مأخوذة من « أنساب الخيل » لابن الكلبي في فرس هي الحرون بن الاثاثي :

لمسلم بن عمرو الباهلي ... وكان مسلم تزايَدَ هو والمهلّب بن أبي صفرة على الحرون حتى بلغا به ألف دينار ..

أقول : قوله : « تزايد » أى زاد كل منهما على ما ذهب اليه الآخر في ثمنه ، والمزايدة هذه هي المعروفة اليوم في البيع العلنى وهى في العامية أشهر منها فى الفصيحة .

وجاء في الصفحة ٩٠ في الكلام على فرس اسمه خصاف :

... فطلبه المنذر بن امريَ القيس ليفتحله فخَصاه بين يَدَيه لجرأته .

أقول : قوله : « ليفتحله » ليتبين « فحولته » ، وهذا مالم نجده في « المعجم » .

وجاء في حاشية أخرى في الصفحة ١٥٣ في كلام مأخوذ من « انساب الخيل » .

... قال كسرى : أفٌ لك ، لقد ذكّرتنى أخبث يوم مرَّبي قطّ ....

أقول : ليس في الكلام ما يستدعى الوقوف الا وجود « قطّ » . ان هذا الظرف الماضى لا يأتى الا فى حشو الجملة المنفية فيقال : لم أره قطّ ..

وجاء في الصفحة ١٦٦ :

العَرادة فرس أبي داوُد الإياديّ .

أقـول : واسم « دواد » مشتـق من الـــدود فهـو دواد وليس دؤاد ذكره ابن دريـــد فى « الاشتقاق » .

وجاء في الصفحة ١٩٩ :

القطوف فرس جبّار بن مالك الشمخيّ

أقول : وليس في الجاهلية ولا في الاسلام علم من أصل « جبَر » على « فعّال » وهو « جَبّـار » كما أثبت المحقق . والـذي نعرفـه من الأعلام من هـذا الأصل هو : جَبْر ، وجُبَيْر ، وجُبَيْرة وجَبـار مثل « زُؤام » بتخفيف الباء وجابر . وزيد على هذه في الاسلام عبد الجبّار أى « عبد الله » كغيره من الاعلام المصدّرة بـ « عبد » والمضافة الى اسم من أسماء الله الحسنى نحو عبـد الرحمن وعبـد الرحيم وعبد الغفّار وعبد الرزّاق وغيرها .

وقد رأيت في « القاموس المحيط » مادة (قطف » : أن « قَطوف » على « فَعول » فرس لجـابر ابن مالك الشمخيّ ، وهذا يحقق ما ذهبت اليه .

وأكتفى بهذا القدر من ذكر هذه الفوائد التي اشتمل عليها كتاب « اسماء خيل العرب وأنسابها » للأسود الغندجانى الذي أحسن في تحقيقه وتجليته الاستاذ المحقق الجليل .

كما قـدمت لهـذا الكتـاب بفوائـد أخرى بـدا لى أن ابسطهـا بين يـدى الكتـاب ليتم الكلام على « أدب الخيل » .

منظومات العلم الرياضي

الأستاذ الدكتور
جلال شوقي
أستاذ بكلية الهندسة

فُطِرَ الإنسانُ العربي على حُبِّ الشعر وقرضه ، وعلى تذوُّقه والتغنِّي به ، ولا غرابة في ذلك ، فالإنسان العربي مرهف الحِسِّ ، ثاقب النظر ، صادق التعبير . إنَّ ما صنَّفه العرب والمسلمون في قوالب نَظْمية قد اكتسب كثيراً من سِمات الخلود في الأدب العربي ، ولقد تعدَّى النَّظْم حدود الأحاسيس والمشاعر والانفعالات الإنسانية إلى آفاق أرحب ، ورحاب أوسع ، تكاد تغطي مُجمل المعارف الإنسانية برمتها ، ومِنْ ثَمَّ فقد خرج القصيد عن الموضوعات التقليدية للشعر كالمديح والغزل ، والعتاب والهجاء ، والفخر والرثاء ، واتجه إلى صياغة شعرية لكافة ألوان المعرفة ، ولعلَّ كثيراً من هذا النظم قد قُصِدَ به تيسير الحفظ للأغراض التعليمية ، ومن هنا جاء وصفه بالنظم التعليمي أو بالمنظومات التعليمية ، حيث إنها تخلو من عنصري العاطفة والخيال ، وهما ركيزتان من الركائز الأساسية التي يقوم عليها الشعر ، ومن ثَمَّ فإنَّنا نجد كثيراً من المنظومات قد صِيغ في مجال العلوم العقلية كالكيمياء والطب والأغذية والفلك والرياضيات والموسيقى وغيرها ، كما أنَّنا نجد أيضاً من هذه المنظومات ما تعرَّض للعلوم الإنسانية كالتاريخ والجغرافيا والملاحة البحريَّة والأمور العسكرية وما إليها . كذلك فإنَّ علوم اللغة العربية قد فازت بنصيب وافر من هذه المنظومات ، فمنها ما أنشئ في ألفاظ اللغة كالمثلثات اللغوية ، وفي قواعد النحو والصرف ، وفي علوم البلاغة من

بيان ومعان وبديع ، وفي العروض والقوافي ، وفي البديعيّات ، ولعلّ المنظومات التي صُنّفت في العلوم الدينية من علوم قرآن وحديث وسيرة وفقه وعقائد وأخلاق دينيّة وما إليها ، لعلّ هذه المنظومات تُمثّل الجانب الأوفى من المنظومات العربية .

لاَ شَكَّ أنّ نَظْم العلوم يؤدي بطبيعة الحال إلى سهولة حفظها ، إذ أنه كلّما دعت الحاجة إلى تطبيق قاعدة ما ، سَهُل على المرء أن يسترجع الأبيات التي تشير إليها ، فعمل على تطبيق ما جاء بها ، وتقف « ألفيّة ابن مالك » في النحو مثالاً واضحاً للنّظْم التعليمي ، فهي تساعد بالتأكيد على تمثُّل القاعدة النحوية عندما يُحتاج إليها . ولقد كان هذا الأسلوب التعليمي – الذي يعتمد إلى حدٍ كبير على القدرة على الحفظ والاستظهار – هو الأسلوب الشائع لقرون طويلة متعاقبة في دُور العلم التقليدية في الحضارة الإسلامية العربية .

هذا ويبدو أن التعبير عن المعارف والعلوم بمنظومات وأراجيز قد واكب الحضارة الإسلامية منذ القرن الأول للهجرة ولم يتأخر ظهوره حتى عصور الانحطاط كما يتوهّم البعض ، حيث إننا نجد – على سبيل المثال – أنّ أول من نَظَم في الكيمياء كان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (ت : ٨٥ هـ = ٧٠٤ م) الذي ألّف كتاب « فردوس الحكمة » ، وهو ديوان يشتمل على ٢٣١٥ بيتاً في قَوَافٍ مختلفة ، وتوجد له مخطوطات منتشرة في مكتبات العالم ، كما أنها تحمل عناوين متباينة ، ويزخر الديوان بألغاز ومُوَاضعات واصطلاحات ورموز كثيرة في صنعة الكيمياء ، يكتنفها الغموض ، شأنها في ذلك شأن الكتابات الأخرى في علم الصنعة الإلّهية ، التي أُريد بها أن تُبقي على أسرار هذه الصنعة في طيّ الكِتمان ، وأن تضنّ بدقائقها على غير أهلها .

لم تتزامن المنظومات العربية في شتى ألوان المعرفة ، وإنّما قُيّض لبعض العلوم أن يبدأ نَظْمُها قبل البعض الآخر ، فبينما نجد منظومات فلكية منذ العصر الجاهلي ، نجد أنّ المنظومات الرياضية مثلاً لم يبدأ ظهورها إلاّ في حوالى القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) بعد أن استوعب علماء العرب والمسلمين التراث المنقول إلى اللّسان العربي استيعاباً جيداً ، وقدّموا في مجال العلم الرياضي إضافات أصيلة مبتكرة وجليلة .

إنّ صوغ العلوم والمعارف في منظومات يُعَدُّ ظاهرة تميَّزت بها الحضارة الإسلامية العربية ، كما تميَّزت حضارات أخرى سبقتها كالحضارة الهندية والحضارة الإغريقية على سبيل المثال ، بيْد أن التقدُّم الهائل الذي أحرزته الحضارة الإسلامية العربية قد فتح آفاقاً جديدة ومتسعة في شتّى العلوم والمعارف لا سيما في العلوم الدينيَّةِ ، ومن ثمَّ جاءت المنظومات العربية النابعة من هذه الحضارة متعدّدة الجوانب ، تتّسم بالتنوُّع والشمول ، حيث يندر أن تجد لوناً من ألوان المعرفة الإنسانية لم تُكتب فيه منظومة عربيّة ، ولعلَّ هذا المنحى قد وجد طريقه – ضمن سِمَات أخرى من الحضارة الإسلامية العربية – إلى الغرب ، إذ أننا نجد أن الترجمات اللاتينية للعلم العربي قد حملت معها – فيما حملت – كثيراً من المنظومات العلمية العربية التي تأثر بها ونسج على منوالها بعض علماء الغرب .

إنّ التعبير عن ألوان المعرفة في قوالب شعريّة رصينة يستلزم توفُّر شرطين لازمين ، أولهما الاستيعاب التام للمحتوى العلمي أو المضمون ، وثانيهما القدرة على أداء المعنى بأسلوب منظوم ، جَيِّد البناء ، محكم القوافي والأوزان ، الأمر الذي يقتضي جمعاً بين تمكُّنٍ في العلم ، وتميُّز في الأدب ، ويستدعى تآلفاً بين دقة المعنى ، وجمال التعبير ، وتقيُّدٍ بضوابط النَّظمْ ، ولا غرْو أن نجد كثيراً من العلماء في كافة جوانب الحضارة الإسلامية العربية يَجْمَعُون بين العلم والأدب ، حيث كان يغلب عليهم المنحى الموسوعي ، ولا أدلَّ على ذلك من تنوُّع مجالات تصانيفهم ، وشمولية معالجاتهم ، مع عمق في الفكر ، ورحابة في النِّقاش ، ودقة في العرض والتحليل والتعليق ، وطول باع في التمحيص والاستقصاء ، وحذرٍ وحيطة في الاستنتاج والاستقراء .

وإن أردنا أن نسوق أمثلةً لعلماء موسوعيين ممن صنَّفوا في علوم كثيرة لاحتجنا إلى قوائم عديدة ، ولكنّا نكتفي هنا بأمثلةٍ جِدَّ محدودة بقصد الاستدلال فحسب ، فمِنْ علمائنا الموسوعيين تجدُر الإشارة إلى الشيخ الرئيس ابن سينا ، وأبي الريحان البيروني ، وابن الخشاب ، وفخر الدين الرازي ، وابن الهائم المصري المقدسي ، وابن الشِّحنة الحنفي ، وابن جماعة الكناني ، وحمزة الفناري ، وإسماعيل بن أبي بكر المقرىء ، وجلال الدين السيوطي ، وبهاء الدين العاملي ، وشرف الدين العِمْريطي على سبيل المثال لا الحصر .

إنَّ السّمة الجامعة بين العِلْم والأدب لتظهر أكثر ما تظهر في المنظومات ، ومن هنا كان اهتمامي بدراستها دراسة مُوسَّعة ، وقد أمكن لي بالرجوع إلى العديد من خزائن الكتب في الشرق والغرب ، والاطلاع على فهارس المخطوطات المحفوظة بها أن يَتَّضح لي كثيرٌ من معالم تراثنا العربي من المنظومات في جميع فروع المعارف الإنسانية . لاشك أن الخطوة الأولى نحو دراسة تراثنا المنظوم هي حصرُ التراث نفسه ، إن جاز هذا التعبير ، أى الوقوف على معالم وحدود الثراء الضخم الذي خلّفه لنا الأجداد ، ولقد أمضيتُ في هذه المرحلة عدد سنين قضيتُها في البحث والتنقيب عما كُتب نظماً ، وكان من حصيلة هذا الجهد أن تجمّعتْ ولا تزال تتجمّع لدىَّ البياناتُ الأساسية لما يزيد على الألفي منظومة في كافة المعارف والعلوم ، وعَسَى أن يمنحني المولى عزّ وجلّ الفرصة والقدرة والعزيمة على نشر هذه الدراسات في كتبٍ أو مجلدات متتابعة ، ولقد عنَّ لي أنّه لَمّا كان لمثل هذا المشروع الطموح أن يستغرق سنوات أخرى – لا سيَّما وأنه يجري بجهد فَرْدٍ واحدٍ – فربما كان من المناسب أن أنشر بين الحين والحين بعض الدراسات التي تُعين المهتمين والمشتغلين بالتراث الإسلامي العربي دون طول انتظار حتى يتم نشر العمل المتكامل في مجال المنظومات العربية ، ومن ثَمَّ فقد أقْدَمْتُ على نشر الدراسة الحالية عن « منظومات العلم الرياضي » ، وهي دراسة تُشكّل جانباً من دراسة أوسع وأشمل أرجو أن يتم نشرها في المستقبل القريب في كتاب بعنوان : « العلوم الرياضيّة في المنظومات العربية » .

إنَّ الرياضيات والمنظومات كلاهما يخضع لضوابطَ محدَّدة ، فلا تقوم منظومات دون تقيُّدٍ بموازين دقيقة ، كما لا تستقيم رياضيات دون تسلسل تراكيب منطقية ، فلا غرْو إذن أن نجد النَّظْم والانتظام ، والوزن والاتزان ، والمعادلة والوئام ، تجمع بين فكر رياضي وتعبير شعري ، وحبٌّ الشعر من حبِّ اللغة ، واللغة تعبير عن خواطر وأفكار ومعارف ، وعلم اللغة يقوم على المنطق ، كذلك ينسج الرياضي صِيَغَهُ ومعادلاته على أسس منطقية ، فلا عجب أن يشتغل كثير من الرياضيين بأبحاث لغوية ، وأن يتمتع كثير من اللّغويين بمنطق الرياضيين ، ولَعَلَّ تشكيل المجامع اللغوية يؤيد ما ذهبنا إليه من تواجد ذلك الرباط القوي بين اللغة والرياضيات ، ولقد شهدت الحضارة الإسلامية العربية ، أو إن شئت الحضارة التي بعثها وفجّرها وأقامها الإسلام ، وعبّر عنها ولها اللّسان العربي ، لقد شهدت هذه الحضارة نماذج فريدة ورائعة لعلماء جمعوا بين العلم والأدب ، وبرّزوا فيهما جميعاً .

من تراثنا المنظوم تقدّم فيا يلي ما وقفنا عليه من مخطوطات وشروح وتعليقات وحواش لمجموعة من علماء العرب والمسلمين في العلم الرياضي ، منهم :

الاسم		التاريخ
١ - ابن الياسمين أو ابن الياسميني	(ت :	٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م)
٢ - ابن الحسين الموصلي الحنبلي	(ت :	٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م)
٣ - القضاعي القللوسي	(ت :	٧٠٧ هـ = ١٣٠٧ م)
٤ - ابن ليون التجيبي	(ت :	٧٥٠ هـ = ١٣٤٦ م)
٥ - أحمد الضميرى	(ألّفها قبل :	٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ م)
٦ - ابن الهائم المصري المقدسي	(ت :	٨١٥ هـ = ١٤١٢ م)
٧ - ابن الرباط البقاعي	(ت :	٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م)
٨ - ابن ناصر النواوي	(كان حيًّا :	٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ م)
٩ - الزمزمي المكيّ	(كان حيًّا :	٨٧٨ هـ = ١٤٧٣ م)
١٠ - أبو الحسن ابن المغربي	(حوالى القرن	٩ هـ = القرن ١٥ م)
١١ - ابن غازي العثمانى المكناسي	(ت :	٩١٩ هـ = ١٥١٣ م)
١٢ - بحرق الحضرمي	(ت :	٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ م)
١٣ - عبد الرحمن الأخضري	(كان حياً :	٩٤١ هـ = ١٥٣٤ م)
١٤ - الشرف العِمْريطي	(توفى بعد :	٩٨٨ هـ = ١٥٨٠ م)
١٥ - عبد اللطيف الدمشقى ١٦ - مشرف بن قظرف ١٧ - أبو سالم السملالي	(حوالى القرن	١٠ هـ = القرن ١٦ م)
١٨ - ابن أبي بكر صاحب النحال	(ت :	١٠٦٥ هـ = ١٦٥٥ م)
١٩ - الشُّبْرامَلِّسي المالكي	(ت :	١٠٨٧ هـ = ١٦٧٦ م)
٢٠ - الخليفتي العباسي المدني	(ت :	١١٣٣ هـ = ١٧٢١/٢٠ م)
٢١ - عبد الفتاح بن ابراهيم المالكي	(ألّفها :	١١٤٣ هـ = ١٧٣٠ م)
٢٢ - ابن قاسم الحجّار الحلبي	(ت :	١٢٧٨ هـ = ١٨٦١ م)

(١) – « الأرجوزة الياسمينية في علم الجبر والمقابلة »

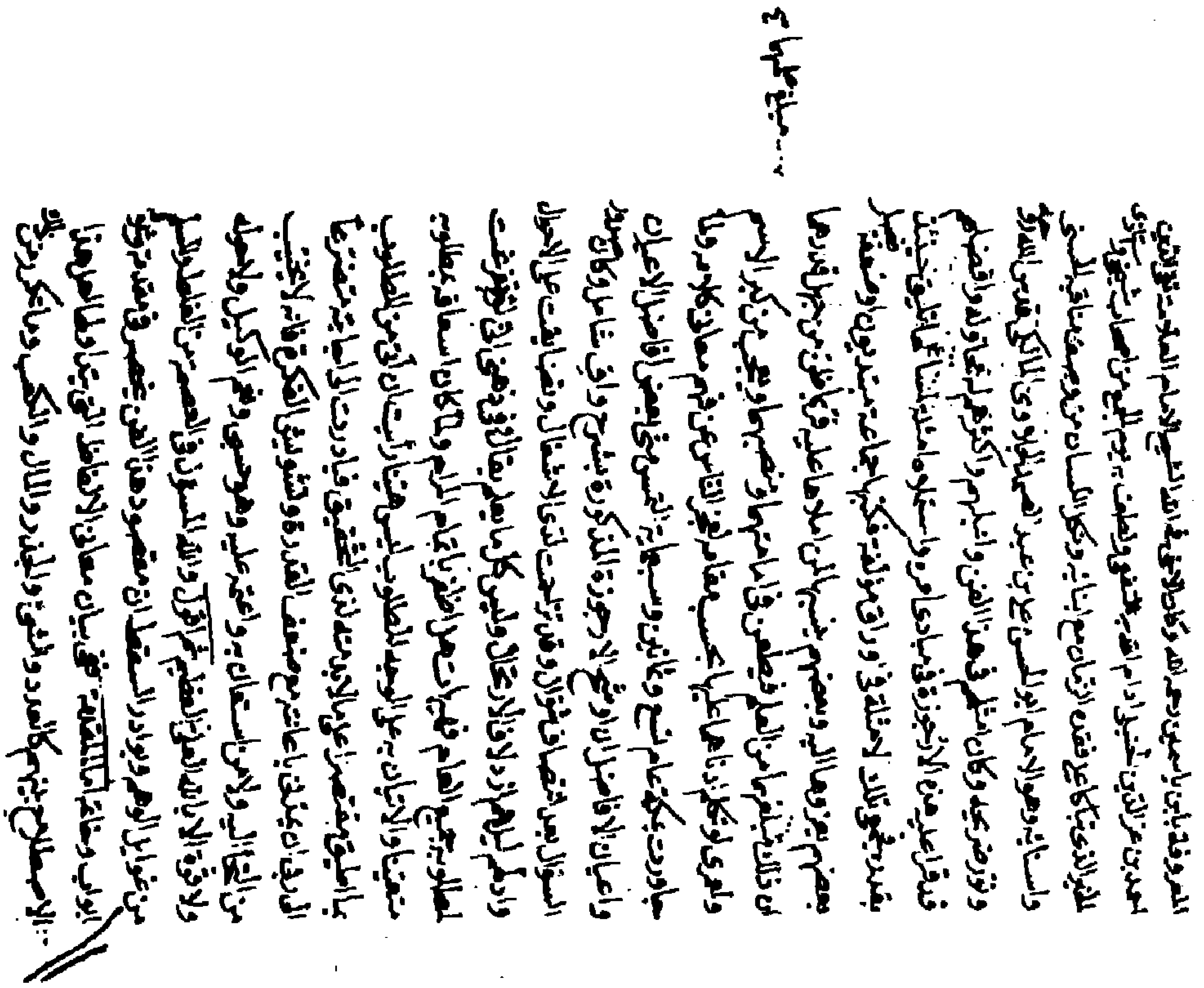
لأبي محمد عبد الله بن الحجاج الأدريني المُلقَّب بابن الياسمين أو بابن الياسميني (المتوفى سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م) ، ويبلغ عدد أبياتها ٥٤ بيتاً من بحر الرجز ، وتعرض الأرجوزة بصفة أساسية لشرح أصول علم الجبر واستخراج جذور معادلات الدرجة الثانية بأنواعها الستّ ، وتوجد نسخ خطية كثيرة لهذه الأرجوزة ، كما توجد لها عدَّةُ شروح ، وتبدأ الأرجوزة بالأبيات الآتية[١] :

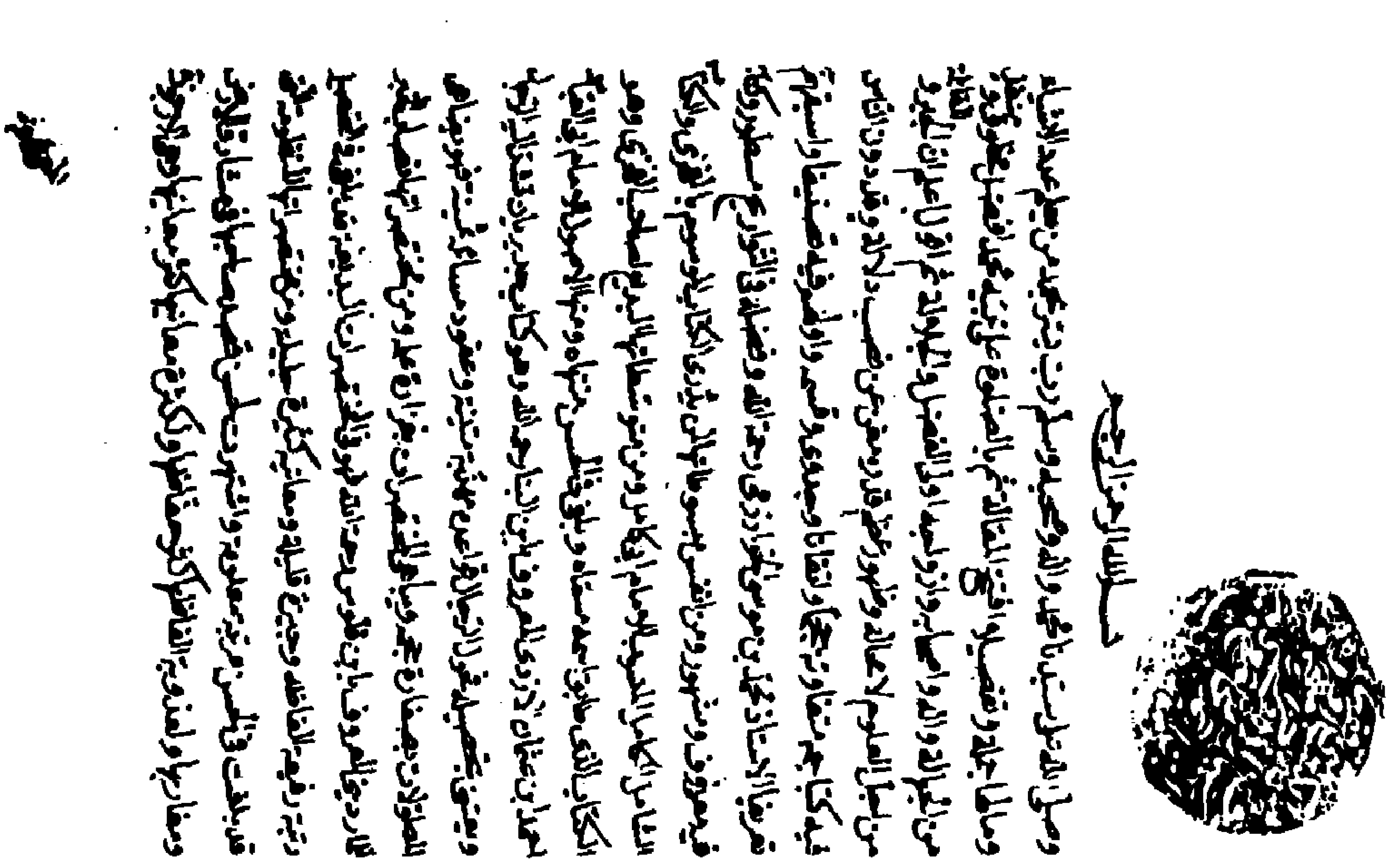
« الحَمْدُ لِلّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَا ... وَمَنَّ مِنْ تَعْلِيمِهِ وَفَهَّمَا
ثُمَّ صَلَوَةُ اللهِ طُولَ الأَبَدِ[٢] ... عَلَى النَّبِيِّ المُصْطَفَى مُحَمَّدِ
والشكرُ للحَبْرِ الذكيِّ العَالِمِ ... أُسْتَاذِنَا مُحَمَّدِ بنِ قَاسِمِ[٣]
فَهُوَ الَّذي بَيَّنَ[٤] مَا قَدْ أشكَلاَ ... وقَرَّبَ القَاصِي حَتَّى سَهَّلاَ
جَزَاهُ رَبُّ النَّاسِ عَنَّا خَيْراً ... وأجْزَلَ الأَجْرَ لَهُ في الأُخْرىَ »

أما في مخطوطة الخزانة العامة بالرباط – رقم ٢٤٢٤ ، فإن مطلع الأرجوزة هو :

« الحَمْدُ لِلّهِ عَلَى مَا أَلْهَمَا ... وَمَنَّ مِنْ تَعْلِيمِهِ وَفَهَّمَا »

(١) عن مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب – رقم ١٧٨٥ .
(٢) في بعض النسخ : « وصلوات الله طول الأبد ... »
(٣) يشير إلى شيخه أبي عبد الله محمد بن قاسم بن شاوش (من علماء القرن ٦ هـ = القرن ١٢ م) .
(٤) في نسخ أخرى : أوضح .





الصفحتان الأولى والثانية من شرح ابن الهائم على الأرجوزة الياسمينية

(مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب – رقم ١٧٨٥) .

كما جاء - في هذه النسخة أيضاً - عقب الأرجوزة الأبيات الآتية ، وهي من نظم الأستاذ أبي عبد الله الدهان :

« أَكْمَلْتُهَا بِالنَّسْخِ والْمُقَابَلَه — أُرجوزةً في الجَبْرِ والْمُقَابَلَه
حَوَتْ مع الإيجازِ حُسْنَ التَّحْرِير — نَظَمَهَا ابنُ اليَاسَمِين النِّحرير
جَزَاهُ ربِّي خَيْرَ مَا جَزَاه — مَا اخْتَلَفَ الظَّلاَمُ بالضِّيَاء »

وتدل الأرجوزة الياسمينية على تمكُّن ناظمها في الرياضيات وعلى طول باعه في الأدب والنَّظْم .

من مخطوطات « الأرجوزة الياسمينية »

١ - مخطوط طنجة وقد قرئ على المؤلف ، وسُمع منه بإشبيلية سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م .

٢ - مخطوطات مكتبة شستربيتي بدبلن :

(أ) رقم ٣٢٣٤ (٣) - ضمن مجموع ، من الورقة ٣٥/أ .

(ب) رقم ٣٤٨٦ (٢٢) - ضمن مجموع ، الأوراق : ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ويرجع تاريخه إلى القرن ٩ هـ = القرن ١٥ م تقريباً .

(جـ) رقم ٤٨٠٩ (٧) - ضمن مجموع ، الأوراق : ٩٠ - ٩٢ .

٣ - مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة - رقم ١١٢ رياضة - ف ١٠٤٣ .
مُصوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم رياضيات ١٢٢ .

٤ - مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب - رقم ١٧٨٥ .

٥ - مخطوط جاء ذكره عند Alger تحت رقم ٣٧٨ (٨) ضمن مجموع .

٦ - توجد مخطوطة بعنوان : « أرجوزة في الجبر » لعبد الله بن محمد ابن الياسمين في دار الكتب الوطنية بتونس - تحت رقم ٤٧٤١ ، ضمن مجموع من ثلاث رسائل ، يضم ١٠٧ ورقات ، وهو مكتوب بخط مغربي .

١٥٥

على أقل عباده في اشرف بلاده فلله الحمد على وفق مراده والشكر على توالي الفتح و
ازدياده والصلاة والسلام على محمد الذي ساد الخلق بانفراده وعلى اله وصحبه الذين
سعدوا باسعاده قال مؤلفه رحمه الله تعالى وكان الفراغ من تسويده على يد مؤلفه
احمد ابن الهائم في ليلة يسفر صباحها عن يوم الثلاثا سادس ذي الحجة الحرام سنة تسع
وثمانين وسبعماية بمكة المشرفة احسن الله عقباها والحمد لله وحده وصلى الله على
سيدنا محمد واله وصحبه وسلم وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة في ليلة يسفر صباحها
عن يوم الاحد تاسع محرم الحرام سنة واربعين ومائة والف على يد الفقير
الى عز شانه صدقي مصطفى بن صالح بن قاسم
غفر الله لهم ولجميع المؤمنين و
صلى الله على سيدنا
محمد واله و
صحبه
اجمعين
وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين

الصفحة الأخيرة من شرح ابن الهائم على الأرجوزة الياسمينية
(مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب – رقم ١٧٨٥)

٧ - توجد مخطوطة بعنوان « المقدمة المُسَمَّاة بالياسمينية » في الجبر والمقابلة ، لم يُذكر مؤلفها ، وأغلب الظن أنها لابن الياسمين ، والمخطوطة محفوظة بمكتبة بودليانا بجامعة أكسفورد - تحت رقم ١٠٣٤ (٣) ، ضمن مجموع ، وتقع في ثلاث ورقات .

٨ - مخطوطا خزانة الأوقاف العامة ببغداد - رقما ٥٤٤٤ (٩) ، ٥٥٠١ (٦) ، كل منهما ضمن مجموع .

٩ - مخطوط المكتبة الوطنية بباريس - رقم ٤١٥١ (٦) ، ضمن مجموع .

١٠ - مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٢٤ .

١١ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم ٥٩٦٤ .

١٢ - مخطوط القدس الشريف - رقم ١٤١٢ (١) ، ضمن مجموع .

١٣ - مخطوط المتحف البريطاني - اللحق ٢ - رقم ١٢٠٥ .

١٤ - مخطوطات خزانة الإسكوريال باسبانيا - الأرقام : ٩٣٦ (٢) ، ٩٤٣ (٦) ، ٩٥٤ (٢) .

١٥ - مخطوطا دار الكتب الوطنية بتونس - رقما ١١٩٠ ، ٣١١٧ .

من شروح الأرجـوزة الياسمينية

لقيت الأرجوزة الياسمينية اهتماماً كبيراً من العلماء الذين أتوا من بعد ابن الياسمين ، فتناولوها بكثير من الشرح والتوضيح ، ونسج على منوالها كثير من المشتغلين بالرياضيات في الشرق والغرب ، ونشير فيما يلي إلى أشهر من تعرض لهذه الأرجوزة بالشرح والتعليق :

١ - شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد ابن الهائم المصري ثم المقدسي (المتوفى سنة ٨١٥ هـ = ١٤١٢ م) .

٢ - وليّ الدين أحمد بن زين الدين عبد الرحيم أبي زرعة العراقي (المتوفى سنة ٨٢٦ هـ = ١٤٢٣ م) .

٣ - أبو الحسن على بن محمد القرشي البسطي القلصادي (المتوفى سنة ٨٩١ هـ = ١٤٨٦ م) .

٤ - بدر الدين أبو عبد الله محمد بن محمد الشهير بِسبْط المارديني الفاكهاني الشافعي (٨٢٨ - ٩١٢[١] هـ) = (١٤٢٤ - ١٥٠٦ م) .

---

(١) وفي قول آخر سنة ٩٠٧ هـ = ١٥٠١ م .

٥ – مصطفى الطائي .

٦ – ابن المجدى الشافعي .

٧ – نور الدين على بن أبي بكر بن على ابن الجمال الأنصاري المكي الشافعي (المتوفى سنة ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ م) .

٨ – أحمد بن عبد الفتاح بن يوسف المجيري الملّوي (المتوفى سنة ١١٨١ هـ = ١٧٦٧ م) .

٩ – شمس الدين محمد بن سالم بن أحمد الحفني (١١٠١ – ١١٨١ هـ) = (١٦٩٠ – ١٧٦٧ م) .

١٠ – أحمد بن يونس الخليفي (المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ = ١٧٩٤ م) .

١١ – أحمد بن محمد الشافعي الجنابي .

١٢ – مصطفى الحنفي الظافر .

١٣ – شهاب الدين السراجِي الشافعي .

وجدير بالذكر أنّه إلى جانب هذه القائمة لأصحاب الشروح والتعليقات والحواشى على « الأرجوزة الياسمينية » ، فإن هناك عدداً لا بأس به من الشروح لم تُذكر عليها أسماء مُصنّفيها ، الأمر الذي يدعو إلى إجراء مقابلة لها مع المخطوطات ذات الهويّة المحددة ، لعلّنا نتعرّف على بعض منها .

(أ) شرح ابن الهائم على « الأرجوزة الياسمينية »

١ – مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن – رقم ٤٤٣٠ ، ويقع في ١٩٤ ورقة ، وهذه النسخة هى نسخة المؤلف ، وهي مؤرخة في مكة المكرّمة سنة ٧٨٩ هـ = ١٣٨٨/٧ م .

٢ – مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة – رقم ١ رياضة – ف ١٠٤٢ ، ويشتمل على ١١٤ ورقة ، ويرجع تاريخ نسخة إلى عام ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م .

مصوّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة – رقم ٩٥ – رياضيات .

٣ – مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن – رقم ٤٧٦٠ ، ويقع في ٩٢ ورقة ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٨٩٣ هـ = ١٤٨٨ م .

٤ – شرح بعنوان :

« كتاب الدرّ الثمين في شرح أرجوزة ابن الياسمين »

في علم الجـبر والمقـابلة

مخطوط مكتبة بودليانا بجـامعـة أكسفورد ، رقم ١٢٣٨ (١) ، ويشتمل على ٩١ ورقة ، ويعود تاريخه إلى عام ١٠٠٨ هـ = ١٥٩٩ م .

٥ – مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب – رقم ١٧٨٥ ، ويقع في ١٥٦ صفحة (مقاس الصفحة : ١٥ × ٢٠,٥ سم) ، وقد فُرغ من نسخه سنة ١١٤٦ هـ = ١٧٣٣ م .

٦ – مخطوطا دار الكتب الظاهرية بدمشق :

(أ) رقم ٨٣ رياضيات – ٣٠٨٤ – عام .

(ب) رقم ٨٤ رياضيات – ٩٢٥١ – عام .

٧ – مخطوط برلين (فهرس ألواردت) رقم : 5963 Mq. 103 .

٨ – مخطوط مكتبة بودليانا بجامعـة أكسفورد – رقم ٩٦٦ (٦) – ضمن مجموع ، ويشتمل على ٦٦ ورقة (مجموعة هنت ١٩٤ : Hunt. 194) .

٩ – مخطوط مكتبـة كـوبريلي بتركيـا – رقم ٩٤٧ ، ويقـع في ١٠٩ ورقات ، وقـد فُرغ من نسخه سنة ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م .

١٠ – مخطوط مكتبة لاله لى باستانبول – رقم ٢٧٣٨ (٢) ، ضمن مجموع ، الصفحـات من ٣٩ أ إلى ١٦٩ ب ، والمخطوط يرجع تاريخه إلى القرن ١١ هـ = القرن ١٧ م .

١١ – مخطوط مكتبة حفيد أفندى بتركيا – رقم ٢١٥ (٢) – ضمن مجموع ، الصفحـات من ٣٧ أ إلى ١٤٠ ب ، والمخطوط من مخطوطات القرن ٩ هـ = القرن ١٥ م .

١٢ – مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس – رقم ٥٩٦ ، وقد كُتب بخط مشرقي .

(ب) شرح أبي زرعة العـراقي[1]

وهو بعنوان : « المُعين على فَهْم أرجوزة ابن الياسمين »

١ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5963 Mq. 103 .

٢ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5964.W.E.91 .

٣ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم رياضيات ٨٥ - ٩٥٥٧ - عام .

٤ - مخطوط خزانة الأوقاف العامة ببغداد - رقم ٥٤٢٠ (٥) ، ضمن مجموع ، ويرجع تـاريخ هذه النسخة إلى سنة ١٠٦٤ هـ = ١٦٥٣ م) .

(جـ) شـرح القلصـادى[1]

شرح لأبي الحسن على بن محمـد القرشي الشهير بـالقلصـادي الأنـدلسى البسطي (المتوفى سنة ٨٩١ هـ = ١٤٨٦ م) ، والشرح بعنوان :

« تحفة الناسيني على أرجوزة ابن الياسميني »

١ - مخطوط المكتب الهندي بلندن - رقم : 2 - [B47] Math. 770 .
ضمن مجـوع ، الأوراق من ١١ إلى ١٨ ، وقـد كُتب المخطـوط بيـد محمـد بن عبـد الله الطراني الأزهري الشافعي ، وقد أتمَّ كتابته في ١٣ رمضان سنـة ٨٦٦ هـ = ١٤٦١ م ، أي في حياة الشارح الفاضل .

٢ - مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٤٥٦ .

٣ - مخطوط جاء ذكره عند Alger تحت رقم ٣٧٦ (٨) ، ضمن مجموع .

٤ - مخطوط دار الكتب المصريـة بـالقـاهرة - فهرس مكتبـة مكرم - رقم ٢١٣ (٦) ، ضمن مجموع .

---

(١) هو أبو زرعة ولىّ الدين أحمد بن أبي الفضل زين الدين عبـد الرحيم ابن الحسين بن عبـد الرحمن بن أبي بكر العراقي (٧٦٢ - ٨٢٦ هـ) = (١٣٦١ - ١٤٢٣ م) .

(د) شـرح سِبْط المـارديني[1]

بعنـوان : « شرح الأرجوزة الياسمينيـة »

١ - مخطوط مكتبـة شستر بيتي بـدبلن - رقم ٣٢٣٤ (٩) - ضمن مجموع ، الأوراق : ١٧٢ - ١٨٤ ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٨٨٠/٧٨ هـ = ١٤٧٥/٣ م .

٢ - مخطوط دار الكتب المصرية بالقـاهرة - رقم ١٨٢ ريـاضـة - ف ١٠٣٥ ، ويقع في ٢٩ ورقة ، وقد فُرغ من نسخه سنة ١٠٢٠ هـ = ١٦١١ م ، وهو مُصوَّر بمعهد المخطوطـات العربية بالقاهرة - رقم ٩٤ - رياضيات .

وبعنـــوان : « شرح الياسمينية في علم الجبر »

وفي المقدمة : « شرح على الأرجوزة الياسمينية »

٣ - مخطوط برلين (فهرس ألوارد) - رقم : 5967 We. 1734 ، ويرجع تـاريخ نسخه إلى حوالي سنة ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ م .

٤ - مخطـوط برلين (فهرس ألـوارد) - رقم : 5967 Pm. 79 ، ويقــع في ١٨ صحيفة ، وقد تمّ نسخـه في شهر ذي القعـدة سنـة ١١٢٢ هـ = ١٧١١ م بخـط محمد بن عثمان ابن ابي بكر النحاس .

٥ - مخطـوط برلين (فهرس ألـوارد) - رقم : 5967 Lbg. 1047 ، ويشتمـل على ٢٧٦ صحيفة ، وقد فُرغ من نسخه في شهر ربيع الأول سنة ١٢٠٠ هـ = ١٧٨٦ م بيـد محمد بن محمد الفريزي الشافعي .

٦ - مخطـوط برلين (فهرس ألـوارد) - رقم : 5966. Spr. 1832 ، ويقــع في ٨٩ صحيفة .

---

(١) هو أبو عبد الله بدر الدين محمد بن محمد بن أحمد بن محمد الغزال الدمشقي الشهير بسبْط المارديني الفاكهـاني الشـافعي (٨٢٦ - ٩١٢ هـ) = (١٤٢٢ - ١٥٠٦ م) .

وبعنوان : كتاب« **اللُّمعة الماردينية في شرح اليآسَمينيّة** »

(أو في شرح المقدمة الياسمينية أو في شرح الأرجوزة الياسمينية)

٧ - مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة - رقم ٥١ رياضة - ف ١٠٤٢ ، ويشتمل على ١٢ ورقة ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ١١٠٤ هـ = ١٦٩٢ م ، وهو مصوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم ١٢١ - رياضيات .

٨ - مخطوط برلين (فهرس ألوردت) - رقم : 5968. We. 1711 ، وقد فُرغ من نسخه حوالى سنة ١١١٢ هـ = ١٧٠٠ م .

٩ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم رياضيات ٩٢ - ٤٤٣٦ - عام .

١٠ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم رياضيات ٩٣ - ٦٠٨٩ - عام .

١١ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم رياضيات ٩٤ - ٩٢٢٩ - عام .

١٢ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5968.WE. 179 ، وقد تمّ نسخه عام ١١٣٠ هـ = ١٧١٨ م .

١٣ - فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل : المجموع رقم ٢٢/١٤٣ ، الكتاب الثامن .

١٤ - مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس - رقم ٣١١٧ ، ويقع في ست ورقات ، وهو مكتوب بقلم مغربي .

وبعنوان : « **شرح الأرجوزة الياسمينية في الجبر** »

١٥ - مخطوط خزانة الزيواني في مكتبة أوقاف الموصل ، رقم : ١٢/١٤ .

١٦ - مخطوط المكتبة الوطنية بباريس - رقم ٤١٦٢ (٤) ، ضمن مجموع .

١٧ - مخطوط المتحف البريطاني بلندن - ملحق ١ ، رقم ٧٥٣ .

١٨ - مخطوط مكتبة البلدية بالإسكندرية بمصر - رقم ٢٤ حساب .

١٩ - مخطوطا مكتبة جامعة پرنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ، رقم ١٥٧ ، رقم ٢٦٦٠ .

(هـ) حاشية على شرح الماردينى

١ - حاشية بعنوان : « فرائد الفوائد الجبرية على شرح السِّبْط للياسمينية »

تأليف الشيخ محمد الحفني ، وهي حاشية على شرح سبط الماريديني على الأرجوزة الياسمينية .

- مخطوط دار الكتب بشبين الكوم بمصر - رقم ٨٨ ، وقد فرغ من نسخه سنة ١١٦٧ هـ = ١٧٥٣ م .

٢ - حاشية بعنوان : « فرائد عوايد جبرية على شرح السِّبْط للماردينية »[1]

لشمس الدين محمد بن سالم بن أحمد الحفني (١١٠١ - ١١٨١ هـ) = (١٦٩٠ - ١٧٦٧ م) .

- مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم : رياضيات ٩٠ - ٩٢٢٩ - عام .

(و) شروح أخرى على الأرجوزة الياسمينية

كُتبت على الأرجوزة الياسمينية شروح أخرى كثيرة غير تلك التي ألّفها شهاب الدين ابن الهائم ، وأبو زرعة العراقي ، وبدر الدين سِبْط الماردينى ، نذكر منها على سبيل المثال الشروح الآتية :

١ - « شرح الأرجوزة الياسمينية »

- مخطوط مكتبة شستربيتي بدبلن - رقم ٣٢٣٤ (٩) - ضمن مجموع ، الأوراق : ١٧٢ - ١٨٤ ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٨٨٠/٧٨ هـ = ١٤٧٥/٣ م . والمخطوط يحتاج إلى مقابلة مع الشروح المعروفة المتقدمة .

٢ - « شرح على الأرجوزة الياسمينية »

لمؤلف غير معروف

---

(١) من الواضح أن عنوان الحاشية في مخطوط شبين الكوم أقرب إلى الصحّة من عنوان الحاشية كما هو وارد بمخطوط الظاهرية .

– مخطـوط المكتب الهنـدي بلنـدن – رقم : [1490] Math. 765 ، ويضم ٣٤ ورقـة ، وقد فُرغ من نسخه سنة ١٠٨١ هـ = ١٦٧٠ م .

٣ – « شرح الياسمينية في علم الجبر والمقابلة »

لشارح غير مذكور

– مخطوط برلين (فهرس ألواردت) – رقم : 5964. WE. 91 ، ويعود تـاريـخ نسخـه إلى القرن ١٠ هـ = ١٦ م على وجه التقريب .

٤ – « شرح ياسمينية في علم الحساب »

لم يُذكر مؤلفه .

– مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب – رقم ١٧٨٥ ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنـة ١١٤٦ هـ = ١٧٣٣ م .

٥ – « المنفعة الكاملة في علم الجبر والمقابلة »

لمصطفى الطائي

– مخطوط بريل بهولندا رقم : 5232, 288 H .

٦ – « إرشاد السائل إلى أصول المسائل »

لابن المجدي الشافعي .

– مخطوطا مكتبة الأوقاف العامة في الموصل – رقما : ٢٤٦ (٤) ضمن مجموع ، ٣٥٩ .

٧ – شرح لنـور الـدين على بن أبي بكر بن على ابن الجمـال الأنصـاري المكيّ الشـافعي[(١)] (المتوفى سنة ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ م) .

٨ – شرح لأحمـد بن عبـد الفتـاح بن يـوسف المجيري الملّـوي (المتـوفى سنـة ١١٨١ هـ = ١٧٦٧ م) .

---

(١) هو صاحب الرسالة المساة « بالتُحفة الحجازيّة في نخبة الأعمال الحسابيّة » ، وتوجد لها مخطوطة في برلين (فهرس ألـواردت) – ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتـاب ٣١ . وهـو أيضـاً صـاحب كتـاب « قُرّة عيني الرائض في فنّ الحسـاب والفرائض » ، وتـوجـد مخطـوطـة لـه في نفس المجموع : الكتـاب ٣٢ ، كما أنّ لـه كتـاب « المـواهب السّنيّة في علم الجبر والمقابلة » ، وتوجد له مخطوطة ضمن نفس المجموع : الكتاب ٦٣ .

٩ – « تحفة الناشين على أرجوزة ابن الياسمين »

لم يُذكر اسم الشارح .

– مخطوط دار الكتب الوطنيـة بتونس – رقم ٤٣٣٤ ، ضمن مجموع من ٩ رسائل ، في ١٥٥ ورقة ، مكتوب بخط مشرقي بيد سليمان ابن قعود اليساري سنة ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ م) وسنة ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) .

١٠ – « الهبات السنيّة على الأرجوزة الياسمينية »

لمصطفى الحنفي الظافر

– مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس – رقم ١١٩٠ ، ويقع في ٢٢١ ورقـة ، وقد كُتبت هذه النسخة بخط مشرقي ردىء ، وهى في حالة سيئة .

١١ – شرح لشهاب الدين السراجي الشافعي

– مخطوط المتحف البريطاني بلندن – الملحق ١ ، رقم ٧٥٤ .

١٢ – « شرح الأرجوزة الياسمينية في علم الجبر »

لحسين بن أحمد الحليّ الشافعي

– مخطوط مكتبة مؤسسة هارتفورد

(Library of the Hartford Seminary Foundation) بـالـولايـات المتحـدة الأمريكية .

(ز) حواشي على الأرجوزة الياسمينية وشروحها

١ – حاشية لمحمد بن سالم الحِفْني (المتوفى سنة ١١٨١ هـ = ١٧٦٧ م)

على شرح السمرقندي ، وقد تقدّم ذكر حاشيته على شرح سِبْط المارديني .

٢ – حاشية لأحمد بن يونس الخليفي (المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ = ١٧٩٤ م) ، وهى حـاشية على الأرجوزة نفسها .

٣ – « حاشية على شرح الياسمينية »

لأحمد بن محمد الشافعي الجنابي .

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم 5969. Lbg. 1047 ، ويرجع تاريخ نسخه إلى حوالى سنة ١٢٢٠ هـ = ١٨٠٥ م .

ويشير صاحب الحاشية - في مقدمة المخطوط - إلى شيخه حيث يقول :

« لمّا منّ اللهُ تعالى بتلقّي شرح العلاّمة سِبْط الماردينى على الياسمينية عن شيخنا ... شمس الدين محمد الدسوقي .. » ، وشيخه هذا هو محمد بن احمد بن عرفه الدسوقي (المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ = ١٨١٥ م) ، وبالتالي فإنّ هذه الحاشية تُعدُّ حديثة العهد .

٤ - « تعليق وجيز على أرجوزة الياسمين في الجبر والمقابلة »

لمؤلف غير معروف الاسم على وجه الدقة .

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5967.We. 1717 ، ويعود تاريخ نسخه إلى حوالي سنة ١٢٤٠ هـ = ١٨٢٤ م .

(٢) أرجوزة مشتملة على أعمال الجذور[١]

لأبي محمد عبد الله بن الحجاج الأدريني الملقب بابن الياسمين أو بابن الياسميني (المتوفى سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م) صاحب « الأرجوزة الياسمينية »[٢] التي تقدّم ذكرها ، وتشتمل هذه المنظومة على ٥٤ بيتاً من بحر الرجز ، ومطلعها :

« الحَمْـدُ للهِ الّـذي هَـدَانَـا وَنَقَّـحَ العُقُـولَ والأَذْهَـانَـا

والشُّكْرُ للشَّيخِ الفقيهِ العَالِمِ أُستاذِنا مُحَمّـد بن قاسِم[٣]

(١) ترد في الأعلام للزركلي (جزء ٤ ، ص : ٢٦٩) بعنوان : « أرجوزة في أعمال الجذور » .

(٢) ترد في بعض الكتابات « الأرجوزة المشتملة على أعمال الجذور » وكأنها تسمية مرادفة « للأرجوزة الياسمينية » ، والصحيح أنها أرجوزتان مستقلتان .

(٣) يشير إلى شيخه أبي عبد الله محمد بن قاسم بن شاوش (من علماء القرن ٦ هـ = القرن ١٢ م) .

وَهُـوَ الَّـذِي ابن شـاوش قـد عرف   فـوردنـا مِنْ مَجْـدِه فيغترف
هُـوَ الَّـذِي ذَلَّـلَ مـا قَـدْ امتَنَـع   وَأَوْضَـحَ الْمُشْكِـلَ حتَّى قَـدْ نَصَـع »

ويستطرد ابن الياسمين في خطبة أرجوزته حتى يصل إلى القصد من نظمها حيث يقول :

« لَمَّـا بَـدَتْ لِي الجُـذُورُ الْمُغْلَقَـه   نَظَمْتُ في أجْنَـاسِهـا المحقَّقَـه
أرْجُـوزَةً تُبَيِّنُ مـا قَـد انْبَهمْ   وتُـوَضِّـح الْمُشْكِـلَ مِنْ تِلْـكَ البُهَمْ »

– مخطوط مكتبة الإسكوريال بأسبانيا – رقم ٩٥٤ (٨) ، الورقتان ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) قصيدة في حساب الأصابع[١]

لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسين الموصلي الحنبلي[٢] (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) .

(٤) « الإكسير في المُبتَغَى من صنعة التكسير »

أرجوزة في مساحات الأشكال ، وتقع في ٢٠٣ أبيات، وهي من نظم أبي عثمان سعد بن أبي جعفر أحمد بن ابراهيم بن ليون التجيبي (المتوفى سنة ٧٥٠ هـ = ١٣٤٦ م) ، ومطلعُها :

« الحمـــدُ لله عَلَى أنْ يسَّراَ   مِنْ مُهَـجِ التَّكْسيرِ مَـا قَـدْ عَسَّراَ »

---

(١) راجع بروكلمان – الأصل الألماني : GAL – S – II:1062.

(٢) هو صاحب منظومة « يتيمة الدُرر في النزول وآيات السور » ، وتوجد نسخة خطية منها بمكتبة شستر بيتي بدبلن – رقم ٣٩٦١ (٢) .

وللموصلي أيضاً « قصيدة في عدد آي السور » ، وتحتفظ مكتبة جامعة ليْدن بمخطوطة لها تحت رقم ٢٥٨٠ (٣) ، ولم تجر مقابلة بين هاتين المخطوطتين .

وقال الناظمَ في آخر الأرجوزة :

« تِسْعُون بَعْدَ مائةٍ وَسِتَّه تَظْفَر معَ إيجَازِهَا بالبُغْيَه »

وهذه إشارة إلى أن الأرجوزة تشتمل على ١٩٦ بيتاً .

- مخطوط الخزانة العامة بالرباط – رقم ٢٤٢٧ ، كما توجد نسخة أخرى من الأرجوزة في المخطوط رقم ٢٤٢٨ بنفس الخزانة إلاَّ أنَّه يبدأ من البيت السابع عشر وهو :

« وانْقِل حُدُودَ ما تَراهُ يعسُرُ وانْظُر لِرَسْمِه عَسَاهُ يُيَسَّرُ »

(٥) « أرجوزة في الحساب والمساحة »

لشهاب الدين احمد بن محي الدين يحي بن احمد الشافعي الشهير بالضميري ، كاتب الإنشاء الشريف بالقاهرة المحروسة وبالشام (ألفَّها قبل سنة ٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ م) .

ويجري مطلع الأرجوزة على النحو التالى[١] :

« الحَمْدُ للهِ الذِي يعلَمُ مَا في الأرضِ مِنْ شَيْءٍ ومَافَوْقَ السَّمَا
ووفَّقَ الخَلْقَ لِما يختارُه وكل شيءٍ عندهُ مِقْدارُه
ولاَ تَغيبُ ذَرَّةٌ عن عِلْمِه ولا يَفِرُّ أحدٌ مِنْ حُكْمِه
ثُمَّ الصَّلاةُ دائماً علىَ المَدَا عَلَى النبيِّ الهَاشِمِي أحْمدا
وآلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَّمَا مَا دامت الأفلاكُ تجري فِي السَّمَا »

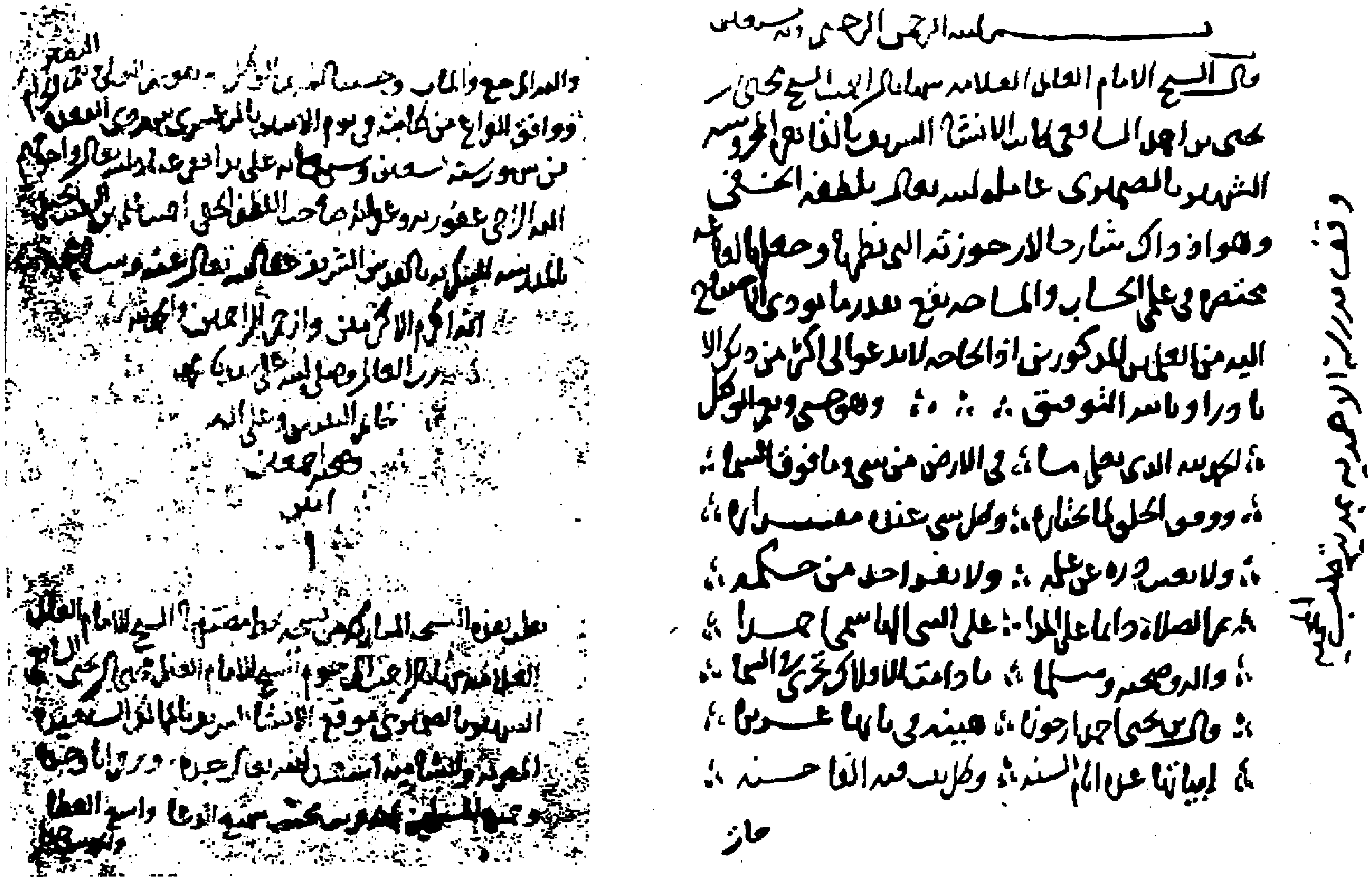
(١) مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب – رقم ١٢٥٢ .

ويستطرد أحمد بن يحي الضميري قائلاً :

« قـــالَ بنُ يَحْيِ احمـــدُ أُرجُـــوزه هيِّنـــةً في بـــابهـــا غَـــزِيره
أبيـــاتُهـــا عِـــدَّةُ أيـــام السَّنـــه وكلٌّ بيتٍ فيـــه ألْفَـــا حَسَنـــه
حَـــازَ عَلَى وزْنٍ مِنَ الفصَـــاحَـــه بعِـلْم الحســـابِ والمِسَـــاحـــه »

ثمَّ يشيد الضميرى بفضل علم الحساب ، فيقول :

« عِلْمَ الحســاب الأصـلُ وهـو النـافـعُ وفَضْلُـــــهُ بيْنَ الأنـــــامِ ذايـــعُ
فـــابْـــدأ بِـــهِ ثمَّ اسْتَعِنْ بـــالْمنعمِ مُعلِّمِ الإنســـــانِ مَـــــالَمْ يَعْلَم »



الصفحتان الأولى والأخيرة من أرجوزة أحمد الضيري في الحساب والمساحة

(مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب – رقم ١٢٥٢) .

(٦) **منظومة « المقنع في علم الجبر والمقابلة »**

وشروحها

نَظْم شهاب الدين أبي العباس أحمد بن شمس الدين محمد ابن عماد الدين بن على المعروف بابن الهائم المصري المقدسي (٧٥٣ – ٨١٥ هـ) = (١٣٥٢ – ١٤١٢ م) ، وتتكون المنظومة من ٥٩ بيتاً من بحر الطويل ، وتُعرف « بلاميّة ابن الهائم » ، كذا « بالمنظومة اللاَّمية في الجبر والمقابلة » ، ومطلعها[١] :

« بحَمْدِ إلَهي أبْتَدي مَا أُحَاوِلُ ... وَأُهْدِي صَلاَةً مَعَ سَلاَمٍ يَشَاكِلُ

عَلَى المصْطَفَى خَيْرِ الأَنَامِ وآلِهِ ... وأصْحَابِهِ ثُمَّ الدُّعَا يتَوَاصَلُ

لفَخْرِ الزَّمَانِ المُنْتَمي بِجِلاوة ... عليّ[٢] عَلَيْهِ سُحْبُ جُودٍ هَوَاطِلُ »

ويستطرد ابن الهائم فيشير إلى الغرض من قصيدته ، فيقول :

« وَبَعْدُ فعِلْمُ الجَبْرِ عِلْمٌ مُعظَّمٌ ... يَميلُ إليْهِ المُتْقِنُونَ الأَفَاضِلُ

وإنّي لَحَاوٍ لُبَّهُ في قصِيدةٍ ... بِهَا يكْتَفي ذوُ فِطْنَةٍ ويُطَاولُ

وهَا أنَا سَاعٍ في الذي قَدْ قصدتُهُ ... وَعوْناً من المَوْلَى الحِجىَ أنَا سَائِلُ »

ويختتم ابن الهائم منظومته بالأبيات الآتية :

« وهَذَا الّذي أوْردتُه فيه مَقْنَعٌ ... ولله حمدٌ دايمٌ يَتَواصَلُ

وتَتْلُوا صلاةٌ تُستدامُ عَلَى الرضَى ... مُحمَّدِ الهادي الكريم الشَّمائلُ

نِعْمَ الأولى هم[١] آلُه ثمّ صحْبُهُ ... وأزواجُه الغُرُّ الكرَامُ الأفَاضلُ

---

(١) مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب – رقم : ١٢٤٢ ، كذا مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب – رقم : ١٧٨٩ .

(٢) يشير ابن الهائم هنا إلى شيخه العلاَّمة أبي الحسن على بن أبي الحسن الجلاوى المغربي المالكي (المتوفى سنة ٧٨٢ هـ = ١٣٨٠ م) .

وأبيــاتهــا تســعٌ وخمســون أُنشِــأت ... بــالأقْصَى وشَهْرَ اليُمْنِ فهى تُطَــاولُ
ربيــعٌ منَ العــامِ الــذي ضُبِــطَ عَــدُّهُ ... بــدالٍ وضــادٍ فَــالبنَــا يتكامَــلُ »

في هذين البيتين الأخيرين يقرر ابن الهائم أن منْظومته تتكون من ٥٩ بيتاً ، وأنه قد أتمها في العام المقابل لدال وضاد ، وهذان الحرفان يقابلان بحساب الجُمَّل : د = ٤ ، ض = ٨٠٠ ، أي أن ابن الهائم قد فَرَغ من تأليف منظومته هذه سنة ٨٠٤ هـ = ١٤٠١ م بالمسجد الأقصى .

من مخطوطات منظومة « المقنع » لابن الهائم

١ - مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن - رقم ٣٨٤٩ (٧) - ضمن مجموع ، الأوراق : ٨١ - ٨٣ ، ويرجع تاريخ نسخه إلى ١٦ صفر عام ٨٧٠ هـ = ٧ أكتوبر عام ١٤٦٥ م ، والمخطوط بخط على بن محمد بن على القدسي .

٢ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٩٦ ، رقم ٤٨٢٣ - عام .

٣ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب ٦١ .

٤ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم ٥٩٩١ .

٥ - مخطوط مكتبة جوتا - رقم ١٤٨٤ (٥) .

٦ - مخطوط مكتبة البلدية بالإسكندرية بمصر - رقم ٨٢ (٩) ضمن مجموع .

من شروح منظومة « المقنع » لابن الهائم

تعرَّض كثيرون لهذه المنظومة الرياضية بالشرح والتعليق ، أوَّلهم ناظم القصيدة نفسه :

أولا : شروح ابن الهائم

كتب ابن الهائم على منظومته ثلاثة شروح هى :

(أ) « المُمْتع في شرح المقنع » ، وهو أكبر شروحه .

(ب) « المُسْرِع » ، وهو مختصر « الممتع » .

(جـ) « المُسْمِع » .

ثانياً : الشروح الأخرى ، منها :

(د) « القَوْلُ المُبْدِعُ في شَرْحِ المُقْنِع »

لبدر الدين محمد بن محمد بن أحمد المعروف بِسِبْط المارديني

(المتوفى سنة ٩١٢ هـ = ١٥٠٦ م) .

(هـ) « فتحُ المُبْدِعِ في شَرْحِ المُقْنِع »

لأبي يحيي زكريا بن محمد بن احمد الأنصاري الشافعي

(المتوفى سنة ٩٢٦ هـ = ١٥٢٠ م) .

(و) « شَرْحُ المُقْنِعِ في الجَبْرِ والمُقَابَلَةِ »

للشيخ قاسم بن صلاح الدين الخاني الحلبي القادري

(المتوفى سنة ١١٠٩ هـ = ١٦٩٧ م) .

القول المبدع في شرح المقنع
تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة وحيد دهره
وفريد عصره بدر الدين محمد بن محمد
ابن أحمد المعروف بسبط
المارديني رحمه الله
تعالى آمين
والحمد لله
وحده

غلاف مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب – رقم ١٢٤٢ :
« القول المُبْدع في شرح المُقْنِع » لِسبْط المارديني .


بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
الحمد لله الذي جبر قلوب أوليائه بحسن المقابلة يوم الحساب . وحط
عنهم الأوزار ورفع ذكرهم وأجزل لهم الثواب . أحاط بكل شيء علما
وأحصى كل الأشيا عددا . سبحانه وتعالى عالم الغيب فلا يظهر
على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه
ومن خلفه رصدا . أحمده على ما من به علينا من نعمه التي لا تحصى
وأشكره على مننه التي لا تستقصى . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له خالق الأرض والسموات . وأشهد أن سيدنا محمدا
عبده ورسوله صاحب المعجزات . صلى الله وسلم عليه
وعلى آله وأصحابه ينابيع جذور السعادات . وبعد
فيقول فقير رحمة ربه محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن الغزال
الدمشقي أصلا والمصري مولدا الشهير بسبط المارديني
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . هذا تعليق مختصر على القصيدة
اللامية التي من البحر الطويل من نظم الشيخ الإمام العالم العلامة
شهاب الدين أحمد بن الهائم رحمه الله تعالى المسماة بالمقنع في علم
الجبر والمقابلة والناظم رحمه الله كتب عليها شرحين سمى أحدهما
المرشد والآخر الممتع فتأملت المرشد فرأيته في غاية الاختصار
ورأيت الممتع يميل إلى الصعوبة والإكثار فخطر لي أن أعمل شرحا
متوسطا بينهما يحصل به للمبتدي ملكة مع التيسير ويسهل عليه
مطالعة الشرح الكبير واعتمدت على الله سبحانه وتعالى
فيما قصدت بحمد الله كما أحببت أردت وهو حسبي ونعم الوكيل
قال الناظم رحمه الله تعالى .
نحمد إلهي [illegible] سلأة مع لام يسائل
على

الصفحة الأولى من « القول المبدع في شرح المقنع » لسبط المارديني
(مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب – رقم ١٢٤٢) .

على أنه اسم فاعل من أفنع ومنه أخذ اسم القصيدة قال الناظم وختم
القصيدة بالحمد والصلاة كما ابتدأ بهما رجا قبولها منها لوقوعها
بين القبولين. وقوله الكريم الشمايل رفع الشمايل على أنه فاعل
بالكريم وال في الشمايل عوض من الضمير على أي مرجوح أي الكريم شمايله
والأولى بمعنى الذي أي الصلاة تعم الذين هم آله وصحبه إلى آخره
وتقدم في أول الكتاب ما يغني عن إعادته قال

وأبياتها تسع وثمانون انشات. بالأقصى وشهر اليمن في شعبان
وبعض العام الذي ضبط عده. بدال وضاد فافهما تكمله
أقول عدة أبيات هذه القصيدة تسعة وثمانون بيتا مثل عدة أبيات
الأرجوزة الياسمينية. والبا الموحدة في قوله بالأقصى للظرفية
بمعنى في أي انشات هذه القصيدة في المسجد الأقصى وفي شهر البركة
لأن اليمن هو البركة وهو شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وثمانماية وقوله
وفي تطاول أي هذه القصيدة تطاول [illegible] مقدمات [illegible] العلم
لكون هذه القصيدة مع ما اشتملت عليه من نفايس المهمات والمقاصد
انشات في بقعة شريفة في شهر شريف مبارك لأنه شهر ولادة سيد المرسلين
صلى الله عليه وسلم والدال المهملة في حساب الجمل الكبير باربعة والضاد
المعجمة بثمانماية وقوله فافهما تكملة والله أعلم وحسبنا الله ونعم
الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم قال المؤلف رحمه الله كمل
في تاسع عشري ذي القعدة الحرام سنة [illegible] علقها بيده الفانية لنفسه
ولمن شاء الله بعده فقير رحمة ربه عبد الرحمن بن الشيخ
سراج الدين الشنواني الشافعي في يوم الأربعاء
ثالث عشر شهر رمضان المعظم قدره
سنة [illegible] وحسبنا الله ونعم الوكيل
والحمد لله وحده
تم

الصفحة الأخيرة من « القول الأبدع في شرح الفتح » لسبط المارديني
(مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب - رقم ١٢٤٣).

من مخطوطات شروح ابن الهائم على منظومته « المقنع »

(أ) من مخطوطات « الممتع في شرح المقنع »

١ - مخطوطة مكتبة شستر بيتي بدبلن[1] - رقم ٣٨٨١ (١) - ضمن مجموع ، الأوراق : ١ - ٦٨ ، وهذه هي نسخة المؤلف ، وتحمل تاريخ ١٣ جمادى الأولى سنة ٨١٠ هـ = ١٦ أكتوبر سنة ١٤٠٧ م ، أي أن الشرح تمّ بعد حوالي ست سنوات من تأليف المنظومة .

٢ - مخطوطة دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم : رياضيات ٩٧ - رقم ٢٤ - عام .

٣ - مخطوطة خزانة شهيد على بتركيا - رقم ٢٧٠٦ (٢) ، ضمن مجموع ، الصفحات من ٥٣ ب إلى ٨٠ ب ، وقد فُرغ من نسخها سنة ٨٧٨ هـ = ١٤٧٣ م .

٤ - مخطوطة مكتبة مكرم بمصر - رقم ٥٨ .

(ب) من مخطوطات « المُشرِع مختصر المُمْتِع » لابن الهائم

وقد فَرَغَ ابن الهائم من تسويد كتابه « المُشرِع » يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٨١٠ هـ = ٢١ أكتوبر سنة ١٤٠٧ م بالمسجد الأقصى الشريف .

١ - مخطوط برلين (فهرس ألوادرت) - رقم : 5991. We. 1791 ، ويقع في ١٠٠ صحيفة ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦ م .

٢ - مخطوط مكتبة فيض الله - رقم ١٣٦٦ - ف ٨٨٣ ، ويقع في ١٣ ورقة ، وهو مكتوب بخط من القرن ٩ هـ = ١٥ م ، وهو مصوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم ١٢٨ رياضيات .

٣ - مخطوط مكتبة الأوقاف العامة في الموصل ، المجموع رقم ٢٢/١٣٨ : الكتاب العاشر ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٩٨٠ هـ = ١٥٧٢ م .

٤ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٩٥ ، رقم : ٢٤ - عام .

---

(١) يُشار إليها في الفهرس المطبوع إلى احتمال كونها نسخة وحيدة ، ولكن وجود نسخ خطية أخرى لهذا الشرح ينفي الصفة الواردة في فهرس المكتبة .

٥ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب ٦١ .

٦ - مخطوط مكتبة البلدية بالإسكندرية بمصر - رقم ٢٤ حساب .

(جـ) من مخطوطات « المُشِبع » لابن الهائم

كتاب « المُشْبِع شرح المقنع » في الجبر والمقابلة ، وكلاهما لابن الهائم :

١ - مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن - رقم ٣٨٤٩ (٨) - ضمن مجموع ، الأوراق : ٨٤ - ٩١ ، وقد فُرغ من نسخه في ٢٠ صفر عام ٨٧٠ هـ = ١١ أكتوبر عام ١٤٦٥ م بخط علي بن محمد بن علي القدسي .

٢ - مخطوط مكتبة الأوقاف العامة في الموصل - ضمن المجموع رقم ٢٢/٨٨ : الكتاب الثالث ، ويعود تاريخ نسخه إلى سنة ٩٩٧ هـ = ١٥٨٨ م .

٣ - مخطوط خزانة الحجيات في مكتبة أوقاف الموصل بالعراق - رقم ٢٠٢ ضمن مجموع .

ثانياً : الشروح الأخرى على منظومة « المقنع »

د) من مخطوطات كتاب « القول المبدع في شرح المقنع »

لبدر الدين محمد بن محمد بن أحمد بن محمد الغزال الدمشقي المصري المعروف بسبط المارديني (المتوفى سنة ٩١٢ هـ = ١٥٠٦ م) ، وهو شرح له على كتاب « المقنع » لابن الهائم ، وهو شرح وسط بين شرحي ابن الهائم : « الممتع » و « المسرع » ، وقد أتمّ سِبْط المارديني شرحه هذا في التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة ٨٧٦ هـ = ١٤٧١ م .

١ - مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن - رقم ٣٣٦٢ (٥) - ضمن مجموع ، الأوراق : ١٣١ - ١٥٨ ، والمخطوط غير مؤرخ ، ولعلّ تاريخه يعود إلى القرن ١٠ هـ = ١٦ م على وجه التقريب .

٢ - مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب - رقم ١٢٤٢ ، ويقع في ٢٣ صحيفة ، ومقاس صفحة المخطوط : ١٥,٥ × ٢١ سم ، فُرغ من نسخ المخطوط سنة ١٠٢١ هـ = ١٦١٢ م بخط عبد الرحمن بن سراج الدين الشنواني الشافعي الأزهري .

٣ - مخطوط المكتبة الوطنية بباريس - رقم ٦٥٤١ .

٤ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٨٦ ، رقم : ٧٥٧٥ - عام .

٥ - مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب - رقم ١٧٨٩ ، ويشتمل على ٢٦ صحيفة ، مقاس صفحة المخطوط : ١٢ × ١٨,٥ سم .

٦ - مخطوط مكتبة جوتا - رقم ١٤٩١ (٣) ، ضمن مجموع .

٧ - مخطوط مجموعة جاريسون - رقم ١٠٤٨ .

٨ - مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس - رقم ٤٣٣٨ ، ويقع في ٦٥ ورقة ، وهو مكتوب بخط مغربي ، وقد فُرغ من نسخه سنة ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ م .

(هـ) من مخطوطات كتاب « فَتْح المُبْدِع في شَرْح المُقْنع »

لأبي يحي زين الدين زكريا بن محمد بن أحمد بن زكرياء الأنصاري السنيكي الشافعي (٨٢٣ - ٩٢٦ هـ) = (١٤٢٣ - ١٥٢٠ م) .

١ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم ٣٩٦٦ ، وفيه يبدأ الكتاب على النحو التالي :

« الحمد لله الذى جبر قلوب العلماء بامداد جذره المتين .. وبعد -

فإنّ « المُقنع » المنظوم على بحر الطويل في علم الجبر والمقابلة ، للإمام المحقّق ، والحَبَر المدقّق ، أبي العباس الشهاب احمد بن على الشهير بابن الهايم .. لمّا كان من أبدع كتاب في الجبر نُظم ، وأجمع موضوع فيه على مقدار حجمه رُقِم ، طلب مني بعض الأعزّة عليّ من الفضلاء المتردّدين إليّ ، أن أضع عليه شرحاً يحلُّ باطنه ، ويُبيِّن مراده .. » .

٢ - مخطوط دار الكتب المصرية - رقم ١٩٢ رياضة - ف ١٠٣٥ ، ويقع في ٣٠ ورقة ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ١١٠٣ هـ = ١٦٩١ م ، والمخطوط مُصوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم : ١١٢ - رياضيات .

٣ - مخطوط جامع الشيخ ابراهيم بالإسكندرية رقم ٩٢ - ٣٤٢ ، ويضم ٩٤ ورقة ، وقد فُرغ من نسخه عام ١٢٣٦ هـ = ١٨٢٠ م ، وهو مصّور بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم ١١١ - رياضيات .

٤ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٨٧ ، رقم ٦٠٠٨ - عام .

٥ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٨٨ ، رقم ٢٤ - عام .

٦ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٨٩ ، رقم ٩٢٥٢ - عام .

٧ - مخطوط مكتبة البلدية بالإسكندرية - رقم : ٢٣ حساب .

٨ - مخطوط مجموعة جاريسون - رقم ١٠٤٩ .

(و) من مخطوطات الشروح الأخرى

١ - « شرح المقنع في الجبر والمقابلة »

للشيخ قاسم بن صلاح الدين الخاني الحلبي القادري (المتوفى سنة ١١٠٩ هـ = ١٦٩٧ م) .

- مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب - رقم ١٧٨١ ، ويقع في ٣١ صفحة ، ومقاس الصفحة ١٥ × ٢١ سم ، وقد فُرغ من كتابته سنة ١٠٧٥ هـ = ١٦٦٤ م .

٢ - « شرح على شرح المقنع »

لعبد القادر بن محمد بن أحمد الفيُّومي (المتوفى سنة ١٠٢٢ هـ = ١٦١٣ م) .

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب ٦٢ .

(٧) **منظومة البقاعي في الحساب والمساحة**

لبرهان الدين ابراهيم بن عمر بن حسن بن الرُباط البقاعي الشافعي (المتوفى سنة ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م) ، أولها :

« الحَمْـــدُ للهِ الحَسِيبِ الفَـرْدِ   حَمْـداً كَثِيراً مَـالَـهُ مِنْ عَـدّ »

وقد فرغ البقاعي من نظمها سنة ٨٣٦ هـ = ١٤٣٢ م ، وله عليها شرح بعنوان :

« إباحة الباحة من علمي الحساب والمساحة »

- مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة - رقم : ٣ رياضة - ف ١٠٣٦ ، ويقع في ٩٩ ورقة .

(٨) **« الكَسْرُ في علم الحساب »**

نَظْم يشتمل على ٤١ بيتاً من تأليف الفقيه النحوي أبي بكر محمد بن محمد بن إدريس القضاعي القللوسي ، (٦٠٧ - ٧٠٧ هـ) = (١٢١٠ - ١٣٠٧ م) ،
ومطلع النظم :

« حَمْـدُ الإلَـهِ بِـهِ نسْتَرشِـدُ الـذِّكرا   وشُكْرُ آلائِـه نَهْـدِي بِـهِ الفِكْرَا »

- مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٤٥ .

(٩) **« منظومة في علم الفرايض والجبر والمقابلة »**

ومسايل نافعة

لابراهيم بن ابراهيم بن محمد بن أحمد بن ناصر النواوي ، أبو اسحق (كان حياً حوالى سنة ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ م ، وتقع هذه الأرجوزة في حوالى ألف بيت ، ومطلعها :

« الحَمْـدُ للهِ الـذِي أنْشَـا الأُمَم   أبْـدَاهم كَمَا يَشَـا مِنَ العَـدَم

سُبْحَــانَـــه مِنْ مَلِــكٍ تكـرَّمَـــا وعَلَّم الإنســـانَ مَــا لَمْ يعْلَمَـــا
مِنْ بَعْــدِ مَــا قَــدمتُــه نــأتى إلى قصــد الــذى ابــدا لنــا امرا عــلا »

ويختمها الناظم بالبيتين :

« وحَسْبُنَـــا اللهُ تعـــالىَ وَعَفَـــا عَنْ ذَنْبِنَـــا بِجَـــاهِ زين الشُّرَفَـــا
فــإنَّـــه خَيْـرُ نبىٌ يُرْتَجَــا ومَنْ أَتَى جنَــابـــه لَقَــدْ نَجَـــا »

– مخطـوط برلين (فهرس ألـواردت) – رقم : 5993 – Spr. 1832 ، ويبيِّن النـاظم على الصفحة 85 b من هذا المخطوط اسمه حيث يقول :

« وبَعْــد ذَا كَـلاَمُنَــا ختـــامُــه مِسْـــكٌ بــإذْنِ اللهِ جَــا تَمَـــامُــه
منتسبٌ بــــاسم خَليــــلِ اللهِ نَــاظمُهــا يرجــو رضَــىَ الإلَــه
واسـمُـه بـاسـمِ أبيـه فـاحمــد وجــــدّه محمـــدٌ بنُ أحمــــدِ
جَـــدَّتُـــه أمُّ أبيـــهِ الحـلّـــةُ بنتُ على كـــان فيـــه الخـلـــة
أبـــوَ علىّ اسمُــــــه أتى شُـرف والــد محي الــدين مــا فيــه سَرف
قـايلهـــا نجـــل النـــواوى بلـــده بلـــدةٌ مِن منهـــاجِنـه نعتقـــدُه
نسـيبُـــه قَريبُـــــهُ ابنُ شَـرَف محي علـــومِ الـــــدين زَادَهُ الشَّرف »

وعلى الصفحـة 86 a يُسجِّل النـاظم تـاريخ انتهـائـه من نَظْم هـذه الأرجوزة في أواخر شهر رمضان المبارك عام ٨٥٤ هـ (١٤٥٠ م) ، وقد نسخ هذا المخطوط أحمد بن حسن علي ، وذلك سنـة ١٠٠٨ هـ (١٦٠٠ م) في شهر جمادى الثاني .

وهناك حاشية على هـذه المنظومـة ليحي بن تقى الـدين بن اسماعيل ابن عبـادة الحلبى حوالى سنة ١٠٢١ هـ (١٦١٢ م) في حياته .

(١٠) **أرجوزة « فتح الوهّاب في علم الحساب »**

للشيخ الإمام نور الدين أبي الحسن على ابن الشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ الإمام أبي العلا مجد الدين اسماعيل الزمزمي المكي (كان حيا سنة ٨٧٨ هـ = ١٤٧٣ م) .
ومطلعها :

« قَـالَ عليٌّ الـزَمْـزَميّ المَكى الحمـدُ للهِ عظيمِ المُلْـكِ
وبعـدَ ذِى نَظَمتُ في الحسـابِ سـميّتُهـا فَتْحـاً مِنَ الـوهـابِ »

وعليها شرح لمؤلف غير مذكور بعنوان : « شرح الفتح الوهاب » وصحّته : « شرح فتح الوهاب في علم الحساب »

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 402 .Pm. 6002 ، ١٩ صحيفة ، ويشتمل على ٧١ بيتاً فحسب ، آخرها :

« فـإنْ فَنِى تِـمْ ودَوّن الأسْفَـلْ إنْ يَبْـقَ شئٌ سمِّـهِ مِنْـهُ اعْقَـلْ »

(من باب القسمة)
ويرجع تاريخ نسخ المخطوط إلى حوالي سنة ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ م .

(١١) **« منظومة في علم حساب العقود »**

لأبي الحسن على المعروف بابن المغربي .

- مخطوط مكتبة عمومية - رقم ١٠٨٨ - ف ٨٤٤ (٣ ورقات) مَصوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم ١٤٢ رياضيات .
- مخطوط برلين ، ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب الثامن والثلاثون ، بخط من القرن التاسع الهجري تقريباً .

وتتناول هذه المنظومةُ بيان كيفية عَقْد الأصابع لتعطى أشكالا متايزة للدلالة على الأعداد المختلفة بدءاً من الواحد وانتهاء بالعدد ٩٩٩٩ .

ومطلعها :

« يقـــول راجى الله منشئ السُّحبِ   علىّ المعروفُ بـــابنِ المغربى

اعْلَمْ بـأنّ عقـدك الأحـادَا   خصُّوا بهـا ثلاثـةً أفـرادا

فخنصـرٌ وبنصـرٌ وَوَسطَـا   وذاك في اليمينِ فـاعْلَم ضبطـاً »

وتشتمل المنظومة على ٤٦ بيتاً ، ويختمها ابن المغربى بالبيتين :

« وقَـدْ تقضي مَـا أردْت ذكـرَه   مُبيِّنـا لمـا كشفت أمـره

وذَاك أقصَى مـا يُرامُ عنـدَه   ويُستَطَـاعُ بـاليـدين عَـدُّه »

(١٢) أرجوزة في الحساب بالاصطلاح القبطي

تأليف أبي الحسن على المعروف بابن المغربي .

أولها بعد الديباجة :

« هَـذَا كِتـابٌ مِنْ لَـوْح الضَّبْـط   نَظْمُ حِسَـابٍ بـاصطـلاح القِبْـطِ

الحَمْـدُ لِلهِ القَـديرِ العَـالِمِ   مُقسِّمِ الأرْزاقِ بَيْنَ العَـالَم »

– مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة – رقم ٣٩٥٧ ك – ضمن مجموعة : الأوراق من ٢٥٤ إلى ٢٥٦ ، وهو مكتوب بقلم نسخ دقيق .

وعلى الأرجوزة شرح بعنوان :

« شرح لوح الضّبط حوت علم حساب القبط »

لعبد القادر بن على بن شعبان العوفى .

– مخطوط مكتبة أمانت خزينة سى بتركيا – رقم ١٧٢٥ – ضمن مجموع : الصفحات من ١٢ ب إلى ١٨ أ ، وقد كُتب المخطوط سنة ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ م .

(١٣) أرجوزة « لوح الضبط حوت على علم حساب القبط[١] »

لم يُذكر ناظمها ولعله أبو الحسن علي المعروف بابن المغربي .

وتعرض المنظومة لكيفية بيان الأعداد بعقد أصابع اليد بشكل خاص ، وتشتمل على ٥٣ بيتاً .

– مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب – رقم ٩٨٥ – ضمن مجموع[٢] .

ومطلع الأرجوزة :

« الحمدُ للهِ القَديمِ العَالِمِ ... مُقسِّمِ الأَرْزَاقِ بيْنَ العَالَمِ
مُسكِنِ البحرِ ومُجري الفُلْكِ ... وعَالِمِ حَصْرِ نُجومِ الفَلَكِ
أرْسَلَ فينا من بني عدنانِ ... نبيَّهُ بالصِّدقِ والقرآنِ
عَلَّمَنَا الإسلامَ والإيمانَا ... وأظهرَ الحكمةَ والبَيَانَا
صلَّى اللهُ عليهِ ذو الجلالِ ... والآلِ والأطهارِ خيرِ آلِ »

ويبيِّن الناظم فضائل علم الحساب ، فيقول :

« وَبَعْدُ فالحِسابُ عِلْمٌ نَافِعُ ... وَلاَ يَشُكُّ فِي مَقَالِي سَامِعُ
وإنَّهُ عِنْدَ عَزِيزِ الفَهْمِ ... أَشْرَف قَدْراً مِنْ كثيرِ العِلْمِ
بِهِ يَقُومُ القِسْطُ فِي الأَمْصَارِ ... ويُعرَفُ الحقُّ بِلاَ تَمَارِي
وتُقَسَّمُ الزَّكَاةُ فِي الأَمْوالِ ... والإِرْثُ للنِّسَاءِ والرِّجَالِ
هَذَا وإنَّ العُلَمَا صَنَّفُوا ... فِي عِلْمِ ذاكَ كُتُبَاً وأَلَّفُوا
حَتَّى أتَوا بكلِّ تَصْنيفٍ بَهِي ... يَنفعُ بهِ كلَّ مُبْتَدٍ وَمُنْتَهِي
وإنَّني أَتَيْتُ كالمُزَاحِمِ ... اتبعُ فيهِ أثراً كُلَّ عَالِمِ

---

(١) في المخطوط : الخطّ ، ولعلّه تصحيف من الناسخ .

(٢) بعد كتاب « تشنيف السامع بعلم حساب الأصابع » لشيخ الإسلام برهان الدين الشربيني .

وَقَدْ حَدَا في الفهم أنْ أُصَنِّفَا في عِلْمِهِ شَيْئاً وأنْ أُؤَالِفَهُ
أرجوزةً تُدعي بِلَوْحِ الضَّبطِ حَوَتْ عَلَى عِلْمِ حسابِ القِبْطِ[1] »

ثم يمضي الناظم في بيان كيفية عقد الأصابع للدلالة على الأعداد ونتائج عمليات الحساب .

فبعد هذه الديباجة التى تضمّنت اسم الأرجوزة ،يورد الناظم أربعة أبواب هى :

١ – باب عقد الآحاد
٢ – باب عقد العشرات
٣ – باب عقد الميات
٤ – باب عقد الألوف

(١٤) **منظومة « مُنْيَة الحُسَّاب »**

مُزدوجة في الحساب من نظمْ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن على بن غازي العثماني المكناسي ، وقد عاش في الفترة من سنة ٨٥٨ هـ حتى ١٠ جمادى الأولى من عام ٩١٩ هـ (١٤٥٦ – ١٥١٣ م) ، مطلعها :

« يَقُولُ رَاجي العَفْوِ والمَفَازِ مُحمَّدُ بنُ أحمدِ بنُ غَازي
الحَمْدُ للهِ الّذي قَدْ نَوَّرا قُلُوبَنَا مِما بِهِ تَفَجر

وبَعْدُ فالقَصْدُ بِذَا الكِتَابِ نَظْمُ المهمَّاتِ مِنَ الحِسَابِ
ضَمَّنْتُهُ مسائلَ التَّلْخِيص وَرُبَّما أَزِيدُ مِنَ التَّمحِيص »

وتُختم المزدوجة بالبيت :

« واطْرَبَ العِيسَ بحُسْنِ النَّغَمِ حَادٍ يَسُوقُهَا لِخَيْرِ حَرَمِ »

---

(١) في المخطوط : الخطّ ، ولعلّه تصحيف من الناسخ .

- مخطوطة برلين (فهرس ألواردت) - رقم : ٢٩٥٣ ، وتشتمل على ١٧ صحيفة .
- مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس - رقم ٢٢٠٤ .
- مخطوطة الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٣٧ ، وبها شرح على هذه المنظومة ، ولايوجد من هذه المخطوطة سوى ثمان ورقات فحسب .
- مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم : 443 (D 338) ، وهي نسخة تامة .
- مخطوطة المتحف البريطاني بلندن - رقم ٤٢٠ (١) - ضمن مجموع ، الأوراق من ١ إلى ١٠٦ ، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١١٤٦ هـ = ١٧٣٣ م ، وتشتمل هذه المخطوطة على شرح للناظم على منظومته .

شرح ابن غازي على منظومته

وهو بعنوان : « بُغْيَةُ الطُّلاَّبِ فِي شَرْحِ مُنْيَةِ الحُسَّابِ »

وقد فَرَغَ من تأليفه بمدينة فاس في شهر رمضان المبارك سنة ٨٩٥ هـ = ١٤٨٩ م .

- مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة - رقم ٤٣٩٣ ك ، كُتب سنة ١١٢٩ هـ = ١٧١٦ م بقلم معتاد في ١١٣ ورقة ، وبالنسخة خرم .
- مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٣٧ ، وهي نسخة ناقصة .
- مخطوط المتحف البريطاني بلندن - رقم ٤٢٠ (١) ضمن مجموع ، نُسخ سنة ١١٤٦ هـ = ١٧٣٣ م .

(١٥) « اللُّباب في أصول الحساب »

لجمال الدين محمد بن محمد بن عمر الشهير ببحرق الحضرمي (المتوفى سنة ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ م) .

ومطلع الأرجوزة :

« الحَمْدُ لِلهِ القَدِيمِ الأَبَدِي   حَمْداً يحيلُ عنْ تَنَاهِي العَدَدِ »

وعليها شرح لنفس المؤلف بعنوان :

« كشف الحجاب في شرح اللُّبابّ في أصول الحساب »

- مخطوط خزائن كتب الأوقاف بالعراق - رقم ٦٢٩٣ (كشّاف طلس - رقم ٢٩٥٤) .

كذا بعنوان :

« تُحفة الطُلاَّب في شرح اللُّباب في أصول الحساب »

- مخطوط خزائن كتب الأوقاف بالعراق - رقم ٦٢٧٨ (كشّاف طلس رقم ٢٩٣٢ ، وقد كتب هذا الشرح سنة ١٠٧٠ هـ (١٦٥٩ م) ، وفي آخره أرجوزة في البلاغة أولها :

« الحَمْـــدُ لِلهِ وَصَـلّى اللهُ عَلَى نَبِيِّــهِ وَمُصْطَفَـــاهُ »

(١٦) منظومة الأَخْضَـريّ في علم الحساب

وهي رسالة منظومة في علم الحساب للشيخ الفقيه أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد المعروف بابن سيدي الصغير الأخضري[1] (كان حيّاً سنة ٩٤١ هـ = ١٥٣٤ م) .

وتقع المنظومة في ١١٧ بيتاً تغطي ثمانية أبواب بدءاً بحروف الغبار ثم العمليات الحسابية الأساسية الأربع من جمع وطرح وضرب وقسمه ، ثمَّ تعرج المنظومة إلى أبواب التسمية والاختبار والكسور .

وتوجد المنظومة مطبوعة في كتاب « مجموع المتون » طباعة القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ ، كما توجد أيضاً في كتاب « مجموع المتون في مختلف الفنون » ، طبعة دولة قطر ، سنة ١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م ، الصفحات : ٥٠٤ - ٥١١ .

---

(١) للأخضري منظومة شهيرة في المنطق بعنوان : أرجوزة « السُلّم المُرَوْنق في عِلْمِ المَنْطِق » توجد لها نسخ مخطوطة كثيرة ، كما كتبت عليها شروح عديدة .

وتبدأ المنظومة بالأبيات الآتية :

الباب الأول : في حروف الغُبـاري[1]

« حُرُوفُـــه مَعْلُـومَـــةٌ مَشْهُــورَهْ — مِنْ وَاحِــدٍ لتسعَــةٍ مَــذْكُــورَهْ
وجَعَلُـوا صِفْراً عَـلاَمَـــةَ الخـلاَ — وَهْـوَ مُـــدَوَّرٌ كَحَلْقَــــةٍ جَــلاَ
وَأرْبَـــعٌ مَرَاتِبُ الأعْـــــدَادِ — أوَّلُهــــاَ مَرْتَبَــةُ الآحَـــــادِ
وَالْعَشَراتُ بَعْــدَهَـــا المِئُـونَـــا — مِنْ بَعْـدِهَـا الآلاَفُ يَــذْكُرُنَـــا
وَمِنْ هُنَـــا تَبَـــدُّلُ الأعْـــدَادِ — وَتَرْجِـعُ الآلاَفُ كَــــالآحَــــادِ »

ونسوق فيما يلي بعض نماذج مما نظمه الأخضري في العمليات والقواعد الحسابية :

« الجَمْــعُ ضَمُّ عَـــدَدٍ لِعَـــدَدِ — لِكَيْ تَعُــــدَّهُ بِلَفْــــظٍ مُفْرَدِ
فَتُجْمَــعُ الآحَــادُ لِـلآحَــــادِ — وَهَكَـذا البَـاقِي عَلَى التَّمَــادِي

. . . . . .

الطَّرْحُ إسْقَـــاطُ قَليـلٍ مِنْ كَثيرْ — وَهْـوَ عَلَى سِتَّــةِ أَقْسَـــامٍ يَصِيرْ
فَــإنْ طَرَحْتَ القَــدْرَ مِنْ كَثِيرِ — فَــالطَّرْحُ فِيــهِ واضِـحُ التَّقْــدِيرِ

. . . . . .

إعْلَمْ بـأنَّ الضَّرْبَ تَضْعِيفُ العَـدَدْ — بِقَــدْرِ مَـــا في آخَرٍ مِنَ العَـــدَدْ
فَـاجْعَلْهُمَـا سَطْرَيْنِ كُـلٌّ مَرْتَبَـهْ — مَقْرُونَــةٌ بِـــأُخْتِهـــا مُرَتَّبَـــهْ

. . . . . .

وَعَمَــلُ القِسْمَـــةِ في الحِسَـــابِ — مِنْ أحْسَنِ الفُصُـــولِ والأبْـــوابِ
فَلْتَجْعَــلِ المَقْسُــومَ فَــوْقَ الآخَرِ — وَتَجْعَـلِ الإمَـــــامَ تَحْتَ الآخِـرِ

. . . . . .

(١) يقصد سلسلة الأرقام المستخدمة في المغرب العربي ومنها انتقلت إلى أوروبا والغرب ، وهي : 1 2 3 4 5 6 7 8 9 ، وعلامة الصفر 0 .

تَسْمِيَــــةٌ نِسْبَتُــــكَ القَلِيــلاَ	مِنَ الكَثِير فَــــاعْرِفِ التَّمْثِيــلاَ
فَـــأَلْقِــهِ أَئِمَّـــةٌ لِتَقْسِمَــا	مِنْ بَعْــدِ أَنْ تُحِلَّــهُ فَلْتَعْلَمَــا

. . . . . .

الاخْتِبَــارُ آلَــةٌ قَــدْ عُلِمَــا	يُفِيـدُ فِي جَمِيـعِ مَـا تَقَـدَّمَـا
فَـاخْتِبَـارُ الجَمْـعِ ذُو وَجْهَيْنِ	إِمَّــا بِطَرْحِ أَحَـــدِ السَّطْرَيْنِ

. . . . . . »

(١٧) **منظومة « المُجْمَع »**

أرجوزة في الرياضيات من نَظْم شرف الدين يحي بن موسى بن رمضان بن عميرة الأنصاري العِمْريطي المصري (المعروف بـالشرف العِمْريطي)[1] (المتوفى بعد سنة ٩٨٨ هـ = ١٥٨٠ م) ، وتشتمل الأرجوزة على ٥١٣ بيتاً ، ومطلعها :

« قَـــالَ الفَقِيرُ الشَّرَفُ العِمْرِطِي	ذُو العَجْـــزِ والتَّقْصِير والتَّفْرُطِي
الحَمْـدُ لِلهِ الَّـذِي قَـدْ يَسَّرَا	لَنَـا الحِسَـابَ والسَّحَـابَ سَيَّرا

وترد سِمَاتُ الأرجوزة في الأبيات الآتية :

« أبْيَـاتُهَـا مَعْـدُودَةٌ خمسايـة	وبعـدهـا ثـلاثُ عَشَـر مجـزيـة
أودعتهـا مِنْ فَنِّهـا فـوايـد	نفيسـة صَـارَت بهـا فَـرَايـد
قَـدْ جَمَعَتْ مِنْ ذَلِـكَ مَـا لَمْ يُجْمَـع	فِي أَصْلِهـا فَسُمِّيتْ بـالمُجْمَـع

- مخطوط المتحف البريطاني بلندن - رقم ٤٢٠ (٣) - ضمن مجموع ، الأوراق ١١٠ - ١٢٤ ، وقد تمّ نسخ المخطوط في أواسط شهر المحرم من عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ م .

---

(١) للشرف العِمْريطي منظومات في علوم أخرى نذكر منها :
(أ) « الدرّة البهيّة نَظْم الآجرومية » في النحو .
(ب) « تسهيل الطرقات في نَظْم الورقات (لإمام الحرمين) » في أصول الفقه .
(جـ) ألفيّة « نهاية التّهذيب في نَظْم غاية التقريب » في الفقه الشافعي .

(١٨) أرجوزة « نخبة التفاحة حاوية قواعد المساحة »

لعبد اللطيف بن أحمد بن محمد بن علي الدمشقي ، أبي الرضى .

وهي نظمٌ لمختارات من متن « التفاحة في علم المساحة » الذي يظهر مطبوعاً ضمن كتاب « مجموع المتون في مختلف الفنون » ، طبعة قطر ، سنة ١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م ، الصفحات : ٥١٢ - ٥٢٧ .

متن كتاب « التفاحة في علم المساحة »

مؤلّف كتاب « التفّاحة في علم المساحة » هو أبو الحسن أحمد بن محمد بن ابراهيم الأشعري اليمني النسَّابة شهاب الدين ، المتوفى سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م ، وفي قول آخر بعد سنة ٥٥٠ هـ = ١١٥٥ م ، وفي قول ثالث سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م[1] .

ويشتمل الكتاب على مقدمة وبابين ، حيث تتناول المقدمة موضوع علم المساحة من حيث الأشكال الخطيّة والسطحية والجسمية ومساحاتها وحجومها والمسائل المرتبطة بها ، بينما يعرض الباب الأول لمعرفة الأشكال المسوحة وبيان أصنافها ، أمّا الباب الثاني فيقدّم طرائق حساب المساحات بالنسبة للأشكال المستوية كالمربع والمستطيل والمعيَّن ، والشكل ذي الزنقة الواحدة وذي الزنقات المختلفة ، كذا المثلثات بأنواعها ، والأشكال المستديرة والمقوّسة ، وأخيراً الأشكال ذات الأضلاع الكثيرة المتساوية منها والمختلفة ، كذلك يتناول هذا الباب إيجاد حجوم المجسّمات ، ويشير إليها بمساحة الجرم ، حيث يبدأ بحجم المكعب وينتهي بإيجاد حجم المنشور ، وفضلاً عن ذلك يعرض هذا الباب في خاتمته لبيان كيفية استخراج ارتفاعات الجبال والقلاع والمنارات والأشجار ، كذا أعماق الآبار والوديان وعروض الأنهار بالطرق المساحية .

(١) راجع بروكلمان ، ذيل ١ : ٥٥٨ ، والترجمة العربية : جـ ٦ ، ص : ٤٢ .

من مخطوطات « التفاحة في علم المساحة »

١ - مخطوط برلين (فهرس الواردت) - رقم ٥٩٥٩ ، ضمن مجموع : الكتاب الثالث عشر .

٢ - مخطوط مكتبة آيا صوفيا باستانبول - رقم ٤٨٢٧ ، الصفحات من ٩٩ أ إلى ١٦٠ ب ، وقد كُتب المخطوط سنة ٩٢٨ هـ = ١٥٢١ م .

من مخطوطات شروح « التفاحة في علم المساحة »

(أ) شرح بعنوان : « **شرح التفاحة في علم المساحة** »

لشرف الدين يحي بن تقيّ الدين بن اسماعيل بن عبادة بن هبة الله الحلبي الشهير بالفرضي (٩٥٣ - بعد ١٠٢٦ هـ) = (١٥٤٦ - بعد ١٦١٧ م) .

- مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم ٧٥٨٢ - عام (رياضيات ١١٢) .

(ب) شرح بعنوان : « **مَشمّة التفاحة بتحقيق المساحة** »

لمحمد بن عبد القادر بن محمد اليمني (المتوفى سنة ١٠١٥ هـ = ١٦٠٦ م) .

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم ٥٩٥٩ ، ضمن مجموع : الكتاب الخامس عشر .

من مخطوطات أرجوزة « نخبة التفاحة »

١ - مخطوط بعنوان : « **نخبة التفاحة حاوية قواعد المساحة** »

لعبد اللطيف بن أحمد الدمشقي .

- مخطوط مكتبة جوتا - رقم ١٥٠٠ .

٢ - مخطوط بعنوان : « **نخبة التفاحة في قواعد الحساب والمساحة** »

لعبد اللطيف بن أحمد الدمشقي .

- مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس - رقم ٤٠٠٠ ، ضمن مجموع من رسالتين ، والمجموع به ٤١ ورقة ، وهو مكتوب بخط مشرقي .

من مخطوطات شرح الأرجوزة

يوجد شرح على الأرجوزة بعنوان : « شرح نخبة التفاحة في علم المساحة » للناظم نفسه .

- مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق – رقم ١١٠١٢ – عام (رياضيات – ١١٤) .

(١٩) « منظومة في تصاريف الأصابع في عقد العدد »

وتقع في ٣٦ بيتاً ، من نظم مشرف بن قظرف ، أوله :

« فـأوَّل الـواجبِ أنْ تَعلَمَ مَـا أَقُـولُـه يَـا صَـاحِبِي مُقَـدِّمـاً »

- مخطوط الخزانة العامة بالرباط – رقم ٢٤٤٦ .

(٢٠) « أجنحةُ الرُّغَابِ في معْرفةِ الفَرَائِض والحِسَاب »

أرجوزة في ٣٦ بيتاً لأبي سالم بن أبي القاسم السملالي ، ومطلعها :

« الحمـــــدُ للهِ العَظِـيم المُنْعِـم عَلَى ذَوِى العِلْـمِ بِجَمِّ النِّعَـم »

- مخطوط الخزانة العامة بـالربـاط – رقم ٢٤٣٩ ، وفي هـذا المخطوط قـد ذُيِّلت هـذه الأرجوزة بنظمٍ من تأليف الشيخ أبي العباس اجمد بن سليمان الجزولي الرسموكي المراكشي (المتوفى سنة ١١٣٣ هـ = ١٧٢١ م) ، ويشتمل هذا النظم (المضاف إلى الأرجوزة) على ٨٤ بيتاً ، فصار المجموع ١٢٠ بيتاً ، وأول الذيل :

« يقــولُ أحمــدُ الضعيفُ المنتسب إلى سُلَيْمانَ مِتْمَــامــاً نَسَــب

إلى أَبِي سَــــالِمِ السِّمْـــلاَلي العــالِمِ الفصيـــحِ فِي المَقَـــال »

ويوجد شرح على المنظومة من تأليف على بن أحمـد بن محمـد الجزولي الرسموكي (المتوفى سنة ١٠٤٩ هـ = ١٦٣٩ م) .

- مخطوط الخزانة العامة بالرباط – رقم ٢٤٣٨ ، فُرِغَ من نسخه عام ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧ م) ، كما توجد نسخة مخطوطة أخرى من الذيل تحت رقم ٢٤٤٠ بنفس الخزانة .

(٢١) « كتاب الإرشاد للعلم بخواص الأعداد »

لمحمد بن على بن محمد بن على الشبراملسي المالكي (٩٩٧–١٠٨٧ هـ) = (١٥٨٨–١٦٧٦ م) .

- مخطوط برلين (فهرس ألـواردت) – رقم : 5997. Lbg 656 ، ويقع في ٧١ صحيفة ، وتاريخ نسخه : حوالي ١١٥٠ هـ = ١٧٣٧ م .

(٢٢) « منظومة في الحساب »

لأحمد بن محمد بن أبي بكر صاحب النحال (المتوفى سنة ١٠٦٥ هـ = ١٦٥٥ م) .

- مخطوط برلين – ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب الخامس والثلاثون .

(٢٣) « منظومة في حلّ الأعداد »

لعبد الكريم بن على الخليفتى العباسى المدنى (المتوفى سنة ١١٣٣ هـ = ١٧٢١/٢٠ م) ، وتقع في ١٨ بيتاً ، ومطلعها :

« هـذِهِ مَنْظُومَـةٌ – النِّصْـف والخُمْسِ كَـذَاكَ العُشْـر »

- مخطوطة وحيدة بمكتبة رضا برامپور بالهند – رقم : 6532 M –(902) ، وترجع إلى القرن ١٢ الهجرى (١٨ الميلادى) .

(٢٤) أرجوزة « بُغْيَة الطُلاَّبِ وتُحْفَة الحُسَّاب »

نَظْم عبد الفتاح بن ابراهيم (اللاذقي ؟) المالكي ، أنشأها سنة ١١٤٣ هـ = ١٧٣٠ م . والناظم صاحب كتاب : « أسنى الغايات في علم الميقات »

- مخطوط مكتبة جامعة ليْدن بهولندا – رقم ٨٣٥٢ ، ويقع في ١٢ ورقة .

(٢٥) **أرجوزة في حساب العقود**

لمحمد بن حرب بن عبد الله النحوي الحلبي ، أبي المرجا (المتوفي سنة ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) .

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم ٦٠١٣ ، ضمن مجموع : الكتاب التاسع والثلاثون .

(٢٦) **« منظومة في كيفية العقد الحسابي بالأصابع »**

وهي قصيدة من البحر الطويل تقع في ٢٥ بيتاً ، لم يُعرف اسم ناظمها ، مطلعها :

« بِحَمْـــدِكَ يـــا الله أَبـــداً أَوَّلاً   فَمَا زِلْتَ أَهْلاً لِلْمَحَـامِـدِ مُفْضَلا »

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم ٦٠١١ .

(٢٧) **« أرجـوزة في رموز العـدد »**

لم يُذكر اسم ناظمها

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم ٦٠١٢ ، ضمن مجموع : الكتاب الأول .

(٢٨) **« مخدرات الجـور »**

منظومة في الرياضيات وأبحاث الكسور

- مخطوط كان محفوظاً بخزانة الحجّار (المتوفى سنة ١٢٧٨ هـ = ١٨٦١ م) بحلب .

وعليها شرح بعنوان : « الجوهر المنثور »

لعبـد الرحمن بن أحمـد بن قـاسم شنون الحجّـار الحلبي (من القرن ١٣ هـ = القرن ١٩ م) ، وهو ابن صاحب الخزانة .

(راجع مجلة معهد المخطوطات العربية - المجلد الثاني - الجزء الثاني ، نوفمبر سنـة ١٩٥٦ م ، صفحة ٢٦١) .

إن الأراجيز والمنظومات التي تعرض للعلم الرياضي لايزال جلُّها حبيساً في المخطوطات المحفوظة في خزانات الكتب العامة منها والخاصة ، لم يلق بعد ما هو أهل له من البحث والتحقيق والدراسة والشرح والتحليل ، ناهيك عما ضاع وتلف من ذلك التراث التليد ، ولقد استعنت في الدراسة الحالية بفهارس شتى للخزانات التي تحتفظ بالمخطوطات العربية في الشرق والغرب ، كما أنه قد سنحت لي الفرصة لزيارة بعضها والاطلاع على جانب من المخطوطات التي أشرت إليها، والقيام بدراسة بعضها .

وفي ختام هذا البحث أودُّ أن أؤكد أنني لا أدعي إحاطة بكل ما كُتب من أراجيز ومنظومات في مجال الرياضيات ، وأقرر أنني لا أزعم إصابة استقصاء لها ، وإنَّما ما سقته هنا لا يعدو عن كونه مجرَّد إشارة وتنبيه ، ومحاولة متواضعة للتعرُّف على تراثنا المنظوم في الرياضيات ، وجمع شتاته المبعثر في مكتبات العالم ، سعياً إلى توضيح قسمات هذه المنظومات التي تقف شاهدة على الجهود والإنجازات المتميِّزة لعلماء العرب والمسلمين ، يحدوني الأمل والرجاء في أن يستحوذ هذا المجال على اهتمام الباحثين ، فيخصُّونه ببعض وقتهم ، ويُفردون له جانباً من جهدهم .

الآثار الإجتماعية والنفسيّة للتحضر

الأستاذ الدكتور
إسحق يعقوب القطب
أستاذ بقسم الاجتماع - جامعة الكويت

مقدمـــــة :

لقد أخـذ الاهتمام يتزايـد لـدى علماء الاجتماع وعلماء النفس في دراسـة اتجـاهـات التحضر وخصائصه والآثـار الاجتماعيـة والنفسيـة المترتبة على تضخم مجتمعـات المـدن والظواهر المرضيـة للنموّ الحضري غير المتوازن . وتشهد الدول العربية مرحلـة تـاريخيـة هـامّـة من التغير الاجتماعي وبصورة خاصة في مجال الحراك السكاني من الريف والباديـة بـاتجـاه المـدن . وأصبح مجتمع المـدينـة العربيـة المعاصرة مزيج غير متجانس من الثقافات والجنسيات وأخـذت المؤسسـات تحلّ محلّ الأسرة والحـارة والقبيلة في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية . وأخـذت المـدينـة الشرقيـة الإسلاميـة تفقـد هويتهـا تدريجياً بسبب الغزو الحضاري الغربي والشرقي الذي أخـذ ينتشر بسرعـة ويظهر تـأثيره واضحـاً في العمران والقوانين والتشريعـات ، وفي النظم الاجتماعيـة التربويـة ، والأسريـة والاقتصـاديـة ، وفي مجـالات الإعلام ، والـدفـاع الاجتماعي ، والمرور ، والصحـة ، وغيرهـا . ان الـزيـادة المضطردة في سكان المدن والتطور التكنولوجي يؤثر في البناء الاجتماعي وفي العلاقات الاجتماعيـة ، وكـذلـك في التكـوين الطبقي والقيم الاجتماعيـة . أن التغيرات التي تحصـل في النظم الاجتماعيـة والاقتصـاديـة تعكس آثارهـا على الفرد والأسرة من حيث التركيب والوظيفـة وكـذلـك في نطـاق نمـاذج السلوك والقيم .

أن الهدف من هذا التحليل توضيح مفهوم التحضر ومعانيه وأبعاده ، وكذلك تحليل خصائص النمو الحضري في الدول العربية ثم مناقشة الآثار الاجتماعية والنفسية للتحضر في حالة النمّو الحضري الطبيعي ، وغير الطبيعي . وفي نهاية التحليل ، سوف نتناول بعض البدائل في معالجة الآثار السلبية ، وتدعيم الآثار الإيجابية ، لعملية التحضر .

ولابد منذ البدء النظر إلى التحضر على أنه عملية اجتماعية سياسية اقتصادية . ويقصد بالعملية أولاً أنها تفاعل ديناميكي بين العناصر المكوّنة للتحضر . وهي السكان والبيئة والمؤسسات والعلاقات ، وتمتاز العملية كذلك ، بأن لها مراحل ، وقواعد ، وعوامل ، واتجاهات ، وأسس ، ومفاهيم محددة . أما أن التحضر عملية اجتماعية فيتضح ذلك من تكوين المجتمع الحضري وبناءه وطبقاته ومؤسساته وأنه يتميز بطابع يختلف عن باقي المجتمعات الريفية والبدوية والصناعية . وفيا يتعلق بالتحضر كعملية سياسية ، فإن المدن ترتبط بالنشاط السياسي على الصعيدين المحلي والدولي وغالباً ما يتمركز النشاط الرسمي والدبلوماسي ، وتتخذ القرارات في العواصم والمدن الرئيسية ، كا أن المؤسسات الحكومية الرئيسية تتواجد في المدن . وتعتبر المدن الواجهة الحضارية للمجتمع . وإذا نظرنا إلى التحضر كعملية اقتصادية ، نجد أن الحركة الاقتصادية تتمركز في المدن التي تمتص حصة الأسد من الاستثمارات الرأسمالية والتجارية والاستهلاكية . إن قوة العمل في المدن العربية غالباً ما تقوم بالوظيفة الاستهلاكية أكثر من قيامها بالوظيفة الانتاجية . ولذلك نجد أن العلاقات الانتاجية تتميز بالطابع التجاري والاستثماري أكثر مما تتخذ الطابع الانتاجي الصناعي . وهذا النمط يسهم في تكوين القيم الاجتماعية التي تتسم بالنظرة المادية للحياة والتبعية للدول المصدرة للانتاج والارتباط بالثقافات الخارجية ، ذلك لأن الإستقرار والاستقلال الاقتصادي يساعدان على الاستقرار الاجتماعي والسياسي . هذا بالإضافة إلى أن تكلفة الحياة واقتصاديات التحضر نمط من العمليات التي تتّسم بالتكلفة المرتفعة ونسبة الفاقد العالية .

مفهوم التحضر :

يعتبر مفهوم التحضّر من المصطلحات التي تحمل العديد من الاتجاهات والمعاني وتتفاوت الدول والعلوم في استخدامه . فيشير علماء الاجتماع إلى ضرورة التمييز بين التحضر – التي تشير إلى الجوانب السكانية (الديمغرافية) للتجمعات البشرية ، وكذلك إلى العلاقات الايكولوجية

والخصائص الفيزيقية لنمو المدن – وبين مفهوم الحضرية كأسلوب للحياة . إذ أن الحضرية تشمل القيم الإنسانية والمميزات الثقافية والعلاقات والأفكار والسلوك الذي يتخذ طابعاً خاصاً يتميز فيه السكان في المدن عن غيرهم . كما أن هناك فرقاً بين التحضر والنموّ الحضري حيث أن التحضر عملية تتضمن تغيراً في النسبة المئوية للسكان الذين يقطنون المناطق الحضرية من جملة سكان الدولة (ويتم في هذه الحالة تعريف حجم المنطقة الحضرية مثلاً قد يكون ١٠,٠٠٠ نسمة أو ٥,٠٠٠ نسمة أو ٣٠٠٠ نسمة) . أما النمو الحضري فيشير إلى التوسع العمراني أو النمو السكاني الخاص بالقطاع الحضري ، أو النموّ في المؤسسات الحضرية (الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) سواء أكان النموّ أفقياً أو عمودياً[١].

ويعرف التحضر لأغراض احصائية وتحليلية بأنه مجموعة السكان المقيمة في تجمعات بشريّة تقع في تصنيف المدن . ويشير إلدرج (Eldridge)[٢] إلى عنصرين يتضمنها مفهوم التحضر – الأول تعدد محاور التركز والثاني زيادة حجم الكثافة البشرية ، الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع نسبة السكان في المدن . وتخضع تصنيفات التجمعات السكانية إلى عدّة اعتبارات منها الإدارية والسياسية والتاريخية والثقافية والديمغرافية .

وقد تناول علماء الاجتماع التصنيف الثنائي للمجتمعات كما نجدها لدى دوركهايم في تفرقته بين مجتمع التضامن العضوي ومجتمع التضامن الآلي ، وعند « هنري مين » بين مجتمع المكانة ومجتمع التعاقد ، وعند « تونييز » بين المجتمع المحلي والمجتمع العام ، وعند « روبرت ردفيلد » و « لويس ورث » بين المجتمع الشعبي أو التقليدي والمجتمع الحضري[٣]. وتشير هذه التصنيفات إلى وجود نمطين من المجتمعات بالنسبة للتركيب الاجتماعي ، والوظائف الاجتماعية وخصائص النظم الأسرية والسياسية والتربوية والدينية والاقتصادية .

وتشير هذه التصنيفات إلى التحضر على أنه نمط للحياة يمتاز بالعلاقات الثانوية والمؤسسات التطوعية واتساع نطاق تقسيم العمل وتعقّد الأدوار وتفكك القيم الاجتماعية . فالمدينة في نظر علماء الاجتماع المشار إليهم هي مركز الانفتاح والإشعاع الحضاري وتعقّد العلاقات الاجتماعية ومحور الاتصال والمواصلات وكذلك تزداد فيها أنماط المشاكل الاجتماعية المختلفة[٤].

وفي نطاق تفسير عملية التحضر في الدول العربية ، فقد أشار علماء الاجتماع إلى ثلاثة اتجاهات (ديمغرافي واقتصادي واجتماعي) فبالنسبة للاتجاه الديمغرافي فإنه يرتبط بنموّ المدن السريع الذي

شهدته المدن العربية بعد الحرب العالمية الثانية بسبب النمو السكاني الحضري النـاتج عن التصنيف المستحدث حيث شمل العـديـد من المدن التي كانت أصلاً من عـداد القرى ، ب – نتيجـة للزيـادة الطبيعية للسكان حيث ازداد الفرق بين المواليد والوفيات ، ومن جراء الحركة السكانية من الباديـة والريف إلى المناطق الحضرية .

أما الاتجاه الاقتصادي فيشير إلى التغيرات التي طرأت في البنـاء الوظيفي حيث انتقلت أعداد ضخمـة من القوى العـاملـة من العمل في الزراعـة والفلاحـة إلى العمل في الصنـاعـات والخـدمـات المتنوعة .

ويوضح الاتجاه الثالث إلى دور المدينة في توليد ونشر التغيرات الاجتماعيـة على المستويين المحلي والقومي ، واعتبرت المـدينـة كمركز ونقطـة انتشـار لـلأفكار والأعمـال المستحـدثـة والتكنـولـوجيـا المعاصرة التي تؤثر في تغيير الأوضاع التقليدية السـائـدة . وهـذا يؤكـد وجهـة النظر القـائلـة بـأن للمدينة نظاماً اجتماعياً خاصاً ومميزاً يؤثر في تشكيل شخصية مميزة للأشخاص القاطنين فيها[٥].

ويفسّر التحضر على أنه عملية من عمليات التغيّر الاجتماعي يتم بواسطتها انتقال أهل الريف إلى المدن واكتسابهم تدريجياً أنماط الحضر ، ويحدث التكيّف الحضـاري إذا مـا اكتسبوا أنمـاط وقيم المجتمع الحضري[٦].

ويمتـاز المجتمع الحضري بكثـافـة سكانيـة عـاليـة وأنمـاط مميّـزة من الثقـافـة والأيـديـولـوجيـة والتكنولوجيا الصناعيـة (سواء الأصيلـة أو المستوردة) التي تتفـاعل مع بعضهـا لتؤدي إلى تكوين المجتمع الحضري . وأصبح هذا النمط ظاهرة اجتماعية بارزة في المجتمعـات العربيـة . وتشترك المجتمعـات الحضرية العربية في العديـد من الخصـائص والملامح الحضـاريـة سواء في الفن المعماري أو المعطيـات الثقـافيـة الإسلاميـة والتراث الحضـاري المشترك ، كما تشترك في العـوامـل التي ســاهمت في التحضر السريع سواء الجـاذبـة منهـا أو الطـاردة مثل تمركز الخـدمـات المتنوعـة في العـواصم والمـدن الكبيرة والمتوسطة ونمّو المراكز الحضرية أسرع من نمو المجتمعات الريفية ونتيجـة لهـذا النموّ غير المتوازن فنجـد أن المدن العربية تواجه العديـد من المشكلات الإداريـة والاجتماعيـة والتنظيميـة التي أخـذ تـأثيرهـا يزداد سنة بعد أخرى لدرجة أن التحضر المعاصر اتخذ صفة التحضّر المرضي .

وحتى تتضح لنـا اتجـاهـات وخصـائص التحضر في الوطن العربي لابـدّ من إجراء تحليل سكاني لتحديد مقومات النوّ الطبيعي خلال فترة ربع قرن مضت وكذلك في العقدين القادمين حتى عام ١٠٠٠ . وقياس نسبة السكان الحضر يرتبط بالتصنيف الأحصائي الـذي تستخـدمـه الـدول العربيـة الذي يتفـاوت بين دولـة وأخرى ، فـالأردن على سبيل المثـال يعتبر كل تجمـع يضمّ ١٠,٠٠٠ نسمـة مدينة ومصر ١١,٠٠٠ نسمة والعراق ٥,٠٠٠ نسمة .

أما المقياس الذي استخدم في الجدول فيشير إلى المعيار الـذي اتخـذتـه الأمم المتحـدة في كتـابها السنوي الديمغرافي حيث يعتبر كل تجمع يضمّ ٢٠,٠٠٠ نسمة فأكثر من المراكز الحضرية .

جدول رقم (١)
النمو السكاني في البلاد العربية[٧]
السكان بالألف

الدولة	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٩٠	٢٠٠٠	معدل النمو السنوي٪	نسبة سكان الحضر
الجزائر	١١,٩٢٠	١٤,٣٣٠	١٥,٦٨٠	١٨,٥٩٤	٢٦,٥٢٥	٣٦,٠١٦	٣,٤١	٥٣,٧
مصر	٢٩,٣٩٠	٣٣,٣٢٩	٣٦,٩١٦	٤١,٩٩٥	٥٢,٨٠٦	٦٤,٦٧٢	٢,٥٨	٤٣,٥
ليبيا	١,٠٦٢٠	١,٩٩٠	٢,٤٣٠	٢,٩٧٧	٤,٢٨٩	٥,٧٦٨	٤,٠٦	٤٣,٧
موريتانيا	١,٠٣٠	١,٢٥٠	١,٤٢١	١,٦٣٤	٢,١٩٢	٢,٩١٩	٢,٧٩	٢٣,١
المغرب	١٣,٣٢٠	١٥,٥٢٠	١٧,٣٠٥	٢٠,٢٩٦	٢٧,٨٤٠	٣٦,١٤٩	٣,١٩	٣٧,٤
الصومال	٢,٥٠٠	٢,٧٨٩	٣,١٧٠	٣,٦٤٥	٤,٨٤٥	٦,٢٦٠	٢,٧٩	٢٦,٥
السودان	١٣,٧٣٠	١٥,٦٩٥	١٦,٠١٥	١٨,٣٧١	٢٤,٢٩٩	٣١,٢٧٠	٢,٧٤	٢٠,٤
تونس	٤,٦٢٠	٥,١٣٠	٥,٦٠٨	٦,٣٦٤	٨,٠٤٥	٩,٥٦٣	٢,٥٣	٤٧,٦
البحرين	١٨٠	٢١٥	٢٥٦	٣٠٢	٤١٦	٥٣٨	٣,٢٩	٧٨,١
العراق	٨,٠٥٠	٩,٤٤٠	١١,٠٢٠	١٣,٠٨٤	١٨,١٧٦	٢٤,٢٤٠	٣,٤٣	٦٥,٧
الأردن	١,٩٥٠	٢,٣٠٠	٢,٧٠٢	٣,١٩٠	٤,٤٠٧	٥,٨٩٤	٣,٣٢	٥٢,٩
الكويت	٤٨٠	٧٥٠	١,٠٠٢	١,٣٧٢	٢,١٩٤	٣,١٦٦	٦,٢٩	٨٣,٨
لبنان	٢,٤١٠	٢,٤٧٠	٢,٧٩٩	٣,١٦١	٣,٩٩١	٤,٨٩١	٢,٤٣	٦٩,٨
عُمان	٥٧٠	٦٦٠	٧٦٦	٨٩١	١,٢١٨	١,٦٥١	٣,٠٢	٦,١
قطر	٧٠	١١٠	١٧٠	٢٢٠	٣٢٦	٤٣٤	٥,١٣	٨٣,٧
السعودية	٦,٧٥٠	٦,٢٠٠	٧,١٨٠	٨,٣٦٧	١١,٤٥٨	١٥,٥٦٥	٣,٠٦	٥٨,٧
سوريا	٥,٣٠٠	٦,٢٦٠	٧,٣٥٤	٨,٦٤٤	١١,٩٩٢	١٦,٢٩١	٣,٢٣	٤٦,٧
دولة الإمارات	١٧٠	٢٣٠	٥٥٨	٧٩٦	١,٢١٥	١,٦٣٥	٧,١١	٦٥,٣
اليمن	٤,٣٥٠	٤,٨٤٠	٥,٢٨٢	٥,٩٢٦	٧,٦٤٨	٩,٩٦٢	٢,٣	٧,٩
اليمن الديمقراطية	١,٢٤٠	١,٤٤٠	١,٦٥٤	١,٨٩٠	٢,٥٢١	٣,٣٨٠	٢,٦٧	٣٤,٣
قطاع غزة	٣٠٠	٣٥٠	٣٩٠	٤٣٨	٥٤٧	٦٧١	٢,٣٢	٨٧,٠
المجموع	١١٨,٩٥٠	١٢٤,٩٤٣	١٣٩,٦٧٨	١٦٢,١٥٧	٢١٦,٩٥٠	٢٨٠,٩٣٥	٣,٢	٤٦,٢

يتضح من الجدول الحقائق التالية :

١ - لقد بلغ إجمالي السكان حوالي ١١٩ مليون نسمة عام ١٩٦٥ ووصل عام ١٩٨٠ حوالي ١٦٢ مليون نسمة ومن المتوقع أن يصل بنهاية القرن الحالي حوالي ٢٨١ مليون .

٢ - يتراوح معدل النمو السنوي للسكان سواء بسبب الزيادة الطبيعية أو الهجرة الدولية الوافدة بين أعلى حدّ لها ٧,١١٪ سنوياً بدولة الإمارات وأدنى حدّ ٢,٣٪ (باليمن) ، أما الترتيب التنازلي فهو كالتالي : الكويت ، قطر ، ليبيا ، العراق والجزائر وسوريا والمغرب والسعودية والبحرين وعمان وتليها باقي الدول .

٣ - أما الدول التي تمثل معدلات نمو سنوية منخفضة فتمثل اليمن الشمالي وقطاع غزة وتونس ومصر واليمن الجنوبي والسودان والصومال . والصفة المشتركة بين هذه الدول أنها مُصدّرة للقوى العاملة سواءً للدول العربية أو الأوروبية .

٤ - أن الصفة المشتركة بين الدول ذات معدلات الزيادة السنوية المرتفعة أنها دولاً نفطية وأنها مستقبلة للقوى العاملة الوافدة سواءً من العرب أو الأجانب وأن السبب الرئيسي للزيادة يكمن بسبب الهجرة الوافدة أكثر من الزيادة الطبيعية .

نستنتج مما سبق أن الدول العربية تعتبر من الدول ذات معدلات الزيادة المرتفعة بالرغم من التفاوت فيما بينها ويرجع هذا التفاوت إلى العوامل الاقتصادية خاصة في الدول النفطية التي تعتمد بدرجة كبيرة على استيراد العمالة الوافدة الأسيوية . ومن التساؤلات الهامّة في هذا المجال هل سوف تستمر الزيادة السنوية في كل دولة بنفس المعدل أم سيحصل تغيرات ، وهل سيستمر هذا التفاوت بنفس الدرجة أم سيقل أو يزيد بين نفس المجموعات أو يحصل نوع من التبدل ، وما هي الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على ذلك خاصة فيما يتعلق بالنموّ الحضري وأنماط التجمعات الحضرية . وحتى تتضح خصائص النموّ السكاني تجدر الإشارة إلى معدلات المواليد والوفيات وتوقعات الحياة ، كما هو موضح في الجدول التالي .

جدول رقم (٢)
معدلات المواليد والوفيات وتوقعات الحياة
في البـــلاد العربيـــة[٩]
(١٩٧٥ – ١٩٨٠)

الدولــة	معدل الزيادة السنوية	معدل المواليد الخام	معدل المواليد (٪) الإجمالي	معدل الوفيات الخام	توقعـات الحيـاة	
					ذكور	إناث
الصومال	٢,٧٩	٤٨,٣	٣	٢٠,٤	٤١,٤	٤٤,٦
الجزائر	٣,٤١	٤٧,٥	٣,٥٥	١٣,٤	٥٥,٢	٥٧,٤
مصـــر	٢,٥٨	٣٨,٦	٢,٥٥	١٢,٨	٥٣,٦	٥٦,١
ليبيــا	٤,٠٦	٤٧,٤	٣,٦٠	١٢,٨	٥٣,٨	٥٧,٠
المغــرب	٣,١٩	٤٥,٤	٣,٣٥	١٣,٦	٥٣,٨	٥٧
الســودان	٢,٧٤	٤٥,٨	٣,٢٠	١٨,٤	٤٥,٥	٤٧,٥
تونس	٢,٥٣	٣٦,٧	٢,٨٠	١١,٥	٥٦,٣	٥٨,٤
موريتانيا	٢,٧٩	٥٠,٢	٣,٤٠	٢٢,٤	٤٠,٦	٤٣,٨
البحــرين	٣,٢٩	–	–	–	–	–
اليمن الديمقراطية	٢,٦٧	٤٧,٥	٣,٤٠	٢٠,٨	٤٢,٩	٤٥,١
قطاع غزة	٢,٣٢	–	–	–	–	–
العراق	٣,٤٣	٤٧,٢	٣,٤٠	١٣,٠	٥٣,٦	٥٦,٧
الأردن	٣,٣٢	٤٦,٠	٣,٤٠	١٢,٨	٥٤,١	٥٧,٢
الكويت	٦,٢٩	٤٦,٦	٣,٤٠	٤,٦	٦٧,٣	٧١,٦
لبنـــان	٢,٤٣	٣٢,٧	٢,٣٠	٨,٤	٦٣,٢	٦٧,١
عُمـان	٣,٠٢	٤٨,٩	٣,٥٠	١٨,٦	٤٦,٢	٤٨,٤
قطـر	٥,١٣	–	–	–	–	–
السعودية	٣,٠٦	٤٨,٨	٣,٥	١٨,٣	٤٦,٧	٤٩,٠
ســوريا	٣,٢٣	٤٥,٢	٣,٦	١٢,٩	٥٥,٧	٥٩,٣
الإمارات	٧,١١	–	–	–	–	–
اليمـن	٢,٣	٤٨,٣	٣,٣	٢٥,٤	٣٨,٧	٤٠,٣

يتضح من الجدول ما يلي :

١ - أن معدل المواليد الخام لدى معظم الدول العربية يزيد عن ٤٥ مولود لكل ألف من السكان باستثناء لبنان وتونس حيث ينخفض فيهما المعدل إلى ٣٢,٧ و ٣٦,٧ مولود لكل ألف من السكان على التوالي . وقد يرجع السبب في انخفاض معدلات المواليد إلى سياسة تنظيم الأسرة وتحديد النسل التي تتبناها الدولتين بالإضافة إلى عوامل حضارية وثقافية واقتصادية أخرى .

أما بالنسبة للخصائص المشتركة بين الدول العربية التي ترتفع فيها معدلات المواليد فإنها تنحصر في العوامل الدينية والنمط الاجتماعي والقيم الاجتماعية التي تدعو إلى الإنجاب وكثرة النسل . ونلاحظ أيضاً أنه بالرغم من التقدم الحضاري الذي شهدته البلاد خلال ربع القرن الأخير إلاّ أن ذلك لم يسهم في تغيير الاتجاهات نحو الإنجاب أو حجم الأسرة .

كما نلاحظ أنه بالرغم من ارتفاع نسبة السكان الحضر في العديد من الدول العربية إلا أن ذلك لم يؤثر في انخفاض معدلات المواليد على عكس النظريات الاجتماعية الديمغرافية التي تربط بين التحضر وانخفاض معدلات المواليد ويرجع ذلك إلى حقيقة واضحة وهي أن النمّو الحضري في معظم البلاد العربية ناجم عن الهجرة من الريف والبادية ، ويحمل المهاجرون للمدن معهم القيم الاجتماعية والثقافية لمجتمعاتهم ويسكنون في العشش وضواحي الكرتون والصفيح على أطراف المدن وقد تطول عملية التطبيع للقيم الحضرية والاتجاه نحو تنظيم الأسرة وتخطيط الولادات . هذا علاوة على السياسات التي تتخذها بعض الدول العربية التي تدعو إلى زيادة النسل وتوفير الحوافز المادية كما هو في السودان وسوريا ودول الخليج والعراق .

وإذا أخذنا معدلات الوفيات الخام فنلاحظ أيضاً أن الدول العربية يمكن أن تصنف من ضمن مجموعة ذات المعدلات المرتفعة ، كما يمكن أن تقسم الدول إلى مجموعتين :
الأولى ذات معدلات مرتفعة وتضم كلاً من : موريتانيا واليمن الشمالي واليمن الديمقراطي والصومال والسعودية والسودان وعمان .
والثانية ذات معدلات متوسطة وتضم كلاً من : الجزائر ، مصر ، ليبيا ، المغرب ، وتونس والأردن والعراق وسوريا . أما الكويت ولبنان فإن معدلاتها منخفضة قياساً بالدول الأخرى .

ونلاحظ العلاقة العكسية بين التحضر ومعدلات الوفيات ، إذ أن الدول التي تنخفض فيها معدلات التحضر ترتفع فيها معدلات الوفيات ، وأن الدول التي ترتفع فيها معدلات التحضر تنخفض فيها معدلات الوفيات ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل منها الوعي الصحي والتغذية والوقاية والمستوى التعليمي بالإضافة إلى العوامل الأخرى - الاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

وأما فيما يتعلق بتوقعات الحياة عند الذكور والإناث فإن الدول العربية لا تختلف معدلاتها عن باقي الدول الأفريقية والأسيوية ودول العالم الثالث بصورة عامة حيث ترتفع المعدلات فيها قليلاً عن المتوسط في هذه الدول . ويصل أدنى حدّ للذكور في كل من اليمن الشمالي واليمن الديمقراطية والصومال (بين ٣٨,٧ و ٤١,٤ سنة) وللإناث بين ٤٠,٣ و ٤٤,٦ سنة . أما أعلى حدّ فقد سجلته الكويت (٦٧,٣ سنة للذكور) و (٧١,٦ سنة للإناث) تليها لبنان (٦٣,٢ سنة للذكور و ٦٧,١ سنة للإناث) أما بالنسبة للدول الباقية فتتراوح توقعات الحياة حوالي ٥٥ سنة .

هل هناك علاقة بين توقعات الحياة والتحضر ؟ في حالة الدول العربية يمكن أن ينطبق ذلك في حالة دولة أو دولتين فقط (الكويت ولبنان) في حالة ارتفاع معدلات التحضر وفي الصومال واليمن الديمقراطية وعمان واليمن الشمالي في حالة انخفاض معدلات التحضر .

وباختصار فإن الخصائص الديمغرافية لها أهمية بالغة في عملية التحضر والنمّو الحضري في الدول العربية ، إذ أنها ترتبط بالعوامل الدينية والثقافية والاقتصادية والسياسية ، كما أن الفروق الحضرية - الريفية - البدوية في معدلات المواليد والوفيات ليس لها علاقة مباشرة بالتحضر كنمط حياة أو أسلوب معيشة ، ذلك لأن معايير التحضر المستخدمة في هذا المجال تنطوي على الخصائص الكمية السكانية أكثر من النوعية أو النظم الاجتماعية .

ومن المهمّ معرفة العلاقة بين معدلات النمّو السنوية للسكان ومقارنتها مع معدلات النمّو الحضرية في الدول العربية من ناحية ومعدلات النمّو في المدن الرئيسية (أو العواصم والمدن المسيطرة) لأن ذلك يوضح لنا جوانب هامة من خصائص النمّو الحضري .

والجدول التالي يوضح العلاقة بين النمو السكاني والنمو الحضري في بعض الدول العربية .

جدول رقم (٣)
نسبة السكان الحضر* إلى إجمالي السكان
في البلاد العربية في السنوات المختلفة[١٠]

الدولـة	١٩٥٠		١٩٦٦		١٩٧٥		١٩٨٠	
	السكان/مليون	الحضر ٪	السكان/مليون	٪ حضر	السكان/مليون	٪ حضر	السكان	٪ حضر
الجزائر	٨,٩	٢٥	١١,٨	٣٩	١٥,٦	٥٢,١	١٨,٦	٥٤,٣
مصـــر	٢٠,٥	٣٢	٣٠,-	٤١,٢	٣٧,-	٤٣,٧	٤٢,	٤٩,٥
ليبيــا	١,١	٢٢	١,٧	٢٥,٨	٢,٤	٢٩,٨	٢,٩	٣٢,٧
موريتانيا	٠,٧	٢	١,-	١٢,-	١,٤	٢١,٧	١,٦	٢٣,١
المغــرب	٩,-	٢٣	١٣,٧	٣٠,٥	١٧,٣	٣٧,٩	٢٠,٢	٣٨,٢
الســودان	١٠,-	٦	١٤,١	١٠,٦	١٦,-	١٣,٢	١٨,٣	٢١,٤
تونس	٣,٦	٣١	٤,٥	٤٠	٥,٦	٤٦,١	٦,٣	٤٩,٣
الصــومال	١,٨	٣	٢,٦	٦	٣,١	١٦,٢	٣,٦	٢٤,٥
البحــرين	٠,١	٧١	,١٦	٧٤	٠,٢٢	٧٨,٥	٠,٣	٧٩,١
العــراق	٥,٢	٣٥	٨,٣	٢٥,٥	١١,-	٦٢,٨	١٣,-	٦٦,٢
الأردن	١,٣	٢٥	٢,-	٣٨	٢,٧	٤٣	٣,٢	٥٣,٧
الكــويت	,٢	٥١	,٥٢	٦٢	٠,٩٣	٨٨	١,٣	٩٠,٢
لبنــان	١,٨	٤٠	٢,٥	٥٦	٢,٨	٦٥	٣,١	٦٨,١
عُمــان	,٥	٣	٠٠,٥٨	٧,٥	٠,٧٦	١٠	٠,٨٩	١٣,١
قطـــر	,٠٢	٥٠	٠,٠٧	٦٧	,١٧	٧٧,٥	,٢٢	٨٥
الســعودية	٥,٣	٩	٦,٩	٢٣	٧,١	٣٢,١	٨,٣٦	٦٠,٢
ســوريا	٣,٤	٣٥	٥,٥	٤١	٧,٣	٤٦,١	٨,٦٤	٤٨,٣
دولة الإمارات	٠,٠٨	٢٥	٠,١٧	٥٠,٦	٠,٥٥	٦٥,٢	٠,٨	٦٨,٧
ج . ع . يمنية	٤,-	٢	٥,٢٥	١٠,١	٥,٢	١٦,١	٥,٩٢	١٨,٢
اليمن الديمقراطية	,٧	٩	١,٢	٢٦,٣	١,٦	٢٩,٢	١,٨٩	٣٦,٣
قطاع غزة	٠,٢١	٤١,-	,٣	٤٧,١	,٣٩	٥٢,١	٠,٤٣	٨٨,١
المجموع	٧٥,٤	٢٥,-	١١٣,٩	٣٦	١٣٩,٦	٤٣	١٦٢,١	٤٧,٢

* يقصد بالسكان الحضر الذين يقطنون المدن التي يبلغ عدد سكانها ٢٠,٠٠٠ نسمة فأكثر وفق المعايير الدولية .

يتضح من الجدول الحقائق التالية :

١ - لقد زاد معدل السكان الحضر خلال الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٨٠ حوالي ٢٢٪ أي تضاعف تقريباً ، أي أنه في نهاية القرن الحالي سوف يصبح نسبة السكان الحضر حوالي ٧٠٪ من إجمالي السكان . إن مثل هذا الوضع يشير إلى تطورات هامة في التوزيع السكاني وكذلك يشير إلى تغييرات أساسية في التنظيم الاجتماعي وكذلك في نمط وعلاقات الإنتاج وسوف نتطرق إلى هذا الموضوع في مرحلة لاحقة .

٢ - تتفاوت نسب التحضر بين الدول العربية بدرجة عالية بحيث يصل أعلى حدّ في الكويت (٩٠,٢٪) وأدنى حدّ في عمان (١٣,١٪) وذلك عام ١٩٨٠ . ويرجع هذا التفاوت إلى عدة عوامل منها النظام الاقتصادي وطبيعة الإنتاج الزراعي والصناعي والدخل القومي ومصادره وطبيعة تقسيم العمل وملكية الإنتاج وأدواته .

ويمكن تصنيف الدول العربية بالنسبة لدرجات التحضر حسب القياس الذي استخدمه جيرالد بريس مع تطويره بما يلائم الوضع في البلاد العربية على النحو التالي :

١ - تحضر مرتفع ٥٠٪ فما فوق في المناطق الحضرية .

٢ - تحضر متوسط من ٢٥٪ - ٤٩٪ .

٣ - تحضر منخفض أقل من ٢٥٪ .

وإذا طبقنا هذا المقياس على الدول العربية لعام ١٩٨٠ نخلص إلى ما يلي :

ا - الدول ذات التحضر المرتفع :

الكويت	(٩٠,٢٪)	البحرين	(٧٩,١٪)	قطر	(٨٥٪)
قطاع غزة	(٨٨,١٪)	لبنان	(٦٨,١٪)	دولة الإمارات	(٦٨,٧٪)
السعودية	(٦٠,٢٪)	العراق	(٦٦,٢٪)	الجزائر	(٥٤,٢٪)
الأردن	(٥٣,٧٪)				

وأهم الخصائص المشتركة بين هذه الدول هي :

إنتاج النفط وتسويقه واستثمار العائدات في المشروعات الاقتصادية والاجتماعية وخاصة في بناء

المؤسسات الهيكلية في مجالات الإسكان والتعليم والصحة والإعلام والتصنيع والدفاع الاجتماعي والمرور والترويح وغيرها من الخدمات اللازمة وقد تمركزت معظم هذه المؤسسات في المدن الرئيسية والعواصم . أما لبنان فتختلف عن هذه الدول في أنها دولة عالمية تمكنت من جذب رؤوس الأموال واستثمارها في العمران والنشاط التجاري والمصرفي والثقافي الذي تركز بصورة رئيسية في مدينة بيروت . كما أن الدول الخليجية تعتبر من الدول المستوردة للعمالة العربية والأسيوية التي يعزى إليها ارتفاع معدلات النمو الحضري السنوية وكذلك ارتفاع نسبة التحضر في المدن الرئيسية . كما أن ارتفاع معدل دخل الفرد السنوي (بعضها يناهض المعدلات العالمية مثل الكويت وقطر ودولة الإمارات العربية المتحدة) وارتفاع مستوى المعيشة . وأما بالنسبة للأردن فإن النمو الحضري فيها يعزى إلى عدة أسباب منها هجرة الفلسطينيين بعد عام ١٩٤٨ وبعد حرب ١٩٦٧ وكذلك الهجرة بعد الأحداث اللبنانية بالإضافة إلى انفتاح الاقتصاد الأردني لاستثمارات المغتربين في دول الخليج الذين انحصرت استثماراتهم في عمان والمدن الرئيسية بصورة خاصة .

ب - دول ذات تحضر متوسط :

ويندرج تحت هذا التصنيف كلاً من :

مصر	(٤٩,٥٪)	تونس	(٤٩,٣٪)	سوريا	(٤٨,٣٪)
المغرب	(٣٨,٢٪)	ليبيا	(٣٢,٧٪)	اليمن الجنوبي	(٣٦,٣٪)

ومن الخصائص المشتركة بين هذه الدول أنها تمرّ في مرحلة انتقالية سريعة من الإنتاج الزراعي والحيواني إلى التصنيع المتوسط والخفيف بالإضافة إلى زيادة معدلات الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن[١١]. إن السبب الرئيسي للهجرة الداخلية هو عامل الطرد من الريف والبادية بسبب ضعف الإنتاج وانخفاض مستوى الدخل وارتفاع تكلفة الإنتاج الزراعي والحيواني وضعف مستوى الخدمات الاجتماعية والصحية والثقافية وقلة الاهتمام الذي تحظى به المناطق الريفية في خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ومن ناحية أخرى فإن نمو المدن الرئيسية زاد من جاذبيتها لما يتوفر فيها من فرص للعمالة ومميزات حضارية وتكنولوجية .

ج - دول ذات تحضر منخفض :

ويضم الدول التالية :

موريتانيا	(٢٣,١٪)	السودان	(٢١,٤٪)
عُمان	(١٣,١٪)	اليمن الشمالي	(١٨,٢٪)

والسمات المشتركة بين هذه الدول أن نمط الإنتاج يعتمد على الزراعة وانخفاض معدل الدخل القومي وارتفاع معدلات الأمية وزيادة معدلات المواليد والوفيات . أما بالنسبة للنمو الحضري فيرتكز على الهجرة الداخلية والزيادة الطبيعية .

وحتى تتضح العلاقة بين التحضر وبعض المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية لابد من الإشارة إلى بعضها ، كما هو مبين بالجدول التالي :

جدول رقم (٧)
التحضر وبعض المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية في عدد من الدول العربية[١٣]
عـــام ١٩٧٥

الدولـــة	نسبة التحضر (٪)	نسبة السكان النشيطين اقتصاديا ١٥ سنة + عدد السكان	الدخل القومي للفـرد (دولار)	نسبة الأمية ذكور ٪	نسبة الأمية إناث ٪
البحـــرين	٨٠,١	٢٦,٧	١,٣٥٠	٤٢	٦٤
مصـــر	٤٣,٧	٣٠,٥	٢٨٠	٤٣,٣	٧١
العـــراق	٦٢,٨	٢٥,٢	١,١٠٠	٥٨,٥	٨٢,٨
الأردن	٤٣,	٢٣	٤٣٠	١٩	٤٥,٧
الكـــويت	٨٨,٦	٣٠,٦	١١,٦٤٠	٣٢,–	٥٣,–
لبنـــان	٦٥	٢٦,٩	١,٠٨٠	٢٠	٤٤
عُمـــان	١٠	–	١,٦٦٠	٦٥	٦٨
اليمن الديمقراطية	٣٣,٣	٢٦,٦	٢٢٠	٥٢	٩١
قطـــر	٧٧,٥	٤٧,٢	٧,٢٤٠	٦٥	٩٨
الســـعودية	٣٢,١	٢١,–	٢,٨٣٠	٤٦,٥	٩٨
ســـوريا	٤٦,١	٢٥,–	٥٦٠	٥٦,٥	٧٦
دولة الإمارات	٦٥,٢	٥٣,١	١٣,٥٠٠	٦١,٨	٦١,٩
ج . ع . يمنية	١٦,١	٢٥,١	١٨٠	٣٨,٣	٩٨,٤

يتضح من الجدول الحقائق التالية :

١ – هناك علاقة طرديّة بين التحضر وارتفاع معدل الدخل السنوي للفرد وبصورة خاصة في دول الخليج (دولة الإمارات ، والكويت ، وقطر ، والسعودية ، والبحرين ، والعراق) وتنخفض نسبة التحضر في الدول ذات معدل الدخل المنخفض مثل (اليمن الديمقراطية والجمهورية العربية اليمنية) .

أما بالنسبة للأردن وسوريا ومصر حيث ترتفع نسبة التحضر وتنخفض معدلات الدخل فإن السبب يرجع إلى حركة السكان الداخلية من الريف إلى المدن ، كما أن ارتفاع معدلات المواليد في المدن بالإضافة إلى الموارد الطبيعية المحدودة وأن الإنتاج القومي من المصادر المختلفة يختفي تأثيره في رفع معدلات الدخل للفرد بسبب الزيادة السكانية المستمرة .

وتجدر الملاحظة أن الدول النفطية ذات الدخل القومي المرتفع ومعدلات التحضر المرتفعة تعتمد على القوى العاملة الوافدة التي تتمركز في المدينة الرئيسية ، إذ أن عمليات إنتاج النفط واستثمار العوائد في المشروعات الإنمائية تتطلب زيادة الكثافة الحضرية وتوفير المستوى المعيشي المناسب وكذلك الخدمات والمؤسسات التابعة لها والارتباط الاقتصادي والتجاري الدولي وحركة المواصلات والاتصال الجوي والبري والبحري ... كل ذلك يؤدي إلى تضخم المدينة بل نمّو المدينة الواحدة - مدينة الدولة .

أما العلاقة بين التحضر ومعدلات الأمية ، فإن الوضع يتفاوت بين الدول العربية ، وبصورة عامة يمكن القول أن ارتفاع معدلات الأمية سواء بين الذكور أو الإناث تتواجد في الدول ذات المعدلات الحضرية المرتفعة . وهذه الحقيقة تؤكد بعداً مميزاً لخصائص التحضر في الدول العربية مفادها أن نسبة التحضر المرتفعة وفق المعيار السكاني لايلازمها بالضرورة التقدم في المستوى الحضري النوعي والحياة العصرية ، والرقي الحضاري الماثل بل ربما أن مجتمعات المدن العربية المعاصرة وأن تعاظمت في ضخامتها إلا أن الحياة الاجتماعية والعلاقات والخصائص الثقافية قريبة من المجتمعات التقليدية . أي أن التحضر وفق المفهوم الديمغرافي لا يتسق مع التحضر النوعي وبخاصة في المدن العربية المعاصرة في هذه المرحلة التاريخية من تطورها السياسي والاقتصادي .

خصائص التحضر المَرضَية في البلاد العربية :

إن مناقشة خصائص التحضر في المجتمعات العربية المعاصرة يرتبط بالعوامل التاريخية التي تفسر العوامل التي أدت في تشكيل وصياغة الأوضاع الراهنة . ولكل دولة / أو مجموعة من الدول العربية ترتبط بأحداث تاريخية مميزة منها مايرجع إلى الماضي البعيد (القدس ، والمدينة والقاهرة ودمشق) ومنها ما يعود إلى الماضي القريب - الدول الخليجية النفطية (الكويت ودولة الإمارات المتحدة وقطر) ساهمت في النمو الحضري السريع والذي يتم بمعدلات مرتفعة . كما أن سياسة

الاستعمار الذي سيطر على الدول العربية كانت تميل إلى خفض عدد المدن الكبيرة وحصرها في مدينة أو اثنتين حتى تتمكن من أحكام السيطرة على الثروات المادية والبشرية . وحتى بعد مرحلة الاستقلال فنجد أن غالبية الدول العربية لم تتمكن من تحقيق اللامركزية الإدارية والسياسية بشكل يؤثر في التوازن الحضري سواءً في حجم المدن أو في نطاق تطور الحياة في مجتمعات المدن .

وفي مجال مشروعات التنمية الاجتماعية ، فإن الجزء الأكبر من أنفاق الدول العربية (عدا الانفاق على التسلح والقوات المسلحة) يوجه نحو تطوير الخدمات التعليمية والصحية والدفاع الاجتماعي والرعاية الاجتماعية والاعلام والإسكان والمرافق العامة والترويح والخدمات الدينية في المدن الرئيسية على حساب المدن المتوسطة والصغيرة والقرى . ويرجع السبب في ذلك إلى تضخم مشاكل زيادة الكثافة السكانية ومكافحة التلوث ومعالجة مشكلات ضواحي العشش والصفيح المنتشرة حول المدن والعواصم . كما أن الأنشطة الثقافية والعلمية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أصبحت عناصر جذب لمختلف الشرائح الاجتماعية في الريف والمدن الصغيرة والمتوسطة .

ويوجد في البلاد العربية (٥) مدن مليونية (القاهرة ٦ مليون - الأسكندرية ٢,٣٠ ، بغداد ٢,١ - الدار البيضاء ١,٣ - الجزائر ١,٢ مليون) . أما مجموع المدن المئة ألفية فيصل إلى ٧١ مدينة يتراوح عددها من دولة لأخرى حيث تحتل مصر أعلى نسبة (١٨ مدينة) ثم المغرب (١٠) فالسعودية (٧) ثم العراق (٦) وسوريا (٥) والسودان (٤) وباقي الدول تضم أقل من هذا العدد .

وتدور عملية النمو الحضري في الدول العربية في حلقة مفرغة تزداد تأزماً سنة بعد أخرى تحول دون معالجتها الإمكانيات والفعاليات اللازمة لمواجهة المشكلات المتفاقمة . إذ أن معظم الاستثمارات المحلية والدولية تتمركز في المدن الرئيسية التي تتطلب المزيد من الأيدي العاملة لإنجاز المشروعات العمرانية والخدمات اللازمة لها مما يزيد من معدلات الهجرة الداخلية والدولية وهذا بالتالي يزيد من الضغط على الإسكان والمؤسسات الحضرية - الشرطة والأمن العام ، المدارس والمعاهد ، المستشفيات والعيادات والتلوث وغيرها .

ومن العوامل التي ساعدت على التركز السكاني في المدن الرئيسية مايرجع إلى أن السلطة مركزية وتتخذ العاصمة المقرّ للخدمات والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ولو أخذنا عمان وبغداد على سبيل المثال فنجد أنها تضاعفت في عدد سكانها أكثر من ١٠ مرات منذ الثلاثينات وتضم كلاً منها بين ٢٠ - ٣٠ ٪ من اجمالي السكان ويوجد في كل منها أكثر من ٥٠ سفارة وقنصلية وحوالي

٩٠٪ من البنوك والمحامين و ٨٠٪ من المهندسين و ٧٥٪ من الأطباء و ٦٠٪ من المؤسسات الصناعية والتجارية .

ومن خصائص النمو الحضري في الدول العربية المدن تؤدي وظائف استهلاكية أكثر مما تؤدي الوظائف الإنتاجية وازدادت الهجرة الدولية في الدول النفطية خلال العقدين الأخيرين مما أدى إلى تغيير النمط السكاني بصورة جذرية .

كما أن التنظيم الإداري والسياسات التخطيطية في بلديات المدن العربية ، بالرغم من الجهود الملموسة التي تبذلها في مواجهة تحديات النمو المرضي ، إلاّ أنها تفتقر إلى جذب الكفاءات على مستوى رسم السياسات واتخاذ القرارات في القضايا الحضرية الإساسية أو على مستويات التنفيذ والتخطيط في المدى القصير أو في المدى البعيد . إن غياب التخصصات في العلوم الإدارية والاقتصادية والاجتماعية يجعل مهمة المهندسين المعماريين والمدنيين صعبة وقاصرة عن التخطيط الواقعي لمجتمعات المدن العربية المستقبلية .

الآثار الاجتماعية للتحضر :

إن النموّ الحضري الذي يتمّ بصورة تدريجيّة وبخاصة في المجتمعات القبلية والتقليدية وكذلك الذي يتم بمعدلات مناسبة (تلك المعدلات التي تتمشى مع الزيادة السكانية الطبيعية أو أكثر قليلاً ، وتلك التي تقل في العادة عن معدّل الدخل القومي لكل دولة) ، إن هذا النمط من النموّ يسهم في الآثار الإيجابية في المجتمع بالنسبة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تشهدها المدن سواء جاءت هذه التغيرات بصورة تلقائية أو ضمن إطار التخطيط التنموي .

إن زيادة المؤسسات الاقتصادية ومراكز البحوث والدراسات التكنولوجية ، وزيادة عدد المستشفيات التخصصة والجامعات المتقدمة وكذلك الصناعات المتنوعة والجمعيات العلمية والاجتماعية والمنظمات الثقافية والأدبية المتنوعة وتمركزها في المدن ، يسهم في اثراء الوظائف التي تؤديها المدن كمركز اشعاع حضاري ومصدر تقدم علمي . إن الحركة السكانية من الريف إلى المدن يمكن التظر إليها على أنها ظاهرة صحية طالما تمّت في إطار التوازن السكاني وتخفيف الضغط على المجتمعات الريفية الناجم عن ارتفاع معدلات المواليد وزيادة فائض العمالة . أما إذا تخطت الهجرة الريفية

الحدود الطبيعية من حيث الكم والنوع ، فإنها تسبب آثاراً عكسية على المجتمعات الحضرية المستقبلة والمجتمعات الريفية المرسلة للمهاجرين .

ومن الآثار الإيجابية الاجتماعية للنمو الحضري في الدول العربية هو ظهور شرائح اجتماعية (طبقات) جديدة مثل طبقات العمال والإداريين والمثقفين والتكنوقراطيين ، كما يتضح النشاط النسائي في مجالات القوى العاملة وتتشكل الجماعات والجمعيات ذات الأغراض المتعددة . ومن النواحي العمرانية ، فان المدن تضم العديد من المدارس الهندسية العمرانية لمختلف أنماط العمران سواء للإسكان والأسواق والمرافق الدينية والترويحية والتربوية والاقتصادية والصناعية .

أما الآثار الاجتماعية السلبية التي تفرزها عملية التحضر في المجتمعات العربية المعاصرة فيختلف من دولة لأخرى وفق العوامل التاريخية والنظم الاقتصادية والسياسية السائدة . ومن ناحية أخرى تتفاوت حدة المشاكل حسب العوامل الأساسية المسببة لها (مثل سرعة التحضر ، أنماط التحضر ، معدلات النمو الحضري ، نمط الانتاج وملكيته وأدواته .. الخ والهجرة الداخلية والدولية) .

ويمكن تلخيص الآثار الاجتماعية السلبية للتحضر في المجالات التالية :

١ - إن الامتداد الأفقي للعمران يؤثر في تفكك العلاقات الاجتماعية ويزيد من عبء سلطة المدينة لتوفير الخدمات الأساسية اللازمة - مثل المدارس والمصحات والماء والكهرباء والطرق .

٢ - إن سرعة النموّ ومعدلاته المرتفعة يجعل المخططين عاجزين عن مواجهة التحديات ويزيد من تعقد المشكلات - مثل التلوث والنفايات والمواصلات والمجاري والإسكان ...

٣ - يزداد الصراع القيميّ بين القيم الحضارية التي يتمثلها سكان المدن الأصليين وتتعارض مع القيم الريفية والبدوية مما يعطّل عملية التكيّف الاجتماعي والثقافي .

٤ - إن العلاقات الثانوية وتعدد الأدوار واتساع نطاق تقسيم العمل ودخول المرأة ميدان التعليم والعمل ، وزيادة عدد المؤسسات والجماعات التي تعني بشئون التنشئة الاجتماعية والتوجيه والرعاية أدى إلى تفكك العلاقات الأسرية وفتور العلاقات وبالتالي أدى إلى السلوك الانحرافي وارتفاع معدلات الجريمة على اختلاف أنواعها .

٥ - أن النمو الحضري المعاصر يزيد الهوة بين المجتمعات الحضرية والمجتمعات الريفية والبدوية بالرغم

من تواجد سكان الريف في المدن وارتباطهم بمجتمعاتهم عن طريق الزيارات وإرسال المال للأهل والأقارب ، إلاّ أن التقدم الذي تحققه المجتمعات الحضرية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية أسرع من التقدم في المجتمعات الأخرى .

٦ - لقد ارتفعت نسبة الطلاق في المجتمعات الحضرية العربية ، كذلك ارتفعت معدلات انحراف الشباب ، كما زادت معدلات الجريمة مثل الانتحار ، والقتل ، والاعتداء الجنسي والسرقات والغشّ والعبث بأموال الدولة وممتلكاتها والإدمان على المخدرات بأنواعها المختلفة .

٧ - لقد ظهرت مشكلة العشش وتجمعات الصفيح والكرتون التي تتمركز في ضواحي العواصم والمدن الرئيسية ، وتضم المهاجرين من الريف أو الذين يدخلون البلاد بصورة غير رسمية وغالباً ما يكون هؤلاء من ذوي الدخل المحدود وغير الحرفيين والأميين . إن المنشئات التي يقيمونها غير منظمة ولا تتوفر فيها الخدمات الأساسية وغالباً ما تتحول إلى مصدر للأمراض الاجتماعية والصحية التي تنتقل إلى مجتمعات المدن .

الآثار النفسية للنمو الحضري :

أصبح مجتمع المدينة مزيجاً من السكان يضم مختلف الأجناس والألسن والثقافات والديانات والمذاهب الفكرية والسياسية ومختلف الاتجاهات المهنية والهوايات والانتماءات . إن تضخم المدن بسبب الهجرات المحلية والدولية هزّ المجتمعات الحضرية وغير من شخصية مجتمعها وأدى الازدهار المادي إلى ضعف الروابط الأسرية التقليدية والقيم الروحية والأخوة والتعاون والشعور بالانتماء والاستقرار . إن القيم المادية التي أخذت تسيطر على العلاقات الاجتماعية - خاصة في الدول النفطية - قد زادت في الشعور بالاغتراب والانفصام بين القيم العربية والإسلامية الأصيلة وبين القيم الغربية والشرقية التي تغزوا المجتمعات الحضرية في مختلف مجالات الحياة .

إن الآلة والمصنع والسيارة والتلفزيون والفيديو قد أثر في سلب الإنسان العربي حريته وأفقده القدرة على الابتكار والإبداع طالما أن استيراد التكنولوجيا والانفتاح الاقتصادي والثقافي قد عمّق إحساس المواطن بتخلفه الحضاري وزاد من شعوره بالاغتراب .

لقد أدى التضخم الحضري السريع وغير المتوازن إلى أوضاع وظروف ساهمت في التركيب النفسي والاتجاهات والانفعالات لدى الأفراد والجماعات في المجتمعات الحضرية . لقد ازدادت أهمية

المؤسسات (الأمن العام والشرطة والقوات المسلحة) في توفير الحماية والوقاية وفي الضبط الاجتماعي بسبب التغيّر الذي حصل في العلاقات الأسرية والاتجاه نحو الذات والمصالح الفردية والاعتماد على النفس في تدبير شئون الحياة وضعف الروابط الأسرية والتحول في بعض الوظائف التي كانت تؤديها الأسرة وفي الأنماط السلوكية .

إن المهاجرين من الريف والبادية يواجهون العديد من المواقف السلوكية في نطاق البحث عن العمل أو اختيار المسكن أو في مجال التفاعل مع الشرائح الاجتماعية المختلفة من العمال والمديرين والموظفين على الصعيدين الرسمي وغير الرسمي ، بالإضافة إلى ما يشاهدونه من أنماط السلوك الحضرية في العادات والمأكل والملبس والسلوك الأخلاقي ، إن مثل هذه المواقف تحدث لهم الصدمة الثقافية ثم بالتالي تؤثر في الاتجاهات التي تتكون لديهم إزاء هذه المواقف . فنجد بعضهم يتمكن من التكيف مع بذل الجهد والتنازل عن القيم والمعتقدات الريفية ، في حين نجد الغالبية يواجهون المتاعب وقد يرفضون الانصياع لمطالب الحياة الحضرية وبالتالي يصابون بالأمراض النفسية المتنوعة - الانطوائية ، العدوان ، السلبية ، حب الانتقام ، عدم الانتماء ، الاغتراب ، ... الخ . وقد ينعكس ذلك في تطوير عادات وأنماط سلوكية غير مرغوبة مثل الإدمان على الكحول والمخدرات ، السلبية ، عدم الانتماء وضعف الإنتاجية في محيط العمل .

لقد ازداد عدد الإصابات بالأمراض النفسية والعقلية والعصبية وقد امتلأت المستشفيات الحكومية والخاصة بالمرضى من مختلف الشرائح الاجتماعية وفئات السن بسبب الانتقال الحضري السريع والتبدل القيمي وضعف الروابط والعلاقات الروحية والأسرية وبين أفراد الحيّ مما أدى إلى زيادة الضغوط النفسية على سكان المدن سواءً الأصليين منهم أو الوافدين من الداخل والخارج .

إن بعد المسافة التي يقطعها الموظف أو العامل بين المسكن والعمل أو السوق أو في زيارة الأهل أو في الترويح عن ذاته بالإضافة إلى المواقف المتناقضة التي تمر أمامه يومياً تؤثر في حالته النفسية والعصبية ، وتزيد من الارهاق والأعياء الجسمي والذهني الذي يتراكم يومياً وعلى مدار السنة . إن التغيرات الاقتصادية انعكست على الحياة الاجتماعية والسياسية والاستقرار النفسي للأفراد في المدن .

إن المجتمعات العربية تمر في مرحلة انتقالية وتتجه نحو التحديث والانفتاح على النظم والأفكار والسياسات الشرقية والغربية ، وتبتعد عن البحث عن أصالتها وذاتها ويتضح ذلك في المدن

أكثر من الأريـاف . إن التكنولوجيـا المستوردة تتطلب التغير والتكيف النفسي والاجتماعي لتتلاءم مع حاجـات وتطلعـات الإنسـان العربي . لقـد أصبح كل شيء حول الإنسـان في المـدينـة العربيـة مستورداً من الشرق أو الغرب حتى ملابسه وطعامـه والأدوات التي يستخـدمهـا في العمل والإنتـاج والمواصلات والترويح والتعليم والصحة وكل منها تحمل أختام الـدول المنتجـة . ويزداد إزاء كل مـا يشاهده الإنسان الحضري من حوله من سلع وآلات مستوردة إحسـاسـاً بـالضعف والضيـاع وفقـدان الثقة بنفسه والتمثل بقيم مادية كما يفقد الصلة بعروبته وعقيدته .

كيف نعالج الآثار السلبيـة الاجتماعيـة والنفسيـة في ظلّ الاتجـاهـات المعـاصرة للنموّ الحضري ؟ وأين نبـدأ وكيف ؟ ومـا هي الاستعـدادات اللازمـة لتوفير الاستقرار والتماسـك الاجتماعي وتعميق الهوية والشخصية العربية سواءً في الجوانب الطبيعية والعمرانية للمدن العربية الإسلامية مستخدمين التكنولوجيا المعاصرة وأجهزة الكمبيوتر وفي نفس الوقت نبرز سمات الحضـارة الإسلاميـة الأصيلـة كما نبرز التراث والأصالة في قالب عصري حديث ؟

في المراحل الأولى فإن العبء الأكبر يقع على عاتق المخططين والعلماء العرب في إجراء البحوث والدراسات العمليـة التي تضم التخصصـات المتكاملـة (الاقتصـاد والاجتماع والنفس والأنثروبولوجيـا والتاريخ والجغرافيا والسياسة) والتي تشخص طبيعة ونطاق وعوامل النمو الحضري المرضـي وتحدد آثاره النفسية والاجتماعية على المجتمع القومي ثم على المجتمعات الحضرية ، ثم التخطيط المتكامل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تتضمن التوازن الحضري واللامركزية في تقسيم العمل وتحـديث وتطوير المجتمعات الريفية وضبط معـدلات النمو والتنميـة بمـا يتمشى مع حـاجـات البلاد واستقرار ورفـاهيـة المواطنين في حـدود بنـاء المجتمع العربي العصري والشخصيـة العربيـة المتكاملـة التي تؤمن بـأصـالتهـا وتعتمد على الذات في تحقيق التقدم الحضري المتميز والصحي .

هذا ولابد من الاستمرار في الحوار العلمي بين أجهزة الدولة المختلفة في مناقشة القضايا الأساسيـة التي ترتبط بالتخطيط التنموي على المـدى البعيـد وفي المـدى القصير ومعـالجـة المشكلات الاجتماعيـة والنفسية في إطار مخطط هيكلي شامل .

إن النمو الحضري الطبيعي يسهم في مسـاعـدة المـدن أن تقوم بوظـائفهـا العلميـة والتكنولوجيـة وتكون مصدر إشعاع حضاري ليس على مستوى الوطن العربي فحسب بل على المستوى العالمي .

الهوامش

(١) يعتبر ورث في كتـابـه (Urbanism as a Way of Line) بعض الخصـائص مثـل الحجم والكثـافـة والانفتـاح كمؤشرات أسـاسيـة في تحليـل العمـل الاجتماعي - أمـا ردفيلـد فيعتبر الانفتاح وقلة العزلة من الخصائص المميزة للمدينة . ويعرف العـالمـان التحضر كنمـط للحيـاة على أنه يمتاز بالعلاقات الثانوية والمؤسسـات التطوعيـة واتسـاع نطـاق تقسيم العمل وتعقـد الأدوار وتفكك القيم الاجتماعية ومحور الاتصال والمواصلات .

(٢) Hipe Tisdase Eldridge – The Process of Urbanization in J. J. Spengler and O. D. Duncan (Edit.) Demographic Analysis – Glenco, Free Press 1956 P. 388.

(٣) صلاح قنصوه « بعض ظواهر التنمية ذات الصلة بالسلوك » المنظمة الدولية الغربيـة للـدفـاع الاجتماعي - بحث مقدم في المؤتمر العربي حول التنمية والدفاع الاجتماعي .
الدوحة . ١٩٧٢ ص ٣٠ - ٣٢ .

(٤) أنظر كتاب أبو عباس ، واسحق القطب - الاتجاهـات المعـاصرة في الـدراسـات الحضريـة - وكالة المطبوعات ١٩٨٠ ص ١٢١ - ١٢٥ .

(٥) أحمـد كمال وآخرون - دراسـات في علم الاجتماع - دار الجيـل للطبـاعـة ، مصر ١٩٧٤ ص ٣٠ - ٣١ .

(٦) نفس المصدر السابق .

(٧) U. N. Selected World Demographic and Population Policy Indicators. 1978.

(٨) نسبة السكان الحضر ترتبط بتقديرات عام ١٩٧٨ كما هو وارد في المصدر السابق .

(٩) نفس المصدر السابق رقم (٧) المذكور .

(١٠) المصـدر - United Nations – World Bank. Urbanization. 1972.

(١١) المصدر - الكتاب السنوي للأمم المتحدة ١٩٧٤ - ١٩٧٩ .

(١٢) أنظر كتاب منظمة المدن العربية - المؤتمر الخامس الذي ناقش الهجرة من الريف إلى المدن في الدول العربية وتناول آثار الهجرة وخصائصها ومقوماتها والحلول المناسبة لها . وقد عقد في المؤتمر في الرباط ١٩٧٨ .

(١٣) المصدر - نشرة اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا ECWA . ١٩٨٠ .

مشكلة نمو المواهب الإبداعية عند الأطفال

دكتور محمد أحمد سلامة
أستاذ مساعد بقسم علم النفس

مقدمــــة

يمثل الأشخاص المبدعون أو المبتكرون أو العباقرة أهمية قصوى في حياة الإنسانية التي تعيش سباقاً هائلاً مستمراً مع الذات ومع الزمن يصنع الجديد في كل لحظة في كل مجالات الحياة . فهؤلاء الأشخاص – جهراً أو سراً – يصنعون التاريخ ويعيدون تشكيل حياة الشعوب . وحين تتنادى شعوب العالم اليوم إلى التنمية أو تتواصى بالتقدم ، فإن الأمر كله في النهاية يصبح في يد هؤلاء المبدعين . ولذا ، فإن المعيار الأساسي للتمييز بين الدول المتقدمة والطامحة إلى التقدم وغير المتقدمة لايجب أن يكون في القدر المتاح للأفراد من وسائل ووسائط التكنولوجيا الحديثة وأساليب الحضارة المعاصرة ، ولكن في القدرة على اكتشاف الموهبة ورعايتها وتشجيعها .

وقد عرض كثير من الباحثين لتعريف الإبداع أو الموهبة كمرادفات للابتكار ، واعتمد بعض هؤلاء الباحثين في تعريف الابتكار على تحديد سمات الشخصية التي تميز الابتكارية العالية من الناحية النفسية أو العقلية ، بينما اتجه البعض إلى تعريف الابتكار على أساس مضمون وكنه ومراحل العملية الابتكارية أو الابداعية ، وسار فريق ثالث في طريق تحديد العوامل والظروف البيئية التي تساعد على اكتشاف الابتكار وتنميته ، بينما اعتمد بعض آخر على معيار قيمة أو عائد أو نفع العملية أو الإنتاج الابتكاري للمجتمع والإنسانية .

ولأن مجال الدراسة الحالية هو الطفل الموهوب أو العبقري ، فإننا نعرض التعريف الذي قدمته لجنة التعليم والعمل بالولايات المتحدة الأمريكية (U.S.O.E.) سنة ١٩٧٢ للطفل الموهوب أو العبقري على أنه « صاحب الأداء المرتفع أو الإنجاز العالي في واحد أو أكثر من المجالات الآتية :

(١) القدرة العقلية العامة .
(٢) قدرة أكاديمية متخصصة .
(٣) تفكير ابتكاري أو خلاق .
(٤) موهبة القيادة .
(٥) الفنون البصرية أو التمثيلية .
(٦) القدرة النفس - حركية .[٣٦]

ويرى وارنر «Warner»[٥١] استاذ التعلم في جامعة واشنطن أن هذا التعريف يتميز على كل التعريفات السابقة عليه بأنه يؤكد على أهمية تقديم المساعدات للموهوبين لكي يصبحوا قادرين على تحقيق خدماتهم للذات وللمجتمع ، لأن التعريفات السابقة على ذلك كانت تولي اهتماماً ضئيلاً للحاجات النفسية للفرد والمجتمع .

وقد ساعد ذلك على أن تظهر في السنوات الأخيرة وجهة نظر وسطية جديدة تقول بأن العبقرية كخاصية نفسية مستقلة لاتوجد ، وأن عبقرية الإنسان المتوسط لا تتميز بتواجد خصائص فريدة أو شاذة ، ولكن بالنمو والتطور القوي لبعض الصفات أو الخصائص مع ثبات البعض الآخر ، ويمكن أيضاً مع كبت الثالثة . وبالتبعية ، فإن الأمر في هذه الحالة لا يتوقف على إدخال عنصر جديد أو مكون جديد في الشخصية ، ولكن في إعادة بناء أو إعادة تنظيم هذه المكونات . ويرى جيلفورد (Gulford)[١٤] أننا لو استطعنا رفع مستوى الإبداع عند الإنسان المتوسط - ولو بنسبة مئوية بسيطة - فإن النتائج الاجتماعية ستكون باهرة .

طبيعة الإبداع ومشكلة دراسته :

تمثل مشكلة الإبداع وتطور المواهب الخلاقة عند الأطفال مشكلة معقدة بالنسبة للبحث ، ولكن دراسة كل المداخل الممكنة إليها هامة للغاية في الوقت الحاضر . وتعقد هذه المشكلة مرتبط بعدد كبير من العوامل المختلفة التي تحدد طبيعة ومظهر المواهب الخلاقة . وبصورة أساسية يمكن

توحيد هذه العوامل في ثلاث مجموعات أعم وأشمل : تتضمن المجموعة الأولى : الصفات الموهوبة الطبيعية والخواص الفردية التي تحدد تشكيل الشخصية المبدعة - وفي المجموعة الثانية : تدخل كل أشكال تأثير الوسط الاجتماعي على تطور وظهور المواهب الخلاقة وأخيراً فالمجموعة الثالثة : هي ارتباط نمو الابتكارية (الشكل الإبداعي) بشكل ومضمون النشاط .

إن دراسة وتحليل العوامل المذكورة وعلاقاتها المتبادلة يمكننا من تحديد أسلوب التشكيل الهادف للقدرات الخلاقة للأطفال . وتشكل القاعدة النظرية والمعطيات الأمبيريقية المتضمنة في أعمال علماء النفس الغربيين أثناء تحديد الأطر الثلاثة لدراسة طبيعة وظروف نمو الإبداعية عند الأطفال مجالاً ممتعاً للدراسة . ويلزم التنويه أنه في علم النفس الغربي المعاصر يتزايد الاهتمام بمسألة النمو الإبداعي للأطفال ، وهذا ما يشرحه نفس المؤلفين بأنه الحاح الحاجة الاجتماعية إلى الكوادر المبدعة .

لقد توقفت التجارب الفقيرة عند الاختبارات المعتادة التي تدرس نسبة الذكاء ، التربية التقليدية ، التفكير القياسي أو المعياري مع غياب الأصالة أو الابتكار .

إن مشكلة نمو القدرات الإبداعية ترتبط كذلك بوضع الوطن الذي يتوقف على الإنتاج الإبداعي كمًّا وكيفاً ، وبالرضا الشخصي عن العمل ، وبمشكلة وقت الفراغ والاتجاهات الأسرية المتفائلة وغيرها (٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٥) .

ويجب التأكيد على أن الأسس الجديدة في مجال الإبداعية والقدرات الخلاقة تظهر كاحتجاج ضد الانتقاء أو الاختيار في التعليم وضد سيادة اختبارات الذكاء كطريقة لتحديد مستوى تطور القدرات العقلية للأطفال (٦ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٨) .

إن النظرية القوية والشاملة عن الإبداع وتطور القدرات الإبداعية لم توجد بعد ، رغم أنه في كل الأعمال التي نراها يمكن تتبع نزعة وحيدة وأسس واحدة كمدخل نحو حل هذه المشكلة ، وكلها مطبوعة بالنزعة العملية التي يقوم عليها المتخصصون أساساً في العملية التعليمية (٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤٥) .

وتضع الدراسة الحالية في الاعتبار - وبصفة خاصة - المواقف العامة (التي تظهر مباشرة أو التي تعتبر مضموناً حقيقياً للأبحاث) والمعايير الخاصة ، والجوانب الفطرية ، والشروط الاجتماعية ،

إن النزعة السائدة في الدراسات النظرية المتعلقة بالقدرات الإبداعية تعود إلى الأسس التالية :

(١) إن القدرات الخلاقة طبيعية وتوجد لدى كل طفل ، ولذا تصبح الساق الإبداعية الأولى هي الميول الفطرية وبالذات حب الاستطلاع والتقليد والمحاكاة ، وهذا يقود إلى أهمية التربية السليمة لعادات التفكير الأولى ، وصولاً إلى الساق الثانية وهي الابتكارية . والابداعية هي الوظيفة الطبيعية للمخ ، والتي تظهر وتتحقق في النشاط في شكل توفر مواهب خاصة بهذا النشاط الملموس أو ذلك (٢ ، ١٢ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٤٥) .

وهناك إبداعية العظماء ، والإبداعية في تنفيذ الأمور اليومية البسيطة ولا يجب أن ننسب الابتكارية فقط إلى عمل الكاتب أو الفنان أو العالم أو المصمم ، لأنها يمكن أن تظهر في النشاط التعليمي والتجاري وفي إعداد الأطعمة وفي أي نشاط آخر . والإبداعية هنا لاتظهر في النتائج المحسوسة أو الأفكار فقط ولكن أيضاً في أسلوب العمل ذاته (١٦ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٥) . والإبداعية بهذا المعنى يمكن أن تنظر إليها على أنها عديد من أساليب النشاط الخاصة وليست صورة النشاط أو مظهره . وأسلوب النشاط هذا لا يتطابق دائماً مع القدرات الخاصة بهذا النشاط أو ذاك . وبجانب ذلك فإن الابتكارية يمكن أن تظهر عند هذا الشخص أو ذاك في أشكال نشاط مختلفة ، فالعالم الذي لا يجد موضوعاته في العلم مثلاً يمكن أن يصبح مربياً عبقرياً أو منظماً أو هذه وتلك معاً (٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٤١) . هذا علاوة على أن الابتكارية لا ينظر إليها كعامل وحيد ولكن كمجموعة قدرات مختلفة يمكن لكل منها أن تظهر بدرجات متفاوتة عند هذا الشخص أو ذاك (٢٠) . ولذا أشار « سميث » (Smith) إلى أن العمليات المطلوبة للفنان الابتكاري هي نفس العمليات المطلوبة للعالم الابتكاري (٣٧) .

هكذا ، فإن المربي يجب أن ينظر إلى كل الأطفال على أنهم (ابتكارية كامنة) ، ويصبح واجب المربي هو الكشف عن الإبداعية الفردية للطفل والطموح إلى تطويرها – ولكن ذلك بالطبع يستلزم أن يكون المعلم نفسه مبدعاً .

(٢) إن تطور الابتكارية كأسلوب للنشاط يتم خلال النشاط ذاته ، وخلال النشاط المبدع ، وهذه هي الوضعية الهامة الثانية بالنسبة للنشاط التربوي . والنظرة إلى التفكير المبدع

كطبيعة عند كل فرد ، واعتبار أنه بهذا المبدأ خاصة يتم كل عمل الوعي الباطن ، فإن الباحثين يرون سبباً للشكل الآخر ، أي الأسلوب غير المبدع للتفكير . فالأطفال أثناء عملية التعلم في المدرسة يصطدمون باستمرار بالمسائل ذات الطابع المغلق – أي ذات العناصر المعطاة والحل الوحيد الصحيح . وعلى هذا الأساس صممت كل اختبارات الذكاء (٦ ، ١٠ ، ١٧ ، ٢٠) . ونتيجة لهذا يتحدد عند الأطفال أسلوب التفكير الذي يقوم على المعارف والعمليات المتحصلة والمحددة من قبل (القبلية) (١) . والخبرة أو المران على الخروج عن الإجابات المعروفة والمشهورة ، الأصالة والتفكير الاستقلالي ، شطحات الخيال والأفكار أي خواص التفكير الابتكاري يمكن أن تتكون فقط إذا ما توافرت للطفل امكانية التمرين على مسائل وواجبات الطابع المفتوح . فمسائل هذا الطابع تتطلب الاستقلالية الكاملة في اختيار طريقة الحل وتتيح امكانية اقتراح أي حل ذكي للمشكلة (٦ ، ١٠ ، ٢٠ ، ٣١) . ولتأكيد هذا الوضع تطرح المعطيات التي نحصل عليها من تنظيم إطار ابتكاري خاص عن طريق تحديد وحل المشكلات ذات التأثير الإيجابي على تطور الابتكارية (٢٩ ، ٣١) .

وفي البحث الذي أجرته (روى) (Roe) على أربعة وستين عالماً مشهوراً ظهر من دراسة تواريخ حياتهم نزعة عامة واحدة ، فكلهم في الطفولة مالوا إلى الإبداعية ، وكانوا يبتهجون للجديد (٣٣) .

كما يجب التأكيد على أن ظهور المواهب الإبداعية يكون أيسر في النشاط الذي يكون للطفل ميل واضح نحوه (١٢) . ومن هنا يلزم إشراك الأطفال وملاحظتهم في قدر كبير متنوع من النشاط ، وإعطائهم أكبر قدر متاح من مسائل واختبارات متنوعة الموضوعات (٢١ ، ٢٣ ، ٤٥) . وأثناء حفز أو توجيه الطفل نحو هذا الشكل من النشاط الذي يمكن فيه أن تتحقق صفاته الموهوبة فإن المربي يمكن أن يمهد لظهور وتكوين البداية الابداعية . إذ لا يجب أن نفهم التعليم كتحصيل بسيط للمعلومات واستيعاب لمعارف الآخرين الجاهزة واكتشافاتهم وأفكارهم ، ولكن كتمرين على الأشكال المختلفة للنشاط العقلي : في تحديد المشكلة ، في التحكم في المعلومات المتاحة وتحويلها ، وفي التفسير (٢٣) .

(٣) والأمر الثالث الذي لا يقل أهمية بالنسبة للنشاط التربوي يتلخص في أن الباحثين يؤكدون على الدور الهام (للوسط الاجتماعي) بالنسبة لظهور وتشكيل الابداعية الفردية . ورغم أن

الوسط (لا يصنع ولكن يكتشف العبقري) (١٢) ، فإن إليه يعزي القدر الأكبر من التأثير على تشكيل المتغيرات المختلفة للابداعية أو الابتكارية ، وتبقى نسبة ضئيلة لحتمية الوراثة (٥ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٤٥) .

إن متطلبات الوسط الاجتماعي ، المحيط القريب ، التقاليد والاتجاهات في التعليم يمكن أن تحفز أو – على العكس – تحبط المواهب الخلاقة للأفراد الذين لا يملكون ابتكارية كامنة عالية . وبالنظر إلى حقائق الحياة التي تشهد على أن العباقرة المبدعين قد عاشوا في صراع دائم مع الوسط الاجتماعي المحيط (مشتملاً على الصراع في الأسرة) (٣٢ ، ٤٠ ، ٤١) ، فإن المؤلفين يصلون إلى استنتاج بأن هذا يعزي فقط إلى حالات فردية وبالذات للموهوبين البارزين الذين يملكون الصفات الشخصية المناسبة (١٠ ، ٤٥) . ولذا يجب أن يتجه المربون والباحثون إلى الأغلبية المتوسطة ، أي الذين يمكن أن تظهر قدراتهم الابداعية في ظروف (الجو الملائم) فقط (١٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٥) . فالأطفال المبتكرين الذين قد شكلوا فعلاً في سنوات ما قبل المدرسة كابداعية فردية يمكن أن يساعدوا في دراسة طبيعية الابتكارية والعوامل التي تحدد تشكيل القدرات الخلاقة (١٠ ، ١٢ ، ١٨) .

أدلـــة الابتكـــارية

لم يحظ الإبداع والابتكار بالاهتمام الكافي في الدراسات النفسية حتى الخمسينات من هذا القرن، إذ يشير «جيلفورد» إلى أن من بين (١٢١,٠٠٠) دراسة قام بمسحها في (Psychological Abstracts) كان هناك (١٨٦) كتاباً وأداة فقط تبحث في الابتكارية ، أي أقل من ٢ ٪ من مجموع الأبحاث والكتب المنشورة . وأشار « جيلفورد » إلى أن ذلك يرجع إلى صعوبة تحديد مستويات محسوسة للابتكارية وإلى صعوبات قياس القدرات الابتكارية للأفراد (١٣) ، ثم بدأ هذا الموضوع يأخذ حقه من الاعتبار في كثير من الأبحاث . ولقد نوقش سؤال عن امكانية استخدام المقاييس الخاصة بتحديد الجهد الابداعي للكبار – من حيث الحداثة والمعنى الاجتماعي للانتاج الابداعي وتأثيرها على الأفكار والاتجاهات التالية – على الأطفال لتحديد نفس الجهد عندهم . وبقدر عدم اشتراك الأطفال بعد في القيمة الاجتماعية للنشاط فإن ناتج الموهبة عندهم لا يمكن تقييمه بحسب قاعدة (المعنى الموضوعي) أو (الفائدة الموضوعية) . وبالنسبة للأبحاث على الأطفال يقترح استخدام

ما يسمى (الشواهد الذاتية للابتكارية) . وهذه موجهة نحو تقدير نفس العملية أي أسلوب أو نمط النشاط الفكري ، وليس نتيجة تنفيذ النشاط الابداعي . فالطفل مثلاً يكتشف في الدرس قانون الأعداد الأصلية (كما كان ذلك في الطفولة مع رياضة جاوس) . وهذا القانون مكتشف بالفعل ، ولذا فإن الاكتشاف من جانب الطفل ليس له المعنى الاجتماعي الموضوعي ، رغم أنه يعتبر دليلاً على الابتكارية الذاتية للطفل (١٠ ، ٢٣) .

وكل الاختبارات المقترحة على الابتكارية موجهة للكشف عن بعض (الأدلة الأولية أو المبدئية) للابتكارية ، والتي تؤدي إلى ظهور الابتكارية الذاتية أي أسلوب النشاط الابداعي دون ارتباط بالحداثة الموضوعية وقيمة النتائج (٦ ، ١٠ ، ٢٣) . وهذه الأدلة المبدئية عامة بالنسبة للأطفال والناضجين ، وهي تشكل في رأي بعض المؤلفين أساساً لأي شكل للنشاط الانتاجي ، كما أنها بمثابة خواص تمثل منطلقات عامة لكل صور النشاط الابداعي (علمي - فني - تصميمي ... الخ) (٥ ، ٢٣) .

إن مفهوم الابتكارية - كما قيل من قبل - يتضمن بعضاً من تجمعات المواهب الفكرية والشخصية (الصفات) ، تلك التجمعات التي تحدد تواجد وظهور الابداعية . وظهور الجهد الابتكاري يتم عن طريق المقابلة المستمرة (المقارنة) لنوعي التفكير : المنطلق أو المنفتح (البنائي والمبدع) ، والمحدد أو المنغلق (الحذر ، الناسخ ، غير المبدع) ، وبالتالي نمطي الشخصية المبتكرة والمحددة (١٠ ، ١٢ ، ٤٥ ، ٤٧) .

ولتحديد سمات وخواص الابتكارية فإن كل باحث تقريباً يقترح نظامه الخاص الذي يضم الأدلة الأكثر أهمية من وجهة نظره ، رغم أنه في كل الأنظمة توجد أدلة يتفق الجميع على اعتبارها أساسية . وهذه الأدلة الرئيسية تظهر في النشاط العقلي ، كما تظهر في المحتوى العام في الابداعية الفردية . وسنتوقف عند هذه الأدلة العامة بالذات دون الدخول في تفاصيل أدلة الأبحاث كل على حدة .

الدليـــل الأول :

الذي يميز في رأي أغلب المؤلفين بين الأفراد المبدعين (المبتكرين) وغير المبدعين يتلخص في تفتح تجربتهم أي الحساسية للجديد ، للمشاكل الجديدة . وعلى عكس غيرهم ، من الذين يستطيعون

حل حتى أصعب المسائل أو المشاكل بنجاح بشرط أن تكون جاهزة من قبل ومحددة من قبل آخرين ، فإن المبتكرين قادرين على أن يكتشفوا المشكلات ويحددونها بأنفسهم (١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٣٤ ، ٤٥) . فغير الابتكاريين يمكنهم الحل فقط بينما يصنع المبتكرون المواقف بأنفسهم . وبهذا الشكل فإن الابتكارية تتحدد في المقام الأول بمبادرات عقلية مبدعة أو خلاقة ، وبالنظر فيما وراء حدود المشكلة واحتياجات النشاط المباشر . وهذا الدليل يعتبر هو الدليل الرئيسي في أغلب اختبارات الابتكارية (١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٤٥) .

الدليـــل الثـــاني :

وهو (اتساع المقولات) أي اتساع مجال الارتباط أو الاقتران أو التداعي أو (مدى تباعد الارتباطات) . فأصحاب أسلوب التفكير المبدع يميلون إلى الظواهر الواسعة والأكثر عمومية والغير مرتبطة فيما بينها ظاهرياً وبارتباط محدد أو منطقي . واتساع المقولات دليل على اتساع دائرة اهتمامات الشخص وانتباهه . ففي ارتباط شيئين يخلع الجزء الذي يكون مثار الاهتمام صفته على الكل وتصبح الأشياء التي لم تكن مثار اهتمام في فاعلية وقوة الجزء الأول . وهذا ما يحدث أيضاً في تداعي الأفكار وترابطها حيث تلقح الفكرة الفكرة وتغذيها بما تحمله في طياتها من اهتمام انفعالي حين ترتبطان في صورة من صور التفكير الكلي . هكذا فإن سقوط البرتقالة من على الشجرة لا يرتبط بنضجها ولكن بقانون الجاذبية العامة (وهذا بخلاف نمط التفكير المحدد الذي ينحصر في إطار العنصر الواحد والمحدد) (٦ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٤٩) .

وتباعد الارتباطات ، والاستخدامات غير المتوقعة للمادة وإعطائها معنى وظيفياً جديداً أو تغيير أهميتها ، كل هذه أدلة على اتساع المقولات في اختبارات الابتكارية . ففي اختبارات استعمالات المواد لجيلفورد فإن الخاصية المذكوره تظهر بوضوح حين يطلب إلى المفحوص أن يعدد الاستعمالات الممكنة لمجموعة مواد (مثل الطوب أو المشابك وغيرها) . فأصحاب التفكير المحدد يعددون فقط أوجه الاستخدام الوظيفي المباشر الخاص بمجال واحد (بالنسبة للطوب - البناء) ، أما أصحاب التفكير المنفتح فإنه يقترح استعمال المواد المعطاة بأكثر الطرق غير المتوقعة والأكثر أصالة (صناعة البودرة من الطوب مثلاً) وفي أكثر المجالات اختلافاً (١) .

الدليـــل الثالث :

هو سلاسة التفكير وطلاقته ، وهو يتحدد بغنى وتنوع الأفكار ، الارتبـاطـات التي تتولـد حتى مع أبسط المثيرات ، فالشخص المبدع يمكن أن يدخل المادة في كم من العلاقات والمقولات الشـديـدة التنوع والبعيـدة عن المتوقع ، وذلـك مـايحـدد طـلاقـة التفكير (٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٠ ، ٣١) . ولذلك فإن القدرة على إدراك عناصر الموقف الحر (مثل اللعب الحر) تعتبر طوراً أسـاسيـاً قبل النضج والانطلاق (٣٠ ، ٤٩) . وقد وجد « جيلفورد » أن هنـاك ثلاثـة أشكال للطلاقـة في الاختبارات اللفظية هي : الطلاقة الفكرية ، الطلاقـة الترابطيـة ، الطلاقـة التعبيريـة . ويؤكـد « جيلفورد » بالذات على أهمية الطلاقة التعبيرية كعامل للمستوى العالي للابتكارية (١٦) .

الدليـــل الرابــع :

هو مرونة التفكير – أي القدرة على الانتقال بسرعة من فصيلة أو اقتران إلى آخر ومن طريقـة حـل إلى أخرى . ومفهـوم المرونـة أيضـاً يتضمن سرعـة الانتقـال من الـوعي (الشعـور) إلى عمـل اللاشعور (الوعي البـاطن) والعكس . فخـاصيـة التفكير المنفتـح تتميز عن المحـدد بغيـاب التصلب (الجمود) الداخلي والخـارجي أي التثبيت على المثير وعلى أسلوب الحل (كما تسمى المرونـة العفويـة أو التلقائية) . أما أصحاب التفكير المحدد فيتصفون أحيـانـاً بمـا يسمى (المرونـة التكيفيـة) ، فهم نتيجة لتسمرهم أو تثبيتهم الكبير على المثير يعيدون بسهولة بالغـة تنظيم وجهـة تفكيرهم تحت تـأثير الموقف والمثير والمطلب الاجتماعي (٥ ، ٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٩) .

الدليـــل الخـــامس :

هو أصالة التفكير ، وهذا هو الدليل الأكثر صعوبة في توضيحه وتحقيقـه (٥ ، ٦ ، ١٢ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٩) . ولذا يقترح هنا أولاً مقاييس أو معايير أكثر بساطة لأصالـة إجـابـات الأطفـال الإبداعية إثناء حل الاختبار (مثل الإجابة التي تقابلنا قليلاً ، أو الاستجابة الأقل حـدوثـاً) . رغم أن المضون الأساسي الرئيسي لدليل الأصالـة هو استقلاليـة الحل ، عـدم شيوعـه ، ولماحيتـه (في علاقته بالمثير أو بالأساليب التقليدية للحل) . إن الفكرة الأصيلة فكرة غير مألوفة ، غير عادية ، بعيدة المدى في أهدافها وارتباطاتها ، مفيدة اجتماعياً . (١٤) .

وهذه الأدلة الأولية التي عددناها للتفكير الإبداعي تتشابك فيما بينهـا بقوة ، رغم أن لكل منهـا خاصيتها ومقاييسها (الكم - السرعة - الكيف - المقارنة - الاتجاه) . وعنـاصر التفكير الإبـداعي هذه بالذات هي التي تعتبر مادة الدراسة والتطور ، رغم أنـه لتطوير الكيف المتـاح للنشـاط العقلي لابد من معرفة طبيعيـة الاختلافـات في أسـاليب التفكير ومـا هو سبب الاختلافـات الواضحـة في أسـاليب النشـاط العقلي للنـاس ؟ . وتقصي الإجـابة على الإجـابـة على هـذا السـؤال يتم في عـدة اتجاهـات مختلفـة حيث تحـدث محـاولات لمعرفـة الارتبـاطـات النفسيـة والفيزيولوجيـة والشخصيـة والاجتماعية للابتكارية .

المعايير النفسية للابتكارية

يرى العديد من المؤلفين أن الأنماط المختلفة للنشاط الفكري تتشكل تحت تأثير عمليـات نفسيـة تختلف في خواصها الكيفية . والعملية النفسية الرئيسية التي تنظم النشاط الابداعي في رأي أغلبيـة الباحثين هي : الإدراك (٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤) . ومن هنا تجري محاولـة تحـديـد الخواص اللازمـة لكل مجـالات الإدراك الإنسـاني مقترنـة بـالشواهـد المعبرة عن الابتكاريـة . ويمكن أن نلاحـظ الخـواص التالية لمجال الإدراك لدى الأفراد المبدعين :

(١) حساسية غير عادية نحو المعطيات غير المحسوسة .

(٢) براعة اكتشـاف عـدم الـدقـة ، العيوب أو النواقص ، الخواص الفريـدة في نفس الموضوعـات المألوفة .

(٣) القدرة على اكتشـاف علامـات التقـاطع والالتقـاء بين المواد التي تبـدو منفصلـة ظـاهريـاً أو المستقلـة شكـلاً والتي لا يـوجـد بينهـا صلـة ملحـوظـة . وهـذه الصفــة تقـوم على الإدراك التجميعي والتركيبي الذي يساعد على اكتشاف التشابه بين الموضوعات ، والذي يتغيب تماماً بالنسبة للشكل الآخر - النمط التحليلي للإدراك - إذ بالنسبـة للأفراد ذوي الشكل التحليلي للإدراك يجب أن يكون هناك تشابه كبير في الموضوعات حتى يمكن ملاحظتـه أو اكتشـافـه (٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٧) .

(٤) ويتمتـع المبـدعـون بـالحـدس الخـاص أو البـديهيـة المميزة في إدراك العنصر الرئيسي المؤثر أو الظاهرة الرئيسية المؤثرة ، والتغيرات أو التحويلات المحتملة للموضوع أو الظاهرة . فـالشخص المبدع مثلاً لا يرى الجذع والأفرع كجزء من الشجرة ولكنـه فوراً يحولهـا إلى مجـال جـديـد

للنحت أو الموبيليات المبتكرة ، ذلك أن ملاحظة جوهر الموضوع يستدعي إدراك (الاستخدامات الوظيفية الجديدة للموضوع) والتنبؤ بكل استخداماته الممكنة وتغيراته الكامنة (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٤) .

(٥) وكثيراً ما يتكلمون عن الإدراك العفوي أو التلقائي للمبدعين ، وعن تحررهم من المواقف والاتجاهات الجامدة والثوابت . فهم يدركون العالم كما هو مجرد في ذات اللحظة وليس من خلال رقع الكلمات والمفاهيم . فهم مثلاً لا يرون العشب أخضراً على وجه العموم ولكن بكل درجاته في اليوم المشمس أو اليوم الغائم . وهذه الخاصية الإدراكية تستدعي إقامة (العلاقة الخاصة مع الوسط المؤثر مباشرة وبدون وسيط) ، (فهم الموضوعات في جوهرها الجديد المتميز عن الجوهر المألوف) (١٢ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٤) .

(٦) وبالنسبة للأشخاص ذوي النمط التفكيري الإبداعي فإن أكثر الموضوعات جاذبية هي الموضوعات غير المحددة ، غير المنظمة ، غير المتناسقة ، الموضوعات المعقدة ، تلك الموضوعات التي يحولونها بقوة خيالهم الخصب إلى (نظام أرقى وأكثر تناسقاً) (٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٥) . وفي الإدراك ذاته (تتهيأ) المادة أو الموضوع لعمل التفكير المقبل ، وللإدراك ذاته كل العلامات أو الأدلة الأولية للابتكارية . ولذا يرى كثير من الباحثين ضرورة أن نعلم الأطفال إدراك وفهم العالم أولاً (١٠ ، ١٢ ، ٣١) . وأهمية الإدراك بالنسبة للإبداع تظهر أيضاً في النظر إلى الإدراك كمصدر لتحصيل وحفظ المعلومات التي لا غنى عنها لأي شكل من أشكال النشاط الإبداعي . فلصنع شيء ما جديد يلزم الاعتماد على شيء ما معروف وامتلاك مادة كافية وواسعة تحفظ في الذاكرة حتى يمكن استعمالها بحرية (٢٠ ، ٢٥) . وهنا يرى بعض المؤلفين أن المادة المتحصلة بسلبية لا تقوم دائماً بوظيفتها الإبداعية وتحفظ في اللاشعور كشيء لا أهمية له . وحتى لا يحدث ذلك مع المادة المطبوعة يلزم توجيه الأطفال نحو الإدراك الفكري النشط ، أي هذا الذي يرتبط بالاتجاه الشامل نحو الاسترجاع أو التذكر ، ونحو إحياء أو تنشيط المادة المتحصلة أثناء تنفيذ أي وجه من أوجه النشاط الملموس (١٠ ، ١٢) .

العملية النفسية الثانية - الأوثق صلة ، والتي - في الأغلب - تغلف عملية الإبداع أو تتشابك معها ، والتي تشخص التفرد الابتكاري - هي الخيال أو الأحلام . فالمبدعون يتميزون بأحلام غنية وبخيال خصب . ومن المعروف أن هذه العملية تمثل تجمعاً غير مألوف لعناصر النشاط الحقيقي ،

واضفاء وظائف ودلالات جديدة على المادة وتقديم تصميات أو تركيبات جديدة لم يكن لها حتى هذه اللحظة أي استعمال مباشر في النشاط . ولذا ففي كثير من الأبحاث ينظرون إلى الخيال والأحلام على أنها الأساس الطبيعي لأي نشاط مبدع ، ويسمونها (الطريق الملوكي إلى الوجدان) الذي يعمل أيضاً بنفس المبدأ (١٢ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٦) .

والخيال والأحلام يوجدان عند كل شخص ، ولكن الناس يختلفون في اتجاه الخيالات وقوتها ووضوحها ، والتعبير عن هاتين العمليتين يظهر بصفة خاصة في الطفولة . وهذا يرتبط بما نسميه عند الأطفال الميل الواضح للكذب . والكذب في الطفولة خيال غير محدد ، وهو محاولة أولية للإمساك بأطراف الموضوع – محاولة الخروج فيما وراء مجتمع الكبار – ودليل للحاجة إلى مدركات جديدة – ومحاولة للوقوف في وجه الراشدين وإثبات الذات – وهو بداية الفطام بعد الاندماج ، كما أنه تعويض لفظي عن احساس بدأ ينمو عند الطفل بكذب الشعور الأولى للقدرة المطلقة الذي يعيشه الطفل في أعوامه الأولى . والخيال والأحلام تفقدان بالتدريج الوضوح والقوة ، ومن الطبيعي أن يظهر سؤال عن سبب ذلك . في رأي بعض المؤلفين (١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٤٧) فإن ذلك يحدث لأنه في مرحلة التعليم المدرسي تفقد هذه الوظيفة العقلية أهميتها وتخمد ولا تستعمل ولذا فإن البرامج المدرسية يجب أن تشحذ ذكاء الطفل وتستثير قدراته وتعمل خيالاته . إذ في المدرسة يصبح الخيال والأحلام غير لازمين لتذكر بعض القوانين أو المعلومات . ولذا فإنه في الطفولة يجب أن يتعايش الأطفال مع عالم الواقع المرتبط بنشاطهم المدرسي ، وإلى جانب ذلك مع عالم الخيال والأحلام . وفضلاً عن الارتباط القوي مع الوظيفة الإبداعية للعقل فإن الخيال يعتبر شرطاً لازماً لتوسيع معارف وميول الأطفال (بقدر تغلغله بلا حدود في التاريخ وفي المستقبل وفي الفضاء) (٢٠) . ويقول (جونز) (Jones) بأن تدريب الخيال واستعماله ضروري (كالعقل أو الجسم وأنه يجب أن يستعمل بصورة مستمرة وليس بصورة عرضية) (٢٠) . ونقطة البدء لتطور الخيال ونموه يجب أن تكون النشاط الموجه بمعنى استعمال أحلام الأطفال وخيالاتهم في حل أي مشكلة أو مسألة ملموسة (١٠ ، ١٢ ، ٢٣) .

وبحسب وجهة النظر هذه فإن العمليتين الرئيسيتين اللتين توفران علاقة أو علاقة أو رباطاً مع الواقع أو انحرافاً عنه هما العمليتان المرتبطتان اللتان تحددهما السمات الرئيسية للابتكارية : قدرة ملاحظة المشكلة وتحديدها ، المرونة ، غنى المجال الاقتراني أو ثراء الارتباطات ، ولكنهما لا تستغرقان كل العوامل المحددة للابتكارية .

والمكان الرئيسي في مضمون الموهبة الابتكارية هو مكان العمليات المنظمة أو الضابطة - الانفعالات والمشاعر ، وأيضاً مجال التنظيم الذاتي والتحكم الذاتي . والدوافع والحاجات في الإبداعية تتشكل - في رأي كثير من المؤلفين - تحت تأثير انفعالات الشخص السائدة . ومن الانفعالات التي تسود في كثير من الأحيان عند الأفراد المبدعين العدوان والابتهاج (١٢ ، ٢٥ ، ٤٥) . هكذا فإن « جتزل وجاكسون » أثناء بحث على الأطفال ذوي الإبداعية العالية والذكاء العالي يلاحظان عدداً كبيراً من العناصر العدوانية في الإنتاج الابداعي للأطفال المبتكرين (١٢). ومن الخواص التي تكررت عند المبدعين والتي أحصاها «تورانس» (٤٥،٤٣) عدداً كبيراً من الخواص الانفعالية والشخصية التي يمكن أن تظهر فقط كنتيجة لسيطرة انفعال العدوانية (كانطلاقة للأنا في الخارج) . ومن هذه الخواص الميل إلى السيادة والتفوق والميل إلى المخاطرة وخرق النظام المألوف والميل نحو الاستقلالية ، والراديكالية ... الخ . وإلى جانب ذلك يلاحظ عندهم التفاؤل ، الاستعداد لتقديم المساعدة ، المشاعر الطيبة ، روح الفكاهة (١٢ ، ٢٥ ، ٤٥) . والصفتان الأكثر ظهوراً هما : الميل إلى السيادة والتفاؤل (١٠ ، ٢٢ ، ٢٥) .

وإذا كانت هذه الانفعالات تساعد على ظهور الإحساس بالحاجة إلى الإبداع (رغم أن درجات هذه الاتجاهات مازالت بعيدة عن الوضوح) . فإن سيادة انفعال الخوف - في رأي العديد من الباحثين - تشكل حائلاً طبيعياً أمام تكوين محددات الخلق أو الابتكار . ومن وجهة نظر التحليل النفسي فإن الخوف وتوقع الاحباط يجمدان تفكير الشخص ويدفعان إلى التعلق بالأشكال التقليدية ويضيقان من مجال نزعة الأبحاث المستقلة وطرق الحل الجديدة (٢٣ ، ٤٩) . وعند أصحاب الطابع المحدد (المنغلق) للتفكير نلاحظ مثل هذه الصفات الشخصية التي تقوم بصورة أساسية على سيادة انفعال الخوف : الانصياع ، الميل إلى اكتساب الهيبة والثقة والثبات ، والتدقيق الزائد في الشكليات ، والميل نحو النظام والتحديد (٢٣) . وانفعال الخوف هو بصفة عامة مضاد تماماً لعملية الإبداع . وقد طلب من المفحوصين في أحد البحوث حل اختبارات على الذكاء والابتكار في موقف هادىء ومريح للأعصاب (حيث أبلغوا أنه تجري معالجة اختبار بسيط) وعلى العكس في موقف توتر (حيث أبلغوا أن الالتحاق بالجامعة يتوقف على نتائج الاختبارات) ، وقد وجد أن حل اختبارات الابتكارية يتم على وجه أفضل في المواقف الهادئة ، بينما يتم حل اختبارات الذكاء على وجه أفضل في مواقف التوتر (٢٧) . وكل فاعلية ما يسمى (الاقتحام العقلي) أثناء حل المشاكل الإبداعية تتلخص في تنحي خوف تقدير أو درجات الإجابة غير الصحيحة (٢٣) . وأثناء وضع

التوجيهات التربوية الخاصة بنمو الابتكارية فإن عزل مواقف الاحباط في التعلم يجب أن يحظى بعناية كبيرة (١٠ ، ١٢ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٤٩) .

الصفة التالية التي تدخل في بناء الإبداعية الفردية هي التوجيه الذاتي الذي يتضمن التوجيه نحو معالجة أي فكرة كبيرة والميل إلى شكل معين من أشكال النشاط ، وما يرتبط بذلك من ثبات وقوة الانتباه . (٥ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٥٠) . وفي رأي العديد من الباحثين أنه (بدون توجيه تيار التداعي والارتباطات والألعاب العفوية الخيالية والموجه نحو بعض الأهداف لا يمكن أن نحصل على الإنتاج الإبداعي الأصيل) (٥٠) . فالعفوية والمرونة واتساع تيار التداعي ووجهته هي جوانب للعملية الإبداعية ترتبط فيما بينها ، ويمكن أن تتم على مستوى الشعور وكذلك على مستوى اللاشعور . فالتحديد السليم والدقيق للمشكلات والأسئلة على مستوى الشعور تنظم وتوجه عمل الوجدان وتضع إمكانية الوضوح والكشف (٥٠) . ولذا نلفت نظر المربين إلى أهمية تربية التوجيه الهادف عند الأطفال في أي نشاط عقلي . ونحذر إلى جانب ذلك من التعظيم الزائد للاستشارة العفوية ولحرية ظهور نزوات الأطفال على وجه العموم (٢٠ ، ٤٩) .

الصفات الشخصية للأطفال المبدعين

فيما يتعلق بالصفات الشخصية للأطفال ذوي الموهبة الإبداعية ، والإبداعية الفردية عموماً ، فإنه عند أربعة وثمانين شخصاً من المبتكرين جمعهم (تورانس) (Torrance) (٤٥) يمكن أن نجد عدداً كافياً من الصفات المتناقضة : فمن جانب نجد عدم الثقة ، التهيب ، الخجل والحياء ، حب العزلة ، عدم الشعبية وسط الناس ... الخ ، ومن جانب آخر – النزعة إلى السيادة ، الجرأة في الدفاع عن أفكارهم ، الحاجة إلى العلاقات الاجتماعية والنشاط الاجتماعي ، الاجتماعية والشعبية وسط الناس . وبهذا الشكل فعلى الأساس العقلي نجد هؤلاء الناس يتجمعون في مجموعة واحدة (المبتكرين) ، وعلى أساس علاقاتهم الاجتماعية – في مجموعتين متناقضتين : الأولى تتصف بالانعزالية والتنابذ وذكاء ابتكاري عالي ، والثانية بجانب هذا الذكاء الابتكاري تتصف أيضاً بتفتح كبير ، وعلاقات اجتماعية ، ومقدرة ابتكارية اجتماعية . رغم أنه في كلا المجموعتين لم تلاحظ صفة الميل إلى المسايرة والانصياع (٢٢ ، ٢٣ ، ٣٤) .

والإجابة التشخيصية عن طبيعة الصلات الاجتماعية المختلفة يقدمها البحث الذي أجراه والاش وكوجان (Wallach) and (Kogan) (٤٩) . ففي تقدم لأعمال (جتزل وجاكسون) لأنها عند إجراء البحث قد اعتمدا فقط على مجموعات معروفة والقدرات الإبداعية ، اعتمد هذان المؤلفان على أربعة مجموعات للأطفال تم تقسيمها على أساس النجاح في حل اختبارات الذكاء والابتكارية ، وقد أظهروا نجاحاً إما في حل شكل واحد من المسائل أو في حل شكلي المسائل أو عدم القدرة التامة على حل هذه المسائل أو تلك . ولقد تحددت عند مختلف الأطفال في وقت واحد بواسطة البرنامج المقدم هذه الصفات الشخصية مثل النشاط الاجتماعي والشعبية وسط الدارسين والثقة في النفس ... الخ . ولقد تبين أن الصفة الأكثر ظهوراً عند الأطفال ذوي الذكاء العالي والابتكارية العالية هي النشاط الاجتماعي (كاحتجاج ضد الملل وعدم الكفاية في برنامج التعليم ... الخ) . وظهرت عندهم بوضوح أيضاً النزعة إلى جذب الانتباه نحو الذات ، العدوانية الزائدة ، الثقة في النفس ، الاستقلالية ، الاجتماعية وحب الرفاق لهم . وقد تمتعوا أيضاً بالحرية الداخلية والتحكم الخارجي . وقد كان سلوكهم مزيجاً من النضج والصبيانية . أما الأطفال ذوي الابتكارية العالية مع الذكاء المنخفض ، فقد كانوا في أكثر الأوضاع التي تبدو سيئة في الجماعة ، إذ كانوا غير معروفين وسط الأتراب ، أحسوا بأنفسهم ميلاً للإيذاء ، رغم أنهم قد احتجوا بفتور ضد أوضاعهم . ولقد عاشوا صراع دائم وعنيف مع أنفسهم ومع المحيطين . وتميز الأطفال ذوي الذكاء العالي والابتكارية المنخفضة بثقة في النفس وكانوا معروفين وسط الأتراب والمربين ، ولكنهم لم يبحثوا بأنفسهم عن مجتمع أصدقائهم (اجتماعية من جانب واحد) ، ولم يظهروا نشاطاً اجتماعياً وقد اتجهوا وجهة مفيدة نحو النجاح الأكاديمي . أما الأطفال ذوي الذكاء المنخفض والابتكارية المنخفضة فقد تميزوا إما بثقة زائدة في النفس أكثر من بقية مجموعات الأطفال ، مع ميل إلي النشاط الاجتماعي ولكن بلا مبادأة أو ابتكار وإما كانوا سلبيين جداً ، منعزلين ، وبحثوا باستمرار عن ميكانيزمات الدفاع النفسية وتعويض القدرات غير الكافية .

وهذه الأبحاث تستوجب القول بأن الصفات الشخصية والعقلية توجد في وحدة قوية وكافية مما يؤكد نظرة بعض العلماء الآخرين (٥ ، ١٢ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٤٧) .

وهكذا ، يصبح من الطريف أن نذكر أن التدريب الخاص للقدرات الإبداعية يقود قبل كل شيء إلى تغيير بعض الصفات الشخصية وليس فقط إلى تغيير نفس القدرات . وبعد برنامج التدريب الملائم على الابتكارية ظهرت عند الأطفال خاصية عامة هي النزعة نحو السيادة (١٧ ، ٤٣ ، ٤٤) .

والجدير بالذكر أيضاً أنه إلى جانب إثبات العلاقة بين الصفات الشخصية والعقلية ، يشير الباحثون إلى أن هذه وتلك تخضع لتأثير الوسط الاجتماعي (١٧ ، ٤٩) .

من جانب آخر ، فقد حاول الكثير من المؤلفين والباحثين ممن يستخدمون المصطلحات الطبية إرجاع العبقرية أو الإبداع إلى الجنون ، وتاريخ الحياة إلى تاريخ المرض . ولكن الأبحاث التجريبية التي بدأت مع جالتون (Galton) منذ القرن التاسع عشر قد أثبتت أن شيوع الجنون بين العباقرة أقل منه بين البشر العاديين . إلا أن الربط بين العبقرية والجنون مازال يتردد في كثير من الكتابات . ولعل ذلك يرجع إلى أن المبدعين يتصفون في أغلب الأحوال بكثير من خصائص الطفولة ، وأنهم يميلون إلى الإنطلاق ، ولا يبالون كثيراً بالعادة الاجتماعية . وهذا مايدفع الآخرين إلى اتهامهم بالجنون لقصورهم عن فهم عالمهم الداخلي وأسلوب حكمهم على الأمور . والواقع أن كل محاولات الشخص للتغيير وطرح الجديد غير المألوف في الفكر والإنتاج ، ومحاولاته صناعة نفسه جيداً ، هو ما يراه المجتمع مرضاً .

ونظر آدلر (Adler) إلى الإبداع على أنه محاولة تعويض عن نقص يعاني منه الشخص المبدع ، ويرجع بعض تلاميذ فرويد الكلاسيكيون الإبداع إلى الانحراف في النمو الجنسي .

ولكن الدراسات الاحصائية في السنوات الأخيرة تدل على أن الأعصبة والأمراض النفسية الخطيرة توجد عند المشاهير من الناس بنسبة أقل كثيراً منها عند البشر العاديين .

وكشفت الأبحاث التشريحية الاحصائية الدقيقة أن متوسط طول ووزن العلماء المشهورين يفوق المعدلات إلى حد ما ، وأن الجمجمة عند الكثيرين منهم كانت من النوع الذي يسمى النمط الدماغي أو المخي ، أي الذي يغلب الهيكل العظمي المخي له على الوجه ، وصاحب حدبات الجبهة الكبيرة مع قوس حاجبي ضعيف . ومن ناحية الصحة الجسمية فيمكن أن نذكر سلسلة من عظماء البشر كانوا يتميزون بصحة جسمية فائقة . ولكننا لا يجب أن نعول كثيراً على هذه الخاصية الجزئية ، حيث يمكننا في المقابل أن نذكر أمثلة مضادة غير قليلة لعظماء تميزوا بصحة جسمية ضعيفة .

الظـــروف الأســـرية
التي تساعد على نمو الإبداع

كشفت أبحاث العديد من المؤلفين أن الدور الأكبر في تطور الابتكارية تلعبه خبرة الطفل في سن ما قبل المدرسة وكذلك الخبرة التي يحصل عليها في الأسرة (١٠ ، ١٢ ، ٢٣) . وقد وجد « جتزل وجاكسون » في أبحاثها على الظروف التي تساعد على تطور الابتكارية العالية والذكاء العالي عند الأطفال أن المستوى المادي للأسرة لا يلعب دوراً في تربية الجوانب العقلية المختلفة ، وأن الدور الأكثر تأثيراً هو دور مهنة الوالدين ووضعها الاجتماعي في علاقته بالاتجاه نحو الأطفال .(١٢). وكشفت الدراسات عن أطفال الآباء الأذكياء قد حصلوا في أغلب الأحيان على مستوى تعليم أعلى من أطفال الآباء المبتكرين . وأن آباء الأطفال الأذكياء هم في الغالب موظفون (قانونيون مثلاً أو معلمون في الجامعة) ، بينما يكون آباء الأطفال المبدعين غالباً من رجال الأعمال المنتمين إلى أسر من الطبقة المتوسطة أو المتوسطة العالية ، وهم من المستقلين مهنياً ، يمارسون أعمالاً أو مهناً تستلزم منهم الشجاعة والجرأة والدأب والاستقلال والمخاطرة ، وهي صفات يتميز بها المبدعون . ويجد الأطفال المبدعون في الآباء أو الأقارب مثالاً للتقليد ونموذجاً للاقتداء من جانب ، ومن جانب آخر فإن آباءهم يكونون أكثر إيجابية وولاء في اتجاهاتهم نحو الأطفال (٢٥) .

إن الدراسات على تأثير اتجاهات الوالدين نحو الأطفال على تطور الابتكارية توفر لنا معطيات ممتعة . فآباء الأطفال المبتكرين يكتشفون في أطفالهم جوانب نقص أو عيوب أقل من تلك التي يكتشفها آباء الأطفال الأذكياء فيهم . ويظهر هؤلاء الآباء موقفاً ملائماً من تمايز الطفل (تفرده) ، يشجعونه ويحترمونه ، ويبدون الثقة التامة في قدرته على عمل كل شيء بصورة صحيحة ، كما يشجعون حب الاستطلاع لدى الطفل وميله إلى البحث وتقديم أفكار أو حلول تخرج على الحقائق المألوفة أو الموضوعية . ويحظى الأطفال المبدعون في أسرهم بالتسامح الوالدي والتدعيم الوجداني والحث على الاستقلال والتعبير عن الذات ولا تقوم تنشئتهم على الضغط والسيطرة والمراقبة، ولذا فإنهم يتحررون من المكبوتات التي تعيق النمو السوي في مختلف المجالات . ويتصف آباء الأطفال المبدعين بالاجتماعية ، ولا يسيطر على أسرهم الفكر الدوجماطي القائم على التعصب والانغلاق الفكري .(٢٤) .

وبينما يتجه اهتمام آباء الأطفال الأذكياء نحو العوامل الخارجية التي تؤثر على الطفل ، فإن آباء الأطفال المبتكرين يعيرون الانتباه الأساسي للمكونات الداخلية للطفل . وتتصف تنشئة المبدعين بصفة عامة بمساعدة الفرد على إقامة معاييره من الداخل (توجيه ذاتي) ، وعدم الاعتماد على الآخرين (الاستقلالية). (٢١ ، ٢٥) .

وتوضح الدراسات كذلك أن اشتراك آباء الأطفال المبتكرين في المجلات والصحف أقل من اشتراك آباء الأطفال الأذكياء .(١٢) . وأن أمهات أغلب الأطفال المبدعين قد عملن أو كانت لهن مهنة حتى الزواج على الأقل ، بينما انشغلت أمهات الأطفال الأذكياء بالأعمال المنزلية وتربية الأطفال .

وقد لاحظت أغلبية الباحثين أن الدور الأكبر في تطور المواهب الخلاقة للأطفال هو لوضعهم في الأسرة ، ومركزهم بالنسبة لبقية اخوتهم . فالأطفال الأول (البكر) وهؤلاء الأطفال الذين يكون لهم - لسبب أو آخر - وضعاً قيادياً خاصاً في الأسرة إنما يعبرون بذلك عن قدرات إبداعية خاصة (١٠ ، ٢٣ ، ٣٣) . وبتعبير آخر ، فإن مواقف الاستقلالية النسبية والحرية وتعبيرات الاحترام نحو الطفل وغياب مظاهر اللهفة عليه ، كل ذلك يساعد على تشكيل القدرات الإبداعية لديهم . وهذه الاستقلالية الذاتية للطفل في الأسرة نحصل عليها من جراء الدفء والقرب في الاتجاهات بين الوالدين والأطفال .

ان تحديد وتضييق الميول الخاصة بالأطفال يؤدي إلى تكبيل وتقييد الفكر ، يؤدي إلى النضج قبل الأوان ، وهو ما يعجل بذبول النفس الإنسانية . والتناول التربوي الخشن والعنيف ، والموجة إلى التعجيل بالنمو النفسي ، ينتهي في أغلب الأحوال نهايات غير ناجحة . فنتائج التطور المتعجل - إذا أمكن تسجيلها - تكون واهية وقصيرة العمر . وسبب هذه الظاهرة يرجع - كما يبدو - إلى أن مثل هذا النشاط التربوي غير المتخصص في الأسرة ، وتأثيره غير السليم يفرضان على الطفل مجالاً محدداً وضيقاً من الأعمال والواجبات التي تؤدي قبل الأوان إلى تخصص للتفكير ، وإلى الحد من إمكانيات تطور القدرات ، وإلى التضييق من مجالات الميول والاهتمامات ، وهي كلها تعتبر شروطاً لازمة للابتكارية .

وفي سن ما قبل المدرسة يصبح إنشاء وتعميم رياض الأطفال من الأهمية بمكان للتعويض عن الفقر الثقافي وفقر المثيرات الحسية في بيئات الكثير من الأطفال . وتشير الدراسات إلى أن متوسط

الذكاء (وهو عامل من عوامل الابتكارية) يمكن أن يزيد بمقدار الضعف في البيئة الصالحة عن البيئة غير الصالحة (١٢ نقطة ، ٦ نقاط فقط) . وأن نقل الطفل من بيئة فقيرة في المثيرات الحسية والثقافية إلى بيئة غنية يرفع ذكاءه بين ٢٠ ، ٣٠ نقطة ، وربما أكثر من ذلك . ويعطي « جنسن » (Jensen) في دراساته التي تمت سنة ١٩٦٩ لتأثير البيئة ٢٠ ٪ من صور التباين في الذكاء بين الأطفال ، بينما يعطي « كرونباخ » (Cronbach) للبيئة في دراساته التي تمت في نفس العام تأثيراً أعلى قد يصل إلى نسبة ٥٠ ٪ من التباين . (٧) .

على أن الأسرة تشكل فقط جانباً من جوانب تأثير الوسط الاجتماعي على الطفل ، ويبقى الدور الأكبر في تشكيل الإبداعية الفردية للمدرسة ، لأن كل المواقف التي تنتج عن الاتجاهات بين الوالدين والأطفال – والتي تساعد على النمو المبدع للطفل – تحفظ وتتكرر أيضاً في الاتجاهات بين المربين والتلاميذ .

الظروف المدرسية
التي تساعد على نمو الإبداع

تعرضت دراسات كثيرة للكشف عن القواعد الهامة التي تساعد – في الغالب – على تطور ونمو القدرات الإبداعية لدى التلاميذ . ومن بين هذه القواعد يبرز مجالان يتعلقان بما نرجوه من المربي في اتجاهه نحو الأطفال المبدعين ونحو محتوى المنهج الدراسي . فحتى لا نعوق أو نعطل ظهور القدرات الخلاقة للأطفال بل ، على العكس ، نستحث تطورها ، فإن المربين يجب أن يحافظوا – من وجهة نظر علماء النفس – على المبادىء التالية :

(١) التصرف بوعي وحرص نحو كل مظاهر النشاط الخلاق للأطفال . وكما يوضح الكثير من الدراسات (٦ ، ١٢ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٤٦) ، فإن اتجاه المعلمين نحو الأطفال المبدعين يكون سلبياً في الأساس . وحين طلب من المعلمين كتابة أسماء الأطفال الذين يفضلون رؤيتهم في الفصل بصفة خاصة ، فإنهم قد اختاروا الأطفال الذين يتميزون بمستوى عال للذكاء ، وليس بالابتكارية . وقد فسر الباحثون ذلك بأن الأطفال المبدعين كثيراً ما يبدون (تعالياً على المربين) ، كما أننا لا نستطيع أن نحدد دائماً (ماذا نتوقع منهم ؟) ، في نفس الوقت الذي

يحقق الأطفال الأذكياء دائماً توقعات المربين وينفذون مطالبهم بدقة . ولـذا فـإن الأطفـال المبدعين يكونون غالبـاً في موقف التلاميـذ (غير المرغوبين) و (المستهجنين) من المعلمين . وهـذا الاتجـاه من جـانب المربى يؤثر بلا وعي على اتجـاه الأطفـال الآخرين نحـو الأطفـال المبدعين . ولذا يوجـه فوستر Foster (١٠) سؤالاً خـاصـاً للتلميـذ ، يسـاعـد في رأيـه - إلى جانب أسئلة أخرى - على الكشف عن الإبداعيـة الفرديـة بطريقـة غير مبـاشرة وهو : هل أنت محبوب وسط زملائك ؟ والإجابة السلبية على السؤال تؤخـذ كـدليل على الابتكاريـة . ومن هنا فإن على المربين العمل على تغيير مواقفهم من الأطفال المبدعين وخلق جو منـاسب لهم (جو دفء) يمكن أن يساعد على ازدهار - مواهبهم . هكذا ، فـإن المربى يجب - قبل كل شيء - أن يشجع الأطفـال على التعبير عن أفكارهم المبـدعـة ، وتـوفير الـوقت لـذلـك ، والاستماع بانتباه إلى الطفل ، وأن يكون مستمعاً حساساً . كما يجب أن يساعـد المربي التلميـذ على أن يفهم نفسه وإبداعيته ، وأن يسـاعـد الوالـدين على فهم أطفـالهم الابتكاريـة (١٠ ، ١٢ ، ٣٤ ، ٤٥) .

وبهذا الشكل ، فإن توفير المناخ الملائم للأطفـال المبـدعين يجب أن يقود إلى تغيير المركز الاجتماعي لنفس الطفـل من جـانب ، وإلى تغيير (التـوجيـه القيمي) لكل الـدارسين في الفصل ، واحترام التفكير الابداعي وتقديره من جـانب آخر . وكل ذلـك بـدوره سيؤثر على تطور المواهب الإبداعية .

(٢) تغيير اتجاه المعلم نحو كل تلميذ ، بمعنى ضرورة الكشف عن القدرات الإبـداعيـة الكامنـة عنـد كل تلميذ (١٠ ، ١٧ ، ٤٥) . لقد كشفت الدراسات أن الأطفال ذوي الابتكارية المنخفضة يحققون نجاحاً يفوق المتوقع منهم حين يعيرهم المعلم انتباهه المستمر . ويجب أن ينظر المعلمون للإبداع كدليل على الإنجاز أو النجاح الدراسي والتفوق فيه ، تماماً مثل عـامل الـذكاء . وفي هذا الصدد يقترح تورانس (٤٧) الخطوط التالية لعمل المعلم إذا أراد توفير المناخ المنـاسب لنمو القدرات الإبداعية عند تلاميذه :

أ - أن يتقبل المعلم برحابة صدر أسئلة التلاميذ غير العادية .

ب - أن يحترم المعلم أفكار الأطفال غير العادية .

جـ - أن يظهر للأطفال معقولية أفكارهم وقيمتها .

د - أن يوفر فرص التعليم الذاتي للتلاميذ ويقدرها .

هـ - أن يسمح بـالعمل والتعلم الحر غير المقوم ، وهو مـا يحرر التلاميـذ من الضغط العصبي للامتحانات والتقويم .

(٣) قدرة المربي على ملاحظة مظاهر الإبـداع لـدى تلاميـذه ، ليس فقـط في وقت الـدروس في الفصل أو الواجبات الخاصة ، ولكن أيضاً في أي نشاط آخر خارج المدرسة أو داخلها . ومن أجل ذلك يجب إشراك التلاميذ في أشكال النشاط المختلفة تماماً ، ذلـك أن السلوك الإنسـاني في أي صورة من صورة (عقلياً كان أو يدوياً) هو عملية كلية كتلية يستحيل تجريـدهـا . إن المربي الـذي يريـد الكشف عن القـدرات الابتكاريـة وتطـويرهـا يجب ألا يعتمـد على الأحكام القبلية فيما يتعلق بقدرات التلاميذ ، تلـك الأحكام التي تظهر في العمليـة التعليميـة على أساس درجات الاختبارات المدرسية التقليدية بصفة عامة . كما يجب أن ينطلق - ومنذ البداية - من مسلمة تقول بتواجد القدرات الخـاصـة عنـد كل إنسان مع اختلاف أشكالهـا ، فيكون دوره هو مساعدة التلاميذ في الكشف عنهـا ومعرفتهـا ، ثم يـأتي دور الإثنين : المعلم والتلميـذ في تتبعهـا وتطـويرهـا . وبمعنى آخر ، فـإن كل تلميـذ يجب أن يمـارس كل أشكال النشاط أولاً .

وكما ذكرنا من قبل ، فإن المواهب الخلاقة تظهر كأفضل مـا تكون بـالـذات في النشـاط الذي يكون لدى التلميذ قدرات خاصة به . وهذا يرتبط بلا شك بـاهتمام التلميـذ بـالموضوع وشغفه بـه . ولـذا يجل أن يتخلى المربون عن الصراخ من تشتت الانتبـاه أو عـدم التركيز في الدرس ، وبدلاً من ذلك يجب أن يبحثوا فوراً عن النقطة أو اللحظـة التي بـدأ فيهـا تشتت الانتباه لأن ذلك يكون في الغالب خيطاً يصلهم بنقطة الاهتمام . ويجب أن نتذكر أن عـدم تركيز الانتباه العام والنسيان لم يكونا دائماً نقطة بداية سيئة . كما أن تشجيع ظهور القدرات الخاصة للتلاميذ يمكن أن يساعد على تكوين أنمـاط النشـاط الفردي عنـدهم ، تلـك الأنمـاط التي تعكس الاستقـلاليـة والابتكاريـة (١٠ ، ١٢) . ومثـل هـذه النتيجـة يمكن أن نحصـل عليها بإعطاء واجبات فردية خاصة داخل إطار الواجبات المحددة للجماعة .(١٠) .

(٤) المطلب الجاد الآخر من المعلمين هو تربية تقييم ذاتي على مستوى عال وكاف عنـد التلاميـذ ، يمكن أن يحفزهم نحو النشاط . ومن أجل ذلك فإن تقييم التقدم الإبـداعي للتلاميـذ لا يجب أن يتم على أساس القواعد العامة أو المستويات المتعارف عليهـا أو المتبعـة من قبل : فـالمربي يجب أن يكون قادراً على ملاحظـة التقـدم الفردي للتلاميـذ ، ومن الجوهري أنـه لكي يمهـد

المربي التربة لتحقيق النجاح ، للإدراك الذاتي الإيجابي للتلاميذ ، فإن الدرجة يجب أن تكون متناهية الموضوعية (وتتضمن هدف التعليم في المستقبل) وشكل التشجيع في هذه الحالة يجب أن يكون مرناً تماماً ، فإذا كان أسلوب التشجيع يمكن أن يصبح معتاداً فيجب منعه . والمهم أن يحس الطفل بالرضا عن الموضوع المنفذ بصورة جيدة ، وعن الموضوعات التي ينفذها هو واكتشافاته هو بحيث تصبح المصدر الرئيسي لرضاه ، وبحيث تنتقل صور وأشكال التقدير (من الذات إلى الهدف) . (١٠ ، ١٢ ، ١٧ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٤٩) .

(٥) والمطلب التالي يتلخص في تنمية المربي لابتكاريته . فالمربي يجب أن يخفي في نفسه دائماً قوى الخمول والتقاليد المتبعة والشكلية في التعليم . ويجب أن يطمح إلى أن يكون عمله في مستوى عمل الباحث : حيث يوجه اهتمامه لدراسة موضوع نشاطه أي تلاميذه ، واكتشاف الطرق الأمثل والأساليب الجديدة دائماً لتطوير الإبداعية الكامنة عند الأطفال (تنظيم مناظرات ، وضع أهداف جديدة ، نصائح ، الصمت الواعي ، الإيحاء ... الخ) . أن تطوير القدرات الإبداعية عند التلاميذ يستلزم أن يكون المربي نفسه مبدعاً .(٢٠ ، ٤٥) .

لقد كشفت الدراسات أن الإبداع المنخفض عند كل من المعلم والتلميذ يعطي نتائج دراسية في بعض المواد أفضل من الإبداع المنخفض عند المعلم والمرتفع عند التلميذ ، وأن الأطفال الذين يحظون بمعلمين ذوي حماسة مبدعة يتقدمون كثيراً على الأطفال الذين يقوم على تربيتهم معلمون تنقصهم هذه الحماسة (٤٦) .

إن الفرق بين معلم وآخر هو في شيء من الابتكارية يستطيع بها أحدهما أن يكون ذا عقل يلمع بركائز الارتباط بين درس جديد وبين الخبرات الأخرى للأطفال ، حيث يمتلىء حديثة مثلاً بالقصص والحكايات والنوادر والذكريات ، وبذا يكون قادراً على إثارة الشغف والاهتمام ، ويفيض وتفيض معه الحصة بالحيوية والحياة - قانون الأهبة والاستعداد عند هربارت - بينما يكون معلماً آخر مفتقداً لذلك (خامل ، ممل ، يفيض درسه بالسآمة والجدب) . ويرتبط بذلك قدرة المعلم على التنويع في الموضوع ، وذلك باكتشافه جوانب جديدة في الموضوع وتغيير طريقة العرض وإثارة الأسئلة بشأنها .

وهناك توصيات أخرى جزئية ترد في أعمال كثيرة (١٠ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤٥) ، إلاّ أنها جميعاً تدخل في إطار التوصيات الخمس العامة السابقة .

على أن الحاجة الآن ملحة لتغيير بعض التصورات الشائعة فيما يتعلق بالنمو الإبداعي للإنسان . فهناك كثير من علماء النفس يرون أن العلامة المحددة للإستعداد الطبيعي لنمو الموهبة هو ظهورها المبكر ، وكذلك التفرد والاستقلالية - بمعنى انتباه الطفل لها ، مما لا يستلزم مؤسسات تربوية خاصة للكشف عن هذه الموهبة . وهناك رأي مضاد يقول بأن النمو المبكر للموهبة يؤدي إلى ذبولها السريع ، وأن كل العباقرة يجب أن يكونوا بطيء النمو النفسي في بداية العمر ، وقد انتشر هذا الرأي في الغرب - وخاصة في الكتابات الأمريكية - في أوائل القرن العشرين . على أن دراسة تاريخ العظماء يمكن أن تؤكد كلاً من وجهتي النظر هاتين . فالبعض مثل باسكال وفيثاغورس وليست وموزار وغيرهم كانوا غير واضحي المواهب في الطفولة . وقد تعلم أنيشتين الكلام متأخراً . وكان روبرت ماير وديكارت من التلاميذ الفاشلين في المدرسة ، واستدعى والد أديسون لاستلامه من المدرسة لعدم كفاءته في الدراسة ، وطرد ليبيخ من المدرسة بسبب تكرار رسوبه ، أما نيوتن ووالترسكوت فقد كان تعلمها بطيئاً وسيئاً . وكثيراً ما تختفي القدرات أو المواهب حتى في التعليم العالي ، فقد جاء في تقارير « هيجل » الدراسية أنه يتمتع بمواهب طيبة ولكن معلوماته قليلة جداً ، وانه في الفلسفة بليد إلى حد البلاهة .

الأمر الثاني الذي نود أن يكون واضحاً باستمرار ، هو أن كراهية المعلمين والتلاميذ العاديين للتلميذ الابتكاري ترجع في الأساس إلى تناقض واضح بين المدرسة كمؤسسة ذات برنامج محدد وأهداف مرسومة ، وتقوم على النقل غير الناقد للتراث والحضارة والقيم الاجتماعية عبر الأجيال ، والتلميذ المبدع صاحب التفكير الناقد والخيال الواسع والاستعداد المستمر للتمرد على ما هو معروف أو مألوف . ومن هنا فهو لايقدم نموذج التلميذ الهادىء والمطيع صاحب العقل السلبي (المستقبل فقط) .

الأمر الثالث الذي يمثل مشكلة ملحة بالنسبة للدول النامية هو توجيه التلميذ - أو توجهه - إلى اختيار شعبة التخصص الدراسي العلمية أو الأدبية في المرحلة الثانوية . إذ ينتشر رأي يقول بأن الدراسات الأدبية لا تحتاج إلى التفكير ذي الطابع المفتوح ، وأن الدراسات العلمية والمعملية تحتاج إلى ذكاء أكثر من المواد النظرية . والواقع أن ذلك يحتاج إلى دراسات عديدة وإلى إعادة نظر في ضوء نتائج بحوث هدسون (Hudson) في أعوام ١٩٦٦ ، ١٩٦٨ إذ وجد أن علماء الطبيعة (الفيزياء) يكونون في الغالب من أصحاب التفكير ذي الطابع المحدد أو المنغلق ، وأن الأدباء والفنانين يكونون في الغالب من أصحاب التفكير ذي الطابع المفتوح . كما وجد هدسون أن عدد

من يدرسون اللغة الإنجليزية والتاريخ من أصحاب التفكير ذي الطابع المفتوح يزيد كثيراً عن عدد أصحاب التفكير المحدد الذين يدرسون هذه المواد ، وأن عدد من يدرسون الرياضيات والفيزياء والكيمياء من أصحاب التفكير المحدد يفوق عدد من يدرسها من أصحاب التفكير المفتوح (١٨ ، ١٩) .

وإلى جانب ذلك ، فإن هناك مجموعة من التوصيات والمقترحات يعرضها الباحثون فيا يتعلق بتنظيم برنامج النشاط التعليمي ، ويمكن إجمالها فيا يلي :

(١) قبل كل شيء يتحتم توسيع نطاق العلوم أو المواد المرتبطة مباشرة بالإبداعية . ويأتي في الصف الأول منها تلك المواد المرتبطة بالنشاط التعبيري (الرسوم ، التصوير ، الفن التشكيلي ، التصميات ... الخ) . هذه المواد التي احتلت سابقاً مكاناً غير هام في برامج التعليم ينظر إليها في الوقت الحاضر على أنها - تلك المواد التي تساعد على تطور المواهب الإبداعية للأطفال .

ولكن لماذا حظى الرسم والفنون التشكيلية دون المواد الفنية الأخرى كالموسيقى والأدب بالاهتمام الشديد ؟ يمكن تفسير ذلك بأن الأشكال المذكورة للنشاط الفني لاتحتاج من التلاميذ وقتاً طويلاً لاستيعاب خبرة ومهارة الأداء ، (التي يجب أن يحصل عليها قبل أن ينفذ حماسة الإبداعي) والتلميذ صاحب المران البدائي على الرسم يمكن أن يعبر عن فكره واتجاهاته وتصوراته عن العالم والفضاء . علاوة على ذلك فإن نفس عملية اكتساب خبرات النشاط اليومي تتضمن في ذاتها تمرين وتدريب العناصر التي لا غنى عنها في أي شكل للنشاط الإبداعي فيتطور الإدراك والملاحظة ، يجري تمرين المهارات البصرية والحركية ، يساعد على تطوير الخيال والتصور ، يعايش الأطفال الإبداعية المباشرة (١٠ ، ٢٠) .

أما فيا يتعلق بأشكال النشاط الفني الأخرى فإنها هامة أيضاً وضرورية لنمو القدرات الخلاقة عند الأطفال . رغم أنه لكي تساعد دروس الموسيقى والأناشيد - على سبيل المثال - على تطوير هذه البداية الخلاقة ، فإن نفس عملية استيعاب المهارات الموسيقية يجب أن تحتوي عناصر إبداعية . ولذا يوصي بتوسيع مجالات تلك المواد التي لا تعتمد فقط على ذاكرة الطفل ، التي لا توجه فقط إلى استيعاب فكر الآخرين وإلى التحصيل ، ولكنها موجهة مباشرة نحو تشكيل الخبرات الإبداعية للأطفال (١٠ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤٥) .

(٢) النوع الثاني من المقترحات يقوم على توسيع الصلات ما بين العلوم (المواد) فهذا (جان فوستر) (Foster) على سبيل المثال - يصف تنفيذ درس في الرسم بدأ فيه الأطفال بعد الاستماع إلى الموسيقى . ولقد استدعت الموسيقى عندهم الأشكال أو التصورات التي بدأوا بعد ذلك في رسمها . ولذا يقترح أيضاً الاستخدام الواسع والمستمر لأعمال الرسم لتطوير القدرات اللغوية والأدبية ، والشعر والأشكال الأدبية الأخرى لتطوير الرسم وهكذا . وهذا التوحيد بين مختلف العلوم يوجه لتطوير قدرات الأطفال نحو الفصائل الواسعة ، القدرة على إقامة صلات أو علاقات بين الظواهر المتباعدة (١٧ ، ٢٣) .

(٣) المجموعة التالية من المقترحات تقوم على استخدام الواجبات أو المسائل الإبداعية في البرنامج الخاص بكل مادة ، وهذه الواجبات يمكن إدخالها في برنامج أي مادة . فمثلاً في درس الحساب يكتب المعلم على السبورة شكلاً بسيطاً للأرقام والقوانين (مثلاً : ٢ ، - ، ٦ ، ×) ويطلب المدرس تنفيذ أكبر عدد ممكن من العمليات بهذه المعطيات من الأرقام والقوانين . وفي نفس الوقت يجري تصحيح القدرات الإبداعية للتلاميذ ، فإذا كان التلميذ يبني المعادلة بدون أن يحول الأرقام المعطاه في جمع أو كسور ، ويستعملها بوجهة النظر التي يقدمها المعلم ، فإن هذا يعتبر إجابة غير إبداعية . والإجابات الإبداعية ، مع التحويل وتعقيد الأرقام يجب تشجيعها (١٠) .

وفي دروس الأدب يوصي بالبدء في تطوير القدرات الإبداعية للتلاميذ بإثراء الذخيرة اللغوية عندهم ، ذلك أن التحديد اللغوي الضيق وبالذات الذخيرة القليلة من الكلمات تعوق التعبير عن الأشكال الغنية للتخيل ، والتي تتولد أحياناً عند الأطفال (٢٢) . ويتلخص واجب المربي في أن يحصل من التلاميذ على تعبيرات بسيطة عن أفكارهم ، انطباعاتهم ، انفعالاتهم عن أي حادث ، أو مواقف حقيقية ، الكتب المقروءة والمقالات الصحفية وهذا يمس أيضاً الأعمال المكتوبة ، إذ كثيراً ما يخشى الأطفال التعبير عن أفكارهم نتيجة عدم معرفة القواعد النحوية . ولذا يوصي باستعمال مثل هذه الواجبات التي لا تدخل الأخطاء النحوية في الاعتبار عند تقييمها ، ويخطر التلاميذ بذلك ويترك لهم التعبير في حرية وهدوء عن أفكارهم دون خوف من الأخطاء المحتملة في النحو وطريقة الكتابة (٢٣) .

ويرى (جونز) على سبيل المثال أن السماح بدرجات للحرية في التعامل مع القوالب اللغوية يلعب دوراً إيجابياً حتى في استيعاب نفس القواعد النحوية : فعلى أساس الأخطاء يحصل المعلم على تصور كاف دقيق عن أي القواعد استوعبها التلاميذ أسوأ من غيرها وبالتالي يمكن أن يركز عليها انتباهه وانتباه تلاميذه (٢٠) . ولتطوير الخيال أثناء دروس الأدب يقترح استخدام الموضوعات غير المعتادة والتي يمكن أن تستثير خيال التلاميذ مثل (الكلب الذي لا يريد أن ينبح ، القط الذي يجري إلى الخلف فقط ، الثلاجة التي أكلت الطعام) (١٠) .

ولتدريب القدرة على التجميع أو التركيب يجب اعطاء التلاميذ واجبات خاصة بالصياغة أو التصميم فيعطي مثلاً طاقم من المواد المختلفة (أزرار ، أسلاك ، فلين ، ألوان) ومنها يطلب صنع مادة غير عادية وجذابة أو تصميم غير عادي مع التفكير في استخدام غير مألوف لها . (١٠ ، ٢٣) .

والأهمية الكبرى في رأي (فوستر) لتطوير القدرات الخلاقة للأطفال هي للأعمال ذات النماذج أو الأشكال الكبيرة ، حيث يشترك الأطفال في بناء نموذج كبير لباخرة ، لقاطرة أو لفيل مثلاً ، فأثناء ذلك – كما يدلل فوستر – يحدث نمو متعدد الجوانب للطفل ، إذ يشترك في عملية الخلق أو الإبداع الجماعي ، تلك العملية التي تخفض عنده من توتر المسئولية الفردية والخوف من الأداء غير السليم ، والطفل حين يتعرف على المواد وخواصها ، وحين يعمل مع الأشكال الكبيرة ومع أجزاء النماذج أو الموديلات إنما ينمي طاقته الجسمية ويتسع نطاق تفكيره ويحصل على الرضا من العمل .

وأثناء العمل مع النماذج الكبيرة فإن المربي يمكن بصورة طبيعية جداً أن يوسع معارف التلاميذ عن قوانين الطبيعة والإنتاج والتكنولوجيا . والعمل مع النماذج الكبيرة يمكن أن يستخدم لإنجاح أي موضوع دراسي كبير أو واسع ، رغم أن استخدام مثل هذه الواجبات – كما يقول فوستر – يجب أن يكون في حدود معقولة . فإذا كان الهدف أساساً هو (توفير الإمكانيات الكاملة والفعالة للنشاط الإبداعي) فإنها في هذه الحالة فقط ستساعد على تطور إبداعية الطفل (١٠) .

لقد استعرضنا فيما سبق آراء أكثر من تحدثوا في مشكلة الابتكارية والقدرات الخلاقة في السنوات الأخيرة ، ولكن في الخاتمة يجب أن نلاحظ أن الأعمال التي تمت على مشكلة الانتاجية

والخلق وتطور مـواهب الأطفـال الإبـداعيـة ، والتي تمت في السنـوات الأخيرة تحت تـأثير الحـاجـة العملية ، لها في ذاتها جوانب إيجابية كما أن لها جوانب سلبية .

والأخيرة من وجهة نظرنا ترتبط بالمبالغة في الوجهة البراجماتية للأبحاث . فـالحـاجـة إلى الأداء الخلاق أو التنفيذات المبدعة في كل مجالات الإنتاج والخدمة قد دفعت إلى الابتعاد عن الاختبـارات المستخدمة لفترة طويلة على الذكاء ، وأدت إلى الحاجة إلى أشكال اختبارية جديدة (امتحـانـات) (والمعروف أن طريقة الامتحانات تستخـدم بـاتسـاع أثنـاء اختيـار الكوادر خـاصـة في الولايـات المتحدة) (٢٤) . ولـذا نتسـاءل : هل الأمر كما يقول (هـادسون) (١٨) من أن أبحـاث الابتكاريـة مستقلة وأصيلة (٦ ، ٨ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٤٩) ، أم أنهـا أدلـة أو تعبيرات عن بعض المواهب الطبيعيـة العامة ؟ (٤) ، هـذا الخلاف يحل الآن على مستوى معـاملات الارتبـاط التي يحصل عليهـا بواسطـة اختبارات الذكاء والاختبارات على الابتكارية ومع ذلك فإن هـذه الـدلائل أو المظـاهر لا تتطـابق دائماً – وإلى حد بعيد – مع مظاهر الإبتكارية في الحياة (٢٣ ، ٤٢) وهذا السؤال الهام لم يـدخل بعد في اعتبار الباحثين بدرجة كافية .

المراجـــع

1. Adamson, R.E. (1952): Functional fixedness as it is related to problem solving and verbal definition.
   Stanford University. (Unpublished Doctoral Thesis).
2. Anderson, H.H. (Ed.) (1959): Creativity and its cultivation.
   New York. Harper.
3. Burt, C.L. (1962): Critical Notice : The psychology of creative ability.
   "British Journal of Educational Psychology". Vol. 32.
4. Butcher, H.J. (1972): Human Intelligence : Its nature and assessment.
   London, Metheum.
5. Cattell, R.B. and Butcher, H.J. (1972): Creativity and personality.
   In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".
6. Crutchfield, R.S. (1967): Instructing the individual in creative thinking.
   In R.L. Mooney and T.A. Razik (Eds.). "Explorations in Creativity". Harper and Row.
7. Cronbach, L.j. (1969): Research for Tomorrow's schools. N.y. Macmillan.
8. Cropley. A.J. (1971): Creativity.
   Longman.
9. Dewing, K. (1970): The reliability and validity of selected tests of creative thinking in a sample of **7th** grade Western
   Australian Children.
   "British Journal of Educational Psychology". 40.
10. Foster, J. (1971): Creativity and the theatre.
    Macmillan.
11. Getzels, J.W. and Csikzentmibaly, P.W. (1967): Creative thinking. "Science Journal".
12. Getzels, J.W. and jackson, P.W. (1968): Creativity and Intelligence.
    John Wiley and Sons.
13. Guilford, J.P. (1950): "Creativity".
    American Psychologist. 5.
14. Guilford, J.P. (1968): Intelligence, Creativity and their Educational Implications. Robert R. Knapp,
    Publisher San Diege, California.
15. Guilford, J.P. (1972): Trait of Creativity.
    In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

16. Guilford, J.P., Christensen, P.R. (1973): The One-way relation between creative potential and I.Q.
Journ. of creative behafviour. Buffalo. Vol. 7.

17. Haddon, F. and Lytton, H. (1968): Teaching approach and divergent thinking abilities.
"British journ. of Educational Psychology". Vol. 138.

18. Hudson, L. (1966) : Contrary Imaginations.
London. Methuem.

19. Hudson, L. (1968) : Frames of mind, ability, perception and self perception in the arts and sciences.
London, Metheum.

20. Jones, T.P. (1972) : Creative learning in perspective.
London Press.

21. Knowlson, T. Sh. (1917) : Originality.
London, T.W. Lowrie, Ltd.

22. Koestler, A. (1959) : The sleep walkers.
London. Hutchinson.

23. Lytton, H. (1971) : Creativity and education.
London. Routledge & Kegan.

24. Machkinnon, D.W. (1965): Personality and the realization of Creative potential.
American Psychologist, Vol. 20.

25. Mackinnon, D.W. (1972) : The personality correlates of creativity : A study of American architects.
In P.E. Vernon (Ed.), "Creativity".

26. Marland, S.P. (1972) : "Education of the Gifted and Talented".
Report to the Subcommittee on Education, Committee on Labor and Public welfare, U.S. Senate.
Washington, D.C. P. 10.

27. Martindale, C. and Greenough, J. (1973) : Evaluation of Training in creative problem-solving test.
"The Journ. of genetic psychol.", 123 No. 2.

28. Maslow, A.H. (1959) : Creativity in self-actualising people.
In Anderson, H.H. "Creativity and its cultivation".
Harper.

29. Meadow, A.: Parnes, S.J. (1959): Evaluation of training in creativity

problem–solving test.
Journ. appl. Psychol. Vol. 43.

30. Madnick, S.A. and Mednick, M.T. (1964): An associative interpretation of the creative process.
In Taylor C.W. (Ed.) "Widening horizons in creativity."

31. Parnes, S.J. (1972): Education and creativity.
In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

32. Razik, T.A. (1972): Psychometric Measurement of creativity.
In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

33. Roe, A. (1952): A psychologist examines sixty–four eminent scientists.
"Scientific American". 187.

34. Rogers, C.R. (1972): Towards a theory of creativity.
In Vernon P.E. (Ed.) "Creativity".

35. Shapiro, R.J. (1972): The criterion Problem.
In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

36. Sinnot, E.W. (1959): The creativeness of life.
In H.H. Anderson "Creativity and its cultivation".
Harper.

37. Smith, P. (Ed.) (1959): Creativity.
New York : Hastings House.

38. Stein, M.I. and Heinze, S.j. (1960): Creativity and the individual.
Free Press.

39. Stein, M.I. (1968): "Creativity", in E.F. Borgatta and W.W.
Lanfert (Eds.), Handbook of personality, Theory and Research.
Chicago : Rand, McNally.

40. Taylor, C.W. and Ellison, R.Z. (1972): Prediction of Creativity with the biographical inventory.
In P.E. Vernon (Ed.). "Creativity".

41. Terman, L.M. (1972): Psychological Approaches to the biography of genius.
In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

42. Thibault, F. (1960): Teaching creative thinking in High School.
Minnesota. (Unpublished Thesis).

43. Torrance, E.P., De Young, K.N. (1958): Explorations in creative thinking in mental hygiene.
Minnesota, N.II.

44. Torrance, E.P. Explorations in Creative Thinking in the early school years. Minnesota, N. Vl. 1959.

45. Torrance, E.P. (1962) : Guiding creative talent. Prentice-Hall.

46. Torrance, E.P. (1965) : Rewarding creative behaviour. Prentice-Hall.

47. Torrance, E.P. (1970) : Encouraging Creativity in the classroom. Georgia.

48. Vernon, P.E. (1967) : Psychological Studies on Creativity. "Journ. of Child Psychology and Psychology and Psychiatry". 8.

49. Wallach, M.A. and Kogan, N. (1972): A new look at the creativity intelligence distinction.

In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

50. Wallas, G. (1972) : The art of thought. In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

51. Warner, D.A. (1977) : "The School, The Community, and the Gifted Child". Educational Leadership. CTB-McGraw-Hill, Vol. 34, No. 6.

52. Watson, M.O. (1968) : Creativity in schools. "New Era" 19.

المنسوجات العربية في الشعر الجاهلي

الأستاذ الدكتور
يحيى وهيب الجبوري
أستاذ بقسم اللغة العربية

كان اهتداء الإنسان الأول إلى الملابس هو حاجته إلى ستر العورة ، واتقاء المطر والبرد ولفح الحر ، ولا شك أن أول ما لفت نظر الإنسان هو جلد الحيوان ، فاتخذه وقاية له وستراً ، فكان يصطاد الحيوان أو يربيه ليتخذ من صوفه أو شعره أو وبره نسيجاً بدائياً يرتديه ، أو يتخذ من ألياف النباتات من قنب وكتان وقطن ، ويصنع من ذلك خيوطاً يبرمها براحة الكف ، أو بمغزل بسيط ، هو خيط ينتهي طرفه بحجر أو عصا ، ثم ينسج من ذلك شملة أو رداء .

وهناك أساطير تروى عن أول من اتخذ الملابس وكيفية اتخاذها ، فتروى الأسطورة أن البطلة برتا Berta كانت أول امرأة غزلت بيدها ثم نسجت أول ثوب في العالم لتجتذب به أنظار المعجبين[1]. أما العرب فينسبون صناعة الملابس إلى النبي إدريس عليه السلام[2]، ويقول الثعالبي : « إنه أول من خط الكتاب وخاط الثياب ، وإنما كان من قبله يلبسون الجلود »[3]، وينسب اليونان صناعة الملابس إلى هرمس Hermes (عطارد) ، كان الإنسان في البداية يتخذ من الجلد رداء يغطي به جسمه ، سواء في ذلك النساء والرجال ، ثم لما عرفت الملابس بقى الجلد زيًّا

(١) الأزياء الشعبية وتقاليدها في سورية ص ١١ .

(٢) مقدمة ابن خلدون فصل صناعة الحياكة والخياطة ص ٤٥٩ .

(٣) لطائف المعارف ص ١٦ .

تقليديًا لفئة خاصة هي فئة الكهنة التي استعملت جلد الفهد زيًا دينيـاً فوق نقبـة بسيطـة في كل العصور الفرعونية[٤].

وأقدم لباس للرجال عند الفراعنـة كان يتكون من حزام يشـد حول الوسـط ويتـدلى منـه مـا يشبه الكيس أو الجعبة لستر العورة ، وظهرت بعد ذلك النقبة القصيرة وهي قطعة قماش (فوطة) تلف حول الوسط وتصل إلى الركبة ، وقـد جـاءت في الرسوم الفرعونيـة على هيئـة خطوط تتـدلى من الحزام وتتعـامـد عليـه فهي تشبـه زي السكان الأصليين في جزر هـاواي[٥]، ثم صـارت الملابس تتطور فـأصبحت ثوبـاً مستطيلاً مغلقـاً من الأمـام ولـه فتحتـان من أعـلاه ، الأولى كبيرة للعنـق والذراع الأيمن ، والفتحة الثـانيـة للـذراع الأيسر ، وكان قصيراً يجـاوز طولـه الركبـة بقليل . أما ملابس النسـاء الفرعونيـات فكان ثوبـاً بسيطـاً خـاليـاً من الثنـايـا ، وكان من الضيق بحيث يبرز تقاطيع الجسم بوضوح ، وكان ينحدر من الثدي ويمتد حتى يبلغ العقبين ، ويثبت بشريطين يمران بالكتفين ، وكان القميص عادة من لون واحد لا زخرفة فيه إلا عند حـافتـه العليـا إذ كانت تطرز وتزخرف[٦].

ثم بدأت بمرور الزمن تظهر النقوش والزخرفـة على الملابس ، وفي العصور الآشوريـة في العراق القديم تطورت صناعة الملابس وصارت حرفة شائعـة ، وكان يقوم بهـا العبيـد خـاصـة ، وكـذلـك الأحرار من النساء والرجال ، وكان هؤلاء النسـاجون يـأتلفون في شبـه تنظيم نقـابي يرأسـه شخص قـدير يحمـل لقب rebkisir she أي نقيب النسـاجين[٧] ، وكانت لهم بيـوت خـاصـة تعرف ببيت النساج ، وكانت قصور الملوك والمعابد تمول هؤلاء بالمواد الخام من قطن وكتان وصوف وحرير[٨].

لباس العرب في الجاهلية :

كانت حياة العرب في الجـاهليـة بسيطـة ، وكانت البسـاطـة في طرق معـايشهم وطعـامهم وسكنهم ، فهي أشبه بحيـاة البـدو حتى في الوقت الحـاضر ، كان لبـاس العرب يتكون من القميص

(٤) معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ص ٤٣ .
(٥) المرجع السابق ص ٤٣ ، والموسوعة الأثرية العالمية ص ٦٦٤ مادة : ملابس .
(٦) معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ص ٤٣ .
(٧) الحرف والصناعات اليدوية ص ١٥ .
(٨) تاريخ المنسوجات ص ١٢ ، المنسوجات العراقية الإسلامية ص ١٠ .

والحلة والإزار والشملة والعباءة والعمامة ، وثيابهم قصيرة إلى أسفل الركب ، ولم يعرف العرب السراويل ولا الأقبية وإنما هي فارسية[٩]، أما النعال والخفاف فقد كان يلبسها بعض الخاصة ، وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي ﷺ ، فقد قيل إن أحب اللباس إليه البرود والبياض والحبرة وكان كمه قصيراً إلى الرسغ ، يلبس أحياناً حلة حمراء وإزاراً ورداءاً والإزار قصير إلى أسفل الركبة ، ولبس الخف والنعل[١٠]. وكانت أنسجة العرب من القطن والصوف[١١]، وتأثر عرب الجاهلية بأهل الشام والعراق وخاصة الأغنياء والتجار الذين كانوا يفدون عليهم فيقلدونهم في ملابسهم ، وصاروا يلبسون الخز والطيلسان والأقبية ، وقد شهر عند العرب أن أول من لبس الخز الأدكن عبد الله بن عامر ، وكان ذلك في أول الإسلام ، وأول من لبس الدراريع السود[١٢] المختار ابن أبي عبيد الثقفي ، وأول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم[١٣]، وأول من بدأ بتقليد الأعاجم في لباسهم وأسباب بذخهم معاوية بن أبي سفيان وعماله ، وكان زياد بن أبيه أمير العراق لمعاوية أول من قلد الفرس فلبس قباء الديباج[١٤] وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة ، ثم شاع الترف عند الأمويين فلبسوا الحرير وأحبوا الوشى وأكثروا من لبسه فقلدهم الناس ، واتخذوا كثيراً من ألبسة الروم ، ولكنهم ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق وهي السمة العربية التي بقيت لديهم ، ويقول الأحنف بن قيس : « لاتزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف»[١٥]. وقد زالت هذه السمة العربية في العصر العباسي إذ أمر المنصور رجاله سنة ١٥٣هـ أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة التي تثبت بعيدان من داخلها بدل العمائم ، أو يعتموا فوقها بعمائم صغيرة ، وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم ، وأقبل العرب في ذلك العصر على تقليد الفرس في الملابس ولاسيا رجال الدولة ، فلبسوا الأقبية والسراويلات والطيالسة والخفاف وغيرها وبقيت ألبسة العرب عند العامة ، وصار لكل طبقة لباس خاص بهم يميزهم عما سواهم[١٦].

---

(٩) البيان والتبيين ٥٣/٢ .

(١٠) تهذيب الأسماء ص ٦٠ .

(١١) تاريخ التمدن الإسلامي ٥ / ٩٢ .

(١٢) الدراعة : قميص طويل أو جلباب من القطن مفتوحة الصدر إلى الوسط وفي فتحتها أزرار ، وقد صارت لباس الوزراء فيما بعد .

(١٣) المعارف – ابن قتيبة ص ١٨٧ .

(١٤) الأغاني ١٤ / ١٠٤ .

(١٥) الكامل – المبرد ص ١٠٠ ، وتاريخ التمدن الإسلامي ٥ / ٩٣ .

(١٦) تاريخ التمدن الإسلامي ٥ / ٩٣ .

صناعة الملابس :

ترجع صناعة الملابس إلى عهود سحيقة ، ليس من اليسير تحديدها ، ولكن يصح القول إن الملابس المنسوجة كانت شائعة الاستعمال في عصر البرونز ، ولابد أن تكون الصناعة قد عرفت منذ قرون عديدة سابقة[١٧]، ولا شك أن صناعة الملابس أي الحياكة والنسج كانت سابقة في المناطق التي تميل إلى البرد ، فهم بحاجة إلى الدفء ، أما البلاد التي تميل إلى الحر فكانت الحاجة إليها أقل ، ولذلك بقى حتى هذا العصر سكان المناطق الحارة كجنوب السودان والحبشة وأفريقية السوداء عراة في الغالب[١٨].

كانت الملابس في العصور الحجرية من جلود الحيوانات التي يصطادونها ، ولكن في العهود التالية وجدت في العراق أقراص الغزل الفخارية والإبر الخشبية والعظمية التي كشفت عنها الحفريات في بعض المواقع الأثرية العراقية ، وظهرت في العصور الآشورية في العراق صناعة متقدمة للنسيج كان يقوم بها العبيد ، وكانت لهم دور تمولها قصور الملوك والمعابد بالمواد الخام[١٩]، أما في الجزيرة العربية فتشير نصوص المسند إلى أن الملوك كانوا قد أسسوا دوراً للنسيج يباع ما تنتجه في الأسواق ، وقد اشتهرت اليمن بأنسجتها المتنوعة ، فكانت دور النسيج من الموارد التي تأتي بالمال إلى أولئك الملوك[٢٠].

وقد برع العرب في الحياكة والنسج وخاصة في المدن ، أما في البادية فكانت هذه الصناعة أولية وفي أضيق الحدود ، لأن العرب في البادية كانوا ينظرون إلى هذه الصناعة ، شأن الصناعات الأخرى ، نظرة احتقار ، وكانت تقوم بها النساء لسد حاجة الأسرة ، أما في الحاضرة فقد شاعت وتقدمت في كثير من المدن بحيث صارت المنسوجات الجيدة تنسب إلى مواطن صنعها في اليمن والعراق والشام ومصر .

وقد جاءت في الشعر الجاهلي وكتب اللغة أسماء لأدوات الحياكة والنسج ، ومن هذه الأدوات :

---

(١٧) الموسوعة الأثرية العالمية ص ٦٦٤ .

(١٨) بلوغ الأرب ٣ / ٤٠٤ .

(١٩) تاريخ المنسوجات ص ١٢ .

(٢٠) جواد علي ٥ / ٢٦١ .

الحَفّ : وهو الذي تلمظ به اللحمة أي تلقم ويُصَفّق ليلتقمها السدى ، والجمع الحِفَفَة ، قال الأصمعي : الحفة المنوال ، وهو الخشبة التي يلف عليها الحائك الثوب ، قال : والذي يقال لـه الحف هو المِنْسَج[٢١] ، والحفة القصبات الثلاث ، والحِفَّة (بكسر الحاء) التي يضرب بها الحائك كالسيف ، والحَفُّ (بفتح الحاء) القصبة التي تجيء وتذهب[٢٢].

الوشيعة : وهي المِنْسَج ، وهي قصبة في طرفها قرن يُدْخل الغزل في جوفها وتسمى السهم ، وقال الجوهري : الوشيعة لفيفة من غزل وتسمى القصبة التي يجعل النساج فيها لحمة الثوب للنسج[٢٣]، وجاءت الوشيعة في شعر ذي الرمة بصيغة الجمع في قوله :[٢٤]

به ملعب من معصفات نَسَجْنَه كنسج اليماني برده بالوشائع

والتوشيع : لف القطن بعد الندف ، وكل لفيفة منه وشيعة ، قال رؤبة :[٢٥]

فانصاع يكسوها الغبار الأصيعا ندف القياسي القَطْن المُوَشَّعا

المِشْيَعَة : ما يلف عليه الغزل[٢٦]، والمشيعة : قُفَّة تضع المرأة فيها قطنها[٢٧].

الثِّناية : التي يُثنى عليها الثوب ، قال الجوهري : الثناية حبل من شعر أو صوف ، قال الراجز :[٢٨]

أنا سحيم ومعي مدرايه أعددتها لفتك ذي الدوايه

والحجر الأخشن والثِّنَايهْ

---

(٢١) التاج : حفف ، والمعاني الكبير ١ / ٥٠ ، وبلوغ الارب ٣ / ٤٠٤ – ٤٠٥ .

(٢٢) اللسان : حفف .

(٢٣) التاج : وشع ، وبلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ ، وجواد علي ٧ / ٥٩٤ .

(٢٤) اللسان : وشع .

(٢٥) اللسان : وشع ، الأصيص : الغبار الذي يجيء ويذهب ، والوشيع : علم الثوب ، ووشع الثوب : رقمه بعلم ونحوه ، والوشيعة : الطريقة في البرد .

(٢٦) بلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ .

(٢٧) اللسان : شيع .

(٢٨) الصحاح واللسان : ثنى ، وأما الثِّناء : فعقال البعير ونحوه من حبل مثنى .

العَـدْل : خشبة لها أسنان كأسنان المنشار يقسم بها السدى ليعتدل .

الصيصـة : عود من طرفاء كلما رمى بالسهم فألحمه أقبل بالصيصة وأدبر بها ، وقيل : الصيصة شوكة الحائك التي يسوي بها السداة واللحمة ، قال دريد بن الصمة :[٢٩]

فجئت إليـه والرمـاحُ تنوشـه   كوقع الصَّياصي في النسيج المُمَدَّدِ

النِّـيْر : الخشبة المعترضة التي فيها الغزل ، وثوب منَيَّر ذو نيرين مضاعف النسج ، وقيل : النير لحمة الثوب ، فإذا نسج على نيرين كان أصفق وأبقى ، ونير الثوب علمه ولحمته أيضاً ، ونير الثوب : هدبه ، وأنشد بيت امرىء القيس :[٣٠]

فقمتُ بهـا تمشي تجرُّ وراءَنَـا   على أثَرينـا نِيْرَ مِرْطٍ مُرَجَّلِ

الصِّنَّـارة : رأس المغزل ، وقيل الحديدة الدقيقة المعقَّفة التي في رأس المغزل ، وقال الليث : الصنارة مغزل المرأة ، وهو دخيل[٣١].

المِـداد : عصا في طرفيها صنارتان يمدد بها الثوب ، وجمعها أمِدَّة ، وفي اللسان : المِسَاك في جانبي الثوب إذا ابتدىء بعمله[٣٢].

الكُفَّـة : الخشبة المعترضة في أسفل السدى[٣٣].

الحماران : يوضعان تحت الكفة ليرفع السدى من الأرض ، وأصل الحمارة : حجارة تنصب حول الحوض لئلا يسيل ماؤه ، والحمائر : حجارة تنصب حول قترة الصائد واحدها حمارة ، والحمارة أيضاً : الصخرة العظيمة[٣٤].

المِثْلَث : قصبات ثلاث تسمى بالفارسية (سِكَانَهْ)[٣٥].

---

(٢٩) الصحاح واللسان والتاج : صيص ، وبلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ وجواد علي ٧ / ٥٩٤ .

(٣٠) اللسان : نير ، وفي الديوان ص ١٤ : ذيل مرط مرحل .

(٣١) اللسان والتاج : صنر .

(٣٢) اللسان والتاج : مدد .

(٣٣) بلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ .

(٣٤) اللسان : حمر .

(٣٥) بلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ .

المِبْرَم والبريم : الحبل الذي جمع بين مفتولين ففتلا حبلاً واحداً ، والمبرم من الثياب : المفتول الغزل طاقين ، ومنه سمي المبرم وهو جنس من الثياب ، والمبارم المغازل التي يبرم بها ، والبريم : خيطان مختلفان أحمر وأصفر ، وكذلك كل شيء فيه لونان مختلفان[٣٦].

وسدّى الثوب تسدية : إذا مد الغزل ليسقيه الخزيرة ، وهي كالحساء من دقيق .

والشَّفْشِقَة والشفاشق : قصب يشق ويوضع في السدى عَرْضاً ليتمكن به من السقي .

الدعائم : خشبات تنصب ويمد عليها السدى .

الكحمّـة : ما يلحم به[٣٧].

المنـوال : أداة الحائك المنصوبة ، وهو النول أيضاً ، وهو الخشبة التي يلف الحائك عليها الثوب[٣٨].

عرف النول Loom منذ عصر مبكر ، فقد عرفه سكان وادي الرافدين السومريون والآشوريون والبابليون[٣٩]، ويسمى النول (الجومة) ، وتطلق الجومة على حفرة تحفر في أرض الغرفة بحيث تتيح للنساج أن يدخل رجليه إلى الركبتين فيها ، وينصب النول فوق هذه الحفرة بوضع يسهل على الحائك أن يصل خيوط النسج المراد نسجها[٤٠]. وهناك نوعان من النول ، النول الأفقي Horizontal loom والنول العمودي Vertical loom ويتكون هذا الأخير من عارضتين عموديتين تربط بينهما عارضتان أفقيتان ، وتشكل كل عارضة أفقية بالعارضة العمودية زاوية قائمة في كل جهة ، كما تمتد بين العارضتين العموديتين خيوط السدى ، أما خيوط اللحمة فتنزل من الأعلى بواسطة بكرات معلقة في سقف الحجرة ، وعن طريق هذه البكرات تنزلق خيوط النول فتدخل بالنسيج ، ويضاف إلى النول عادة إطار أو برواز يحصر حاشية النسيج[٤١] . ومما يكمل النول من الأدوات : المسمار والمطرقة والمشط والحف والوشيعة والعدل والنير والمداد والصنارة

---

(٣٦) اللسان : برم ، والبريم : حبل فيه لونان مزين بجوهر تشده المرأة على وسطها وعضدها .

(٣٧) بلوغ الارب ٢ / ٤٠٤ – ٤٠٦ ، وجواد علي ٧ / ٥٩٥ .

(٣٨) اللسان : نول .

(٣٩) قصة الحضارة ٢ / ٢٠٢ .

(٤٠) المنسوجات العراقية ص ١٧ ، والحرف والصناعات اليدوية ص ٩٤ .

(٤١) المنسوجات العراقية ص ١٨ .

والحاران والشفقة واللحمة[٤٢].

المُغْـزَل (أو المِغْزَل) (بضم الميم وكسرها) : مـا يغزل بـه ، وهو من أغزل أي أدير وفتل ، وأغزلت المرأة : أدارت المغزل ، وجاء في شعر امرىء القيس :[٤٣]

كأن طَميَّـــــة المجيمر غُـــــدوةً   من السيـلِ والغُثَّـاء فَلْكـةُ مِغْـزَلِ

والمغزل : نوع بسيط يحمل باليد وهو قديم جـداً ، ومـازال مستعملاً حتى اليوم ، ومنـه مـا هو على هيئة دولاب يدار بالأرض فيكون سريعاً بالغزل بعض السرعة بـالنسبـة إلى اليـد[٤٤]، فـأمـا النوع البسيـط فيتكون عـادة من جسم خشبي مخروطي الشكل تلف عليـه الخيوط المغزولـة ، ومن قرص دائري مثقـوب الـوسـط يرتكـز عليـه جسم المغـزل ، وهـو ينظم حركـة المغـزل وارتكاز الخيـوط المبرومة ، ويصنع هذا القرص من الخشب أو الطين المفخور ، وأما النوع الثاني فهو الدولاب الـذي يدار باليد ويكون على شكل عجلة يلف عليها الغزل[٤٥].

وقـد يسمى المغـزل (المِرْدَن) وهـو المغـزل الـذي يغـزل بـه الردن ، والردن : الخـز الأصفر ، والردن : الغزل يفتل إلى قـدام ، وقيـل هـو الغـزل المنكـوس ، وثـوب مردون : منسـوج بـالغـزل المردون ، وقيل الردن : الغزل الذي ليس بمستقيم[٤٦].

الخيـــاطة :

ومما يتعلق بالنساجة والحياكة حرفـة الخيـاطـة ، وهي حرفـة تحويل الأقمشـة إلى كسوة وصنع الثيـاب والعمائم بتفصيل القماش وقصـه ثم خيـاطتـه وفق القيـاس المطلـوب ، وهي حرفـة تروج في المدن ، أما في البادية فالمرأة هي التي تقوم بعمل الضروريات ويشتري أهل الباديـة حـاجـاتهم من الثياب من المدن والقرى[٤٧].

---

(٤٢) بلوغ الارب ٢ / ٤٠٥ .
(٤٣) ديوانه ص ٢٥ ، واللسان والتاج : غزل .
(٤٤) جواد علي ٧ / ٥٩٥ .
(٤٥) المنسوجات العراقية ص ١٥ .
(٤٦) اللسان : ردن .
(٤٧) جواد علي ٧ / ٦١١ .

وظهرت في الجاهلية أسماء تدل على الخياطة أو على أجزاء الثوب المخيط ، ومن هذه الأسماء ما هو معرب مثل (الدخريص) و (التخريص) ، قيل إن أصلها فارسي ، وهي تعني (البَنيقة) و (اللِّبنَة) ، وجاءت الدخارص في شعر الأعشى في قوله :[48]

قوافيَ أمثالاً يُوَسِّعْنَ جِلْدَهُ كما زِدْتَ في عَرْضِ القميص الدَّخارِصَا

وقال أبو منصور : سمعت غير واحد من اللغويين يقول : الدخريص معرب أصله فارسي وهو عند العرب : البنيقة واللبنة والسُّبْجَة والسُّعَيْدة[49].

وصانع الخياطة الخياط ويقال له (دَرْز) ، والكلمة من الدخيل ، وبنو درز : الخياطون والحاكة[50]، ومن أسماء الخياط (القراري) ، وكذلك جاء في شعر الأعشى :[51]

يَشُقُّ الأمورَ ويجتابُها كشَقِّ القَراريِّ ثوبَ الرَّدَنْ

ومن الألفاظ الدالة على الخياطة في اللغة قولهم : شمج الخياط الثوب يشمجه شمجاً : خاطه خياطة متباعدة ، ويقال : شمرجه شمرجة ، وثوب شمروج ومشمرج : رقيق النسج ، والشمرج كل خياطة ليست بجيدة ، وجاء هذا اللفظ في قول ابن مقبل يصف فرسا :[52]

ويُرْعِدُ إرعادَ الهجينِ أضاعَهُ غَداةَ الشَّمالِ الشُّمْرُجُ المُتَنَصِّحُ

والخيط : الذي يخاط به الثوب ، ويجمع على أخياط وخيوط وخيوطة ، وجاء هذا الجمع الأخير في شعر ابن مقبل :[53]

قَريساً وَمَغْشِيَّاً عليه كأنَّهُ خُيوطةُ ماريٍّ لواهُنَّ فاتِلُهْ

ويسمى الخيط (السِّلْكَة) وجمعه سلك وأسلاك وسلوك ، والأخيران جمع الجمع[54].

---

(٤٨) ديوان الأعشى ص ٢٠١ ، والمعرب ص ١٤٣ - ١٤٤ ، واللسان والتاج : دخرص .

(٤٩) اللسان : دخرص .

(٥٠) اللسان : درز ، ومعجم الألفاظ الفارسية ص ٦٢ .

(٥١) اللسان : ردن وديوان الأعشى ص ٧٥ .

(٥٢) اللسان : شمج ، شمرج ، وديوان ابن مقبل ص ٣٦ .

(٥٣) اللسان : خيط ، وديوان ابن مقبل ص ٢٥٣ .

(٥٤) اللسان : سلك .

والحائك الذي يغزل الصوف أو الشعر يسمى الغَزَّال ، ويسمى العصّاب أيضاً ، وجاء في قول رؤبة :[٥٥]

طَـيَّ القَسَـامِيِّ بُـرودَ العَصَّـابْ

و (الخِياط) : بكسر الخاء الإبرة التي يخاط بها ، وذلك بإدخال الخيط في سَمِّها أي في ثقب الإبرة ، والخياطة صناعة الخائط ، والخياط والمخيط : ما خيط به وهما أيضاً الإبرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخِياط** ﴾[٥٦] أي في ثقب الإبرة والمِخْيَط[٥٧]. والإبرة : واحدة الإبر وهي مسلة الحديد ، وقد جاء جمعها على ابار في قول القطامي :[٥٨]

وقول المرء ينفذ بعد حين أماكن لا تجاوزها الابار

ويقال للذي يسوى الابر (الأبّار) .

عملية النسج والخياطة :

بعد أن يعد الغزل تنسج الخيوط أسداداً في الطول وألحاماً في العرض ، ويوضح ابن خلدون عملية النسج والخياطة في قوله : « ولابد لذلك من الحام الغزل حتى يصير ثوباً واحداً وهو النسج والحياكة ، فإن كانوا بادية اقتصروا عليه ، وإن كانوا إلى الحضارة فصلوا تلك المنسوجات قطعاً يقدرون منها ثوباً على البدن بشكله وتعدد أعضائه واختلاف نواحيه ، ثم يلائمون بين تلك القطع بالوصائل حتى يصير ثوباً واحداً على البدن ويلبسونها ، والصناعة المحصلة لهذه الملائمة هي الخياطة » ، ويقول : « وهاتان الصناعتان ضروريتان في العمران ، لما يحتاج إليه البشر من الرفه فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن اسدادا في الطول والحاما في العرض ، واحكاما لذلك النسيج بالالتحام الشديد ، فيتم منها قطع مقدرة ، فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس » .

(٥٥) اللسان : عصب .
(٥٦) الأعراف ٤٠ .
(٥٧) اللسان : خيط .
(٥٨) اللسان : أبر .

ويقول عن الخياطة : « والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد ، تفصل أولاً بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ، ثم تلحم تلك القطع بالحياكة المحكمة وصلاً أو حبكاً أو تنبيتاً أو تفتيحاً على حسب نوع الصناعة » . ويرى أن صناعة الخياطة خاصة بأهل الحضارة ، لأن أهل البادية يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً ، وإنما تفتيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها ، ويعلل السبب في تحريم لبس المخيط في الحج : لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها بالرجوع إلى الله تعالى[٥٩].

المـواد الخـام :

عني العرب الموسرون عناية فائقة بملابسهم ، فلبسوا أجود الملابس المصنوعة من الكتان والقطن والديباج والخز ، الموشاة بالذهب ، البيض منها والمصبوغة والملونة ، والمزينة بضروب الوشي ، وقد كان الملوك والأغنياء والكهنة والرؤساء يرتدون أنسجة دقيقة مصنوعة صنعاً خاصاً بأيد ماهرة متقنة لعملها ، لا تصنع إلا الأنسجة الثمينة الغالية ، ومن هذه الأقمشة ما كان يصنع من الكتان الخالص أو الصوف الناعم الرقيق ، ومنه ما كان يصنع من الحرير الخالص أو المخلوط بمادة أخرى ، وقد يقصب القماش بالذهب أو يوشي به ، وكانوا يرتدون ملابس موشاة ومطرزة في أثناء أدائهم الصلوات وإقامة الشعائر الدينية ، وقد كان الملوك والكهان يستوردون الأقمشة الجيدة من أماكن أخرى اشتهرت باتقانها واجادتها صنع الأقمشة الجيدة مثل بابل وبلاد الشام والهند ومصر وفارس وغيرها لمثل هذه الأغراض[٦٠] .

الصـوف :

الصوف من المواد المتيسرة في جزيرة العرب وغيرها التي تصنع منها الملابس نظراً لكثرة الأغنام في المدن ، وكانت وما زالت تصنع من الصوف البسط والسجاجيد ، وأكثر صوف الجزيرة العربية من النوع الخشن الذي يصلح لصنع السجاد ، وقد تصنع منه الخيام أيضاً ، وإن كان شعر الماعز هو الأصلح لصنع الخيام ، أما صوف الأغنام الناعم الدقيق فتصنع منه الأنسجة اللطيفة والملابس الجيدة .

(٥٩) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٨ – ١٥٩ فصل الحياكة والخياطة .

(٦٠) جواد علي ٧ / ٥٩٩ .

ويحضّر الصوف قبل إعداده للغزل بأن ينظف وذلك بنشره وتنظيفه من المواد الغريبة ، وقد يضرب بعصا أو بآلة خاصة على نحو ما يصنع النداف لتنظيف المادة المراد غزلها وجعلها سهلة للغزل ، وقد يغسل الصوف ثم ينشف وينظف ، وقد جاء في التوراة وصف لكيفية إعداد الصوف وشعر الماعز للغزل ، وجاءت صور لعمال من قدماء المصريين كانوا يقومون بغسل المواد على نهر النيل وقد صورت على جدران مقابر قدماء المصريين[٦١].

أما في بلاد وادي الرافدين فقد ساعدت البيئة ووفرة المياه والنباتات والأعشاب القصيرة على تربية الأغنام والاستفادة من أصوافها وخاصة الخراف ذات الإلية الكبيرة التي عرفت بجودة صوفها ، وقد شهرت بابل بتصدير الأصواف الجيدة وراجت تجارتها[٦٢].

وكانت هناك مواسم لجز الصوف كثيراً ما تقام في احتفالات خاصة كاحتفالات رأس السنة البابلية ، ثم تجمع كميات الصوف المجزوزة وتنقع بالماء كي تتخلص من الأتربة أو الفضلات الحيوانية وغيرها من الشوائب ، ثم تشطف عدة مرات حتى تنظف ، ثم تجفف تحت أشعة الشمس ثم تكون جاهزة للغزل والنسج .

ويجعل الصوف على شكل لفائف مستطيلة ومستديرة قبل غزله ، وتسمى هذه اللفيفة (عميتة) وفي اللسان : « عمت الصوف والوبر يعمته عمتا لف بعضه على بعض مستطيلا ومستديرا حلقة فغزله » ، وقال الأزهري : « كما يفعله الغزّال الذي يغزل الصوف فيلقيه في يده والإسم العميت » وأنشد :[٦٣].

يظَلُّ في الشَّاءِ يرعاها ويحلبها ويَعْمِتُ الدهرَ إلا رَيْثَ يَهْتَبِدُ

قال : يعمت يغزل ، من العميتة وهي القطعة من الصوف . واستعملت اللفظة في اللهجات العربية الجنوبية لدلالتها على دور النسيج وعرفت بـ (تعمت) أي دور النسيج[٦٤].

---

(٦١) جواد علي ٧ / ٥٩٦ .
(٦٢) قصة الحضارة ٢ / ١٥ .
(٦٣) اللسان والتاج : عمت .
(٦٤) جواد علي ٧ / ٥٩٨ .

وقد يخلط الصوف مع الوبر ثم يغزل فيكون نسيجاً ناعماً ، وقد ذكر الشعر هذه العملية في بيت حكاه سيبويه :[٦٥]

حَلْبانَةٍ رَكْبَانَةٍ صَفُوفِ   تَخْلِطُ بينَ وبَرٍ وصُوفِ

قال الأصمعي : يقول تسرع في مشيتها ، شبه رجع يديها بقوس النداف الذي يخلط بين الوبر والصوف .

الكتـــان :

اسم الكتان عربي الأصل ، وفي اللسان : الكَتَّان بالفتح عربي سمي بذلك لأنه يخيس ويلقي بعضه على بعض حتى يكتن ، وذكره الأعشى محذوف الألف للضرورة وسماه (الكتن) فقال :[٦٦]

هو الواهبُ المُسْمِعاتِ الشُّرُو   بَ بين الحريرِ وبينَ الكَتَنْ

وعرفت شقائق الكتان في العصر الجاهلي باسم (السِّب) ووردت في شعر عبد الله بن سليم الأزدي يشبه الطريق اللاحب الأبيض بالسبوب :[٦٧]

وناجيةٍ بعثتُ على سبيلٍ   كأنَّ بياضَ مَنْجَرِه سَبُوبُ

صنعت من الكتان الملابس الغالية التي كان يلبسها الأغنياء والوجهاء ، وتعطي أنسجة الكتان برودة خاصة في الصيف ، وكانت مصر ذات شهرة خاصة في تصدير أنسجة الكتان ، فقد عرف كتانها بالجودة والنعومة ، وكان غالي الثمن .

كان نبات الكتان من النباتات المنتشرة في مصر ، وعرفت صناعته عند المصريين القدماء ، فكانوا يقتلعون السيقان من التربة دون تقطيعها وذلك للحصول على أطول خيوط ممكنة ، ثم تحزم السيقان مجموعات وتربط من قبل جذورها وتترك لتجف في الحقل ثم يمشط الكتان ، وكانوا أحياناً يسلقون سيقان الكتان في وعاء كبير الحجم ثم تطرق بالمطارق لفصل اللحاء عنها ثم تندى الألياف

---

(٦٥) اللسان : صوف .

(٦٦) اللسان : كتن ، وديوان الأعشى ص ٧١ .

(٦٧) قصائد جاهلية نادرة ص ٢٠٤ وانظر ما يأتي : (السب) من أنواع الملابس .

وتفتل بمغزل ، وقد حفظت بعض الصور الفرعونية التي تمثل النساء وهن يقمن بغسل الكتان وتمشيطه ونسجه ، وعرفت المنسوجات المصرية بالرقة المتناهية وكان بعضها شفافاً مع نعومة تشبه نعومة الحرير(٦٨).

أما في العراق فقد عرفت زراعة الكتان منذ العصر السومري الأول وقد أطلق عليه لفظ Gade السومرية(٦٩)، وكان لباسه مقتصراً على الآلهة والملوك وبعض الكهنة ، وكانت صناعته في مدينتي أور وأريدو السومريتين ، وكانت صناعته تابعة للمعبد فهو الذي يشرف عليها ويمولها . وظهرت الأزر النسائية والرجالية في العصر البابلي منسوجة من الكتان ، وقد ازدهرت هذه الصناعة وانتشرت فصار التجار يصدرونه من بلاد وادي الرافدين إلى المناطق الأخرى .

الحـــرير :

عرف الجاهليون الحرير وشاع استعماله في لباسهم ، وشهرت مدن كثيرة بصناعته وكثرت أسماؤه وتعددت أنواعه ، وأصل الحرير من الصين ، وعرف عند الآشوريين والمصريين القدماء ، وذكرته الوثائق القديمة ، ولكنه لم يصل من تلك العصور لأن الحرير سريع البلى ، ويرجع اكتشاف الحرير إلى خمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد ، وارتبط اكتشافه بقصة طريفة ، فيقال إن أميرة صينية تدعى (سي لنج تشي) استلفت نظرها ديدان صغيرة كانت تعيش على أوراق التوت فراقبتها مراقبة دقيقة ، واهتمت بتربية هذه الديدان وعرفت كيفية استخراج خيوط الحرير من شرانقها ، وقد نزلت هذه الأميرة منزلة كبيرة في نفوس الصينيين إذ رفعوها إلى مصاف الآلهة ، وقد ذاع سر اكتشاف الحرير على يد أميرة صينية أخرى كانت قد تزوجت حاكم مدينة خوتان (بخارى الصغرى) وعند خروجها إلى مدينة زوجها خبأت في ثنايا شعرها بويضات دودة القز ، وفقست هذه البويضات في موطنها الجديد وتوالدت وانتشرت ، ونقل من هناك قسم منها خلسة إلى بيزنطة حيث انتشرت في معظم البلدان(٧٠)، وقد شاع الحرير في العراق منذ القدم لأن العراق ممر للقوافل التجارية الصينية وحلقة وصل بين الشرق والغرب بالإضافة إلى أن مناخ العراق يساعد على نمو أشجار التوت طوال العام .

---

(٦٨) تاريخ الحضارة المصرية العصر الفرعوني ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٦٩) Lutz: Textiles and Costumes among the Peopies of the Ancient near east; P 62 ; Leipzig 1223.
والمنسوجات العراقية الإسلامية ص ١٢ .

(٧٠) الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية - مرزوق ص ٤٢ .

وشاع عند الجاهليين الحرير (الخسرواني) وهو من الحرير المستورد من العراق بدلالة اسمه عليه ، يقول علماء اللغة إنه منسوب إلى الأكاسرة وانه حرير رقيق حسن الصنعة[٧١]، وقد تكلمت به العرب ، قال الفرزدق ذاكراً الحرير الخسرواني وقد نسبه إلى العراق :[٧٢]

لَبِسْنَ الفِرِنْـدَ الخُسْرَوانيَّ فوقَـه　　　مشَـاعِرَ من خَـزِّ العراق المُفَوَّفِ

وقال ذو الرمة :[٧٣]

كأن الفِرِنْـدَ الخُسْرَوانيَّ لُثْنَـهُ　　　بأعطافِ أنقاءِ العقُوقِ العَوَاتِكِ

ومن الأسماء المستعملة الدالة على الحرير (الدِّمَقْس) ، ويرى بعض العلماء أنها تعني حريراً دمشقياً أي معمولاً بدمشق ، وذهب آخرون إلى أن اللفظة محرفة من (دمقس) المستعملة في العربية ويراد بها الحرير أو الحرير الخام[٧٤]، وقيل أن الدمقس تحريف (مدقس) وهو الحرير الأبيض وأن أصلها يوناني هو Metaxa [٧٥]

وقد يراد بالدمقس القز الأبيض وما يجري مجراه في البياض والنعومة ، وقال الجواليقي : أعجمي معرب ، وقد تكلمت به العرب قديماً ، قال امرؤ القيس :[٧٦]

فظَلَّ العذارَى يرتَمِينَ بلحمِها　　　وشَحْمٍ كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ

و (الديباج) ضرب من الحرير ، قيل : أعجمي معرب[٧٧]، وقد تكلمت به العرب وأطلق على الثياب المتخذة من الابريسم ، وجاء في شعر مالك بن نويرة :[٧٨]

ولا ثيابَ من الديباج تَلْبَسُها　　　هي الجيادُ وما في النفس من دَبَبِ

---

(٧١) المعرب ص ١٣٥ ، وجواد علي ٧ / ٦٠٤ .

(٧٢) المعرب ص ١٣٥ والبيت من قصيدة في ديوانه ص ٥٥١ والنقائض ص ٥٤٨ .

(٧٣) المعرب ص ١٣٥ .

(٧٤) Smith: Dictionary of the Bible, Vol. 111, P. 1310.

(٧٥) غرائب اللغة ص ٢٥٨ وجواد علي ٧ / ٦٠٦ .

(٧٦) المعرب ص ١٥١ ، ديوان امرىء القيس ص ١١ .

(٧٧) المعرب ص ١٤٠ ، قيل : أصله بالفارسية (ديو باف) أي نساجة الجن ، والدبج : النقش مأخوذ من الديباج .

(٧٨) المعرب ص ١٤٠ ، والدبب : العيب .

وجاء كذلك في شعر الأعشى :[٧٩]

وكل زَوْجٍ من الـديبَـاجِ يلبسُـه أبـو قُـدامـةَ محبـوّاً بـذاكَ معـا

أما (السندس) فقد جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق** ﴾[٨٠]، وفي قوله تعالى : ﴿ **يلبسون من سندس واستبرق متقابلين** ﴾[٨١]، وقوله تعالى : ﴿ **عاليهم ثياب سندس واستبرق** ﴾[٨٢]، قيل : السندس رقيق الديباج ، وقال الليث : السندس ضرب من البزيون يتخذ من المرعزاء ، ولم يختلف أهل اللغة في أنه معرب ، قال الراجز :[٨٣]

وليلـةٍ من الليـالي حِنْـدِسِ لونُ حـواشِيها كَلَـونِ السُّنْـدُسِ

أما (الاستبرق) الذي جاء في القرآن الكريم مقروناً بالسندس ، فقيل : انه غليظ الديباج ، وفي اللسان : هو ما غلظ من الحرير والابريسم[٨٤]، وهو فارسي معرب قيل : أصله (اسْتَفْرَهْ) ، وقال ابن دريد (إسْتَرْوَهْ) ونقل من العجمية إلى العربية[٨٥].

و (السَّرَق) الحرير الجيد ، وقيل : شقق الحرير ، أو الأبيض ، أو الحرير عامة ، وفي المعرب : أصله (سَرَهْ) بالفارسية أي جيد ، قال الزَّفَيَان :[٨٦]

والبيضُ في أيمـانِهم تـألَّـقَ
وذُبَّـلٌ فيهـا شَبَـا مُـذَلَّـقُ
يطيرُ فـوق رؤوسهنَّ السَّـرَقُ

---

(٧٩) ديوان الأعشى ص ١٥٧ .
(٨٠) سورة الكهف ٣١ .
(٨١) الدخان ٥٣ .
(٨٢) الإنسان ٢١ .
(٨٣) المعرب ص ١٧٧ .
(٨٤) اللسان : استبرق .
(٨٥) المعرب ص ١٥ .
(٨٦) المعرب ص ١٨٢ .

وقال أبو عبيدة : أصله (استبْرَهْ) بالفارسية ، أي البيض من شقق الحرير وأنشد للعجاج :[٨٧]

ونسجتْ لوامِعُ الحَرورِ   من رَقْرقانِ آلِهَا المسجورِ
سَبائباً كسَرَقِ الحريرِ

وفي شعر الأخطل :[٨٨]

يرفلنَ في سَرَقِ الحريرِ وقَزِّهِ   يسحبْنَ من هُدّابهِ أذيالا

وفي الحديث : (انك في سرقةٍ من حرير)[٨٩]، ومنهم من جعل أصل السرق يونانياً أخذ من سريكون Sirikon (Sericium) في اليونانية ويراد بها الحرير عامة .

ويراد بـ (الخَزّ) الثياب المنسوجة من صوف وابريسم ، وقيل : الثياب المعمولة من الابريسم[٩٠]، وقد نهي عن لبسه للرجال في الإسلام كما نهى عن لبس الحرير ، وفي الحديث : (قوم يستحلون الخز والحرير)[٩١].

وإذا كان الخز أصفر فيسمى (الإضريج) ، وقيل هو كساء يتخذ من جيد المرعزي ، وقال الليث : ضرب من الأكسية أصفر ، وهو عند اللحياني الخز الأحمر ، وأنشد :[٩٢]

وأكسية الاضريجِ فوقَ المَشاجبِ

و (القَزّ) ثياب صوف كالمرعزي وربما خالطها الحرير[٩٣]، وقال الأزهري : هو الذي يسوّى منه الابريسم ، وقد يسمى (القَهْو) ، قال ابن سيده : هي ثياب صوف كالمرعزى وربما خالطها حرير ، وقيل هو القز بعينه وأصله بالفارسية (كَهزانَهْ)، وأكثر اللغويين يجعلون القز اعجمياً معرباً إلا ابن دريد فيقول : القز الملبوس عربي معروف[٩٤] ولم يفرق ابن سيده بين القز والقهز وجعله

---

(٨٧) اللسان : سرق .
(٨٨) اللسان : سرق .
(٨٩) بخاري : مناقب الأنصار ٤٤ ، مسلم : فضائل الصحابة ٧٩ . المعرب ص ١٨٢ .
(٩٠) اللسان : خزز .
(٩١) بخاري : أشربة ٦ ، أبو داود : لباس ٦ ، ١٨ .
(٩٢) اللسان : ضرج .
(٩٣) المخصص ٤ / ٦٨ .
(٩٤) الجمهرة ١ / ٩٠ ، والمعرب ص ٢٧٣ .

واحداً قال : وقد يشبه الشعر والعفاء به ، قال رؤبة يصف حمر الوحش وقد سقط عنها العفاء ونبت تحته شعر لين :[٩٥]

وادَّرَعَتْ من قَهْـزِهـــا سَرابِــلا
أطـــارَ عنهـــا الخِرَقَ الزَّعَـــابِـلا

وقال أبو عبيدة : القَهْز والقِهْز (بفتح القاف وكسرها) ثياب بيض يخالطها حرير ، وأنشد لذي الرمة يصف البزاة والصقور بالبياض :[٩٦]

من الـزرقِ أو صُقْـعٍ كأن رؤوسَهـا　　من القِهْـزِ والقُـوهِيّ بيضُ المَقَـانِـعِ

وقال الراجز يصف حمر الوحش :[٩٧]

كأن لـونَ القِهْـزِ في خُصـورِهـا　　والقبطريَّ البيضِ في تـأزيرهـا

القطـــن :

ترتبط زراعة القطن بالاستقرار ، فبعد أن استقر الإنسان في المدن بدأ بزراعة القطن والاستفادة منه ، وعرفت زراعة القطن في مصر منذ العصور القديمة ، وعرفت بلاد وادي الرافدين زراعة القطن منذ سبعمائة سنة قبل الميلاد ، فقد ورد نص من العهد الآشوري يعود إلى الملك سنحاريب يقول فيه : « الشجرة التي تثمر الصوف قطعوها واستخرجوا منها القطن الشعر »[٩٨] .

وعرف الجاهليون أقمشة القطن وكانوا يسمونه (الطوط)[٩٩]، وورد في الشعر الجاهلي في قول أمية بن أبي الصلت :[١٠٠]

والطُّـوطُ نـزرعُـه أغَنّ جِراؤهُ　　فيـه اللبـاسُ لكلّ حَـوْلٍ يُعْضَـدُ

(٩٥) اللسان : قهز .
(٩٦) و (٩٧) اللسان : قهز .
(٩٨) قصة الحضارة ٢ / ٢٠٢ ، ٢٨٠ .
(٩٩) اللسان : طوط ، ويقال : الطوط قطن البردى .
(١٠٠) اللسان والتاج : طوط . أغن : ناعم ملتف ، جراؤه : جوزه الواحد جرو ، يعضد : يوشى .

وكانوا يستجيدون أقمشة القطن فهي باردة لينة ناعمة لا تقل عن الدمقس جودة ، وبذلك جاء قول الشاعر :[١٠١]

من المُدَمْقَسِ أو من فاخِــر الطُّــوطِ

وترد كلمة (الكربس) بمعنى القطن ، وجاءت في التوراة (كربس Karpas)أي الكرباس ، وقيل الكرباس ثوب من القطن الأبيض معرب عن الفارسية[١٠٢]، وفي حديث عمر رضي الله عنه : (وعليه قميص من كرابيس)[١٠٣] جمع كرباس وهو القطن ، وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : (فأصبح وقد اعتم بعمامة كرابيس)[١٠٤].

ومن أسماء القطن أيضاً (الخُرْفُع) ، هو القطن الذي يفسد في براعيمه ، وقيل هو ثمر العُشَر وله جلدة رقيقة إذا انشقت عنه ظهر منه مثل القطن ، قال ابن مقبل :[١٠٥]

يعتاد خيشومها من فرطها زَبَد كأن بالأنف منها خُرْفُعَا خَشِفا

وقال الأزهري : ويقال للقطن المندوف خرفع ، وأنشد ابن بري للراجز :[١٠٦]

أتحملون بعديَ السيوفا أم تغزلونَ الخُرْفُعَ المندوفَا

أنواع المنسوجات :

ازدهرت صناعة النسيج والحياكة في العصر الجاهلي ، وعرفت مجموعة من المنسوجات بالجودة واتقان صنعها ، وغلاء ثمنها ، ونسبت المنسوجات إلى أماكن صنعها واشتهرت مدن معينة بصناعة أنواع خاصة من المنسوجات نسبت إليها وعرفت بها ، ومن أهم هذه المنسوجات :

---

(١٠١) اللسان : طوط .
(١٠٢) القاموس المحيط واللسان والتاج : كربس ، المعرب ص ١٩٤ .
(١٠٣) اللسان : كربس .
(١٠٤) اللسان : كربس .
(١٠٥) اللسان : خرفع ، وديوان ابن مقبل ص ١٨٨ .
(١٠٦) اللسان : خرفع .

١ - الثيـــاب اليمنيـــة :

اشتهرت اليمن بصنع الثياب الفاخرة ، وكانت تصدر أنواعاً كثيرة من الأقمشة والثياب إلى أنحاء مختلفة من جزيرة العرب ، وكان لليمن شهرة واسعة ، لجودة صناعتها ونفاسة مـادتهـا ، كما امتـازت بألوانها ووشيها ، والوشى : النمنـمة والنقش ، وعرف أهل اليمن بـالإضـافـة إلى ذلـك بكثرة المشتغلين منهم بالحياكـة من الرجـال والنسـاء ، وقـد ذكر ذو الرمـة مهـارة نسـاء حضرموت في الحيـاكـة في قوله :(١٠٧)

كأن عليهـــا سحـــق لفـــق تـــأنقت　　　بهـــا حضرميـــات الأكف الحـــوائـــك

وكان أهل مكة يقصـدون اليمن فيشترون منهـا الألبسـة الجيـدة ويحملونهـا إلى الأسواق لبيعهـا(١٠٨). ومن ثياب اليمن هذه :

الأتحميـــة :

من برود اليمن الملـونـة ، ومعنى الأتحميـة أي المـوشـاة ، قـالـوا : الأتحمي ضرب من البرود ، يقال : تحمت الثوب إذا وشيتـه ، وفرس متحم اللون إلى الشقرة ، كأنـه شبـه بـالأتحمي من البرود وهو الأحمر ، ويروي عن الفراء قوله : التحمة البرود المخططة بـالصفرة ، وقـال أبو عمرو : التـاحم الحائك ، وقد جاءت هذه البرود في الشعر قال رؤبة :(١٠٩)

أمسَى كسَحْقِ الأتْحَمِـيِّ أرْسَـمُـهْ

وقال آخـــر :(١١٠)

وعليـــــــه أتْحَمِـيٌّ　　　نَسْجُـــــهُ من نسْـــجِ هَـــوْزَمْ
غـــزلتـــــه أمُّ حِلمِـي　　　كلَّ يـــــــــومٍ وزْنَ دِرْهَمْ

---

(١٠٧) التاج : حوك ، وجواد علي ٧ / ٥٢٨ .
(١٠٨) جواد علي ٧ / ٥٢٨ .
(١٠٩) ، (١١٠) اللسان : تحم .

وقال شاعر آخر :

وصهـــوتُـــــه من أتحميٍّ مُشَرْعَبِ

وقال آخر يصف رسماً :

أصبـح مثـلَ الأتحمـيّ أتْحَمُــــــهْ

أراد : أصبح أتحميه كالثوب الأتحمي ، وقد أتحمت البرود اتحاما فهي متحمة ، قال الشاعر[111]

صفراء متحمـــــةً حيكت نَمائمُهـــا من الدِّمَقْسِيّ أو من فـاخِرِ الطُّوْطِ

وقال أبو خراش :[112]

كأنَّ المُـلاءَ المَحْضَ خلف ذِراعـــهِ صُراحِيّــــــــــةٌ والآخِـنيُّ المُتَحَّمِ

وقد يعبر عن الهجاء الشديد بالبز الأتحمي ، يقول أوس بن حجر أنه يهجو أعداءه هجاء يرى عليهم ويشتهرون به كما يشتهر لابس البز الأتحمي :[113]

وإنْ هَــزَّ أقــوامٌ إليَّ و حَــــدَّدوا كســــوتُهمْ من حَبْرِ بَـــزٍّ مُتَحَّمِ

ويذكر بشر بن أبي خازم الثياب الأتحمية في قوله :[114]

كأن الأتحميـــةَ قـــام فيهـــا لحسنِ دلالهـــا رَشَـــأً مـــوافي

الجيشـــانية :

برود يمنيـة مـوشـاة منسـوبـة إلى جيشـان ، مخلاف في اليمن ، وجـاءت في شعر عبيـد بن الأبرص :[115]

(111) اللسان : تحم والطوط : القطن .

(112) اللسان : تحم .

(113) ديوان أوس بن حجر ص ١٢٣ ، والمعاني الكبير ص ٤٨٤ ، ١١٧٥ .

(114) ديوانه ص ١٤٣ .

(115) ديوان عبيد ص ١١٩ ، والأغيال : جمع غيل العلم في الثوب أو السعة فيه ، وفي ياقوت : جيش (ذات أعسال) والأعسال الخطوط والوشي .

فمِلْنَا ونَازَعْنَا الحديثَ أوَانِساً　　　عليهن جَيْشَانِيَّةٌ ذاتُ أغْيَالِ

وأنشد ابن الأعرابي :[١١٦]

قامتْ تَبدَّى في جَيْشَانِها

قال : لم يفسره ، قال ابن سيده : وعندي انه أراد في جيشانها أي قوتها وشبابها فسكن للضرورة ، ولعل الصواب : قامت تبدي في جيشانها أي تتبختر في ثوبها الجيشاني .
وجيشان : مخلاف باليمن كان ينزلها جيشان بن غيلان بن حجر بن ذي رعين ، فسميت به ، وهي مدينة وكورة ينسب إليها الخُمُر السود .

الحبرة :

الحِبَرَة والحَبَرَة (بكسر الحاء وفتحها) ضرب من برود اليمن منّمر ، والجمع حِبَر وحِبَرات ، وهي برود موشاة مخططة من أثمن البرود اليمانية ، قال الليث : برود حبرة ضرب من البرود اليمانية ، يقال : برد حبير وبرد حبرة ، مثل عنبة على الوصف والإضافة ، وبرود حبرة ، قال : وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً إنما هو وشي ، كقولك ثوب قرمز ، والقرمز صبغة[١١٧]. والحبير من البرود ما كان موشياً مخططاً ، وفي الحديث أن النبي ﷺ لما خطب خديجة رضي الله عنها وأجابته استأذنت أباها في أن تتزوجه وهو ثمل ، فأذن لها في ذلك وقال : هو الفحل لا يقرع أنفه ، فنحرت بعيراً ، وخلّقت أباها بالعبير وكسته برداً أحمر ، فلما صحا من سكره قال : ما هذا الحبير وهذا العبير وهذا العقير ، أراد بالحبير البرد الذي كسته ، وبالعبير الخلوق الذي خلقته ، وبالعقير البعير المنحور ، وكان عقر ساقه[١١٨] وفي حديث أبي ذر : الحمد لله الذي أطعمنا الخمير وألبسنا الحبير[١١٩]، وقال رسول الله ﷺ : (مثل الحواميم في القرآن كمثل الحِبَرَات في الثياب)[١٢٠]، ولما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ كانوا يلبسون الحبرات « فدخلوا المسجد

---

(١١٦) اللسان : جيش .
(١١٧) اللسان : حبر .
(١١٨) اللسان : حبر .
(١١٩) اللسان والتاج : حبر .
(١٢٠) اللسان : حبر .

عليهم ثياب الحبرة وأردية مكفوفة بالحرير »[١٢١] ولما توفى النبي ﷺ سجي بحبرة[١٢٢].

وقد يراد بالحبر النعومة والجدة ، فمن النعومة قول المرار بن منقذ العدوى :[١٢٣]

قــد لَبستُ الــدهــرَ من أفنــائِــه　　كلَّ فَــنٍ نــــاعمٍ فيــــه حَــبِرْ

وثوب حبير جديد ناعم ، وفي هذا جاء قول الشماخ بن ضرار يصف فرسا كريمة على أهلها :[١٢٤]

إذا سقــطَ الأنـداءُ صِينَتْ وأُشْعِرتْ　　حَبيرا ولم تُــدْرَجْ عليهــا المَعَــاوِزُ

وثياب الحبرة من الثياب الغالية الجيدة التي يلبسها الأغنيـاء والسـادات ، وكثيراً مـا يوصف الرداء بالحبر أي المزين ، يقول عبيد بن عبد العزى السلامي يشبه الرسوم بالرداء الحبر :[١٢٥]

أتعرفُ رَسْما كالرِّداء المُحَبَّرِ　　برامـــــــةَ بين الهَضْبِ والمُتَغَمَّرِ

وقد يشبه الكلام المنق المزوق باليمنة الحبرة ، لما في الحبرة من وشى وزخرفة ولين ونعومة ، كما في قول أبي قردودة الطائي :[١٢٦]

يـا جَفْنـةً كإزاء الحوضِ قـد هـدمـوا　　ومنْطِقـــاً مثلَ وَشْـيِ اليمـنة الحِبَرة

الخـــــال :

وهو ثوب ناعم ، وضرب من البرود ، وبرد أرضه حمراء فيهـا خطوط سود ، وقيل : ضرب من برود اليمن الموشية ، والثوب الناعم من ثياب اليمن[١٢٧]، وقـد ذكر هـذا الضرب من البرود الشماخ في قوله :[١٢٨]

---

(١٢١) طبقات ابن سعد ١ / ٣٥٧ .

(١٢٢) بخاري ومسلم : جنـائز ، وطبقـات ابن سعـد ١ / ٣٥٧ الوفـا بـأحوال المصطفى ٢ / ٧٩٥ - ٧٩٦ وجامع الأصول ٧ / ٤٧٨ والتاج : حبر .

(١٢٣) المفضليات ص ٨٢ .

(١٢٤) اللسان : حبر .

(١٢٥) قصائد جاهلية نادرة ص ١٢٩ .

(١٢٦) قصائد جاهلية نادرة ص ١٦٧ .

(١٢٧) اللسان : خيل .

(١٢٨) اللسان : خيل ، التاج : خول . وفي اللسان : (من جلد الماعز) .

وبُرْدَانِ من خَـــالٍ وسبعــون دِرْهَمًا   على ذاكَ مقروظٌ من القَــدِّ مــاعــز

وذكره امرؤ القيس أيضاً :[129]

ذعَرْتُ بهــا سِرْبــاً نقيــاً جُلــودُه   وأكــرُعُــه وَشْيَ البُرَودِ من الخَـــالِ

الخِمْـــس :

ومن برود اليمن ضرب يعرف بالخِمْس أو الخميس ، قيل سمى كذلك نسبة إلى ملك من ملوك اليمن يقال له (الخِمْس) كان أول من أمر بعمل هذه الأردية فنسبت إليه[130]. قال الأعشى يصف الأرض ويشبهها ببرد الخمس :[131]

يــومــا تراهــا كشِبْــه أرديــةِ الـ   ـخِمْسِ ويــومـــا أديمَهـــا نَغِـلا

قال ابن الأثير : وجاء في البخاري خَميص (بالصاد) ، قال : فإن صحت الرواية فيكون مذكر الخميصة ، وهي كساء صغير فاستعارها للثوب . وقيل : الخميس الثوب الذي طوله خمس أذرع ، كأنه يعني الصغير من الثياب[132]، ويقال : هما في بردة أخماس ، إذا تقاربا واجتمعا واصطلحا ، أنشد ثعلب :[133]

صَيَّرني جُــودُ يـــديـــه ومَنْ   أهْـــواهُ في بُرْدةِ أخمــــــاسِ

قال في تفسيره : قرَّب بيننا حتى كأني وهو في خمس أذرع ، قال ابن السكيت : يقال في مثل : « ليتنا في بردة أخماس » أي ليتنا تقاربنا ، ويراد بأخماس أي طولها خمسة أشبار ، ويرى ابن الأعرابي أن قوله :هما في بردة أخماس ،أي يفعلان فعلاً واحداً يشتبهان فيه كأنها في ثوب واحد لاشتباههما[134] .

(١٢٩) ديوانه ص ٣٧ ، والعجز في اللسان : خول .

(١٣٠) اللسان والتاج : خمس .

(١٣١) ديوان الأعشى ص ٢٨٣ ، واللسان خمس .

(١٣٢) اللسان : خمس .

(١٣٣) اللسان : خمس .

(١٣٤) اللسان : خمس .

السحولية :

السَّحْل : ثوب أبيض رقيق من قطن ، وصفها المتنخل الهذلي بالبياض في قوله :(١٣٥)

كالسُّحُلِ البيضِ جلا لونَها　　سَحٌّ نِجاءِ الحَمَلِ الأسْوَلِ

قال الأزهري : جمعه على سُحُل ، مثل سَقْف وسُقُف .

والسحل والسحيل : ثوب لا يبرم غزله ، أي لا يفتل طاقتين ، قال زهير :(١٣٦)

يميناً لَنِعْمَ السيدان وُجِدتُما　　على كلِّ حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ

والسحل والسحيل أيضاً : الحبل الذي على قوة واحدة ، والسحيل : الخيط غير مفتول ، والسحيل من الثياب : ما كان غزله طاقا واحداً ، والمبرم المفتول طاقين ، والمُتْآم ما كان سداه ولحمته طاقين طاقين ليس بمبرم ولا مسحل ، والمبروم على طاقين هو المرير والمريرة ، وأنشد أبو عمرو في السحيل :(١٣٧)

فتلَ السحيلَ بمُبْرَمٍ ذي مِرَّةٍ　　دونَ الرجالِ بفَضْلِ عَقْلٍ راجحِ

والمِسْحَلة : كُبَّة الغزل وهي الوشيعة المسمَّطة .

فأما الثوب فإنه لا يسمى سحيلا ، ولكن يقال للثوب سَحْل ، وخصصه الجوهري بأنه الثوب الأبيض من الكُرْسُف من ثياب اليمن ، قال المسيب بن علس يذكر ظُعُنا :(١٣٨)

ولقد أرى ظُعُناً أُبَيِّنها　　تُحْدَى كأنَّ زُهاءَها الأثْلُ
في الآلِ يخفِضُها ويرفَعُها　　رِيْعٌ يلوحُ كأنَّه سَحْلُ

شبه الطريق بثوب أبيض ، وسحول قرية من قرى اليمن يحمل منها ثياب قطن بيض تسمى السُّحولية (بضم السين) ، قال طرفة :(١٣٩)

---

(١٣٥) اللسان : سحل .

(١٣٦) ديوان زهير ص ١٤ ، واللسان : سحل .

(١٣٧) اللسان : سحل .

(١٣٨) اللسان : سحل .

(١٣٩) ديوانه ص ٨١ ، واللسان والتاج : سحل .

وبـالسَّفْحِ آيـاتٌ كأنَّ رسُومَهـا   يَمَـانٍ وشَتْـهُ رَيْـدَةٌ وسَحُـولُ

أراد : وشته أهل ريدة وسحول ، وريدة وسحول قريتان .

وقد أعجبت هذه الثيـاب كثيراً من الشعراء الجـاهليين فـذكروهـا وشبهوا بهـا ، وأعجبهم لونهـا الأبيض ، فشبـه زهير لـون الثـور الـوحشي الأبيض النـاصـع ذي البريـق بهـذا الثـوب وقـد غسـل بالاشنان والماء فهو ناصع ملتمع :[١٤٠]

فـآض كأنَّـهُ رجـلٌ سليبٌ   على عليـاءَ ليس لـه رداءُ
كأن بريقَـهُ بَرَقـانُ سَحْـلٍ   جـلا عن مَتْنِـه حُرُضٌ ومـاءُ

ويشبه زهير أيضاً الطريق الأبيض الواضح في الصحراء بالسحل اليماني :[١٤١]

وأبيضَ عـاديٌّ تلـوحُ مُتـونُـه   على البيـدِ كالسَّحْـلِ اليماني المُبَلَّـجِ

وفي شعر طرفة صورة لمشية صبية تتبختر بثوب سحولي طويل تسترعى بذلك نظر زوجها :[١٤٢]

وذالتْ كما ذالتْ وليـدةُ مجلسٍ   تُري ربَّهـا أذيـالَ سَحْـلٍ مُمَـدَّدِ

ويشبـه المسيب بن علس السراب بـالثوب السحل حين يصف هـوادج النسـاء من بعيـد وقـد لفهـا السراب :[١٤٣]

في الآل يرفَعُهـا ويخْفِضُهـا   رَيْـعٌ كأنَّ مُتُـونَـهُ سَحْـلُ
عقما ورَقْما ثم أردفـه   كِلَـلٌ على أطرافهـا الخَمْـلُ

أمـا في الحـديث النبـوي ، فقـد ورد في وفـاة رسـول الله ﷺ أنـه : « كفن في ثـلاثـة أثـواب سحولية كرسف ليس فيها قيص ولا عمامة »[١٤٤].

---

(١٤٠) ديوان زهير ص ٧١ .

(١٤١) ديوانه ص ٣٢٢ .

(١٤٢) ديوان طرفة ص ٢٨ .

(١٤٣) جمهرة أشعار العرب ص ١٩٧ .

(١٤٤) جوامع السيرة ص ٦ ، واللسان والتـاج : سحل . قـال : سحوليـة (بفتح السين وضمهـا) فـالفتح منسوب إلى السحول وهو القصار ، لأنه يسحلها أي يغسلهـا ، أو إلى سحول قريـة بـاليمن ، وأمـا الضم فهو جمع سحل وهو الثوب الأبيض النقي ولا يكون إلا من قطن ، وفيه شذوذ لأنه نسب إلى الجمع . (اللسان : سحل) .

السـيراء :

السِّيَرَاء (بكسر السين وفتح الياء والمد) برد فيه خطوط صفر ، وجاءت هذه الصفة في شعر النابغة الذبياني :[١٤٥]

صفراءُ كالسِّيَرَاء أُكمِلَ خلْقُهـا | كالغُصْنِ في غُلَـوَائِـه المَتـأوِّدِ

وهي ثياب من ثياب اليمن ، وقيل : ثوب مسير فيه خطوط تعمل من القز كالسيور ، وقيل : برود يخالطها حرير ، قال الشماخ :[١٤٦]

فقـال إزارٌ شَرْعَبِيٌّ وأربـعٌ | من السِّيَراء أو أَوَاقٍ نـواجـزُ

والسيراء الذهب ، وخصصه بعضهم بالذهب الصافي .

وجاء ذكر السيراء في الحديث ، قيل : (أهدى إلى رسول الله ﷺ أُكَيْدِرُ دُومةَ حُلَّةً سِيَراءَ)[١٤٧]، قال ابن الأثير : هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور وهو فعلاء من السير القد ، وشرح السيراء بالحرير الصافي ومعناه حلة حرير ، وفي الحديث : (أعطى عليا بُردا سِيَراء وقال : اجعله خُمُرا)[١٤٨]، وفي حديث عمر : (رأى حلةً سِيَراءَ تُباع)[١٤٩]، وفي حديث عمر أيضاً : (إن أحد عُمَّاله وفد إليه وعليه حلة مُسَيَّرة ، أي فيها خطوط من ابريسم كالسيراء)[١٥٠].

العبقـري :

ضرب من البسط تصنع من الأصواف وشعر الماعز ، وقيل : إن (عبقرة) موضع باليمن أو بالجزيرة يوشى فيه الثياب والبسط ثيابه في غاية الحسن والجودة ، فصارت مثلاً لكل منسوب إلى شيء رفيع ، ويقال : (العباقري) أيضاً[١٥١]. وقال الفراء : العبقري الطنافس الثِّخان ، واحدتها

(١٤٥) ديوان النابغة ص ٩٥ ، واللسان : سير .

(١٤٦) اللسان والتاج : سير .

(١٤٧) أبو داود : لباس ٧ ، النسائي : زينة ٨٣ ، جامع الأصول ١٠ / ٦٨٤ .

(١٤٨) ابن حنبل ٢ / ٩٥ ، جامع الأصول ١٠ / ٦٨٥ .

(١٤٩) بخاري : جمعة ٧ ، مسلم : لباس ٦ - ٩ جامع الأصول ١٠ / ٨٠ .

(١٥٠) اللسان والتاج : سير .

(١٥١) اللسان والتاج : عبقر ، ياقوت : عبقر .

عبقرية ، وقال مجاهد : العبقري الديباج ، وقال سعيد بن جبير : هي عتاق الزرابيّ ، فهؤلاء جعلوها اسماً لها ولم ينسبوها إلى موضع .
وقيل : عبقر موضع بالجزيرة كان يصنع به الوَشْي[152]، وقيل : هي أرض كان يسكنها الجن ، يقال في المثل : (كأنهم جن عبقر) ، وبذلك جاء قول زهير :[153]

بخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عبقريةٌ   جديرونَ يوماً أن ينَالوا فيسْتَعْلوا

وجاء العبقري أيضاً في شعر عبيد بن الأبرص يصف أغطية الهودج وأستاره وزينته في قوله :[154]

عالينَ رَقْماً وأنماطاً مُظَاهرةً   وكِلَّةً بعتيق العَقْلِ مقرومة
للعبقريِّ عليها إذ غَدَوا صَبَحٌ   كأنَّها من نَجِيع الجَوْفِ مدمومة

وفي حديث عمر : (انه كان يسجد على عبقري)[155] وهي هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش[156].

العَصْب :

ضرب من برود اليمن ، سمي عَصْبا لأن غزله يعصب ، أي يدرج ثم يصبغ ، ثم يحاك ، وليس من برود الرقم ، ولا يجمع ، انما يقال : بُرْد عَصْب وبرود عصب لأنه مضاف إلى الفعل . وفي الحديث : (المعتَدَّة لا تلبس المصَبَّغة ، الاثوب عَصْب)[157] أي أن النهي للمعتدة عما صبغ بعد النسج . قال : العصب برود يمنية يعصب غزلها أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج ، فيأتي موشياً لبقاء ما عصب منه أبيض لم يأخذه صبغ ، وقيل هي برود مخططة ، وجاء في الشعر في قول الشاعر :[158]

يبتذلنَ العَصْبَ والخَزْ   زَ معاً والحِبَراتِ

(١٥٢) ياقوت : عبقر .
(١٥٣) ديوانه ص ١٠٣ ، واللسان وياقوت : عبقر .
(١٥٤) ديوان عبيد ص ١٣٤ .
(١٥٥) بخاري : فضائل الصحابة ٥ ، ٦ ، مسلم : فضائل الصحابة ١٧ ، ١٩ .
(١٥٦) اللسان : عبقر ، ياقوت : عبقر .
(١٥٧) بخاري : طلاق ٤٨ ، ٤٩ ، نسائي : طلاق ٦٤ ، اللسان : عصب .
(١٥٨) اللسان : عصب .

وفي حديث عمر رضي الله عنه : أنه أراد أن ينهي عن عصب اليمن وقال : نبئت أنه يصبغ بالبول ، ثم قال : نهينا عن التعمق[159].

والعصب نبات كالورس وكلاهما ينبتان في اليمن ، وتستخرج من نبات العصب صبغة تصبغ بها البرود ونحوها[160].

الفـوف :

الفُوف من برود اليمن وهي ثياب رقاق موشاة[161]، والفوف : الجبة البيضاء ، وفي حديث عثان رضي الله عنه : (خرج وعليه حُلَّةٌ أفواف) ، الأفواف جمع فوف وهو القطن ، وواحدة الفوف فوفة وهي في الأصل القشرة على النواة . وقال الليث : الأفواف ضرب من عصب البرود ، وبرد مفوف أي رقيق ، وقال الجوهري : الفوف قطع القطن ، وبرد أفواف ومفوف فيه بياض وخطوط بيض[162].

والفوف : الزهر ، قال ابن أحمر يشبه الزهر بالفوف من الثياب تنسجه الدبور إذا مرت عليه :[163].

والفُوفَ تَنْسِجُه الدَّبورُ وأَتْـ ـلالٌ مُلَمَّعَـةُ القَرَا شُقْرُ

والمفوف : المزين ، وفي حديث كعب : (تُرفع للعبدِ غرفةٌ مُفَوَّفَةٌ) وتفويفها لَبِنة من ذهب وأخرى من فضة[164] .

المُصَلَّب :

وكا سمي الثوب الذي فيه تصاوير الرحال المرحَّل ، فكذلك سمي الثوب الذي فيه صور الصليب المصلَّب ، قال أبو علي الفارسي : وثوب مصلب فيه نقش كالصليب ، وقد نهى الرسول

---

(١٥٩) اللسان والتاج : عصب .

(١٦٠) جواد علي ٧ / ٥٢٤ .

(١٦١) اللسان والتاج : فوف .

(١٦٢) اللسان : فوف .

(١٦٣) و (١٦٤) اللسان : فوف .

ﷺ عن لبس هذه الثياب والصلاة فيها ، ففي حديث عائشة : (أن النبي ﷺ كان إذا رأى التصليب في ثوب قَضَبه)[١٦٥] أي قطع موضع التصليب منه ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ : (نهى عن الصلاة في الثوب المصلب)[١٦٦]، وهو الذي فيه نقش أمثال الصلبان ، وفي حديث عائشة أيضاً : فناولتها عطافاً فرأت فيه تصليباً ، فقالت : نحِّيه عني . وفي حديث أم سلمة : أنها كانت تكره الثياب المصلبة[١٦٧].

المعاجـــر :

المِعْجَر والمَعاجِر ضرب من ثياب اليمن ، والمعجر : ثوب تعتجر به المرأة أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة ، وقيل : ثوب يمني يلتحف به ويرتدى[١٦٨]، والمعجر أيضاً : ما ينسج من الليف كالجوالق ، والاعتجار : لبسة كالالتحاف ، قال الشاعر :[١٦٩]

فـــا ليلى بنـــاشِزَةِ القُصَيْري ولا وَقْصَـــاءَ لِبْسَتُهـــا اعتِجَـــارُ

والمعجر والعجار : ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها ثم تجلبب فوقه بجلبابها ، ومنه أخذ الاعتجار وهو لَيّ الثوب على الرأس من غير إدارة تحت الحنك ، والاعتجار لف العمامة دون التلحي ، وروى عن النبي ﷺ : (أنه دخل مكة يوم الفتح معتجراً بعمامة سوداء)[١٧٠].

المعــافرية :

وَمَعَافِر بلد باليمن ، نسبت إليه الثياب ، قال الأزهري : برد معافري منسوب إلى معافر اليمن ، ثم صار اسماً لها بغير نسبة فيقال معافر ، ويقال : منسوب إلى رجل اسمه معافر[١٧١].

---

(١٦٥) بخاري : لباس ٩٠ ، أبو داود : لباس ٤٤ .
(١٦٦) بخاري : صلاة ١٥ .
(١٦٧) اللسان والتاج : صلب .
(١٦٨) التاج : عجر .
(١٦٩) اللسان : عجر .
(١٧٠) مسلم : حج ٤٥١ ، ٤٥٢ ، أبو داود : لباس ٢٠ ، ترمذي : لباس ١١ ، جامع الأصول ١٠ / ٦٣٢ ، زاد المعاد ١ /١٣٦ ، اللسان : عجر .
(١٧١) اللسان : عفر .

وفي الحديث : (أنه بعث مُعَاذا إلى اليمن وأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عِدْلَه من المعافريّ)[١٧٢]، وهي برود باليمن منسوبة إلى معافر وهي قبيلة ، ومنه حديث ابن عمر : أنه دخل المسجد وعليه بردان مَعَافِرِيَّان ، ومَعافر(بفتح الميم)حي من همدان وإليه تنسب الثياب المعافرية[١٧٣].

المقطعـات :

المَقَطَّعات برود عليها وشي مقطَّع ، واحدتها قِطْع ، والمقطعات من الثياب شبه الجباب ونحوها من الخز وغيره ، وفي التنزيل :﴿ فالذينَ كفروا قُطِّعَتْ لهم ثيابٌ من نار ﴾[١٧٤]، أي خيطت وسويت وجعلت لبوساً لهم ، وفي حديث ابن عباس في صفة نخل الجنة : (نخل الجنة سَعَفُها كِسوة لأهل الجنة منها مقطَّعاتُهم وحُلَلُهم)[١٧٥]، قال ابن الأثير : لم يكن يصفها بالقصر لأنه عيب ، وقال ابن الأعرابي : لا يقال للثياب القصار مقطعات ، وقال شمر : ومما يقوى قوله حديث ابن عباس في وصف سعف الجنة لأنه لا يصف ثياب أهل الجنة بالقصر لأنه عيب[١٧٦].

ومن اللغويين من اعتبر (المقطعات) لا واحد لها ، فلا يقال للجبة القصيرة مقطعة ، ولا للقميص مقطع ، وإنما يقال لجملة الثياب القصار مقطعات ، وللواحد ثوب ، وفي الحديث : (أن رجلاً أتى النبي ﷺ وعليه مقَطَّعاتٌ له)[١٧٧]، قال ابن الأثير : أي ثياب قصار لأنها قُطِعَت عن بلوغ التمام[١٧٨].

وقيل : المقطع من الثياب كل ما يُفَصَّل ويخاط من قميص وجباب وسراويلات وغيرها ، وما لا يقطع منها كالأردية والأزر والمطارف والرياط التي لم تقطع ، وإنما يتعطف بها مرة ويتلفع بها

---

(١٧٢) أبو داود : زكاة ٥ ، النسائي : زكاة ٨ .

(١٧٣) اللسان : عفر .

(١٧٤) الحج ١٩ .

(١٧٥) اللسان : قطع .

(١٧٦) اللسان : قطع .

(١٧٧) مسلم : حج ٧ ، النسائي : مناسك ٤٤ .

(١٧٨) اللسان : قطع .

أخرى[١٧٩]، وأنشد شمر لرؤبة يصف جلد ثور وحشي أبيض :[١٨٠]

كأن تحتي نـــاشِطَـــا مُــوَلَّعَـــا ... بـــالشـــام حتى خِلْتَـــهُ مُبَرْقَعَـــا
بنيقـــــةٍ من مَرْحَـلِيٍّ أسْفَعــــا ... تَخـالُ نِصْعـاً فـوقَهــا مُقَطَّعَــا
يخالِطُ التَّقْلِيصَ إذْ تدَرَّعَــا

قال ابن الأعرابي : يقول تخال أنه أُلبس ثوباً أبيض مقلصا عنه لم يبلغ كراعه لأنها سود ليست على لونه .

وقد يسمى الحديد المتخذ سلاحاً (مقطعاً) ، لأنـه يقطع أي يصنع ، واستشهـدوا على ذلـك بقول الراعي :[١٨١]

فقـودوا الجِيــادَ الُمسْنفــاتِ وأحْقِبـوا ... على الأرحَبِيَّـاتِ الحـديــدَ الُمقَطَّعَــا

يعني الـدروع ، وسميت الأبيـات القصـار مقطعـات تشبيهـاً بـالثيــاب القصــار ، وسميت الأراجيز مقطعات لقصرها ، ويروي أن جرير بن الخطفى كان بينـه وبين رؤبـة اختلاف في شيء فقـال : أما والله لئن سهرت له ليلة لأدعنّه وقلما تغنى عنه مقطعاته ، يعني أبيات الرجز[١٨٢].

وتسمى الثيـاب الموشـاة قطوع جمع قطـع ، والمقطعـات برود سميت بـذلـك لأن عليهـا وشيـا مقطعـاً . وتسمى النمرقـة قطعـا وكـذلـك الطنفسـة تكـون تحت الرحـل على كتفي البعير ويروى للأعشى قوله :[١٨٣]

أتَتْـــكَ العِيسُ تَنْفَـحُ في بُرَاهـــا ... تكشَّفُ عن منــاكِبِهــا القُطُـــوعُ

---

(١٧٩) اللسان : قطع .
(١٨٠) اللسان : نصع .
(١٨١) اللسان : قطع .
(١٨٢) اللسان : قطع .
(١٨٣) اللسان : قطع وينسب لعبد الرحمن بن الحكم ولزياد الأعجم ولم أجد البيت في ديوان الأعشى .

المرجـــل :

الْمَرْجَل والْمُمَرْحَل (بالجيم وبالحاء المهملة) ، والمراجل ضرب من برود اليمن وفي المحكم : والمرجل ضرب من ثياب الوشى فيه صور المراجل ، واستشهد سيبويه :[١٨٤]

بشِـيَةٍ كشِـيَةِ الْمُرَجَّـلِ

وثوب مِرْجَلي : من المرجل ، وفي المثل : « حديثا كان بردُك مِرْجَليا » ، أي انما كسيت المراجل حديثاً وكنت تلبس القباء ، وقال الأزهري : وفي الحديث : (حتى يبني الناس بيوتاً يوشونها وشي المراحل) يعني تلك الثياب ، قال : ويقال لها المراجل بالجيم أيضاً ، ويقال لها الراحولات[١٨٥].

وكانت البرود توشى بتصاوير منها الرحال فسمي الثوب المرحل ، قالوا : والمرحل ضرب من برود اليمن ، سمي مرحلا لأن عليه تصاوير الرحل ، ومرط مرحل : إزار خز فيه علم . والرحل الموشي يسمى الراحولات على فاعولات ، وفي شعر الفرزدق :[١٨٦]

عليهنَّ راحُـولاتُ كلِّ قطيفـةٍ ... من الخَـزِّ أو من قَيْصَرانَ عِـلامُهـا

ومرط مرحل عليه تصاوير الرحال ، وقد ذكره امرؤ القيس في معلقته يصف ثوب حبيبته :[١٨٧]

خرجتُ بهـا تمشي تَجُرُّ وراءَنـا ... على أَثَرَيْنـا ذيـلَ مِرْطٍ مُرَحَّـلِ

ويشبه امرؤ القيس بن جبلة السكوني الدم على خاصرتي الأتان بالنير المرحل :[١٨٨]

ومـارَ عَبيـطٌ من نجيـعٍ كأنـه ... على مستوى الإطلين نِيرٌ مرَحَّـلُ

---

(١٨٤) اللسان والتاج : رجل .

(١٨٥) اللسان : رحل .

(١٨٦) اللسان : رحل ، قيصران : ضرب من الثياب الموشية .

(١٨٧) ديوان امرىء القيس ص ١٤ ، والتاج : رحل .

(١٨٨) قصائد جاهلية نادرة ص ١٤٢ .

وفي الحديث : (أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم وعليه مِرْط مرحَّل)[189]، وفي الحديث أيضاً : (كان يصلي وعليه من هذه المرحَّلات) يعني المروط المرحلة[190].

وفي حديث عائشة وذكرت نساء الأنصار : (فقامت كلٌّ واحدة إلى مِرْطها المرحل)[191]، والرحال : الطنافس الحيرية ، ومنه قول الأعشى :[192]

ومصَابِ غاديةٍ كأنَّ تِجَارَها   نَشَرتْ عليه بُرُودَها ورِحَالها

الوَصَائِل :

حِبَر اليمن ، وهي ثياب يمانية حمر ، أو ثياب حمر مخططة ، وقيل : برود حمر فيها خطوط خضر[193]، وكذلك (الوصيل) الواحدة وصيلة ، وفي الحديث : (أن أول من كسا الكعبة كسوة كاملة تُبَّع ، كساها الأنطاع ثم كساها الوصائل أي حِبَر اليمن)[194].

ونسبت إلى اليمن أنواع أخرى من الأردية منها الريط اليماني ، والنصع اليماني أو الحميري ، وغيرها كثير ، وسيرد ذكرها عند الحديث عن أنواع الثياب .

٢ - العدنيات :

وهناك ثياب أخرى غير اليمنية ، نسبت إلى مدن بعينها ، وإن كانت أقل شهرة مما نسب إلى اليمن ، منها عدن ، وسميت العدنيات .

عرفت عدن بصنع البرود وشهرت بها ، وهي ثياب كريمة نسبت إلى عدن وعرفت بـ

---

(١٨٩) مسلم : لباس ٣٦ ، فضائل الصحابة ٦١ ، مسند عائشة ص ٤٥ ، زاد المعاد ١ / ١٤٤ ، جامع الأصول ١٠ / ٦٩٢ ، اللسان : رحل .

(١٩٠) أحمد بن حنبل ٦ / ٩٩ ، ١٩٩ أبو داود : طهارة ١٣٣ ، اللسان : رحل .

(١٩١) اللسان : رحل .

(١٩٢) ديوان الأعشى ص ٧٧ ، اللسان : رحل .

(١٩٣) التاج : وصل .

(١٩٤) بخاري : باب كسوة الكعبة ، حج ٤٨ ، اللسان : وصل .

(العدني) و (العدنيات) ، واشتهرت برياطها فقيل : (رياط عدنية)[195]، وجاء في الحديث : أن رسول الله ﷺ كان قد استعمل برودا عدنية[196].

٢ - القطـــرية :

والقِطْرية (بكسر القاف وسكون الطاء) ضرب من البرود[197]، ونقل شمر عن البكراوي قال : البرود القطرية حمر لها أعلام فيها بعض الخشونة ، وقال خالد بن جَنْبَة : هي حلل تعمل بمكان لا أدري أين هو ، وقال : وهي جياد وقد رأيتها وهي حمر تأتي من قبل البحرين . وقال أبو منصور : وبالبحرين على سيف (الخط) وعمان[198] مدينة يقال لها قطر ، قال وأحسبهم نسبوا هذه الثياب إليها فخففوا وكسروا القاف للنسبة ، وقالوا : قِطْرى (بكسر القاف واسكان الطاء) ، والأصل قَطَرى (بفتحتين) كما قالوا للفَخِذ (بفتح فكسر) فِخْذ (بكسر فسكون) ، قال جرير :[199]

لـدَى قَطَريـاتٍ إذا مـا تغـوَّلتْ   بها البيدُ غاوَلْنَ الحُزُومَ القَيافِيَا

أراد بالقطريات نجائب نسبها إلى قطر وما والاها من البر[200]، قال الراعي وجعل النعام قطرية :[201]

الأوْبُ أوبُ نَعائمٍ قَطَريَّةٍ   والآلُ آلُ نحائصٍ حُقُبِ

نسب النعائم إلى قطر لاتصالها بالبر ومحاذاتها رمال يبرين .

وجاء ذكر الثياب القطرية في الحديث ، فروى أنه عليه السلام : (كان متوشحا بثوب قِطْري)[202]، وفي حديث عائشة ، قال أيمن : دخلت على عائشة وعليها درع قِطْري ثمنه خمسة

(١٩٥) التاج : عدن .

(١٩٦) مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ١٠ / ٣٨ وما بعدها ، جواد علي ٧ / ٥٢٦ .

(١٩٧) القاموس المحيط : قطر .

(١٩٨) اللسان : قطر ، وفي معجم البلدان (قطر) : قال أبو منصور : في أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير قرية يقال لها قطر .

(١٩٩) اللسان : قطر ، وديوان جرير ص ٥٠٠ وفيه : بناء البيد ... الحزوم القياقيا .

(٢٠٠) القاموس المحيط : قطر .

(٢٠١) اللسان : قطر .

(٢٠٢) ابن حنبل ٣ / ٢٥٧ ، ٢٦٢ مسند عائشة ص ١٠٨ ، الاتحافات الربانية ص ٩٧ ، ١٧٧ ، واللسان والتاج : قطر .

دراهم ، قال أبو عمرو : القِطْر نوع من البرود ، وأنشد :[٢٠٣]

كســاك الحنظَليُّ كِســاءَ صــوفٍ   وقِطْرِيّــاً فــأنت بـــه تفيــدُ

٤ - الهَجـــرِيّة :

وعرفت هجر بجودة ثيابها ، وهجر مدينة وهي قاعدة البحرين ، وقيل : ناحية البحرين كلها هجر[٢٠٤]، وفي طبقات ابن سعد : لما أرسل رسول الله ﷺ سليط بن عمرو المعافري إلى هوذة بن علي الحنفي ، أجاز هوذة سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر[٢٠٥].

٥ - الصُحَـــارِيّة :

وعرفت صحار ، قصبة عمان مما يلي الجبل[٢٠٦] بثياب عرفت بها فقيل ثوب صُحَاري وثياب صُحَارية[٢٠٧]، وقيل قرية باليمن نسب الثوب إليها ، وفي الحديث : (كُفِّنَ رسول الله ﷺ في ثوبين صُحَارِيَّين)[٢٠٨].

٦ - الحِـيرِيّة :

واشتهرت الأنماط الحيرية نسبة إلى الحيرة بجنب الكوفة ، وكان ينزلها نصارى العباد ، والنسبة إليها حيري وحاري[٢٠٩]. والحَاري : أنماط نُطُوع تعمل بالحيرة تزين بها الرحال ، أنشد يعقوب :[٢١٠]

عَقْماً ورَقْماً وحَــارِيّــا نُضاعِفُــه   على قَــلائِصَ أمثــالِ الهَجَــا نيــعِ

(٢٠٣) اللسان : قطر ، جامع الأصول ١٠ / ٦٦٦ .

(٢٠٤) ياقوت : هجر .

(٢٠٥) طبقات ابن سعد ١ / ٢٦٢ ، وجواد علي ٧ / ٥٢٧ .

(٢٠٦) ياقوت : صحر .

(٢٠٧) اللسان والتاج : صحر .

(٢٠٨) ابن حنبل ٥ / ٢٤ ، الترمذي : بيوع ٧ ، اللسان والتاج : صحر .

(٢٠٩) اللسان والتاج : حير .

(٢١٠) اللسان : حير .

والمراد بالنمط : ظهارة فراش ما ، والنمط والزوج ضروب الثياب المصبغة ، ولا يقولون نمط ولا زوج إلا لما كان ذا لون من حمرة أو خضرة أو صفرة ، فأما البياض فلا يقال نمط ، ويجمع أنماطاً[٢١١]، والنمط : ضرب من البسط والجمع أنماط مثل سبب وأسباب ، قال ابن بري : يقال نمط وأنماط ونماط ، قال المتنخل :[٢١٢]

علامات كتحبير النِّمَاطِ

وفي حديث ابن عمر : (أنه كان يجلِّل بُدْنَه الأنماط)[٢١٣]، قال ابن الأثير : هي ضرب من البسط له خمل رقيق[٢١٤].

ومن الثياب الحارية ضرب من البرود يعرف بـ (الشِّرعَبية) ، يقول امرؤ القيس إنه دعا أصحابه أن يرفعوا له خيمة فيها ثياب أتحمية وشرعبية من نسج الحيرة :[٢١٥]

وقلنا لفتيانٍ كرامٍ ألا آنزلوا	فعالوا علينا فضْلَ ثوبٍ مُطَنَّبِ
وأوتادُه ماذيةٌ وعِمادُه	رُدَيْنِيَّةٌ فيها أسِنَّةُ قعضَبِ
وأطنابُه أشْطَانُ خُوصٍ نجائبٍ	وصهوتُه من أتْحَمِيٍّ مُشَرْعَبِ
فلما دخلنَاهُ أضفنَا ظهورَنا	إلى كلِّ حاريٍّ جديدٍ مُشَطَّبِ

وقد يراد بالحاري الثوب المخطط ، أو السيف الذي فيه طرائق ونقوش ، وأنشد الأزهري :[٢١٦]

كالبستان والشرعبي ذا الأذيال

(٢١١) اللسان والتاج : نمط .
(٢١٢) اللسان : نمط .
(٢١٣) الموطأ : حج ١٤٦ .
(٢١٤) اللسان : نمط .
(٢١٥) ديوان امرىء القيس ص ٥٢ – ٥٣ .
(٢١٦) اللسان : شرعب .

٧ - القطيفيـــات :

ونسبـوا إلى القطيف وهي مـدينـة بـالبحرين[٢١٧] نسيجاً وأرديـة وضربـا من الخمـل وقـد ذكر الأعشى خمل القطيف المصبوغ بالأرجوان بعـد أن ذكر مراكب النسـاء ومـا عليهـا من أكسيـة الخز والشفوف والباغز :[٢١٨]

خـاشِــعَاتٍ يُظْهِرنَ أكسيــةَ الخَـ ـــزِّ ويُبْطِنَّ دونَهــا بشُـفُـوفِ
وحَثَّنَ الجِمـــالَ يسْهَكْن بـــالبَــا غِـزِ والأُرجُـوانِ خَمْــلَ القَطِيفِ

ويشبه عنترة الدم الذي خضب جسم فرسه في غمرة القتال كالارجواني ، وهي القطايف الحمر :[٢١٩]

وأُكْرِهُـــهُ على الأبطـــــالِ حتّى يُرَى كالأُرجـــــوانِيِّ المُجَـــوبِ

والقطيفـة وجمعهـا القطـائف والقطف ، وهي القراطف جمع قرطفـة ، فرش مخملـة ، وجـاءت بهـذا اللفظ (القراطف) في شعر معقر بن حمار البـارقي وهو يتحـدث عن أُمنيـة امرأة ذبيـانيـة أن يغنم بنوها القراطف والقروف :[٢٢٠]

وذبيـــــانِيَّـــةٍ أوصتْ بنِيهـــــا بـأنْ كَـذِبَ القَراطِفُ والقُروفُ
تجهَّـزَهم بمـا وجـدتْ وقـالتْ بَنِيَّ فكُلُّكُمْ بطَـــــــلٌ مُسِيفُ

والقطيفة : دثـار مخمل ، وقيل كسـاء لـه خمل ، وفي الحـديث : (تعس عبـد القطيفـة)[٢٢١] وهي كساء له خمل ، أي الذي يعمل لها ويهتم بتحصيلها[٢٢٢].

(٢١٧) اللسان : قطف ، ياقوت : القطيف ، والقطيفة تصغير القطيفة عنـد يـاقوت : كسـاء لـه خمل يفترشه النـاس ، وهو الـذي يسمى اليوم زولية ومخفورة ، وهي قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق من طرف البرية من ناحيـة حمص (يـاقوت : القطيفة) .

(٢١٨) ديوانه ص ٣٦٣ .

(٢١٩) ديوان عنترة ص ٣٢٢ .

(٢٢٠) قصائد جاهلية نادرة ص ١١٣ .

(٢٢١) ابن ماجة : زهد ٨ .

(٢٢٢) اللسان : قطف .

٨ - نســـج العـــراق :

وجاء في الشعر الجاهلي نسبة المنسوجات إلى مواضع أخرى ومدن بعينها منها العراق ، فجاء (حوك العراق) الذي ورد في شعر امرىء القيس[٢٢٣]

جعلنَ حَـوايـا واقتعـدنَ قعَـائِـدا　　　وحَفّفْنَ من حَـوْكِ العِراق المُنَمَّـقِ

وجاء النسج العراقي في شعر الطفيل الغنوي الذي عبر عنه بحوكي العراق المرقم أي المنقط ، ويصفه بأنه نسيج أحمر عريض واسع :[٢٢٤]

لقـد بَيَّنَتْ للعينِ أحـداجُهـا معـاً　　　عليهن حَـــوْكِيُّ العِراقِ المُرَقَّمِ

عقـارٌ تظـل الطيرُ تخطفُ زَهْـوَهُ　　　وعـالَيْنَ أعـلاقـا على كل مُفْـأمِ

وجاء الرَّيْط العراقي في شعر ربيعة بن مقروم يصف أنماط الظعائن :[٢٢٥]

جعلنَ عتيـقَ أنمـاطِ خُـدورا　　　وأظهرنَ الكـداريَ والعُهـونـا

على الأحـداجِ واستشعرنَ رَيْطـا　　　عراقِيّـا وقِسِّيّـاً مصُـونـا

٩ - القبطيـــة :

ثياب كتان رقاق بيض تعمل بمصر ، وهي منسوبة إلى القبط على غير قياس والجمع قَبَاطِيّ (بضم القاف وفتحها) ، وقال شمر : القباطي ثياب إلى الدقة والرقة والبياض ، قال زهير :[٢٢٦]

لَيـأتينّـكَ مِنّي منطِـقٌ قَـذَعٌ　　　بـاقٍ كما دنَّس القُبطيَّـةَ الـوَدَكُ

وقال الكميت يصف ثوراً :[٢٢٧]

لِيـاحٍ كأنْ بـالأتحميّـةِ مُشْبِـعٌ　　　إزاراً وفي قُبطيّـةٍ مُتَجَلْبِبُ

---

(٢٢٣) ديوان امرىء القيس ص ١٦٨ .

(٢٢٤) ديوان طفيل الغنوي ص ٧٤ .

(٢٢٥) ياقوت : القس .

(٢٢٦) ديوانه ص ١٨٣ واللسان : قبط .

(٢٢٧) اللسان : قبط .

وفي حديث أسامة : (كساني رسول الله ﷺ قبطية)[٢٢٨]، وفي الحديث : (أنه كسا امرأة قبطية فقال : مرها فلتتخذ تحتها غلالة لا تصف حجم عظامها)[٢٢٩] وفي الحديث دلالة على دقة وشفافية القباطي لأنها تلتصق بالجسد ، ومنه حديث عمر رضي الله عنه : (لا تُلبِسوا نساءكم القُباطيّ فإنه إن لا يشِفُّ فإنه يصِفُ)[٢٣٠]. وكانت القباطي والأنماط مما تكسى بها الكعبة في الجاهلية والإسلام .

و (القبطرى) : ثياب بيض ، وزعم بعضهم أن هذا غلط ، وقد قيل فيه : إن الراء زائدة مثل دمث ودمثر ، وشاهده قول جرير :[٢٣١]

قومٌ ترى صدأ الحديدِ عليهم والقُبْطِريَّ من اليَلامقِ سُودَا

١٠ - القَسِّيَّة :

ثياب من كتان مخلوط بحرير يؤتى بها من مصر ، نسبت إلى قرية على ساحل البحر قريباً من تنِّيس يقال لها القَس[٢٣٢] في ديار مصر تنسب إليها الثياب القسِّية ، وقال بعضهم : القسِّي القزِّي ، أبدلت زايه سينا ، وفي بلاد الهند بين نهر وارا بلد يقال له القس مشهور يجلب منه أنواع الثياب والمآزر الملونة ، وقيل هو موضع بين الفرما والعريش ، وأنشدوا لربيعة بن مقروم :[٢٣٣]

على الأحداجِ واستشعرنَ رَيْطا عراقيا وقَسِّياً مصُونا

وفي حديث علي أن النبي ﷺ (نهى عن لبس القسِّي)[٢٣٤]، قال أبو عبيد قال عاصم بن كليب وهو الذي روى الحديث : سألنا عن القسي فقيل هي ثياب يؤتى بها من مصر فيها حرير[٢٣٥].

---

(٢٢٨) بخاري : لباس ٣٠ ، ابن حنبل ٥ / ٢٠٥ ، اللسان : قبط .
(٢٢٩) اللسان : قبط ، جامع الأصول ١٠ / ٦٤٦ .
(٢٣٠) اللسان : قبط .
(٢٣١) ديوان جرير ص ١٣٤ ، اللسان : قبط .
(٢٣٢) اللسان : قسس .
(٢٣٣) ياقوت : القس .
(٢٣٤) بخاري : جنائز ٢ ، لباس : ٢٨ ، ٣٦ .
(٢٣٥) ياقوت : القس ، اللسان : قسس .

١١ - مــدن أخـــرى :

وجاء في الشعر الجاهلي ذكر لمنسوجات وثياب منسوبة إلى مدن أخرى ، من ذلـك مـاجـاء في شعر سلامة بن جندل حيث ذكر نسج بصرى والمدائن :[٢٣٦]

مِن نَسْـجِ بُصْرى والمـــدائنِ نُشِّرتْ　　للبيــع يــومَ تَحَضُّـرِ الأســـواقِ

ووصف امرؤ القيس نساء عليهن ثياب من صنع انطاكية :[٢٣٧]

علونَ بـانطـاكيَّـةٍ فـوق عِقْمَــةٍ　　كجِرْمــةِ نَخْــلٍ أو كجَنَّــةِ يَثْرِبِ

١٢ - منســوجات فارســية :

وهناك منسوجات فارسية أو منسوبة إلى مدن فارسية ، أو فيها أسماء أعجمية فـارسيـة جاءت في الشعر الجاهلي ، من ذلك :

الدَّيَــابُوذ :

الديابوذ وهو (دُوَابُوذ) بالفارسية ، أي : ثوب ينسج على نيرين ، قال الشاعر يصف ظبيـة وولدها ، وأنها في خصب وسعة فقد حسنت شعرتها فكأنما عليهما ثوب ذو نيرين :[٢٣٨]

كأنهـــا وابنَ أيّـــامٍ تُرَبِّبُـــهُ　　من قُرَّةِ العينِ مُجْتَـابـاً دَيَـابُـوذِ

وجاء في شعر الأعشى يصف ثور الوحش :[٢٣٩]

عليـــه دَيَــابُــوذٌ تَسَرْبَــلَ تحتَــهُ　　أرَنْـدَجَ إسكافٍ يُخَـالـطُ عِظلِمَــا

---

(٢٣٦) ديوان سلامة بن جندل ص ١٣٩ .

(٢٣٧) ديوان امرىء القيس ص ٤٣ . والعقمة : ضرب من الوشي الأحمر .

(٢٣٨) المعرب ص ١٣٨ .

(٢٣٩) ديوان الأعشى ص ٣٤٥ وانظر المعرب ص ١٢٩ .

الدِّيْبَــــاج :

ومن الثياب الفارسية ثياب الديباج ، وأصل الديباج بالفارسية (ديو باف) أي نساجة الجن[٢٤٠]، وجاءت هذه الثياب في الشعر في قول مالك بن نويرة :[٢٤١]

ولا ثيابٌ من الديباجِ تلبَسُها   هي الجِيادُ وما في النفسِ من دَبَبِ

و (الدبج) كذلك أعجمي أي النقش ، مأخوذ من الديباج[٢٤٢].

وجاءت ثياب الديباج في شعر الأعشى وهو يمدح هوذة الحنفي :[٢٤٣]

وكلُّ زَوْجٍ من الدِّيباجِ يلبسُهُ   أبو قُدامةَ مَحبُوًّا بذاك مَعَا

وذكرها أوس بن حجر حين يصف النساء :[٢٤٤]

لَبِسْنَ رَيْطَاً ودِيباجَاً وأكسِيَةً   شَتَّى بها اللَّونُ إلا أنَّها فُورُ

(٢٤٠) في معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص ٦٠ : أن أصله (ديبا) مركب من (ديو) أي جن و (باف) أي نسيج .

(٢٤١) المعرب ص ١٤٠ ، والدبب : العيب .

(٢٤٢) المعرب ص ١٤٣ .

(٢٤٣) ديوان الأعشى ص ١٥٧ .

(٢٤٤) ديوان أوس بن حجر ص ٤٠ .

31. 'The Young Dickens', **The Lost Childhood and Other Essays** (London 1951).
32. **Op. cit.**, p.17.
33. See Wall, **op. cit.**, p.220.
34. 2 November 1843.

Endnotes

1. From a letter to Fanny Kemble, 25 April 1879.
2. 'Dickens: the Two Scrooges', **The Wound and the Bow** (London 1941).
3. **Charles Dickens: A Critical Study** (London 1898); reprinted in Stephen Wall, **Charles Dickens** (Harmondsworth 1970), pp. 225–6.
4. Forster gave him a copy to read on his American journey.
5. There is no proof that the passage of **Sir Thomas More** now attributed to Shakespeare is in his hand.
6. New York 1952; London 1953, 1977.
7. See Wall, **op. cit.**, p. 176.
8. London 1964.
9. 'Whether Genius Is Conscious of its Powers', **The Plain Speaker** (London 1826).
10. This is the epigraph to Norman and Jeanne MacKenzie, **Dickens: A Life** (Oxford 1979).
11. Quoted by Seneca, 'On Peace of Mind'.
12. Introduction to S. Johnson, **London: A Poem** (London 1930).
13. Foreword to Dag Hammarskjold, **Markings** (London 1964).
14. From **Notes on the Novel** (London, 1925).
15. 'La Genie', **Mythologies** (Paris 1953).
16. **The Genesis of Secrecy** (Cambridge Mass 1979) **passim.**
17. Harmondsworth 1977.
18. London 1977.
19. **Op. cit.**, p. 41.
20. See Wall, **op. cit.**, p. 220.
21. See E. Johnson, **op. cit.**, p.41.
22. See Wall, **op. cit.**, p. 217.
23. Angus Calder, Introduction to **Great Expectations** (Harmondsworth 1965).
24. See Neil McEwan, 'The Significance of the Periodical Sketch, 1824–48, With Special Reference to Dickens and Thackeray', unpublished B.Litt. thesis, Bodleian Library.
25. **Op. cit.**, p.41.
26. See Wall, **op. cit.**, p.303.
27. Letter to Mrs Maria Winter, 3 April 1855.
28. London 1961.
29. (Harmondsworth 1970), p.17.
30. **St Paul's Magazine**, Vol. 10, 1872.

effort to illustrate his private world in terms of the great public world we all share, we can understand why Fagin and Sikes in their most extreme exaggerations move us more that the benevolence of Mr Brownlow or the sweetness of Mrs Maylie — they touch with fear as the others never really touch with love'.[31] **Oliver Twist**, he goes on, is a world without God – – lost to Dickens in the Warehouse. But this really tells us more about Greene than about his master, and it easily degenerates into Romantic vagueness, and Romantic cadences, even today: 'his childhood has been lost there and all his wanderings were a search for it', say Norman and Jeanne MacKenzie in their 1979 biography.[32]

Dickens can be called Shakespearian in his humanity, which emerged warm and strong from the childhood murk of shame and frustration, for reasons we cannot explain. It was that which made him far more, in his own time, than a great popular writer, so that Jowett could fairly conclude his address, 'no one was ever so much beloved or so much mourned'. The crowds who packed London on the day of the funeral offered a tribute stronger even than Jowett's. The same humanity touched Tolstoy and Dostoievsky, immune as they were to the style and the eye for English oddity. Recalling Dickens, in a letter of 1886, George Lear mentioned a laundress known to them both: 'Dickens took great interest in her, and would mimic her manner of speech, her ways, her excuses, etc., to the very life'.[33] Mimicry was part of his gift but interest in human variety was another, and the Dickensian order of mimicry requires a power to sympathise. A passage of the Autobiographical Fragment tells how he would sit for hours thinking about the debtors in the Marshalsea. Dickens's love of life was not born in the Warehouse; it was there already, and so the origins of his boundless urge to express it may have been. If he was to be obsessed, as many lives are, the openness and scope of his obsessions arose from Dickens and not Dickens from them. If the child lived on within him, it was exceptionally wide-awake; if it shared his nightmares and forbade certain memories, it must have been placated by the great man it had become because the man Jowett and Trollope knew had full control of his mature work. That can be illumined by biography, as by most of the critical methods which have been brought to bear. But there is still a mystery, as there is with Shakespeare when all has been said about sources and playhouse conventions and the state of the language in 1600. Those who are intrigued by Shakespeare's genius may well pay attention to Dickens, to his insistence, for example, that he 'heard' his characters speaking as he wrote. 'You know... that I feel my power now, more than over I did', Dickens wrote to Forster.[34] What was it? There is much to find out, for all the Dickens industry has achieved. Mechanical analysis of the life should not be allowed to block the way.

so that 'in one self he is there, dancing among them, destroying prisons and taking revenge for the injustices of childhood'. Explication which grows so routine becomes dull. When it seems to set the critic above the creative writer, it is irksome. Dickens is massively creative; the critic, here, is nigglingly small. Again one comes close to wishing that we knew as little of Dickens as we know of Shakespeare.

We should not wish it. Edgar Johnson is right to say that Dickens is himself a Dickens character, and one of the most fascinating. Nor can we read the sixth chapter of **Little Dorrit**, 'The Father of the Marshalsea', without remembering what 'father' and 'Marshalsea' meant to Dickens -- in each case something far more complex than suppressed rage. We cannot read **David Copperfield** without thinking of Warren's, and wondering just what it meant to Dickens to say that David was his 'favourite child'. Listening to Pip in **Great Expectations** on the keenness of a child's sense of injustice, or to Nancy in **Oliver Twist** ('the cold wet dirty streets are my home'), we are bound to recall the Autobiographical Fragment:

> I know that, but for the mercy of God, I might easily have been, for any care that was taken of me, a little robber or a little vagabond.

Wonder is the proper response -- that Dickens was **not** imprisoned by his past but released from it into 'the largest and most varied [created] world' since Shakespeare's.

The meanest of all the attempts to belittle a great talent first appeared in a review of Forster's **Life**:

> Charles Dickens, having crushed into his childish experience a whole world of sorrow and humorous insight, so loaded his soul that he never grew any older. He was a great, grown-up, dreamy, impulsive child, just as much a child as little Paul Dombey or little David Copperfield. He saw all from a child's point of view -- strange, odd, queer, puzzling... Never perhaps, has a fragment of biography wakened more interest or amazement than the first chapters of Mr Forster's biography...[30]

This is more damaging because it is partly true. Dickens could, better than any writer before him, represent a child's consciousness of the world. But the distortion of 'just as much a child' has offered a false clue to all who have written apologetically about Dickens -- who have found him unintellectual, politically naive, melodramatic and sentimental at the core but full of affections and vitality; and so forth. Graham Greene, who holds that all literary art begins early in life, is more positive: 'if, as one is inclined to believe, the creative writer perceives his world once and for all in childhood and adolescence, and his whole career is an

'To hear him speak', Trollope continued, was to wish to be a speaker oneself, because the thing, when properly managed, could evidently by done so easily, so pleasantly, with such gratification not only to all hearers but to oneself.' There was something alive in Dickens for which present–day criticism lacks terminology. In looking for simple explanations, we often belittle him.

Much modern commentary has sought to make the novels critically manageable by emphasising themes which recur throughout. Most creative writers, including Shakespeare, treat their own earlier work as a principal source, reworking certain scenes and relationships as their art develops. Dickens's preoccupations – – with money, with fathers, with prisons, with childhood, with food – – have been explored in a number of good studies. A.O.J.Cockshut's **The Imagination of Charles Dickens** is one of the best to adopt this approach.[28] It has become another routine assumption, as a result, that the scope of Dickens's art was ruled by the 'formative' months at at Warren's where the major 'preoccupations' (or, more crudely, 'obsessions' or 'fixations') arose. Introducing **A Tale of Two Cities** for the Penguin English Library, George Woodcock, for example, writes:

> The novel begins and ends with the opening of prison doors, even it, for Carton, they open only death.
>
> There is no need to search deeply for the source of this preoccupation. Dickens bore as a deep emotional scar the memory of his father's detention for debt in the Marshalsea prison. It was a wound to his childhood pride which he never forgave society, and never forgave his father, for he linked it with the fecklessness with which John Dickens allowed his son, educated for better things, to spend the most wretched months of his childhood working in Warren's blacking factory. The looming memory of the prison experienced in childhood never left Dickens, and from **Pickwich Papers** to **Great Expectations** his novels contain prisons and fathers or father substitutes immured in them. **In A Tale of Two Cities** the imprisoned father appears in dual guise: as Dr. Manette at the beginning, and as Darnay (the father of little Lucie) at the end. In a hidden way each imprisoned father is also a delinquent father...[29]

The business of Dickens criticism, it might well seem to students reading such a passage, is to link the novels to the time of the Warehouse, to show how Dickens rewrote his own little private story in various guises, sometimes concealing fathers in father substitutes, or making them delinquent 'in hidden ways'. 'Dickens's second preoccupation', George Woodcock continues, 'is the obsession – – the word is hardly too strong – – with destructive violence', and especially with the mob whose rage, like the author's has been long suppressed,

pickpockets in the newspapers of the time, written by men now forgotten.[24] It was Dickens who reworked his own such sketches from the waif's point of view. Plainly his experience was behind it, but not in any way we can know. 'The heart' was one of the surest terms for Dickens and for most Victorians. Boz had a good head and a good heart, and he may have had both before he had ever thought much about blacking.

The creative energy, artistic discipline and very hard work which were inseparable from Dickens's genius are supposed to derive from the same source as his largeness of sympathy. The Blacking Warehouse was 'formative', says Edgar Johnson, in 'steeling' Dickens's resolve never to risk another approach to the social abyss.[25] It showed him, in his father, what indolence and recklessness could bring about, and scared him into a lifetime of hard endeavour. If he was enslaved at Warren's, he was ever afterwards 'to work like a slave', in Orwell's phrase,[26] as a result. Twelve hours a day of menial work, carried on for months against a background of family castastrophe, followed by an adolescence of relative comfort, would have made a wastrel of many people -- which leaves us with the question of what Dickens was like in January 1824. We know. He was keen, bright and very ambitious. Perhaps Edgar Johnson's cause and effect could be reversed. It was because his lifelong drive to succeed was already present that young Charles was traumatised by the waste of time at Warren's. The Fragment says so. His misery was chiefly in the loss of what he had 'learned, and thought, and delighted in, and raised my fancy and emulation up by'. He did not become dedicated because he had been wretched; he was so wretched because his dedication was already alive in him. Of course there is some connection between memories of the Marshalsea and the urge to make money which shows in all the novelist's business dealings, although Thackeray who grew up rich was equally keen to be rich in later life, as were most able Victorians. We cannot know where Dickens found his colossal energy, but we should object to an equation which makes it look automatic. Dickens felt himself driven by his talent. 'I hold my inventive capacity on the stern condition that it must master my whole life, often have complete possession of me, make its own demands upon me, sometimes for months together put everything else away from me... Whoever is devoted to an Art must be content to deliver himself wholly up to it, and to find his recompense in it.'[27] This was not a public declaration, but an admission, into which he had been goaded, made in reply to an overinsistent hostess. He was shy of such admissions which touched on personal pride. Certainly the recompense was enormous. Dickens richly enjoyed his talent. Trollope's tribute in **St Paul's** for July 1870 describes him as he appeared in his last weeks: 'whatever he did seemed to come from him easily, as though he delighted in the doing of it... above all, he laughed like a man in the full vigour of his life'. The ease and freedom in this impression belie the routine accounts of how drudgery in the Warehouse steeled a determination to succeed.

Here is proof of a deep social shame in one who, as a friend reported, 'knew it all [London] from Bow to Brentford',[20] and delighted in all of it. So here is David Copperfield. It is because this evidence is so startlingly relevant to the books, and so amenable to formulaic reductions of Dickens's Shakespearian gifts to 'because of the Blacking Warehouse he...', that one can sometimes wish that Dickens had kept quiet to the end.

The obvious points were made at once, in reviews of Forster's **Life**, and they have been reiterated ever since. The first is that Warren's 'gave' or 'taught' the novelist his sympathy with the poor and outcast. He had been poor and had felt himself outcast more intensely than those accustomed to deprivation. Hence Oliver, Smike and Jo the crossing-sweeper;[21] hence Magwitch and other good-hearted varmints to whom life was harsh in childhood. But 'hence' ought not to be facile, in justice to Dickens and to the facts of life. Matthew Arnold reflected that Murdstone in **David Copperfield** is 'the natural product' of the appalling school, Salem House, to which he consigns David. Bad schools, according to Arnold, naturally produced the type of hard Englishman whom the Irish so rightly disliked. On this view of how environment conditions character, the Warehouse, followed by a bad school of the Salem House kind, would naturally have made the adult Dickens a harder man than Murdstone, perhaps a master of warehouses, indifferent to the poor. There are signs that he grew up charitable in spite of Warren's. He tells us, a detail which helps to validate the Fragment, that the warehouse–lad who befriended him was called Bob Fagin. When he chose a name for the villainous fence who tries to make a pickpocket of Oliver Twist, he was prompted, it seems, by an old resentment. The 'young gentleman' could not belong in the Warehouse, ought not to be made at home there. For some critics this betrays hypocrisy: the suffering was **bourgeois**, and 'produced' the bourgeois happy endings which so depressed George Orwell. Oliver is received back into the middle–class, far from Fagin and his kind, at the end of the story. The borrowed name has led to much critical sarcasm on predictable grounds: championship of the poor was humbug; Dickens really feared and hated the poor. 'He had ridden to glory on the shillings of a public which may very well have included Bob Fagin.'[23] If we consider Boz ten years after he knew Fagin, it is plain that he still meant to be a great man as soon as possible, and not a potlabeller, and equally plain that his boyish aversion to low companionship had vanished from his journalistic instincts, from his habit of exploring London from Bow to Brentford, from his politics, and above all from his imagination. In contrast to the 'Yellowplush' whimsy which Thackeray was selling to the papers in the middle thirties, Boz is remarkably free of snobbishness even by modern standards. He shrank from Hungerford Stairs and from MOOR–EEFFOC, but not from the urchins who must have recalled how he had lounged hungry in the streets. Why not? Instead we have the Dodger and Charlie Bates and, suitably genteelised, Oliver Twist. There are many sketches of

clothes priced by an official of the debtors' court, because the family of an insolvent was allowed to retain only minimal possessions. An improvement in John Dickens's finances secured his release on 29 May 1824 and Charles was released soon afterwards, after about four months of labour. He was then sent to school on his father's insistence, but 'I never afterwards forgot, I never shall forget, I never can forget, that may mother was warm for my being sent back' **(A.F.)**.

Dickens's account gives no dates and no indication of the length of his drudgery. He could not remember, 'whether for a year, or much more, or less'. Those who believe that all history is fiction might urge that, hazy in memory, Dickens fictionalised his past; that the once cheerful young blacker at last made a character of himself in an image familiar and moving to his readers, so that the work produced the 'life'. But there is no reason to doubt the truth of the Fragment. The point at which the tense slips into present perfect as the writer remembers ('what I have learned') is telling. And the time at the Warehouse would have seemed endless. It is not surprising that Dickens never researched this period of his life; he could not bear to think about it. 'From that hour until this at which I write, no word of that part of my childhood which I have now gladly brought to a close has passed my lips to any human being ... ... my own wife not excepted' **(A.F.)**. A few words had passed to his friend John Forster who published the Fragment in his **Life** in 1872, to the astonishment of Dickens's family. These forty years of silence about events so crucial to the development of the man and the novelist, encourage the determinist inclination in critics since our age believes that the trauma which is suppressed is the most powerful. The Fragment does supply strong evidence that the Warehouse was decisive for Dickens. 'No emphasis', says Edgar Johnson, 'can overstate the depth and intensity with which these experiences ate into his childish soul'.[19] Dickens was haunted by these memories in spite of himself. He had sat after work in a coffee room brooding on the words reversed through the glass of the door: MOOR–EEFFOC. Whenever afterwards he noticed the same effect he felt 'a shock through my blood'. For years he avoided the scenes of his 'servitude'.

> Until old Hungerford Market was pulled down, until old Hungerford Stairs were destroyed, and the very nature of the ground changed, I never had the courage to go back to the place where my servitude began. I never saw it. it. I could not endure to go near it. For many years, when I came to Robert Warren's in the Strand, I crossed over to the opposite side of the way, to avoid a certain smell of the cement they put upon the blacking–corks, which reminded me of what I was once. It was a very long time before I liked to go up Chandos Street. My old way home by the Borough made me cry, after my eldest child could speak. **(A.F.)**.

Dickens is an even more special case, given the extent of the biographical evidence, and the quality of his gift, because of the document, known to Dickensians as the **Autobiographical Fragment (A.F.)**, which has always seemed to be the key to understanding the man and his work. The aim of the next few pages is to look again at the use which has been made of this piece of evidence, and to argue that it has often been a distraction rather than an illumination because of a misconceived desire to **explain**; to neglect the glaring fact of Dickens's genius, and, in Ortega y Gasset's phrase, 'to see things clearly' where they are not yet clear at all.

> No words can express the secret agony of my soul as I sunk into this companionship; compared these everyday associates with those of my happier childhood; and felt my early hopes of growing up to be a learned and distinguished man crushed in my breast. The deep remembrance of the sense I had of being utterly neglected and hopeless; of the shame I felt in my position; of the misery it was to my young heart to believe that, day by day, what I have learned and thought, and delighted in, and raised my fancy and my emulation up by, was passing away from me never to be brought back any more, cannot be written. My whole nature was so penetrated with the grief and humiliation of such considerations, that even now, famous and caressed and happy, I often forget in my dreams that I have a dear wife and children; even that I am a man; and wander desolately back to that time of my life.

The circumstances of Dickens's trauma can be simply summarised. He reached his twelfth birthday on 7 February 1824, unusually intelligent, good at his studies, and full of ambition to become 'a great man'. His father John Dickens, an improvident and pretentious clerk in the Navy Pay Office, had encouraged him to think of himself as a young gentleman. Bankrupt and about to be seized for debt, John Dickens was obliged to tell his son that he must go out to work. Two days after his birthday Charles started at Warren's Blacking Warehouse, between the Strand and Hungerford Stairs, wrapping and labelling pots of boot–blacking for twelve hours a day at six shillings a week. On 20 February his father was arrested and three days later was imprisoned in the Marshalsea. (He announced to his family that the sun had gone down on him for ever.) The furniture at the house the Dickenses were renting in Gower Street was taken by the court or sent to the pawnbrokers, but Mrs Dickens camped there until 21 March 1824 when the lease expired and she went with her younger children to join her husband in the Marshalsea. Charles went into the cheapest possible lodgings and visited the family in the evenings at the prison. Meanwhile he grew deft at his job and was set to work in the window to amuse passers–by with his skill. His title among his fellow–workers, 'the young gentleman', grew increasingly ironic, and his situation painful to him. In one most 'Dickensian' incident he was summoned to have his

All this is superstition to many modern minds. 'Better beware of notions like genius and inspiration,' wrote Ortega y Gasset, 'they are a sort of magic wand and should be used sparingly by anybody who wants to see things clearly'.[14] Roland Barthes argued that genius and all other claims for authorial authority are 'myths' since all interpretations of a text are equally valid and cannot be limited by reference to the author.[15] Philippe Sollers argued that an author does not 'write' but 'is written' by his society. In the English-speaking world Frank Kermode has recently suggested that since language is 'not transparent on reality', there is no distinction to be made (or very little) between fact and interpretation, or between history and fiction: Dickens's novels are one body of fiction; biographies of Dickens are another.[16] Such views have in common a wish to oust the author from critical attention, and especially to deny the author's active creative power. He can be said to be irrelevant because his composing of the work has nothing to do with our readings of it; or he can be rendered the passive agent of social forces. Nothing individual is allowed to come between society and the reader.

That tendency ends in a complete subjectivism where where nothing is more worth saying than anything else. It may have some merit in making us think again about the beliefs on which objective criticism and critical biography stand. Ours is a period of distinguished literary biography, in scholarship, as in Leon Edel's **Life of Henry James,**[17] and in creative reconstruction, as in Angus Wilson's **The Strange Ride of Rudyard Kipling.**[18] We are by no means short of writers willing to explain the work by reference to the life, undeterred, and often unaware, of semiological objections to their whole enterprise. But the empiricists share with their opponents, very often, a disregard for what remains inexplicable in Shakespeare or in Dickens when all possible explanations have been offered. The social, cultural and psychological influences are illuminating. It is good to see how the writer developed within his own time and his own personality. But why is it that we feel we know Dickens and Shakespeare while Ainsworth and Decker, if we can read through them, dated as they now seem, are strangers. 'Men seem to have lost, not a great writer only, but one whom they had personally known', Jowett ended his sermon. It is still true. How is it that while a lesser talent neatly fits what we know of his social cicumstances and personal make-up, of his education and reading, Dickens astounds us? If that difference of quality is a mere extra, so that had he had less genius Dickens would be much the same but less compelling, then our analytical biographies are fully justified. But if it is the **sine qua non,** the product of his daemon, without which he would not have written, then there is a disappointment even in Edgar Johnson's fine book, and it is possible to feel that the Barthesian' disbelief in his kind of analytical cause and effect may be wholesome without wishing to substitute Barthes for Johnson. Attempts to explain genius, rather than to illustrate through biography the forms it took, may end be diminishing the achievement they seek to proclaim.

There is a certain irony in this, for Jowett was preaching at the state funeral which was conducted for Dickens at Westminster Abbey, contrary to Dickens's known wishes: public men are in a sense public property once they are dead. As a churchman Jowett was anxious to quieten rumours about the novelist's liaison with Ellen Ternan. As Master of Balliol he was possibly thinking of the freakish and irregular life of his former pupil A.C.Swinburne who was at the height of his genius and troublesomeness in 1870. The passage is a nice example of how Romantic respect for artistic genius could conflict with Victorian decorum. Jowett's is the voice of the Oxford of his time: although we revere great men for their achievements, the lives of Shelley, Swinburne, even Samuel Johnson, will not bear too much public scrutiny. Cultured opinion in England today has almost reversed these values. Any findings of research which are in any way detrimental to a great writer of the past are published at once and discussed in detail in the literary press. T. S. Eliot was obliged to take legal action to prevent the publication in **Essays in Criticism** of an article concerning his private life which he held to be libellous. Other living writers, in more need of publicity, tend to advertise their weaknesses. While Jowett could appeal to the special status due to genius, to justify discretion, we are more inclined to intrude upon genius out of disrespect for privilege. Although Shakespeare is relatively safe from the intrusions of literary historians, historical fiction attributes to him an extraordinary variety of vices – – most entertainingly and learnedly in Anthony Burgess's **Nothing Like the Sun.**[8] We seem to need to be assured that men of genius are as human as ourselves, and that they can be 'understood by their fellow–men'. But if we are right to investigate their lives exhaustively, we are wrong if we think that we understand that aspect of them which is the only reason for our curiosity, their talent. Where this is concerned Jowett is right, for we do not understand what genius is, and biography at its most frank, or scientific, is very little help.

Jowett and his contemporaries took for granted certain assumptions about genius, the first of which was that the word says something. They took genius to be different in kind from talent or ability; talent pleased by performing well what was expected; genius astonished. Genius was unconscious, as Hazlitt argued.[9] Genius was both a joy and an ordeal for its possessor. 'Genius always pays for the gift', said Henry James.[10] Genius was akin to madness. None of these thoughts was new. All are as old as belief in divine possession of the artist. Aristotle said that no great writer 'has ever been without some madness'.[11] But the nineteenth century gave them a Romantic aura, and often abused them. Mystic bardolatry got in the way of what research could show about Shakespeare. The concept has continued to intrigue. T.S.Eliot declared that 'sensibility alters from generation to generation in everybody, whether we will or no, but expression is only altered by a man of genius'.[12] W.H.Auden thought that 'geniuses are the luckiest of mortals because what they must do is the same as what they most want to do'.[13] His geniuses, then, are still possessed.

LIVES OF DICKENS

by

Neil McEwan

Dickens's admirers place him with Shakespeare, although sometimes grudgingly: 'I maintain it – – a little Shakespeare:' wrote Edward Fitzgerald in 1879, 'a Cockney Shakespeare, if you will: but as distinct, if not so great, a piece of pure Genius as was born in Stratford'.[1] Edmund Wilson, writing in 1941, was less condescending (and less snobbish): Dickens was the greatest dramatic writer that the English had had since Shakespeare, and he created the largest and most varied world'.[2] The placing offers endless scope for comparing and contrasting, which can be useful: George Gissing is still readable on Mrs Gamp in relation to Juliet's nurse.[3] Dickens, obviously, enjoyed one advantage. His rereading of Shakespeare in 1842 influenced his subsequent books.[4] One striking difference appears in how much we know about Dickens. Work continues on the great 'Pilgrim' edition of his letters, which was begun by Humphry House in 1949. The discovery of a single Shakespeare letter would make a stir in the world; nothing survives that is known to be in his handwriting.[5] Accounts of Shakespeare's life are mostly conjecture. A biographer of Dickens is almost overwhelmed with material. Edgar Johnson's **Charles Dickens: His Tragedy and Triumph**, the standard modern biography,[6] tells a full and well authenticated story. Perhaps we ought not to want to know more of Dickens's private life than is known at present.

Benjamin Jowett's sermon at Dickens's funeral made a plea for the artist's right to privacy:

> I am not going to attempt to draw a portrait of him. Men of genius are different from what we suppose them to be; they have greater pleasures and greater pains, and greater temptations than the generality of mankind, and they can never be altogether understood by their fellow–men. We do not wish to intrude upon them, or analyse their lives and characters. They are extraordinary persons, and we cannot prescribe to them what they should be. But we feel that a light has gone out, the world is darker to us when they depart. There are so very few of them that we cannot afford to lose them one by one and we look vainly round for others who may supply their places.[7]

Species list :

Acacia ehrenbergiana
Acacia tortilis
Aizoon canariense
Anagallis arvensis
Capparis spinosa
Corchorus depressus
Cymbopogon parkeri
Ephedra foliata
Francoeuria crispa
Heliotropium bacciferum subsp. tuberculosm
Herniaria hemistemon
Lycium shawii
Ochradenus baccatus
Phoenix dactylifera
Salsola barysoma
Salvia aegyptiaca
Schanginia aegyptiaca
Stipa capensis
Ziziphus nummularia
Zygophyllum quatarense

Appendix 1

Individual Plant Species	Frequenceis %	Densities %
Acacia ehrenbergiana	4.8	1.6
Acacia tortilis	10.4	9.6
Aizoon canariense	0.8	1.6
Anagallis arvensis	4.8	6.4
Capparis spinosa	8.8	10.4
Corchorus depressus	3.2	4.8
Cymbopogon parkeri	9.6	12.8
Ephedra foliata	0.8	0.8
Francoeuria crispa	1.6	4.0
Heliotropium bacciferum subsp. tuberculosm	0.8	0.8
Herniaria hemistemon	0.8	0.8
Lycium shawii	9.6	8.0
Ochradenus baccatus	0.8	1.6
Salvia aegyptiaca	4.8	4.0
Stipa capensis	0.8	0.8
Ziziphus nummularia	11.2	9.6
Bare ground	26.4	

Table 4 Individual species frequencies and densities on abandoned farms.

Individual Plant Species	Frequencies %	Densities %
Acacia ehrenbergiana	3.2	1.6
Acacia tortilis	5.0	3.2
Corchorus depressus	3.2	3.2
Cymbopogon parkeri	1.6	3.2
Lycium shawii	5.6	5.6
Phoenix dactylifera	1.6	1.6
Salsola baryosma	0.8	0.8
Schanginia aegyptiaca	0.8	0.8
Stipa Capensis	7.2	19.2
Ziziphus nummularia	6.4	2.4
Zygophyllum quatarense	12.0	26.4
Bare ground	52.6	

Table 5 Individual species frequencies and densities on uncultivated "natural" depressions.

Plant Species	Mean Frequency %
Acacia ehrenbergiana	3.2
Acacia tortilis	6
Aizoon canariense	0.4
Anagallis arvensis	2.4
Capparis spinosa	4.4
Corchorus depressus	3.2
Cymbopogon parkeri	5.2
Ephedra foliata	0.4
Francoeuria crispa	0.8
Heliotropium bacciferum subs. tuberculosm	0.4
Herniaria hemistemon	0.4
Lycium shawii	7.6
Ochradenus baccatus	0.8
Phoenix dactylifera	0.4
Salsola barysoma	0.4
Salvia aegyptiaca	4
Schanginia aegyptiaca	0.4
Stipa capensis	5.2
Ziziphus nummularia	6.4
Zygophyllum quatarense	6
Bare ground	41.2

Table 3 Individual species mean frequencies in percent total metres sampled.

Sample Number			PH	E.C	Organic Matter %
1	Sample	No 1	8.06	1.15	0.40
2	Sample	No 2	7.98	1.55	0.76
3	Sample	No 3	7.80	3.52	0.20
4	Sample	No 4	8.03	1.70	0.62
5	Sample	No 5	7.86	2.10	0.62
6	Sample	No 6	7.96	2.40	0.73
7	Sample	No 7	7.88	2.60	0.76
8	Sample	No 8	7.50	5.45	0.90
9	Sample	No 9	7.84	4.50	1.73
10	Sample	No 10	8.23	0.60	0.45
11	Sample	No 11	7.92	1.70	0.93
12	Sample	No 12	8.02	1.90	0.90

E C = Mhos/cm 25°C

Table 1 Analysis results of soil samples taken from abandoned farms showing PH, organic matter and soil salinity expressed as Electrical Conductivity (EC in Mhos/cm at 25°C)

Sample Number			PH	EC	Organic Matter %
1	Sample	No 1	7.14	0.50	0.74
2	Sample	No 2	8.32	1.10	0.31
3	Sample	No 3	8.03	0.70	0.94
4	Sample	No 4	7.84	1.80	0.79
5	Sample	No 5	7.02	2.10	0.45
6	Sample	No 6	8.02	1.14	0.67
7	Sample	No 7	7.81	1.40	0.40
8	Sample	No 8	7.71	1.70	0.42
9	Sample	No 9	7.95	1.90	0.98
10	Sample	No 10	8.02	1.55	0.90
11	Sample	No 11	8.08	1.15	0.64
12	Sample	No 12	7.19	1.70	0.64

E C = M hos/cm 25°C

Table 2 Analysis results of the soil samples taken from uncultivated "natural" depressions showing PH, organic matter and soil salinity expressed as Electrical Conductivity (EC in Mhos/cm at 25°C).

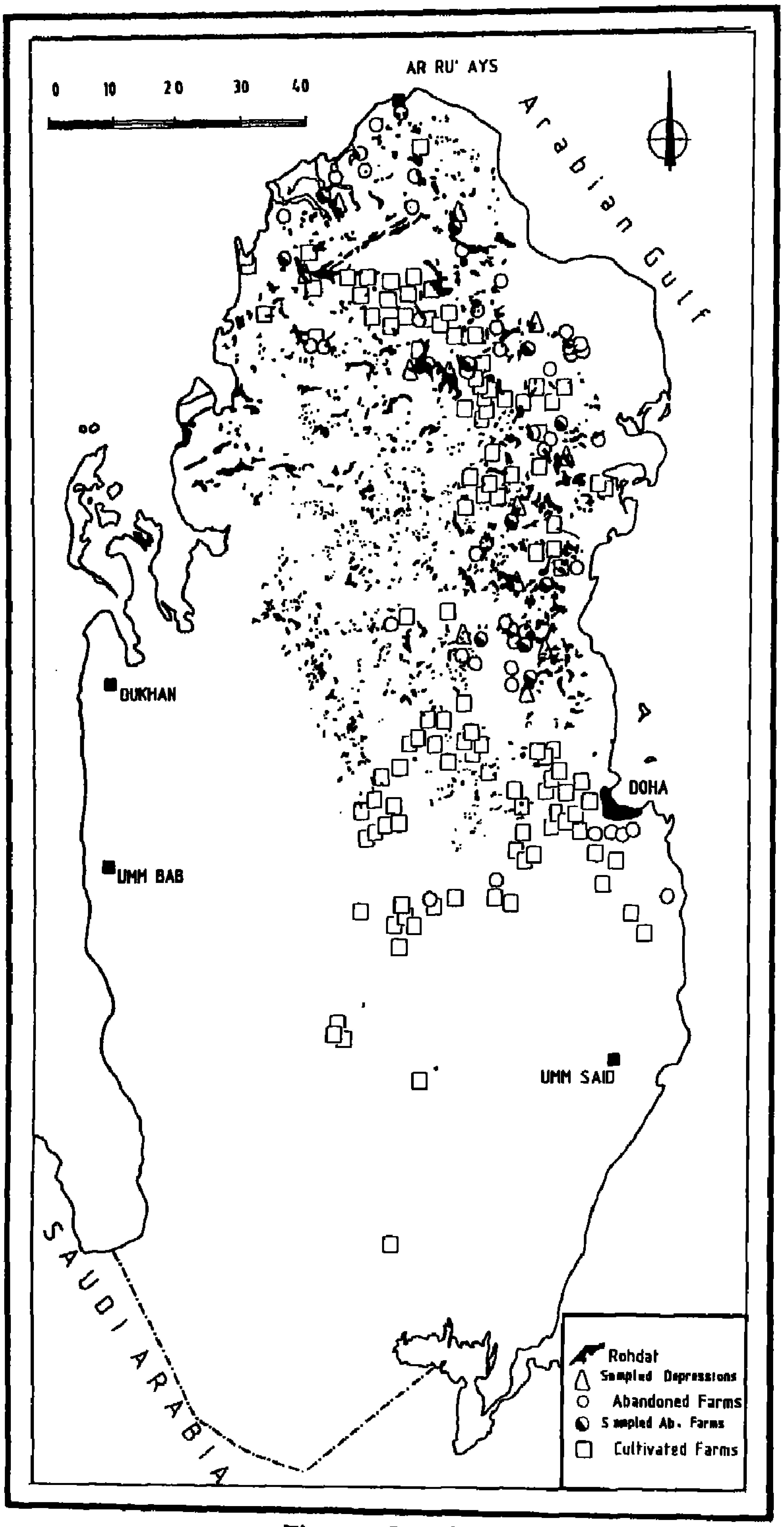


Figure Captions

Figure 1 A map showing the distribution of abandoned farms, uncultivated "natural" depressions and cultivated farms. Notice the location of samples.

REFERENCES

Batanouny K.H. (1981) **Ecology and Flora of Qatar.** Alden Press Ltd., Oxford 245 pp.

FAO (1981) **Qatar – The water Resources of Qatar and their Development :** Vol. I Technical Report No. 5, FAO–DOHA.

Halcrow–Balfour Ltd. (1981) **Master water Resources and Agricultural Development Plan.** Doha, Qatar.

Hashim, M. A. (1980) **Water Resources Utilization in Qatar–Problems and Solutions.** Unpublished Report–Ministry of Industry and Agriculture.

Kulcyzynski, S (1972) Zespollo roslin W Pieninach. Die Pflanzenassoxiationen der pieninen.
Polon. Acad. des Sci. et Letter, Cl. des Sci. Math. et Nat. Bull. Internatl. ser B (Suppl. II) : 25–203.

Lloyd, J. W., B.L. Eccleston and J. G. Pike (1981) **The Hydrochemistry of the Groundwaters of Qatar.** FAO Project Technical Note No. 14 (NS) Doha, Qatar.

Oosting, H.J. (1965) **The Study of Plant Communities – An Introduction to Plant Ecology.** W.H. Freeman Company. San Francisco.

Parker, D. H. and J.G. Pike (1976) **Groundwater Resources of Qatar and their Development** FAO Project Technical Note No. 34, Doha Qatar.

Pike, J.G. (1980) "Water Resources and Agriculture in Qatar". **Arabian Studies** Vol. V Centre for M.E. Studies, Cambridge University.

Prasher, C.R.K. (1977) **Water Management and Irrigation Methods in Qatar.** FAO Technical Note No. 43, Doha, Qatar.

UNDP/FAO (1977) **Water Resources and their Development.** Technical Report No. 1.

The remaining two shrubs which are not encountered in the long abandoned farms are **Capparis spinosa snd Salvia aegyptiaca.** There are two possible exlpanations for the absence of these two species from the long abandoned farms while they are usually common in uncultivated "natural" depressions. The first one is probably that they haven't got enough time to reestablish themselves in the long abandoned farms and the second explanation is that they might have simply missed the sample quadrates.

On the other hand, the four species which are only confined to the long abandoned farms and absent from uncultivated "natural" depressions are: **Phoenix dactylifera, Salsola baryosma, Schanginia aegyptiaca** and **Zygophyllum quatarense.** The date plams are the major and usually the only conspicuous remnants of the cultivation era. **Salsola baryosma and Schanginia aegyptiaca** are representative of the very early abandonment stages as they usually common on fallowlands and salinized cultivated lands (Batanouny 1981). Another possible explanation is that; these two species have low frequencies therefore they might not be true representatives of the vegetation and they might have just been picked up by the sampling methods. A third possible explanation is that; the vegetation on certain sectors of some of the long abandoned farms might possibly be stranded in the very early recovery stages due to high soil salinity resulting from minor topographical differences. This last explanation could also be used to explain the presence of **Zygophyllum quatarense** only in the very early stages of the secondary succession though it is the most frequently encountered species in all area sampled in the long abandoned farms. **Zygophyllum quatarense** dominates the early recovery stages because it is a common plant in slightly saline habitats (Batanouny 1981).

CONCLUSIONS:

The above discussion clearly demonstrates that whatever the original reason of farm abandonment might be, given enough time the vegetation cover ultimately recovers and becomes quite similar to that on the uncultivated "natural" depressions. The steady decrease in soil salinity in the long abandoned farms appears to be the prime factor enhancing change and development in vegetation cover. However, due to different reasons of the failure of agriculture and different histories of abandonment, each single long abandoned farm is unique in the sense that it is in one vegetation recovery stage or another or, as it is often the case, it desplays a mosaic of different successional stages.

associates are : (ordered according to their frequent presence) **Lycium shawii, Ziziphus nummularia, Acacia tortilis, Cymbopogon parkeri and Stipa capensis.**

However, the major differences in vegetation cover between the long abandoned farms and the uncultivated depressions are in species frequencies and densities and in the percent of vegetation cover (Tables 4 and 5). The general picture in the long abandoned farms is of widely scattered trees and bushlets. In other words, the vegetation cover on the abandoned farms is far less dense compared to that on the uncultivated "natural" depressions (Tables 4 and 5). The individual plant species are less frequent in the long abandoned farms, while the vegetation percent cover is far less (Tables 4 and 5). The percentage of bare ground calculated for all quadrates sampled in the long abandoned farms is 49.6 %, while it is only 28 % in the uncultivated "natural" depressions.

Moreover, nine out of the twenty species encountered in all quadrates are confined to the uncultivated "natural" depressions, while four other species are only found in the long abandoned farms.

Although the number of dissimilar species is high, it does not give any indication to major changes in the vegetation composition on the long abandoned farms. That is because four out of the nine species confined to the uncultivated "natural" depressions are not particularly among the important constituents although they are quite common in shallow depressions. These are the two shrubs **Francoeuria crispa and Heliotropium bacciferum** and the two herbs **Aizoon canariense and Herniavia hemistemon.** Another three of the nine species confined to the uncultivated depressions are more or less related if not dependent in their growth on either the microhabitat developed by members of the climatic climax community or are physically supported by these members. This close relationship between certain species probably explains why some of the common species are still absent from the long abandoned farms. For instance, the woody climber **Ephedra foliata** is often encountered in the uncultivated "natural" depressions ascending in **Ziziphus nummularia** bushes, while species like **Ochradenus baccatus** also grow protected by the dense growth of **Ziziphus nummularia. A third example is Anagallis arvensis** which usually grows in the shade of **Acacia** trees (Batanouny 1981).

The above mentioned major associates in the climatic climax community, of the uncultivated "natural" depressions i.e., **Acacia spp.** and **Ziziphus nummularia,** though are frequently encountered in the long abandoned farms, are still young shrubs and have not yet developed the right microhabitat for closely associated species.

In general, nine species out of the twenty encountered are only found in natural depressions, though some are in vey low densities (Table 4). These are six shrubs and undershrubs and three herbaceous plants. The shrubby plants are: **Capparis spinosa, Ephedra foliata, Francoeuria crispa, Heliotropium subsp. tuberculosum, Ochradenus baccatus and Salvia aegyptiaca.** The three herbs are: **Anagallis arvensis, Aizoon canariense and Herniaris hemistemon.** With the exception of the shrub **Francoeuria crispa,** which grows in fine textured soils wherever water accumulates and the herb **Herniaria hemistemon,** which is a widespread plant in Qatar on compact and gravelly soils, all other species are common on the alluvial soils in depressions in northern and central Qatar (Batanouny 1981).

Only four species are however found to be confined to the long abandoned farms. These are **Phoenix dactylifera Salsola baryosma, Schanginia aegyptiaca and Zygophyllum quatarense.**

The vegetation covers on both the long abandoned farms and the uncultivated "natural" depressions are found to be very similar, i.e., the community coefficient for all samples is 70. Community coefficients calculated for each pair of a long abandoned farm and an uncultivated "natural" depression are found to range between 22.2 and 84.6.

DISCUSSION:

As mentioned above the process of farm abandonment is directly related to the poor quality groundwater due to excessive abstraction and/or inefficient irrigation methods which degrade the soil through excessive salinization . It is also mentiond above that this study was confined to the farms which have long been abandoned.

The chemical analyses of the soil samples show that the salinity content have decreased steadily as salts are annually washed by rain water. In fact the chemical analyses of most samples taken from long abandoned farms, show that there is little or no difference between the soils in the long abandoned farms and those in the uncultivated "natural" depressions especially in their salt content (Tables 1 and 2).

Thus, as a direct result of this decreasing soil salinity the vegetation cover on the long abandoned farms is found to be fairly similar to that on the nearby natural depressions, the community coefficient being 70. Not only the vegetation cover is similar, but the frequently encountered species in both the abandoned farms and the uncultivated depressions are usually common associates. For instance, the five most frequent species which are also common

RESULTS:

Soil salinity, expressed as electric conductivity in Mhos/cm at 25°C has been determined for all samples. As a general guide soils with values ranging from zero to 4 are considered to be free from salts, those with values from 4–8 as having medium salinity, 8–12 high slainity and those with values over 12 are considered hazardous. These limits are based on the finidings of the Ministry of Industry and Agriculture soil scientists*.

Only two of the long abandoned farms soil samples show medium salinity values, while the rest of the soil samples in the whole study show little or no salinity (Tables 1 and 2). These soil analysis results clearly demonstrate the basic fact that salts have been washed or in th process of being washed away from the long abandoned farm soils.

As for the vegetation cover, the natural depressions hold 16 out of the 20 encountered species, while the long abandoned farms hold only 11 species. The most frequent species in all area sampled are in the following order: **Lycium shawii, Ziziphus nummularia, Acacia tortilis, Zygophyllum quatarense, Cymbopogon parkeri, Stipa capensis and Capparis spinosa** (Table 3).

The long abandoned farms share seven species with the unclutivated "natural" depressions of which five species are among those having the highest mean frequencies claculated for all quadrates. These species are: **Acacia ehrenbergiana, A. tortils, Corchorus depressus, Cymbopogon parkeri, Lycium shawii, Stipa capensis and Ziziphus nummularia.** With the exception of **Corchorus depressus,** which grows in all types of loamy compact soils, all other six species are dominant and co-dominant plants in uncultivated "natural" depressions in Qatar, particularly in the center and the north of the peninsula (Batanouny 1981). They are also frequently encountered in association with one another, e.g., **Ziziphus nummularia and Lycium shawii** (Table 4 and 5).

On the other hand, there are frequently encountered species in the uncultivated "natural" depressions and they are rare or absent in the long abandoned farms and vice versa. For instance, the aromatic perennial grass **Cymbopogon parkeri** is a frequent plant in uncultivated "natural" depressions while it is rarely encountered in the long abandoned farms. On the other hand the cultivated plant **Phoenix dactylifera** is only confined to the long abandoned farms.

---

* Personal conversation with the Ministry of Industry and Agriculture soil scientists.

METHODS:

In order to test the above hypothesis soil and vegetation samples were studied on both the long abandoned farms and uncultiveted "natural" depressions. Sampling was preceded by field reconnaissance and a literature review aimed at determining the major trends in soil and vegetational composition.

Basic information on the number and location of the long abandoned farms was obtained from the records of the Ministry of Industry and Agriculture of the State of Qatar. Here the long abandoned farms are those officially registered as abandoned for more than ten years. All information concerning the number and actual sites of the long abandoned farms has been double checked in the field. Eventually, the long abandoned farms were plotted on a map together with the currently cultivated and the uncultivated "natural" ones (Figure 1).

The above map (Figure 1) was used to select and locate samples. Samples were randomly selected using stratified techniques. Twenty five per cent of the long abandoned farms and an equal number of the uncultivated "natural" depressions were selected and studied. Both soil and vegetation on the long abandoned farms and the uncltivated depressions were sampled.

In each selected abandoned farm and uncultivated depression 5 x 5 m quadrates were located by random numbers and were used for soil and vegetation sampling. The number of quadrates was allocated in proportion to the farms or depression's area.

Samples of the top 25 cm were taken for chemical analysis. Within the quadrate the vegetation cover is described and plants present were counted and recorded by species. Nomenclature of species follow that of Batanouny (1981). The total data set for the vegetation analysis consisted of 48 quadrates. Included were 20 species of vascular plants (Appendix 1). Data were talublated as frequency and density for each species in both abandoned farms and uncultivated "natural" depressions. The degree of species similarity was estimated by Kulczynki's (1937) formula for community coefficient given by Oosting (1956).

look into Parker and Pike 1976, Parsher 1977, Hashim 1980, Pike 1980, Lloyd, Eccleston and Pike 1981, Halcrow–Balford 1981 and FAO 1981. These high quality professional reports and papers make impressive diagnosis to the farm abandonment problem. To start with these depression soils have poor water–holding capacity together with low organic content. Therefore, under cultivation these poor properties give rise to serious management problems. Surface crusting soon becomes a problem and interfers with the emergence of seedlings and creates unfavourable relationships. This situation is usually aggravated by the poor quality irrigation water due to excessive abstraction and the poor soil and water management. As the total dissolved solids in the irrigation water range from 1000 to 2000 mg/1 with a high salinity hazard and low to medium (alkali) hazard, there is usually a rapid build up of salts in the surface layers leading to reduced yields and eventual abandonment.

THE STUDY:

This study was stimulated by the recent study made by professor Batanouny (1981). In his study, Batanouny concludes that abandoned farms support plants different from the originally present before agriculture was practiced (Batanouny 1981). He (Batanouny 1981) further concludes that the change in vegetation depends on the reason of the failure of agriculture, e.g., due to salinization, lack of water or formation of hard pans.

In this study, however, the above conclusions are further extended. The vegetation communities on the long abandoned farms are thought to represent different stages of recovery. In other words the vegetation communities in the long abandoned farms represent different stages in the secondary succession.

The above additional ideas were built up during the several field visits undertaken by the author to some of the long abandoned farms in the years 1981 and 1982. During these field trips, it was noticed that the vegetation communities in the long abandoned farms share many species with the communities of the uncultivated "natural" depressions. Not only that, but the species associations are more or less the same.

Thus, the following hypothesis is formulated: Following total farm abandonment, salts are steadily washed away by rain water from the top soil and simultaneously the vegetation cover starts a gradual recovery process back to the original climatic climax. The present vegetation cover represent different stages in a secondary succession.

INTRODUCTION:

Most farms in Qatar are confined to surface depressions known as "Rohdat" or "Riyad". It is estimated that, out of the eight hundred and fifty (850) surface depressions, there were five hundred and seventy three (573) registered farms mostly in the north and north east of Qatar (FAO, 1981). It is agreed by several investigators (UNDP/FAO 1977, FAO 1981) that the origin of these depressions is due to subsurface solution of evaporites and subsequent collapse. Depressions receive runoff water in addition to water-borne and/or wind blown materials, thus giving rise to deep, fine-textured deposits. These are colluvial soils made up of calcareous loam, sandy loam and sandy clay loams which have accumulated to depths ranging from 30-150 cm. overlying limestone debris and bedrock (FAO, 1981).

In their natural conditions, depressions harbour denser vegetation compared to the surrounding areas. In his recent study, Batanouny (1981) found out that vegetation cover varies among the different depressions due to differences in soil characteristics. Usually in deeper depressions with water-borne, fine-textured deposits **Ziziphus nummularia** is dominant. In depressions with shallow surface deposits, **Z. nummularia** disappears and is replaced by **Acacia tortilis.** Where the sediments are fine-textured, compact an mainly water transported, **Acacia ehrenbergiana** dominates. Both **Acacia** species, however, often occur together in the same depression. The spiny shrub **Lycium shawii** occurs in nearly all depressions, while **Cymbopogon parkeri** is the dominanat perennial grass (Batanouny 1981).

These vegetation communities have been disturbed in as much as 70% of the country's depressions. Pre-cultivation indiscriminate cutting is usually practised. Few individual plants of certain species are, however, saved from cutting either for their shade or fruits. These are usually larger plants of **Acacia spp. and Ziziphus nummularia.**

However, due to unfavourable soil-water-plant relationships a large number of these farms are ultimately abandoned. The FAO experts consider only 228 out of the 573 registered farms as productive (FAO 1981). Moreover, they estimated that 5% of the arable land is going out of production each year as a result of soil salinization (FAO 1981).

This process of farm abandonment is a driect result of poor quality, saline or brakish water resulting from excessive pumping coupled with poor soil and water management. In recent years a substantial amount of research has been done in groundwater quality, irrigation problems and other problems related to agriculture particularly the problem of farm abandonment. Readers are directed to

Vegetation Changes in the Long Abandoned Farms In Qatar

By

Dr. Ahmed Abdalla Ahmed

Department of Geography

ABSTRACT:

An attempt was made in this study to investigate the changes that occur in vegetation cover in the totally abandoned farms in Qatar. An effort was also made to compare the vegetation communities found in the abandoned farms with those in the uncultivated "natural" depressions. The following hypothesis was formulated : In the long abandoned farms vegetation is gradually recovering to the original pre-cultivation communities due to the steady decrease in soil salinity. To test the above hypothesis soils and vegetation of both the uncultivated "natural" depressions and the long abandoned farms were sampled and analysed. Soil samples were taken for chemical analysis and their salinity content was determined. Empirical sampling methods of the vegetation were applied. Species frequency and density were calculated, while the degree of species similarity was estimated by Kulezynski's (1937) formula for comminity coefficient given by Oosting (1956). It was found out that following total farm abandonment, the vegetation communities start to recover in a rather slow process. This recovery procsess is caused and at the same time paralleled by a steady decrease in soil sllinity, as salts are washed away by rain water. Different vegetation communities as well as different species within the communities were found to be in different stages of recovery, i.e., secondary succession. Only few species from the origianal vegetation were encountered in some abandoned farms, while in the other end of the spectrum some totally abandoned farms have almost attained full recovery.

when Malvolio himself learns from Olivia, Fabian and more harshly from the Clown that he has been "gulled" that his disintegration takes place. This occurs very rapidly so that the high and mighty is soon transformed into the abject. Malvolio is a shallow creature of props, precise speech, affected phrases and sober attire – all of which are eliminated at the end when, absurdly garbed, he can do no more than utter an impotent threat and take himself off from public gaze.

20. He is of the same stuff as Lear's Fool who sings a snatch of his cryptic final song (**King Lear,** III,iii,74)
21. The Clown's name is given only once in the play (II,iv,II), spoken by Curio, though the single reference has stuck and provides him with a more distinct personality.
22. How seriously the audience regards his threat may be largely a matter of the individual actor's interpretation. The part can so easily be played mainly "for laughs" and the mock–tragic effect thereby reduced or a note of real poignancy may be injected into Malvolio's final moments on the stage.
23. The essence of clowning is often thought of as teetering on the very edge of disaster rather than collapsing into ruins because of incompetence. But this Clown is not funny – his use of language is rapier–like, and suggests one facet of Hamlet.

12. cf. **OED**, IV,61,8B gives love, or amorous inclinations. The word was first used as a synonym for "imagination" and developed an independent meaning in the 18th century though a clear distinction was not drawn before Coleridge explained it in **Biographia Literaria** (1817)

13. M.C. Bradbrook points out that because she and her twin Sebastian are not of the same sex this has a different effect on the audience from that caused by the two sets of male twins in **The Comedy of Errors.** Note that Orsino continues to call her Cesario right to the end of the play (V,i,384). She has tried to copy and replace her lost brother. Like Rosalind in **As You Like It** she contrives in fantasy to woo Orsino but her adopted **persona**, Cesario, is real, unlike Rosalind's Ganymede who has no actual existence. Shakespeare was to repeat the double disguise device in **Cymbeline.** Cf. Bradbrook, **Shakespeare, the Poet in His World** (London 1978), 145–7.

14. "pity" is here used in the courtly sense of a mistress's mercy on her abject suitor, enslaved by his emotions and bound to obey her.

15. "time–pleaser" denotes Malvolio's obsession with his future status. He is never content with the present time so that "present laughter" is denied him.

16. The "cakes and ale" imagery suggests the holiday mood of which the Clown is an essential part and to which Malvolio is hostile (cf. Patrick Swinden, **An Introduction to Shakespeare's Comedies** (London 1973)). 132–4.

17. cf. n.16

18. One source of the comic in this play lies in the character of Malvolio, who illustrates the tendency of inflexibility collapsed to evoke laughter, as Bergson postulated in his **Essay on Laughter**. cf. Hobbes' theory that laughter is the result of a "sudden glory", related to a feeling of superiority, a notion which also became the basis of Hegel's speculations on the nature of the comic.

19. The more dignified Malvolio is made when he first enters at I, v,304, to which the impression of him as unpleasant to the disguised Viola when he "returns" Olivia's ring in II,ii is soon added, the more the audience is prepared for the eventual fall of this conceited underling, in V,i. His other appearances – when he berates Sir Toby and the others for making a nocturnal disturbance, his private remarks overheard **en cachette** in II,v, both before and after he has found the letter, – the absurd spectacle of him in yellow stockings, cross–gartered, smiling at his mistress, and his incarceration in prison – show him with his own dignity intact. The audience may share the amusement of the others all this time but it is only

NOTES

* All quotations and textual references to **Twelfth Night** relate to the Arden edition, ed.J.M. Lothian and T.W. Craik (2nd edn revised, London 1977).

1. cf. Geoffrey Bullough, ed., **Narrative and Dramatic Sources of Shakespeare** (London 1957–75 8 vols), II, 269 and see Arden edn., introd. xxvi **et seq.**
2. Printed 1607 but probably written at least five years earlier and thus not much later than **Twelfth Night.** See Arden edn., introd. xxxiii–v.
3. He wrote "Malvolio" on his copy of **Twelfth Night**
4. Or nearly always .. his comedies record a progress towards maturity, of which harmonious sexual relationship within marriage is considered a natural and desirable end – the antithesis of the "courtly love" ideal, which implied adultery.
5. No external evidence exists as to the date of its first composition and it is argued by musicologists and others that Shakespeare continued to revise the text until 1606. **Hamlet** was recorded by the Stationers on 26 July, 1602 but this was probably not the first version. The First Quarto represents the final version, dated 1603–4. (Summed up in Hardin Craig, **Shakespeare** (Glenview, Illinois 1958)707–8).
6. cf. **OED** (Revised edn. 1970), **strains** (X,1064 III,11/12); **fall** (IV, 36/10).
7. In line 9 the pulse of the verse quickens as blank verse takes over from the elegant conventional imagery which merely describes his feelings. He embodies tham in the metaphor of the sea to which he likens the spirit of love. (9–14) Compare Berowne's attitude to love in **Love's Labour's Lost.**
   It is for him a revitalising force, not an enervating one.
8. The fact that Viola's part was taken by a boy with voice unbroken must have strengthened the irony for the first audiences.
9. In the original version of the play, Viola sang **Come Away Death,** given to the Clown in a later revision : cf. F.W. Sternfeld, Shakespeare's **Use of Music** (London 1963 : 2nd impression revised 1967), 172–3.
10. **Cypress** – lawn, a fine linen or cotton fabric. Cypress branches were a symbol of mourning, so that the allusion here is doubled also.
11. Frederick Turner, **Shakespeare and the Nature of Time** (Oxford 1971), chapters 4 & 5 examines the implications of time in **Twelfth Night** and **Hamlet**.

sympathetic. The Duke's order to Fabian which follows is perfunctory. Malvolio at the last does not count for very much in the lady's court.[22]

Hamlet as a "revenger" is no last-minute threatener – although he may take his time to reach his objective, it is as the instrument of retribution that he is presented in the first Act.

> Haste me to know't, that I with wings
> as swift
> As meditation or the thoughts of love
> May sweep to my revenge
>
> **(ibid.,29–31)**

However, the Prince's opposite number in **Twelfth Night** is not so much Malvolio as the Clown, Feste, whose conduct and conclusion of his vendetta are resolute and for his victim, serious. Hamlet himself plays the clown when it suits him, and his fool's wit is a match for Polonius, Rosencrantz and Guildenstern and a puzzle to Claudius. Malvolio despises Feste and ridicules him together with his profession; in the end, the tables are completely turned and it is Malvolio who bears the ridicule, though Feste's triumph is sinister when it is finally revealed, .. clown or no clown, he is not a fellow to be insulted with impunity[23]. He is not present when Maria hatches her plot, so cannot be directly associated with the composition of the letter sent to Malvolio, though he is familiar with its content. However, he readily obeys her instruction to disguise himself in order to deceive the steward in prison. There he introduces himself as "Sir Topas the curate, who comes to visit Malvolio the lunatic" (IV,ii,22), calls the latter "madman" and pretends to humour him.

But **Twelfth Night** is essentially a romantic love–story and it is a problem of dramatic presentation as to how much buffoonery is to be given prominence. Malvolio's fall is mostly comic, since he is an insignificant personage in the first instance and only the Clown is more important in terms of critical interpretation. He stands as a witness to and commentator on the coming change, the inevitable concomitant of youth's fading, the thrusting–on of man's responsibilities and the weakening of romantic illusion, a recurrent process in the cycle which has been going on since the beginning of time.

and lands in prison as the result of a trick, Hamlet may be, at least part of the time, as he himself observes :

> I am but mad north–north–west; when the wind is
> southerly I know a hawk from a handsaw
>
> (II,ii,383–4)

and, equally detached, before the duel he makes formal apology to Laertes :

> That might your nature, honour and exception
> Roughly awake, I here proclaim was madness
>
> (V,ii,229–30)

from which it is possible to conclude that his "madness" was under the domination of reason except for brief moments of passion and was originally conceived as a device to help him gain his own ends. Malvolio cannot understand the reasons for his own predicament, and keeps asserting his sanity to the Clown, Feste,[21] who keeps baiting him :

> **Clown.** But tell me true, are you
> not mad indeed ? Or do you but counterfeit ?
> **Mal.** Believe me, I am not, I tell thee true.
>
> (IV,ii,117–9)

To suggest that Malvolio, puffed up with pride, can be "counterfeiting" is a mockery born of a deep dislike, amounting almost to hate, for that is what the Clown really feels for the man who described him to Olivia as "a barren rascal". The Clown is motivated by revenge and is eventually seen to get it, when he reiterates those same words as he reveals his part in the plot to the humiliated steward :

> I was one, sir, in this interlude, one Sir Topas,
> sir, but that's all one. 'By the Lord, fool, I am not
> mad.' But do you remember, 'Madam, why laugh you at
> such a barren rascal, and you smile not, he's gagged' ?
> And thus the whirligig of time brings in his revenges,
>
> (V,i,37–6)

Malvolio's parting shot only serves to emphasise his impotence. It pulls him into the dramatic tradition of the revenger, but what form could this revenge take ? His record in the play does not suggest great skill at anything other than verbal exchanges and there he is outclassed by the Clown, Maria and even by Sir Toby. His threat, like himself stripped of his customary pomposity, is an empty one and Olivia's "He hath been most notoriously abus'd (378) is not entirely

this case he is talking about Ophelia whereas Viola is thinking of Olivia whose love longings have to be regarded ironically by the audience, since they are based on a mistake.

The Duke's

> If ever thou shalt love,
> In the sweet pangs of it remember me :
>
> (II,iv,15–6)

is echoed by the Ghost of Hamlet's father on the battlements of Elsinore :

> If thou didst ever thy dear father love ..
> Revenge his foul and unnatural murder
>
> **(Hamlet,** I,v,23–5)

and the final "Adieu, adieu, adieu, remember me" before he vanishes.
Sebastian's soliloquy at the start of IV,iii on the question of whether he is mad or not recalls his earlier question :

> Or I am mad, or else this is a dream
>
> **(Twelfth Night,** IV,i,60)

and in this same scene Malvolio is imprisoned because he is thought to be mad. This theme of comic madness, induced by unaccountable happenings or errors in judgment is darkened in **Hamlet,** in which the question of whether the hero is actually mad or only "mad in craft" becomes central.

Again, the comic duel in III,iv of **Twelfth Night,** a parody on the battle between sexes, becomes a batle to the death in the final scene of **Hamlet.** In both comic and serious conflicts the action is controlled by irony–in the first the irony lies in the fact that Sir Andrew thinks he is fighting with a man, said by Sir Toby to be" a very devil", whereas his rival is really a girl, Viola. She, on her part, believes Sir Andrew to be, in Fabian's words, "the most skilful, bloody and fatal opposite that you could possible have found in any part of Illyria" **(sc.cit,** 27–3). In **Hamlet** the irony is tragic, since the duel seems to be sport to Hamlet, whereas for his adversary Laertes it is a killing–match.

But the most frequently–cited resemblance is that of Malvolio to Hamlet, though Malvolio is not a leader in the action of **Twelfth Night** and initiates nothing, being under orders all the time. Hamlet resists control and debates with himself as to the source of mastery of his own fate. So what is it that brings these two dissimilar characters together ? What springs to mind most immediately is this imputed madness but whereas Malvolio is definitely not mad

nature, based on observation and experience, make him the most dangerous of the conspirators. As Viola says of him :

> This fellow is wise enough to play the fool,
> And to do that well, craves a kind of wit :
> He must observe their mood on whom he jests,
> The quality of persons and the time,
> And like the haggard, check at every feather
> That comes before his eye. This is a practice
> As full of labour as a wise man's art :
>
> (III,i,61–7)

In the end it is Malvolio who becomes the fool – the Clown regards him as "mad", has him shut away in the dark, like a devil from Hell in the old miracle plays. The Clown has the last laugh and, like Malvolio, he ends with nothing – the other principals all get a prize of some sort but for these two only isolation remains. At the conclusion of Act V, all leave the stage except the Clown, who ends the drama with a song on the ages of Man, grounded in a metaphor of falling rain, another of those water images which recur throughout, though most of these have to do with the sea, with salt water, suggesting salt tears, the romantic joy in grief which shields the individual from a realisation of life's brevity. The Clown's final song states it plainly and tries to indicate that some purposeful pattern must surely underlie human action, though it is not given to us to know its true nature.

Reference has been made to affinities between **Twelfth Night** and **Hamlet**. These are numerous, not only in the atmosphere of melancholy with which both romantic plots are tinged but also in more precisely defined similarities of incident and expression. For example, Sir Andrew Aguecheek asks, in response to Sir Toby's "**Pourquoi**, my dear knight ?"

> What is **pourquoi** ? Do, or not do ? I would have
> bestowed that time in the tongues that I have
> in fencing, dancing and bear–baiting, O, had I
> but followed the arts;
>
> (I,iii,90–3)

a comic parallel with Hamlet's "To be, or not to be" soliloquy and his obsessive intellectualism. Again, there is Viola's comment, cited previously, on the liability of her sex to be deceived by handsome and deceitful men which, as we have remarked, suggests Hamlet's "Frailty, thy name is woman"complaint, though in

Malvolio feels justified in seeking revenge – as a comic figure he is right on the edge of tragedy and, many critics perceive something of him in Hamlet – the intellectualism, the posturing and the inability to communicate. But Malvolio, unlike Hamlet, thinks that he understands his fellows. Ironically, of the two women he thinks love him one, Maria, despises him while the other, Olivia, regards him as a gentleman in her service. He is loved by neither, nor by Sir Toby and his group – in fact, they each hate him. Only the Clown gives a specific reason for his part in the humiliation of Malvolio – the others reject the man not because he does not regard them as congenial but because he goes so far as to say so and to set himself above them :

> You are idle, shallow things, I am not of your element
>
> (III,iv,124–5)

is his self–delusion for he is seen to be brought down to earth even more violently than his incarceration in prison can do. At this stage in the action, he does not realise the exact nature of the conspiracy against him and can still maintain his poise, even in the "dark room and bound" as Sir Toby directs.

Although Malvolio is a minor character in **Twelfth Night** in terms of the play's dramatic pattern, it is impossible to conceive of it without him and he represents rather more than his absurdities suggest for it is through him and the Clown that the comedy is made to reveal its darker side[18]. Malvolio is robbed of the one thing he values most, his own dignity. Self–love is his undoing and opens him to the schemes of Maria and the vengeance of Sir Toby so that he is stripped bare, and turned into a human soul disrobed. His parting shot suggests the quarry at bay, the image is of the hounds who have been eluded and cheated of their prey, the outsider without supporters. "I'll be reveng'd" makes a stronger impression on the audience than the Duke's gesture of amends to which Fabian's earlier confession looks forward :

> How with a sportful malice it was follow'd
> May rather pluck on laughter than revenge,
> If that the injuries be justly weigh'd
> That have on both sides pass'd
>
> (V,i,3647)

It is Fabian whom the Duke sends after Malvolio – the other authors of the plot are then conspicuously absent and one does not feel that they would care one way or the other about the steward's hurt feelings[19].

The Clown expresses melancholy in song and takes part in the practical joke[20]. His grudge against Malvolio and his shrewd understanding of human

reinforcing Sir Toby's irritated query earlier in the same scene, when he demands of Malvolio :

> Art any more than a steward ? Dost thou think
> because thou art virtuous, there shall be no
> more cakes and ale ?
>
> (sc.cit.113–5)[16]

This is one of the best–known quotations from the play and it states the fundamental opposition between warmth and coldness; the bibulous Sir Toby and his scatter–brained companion Sir Andrew are contrasted with the humourless, ambitious Malvolio, a symbol of restriction and frowning superiority. How far Shakespeare intended to create sympathy for Malvolio is not to be known, but a modern audience probably feels more than did the Elizabethan, for whom his tight–laced integrity held fewer attractions. His personal habits are irritating and his social attitudes condescending–he describes Sir Toby's group as "the lighter people" (V,i,338).

Olivia shows some slight sympathy for him :

> Alas, poor fool, how have they baffled thee : (368)

is not so harsh, since "fool" is here a compassionate expression, meaning "fellow" though it also carries the connotation of "dupe" or "mark", and it has to be remembered that it was Olivia who first criticised Malvolio, when he attacked the Clown in her presence :

> O, you are sick of self–love, Malvolio, and taste with
> a distempered appetite (I,v,89–90)

and who goes on to defend the professional fool or jester, a class of which Malvolio disapproves[17]. Of easy–going tradition he is contemptuous. His dislike of music and song, his mincing speech and prim mannerisms are all sources of offence to his enemies. Maria's joke goes to the heart of this inward–looking arrogance, the self–love which bars him from self–criticism. He is shamed, called mad, put in prison, learns how he has been tricked but gains nothing from the experience. His exit line in V,i,377 :

> I'll be reveng'd on the whole pack of you :

and Olivia's comment

> He hath been most notoriously abus'd

gives the Duke cause to make amends – "Pursue him, and entreat him to a peace" is his command to Fabian but the audience is left with the uneasy situation as it stands.

of events. She has found a husband even though he is not the one she thought she wanted. Her retreat from the world is ended and she returns to as much reality as is possible for her: she had asked Sebastian "Would'st thou be rul'd by me :" (IV,i,63) and, he agrees, though the irony of this is not to be realised until the subterfuges have all been abandoned and Sebastian becomes Olivia's husband and though even at this late stage in the action the confusion of identities is kept up for the benefit of the audience.

Maria, Olivia's waiting–gentlewoman, is the spring of the sub–plot, the comic action involving Malvolio with her mistress. She is portrayed as a jester, intelligent, quick–witted and a match for the Clown, with whom she holds her own in I, v and for Sir Toby and Sir Andrew, whom she leads in the Malvolio plot. She sums up Malvolio's character accurately and designs and executes a practical joke of the most suitable kind, guaranteed to bring about precisely the result which follows. In III,iii she describes his absurd behaviour gleefully :

> He does obey every point of the letter
> that I dropped to betray him : he does
> smile his face into more lines than is
> in the new map with the augmentation of the
> Indies : (74–7)

and Sir Toby, impressed by her skill as a "gull–catcher" (she even imitates Olivia's handwriting convincingly) considers her a good marriage–prospect and indeed he does marry her for that reason (V,i,361–3). Her last ploy is to disguise the Clown as Sir Topas the curate, who visits Malvolio in prison. Her motive is the traditional one of revenge on "Puritans," of whom she regards Malvolio as a prime example, though her chief dislike is centred on his being

> a time–pleaser[15], an effectioned ass that
> cons state without book, and utters it by
> great swarths; the best persuaded of himself,
> so crammed (as he thinks) with excellencies,
> that it is his grounds of faith that all that
> look on him love him : and on that vice in him
> will my revenge find notable cause to work
>
> (II,iii,147–53)

> She loves me, sure; the cunning of her passion
> Invites me in this churlish messenger.
>
> (II,ii,21–2)

and later goes off into a soliloquy on the "frailty, thy name is woman" theme prominent in **Hamlet**, but expressed from a feminine point of view :

> Also, our frailty is the cause, not we,
> For such as we are made of, such we be
>
> (**ibid.**, 30–31)

though the irony of her disguised condition overwhelms her :

> O time, thou must untangle this, not I,
> It is too hard a knot for me t'untie
>
> (**ibid.**39–40)

However, one does not feel that she will be defeated by this awkward situation. She is one of Shakespeare's most competent heroines, more feminine than Portia perhaps, but just as well fitted to play the male role for her own advantage. Just as she tells Olivia the truth about herself, so does she try out her logic on the Duke. He calls woman's love "appetite" and Cesario–Viola replies ambiguously :

> In faith, they are as true of heart as we.
> My father had a daughter loved a man,
> As it might be perhaps, were I a woman,
> I should your lordship
>
> (**ibid.**,iv,107–110)

but he is unable to grasp what she is really saying, though she goes on to elaborate and gives him every chance of interpretation.

Olivia is no more capable than he of penetrating Viola's mystery. "I am not what I am", (III,i,143) and the ensuing conversation leaves the countess none the wiser ... the audience is in the secret and can smile at both her and the Duke who are blinded by their passion. Cesario–Viola purveys words adroitly and misleads as she sees fit. In the final Act of the play, the Duke admits that she told him the truth about herself :

> Boy, thou hast said to me a thousand times
> Thou never should'st love woman like to me
>
> (V,i,265–6)

but Olivia is given no concluding observations of this kind. Her attentions are fully occupied with Malvolio and she is happy to accept the unexpected outcome

Olivia's bout of self–indulgence is another form of false love, but, like Orsino, she cannot see her own errors. She has taken the veil, and vowed to sequester herself for seven years to preserve the love which her dead brother bore towards her ... "a debt of love" ... as the Duke calls it, which

> Hath killed the flock of all affections else
> That live in her; when liver, brain and heart,
> These sovereign thrones, are all supplied, and fill'd
> Her sweet perfections with one self king.
>
> (**ibid.**, 36–9)

He lives in fond hope of being this same "king" and his "love–thoughts" are intensified by erotic imaginings, which the final lines clearly imply.

Viola is the most complex character. When she becomes Cesario, she is not what she seems[13]. Her pursuit of Orsino is calculated and she is prepared to await results :

> ... for I can sing,
> And speak to him in many sorts of music,
> That will allow me very worth his service,
> What else may hap, to time I will commit;
> Only shape thou my silence to my wit
>
> (**ibid.**,iii,57–61)

she tells the Captain who agrees to aid her deception. Viola's complexity is not confined to her transvestitism. She keeps her own counsel and is obviously efficient since we soon learn that she has been in the Duke's service for only three days and is already much favoured. She asks Valentine if their master is inconstant in his favours and his remarks on entry (**ibid.**iv,11–14) inform the audience that he has already told his new page all about his love for Olivia. But in line 42 of the same scene, we are told that her aim is to marry him. She is hunting Orsino as persistently as he hunts Olivia, but with much greater skill.

She starts by meeting Olivia, ostensibly to carry out the Duke's instructions and act as a surrogate lover. Her persistence is shown by her refusal to be put off by Malvolio. Her dialogue with Olivia is a masterpiece of equivocation – she tells the truth in such a way as to be consistently misunderstood. "I am not that I play" she explains (**ibid**,v,185) and when Olivia replies to her "But you should pity me" (280) with "You might do much" the audience realises that she (**i.e.** Olivia) has rejected Orsino and wants Cesario–Viola[14]. Her pretence that the latter has left a ring behind, which concludes Act I, makes her emotional state even clearer. Viola instantly understands the import of the ring

might be everything, and their intent everywhere,
for that's it that always makes a good voyage of
nothing. (II,iv,73–79)

In the scene preceding the Clown had explored the character of love in a song.

What is love ? "Tis not hereafter,
Present mirth hath present laughter :
What's to come is still unsure
In delay there lies no plenty,
Then come kiss me, sweet and twenty :
Youth's a stuff will not endure

(II,iii,48–53)[11]

He alone sees that time is of the essence ... "in delay there lies no plenty" ... so, "gather ye rosebuds" is his mildly ironic advice, born of the Fool's wisdom. He recommends action, not thought. Hamlet was to be trapped in procrastination, inhibited from acting by too much pondering on the nature of things but Feste's audience, the truly foolish Sir Toby and Sir Andrew, for whom life is purely material and sensual, do not allow reason to trouble them.

The protagonists in **Twelfth Night** are all on the threshold, or approaching it – reluctant to perceive reality, they hold back, preferring to take refuge in a world of fancy. One of the meanings of the word **fancy**, now obsolete, was "love" and it is in this interpretation that Orsino uses it both in his opening speech :

So full of shapes is fancy
That it alone is high fantastical

(I,i,14–15)[12]

and in his closing one, addressing Cesario–Viola and calling her "Orsino's mistress, and his fancy's queen" (V,i,387). Under the domination of fancy, he is in love with the idea of being in love, rather than with a real woman. Olivia sets off his hopeless passion at first sight :

O, when mine eyes did see Olivia first,
Me thought she purg'd the air of pestilence;
That instant was I turn'd into a hart,
And my desires, like fell and cruel hounds,
E'er since pursue me

(**ibid**., 19–23)

he tells Curio when the latter asks him if he will go hunt the hart – a common poetical symbol of hopeless passion, depending on an obvious play on words, and originating in a story from Ovid.

The trio, love, food and music are brought together in Act I, scenes i–iii, through the actions of Orsino (whose name means "bear", a ravenous, clumsy beast). His music is a static well of emotion and when Curio asks him if he wants to hunt the hart, a symbol both of light–footedness and hopeless passion, he envisions his own transformation into a hart though it is soon evident taht this is mere license. Orsino must have been a recognisable type on the Elizabethan stage, a "drop–out" unfitted for conventional activity because of an over–elaborate humanistic education. Holofernes in **Love's Labour's Lost** is his prototype and this satirical tilt at impractical intellectualism comes out again and again in Shakespeare, in the sololoquys of Hamlet, for example. In **Twelfth Night** it is most directly shown up through Malvolio, whose cold logic does not save him from disaster.

Viola, a name suggesting a musical instrument, a viol or lute, which may be bowed or plucked, also confirms the atmosphere of the prologue to this comedy ... her music is in contrast to Orsino's ... it is not static but active. Her simile comparing her missing brother Sebastian to "Arion on the dolphin's back" (I,ii,15) is one subtle reminder and in scene iv Orsino describes her voice as" thy small pipe ... shrill and sound" (32–3)[8]. The action becomes much more lively after her entrance in scene ii. Orsino's inward–looking mood is left behind and her dialogue with the sea–captain promises action. It is to be noted how much conversation moves the plot in this play, especially in the first two acts, when the relationships between characters are being established ... in I, v and II, iv, for example. In I, v we meet Malvolio for the first time ... his insulting talk to the Clown, to whom he refers as "a barren rascal" (82) gives the former a clear motive to revenge. II, iv revives the atmosphere with which the play opens, with the Duke calling for music .. "that old and antic song we heard last night" (3). The Clown is not there to perform and so the Duke and Viola discuss love against a musical accompaniment, the tune without the words. Later, the Clown is brought in to sing it :[9]

> Come away, come away death,
> And in sad cypress let me be laid

a dual reminder that life is fleeting and that the Duke's dying of love is an ironic human condition[10]. Orsino fails to understand this and the irony in the Clown's brief speech which follows :

> Now the melancholy god protect thee, and the
> tailor make thy doublet of changeable taffeta, for
> thy mind is a very opal. I would have men of
> such constancy put to sea, that their business

More than cool reason ever comprehends.
The lunatic, the lover and the poet,
Are of imagination all compact. (**op. cit.**,V, i, 4–8)

is a comment on the difficulties which lovers cannot help making for themselves, for they are dominated by fancy and share the "seething brains" of madmen.

Written shortly before **Hamlet**[5], **Twelfth Night** represents a change from the innocuous world of Bottom's dream or the escapism of the Forest of Arden. The melancholy of Hamlet is beginning to make itself felt in **Twelfth Night**, although Orsino's affliction is not fatal. "Twelfth Night" is the last night of the Feast of the Epiphany, when the revels and over-indulgences are ended and people are brought back to clarity of vision, to face the vicissitudes of a new year. Perhaps this was why Shakespeare settled on the title on the ground that it was as good as any other. The play could be made "what you will" or what you want, with all its possible accompanying surprises. One can never tell how one's desires may be realised. He was dramatising a timeless period, a stage in life recognisable only in retrospect and never to be recaptured.

The action of this play begins, flourishes and ends in music. Orsino, Duke of Illyria (a name suggestive of delirium and the rapturous condition of ecstasy felt by passionate lovers), is a self-concerned melancholic who is first discovered solacing himself with music. One can hear the "strains" (melodies) and "falls" (embellishments)[6] of the viols and virginals of the Elizabethan court consort as he speaks the well-known opening lines :

If music be the food of love, play on,
Give me excess of it, that, surfeiting,
The appetite may sicken, and so die.
That strain again, it had a dying fall :
O, it came o'er my ear like the sweet sound
That breathes upon a bank of violets,
Stealing and giving odour

(I,i,1–7)

but, before his encouraging observation is complete, he is already noting the drooping of his spirits :

'Tis not so sweet now as it was before

he sighs, denoting the abrupt collapse of his ecstasy into a typically romantic depression, produced by excess of emotion. Love at its most passionate is fleeting, quickly touched by reality and sustained by fancy for a short time only[7].

"There's something in't that is deceivable" : "Present mirth" and "what's to come" In *Twelfth Night*

by

A.M. Kinghorn

The title of Shakespeare's most mature comedy, **Twelfth Night** or **What You Will** gives no clue to its content. "Twelfth Night", the conclusion of the Christmas Feast, may have been chosen because this was the time of the play's very first recorded performance in 1601 [1]. **What You Will** was the title of a later comedy by John Marston[2]. But Shakespeare's titles are occasionally irrelevant and although a great deal of scholarly energy has been expended in discussions of these alternatives, the results are not critically helpful. In any case, comedies are not to be satisfactorily described through their titles.. **As You Like It** and **Much Ado About Nothing**–are equally poor guides and in fact **What You Will** and **As You Like It** appear to carry the same import, inviting the audience to judge.**Much Ado** with its three connected plots, is certainly about "something", for even if the first two may be thought trivial, the third, about the courtship of Beatrice and Benedick, is not. When Charles I was a boy, he retitled the play "Benedick and Beatrice", indicating the part of it that interested him most[3].

Twelfth Night's subject is, however, easily settled upon. Comedy as Shakespeare conceived it is always[4] about love, with marriage as a desirable end, so that illicit love, self–love, more than one love and unnatural attachments become barriers to this accepted state of bliss. **Twelfth Night** makes comedy out of the force of passion, especially when it is directed at the wrong object, thus creating absurd situations which bring about deadlock or threaten chaos. The morality of the playwright's comedies emerges indirectly, since the disappearance of chaos produces the order which makes suitable marriage possible. True love prevails, false love is banished. But Shakespeare's dictum, put into the mouth of Theseus in **A Midsummer Night's Dream** :

> Lovers and madmen have such seething brains,
> Such shaping fantasies, that apprehend.

CONTENTS

10. Typescripts and accompanying material will not be returned to the authors, regardless of whether they are accepted for publication or not.

11. The points of view expressed in an article are those of the author and do not necessarily represent the Editorial Board's opinion.

12. The order of the articles within each issue of the Bulletin is based on technical considerations and bears no relation to their relative importance or to the author's academic status.

13. All correspondence should be addressed to the Editor :

Professor Yahya Al–Jubouri,
Deputy Dean of the Faculty of Humanities,
University of Qatar,
P.O.Box 2713,
Doha, Qatar.

PUBLICATION OF RESEARCH IN THE BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES

1. The Editorial Board invites contributions based on research within the area covered by the Bulletin of The Faculty of Humanities. Articles on topics relating to the Gulf and the Arabian Peninsula are particularly welcome, but researches in other fields of specialization may also qualify for acceptance.

2. To be accepted an article must fulfil the normal requirements for contributions to learning. Such as sound knowledge, accuracy, honesty in referring to the ideas of others, and full references to sources and other material used. Articles containing only descriptive work will not be accepted. Footnotes and other annotations and references must follow the accepted Arab and international rules.

3. Contributions which have already appeared in print elsewhere are not acceptable. When an article has been approved for publication in the Bulletin, the author is required to sign an undertaking not to publish it elsewhere.

4. The Bulletin is open to contributors not only from the University of Qatar but also from universities and institutions of higher learning in other, friendly countries. Articles should normally be written in Arabic or English.

5. Articles should be typed with double spacing and should be submitted in two copies. The length of an article should not exceed thirty quarto (27 by 21 cm) or twenty–five foolscap (32 by 21 cm) pages (= about 10,000 words) and not less than fiften pages, same size.

6. Diagrams, figures and maps should be drawn in Indian ink on transparent or glossy paper, not larger in size than a page of the Bulletin. Photographs should be clear and printed on glossy paper not larger than postcard size.

7. The author of a published article receives fifty offprints as well as a honorarium fixed by the University of Qatar.

8. An article approved for publication must await its turn and will not necessarily appear in the issue of the Bulletin next following.

9. Proposed contributions are carefully considered by experts from the University of Qatar or elsewhere, and in each case the expert's verdict is binding and final. The author's and the expert's identity will not be disclosed.

The Bulletin is issued annually by the Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Qatar.

UNIVERSITY OF QATAR

Bulletin

of the
FACULTY OF HUMANITIES
AND SOCIAL SCIENCES

VOL. 7

1404
1984

طبع بالشركة الحديثة للطباعة
الدوحة - قطر

UNIVERSITY OF QATAR

Bulletin
of the
FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

VOL. 7

1404 1984

جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثالث عشر

١٤١١هـ / ١٩٩٠م

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثالث عشر

١٤١١هـ / ١٩٩٠م

حولية تصدر عن
كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية
بجامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

صدق الله العظيم

بيانات حول النشر في حولية كلية الانسانيات

١ - ترحب الحـولية بالأبحاث التي لها صلة بتخصص كلية الإنسانيات وتولي الاهتمام بالموضوعات التي لها صلة بالخليج والجزيرة العربية ، وقد يقع الاختيار على أبحاث في تخصصات أخرى لها صلة بتخصصات المجلة .

٢ - تنشر حولية كلية الإنسانيات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوافر فيها شروط البحث ، في الإحـاطـة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي وخطواته ، والأمانة العلمية ، في الإشارة إلى الأفكار وذكر المراجع والمصادر ، ولا يلتفت إلى المقـالات الـوصفية والإنشـائية ، ويتقيد مقـدمـو البحـوث بالتسميات والحواشي والمراجع والرموز ، وذلك بالطريقة المتعارف عليها عربياً وعالمياً .

٣ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر ولا يكون جزءاً من كتاب منشور . والبحث المقبول للنشر يرفق بوثيقة تعهد من صاحب البحث بعدم نشره في مكان آخر .

٤ - تتلقى الحـولية البحـوث للنشـر من داخـل جامعـة قطر ومن خارجها من الجامعات والمؤسسات العلمية الشقيقة والصديقة باللغة العربية والإنجليزية .

٥ - يقدم البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة بنسختين وألا يقل حجم البحث عن ١٥ صفحـة وألا يزيد عن أربعين صفحة كوارتر (٢٧×٢١سم) أو ثلاثين صفحة فلوسكاب (٣٢×٢١سم) .

٦ - تقـدم الـرسـوم والأشكـال والخرائط مرسومة بالحبر (الصيني) على ورق مصقول أو ورق شفاف Tracing Paper ويراعى في مساحتها ألا تزيد على مساحة المجلة طولاً وعرضاً .

أما الصور الفوتوغرافية فتكون واضحة المعالم ومقدمة على ورق مصقول وبحجم البطاقة البريدية .

٧ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية تحددها جامعة قطر مع ٢٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور .

٨ - البحث المقبول للنشر يأخذ دوره للنشر سواء في أول عدد يصدر أو الأعداد التي تليه .

٩ - تعرض البحوث المقدمة على خبير متخصص سواء من داخل جامعة قطر أو من خارجها ويكون رأي الخبير ملزماً كما يبقى إسم الباحث وإسم الخبير مكتومين .

١٠ - الأبحاث والمواد التي ترسل إلى الحولية لا تعاد ولا تسترد سواء أنشرت أم لم تنشر .

١١ - ما ينشر في الحولية يعبر عن وجهة نظر صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر الحولية .

١٢ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .

١٣ - توجه الخطابات والمراسلات باسم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور - فتح الله خليف رئيس قسم الفلسفة - جامعة قطر ص . ب : ٢٧١٣ - الدوحة - دولة قطر .

فهرس الحولية

مرآة الروح
بين النزعة الرومانسية والاستجابة الواقعية

الدكتور محمد عبد الرحيم كافود
عميد شئون الطلاب

عندما يريد الباحث أو الدارس ان يتناول شاعرا معينا او عملا فنيا بالدراسة فانه يحار في المقاييس والمعايير التي يمكن من خلالها ان يقيم العمل الفني، او الاسلوب الذي يقدم من خلاله هذا العمل إلى القراء، خاصة اذا كان هذا العمل باكورة انتاج الشاعر وهو حديث التجربة، وبحاجة إلى التشجيع وتعريف القراء بنتاجه. وهنا - غالبا - يتم التركيز على العرض وابراز الجوانب الجمالية في العمل الفني. أما في حالة الدراسة والتقييم فإن الدارس بحاجة إلى تخطى هذا العرض العام، والوقوف عند الجوانب الايجابية والسلبية في العمل الفني، وفي اعتقادي أن هذا الاتجاه ربما يكون اكثر فائدة للمبدع والمتلقي.

وكان قد سبقني بعض الزملاء إلى عرض ديوان (مرآة الروح) للشاعر الشاب محمد خليفة العطية، واذكر منهم على سبيل المثال الشاعر والناقد حسن توفيق، والاستاذ الدكتور ماهر حسن فهمي والدكتور سليم سعيد وغيرهم حيث عرضوا بصورة مجملة إلى ديوان الشاعر مشيرين الى أهم الملامح والسمات الفنية التي برزت في ديوان مرآة الروح. ولذلك رأيت أن أنحو منحى آخر في تناول هذا الديوان، وهو أن أقف وقفة تأن ودراسة لديوان العطية، ولذلك تأخرت هذه الدراسة عن موعد صدور هذا الديوان رغم الحاح ومتابعة الزميل حسن توفيق لي بانجاز هذه الدراسة. وديوان مرآة الروح ينقسم إلى قسمين من حيث موضوعات او مضامين قصائده: ففي القسم الأول من

الديوان نلتقى بمجموعة من القصائد الوجدانية تمثل الشعر العاطفي الذاتي، وتدور موضوعاتها حول الشكوى والألم، والغزل. ونغمة الحزن والتشاؤم في شعره العاطفي تنشر ظلالها في معظم قصائد هذا القسم من الديوان. حيث يقف الشاعر طويلا ازاء مشاعره من خلال النزعة الوجدانية المسيطرة على مشاعره واحاسيسه. وحين نقف عند موضوعاته الغزلية، فإننا نلاحظ عليها هذه الصورة الحزينة الشاكية الباكية المتعطشة إلى اللقاء. ولكن ما هي صورة المرأة المحبوبة عند الشاعر؟ وهل هناك علاقة بين الصورة (المادية) الجسدية التي يرسمها الشاعر وبين التجربة العاطفية؟.

وقبل ان نعرض لنماذج من غزليات (العطية) لابد ان نشير بايجاز إلى أن الغزل عند البعض قد لا يكون مقصوداً لذاته وإنما يتخذه هذا البعض وسيلة للتعبير عن معاناة وجدانية يعيشها الشاعر فتصبح المرأة عنصراً من عناصر التعبير عن هذه التجربة، أو رمزاً للتعبير عن معاناة الشاعر، أي أنه لا توجد تجربة حب حقيقية.

وهناك نماذج كثيرة في الشعر العربي قديمه وحديثه من هذا النوع، ولا نقصد هنا ذلك النوع من الغزل المقصود لذاته، والذي يتفاوت فيه الشعراء سمواً أو هبوطاً، حسب حظوظهم أو قدراتهم من تناول الموضوع، واستيعاب الموقف من الناحية الفنية، وصدق التجربة. وانما الذي نقصده ذلك الغزل الذي يتخذ من المرأة رافدا من روافد التجربة الشعرية، فيبث من خلال هذه المعاناة لواعج الاسى والشكوى. وهذه ظاهرة برزت بوضوح عند شعراء الرومانسية، وبالذات عند شعراء المهجر حيث يكون الغزل ومناجاة المحبوبة وسيلة للشكوى وبث لواعج الآسى والحزن والألم الذي يعانيه الشاعر من الواقع المعاش.

ومن خلال تتبعنا لموضوعات الغزل عند الشاعر محمد العطية في ديوانه (مرآة الروح) نجد أن شعره الغزلي لا يخرج عن هذا الاتجاه، حيث ان الغزل عنده وسيلة إلى بث لواعج الحزن والألم والشكوى، وإلى جانب أن هذا النوع من الغزل كما ذكرنا مذهب شعرى معروف فى شعرنا العربي بالذات عند نوى الاتجاه الرومانسي. فإننا نضيف إلى ذلك أن شعر الغزل كتجربة حقيقية والمرأة كنموذج واقعي يصعب بروزه في مجتمع محافظ كالمجتمعات الخليجية بصفة خاصة، فبحكم صغر هذه المجتمعات

والتقاليد العربية الاسلامية المحافظة يصعب أن تتبلور أو تبرز نماذج لتجارب حب حقيقية في صورة قصائد غزلية منشورة. من هذا المنطلق يجب أن ننظر إلى غزليات الشاعر في ديوانه.

ونعود إلى السؤال الذي أثرناه من قبل وهو عن صورة المرأة عند الشاعر فنجد أن الصورة الجسدية المادية تكاد تختفي نهائيا، وتظل صورة المرأة الغائبة كذكرى تنير خيال الشاعر فيبثها حزنه وشوقه، وحرمانه وتعطشه لها. أما المرأة نفسها فهي غائبة عند الشاعر من الناحية الجسدية، والعاطفية حيث لا تجاوب معه. فالحديث دائماً من جانب واحد لا نجد للطرف الآخر اي وجود. وهذه ظاهرة واضحة عند العديد من الشعراء كالشاعر عبدالرحمن المعاودة والشاعر مبارك بن سيف، والشاعر الشيخ علي بن سعود آل ثاني وغيرهم. وكما أشرنا من قبل أن ذلك يعود إلى طبيعة وتحكم القيم الاجتماعية المحافظة. ومن هنا فانه يمكننا القول ان الصورة التجريدية للمرأة هي المحور البارز في الكثير من قصائد محمد العطية.

ففي قصيدة خلي البال[1] . نجد ان الشاعر يناجي فتاة مجهولة المعالم، يبثها الشاعر شكواه وحنينه وعتابه :

ياخلى البال ما أدناك مني	هل سمعت النوح فاستهواك فني
لا تلمني إن أرقت اليوم دمعي	أرقتني نائبات لي تغني
فهي تنأى عن فؤادي حين تدنو	وهي تدنو إن سباك البعد مني
من صدى الانفاس نادى صوت حبي	ياحبيبي أين أنت اليوم عني
... ...	... ...
أنت تبدو لي خيالاً لخيال	واقعاً كنت فماذا الآن تعني
كنت طيفاً بخيالي تتوارى	ثم تبدو في الرؤى من غير إذن

ويمكن أن نقول في هذه القصيدة أو غيرها من قصائده الغزلية أن فتور العاطفة في مثل هذه القصائد قد افقدها الصور الفنية والايحاء فأصبحت النبرة الخطابية

١ – مرآة الروح، ص ٣١.

والتعبير المباشر هي السمة البارزة. لأن الشعر عندما يفتقد الدفقات الشعورية وتخبو العاطفة طبيعي أن يلجأ الشاعر إلى وصف الجمل موسيقياً، وإن كانت بعض الأبيات في القصيدة تتسم بشيء من الرقة العاطفية، وسلاسة الصياغة كقوله :

من صدى الأنفاس نادى صوت حبي ياحبيبي أين أنت اليوم عني

أو قوله :

ياخلي البال ما أدناك مني هل سمعت النوح فاستهواك فني

إلا أن القصيدة بصفة عامة كما ذكرنا عارية من التدفق العاطفي والصور الفنية، والايحاء الشعري، لان الشاعر لا يعبر عن تجربة وجدانية منفعلة بالموقف. ويمكن أن نستشف أبعاد الموقف في تجربة الشاعر هذه من خلال البيتين الأخيرين :

كنت طيفاً بخيالي تتوارى ثم تبدو في الرؤى من غير إذن
أنت تبدو لي خيالاً لخيال واقعا كنت فماذا الآن تعني

ودعك من عبارة الشاعر قوله: (واقعا كنت) فهذه دعوى شعرية مفتعلة نلمسها في شعر العديد من الشعراء الذين يكون الغزل عندهم عنصرا للتنويع في موضوعاتهم الشعرية فحسب أي أن الموضوع صناعة شعرية في هذا الفن.

واذا وقفنا عند قصيدة (جذور) وهي غزلية ويمكن أن تكون أفضل غزليات الشاعر فإننا نجد أن روح التكلف والافتعال فيها تغلب أيضاً على تلك الومضات الشعرية في القصيدة. وإنّ كنت أتحفظ على هذا التنويع أو التقسيم الذي أقوم به في تناولي لهذه القصائد، لأن العمل الفني وحدة فنية متكاملة أي أن التجربة لا تتجزأ.. ولكني تجاوزاً أقف عند بعض الملامح والأبيات الشعرية المشرقة لأن زميلنا الشاعر محمد العطية لازال في بداية طريقه ومثل هذه الملاحظات ربما تكون أكثر فائدة لمسيرته الفنية. نعود إلى قصيدته جذور التي يقول فيها :

اني اجتثثت جذورك من قلبي السالي الخلي
وقتلت في نفسي الشعور بأنك كالروح لي*

---

* الكاف في (بأنك) بحاجة إلى اشباع لكي يستقيم الوزن.

ما عـدت كالـدر النفيـس لـدى المحـار المقفـل
إن الـدروب تشـوكت إلا طريقـك فـارحـلـي
أحـلامـك الهيمى تهـاوى فـوق جفـن مسـدل
وسـرابك الظامـي يمـوت على زلال الجـدول

... ...

إني سكنت بغابـة النسيـان روحـا هاربـة
تستقطب الـذكرى ولكن كالايـادي الغاضبـة
أرأيـت أشرعـة تشـد على صـوار ذائبـة
أرأيـت أفئـدة تقـد على أمـان كاذبـة
تلك الحيـاة وذاكم ثمـن الزمـان المهمـل

... ...

أواه لـو تـدرين مـا أقسى جراحـات المحـب
في قبضة الحرمان تبدى ظالما من غير قلب
في ذاته فيض الشعور وظلمة قسطاس حب
يمضي كما يمضي السحاب بلا مسافات ودرب
حيث الحنيـن وغربـة الأمـل البعيـد المنـزل

... ...

إني عرفتـك لا شـعور ولا فـؤاد ولا حنيـن
فعلمت أني كالسراب على هجيرك مستكين
وجهلت في الثغر الضحوك كآبة القلب الحزين
حتى مضيت بهاجس الصدر القنوط المثقل(٢)

ورغم ان هذه القصيدة الغزلية أفضل من سابقتها الا ان التفكك وعدم الترابط أيضا يجهض تلك الومضات الشعرية التي برزت في المقطوعة الثانية (إني سكنت

---

٢ – مرآة الروح، ص ٣١.

بغابة النسيان روحاً هاربة). ومن ثم يبدو البناء اللغوي أكثر ترابطا وانسجاما في هذه المقطوعـة، منه في بقية القصيدة. ولعل فتور العاطفة واختفاء التجربة هو الذي دفع الشاعر إلى تصيد الألفاظ، والتحايل على تركيب وبناء الجمل مما أدى إلى هذا التفكك في بعض أبيات القصيدة، مثل قوله: (وقتلت في نفسي الشعور بأنك كالروح لي)، فحرف الجر (الباء) هذا مقحمة بل أن الجملة التي بعدها اصبحت مخاصمة لما قبلها.. وانظر إلى هذا الاضطراب في قوله: (إن الدروب تشوكت إلا طريقك فارحلي).. فالشاعر يريد ان يقول لصحابته إن الدروب تشوكت وسدت في وجهه إلا دربها هي.. إذن لماذا يأمرها بالرحيل بعد هذا الاستثناء، حيث ان النتيجة التي كان يجب ان تترتب على ما بعد (إلا) أن يقول لها قفي وخذيني معك..! مع أن الشاعر من مطلع القصيدة يعلن أنه قد أجتث جذور حبها من قلبه ومن ثم فإن هذا الاستثناء لطريقها من الشوك في غير محله، وقل مثل هذا بالنسبة لعلاقة البيت الثاني بالبيت الاول في المقطوعة الأخيرة حيث العلاقة معدومة، في حين أن العطف بالفاء هو الذي أدى إلى هذا الاضطراب حيث ان البيت الثاني لا يقع جواباً أو جزاء للبيت الأول فالرابط المعنوي بينهما معدوم فكان العطف بالواو أجدى في هذا الموضع.

إن قصائد الغزل عند الشاعر (العطية) في مرآة الروح هي أضعف قصائد الديوان من الناحية الفنية، والسبب كما ذكرنا في أن هذه الاشعار لم تصدر عن تجربة صادقة، ولذا لا يتجاوز الانطباع فيها ذلك المظهر الخارجي لدلالة الالفاظ، حيث تصبح مفردات الحب ألفاظ بدلالتها الوصفية.

(أواه لو تدرين ما أقسى جراحات المحب).

وكما يقول الدكتور/ إحسان عباس (ليس التعبير عن العاطفة هو ان تصفها... ولذلك كان استعمال «الصفة» في الشعر حيث يجب التعبير أمراً خطراً، فإذا أردت أن تعبر عن شيء مرعب ووصفته بأنه (مخيف) كان هذا مجرد وصف لا تعبير والشاعر الحق في لحظات الشعر الحق لا يسمى العواطف التي يعبر عنها[٣] .

ولعل قصيدته الموسومة بـ (نور) تبدو فيها ملامح المرأة في صورة واقعية ملموسة

---

٣ – فن الشعر، د . إحسان عباس، ص ٣٢.

إلى حد ما . أي أن الشاعر خرج من إطار مناجاة المرأة (المثال) كأنثى نكرة مجهولة يبثها لواعج الاسى والفراق إلى صورة امرأة تقع في دائرة الواقع من حيث استجابة عناصره، فاللقاء، وذكر الاسم، وتبادل الحديث، تخرج رؤية الشاعر من المرأة المثال أو النموذج، إلى القرب من واقعية الموقف والتجربة.

أحسـك يانـور في كل نــور	يضيء النهـار بـه والسحـر
وإن كنـت غيبا بعلمي فمنـه	حديثـك الـف حبيـب ظهر
... ...	... ...
الفتـك سمعـا وقلبـا يـرق	به الشوق والعين كم تنتظر
فلا تمنحيني بعيـد الوصـال	عذاب الصـدود فهذا مضر
ولا تسلبيني جمـال الأمـاني	وقلبي هـش فقـد ينكسـر[٤]

وتقف عند عبارة «فهذا مضر» فهي تخرج من إطار الأسلوب الشعرى وتكون أقرب إلى الأسلوب التقريرى في النثر. وكذلك قوله (فقد ينكسر) ففي مثل هذا الموضع الاغراق والمبالغة أجدى، و(قد) هنا حصنت القلب وأجهضت صوت العاطفة، وليس هذا موضعها.

واذا انتقلنا مع الشاعر ومن خلال ديوانه إلى الشعر الوجداني الذي يتمثل في مجموعة لا بأس بها من قصائد الديوان في القسم الأول حيث يزاوج فيه الشاعر بين غزلياته وبين الوجدانيات. والشاعر هنا اكثر توفيقا في الوجدانيات منه في غزلياته.

ولكن يبدو أن الشاعر متأثر بالنزعة الرومانسية بصورة واضحة، حيث تتسم قصائده بالألم والحزن والشكوى استمع إليه في قصيدة (الغد المجهول) حيث يبلغ التشاؤم واليأس مداه :

أعيذك أن تطيل الليل سهدا	أقلبي فالجوى أضناه مدا
وحسبك من جراحك نائمات	على وله نزفن الليل وجدا
بلغن الصبح في أكفان ليلى	وكان الصبح في عيني لحدا
فقد أطوى الزمان بغير علم	على أمل أذاب القلب جهدا

---

٤ – مرآة الروح، ص ٣٣.

وبين مناي تمرق عابسات	ظنوني إذ تهد الفكر هدا
بأي مني ستحلم يافؤادي	ودرب الحلم بالاوهام سدا
سيسلبك التأمل كل جهد	ويمنعك التسوف أن تجدا
أقلبي لا تنفر عنك يأسي	فبعض اليأس للآلام أجدى
ومد يدي إلى غيب غريب	يصافحني فقد أغشاه صدا
فمن يدري بأي غد سأمضي	وأي غد إليه الغيب أدى
وهل آوي إلى يوم وديع	فإنني هبت أن ألقاه ندا
فناديت الحياة بملء شوقي	وعيني حسبها الخفقان ودا
هنالك مات في عيني خيالي	ورجع الصوت أحجم أن يردا
فهام على صدى الزفرات قلبي	يشيعه لظى العبرات ودا
فقلت معللا نفسي ببؤس	ألذ العيش ما ألقاه جدا(٥)

ففي هذه القصيدة يسمو الشاعر بفنه، وتتحول القصيدة من صياغة ووصف مباشر إلى صور من التعبير عن تجربة ومعاناة يعيشها الشاعر فمن خلال الحوار الذي يدور بين الشاعر وقلبه، نجد أن الفكرة تنمو شيئا فشيئا ومحورها اليأس والألم الذي يسيطر على الشاعر حتى يفضي به في النهاية إلى أن يتخلى عنه خياله الذي كان يحاول من خلاله أن يخترق حاجز اليأس والالم:

هنالك مات في عيني خيالي	ورجع الصوت أحجم أن يردا

وقلبه هو الآخر يتخلى عنه، وكان رفيق دربه، ولكن في النهاية يتركه وحيداً لبؤسه وآلامه :

فهام على صدى الزفرات قلبي	يشيعه لظى العبرات ردا
فقلت معللا نفسي ببؤس	ألذ العيش ما ألقاه جدا

فهذه القصيدة تتسم بتجربة وجدانية واضحة المعالم عند الشاعر، تسيطر عليها عاطفة متجانسة. تنمو فيها التجربة شيئا فشيئا حتى يصل بها الشاعر إلى النتيجة

---

٥ – مرآة الروح، ص ٤٠.

التي يريد أن ينقلها إلينا.

وقد جاءت الألفاظ والصور معبرة عن نوع التجربة الحزينة التي سيطرت على عاطفة الشاعر. وهي مفردات رومانسية أي يكثر تداولها في قاموس الشعراء الرومانسيين مثل (الليل، السهد، الجوى، أضناه، الجراح، النزيف، الأكفان، اللحد، الاوهام، اليأس..).

أما الصور الفنية فقد جاءت متجانسة ونوع التجربة عند الشاعر، (فالجراح نائمات، وينزفن الليل وجداً، وهن يبلغن الصبح في أكفان ليله، والظنون تمرق عابسات، والخيال يموت..). وتشخيص الخيال، ورجع الصوت، ولظى العبرات وهو يشيع القلب، كلها صور حية جاءت ثرية بدفقات شعورية تجسد حجم المعاناة عند الشاعر.

والحقيقة أن الكثير من شعره الوجداني يتسم بقدر من الشفافية والايحاء الشعرى والصور الفنية التي تنم عن موهبة شعرية خاصة عندما تكون القصيدة نابعة من تجربة ومعاناة فالشعر الوجداني بالذات مصدره الأساسي المعاناة الذاتية. وإذا كان الشعر صدى النفس وترجمان الشعور، ومصدره معاناة ذاتية، فان هذا المفهوم هو أكثر التصاقا بالشعر الوجداني، لأنه فيض العواطف الوجدانية الفردية. ولذا فإن الشاعر لن يكون موفقا في هذا النوع من الشعر مهما كانت مقدرته الفنية إذا لم تكن هناك معاناة حقيقية. فالشعر مرآة - بالذات الوجداني - لنفس صاحبه، فمادته الأولى عواطفه ومشاعره، والاستبطان الذاتي هو محور هذا النوع من الشعر، بل هو العنصر الأساسي فيه. ومن هنا تصبح التجربة الذاتية للمعاناة ضرورة من ضرورات هذا النوع من الشعر. وهذا لا يعني أن الشعر بصفه عامة لا يحتاج إلى معاناة وصدق تجربة. وإنما الذي نعنيه أن الشعر الوجداني الذي يصور الالم والحزن، ويبث لواعج الاسى والشكوى لابد أن تكون هذه العواطف نابعة من معاناة صادقة أو تجربة استوعبت أبعاد الموقف فعبرت بلمسة شعورية متفاعلة مع الموقف. ولعل قصيدته (مرآة الروح) تعبر عن لمسات شعورية ونفسيه يعيشها الشاعر فانعكست هذه المعاناة من خلال صورة معبرة عن الموقف الذي يعيشه :

ليل الخريف وزفرة السأم	إيحـــاء ذاكـرة بـلا نـغــم
لله نفسي كم أغر بها	بين الحياة ومـورد العدم
الفيت راحلتي خطى زمن	فركبتها ضـرباً من الهمم
فاذا الدهور الباليات رؤى	تجتـازني موتى إلى الظلم
كم كنت حلما في عيون غدي	لمـا ظننـت بأنـه حلمـي
ليـل هزيل واهـن القـدم	في غربة ظمـأي إلى الالـم
وهواجـس سكرى ومدفـأة	محمومة الأنفـاس كالسقم
رحمـاك ياقلبي فقـد نزفـت	مني الجـروح وأنت كل دمي
أو كلمـا أيقظـت جارحـة	وسنى من النسيـان لم تنم
بك أمنيات جد طامحة والعجز	والحرمـــان مـــلء فمي[٦]

وهنا نجد أن الانفعال النفسي قد حرك لدى الشاعر بواعث تجربة معبرة صهرت الألفاظ والصور فجاءت سلسة متجانسة مع نوع التجربة التي عايشها الشاعر، ومن هنا حدث هذا التلاحم والتناغم بين عنوان القصيدة ومضمونها وصورها، ومفرداتها وبين نفسية الشاعر. فالمرآة إيحاء بانعكاس الصورة النفسية للشاعر، والزمن بأبعاده المؤثرة في حياة البشر أصبح الشعراء مأخوذين به على مر التاريخ وهو مصدر الهام وقلق في الوقت نفسه بما يثيره ماضياً، وواقعاً، ومستقبلاً، من شجى أو حزن أو تذمر في نفوس الشعراء. فطال وقوفهم عنده لأن كل ما يصادفه الإنسان في حياته يقع في إطار الزمن ولذلك كثرت شكواهم من الزمن كقول عمرو بن قميئة[٧] :

رمتني بنات الدهر من حيث لا ادري	فكيـف بمـن يرمي وليس برام
وأفنى وما أفني من الدهـر ليلـة	ولـم يفن ما أفنيت سـلك نظام
وأهلكنـي تأميــل يــوم وليلــة	وتأميــل عــام بعد ذاك وعـام

وهكذا تنعكس صورة الزمن على نفسية الشاعر (العطية) فتثير في نفسه القلق

٦ – مرآة الروح، ص ٦١

٧ – الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام، عبدالله الصائغ، ص ٦٤.

والسأم والشكوى ففي هذه المقطوعة القصيرة تتكرر مفردات الزمن ومشتقاته عنده مثل (الزمن، الليل، الخريف، ذاكرة، العدم، الدهر، الدنيا، النسيان، غدا، الهرم،...). ولاشك أن هذه المفردات توحي بعمق المعاناة، ونوع التجربة وهي تجربة حزينة، ولذلك فإن مفرداته توحي وتعمق هذه التجربة كالليل والخريف، والعدم، والبلى، والموتى، والظلم، والهواجس...).

أما الصور الفنية فانها جاءت معبرة عن نوعية التجربة، والعاطفة الحزينة عند الشاعر كانت لها السيطرة على الصورة، والصورة في الدراسات الحديثة هي التي تسهم بل هي العنصر الهام في الوحدة العضوية للقصيدة، كما أن الصورة الشعرية مصدر تأثير(٨) . فأنظر إلى هذه الصورة التي يرسمها لحياته وموقفه من الزمن في قوله :

الفيت راحلتي خطى زمن فركبتها ضربا من الهمم

بل أن لفظ راحلة فيه ايحاء بالتعب والارهاق، وطول الطريق، لما ارتبطت به هذه اللفظة من دلالة في وجدان الإنسان العربي، حيث تتجاوز اللفظة المدلول المنطقي لتثير في نفس السامع أبعادا نفسية وعاطفية، بل هي شحنة من الذكريات والأشجان تتدفق من دلالتها. فالراحلة وما لها من أهمية في حياة الانسان العربي كوسيلة لتنقلاته، كانت تقترن بها المتاعب والصعوبات التي يواجهها المسافر، وكانت الراحلة تحمل وتشارك الشاعر همومه وما يلاقيه من عناء ومشقة، حتى أصبحت لفظة (الراحلة) عنوان السفر ورمز المتاعب والعناء.. فالخلفية التاريخية التي يحملها الوجدان العربي عن الراحلة تعمق وتجسد المعاناة التي يريد الشاعر أن يعبر عنها. حيث أن للدلالة التاريخية، أو الاسطورية وقعها في الاثارة وتجسيد المعنى، ووسيلة لربط المتلقي ومعايشته للتجربة التي عاشها الشاعر، لأن هناك ثمة مشاعر وأحاسيس ترقد وراء هذه الألفاظ لأنها تحمل تجارب خاصة(٩) .

وبإيجاز يمكن أن نقول ان الصورة في (راحلتي خطى زمن) تكثف عمق المعاناة

---

٨ – الصورة بين البلاغة والنقد، د . احمد بسام ساعي، ص ٣٦.

٩ – أنظر حوهذا الموضوع، قضايا النقد الادبي، د . بدوي طبانه، ص ١٧٧.

عند الشاعر. وتأتي الصورة الثانية في البيت الذي يليه لتكمل أبعاد الصورة الاولى في تصوير بطيء وقع الزمن في حياة الشاعر :

فإذا الدهور الباليات رؤى   تجتازني موتي إلى الظلم

فانظر كيف أتي بصيغة الجمع (الدهور) للايحاء بطول وثقل الزمن ثم كيف وصفها بالباليات، والموتي، وتجتازه إلى أين؟ إلى الظلمات. ولاشك أن تجانس الصور وتوحدها يدل على أن مصدرها عاطفة صادقة. ثم أنظر إلى الصورة في البيت السادس:

ليل هزيل واهن القدم   في غربة ظمأى إلى الالم

فالليل هزيل واهن القدم، فضعف القدم إيحاء ببطيء السير، أليست هذه الصورة جزء لا يتجزأ من الصور السابقة في تجسيم وتجسيد فكرة الزمن عند الشاعر. أما الصور الأخرى والألفاظ فانها كلها تتألف وتتلاحم في وحدة عضوية نابعة من تجربة شعورية نفسية متجانسة. فالغربة الظمأى، والهواجس السكرى، والمدفأة المحمومة الأنفاس واللهفة العمياء، هذه الصور توحى بنوع التجربة والمعاناة التي يحملها أو يعيشها الشاعر.

والحقيقة أن الشعر الوجداني بصفة عامة هو أكثر نضجاً عند الشاعر من شعره في الموضوعات الأخرى. وكما ذكرنا أن هذا يعود إلى أن شعره الوجداني نابع من تجربة ذاتية صادقة.

من رومانسية معذبة إلى واقعية مؤلمة

أن القسم الثاني من الديوان كما صنفه الشاعر يحتوى على مجموعة من القصائد بعضها شعر مناسبات والبعض الآخر تتناول في موضوعاتها قضايا الأمة العربية والاسلامية. فرغم الجو الرومانسي الذي يسيطر على الشاعر في معظم قصائد الديوان، إلا أن الرؤية الواقعية ظلت هي الأخرى تطل برأسها بين حين وآخر مقترنة بوعي وحضور واضح في مواقف الشاعر من قضايا أمته القومية والإسلامية. فرومانسية الشاعر هنا رومانسية حزينة، ولكنها لا تستبدل واقعها الحزين بواقع مثالي، بل تسعى من خلال معاناتها أن تلج هذا الواقع، وإن كانت رؤية ظاهرية في أغلب

الأحيان، اصلاحية المنزع، لا تتعمق في أبعاد الواقع من أجل تغييره كما هو الحال بالنسبة للتوجهات الواقعية المعروفة. فالشاعر يصور الواقع مبرزا سلبياته. ومن هنا فإن مصطلح الواقعية الذي نستخدمه هنا بمفهومه العام.

ومن المعروف أن الشاعر مرآة صافية تنعكس من خلال نفسه صورة الوجود والكون، وهو رجع الصدى لنفوس الاخرين من بني قومه، بل وبني البشر، عندما تتسع نفسه ومعاناته لمعايشة الآخرين والتفاعل معهم. فالشاعر لسان حال أمته يعبر عنها بكل آمالها وأحلامها، وآلامها وأفراحها ومن هنا ينطلق شاعرنا معبراً عن معاناة أمته، ناعياً لحالها وما وصلت إليه من تردي، وتخاذل، واستسلام، وخلافات، حتى أصبحت عرضة للاخطار التي تهدد وجودها. ففي قصيدته (رسالة إلى العرب)[١٠] ينعي فيها الشاعر حال أمته :

عز المجير من الأعداء في الوطن	وأصبح العيش أوهاما من الوهن
أين الاعزة في ذا الدهر إنهم	سود الوجوه بذل فاحش نتن
أمسى العدو بأرض العرب طاغية	مستمسكا بعرى التلمود في المحن
يا آل يعرب لا الآمال ندركها	منكم ولا أمل يبدو من الزمن

ويعى شاعرنا أبعاد الموقف وسبب هذا التردي والضعف والوهن الذي أصاب أمته، وهي هذه الخلافات، والتشاجر فيما بينهم وإنشغالهم بتوافه الامور:

قد أشعل الصمت فيما بينكم جدلا	وآية الغدر لا تخلو من الفتن
لن يتقي بهواكم مبتغي دعة	فالامن بين حماكم غير مؤتمن
إن التناحر فيما بينكم عبث	ومهجة المرء موت زاهد الثمن
ياويحها القدس إذ أبدى تشردها	بصق الزمان بوجه الخزى والدرن
أآفة المجد أنتم ياسلالته	إن التقلب يدعو الفكر للشجن
كان المصير غداة الأمس يجمعنا	واليوم ندفنه في غربة الكفن
وأصبح النصر أحلاماً نشيعها	في كل رابية ضاعت من الوطن

١٠ – مرآة الروح، ص ٨٩.

والقصيدة رغم النبرة الخطابية، والأسلوب الحماسي في هذا النوع من الشعر، إلا أن الانفعال العاطفي بالموقف قد أخرجها إلى حد ما من إطار التقريرية.

ووسط هذه الرؤية الواقعية، أو بمعنى أدق المعايشة الواقعية - لان الرؤية لابد أن تكون نابعة من فلسفة وموقف واضح من الكون والحياة - تطغى الحيرة والتشكك في مصداقية التغيير. حيث يصطدم الشاعر مع الواقع وتصبح المعاناة والتشاؤم والالم دافعا للثورة، من خلال اتحاد الذات الداخلية للشاعر مع الذات الخارجية للانسان العربي في معاناته القومية، حيث يرتبط مصيره بمصير أمته. والشعراء هم أكثر من غيرهم قدرة على رصد هذا الواقع والتفاعل معه بسلبياته أو ايجابياته.

ففي قصيدته (الصحوة الكاذبة)[11] يرثي الساعر حال أمته وما آلت إليه:

أفي الشرق شمس لنا غائبه	وفي الغرب ريح لنا ذاهبة
وما رث ثوب الفخار القديم	ولكن أجساده ذائبة
عيون الأسى ياجراح القلوب	بأفواهنا غمة صاخبة
سنحملها ذلة في السنين	ونتركها وصمة شائبة
سنعلن تاريخنا في الحياة	لأجيالنا الحرة الآيبة
فما نحن إلا غبار الزمان	ستنهبنا ريحه الغاضبة
ولن يرحم العدل عجز الطغاة	إذا أدركتهم يد العاقبة
حيارى الخطى ياأماني النفوس	نهيم بآمالنا الخائبة
نفوس تفر إلى الأمنيات	وأخرى تكر على الهاربة
وما ذاك إلا لأن العقول	ضياع من الصحوة الكاذبة

فالشاعر يتفاعل مع الواقع بروح متشائمة متمردة عليه، يغلفها اليأس والاحباط والضياع، والرغبة في الانسلاخ من هذا الواقع المؤلم. بعد أن غابت شمس أمته، وذهبت ريحها أي كناية عن روح الانهزامية والتخاذل والضعف التي تسيطر عليها. ثم ننظر إلى هذه الصورة الفنية المؤلمة التي يصور الشاعر فيها واقع أمته مقارنا بايحائية

---

١١ - مرآة الروح، ص ٩٣.

مركزة وشفافة بين ماضيها المشرق، وحاضرها المظلم.

وما رث ثوب الفخار القديم ولكـن اجســاده ذائبـــة

ثم تتوالى الصور المؤلمة المعبرة عن رؤية الشاعر لواقع الانسان العربي. حيارى الخطى، نهيم بآمالنا، نفوس تفر إلى الأمنيات، وأخرى تكر على الهاربة، وتذكرنا هذه القصيـدة بالشاعر الكبير عمر أبو ريشـه في عتابه وثورتـه، من قصيدتـه (حمـاة الضيم)(١٢) ومنها:

مـا ذنــب فتيـــة إذا شـــبت ولـم	تلمـح بتربتــه خطــى احــراره
تركــت لهـا آباؤهـا الارث الـذي	يبقـى مطـوقهـــا بلعنـــة عـــاره
... ...	... ...
حسبت بناء العرب ممسوك الذرى	تتحطــم الأحــداث دون جـداره
فـإذا البنـاة على ذليـل وسـادها	تغفو عن الشـرف الذبيـح وثـاره

ولا نريد أن نقارن أو نقول أن الشاعر محمد العطية يترسم خطى بعض شعراء الرومانسية الذين جمعوا بين الشكوى والانين واليأس، وبين الثورة والتمرد على الواقع من أمثال أبي القاسم الشابي، والشاعر القروي وعلى محمود طه وغيرهم، فشاعرنا لازال في بداية طريقه وانما نقول أن فيه شيئا من هذه الروح فأشعاره تجمع بين روح اليأس والشكوى والانين، وبين الثورة والتمرد على الواقع وتعريته.

فالتجربة الشعرية رغم بزوغها من رحم الواقع المرفوض لدى الشاعر إلا أنها تسمو على الواقع بغاياتها النبيلة الخيرة. فرؤية الشاعر رؤية مسؤولة تتمثل دائما واقعا يحمل الحق والخير والعدالة. فالشاعر أو الفنان الحق هو باني الحياة الجديدة، ومنقذ لمجتمعه من السقوط والتردي. حيث أن الشاعر يتعمق احساسه في هذا الواقع فيدرك أبعاده وخفاياه. ولا غرابة إذا وجدنا ثورة الشاعر أحيانا تتحول إلى هجاء قاس على امته في قصيدته (بسوس الجهل)(١٣) يصور فيها الشاعر واقع أمته :

١٢ – ديوان عمر أبو ريشة، ص ١٧.

١٣ – مرآة الروح، ص ٩٥.

رعش الجفن وألقى حلمه إذ رأى النفس رماد الحطمة

وفؤاد نبض العقل له مسه الفكر فناجى ألمه

أيها الصبر أما من شعلة تجهض الليل شمس عزمه

صدأ القيد وصمت الموت لم يخرس السوط بأيدي الظلمة

... ...

ذاك شأن العرب إذ دب بهم حلم المجد فضلوا قيمه

وتناسوا ذات يوم أنهم نسب المجد وكانوا علمه

عبدوا التاريخ حتى حطمت لوعة الواقع يأسا صنمه

رحب التيه فما من طرق يألف التائه فيها قدمه

كبت الرأي فما من وطن يحضن الفكر ويبني الكلمة

زمن العقل تولى وانتهى وبسوس الجهل عادت نهمه

يصرع الثائر فيها نفسه بها العاقل ينفي حلمه

وعنوان القصيدة (بسوس الجهل) فيه من الايحاء، والرمز التاريخي لحرب البسوس، التي كانت وصمة في التاريخ العربي، فالشاعر يريد أن يوقظ أمته من سباتها بتذكيرها بايجابياتها وسلبياتها لعلها تتعظ.

وترتفع نغمة الانفعال السياسي ولا أقول العاطفي بصورة واضحة عند الشاعر في قصائده السياسية، لتتضاءل الصور الفنية المعبرة، ويطغى الاسلوب المباشر، ولكن تظل أدواته التعبيرية، ومفرداته في مستوى لا بأس به، عندما ننظر إليه من زاوية الشعر السياسي التقليدي.

ففي قصيدته (قدس الاسلام)[١٤] ينعي فيها الشاعر على العرب مواقفهم السلبية، وكيف ان الاطفال والنساء يتحملون عبء المسؤولية :

الذل ملء ثيابنا والعار إذ قيل في صمت الجموع ذمار

لمن السكوت دقيقة ضجت بها قدس الكماة وصوتها إعصار

---

١٤ - مرآة الروح، ص ٧٧.

قوميـــة وهنــت فأين دعــاتهــا هــل مسهــم من افكهــا ادبــار
خزى العروبة أن تحارب نسوة ويلي الشجاعة في الامور صغار

وتدفع الشاعر أحياناً عاطفته السياسية إلى حد القسوة على امته. ناعيا عليها مواقفها وما وصلت إليه من حالة يرثى لها :

ضاقت بنا الأرض حتى مجنا الافق فـارضنــا التيـــه والاذلال والقلــق
طواهــم الصمــت حتى انهم ذكروا قـوم نعـام اذا ما استنطقوا نهقـوا
يمشـون في الارض لا رأي ولا وطن كأنهـم لضــيــا ع الحــق قـد خلقـوا
خانـت ضمــائرهـم احــلامهم فبـدا ريـب الـزمــان على اوفاهمـا خــرق
ياقــوم إن الدنى امســت منازلنــا وإننــا بحضيـض الجهــل نلتصق
في كل منبــر علـم جهلنــا صنــم غنى على المجـد حتى كاد ينسحق
يا أمة الصمت عن خوف وعن حزن ما ذا بآمالنــا حقـا سينطلــق(١٥)

ولكن هنـاك بعض القصـائد في شعره السياسـي - إذا جاز هذا التعبير - وهـي قصائد موضوعاتها سياسية جاءت في مناسبات مختلفة مثل قصيدته في (سليمان خاطر) تحت عنوان (ألا أنك أشعلت سراجاً).. وقصيدة (طرابلس الباسلة) التي نظمها عندما هاجمت الطائرات الامريكية ليبيا عام (١٩٨٦م).

مثل هذه القصـائد نجد أن الانفعال السياسـي المباشر قد طغى على الانفعال العاطفي التأملي الذي يتحول فيه التعبير عن الموقف إلى نوع من التكثيف والايحاء، والدرامية، والانعتاق من الموقف الاني (المناسبة) إلى مزجها بتجربة الاديب بكل أبعادها العاطفية، ومخزونه الثقافي الذي يثرى التجربة، ومن هنا تمتزج الفكرة أو الموقف مع المشاعر والأحاسيس الذاتية مع البعد والتغريب في أبعاد الحدث، اسطورياً، أو تاريخياً، وكما يقول إيليا حاوى :

فالشاعر الحديث إذا ألم بتجربة لم يعد يكتفي بأن يلقى في ساحتها ما يتيسر له من الأفكار والمشاعر الهاربة والمولية ولا يقبل الصدفة والاتفاق في النظم.. الشاعر

١٥ - المصدر السابق، ص ١٠٧.

الحديث يدرس تجربته بل أنه يدرس عليها بالتأمل والمعاناة والثقافة كما يحتضنها زمنا طويلا في نفسه . ويتقصى في التاريخ والاسطورة والحياة والكون والمجتمع.)(١٦) .

ولذلك فإن الانفعال العاطفي الآني المرتبط بالمناسبة غالباً ما تطغى عليه النبرة الخطابية، وتتحول القصيدة إلى أسلوب الرصف المباشر للافكار، وتنطلق العاطفة الحماسية إلى تسطيح التجربة، وتراجع الصور الفنية، لان القصيدة إذا كانت وليدة لحظة انفعالية، فانها لا تخضع للتأمل والتعمق في أبعاد الموقف لتثرى هذا الموقف من تجاربها السابقة ومخزونها الثقافي، بل أن الشعر السياسي غالباً ما يتمخض عن أسلوب خطابي مباشر وإذا كان هناك إثارة عاطفية، فهي ترجع إلى كون القارئ أو المتلقي يعاني التجربة نفسها. أي مثقل بهموم واقعه. نستمع إلى الشاعر (العظية) وهو يخاطب الرئيس الامريكي (رونالد ريجان) عندما قامت الطائرات الأمريكية بقصف ليبيا :

بعقبى الـدعـاء الذي لا يـرد	وأم القوافي التي تستجـد
سيصمي جبينك ذل الزمـان	إذا كنت منه سدى تستمد
أشيخ الطغاة سيبلى الوعيد	وتبقى طرابلس منـه الأشد

والحقيقة أن شعر محمد العطية يتفاوت مستواه حسب ارتباطه بتجربة الشاعر وصدق الانفعال العاطفي. فشعره في الغزل يهبط فنياً إلى مرحلة النظم والتكلف، حيث يجهد الشاعر قريحته في تصيد الألفاظ والصور، مما ينتج عنه نظماً للأفكار لا رابط بينها مثل قول الشاعر في قصيدته (وفاء) فما هو الرابط الذي يربط بين هذه الأبيات الثلاثة في القصيدة التي جاءت متتالية :

تعالى فإن إنكسار السواقي	يموت بـه جـدول قـد جـرى
لأني مللت احتـراق الوعـود	بعذر له الشـوق لن يغفرا
فقدسية العشق حفظ الوفـاء	وإلا فكل الهوى مـزدرى(١٧)

١٦ – في النقد والأدب، إيليا حاوي، جـ ٥، ص ٨٠.

١٧ – مرآة الروح، ص ١٣.

فالبيت الثاني لا علاقة له بالأول. والبيت الثالث لا علاقة له بالثاني وإن تصدرته فاء العطف التي توحى بانها واقعة في جواب، فهي ليست جواباً (أن) التي تصدرت البيت الثاني. فهذه الهلهلة وعدم الترابط ظاهرة واضحة في بعض قصائده التي خلت من معاناة وتجربة صادقة.

في حين أنه في شعره الوجداني، ومعظم قصائده الاجتماعية أو السياسية يبلغ مستوى فنياً ينم عن موهبة تمتلك استعداداً وحساً شعرياً يبشر بموهبة شعرية واعدة.

المصادر

١ – مرآة الروح، محمد خليفة العطية، ١٩٨٩م، الدوحة – قطر.

٢ – فن الشعر، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ٣.

٣ – الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبدالله الصائغ، وزارة الثقافة والاعلام، العراق، ١٩٨٣م.

٤ – الصورة بين البلاغة والنقد، أحمد بسام ساعى، المنارة للطباعة والنشر، سوريا، ١٩٨٤.

٥ – قضايا النقد الادبي، د . بدوي طبانة، ط ٣، القاهرة، ١٩٧١م.

٦ – ديوان عمر ابو ريشة، دار العودة، بيروت، ١٩٧١م.

٧ – في النقد الأدبي، إيليا حاوى، جـ ٥ دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١م.

القوى العاملة في قطر
رؤية بنائية وتحليل تتبعي

د. محمد علي محمد الكبيسي
عميد كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بالإنابة.

١ - القوى العاملة في عصر ما قبل النفط :

من الطبيعي أن يعكس بناء العمالة في أي مجتمع طبيعة تكوينه الإقتصادي ونمط أسلوبه الإنتاجي. وربما كان ذلك أكثر انطباقاً على المجتمع القطري خلال تاريخه الطويل قبل اكتشاف النفط وتراكم عائداته. فلقد شكل الغوص على اللؤلؤ أهم نشاط اقتصادي مارسه سكان هذا المجتمع، وبلغ قمة ازدهاره خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نتيجة لرواج تجارة اللؤلؤ، وزيادة الطلب عليه من قبل الأسواق العالمية. وكانت بقية النشاطات الأخرى تدور حوله وترتبط به بشكل مباشر. ولهذا فقد شكل هذا النشاط الإقتصادي ضابط إيقاع قوي للبناء الإقتصادي والإجتماعي القطري.

وإضافة إلى عوامل أخرى فقد ساهم اللؤلؤ - كنشاط اقتصادي محوري في منطقة الخليج - في تشكيل طبقية داخل المجتمع. وتضم أولى هذه الجماعات كبار تجار اللؤلؤ الذين ينتمون إلى القبائل ذات المكانة الاقتصادية والاجتماعية المتميزة. الثانية تضم الطواشين (وهم صغار التجار) الذين يقومون بشراء اللؤلؤ من السفن أثناء فترة الغوص. ثم هناك النواخذة (القباطنة) الذين يملكون غالباً سفن الغوص ويقومون

بقيادتها، وهم يشكلون ما يشبه الطبقة الوسطى من حيث الدخل أو المكانة الاجتماعية. أما الجماعة الرابعة فتضم العاملين على سفن الغوص وهم يشكلون قطاعاً كبير الحجم في المجتمع لأن السفن كانت تحتاج إلى عدد كبير منهم متنوع الوظائف (غاصة، سيوب، ... الخ)[1] . ولقد بلغ عدد العمال خلال فترة ازدهار الغوص في منطقة الخليج ٧٤٫٠٠٠ عامل يعملون ٤٥٠٠ سفينة غوص ويشتركون في مجال إنتاجي واحد، ويتمثلون قيم عمل متشابهة[2] . وفي قطر بلغ عدد العمال حوالي ١٢٫٨٩٠ طبقاً لتقدير لوريمر في عام ١٩٠٧، فضلاً عن وجود عمالة وافدة موسمية من عرب ساحل إيران ومن بدو الإقليم العربي المتاخم للخليج.

والواقع أننا لا نملك سوى تقديرات خام عن حجم القوى العاملة في قطر خلال حقبة ما قبل النفط. فإذا كان عدد سكان قطر خلال النصف الأول من القرن العشرين (١٩٠٨-١٩٥١) قد ظل يتذبذب تذبذباً شديداً ويدور حول ٢٥٫٠٠٠ نسمة، فإن من المتوقع أن يصل مجموع القوى العاملة فيه ستة آلاف نسمة، وذلك على افتراض أن المرأة القطرية خلال حقبة ما قبل النفط كانت تمارس أيضاً بعض النشاطات الانتاجية ونضيف إلى ذلك أيضاً العمال الذين كانوا يأتون من الشاطيء الشرقي للخليج للعمل

---

(١) هناك كتابات متنوعة تتناول نمط إنتاج ما قبل النفط في مجتمعات الخليج العربية نشير هنا إلى بعضها:

- سيف مرزوق الشملان، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الكويت ١٩٧٧.
- محمد غانم الرميحي، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٧٥.
- أحمد محمد العبدالله، المكانة الاجتماعية في مجتمع الغوص، بحث مقدم إلى الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، مركز الوثائق والدراسات، أبوظبي ١٩٧٩.
- سيف مرزوق الشملان، الغوص على اللؤلؤ في قطر، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، الجزء الثاني، قطر ١٩٧٦.
- محمد رياض، الخليج والخليجيون قبل عام ١٩٣٠، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد ٣٦، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٣.

(٢) قدر لوريمر عدد السفن بنحو ٣٥٧٧ سفينة موزعة على: الامارات ١٢١٥، قطر ٨١٧، البحرين ٩١٧، الكويت ٤٦١، والاحساء ١٦٧ سفينة. كما قدر محمد رياض (المصدر السابق ص ٢٨٤) عدد العاملين في الغوص بما يتراوح بين ٧٠ ألفاً و٩٠ ألفاً حسب عدد العاملين على السفن (٢٠-٢٥ عامل لكل سفينة).

في قطر خلال موسم الغوص، ثم يعودون بعد ذلك إلى مجتمعاتهم. ومن الضروري أن نشير هنا أيضاً إلى أن القوى العاملة في قطر خلال فترة ما قبل النفط كانت تمارس بعض الأنشطة الاقتصادية الأخرى كالصيد والنقل البحري والتجارة والصناعة الحرفية المتصلة باحتياجات الحياة اليومية(١) ، جنباً إلى جنب مع نشاط الغوص في مواسم اللؤلؤ المتعددة.

٢ - الطفرة النفطية والعمالة : حقبة النمو المتسارع :

كان لابد وأن ينقضي بعض الوقت بعد تصدير النفط القطري حتى تظهر إنعكاساته الاقتصادية وتأثيراته الاجتماعية. وعلى الرغم من أن قطر قد بدأت تتلقى عائداتها النفطية منذ سنة ١٩٥٠، إلا أن هذه العائدات كانت محدودة للغاية في بداية الأمر، فضلاً عن أن نمط توزيعها لم يكن يعكس تصورات تنموية بعيدة المدى(٢) . ففي سنة ١٩٥٠ بلغت عائدات قطر من النفط مليون دولار أمريكي، ثم ارتفعت إلى ٥٠ مليون دولار في سنة ١٩٦٠ وإلى ١٢٢ مليون دولار سنة ١٩٧٠، ثم قفزت من ٦٠١ مليون دولار في سنة ١٩٧٢ إلى ٢١٣٠ مليون عام ١٩٧٤ نتيجة للظروف السياسية والعسكرية في الشرق الأوسط الناجمة عن حرب أكتوبر ١٩٧٣. ويوضح الشكل رقم (١) تطور عائدات النفط، ونستخلص من هذا أن مرحلة الخمسينات تميزت بالبطء الشديد في منحنى عائدات النفط، وهي بذلك التمهيد الفعلي للتغير الإداري والمالي والاقتصادي والسكاني الذي ميز مرحلة الستينات. فعلى سبيل المثال، تراوحت تقديرات السكان بين ٤٠ أو ٦٠ ألف عام ١٩٦٠ بينما كانت عائدات النفط قد بلغت ٥٤ مليوناً فقط.

وربما كان عقد الستينات هو بداية مرحلة التحول الاقتصادي والنمو الديموجرافي في قطر. وهي حقاً حقبة التنمية في قطر. فقد شهدت الستينات إنجازات هامة في

---

(١) انظر : محمد علي الكبيسي، التنمية الصناعية في دولة قطر، ترجمة حسن الخياط، دار المتنبي للطباعة والنشر، قطر ١٩٨٦، ص ٢٩٣.

(٢) للتعرف علي حجم العائدات النفطية ونمط توزيعها في هذه الفترة المبكرة، انظر :

Al-Kuwari, A.K. Oil Revenues in the Gulf Emirates: Patterns of Allocation and Impact on Economic Development, Bowker Publishing Company Ltd, Essex, 1978. Cahpter 6.

مجال البنية الأساسية، حيث أقيمت شبكة متطورة من الطرق، والمشروعات الأساسية في مجالات الكهرباء والماء، ونمت الخدمات الإجتماعية وعلى الأخص التعليمية والصحية على نحو كبير. وحظى التصنيع باهتمام خاص خلال الستينات على مستوى التخطيط وبعض التنفيذ. فمعظم مشروعات الصناعة الثقيلة في قطر (كالأسمنت والتكرير والصناعات البتروكيماوية) هي من نتاج الخطط الموضوعة خلال الستينات، والتي بدأت إنجازاتها خلال السبعينات[1] . وهذا يعني أن الوعي بأهمية التصنيع كان يمثل بعداً مستمراً في استراتيجية الاقتصاد القطري منذ الستينات. وفي مجال النمو الديموجرافي شهدت نهاية الستينات ظاهرة بالغة الأهمية. فللمرة الأولى بدأ منحنى عدد السكان يأخذ اتجاهاً متسارع الصعود بسبب هجرة العمالة الوافدة واتجاهات معدلات الزيادة الطبيعية للقطريين إلى الارتفاع. ولهذا فإننا نجد أن سكان قطر قد تعدوا لأول مرة رقم ١٠٠,٠٠٠ نسمة في السنة ١٩٦٩-١٩٧٠. وعلى أية حال فيبدو أن عقد الستينات قد تميز بتوازن ملحوظ بين منحنى نمو العائدات النفطية ومنحنى نمو السكان «كما يوضحه الشكل رقم (١)».

ومع بداية عقد السبعينات نستطيع مناقشة اتجاهات النمو الإقتصادي والتغير السكاني في قطر بقدر ملحوظ من الثقة والاطمئنان، خاصة وأن سنة ١٩٧٠ قد شهدت إنجاز أول محاولة لإجراء تعداد قطري، فضلاً عن توافر بعض البيانات التي يمكن الاستعانة بها في تحليل توجهات التنمية بوجه عام. ففي سنة ١٩٧٠ بلغ مجموع الناتج المحلي القطري ٣٠٣ مليون دولار، ثم ما لبث أن تضاعف ثمان مرات في سنة ١٩٧٤ ليصل إلى ٢٤٠٣,٣ مليون دولار وذلك في أعقاب تصحيح أسعار النفط. وواصل الناتج المحلي نموه إلى أن قارب أربعة مليارات في نهاية السبعينات[2] (انظر الجدول رقم ١ والشكل رقم ٢).

---

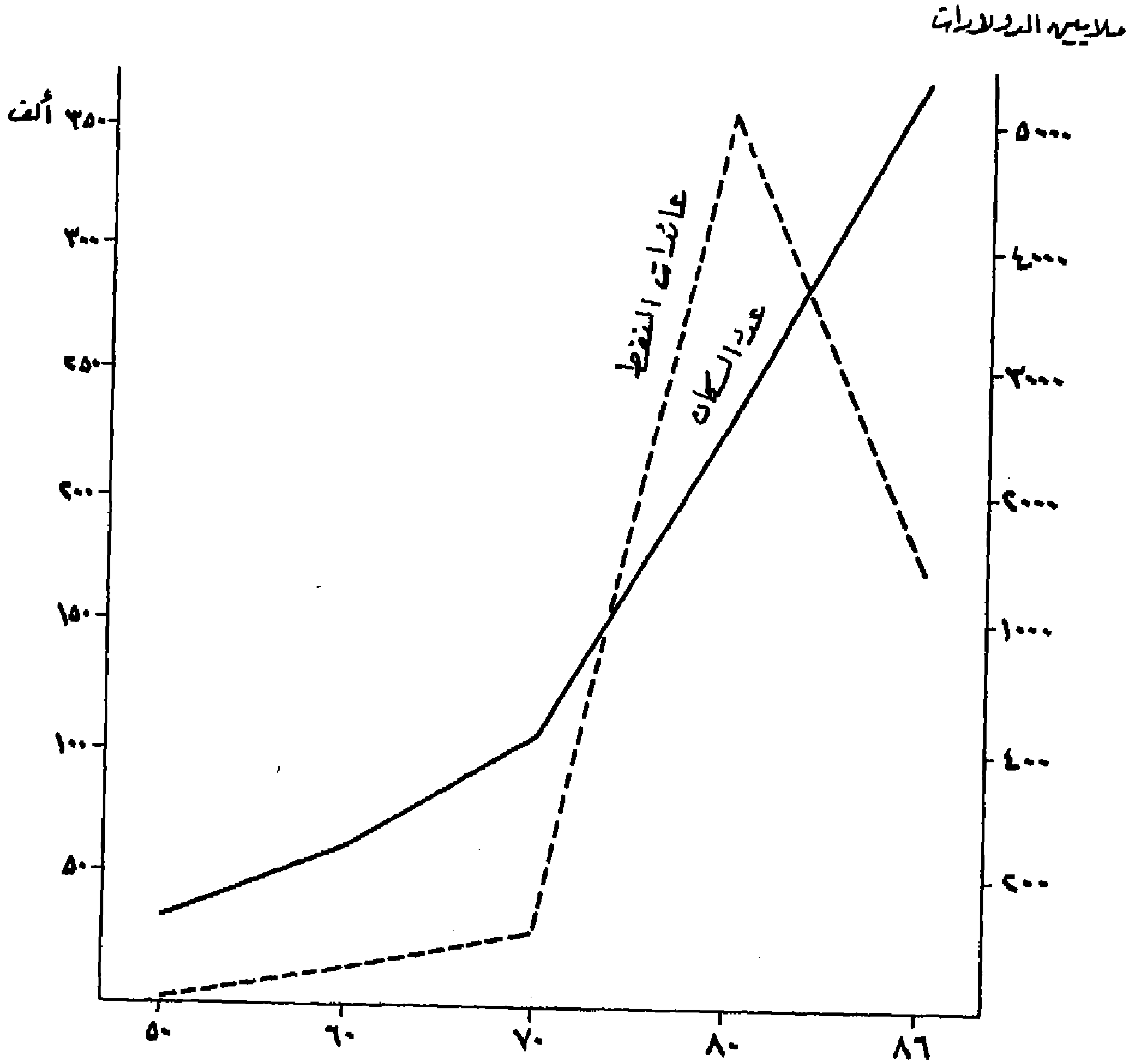
(١) انظر: محمد علي الكبيسي، سبق ذكر المصدر. ص ص ١١٥-١٢٤.

(٢) Kubursi, A., The Economics of the Arabian Gulf: A Statistical Sourcebook, Groom Helm, London, 1984. Table 2-7, P. 11.

شكل رقم (١)

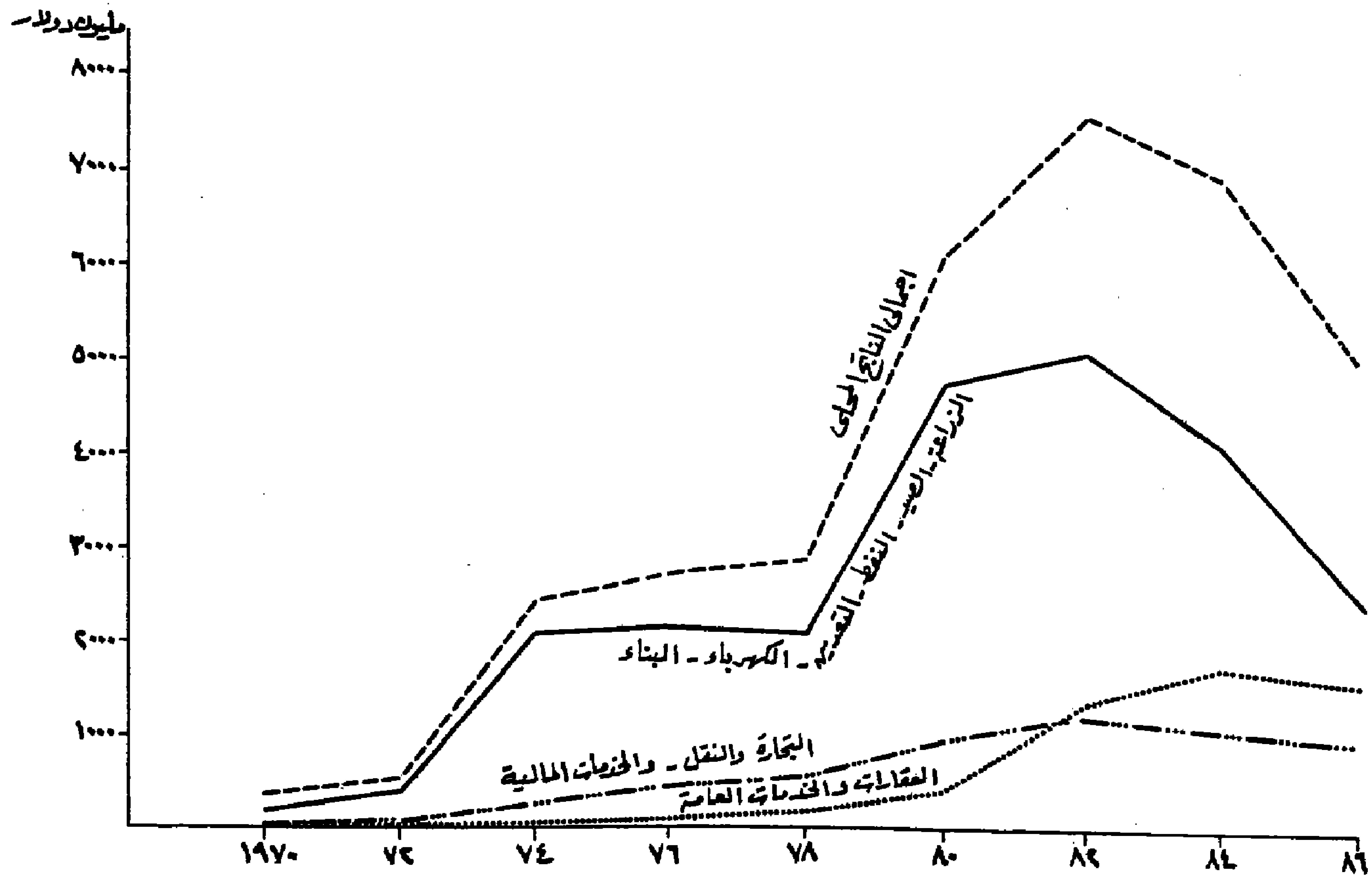
تطور عائدات النفط مقارنة بتطور عدد السكان

(١٩٥٠ - ١٩٨٦م)



شكل رقم (٢)

تطور الناتج القومى الاجمالى
(١٩٧٠- ١٩٨٦)



المصدر : جدول رقم (١)

جـــدول رقم (١)

الناتج المحلي الاجمالي في قطر طبقاً للقطاع الاقتصادي (١٩٧٠-١٩٨٦) بالمليون دولار أمريكي

النشاطات الاقتصادية	السنـــــــــــــــة								
	*١٩٧٠	*١٩٧٢	*١٩٧٤	*١٩٧٦	*١٩٧٨	*١٩٨٠	**١٩٨٢	**١٩٨٤	**١٩٨٦
الزراعة والصيد والثروة الحيوانية	٥ر٤	٩ر٢	١٦ر١	٢٢ر٩	٢٧ر٤	٤٥ر٥	٥١	٥٦	٦٤
النفط والتعدين والمحاجر	١٩٢ر٣	٣٢٤ر٣	١٩٣٤ر٣	١٧١٧ر٠	١٤٩١ر٥	٣٨٩٢ر٤	٤٠٩٨	٣٠٩٥	١٤٧٤
الصناعة التحويلية	٨ر٣	١٣ر٩	٢٣ر٢	٣١ر٤	٩٩ر٨	٢٣٠ر٥	٣٨٠	٥٠٠	٤٨٥
الكهرباء والغاز والماء	٣ر٩	٦ر٦	١٢ر٢	١٦ر٦	٣١ر٣	٧١ر٣	٢٤	٤٥	١٠٠
التشييد والبناء	١٩ر٢	٣٢ر٣	٧٨ر١	٣١٥ر٩	٣٧٥ر٨	٥٤٠ر٩	٥٠٠	٣٨٥	٢٨٨
المجمـــوع	٢٢٩ر١	٣٨٦ر٣	٢٠٦٣ر٩	٢١٠٣ر٨	٢٠٢٥ر٨	٤٧٨٠ر٨	٥٠٥٣	٤٠٨١	٢٤١١
التجارة والمطاعم والفنادق	٢٣ر٠	٣٨ر٨	١٣١ر٥	٢١٥ر٩	٢٥٤ر٠	٥٠٠ر٢	٤٨٥	٤١١	٣١٤
النقل والتخزين والمواصلات	٢٢ر٣	٣٧ر٦	٧٠ر٩	١٠٤ر٩	١٣٠ر٢	٢٠٥ر٢	١٢٥	١٣١	١١٢
الخدمات المالية والتأمين والبنوك	١٣ر٣	٢٢ر٤	٥٤ر٠	١٥٤ر١	١٥٧ر٢	٢٥٩ر٩	٦٣٠	٥٢٥	٥٠٣
المجمـــوع	٥٨ر٦	٩٨ر٨	٢٥٦ر٤	٤٧٤ر٩	٥٤١ر٤	٩٦٥ر٣	١٢٤٠	١٠٦٧	٩٢٩
العقارات والمساكن	–	–	–	–	–	–	–	–	–
الخدمات العامة	١٣ر٥	٢٢ر٨	٧٦ر٥	١٢١ر٦	١٨٠ر٩	٣٢٩ر٤	١ر٢٩١	١٦٩٠	١٦٥٢
خدمات أخرى	١ر٤	٢ر٣	٦ر٥	٢٨ر٦	٣٥ر٩	٥٥ر٨	٢٥	٤٨	٥٥
المجمـــوع	١٤ر٩	٢٥ر١	٨٣ر٠	١٥٠ر٢	٢١٦ر٨	٣٨٥ر٢	١٣١٦	١٧٣٨	١٧٠٧
جملة الناتج المحلي الإجمالي	٣٠٢ر٦	٥١٠ر٢	٢٤٠٣ر٣	٢٧٢٨ر٩	٢٧٨٤ر٠	٦١٣١ر٣	٧٦٠٩	٦٨٨٦	٥٠٤٧

المصدر :

cs of the Arabian Gulf: A Statistical Sourcebook, Groom Helm, London, 1984. Table 207, P.11.

** الجهاز المركزي للاحصاء، المجموعة الاحصائية السنوية (أعوام مختلفة) رئاسة مجلس الوزراء، قطر.

وعلى الوتيرة نفسها التي ميزت عقد الستينات، استمر إرساء وتكثيف البنى التحتية والخدمات في قطر في عقد السبعينات، ومعه وصل النمو السكاني بنسب عالية قد تزيد في أحيان عن ٨٪ سنوياً. وطبيعي أن يكون الجزء الأكبر من هذا النمو العالي راجعاً إلى تزايد الوافدين تلبية لاحتياجات النمو الإجتماعي الاقتصادي في دولة رفاه(١).

تحليل القوى العاملة لمرحلة الطفرة (١٩٧٠-١٩٨٠) :

ربما كان أقدم وأشمل المصادر الإحصائية التي يمكن الاعتماد عليها في عقد السبعينات هو التعداد القطري لسنة ١٩٧٠، حيث تشير بياناته إلى أن مجموع القوى العاملة في قطر قد بلغت ٤٨٫٣٩٠ شخصاً من بينهم ٤٠٫٢٢٢ شخصاً من غير القطريين (٨٣٪ مقابل ١٧٪ للقطريين) انظر ملحق رقم (١). وهناك عوامل كثيرة تبرز هذا الانخفاض في قوة العمل القطرية. فمع مطلع السبعينات لم يكن التعليم قد لعب دوراً في نمو العمالة القطرية في المجالات المختلفة، فضلاً عن أن المرأة القطرية لم تكن قد دخلت سوق العمل بأعداد ملحوظة، كما أن نسبة ملحوظة من العمالة القطرية كانت تعمل في المهن اليدوية المتصلة بالقطاعات الحديثة، وعلى الأخص في مجالات الصناعة التحويلية وصناعة النفط، بالإضافة إلى الخدمات الحكومية التي تستأثر بعدد ملحوظ من القطريين. أما الوافدين فقد انتشروا في كل النشاطات الاقتصادية تقريباً، وإن كانوا قد تركزوا بشكل أكبر في مجالات الصناعة التحويلية والبناء والتشييد، والتجارة، والخدمات العامة والخاصة. ومن الطبيعي أن تكون العمالة الوافدة على هذا القدر النوعي والكمي لتحقيق مخططات التنمية التي رسمتها قطر لعقد الستينات. ومن الطبيعي أيضاً أن تزداد العمالة الوافدة كماً ونوعاً مرة أخرى في السبعينات، عقد التنفيذ الفعلي للبناء القطري الحديث (راجع جدول رقم ٣ وشكل رقم ٣).

ويوضح جدول رقم (٢) عدة حقائق حول التوزيع المهني لجنس وجنسية القوى العاملة في قطر عام ١٩٧٠ :

---

(١) وطبقاً لبيانات تعداد ١٩٧٠ فإن عدد غير القطريين بلغ ٦٦٫٠٩٤ نسمة، بينما ارتفع عددهم في تقديرات ١٩٧٩ إلى ١٦٧٢٣٦ نسمة – أي بنسبة تبلغ ٥٩٪ و٧٩٪ من مجموع السكان على أرض قطر لسنتي ١٩٧٠ و١٩٧٩ على التوالي.

جـــدول رقم (٢)

التوزيع المئوي للقوة العاملة في قطر طبقاً للجنسية والجنس والمهنة لعام ١٩٧٠

المهنـــــــــة	القطريـــــون			غير القطريـــــن		
	ذكـور	انــاث	المجموع	ذكـور *	انــاث	المجموع
الفنيون والمهنيون ومن إليهم	٥ر٦	١٢ر٠	٥ر٩	٣ر٩	٥١ر١	٥ر٢
الإداريون ومديرو الأعمال	٢ر٦	—	٢ر٥	١ر٣	٣ر٥	١ر٣
الكتبة ومن إليهم	١٥ر١	٢١ر٣	١٥ر٦	٨ر٢	٧ر٩	٨ر٢
العاملون في البيع	٩ر١	٢ر٥	٨ر٩	٧ر٨	٠ر٨	٧ر٦
العاملون في الزراعة وصيد الأسماك	١ر٠	—	٠ر٩	٤ر٩	—	٤ر٨
العاملون في النقل	١٩ر٢	—	١٨ر٦	٧ر٥	—	٧ر٣
الحرفيون وعمال الإنتاج ومن إليهم	٣١ر٧	١ر٠	٣٠ر٦	٤٢ر٩	١ر٠	٤١ر٧
العاملون في الخدمات	١٤ر٨	٥٣ر٢	١٦ر١	١٩ر٨	٣٥ر٧	٢٠ر٣
المهن الأخرى بما فيها القوات المسلحة	٠ر٩	—	٠ر٩	٣ر٧	—	٣ر٦
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
الأعداد المطلقة	٧ر٨٨٤	٢٨٤	٨ر١٦٨	٣٩ر١١٣	١ر١٠٩	٤٠ر٢٢٢

المصدر :

Ministry of Overseas Development, The First Population Census of Qatar April - May 1970, Middle East Development Division, British Embassy Beirut, October 1970. Table 19.

١ - قلة واضحة في مساهمة المرأة في العمل سواء من القطريات (٥ر٣٪ من قوة العمل القطرية) أو غير القطريات (٨ر٢٪ من قوة العمل الوافدة).
٢ - تركز العمالة القطرية في تلك الفترة حول الحرف والنقل والخدمات (٦٥٪) ومشاركة ضئيلة في الادارة والمهن الفنية (٥ر٨٪ فقط) ويرد هذا إلى نقص المهارات لانخفاض التعليم والتدريب بالنسبة للقطريين. ومن هنا كانت إحدى استراتيجيات قطر خلال السبعينات هو التوجه لتقطير القيادات الإدارية وتم تحقيق ذلك بصورة مرضية في الثمانينات.
٣ - توزع شبه متعادل للوافدين على المهن المختلفة وبخاصة قطاعي عمالة الإنتاج والخدمات.

وفي مطلع الثمانينات حدث تغير كمي ونوعي مرغوب تمثل في زيادة العمالة القطرية بنحو مرتين ونصف مقارنة بأرقام ١٩٧٠. فعلى مدى عقد واحد ارتفعت العمالة القطرية من ٨١٦٨ شخصاً في سنة ١٩٧٠ إلى ١٨ر٩١٠ شخصاً في سنة ١٩٨١ (جدول رقم ٣). ولا يعود هذا النمو في حجم العمالة القطرية إلى الزيادة الطبيعية التي بدأت ترتفع بشكل ملحوظ منذ مطلع الستينات، بقدر ما يعود إلى التطور الاجتماعي الذي شهدته قطر خلال السبعينات على وجه الخصوص. فالتوسع في التعليم العام ثم إقامة جامعة قطر أسهما في تأهيل أعداد متزايدة من القطريين للدخول إلى سوق العمل. وفي هذا السياق بدأ دخول المرأة القطرية سوق العمل المحلية، بعد أن أتاحت لها الجامعة وعلى وجه الخصوص فرص الالتحاق بالمهن التعليمية. وقد يثار هنا عامل التجنيس كأحد العوامل المساهمة في نمو العمالة القطرية خلال تلك الفترة، ولكننا نعتقد أن دوره محدود في هذا المجال، خاصة وأن قانون الجنسية (قانون رقم ٢) الذي وضعته الدولة في عام ١٩٦١، وبدأت تطبيقه في عام ١٩٦٢ يعتبر :

> «القطريون هم من توطنوا في قطر قبل عام ١٣٥٠ هجرية (١٩٣٠ ميلادية) وحافظوا على إقامتهم العادية فيها.. ويكون قطرياً كل من ولد في قطر أو في الخارج، لأب قطري»[١] .

---

(١) دولة قطر، مجموعة قوانين قطر ١٩٦١-١٩٧٥، المجلد الثاني، وزارة العدل، إدارة الشئون القانونية، مطابع قطر الوطنية، قطر. ص ٧٨٣.

أما الجنسية القطرية فتمنح لعشرة أفراد من العرب كل عام لمن يقيمون في قطر لمدة عشر سنوات متتالية. أما غير العرب فتمنح لهم الجنسية بعد خمسة عشر عاماً[1] . ولو افترضنا أن الجنسية القطرية تمنح سنوياً لكل من العرب وغير العرب بنفس المعدل الذي ينص عليه القانون، فإن دور عملية التجنيس سيكون محدوداً في نمو حجم العمالة القطرية خلال السبعينات. علماً بأن هذه المادة قد ألغيت من القانون سابق الذكر في عام ١٩٦٩[2]

أما العمالة الوافدة فقد تضاعفت بنفس الدرجة خلال عقد السبعينات. إذ ارتفع عددها من ٤٠ر٢٢٢ شخصاً في سنة ١٩٧٠ إلى ١٠٢ر٦٦٢ شخصاً في سنة ١٩٨١، بينما ظلت محافظة على ارتفاع نسبتها المئوية داخل مجموع القوى العاملة (٨٣ر٢٪ و٨٤ر٥٪ على التوالي) كإستجابة مستمرة لمتطلبات التنمية في قطر من ناحية، وللتوسع الذي شهده القطاع الخاص من ناحية أخرى. ولقد استقبلت قطر، خلال الستينات، عمالة تضم أكثر من ٦٠ر٠٠٠ شخص، استوعبتهم القطاعات الاقتصادية المختلفة وعلى الأخص قطاع الخدمات الذي استأثر بنصفهم تقريباً.

على أن توزيع كل من العمالة القطرية والوافدة على قطاعات الإنتاج الرئيسية يكشف لنا عن متغيرات في التوجه المهني للعمالة القطرية. ويوضح جدول (٣) أن العمالة القطرية في ١٩٧٠ كانت أكثر ارتباطاً بقطاعات الإنتاج المباشر، حيث بلغت ٤٠٪ من مجموعها. أما في سنة ١٩٨١ فلقد انخفضت هذه النسبة انخفاضاً كبيراً لتصبح ١١٪. وارتفعت نسبة العمالة القطرية في قطاع الخدمات كثيراً وكذلك ارتفعت نسبة العاملين في المرافق العامة من ٣٪ إلى ١٦٪. ولا شك أن ميل العمالة القطرية إلى التركز في قطاع الخدمات هو أحد الملامح الأساسية التي تميز حركتها خلال السبعينات. أما العمالة الوافدة فقد حافظت علي مكانتها النسبية داخل القوى العاملة طوال عقد السبعينات فهي وإن كانت قد نمت في أحجامها نمواً ملحوظاً على نحو ما رأينا قبل قليل، إلا أن هذا النمو كان امتداداً لما سبق أن حققته خلال عقد الستينات من ناحية، واستجابة لمتطلبات النمو الاقتصادي والوفرة الاقتصادية من ناحية أخرى.

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٧٨٣.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٧٨٨.

جـــدول رقم (٣)

حجم العمالـة في قطر وتوزيعهـا على قطاعـات الإنتـاج الرئيسيـة

(١٩٧٠ - ١٩٨١)

الجنسيــــــة	١٩٧٠						١٩٨١					
	قطريـــــون		وافـــــدون		المجمـــــوع		قطريـــــون		وافـــــدون		المجمـــــوع	
القطـــــــاع	العـــدد	٪	العـــدد	٪	العـــدد	٪	العـــدد	٪	العـــدد	٪	العـــدد	٪
الانتاج المباشر	٣٫١٦٠	٣٩	٦٫٣٥١	١٦	٩٫٥١١	٢٠	٢٫٠٨٩	١١	١٣٫٧٣٢	١٣	١٥٫٨٢١	١٣
المرافق والمنافع العامة	٢٠٧	٣	٧٫٥٧٨	١٩	٧٫٧٨٥	١٦	٣٫٠٩٥	١٦	٢٢٫٨٣٠	٢٢	٢٥٫٩٢٥	٢١
الخدمـــات	٤٫٨٠١	٥٨	٢٦٫٢٩٣	٦٥	٣١٫٠٩٤	٦٤	١٣٫٧٢٦	٧٣	٦٦٫١٠٠	٦٥	٧٩٫٨٢٦	٦٦
المجمـــــوع	٨٫١٦٨	١٦٫٨	٤٠٫٢٢٢	٨٣٫٢	٤٨٫٣٩٠	١٠٠	١٨٫٩١٠	١٥٫٥	١٠٢٫٦٦٢	٨٤٫٥	١٢١٫٥٧٢	١٠٠٪

المصدر :

عدلت ونقحت من :

علي خليفة الكواري، نحو فهم أفضل لأسباب الخلل السكاني في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٣. ملحق (٣ أ و ٣ ب) ص ص ١٠٧ و ١٠٨

ومن الضروري ألقاء نظرة فاحصة على طبيعة العمالة الوافدة في قطر مع مطلع الثمانينات. ويتضمن جدول رقم (٤) بيانات تكشف عن توزيع القوى العاملة على النشاطات الاقتصادية طبقاً للجنسية وذلك بالنسبة لعام ١٩٨١. وللوهلة الأولى يفرض متغير الجنسية نفسه على توزيع القوى العاملة في قطر ليشكل في نهاية الأمر «شبه جماعات عمل».

فنسبة القطريين داخل القوى العاملة في قطر لم تتجاوز ١٦٪، بينما العرب الوافدون لا يزيدون عن ذلك كثيراً، حيث تبلغ نسبتهم داخل القوى العاملة ٢٠٪. أما الأجانب الوافدون فيشكلون ما يقرب من ثلثي القوة العاملة (٦٤٪). ويميل القطريون إلى التركز في نشاطات اقتصادية بعينها. فهم أكثر ميلاً إلى العمل في مجالات النفط الخام والمحاجر (٣٥٪)، والكهرباء والماء (٣٢٪)، النقل والتخزين (٣٠٪)، والخدمات الحكومية (٣٠٪). والملاحظ أن هذه النشاطات الاقتصادية تتميز بطابعها الخدمي، كما أن معظمها يدخل في نطاق القطاع الاقتصادي الحديث الذي تشكل من خلال التنمية الاقتصادية التي شهدتها قطر منذ مطلع الخمسينات. وهناك ثلاثة مجالات اقتصادية لا نجد فيها للقطريين تمثيلاً واضحاً، ونعني بها الصناعة التحويلية التي لا تتجاوز فيها نسبتهم ٥٪، والتشييد والبناء (٢٪)، والخدمات الأهلية (٣٪). وسبب ذلك يعود إلى إنصراف القطريين عن العمل اليدوي والفني وبسبب قسوة العمل فيهم ورخص العمالة الآسيوية وسهولة الحصول عليها.

أما العمالة العربية الوافدة، فعلى ضآلتها، فإنها أكثر ميلاً إلى التركز في نشاطين أساسيين هما: الخدمات الحكومية (٢٨٪)، والتشييد والبناء (٢٦٪). أما تفسير الوجود العربي داخل الخدمات الحكومية فيعود إلى التوجهات العربية داخل عدد من الأجهزة الحكومية القطرية وعلى الأخص في مجال التعليم، حيث يزداد الاعتماد على العمالة العربية، وعلى الأخص الفلسطينية والأردنية والمصرية. وفضلاً عن ذلك تميل بعض المؤسسات الإدارية القطرية إلى الاعتماد بدرجة كبيرة على العمالة العربية المؤهلة.

أما الوافدون الأجانب فقد حققوا خلال عقد السبعينات نمواً سريعاً في أعدادهم داخل كل القطاعات الاقتصادية القطرية تقريباً. وفي بعض الحالات المتطرفة نجد نسبتهم داخل قطاع الخدمات الأهلية تصل إلى ٨٦٪، وهو قطاع واسع يضم نشاطات

جدول رقم (٤)

توزيع القوى العاملة في قطر على النشاطات الاقتصادية طبقاً للجنسية

(١٩٨١)

القطاع	قطريون			وافدون عرب			وافدون أجانب			المجموع		
	العدد	٪ من مجموع القطريين	٪ من المجموع العام	العدد	٪ من مجموع العرب	٪ من المجموع العام	العدد	٪ من مجموع الأجانب	٪ من المجموع العام	العدد	٪ من مجموع القطاعات	٪ من المجموع العام
الزراعة والصيد والثروة الحيوانية	٥٠٠	٢ر٦	١٧ر٠	٤٠٣	١ر٧	١٣ر٧	٢ر٠٣٦	٢ر٦	٦٩ر٣	٢ر٩٣٩	٢ر٤	١٠٠
النفط الخام والمحاجر	١ر١١٤	٥ر٩	٣٤ر٨	٨٤٠	٣ر٥	٢٦ر٣	١ر٢٤٣	١ر٦	٣٨ر٩	٣ر١٩٧	٢ر٦	١٠٠
الصناعة التحويلية	٤٧٥	٢ر٥	٤ر٩	١ر٦٠٠	٦ر٧	١٦ر٥	٧ر٦١٠	٩ر٧	٧٨ر٦	٩ر٦٨٥	٨ر٠	١٠٠
الكهرباء والماء	٢ر٧٣١	١٤ر٥	٣٢ر١	٤١٨	١ر٧	٤ر٩	٥ر٣٥٩	٦ر٨	٦٣ر٠	٨ر٥٠٨	٧ر٠	١٠٠
التشييد والبناء	٣٦٤	٢ر٠	٢ر١	٤ر٥٦١	١٩ر٢	٢٦ر٢	١٢ر٤٩٢	١٥ر٨	٧١ر٧	١٧ر٤١٧	١٤ر٣	١٠٠
التجارة	١ر٠٣٥	٥ر٤	٧ر٣	٢ر٦١٦	١١ر٠	١٨ر٥	١٠ر٤٦٤	١٣ر٣	٧٤ر٢	١٤ر١١٥	١١ر٦	١٠٠
النقل والتخزين والمواصلات	١ر٢٠٥	٦ر٣	٣٠ر٤	٢٧٦	١ر٢	٧ر٠	٢ر٤٧٥	٣ر١	٦٢ر٦	٣ر٩٥٦	٣ر٣	١٠٠
الخدمات الأهلية	٦٥١	٣ر٥	٢ر٦	٢ر٧٥٤	١١ر٦	١٠ر٩	٢١ر٧٨٥	٢٧ر٦	٨٦ر٥	٢٥ر١٩٠	٢٠ر٧	١٠٠
الخدمات الحكومية	١٠ر٨٣٥	٥٧ر٣	٢٩ر٦	١٠ر٣١٤	٤٣ر٤	٢٨ر٢	١٥ر٤١٦	١٩ر٥	٤٢ر٢	٣٦ر٥٦٥	٣٠ر١	١٠٠
المجموع	١٨ر٩١٠	١٠٠	١٦	٢٣ر٧٨٢	١٠٠	٢٠	٧٨ر٨٨٠	١٠٠	٦٤	١٢١ر٥٧٢	١٠٠	١٠٠

المصدر :

عدلت ونقحت من : علي خليفة الكواري، سبق ذكر المصدر، ملحق (١ أ) و (١ ج) ص ص ١٠٤ و ١٠٥

القطاع الخاص بوجه عام ابتداء من النشاطات الصناعية والحرفية المحدودة حتى الخدمات المنزلية والشخصية. وتتميز العمالة في هذا القطاع بأصولها الآسيوية، ومهاراتها المحدودة، وانخفاض أجورها، وسهولة الحصول عليها. أما أقل القطاعات استيعاباً للوافدين الأجانب فهو قطاع النفط الخام والمحاجر حيث تبلغ نسبتهم فيه ٣٩٪. وداخل هذين القطبين نجد الوافدين الأجانب (وعلى الأخص الآسيويين) يشكلون أغلبية متفاوتة الأحجام في كافة النشاطات الاقتصادية القطرية ففي التجارة تبلغ نسبتهم ٧٤٪، وفي الصناعة التحويلية تصل نسبتهم إلى ٧٩٪، بينما تبلغ نسبتهم في قطاع النقل والتخزين والمواصلات ٦٣٪ وفي قطاع الكهرباء والماء نجد هذه النسبة ٦٣٪.

وفي نهاية تحليلنا يمكننا الإشارة بإيجاز إلى تركيب العمالة في القطاع الخاص. والملاحظ من الجدول رقم (٥) أن قوة العمل القطرية داخل القطاع الخاص محدودة جداً. فنسبتهم تبلغ ٤٪ من مجموع العاملين فيه، ويميلون إلى التركز في النشاطات التجارية التي تستوعب ثلثيهم. ويقتصر دور القطريين في مجال النشاطات التجارية على ملكية المشروعات أو إدارتها وذلك طبقاً لحجمها الاقتصادي. أما الوافدون العرب فيشكلون حوالي خمس العمالة في القصاع الخاص (٥ر٢٢٪)، وأن كانوا يميلون إلى التركز في مجالي المقاولات والصناعات التحويلية الخفيفة.

أما الوافدون الأجانب فإنهم يشكلون ثلاثة أرباع عمالة القطاع الخاص (٥ر٧٣٪)، ويحققون سيطرة عددية على كل مجالات النشاط الاقتصادي الخاص ولكن انخفاض نسبة القطريين داخل القطاع الخاص يواكبه سيطرة واضحة عليه من جانبهم، حيث أنهم يميلون إلى استثمار أموالهم فيه، ويحققون قدراً كبيراً من السيطرة على نشاطاته الاقتصادية بوجود نظام الكفيل القطري الذي يقوم باستقدام العمالة الأجنبية على كفالته الشخصية للعمل في المجالات المختلفة للقطاع الخاص، سواء كانت متصلة بالإنتاج داخل الصناعات التحويلية الصغيرة أو مشروعات المقاولات، أو متعلقة بالنشاطات التجارية بوجه عام. ومن الواضح أن بيانات جدول رقم (٥) لا تشتمل على عمالة الخدمة الشخصية والمنزلية التي تشكل قطاعات كبيراً داخل القوى العاملة للقطاع الخاص، على الرغم من أن هذا النمط من العمالة قد نما في قطر منذ السبعينات، وازداد نمواً خلال الثمانينات.

جـدول رقم (٥)

تركيب العمالة في القطاع الخاص القطري طبقاً للجنسية

(١٩٨١)

النشاط	قطريون		عرب		أجانب		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الصناعة التحويلية الخفيفة	١٠٠	١ر٨	١ر٢٠٠	٢١ر٦	٤ر٢٦٠	٧٦ر٦	٥ر٦٠٥	١٠٠
المقاولات	٣٦٤	٢ر١	٤ر٥٦١	٢٦ر٢	١٢ر٤٩٢	٧١ر٧	١٧ر٤١٧	١٠٠
التجارة	١ر٠٣٥	٧ر٣	٢ر٦١٦	١٨ر٥	١٠ر٤٦٤	٧٤ر٢	١٤ر١١٥	١٠٠
المجموع	١ر٤٩٩	٤ر٠	٨ر٣٧٧	٢٢ر٥	٢٧ر٢١٦	٧٣ر٥	٣٧ر٠٩٢	١٠٠

المصدر :

عدلت ونقحت من :

علي خليفة الكواري، سبق ذكر المصدر، ملحق (٣ أ) و (١٣ جـ) ص ص ١٢٢ و ١٢٣.

٣ - التنمية الاقتصادية والعمالة : حقبة التشكل والتدعيم :

كشفت تحليلاتنا السابقة عن أن عقد السبعينات قد شهد طفرة نفطية واسعة واكبها نمو سريع في حجم القوى العاملة الوافدة، ونمو أقل في حجم العمالة القطرية. والواقع أن الجانب الأكبر من هذا النمو قد تم في غياب خطط تنموية واضحة، وعلى الأخص خلال النصف الأول من السبعينات. أما النصف الثاني من العقد فقد شهد محاولات عديدة لرسم مخططات التنمية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وإنعكس ذلك في شكل مشروعات عامة في مختلف قطاعات المجتمع. ويمكن القول أن قطر قد حاولت خلال الثمانينات التحكم في مسارات التنمية التي بدأت خلال السبعينات وتوجيهها توجيهاً أكثر رشداً. ان عقد الثمانينات هو عقد التشكل والتدعيم لما تم إرسائه خلال عقد السبعينات. وسوف نحاول هنا تتبع المتغيرات التي طرأت على بناء القوى العاملة في قطر، والوقوف على أبرز العوامل المؤثرة عليها، سواء كانت عوامل خارجية أو داخلية (اقتصادية، واجتماعية وسياسية).

وربما كان أدق المصادر الرسمية التي يمكن الاعتماد عليها في تحليل ملامح القوى العاملة خلال الثمانينات هو التعداد القطري لسنة ١٩٨٦ الذي يحتوي على ثروة ضخمة من البيانات الاحصائية التي تساعدنا على تحقيق أهدافنا التحليلية. ومن البيانات الأولية التي يجب أن نبدأ بها تحليلنا، اعداد النشطين اقتصادياً الذين تزيد أعمارهم عن خمسة عشر عاماً. ويكشف جدول رقم (٦) وملحق رقم (٢) والشكل رقم (٣) عن عدد النشطين اقتصادياً طبقاً للجنس. فلقد بلغ عدد النشطين اقتصادياً ٢٠١ر١٨٢ شخصاً. أما العاملون منهم بالفعل فيشكلون غالبية ساحقة (تبلغ حوالي ٩٩٪ من المجموع العام). وإذا ما عدنا إلى بيانات عامي ١٩٧٠ و١٩٨١، المتضمنة في جدول رقم (٣)، وجدنا أن القوى العاملة في قطر قد نمت نمواً ضخماً خلال عقد ونصف من الزمان. فقد ارتفع مجموع القوى العاملة في قطر من ٤٨ر٣٩٠ شخصاً عام ١٩٧٠ ليتضاعف إلى ١٢١ ألفاً عام ١٩٨١ ثم يكاد أن يتضاعف مرة أخرى في خمس سنوات ليصل إلى ٢٠٠ ألف عام ١٩٨٦.

ولابد من الاشارة أيضاً إلى قوة العمل النسائية في قطر في منتصف الثمانينات. فالملاحظ أن نسبة النساء العاملات قد بلغت في تعداد ١٩٨٦ حوالي ١٠٪ من مجموع

جـــدول رقم (٦)

النشطـون اقتصـادياً في قطـر طبقـاً للجنس والنشـاط الاقتصـادي

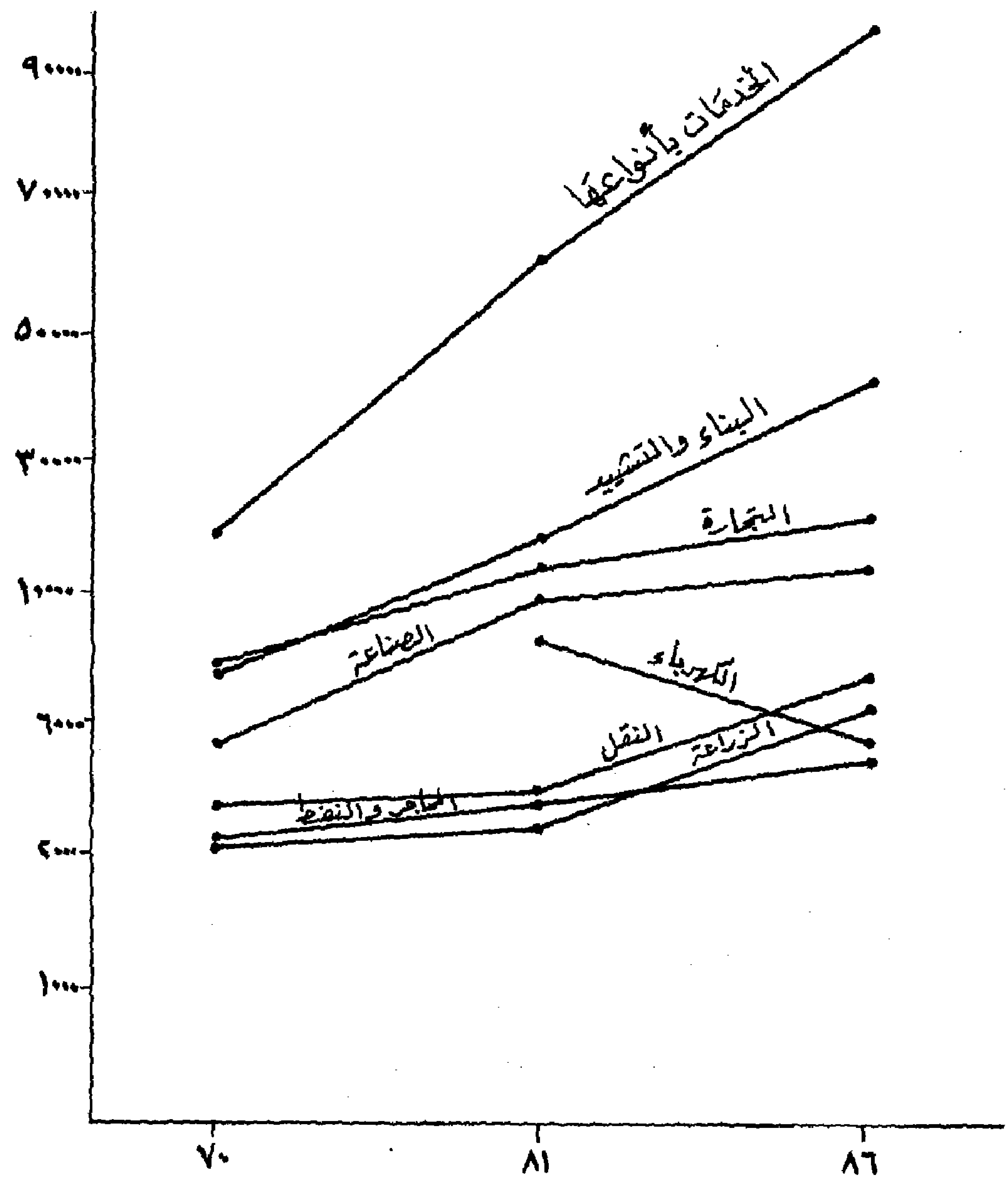
(١٥ سنة فأكثر) - (١٩٨١)

النشـاط الاقتصـادي	ذكـــور العـدد	ذكـــور ٪	انـــاث العـدد	انـــاث ٪	المجمـــوع العـدد	المجمـــوع ٪
الزراعة وصيد البر والبحر	٦ر٢٧٩	٣ر٥	٤	٠ر٠	٦ر٢٨٣	٣ر١
المناجم والمحاجر	٤ر٦٣٢	٢ر٦	١٧٥	٠ر٩	٤ر٨٠٧	٢ر٤
الصناعات التحويلية	١٣ر٧٩١	٧ر٦	١٢٣	٠ر٦	١٣ر٩١٤	٧ر٠
الكهرباء والغاز والمياه	٥و٢٦٤	٢ر٩	٢	٠ر٠	٥ر٢٢٦	٢ر٦
التشييد والبناء	٤٠ر٤٠٨	٢٢ر٣	١١٥	٠ر٦	٤٠ر٥٢٣	٢٠ر٢
التجارة والمطاعم والفنادق	٢١ر٦٤٧	١٢ر٠	٣١٧	١ر٦	٢١ر٩٦٤	١١ر٠
النقل والخزين والمواصلات	٧ر٠٧٥	٣ر٩	٢٨٢	١ر٥	٧ر٣٥٧	٣ر٧
تمويل وتأمين وعقارات	٢ر٨٥٠	١ر٦	٣٠٧	١ر٦	٣ر١٥٧	١ر٦
خدمات مجتمع واجتماعية	٧٨ر٣٢٢	٤٣ر٣	١٨ر١٤٤	٩٣ر١	٩٦ر٤٦٦	٤٨ر٢
أنشطة غير كاملة التوصيف	٤٨٨	٠ر٣	١٣	٠ر١	٥٠١	٠ر٢
المجمـــوع	١٨٠ر٧٥٦	١٠٠	١٩ر٤٨٢	١٠٠	٢٠٠ر٢٣٨	١٠٠

المصدر :

معـدل من : الجهاز المركزي للاحصاء، التعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٩٨٦، قطر، سبتمبر ١٩٨٧، جدول رقم (١٤) ص ٥٨.

شكل رقم (٣)
توزيع القوى العاملة على القطاعات الاقتصادية
(١٩٧٠ - ١٩٨٦)



المصدر: جدولي رقم (٤) ورقم (٦)
ملحق رقم (١)

القوى العاملة. وهي نسبة على ضآلتها تكشف عن تحولات جديدة فيما يتعلق بموقع المرأة داخل تركيب القوى العاملة بوجه عام. إن بناء القوى العاملة في أقطار الخليج العربية قد ظل لفترة طويلة «بناء ذكورياً» بالدرجة الأولى. إلا أن التحولات التي طرأت في مجال تعليم المرأة قد أتاحت الفرصة لالتحاقها ببعض المهن التي لا تتعارض مع التراث الحضاري والإسلامي لهذه الأقطار. وتميل المرأة القطرية إلى العمل في القطاع الحكومي بسبب اقتصار نشاطها المهني على مجالي التدريس والتمريض. وتدل أرقام الجهاز المركزي للاحصاء لعام ١٩٨٨ على أن مساهمة النساء في قوة العمل الحكومية كانت حول ٢٠٪ للأعوام ٨٥-١٩٨٧[١] . ومن الأمور اللافتة للنظر أن الحكومة القطرية قد أتاحت فرصة التعليم المجاني للمرأة على نطاق واسع، ومن ثم أسهمت المدارس والجامعات في تخريج أعداد ضخمة يضيق سوق العمل الراهنة عن استيعابهم. والملاحظ أيضاً أن حوالي نصف النساء اللاتي تزيد أعمارهن عن خمسة عشر عاماً يتفرغن لإدارة الشئون المنزلية. وتفسير ذلك هو :

١ - ارتفاع نسبة الأمية بين النساء.

٢ - حداثة دخول المرأة سوق العمل.

٣ - اقتصار عمل المرأة لأسباب وعوامل مجتمعية وثقافية على ميادين نسائية معينة كالتعليم بوجه خاص. ولأن في هذا هدر لجانب من الاستثمارات المخصصة للتعليم دون عائد واضح، فإنه يبدو أن المخططين القطريين وجانب من المجتمع قد أصبح أكثر وعياً بهذه المشكلة، وأصبحنا نسمع كثيراً من الاقتراحات التي تحبذ دخول المرأة مجالات عمل جديدة في فروع للبنوك والمؤسسات تخصص لخدمة النساء، دون أن يتعارض ذلك مع التراث الثقافي السائد والتعاليم الإسلامية.

والواقع أن بيانات النشاط الاقتصادي تظل غامضة بعض الشيء ما لم نربطها بالمتغيرات الهامة المتصلة بها، وعلى الأخص العمر، والجنس، والجنسية. وطالما أننا نفتقد مثل هذه العلاقات في بيانات التعداد القطري، فإننا نضطر إلى الاعتماد على تقديرات الأمم المتحدة للنشاط الاقتصادي لقطر لعام ١٩٨٦، وهو نفس العام الذي

---

(١) الجهاز المركزي للاحصاء، المجموعة الاحصائية السنوية: (١٩٨٥-١٩٨٨)، دولة قطر.

أجري خلاله التعداد القطري. ومن المتوقع أن تساعدنا هذه التقديرات على فهم الاتجاهات العامة للقوى العاملة وذلك بإدخال متغير الجنسية باعتباره أحد المتغيرات التفسيرية. ويكشف جدول ملحق (٣) عن أن مجموع النشطين اقتصادياً في قطر قد بلغ ٧٢٠ر١٩٥ شخصاً بفارق طفيف عن بيانات التعداد القطري لسنة ١٩٨٦ (يبلغ الفارق ٥١٨ر٤ شخصاً). وحسب تقديرات الأمم المتحدة قد بلغت العمالة القطرية ١٣٧ر٢٠ عاملاً عام ١٩٨٦. بينما كان عددها قبل ذلك بخمس سنوات ٩١٠ر١٨ شخصاً. والواقع أن نسبة القطريين داخل مجموع القوى العاملة قد انخفضت انخفاضاً ملحوظاً طبقاً لبيانات الأمم المتحدة لسنة ١٩٨٦. إذ لا تزيد هذه النسبة عن ٣ر١٠٪ بعد أن كانت ١٦٪ في سنة ١٩٨١.

أما غير القطريين فتبلغ نسبتهم داخل مجموع القوى العاملة حوالي ٧ر٨٩٪. وربما يفسر لنا ذلك نمو العمالة الأجنبية خلال الثمانينات وعدم قدرة العمالة المواطنة عن ملاحقة ذلك بسبب قلة العدد السكاني القطري بوجه عام من ناحية، والتوسع في التعليم الذي أجل دخول أعداد كبيرة من القطريين إلى سوق العمل من ناحية أخرى. ولهذا السبب نجد العمالة المواطنة خلال الثمانينات تحقق معدل نمو أقل من ذلك الذي حققته خلال السبعينات.

ويبدو أن الجانب الأكبر من النمو الذي شهدته القوى العاملة في قطر خلال الثمانينات قد تحقق في مجال القطاع الخاص، ذلك لأن القطاع الحكومي قد حقق نموه الأساسي خلال السبعينات. بينما بدأ القطاع الخاص يحقق توسعه منذ بداية الثمانينات، وطبقاً لبيانات مسح أجرى على القطاع الخاص في سنة ١٩٨٣، فإن عدد العاملين به كان آنذاك ٧٥٨ر٦٧، يشكل القطريون منهم ٨ر١٧٪ فقط[١] . وفي معظم الأحيان فإن مهن القطاع الخاص تتميز بإنخفاض مستويات دخولها، واعتمادها على مهارات يدوية قد لا يحبذها القطريون.

وتكشف بيانات المشاركة في القوى العاملة عن تفاوتات ملحوظة طبقاً لمتغيرات الجنس والعمر والمواطنة. ففي ملحق (٤) نجد تفاوتاً واضحاً بين معدلات النشاط الخام

---

(١) الجهاز المركزي للاحصاء، نتائج مسح العاملين في القطاع الخاص، دولة قطر، فبراير ١٩٨٤، جدول رقم (١)، ص ١.

المعبرة عن كل من المواطنين وغير المواطنين. فمعدل النشاط الخام لدى المواطنين يبلغ ١٧ر١٩٪، بينما يبلغ نظيره عند غير المواطنين إلى ٧٨ر٦١٪، أي أن الأخير يبلغ ثلاثة أضعاف الأول. أما معدل النشاط المعدل بالنسبة للمواطنين فيبلغ ٢٠ر٣٨٪، بينما يصل إلى ٦٣ر٧٧٪ بالنسبة لغير المواطنين. وذلك أمر طبيعي. فالوافدون وفدوا من أجل العمل ومعظمهم في سن العمل بينما يتوزع المواطنون على فئات مجتمع كامل بين التلميذ، والمتقاعد والنشط اقتصادياً، وعدم مشاركة الإناث في سوق العمل إلا فيما ندر فمعدل النشاط المعدل بين النساء إلى ٦٣ر٧٪ في مقابل ٥٣ر٦٩٪ بالنسبة للذكور.

وربماً استطاع متغير النشاط الاقتصادي القاء الضوء على ملامح قوة العمل في منتصف الثمانينات. فكما يشير جدول رقم (٧) نجد أن نصف القوى العاملة تقريباً (٢ر٤٨٪) تعمل في إطار ما أطلق عليه التعداد القطري «خدمات مجتمع وإجتماعية»، وهي فئة واسعة وغامضة، ولكنها تشير إلى جانب من قطاع أكبر يطلق عليه الاقتصاديون «القطاع الثالث». وإذا ما استخدمنا مفهوم القطاع الثالث لتفسير طابع البناء الاقتصادي القطري، لاحظنا أنه يضم نسبة ضخمة من العاملين تضاف إلى قوة العمل التي تدخل في نطاق فئة «خدمات مجتمع واجتماعية». وفي هذا السياق يمكننا أن نشير إلى العاملين في قطاع التجارة والمطاعم والفنادق (١١٪)، والنقل والتخزين والمواصلات (٧ر٣٪). وإذا كانت المشروعات الصناعية القطرية، وهو نمط يحاول تعويض النقص في القوة البشرية بإستخدام تكنولوجيا متقدمة نسبياً. ويبدو أن قطر – شأنها في ذلك شأن الأقطار الخليجية العربية الأخرى – قد أدركت أن نمط الإنتاج الصناعي المعتمد على تكثيف رأس المال هو أكثر ملائمة من نمط الإنتاج الصناعي المعتمد على تكثيف العمل وذلك لندرة الموارد البشرية وزيادة الفوائض المالية. ومن الظواهر ارتفاع نسبة العاملين في قطاع التشييد والبناء إلى ٢٥٪ من مجموع قوة العمل في قطر. وهذا ما هو إلا تعبير عن استمرارية قطر في توفير البنية الأساسية وإنجاز المشروعات العامة.

ويكشف تحليل البيانات الرقمية أيضاً عن اتجاهين : الأول هو انخفاض مساهمة القطاع الأولي (الزراعة والصيد والمحاجر) عن قطاعي الناتج المحلي العام وقوة العمل. وذلك مرتبط بجمع ظروف بيئية تحت عنوان المناخ الجاف الذي يحد كثيراً من النشاط

جـــدول رقم (٧)

التـوزيـع المئـوي للنشطـين اقتصـادياً في قطـر طبقـاً للقطـاع والجنس والجنسيـة

(١٥ سنة فأكثر) - (١٩٨٦)

القطـــاعات	المواطنـــون			غير المواطنيــــن			المجمـــوع		
	ذكـور	انـاث	المجمـوع	ذكـور	انـاث	المجمـوع	ذكـور	انـاث	المجمـوع
الزراعـة	٨ر٠	–	٠٧ر٠	٠١٨ر٠	–	١٦ر٠	١٧ر٠	–	١٥ر٠
الصناعـة :									
المناجم والمحاجر	٤٤ر٥	١٥ر٠	٩٠ر٤	٤١ر٣	١٩ر٠	١٣ر٣	٦٢ر٣	١٩ر٠	٣٢ر٣
الصناعة التحويلية	٥٢ر٢	٤١ر١	٤١ر٢	٥٤ر١٦	٦٩ر٠	١٧ر١٥	١٢ر١٥	٧٨ر٠	٨٦ر١٣
الكهرباء والغاز والماء	٢٠ر٢٢	–	٩٣ر١٩	٠٩ر٣	–	٨٢ر٢	٠٣ر٥	–	٥٩ر٤
التشييد والبناء	٠٧ر١	–	٩٦ر٠	٧٧ر٢١	١٣ر٢	٠٧ر٢٠	٦٧ر١٩	٨٨ر١	١٠ر١٨
الخدمـات :									
تجارة الجملة والتجزئة	٠٣ر٩	–	١١ر٨	١٢ر١٧	٨٤ر٧	٣٢ر١٦	٣٠ر١٦	٩١ر٦	٤٧ر١٥
النقل والتخزين والمواصلات	٥٣ر٠	–	٤٨ر٠	٥٣ر٣	٥٥ر١	٣٦ر٣	٢٣ر٣	٣٦ر١	٠٧ر٣
التمويل وخدمات الأعمال	٩٨ر٠	٠٥ر٠	٨٨ر٠	٥٠ر٣	٣٥ر١٢	٢٧ر٤	٢٤ر٣	٨٨ر١٠	٩١ر٣
خدمات المجتمع والخدمات الشخصية	١٥ر٥٨	٣٩ر٩٨	٢٦ر٦٢	٨٦ر٣٠	٢٥ر٧٥	٧٠ر٣٤	٦٢ر٣٣	٠١ر٧٨	٥٣ر٣٧
المجمـوع	١٨ر٠٨١	٢ر٠٥٦	٢٠ر١٣٧	١٦٠ر٣٩٣	١٥ر١٩٠	١٧٥ر٥٨٣	١٧٨ر٤٧٤	١٧ر٢٤٦	١٩٥ر٧٢٠
جملة الناتج المحلي الإجمالي	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

المصدر : مستخرجة من :

الأمم المتحدة، كشوف البيانات الديموجرافية وما يتصل بها من بيانات اقتصادية واجتماعية، تقديرات سكان قطر، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، العدد الخامس، ١٩٨٧. جدول رقم ١٠ و١١ ص ص ١٧٢ و١٧٣.

الزراعي، فضلاً عن انخفاض عائد الزراعة قياساً على التجارة وغيرها من أنشطة القطاع الثلاثي. والاتجاه الثاني هو تركز العمل النسائي في فئة الخدمات الاجتماعية بدرجة لا سابق عليها (٩٥٪ من النساء في هذه الفئة). وقد سبق أن بينا دور بنية الثقافة والمجتمع في ذلك.

ويرتب جدول (٨) قوة العمل القطرية – بغض النظر عن الجنسية – على النشاطات المهنية. وأول ما نلاحظه هو أن ما يقرب من نصف قوة العمل (٤٥٫٥٪) تدخل في فئة «العمال»، وهي فئة غامضة غموض فئة «خدمات المجتمع». إذ أنها تشمل مدى واسعاً من المهن، حيث تضم فيما تضم السعاة، خدم المنازل، سائقي السيارات الخاصة، عمال الحدائق، وأصحاب الحرف كالخياطين والنجارين والحدادين، هذا فضلاً عن عمال الورش الصغيرة والمشروعات الصناعية الكبيرة. ويعود ارتفاع نسبة العاملين في هذه الفئة المهنية إلى التوسع في إستقدام العمالة الآسيوية خلال الثمانينات، وذلك بالمقارنة بعقد السبعينات (انظر جدول رقم «٣»). ففي مطلع السبعينات كان القطريون مايزالون يعملون بنسب ملحوظة في المهن اليدوية (حوالي ٣٠٪ من مجموع العمالة القطرية)، وكذلك بلغت نسبة العاملين من الوافدين في هذه المهن ٤١٫٧٪ في السنة ذاتها. وبقدوم الثمانينات تقلص الوجود القطري في هذه المهن، وبدأ الوافدون من الآسيويين يحققون نمواً متزايداً فيها، وذلك بسبب رخص أجورهم، ووفرتهم النسبية، وسهولة الحصول عليهم. وإذا ما أمعنا النظر مرة أخرى في جدول رقم (٨)، لاحظنا أن العاملين في قطاع الخدمات يشكلون أقل قليلاً من ربع قوة العمل (٢٢٪)، بينما يمثل العاملون في المهن الكتابية ١٢٪ من مجموعها. أما الاخصائيون والفنيون فيشكلون نسبة مقاربة إلى ١٠٪.

جدول رقم (٨)
النشطون اقتصادياً في قطر طبقاً للجنس والمهنة
(١٥ سنة فأكثر) - (١٩٨١)

النشاط الاقتصادي	ذكور		اناث		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الاخصائيون والفنيون ومن إليهم	١٥٫٠٨٦	٨٫٤	٥٫٥١١	٢٨٫٣	٢٠٫٥٩٧	١٠٫٣
رجال التشريع والمديرون والإداريون ومديرو الأعمال	٢٫٥٤٦	١٫٤	٢٢	٠٫١	٢٫٥٦٨	١٫٣
القائمون بالأعمال الكتابية ومن إليهم	٢١٫٥٨٣	١١٫٩	٢٫٠١١	١٠٫٣	٢٣٫٥٩٤	١١٫٨
القائمون بأعمال البيع	١٠٫٠٤٤	٥٫٦	١١٦	٠٫٦	١٠٫١٦٠	٥٫١
العاملون في الخدمات	٣٢٫٣٥٩	١٧٫٩	١١٫٧٤٢	٦٠٫٣	٤٤٫١٠١	٢٢٫٠
العاملون في الزراعة وتربية الحيوان وصيد البر والبحر	٧٫٦٨٠	٤٫٢	٢	٠٫٠	٧٫٦٨٢	٣٫٨
عمال الإنتاج ومن إليهم وعمال تشغيل وسائل النقل والعمال العاديون	٩١٫١٢٣	٥٠٫٤	٦٢	٠٫٣	٩١٫١٨٥	٤٥٫٥
مهن غير كاملة التوصيف	٢٣٥	٠٫٢	١٦	٠٫١	٣٥١	٠٫٢
المجموع	١٨٠٫٧٥٦	١٠٠	١٩٫٤٨٢	١٠٠	٢٠٠٫٢٣٨	١٠٠

المصدر :

مستخلصة من : الجهاز المركزي للاحصاء، سبق ذكر المصدر، جدول رقم (١٢) ص ٣٤.

خاتمـــــة :

الخلاصة أن التحليل السابق يؤكد قضية أساسية هي أن البناء القطري يعد إنعكاساً لتوجهات تنموية خدمية، كما يكشف عن سيطرة واضحة للمهن الفنية العليا والمهن الإدارية والكتابية من ناحية، ومن الخدمات من ناحية أخرى. ويدعم ذلك كله ما سبق أن أشرنا إليه من أن «القطاع الثالث» ببنائه المهني قد أصبح السمة الأساسية المميزة للبناء الاقتصادي القطري، وأن القطاع الأول يكتسب وجوده وشرعيته من نشاط التعدين، بينما تتعرض النشاطات التقليدية للتآكل والتقلص. أما القطاع الثاني (الصناعات التحويلية) فهو محكوم عليه بضآلة حجم قواه العاملة بسبب سياسة التكثيف الرأسمالي وتجنب التكثيف العمالي.

ملحـــق رقم (١)

القـوى العـاملـة في قطـر طبقـاً للقطـاع والجنسيـة

(١٩٧٠)

القطـــاع	القطريون	غير القطريين	الاجمـالي	النسبة في كل قطاع ٪	نسبة القطريين ٪
الزراعـــة والصيـــد	٨٦	١٩٨٤	٢٠٧٠	٣ر٤	٢ر٤
الصناعة التحويلية والتعدين والمحاجـر	١٨٢٥	٣٤١٧	٥٢٤٢	٨ر١٠	٨ر٣٤
البنـاء والتشييـد	٢٠٧	٧٥٧٨	٧٧٨٥	١ر١٦	٧ر٢
صناعـــة النفـــط	١٢٥٩	٩٥٠	٢٢٠٩	٦ر٤	٠ر٥٧
تجارة الجملة والتجزئة	٨٨٠	٧٠٠٥	٧٨٨٥	٣ر١٦	٢ر١١
الصيرفـــة	١٠	٢٩٢	٣٠٢	٦ر٠	٤ر٣
النقل والمواصلات	٦٦٥	٢٥٧١	٣٢٣٦	٧ر٦	٣ر٢٠
الخدمـات الحكومية	١٣٩١	٤٧٨١	٦١٧٢	٧ر١٢	٥ر٢٢
الخدمـات الأخـرى	١٨٥٥	١١٦٤٤	١٣٤٩٩	٩ر٢٧	٧ر١٣
الاجمـــالي	٨١٦٨	٤٠٢٢٢	٤٨٣٩٠	٠٠ر١٠٠	
النسبة من الإجمالي	٩ر١٦	١ر٨٣	٠ر١٠٠		

Ministry of Overseas Development, Middle East Development Division, The First Population Census of Qatar, April/May 1970, British Embassy, Beirut 1970. Table (16).

ملحـــق رقم (٢)

سكـــان قطـر طبقــاً للجنـس والعلاقــة بقــوة العمــل

(١٥ سنـة فأكثر)

العـلاقات بقـوة العمــل	ذكـــور	إنـــاث	المجمـــوع
النشطـون اقتصـادياً			
يعمـــل	١٧٩٧٦٤	١٩٤٤٩	١٩٩٢١٣
متعطل سبق له العمل	٩٩٢	٣٣	١٠٢٥
متعطـل جديـد	٧٩١	١٥٣	٩٤٤
المجمـــــوع	١٨١٥٤٧	١٩٦٣٥	٢٠١١٨٢
غير النشطين اقتصادياً			
طالــب متفــرغ .	١٠٦٩٧	١١٤١٥	٢٢١١٢
متفرغة لأعمال المنزل	صفر	٣٨٣٢٥	٣٨٣٢٥
لا يعمل ولا يبحث عن عمل	١٤٩٠	٩١٦	٢٤٠٦
عاجــز	١٠٤٦	٩٠٠	١٩٤٦
أخــرى	٣١١	١٦٨	٤٧٩
المجمــوع	١٣٥٤٤	٥١٧٢٤	٦٥٢٦٨
غيـر مبيـن	١٤٩	٢٦	١٧٥
المجمـوع العـام	١٩٥٢٤٠	٧١٣٨٥	٢٦٦٦٢٥

المصدر : الجهاز المركزي للاحصاء، سبق ذكر المصدر، جدول رقم (٩)، ص ٢٩.

ملحق رقم (٣)

النشطون اقتصادياً طبقاً للعمر والجنس والجنسية في قطر (١٥ سنة فأكثر) - (١٩٨٦)

فئات العمر	المواطنون			غير المواطنين			المجموع		
	ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث	المجموع
١٥ – ١٩	٧٢١	٧٦	٧٩٧	٢٨٠٤	٢٠٩	٣٠١٣	٣٥٢٥	٢٨٥	٣٨١٠
٢٠ – ٢٤	٢٥٠٣	٥٩٥	٣٠٩٨	١٢٣٤٧	١٥٨٣	١٣٩٣٠	١٤٨٥٠	٢١٧٨	١٧٠٢٨
٢٥ – ٢٩	٣٥٧٤	٧٢١	٤٢٩٥	٣٥٢٥٦	٢٨٥٣	٣٨١٠٩	٣٨٨٣٠	٣٥٧٤	٤٢٤٠٤
٣٠ – ٣٤	٢٩٧٥	٣٧١	٣٣٤٦	٣٧٩٥٩	٣٢٣٤	٤١١٩٣	٤٠٩٣٤	٣٦٠٥	٤٤٥٣٩
٣٥ – ٣٩	٢٣٣٨	١٣٩	٢٤٧٧	٢٩٨٢٣	٣٤١٥	٣٣٢٣٨	٣٢١٦١	٣٥٥٤	٣٥٧١٥
٤٠ – ٤٤	١٧٦٨	٧١	١٨٣٩	١٧٧٧٢	٢٣٥٤	٢٠١٢٦	١٩٥٤٠	٢٤٢٥	٢١٩٦٥
٤٥ – ٤٩	١٣١٣	٤٣	١٣٥٦	١١٧٦١	١٠١٢	١٢٧٧٣	١٣٠٧٤	١٠٥٥	١٤١٢٩
٥٠ – ٥٤	١٠٢٠	١٣	١٠٣٣	٦٥٤٤	٤٣٠	٦٩٧٤	٧٥٦٤	٤٤٣	٨٠٠٧
٥٥ – ٥٩	٨٣٨	١٤	٨٥٢	٤٢٤٦	٦٧	٤٣١٣	٥٠٨٤	٨١	٥١٦٥
٦٠ سنة فأكثر	١٠٣١	١٣	١٠٤٤	١٨٨١	٣٣	١٩١٤	٢٩١٢	٤٦	٢٩٥٨
المجموع	١٨٠٨١	٢٠٥٦	٢٠١٣٧	١٦٠٣٩٣	١٥١٩٠	١٧٥٥٨٣	١٧٨٤٧٤	١٧٢٤٦	١٩٥٧٢٠

ملحـــق رقم (٤)

معـدلات المشاركـة في القـوى العاملـة في قطـر طبقـاً للعمـر والجنـس والجنسيـة
(١٥ سنة فأكثر) - (١٩٨٦)

فئـات العمـر	المواطنـون			غير المواطنين			المجمـوع		
	ذكـور	انـاث	المجموع	ذكـور	انـاث	المجموع	ذكـور	انـاث	المجموع
١٥ – ١٩	١٤ر٤١	١ر٤١	٧ر٩٣	٢٩ر٦٠	٢ر٦٥	١٧ر٣٥	٢٤ر٣٥	٢ر٢٠	١٣ر٩٠
٢٠ – ٢٤	٦١ر٣٠	١٤ر٣٠	٣٧ر٥٨	٩٤ر٣٠	١٥ر٠١	٥٨ر٩٣	٨٦ر٤٦	١٤ر٨١	٥٣ر٤١
٢٥ – ٢٩	٩٤ر٢٣	١٨ر٥١	٥٥ر٨٧	٩٩ر٠٠	٢٤ر٦٤	٨٠ر٧٥	٩٨ر٥٤	٢٣ر١٠	٧١ر٢٧
٣٠ – ٣٤	٩٨ر٢٥	١١ر٤٩	٥٣ر٤٨	٩٩ر٥٠	٣٤ر٣٩	٨٦ر٦٣	٩٩ر٤١	٢٨ر٥٤	٨٢ر٧٧
٣٥ – ٣٩	٩٦ر٧٧	٥ر١٥	٤٨ر٤٢	٩٩ر٧٠	٤٨ر٢٥	٨٩ر٨٦	٩٩ر٤٨	٣٦ر٣٥	٨٤ر٨٢
٤٠ – ٤٤	٩٢ر٠٤	٣ر٢٣	٤٤ر٦٥	٩٩ر٦٠	٤٥ر٠٨	٨٧ر٢٦	٩٨ر٨٧	٣٢ر٦٨	٨٠ر٨٠
٤٥ – ٤٩	٨٥ر٣٧	٢ر٥٧	٤٢ر٢٤	٩٩ر٥٠	٣٢ر٣٠	٨٥ر٤٢	٩٧ر٨٧	٢١ر٩٦	٧٧ر٧٩
٥٠ – ٥٤	٧٩ر٦٩	١ر٠٣	٤٠ر٦٥	٩٩ر٦٣	٣٠ر٥٦	٨٧ر٤٥	٩٦ر٣٨	١٦ر٦٠	٧٦ر١٤
٥٥ – ٥٩	٨٣ر٩٧	١ر٥١	٤٤ر٢٤	٩٩ر٧٤	٨ر٣٣	٨٥ر٢٢	٩٦ر٧٥	٤ر٦٨	٧٣ر٩٢
٦٠ سنة فأكثر	٥٣ر٠١	٠ر٧٠	٢٧ر٣٩	٩٩ر٣٠	٩ر١٤	٨٠ر٥٢	٧٣ر٥٢	٢ر٠٧	٤٧ر٨٠
معدل النشاط الخام	٣٤ر٤٧	٣ر٩١	١٩ر١٧	٨٠ر٥١	١٧ر٨٧	٦١ر٧٨	٧٠ر٩٢	١٢ر٥٤	٥٠ر٢٨
معدل النشاط المعدل	٦٩ر٥٣	٧ر٦٣	٣٨ر٠٢	٩٥ر٠٥	٢٦ر٤٥	٧٧ر٦٣	٩١ر٦٤	٢٠ر٤٤	٧٠ر١٢

المصدر : الأمم المتحدة، سبق ذكر المصدر، جدول رقم (٨)، ص ١٧٠.

المراجــع

١ - أحمد محمد العبدالله، المكانة الاجتماعية في مجتمع الغوص، بحث مقدم إلى الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، مركز الوثائق والدراسات، أبوظبي ١٩٧٩.

٢ - الجهاز المركزي للاحصاء، التعداد العام للسكان والمساكن في قطر لعام ١٩٨٦، رئاسة مجلس الوزراء، قطر، سبتمبر ١٩٨٧.

٣ - الجهاز المركزي للاحصاء، المجموعة الاحصائية السنوية - (أعوام مختلفة) رئاسة مجلس الوزراء، قطر.

٤ - الجهاز المركزي للاحصاء، نتائج مسح العاملين في القطاع الخاص - ١٩٨٣، رئاسة مجلس الوزراء، قطر، فبراير ١٩٨٤.

٥ - الأمم المتحدة، كشوف البيانات الديموجرافية وما يتصل بها من بيانات اقتصادية واجتماعية، تقديرات سكان قطر، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، العدد الخامس ١٩٨٧.

٦ - دولة قطر، مجموعة قوانين قطر ١٩٦١-١٩٧٥ المجلد الثاني، وزارة العدل، إدارة الشئون الثقافية، مطابع قطر الوطنية، قطر.

٧ - سيف مرزوق الشملان، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي، الجزء الأول الطبعة الأولى، الكويت ١٩٧٧.

٨ - سيف مرزوق الشملان، الغوص على اللؤلؤ في قطر، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، الجزء الثاني، قطر ١٩٧٦.

٩ - علي خليفة الكواري، نحو فهم أفضل لأسباب الخلل السكاني في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٣.

١٠ - محمد رياض أحمد رياض، الخليج والخليجيون قبل عام ١٩٣٠، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣٦، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٣.

١١ - محمد علي الكبيسي، التنمية الصناعية في دولة قطر، ترجمة حسن الخياط، دار المتنبي للطباعة والنشر، قطر ١٩٨٦.

١٢ - محمد غانم الرميحي، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٧٥.

13 - Al-Kuwari, A.K., Oil Revenues in the Gulf Emirates: Patterns of Allocation & Impact of Economic Development, Bowfer Publishing Co., Essex, 1978.

14 - Kubursi, A., The Economic of the Araian Gulf: A Statistical Sourcebook, Groom Helm, London 1984.

15 - Ministry of Overseas Development, The First Population Census of Qatar: April-May 1970. Middle East Development Division, British Embassy, Beirut, 1970.

المعجم العربي الأساسي
إضاءة ونقد

أ. د. عبد العزيز مطر
أستاذ علم اللغة - رئيس قسم اللغة العربية

تمهيد

في عام ١٩٨٩ أضيف إلى رصيد المكتبة اللغوية معجم جديد، صادر عن «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم» عنوانه: (المعجم العربي الأساسي) - للناطقين بالعربية ومتعلميها. قامت بتأليفه، وتنسيق مواده، وتحريره، ومراجعته، وإعداده الفني خمس لجان «من أهل القدرة اللغوية العالية، والخبرة العلمية العميقة، في الصناعة المعجمية»(١) .

والموقع التاريخي لهذا المعجم يحدد بعد (المعجم الوسيط) الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٠(٢) فبين المعجمين تسعة وعشرون عاماً. وفي هذه الفترة صدرت معجمات أخرى(٣) لكن لهذين المعجمين أهمية خاصة بوصفهما صادرين عن هيئتين أولاهما لغوية والأخرى ثقافية.

يقع المعجم العربي الأساسي في ١٣٤٧ صفحة من القطع المتوسط، منها ٦٠ صفحة تضمنت المقدمة، والتعريف باللغة العربية وطرائق تنميتها، والنظام الصرفي في اللغة العربية وبعض الأبواب النحوية، وقواعد الإملاء وعلامات الترقيم، ثم منهجية المعجم (ترتيبه واستخدامه ورموزه).

ويضم المعجم نحو خمسة وعشرين ألف مَدخل، مرتبة ترتيباً ألفبائياً انطلاقاً من جذر الكلمة(٤) . وغاية المنظمة من إصدار هذا المعجم: أن يكون «مرجعاً ميسَّراً يروض

العربية ويذلل صعابها لغير الناطقين بها ممن تقدموا في دراستها. وهو على ذلك معين أمين للمعلمين والأساتذة والطلبة الجامعيين وعامة المثقفين من العرب والمستعربين». وتأمل المنظمة أن يكون المعجم أساساً لإصدار معجمات حديثة ثنائية بين اللغة العربية ولغات أخرى[٥] .

وهو في غايته تلك يختلف عن غاية (المعجم الوسيط) الذي قصد به أن يحقق غرضين: «أحدهما أن يرجع إليه القارىء المثقف ليسعفه بما يسد الحاجة إلى تحرير الدلالة للفظ شائع أو مصطلح متعارف عليه. والغرض الآخر: أن يرجع إليه الباحث والدارس لإسعافهما بما تمس الحاجة إليه من فهم نص قديم من المنثور أو المنظوم»[٦] .

فالأساسيّ مؤلف أساساً لغير الناطقين بالعربية المتقدمين في دراستها، وإلى جانب ذلك يعين غيرهم. والوسيط موجه أساساً إلى المثقف والباحث العربي، لتحرير الدلالة أو فهم النص. وسنراعى ذلك في تناولنا لمادة المعجم ونقده.

ويتألف البحث من قسمين رئيسيّن هما: إضاءة تتضمن وصف المعجم وصفاً علمياً، ونقد علمي لغوي شامل، على النحو الآتي :

إضاءة حول منهجية المعجم

تشمل هذه الإضاءة وصفاً علمياً للمعجم من حيث: ترتيبه، ومادته اللغوية، وشواهده، وأمثلته الموضِّحة، وتحريره، ثم إخراجه. على النحو الآتي :

أولاً : ترتيب المعجم :

* ينتمي هذا المعجم في ترتيبه إلى المدرسة المعجمية المحافظة والمجدِّدة التي ينتمي إليها عدد من المعجمات الحديثة كمحيط المحيط للبستاني، وأقرب الموارد للشّرتوني، والمعجم الوسيط والمعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية، وهي المعجمات التي تلتزم الترتيب الهجائي حسب الحرف الأول فالثاني فالثالث من جذر الكلمة. وتلتزم الترتيب داخل المواد حسب ترتيب معين للأفعال المجردة فالمزيدة، ثم الأسماء[٧] .

* وفي منهجية المعجم الأساسي[٨] : أن الكلمات رتبت داخل المواد على أساس البدء

بالأفعال المجردة حسب ترتيب الأوزان (فَعَل) و(فَعُل) و(فَعِل)[9] ثم تليه الأفعال المزيدة بالتضعيف (فَعَّل) فالمزيدة بالألف (فاعَل) والمزيدة بالهمزة (أفعل)[10] .

ولم يذكر في هذا التعريف المنهجي ترتيب المزيد بحرفين، ولكن يتضح هذا الترتيب من داخل المعجم، حيث يقدم (تفعَّل) على (تفاعل) يليهما (افتعل) ثم (انفعَل) ثم (افْعَلَّ) ثم (استفعل) ثم (افعَوْعل) ثم (افعالَّ)[11] . وبعد الأفعال تأتي الأسماء. ولم يذكر المعجم أنه يقدم المعنى الحسي على المعنى المجرد، كما صنع المعجم الوسيط.

* أورد المعجم مصادر الأفعال مرتين، في المادة الواحدة، مرة مع الفعل ومرة مستقلاً، مثلاً: (ش ر ح) شرَح يَشرَح شَرْحا فهو شارِحٌ - وبعد اثنى عشر سطراً عاد مرة أخرى ليقول: شَرْح مَصْ (أي مصدر) شرَح.
* أورد مع الفعل الثلاثي المجرد اسم فاعله أو الصفة المشبهة به، واسم مفعوله أحياناً. مثلاً: (م ر س): مَرس يمرُس مَرْساً فهو مارِسٌ.. ثم يقول مَرِسٌ (صفة مشبهة).. ومَرِيس (فعيل بمعنى مفعول).
* اقتصر على المشهور الشائع من أوزان الأفعال والمشتقات والمصادر والجموع.
* يذكر المؤنث أحياناً إذا كان ذكره يزيل اللبس، مثلاً (جَزِعٌ) ج (أي جمعه) – ون، مؤ (أي مؤنثه) (جَزِعة ج جَزِعات).

ثانياً : مادة المعجم :

إن المادة اللغوية التي يضمها هذا المعجم الأساسي تتمثل في :

(أ) المداخل، وعلى سبيل المثال تشتمل مادة (ج ز ع) على تسعة مداخل هي :

جَزِع / تجزَّع / تجزُّع / جَزْعٌ / جَزَعٌ / جزِعٌ / جُزْع / جَزُوع / مُجزَّع.

وهذه المداخل تشمل :

١ – الألفاظ العربية الصحيحة الواردة في معجمات عربية قديمة، كالصحاح واللسان والقاموس.

٢ – الألفاظ المعرَّبة قديماً والواردة في هذه المعجمات القديمة.

٣ – الألفاظ المعرَّبة حديثاً بعد عصر الاحتجاج.

٤ – الألفاظ المولَّدة قديماً.

٥ – الألفاظ والمصطلحات والأساليب التي أقرتها المجامع اللغوية العربية ورمز لها المجمع بلفظ (مج).

٦ – الألفاظ المحدَثة التي أقرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة، بعد شيوعها على ألسنة الكتاب والأدباء، ورمز لها المجمع بلفظ (مُحْدثة). وإن كان هذا المعجم الأساسي لا ينص على ذلك إلا نادراً جداً، وسنتعرض لهذا عند نقد المعجم.

٧ – ما تصرفت فيه لجنة المعجم من المولَّد والمحدَث فأدخلته فيه، ومن المشتقات التي بنتها على قرارات المجمع اللغوي.

٨ – ما نقلته بنصه من المعجم الوسيط.

٩ – ما أضافه هذا المعجم مما لا يوجد في المعجم الوسيط من تعبيرات جديدة، ومن أسماء الأعلام كأسماء القارات والبُلدان والمدن والأنهار وأسماء النابغين في التاريخ العربي من خلفاء وقادة وفقهاء وعلماء وشعراء وأدباء وفنانين.

وهذه المادة التي اشتمل عليها المعجم أجملها الدكتور محيي الدين صابر في مقدمته التي قال فيها : «.. وهو (المعجم) لا يستنكف – في معاشرة حميْمة لحركة اللغة – أن يورد الكلمات المولَّدة والمعرَّبة والدخيلة التي دخلت الحياة، واستعملها رجال الفكر والثقافة وأقرتها المجامع اللغوية العربية، على أنه يتجنب الحوشيَّ والغريب، ويتنكَّب المهمل والمهجور من الألفاظ، فلا يورد إلا ما هو معروف شائع، أو ما هو جدير بأن يعرف، من مفردات اللغة الحية الجارية على ألسنة العلماء والأدباء والمثقفين والصحفيين وأقلامهم، والمبسوطة في المؤلفات والبحوث والدراسات العربية – هذا وللمعجم سمة موسوعية محددة، فهو يتناول عدداً من المصطلحات الجديدة، الحضارية والعلمية والتقنية، ويتعرض في إيجاز إلى طائفة كبيرة من أسماء الأعلام، كأسماء القارات والبلدان والمدن والأنهار وأسماء النابغين في التاريخ العربي، من خلفاء وقادة وفقهاء وعلماء وشعراء وأدباء وفنانين الخ».

(ب) الشرح والتفسير والتعريف : من الأسس التي يبني عليها المعجم : شرح الألفاظ، وتفسير غامضها، وتعريف المصطلح، والتعريف بالأعلام – إن كانت ضمن مادته

– وقد سلك هذا المعجم في هذا المجال مسلكاً يمكن وصفه فيما يأتي :

١ – تفسير اللفظ بمرادفه وبمثال يبين السياق، مثل: أتي الشخص : جاء، وقد يتبع ذلك آية قرآنية (فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) أو استعمالاً شائعاً مثل : «أتاني بعدَ غيابٍ طويل» أو مَثَلاً سائراً. ومن ذلك : أتى الأمر : فعله. أتى البيوتَ من أبوابها. ويشرح ذلك بقوله: تناول الأمور على وجهها الصحيح. وأتّى به: جاء به وجلبه. ويأتي بمثال : «لم يأتِ الكاتبُ بجديد في بحثه». وأتى عليه: مَرَّ بِهِ. ويعده آية قرآنية : (ما تَذَرُ من شيءٍ أتَتْ عليه إلا جَعَلَتْهُ كالرَّميم) (قرآن).

أتى على آخره: أتمَّه، أتى على الأخضر واليابس : أنفد كل شيء. أتى على المكان: أشرف عليه (حتَّى إذا أَتَوْا على وادِي النَّمْلِ) (قرآن)[١٣] .

٢ – تفسير اللفظ بضده، مثل سطحي : غير عميق[١٤] .

٣ – تفسير اللفظ بعدة ألفاظ، مثل : ظَرُفَ يظرُف ظَرْفا وظَرافة فهو ظريف، كان كَيِّسا بارعاً حاذقاً «رجل لطيف ظريف»[١٥] . أو بلفظين، مثل: عطف عليه : أشفق عليه، حنا عليه[١٦] . ومثل : عَظُم: كَبُر، فَخُم[١٧] .

٤ – تعريف المصطلح، ويكون ذلك بالاعتماد على التعريف العلمي لمجمع اللغة العربية أو معجمات المصطلحات أو دوائر المعارف، مثل: مَقْدونس/ بَقْدونس: نبات عشبي زراعي من فصيلة الخَيْميات يزرع لرائحة أوراقه ولأفاويه الطعام، ويقال له: مَعْدنونس (تونس)[١٨] .

ومثل: مَغْناطيس أو مَغْنطيس : معدن فيه قوة تجذب الحديد وبعض المعادن لخاصة فيه «المغنطيس الكهربائي»[١٩] ولم يذكر المعجم أنه معرَّب[٢٠] وقد يكون تعريف المصطلح بترجمته العربية، مثل ديموجرافيا/ ديموغرافيا: علم السكّان[٢١] .

٥ – التعريف بأعلام الأشخاص : وتختلف الشخصيات في عدد الكلمات المخصصة للتعريف بكل منها.

ومن أمثلة ذلك :

* الرشيد، مولاي – ابن الشريف بن علي (١٠٤٠-١٠٨٣هـ/ ١٦٣٠-١٦٧٢م) : سلطان المغرب، ومؤسس السلالة العلوية الحاكمة حتى اليوم (١٨ كلمة).

* والرشيد، عبد العزيز بن أحمد (ت ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) أديب وصحفي ومؤرخ كويتي، من مؤلفاته «تاريخ الكويت» كان يصدر مجلة شهرية باسم الكويت (٢٠ كلمة)[٢٢] .

* والفرّاء، يحيى بن زياد أبو زكرياء (حوالي ١٤٤-٢٠٨هـ/ ٧٦١/٨٢٢م) إمام مدرسة النحو الكوفية، كان موسوعة علوم، له «المقصور والممدود»، «معاني القرآن»، «الحدود» (٢٤ كلمة)[٢٣] .

وقد شملت الترجمة في كل منهم : الاسم واللقب والكنية - الميلاد (غالباً) والوفاة - المهنة والنشاط - المؤلفات.

٦ - التعريف بالدول. ويكون ذلك بذكر اسم الدولة كاملاً ونظام الحكم فيها وانتمائها وعاصمتها وموقعها ومؤسسها وتاريخ تأسيسها (مثل : السعودية، المملكة العربية : دولة عربية إسلامية في الجزيرة العربية عاصمتها الرياض أسسها المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م (٢٣ كلمة)[٢٤] .

٧ - التعريف بالبقاع والأنهار والبحار والخُلجان والجبال : ويختلف التعريف وعدد كلماته من مكان إلى آخر.

مثلاً : ركز المعجم على الخليج العربي فوصفه وحدد طوله والمنطقة المحيطة به والدول الواقعة عليه فقال :

* الخليج العربي : ذراع من البحر العربي، يمتد بين إيران وجزيرة العرب، على طول حوالي ٩٦٥كم من شط العرب إلى مضيق هرمز الذي يربطه بخليج عمان، تحيط به منطقة ثرية بالبترول فضلاً عما فيه من مكامن بترولية بحرية هائلة. من أهم موانئه: دبي والكويت والمملكة العربية السعودية وقطر ودولة الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان ويستقر في شطره الشمالي أرخبيل دولة البحرين (٦١ كلمة)[٢٥] .

وكتب في التعريف بالنيل :

* النيل، نهر : أهم أنهار أفريقيا ومن أطول أنهار العالم، يتكون من رافد من النيلين الأبيض والأزرق، ويصب في البحر الأبيض المتوسط شمال مصر (٢٣ كلمة)[٢٦] .

وكتب في التعريف بالمسجد الأقصى :

* الأقصى، المسجد، الجامع الكبير المقدَّس في مدينة القُدس، من أهم الجوامع الإسلامية، يقع جنوب الصخرة، كان قبلة المسلمين الأولى قبل الكعبة (سُبحانَ الذي أَسْرَى بعبدِهِ ليلاً من المَسْجِدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى)[٢٧] (قرآن).

ومن التعريف الموجز في أسماء البحار : أُقيانوس/ أوقيانوس : البحر العظيم المحيط بالقارات[٢٨] .

٨ – التعريف بالفِرَق والمذاهب، ويكون ذلك بتحديد انتماء الفرقة وأشهر دعاتها وأماكن انتشارها. مثل :

* الإسماعيلية، فرقة من الشيعة تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهي منتشرة بصورة خاصة في إيران والهند، من أشهر دعاتهم ميمون القداح[٢٩]

ومثل :

* وجودية: الـ – : مذهب فلسفي يرى أن الوجود يتقدم الماهية، وأن الإنسان حر يستطيع أن يصنع نفسه ويتخذ موقفه كما يبدو له تحقيقاً لوجوده الكامل (مج)[٣٠] .

٩ – يستهل المعجم شرحه بأن يذكر عقب المدخل مباشرة الجمع الذي يجمع عليه المفرد المذكور، مثلاً: صقب ج (أي جمعه) أصقاب. مصفاة ج مصاف (المصافي) صفيّ ج أصفياء. مُصَفٌّ (المصفّي) ج – ون[٣١] .

١٠ – من سمات المعجم في الشرح والتعريف اهتمامه بالأمثلة السياقية الموضحة للمعنى، والاستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وأمثال العرب، مع شرح هذه الأمثال أينما وردت.

١١ – درج المعجم على ذكر المدخل منكَّراً، على حين يذكره المعجم الوسيط معرَّفاً.

ثالثاً : إخراج المعجم :

نعني بإخراج المعجم : شكل الصفحات، وما فيها من أعمدة، وما يوضع أعلى الصفحات من إشارات إلى بدء الكلمات في الصفحة ونهايتها ووضع الأقواس، والنجوم

المميِّزة، وطباعة أوائل المواد بالحبر المشبع، ووضع الصور بالألوان، ثم طبع المعجم على صورة يتجلى فيها الفن الطباعي من حيث حجم الحروف، ونوع الورق، ثم التصحيح الدقيق من علماء متخصصين حتى لا يقع في المعجم أي خطأ طباعي(٣٢) .

وفيما يلي وصف ما تم في إخراج المعجم :

(أ) شكل الصفحات :

* تتألف صفحة المعجم من عمودين (نهرين) يشتمل كل عمود على ٣٢ سطراً، مساحة السطر ستة سنتميترات، وبين العمودين فراغ مقداره سنتيمتر واحد.

* وفي أعلى الصفحة اليمنى كتب المدخل الأول فيها، على اليمين. وفي أعلى الصفحة اليسرى كتب المدخل الأخير فيها على اليسار. مثلاً: «تشبيب» في أعلى صفحة ٩٦٦ هو أول مدخل فيها. و«شَبَكية) في أعلى صفحة ٩٦٧ هو آخر مدخل فيها .. وهكذا.

* وكتب عنوان المادة التي تشمل مدخلاً أو أكثر بحروف مفردة في وسط العمود، مثل: ش ر ب، ش ب ش ب، ش ب ط.. الخ وإذا كانت الكلمة معرَّبة كتبت حروفها كاملة مثال أ ل م ن ي و م وسنتناول في نقدنا عدم اطراد كتابة العنوان في كل المواد.

* يبدأ المدخل أول السطر مكتوباً بالحبر المشبع (الأسود) وذلك في مقابل القوسين في المعجم الوسيط. كما يكتب بالأسود أيضاً رمز مصدر الفعل وهو (مص)، وهذا المدخل في المعجم الوسيط موضوع بين قوسين (   ) مسبوقين بنجمة. وقد استغنى الأساسي عن هذه النجوم بالكتابة بالحبر الأسود.

* لا يشتمل المعجم على أية صورة أو رسم توضيحي. ويبدو أن خطة المعجم رسمت باديء ذي بدء على أساس اشتماله على الصور والرسوم الإيضاحية، حيث أشار إلى ذلك أحمد العابد عضو لجنة تأليف المعجم الأساسي هذا في بحث ألقاه في مؤتمر «مائوية ثلاثة من المعجميين» المنعقد في تونس في ١٥-١٧ من ابريل ١٩٨٦، حيث ذكره، بين مراجعه - وكان لايزال مخطوطاً - فقال : «وهو معجم لغوي تتخلله معلومات موسوعية ومصطلحات علمية مختارة وشواهد وأمثلة توضيحية كثيرة، وصور ورسوم إيضاحية منتقاة»(٣٣) .

وسنتناول إغفال الصور في نقدنا للمعجم ومقارنته بالمعجمات الحديثة التي تهتم في إخراجها بالصور الإيضاحية.

* اختارت لجنة المعجم تسعة عشر رمزاً قصداً للاختصار وتلافياً للتكرار، بعضها رموز استخدمها المعجم الوسيط فعلاً، وهي (ج) لبيان الجمع، (و-) للدلالة على تكرار الكلمة لمعنى جديد، (مو) للدلالة على المولَّد الذي استعمله العرب قديماً، وأُعطِي معنى جديداً بعد عصر الرواية[٣٤] و(مع) للمعرب وهو اللفظ الأعجمي الذي دخل العربية دون أن يصحبه تغيير. و(مج) للفظ الذي اعتمده مجمع اللغة العربية بالقاهرة[٣٥] . ومن رموز المعجم الأساسي أيضاً (مح) أي مُحْدثة.. للفظ الذي استعمله المحْدثون في العصر الحديث، وشاع في لغة الحياة العامة. وقد اختار الوسيط كتابة كلمة (مُحْدثة) بدلاً من (مح) ويبدو أن المجمع اللغوي عدل عن رمز (مح) حتى لا تصحف مع (مج) بالجيم. ورمز المعجم للمصدر بالرمز (مص) ولمفرد الاسم المجموع بالرمز (مف) أي مفرده أو مفردها. ورمز لجمع المذكر السالم بالرمز (ج - و ن) وللمؤنث السالم بالرمز (ج - ا ت) ورمز بالشرطة المائلة (/) للحرف (أو) أما رمزا (هـ) و(م) فهما معروفان للتاريخ الهجري والميلادي. والرمز (ت) لتاريخ الوفاة. ووضع الآية القرآنية بين قوسين مزهَّرين[٣٦] .

* وضعت الحروف التي قامت عليها الأبواب وسط دائرة بيضاوية بخط نسخيّ كبير في صفحة جديدة يميناً أو شمالاً. وكتب المعجم كله بحجم واحد.

* اهتم المعجم بضبط المداخل وأبواب الفعل والآيات القرآنية والأحاديث والأمثلة، مع ضبط الشرح في مواضع كثيرة.

* وقد فات المصححين أخطاء في الطبع سأبينها في النقد.

* مقاس غلاف المعجم : ١٧ X ٢٤ سم وهو تقريباً مقاس أغلفة معجمات دار «لاروس» الفرنسية، حيث بلغ معجم «لاروس السبيل» ١٦ X ٥ر٢٣سم. والتصميم الرئيسي في غلاف المعجم هو التصميم الرئيسي لمعجم «لاروس» واللون الأحمر واحد في كليهما. والسبب في ذلك أن دار «لاروس» هي القائمة بالتوزيع. يقول الدكتور محيي الدين صابر في المقدمة : «وإنه ليسرّ المنظمة أن تصدر هذا المعجم، بالتعاون مع مؤسسة

لاروس العالمية التي أشرفت وتشرف على إصدار المعاجم والموسوعات ذات المكانة العلمية الرفيعة وباللغات المختلفة»[٣٧] .

نقـــــد

إن الإضاءة التي قدمناها فيما سبق، وتناولنا فيها وصف المعجم الأساسي، تعد منهجياً جزءاً من النقد الذي يُعنَى بالتفسير والتحليل، كما يُعنَى بما في العمل المنقود من مزايا وعيوب.. ولمزيد من الدقة في التحديد جعلنا عنوان هذا القسم هو «نقد» وإن كان البحث كله داخلاً في هذا الإطار، وصفاً وتحليلاً وملاحظات..

وقد بوبنا ملاحظاتنا في أبواب ثلاثة :

١ - المادة اللغوية : مصادرها، وترتيبها في المعجم، وأسلوب شرحها، وتقويم ذلك كله.

٢ - المادة الموسوعية : مصادرها، وترتيبها في المعجم، وطريقة عرضها، والحجم المخصص لكل وحدة منها، وتقويم ذلك كله.

٣ - إخراج المعجم : موقف المعجم من الإخراج الحديث، ومن الرموز، والصور والرسوم التوضيحية، والأخطاء في المادة المطبوعة.

أولاً : المادة اللغوية :

(أ) المصـادر :

* لعل أول سؤال يخطر على بال الناقد اللغوي عند صدور معجم عربي جديد هو: هل هو معجم محافظ يستقي مادته من المعجمات العربية القديمة، والقرآن الكريم والحديث الشريف، والأمثال العربية، وأقوال العرب الفصحاء في عصور الاحتجاج[٣٨]؟ أو تراه معجماً يجمع بين الأصالة والمعاصرة «يضع ألفاظ القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام، ويهدم الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت بين عصور اللغة المختلفة»[٣٩] كما حدث في (المعجم الوسيط)؟

* والسؤال التالي الذي يوجهه الناقد اللغوي هو :

إذا كان هذا المعجم الجديد قد اختار الصيغة الثانية التي تضيف الجديد إلى

القديم، فما المقياس الصوابي الذي جرى عليه واضعو المعجم في اختيار المادة المعاصرة؟ هل التزموا بما ارتضى مجمع اللغة العربية أن يضعه في معجماته: الكبير، والوسيط، والوجيز، وما أقره من قرارات في أصول اللغة والألفاظ والأساليب؟

وأجيب عن السؤال الأول من قول الدكتور محيي الدين صابر في مقدمة المعجم: «ويضم هذا المعجم نحواً من خمسة وعشرين ألف مدخل مرتبة ألفبائياً انطلاقاً من جذر الكلمة، مفسرة بدقة وإيجاز، ومعززة بالشواهد والأمثلة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأمثال والعبارات السياقية ولغة المعاصرة..»(٤٠) .

وأجيب عن السؤال الثاني بما جاء في المقدمة نفسها: «وهو (أي المعجم) لا يستنكف - في معاشرة حميمة لحركة اللغة - أن يورد الكلمات المولدة والمعربة والدخيلة التي دخلت الحياة واستعملها رجال الفكر والثقافة وأقرتها المجامع اللغوية»(٤١) .

ومضمون ما قاله د. محيي الدين صابر في النصين اللذين جعلناهما جواباً عن سؤالَيْنا، هو نفسه مضمون ما قاله الدكتور إبراهيم بيومي مدكور في مقدمة الطبعة الأولى من (المعجم الوسيط): «واستعانت اللجنة في شرحها للألفاظ بالنصوص والمعاجم التي يعتمد عليها، وعزّزته بالاستشهاد بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأمثال العربية، والتراكيب البلاغية المأثورة عن فصحاء الكتاب والشعراء..»(٤٢) .

وما قاله عقب ذلك : «وأدخلت اللجنة في متن المعجم ما دعت الضرورة إلى إدخاله من الألفاظ المولَّدة، أو المحدَثة، أو المعرَّبة، أو الدخيلة، التي أقرها المجمع، وارتضاها الأدباء، فتحركت بها ألسنتهم، وجرت بها أقلامهم»(٤٣) .

ونستنتج من ذلك أن المعجم الأساسي لم يأت بجديد يميزه عن المعجم الوسيط إلا ما قد جد في الفترة الواقعة بين صدور الطبعة الثالثة من الوسيط عام ١٩٨٥ وصدور الطبعة الأولى من الأساسيّ عام ١٩٨٩. ويكون مصدر هذا الجديد - غالباً - هو المجمع اللغوي نفسه.

ولكن

سلك المعجم الأساسي مسلكاً أطاح بكل الحدود والفواصل، وخلط الأوراق، فلم يميز بين ما هو عربي أصيل معتمد في عصور الاحتجاج، وما هو معرب قديماً منصوص عليه

في المعجمات وكتب المعرب، وما هو مولد في لفظه أو معناه، وما هو مُحدث اعترف به المحدَثون، وما هو مما أقره مجمع اللغة العربية.. وفي هذا من الخطورة على اللغة العربية ما فيه..

وبيان ذلك أن المعجم الأساسي في تحديد منهجيته قد نص على الرموز المستخدمة في المعجم، ومنها الرموز التي تضع حدوداً بين الألفاظ وهي: (مج) للفظ الذي اعتمده مجمع اللغة العربية، و(مو) أي مولد، وهو اللفظ العربي الذي استعمل قديماً وأُعطِي معنى جديداً بعد عصر الرواية، و(مح) أي مُحْدثة، وهي الكلمة العربية التي حملت معنى جديداً في العصر الحديث و(مع) أي معرب، وهو اللفظ الأعجمي الذي دخل العربية مع تغيير ليتوافق مع أوزانها. و(د) أي دخيل، وهو اللفظ الأعجمي الذي دخل العربية دون أن يصيبه تغيير.

هذه الرموز التي هي أشبه ببطاقات الهُوية لكل لفظ قد سقطت من مادة المعجم إلا قليلاً جداً مما نشبهه بفلول متناثرة لا تقدم أو تؤخر..

وهذا النقص الخطير الذي يطيح بالمعجم يحتاج منا الآن لإيراد أمثلة من المواد للبرهنة عليه، سالكين مسلك المقارنة بين الأساسي والوسيط..

وقد اقتضى المنهج أن نتناول هنا مع المصادر موضوع إغفال الرموز، وموضعه الشكلي مع الإخراج، لأنه يتصل اتصالاً مباشراً بموضوع مصادر المعجم، إذ تقوم الرموز بدور كبير في تحديد المصادر التي استقى منها المعجم مادته.

وفيما يلي ما تسمح به مساحة البحث من أمثلة :

المعجم الوسيط	المعجم الأساسي
* الكلمة : الآبَنُوس	* الكلمة : آبنُوس
الرمز : (د) أي دخيل	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الآجُرّ	* الكلمة : آجُرّ
الرمز : (مع) أي معرب	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الآس	* الكلمة : آس

المعجم الوسيط	المعجم الأساسي
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الإرهابيون.. (مادة رهب)	* الكلمة : إرهابي ج إرهابيون (مادة : رهب)
الرمز : (مج) أي مجمع	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : البِلازْما	* الكلمة : بلازما
الرمز : (مج)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : التَّبْغ	* الكلمة : تبغ
الرمز : (مج)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : السِّيجار	* الكلمة : سيجار
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : السِّيجارة	* الكلمة : سيجارة
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : السيَّارة : عرَبة آلية	* الكلمة : سيارة ج سيارات – عربة آلية
الرمز : (محدثة)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : السِّيخ.. عود مدبّب	* الكلمة : سيخ : عود مدبب
الرمز : (مج)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : المِلْبن	* الكلمة : ملبن
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : المِلْبنة	* الكلمة : ملبنة
الرمز : (محدثة)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : المَرْدَقُوش..	* الكلمة : مردقوش..
الرمز : (مع)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : المقْطع.. وحدة صوتية	* الكلمة : مقطع
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر

المعجم الوسيط	المعجم الأساسي
* الكلمة : القِيثار والقِيثارة	* الكلمة : قيثارة ج : قَياثِر وقيثارات
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : قلاووُظ	* الكلمة : قلاووظ
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكَبِيسة (السنة ..)	* الكلمة : كبيسة
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : المِكْبس	* الكلمة : مكبس
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكَتْكوت	* الكلمة : كتكوت
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : كاتم السر	* الكلمة : كاتم السر
الرمز : (محدثة)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكُحْليّ.. لون	* الكلمة : كحلى لون..
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكُرْباج	* الكلمة : كرباج ج كرابيج
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكَرْدينال	* الكلمة : كردينال
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكَرَز	* الكلمة : كرز
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكراسيّ (أستاذ كرسي)	* الكلمة : كرسي (أستاذ كرسي)
الرمز : (محدثة)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : اللَّوْزِينَج	* الكلمة : لوزينج
الرمز : (مع)	الرمز : لم يذكر

المعجم الوسيط	المعجم الأساسي
* الكلمة : الملهاة : مسرحية	* الكلمة : ملهاة
الرمز : (محدثة)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : النَّيْلوفَر	* الكلمة : نيلوفر
الرمز : (مع)	الرمز : لم يذكر

ومن الرموز التي أفلتت من الحذف في المعجم الأساسي :

* عملة متداولة (ص ٨٦٨) : (مو) — فِلْم، فيلم (ص ٩٥١) : (د)
* مَقلب (ص ١٠٠٣) : (محدثة)[٤٤] — قَناعة بمعنى اقتناع (ص ١٠١٠) : (محدثة)
* مكيّف الهواء (١٠٦٣) : (مو) — منفضة السجائر (ص ١٢١٧) : (محدثة)
* نظّارة (ص ١٢٠٦) : (محدثة) — ممارسة (ص ١١٣١) : (محدثة)
* نمرة أي رقم (ص ١٢٣٢) : (محدثة) — طوَّر الشيء : عدله وحوله من طور إلى طور (مج)
* نموذج (ص ١٢٣٤) : (د) — ميرْكيرُوكْرُوم (ص ١١٣١) (د)

ولكن ذكر هذه الرموز الدالة على أصول الكلمة قَلَّ من كُثْر لم تذكر فيه الرموز، بل إنَّ ضرر ذكرها لا يقل عن إغفال الكثرة الكاثرة من الرموز، حيث توحي هذه الرموز التي ذكرت بأن ما عداها في المعجم عربي أصيل. وليس كذلك.

(ب) الترتيب :

إن دقة الترتيب، ووضوح التبويب من المنهجيات الأساسية في صناعة المعجم. وقد أحسن واضعو المعجم صنعاً في اتخاذ جذر الكلمة أساساً للترتيب وفق الحرف الأول فالثاني فالثالث من حروف الهجاء، ولم يسلك مسلك بعض المعجمات الحديثة التي تغفل جذر الكلمة وترتب الكلمات ترتيباً مطلقاً كدليل الهاتف[٤٥]

ولكن : هل التزم واضعو المعجم بالخطة التي وضعوها للترتيب؟[٤٦]

الجواب : أفلت منهم كثير، وانحرف عن الخطة الموضوعة. ونبرهن فيما يلي على هذا الرأي:

* قالوا في منهجية المعجم : «تطلب الأسماء الجامدة غير المشتقة حسب ترتيب حروفها، ومثلها المعرّب والدخيل». وزيادة في الإيضاح يقولون في المادة التي يحتمل وجود الاسم الجامد أو المعرب أو الدخيل فيها : (انظر : ألفبائيا) مثل : أنجل... وإنجيل (انظر : ألفبائيا) وحطأ.. الحطيئة (انظر : ألفبائيا) هذا مسلك منهجي.

وتسأل : لماذا اختلّت هذه القاعدة في الأحوال الآتية:

* المَرْهم: وضع في مادة (رهم) وشرح بأنه «دهان طبي يوضع على الجروح والقروح ونحوها». ثم وضع مرة أخرى في مادة (مرهم) وشرح شرحاً مغايراً هو «مركّب دهني علاجي يدهن به الجرح أو يدلك به الجلد أو تكحل به العين». ووضع المرهم في مادة (رهم) صحيح كما جاء في القاموس المحيط (رهم) : «والمَرْهم كمقعد: طلاء لين يطلى به الجرح مشتق من الرِهْمة لِلينِه».

فوضعهم للمَرهم في (رهم) ص ٥٥٦ هو الصحيح. وإعادته في ص ١١٣١ في مادة (مرهم) وتعريفه بتعريف آخر، خطأ من وجهين: الأول : أنهم لم يكتفوا بتعريف واحد ويحيلوا على موضعه في المعجم. والثاني : اختلاف التعريف لشيء واحد في موضعين في معجم واحد.

وفي تقديري أنهم اتبعوا «المعجم الوسيط» الذي لم يذكر (المرهم) في مادة (رهم) بل ذكرها في (مرهم) كأنه اسم جامد. والدليل على هذا الاتباع للوسيط أن مؤلفي الأساسي نقلوا تعريف (المرهم) من الوسيط ونصه: «المرهم مركب دهني علاجي ذو أنواع مختلفة، يدهن به الجرح، أو يدلك به الجلد، أو تكحل به العين (ج) مراهم» <u>ويلاحظ القارئ أني التزمت في تعريف الوسيط للمرهم بوضع الفواصل ولم أضعها فيما نقلت عن الأساسي من قبل لأنهم كذلك يصنعون.. يحذفون الفواصل كثيراً وهذا عيب في تحرير المعجم!</u>

* ومما يدل على اتباعهم (الوسيط) فيما يخالف منهجم :

١ - وضعهم شهر (مارس) في مادة (مرَس) وفي خلال المادة كأنه اسم عربي مشتق، ولم يضعوه في ترتيبه الألفبائي لأنه معرب (ص ١١٢٩). وكان مكانه وفق المنهج هو في (ص ١١١٤) عندما قالوا : (انظر : مرس).

والسبب في هذا الخلط أن المعجم الوسيط وضع (مارس) في (مرس) (ص ٨٦٣).

٢ – وضعهم شهري (كانون) في مادة (كنن) كأنه اسم عربي وليس كذلك. والوضع الصحيح له هو في ص ١٠٢٣ عندما قالوا : (انظر : كنن). والسبب في هذا الخلط أن المعجم الوسيط وضع (كانون) في (كنن).. ولكن هؤلاء نسوا منهجهم وهم ينقلون عن الوسيط مادة وترتيباً!!

ويؤيد وجهة نظرنا أنهم وضعوا شهر (شباط) في موضعه الألفبائي، وأحالوا عليه في مادة (شبط) فلماذا لم يصنعوا مثل ذلك في مارس وكانون؟!

* اسم العلم يوضع في مكانه الألفبائي كالمتنبي، ذكر في ترتيبه ولم يذكر في (نبأ) والمتوسط، ذكر في ترتيبه ولم يذكر في (وسط). وإذا طبقنا ذلك على اسم المشتري (الكوكب) فقد كان القياس أن يذكر في ترتيبه الذي يبدأ بالميم ثم الشين ثم التاء... ولكن المعجم ذكره في مادة (شرى) فلماذا حدث هذا التناقض؟.

الرأي عندي أنهم نقلوه عن المعجم الوسيط الذي وضعه في مادة (شرى) ونسوا منهجهم أو غفلوا عن تطبيقه. بل إنهم عاملوه معاملة اسم الفاعل من اشترى فقالوا (ص ٦٨٥) : مشترٍ (المشتري) : أكبر الكواكب السيارة.

* الديباج: كلمة معربة عن الفارسية؛ وكان المنهج يقتضي وضعها في ترتيبها الالفبائي، ولكنهم وضعوها في مادة (ذيج) كأنها كلمة عربية. وأحالوا عليها في مادة (ديباج) والعكس هو الصحيح. والسبب في ذلك أنهم نقلوا المادة من المعجم الوسيط الذي وضعت فيه في (دبج).

* كلمة (قلاووظ) وكلمة (قيثارة) كلتاهما دخيلة غير عربية، ولكن المعجم وضع (قلاووظ) في مادة (قلظ) ووضع (قيثارة) في ترتيبها الألفبائي، فلماذا لم يضعها في (قثر) بل اكتفى بالإشارة في آخر مادة (قثأ) بقوله : قيثارة (انظر ألفبائيا).

لقد كان منهج الترتيب يقتضي وضع (قلاووظ) في ص ١٠٠٢ قبل (قلب) بدلا من ص ١٠٠٤. ولكنه التناقض.

* يضع المعجم الأعلام في ترتيبها الألفبائي دون عنوان، ولكنه وضع اسم (الشَّنفرَى) تحت عنوان (ش ن ف ر ى) واسم (الشهابي) تحت عنوان (ش هـ ا ب ي ي) فلماذا هذا الاختلاف في المنهج؟.

(جـ) أسلوب الشرح والتعريف :

الشرح والتعريف في أي معجم من أهم مقوماته، والمعجم المعاصر يجب أن تشرح مفرداته وتفسر بدقة ووضوح، وأن تعرف مصطلحاته تعريفا علميا تتحقق فيه شروط التعريف المنطقي، وأن يقرن الشرح والتعريف بالشواهد والأمثلة والعبارات السياقية.

* <u>والسؤال الذي يخطر على بال الناقد اللغوي في هذا المقام هو : هل تحقق للشرح والتعريف في المعجم الأساسي من الدقة والوضوح والمنهجية ما يجب أن يتحقق في المعجم المعاصر؟</u>

والجواب يتضح في الملاحظات التالية :

١ – اعتمد المعجم اعتماداً يكاد يكون كليا على المعجم الوسيط في تعريف المصطلحات دون إشارة أو رمز.

وشرح الكلمات الحديثة دون إشارة أو رمز. وتلتمس هذه فيما رمز إليه الوسيط برمز (مج) أي مجمع، وهو الرمز الذي لم يذكره المعجم الأساسي، كما بينا في النقد الخاص بالرموز فيما سبق(٤٧) .

٢ – اعتمد المعجم أيضا على المعجم الوسيط في شرح كثير من الكلمات دون إشارة حيث يورد الشرح بنصه أحيانا، ويغير تغييرا طفيفاً أحيانا.. وهذه بعض الأمثلة :

المعجم الوسيط	(جَيْب) القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه، وجيب الثوب: ما توضع فيه الدراهم ونحوها . (مو)
المعجم الأساسي	جيب القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه، وجيب الثوب ونحوه: ما توضع فيه الدراهم وغيرها من الأشياء. (ولم يذكر هنا أن هذا الاستخدام في هذا المعنى مولد، كما صنع الوسيط).
المعجم الوسيط	(المُرَبَّي) : ما يعقد بالسكر أو العسل، من الفواكه ونحوها (ج) مُرَبَّيات (مو).
المعجم الأساسي	مربّى ومربّب: ما يعقد بالسكر أو العسل من الفواكه ونحوها.

المعجم الوسيط	(ردَفه) يردُفه: ركب خلفه ردِف يردَف: ردَفه ويقال: ردِف له أمر: دَهمه. وفي التنزيل العزيز (قُلْ عسى أن يكونَ رَدِفَ لكم بعضُ الذي تَستَعْجِلون).
المعجم الأساسي	ردَف الرجل: ركب خلفه ردِفَ الرجل: ردَفه و – له أمر : دَهَمه (قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون). (قرآن).
المعجم الوسيط	(الرحا) الرحى: الاداة التي يُطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب (ج) أرْحٍ وأرْحاء ورُحِيٌّ وأرْحِية.
المعجم الأساسي	رحا أو رحي : (مؤنثة) تثنية الأولى رَحَوان والثانية رحيان ج أرْحاء وأرحية : ١ – أداة يطحن بها وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.
المعجم الوسيط	(ردم) .. الباب والثُّلْمَة – ردما : سدهما و – الحفرة: هال فيها التراب.
المعجم الأساسي	ردَم يردُم رَدْما (في الوسيط: يردِم) الباب والحفرة والفجوة ونحوها: سدها . (ونلحظ أنه جمع الباب والحفرة وقد فرق بينهما المجمع، وأنه جعل الفعل ردم من باب نصر كما يدل الضبط على حين أن المعجم الوسيط فرق بين يردم بالضم وله معنى دام الشيء، والشجر اخضر أما يردِم فهو الذي معناه السد).
المعجم الوسيط	(افتات) في الأمر: استبد به ولم يستشر من له الرأي فيه... و – الكلام : اختلقه.

المعجم الأساسي	افتات في الأمر : استبد به، لم يستشر أحداً فيه. (ونلحظ هنا : ان الأساسي غير في شرح الوسيط فقال: ولم يستشر أحدا فيه. على حين أن الوسيط قال: ولم يستشر من له الرأي فيه. وتظهر ثمرة الخلاف إذا كان المستشار غير ذي رأي، فعلى تعريف الوسيط لا يعد ذلك افتياتا خلافا لتعريف الأساسي. وعبارة تاج العروس: «قال الجوهري الافتيات افتعال من الفوت، وهو السبق إلى الشيء دون ائتمار من يؤتمر» تؤيد الوسيط. على أن الإطلاق وارد أيضا).
المعجم الوسيط	(لحن) في كلامه – لحنا : أخطأ الإعراب وخالف وجه الصواب في النحو فهو لاحن ولحان.
المعجم الأساسي	لحن يلحن لحنا فهو لاحن: الشخص في كلامه : أخطأ في الإعراب وخالف وجه الصواب. التغيير الذي حدث هنا هو زيادة (في) بعد أخطأ. وحذف: في النحو.
المعجم الوسيط	(لعِق) العسل ونحوه – لعقا: لحسه بلسانه أو بإصبعه .... ويقال : لعق فلان إصبعه، كناية عن موته.
المعجم الأساسي	لعق يلعق لعقا فهو لاعق – العسل ونحوه: لحسه بلسانه أو بإصبعه. لعق فلان إصبعه : مات.
المعجم الوسيط	(المروءة): آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات، أو هي كمال الرجولية.
المعجم الأساسي	مروءة : ١ – مص (أي مصدر) مرؤ ٢ – آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات ٣ – كمال الرجولية.

المعجم الوسيط	(النقاب) : القناع تجعله المرأة على مارن أنفها تستر به وجهها (ج) نقب.
المعجم الأساسي	نقاب ج نقب: قناع تجعله المرأة على أنفها تستر به وجهها.
المعجم الوسيط	(نمنمت) الريح التراب: خطَّته وتركت عليه أثراً كالكتابة و – الشيء : نقشه وزخرفه. يقال : نمنم كتابه.
المعجم الأساسي	نمنم ينمنم نمنمة : – الشيء : نقشه وزخرفه «نمنم الكتاب» «نمنم الزجاج».
المعجم الوسيط	(النوام) : مرض يصيب الإنسان من عضة ذبابة «تسي تسي» فينام ولا يكاد يفيق، وهو في الكثير الأغلب مميت (مج).
المعجم الأساسي	نوام: مرض يصيب الإنسان من عضة ذبابة «تسي تسي» فينام ولا يكاد يفيق وهو في الاغلب مميت. (وأسقطوا كلمة : الكثير).

ونستنتج مما سبق وهو من مواد مختلفة، في الوسيط والأساسي : أن مؤلفي المعجم الأخير اتخذوا الأول مصدرا لهم في تفسير المواد وشرحها وتعريفها، وإن لم يذكروا ذلك صراحة في مقدمة معجمهم، أو يرمزوا برموز تدل على أن هذه الشروح مقتبسة من المعجم الوسيط.

٣ – نأخذ على المعجم الأساسي أيضا : عدم الدقة في بعض الشروح والتعريفات. ومن ذلك :

* في مادة (لوط) (ص : ١١٠٨) جاء في المعجم: لوط: نبي راج في قومه اللواط، فأبادهم الله.

ولم يرد في هذا التعريف بنبي ورسول: إلى من أرسل؟ وفي أي بلد؟ وما موقفهم من دعوته؟ ونسبه... وإجابة هذه الأسئلة واردة في معجم قديم هو (تاج العروس).

ويتوهم من قولهم: (راج في قومه اللواط) أن لوطا مشتق من اللواط. والعكس هو الصحيح. قال الخليل: «لوط: اسم نبي، كان ذا قرابة لإبراهيم عليهما السلام، بعثه

الله إلى قومه فكذبوه، وأحدثوا ما أحدثوا فاشتق الناس من اسمه فعلا لمن فعل فعل قومه»[٤٩] .

ولا أدري : هل يرضى أحد من مؤلفي المعجمات أن يقال في التعريف بلوط: نبي راج في قومه اللواط؟

* في مادة (أسطوانة) نقل مؤلفو المعجم جزءا من التعريف من المعجم الوسيط (١٧/١) وأغفلوا جزءا مهما يكمل الجزء الذي نقلوه.

فقد قال المعجم الوسيط : (الأسطوانة) – في الهندسة: جسم صلب ذو طرفين متساويين، على هيئة دائرتين متماثلتين، تحصران سطحا ملفوفا بحيث تمكن متابعته بخط يتحرك موازيا لنفسه، وينتهي طرفاه في محيطي هاتين الدائرتين.

ووقف المعجم الأساسي عند قول الوسيط: متماثلتين، وأغفل جزءا أساسيا من التعريف، مما نعده اختصارا مخلا!!

* وفي مادة (القاوون) جاء في المعجم (ص : ١٠١٧) : القاوون : كلمة تطلق على ما يسمى في مصر الشمام، وفي الشام البطيخ الأصفر[٥٠] .

وهذه إحالة على مادتين هما الشمام والبطيخ، فالتعريف في هذه الحالة قاصر. والسبب في ذلك أن المؤلفين نقلوا التعريف من المعجم الوسيط الذي عرف (القاوون) تعريفا علميا كاملا، فاختصر مؤلفو الأساسي التعريف اختصارا مخلا، جاء في الوسيط في مادة (القاوون) (ص : ٧٦٨) : «نبات عشبي حولي من الفصيلة القرعية يزرع لثماره، وثمرته صفراء حلوة طيبة الرائحة، وتطلق أحيانا على ما يسمى الشمام في مصر، والبطيخ الأصفر في الشام».

فجاء مؤلفو الأساسي وأخذوا الجزء الأخير من التعريف بعد حذف كلمة (أحيانا) ولهذا يعد هذا التعريف قاصرا.

* من التعريفات الناقصة في المعجم الأساسي: تعريف الدرهم (في القديم) بأنه عملة فضية. وعرفوا الدرهم (في الحديث) بأنه : عملة صغيرة تستخدمها بعض البلاد العربية (مثل الإمارات العربية، والمغرب، وليبيا). وقولهم : عملة صغيرة، لا يكفي في تعريف (الدرهم)، ثم كان عليهم أن يحددوا قيمته، فالدرهم في قطر مثلا يساوي ١٠٠/١ من الريال، ودرهم الإمارات يساوي مائة درهم قطري أو أقل قليلا.

ولعل محرر مادة (ريال) كان أدق حين قال: «عملة فضية كانت تستخدم في أكثر من بلد عربي، ويختلف سعرها بحسب البلد والنوع، وما تزال تستخدم حتى الآن في المملكة العربية السعودية وقطر وعمان وغيرها».

* من عيوب الشرح في المعجم: الشرح باستعمال الضد، ومن ذلك: نقصان: مص (مصدر) نقص: عكسه زيادة.

٤ - أشرنا في وصف المعجم الأساسي، فيما سبق إلى أنه يورد بعد الشرح أمثلة سياقية تتضمن أساليب مستعملة إلى جانب بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية والأمثال العربية، والشعر والنثر في العصور المختلفة.

وكل هذة الشواهد والاساليب واردة في المعجم الوسيط بعدد أقل.

ولعل كثرة هذه الشواهد والأمثلة في المعجم الأساسي راجعة إلى أنه معجم مؤلف أساساً للطلاب الناطقين بالعربية ومتعلميها، وهؤلاء يحتاجون فعلا إلى أمثلة لاستخدام الكلمة في سياقها من الكلام، فيعد ذلك إضافة إلى الشرح، وتوضيحا للتعريف.

ولكن.

* أسرف واضعو المعجم في هذا المسلك إسرافا جعل هذا المعجم أقرب إلى أن يكون كتابا تعليميا، وكان عاملا في تضخمه، إلى جانب أن بعض الأمثلة تعد تزيدا.

ونسوق فيما يلي نماذج من هذه الأمثلة :

* تحت عنوان (غ ر ق) جاءت هذه العبارات:

- غرق - الشخص في الماء: غار فيه فمات بالاختناق.

«كاد يغرق لأنه لا يحسن السباحة».

- غرقت السفينة ونحوها: رست في الماء، «اصطدمت الباخرة بالصخور قرب الشاطيء وغرقت».

- غرق في الأمر أو الشيء: أحاط به الأمر أو الشيء وغمره وغلبه.

«تاجر غارق في الدين»، «مكتب غارق في الفوضى» ، «عينان غارقتان في الدموع»، «رجل غارق في أفكاره» «غرق في شبر ماء»: لم يتصرف بحكمة، «غرق

في الوحل»: تورط في أعمال غير مشروعة. «غرق لأذنيه» استغرق العمل كل وقته.

- أغرق : ١- جاوز الحد. بالغ «أغرق في الضحك» ٢ - غرق «أغرق السفينة»، (فاغرقناهم في اليم) (قرآن) ٣ - السوق بالبضاعة: أدخل فيها من البضاعة فوق حاجة المستهلك.

- استغرق: يستغرق استغراقا: ١ - في الشيء: جاوز فيه الحد، بالغ «استغرق في الضحك»، «استغرق في العمل» ، «استغرق في النوم»، «استغرق في التفكير». ٢ - الشيء: استوعبه «استغرقت الزيادة أسبوعا».

- غرق: مص (مصدر) غرق. مشرف على الغرق: يكاد يغرق.

- غريق ج غرقى: من غار في الماء فهلك بالاختناق «إنقاذ الغرقى»، «أنا الغريق فما خوفي من البلل» (مثل شعري).

وبمراجعة الأمثلة التوضيحية في مادة (غرق) التي استغرقت ٣٠ سطرا في المعجم، نجد أن هذه الأمثلة تمثل ٢٠ عبارة! وهذا يعد إسرافاً في الأمثلة.

* وهذا نموذج آخر للإسراف في الأمثلة، تحت عنوان (ق د ر) :

- قدر الشيء : ١ - بين مقداره «قدّر ثمن البضاعة» ٢ - الأمر : دبره وفكر في تسويته، ٣ - اللحم : طبخه في القدر، ٤ - الله الرزق: ضيقه (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه)، ٥ - الشيء حق قدره : أعطاه ما يستحقه من عناية أو تعظيم (وما قدروا الله حق قدره) (قرآن).

- قدّر يقدر قدارة فهو قادر: - على الشيء: تمكن منه، استطاع «قدر على الصعود إلى الجبل»....

- قدّر يقدر تقديراً : ١ - الشيء : قاسه «قدر مساحة الأرض»، «قدر مدى الخسائر»، ٢ - الشيء: قومه «قدره حق قدره»، ٣ - الشخص: احترمه «قدر التلميذ معلمه»، «تقدير شخصي»، «جدير بالتقدير». ٤ - الله الأمر : حكم به، لا قدر الله لك الشر. دعاء بالخير.

- أقدر يقدر إقدارا : ١ - ٥ . رآه قديراً «أقدر الموظف على تحمل مهامه» ٢ - ٥ على كذا : قواه وصيره قادراً عليه.

– تقدر يتقدر تقدراً : – له كذا : تهيأ «تقدر له أن يصبح غنياً»، ٢ – عليه الأمر : جعل له وحكم به عليه.

– تقدير. ١ مص (مصدر) قدر، ٢ ج – ات (أي جمعه تقديرات) : تفكير بروية «التقدير في الأمر» ٣ – احتمال مقابل التحقيق «في تقديري أنه كاذب» ٤ – توقع «تقديرات الميزانية»، «تقديرات مالية»، «تقدير قيمة السلعة» ٥ – معيار تقيم به درجات الطالب في الجامعة «نجح بتقدير مقبول/ جيد/ جيد جدا/ ممتاز».

– قادر: ١ – ج للعاقل – ون: من له طاقة واستطاعة «قادر على تحمل الصعاب» «دولة قادرة على تجاوز الأزمة الاقتصادية» ٢ ال – من أسماء الله الحسنى.

ولا يزال في مادة (ق د ر) ٣٩ سطرا تضم ٢٧ عبارة سياقية إلى جانب ما أوردناه سابقا وقدره عشرون عبارة!!

وأعود فأقول: قد يعتذر مخططو المعجم ومؤلفوه بأنه موجه للمتعلمين لا للمعلمين ولهذا تكثر العبارات السياقية.. ولكن وجهة نظري أن هذا إسراف ضخم المعجم وجعله أشبه بكتاب لتعليم اللغة!

٥ – من أهم ما يجب تحققه في المعجم توحيد المصطلح الوارد في المدخل والوارد في الشرح. أما ان يكون الشارح لكلمات المعجم يستخدم مصطلحا ورد في مداخل المعجم مغايرا لما جاء في الشرح، فهذا مالا يرتضيه المنهج، ويصف واضعي المعجم بأنهم «يقولون مالا يفعلون».

* ومن الأمثلة على هذا الخلل المنهجي : وصف الحروف العربية (الأصوات) في أوائل الأبواب بوصف معين، وشرح صفات هذه الأصوات في أماكنها في المعجم بوصف آخر :

١ – في المدخل (لثوي) قال المعجم: «الحروف اللثوية (في علم الأصوات) وهي : الثاء والذال والظاء» : ووصف هذه الأصوات الثلاثة بأنها لثوية، وارد في شرح المفصل لابن يعيش(٥٢) ، وفي النشر في القراءات العشر، لابن الجزري(٥٣) ، وفي المعجم الوسيط(٥٤) . وعللت هذه الكتب وصفها بأن مبدأها من اللثة.

والمأخذ الذي نأخذه على محرر المعجم أنه خالف هذا الوصف باللثوية عند الكلام

على هذه الأصوات الثلاثة :

– فعند وصف الثاء قال: «وهو صوت بين أسناني»، أي ليس لثويا[٥٥] .

– وعند وصف الذال قال: «وهو صوت بين أسناني»، أي ليس لثويا[٥٦] .

– وعند وصف الظاء قال: «وهو صوت بين أسناني»، أي ليس لثويا[٥٧] .

أما الأصوات اللثوية التي جاءت في أوائل الأبواب فهي أصوات ثلاثة أخرى غير الثاء والذال والظاء وهي :

– الراء : قال المعجم: صوت لثوي[٥٨] .

– اللام : قال المعجم: صوت لثوي[٥٩] .

– النون : قال المعجم: صوت لثوي[٦٠] .

وهكذا يجد قارىء المعجم أن الأصوات اللثرية في مادة (لثوي) هي الثاء والذال والظاء. وأن هذه الاصوات الثلاثة في أوائل الأبواب : «بين أسنانية». وأن الأصوات اللثوية في أوائل أبواب أخرى هي الراء واللام والنون.

فماذا يكون الخلل والاضطراب غير هذا؟!

٢ – في وصف الأصوات في أوائل الأبواب نقص ترتب على إهمال صفة للصوت ينبغي أن تذكر، ولكنها لم تذكر.

فالأساس الذي جرى عليه المعجم، وهو أساس سليم، أن يكون وصف الصوت متضمناً : المخرج، والصفة من حيث الشدة، والرخاوة والتوسط، والجهر والهمس، والترقيق والتفخيم، ووظيفة الحرف في الكلام إن كان من حروف المعاني.

ولكن أغفل المعجم في وصف الأصوات الأربعة : الراء، واللام، والميم، والنون (في أوائل أبوابها) أنها متوسطة بين الشدة والرخاوة. وهذا نقص ينبغي تلافيه في الطبعة الثانية للمعجم.

٣ – اختار المعجم في وصف الهمزة أن صفتها من حيث الجهر والهمس: «صوت مهموس»[٦١] ، وهذا الرأي في وصف الهمزة مأخوذ عن المستشرق الفرنسي «جان كانتينو» في بيانه للأصوات المهموسة (Sourdes)[٦٢] على حين أن سيبويه عد

الهمزة صوتاً مجهوراً[٦٣]. وهي عند الدكتور إبراهيم أنيس صوت لا هو بالمجهور ولا بالمهموس، لأن فتحة المزمار معها مغلقة إغلاقا تاما، فلا نسمع لهذا ذبذبة الوترين الصوتيين»[٦٤] .

وقد أخذ المعجم الوسيط برأي الدكتور إبراهيم أنيس وقال: «ولا يوصف بالجهر أو الهمس»[٦٥] . والدكتور أحمد مختار عمر، وهو محرر المعجم الأساسي، ذهب هذا المذهب في كتابه (دراسة الصوت اللغوي) وقال: «اللامجهور واللامهموس ويشمل ذلك صوتاً واحداً هو الهمزة»[٦٦] .

فهل عد الهمزة صوتا مهموسا غلطة مطبعية؟ إن كان ذاك فلعلهم يراجعون ذلك في الطبعة التالية. وإن كانوا اعتمدوا على (كانتينو) الذي خالف سيبويه واللغويين العرب المحدثين فلعلهم يشيرون إلى ذلك.

٤ – في تعريف «الصوت المهموس»[٦٧] وقعت غلطتان : الأولى أنهم عرفوا الأصوات المهموسة بأنها «هي التي لا يتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق بها» (في المعجم: بهما) ونسي الشارح قيدا مهما هو «ذبذبة منتظمة» فالانتظام في الذبذبات هو الذي لا يقع مع المهموس، أما مطلق الذبذبات فهو موجود مع المجهور والمهموس. ولهذا تلافى محرر المادة هذا النقص فقال في تعريف المجهور[٦٨] : «صوت يتذبذب معه الوتران الصوتيان في الحنجرة ذبذبات منتظمة».

والغلطة الثانية في مادة المهموس: أنهم مثلوا للصوت المهموس بصوتين غير مهموسين بل هما مجهوران، وهما: الباء والدال. فهذه غلطة أخرى إن لم تكن مطبعية فهي غلطة كبرى. وكان لهم أن يمثلوا بأي صوت من الأصوات المهموسة التي يجمعها قولك (حثه شخص فسكت). وفي المادة غلطتان مطبعيتان هما: اثناء النطق بهما، وعكسهما. والصواب: بها، وعكسها، أي الأصوات المهموسة.

٥ – ومن النقص في وصف الأصوات : وصف الفاء من حيث المخرج بأنها «صوت شفوي» ودقة الوصف تقتضي أن يقال : شفوي أسناني، وهذا معروف في كتب اللغة والأصوات، ولا يحتاج منا إلى استدلال.

* والمثال الثاني على الخلل المنهجي الناجم عن اختلاف المصطلحات المستخدمة في

تحرير المعجم : عدم توحيد المصطلح الوارد في وصف الشهور، فالشهور السريانية تتداخل في الشهور الشمسية، وترتب بترتيبها، والشهور الشمسية توصف مرة بأنها شمسية في مقابل القمرية، ومرة بأنها رومية ومرة بأنها ميلادية.

وسبب هذا الخلل في نظرنا هو النقل من معجمات أخرى. وهذا هو توضيح الخلل المنهجي الذي قررناه :

المعروف في التقاويم المستخدمة في العالم أن بينها :

التقويم السرياني، ويضم اثنى عشر شهرا تبدأ بتشرين الأول وتنتهي بأيلول (تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول، كانون الثاني، شباط، آذار، نيسان، أيار، حزيران، تموز، آب، أيلول) فإذا وصف أحد هذه الشهور قيل : من الشهور السريانية، وعندما يذكر ترتيبه يكون على هذا الأساس.

والتقويم الميلادي أو الرومي أو الجريجوري أو الشمسي : وشهوره الاثنا عشر: من يناير إلى ديسمبر.

والتقويم الهجري أو العربي أو القمري : وشهوره الاثنا عشر: من المحرم إلى ذي الحجة.

والتقويم القبطي، وشهوره : (توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبة، أمشير، برمهات، برمودة، بشنس، بؤونة، أبيب، مسرى، ثم النسيء).

وهناك التقويم الفارسي : ولا يعنينا هنا، لأن الشهور الفارسية لم تذكر في المعجم الأساسي الذي نتناوله بالنقد.

فماذا حدث في المعجم من الخلل في ذكر انتماء الشهور؟

١ – في المدخل (تشرين)[٦٩] قيل : «اسم لشهرين من شهور السنة الشمسية : تشرين الأول (أكتوبر) وهو الشهر العاشر. وتشرين الثاني (نوفمبر) وهو الشهر الحادي عشر».

فقد حدث خلط بين تشرين، وهو من الشهور السريانية وترتيبه فيها الأول، واكتوبر وهو من الشهور الميلادية (= الشمسية) وترتيبه فيها العاشر.

وكان المعجم الوسيط أدق وأصح حين قال عن (تشرين) : تشرين اسم لشهرين من شهور السنة السريانية[٧٠] .

٢ – وفي المدخل (كانون)[٧١] قيل : «كانون الأول : الشهر الثاني عشر من السنة الشمسية شهر ديسمبر وكانون الثاني : الشهر الأول من السنة الشمسية، شهر يناير «ففي جعلهم شهر كانون هوالثاني عشر خلط بين كانون السرياني وديسمبر الميلادي أو الشمسي، والصحيح أن ترتيب (كانون الأول) في السنة السريانية هو الثالث و(كانون الثاني) هو الرابع من الشهور السريانية، يقابله يناير وهو الأول من السنة الميلادية أو الجريجورية أو الشمسية.

٣ – وفي المدخل (شباط)[٧٢] قيل : «الشهر الثاني من شهور السنة الميلادية يقابله فبراير».

فجعلوا شهر شباط، وهو سرياني، الشهر الثاني من شهور السنة الميلادية (لاحظ استعمالهم الميلادية هنا وقد استعملوا في شهور أخرى : الشمسية) والحق أن شهر شباط هو الشهر الخامس من الشهور السريانية، ويقابله فبراير وهو الشهر الثاني من الشهور الميلادية.

٤ – وفي المدخل (مارس)[٧٣] قيل: الشهر الثالث من الشهور الرومية (آذار) فاستخدموا الشهور الرومية بدلا من الميلادية أو الشمسية كما جرت عادتهم، وهي ثلاثة مصطلحات لشيء واحد..

وفي المدخل (آذار) الذي يقابل (مارس) قيل : «الشهر الثالث من السنة الشمسية كما يعرف في بعض الأقطار العربية، ويعرف في أقطار أخرى باسم (مارس)».

فلم ينسبوا (آذار) إلى الشهور السريانية، وترتيبه فيها السادس، وخالفتهم الدقة حين قالوا : كما يعرف في بعض الأقطار العربية» هكذا دون تحديد لانتماء الشهر وللأقطار التي يعرف فيها، وهذا يخالف السنن المعجمي.

وكان المعجم الوسيط أدق وأصح حين قال عن (آذار) : «آذار» الشهر السادس من الشهور السريانية، يقابله مارس من الشهور الرومية (الميلادية)[٧٥] .

وحين قال عن (مارس) : «الشهر الثالث من الشهور الرومية (الميلادية)[٧٦] ، فمنهج المعجم الوسيط في وصف الشهور أدق وأصح، ومنهج المعجم الأساسي مضطرب مختل.

ثانياً : المادة الموسوعية :

يقصد بالمادة الموسوعية في هذا المعجم ما وضحه الدكتور محيي الدين صابر في مقدمة المعجم بقوله:«وللمعجم سمة موسوعية محددة فهو يتناول عددا من المصطلحات الجديدة، الحضارية والعلمية والتقنية، ويتعرض في إيجاز إلى طائفة كبيرة من أسماء الأعلام، كأسماء القارات والبلدان والمدن والأنهار وأسماء النابغين في التاريخ العربي من خلفاء وقادة وفقهاء وعلماء وشعراء وأدباء وفنانين الخ»[٧٧] .

وقد اخترت في نقدي أن اركز على اسماء الدول العربية، متناولا أمرين:

الأول : المساحة المخصصة لكل بلد عربي.

الثاني : الأساس الذي قام عليه التعريف، وهل هو موحد منسجم في كل البلاد؟

أما من حيث المساحة فقد خصص المعجم للتعريف بكل دولة عددا من الأسطر، بيانها فيما يلي:

١ - هيئة كتب عنها ثمانية أسطر :

* منظمة التحرير الفلسطينية.

٢ - دول كتب عن كل منها ستة أسطر :

* الإمارات العربية المتحدة.
* تونس.
* فلسطين.

٣ - دول كتب عن كل منها أربعة أسطر :

* الجزائر.
* سوريا.
* المغرب.

٤ - دولة كتب عنها ثلاثة أسطر ونصف :

* ليبيا.

٥ - دول كتب عن كل منها ثلاثة أسطر فقط:

* مصر.

* السعودية.
* السودان.
* الصومال.
* موريتانيا.

٦ – دولتان كتب عن كل منهما سطران وربع :
* العراق[٧٨] .
* الكويت.

٧ – دول كتب عن كل منها سطران :
* الأردن.
* البحرين.
* سلطنة عمان.
* لبنان.

٨ – دولة كتب عنها سطر ونصف :
* قطر.

٩ – دولتان كتب عن كل منهما سطر واحد :
* اليمن الشمالية.
* اليمن الجنوبية.

١٠ – وكذلك صنع المعجم في العواصم، فكتب عن بعضها سطراً واحداً مثل عمان، في الوقت الذي كتب فيه عن مدينة (خان يونس) ثلاثة أسطر. ونسى (القاهرة) حيث قال في مادة (قهر) : القاهرة (انظر ألفبائيا) ولم تذكر.!!

وإذا حاولنا الكشف عن سر هذا التوزيع في المساحة داخل هذا المعجم، فإننا لا نملك إلا توجيه عدة أسئلة : لماذا كان الحظ الاوفر في المساحة لمنظمة التحرير الفلسطينية؟ لماذا كان العدد الأكبر من الأسطر لتونس (أما الإمارات فالذي كثر اسطرها هو أسماء الإمارات السبع) وفلسطين؟ على أي اساس خصص لمصر والسعودية والسودان والصومال وموريتانيا ثلاثة أسطر، وللجزائر وسوريا والمغرب

أربعة؟ هل وزعت المساحة في المعجم على أساس المساحة التي تشغلها الدولة؟ هل روعي تاريخ الدولة؟ هل....؟

أسئلة لا جواب لها إلا أن نقول : لقد جانب التوفيق لجنة المعجم الأساسي في هذا الجانب!

الأمر الثاني : هو الأساس الذي قام عليه التعريف بكل دولة.

ومن نظرتنا النقدية استطعنا الوصول إلى الحقئق التالية :

* غفل محررو المعجم في مادة (العراق) فكتبوا عنها في (ص ٨٣٥) تعريفا أساسه بيان الحدود فقالوا : قطر عربي يحده غرباً سوريا والأردن، وشرقاً إيران، وجنوباً المملكة العربية السعودية والكويت، وشمالاً تركيا، عاصمته بغداد (ملحوظة: الفواصل من عندنا وليس في هذه المادة فاصلة واحدة).

وهذا تعريف غريب بقطر من أكبر الأقطار العربية، وكأنه أرض مطلوب تحديد حدودها الأربعة!!

وللإنصاف، وتسجيل الغفلة في الوقت نفسه، نقول: إن المعجم كتب عن (العراق) في موضع آخر، حيث وضع في مادة (عرق) (ص ٨٣٠) وهو التعريف الذي علقنا عليه آنفاً. ووضع (العراق) في ترتيبه الألفبائي وعرفه تعريفا مغايراً هو : «العراق (أو الجمهورية العراقية) جمهورية عربية في غربي آسيا، عاصمتها بغداد، من أهم مدنها: البصرة والموصل وكركوك». فمحا هذا التعريف الثاني ما جاء في التعريف الذي يعتمد على الحدود.. ولكنه اثبت الغفلة على منسقي المواد لذكرهم (العراق) مرتين في ترتيبين!!

* انفرد محرر مادة (الشارقة) بذكر القبيلة التي تنتمي إليها الأسرة الحاكمة في هذه الإمارة وهي (القواسم) ولم يصنع مثل ذلك في (أبوظبي) ولا (دبي) ولا (عجمان) ولا (أم القيوين) ولا (رأس الخيمة) ولا في (الفجيرة).

* ذكر المحرر اسم الأسرة الحاكمة في دولة قطر وهي أسرة آل ثاني، ولم يصنع مثل ذلك في البحرين، ولا في الكويت، ولا في عمان.

ثالثاً : الإخـراج :

تناولنا في وصفنا لهذا المعجم ما يتصل بإخراجه. ونركز هنا في نقد هذا الإخراج على جانبين :

* الجانب الأول : أن هذا المعجم المؤلف في العقد الأخير من القرن العشرين، ولطلاب يتعلمون العربية، لا يشتمل على أية صورة أو رسم توضيحي، على الرغم مما كان مقرراً لهذا المعجم أن يشتمل على هذه الصور والرسوم، كما قال أحمد العابد أحد مؤلفي هذا المعجم في كتاب (في المعجمية العربية: ٥٩٤). على حين أن المعجم الوسيط اشتمل على ستمائة صورة، واشتمل (القاموس الجديد) التونسي على ١١٥٤ صورة. بله الصور التي اشتمل عليها (المنجد) والتي بلغت عند صدوره ألف صورة..!

وإذا أضفنا خلو المعجم الأساسي من الصور إلى خلوه من الرموز الكاشفة عن أصول الكلمات المعربة والدخيلة والمولدة والمحدثة والمجمعية، فإن هذا المعجم يكون قد فقد عنصرين أساسيين من عناصر الإخراج المعجمي المعاصر.

* الجانب الثاني : الأخطاء المطبعية. وقد كشفنا منها عدداً لا يستهان به في معجم لغوي يفترض خلوه من الأخطاء، ومع هذه الأخطاء نذكر الاضطراب في طريقة الكتابة.

وفيما يلي أهم الأخطاء التي جمعناها من المعجم :

١ – من سمات المعجم الجيد الانسجام في طريقة الكتابة، ولكن هذا المعجم اضطرب في كتابة صوت الـ G الإنجليزي فكتب مرة بالجيم العربية. ومرة بالغين، وجمع بينهما في مواضع أخرى.

* فمثلاً في مادة أمريكا الوسطى(٧٩) كتب (غواتيمالا) و(نيكارغوا) بالغين.
* واقتصر على كتابة الجيم بالغين في (لاغوس)(٨٠) .
* واقتصر على الكتابة بالجيم في (أكسجين)(٨١) .
* وجمع بين الجيم والغين في كتابة: غرام / جرام (مادة : أقة) ومادة (كيلو) ومادة (هيمجلوبين/ هيمغلوبين).

٢ – وقع في المعجم خطأ في القرآن الكريم في مادة (ف)[٨٢] حيث كتبت الآية ١٧ من سورة الرعد هكذا (وأما الزبد...) والصواب:فأما.

٣ – من العيب في المعجم أن تترك كتابة همزة القطع مما يوهم أنها همزة وصل، ومن ذلك كلمات : اشارة (ص ٤٩٠) وبالاضافة (ص ٩٩٨) وانثى (ص ١١٢٦) وكذلك: لاقامة المسافرين (ص ٩٥١) ولارشاد السفن (ص ٩٥١).

وليس للمشرفين على طبع المعجم أن يدعوا عدم وجود الهمزة التحتية، فإنها موجودة في المعجم، مثل (إذاعة).

٤ – في مادة (الصحاح) قيل : معجم لغوي لابي مضر. والصواب : لأبي نصر.

٥ – في مادة (الصومال) قيل : انضمت إلى جامعة الدول العربي. والصواب: العربية.

٦ – مادة (غ) في أول الباب (ص -٨٨٤) قيل : صوت مهجور والصواب: مهجوز

٧ – في المدخل (مزاوجة) (ص : ٥٩٢) كتبت : مزواجة. والصواب : مزاوجة.

٨ – في النظام الصرفي للغة العربية (ص ٣٥) وفي صياغة المقصور والممدود، قيل : في المصدر على وزن تَفعال من الفعل الناقص مثل : تعداد. وليس في كلمة تعداد قصر ولا مد وليس فعلها ناقصا. والصواب : تعداء.

٩– في المدخل (آسيا) ص ٦٤ كتب: والميحطان. والصواب: والمحيطان.

١٠– في المدخل (حرشف) ص ٣٠٧، ضبطت الفاء بالفتحة كان الكلمة فعل، وهي اسم.

١١ – في المدخل (مرأ) ص : ١١٢٦ قيل صار كالمراة. ووضعت فتحة على التاء وهو خطأ طباعي. وفي المدخل نفسه : مرىء بكسر الميم. وهو خطأ

١٢ – في المدخل (يقل) ص ١٦٨ قيل: الخضروات بغير ألف، والصواب : الخضراوات.

١٣ – في المدخل (الزبيدي) ص : ٥٦٨ قيل : «معجم تاج العروس في شرح جواهر القاموس» والصواب : «تاج العروس من جواهر القاموس».

١٤ – في المدخل (لتلتة) قيل : اشتغال بأمور زائدة عن المقصود. والصواب – كما جاء في الوسيط الذي نقل عنه الأساسي : «اللتلتة : الاشتغال بالأمور الزهيدة عن المقصود (مو)».

فالزهيدة في الوسيط، كتبت (الزائدة) في الأساسي.

١٥ – في المدخل (مقطع) ص ٩٩٨ قيل: «في علم اللغة» وحدة صوتية تتكون من صائت واحد على الأقل بالإضافة إلى احتمال وجود صائت أو أكثر قبل الصائت او بعده أو قبله وبعده (مثاله لا، لن).

والصواب : « بالإضافة إلى احتمال وجود صامت أي Consonant وبهذا يفهم تعريف المقطع.

١٦ – من أخطائهم في الضبط : جاء في المدخل (زعفران) ص ٥٧٦ كلمة (الحلويات) مضبوطة هكذا (الحَلَوّيات) كما ينطقها العامة. والصواب : الحلْويات.

١٧ – كذلك وقع الخطأ في ضبط لقب (خير الدين الزركلي) مدخل (الزركلي) ص ٥٧٥ هكذا (الزْركلي) أيْ بكسر الزاي وسكون الراء. وهذا خطأ. والصواب بكسر الزاي والراء وسكون الكاف، والزركلي نفسه هو الذي ضبط لقبه صحيحاً في «الأعلام» جـ ١٠.

الهوامش

١ – د. محيي الدين صابر: مقدمة المعجم:٩

واللجان الخمس التي شارك أعضاؤها في وضع المعجم وإعداده هي : (١) لجنة التأليف وتضم كلا من الاساتذة والدكاترة: احمد العابد، أحمد مختار عمر، الجيلاني ابن الحاج يحيى، داود عبده، صالح جواد طعمه، نديم مرعشلي. و(٢) لجنة التنسيق أ. د. علي القاسمي و(٣) لجنة التحرير : أ. د. أحمد مختار عمر. و (٤) لجنة المراجعة أ. د. تمام حسان عمر، أ. د. حسين نصار، نديم مرعشلي. وتضم لجنة الإعداد الفني والإشراف الإداري سبعة من الفنيين والإداريين.

٢ – صدرت منه حتى الآن ثلاث طبعات: الأولى : ١٩٦٠ والثانية : ١٩٧٢ والثالثة : ١٩٨٥ وانظر ما كتب عن (المعجم الوسيط بين المحافظة والتجديد) في كتابنا (في النقد اللغوي).

٣ – هي بالترتيب : (المرجع) لعبد الله العلايلي – ١٩٦١، (الرائد) لجبران مسعود – ١٩٦٥ (لاروس – المعجم العربي الحديث) لخليل الجر – ١٩٧٨، (القاموس الجديد) – ١٩٧٠، (المعجم الوجيز) لمجمع اللغة العربية – ١٩٨٠.

٤ – رتبت مواد المعجم أو الجذور التي يشتمل عليها في أبواب بعدد حروف الهجاء، حسب حرفها الاول. ثم رتبت مواد كل باب وفقا للحرف الثاني فالثالث. واعتمد في ذلك تسلسل الحروف الهجائية من الهمزة إلى الياء. والأعلام، والأسماء غير العربية (المعربة أو الدخيلة) تطلب في ترتيبها دون الرجوع إلى الجذر.

وقد حافظ المعجم على المسلك الذي سلكه مجمع اللغة العربية في الوسيط وهو مراعاة الأصول الاشتقاقية خلافا للمعجمات الحديثة التي لا تراعي الأصول الاشتقاقية بل تضع الكلمة في ترتيبها الألفبائي دون الرجوع إلى جذرها، ومن ذلك المعجمات: (المنجد الأبجدي) و(الرائد) و (لاروس – المعجم العربي الحديث) و(القاموس الجديد) و(المورد – عربي إنجليزي) وعليها مآخذ كثيرة في هذا الترتيب.

٥ – د. محيي الدين صابر: مقدمة المعجم: ٨.

٦ – د. . إبراهيم انيس وآخرون : مقدمة الطبعة الثانية للمعجم الوسيط.

٧ – راجع : د. عبدُ العزيز مطر : في النقد اللغوي : ٦٥.

٨ – ص : ٥٩.

٩ – يخالف هذا الترتيب ترتيب المعجم الوسيط والمعجم الكبير اللذين يقدمان مكسور العين على مضمونها (راجع مقدمة الوسيط).

١٠ – يقدم المعجم الوسيط والمعجم الكبير (أفعل) على (فاعل) وعلى (فعل).

١١ – هذا الترتيب يخالف ترتيب المعجم الوسيط والمعجم الكبير اللذين يرتبان المزيد بحرفين وثلاثة على النحو الآتي : افتعل – تفاعل – تفعل – افعل – استفعل – افعوعل – افعال – افعول.

١٢ – مقدمة المعجم : ٩.

١٣– المعجم : ٦٨.

١٤ – نفسه : ٦٢٢.

١٥ – نفسه : ٨٠٨.

١٦ – نفسه : ٨٤٨.

١٧ – نفسه : ٨٤٩.

١٨ – نفسه : ١١٤٥ ولم يذكر المعجم أن كلمة مقدونس دخيلة، واقتصر على تونس كعادته في بيان شيوع اللفظ بنطق معين فيها. ولعل السبب أن المعجم مؤلف في تونس (مقر المنظمة).

١٩ – نفسه: ١١٤٤.

٢٠ – المعجم الوسيط : ٨٧٩.

٢١ – المعجم الأساسي : ٤٧٤.

٢٢ – المعجم الأساسي : ٥٢٥.

٢٣ – نفسه : ٩٢٥.

٢٤ – نفسه : ٦٢٣.

٢٥ – نفسه : ٤١٣.

٢٦ – نفسه : ١٢٤٦.

٢٧ – نفسه : ٩٨.

٢٨ – نفسه : ٩٨.

٢٩ – نفسه : ٩١.

٣٠ – نفسه : ١٣٩١ وقوله (مج) رمز لما اقره مجمع اللغة العربية، وهذه من المرات القلائل التي ذكر فيها

المعجم هذا الرمز مع كثرة ما أخذ مما اقره المجمع، كما يتبين ذلك في نقدنا الآتي بعد الوصف.

٣١ – نفسه : ٧٤١.

٣٢ – عبدالعزيز مطر : في المعجمية العربية المعاصرة (بحث: المعجم الوسيط) ٥٠٢.

٣٣ – أحمد العايد : في المعجمية العربية المعاصرة (بحث: هل من معجم عربي وظيفي؟) : ٥٦٦ ، ٥٩٤.

٣٤ – ينتهي عصر الرواية في عام ٢٠٠ هـ في الحواضر وفي عام ٣٥٠ هـ في البوادي.

٣٥ – قارن المعجم الوسيط : ١٦/١ والأساسي : ٦١.

٣٦ – المعجم الأساسي : ٦١.

٣٧ – نفسه : ١٠.

٣٨ – راجع الهامش رقم (٣٤).

٣٩ – من تصدير الطبعة الأولى للمعجم الوسيط (ص ١٠) وقد حذفنا من صيغة السؤال كلمة (خطأ) بعد قولهم: أقيمت خطأ، إذ لا ضرورة لها في السؤال، ونذكرها هنا تحقيقاً للأمانة.

٤٠، ٤١ – د. محيي الدين صابر: مقدمة المعجم : ٩

٤٤ – كتبوا (محدثة) كاملة دون رمز كما جاء في المعجم الوسيط. ولم يكتبوا الرمز (مح) كما حددوا في مقدمة المعجم.

٤٥ – راجع الهامش رقم (٤) من هذا البحث.

٤٦ – راجع منهجية المعجم : ص ٥٩ (المعجم الأساسي).

(٤٧) يمكن التثبت من ذلك بمراجعة شروح المداخل التي أوردناها في القسم (أ) من المادة اللغوية.

٤٨ – كان يمكن مثلاً أن يقتبسوا التعريف من القاموس المحيط الذي قال : جيب القميص : طوقه. وهذا يثبت عليهم اللجوء إلى الوسيط دون إشارة.

٤٩ – الخليل بن أحمد : كتاب العين : ٤٥٢/٧.

٥٠ – ذكر المعجم مادة (القانون) معرفة بأل خلافاً لمنهجه في المداخل حيث ذكرت منكرة.

٥١ – ص ١٠٧٣.

٥٢ – ١٣١/٦.

٥٣ – ٢٨٨/١.

٥٤ – ٨١٥/٢.

٥٥ – المعجم ص : ٢٠٩.

٥٦ – نفسه : ٤٧٦.

٥٧ – نفسه : ٨٠٨.

٥٨ – نفسه : ٤٩٢.

٥٩ – نفسه : ١٠٦٥.

٦٠ – نفسه : ١١٦٥.

٦١ – نفسه : ٦٣.

٦٢ – جان كانتينو : دروس في أصوات العربية – ترجمة : صالح القرمادي : ٢٥.

٦٣ – الكتاب : ٤٠٥/٢.

٦٤ – إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية : ٩٠.
٦٥ – المعجم الوسيط : ١.
٦٦ – ص : ٢٧٧.
٦٧ – ص : ١٢٧٢.
٦٨ – ص : ٢٧٣.
٦٩ – ص : ١٩٩.
٧٠ – المعجم الوسيط : ١/٨٥.
٧١ – المعجم الأساسي : ١٠٥٧.
٧٢ – نفسه : ٦٦٥.
٧٣ – نفسه : ١١٢٩.
٧٤ – نفسه : ٦٤.
٧٥ – المعجم الوسيط : ١.
٧٦ – نفسه : ٢/٨٦٣.
٧٧ – مقدمة المعجم : ٩.
٧٨ – كتب المعجم عن العراق في موضعين بأسلوبين مختلفين : ص ٨٣٠ في الترتيب الألفبائي وفي سطرين. وكتب عنها مرة أخرى في ص ٨٣٥ (مادة عرق) في سطرين وربع.
٧٩ – المعجم الأساسي : ١٠٧.
٨٠ – ص : ١٠٦٧.
٨١ – ص : ٩٩.
٨٢ – ص : ٩١١.

بين التحليل الجمالي والتحليل النفسي

دراسة لموقف من شعر المتنبي

ماهر حسن فهمي
أستاذ بقسم اللغة العربية

هل يمكن حقيقة أن نعزل النص عن كل المؤثرات الاجتماعية والنفسية حين نحلله، ثم نكتفي بهذا التحليل مقتنعين أن التحليل الجمالي أو الأسلوبي كاف للدلالة على كل أبعاد النص؟

وإذا كان الجمال[١] في معنى من معانيه هو الانسجام والتناسق والتوازن. في العمل الفني الذي يتكون من بناء، ينبغي أن نبحث فيه عن كل ذلك من خلال العلاقات بين أبعاد العمل المختلفة التي يوحي بها النص[٢] ، فان بعض الأعمال الفنية الكبيرة ربما احتاجت إلى أن نستفيد من جهود المدارس النقدية المختلفة لكي نحللها أو نحاول فهمها.

وسوف نتوقف عند قصيدة «العيد» للمتنبي، لنرى أن الزمن في القصيدة قد اكتسب معنى المطلق، فليس الحديث عن لحظة معينة إلا انطلاقاً لشحنة من الايحاءات تفجرها الكلمة، لتوحي لكل فرد منا ايحاء خاصا، كلما كانت له آمال، وكلما ضاعت منه أحلام، ودورة الزمان، تذكرنا بالماضي، بما تحقق وما لم يتحقق، بالمستقبل وما يصاحبه من أمل حينا وقلق حينا آخر، إن ميلاد الأمل في أول القصيدة يظل يصارع الفراق

---

١ – الاحساس بالجمال لجورج سانتيانا ص ١١٩ – ١٣٢.

٢ – في معرفة النص يمني العيد ص ٣٢.

واللقاء، والوجود والفقد، حتى يسعى الأجل إلى الأمل. إن قيمة المقابلة أو الطباق قيمة كبيرة بما تصنعه من هذا التوازن في عالمنا بين الجمال والقبح.

ولكن هل يمكن أن نفهم القصيدة دون إدراك زمانها ومكانها من حياة الشاعر؟ ودون إدراك موقعها من الكافوريات كلها؟ من الممكن أن نقتطعها من الكافوريات، وأن نشير إلى أنها آخر قصيدة قالها المتنبي في مصر لأن الاشارة إلى مصر واردة في القصيدة، ومن الممكن أن يكون تحليلنا لها تحليلا يمكن تطبيقه على الكافوريات كلها باعتبارها تمثل مرحلة زمنية ونفسية ومكانية من حياة الشاعر.

بقيت ظاهرة تحتاج إلى وقفة وإلى تعليل؟ لماذا ظهرت «الأنا» هذا الظهور الواضح في كل شعر المتنبي منذ صباه مرورا بمرحلة السيفيات إلى مرحلة الكافوريات، ثم إلى ما بعدها؟

وهناك ظواهر أخرى إذا وازنا بين السيفيات والكافوريات، هل المعمار واحد؟ إن السيفيات تعتبر من أجمل ملاحم الحرب - بالمعنى العام للكلمة - في الشعر العربي، بينما الكافوريات تعتبر من أرق ما قاله المتنبي على الاطلاق، وهي أشبه بآهات حزينة تخرج من صدر الشاعر، فيحيلها أعمالاً فنية، فهل ما يزال البناء واحداً؟ ربما يكون قد تغير، ويبقى السؤال، فلم تغير؟ اليست البيئة التي غيرته؟ كل هذا لا ينفي أن القصيدة عمل فني جمالي بالدرجة الأولى، ولكن الأعمال الجمالية قد تحتاج إلى اكثر من وجهة نظر لتجلية أبعادها.

بين الشاعر والقصيدة

التناقض سر مسير الحركة ومن الموجب والسالب يتولد التيار. والصراع في الحياة من أجل البقاء صراع أزلي، تطور حتى أصبح صراعا بين الخير والشر والجمال والقبح والحق والباطل.

والصراع في القصيدة الحية طبيعي لأنه صراع من أجل النمو ومن اجل استمرارية الحياة، حتى تكتمل القصيدة فيتم وجودها. ومفتاح هذه القصيدة ما فيها من تناقضات تدفع حركتها إلى الأمام فتنمو من الداخل. فكلمة العيد تستدعي الفرح

والطرب، ولكنها هنا موقف بين الماضي المستقبل (بما مضى؟ أم لأمر فيه تجديد؟) يتحول العيد إلى رمز معاكس، فمادام الأمل بعيدا، فكيف يقترب العيد، أو مادام الأمل بعيدا، فهل يقبل اليأس؟

العيد يذكر الشاعر بعدم قدرته على تحقيق الآمال، ولكن اليأس كلمة ثقيلة، لا يقبلها الشاعر الثائر، فيرتد إلى الأمل مرة أخرى متشبثا به «لولا العلى» ولولا حرف امتناع لوجود، فامتناع الاستقرار يعني الرحلة من أجل الهدف، ومادام الهدف موجودا فالرحلة مستمرة والحياة مستمرة ايضا. وتزداد حدة الصراع بين الموت والحياة كأن النقيض يستدعى نقيضه، فالسيف فيه معنى الحياة والموت، الحياة لحامله والموت للآخرين، ولكنه بصورة عامة صنع لكي يقطر دما، فهو في مدلوله العام يعنى الموت، بينما المرأة تعني استمرارية الحياة، ومن هنا كان الجمع بينهما في بيت واحد، الحياة الوادعة، والحياة المغامرة، وعشق المغامرة من أجل السيادة.

ولكن المغامرة واقتحام الحياة أو صلته إلى ماهو فيه، إلى تحليل مذاق الحياة، فلم يعد يذوق في كأس الحياة شرابا سائغا، وإنما ذوب له الزمن الهم والسهاد بدلاً من النشوة، إنه صراع نفسي، يحيله صخرا، ولكن صخر امرىء القيس كان يتحرك (كجلمود صخر حطه السيل من عل) أما هذا الصخر فلا يهتز، وأغاريد الدنيا من حوله والعيد يأتيه والنشوة أمامه، لأن الوجود والعدم يصلان بالصراع النفسي إلى القمة، وجود اللذة المادية وفقدان الأمل المحرك لمعنى السعادة ولمعنى الحياة. ويستمر التناقض بين الشكوي من ناحية والحسد من ناحية ثانية، والغنى من ناحية والمواعيد التي لا تتحقق من ناحية ثانية، والحراس موجودون ولكنهم نائمون، والضيوف موجودون ولكنهم لا يكرمون ولا يتركون حتى يرحلوا. ثم تنتهي آلام المخاض بشرب الموت وترك حياة الذل، لان كأس الموت عندما يكون فيه الخلاص، عذبة المذاق وكأس الذل مرة كالعلقم، إن الخلاص هنا هو الحرية، الانعتاق من كل أسر، وميلاد الحرية، قد يعني موت الشاعر من أجل الهدف الأسمي والمبدأ الذي ينبغي أن يعيش ويكبر ويعيه الناس، وكأنما كان يتنبأ بموته مرفوع الرأس، حينما ذكره مولاه بقوله: (الخيل والليل والبيداء تعرفني، والسيف والرمح والقرطاس والقلم) فقاتل حتى قتل.

هذا الخط الذي يخترق القصيدة لابد منه قبل الدخول إلى عالمها، كأنه صراع بين الجمال والقبح، وبين الخير والشر، ومحاربة الشر بالكلمة، بالفن، أو مقاتلته حتى النهاية.

قالها يوم عرفه سنة خمسين وثلاثمائة، قبل مسيرة من مصر بيوم واحد.

المدخـــل :

عيـد بأيـة حـال عـدت ياعيـد؟	بمـا مضى؟ أم لأمـر فيك تجديـد؟
أمـا الأخبـة فالبيـداء دونهـم	فليـت دونـك بيـدا دونهـا بيـد
لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها	وجنـاء حـرف ولا جـرداء قيـدود
وكـان أطيـب من سـيفي معانقـة	أشـباه رونقـه الغيـد الأماليـد

المفتاح في كلمة «عيد» التي جاءت نكرة، كأنها تماثل بقية أيامه النكرات لدى كافور، والولوج إلى عالم المتنبي النفسي يحتاج إلى هذا المدخل، فإذا كان العيد رمزا للبهجة ونسيان الأشجان، فهو عند المتنبي حجر يلقى في الماء... مثيرا للشجن، كأن العيد وكافور يتبادلان الصور والمكان. وكلمة «عيد»؟ نلمح فيها مدلول الاستفهام الانكاري المصاحب لشيء من الدهشة، لان العيد يأتي مصحوبا بالمسرات التي لايراها، ومن هنا يأتي التساؤل : بأية حال عدت يا عيد؟ بما مضى؟ والعيد من العود لأنه يعود كل عام، لذلك فالتساؤل يشعر بحالة الركود والرتابة التي يحياها الشاعر، و«يشخص العيد» كأنه قد بدأ يعرفه مادام يأتي كل عام بهمومه، ويدير حواراً معه، وبذهنه أطياف بعيدة من أيام خصبة مليئة بالحياة المتدفقة والصراع الخارجي والانتصارات المدوية، ولكن شعاعا من الأمل يخترق هذا اليأس في ختام التساؤلات المتلاحقة» أم لامر فيك تجديد» أتراك جئت بأمر جديد؟ إنه الأمل الذي جعله يبدأ البيت بكلمة «عيد» ويختتمه بكلمة «جديد».

وسوف نلاحظ ثلاث ظواهر :

(أ) الاستفهام : وهو مع التمني والنداء من الأساليب الانشائية التي تصور الانفعالات والحالات الشعورية لأن الأسلوب الخبري تقريري نثري إلى حد كبير.

(ب) صيغ الجمع : البيد – الغيد – الكؤس – الاغاديد – كذابين – الرجال – الايدي – النواطير – الثعالب – العناقيد –. وهي صيغ تعطي معنى المبالغة أو التكبير.

(جـ) الطباق والمقابلة : أخمر أم هم وتسهيد – الوجود والفقد – الشاكي والمحسود – جوعان ويأكل. وكلها تأكيد لمعنى الصراع.

يعود المتنبي إلى واقعة فكلمة العيد ذكرته بأمرين: كافور الحاضر والمسرات قديما، ذكرته بأحبابه الذين فارقهم، وكلما أتى ذكرهم لذعته الحسرة (أما الاحبة فالبيداء دونهم) ونشعر بالرغبة في الفرار من هذا الحاضر (فليت دونك بيدا دونها بيد)، والرفض لهذا الواقع. وهو احساس كرره مرة ومرات حين قال في قصيدة أخرى، يوازن بين حاله وحال الناس في يوم عيد :

يضاحك في ذا العيد كل حبيبه إزائي وأبكي من أحب وأندب

وهي أبيات تثير قضية المديح التي لهج بها المشتشرقون حين طعنوا في شعر المديح باعتباره شعر استجداء. والواقع أن الذي يقرأ شعر المتنبي يجد الاكبار الصادق من الشاعر لمدوحه القديم حتى بعد ان فارقه، ويجد الفخر بنفسه أمام الممدوح، فأي استجداء؟ الموقف هنا شبيه بموقف الرسامين الغربيين في العصور الوسطى حين رسموا الملوك والأمراء، ممن رسمهم رفائيل أو دافنشي أو مايكل انجلو، فهل يسمى هذا استجداء، لقد كان المديح تسجيلا لقيم عليا، وعرفانا بالجميل لرعاة الفن.

والتمنى ثم صيغة الجمع هنا (فليت دونك بيدا دونها بيد) فيها لذعة الاحساس بالضعف، والرفض القاطع لهذا الموقف.

وتأتي انتفاضة الشاعر، حين يشعر أن كبرياءه قد مست (لولا العلي لم تجب بي ما أجوب بها) فالرحلة الدائبة التي كان يرحلها البدوي من أجل الكلأ أو وراء الحياة. يرحلها الشاعر من أجل الحياة أيضا ولكن بمعناها الأشمل، الذي لا يبحث عن القوت الضروري، بقدر ما يبحث عن الرفعة والمجد، وكأنما أصاب فرسه وناقته عدري الطموح، فهي تجوب به كما يجوب بها (وجناء حرف أي ناقة ضامرة من طول الرحلة، ولا جرداء قيدود : أي فرس طويلة العنق دليل الاصالة والقدرة على التحمل).

والعلاقة الحميمة بين الشاعر وناقته، وبين الشاعر وفرسه، توضح موقفاً إنسانياً يربط الانسان بالحيوان في إطار من الوحدة الكلية للطبيعة، وذلك منذ عنترة في أبياته التي يمسح بها جراح حصانه :

فازور من وقع القنا بلبانه　　　وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لو كان يدري المحاورة اشتكى　　　ولكان لو علم الكلام مكلمي

بل وأبيات الفرزدق التي يعامل فيها الذئب معاملة الفارس للفارس (وبت أقد الزاد بيني وبينه)، ولذلك فالمتنبي عندما يقول (وما الخيل إلا كالصديق قليلة، وإن كثرت في عين من لايجرب). لا يقصد التشبيه بالصديق من حيث القلة فحسب، ولكن أيضا من حيث التعاطف الموجود بين كليهما. وكذلك الشأن عندما يردد (إني لأضحك إبلي كلما نظرت، إلى من اختضبت أخفافها بدم) فهو يشفق عليها من طول الرحلة في الارض المليئة بالحصى، والتي جعلت أخفاقها تسيل دما يخضبها، من أجل الوصول إلى الممدوح، ولكنه في النهاية يشاركها الضحك حين يجد ان الممدوح لم يكن يستحق هذا العناء كله. فأضحكها وأبكاها وشاركها الضحك والبكاء، وهذا العرض التاريخي يسمى بنسب المعنى.

ولكنه هنا يتحدث عن العلى والمجد ودويه والمشقة في سبيله، ولولا كل ذلك، لاستراح من مفاجآت السفر، وعناء الترحال الذي لا يهدأ، وعاش حياة وادعة كما يعيش الناس، مع زوجة جميلة (وكان أطيب من سيفي معانقة) ومعانقة السيف كناية عن توقع الخطر، في حياة الفروسية والمغامرة التي يحياها، (أشباه رونقه، الغيد الاماليد)، لكنه يعود ثانية إلى طبيعته الغلابة، ومجرد الخاطر يرتد عنه مكملا معنى الحيرة بين حياة الدعة ومشقة الطموح وحلم السيادة، «فأشباه رونقه» في البياض والنقاء والبريق الذي يسعد النظر، فالغيد هي التي تشبه السيف في هذه الصفات المحبوبة، السيف هو الاصل والمرأة الظل، لأنه رمز العزة، أليس القائل (والمشرفية لازالت مشرفة، دواء كل كريم أو هي الوجع). إن العلاقة بين الحب والحرب في شعر المتنبي علاقة حميمة، وهي حميمة لدى الشعراء الفرسان منذ عنترة حين كان يردد:

فوددت تقبيل السيوف لأنها　　　لمعت كبارق ثغرك المبتسم

ولكن عنترة هنا كان عاشقا، ولذلك فالاصل ثغر محبوبته المبتسم، ولكن المتنبي عكس الصورة لأنه عشق السيف حين عشق المجد، ولا مجد إلا للمقاتلين في عصره، ويصبح السيف رمزاً للقوة وللطموح (تركنا لاطراف القنا كل شهوة).

المشهد : إلى هنا ينتهي المدخل، العيد، الاغتراب بعيداً عن الأحباب، مشقة الرحيل الدائب. ثم ينتقل إلى المشهد في وسط القصيدة، وفيه العرض الدرامي والصراع النفسي الذي يشدنا :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي   شـيئا تتيمـه عيـن ولا جيـد

الحزن المشبوب بالحنين يطور القصيدة إلى حركة صاعدة. يقال كبد حرى وكبد رطبة في حالي الغضب والهدوء، وتضرب إليه أكباد الابل، وأكباد صادية، فالاحساس هنا مادي. ويقال كبد مقروح وقلب مجروح ، وهي توحي بالمعاناة المادية والمعنوية معا، وهذا ما يشير إليه المتنبي وهو ينشد هذا الغناء الحزين. عيون المها وأجياد الغزلان،هكذا كان يردد الشاعر في لحظات صفائه (وأجياد غزلان كجيدك زرنني) (عيون المها ولا كعيون)، وهو لا يستطيع أن يصف أكثر من هذا لأنه لا يرى أكثر من الوجه والجيد في الفتاة العربية أو البدوية، وإلى الآن لايزال الشاعر العربي في الخليج لا يصف سوى العينين : (عيناك غابتا نخيل ساعة السحر) (عيناك في الصباح والمساء كالالق، كواحتين دونما حدود) ولكنه اليوم يقول: لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئا إلا أصابه بالجراح وبالسهام (فصرت إذا أصابتني سهام، تكسرت النصال على النصال)، ولم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئا حتى أستطيع أن استمتع بما يستمتع به الناس من الجمال في الحياة، والناس دائماً تتحدث عن القلب باعتباره مكمن المشاعر وعن الكبد أيضاً بهذا الاعتبار، وهو صراع مع الدهر ولذلك فالغالب هو الزمان، لأنه يحارب من لايراه (ولو برز الزمان إلى شخصاً، لخضب شعر مفرقه حسامي).

ثم يبلغ الانفعال قمته في هذه الصرخة التي تعقبها استفهامات متلاحقة كأننا أمام أحد أبطال شكسبير، في صراع نفسي يعبر عن الحيرة والمرارة والأمل الضائع :

(ياساقيي أخمر في كؤوسكما؟ أم في كؤوسكما هم وتسهيد؟)

الساقيان هنا لابد أن يكونا النهار والليل، لان أحدهما يذوب له الهم والثاني يسقيه السهاد. أخمر في كؤوسكما؟ إنه لم يشرب الخمر، ولكنها توحي هنا بطيب مذاق الحياة ونسيان الهموم، وتأتي «أم» محولة المعنى إلى النقيض : كلما ازددت شرباً تجرعت هما وعرفت سهاداً.

وتستمر الحيرة في صيغة تساؤل (أصخرة أنا؟)، وتزداد حدة الصراع النفسي ببروز الانا، إن تشبيه الشاعر الحساس بالصخرة دليل خلل في طبيعة الحياة، لان الذي لا يعرف طعم السعادة والاغاريد من حوله والمتعة أمامه، وكل مباهج العيد تصدح، لابد أن تكون أعماقه تقطر أسى، فلا يستطيب طعم الحياة بكل مادياتها، كأن السعادة النفسية هي مفتاح التوافق والمصالحة مع الحياة. فإذا أراد المتعة الحسية وجدها، وعند كلمة الوجود قد نتوقف لأننا نتصور أكثر الناس يسعون وراء المتع الحسية وماديات الحياة، ولكن المفاجأة في القسم الاخير (وحبيب النفس مفقود)، فالسعادة الحقيقية هي الرضى الداخلي، وهو ما يفتقده الشاعر معبراً عنه بحبيب النفس (بالأمل الضائع، أو بالطموح الغلاب).

(يامن يعز علينا أن نفارقهم، وجداننا كل شيء بعدكم عدم) هكذا صرح في قصيدة أخرى فالصراع بين الوجود والعدم يتمثل في وجود من نكره وفراق من نحب، وجود الطرب وافتقاد السعادة النفسية، وجود الأيام الرتيبة وافتقاد الآمال العريضة، الصراع بين الحياة نفسها وبين الموت، لان كل يوم يمضي ينقص من حياتنا (وصلينا نصلك في هذه الدنيا، فإن المقام فيها قليل).

(ماذا لقيت من الدنيا؟) نقمته تتعدى الموقف الخاص إلى الموقف العام، ولكن الموقف الخاص، المناسبة، هي التي فجرت الازمة، فالأثر الخارجي هو الذي حرك العالم الداخلي، وبذلك لم نعد نطرح قضية شعر المناسبات باعتبارها صيغة نهائية للشعر الضعيف، لأن أسلوب التناول هو المهم.

هنا نجد التناقض المدهش، فما يشكو منه الشاعر هو نفسه موضع الحسد، وتظهر

«الأنا» ثلاث مرات في مواقف متشابهة: الدهشة: أصخرة أنا؟ أني بما أنا باك منه محسود، أنا الغني وأموالي المواعيد.(أمسيت أروح مثر خازنا ويدا، أنا الغنى وأموالي المواعيد) وأمسيت فيها ظلال المساء، كأنه في نهاية الامنيات التي ضاعت مع النهار، صار اكثر الاثرياء إحساساً بالراحة «أنا الغنى» ترى هل استراح من الفقر ومعاناته؟ إنه يفجؤنا بقوله : (وأموالي المواعيد) وهكذا ينقلنا من النقيض إلى النقيض، لان أمواله مواعيد كافور، وهي لا تحتاج إلى أن تقبضها يد وتظل تعدها، أو أن يحفظها خازن ويظل قلقا عليها. ولكنه يرفض الدعة، ويرفض الاستسلام لليأس.

الختـــام :

ترك الغناء الحزين والصراع النفسي الذي برزت خلاله «الانا» مغلفة بعذاب التناقضات ومرارة الشكوى، والتفت إلى الآخر، إلى كافور، يهجوه، إلى كل كافور، إلى كل من يحول بين الإنسان وطموحاته. «أني نزلت بكذابين ضيفهم، عن القرى وعن الترحال محدود»، لما قال: «وأموالي المواعيد» كان الوصف صاحب المواعيد التي لا تتحقق بالكذب، لكنه يستخدم صيغة المبالغة، وهو في الشطر الثاني يعود إلى المدلول نفسه ولكن بعرض جديد (ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود) وقرى الضيف واجب الكرام، فما بالنا إذا كان الضيف محروما من القرى ممنوعا من الرحيل، إنه ضيف اللئام. وهو المعنى نفسه الذي عبر عنه عندما حم بقوله:

يقول لي الطبيب اكلت شيئا	وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبـه أني جـواد	أضـد بجسمـه الجمـام
تعـود أن يغبر في السـرايا	ويدخـل من قتـام في قتـام
فأمسـك لايطـال له فيرعى	ولا هو في العليق ولا اللجام

ثم يعود مفصلا القول : (جود الرجال من الأيدي، وجودهم من اللسان، فلا كانوا ولا الجود) الجود هنا لا تعنى الكرم فحسب، بل تعنى التقدير بكل معانيه، ومن هنا ندرك قول المتنبي في قصيدة أخرى:

وما رغبتي في عسجد أستزيده	ولكنهـا في مفخـر استجـده

وإذا كان مقابل الجود البخل، فإن الرجال لها ما يقابلها أيضاً، وجود الرجال من الأيدي، كأن الأيدي تتسابق إلى الجود، وهذا هو مدلول صيغة الجموع في الرجال والأيدي، و«جودهم من اللسان» فهي صياغة أخرى لجود المواعيد التي لا تتحقق أبداً، وهو المعنى الذي أشار إليه في مديحه لفاتك:

واجز الأمير الذي نعماه فاجئة   بغير قول ونعمي الناس أقوال

ثم يأتي الرفض لهذا الموقف الجارح (فلا كانوا ولا الجود)

نامت نواطير مصر عن ثعالبها   فقد بشمن وما تفنى العناقيد

غفل الحراس والقادة والزعماء والسادة، فانطلق الارازل والجشعون ينهبون حتى أتخموا، وما يكفون عن النهم : الكنايات هنا اشارات بلاغية تؤدي مهمتها الفنية في توصيل الدلالة، فنوم الحراس كناية عن الغفلة، وهي ليست غفلة السوقة، ولكنها غفلة المسئولين، وهي غفلة ثمنها حياة الأمم، لأن الثعالب تعيث فساداً في الأرض وهي آمنة حتى يصيبها البشم، والثعالب كناية أخرى عن نهازي الفرص، عن المفسدين في الارض، عن كافور، والعناقيد كناية ثالثة عن الاموال المتروكة دون حراسة، الدانية القطوف، وهذه إشارات تجرح ولكنها لا تسيل الدماء لأنها ممكنة الحدوث في الواقع.

(جوعان يأكل) أن التناقض نفسه ملفت للنظر، ولكن سر التناقض ينكشف حين يأكل من زاده (معنى التهكم والسخرية) ويمسكه عنده ليمدحه، والسخرية هنا نابعة من هذا العرض فبعد أن كان يمنيه الأماني، إذا به يمد يده ليأكل ما لدى الضيف. وهي صورة تهكمية أراد بها استمطار اللعنات لأنه في الأبيات السابقة يصفه بالثعلب المتخم.

(ويلمها خطة) هنا يعود الانفعال فيبلغ درجة كبيرة، وهو يرفض هذا الموقف الذليل، الذي لانجاة له منه إلا بالرحيل، وهذا التضعيف في ثلاث كلمات متتالية أول البيت أعطى هذا الايحاء الانفعالي، ثم جاء المد في كلمة «قابلها» ليعطي مدلول التحمل الطويل لهذا الموقف، وعندما تأتي الابل «المهرية القود» ويبرق خاطر الرحيل، يهدأ الانفعال، على الرغم من أن الرحلة مجازفة قد تكلفه حياته. (وعندها لذ طعم الموت

شاربه، إن المنية عند الذل قنديد) ولكن مقارنة سريعة بين الموت والذل، تطوف بخاطره فيفضل الموت، بل هو يستلذ طعم الموت، والموت هنا ليس موقفا وحسب إنه متعة الخلاص. وهو قريب من قول قطري بن الفجاءة (فما في تساقي الموت في الحرب سبة، على شاربيه فاسقني منه واشربا).

وشرب الموت هنا فيه معنى البطولة، وهو يوحي بمواقف انسانية عبر تاريخ طويل بداية من سقراط إلى كيلوباتوا حتى هتلر، كلهم أبوا الذل، قد ينضم إلى كوكبتهم شاعرنا، فهو يحيل الموت شراباً محبباً، لا وحشاً كاسراً أو شبحاً مفزعاً.

وإذا كانت القصيدة قد بدأت بالعيد الحزين فقد انتهت برفض الذل، وبحلقه طعم معسول، مزيج من خمر وعسل، وإباء وكبرياء.

وقد رفع مشكلة الموت والحياة عن مستوى العيش، فصعدها إلى مستوى الحياة بمعناها الفاعل، كأن الطموح الانساني هو حلو الحياة ومرها، كي يكون للإنسان قيمة باقية وذكر خالد. إنه ينطق عن خواطرنا، كما كان يقول ابن الأثير.

(أ) يستخدم الشاعر في بنائه حجراً خاصاً في معمار القصيدة - بيت الحكمة - ولكنه حجر أملس، بمعنى أننا لا نشعر وسط المشاهد والصراع بنوعية هذا الحجر، وباقتدار واضح تنمو القصيدة.

(ب) المشهد لا الصورة محور البناء في شعر المتنبي.

(أ) البيت الأول من الحكمة، ونحن مازلنا نتمثل به إلى الآن، فهو حقيقة ينطق عن خواطر الناس، وقد يكون بيت الحكمة تجربة خاصة، ولكنه ربط بينها وبين المعنى العام، وهذا هو الشأن في البيتين الثاني والثالث، فحولهما من تجربة خاصة إلى حكمة عامة. وربما قطر لنا تجربته هذه وكثف بناءها، بحيث أصبحت قضية الانسان في كل زمان ومكان، عندما تحاربه الأيام، وكإنما اتخذ الآسى الشعر لساناً له يعبر به عن خيبة الانسان في صراعه مع الايام، في مثل هذا الغناء الحزين (لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي، شيئا تتيمه عين ولا جيد) وقد يزداد المدلول كثافة فتقع الحكمة في شطر واحد مثل قوله في النهاية : (إن المنية عند

الذل قنديد). والحكمة فلسفة الخاصة ولذلك هي في الاغلب بيت من الشعر، بينما المثل فلسفة العامة ولذلك في الاغلب عبارة نثرية.

(ب) المشهد لا الصورة محور البناء في شعر المتنبي، حتى في الموقف الوجداني الملاحظ في هذه القصيدة، فالمشهد واضح في محاكاة الفعل أو الحركة وعرض الصراع وتجسيم الانفعالات والتركيز على الأسلوب الانشائي. شخص العيد وخاطبه، ثم استمر «المونولوج» بعد ذلك يكشف حدة الصراع النفسي، ونحن نتعاطف مع هذا الإنسان الذي حرم نفسه لذات الحياة من أجل الطموح، ثم نشفق عليه ونحن نرى حزنه الحائر أو حيرته الحزينة ثم ثورته العارمة في النهاية، وربما كرهنا كافوراً باعتباره شريراً يقيد الشاعر ويمنيه الوعود الكاذبة، ويدمره نفسيا.

(جـ) إن الامتداد من البداية الهادئة الحزينة الموجعة للقلب تستمر إلى ذكر الأحباب الذين فارقهم، وتجوال الشاعر الذي لا ينتهي والذي لا يعرف معه الراحة والاستقرار، وفي الاستقرار معنى السكن والزوجة، والقناعة وترك التحديات تغتال الآمال.

ثم يبدأ الخط البياني للانفعال في الصعود حينما تظهر الأنا أو تظهر الأنا حين يبدأ الخط البياني للانفعال في الصعود ، ويستمر التوتر، وتستمر الأنا في الظهور، ثم يهدأ الانفعال حين تبدأ الكناية بالنواطير عن الحماة والسادة، والثعالب عن المستغلين، والتهكم في الطباق حين يردد (جوعان يأكل من زادي)، ولكن الانفعال يعود مرة اخرى إلى الصعود حين تلوح له الناقة رمز التجوال والخلاص، ويستهين بالموت وكأس المنية، يلذ طعمها ولا يتجرع الذل، ونتتهي القصيدة، فيتطهر الشاعر من الاحساس بالهوان.

على أن هناك قضية تستدعي الوقوف عندها، ونحن نتأمل هذه القصيدة، التي تصور الصراع بين الحلم والحقيقة، بين الأمل والواقع، وهي أننا نجد ألفاظ الحب تتردد هنا وهناك، فالشاعر يشكو بعاد الأحباب واقتراب العيد، ويتحدث عن عناق السيوف فيذكر عناق الغيد، ثم يذكر فقد الحبيب مع وجود المتع المادية الأخرى.

وهذه الملاحظة تتسع لتمثل ظاهرة في شعر المتنبي، فقد التفت الثعالبي إلى استعماله ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب، ورأى ذلك راجعاً إلى جودة التصرف واللعب بالكلمات (والطعن عند محبيهن كالقبل) (قد صبغت خدها الدماء كما، يصبغ خد الخريدة الخجل).

ويعقب عبد الرحمن شعيب على ما قاله الثعالبي في «يتيمة الدهر» بأنه لم يحاول ان يكشف لنا عن منابع هذه الخاصية في نفس المتنبي، ولو حاول لفتح باباً واسعاً للدراسات النفسية والنقدية.

ثم حاول هو أن يفسر هذه الظاهرة فرأى أن الحرب التي كان يخوضها سيف الدولة كانت حرباً مقدسة ولذلك فهي جديرة بأن يعشقها الشاعر[1] .

وهذا التفسير غير مقنع، لان القضية لا تتصل بالحرب وحدها، بل تتسع لتصبح ظاهرة اشمل فهو يستخدم ألفاظ الغزل حين يتحدث عن السيوف دون حرب، وحين يتحدث عنها باعتبارها وسيلة للعلا ونيل الأماني، ويذكر الحب مقرونا بالفقد.

وهذا ينقلنا إلى موقف علم النفس من الابداع الفني، ففكرة التسامي عند فرويد تعني أن الفنان قادر على السمو بالغريزة وإحلال غاية أخرى محلها. «إن الفن يحل لدى الفنان محل ما حرم منه في الواقع، فالحرمان يذكي الخيال، كما أن الارتواء يضعفه.. فهذا الغنى الداخلي، إنما هو نتيجة الفقر الخارجي، ورب فنان ممتاز تأفل ملكاته متى اصبح في يسر ودعة ورخاء، أو متى شفاه التحليل النفسي من اضطرابات روحه وصالحه مع العالم الخارجي..

كذلك يصبح الحب لدى الفنان مركز إبداعه، وكما لا يحتاج الإنسان الحر إلى التغني بالحرية، كذلك لا يحتاج الإنسان المرتوي إلى التغني بالحب. إن السعادة والسلام الداخلي لا يتفقان مع الابداع الفني، وكل حلم هو تعبير عن اندفاع ممنوع، وعن فكرة غير قابلة للتحقيق وهو يمثل تسوية في الصراع بين الرغبة والواقع» [2] .

---

١ – المتنبي بين ناقديه ص ١٠٤/١٠٦.

٢ – راجع علم النفس والأدب ص ٢٢٧ – ٢٣٤.

وقد رفضت مدرسة يونج هذا التفسير، إلا أنه يظل التفسير الاقوى، وقد يؤيد هذا التفسير أن المتنبي لم يعرف عنه اهتمامه بالمرأة فقد ترك زوجته عندما توجه إلى مصر، ثم عندما رحل إلى بني بويه، ثم هو القائل:

وللخلود مني ساعة ثم بيننا	فلاة إلى غير اللقاء تجاب
تركنا لاطراف القنا كل شهوة	فليس لنا إلا بهن لعاب

هذا الانصراف عن المرأة اتخذ مسارب في الشعر، بمعنى أن التسامي في الغريزة اندفع هنا إلى الفن وإلى المجد الأدبي الذي يتحقق عن طريق الفن، ثم هو يصل إلي التطهير الذي يتحدث عنه النقاد حين نجد هذه التغييرات الدالة على التعويض والابدال.

وإذا كان الإنسان المرتوي لا يحتاج إلى التغنى بالحب، فإن عمر ابن أبي ربيعة يعتبر ظاهرة هو الآخر، وهذا هو سر تفوقه في مجاله الفني، فالحديث عن الفراق مفهوم، أما أن تكون التجربة تجربة تتناول اللقاء فهذا هو سر تفردها، ثم يستمر عمر بن أبي ربيعة في ديوانه كله متحدثا عن تجربة اللقاء، فهي تجربة واحدة مكررة، في صور فنية مختلفة، وإن كان غزلاً معكوساً أقرب إلى النرجسية.

فالحب مركز الابداع لدى الشاعرين أما عمر فتناول الموقف الايجابي منه، وعبر عن إنسان يعيش واقعه ويتعايش معه ويتصالح، ويتناول تجربة اللقاء مرة ومرات. واما المتنبي الشاعر الوقور، فهو لا يستطيع أن يكون مثل عمر، ولكنه يستطيع أن يتسامى بغرائزه، وهذا التسامى الذى تحقق في الفن وحقق به غزواته مع التجارب الفنية، تسربت إليه ألفاظ الحب، في مواقف الحياة المختلفة حتى في الحرب وحتى في أدوات القتال، لتوضح أن هذا الصراع الخارجي صورة لصراع داخلي لا سلام فيه مع النفس، فقد ترك لأطراف القنال كل شهوة، ورأي الطعن كالقبل.

وقد نقبل هذا التفسير أو نرفضه، ولكنه كما قلت يبقى أقوى التفسيرات التي توضح هذه الظاهرة في شعر المتنبي.

بقيت ظاهرة «الأنا» التي تحتاج هي الأخرى إلى تفسير. وهي ظاهرة عامة في شعر المتنبي وواضحة ايضا في هذه القصيدة. يقول فرويد «الأنا هو القوة التي تنكر

وجود اللاشعور، وتفرض عليه الكبت... فنحن نعرف أن كل ما يمكن أن يخبرنا به الانا من شأنه أن يورطنا في الخطأ.... أما الذين لا يكترثون لهذا التحذير فيأخذون ما يقول به الانا على ظاهره»[١] . ولا تكاد تظهر الأنا في شعر المتنبي إلا في مواقف الضعف، تظهر لكي تغطي على هذا الضعف والاحساس بالهوان، تظهر لكي تطفيء الثورة العصبية، تظهر ليرتد إليه التوازن بين اللاشعور والشعور، أو بين إحساسه الدفين بالضعف، ورفضه لهذا الواقع وكبته حتى لا يطغى. (أنا الذى نظر الاعمى إلى أدبي.. وأسمعت كلماتي من به صمم) متى قالها؟ قالها وهو يصرخ في مطلع القصيدة (واحر قلباه ممن قلبه شبم) وهو يرى سيف الدولة يزور عنه، وهو يرى أبا فراس يكيد له، ويهاجمه، وهو يرى مكانته تتراجع، فتظهر الانا كي تكبت الاحساس بالضعة.

وهكذا الشأن في هذه القصيدة، تظهر الأنا بعد أن اجتاحه الآسى (عيد بأية حال عدت يا عيد) وأحس أنه أسير وأنه مداح، وذهبت آماله في الولاية سدى، وضاعت أحلامه في المجد، كان عند سيف الدولة (وما أنا إلا سمهرى حملته.. فزين معروضا وراع مسدداً)، أو هو والأمير سواء (شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ كلانا رب المعانى الدقاق) هكذا خاطب أبا العشائر، أما اليوم فهو لم يعد السمهري، فقد وضع السيف في قرابه منذ ترك سيف الدولة، وأصبح مداحا لكافور، وهو ما يشعره بالضعة، ولكنه يكبت هذه الاحاسيس كلما حاولت أن تظهر :

أمسيت أروح مثر خازنا ويدا   أنا الغنى وأموالي المواعيد

أعتقد أن هذا التفسير يمكن أن يكون مقبولا، حين نتحدث عن بروز الانا في شعر المتنبي من حين إلى حين. وهكذا يمكن أن تكون المواقف النفسية مفاتيح للعمل الفني، وأن تثرى بالدراسة النقدية مهما طال وقوفنا عند التحليل الجمالي. فالصراع هنا صراع لا قبل لأحد به، فما بالنا بالمتنبي «أني بما أنا باك منه محسود»، فالأنا تظهر لتخفي فشله مع كافور، وفشله من قبل مع سيف الدولة، وفشله قبل ذلك كله في الطريق الذي اتخذ لنفسه.

---

(١) محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي سجمند فرويد ترجمة عزت راجح ص ٤٢٠ - ٤٢١.

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي   المجد للسيف ليس المجد للقلم

وفلتات اللسان من حين إلى حين يمكن أن تكون هي الأخرى مفتاحاً للنفس، للاشعور الخبيء في أعماق النفس، وهو في هذه القصيدة قد كنى بالفحول البيض عن سيف الدولة وبدلا من أن يذكر فشله في رحاب سيف الدولة، ذكر عجز الفحول البيض عن الجميل، ولكن هذا الموضوع له حديث آخر، لانه يحتاج إلى إشباع.

المراجع

١ – الاحساس بالجمال لجورج سانتيانا ترجمة مجمد مصطفى بدوي، القاهرة – مؤسسة فرانكلين.

٢ – علم النفس والأدب، سامي الدروبي، القاهرة – ١٩٨١.

٣ – في معرفة النص، يمنى العيد، بيروت – ١٩٨٣.

٤ – المتني بين ناقديه، عبد الرحمن شعيب، القاهرة – ١٩٦٨.

٥ – محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي فرويد، ترجمة عزت راجح، القاهرة – ١٩٦٧.

الطريق إلى مصر الفاطمية

دراسة في دوافع ناصر خسرو للارتحال إلى القاهرة

الدكتور

محمد السعيد جمال الدين

أستاذ الأدب الفارسي بقسم اللغة العربية

تمهيد :

في أوائل القرن الخامس الهجري بدا العالم الاسلامي منقسماً على نفسه أشد ما يكون الانقسام، فلقد كانت الخلافة العباسية في بغداد تعاني من الضعف ومن ضياع الهيبة السياسية للخلفاء، الذين لم تعد لهم من سلطة تذكر على حكام البلاد الخاضعة للنفوذ العباسي، أما الخلافة الفاطمية في القاهرة فكانت تمتلك من الفتوة والقوة المذخورة ما يحسب له العباسيون وأنصارهم ألف حساب.

كيف لا والفاطميون يزعمون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم، وأن العباسيين ليسوا إلا مغتصبين لحقهم. يظلمون الأمة حين يحولون بينها وبين هداتها الحقيقيين.

ولقد أعلن الفاطميون أن خلفاءهم الناجمين بمصر ما هم إلا عترة النبي - صلى الله عليه وسلم - قد صحت نسبتهم إليه أباً عن جد، في تسلسل واضح وتتابع مستمر، دون أي انقطاع.

كان الفاطميون (وهم على المذهب الإسماعيلي) قد اتفقوا مع الشيعة الإمامية على صحة إمامة الأئمة الستة الأول، من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق - رضي الله عنهم. لكن الخلاف وقع بين الفريقين حول أيٍّ من أبناء جعفر أحق من أخيه بالإمامة : موسى الكاظم، أم إسماعيل؟ وقد تابع الشيعة الإمامية موسى، بينما تابع الإسماعيلية إسماعيل، فنُسبوا إليه وسموا بالإسماعيلية تارة وبالفاطمية تارة أخرى.

ولقد كان لهم اتجاه عقائدي متطرف يباعد بينهم وبين عقائد الشيعة الإمامية وتقاليدها المحافظة، وبدت بوادر هذا الاتجاه المتطرف في حياة الإمام السادس جعفر الصادق نفسه، إذ هاله أن يرى جمعاً من أصحاب الفرق الغالية يلتفّ حول ابنه إسماعيل، وعدّ ذلك نذير شؤم[1] .

وقد تحققت نبوءة الإمام الصادق، فضمّت الإسماعيلية بعد نشأتها سائر القيادات المتطرفة في التشيع، وغدت استمراراً لحركات الغلو[2] ، وظهر هذا الغلوّ واضحاً جلياً في حركة «القرامطة» الإسماعيلية.

ويبدو الافتراق واضحاً بين الإسماعيلية والإمامية في مسألة أصولية هي الإمامة نفسها. فالإسماعيلية لا يذهبون مذهب الإمامية في «غيبة الإمام» وإنما يقولون بأن الأرض «لن تخلو قط من إمام حيّ قاهر، إما ظاهر مكشوف، وإما باطن مستور»[3] . فقد يكون الإمام – عندهم – ظاهراً، وقد يكون مستوراً، لكنه في كلا الحالين موجود حيّ لا يغيب.

وزعم الإسماعيلية أن دور «الستر» بدأ بإسماعيل، وأن هذا الدور قد انتهى بظهور عبيد الله المهدي، في بلاد المغرب (سنة ٢٩٦هـ)، حيث أقام بها الدولة الفاطمية، التي ما لبثت أن اجتاحت مناطق النفوذ العباسي الواحدة تلو الأخرى وبسطت سلطانها على الجناح الغربي من العالم الإسلامي.

لقد أصابت الدولة الفاطمية أكبر قدر من النجاح في أقل مدة من الزمن، وكان

---

(١) راجع الكشي : أبو عمر بن عبد العزيز، معرفة الرجال، طبع بومباي ١٣١٧هـ، ص ٢٠٦-٢٠٧. النوبختي: أبو محمد الحسن بن موسى، فرق الشيعة، طبع النجف ١٩٣٦م، ص ٦٩ وما بعدها. القمي : سعد الدين عبد الله خلف الأشعري، كتاب المقالات والفرق، تحقيق محمد جواد مشكور، طهران ١٩٦٣م، ص ٨٢. الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، طبع مصر (مطبعة الأزهر)، ١ : ٣٨٢. البغدادي : أبو منصور عبد القاهر، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد بدر، مصر ١٩١٠م، ص ٢٤٢. الجويني : علاء الدين عطا ملك، تاريخ جهانكشاي، الترجمة العربية لكاتب هذه السطور، مصر ١٩٧٥م، ص ١٥٧. برنارد لويس: أصول الاسماعيلية، الترجمة العربية لخليل أحمد جلو وجاسم الرجب، مصر ١٩٤٧م، ص ١١١.

(٢) انظر كتاب دولة الإسماعيلية في إيران، لكاتب هذه السطور، مصر ١٩٧٥، ص ٢٤.

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل، ١ : ٤٢٥.

دخول مصر في قبضتهم (سنة ٣٦٢هـ) بداية عصر جديد تجدد فيه طموحهم لبسط نفوذهم على العالم الإسلامي كله. فتحركوا في تنظيم محكم دقيق لبث دعاتهم في المناطق الشرقية الخاضعة اسمياً للخلافة العباسية - وبخاصة بلاد الفرس - يدعون الناس بها إلى اعتناق مذهبهم، والدخول في طاعتهم، والخضوع بالتالي لنفوذ الخلافة الفاطمية.

غير أن الدعوة الفاطمية لم تلق منذ بدايتها في عصر المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥)(٤) النجاح المنتظر لها في البلاد الفارسية، فلقد كان لها العديد من الخصوم في العقيدة والسياسة على السواء، وكان هؤلاء الخصوم يقفون لها بالمرصاد فتعرضت لكوارث متلاحقة على يد السامانيين ثم الغزنويين من بعدهم. إلا أن تلك الدعوة ما لبثت أن انتعشت هناك في ظل حكم المستنصر بالله الخليفة الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧)، فنشط الدعاة في تلك البلاد نشاطاً ملحوظاً، وتمكنوا من دفع مجموعة من الشخصيات الفارسية الفذّة إلى القاهرة لكي يُلَقَّنوا أصول المذهب الإسماعيلي، ويتحققوا بأنفسهم من عظمة الخلافة الفاطمية كما تتجلى في حاضرتها العامرة، ثم ليعودوا بعد ذلك إلى بلادهم وقد ملأهم الحماس للعمل من أجل رفع راية الفاطميين فوق الأرض الفارسية رغم كل التحديات والمصاعب.

كان من بين تلك الشخصيات الفذّة الشاعر والرحالة المعروف «ناصر خسرو» الذي انطلق من بلده خراسان في سنة ٤٣٧هـ، باحثاً عن النموذج الأمثل للحكومة الإسلامية، فما وجده بعد طول عناء - كما يزعم هو - إلا في الأئمة والخلفاء الفاطميين، وما شاهد من مظاهر العلم والعدل والرخاء والنعمة في طول الأقطار وعرضها مثلما شاهد في عاصمة الفاطميين وبلادهم.

وعاد إلى بلاده وقد قلّده الفاطميون منصب كبير دعاتهم في خراسان، ولكنه

---

(٤) راجع في هذا الشأن نص الوثيقة التي حفظها لنا المقريزي في كتابه : «اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء»، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، مصر، ١٩٤٨، ص ٢٦٠، والوثيقة عبارة عن رسالة بعث بها المعز إلى الحسن القرمطي حول تنظيمات الدعوة الفاطمية في أرجاء المعمورة. وانظر أيضاً : المسعودي : التنبيه والإشراف، طبعة دى خويه، ليدن ١٨٩٣م، ص ٣٩٥.

غادرها مضطراً، واتخذ من جبال «يمگان» مقراً لبث دعاته ونشر دعوته، فأصاب قدراً لا بأس به من النجاح حتى توفي في سنة ٤٨١هـ.

وكانت مجموعة من الآراء التي انتهى إليها عدد من كبار الدارسين للآداب الفارسية حول البواعث التي أملت على ناصر خسرو التوجه إلى القاهرة، قد استقرت وأصبحت وكأنها حقائق مسلّمة لا تقبل المحاجّة والجدل. بيد أن هذه الآراء بدت لنا منذ مدة - ونحن نعدّ دراستنا عن تاريخ الدعوة الفاطمية في إيران (بين سنتي ١٩٦٣ و١٩٦٧) - بحاجة إلى إعادة نظر في ضوء ما أسفرت عنه الأبحاث الحديثة من معلومات حول مسار دعوة الفاطميين في البلاد الفارسية، وعلى هدى من دراسة نصّية متعمقة لبعض أشعار «ناصر خسرو» التي كشف فيها عن جانب من دوافعه للقيام بهذه الرحلة وسلوك الطريق إلى مصر الفاطمية.

فهذه الدراسة بمثابة رؤية جديدة وإعادة فحص للظروف والملابسات التي دفعت هذا الشاعر الرحّالة إلى مغادرة دياره في إقليم خراسان، والقيام بجولة واسعة في شرق العالم العربي، ثم توجهه إلى مصر، حيث ألقى فيها رحاله، وأقام بها زمناً لُقّن خلاله أصول الدعوة الفاطمية، ثم عاد إلى موطنه لكي يقوم بدور «حُجة خراسان» أي الداعية الأكبر للفاطميين بذلك الإقليم الهام من الأقاليم الفارسية.

١ - ناصر خُسرو : تعريف أوّلي :

ولد أبو معين ناصر خُسرو القبادياني - كما يقول هو في ديوانه - في شهر ذي القعدة سنة ٣٩٤هـ[٥] (أغسطس ١٠٠٤م)، بقرية «قُبَاديان» - من أعمال «بَلخ»[٦] وهي قرية لم تكن في القرن الرابع الهجري مجرد منطقة زراعية فحسب، بل كانت مركزاً صناعياً وتجارياً أيضاً بسبب وقوعها بالقرب من المعبر الرئيسي لنهر جيحون[٧] .

(٥) انظر : ديوان ناصر خسرو، باهتمام نصر الله تقوي ومجتبى مينوي، طبع طهران ١٣٠٧هـ . ش، مقدمة الديوان.

(٦) انظر : ديوان ناصر خسرو، ص ٢٩٧، ص ٢٣.

(٧) انظر : أي، ي، برتلس : ناصر خسرو وإسماعيليان، الترجمة الفارسية، طهران ١٣٤٦ هـ . ش، ص ٢٦٨.

ونشأ ناصر خسرو – كما يبين من أقواله في مؤلفاته – في أسرة غنيّة من أسر مالكي الأراضي الفرس، وكانت أسرته تمتلك أراضي ومزارع وفيرة، كما كان بعض إفرادها يشغلون الوظائف الحكومية والمناصب الديوانية.

والواقع أن الفترة الأولى من حياة ناصر خسرو، منذ صغره حتى بلغ الثانية والأربعين، حينما حدث التحوّل الكبير في حياته، تعد غامضة إلى حد كبير لا نستطيع أن نتبين منها إلا لمحات خاطفة من خلال الإشارات التي أوردها عرضاً في أشعاره ومؤلفاته. وإذا نحن عمدنا إلى جمع هذه الإشارات وتصنيفها وترتيبها زمنياً، استطعنا أن نكّون تصوّراً مجملاً لما كان عليه حال الشاعر في تلك الفترة الغامضة من حياته.

كان «ناصر» عندما غادر قُباديان متوجهاً إلى بلخ – في ريعان الشباب. ويبدو أن الحياة التي عاشها في تلك المدينة الكبيرة كانت حياة هانئة وادعة رخيّة، فكثيراً ما كان يتذكر – وهو في شيخوخته – ديار بلخ ويشكو بعده عنها(٨) .

ويبدو أن «ناصرا» قد أوتي منذ صغره موهبة شعرية ملحوظة، لكنه لم يحسن استخدامها على النحو الأمثل، إذ قصَر شعرَه(٩) – في تلك الفترة المبكّرة من حياته – على شعر الغزل والمدح. وها هو ذا يعرب في إحدى قصائده عن ندمه أشد النّدم على ما ارتكبه – في شبابه – من ذنب في حق الشعر، حين أوقف موهبته الشعرية على: «وصف الذؤابة المعلّقة التي يداعبها الهواء، والتغني بسحر العيون الزُّرق، والشَّعر الأسود الفاحم»(١٠) .

ويشير في قصيدة ثالثة إلى أنه كان إذا أعوزه المال لجأ إلى باب السلطان

---

(٨) اي بادِ عصر، اگرگذری بر دیارِ بلخ — بگذر بخانهء من، وآنجای جوی حال
بنگر كه چون شد است پس از من دیارِ من — با اوچه كرد دهر جفا جوی بد فعال
(الديوان : ٢٥٣–٢٥٤).

(٩) لم ترد هذه الأشعار في ديوان ناصر خسرو، ويبدو أنه عرض عن إثباتها في ديوانه، ومن ثمّ فإن الديوان لا يشتمل إلا على الأشعار التي نظمها بعد التحول الكبير الذي حدث في حياته.

(١٠) با پشت چو حلقه چند گوئی — وصفِ سرِ زلفكِ مُعلَّق
يكچند بزرق شعر گفتی — بر شَعرِ سياه وچشمِ ازرق
(الديوان : ص ٢٣٦)

مستخدماً براعته لمدحه والثناء عليه، علّه يجد فيه ملجأ وملاذاً من الدّهر. وكان عليه أن يقدّم فروض الطاعة للسلطان مائة مرّة آملاً من وراء ذلك كله أن يحظى عنده بالرضا والقبول، ولكنه لم ينل من ذلك كله إلا التعب والعناء(١١) .

وليس معنى هذا أن ناصر خسرو كان شاعراً محترفاً من شعراء الديوان، وإنما كان – كما أشار بنفسه في كتابه «سفر نامه» – يشغل وظيفة إدارية ذات صلة بالحسابات والأموال(١٢) ، وقد كان – كما يبدو من كتابه سفرنامه – ملماً بالقدر الضروري من العلوم المتداولة في عصره، لكن اهتمامه كان منصباً في تلك الفترة من حياته على إتقان المحاسبة والرياضيات والنجوم (الفلك)، وهو ما يدخل في نطاق اهتمامات عمّال الديوان والكتّاب(١٣) . كما كان شاباً جلداً قوياً حسن الطلعة فارع الطول لطيف المعشر، وجهه مشرباً حمرة، لا يكاد من يراه في شيخوخته يعرفه لكثرة ما لحق بهيأته وشكله من تغيّر وتحوّل(١٤) . لهذه الأسباب كلها، وبفضل أصله الطيب وأسرته الغنية وقريحته الشعرية التي كانت تجود – بخاصة – في مجالس الشراب والسمر، وجد «ناصر» سبيله إلى بلاط السلطان.

وكثيراً ما أشار في أشعاره إلى أنه كان يجالس الأمراء والوزراء والأعيان فلا يخلو مجلسهم منه ولا يحلو ناديهم إلا به(١٥) .

فمن هؤلاء الأمراء الذين كان ينادمهم ناصر خسرو في تلك الفترة؟ يقول في كتابه سفرنامه : «لقد شاهدت بنفسي بلاط ملوك العجم وسلاطينهم، مثل السلطان محمود

---

(١١) ديوان ناصر خسرو، ص ٢٧٢.

(١٢) انظر : سفرنامهء ناصر خسرو، تحقيق دكتر محمد دبير سياقي، تهران ١٣٣٥، ص ٨٤.

(١٣) انظر : سيد جعفر شهيدي، أفكار وعقايد كلامي ناصر خسرو، دانشكاه فردوسي، مشهد ٢٥٣٥، ص ٣١٦–٣٤٠، وانظر أيضاً : برتلس : ناصر خسرو وإسماعيليان، ص ٢٨٠. وغلام حسين يوسفي، ديداري با اهل قلم، طهران ٢٥٣٥، ١ : ٥٤–٥٥.

(١٤) اي بـرادر گـر ببيني مـر مـرا — باورت نايـد كـه من آن ناصـرم
چون دگر گون شد همه احوال من — گر نشـد ديگـر بگـوهر عنصـرم

(١٥) انظر الديوان : ص ١٥٦، ١٩٠، ٢٧٠.

الغزنوي وابنه مسعود»[١٦]. ونحن نعرف أن السلطان محمود الغزنوي وابنه مسعود كانا يتخذان من «بلخ» عاصمة ثانية لهما بعد «غزنة»، ويحبان أن يقضيا فيها أوقاتاً كثيرة، بل كان السلطان محمود يقضي فيها أحياناً فصلاً من فصول السنة بأكمله[١٧] .

ويبدو أن ناصر خسرو قد التقى بالسلطان محمود وابنه مسعود في مدينة بلخ التي كان قد هاجر للإقامة فيها بعد أن ترك «قباديان». بل ربما كان - كما يقترح المستشرق الروسي «برتلس» - قد حظي بمكانة رفيعة بديوان الغزنويين زمن حكم السلطان مسعود، قبل أن يداهمه «السلاجقة» ويطردوه من خراسان[١٨] .

وعندما قام السلاجقة وبسطوا سيطرتهم على البلاد الفارسية بأسرها، نصبوا لكل إقليم حاكماً من بينهم، ودرجوا - لعدم إيلافهم مواقع السلطة والحكم - على الاستعانة بأبناء البلاد الأصليين من الفرس في إدارة شئون دولتهم المترامية الأطراف، وقد ندب السلاجقة ناصر خسرو للعمل في الديوان، يقول في «سفرنامه» : «كنت رجلاً أصطنع الكتابة حرفة، وكنت من بين المتصرفين في الأموال والأعمال السلطانية، واشتغلت بالأعمال الديوانية حيناً من الدهر، وما إن باشرت هذا العمل مدة حتى نلت شهرة بين الأقران. وفي ربيع الآخر سنة ٤٣٧هـ (١٠٤٥م) حين كان أمير خراسان هو «سليمان چغري بيك داود بن ميكال بن سلجوق»، خرجت من «مرو» كرسيّ الملك، ونزلت «پنج ديه» بمنطقة مرو الرود...»[١٩] .

ويبدو من كتابه «سفرنامه» أن ناصر خسرو لم يكن قانعاً بوظيفته الصغيرة عند أمراء السلاجقة، ولكن حقيقة مشاعره تجاه السلاجقة تتبدى بوضوح في الديوان، حيث بدا وكأنه كان يمقتهم من كل قلبه، ويتمنى زوال ملكهم ويرى أنهم ليسوا أهلاً لأن

---

(١٦) سفرنامه، ص ٧٠.

(١٧) انظر : عبد الحي الگرديزي، زين الأخبار، تحقيق عبد الحي حبيبي، طبع طهران ١٣٤٧هـ. ش، ص ١٧٨، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٦.

(١٨) انظر : برتلس، ناصر خسرو وإسماعيليان، ص ١٧٦.

(١٩) سفرنامه، ص ١.

يكونوا سادة وحكاماً، فقد سماهم «ذئاب الصحراء»، وهو يأسف على أيام السامانيين والمجد الذي نالته منطقة خراسان على عهدهم، بينما أصبحت خراسان في عهد السلاجقة مكاناً للأخسّاء والأنذال، وأصبح الأوباش والسِّفلة سادة وحكاماً له(٢٠) .

٢ - تحوّل في حياة الشاعر :

كان ناصر خسرو قد بلغ الأربعين من عمره، وبدأت نظرته للحياة من حوله بمختلف مظاهرها السياسية والاجتماعية والفكرية، تتحدد وتتبلور، فشعر بكثير من الضيق واليأس لما شاهده من مظاهر التدمير والخراب الذي لحق بخراسان في أوائل حكم السلاجقة، وعجزهم عن إقرار الأمن بين الأهلين، واشمأزّت نفسه من فرط جهلهم وأميّتهم، وقسوتهم البالغة(٢١) .

على أن التدهور الذي لاحظه «ناصر خسرو» في مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية عقب تسلط السلاجقة على بلاده لم يكن السبب الوحيد فيما انتابه من ضيق وضجر في تلك الفترة من حياته، بل استبد به الضيق من حياته الخاصة نفسها، فقد أشار في إحدى قصائده إلى حياة اللهو واللعب التي كان يحياها قبل أن يفيق من غيّه، وأعرب عن أسفه على تلك الفترة الضائعة من حياته، والتي قضاها في الذنوب والآثام، ولم يكن له من همّ حينذاك إلا الأكل والشرب، ويشبّه نفسه في تلك الفترة بأنه كان كالحمار الذي يرعى الكلأ والحشائش، وأنه كان يلبس الحرير ويتزين بالديباج، لكن أذنيه كانت صمّاء لا تستمع لصوت العقل لفرط الانشغال بالدنيا. وأنه كان مغروراً، يظن أن لا مثيل له بين الناس كنديم في مجالس السمر وكشاعر مبدع وكاتب

---

(٢٠) خراسان زآل سامان چون تُهی شد — همه دیگر شد است احوال وسامان
زبس دستان وبی دینی بماند است — بزیرِ دستِ قومی زیر دستان
بصورتهای خوب مرد مانند — بسیرتهای بد گرگ بیابان
(الديوان : ص ٣٢٦، وانظر أيضاً ص ٣٢٩ من الديوان).

(٢١) مرا دونان زخان ومان براندند — گروهی از نمازِ خویش ساهون
خراسان جای دونان شد، نگنجد — به یك خانه درون آزاده دون
نداند حال وکار من جز آنکس — که دونانش کنند از خانه بیرون
(الديوان : ص ٣٢٩).

لا يُشق له غبار. ويشير إلى أنه طالما شرب الخمر مع الحاكم المطاع للبلاد، وأنه مع ذلك كان مهاباً لدى الجميع بمن فيهم الوزير، بل كان الأميرُ نفسُه يعدّه سيداً ذا شأن وخطر. كما يصرّح بأن عينيه كانت معلقة على الدوام بيد الأغنياء انتظاراً لعطاياهم وهداياهم، ولم يكن يمدّ يداً يساعد بها الأيتام من أقاربه ولا الفقراء من جيرانه ومعارفه، ومن ثم يتحسر على ما بدر منه، ويحدث نفسه قائلاً : «لو ذكرت ما اقترفت من آثام، لا سودّ وجهك ولأظلم ضميرك»[٢٢] .

من أجل ذلك كله أراد «ناصر» أن ينفض يده من الوتيرة التي سارت عليها حياته الخاصة والعامة جميعاً، فأشاح بوجهه عن الحياة الديوانية، وانصرف عن بيع شعره عند الملوك والحكام، وحدّثته نفسه بالتوبة إلى الله والرجوع إليه، فاندفع نحو علماء الدين في «بلخ» يتلمس عندهم سبل الرشاد، فرحبوا به وطمأنوه على أنه سينجو من براثن الجهل والضلال[٢٣] .

كان الغزنويون والسلاجقة من بعدهم على مذهب الإمام أبي حنيفة أو مذهب الإمام الشافعي – رضي الله عنهما – وكان أهم ما ينبغي أن يتوفر في عمالهم والمحيطين بهم والمخالطين لهم أن يكونوا على واحد من مذاهب أهل السنة، لا يعدلون عنها إلى غيرها من المذاهب بعامة وإلى مذهب الفاطميين الإسماعيلية بخاصة[٢٤] . وكان الأعيان والأشراف من أهل خراسان نفسها على المذهب الحنفي أو الشافعي[٢٥] . ومن ثم لا يبعد أن يكون «ناصر خسرو» قد ظل حتى تلك الفترة الحاسمة من حياته على واحد من مذاهب أهل السنة الغالبة بين الأعيان في «بلخ»، وأنه لجأ ثمّت إلى فقهاء مذهبه يستفتيهم ويأخذ عنهم ويتعلم منهم.

---

(٢٢) زاوّل چنانت بود كمانى كه در جهـان — كاريت جـز خـور نه قليلست ونه كثير
بانـاز وبى نيـاز ببيـدارى وبخـواب — بر تن حرير بودت ودر گوش بانگِ زير

(٢٣) انظر : الديوان، ص ٢٧٢.

(٢٤) راجع مثلاً : قصة مقتل الوزير «حسنك» أحد المقربين للسلطان مسعود بتهمة القرمطية (الفاطمية) في كتاب تاريخ البيهقي.

(٢٥) انظر : تقي زاده، مقدمة ديوان «ناصر خسرو»، ص يا .

ولكن ما لبث «ناصر» بعد فترة من الوقت أن أدرك أنه ما جني شيئاً باندفاعه نحو رجال الدين في بلده، فهو قبل أن يتجه إليهم لم يكن ينقصه الإلمام بأصول الدين وشعائره بقدر ما كان ينقصه المُعين على العمل به والسير على نهجه. غير أنه أمضى بينهم – كما يقرر بنفسه – من عمره بضع سنين في القيل والقال والمقالات المختلفة والخلافات بين الفرق والمذاهب، وعاين بنفسه ما هم عليه من تقاضيهم للرشوة ومراءاتهم للناس، فشعر بأنه – عندما فرّ من السلطان ولجأ إلى الفقهاء – كان كمن يلقي بنفسه في فم التنّين هرباً من النّمل(٢٦) . ولذلك أعرض عنهم مغضباً يائساً، قد طوى قلبه على الضجر والملال من افتعال أهل الزمان، وتظاهرهم الكاذب بالتقوى والإيمان. فاعتزلهم ونأى بنفسه مبتعداً عنهم مبايناً لهم في الأقوال والفعال، وأعرض عن مألوف عادته في مخالطتهم والركون إليهم.

ويبدو أن فكرة السفر والارتحال عن خراسان – التي قصُرت الحياة الفكرية فيها عن أن تروى ظمأه – قد خامرته في تلك الفترة.

تحدث ناصر خسرو – في كتابه النثرى «سفرنامه» – عن تحوّله الذي بدأ في سنة ٤٣٧هـ، وهو في الثالثة والأربعين من عمره، فذكر أنه رأى رؤيا غريبة، كانت السبب المباشر في مغادرته البلاد والقيام برحلة طويلة استغرقت زهاء سبع سنوات. فلقد رأى فيما يرى النائم رجلاً يقول له: «إن الوعي أفضل من الغفلة وشرب الخمر»، وعندما يسأله ناصر كيف يمكن تحصيل هذا الوعي، يرد عليه الرجل بقوله : «من جدّ وجد»، وأشار تجاه القبلة، ولم يزد على ذلك وانصرف. ولقد تركت هذه الرؤيا أثراً بالغاً في

---

(٢٦) وز مال شاه ومير چو نوميد شد دلم — زى اهل طيلسان وعمامه وردا شدم
گفتم كه راه دين بنمائيد مرمرا — زيرا كه ز اهل دنيا دل پر جفا شدم
گفتند شادباش كه رستى زجور دهر — تا شاد گشت جازم واندر دعا شدم
گفتم چو نامشان علما بود وكار جود — كز دست فقر جهل چو ايشان رها شدم
تا چون بقال وقيل ومقالاتِ مختلف — از عمر چند سال ميا نشان فنا شدم
گفتم چو رشوه بود وريا مال وزهد شان — اى كرد كار بازيچه مبتلى شدم
از شاه زى فقيه چنان بود رفتنم — كز بيم مور در دهن اژدها شدم
(الديوان : ص ٢٧٢-٢٧٣).

نفس ناصر خسرو، فقلت لنفسي : «لقد صحوت من نوم البارحة فجدير بك أن تصحو من نوم الغفلة التي استغرقت حياتك كلها»[٢٧] .

سافر «ناصر خسرو» في إثر ذلك مباشرة إلى العاصمة «مرو» حيث قدّم استقالته إلى رئاسته هناك، وخرج مما كان له من مال وضياع وعقار، ولم يُبق لنفسه إلا «القليل الضروري»، وانطلق في طريقه معلناً أمام الناس أنه إنما يريد الحج. وقد غادر بلده مصطحباً معه أخاه الأصغر وغلاماً هندياً [٢٨] . بدأت الرحلة في جمادى الآخرة سنة ٤٣٧هـ، لكن ناصراً لم يؤد فريضة الحج من عامه ذاك، وإنما قضى نحو سنة وبضعة أشهر جائلاً في البلدان، ثم انطلق إلى الحجاز حيث قضى حجته الأولى في موسم سنة ٤٣٩هـ.

لقد كان أداء فريضة الحج إذن هو الهدف المعلن الظاهر لرحلة ناصر، وهو الهدف الذي عبّر عنه في كتابه النثرى «سفرنامه»، لكن هدفاً خفياً آخر كان يدفع الرجل - منذ الوهلة الأولى - للقيام برحلته الطويلة الشاقة، وهو البحث عن أمر أعيته الحيلة في العثور عليه في وطنه، فمضى هائماً على وجهه يبغي الوصول إليه حيثما وجده.

والذي يرجح أن أداء فريضة الحج لم يكن هو هدفه الرئيسي من هذه الرحلة، هو أنه عندما انطلق من بلاده لم يشأ أن يخرج مع قافلة الحجيج التي كانت تنطلق من البلد كل عام، بل ابتعد عن القافلة، ولم يسلك طريق الحج المعروف المتجه إلى الغرب مباشرة نحو العراق وبغداد، وإنما سلك طريقاً متعرجاً، فاتجه إلى الشمال الغربي، ثم انحدر من آذربايجان إلى الجنوب الغربي نحو الشام وفلسطين، فبدا وكأنه قد تفادى المرور في العراق - موطن الخلافة العباسية - كلية. وعندما انتهى موسم الحج لم يعد إلى بلده كما يفعل الحجاج إذا ما أتموا مناسكهم، بل اختار اتجاهاً معاكساً تماماً، فولى وجهه شطر «مصر» فوصلها في سنة ٤٣٩هـ. فهل كان الذهاب إلى مصر في خاطره عندما عزم على الارتحال من بلده؟ وبعبارة أخرى، هل خضع قبل سفره لدعاة

---

(٢٧) سفرنامه : الترجمة العربية، لأحمد حامد البدلي، الرياض ١٩٨٣، ص ٢٦.

(٢٨) انظر : سفرنامه، ص ٣.

الفاطميين في خراسان وأجاب دعوتهم للانضواء تحت راية الخليفة الفاطمي؟

اختلفت آراء الباحثين وتناقضت مذاهبهم في هذه القضية ووقفوا منها موقف المؤيد تارة، والمعارض تارة أخرى.

فالمستشرق الروسي «إيڤانوف» يذهب في كتابه عن ناصر خسرو إلى أن الرجل قد ذهب للحج كأي مسلم سني عادي، ثم صادف دعاة الفاطميين وهو في طريقه إلى مكة فنصحوه بالذهاب إلى مصر التي عاد منها إلى موطنه كداع إسماعيلي كبير في مرتبة «الحُجة». لكن «إيڤانوف» يعود في موضع آخر من نفس الكتاب(٢٩) ، ويقول إن من المحتمل أن يكون ناصر قد اعتنق مذهب الإسماعيلية وهو في خراسان عن طريق اتصاله بواحد من صغار الدعاة، ثم توجه إلى القاهرة حيث تم قبوله للعمل في خدمة الدعوة بعد تدريبه لمدة بلغت السنوات الست، وعاد إلى موطنه وهو في تلك المرتبة ليتولى الدعوة للفاطميين. وإلى هذا الرأي نفسه يذهب الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب والمستشرق الفرنسي «هنري كوربان»(٣٠) . أما رشيد الدين فضل الله - المؤرخ الإيراني الكبير في العصر المغولي - فيشير في كتابه «جامع التواريخ» إلى أن الخليفة الفاطمي «المستنصر بالله» دعا ناصر خسرو للقدوم إلى مصر مثلما دعا الحسن بن الصباح فيما بعد(٣١) .

علينا الآن أن ننظر في مدى ملائمة هذه الآراء التي انتهى إليها هؤلاء الباحثون الكبار لما كتبه «ناصر خسرو» عن نفسه، وفي ضوء الأساليب التي انتهجتها الدعوة الفاطمية في البلاد الفارسية، فهل يا ترى كانت مصر الفاطمية هي الهاجس الخفي والباعث الحثيث الذي دفع ناصراً إلى الارتحال عن خراسان والانطلاق في الطريق إلى القاهرة؟

---

(٢٩) راجع : Ivanow, W., Nasiri Khusraw and Ismailism, Bombay, 1947, p. 12, p. 32

(٣٠) انظر : يحيى الخشاب، مقدمة سفرنامه، الترجمة العربية، مصر ١٩٤٥، ص : ن، و.

Henry Corbin, Nasiri-i-Khusrau and Iranian Ismailism, The Cambridge History of Iran, Vol. 4 pp. 520-542.

(٣١) نقلاً عن الدكتور يحيى الخشاب، مقدمة سفرنامه، ص : ن.

أم أنه – كما حاول هو أن يوهمنا في كتاباته – قد خرج من بلده باحثاً عن أمر ما، يحدوه الأمل في أن يراه واقعاً ملموساً في مكان غير محدد وبلد غير معين، ومن ثم كانت البلدان كلها عنده متكافئة، ولم تكن مصر بذاتها منذ البداية مقصده، وإنما كانت كغيرها من البلدان ليست أكثر من مجرد مكان قد يجد فيه طَلِبَتَهُ ويحقق فيه بُغيته، وقد لا يجد؟

٣ – بـوادر جدليـة :

لقد بدا ناصر بعد إحساسه بالندم على ما بدر منه من تفريط في حق نفسه فيما مضى من حياته قبل بلوغه الأربعين، بدا شخصاً من الصعب احتواؤه أو التأثير عليه، فلقد عرك الحياة وأنضجته التجارب، ولم يكن من السهل أن يقتنع برأي لا تسنده الحجة ولا يدعمه البرهان. ولكن ذلك لا يعني أنه كان – كما يقول المستشرق الروسي برتلس – عالماً متبحراً في الفلسفة وعلم الكلام وعلم الملل والنحل، فهناك من القرائن التي أثبتها ناصر بنفسه في كتابه «سفرنامه» ما يدل على أن بضاعة الرجل من هذه العلوم كانت محدودة للغاية(٣٢) . إن التجاءه إلى رجال الدين في بلخ ثم إعراضه عنهم في النهاية لا يعني أنه كان أكثر منهم علماً في أمور الدين والشرع، إنما هو قد لجأ إليهم ليبحث عندهم عن شيء لا يسلّمون به أو يعتقدونه، فما هذا الشيء الذي كان يبحث عنه؟

يشتمل ديوان ناصر خسرو على قصيدة(٣٣) من أهم القصائد التي تعين الباحث على إدراك طبيعة التحوّل الذي طرأ على الشاعر في تلك الفترة من حياته، فلقد صرح فيها بالكثير مما كان حريصاً على إخفائه وتغييبه في كتابه «سفرنامه» عن تحوله، وباح

---

(٣٢) انظر في «سفرنامه» عجزه عن مناقشة أبي منصور محمد دوست بدليل عقلي فلسفي، واعتذاره عن قبول دعوة وزير ملك الأهواز لإحساسه بقلة بضاعته من العلم، راجع أيضاً : سيد جعفر شهيدي : أفكار وعقايد كلامي ناصر خسرو.

(٣٣) نظمها ناصر خسرو في بحر الهزج المثمّن المكفوف المحذوف، وتقع في ١٢٨ بيتاً، ومطلعها :

اى خوانده بسى علم وجهان گشته سراسر تـو بـر زمى واز بـرت اين چـرخِ مـدوّر

(ديوان ناصر خسرو : ص ١٧٢–١٧٧).

فيها بمشاعره، وأفصح عما اعتمل في نفسه من هواجس، وما تردد في وجدانه من شكوك، وعن دوافعه الحقيقية في السفر والارتحال، وبلوغه غايته عند وصوله إلى مصر، التي وصفها وصفاً رائعاً بديعاً.

يُظهر الشاعر – في بداية القصيدة – مدى الجزع والحسرة على ما فاته من سنين بلغت أربعين سنة، بدا فيها كالنائم الذي لا يعقل، يبين أنه قد استقر على أمر متيقّن ومسلّمة بدهية لا تقبل الجدل عنده، وهي بدهية ما سلّم بها إلا بمحض النظر العقلي وحده. ثم مضى يبحث لها عن سند لدى أهل الفرق المختلفة في زمانه. وهي أنه لا بد من وجود واحد أفضل من الناس جميعاً :

«كفتم ز همه خلق كسى بايد بهتر»، ومعناها : قلت يجب وجود شخص أفضل من سائر الخلق. ويضيف في قصيدته أن الذي حمله على هذا اليقين هو التفاضل المشاهد في الكون والتفاوت في الشرف بين الكائنات، فلا بد من وجود رتبة عالية في كل نوع من الأنواع : «كالصقر من الطيور، والجمل من الحيوانات، والنخل من الأشجار، والياقوت من الجواهر، والقرآن من الكتب، والكعبة من الأبنية، والقلب من الجسد، والشمس من الأفلاك»(٣٤) .

وهو يعني بهذا أنه إذا كان هناك تفاضل بين الأجناس والأنواع فهناك أيضاً تفاضل في النوع الإنساني، ولا بد من وجود فرد من أفراد هذا النوع يفضل سائر الأفراد. والإشارة صريحة هنا إلى أن «ناصراً» قد سلّم بمقولة ليست من مقولات أهل السنة والجماعة (وقد كان على الأرجح منهم)، وهي القول بوجوب الإمامة وبضرورة وجود إمام «حيّ قائم» أفضل من سائر البشر، وقد بدا له هذا الوجوب عقلياً لا شرعياً، فالعقل – عنده – يقول به ويوجبه.

---

(٣٤) چون يافتم از هر كس بهتر تن خودرا — كفتم زهمه خلق كسى بايد بهتر
چون باز ز مرغان وچو اشتر زبهائم — چون نخل زاشجار وچو ياقوت ز جوهر
چون فرقان از كتب وچو كعبه ز بناها — چون دل زتنِ مردم و خورشيد ز اختر

٤ - تعسف ظاهر :

كان ناصر خسرو مقتنعاً - كما صرح هو بنفسه - بهذا المبدأ، مسلّماً به كل التسليم حين انطلق إلى علماء أهل السنة في بلده بلخ، لا ليلتمس عندهم الهداية والرشاد في أمور الدين، بل لينظر فيما إذا كانوا يقولون بما قال هو به من وجوب الإمامة، فوجدهم لا يقولون به ولا يعتقدونه، ولو كان ناصر على شيء من الدراية بأمور الدين وعلوم المللْ والنحل - كما يزعم برْتِلس - لكان قد أدرك أن الإمامة - حسب مفهومه هو - ليست من مقولات أهل السنة، ولما كلف نفسه كل هذا العناء. ويبدو أنه سألهم عما انتهى إليه - بمحض نظره العقلي كما يزعم هو - من وجوب وجود الإمام، لكنه لم يجد عندهم ما يؤكد عقائده فأعرض عنهم يائساً غاضباً، يقول :

«اعتراني الغم من الفكر واستغرقت روحي في التأمّل، وشرَعتْ هذه النفسُ المفكِّرة تبحث عن مُفكِّر. فبحثنا عند الشافعية والمالكية وفي مقالات الحنفية عمن اختاره الله كقائد وزعيم. ولما طلبت «كيف؟ ولماذا؟» والبرهان القاطع، تخبطوا جميعاً فصار هذا أعمي وذاك أصمّ».

وهكذا بدا موقفه من أصحاب هذه المذاهب ظاهر التعسف لدخوله عليهم بفكرة مسبقة يحكم بمقتضاها على أجوبتهم عن مسألته. فكان يشبه من ذكرهم الإمام أبو حامد الغزالي بقوله إنهم في الواقع «لا يطلبون الحق، بل يطلبون طريق الحيلة في نصرة ما اعتقدوه... فإن صادفوا في نظرهم ما يؤكد عقائدهم قالوا : قد ظفرنا بالدليل، وإن ظهر لهم ما يضعف مذهبهم قالوا : قد عرضت لنا شبهة؟!... وإنما الحق ضدّه، وهو أن لا يعتقد شيئاً أصلاً، وينظر إلى الدليل ويسمي مقتضاه حقاً، ونقيضه : باطلاً»(٣٥) .

ومن حقنا أن نتساءل : هل كان بوسع ناصر خسرو - على قلة بضاعته في الفلسفة والعلم - أن يصل وحده إلى مسلّمة عقلية يتمسك بها كل هذا التمسك دون إيعاز من خارج؟

---

(٣٥) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد : الاقتصاد في الاعتقاد، طبع مصر، ص ٩٨، ٩٩.

وبعبارة أخرى هل وقع «ناصر» خلال تلك الفترة تحت تأثير بعض دعاة الفاطميين الذين نشطوا في تلك المناطق بعد وفاة ألد أعدائهم «السلطان محمود الغزنوي»، وذهاب ريح الغزنويين عن خراسان؟

٥ – تأثير دعاة الفاطميين :

إن نظرة منا إلى مراتب الدعوة الفاطمية ودرجات الدعاة[٣٦] تجعلنا نرجح أن الشاعر قد تأثر ببعض صغار الدعاة الذين كانوا منبثين هنا وهناك في أرجاء خراسان لا يعلنون عن أنفسهم ولا عن مذهبهم. وإنما حسبهم أن يجتذبوا إلى هذا المذهب – خفية – من يلمسوا عنده استعداداً لقبول دعوتهم من أتباع المذاهب الأخرى.

ولقد كانت أدنى درجة الدعاة الفاطميين هي درجة الداعي «المُكاسِر» (أي الذي يكسر عقائد المستجيبين ويشككهم فيها)، فيبدأ الداعي أول ما يبدأ بزلزلة عقائد المستجيب، فيعمد ثمت إلى إثارة مجموعة من الأسئلة الغامضة حول العبادات والمعاملات، موهماً إياه أن الدين أمر مكتوم وأن أكثر الناس به جاهلون، فهو صعب مستصعب وعلم خفي غامض، ويقول : «ما سبعة أبواب النار، وما ثمانية أبواب الجنة؟. ولم جُعلت السماوات سبعاً والأرضين سبعاً والمثاني من القرآن سبع آيات؟ وما معنى قول الفلاسفة : الإنسان عالم صغير، والعالم (الطبيعة) إنسان كبير؟».

ثم يبين الداعي بعد ذلك أن الله – عز وجل – «حكيم غير مجازف وأنه فعل جميع ذلك لحكمة، وله فيها أسرار خفية». فإذا ما أيقن الداعي أن نفس المستجيب قد تعلّقت به في طلب الجواب عن هذه الأسئلة أخذ عليه العهد «بألا يفشي لهم سراً ولا يظاهر

---

(٣٦) راجع في مراتب الدعاة كتاب الداعي الإسماعيلي حميد الدين الكرماني (توفي بعد سنة ٤١١هـ)، المسمى بكتاب «راحة العقل»، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمي، طبع مصر ١٩٥٢، ص ١٣٠–١٣٨. وقارن أيضاً : النويري : نهاية الأرب، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية ٥٤٩ معارف عامة، ج ٢٣، ورقة ٥٨ وما بعدها. وابن الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية ٢٥٧٨ تاريخ، ج ٦، ورقة ٦٧. والمقريزي : الخطط، طبع مصر ١٣٢٤هـ، ٢ : ٢٣٤–٢٣٥. وانظر أيضاً :

Browne, E, G, A litrary History of Persia, London 1919, vol. 1 p. 410.

عليهم أحداً ولا يطلب لهم غيلة ولا يكتمهم نصحاً ولا يوالي لهم عدواً»[٣٧] .

ثم ينتقل الداعي بالمستجيب إلى مرتبة أخرى يعلمه فيها أن فرائض الدين لا تؤدي إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق «أئمة نصبهم للناس وأقامهم لحفظ شريعته». وهنا يستبد الشك بنفس المستجيب، وتتراءى أمامه كل العلوم والمعارف التي اكتسبها سراباً، لكونها قد انتقلت إليه من طرق أخرى غير الطريق الصحيح الذي اعتقده هو.

وفي حالة «ناصر خسرو» فقد كانت هذه هي نفس المسلّمة التي انتهى إليها، وحاول أن يتحقق من توافرها في عقائد الفرق والمذاهب السائدة في خراسان، فأخفق.

وربما كان ناصر خسرو – بتكوينه الشخصي – هدفاً ينطوي على إغراء لمثل هؤلاء الدعاة، فلقد كان ناصر خسرو ناقماً على السلاجقة، يستنكف أن يكون هو ومواطنوه من الفرس رعية لهؤلاء الغزّ الأجلاف الأخسّاء، وساءه أن يذل مواطنوه الأحرار لهؤلاء الأراذل من الترك[٣٨] . وكان بالتالي يتطلع إلى التخلص منهم. كذلك كان ناصر موظفاً بديوان السلاجقة. وكان يشعر – كما أسلفنا – بأن طموحاته أكبر من هذه الوظيفة. والحق أن دعاة الإسماعيلية كانوا في تلك الفترة قد غيّروا من طريقتهم وأخذوا يوجهون دعوتهم إلى طبقات الموظفين والفلاحين والعمال بعد أن ظلوا ردحاً من الزمن يقصرون دعوتهم على الطبقات الحاكمة وحدها[٣٩] . ولعلهم كانوا يتخيرون

---

(٣٧) احتفظ النويري في «نهاية الأرب» وابن الداواداري في «كنز الدرر وجامع الغرر»، والمقريزي في «الخطط»، بصورة كاملة للعهد الذي يأخذه الداعي على المستجيب.

(٣٨) زشت بود بودن آزاده را   بنده طوغان وعيال ينال

ومعناه : قبيح بفارسي حرّ أن يكون عبداً لطوغان وعيالا لينال. راجع الديوان ص ٢٥٣، وينال لقب من ألقاب الترك، أما الغزّ فاسم جامع استخدمه ناصر خسرو في ديوانه لمجموعات القبائل التي كانت تهاجر من تركستان والقبچاق وتستقر مدة في بلاد ما وراء النهر حتى تستجمع قوّتها ويكثر محاربوها فعند ذاك تعبر نهر جيحون إلى خراسان للاستقرار النهائي فيها، وكان هذا صنيع السلاجقة أنفسهم.

يقول ناصر في ديوانه ص ٣٢٩ :

نبات پُرپلا غز است وقبچاق   كه رستستند بر اطراف جيحون

ومعناه : الغز والقبچاق نبت شيطاني خبيث، قد نما واعشوشب على أطراف جيحون

(٣٩) راجع كتابنا : دولة الإسماعيلية في إيران، ص ٣٩، ٨٧ وما بعدها.

أهدافهم من بين الموظفين أو العمال الناقمين على الحكومة السلجوقية، فوجدوا طَلِبَتهم في «ناصر» الذي كان إلى جانب ذلك كله شاعراً فصيحاً بليغاً، وبدا قبوله للدعوة الفاطمية يمثل كسباً كبيراً لها.

٦ - تداعي المسلّمات وتلاحقها :

والذي يرجحّ أن ناصراً كان خاضعاً لسيطرة بعض هؤلاء الدعاة في تلك الفترة من حياته ذلك التدرج في الانتقال من فكرة إلى أخرى في الطريق المؤدية في النهاية إلى الانقياد للخليفة الفاطمي باعتباره إماماً مؤهلاً لحل المشكلات العويصة التي تعترض الفكر والعقل. وهذا التدرج يتبدى حين يتقدم «ناصر» خطوة أخرى بإزاء خصومه في الفكر والاعتقاد، فيزداد موقفه تعسّفاً وتعنّتاً، حين لم يكتف بمجرد إلزامهم لأول وهلة بمقولته الخاصة بوجوب الإمامة، بل اشترط شرطاً آخر مبنياً عليها قد رآه لازماً لصحة التدين عنده، وهو أن يكون هناك دائماً إمام حيّ قائم يبسط يده للمؤمن كي يبايعه، مثلما بايع الصحابة النبي – صلى الله عليه وسلّم – بيعة الرضوان، يقول ناصر :

«قرأت ذات يوم من القرآن آية البيعة، فقد قال المولى في القرآن : (يد الله فوق أيديهم). هم القوم الذين بايعوا تحت الشجرة، كجعفر والمقداد وسلمان وأبي ذَرّ. قلت : أين تلك الشجرة، وكيف تكون اليد، أنّي لي أن أبحث عن تلك اليد والبيعة، وذلك المحضر؟!»

«قالوا : لم يبق ثمّت شجر ولا يد، لقد تلاشت اليد، وتبدّد الجمع وانتثر. هم كلهم صحابة الرسول، وثمت جنة مخصصة لتلك البيعة، وهي للأخيار من الخلق».

«قلت : واضح في القرآن أن أحمد، بشير ونذير وسراج منوّر. لو يريد الكافر أن يطفئه بفمه، ينيره الله ولو كره ذلك كل كافر. كيف إذن لم يبق اليوم من القوم أثر. ليس إلا الحقَّ ما قاله الملكُ العلام الأكبر. ها نحن أولاء نبسط أيدينا فأين بيعة الله، أم أن ما حظِيَ به السابقون لا يناله رجل مؤخرٌ. ماذا جنينا نحن إذ لم نولد في ذلك العصر، ولماذا نبقى من النبي بين محروم ومضطر. استحال وجهي من ألم الجهالة كوردة

صفراء، وانحني هذا القوام عندئذ وانطوي كأنمّا قد كُسِر»[٤٠] .

وهذا يعني أن ناصراً لم يسلّم بوجوب الإمامة وضرورة وجود إمام حيّ لكل زمان فحسب، بل بوجوب مبايعة الإمام كذلك. ولم يطق البقاء طويلاً على حالته تلك حين شعر بأنه إن لم يصل إلى جواب شاف عن الأسئلة التي تلح على خاطره، فقد قيمته واعتباره وأصبح من سقط المتاع[٤١] . يقول : «ومن ثمّ نهضت من مكاني، وانطلقت معتزماً السفر، لم أبال بأهل ولا مال، لم أعبأ بروضة أو منظر. وطلبت هذه الحاجة وسألت بإلحاح، فلم أعف أحداً من السؤال : سواء كان فارسياً أو عربياً أو هندياً، تركياً أو سندياً، رومياً أو عبرياً، فلسفياً أو مانوياً، صابئياً أو دهرياً»[٤٢] .

حمل ناصر هذه الأسئلة وغيرها، وأخذ يجوب الأقطار ويجتاز الفيافي والقفار، وكم لاقى من تعب ونصب. يصف متاعبه تلك وصفاً أخّاذاً بالغ الروعة بقوله :

«كثيراً ما جعلت من الحجر وسادة وفراشاً، وكثيراً ما جعلت من السحاب خيمة ولحافاً. تارة أهوي في وديان عميقة فأجاور السمك في اليم، وتارة أرقي جبلاً يعلو على الجوزاء. تارة أنطلق إلى أرض : الماء فيها جمد كالمرمر، وتارة أذهب إلى عالم : أرضه من الحرارة كجمر ذي شرر. أمرّ تارة ببحر، وتاره بتلّ، وتارة أسير على غير هدى. تارة جبل، وتارة حصى، وتارة نهر، وتارة جدول. تارة أضع حبلاً على رقبتي كالجمّال، وتارة أضع حملاً على ظهري كدابة من الدواب. مضيت سائلاً من مدينة إلى مدينة، طفت باحثاً من بحر إلى برّ»[٤٣] .

٧ - العقل والشرع :

كان ناصر كلما طرح على الناس أسئلته، «قالوا : إن موضوع الشريعة ليس بالعقل، لأن الإسلام ما تقرر إلا بحدّ السيف، فقلت : لماذا إذن لم تفرض الصلاة على

---

(٤٠) الأبيات الفارسية مثبتة في الديوان، ص ١٧٣-١٧٤.

(٤١) الديوان، ص ١٧٤، س ١٠، ١١.

(٤٢) أيضاً : س ١٢، ١٤.

(٤٣) الديوان، ص ١٧٤، س ١٥-١٩.

الأطفال والمجانين. وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يصبح العقل مُخَيَّراً»[٤٤] ويغدو كل شيء قابلاً للمناقشة، وكل أمر من أمور المعاش أو المعاد مطروحاً للتساؤل والمعالجة العقلية.

ولسنا هنا بصدد الردّ على ناصر خسرو أو على المذهب الإسماعيلي، وإنما حسبنا أن نتوقف قليلاً لنتأمل ما يعنيه بقوله هنا بالاستناد على العقل والاعتداد به، فهو قول ينطوي - في الواقع - على مخاتلة، لأن الأسئلة التي رأينا بعضها في الصفحات السابقة تبدو معدّة بعناية، وهي أسئلة نمطية استخدمها دعاة الفاطميين في سائر أقطار الأرض، والهدف منها التعجيز ليس إلا، وهي وإن كانت عقلية - ليست مقصودة لذاتها، ولا لتأكيد صلاحية العقل في الإجابة عنها بقدر ما هي مطروحة للدلالة على أن هناك من يستطيع حلّها وحل كل معضلة سواها، ألا وهو إمام الزمان. دون أن تكون في حله مخالفة للشرع أو تناقض معه.

كما أن موقف ناصر خسرو هنا لا يخلو - في الواقع - من مفارقة، لأنه ما زاد على أن وقف موقف خصومه الذين انتقدهم أشد الانتقاد لجهلهم وضلالهم، وبعدهم عن مقتضى التأمل العقلي والنظر البرهاني، فهم قد ردوا عليه بأن الأمور الشرعية لا دخل فيها للعقل، وأنها أمور مفروضة من قبل الله - عز وجل - الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه وما يفسده، فسنّ له الشرائع التي تؤدي إلى صلاح حاله في الدنيا والآخرة إذا هو أقدم على تنفيذها، فليس ثمت مجال لتدخل العقل في هذه الشرائع، ومن ثمّ عدّ هؤلاء الخصومُ طرح هذه الأسئلة أمراً غير ذي موضوع، بل هي سفسطة كلامية، ومضيعة للوقت، ولا يسعهم إلا التسليم بما أمر الله به، وجاء على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم. كذلك ناصر خسرو حين استمع في مصر إلى ردّ تأويلي (لا عقلي) على هذه الأسئلة ما وسعه إلا التسليم، والتسليم في كلتا الحالتين تسليم ليس عقلياً بقدر ما هو اعتقادي، لكن شتان بين الاعتقاد بالتنزيل الصريح والتأويل المنحرف.

---

(٤٤) أيضاً : س ٢٠، ٢١.

٨ – ناصر خسرو : بين التصريح والصمت :

يقول ناصر بعد أن ذكر ردّه على من توجه إليهم بأسئلته في المدن التي مرّ بها في رحلته، وأوضح في هذا الردّ مدى اعتداده بالمزاوجة بين العقل والشرع، وإلا لما سقطت الصلاة عن الأطفال والمجانين، يقول : «لم أقبل التقليد ولم أخْفِ الحجة، لأن الحق لم يشهر وينتشر بالتقليد»(٤٥) . لقد ردّ عليهم بكل صراحة وأعرب لهم عن رأيه دون مواربة. ثم انطلق، لعله يجد عند غيرهم إجابة على أسئلته.

ولكن ما بال ناصر قد أعرض – في قصيدته هذه التي اتسمت بكل الصراحة، والتي نظمها كما يرجّح إيڤانوف سنة ٤٥٦هـ(٤٦) – عن الإشارة إلى أنه خضع منذ البداية لتأثير دعاة الفاطميين في خراسان؟ وما باله حرص على أن يبين أنه ما أفاق من غفلته أو غفوته التي استمرت أربعين عاماً إلا على تحذير قوي من أعماقه، وعلى مسلّمة بدهية لا تقبل الشك عنده، انتهى إليها بالنظر العقلي المجرد دون أن يكون هناك هاتف من خارج يعينه على التوصل إليها لا من دعاة الفاطمية ولا من غيرهم؟ يبدو أنه لم يفصح عن أثر أولئك الدعاة عليه لسبب جوهري يتعلق بمدى نجاح الدعوة الفاطمية وانتشارها في المنطقة التي غدا هو مسئولاً عن نجاح الدعوة فيها، بعد عودته من مصر بتكليف من الخليفة الفاطمي المستنصر، وهي منطقة خراسان. فلو أنه صرّح بذلك لاتّخذه كل المستجيبين الجدد من مواطنيه في خراسان ويمگان وغيرهما قدوة ومثلاً لهم، ولأبدوا تمنّعاً على التسليم بمقولات مذهبه والانضواء تحت لوائه ما لم تتح لهم فرصة السَّفر إلى القاهرة ليُلقَّنوا الدعوة من هناك، مثلما فعل ناصر خسرو نفسه. وإذن لأصبحت الرحلة إلى القاهرة شرطاً لازماً لقبول الدعوة، ولكان هذا الشرط نفسه سبباً في إعراض كل من لا قبل له بالسفر إلى القاهرة، ولأدى ذلك إلى فشل الدعوة فشلاً ذريعاً في تلك المنطقة، في وقت كان هو يريد لها أن تنجح وأن يأذن الخليفة

(٤٥) الجويني : علاء الدين عطا ملك، جهانگشاي، الترجمة العربية لتاريخ الإسماعيلية لكاتب هذه السطور، ص ١٩٠-١٩١. الديوان أيضاً، ص ١٧٤، س ٢٣.

(٤٦) Ivanow, Nasiri Khosraw and Ismailism, pp. 17.

المستنصر بضم مناطق أخرى إلى نفوذه كداعية كبير (حجة)، مثل منطقة السند(٤٧)

لقد رجح عنده – فيما يبدو – أن يسكت في قصيدته عن الإشارة بصراحة إلى تأثير دعاة الفاطميين عليه في خراسان قبل رحلته، فربما استطاع بذلك أن يوحي إلى قارئه أن النهج العقلي الذي سار عليه قد أفضى به في النهاية – بعد طول بحث وعذاب – إلى التسليم بوجود إمام حي قائم، هو إمام الزمان المستنصر بالله الفاطمي الناجم هناك بالقاهرة، وأن كل من سار على هذا النهج العقلي لابد أن ينتهي إلى التسليم به حتي دون عون من الدعاة.

أجل، كل الدلائل تشير إلى تأثره بالدعوة الفاطمية قبل مغادرته خراسان، حتى وإن لم يصرّح به.

٩ – متى أصبح ناصر خسرو إسماعيلياً ؟

لكننا لسنا مع الرأي الذي شاع بين المؤرخين والباحثين(٤٨) ، والدين انتهوا فيه إلى أن ناصراً كان قد أصبح إسماعيلياً حتى قبل أن يغادر بلده خراسان في بداية رحلته. فالذي يتضح من أشعاره في هذه القصيدة بالذات أنه – وإن خضع لتأثير دعاة الفاطمية وسلّم ببعض مقولاتهم المبدئية – لم يقبل المذهب الإسماعيلي إلا حين وصل إلى مصر والتقي بداعي الدعاة «المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي»، كما يقرر هو في نهاية قصيدته.

ولو كان ناصر قد قبل المذهب الإسماعيلي حقاً قبل مغادرته «بلخ» لكان موقفه بإزاء أصحاب الفرق الأخرى موقف المُناظر لا موقف السائل، فالمُناظر لا يُخفي انتماءه

(٤٧) يخاطب «ناصر خسرو» الخليفة المستنصر بقوله :

بنده ای را سند بخشی پیشکاری را طراز

کهتری رابر زمین خاوران مهتر کنی

(الديوان، ص ٤٣٣). وترجمته : امنح عبدك بلاد السند وزيّن خادمك بها، واجعل من الصغير عظيماً لبلاد المشارق.

(٤٨) راجع الإشارات المدونة بالهوامش المرقمة : ٢٩، ٣٠، ٣١، وانظر أيضاً : برتلس : ناصر خسرو وإسماعيليان، ص ١٧٨.

وانحيازه إلى مذهبٍ بذاته ينافح عنه ويدافع، أما السائل فهو من لم يكوّن بعد في مسألة رأياً نهائياً يعينه على الوقوف موقف الخصم من الآراء المعارضة ويجعله ينحاز إلى هذه الناحية أو تلك انحيازاً واضحاً حاسماً. أضف إلى هذا أن أتباع الفاطميين – في البلاد الفارسية الخاضعة لسلطان السلاجقة المتعصبين لمذاهب أهل السنة، والذين يشعرون بولاء شديد وانصياع كامل للخلافة العباسية وبكراهية مفرطة لأعدائها – لم يكونوا في حالة تسمح لهم بالإعلان عن أنفسهم أمام الملأ من الناس. فضلاً عن محاجّتهم ومناظرتهم، وإلا كان جزاؤهم الإعدام الفوري(٤٩) . وليت ناصر خسرو قد توجه بأسئلته إلى أتباع مذهب واحد، وإنما سأل عنها – كما قرر هو بنفسه – كل أصحاب المذاهب المعروفة في زمانه، بل جاوز أصحاب المذاهب الإسلامية إلى أصحاب الأديان والملل الأخرى كاليهود والهندوس والصابئة وغيرهم، وهو ما تنتفي معه صفة التخفّي والسرية التي كان يتعين على من يتّبع المذهب الإسماعيلي أن يتحلى بها في البلاد الفارسية بخاصّة. وكان من أهم مبادىء المذهب الإسماعيلي مبدأ الستر والظهور، وهما مبدآن ينتظمان سياسة الدعوة بعامة، ويتعلقان بحالة «إمام الزمان» نفسه، «فإذا كان الإمام مستوراً فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين» (٥٠) فالعلاقة بين الإمامة والدعوة علاقة منعكسة، بمعنى أن ظهور الإمام يوجب (في بعض البلدان) ستر الدعوة، والعكس بالعكس. ولقد كانت الإمامة حينذاك في طور الظهور، والإمام معروف مشهور بين الناس، وهو الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧–٤٨٧هـ).

ففضلاً عن دواعي السلامة والأمن كانت مبادىء المذهب تملي على الدعاة والأتباع البقاء متخفين مستورين لا يُعلنون عن أنفسهم ولا يكشفون عن هويّتهم. ولو كان ناصر خسرو قد قبل المذهب الإسماعيلي – كما يقولون – قبل وصوله إلى القاهرة وصار بالفعل واحداً من هؤلاء الأتباع وسلّم بكل مقولات ذلك المذهب لما جرؤ على طرح هذه الأسئلة بهذا القدر الكبير من الإلحاح وعلى هذا النّطاق الواسع من العلانية والإفصاح،

---

(٤٩) أورد نظام الملك الطوسي في كتابه : «سياست نامه»، طبع شفر، انجي ١٨٩١م، ص ١١٨–١٩٣، تفصيل النكبة التي حدثت للإسماعيلية في بلاد ما وراء النهر وخراسان على يد الأمير نوح بن نصر الساماني. راجع أيضاً كتابنا : دولة الإسماعيلية في إيران. ص ٧٢ وما بعدها.

(٥٠) الشهرستاني : الملل والنحل، جـ ١، ص ٤٢٥.

ولما استطاع أن يبيّن مدى اعتداده بالعقل بهذا الوضوح، وهي أسئلة يبدو أنه كان يطرحها لعلها تصادف اتفاقاً مع بعض المسلّمات التي استقرت في ذهنه ووجدانه.

كل هذا يؤدي بنا إلى القول بأن ناصر خسرو لم يقبل المذهب الإسماعيلي إلا بعد أن وصل إلى القاهرة، حاضرة مصر الفاطمية، وأن حظّ دعاة الفاطميين في خراسان من التأثير عليه كان محدوداً بزعزعة اعتقاده وإثارة ثائرته على تقليد أترابه ومواطنيه، وإخضاعه لجاذبة معنوية خفية، تدفع به رويداً رويداً في الطريق نحو مصر والقاهرة، وتهيّئ له أنه لن يعثر على ضالّته أو يجد راحته إلا في «إمام الزّمان». فهناك سيُلقي برحاله، ويزيح عن كاهله عبء أسئلته، التي لم تكن في حقيقة الأمر وواقع الحال إلا وسيلة لدفعه إلى العرين.

السوفسطائيون
ومنزلتهم في الفكر اليوناني

الأستاذ الدكتور فتح الله خليف
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة

كان الاعتقاد السائد بين الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة حتى الربع الأول من هذا القرن هو أن أفلاطون على حق في معركته مع السوفسطائيين. فأفلاطون هو الفيلسوف الحق، المحب للحكمة، أما السوفسطائيون فهم سطحيون، هدامون، مموهون، وهم منبع السفسطة بمعناها الشائع بين الناس اليوم.

ولكن منذ عام ١٩٣٠ رأينا حركة قوية تؤكد أن السوفسطائيين هم أبطال التقدم والتنوير. فكارل پوپر Karl Popper يعتبرهم الجيل العظيم[١] ، أما هفلوك Havelock فيقرر بأن السوفسطائيين هم الذين أيقظوا الشعور بالتحرر في السياسة اليونانية، وهم الممثلون للفكر الديموقراطي الحر في اليونان الذي عمل على هدمه بكل قواه أفلاطون وأرسطو[٢] .

ورأينا في الوقت نفسه تحولاً مفاجئاً من المحبة إلى الكراهية نحو أفلاطون باعتباره قمة الرجعية والطغيان. ففي عام ١٩٥٣ قال الأستاذ الأميركي ليفنسون Levinson بأسى شديد : إن أصدقاء أفلاطون اليوم من الأساتذة والطلاب الدارسين له لا يرون فيه سو أنه الجد الأكبر للنازية الألمانية، ولكل حكومات الطغيان في أوروبا التي ساعدت على قيام الحرب العالمية الثانية. لقد كان هدف الحزب النازي الألماني – كما جاء في برنامج الحزب الرسمي – هو إعداد الشباب النازي وتربيتهم على مثال الحراس بالمفهوم الأفلاطوني، بل إن هناك من يرون أفلاطون شخصاً مصاباً بالجنسية المثلية، لا يقوى على كبح غرائزه[٣] .

كذلك تبدو السوفسطائية في نظر شخص معاد لها ومعاصر لنشاطها مثل أرسطوفان الروائي المشهور على أنها علامة على الانحدار، ويرى أن أيام اليونان العظيمة هي أيام الحرب الفارسية حين كان الرجال رجالاً. كانت الشجاعة، والخشونة، والبساطة في الحياة، والمستوى الخلقي الرفيع صفات الأجيال السابقة. أما اليوم، فقد انتهى كل ذلك، لم يعد أحد قادراً على التمييز بين الحق والباطل، وإن استطاعوا التمييز فإنهم يختارون الباطل بغباء، ويحتقرون الحق. فالأجيال الشابه في أيامنا هذه تعشق الرفاهية، وتميل للتخنث والجبن والوضاعة. انظر إلى الدراما، فلن تجد اليوم مسرحيات تؤكد الرفعة والنبالة في السلوك والحياة جميعاً مثلما كان يفعل أسخيلوس. وبدلاً من ذلك لدينا اليوم يوربيدس بمسرحياته عن الزنا والخداع وزواج المحارم، وتعقبه للحقراء والوضعاء وتمويهاته التي لا تنتهي. ويعتقد أرسطوفان أن كل ذلك مصدره اتباع الفكر الملحد، وتعاليم السوفسطائية(٤) .

وفي مقابل هذا فإن فيلسوفاً مثل كارل جويل Karl Joel يرى أن التحول الفكري الذي قاده السوفسطائيون ليس إنحداراً، ولكنه قفزة إلى أعلى، فهم طموحون كالشباب، مقنعون، ثائرون في كل اتجاه، وأن بلاغة جورجياس السوفسائي العظيم نهر متدفق، في عصر تجري فيه دماء شابه، بحيوية وقوة كاسحة(٥) .

واختلاف الناس على هذا النحو في منزلة السوفسطائيين بين محب مفرط ومبغض مفرط يدل على أن السوفسطائيين من أنبه الناس وأبعدهم أثراً في الفكر اليوناني. لقد شهد القرن الخامس قبل الميلاد الذي عاش فيه كبار السوفسطائية من أمثال بروتاغوراس وجورجياس تحولاً عميقاً من النظر في الكون إلى النظر في الانسان. فأصبحنا مع السوفسطائية لم نعد نتساءل عما إذا كانت الأرض مستديرة أم مسطحة، أو أن أصل العالم هو الماء أو النار، إنما اتجهت الفلسفة إلى الاهتمام بالانسان في واقعه المعاش. فتساءلوا عن العدل والظلم، والصواب والخطأ، وبحثوا في نسبية القوانين الخلقية والأعراف والتقاليد والنظم السياسية. فالمعايير الخلقية والقوانين التي فرضتها الجماهير ليست من وحي الآلهة. إنها أشياء فرضها الانسان على أخيه الإنسان، أو على أحسن تقدير وجدت باتفاق بين الناس.

وكشفت السوفسطائية عن الأسس الفلسفية العميقة للقوانين والقواعد الأخلاقية والنظم السياسية التي تنظم حياة الانسان. فعند النظرة السطحية قد نجد فروقاً سياسية بين الملكية والجمهورية، والديموقراطية والأرستقراطية. ثم نتساءل: السيادة لمن: هل هي لرجل واحد، أم لطبقة أرستقراطية. أم للجماهير.

ولكن تحت هذه التساؤلات يوجد مستو من الأفكار أمعن في التجريد والتنظير حول الطبيعة الانسانية: فيصبح التساؤل: هل الناس جميعاً متساوون، وهل وجود الحكام والمحكومين، والأسياد والعبيد، مجرد مسألة مواضعات اجتماعية، أم أنها ترجع إلى اختلاف طبائع البشر؟ والمتأمل في كل هذه المسائل يجد أنها جميعاً ترجع إلى موضوع أعم وأشمل هو طبيعة العالم وموقف الانسان منه.

فالحكومة التي تدعى أنها تحكم بإرادة الآلهة، في مقابل الحكومة التي تنشأ بإرادة البشر، تقابل العالم الذي يخضع أفراده لسلسلة منتظمة من الأوامر والنواهي، تعارض المجموع، الذي تكون بدون سابق ترتيب.

وأوضح مثال على ذلك الحرب الأهلية البريطانية في القرن السابع عشر. ففي الظاهر كانت تبدو صراعاً بين عاملين متنافسين: الملك والبرلمان، من منهما الذي يحكم؟ ولكن يكمن وراء ذلك تساؤل: هل الناس بطبيعتهم منقسمون إلى طبقات؟ طبقة عليا، وطبقة سفلى؟ وهل هذا الانقسام بإرادة الله، وهل هذا الانقسام شائع في الكون كله، وفي الطبيعة. ففي الكون نجد على رأس العالم الله، الحاكم الأعلى، يليه الملائكة، ثم الانسان، وهو بدوره سيد الحيوان، الذي يأتي بعده النبات، وأخس الموجودات جميعاً الجمادات. فالله تعالى هو المنظم للعالم على هذا النحو، وهو الذي أراد أن يكون الوجود مراتباً، عليا ودنيا، وهو الذي أراد أن لا تخرج المجتمعات البشرية عن هذا النظام.

في مثل هذا النظام الكوني الآلهي تجد الملكية المطلقة تأييداً وسنداً، كما يبدو الانقسام الطبقي متسقاً مع طبيعة العالم ونظامه. وبالرغم من أن تعاليم الديانات تؤكد بأن الناس متساوون عند الله، فإن النظام الكوني الآلهي بعكس ذلك تماماً.

فالقضية هنا هي مسألة قياس نظام المجتمع البشري بنظام الطبيعة، وتصور العالم أو الكون باعتباره منظماً تنظيماً إلهياً. وهذا التصور يرجع إلى أفلاطون. وبنفس القوة يتأصل في الفكر اليوناني المعارض الذي نجده عند السوفسطائيين الذين يرون أن النظام الاجتماعي كله من خلق الجماعة. فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم تقوم على هذا المفهوم الذي يوزع الالتزامات بين الطرفين، فالحاكم ملتزم بإزاء المحكومين، وهم ملتزمون بإزاء الحاكم، وذلك كله نشأ بين الناس باتفاقهم وتراضيهم لتدبير الحياة دون تدخل من سلطة عليا، لا تخضع لأي التزام، إلهية كانت أم ملكية. فليس هناك أحكام إلهية، ولكن يوجد فقط تراض إنساني خالص أو اتفاق بين الناس، وأن الناس لهم الحق في معارضة الحاكم وخلعه إذا نقض الاتفاق، كما أن للحاكم الحق في معاقبة المحكومين الذين لا يمتثلون للقوانين المخول بإصدارها(٦).

وفكرة اعتبار القانون مجرد اتفاق عقد بين الناس وبتراضيهم هي أصل فكرة العقد الاجتماعي عند فلاسفة العصر الحديث من أمثال جون لوك وجان جاك روسو، كما أنها هي جوهر النزعة الانسانية في الفلسفة السوفسطائية، والتي لخصها بروتاغوراس أقدم السوفسطائيين وأشهرهم بقوله: الانسان مقياس الأشياء جميعاً.

هذه النزعة الانسانية التي كانت السمة الغالبة على ثقافة العصر، أي على ثقافة القرن الخامس قبل الميلاد يمكن أن نلتمس أصولها البعيدة عن الطبيعيين الأوائل الذين يفسرون العالم تفسيراً مادياً محضاً برده إلى مادة أولى هي أصل الأشياء جميعاً. ففي بداية التفلسف لم تر العقلية اليونانية مبرراً لوجود علة إلهيه أو نصف إلهية للعالم. إن آلهة اليونان على قمة الأولب وإن كانوا لم يخلقوا العالم ولكنهم على الأقل يسيرونه وينظمونه. ولكن نظريات الفلاسفة الطبيعيين لم تترك أي دور لزيوس في سقوط المطر وإحداث البرق والرعد، ولا لپوسيدون في السيطرة على البحر.

لقد كان أثر الطبيعيين الأوائل على المذهب الانساني كبيراً لأنهم لا يفسرون الطبيعة بردها إلى قوة فوق الطبيعة، بما فيها طبعاً الانسان ونظمه السياسية والاقتصادية.

وهناك عامل آخر أنمى النزعة الانسانية في هذا القرن هو إتساع أفق الصلات مع العالم الخارجي بسبب الحروب والرحلات وتكوين المستعمرات. وقد أدى ذلك بوضوح إلى اعتبار العادات وأنماط السلوك التي كانت تعتبر عامة ومطلقة ودستوراً إلهياً، أدى إلى اعتبارها محلية ونسبية. فالعادات التي يعتبرها اليونانيون قبيحة ومحرمة مثل زواج الأخ بأخته تعد عند المصريين من الأمور الطبيعية والفضائل الدينية.

ويقص هيرودوت في تاريخه أحداث منتصف القرن وعادات الناس من الفرس والمصريين والهنود، ويبين اختلافها عن العادات اليونانية.

ولم يعد ممكنا قبول الأعراف والتقاليد بدون فحص لا سيما بعد الحرب الفارسية، وانتصار اليونان على الفرس. فقد ايقنوا أنهم انتصروا على أعدائهم بغير عون إلهي، وأنهم وقفوا وحدهم. فإن سألتهم: كيف كان ذلك؟ قالوا: إنه قانون الطبيعة، الغلبة للأقوى، والهزيمة والدمار للأضعف.

كان اليونان القدامى يعتقدون أن القوانين التي تحكمهم قد أوحى بها الإله أبولو للمشرعين، وأنطق بها كاهنة معبد دلفى. ولكنهم اليوم قاموا بمناقشة القوانين واستبعدوا منها فكرة الوحي بها من أبولو.

أما الرافد الثالث الذي أمد النزعة الانسانية بتيار متدفق في القرن الخامس قبل الميلاد فهوتقدم المخترعات والتقنيات البشرية. فإن ما حققه الانسان في هذا المجال كان موضع تقدير لا يقل عن تقدير ما حققه الانسان في فهم الكون وفي ميدان الفلسفة والعلم. وأشاد الفلاسفة من أمثال انكساغوراس وديموقريطس وبروتاغوراس السوفسطائي وكتاب التراجيديا بهذا التقدم في المخترعات والتقنيات.

فعند سوفوكليس لا توجد إشارة إلى موجودات عليا، فجوقة انتيجون لسوفوكليس تمجد الانسان الماهر، الانسان بمهاراته المتعددة أعظم الموجودات في عالمنا. كان تقدير المهارات عند مثل هؤلاء الفلاسفة والكتاب عظيماً، فأصبحت الخطابة والقراءة والكتابة، والصيد في البحر والبر والجو، والزراعة واستئناس الحيوان واستخدامه في وسائل النقل، والمعمار، والطبخ، والتعدين، وصناعة السفن، وارتياد البحار، والغزل والنسيج،

والصيدلة، والطب، والحساب، أصبحت كل هذه الأنشطة الإنسانية موضع تقدير واحترام(٧)

ومع نمو الديموقراطية في أثينا بدأ أصحاب هذه الحرف المشاركة في الحياة العامة، وخصصوا بعض الوقت للاشتغال بالسياسة والتشريع. وكان من حقهم الكلام والتصويت في الجمعية التشريعية التي تسن القوانين، وتعلن الحرب، وتنشئ المعاهدات.

وهكذا فتحت الديموقراطية الأثينية الطريق أمام كل مواطن يوناني للمشاركة في الحكم، حداداً كان أم نجاراً، صياداً كان أم نساجاً، غنياً كان أم فقيراً، فإن آراء الناس جميعاً في السياسة جديرة بالاعتبار.

فكيف يمكن أن يقال: إن الحضارة اليونانية كانت تحتقر أربان المهن اليدوية والحرف والصناعات! وكانت تمجد فكرة العلم للعلم بصرف النظر عن مدى نفعه.

هذه الأحكام العامة وقرت في نفوسنا أمداً طويلاً، ثم تبين أخيراً لمؤرخي الفلسفة أنها من اختراع أفلاطون وأرسطو. يقول الأستاذ هفلوك Havelock أن تاريخ اليونان السياسي قد تم تدوينه في العصر الحديث كما أراده أفلاطون وأرسطو(٨) .

كذلك نحن لا نكاد نعرف شيئاً عن السوفسطائيين إلا ما أراد أفلاطون أن نعرفه عنهم. جاء أفلاطون بعد بروتاغوراس وجورجياس أشهر السوفسطائيين بستين عاماً ليكتب عنهم خمس محاورات كاملة اختار لها عناويناً تحمل أسماءهم. فلدينا محاورة بعنوان بروتاغوراس ومحاورة بعنوان جورجياس، ومحاورتان بعنوان هبياس وهو من أكبر سوفسطائي القرن الرابع الذين أدركهم أفلاطون، ومحاورة بعنوان سوفيسطوس. هذا فضلاً عن مناقشاته المتصلة لآرائهم في محاورة فيدروس وتيتياتوس ومينون. فكأن مذهب أفلاطون ليس سوى رد فعل لآراء السوفسطائيين ومذهبهم.

قبل أن نمضي في عرض آراء السوفسطائية نقف قليلاً عند لفظ سوفسطائي لنتعرف على حقيقة مفهوم هذا اللفظ وماصدقه عند اليونان قبل أن يلحقه التحقير على أيدي أفلاطون.

كلمة سوفيسطوس مأخوذة في الأصل من الكلمة اليونانية Sophia أو Sophos وتترجم بالحكمة أو بالحكيم. والحكمة معناها الأصلي عند اليونان هي المهارة في حرفة ما . فنقرأ في إلياذة هومير أن المثال والعراف وسائق العربة الحربية ومرشد السفن كلاً منهم Sophos أي حكيم في حرفته وصنعته. فالحكيم أو الـ Sophos هو الذي يعرف أشياء نافعة. وفي هذا السياق استخدمت كلمة Sophos أيضاً للاشارة إلى المعارف العقلية والروحية ومنها جاءت كلمة فلسفة ومعناها فيلاسوفيا أي محبة الحكمة. وبهذا المعنى أطلقت كلمة سوفوس Sophos على الحكماء السبعة، ويذكر أن طاليس آخر هؤلاء الحكماء السبعة، وأول الفلاسفة. وكانت حكمتهم عبارة عن أمثال مأثورة، أو أقوال قصيرة، تنصب على تدبير أمور الحياة العملية.

ولم يكن هناك فرق بين لفظ Sophos ولفظ Sophist ، فاللفظان متساويان عند هيرودوت الذي يطلق على فيثاغورس وسولون ومؤسسي ديانه ديونسيوس لفظ سوفسطائي، ويقول: إن كل سوفسطائيي اليونان زاروا عاصمة ليديا . ونعرف من أرسطو وإشوكرات بطل محاورة فيدون أن لفظ سوفسطائي أطلق على الحكماء السبعة. كما نعلم من يوربيدس أن لفظ سوفسطائي أطلق على الشعراء والمغنيين والموسيقيين والكتاب.

فالسوفسطائي إذن هو من يمتلك مهارة خاصة أو خبرة خاصة أو المتقن لحرفة ما يقدمها ويمنحها ويعلمها لتلاميذه أو صبيته ومن يأتمنهم على أسرار حرفته. من كل ما تقدم نرى أن لفظ سوفسطائي متعدد المفهوم واسع الماصدق، لكنه لا يراد به في أي مفهوم معني مخجل أو قبيح(٩) .

والإجماع منعقد بين مؤرخي الفلسفة على أن لفظ سوفسطائي قد لحقه التحقير على أيدي أفلاطون وأرسطو. فالسوفسطائي عندهم معلم مأجور يتصيد الأثرياء من الشبان، ويجمع الثروة من تعليم الحكمة الباطلة. أي أن السفسطة عندهم هي التمويه والخداع، وهذا هو المعنى الشائع بين الناس اليوم. أما سقراط فقد كان يرى أن المعلم المأجور كالبغي، إذ ليس هناك فرق عنده بين أن يبيع الواحد فكره للآخرين أو يبيع جسده. كذلك فإن المعلم الذي يتقاضى أجراً يتنازل عن حريته، لأن عليه أن يعلم كل من

يدفع له، وكل من يقدر على الدفع، بينما يقول سقراط إنه حر في مناظرته وتعليمه، يختار من يناظره ويبصره بالحكمة. إن الحكمة في رأي سقراط يجب أن تكون متاحة بحرية بين الأصدقاء. ولم تكن الحكمة هي المتاحة بين الأصدقاء فقط، ولكنه الايروس أيضاً الذي هو أساس الجنسية المثلية المتسامية بين سقراط وأفلاطون

ويتناول إشوكرات بطل محاورة فيدون التغير الذي طرأ على لفظ سوفسطائي فيقول : إنه ليحزنني أن أرى التمويه والخداع أفضل من الفلسفة. كان لفظ سوفيسطوس يطلق على حكمائنا السبعة، فأصبح في أيامنا يطلق على غير الشرفاء منا. من كان في الماضي يتوقع ذلك. لقد كان كل الرجال فخورين بهذا الاسم. كان أجدادنا يجلون أولئك الذين يسمون سوفيسطائية ويطلبون رفقتهم ومودتهم. وأعظم دليل على ذلك هو اختيارهم لسولون – أول مواطن أثيني يحمل لقب سوفسطائي – ليحكم المدينة(١٠) .

أما موقف جمهور الأثينيين من احتراف السوفسطائية للتعليم فإنه يدعو للعجب والدهشة. فنحن تعودنا أن ننظر للتعليم على أنه مهنة محترمة لكسب العيش، ولم يكن هناك عند اليونان أي مأخذ على ذلك، أي أن يعيش الانسان من كسب قوته من التعليم، وكان أصحاب الحرف من الشعراء والفنانين، والأطباء والنحاتين، والمهندسين والنجارين وسائر أرباب الحرف والصناعات يتقاضون أجوراً لمزاولتهم حرفهم وفنونهم، أو لتعليمهم تلك الحرف للآخرين. كذلك لم تعرف اليونان عن السوفسطائية أنهم كونوا ثروات، أو أنهم كانوا يعيشون عيشة مترفة. بل إن جورجياس لم يتزوج، ولم تكن له أي أعباء عائلية. وكان يعيش عيشة متواضعة.

يلوح أن تعاليم السوفسطائية هي التي أثارت جمهور المحافظين من أمثال أفلاطون وأرسطو ضدهم.

سئل بروتاغوراس : ماذا تعلم تلميذك؟ قال: العناية بأموره الشخصية، ليكون أفضل من يدبر منزله، وأمور دولته، ليصبح قوة حقيقية في الدولة كمتكلم وكرجل دولة. وفي محاورة مينون جاء على لسان سقراط أن السوفسطائيين هم أفضل الناس لتعليم الحكمة التي تؤهل المتعلم لإدارة ضيعة، وحكم دولة.

كانت السياسة إذن هي هدفهم الأعظم في التعليم ومحور اهتمامهم. والبلاغة أو فن إجادة العبارة والكلام هي الطريق إلى النجاح في السياسة. سئل جورجياس، من هو السوفسطائي؟ قال: إنه المهيمن على الفن الذي يخلق المتحدث الذكي. فأتقن السوفسطائية فن صناعة الكلام. وزاولوه، وعلموه، وألفوا فيه الكتب. وليست البلاغة هي الفصاحة في القول، ولكنها الاستخدام الصحيح للغة بوجه عام، وتقدير قيمة الكلمة وأثرها.

كتب جورجياس مقالة عن طبيعة الكلمة قال: إن الكلمة حاكم شديد البأس مستبد The word is a mighty despot. لها من القهر ما يفوق قهر الطاغية، ولها سلطة مطلقة على العقل، إن قوتها لا تقاوم. وعلي ذلك فلو زيّنا للمرأة الزنا، وزنت، فإنها تكون كالمرأة التي اغتصبت، لا ذنب لها.

إن الكلمة يمكنها أن تفعل خيراً عظيماً، وتزيل خوفاً وحزناً، وتشيع فرحاً ومرحاً، وتمكنك من إقناع المحلف في المحكمة، وعضو الشيوخ في مجلس الشيوخ. يقول جورجياس: هذا ما نريد تعليمه للناس، وليس شيئاً غير ذلك. ولا لوم علينا لو أن التلاميذ الذين يتعلمون منا استخدموا علمهم في غايات شريرة، مثلما لا يلام معلم الملاكمة لو أن تلميذه ذهب إلى والده وضربه ضربة قاضية.

إن البلاغة هي علم الوسائل وليست علم الغايات، وأن تعليمها له آثار مختلفة على التلاميذ بحسب سلوكهم وأخلاقهم.

فالبلاغة هي طريقنا للنجاح في السياسة، والنجاح في التشريع وسن القوانين لخير البشر(١١) . كان الاعتقاد السائد عند اليونان قديماً هو أن القوانين من صنع الآلهة، وأن عدم الامتثال لها كفر، وأن الانسان الذى يتولى التشريع، وسن القوانين فإنه يفعل ذلك بإذن الآلهة وبوحي منهم. فالإله أبولو هو الذي أملى على ليكورجوس دستور اسبرطه بكل تفاصيله في مدينة دلفى. ثم عاد الناس بعد ذلك ليقولوا بأن ليكورجوس هو الذي وضع دستور اسبرطه، ثم ذهب إلى دلفى يطلب موافقة الآلهة عليه. ثم جاء هيرودوت ليقول بأن ليكورجوس استمد دستوره من دستور كريت، وأن دستور كريت بدوره من وحي الإله زيوس.

أما في القرن الخامس فإن الاعتقاد الذي ساد بين الكتاب والشعراء والفلاسفة وعلى رأسهم السوفسطائيين هو أن القوانين كلها من صنع البشر، وأنها وجدت لمواجهة متطلبات الحياة العملية، وأن القوانين ليست دائمة ولا مقدسة، وأن الأصل في القوانين هو الاتفاق بين الناس على تنظيم حياتهم وفقاً لرغباتهم. ففي رأي بروتاغوراس لا يستطيع الانسان أن يحيا في مدينة دون مراعاة حقوق الآخرين. وفور أن نلتفت إلى أن للآخرين حقوقاً تنشأ المجتمعات السياسية. فحاجة الناس إلى العدل وكبح جماح النفس هي أصل القوانين. إن تطور المجتمعات من حالة البداوة حيث كان الكل في حرب ضد الكل، وحيث كان كل واحد لا يلتفت إلا لنفسه قد حملت الإنسان - حين أدرك استحالة حياته على هذا النحو - على كبح جماح غرائزه من أجل المواجهة الجماعية لعدوان الطبيعة عليه. ومادامت القوانين نتيجة اتفاق، فإن المواطنين ليسوا ملزمين بطاعتها في كل الظروف. ولكن في الظروف الملائمة تصبح طاعة القانون واجبة.

يقول يوربيدس: ليس للمدينة من عدو مثل طاغية يحكم وحده، ويضع القانون في خدمته وحوزته، ولا يسمح بقوانين عامة مشتركة. لنفرض وجود سوبرمان قُدّ من صلب، لا إحساس له، فإن مثل هذا السوبرمان لا يمكن أن يستمر في طغيانه بدون خوف، لأن كل الناس سيصبحون أعداء له، ولو استمسكوا بالقوانين واتحدوا، فإن الغلبة ستكون لهم. فليست قوة الطاغية وعنفه هما اللذان يمكنانه من السلطة كما يعتقد معظم الناس، ولكنها غفلة المواطنين أنفسهم، فإن المدينة التي تفقد احترامها للقانون والنظام هي التي تسقط في يد الطاغية.

فالثقة المتبادلة بين الناس ثمرة من ثمرات طاعة القوانين واحترامها. وفي ظل مثل هذه الثقة، تزدهر التجارة، وتثرى البلاد، وينعم الناس بهدوء البال، والحرية في القول والعمل.

وكل الناس عند السوفسطائيين سواسية أمام القانون. فالمساواة هي العروة الوثقى بين الناس، تربط الصديق بالصديق، والمدينة بالمدينة، والحليف بالحليف. فعند بروتاغوراس المساواة بين الناس عدل، والعدل هو أساس النظام في المدينة، وهو الذي يخلق روابط الصداقة والوحدة. ويؤكد المشرعون على معنى الصداقة وأهميته في المدينة

باعتباره أساس العدل، ذلك لأن الأصدقاء يراعون العدل مع بعضهم، من المستبعد أن ينشأ الظلم بين الأصدقاء. فالعدل والصداقة عند السوفسطائيين شيء واحد.

ومن العدل أن تتوزع الثروة بقدر متساو بين الناس. فينادي السوفسطائيون في القرن الخامس قبل الميلاد بإعادة توزيع الثروة، لأن تضخم الثروات في أيدي قلة من الناس هو أصل البلاء، وأهم دوافع الإجرام. وكانت اليونان قديماً تعتبر الثروة عطاءً إلهياً، وأننا مكلفون برعايتها، والحفاظ عليها، وتنميتها، فهي وديعة إلهية لا نأخذها معنا عند الموت، وللآلهة أن يستردوها وقتما يريدون. ومادامت الثروة عطاءً إلهياً فليس لبشر أن يعترض على مشيئة الآلهة، أو على ثراء الأثرياء وفقر الفقراء.

أما مشكلة الرق فلم تحظ من السوفسطائيين سوى ببعض العطف على العبيد. وكل ما ورد عنهم على لسان أحد تلاميذ جورجياس أن الله خلق الناس أحراراً، ولم تجعل الطبيعة من الانسان عبداً. كانت العبيد في اليونان تقوم بالخدمة في المنازل، والعمل في المصانع والمناجم، وكان الأذكياء منهم يقومون بأعمال السكرتارية والصرافة. وكانوا يتمتعون في أثينا بحرية الكلام والملبس، ويصعب أن تميز بينهم وبين الأحرار في شوارع أثينا. ولكن يبقى بعد ذلك أن العبد يباع ويشترى.

هذه هي اهتمامات السوفسطائيين وتساؤلاتهم التي أثاروها في السياسة، ونظم الحكم، وفلسفة القوانين(١٢) .

أما في المعرفة فإن الفلسفة التي بدأها بارمنيدس وطورها أفلاطون قد لعبت دوراً هاماً في غرس الثقة المطلقة في قوى العقل الإنساني، تلك الثقة التي تقوم على أن العقل الانساني والإلهي متماثلان. لقد رفض بارمنيدس الادراك الحسي كلية. أما أفلاطون فلم ير في الادراك الحسي سوى أنه نقطة بدء يتركها العقل وراء ظهره فوراً. إن المعرفة تستحق أن تسمى معرفة لو كانت مطلقة وعامة Absolute and universal ، ولكي نصل إلى مثل تلك المعرفة، فلا بد من التعالي عن التجربة، مخترقين حجاب الادراك الحسي، وموغلين في الحقائق الكامنة في العقل كمون النار في الحجر. فالعقل ملكة فطرية، ونور داخلي، وهو كاف بذاته، بمعنى أن الحدس العقلي يمكن أن يعطينا، ويوفر لنا فهماً دقيقاً للحقائق الكونية.

ولقد ظلت أفكار أفلاطون في المعرفة مهيمنة على العقل البشري إلى أن جاء فرنسيس بيكون وأدار دفة المعرفة إلى اتجاه آخر. فبيكون يعد بحق هو المؤسس الحقيقي للطرق التجريبية، وللفكر التجريبي. وهو على وعي تماماً بالتيارين المتعارضين في المعرفة: التجريبي والعقلي. والتعارض بينهما مثل التعارض الذي كان قائماً من قبل في العالم اليوناني بين ديموقريطس الذي يمثل الفلسفة التجريبية، وبين أفلاطون الذي يمثل الفلسفة المثالية.

كان ديموقريطس يرى أن العالم بكل ما فيه من أجسام وأنفس وآلهة يتألف من ذرات مادية، وأن الكل يخضع للقانون العام، أي للفساد بعد الكون، واستئناف الدور، على حسب ضرورة مطلقة، ناشئة من المقاومة والحركة والتصادم دون أية غاية. وليس هناك أي قوة خارجة عن العالم المادي تتدخل في شئون العالم وقوانينه. والمعرفة الحقة في العقل، ولكن العقل خاضع تماماً لمعطيات الحس والتجربة.

وقد تبنى السوفسطائيون وعلى رأسهم بروتاغوراس صديق ديموقريطس هذه الآراء التي تصدى لها وعارضها أفلاطون وأرسطو.

والخلاف بين المثالية الأفلاطونية والتجريبية السوفسطائية هو جوهر الصراع بين التيارين الموروثين في المعرفة عند اليونان.

إن العلم يقوم على افتراض مقولة أساسية، هي أن هناك حقيقة موجودة، وأنه يمكن اكتشاف تلك الحقيقة. ولكن أي ضمان عندنا لذلك الاعتقاد. فمعايير الصواب والخطأ، والحق والباطل، والخير والشر تختلف من شخص إلى شخص ومن بلد إلى بلد، وتتغير من لحظة إلى أخرى.

إن المسألة التي شغلت بال السوفسطائيين هي طبيعة الحقيقة وعلاقتها بالظاهرات الحسية، أو بعبارة أخرى: العلاقة بين الحقيقة والظاهر. وقد ظلت هذه القضية هي الأساس المكين، لكل الفلسفات المتعارضة.

فمن جهة، لدينا مجموعة من الآراء المعقدة التي يمكن أن نوجز أساسها في مصطلحات مثل : الأمبيريقية Empiricism والوضعية Positivism ، والظاهرية

Phenomenalism ، والفرديـــة Individualism ، والنسبيـــة Relativisim والإنسانيــة Humanism .

فما يظهر لنا في الوجود يتغير من لحظة إلى أخرى، ومن شخص إلى آخر، وهؤلاء أنفسهم هم الذين يعبرون عن الحقيقة الوحيدة. وهذا الموقف في الأخلاق يعني أن الأخلاق مجموعة من القواعد الآنية العملية، لا شأن لها بقواعد عامة أو مبادىء دائمة. هذه القواعد الآنية العملية أو المبادئ يمكن أن تظل صحيحة لو كانت وحياً من عند الله، أو معتقدات دينية، ولكننا في هذه الحالة لا نستطيع مناقشتها بأدلة وضعية.

مثل هذه المسائل الآنية المتغيرة، يعارضها الاعتقاد في مبادئ عليا مطلقة، ودائمة، وغير متغيرة، ولا تخضع لأي تأثير حسي، أو إدراك حسي، أو أهواء فردية. ويمكن أن نستخدم في وصفها المصطلحات الآتية : مطلقة Absolute ، مثالية Ideal ، متعالية Transcendental . وهذا الاتجاه نجد أصوله في تعاليم سقراط، ولكنه ترعرع بعد ذلك في نظرية المثل عند أفلاطون.

أما الاتجاه الأول، أي الاتجاه الأمبيريقي أو الوضعي أو النسبي أو الانساني فقد لخصه بروتاغوراس بقوله المشهور: الانسان مقياس الأشياء جميعاً، مقياس النفع والضر، والخير والشر، والعدل والظلم، والحق والباطل.

وبعد، هل نعود مرة أخرى إلى كارل جويل لنقول معه إن التحول الفكري الذي قاده السوفسطائيون ليس إنحداراً، ولكنه قفزة إلى أعلى، فهم طموحون كالشباب، مقنعون، ثائرون في كل اتجاه، وأن بلاغة جورجياس السوفسطائي العظيم نهر متدفق، في عصر تجري فيه دماء شابة بحيوية وقوة كاسحة[١٣] .

أم نقف الآن مع الفلاسفة الذين أطلقوا على هذه الفترة، التي سادت فيها تلك الأفكار : عصر التنوير في اليونان: Enlightment in Greece ثم في أوروبا بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرناً، أي في القرن الثامن عشر، والتي بدأت في ألمانيا بفيلسوفها العظيم كنط الذي نحى الميتافيزيقا من مجال المعرفة الإنسانية، وعلق فعل العقل على ما يتلقاه من إمدادات حسية.

كانت مهمة الفلسفة إذن عند السوفسطائيين في القرن الخامس قبل الميلاد ثم عند كنط في العصر الحديث: هي التنوير. وقد عبرت فلسفة التنوير عن نفسها في اتجاهين:

أولاً : التصميم على الاعتقاد فقط في كل ما هو معقول، ومقبول فكرياً، ثم الميل نحو التوحيد بين العقل والتجربة وتقدم العلوم الطبيعية.

ثانياً : الاهتمام الحقيقي بالانسان، وإصلاح الحياة الإنسانية وتحسينها، والقضاء على العنف والضرر، وكل أشكال الاستغلال، وتأسيس حياة الإنسان على أسس إنسانية خالصة، نقية من كل شوائب الظلم والقهر والاستعباد، وأسس نسبية، لأن الأسس المطلقة تضمر سلطة فوقية هي أصل القهر، والعنف، وكل الشرور.

* * *

مراجع البحث ومصادره

أنظر :

1 - Popper, Sir K., The open Society and its Enemies, Vol. 1, 5th. ed,. London 1966.

2 - Havelock, E. A, The Liberal Temper in Greek Politics, London, 1957.

3 - Levinson, R. B., In Defence of Plato, Cambridge, Mass., 1953.

4 - Guthrie, W. K. C. A History of Greek Philosophy. Vol. 3, P. 49, Cambridge University press, 1975.

5 - Ibid, p. 49.

6 - Ibid, pp. 3-13.

7 - Ibid, pp. 14-26.

8 - Havelock, E.A., The Liberal Temper in Greek Plitics, pp. 15-29.

9 - Guthrie, pp. 27-34., Burnet, Greek Philosophy, pp. 107-110, macmillan, London, 1962.

10 - Ibid, pp. 27-34.

11 - Ibid, pp. 35-48.

12 - Ibid, pp. 55-79.

13 - Ibid, p. 49.

مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين
دراسة وتحليل

دكتور أحمد زكريا الشّلق
أستاذ مساعد بقسم التاريخ
جامعة عين شمس

- خلفية فكرية
- تحليل مضمون
- نظرة نقدية

-١-

يبدو جلياً أن من سمات العقل والفكر العربيين معاودة طرح مشكلات النهضة والتحديث بين الحين والآخر، حتى ما كان منها قد لقى اهتماماً، وربما حسماً، من جيل النهضة الأول، وكأنه ليس بمقدورنا أن نكمل من حيث انتهى ذلك الجيل، لنفرغ لمستجدات زماننا. وخير دليل على ما نقول قضية الهوية والانتماء الحضاري، التي على أساسها يكون التوجه، فقد شغلت هذه القضية المثقفين والمفكرين المصريين، منذ انفتحت أبواب مصر على معطيات الحضارة الحديثة في بداية القرن التاسع عشر، والتقى «الأنا بالآخر».. وها نحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين نعيد صرح القضية، كما أعادها طه حسين عام ١٩٣٨، وأن كنا نعيد طرحها هنا في أطار تاريخ الفكر المصري، لنحاول أن نتلمس إلى أي مدى تقدمنا أو توقفنا، حتى وأن بدونا كما لو كنا نناقش المسلمات.. مدخلنا إذن لقضية النهضة والمدنية مدخل تاريخي في مجاله الفكري.

وقضية التمدن والتحديث، والنموذج الذي نتمثل به ونحتذيه مازالت وستظل تؤرق الفكر طالما أن هناك معركة للنهضة، وطالما أن مشروعها قائم.. ومادتنا هنا بحكم

اشتغالنا بالتاريخ هي تراث الفكر في ماضينا.. وخطاب النهضة لايزال يتردد، بشتى تنويعاته، وخاصة عند منعطفات التاريخ وحوادثه الجسام. وعلينا أن نراجع تراثنا الثقافي، مراجعة نقدية متأملة، على ضوء العقل والمنهج العلمي الحديث.

وما هذه المقالة سوى مراجعة لاسهام «حالة خاصة» في مشروع النهضة، هي حالة طه حسين في خطابها الفكري المباشر والممثل في كتابه أو تقريره الهام «مستقبل الثقافة في مصر» الذي أصدره عام ١٩٣٨، متوجاً به مرحلة من حياته الفكرية قوامها ربع قرن من الزمان، أي منذ تخرج من الجامعة المصرية بأول دكتوراه تمنحها عام ١٩١٤. لقد كان طه حسين في تلك الفترة يكتب في الصحف، ويدرّس بالجامعة، ويلقي المحاضرات العامة ويؤلف الكتب، ليبلور تدريجياً خطوط مشروعه للنهضة، حتى استكمل عناصره نقطة نقطة، متواكباً مع محاولات مصر استكمال استقلالها خطوة خطوة منذ ثورة ١٩١٩ وحتي تحقيقها جزءاً من استقلالها الوطني بمعاهدة ١٩٣٦، وما إن وقعت هذه المعاهدة حتى كان طه حسين قد استكمل عناصر موضوعه - مشروع النهضة - في مجال خلق له بالدرجة الأولى وهو الثقافة والتعليم.

ولسنا نستطيع أن نفصل الكتاب عن كل ما فكر فيه طه حسين أو كتب عنه منذ اشتغل بشئون الفكر والثقافة والتعليم، كما لا يمكن فصل مشروع طه حسين ذاته، في مجاله، عن مشروع مصر لاستقلالها ونهضتها، وقد اعترف طه حسين نفسه بهذه الحقيقة وهو يقدم لكتابه «مستقبل الثقافة في مصر».

وثمة حقائق تبدو معروفة عن حياة طه حسين، لكننا لا نرى بأساً من الاشارة إليها لتكسب التحليل النهائي دلالاته، لأنها ساهمت في بنائه الفكري وتكوينه الثقافي، ووعيه بقضية النهضة، من هذه الحقائق تأثير الأزهر والثقافة الاسلامية التي تعلمها فيه خلال العقد الأول من هذا القرن (١٩٠٢-١٩١٠) سواء كان هذا التأثير بالسلب أو بالايجاب، فمن المعروف جيداً أن طه حسين درس الأدب العربي والبلاغة والنحو وجمع ذخيرته من ذلك خلال هذه السنوات. ومنها كذلك اتصاله ببيئة المثقفين ثقافة مدنية حديثة (المطربشين) واختلافه إلى ندواتها وكتابته في صحفها ودراسته على أيدي المستشرقين في الجامعة المصرية، ومنها كذلك إقباله على الثقافة الفرنسية بحماسة شديدة ودراسته

بجامعة السوربون ليعود بالدكتوراه منها عام ١٩١٩ ويشتغل أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني بالجامعة المصرية حتى عام ١٩٢٥، فأستاذاً للأدب العربي بها بعد ذلك. واهتمامه بالثقافة الكلاسيكية وبقادة الفكر الانساني يحمل مضمون توجهه نحو النهضة، التي تقتضي دراسة هذه الأصول جميعاً. ولم يكن طه حسين وحده في هذا المجال، فقد برز معه، خلال العشرينات جيل جديد، يتجاوز بأفكاره واسهاماته أفكار جيل الطهطاوي ثم جيل محمد عبده وأن استقى من نبعهما.. جيل برزت فيه أسماء الدكتور محمد حسين هيكل وسلامة موسى وعباس العقاد وعلي العقاد ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين ومنصور فهمي وإسماعيل مظهر وغيرهم لقد طرحوا جميعاً قضية تحديث مصر ونهضتها على بساط البحث وكان النموذج الأوروبي ماثلاً أمامهم، بدرجات متفاوته، وبرزت اتجاهات جديدة حول قضية الخلافة الاسلامية، وعلاقة الدين بالدولة بشكل عام وعلاقة الدين بالعلم والمدنيه الحديثة.. وجاءت الأطروحات الجديدة بمعالجات ومناهج غير مألوفة وبرؤى متقدمة بالنسبة لعصرها.

وكان إسهام طه حسين خلال العشرينات كبيراً، وكان تأثير ثقافته الفرنسية قد طغى، إلى حين، على ثقافة العربية الاسلامية، وأن لم يمحها، وبدا في نظر الكثيرين مستغرباً داعياً للغرب، وأحياناً عميلاً، حين دعا إلى فصل الدين عن العلم وقوانينه ونتائجه، وبتطبيقه مناهج أوربية لم تعتدها الثقافة العربية، بالرغم من أنه كان يعالج موضوعات من صميم تراث تلك الثقافة داعياً إلى الاجتهاد في بحوث الأدب باخضاعها لمناهج البحث التي تعلمها عن العقلانية الفرنسية، عن ديكارت وكونت ودوركايم وغيرهم...(١).

وقد قاده ذلك إلى الأزمة التي أثارها كتابه «في الشعر الجاهلي» عام ١٩٢٦ والتي هي في صميمها أزمة تطبيق منهج، بزغم الملابسات الدينية والسياسية، إنه يريد أن يمتحن كل شيء بالاستقراء وبالبراهين العقلية – لا النقلية – ولسنا هنا بصدد تحليل هذه الأزمة ولكن تكفي الاشارة إلى أنها كانت دفعة قوية نحو استكمال مشروع النهضة عنده، ولم يتراجع طه حسين إلا تراجعاً ظاهرياً، لأنه حذف الفصول التي اعتبرت مساساً بالدين وأضاف فصولاً جديدة تؤصّل المنهج وتدعمه، بل أكثر من هذا

نشر في نفس العام مجموعة مقالات بعنوان «بين العلم والدين» نادى فيها بفصلهما تماماً وأكد إيمانه بالتفكير العلمي المجرد ودعا إلى إستبعاد فكرة الحكومة الدينية، ورأى أن الوطنية لا تقوم إلا على أساس المنافع السياسية والاقتصادية وحدها ورأى كذلك أن مصر تسرع الخطى لتصبح جزءاً من أوربا[٢] .

وليس معنى ما سبق أن طه حسين قد انقطع عن جذوره أو أنه تخلى عن تراثه وإنما حاول معالجته على ضوء منهج البحث الحديث.. كما كانت مادته واهتماماته مزدوجة، فبينما كان يكتب ويترجم ويلخص مقالات لڤولتير ورينان وبول ڤاليري وأندريه جيد، كان في نفس الوقت يكتب عن المتنبي وأبو تمام وابن الرومي كما كتب عن حافظ وشوقي. وعندما اتجه معاصروه إلى معالجة الموضوعات الاسلامية خلال الثلاثينات، لم يجد طه حسين نفسه بعيداً عنهم فدخلت الموضوعات الدينية الصرفة (الاسلامية) دائرة اهتمامه، وشارك في الموجة بكتابه «على هامش السيرة» بالرغم من أنه خضع لنقد شديد في تناوله لسيرة الرسول[٣] ، واتهم بأنه لم يكن صادقاً فيما كتب وأنه لم يبتغ غير خدمة الأدب والفن.

إن طه حسين لم يتجه للتاريخ الاسلامي بصفته ماضياً فقط، وإنما كان منسجماً في هذا التوجه مع معادلة النهضة، أي أن الاسلام كان عنصراً أصيلاً في رؤية طه حسين للتطور، كل ما حدث أن الشعر لم يعد هو مادته وإنما التاريخ الاسلامي، أما المنهج فأمره مختلف أي أن طه حسين وأبناء جيله أرادوا تأصيل فكرة التراث الوطني لمصر باعتبار الاسلام عنصراً حاسماً في هذا التراث، ولكنهم جميعاً اتخذوا أدوات منهجية في معالجة المادة التراثية أقرب إلى العقلانية[٤] .

وعندما وقّعت مصر معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، ثم اتفاق مونترو عام ١٩٣٧ الخاص بإلغاء الامتيازات الأجنبية مع الدول الأوربية، اعتقد الكثيرون، ومنهم طه حسين، أن مصر تستقبل عهداً جديداً من حياتها إن كسبت فيه بعض الحقوق فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة. وقد دفعت هذه التطورات فريقاً من شباب الجامعة لأن يسألوا قادة الرأي في مصر عن واجب مصر بعد المعاهدة، وقد تحدث إليهم طه حسين ضمن من تحدثوا[٥] ، ولكنه لم يقنع بما قال واستقر في نفسه أن يكتب

بالتفصيل عن واجب مصر في الثقافة والتعليم حيث أن «واجبنا في ذات الثقافة والتعليم بعد الاستقلال أعظم خطراً وأشد تعقيداً مما تحدثت به»[٦] وجاء كتاب مستقبل الثقافة في مصر نتيجة لذلك. ولم يكن طه حسين وحده في هذا المجال وإنما صدرت كتب أخرى معاصرة هي أقرب إلى التقارير أو البرامج التي ترسم خطوط وتوجهات نهضة مصر في مرحلتها الجديدة، مرحلة ما بعد معاهدة عام ١٩٣٦ واتفاقية ١٩٣٧، ومن أشهر هذه الكتب كتاب مريت غالي «سياسة الغد» وكتاب حافظ عفيفي «على هامش السياسة» وكتاب محمد عبد الحميد مطر «التعليم والمتعطلون في مصر»، وكذلك كتاب محمد علي علوبة «مبادىء في السياسة» وكتاب إبراهيم بيومي مدكور ومريت غالي «الأداة الحكومية» وكلها صدرت بين عامي ١٩٣٨، ١٩٤٥.

ويدلنا طه حسين على سبب آخر لتأليفه هذا الكتاب يتمثل في أنه كان قد أوفد من قبل وزارة المعارف لتمثيلها في مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكري الذي عقد في باريس صيف العام السابق، كما انتدب لتمثيل الجامعة في مؤتمر التعليم العالي الذي عقد في باريس أيضاً في صيف ذلك العام أيضاً، وأنه لذلك أصبح واجباً عليه أن يقدم تقريرين، عن المؤتمرين إلى الوزارة والجامعة، ولكنه لم يفعل، وأسّر في نفسه أن ينجز ذلك خلال تأليف كتابه، ليحقق به هذين الهدفين معاً، فيتوجه بكتابه إلى الشباب، وإلى المسئولين كذلك، متضمناً آراءه وأفكاره حول مستقبل الثقافة والتعليم في مصر، والأهم من ذلك أن طه حسين رأها فرصة يستكمل بها خطوط رؤيته لمشروع نهضة مصر، ويستكمل بها رسالته التي أخذها على عاتقه. ولذلك فالكتاب ليس كتاباً علمياً أو تاريخياً بالمعنى المألوف، وإنما هو بيان مطول، وبرنامج مسهب يشخص الداء ويقترح الأدواء، ويرسم مستقبل الثقافة والتعليم لمصر المعاصرة، كأساس لنهضتها وتحديثها، في لغة خطاب فكري مباشر، واضح وجلي.

لقد بات واضحاً أن على مصر، أن تهتم بنوعية حياتها الوطنية، وقد قوم طه حسين هذه النوعية على ضوء مبادىء استمدها، إلى حد ما، من ابن خلدون، الذي درس فلسفته الاجتماعية، كما استمدها من مفكرين فرنسيين، أخصهم كونت ورينان ودركايم وأناتول فرانس وهي أن الحضارة غاية البشرية، وأن أوربا الحديثة قد سجلت لنفسها

أعلى مرحلة بلغها التطور الحضاري، حيث يتحقق التوازن المثالي، الذي يترك للعقل حريته في حكم العالم الاجتماعي واخضاع الطبيعة بتطبيق العلم، وسن الشرائع التي تستهدف السعادة البشرية، وإقامة حكومات تحترم القانون وتوفق بين المصالح.. وكانت أوربا تعني عنده ثلاثة أشياء: الحضارة الانسانية والفضائل المدنية والديمقراطية.. ورغم تجاهله للأفكار السياسية المخالفة التي كانت ألمانيا وإيطاليا تبشران بها في ذلك الحين (قبل عام ١٩٣٨ عام إصدار الكتاب) إلا أن أوربا كانت تمثل في نظره العالم الحديث(٧) ومن هنا كانت نقطة البداية في كتابه هذا: أين نحن من الحضارة الحديثة أو أين نحن من أوربا؟

ومن الملاحظ أنه خلال استفتاء قامت به مجلة الهلال عام ١٩٣١، كان محوره «حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟» كان رد طه حسين أنه إذا كان لابد أن يدلي برأي حول الخيارات المطروحة «فالمثل الأعلى، فيما اعتقد، هو أن نحتفظ من الحضارة المصرية القديمة بما يلائمنا وهو الفن، ومن الحضارة العربية بالدين واللغة، وأن نأخذ من الحضارة الأوربية بكل ما نحتاج إليه. وليس في هذا شر مادمنا نحتفظ بشخصيتنا المصرية فلا تفسد علينا هذه الحضارة الأوربية حياتنا على أننا أمة لها مقوماتها الخاصة» وأضاف بأن حياتنا الحديثة رهن الحضارة الأوربية وعليها تعويلنا في ما يمس الحياة المادية، سواء ما يتعلق بالنظم المتبعة في ميادين التجارة والصناعة والاقتصاد، أو ما يتعلق بالحياة اليومية. ونحن مرتهنون بهذه الحضارة نفسها في ما يخص حياتنا العقلية «فأنت مكره الآن على أن تفكر كما يفكر الأوربيون، لا كما كان يفكر المصريون القدماء ولا كما كان يفكر العرب»(٨).

إن طه حسين إذن لم يبدأ تنظيم أفكاره في كتابه مستقبل الثقافة في مصر «من فراغ، وإنما باستجماع أفكاره السابقة والتي انتشرت في مؤلفاته الهامة خلال العشرينيات والثلاثينيات، وتطويرها في كتابه الجديد، لتخرج في نسيج فكري متكامل، يحدد المنطلقات ويقدم رؤيته للتحديث. ونود أن نشير إلى أن الكتاب يحتوي على قسمين أساسيين من ناحية موضوعاته أولهما يتناول قضية الهوية والانتماء والتوجه الحضاري، وثانيهما يتناول قضايا التعليم والثقافة في مصر.

-٢-

(أ) قضية الانتماء والتوجه الحضاري :

يبدأ طه حسين بعبارة على قدر كبير من الأهمية ربما لم يعبأ بها نقاده، يذكر فيها «أريد لكل مصري مثقف محب لوطنه، حريص على كرامته ألا نلقي الأوربي فنشعر بأن بيننا وبينه من الفروق ما يبيح له الاستعلاء علينا والاستخفاف بنا وما يضطرنا إلى أن نزدري أنفسنا ونعترف بأنه لا يظلمنا فيما يظهر من الاستطالة والاستعلاء(٩) وواضح من العبارة أنه يريد لمصر والمصريين أن يكونوا أنداداً للأوربيين شركاء له في الحضارة الانسانية، وقد قاده ذلك بطبيعة الحال إلى مناقشة قضية هوية مصر الثقافية، وانتماؤها وتوجهها الحضاري، كضرورة أولية، قبل طرح أفكاره الأساسية.

بدأ طه حسين بأن طرح سؤاله : أمصر من الشرق أم من الغرب؟ وأوضح أنه لا يقصد بالطبع الشرق الجغرافي والغرب الجغرافي، وإنما يقصد الشرق الثقافي والغرب الثقافي.. ثم يوضح تساؤله على نحو آخر فيتساءل : هل العقل المصري شرقي التصور والادراك والفهم والحكم على الأشياء، أم هو غربي التصور والادراك والفهم والحكم على الأشياء؟ ومن الجلي أنه كان يقصد بالشرق هنا، ليس الشرق العربي القريب (أو الأوسط) وإنما يقصد الشرق البعيد (الأقصى) لأنه تساءل: أيهما أيسر على العقل المصري: أن يفهم الرجل الصيني أو الياباني، أو أن يفهم الفرنسي أو الانجليزي؟ تلك هي القضية الأولى التي أراد أن يحسمها قبل أن يوضح الأسس التي ينبغي لمصر أن تقيم عليها ثقافتها وتعليمها(١٠) .

وحتى يجيب على هذه التساؤلات راح يستقرئ التاريخ، تاريخ العقل المصري، ليحاول إثبات عدة حقائق:

أولها : أننا لا نعرف أن هناك صلات بيننا وبين الشرق البعيد، مستمرة ومنتظمة تؤثر في تفكيرنا أو نظمنا.

وثانيها : أن الصلة بين المصريين القدماء والبلاد الشرقية لم تجاوز الشرق القريب (الشام والعراق) أي الشرق الواقع في حوض البحر المتوسط..

وثالثها : أن علاقات مصر كانت حقيقية مع حضارة اليونان في عصور ازدهارها منذ القرن السادس قبل المسيح إلى أيام الاسكندر(١١) .

وقد رتب طه حسين على ذلك حقيقتان أولهما : أن العقل المصري اتصل بالشرق القريب اتصالاً مؤثراً ومتأثراً، كما اتصل بالعقل اليوناني منذ عصوره الأولى اتصال تعاون وتبادل للمنافع في الفن والسياسة والاقتصاد. وثانيهما: أن العقل المصري منذ عصوره الأولى إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر المتوسط، وأن تبادل المنافع فإنما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسط ثم يفصّل طه حسين الحديث عن علاقة مصر ببلاد اليونان، وما كتبه اليونانيون عن مصر وتأثيرها في حضارتهم، ليؤكد على أنه عندما يجب أن نلتمس المؤثر الأساسي في تكوين الحضارة المصرية والعقل المصري، فلابد أن نفكر في البحر المتوسط، وفي الظروف التي أحاطت به، والأمم التي عاشت حوله. ثم يضيف: إن المصريين يرون أنفسهم شرقيون وأنهم لا يفهمون من الشرق معناه الجغرافي وحده، بل معناه العقلي والثقافي، فهم يرون أنفسهم أقرب إلى الهندي والصيني والياباني منهم إلى اليوناني والايطالي والفرنسي(١٢) .

وكان طه حسين يقصد بذلك دعوة جماعة «الرابطة الشرقية» التي كانت تنادي بالتضامن مع أهل الشرق الأقصى في مواجهة كل ما هو غربي، وكانت هذه الرابطة قد تأسست في أواخر العشرينيات، وقد ترأسها السيد عبد الحميد البكري وكانت في نظر البعض بديلاً عن الجامعة الاسلامية، ولم يقدر لاتجاهها أن يستمر(١٣) .

ومن المهم أن نلاحظ أن طه حسين قد ميّز بشكل واضح بين شرق أقصى بعيد، وشرق أدنى قريب، وهو ما لم يلتفت إليه نقاده حين ذكر أحدهم، وهو الاستاذ سيد قطب أن الدكتور قد قسم الدنيا إلى قسمين لا ثالث لهما: قسم تمثله الصين واليابان والهند وإندونيسيا، وقسم تمثله فرنسا وإنجلترا، أو كل دول أوربا وأمريكا(١٤) لأن طه حسين قد تحدث عن وجود الشرق الأدني (يقصد العربي) وأن لم يسمه باسمه فذكر بوضوح «أنا أفهم أن نشعر بالقرابة المؤكدة بيننا وبين الشرق الأدنى لا لاتحاد اللغة والدين فحسب بل للجوار الجغرافي، وتقارب النشأة والتطور التاريخي، أما أن نتجاوز هذا الشرق القريب إلى ما وراءه فلا أفهم أن يقوم الأمر فيه على الوحدة العقلية أو على

التقارب التاريخي..»[15] فقرابة مصر للشرق الأدني أو القريب مؤكدة عنده لامراء فيها لكنه لا ينظر إلى هذا الشرق من زاوية أنه شرق عربي إسلامي، وإنما طبقاً لنظريته أي باعتباره هذا الشرق القريب الذي يقع في حوض البحر المتوسط»[16] فيلحق بذلك الشرق العربي هو الآخر بعالم البحر المتوسط!

وينتقل طه حسين إلى نقطة أخرى يتحدث فيها عن مكونات الوحدة السياسية أو عناصر القومية، فيستبعد وحدة الدين ووحدة اللغة، كمقومين من مقومات تكوين الدول ويذكر أن المسلمين أنفسهم، منذ عهد بعيد، عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساساً للملك وقواماً للدولة.. وأن المسلمين أقاموا سياستهم علي المنافع وحدها وأنه لم يأت القرن الرابع للهجرة، حتى قام العالم الاسلامي بقيام الدولة الاسلامية، وظهرت القوميات وانتشرت في البلاد الاسلامية دول كثيرة، يقوم بعضها على المنافع الاقتصادية والوحدات الجغرافية ويقوم بعضها الآخر على ألوان أخرى من المنافع ويضيف أن السياسة شيء والدين شيء آخر.. وأن هذا هو التصور الذي تقوم عليه الحياة في أوربا، التي تخففت من أعباء العصور الوسطى، وأقامت سياستها على المنافع الزمانية، لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس[17] وبذلك يرى طه حسين بما لا لبس فيه، أن عوامل الدين واللغة والجنس والتي سبق أن نظر إليها بعين الاعتبار عند حديثه عن الشرق «الأدنى أو القريب» لا تشكل أسساً لتكوين الدول في العصر الحديث وإن استمد فكرته من نظرة خاصة لتاريخ الاسلام، قبل أن يؤكد أن هذا هو ما تقوم عليه الحياة الحديثة في أوربا التي أقامت سياستها على المنافع الزمانية لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس.

ثم يعود طه حسين ليؤكد فكرة اتصال مصر بالحضارة اليونانية، حتى أصبحت دولة يونانية أو كاليونانية، وأنه عندما جاء الاسلام إليها، تلقته لقاء حسناً واتخذته ديناً واتخذت لغته العربية لغة لها، ويتساءل: فهل جعلها هذا أمة شرقية؟ كلا... ثم أضاف قياساً آخر ليؤكد النفي، وهو أن المسيحية لا تعدُ أن تكون عنصراً من عناصر العقل الأوربي[18] ومن الواضح أن التساؤل هنا لا ضرورة له في الأصل لأنه ليس ثمة افتراض بأن الاسلام جعل مصر أمة شرقية ومن ثم فإن القياس الذي أورده بشأن

المسيحية وأوربا لا أهمية له.

ومن الملاحظ كذلك أن طه حسين يرى أن قوام الحياة العقلية في أوربا إنما هو اتصالها بالشرق عن طريق البحر المتوسط «فما بال هذا البحر ينشئ في الغرب عقلاً ممتازاً متفوقاً، ويترك الشرق بلا عقل أو ينشئ فيه عقلاً منحطاً ضعيفاً؟ وكأن عامل البحر هو الذي «ينشئ» ثم يستنتج في النهاية أنه ليست بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم وتأثرت به فروق عقلية وثقافية، وإنما هي ظروف السياسة والاقتصاد، تدور بين هذه الشعوب مواتية هذا الفريق ومعادية ذلك الفريق فلا ينبغي أن يفهم المصري أن بينه وبين الأوربي فرقاً عقلياً قوياً أو ضعيفاً (١٩) .

ينتقل طه حسين بعد المقدمات السابقة إلى نقطة أخرى يثبت من خلالها أن نهضة مصر منذ أوائل القرن الماضي لا خلاف في أنها تأخذ بأسباب الحياة الحديثة، على نحو ما يأخذ بها الأوربيون في غير تردد ولا اضطراب ويضيف «إن حياتنا المادية أوربية خالصة والمثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي.. نفعل ذلك عن علم به وتعمد له.. ثم تجاوزنا ذلك إلى جميع الانحاء التي يحيا عليها الأوربيون فاصطنعناها لأنفسنا، غير متخيرين ولا محتاطين، لا مميزين بين ما يحسن منها وما لا يحسن وما يلائم منها وما لا يلائم»(٢٠) معنى ذلك أنه يرى واقعنا يسير في تقليد الأوربيين حتى فيما يلائمنا وما لا يلائمنا مما يوحي بأن له موقفاً انتقائياً، يرى أن ثمة ما يلائم وما لا يلائم، وأننا في تقليدنا ينبغي أن نميز ونحتاط ونتخيّر.

وقد راح طه حسين يضرب أمثلة على أخذ مصر بالنظم والتشريعات الأوربية في نهضتها الحديثة فيذكر أن التشريع بالقوانين المدنية أخذ عن النظم الأوربية، كما أن النظم المالية والادارية والاقتصادية نقلت عن الأوربين، وأنه بالرغم من استبقاء بعض النظم القديمة لأنها تتصل بالدين فإن كل شيء يدل على أننا نريد أن نتصل بأوربا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم نصبح جزءاً منها لفظاً ومعني ثم ينتقل إلى التعليم فيذكر أننا أقمنا صروحة ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي على النحو الأوربي الخالص.. كما أننا نكون أبناءنا في مدارسنا تكويناً أوربياً لا تشوبه شائبة..(٢١) .

ومن الملاحظ أن طه حسين يؤكد على فكرة أن توقيع معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات، يعتبر التزاماً صريحاً بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والادارة والتشريع معتقداً، بكثير من المبالغة، أن ثمة التزاماً صريحاً قاطعاً « بينما الأمر لا يعد، خاصة فيما يتعلق باتفاق مونترو عام ١٩٣٧، أن مصر بما تتخذه من تشريعات وقوانين ستكفل حقوق الأجانب على أراضيها»[٢٢] .

وقد علل طه حسين الفارق بيننا وبين الأوربيين بأنه فارق الزمان ليس غير، فهم قد بدأوا حياتهم الحديثة في القرن الخامس عشر، وأخرنا الترك العثمانيون فبدأنا حياتنا في القرن التاسع عشر، وبذلك يلقي بمسئولية إنقطاع اتصالنا بأوربا ونهضتها على فترة الحكم العثماني بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، ثم يضيف بأن السبيل إلى اجتياز الهوة بيننا وبين الأوربيين هي أن نسير سيرتهم، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً وشركاء في الحضارة، خيرها وشرها حلوها ومرها. لقد كان في وعيه إذن مسألة الندية والمشاركة في الحضارة، وهو ما لم يلق اهتماماً من نقاده، بينما أكد على هذا المعني في أكثر من موضع خاصة عندما يضيف : «نحن نريد أن نضارع الأمم الأوربية في قوتها الحربية لنرد عن أنفسنا المغير ولنقول لأصدقائنا الانجليز بعد أعوام: انصرفوا مشكورين فقد أصبحنا قادرين على حماية القناة.. نريد أن نكون شركاءه (الأوربي) في الحياة وأعوانه عليها لا خدمة ووسائله إلى هذه الحياة»[٢٣] .

ومن الملاحظ كذلك أنه تجاوز فكرة البحر المتوسط وحضارته، وأصبح يستخدم مصطلح حضارة «أوربا وأمريكا» ويقرن بينهما في النموذج الذي ينبغي أن يحتذي من جانب المصريين، فتخطى العامل الجغرافي العقلي، الذي ركز عليه في البداية، وجعل يستخدم الغرب على إطلاقه[٢٤] .

ولأن طه حسين يعلم سلفاً ما ستثيره هذه الأفكار من اعتراضات ومخاوف، فقد أخذ على عاتقه الرد عليها، وأول هذه المخاوف أن الاتصال بالحياة الأوربية على مافيها من آثام وموبقات، مما لا يبيحه ديننا، خليق بأن يغري بما فيها من إثم، ويرد على ذلك بأن الحياة الأوربية ليست إثماً كلها، وأن الاثم الخالص لا يمكن من الرقي، وأن حياتنا الحاضرة وحياتنا الماضية ليست خيراً كلها، وإن الخير الخالص لا يدفع إلى

الانحطاط.. ثم يضيف «نحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم.. ندعو إلى الاتصال بأوربا والأخذ بأسباب الرقي التي أخذوا بها، لا ندعو إلى أن نكون صوراً طبق الأصل للأوربيين فذلك شيء لا يدعو إليه عاقل.. ليس على حياتنا الدينية بأس من الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية، فقد أخذ المسلمون في قوة بأسباب حضارة الروم والفرس.. أنا لا أدعو إلى شيء عملي وإنما أدعو إلى شيء نفسي، فمن السخف أن ندعو إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية وقد دخل الراديو إلى الأزهر الشريف.

وثانية هذه المخاوف تتعلق بالخشية على شخصيتنا القومية وعلى ما ورثناه، وأنا لا أدعو إلى أن ننكر أنفسنا أو نجحد ماضينا ولا أن نفني في الأوربيين، كيف يستقيم ذلك وأنا إنما أدعو إلى أن نثبت لأوربا ونحفظ استقلالنا من عدوانها وطغيانها.. إنما تتعرض مصر للفناء إذا عجزت عن أن نقاوم أوربا بسلاحها وتجاهدها بما تعرف من وسائل الجهاد. وثالثة هذه المخاوف أنه قد يقال أن الحضارة الأوربية مسرفة في المادية لا تتصل بالروح، وأن أوربا قد زهدت في حضارتها وأن جماعة من علمائها وفلاسفتها أخذوا يرغبون عنها ويلتمسون لعقولهم وقلوبهم غذاء في روحانية الشرق.. ونقول أنه من السخف أن يقال أن الحضارة الأوربية قليلة الحظ من المعاني السامية التي تغذو الأرواح والقلوب، إن هذه الحضارة نتيجة العقل والخيال والروح الخصب المنتج.. وما أعرف أن للشرق القريب هذا روحاً يميزه عن أوربا ويتيح له التفوق عليها.. إن شرقنا القريب هو مهد العقل الذي يزدهر في أوربا(٢٥) .

(ب) قضايا التعليم والثقافة

وسوف نعرض لأهم القضايا التي أثارها في كتابه، بعد قضية الهوية والانتماء والتوجه الحضاري فمن الملاحظ أنه عرض خلال الجزء الأكبر من كتابه الكثير من القضايا المتعلقة بالتعليم ونظمه، وسياساته ومؤسساته، والكثير من الموضوعات ذات الطابع الفني البحت مما تحفل به الهيئات التنفيذية الفنية، فأطلق لنفسه العنان وراح يبدي آراء إصلاحية على درجة من الأهمية.. وسنركز هنا على الموضوعات المتصلة بسياسة التعليم وفلسفته، وهي الموضوعات التي حملت آراء ووجهات نظر هامة لطه

حسين، وهي آراء لا تبدو بعيدة عن واقعنا الآن.

١ - مسألة التعليم الأجنبي في مصر :

وهو التعليم الذي قام مستظلاً بالامتيازات الأجنبية غير حافل بالدولة ولا خاضع لسلطانها، ولا معنى إلا نشر ثقافة البلاد التي جاء منها، وتكوين التلاميذ المصريين على نحو أجنبي خالص، فيضرب أمثلة لأنواع هذا التعليم، الذي لا يحفل بمصر ولا يفكر فيها، ويدفع المصريون أبناءهم إليه عن رضى واختيار ويطالب بأن تشرف الدولة عليه، وأن يعلم التاريخ القومي والجغرافية المصرية، وكذلك الدين القومي «فنحن من غير شك نعتمد على أن الدين مقوم خطير من مقومات الوطنية المصرية فيجب أن يشترك المصريون جميعاً في هذا الجزء الأساسي من أجزاء التعليم «وكان طه حسين في مناسبة أخرى سابقة قد ذكر أن المسلمين قد عدلوا منذ عهد بعيد عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساساً للملك وقواماً للدولة»، لقد كانت المناسبة الأولى الحديث عن المنافع في علاقات الدول وتوجهاتها، بينما هو في المناسبة الأخيرة يتحدث الخشية على الشخصية الوطنية ومقوماتها ويعبر عن حرصه على السيادة الوطنية، وباختصار شديد طالب الدولة بأن تشرف على هذه المدارس وأن تكفل لأبنائها التعليم الصحيح للغة القومية والدين القومي «فالدين مقوم من مقومات الشخصية المصرية وأنا مؤمن فيما بيني وبين نفسي أشد الايمان»(٢٦) .

٢ - ديمقراطية التعليم ومجانيته :

وبخصوصها يذكر طه حسين أن الدولة الديمقراطية ملزمة بنشر التعليم الأولي، ليكون وسيلة في يد الأفراد ليستطيعوا أن يعيشوا، ولتكوين الوحدة الوطنية واشعار الأمة حقها في الوجود المستقل الحر، وأضاف أن الدستور فرض ذلك على الدولة، وأن تقصيرها في ذلك إثم في حق الدستور، والحرية لا تستقيم مع الجهل، كما أنه من المضحك أن يقال أن الشعب مصدر السلطات في بلد كثرته جاهلة غافلة، ورأى كذلك أن الديمقراطية الصحيحة إذا فرضت المساواة بين أبناء الشعب في الحقوق والواجبات فهي لا تقبل أن يفرق بينهم في حرية التعليم.

أما بخصوص المجانية فقد تحدث عن التعليم العام، الذي يلي التعليم الأولي، والذي يفضي إلى التعليم الجامعي أو الفني العالي، باعتبار أنه يكلف الدولة نفقات لا تستطيع أن تنهض بها وحدها، كما أنه ليس إلزامياً، ومن ثم لا يقوم مجاناً، وإنما يقتصر على الذين يستطيعون أن يؤدوا أجره من الطبقات الوسطى والفنية، ولأن من حق الفقراء أن يتعلموا وأن يطمحوا إلى التعليم العام والعالي لتحقيق الديمقراطية، فلابد أن تأخذ الدولة من القادرين أجر التعليم وأن تحط ثقله عن العاجزين، فينظم قبول أبناء هؤلاء ولا يقبل منهم إلا من يثبت استعدادهم الجيد للانتفاع بهذا التعليم، وذلك بإجراء المسابقات الدقيقة المبرأة من العبث والمحاباة ثم يشيد طه حسين - بعد أن كان قد كتب هذا الجزء من حديثه - (في أحد الهوامش) بموافقة البرلمان على طلب نجيب الهلالي بجعل التعليم الابتدائي كله مجاناً، ويعلق بأن ذلك يدل على الرقي، وأنه سوف يشمل التعليم الثانوي ليصبح التعليم كله بالمجان[٢٧] .

٣ - تعليم اللغات الأجنبية :

لقد اقترح طه حسين إرجاء تعليم اللغات الأجنبية إلى مرحلة ما بعد المدرسة الابتدائية، ورأى أن التعليم الابتدائي يجب أن يخلص للثقافة الوطنية وحدها «فنحن نشكو من أن تلاميذنا لا يحسنون لغتهم العربية، وسبب العلة أن التلميذ لا يكاد يدخل المدرسة حتى تتلقفه اللغة الأجنبية، فتستغرق من وقته وجهده ونشاطه ما هو خليق أن ينفق في تعليم اللغة العربية.. فلا نشغله بلغة أجنبية لا يحتاج إليها الآن، ويستطيع أن يتعلمها ويتعمقها حين ينمو عقله وجسمه وملكاته ورأى كذلك أن حاجتنا إلى اللغات الأجنبية لا ينبغي أن تكون مقصورة على الانجليزية والفرنسية، وأن لا نستمد الثقافة إلا منها وطالب وزارة المعارف أن تلغي هذا الاحتكار «فإننا إذا فرضنا على أجيالنا الناشئة ثقافة بعينها، صُغناهم على مثال أصحاب هذه الثقافة، فجعلناهم معرضين للفناء فيهم والانقياد لهم» ويقترح طه حسين تخيير الطالب بين هاتين اللغتين بالاضافة إلى اللغات الايطالية والألمانية والروسية. وطبقاً لأفكاره حول دراسة أصول النهضة أبدئ اهتماماً كبيراً بتعليم اللغتين اليونانية واللاتينية، لا في الجامعة وحدها، بل في التعليم العام قبل كل شيء، معللاً ذلك بأن مصر خضعت للسلطان اليوناني والروماني

وما نشأ عنهما من النظم عشرة قرون لا نستطيع أن نلغيها من تاريخنا الوطني «ومعارضة تعليم هاتين اللغتين معناه القضاء على المصريين بأن يجهلوا تاريخهم وألا يعرفوه إلا عن طريق الأجانب»(٢٨) .

٤ - أما بالنسبة لتعليم اللغة العربية :

فقد ذكر طه حسين أن هذه اللغة قد أصبحت إن لم تكن أجنبية فهي قريبة من الأجنبية، وأن الأزهر أقل المعاهد والبيئات اصطناعاً لها وسيطرة عليها، وطالب بالتشديد على المعلمين في أن يصطنعوا اللغة الفصحى فيما يلقون على تلاميذهم، ثم أوضح ضرورة أن يكون الغرض من الكتابة الابانة والتجلية، لا الالغاز والتعمية، فلا بد أن تكون الكتابة تصويراً صادقاً للنطق، لا أن تصور بعضه وتلغي بعضه وأضاف «أحب أن يعلم المحافظون أني قاومت وسأقاوم أشد المقاومة دعوة الداعين إلى اصطناع الحروف اللاتينية لأسباب لا أطيل بتفصيلها الآن، ولكن هذه المقاومة لن تغني شيئاً إذا لم نسرع إلى اصلاح الكتابة لنبطل هذه الدعوة من أساسها»(٢٩) .

٥ - تطوير التعليم بالأزهر :

شغلت هذه القضية حيزاً كبيراً في تفكير طه حسين، وقد ذكر في البداية أن من الخير للأزهر أن لا يكون حرباً علي الحياة الحديثة، وإنما الواجب أن يكون ملطفاً لها مخففاً لأثقالها، ملائماً بينها وبين ما يأمر به الله من الخير والمعروف مباعداً بينها وبين ما ينهي عنه من الشر والمنكر، وذلك لا يكون إلا إذا عرف رجال الدين حياة الناس كما يحيونها واتقنوا العلوم بأسرارها ومشكلاتها «وسبيل ذلك أن يتثقف الأزهر بالحياة الحديثة كما يتثقف بها غيره من المعاهد، وأن يمتاز بما لا تمتاز به من الثقافة الدينية الخالصة.. إن طبيعة الحياة ستصوغ الأجيال الناشئة والمقبلة صبغة حديثة أوربية، فلابد أن يجاري الأزهر هذا التطور ليكون اتصاله بالأجيال الناشئة والمقبلة أجدى وأقوى.. فالاسلام دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها.. ولا ينبغي أن تكون محافظة الأزهر علي القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث»...

ثم يهاجم طه حسين فكرة إنشاء الأزهر لدرجات جامعية على غرار ما تنشئ الدولة

فينتج عن ذلك نظام ثنائي غريب في التعليم وفي اجازاته، ويرى أن يمتاز الأزهر بالتعليم الديني علمياً وعملياً للنهوض بالأعباء الدينية التي تحتاج إليها الحياة العامة من جهة، وللتفرغ للبحث العلمي الخالص في شئون الدين من جهة أخرى «فأما إذا أراد الأزهر أن يشارك شبابه في غير هذه المناصب الدينية فحقه لا جدال فيه، ولكن ينبغي أن يسلكوا إلى هذه الاعباء طرقها الطبيعية وأن يتعلموا في معاهد الدولة المدنية ويظفروا باجازاتها.. ذلك أحرى أن يلغي هذا النظام الثنائي الغريب وأن يحقق الوحدة العقلية في مصر» وقد طالب طه حسين بأن تفتح أبواب الجامعة والمعاهد العالية للأزهريين كما تفتح أبواب الأزهر للجامعيين، فيومئذ تمتزج الثقافة الدينية بالثقافة المدنية امتزاجاً حسناً مفيداً، ويومئذ تفتح أبواب الأزهر ونوافذه للهواء الطلق والنور المشرق، ويلتقي العلم والدين لقاء حسناً لا يتيح لمصر والمسلمين إلا خيراً (٣٠) .

٦ - الترجمة والنقل عن اللغات الأوربية :

وقد أقر طه حسين في البداية أننا أقل الأمم حظاً من الترجمة، ومصدر ذلك أننا نجهل كثيراً من اللغات الأوربية، وأن الذين يعرفون قليلاً من هذه اللغات لا يكادون يعرفونها معرفة حسنة وأن الذين يحسنون هذه اللغات لا يكادون يقرأون ما يذاع فيها من علم وأدب، أما الكثرة فهي تجهل اللغات الأوربية جهلاً تماماً ولا تجد من التراجم ما يضع عنها إصر هذا الجهل، فتزدري أوربا وحضارتها، ومن يعجبون بحضارتها. ويربط بين التأليف والترجمة فيذكر أننا لن نؤلف التأليف الذي يرضى حاجتنا إلى العلم والأدب إلا إذا ترجمنا وأكثرنا من الترجمة فذلك حريٌ أن يمنحنا ما نقرأ أولاً وأن يدفع كثيراً من الشباب إلى التقليد والمحاكاة، وقد فرغ الناس من إثبات أن التقليد عنصر من أرقى عناصر الحياة العقلية وأقواها. واقترح بأن تنشئ الدولة مكتباً للترجمة لينهض بنقل الآثار الأدبية والعلمية والفلسفية الخالدة التي أصبحت تراثاً للانسانية كلها والتي لا يجوز للغة حية أن تخلو منها، وذلك لاغناء اللغة نفسها ومنحها ما تحتاج إليه من المرونة، ولارضاء الكرامة القومية(٣١) .

٧ - خصائص الثقافة المصرية :

ويحاول طه حسين تشخيص مميزات هذه الثقافة بعد أن يتساءل: هل هناك ثقافة مصرية؟ فيجيب بأنها موجودة بخصالها وأوصافها التي تنفرد بها عن غيرها من الثقافات، وأول هذه الصفات أنها تقوم على وحدتنا الوطنية، وتتصل اتصالاً قوياً عميقاً بنفوسنا المصرية الحديثة، كما تتصل اتصالاً قوياً عميقاً بنفوسنا المصرية القديمة أيضاً، تتصل بوجودنا المصري في حاضره وماضيه.. فليست الثقافة وطنية خالصة ولا انسانية خالصة، ولكنها وطنية وانسانية معاً.

ثم يحلل طه حسين عناصر الثقافة المصرية فيذكر أنها التراث المصري القديم، وهي التراث العربي الاسلامي، وهي ما كسبته وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت الحياة الأوربية الحديثة.. هي هذه العناصر المختلفة المتناقضة فيما بينها تلتقي في مصر فيصفّي بعضها بعضاً ويهذب بعضها بعضاً، وينفي بعضها من بعض ما لا بد من نفيه من الشوائب التي لا تلائم النفس المصرية، ثم يتكون منها هذا المزاج النقي الرائق، الذي يورثه الآباء للأبناء وينقله المعلمون إلى المتعلمين فالعلم لا وطن له، ولكنه إذا استقر في وطن من الأوطان، تأثر باقليمه وبيئته ليستطيع أن يتصل بنفوس ساكنيه[٣٢] .

—٣—

لقد أثار هذا الكتاب خلافاً حول تفسير الآراء التي تضمنها، فكانت ردود فعله متباينة، فاحتفى به دعاة الفكر التحرري (اللبرالي)، والمؤمنين بضرورة اقتباس نظم وأفكار الغرب وحضارته ورأوا فيه حججاً تؤكد صدق دعواهم خاصة وقد استطاع طه حسين أن يستقرئ التاريخ، بمعنى من المعاني، ليثبت أن نهضة مصر وتقدمها أمر مرهون بتوجهها - كما كان في الماضي - نحو أوربا وعالم البحر المتوسط، حيث الحضارة بلغت أرقى صورها، وأصبحت هي النموذج والمثال.

كما رأى فيه بعضهم تطوراً نحو العلمانية في فهم القومية من جانب طه حسين، وأنه حتى لا يتهم بتنكره لهويته المصرية المسلمة، ذهب إلى أن الاسلام من مقومات

الفكر الأوربي، وأن مصر المسلمة تعد أصلاً من أصول الحضارة الأوربية، وأن باستطاعتها أن تقتبس أسس المدنية الأوربية بغير حاجة لاقتباس دينها[٣٣] . كما رأى البعض الآخر في هذا الكتاب آخر صوت في الثقافة العربية يطرح الثقة بالحضارة الأوربية، يدعو إلى قبولها بجرأة وانفتاح قبل أن تقضي «الردة» العربية الاسلامية ضد أوربا على اتجاه التغريب العلماني الصريح[٣٤] .

هذا بينما لقى الكتاب معارضة شديدة من جانب المحافظين ودعاة السلفية، وقد رد عليه الشيخ حسن البنا متسائلاً: إذا كنت تريد تقليد الأوربيين في الدعوة إلى العلم والخلق وإلى النظام، أفترى أن الاسلام لم يأمر بذلك؟ ولماذا تدعونا إلى ذلك باسم أوربا الناشئة المتخطبة ولا تدعونا إليه باسم الاسلام؟[٣٥] وهكذا رأى البنا في الاسلام وتراثه نفس الخصائص والأسس التي اعتمدت عليها أوربا في نهضتها. كما رأى سيد قطب أن طه حسين تجاهل الشرق العربي، وتجاهل الوحدة العقلية بين مصر وبين هذا الشرق العربي الاسلامي، وأنه كان بوسعه أن يقرر أن الحضارة الأوربية ضرورة زمنية لابد منها نتيجة أن أوربا سبقتنا في مدارج الرقي وأن مدنية العالم دواليك وأن أمم الشرق لهذا السبب تأخذ اليوم بحضارة الغرب على اختلاف عقلياتها[٣٦] . لقد اعتبر خصوم الكتاب كذلك أن طه حسين تجاهل العرب كأمة، لأنه نظر إلى المنافع المادية وحدها واعتبرها قوام الدول، وأنه لذلك زعم بأن سبيل نهضة العرب هو أن يذوبوا في الغرب ليصبحوا جزءاً منه[٣٧] .

والذي لم يحفل به نقاد طه حسين، سواء ممن أيدوه أو عارضوه، أنه وهو يستكمل عناصر موضوعه في جرأة بالغة، وحماسة فياضة، كان يردد فكرة الندية لأوربا، والمشاركة في الحضارة الانسانية، خيرها وشرها، حتى وأن كانت هذه الحضارة الانسانية العامة، ترتدي الآن رداء أوربياً وتنطق بحروف لاتينية. كما أكد كذلك على مفهوم الأخذ بأسباب القوة، وبالأسس التي قامت عليها الحضارة، مع تأكيده على الحفاظ على الذات من الفناء وفكرة الخصوصية الثقافية، وأن كانت جزءاً من العمومية الانسانية. فضلاً عن تأكيده فكرة مقاومة أوربا والثبات لها.

وهذه الأفكار في تقديرنا، وأن لم تكن في مجملها جديدة على الفكر العربي، إلا أن

طه حسين نجح في استجماعها في نسيج فكري متكامل، كمشروع للنهضة، على نحو ما صاغه، وأن لم تتوازن وتتعادل فيه علاقات المشروع ببعضها البعض، الاسلام وعلاقته بالمدنية الحديثة - كما كان يسميه محمد عبده - أو الاسلام والغرب الحضاري. فبدا طه حسين كمن يحاول نزع مصر من أمتها العربية الاسلامية، لتوجيه انتمائها وتقدمها وجهه «بحر متوسطية» تلحقها بأوربا وحضارتها، بل لقد أشار اشارة عابرة إلى أن الشرق العربي ذاته له نفس الانتماء ويتجه نفس الوجهة.

وبالرغم من اشارته إلى الهوية والخصوصية الثقافية والشخصية القومية، وضرورة الحفاظ عليها، إلا أن ذلك لم يلق نفس التأكيد والاهتمام بعناصرها وأصولها، على نحو ما فعل بالنسبة لحضارة الغرب، فانشغل بتوجيه الانتماء أكثر من تأكيده على تلك الخصوصية في مواجهة أوربا وظهر تركيزه على فكرة صلات مصر وارتباطها القديم ببلاد اليونان، وتأثيرها فيها وتأثرها بها، ليثبت - تاريخياً - أن هذه الصلات والمؤثرات أثبت وأبقى من صلتها بالعروبة والاسلام، وليبرر دعوته بضرورة استئناف هذه الصلات القديمة، في شكلها الأوربي الجديد، من خلال عامل جغرافي هو البحر المتوسط.

لقد قفز طه حسين فوق عشرة قرون من العروبة والاسلام ليثبت مقولته الجديدة، معطياً العشرة قرون السابقة عليها (عصور اليونان والرومان) اهتماماً كبيراً، يفسره دعوته لتعليم اليونانية واللاتينية، متجاهلاً أن يكون للشرق العربي الاسلامي وجوداً خارج نطاق البحر المتوسط. كما قفز بالمثل على أكثر من قرن ونصف من الزمان الأوربي، كانت نهباً استعمارياً واستغلالاً وفرضاً للتبعية على الشرق القريب والبعيد على السواء فبدا طه حسين مأخوذاً بالجوانب الابداعية والعلمية المنتجة من الحضارة الأوربية، دون تأكيد بنفس القدر، على الجوانب الأخرى، العدوانية بشكل خاص، من تلك الحضارة.

وربما كان من المفيد حقاً أن نفهم من استدلالات طه حسين وأسانيده التاريخية حقيقة هامة مفادها أن الأوربيين ليسوا أرقى وأفضل منا، وإننا لسنا أقل منهم، ومن ثم فإننا ننهض ونتطور بانتهاج أسباب الحضارة التي انتهجوها، وهي أسباب انسانية عامة، وتلك هي سنة التطور.. فهل كان تقرير هذه الحقيقة يقتضي منه المغالاة بالدعوة

لأن نسير سيرة الأوربيين وأن نعيش عشتهم؟

وما أشبه الليلة البارحة! حين أراد طه حسين عام ١٩٢٦ أن يثبت أن الشعر الجاهلي في معظمه مزيف ومنتحل، وقبل أن يشرع في دراسة هذه القضية القديمة بمنهج جديد قدم فروضاً ومقدمات نظرية، صاغها في عبارات لم تضع الدين موضعه من التقديس والاجلال، ما كان أغناه عنها، فما كانت تؤثر بالضرورة في بحثه لو جاء خلواً منها، فلقى ما لقيه من عنت وبلاء واتهام بالكفر والضلال على نحو ما هو معروف في قضية كتابه «في الشعر الجاهلي» فهل كان طه حسين عام ١٩٣٨ بحاجة إلى الدعوة إلى ابتكار فكرة حضارة البحر المتوسط لينادي بالحاق مصر بها، وأن يدعو المصريين إلى أن يعيشوا كما يعيش الأوربيون وأن يسيروا سيرتهم، وهو الذي يعرف الخصوصية ويؤيد الاستقلال والثبات لأوربا؟ وإلا فكيف تستقيم فكرة الحفاظ على الذات والاستقلال وأن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم في غير تردد ولا اضطراب؟ وإذا كان طه حسين قد أراد طمأنة الأوربيين على مصالحهم في مصر بعد توقيع اتفاقية إلغاء الامتيازات عام ١٩٣٧، بأن رفع صوته داعياً لربط مصر بحضارة أوربا من خلال عالم البحر المتوسط، وهذا ما جعله في أكثر من موضع يؤكد بأننا «التزمنا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين» فهل يمكننا أن نفسر هذه الأفكار بأنها صياغة سياسية فرضتها ظروف مصر بعد توقيع الاتفاقية، على اعتبار أنه لم يهمل حقائق أكثر أهمية في سياق تقريره – تتعلق بالندية والخصوصية الثقافية والمشاركة والأخذ بأسباب الحضارة والتوسل بوسائلها؟

إذا كان الأمر كذلك، فإن طه حسين الذي انبهر كثيراً بالغرب ومناهجه وبدا مستغرباً لم يخرج عن التوفيقية القديمة التي أرساها محمد عبده، والتي حاولت إزالة التناقض، أن لم تقم الجسور بين الاسلام والمدنية الحديثة. وأخيراً فإن القضايا الأخرى، التي أثارها طه حسين والمتعلقة بالتعليم والثقافة، من الملاحظ أنه نجح في تشخصيها، وفي تصوير اضطراب أساليبها في مصر، الأمر الذي يؤثر في عقول الناشئة والشباب، فطالب في غير تردد بأن تتوحد الأساليب وأن تتجدد لتنمية الشعور الوطني، وأهاب بالدولة أن تتحمل مسئولياتها كاملة بالاشراف على جميع مراحل

التعليم العام. وإذا كان قد دعا إلى الزامية التعليم ومجانيته في بعض مراحله الأولى، وأنه عندما تولى وزارة المعارف عام ١٩٥٠ تجاوز دعوته تلك عملياً بجعل التعليم العام مجانياً، فإن ثمة قضايا طرحها طه حسين لم يتجاوزها الزمن، وكأن كلمات وآراء طه حسين بشأنها عام ١٩٣٨ مازالت تصلح لزماننا.

فمازالت قضية مجانية التعليم مطروحة، وكذلك قضية المدارس الخاصة والأجنبية التي تحتاج إلى اشراف الدولة وتوجيهها، ومازالت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية لا تواكب متطلبات العصر ونهضته. وما بقاء هذه المشكلات إلا دليل على اضطرابنا وضعفنا، الأمر الذي يدفعنا من جديد إلى تلمس مستقبل جديد للثقافة.

الهوامش والمراجع

(١) انظر كتاب أحمد علبي : طه حسين رجل وفكر وعصر، دار الآداب بيروت ١٩٨٥، ص ٤٢٥.

(٢) طه حسين : من بعيد، الطبعة التاسعة، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٠٦، ٢١٠، ص ٢١٢-٢١٣، ثم كتابه رحلة الربيع والصيف، الطبعة التاسعة، بيروت ١٩٨١، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) محمد محمد حسين : أزمة العصر، ط (٢) بيروت ١٩٧٩، ص ١٢١-١٢٥ ويتهم طه حسين بمنافقة موجة الكتابات الاسلامية بكتابه على هامش السيرة.

(٤) غالي شكري : طه حسين واشكالية النهضة، دراسة بندوة جامعة القاهرة عن طه حسين (نوفمبر ١٩٨٩)، ص ٥-٦ (غير منشورة).

(٥) اتحاد الجامعة المصرية واتحاد كلية الحقوق : واجبنا بعد المعاهدة، محاضرة طه حسين بعنوان «واجبنا الأدبي بعد المعاهدة» في ١٩/١٢/١٩٣٦، القاهرة في ١٩٣٧.

(٦) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر، مطبعة المعارف بمصر ١٩٣٨.

(٧) انظر كتاب ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، بيروت ١٩٦٨ ص ٣٩١-٣٩٣.

(٨) مجلة الهلال : ابريل ١٩٣١ ص ٨٢١ وما بعدها، استفتاء حول «حضارتنا القادمة» وراجع كذلك أحمد علبي، المرجع السابق ص ٤٤٦.

(٩) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ١١.

(١٠) المصدر السابق ص ١٣.

(١١) المصدر السابق ص ١٤-١٥.

(١٢) المصدر السابق ص ١٦-١٩.

(١٣) أحمد زكريا الشلق : حزب الأحرار الدستوريين دار المعارف بمصر ١٩٨٢ ص ٥٠٦-٥٠٧

(١٤) سيد قطب : نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط (١) ١٩٦٩، ص ١٢.

(١٥) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ١٩.

(١٦) المصدر السابق، ص ١٤.

(١٧) المصدر السابق، ص ١٩-٢١.

(١٨) المصدر السابق، ص ٢٢-٢٤.

(١٩) المصدر السابق، ص ٢٩-٣٠.

(٢٠) المصدر السابق، ص ٣١.

(٢١) المصدر السابق، ص ٣٤-٣٦.

(٢٢) راجع كتاب الحكومة المصرية : الاتفاق الخاص بإلغاء الامتيازات في مصر، الوثائق الموقعة بمونترو في ٨ مايو ١٩٣٧، بالقاهرة ١٩٣٧.

(٢٣) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ٣٧، ٤١، ٤٣، ٤٤.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٤٤ وقد كرر طه حسين كلمة «أوربا وأمركيا» في نفس الصفحة ثلاث مرات.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٤٦-٦٠.

(٢٦) المصدر السابق ص ٦٢-٧٧، وقبل ذلك ص ١٩-٢٠ للمقارنة.

(٢٧) المصدر السابق ص ٧٩-٨٠ والهامش الذي أضافه وعلق عليه ص ١١١.

(٢٨) المصدر السابق ص ١٩٤-٢٠٢، ٢٢٣.

(٢٩) المصدر السابق، ص ٢٣٧-٢٤٦.

(٣٠) المصدر السابق، ٢٥٣-٢٥٦.

(٣١) المصدر السابق، ص ٣٦٩-٣٧١.

(٣٢) المصدر السابق ص ٣٩١-٣٩٤.

(٣٢) راجع كتاب نازك سابايارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، بيروت ١٩٧٩ ص ٢٣٨ وما بعدها، ثم كتاب ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص ٣٩٣ وما بعدها.

(٣٤) محمد جابر الأنصاري : تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، الكويت ١٩٨٠، ص ٩٤.

(٣٥) عن كتاب أنور الجندي : طه حسين في ميزان الاسلام ط (١) القاهرة ١٩٧٦، ص ٨٥-٨٧.

(٣٦) سيد قطب : المرجع السابق، ص ١٠-١٣، ص ٢٧-٢٨.

(٣٧) محمد محمد حسين : حصوننا مهددة من داخلنا، ط (٦) بيروت ١٩٨١، ص ١٢٢-١٢٣.

الحرب الفارسية البريطانية
١٨٥٦ - ١٨٥٧

الدكتورة فتوح عبد المحسن الخترش
أستاذ مساعد بقسم التاريخ - جامعة الكويت

تمهيد :

يعتبر القرن التاسع عشر عصر التنافس الاستعماري الأوروبي على السيطرة عبر الأسواق، وظهرت بريطانيا في هذا القرن قوة استعمارية مدت نفوذها إلى أسواق آسيا وبخاصة سوق الصين بعد حرب الأفيون الأولى ١٨٣٩ - ١٨٤٢، كما نجحت من خلال شركة الهند الشرقية إلى إحكام سيطرتها على شبه القارة الهندية، وامتدادا لسياسة البحث عن أسواق جديدة بعد الثورة الصناعية الأولى وإفلاس شركة الهند الشرقية عمدت البرجوازية الصناعية البريطانية الصاعدة، إلى الوصول إلى افغانستان عن طريق البنجاب والسند، ومن أفغانستان تنطلق للسيطرة على فارس وآسيا الوسطى:

تركمانيا، تاجيكستان، قرغيزيا، اوزبكستان، والقسم الجنوبي من كاغزستان.

وعندما نجحت بريطانيا في توطيد نفوذها في منطقة الخليج العربي عملت على منع وصول إلى نفوذ للروس إلى هذه المنطقة من خلال التزامها بخطة الدفاع عن الهند.

وكانت أفغانستان هي الحد الفاصل بين النفوذ البريطاني في الهند والخليج العربي بين التطلعات الروسية إلى هذه المناطق، فلا غرو أن تكون أفغانستان هي نقطة

---

١ - راجع لوريمر: جـ ١، ص ٣٤٩.

الصراع بين القوتين التي كانت تحاول كل منهما السيطرة عليها لاسيما وأن روسيا سعت إلى توطيد علاقاتها مع فارس لتصل إلى احتلال أفغانستان دون إثارة للريبة والشك في محاولاتها هذه.

وكانت هذه المحاولات سببا رئيسيا في إندلاع الحرب الفارسية البريطانية موضوع دراستنا وبخاصة أن السياسة البريطانية ادركت مرامي هذه المحاولات الروسية التي كانت موضوعا أثارته الصحافة البريطانية أنذاك ونددت به في حملة صحفية واسعة شاركها فيها الرحالة والمغامرون الانجليز الذين زاروا بلاد فارس في تلك الفترة. مما شكل عامل ضغط على الحكومة البريطانية وجعلها تسرع في إتخاذ التدابير التي رأتها ضرورية لحماية مصالحها الاستعمارية.

فشلت بريطانيا في إحتلال أفغانستان عسكريا بعد إندحار حملتها العسكرية عليها في الفترة ما بين ١٨٣٨ - ١٨٤٢، كما فشلت في كسب صداقة حاكم اقليم هرات الذي طرد بعثتها الدبلوماسية، لم تكف بريطانيا من محاولات التدخل في المنطقة وسارعت إلى مساندة «حسن خان سالار» الذي أعلن العصيان ضد شاه فارس في أقليم خراسان، ولم يكن أمام روسيا غير مساعدة الشاه للحد من التدخل البريطاني في الاقليم، إلا أن هذا العصيان إنتهى بالفشل بعد أن قضي عليه الشاه في مارس ١٨٥٠ بالقوة العسكرية وأعدم المتمردين ضده[١] .

وشهد أقليم هرات صراعا بين مجموعتين سياسيتين الأولى فارسية والأخرى أفغانية أنتهى بسيطرة الوزير «يار محمد خان» الذي أنتهج سياسة مستقلة بين فارس وبريطانيا التي حالت فعلا دون أحتلال فارس للأقليم.

ولما تولى سعيد محمد بعد وفاة أبيه يار خان ١٨٥١ السلطة في هرات طلب مساعدة بلاد فارس للتغلب على الصراعات الداخلية التي انفجرت في بلاده لقاء اعترافه بالتبعية لفارس.

إلا أن ذلك أغضب بريطانيا[٢] التي كانت تطمع في السيطرة على هرات

---

١ - نوري السامرئي: محاولات التوسع البريطاني شمالي الهند في منتصف القرن التاسع عشر - ص ٣.
٢ - المرجع السابق.

وأستخدمت أمير كابل دوست محمد خان في التصدي للسياسة الفارسية وتدخلت بعنف للحد من هذه العلاقات الجديدة بين فارس وهرات، وأجبرت شاه فارس على توقيع معاهدة ١٨٥٣ التي نصت على :

١ - عدم ارسال جيوش فارسية إلى حدود هرات إذا لم تكن مهددة بخطر الهجوم من جيرانها : كابل وقندهار أو من الحكومات الأخرى.

٢ - الكشف عن التدخل في الشئون الداخلية للإمارة والغاء الخطبة وعدم ضرب السكة باسم الشاه الفارسي.

٣ - الغاء مجالات الاعترافات الأخرى بسلطات شاه فارس على هرات[١] .

حــرب القــرم :

تدهورت العلاقات الروسية العثمانية بسبب الخلاف حول الوضع القانوني للأماكن المقدسة المسيحية في القدس، خشيت بريطانيا من سيطرة الروس على المضائق (البسفور والدردنيل)، إذا ما نجحوا في خلافهم ضد الدولة العثمانية، وعندما أعلنت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية في أكتوبر ١٨٥٣[٢] سارعت بريطانيا ومعها فرنسا للتدخل ضد روسيا ولم يكن التدخل البريطاني في أهدافه بعيدا عن الصراع البريطاني - الفارسي الروسي في أفغانستان وهرات، فقد كان هدف بريطانيا منه التوسع الروسي على حساب الدولة العثمانية انسجاما مع سياستها العامة آنذاك بالحفاظ على «الرجل المريض» وابعاد روسيا عن منطقة القفقاس وسد الطريق أمامها في محاولاتها الوصول إلى آسيا الوسطى لتبقى هذه المنطقة نفوذ تجاري بريطاني بحت.

ومع تطور الوضع العسكري في حرب القرم ضد روسيا بعد هزيمتها أمام الجيش التركي عند أولتينتزا قرب الدانوب في نوفمبر ١٨٥٣ وانسحاب الجيش الروسي عند مدينة سيليستيرا في مارس ١٨٥٤، والبدء في اعداد حملة عسكرية بريطانية فرنسية مشتركة للقضاء على الأسطول الروسي في البحر الأسود في قاعدته سباسبتول[٣] .

---

١ - راجع : نوري السامرائي - وكذلك .syked, vol - 2, pp 349

٢ - Roger parkinson, - Ency of modren wars, p. 48. Routledge & Kegan Paul,1977.

٣ - Roger Parkinson, Opcit, P. 48.

وضع وزير الخارجية البريطاني لورد كلاريندون سياسة بلاده نحو فارس بوضوح كشفتها رسالته الموجهة إلى وزيره المفوض السفير فوق العادة «مري» في البلاط الفارسي بتاريخ ٢٠ من نوفمبر ١٨٥٤، «طالبة فيها بإتخاذ سياسة الحكمة والحذر والثبات، وأبلغه أن فارس قد وضعت حدا لنظرتها التوسعية في أفغانستان وأنها قاومت إغراء العرض الروسي لها بإستغلال الظروف الصعبة التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية لتحقيق المطالب «الروسية» في السيطرة على بعض ممتلكاتها، وأصدر كلاريندون تعليماته إلى السفير «مري» بأن عليه اقناع الحكومة الفارسية بأن لا تشارك في دائرة الصراع بأي شكل من الأشكال، وأن عليه «مري» أن يكون على اتصال تام مع حكومة الهند البريطانية وأبلاغها بكل ما يحدث في المنطقة، وطلب منه كذلك العمل على توطيد الصداقة مع حكومة فارس وعدم عمل ما من شأنه الاساءة إلى هذه الصداقة»[١] .

لم تطلع الحكومة الفارسية على وجهة النظر البريطاني هذه إلا في بداية ١٨٥٥ ويبدو أن وزير الخارجية البريطانية لم يكن على دراية برأي الحكومة الفارسية، فلم يوافق الصدر الأعظم الفارسي على وجهة النظر هذه وأراد تحقيق بعض المكاسب من الحرب الروسية التركية لبلاده، ولجأ إلى تحسين علاقاته مع روسيا بعد اقتراب حرب القرم من نهايتها، والتقت السياسة الفارسية مع السياسة الروسية الجديدة التي ارادت التعويض عن خسارتها في حرب القرم بالبحث عن مجالات جديدة لنفوذها تزعج به السياسات البريطانية دون الوصول بهذه السياسات إلى حد الصدام المسلح، وبخاصة أن حرب القرم كان لها آثارها السيئة على المجتمع البريطاني عندما كشفت عن تأخر الآلة العسكرية البريطانية وطرق إمداداتها التي لم تتطور منذ معركة واترلو ضد نابليون ١٨١٥، كما كشفت عن المآسي التي تعرض لها الجنود بسبب الجوع والمرض والبرد الشديد مما جعل فكرة قيام بريطانيا بحرب جديدة أمرا مستبعدا في نظر حكومة فارس والحكومة القيصرية حسب تقديرنا، وجعل شاه فارس يفكر جديا في الاستفادة من التنافس الروسي البريطاني في منطقة أفغانستان وآسيا الوسطى.

---

١ - India Office Records; - L/P & S/5/559, Boards Drafts Of secret, Letter and Despatches to India, Board To Dovernor General, (No. 15981). Lord clarenan To Murray, 20, Nov., 1854.

اتجه شاه فارس نحو روسيا وبدأ ذلك واضحا في أواخر عام ١٨٥٦ للصحافة البريطانية التي وصفته بأنه «تابع حقير لروسيا»[١] .

وصلت مع أوائل ١٨٥٧ مجموعة الضباط الروس المدربين لتدريب الجيش الفارسي بهدف التأثير على أفغانستان التي كان حكامها مازالوا حائرين بين مخاوفهم من الانجليز وبين رغبتهم في التحرر من نفوذهم على حد تعبير لاجوفسكي سفير روسيا في طهران[٢] .

الولايات المتحدة الأمريكية والنزاع البريطاني الفارسي :

خطت بلاد فارس خطوة جديدة في ميدان تنافس القوى الاستعمارية واتجهت نحو الولايات المتحدة الامريكية التي لم تكن نواياها الاستعمارية قد وضحت آنذاك وتقدمت عن طريق القائم بالأعمال الفارسي لدى الباب العالي إلى الولايات المتحدة ببنود معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية التي سارعت بالتوقيع عليها في أواخر عام ١٨٥٦ وكان من بنود هذه المعاهدة:

- حماية السفن الحربية الأمريكية للسفن التجارية الفارسية.
- حماية الولايات المتحدة لسواحل بلاد فارس وجزرها إذا تعرضت لأي هجوم من أية دولة.
- تقديم المساعدة البحرية الأمريكية للحكومة الفارسية لمساعدتها في قمع أي تمرد يحدث ضدها في الجزر التي تسيطر عليها كالبحرين وهرمز وقشم[٣] .

يتضح من مجمل المواقف السياسية بعد انتهاء حرب القرم وتوقيع معاهدة الصلح بين الأطراف المتحاربة في فبراير ١٨٥٦، أن الحكم الفارسي رأى الاستفادة من التنافس بين القوى الكبرى في العالم وحاول التقرب من روسيا القيصرية وحقق بعض النتائج، كما نجح في عقد معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة، ورفض في الوقت

---

١ – Mikal Valadarsky : Persia and Great powers. pp. 77.

٢ – المصدر السابق : Persia and Great Powers. p. 77.

٣ – Aitchison, C.V. : A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries. Vol. X Appendix 10, p. 32

نفسه توجهات السياسة البريطانية في المنطقة التي سعت إلى تحييد فارس وبالتالي جعلها منطقة نفوذ لها، وهو أمر لا ينسجم ويرضى السياسة البريطانية الأستعمارية في المنطقة كما لا ينسجم مع السياسة العامة البريطانية الاستعمارية في المنطقة كما لا ينسجم مع السياسة العامة البريطانية في الحفاظ على طرق مواصلاتها مع امبراطوريتها في الهند، لذا بدأت بريطانيا في الأعداد بكل الوسائل لتثني حكومة فارس عن سياستها والتي أنتهت إلى إعلان الحرب البريطانية ضد فارس.

الحرب الفارسية البريطانية :

إضافة إلى ما تقدم من أحداث كانت مقدمة للحرب الفارسية البريطانية يمكننا الحديث عن شخصيات لعبت دورها في هذه الحرب ومن أهمها :

شاه فارس ناصر الدين*(1) الذي كان يحكم بلاد فارس آنذاك، وصدرها الأعظم رئيس الوزراء، والقائم بالأعمال الفارسي في العاصمة العثمانية فاروق خان، وأخيرا الشخصية الغربية ميوزا هاشم خان.

وفي أفغانستان تواجهنا شخصيات مثل يار محمد خان الدي توفى سنة ١٨٥١ وخلفه ولده سيد محمد في هرات، ودرست محمد خان صاحب كابل.

الأهداف البريطانية من وراء الأمور إلى الحرب مع فارس :

عندما نجحت بريطانيا في أخماد الثورة الشعبية في الهند ضدها في الفترة ١٨٤٧ – ١٨٤٩، ووقعت معاهداتها مع فارس في عام ١٨٥٣، وبدأت تضيق بالموقف

---

* ناصر الدين شاه (١٨٤٨ – ١٨٩٦)

قبل موت محمد شاه اعترفت الحكومتان البريطانية والروسية منفصلتين ومجتمعتين بابنه الأكبر ناصر الدين ميرزا كوريث لعرش ايران، ونتيجة لذلك فإنه بعد وفاة الشاه عمل القائم بالأعمال البريطاني والأمير دولجو دوكي الوزير الروسي في طهران معا ليضمنا سلامة خلافة ذلك الأمير الشاب.

وقد دخل ناصر الدين ميرزا طهران في العشرين من أكتوبر ١٨٤٨ وتولى الحكم في منتصف الليل التالي وعمره لا يزيد على ١٧ سنة.

١ – راجع لوريمر: ج ٥، ص ٢٧٢٤ – ٢٧٢٥

الفارسي في بداية ١٨٥٥، توجهت إلى حكومة كابل ونجحت في عقد معاهدة مع حاكمها وقعت في بيشاور في آذار ١٨٥٥، بموجبها :

١ - تتعهد بريطانيا بمساعدة الأمير الأفغاني لتقوية وسائل دفاعاته العسكرية وتقديم المساعدات له.

٢ - التأكيد على حياد أفغانستان(١) .

وفي الفترة نفسها في بداية عام ١٨٥٥ لجأت بريطانيا إلى إثارة فارس لتجد مبررات إعداد الحرب ضدها أو أصبح من مهمات السفير البريطاني في طهران «جارلوس مورسبي» العمل على قطع العلاقات الدبلوماسية بين حكومته وبلاد فارس وبخاصة أن فارس حاولت ضم هرات إليها على عكس ما أتفق عليه في معاهدة ١٨٥٣، عندما سعت إلى الاطاحة بحاكمها وتنصيب محمد يوسف - من أسرة سانوزاي - المتقاعد بتعيين ميرزا هاشم خان الفارسي مراسلا لها في شيراز زيادة على مراسليها المتواجدين في طهران وتبريز وبوشهر(٢) ، إلا أن الطلب البريطاني قوبل بالرفض الفارسي، وتم احتجاز زوجة هاشم خان في البلاط الملكي وبخاصة أنها شقيقة احدى زوجات الشاه، في محاولة للضغط عليه لرفض العرض البريطاني بتعيينه مراسلا.

وهنا ظهر التدخل البريطاني مباشرة وطالب باطلاق سراح زوجة هاشم خان وإلا أغلقت القنصلية البريطانية، وفعلا تم ذلك وغادر القنصل البريطاني بلاد فارس إلى بغداد مما جعل الشاه يرد بعنف على هذا الاجراء ويعلن عدم عودة القنصل مالم تعتذر بريطانيا عن هذا السلوك(٣) .

---

١ - أجيسون - المصدر السابق: ص ٢٣٧.

٢ - راجع لوريمر: جـ ٥، ص ٢٧٤٩ «توجه مري في ٤ اكتوبر من هذا العام بهذا الطلب لرئيس وزراء فارس الصدر الأعظم.

٣ - حول هذا الأمر راجع كيلي: ج ٢ - ص ٩٥ - ٩٧ وكذلك : Sykes: History of Persia, Vol. 2, p. 348

وفي رأينا أن بريطانيا هي التي افتعلت هذه الأزمة - أزمة هاشم خان - لكون هي محور الخلاف، ولتمثل فيما بعد مطلبا قوميا مهما من وجهة النظر الفارسية. وهذا الذي نراه مخالفا تماما لما ذهب إليه كيلي من أن فرصة الانقلاب في هرات كانت توجب على الشاه أن يتخلص في البداية من الوجود البريطاني الممثل في البعثة الدبلوماسية البريطانية في طهران. ولكي تكتمل الصورة نحيل القارئ إلى رواية لوريمر لهذا الحدث: جـ ٥ ص ٢٧٤٩

وتطورت الأمور سواء عن قصد أو غير قصد إلى أكثر من ذلك عندما أقدم دوست محمد خان أمير كابل وأستولى على قندهار، مما أثار مخاوف أمير هرات محمد يوسف ذي الولاء الفارسي، وسارع إلى طلب حماية شاه.

ولعل الشاه، حين وصلت الأحداث إلى هذا البعد الجديد، أحس بأنه من الأفضل ان يهادن الانجليز، فطلب من القائم بالأعمال الفارسي لدى الباب العالي أن يجتمع مع السفير البريطاني هناك اللورد ستراتفورد دي ردكليف ويبحث معه أبعاد تدهور الأوضاع بين الحكومتين وكيفية الوصول إلى حل مقنع ونهائي بين الطرفين، فبعث ستراتفورد لحكومته يطلعها على هذه المحادثات ويطلب منها تزويده بالتعليمات فيما يخص هذا الأمر، فجاءه الرد من وزير خارجية بلاده كلارندون في ١٥ مايو ١٨٥٦ على الوجه التالي: «أن الحكومة البريطانية ليست في عجلة من أمرها لتحسين علاقاتها مع فارس إذ أن ذلك من شأنه أن يقلق الحكومة الفارسية. وعليه فقد طلب منه أن لا يبدي أهتماما بإعادة العلاقات مع فارس، بل يترك انطباعا بأن حكومة لندن لا تهتم بتسوية الأمور مع حكومة طهران».

وأضاف أنه حين تسليم القائم بالأعمال الفارسي رسالة خطية من قبل حكومته فعلية - السفير البريطاني - إبلاغه بشروط بريطانيا لاعادة العلاقات مع فارس، ومن أهم تلك الشروط مايلي :

١ - تطلب بريطانيا كشرط مسبق الانسحاب الفوري للقوات الفارسية من هرات والمناطق المجاورة لها وأن تقوم بلاد فارس بدفع تعويضات عن كافة الأضرار التي لحقت بالمنطقة من جراء وجود تلك القوات.

٢ - أن تعقد بلاد فارس معاهدة مع انجلترا تعلن فارس بموجبها التخلي عن كافة نواياها للتدخل في هرات أو في أي جزء من أفغانستان ، وأن لا تتورط في أي وقت من قبل أية جهة كانت في التدخل بشئون تلك المناطق الداخلية، وأن تعترف بأستقلالها التام، وأن تقبل بتحكيم بريطانيا والتوسط في أية خلافات قد تنشأ بعد ذلك بين بلاد فارس وتلك المناطق.

٣ - أن تقبل بلاد فارس بالتفاوض مع انجلترا وتعقد معها معاهدة جديدة للتجارة

وتحل كافة الأمور التي تستجد بين الحكومتين أو تسمح لبريطانيا بتعيين قناصل لها في أية جهة من بلاد فارس.

٤ – أن تدفع إلى الرعايا البريطانيين كافة الديون المستحقة وأن تجرى التفاهم حول المطالب المتنازع عليها.

٥ – أن تتخذ بلاد فارس بصدد بندر عباس اجراءات من شأنها أن ترضي إمام مسقط صديق بريطانيا.

٦ – أن يقوم الشاه ازاء موقف الصدر الأعظم من الخلافات الأخيرة بين البلدين، بأستبدال ذلك الوزير بشخص آخر يمكنه أن يحل التفاهم والمودة بين بلاد فارس وبريطانيا.

وعندما يقوم الشاه باتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ هذه الالتزامات بالنسبة لهرات وأفغانستان وتنسحب كافة القوات الفارسية إلى داخل حدود خراسان ولدي قبول الحكومة البريطانية بما يسفر عنه تنفيذ البند السادس، فإن بقية الشروط يجب تنفيذها خلال ستة شهور من عودة البعثة البريطانية إلى طهران بعد تقديم الاعتذارات الكافية، وأن القوات البريطانية ستنسحب من المناطق الفارسية بعد ستة شهور من عودة البعثة المذكورة إلى طهران. وتحتفظ الحكومة البريطانية لنفسها بحق بتغيير تلك الشروط إذا لم تقبل فورا وبخاصة أن عودة العلاقات الودية مع فارس رهن بأن تدفع بلاد فارس نفقات[1] .

وفي اليوم التالي بعث كلاريندون برسالة أخرى لستراتفورد بين له فيها أن الفرس في عملهم لم يتصرفوا بصدد هرات إلا بتشجيع من روسيا وبالتالي: فإنهم إذا فضلوا أن يناصبونا العداء فهم الخاسرون وأن عليهم أن يعلموا أن استيلاءهم على هرات يعتبر انتهاكا للاتفاقية المعقودة بين حكومتي لندن وطهران، كما أن المادتين الخامسة عشرة والسادسة عشر* من معاهدتهم مع الولايات المتحدة موجهتان ضدنا، وعليه فإن

---

١ – I.O.R. L/P s/559, Board's Drafts of Secret and despatches to India, 1852-1856. Board to Governor-General - in Council, No. 1677, 3. Nov. 1856.

* بخصوص حماية الولايات المتحدة لسواحل فارس وجزرها إذا تعرضت لأي هجوم من أية دولة بتقديم المساعدة البحرية للحكومة الفارسية في الجزر التي تعصيها كالبحرين وهرمز وقشم.

كل هذه الأعمال إنما تعطينا المبرر الكافي لاعلان الحرب عليهم(1) .

وفي غمار هذه المناورات البارعة، برزت أهمية هرات والضيق البريطاني من المعاهدة الفارسية مع الولايات المتحدة ، فيبرق كلاريندون في ٢٤ مايو إلى ستراتفورد لكي يحذر القائم بالأعمال الفارسي لدي الباب العالي من خطورة احتلال فارس لاقليم هرات، ويتم التحذير للقائم بالأعمال وبالكتابة أيضا للصدر الأعظم.

وفي الحقيقة أن موضوع تأمين حدود الامبراطورية البريطانية كان هو الغاية القصوى ووسيلة ذلك هي المغريات التي يضعها الصياد الماهر حول حباله، يدني هذه المغريات حينا ويقصيها حينا، ويلفت وجهه عن الحبالة الرئيسية كأنها لا تعنيه، مع أنها هي في الحقيقة غاية الغايات لأنها التي ستمكنه من الصيد وافرا. من هذه الموضوعات الجانبية في رأينا تعيين هاشم خان مراسلا أخباريا في شيراز، والاعتذار المذل عما لحق مري من اهانات، ونحب أن نتأمل طويلا بهذا الصدد قول بالمرستون لكلارندون – من المهم، بل من الضروري ألا نسمح لفارس بأن تسيطر على هرات فلقد كانت فارس – ولسنوات سابقة – تعد المنطقة العازلة في الدفاع عن حدود الهند ضد روسيا، أما الآن فينبغي أن ننظر إلى فارس على أنها خط الدفاع الأمامي عن روسيا، ولكن أفغانستان قد أصبحت الآن خط الدفاع عن الهند، وعلينا أن نحتل كل الممرات التي يمكن أن تعبر م خلالها الجيوش الغازية كلما لاح خطر(2) .

وتستمر المفاوضات بين المفاوضين الانجليز والفرس دون الوصول إلى نتائج إيجابية، مما أثار شكوك ومخاوف الحكومة البريطانية فيما ترمي إليه فارس من تصلبها في المفارضات، فوجه كلاريندون إنذاراً للصدر الأعظم بأنه مالم تنسحب القوات الفارسية من هرات فستتخذ الحكومة البريطانية الاجراءات الكفيلة بتحقيق هذا الانسحاب انسجاما مع اهتماماتها ومصالحها الهامة في المنطقة(3) .

---

١ – Public Records ofice: Fo. 78/1162. Clarendon to Strat ford, No. 491, Conf., May 1956.

٢ – Bodleian Library : Ms. Clar. des P. C. 49. Memo. by Palmerston, 2 Jun 1856.

وكذلك راجع كيلي: جـ ٢ ، ص ١٠٣

٣ – I.O.R. Baord's Drafts: Sec. Desp. to India, Vol. 21, Draft to Governor General in Council 16, July 1856.

غير أن ذلك لم يجد أي صدى لدى الحكومة الفارسية، إذ أنها تجاهلت ذلك، واستمرت سائرة في خططها الرامية للسيطرة على هرات وتعزيز مواقعها هناك.

ويتضح من هذه الطلبات البريطانية أنه رغم رغبة الحكومة البريطانية في التوصل إلى تسوية سلمية مع الحكومة الفارسية، إلا أن روح العنجهية واضحة فيها بشروطها المجحفة والتي توحي وكأنها شروط يفرضها المنتصر.

وعلى ذلك ، فكان من الطبيعي أن ترفض فارس هذه الشروط وذلك بعدم الاجابة عليها، واستمرارها في تعزيز مواقعها في هرات وطلب الشاه المساعدة من روسيا فرد وزير الخارجية الروسي الامير جورتشاكوف بالاعتذار، إذ كان يرى جورتشاكوف أن لا جدوى من الصراع السياسي والاقتصادي مع بريطانيا في أعماق آسيا، غير أنه مالبث أن غير رأيه بصدد هذا الأمر متأثرا بتقرير كان قد كتبه في يناير ١٨٥٦ – الميجر بلارمبيرغ – الذي كان في مهمة خاصة آنذاك في فارس أثناء حرب «القرم» حيث جاء في التقرير أن مستقبل روسيا في أوروبا بل أنه في آسيا إذ أن أزدياد عدد المصانع وتطورها في روسيا يتطلب مناطق تتوفر فيها المواد الخام وتشكل سوقا لمنتجات هذه المصانع وهذا ما يتوفر في آسيا(١) .

هكذا قام وزير الخارجية الروسي بأعادة تقييم الموقف، وأجرى تعديلا على جهاز وزرائه ، فعين المستشرق كوفيلنسكي مديرا لدائرة آسيا فتم أرسال بعثة إلى فارس وأفغانستان للبحث في الأوضاع السياسية والاقتصادية هناك والوقوف على مدي امكانية نشر النفوذ الروسي في تلك الجهات. على أن روسيا أدركت عدم قدرة فارس على الصمود امام القوات البريطانية وتوقعت هزيمتها مما سيؤثر على وضع روسيا في هذه المنطقة، وبذلك فقد أرسل جورتشاكوف مبعوثا لرئيس الوزراء الفارسي ميرزا أغا خان ليؤكد له على ضرورة انسحاب القوات الفارسية غير المشروط من هرات حتى تتجنب فارس المجابهة البريطانية.

وفي الوقت نفسه اقترحت روسيا على بريطانيا أن لا تقوم بحملة على فارس وأن تنسق انجلترا رورسيا إجراءاتهما في فارس كما كان عليه الحال خلال الخمس عشرة

---

١ – Mikhail Volodarsky; - Persia and Grat Powers. p. 75

سنة الماضية وبينت أهمية ذلك في حفظ السلم في فارس[1] غير أن جهود روسيا في هذا المجال ذهبت سدى حيث أن الحرب بين انجلترا وفارس أصبحت واقعة لامحالة. وما أن وصلت أنباء الشروط البريطانية لاعادة بطرسبورغ العلاقات مع فارس حتى أبلغ وزير الخارجية الروسي السفير البريطاني «وود هاوس» أن بلاده تؤيد وجهة النظر البريطانية بشأن الانسحاب الفارسي من هرات ودفع التعويضات عن الخسائر وعودة البعثة البريطانية إلى طهران، مع ترك تنفيذ بقية الشروط لمفاوضات لاحقة[٢] . غير أن بريطانيا أصرت على شروطها وباشرت عملياتها الحربية ضد فارس، ونزلت قواتها على رأس الخليج[٣]

وعليه فقد أدركت السلطات البريطانية في الهند أن لا جدوى من أسلوب التحذير والتفاوض مع فارس، فباشرت في اعداد حملة عسكرية بالتعاون مع حكومة لندن أخذين بعين الاعتبار التغيرات في ظروف وأوضاع بوشهر وجزيرة خرج.

الحملة الحربية ضد فارس في الخليج :

ومع أن السلطات البريطانية في الهند كانت موافقة على مبدة ارسال الحملة إلا أنها كانت تخالف المسئولين في لندن خول حجم الفاعلية التي تترتب على احتلال خرج وبوشهر فليس هذا الاحتلال عصا سحرية ترهب الفرس إلى الحد الذي تصوره رجال مجلس الوزراء في لندن، هذا إلى جانب مجموعة من الصعاب الكثيرة التي يمكن الاشارة إليها في نقاط سريعة على النحو التالي:

* الحاجة إلى قوات أوروبية، لأن الجندي الهندي ليس على كفاءة الجندي الفارسي، ولهذا نرى أن الحاكم العام للهند كان يعارض بشدة التجنيد المحلي.
* الطبيعة الوعرة لمناطق فارس الداخلية.
* صعوبة توفير المؤن للحملة سواء للبشر أو الدواب.

---

١ – نفس المصدر : ص ٧٥ – ٧٦

٢ – I.O.R. L/P s/5/559. Board's Drafts of secrat Letters & Desp. to India, 1852-1856. Wodehuse, to Clarendon - St Petrsburgh, Tel. 19 Dec. enclosed to Board to Governot - General. in Council. 26 Dec. 1856 (No. 1697).

٣ – دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها : ص ٩٩

* صعوبة الجو صيفا وشتاءاً.

* انتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة في بوشهر وتبريز، كالتهاب الكبد والحمى والدوسنتاريا.

وأهم من هذه الصعوبات جميعا الاستعداد الفارسي ويتمثل في :

- التحصينات القوية لخرج.

- السخط الشعبي الشديد على الأنجليز في فارس.

ومما يدل على ذلك المذكرة التي بعثها المقيم البريطاني في بوشهر - الكابتن فيلكس جونز لاندرسون في بومباي سبتمبر ١٨٥٦ ردا على رسالته التي بعثها مع الباخرة (فيروز) التي كانت تحمل بعض الضباط من بومباي لبحث موضوع التعزيزات اللازمة للحملة، فبين جونز أن وصول هذه الباخرة قد تسبب في إثارة الذعر والبلبلة في نفوس سكان المنطقة، كما جعل السلطات المدنية والعسكرية في هذه المدينة في حالة عمل دائب في طول البلاد وعرضها، ومما زاد الطين بلة نزول الضباط والموظفين الرسميين من الباخرة بأمتعتهم وحاشيتهم فزاد ذلك من إثارة الرعب والخوف في قلوب السكان ودفع بهم إلى مزيد من الاستعداد للمجابهة. وقد خشى (جونز) على سلامة هؤلاء الضباط وعلى الرعايا البريطانيين نتيجة للشعور العدائي العارم الذي كان يتأجج في نفوس الشعب مما جعله (جونز) ينبههم إلى المخاطر التي قد يواجهونها في مهمتهم في بوشهر وطلب منهم العودة بسرعة إلى الباخرة. والواقع - «انني أعتبر مركزنا في بلاد فارس حرجا وعرضة للخطر حيث أنه اذا ما اشتعل التعصب الديني والقومي هنا فلا يستطيع أحد التكهن بالنتائج». وطلب في رسالته أيضا إيجاد السبيل للخروج من بوشهر قبل أن يسبق السيف العذل[١] .

وهكذا، يتضح لنا أن العداء لبريطانيا لم يكن آنذاك قاصرا على حكومة فارس، بل أنه انتقل كذلك إلى شعبها أيضا الذي بدأت بوادر النزعة القومية تظهر في أوساطه وما رافقها من احساس بالخطر الذي يتهدد هذه القومية من دولة أجنبية، ولا نستبعد

---

١ - I.O.R. L/P s/5/489. Enclosures to secret Letters from Bombay Felx Jones, Resident, Bushire to H.S. Anderson, Bombay, No. 22. 29 Sept. 1856.

أن تكون هناك دوافع دينية أيضا، أدت إلى عداء الشعب الفارسي لبريطانيا كما ادعى جونز، وأن كانت هذه الدوافع ليست الأساس في تحريك مشاعر الشعب بل الأساس هو الاحساس بالخطر الذي كان يتهدد البلاد، وبالتالي دخل الدين كعنصر فعال إلى جانب المشاعر القومية في تأليب الجماهيز الفارسية ضد الأطماع الانجليزية.

والواقع أن جونز جريا على عادة الساسة البريطانيين في طمس الحقائق لم يعط تحليلا حقيقيا لأسباب ثورة الشعب الفارسي ضد بريطانيا، بل اكتفى بالقول بأن روح العداء للمسيحيين باتت واضحة في فارس مصورا بذلك النزاع وكأنه نزاع ديني، وينسى أو تناسى أطماع بلاده في هذه المنطقة والمحاولات البريطانية للقضاء على تحررها واستقلالها حتى تبقى ركيزة لها، لا تقوى على تصريف أمورها، الداخلية والخارجية بل يكون لبريطانيا السلطة في كل ذلك، تسيرها وفق مصالحها وبما يخدم أغراضها.

وعلى أية حال أخذ الطرفان البريطاني والفارسي يستعدان للمجابهة ومن هذا المنطلق أدركت الحكومة الفارسية أهمية بناء علاقات حسنة مع قوى أوروبية أخرى، حتى يمكن لهذه القوى أن تلعب دورا مؤثرا في الوقوف أمام بريطانيا وثنيها عن محاربة فارس.

أما بالنسبة للجانب البريطاني، فرغم أن الحملة كانت جاهزة منذ خريف ١٨٥٦، غير أن موضوع وتحرك الحملة كان موضعا لكثير من الجدل في لندن، وقد حاول مجلس الوزراء حسم الموقف في الأسبوع الأخير من سبتمبر حيث خرج بقرارات صدرت على أثرها تعليمات إلى الحاكم العام للهند بأن الخطة جاهزة للتحرك في أية لحظة للخليج، وتعليمات أخرى صدرت للقناصل البريطانيين في طهران وتبريز بالعودة إلى لندن فورا(١) .

ومما يستلفت النظر ان اعلان الحرب لم يصدر آنذاك، إذ أن كلا من بالمرستون وكلاريندون – كانا يتهيبان اتخاذ هذا القرار قبل موافقة البرلمان. غير أن ذلك لم يجعل الحكومة البريطانية تتوقف وتنتظر هذه الموافقة خشية أن يبدو عليها التراجع ، مما

١- L/P s/5/353. Secret Letters from Bombay Governor of Bombay to Secret Comittee, (No. 83) 3 No. 1856.

يدعم موقف الحكومة الفارسية، بل أخذت تناور، فأرسلت للحكومة تخبرها بأن الحملة البريطانية على وشك التحرك، وذلك في محاولة لبث الرعب في نفوس الفرس عله يعمل على تثبيط همتهم وزعزعة تصميمهم على الاستقرار في احتلال هرات.

وهكذا لم يستمر التردد طويلا في لندن حيث صدر اعلان الحرب في ٢٥ أكتوبر ولكن تأخر تحرك الحملة قليلا إلى اليوم الأول من نوفمبر كرد على هجوم الفرس على هرات وأنتهاك معاهدة يناير ١٨٥٣. وأخذت الاجراءات اللازمة لمغادرة السفن الفارسية موانيء الهند البريطانية، وضمان سلامة الرعايا الفرس المقيمين في الهند[١] .

خرجت الحملة في ٤٥ سفينة من موانيء أربعة في الهند: كراتشي وفنجويلا وبور بندر وبومباي، وكان بندر عباس هو المكان المختار لتجمع القوات، وكانت التعليمات - كما سلف بيانه تقضي بأن تستولي الحملة على منطقتين: جزيرة خرج، وبوشهر، بحيث تكون بوشهر قاعدة تنطلق منها العمليات إلى داخل فارس. وتم احتلال خرج في ٤ ديسمبر ١٨٥٦، ثم نزلت القوات حسب الخطة المرسومة - في شبه الجزيرة التي تطل عليها بوشهر، وبعد قتال باسل من القوات الفارسية سقطت ريشهر (ولكن بثمن باهظ) على حد تعبير كيلي[٢] . في التاسع من ديسمبر، ثم حوصرت بوشهر من جميع الجهات، وبعد قتال تساقطت فيه أعداد كبيرة من الفرس دفع حاكم بوشهر علم الاستسلام وبذلك تم الاستلاء عليها في ١٠ من ديسمبر.

وفي هذه الأثناء أوكلت قيادة الحملة إلى قائد جديد (الماجور جنرال - السير جيمس أوترام) وقد زود بصلاحيات مطلقة للتفاوض مع الفرس. وقد نصحوه بأن سياسة التخويف هي الأنجح مع الفرس. فإذا أحس منهم مماطلة في تنفيذ الشروط فعليه أن يحتل المحمرة تمهيدا لعمليات داخل فارس[٣] .

وقبل أن يغادر (أوترام) انجلترا طلب تزويده بمزيد من القوات تتجمع في بومباي قبل وصوله إليها في ٢٢ ديسمبر مما أدى إلى تحركات كثيرة من مواطن كثيرة

---

١ - المرجع السابق.

٢ - راجع كيلي : جـ ٢ ، ص ١١٥ - ١١٧.

٣ - راجع : Sykes : pp 350 - 351.

بالولايات الهندية[1] . ثم غادر أوترام بومباي إلى الخليج في ١٥ يناير ١٨٥٧، وأبحرت كل الامدادات العسكرية قبله ليصلها في ٢٧ يناير.

وقبل وصوله إلى بوشهر كانت كل القوات البريطانية تمارس نشاطها في المنطقة وخاصة النشاط الذي كان يجري في الخفاء وهو استغلال جميع القوى الفارسية التي لم تكن على وفاق تام مع الشاه، أو لم تكن قبضة الشاه عليها قوية بالقدر الكافي، ومنها قبائل تنجستان وقبائل بندر ديلام وقبائل خوزستان، وأهم من هذه القبائل جميعا تلك القبائل التي كانت تسكن الضفة الفارسية لشط العرب من البختيارية وبني كعب.

ويتم استمالة هذة القبائل لتقف على الحياد إذا هي لم تناوئ الشاه على الرغم من معارضة بعض الاطراف، لأن لب السياسة البريطانية رغم الصراع مع فارس كان يقتضي الحفاظ على كيان فارس، إذ لم تكن الحكومة البريطانية ترغب في تقويض نفوذ الشاه أو النيل من سلطانه على المقاطعات الجنوبية من فارس[2] تمشيا مع السياسة البريطانية القائمة على وحدة فارس، وعدم تجزئتها مع الأطماع الروسية. كما أن موضوع الحصول على عفو الشاه عن هذه المقاطعات التي تكون قد وقفت إلى جانب بريطانيا لن يكون سهلا، ويكفي أن تبذل بريطانيا الجهد في هذا السبيل من أجل المقاطعات التي تكون مجبرة ومضطرة إلى الوقوف لجانب القوات البريطانية. خاصة وأن بريطانيا كانت تخشى ما قد يؤدي إليه ذلك من تدخل روسيا في هذه الجهات[3] .

أما بالنسبة لوضع أوترام في الخلية فهو لم يضيع الوقت بل تحرك بقواته بعد أسبوع واحد من وصوله إلى بوشهر، ليهاجم القوات الفارسية المتمركزة في برازجون

---

١ - يذكر لوريمر : جـ ٥، ص ٢٧٥٨ :

«وكان من الواضح أن الممثلين السياسيين من الخليج قدموا المنح إلى زعماء أقاليم الساحل الايراني على شريطة مساعدتهم للانجليز في فترة الحرب ومن أهم زعمائهم باقر خان زعيم تانجستان، وشيخ شاه كوتاه، والرق وديلام، وبالرغم من ذلك إلا أن تعليمات أوترام تتوخى الحرص فيما يختص بالتعامل مع الايرانيين، وهي عدم السماح بأية محاولة لاعلان الثورة على الشاه أو قلب نظام الحكم».

٢ - ذكر كيلي هذه التحركات شبه مفصلة : جـ ٢، ١٣٢ - ١٣٣.

٣ - P.R.O. F.O. 60/226. Minte, by Governor General of India, 21 March 1857.

وذلك في (٣ من فبراير ١٨٥٧)، وكانت هذه القوات قد انسحبت قبل وصوله ولكن قوة فارسية من الفرسان هاجمت الجيش الغازي في الليل (٥ من فبراير). وكانت هناك قوة أخرى معدة لتهاجم مؤخرة هذا الجيش، ولكن الدائرة كانت على هاتين القوتين، وعاد أوترام إلى بوشهر (٧ فبراير) بعد أن اطمأن على تأمين قاعدته في بوشهر.

وكان الجانب الفارسي يعمل على قدم وساق، وقد عزز قواته في كل مكان، ولكن أقوى استحكاماته كانت في المحمرة وشستر وكرمنشاه، وفي مواجهة المكائد البريطانية التي كانت تعمل على تفكيك الجبهة الفارسية لجأ الشاه في الأسبوع الثاني من يناير إلى توحيد هذه الجبهة بالدعوة إلى الجهاد الديني ضد الغزاة الصليبيين من النصارى، «الدين دنسوا الأراضي الهندية وهم اليوم يريدون احتلال الأراضي المسلمة في فارس. لقد أذاقوا مسلمي الهند الويلات، وصادروا المصاحف وكتب الحديث النبوي، وأرغموا المسلمات على طرح الحجاب، ومنعوا المسلمين من الاختتان وهذا هو المصير الذي ينتظر المسلمين في فارس».

ولكن ميزان القوة كان بجانب البريطانيين، فأستعد أوترام للهجوم على المحمرة مركز التجمعات الفارسية، ليتقدم منها نحو خوزستان، وبالفعل أبحر في ١٨ من مارس من بوشهر، بعد قتال مرير وغير متكافيء تم الاستيلاء على المحمرة في ٢٦ من مارس.

المفاوضات أو معاهدة باريس في ٤ مارس :

وبينما كانت التحركات الحربية لا تهدأ على الجانبين، كانت هناك التحركات (السلمية) ففي بداية فبراير ١٨٥٧ (بان الالتحام في برازجون وما تبعه) أرسلت حكومة فارس مندوبا وهو فاروق خان إلى باريس لاجراء المفاوضات مع السفير البريطاني هناك اللورد كاولي[1] وقد أوضح في هذه المرة أن لديه الصلاحية في التفاوض حول جميع المسائل والمشكلات، إلا مسألة أقالة الصدر الأعظم مؤكدا على أن أي أتصال بين الصدر الأعظم ومري سيتولاه الشاه بنفسه حيث أن موافقته على هذا الطلب البريطاني من شأنها أن تفسح المجال أمام روسيا لتطالب بالمثل مما يعني ضياع أستقلال البلاد. وأهم هذه المسائل ما يتعلق بالجلاء عن هراة وأن تحل جميع

١ – راجع كيلي : جـ ٢ ، ص ١٣٦.

المنازعات الفارسية الأفغانية عن طريق الوساطة البريطانية، ومسألة تعيين القناصل البريطانيين في فارس. حيث توجد قنصليات روسية، والتساهل في تأجير بندر عباس لسقط[1] وقد رحبت الحكومة البريطانية بهذه المبادرة، وعجلت في دراستها، ولم يكن ذلك بسبب الأحوال في فارس، بل تدخلت قوى أخرى - أهملها حدوث ثورة في الهند كانت تتطلب عودة القوات البريطانية التي تعمل في فارس، إضافة لصراعات حزبية داخل البرلمان الانجليزي بسبب حادث كانتون في الصين.

لقد أعد كل من بالمرستون وكلارندون ورقة بالشروط من وجهة نظرهما، كما أعد مري مسودة أحيلت إلى جوستن شيل*[2] ليبدي ملاحظاته عليها. وبعد دراسات طويلة ومحاورات أقر مجلس الوزراء في الأسبوع الثالث من يناير ١٨٥٧ مقدمات التسوية. ولم تكن الشروط من وجهة النظر البريطانية هي محل الدراسة وحدها، بل جرى أيضا التساؤل فيه حول المكان الذي تجري المفاوضات في لندن حيث يخشى أستغلال الأحزاب لوجود فاروق خان فيها، وبخاصة أن حرب فارس لم تكن تلقى تأييدا شعبيا في الأوساط اللندنية، أم في باريس حيث يخشى تأثير فرنسا والسفير الروسي؟ ومع كل فقد كانت باريس هي الأفضل.

وعلى هذا الأساس بعث كلاريندون إلى كاولي معربا عن أمل حكومة لندن في إمكانية التوصل إلى إقامة علاقات ودية بين بريطانيا وفارس على ضوء ما جرى من مفاوضات بين كاولي وفاروق خان. وفي هذا الصدد أرفق له صيغة اتفاقية سلام مكونة من أثني عشر شرطا مبينا له أنه يمكن لفاروق خان أن يبادر إلي التفاوض بشأنها والتوقيع عليها في لندن، وفي الوقت نفسه طلب إلى كاولي أن يقنع فاروق خان بصيغة الاتفاقية هذه مبينا له أن شروطها معتدلة، وإذا ما رفض - فاروق خان - هذه الشروط

---

١ - توجه فاروق خان بتحريض من السفير الفرنسي في الأستانة إلى فرنسا وعرض الخلافات البريطانية الفارسية على نابليون الثالث، كما سرت اشاعة بأنه إذا احتلت جزءا من الجنوب الفارسي فإن روسيا ستحتل استراباد وساحل قزوين المحاذي لها، وإن كان قد تبين للانجليز فيما بعد أن هذه مجرد اشاعة اطلقها الفرس.

راجع كيلي : جـ ٢ ، ص ١٢٨ - ١٢٩.

٢ - Bodl. Libr., clarendon Papers, Vol. 73. Clarendon, Paris, 1, Feb., 1857.

* كان جوستن شيل يعمل من قبل وزيرا مفوضا في طهران، ومن ثم فقد كان لخبرته بفارس وزنها.

فإن الحكومة البريطانية تحتفظ لنفسها بحق الاصرار على الشروط الأخرى التي سيجري وضعها لاحقا في لندن، والتي لن تكون في صالح بلاد فارس مثلما هي عليه في هذه الاتفاقية.

وأضاف كلاريندون موصيا كاولي بأن يقنع فاروق خان بأن الاقتراح المتعلق بتأجير جزيرة خرج للحكومة البريطانية ليس الهدف منه مضايقة فارس أو أنه يحط من كرامة الشاه، أو يؤثر على وحدة أراضي فارس بل بالعكس فإن ذلك يعني أن الطرفين لهما مصالح مشتركة في وقف أعمال القرصنة وتجارة الرقيق وأن أحد الطرفين فقط وهو بريطانيا لديها الوسائل المادية للقيام بهذا العمل.

كما أقترح أن يشارك الطرف الآخر وهو فارس - بما تستطيع في سبيل الهدف المشترك وذلك عن طريق منح التسهيلات لبريطانيا للقيام بالمهمة واعطائها مكانا أو محطة لرسو سفنها وإراحة بحارتها وتزويدها بالمؤن والوقود اللازمين[1] .

ويتضح لنا من هذه الرسالة أسلوب رجال الساسة البريطانيين في التعامل مع فارس بأسلوب (لا يجوع الذئب ولا يفني الغنم) حيث أنها لم تكن تريد لفارس أن تنهار وفي الوقت نفسه لا تريد أن تفقد نفوذها في هذه المنطقة فلجأت إلى أسلوب الترغيب والترهيب حين يوحي كلاريندون بأنه مالم توافق فارس على صيغة المعاهدة التي اعتبرتها بريطانيا معتدلة، فإنها ستفرض اتفاقية بشروط أقسى بعد، موحيا بطبيعة الحال بأن القوة هي التي ستفرض مثل تلك الاتفاقية.

ومما يستلفت النظر أيضا ما لجأت إليه بريطانيا للسيطرة على جزيرة خرج ذات الموقع الاستراتيجي، تحت ستار التسهيلات لتحقيق هدف مشترك يتصف بالطابع الانساني وهو محاربة القرصنة وتجارة الرقيق، وذلك جريا على عادتها في تبرير وصولها إلى أهدافها الرامية إلى السيطرة وتوطيد النفوذ.

وعلى أية حال، فإن فاروق خان أخذ يتراجع عن موقفه السابق، وبدأ في التشدد بعض الشيء أمام المفاوض البريطاني، حيث تبين له أن بلاده ليست على أستعداد الدخول في تسوية سلمية مع بريطانيا، مالم تتعهد الحكومة البريطانية كتابة بأن لا

---

١ - راجع كيلي : جـ ٢ ، ص ١٤٨.

تعمل بريطانيا مستقبلا على توحيد الولايات الافغانية بما فيها هرات في مملكة واحدة، حيث أن قيام هذه المملكة من شأنه أن يهدد فارس، كما وأبدى مخاوفه من بقاء القوات البريطانية في فارس طيلة المفاوضات بين البلدين لعقد اتفاقية السلام، وأما بالنسبة للاتفاقية التجارية فقد عرض تجديد الاتفاقية القديمة فقط دون عقد إتفاقية جديدة[١] .

هذا وقد ساد الاعتقاد في بريطانيا بأن فرنسا وراء التغير الذي طرأ على موقف المفاوض الفارسي، من خلال تشجيعها له من وراء الستار على الوقوف بصلابة أمام المفاوض البريطاني، أذ أن وزير الخارجية الفرنسي لم يترك فرصة إلا وأنتهزها لمناقشة الأمر مع كاولي، مما أوحي لبريطانيا بأهتمام فرنسا بهذا الموضوع، غير أن هذه النظرة تغيرت، حيث أعتبرت الحكومة البريطانية موقف فرنسا وديا، واشاد كلاريندون بموقف الامبراطور الفرنسي ووزير خارجيته[٢] .

والواقع لا يمكننا أن نستبعد الدور الفرنسي في هذا المجال نظرا للتنافس الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا، إذ لابد أن يكون موقف فرنسا صلبا مع فارس حتى لا تحصل بريطانيا على كافة مطالبها، بشأن الحرب الفارسية البريطانية وما كان يواجهه بعض الأعضاء من نقد لبالمرستون لاعلانه الحرب دون دعوة البرلمان لتقرير ذلك، فالحرب لم تكن تلقى تأييدا شعبيا في لندن على الأقل في الوقت الذي كانت تعارض فيه شركة الهند الحرب بسبب النفقات التي ألقيت على كاهل حكومة الهند لا على الحكومة البريطانية. وقد أستغل خصوم الحكومة السياسيون هذه الحرب إلى أقصى حد وبخاصة فيما يتعلق بالناحية الدستورية وشن أحد النواب هجوماً عنيفاً على الحكومة بهذا الصدد وصرح في البرلمان بأن من الأفضل لها أن يلجأ إلى الوساطة لا أن تشن الحرب، خاصة وأن مسلكها كان ينطوي على مخالفة لمبدأ دستوري أساسي : فالحكومة لم تعلن الحرب واكتشفت بالاعلان الذي أصدره الحاكم العام في الهند، في حين أن إعلان الحرب كان لابد أن يصدر عن الملكة.

وطالما أن ذلك لم يحدث فإن النائب أشار إلى أن على الحكومة أن تدعو مجلس العموم إلى الانعقاد. كما أشار إلى أن الحكومة التي شنت الحرب شاركت حكومة

١ - Bodl. Libr; - Ms. Clar. dep. c. 27. Clarndon to Cowlery. 6 Feb. 1857. (No. 184).

٢ - Bodl. Lib; - Clarendon papers, Vol. 73. Cowley to Clarendon, Paris. 16 Feb. 1857.

الهند في دفع نفقات الحملة دون أن تكون الحرب متعلقة بالهند التي لا يجب أن تتحمل نفقاتها التي تقع مسئوليتها على البرلمان.

وقد انتقد نائب آخر موقف الحكومة وطالب بإدخال تعديل على القرار الخاص بلومها على تصرفها في هذا الموضوع. وأضاف خصوم الحكومة إلى قائمة نقدهم حادث كانتون* الذي أدى إلى إندلاع الحرب بين بريطانيا والصين(1) .

و قد أدى النقد الذي واجهته الحكومة البريطانية بسبب حربها مع فارس إلى تعزيز الموقف التفاوضي لحكومة طهران. ومهما كان الأمر، فإن بالمرستون اضطر إلى التراجعٌ عن موقفه المتشدد أمام النقد الحاد الذي وجه له في البرلمان رغم عدم قناعته

---

* حادثة كانتون :

ترجع هذه الحادثة إلى القرن التاسع عشر حيث بدأ الصراع بين بريطانيا والصين على تجارة الأفيون، حيث انتشرت تلك التجارة هناك فأرادت الحكومة الصينية أن تمنع تلك التجارة بل تقضي عليها فأصدرت أوامرها للتجار الانجليز بتسليم مالديهم من صناديق الأفيون وعددها (٢٠ر٠٠٠ صندوق) واستولت عليها وأحرقت بأحتفال عام، وأخذت من التجار تعهد بعدم المواصلة بتلك التجارة الناقضة لقوانين الامبراطورية وسارت الأمور كما يرام لكن عاد التوتر من جديد حين قتل أحد المواطنين الصينيين من قبل جماعة من البحارة الانجليز، فثار أمير البحر ونائب الأمبراطور «لن توهسو» وطلب من المشرف البريطاني على التجار بتسليم المجرم إلا أن المشرف رفض تسليم المجرم، فأصدر «لن» أمرا قاطعا بتسليم المجرم وخير السفن البريطانية الراسية عند مدخل النهر بين الرحيل أو الدخول فيه مدي ثلاثة أيام، وأتبع أمير البحر الأعلى انذاره بحشد السفن الحربية. فكانت النتيجة أن «اللورد بالمرستون» وزير الخارجية أعلن أن الصين قبضت على تجار بريطانيين وليس على أفيون، وأرسل الأسطول في نوفمبر ١٨٣٩ ، ليعالج السخط الذي عم وهكذا اشتعلت الحرب، «حرب الأفيون الأولى» وتفاصيل تلك الحرب لا تهمنا في هذا المقام، ولكن يهمنا موقف الحكومة البريطانية تجاه هذا الموقف، فقد طالبت بالتعويض عن الأفيون المستولى عليه، طالبوا بالحصول على امتيازات جمركية وفتح عدة موانىء للتجار والقناصل الانجليز وبالأخص الاستيلاء على جزيرة يستطيع الانجليز ممارسة نشاطهم فيها في ظل القوانين البريطانية.

فاحتلت القوات البريطانية شنغهاي ١٨٤٢، وأخترقت الخط المركزي العظيم لحياة الصين: وهو نصريا، ثم أتخذت الأهبة للقيام بهجوم على مدينة نانكنج العظيمة وهناك عقدت معاهدة نانكنج (٢٩ أغسطس ١٨٤٢).

* آسيا والسيطرة الغربية، ١٣٢ - ١٣٥.

پانيكار (ك. م).

ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويد.

١- Bodl. Lib., U Vol. 138. Cirendon to Woodehouse, 25 Geb. 1857.

بصواب هذا النقد حيث كتب لكلارنيدون مبينا أن هؤلاء الذين يوجهون له النقد واللوم بسبب الحرب مع فارس لا يدركون مدى أهمية القضايا المتنارع عليها، حيث أن بريطانيا بدأت بالدفاع عن أولى الخنادق المحيطة بالهند والمواجهة لروسيا، إذ أن ما يثيره المفاوض الفارسي من مشاكل حول أفغانستان إنما يأتي بتشجيع ودفع من روسيا، مما يجعل من الضروري أن تحتفظ بريطانيا بموقفها من هذا الموضوع، وبالتالي فلابد أن تتمسك بما يلي:–

١ – ضرورة تخلي الفرس عن كافة مطالبهم تجاه هرات، وعن أية مطامع أو نوايا مستقبلية لغزوها.

٢ – الأعتراف باستقلال هرات، وإذا ما طالب الفرس بأن تبادر بريطانيا من جانبها بهذا الاعتراف، فعندئذ ممكن التغاضي عن هذا المطلب والاكتفاء بالشرط الأول.

٣ – رفض بحث علاقات بريطانيا مع أفغانستان لدى أي تفاوض مع الفرس.

٤ – تتولى بريطانيا الوساطة في حالة وقوع أي خلاف بين فارس وأية ولاية أفغانية بما في ذلك هرات، ويمكن أن تعد بريطانيا باستعمال وساطتها لتسوية مثل هذه المنازعات بما يكفل العدالة لكلا الطرفين[1] .

هذا وقد أجتمع مجلس الوزراء البريطاني، وبحث توصيات بلمرستون هذه وأقرها، ومن ثم صدرت تعليمات لكاولي بأن يتقيد بها. غير أن ذلك لم يفلح في كسر الجمود الذي ساد المفاوضات، إذ بقي فاروق خان مصرا على أنه لا يستطيع الموافقة على أي من المقترحات البريطانية مالم تتعهد بريطانيا بأن لا يتم توحيد الولايات الأفغانية بالمستقبل.

ولقد بات واضحا دور روسيا في هذا الموقف الفارسي، حيث أن أهتمام الدبلوماسية الروسية كان مركزا على منع اتفاقية السلام الفارسية البريطانية من التأثير على المصالح الروسية، إذ راح الدبلوماسيون الروس يرقبون بحرص محادثات السلام، وعلى ذلك، فإن السفير الروسي في باريس كسليف (C. Kiselov) بقي على اتصال مع فاروق خان. ولقد انزعجت روسيا بصورة خاصة من مطالب بريطانيا

---

١ – راجع كيلي : جـ ٢، ص ١٤٩ – ١٥٠.

الخاصة بإقامة قنصليات لها في المناطق الشمالية من فارس، فكتب جورتشاكوف للمبعوث الروسي في طهران لجوفسكي Lagovskii قائلاً : «..من المهم جدا لنا منع قيام قنصليات بريطانية على شواطيء بحر قزوين، فالمشكلة الأساسية تكمن في أنه يجب أن لا تكون لبريطانيا أية قنصلية على شواطيء بحر قزوين بأي حال من الأحوال»[١] .

كما أن وزير الخارجية الروسي أعرب للورد وود هاوس Lord Woodhouse السفير البريطاني في بطرسبورغ عن استياء حكومته للمطالب البريطانية بشأن إقامة القنصليات في المناطق الشمالية من فارس، مبينا له أنه مالم تتخلى بريطانيا عن مطالبها بهذا الشأن، فإن حكومته ستباشر نفوذها لتحول دون موافقة حكومة طهران على الاتفاقية الانجليزية الفارسية المقترحة[٢] .

وقد أطلع السفير البريطاني وزير خارجية بلاده على الموقف الروسي الذي أثار الغضب في الأوساط البريطانية التي اعتبرته موقفا عدائيا، مقللة من قدرة روسيا على الوقوف أمام مصالح بريطانيا، إذ أن كلاريندون قال: (ان جورتشاكوف قد يحرق أصابعه إذا لم يحترس)[٣] .

ويبدو أن كلاريندون في لجوئه إلى هذا الأسلوب في التهديد إنما كان يرمي إلى شن حرب نفسية على نظيره الروسي، إذ أن حقيقة الأمر كانت غير ذلك فالحكومة البريطانية كانت تخشى أن تجرها الحرب مع فارس إلى حرب مع روسيا من شأنها أن تهدد الوجود الأنجليزي في الهند، وهذا ما كان يراه كلاريندون نفسه، وبالتالي فقد عملت بريطانيا جاهدة على تجنب الاحتكاك بروسيا.

معاهدة الصلح الفارسية البريطانية :

رأينا كيف أن المفاوض الفارسي قد عمل على استغلال موقف كل من روسيا وفرنسا القائم على التنافس مع بريطانيا، وهذا ما جعله يتشدد في المرحلة الثانية من المفاوضات مع السفير البريطاني في باريس. غير أن فرنسا لم تستمر طويلا في دورها

---

١ – Bodl. Lib.; - Mis Clar. dep. C. 691. Palmerston to Clarendon. 17 Fe, 1857.

٢ – Mikal Vala Claisky; p. 76.

٣ – Loc-Cit

التحريضي للمفاوض الفارسي، خشية أن يثير ذلك بريطانيا ويسيئ لعلاقاتها الودية آنذاك بفرنسا، وبدأ هذا التراجع الفرنسي واضحا في إشادة كلاريندون بالموقف الفرنسي.

على أن ما تجدر الاشارة إليه أن الموقف الفرنسي هذا قد أثر في المفاوض الفارسي عندما شعر لدى آخر مقابلة له مع وزير الخارجية الفرنسي في أواخر فبراير ١٨٥٧ بفتور الدعم الفرنسي. عندئذ أدرك فاروق خان أن لا أمل من الاستمرار في التشدد مع مسار المفاوضات مع بريطانيا، مما جعله يرضخ للمطالب البريطانية ويعمل على إيجاد تسوية سلمية مع بريطانيا. وعلى ذلك وقع فاروق خان بالأحرف الأولى في ٤ مارس ١٨٥٧ في باريس على معاهدة جاء فيها أن على فارس أن تجلو عن أفغانستان وتعترف باستقلالها[١] وأن تحيل أية منازعات مع الأفغانيين إلى الوساطة البريطانية. وهناك مادة بشأن ضرورة الاستقبال الودي للبعثة البريطانية لدى عودتها إلى فارس، وكذلك مادة جددت إتفاقية عام ١٨٥١ الخاصة بمنع تجارة الرقيق[٢] .

على أن اللورد كيرزون (Lord Curzon) اعتبر شروط هذه المعاهدة في صالح فارس، وقال أن ذلك يدلل على التسامح البريطاني، وينفي وجود أطماع بريطانية في التوسع، مقارنا هذا الموقف بموقف روسيا التي أتهمها بأن لها أطماعا توسعية متخذا من شمال فارس مثالا على ذلك، ويستطرد كيرزون في الاشادة بسياسة بلاده، متخذا من موافقتها على الانسحاب من بوشهر دليلا على ما ذهب إليه[٣] .

ومما لاشك فيه أن اللورد كيرزون يعمد إلى المغالطة، جريا على عادته بصفته من أكبر دعاة الأستعمار البريطاني من حيث تجميل الثوب الاستعماري. إذ لم تكن موافقة بريطانيا على الانسحاب من بوشهر وغيرها من الأراضي الفارسية، مرتبطة بحسن نواياها وتسامحها، بل أن الظروف الدولية والداخلية في لندن هي التي أملت عليها هذه السياسة، فروسيا كانت تقف لها بالمرصاد، كما أن بعض أعضاء البرلمان

١ - Bodl. Lib., Vol. Clarendon to Woodhouse. 25, Feb. 1857.

٢ - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب العربية، ص ٦٦٩

ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي.

٣ - Aitchison, C.E.OP. Cit., Vol. X. pp. 74-78.

البريطاني كانوا يرون أن التوسع من شأنه أن يكلف الخزينة البريطانية مبالغ طائلة لا داعي لها، طالما أن التجارة البريطانية تستطيع شق طريقها بسهولة في هذه المناطق دون حماية عسكرية.

وعلى أية حال، فإن أوترام (Outram) لم يعلم بهذه المعاهدة حتى ٥ أبريل وعلى ذلك فقد تابع عملياته الحربية وأبحر من بوشهر في منتصف مارس على رأس قوة وتوجه إلى المحمرة لاحتلالها، وتمكن من أحتلالها قبل نهاية الشهر رغم المقاومة العنيفة التي لقيتها قواته[١] . ومن ثم تقدمت بعض القوات البريطانية وأحتلت الأهواز، وكانت هذه آخر العمليات التي قامت بها الحملة البريطانية، أذ أخذ أوترام بعد ذلك يجري مباحثات مع السلطات العثمانية لضم المحمرة إلى ولاية بغداد، كمكافأة لتلك السلطات على ما قدمته لقواته من مساعدات أثناء الحرب[٢] .

غير أن تلك المباحثات لم تسفر عن نتائج فعلية، إذ كانت بريطانيا قد وضعت المعاهدة مع فارس ووصلت أنباؤها إلى أوترام – وكان من شروطها انسحاب بريطانيا من الأراضي الفارسية فإنسحبت بموجب ذلك من المحمرة بعد حوالي ثلاثة أشهر[٣] . على أن الضعف والتفكك اللذين كانت تعاني منهما فارس جعلها عاجزة عن إدارة المحمرة وحمايتها من الاعتداءات المتكررة، وهذا ما جعل الشاه ناصر الدين، يرى أن من الأجدى منحها الاستقلال، حتى تكون منطقة حاجزة بين بلاده والعثمانيين – وبالتالي، فقد أصدر مرسوما في أواخر عام ١٨٥٧ يقضي بأستقلال المحمرة[٤] . وقد تم ذلك وفق شروط ألحقتها بحكم أسرة الحاج جابر بن مرداو مع أرتباطها بعلاقات وثيقة مع حكومة طهران[٥] .

ومما يجدر ذكره أن الحكومة الفارسية كانت ما تزال مصرة على ضرورة الحصول

---

١ – Gurzon, G.N: - Persia and the Persian Question Vol. 11, p. 619

٢ – حسين خلف الشيخ خزعل: تاريخ الكويت السياسي، ص ٩٩ ، ج ٢.

٣ – –صلاح العقاد (الدكتور): الاستعمار في الخليج (الفارسي)، ص ١٦١.

٤) عبدالواحد باش اعيان: زبدة التواريخ (مخطوط) ج ١٢، نقلا عن مصطفى عبدالقادر النجار : عربستان خلال حكم الشيخ خزعل.

٥) عبدالمسيح انطاكي: رحلة عظمة السلطان حسين في وادي النيل ص ٢٠٧.

على ضمانات من بريطانيا بشأن عدم توحيد الولايات الافغانية، إذ أن فاروق قد غادر باريس إلى لندن في محاولة لاقناع كلاريندون بالموافقة على هذه الضمانات، غير أنه لم يفلح في ذلك، وغادر لندن خائبا. وعلى ذلك بدأ الانسحاب الفارسي من هرات بموجب معاهدة باريس ١٨٥٧[١] .

وهكذا، يتضح لنا أن بريطانيا قد استطاعت فرض شروطها على الشاه رغم المعارضة الروسية بشكل واضح والفرنسيين بشكل خفي، تلك المعارضة التي لم تتجاوز حدود الاحتجاج الذي لم يؤثر في المخططات البريطانية الرامية إلى أبعاد أي خطر قد يهدد مصالحها في الخليج، لما يمكن أن يؤدي إليه من تهديد لامبراطوريتها في الهند، وعلى ذلك، يمكننا القول بأن معاهدة باريس تلك كانت تمثل فرض شروط الغالب على المغلوب. وأما أهم نتائج هذه المعاهدة فقد تمثلت في عودة مري إلى طهران في ١٨ من يوليو ١٨٥٧، في استقبال رسمي مهيب، ومن ثم سحبت جميع الخطابات التي كانت قد أرسلت من فارس للبعثات الدبلوماسية تنال من سمعته.

ومنذ ذلك الوقت اتخذ النشاط البريطاني في فارس شكل النشاط الاقتصادي بصورة واضحة، في محاولة من بريطانيا لتجنب إثارة أية نزاعات سياسية مع فارس حتى تحول دون تطلع فارس نحو توطيد علاقاتها مع روسيا التي لم تكن تترك مناسبة إلا وأستغلتها في مد نفوذها تجاه المناطق الجنوبية من فارس.

وكدليل لحسن النوايا البريطانية تجاه فارس، فقد قررت الحكومة البريطانية في عام ١٨٥٩ نقل رئيس بعثتها في طهران مري نظرا لما كان يتصف به من بعد عن الدبلوماسية في تعامله مع حكومة طهران، مما كان سبباً في الاساءة لعلاقات بلاده مع فارس. وقد عينت بدلا منه الدبلوماسي المستشرق هنري رولنسون (Henry Rawlinson) فلقي ذلك ترحيبا من حكومة طهران.

وعلى ذلك ازدهرت العلاقات بين البلدين طيلة وجود رولنسون في طهران حتى عام ١٨٦٠، حيث أن السلطات الفارسية أعتبرت تعيين رولنسون صفحة جديدة في تاريخ

---

١ – حسين خلف الشيخ خزعل : المرجع السابق، ص ١٠٠.

٢ – روناك ولبر : ص ٩٩ – ١٠٠

العلاقات الفارسية – الانجليزية[1]

على أن يتولى بالمرستون (Palmerston) لرئاسة الحكومة البريطانية، قد غير من هذه السياسة البريطانية، حيث عملت حكومة بالمرستون على تحسين علاقاتها مع روسيا، وفي سبيل ذلك، ثم نقل رولسنون من طهران لأنه كان يعتبر المحرض لفارس لمنع أمتداد النفوذ الروسي في أراضيها. وقد أستمرت هذة السياسة في عهد خلف بالمرستون اللورد رسل (Lord Russel) (١٨٦٥-١٨٦٦) واللورد دربي (Lord Derby) (١٨٦٦-١٨٦٨)[2]

ومما يجدر ذكره أن هذا التحول في السياسة البريطانية قد أثار استياء ومخاوف الحكومة الفارسية، إذ أعتبرت ذلك استسلاما من بريطانيا لروسيا، وهذا من شأنه أن يحرم فارس من مطالبها في مناطق التركمان وخاصة منطقتي نهري جورجان وأترك، على أن كل طرف بقي متمسكا بوجهة نظره، ولكن حكومة طهران لم تترك أية فرصة سانحة حتى تعلن مطالبها في السيادة على التركمان، فمن وجهة النظر الاستراتيجية فإن هذه المناطق تميل لفارس ولا تشكل شيئا آخر غير كونها منطقة حدود لفارس[3] .

وعلى أية حال، فقد استمرت العلاقات الفارسية – الانجليزية حتى نهاية القرن التاسع عشر يسودها التذبذب متأثرة بالعلاقات الانجليزية – الروسية. ومن ذلك ما نراه حين حصل البارون رويتر الانجليزي (Reuter Baron) على امتيازات اقتصادية كبيرة في فارس عام ١٨٧٢ مما أغضب حكومة بطرسبررغ التي استقبلت الشاه ناصر الدين في العام التالي بفتور جعله يدرك أستياء روسيا من منح تلك الامتيازات لشخصية أنجليزية، فألغى تلك الامتيازات، وعاد ليعيدها عام ١٨٨٩، وأتبع ذلك عام ١٨٩٠ بمنح شركة انجليزية أمتياز التبغ في فارس. غير أنه في الوقت نفسه منح بعض الامتيازات الاقتصادية لبعض الروس[4] . وقد كان ذلك مقدمة لتنافس بريطاني روسي شهده أوائل القرن العشرين في فارس مما أدى في آخر الأمر إلى تقسيمهما إلى مناطق نفوذ روسية وأخرى بريطانية.

---

١ – Mikal Valadaisky: PP.80-81.

٢ – نفس المرجع PP.83-85

٣ – نفس المرجع السابق PP.77-78

٤ – رونالد ولبر : ص ١٠٠ وما بعدها.

المراجع

كتب عربية مطبوعة :

١ – ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة : عبد العزيز جاريد، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٢ – حسين خلف خزعل : تاريخ الكويت السياسي : ص ٣٥ – بيروت ١٩٦٢.

٣ – دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة : عبدالمنعم محمد حسين، القاهرة ١٩٥٨.

٤ – صلاح العقاد : الاستعمار في الخليج «الفارسي»، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٦.

٥ – عبد المسيح الانطاكي : رحلة عظمة السلطان حسين في وادي النيل، القاهرة ١٩١٧.

٦ – كارل بركلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦٨ – الطبعة الخامسة.

٧ – كورنيلوف : الوثائق التاريخية حول حدود أقليم خزسان مع المقاطعات الروسية والأفغانية، موسكو ١٩٤٨

٨ – جون كيلي : بريطانيا والخليج – ١٧٩٥ – ١٨٠٠، الجزء الثاني، ترجمة : محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان : وزارة التراث القومي والثقافة.

٩ – لوريمر : دليل الخليج العربي، الجزء الأول والجزء الخامس، ترجمة : المكتب الثقافي في الديوان الأميري بقطر ١٩٦٧.

١٠ – مصطفى عبدالقادر النجار : عربستان خلال حكم الشيخ خزعل، القاهرة ١٩٧٠

١١ – مصطفى عبدالقادر النجار : التاريخ السياسي لامارة عربستان، دار المعارف بمصر – القاهرة

١٢ – نوري السامرائي : محاولات التوسع البريطاني شمالي الهند في منتصف القرن التاسع عشر، «بحث غير منشور».

مراجع أجنبية :

I Unpulished Documents :

1 - **India Office Record :**

Letters and Despatches to India,
L / PXS / 5 / 559.
L / PXS / 5 / 489.
L / PXS / 5 / 353.

2 - **Public Records Office :**

F. O. 78 / 1162.
F. O. 60 / 226.
3 - Bodleian Library :
Clarendon Papers.

II Published Documents :

Aitchison; - A Collection of Treaties, Enagements, and Sanads, Relating to India and Neighbouring Countries. Vol. X. Appendix 10.

دوريات أجنبية :

III

Middle Eastren Studies; Vol. 19, November - January 1983.
Mikal Voldarsky, Persia and the Great Powers. 1856 - 1869

كتب أجنبية :

IIII

1 - Curzon, G.N. Persia and the Persian Question. Vol. II.
2 - Sykes Percy : A History of Persia, Vol. 2. Third Edition. London, 1969.
3 - Roger Parkinson : Ency of Modern Wars. Routiedge and Kegan Pul, London, 1977

in press) which will help teachers to think about their own cultural studies teaching and begin to develop the more structured and rigorous approach which will be more successful in fulfilling the aims expressed in the quotation I gave earlier to which we all, I suspect, subscribe without knowing quite how to attain them.

I am aware that much of what I have said is eurocentric and I hope that by expounding my ideas in a culture which is quite new to me, they will be refined and developed - and my own tertiary socialisation expanded.

References

Byram, M. (1986) Minority Education and Ethnic Survival, Clevedon, Avon: Multilingual Matters.

Byram, M., Esarte-Sarries, Y. and Taylor, S. (in press) Cultural Studies and Language Learning: a Research Report. Clevedon, Avon: Multilingual Matters.

Byram, M. and Esarte-Sarries, V. (in press) Investigating, Cultural Studies in Foreign Language Teaching: A Book for Teachers. Clevedon, Avon: Multilingual Matters.

D'Andrade, R.G. (1984) "Cultural meaning systems". In R.A. Shweder and R.A. Levine (eds) Cultural Theory, Cambridge: CUP.

Geertz, C. (1975) The Interpretation of Cultures, London: Hutchinson.

Goodenough, W.H. (1964) "Cultural anthropology and linguistics". In D. Hymes (ed), Language in Culture and Society, New York: Harper and Row.

HMI (1985) The Curriculum from 5-16. London: HMSO.

Midgley, M. (1980) Beast and Man. The Roots of Human Nature. London: Methuen.

Quinn, N. (1985) "'Commitment' in American marriage: on cultural analysis". In J.W.D. Dougherty (ed) Directions in Cognitive Anthropology, Urbana: University of Illinois Press.

Vygotsky, L.S. (1971) Mind in Society, Cambridge, Mass: Harvard University Press.

cultural information was supplied and the teacher did not offer personal interpretations and anecdotes in the way that was done in the "survival" or "academic" approaches. On the other hand cultural information was often compared to pupils' own experience, and talk about culture was sometimes introduced by pupils' questions.

In an interview after the period of observation this teacher said she thought there are certain topics of cultural information which she always tries to include although not in a pre-planned way. She implied that the choice is influenced by what pupils find interesting: school life, food, television, shopping and the prices of goods. She includes them because "they are interested - they are always curious about other people", but she does so on opportunist basis:

"They love that. They'll listen to that but that is enough. Just tell them about that and then go on with the rest of the lesson, and if something else crops ... It's bitty but they build up their own picture."

The purpose of our research was to find out whether they do in fact build up their own picture, and how. The full report includes accounts of pupils' "picture" of France, of the sources of their information, of the influence of parents, siblings, the media etc, of the role of teaching French and of the links between The purpose of our research was to find out whether they do in fact build up their own picture, and how. The full report includes accounts of pupils' "picture" of France, of the sources of their information, of the influence of parents, siblings, the media etc, of the role of teaching French and of the links between teaching styles and pupils' knowledge of France. The conclusion of the report is that the effect of language teaching is "disappointing but scarcely surprising". It is disappointing in view of the widely held assumptions about the positive effects of teaching on insights and attitudes and the genuine efforts of teachers to realise these assumptions. It is scarcely surprising because of the overwhelming power of extra-school influences creating ethnocentric views in children from a pre-secondary age. It is unlikely that a few hours of French can counteract such influences unless there is a structured and rigorous attempt to do so, and yet observation shows that teachers' efforts are usually incidental to their concern with other matters and remain unstructured and haphazard. I believe that our case-studies are in this respect representative of many others.

What shall we do to improve the situation? Our project can contribute directly in three ways. First we shall make our findings available in a research report (Byram, Esarte-Sarries and Taylor, in press). Second, we are now researching one of the most important periods of teachers' own cultural learning - the Year Abroad. Third we shall publish a book based on our research (Byram and Esarte-Sarries,

the giving of instructions and other aspects of lesson management. In essence the approach can be described as 'practical' and 'instrumental' with continuous stress on the notion that pupils will need the linguistic and cultural knowledge in order to 'survive' a visit to France.

The third approach, dubbed "language enjoyment", takes us back to a style with a high achieving class. Where the "academic approach" is future-oriented, concerned with preparation for examinations, and humour is rather part of the teacher-pupil relationship than a teaching technique, in the "language enjoyment approach" the orientation is more towards the here and now, to appreciating and understanding language and having fun in the lessons.

Lessons were characterised by variety and flexibility in techniques, which involved games, drawing and role play, as well as gramar explanations and exercises. Pupils were encouraged to enjoy themselves, for example in introducing humour into scenes played out and recorded on video. Lessons might be changed on the spot to suit the humour of the class and the teacher, despite plans for other activities. In short, the subject was presented as interesting in itself in a class which was keen to learn and willing to work.

Cultural information was not a major part of the lessons. The teacher would spontaneously add some of her own information to what occurred in the textbook, but briefly. This may be accounted for by the teacher's view of the purpose of this information: that children should be taught to accept differences but that there is not specific body of knowledge which must be conveyed. A second reason for this approach was mentioned by the teacher herself who was in fact qualified in German rather than French and, though she had been to France on school visits and exchanges - both as pupil and teacher - she had less experience than the other three.

The fourth approach is also language-dominated and there are some common characteristics in the style, called 'the language skills approach'. This teacher too was qualified in German rather than French and had far more and wider experience in Germany than France.

The class involved in the "language skills approach" was also comparable to that in the "survival approach": they were both considered to contain pupils of average or below average ability. Nonetheless the uniqueness of each class and teacher - and therefore of each style - remains the significant fact. Lessons were characterised by stress on language learning or skill in using language and recall of vocabulary, which were often tested. The dominant techniques were those suggested by the textbook, which include many games and role-plays. The textbook was dominant also with respect to what

term and, in the short term, also helps to make lessons more attractive and interesting. Finally, as we shall see, the four teachers were differently qualified, but they had in common experience of visiting France on a number of occasions and in similar circumstances: they had all been involved in school visits and exchanges which had taken them into French families and French schools.

Some had wider and more experience than this but this was a common minimum. Against this background we turn to the different approaches, each given a label for convenience.

The first approach we called 'academic', to summarise the combination of characteristics observed. The dominant ethos was of a subject to be taught under some pressure of time - this was the class with a lower allocation than others - to a group considered to be the highest achievers in their year. Time was spent on exercises on language structures; there was rapid progression through the textbook; homework was given regularly and pupils expected to take responsibility for handing it in. The activity of language learning was carried out in serious ways, with little role-play and no games or drawing etc.

Despite the emphasis on language, a considerable amount of cultural information was provided, as the opportunity arose from the textbook. The information was often anecdotal, referring to the teacher's own experience, and went beyond the scope of the textbook. For example the teacher was observed to talk about military service and the police force in France, the system of car registration numbers and the regions they refer to, and the system of discipline in French schools. When information from the textbook was used pupils were asked to read a section for homework and then asked factual questions about it later.

The second approach, called the "survival approach", arose with a group of lower ability. Unlike the previous teacher who was a graduate in French, this one had a qualification in art and was teaching French as a consequence of her own enthusiasm for France and ability in French. She preferred to teach 'less able' classes partly because this meant she could spend more time on teaching about the country, for she found 'pure' language teaching uninteresting.

In this approach lessons were characterised by a relatively large amount of information presented in the spirit of the textbook which stresses preparing pupils for visit to France as tourists, advising and warning them of possible difficulties. A variety of teaching materials was used, including video-recordings, documents and the like brought from France and narration of the teacher's own experience as a tourist. French was frequently used by the teacher in the classroom, including

investigated two main questions:

- do learners have a more accurate and differentiated view of French daily life after learning French?
- do they have a more positive attitude towards French people after learning French?

The investigation was carried out in two schools where we used a number of techniques for gathering data:

- giving pupils attitude tests
- interviewing pupils informally about their views of French life
- observing French lessons and analysing textbooks and the image of France they portray
- collecting information through questionnaires about pupils' visits to France and abroad, family connections with foreign countries, perceptions of France in the public media and so on.

We tested 400 pupils and interviewed 200. We observed lessons for a whole school year. We carried out both qualitative and quantitative analysis.

The results are impossible to summarise in a paper of this length. I can simply take one aspect - if there is time - and describe it in isolation.

Part of the project was devoted to describing just what does happen in classrooms between pupils and teachers. How do teachers "tell" about France. What is it that pupils remember? Do teachers have a particular plan or a specific method for telling? Four teachers were observed throughout one year with one of their classes. Our purpose was to describe the variety, not to evaluate the differences, for we need first to know what happens before we can even think about doing it better.

Before the variety, let us remember what the four teachers and classes had in common. They were all third year secondary classes with the same subject on their timetable, "French". They were all using the same textbook. All the pupils had studied French compulsorily since entering comprehensive school, although the allocation of time in the past had varied and one of the classes had, in the third year, less time allocated than the other three. All the classes were in principle preparing for the same examination, although some pupils would choose not to continue in the fourth year. The four teachers all stated a belief in the importance of learning about French culture as a fundamental part of their subject. They expressed variously the notion that cultural knowledge or information should have a beneficial effect on attitudes and uaderstanding in the longer

from the minority group and who embodied the values and cultural schemata of the minority, was the most important factor in the attempt to maintain a bicultural or minority ethnic identity.

* * *

I turn now to the question of foreign language teaching. What light does this discussion of cultural learning and bicultural identity throw on foreign language teaching? I said that bilingual children often meet their first new phase of cultural development when they enter school. This is often called secondary socialisation, coming after the phase of primary socialisation in the family. When children enter secondary school it is often at this point that they begin to learn a foreign language. When they meet a foreign language it is usually the first time that they have, formally and in a structured way, been introduced to a culture other than the one or ones in their immediate environment. It is at this point that a new phase of their development can begin - what might be called a phase of 'tertiary socialisation' - when they may be exposed to the values and schemata of a new culture by beginning to learn the language of that culture. It is open to the teacher to decide how much the links of language and culture shall be made explicit and visible to the learners.

This broadening of cultural horizons is often claimed to be one of the main educational justifications for foreign language teaching. I will quote just one such claim:

Foreign language study ... offers insight into another culture and as such is concerned with the human and social areas of experience. Throughout the course pupils can be encouraged to view the familiar from a different angle, not least in terms of people's behaviour, and thereby widen horizons and break down feelings of insularity. (HMI, 1985: para. 52).

Viewing the familiar from a different angle and breaking down feelings of insularity may be brought about in the confrontation of the schemata of one culture with those of another. For example, perceptions of what is edible in one culture often differ from those of another. English people usually consider snails to be inedible - although they are eaten in France - and French people do not eat turnips, which they consider suitable only for giving to cows. Yet the English do eat turnips.

The question then arises whether this confrontation does in fact break down feelings of insularity, the perceptions which separate one ethnic group from another, and do in fact make people more understanding of each other. This is a question which we have addressed in a major research project over the last four years. We have

The consequences of growing up among the tensions of a bicultural community can be seen most directly in children's accounts of their own identity. It is about the age of 9 - give or take 2 years - that children become aware of their group identity, of the notion of belonging to a nation or to an ethnic group. (I shall leave aside the question of the relationship between nationality and ethnicity). In my research in Brussels some years ago, I had occasion to talk to children aged 11 or 12 who were of Italian origin living in Belgium. Some were second generation and still spoke a lot of Italian at home; others were third generation and spoke mainly French. All of them had however been put in an experimental bicultural programme which aimed to maintain their Italian identity in some way. The consequences were sometimes alarming. Children felt confused. They said such things as "je me sens bien plus italien; mais ici, ca me dit d'etre belge et italien, quand je suis ici" or: "avant, quand j'etais la (en Italie) - pour venir en Belgique, j'avais envie de venir en Belgique; et maintenant que je suis en Belgique j'ai envie de rentrer en Italie" or

"je suis sicilienne ... belge aussi; j'aime pas tellement qu' on me dit que je suis belge parce que ... je sais pas pourquoi". Some parents made similar statements, "Bien, disons que c'est difficile; on a pris toutes les habitudes d' ici, mais c'est difficile de dire si on est belge a cause de ca, comme il est difficile de dire qu' on n'est pas belge non plus; puisque tous les enfants sont ici; alors on est ni l'un ni l'autre; ici on est etranger et chez nous on est etranger aussi".

This feeling of belonging nowhere is one which I suspect affects many people living in and between two cultures. I found the same thing on another occasion when researching in the border area between Denmark and Germany. Here the children were older and had begun to clarify their own thinking and feelings. For them there was at least one place where they felt at home in the border area, i.e. between the two countries.

"for me the feeling of being tied is really like this; because I really have no fatherland or whatever ... because in Germany I always still feel a little Danish and in Denmark I feel quite clearly German - and here is simply the only place where we really belong".

(Byram, 1986 : 99-100)

In both Belgium and Denmark, the school plays an important role in developing a bicultural identity. In Brussels, the curriculum contained lessons in Italian, both as a subject and as the language for teaching other subjects, such as mathematics, religion and so on. In Denmark, the schools were entirely German in their use of the German language for all subjects except a few lessons in Danish. In both situations, however, the presence of teachers who were themselves

internalises the shared schemata of a cultural community and thereby becomes a social being. The culture thus has an objective existence in the sense that it is common to many individuals; it is a commonly developed part of the subjectivity of the members of a particular community. This is however the only objectivity culture has. There are objects which express culture often in art or technology - and there are behaviours which conform to culture, but these are secondary phenomena which depend on culture for their meaning and existence.

What then is the position of individuals who are bilingual and bicultural? What happens when children are brought up in an environment where there are people who belong to two cultural communities? As the child develops, its contact and interaction with others goes through a number of stages. Its social space is extended and it acquires new schemata as old ones are modified. It leaves the home and family and enters into contact with friends and social institutions. From direct experience, it moves to vicarious experiences - through television, books and other media. As it acquires the beliefs, values and knowledge of its environment and negotiates and discusses them with others, its cultural schemata are under continuous change and extension.

Now among these schemata, there are certain specific ones which give the child the feeling that it belongs to a specific cultural group. He shares them with others and they serve to reinforce and circumscribe the group adherence (Taylor 1971; Barth, 1969). The group may be ethnic, political, religious or other, and the individual usually belongs to several. Many schemata are shared by different groups, but each group feels the need to establish its own identity by separating itself off in some respects from others and developing its own group - specific schemata. This causes breaks in communication between cultural groups because certain views and beliefs are used deliberately or unconsciously to separate the particular group from others.

A child which grows up surrounded by two groups is thus open to strong pressures. It can accept many schemata without any problem, because they are common to both groups. On the other hand it experiences schemata which are mutually exclusive. It is not merely a question, however, of rational selection of one set of views rather than another, for we are here speaking of the formation of identity, of the cognitive and also affective development of the child. It is not a question of choosing between two external options, but of an interactive process in which the child is pulled in opposing directions. Often it is the entry into school which marks the first major tension in the child's life and in bilingual and bicultural communities the way in which the school is organised is extremely significant.

individual. A similar point is made by Midgley, who also introduces the notion of instinct: "man is innately programmed in such a way that he needs a culture to complete him. Culture is not an alternative or replacement for instinct, but its outgrowth and supplement" (1980 : 286). Instinct is what most resembles the fundamental nature of human beings but it is not accessible in any 'pure' form. The individual's general cultural potential is realised by exposure to a particular culture - a parallel and integral development to the particular linguistic realisation of the individual's potential for acquiring a language. This means that the particular culture and its language will stamp the individual indelibly, will be an inseparable element of the individual's nature. This view is supported by work in cognitive anthropology, which suggests that the limitations of a particular culture and language circumscribe the conceptual development of individuals belonging to the cultural community (Quinn, 1985; D'Andrade, 1984).

In developmental psychology, it is Vygotsky and his followers who have studied the ontogenetic process of cultural learning. The child's potential is realised when it comes into contact with others, and a major part of this interaction is linguistic. It is through using linguistic and other signs that the child acquires meanings and gradually recognises the meanings of signs he has already used in social interaction without full recognition of their significance. 'External' culture, in the sense of shared meanings and patterns of behaviour, is 'internalised' because of the child's innate disposition to fulfil an incomplete potential. This does not mean that the internal system of cultural meanings is simply reflections of the external system. The internal system has, according to Vygotsky (1971 : 57) its own laws, and semiotic webs of meaning are created which enfold individuals. As Geertz puts it : "man is an animal suspended in webs of significance he himself has spun; I take culture to be those webs ..." (1975 : 5).

These webs of meaning have been analysed in various ways - routines, schemata, scenarios - which I shall not describe here. A 'schema' is the cognitive construct or configuration we impose on experience in order to understand it. Briefly, the analysis of cultural schemata, i.e. the shared interpretations of experience common to a social group, is simultaneously an analysis of the means by which the individual makes sense of his own experiences. The cognitive development of the child is the process of acquisition of schemata through interaction with others, the acquisition of schemata which we shared with all those who belong to a particular cultural community. That cognitive development is however also a continuous process of modification of already acquired schemata, i.e. a continuous changing of the subjectivity or cultural identity of the child. The child

I would like to present a different view. The acquisition of culture is not separate from the psychological development of the child but is, rather, one and the same as that psychological development. When we observe the development of the child as a social being we are in fact observing the process of cultural acquisition. Culture is not an object but a part of the subject. One well-known definition of culture makes this clear.

A society's culture consists of whatever it is one has to know or believe in order to operate in a manner acceptable to its members. Culture is not a natural phenomenon; it does not consist of things, people's behaviour or emotions; it is rather an organisation of these things. It is the form of things people have in mind, their models of perceiving, resisting, and otherwise interpreting them.

(Goodenough, 1964 : 36)

"The organisation of things", "the form of things people have in mind" are the product of the acquisition process, although that process is never complete and the products under continuous change. In addition, however, the mind itself is not an independent organiser; it creates an organisation of things but is itself formed by this organisation, which is common to all members of a specific community of individuals. In order to understand this mutual influence, we need to consider human development both phylogenetically and ontogenetically, to look at the development of human beings as a species and at the development of each individual human being.

Seen from a phylogenetic viewpoint, the human species developed culturally and biologically simultaneously and not, as we might think, first by developing a mind which then invented culture. Following Geertz (1975), the mind is "a certain set of dispositions of an organism" which in human beings has developed through the interaction with culture and natural phenomena:

The apparent fact that the final stages of the biological evolution of man occurred after the initial stages of the growth of culture implies that 'basic', 'pure' or 'unconditional' human nature, in the sense of the innate constitution of man, is so functionally incomplete as to be unworkable. Tools, hunting, family organisation and, later, religion and 'science' moulded man somatically; and they are therefore necessary not merely to his survival but to his essential realization.

(Geertz, 1975 : 82-3)

The development of the human mind cannot be separated from the historical development of human culture. And this phylogentic development is paralleled in the ontogentic development of the

their sense of belonging to a social group, is not a simple phenomenon. It is made complex by the fact that learning a language is acquiring a culture, which in turn becomes part of the individual's identity. It becomes an inseparable part of the self. Indeed the individual cannot exist as a human being without a cultural identity. For the bilingual, however, the simplicity of belonging to one culture and to one social or ethnic group is not available. The complexity of belonging to two or more in differing degrees and through differing relationships is a function of acquiring more than one language. Let it be said, however, that this phenomenon is far more frequent in the world than the simplicity of monolingual and monocultural communities.

What does this tell us about the foreign language learner? First of all, it reminds us that the foreign language learner brings to the classroom an existing cultural identity, acquired with the first language, which is an integral part of the self. This suggests that the learning of another language and culture involves not just the acquisition of linguistic skills but also a modification of learners' sociocultural identity and an expansion of learners' perceptions of reality as lived by people in other societies and cultures. This is a statement of what necessarily is the case when a foreign language is learnt other than as a codification of the first language. It is also a statement of a philosophy of language teaching which says that such modifications and expansions of learners' identities and perceptions ought to be among the purposes of foreign language teaching.

* * *

This initial statement of my position has opened up a lot of questions and I propose now to explore some of them in greater depth. I intend first to explain more precisely what I mean by cultural learning. I will then relate this to some of my research on bilingual or minority education and the question of cultural or ethnic identity. Finally I will return to the foreign language classroom and the issue of the influence of foreign language teaching on learners' perceptions of other cultures. This too will be supported from my research.

First, then to the question of cultural learning. One often used phrase is misleading. To speak of "the acquisition of culture" is to imply that we acquire an object which exists independently in an 'objective' reality, or that we learn certain skills of social behaviour. It implies that culture and individuals are separable and that each individual has to acquire the object or skills - or at least a part of them. To study the acquisition of culture by young children would mean, from this perspective, first of all defining a culture and then analysing the process of acquisition.

Culture and Language in Second and Foreign Language Teaching

Dr. Michael Byram

I will try to do three things in this paper:

- to begin what I consider to be the necessary development of a theory of cultural learning for language teachers - whether involved in second or foreign language teaching.
- to demonstrate how research and theory in second language or bilingual/bi-cultural situations can be usefully linked with foreign language teaching in schools.
- to suggest that cultural learning must become a more explicit and structured part of foreign language teaching if it is to have the positive effects on pupils' attitudes and perceptions which are vital in any society which wishes to belong to the international community.

I start from the position that foreign language learning is and ought to be an integral part of cultural learning. It is integrated with cultural learning because the language learnt - unless it is merely a codification of learners' first language - refers to a reality within and beyond learners' existing experience. It ought to be integrated whenever language learning is a part of general education - usually at secondary school level and beyond - where foreign language teaching contributes to learners' personal and social development as young people growing into a society which itself is part of an international community.

I distinguish foreign from second language learning in a number of ways. A second language is one which is acquired in an environment where it is spoken as a medium of communication between people who are either first or second language speakers. Some examples are as follows: migrant workers arriving as adults in a new country or second-generation children of immigrants who meet the second language when they start school or children brought up in bilingual families or students going to a foreign university or school pupils learning some of their school subjects in a second language. The last two examples indicate however that the distinction between second and foreign language learning becomes blurred at the edges.

Another dimension of the distinction is psychological. A second language has a different role in the identity of the learner. Second language learners - most of whom can be described as 'natural bilinguals' find themselves in situations where their social identity, i.e.

SELECTED BIBLIOGRAPHY

Byrd, Max (ed). Daniel Defoe: A Collection of Critical Essays. Englewood Cliffs: Prentice-Hall, Inc., 1976.

Defoe, Daniel. Robinson Crusoe. Harmondsworth: Penguin Books Ltc., 1981.

————Robinson Crusoe (ed). Michael Shinagel. New York : W.W. Norton and Company, 1975.

Ellis, Frank H.(ed). Twentieth Century Interpretations of Robinson Crusoe. Englewood Cliffs: Prentice Hall Inc., 1969.

Novak, Maximillian E. Economics and the Fiction of Daniel Defoe. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1962.

————Defoe and the Nature of Man. Oxford : Oxford University Press, 1963.

Shinagel, Michael. Daniel Defoe and Middle-Class Gentility. Cambridge: Harvard University Press, 1968.

Sutherland, J. Daniel Defoe: A Critical Study. Cambridge: Harvard University Press, 1971.

Rogers, Pat. Robinson Crusoe. London: George Allen & Unwin, 1979.

Watt, Ian. The Rise of Novel: Studies in Defoe, Richardson and Fielding. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967.

"... we did not know by what light and law these should be condemned; but that as God was necessarily, and by the nature of His being, infinitely holy and just, so it could not be, but that if these creatures were all sentenced to absence from himself, it was on account of sinning against the light ..."

(RC, p. 212)

Thus whereas Crusoe himself is in the special care of Providence, these people are seen by him as being literally God-forsaken.

To conclude, Crusoe is a shrewd businessman and his attitude towards religion appears to be a paradoxical relationship between a serious religious life and great worldly success. One wants to say that in Crusoe one has a look at the last stage of the Puritan mind before it degenerates completely, as it was about to do, into the godless, empty and self-satisfied mentality of the materially successful, middle-class westerners that followed.

Besides disagreeable traces of national intolerence and colonialism, what disturbs us more is the unselfconscious and even pious feeling that Crusoe expresses that he and his fellows are somehow chosen by God to dominate others and that they somehow show themselves worthy of this election by their benevolence and good nature. Defoe's attitude is less refined and high-handed than that of later Englishmen up to the time of Rudyard Kipling (and after), but the difference is not one in kind. The nakedness of the attitude shown in the novel helps us to see clearly what British imperialism was from its beginning.

NOTES

1. Ian Watt, The Rise of the Novel: Studies in Defoe Richardson and Fielding (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967), p. 67.
2. Maximillian E. Novak, Economics and the Fiction of Daniel Defoe (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1962), p. 49.
3. Daniel Defoe, Robinson Crusoe (Harmondsworth: Penguin Books Ltd., 1981), p. 28. This book has been cited internally and appears as RC
4. Michael Shinagel, Daniel Defoe and Middle-Class Gentility (Cambridge: Harvard University Press, 1968), p. 132.
5. Ian Watt, "Robinson Crusoe" in Daniel Defoe: A Collection of Critical Essays ed. Max Byrd (Englewood Cliffs: Prentice-Hall, Inc., 1967), p. 52.
6. William H. Halewood, "Religion and Invention in Robinson Crusoe"in Twentieth Century Interpretations of Robinson Crusoe ed. Frank H. Ellis (Englewood Cliffs: Prentice-Hall, Inc., 1969), p. 86.

Xury's case, perhaps the surprising thing is that he speaks English, for we are told that Crusoe had no fellow-Europeans to talk to while he was at Sallee. One should expect that he and his fellow slaves would speak Turkish or Arabic or Berber, some language, that is, used in the Maghreb. Yet Xury speaks bad English in talking with Crusoe. Friday, of course, spoke no English when he first met Crusoe. Yet, after some three or four years of constant conversation in English, his English is no better than Xury's. Yet other foreigners, Europeans like the Portuguese sea-captain, speak perfectly good English.

Now language is one mark, a most important mark, of the equality of human relations. That Defoe presents Xury and Friday thus, making humorous use of their bad English, has the insidious effect of making us see them as somehow inferior to Crusoe and to Englishmen generally.

The second thing to note, if only briefly, is another instance of Crusoe's discrimination. In the episode beginning on page 233, where Crusoe, after having determined not to interfere in the cannibalistic rituals of the Indians who come to the island, changes his mind suddenly and does interfere, the cause of his interference is that one of the victims is a European. There is some abstract justification that might be made out for this, on the basis of Crusoe's theory of nationalities, but this would be too weak to explain the strength of Crusoe's reaction. Friday's announcement that one of the victims is a European "fired all the very soul within" him. He "was filled with horror at the very naming the white bearded man," who he saw plainly was "an European, and had clothes on." This sort of thing shows sharply Crusoe's real sympathy for Europeans, whatever he might say in calmer moments.

The third thing we have mentioned is difficult to elaborate. All one can do is to point out that it never occurs to Crusoe to accept a relation of equality with non-Europeans. He works deliberately to inspire them with awe and expects, as a matter of course, that they should be willing to sacrifice their lives in his service.

Finally, the fourth thing to observe is that Crusoe's theory of nationalities, though not racist, seems to see the bulk of "native" peoples as evil and deserving of God's punishment. It is true that he leaves it to God to punish them, but the expression of the theory is designed sharply to limit our sympathy with them. In the following passage Crusoe goes on to observe :

It would be unfair, however, to Defoe to leave the matter at this point. There is one more point to make. A main part of the action of the novel depends on Crusoe's being shipwrecked on the island as God's way of bringing him to repentance and salvation. In several passages in the novel, Defoe achieved a kind of grandeur of vision; in which the absolute power and majesty of God are celebrated. It is difficult, because of their length, to quote any one of them, but the careful reader would do well to read, say, the passage begining at the bottom of page 140 "... I had now brought my state of life... next to miraculous" (RC, pp. 140-44). Here the Puritan sense of the marvellous care and grace of God for an unworthy man, a sinner like all men, the care of God extending from the greatest displays of power (like the great storms at sea) to the most intimate of kindnesses, is well-expressed. It is unlikely that a hypocrite would pen these lines. If the intensity of religious feeling seems less in Defoe and the concern with material success greater than in the works of his puritan predecessors, that intensity of feeling is yet far from absent. This may seem the mark of a hypocritical religious belief, despising riches yet labouring to achieve them, but to the Puritan, there is nothing hypocritical or contradictory in this.

The harshest, most disagreeable note in Defoe's novel is the attitude of Crusoe towards non-Europeans. It is just because this attitude is so unpleasant that it is interesting to us, for it promises to help us understand the foundations of British Imperialism that were being laid at the time the novel was written. There is no question but that the attitudes expressed by Crusoe are those of the author as well. We know enough of Defoe's own political career as an agent of the Prime Minister who made the treaty giving Great Britain its slaving rights, Sir Robert Harely, to be sure he was in agreement with British policy, It is, furthermore, clear that Defoe in showing his casual sense of superiority, to non-Europeans counted on his readers' sympathy, even to the point of making "native" humor one of the interests of the novel.

Let us look at four aspects of the novel before trying to come to some conclusion : the humorous use of language to characterize non-Europeans; the discrimination practiced by Crusoe; Crusoe's expectation that other peoples should serve him; and his reflections on "nationality".

The first of these seems harmless, but it is not. the problem lies in the fact that both Xury and Friday speak very bad English indeed. In

"absolute economic, social and intellectual freedom for the individual.".[5]

Despite the frequent religious meditations in Defoe's novel, one senses that it would be false to take the purpose of the novel or even its principal interest as being religious in nature. Intuitively judged, the novel seems secular, more immediately and more constantly concerned with man's worldly satisfactions than with his duty toward God under the guidance of religion. The religious aspect of the work does not so much strike us as false or hypocritical as it does matter-of-fact and close to irrelevant. William Halewood considers that religion in Robinson Crusoe". gives the book its structure, justifies its length and method, contributes to its air of authenticity, provides emotional complexity and depth, and enlivens its language".[6]

Defoe was not only a puritan, but an active and public one who suffered for his beliefs. He wrote a defense of his fellow-believers called the Shortest Way with Dissenters, that so offended the defenders of the state religion that he was condemned to public punishment in the stocks and then to imprisonment. Thus Defoe proved the sincerity of his beliefs. At the same time, Defore's career in politics, business and jornalism strikes us today as self-seeking and opportunistic. His very novels seem to have little purpose but to make money by serving the tastes of middle-class readers with stories of adventure and of success. So Defoe himself seems to embody the paradox of Puritanism.

So too does his first novel, Robinson Crusoe. Midway through the novel, Crusoe, after a long examination on whether religion permitted him to kill without warning or provocation the cannibals who came to the island, ends by observing that, should be try to kill them and fail, they might kill him. His comment is, "Religion joyned in with this prudential... me" (RC, p. 179). Religion throught the book has a way of agreeing with the safety and the comfort of Crusoe. It is true, that Crusoe's initial imprudence in going off to sea without his father's permission is viewed by him and is meant to be so viewed by us, as willful disobedience to the will of God, that these misadventures are meant to lead him into repentance of his sin and into the mercy and loving-kindness of God, and that his final prosperity is evidence of God's care for him; all this is true, but it is also true that despite this spiritual drama, Crusoe's character as such does not seem to change at all from one part of the novel to the other, whether he be in a state of sin, of repentance, or of grace.

Cruose is the sole survior of the unfortunate shipwreck. Though the vessel is filled with water, he finds the food stuffs dry and brings all the salvageable items to the island. He lives on this deserted island by means of his practical ingenuity. His living, management of the resources on the island, and his insight into even the most mundane details of day to day life are clear expression of his business instincts. Though he calls money a "drug" and "nasty, sorry, useless stuff" (RC, p. 75) he does not throw the money away but rather wraps it in a piece of canvas and saves it for the future.

Robinson Crusoe's life as an active business man begins when he arrives in Lisbon after having lived on the island for more than twenty-eight years. He begins his life over again, from scratch, inquiring about the state of his plantation in Brasil and attempting to renew his old business contacts. He learns that his plantation is still flourishing and receives from its profits over five thousand pounds in sterling silver. Thereafter, he sells his share of the plantation and settles down in England.

Crusoe's attitude towards nature is also businesslike. He exploits the island only for his sustenance and comfort and experiences no aesthetic delight from its scenic beauty. He is only concerned with the improvement of his land and has no leisure to observe that the island offers a beautiful landscape. Crusoe's sole delight comes from surveying his goods : "I had everything so ready at my hand" and "that it was a great pleasure to me to see all my goods in such order and especially to find my stock of all necessaries so great" (RC, p. 86).

When he was in the "Island of Despair" he always prayed for his deliverance. But after his deliverance, and on coming back to his home, he is not prepared to forget the investment he has made in the island. Besides its nostalgic association for him, the island is connected with his business motives. He writes :

"Besides this I shared the island into parts with 'em, reserved to myself the property of the whole, but gave them such parts respectively as they agreed on; and having settled all things with them, and engaged them not to leave the place, I left them there".

(RC, pp. 298-90).

Crusoe, in his attitude towards trade, is amazingly practical and farsighted; his frugal investments have brought him a substantial return. He is a successful businessman and his adventures, to use the words of Ian Watt, symbolize the virtues of "individualism" and

the ideals of British society of that time. It was a time when the Bank of England and the South Sea Company were founded. The Royal Africa Company and the East India Company were moving out into the remote areas of the world. Naturally Crusoe's desire to make his fortune through sailing and trading was quite representative of the spirit of his age. Michael Shinagel remarks:

"... Defoe employed the colonial theme as a means of showing his middle - and lower - class readers how they could better their fortunes, regardless of their ancestry or birth, through industry in the already established colonies in America, specifically Virginia and Maryland." (4)

Crusoe, in the beginning, turns out to be an unfortunate sailor and tradesman, but shipwrecks and slavery do not keep him from his ambitions. He is not the type of man who could be easily persuaded to give up his plan by misfortune; on the contrary, these hardships and his helplessness become a driving force in his case. He has the temperament of a well disciplined merchant whom loss or set-back does not crush but whose endurance and patience are thereby augmented. These setbacks contribute to his wisdom and prepare him for future challenges.

Crusoe never neglects any opportunity for investment and trade. In Brasil, in addition to exploring other possibilities for making money, he carefully examines the plantations, land, and the laws of the country :

"I lived with him some time, and acquainted mayself by that means with the manner of their planting and making of sugar; and seeing how well the planters lived, and how they grew rich suddenly, I resolved, if I could get license to settle there, I would turn planter among them, resolving in the meantime to find out some way to get my money which I had left in London remitted to me. To this purpose, getting a kind of letter of naturalization, I purchased as much land that was uncured as my money would reach and formed a plan for my plantation and settlement..."

(RC, P. 55)

Crusoe, no doubt, inherited his business-like and practical attitude towards life from his family. To settle down as a planter in Brasil, it is necessary to acquire property and obtain a legal license, He exploits the situation to his full advantage and begins to think of his future prospects as a successful planter.

A CRITICAL STUDY OF CRUSOE'S MIND AND CHARACTER

Dr. M. Habib Siddiqi

Daniel Defoe's Robinson Crusoe is considered as the most important precursor of the English Novel or even as the first English Novel. Literary critics have discussed the character of Robinson Crusoe from different literary perspectives. The purpose of this paper is to examine Crusoe's attitude towards business, religion and non-Europeans in its historical context. These three elements of Crusoe's character are inseparably linked to each other and are therefore essential to an appreciation of Crusoe's mind and character. His attitude towards business and religion is motivated by practical considerations. He exploits non-Europeans for his own advantage and in his discriminating treatment he is supported by religious beliefs. The following discussion of three principal traits of Crusoe's character will help us to understand Crusoe's mind and character and enlighten us about the prevailing trends of the Eighteenth-Century.

Crusoe's character has been interpreted differently by various critics. To Ian Watt, Crusoe is an embodiment of economic motive, a reverence for book keeping and the laws of contract are the marks of Crusoe's pesonality.(1) Maximillian E. Novak goes a little farther and considers Robinson Crusoe as an illustration of Defoe's own economic concepts.(2) Crusoe, to Novak, is not only an economic man. If economics be taken as the only trait and pursuit of Crusoe's character, then the account of his adventure will become dull, localized and uninteresting to his readers. Besides being an economic man, Crusoe, says Novak, has a romantic temperament. I think Novak is right, because it is the romanticism in Crusoe's temperament which keeps him going in his adventures and also maintains the interest of a reader from beginning to end.

Crusoe's adventurous life begins with the dissatisfaction of his routine. His father wanted him to be a lawyer and stay in the "middle station" of life to which they belonged. Crusoe's restlessness was partly due to his longing to go to sea and partly due to his dissatisfaction with his "middle station" of life.(3) In his thinking Crusoe is not an isolated Englishman; on the contrary, he represents

15 - Hudson, R.A. (1980): "Sociolinguistics" Cambridge, CUP.

16 - al-Khayyat, H. (1982) : "arrasi:d alsokkani fi dowal alkhali:j al'arabi" Population Balance in the Arabian Gulf States. Qatar, Gulf Establishment for Publication.

17 - al-Misnad, S. (1985): The Development of Modern Education in the Gulf.
London, Ithaca Press.

18 - Melikian, L. & al-Easa, J. (1978) : Some predictions about the Qatari family.
Unpublished paper, University of Qatar.

19 - Qatar (1989-90) : The Annual Statistics Report Ministry of Education.

20 - Stanlaw, J. (1987): "Japanese and English: borrowing and contact" World Englishes, Vol. 6, No. 2, pp 93-109.

21 - Trudgill, P. (1983) : On Dialect : "Social and Geographical Perspectives". Oxford, Arnold.

22 - Wardhaugh, R. (1986): An Introduction to Sociolinguistics Oxford, Blackwell.

23 - (1987) : "Languages in Competition". Oxford, Blackwell.

24 - Zughoul, M. R.(1978) : Lexical Interference of English in Eastern Province of Saudi Arabia.
Anthropological Linguistics, Vol. 20, pp 214-225.

References :

1 - Acholonn & Penfield (1980): Linguistics Process of Lexical Innovation in lgbo.
Anthropological Linguistics Vol.22, pp 118-130.

2 - al-Azzi, N. (1983): konuz almathaf al-Qatari
Treasures of Qatar Museum
Ministry of Information & Culture, Qatar.

3 - Aitchison, J.(1981) :" Language Change: progress or decay"
Great Britain, Fontana.

4 - Appel R.&Muysken (1987): "Language Contact & Bilingualism"
London, Arnold.

5 - Berns, M. (1988): The cultural and linguistic context of English in West Germany. World Englishes, Vol. 7, No. 1, pp 37-49.

6 - Bynon , T. (1983) : "Historical Linguistics"
Cambridge. CUP.

7 - al-Dowaik, M. T. (1979): "al'oghniya al-shaabiya fi Qatar" Folk Songs in Qatar
Part 1, Doha, Doha Modern Press.

8 - al-Easa, J. (1977) :" attahdith fi Imojtama alQatari almoasir"
Modernisation in Contemporary Qatari Society
Kuwait, Kadhma Company for Publication and Translation.

9 - Fabian, J . (1982): Scratching the Surface: Observations on the Poetics of Lexical Borrowing in Shaba Swahili.
Anthropological linguistics. Vol.7, No. 1, pp 15-50.

10 - Fasold, R. (1984) : "The Sociolinguistics of Society"
Oxford, Blackwell.

11 - Ferguson, C.A. (1959): "Diglossia" Word Vol. 15, pp 325-340.

12 - Gibbon, J. (1987): "Code-Mixing and Code Choice: a Hong Kong Case Study" Clevedon, Multilingual Matters.

13 - Grabe, W. (1988): English, information access, and technology transfer : a rationale for English as an international language. World Englishes. Vol. 7, No. 1, pp 63-72.

14 - Halliday, M.A.K. (1978): "Language as Social Semeotic: The social interpretation of language and meaning" London, Arnold.

In this paper three areas of language change in the QD have been investigated to show that the final shape of a language is not purely a linguistic matter; but rather that many non-linguistic elements, directly or indirectly, are involved in making the language what it is at any particular time.

The process of the elimination of certain categories of vocabularies, mainly those related to pearling, and the introduction of others in the QD is tied to changes in the economic pattern of the society which triggered off subsequent societal changes. The changes in the QD show that the link between language and society is very strong and that the process of language change is no more than a reflection of changes in some aspects of the society because social pressures are continually exerting an infuence upon the language, and because society is an integrative unit therefore its various parts must change in the same direction if the integration is to be kept.

Notes :

1 - The phonetic transcription follows the IPA system except for the velarised sounds which are represented with capital letters and the low back vowel which is represented as /a/ "short" or /a:/ "long".

2 - The aim of this paper is not to find or discuss the procedures of identifying loan words but rather the phenomena associated with the transfer of linguistic items across language boundaries from one language to another.

3 - An example of this would be the introduction of the word "intifada" meaning "uprising" into the English language after the uprising of the Palestinian people in December 1987.

4 - Many Arabic words entered the English language when Arabs were the leading civilisation such as "admiral", "zero", "alcohol", "algebra" etc. The language penetration could be quite deep and may take on a form of imperialism (see Fasold 1984 : 10).

5 - Similar tendencies are also reported in many other countries, such as Japan (see Stanlaw 1987) and West Germany (see Berns 1988).

words. They have not yet completely replaced the foreign items and whether they will eventually do so or not remains to be seen. Thus at the present time there are sometimes two words, one Arabic and one English, which refer to the same entity. Examples of this category are:

English loan word		Arabic equivalent
-/dokto:r/	"doctor"	/Tabi:b/
-/tilifu:n/	"telephone"	/ha:tif/
-/ne:rs/	"nurse"	/momarriDa/
-/kinde:ʃan/	"air condition"	/mokayyif/
-/a:yil/	"oil"	/ze:t/

c - Unsuccessful repelacement :

The majority of the English loan words are included under this type. These are items which prevail in most of the Arabic dialects and for which the language academies have coined Arabic equivalents, but these equivalents are never used in reality. They are so rare that a layman may not know what they mean. The failure may be due to fact that government institutions do not use the Arabic equivalents themselves and thus they are not emphasized frequently enough, whereas the English words are constantly used and reinforced. Another factor is the availability of more than one Arabic equivalent for a single loan word such as /Ha:su:b/, /alHa:sib/ which mean "computer". This could also be due to the fact that coining a word would not guarantee its usage by native speakers. Academies cannot force people to use the Arabic equivalents instead of the English loan words. A detailed investigation of why the majority of coined words have failed to replace the loan ones is beyond the scope of this paper which is rather descriptive. Examples of the unsuccessful replacemant are:

English loan words		Arabic equivalent
-/bre:k/	"brake"	/ka:biH/
-/ge:r/	"gear"	/toru:s/
-/aryil/	"aerial"	/hawa:?i:/
-/sba:na/	"spanner"	/mafak/
-/ra:dyu:/	"radio"	/miðya:ʕ/.

and write. This means that they are exposed to the influence of the H code in all forms of written materials.

With the spread of the H code, an interesting case of linguistic competition between the Standard Arabic and English has emerged. Arabic has been trying hard to replace the English loan words in the QD. The result of the competition can be divided into the following:

a - Successful repelacement :

In the first period that followed the introduction of the oil industry in Qatar, many English words entered the QD as names of objects or institutions. With the spread of formal education and mass media Standard Arabic words replaced the foreign elements. The successful cases are largely due to the fact that the English borrowed items are localized and are not used outside the Gulf region in places like Egypt or the Levant area.In those countries the equivalent Arabic word is used. When the Egyptians and the Palestinians started to arrive in the country in mid 1950s they were looked upon as the elites of the society since most of them worked as clerks or teachers. Therefore the locals followed their suit in using the Arabic words rather the nativized borrowed words. Thus nowadays people use the Arabic replacements; the English loan items do not appear except occasionally in the language of the older generation. Here are some examples:

English loan words		Arabic replacement
-/o:f/	"off"	/idʒa:za/
-/isbe:ta:l/	"hospital"	/mostaʃfa:/
-/ste:ʃan/	"station"	/markaz/
-/ʕambalu:ns/	"ambulance"	/isʕa:f/
-/kombani:/	"company"	/ʃarika/

b - Semi-successful replacement :

Some English items entered the QD as a gap-filling device i.e. they had no equivalents in Arabic at the time of borrowing. However, due to efforts of the Arabic language academies equivalent Arabic words were coined and advocated via the educational system, mass media and other government institutions. Gradually the newly coined words aquired popularity and were used alongside the English

entered the dialect for other purposes like talking about taboo subjects and areas, as in words "sexy", "sex", "toilet" which sound less vulgar than their native counterparts.

Finally, the Protection Treaty which Qatar signed with Britain in 1916 had definitely its impact on the course of future development of the country. It obviously directed Qatar towards English speaking countries especially Britain.

However, no particular factor can be selected per se and made solely responsible for borrowing from English. But interaction among all these factors is an important element. Of course some factors like the Protection Treaty and the fact that English is the major language of science at the present time have played more infuential roles than other factors .

C - The infuence of Standard Arabic :

All Arab countries are characterised by diglossia as described by Ferguson (1959). In these countries two modes of speech are used for communication; High code (H) is used for writing or formal interactions and Low code (L) is employed for informal purposes. Prior to the oil era diglossia in the true sense of the word was limited to a small number of people in Qatar, because of the high level of illiteracy among the Qataris. In other words the majority of people were monolingual. They had an active command of the L code only, although they could understand the H code when used by others. The diglottes were the elite who had access to and could afford basic traditional education with clergymen "Motawa".

After the discovery of oil and the widespread availability of formal education more and more people developed an active competence in Standard Arabic i.e. H code. The first formal school for boys was opened in 1951 and in 1956 for girls. In 1989 the total nubmer of schools was 178 equally divided between the two sexes.

The introduction of a formal educational system is a crucial factor in the emergence of a true diglossic community, since in all such communities the H code is only aquired non-natively i.e. via the educational process. Thus with the spread of education, a wider sector of the community became diglottes. In fact the younger generation are expected to be educated or at least to be able to read

time as shown from the following statistics. English is the most widely spoken language in the world. It is the official language in 25 countries and co-official in another 17. The nearest rival is French which is the official language in 19 and co-official in 9 countries. In the world of trade and commerce the dominance of English is unquestionable. The English speaking countries are responsible for one third of the world's national product (French speaking countries for one-fifth)(Wardhaugh 1987). When it comes to writing and publication, English is again dominant. For example it has been reported that 88% of all articles in "Science Citation Index" are in English and recent data indicate that the trend is consistent (Grabe 1988). New titles and books are not different; one-fifth of all new titles are books published in English (French counts for one-twelfth) (Wardhaugh 1 987).

These facts demonstrate that it would be extremely difficult to keep up with current scientific activities without knowing English or having immediate access to a good translation from English. Therefore, at the present time most languages, not only Arabic, are under the influence of English (5).

Thirdly, with the introduction of the oil industry and the increase in the number of foreign expatriates in Qatar, the use of some form of English as a lingua franca became common. Because of the factors mentioned above, speaking English or attempts at speaking English gradually took on a certain prestige value. Borrowing selected English terms, words or phrases to be used among Qataris in a Qatari speaking context became related and associated with modern and progressive ideas and attitudes. Thus English was used more and more by those with a modern drive. They looked at English for new vocabularies. It was inevitable that English loan words would penetrate the everyday QD. The introduction of English in the schools on regular bases and the exposure to English while studying in Britain or in U.S.A. enhanced the borrowing process and made English increasingly popular.

Fourthly, most of the loan words serve as gap-filling devices. It is natural that when a country imports a product for which it has no ready made word, the country would import the name of the object too. This is, however not to deny that some English words have

Thus if the discourse is about cooking or treatment the word /a:yil/ is not used but instead the word /dihin/ or /ze:t/ is employed. Likewise, when we talk about a key of a drawer, cupboard, home, bedroom, store etc the borrowed word /swi:tʃ / is not used, instead the native item /mifta:H/ is employed. Similar points could be made about the relationship between /si:t/, /le:san/ and /kirsi:/, /roxSa/ respectively.

Finally we can classify borrowing from English on the level of usage into two kinds. Certain items pervail across the whole society .In other words all members of the society need and use them either because they refer to commodities or because they do not have Arabic equivalents, such as /tilflzyu:n/ "TV", /balak/ "plug" etc. Other items are ,however, restricted in their usages. They are "professional borrowings" and are employed among the professionals in a particular field. Most of these items are terminologies or technical words such as "linguistics", "phoneme", "holding company", "draft" etc.

The professional borrowing occurs for two reasons. On the one hand, the speaker, especially if he is trained in West, may find it easier to fill the gap, as it were, by inserting the English word in the middle of his utterance, rather than think of the Arabic equivalent. On the other hand, he may simply use the English word to give an English flavour to his speech and thus aquire a certain degree of social prestige.

Factors responsible for borrowig from English are diverse and interact with one another. Firstly, the flow of the linguistic materials from one language to another follows the route of development of civilization. In other words, the more advanced countries will export technology and commodities to the less advanced ones; simultaneously they export part of their language as well. In this respect language borrowing is a form of cultural borrowing. At the present time English has more to offer than Arabic has, thus English vocabularies have penetrated Arabic language and dialects. This is to say that "the paths of lexical borrowing reflect to a certain extent the path of cultural influence" (Zughoul 1978:220) (4).

Secondly, English is the international language at the presesnt

-/yikansil/	"to cancel"	"verbn
-/mkansal/	"is canceled"	"passive participle"
-/mkansil/	"he canceled"	"active participle"
-/tikinsil/	"to cancel"	"infinitive" .

At the semantic level we can distinguish two types of borrowing: general and specific. Items in the general category are used to refer to all members of the class in question just as speakers do in the donor language i.e. British and Americans. To illustrate the point let us look at the word /le:t/ "light". This word is used in the QD to refer to all type of lights, regardless of the purpose, domain of usage or the material of which the object is made. For example the same word is used to refer to table lamps, car lights, bulbs and light. The general type includes items which serve a gap-filling function in the lexicon of the QD. In other words, when these loan items were borrowed into the dialect there were no native equivalents and they therefore were generalised to all domains . Other examples would be /fre:m/ "frame", /le:t/ "light", /kart/ "card" etc.

The other category i.e. specific, however, refers to items which have entered the QD and are used in one particular context. In other contexts an eqivalent native word is employed. This is because the loan words were borrowed in relation to that specific context. We may refer to this type as "semantic specialisation". These items definitely do not work as a gap-filling device.For example words like:

-/a:yil/	"oil"
-/si:t/	"seat"
-/swi:tʃ/	"key"
-/le:san/	"licence"

are only used when the discourse is about cars. Other native items are used in other contexts .The native equivalents are:

-/dihin/, /ze:t/	"oil"
-/kirsi:/	"seat, chair"
-/mifta:H	"key"
-/roxSa/	licence"

These examples illustrate that borrowing may involve levels of syntax and semantics without involving pronunciation at all (Hudson 1980).

From the derivational perspective we can divide the borrowed items into two categories. On the one hand there are items that are only used as one part of speech, mainly noun. The majority of loan words come under this group. This is because most of the loan words are names of objects. For example words like :

-/aryil/	"aerial"
-/mo:tar/	"motor or car"
-/bo:y/	"boy or servant"

are only used as nouns and related verbs, infinitives or verbal nouns, active and passive participles are not derived from these words. The only usage of these items in the QD is as nouns, whether singular or plural.

The other category, on the other hand, includes words that undergo a full derivational process. The number of words in this category is quite small. This is due to the fact that nouns are the most frequently borrowed items from one language to another. For example the word "finish" has been borrowed into the dialect as a verb /yifanniʃ/ which means to quit a job or to terminate someone's service. But many related items have been derived from the word "finish" as following:

-/yifanniʃ/	"to quit a job"	"verb"
-/tafni:ʃ/	"temination of a job"	"infinitive"
-/mofanniʃ/	"person who terminates someone's contract"	"active participle"
-/mfannaʃ/	"person whose contract is terminated".	"passive participle"

Another example of this type of loan words is the word "cancel" which is mainly used as a verb but other parts of speech can be derived from it as well, as following :

Examples of loan blends in the QD are:

1-/daftar ʃe:ka:t/ "cheque book"

2-/ ʃari:T alvi:dyu:/ "video cassette"

3-/d3iha:z kombiyu:tar/ "computer machine"

4-/boli:Sat ta?mi:n/ "insurance policy"

5-/boli:s alnd3da/ "rescue police"

In examples 1, 2 and 3 the first part of the blend is Arabic while the second part is English. Thus the words /daftar/, / ʃari:T/ and /d3iha:z/ mean "book", "cassette" and "machine" or "set" respectively. In examples 4 and 5 the opposite is true. Here the second part of the blend is Arabic. Thus /ta? mi:n/ means "insurance" and /nad3da/ is "rescue".

The last type of borrowing on the phonological / morphological substitution is "loan translations" or "calques". They are sometimes referred to as "loan shifts". In this type of borrowing the meaning, whether simple or composite is imported but the forms representing that meaning are native. This type is placed at the extreme end of the borrowing scale because they bear no resemblance in their phonological structure to foreign words on which they are based. They involve the translation of morpheme for morpheme or word for word. The loan translations in the QD retain their English syntactic and semantic values but the morphemes and words of which calques are formed are Arabic. Here are some examples:

the calques	explanation
-/la:silki:/	/la:/ means no and /silkl means "wire", thus the tow mean "nowire" or "wireless' .
-/ ahr il asal/	/ ahr/ means month and / asal/ is "honey". Thus we have "honey month" or "honey moon".
-/Ha:ris almarma:/	/Ha:ris/ is "keeper" or "guardian". /marma:/ is goal. So the configuration of the two words means "goalkeeper".
-/Darba rokniyya/	/Darba/ means "a kick" and /rokn/ is "corner", thus the two items give us "corner kick".

borrowed word	modifications
-/wilf/ "valve"	the initial /v/ is changed into /w/ and the final /v/ into /f/.The vowel is changed from /x/ into short high front unrounded /i/.
-/ e:k/ "cheque"	the phoneme / tʃ/ is changed into / ʃ /."
-/le:t/ "light"	the diphthong /ai/ became monophthong /e:/.
-/binalti:/ "penalty"	/p/ is changed into /b/.
-/fu:l / "full"	the lax vowel /ʊ/becomes long high back rounded /u:/.

However there are a few borrowed items that retain their original pronunciation although they contain sounds which are not part of the phonological system of the QD. For example the word "video" is not pronounced as /fi:dyu/ as expected ,but as /vi:dyu/. The same applies to the car brand name "Volvo". It is pronounced /vo:lvo/. A third example is the word "visa" which has retained its original pronunciation. These items are very low in number and therefore must be looked upon as exceptional cases. But if the number increases they might have some influence on the phonological system of the QD. In other words they might force a phonemic split of the phoneme /f/ into /f/ and /v/.

At the opposite end we have items which entered the QD with no change at all or very minimal change in the vowel quality. This is due to the fact that their original pronunciation fits in with the phonological system of the QD. Here are some examples:

-/bank/ "bank"

-/ke:k/ "Cake"

-/indiks/ "index"

-/fre:m/ "frame"

-/fail/ "file"

A further type of borrowing may be referred to as "loan blends" (Appel & Mysken 1987). It means that a hybrid form is made of two parts, one of which is borrowed while the other one is native

introduced by a decision from an authority with power to enforce its implementation.[3] (Fabian 1 982).

Looking at the borrowed items in the QD we notice that the great majority of them belong to the noun class. This is quite natural since detatchable elements are most liable to borrowing and are commonly taken over from the donor language. Bynon puts forward this idea clearly when she writes :

"with regard to which lexical classes are susceptible to borrowing, it is generally claimed that members of the open classes (nouns, verbs, adjectives) are more readily borrowed than those of closed classes (pronouns, conjunctions, prepositions) and that nouns are the most frequently borrowed class everywhere. This distribution could however be to some extent simply a reflection of the overall sizes of the classes concerned and of the fact that the great majority of borrowed words are names of new objects or materials" (1977:231).

The second noticeable point is that the borrowed items are assimilated phonologically and syntactically to different degrees to fit in with the structure of the QD. Speakers are generally not aware of the distortion they impose on the borrowed words when they use them in everyday language (examples will be mentioned later).

Borrowing takes on various forms and fashions. On the level of phonological / morphological modification we can distinguish the following types. There are items which undergo phonological substitution at the phonemic level. Thus when a speaker is using a borrowed English word there is a well attested tendency to assimilate the English segments towards equivalents in the QD. The substitution needn't be the nearest in acoustic terms, but rather ones that occupy a similar contrastive position in the sound system of the recipient language (Gibbons 1987). In the case of borrowing in the QD the very obvious case is the change of English phonemes /p/ and /v/ into /b/ and /f/ or /w/ respectively, and the change of vowels to their nearest equivalents in the phonological system of the QD. Here are some examples :

a - House-hold equipment :

-/tilfizyu:n/	"television"
-/re:dyu:/	"radio"
-/fre:zar/	"freezer"

b - Oil industry :

-/rig/	"rig"
-/bitro:l/	"petrol"
-/o:bik/	"Opec"

c - Medical services :

-/dokto:r/ /daxtar/	"doctor"
-/ne:rs/	"nurse"
-/isbe:ta:l/	"hospital"

d - Transportation :

-/taksi :/	"taxi"
-/ba:S/	"bus"
-/dre:wal/	"driver"

e - Machinary :

-/hidil/	"handle"
-/de:nema/	"dynamo"
-/ge:r/	"gear"

f - Sports :

-/ko:mar/	"corner"
-/baskitbo:l/	"basketball"
-/go:l/	"goal"

However borrowed items did not flow into QD as the result of a planned process. This is because borrowing is largely an unconscious mechanism and that is why it is difficult to observe it directly, except in cases when loan words are linked to historical events or are

-/xa:na/	"rank, position"	Persian
-/stika:na/	"tea cup"	Persian
-/hast/	"exist, available"	Persian
-/dirwa:za/	"door"	Persian
-/da:l/	"lentil"	Urdu
-/d3u:ti:/	"shoe"	Urdu
-/ku:li:/	"coolie"	Urdu

However the present post-oil borrowing is different from the previous process on two levels. On the one hand, the source of borrowing is different. Nowadays almost all the borrowings are from English, whereas they used to be from Persian and Urdu. Before the discovery and the production of oil in the 1940s Qatar and other Gulf States had considerable contact with the Persian coast and India, and contact is a necessary although not sufficient condition for movements of linguistic elements from one language to the other. Judging from the number of borrowed items from Persian and Urdu we can say that the influence of the Persian and Indian cultures on Qatari society was greater than the British impact during the pre-oil era. This is not to deny some British influence at that period. After all there are some English items in QD that are dated to the pre-oil period. Here are some examples :

-/land3/	"boat , launch"
-/d3a:lbu:t/	"jolly boat"
-/baTin/	"a type of pearl, from the word button"

The other difference between the old and the new borrowing is the extent of borrowing. Hundreds of English words and expressions entered QD as the result of the introduction of modern technology which was triggered off by oil and the subsequent wealth that followed. Similar penetration of English into other Arabic dialects may have occurred for other reasons such as colonization. These items are related to various aspects of life.Here are some examples from certain domains :

-/yi:m/ "bait"

-/yanbir/ "to bite"

-/Hallali:/ "to catch two fishes at the same time"

did not disappear and are still an active part of the lexicon of QD. This is due to fact that fishing is still a well established activity in the society, either as a hobby or as a profession, whereas pearling simply does not exist.

The elimination of certain items and the retention of others show that economic facters are obviously very important in influencing the shape of the language at any particular time . The internal economic develpment of a country may very well involve shifts in the internal linguistic balance, sò that some elements are cancelled while new ones are introduced (Wardhaugh 1987).

B-Borrowing fom English: [2]

Borrowing is the transfer of an item from language X to language Y. In this case we refer to X as the donor language and Y as the recipient language This presupposes that the item in question has no equivalent in the recipient language. This is largely true although some borrowings occure for reasons other than a "gap-filling" function.

The term borrowing is somewhat a misleading word, since it implies that the elements in question are taken from the donor language for a limited period of time and then returned, which is not the case. The items are actually copied in the system of the recipient language, rather than borrowed in the strict sense of the term (Aitchison 1981).

The borrowing phenomenon is not confined to QD alone. It is evident in all languages. Every language must have borrowed from another language(s) at some time. Therefore we can say that just as no culture has evolved entirely in isolation, so there is no language that has not borrowed elements from other language(s). It is equally true to say that borrowing is not a new phenomenon in QD, nor is it restricted to the oil era. QD has witnessed borrowing from other languages, mainly Persian and to a lesser extent Urdu, as the following examples show :

structures, the pearl-fishing industry was completely abandoned, for the more profitable and less risky field of the oil industry .This transition from a pearl-based economy to the modern oil industry resulted in the elimination of a large number of lexical items from everyday usage of the language. They were words related to pearling. The loss occurred quite rapidly i.e. in the span of one generation. The extent of this loss is immense. In fact, in many radio and television quiz shows the younger generation are asked about words that 40 years ago were among the most frequent words in everyday life. Ironically many of them do not know the meaning of the words ,although their grandfathers could not live without them. Here are some examples of these words:

1-/he:r/ "the place where oysters are found"

2-/tisga:m/ "loan given to the divers"

3-/slifi:/ "a diver who takes loans from the merchant before the diving season starts"

4-/xamma:si:/ "a diver who does not take a loan before the diving season"

5-/gaffa:l/ "end of the diving season".

However, the loss of these words is not surprising. Elements of the linguistic structure, and mainly words and expressions, exist to meet the needs of people to communicate with one another. New items and expressions are introduced to meet new needs and functions just as the old-fashioned expressions and items are lost, because they appear to have lost their usefulness.

The process of lexical loss is an example of lexical innovation which reflects cultural change. Since change does not only mean the addition of new elements but also the elimination of certain previously existing elements and the modification or reorganisation of the others (Acholonn & Penfield 1980). The elimination process is an example of the strong link between language and the society.

Interestingly, words related to fishing such as :

-/Hda:g/ "fishing"

-/mi:da:r/ "hook"

14-/d3a:lis/ "has a base-like cushion on which it rests"

15-/baiDa:wi:/ "like the egg in shape"

16-/naxd3i/ "like beans"

17-/mu:ri:/ "like a tamarind"

18-/Tabli:/ "like a drum"

19-/robya:ni:/ "like shrimps"

20-/ʕadsi:/ "flat and small like lentil"

21-/ðe:l/ "third in size after 9 and 10"

22-/na:ʕim/ "group of pearls which are soft and nice but are weighed together because they are small"

23-/sinda:li:/ "good but it has what looks like decoration"

24-/sad3ni:/ "big pearl with decoration; sometimes as two pearls"

25-/moʃi:r/ "fully round with redishness. It is one of the best and rarest"

26-/zod3a:d3i:/ "shining white, almost transparent"

27-/ra:bʕa/ "fourth in size after 9, 10 and 22"

28-/omi we:na/ "has one decoration whether it is round or flat"

29-/ka:wu:ki:/ "unevenly round"

List B "Names of crew members":

1-/no:xiða/ "captain of the shjp"

2-/md3addimi/ "captain's assistant"

3-/banda:r/ "accountant"

4-/sku:ni:/ "the steering man"

5-/ɣe:S/ "the diver"

6-/si:b/ "diver's assistant "

7-/riDi:f/ "si:b's assistant"

8-/tabba:b/ "the boy or servant"

9-/nahha:m/ "the singer"

After the discovery of oil and the introduction of moder economic

'Pearl' said to me one evning Mohammed eben-Thani, chief of Bedaa All thought, all conversation, all employment turns on one subject; everything else is mere by-gone and below secondary consideration" (Morehead 1977:45 quoted in Melikian & al-Easa 1978:5).

Similar ideas are also expressed by al-Duwaik (1979:49) when he writes that

"a hundred years ago a traveller came to Qatar and said that people depend for their living entirely on the sea .They spend six months on the sea looking for pearls while the other half of year is spent in fishing or sea trading .Thus people's real homes are the infinite number of boats which fill the quiet harbour".

Thus the sea and all related activities, especially the pearl-fishing industry, were the centre of the economic and social structure of Qatari society. Such importance was reflected in the large number of lexical items related to the domain of pearling, as the following two sets of examples show. List "A" is different names of pearls while list "B" consists of names of crew members (1).

List A "types of pearls" (al-Azzi 1983 : 19-20) :

1-/d3i:wi:n/	"beautiful and it is fully round.
2-/ʃiri:n/	"nice"
3-/9o:iwa/	"not round, half egg-shaped and flat on the back"
4-/badla/	"has clear colour but different shapes"
5-/yaka/	"the one"
6-/fas/	"good pearl tight in the oyster and removed by specialists"
7-/ṁad3hu:la/	"big pearl"
8-/ra:s	"biggest pearl in size"
9-/baTin/	"second to number 9 in size"
10-/xaʃin/	"fully round but small"
11-/tanbu:l/	"like tears in shape"
12-/xaʃra/	"group of pearls fixed to the inside of the shell"
13-/saHti:/	"small ones; not good"

in a particular sociolinguistic situation" (Trudgill 1983 :102).

The changes in QD that will be considered in this paper are not autonomous movements within the confines of a linguistic system but rather a complex response to many aspects of human behaviour. These changes belong to the second category in Trudgill's classification i.e. "non-natural changes". They must be examined within the broad social perspective. For language is ultimately a social phenomenon, and it is natural to look at the social environment in order to find plausable explanations to many linguistic phenomena. Speech serves a social function, both as a mean of communication and also as a vehicle through which one identifies oneself with groups and subgroups in the society. The study of language patterns without reference to the society which uses it is really excluding the possibility of arriving at a social explanation for the linguistic structures and forms that are used (Hudson 1980). Therefore nowadays it is commonly accepted that language and society are one unified whole which needs to be observed, understood and investigated as an inseparable unit; neither of them would exist in isolation from the other there can be no social man without language and no language without social man (Halliday).

We can divide linguistic changes that have occurred in the QD as a result of economic and social changes into the following:

A-The elimination of lexical items related to pearling,

B-Borrowing from English,

C-The influence of Standard Arabic.

A - The elimination of words related to the pearling industry:

Prior to the oil era the sea in general and the pearl-fishing industry in particular occupied an important position in the life of people living in Qatar, as well as in other Gulf countries .It had the same economic status, if not more, that oil enjoys nowadays. The historical importance of pearl diving is reflected in the following statement made by the ruler of Qatar in 1863 to the English traveller Palgrave:

"We are all from the highest to the lowest slaves to one master

ECONOMY AS A FACTOR IN LANGUAGE CHANGE

Dr. Darwish Al-Amadidhi

The various sides of a society such as the economy, politics, education, language etc. interact constantly to shape the society in the form that we see it at any particular time. The relationship among the different aspects of the society is similar to the relationship among a collection of interlocked gears within a winding watch. The movement of any one gear will set other gears in the watch in motion, albeit to different degrees. The same concept can be applied to society. Thus a change in any aspect of the society will be reflected in subsequent changes in other domains of the society.

In this paper we will look at some linguistic changes in Qatari dialect (hereafter QD) which occurred as the result of societal changes. Since the early fifties Qatar has been enjoying a boom economy due to the increase in oil revenues. Oil and the subsequent importation of modern technology that followed have left their mark on many aspects of life in Qatar, such as the changes in the family systems from an extended family system to a nuclear system(al-Easa 1980), the increase in population (al-Khayyat 1982), changes in attitudes (Melikian & al-Easa 1978), and changes in the patterns of education (al-Misnad 1985). Language is no different from other social dimensions and is affected by changes in other social aspects. It is subject to the same principle. As Ferdinand de Saussure said "time changes all things: there is no reason why language should escape this universal law" (quoted in Aitchison 1981:16).

Linguistic changes take on two different forms. "Some forms of linguistic changes may be relatively natural, in the sense that they are liable to occur in all linguistic systems, without external stimulus, because of the inherent nature of linguistic systems themselves.. Other types of linguistic changes, on the other hand, may be relatively non-natural, in the sense that they take place mainly as the result of language contact. They ....are not due to the inherent nature of language systems, but to processes that take place

CONTENTS

10. Typescripts and accompanying materials (whether or not accepted for publication) will not be returned to the authors.
11. Opinions expressed in an article are those of the author and do not necessarily represent the views of the Editorial Board.
12. Order of articles published within each issue of the Bulletin is based on technical considerations and bears no relation either to their relative importance or to the author's academic status.
13. All Correspondence should be addressed to the Editor.

Professor Fathalla Kholeif
Chirman of the Editorial Board
University or Qatar
P. O. Box 2713
Doha, State of Qatar
Arabian Gulf

PUBLICATION OF RESEARCH IN THE BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES

1. The Editorial Board invites contributions based on research within the areas covered by the Bulletin of The Faculty of Humanities. Articles on topics relating to the Gulf and the Arabian Peninsula are particularly welcome, but the results of research in other fields of specialization may also qualify for acceptance.

2. To be accepted an article must fulfil the normal requirements for contributions to learning. (e.g. sound knowledge, accuracy, originality) and include full references to sources and other material used. Articles containing descriptive work only will not be accepted. Footnotes and other annotations and references must follow international rules.

3. Contributions which have already appeared in print are not acceptable. After an article has been approved for publication in the Bulletin, the author is required to sign an undertaking not to publish it elsewhere.

4. The Bulletin is open to contributors not only from the University of Qatar but also from universities and institutions of higher learning in other countries. Articles should normally be written either in Arabic or in English.

5. Articles should be typed in double spacing and submitted in two copies. The length of an article should not exceed thirty quarto (27 by 21 cm) or twenty-five foolscap (32 by 21 cm) pages (= about 10,000 words) and not be less than fifteen pages of similar dimensions.

6. Diagrams, figures and maps should be drawn in Indian ink on transparent or glossy paper of the same size or less than a page of the Bulletin. Photographs should be clear and printed on glossy paper no larger than postcard size.

7. The author of an article published in the Bulletin will receive twenty offprints, together with an honorarium fixed by the University of Qatar.

8. An Article approved for publication may not necessarily appear in the issue of the Bulletin next following.

9. Contributions are considered by assessors from the University of Qatar or elsewhere, and in each case the assessor's verdict is binding and final. The author's and the assessor's identities will not be disclosed.

The Bulletin is issued annually by the Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Qatar.

UNIVERSITY OF QATAR

BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 13

1990

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

٣٠٤ لسنة ١٩٩١

UNIVERSITY OF QATAR

BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 13

1990

جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثاني عشر

١٤١٠هـ / ١٩٨٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي

ومماتي لله رب العالمين

صدق الله العظيم

حولية تصدر عن
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية
بجامعة قطر

جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثاني عشر

١٤١٠هـ / ١٩٨٩م

بيانات حول النشر في حولية كلية الانسانيات

١ - ترحب الحولية بالأبحاث التي لها صلة بتخصص كلية الإنسانيات وتولي الاهتمام بالموضوعات التي لها صلة بالخليج والجزيرة العربية ، وقد يقع الاختيار على أبحاث في تخصصات أخرى لها صلة بتخصصات المجلة .

٢ - تنشر حولية كلية الإنسانيات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوافر فيها شروط البحث ، في الإحاطة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي وخطواته ، والأمانة العلمية ، في الإشارة إلى الأفكار وذكر المراجع والمصادر ، ولا يلتفت إلى المقالات الوصفية والإنشائية ، ويتقيد مقدمو البحوث بالتسميات والحواشي والمراجع والرموز ، وذلك بالطريقة المتعارف عليها عربياً وعالمياً .

٣ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر ولا يكون جزءاً من كتاب منشور . والبحث المقبول للنشر يرفق بوثيقة تعهد من صاحب البحث بعدم نشره في مكان آخر .

٤ - تتلقى الحولية البحوث للنشر من داخل جامعة قطر ومن خارجها من الجامعات والمؤسسات العلمية الشقيقة والصديقة باللغة العربية والإنجليزية .

٥ - يقدم البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة بنسختين وألا يقل حجم البحث عن ١٥ صفحة وألا يزيد عن أربعين صفحة كوارتر (٢٧×٢١سم) أو ثلاثين صفحة فلوسكاب (٣٢×٢١سم) .

٦ - تقدم الرسوم والأشكال والخرائط مرسومة بالحبر (الصيني) على ورق مصقول أو ورق شفاف Tracing Paper ويراعى في مساحتها ألا تزيد على مساحة المجلة طولاً وعرضاً .

أما الصور الفوتوغرافية فتكون واضحة المعالم ومقدمة على ورق مصقول وبحجم البطاقة البريدية .

٧ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية تحددها جامعة قطر مع ٢٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور .

٨ - البحث المقبول للنشر يأخذ دوره للنشر سواء في أول عدد يصدر أو الأعداد التي تليه .

٩ - تعرض البحوث المقدمة على خبير متخصص سواء من داخل جامعة قطر أو من خارجها ويكون رأي الخبير ملزماً كما يبقى إسم الباحث وإسم الخبير مكتومين .

١٠ - الأبحاث والمواد التي ترسل إلى الحولية لا تعاد ولا تسترد سواء أنشرت أم لم تنشر .

١١ - ما ينشر في الحولية يعبر عن وجهة نظر صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر الحولية .

١٢ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .

١٣ - توجه الخطابات والمراسلات باسم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور - فتح الله خليف رئيس قسم الفلسفة - جامعة قطر ص . ب : ٢٧١٣ - الدوحة - دولة قطر .

فهرس الحولية

الإملاء تعليمه وتعلمه
وعلاقة الأخطاء فيه بمستوى التعليم

الدكتور جابر عبدالحميد جابر
أستاذ علم النفس التعليمي
ووكيل الجامعة

مقدمة :

قواعد الإملاء نظام لغوي معين ، موضوعه الكلمات التي يجب فصلها ، وتلك التي ينبغي وصلها ، والحروف التي تزاد ، وتلك التي تحذف ، والهمزة بأنواعها المختلفة ، سواء أكانت مفردة ، أم على أحد حروف اللين الثلاثة ، والألف اللينة ، وهاء التأنيث وتاؤه ، وعلامات الترقيم ، ومصطلحات المواد الدراسية والتنوين بأنواعه والمد بأنواعه ، وقلب الحركات الثلاث ، وإبدال الحروف ، واللام الشمسية والقمرية[٣] .

والإملاء فرع هام من فروع اللغة العربية ، وهو من الأسس الهامة في التعبير الكتابي . وإذا كانت قواعد النحو والصرف وسيلة لضمان سلامة الكتابة من الناحية الإعرابية والاشتقاقية فإن الإملاء وسيلة لها من حيث الصورة الخطية[٧] .

ويؤدي الخطأ الكتابي في الإملاء إلى تحريف المعنى وغموض الفكرة . ولهذا تعتبر الكتابة السليمة إملائياً مهارة هامة في التعليم وهي ضرورة لنقل الأفكار والتعبير عنها ومتابعة أفكار الآخرين والإلمام بها .

والأخطاء الإملائية منتشرة ولدى الكثير من المربين انطباع بأنها في الأجيال الحاضرة من المتعلمين أكثر انتشاراً عنها في أجيال مضت . وهذه الأخطاء لا تقتصر على تلاميذ المرحلة الإبتدائية بل امتدت فشملت تلاميذ المرحلة الإعدادية والثانوية ، بل إننا نجدها لدى بعض الجامعيين والمشتغلين بالتعليم .

دراسات في الاملاء :

أولاً - الدراسات العربية :

في العقد الأول من هذا القرن ألف الشيخ مصطفى السفطي كتاباً بعنوان «النجابة في قواعد الكتابة» وكان ناظر المعارف والأوقاف قد أشار عليه «أن أجمع رسالة في علم الرسم صغيرة قريبة الفهم مفصلة أحسن تفصيل خالية عن الإيجاز والتطويل ليعم نفعها المكاتب والمدارس الملكية ، فامتثلت إشارته وأجبته بالسمع والطاعة وجمعت هذه الرسالة سهلة واضحة الدلالة» وقد احتوى الكتاب على مقدمة وأربعة أبواب . يشرح المؤلف في المقدمة مفهوم علم الخط وموضوعه . وفي الباب الأول عرض للكلمات التي يجب فصلها وتلك التي يجب وصلها ، وفي الباب الثاني عرض لما يبدل من الحروف والباب الثالث عرض الحروف التي تزاد خطأ وان لم ينطق بها ، والباب الرابع الحروف التي تحذف[١٧] .

وفي العقد الرابع من هذا القرن ثار جدل علمي عندما نادى بهي الدين بركات ناظر المعارف العمومية بإصلاح الكتابة العربية لتكون هادية ومرشدة للقاريء ، ممثلة لما ينبغي أن ينطق به وأن تكون ميسرة سهلة التناول على المتعلم حين يتعلم . وأفردت مجلة التربية الحديثة لهذا الجدل الذي ثار على إصلاح الكتابة العربية ودواعيه وأشكاله ومساراته ونتائجه العدد الثالث الصادر في فبراير سنة ١٩٣٨ ، فكتب ساطع الحصري «حول إصلاح رسم الكتابة العربية» ، وتحدث علي الجارم عن «كتابة العربية وقراءتها» ، وعائشة عبدالرحمن عن «رسم

الكلمات العربية» ، وأحمد عطية الله عن «العوامل السيكولوجية في إصلاح الهجاء العـربي» ، وإسحق موسى الحسيني عن «صعـوبة الكلمات العربية» ، وحامد عبـدالقادر عن «الحروف والحركات العربية بين شقي الرحى» ، وكانت مجلة الهلال قد شاركت في هذا الجدل العلمي في عدد مايو ١٩٣٨ بمقالتين ، فكتب طاهر الطناحي : «هل يمكن إصلاح الحروف العربية؟» وكتب أبو فاضل عن : «إصلاح الهجاء العربي» ، طريقة جديدة لرسم الكلمات العربية ، وكتب أحمد السكندري عن «تيسير الهجاء العربي» ، وقدم الجنيدي خليفة كتابه «نحو عربية أفضل»[١٩] .

وفي العقـد الرابع حظى تعليم الإملاء بكتاب تحدث عن قواعد الإملاء الحديثة قدمه نهاد الترزي وشوكت الصواف عام ١٩٣٩م[٢٠] .

وقد حدث تطور في بحوث تعليم اللغة العربية في العقدالخامس من هذا القرن إذا ما قورن بما كتب عن تعليم العربية في العقد السابق عليه وقد وصل عدد ما ألف من كتب ومقالات وبحوث إلى ثمانية وأربعين مؤلفاً ، في حين أن ما ألف في العقـد الرابع وصل إلى واحد وعشرين مؤلفاً . غير أن نصيب تعليم الكتـابة من هذا الإنتاج كان كتابين ومقالة وفيها عرض لقصة الكتابة العربية والتـدوين وخصـائص الخط العـربي وأشكاله وتيسير الإملاء ولغة الكتابة ولغة التخاطب . ففي مقال كتبه محمد علي الدسوقي في صحيفة دار العلوم عنوانها «تيسير اللغة العربية وتهذيبها» عرض دراسة عن المراحل التي مر بها إصلاح اللغة العـربية وتنقيحهـا ، ثم سهولة تعليم اللغة العربية وضبطها على أبناء العرب الأول . وسبب اختـلاف لغـة الكتابة عن لغة التخاطب عند الأمم المستعربة وعـدم اختلافها عند الأوروبيين وأسباب صعوبة ضبط اللغة العربية ، وأخيراً اقـتراحـات لضبط اللغة من تمثيل وخيالة وصحف يومية ومجلات وإعلانات . وعـرض إبـراهيم جمعـة قصة الكتابة العربية فتحدث عن الكتابة والتدوين ، والمـراحل التي مرت بها الكتابة العربية وخصائص الخط العربي وأشكاله ، أما

تيسير الإملاء فقد عرض في الدورة الرابعة عشرة من دورات انعقاد مجمع اللغة العربية[19] .

والحق أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد اهتم منذ عام ١٩٤٧ بتيسير الإملاء ، كما اهتم بقواعد ضبط الهمزة وتنظيم كتابتها[10،12] .

وفي العقد السادس من القرن العشرين زادت الكتابات والبحوث التي أجريت في ميدان تعليم اللغة العربية كماً وكيفاً ووصلت في مجملها إلى ست وخمسين مقالة وثلاثة وستين كتاباً وعشرة بحوث غير أن حظ الكتابة منها قليل وحظ الإملاء أقل من ذلك وينبغي أن نشير إلى عملين هامين في هذه الحقبة : الأول ما كتبه محمود تيمور في مجلة مجمع اللغة العربية عن ضبط الكتابة العربية . وفي هذا المقال يعالج مشكلة اللغة العربية ويعرض الحلول المختلفة التي قدمت لعلاجها وأول هذه الحلول استخدام الحروف اللاتينية واعتبر ذلك وسيلة تقريب بين الأمم وأن هذه الحروف مورست في الطباعة واكتسبت مرانة في الاستخدام وأثبتت قدرتها ويسرها في ضبط كتابة اللغات الأجنبية . وقد أمكن إدخال ضروب من التعديل عليها تناسب ضبط الكلام العربي على أدق وجه بحيث نجعل كل حرف في الكلمة يدل بذاته على صورته الصوتية دلالة صادقة لا لبس فيها ولا إبهام . والثاني هو اختراع حروف جديدة تحل محل حروفنا العربية ذات علامات للضبط ملائمة لها . ولكن الأخذ بحروف مخترعة أمر يتطلب من رحابة الصدر وشجاعة النفس ومن الاستعداد للقبول بالجديد أكثر مما يتطلب الأخذ بطريقة الحروف اللاتينية . وثالث الحلول الإبقاء على الحروف العربية القائمة مع اختراع علامات للضبط تكون ميسورة على المطابع واضحة للقاريء وتلحق هذه العلامات بتلك الحروف وهذا الإلحاق يفقد الحروف صورتها المألوفة . وأما الحل الرابع فهو الإبقاء على الحروف العربية وعلامات ضبطها على أن تكتب علامة الضبط مع الحرف في بنية واحدة حتى لا نحيد عنه وهذا حل مكلف اقتصادياً وصعب فنياً ، فإن صندوق الحروف العربية في أوضاعها القائمة كثير الصور ،

يعيا به الصفافون إذ يبلغ أكثر من ثلاثمائة عين . ولو أضيف إلى الصندوق صور جديدة من الحروف عليها علامات الضبط على اختلافها لازداد جهد القائمين بصف الكلمات أضعافاً مضاعفة . وثمة حل خامس وهو وضع علامات الضبط بجانب الحروف منفصلة عنها كما هو الحال في الحروف اللاتينية وهذا يقتضي تغير أوضاع الكتابة العربية في تركيب الكلمات والحل السادس والأخير الاقتصار على الحروف منفصلة وهذا يزيد من الحيز المقسوم للكلمات ولا يحمي من خطأ الكلمة أول وهلة ويقتضي نقطة للفصل بين كل كلمة وكلمة[١٦] .

والثاني ما قدمه إبراهيم عبدالمطلب في كتابه «الهداية إلى ضوابط الكتابة» عام ١٩٥٨ ثبتاً بالأخطاء الإملائية التي تشيع في الصحف والمجلات وقد حصر عددها فبلغت ١٨٢ خطأ . ولكنه لم يحدد المنهج الذي اتبعه في جمعها ، ولم يعرضها مرتبة حسب تكرارها ويمكن أن تندرج الأخطاء في الفئات الآتية : الألف اللينة ، وما يوصل بغيره من الكلام ، وما يفصل عن غيره منه ، والحروف التي تحذف أو تزاد في بعض الكلمات[١] .

وفي العقد السابع من القرن العشرين ازدهرت الكتابات والبحوث في ميدان تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي فما ألف وترجم في العقد السابع وصل إلى مائة وأربعة كتب ، ومائة مقالة وأربع مقالات وأحد عشر بحثاً . نال تعليم الكتابة من هذا كله ثلاثة كتب وأربع عشرة مقالة .

وقد نشرت مجلة اللغة العربية مقالاً كتبه محمد بهجة الأثري بعنوان «تيسير الإملاء العربي» يقترح فيه طريقة للكتابة العربية تتلخص في صلة الكتابة بالأقيسة النحوية والأصول الصرفية ولهجات القبائل . ويقترح أسلوباً لكتابة الهمزة والألف اللينة بصور ميسرة[١٣] . ويكتب حامد عبدالقادر مقالاً في مجلة مجمع اللغة العربية بعنوان «دفاع عن الأبجدية والحركات العربية» وفيه يعرض تاريخ اللغة العربية وما طرأ من تطور على الأبجدية ونشأة الشكل والنقط ومشكلة

الإملاء وطرق التغلب عليها[٢] .

وقد تناولت الدورة السادسة والعشرون مجموعة البحوث والمحاضرات التي صدرت عن المجمع وقد تناولت هذه البحوث بالدراسة مشكلة الكتابة العربية وتيسير الخط العربي وتبسيط قواعد رسم الهمزة باختلاف مواقعها في الكلمة والمشكلات التي تعترض التلاميذ في هذا المجال والعلاج الذي يلائمها والقرارات التي صدرت بهذا الصدد والتي أحيطت بها وزارة التربية والتعليم علماً[١١] .

ونشر عبدالفتاح شلبي وأعوانه عام ١٩٦٠ تقريرهم عن تيسير قواعد الإملاء وعرضوا فيه الأخطاء الشائعة والأسباب التي أدت إليها .

وفي هذا البحث قام الباحثون بدراسة مسحية للأخطاء الإملائية في امتحانات النقل في مراحل التعليم العام الثلاثة ثم وضعوا اختباراً لقياس بعض القواعد الإملائية يتألف من قطع تلائم مستوى الصفين الخامس والسادس الإبتدائيين ، والصفوف الأربعة في المرحلة الإعدادية والصفين الأول والثاني من معاهد المعلمين والمعلمات . وقد روعي في تصميم هذا الاختبار التدرج في المحتوى واللغة وانتقى الباحثون ٣٢ مدرسة موزعة على مناطق القاهرة والجيزة بنين وبنات . ورغبة في توحيد أسلوب تطبيق الاختبار قام أفراد معينون بإملاء القطع ، ثم جمعت النتائج وأفرغت الأخطاء وحسبت النسب المئوية لأنواع الأخطاء في كل صف دراسي .

١ - تباينت الأخطاء من حيث الكم والنوع بتباين الصفوف الدراسية وكانت الأخطاء كثيرة في الصفين الخامس والسادس الابتدائيين في الألف اللينة والهمزة في وسط الكلمة ، وفي الحروف التي يجب أن تزاد أو تحذف اصطلاحاً ، وفي هاء التأنيث . وكذلك في الصفوف الأربعة من المرحلة الإعدادية ، علاوة على أخطاء وقعت فيما يجب أن يوصل بغيره من

الكلمات . وفي دور المعلمين والمعلمات ارتفعت نسبة الخطأ في الهمزة المتوسطة والحروف التي يجب أن تحذف .

٢ - كانت أخطاء البنات دون أخطاء البنين في جميع الصفوف الدراسية السابقة .

٣ - وقع طلاب المعلمين والمعلمات في أخطاء في الألف اللينة والهمزتين المتوسطة والمتطرفة وفي أخطاء أخرى لم تكن متوقعة بالنسبة لمستواهم التعليمي .

٤ - بتر الكلمات تجنباً للصعوبة في الهجاء . أي أن التلميذ يميل إلى الابتعاد عن الكلمات الصعبة عندما يكون حراً .

وقد خلصت اللجنة إلى أن صعوبة قواعد الإملاء هي السبب في وقوع التلاميذ في الخطأ الإملائي ، وأن تيسير قواعد النحو كفيل بالتخفف من هذه الأخطاء ولذلك رأت أن كل ما ينطق به يرسم في الكتابة ، وكل ما لا ينطق به لا يرسم ، وأن تكتب الهمزة في أول الكلمة ألفاً مطلقاً ، وأن تثبت الهمزة في وسط الكلمة على حرف مجانس لحركة ما قبلها إذا كانت ساكنة ، وعلى حرف مجانس لحركتها إذا كانت متحركة ، أما الهمزة المتطرفة فتكتب على حرف متجانس لحركة ما قبلها فإذا كان ما قبلها ساكناً كتبت مفردة ، وكتابة الألف اللينة ألفاً مطلقة[٨] .

ووضع محمد خير الدين عرقسوس عام ١٩٦٥ اختباراً في الإملاء ذكره محمد أحمد السيد في كتابه «الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها» عام ١٩٨٠ . وقال انه قام بتطبيقه على طلبة دبلوم معهد التربية للمعلمين وطالبات دبلوم معهد التربية للمعلمات في العام ١٩٧٥ / ١٩٧٦ وأسفرت النتائج عن ضعف شديد في مهارات الإملاء وخاصة عند الطلاب .

ولقد صمم هذا الاختبار بعد دراسة مسحية لمهارات الإملاء المتعلمة في مراحل التعليم ويتألف الاختبار من ١٩٢ مفردة بعضها صحيح وبعضها خطأ

ووضع بجوار كل مفردة حقلان أحدهما كتب فوقه صواب والآخر كتب فوقه خطأ . وعلى المفحوص أن يضع علامة (/) في حقل الصواب إذا كانت الكلمة صحيحة ، وإشارة (×) في حقل الخطأ إذا كانت الكلمة خطأ ثم يكتب الكلمة الصحيحة في المكان الخالي بجوار الكلمة .

والاختبار لم يستوف خصائصه السيكومترية من حيث الصدق والثبات والمعايير (١٥) ويبين حسن شحاته : ان الاختبار يقيس صحة رسم الكلمات كما أنه يستغرق قواعد الإملاء أو أنماط الأخطاء التي تشيع بين الطلاب . وليس للاختبار مفتاح تصحيح حتى يمكن الاعتماد عليه كأداة موضوعية تشخيصية[٤] .

وقد نمت البحوث في ميدان تعليم اللغة العربية في العقد الثامن من هذا القرن عما كانت عليه . فقد بلغ ما ألف أو ترجم في العقد الثامن أربعمائة وسبعة وعشرين مؤلفاً منها مائتان وثمانية وأربعون كتاباً ، ومائة وثنتان وعشرون مقالة وسبعة وخمسون بحثاً . ومعنى هذا ان الانتاج العلمي في هذا المجال زاد زيادة واضحة عما كان عليه في العقد السابق . ولقد اتجه جانب من هذا الإنتاج إلى تعليم الكتابة وقد تناول جوانب مختلفة منها الدفاع عن اللغة العربية المكتوبة وتوحيد الرسم الإملائي والإملاء والترقيم في الكتابة العربية .

وقد أخرج عبدالعليم إبراهيم كتاباً عن «الإملاء والترقيم في الكتابة العربية عرض فيه القواعد الإملائية وبسط علامات الترقيم وذكر كثيراً من الشواهد الإملائية والتمرينات التطبيقية على كل قاعدة من قواعد الإملاء[٥] . كما قدم مقالاً إلى المؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب عن توحيد الرسم الإملائي على مستوى العالم العربي[٦] .

ونالت أساليب تعليم اللغة العربية ثلاثة وعشرين كتاباً يحتوي معظمها على

معالجة للإملاء إبرازاً لأهميتها وتحديداً لأنواع وطرائق تعليمها وتقويمها . أنظر ملحق رقم (١) .

وقد حظى العقد الثامن من القرن العشرين بنصيب موفور من البحوث بلغ عددها سبعة وخمسين بحثاً تناولت مجالات تعليم القراءة وتعليم الإملاء وتعليم النحو وتعليم الأدب ويحث مشكلات تواجه تعليم اللغة العربية وتعليم الدين الإسلامي وتعليم الأميين الكبار .

وفي هذه الفترة درست منى بحري «تقويم الاختبارات الصفية التحريرية لمادة إملاء اللغة العربية للصف الرابع الابتدائي في العراق «فحللت ٢٠٢ اختباراً إملائياً وانتهت إلى الكشف عن أسباب القصور في الاختبارات الإملائية كطول الاختبار الذي يثقل على التلميذ ويعرضه للأخطاء ، وقصر الاختبار الذي لا يمثل عينة كافية من سلوك التلميذ وبالتالي لا يبين نواحي ضعفه ومن هذه الأسباب عدم ملاءمة لغة الاختبار ومفرداته لمستوى التلميذ فيصعب عليه فهم معناه ، وعدم استعمال علامات الترقيم ، بل أشارت إلى أن عدم العناية في تصميم الاختبار يؤدي إلى عدم تحقيقه للأهداف المتوخاه من درس الإملاء[١٨] .

وفي هذه الفترة أيضاً قام محمد صلاح الدين مجاور بتحديد المهارات اللغوية في فروع اللغة العربية في مراحل التعليم العام في دولة الكويت . ومن بين هذه المهارات التي حددت مهارات الإملاء . ولقد توصل إلى هذا التحديد من خلال استبانة طبقها على ألف وثلاثمائة مدرس من الكويت ومصر وعلى تسعين موجهاً من موجهي اللغة العربية في البلدين ، فضلاً عن عشرة من المهتمين بعلم النفس ممن لهم علاقة بتعليم اللغة العربية ومن المفكرين التربويين .

وانتهى مجاور إلى تحديد مهارات الإملاء التي تخص المرحلتين الإبتدائية والمتوسطة ولم يحدد مهارات خاصة بالمرحلة الثانوية .

ويشمل ثبت مهارات الصف الأول الإبتدائي كتابة التلميذ لإسمه وإسم أبيه وجده ، ومعرفة أشكال الحروف والتمييز بين أصواتها ورسم الكلمة ، والتمييز بين الحروف المتشابهة والقريبة من مخارجها . وكتابة الكلمات التي يتعلمها في القراءة ، وكتابة أسماء زملائه في الصف وأسماء بعض الحيوانات ، وأن ينقل كلمات نقلاً صحيحاً ، وأن ينقل جملة قصيرة سهلة أو جملتين .

ويشمل ثبت مهارات الصف الثاني أن يكتب التلميذ إسم المدرسة والمدرس والناظر ويكتب إسم اليوم ، والشهر بعد أن يراه في التقويم وينقل جملتين أو ثلاثاً من الجمل السهلة التي يقرؤها ، ويميز بين أصوات بعض الحروف كالذال والزاي والسين والثاء ، ويكتب أسماء زملائه في الصف مع أسماء آبائهم وينقل الإعلانات التي في لوحة المدرسة ، ويكتب جملتين صحيحتين من الكلمات التي تعلمها .

ويشمل ثبت مهارات الصف الثالث الإبتدائي نقل التلميذ فقرة لها معنى في ثلاث جمل أو أربع ، ويكتب عبارات مثل أبي العزيز ، وأمي العزيزة وصديقي فلان ، ويكتب عبارات ترحيب أو توديع أو تهنئة مثل أهلاً وسهلاً ومرحباً ومع السلامة وعيد سعيد ، وترك الهوامش المناسبة حين يكتب ويتقن الكلمات ذات اللام الشمسية وذات اللام القمرية .

في الصف الرابع يتقن التلميذ رسم الكلمات وينقل فقرتين نقلاً صحيحاً ويكتب رسالة قصيرة سليمة هجائياً ، ويكتب موضوعاً من فقرة أو فقرتين قصيرتين صحيحتين في الهجاء .

وفي الصف الخامس الابتدائي أو الأول المتوسط يعرف التلميذ كتابة التاء المفتوحة والتاء المربوطة ، والحروف التي تزاد في الكلمات اصطلاحاً ، ويكتب حوالي ثمانين كلمة من الكلمات التي درسها دون خطأ إملائي فيها . ويفهم المعنى العام لما يكتب .

وفي الصف السادس الابتدائي -الثاني المتوسط- يكتب التلميذ مائة كلمة دون خطأ إملائي ، ويتقن كتابة الكلمات التي تشتمل على همزات أو ألف لينة إلا ما كان منها صعباً عليه ، ويكتب رسالة أخوية أو في مناسبة ، ويكتب موضوعاً صغيراً دون خطأ هجائي .

وفي الصف الأول الإعدادي -الثالث المتوسط- يتقن التلميذ كتابة الكلمات التي تشتمل على الهمزات وتلك التي تشتمل على الألف اللينة وغير ذلك من الكلمات الصعبة ويكتب موضوعاً من مائة وعشرين كلمة تقريباً دون خطأ هجائي قد يؤثر في المعنى ويكتب رسالة صحيحة هجائياً .

وفي الصف الثاني الإعدادي -الرابع المتوسط- لم يكن هناك مقترحات بوضع مهارات في هذه السنة إلا التدريب المستمر على المهارات السابقة في الإملاء مع إضافة التدريب على استعمال علامات الترقيم . وهذا معناه إمكانية تدريب التلاميذ على الإملاء في المدرسة الابتدائية وفي الصفين الأول والثاني من المرحلة الإعدادية أما بعد ذلك فالمفروض أن يكون التلميذ قد عرف الكتابة الصحيحة هجائياً[١٤] .

وبعد تلخيص هذه الدراسة يشير حسن شحاتة إلى أن هذه النتائج تمثل أراء عينة من المعلمين والموجهين وأن فكرتهم عن مهارات الإملاء ليست دقيقة فذكرهم لكتابة التلميذ رسالة قصيرة أو موضوعاً من فقرة أو فقرتين مهارات تعبير وليست مهارات إملاء[٤] .

هذا فضلاً عن أن فكرة الموجهين والمعلمين عن مهارات الإملاء ليست شاملة فقد كشف مسح لمهارات الإملاء التي يتقنها تلاميذ المرحلة الابتدائية عن خمس عشرة مهارة هي : المد بأنواعه ، والتنوين بأنواعه ، واللام الشمسية والقمرية ، وتاء التأنيث بنوعيها ، والهمزة في أول الكلمة وفي وسطها وآخرها والألف اللينة وإبدال الحروف ومصطلحات المواد الدراسية ، وقلب الحركات ،

والحروف التي يجب أن تحذف اصطلاحاً ، والحروف التي تزداد اصطلاحاً . وقد قصرت فكرة الموجهين والمعلمين فلم تشمل كثيراً من هذه المهارات[٩] .

ويشكك حسن شحاتة في جدوى الاستبانة كوسيلة للحصول على المعلومات وهذا النقد مقبول إذا كان المجتمع المستهدف لا يعرف موضوع الاستبانة أما وهم من معلمي اللغة العربية وموجهيها فهم مصدر هام من مصادر التوصل إلى تحديد هذه المهارات ، وليسوا المصدر الوحيد .

وبحث حسن شحاتة عام ١٩٧٨ الأخطاء الشائعة في الإملاء لتشخيصها وعلاجها . وذلك بعد أن قام بتحليل كتابات ألف ومائة تلميذ وتلميذة من تلاميذ الصفوف الثلاثة الأخيرة من المرحلة الابتدائية ومن النتائج التي أسفر عنها البحث :

- بعض أخطاء التلاميذ لم تتناولها المقررات الدراسية في المرحلة الابتدائية مثل مصطلحات المواد الدراسية ، وقلب الحركات الثلاث وإبدال الحروف والحروف التي يجب أن تزاد اصطلاحاً ، والكلمات التي توصل بها بعدها ، والكلمات التي تفصل عما بعدها مما يدعو إلى إعادة النظر في مقررات الإملاء في المرحلة الابتدائية .
- اختلاف الأخطاء الإملائية باختلاف الصفوف الدراسية ، فبعضها يقل مع الانتقال إلى صف دراسي أعلى وبعضها يرتفع مع التقدم في الصفوف وبعضها يختص بصفوف دراسية معينة .
- اختلاف المستوى الاقتصادي والاجتماعي يؤثر في أخطاء الإملاء في الصفوف الرابع والخامس والسادس الابتدائي ولا فروق بين الجنسين في الأخطاء[٣] .

ثانياً - الدراسات الأجنبية :

ان تدريس الهجاء شأنه شأن أي مادة أخرى يتطلب تعاوناً من قبل التلميذ . ومن هنا فإن تاريخ تدريس الهجاء قد بدأ حين شعر الناس لأول مرة

أنهم في حاجة إلى الالتزام بهجاء الكلمة بطريقة معينة . وهذا يتطلب بطبيعة الحال أن يكون هناك هجاء مقنن للكلمة . ذلك أنه إذا كان في الإمكان هجاء الكلمة بطرق مختلفة فإن الهجاء يصبح عملية فردية ولا حاجة عندئذ إلى تعليمه ، فكل حسب اجتهاده وطريقته . ولقد توافرت الظروف في القرن الثامن عشر التي أدت إلى تقنين الهجاء في اللغة الإنجليزية ، وإلى توافر رغبة المتعلمين في معرفة الشكل الصحيح لكل كلمة .

ولقد نشر جونسن S. Johnson عام ١٧٥٥ قاموسه الذي أصبح مشهوراً فيما بعد Dictionary of the English Language ولقد ساعد على شهرته وذيوع صيته تفوقه على من سبقوه ، ومقدمته العلمية الرصينة وصدوره على يد مجموعة كبيرة من الناشرين ، وساعد على ذلك أيضاً المناخ العلمي الذي كان سائداً في ذلك الوقت والذي ساعد على تقنين الهجاء واعتبار هذا القاموس العمدة في هذا المجال .

وفضلاً عن ذلك فقد ظهرت في القرن الثامن عشر طبقة متوسطة مؤثرة في انجلترا من التجار كان لها ممثلوها في البرلمان وفي غيره ، وفي الوظائف العامة . وتزايد احتكاكهم مع الطبقة الارستقراطية . وقد أدت هذه البيئة الاجتماعية الجديدة إلى زيادة اهتمام هؤلاء باللغة التي يستخدمونها . وترتب على ذلك ظهور كثير من الكتب عن النطق والنحو والهجاء في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر .

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فكان أكثر الكتب المبكرة تأثيراً كتب وبستر Noah Webster's Blue-backed Spellers الذي ظهر عام ١٧٨٣ . ومنذ البداية افترض وبستر وتلامذته أن الغرض من تدريس الهجاء هو تعليم ضبط الإملاء والنطق والمعنى لكل كلمة تدرس . ولقد افترض وبستر وناشرو كتابه ومقلدوه أن النطق اللغوي أصبح مقنناً وكذلك الهجاء ، ودرسوا هذا النطق الصحيح في

كتبهم الخاصة بالهجاء . ولقد انصرف التركيز في التعليم في الدروس المبكرة على المقاطع المتشابهة في الإيقاع ثم على الكلمات المتشابهة في الإيقاع أو المسجوعة . غير أن جهوداً قليلة بذلت لشرح أشكال الهجاء المختلفة لنفس الصوت والهجاء المتماثل للأصوات المختلفة وتفسيرها واستخدامها . ولقد شعر هؤلاء المؤلفون بوجود مباديء أساسية للهجاء ولذا نجد وليم وبستر W. G. Webster عند تحريره لكتاب أبيه عام ١٨٦٦ يكتب قائلاً : «ان خطة التصنيف التي وضعت قد اتسعت لكي تشمل كل نوع هام من الكلمات الإنجليزية ، وقد رتبت فئات الكلمات مع توجيهات مناسبة للنطق ، بحيث أن أي تلميذ يتقن هذه الجداول المبدئية لن يجد إلا صعوبة ضئيلة في تعلم أي كلمة تنتمي على نحو صحيح للغة الوطنية وفي نطقها» .

والاستخدام المتكرر للجمل في الإملاء ، أي هجاء الكلمات في السياق ، هو الخاصية المميزة لكتب الهجاء المبكرة التي وضعها وبستر ومن سار على دربه وكانت الكلمات الجديدة تدرس عادة بمعزل عن الجمل ، وتتم مراجعتها في الجمل والسياقات على نحو غير منظم . فالكلمات التي تتألف من مقطعين كانت تقدم للتلميذ ليتعلمها لأول مرة في الدرس السادس والعشرين وتقدم الكلمات ذات المقاطع الثلاثة في الدرس الرابع والخمسين دون تعليق على البدايات pre-fixes واللواحق suffixes التي كثيراً ما تضاف إلى مقطع آخر أو كلمة أخرى وكثيراً ما كان المدرس اليقظ يزود التلاميذ بهذه المادة بنفسه ، ولكن كتب الهجاء في القرن التاسع عشر لم تقدم للمعلم إلا مساعدة قليلة وتوجيهاً محدوداً وخاصة إذا قورنت بالكتب الحالية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر أي بعد مائة عام تقريباً من الاستقرار بدأت الأفكار التي تتصل بالهجاء في التغير . واختفت الفكرة القائلة بأن الفرد يستطيع أن يتعلم هجاء جميع الكلمات بتعلم هجاء عدد قليل منها . ولقد احتوى كتاب

Seventy Lessons in Spelling الـذي نشر عام ١٨٨٥ وقـد ألف أصلاً لتلاميذ المـدرسـة الثـانـوية الـذين لم يتعلموا الهجاء والذين ينوون الاشتغال بالأعمال التجارية والاقتصادية ، على تحذير هو : «ان هجاء الكلمات الانجليزية هو في أفضـل الحـالات تعسفي وغـير متسق ، بحيث أن تعلم هجاء الكلمات التي نستخدمها في الحياة اليومية عمل يتسم بقدر كاف من الصعوبة . . ولقد حذفت قواعد الهجاء عن قصد ، لأنها تعوق الهجاء أكثر مما تساعد عليه» .

ولسوء الحظ فإن وجهة النظر هذه انتشرت حتى الستينيات من القرن الحالي وما يزال بعض المدرسين يقبلونها .

نقد الطرق التقليدية :

كيف يمكن للفرد أن يتعلم الهجاء ، أو تدريسه للآخرين ؟ وكيف وصل الأفراد الذين يجيديون الهجاء إلى ما وصلوا إليه ؟

لقد طرحت الأسئلة السابقة وما يماثلها وبذلت جهود للإجابة عنها من قبل المربيين الذين قاموا بتقويم التعليم الابتدائي في العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن .

ولقد لخصت هيلدرث Hildreth عام ١٩٥٥ بعض الاعتراضات على الطرق التقليدية في تدريس الهجاء ومنها أن المدرسين أخفقوا في الربط بين الهجاء وبقية المنهج التعليمي الأمر الذي أدى بالتلاميذ إلى الخطأ في هجاء كلمات في الدروس الأخـرى لا يخطئـون هجـاءها في دروس الإملاء . ومن الأسئلة المطروحة في الصفوف العليا بل وحتى في الجامعة : هل للهجاء أهمية ؟ ان هذا السؤال يعبر عن حقيقة هي عدم الارتباط بين الهجاء والكتابة .

كما أن الطريقة التقليدية في تعلم الهجاء والتي تستخدم القوائم قد تعرضت للنقد . فقد اختفت في نهاية القرن مجموعات الكلمات المسجوعة أو ذات الإيقاع

الـواحـد التي انتشرت في كتب وبسـتر والتي يظهـر بينهـا قدر من الاتسـاق . وأصبحت القوائم تتألف من كلمات غير متصلة وأحياناً من كلمات لا فائدة منها . ويبدو أن مؤلفي هذه الكتب لم يتبينوا أن هجاء أي كلمة يسهل تذكره إذا ارتبطت بشيء آخر ، حتى ولو كان في سياق موضوع الانشاء .

وظهرت شكوى أخرى من تدريس القوائم وهي أنها كانت غير واقعية في ضوء حاجات الطفل ، وأنها كانت تستخدم بقدر كبير من الجمود في الدروس . ولم تعد هناك ثقة فيما يسمى بنظرية المخزون البارد cold storage theory أي أنه ينبغي أن يتعلم الأطفال هجاء كلمات لا يعرفونها استعداداً للقراءة أو لمناسبة قد تظهر الحاجة لاستخدامها في الخطاب يوماً ما . وكان ينظر إلى تعلم كل كلمة باعتبـاره عملية خاصـة لا تتصـل بتعلم الكلمات الأخـرى لذلك بدا من غير الضروري ومن الجمـود انفـاق قدر متسـاو من الوقت والتدريب في تعلم كل كلمة . ولقد أدت هذه الاعتراضات على الطرق التقليدية في تدريس الهجاء إلى إدخال تعديلات على برامج الهجاء وإجراء تجارب عليها .

وإذا اعتمد تدريس الهجاء على اشباع الحاجات التي يشعر بها الطفل . فإنه ينبغي أن يتـوافـر له مصـدر مريح يستمـد منـه الكلمـة التي يريد كتـابتها ، واسـتراتيجية اقتصـادية فعـالة يستطيع بها أن يتعلم الكلمة متى تم توافرها . وهكذا يمكن القول بأن قوائم الكلمات لها قيمتها وفائدتها إذا اشتقت من كلمات يطلبها الطفل ويسأل عنها(٢٥) .

وأجريت التجارب الأولى على صفوف دراسية حدث فيها تكامل بين الهجاء وأنشـطة الفنـون اللغـوية الأخـرى ، من قبيل استخراج الكلمات التي يتعلم هجاؤها من موضوعات القراءة ولقد نجح هذا النوع من التجارب .

تجارب تدريس الهجاء :

من موضـوعـات البحث الهامة محتوى قائمة الكلمات التي تدرس . ولقد أجريت احصاءات لا حصر لها للكلمات التي تتفاوت من حيث الفهم والدقة . واعتمدت هذه القوائم كلية على استخدام اللغة الإنجليزية من قبل الراشدين . ولذلك فإنها لم تساعد كثيراً في تدريس الهجاء للأطفال .

وكـانت القائمة الأولى هي تلك التي وضعها آيرز Leonard P. Ayres عام ١٩٢٥ وترجع أهمية آيرز إلى أنه خلال محاولته لتوسيع القائمة الأصلية ، والتي تألفت من ألف كلمـة لتصبـح ألفين ، اكتشف أن ثلاثمائة من هذه الكلمات تشكل ٧٥٪ من جميع الكلمات التي ترد في أي فقرة مكتوبة ، وان الألف كلمة الأكثر شيوعاً تؤلف ٩٢٪ من الفقرة . وعند هذه النقطة أو بعدها بقليل يبدأ تواتر الكلمات في التفاوت مع نوع المادة .

ان هذا الاكتشـاف فيما يبـدو أدى ببعض المربين من أمثال دولش Dolch ١٩٤٢ وفتـز جيرالـد Fitzgerald عام ١٩٥١ إلى الأخذ بمدخل جديد تماماً في تدريس الهجاء . وهو تدريس ألفين من الكلمات وقد تأكدوا بالبحث أنها تشتمل على ٩٥٪ من جميع الكلمات المكتـوبـة وأن يركزوا على اتجاهات وعادات مثل البحث عن الكلمة في القاموس ومراجعة الفرد لما يكتبه لتصحيحه الأمر الذي يسهم في تحسين الهجاء . ولقد أخفق هذا المدخل في إدراك أن معظم الكلمات الشائعة في السياق وبالتالي أكثرها شيوعاً في هذه القوائم هي كلمات وظيفة "func-tion" words كالأدوات الشرطية وحـروف العطف والجر والأفعال المساعدة وأن معانيها المعجمية محدودة ، ومع ذلك فمعانيها كثيرة من حيث أنها جزء من تركيب لغوي . والخمس في المائة الأقل شيوعاً كلها خصبة في المعنى القاموسي ، والخطأ في هجاء أي منها يكون عادة واضحاً ، وهكذا فإن نسبة الكلمات التي يخطيء في هجائها الفرد لكي يعتبر ضعيفاً ليست عالية جداً .

ولقد شاعت ممارسات أخرى بين الحربين العالميتين الأولى والثانية بالنسبة للمدرسين الذين يحاولون تحسين تدريس الهجاء . ولعل نجاح فيرنالد Fernald في الطريقة الحسية الحركية في التدريس العلاجي (واستخدام التعزيز الحسي الحركي) أدى إلى جعلها جزءاً أساسياً من كل درس هجاء . ويقدم فيرنالد وغيره من الباحثين في هذا المجال مقترحات لتشخيص صعوبات الهجاء وعلاجها ، ذلك أن جميع الأطفال الذين يجدون صعوبة في الهجاء يحتاجون إلى تكوين صور واضحة للكلمات . وينبغي أن يعلم كل تلميذ بحيث يستخدم جميع الحواس في تعلم الهجاء أي أن يستخدم الانطباعات البصرية ، والسمعية ، والنطقية الحركية ، واليدوية الحركية في تكامل بحيث تترسب في مخيلته صورة الكلمة التي يستطيع استرجاعها آلياً . والأطفال الذين يجدون صعوبة لفترة قد يحتاجون تأكيداً أكبر على الصور السمعية ، أو ربطاً بين الانطباعات السمعية والانطباعات الحركية للكلمة . ان عمل المعلم يتطلب الصبر والتجريب مع الطفل الضعيف حتى يجد عناصر الطريقة التي تثمر في تعليمه وتحقق النتائج المطلوبة . ولابد أن ينصرف التأكيد بالنسبة لهؤلاء الأطفال إلى إنجازهم مهما كان ضئيلاً ولا ينصرف إلى إخفاقهم . ان الطفل الذي تثبط همته ويشعر بالإخفاق يصعب عليه أن يتعلم ، أما الطفل المتفائل فإنه يتميز بالصبر والكفاح لتحقيق نتائج أفضل متى وجد توجيهاً وإرشاداً معيناً .

غير أن طريقة التعزيز الحسية الحركية تقتضي ان يكتب التلميذ كل قائمة من الكلمات عدداً من المرات ، وكثيراً ما يحدث هذا بطريقة مملة .

وفي محاولة لاضفاء نوع من الوحدة على درس الهجاء اتجه بعض المؤلفين لكتب تعليم الهجاء إلى عرض قوائم الكلمات المستجدة من خلال قصة قصيرة أو فقرة . ويقوم الطفل أما بنقل الفقرة وإما باستخدام كل كلمة فيها بعد بوضعها في جملة . وتدريس الهجاء في سياق مبدأ سليم . ولقد وجد من خلال التعليم

العلاجي أطفال عديدون يستطيعون هجاء الكلمات في السياق وعدم قدرتهم على هجائها منفردة .

ولقد ظهر اتجاه متزايد لعدم تدريس الهجاء بعد الصف السادس الابتدائي على افتراض أن الطفل ما أن يبلغ هذا الصف إلا ويكون قد اكتسب جميع المهارات والدافعية اللازمة للاستمرار في تعلم هجاء الكلمات الجديدة التي تواجهه . وهذا افتراض غير صحيح ويصدق هذا أيضاً على القول بأن التلاميذ يتعلمون الهجاء من القراءة . ذلك أن قلة من الناس هي التي تلتفت إلى الهجاء . ويمكن التحقق من هذا بتطبيق اختبار على عينة من الطلاب بالجامعة ، وسوف يتضح أن بعضهم ما يزال يخطيء في تهجي كلمات رغم أنها مكتوبة في ورقة الاختبار على نحو صحيح .

ومن الممارسات التي تضر بتدريس الهجاء تخصيص ثلاث حصص من الخمس الخاصة بتعليم الهجاء للاختبارات . والأساس النظري الذي تستند إليه هذه الممارسات هو أن الطفل ينبغي أن يركز جهوده على الكلمات التي لا يستطيع هجاءها . وترتيباً على ذلك يطبق اختبار على التلميذ في أول حصة من أول أيام الأسبوع لتحديد الكلمات التي يخطيء في هجائها وهي التي يقوم بدراستها خلال ذلك الأسبوع تاركاً الكلمات التي يتهجاها على نحو سليم . وفي منتصف الأسبوع يطبق عليه اختبار يتناول ما تعلمه في اليوم السابق أو الحصة السابقة وفي نهاية الأسبوع يطبق عليه اختبار ثالث يتناول عمل الأسبوع كله . والمشكلة في هذه الطريقة أن الطفل يفيد من حصص التدريس الفعلي أكثر مما يفيد من حصص الاختبارات ، ويستطيع أن يراجع الكلمات التي يعرفها .

تأثير اللغويات :

خلال الخمسينيات بدأ ظهور تأثير علماء اللغة على تدريس الفنون اللغوية ومنها تدريس الهجاء . وظهرت المحاولة الأولى في هذا الاتجاه في كتاب ألفه وليامز

Williams على مستوى الجامعة عام ١٩٦٠م . ورغم نواحي قصور هذا الكتاب إلا أنه مهد الطريق لآخرين جاءوا بعده وتناولوا المستوى الابتدائي . ولعل أهم بحث أجري على الهجاء في الستينيات من هذا القرن هو المشروع الضخم الذي نفذ ما بين ١٩٦٣ ، ١٩٧٥ على يد بول هانا Paul R.Hanna وجين هانا ١٩٦٦م والذي درس اسهام الحاسب الآلي في تهجي ما يزيد على ١٧ ألف كلمة وعلى الرغم من أن نتائج هذه الدراسة إحصائية إلا أنها هي المادة الخام للدراسة اللغوية للهجاء[٢٨] .

وقد أظهرت نتائج دراسة «هانا وهانا» أن الهجاء في اللغة الإنجليزية أكثر انتظاماً في أنماط عما يشيع اعتقاده . وأن استخدام طريقة تعتمد على الأمارات السمعية الشفوية للهجاء قد تدلل على أنها أكثر كفاءة وفاعلية من الطرق الحاضرة والتي تعتمد أساساً على التعلم اليدوي البصري .

وهناك شواهد قوية على أنه يمكن توفير الوقت لتدريس الهجاء بتجميع كثير من الكلمات الشائعة وفقاً لنمط . وحين يلقى الأطفال كلمة تمثل نمطاً ، فإن المعلم يستطيع أن يساعدهم في تكوين قائمة من كلمات أخرى يستطيعون هجاءها بالالتفات إلى النمط والإحساس بالثقة الذي يكتسبه الأطفال من خلال هذه الطريقة يزيد دافعيتهم للتعلم على أساس درجة التطابق بين الرمز والصوت[٢٣] .

طريقة التنظيم الهرمي :

وهناك طريقة جديدة في التحليل اللغوي تعرف بنظرية التنظيم الهرمي توصل إليها كينث بايك Kenneth Pike وطورها خلال الخمسينات . وقد ثبتت فائدتها لدى المهتمين بالهجاء . ومن مفاهيمها الأساسية أن كل فرع من فروع اللغة : علم المعاني semology وعلم المعاجم lexicology وعلم الصرف -morphol

ogy وعلم الأصـوات له تنـظيمه الهرمي . فعلم دراسة الأصوات المنطوقة يبدأ بالفـونيمـه phoneme عند أصغر الوحدات ويتقدم إلى المقطع فالكلمة فمقطع الجملة phrase فالجملة ومعاملة هذه كلها كوحدات نحوية لا يتوافق ولا يتزامن بالضرورة مع وحدات علم الأصوات .

الجرافيميات Graphemics :

ومن الإمكانيات المتاحة لبحوث أكثر عمقاً في هذا الاتجاه (التنظيم الهرمي) دراسة الكلام المكتوب والذي يمكن أن يطلق عليه جرافيميات وأصغر وحدة في تنـظيمـه الهـرمي هو الجرافيم ، وسوف يكون هناك تقدم إلى المقطع فالكلمة فمقطع الجملة فالجملة . وعلى الرغم من أن المألوف أن يفكر في الكتابة باعتبارها ممثلة للكلام (وبالتالي للصوت) ، فإن كثيراً مما يكتب لا ينطق به قط كما كتب ، وترتيباً على ذلك فان الجرافيميات لابد أن يكون لها تنظيمها الهرمي الذي سوف يختلف عن التنـظيم الهرمي في علـم الأصوات . هذا يتضح من وحدة المقطع الذي يظهر في كل تنظيم هرمي . فالمقطع الفنولوجي أو الصوتي قد ينتهي في منتصف صوت مثل كلمة tenor ، انها تنقسم عند حرف n أي في المنتصف ، فكيف يمكن التعبير عن هذا الانقسام في الكتابة ؟ ولما كان المقطع الجرافيمي مختلف تماماً عن المقطع الفنولوجي فان قواعد تقسيم المقطع الجرافيمي هي تلك التي يضعها عمال الطباعة . والدرس المستفاد من هذا بالنسبة لمدرس الهجاء هو أن يحاول تدريس المقـاطـع لا بأصـواتهـا وإنـما بالقواعد الجرافيمية وممارسات اللغويين في تحديد الأصوات بفواصل أو خطوط مائلة ، وبتوضيح الجرافيميات بوضع خط تحتها يساعد في التعليم ويتيح للأطفال الصغار تعلمها .

أنماط الهجاء :

هناك خمسة تعميات لا تتناول صوتاً مفرداً ، بل قدراً كبيراً من الهجاء في اللغة الإنجليزية :

التعميم الأول :

ان عدد المقاطع في الكلمة قد يؤثر في بعض جوانب هجائها . وعلى سبيل المثال فإن الأفعال ذات المقطع الواحد والتي تنتهي بالحرف (i) يكون هجاؤها (ie) بعد حرف ساكن كما يحدث في الكلمتين lie ‘ die ‘ ويتم هجاؤها (y) بعد حرفين ساكنين أو أكثر كما في الكلمات : (cry ‘ dry ‘ ply) . والأفعال التي تتألف من مقطعين أو أكثر وتنتهي بالحرف (i) يكتب الحرف فيها جميعاً (y) .

التعميم الثاني :

هو ان موضـع الصوت في كلمة أو مقطع قد يؤثر في هجائه . ولعل أكثر الأمثلة اثارة للاهتمام أن نجد حوالي ستة حروف ساكنة تستخدم فونجراما خاصاً (أي مجموعة تمثل صوتاً واحداً) نجد ذلك في نهاية الكلمات ذات المقطع الواحد حين يجيء الحـرف الساكن بعد حرف متحرك قصير وأحياناً يكون ذلك حرفاً مزدوجاً كما في الكلمات الآتية : doff, fluff, doll, full, brass, miss .

التعميم الثالث :

ان الصوت الذي يسبق مباشرة الفونيم أو يليه قد يؤثر غلى الهجاء . ولعل أكثر الإيضاحات شيوعاً لهذه النقطة تضعيف الحرف الساكن الأخير قبل إضافة لاحق suffix للكلمة يبدأ بحرف متحرك . أي أن الحرف الساكن الأخير ينبغي من بين أشياء أخرى أنْ يسبق بحرف متحرك مفرد (أي قصير) وعمل المتهجي لن يكون سهلاً لأن بعض الأصوات تؤثر في نطق الصوت المجاور وعلى سبيل المثال في كثير من الكلمات مثل (water and wash) يتحول الحرف المتحرك البسيط (a) إلى حرف متحرك مركب (oh) التي كثير ما تكتب (au) أو (aw) .

التعميم الرابع :

إن أصل الكلمة يحدد بعض خصائص هجائها . فإذا كانت الكلمة مشتقة

من أصل إغريقي يكتب الحرف (f) حرفين هما (ph) وهلم جرا ويواجه التلاميذ الضعاف في الهجاء ومن لديهم عادات ضعيفة في استخدام القاموس مشقة في هجاء مثل هذه الكلمات . ومن العادات الجيدة التي ينبغي أن تنمى لدى الطالب طريقة استخدام القاموس ، والنظر في الاشتقاق وفي المعنى أيضاً ، ومن المفيد أيضاً أن نعرف أن بعض اللغات لها أهمية خاصة في مجالات معينة ، فالإغريقية مثلاً لها أهمية في المصطلحات العلمية .

التعميم الخامس :

يتعلق بموقع النبرة accent في الكلمة . وأكثر الأمثلة الشائعة توضيحاً لهذه الحقيقة القاعدة القائلة بتضعيف الحروف الساكنة في نهاية الكلمة قبل إضافة لاحق suffix لها يبدأ بحرف متحرك ذلك أن تضعيف الحرف الساكن الأخير يقتضي أن تتركز النبرة على المقطع الأخير . وهذه النبرة قد تغير النطق مما يؤدي بالمتهجي إلى الخلط . وعلى سبيل المثال بالنسبة لمقطع ليس عليه نبرة (وعادة ما يكون المقطع الأخير) يطرأ تغير على حرف (t) حين يقع قبل حرف (u) طويل كما في كلمة (nature) ، ولو كانت النبرة على المقطع الأخير للكلمة فإن (t) تبقى كما هي كما في كلمة (mature) . ولعل أكثر أخطاء الهجاء شيوعاً التي يخلقها هذا الخلط ما نجده حين يقوم الطالب بهجاء كلمة (picture) أي صورة على أنها (pitcher) ابريق .

وقد اهتم أولئك الذين يفضلون الأخذ بأسلوب نسقي في تعليم الهجاء بهذه التعميمات والقواعد ودرسوا على أساسها . غير أن هناك قدراً كبيراً من الاتفاق على أن استخدام القواعد في تعليم الهجاء غير منتج بالدرجة المتوقعة لأن القواعد كثيراً ما تتضمن مفاهيم لم يكتسبها الأطفال بعد نهائياً ، ولا يمكن الوثوق بالقواعد بدرجة كبيرة لأنها تتجاهل الاستثناءات ، وبالتالي تعرض التلاميذ لقدر من التضليل ولا تستخدم بالقدر الكافي عندما يكتب التلميذ موضوعات التعبير وغيرها .

وهنـاك أسـاليب تعليمية عديدة تسـاعد على تعلم الهجاء منها الأسلوب الاستقـرائي وهو الذي يؤدي إلى توصل التلاميذ إلى تعميمات بعد ملاحظتهم للكلمات أو لقوائم منها وحتى لا تكون عملية الهجاء عملية آلية .

ويرى جيبسون ولفن Gibson and Levin عام ١٩٧٥ أن التعلم الذي يؤدي إلى التعميم ينبغي أن يكون تعلماً يقوم به الطفل نفسه ، غير أن تعلم التعميم يمكن أن يكـون جزءاً من اسـتراتيجية للتعلم ، وذلـك بأن يشجع المعلمون الأطفال على ملاحظة الحروف التي تتكرر في الكلمات المختلفة وبنفس الترتيب وتعويدهـم على الاستقصاء بأنفسهم(٢٨) .

والألفة بنواحي التشابه بين الحروف المتسلسلة letter strings لا تتحقق من خلال القراءة ، لأن القاريء لا ينظر إلى كل كلمة وهو يقرأ فالقراءة تنبؤية أكثر منها رجعية . ومع ذلك فبالنظر إلى الكلمات المطبوعة أو المكتوبة بدقة وعناية -أي بالنظر إلى تتابع حروفها حرفاً حرفاً- يكتسب معرفة عابرة بالخصائص الإملائية المميزة لها . والنظر أو الملاحظة الدقيقة لبنية الكلمة هو الذي يؤدي إلى تعميم ناجح . وهذا هو الذي يؤدي إلى طالب يجيد الهجاء .

ومن العوامل التي تساعد في تدريس الهجاء العامل البصري فمن الممارسات الشائعة لدى الراشدين أن يراجعوا هجاءهم للكلمات بصرياً ، أي أن يكتب الفـرد الكلمـة حين يشك في هجائها ليتبين هل تبدو صحيحة . ولقد أثبتت البحـوث نجاح هذه الطريقة . وهذه المراجعة البصرية تستند إلى خبرة مكثفة بالتسلسل المحتمل للحروف في الكلمات . ويبدو أن التعرض المستمر للكلمات مكتوبة ولتراكيب الحروف مع أنواع مختلفة من النطق يؤدي إلى وعي باستقرار التمثيل البصري لهجاء الكلمات .

وإذا كان الهجاء يتوقف على نوع من النظر ، فإنه يتوقف على النظر باهتمام

وقصد وتوجه لإعادة إنتاج الكلمة في صيغة مكتوبة . ولقد أكد شونل عام ١٩٤٢ على أنه في تعلم هجاء الكلمة ينبغي أن ترتبط العناصر البصرية والسمعية والنطقية ارتباطاً وثيقاً بكتابتها وهذا يعني أن يكون الخط واضحاً .

ولقد لاحظ فرث وفرث Frith & Frith (١٩٨٠) فرقاً هاماً بين من يحسنون الهجاء ومن يسوء أداؤهم فيه وهو أن الفئة الأخيرة تتمسك فيما يبدو باستراتيجية التعلم القائمة على الفونيم والجرافيم أي صوت الكلمة ورسمها بينما تستطيع الفئة الأولى أن تنتقل إلى استراتيجيات أخرى عندما يعجز الصوت عن تقديم الأمارة التي تدل على الهجاء الصحيح . ويرى هذان الباحثان أن تذكر الأشكال البصرية تكتيك أساسي يستخدمه مجيدو الهجاء وذلك لأن الذاكرة قادرة على تذكر أمارات متنوعة وكثيرة من صوت ورسم . . . إلخ[٢٤] .

ولقد وجد مانجيري وبالدوين Mangieri and Baldwin (١٩٧٩) بعد استبعاد تأثير تواتر الكلمة ، وطولها ، وانتظام الصوت مع الرسم في التحليل الإحصائي لنتائج دراستهما ، أن هناك علاقة لها دلالة إحصائية بين معنى الكلمة ودقة هجائها ورأيا أن دراسة المفردات وهجائها ينبغي أن يترابطا[٢٦] .

وقارن سمث H.A. Smith (١٩٧٥) بين خمسة طرق لتدريس الهجاء لتحديد أكثرها فاعلية وذلك من خلال عينة من تلاميذ الصف الثالث بالمدارس الإنجليزية بلغ عددها ٣٠٩ تلميذاً . وتوصل إلى أن أفضل طريقة لتعلم هجاء الكلمات هو عرضها في سياق وذلك من حيث فاعلية التعلم[٢٧] .

وقارن كالاوي وماكدانيل وماسون Callaway, McDaniel & Mason (١٩٧٢) عدة طرق لتعليم أطفال الصف الأول القراءة والهجاء ولاحظ أن التلاميذ الذين يكتبون قصصاً يؤلفونها بأنفسهم على أساس ما يقرأونه أنجح التلاميذ في هجاء الكلمات[٢٢] .

ويعد هذا الاستعراض الموجز للجهود التي بذلت في مجال التنظير والتطبيق في تعليم وتعلم الإملاء في اللغة العربية واللغة الإنجليزية وهي جهود خصبة فكراً ، ومتنوعة بحثاً يجتزيء الباحث ليتناول بالبحث الامبيريقي علاقة الأخطاء الإملائية بالمستوى التعليمي ولبيان أكثر هذه الأخطاء شيوعاً وأقلها شيوعاً لدى عينة من طلاب المرحلة الإعدادية .

ولعل الاطار الفكري العام الذي استغرق معظم البحث يصلح أساساً فكرياً لبرنامج من البحوث يتصدى له شباب الباحثين فيتناولون متغيراته المختلفة وفي ذلك مدخل أساسي لتطوير تعليم اللغة العربية والارتقاء بمستواها .

الدراسة الحالية

أهمية الدراسة :

أنها محاولة مبدئية للتوصل إلى أكثر الأخطاء الإملائية شيوعاً ، ومعرفة حجم الـظاهـرة في هذه العينة المحدودة مما يفسح المجال لبحوث أكثر شمولاً تتناول أسباب الظاهرة والأساليب التي تكفل التخفف منها .

وللدراسة أهمية تطبيقية إذ تساعد معلمي اللغة العربية على توجيه جهودهم على نحو تفاضلي حين يعلمون الإملاء بها يكفل انقاص حجم هذه الظاهرة .

مشكلة الدراسة :

تتحدد مشكلة البحث في الإجابة عن سؤالين هما :

* السؤال الأول – ما مقدار تناقص الأخطاء الإملائية مع التقدم في التعليم؟
* السؤال الثاني – أي الأخطاء الإملائية أكثر شيوعاً وأيها أقل شيوعاً؟

عينة الدراسة :

اختيرت عينة من طلاب المرحلة الإعدادية عام ١٩٨٧ . بلغ حجمها ١٢٤ طالباً ، ٦١ طالباً بالصف الأول الإعدادي ، ٢٣ بالصف الثاني الإعدادي ، ٤٠ طالباً بالصف الثالث الإعدادي .

أداة الدراسة(*) :

قطعـة إملائية تتكون من مائة كلمة تشتمل على معظم المواقف الإملائية الشائعة كلمات تبدأ بهمزات وصل أو همزات قطع وكلمات تنتهي بتاء مربوطة أو مبسـوطة ، وبها كلمات بها همزات في مواضع مختلفة وفيها حروف مد وحروف ساكنة وفيها تنوين وتشتمل على ضمائر وحروف. . . إلخ .

(*) ساعد في اختيار هذه القطعة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز مطر .

طريقة إجراء الاختبار :

تم توزيع ورقـة إجابة مقسمة إلى مائة قسم بحيث يكتب الطالب كلمة واحدة في كل قسم من الورقة .

قام بالإملاء معلمون لمادة اللغة العربية بالمدرسة بعد الاتفاق على النقاط الآتية :

أولاً – أن يتم الإملاء في بداية اليوم المدرسي للتخفف من عامل التعب الذي قد يؤثر على أداء الطالب في نهاية اليوم المدرسي .

ثانياً – تقرأ القطعة كلها مرة واحدة قبل الإملاء ولا يسمح للطالب أثناء ذلك بإمساك القلم أو الكتابة .

ثالثاً – يقوم المعلم بالإملاء بتكرار الكلمة مرتين يفصل بينهما ست ثوان تقريباً تقدر بأن يعد المعلم في سره حتى العدة ١٥ بسرعة متوسطة بين كل كلمة يمليها والتي يليها . وذلك بعد تنبيه الطلاب للاستعداد للكتابة .

رابعاً – يعيد المعلم قراءة القطعة بالسرعة المعتادة ويسمح للطالب في هذه المرة أن يمسك بالقلم ويعدل في كتابته .

خامساً – تؤخذ جميع الاحتياطات التي تمنع الطالب من الغش ، ومن بينها توفير المسافات المناسبة بين الطالب وزملائه ، وإغلاق الكتب ووضعها في الأدراج .

طريقة تصحيح الاختبار وتحليل النتائج :

تم التصحيح على مرحلتين :

(أ) المرحلة الأولى :

- تم فيها عد الأخطاء الواردة في ورقة إجابة كل طالب على حدة .
- حسب متوسط الأخطاء لكل صف دراسي وانحرافها المعياري .

(ب) المرحلة الثانية :

- تم إيجاد تكرار كل خطأ على حدة وفي كل صف دراسي وتم حساب النسبة المئوية لكل خطأ على حدة .
- احتسبت الأخطاء المكررة خطأ واحداً . وقد أثبت في جدول التكرار المرفق كلمة واحدة لكل الكلمات المكررة بنفس اللفظ والرسم واحتسب الخطأ فيها خطأ واحداً . ومن هنا فقد احتوى جدول (٨) التكرار على إحدى وسبعين كلمة من أصل مائة حيث أن ٢٩ كلمة مكررة .
- تم تصنيف الأخطاء وترتيبها حسب أكثرها شيوعاً وتم اختيار أكثر من عشرين كلمة من حيث تواتر الأخطاء لكل صف وكتبت الكلمات حسب نسبتها المئوية .
- تم ترتيب أقل الأخطاء شيوعاً (اقتصرت على عشرين كلمة) .

النتائج ومناقشتها

يتضح من البيانات الواردة في الجدول (١) أن متوسط أخطاء مجموعة طلاب الصف الأول الإعدادي الإملائية قد بلغت ١٤,٥ بانحراف معياري مقداره ١١,٨٥ وهذه النتيجة تدل على أن الطالب قد وصل هذه المرحلة التعليمية وما يزال يخطيء في المتوسط ١٤ خطأ في ٧١ كلمة أي أنه يخطيء في هجاء عشرين في المائة من الكلمات . ويدل الإنحراف المعياري على تباين شديد في مستوى الطلاب في الأخطاء الإملائية إذ بلغ الإنحراف المعياري ١١,٨٥ وقد تراوحت الأخطاء الإملائية لهذه المجموعة ما بين خطأ واحد وخمس وخمسين خطأ . غير أنه ينبغي أن نشير إلى أن طالباً واحداً من ٦١ طالباً هو الذي أخطأ ٥٥ خطأ (في ٧١ كلمة) أما الذي يليه فقد أخطأ في ٤٦ كلمة والذي يليه أخطأ في ٤٥ كلمة والذي يليه أخطأ في ٣٤ كلمة . ان الدراس لتوزيع أخطاء هذه المجموعة (جدول ٥ بالملاحق) يتبين أن ربع الطلاب يخطيء في تسع عشرة كلمة أو أكثر وان النصف الأوسط من الطلاب يتراوح خطؤهم ما بين ستة أخطاء وسبع عشرة خطأ ، بينما نجد الربع الأفضل يخطيء خمسة أخطاء أو أقل .

جدول رقم (١)

جدول يبين متوسط أخطاء طلاب الصف الأول والثاني والثالث الاعدادي الإملائية وانحرافاتها المعيارية

الصـــف	ن	م	ع
الأول الإعدادي	٦١	١٤,٥	١١,٨٥
الثاني الإعدادي	٢٣	٧,٢٦	٦,٥٥
الثالث الإعدادي	٤٠	٥,٤٠	٦,٠٠

فإذا انتقلنا إلى طلاب الصف الثاني الإعدادي نجد أن الأخطاء الإملائية قد انخفضت إلى نصف ما وجد لدى عينة طلاب الصف الأول الإعدادي إذ بلغت ٧,٢٦ كلمة في المتوسط . وهذه نتيجة تعني أن المدرسة الإعدادية تقوم بدور هام في رفع مستوى الطلاب في الإملاء وأن السنة الأولى فيها تقوم بدور فاعل في هذا المجال . ومن ناحية أخرى فإن النتيجة تعني أن الطلاب في الصف الثاني الإعدادي يخطئون في ١٠٪ من الكلمات التي يكتبونها في الإملاء وهي نتيجة تتطلب جهداً تربوياً مكثفاً من قبل المعلمين في اللغة العربية بل وفي غير اللغة العربية وواضح من الانحراف المعياري لهذه الدرجات وهو ٦,٥٥ أن المجموعة أصبحت أكثر تجانساً في الأخطاء الإملائية إذا قورنت بمجموعة طلاب الصف الأول الإعدادي . وتراوحت الأخطاء في هذا الصف ما بين خطأ واحد و٢٣ خطأ . وفي هذه المجموعة نجد أربعة طلاب لا يخطئون أي خطأ ، كما نجد أن نصف الطلاب تقريباً تراوحت أخطاؤهم ما بين ٣ أخطاء وعشرة أخطاء غير أن ربع الطلاب في هذه المجموعة تتراوح أخطاؤهم ما بين ١٢ وثلاثة وعشرين وهم الطلاب الأكثر تعرضاً للأخطاء وهي ظاهرة جديرة بالتصدي لها تربوياً ومزعجة . (جدول ٦ بالملاحق) .

فإذا انتقلنا إلى طلاب الصف الثالث الإعدادي نلاحظ أن متوسط أخطائهم الإملائية قد بلغ ٥,٤ بانحراف معياري ٦ درجات أي أنه مع التقدم في التعليم انخفضت الأخطاء ، وازدادات المجموعة تجانساً .

ودراسة الجدول (٧) الذي يبين توزيع أخطاء مجموعة الصف الثالث الإعدادي يبين أن طالبين لم يتعرضا لأي خطأ إملائي وسبعة طلاب تعرضوا لخطأ واحد وهؤلاء تقريباً يمثلون ربع هذه العينة . ونلاحظ أن نصف العينة تقريباً تراوحت أخطاؤهم ما بين خطأين وستة أخطاء وأن الربع الأخير والأكثر تعرضاً للأخطاء قد أخطأ في ما بين ثمانية أخطاء وثمانية وعشرين خطأ . وهي نسبة خطأ عالية في هذه المرحلة من التعليم .

جدول رقم (٢)

يبين قيمة «ت» ومستوى الدلالة الاحصائية بين متوسطات الأخطاء الإملائية لمجموعات طلاب الصفوف الإعدادية الثلاث

المقارنة	ت	مستوى الدلالة
الأول الإعدادي مع الثاني الاعدادي	٣,٥٦	٠,٠٠١
الأول الإعدادي مع الثالث الإعدادي	٥,٠٢	٠,٠٠١
الثاني الإعدادي مع الثالث الإعدادي	١,١٣	—

وواضح من هذا أن الإجابة عن السؤال الأول لهذه الدراسة هي أن مقدار الأخطاء الإملائية قد انخفض إلى النصف من مجموعة طلاب الصف الأول الإعدادي إلى مجموعة طلاب الصف الثاني الإعدادي أي من ١٤,٥ خطأ في المتوسط إلى ٧,٢٦ وهذا الفرق دال إحصائياً عند مستوى ٠,٠١ أي أنه لا يمكن أن يرجع إلى عوامل الصدفة . وقد تناقص متوسط الأخطاء الاملائية من

الصف الثاني الإعدادي إلى الصف الثالث بمقدار درجتين تقريباً والفرق ليس دالاً إحصائياً . وينبغي أن تؤخذ هذه النتائج بتحوط لأن العينة ليست كبيرة وتمثيلها لمجتمع طلاب المدارس الإعدادية موضع نظر . وأن كان المرجح أن هذه النتائج ليست بعيدة عما يمكن أن تكشف عنه دراسات لاحقة تستخدم عينة ممثلة للمجتمع الطلابي بدرجة أكبر .

إن هذه النتيجة تبين لنا ضرورة الاهتمام بتدريس الإملاء منذ الصفوف الأولى من المرحلة الإبتدائية وتقدم لنا ما يدل على أهمية استمرار التدريب على

الإملاء حتى نهاية المرحلة الإعدادية . وإذا استمرت هذه الظاهرة وجب الاهتمام بمعالجتها في بداية المرحلة الثانوية .

والدارس للجدول رقم (٣) الذي يشتمل على أكثر الأخطاء شيوعاً يجد أن الكلمات المهموزة وخاصة في وسطها تحتل مكانة بارزة . ففي هذا الجدول نجد أن من بين عشرين خطأ هي أكثر الأخطاء شيوعاً ، سبع كلمات بها همزات كان أقلها بالنسبة لعينة الصف الأول الإعدادي في (سألتك) ٢٤,٥٪ وأعلاها (مرؤوس) حيث بلغ الخطأ فيها ٩٢٪ .

جدول رقم (٣)

يبين أكثر الأخطاء الإملائية شيوعاً لدى عينة من طلاب الصفوف الإعدادية الثلاث

الأول الإعدادي ن = ٦١		الثاني الإعدادي ن = ٢٣		الثالث الإعدادي ن = ٤٠	
الكلمة	٪	الكلمة	٪	الكلمة	٪
مرؤوس	٩١,٨	مسؤولون	٥٦,٥٢	فـانـا	٥٠
مسؤولون	٧٨,٦٩	مرؤوس	٥٢,١٧	مرؤوس	٤٧,٥
ائتنا	٧٢,١٣	فـانـا	٥٢,١٧	ائتنا	٣٧,٥
بقية	٦٨,٨٥	ائتنا	٤٧,٨٣	بقية	٣٧,٥
فانا	٦٠,٦٦	وانصرف	٣٩,١٣	مسؤولون	٣٠,,
ابن	٥٠,٨٢	بقية	٣٩,١٣	ولكن	٣٠,
وانصرف	٥٠,٨٢	ابن	٣٤,٧٨	راكبا	٢٥,
ورأس	٤٢,٦٢	يا مولاي	٢٦,١	سألتك	٢٢,٥
سأنتصر	٤٢,٦٢	منـه	٢١,٧٣	وانصرف	٢٠,
ولكن	٤٢,٦٢	سأنتصر	٢١,٧٣	سأنتصر	١٥,
الأعرابي	٣٤,٤٣	سألتك	١٧,٣٩	ابن	١٥,
يا مولاي	٣٤,٤٣	ورأس	١٧,٣٩	يا مولاي	١٢,٥
ســوء	٣١,٥١	ســوء	١٧,٣٩	ورأس	١٠
التفت	٢٩,٥١	إذا	١٧,٣٩	إذ	١٠
سألتك	٢٤,٥٩	ولكن	١٧,٣٩	بينها	٧,٥
خصم	٢٤,٥٩	شكره	١٧,٣٩	لـه	٧,٥
بعنان	٢٢,٩٥	راكبا	١٣	أعرابي	٧,٥
فرسه	٢٢,٩٥	فرسه	١٣	تضرب	٧,٥
راكبا	٢٢,٩٥	أيها	١٣	إذا	٧,٥
منصفوك	٢١,٣١	يزعجني	١٣	التفت	٧,٥
الفقر	٢١,٣١	منصفوك	١٣	خذها	٧,٥

ونجد نفس النمط الاستجابي بالنسبة لعينة طلاب الصف الثاني الإعدادي حيث توجد تسع كلمات بها همزة أقلها من حيث نسبة الخطأ (أيها) ١٣٪ وأعلاها (مسؤولون) ٥٦٪ ويلاحظ هنا أن نسبة الخطأ قد انخفضت انخفاضاً واضحاً من الصف الأول الإعدادي إلى الصف الثاني فالمدى هنا يبلغ ٤٣٪ وقد كان ٦٨٪ في الصف الأول الإعدادي .

وتكثر الأخطاء في الكلمات عندما يكون أولها أو وسطها همزة لدى عينة طلاب الصف الثالث الإعدادي ، حيث نجد عشر كلمات مهموزة من العشرين الأكثر شيوعاً من حيث الخطأ أقلها (إذا) وقد بلغ الخطأ ٥ , ٧٪ ولعل الخطأ يرجع إلى التنوين هنا وأعلاها (فانا) حيث بلغت نسبة الخطأ ٥٠٪ والمدى هنا مقارب لما نجده في عينة الصف الثالث الإعدادي وان انخفض حجم الخطأ .

ويخطيء الطلاب في التاء المفتوحة والتاء المقفلة نجد ذلك في كلمة (بقية) حيث تبلغ نسبة المخطئين في كتابتها في الصف الأول الإعدادي ٨ , ٦٨٪ تنخفض لتصبح ٣٩٪ في عينة الصف الثاني الإعدادي وإلى ٣٧٪ في عينة الصف الثالث الإعدادي . ويخطيء ٥٠ , ٢٩٪ في كتابة كلمة (التفت) من طلاب الصف الأول الإعدادي تنخفض لتصبح ٧ , ٨٪ في الصف الثاني الإعدادي ٥ , ٧٪ في الصف الثالث الإعدادي . (جدول رقم ٨ بالملاحق) .

ولا أريد أن أستطرد فالجداول مرفقة بالكلمات التي أمليت على الطلاب ونسبة الخطأ في كل عينة من طلاب الصف الأول والثاني والثالث . وهي بيانات جديرة بأن يلتفت إليها معلمو اللغة العربية وموجهوها وأولياء أمور الطلاب وخاصة ان الطلاب يدربون على الإملاء المنقول في الصفين الثاني والثالث الابتدائي ، ويدربون على مباديء الإملاء دون التعرض للقواعد الإملائية في الصف الرابع الابتدائي ويشتمل المنهج في هذا الصف على التدريبات الخاصة بالمهارات :

١ - اللامان الشمسية والقمرية .
٢ - التاءان المقفلة والمفتوحة .
٣ - التنوين .
٤ - اللام المزدوجة .
٥ - الهمزة في أول الكلمة وفي وسطها .

أما في الصف الخامس فيبدأ الطلاب دراسة القواعد الإملائية بالطريقة القاصدة التي تعتمد على الأمثلة والمناقشة والاستنباط والتطبيق وتخصيص حصة كاملة لدراسة القاعدة الإملائية والتدريب عليها كما تخصص حصص أخرى لكتابة القطع الإملائية وتدرس القواعد الإملائية التالية وهي التاء بنوعيها المقفلة والمفتوحة ، وهمزة الوصل وهمزة القطع ، والهمزة المتوسطة والهمزة المتطرفة وعلامات الترقيم .

وتستمر دراسة القواعد الإملائية في الصف السادس حول الموضوعات التالية :

واو الجماعة والتفريق بينها وبين الواو التي من أصل الفعل والألف اللينة (وابن) .

ويستمر التدريب على هذه المهارات في الصف الأول الإعدادي والصف الثاني الإعدادي[٢١] .

ويكفي أن نشير إلى مثال واحد يدل على أن أهداف المنهج التعليمي لا تتحقق فقد أخطأ ٥٠,٨٪ من عينة طلاب الصف الأول الإعدادي في كتابة (ابن) وانخفضت هذه النسبة لتصبح ٣٤,٧٪ لدى عينة الصف الثاني الإعدادي ثم إلى ١٥٪ في عينة الثالث الإعدادي .

جدول رقم (٤)

يبين أقل الأخطاء الإملائية شيوعاً لدى عينة من طلاب الصفوف الثلاثة الإعدادية

م	الصف الأول الإعدادي		الصف الثاني الإعدادي		الصف الثالث الإعدادي	
	الكلمة	٪	الكلمة	٪	الكلمة	٪
١	كـان	—	كـان	—	كـان	—
٢	أن	—	عبدالله	—	عبدالله	—
٣	فقال	—	جعفر	—	تعرض	—
٤	على	—	إذ	—	وقال	—
٥	عمري	—	له	—	الأمير	—
٦	الله	١,٦٤	وقال	—	بالله	—
٧	خصمي	١,٦٤	أن	—	أن	—
٨	فما	١,٦٤	فقال	—	فقال	—
٩	جعفر	٣,٢٨	أنت	—	أجنون	—
١٠	وقال	٣,٢٨	لا	—	لا	—
١١	لا	٣,٢٨	فما	—	فما	—
١٢	ومن	٣,٢٨	خطبك	—	خصم	—
١٣	هذا	٣,٢٨	إذا	—	ومن	—
١٤	ثم	٣,٢٨	لي	—	هذا	—
١٥	بها	٣,٢٨	خصم	—	هو	—
١٦	بينما	٤,٩٢	ادفع	—	ثم	—
١٧	إذ	٤,٩٢	إليه	—	ادفع	—
١٨	تعرض	٤,٩٢	دينار	—	ألف	—
١٩	يزعجني	٤,٩٢	عـاد	—	دينار	—
٢٠	نساعدك	٤,٩٢	إليك	—	إليك	—

وبطبيعة الحال فإن البيانات الواردة في الجدول رقم (٤) بيانات تدعو إلى التفاؤل إذ تراوحت الأخطاء ما بين ٤,٩٢ في كلمة (نساعدك) في الصف الأول الإعـدادي إلى كلمـة (الله) حيث كان الخطأ ١,٦٤٪ ولا تخطئ عينة طلاب الصف الثاني الإعدادي وعينة طلاب الصف الثالث الإعدادي في أي من هذه الكلمات . ولعل جهوداً تربوية مكثفة في هذا المجال تؤدي إلى اتقان المهارات الإملائية .

ملخص

استهدفت هذه الدراسة هدفين :

أولاً - تقديم ملخص عن الدراسات العربية والدراسات الأجنبية في مجال الإملاء بغية توفير أساس شامل لتناول بعض متغيرات الظاهرة في التعليم والتعلم يفيد الباحثين في هذا المجال .

ثانياً :- عرض نتائج دراسة استطلاعية عن أكثر الأخطاء الإملائية شيوعاً لدى عينة من طلاب المدرسة الإعدادية وعلاقة حجم الخطأ بمستوى التعليم .

ولتحقيق الهدف الثاني أمليت قطعة إملائية تتألف من مائة كلمة تشتمل على معظم المواقف الإملائية الشائعة . على ثلاث مجموعات من طلاب الصف الأول الإعدادي والصف الثاني الإعدادي والصف الثالث الإعدادي بلغ حجمها على الترتيب ٦١ ، ٢٣ ، ٤٠ طالباً . وقد اتبعت خطوات موحدة ومحددة لإجراء الاختبار بما يكفل موضوعية المقارنة بين نتائج المجموعات ثم حللت النتائج في محاولة الإجابة عن سؤالين هما :

١ - ما مقدار تناقص الأخطاء الإملائية مع التقدم في التعليم ؟

٢ - أي الأخطاء الإملائية أكثر شيوعاً وأيها أقل شيوعاً ؟

وقد أسفر تحليل النتائج عن أن متوسط أخطاء مجموعة طلاب الصف الأول الإعدادي الإملائية هي : ١٤,٥٠ بانحراف معياري ١١,٨٥ وانخفض هذا المتوسط ليصبح ٧,٢٦ لدى مجموعة طلاب الصف الثاني الإعدادي بانحراف معياري مقداره ٦,٥٧ وهو انخفاض كبير ثم انخفض قليلاً ليصبح ٥,٤ لدى مجموعة طلاب الصف الثالث الإعدادي بانحراف معياري مقداره ٦ وقد كان الفرق بين أداء طلاب الصف الأول والصفين الثاني والثالث دالاً إحصائياً الأمر

الـذي لم يتحقق بين طلاب الصف الثـاني الإعـدادي وطلاب الصف الثالث الإعدادي . وتدل النتائج على أن هذه المجموعات تزداد تجانساً في هذاالمجال مع التقدم في التعليم كما يتضح من الانحراف المعياري الذي يبلغ ١١,٨٥ لدى المجموعة الأولى وأصبح ٦ لدى المجموعة الثالثة .

وفي محاولة للإجابة عن السؤال الثاني الذي طرحه هذا البحث تم ترتيب الأخطاء الأكثر شيوعاً والأخطاء الأقل شيوعاً ، أما الأخطاء الإملائية المتوسطة في هذا الشيوع فهي مثبتة في جدول رقم (٨) الذي يبين صورة شاملة لجميع الأخطاء .

واتضح من فحص النتائج الواردة في هذا الجدول ، أن نسبة الخطأ ما تزال مرتفعة وخاصة أن التعليم النظامي والتدريب على قواعد الإملاء يبدأ مع الصف الثاني الإبتدائي إن لم نقل الأول وتخصص له دروس في الجدول الدراسي ابتداء من الصف الرابع الإبتدائي وحتى الصف الثاني الإعدادي . وينص المنهج التعليمي على التدريب والتركيز على فئات الأخطاء التي كثر تعرض هذه العينة من الطلاب لها كالهمزة ، والتاء المفتوحة والمقفلة ، وابن ، . . . إلخ .

وهذه النتائج ينبغي أن يوظفها القائمون على تعليم اللغة العربية في التعليم الإبتدائي والتعليم الإعدادي . ولعل تلخيص الدراسات السابقة عربية وأجنبية يكون معيناً لهم في جهودهم التعليمية بما يحقق الخير لأبناء هذا الوطن .

وعلى الله قصد السبيل

المراجع

١ - إبراهيم عبدالمطلب : الهداية إلى ضوابط الكتابة . مطبعة مخيمر ، القاهرة ١٩٥٨م .

٢ - حامد عبدالقادر : دفاع عن الأبجدية والحركات العربية . بحث بمجلة مجمع اللغة العربية جـ١٢ . مطبعة التحرير ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

٣ - حسن شحاتة : الأخطاء الشائعة في الإملاء لدى تلاميذ الصفوف الثلاثة الأخيرة في المرحلة الإبتدائية ، تشخيصها وعلاجها ، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية التربية ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٨م .

٤ - حسن شحاتة : أساسيات تعلم الإملاء . مؤسسة الخليج العربي . القاهرة ، ١٩٨٦م .

٥ - عبدالعليم إبراهيم : الإملاء والترقيم في الكتابة العربية . مكتبة غريب . القاهرة ، ١٩٧٥م .

٦ - عبدالعليم إبراهيم : توجيه الرسم الإملائي على مستوى العالم العربي في تطوير تدريس علوم اللغة العربية وآدابها . الخرطوم ، فبراير ، ١٩٧٦م .

٧ - عبدالعليم إبراهيم : الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية . دار المعارف ، القاهرة ، ب ت .

٨ - عبدالفتاح إسماعيل شلبي : تقرير عن بحث في تيسير قواعد الإملاء (غير منشور) إدارة البحوث الفنية ، وزارة التربية والتعليم . القاهرة ، ١٩٦٠م .

٩ - كافية رمضـان ، وحسن شحـاتـة : قواعـد الإمـلاء ومشكلات الكتابة العربية . دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

١٠ - مجمع اللغة العربية «تيسير الإملاء» الدورة الرابعة عشرة ، الجلسة الرابعة للمجلس . القاهرة ، نوفمبر ١٩٤٧ ، والجلسة الخامسة يناير ١٩٤٨ .

١١ - مجمع اللغة العربية : مشكلات الكتابة العربية الخط العربي . مجموعة البحوث والمحاضرات . الدورة ٢٦ القاهرة ، ١٩٦٠م .

١٢ - مجمـع اللغـة العربية «قواعد ضبط الهمزة وتنظيم كتابتها» مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً ١٩٣٢ - ١٩٦٢ مجموعة القرارات العلمية من الدورة الأولى إلى الثامنة والعشرين ، مطبعة الكيلاني ، القاهرة ، ١٩٧١م .

١٣ - محمد بهجة الأثري : تيسير الإملاء العربي . مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة جـ٢ ، ١٩٦٠م .

١٤ - محمد صلاح الدين مجاور : دراسة تجريبية لتحديد المهارات اللغوية في فروع اللغة العربية ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٧٤م .

١٥ - محمود أحمد السيد : الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها . دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٠م .

١٦ - محمود تيمور : ضبط الكتابة العربية ، مجمع فؤاد الأول للغة العربية . القاهرة ، يناير ١٩٥١م .

١٧ - مصطفى السفطي : عنوان النجابة في قواعد الكتابة . المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٠٣م .

١٨ - منى بحري : تقويم الاختبارات الصفية التحريرية لمادة إملاء اللغة العربية للصفوف الرابعة الابتدائية في العراق للسنة الدراسية ٧٠ - ٧١ ، مركز البحوث التربوية والنفسية . بغداد ، ١٩٧٣م .

١٩ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . إدارة التربية . دليل بحوث تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي في الوطن العربي ١٩٠٠ - ١٩٨٠م . تونس ١٩٨٣م .

٢٠ - نهاد الترزي وشوكت الصواف : قواعد الإملاء الحديثة . مكتبة المعرفة ، دمشق ، ١٩٣٩م .

٢١ - وزارة التربية والتعليم : إدارة المناهج والكتب المدرسية ، مناهج اللغة العربية ، الدوحة ، ١٩٨٥م .

22. B. Callaway, H. McDaniel & G.E. Mason. Five Methods of Teaching Language Arts: A Comparison. Elementary English, 1972, 49, 1240 – 1245.

23. L. C. Doughton (ed.). The Encyclopedia of Education, Vol. 8, The Macmillan Company & The Free Press, 1971.

24. U. Frith & C. Frith. Relationships between reading and spelling. In J.F. Kavanagh & R.L. Venezky (eds.), Orthography, Reading and Dyslexia, Baltimore: University Park Press, 1988.

25. T. Husen, & T.N. Postlethwaite (eds.). The International Encyclopedia of Education, Pregamon Press, N.Y. 1988.

26. J. N. Mangieri & R. S. Baldwin. Meaning as a factor in predicting spelling difficulty. Journal of Educational Research, 1979, 72, 285–287.

27. P.T. Smith. Teaching Spelling. British Journal of Educational Psychology, 1975, 45, 68–72.

28. R.G. Strickland. The Language Arts in the Elementary School (3rd ed.), D.C. Heath & Co., Lexingtion, Massachus ettes, 1969.

الـمـلاحـــق

الملحق ١ قائمة كتب

الملحق ٢ قطعة الاملاء

الملحق ٣ الجداول الاحصائية

ملحق رقم « ١ »

قائمة كتب العقد الثامن

- إبراهيم محمد الشافعي ، «تطور تعليم اللغة العربية» .
- حامد حفني داود ، «الطرق الخاصة في تدريس اللغة العربية والدين» .
- جابر عبدالحميد جابر وآخرون ، «الطرق الخاصة لتدريس اللغة العربية وأدب الأطفال» .
- جودت الركابي ، «طرق تدريس اللغة العربية» .
- عائشة عبدالرحمن ، «تعليم اللغة العربية ورأي في أزمتنا اللغوية» .
- عابد توفيق الهاشمي ، «الموجه العملي لمدرس اللغة العربية» .
- عبدالفتاح السكري وآخرون ، «خدمة تدريس اللغة العربية للصف الثالث بمعاهد إعداد المعلمين للمرحلة الإبتدائية» .
- عبدالمنعم سيد عبدالعال ، «طرق تدريس اللغة العربية» .
- عبدالعليم إبراهيم ، «الموجه الفني لمدرس اللغة العربية» .
- علي الجمبلاطي ، «تطوير اللغة العربية والتربية الدينية بما يتفق مع روح العصر» .
- علي الجمبلاطي ، أبو الفتوح التونسي ، «الأصول الحديثة لتدريس اللغة العربية والتربية الدينية» .
- فتحي أحمد عامر ، «تطوير تعليم اللغة العربية لتخريج المواطن العربي العصري» .
- فتحي يونس ، محمود الناقة ، «أساسيات تعليم اللغة العربية» .
- مجيد دمعه وآخرون ، «اللغة العربية وأصول تدريسها لدور المعلمين التدريبية» .
- محمد صلاح الدين مجاور ، «تدريس اللغة العربية أسسه وتطبيقاته التربوية» .

- محمد صلاح الدين مجاور ، «تدريس اللغة العربية بالمرحلة الإبتدائية أسسه وتطبيقاته التربوية» .
- محمد عبدالقادر أحمد ، «طرق تعليم اللغة العربية» .
- محمـد مصطفى هدارة ، «أهداف تدريس اللغة العربية في مراحل التعليم العام ووسائل تحقيقها» .
- محمود السعد ، «الموجز في طرق تدريس اللغة العربية وآدابها» .
- محمـود الشحـات ، «الاتجـاهـات المعاصرة في طرق تدريس اللغة العربية للمرحلتين الابتدائية والمتوسطة» .
- موسى إبـراهيم الكرباس ، «دراسات في أساليب تدريس اللغة العربية في مرحلة الدراسة الابتدائية» .
- ندوة النوري ، «فروع اللغة العربية وطرائق تدريسها» .
- نهاد الموسى ، «تعليم اللغة العربية» .

ملحق رقم « ٢ »
قطعة الاملاء

بينما كان عبدالله بن جعفر راكباً إذْ تعرض له أعرابيّ وأمسك بعنان فرسه ، وقال له : أيها الأمير ، سألتك بالله أن تضرب عنقي . فقال : له الأمير . أمجنون أنت ؟ فقال الأعرابي : لا ، ورأسِ الأمير . قال فما خطبك إذاً أيها الأعرابي ؟ قال : لي خصم سوء يزعجني . فقال الأمير : ومَن خصمُك هذا ؟ فقال له : هو الفقر يا مولاي . فقال له الأمير : إذن نساعدَك . ثم التفت الأمير إلى مرؤوس له وقال : إدفع إليه ألف دينار . ثم قال له : خذها ونحن مسؤولون ، ولكن ائتنا إذا عاد إليك خصمك ، فإنا منصفوك منه . فقال الأعرابي : سأنتصر بها على خصمي بقية عمري ، أطال الله بقاء الأمير . ثم شكره وانصرف .

---

(١) مرؤوس ، ومسؤول : يرى مجمع اللغة العربية ان يكتبا : مرءوس ومسئول . وهكذا يكتبان وأمثالها في المدارس والصحف المصرية .

جدول رقم (٥)

يبين أخطاء طلاب الصف الأول الإعدادي وتكرارها وتكرارها المتجمع

الخطأ	التكرار	التكرار المتجمع	الخطأ	التكرار	التكرار المتجمع
١	١	١	١٧	١	٤٤
٢	٣	٤	١٩	٢	٤٦
٣	٣	٧	٢٠	١	٤٧
٤	٤	١١	٢١	١	٤٨
٥	٤	١٥	٢٥	١	٤٩
٦	١	١٦	٢٦	١	٥٠
٧	٧	٢٣	٢٧	١	٥١
٨	١	٢٤	٢٩	١	٥٢
٩	٤	٢٨	٣٠	٣	٥٥
١٠	١	٢٩	٣١	١	٥٦
١١	٤	٣٣	٣٣	١	٥٧
١٣	٣	٣٦	٣٤	١	٥٨
١٤	٢	٣٨	٤٥	١	٥٩
١٥	٢	٤٠	٤٦	١	٦٠
١٦	٣	٤٣	٥٥	١	٦١

جدول رقم (٦)
يبين أخطاء طلاب الصف الثاني الاعدادي الإملائية وتكرارها وتكرارها المتجمع

الخطأ	التكرار	التكرار المتجمع
صفر	٤	٤
١	١	٥
٢	٢	٧
٣	٢	٩
٤	٢	١١
٥	١	١٢
٧	٢	١٤
١٠	٣	١٧
١٢	٢	١٩
١٧	٢	٢١
١٨	١	٢٢
٢٣	١	٢٣

جدول رقم (٧)

يبين أخطاء طلاب الصف الثالث الإعدادي الإملائية وتكرارها وتتكرارها المتجمع

الخطأ	التكرار	التكرار المتجمع
صفر	٢	٢
١	٧	٩
٢	٨	١٧
٣	٢	١٩
٤	٧	٢٦
٥	٣	٢٩
٦	٢	٣١
٨	١	٣٢
٩	١	٣٣
١١	٢	٣٥
١٣	١	٣٦
١٥	١	٣٧
١٨	١	٣٨
٢٠	١	٣٩
٢٨	١	٤٠

جدول رقم (٨)

يبين عدد الأخطاء ونسبة الخطأ في كل كلمة من كلمات قطعة الإملاء لدى عينة من طلاب الصفوف الثلاثة الإعدادي

م	الكلمة	الأول الإعدادي ن = ٦١		الصف الثاني ن = ٢٣		الصف الثالث ن = ٤٠	
		ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪
١	بينما	٣	٤,٩٢	١	٤,٣٥	٣	٧,٥
٢	كـان	—		—		—	
٣	عبدالله	٣	٤,٩٢	—		—	
٤	بن	٣١	٥٠,٨٢	٨	٣٤,٧٨	٦	١٥
٥	جعفر	٢	٣,٢٨	—		١	٢,٥
٦	راكبا	١٤	٢٢,٩٥	٣	١٣	١٠	٢٥
٧	إذ	٣	٤,٩٢	—		٤	١٠
٨	تعرض	٣	٤,٩٢	١	٤,٣٥	—	
٩	له	١٠	١٦,٣٩	—		٣	٧,٥
١٠	أعرابي	١١	١٨,٠٣	١	٤,٣٥	٣	٧,٥
١١	وأمسك	٧	١١,٤٨	١	٤,٣٥	١	٢,٥
١٢	بعنان	١٤	٢٢,٩٥	١	٤,٣٥	١	٢,٥
١٣	فرسه	١٤	٢٢,٩٥	٣	١٣	١	٢,٥
١٤	وقال	٢	٣,٢٨	—		—	
١٥	أيها	٧	١١,٤٨	٣	١٣	١	٢,٥
١٦	الأمير	٩	١٤,٧٥	١	٤,٣٥	—	
١٧	سألتك	١٥	٢٤,٥٩	٤	١٧,٣٩	٩	٢٢,٥
١٨	بالله	٧	١١,٤٨	١	٤,٣٥	—	
١٩	أن	—		—		—	
٢٠	تضرب	٥	٨,٢	١	٤,٣٥	٣	٧,٥
٢١	عنقي	٥	٨,٢	١	٤,٣٥	١	٢,٥
٢٢	فقال	—		—		—	
٢٣	أمجنون	٨	١٣,١١	١	٤,٣٥	—	
٢٤	أنت	٥	٨,٢	—		١	٢,٥
٢٥	الأعرابي	٢١	٣٤,٤٣	٢	٨,٧٥	٢	٥,
٢٦	لا	٢	٣,٢٨	—		—	

تابع : **جدول رقم (٨)**

م	الكلمة	الأول الإعدادي ن = ٦١		الصف الثاني ن = ٢٣		الصف الثالث ن = ٤٠	
		ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪
٢٧	وراس	٢٦	٤٢,٦٢	٤	١٧,٣٩	٤	١٠
٢٨	فيما	١	١,٦٤	—		—	
٢٩	خطبك	٤	٦,٥٥	—		١	٢,٥
٣٠	إذا	٦	٩,٨٤	—		٣	٧,٥
٣١	لي	٥	٨,٢٠	—		١	٢,٥
٣٢	خصم	١٥	٢٤,٥٩	—		—	
٣٣	سوء	١٩	٣١,١٥	٤	١٧,٣٩	٦	١٥
٣٤	يزعجني	٣	٤,٩٢	٣	١٣	٢	٥
٣٥	ومن	٢	٣,٢٨	٣	١٣	—	
٣٦	خصمك	٩	١٤,٧٥	١	٤,٣٥	٢	٥
٣٧	هذا	٢	٣,٢٨	١	٤,٣٥	—	
٣٨	هو	١٠	١٦,٣٩	١	٤,٣٥	—	
٣٩	الفقر	١٣	٢١,٣١	١	٤,٣٥	٢	٥
٤٠	ياMولاي	٢١	٣٤,٤٣	٦	٢٦,١	٥	١٢,٥
٤١	نساعدك	٣	٤,٩٢	١	٤,٣٥	١	٢,٥
٤٢	ثم	٢	٣,٢٨	١	٤,٣٥	—	
٤٣	التفت	١٨	٢٩,٥١	٢	٨,٧٠	٣	٧,٥
٤٤	إلى	٦	٩,٨٤	٢	٨,٧٠	١	٢,٥
٤٥	مرؤوس	٥٦	٩١,٨٠	١٢	٥٢,١٧	١٩	٤٧,٥
٤٦	ادفع	٥	٨,٢	—		—	
٤٧	إليه	٨	١٣,١١	—		١	٢,٥
٤٨	ألف	٥	٨,٢	١	٤,٣٥	—	
٤٩	دينار	١٢	١٩,٦٧	—		—	
٥٠	خذها	٦	٩,٨٤	١	٤,٣٥	٣	٧,٥
٥١	ونحن	١١	١٨,٠٣	٣	١٣	١	٢,٥
٥٢	مسؤولون	٤٨	٧٨,٦٩	١٣	٥٦,٥٢	١٢	٣٠
٥٣	ولكن	٢٦	٤٢,٦٢	٤	١٧,٣٩	١٢	٣٠
٥٤	ائتنا	٤٤	٧٢,١٣	١١	٤٧,٨٣	١٥	٣٧,٥

تابع : جدول رقم (٨)

م	الكلمة	الأول الإعدادي ن = ٦١		الصف الثاني ن = ٢٣		الصف الثالث ن = ٤٠	
		ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪	ع . الأخطاء	٪
٥٥	إذا	٨	١٣,١١	٤	١٧,٣٩	٣	٧,٥
٥٦	عاد	٥	٨,٢	—		٣	٧,٥
٥٧	إليك	٧	١١,٤٨	—		—	
٥٨	فإنا	٣٧	٦٠,٦٦	١٢	٥٢,١٧	٢٠	٥٠
٥٩	منصفوك	١٣	٢١,٣١	٣	١٣,	٢	٥
٦٠	منه	١١	١٨,٠٣	٥	٢١,٧٣	—	
٦١	سأنتصر	٢٦	٤٢,٦٢	٥	٢١,٧٣	٦	١٥
٦٢	بها	٢	٣,٢٨	٢	٨,٧٠	٢	٥
٦٣	على	—		—		—	
٦٤	خصمي	١	١,٦٤	—		٣	٧ ٥
٦٥	بقية	٤٢	٦٨,٨٥	٩	٣٩,١٣	١٥	٣٧ ٥
٦٦	عمري	—		—		١	٢ ٥
٦٧	أطال	٧	١١,٤٨	٢	٨,٧٠	٢	٥
٦٨	الله	١	١,٦٤	—		—	
٦٩	بقاء	١١	١٨,٠٣	١	٤,٣٥	—	
٧٠	شكره	٦	٩,٨٤	٤	١٧,٣٩	٢	٥
٧١	وانصرف	٣١	٥٠,٨٢	٩	٣٩,١٣	٨	٢٠

تنمية العالم الثالث
بين المركزية الحضرية والتوازن الاقليمي

أستاذ دكتور السيد الحسيني

أستاذ ورئيس قسم الاجتماع

تمهيد :

أبدى العلماء الاجتماعيون خلال السنوات الأخيرة اهتماماً كبيراً بتحديد طبيعة العلاقة بين التحضر والتنمية في مجتمعات العالم الثالث . ولقد أسفر هذا الاهتمام عن تبلور موقفين فكريين متباينين . أما الموقف الفكري الأول فينطلق من أن المدينة في هذه المجتمعات تشكل مجالاً حيوياً للنمو الاقتصادي ، والتطور الاجتماعي ، والوعي السياسي ، والنضج الثقافي ؛ وأنها بذلك تمثل اطاراً ملائماً لحشد الإمكانيات المادية والموارد البشرية اللازمة لتحقيق التنمية الاقتصادية ، والتغير الاجتماعي . وهذا يعني أن تحقيق التنمية في مجتمعات العالم الثالث يتطلب قدراً من المركزية الاقتصادية والتركز السكاني حتى تستطيع المشروعات الانتاجية انجاز أهدافها على أفضل نحو ممكن (الحسيني ، ١٩٨٥ : ٥٢) . ويسلم هذا الموقف الفكري بأن هذه المركزية الاقتصادية تؤدي إلى نتائج هامة ، خاصة إذا ما كانت مستندة إلى تصنيع واسع النطاق . ذلك أن التصنيع يؤدي إلى ظهور معايير رشيدة منظمة للعمل ، وقيم جديدة مؤكدة للحرية الفردية والتجريب ، مما يولد الاستعداد لتقبل الأفكار الجديدة ، واكتشاف المهارات الفردية ، والقدرة على توفير فرص الاستثمار، وحشد رؤوس الأموال (Moore, 1972) . وعلى الرغم من أن هذا الموقف الفكري يعكس منطق التصنيع في العالم الغربي الرأسمالي بأكثر مما يعكس ظروف التصنيع في العالم الثالث ، إلا أننا ما

نزال نجد بعض العلماء يروجون له في اطار الدفاع عن مزايا المركزية الحضرية في الدول النامية .

أما الموقف الفكري الثاني فيطرح وجهة نظر معارضة . إذ يذهب أصحابه إلى أن النمو الحضري السريع وعلى الأخص ذلك الذي شهدته المدن الكبرى قد أسهم في تعميق التفاوت الإقليمي بين المدينة والريف (الجوهري ، ١٩٨٣) . ذلك أن المدينة تحصل على نصيب الأسد من الثروة القومية ، بينما لا يحصل الريف على نصيبه العادل منها برغم ضخامته السكانية . لذلك نجد معارضى النمو الحضري في مجتمعات العالم الثالث يستخدمون مفاهيم كالتحيز الحضري ، ومحاباة العواصم ، والتخلف الريفي ، واختلال التوازن الاقليمي . وبرغم صدق ومنطقية هذه المفاهيم ، إلا أن حصيلة مجتمعات العالم الثالث من تجارب التنمية الريفية ، ونشر الصناعات ، والتحكم في نمو المدن الكبرى ما تزال متواضعة إلى حد كبير . والواقع أن التسليم بمثل هذه المفاهيم يتطلب طرحاً ملائماً لأهم قضايا ومشكلات النمو الحضري في العالم الثالث . فمن الضروري أولاً التحقق من صدق مقولة ارتفاع معدلات النمو الحضري في الدول النامية وتأثير ذلك على التنمية القومية . ومن الضروري ثانياً الكشف عن مدى صدق المقولة الذاهبة إلى أن التضخم الحضري في الدول النامية قد أحدث خللاً في التوازن الإقليمي والمكاني ، وذلك بتعميق مشكلات الحضر والريف على السواء . ومن الضروري ثالثاً التعرف على طبيعة السياسات التي تنتهجها دول العالم الثالث في مواجهة الخلل الإقليمي الناجم عن ارتفاع معدلات التحضر الناجم عن المركزية الحضرية . ولسوف يتضح لنا من خلال هذه الدراسة عجز الدول النامية عن رسم سياسات مكانية ملائمة ، وصياغة خطط إقليمية فعالة من شأنها تخفيف حدة الفقر وتذويب الفروق الدخلية بين الريف والحضر . ونحن نعتقد أن تنفيذ مثل هذه السياسات والخطط أمر بالغ الصعوبة في غياب استراتيجيات تنموية تهدف إلى القضاء على الاختلالات المختلفة داخل المجتمع .

وقبل أن نشرع في معالجة هذه القضايا يجب أن نحذر مخاطر التعميمات المتعجلة ، خاصة وأن مناقشاتنا تتصل باطار مكاني واسع هو العالم الثالث ، ومفاهيم فضفاضة كالمركزية الحضرية ، والتوازن الإقليمي . والواقع أن استعراض التراث النظري المتصل بالنمو الحضري في العالم الثالث يكشف عن قدر كبير من الفوضى الفكرية عند استخدام مفاهيم كالتضخم الحضري ، والتحيز الحضري ، والخلل الإقليمي . كذلك نجد بعض الكتابات تبالغ في أهمية سياسة حضرية بعينها وتدافع عنها كما لو كانت حلاً لكل مشكلات تخلف دول العالم الثالث ، دون أن تأخذ في اعتبارها طبيعة النظم السياسية ، وحجم الموارد المتاحة ، ونمط التوزيع المكاني ، وشكل البناء الأيكولوجي ، فضلاً عن مصفوفة العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ان ما يعد ملائماً في مجال الاستيطان البشري بالنسبة لدولة كهونج كونج قد يكون ضاراً اذا ما طبق في دولة كالهند . والواقع أن سياسات دول العالم الثالث في مجال المركزية الحضرية والتوازن الإقليمي تتفاوت تفاوتاً ملحوظاً . ويكفي أن نشير هنا إلى التناقض بين سياسة الصين الشعبية القائمة على الدعم الريفي كمدخل للتنمية ، وسياسة البرازيل الساعية إلى تحقيق تنمية ريفية من خلال نمط إنتاجي رأسمالي معتمد على الاستثمارات الأجنبية ، وذلك كوسيلة لتخفيف الضغط السكاني عن المدن البرازيلية . وعند عقد المقارنات بين أشكال السياسات الإقليمية في دول العالم الثالث ، يجب أن نضع في اعتبارنا أهم العوامل الحاكمة في هذا المجال كالأيديولوجية السياسية ، ونمط التنمية الاقتصادية ، وحدة التناقض بين المدينة والقرية ، وطبيعة العلاقات المكانية ، وحجم الموارد المتاحة . بدون ذلك تصبح المقارنات صورية خالية من الدلالات العميقة التي يجب الوصول إليها عند تناول قضية تنمية العالم الثالث .

أولاً : السيطرة الحضرية والخضوع الريفي : التناقض الاقليمي :

طرحت العلوم الاجتماعية منذ خمسينيات هذا القرن قضية التوازن بين كل

من التنمية الحضرية والتنمية الريفية في مجتمعات العالم الثالث . وربما كان الاقتصاديون هم أول من لفت الانتباه إلى أهمية هذه القضية ، وذلك في اطار مناقشاتهم لأولويات الاستثمار في قطاعي الزراعة والصناعة . لذلك نجد بعض الاقتصاديين يبرزون أهمية التنمية الزراعية ، ذاهبين إلى أن قطاع الزراعة يجب أن يصل إلى أعلى درجات انتاجيته حتى يتمكن من تحقيق الفائض الضروري لإقامة تنمية صناعية حضرية . وبدون هذا الفائض لا تستطيع دول العالم الثالث تدبير الاستثمارات اللازمة للنمو الصناعي ، وبالتالي تعجز عن إيجاد أسواق قادرة على تصريف المنتجات الصناعية والخدمات الحضرية (Johnston, 1961: 566–92) . وفي مقابل ذلك نجد وجهة نظر أخرى تذهب إلى أن النمو الصناعي والحضري هو شرط ضروري لإيجاد قطاع زراعي منتج حديث . ذلك أن الفائض من قوة العمل الريفية يجب أن يتجه إلى النشاطات الحضرية المنتجة ، مما يسمح بعد ذلك بإدخال أساليب زراعية متطورة معتمدة على تكثيف رأس المال ، وانتشار الأفكار الحديثة داخل المناطق الريفية التقليدية (مونتيجوي ، ١٩٨٢ : الفصل الثالث) .

ولم يكن علماء الاجتماع والسكان بمعزل عن هذه القضايا . فمنذ خمسينيات هذا القرن نجدهم يطرحون فكرة «التضخم الحضري» في مجتمعات العالم الثالث (UNESCO, 1957) ، حيث كشفت التحليلات الإحصائية عن أن نسبة كبيرة ومتزايدة من سكان أقطار العالم الثالث يعملون في نشاطات غير زراعية (وعلى الأخص الخدمات) وذلك إذا ما قورنت بالأقطار الصناعية عندما كانت تشهد معدلات تحضر مماثلة . ويفسر بعض الباحثين هذه النقطة في ضوء استمرار وارتفاع معدلات الهجرة من الريف إلى الحضر برغم ضيق نطاق البناء الاقتصادي وعجزه عن خلق وظائف ومهن جديدة تستوعب قوة العمل المهاجرة . لذلك فإن مفهوم «التضخم الحضري» يفسر لنا تزامن البؤس الحضري مع الفقر الريفي . وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نجد فريقاً من علماء

الاجتماع يصفون مفهوم «التضخم الحضري» بالغموض . ذلك أن استخدام مثل هذا المفهوم يجعلنا دائماً أسرى المقارنة بين تحضر العالم الثالث الآن وتحضر العالم المتقدم في مرحلة سابقة ، مما يحول دون الوصول إلى نتائج تسهم في رسم سياسة حضرية تتميز بقدر من الخصوصية (McGee, 1971) . كذلك تعرض مفهوم «التضخم الحضري» لانتقادات مريرة من جانب أنصار النمو الحضري ، خاصة أولئك الذين يذهبون إلى أن المدينة قد ظلت على طول تاريخها مصدراً للإبداع الفكري ، والتغير الاجتماعي ، والتنوع الثقافي من أمثال بيرن Pirenne وممفورد Mumford . بل إننا نجد عالماً معاصراً مثل فريدمان Friedmann يذهب إلى حد الدفاع عن التحضر في العالم الثالث كمدخل لأحداث النمو الاقتصادي والتغير الاجتماعي . أي أن التحضر -في نظره- هو بمثابة استراتيجية تنموية .

وعلى الصعيد الأكاديمي العالمي تحولت قضية التناقض الريفي الحضري إلى قضية متعددة معقدة الأبعاد . فالمدافعون عن التنمية الصناعية الرأسمالية يميلون إلى إظهار مزايا التصنيع والنمو الحضري ، بينما يميل المدافعون عن التنمية الريفية إلى إظهار مزايا نشر الصناعات الريفية وتدعيم الأقاليم واعتبار الإنتاج الزراعي دعامة صناعية للدول النامية . وربما كان ليبتون Lipton من أوضح الكتاب المعاصرين تعبيراً عن خطورة الهيمنة الحضرية وانعكاساتها السلبية على التنمية الإقليمية . يقول ليبتون : «ان التناقض الرئيسي الذي تشهده المجتمعات النامية المعاصرة لا يتصل بعلاقة رأس المال بالعمل أو علاقة المصالح الأجنبية بالأهداف الوطنية ، بل يتجسد في شكل صراع حاد بين الطبقات الاجتماعية الريفية ، والطبقات الاجتماعية الحضرية . فالفقر يتركز في القطاع الريفي ، بينما يحصل القطاع الحضري على نصيب ضخم من الثروة القومية . وعلى طول تاريخ الدول النامية ، استطاعت الطبقات الحضرية أن تكسب كل جولات صراعها على الريف . والنتيجة الوحيدة المترتبة على ذلك هي مجرد إنجاز تنمية بطيئة غير متكافئة (Lipton, 1977) . لذلك يذهب كاتب آخر (Gugler, 1982)

إلى أن تحويل جانب من الموارد الحضرية إلى القطاع الريفي هو مدخل لأحداث توازن إقليمي من شأنه تخفيف حدة التباين بين القرية والمدينة في مجتمعات العالم الثالث . أن تحسين الظروف المعيشية في الريف هو بحد ذاته وسيلة للحد من التضخم الحضري . ويدخل في اطار ذلك تدعيم الريف بهياكل انتاجية متطورة ، وصناعات زراعية منتشرة ، وخدمات اجتماعية متنوعة . بذلك تتحقق الإقليمية على أوسع نطاق وإلى أبعد مدى .

ونحن لا ننكر بطبيعة الحال وجود تباين شديد بين الريف والحضر في مجتمعات العالم الثالث فيما يتعلق بأنصبتهما من الثروة القومية ، الأمر الذي أدى إلى استئثار المناطق الحضرية بمزايا عديدة لا تستطيع المناطق الريفية الحصول عليها . ومع ذلك فإننا يجب أن نتحفظ بعض الشيء قبل الوصول إلى تعميمات قاطعة في هذا المجال . إن المشكلة الأساسية التي تواجه أصحاب فكرة «الهيمنة الحضرية» هي أنهم يحددون مراكز الصراع في ضوء المكان الذي يعيش فيه الناس (ريف في مقابل حضر) لا في ضوء القطاع الاقتصادي الذي يعملون فيه (زراعة في مقابل صناعة) (Griffin, 1978) . والواقع أن سوء توزيع الثروة القومية لا يمس فقط فقراء الريف ، بل يمس أيضاً فقراء المدن . أي أن القضية ليست مجرد ظلم يتعرض له الريفيون ، بل معاناه شاملة يواجهها الفقراء أينما كانوا . وربما كان السبب الذي دفع بعض العلماء إلى إبراز الظلم الذي تعرض له الريفيون هو كثرتهم العددية وانتشارهم عبر مناطق متباعدة . ومن الطبيعي أن ينعم كبار المزارعين والفلاحين في مجتمعات العالم الثالث بظروف معيشية أفضل بكثير من تلك التي يعيش في ظلها أعداد كبيرة من السكان الحضريين . ولا يتعارض ذلك -بطبيعة الحال- مع القضية الأساسية المتمثلة في تدهور الظروف المعيشية لأعداد غفيرة من الفلاحين (Griffin & Khan, 1978) . هنا يبدو التناقض الداخلي لفكرة الثورة الخضراء : نمو الإنتاج الزراعي المرتبط بزيادة حدة الفقر . فالذين يملكون الأرض الواسعة والماء الوفير يستطيعون زيادة إنتاجهم ، بينما لا يستطيع

ذلك أولئك الذين حرموا من مثل هذه الموارد ، ومن ثم يتحملون أعباء زيادة الإنتـاج كارتفـاع أسعـار المخصبات ، وزيادة تكاليف الميكنة الزراعية ، وقلة كميات المياه المتاحة . ومن الضروري أن نؤكد في الوقت ذاته أن فقراء المدن في العـالم الثالث ليسوا أحسن حالاً من معدمي الريف . فهم (أي فقراء المدن) يعـانون من انخفاض مستويات الدخول ، وارتفاع معدلات البطالة ، وتدني الظروف السكنية ، وتخلف المرافق والخدمات الحضرية .

وفي ضوء ما سبق يمكننا القول إن حضر العالم الثالث يحصل بالفعل على جانب من موارد ريفـه ، وأن هنـاك خللاً ظاهـراً في مجال التـوزيع الإقليمي للإستثمارات القومية . لكن ذلك يتطلب الكشف عن كثير من الأبعاد الاقتصادية للظاهرة الحضرية في مجتمعات العالم الثالث . من الضروري التعرف على ما إذا كانت مشكلات هذه المجتمعات تعود إلى النمو الحضري السريع أم إلى عمليات أخرى ؟ وهناك أيضاً قضية خلافية أخرى تتصل بالتنمية والتركز الحضري . فإذا كانت الـدول النـامية تستـطيع تحقيق معدلات إنتاجية عالية من خلال النمو الحضري ، فهل يتعارض ذلك مع أهدافها التنموية ؟ هنا يجب أن نضع القضايا التي أثـارها ليبتون Lipton في سياق أوسع . ان حصول الحضر على استثمارات ضخمـة لا يعد مشكلة حقيقية ، طالما أنه لا يؤثر سلباً على النمو الإقتصادي وتوزيع الدخول . ولنفترض أن الزراعة قد تعرضت للإهمال بسبب توجيه مزيد من الاستثـمارات للصناعة والحضر . فإذا ما أدت هذه الاستثمارات إلى نتائج سلبية كالمضاربات على أراضي البناء ، وزيادة الإقبال على السلع الترفيهية ، فإننا نستطيع حينئذ التساؤل حول جدوى هذه التوجهات الصناعية الحضرية . وعلى الرغم من أن هذا الموقف شائع الحدوث في مجتمعات العالم الثالث ، إلا أننا لا نستطيع قياسه على نحو دقيق .

ويذهب بعض البـاحثين إلى أن نمط النمو الحضري ذاته قد يكون أحد معـوقات التنمية الريفية . ففي غياب المراكز الحضرية الصغيرة وسيطرة المدن

الضخمة قد تحرم المناطق الريفية من فرص تسويق منتجاتها الزراعية. وحصولها على الخدمات الحضرية الضرورية لها . ولقد أشار جونسون Johnson إلى أن هناك مركزاً حضرياً لكل ستة عشر قرية في أوروبا في مقابل مركز حضري واحد لكل مائة وخمسين قرية في منطقة الشرق الأوسط (Johnson, 1970) . ويذهب جونسون أيضاً إلى أن المراكز الحضرية الصغيرة هي أحد دعائم التنمية الريفية في مجتمعات العالم الثالث . إلا أننا لا نستطيع التسليم بهذه النقطة دون تحفظ . فإذا كانت الأسواق الحضرية البعيدة تؤدي إلى ظهور مشكلات في مجال تسويق المنتجات الزراعية ، مما يسهم في ظهور الوسطاء والاستغلاليين ، فإن إقامة مراكز حضرية جديدة لا يشكل حلاً جذرياً للمشكلة ما لم تتطور وسائل النقل ، وأساليب التخزين . ان الفلاح الفقير لا يستطيع نقل منتجاته الزراعية إلى المدينة أو تخزينها ما لم يضمن الحصول على أسعار ملائمة لها . ومن ذلك يتضح أن من الصعب قبول وجهة نظر جونسون الخاصة بإنشاء مراكز حضرية صغيرة دون وضعها في سياق أشمل وأعم . فإذا كان لهذه المراكز أن تنشأ وتنمو وتزدهر ، فإن البداية يجب أن تبدأ بالريف المحيط بها : ارتفاع الإنتاجية الزراعية ، وزيادة الدخل الفردي ، وعدالة التوزيع ، وتحقيق فائض اقتصادي ، ووسائل نقل ملائمة .

وإذا كان تدعيم المراكز الحضرية الصغيرة في الدول النامية هو أحد دعائم الإصلاح الحضري في كثير من أقطار العالم الثالث (حمدان ، ١٩٧٩) ، إلا أننا لا نستطيع تصور حدوث ذلك في غياب سياسة تنموية تقوم على إحداث تغييرات هيكلية في نمط التوازن الإقليمي والعلاقات المكانية . ولقد أوضح بعض الباحثين المعنيين بمشكلات التحضر في قارة آسيا أن الريف الآسيوي يجب أن يمر بتحولات أساسية تهدف في النهاية إلى تحضيره وتحويله إلى أقاليم اقتصادية متطورة ومزدهرة . فبدلاً من انتقال أغنياء الريف إلى المدن للاستثمار فيها ، يجب أن يظلوا في أماكنهم الأصلية ويستثمروا فيها مدخراتهم بما يحقق زيادة معدل النمو

الاقتصادي ، ونشر الصناعات الريفية ، وارتفاع متوسط الدخل الفردي ، وتوفير الحد الأدنى من المرافق والهياكل الأساسية . وربما كانت هذه النقطة هي الدافع وراء دعوة البعض إلى التوسع في إقامة المدينة الزراعية agropolis أو مدينة الحقول كما يحلو لبعض الباحثين تسميتها . وتمثل المدينة الزراعية في نظر بعض الدارسين أحد أقطاب التنمية القومية ، حيث يفترض فيها أن تضم ما بين ١٥,٠٠٠ و ٦٠,٠٠٠ نسمة ، وتعتمد على ثلاثة دعائم هي : تكثيف الإنتاج المحلي ، وتعميق الديموقراطية ، وتحقيق التكامل الثقافي . كذلك يذهب أصحاب فكرة المدينة الزراعية إلى أنها يجب أن تتمتع بقدر كبير من الاستقلالية في مجال التمويل والإدارة والخدمات والمرافق دون أن يعني ذلك العزلة عن بقية قطاعات المجتمع (Friedmann & Weaver, 1979) .

ثانياً : البناء الحضري المختل : التباين الداخلي

إذا كان بعض علماء الاجتماع والايكولوجيا قد ذهبوا إلى أن حضر العالم الثالث يحظى بموارد ضخمة ، بينما لا يحصل ريفه إلا على القليل ، فإننا نجد بعضاً آخر منهم يعبرون عن رفضهم الشديد للتركز الحضري المتزايد واستئثار المدن الكبرى (أو الأولى) على جانب كبير من الاستثمارات القومية على حساب المراكز الحضرية الصغيرة . وتزخر كتابات التنمية الإقليمية بمفاهيم عديدة تعبر بوضوح عن هذه الظاهرة «كالتباين الإقليمي المتزايد» ، «وتضخم العواصم» ، و«اختلال التوازن الحضري» و«التركز السكاني الشديد» . وتميل هذه الكتابات إلى تشبيه علاقة العاصمة «الطاغية» بالأقاليم «الضعيفة» بالجسم الإنساني المشوه المؤلف من رأس كاسح وجسم كسيح . فالرأس الكاسح ينمو باضطراد وعلى حساب الجسم الكسيح ، تماماً كما تنمو المدن الكبرى على حساب المدن الإقليمية الصغيرة المتهالكة . ويؤدي ذلك إلى ارتفاع معدلات الهجرة الريفية إلى المدن الكبرى ، وتعميق التفاوت الإقليمي . وزيادة التباين الطبقي .

ولا تخلو هذه المماثلة العضوية من بعض الصدق ، وان كانت تميل إلى تبسيط الواقع على نحو لا يخلو من مبالغة . ففي علم التشريح يمكن تشخيص الجسم المشوه بسهولة ويسر وذلك بمقارنته بالجسم الإنساني الطرازي أو المتوسط . وقد توجد حالات متطرفة أو هامشية ، ولكننا لن نجد صعوبة في التفرقة بين القزم والعملاق . فهل نستطيع أن نقوم بتطبيق ذلك في مجال المدن ؟ وهل نملك قواعد ومعايير يمكن من خلالها تحديد معالم بناء حضري مشوه ؟ ان الجسم الإنساني المشوه هو بطبيعته حالة استثنائية ، لأن هناك أجساماً إنسانية طبيعية كثيرة يمكن مقارنتها به . ومن الواضح أننا لا نستطيع بسهولة وصف البناء الحضري باستخدام هذا النمط من القياس البيولوجي . ففي حالة الجسم المشوه نحن نقارنه بجسم مثالي ، بينما لا نملك بناء حضرياً مثالياً نستخدمه كمحك أو معيار لفهم الظواهر الحضرية . والواقع أننا لا نجد بين علماء الأيكولوجيا الحضرية اتفاقاً حول الأحجام المثلى للوحدات الحضرية المختلفة ، وذلك بسبب الاختلافات الأيديولوجية ، وتباين السياسات التنموية ، فضلاً عن تنوع الملامح الاقتصادية والبيئية والاجتماعية والثقافية لدول العالم الثالث .

وخلال عقدي السبعينيات والثمانينيات من قرننا الحالي ظهرت كتابات متنوعة الاتجاهات ، تحاول تشخيص أسباب التباين الداخلي داخل البناءات الحضرية لدول العالم الثالث ، بما في ذلك سيطرة المدن الكبرى والعواصم ، وضعف وتهالك المدن الإقليمية والمراكز الحضرية الصغيرة . ولقد أسفرت هذه الكتابات عن ظهور مجموعة من الموجهات العامة التي يمكن الاهتداء بها عند محاولة الحد من التضخم الحضري للمدن الكبرى وتنمية المدن الإقليمية الصغيرة . من ذلك ضرورة تنفيذ برامج من شأنها توزيع القوى العاملة على المناطق المختلفة ، والحيلولة دون تركزها في المدن الكبرى ، والعمل على تخطيط النمو العمراني للمدن الكبرى والتحكم فيه قدر الإمكان ، وضرورة إعادة النظر في نمط توزيع الدخول في المناطق الحضرية المختلفة ، بحيث تذوب الفوارق

الحادة بينها على نحو يسمح بتنمية حضرية إقليمية حقيقية . والواقع أننا بحاجة إلى نظرة جديدة للجهود التي بذلتها دول العالم الثالث في مجال التخطيط الحضري خلال العقود القليلة الماضية . ومن الطبيعي أن يقودنا ذلك إلى تحليل نقدي للسياسات التنموية التي انتهجتها هذه الدول بهدف تحقيق التوازن الحضري .

وربما كان تحقيق التوازن في مجال قوة العمل من أهم الإجراءات التي تتخذها الدول النامية من أجل تنفيذ سياسة مكانية ملائمة . ويتخذ ذلك صوراً وأساليب عديدة من بينها ، عدم تشجيع قيام مشروعات اقتصادية في المدن الكبرى وذلك بفرض رقابة صارمة على ذلك ، أو بتشجيع المشروعات التي تقام بعيداً عن المراكز الحضرية الكبرى . وقد تلجأ بعض الدول النامية إلى نقل بعض النشاطات الاقتصادية إلى المدن الأصغر ، أو تدعيم الإدارة المحلية عن طريق نقل بعض المؤسسات الحكومية إلى المدن الإقليمية . وفي بعض الأحيان قد تذهب دول نامية إلى حد إقامة مدن أخرى لاستقطاب جانب من النمو السكاني وخلق مراكز عمرانية جديدة . والهدف من وراء ذلك كله هو الحد من نمو المدن الكبرى التي تقع عادة في أقاليم غنية ، وتشجيع نمو المراكز الحضرية الواقعة في مناطق متطرفة . ويعتقد بعض الباحثين أن نقل النشاطات الاقتصادية من الأقاليم الغنية إلى الأقاليم الفقيرة يسهم في تحقيق نتائج إيجابية . فهو يخفف من حدة المشكلات التي تواجهها المدن الكبرى ، ويكسب المدن الإقليمية الأصغر حجماً حيوية ونشاطاً ، ويسهم في الحد من التفاوت الإقليمي ، وتحسين أحوال فقراء الأقاليم . وهكذا تبدو تنمية الأقاليم وسيلة لتحقيق أهداف قومية وإقليمية في آن واحد ، من حيث أنها تسهم في نهاية الأمر في زيادة معدلات النمو الاقتصادي الكلي .

ويذهب بعض علماء التخطيط الإقليمي إلى أن خلق مراكز عمرانية جديدة هو الوسيلة الأساسية لتحقيق تنمية إقليمية حقيقية (حمدان ، ١٩٧٩) . وتظهر هذه المراكز العمرانية الجديدة في شكل مناطق حضرية جديدة تضم عدداً من

المشروعات الصناعية التي تتميز بدرجة عالية من الديناميكية ، والقدرة على النمو السريع ، مما يسمح بظهور صناعات تكميلية تؤدي في نهاية الأمر إلى تقليل تكاليف الإنتاج . ومن الطبيعي أن تؤدي مثل هذه المراكز العمرانية الجديدة إلى ظهور خدمات متخصصة ، وقوة عمل ماهرة مدربة ، تدعم المنافسة بين الأقاليم المختلفة ، مما يؤدي إلى ظهور نشاطات جديدة . وفضلاً عن ذلك تؤدي هذه المراكز وظيفتين أساسيتين : فهي تحول دون التركز الاقتصادي من ناحية ، وتسهم في توزيع عادل للنشاطات الاقتصادية على الأقاليم المختلفة من ناحية أخرى . ومن المفترض أن تؤدي المراكز العمرانية الجديدة وظائف أخرى متعددة . فهي تسهم في تصنيع المنتجات الزراعية بقدر ما تشبع احتياجات السوق الحضرية . هي باختصار -وكما يقول بيري Berry - أداة لنشر الأفكار والفنون والآلات والمنتجات الجديدة (Berry – et al, 1976) .

ولا تخلو كتابات التنمية الحضرية من إشارات نقدية تتناول الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه المراكز العمرانية الجديدة في تحقيق توازن إقليمي . فلقد ذهب بعض النقاد إلى أن هذه المراكز وإن كانت تسهم في الحد من التفاوت بين الدخول وتحسين ظروف بعض الفقراء ، إلا أنها ليست وسيلة كافية للقضاء على الفقر ذاته . وإذا ما افترضنا أن معظم هذه المراكز العمرانية الجديدة تعتمد على التصنيع كوسيلة تنموية قومية ، إلا أنها لا تستطيع الإسهام إلا بقدر محدود في تحقيق اشتراكية الأقاليم ، ودعم الكفاءة الحضرية ، وزيادة فرص الحصول على الخدمات الاجتماعية ، ورفع معدلات الإنتاجية . ويصل بعض النقاد إلى حد القول بأن إقدام الدول النامية على إقامة هذه المراكز العمرانية لا يخلو من انتهازية ، لأن ذلك يعني صرف الأنظار عن المشكلات الحقيقية للتخلف ، والترويج لمشروعات عمرانية مظهرية لا تسهم بالكثير في تطوير البناء الاقتصادي (Friedmann & Weaver, 1979: 187) . وهناك انتقاد آخر مؤداه ، أن هذه المراكز العمرانية الجديدة لا تسهم في تحقيق عدالة إقليمية بقدر ما تعمل على تعميق الهوة

بين الأقاليم وعلى الأخص في الدول النامية . كذلك ينظر نقاد آخرون إلى هذه المـراكـز العمرانية من زاوية أخرى . فبحكم اعتمادها على مشروعات صناعية متطورة تستخدم تكنولوجيا متقدمة ، فإنها تشجع على تدفق الاستثمارات الأجنبية إليها ، مما يدعم تبعية الدولة النامية للدول الرأسمالية المتقدمة والشركات المتعددة الجنسية . والـواقـع أن من الصعب قبـول هذا الانتقاد على اطلاقه . فالمراكز العمرانية الجديدة بحكم تخطيطها المتطور تتلاءم مع طبيعة التنمية الصناعية ، بينما أوضحت خبرات بعض دول العالم الثالث أن الاستثمارات الأجنبية ما تزال تفضـل توظيف أموالها في مشروعات تقع في اطار المدن الكبرى حتى تستطيع الإفادة من هياكلها الأساسية وخدماتها الواسعة النطاق . وإذا ما سلمنا بأن هذه المراكز العمرانية الجديدة قد تكون وسيلة ملائمة لتدعيم السيطرة الأجنبية على اقتصـاد الـدول النـامية فكيف نفسر ميل الدول الاشتراكية لإقامة الكثير منها كسياسة عامة للتخطيط الإقليمي ؟ وإذا كانت التنمية الإقليمية في بلد كالاتحاد السـوفييتي تختلف في كثـير من الـوجـوه عن قرينتهـا في دولـة رأسـمالية أخرى كفرنسا ، إلا أن أهداف المراكز العمرانية الجديدة في الحالتين واحدة . وفي دولة نامية كتنزانيا أقيمت هذه المراكز العمرانية على نطاق واسع كوسيلة لتحقيق توازن إقليمي من ناحية ، وتخفيف العبء عن المدن الكبرى من ناحية أخرى (Gilbert & Gugler, 1981: 175) .

ويظل الحكم النهائي على هذه المراكز العمرانية الجديدة متوقف على الهدف الأساسي الذي من أجله أقيمت ، وأعني به تحقيق التوازن الإقليمي عن طريق تخفيف الأعباء الملقاة على عاتق المدن الكبرى وإيجاد أقطاب تنموية جديدة . ان تحقيق هذا الهدف هو مطلب قومي بقدر ما هو تخطيطي ، وهو بذلك يتجاوز الاعتبارات الأيديولوجية التي أشرنا إليها قبل قليل . إلا أن خبرات دول العالم الثالث في هذا المجال ما تزال بعيدة عن تحقيق «اشتراكية المكان» ان كان لنا أن نستخـدم تعبـير جمال حمدان . ففي مصر نمت مجمـوعـة من المراكز العمرانية

الجديدة على أطراف إقليم القاهرة الكبرى في شكل مدن جديدة صغيرة مخططة بهدف استيعاب جانب من النمو السكاني في اطار خطة سكانية حضرية لمصر تصل إلى عام ٢٠٠٠ . والواقع أن الفاصل المكاني بين هذه المدن الجديدة وبين إقليم القاهرة الكبرى ليس كبيراً إذا ما أخذنا في اعتبارنا احتمالات الامتداد العمراني لأطراف القاهرة . فالمسافة بين معظم هذه المدن وحدود القاهرة الكبرى لا تزيد عن خمسين كيلومتر ، مما يحولها إلى توابع تسير في فلك المدينة الكبرى . وإذا كان لهذه المراكز العمرانية الجديدة أن تنمو نمواً مستقبلاً ، وتسهم إسهاماً حقيقياً في تصفية الحجم المرضى لإقليم القاهرة الكبرى ، فلابد وأن يترجم ذلك ترجمة مكانية ووظيفية (حمدان ، ١٩٨٤ : ٣٧٧) . فمن المتوقع في ظل معدلات النمو العمراني السائد أن تدخل بعض هذه المدن الجديدة في اطار إقليم القاهرة الكبرى بحلول عام ٢٠٠٠ لتسهم في زيادة حدة المشكلات الحضرية . وهكذا فإن الوسيلة التي استخدمت للحد من المركزية الحضرية ما تلبث أن تبتعد عن هدفها الأصلي لتلعب دوراً مناقضاً .

وربما كان فشل المراكز العمرانية الجديدة في تحقيق كل الأهداف الطموحة العريضة التي أقيمت من أجلها سبباً في استمرار حملة الانتقادات الموجهة إليها . وإذا كانت بعض هذه المراكز لم تحقق النجاح المنتظر منها ، فلأن أهدافها كانت أضخم بكثير من الإمكانيات المتاحة لها ، ولأن السياسات التنموية القومية (كما هو الحال بالنسبة لمصر) لا تدعم بدرجة كبيرة مطلب التوازن الإقليمي . وعلى الرغم من المشكلات العديدة التي تواجهها تجارب المراكز العمرانية الجديدة في دول العالم الثالث ، فإنها ما تزال تمثل سياسة مقبولة في مجال التخطيط الإقليمي ، وذلك إذا ما توافرت لها عوامل التدعيم والازدهار . ففي الدول النامية التي تعاني من تضخم عواصمها ومدنها الكبرى مثل مصر والمكسيك ، تصبح هذه المراكز العمرانية وسيلة ضرورية للتنمية الإقليمية من ناحية ، وحل مشكلات العواصم من ناحية أخرى . والواقع أن الحكم النهائي على خبرات

دول العالم الثالث في هذا المجال يتوقف على عوامل عديدة من بينها مستوى التطور الصناعي ، ودرجة التركز الحضري ، وتوافر الاستثمارات اللازمة لإقامة مراكز عمرانية جديدة ، ومستوى المركزية الإدارية ، ونمط الخطط التنموية وتوجهاتها الإقليمية .

وإذا كان بعض الكتاب قد روجوا لفكرة إقامة مراكز عمرانية جديدة لتحقيق التوازن الإقليمي ، فإننا نجد بعضاً آخر يبدي تحفظاته عليها من خلال خبرات دول العالم الثالث . وهنا نجد فريقاً من علماء التخطيط الحضري يطالبون بضرورة ترشيد نمو المدن الكبرى باعتباره أمراً حتمياً يصعب تفاديه . ويدعم هذا الفريق وجهة نظره بشواهد واقعية . فالاستقطاب الإقليمي هو عملية طبيعية تصاحب مسار التنمية القومية ، كما أن المدن الكبرى تتضمن مزايا عديدة منها ؛ ارتفاع الانتاجية ، والقدرة على استيعاب التكنولوجيا الجديدة ، وارتفاع مستوى المهارة نتيجة لارتفاع مستوى التعليم . ويطالب هذا الفريق أيضاً بعدم تدخل الحكومات في مسار النمو الحضري ، لأن من شأن ذلك تعويق النمو الاقتصادي . وليس من الصعب علينا اكتشاف تأثير الفكر الليبرالي على هذه التصورات الحضرية . ذلك أن العلماء الذين ينادون بـ«الليبرالية الحضرية» يطالبون في الوقت ذاته بعدم تدخل الدولة في مجال التوازن الإقليمي ، لأن مثل هذا التوازن يتحقق تلقائياً . ويصل الأمر ببعض الاقتصاديين إلى حد القول بأن التدخل الحكومي في مجال توزيع النشاطات الاقتصادية من شأنه إهدار الموارد الرأسمالية النادرة ، وإبطاء معدل النمو الإقتصادي القومي . وهكذا يطالب هؤلاء الليبراليون بترك قضية التوازن الإقليمي ، لأنها سوف تصحح نفسها بنفسها عندما يصل المجتمع إلى مستوى أعلى من التطور الاجتماعي والاقتصادي (Kuznets, 1970) .

ويدلل الليبراليون الحضريون على صحة وجهات نظرهم بنتائج دراسات حضارية مقارنة . فهم يذهبون إلى أن المدن الكبرى تتميز عادة بالفعالية والكفاءة

والتجديد إذا ما قورنت بالمراكز الحضرية الصغيرة . ومعنى ذلك أن التضخم الحضري لا يعد في نظرهم أحد معوقات التنمية الاقتصادية ، كما أن نمو الحجم الحضري مرتبط بزيادة العائد الاقتصادي (Alonso, 1969: 1-14) . ويذهب المدافعون عن النمو الحضري الحر إلى حد انكار فكرة «الحجم الأمثل للمدينة» ، ذلك أن نمو هذا الحجم يؤدي إلى مزيد من الفعالية الاقتصادية . وهم يستشهدون على ذلك ببيانات إحصائية تتناول البرازيل والسويد والولايات المتحدة تكشف عن أن الإنتاجية الصناعية ترتفع بشكل ملحوظ في المدن الكبرى مع تثبيت العوامل الأخرى المؤثرة على العلاقة بين المتغيرين . كذلك أشار المدافعون عن النمو الحضري الحر إلى أن ثمة شواهد إحصائية تتناول اليابان وألمانيا الغربية والمكسيك والاتحاد السوفييتي تشير إلى ارتفاع مستوى المعيشة في المدن الكبرى إذا ما قورنت بالمدن الصغيرة مع تثبت متغيرات وسيطة أخرى كالعمر والتعليم والنوع والمهنة . كما أن نصيب الفرد من رؤوس الأموال المخصصة للاستثمارات الاجتماعية يقل بشكل ملحوظ في المدن الكبرى عنه في المدن الصغرى (Hoch, 1972: 299 – 328) . ومعنى ذلك كله أن المدن الكبرى تتمتع بمزايا اقتصادية كبيرة إذا ما قورنت بالمدن الصغرى ، وأن التركز السكاني والمركزية الاقتصادية يسهمان في تحقيق تنمية اقتصادية سريعة ، وأن المشكلات المترتبة عليهما تميل إلى حل نفسها تدريجياً وبطريقة تلقائية . ويصل المدافعون عن النمو الحضري الحر إلى حد إعفاء المدن الكبرى من مسئولياتها عن المشكلات الحضرية كالجريمة ، والتلوث ، والازدحام . ذلك أن هذه المشكلات لا تعود إلى كبر حجم المدينة في حد ذاته ، بقدر ما تعود إلى متغيرات أخرى وسيطة . فارتفاع معدلات الجريمة في مدينة مثل نيويورك لا يمكن تفسيره في ضوء ضخامة حجمها ، بل في ضوء طبيعة التنظيم الاجتماعي ، والقدرة على مواجهة مشكلات أكثر من عشرة ملايين نسمة . لذلك نجدهم يعتبرون أن أفضل حل لمواجهة هذه المشكلات هو تنظيم إدارة المدينة لا الحد من نموها وتصفية حجمها . فالإجراءات الأمنية هي القادرة على مقاومة الجريمة بشكل مباشر ،

وبالتالي فإن اللامركزية الحضرية تبدو ضئيلة التأثير في هذا المجال .

والواقع أن آراء المدافعين عن المدن الكبرى والنمو الحضري الحر قد تعرضت لانتقادات عديدة خلال السنوات الأخيرة . فالقول بأن المدن الكبرى تتميز بالفعالية الاقتصادية إذا ما قورنت بالمدن الصغيرة الحجم يصعب قبوله دون تحفظات . ذلك أن ارتفاع الإنتاجية في المدن الكبرى لا يعود إلى اقتصاديات ضخامة الحجم ، وإنما يعود إلى تطور المرافق والهياكل الأساسية ، وتوافر قوة عمل ماهرة ومدربة (Borukhov, 1975: 199 – 205) . ويبدو أن ما تحققه المدن الكبرى من إنتاجية عالية يتم على حساب الإنتاجية المنخفضة في المدن الصغرى . ذلك أن الأخيرة (المدن الصغرى) تستطيع تحقيق إنتاجية مرتفعة إذا ما أتيح لها المزايا التي تتمتع بها الأولى (المدن الكبرى) . وفضلاً عن ذلك فإن ما تتميز به المصانع الكبيرة في المدن الكبرى من إنتاجية مرتفعة ، إنما يعود إلى الدعم الحكومي غير المباشر لها . ويذهب نقاد النمو الحضري الحر إلى أنه إذا كانت هناك شواهد تؤكد وجود علاقة بين ضخامة حجم المدن ، وارتفاع الإنتاجية فيها ، فإن هناك شواهد أخرى تشير إلى أن ارتفاع الإنتاجية قد يكون من سمات المدن المتوسطة الحجم ، مما يضع شكوكاً حول مدى قوة العلاقة بين الضخامة الحضرية والنمو الإقتصادي . كذلك ذهب نقاد آخرون إلى أن إعفاء المدن الكبرى من مشكلاتها هو بمثابة دفاع لا مبرر له عن نتائج النمو الحضري السريع الذي يعد أحد سمات الدول النامية . فالمدن الكبرى هي موطن للمشكلات الاجتماعية الضخمة وإن اختلفت طبيعتها . وتبدو هذه المشكلات واضحة في المدن الكبرى ، ببساطة لأنها (أي المدن الكبرى) هي واجهة المجتمع الذي تتبلور وتظهر فيها كل الجوانب والملامح الخفية . وإذا كان ذلك يبدو صحيحاً ، فإن من الواضح أيضاً أن المدن الكبرى لا تلفت الأنظار فقط إلى المشكلات الاجتماعية ، بل تسهم أيضاً في خلقها واستفحالها . فارتفاع معدلات الجريمة في المدن الكبرى لا يرجع فقط إلى التفاوت الطبقي الصارخ ، بل يرجع أيضاً

وبنفس الدرجة إلى صعوبة القبض على المجرمين . كما أن أزمات المرور والنقل لا ترجع فقط إلى زيادة عدد السيارات بالنظر إلى عدد السكان ، بل ترجع أيضاً إلى تعقد مشكلات النقل داخل المدن الكبرى .

وإذا ما افترضنا أن مزايا المدن الكبرى تفوق عيوبها ، فسيظل صحيحاً أن الفقراء هم الذين يعانون بدرجة كبيرة من مشكلات النمو الحضري إذا ما قورنوا بأفراد الطبقتين الوسطى والعليا . فالأخيرون قادرون على تغيير مناطق إقامتهم ، والحصول على خدمات أفضل ، والتأثير في مجال القرارات السياسية ، بينما لا يتمكن الفقراء من ذلك كله . ولقد لوحظ أن المناطق الصناعية توجد في أقاليم لا تسمح بتلوث الأحياء السكنية التي تقطنها الطبقة العليا . كما أن أفراد الطبقتين الوسطى والدنيا يعانون بدرجة أكبر من مشكلات المرور ، خاصة إذا ما كانت رحلة العمل اليومية تقتضي الخروج من وسط المدينة إلى أطرافها أو العكس . وفضلاً عن ذلك فإن الفقراء الحضريين لا يحصلون على الخدمات الاجتماعية التي تتميز بها المدن الكبرى ولا تتمتع بها المدن الصغرى . ففي مناطق السكن الراقي تكون الخدمات والمرافق أكثر تطوراً ورقياً : الطرق ، والمياه ، والكهرباء ، والتليفونات . وعندما لا يستطيع أفراد الطبقة العليا الحصول على خدمات عامة ملائمة كالتعليم والصحة ، فإنهم يتمكنون من الحصول عليها وبشكل أفضل من مؤسسات القطاع الخاص .

وأياً كان الأمر فإن كثيراً من الآثار السلبية الناجمة عن النمو الحضري السريع يمكن مواجهتها والتحكم فيها من خلال التخطيط الحضري الملائم . وهناك إجماع بين العلماء الاجتماعيين المعنيين بظاهرة التحضر على أن التخطيط الجيد هو الوسيلة الأساسية لمواجهة مشكلات المدن الكبرى وعلى الأخص في الدول النامية . ومن أسف أن نجد كثيراً من الخطط الحضرية في هذه الدول لا تحقق النجاح المتوقع منها . ولقد أشار شبلي (Shibli) إلى أن «مدينة كراتشي لم تخضع لتخطيط منظم منذ سنة ١٩٤٧ . فالحكومة الباكستانية أعدت خطة لتطوير

المدينة ، ولكنها تفتقد الوسائل النظامية والقانونية والمالية اللازمة لتنفيذها» ,Shibli)
(1974: 109-129 . كذلك أشار أحد المسوح الحضرية الدولية إلى أن «الإدارات الحضرية في الدول النامية لا تفعل أكثر من محاولة التكييف المؤقت مع الظروف السائدة ، وأنها غالباً ما تفشل في مواجهة أية ضغوط غير متوقعة -Ford – Founda)
. tion, 1972: 21)

وليس من الصعب علينا تفسير إخفاق الدول النامية في مجال تنفيذ سياسات حضرية ملائمة وحاسمة . ذلك أن هذه السياسات غالباً ما تخضع لتأثير جماعات المصالح التي تلعب دوراً هاماً في تشكيل الحياة الحضرية . فمحاولة فرض ضرائب على أصحاب الدخول العليا قد تحبط في مهدها ، كما أن تقسيم الأقاليم الحضرية لا يخلو من محاولات لإفساد ذمم التنفيذيين بتقديم الرشاوي إليهم . كذلك فإن المشروعات الإنشائية الضخمة التي تستهدف حل بعض المشكلات الحضرية قد تؤدي إلى ظهور مشكلات أخرى . وفي معظم الدول النامية تواجه الحكومات صعوبات فرض نفوذها على بعض المناطق الحضرية بسبب تزايد القوة السياسية لبعض الجماعات ، وكذلك بسبب ارتفاع أسعار أراضي البناء ، مما يخلق حالة من الفوضى في مجال العقارات . ان التخطيط الفعال هو ذلك الذي يعتمد على توازن سياسي بين القوى الاجتماعية المختلفة . وفي الوقت ذاته فإن تحقيق مثل هذا التوازن هو الضمان الحقيقي لاستمرار التخطيط الفعال الذي يضمن أكبر قدر ممكن من العدالة الاقليمية .

وإذا ما نحينا جانبا الاختلافات الفكرية والأيديولوجية بين أنصار المركزية الحضرية ومؤيدي الإقليمية المكانية ، فإننا نلمس اتفاقاً ملحوظاً بين الفريقين حول عدد من القضايا . فعلى سبيل المثال نجد تحفظاً مشتركاً على فكرة الحجم المثالي للمدينة . ان من الصعب التسليم بهذه الفكرة طالما أن حجم المدينة وحده ليس مصدر مشكلاتها ، وبالتالي فإن من الصعب التسليم بوجود حجم مثالي محدد لمدينة ما . ومع ذلك فإن قضية الحجم قد تطرح نفسها مرة أخرى عند

مناقشة كيفية تحقيق أهداف معينة بطريقة رشيدة . هنا يصبح متغير الحجم أحد المتغيرات المؤثرة على إمكانية تحقيق الأهداف دون أن يكون هو المتغير الوحيد الحاكم . وهناك اتفاق عام بين المعنيين بقضية النمو الحضري في الدول النامية على أن التخطيط الفعال هو ضرورة من ضرورات الحياة في المدن الكبرى . ينطبق ذلك على البرازيل كما ينطبق على الصين . أي أن مطلب التخطيط الحضري يتجاوز الاعتبارات الأيديولوجية . ومن الطبيعي أن يفرض هذا التخطيط إجراءات وسياسات لا تتحمس لها بعض الجماعات الحضرية كتقليل عدد السيارات الخاصة ، أو فرض قيود على استعمالها داخل المدن الكبرى ، وتطوير وسائل النقل العام ، وتقليل معدلات التلوث ، وتنظيم استخدامات الأراضي ، وفرض ضرائب على العقارات . وإذا كان للتخطيط الحضري أن يحقق أهدافه ، فلابد للجماعات المؤثرة ذات المصالح الخاصة من أن تتكيف مع هذه الإجراءات والسياسات . إن التخطيط الحضري الجيد يجب أن يحقق هدفين في آن واحد : الفعالية الاقتصادية للمدينة ، وتحسين ظروف الفقراء الحضريين . كذلك فإننا نجد اتفاقاً بين العلماء الاجتماعيين المعنيين بقضايا التحضر في العالم الثالث على أن الإصلاح الحضري يجب أن يتناسب مع الظروف الخاصة لكل مدينة ، وأن يتلاءم مع طبيعة المشكلات التي تواجهها . فعلى سبيل المثال نجد مدينة مثل كاركاس تقع في وادي ضيق يعاني من نقص شديد في موارده المائية . كما أن مكسيكو سيتي تعاني من نقص المياه وزيادة معدل تلوث الهواء . وأخيراً فإننا نجد اتفاقاً بين هؤلاء العلماء على ضرورة تخفيف حدة مشكلات الضوضاء والتلوث والازدحام في المدن الكبرى . فإذا كانت هذه المدن تمثل هياكل اقتصادية فعالة ، فإن على المؤسسات الاقتصادية الضخمة أن تعوض السكان الحضريين عن جانب من المشكلات التي تفرضها عليهم بسبب إصرارها على البقاء داخل كردونها . أما إذا قررت هذه المؤسسات الانتقال إلى مناطق أخرى ، فإنها تكون بذلك قد أسهمت في تخفيف حدة المركزية الاقتصادية وتنمية أقاليم جديدة .

ثالثاً : سياسات التوازن الاقليمي في العالم الثالث : نظرة نقدية

تعددت وتنوعت الوسائل والأساليب التي تستخدمها دول العالم الثالث لتحقيق التوازن بين أقاليمها والوصول إلى استراتيجية مكانية ملائمة (UNCRD, 1976) . ومن الطبيعي أن تختلف هذه الوسائل والأساليب من دولة نامية لأخرى . ذلك أن تحقيق التوازن الإقليمي يعتمد على مصفوفة ضخمة من المتغيرات التي يجب وضعها في الاعتبار عند رسم الاستراتيجية المكانية . ومن بين هذه المتغيرات طبيعة التناقض بين الريف والمدينة ، ومستوى التطور الاقتصادي والانتاجي ، وأحجام المدن الصغيرة بالنظر إلى المدن الكبرى ، ومواقع المدن وعلاقتها بالريف المحيط بها ، والوظائف التي تؤديها المدن ، وطبيعة النشاطات الاقتصادية والانتاجية التي تؤديها الأقاليم المختلفة ، ومراكز التركز السكاني ، ومناطق الجذب العمراني ، فضلاً عن متغيرات أخرى كثيرة مثل حجم الاستثمارات المخصصة لمراكز العمران الجديدة ، وتنمية المناطق الريفية في اطار خطة تنموية قومية. ونظراً لتنوع سياسات التوازن الإقليمي في دول العالم الثالث، فإنا نستطيع التمييز بين ثلاث منها هي : سياسة تطوير الاقتصاد الريفي الساعية إلى تخفيض معدل النمو الحضري ، وسياسة تخفيض نمو المدن الكبرى من خلال التحكم في معدل الهجرة إليها ، وأخيراً سياسة تخفيض معدل النمو السكاني للمدن الكبرى عن طريق تشجيع نمو المدن الصغرى أو إقامة مراكز حضرية جديدة . وفي بعض الأحيان قد تلجأ الدول النامية الواحدة إلى استخدام أكثر من سياسة في وقت واحد . وسوف نتناول فيما يلي هذه السياسات الثلاث تناولاً نقدياً بهدف الكشف عن إسهاماتها في مجال التوازن الإقليمي لدول العالم الثالث .

١ - تطوير الاقتصاد الريفي وتخفيض النمو الحضري

إذا انطلقنا من التحليل البنائي للتكوينات الاجتماعية ، أمكننا القول إن

التحولات التي تطرأ على الاقتصاد الريفي لابد وأن تنعكس بشكل أو بآخر على نمط التنمية الحضرية . فالسياسة التي تستهدف إعادة توزيع الأراضي الزراعية على المعدمين من شأنها أن تقرب بين متوسط الدخل في كل من الريف والحضر ، وبالتالي فإنها تؤدي إلى تخفيض معدل النمو الحضري وذلك عن طريق زيادة الدخول الناتجة من النشاطات الزراعية . ومع ذلك فإننا قد نجد مشروعات زراعية تؤدي إلى نتائج سلبية في مجال النمو الحضري . ففي بعض الدول النامية كالبرازيل والأرجنتين ، أدى التوسع في إقامة المزارع الضخمة التجارية إلى زيادة أعداد الفلاحين المعدمين ، مما دفعهم بالتالي إلى الهجرة إلى المدن بحثاً عن فرص العمل . (Griffin & Ghose, 1979: 361 – 384) . وبسبب تنوع السياسات الريفية وتباين آثارها ، فإننا سنركز مناقشتنا على حالتين متباينتين ، وأعني بهما البرازيل والصين . ففي هاتين الدولتين نجد سياستين متباينتين في مجال التوازن الإقليمي . وتعبر السياسة المتبعة في كل من هاتين الدولتين عن أهداف أيديولوجية واضحة ، وقوى اجتماعية معينة ، ومصالح سياسية محددة . فالبرازيل سعت إلى استيطان منطقة الأمازون باستخدام نمط الإنتاج الرأسمالي والاعتماد على الشركات الضخمة كوسيلة لإحداث التطوير الاقتصادي الريفي . أما الصين فقد استخدمت التنمية الريفية كوسيلة لتدعيم الاشتراكية في ريف يتسم بكثافة سكانية عالية . ولا نهدف بمقارنة البرازيل بالصين المفاضلة بينهما فيما يتعلق بنمط التنمية الريفية ، بقدر ما نود البرهنة على أن برامج التنمية الإقليمية لا تنفصل عن خطط التنمية القومية . كذلك فإن من خلال هذه المقارنة تتضح لنا نقطة هامة هي ، أن تحقيق الأهداف الإقليمية متوقف بدرجة كبيرة على مدى ما تحصل عليه من موارد ودعم . وفي ضوء ذلك كله يمكننا أن نشرع في مناقشة الإنجازات التنموية التي قامت بها كل من البرازيل والصين في مجال التوازن الإقليمي .

ففي البرازيل مر برنامج التنمية الإقليمية (أو تنمية الحدود كما يطلق عليه

البعض) بمراحل مختلفة وتعرض لتنقيحات متعددة لاعتبارات سياسية واقتصادية واجتماعية . ومن بين الأهداف التي سعى إليها هذا البرنامج إقامة مدينة برازيليا ، ورصف طرق تصل مساحتها إلى عشرة آلاف ميل ، وتشجيع الاستثمارات الخاصة على توجيه رؤوس أموالها إلى المنطقة بتقديم حوافز مالية تتمثل في إعفاءات ضريبية كبيرة . ولقد تمكن البرنامج من طرح مساحات واسعة للتنمية ، وبالتالي فإنه قد شجع عدة ملايين من السكان على الهجرة إليها ، فضلاً عن أنه (أي البرنامج) قد أتاح فرص استخراج معادن كثيرة من المنطقة ، وعاون في الوقت ذاته على ظهور صناعات مختلفة معتمدة على الإنتاج الزراعي والحيواني الذي حققته المشروعات التجارية الكبرى (Gilbert & Gugler, 1981: 183)

ومن الطبيعي أن يثير هذا النمط من التنمية الريفية البرازيلية قضية أيديولوجية تتعلق بموقف الفقراء منها ، والمزايا التي حققوها من ورائها . ولا ينطبق ذلك على الفقراء فقط ، بل يمكن أن يشمل المجتمع البرازيلي بأسره . ذلك أن التنمية الريفية يجب أن تخفف العبء عن المدن الكبرى بتخفيض معدلات الهجرة الريفية إليها . وفي مرحلة معينة (وعلى الأخص فيما بين سنتي ١٩٧٠ و ١٩٧٤) كان هدف برنامج تعمير الأمازون إعادة توطين الأسر الفقيرة التي تنتمي إلى الإقليم الشمالي الشرقي من البرازيل . إلا أن الجفاف الذي أصاب البرازيل في سنة ١٩٧٠ قد دفع الحكومة العسكرية إلى تشجيع الأسر المعدمة التي تعيش في المناطق الجافة من الشمال الشرقي إلى الانتقال صوب الغرب لتعمير المناطق المحيطة بالطرق الرئيسية الجديدة . بيد أن المستوطنين الفقراء في هذه المناطق قد واجهوا مشكلات ضخمة بسبب صعوبة الحصول على القروض ، وانعدام الإرشاد الزراعي ، وضعف الهياكل الأساسية ، وقلة الخدمات الاجتماعية . ونتيجة لذلك لم يتبق في هذه المناطق بحلول منتصف سنة ١٩٧٥ سوى آلاف قليلة من المستوطنين الفقراء ، بعد أن كانت الحكومة

البرازيلية تتوقع أن يصل عددهم خلال الفترة ذاتها إلى ۱۰۰ , ۰۰۰ نسمة (Gilbert & Gugler, 1981: 184) . وباستثناء شبكة الطرق الواسعة التي أقامتها الحكومة البرازيلية ، فإن المرافق والهياكل الأساسية لم تحصل إلا على القليل من الاهتمام والاستثمار . ونتيجة لذلك بدأ المستوطنون الفقراء يستشعرون القلق ، ويدركون أن المستقبل لا يحمل لهم فرصاً طيبة . وفي الوقت ذاته بدأت الشركات الكبرى تغزو المنطقة وتحصل على مزايا ضخمة من أجل تعمير إقليم الأمازون من بينها ، إعفاء المعدات والسلع الأجنبية اللازمة لهذه الشركات من الضرائب ، بل وإعفاء الشركات ذاتها من الضرائب لعدة سنوات مقبلة ، في محاولة لتشجيعها على مواصلة استثمار أموالها في الإقليم . ونتيجة ذلك كله اتسعت مساحات المراعي ، ونمت مشروعات المطاط ، وتطورت مناطق التعدين على نحو دفع بعض الباحثين إلى القول بأن ما حدث في إقليم الأمازون هو «معجزة اقتصادية» بكل ما يتضمنه هذا التعبير من معان .

ومن الصعب تقييم مثل هذه المشروعات في ضوء معايير اقتصادية خالصة . فلو سلمنا بأن تنمية إقليم الأمازون قد أسهم في تنمية الدخل القومي البرازيلي ، إلا أن فقراء الفلاحين البرازيليين لم ينالوا منه إلا القليل . فالمشروع لم يسهم في إعادة توزيع الدخل القومي ، بقدر ما ساعد الشركات الكبرى على مضاعفة أرباحها والحصول على مزايا من الحكومة البرازيلية لم تكن لتحصل عليها في وقت سابق . ويكفي أن نشير إلى أن البرازيل خلال عقد الثمانينيات تواجه أزمة اقتصادية طاحنة مصدرها ارتفاع ديونها الخارجية على نحو يهدد استقلالها السياسي . وإذا كان مشروع تنمية إقليم الأمازون قد حقق نجاحاً محدوداً في مجال التوطين والتعمير ، إلا أنه لم يسهم في الحد من نمو المدن البرازيلية الضخمة . فلقد واصلت معدلات النمو الحضري في ساو باولو وريودي جانيرو ارتفاعها ، بينما اتجهت الأرباح المحققة من إقليم الأمازون صوب هاتين المدينتين ليعاد استثمارها في مشروعات ضخمة تسهم في تدعيم المركزية ورفع معدلات الهجرة الريفية إلى المدن .

أما الصين فقد تبنت منذ ثورتها الاشتراكية في سنة ١٩٤٩ سياسة معارضة للنمو الحضري منطلقة من تنمية ريفية أو عدالة إقليمية ان شئنا الدقة . ولقد سعت الصين من خلال ذلك كله إلى إحداث تحولات جذرية على بنية المجتمع الصيني بأسره . ولا شك أن السياسات-التي اتبعتها الصين كان لها نتائجها الإيجابية على المناطق الريفية مثل تنظيم النسل ، وإعادة توزيع الأراضي الزراعية التي كان يملكها الأغنياء على الفلاحين المعدمين ، واحتكار الدولة لمعظم النشاطات الاقتصادية ، والحد من استئثار المدن على الاستثمارات الضخمة . والواقع أن التجربة الصينية تقدم لنا نموذجاً فريداً لما يمكن أن تتبعه دولة نامية في مجال التوازن الإقليمي . لقد سعت هذه التجربة إلى الحد من النمو الحضري ، وتحقيق قدر كبير من الاكتفاء الذاتي في المناطق الريفية . وفي الوقت ذاته فإن الصينيين قد اهتموا أيضاً بتطوير المدن وتدعيم بناءاتها الاقتصادية ، مع محاولة التحكم في نمو سكانها . كذلك أقيمت مجموعة من المدن الجديدة لتكون عواصم لإقليم ذات طبيعة اقتصادية متميزة .

وهناك شواهد عديدة تؤكد الرفض الصيني للهيمنة الحضرية . فلقد ظلت الأجور في مجال الصناعة مستقرة ، مما أدى إلى تحسن الموقف التجاري للسلع الزراعية إذا ما قورنت بالسلع الصناعية . كذلك حاولت الحكومة الصينية تدعيم الاكتفاء الاقتصادي الذاتي للمزارع الجماعية في الريف . ولقد لقيت هذه المزارع الجماعية دعماً كبيراً ، مما شجعها على إقامة مصانع صغيرة لإنتاج ما يلزمها من منتجات صناعية بدلاً من الحصول عليها من المراكز الحضرية . وفضلاً عن ذلك حرصت الحكومة الصينية على تشجيع الأقاليم على تنمية مواردها بهدف تقليل تكاليف نقل المواد الخام والسلع المصنعة ، وربط السكان المحليين بالتنمية القومية . والواقع أن من أهم ملامح التنمية الصينية القدرة على حشد الموارد ، والمحافظة عليها من الهدر والضياع . وفي هذا السياق يمكننا الإشارة أيضاً إلى حرص الصينيين على تغيير القيم الثقافية بما يخدم تنمية المناطق الريفية . إذ

تحرص الحكـومـة الصينية على إرسال الموظفين الحضريين والشباب إلى الريف للإقامة فيه لفترات تطول أو تقصر بقصد الإلمام بالثقافة الريفية من ناحية والتخلي عن التحيز الحضري من ناحية أخرى .

ولا شك أن الصين قد أنجزت الكثير من خلال تجربتها التنموية الفريدة . وربما كان أعظم انجاز في هذا المجال هو ، أن التنمية القومية قد ضمنت لكل صيني نصيباً معلوماً من الدخل يحميه من سوء التغذية ، ويضمن له الحصول على احتياجاته الأولية . وإذا كان مستوى المعيشة في الصين ما يزال منخفضاً ، إلا أنه أعلى بكثير من قرينه قبل الثورة ، فضلاً عن عدالة التوزيع التي تعد من أهم سمات النظام الاقتصادي الصيني المعاصر . لقد استطاعت الصين القضاء على المجاعات وكل ضروب الاستغلال ، وحققت في هذا المجال ما لم تستطع تحقيقه كثير من دول العالم الثالث . وربما لهذا السبب نجد بعض المفكرين يطالبون دول العالم الثالث بتعلم كثير من الدروس الصينية في مجال التنمية (Green, 1978: 709-714) . وعلى الرغم من جاذبية النموذج الصيني في مجال التوازن الإقليمي ، إلا أنـه قد واجـه صعـوبـات ومشكـلات حادة حالت بينه وبين تحقيق بعض أهدافه . فالصين لم تستطيع إزالة التفاوت الإقليمي ، كما لم تتمكن تماماً من القضاء على التناقض بين القرية والمدينة . وعلى الرغم من أن الفروق الدخلية بين القرية والمدينة أقل بكثير من قريناتها في معظم مجتمعات العالم الثالث ، إلا أن المشروعـات التنموية الصينية لم تتمكن حتى الآن من القضاء عليها برغم الأهمية البالغة التي تمنحها الحكومة لتطوير المناطق الريفية (Murphey, 1976: 324) . وربما لهذا السبب يذهب بعض العلماء المهتمين بدراسة نمط التحضر الصيني إلى أن المدن الصينية لم تكف حتى الآن عن جذب المهاجرين الريفيين إليها ، على الرغم من السياسة المعلنة الصارمة الساعية إلى وقف نمو المدن الكبرى (Frolic, 1976: 154) . كذلك يتوقع هؤلاء العلماء أن التفاوت الإقليمي بين الريف والمدينة في الصين سوف يزداد اتساعاً في المستقبل وذلك بنمو حركة التصنيع في

المدن الصينية . ان الصين في نظر هؤلاء العلماء ما تزال أمة من الفلاحين ، تسعى لتحقيق تنمية ذاتية . وإذا كان من الصعب تشبيه المدن الصينية بغيرها من مدن العالم الثالث ، إلا أن هذه التنمية باعتمادها على التصنيع سوف تجعل من المدن الصينية أقطابها الحقيقية . ومع ذلك يظل صحيحاً أن الصين سوف تشهد واقعاً حضرياً مختلفاً عن ذلك الذي تشهده معظم دول العالم الثالث ، وذلك بسبب تميز توجهاتها الأيديولوجية وتفرد سياستها التنموية (الحسيني ، ١٩٨٥ : ٢٠) . ولا يتعارض ذلك كل مع الإنجازات الهامة التي قامت بها الصين منذ ثورتها الإشتراكية في مجالي توزيع السكان وتوطين الصناعات بعيداً عن المدن الكبرى . وتهدف الصين من وراء ذلك إلى إعادة توجيه النمو الإقتصادي بما يخدم تطوير الأقاليم ، والحد من الفروق الداخلية بين الريف والحضر ، وتحقيق أكبر قدر ممكن من الإكتفاء الذاتي للأقاليم المختلفة وذلك لأسباب استراتيجية وتنموية في آن واحد .

وإذا كانت الصين قد أنجزت الكثير في مجال التنمية الإقليمة ، إلا أنها لم تحقق سوى القليل في مجال المركزية السياسية . فما تزال الصين تعبر عن نموذج متميز من مركزية القرارات الصادرة من أعلى إلى أدنى . لذلك فإن التطور الهام الذي شهدته الصين هو ذلك الذي تحقق في مجال الاكتفاء الذاتي لا في مجال الاستقلال المحلي . وربما كان ذلك من بين الأسباب التي دفعت أحد المهتمين بالتجربة التنموية الصينية إلى القول بأن «الصين تأخذ بنظام شمولي قد يؤدي إلى كارثة قومية ما لم تكن القيادة السياسية على درجة عالية من الحكمة والفطنة وبعد النظر» . (Morawetz, 1979: 877 – 892) . وبغض النظر عما ينطوي عليه هذا القول من مبالغة ، فإن الصين قد تبنت برنامجاً طموحاً في مجال التوازن الإقليمي وذلك في اطار تجربة اجتماعية واقتصادية فريدة . ان خصوصية التجربة الصينية تجعل من إمكانية نقلها إلى الدول النامية الأخرى مسألة بالغة الصعوبة . ويتضح ذلك بالنظر إلى ضخامة مساحة الصين ، وكبر عدد سكانها ، وتفرد

ثورتها . والواقع أن التجربة التنموية الصينية لا تختلف فقط عن التجارب التنموية في دول العالم الثالث ، بل تختلف أيضاً عن قريناتها في الدول الاشتراكية الأخرى . تلك حقيقة يجب أخذها في الاعتبار عند مناقشة قضية التوازن الإقليمي في مجتمعات العالم الثالث .

٢ - الحد من النمو الحضري والتحكم في الهجرة إلى المدن

سعت كثير من دول العالم الثالث إلى الحد من نمو مدنها الكبرى عن طريق التحكم في الهجرة إليها . إلا أن الإنجازات التي تحققت في هذا المجال ظلت متواضعة إلى حد كبير . ولأن حكومات دول العالم الثالث عاجزة عن تزويد المدن بمرافق وخدمات تكفي لمواجهة احتياجات النمو السكاني ، فإنها تطرح من حين لآخر فكرة التحكم في تدفق المهاجرين الريفيين إلى المناطق الحضرية وعلى الأخص المدن الكبرى . والواقع أن الدول النامية التي حققت إنجازات هامة في هذا المجال قليلة للغاية ، كما أن النتائج التي ترتبت على استخدام سياسة تقييد الهجرة الريفية إلى المدن كانت محدودة الإيجابية . ان الحد من النمو الحضري لا يستطيع أن يحقق أهدافه ما لم يرتبط باستراتيجية تنموية شاملة تسعى إلى تحقيق توازن إقليمي عن طريق الحد من الهيمنة الحضرية وتشجيع التنمية الريفية .

وربما كانت الصين هي النموذج الكلاسيكي الشهير الذي استطاع مواجهة ظاهرة الهيمنة الحضرية عن طريق تنمية الأقاليم . فمع «القفزة الكبرى إلى الأمام» التي تحققت خلال عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، ثم تسارعت مع «الثورة الثقافية» (١٩٦٦ - ١٩٦٨) ، شهدت الصين ولأول مرة في تاريخ دول العالم الثالث ، هجرة من المدينة إلى الريف . وفي سنة ١٩٦٣ قررت الحكومة الصينية ألا يزيد عدد السكان الحضريين عن ١١٠ مليون نسمة . ولتنفيذ ذلك شجعت الحكومة الحضريين من خريجي المدارس العليا والمعاهد الجامعية على الانتقال إلى

القرى الصينية ، مما أدى إلى تخفيف الضغط على الاقتصاد الحضري والإسهام في تطوير الزراعة والنهوض بالصناعات الوطنية . ولقد عبر ماوتسي تونج عن موقفه من هذه القضية ، فأوضح ضرورة عودة الشباب المتعلم إلى الريف الصيني من أجل تثقيف الفلاحين ، وأن القيادات الحزبية المركزية يجب أن تشجع الشباب على ذلك ، كما يجب على القيادات الحزبية المحلية تذليل كل العقبات التي تحول دون هجرة شباب المدن إلى الريف . ولقد لقيت دعوة ماو للعودة إلى الريف ترحيباً كبيراً من جانب الشباب الحضري ، حتى ان بعض الدارسين قد قدروا عدد المتطوعين الحضريين الذين توجهوا إلى الريف الصيني بحوالي خمسة عشر مليون متطوع خلال عامين فقط ، كما أن بعضاً آخر من الدارسين قد وصل بهذا الرقم إلى خمسة وعشرين مليون متطوع (في سنة ١٩٧٣) . وإذا كانت هذه التقديرات صحيحة ، فإن الصين تكون بذلك قد شهدت أضخم هجرة «حضرية - ريفية» عرفها التاريخ (Richard, 1971) .

وخارج نطاق العالم الاشتراكي ، تكاد تكون جمهورية جنوب أفريقيا هي الدولة الوحيدة التي نجحت في الحد من النمو السكاني للمدن الكبرى ، على الرغم من استخدام الأساليب القمعية وانتهاك حقوق الإنسان في معاملة السكان الوطنيين . فلكي يتمكن الإفريقي من الإقامة في مدينة ، يجب أن يحصل على عمل فيها ، كما أنه في حالة حصوله على تصريح بالعمل في مدينة لا يستطيع اصطحاب أسرته معه قبل خمسة عشر عاماً من إقامته الدائمة بها . ومن الواضح أن الأفارقة لا يستطيعون الإقامة في المدن ما لم يكن هناك مبرر قانوني لهذه الإقامة ، وأعني به العمل في مهنة تنتمي إلى القطاع الاقتصادي الرسمي . وإذا ما فقد الإفريقي وظيفته ، فإن ذلك يعني أن علة وجوده في المدينة قد انتفت ، وأن عليه أن يتحرك صوب الريف قبل أن تقبض عليه أجهزة الأمن . وإذا كان بعض الدارسين قد أشاروا إلى أن هناك أعداداً من السكان تقيم بطريقة غير قانونية في مدن مثل سويتو Soweto إلا أن الإجراءات الصارمة التي تتخذها

الحكومة قد حدت من نمو المدن الكبرى (Fair & Davies, 1976: 145-168) . فعلى سبيل المثال نجد مدينة مثل جوهانسبيرج لا يتجاوز فيها معدل النمو السكاني ٢٪ سنوياً فيما بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠ .

وهناك شواهد عديدة تشير إلى أن الضوابط التي تضعها حكومات دول العالم الثالث من أجل الحد من الهجرة إلى المدن تميل إلى الضعف تدريجياً لتتلاشى في نهاية الأمر . ففي سنة ١٩٧٠ أصدر حاكم جاكرتا قراراً بأن يحصل المهاجرون الريفيون إلى المدينة على إذن بالإقامة فيها لمدة ستة شهور ، على أن يدفعوا مبلغاً يصل إلى ضعف أجور المواصلات من المدينة إلى قراهم الأصلية . وإذا ما تمكنوا من الحصول على وظيفة خلال تلك الفترة ، ردت إليهم أموالهم ، وأصبحوا بالتالي سكاناً حضريين . وبالإضافة إلى هذه الإجراءات ، تميل بعض الدول النامية إلى تحجيم العمالة فيما يطلق عليه القطاع الرسمي . إلا أن ذلك لم يسهم إلا بالقليل في الحد من النمو السكاني الحضري . وفي دار السلام بتنزانيا حاولت الحكومة إقناع العاطلين بمغادرة المدينة والعودة إلى قراهم . إلا أن السلطات الحكومية لم تجد آذاناً صاغية من قبل هؤلاء العاطلين ، لأن الواقع الذي ينتظرهم في قراهم أسوء بكثير من الحاضر الذي يعيشونه في دار السلام . ومما سبق يتضح لنا أن اجراءات التحكم في الهجرة إلى المدن الكبرى في دول العالم الثالث لم تحقق نتائج إيجابية واضحة . ويبدو لنا أن النجاح الذي يمكن أن تحققه هذه الإجراءات يتوقف على طبيعة السياق الذي تتم فيه . فلقد تمكنت حكومة جنوب أفريقيا من التحكم في النمو الحضري بسبب سياستها التسلطية القمعية التي حالت دون زيادة السكان الأفارقة في المناطق الحضرية . وفي الصين تمكنت الحكومة من مواجهة النمو الحضري بانجاز تنمية ريفية متكاملة أدت في نهاية الأمر إلى تذويب الفوارق بين المدينة والريف ، مما أضعف من دوافع الهجرة إلى الحضر .

٣ - تدعيم المدن الصغيرة وإقامة مراكز حضرية جديدة

من بين الاستراتيجيات الشائعة لتحقيق التوازن الإقليمي في الدول النامية الحد من نمو المدن الكبرى ، وتدعيم المدن المتوسطة والصغيرة الحجم . ويتم ذلك عن طريق تشجيع بعض الصناعات على التوطن في المدن الصغيرة . والإجراء الشائع في هذا المجال هو أن تحث الحكومات الشركات الجديدة والقديمة على التوطن في مناطق متطرفة بعيدة عن المدن الكبرى أو في بعض المدن الصغيرة القديمة ، في مقابل منحها بعض المزايا كالإعفاءات الضريبية لفترة معينة ، وتدعيم المرافق والهياكل الأساسية لهذه المدن . ومع ذلك فإن النجاح الذي حققته حكومات الدول النامية في مجال إقليمية الصناعة ما يزال محدوداً ، ذلك لأن الضغط الشديد من أجل توطين المشروعات الصناعية في مناطق متطرفة أو مدن صغيرة قد يؤدي إلى إحجام الشركات الأجنبية الكبرى عن استثمار أموالها في دول العالم الثالث . (Gilbert & Gugler, 1981: 189) . وتميل بعض حكومات الدول النامية إلى تقديم حوافز وإغراءات لجذب الصناعات إلى مواقع جديدة . فعلى سبيل المثال نجد «برنامج الحدود» في المكسيك يشجع شركات أمريكا الشمالية على الإفادة من العمالة المكسيكية الرخيصة ، وتجميع منتجات صناعية لتصديرها إلى الولايات المتحدة . وفي البرازيل تمتعت الشركات الصناعية التي توطنت في مدن الشمال الشرقي الفقيرة بإعفاءات ضريبية عالية . وبرغم ذلك كله فإن النتائج المترتبة على هذه الحوافز والإغراءات الضريبية في مجال التوازن الإقليمي ما تزال محدودة بسبب غياب خطط تنموية شاملة في كثير من الدول النامية . وتشير بعض التجارب التنموية في مجتمعات العالم الثالث إلى أن تشجيع الصناعات على الانتقال من المدن الكبرى لا يؤدي بالضرورة إلى نتائج إيجابية تنعكس على المناطق الفقيرة ، خاصة إذا ما كانت الصناعات المتوطنة في هذه المناطق من النوع المعتمد على تكثيف رأس المال الذي لا يستوعب إلا القليل من قوة العمل . ومن الطبيعي أن يكون إسهام مثل هذه الصناعات في مجال التنمية الإقليمية محدود إلى حد كبير .

ومن أجل تحقيق التوازن الإقليمي تسعى بعض الدول النامية إلى إقامة مدن جديدة لتكـون بمثـابـة مراكـز جذب سكـاني تخفف وطـأة الضغط على المدن القديمة . وهنا يمكننا التمييز بين أنواع مختلفة من المدن الجديدة . هناك أولاً مدن تستخدم كمناطق سكنية يقطنها سكان مدينة كبرى مجاورة ، وهناك ثانياً مدن يعيش فيها سكان يعملون في مناطق تعدينية جديدة ، وهناك ثالثاً مدن تقام كعواصم سياسية جديدة . أما النمط الأول من المدن فغالباً ما يتخذ شكل توابع حضرية على نحو ما هو مألوف في بريطانيا . وغالباً ما تنشأ هذه التوابع في اطار مواجهة المشكلات والصعوبات التي تعاني منها المدن القديمة . فلقد نجم عن تقسيم الهند تدفق طوفان المهاجرين إلى كراتشي ، مما أدى إلى ظهور منطقتين حضريتين تابعتين لها . وفي مصر ظهرت مجموعة من التوابع الحضرية المجاورة للقاهرة في محاولة لمواجهة النمو السكاني المتزايد من ناحية ، وتخفيف العبء عن المدينة الأم من ناحية أخرى . أما النمط الثاني من المدن الجديدة فهو ذلك الذي ينشأ في مناطق التعدين بما في ذلك حقول استخراج البترول والحديد والألومنيوم . والـواقـع أن الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه المدن التعدينية في مجال التوازن الإقليمي محدود للغاية بسبب عجزها عن جذب أعداد كبيرة من السكان نظراً لاعتمادها على التكثيف الرأسمالي . لذلك فإن هذه المدن تخدم أهدافاً قومية بأكثر مما تؤدي وظائف إقليمية . وأخيراً فإن النمط الثالث من المدن الجديدة يتمثل في عواصم بعض الـدول النـامية التي أقيمت لتكـون واجهة عصرية جديدة من ناحية ، ولتسهم في حل مشكلات العواصم القديمة من ناحية أخرى . مثال ذلـك برازيليا ، واسـلام آباد ، وأنقرة . وفي ضوء الفلسفات والأهداف التي استندت إليها هذه العواصم الجديدة ، فإنه يبدو لنا أنها لم تسهم بالكثير في مجال العـدالـة الإقليمية . ان نظرة عابـرة على إسـلام آبـاد الحديثة الراقية وجارتها روالبندي التقليدية الفقيرة ، تكشف عن أن العاصمة الجديدة لم تسهم في حل مشكلات التضخم الحضري بقدر ما أدت إلى تعميق الازدواجية الحضرية .

ان الحكم على كفاءة سياسات التوازن الإقليمي يجب أن ينبع من قدرة هذه السياسات على مساعدة فقراء المناطق الريفية والحد من الهيمنة الحضرية التي تمارسها المدن الكبرى . وإذا ما اعتمدنا على هذا المعيار كأساس للحكم ، فإننا نجد أن الدول النامية لم تحقق في مجال التوازن الإقليمي إلا القليل . فما تزال المدن الكبرى تواصل نموها وتستأثر على نصيب الأسد من الاستثمارات القومية ، بينما تناضل المدن الصغرى والمناطق الريفية من أجل الاستمرار في البقاء . وإذا كنا نذهب هنا إلى أن برامج تنمية الأقاليم هي مطلب ضروري ضمن اطار خطة شاملة للنهضة القومية ، فإن الدعائم الأيديولوجية لهذه النهضة يجب أن تكون واضحة كل الوضوح . ان هذه البرامج التنموية يجب أن تسهم في إعادة توزيع الدخل القومي لصالح فقراء الأقاليم والمدن الكبرى على السواء ، وأن تعمل على خلق مزيد من فرص العمل للعاطلين الفقراء ، وأن تضمن استمرار ارتباط سكان الأقاليم بالنشاطات التي يقومون بها والأماكن التي يعيشون فيها . والواقع أن تنمية الأقاليم ذاتها هو مدخل تحقيق العدالة بين المدينة والريف ، أو «اشتراكية المكان» كما يقال . وباستثناء الصين ، فإننا لا نجد نقاطاً مضيئة قوية في مجتمعات العالم الثالث تشير إلى تنمية إقليمية حقيقية يحظى فيها الفقراء بنصيبهم العادل من الثروة القومية . ويكشف لنا ذلك كله عن حقيقة أساسية هي ، أنه في غياب مشروع نهضة قومية شاملة لا تستطيع الدول النامية تحقيق ما تصبو إليه من توازن إقليمي . ذلك أن هذا التوازن الإقليمي ليس مجرد انعكاس لسياسة مكانية يمكن تحديدها في ضوء مفاهيم التخطيط والهندسة المعمارية ، ولكنه قبل ذلك كله ، وبعد ذلك كله ، تجسيد لمستوى من التطور الاجتماعي ، وتعبير عن قوى اجتماعية قادرة على احتكار المكان بقدر ما هي قادرة على توجيه الزمان .

المصادر العربية :

١ - الجـوهـري ، م ، ١٩٨٣ - ظاهـرة التحضر بين الادانة والتمجيد «في الجـوهـري ، م ، وشكـري ، ع ، علم الاجتماع الريفي والحضري ، القاهرة ، دار المعارف .

٢ - الحسيني ، أ ، ١٩٨٥ ، المدينة : دراسة في علم الاجتماع الحضري ، القاهرة ، دار المعارف .

٣ - حمدان ، ج ، ١٩٧٩ ، جغرافية المدن ، القاهرة ، عالم الكتب .

٤ - حمدان ، ج ، ١٩٨٤ ، شخصية مصر : دراسـة في عبقـرية المكان ، القاهرة ، عالم الكتب ، الجزء الرابع .

٥ - مونتيجـوي ، آ ، ١٩٨٢ ، التصنيع في الـدول النـامية ، ترجمة السيد الحسيني ، القاهرة ، مطابع سجل العرب .

المصادر الأجنبية :

1. Alonso, W. 1969, "Urban and Regional Imbalances in Economic Development", Economic Development and Cultural Change, 17: 1–14.

2. Berry, B. (ed.) 1976, Urbanization and Counter-Urbanization, Sage Publications.

3. Borukhov, E. 1975, "On the Urban Agglomeration and Economic Efficency: Comment", Economic Development and Cultural Change, 24: 199–205.

4. Fair, T. & Davies, R. 1976, "Constrained Urbanization: White South Africa and Black Africa Compared", in Berry, B. (ed.) Urbanization and Counter-Urbanization, Sage P-ublications.

5. Ford Foundation. 1972, International Urbanization Survey: Findings and Recommendations, Ford Foundations.

6. Friedmann, J. & Weaver, C. 1979, Territory and Function: the Evolution of Regional Planning, Edward Arnold.

7. Frolic, B. 1976, "Noncomparative Communism: Chinese and Soviet Urbanization", in Field, M. (ed.) Social Consequences of Modernization in Communist Societies, John Hopkins.

8. Gilbert, A. & Gingler, J. 1981, Cities, Poverty and Development: Urbanization in the Third World, Oxford University Press.

9. Green, R. 1978, "Transferability, Exotism and Other Forms of Dogmatic Revisionism", World Development, 6: 709–714.

10. Griffin, K. 1978, "Review of Why Poor People Stay Poor", Journal of Development Studies, 15: 108 – 109.

11. Griffin, K. & Ghose, A. 1979, "Growth and Impoverishment in Rural Areas of Asia" World Develoment, 7: 361 – 384.

12. Gugler, J. 1902' "Over Urbanization Reconsidered" Economic Development and Cultural Change, 30: 212–223.

13. Hoch, I. 1972, "Income and City Size", Urban Studies, 9: 299–328.

14. Johnson, E. 1970, The Organization of Space in Developing Countries Harvard University Press.

15. Johnston, B. & Mellor, J. 1961, "The Role of Agriculture in Economic Development" American Economic Review, 51: 566–592.

16. Kuznets, S. 1966, Modern Economic Growth: Rate Structure and Spread, Yale University Press.

17. Lipton, M. 1977, Why Poor People Stay Poor: a Study of Urban Bias in World Development, Temple Smith/Harvard University Press.

18. McGee, T. 1971, The Urbanization Process in the Third World: Explorations in Search of a Theory, Bell.

19. Morawetz, D. "Walking on Two Legs: Reflections on a China Visit", World Development, 7: 877 – 892.

20. Moore, W. 1972, The Impact of Industry; Prentice-Hall.

21. Murphey, R. 1976, "Chinese Urbanization under Mao", in Berry, B. (ed.) Urbanization and Counter Revolution, Sage Foundations.

22. Richard, S. 1971, Mao's Revolution and the Chinese Political Culture, Berkeley, California University Press.

23. Shibli, K. 1974, "Metropolitan Planning in Karachi: a Case Study" in Jakobson, L.; and Prakash, V.; Metropolitan Growth: Public Policy for South and South-East Asia, Halsted Press.

24. UNCRD (United Nations Centre for Regional Development) 1976, Growth Pole Strategy and Regional Development in Asia, 1976.

25. UNESCO 1957, Urbanization in Asia and the Far East.

تبادل التمثيل الدبلوماسي البريطاني السعودي ١٩٢٩ - ١٩٣٠

الدكتور جمال محمود حجر
أستاذ مساعد بقسم التاريخ

لعل وصول الشيخ حافظ وهبة إلى لندن في ٧ نوفمبر ١٩٣٠ ، بصفته أول وزير مفوض سعودي يبعث به الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود إلى أي مكان في العالم ، إعلان بنهاية مرحلة طويلة من الإتصالات غير المنتظمة ، بدأت في عام ١٩٠٣ ، حين سعى الأمير عبدالعزيز إلى إيجاد قناة اتصال تمكنه من إدارة حوار مع بريطانيا ، أقوى الدول الكبرى نفوذاً في المنطقة في ذلك الوقت .

ومنذ البداية مرت محاولات إقامة تمثيل دبلوماسي بريطاني - سعودي بعدة مراحل نستطيع أن نضع لها التصور التالي :

المرحلة الأولى : وتبدأ بعام ١٩٠٣م ، حين بعث الأمير عبدالعزيز -من الرياض- عبدالرحمن بن سلمان ، أحد كبار أهل الإحساء لمقابلة المندوب البريطاني في البحرين ، للتشاور حول ما يمكن أن تقدمه بريطانيا للأمير السعودي من مساعدة ، إذا نهض ضد الدولة العثمانية . وتنتهي هذه المرحلة بعام ١٩١٣ ، حين أطل عبدالعزيز على ساحل الخليج العربي -دون مساعدة من أحد- وفرض نفسه على الحضور البريطاني في الخليج[1] .

في هذه المرحلة ، كانت ممتلكات الأمير عبدالعزيز تقع في دائرة اهتمام حكومة الهند البريطانية ، وبالتالي كانت اتصالاته ببريطانيا تتم من خلال الوكلاء السياسيين في الكويت أو البحرين أو حتى مسقط ، ولم تكن بريطانيا في هذه

المـرحلة تعتـزم تعيين وكيل مقيم لها في الـرياض ، لانتفاء الحاجة إلى ذلك . وبصفـة عامـة ، كانت الاتصـالات محدودة للغـاية ، لأسبـاب تتعلق بطبيعة الاستراتيجية البريطانية في هذه المرحلة .

المرحلة الثانية : تبدأ بعام ١٩١٤م ، حين نشبت الحرب العالمية الأولى ، وصـار من الضروري أن تقيم بريطانيا إتصالات مع مختلف الحكام العرب . وتنتهي في عام ١٩٢٥ ، مع نهاية الحكم الهـاشمي في الحجـاز ، الـذي كان لبريطانيا فيه تمثيل سياسي وقنصلي معتمد .

في هذه المـرحلة ، حدث مد واضـح في رقعـة البـلاد التي كان يحكمهـا عبدالعزيز بحيث صارت تلامس مناطق تقع تحت إشراف وزارة المستعمرات . وبـالتالي كان عليه أن يقيم إتصالاته بهذه الوزارة ، فيما يتعلق بشئون المناطق المجاورة ، إلى جانب اتصالاته السابقة مع حكومة الهند ، وكان ذلك كله يتم من خلال سفارات غير مقيمة[٢] .

المـرحلة الثـالثـة : تبـدأ بعـام ١٩٢٦م ، حين استقر الحكم في الحجاز لعبدالعزيز ، حيث كانت توجد سفارات مقيمة لبعض الدول الكبرى في جدة ، على مستوى الوكلاء السياسيين والقناصل . وتنتهي بعام ١٩٢٨ ، حين بدأت عملية تطوير قنوات الاتصال الدبلوماسي .

في هذه المرحلة ، أصبح واقع قنوات الاتصال أكثر تعقيداً ؛ ذلك أن الحجاز كان يقع في دائرة اهتمام وزارة الخارجية البريطانية ، وكانت هذه ممثلة في «القنصل والـوكيل السياسي» المقيم في جدة . ومـع أن هذه الصفـة الـدبلوماسية لممثل بريطانيا لم تكن مؤكـدة ، فإن صلاحياتـه بقيت محصورة في إقليم الحجاز بعد دخوله تحت حكم عبدالعزيز آل سعود . وقد أدى ذلك إلى ظهور هذه الطبيعة الشـاذة لتوزيع الاشراف السياسي على شبه الجزيرة العربية بين ثلاث جهات مختلفـة ، هي : وزارة الهند من خلال حكومة الهند ، ووزارة المستعمرات من

خلال الأدميرالية ، ووزارة الخارجية من خلال القاهرة ، مما أدى إلى حدوث كثير من المشاكل ، التي كان من الصعب إيجاد حل لها بدون تشاور كامل بين هذه الجهات الثلاث الرئيسة[٣] .

وقد توضح هذه الصورة أسباب عجز الإدارة البريطانية (المسئولة عن صناعة القرار) ، عن التصرف في الوقت المناسب باتخاذ القرار المناسب . فمثلاً إذا كان الملك عبدالعزيز في الرياض ، أو في المقاطعات الشرقية من بلاده ، وأراد الاتصال ببريطانيا ، يمكنه أن يفعل ذلك من خلال الوكلاء السياسيين الثلاثة في الخليج (الكويت ، البحرين ، مسقط) ، ومنهم إلى المقيم السياسي في بوشهر ، على الساحل الفارسي ، ومنه إلى حكومة الهند ، فوزارة الهند بلندن ، ويسلك الرد عليه الإتجاه المعاكس من نفس الطريق . وإذا تصادف أن كان الملك في المناطق الشمالية ، فعليه أن يقيم اتصالاته مع المعتمد السياسي في بغداد أو في القدس ، وهي الإدارة البريطانية لمناطق الانتداب التابعة لوزارة المستعمرات . أما إذا كان الملك في الحجاز فإن لديه وكيلاً سياسياً مقيماً في جدة ، يوصله بوزارة الخارجية البريطانية عن طريق القاهرة . وفي النهاية ، فإن كل ما يأتي من الملك عبدالعزيز يصب في لندن بعد مروره بقنوات مختلفة ، فإذا تشابكت الأحداث على أطراف بلاده ، وتعددت المشاكل حولها ، يتضح لنا كم كانت صناعة القرار النهائي صعبة ، إن لم تكن مستحيلة .

هذه الأوضاع هي التي دفعت الملك عبدالعزيز مراراً إلى طلب توحيد قنوات إتصاله ببريطانيا ، لتصبح قناة واحدة ، تتبع وزارةالخارجية دون غيرها . وفي عامي ١٩٢٧ و١٩٢٨ تكاتفت الجهود لتحريك قضية تطوير التمثيل الدبلوماسي مع بريطانيا . وقد نشط كل من فؤاد حمزة[٤] ، «المسئول الفعلي عن الشئون الخارجية للملك عبدالعزيز» في ذلك الوقت ، والوكيل السياسي البريطاني في جدة (ستون هيوار - بيرد)[٥] . فقد كان الرجلان متحمسين لتطوير العلاقات الدبلوماسية بين بلديهما ، كما كانا قادرين على التأثير المباشر في حكومتيهما ، على

تفـاوت محتـوى كلمة «حكومة» ، فضلاً عن كفاءتيهما في معالجة الموضوع ، مما مكنهما من الوصول إلى الغاية المطلوبة في عام ١٩٢٩[٦] .

ومن هنا تبدأ المرحلة الرابعة ، التي نحن بصدد دراستها في هذا البحث ، في عام ١٩٢٩ حين استقر الرأي بين الحكومتين البريطانية والسعودية على ضرورة تطوير التمثيل الدبلوماسي ، ورفعه إلى مستوى المفوضية ، وتبادله ؛ حيث أن الملك عبدالعزيز لم يكن له أي نوع من التمثيل الدبلوماسي أو القنصلي في بريطانيا قبل عام ١٩٣٠ .

خلال هذه المرحلة ، حرص بيرد على توكيد صفته الدبلوماسية ، فقد كان الممثلون البريطانيون قبله في وظيفة «قائم بأعمال الوكيل والقنصل» Acting Agent and Consul وهي درجـة تقل عن درجة الوكيل Agent والقنصل Consul معاً . ولذلك يعتبر بيرد أول ممثل بريطاني في جدة يحصل على لقب «الوكيل السياسي والقنصل» ، وقد غلبت على هذا اللقب الصفة السياسية[٧] .

وعلى مستوى آخر ، كان بيرد حريصاً على توسيع دائرة اختصاصه لتشمل كل البلاد الواقعة تحت حكم الملك عبدالعزيز ، ولا تقتصر على الحجاز وحده ، لا لتيسير إمكانيات صناعة القرار فحسب ، ولكن لإحداث تغيير جوهري في مركزه بجدة ، بأسلوب هادىء يدعم مركزه ، في مواجهة المسئولين البريطانيين ، التـابعين لوزارة المستعمرات ، في مناطق الانتداب البريطاني المجاورة . ولكن الظروف السياسية العامة ، فضلاً عن الاختلافات العقيمة بين وزارتي الخارجية والمستعمرات ، حول تحديد الصلاحيات الخاصة بكل منهما في المنطقة ، حالت دون تحقيق ذلك الطموح في حينه[٨] .

وقـد عوّقت ظروف بيرد الصحية السيئة قدرته على متابعة موضوع توسيع دائـرة الاختصـاصـات ، فتركه لخلفه جاكنز[٩] . وساعدت الظروف السياسية

العامة ، التي واجهت بريطانيا في المنطقة ، على سرعة إتمام الخطي ، التي كان بيرد قد بدأها من قبل ؛ فقد اشتعلت حركة تمرد الاخوان في شرقي وشمالي شبه الجزيرة العربية ، مما هدد الحضور البريطاني في مناطق الانتداب ، وأبرز أهمية الحاجة إلى سرعة الاتصال بالملك عبدالعزيز ، وإلى سرعة صناعة القرار المناسب .

وبناء على ما سبق ، كُلف القائم بأعمال القنصل البريطاني في طنجة (بوند)[١٠] بالسفر إلى جده في مايو ١٩٢٩ ، لشغل منصب «الوكيل السياسي والقنصل» البريطاني لدى الملك عبدالعزيز . وأوصى جورج رندل في ٧ مايو ١٩٢٩ ، بضرورة التأكيد على أن يمنح بوند الصفة السياسية ، حتى يتمكن من ممارسة صلاحياته في «مملكة الحجاز ونجد وتوابعها» ، وهو الإسم الذي كان الملك عبدالعزيز يؤثر استخدامه في المراسلات الرسمية . وبذلك أصبح في إمكان بوند أن يناقش -بطريقة رسمية ولأول مرة- قضايا تجري خارج منطقة الحجاز[١١] .

هكذا استقبل الملك عبدالعزيز ، في ١٦ يونية ١٩٢٩ ، أول ممثل دبلوماسي إلى بلاده تغطي صلاحياته كل أطراف مملكته الواسعة ، ويتبع لوزارة الخارجية البريطانية مباشرة ، وبذلك تخلص من إزدواجية قناة الاتصال ببريطانيا . وألقى بوند في حفل استقباله خطاباً ، يفيد بأن بريطانيا قررت إخراج علاقاتها الدبلوماسية مع الملك عبدالعزيز من مرحلة السكون إلى مرحلة الانطلاق[١٢] .

هذه الدراسة -إذن- غير معنية بالدبلوماسية بمعنى فن ممارسة العلاقة بين بلدين ، كما أنها غير معنية بتنظيم هيكل السلك الدبلوماسي وقواعده ، وإنما هي معنية بالتطور التاريخي لقيام التمثيل الدبلوماسي وتبادله بين بلدين متفاوتين في كل شيء ؛ في الحجم والقوة والفكر والثقافة . . . إلخ .

* * * * *

وقد شهد عام ١٩٢٩ تطوراً أكثر أهمية ، فرضته تغيرات سياسية في لندن وفي المنطقة ؛ ففي لندن أسفرت الانتخابات العامة عن وصول حكومة رمزي ماكدونالد James Ramsay Macdonald إلى الحكم ، التي شغل فيها آرثر هندرسون A. Henderson منصبي وزير الخارجية ووزير المستعمرات . وكان لذلك أثره الحميد في التقريب بين وجهتي نظر الوزارتين ، لصالح تدعيم العلاقات الدبلوماسية وقنواتها بين البلدين .

وفي المنطقة ، في نفس الوقت تقريباً ، كانت الأزمة حادة بين الملك عبدالعزيز والاخوان ، وقد دفعته هذه الأزمة إلى : توطيد علاقاته ببريطانيا ، وتطوير قنوات الاتصال بها إلى مستوى أرفع من مستوى «الوكالة السياسية»(١٣) ، وفوق ذلك ، إنشاء تمثيل دبلوماسي سعودي مقيم في لندن . وتعتبر رسالة فؤاد حمزة إلى بوند ، في ١٨ يونية ١٩٢٩ ، أول مناسبة يفصح فيها مسئول سعودي عن رغبة الملك عبدالعزيز في أن يرى وزيراً مفوضاً أو سفيراً لبلاده في عاصمة الامبراطورية البريطانية(١٤) .

لم ينتظر الملك عبدالعزيز رد بريطانيا على رغبته في تطوير التمثيل الدبلوماسي البريطاني إلى مستوى المفوضية وتبادله ، فبدأ يعد لترشيح شخص مناسب ، ووقع اختياره على الشيخ حافظ وهبه ، ليكون أول سفير له في لندن ، وكان حافظ وهبة نفسه متحمساً لشغل منصبه الجديد الذي رشح له . وحافظ وهبة مصري الأصل ، له ماض سياسي طيب ، وهو من أنشط مؤيدي حركة الجامعة الإسلامية ، وله مواقف جادة في مواجهة الاستعمار الغربي لبلاد العالم الإسلامي ، وضعته المخابرات البريطانية في قائمتها السوداء ، لأنها وجدت فيه داعية لتجميع المسلمين ضد بريطانيا . وكان الملك عبدالعزيز قد اختاره في بداية حياته السياسية مستشاراً له ، وأوفده في عدد من المهام الرسمية خارج نجد ، كما بعثه مندوباً عن الحجاز ونجد إلى أوروبا في بعض المؤتمرات الدولية(١٥) .

وفي حماس شديد ، سافر حافظ وهبه إلى لندن في يونية ١٩٢٩ ، وفاجأ المسئولين في وزارة الخارجية بوجوده ، فاستقبله أوليفانت ، مساعد وكيل وزارة الخارجية[١٦] ، بشيء من الاندهاش والحيرة ، عندما علم أنه قدم ليمثل بلاده في لندن ، وأنه سعيد لأن يكون أول «سفير لمملكة الحجاز - نجد في عاصمة الامبراطورية البريطانية» . وعقب اللقاء بينهما ، سجل أوليفانت في يوميات الوزارة اعتراضاً صريحاً على طموحات حافظ وهبه فكتب يقول «على كل حال ليس من الوارد أن يكون لبريطانيا سفير في جدة» . وتعني هذه العبارة أنه لن يكون للحجاز - نجد سفير في لندن . كانت تلك هي المرة الأولى التي تذكر فيها كلمة «سفير» في الرسائل المتبادلة بين الطرفين . إن الحماس لتبادل التمثيل الدبلوماسي لدى حكومة الحجاز - نجد ، في نظر أوليفانت ، كان أقوى من الحرص على اتباع التقاليد المعروفة في مثل هذه المواقف . ويفسر أوليفانت موقفه من هذه الفكرة بأن مملكة الحجاز- نجد «ليست متحضرة ، ولا هي واقفة على التقاليد الدبلوماسية ، ومهما يكن من أمر ، فلا يجب أن نكون قاسين على الشيخ (حافظ وهبة) ولكننا نريد أن نزيل الوهم الذي لديه»[١٧] .

لقد دفع حافظ وهبة الاتهام عن نفسه وعن حكومته ، وأكد أن حكومته كانت على اتصال بالوكيل السياسي البريطاني في جدة حول ذات الموضوع ، في ١٨ يونية ١٩٢٩ ، أي قبل تسعة أيام من لقاء وهبة بأوليفانت[١٨] . هكذا لم يكن وجود حافظ وهبة في لندن مفاجأة ، ولكن المفاجأة كانت في اقتراحه بأن يكون «سفيراً» لبلاده في لندن .

لم نعثر على ما يفيد بأن الشيخ حافظ وهبة كان يعني فعلاً كلمة «سفير» التي رددها أمام أوليفانت ، كما لم نعثر على ما يفيد تصحيحه لها ، إن كان يقصد غيرها ، ككلمة «وزير» مثلاً . ولكننا وجدنا هذا التصحيح في حوار مسجل بين فيلبي Philby وكل من دالتون Dalton (المسئول عن الشئون الشرقية في وزارة

الخـارجية) ، وهنـدرسـون Henderson (وزير الخـارجية) . وقـد بعث فيلبي بمضمون هذا الحوار إلى فؤاد حمزة في نوفمبر ، لأنه وجد من المناسب أن يصحح لكـل من دالتـون وهنـدرسـون ما وقع فيه الشيخ حافظ وهبه من «خطأ» غير مقصـود ، حينـما عرض المـوضـوع من قبـل ، واقترح تبادل «السفراء» وليس «الوزراء» . وقد تحمل فيلبي مسئولية التصحيح هذه دون أن يطلب منه(١٩) . وذلك لأنه كان سيستفيد من توطيد أواصر العلاقات البريطانية - السعودية في المجال الاقتصادي .

لم يكن أوليفانت رافضاً لفكرة رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي ، ولا لتبادل الممثلين ، ولكنه كان يبحث عن الأسلوب المناسب لتحقيق ذلك ، فوجد في سير جلبرت كلايتون G. Clayton مستشاراً يعتمد عليه في هذه المسألة ، لأنه كان -في نظر كثير من المسئـولـين- حجة في الشئون العربية . كان كلايتون يرى «إن علاقاتنا مع ابن سعود الآن ، تختلف كثيراً عن تلك التي كانت قائمة منذ سنوات قليلة مضت ، وليس من المعقـول أن نـناقش ما إذا كان لنا أن نساعد الملك عبدالعزيز ونقوي مركزه ، ولكن علينا أن نفعل ذلك كلما كان ممكناً»(٢٠) . كان كلايتون يدعو حكومته إلى تخطي كل التفاصيل وصولاً إلى إدراك أهمية دعم مركز الملك عبدالعزيز وضرورته .

أثرت كلمات كلايتون ، الذي كان عائداً لتوه من زيارة للملك عبدالعزيز ، في توجيه قرار الحكومة البريطانية ، ورأى أوليفانت أن تتصدى وزارة الخارجية بكـامل ثقلها لدعم العلاقات البريطانية - السعودية ، من خلال تطوير تمثيل دبلوماسي يتناسب وهذا الهدف . ووجد أن على وزارة الخارجية أن تقنع وزارتي المستعمرات والهند بأن «الوقت أصبح مناسباً لتحويل الوكالة البريطانية في جدة إلى بعثة دبلوماسية»(٢١) .

بنى أوليفانت قراره السابق على أسس سياسية ، فعبدالعزيز آل سعود كان

دائماً صديقاً لبريطانيا ، وظهوره كأقوى حاكم في شبه الجزيرة العربية يعد «عاملاً ذا أهمية قصوى في الشرق الإسلامي ، وعلاقاتنا معه سيكون لها أثر مباشر على مركزنا في الهند وغيرها من بلاد الشرق» . وأضاف أوليفانت أن شبه الجزيرة العربية تمثل موقعاً متميزاً على طريق الملاحة البحرية بين الشرق والغرب . كما أن جهود بريطانيا لإنشاء طريق جوي جديد على طول الساحل العربي للخليج ، إنما تعتمد في نجاحها على حسن علاقاتها بالملك عبدالعزيز ، الذي تجاور بلاده مناطق الانتداب البريطاني ، ومناطق النفوذ البريطاني في الخليج . وفوق ذلك كله هناك عدد كبير من المسلمين المتمتعين بالجنسية البريطانية يزورون مكة كل عام ، ولا يمكن المحافظة على سلامتهم إلا من خلال القنوات الدبلوماسية . «إن تحقيق السلام والأمن على حدوده يعتمد بالدرجة الأولى على علاقة الصداقة معه ومع حكومته . . . لقد دعم مركزه في معظم أركان شبه الجزيرة على مدى السنوات الثلاث الماضية ، ولم يعد هناك سبب وجيه واحد للتشكيك في قدراته أو في نظام حكمه» . وأضاف أن الموضوع الذي يجب أن يناقش فوراً هو : «تأسيس علاقات دبلوماسية عادية ، بأسرع ما يمكن لإنهاء حالة العلاقة غير الطبيعية القائمة»[٢٢] .

بناء على ما سبق ، طلبت وزارة الخارجية ، في يوليو ١٩٢٩ ، إلى كل من وزارة الهند ووزارة المستعمرات أن تبدي رأيها في الموضوع[٢٣] ، وذلك بعد أن أبلغت حافظ وهبة ، في أواخر يونية ، أن الموضوع قيد الدراسة[٢٤] . ولم تتردد وزارة الهند في مساندة وزارة الخارجية فيما ذهبت إليه ، وفي ١٩ يوليو نصحت بأن «الوكالة البريطانية في جدة يجب أن تتحول إلى بعثة دبلوماسية بطريقة طبيعية ومنظمة مع الملك عبدالعزيز»[٢٥] . أما وزارة المستعمرات فقد رفضت تلك الأفكار ، دون إبداء الأسباب .

رأت وزارة الخارجية أن رفض وزارة المستعمرات يعني أنها ترغب في مواصلة

التدخل في شئون شبه الجزيرة العربية ، وخصوصاً في مسائل الحج والحجاج ، وهو أمر سيؤلب المسلمين على الحكومة البريطانية ، فضلاً عن عدم ارتياح الملك عبدالعزيز للتعامل مع لندن إلا من خلال وزارة الخارجية . أما إذا كان رفض وزارة المستعمرات مردوداً إلى حالة عدم الاستقرار في نجد نتيجة لتمرد الاخوان ، الذين تحدوا الوجود البريطاني في مناطق الانتداب بالغارات المفاجئة على مراكز القوات البريطانية ، فقد رأت الخارجية أن التغلب على مثل هذه المشاكل لا يمكن أن يتم إلا من خلال قنوات الاتصال المناسبة ، التي تضمن التحكم في كل الخيوط الدبلوماسية ، حتى لا تصطدم اتجاهات الوزارات المختلفة ببعضها ، وحتى لا تبدو السياسة البريطانية متناقضة . على كل حال ، وافقت وزارة المستعمرات في أول أغسطس ١٩٢٩ على خطة وزارة الخارجية[٢٦] . وفي واقع الأمر ، لم تكن مناقشة هذه المسألة متروكة للجهات الرسمية وحدها ، وإنما ساهمت بعض الجهود غير الرسمية في تيسير الوصول إلى هذه النتيجة ، ومنها جهود فيلبي .

* * * * *

لقد سعى فيلبي في سبيل إقامة مفوضية بريطانية في جدة ، وأخرى سعودية في لندن ، بالرغم من أنه كان خارج إطار العمل الرسمي في الحكومة البريطانية ، منذ عام ١٩٢٤ ، ولكن حرصه على تطوير مشروعاته الخاصة ، وتأمين رأسماله في جو من الاستقرار ، وصداقته للملك عبدالعزيز ، كل هذا دفعه لأن يستخدم نفوذه القديم ، لدى بعض أصدقائه ، من بين الذين لا يزالون في الخدمة ، كي يدفعوا بعملية تطوير التمثيل الدبلوماسي دفعاً . وفي نفس الوقت كان فيلبي يقدر تماماً حالة القلق التي يعانيها الملك عبدالعزيز وحكومته ، ويقف على ذلك من الملك نفسه ومن مدير خارجيته (فؤاد حمزه) الذي يعد في نظره من «أكفأ الشباب العربي الناهض» خاصة وأن إهمال الحكومة البريطانية تلبية رغبة الملك -فيما سبق- أغضبه كثيراً[٢٧] .

نقل فيلبي هذه الأفكار في رسالة إلى دالتون ، في ٧ نوفمبر ١٩٢٩ ، وأضاف أن كلاً من الملك عبدالعزيز وفؤاد حمزة يلاحظ أن بريطانيا مشغولة بقضايا أخرى عن أن ترد على رسائلهما ، وأن بريطانيا تتعامل معهما ببرود شديد في تسوية عديد من المشكلات المعقدة ذات الأهمية الكبرى لها ، ويرجع ذلك إلى أنه ليس للملك عبدالعزيز تمثيل دبلوماسي في لندن على الإطلاق ، ومن الجهة الأخرى فإن التمثيل البريطاني في جدة «ضعيف للغاية ، لأنه لا يتخطى درجة القنصل ، وهذا يعوق عمليات التسوية في حالة وجود خلاف بين البلدين»[٢٨] . لقد أهمل فيلبي في هذه الرسالة وجود وكيل سياسي ، وذكر فقط كونه قنصلاً ، وربما قصد من وراء ذلك إظهار أن صفته القنصلية تطغى على صفته الدبلوماسية .

وفي الشهر نفسه ، أكد فيلبي لدالتون على ما ورد في رسالته السابقة له وأوصى «أن تحقق لندن -بدون تأخير- التطوير الضروري للتمثيل البريطاني لدى ابن سعود ، فليس هناك أدنى شك في صداقته ووده نحو بريطانيا ، ولا يجب أن يكون هناك شك في أهميته باعتباره أعظم حاكم عربي في أيامنا هذه . . . يجب أن تمثّل (بريطانيا) تمثيلاً مناسباً في بلاده ، ولا نعجب لامتعاضه من مجرد وجود وكيل أو قنصل لنا في بلاده . . . ومن ناحيتي ، فلن أضيع وقتاً حتى أقنع الحكومة البريطانية برفع وكالتها إلى مستوى المفوضية ، وأن ذلك يجب أن يتبعه تعيين وزير مفوض لها في جدة في أقرب فرصة»[٢٩] .

الواقع أن فيلبي كان قلقاً من احتمال تزايد نفوذ الاتحاد السوفييتي وتركيا وفرنسا لدى الملك عبدالعزيز ، فقد رفعت الدول الثلاث تمثيلها إلى مستوى المفوضية ، وقد ينتج عن ذلك إضرار بالمصالح البريطانية بعامة ، ومصالح فيلبي بصفة خاصة . ولهذا نراه حين يكتب لدالتون ، يؤكد له أن مسألة التمثيل الدبلوماسي والقضايا الأخرى المعلقة بين البلدين «يجب أن تعالج بالسرعة

المطلوبة ، وعلى أسس معقولة ، ومن المناسب لبريطانيا أن تطلب إلى ابن سعود أن يرسل وفداً إلى لندن لمناقشة هذه القضايا وتسويتها» . ويضيف فيلبي «إنني مقتنع أن مناقشة كل هذه المسائل في جو بريطانيا البارد معك (دالتون) ومع المستر هندرسون (وزير الخارجية) سيكون مناسباً جداً وبعيداً عن المتناقضات المحلية هنا»[٣٠] .

واضح من أوراق فيلبي الخاصة (المحفوظة في كلية سانت أنتوني بجامعة أكسفورد) أن مسألة التمثيل الدبلوماسي قد نالت اهتمامه ، وأنه وجد -أثناء زيارته للندن في خريف ١٩٢٩- كلاً من دالتون وهندرسون مستعدين لاتخاذ الموقف المناسب ، فور وصول طلب الملك عبدالعزيز من خلال القنوات الرسمية العادية . وكانت هذه فرصة طيبة لحافظ وهبة كي يتقدم بطلب فوري لرفع مستوى التمثيل الدبلوماسي وتبادله . ولكن وهبة كان مريضاً وملازماً المستشفى ، ولم يكن سكرتيره ذا كفاية تسمح له بعرض الموضوع . وحين خرج من المستشفى كان دالتون وهندرسون قد سافرا إلى هولندا وسويسرا في جولة أوروبية ، وحينما عادا كان وهبه قد غادر إنجلترا[٣١] .

من الواضح أن الأمور الإجرائية لم تكن تسير على ما يرام ، فلا وهبة كان منظّماً لبرنامج زيارته ، ولا وزارة الخارجية كانت متعجلة للأمر . وحين نقل فيلبي صورة ما جرى في لندن خلال صيف وخريف عام ١٩٢٩ إلى فؤاد حمزة ، طمأنه بقوله «إن دالتون أكد لي أنه ليس هناك مانع لدى الحكومة (البريطانية) من إنشاء مفوضية في جدة فور إعادة عرض الموضوع ، من جديد ، من خلال القنوات الرسمية» ، وأضاف فيلبي أنه جرى التفكير في إسناد مفوضية جدة -عند تأسيسها- إلى السفير البريطاني في القاهرة ، على أن يعين هذا نائباً عنه في جدة بدرجة وزير مفوض . ولكن مثل هذه المسألة قد تولد حساسية لدى حكومة الحجاز - نجد . وحين اعتزمت لندن أن تطلب إلى حافظ وهبة أن يستشير

حكومته ، كان قد غادر إنجلترا . وخلاصة القول أن فيلبي أراد أن يُطمئن فؤاد حمزة على أن قضية التمثيل الدبلوماسي لم تعد مسألة مبدأ ، وإنما صارت مسألة وقت(٣٢) .

تطورت الأمـور بسرعـة خلال الخريف نتيجة لجهود كل من حافظ وهبة وفيلبي ودالتـون . وطلب هنـدرسـون إلى الخزانة Treasury سرعة تدبير المبالغ اللازمة لإجراء التطوير المطلوب(٣٣) .

وصـار من الممكن ، في ٣ سبتمبر ، أن يتحاور ممثلو البلدين من خلال القنـوات الـرسمية للبـدء في الإجراءات التنفيذية لتعيين ممثل لكل منهما لدى الطرف الآخر(٣٤) .

واكتملت في ١٢ ديسمـبر جميع الخـطوات الـرسمية في لنـدن فيما عدا خطوتـين : الأولى : إخـطار الملك عبدالعزيز بما تم التوصل إليه . والثانية : الاتصال بأحد أعضاء البعثة الدبلوماسية في الشرق لشغل الوظيفة المقترحة .

* * * * *

أخـطرت الحكـومـة الـبريطانية الملك عبـدالعزيز في ١٧ ديسمبر ١٩٢٩ بمـوافقتهـا على رفـع مستوى التمثيل الدبلوماسي ، وتبادله معه . ولكن نظراً لأن مسـألـة اختيار موظف دبلوماسي بدرجة وزير مفوض يقبل وأسرته الإقامة الـدائمة في جدة ، قد يستغرق بعض الوقت ، فقد تقرر تكليف بوند ، الوكيل السياسي والقنصـــل في جدة ، بتحمـل المسئـولية ، إلى حين تعيين الشخص المناسب لهذا المنصب الجديد . وبعد ثلاثة أيام من ذلك تحمل بوند مسؤلياته كقائم بالأعمال Chargé d'Affairs(٣٥) .

إن التجارب التي خاضتها وزارة الخارجية فيما مضى ، جعلتها تعتقد في صعوبة الحصول على موظف تتوافر لديه «الخبرة الكافية والاستعداد» لقبول الإقامة في شبه الجزيرة العربية . فقد واجهت الخارجية ذلك في عام ١٩٢٥[٣٦] ثم في عام ١٩٢٨[٣٧] ، ولم تستطع حسم هذه المسألة إلا في عام ١٩٢٩ . ففي بداية أغسطس كانت كل الدلائل تشير إلى ضرورة أن يكون شاغل هذه الوظيفة الدبلوماسية أحد الموظفين العاملين بالفعل في الشرق ، لما لديهم من دراية بأمور المنطقة ، وتكييف مع ظروفها المناخية الحارة .

وقع الاختيار على سير أندرو ريان Sir Andrew Ryan ، القنصل العام بالمغرب ، ليكون «مندوباً فوق العادة ووزيراً مفوضاً في جدة Envoy Extraordinary and Minister Plenipotentiary اعتباراً من يوم ٢٢ ابريل ١٩٣٠ . ويشير ماضي ريان في مجال الخدمة الدبلوماسية والقنصلية إلى أنه من أكفأ العناصر التي يمكن أن تشغل مثل هذا المنصب ، فهو ينتمي إلى مدرسة الليفانت Levant Diplomatic Service وسبق له أن عمل نائباً للقنصل Vice Consul في استانبول سنة ١٩٠٣ ، ثم قنصلاً بها في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة . وإبان الحرب نقل إلى وزارة الخارجية للاستفادة من معلوماته عن الأتراك ، ولكنه عاد إلى استانبول بعد الحرب في عام ١٩١٨ . وفضلاً عن ذلك عمل في المغرب في المجال القنصلي عام ١٩١٢ ، وعين قنصلاً عاماً هناك في عام ١٩٢٤ ، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن نقل إلى جدة في وظيفته الدبلوماسية الجديدة[٣٨] .

أخطرت لندن حكومة الحجاز - نجد بترشيحها لريان في ١٨ يناير ١٩٣٠[٣٩] ، فرحبت به ترحيباً شديداً في رسالة بعث بها الأمير فيصل بن عبدالعزيز إلى بوند في ٢٧ يناير[٤٠] . وعبر فيلبي عن سعادته لأن جهوده في هذا المجال قد كُللت بالنجاح ، وكتب إلى صديقه دالتون في ١٧ يناير ١٩٣٠ ، أي قبل أن تخطر حكومة الحجاز - نجد بيوم واحد ، مقدماً كل خبراته وتصوراته لما

يجب أن تكون عليه المفوضية ، وما يجب على الوزير المفوض الجديد أن يفعله ، كي يكسب ثقة الملك عبدالعزيز ومساعديه . يقول فيلبي :

«إن قرار إنشاء مفوضية هنا في جدة خلق انطباعاً مريحاً ، إن نفوذ هذه المفوضية وأهميتها لا يمكن أن يقاس بالكلمات ، إنها واحدة من الأعمال البسيطة التي تحقق الكثير في إظهار حسن النوايا . إن اختيار ريان اختيار موفق لما لديه من تجربة طيبة في الشرق ، ولكن يؤخذ عليه أنه لا يعرف العربية ، وهذا أمر خطير ، ولكن لعل الميزات التي لديه تحقق التوازن المطلوب . إنني آمل أن تلح عليه (ريان) بأن المظهر العام للمفوضية في حاجة إلى تغيير جوهري بحيث يبني على أسس جديدة ، لأنه قائم الآن على كونه وكالة . إن عليه (ريان) أن يستثمر وقته في المهام الدبلوماسية الأساسية ، تاركاً المسائل الأقل أهمية لمساعده ، مع وضعه تحت الإشراف التام ، وعليه أيضاً أن يصرف بعض الوقت في عمل اتصالات طيبة مع الأعيان من أهل البلاد ، وفي تطوير العلاقات الودية والصداقات الشخصية ، صحيح أن العمل القنصلي يقتضي عدم التداخل إلا فيما يتصل بالعمل ، إلا أن مثل هذا الأسلوب لا يتفق والمألوف هنا ، لأن المهم أن تجعل نفسك محبوباً»[٤١] .

لقد قدم فيلبي إلى ريان -دون أن يطلب منه- كامل خبرته في التعامل مع الملك عبدالعزيز وحكومته . فما هي دوافعه إلى ذلك ؟

في رسالته السابقة إلى دالتون يقدم فيلبي جانباً من الرد على هذا السؤال ، فهو يطلب من دالتون أن يقوم بمهمة الوساطة في أن يرسم لدى ريان صورة طيبة عنه ويقول :

«إذا أمكن أن تنبهه (ريان) إلى أنني (فيلبي) لم أعد الشخص الناكر للجميل Persona ingrata وأنه (ريان) لن يخطيء إذا استشارني ، لأنني سأضع تحت

تصرفه كل ما لدي من معلومات ، ولن أدخر جهداً في مساعدته . إنني لا أسعى إلى الحصول على أية مكافأة أو وظيفة من وراء ذلك ، فقد وضعت كل أوراقي أمامك فيما يتعلق بإظهار حسن النوايا مع العرب ، وإذا كان لي من مهمة مقدسة في حياتي فهي أن أحقق إنسجاماً كاملاً بين بريطانيا وشبه الجزيرة العربية»[٤٢] .

ربما كان فيلبي يطمع في أن يعود إلى الخدمة في الحكومة البريطانية كما كان حتى عام ١٩٢٤ ، باعتباره من أكثر البريطانيين كفاية وعلماً بشئون شبه الجزيرة العربية ، ولعله أراد أن يقول أنه أكثر الناس كفاية لتحقيق الإنسجام المطلوب في العلاقات البريطانية - العربية وبالتالي فإنه يقلل من شأن ريان الذي سيكون من الضروري عليه أن يستشير فيلبي في كثير من الأمور الهامة بطريقة غير رسمية .

ولا يتردد فيلبي في أن ينتقد بوند (القائم بالأعمال) بسبب تجاهله للوزير السوفييتي (عميد الدبلوماسيين في جدة) وبسبب إقامته لناد أوروبي في مدينة إسلامية ، محرم فيها الشرب والموسيقى والرقص ولعب الورق ، فهو يضرب بكل ذلك عرض الحائط دون أن يستأذن لندن . وينهي فيلبي خطابه إلى دالتون بالتأكيد على أنه نصح بوند بما يكفي لإصلاح الأمر ، ولكنه لم يعمل بالنصح[٤٣] .

لقد انقطع فيلبي عن الكتابة إلى دالتون في الفترة من منتصف يناير إلى منتصف أبريل ١٩٣٠ ، وهي الفترة التي أعقبت تعيين ريان مباشرة ، ولكنه حين يعود إلى الكتابة يوجه نقداً مغلفاً لكل من بوند وريان ، ويركز على جوانب القصور فيهما . ويبدو فيلبي قلقاً للغاية ، إلى حد أنه كتب إلى دالتون رسالتين مستقلتين في يوم واحد . وفي إحداهما يقول «ليس لدي ما أكتبه خلال الشهرين الماضيين» . لقد استشعر فيلبي الضرر والإهمال من لندن ، ويتضح ذلك من هذه الرسالة التي يخاطب فيها دالتون بقوله :

«إن زوجتي كانت رشحتني -أثناء لقائها بك في مصر- لشغل إحدى الوظائف التابعة لإدارتك ، ولكنني لم أطلب منها ذلك ، ففكرة أن أكون وزيراً بريطانياً في جدة ليست مغرية لي على الإطلاق ، ولست مستعداً لقبولها إلا في حالتين : الأولى أن ترجوني لندن أن أقبلها على أنها مهمة خاصة ، والثانية أن تسوى مسألة سكة حديد الحجاز بالأسلوب الذي اقترحته . أعتقد أنني أخدم المصالح البريطانية لـو بقيـت حـراً ، لأنني سأتمكن من تقديم النصح كما كنت أفعل مع كلايتون . أنا الآن أقدم معلوماتي إليك مجاناً ، ولي مطلب واحد هو أن يعاملني المسئولون البريطانيون هنا على أني حليف . أنا لم أتوقع ذلك في ظل حكومة المحافظين السابقة . إن العرب ينظرون إليّ الآن على أنني ممثل الحكومة البريطانية أكثر من القائم بالأعمال. . . آمل أن يكون ريان شخصاً مختلفاً عن سابقيه في التعامل معي ، كما أن الصراحة معي ستكون مفيدة نظراً لعلاقاتي الطيبة بالملك وبوزارة الخارجية»(٤٤) .

هل كان فيلبي يسعى لكسر حاجز العزلة الذي فرضه عليه المسئولون البريطانيون السابقون ؟ أم أنه كان يريد أن يدفع عن نفسه سوء الظن ، بعدما فشل في أن يشغل وظيفة القائم بالأعمال ، أو الوزير البريطاني في جده ؟ أم أنه أراد أن يهيء ريان إلى حسن معاملته ؟ أياً كانت الإجابة على هذه الأسئلة ، فإن فيلبي لا يعنينا هنا إلا بقدر ما يمكن أن يُيسر أو يُعقد أعمال الوزير الجديد في جده . وعلى كل حال ، فقد انتهى دوره كوسيط في مسألة تطوير التمثيل الدبلوماسي وتبادله .

ومهما يكن من أمر ، فقد وصل ريان إلى جده في ٦ مايو ١٩٣٠ . وتعكس الطريقة التي استقبل بها من المسئولين ، مشاعر الارتياح الشديد ، لوصول وزير بريطاني إلى الحجاز . وقد يكون من المناسب أن نترك كلمات ريان تصف لنا استقبال المسئولين له في جدة :

«خرج المسئولون يعبرون عن اهتمامهم وترحيبهم بوصولي . وأرسل حاكم جدة قائد الحرس لاستقبالي على ظهر السفينة Dahlia ثم نزل هو نفسه لاستقبالي على الرصيف . ومع عبارات الترحيب الخاصة بي سلمني رسالة ترحيب من الملك عبدالعزيز ، تضمنت اعتذاره عن عدم مقابلتي لسفره الضروري (للحج) وأنه سيلقاني بعد أداء الحج ، وبعد أن أديت التحية للجميع بأسلوب مناسب ، توجهت إلى المفوضية في سيارة بعث بها حاكم جده . . . إنني لسعيد أن كل شيء يتعلق بوصولي قد سار في طريق تكوين انطباع جيد»(٤٥) .

ورحب الملك عبدالعزيز بريان يوم وصوله تليفونياً ، وهنأه بسلامة الوصول . وفي اليوم التالي بعث ريان برسالة شكر للملك ، حملها إليه حاكم جدة ، عندما كان في طريقه لأداء الحج . وانتهز ريان فرصة لقائه بحاكم جدة ، وتحدثا معاً عن الحج والتسهيلات التي يلقاها الحجاج ، ومدى حرص الملك عبدالعزيز على تقديم مزيد من التسهيلات ، حرصاً منه على توطيد علاقاته ببريطانيا ، التي ترعى أعداداً كبيرة من المسلمين . وفي هذا اللقاء عبر ريان عن مدى استعداده للعمل في انسجام مع الملك عبدالعزيز وحكومته(٤٦) .

وفي ١٧ مايو ، وبعد انتهاء موسم الحج ، استقبل الملك عبدالعزيز سير اندرو ريان ، واحتفل به -كما هو مألوف- في القصر الأخضر بجدة(٤٧) ، حيث قدم ريان أوراق اعتماده . وقد وصف ريان اللقاء في رسالة إلى هندرسون كما يلي :

«وصلت بصحبة قائد حرس جدة ومعي زملائي في سيارتين متواضعتين ، وأديت لي التحية العسكرية في القصر بدون نشيد قومي ، وربما كان ذلك لأن الوهابيين يكرهون الموسيقى . . . واستقبلني الشيخ فؤاد حمزة والشيخ حافظ وهبة ، الوزير المفوض (المرشح) للندن فضلاً عن مسئولين آخرين . وبعد فترة قصيرة توجهت ومعي مستر بوند ، القائم بأعمال المفوضية ، والمترجم إلى حجرة

الاستقبال ، حيث كان الملك في موضع متميز ينتظرنا وحوله ضباطه . وبعد أن سلم عليّ باليد ، ألقيت خطبتي التي كنت أعددتها ثم سلمتها وأوراق اعتمادي إلى جلالته . وعندما قرأ مترجم المفوضية الصيغة العربية ، أجاب الملك بكلمة قرأها سكرتيره الشيخ يوسف ياسين ، ثم قرأها في إنجليزية ممتازة الشيخ فؤاد حمزة . عندئذ قدمت أعضاء المفوضية ، وهم مستر بوند ومستر ويكلي wikeley ومنشي إحسان الله Munshi Ihsanullah نائب القنصل الهندي - البريطاني ، والمترجم»[٤٨] .

ويعد هذا اللقاء الرسمي جلس الملك وضيفه ، يتجاذبان أطراف الحديث ، وهما يحتسيان القهوة والليمون» . وبعد تبادل هذه الأحاديث طلبت (ريان) من الوفد الانصراف ثم خطوت خطوات إلى الخلف ، منحنياً تجاه الملك ، طبقاً للأسلوب الأوروبي في الإتيكيت»[٤٩] .

كان ريان حريصاً على أن يصف كل شيء في اللقاء الأول بينه وبين الملك عبدالعزيز ، وقال في تفسير ذلك ، هذه هي أول مرة تطأ فيها قدما وزير بريطاني أرض الحجاز ، وهو حريص على أن يسجل كل تفاصيل هذا الموقف الجديد ، ولذلك نراه يهتم بكل شيء فيصف الملك ، ملبسه ومظهره والمكان الذي ينزل به . يقول ريان :

«كان الملك عبدالعزيز متسامحاً كما كنت أتوقع ، وكانت طريقة استقباله ودية . . . وكان مظهره محترماً في عباءته الفضفاضة والمصنوعة من خامة جيدة ، وهي الزي العربي المألوف . . . أما غرفة الاستقبال فهي معقولة المساحة ومفروشة بالسجاد ، ولكن يعيبها أنها مفروشة بأثاث فرنسي»[٥٠] .

خرج ريان من القصر الأخضر مودعاً بنفس طريقة استقباله . وفي مساء ذات اليوم دعاه فؤاد حمزة إلى العشاء في وزارةالخارجية ، وحضر العشاء أربعة

عشر شخصاً من الأعيان ، من بينهم مستر فيلبي ، وحافظ وهبة ، الذي كان يستعد للسفر إلى لندن ، ليكون أول وزير مفوض لبلاده في بلاط ملك بريطانيا العظمى[٥١] .

* * * * *

سار تأسيس أول مفوضية سعودية في لندن على قدم وساق مع تأسيس نظيرتها البريطانية في جدة ، مع فارق واحد هو : أن المفوضية السعودية كانت تأسيساً لتمثيل دبلوماسي لم يكن موجوداً في أية صورة من قبل ، أما المفوضية البريطانية في جدة فكانت تطويراً لتمثيل دبلوماسي قنصلي قائم بالفعل .

كان الملك عبدالعزيز قد رشح حافظ وهبة ليكون أول وزير مفوض له في لندن ، وجاء هذا الترشيح مفاجأة للبريطانيين من حيث شخص المرشح ومن حيث التوقيت . أما التوقيت فكان سابقاً لأوانه - كما عرفنا من قبل . وأما حافظ وهبة ، فإن مواقفه السياسية السابقة تجاه الاستعمار بصفة عامة ، والاستعمار البريطاني على وجه الخصوص ، ومناصرته لحركة الجامعة الإسلامية ، ونشاطه القيادي فيها ، كل ذلك كان يشكل رصيداً ضاراً به لدى الحكومة البريطانية ، التي رأته شخصاً غير مرغوب فيه كممثل دبلوماسي لبلاده في لندن . ولكن زيارته للندن في مايو ١٩٢٩ ، لحضور مؤتمر البريد الدولي[٥٢] . ثم مشاركته في نشاط جمعية آسيا الوسطى Central Asian Society في لندن بمحاضرة عن الوهابية في جزيرة العرب ، حيث رأس لورد اللينبي Lord Allenby الجلسة في حضور جمع غفير من المهتمين بتاريخ شبه الجزيرة العربية والإسلام ، وعدد كبير من مسلمي الهند . وكان من بين الحضور سير بيرسي كوكس Sir Persy Cox السياسي البريطاني الشهير في العراق والخليج ، وجورج رندل مسئول شئون الشرق الأوسط في وزارة الخارجية .

ومع أن المحاضرة كانت ذات طابع فكري وعقائدي ، إلا أن الجزء الأخير منها كان ذا طابع سياسي ، وقد سجل رندل في مذكرة أعدها في اليوم التالي للمحاضرة قوله :

«أن الشيخ حافظ وهبة انتهز الفرصة وأعلن -باعتباره الممثل الرسمي لابن سعود- تصريحاً رسمياً يتعلق بموضوع الخلافة ، فالخليفة كان زعيم العالم الإسلامي حينما كان يشمل الوحدة القومية. . . أما الآن ، فإن معظم المسلمين يقعون تحت احتلال قوى أجنبية ، وأن الخليفة في هذه الحالة لن يكون شيئاً أكثر من شبح ، وأن ابن سعود ليست لديه النية أو الرغبة في أن يشغل منصباً يكون فيه شبحاً»[٥٣] .

إن حرص حافظ وهبة على تأكيد عدم سعي الملك عبدالعزيز للخلافة الإسلامية ، لأنها صارت بلا مضمون ، يعني أن الملك عبدالعزيز لم يكن على استعداد لأن يتزعم الرأي العام الإسلامي المعارض لبريطانيا ، وهذه بالطبع نقطة إيجابية من وجهة النظر البريطانية يمكن أن تدفع بريطانيا إلى توثيق علاقاتها به . ولكن المهم هو أن التصريح في هذه المناسبة يصدر على لسان حافظ وهبة الداعية السابق لحركة الجامعة الإسلامية المناهضة لبريطانيا . إن حافظ وهبة على هذا النحو لم يعد عدو بريطانيا التقليدي ، وبالتالي فليس هناك مانع من التعامل معه ، عند تمثيله للحكومة السعودية .

تأكدت النتيجة السابقة في ٣ سبتمبر ١٩٣٩ ، عندما نشرت صحيفة الديلي تليجراف -نقلاً عن وكالة رويتر- أن الشيخ حافظ وهبه صرح بأن موقف الملك عبدالعزيز تجاه المسألة الفلسطينية يتلخص في :

«أن فلسطين هي الأرض المقدسة للديانات الثلاث : المسيحية واليهودية والإسلام ، وإنها لرغبة قوية لدى ابن سعود أن تعيش هذه العقائد الثلاث معاً

في صداقة وود في الأرض المقدسة. . . إن الملك عبدالعزيز - فيما يتعلق بجيرانه. . . صديق بالضرورة لبريطانيا العظمى ، وإنه لن يحاول أن يخلق لها مصاعب جديدة فوق تلك التي تواجهها الآن في فلسطين أو في مكان آخر. . . إن الملك صديق لبريطانيا. . . وهو يثق في صداقتها وفي عدالتها ، وهو على يقين أنها كدولة منتدبة ستحقق فيما يجري في فلسيطن ، وستقيم العدالة بين (أصحاب) الديانتين ، وإنه لمن السخف -على أية حال- الاعتقاد بأن الملك سيفعل كل ما تريده إنجلترا»(٥٤) .

كانت تصريحات وهبة في معظمها تروق للإنجليز ، وخصوصاً أنها صدرت عن رجل عُرف بتعصبه ضد سياسة بريطانيا الشرقية ، فهو عضو مؤسس في جمعية «خدام الكعبة» في دلهي ، وهو صاحب مؤلف عن الجامعة الإسلامية ، صادرته الحكومة المصرية في العشرينيات من القرن العشرين ، وقد وضعته المخابرات البريطانية في قائمتها السوداء ، واعتبرت جمعية خدام الكعبة جمعية «خطيرة»(٥٥) .

ومن وجهة النظر البريطانية ، فإن هذا الماضى الحافل للشيخ حافظ وهبة ، حال -في بداية الأمر- دون قبوله وزيراً مفوضاً للملك عبدالعزيز في لندن . إلى أن أظهر مواقف جديدة في مؤتمر البريد الدولي ، وفي جمعية آسيا الوسطى ، وما تبع ذلك من تصريحات ، فتحولت وزارة الخارجية عن موقف الرفض السابق ، ورحبت به ليكون أول وزير سعودي مفوض في لندن . وفي نفس الوقت أخطرت بوند (القائم بالأعمال في جدة) بهذه الخطوة ، ولكن الإجراءات التنفيذية تأجلت حتى مطلع العام التالي ، وفي ٤ فبراير ١٩٣٠ ، تم ترتيب كل شيء كما أراد الملك عبدالعزيز(٥٦) ، الذي أظهر سعادة بالغة لدى علمه بقبول الحكومة البريطانية لشخص حافظ وهبة وزيراً مفوضاً له في لندن(٥٧) .

غادر وهبة الحجاز إلى لندن في أول يوليو ١٩٣٠ ، بعد أن شارك في استقبال

الوزير البريطاني إلى جدة (أندرو ريان) ، الذي كان قد تلقى تعليمات من لندن بمـراقبـة وهبـة جيداً ، وإبراق كل ما يراه من ملحوظات ، قد تفيد الحكومة البريطانية ، عندما تبدأ في التعامل معه لدى وصوله ، وقد طلب نفس الشيء من المندوب السامي بمصر ، عند مرور وهبة بها[٥٨] .

أفصح وهبة لريان على مائدة الغذاء قبل سفره «أنه سيكون سعيداً بتوطيد العلاقات السعودية - البريطانية» . وعلم ريان أن «وهبة غير مستريح للعناصر السـورية» المحيطة بالملك عبـدالعزيز ، وخصوصاً فؤاد حمزة ويوسف ياسين . ولكن الملك لم يكن على استعداد للتخلي عن أي من العناصر السورية في ذلك الوقت ، «ربما لأن طموحاته الكبرى تهدف إلى تأمين عرش تلك البلاد (سوريا) لأحد أبنائه» . وعلم ريان أيضاً أن الملك يحترم آراء حافظ وهبة ، بينما يرى وهبة أن الملك ليس سهلاً[٥٩] .

واصـل وهبـة رحلتـه من مصر إلى لندن في ٤ أغسطس ، فوصلها في ٧ نوفمبر ، واستقبله الملك جورج بعد ثلاثة أيام[٦٠] ليبدأ عمله كأول وزير مفوض للملك عبدالعزيز في بريطانيا ، وليكون أول وزير مفوض على الإطلاق يبعثه الملك عبدالعزيز إلى أي مكان في العالم .

وبتعيين حافظ وهبة في وظيفته الدبلوماسية بلندن ، صار في إمكان الملك عبدالعزيز أن يخاطب وزارة الخارجية البريطانية مباشرة ، سواء من خلال وزيره المفـوض هنـاك ، أو من خلال الوزير المفوض البريطاني في جدة . ولكن هل حدث ذلك فعلاً ؟ وهل قامت أي من المفوضتين بالدور المرجو منها في توطيد العلاقات بين الطرفين ؟ لقد حاول الطرفان ، ولكن المعوقات كانت أكبر من أن تزاح عن الطريق في يسر .

لم يمض شهر على ريان في جدة حتى أدرك «حجم الصعوبات التي يجري

من خلالها العمل الدبلوماسي. . . إن هذه الصعوبات يشعر معها الشخص المسئول بمرارة ، حين يحاول أن يؤسس تمثيلاً بريطانياً قوياً في الحجاز. . . وهي تنجم عن وجود المفوضيةالبريطانية في جدة. . . فليس من اليسير الوصول إلى الملك. . . وهو في الواقع المسئول عن الشئون الخارجية ، كما أن وزارةالخارجية مقرها مكة ، والقائم بالأعمال يستطيع أن يناقش المسائل المشتركة فقط ، ولكنه لا يستطيع أن يصنع قراراً. . . وهو موزع الجهد بين الطائف ، حيث يجب أن يمثُل أمام الملك ، وبين وزارة الخارجية في مكة (وبين المفوضية في جدة)»[٦١] .

وتعتبر هذه المشكلات قضية أخرى ، لا تعنيا هنا الآن ، حيث أفردنا لها بحثاً آخر . ولكن المتتبع لتطور العلاقات بين الطرفين ، يلاحظ أن الفترة التي أعقبت تبادل التمثيل الدبلوماسي ، كانت من أسوأ الفترات في العلاقات البريطانية - السعودية ، ولعل هذه الفترة كانت مسئولة عن تغلغل النفوذ الأمريكي إلى المملكة العربية السعودية فيما بعد .

* * * * *

كانت إقامة المفوضية السعودية في لندن[٦٢] ثمرة جهود متواصلة ، بدأت مع بداية العلاقات البريطانية - السعودية . ولكن إقامتها تأخرت بسبب معوقات رأت بريطانيا أنها تحول بينها وبين تدعيم علاقاتها بعبدالعزيز آل سعود . ومن ناحية أخرى لم يكن لدى بريطانيا دوافع قوية لإزاحة تلك المعوقات . وكانت في حاجة دائمة لمن يذكرها بأهمية تأسيس علاقات دبلوماسية مع الملك عبدالعزيز ، وفي كثير من الأحيان كان هو نفسه قادراً على تذكيرها ، بالإلحاح أحياناً ، ويفرض سياسة الأمر الواقع عليها أحياناً أخرى .

أما المفوضية البريطانية في جدة ، فقد فرضت إقامتها روح التنافس بين بريطانيا وعدد من الدول الكبرى مثل الاتحاد السوفييتي وفرنسا ، هذا فضلاً عن

حرص الملك عبدالعزيز الشديد على أن يكون لبريطانيا تمثيل قوي في بلاده ، فقد استفاد كثيراً من التناقضات بينها وبين منافساتها في شبه الجزيرة العربية ، وساعده على ذلك مهاراته الخاصة في استثمار الظروف المحيطة به جيداً .

ولم يكن سير أنـدرو ريان شخصـاً سهلاً ، بل كان متعجرفاً في كثير من الأحيان ، اصطدم بالملك عبدالعزيز في أكثر من مناسبة ، وأساء إلى العلاقات الـبريطانية - السعـودية أكثر مما أفادها ، ويلاحظ المتتبع لتطور العلاقات بين البلدين ، أن إقـامـة التمثيل الـدبلومـاسي لم يخدم هذه العلاقات ، وإن أفاد أسلوب الاتصال ويسره .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان لإقامة تمثيل دبلوماسي بين البلدين ، في عام ١٩٣٠ دلالات الهيبة والاحترام في الأوساط الدولية .

الحواشي

(١) أنظر : جمال محمود حجر ، «المد والجزر في السياسة البريطانية تجاه شبه الجزيرة العربية ، ١ - ملامح التغير في العلاقات البريطانية - السعودية ، ١٩١٠ - ١٩١٥» ، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر ، العدد ١ (١٩٨٩) .

(٢) أنظر : جمال محمود حجر ، «المد والجزر في السياسة البريطانية تجاه شبه الجزيرة العربية ، ٢ - بريطانيا بين الشريف حسين وعبدالعزيز آل سعود ، ١٩١٥ - ١٩٢٠» (مقبول للنشر) في : مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر .

(٣) أنظر : جمال محمود حجر ، «مشروع جوبر لإعادة تنظيم الإدارة البريطانية في الشرق الأوسط عام ١٩٢٠» ، في كتاب المؤلف : القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين ، (الأسكندرية : دارالمعرفة الجامعية ، ١٩٨٩) ، ص ١٥٩ - ١٨٩ .

(٤) فؤاد حمزة من أصل سوري تعلم في كلية البعثة التبشيرية في بيروت ولديه معرفة جيدة باللغة الإنجليزية فضلاً عن العربية ، اتهم بالتآمر على الإدارة البريطانية في فلسطين عام ١٩٢١ ، وهرب منها إلى مصر . وفي عام ١٩٢٦ دعاه الملك عبدالعزيز - بناء على توجيه من الشيخ يوسف ياسين القائم بإدارة الشئون الخارجية وقتئذ - للعمل في خدمة حكومة الحجاز - نجد . ساهم منذئذ في كل المفاوضات التي جرت بين بريطانيا والملك عبدالعزيز . وفي عام ١٩٢٩ تحمل مسئولية إدارة الشئون الخارجية ، ولم تحل الشكوك السياسية التي دارت حوله في الماضي من جهة بريطانيا دون التعاون معه .

ويعتبر من أنجح العناصر التي أدارت الشئون الخارجية للملك عبدالعزيز آل سعود ، أنظر :

Ryan to Warner, 15 July, 1930; High Comm. (Palestine) to C. O., 4 Sept. 1930, E5169/4191/91, F.O. 371/ 14482.

(٥) يعتبر بيرد Stonehewer - Bird من العارفين بشئون منطقة البحر المتوسط ، فهو ينتمي إلى مدرسة الليفانت الدبلوماسية ، وخدم في بوخارست وبلجراد في الفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٢٣ ، ثم نقل إلى الرباط قائماً بأعمال القنصل هناك ، وفي عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ شغل منصب القنصل العام ، وظل كذلك إلى أن نقل إلى جده في أبريل ١٩٢٧ ، حيث عمل وكيلاً سياسياً وقنصلاً حتى عام ١٩٣٠ ، حين نقل إلى الدار البيضاء . أنظر :

<u>The Foreign Office List.</u>

6. Jeddah Report, Dec. 1928, E489/94/91;
Jeddah Report, Jan. 1929, E1028/94/91, F.O. 371/13728

7. <u>The Foreign Office List.</u>

8. Minute by Rendel, 14 May 1928, E2271/317/91, F.O. 371/13008.

(٩) شغل جاكينز H. G. Jakins منصب قائم بأعمال الوكيل والقنصل في جدة في فترات ثلاث متقطعة من سبتمبر إلى نوفمبر ١٩٢٧ ، ومن أكتوبر إلى ديسمبر ١٩٢٨ ، ومن مارس إلى مايو ١٩٢٩ .

(١٠) ينتمي بوند W. L. Bond إلى مدرسة الليفانت الدبلوماسية ، عمل نائباً للقنصل البريطاني في كريت ١٩١٨ - ١٩١٩ ، ثم نائباً للقنصل في استانبول في العام التالي ، ثم نائباً للقنصل كذلك في المغرب ١٩٢١ -

١٩٢٣ ، ثم في طنجة ١٩٢٣ - ١٩٢٥ ، ثم رقي إلى درجة القنصل ، فالقنصل العام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ . وحين نقل إلى جده في ١٣ يونية ١٩٢٩ ، عين قائماً بأعمال الوكيل السياسي والقنصل . ولكنه صار في ديسمبر ١٩٢٩ أول قائم بالأعمال لبريطانيا إلى أن تم تعيين الوزير البريطاني في جدة . أنظر : The Foreign Office List.

11. Memo. by G. Rendel, 7 May 1929, "Appointment of Mr. Bond and Credentials for H.M. Agent at Jeddah", E2404/821/91, F.O. 371/13734.

12. "Address delivered to Ibn Saud by Mr. Bond on 16 June 1929", Bond to Hederson, A., 19 June 1929, E3456/821/91, F.O. 371/13734.

13. Memo. by Rendel, 12 Dec. 1929, "Proposed raising of Status of H. M. Agency at Jeddah to that of a Legation", E6497/821/91, F.O. 371/13734.

14. Bond to F.O., 19 June 1929; Fuad Hamza to Bond, 18 June 1929, E3459/821/91, F.O. 371/13734; Hafiz Wahba to F.O., 24 June 1929, E3252/821/91. F.O. 371/13734.

15. Exract from Eastern Mediterranean Special Intelligence Bureau, Black List relating to Sheikh Hafiz Wahba, War Office to Foreign Office, 6 Oct. 1930, E5402/151/91, F.O. 371/14464; F.O. Memo. by C.F. Warner, 28 Aug. 1930, E4713/433/91, F.O. 371/14468.

(١٦) عمل أوليفانت L. Oliphant كاتباً في وزارة الخارجية اعتباراً من عام ١٩٠٣ ، ثم رقي إلى وظيفة القائم بأعمال السكرتير الثالث في السلك الدبلوماسي عام ١٩٠٥ . ثم عمل في استانبول وطهران في الفترة من ١٩٠٦ - ١٩١١ ، وفي عام ١٩٢٠ عمل مستشاراً بوزارة الخارجية . وفي عام ١٩٢٨ عمل مساعداً لوكيل وزارة الخارجية ، وقد ساهم في صنع أحداث هذا البحث عندما كان يشغل الوظيفة الأخيرة ، أنظر :

The Foreign Office List.

17. Minute by Oliphant, 27 June 1929, E3252/821/91, F.O. 371/13734.

18. E3459/821/91, F.O. 371/13734.

19. Philby to Hamza, 12 Nov. 1929 (Philby Papers, Box 16, File 4).

20. Minute by Opliphant, 27 June 1929, op. cit.

21. Ibid.

22. Ibid.;

وأنظر تطور هذه الأفكار في المذكرة التالية التي أعدتها وزارة الخارجية البريطانية :

- Memo. by F.O. "Propsed establishment of full diplomatic relations between Ibn Saud and Great Britain", 13 Nov. 1929, E5909/821/91, F.O. 371/13734.

من المفهوم أن كلًا من هندرسون وأوليفانت وراندل قد شارك في إعداد هذه المذكرة .

- Documents on British Foreign Policy, (D.B.F.P.) No. 485. pp. 817-818, Vol. VI.

23. F.O. to C.O., 9 July 1929, E3252/821/91, F.O.371/13734.

24. Minute by Oliphant, 27 June 1929, op. cit.

25. I.O. to F.O., 19 July 1929, E3643/821/91, F.O. 371/13734.

26. Minute by F.O., 1 Aug. 1929, E3857/821/91, F.O. 371/13734.

(٢٧) من بين القضـايا التي أهملت الحكومة البريطانية أن ترد فيها على الملك عبدالعزيز ، ذكر فؤاد حمزة هذه المواقف :

(أ) في يونية ١٩٢٩ طلب حمزة رسمياً ونيابـة عن الملك رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي في جدة إلى مستوى المفوضية ولم يتلق رداً حتى نوفمبر ١٩٢٩ .

(ب) في مايو ١٩٢٩ عقد مؤتمر مشترك لمناقشة قضايا الخليج ولم تفعل بريطانيا شيئاً .

(جـ) في يناير ١٩٢٩ لم ترد إنجلترا على طلب الملك عبدالعزيز بشأن عقد معاهدة تجارية بين بريطانيا والحجاز – نجد .

28. Philby to Dalton, 7 Nov. 1929 (Philby Papers, Box 16, File 1).

29. Ibid.

30. Ibid.

31. Philby to Hamza, 12 Nov. 1929 (Philby Papers, Box 16, File 4).

32. Ibid.

33. Memo. by Rendel, 12 Dec. 1929, E6497/821/91, F.O. 371/13734.

34. F.O. Memo. 16 Sept. 1929, E4451/2137/91, F.O. 371/13736.

35. Note by Rendel, 13 Dec. 1929; F.O. to Bond, 17 Dec. 1929, E6349/821/91; Henderson to Bond, 20 Dec. 1929, E6626/821/91, F.O. 371/13734.

36. K16647/2735/216/1925, F.O. 371/13008.

37. Minute by Rendel, 14 May 1928, E2271/317/91, F.O. 371/13008.

38. The Foreign Office List.

39. Bond to Hamza, 18 Jan. 1930, E874/334/91; F.O. Minute, 3 Feb. 1930, E595/334/91, F.O. 371/4468.

40. Faisal to Bond, 27 Jan. 1930, E874/334/91; F.O. 371/4468.

41. Philby to Dalton, 17 Jan. 1930 (Philby Papers, Box 16, File 1)

42. Ibid.

43. Philby to Dalton, 14 April 1930 (Philby Papers, Box 16, File 1)

44. Philby to Dalton, 14 April 1930 (Philby Papers, Box 16, File 1).

تختلف هذه الرسالة في مضمونها عن سابقتها بالرغم من أنها تحمل نفس الرقم ونفس التاريخ ، ولذلك أشرنا إليها بكامل تفاصيلها دون اختصار .

45. Ryan to Henderson, 9 May 1930, E2695/334/91, F.O. 371/14468.

46. Ibid.

(٤٧) لم يكن للملك عبدالعزيز حتى ذلك الوقت بيت مناسب في جدة ، وكان ينزل ضيفاً على الأعيان لدى وصوله إليها . وقد حصل على هذا القصر الأخضر من أحد موظفي الجمارك ، الذي يقال أنه جمع مالاً وفيراً من وظيفته .

48. Ryan to Henderson, 18 May 1930, E3039/334/91, F.O. 371/14468.

49. Ibid.

50. Ibid.

51. Ibid.

52. Lord Llyod to F.O., 26 April, 1929; Memo. By Rendel, 2 May 1929, E2137/2137/91, F.O. 371/13735.

53. Memo. By Rendel, 6 July 1929, E3490/2137/91, F.O. 371/13736.

54. *The Daily Telegraph*, 3 Sept. 1929.

55. Extract from Eastern Mediterranean Special Intelligence Bureau, Black List Relating to Shaikh Hafiz Wahba, War Office to F.O., 6 Oct. 1930, E5402/151/91, F.O. 371/14464; E4713/334/91, F.O. 371/14468.

56. Bond to F.O., 28 Jan. 1930; F.O. to Bond, 4 Feb. 1930, E523/334/91, F.O. 371/14468.

57. Jeddah Report, Feb. 1930, E 1955/92/91, F.O. 371/14460.

58. F.O. to Sir P. Loraine (Cairo), 2 July 1930, E3494/334/91, F.O. 371/14468.

59. Ryan to Henderson, 1 July 1930; Ryan to Henderson, 28 July 1930, E4049/334/91, F.O. 371/14468.

60. F.O. Memo. 28 Aug. 1930, E4713/334/91; Loraine (Cairo) to F.O. 5 Aug. 1930, E4184/334/91, F.O. 371/14468.

61. Ryan to Henderson, 22 July 1930, E4309/4309/91, F.O. 371/14483.

(٦٢) كان أعضاء البعثة الدبلوماسية في المفوضية السعودية بلندن هم : حافظ وهبة – وزير مفوض ، ومحمود أفندي رياض – سكرتير أول ، والدكتور يوسف سلامة – سكرتير ثان . أنظر : فؤاد حمزة ، *البلاد العربية السعودية* (الرياض : مكتبة النصر الحديثة ، ١٩٣٦) ، ص١٢٢ .

صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر
لأحمد لطفي السيد «دراسة وتحليل»

الدكتور أحمد زكريا الشلق
أستاذ مساعد بقسم التاريخ

- **تعريف بالكاتب .**
- **الخلفية السياسية والاجتماعية .**
- **نظرة تحليلية .**

صاحب هذا الكتاب هو أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٦٣) الذي اشتهر بهذا اللقب بين تلاميذه ومريديه ، باعتباره كان رائداً من رواد المثقفين المصريين منذ مطلع هذا القرن ، وقد عاش لطفي السيد حياة ثرية طويلة ، رأى خلالها تلاميذه وقد انتشروا في قنوات الثقافة والتعليم لأكثر من نصف قرن ، يبشرون بأفكاره ويطورونها بالفكر والممارسة . . وقد ولد لطفي لأب كان عمدة لقريته (برقين بمحافظة الدقهلية) وتلقى تعليمه الأولي الديني في القرية ، وعندما أتم تعليمه النظامي ارتحل إلى القاهرة ليدرس بمدرسة الحقوق الخديوية التي كانت آنئذ مدرسة لتفريخ الخطباء والمحامين والقادة السياسيين وكانت بطبيعة الحال محط أنظار الأعيان المصريين لضمان مستقبل أبنائهم . وانتماء لطفي السيد «لطبقة» الأعيان المصريين ، أمر له دلالة سوف يظهر أثرها في تشكيل وعيه وقناعاته . بل سينعكس على مواقفه وآرائه السياسية على نحو ما سنرى ، فسوف تتحدد حركته فيما بعد من معسكر «صفوة» المصريين وأغنيائهم .

أتم لطفي دراسة الحقوق عام ١٨٩٤ ، وقضى عدة سنوات من عمره في وظائف الحكومة ، بدأها كاتباً في النيابة العمومية ، ثم أصبح سكرتيراً للافوكاتو العمومي ، فمعاوناً للنيابة في بني سويف ، ثم وكيلاً للنيابة عام ١٨٩٦ ، وظل في وظيفته الأخيرة حتى استقال منها عام ١٩٠٥ لخلافه في بعض المسائل القانونية مع النائب العمومي آنذاك . واشتغل لطفي بعد ذلك بالمحاماه بعضاً من عام ١٩٠٦ ، تفرغ بعدها للاشتغال بالصحافة والسياسة .

وسوف نرى أن دراسة لطفي الأولية الدينية ، والتي تركها منذ البداية وانخرط في مدارس الحكومة ذات الطابع المدني ، لم تتعمق في داخله أو تتغلغل كثيراً في تكوينه العقلي ، كما أكسبته فيما بعد دراسة القانون ذهنية دقيقة ومتأنية ، صقلتها الدربة والخبرة العملية من خلال سلسلة الوظائف التي انخرط فيها ، وكانت هذه هي الروافد الأولى في تكوينه العقلي ، ثم تلتها روافد أخرى استقاها من تعرفه على جمال الدين الأفغاني وصداقته لمحمد عبده ، فالتقى بالأول في استانبول واستمع إليه وأعجب به وإن لم يتجاوب بعقليته الهادئة مع حماسة الأفغاني وثوريته ، واختلف إلى حلقات دروس محمد عبده وتشرب كثيراً من أفكاره ومبادئه ، ليصبح من صفوة مريديه .

أما الرافد الأكثر أهمية بعد ذلك فقد استقاه لطفي من اطلاعه على كتابات المستشرقين والفلاسفة الأوروبيين ، وعلماء الآثار والحضارة ، فبالإضافة إلى أنه تلقى دروساً غير نظامية بجامعة جنيف عام ١٨٩٧ ، درس فلسفة النشوء والارتقاء وأصل الأنواع لداروين - كما ترجمها شبلي شميل عام ١٨٩٨ ، وآمن بأفكار كونت وستوارت مل ودوركايم حول التقدم والحرية الفردية ، كما تأثر بأفكار جيرمي بنتام عن مذهب المنفعة ، وبكتابات روسو وأرسطو -وترجم الأخير فيما بعد- في الفكر السياسي ، ثم بأفكار هربرت سبنسر في التربية . . ولن يخفى على قارئه مدىً تأثره بتلك الثقافة الأوروبية الواسعة والعميقة ، وكيف أنها تغلغلت في صميم تفكيره وتشكيل قناعاته السياسية والاجتماعية فأصبح من دعاة

الفكر التحرري (اللبرالي) .

يضاف إلى كل ما سبق أن لطفي تمرس منذ البداية بالكتابة الصحفية في مجال الثقافة والفكر والقانون منذ اكتمل وعيه السياسي ، وقد روى في مذكراته المنشورة تحت عنوان (قصة حياتي)[1] كيف أنه كان يحرر في مجلة «الموسوعات» التي كان يصدرها زميل دراسته محمد فريد ، إلى جانب أنه أنشأ صحيفة أسماها «الشرائع» ليحرر بها طلبة الحقوق كما أنه كان يكتب بشكل غير منتظم في صحيفة «المؤيد» وغيرها من الصحف التي كانت تصدر في مصر قبل عام ١٩٠٧ . وسوف تظهر آثار دراساته وممارساته بشكل واضح في مقالاته وخطبه وأحاديثه التي بين أيدينا ، الأمر الذي سيعطي انطباعاً واضحاً بأن عقيدته الفلسفية لم تعد تمتد بجذورها إلى التربة العربية الإسلامية ، بقدر ما أصبحت تستمد غذاءها من تربة غربية ، مدنية[2] .

وبرغم انقطاع لطفي السيد عن حياة الوظيفة منذ عام ١٩٠٥ ، واشتغاله بتأليف حزب الأمة وتحريره لصحيفته الشهيرة «الجريدة» إلا أنه عاد مرة أخرى عام ١٩١٥ إلى حياة الوظيفة ، بعد أن اعتقد أنه قال «كلمته» خلال هذه السنوات الزاخرة الخصيبة من حياة مصر والمصريين (١٩٠٧ - ١٩١٤) ، تلك السنوات التي حملت خلالها مصر جنين الثورة الكبرى عام ١٩١٩ في أحشائها . عاد لطفي هذه المرة مديراً لدار الكتب المصرية ، وظل بها حتى وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها فجذبته الحياة العامة والحركة الوطنية إلى صفوفها من جديد ، فانخرط حيناً في تأليف «الوفد المصري» وفي نشاطاته الأولى ، ثم انصرف عنه عندما انقسم ، وتصدع بناء الحركة الوطنية ليعود بعد ذلك عام ١٩٢٢ فيشتغل في تأليف حزب الأحرار الدستوريين وصياغة مبادئه واتجاهه السياسي ويصبح عضواً منتسباً مشاركاً في بعض نشاطات الحزب وفي عام ١٩٢٥ اشتغل لطفي أستاذاً بالجامعة المصرية . وكان قد ساعد على تأسيسها في السنوات الأولى من القرن العشرين ، حين كانت «جامعة أهلية» وعندما أعيد تنظيمها

وتولتها الحكومة عام ١٩٢٥ أصبح لطفي أستاذاً للفلسفة بها ثم صار رئيساً لها .

واستكمالاً للتعريف بمسيرته نشير إلى أنه أصبح وزيراً للمعارف في وزارة محمد محمود الأولى -وزارة القبضة الحديدية- (١٩٢٨ - ١٩٢٩) ، كما شاركه أيضاً وزارتيه الثانية والثالثة (١٩٣٨ - ١٩٣٩) وزيراً للدولة ثم للداخلية ، حتى عاد ثانية مديراً للجامعة المصرية ، وظل بها إلى أن فرغ من أعباء الوظيفة وتكاليفها نهائياً في أوائل الأربعينات .

* * *

أما عن كتابات لطفي السيد ، فبالرغم من أنه لم ينشر كتاباً «مؤلفاً» طوال حياته الرحيبة ، كما لم يترجم شيئاً وينشره قبل عام ١٩٢٤ ، عندما نشر ترجمته لأرسطو ، إلا أن حياته ذاتها تظل دائماً كتاباً مفتوحاً يستفاد منه للتأريخ لمرحلة من مراحل مصر ، إلى جانب أن أفكاره ومبادئه ظهرت بشكل أكبر من خلال تلاميذه ، كما أن مقالاته الفياضة والغزيرة ، التي سودت افتتاحيات صحيفة «الجريدة» كل صباح ، ولثمان سنوات متصلة (١٩٠٧ - ١٩١٤) تبقى معيناً لا ينضب كتراث له ، عبر من خلاله وشارك في الحركة الوطنية المصرية ، من منطلق حزبي ، وشارك به في تحديث الفكر السياسي والاجتماعي لمصر في مطلع القرن العشرين ، كما بثت مقالاته دوراً تنويرياً ، من خلال وجهة نظر معينة ، في بث الأفكار التحررية (الليبرالية) والديمقراطية وناقشت مذاهب الحكم وفلسفاته ، وانتقدت الاشتراكية ، وحاولت تأصيل الفكر القومي (الإقليمي) ، ومناهج التربية الحديثة ، وأسهمت في قضايا الإصلاح الاجتماعي من منطلق الفلسفة التحررية التي آمن بها ودعا إليها .

ولانشغال لطفي المستمر في الحركة السياسية وكتابة المقالات اليومية وأحاديث وخطب المناسبات والأحداث المتوالية ، من خلال مسئوليته كرئيس تحرير ، ابتعد عن «صناعة التأليف» المتأنية الهادئة ، مما دعا بعضاً من تلاميذه

إلى جمع بعض مقالاته ونشرها في عدة مصنفات هي :

١ - المنتخبات جـ١ ، جـ٢ جمعهما إسماعيل مظهر ونشرا عام ١٩٣٧ ، ١٩٤٥ .

٢ - صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر ، من مارس ١٩٠٧ - مارس ١٩٠٩ ، عصر الانقلاب الفكري في السياسة الوطنية ، جمعها إسماعيل مظهر ، ونشرت ١٩٤٦ ، وهي المجموعة التي بين أيدينا .

٣ - تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع ، جمعها إسماعيل مظهر ، ونشرت عام ١٩٤٦ أيضاً .

٤ - قصة حياتي ، وهي ذكريات لطفي السيد التي أملاها على طاهر الطناحي ، الذي رتبها وقدم لها ونشرها عام ١٩٦٢ .

٥ - مبادىء في السياسة والأدب والاجتماع ، وقد جمعها طاهر الطناحي ، ونشرها عام ١٩٦٣ .

أما ترجمات لطفي السيد فهي :

١ - كتاب أرسطو طاليس : علم الأخلاق ، إلى نيقوماخوس ، وقد طبعته دار الكتب المصرية عام ١٩٢٤ .

٢ - كتاب أرسطو طاليس : السياسة ، وقد طبعته دار الكتب المصرية عام ١٩٤٧ وأصدره لطفي السيد بمقدمة مستفيضة عن أرسطو وفكره وعصره ورحلته إلى المعرفة .

وينبغي أن نشير إلى أن هذه المصنفات لم تعتمد خطة معينة أو تصنيفاً موضوعياً محدداً ، وإنما مجرد مختارات دارت حول بعض آرائه في بعض قضايا عصره السياسية والاجتماعية والفلسفية والأدبية ، كما هو واضح من عناوينها ، فهي إذن «منتخبات» من «مبادئه وتأملاته» كما نلاحظ أنها جمعت من صحيفة الجريدة وحدها وفي الفترة من ١٩٠٧ - ١٩١٤ ، باستثناء محاضرة عامة ألقاها عن دور الجامعة في المجتمع نشرت ضمن مجموعة (مبادىء في السياسة . . .)

وهذا يوضح لنا أن إسهام لطفي السيد قد انحصر ، وبشكل مكثف خلال هذه السنوات وحدها وأنه لم يكتب شيئاً بعدها ، بل اكتفى بالانخراط في الحركة الوطنية وفي سلك الإدارة والوزارة ، مما يعني أن لطفي السيد توقف عن الكتابة مبكراً وباستثناء ترجمته لأرسطو - فإنه توقف ولما يبلغ من العمر اثنان وأربعون عاماً وأنه عاش بعد ذلك ما يقرب من نصف قرن ، لم يكتب خلالها شيئاً تقريباً .
ولعل هذا يجعلنا نتساءل هل كان لطفي السيد صاحب رسالة أو كلمة قالها من خلال صحيفته ثم مضى ، ولم تكن الكتابة «هماً» دائماً بالنسبة له ؟ أم لعله كفر مبكراً بالكتابة السياسية فراح يعمل لخدمة وطنه في مجال التعليم والترجمة ، مكتفياً بدفع تلاميذه في قنوات الكتابة والتعبير ليتقدموا الصفوف بآرائه وأفكاره ، وقد فعل ذلك أيضاً الشيخ مصطفى عبدالرازق والدكتور إبراهيم بيومي مدكور .

- ٢ -

ولهذه المجموعة من المقالات التي بين أيدينا خلفية تاريخية وسياسية ، أدت إليها ، وساعدت هذه المقالات وغيرها ، في إثراء الحركة السياسية والفكرية ، وإحداث ذلك «التحول» الذي ولدته الحركة الوطنية المنبعثة في ليل الاحتلال البريطاني الرهيب . ويقتضينا هذا بطبيعة الحال أن نعود إلى الخلف قليلاً ، حيث الأصول التاريخية التي هيأت المناخ لظهور هذه الكتابات .

لقد شهدت مصر ما بعد الاحتلال البريطاني طوراً جديداً من أطوار حركتها الوطنية ، في ظل جيل جديد ، بدأ وعيه السياسي والوطني ينضج ويكتمل خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، في ظل سياسات الاحتلال ، بينما لا تزال آثار اخفاق الثورة الوطنية (العرابية) ماثلة في الأذهان ، وبرغم ذلك كله كان الشعور الوطني يتحرك متأججاً تحت رماد اليأس والإخفاق ، فكانت الجمعيات السرية والعلنية والمنتديات والصحف (جماعة لطيف سليم ، وصالون نازلي

فاضل ، وصحيفة المؤيد) هي خمائر الحركة الوطنية الجديدة ، تجتذب طلائع هذا الجيل ، ومن خلالها تبرز أسماء سعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد لطفي السيد وقاسم أمين. . . وغيرهم . وكان أمراً طبيعياً أن ينبذ رواد الحركة أسلوب الثورة ، وتزداد الحركة قوة بتأييد الخديوي الشاب الطموح عباس حلمي فيعضدهم بالمال والتأييد لإصدار صحف جديدة وتأليف جميعات سرية لتحرير البلاد ، كما استعان بالنابهين منهم في وظائف الإدارة وأرسل بعضهم إلى أوروبا للدعاية للقضية الوطنية . ولم يكن اللورد كرومر - الحاكم الفعلي لمصر والمعتمد البريطاني - غافلاً عن الطموح الوطني للخديوي الشاب . فتحداه وأثار معه عدة أزمات ، استناداً إلى قوة الاحتلال كادت أن تفقده عرشه .

وكانت هذه الحركة تعتقد أن حل القضية الوطنية وتحرير مصر في يد أوروبا عامة وفرنسا خاصة ، ولعل هذا كان وراء اتصال الخديوي بمصطفى كامل وطلبه إليه أن ينشيء مع لطفي السيد وعبدالعزيز فهمي جمعية سياسية هدفها تحرير مصر ، كما قرر إيفاد لطفي السيد إلى سويسرا ليحصل على جنسيتها ، ثم يقوم بتحرير صحيفة ، تحميها الامتيازات الأجنبية ، ولكن تركيا ، صاحبة السيادة على مصر لم توافق على ذلك . بينما كانت الحركة الوطنية لا تزال تأمل في تركيا خيراً .

وقد أبعدت العلاقات الاستعمارية فرنسا عن الاهتمام بالمسألة المصرية ثم جاء الوفاق الودي بينها وبين إنجلترا عام ١٩٠٤ صفقة استعمارية بين البلدين ، ليقطع أمل الوطنيين المصريين في مساعدة فرنسا لهم ، كما فقدوا إحساسهم بأهمية ودور الدولة صاحبة السيادة عليهم ، التي استبان عجزها ، تواكب ذلك كله مع يأس الخديوي واستسلامه ثم تقربه من الإنجليز .

أثرت هذه التطورات في الحركة الوطنية الوليدة تأثيراً خطيراً وبدأت تنشأ بينها الخلافات ، وتتصدع عوامل تجمعها وترابطها ، وانفسح المجال لبروز أكثر من

اتجـاه ، وخلال هذه الفترة ابتعد مصطفى كامل عن صحيفة المؤيد ، والتقى لطفي السيد بالشيخ محمـد عبده وتأثر بأفكاره الاصلاحية ، وبعدائه للخديو والأتراك ، وتيقن أن مصر لن تستقل إلا بجهود أبنائها ، وأنه لا أمل في فرنسا أو تركيا ، وكتب بذلك للخديو وذكر له أن المصلحة الوطنية تقتضي أن يرأس الخديو حركة شاملة للتعلمي العام[٣] .

وبدأت تبرز إلى الحياة العامة جماعة محمد عبده ، والتي كانت تضم صفوة تلاميذه ، ممن اشتغلوا معه في تحرير «الوقائع» وتعرفوا على اللورد كرومر وقادة الإنجليز في الصـالـونات ، واشتغلوا في مناصب الإدارة وغيرها . وكانت هذه الجـماعـة تتلقى أفكـار الشيخ محمـد عبـده ومبـادئه . وتتأثر بمواقفه وعلاقاته السياسية ، وقد برزت من بينها أسماء سعد زغلول وأخيه فتحي ، ولطفي السيد وقاسم أمين وإبراهيم الهلباوي وطلعت حرب وحسن عبدالرازق . وتأثروا بأفكار الإمـام الإصلاحية ، ونبذوا أسلوب التحريض والثورة وأيدوا قناعاته بضرورة تهيئة البلاد بأدوات الاستقلال أولاً ، وعلى رأسها التربية والتعليم ، قبل المطالبة بالاستقلال ذاته ، الذي سيجيء بعد حين .

والأهم من ذلك كله أنهم لم يروا بأساً من التعاون مع سلطات الاحتلال في الإدارة وإقرار النظام ، على أن يتولى الإنجليز الوظائف الفنية والعسكرية . كما تأثرت هذه الجماعة بعداء اللورد كرومر للخديو ومن ثم اقتنعوا بضرورة تجريده من كل سلطة حقيقية . وكان أمامهم على خلاف مستمر مع الخديو ، بلغ مداه عام ١٩٠٤ حين استقال الشيخ محمد عبده من الأزهر ، ثم توفى بعد ذلك بعام .

وورث أنصار الشيخ محمد عبده هذه الأفكار والمواقف وشكلوا اتجاهاً خاصاً في السياسـة المصرية ، فأشاد بهم اللورد كرومر في تقاريره الأخيرة . وبالذات باتجاهاتهم «الإصلاحية والمعتدلة» ذكر أنهم أحرى بتسميتهم بالحزب الوطني من

جماعة المتطرفين دعاة الجماعة الإسلامية ، أنصار مصطفى كامل ومحمد فريد . ورأى اللورد كرومر أن أنصار المفتي الراحل الشيخ محمد عبده هم أمل القومية المصرية ، ومعقد الرجاء في التعاون مع الأوروبيين لإصلاح البلاد ، وأنهم «جيروند» الحركة الوطنية ودعا إلى تأييدهم وتشجيعهم بكل قوة .

وشهدت البلاد خلال العامين التاليين لعام ١٩٠٥ موجات من الاضطرابات والاعتصابات منددة بسياسة الاحتلال ومظالمه ، ومطالبة الخديو بالدستور وانضمت بفضل هذه النشاطات قطاعات جديدة للحركة الوطنية ، من الحرفيين والمحامين والطلاب وغيرهم . وكان على الأعيان ممن يعتبرون أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية في البلاد أن يبحثوا في هذا الخضم - عن صيغة جديدة يدافعون بها عن مصالحهم من خلال الاشتغال بالسياسة من منطق خاص ، يتصل بواقعهم الاجتماعي وبعلاقاتهم السياسية .

ثم وقعت حادثة طابا عام ١٩٠٦ حين أراد السلطان العثماني اقتطاعها من حدود مصر الشرقية ، وتحدته بريطانيا ولعبت دور المدافع عن مصالح مصر وحدودها ، بينما وقف قطاع من الحركة الوطنية في صف السلطان مستنكراً تدخل بريطانيا ، وكان على رأس هذا القطاع مصطفى كامل ومحمد فريد ، في حين وقف فريق آخر من أبناء الأعيان من جماعة محمد عبده وقفوا في الاتجاه المقابل مدافعين عن ممتلكات مصر ، فبدوا في معسكر الإنجليز . وجاءت حادثة دنشواي ، التي اتخذها مصطفى كامل وأنصاره ذريعة لفضح بربرية الإنجليز ووحشيتهم أمام الرأي العام ، بينما وقف نفر من شيعة محمد عبده يعاونون سلطات الاحتلال عند محاكمتها للفلاحين المصريين المحاكمة الجائرة الشهيرة . وفي خضم ذلك كله عانت البلاد من أزمة اقتصادية طاحنة (١٩٠٦ - ١٩٠٧) مع موجات العنف والتطرف . فأضيفت بهذه العوامل أسباباً جديدة لفريق من الأعيان المثقفين المصريين لكي يؤلفوا حزباً سياسياً ، وبالفعل كان عام ١٩٠٧ هو عام مولد الأحزاب السياسية ، فظهر حزب الأمة ، ثم أعلن الحزب الوطني

عن تأليفه وبرنامجه ، وأعقبها حزب السلطة الخديوية (حزب الاصلاح على المباديء الدستورية) .

وكان على سلطات الاحتلال أن تواجه ما أسمته بموجات العنف والتعصب من قبل الشباب المتطرف ، ودعاة الجامعة الإسلامية . وذلك بالاستعانة بالعناصر المعتدلة من الأعيان ، ومن يعايشهم من المثقفين وإبرازهم ليلعبوا دوراً في السياسة من خلال موقفهم «المعتدل والإصلاحي» وتدعيمهم لإصدار صحيفة تنطق بلسانهم ، فتهيأت الفرصة لأنصار محمد عبده ، في ظروف تاريخية ملائمة ، لإصدار صحيفة «الجريدة» لطرح أفكارهم واتجاهاتهم السياسية ولكسب قطاعات من الحركة الوطنية إلى صفوفهم ومذهبهم في السياسة الوطنية .

وكان لطفي السيد أبرز مثقفي هذا التيار . ولسان حاله والمعبر عنه ووالت الجماعة اجتماعاتها في أواسط عام ١٩٠٦ لوضع قانون الجريدة ، بتشجيع من اللورد كرومر[٤] ، وقد نسب لطفي السيد فكرة إصدار الجريدة إلى نفسه وذكر أنه تحدث بها إلى صديقه محمد محمود باشا ابان حادثة طابا ، ولكن التطورات التي أدت إلى إصدار الجريدة أكدت أن الفكرة جالت بأفكار الكثيرين من أصدقائه السياسيين من تلاميذ الإمام ، وإنه إنما ساعد على إبرازها وإخراجها إلى حيز التنفيذ وتأسست بالفعل شركتها واختير لطفي السيد مديراً لتحريرها[٥] ، وصدر العدد الأول منها في ٩ مارس ١٩٠٧ . وفي ٢١ سبتمبر من نفس العام تحولت شركة الجريدة أو جمعيتها العمومية إلى جمعية عمومية لحزب سياسي هو حزب الأمة ، الذي ترأسه محمود باشا سليمان ، وذلك بعد أن اعتقدت جماعة الجريدة أنها هيأت الرأي العام من خلال الجريدة ، لقبول اتجاهها السياسي والحزبي الجديد .

وأعلن حزب الأمة مبادئه ، التي يمكن تلخيصها في عبارةواحدة هي إعداد الأمة بالكفاءات العلمية والاقتصادية ، ومشاركة الحكومة بعض اختصاصاتها .

وتوسيع اختصاصات الهيئات التمثيلية القائمة . وطبيعي أن هذه هي من وجهة نظر الحزب ، مقدمات الاستقلال ، الذي لم ينص عليه البرنامج ، لأنه سيجيء بعد ذلك ، وقد رفع الحزب منذ البداية شعار «الاعتدال» في مطالبه ، كما تبنى أسلوب «التدرج» على ما يظهر في برنامجه ، من منطق أن الظروف التي تمر بها البلاد لا تسمح بغير ذلك ، واعتبروا أنفسهم بذلك واقعيين وعمليين يشتغلون في حدود الممكن .

- ٣ -

وكتاب صفحات مطوية بالرغم من كونه مجرد مقالات مجموعة من افتتاحيات لطفي السيد اليومية لصحيفة «الجريدة» ومن ثم تبدو لأول وهلة أنها ليست موضوعاًمدروساً لكتاب . ولكونها نشرت «حسب المناسبة» فهي لا تتسم بصفة الدراسةالمتأنية ، التي تصل بموضوعها إلى غاية محددة وتقدم وجهة نظر جديدة ، بالرغم من ذلك كله فان عقلية لطفي السيد ذاتها ، الدقيقة المتأنية ، تصدر في آرائها عن قناعات ومباديء واضحة . ويؤيد ما ذهبنا إليه أن المقالات جميعها ، على اختلاف تواريخ نشرها وعدم ترتيبها ، ورغم محاولة التصنيف الشكلية لها قام بها الأستاذ إسماعيل مظهر ، فهي تتناول آراء لطفي السيد السياسية حول عدد معين من الموضوعات تتمثل فيما يلي :

- موقفه من الجامعة الإسلامية ، والاطار السياسي لها الممثل في دولة الخلافة العثمانية وسيادتها على مصر .
- موقفه من الخديو ، صاحب السلطة الشرعية في البلاد ، ومفهومه لحدود سلطاته وممارساته .
- نظريته في استقلال مصر والجلاء البريطاني عنها ، أو مذهبه بشكل عام في حل القضية الوطنية .
- رأيه في المسألة الدستورية والحكم النيابي .

- وظيفة الحكومة وصلاحيات السلطة التنفيذية .
- قضية التربية والتعليم .

بالنسبة لموقفه من الجامعة الإسلامية ، فيتضح من ملاحظاتنا أنه كان من دعاة القومية المصرية أو الجامعة المصرية ، في مقابل أو كبديل «للجامعة الإسلامية» وان ذلك انعكس بطبيعة الحال على موقفه من السيادة العثمانية على مصر ، وكم من مرة تعجب من أولئك الذين يعلقون آمالهم في استقلال مصر على تركيا ، فكتب بسخرية «. . إننا بقينا ننتظر نتائج ما يعمله لنا الأتراك فلم ننل من وراء ذلك شيئاً . . »[٦] . وقد هاجم لطفي السيد فكرة قيام وحدة على أساس الدين «واتخاذ وحدة الاعتقاد في القرن العشرين قاعدة للأعمال السياسية ، التي يجب أن تبنى على المنافع ، لا على المعتقدات . فهل من يقول بأن مسلماً مصرياً يفضل منفعة تركيا على منفعة مصر ، أي على منفعته هو ؟»[٧] .

وقد نفى لطفي السيد وجود كلمة جامعة إسلامية (بانيسلا مزم) في اللغة ، وأفاد أن ذلك من ابتداع السياسة التي تخلق ما تشاء «أما كون الجامعة الإسلامية موجودة وجوداً حقيقياً أو إنها مقصد من المقاصد التي يسعى إليها المسلمون ، فهذا لا دليل عليه مطلقاً ، كما أنه لو حوول ايجادها لاستحال ذلك على طلابه . وان أبلغ مثال على ذلك هو انشقاق المسلمين على أنفسهم أيام خلافة أمير المؤمنين على بن أبي طالب . . »[٨] .

ثم يحدد علاقة مصر بتركيا بما حددته الفرمانات التي وسعت من استقلال مصر ، التي جعلت لتركيا عليها السيادة في المسائل الخارجية وحدها ، «وأن المصريين إذا سعوا لأكثر من هذا ، كانوا كمن يعرض عن الاستقلال» ولذلك عارض بشدة الفكرة التي روجتها بعض دوائر الحزب الوطني عندما قامت الثورة الدستورية في تركيا ، وهي أن يكون لمصر نواب في البرلمان التركي (مجلس المبعوثان) ، وذكر لطفي السيد أن ذلك يضيع على مصر استقلالها وسيادتها

الداخلية ، وأنه لا ينطبق على مركز مصر الدولي ولا يتفق ومصلحة المصريين لأن «الحكومة التركية الحرة تعتبر مصرفاً رأساً ، فهل نعتبرها نحن ذنباً ؟ هل يجوز لنا أن نسلب مصر حقها ، فنجعلها خاضعة لمجلس المبعوثان ، في حين أن الدولة العلية ذاتها تحترم استقلالنا ، ولا تطالبنا بشيء من ذلك ؟»(٩) .

وهكذا اعتبر لطفي السيد الجامعة الإسلامية وهماً وخيالاً مثيراً للسخرية وكان جريئاً بدرجة خطيرة ، في مواجهة التعاطف الفطري السائد ، مع دولة الخلافة ودعوتها إلى الجامعة الإسلامية . وسوف يكرس لطفي السيد بعد عام ١٩٠٩ مقالات عديدة ليطرح فيها أفكاره عن القومية المصرية أو الجامعة المصرية ، متمثلاً المنفعة وحدها كأساس للرابطة القومية «فعلى المنفعة تبنى الأوطان» حيث لا مكان للعاطفة الدينية ، وقد اعتبر ذلك تطويراً لأفكاره في هذا المجال وهو أمر أثار جدلاً واعتراضاً شديدين .

أما بالنسبة لموقفه من صاحب السلطة الشرعية في البلاد ، الخديو عباس حلمي ، فربما كان لطفي هو أول من استخدم تعبيرالسلطة الشرعية (الخديو) والسلطة الفعلية (الاحتلال) ليؤكد فكرة أن سلطة الخديو مجرد سلطة شرعية إسمية . ويمكننا أن نفسر موقف لطفي السيد العدائي من هذه السلطة باعتباره نابعاً من موقعه الاجتماعي ، كابن لطبقة الأعيان المصرية الذين يعتبرون أنفسهم كبراء الأمة ورؤساؤها والذين رفعوا شعار «سلطة الأمة» في مواجهة السلطة الخديوية كما ينبع هذا الموقف أيضاً من موقف جماعة محمد عبده ككل ، المعادي للخديو . بالإضافة إلى أن قراءات لطفي السيد في الفكر السياسي وخاصة ما يتعلق بسلطات الحاكم وحدودها وممارساتها ، جعلته يقف موقفاً واعياً من هذه السلطة . وقد كتب «ان الحقوق التي يكسبها الملك أو الأمير إنما يكسبها لقومه ، لا لنفسه ، لأنه أما وكيل ، أو فضولي أصبح بالإجازة في حكم الوكيل ، وليس له إلا حق الملك أي حق التاج فقط»(١١) .

وقد نادى لطفي السيد بجرأة شديدة بمحاسبة الحاكم ، إذا لم يكن دستورياً «فليس لأحد أن يقول أن الملوك والحكام هم فوق المسئولية لأن الذي يريد أن يكون منهم فوق المسئولية ، يجب أن يعطي قومه دستوراً ويكف هو عن العمل بالذات ، والدستور كفيل ببيان مسئولية كل عامل فيه . . »[١٢] وأكثر من هذا لا يتورع لطفي السيد عن غمز السلطة الخديوية ومهاجمتها بشكل غير مباشر ، حين هاجم «الحكــومــة الشخصية» على اعتبــار أنها منحصرة في شخص الخــديو ووزرائــه» . وليس للأمة في أمرها لا باليمين ولا بالشمال ، وأن لهذه الحكومة الشخصية محركاً أو مشرفاً هو سلطة الاحتلال الإنجليزي . . »[١٣] .

ويضيف أن المصريين يحبـون أمـيرهم ويحـترمـونـه ، ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون الرضى عن حالتهم السياسية الحاضرة ، إلا إذا أخذ سموه في أسباب إشراك الأمة وإياه في الحكم على صورة تجعل مجموع الأمة حاكماً ومحكوماً ، لا سيداً وعبداً[١٤] . ثم تطالبه بأن يكف يده عن التدخل في شئون الحكم مادامت الأمة لم تحصل على الدستور بعد ، ثم يستحثه على ذلك بقوله «ان المصريين جميعاً متفقون بأن مقاصد أميرهم أن يوافقهم على جعل الخديوية المطلقة ، خديوية مقيدة بإرادة الأمـة»[١٥] وهكـذا يبدو موقف لطفي السيد من صاحب السلطة الشرعية واضحاً منذ البداية أو يكتفي بأن يملك ولا يحكم ، كما أنه لم يمالئه أو يهادنه ، إلا فيما اقتضته الكياسة أو حركات السياسة ، وظل مدافعاً عن حقوق الأمة وسلطتها التي ستؤول إلى كبرائها وأعيانها من وجهة نظره .

أما قضية الوجود الاحتلالي واستقلال مصر فقد نالت اهتماماً واضحاً من لطفي السيد ولكن من منطلق جماعته واتجاهها الحزبي . ويستند هذا المنطلق على أصول منها علاقة هذه الجماعة الطيبة مع المعتمد البريطاني اللورد كرومر ، ومنها

إقـرارهم بسياسـة الأمـر الواقع واعتبار الاحتلال نازلة من السماء لا يملك لها المصريون دفعاً «ومن ثم التصرف في ضوء هذا الاعتبار ، مع ما يجره هذا من «الثقة» في وعود ساسة الاحتلال ، ثم «التعاون» معهم على أمل تحقيق استقلال مصر . وفي هذا الصدد يذكر لطفي السيد أن سياستنا مع الإنجليز لا تخلو من أحد وصفين أما سياسة معاندة وعداء ، أو سياسة مسالمة ، لا استسلام ، وقد علم العقلاء وجربوا سياسة المعاندة بضع عشرة سنة جرت بنا إلى هذا الحال . . ولا شك أنها سياسة عقيمة . فلم يبق سوى سياسة المسالمة والمحاسنة ، المقرونة بالمحاسبة ، وأول مظاهرها المجاملة . . » ولذلك وصف المحتفلين باللورد كرومر عند رحيله بأنهم «عقلاء الأمة» ، ثم حاول تقييم سياسته ، فاعترف بفوائدها الاقتصادية والمالية حتى لقد وصفه بأنه «أعظم الاقتصاديين» بالرغم من اعترافه بأنه «حرم مصر حياة سياسية تطمح إليها كل أمة حية . . ان جناب اللورد كرومر ينظر في كل أمر إلى مصلحة دولته قبل كل شيء . . »[١٦] . وهو تقييم فيه تخبط واضح .

وقد حاول لطفي السيد أن يؤلف كتاباً يرد به على كتاب اللورد كرومر «مصر الحديثة» الذي كال فيها للمصريين الاتهامات بالتعصب والعمى ونكران الجميل للاحتلال ، وأنشأ لطفي لذلك مقالاً تمهيدياً . منتوياً أن يسمى كتابه «الإنجليز في مصر» يترجمه للإنجليزية بعد أن يتمه ، لتوزيعه في أوروبا . ولكنه نكص عن ذلك ، مضيعاً بذلك فرصة ثمينة كان بوسعه خلالها فضح السياسة الاستعمارية لانجلترا في مصر .

وعندما جاء جورست خليفة كرومر ، بسياسة الوفاق مع صاحب السلطة الشرعية ، التي أضرت كثيراً بكل قطاعات الحركة الوطنية انتقد لطفي السيد هذه السياسة في مقالات عديدة ، وذكر انها أدت إلى فتور عام في فكرة الاستقلال وتراخ في مفاصل الوطنية ، كما زادت من حقوق الخديوي الشخصية المقدسة . وأضاف ان سياسة الوفاق قد جردت الأمة من سلطتها ، والحكومة من مهابتها ،

فامن المصريون أن الإنجليز طامعون لا مصلحون . .[١٧] .

هكذا آمن لطفي السيد في النهاية وأيقن أخيراً أن سلطات الاحتلال -كما ذكر- إذا كانت مسئولة تمسك بيدها كل السلطات وتتدخل في كل الأمور ، فإن ذلك سيقف في حد ذاته عقبة كؤودا في سبيل حرية العمل ، التي لا يمكن بدونها تمرين المصري على الحكم وتعويده على الاستقلال ، ثم استنتج من ذلك أن تأهيل الإنجليز للمصريين وتدريبهم لهم على الحكم الذاتي ، مع تدخل الإنجليز بشكل تام في الإدارة ، أمران لا يجتمعان .

وعلى ذلك أدرك لطفي السيد كذب دعوى «الإصلاح» التي ضلل بها الإنجليز حزبه ، كما أيقن كذب دعواهم بأنهم إنما جاءوا ليدربوا المصريين على حكم أنفسهم ، وبالتالي اكتشف فشل هذه السياسة «العملية» التي اعتقدت بصدق نوايا الإنجليز ودعواهم بالإصلاح ، وهي السياسة التي اعتنقها حزبه ودافع عنها منذ البداية .

لقد حظيت المسألة الدستورية والحكم النيابي باهتمام واسع من كل قطاعات الحركة الوطنية ، ولكنها من زاوية حزب الأمة لم تكن مطلباً راديكالياً ملحاً ، وإنما يتطلب الوصول إلى دستور كامل ومجلس نيابي تام السلطات ، تدريب المصريين على ذلك ، تدريجياً بتوسيع اختصاصات الهيئات التمثيلية أو شبه النيابية القائمة (مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، ومجالس المديريات) أو كما قال لطفي السيد «ليكن طلبنا لأهونها على أولى الأمر ، وأقربها لارتياح نزلائنا الأوروبيين وهو توسيع اختصاصات الهيئات النيابية الحاضرة توسيعاً جوهرياً لنصل إلى المجلس المنشود» ، ثم يطور لطفي أفكاره أحياناً فيقترح مجلساً للتشريع ، لا يتعدى أثره إلى غير المصريين «نطلب سلطة الأمة على الأفراد ، نطلب أن نحكم أنفسنا ، لا أن نحكم غيرنا ، فهل نحن ظالمون ؟ إن الحكومة النيابية هي الحكومة الوحيدة اللازمة لترقية الأمة»[١٨] ولا يخفى بطبيعة الحال

مفهـومـه لسلطة الأمـة ، ممثلة في صفوتها التي سوف تمارس الحكم من خلال المجلس الذي اقترحه .

وكان لطفي السيد من المؤمنين بالدستور . وطالما امتلأت مقالاته بالمطالبة به «لأنـه هو الذي يحمي صفات الحرية والاستقلال وينميها ولا يجعل بعد ذلك للاستبداد عليها سبيلاً ، الدستور يخلق حق مراقبة الأمة على حكومتها ، لأن هذا الحق طبيعي صرف موجود في طبائع الأمم وفي طبائع الحكومات ، ولكن الـدستور يقر هذا الحق ، ويجعل الحكومة تعترف به اعترافاً صريحاً»(١٩) . وفي مناسبة أخرى يهاجم القانون النظامي المعمول به ويصفه بأنه «شبه دستور أو رائحة دستور ، وهو محض هبة قابلة قانوناً للرجوع فيها ، وأنه يجوز قانوناً العدول عنـه ، لأنـه لم يقيد السلطة التشريعية التي يملكهـا سمـو الخـديو إلا تقييداً واهياً . . »(٢٠) . لكننا نلاحظ أن لطفي السيد لم يطلب لمصر دستوراً كاملاً إلا بعد أن طلبه أعضاء مجلس الشورى وكذلك أعضاء الجمعية العمومية جميعاً .

وقد قدم لطفي السيد للسير جورست المعتمد البريطاني مشروعاً يقترح فيه تعديل القانون النظامي القائم منذ عام ١٨٨٣ ، نص فيه على إبقاء النصاب المـالي للترشيح ، مع إعفاء العلماء والمحامين والأطباء منه ، مما ينقص بطبيعة الحال من معنى النيابة عن الأمة ويقصرها على فئة القادرين والمثقفين ، كما طالب بتوسيع اختصاصات مجالس المديريات ، بزيادة أعضائها وزيادة فاعليتها ، أما بالنسبـة لمجلس شورى القـوانـين فقد طالب بمضاعفة عدده وإبطال التعيين بمعرفة الحكومة . وأن يكون علني الجلسات ، كما يصبح رأيه قطعياً في قوانين المحـاكم الأهلية والـري ولـوائـح الأمن العـام والضرائب واستشارياً فيما عدا ذلك(٢١) . ولكن ذلك كله كان دون المطالب الوطنية ، كما كان يتفق وفلسفة حزبـه المـطالبة بالتدرج . وعندما استجابت الحكومة وقدمت مشروعاً بتوسيع اختصاصات مجالس المديريات أدرك لطفي السيد أن تلك كانت سياسة عقيمة

فذكر «أنه لا يجوز لحكومة تحترم نفسها وتحترم أمتها أن تجود بعد طول الوعود بمثل هذا المشروع التافه . الذي لا يستحق المناقشة فيه . . »[٢٢] وهكذا كانت مطالب لطفي السيد الدستورية متواضعة قياساً إلى مطلب الحركة الوطنية الحاسم بدستور كامل ، وبمجلس نيابي تام السلطات .

وقد حظيت السلطة التنفيذية والوزارة المصرية بقسط وافر من اهتمامات لطفي السيد . وكان دائماً يصفها بأنه «وزارة شخصية» ثم يصف هذا النوع من الحكومات بأنه أحط أنواعها ، لأنها لا تستمر في أمة إلا باستمرار صفات الذل والعبودية في قلوب أفرادها . كما أضاف أن الحكومة الشخصية مستمدة من رغبة المنافقين في بقائها ، والمنتفعين باستبدادها ، ومن غفلة شعور الأمة . وفي تشخيص هام راح لطفي يحدد العناصر التي تستمد منها الحكومة الاستبدادية قوتها : وأولها إكبار الشعب لها ، واحترامه لكل ما يتعلق بها من أشياء ، وثانيها ان إسم الحاكم فيها لا يذكر إلا مقروناً بألفاظ التبجيل والعبودية والنسب الكاذب ، وثالثها أن الجندي فيها يتبختر في الطرقات ويرى كل الأفراد دونه مهما علت أقدارهم ، ماداموا لا يلبسون الكسوة العسكرية ، ورابعاً ترى فيها كل موظف كبير له عباد يستجدونه الخير ، ويستدفعون به السوء[٢٣] .

وفي تحديد صارم يقرر لطفي السيد أن الحكومة وكيلة عنا ، نصبناها للقيام بأعمالنا ، نحن الذين نرزقها بأموالنا وندافع عنها بأولادنا . ثم يحلل ظاهرة كراهية الناس للسلطة ويفسر عداءهم لها ، ومن مظاهر هذا العداء بكاء الأهالي عندما يدعى أحد الأبناء لأداء الخدمة العسكرية واجتهاد الناس في القرى لحجب المتهمين عن أعين السلطات والإحالة بينهم وبين إثبات التهم عليهم ، وقد فسر ذلك كله ليس بجبن الناس أو بتفضيلهم للظلم على العدل ، ولكن بعدم ثقتهم بالحكومة ، واعتقادهم أن التجنيد في مصلحة الحاكم دون المحكومين وأن الحكومة وأعوانها لا يسعون لمصلحة الأمة .

وكان لطفي السيد يستخدم مصطلحات سياسية تبدو جديدة على أذهان قرائـه ، فهـو يصف الحكـومـة المصرية بأنها أوتـوقـراطية ، ثم يحدد مظاهـر أوتوقراطيتها ، واعراضها عن إشراك الناس في حكم بلادهم وتجافيها عن مطالب الأمة من الرقي السياسي ، وأنها لا تهتم إلا بمصلحة الحكام لا المحكومين ، وأنها قد زاد عليها القدر سلطة الاحتلال الإنجليزي ويضيف ان بقاء الوزارة في الحكم موقوف على رضى السلطة عنها ، بينما نجاحها موقوف على رضى الأمة عنها ، وان الوزارة التي فضلت البقاء في كراسيها على النجاح في أعمالها واكتفت برضى السلطة عن رضى الأمة لا تستحق إسمها[٢٤] .

وعنـدمـا تغـيرت الوزارة القائمة (وزارة مصطفى فهمي) وسارت الوزارة الجديدة (وزارة بطرس غالي) على نفس السياسة ، ذكر أن تغيير الوزارة لا يعني تغيير أشخـاص الـوزارء بآخرين ، وإنما تغييرها يكون بسياسة جديدة حقيقية ومسئولة . وقد تعجب من الطريقة التي تؤلف بها الوزارات في مصر ، وكتب أن «الطريقة المعقولة هي أن يسمي أولاً رئيس الوزارة ، فيضع خطة سيره فإذا قبلت أخذ في انتخاب زملائه ، فيعرض على أحدهم محفظة إحدى الوزارات ولكن النظار في مصر يعينون كما يعين الموظفون والقضاة والمديرون وغيرهم لأن وظائف الوزراء فيها ، من الوجهة السياسية ، ليس لها قانون»[٢٥] . وكتب لطفي السيد كثيراً عن مهام الوزراء وحريتهم في ممارسة شئون وزاراتهم وكرامة المنصب. . . إلـخ مما يدخـل في باب المقـالات التنـويرية الاصلاحية ، التي كان لطفي ، بالاستعـانة برصيد قراءاته في الفكر السياسي ، قادراً على اثارة قضاياها بخبرة وحيوية ، فلعبت مقالاته دوراً تنويرياً سياسياً بالنسبة للرأي العام . وكان ممن كرسـوا استعـمال مصـطلحـات الـديمقـراطية والارستقـراطية والأوتـوقـراطية والاستبدادية وغيرها من مفاهيم ومصطلحات الفكر السياسي الحديث .

وأخـيراً حظيت قضية التعليم بقسط وافـر من اهتـمامات وكتابات لطفي

السيد ، فرسم سبل إصلاحه ، وانتقد فكرة اقتصاره على الاهتمام بتعليم الإنسان لجعله مجرد آلة في ماكينة الحكومة ، وكذلك انتقد أسلوب التعليم الذي لا ينمي في الإنسان سوى ملكات الحفظ والتقليد ، دون قدراته على التفكير والإبداع والاختراع .

وأبدى اهتماماً خاصاً بمسألة اختيار المعلمين والأساتذة ، وتعجب من مسألة الاكتفاء بالأساتذة الإنجليز في المدارس ، واعتبر ذلك عملاً سياسياً «وأن السياسة ما دخلت إلى التعليم إلا أفسدته»[٢٦] . وأبدى لطفي السيد اهتماماً خاصاً بالتعليم العام ، واعتبره الطريق الوحيد للاستقلال واجلاء المحتل ، وانتقد الحكومة لأنها لم تفطن إلى ضرورة جعل التعليم وطنياً أو بعبارة أخرى «إدخال قواعد آدابنا القومية وأخلاقنا إلى المدارس . فالغرض من التعليم العام لكل أمة هو صبغ أبنائها بصبغة واحدة ، حتى يصبحوا بقدر الإمكان متشابهين في الأخلاق والميول والعادات ، فإذا ضاقت الفروق بينهم ، سهل عليهم أن يكونوا مجموعاً متشابه الأجزاء ، وفي ذلك معنى الوحدة القومية[٢٧] .

ومن الملاحظ كذلك أن لطفي السيد قدم أفكاراً في البيداجوجيا وفنون التربية ، برزت فيها ثقافته الواسعة وقارن بشكل صارم بين التربية والتعليم ، وأبدى اهتماماً خاصاً بالتعليم الفني ، والاهتمام بتعليم البنات على نطاق أوسع .

***

الهوامش

(١) أحمد لطفي السيد : قصة حياتي (صفحة ٣٧) وبها ترجمة كاملة لحياته يمكن الإفادة منها بشكل أوسع .

(٢) يمكن الإفادة في هذا الشأن بكتابات :
- ليفين : الفكر السياسي والاجتماعي الحديث (صفحة ١٩٧) - البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة (صفحة ٢١٠) .
- لويس عوض : المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي ، (جـ١ ص٧٧ - ٧٨) .

Safran N. "Egypt in Search of Political Community" p. 90.

(٣) أحمد لطفي السيد : قصة حياتي ، (صفحة ٣٩ وما بعدها) .

(٤) عن قيام الأحزاب ونشأتها يمكن الافادة بكتاب أحمد زكريا : حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية (ص٤٢ - ٤٣) ونفس المرجع (ص٥٩ - ٦٠) عن مساعدة كرومر لجماعة الجريدة ، (ص٥٥ - ٥٦) حول فكرة إصدار الصحيفة .

(٥) لم تكن رئاسة لطفي لتحرير الجريدة منصباً دائماً له . فقد تولاها عنه في فترات انقطاعه أو إبعاده كل من إبراهيم رمزي ومحمد حسين هيكل وعبدالحميد حمدي ، حتى ترك لطفي الجريدة نهائياً في أواخر عام ١٩١٤ وظل عبدالحميد حمدي رئيساً لتحريرها حتى توقفت نهائياً في أواخر يونيو ١٩١٥ .

(٦) صفحات مطوية ، ص٧(*) .

(*) أرقام الصفحات التي نستخدمها هنا ترجع إلى الطبعة الأولى التي نشرها إسماعيل مظهر عام ١٩٤٦ .

(٧) صفحات مطوية ، ص٣٧ .

(٨) صفحات مطوية ، ص٩٩ - ١٠١ .

(٩) صفحات مطوية ، ص٣٧ - ٣٨ .
وأنظر دراستنا بحولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتاعية ، جامعة قطر ، العدد العاشر ، سنة ١٩٨٧ .

(١٠) Safran, N., op. cit., p. 95.

(١١) صفحات مطوية ، ص٣٧ .

(١٢) صفحات مطوية ، ص١٢٢ .

(١٣) صفحات مطوية ، ص١٢١ .

(١٤) صفحات مطوية ، ص١٣٨ .

(١٥) صفحات مطوية ، ص٢٤٣ .

(١٦) صفحات مطوية ، ص ٧٧ ، ٧١ - ٧٣ مقالاته عن اللورد كرومر وتقييم سياسته في مصر .

(١٧) المرجع السابق ، ص١٤٣ ، ص١٤٤ .

(١٨) المرجع السابق ، ص٢٤ ، ٥٠ - ٥٦ .

(١٩) المرجع السابق ، ص٢٣٧ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص٢١١ .

(٢١) المرجع السابق ، ص١٩٧ - ٢١١ .

(٢٢) المرجع السابق ، ص٢١٤ .

(٢٣) المرجع السابق ، ص١٣٣ .

(٢٤) الاقتباسات المتعلقة بالوزارة والحكم من نفس المرجع صفحات ١٧٥ - ١٧٦ و ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٥٤ .

(٢٥) صفحات مطوية ، ص٢٤٧ ، ٢٦٦ .

(٢٦) نفس المرجع ، ص٢٠ .

(٢٧) نفس المرجع ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

* * *

مراجع مختارة

١ - أحمد زكريا الشلق : حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ .

٢ - أحمد لطفي السيد : صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر ١٩٠٧ - ١٩٠٩ ، جمعة إسماعيل مظهر ، القاهرة ١٩٤٦ .

٣ - أحمد لطفي السيد : قصة حياتي ، كتاب الهلال ، عدد ١٣١ ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٢ .

٤ - أحمد لطفي السيد : تأملات في الفلسفة والأدب والاجتماع ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ .

٥ - أحمد لطفي السيد : مباديء في السياسة والأدب والاجتماع ، كتاب الهلال ، عدد ١٤٩ ، أغسطس ١٩٦٣ .

٦ - أحمد لطفي السيد : المنتخبات ، الجزء الأول ، دار النشر الحديث ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٧ - أحمد لطفي السيد : المنتخبات ، الجزء الثاني ، مطبعة المقتطف بمصر ، ١٩٤٥ (جمعها إسماعيل مظهر) .

٨ - حسين فوزي النجار : أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل ، أعلام العرب ، عدد ٢٩ ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٩ - حسين فوزي النجار : لطفي السيد والشخصية المصرية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٣ .

١٠ - عبداللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر ، الجزء السادس ، لطفي السيد في الجريدة ، الطبعة الثانية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١١ - لويس عوض : المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي ، الجزء الأول ، معهد البحوث والدراسات العربية العالية بالقاهرة .

١٢ - ليفين ، ز. ك. : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر ، ترجمة بشير السباعي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٧٨ .

١٣ - Ahmed, J. M., "The Intellectual Origins of Egytpian Nationalism", London, 1960.

١٤ - Safran, N., "Egytp in Search of Political Community", Harvard, 1961.

مسوغات القبول في صور المجاز

الدكتور توفيق الفيـل
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية

تقديــم :

لا يهدف هذا البحث إلى التأريخ لنشأة مصطلح المجاز بأنواعه . كما لا يعني بنشأة هذا الفن ، ومتى استخدم ، وما مراحل التطورالتي مر بها حتى تحددت أشكاله ، وامتازت أنواعه ، فهذا كله على الرغم من أهميته لا يشكل لحمة هذا البحث الذي يعني بالدرجةا لأولى بمحاولة الكشف عن المسوغات التي تجعل هذه الصورة أو تلك من صور المجاز مقبولة ، وتجعل غيرها محل نقد ومؤاخذة ، أو محل نفور ورد .

ومع تسليمنا بأن العصور تختلف فيما بينها من حيث النظر إلى هذه الأشياء ، كما تختلف الآراء والأذواق في العصر الواحد حول ما يقبل من صور المجاز وما يرد . وذلك بسبب تباين الثقافات ، واختلاف وجهات النظر ، فإننا نجد بعض الصور تكاد تكون محل اتفاق سواء في القبول أو الرد ، ولهذا نحاول أن نجد المعيار أو المعايير التي يتم الاستناد إليها في بناء هذه الصور ، ولعل من أهم ما يدفعنا إلى هذه المحاولة أن بعض الكتاب في زماننا قد أخذوا يستخدمون اللغة بطرق فيها قدر كبير من الاعتساف مما أدى إلى التعقيد والتعمية .

اللغة والتعبير عن المعاني :

وربما كان من أول الأمور التي تصادفنا وتبين أن اللغة مهما كان اتساعها تظل محدودة في مواجهة المعاني المتجددة ، وأنها على الرغم مما يتهيأ لها من الاشتقاق والنحت والاقـتراض تظل في حاجـة إلى سبل تمكنها من الإحاطة بهذه المعاني والتعبير عنها .

ولقد كانت إشارة الجاحظ في هذا الشأن صائبة حين ذهب إلى أن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي ، والحضري والقروي ، وأن العبرة في التعبير عن هذه المعاني . لقد كان الجاحظ يشير بذلك إلى إشكالية التعبير بالمحدود عن غير المحدود . أو بالألفاظ المحدودة عن المعاني الكثيرة المتجددة . ويبدو أنه قد نسب الفضل إلى من يستطيع التوفيق بين متطلبات المعنى وقدرة اللفظ وما فيه من طاقات . وهذا لا يتهيأ لغير الموهوبين من الشعراء والأدباء .

ولقد حاول الأدباء من جانبهم الخروج من هذا المأزق فحوروا في الاستخدام وقدموا وأخروا وحذفوا وذكروا . . وسلكوا طرقاً شتى من النظم .

وقد أدرك الباحثون المحدثون . والنقاد القدماء ذلك ، فالقاضي الجرجاني يبين لنا أن لغة الشعر مبنية على التوسع ، وأنها لا تقوم على التحقيق والوقوف بهذه اللغة عند التحقيق يفسد لغة الشعر ، لكنه يضع الضوابط التي تحكم التصرف حتى لا يتحول إلى فوضى تفسد اللغة ، أو يصبح قيوداً تفسد الشعر[1] .

وعبدالقاهر الجرجاني[2] يرى أن للشعر لغة خاصة أيضاً ، ويصف هذه اللغة بأنها ذات حركة خفية كالهمس ، وكسرى النفس في النفس ، وفيها ما فيها من اللطائف التي لا يمكن أن تظهر إلا إذا كان المتصفح للكلام حساساً يعرف وحي طبع الشعر .

وكما ذهب القدماء إلى خصوصية لغة الشعر وتميزها ذهب بعض المحدثين ، فقال : «ان الأدباء بوجه عام والشعراء منهم بوجه خاص ، يستعملون اللغة على نحو خاص ، وهم يعتمدون كل الاعتماد على ما في الألفاظ والتراكيب من قوة إيحاء ، وهم بطبيعة الحال ليسوا على قدر واحد من السيطرة على اللغة وتراكيبها ، ولهذا يتسع البون بينهم في إثارة المشاعر ، ونقل الأحاسيس . ولعل ذلك من الأسباب التي تجعل الشعر حمال أوجه في تفسيره والوقوف على معانيه ، وذلك أمر

---

(١) القاضي : علي عبدالعزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ط٤ ، ص٤٢٩ ، ت أبو الفضل .

(٢) الجرجاني : عبدالقاهر : أسرار البلاغة ، ص٢٨٠ ، ت النجار ، صبيح .

طبيعي لأننا حين نبحث عن المعنى في الشعر ، لا نبحث عن المعنى المعجمي لكل لفظ على حدة ، ولا يمكن أن يكون ذلك ما يهدف إليه من الشعر ، فللشعر طبيعة خاصة ، تعتمد اعتماداً كبيراً على الألوان والظلال المختلفة التي تثيرها الكلمات»[٣] .

ولما كانت الألوان والظلال والإيحائات المختلفة من الأمور التي يعتمد عليها الشعر ، واللغة لا يمكن أن تحققها بأصل وضعها كان على الشعراء أن يتصرفوا فيها على نحو لا يخرج بها عما استقر من قواعدها . وفي الوقت نفسه يحققون من خلالها ما يريدون تحقيقه . ولقد كانت نظرة الشعراء تختلف عن نظرة علماء اللغة . فإذا كان الأخيرون يهمهم أولاً صحة اللغة ، وسلامة تراكيبها وجريانها على القياس والشروط ، فإن الأدباء كان همهم ينصرف إلى نقل مشاعرهم وأحاسيسهم ، وتحقيق الغايات الجمالية المنوط بالفن تحقيقها ، ولهذا خرجوا عن المألوف . وكان خروج بعضهم عن قصد وبينة ، وكانت غاياته الجمالية واضحة أمامه -كما سنشير- وخروج بعضهم لعدم قدرتهم على تحقيق أي من الغايتين . وأياً كانت الأمور فإن صراعاً وقع بين اللغويين والشعراء . يصبح من نافلة القول إعادة ما حدث من ردومهاجاة بين الفرزدق وابن أبي اسحاق الحضرمي . وقد عبر عمار الكلابي عن هذا الصراع في قوله :

ماذا لَقِيتُ مِنَ المستعْربين ومِنْ	قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا
ان قلت قافية بكرا يكون لها	معنى خلاف الذي قاسوه أو زرعوا
قالوا «لحنت» وهذا الحرفُ منخفضٌ	وذاك نَصْبٌ ، وهذا ليس يَرْتَفِعُ
وحرضوا بين عبدِ اللّهِ واجتهدوا	وبين زَيدٍ فطالَ الضربُ والْوَجَعُ
كم بين قومٍ قد احتالوا لِمنطِقِهم	وبين قومٍ على إعْرَابِهم طُبِعُوا
فقلت واحدةً فيها جَوَابُهُم	وكثرةُ القولِ بالإيجازِ تَنْقَطِعُ
ما كلُّ قَوْليَ مشروحاً لكم فَخُذُوا	ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا

---

(٣) د. محمود السعران : علم اللغة : مقدمة ، ص٦٩٥ - ٦٩٦ ، دار المعارف ، مصر .

حتى يصيرَ إلى القوم الـذين غُذُوا بِمَا غُذِيتُ به والقولُ يَجْتَمِعُ
لأن أَرْضِيَ أرضٌ لا تشبُّ بها نَارُ المَجُوسِ ولا تُبْنَى بِهَا الْبِيَعُ

فالهجوم والسخرية ، واتهام اللغويين بعدم الوقوف على أسرار الشعر وخفاياه ، والإحساس بما فيه من شحنات عاطفية ، وخلجات نفسية ، كل هذا يعكس ضيق الشعراء بموقف اللغويين ، المتتبع لما قد يقع فيه الشاعر من خطأ في الإعراب –حسب رؤيته– وعجزهم في نفس الوقت عن معرفة ما للشعر من طبيعة خاصة ، ووظيفة يسعى الشاعر إلى تحقيقها . لقد مكث الشعراء في كل وقت ينظرون إلى اللغويين بارتياب وشك ، ويعتقدون أنهم غير مؤهلين لتذوق الشعر والنظر فيه والحكم عليه ، فكل همهم ينصرف إلى اللغة ومعاني الألفاظ ومحاولة الوقوف على الغريب . يقول بذلك الجاحظ ، كما يقول به أبو نواس والبحتري ، ونجده عند غير واحد من النقاد(1)

وعلى أية حال لم يكن الخروج على المألوف من قواعد اللغة هو السبيل الوحيد الذي لجأ إليه الأدباء لتحقيق ما يريدون . ولئن كان ذلك السبيل محفوفاً بالمخاطر ، ويترصد خطاهم فيه علماء اللغة فإن لهم سبلاً أخرى أوسع مدى ، وأرحب أفقاً ، ويأتي في طليعتها :

الاستخدام المجازي :

ولقد أدرك القدماء ما يناط بالاستخدام المجازي في مجال الأدب ، وما يهيئه هذا الاستخدام من إمكانات .

فعبد القاهر الجرجاني : يقول عن أحد نوعي المجاز وهو ما أطلق عليه المجاز العقلي ، ذلك المجاز الذي يكون في إسناد أمر إلى غير ما هو له كإسناد فعل إلى غير فاعله ، أو خبر إلى غير مبتدئه : «وهذا الضرب من المجاز على جدته كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طريق البيان ، وأن يجيء الكلام مطبوعاً مصنوعاً ، وأن يضعه بعيد

(1) ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر ونقده ، جـ٢ ، ص١٠٤ – ١٠٥ .

المرام ، قريباً من الأفهام» ، وهو يحذر من عدم وضع هذا الفن من المجاز موضعه ، أو أن لا يقدر حق قدره ، حين ينظر إلى بعض صوره التي شاعت وكثر استعمالها فابتذلت أو فقدت طاقتها الإبداعية ، وأصبحت ضعيفة التأثير لقربها من الاستخدام الحقيقي ، فليست كل صور المجاز العقلي على هذا النحو . إذ أن فيه «ما يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها ، والنادرة تأنق لها»[1] .

وليس الدور الفني وقفاً على هذا النوع من المجاز دون غيره ، لأننا نجد مثله في فن الاستعارة التي كانت أحد أبواب البديع ، ولوناً من ألوانه الساحرة التي لفتت الشعراء إلى جمالها فيما وردت فيه من الشعر ، فعمدوا إلى محاكاتها والإكثار منها - إضافة إلى الألوان الأخرى ، كما عبر عن ذلك عبدالله بن المعتز . ولعله لا يغيب عنا ما ذهب إليه أبو عثمان الجاحظ من خصوصية لغتنا في البديع -حسب تصوره- أي بالمعنى العام للبديع[2] .

والقاضي الجرجاني يعد الاستعارة : «أحد أعمدة الكلام ، وعليها المعول في التوسع والتصرف ، وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر»[3] .

أما عبدالقاهر فيقرر أن الاستعارة : «تبرز البيان في صور مستجدة تزيد قدره نبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً» وهي تخرج الأشياء عن صورها المألوفة ، وتبرزها في حلى جديدة : «فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية»[4] . وتسمو الاستعارة ويعلو قدرها عنده حين تتجاوز المحسوسات ، وتأتي في صور عقلية ، فالمبدع حين يتجاوز الأشياء التي تقع تحت حسه ويلج هذا الباب تتفتح أمامه سبل القول وتتاح له مجالات واسعة ، والاستعارة حينئذ تستعصي على غير الأفذاذ

---

(١) الجرجاني : عبدالقاهر : دلائل الإعجاز ، ت خفاجي ، ص٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢) أنظر مفهوم البديع في كتاب من قضايا النقد والبلاغة ، توفيق الفيل ، م الشباب ، ١٩٨٠م ، ص١٨٩ وما بعدها .

(٣) الوساطة : ص٤٢٨ .

(٤) أسرار البلاغة : ص٤٦ ، ٤٧ .

من المبدعين . يقول عبدالقاهر عن الاستعارة فيما بين الأمور المعقولة «إنها تبلغ غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها ، وهنا تخلص لطيفة روحانية ، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة ، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب . ولهاهنا أساليب كثيرة ومسالك مختلفة»[1] .

مقتضيات الصنعة الفنية :

ورد عن القدماء قولهم «أعذب الشعر أكذبه» ومن المؤكد أن هذا القول لم يكن يعني حسن الشعر الذي يجافي الحقيقة . ويتناقض معها وإنما كان قصدهم من هذه العبارة ، ما يقوم عليه الشعر من الصنعة الفنية ، وما يتطلبه من التوسع والتخييل . وهو ما يريد أن «يثبت فيه الشاعر شيئاً غير ثابت أصلاً ، ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى»[2] . ولهذا في الشعر مسالك متعددة ، وطرق كثيرة . بل هو ، كما يقول عبدالقاهر[3] : «لا يكاد تجيء فيه قسمة تستوعبه ، وتفصيل يستغرقه» ، فمنه ما يجيء على نحو قول أبي تمام :

إن رَيْبَ الزَّمانِ يحسنُ أن يهدي ... الرزايا إلى ذوي الأحسابِ

فلهذا يَجِفُّ بعد اهتزازٍ ... قبل روضِ الوهادِ روضُ الروابي

وقوله :

لزموا مركزَ النَّدَى وذُرَاهُ ... وَعَدَتْنا عن مثل ذاك الْعَوادِي

غير أن الربى إلى سبلِ الأنواءِ ... أدنى . . . والحظُّ حَظُّ الوِهَادِ

ولا أريد الاستطراد بذكر محاسن هذا اللون ، وحسبنا أن نذكر ما يضفي

---

(١) أسرار البلاغة : ص٦٥ .

(٢) السابق : ص٢٥٢ .

(٣) السابق : ص٢٥٣ .

التخييل والصنعة على الفن من خلال ما رآه عبدالقاهر الجرجاني الذي يقول في شرحه للعبارة التي تقول إن أعذب الشعر أكذبه : «فالصنعة إنما يمد باعها ، وينشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها حيث يقصد التلطف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم ، والوصف والبث ، والفخر والمباهات ، وسائر المقاصد والأغراض . وهناك يجد الشاعر سبلاً لأن يبدأ ويزيد ، ويبديء في اختراعه الصور ويعيد ، ويصيب مضطرباً كيف شاء واسعاً ، ومدداً من المعاني متتابعاً ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهي»[٤] :

الضوابط والمسوغات :

وإذا كنا قد عرفنا من خلال ما سبق ما يمكن أن يبلغه المجاز سواء في جمال التصوير وجدته ، أو الإسهام في نقل المشاعر والأحاسيس ، أو فتح السبل أمام المبدعين للتعبير ، فهل يتم ذلك في كل صورة من صور المجاز ؟

إن الجواب عن ذلك نجده عند نقادنا القدامى الذين وجدناهم يقبلون بعض صور المجاز ويشيرون إلى ما تضمنته من الحسن ، وما أضافته إلى المعنى ، كما نجدهم يردون صوراً أخرى ويرونها عبئاً على التصوير وإضعافاً للمعنى .

إن الكلمة الواحدة قد تنقل عن معناها لتعبر عن معنى آخر ، وقد يتم ذلك في غير موضع لكنها تحسن في واحد منها ، ولا يتم لها مثل هذا الحسن في غيره . وعلى سبيل المثال كلمة «أعين» يستخدمها ابن نباتة في قوله :

حتى إذا بَهَرَ الأباطحَ والرُّبَا   نظرت إليكَ بِأَعْيُنِ النُّوارِ

وهو كما نرى يجعل الأعين للنوار ، وقد وقعت موقعاً حسناً ، ويستخدمها أبو تمام في قوله :

---

(٤) السابق : ص٢٥٠ .

قَرَّت بِقـرَّانَ عينُ الـدِّينِ وانتشرت		بالأَشْـتَرَيْنِ عُيـونُ الشِّرْكِ فاصْطَلَمَا

لكنها لا تحظى بما حظيت به في بيت ابن نباتة . بل إن ابن سنان الخفاجي يعدها من أقبح الاستعارات ، «وذلك لعدم وجود الوجه الذي لأجله جعل أبو تمام للدين والشرك عيوناً»[1] .

وسوف نجد صوراً أخرى لهذا اللون وذاك . . .

وقضية قبول الاستعارة وحسنها ، أو قبحها وردها ، من القضايا التي ظهرت مع ظهـور ما أطلق عليه مذهب التجديد في الشعر أو مذهب الصنعة . وهو المذهب الذي أسسه بشار بن برد ، وأبو نواس وزاد فيه مسلم بن الوليد ، ونماه وغـالى فيه أبـو تمام حتى ظنـه البعض من اختراع المحدثين . وكان ذلك من الأسباب التي دفعت ابن المعتز إلى تأليف كتاب البديع ، ليبين من خلاله وجود الاستعارة وصور البديع الأخرى قبل بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد . ومن سار على دربهم ، كما يبين أن هؤلاء ليس لهم سوى الإكثار من هذه الصور «قال عبـدالله بن المعتـز : قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن وغيره ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشاراً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمى بهذا الإسم ، فأعرب عنه ودل عليه . ثم إن حبيب بن أوس الـطائي من بعدهم شُغِفَ به حتى غلب عليه ، وتفرع فيه وأكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك ، وأساء في بعض ، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف»[2] .

وقـد تتبع بعض النقاد ما اسْتُجِيدَ من صور الاستعارة ، وما قُبُحَ منها . وكانوا يقدمون بعض التعليل لما يتناولون من الصور أو يتبعون حديثهم بالأساس العام في حسن الاستعارة وقبولها .

(١) سر الفصاحة : ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) البديع : ت كراتشقو فسكي : المقدمة .

ولقد كان أبو تمام بما أحدثه في الشعر من خرق لأصول المجاز ، وما يقوم عليه من الأسس ، من أوائـل الشعراء الذين تعرضوا للوم -وإن لم يسلم منه مسلم بن الوليد- الذي قيل عنه «إنه أول من أفسد الشعر» ولم يكن هذا القول إلا بسبب إكثاره من صور «البديع» بمفهومه العام - وعلى نحو ما أشار إليه ابن المعتز ، ومن بينه الاستعارة . لكننا لا نجد ناقداً من النقاد القدامى لا يتوقف عند بعيد الاستعارات ومستغلقها عند أبي تمام . وإذا أحصينا مؤاخذات النقاد للشعراء من هذه الناحية نجده في الصدارة ، ويأتي بعده أبو الطيب المتنبي . ولما حدث من أبي تمام شاع في شعره الغموض الذي يجعل الوقوف على معانيه عسيراً حتى قيل له : «لم لا تقول ما يفهم» ؟

لكن قد يكون من المغالاة نسبة هذا الغموض في المعنى عند هذا الشاعر إلى أخذه بهذا اللون من ألوان البديع أو غيره . فهناك عوامل أخرى تدفع بشعره نحو التعقيد ، أدركها النقاد القدامى ونصوا عليها . فأنصار البحتري في المناظرة التي عقدها الآمدي بينهم وبين أنصار أبي تمام يردون بأن النقص لا يلحق عالماً من أمثال ابن الأعرابي لأنه لم يفهم شعر أبي تمام . «ولا يلزم ابن الأعرابي من الظلم والتعصب ما ادعيتم ، ولا يلحقه نقص في قصور فهمه عن معاني شعر شاعر عدل في شعـره عن مذاهب العـرب المـألوفة إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ أو الإحالة[1] ، كما أن الآمدي نفسه يقرر مذهب الشاعر» وأنه من أصحاب الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكر» وتعمد إلى ذلك . بل تجعله غاية مبتغاها . ولعل أسلوب أبي تمام في بناء صوره المجازية ، ونهجه فيها طريقاً غير معروف من الأمور التي دفعت ابن الأعرابي إلى القول في شعره : «إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل»[2]

ويسوق الآمدي عدداً من الأبيات قام أبو تمام ببناء صور مجازية استعارية فيها من أمثلتها قوله :

---

(١) الموازنة بين الطائيين : ت السيد صقر ، ص ٢٣ .

(٢) السابق : ص٢٠ .

يا دهــرُ قَوِّم من أخـدَ عيـك فقـد أضججت هذا الأَنَــامَ من خُرَقـك

وقـــولـــه :

سأشكــر فرجــةَ اللببِ الــرَّخِيِّ ولــينِ أَخَــادعِ الــدهــرِ الأَبِيّ

وقـــولـــه :

تروحُ علينــا كل يومٍ وَتَـغْـتَـدِي خطوبٌ كأن الــدهــرَ مِنْهُنَّ يُصْرَعُ

وقـــولـــه :

تحل يفــاعَ المــجْـدِ حتــى كأنها على كِلّ رأسٍ من يدِ المجْـدِ مغْفَـرُ
لها بينَ أبــوابِ المـلوكِ مزامــرٌ من الــذكـرِ لم تنفـخْ ولا هي تُزْمِـرُ

وغير ذلك من الأمثلة التي بلغ بها الآمدي أربعة وعشرين مثالاً . وعقب عليها قائلاً : «وأشباه هذا مما إذا تتبعته في شعره وجدته كثيراً»[٣] .

ثم بين أنه جمع بين سوأتين : غثاثة اللفظ وقبح الاستعارة ، حيث جعل للدهر أخدعا ، ويدا تقطع من الزند ، وكأنه يصرع ، ويشرق بالكرام ويفكر ويبتسم وأن الأيام بنون له . فقد جعل الدهر شخصاً . كما فعل مثل هذا في المدح حين جعل له يداً ، ولقصائده مزامير إلا أنها لا تنفخ ولا تزمر . وعلى الجملة فقد شخص المعنويات وجسدها على نحو لم يكن مألوفاً قبله . مما جعل الآمدي يعلق على الأمثلة التي ساقها بقوله : «وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبعد عن الصواب»[٤] .

ثم يتبع الآمدي تعليقه هذا بأول الأسس التي وضعت لقبول المجاز بصفة عامة ، والاستعارة من بينه بصفة خاصة . وذلك حين يقول : «وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سبباً من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي

(٣) السابق : ص٢٦١ – ٢٦٥ .
(٤) السابق : ص٢٦٥ – ٢٦٦ .

استعيرت له ، وملائمة لمعناه نحو قول امريء القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ولسنا نسلم بأن مجرد تشخيص المعنويات من أمثال الدهر ، والقصائد ، والمجد وغيرها كان السبب الوحيد في دِرِ المجاز وعدم قبوله واستحسانه . فمن صور المجاز التي جاءت على هذا النحو وقبلت ، بل كانت موضع الإعجاب من النقاد على اختلاف طبقاتهم قوله تعالى : «والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس» . وقوله تعالى : «إذا أُلقُوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور ، تكاد تميز من العيظ» إلى غير ذلك من الاستعارات .

ولقد تردد هذا القول عند النقاد حين وجدوا أمثلة شخّص فيها الشعراء الدهر عن طريق الاستعارة . وَقُبِلَ ذلك منهم . وقد استعرض القاضي الجرجاني أمثلة لذلك ، وهو يعتذر للمتنبي عن بعض الاستعارات التي أخذت عليه . يقول : «وقد كان بعض أصحابنا يجاريني أبياتاً أبعد أبو الطيب فيها الاستعارة ، وخرج عن حد الاستعمال والعادة . فكان مما عده منها قوله :

مسرةٌ في قلوبِ الطيرِ مفرقها وحسرةٌ في قلوبِ الْبَيْضِ والْيَلَبِ

وقوله :

تجمعت في فُؤَادِهِ هِمَمٌ ملءُ فؤادِ الزمانِ إحْدَاهَا

فقال : «جعل للطيب والبيض واليلب قلوباً ، وللزمان فؤاداً . وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد» ثم يقارن القاضي الجرجاني بين قول المتنبي وقول ابن أحمر :

وَلِهَتْ عليه كلُّ مُعْصِفَةٍ هوجاءَ ليس لِلُبِّهَا زَبْرُ

فقد جعل للريح لبا . فما الفرق بينه وبين من جعل للطيب والبيض واليلب قلوبا ؟ «وأبو رميلة» يجعل للدهر ساعداً حين يقول :

هُمْ ساعدُ الدهرِ الذي يُتَّقى بِهِ ... وما خيرُ كَفٍّ لا تنوءُ بِسَاعِدِ

والكميت يجعل للدهر ظهراً وبطناً ، ويجعله يتمرغ في الرمل ، أو يتقلب كما يتقلب الرجل . وشاتم الدهر العبقى يمضي في نفس الاتجاه . فيقول :

ولما رأيت الدهرَ وعرا سَبيلُهُ ... وأبدى لنا ظهراً أَجَبَّ مُسَمَّعَا
ومعرفةً حصّاءَ غيرَ مُفاضَةٍ ... عليه ، ولوناً ذَا عَثَانِينَ أَجْدَعا
وَجَبْهَةِ قِرْدٍ كالشراكِ ضئيلةٍ ... وصَعَّرَ خَدَّيه وأنفاً مُجَدَّعَا

فهؤلاء الشعراء الذين سبقوا قد جعلوا الدهر شخصاً متكامل الأعضاء كما يقول القاضي الجرجاني ولم يؤاخذهم أحد بذلك[1] ومعنى ذلك أنهم أوغلوا في الصور المجازية أكثر مما أوغل أبوالطيب المتنبي . لكن أحداً لم ينكر عليه ذلك . ولئن كان ذلك الناقد الذي أجرى الحوار مع القاضي الجرجاني لم يجد علة ظاهرة يرجع إليها قبوله للصور المجازية التي بناها هؤلاء الشعراء غير إحساسه بالتفاوت بينها وبين استعارات أبي الطيب المتنبي . فإن القاضي الجرجاني يحاول الكشف عن هذه العلة من خلال بيان المناسبة التي مهدت للمجاز عند هؤلاء الشعراء وافتقادها عند أبي الطيب المتنبي . فهو يبين المسوغ الذي جعل تشخيص الريح مقبولاً في بيت ابن أحمر : وهو «أن الريح لما خرجت بعصوفها عن الاستقامة» وزالت عن الترتيب شبهت بالأهوج الذي لا مُسْكَةَ في عقله ، ولا زبر للبه ، ولما كان مدار الأهوج على التباس العقل ، حسن من هذا الوجه أن يجعل للريح عقلاً» كما يبين المسوغ لقبوله الصورة المجازية في بيت أبي رميلة :

هم ساعد الدهر الذي يتقي به

(١) الوساطة : ص٤٣٠ .

على أن المراد بالدهر أهله . وأخيراً يبين مسوغ قبوله الصورة في أبيات «شاتم الـدهر العبقى بما جرت عليه العادة ، وأن هذا القول خرج مخرج الهزل «فأما أبيات شاتم الدهر فإنما صدرت مصدر الهزل - وجرت على عادة من الاستعمال متـداولـة وذلك أنهم لما ابتذلوا اسم الدهر ، واعتمدوا على صرفه في الشكاية والشكر ، وأحالوا عليه باللوم والعتب ، وألفوا ذلك واعتادوه حتى صار أغلب على كلامهم ، وأكثر في شعرهم وخطابهم من ذكر أهله وأبنائه ، ومن تقع هذه المحـامـد والملاوم عنه ، ويحدث أسبابها من جهته ، صار كالشخص المحمود المذموم ، والإنسان المحسن المسيء ، فوصف بأوصافه ، وحلى بحلاه ، وجعل له أعضاء تعد وتنعت ، وتستكرم وتستهجن»[1] .

العلة إذن في قبول بعض صور المجاز ، ورفض بعضها لا يعود إلى الإيغال في تجسيد المعنويات ، بل يعود في الدرجة الأولى إلى الغرض الذي توظف الصور للكشف عنه ، ومدى لصوق التصوير بما ألفه الناس في الاستخدام ، وجرت به عادتهم . ولعـل عبـدالقـاهـر الجرجاني كان أكثر إدراكاً للارتباط بين الصورة المجازية والموضع الذي جاءت فيه من جهة ، وارتباطهما معاً بالمعنى الذي جاءا ليعبرا عنه من جهة أخرى .

لقد جعل عبدالقاهر حسن الاستعارة يتوقف على تهيئة الكلام لها ، وإعداده لتقبلها . فحسن الاستعارة وغرابتها في قول الشاعر :

سالت عليه شعابُ الحيِّ حين دعا ... أنْـصَـارَهُ بوجـوهٍ كالـدَّنَـانِـيرِ

إنما جاء عن طريق ما توخاه الشاعر في النظم من التقديم والتأخير . وهو يؤكد صحـة ما ذهب إليه بالنظر إلى الكلام بعد تغيير نظمه ، وإزالة كل من الجار والمجرور والظرف عن موضعه . كأن نقول : سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير حين دعا أنصاره» ونقارن بين حسن الكلام هنا ، وما جاء عليه في قول الشاعر ،

(١) الوساطة : ص٤٣١ .

ولا شك أننا سنكتشف الفرق الواضح بينهما . وسيكون الأمر كما قال : «ثم انظر كيف يكون الحال ، وكيف يذهب الحسن والحلاوة ، وكيف تعدم أريحيتك التي كانت ، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها»[1] .

ويزيد من وضوح أهمية إعداد الكلام وتهيئته لتقبل الاستعارة ، وإلقاء الأضواء الكاشفة عليها ما نجده من استعارة اللفظ الواحد في أكثر من موضع سبقت الإشارة إلى ذلك . ونحن نجد له من الحسن في موضع ما لا نجده له في آخر . فأبو تمام يستعير كلمة الجسر» في قوله :

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها تنال إلا على جسر من التعب

وفي قوله :

لا يطمع المرءُ أن يَجْتَابَ لجَّتَهُ بالقولِ ما لَمْ يكنْ جِسْرَاً له العملُ

وحسنها في البيت الأول أكثر منه في الثاني .

«وربيعة الرقي» يستعير نفس الكلمة في قوله :

قولي : نعم . ونعم إن قلت واجبةٌ قالت عسى ، وعسى جسرٌ إلى نَعَمِ

وهي في هذا البيت لا تصل إلى ما وصل إليه أبو تمام في بيتيه السابقين . ولا نجد ما نرجع إليه هذا التفاوت في الحسن والخلابة ، غير إعداد الأسلوب وتهيئة الكلام لتمكين الاستعارة ، وخلق المناخ الملائم لها»[2] .

ويحدثنا عبدالقاهر الجرجاني في غير موضع عن أهمية النظم في قبول الاستعارة والمجاز العقلي ، فيقول : «واعلم أن سبب اللطف في ذلك أنه ليس كل شيء يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز الحكمي بسهولة ، بل تجدك في كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهيء الشيء وتصلحه لذلك بشيء تتوخاه في النظم وإن أردت مثلاً في ذلك فانظر إلى قوله :

تناسَ طلابَ العامرية إذ نأت بأسْجَعَ مرقالِ الضُّحَى قَلِقِ الضَّفْرْ

(١) دلائل الإعجاز : ص١٣١ . (٢) السابق : ص١١٥ .

إذا ما أحسته الأفاعي تَحَيَّزَت شواة الأفاعي من مثلمة سمر
تجوب له الظلماءَ عينٌ كأنها زجاجةُ شربٍ غير ملأى ولا صِفْرِ

فالمجنون يصف ذلك الجمل الذي رحلت عليه ليلى العامرية ، وجاب بها الصحاري والقفار في ظلمة الليل التي تشبه السد . وساعده على السرى وسير الظلمة عينه التي تخترق الظلام . وقد حدث تجوز في إسناد الفعل «تجوب» إلى «عين» وهذا ما يطلق عليه المجاز العقلي ، أو الحكمي . وقد هيأ الشاعر الأسلوب وأعده لهذا المجاز «فأنت تعلم أنه لولا أنه قال : تجوب له . فعلق له «بتجوب» لما صلحت العين لأن يسند إليها «تجوب» . ولكان لا تتبين جهة التجوز في جعل «تجوب» فعلاً للعين»[1] .

وينتهي عبدالقاهر إلى القول بوجوب النظر إلى هذه التهيئة واعتبارها في كل من المجاز العقلي ، والاستعارة التي هي مجاز في الكلمة . لأنها - ككل مجاز تحتاج إلى أن تقدم في الكلام ما يبين الجهة التي بنيت العبارة عليها . أو كما يقول : «وأنت تحتاج في الأمر الأكثر إلى أن تمهد لها ، وتقدم وتؤخر ما يعلم به أنك مستعير ومشبه ، ويفتح طريق المجاز إلى الكلمة» ثم يمثل على ذلك بما اتبعه الشاعر في قوله :

وصاعقة من نصله ينكفي بها على أرؤس الأعداء خمس سحائب

فحين أراد استعارة «السحائب» للأصابع . مهد الكلام لذلك ، «ولم يأت بها دفعة ، ولم يرمها إليك بغتة ، بل ذكر ما ينبيء عنها ، ويستدل به عليها ، فذكر أن هناك صاعقة ، وقال من نصله ، فبين أن تلك الصاعقة من نصل سيفه ثم قال : أرؤس الأعداء . ثم قال خمس فذكر الخمس التي هي عدد أنامل اليد . فبان من مجموع هذه الأمور غرضه[2] . وقد يطول بنا الحديث إذا رحنا نتتبع ما جاء به عبدالقاهر من الأمثلة التي يكشف من خلالها أهمية النظم في حسن المجاز أو الاستعارة وقبولها في قوله تعالى : «واشتعل الرأس شيبا» . فهو لا

(١) دلائل الإعجاز : ص٢٩٠ . (٢) السابق : ص٢٩١ .

يرى ما رآه غيره من نسبة الحسن إلى استعارة «اشتعل» للشيب . بل الحسن عنده يرجع إلى نظم الكلام على النحو الذي جاء عليه . فالفعل في الآية لا يسند إلى الشيب . بل يسند لما هو من سببه ، أو بعبارة أخرى حدث تحويل في العبارة . فقدم المضاف إليه ، وجعل فاعلاً . وأخر المضاف ونصب على التمييز . ولهذا يقول النحاة عنه إنه تمييز محول عن الفاعل . وهم بذلك يشيرون إلى وضعه الأصلي في الكلام . والتبادل في الموضعية بين المضاف والمضاف إليه كانت السبب في كثير من الجمال الذي نحسه في الآية ، كما كانت السبب في ذلك المعنى الذي لا يشير إليه الكلام قبل هذا التحويل . وهذا ما يتضح من السؤال الذي طرحه عبدالقاهر الجرجاني وأجاب عليه . فقال : فإن قلت : «فما السبب في أن كان «اشتعل» إذا استعير للشيب على هذاالوجه كان له الفضل ، ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى «الشمول» وأنه شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه استقر به ، وعم جملته حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به»[1] .

الأمر الثالث الذي يتوقف عليه حسن الاستعارة وقبولها . ما أطلق عليه النقاد : «مناسبة المستعار منه للمستعار له» والقاضي الجرجاني يسلط بعض الأضواء على هذه المسألة . فالاستعارة عنده «ما اكتفى فيها بالإسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه»[2] ، وهو يعود في مكان آخر ليبين صحة الاستعارة وحسنها فيقول : «وإنما تصح الاستعارة وتحسن ، على وجه من المناسبة ، وطرف من الشبه والمقاربة»[3] . ومعنى ذلك أن صحة الاستعارة تتوقف في جانب منها على وجود الشبه بين المستعار منه ، والمستعار إليه . فالأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه . وهم يطلقون عليها هذا المصطلح ويقولون إن كل استعارة تشبيه وليس كل تشبيه استعارة . وعند تحليل أي صورة من صور الاستعارة نعود بها إلى الأصل ، ونظهر المشبه والمشبه به ، ثم

(١) السابق : ص١٣٢ - ١٣٣ . (٢) الوساطة ، ص٤١ . (٣) السابق : ص٤٢٩ .

نبين كيفية الانتقال بينهما . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا النقل والتبادل بين المشبه والمشبه به لا يتم في كل صورة من صور التشبيه ، لأن من هذه الصور ما يكون مبناه على التشبيه فإذا حاولنا المبالغة فيه ، وإخراجه إلى الاستعارة لم يتم لنا هذا فلا يمكننا أن نقوم بهذا النقل في قوله تعالى : «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء» لأننا حينئذ سنقول : إنما الحياة ماء أنزلناه من السماء ، أو الماء ينزل من السماء وذلك كلام لا وجه . ومثل ذلك تجاهل التشبيه في قول الشاعر :

فإنــك كالليــل الــذي هو مدركي وإن خِلْت أن المنتـأى عنـك واسعُ

فإن حذف الكاف يخرج إلى غير المعنى المراد : «إنك تجد الاسم في الكثير وقد يوضع موضعاً في التشبيه بالكاف لو حاولت أن تخرجه من ذلك الموضع بعينه إلى حد الاستعارة والمبالغة ، وجعل هذا ذاك لم ينقد لك . كالنكرة التي هي (ماء) في الآية الكريمة . وفي الآي الآخر نحو قوله تعالى : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعـد وبرق» فلا يصح القول هن صيب دون إضمار أداة التشبيه لأن الموضع الذي تعبر عنه الآية لا يصح أن يجعلوا فيه صيباً .

ومادام الأمر كذلك فما الأصل الذي يمكن الرجوع إليه فيما يمكن صرفه إلى الاستعارة وما لا يمكن فيه ذلك .

لا يقدم عبدالقاهر الجرجاني قولاً قاطعاً في ذلك ، وإن كان يشير إلى شيء يمكن الاعتـماد عليه في هذا الصـدد . وهـو ما يتوقف عليه وضوح الشبه بين المستعار منه والمستعار له . يقول[1] : «فإن قلت فلابد من أصل يرجع إليه في الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه للاستعارة والمبالغة ، وما لا يحسن ذلك فيه ، ولا يجيبك المعنى إليه ، بل يصدر وجهك عنه متى أردته عليه . فالجواب : أنـه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع . ولكن هنا نكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها . وهي أن الشبه إذا كان وصفاً معروفاً في الشيء . قد جرى العرف

(١) أسرار البلاغة : ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

بأن يشبه من أجله به ، وتعورف كونه أصلاً فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن في الشمس ، أو الاشتهار والظهور ، وأنها لا تخفي فيها أيضاً . وكالطيب في المسك ، والحلاوة في العسل ، والمرارة في الصاب ، والشجاعة في الأسد ، والفيض في البحر والغيث ، والمضاء في السيف إلخ فاستعارة الاسم للشيء على معنى ذلك الشبه تأتي سهلة منقادة ، وتقع مألوفة معتادة : وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعورف كونها أصولاً فيها ، وأنها أخص ما توجد بها . فكل أحد يعلم أن أخص المنيرات بالنور الشمس ، فإذا أطلقت ودلت الحال على التشبيه لم يخف المراد»[1] .

الشرط إذاً وضوح الدلالة وعدم خفاء المراد ، لأن ذلك الخفاء يؤدي إلى اللبس والتعقيد في الكلام ، وذلك ما يتنافى مع المقدمات الضرورية التي وضعها النقاد للبلاغة في الكلام .

لكن يحق لنا أن نتساءل إلى أي مدى يتفق هذا الكلام مع ما ذهب إليه عبدالقاهر الجرجاني من الإعجاب بما كان التباعد فيه موجوداً بين المشبه والمشبه به من جهة ، وما يكون الوجه فيه خفياً من جهة أخرى .

لقد وجدنا عبدالقاهر يشيد بالتشبيه الذي يتم بين الأشياء المتباعدة . وهو يذكر لنا في هذا الصدد تلك الحادثة التي وقعت بين عدي بن زيد وجرير ، وما كان من إشفاق جرير على عدي حين افتتح التشبيه في قوله :

تُزْجِي أغنَّ كأن إبرةَ رَوْقِهِ

إذْ ما عساه يكمل به هذه الصورة . ثم تحول الإشفاق إلى حسد عندما أتمها فقال : قلم أصاب من الدواة مدادها .

ويتساءل عبدالقاهر : «فهل كانت الرحمة في الأولى والحسد في الثانية إلا لأنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر ما لا يحضر له في أول الفكرة وبديهة الخاطر وفي القريب من محل النظر شبه . وحين أتم التشبيه وأدّاه ، صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف ، وعثر على خبيء مكانه غير معروف»[2] .

---

(١) أسرار البلاغة : ص٢٣٠ - ٢٣١ . (٢) السابق : ص١٤٦ - ١٤٧ .

كذلك وجدنا عبدالقاهر يعلي من شأن التمثيل ، ويبين ماله من قيمة فنية في تصوير الأشياء ، وماله من قوة تأثير في متلقيه . ووجه الشبه في هذا النوع من التشبيه مما يحتاج إلى نظر واستنباط .

وهذا الأمر يزداد وضوحاً من خلال نظرته للاستعارة ووضعها في مراتب من حيث ظهور وجه الشبه من جهة . ومن حيث القيمة من جهة أخرى . فمما يجعل الاستعارة تعلو في سلم البلاغة مجيء الوجه فيها مما يدرك بالعقل ، ويحتاج إلى نظر وهو يبين أن الاستعارة تقع بين أمور متقاربة ، كما تقع بين أمور متباعدة . وهي حين تكتمل تكون فيها تباعد أعلى منزلة منها فيها تقارب . وأقل المراتب في سلم البلاغة . هي المرتبة الأولى تلك التي يكون المستعار منه والمستعار له من جنس واحد . أي أن التبادل يتم في دائرة محدودة هي دائرة الجنس الواحد ومن ثم يسهل الانتقال بين المستعار منه والمستعار له . وعلى سبيل المثال يشترك «السير والسباحة ، والعدو والطيران» في جنس الحركة . لكن هذه الحركة تختلف من حيث القوة والضعف . فإذا استعرنا الطيران لنعبر به عن السير السريع . فقلنا طار الجندي إلى المعركة . وكما جاء في حديث الرسول ﷺ «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما سمع هيعة طار إليها» وقول الشاعر :

لو يشا طار به ذو مَيْعَةٍ　　　لا حِق الأطال نَهْدٍ ذو خُصَلْ

فإننا قمنا بالنقل والتبادل بين الألفاظ في دائرة الجنس الواحد الذي يشتركان فيه . ولهذا تعد الاستعارة في هذا الصنف قريبة التناول وقريبة من الحقيقة ، إذ لا تحتاج إلى كبير عناء في ردها إلى أصلها ، والوقوف على حقيقتها .

ومن الاستعارة التي يشترك فيها المستعار والمستعار له في الجنس قوله تعالى : «ومزقناهم كل ممزق» فالتمزيق في الآية مستعار لتفريق الجماعة . والأصل فيه التفريق في الثوب .

وتجـدر الإشـارة إلى أن قرب الاستعارة في هذا الضرب ، أو فيما يأتي من الضروب الأخرى لا يعني أن غيرها أفضل منها في الموضع الذي عبرت عنه . فلكل مقام مقال . وقد يكون التعبير بالحقيقة . أو بأي وسيلة من الوسائل أَبْيَنُ وأدل على المراد من غيره . إن بلاغة الأدوات الفنية رهن بالموقف الذي تعبر عنه واستجابتها لما يراد منها تصويره ووضوح دلالتها عليه .

كما تجدر الإشارة إلى أن أياً من مراتب الاستعارة تقع في طبقات ، وتتفاوت كل طبقة عن الأخرى في الأداء الفني .

المرتبة الثانية لا تبعد كثيراً عن الأولى ، أو لا يتصف الوجه بالخفاء فيها إلى الحد الذي يحتاج إلى نظر . فجهة الاشتراك بين المستعار منه والمستعار له موجود فيهـما ، وإن اختلفت درجتها . وتلك المرتبة هي التي يشترك فيها الطرفان في الصفة ، وان اختلف جنسهما ، وذلك كاستعارة البحر للرجل على معنى كثرة العطاء في كل منهما . أو الأسد للرجل على معنى الشجاعة في كل منهما .

المـرتبة الثالثة ، لا يكون بين الطرفين اشتراك في الجنس أو الصفة . بل الاشتراك يتحقق بينهما في لازم الصفة ، وذلك كاستعارة العسل للكلام . فليس بين الكلام والعسل التقاء في الجنس أو الصفة . ولكنهما يلتقيان فيما يترتب على حلاوة العسل من اللذة ، وما يترتب على حسن الكلام من اللذة . إن الاشتراك بين المستعار منه والمستعار له يتم في لازم الصفة .

ومن الواضح أن الدائرة التي يلتقي فيها الطرفان تتسع في كل مرحلة عن الأخرى ومن ثم تحتاج في الانتقال بين المستعار منه والمستعار له إلى ما لا تحتاج إليه في المرحلة التي تسبقها .

أما المرحلة التي يوليها عبدالقاهر الجرجاني اهتمامه ، ويتحدث عن قيمتها الفنية وآثارها في تفتيق مجالات القول . والتي يجعلها أرفع منازل الاستعارة لأنها

-كما يقول- «التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تصرفها وتفننها ، وهنا تبلغ لطيفة روحانية ، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة ، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب[1] ، وهو يجعلها الصميم الخالص من الاستعارة . وبين أنها «ماكان الشبه فيها مأخوذاً من الصور العقلية . وذلك استعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للريب : كما جاء في التنزيل من نحو قوله تعالى : «واتبعوا النور الذي أنزل معه» واستعارة الصراط للدين في قوله تعالى : «اهدنا الصراط المستقيم» ، «وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم» فأنت لا تشك في أنه ليس بين النور والحجة اشتراك في جنس أو صفة أو لازم لها . «وليس الشبه الحاصل من النور في البيان والحجة ونحوهما ، إلا أن القلب إذا وردت عليه الحجة ، صار في حالة شبيهة بحال البصر إذا صادف النور ، ووجهت طلائعه نحوه ، وجال في معارفه ، وانتشر ، وانبث في المسافة التي يسافر فيها طرف الإنسان . وهذا كما تعلم شبه لست تحصل منه على جنس ، ولا على طبيعة وغريزة ، ولا على هيئة وصورة تدخل في الخلقة ، وإنما هو صورة عقلية»[2] . أما إعجاب عبدالقاهر بما يكون التباعد قائماً بين طرفيه . فوجه الحسن فيه أن يتم التقريب بين هذين المتباعدين عن طريق التماس وجه الشبه الواضح ، والذي يقرر عبدالقاهر أنه موجود في الواقع على نحو ما نجد في تشبيه عدي بن زيد ولكن يحسب للأديب دقة الخيال ، وقوة الملاحظة التي جعلته يكتشف هذا الشبه بين المتباعدات ، ويقرب بينها على أشد ما يكون التقريب .

ودقة الوجه وخفاؤه . وحاجته إلى النظر والاستباط مما يدل على قوة القلب وقدرته على النفاذ إلى عمق الأشياء ، واكتشاف الشبه بينها ، وقدرته على الربط فيها . وليس يكفي في هذه الأمور مجرد اكتشاف الشبه ، أو القدرة على إحكام الربط بين الأشياء ، بل يتحتم تهيئة الأسلوب على نحو ما سبقت الإشارة إليه

(١) أسرار البلاغة : ص٥٨ - ٦٥ .   (٢) السابق : ص٦٤ - ٦٥ .

ويجب أن نقرر أنه كلما تباعد الطرفان ، أو خفى الوجه بينهما كلما اقتضى ذلك مزيداً من الأضواء على الأسلوب لكشف المجاز .

ومن الأمـور التي تلقى ضوءاً على المجاز ، وتقربه من الحقيقة ، ومن ثم تجعله مقبولاً ، إضافة ما يطلق عليه «التجريد» وهو ذكر صفات تتعلق بالمستعار له ، وذلك كقول الشاعر :

يؤدون الـتـحيـة من بعيـد   إلى قمـر من الإيـوان باد

ويلاحظ أن الشاعر قد جاء بشيء يتعلق بالمستعار له «الممدوح» وذلك بعد أن استوفت الإستعارة قرينتها . وهي قوله «من الإيوان باد» ودل بذلك القول على أنه لا يتحدث عن القمر المعروف ، وإنما يتحدث عمن يشبه القمر رفعة وعلو منزلة .

وإذا كانت «القرينة» في المجاز من الأمور الأساسية في بنائه . لأنها أول ما يدل عليه . فإن التجريد «تكون له أهميته الكبيرة في بعض صور المجاز وقد أشار «جار الله الزمخشري» إلى ذلك عند تناوله لقوله تعالى : «واضرب لهم مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان . فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[1] .

فقد اشتملت الآية على استعارتين ، وإحداهما موقعة على الأخرى . وحين يأتي الكـلام على هذا النحـو يشتـد فيه الغموض . ويقتضي الكلام كثيراً من المعالجة ليتم . وهذا ما أدركه الزمخشري وعلل له حين قال : «فإن قلت ، الإذاقة واللباس استعارتان . فما وجه صحتهما ؟ والإذاقة المستعارة ، موقعة على اللباس المستعار . فما وجه صحة إيقاعها عليه ؟ قلت : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد ، وما يمس الناس منها فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الشر والألم ، بما

---

(١) سورة النحل : آية ١١٢ .

يدرك من طعم المرو البشع . وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ، فأغشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث . وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة أذاق عما يغشى منهما ويلابس ، فكأنه قيل فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف[1] . والزمخشري بذلك يبين ما سوغ الاستعارة في كل من الإذاقة واللباس . وما سوغ حمل إحداهما على الأخرى ، مع ما قد يسببه حمل استعارة على غيرها من الغموض . وقد أظهر أن المسوغ في ذلك كله ما جرت عليه العادة في الاستعمال اللغوي لكل منهما .

ومما سبق يمكننا القول ، بأن المجاز والاستعارة جنوح بالكلام عما هو مألوف فيه من الاستعمال . وأن هذا الجنوح باب من أبواب التوسع في التعبير عن المعاني التي لا تتسع ألفاظ اللغة للتعبير عنها .

وقد ولج الأدباء في القديم والحديث هذا الباب . لما وجدوه يهيء لهم من طرق الإبداع . إلا أنه باتساع استخدامه ، وتنويع الأدباء في طرقه وخروجهم عما كانت تمليه الفطرة اللغوية . كان لابد من بيان الحدود التي يمكن أن تقبل فيها الاستعارة .

وأول ما نجده في ذلك :

(١) وجود ما يسمى بالقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي ، فاللفظ المستعار إذا ذكر دون أن يوجد في الكلام دلالة من اللفظ أو الحال يشير إلى نقله . لم يعبر إلا عن المعنى الموضوع له .

(٢) لابد من وجود علاقة واضحة تسوغ الانتقال . وهي في الاستعارة شبه واضح صحيح . وقد وجدنا القاضي الجرجاني يشترط صحتها وحسنها في

---

(١) الزمخشري : محمود بن نصر : تفسير الكشاف ، جـ٢ ، ص٤٣١ .

قوله[1] : «إنما المقارنة تصح وتحسن على وجه من المناسبة ، وطرف من الشبه والمقاربة» ومثل هذا يقوله ابن سنان الخفاجي[2] . الذي يجعلها على قسمين : قريب مختار ، وبعيد مطرح . والقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه واضح .

(٣) انه من خلال قبول القدامى لبعض الاستعارات ، ورفضهم لبعضها على الرغم من أن الألفاظ كانت واحدة . يمكننا القول بأنه لابد من إعداد الكلام وتهيئته لقبول الاستعارة . وقد تحدث عبدالقاهر الجرجاني عن ذلك صراحة على نحو ما أسلفنا .

(٤) أن المراد بوضوح العلاقة . أن يكون الشبه الذي ينقل من أجله اللفظ وصفاً معروفاً فيه . وأنه قد أصبح أصلاً في معناه يقاس عليه كالشجاعة في الأسد . والاشتهار والحسن في الشمس . والحرارة في الصلب . والعطاء في البحر .

(٥) إن الوضوح في العلاقة الذي أشرنا إليه يستند إلى عادة أو عرف . على نحو ما عرف عندنا من استعارة الظبية للجميلة .

(٦) بعض المجازات التي لم يقبلها النقاد القدامى لم يكن السبب في ردها تجسيدهم للمعنويات وتشخيصها ، إذ ورد في القرآن الكريم وفي الشعر القديم ما فيه من الإيغال في تجسيد المعنويات . وعلى الرغم من ذلك كانت حسنة مقبولة . ولعل السبب في عدم قبولها عدم تمكن الشعراء من إلقاء الضوء الكافي عليها .

---

(١) الوساطة : ص٤٢٩ .

(٢) سر الفصاحة : ص١٣٦ .

(٧) إن من سبل الإنارة التي توضح المجاز ما يطلق عليه «التجريدة على نحو ما بينا .

(٨) إن وضوح الشبه لا يتنافى مع ما ذهب إليه عبدالقادر الجرجاني من دقة الشبه أو اختلاف جهة المستعار منه عن المستعار له . فالمعول على تهيئة الأسلوب ، والوقوع على الوجه الذي تتم الاستعارة عليه ، والتقريب بين الطرفين إلى الحد الذي يسوغ أن يحل أحدهما محل الآخر .

* * *

مصادر البحث

١ - أسرار البلاغة : عبدالقاهر الجرجاني ت محمد عبدالعزيز النجار، صبيح ، ١٩٧٧ .

٢ - الإيضاح : الخطيب القزويني - دار الجيل - لبنان .

٣ - التصوير البياني : محمد أبو موسى - وهبة - القاهرة ١٩٨٠ .

٤ - تلخيص البيان في مجازات القرآن : الشريف الرضى - ت محمد عبدالغني حسن ١٩٥٥ .

٥ - دلائل الإعجاز : عبدالقاهر الجرجاني - ت محمد عبدالمنعم خفاجى ، ١٩٦٩ .

٦ - سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى ، ت عبدالمتعال الصعيدي ، ١٩٥٣ .

٧ - شرح ديوان أبي الطيب المتنبي : أبو البقاء العكبري ، المعرفة ، بيروت ، ت - السقا - الأبياري ، ١٩٧٧ .

٨ - علم اللغة - مقدمة : محمود السعران - دار المعارف - مصر .

٩ - العمدة في صناعة الشعر ونقده : ابن رشيق - أبو محمدالحسن - ت محمد محيي الدين عبدالحميد ، ١٩٦٣ .

١٠ - الفصاحة - مفهومها - قيمها الجمالية : توفيق الفيل ، حوليات كلية الآداب ، الرسالة ٢٧ .

١١ - كتاب البديع : ابن المعتز ، ت كراتشقوفسكي ، ١٩٧٩ .

١٢ - الكشاف عن حقائق التنزيل : جار الله الزمخشري - ت محمد الصادق قمحاوي ، ١٩٧٢ .

١٣ - الموازنة بين أبي تمام والبحتري : الآمدي - ت سيد صقر ، ١٩٧٢ .

١٤ - الوساطة : القاضي الجرجاني : ت البجاوي ، ط٤ ، ١٩٦٦ .

نظرية ريبيرا
حول عروبة الأندلس

الدكتور عدنان مصطفى
مدرس بقسم اللغة العربية

مقدمة :

إنه موضوع قد يثير استغرابنا للوهلة الأولى ، إذ من يشك في صحة حقيقة الانتماء العربي لأهل الأندلس . وهم إذا لم يكونوا عرباً في أنسابهم ، فماذا نعتبرهم إذن . . ؟

المستشرقون الإسبان ، ابتداءً بـ «خوليان ريبيرا» وحتى آخر متخصص في مجال الدراسات الإسلامية أو السامية ، يجعلون الأندلسيين إسباناً . وأنه ليس يذكّرهم بالأصل العربي البعيد الذي انحدروا منه سوى عاطفتهم الدينية التي تجعلهم ، بين الحين والآخر ، يولون وجوههم شطر بيت الله الحرام .

وضع هؤلاء جملة من البحوث ، عرضوا فيها لقضية الاستعراب ، واللغة المنطوقة ، والأجناس البشرية التي كَوّنت المجتمع الأندلسي . فاتّسمت كتاباتهم بالتعصب الشديد لقوميتهم ، والتعصب الأعمى لمسيحيتهم . ثم استندت على افتراضات خاطئة يرفضها المنطق . وقد حاول بعضهم تشويه الحقائق وتزييف النصوص العربية عن طريق ترجمتها إلى الإسبانية بمقتضى أهوائهم .

رأينا أن ننهض لهذا الأمر ، وننفض عنه الغبار . يحفّزنا إلى ذلك أيضاً ، أن عدداً غير قليل من الباحثين العرب ، المشتغلين في مجال الدراسات الأندلسية ،

يجهلون اللغة القشتالية ، وبذلك تتعذر عليهم معرفة الموضوعات التي تكتب بها .

ولـلأمـانـة العلمية ، حرصنـا على تسجيل آراء الإسبان بدقّة ، فيستفيد الدارس من النصوص المترجمة ، ويكوّن صورة صحيحة عن الموضوع والملابسات التي تحيط به .

إن جوهر القضية بالنسبة إليهم ، يتبلور في محورين رئيسيين . أولهما : أنهم يعتقـدون أن الأنـدلسيين ، ابتداءً من الجيل الثالث أو الرابع على الأكثر ، لم يعودوا عرباً . وثانيهما : أن إسبانيا تأسلمت ، ولكنّها لم تتعرب . .

وفيما يتعلق بالمحور الأول : فإن خوليان ريبيرا ، يُعتبر صاحب أول نظرية تطرح في هذا المجال . وتقوم نظريته أساساً على دراسة سلسلة النسب الأبوي ، وإبـراز أهمية الـدور الـذي يلعبـه دم الأم في تكوين الأبناء . ولكي يثبت أن الأنـدلسيين لم يعـودوا عربـاً ابتـداءً من الجيل الثالث ، يدرس موضوع زواج المسلمين الفاتحين من النساء الإسبانيات . ثم يركّز على إظهار أثر الدّم من جهة الأم في التكوين العرقي للأجيال المولدّة . وممّا يقوله في هذا المضمار : «إن الطفل ليس مخلوقاً يتفرد الأب في التأثير في تكوينه . بل للأم شأن كبير في ذلك أيضاً . وربما ، أو بدون ربما ، يكون للأم الدور الأكبر . فكم من الوقت تحمل الأم إبنها بين أحشائها . وكم من أشهر يكون غذاؤه خلالها من صدرها . ولو شئنا تتبع سلسلة نسب الطفل ، وإبراز الدور الهام الذي يلعبه دم الأم ، لخرجنا بانطباع يختلف تماماً عن أي توقع منتظر»[1] .

والأستاذ خوليان ريبيرا ، لا يعدم الوسيلة التي تمكّنه من دعم نظريته . فهو يفـطن إلى أن أمـراء وخلفاء الأسرة الأموية التي حكمت الأندلس ، ابتداءً بـ

(1) Julian Ribera : Disertaciones y Opusculos, Vol I. pp. 12 ff.

عبدالرحمن الداخل ، كانوا أبناء لأمهات غير عربيات . فيجري تجربته على هذه الأسرة ، ويجعلهـا محور نظريتـه . يقـول : «كان عبدالرحمن الداخل إبناً لأمَةٍ بربرية ، وكان هشام الأول إبناً لأمَةٍ إسبانية أهدتها لأبيه ابنة يوسف الفهري . . وعلى نفس الطريقة يتوالى جميع أفراد هذه الأسرة . .»[1] .

ويجري بعد ذلك تحليلاً حسابياً ، فيقول : ونتيجة لذلك ، أننا إذا أردنا حسـابياً تأكيد النوع العرقي ، آخذين بعين الاعتبار سلسلة النسب من جهة الأم ، مع مراعـاة سلسلة النسب من جهة الأب . فالنتيجة سوف تكون على الشكل الآتي : إن عبدالرحمن الأول كان يحمل نصف دم عربي ونصف دم بربري (على افتراض أنه لم يحصل امتزاج لأفراد عائلته من قبل مع أجناس غير عربية) وهذا يعني أن نسبة الدم التي يحملها تكون بالأرقام ٥٠ بالمائة دماء عربية ، و٥٠ بالمائة دماء بربرية . وكذلك ، فسوف يحمل إبنه هشام الأول ، لكونه من أمّ غير عربية ، ٥٠ بالمائة من دماء الأم ، و٢٥ بالمائة دماء بربرية ، ويحمل فقط ٢٥ بالمائة من الدم العربي .

وهكذا إذا مضينا في هذا الدرب المنحدر ، فإننا نجد أن الحكَم الأول ليس له من الدم العربي سوى ١٢,٥٠ ، وليس لعبدالرحمن الثاني سوى ٦,٢٥ ، وأن الأمـير محمد ليس له سوى ٣,١٢ ، وأن ولديه المنذر وعبدالله ليس لهما سوى ٠,٣٩ ، والحكم الثاني ليس له سوى ٠,١٩ ، وأخيراً فإن هشام الثاني ليس له سوى ٠,٠٩ بالمائة من الدم العربي[2] .

ويضيف ريبيرا قائلاً : «لو تأملنا ، من الوجهة الخارجية ، سلسلة نسب الخليفة هشام الثاني ، لوجدناها تكتظ فعلاً بأسماء عربية كثيرة لآبائه وأجداده . ولكننا إذا راعينا العملية الحسابية التي أجريناها ، نتبيّن أن الدم العربي الذي

(1) Julian Ribera : Disertaciones y Opusculos, Vol I. pp. 16.
(2) Disertaciones y Opusculus, Vol I. pp. 16.

يحمله هذا الخليفة أقل من جزء واحد من الألف»[1] .

ونتيجة لتلك النظرية ، فإن أهل الأندلس يصبحون عند ريبيرا إسباناً ينتمون إلى الشعب الأوروبي أكثر من انتمائهم للشعوب السامية في المشرق . ولهذا فإنه يهمل في دراساته استخدام مصطلح «أندلسي» أو «أندلسيون» حين يتحدث عن حضارة الأندلس . وبالتالي فإنه حين يدرس النصوص العربية ، فيترجم مباشرة كلمة أندلس «إسبانيا» وهذا ما فعله غرسية غومس أيضاً . ثم أصبح الأمر عادياً عند الباحثين الأسبان . ولم يشأ أحد منهم الإقرار بخطورة ذلك .

ومن جهة أخرى ، فإن ريبيرا يتأمل المظاهر المختلفة للحياة الاجتماعية والعملية لأهل الأندلس ، ثم يؤكد على إسبانيتهم بأنهم : «كانوا يلبسون أزياء أوروبية ، ويحتفلون بأعياد غير إسلامية - «كعيد يناير» و «عيد القديس يوحنا» - ويسيّرون أعمال زراعتهم وغيرها ممّا تمس إليه حاجاتهم بمقتضى التقويم الأوروبي . ثم أنهم كانوا يتحدثون لغة أوروبية ، ويديرون أغانيهم حول مواضيع أوروبية»[2] .

ولكن كيف تبدو الحقيقة من وجهة نظرنا نحن . . ؟

المتّفق عليه أن المسلمين الذين افتتحوا الأندلس ، كانوا من الجند المحاربين . وكانت طبيعة الحروب وانتقال الجيوش من مكان إلى آخر لا تسمح بأن يصطحب الجند نساءهم معهم ، فيدفعهم بُعدهم عن أوطانهم وأسرهم إلى مصاهرة أهالي البلاد المفتوحة . وهكذا لم يجد العرب بأساً في الزواج من النساء الإسبانيات . نتج عن ذلك ظهور جيل مولّد يشعر بعاطفته نحو أمه أكثر من

---

(1) Disertaciones y Opusculus, Vol I. pp. 16.

(2) Historia de la Literatura Arabigo – Espanola, pp. 29.

أنظر أيضاً : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٢١ .

شعـوره نحو أبيه . ومنشأ ذلك ، أن الظروف لم تكن بعد قد أتاحت الفرصة للعـرب في إثبـات وجـودهـم الثقافي والحضاري . وكانت تنتظرهم مسؤوليات جسيمـة ، أهمّهـا ، العمـل على استتباب أمن البلاد على الصعيدين الداخلي والخـارجي . ثمّ العمـل على صَهر الكِتل البشرية المختلفة الأجناس في بوتقة اجتـماعية واحدة ، تحمل طابع الأندلسية ، وتتعرّب بجعل العربية لغة البلاد الرسمية ، واللغة التي توّحد ألْسِنَتهم في ميادين الحياة الخاصة والعامة . ولم يكن تحقيق ذلك بالأمر اليسير .

وليس علينا أن نظن ، أن أمر الوجود العربي اقتصر على من دخل منهم مع الجيوش الفاتحة ، وإنّما نؤكد أن تيار الهجرة من المغرب والمشرق إلى الأندلس لم يتوقف ، لا على شكل جماعات كثيرة العدد ، ولا على شكل عائلات مهاجرة ، بما فيها من النساء والشيوخ والأولاد . وقد استمر تيار الهجرة طويلاً . وبمرور الوقت كان زواج العرب من الأجانب يتلاشى شيئاً فشيئاً . خاصة أن الطبقة المحـافـظة شديدة الحـرص في الحفـاظ على أنسابها العربية ، تجد فيها فخرها وعـزتها . أضف إلى ذلك أن النساء الإسبانيات كنّ يساهمن في محاربة الوجود الإسلامي ، ديناً ولغة . وكانت الكنيسة تدفعهم إلى الاستشهاد عن طريق حرق أنفسهن بالنار ، بعد القذف بالإسلام والمسلمين .

إن جرثومة العصبية القبلية ، كانت متأصلة في نفوس العرب ، تبعث فيهم روح التضامن مع القبائل التي ينتمون إليها ، وحصر النسب فيها . فلسنا ندري كيف نسي خوليان ريبيرا ذلك ، وكان يعلم أن العصبية القبلية تسّبب في إضعاف نفوذ العرب في أزمنة مختلفة .

فمن العبث إذن ، أن نزعم أن العـرب كانـوا طوال العصر الأندلسي لا يتزوجون إلاّ إسبانيات ، ولا ينجبون إلاّ الذكور ، ليتزوجوا بدورهم من النساء العجميات فتضمحل بذلك الدماء العربية ، ولا يبقى غير العنصر المولّد . . !

أما عن استشهاد ريبيرا بالأسرة الأموية ، كدليل على اضمحلال الدم العربي من الأندلس . فإنه أمر يحسن الوقوف عنده قليلاً . فهو وإن صحّ من جهة ، فإنه لا يصح من جوانب عدة . أولاً : إن ما لاحظناه في موضوع الأسرة الأموية ، يكاد يكون ظاهرة وحيدة لا نعثر على مثيل لها طوال عهد المسلمين في الأندلس . ثانياً : إننا لا نعرف أن امرأة «أموية تزوجت إسبانياً» . بينما نعثر في صفحات المصادر على أسماء كثيرة لنساء أمويات متزوجات من رجال عرب من ذوي المراتب العلمية أو غيرها . ومن جهة أخرى ، فإن ابن حزم حين يتحدث عن قبائل بَلِي يقول[1] : «ودار بَلِي في الأندلس : الموضع المعروف باسمهم بشَمالي قرطبة ؛ وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ؛ لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط ، نساؤهم ورجالهم» .

إنه نصّ صريح يوضّح أن الرجال والنساء الذين يتحدث عنهم ابن حزم ، جميعاً من العرب الذين يحافظون على أنسابهم ، ويحافظون على لغتهم العربية ولا يكترثون باللغة اللطينية ، التي هي لغة الإسبان سكان البلاد الأصليين . فيبدو أن المسلمين لم يجدوا بأساً في معرفة تلك اللغة لِيتمّ لهم التفاهم مع النصارى ، وهو أمر طبيعي ، وكان هذا في بداية الأمر .

وأخيراً ، فإن إحساس الأندلسيين بعروبتهم ، لو تعرض للتلاشي ، فإن إحساسهم بالحفاظ على أنسابهم كان تلاشى أيضاً ، لأن العجم لا تكترث بهذه الظاهرة ؛ وما كان ابن حزم يُعنى بوضع كتاب «جمهرة أنساب العرب» ؛ ولو كان ابن حزم إسبانياً كما يدّعي خوليان ريبيرا وغرسية غومس ، لوجب عليه في أقل تقدير أن يضع كتاباً يسميه : جمهرة أنساب الإسبان . . !

وبعد هذا ، فهل يجوز للأستاذ ريبيرا ، أن يسمّي أهل الأندلس

---

١ - جمهرة أنساب العرب ، ص٤٤٣ .

«إسبـاناً» . . ؟ . فهو على سبيل المثال ، حين يتحدث عن النهضة الفكرية في الأندلس في العصر المرابطي ، يقول :[1] : وصل الإسبان من أهل الجنوب إلى أعلى درجات الإزهار الأدبي ، بل كان لهم أدب شعبي يجري على أساليب أوروبية» .

إن الباحث المنصف سوف يدرك خطورة هذا التحوير في التسمية . فلفظ «الإسبـان» سوف يُوهم أن حضـارة الأندلس من صنع الإسبان سكان البلاد الأصليين ، أي النصارى ؛ والنص يرد بلغته الأصلية هكذا[2] :

El pueblo espanol de las regiones del Medio

ونحن لابد لنا من توضيح ما يلي : أولاً : إنه لم يكن للإسبان سكان البلاد الأصليين أيّة مشاركة فعلية أو إسهاماً في صنع حضارة الأندلس ؛ والشخصيات التي برزت بين المستعربين من النصارى أو اليهود على حدّ سواء ، كانت محدودة جدّاً . ونحن حين نتحـدث عن حضـارة الأندلس ، إنّما نتحدث عن أولئك العلماء والأدباء والشعراء والأطباء والفلاسفة والفقهاء وغيرهم ، وهم في غالبيتهم العظمى من العرب . ومن كان ينتمي منهم إلى البربر ، كإبن دراج وغيره ؛ فإن البربر بعد الفتح الإسلامي للمغرب تعربوا باتخاذ اللغة العربية لساناً لهم ، وأنها أصبحت عندهم لغة الفكر والحضارة ؛ ولا تزال هكذا حتى يومنا هذا .

إن لفظ «إسبان» يجب أن يستخدم كنعت للنصارى فقط ؛ ولابدّ من التنويه أيضـاً أن شبـه جزيرة إيبـيريا في ذلـك الـوقت كانت تشتمل على دولتين ، أو مملكتين ؛ الأولى : دولة النصارى الإسبان ؛ تتكلم اللغة القشتالية ؛ وشعبها شعب أوروبي . والثـانية : دولـة الأنـدلس ؛ دينهـا الإسـلام ؛ ولغتها اللغة

---

١ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٢١ ، أنظر أيضاً .

– Historia de la Literatura Arabigo – Espanola, pp. 28.

٢ - أنظر Historia de la Literatı ra Arabigo – Espanola, pp. 28

العربية ؛ وشعبها من أصل عربي ، إلى جانب البربر المسلمين الذين تعربوا لغة وفكراً .

فلا يجوز أن يقال إذن : حضارة الإسبان من أهل الجنوب . فهي حضارة أولئك العرب الذين عُرفوا باسم أهل الأندلس ، أو الأندلسيين ، لاتخاذها وطناً لهم ، وأصبحت نسبتهم إليها تميّزهم عن الإسبان سكان البلاد الأصليين ، وهم لم يتنكروا قط لأصلهم ، وظل إحساسهم بعروبتهم مصدر فخرهم وعزهم حتى آخر يوم لهم في الأندلس .

أمـا قول ريبـيرا أنـه كان للأنـدلسيين أدب شعبي يجري على أسـاليب أوروبية . فإنه يشير إلى الموشحات والأزجال ، وقد أثبتنا في كتابنا «الجديد في فن التوشيح»[1] .

إن تلك الأساليب الشعرية الأوروبية التي يتحدث عنها ظهرت في أوروبا بعد ظهور فن التوشيح بقرنين على الأقل ، وكانت محاكاة للموشحات وليس العكس .

وأخيراً ، فإن ما يذكره ريبيرا أن الأندلسيين كانوا يلبسون أزياء أوروبية ، ويحتفلون بأعياد غير إسلامية ، ويسيّرون شؤونهم وفق التقويم الأوروبي . فهو كلام عليه تعليق كثـير . لقـد نسي هذا المستشرق شهرة زرياب وتعاليمه التي استـطاع أن يغـيّر بها ملامـح المجتمـع الأنـدلسي في مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة ؛ في المأكل والملبس ، والاعتناء بالمظهر العام للفرد ، وشيـوع الموسيقى والغناء . فهو الذي علم الأندلسيين طرائق مختلفة في صنع الطعام وطريقة تناوله التي لا تزال قائمة في أوروبا حتى اليوم ؛ وهو الذي نبّه الأندلسيين على ضرورة الإعتناء بالملبس واختيار الثياب المناسبة بحسب الفصول ، واستحدث طرائق

---

١ - الجديد في التوشيح ، ص ٧٠ .

مبتكرة في تصفيف الشعر ، وقد انتقلت تلك التعاليم إلى أوروبا مباشرة .

وإذا احتفل أهل الأندلس بأعياد غير إسلامية ، فهو جزء من التفاعل الحضاري الذي تمّ بين طوائف الأندلس المختلفة .

وربما استخدم أهل الأندلس التقويم الأوروبي في تسيير شؤون أعمالهم في مجال الزراعة وغيرها ، مع علمنا أن جميع المصادر التي تؤرخ للأندلس تستخدم التاريخ الهجري فقط . وقد يكون استخدام التقويم الأوروبي بين المسيحيين في مناطقهم ، أو بينهم وبين العرب في المدن التي سقطت مثل مدينة طليطلة .

وعلى كل حال ، فإن التقويم الأوروبي في ذلك الحين ليس هوالمعروف اليوم ، بل كان يعرف باسم «تاريخ الصفر» . فقد وصلتنا مجموعة كبيرة من الصكوك التي تمثل طريقة البيع والشراء وإجراء جميع المعاملات العامة ، في مدينة طليطلة بعد سقوطها سنة ١٠٨٥م . فقد جاء في أحد الصكوك[١] : «اشترى عبيد بن أسد من خلف بن عبدالله جميع الكرم الذي له في أول منزلة رزين .. في شهر نوفمبر الكاين في سنة ثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر» . و«تاريخ الصفر هو تاريخ كان مصطلحاً عليه في إسبانيا من قبل دخول الإسلام ، بل من قبل المسيح . وكان مبدأه في أول يناير سنة ٣٨ قبل المسيح لعهد أغسطس قيصر ، وبقي هذا التاريخ معروفاً في إسبانيا إلى القرن الخامس عشر للمسيح»[٢] .

أما قول ريبيرا ، أن أهل الأندلس كانوا يتكلمون لغة أوروبية ، فشأنه في ذلك شأن جميع الباحثين الإسبان . فهم يزعمون أن اللغة العربية كانت منحصرة ضمن الدوائر الرسمية وفي مجالات التعليم فقط . أما على مستوى

---

١ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص٣٦٨ .

٢ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص٣٦٨ .

الحياة الاعتيادية ، فكانت اللطينية أو الرومانثية ، ويقصد بها عامية اللغة القشتالية .

ونحن نؤكد بدورنا عدم صحّة هذا الرأي ، ونؤكد أن اللغة العامة المستخدمة من قبل جميع الطوائف ، كانت عامية العربية المطعّمة بمفردات أجنبية : إسبانية ، بربرية ، وعبرية . ودليلنا على ذلك ، فن الزجل ، وهو فن شعبي يصور الأندلسيين في حياتهم الاجتماعية الأكثر ابتذالاً . ويمكننا أخذ صورة واضحة عن اللغة العامية المنطوقة ، بإلقاء نظرة عابرة على ديوان ابن قزمان وعلى أزجال غيره من الشعراء .

ومع هذا ، فهناك حقيقة هامة لا ينبغي على الباحث المنصف إهمالها ، وهي أن الطوائف الأندلسية كانت تعيش حياة تشبه حياة المعسكرات . ويجتمع أفراد كل طائفة في ضاحية معيّنة تُعرف باسمهم ، كضاحية الربض ؛ فقد كان سكانها من البربر فقط . وكذل كان الحال مع نصارى الأندلس . ولسنا نستغرب أن يتكلم هؤلاء فيما بينهم بلغتهم الأصلية ، ولكنهم عندما يخرجون إلى المجتمع ، يستعملون عامية العربية التي تعارفت عليها جميع الأجناس . فإننا نعثر في مواضع مختلفة من المصادر عن حوار يتم برطانة البربر بين البربر أنفسهم ، ونفس الشيء يتم عند الآخرين . وقد ذكرنا سابقاً أن قبائل بَلِي كانت لا تتكلم غير العربية .

أما أن يكون شيوع العربية بين الناس مرهوناً بعدد العرب الداخلين إلى الأندلس . فإننا نعترف أن العنصر العربي كان أقل من البربر وأقل من المسيحيين سكان البلاد الأصليين . ولكن ليس علينا أن نبالغ في ذلك . فلو تناولنا كل مدينة بمفردها وأحصينا عدد العرب فيها ، لَتَبيّنَ لنا أن عدد العرب لم يكن قليلاً ، كما نظن . ثم علينا أن ندرك شيئاً آخر بالغ الأهمية ، وهو أن الحضارة الأندلسية تدين للعرب دون سواهم .

ونحب أن نُنبّه ، أخيراً ، أن نظرية ريبيرا لقيت صدى واسع الانتشار بين الباحثين الإسبان المتخصصين في مجال العلوم السامية ، أو الدراسات الإسلامية ، وتبنّوا جميع آرائه واعتمدوا عليها في بحوثهم التي خصّصوها في دراسة الأندلس حضارة ولغة وشعباً . فالمستشرق أنخل غونثالث بالنثيا ، على سبيل المثال ، يستشهد بآراء ريبيرا فيقول في إحدى دراساته : «أصبح من الواضح نتيجة للأبحاث التي وضعها الأستاذ خوليان ريبيرا . أن أهل الأندلس الإسلامي كانوا يستعملون العربية الفصحى كلغة رسمية يتعلمها الناس في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها ، أما في شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بين بعضهم بعض ، فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية el romance . وليس ذلك بغريب ، لأننا إذا ذكرنا أن عدد العرب الخلّص الذين دخلوا الجزيرة كان قليلاً جداً ، تبيّنا أننا لا نستطيع اعتبار الأندلسيين المسلمين ساميين أو مشارقة ، ابتداء من جيلهم الثالث أو الرابع بعد الفتح ، ولنضف إلى ذلك أن شعوب أوروبا كانت تستعمل في ذلك الحين اللاتينية كلغة ، وأن ناسها كانوا يتحدثون إلى جانبها لهجات أعجمية romance مختلفة مشتقة من اللاتينية»[1] .

ويقول في موضع آخر : «بعد انقضاء بضعة سنوات ، أصبحت نظرية خوليان ريبيرا مقبولة وشائعة لدى الباحثين . تلك النظرية التي وضعها سنة ١٩١٢ ، أكّد فيها أن اللغة الرومانثية كانت اللغة المنطوقة عند مختلف طبقات المجتمع الأندلسي ، وأن ذلك المجتمع قد أصبح بأسره تقريباً من العرق الإسباني»[2] .

ولكي يؤكّد غرسية غومس فكرة إسبانية الأندلسيين ، فإنه يستشهد على

١ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص١٤٢ .
٢ - أنظر : Moros y Cristianos en Espana Medieval pp. 46

صحّة إسبانية ابن حزم من خلال بيت شعر له ، يقول فيه[1] :

ويا جوهر الصين : سحقاً ! فقد غَنِيتُ بياقوتةِ الأندلس

ويترجم البيت هكذا :

Vete en mal hora, Perla de la china!

me basta a mi Con mi rubi de Espana.

فقد اطمأن تمام الاطمئنان ، واقتنع تمام الاقتناع بجواز ترجمة «الأندلس» «إسبانيا» ، ثمّ أكدّ على إسبانية ابن حزم فقال : «وكان ابن حزم إسبانياً خالصاً» .

والحقيقة أن الذي جعل غرسية غومس يدّعي ذلك ، أنه استغل قضية اختلاف الروايات في أصل ابن حزم ، واعتمد على رواية ابن حيان ، وهي الرواية الوحيدة التي يُذكر فيها أن ابن حزم مُوَلّد الأرومَة من عَجَمِ لَبْلَة[2] . والثابت إنه من أصل فارسي كما يَروي الحميدي تلميذه . وابن حزم نفسه يذكر نسبته إلى الفرس ، وقد افتخر بذلك في إحدى قصائده ، فقال[3] :

سَما بِيَ ساسانٌ ودارا وبَعْدَهُمْ قُرَيْشُ العُلَى أعياصُها والعَنابِسُ

فما أخّرَتْ حَربُ مراتبَ سُؤدَدي ولا قَعدتْ بي عن ذُرَى المجد فارس

وهكذا نلاحظ فشل الباحثين الاسبان في جعل الأندلسيين من العرق الإسباني ، ونلاحظ عدم أمانتهم العلمية في تناول الحقائق وفي ترجمة النصوص ، واعتماد الضعيف منها في دراساتهم ، ثم تعميم الأحكام من خلال قضايا جزئية .

---

١ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٧٦ . أنظر أيضاً :

Historia de la Literatura Arábigo – Espanola pp. 65.

٢ - الذخيرة ، ق١ م١ ص١٧٠ .

٣ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، ص٣٠٤ .

فلم يكن ابن حزم إسبانياً خالصاً ، ولو كان كذلك ، لوجب عليه أن يتعصب لاسبانيته كما فعل ذلك عدد من المُولّدين ، وكان عليه أن يتعصب أيضاً لِلُغة الإسبان ، فجميع مؤلفاته عربية اللّغة والفكر والإحساس . .

أما فيما يتعلق بالمحور الثاني : في أن إسبانيا تأسلمت ولم تتعرب . . فإن خوليان ريبيرا له شأن في هذا المجال أيضاً ، فهو حين يتحدث عن مسألة التعريب في الأندلس ، يثير الفكرة الآتية : إن استخدام قوم لِلُغة غيرهم من البشر ، لا يعني البَتّة أنهم ينتمون إلى نفس العرق . فهو يقول : «إن اللغة لا تستلزم وجود عنصر بشري معين . فاللّغة اللاتينية مثلاً ، كانت لغة النطق والكتابة عند السلت والغال والجرمان والصقالية . . وكذلك فإن اللّغات السامية استخدمت من قبل شعوب مختلفة كالفرس والهند والاسبان . . . فإذا كان أهل الأندلس ينطقون ويكتبون باللّغة العربية فإن هذا ليس كافياً لجعلهم شعباً سامياً»[1] .

نلاحظ هنا أن ريبيرا يعرض علينا شيئاً متفقاً عليه ولا خلاف فيه ، ويخفي عنا الحقيقة التي نحن في صددها . فنحن لسنا ندعي أن النصارى الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، أو النصارى الذين تمسّكوا بعقيدتهم في ظل المسلمين ، وعُرفوا بالمستعربين ؛ أو اليهود . . أنهم أصبحوا عرباً لأنهم كانوا يتكلمون اللغة العربية ويكتبون بها . بل ما نريد طرحه : إن الحضارة الأندلسية هي من صنع الجنس العربي وليس لبقية الأجناس من مشاركة إلاّ في القليل الذي يُمكن حصره . فقلّما «تجد في الأندلسيين شاعراً مُفْلِقاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً ، إلاّ ونَسَبُه من قبيلة من تلك القبائل العربية ، فكان يحيى الغزال أول شعراء الأندلس الفلاسفة من بني بكر بن وائل ، وكان يوسف بن هارون الرمادي معاصر المتنبي من كندة ، وأبو بكر المخزومي هَجّاء

---

١ - Disentaciones y Opusculos, vol I. pp. 12.

الأنـدلس من بني مخزوم ، وكذلك أبو بكر بن زيدون ، وابنه أبو الوليد بن زيدون الشهير ، وكان أبو بكر بن عمار ينتسب إلى مهرة بن قضاعة وغير هؤلاء كثيرون ، فضلاً عمّن لم يعرف سبيل اعتزائهم من الآباء ، لأن الانتساب إلى العـرب كان محفوظاً بالأكثر في العلماء والفقهاء والأعيان ، متميزاً فيهم كبني سراج الأعيان من أهل قرطبة ، فينسبون إلى مُذَجِح ، وبنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة إلى مرّة بن أود بن زيد بن كهلان . . . وبنوا عبّاد أصحاب إشبلية إلى لخم بن عدي ، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة»[1] .

وقال أحد الباحثين الاسبان : «تأسلمت الجزيرة ولم تتعرب ، عدا أنها قبلت اللغة العربية في مجال التعليم . حقّاً أن سكان الجزيرة اعتنقوا الإسلام ، ولكن وفود العرب إليها كان ضئيلاً . وقد أثبت الدكتور بوش ، أن العرب لم يبلغ عددهم العشرين عنـدمـا اجتـازوا لأول مرة مضيق جبـل طارق سنـة ٧١١م . والعرب الذين كانوا برفقة موسى بن نصير ، لم يتجاوز عددهم خمسة آلاف رجـل . أمـا أهل إفريقيا ، فكانوا أقل من عشرة آلاف أتوا في بداية الفتح ، ثم تزوجوا نساء إسبانيات ، الأمر الذي جعل النشأ الجديد في معظمه يخلو من النسب العربي أو المغربي»[2] .

والغريب في هذا الباحث ، أنّه بدأ بحثه قائلاً : «إن غالبية سكان جزيرة إيبـيريا ، خلال القـرون الوسطى اعتنقوا الدين الإسلامي ، ولهذا فإنه من المحال أن نعتبر العرب عنصراً غريباً عنّا : فبكل اطمئنان يمكننا أن نؤكد أن الجد الثلاثين لأي إسباني اليوم يحتمل على الأكثر أن يكون مسلماً وليس مسيحياً»[3] .

١ - تاريخ آداب العرب ، ٣/٢٦٨ .

٢ - Introduccion a la Historia de Espana p. 59

٣ - Introduccion a la Historia de Espana p. 57

ويقول في مكان آخر من كتابه : يُتجه دائماً إلى مزج ما هو عربي بما هو إسلامي ، في الوقت الذي نجد فيه اختلافاً ظاهراً بين المعنيين . فنحن نفهم من المصطلح «عربي» ما يتعلق بالعرق واللغة العربية في محيط العربية السعودية : إن أهل السعودية فقط عرب . وفي المقابل يجب أن يُطلق لفظ «مسلم» على كل رجل يعتنق دين محمد . ومن الواضح ، أن اعتناق الدين الإسلامي يمكن أن يقوم به عربٌ أو أي عرق آخر كالبربر واللاتين ؛ ولا يجب مزج العرق بالدين ؛ ولهذا لا يمكن أن نتكلم عن التعريب في إسبانيا ولا عن العرق العربي»[1] .

وقد تحمّس باحث آخر إلى فكرة حذف صيغة «مستعربون» كتسمية تطلق على المسيحيين الذين احتفظوا بعقيدتهم وعاشوا في المدن الإسلامية ، فقال : «يبدو لي أنه من المنطق أن نسمّي المسيحيين الذين كانوا يعيشون في الأندلس : «مسيحيون يعيشون في الأندلس» . ولست أرى أيّ مبرّر على تسميتهم مستعربين . والمستعربون هم أولئك الذين كانوا يعيشون في مناطق لم تكن تابعة للمسلمين في شمال إسبانيا ، ذهبوا إليها خلال عصور متفاوتة . تلك الفئات تُعتبر المسؤولة عن انتشار الثقافة والعادات الإسلامية في الشمال من إسبانيا»[2] .

ويضيف قائلاً : «يجب أن نعلم أن صيغة «مستعرب» ، وكذلك الصيّغ المشتقّة الدّالة على التعريب ، كانت مجهولة في محيط مثل المحيط الأسباني العربي . والنتيجة الطبيعية لهذه القضية ، أن عبارة «مستعربون» لم تكن قد استخدمت إطلاقاً للدلالة على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في ظل الإسلام»[3] .

---

١ - Introduccion a la historia de Espana,p. 58

٢ - Andalucia Medieval, p. 150

٣ - Andalucia Medieval, p. 151

إن ما يشين أبحاث الإسبان أحياناً ، تعصّبهم الشديد لقوميتهم ومسيحيتهم . فهذا الباحث يدعو إلى حذف مصطلح «مستعرب» ويستنكر أن يكون قد استخدم كتسمية تطلق على المسيحيين الذين اتخذوا اللّغة العربية لساناً لهم . وكأنه لم يطّلع على الصكوك الكثيرة والوثائق التي عُني أنخل غونثالث بالنثيا بجمعها وترجمتها إلى الإسبانية . وهي تمثل طرائق التعامل ، بين سكان مدينة طليطلة بعد سقوطها في أيدي النصارى ، في البيع والشراء وغير ذلك ، وهي مكتوبة باللغة العربية لأن الاستعراب بقي في تلك المدينة واستمر حتى سنة ١٥٨٠ ميلادية ، ولم يندرس إلاّ بعد أن تكرّرت الأوامر الصادرة من الحكومة بمعاقبة كل من يتكلم العربية أو يكتب بها .

والمهمّ في تلك الصكوك ، أنها إذا ذَكَرت الإفرنجي تنصّ عليه بأنه افرنجي وإذا ذكرت الأسبانيولي المتكلم بالعربية تنصّ عليه بأنه مستعرب ، وإذا ذكرت المسلم أشارت أنه مسلم ، وإذا ذكرت اليهودي أشارت إليه بأنه إسرائيلي . .

فمثلاً ، يأتي في أحد الصكوك : اشترى ربي بو اسحق بن نحميش اليهودي من جميلة بنت فرج[1] . . .

وفي صك آخر : اشترى خير بن ركوى من يحيى بن عبدالسلام جميع الدار التي له بحومة رحبة القشالي ، حد الدار في الشرق دار خلف بن جواد ، وفي الغرب دار جلبارت الفرنجي[2] :

وفي صك آخر : اشترى يوان مستعرب ، لدون ملندة الدليل[3] . . .

---

١ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٦٧ .
٢ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٦٩ .
٣ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٨٧ .

ويعلق الأمير شكيب أرسلان في هذا المجال فيقول : وقد رأينا هذه اللفظة «مستعرب» مراراً في هذه الصكوك ، واستدللنا بها على أن نصارى طليطلة كانوا قسمين ، قسم يقال لهم المستعربون ، وهم الذين كانوا يتكلمون ويكتبون ويقيمون صلواتهم باللغة العربية ، وقسم آخر كانوا يتكلمون ويكتبون بالاسبانيولي ويقيمون صلواتهم باللاتينية ، وهذا هو السبب في أنهم عند كتابة الصكوك يميزون الأسبانيولي الذي لغته العربية بقولهم مستعرب[1] .

وخلاصة القول ، أن الأمر قد يبقى معلّقاً بين أخذ ورَدّ ، وتعصّب كل طرف إلى وجهة نظره . وتفادياً لتلك النتيجة ، فقد ارتأينا أن نستفتي أهل الأندلس أنفسهم في ذلك ، باعتبارهم أصحاب الشأن ، فإن مؤلفاتهم وإن كانت صامتة ، إلّا أنّها قد تُفصح عن كثيرٍ ممّا يتعلق بشؤون حياتهم وأحوالهم ، وإنّ كلمتهم سوف تكون الفيصل الحاسم .

ومن المهم هنا ، أن نشير إلى الطوالع العربية التي دخلت الجزيرة إبّان الفتح وبعده ؛ ولكن أحب أن أقول إنني لن أنظر إلى عروبة أهل الأندلس من خلال الكم البشري للجنس العربي ، والنسبة التي يشكلونها بين الأجناس الأخرى ، كثيرة كانت أم قليلة ، لأنني سأعتمد أساساً على مواقف الأندلسيين المعبّرة عن إحساسهم الصادق بعروبتهم وشعورهم العميق بالانتماء القومي إلى المشرق . وسأعتمد أيضاً على دراسة سلسلة النسب ، واستمرارية الدم العربي الأبوي والأمومي ، لإثبات استمرارية الدم العربي حتى تاريخ سقوط مدينة غرناطة . وسوف أبرهن في نفس الوقت ، أن الداخلين إلى الأندلس من العرب أكثر بكثير ممّا يظن الباحثون .

جاء في البيان المغرب لابن عذارى المراكشي ، أن المسلمين الذين عبروا

---

١ - الحلل السندسية ، الجزء الأول ، ص ٣٩٤ .

المضيق بقيادة طارق بن زياد ، كانوا من العرب والبربر ، وأنهم بنوا في جبل طارق سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب[1] . فتسمية السور توحي أن عدد العرب الداخلين مع طارق يزيد كثيراً عن العدد الذي يحدّده بعض المؤرخين .

ثم كانت طالعة موسى بن نصير في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وكانت تضم ثمانية عشر ألفاً أو أكثر من وجوه العرب[2] .

وفي شهر ذي الحجة سنة سبع وتسعين قدم الحر بن عبدالرحمن الثقفي والياً على الأندلس ومعه أربعمائة رجل من العرب[3] .

وكانت طالعة بلج بن بشر القشيري الذي دخل الأندلس في شهر ذي القعدة سنة ١٢٣هـ ، وكانت تضم نحو عشرة آلاف من عرب الشام[4] .

وفي شهر رجب سنة ١٢٥هـ ، قدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي والياً على الأندلس من قبل حنظلة بن صفوان صاحب إفريقيا . ولكن المصادر لا تذكر عدد الرجال الذين أتوا برفقته[5] .

وقد وفد إلى قرطبة أيضاً سنة ١٤٠هـ ، رجال من المشرق ومن بني أمية فأنزلهم الأمير عبدالرحمن الداخل ، وأكرمهم وأحسن جوائزهم[6] .

ويوجد نصّ كبير الأهمية يؤكد أيضاً ، كثرة الداخلين من العرب ، فقد جاء في «البيان المغرب» ، أن أمية وقطناً ابني عبدالملك بن قطن حشدا في جهة

---

١ - البيان المغرب ، ٢/ ٩ .
٢ - نفح الطيب ، ١/ ٢٦٩ ، البيان المغرب ، ٢/ ٢٥ .
٣ - نفح الطيب ، ٣/ ١٤ البيان المغرب ، ٢/ ٣١ .
٤ - نفح الطيب ، ٣/ ٢٠ البيان المغرب ، ٢/ ٣١ .
٥ - نفح الطيب ، ٣/ ٢٢ ، البيان المغرب ، ٢/ ٣٣ .
٦ - البيان المغرب ، ٢/ ٤٩ .

سرقسطة ، وكانا قد هربا من قرطبة وقت إخراج أبيهما منها ، وجاءا إلى بلج طالبين بثأرهما ، وهما في نيّف على مائة ألف من العرب القدماء والحدث ، فخرج إليهما بلج ، وهو في أقل من خمس عددهما ، فاقتتلوا قتالاً شديداً"[1] .

والحقيقة أنه من الخطأ أن نظنّ أن عدد العرب الداخلين إلى الأندلس اقتصر فقط على الطوالع . بل أن الهجرة من المشرق إلى الأندلس ظلت متواصلة دون انقطاع لفترة طويلة من الزمن ، فلقد دخلت منهم أعداد كثيرة تفوق كل إحصاء . وفي ذلك يقول المقري : إعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم فضلاً عن غيرهم[2] .

ويقول في موضع آخر : «واعلم أنه لمّا استقرّ قدم أهل الإسلام بالأندلس وتتام فتحها ، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هِممهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم إلى أن كان من أمرهم ما كان .

فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش ، وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الأنفس : بالأندلس منهم جماعة كلهم من ولد إدريس ابن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد انتشار سلك بني أمية . . . وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلّهم في طليطلة وأعمالها ، ولهم ينسب الوقشيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضي أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين ابن جبير صاحب الرحلة .

وأما قيس عيلان بن الياس بن مضر من العدنانية ففي الأندلس كثير

---

١ - البيان المغرب ، ٢/٣٣ .
٢ - نفح الطيب ، ٣/٥ .

منهم . ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصـور بن عكرمة ، قال إبن غالب : وهم بإشبيلية خلق كثير . وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسـد بن ربيعـة بن نزار ، قال في فرحـة الأنفس : إن إقليم هؤلاء مشهور بإسمهم بجَوْفيّ مدينة وادي آش . وقال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طُلَيْطلة ، وهم أكثر القبـائـل بالأنـدلس في شرقهـا ومغربها . ومن الخزرج بالأندلس عُبَادة بن عبدالله بن ماء السماء من ولد سَعد بن عُبَادة صاحب رسول الله ﷺ ، وهو المشهور بالموشّحات ، وإلى قَبْس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطينُ غَرْناطة .

ومن أهل الأندلس مَنْ ينتسب إلى حَضْرَ مَوْت ، منهم الحضرميون بمُرسية وغَرْناطة وإشبيلية وبَطَلْبَوس وقُرْطُبة ، قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس»[1] .

ومن الملاحظات الهامة التي ترد على لسان ابن سعيد الأندلسي في أثناء حديثه عن الأنصار ، أنه قال : والعجب أنّك تعدمَ هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذّ عن العدد كثرة ، ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلَم يجد إلاّ شيخاً من الخزرج وعجوزاً من الأوس[2] .

وقد أفاض المقري في الحديث عن أنساب العرب والقبائل التي ينحدرون منها وختم حديثه بأن العرب والبربر كلمّا مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطّوا به ونزلوه قاطنين فاتّسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس[3] .

وأخـيراً ، فإن المـطّلع على كتـاب «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ، يستـطيع أن يكـوّن فكـرة صحيحـة وتامة عن عروبة أهل الأندلس ، وعن

١ - نفح الطيب ، ١/٢٩٠ - ٢٩٨ .
٢ - نفح الطيب ، ١/٢٩٤ .
٣ - نفح الطيب ، ١/٢٩٣ .

أنسابهم العربية التي تربطهم بجزيرة العرب . فقد أجرى ابن حزم إحصاءً دقيقاً للمواطن التي استقرّت بها قبائل العرب في الأندلس . وسوف نسوق بعض ما أورده ، لنؤكد على كثرة العرب وانفرادهم في السكنى عن غيرهم[1] :

- بنو كنانة : دارهم بالأندلس ، شَذُونَة والجزيرة .
- بنو أسد : دارهم بالأندلس ، البرَاجِلة والبُشَرَّة من كورة إلْبيرة .
- بنو بُهدلة : نزلوا بقرية ضخمة تسمى الزَّبارِقة ، نسبت إليهم ، ثم غلب النصارَى عليها ، فانتقلوا إلى طلَبيرة ، فمَحَلّتُهم بها معروفة بحومة العَرَب إلى اليوم .
- بنو أَقْصَى : ودارُهم بالأندلُس : أَلْش وأعمالها وما حواليْها .
- بنو مُرَّة : دارهم بالأندلس : إلبيرة ، ولهم بإشبيلية أهلُ بيت واحد وهم بنو عوف بن مُرَّة .
- دار بني نُمَيْرة بالأندلس : البَرَاجِلة .
- بنو قُشَيْر : دارهم بالأندلس : جَيَّان ، ومنهم بإلْبيرة عَدَدٌ .
- بنو خُوَيْلِد : دارهم بالأندلس : جَيَّان ، ووادي آش .
- بنو النصر : دارهم بالأندلس : حِصنُ وَضّاح ، من عَمَل رَيَّة .
- بنو نمارة : دارهم بالأندلس : قَرْمُونة ولَبْلة .
- بنو عَكٍّ : ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم ، في الجوف في شمال قُرطبة .
- بنو بَجيلة : ودارهم بالأندلس : أربونة .
- بنو هَمْدان : دارهم بالأندلس : إلبيرة .
- بنو الأشْعَر : دارهم بالأندلس : رَيَّـة .
- بنو طي : دارهم بالأندلس : بَسْطَة ، وتَاجلة ، وغلْيَار .

---

١ - جمهرة أنساب العرب ، ص ١٨٩ ، ١٩٦ .

- بنو عَنْس : دارهم بالأندلس : قلعة يَحْصِب ، غرناطة .
- بنو جُذام : دارهم بالأندلس : شَذُونَة ، والجَزيرة ، وتُدْمِير ، وإشبيليَة
- بنو لَخْم : دارهم بالأندلس : شَذُونة ، والجزيرة ، وإشبيلية .
- بنو تُجيب : دارهم بالأندلس : سَرَقَسْطة ، ودَرَوْقة ، وقلعة أيوب .
- ذو رُعَيْن : دارهم بالأندلس : الفحْص المنسوب إليهم بريَّة .
- بنو هَوزن : دارهم بالأندلس : القريتان المذكورتان بهما بإشبيلِيَة ، وهم بنو الداخل من حمص
- بنو عُذْرة : دارهم بالأندلس : دَلاَيَة ، وبجَّيَان منهم ، وبالثَّغْر .
- بنو خلدون : دارهم بالأندلس : إشبيلية .

وهكذا ندرك من خلال الإحصاء الذي يَرِد في «الجمهرة» ، أن عدد العرب في الأندلس كان كثيراً . والذي يدل على كثرتهم أيضاً أنهم كانوا يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ[1] .

وبقى لنا في نهاية المطاف أن نستفتي الأندلسيين لِنَرى ما عندهم . فإننا لو أخذنا ابن دراج ، على سبيل المثال ، مع علمنا بنسبه البربري ، لوجدنا عدداً ضخماً من قصائده ، ينبعث منها الحس العربي ، وتمجيد الدولة العربية في الأندلس . «فهو لم يشعر قط بعصبيته لنسبه الصنهاجي البربري ، بل هو لا يرى بأساً في أن يهجو الزعيم البربري زيري ابن عطية المغراوي حينما أعلن الثورة على المنصور إبن أبي عامر»[2] .

---

١ - جمهرة أنساب العرب ، أنظر الصفحات : ٢١٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٤ ، ٤٥٠ ، ٤٦٠ .

٢ - نفح الطيب ، ٢٩٣/١ .

٣ - ديوان ابن درّاج ، المقدمة ، ص١٥ .

والمرجّح أن طوائف البربر التي دخلت الأندلس إبّان الفتح قد اندمجت كلية بالمجتمع الأندلسي الجديد فما عادت تتعصب لغير أندلسيتها ، ولا تتذوق غير اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم . فقد انتشر التعريب بين سائر الطوائف ، وأصبحت اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ، ولغة أهل الأندلس في حياتهم الخاصة والعامة على السواء . وكان التعريب أيضاً قد شاع في المغرب بين البربر كنتيجة حتمية لدخولهم الإسلام . وقد نبغ فيهم علماء وشعراء وأدباء ، حتى أن ابن الأحمر ، الأمير إسماعيل بن يوسف ، يُعجب من نباهة الفقيه الكاتب أبو العباس الجزنائي المتوفي سنة ٧٥٠هـ ، وهو فيلسوف وطبيب ، فقد أعجب من إجادته وبراعته في الشعر ، وقال فيه : «ولو كان من الأعراب ، لشمل في شعرائها وحمل راية الكلام في أمرائها . والبربر لا تقاس بالعرب ، والتبر لا يماثل بالترب والعجب من بربري الأصل ، يذري مدارك الاعراب ، ويأتي الفصاحة اليعربية بالإعراب[1] .

وابن درّاج في الأندلس مثال واضح على ذلك ، وقصائده التي يتضمنها ديوانه تكتظ فيها المصطلحات : عرب ، عروبة ، يعرب ، وهي ترد في مناسبات تدل على تمجيدالعروبة والدولةالعربية في الأندلس . «ولعل من أجلّ المناسبات التي رفع فيها ابن درّاج لواء شعره في الإشادة بعظمة الإسلام وعزّة الدولة العربية ، تلك الغزوة التي وجهها المنصور في جمادى الثانية سنة ٣٨٧هـ ، يولية سنة ٩٩٧ إلى شنتياقب Santiago de Compastela في منطقة جليقة Galicia [2] . قال في تلك الغزوة يمدح المنصور وابنه عبدالملك وعبدالرحمن[3] .

لكَ الـبُشْرى ودُمْـتَ قريـرَ عَيْنْ بشـأْوَيْ كوكَبَيْـكَ الـنّـاقِبَـيْنْ

---

١ - نثير فرائد الجمان ، ص٣٣٦ .

٢ - ديوان ابن دراج ، المقدمة ، ص٤٤ .

٣ - ديوان ابن دراج ، ص٣١٤ .

مليكَيْ حِمْيَرٍ نَشَآ وشَبَّا بتيجانِ السَّناءِ مُتوّجَينَ
صَفِيي ما نَمَتْ عُلْيا مَعَدٍّ وسِيطَي يَعرُبٍ في الذِّرْوَتينَ

وفي قصيدة أخرى يتعرض فيها للمسيحيين ، فيقول[1] :

عمودُ شركِهُم السَّامي ذوائِبُهُ والرُّومُ والحُبْشُ والأفرَنْجُ من طُنُبهِ

فالإسبان بالنسبة للأندلسيين : إفرنج ، روم ، عجم ، أهل شرك . فشعورهم هذا لا يوحي بأنّهم ينتمون إلى أوروبا أكثر من انتمائهم إلى المشرق .

ويقول ابن درّاج في قصيدة أخرى يمدح فيها المنصور[2] .

تلاقَتْ عليهِ من تَميمٍ ويَعْرُبٍ شُموسٌ تَلالاَ في العُلاَ ويُدُورُ
مِنَ الحِمْيَرِيّينَ الذينَ أكفُّهُمْ سحائِبُ تهمِي بالنَّدى ويُحُورُ

قال الحميدي : قال أبو محمد علي بن أحمد -ابن حزم- الفقيه : كان المنصور بن أبي عامر معافري النسب من حِمْيَر ، وأمّه تميمية وهي بريهة بنت يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن البرطال . ولذلك قال فيه ابن دراج تلك القصيدة[3] .

وقال في قصيدة أخرى يمدح بها المنصور[4] :

فاسعَدْ بِسِبْطَيْ دولَةِ العَرَبِ التي بسناهُمَا جَلَتِ الخطوبُ ظلامَها

---

١ - ديوان ابن دراج ، ص ٣٧٤ .
٢ - ديوان ابن دراج ، ص ٢٥٢ .
٣ - الحلة السيراء ، ١/٢٧٥ .
٤ - ديوان ابن دراج ، ص٢٤٩ .

ويقول في قصيدة يهنيء المنصور في عيد الأضحى[1] :

همامٌ لهُ من فَخْـرِ يَعْـرُبَ في العُـلاَ ذُرى كلِّ سامي السَّبْك رابِي القواعِدِ

تلك الروح القومية التي نجدها عند ابن دراج ، نجدها أيضاً عند ابن حمديس الصقلّي . وقد وُلد هذا الشاعر في مدينة سرقوسة سنة ٤٤٧هـ = ١٠٥٥م ، من أصل عربي أزدي ، ثم هاجر في ريعان شبابه إلى الأندلس ، وأقام بأشبيلية يستمتع بجمال منتزهاتها ، ولكنه لم ينسَ وطنه الأم أبداً . وعندما تعرضت صقلية لخطر الغزو النورماني ، أخذ في إنشاء القصائد التي يحثّ فيها قومه على الاتحاد والجهاد ينبعث منها حس قومي ، مثلما وجدنا في قصائد ابن دراج . فالصراع بين المسلمين والنصارى ، وإن كان يحمل طابعاً دينياً ، إلاّ أنّه في حقيقته صراع بين عرب وعجم ، أو عرب وروم . تلك النـزعـة نحو العروبة لم تتلاشَ أبداً ، ودامت حتى آخر يوم من الوجود العربي في الأندلس . جاء في قصيدة ابن حمديس التي يحرّض فيها بني قومه للدفاع عن الوطن[2] :

بني الثّغرِ لستمْ في الوَغى من بني أمي إذا لم أصُـل بالـعُـرْبِ منكم على الـعُـجـم

دعـوا النومَ إني خائفٌ أنْ تَدوسَكمْ دواهٍ ، وأنتمْ في الأمـاني مع الحُلْم

وكـأسٍ بأُمّ المـوتِ يَسْعى مُديـرُهَا إلى أهـلِ كأسٍ خَتْمُهـا بابنـةِ الكرم

فَرُدّوا وجـوهَ الخيـلِ نحـو كريهـةٍ مُصرَّحـةٍ في الـرّوم بالثّكـلِ واليُتْم

وابن خفّاجة شاعر الطبيعة في الأندلس ، يدرك أن القضية ، قضية عرب وروم ، فَمِمّا جاء في قصيدته التي يصف فيها حال مدينة بلنسية بعد استرجاعها من أيدي الرّوم[3] .

---

١ - ديوان ابن دراج ، ص٣٤٥ .

٢ - ديوان ابن حمديس الصقلّي ، ص٤١٦ ، أنظر أيضاً : ملامح الشعر الأندلسي ، ص١٨٢ .

٣ - ديوان ابن خفاجة ، ص٢٠٩ .

واقشَــعَ الكُفْــرُ قَسْراً عَن بَلَنْسِيَــةٍ فَانْجَــاب عَنْها حِجَابٌ كانَ مُنْسَدِلاَ
وَطَـهَّــرَ السَّيفُ مِنْهَــا بَلْدَةٍ جُنُبــاً لم يُجزْهَــا غَيْرُ ماءِ السَّيْفِ مُغْتَسِلاَ
كأنّــني بعُــلُوجِ الــرُّومِ سَادِرَةً وقَــدْ تَضَعْضَــعَ رُكنُ الكُفْرِ فاستَفَلاَ

على أن الإحساس بالعروبة يبدو صريحاً واضحاً في الرسالة التي بعث بها المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين ، يستحثه فيها على العبور لنجدته من الأذفونش ملك الروم ، فقد جاء فيها : « . . . . كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وأنّه أيّد الله أمير المؤمنين ونصر به الدين ، فإنّا نحنُ العرب في هذا الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرّق جمعنا ، وتغيّرت أنسابنا بقطع المادة عنّا من صنيعتنا فصرنا فيها شعوباً لا قبائل ، واشتاتاً لا قرابة ولا عشائر ، فقلّ نصرنا وكثر شامتنا وتولّى علينا هذا العدو المجرم اللّعين أذفونش ، وأناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه ، وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاعِ والحصون ، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحدٍ منّا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ولو شاؤا لفعلوا إلاّ أنّ الهواء والماء منعهم على ذلك ، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال وأنت أيّدك الله سيّد حِمير ومليكها»[1] . .

فهل يقال عن ابن عبّاد وقومه أنّهم إسبان ، ينتمون إلى أوروبا أكثر من انتمائهم إلى المشرق . . ؟!

إن عبدالله بن أحمد بن جمهور ، من أئمّة أهل الفقه في إشبيلية خلال القرن السادس الهجري ، يعبّر عن عروبته في قصيدة يمدح بها المسلمين بعد موقعة الزلاّقة ، فقد قال[2] :

---

١ - أنظر : بنو عباد بإشبيلية ، ص١٦٥ .
٢ - الحلّة السيراء ، ١٠١/٢ .

لم تَعلمِ العجُم إذ جاءت مصمّمةً ... يومَ العَروبةِ إنّ اليومَ للعربِ

فمن يصدر عنه مثل هذا الإحساس بالعروبة ، لا يمكن أن يكون إسبانياً أو من الجنس الأوروبي .

وقد كتب القاضي أبو الحسن بن أضحي إلى الأمير عبدالله بعد انتصاره على ابن رذمير في سرقسطة يقول : [1]

والعَربُ تَرفلُ فوقَ الغربِ سابحَةً ... كالأسدِ ليس لَها إلاّ القَنَا ظفر

لم يكن سكان البلاد الأصليين ، بالنّسبة للأندلسيين ، سِوَى نصارى ، كفاراً ، مشركين ، افرنج . وفي المقابل نرى : عَرَباً ، حِميريين ، مسلمين . . .

جاء في قصيدة البصري التي مدح بها أمير المؤمنين يوسف بن عبدالمؤمن [2] :

ألاَ لَيْتَ شعري هل يمدّ لي المدى ... فأُبْصرُ شملَ المشركين طريدا
وهل بعدُ يقضي في النّصارى بنصرةٍ ... تغادرهم للمُرْهفَاتِ حَصِيدا
ويغزو أبو يعقوبَ في شنتَ ياقب ... يُعيدُ عميدَ الكافرينَ عميدا
ويلقي على إفرنجهم عبءَ كلكل ... فيتركهم فوقَ الصّعيد جُودا

وقال بعض الشعراء يذكر تسلّط ملك قشتالة على العرب [3] :

الرومُ تَضْرِبُ في البلادِ وتغنمُ ... والعُرْب تأخذُ ما بَقِيَ المَغْرَمُ
والمالُ يُوردُ كلُّهُ قشتالةً ... فاللّه يلطف بالعِبَاد ويرحَمُ

والمصادر غنية جدّاً بالإشارات والملاحظات التي تؤكّد عروبة أهل

---

١ - قلائد العقبان ، ص٢١٩ .
٢ - نفح الطيب ، ٤/٤٧٨ .
٣ - الروض المعطار ، ص١٦١ .

الأندلس ؛ ومن جملة الملاحظات التي نعثر عليها ؛ أنّ ابن سعيد الأندلسي قال[1] :

«يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة «العربيات» لمحافظتهن على المعاني العربية . . » .

وعندما يصف ابن الخطيب أهل مملكة غرناطة ، يقول[2] : أحوال هذا القطر في الدِّين وإصلاح العقائد ، أحوال سَنِيَّة . . . وألسِنَتُهم فصيحة عربيّة ، يَتَخَلَّلُها غَرْبٌ كثير ، وتغْلِب عليهم الإمالة ؛ وأخلاقُهم أبيّة في معاني المُنازعات ؛ وأنسابهم عربيَّة ؛ . . .

وأنسابُهم حسبما يظهر من الإشراعات ، والبَيْعات السلطانية والإجازات ، عربيّةٌ ؛ يكثر فيها القُرَشي ، والفِهْري ، والأُمَوي . . وكفى بهذا شاهداً على الأصالة . . ودليلاً على العروبيّةَ» .

ونحن نقول بدورنا ، وكفى بهذا شاهداً على الأصالة ، ودليلاً على العروبية . فأيّ إحساس بالعروبة أقوى من هذا . . . ؟

ونحب في النهاية أن نتوقف عند نقطة هامة ومفيدة نستوضح من خلالها المفهوم الذي يتضمنه مصطلح «العروبة» عند الأندلسيين . وتحقيقاً لذلك نرى أنه لابدّ من التذكير أن فكرة القوميات والأوطان ، كما نفهمها اليوم ، لم تكن قد ظهرت في تلك العصور . فصراع الأمم كان يتلخص في اقتتال الملوك من أجل العروش واستلاب الممتلكات عن طريق التوسع في الأراضي ، وكان مصير الشعوب يحدّده الملك الغالب . وقد اشتملت إسبانيا نفسها قبل دخول المسلمين

---

١ - نفح الطيب ، ٢٨٩/٤ .

٢ - الإحاطة ، الجزء الأول ، ص١٤٠ .

على أكثر من مملكة ، مثل : مملكة ليون ، ومملكة نافارا ، ومملكة غاليثيا ، ومملكة قشتالة وغيرها من الممالك ، عاش ملوكها في نزاع مستمر من أجل السيادة ، ولم يكن للسكـان المـواطنين رأي أو اعتبار . ومن هنا ندرك سبب تسميتنا دخول المسلمين إلى الأندلس «فتحاً» . فالشعب النصراني أخذ لأول مرّة يتذوق معنى العدالة واحترام الإنسان .

وبعـد أن انتهى إلينـا الأمـر وأردنا تحديد هوية المجتمع الأندلسي ، أراد الإسبان جعل الأندلسيين إسباناً أوروبيين . ورفضنا نحن ذلك . وسعينا في هذا البحث للتعـرف على موقف الأنـدلسيين أنفسهم من هذا المـوضوع . فوجدنا العـروبة عندهم تتجلى في مظاهر ثلاثة : الدموي، الثقافي أو اللغة المنطوقة ، الحسي أو الشعوري .

فبالنسبة للأول : فقد بدا لنا واضحاً من خلال أشعارهم . وهو أيضاً أكثر وضوحاً في عبارة المعتمد إلى الأمير يوسف ابن تاشفين : فإنا نحن العرب في هذا الأندلس» . وفي عبارة ابن الخطيب كذلك ، عند وصفه لأهل الأندلس في عصر مملكة غرناطة ، حيث قال : « . . . . وكفى بهذا شاهداً على الأصالة ، ودليلاً على العروبية» .

وبالنسبة للمظهر الثاني : فلم نعرف مثل الأندلسيين أشدّ حرصاً وتمسكاً بلغة دينهم وحفاظهم عليها حتى في أشد المحن عندما كانوا يتعرضون لطغيان محاكم التفتيش بعد سقوط الأندلس ، وأدب «الخميادو» شاهد عظيم على ذلك .

أما بالنسبة للمظهر الثالث : فقد ظل شعور الأندلسيين بالولاء إلى المشرق قائماً حتى آخر يوم لهم في تلك الجزيرة . وكان المشرق يبعث فيهم روح العزة والأصالة .

أما عن وجود عناصر غير عربية تشكل غالبية السكان ، كالبربر والنصارى

والمولّدين . فقد أبدينا رأينا بكل وضوح ، وقلنا إننا ننظر إلى عروبة الأندلس من خلال العنصرالبشري الـذي كان له الإسهـام الفعّال والحقيقي في وجود تلك الحضارة وصبغها بالصبغة العربية . والذين ننعتهم أنهم كانوا يشكلون الأكثرية فإن مشاركتهم في تلك الحضارة اقتصرت على بروز عدد ضئيل من الأسماء فقط .

وفيما يتعلق بالإشارات التي ترد في بعض الكتب عن معرفة الأندلسيين أو قضاة قرطبة لِلّغة «الرومانثية» أو عجمية أهل الأندلس ، وهي «اللطينية» . كما نجد في كتاب الخشنى وغيره . . ، فإن تلك المعلومات تؤكد حقيقة هامة ، أعني بها روح العدالة التي كان يتمسك بها القضاة المسلمون . فحين كان يَمثُل أمامهم رجـلاً نصرانياً لا يجيد العـربية ، كانـوا لا يجدون غضاضة من مخاطبته بلغته القشتـالية وإذا كان الأمر هكذا ، فلا ينبغي أن يُفسّر ذلك بأنّ القضاة تركوا لغتهم العربية وأصبحوا لا يتكلمون غير اللطينية . . ؟

وإذا كنا نشير أحياناً ، إلى تعصب الاسبان لقوميتهم ولغتهم ، فَلأن ذلك يظهر في كتاباتهم بشكل فاضح . ومن حقّنا حين نترجم أبحاثهم أن نشير إلى ذلك .

وأخيراً ، فإننا لا نريد في بحثنا هذا غير الفائدة .

والله سبحانه من وراء القصد

المصادر والمراجع :

أولاً : باللغة العربية

١ - الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق ، محمد عبدالله عنان ، المجلد الأول ، دار المعارف بمصر .

٢ - بنو عباد بإشبيلية ، عبدالسلام أحمد الصور ، مطبعة كريماديس ١٩٤٩ .

٣ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، للمراكشي ، تحقيق ج . س . كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٤ - تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة - بيروت .

٥ - تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٦ - تاريخ الفكر الأندلسي ، أنخل غونثالث بالنثيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٧ - الجديد في فن التوشيح ، الدكتور عدنان مصطفى ، دار الثقافة ، الدوحة ١٩٨٦ .

٨ - جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

٩ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلية ، الأمير شكيب أرسلان ، دار الحياة - بيروت .

١٠ - الحلّة السيراء ، لابن الأبّار الفضاعي ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١١ - ديوان ابن حمديس ، صحّحه وقدم له الدكتور إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ١٩٦٠ .

١٢ - ديوان ابن خفاجة ، تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازي ، الأسكندرية ، ١٩٦٠ .

١٣ - ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، المكتب الإسلامي ، ١٣٨٩ .

١٤ - الذخيرة في محاسن أهلالجزيرة ، لابن بسام ، تحقيق احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ١٩٨١ .

١٥ - صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار ، للحميري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

١٦ - قلائد العقبان ومحاسن الأعيان ، لابن خاقان ، مكتبة بولاق -القاهرة ، ١٢٨٤هـ .

١٧ - ملامح الشعر الأندلسي ، الدكتور عمر الدقاق ، دار الشرق - بيروت ، ١٩٧٥ .

١٨ - نثير فرائد الجمان ، لابن الأحمر ، دراسة وتحقيق ، محمد رضوان الداية ، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٧ .

١٩ - نفح الطيب ، للمقري ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ١٩٦٨ .

ثانياً : باللغة الأجنبية :

1. Actas I. Congreso, Historia de Andalucía, Diciembre 1976. Andalucí Medieval Tomo I

2. La Civilizacion hispano - árabe, Titus Burokherdt. version espanol de Rosa Kuhne Barbat.

1. Actas I. Congreso, Historia de Andalucía, Diciembre 1976. Andalucía Medieval Tomo I

2. La Civilizacion hispano - árabe, Titus Burokherdt. version espanol de Rosa Kuhne Barbat.

3. Historia de la arquitectura espanol - edad antigua - edad media. Fernando Chueca, Madrid 1965.

4. Historia de los jueces de Córdoba, p. 184, j. Ribera.

5. Historia de los Mosárabe de Espana, Madrid, 1897, Francisco Javier simonet.

6. Iglesias mosárabes, arte espanol desde los siglos IX hasta el XI. Madrid 119, Manuel Gómez Moreno.

7. Introduccion a la historia de Espano Ubiento - Reglo, jover - seco. Barcelona 1972.

8. Los Mosárabes de Toledo en los siglos XII y XIII. Angel Gonzales Palencia.

9. Sobre los Iberos y su lengua, Madrid 1952. M. Gomez Moreno.

دور الأنظمة البلدية
في تنظيم الخدمات العامة في مدن مصر
مع إشارة خاصة لمدينة الأسكندرية

الدكتور محمد سيد حافظ فرحات
مدرس بقسم الاجتماع

من الحقائق التاريخية المألوفة أن المدن في مصر الإسلامية ، تعبر عن واقع تاريخي حضري ، مختلف تماماً عن ذلك الذي ساد مثيلاتها الأوروبية . فالقاهرة العثمانية خلال القرن السادس عشر ، إذا نظرنا إليها من زاوية إدارتها المدنية سوف نلمس أن من أبرز خصائصها ، الغيبة شبه التامة للمؤسسات النوعية سواء ما يمثل منها المنظمات الجماعية للشعب ، أو تلك التي تنشئها السلطات الحاكمة . وليس في ذلك ما يثير الدهشة ، فالقاهرة في زمن المماليك ، كانت -كذلك- خالية تماماً من أية تنظيمات لشئون البلديات . وحتى نهاية العصور الوسطى ، لم تكن مسئولية الخدمات العامة ، تدخل في اختصاص أية إدارة حكومية أو أية تنظيمات أهلية . فالملاحظ أن معظم كبار الموظفين ، كانوا من أصول حضرية[1] مما أتاح فرصاً عديدة للاتصال بالسكان ، دون الاستعانة بتنظيمات رسمية متطورة . وهكذا فإن أمراء المماليك (الحكام) حين كانوا يتصدون لأمور من هذا القبيل ، إنما كانوا يفعلون ذلك لمجرد اهتمامهم الخاص ، أو لشعور منهم بالواجب ، أو رغبة في اكتساب مسحة من الشرعية في عيون العلماء والأهالي .

والواقع أن عاصمة الأمبراطورية نفسها في العصر العثماني ، لم تكن بأحسن حالاً من القاهرة ، فقد ظلت تفتقد بالمثل إلى أية تنظيمات حقيقية لشئون البلديات أو المرافق العامة ، وكذا التضارب في الاختصاصات بين الحكومة المركزية وإداراتها[2] . أن هذه الظاهرة تمثل شيئاً موصولاً في تاريخ المدن الإسلامية ، فليس الأمر إذن قاصراً على مصر وحدها[3] . وإذا كانت هذهالمدن

قد عرفت صوراً مبكرة من التخطيط الحضري ، كالميادين الكبيرة ، والحدائق العامة ، فإن ذلك يعود إلى النزعات الخيرية لبعض الحكام ، أكثر مما يعود إلى اعتبارات بيئية وتنظيمية[٤] .

والمؤكد أن ثمة اتفاقاً كبيراً على المدن في مصر الحديثة ، قد اتسمت خلال القرن التاسع عشر ، بإدارة غير مستقلة ، ولم تظهر بها دلائل على وجود حكم ذاتي نابع من أهلها ، أو مجالس بلدية على نحو ما شهدته المدن الأوروبية في مستهل القرن الثامن عشر . ولم تكن كذلك تتميز عن المناطق الريفية المحيطة بها ، بأية حقوق أو امتيازات خاصة . . إلخ ، إذ كانت المدن في مصر تحكم حكماً مركزياً عاصمياً ، على نطاق واسع ، من خلال كافة المؤسسات الإدارية العليا التي أقامتها الحكومة ، أو من خلال كبار الموظفين الرسميين الذي تم تعيينهم أيضاً بواسطة السلطات المركزية للدولة .

ومن أسف أن نجد «العواصم الإقليمية» عاجزة عن تخفيف أعباء «المدينة العاصمية» التي يشتد عليها الضغط حتى تنوء بالعبء ، وتفقد كثيراً من كفاءتها ، ويصبح جهازها الإداري قاصراً عن تحقيق وظائفه الأساسية . فالمدينة ليست قادرة على رفع مستوى الإقليم لضعفها وعجزها المادي ، كما أن الإقليم عاجز عن تقوية مدينته وبعثها ، نظراً لأن فائضه وطاقاته المادية والبشرية ، تمتصها العاصمة المركزية الطاغية[٥] . ويكفي أن نذكر أن مصر المحروسة التي حققت تطورات واسعة النطاق في جهازها الإداري والخدمي -عقب الاحتلال البريطاني لمصر- قد ظلت طوال تاريخها مركزاً لبيروقراطية ضخمة ، فهي تضم أكثر من ثلث موظفي الدولة ، بالإضافة إلى توطن مؤسسات التنمية الرسمية (الحكومية) بها . كما أن المبادرة من جانب القطاع الخاص كانت تميل إلى تركيز أنشطتها في القاهرة التي تتمتع باتساع حجم السوق ، فضلاً عن الإفادة قدر الإمكان من التسهيلات والخدمات المتاحة ، على حساب المدن الأخرى في الأقاليم[٦] .

وليس من الصعب علينـا أن نتعـرف على تلك العوامل التي دعمت هذه المركزية الطاغية (أعني السلطة المركزية للدولة) . ومن بين تلك العوامل على ما يؤكد «بيير Baer » وجود تجانس نسبي بين السكان في مصر ، بالإضافة إلى عظم هيمنـة الـدولة ، واتساع دورها الاقتصادي والإداري في البلاد ، حيث تتولى الدولة بنفسها تنظيم المسألة الزراعية منذ عام ١٨٢٠ ، وإحلال الري الدائم محل الـري الحوضى ، واتباع سياسةمائية من شأنها ضبط وتنظيم الري بمياه النيل (ثـورة الري) . فبعد أن كانت مصر مزرعة شتوية قوامها الحبوب ، أصبحت حقـلاً منتجـاً طول العـام ، لعـدد من المحـاصيل التجـارية (القطن وقصب السكر) ، فتضاعف الدخل القومي ، وقفز سقف السكان إلى طاقات لا وجه لمقارنتها بالماضى الحوضى على الإطلاق ، وبدون ذلك كان من المستحيل على المدن أن تصمد وتنمو وتزدهر(٧) .

أضف إلى ذلك أن سهولة المواصلات ، وخصوصاً المواصلات الحديدية ، قد لعب دوراً مماثـلاً في هذا الخصـوص ، إذ أن المعـروف أن بدايات الطرق الحـديدية المصرية ترجـع إلى عام ١٨٥٤ ، حين دعى عبـاس ، «روبـرت استيفنسـون R. Stephenson »لإنشـاء أول خط حديدي مصري يربط القاهرة بالأسكندرية . واستكمل هذا الخط في عهد سعيد عام ١٩٥٦(٨) . والواقع أن مد هذا الخط الحـديدي كان البـداية الحقيقية لنمو مدينة الأسكندرية -سكناً وإسكـاناً- في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وقد ترتب عليه انعاش الحركة التجارية في ميناء مصر الأول ، بعد أن تم ربطها بالعاصمة ، وبعض المدن الدلتاوية ، بمواصلات سريعة ميسورة .

لم يكن للدولة إذن ، أية حاجة للشروع في إقامة مجالس للمدن تتولى مهمة الإشراف عليها ، واكتفت بأن تتولى الحكومة إصدار الأوامر إلى حكام ومأموري الأقـاليم ، بتـولي أمـور التنـظيم والعمـران في المدن والبنادر ، باستثناء مدينة

الأسكندرية ، التي شهدت تغييرات عديدة أهمها تحول المدينة إلى ميناء رئيسي للتجارة الخارجية بعد حفر ترعة المحمودية عام ١٨٢٠ ، بالإضافة إلى ما شهدته المدينة من نهضة صناعية وإصلاحات بحرية في عهد محمد علي ، والتي كان لها أكبر الأثر في نمو مدينة الأسكندرية ، وتحولها خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً ، من قرية صغيرة يشتغل أهلها بصيد الأسماك ، لتصبح ثاني أكبر مدينة في مصر كلها .

لقد أتى على مصر حين من الدهر ، لم يكن لأهلها فيه تمثيل ذاتي للمشاركة في السلطة السياسية أو التنفيذية ، ففي خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر ، كانت بعض المهام الإدارية في كل من القاهرة والأسكندرية تؤدى عن طريق ما يسمى «الدائرة البلدية» أو «مأمور الدائرة البلدية» ، ولم تكن هذه الدائرة سوى إدارة تابعة للحكومة المركزية ، أما مأمورها فهو موظف حكومي معين من قبل الحكومة المركزية[٩] . كما أن رؤوساء الوحدات الاقتصادية والإدارية التي كانت تضم سكان مصر ، كان يتم تعيينهم جميعاً بمعرفة الحكومة ، ولا يتم اختيارهم في انتخابات حرة عن طريق أعضاء الوحدات التي يرأسونها ، إذ كان رئيس القرية (العمدة - شيخ البلد) يمثل دائماً في مصر ، السلطات الحكومية أمام القرويين ، أكثر مما يمثل القرويين أمام هذه السلطات ، ومن ثم فقد كان يعين في القرن الثامن عشر عن طريق الملتزم (جامعي الضرائب) ، وطوال القرن التاسع عشر عن طريق الحكومة . ونفس الشيء كان يحدث بالنسبة لشيوخ الحارات (رؤساء الأحياء بالمدن) ، إذ كانوا يعينون عن طريق سلطات الحكومة المركزية ، اعتباراً من بداية القرن التاسع عشر حتى نهايته . وينطبق نفس الشيء على شيوخ طوائق الحرف ، ولو أن آراء كبار أعضاء الطوائف كانت توضع بالطبع موضع الاعتبار عندما تقوم الحكومة باختيار الشخص الذي ستعينه في وظيفة شيخ الطائفة . وهكذا فإن الأهالي الأصليين لم تنشأ بينهم نواة للحكم الذاتي ، قادرة على التطور لتأخذ شكل المجالس البلدية[١٠] .

وربما كان ديوان القاهرة (مجلس بلدي القاهرة) الذي أنشأه نابليون بونابرت في عام ١٧٩٨ بمثابة حدث هام في هذا المجال ، إلا أن إنشاء هذا الديوان قد لا يعتبر -لأسباب متعددة- بداية لظهور الحكم المحلي في مصر . فلم يكتب له الاستمرار إلا لفترة قصيرة للغاية ، وبالتالي لم يترك تأثيراً يذكر على مجريات التطورات المستقبلية عند التفكير في إنشاء أول مجلس بلدي مصري .

وتؤكد بعض الكتابات التاريخية ، استناداً إلى ما ورد في المحفوظات والوثائق القومية ، أن مجلس «الأورناطو» Ornato الذي أنشيء في مدينة الأسكندرية عام ١٨٣٤ هو أول المؤسسات البلدية التي لعبت دوراً أساسياً في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، فقد كان يضم الوطنيين من أهل البلاد ، مع القناصل الأجنبية لكل من بريطانيا واليونان وفرنسا والسويد ، بنسب تتعادل مع عدد الجاليات الأجنبية في مصر ، وقد تعددت اختصاصات هذا المجلس ، والتي وردت في مصادر مختلفة : إعطاء أسماء للشوارع ، بحث التعديات على التنظيمات الخاصة بالمباني ، الإشراف على أنشطة البناء والتشييد بوجه عام ، تنظيم شبكة الشوارع . . إلخ .

ولم يكن مجلس أورناطو الأسكندرية في بداية الأمر وليداً لرغبة الأهالي ، بقدر ما جاء تلبية لأوامر الحكومة في استحداث مجلس يتصدى لشئون البلديات سواء في مجال التوسع العمراني ، أو العناية بالصحة العامة ، أو إعفاء الأجانب من دفع الضرائب ، ولم يكن ذلك ممكناً أيضاً في المدن والبنادر الأخرى التي يوجد بها جاليات أجنبية[11] . وجدير بالذكر أن حركة التجارة الداخلية والخارجية كانت تتطور بدرجة كبيرة منذ عصر محمد علي ، وأن نشاط واستمرار هذه الحركة التجارية كان يقضي بضرورة العناية بالطرق والميادين لتسهيل مهمة الوصول إلى الميناء ، لذلك شغلت مسألة شق الطرق وتوسيعها ، وإقامة الميادين ، اهتمام مجلس الأورناطو منذ الوهلة الأولى ، وخصوصاً بعد تزايد مصالح الأجانب

التجارية . ففي الفترة من عام ١٨٢٢ إلى عام ١٨٣٨ ، ازداد عدد الشركات الأوروبية التي تدير أعمالاً تجارية حرة من ١٦ إلى ٤٤ شركة[١٢] . وأصبحت الأسكندرية مركز «المجتمع الأوروبي» في مصر أو هي عاصمة للأجانب في مصر أكثر من كونها مدينة مصرية ، حيث كان الأجانب المقيمون بها ، يمثلون غالبية الأجانب الذين يقيمون لفترة طويلة ، ولابد أن عددهم فيما يذكر لوتسكي قد وصل في عام ١٨٤٠ إلى ٥٠ ألف أجنبي يؤلفون ربع سكان المدينة ، ويعطي بيير تقديراً لعددهم يصل إلى ما بين ٣٠ ألف و٤٠ ألف في عام ١٨٦٠ ، وإلى ما بين ٥٠ ألف إلى ٦٠ ألف في منتصف الستينيات ، حتى أن نسبتهم إلى المجموع الكلي للسكان بالأسكندرية تقدر ما بين ربع وثلث السكان ، كما كان لكثير منهم اهتمام اقتصادي واجتماعي كبير ، في مجال تنمية التسهيلات الحضرية ، وخصوصاً خدمات المجلس البلدي في الأسكندرية[١٣] .

وبطبيعة الحال ، فقد كان هذا المجلس يعمل بتوجيه من الحكومة المركزية ، وأن اختصاصاته وقراراته تكشف عن غياب الاستقلال الذاتي على نحو ما أوضحنا قبل قليل ، غير أن ذلك لم يؤثر قط على دوره ونشاطه ، فقد انجز الكثير من المشروعات في مجال الخدمات والعمران ، كما لعب دوراً أساسياً في نمو وازدهار مدينة الأسكندرية ، وتحويلها إلى مركز تجاري دولي منذ منتصف القرن التاسع عشر ، إلى الحد الذي يجعلنا أن نرجح أن هذا المجلس كان أقدم المجالس البلدية في مصر ، التي بحثت شئون مدينة الأسكندرية في مجال الخدمات العامة .

غير أن «الوجود الأجنبي» على هذا النحو في المجتمع السكندري ، يتطلب منا بعض التأمل ، فلقد مثلت فيه الجاليات الأجنبية انعطافة خطيرة ازاء تشكيل مجلسه البلدي ، وقد استغرق الأمر الكثير من الوقت قبل أن يقوم مجلس بلدي الأسكندرية في يناير ١٨٩٠ ، الذي ضم إلى عضويته أغلبية من الأجانب ، وقلة

من الوطنيين ، الأمر الذي جعل هذا المجلس يسير وفق رغبات الأجانب في معظم الأحوال ، ويتسم بالصبغة الدولية ، ويتخذ من لغة غير العربية لغة تخاطب وكتابة ، بل واعتبرت (أي هذه اللغة) في كثير من الأحيان من أهم شروط التعيين في الكثير من الوظائف الهامة . ومن الحقائق التاريخية المألوفة في هذا الصدد أن الأوروبيين في مصر -بوجه عام- كانوا يتولون خلال القرن التاسع عشر ، وظائف الطبقة الوسطى المتصلة بالإدارة والتجارة ، كما كانوا يميزون تلك المدن التي اختاروا الإقامة بأقسام معينة منها ، بنهج غربي متسق : شوارع عريضة ومتقاطعة ، حدائق ومتنزهات ، مياه نقية وكهرباء وغاز ، خدمات بلدية عامة مثل نظافة الطرق ، وجمع النفاية ، وإنشاء النوادي ودور السينما وغيرها من الأنشطة الترويحية . وأخذت هذه الأقسام أسماء مختلفة مثل «المدينة الجديدة» أو «الحي الأفرنجي» تمييزاً لها عن أقسام المدينة الوطنية القديمة ، التي لم تحظى بنفس العناية والتطور ، وظلت على حالها ، بل وتدهورت نتيجة للاكتظاظ السكاني ، الذي سببته الزيادة الطبيعية لسكانها من ناحية ، والهجرة الريفية من ناحية أخرى . باختصار ، أصبحت هذه المدن تنقسم إلى عالمين متمايزين في كل شيء وان كانا متجاورين . ولعل هذه الازدواجية الحضرية ، تحمل سمات خاصة ، وتمايز طبقي ووظيفي داخل تلك المدن التي اختار الأوروبيون التمركز فيها ، وتعبر بشكل جلي عن تأثير تلك الهجمة (الهيمنة) الامبريالية ، واسعة النطاق ، التي لحقت بالمجتمع المصري ككل[١٤] .

لقد أحدثت هذه التطورات تأثيراً بالغاً على المهام الأساسية لمجلس بلدي الأسكندرية ، فعلى الرغم من تشكيل المجلس من أغلبية من الأجانب (مارس ١٨٩٠) ، تكونت اللجان البلدية التي بدأت تنظر في كافة الأمور المتعلقة بالمدينة ، وخصوصاً العمل على تنمية الموارد البلدية التي كانت تعاني من نقص شديد ، وتخصيص هذه الموارد لانفاقها في عدة وجوده أساسية مثل إدارة التنظيم ، وبحث التعديات ، وتنظيم شبكة الشوارع والحواري الوطنية ،

والمستشفيات والجمعيات الخيرية ، والعناية بالصحة العامة ، ونظافة المدينة وخدمتها ، وكذا الانفاق على تطهير مجاري المياه القذرة ، ووضع حنفيات مجانية في مناطق سكن المواطنين للاستعاضة عن الآبار. . إلخ .

وعلى الرغم من هذه العناية التي أولتها البلدية للخدمات العامة وخصوصاً في النواحي الصحية ، فإن شكوى الأهالي كانت تتزايد من بطيء سير الإنجازات من جانب البلدية ، وعدم عنايتها بالشوارع والأحياء الوطنية ، وظهرت انتقادات عديدة لخطة البلدية في الإصلاح ، وعزى البعض هذا الإهمال إلى سيطرة ممثلي الجاليات الأجنبية ، وعجز ممثلي السكان الوطنيين في البلدية عن التأثير في قرارات المجلس البلدي ، وتردد أن الأعضاء الأوروبيون هم أغلبية داخل المجلس ، وأنهم أصحاب المصلحةا لأولى في قيامه ، وأن الوطنيين لا يؤبه بهم على الرغم من كونهم دافعي الضرائب[١٥] . ويذكر «بيير» أن تلك الامتيازات الخاصة التي تمتع بها الأجانب في مصر خلال تلك الفترة كانت من أهم العوائق التي عرقلت نمو وتطور المجالس البلدية في مصر بوجه عام ، وفي حالة مجلس بلدي الأسكندرية ، فإن نسبة تمثيل الجاليات الأجنبية المقيمة بالأسكندرية جاءت مبالغ فيها ، وغير متناسبة مع عددهم في المدينة ، الأمر الذي دفع بلجنة مجلس شورى القوانين عام ١٨٩٣ إلى تقديم اقتراحاً بإلغاء مجلس بلدي الأسكندرية ، استناداً إلى أن القانون الانتخابي لهذا المجلس من شأنه أن يجعل العضوية فيه في قبضة الأجانب فقط ، ولا يتيح للوطنيين تمثيلاً حقيقياً في إدارة مجلس بلدي مدينتهم[١٦] . وشبه البعض بناية البلدية بأنها أشبه ما تكون بنظارة خارجية لندن في الأسكندرية ، وبدأ الوطنيون ينظرون إلى البلدية باعتبارها رمز للاحتلال والسيطرة الأجنبية ، ويوالونها بالنقد ، وينظرون إليها بعدم الارتياح ، باعتبار أنها تحمي نفوذ وسيطرة الأجانب ، وتردد بينهم الرغبة في حلها ولم يمض على قيامها سوى فترة قصيرة .

وهكذا يمكننا تحليل ملامح السنوات الأربعة الأولى (١٨٩٠ - ١٨٩٣) من تاريخ مجلس بلدي الأسكندرية ، في ضوء ثلاثة أبعاد أساسية ، يتصل أولها بزيادة نفوذ الأجانب وسيطرتهم على البلدية ، واصطباغ النظام السائد فيها بصبغة دولية ، أما ثاني هذه الأبعاد فيتعلق بتضاؤل الوجود الوطني داخل المجلس البلدي ، إلى حد يجعلنا أن نرجح القول بأن البلدية كانت بمثابة برلمان أجنبي على أرض مصر ، ممثل فيه أعضاء من كل الدول الأوروبية تقريباً ، ويشير البعد الثالث إلى أن مدينة الأسكندرية ذاتها ، كانت تواجه خلال تلك السنوات ، العديد من المشكلات المزمنة في مجال الخدمات الصحية ، والتنظيم وغيرها ، وأن إيرادات المجلس البلدي تعجز دائماً عن الوفاء بانفاقات هذه المشروعات ومستلزماتها ، وهي مشروعات وخدمات تتصل بتحسين الأوضاع الصحية والبلدية بالمدينة .

وقد أثارت هذه المآخذ العديدة ، وخصوصاً سيطرة العناصر الأجنبية على مجلس بلدي المدينة ، استياء شديداً بين المصريين ، وأن السلطات الممنوحة لمجلس بلدي الأسكندرية محدود للغاية ، وان قرار استبعاد الشرطةمن مجالات أنشطة المجلس البلدي ، لم يكن قراراً محموداً . كما أشار أحمد لطفي السيد في عام ١٩١٣ إلى أن المجالس المحلية المنتخبة ، يمكن أن تكون أفضل الهيئات التي تشرف على المؤسسات التربوية في البلاد[١٧] . ولكن من أين لها تحقيق ذلك ؟

وإذا كان لنا أن ناقش بعض الاهتمامات الأساسية التي عمل من أجلها مجلس بلدي الأسكندرية ، فإننا نستطيع أن نفعل ذلك على نحو أفضل ، إذا ما تتبعنا نشاط المجلس بعد إعادة تشكيله في نوفمبر ١٨٩٣[١٨] . لقد ظلت غالبية أعضائه أيضاً من الأجانب . وكان على رأس موضوعاته ، الاهتمام بالمسألة الصحية ، وخصوصاً بعد أن تردد أن المدينة سوف تتعرض لوباء الكوليرا المنتشر في المدن الحجازية وبلاد الشام ، فاتخذت الاحتياطيات اللازمة ، والتدابير

الصحية للوقاية من المرض ، كما أولى المجلس عناية كبيرة لنظافة الأحياء الوطنية التي تفتقر إلى الخدمات الحضرية إلى حد كبير ، ولا تتصل بالمرافق الصحية إلا في أضيق الحدود ، وقد استلزم العناية بالأحوال الصحية ، حماية مياه الشرب من التلوث الناجم عن إلقاء المخلفات في ترعة المحمودية ، فقامت البلدية في عام ١٨٩٤ بإجراء تجارب لإنشاء مصفاه لتقطير المياه بجوار ترعة المحمودية ، وإزالة القاذورات المتراكمة فيها . ويتصل بمسألة العناية بالصحة أيضاً ، إقامة مشروع للمجاري (الصرف الصحي) بالمدينة ، وقد اعتمد لها في عام ١٨٩٦ مبلغ وقدره ٢٢٠٠٠ من الجنيهات ، كما نظر المجلس أيضاً في مسألة تزويد مدينة الأسكندرية بالمياه النقية ، بالاتفاق مع شركة «ادوارد استون» الإنجليزية عام ١٨٩٧ .

ولعل مشروع الترامواي كان كذلك من أهم المشروعات التي نظرها المجلس البلدي وناقشها (١٨٩١) ، وبدأت بالفعل شركة الترامواي في مد الخطوط اعتباراً من عام ١٨٩٦ ، ليشمل ثلاث مسارات : (المنشية - المكس - شارع الميدان) ، ومن وسط هذه المسارات يتجه مسار آخر إلى الجمرك . وقد احتفلت الأسكندرية في سبتمبر ١٨٩٧ بتسيير الرحلات الأولى لخطوط الترامواي ، والتي تزايدت تدريجياً ، وقد اتفق مدير البلدية مع شركة الترامواي ، على الرسوم التي سيتقاضاها المجلس على كل خط ، وكذا تعريفة الركوب . والمعروف أن البلدية كانت تحصل على عائد تسيير الترامواي في المدينة بلغ في عام ١٨٩٨ حوالي ٢٠٠٠ جنيهاً سنوياً .

أما في مجال الأشغال العمومية فقد قرر المجلس البلدي في نوفمبر ١٨٩٦ ، بناء رصيف على شاطيء الميناء الشرقي ، وتحصل المجلس على موافقة الحكومة على المشروع ، غير أن النفقات اللازمة لإنشائه لم يتم تدبيرها دون فرض ضرائب جديدة على بعض الواردات (الدخان مثلاً) ، كما تقرر أيضاً تحصيل ضرائب

بلدية على المجزر الجديد بالمكس ، مما أثار حفيظة القصابين وشكوى الأهالي .

لقد تحولت المدينة في أواخر القرن التاسع عشر إلى سوق عالمية ، يشرف على إعداده وتجهيزه مجلس بلدي له صفة عالمية ، ممثل فيه أصحاب المصالح من كل دول أوروبا تقريباً ، فالعناية بالصحة يستفيد منها الأجانب قبل الوطنيين على الرغم من أن الأخيرين هم دافعي الضرائب ، وعددهم يفوق عدد الأجانب . ومد خط الترامواي يهدف إلى تنشيط حركة التجارة في اتجاه الجمرك . ومشروعات الأشغال العامة تتركز في الميناء على وجه التحديد ، حتى أصبح المجلس البلدي في خدمة الأجانب بصفة خاصة ولم يكن هناك أية منافسة من الوطنيين وخصوصاً في اختيار أعضاء المجلس ، حيث فاز الأجانب بجميع المقاعد باستثناء مقعد واحد فاز به أحد الموطنيين .

وفي ذات المجال (أعني قطاع النقل والمواصلات) ساهم المجلس في تنشيط الحركة التجارية عن طريق الاهتمام بوسائل المواصلات ، وإصلاح بعض الطرق داخل المدينة (طريق الرمل - الطرق الواقعة في مناطق البلقراطية ، سوق السمك ، المغاربة) ، هذا فضلاً عن اهتمام المجلس بأحياء الأجانب (شارع شريف ، شارع توفيق ، شارع المسلة ، شارع باب شرقي . . . إلخ) .

وفي مجال مقاومة الأوبئة ، والمحافظة على الصحة العامة ، اتخذت البلدية اجراءات عديدة للوقاية من وباء الطاعون الذي داهم المدينة في مايو ١٨٩٩ ، مثل تبخير الركاب في محطة الأسكندرية ، وملاحظة تلاميذ المدارس والعناية بنظافة الكتاتيب وتطهيرها ، ومعاينة البضائع والمأكولات الموجودة في حوانيت البقالة ، أو عند باعة الخضار ، وغسيل بعض الشوارع مثل السبع بنات ، والعطارين ، والمسلة ، وتوفيق ، والورشة ، والبوستة . . إلخ ، وتنقية مياه الشرب وإرشاد الأهالي ، وإقامة المحاجر الصحية لعزل المصابين ، كما حذرت البلدية أهل المتوفى من الاقتراب من الجثة قبل حضور الطبيب ، وألغت

الاحتفالات الدينية بمولد سيدي جابر ، وسيدي بشر دفعاً لخطر العدوى من الازدحام . وامتداداً لهذه الإجراءات الوقائية قررت البلدية رصد مبلغ ٢٠٠٠ جنيه لبناء مساكن صغيرة بدلاً من العشش التي قامت بهدمها اتقاء لمخاطرها الوبائية ، واستبدلت الميضات في المساجد بحنفيات مياه جارية ، وقامت بالعديد من المحاولات لتطهير المنازل من الطاعون ، فكونت الفرق المتكاملة التي تضم الأطباء والمساعدين بالتعاون مع مجلس الصحة البحرية ، ومشايخ الأقسام ومشايخ الحارات ومساعديهم ، وجماعات التبخير والتطهير وتبييض البيوت ، والكناسين . . إلخ ، حتى تمكنت بالفعل من محاصرة الوباء في سبتمبر ١٨٩٩ .

والحق أن البلدية قد حققت بالفعل انجازات كبيرة في مجال الصحة فتمكنت من السيطرة على الأوبئة التي كانت تداهم المدينة في مطلع كل صيف ، واتخذت الإجراءات الوقائية اللازمة ، وانفقت في سبيل ذلك أموالاً طائلة .

ولعل أبلغ جهود المجلس البلدي ، ما وجه للنظر في ارتفاع ايجارات المنازل بالمدينة ، وتكوين لجنة تتبنى إقامة الدعاوى ضد أصحاب الأملاك للدفاع عن حقوق المستأجرين ، على أن ترفع اللجنة اقتراحاتها للمجلس البلدي الذي رأى على لسان رئيسه «أن إقامة منازل بأجره زهيدة للعمال الفقراء تعتبر من المسائل الدقيقة» ، وقدمت «لجنة المدافعة عن حقوق المستأجرين» مشروعاً إلى البلدية نظره المجلس في يناير ١٩٠٦ ، واستصدر قراراً بتشكيل لجنة يرأسها مدير البلدية ، للانتهاء من وضع مشروع أطلق عليه إسم (مشروع المساكن الاقتصادية) .

غير أن تلك الجهود لم تسفر عن حل مشكلة ارتفاع إيجارات المساكن لأن

أسبابها كانت موجودة برمتها ، حيث المضاربة على الأراضي ، والرغبة في امتلاكها بقصد إعادة بيعها ، لا بقصد استثمارها في بناء وحدات سكنية جديدة ، لذا فقد قامت البلدية بتخصيص مساحة من الأرض لبناء منازل رخيصة الأجر ، غير أن

هذا الحل الأخير لم يؤدي إلى وضع حد لتفاقم أزمة الإسكان في المدينة ، أو إيقاف موجة ارتفاع إيجارات المنازل بها .

ونظراً لتفاقم المشكلة وعجز البلدية عن القضاء عليها أو التخفيف منها ، استحكمت التظاهرات في أنحاء المدينة (مارس يونيو ١٩٠٨) ، وحاولت البلدية دون جدوى أن تتفادى الأزمات الناشئة عنها ، بطرح بعض المشروعات الجديدة ، غير أن ذلك أيضاً لم يلق قبولاً حسناً .

وهناك شواهد تاريخية توضح كيف تعرضت المدينة لمجموعة من السياسات الاحتكارية (١٩٠٤) ، وخصوصاً من قبل قومبانية المياه وشركة سكة حديد الرمل ، وتحكمها في الاحتياجات الأساسية لجماهير الأسكندرية ، حيث قطعت الأولى المياه عن أحياء المدينة (١٩٠٤) ، ومنعت الثانية تجديد اشتراكات الركاب بالسكك الحديدية (١٩٠٥) التي تربط سكان منطقة الرمل بباقي أنحاء المدينة . الأمر الذي كان له أثاراً سيئة على المواطنين ، وتبرمهم ، ومحاولتهم القيام بتظاهرات معادية ، احتجاجاً على استغلال هذه الشركات الاحتكارية التي أعلنت أن حق الامتياز الممنوح لها هو ملك لها ، وحدها ، ولا يقدر غيرها (أي الحكومة) على إلغائه ، كما أنها لا تقبل التدخل من أطراف أخرى (تعني البلدية) في حقوقها وشئونها ، أو الرقابة على أعمالها ، واتهمت البلدية بالعجز عن رفع الظلم عن الأهالي ، ووضع حد لتصرفات الشركات الاحتكارية ، بحجة أن أعضاء المجلس أنفسهم ، أعضاء في هذه الشركات[١٩] .

وازاء إصرار الشركات الأجنبية -صاحبة الامتياز- على السيطرة على مرافق الخدمات في المدينة ، وعلى رأسها مرفق المياه ، وقفت الحكومة متخاذلة ، على حين كانت البلدية عاجزة عن إملاء أية شروط تحمي مصالح سكان المدينة ، وتصون حقوق أبناء البلاد . وفي عام ١٩١٨ وافق مجلس الوزراء على بعض القرارات التي تتيح إحلال البلدية محل الحكومة في الاتفاقات المبرمة مع شركة المياه البريطانية ، وتأليف لجنة خاصة لدراسة تلك الاتفاقات[٢٠] . لقد كان على المصريين أن يبدأوا مرحلة من الكفاح الوطني ضد السيطرة الأجنبية على مرافق الخدمات في المدينة ، وعلى رأسها مرفق المياه .

وعلى أثر إعادة انتخابات المجلس البلدي في فبراير ١٩٠٦ ، وتشكيل المجلس الجديد في مارس من نفس العام ، نظر المجلس في بعض الموضوعات الهامة وعلى رأسها بيع أراضى الرصيف لحل أزمة الإسكان ، لقد حققت هذه البيوع عائداً كبيراً للبلدية في عام ١٩٠٧ يقدر بنحو ٢ مليون جنيه على ما ورد بتقرير اللورد كرومر عن الأوضاع المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر والسودان والمرفوع إلى نظارة الخارجية البريطانية في عام ١٩٠٦[٢١] .

وتحت تأثير الظروف التي مرت بها البلاد (١٩٠٩) حدث نقص كبير في الإيرادات البلدية ، وخلل في الميزانية ، حيث زادت المصروفات بالقياس إلى الإيرادات المتحصلة في الأعوام السابقة . الأمر الذي دفع بالبلدية إلى تعويض هذا الخلل عن طريق فرض الضرائب والرسوم الجديدة ، وعقد قرض مالي . كما فرضت في أكتوبر من عام ١٩٠٩ ما اطلق عليه «عوائد التحسينات» ، وهي رسوم تدفع على عوائد الأملاك ، غير أن فرض هذه الرسوم في ذلك الوقت ، كان موضع انتقاد شديد ، لأن هذه التحسينات كانت في واقع الأمر قاصرة على الأجانب وحدهم[٢٢] .

ولم يتيسر للبلدية أن تصلح أوضاعها المالية ، وأن يتوفر لها الأموال اللازمة لإدخال التحسينات المطلوبة ، وإنجاز مشروعاتها القائمة ، إلا بعد موافقة الحكومة على اقراضها مبلغ ١٠٠,٠٠٠ جنيه ، وكذا موافقة الدول الأوروبية على منحها قرضاً مالياً بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه لتنفيذ بعض المشروعات الخاصة بالصرف الصحي ، واستكمال العمل بالرصيف في أواخر عام ١٩١٢ ، أما بقية الأعمال التي تدعو الحاجة إليها بسبب اتساع حدود المدينة ، خاصة الأراضى الجديدة التي تم بناء منازل عليها بمحاذاة شاطيء البحر ، وما تتطلبه هذه المساكن الجديدة من خدمات صحية ومرافق أساسية وطرق وغير ذلك ، فكانت بحاجة شديدة إلى تدبير مصادر مالية أخرى للانفاق عليها وصيانتها ، مصادر تعجز إيرادات البلدية عن تدبيرها في ظل تدهور أوضاعها ، وتخبطها في مشروعات غير ضرورية أوعديمة الفائدة لسكان المدينة . وقد كثر التذمر بين الوطنيين الذين شكلوا لجنة للدفاع عن مصالح الأسكندرية وأهلها ، والنظر في المظالم التي ارتكبتها شركات الاحتكار في المدينة ، أو تلك المشروعات غير الضرورية التي أقرتها البلدية على غير رغبة من أهالي الثغر .

هذا وقد تردت البلدية في الكثير من المشكلات وأجريت التحقيقات في العديد من التهم الموجهة إلى موظفيها وشاع الفساد بين جنباتها . . . إلخ . الأمر الذي دفع بنظارة الداخلية إلى استصدار القرار بتعيين رئيس قسم البلديات بها ، مديراً لبلدية الأسكندرية (١٩١٢)[٢٣] .

وقد لجأت الصحافة إلى مهاجمة البلدية بسبب المشكلات التي تعاني منها خلال تلك الفترة التي تعتبر من أدق فترات تاريخ بلدي الأسكندرية . وفي ابريل سنة ١٩١٤ ناقش أعضاء البلديات مسألة الصحافة ، واستقر الرأي بالأغلبية على إعطاء رئيس المجلس حق منع حضور أي من الصحافيين ، إذا تبين له ما يستدعي ذلك ، ومنح الترخيص بالحضور للذين يرى حضورهم جلسات

المجلس البلدي . وقد أثار هذا القرار حفيظة أعضاء البلدية الذين قدموا احتجاجاً على موقف الحكومة «الاستسلامي» لقرار البلدية ، والذي كان من شأنه إقرار لائحة للصحافة (في أول يوليو ١٩١٤) تعمل على تكميم أفواه الصحافيين[٢٤] .

وعشية الحرب العالمية الأولى ، نشأت الصعوبات : نقص المواد الغذائية ، وغلاء أسعارها ، تفشي البطالة . . إلخ ، وفي مواجهة تلك المشكلات توالت اجتماعات البلدية لمناقشة أوضاع الغذاء في المدينة ، ووضع حداً لموجة الغلاء ، وأشارت بعض الصحف إلى أن الأسكندرية يجتاحها الجوع ، وتملؤها النفايات ، وتستغلها شركات الاحتكار[٢٥] .

وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر في ديسمبر عام ١٩١٤ ، وفي يناير ١٩١٥ صدر بلاغ القائد العام للقوات البريطانية عن الأحكام العرفية في البلاد ، ولم تمنع ظروف الحرب من إجراء انتخابات البلدية في موعدها (مارس ١٩١٦) ، غير أن القائد العام للقوات البريطانية في مصر قد أعلن حرمان جميع الأشخاص التابعين للدول المعادية ، وكذا جميع المصريين الممنوعين من العودة إلى القطر المصري أو من الإقامة فيه ، حرمانهم من حق المشاركة في الانتخابات البلدية كناخبين أو مرشحين ، كما منحت السلطات العسكرية البريطانية أحد قوادها ، سلطات واسعة تخول له الاشراف على محلات تعبئة المياه الغازية والمعدنية ، وإغلاق المخالف منها دون محاكمة[٢٦] . ولنا أن نستنتج من ذلك عدم موافقة الناخبين على التوجه للإدلاء بأصواتهم (بلغ عدد الذين أدلوا بأصواتهم ٧٢٧ ناخباً فقط من ألفين ومائة صوتاً مدرجاً بكشوف الناخبين) ، واعتراض السلطة الرابعة (أعني الصحافة) على الطريقة التي أجريت بها الانتخابات ، واعتبارها على حد تعبير «البورص اجيبشيان» دليل على عدم اتفاقها ومصلحة الأهالي ، والمطالبة بإلغائها لما فيها من تلاعب ومخالفة للنظام الأساسي للبلدية ، كما نوهت صحيفة

الأهالي بالنصيب الذي يحصل عليه الوطنيون في الأنظمة التي تتحول فيها صبغتها الدولية إلى صبغة مصرية إنجليزية[٢٧] .

وعلى أية حال ، فإن السلطات البريطانية في مصر خلال الحرب العالمية الأولى ، قد تمكنت من السيطرة التامة على البلدية ، سواء بإصدار أوامرها إلى مدير البلدية للاتصال أو لمقابلة رئيس الحكومة والمستشارين البريطانيين في العاصمة ، أو لعزل البلدية عن ممارسة أية تقييمات للسياسة البريطانية ، كما طلبت من موظفي البلدية عدم التعامل (أو حتى استقبال) مع الصحفيين في مقر البلدية . . إلخ ، وتقلصت الكثير من المهام للمجلس البلدي ، حيث يمكن القول بالفعل أنه مجلس جاء في ظل الحماية ، وطوع أمر السلطات البريطانية .

على أن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى أن خدمات المجلس البلدي في خلال هذه الفترة قد اتجهت صوب الأحياء الأجنبية ، والاهتمام بفتح الطرق الجديدة (أو المشروعات الكمالية) التي لا تعود على أبناء البلاد بأية فائدة على حساب الاهتمام بالشوارع الوطنية والمشروعات القومية ، أو التصدي لمشكلة الصرف الصحي .

ومن الطبيعي أن تتجدد الدعوة إلى ضرورة حصول الوطنيين على عدد من المقاعد البلدية تتناسب مع عددهم في المدينة ، ومع ما يدفعونه من الضرائب ، في مقابل ذلك أيضاً تزايدت الحركة الوطنية في المدينة قوة واشتعالاً ، وحتى لا تتفاقم الأمور في ظل أحداث الحرب ، رأت دار الحماية البريطانية في القاهرة تعيين أحد العسكريين البريطانيين مديراً للبلدية[٢٨] .

وعلى حين قصدت السلطات البريطانية بتعيين أحد العسكريين مديراً للبلدية ، امتصاص الغضب الدائر في أوساط الأهالي ، وتجنب احتمالات الصدام بالقوى الوطنية المتطلعة إلى تحديد مسئوليات البلدية ، فإنها لم تجن من

وراء ذلك سوى مزيد من المعارضة والنقد لسياستها المختلفة ، وخصوصاً فيما يتعلق بفرض الضرائب وتأمين الغذاء .

والواقع أن الدور الاقتصادي الذي اضطلعت به البلدية خلال فترة القيادة العسكرية ، يتضح بجلاء في اهتمامها بالمشكلات الناجمة عن شركات الاحتكار الرأسمالية ، ونقص السلع الغذائية في الأسواق ، وارتفاع الأسعار بوجه عام ، لقد تمخض هذا الاهتمام عن تشكيل لجنة خاصة أطلق عليها «لجنة مراقبة التموين» ، وهي لجنة ذات فاعلية ، وتعتبر أوامرها وكأنها صادرة تحت نظام الحكم العرفي ، ومن يخرج عليها يحاكم أمام محكمة عسكرية[٢٩] . ولعل أهم قرارات لجنة التموين ، مواجهة النقص في المواد الغذائية عن طريق تسعير السلع ، وبخاصة القمح والدقيق والشعير والفول والعدس والزبد والسمن. . إلخ ، والتصدي كذلك لمحاولات بعض التجار تهرب الغلال واخفائها طمعاً في الغنى ، ومغالاة في أسعارها .

ومن بين العوامل الهامة التي أدت إلى إخفاق البلدية في مواجهة الاحتكار والمضاربة ، والحد من ارتفاع الأسعار ، والتخفيف عن كاهل الفقراء (الموظفين) ، زيادة أجور المساكن والتي بلغت نسبتها في بعض مناطق المدينة مائة بالمائة ، حتى أضحى أصحاب الإيرادات الثابتة يواجهون الأمرين : غلاء المواد الغذائية ، وارتفاع إيجار الوحدات السكنية . وعلى الرغم من الإجراءات التي اتخذتها لجنة مراقبة التموين ، ظلت الشكوى مرتفعة بين أهالي الأحياء الفقيرة ، من نقص المواد الغذائية ، حيث طالب هؤلاء بتوزيع الغلال كتوزيع البترول ، وأصبحت المجاعات تهدد قطاعاً واسعاً من السكان ، الأمر الذي لم تجد فيه البلدية بدأ من افتتاح مطعم لفقراء المدينة ، يتناولون فيه الخبز والطعام بالمجان[٣٠] .

أما عن الأوضاع الاجتماعية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فقد تدهورت

إلى حد كبير ، ولم تفلح البلدية في مواجهة المحتكرين للغذاء ، كما أنها لم تتخلى عن سياستها في فرض الضرائب ، وقد ووجهت البلدية في هذا بمعارضة شديدة ، ونقد مستمر .

ويتعين علينا أخيراً الإشارة إلى أن نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ، لم تكن إيذاناً بانفراج الأزمة ، فقد ظلت الأوضاع على ما هي عليه من تأزم في الظروف الاقتصادية ، وتدهور في الأحوال الاجتماعية ، وفكرت البلدية في تقرير إعانة حرب للعاملين ، كما لجأت إلى عقد قرض بحوالي نصف مليون جنيه ، غير أن ذلك لم يؤد في النهاية إلى تحسين أوضاع الفقراء مما أنذر بمزيد من التدهور في أجل قريب ، وقد حدث ذلك بالفعل فور قيام ثورة ١٩١٩ حيث اندلعت التظاهرات في الشوارع تطالب بمواجهة الاحتكار ، وأضرب عن العمل بعض الطوائف الحرفية الفقيرة ، إلى أن شمل التدهور البلدية ذاتها فيما بعد ، حيث طالب البعض بضرورة إلغاء البلدية لأنها تمثل رمزاً من رموز الاحتلال في مصر .

الخاتمة :

ان الحديث عن تجربة المجالس البلدية ، ودورها في تنظيم الخدمات العامة في المدينة المصرية ، يحوطه الكثير من الاعتبارات الخاصة مثل أوضاع الأجانب والامتيازات الممنوحة لهم ، فضلاً عن سيطرة الحكومة المركزية على جميع السلطات المحلية ، بل أن غياب هذا النمط من الحكم المحلي عن القاهرة نفسها رغم أن بها ما يزيد على ٤٠٪ من مجموع سكان الحضر قد يكون من بين هذه الاعتبارات التي تتطلب التفسير والتأمل .

والواقع أن محاولة مصر إنشاء مجالس أو مؤسسات بلدية في البلاد ، لم يكن سوى استجابة لمجموعة من التطورات التي حدثت في مناطق أخرى مجاورة . ففي بيرا وجالاتا باستانبول ، حيث عدد كبير من الأجانب ، أنشيء مجلس بلدي

تجريبي لبحث وتنفيذ كافة شئون النظافة والمرافق العامة والخدمات المتصلة بها . ولم يكن نقل تنظيمات استنبول إلى مصر (القاهرة - الأسكندرية) أمراً سهلاً ، فالأوضاع الداخلية لم تكن مهيأة بعد لقبول مثل هذا القدر من التنظيمات الجديدة ، وخصوصاً ان القناصل الأوروبيين قد عارضوا بشدة إدخال مثل هذه المؤسسات البلدية كما أن خوف الأهالي من فرض الضرائب أو الوقوع في الاستغلال من قبل هذه السلطات الجديدة ، قد دفع بهم إلى معارضة هذه المؤسسات البلدية واستمرت هذه الأوضاع حتى قيام الحرب العاليمة الأولى تقريباً .

وقد مر بنا كيف كن مجلس الأورناطو في الأسكندرية في بواكير القرن التاسع عشر ، يبت في كافة المسائل المتعلقة بالخدمات والمرافق وتطوير المدينة بشكل عام . صحيح أنه كان تابعاً للحكومة المركزية ، ويرجع إليها في كل قراراته ، لكنه قام بالفعل بدور ملموس في تطوير الأسكندرية خلال الفترة السابقة على ظهور المجلس البلدي .

وعلى أثر تكوين مجلس بلدي الأسكندرية في عام ١٨٩٠ ، ارتفعت أصوات الوطنيين احتجاجاً على فرض الضرائب عليهم ، وحرمانهم من كل الخدمات العامة (الرصف - الإنارة - المياه الصالحة للشرب ، الصرف الصحي . . إلخ) مقابل توجيه كل المشروعات والأنشطة والخدمات للأحياء الخاصة بالأجانب . حتى أضحت مناطق سكن الوطنيين مناطق موبوءة ، تنتشر فيها القاذورات والأوحال ، يكسوها الظلام ليلاً ، يفتقد سكانها فرص الحياة الإنسانية .

إن تجربة إدخال المجالس البلدية في مصر ، والتي تحمس لها الأجانب خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، كان الهدف منها هو تعمير وتطوير الأحياء الخاصة بالجاليات الأجنبية في مدينة الأسكندرية ، لتليق بسكناهم وبالدور الذي يؤدونه في ربط الميناء بالعالم الأوروبي للإفادة من موارد مصر الاقتصادية .

وقد تحقق لهم ما أرادوا ، حيث تعتبر نسبة تمثيلهم في عضوية هذه المجالس نسبة عالية ، تسمح لهم باتخاذ القرار والتأثير في صناعته .

يتبقى في هذا الاطار ، القول بأن المجالس البلدية في مصر لم تحقق النتائج التي كانت تَتَطلع إليها أو تُنتظر منها . ولعل ذلك يرجع إلى أنها لم تنطوي على أي شكل من أشكال الحكم المحلي ، بل ظلت تدور في فلك الحكومة . كما أن الموارد المالية -وهذا في حد ذاته سبب كافي- كانت ضئيلة ومحدودة لا تتناسب مع حاجة الأهالي ورغبتهم في تطوير مجتمعهم ، ولا مع حجم المشروعات التي كانت هذه المجالس تتطلع إلى انجازها .

على أن ذلك لا يعني قط التقليل من دور مجلس بلدي مدينة الأسكندرية فقد كان هذا المجلس وسيظل علامة أساسية في ازدهار المدينة ونموها ، وتحولها إلى مركز تجاري دولي . ويمكننا القول أن مظاهر التحديث قد عرفت الطريق إلى الأسكندرية ، من خلال مجلسها البلدي ، الذي أفاد كثيراً من جهود القناصل الأجانب والتجار الأوروبيون الموجودين بالمدينة . ويزيد من قَدرِه أيضاً أنه ظل المؤسسة البلدية الوحيدة في مصر ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، التي تمثل أول محاولة من نوعها لغرس الأنظمة الأوروبية الحديثة في مدن مصر .

***

المصادر والهوامش

1. More Berger, Bureaucracy and Society in Modern Egypt: A Study of Higher Civil Service, Princeton Univ. Press, 1975.

٢ - أندرية ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ١٩٧٤ ، ص ص ١٣-١٤ .

٣ - يذكر «برنارد لويس» ان المدينة الإسلامية تخلو من مؤسسات مدنية ، ويعضده من ذلك «بلانهول» و «كارديت» اللذان يقولان أن المدينة الإسلامية خالية من المؤسسات الإدارية ، ولم تكن تتمتع بالاستقلالية . وانتهت بعض الآراء إلى انعدام روح المواطنة لدى مواطن المدينة الإسلامية . أنظر كتابات :

- Jean Combair, Warner J. Cahnman, How Cities Grew, The Historical Sociology of Cities, New Jersey, 1965, 3rd ed. pp. 6–7.

- S.M. Stern, The Construction of the Islamic City, The Islamic City, Oxford 1972, p. 30.

- عبدالجبار ناجي ، المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية : دراسة نقدية معاصرة ، مجلة المورد ، مجلد ٩ ، العدد ٤ ، ١٩٨٠ ، ص١٧٠ .

- محمد المعتصم مصطفى ، المدن الإسلامية وخصائصها ، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، السنة الثانية ، ١٩٨٠ ، ص ص ٢١٧/٢٥٤ .

٤ - السيد الحسيني ، المدينة : دراسة في علم الاجتماع الحضري ، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع ، الدوحة ، ط ٤ ، ١٩٨٦ ، ص ٢٤٦ .

٥ - جمال حمدان ، جغرافية المدن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٤٠٩ .

٦ - أنظر : عزت حجازي ، القاهرة : دراسة في ظاهرة التحضر ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ص ٣٥-٣٦ . هدى محمد صبحي ، حول الفوارق الإقليمية ومشكلة توزيع الاستثمارات بين الأقاليم ، في : بحوث ومناقشات المؤتمر العلمي السنوي الرابع للاقتصاديين المصريين ٣-٥ مايو ١٩٧٩ ، المركز القومي للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ص ٣٠١-٣١٠ .

٧ - محمد إبراهيم حسن ، مشكلات الري في دلتا النيل : تطور نظام الري في الدلتا ، في : مجلة كلية الآداب ، جامعة الأسكندرية ، المجلدان السادس والسابع (١٩٥٢ - ١٩٥٣) ، ص١٣٩ . جمال حمدان ، شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان ، الجزء الأول ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٨ - دافيد لاندز ، بنوك وباشوات ، ترجمة عبدالعظيم أنيس ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ ، ص ص ٧٦-٧٧ .

٩ - ج ، بير ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة ، ترجمة عبدالخالق لاشين وعبدالحميد فهمي ، مكتبة الحرية الحديثة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٦ ، ص٣٧٢ .

١٠ - حول دور نظام الطوائف ، والحرف في التاريخ الاجتماعي المصري الحديث ، أنظر : مجدي وهبة ، التنظيم الاقتصادي لقاهرة القرن الثامن عشر ، (عرض كتاب أندريه ريمون عن أصحاب الحرف والتجار

بالقـاهرة في القرن الثامن عشر) في : السياسة الدولية ، العدد ٤٠ ، القاهرة ، يوليو ١٩٧٩ .

١١ - ج . بير ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحرية ، مصدر سابق ، ص٢٦٦ ، أنظر كذلك - هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧ .

١٢ - المصدر السابق مباشرة ، ص ص ٢٨٠ .

١٣ - يذكر «لوتسكي» أنه كان في مصر في عام ١٨٤٠ ، ٦١٥٠ أوروبياً ، مقابل ٨٠٠٠٠ أوروبياً في عام ١٨٧١ ، يضمون ٣٤ ألف يوناني ، ١٧ ألف فرنسي ، و١٤ ألف إيطالي ، و٦ آلاف إنجليزي ، ٧ آلاف ألماني . وكان يقطن في الأسكندرية ٥٠ ألف أجنبي (يؤلفون ربع سكان المدينة) . أما القاهرة فلم تكن تضم سوى ٢٠ ألف أجنبي» .

أنظر : لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديثة ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧١ ، ص ١٩٦ . أما تقديرات «بير» فقد أوردها في دراسته سالفة الذكر ، ص٢٦٧ .

ويبدو أن الحكومة المصرية - فيما يؤكد «أنور عبدالملك» لم تتح لها خلال هذه الفترة فرصاً كافية للتغلب على عدم رغبة الدول الكبرى في التخلي عن أي امتياز من الامتيازات الممنوحة للأجانب ، في الوقت الذي حرصت فيه الجاليات الأجنبية ، الاستفادة التامة من مبدأ عدم التبعية الذي كان يشكل لائحة القوانين الخاصة بهم . ويتضمن هذا المبدأ فيما يعنينا أربعة حصانات هامة هي :

(أ) الحصانة المتعلقة بالحرية الفردية . وهذه تستتبع حرية المسكن وحرية الإقامة .

(ب) الحصانة القضائية . وبموجبها لا يجوز للمحاكم المصرية محاكمة الأجانب الذين كانوا لا يمثلون إلا أمام محاكمهم القنصلية حتى عام ١٨٧٦ ، حيث أنشئت المحاكم المختلفة أو التي لا يدخل في اختصاصها الحالات الجنائية .

(جـ) الحصانة التشريعية . عن طريق رجال القضاء الأجانب القائمين في محكمة استئناف الأسكندرية ، والذين كانوا لا يشرفون على القوانين التشريعية للحكومة المصرية .

(د) الحصانة الضريبية . التي كانت تعفى الأجانب من دفع الضرائب المصرية ، إلا إذا كان هناك اتفاق سابق مع الحكومات الأجنبية المعنية .

أنظر : أنور عبدالملك ، نهضة مصر : تكون الفكر والأيديولوجية من نهضة مصر الوطنية (١٨٠٥ - ١٨٩٢) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣ ، ص٨٢ .

١٤ - سعد الدين إبراهيم ، حاضر المدن العربية ومستقبلها ، المؤتمر الإقليمي الثاني للسكان ، اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا ، الأمم المتحدة ، المجلس الاقتصادي والاجتماعي ، دمشق ، ديسمبر ١٩٧٩ ، ص١٠ ، أنظر كذلك : جمال حمدان ، شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان ، مصدر سابق ، ٢٢٩ .

١٥ - حلمي أحمد شلبي ، الحكم المحلي والمجالس البلدية في مصر منذ نشأتها حتى عام ١٩١٨ ، عالم الكتب ، ١٩٨٧ ، ص٩٨ .

١٦ - المصدر السابق مباشرة ، ص١٠٠ .

١٧ - بير ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، مصدر سابق ، ص٣٨٢ .

١٨ - اعتمدنا في رصد ومتابعة دور البلدية في تنظيم الخدمات العامة في مدينة الأسكندرية ، على المصدرين الأصوليين التاليين :

- حلمي أحمد شلبي ، الحكم المحلي والمجالس البلدية في مصر منذ نشأتها حتى عام ١٩٨٨ (الفصل الخامس) ، مصدر سابق .

- ج . بير ، دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة (الفصل الحادي عشر) مصدر سابق .

١٩ - حلمي شلبي ، الحكم المحلي والمجالس البلدية في مصر ، مصدر سابق ، ص ص ١٢٩ - ١٣٠ .

٢٠ - المصدر السابق مباشرة ، ص١٤٦ .

٢١ - نقلاً عن تقرير المالية والادارة والحالة العمومية في مصر وفي السودان عام ١٩٠٦ رفعه اللورد كرومر إلى ادوارد جراي ناظر خارجية بريطانيا (مترجم) ، استناداً إلى دراسة حلمي شلبي ص ١٣٥ .

٢٢ - حلمي شلبي ، المصدر السابق ، ص١٣٧ .

٢٣ - المصدر السابق ، ص١٤٨ .

٢٤ - نفس المصدر ، ص١٥٣ .

٢٥ - الأهالي في ١٩١٤/٨/٢٨ ، استناداً إلى حلمي شلبي .

٢٦ - المصدر السابق : ١٩١٦/٢/١٤ .

٢٧ - نفس المصدر السابق . أنظر كذلك دراسة علي بركات ، رؤية علي مبارك لتاريخ مصر الاجتماعي ، مؤسسة الأهرام ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

٢٨ - حلمي شلبي ، المصدر السابق ، ص١٦٣ .

٢٩ - الأهالي في ١٩١٨/٦/٤ استناداً إلى حلمي شلبي ، ص١٦٣ .

٣٠ - المصدر السابق مباشرة في ١٩١٨/٦/١٢ وكان المجلس البلدي في الأسكندرية قد نظر مشروع إنشاء مطابخ خاصة في المدينة في جلسة ١٩١٨/٤/٢٥ . واعتمد المبالغ اللازمة لهذا الغرض .

* * *

ترجمة التراث اليوناني
وأثرها على الحضارة الاسلامية

الدكتور فتح الله خليف

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة

تتردد في أيامنا هذه عبارة ، أشعر بكثير من الاستياء لسماعها ، وأعني بها عبارة «فكر مستورد» . ووصف الفكر بأنه مستورد فيه تسوية بين الفكر والبضاعة التي يستوردها التجار . واستعارة كلمة «مستورد» من عالم التجارة إلى عالم الفكر شيء لا يقبله ذوق .

إن مثل هذه الألفاظ الغريبة على حياتنا الفكرية لم تخطر أبداً على بال المفكرين الإسلاميين الذين أسهموا في بناء الحضارة الإسلامية ، إنما أطلقوا على تراث من سبقهم من الأمم عبارة في غاية التهذيب هي «علوم الأوائل»[1] . وهذه التسمية تحمل في طياتها تقدير المسلمين لكل فكر إنساني سبقهم . وهذا التقدير يتجلى في تلك الرعاية الفائقة «لعلوم الأوائل» ، وبالذات العلوم اليونانية من قِبَل خلفاء المسلمين ، وحرصهم على نقل «علوم الأوائل» إلى اللغة العربية . ومن المعروف أن النشاط الرسمي بدأ من قبل الدولة الإسلامية في ترجمة التراث اليوناني في عصر المأمون في نهاية القرن الثاني للهجرة .

ويذكر ابن النديم في كتاب الفهرست قصة طريفة في السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد . يقول ابن النديم إن الخليفة المأمون رأى فيما يرى النائم رجلاً أبيض اللون ، مشرباً حمرة ، واسع الجبهة ، مقرون الحاجب ، أشهل العينين ، حسن الشمائل ، جالساً على سريره .

قال المأمون : وكأني بين يديه قد مُلئت له هيبة .
فسأله المأمون : من أنت ؟
قـــال : أنا أرسطو طاليس .
قال المأمون : فسررت به .
قال المأمون : أيها الحكيم أسألك .
قـــال : ســل .
قـــال : ما الـحُـسْـن ؟
قـــال : ما حَسُن في العقل .
قـلـت : ثم ماذا ؟
قـــال : ما حسن في الشرع .
قـلـت : ثم ماذا ؟
قـــال : ما حَسُن عند الجمهور .

ويذكر ابن النديم أن هذا المنام كان من أوكد الأسباب في إخراج الكتب ، وأن المأمون اتصل بامبراطور الروم يستأذنُه في نقل الكتب المخزونة المدخرة في بلاده فأجـاب ذلك بعد امتناع . فأرسل المأمون وفداً حمل إليه نفائس الكتب وأمرهم المأمون بنقلها . وكان بين هذا الوفد الحجاج بن مطر ، ابن البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، وبنو شاكر المنجم ، وقسطا ابن لوقا البعلبكي ، وحنين ابن اسحق[٢] .

نقف عند هذه الرؤية لنتبين ما تنطوي عليه من دلالات :

أولاً : يذكر المأمون أنه امتلأ بالهيبة بين يدي أرسطو ؛ وذلك يدل على تقدير خلفاء المسلمين وحكامهم للعلم والعلماء . فقد كان للعلماء منزلةٌ رفيعة في العالم الإسلامي ، ولكن من المؤسف أن يضيع العلماءُ هذه المنزلة بعرض أنفسِهم على الـولاة والحكـام ، فبعـد أن كان العلماءُ إذا طُلبـوا هربوا وأعرضوا ، أصبحوا

يتقربون من السلطة . وفي ذلك يقول الغزالي : أصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزةَ بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم(٣) .

ثانياً : إن هذه الرؤية تدل دلالة قاطعة على أن المأمون كان مشغولاً متفكراً في فلاسفة اليونان وآثارهم . ومعنى هذا أن المأمون وقع تحت تأثير الفكر اليوناني قبل ترجمة هذا الفكر . إذن فتأثير الفكر اليوناني على الفكر الإسلامي أسبقُ من الترجمة ، ذلك لأنه كان يعيش بين المسلمين كثيرٌ من السريان والنصارى ممن لهم علم بالآثار اليونانية والثقافة اليونانية ، فكانوا ينقلون بعض ثمرات الفكر اليوناني نقلاً شفوياً .

بل إن الفلسفة اليونانية لم تكن جديدةً على البلاد التي غزاها المسلمون . فقد وجد المسلمون مراكزَ متعددة لدراسة الفلسلفة في الأسكندرية وفي بلاد الفرس . فمجلس التعليم الفلسفي والطبي بالأسكندرية لم يكن قد انتهى حين دخل المسلمون مصر . وكذلك وجدت مجالس للتعليم في البلاد الأسيوية في نِصِّيبين والمدائن وجُنْدَ يْشَابور وأنطاكية والرُّها وحَرّان .

وقد غزّت هذه المجالسُ المسلمينَ بكبار المترجمين وأقوم الكتب العلميةوالفلسفية وأنفعِها . . . . ففي الأسكندرية بدأت أول ترجمة في الكيمياء والطب دعا إليها خالد بن يزيد بن معاوية الذي يسمى بحكيم آل مروان . والكيمياء الإسلامية مستمدة في أغلبها من الأسكندرية ، والطب الإسلامي في أساسه جالينوسي أو بعبارة أخرى اسكندري ، ذلك لأن الأسكندرية قد احتفظت بمعظم مخلفات جالينوس . ومدرسة الأسكندرية في الفلسفة أي الأفلاطونية المحدثة ذاتُ أثر واضح في مختلف المدارس العقلية الإسلامية . فالأسكندرية هي بمثابةِ همزةِ الوصل بين أثينا وبغداد .

أمـا جنـديشابور فكانت مقر المدرسة الطبية المشهورة التي أسسها كسرى الأول ، ومنهـا استمـد المسلمـون الكثـيرَ من أطبـائهم ومترجميهم وخاصة آل بختيشوع الذين كان لهم شأن يذكر في تاريخ الترجمة والطب العربي .

أمـا حَران فكانت ملجأ الوثنيةَ اليونانيةَ بعد أن أغلق جوستنيان المدارسَ الفلسفية في الغـرب . وقـد أمـدت المسلمين بطائفة من العلماء والمترجمين على رأسهم ثابت ابن قرة(٤) .

ولم يلتفت المسلمون إلى جنس أو عقيدة في بحثهم عن مترجمين ينقلون إليهم ثمرات الحضارات الإنسانية . فقد استعانوا بالفرس والهنود والصابئة واليهود والمسيحيين(٥) .

وهناك عنصر آخر له وزنُه على التأثير الذي وقع تحتَه المأمون وإنشغالِه بالفكر اليوناني وهو أنه كان يعيش بين المسلمين كثيرٌ من الجواري الروميات ممن لهن حظٌ كبيرٌ من الثقافة ، وكن يقمن بوظائف التربية والخدمة في بيوت الخلفاء والعظماء فكان لهن بلا شك تأثيرٌ في تعريف بعض الأوساط ببعض نواحي الفكر اليوناني . ولا شك أن دراسة حياة المأمون ومجتمع القصور في عصره يمكن أن تنير أمامنا الطريق للكشف عن هذاالتأثير والانشغال بالفكر اليوناني في اليقظة والمنام جميعاً .

ثالثاً : تدل هذه الرؤية على قوة تأثير المعتزلة على المأمون ، فالحسن يعرف بالعقـل أولاً ، ثم بالشرع ثانياً ، ثم بالإجماع ثالثاً . ونحن نعرف أن المعتزلة قدمت العقل على النقل ، وأخضعت النقل للعقل . فالعقلُ عند المعتزلة قادرٌ بقوته الذاتية وبغير معونة الشرع على الحكم بإيجاب ما يجب : وأول ما يجب على الإنسان في مذهب المعتزلة معرفةُ اللّهِ بالعقل ، وبعد ذلك يجب على الإنسان أن يأخـذ عن الرسول أو عن السمع ما لا يوافيه به عقلهُ من معرفة الله . بل إن

الإنسان الذي لا يعرف اللَّهَ بعقله ، ولم يتيسر له أن يتلقى معرفةَ اللَّهِ بواسطة الوحي ، هذا الإنسان مسئول ويستحق العذاب وغير معذور لعدم وصول السمع إليه ؛ وذلك لأن العقل كفيل بأن يعطيه من معرفة الله ما يدفع عنه هذا الجهل . كذلك فإن العقلَ قادرٌ بقوته الذاتية على التمييز بين الخير والشر أو الـحُسْن والقبح من غير معونة الشرع . بل إن خيريةَ الأفعالِ وشريتَها أو حسنَ الأفعالِ وقبحَها لا ترجع إلى الأمر بها أو النهي عنها من قِبَل الشرع ، لكن الحسنَ والقبحَ صفتان ذاتيتان للأفعال في مقدور العقل الكشف عنها .

هذا التيار العقلي المعتزلي قدر له أن يظل من أنشط روافد الفكر الإسلامي المتدفق طوال خمسةِ قرونٍ كاملةٍ منذ القرن الثاني للهجرة حتى القرن السابع الهجري . ولم يتخلف أهلُ السنةِ والجماعةِ من الأشاعرة الذين جاءوا بعد الأشعري ونصروا مذهبَه عن متابعة هذا التيار . فالإمام فخر الدين الرازي المتكلم الأشعري يقرر صراحة في كتاب أساس التقديس :

«الفصل الثاني والثلاثون : في أن البراهين العقلية إذا صارت مُعَارِضَةً بالظواهر النقلية فكيف يكون الحال فيها ؟ أعلم أن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء ، ثم وجدنا أدلةً نقليةً يُشعر ظاهرُها بخلاف ذلك فهنا لا يخلو الحالُ من أحد أمور أربعة : إما أن يصدق مقتضى العقلِ والنقلِ ، فيلزم تصديق النقيضين ، وهو محال . وإما أن يبطلَ فيلزم تكذيبُ النقيضين ، وهو محال . وإما أن تصدق الظواهر النقلية وتكذب الظواهر العقلية ، وذلك باطلٌ لأنه لا يمكننا أن نعرف صحةَ الظواهرِ النقلية إلا إذا عَرفنا بالدلائل العقلية إثباتَ الصانعِ وصفاتِه وكيفيةَ دلالةِ المعجزة على صدق الرسول وظهور المعجزات على محمد عليه السلام . ولو جوزنا القدحَ في الدلائل القطعية صار العقلُ متهماً غير مقبول القول ، ولو كان كذلك لخرج أن يكون مقبولَ القول في هذه الأصول . وإذا لم تثبت هذه الأصولُ خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدةً . فثبت أن القدحَ في العقل لتصحيح النقل يُفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً ،

وأنه باطل . ولما بطلت الأقسامُ الأربعةُ لم يبق إلا أن يُقطع بمقتضى الدلائل العقليةِ القاطعة بأن هذه الدلائل النقلية إما أن يقال إنها غيرُ صحيحةٍ ، أو يقال إنها صحيحةٌ إلا أن المراد منها غير ظواهرها»(٦) .

ولم يقف أهل السنة عند هذا الحد من الاعتداد بالعقل فذهبوا في الشوط إلى نهايته وأعلنوا صراحة أن المسلم لا يصح إسلامُه حتى يكونَ قبل بلوغه شاكاً غيرَ مصدقٍ ، واشترطوا في صحة الإيمان أن يكون قائماً على الاستدلال الذي ينبغي تدريبُ المسلم عليه فور أن يراهق البلوغ(٧) .

كل ذلك يدعونا إلى مراجعة شاملة للأحكام التي ألفناها عن هذه المذاهب ؛ لكي نُوقظ في أنفسِنا جذوةَ العقل ، لأن العقلَ أعدلُ الأشياء توزعاً بين الناس كما يقول ديكارت ، وهو النور أو الشمعة التي وهبها اللّهُ لنا «وقبيح بمن أُعطي شمعة أن يطفئَها ويمشي في الظلام» كما يقول ابن الجوزي(٨) .

وقد آن لنا أن نبدد هذا الظلام الذي خيم علينا زماناً طويلاً إن أردنا أن ندفع بتراثنا إلى النور . ولنا في رسول الله قدوةٌ . فإنه عليه السلام كان متعبداً بشريعة العقل قبل الوحي كما يقول بعضُ علماءِ أصولِ الفقه ، ولا شك أن التعبد على شريعة العقل كان جزءاً من الإعداد الإلهي للنبي ليصبحَ في مستوى تلقي الوحي والقيام بتبعات النبوة ، مثلما كان السمو الخلقي الرفيع الذي اتصف به قبل بعثة نبيا .

هذه بعض الملاحظات على رؤية المأمون التي كانت سبباً مباشراً لاتخاذ هذا القرار الخطير بترجمة الآثار اليونانية إلى اللغة العربية . لكن عناية المسلمين بالتراث اليوناني بدأت مبكراً في عصر الأمويين . فمن الثابت تاريخياً أن أول ترجمة أو نقل حصل في الإسلام كان بفضل طبيب اسمه ماسرجويه ، وهو سرياني عاش في العصر الأموي ونقل كتاباً يسمى بالعربية الكُنّاش لأهرُن ، وهو كتاب

في الميكانيكا أو كما كانت تُسمى في هذا الوقت «الحيل»[٧] . ويُروى أن عمر بن عبدالعزيز عندما عُرض عليه أمرُ الترجمة حَفِظَ الكتابَ عندَه عدةَ أيام ، واستخارَ اللَّهَ في ذلك ، ثم أذن بنقله إلى اللغة العربية . فكان هذا بلا شك حدثاً مهماً في التقريب بين الأفكار وفي نقل معالم حضارة إلى حضارة أخرى .

وليس بين أيدينا كثيرٌ من هذه الأعمال المترجمة إلى العربية في عصر الأُمويين . ولكن مما لا شك فيه أن الترجمة ازدهرت في عصر العباسيين وتم نقل معظم الكتب الفلسفية لأرسطو وبعض محاورات أفلاطون وتاسوعات أفلوطين التي نسبت خطأً إلى أرسطو . هذا فضلاً عن ترجمة كتب الطب والفلك والهندسة .

ولم يكن هذا النقل هيناً فقد واجه المترجمون صعوبات كثيرة فاللغةُ العربية لم تكن ذاتَ عهدٍ بهذا النوع من العلوم على الإطلاق ، ولم يكن هناك أيُ تمهيدٍ لجعلها صالحةً لقبول هذه الأفكار التي هي من إنتاج شعب غريب ذي حضارة غريبة وعقلية مختلفة عن العقلية العربية كل الاختلاف . فاللغةُ العربيةُ لا تتصل باللغة اليونانية من أي جهة من جهات القرابة اللغوية . فكان عملُ المترجمين إذن عملاً ينطوي على جرأةٍ وشجاعةٍ يقل أمثالُها في تاريخ الحضارات . ذلك أن الرومان مثلاً قد سبقوا العرب ، وكانت لهم حضارةٌ عظيمةٌ ، وقد جاءوا بعد اليونان وأخذوا عنهم العلوم ، ولكنهم لم يترجموا الآثار اليونانية على نحو ما ترجمها العرب . وكان المثقفون منهم يعرفون الأفكارَ اليونانيةَ من أدب وفلسفة بعد أن تعلموا اللغةَ اليونانية . وكان من الصعب عليهم أن يتكلموا في الفلسفة والعلوم اليونانية بلغتهم أي باللغة اللاتينية . فتعلمَ الغالبُ لغةَ المغلوب ، ولذلك قيل بأن الرومانَ قد غزت اليونانَ حربياً ، ولكن اليونانَ قد غزتهم وأخضعتهم ثقافياً ، ذلك لأن الرومان كانوا يفاخرون بمعرفتهم لليونانية والحضارة اليونانية في لغتها . أما العرب فكانوا أجرأ من الرومان ، وبدلاً من حمل المثقفين منهم على تعلم لغة قديمة فإنهم نقلوا ما أنتجه السابقون إلى لغتهم .

وهنـاك صعـوبـاتٌ أخرى كانت تعترضُ المترجمين ، منها أن طبيعة اللغة العربية مختلفة في تراكيبها وفي طرقها الخاصة بالتعبير عن اللغة اليونانية . وأولُ اختلافٍ هو مثلاً طريقةُ الإسنادِ . فاللغةُ العربيةُ لا تحتاج إلى فعل للدلالة على الإسنـاد في القضية الخبرية البسيطة . ولهذا أهميةٌ كبيرةٌ ؛ لأن أداةَ الإسنادِ أو الرابطة كما يقال في المنطق لها وظائف مختلفة أهمها التعبير عن الوجود ، بينما تكاد تخلو اللغةُ العربيةُ من تعبير مشابه عن معنى الوجود .

انتبـه إلى هذه الصعـوبـة المترجمون فعمدوا إلى اختراع لفظة للدلالة على الرابطة هي ضمير الغائب ، فقالوا مثلاً : سقراط هو مائت ، في الإنجليزية Socrates is mortal . وقالوا عن مصدر الربط الهوية . فالهوية تساوي being أو être في اللغات الأوروبية .

أمـا الفرس فلم تعجبهم كلمة الهوية وفضلوا استعمال كلمة هستية وهي مصدر من هست أي وجود . فهستيةُ الشيء بمعنى وجوده .

وهناك صعوبات أخرى من صنف آخر غير اللغة ، ونعني بها الصعوبات الخـاصـة بالعقلية ، فالعقلية اليونانية كانت متعودة على فكرة تعدد الآلهة ، ومتعودة على تأليه بعض الموجودات . فمثلاً يكثر في اللغة اليونانية وصفُ النفس بأنها إله أو التعبير عن الموجودات ذات الرتب العالية بأنها آلهة . ولا حرج في اللغة اليونانية من مثل هذه التعبيرات ، لكن لا يمكن أن تُستساغ مثل هذه التعبيرات في اللغة العربية خصوصاً بعد ظهور الإسلام .

وكان للعرب في الترجمة طريقتان : طريقة الترجمة الحرفية وبمقتضاها كان ينقل المترجم النص اليوناني إلى اللغة العربية حرفاً حرفاً أو كلمة كلمة . وهي طريقةٌ بدائيةٌ وصعبةٌ جداً وعقيمةٌ ولا يمكن استساغتها . وتوجد نماذجُ كثيرة من هذه الترجمة أشهرها ترجمة بشر بن متى لكتاب الشعر لأرسطو . هذه الترجمة هي

من الـدقـة والأمـانـة بحيث سوغت للمهتمين بالآثار اليونانية وبكتاب الشعر لأرسطو على الخصوص أن يتمموا ما في النص اليوناني من نقص بواسطة هذه الترجمة العربية .

ثم عَرِف العربُ الترجمةَ بالمعنى ، أي قراءة النص ، ثم تحويله إلى فكرة ، ثم التعبير عن هذه الفكرة باللغة التي يُراد الترجمةُ إليها .

وقد وجد العربُ مؤلفاتٍ يونانية مكتوبة باللغة السريانية فنقلوها مباشرة من السريانية إلى العربية دون أن يمروا بالنص اليوناني . فقد كان يحدث أحياناً أن ينقل عالمٌ النصَّ اليونانيَ من اليونانية إلى السريانية لمعرفته باليونانية والسريانية ، ثم يتولى عالم آخر النقل من السريانية إلى العربية لمعرفته بالسريانية والعربية .

ولذلك فإننا نعتبر اللغة السريانية واسطة ذات أهمية كبرى في نقل العلوم اليونانية إلى اللغة العربية .

كذلك وجد العرب مؤلفات يونانية باللغة الفارسية المتوسطة ، فترجمت هذه المؤلفات من الفارسية إلى العربية دون المرور على النص اليوناني .

وقـد نقلت عن الفـارسية المتوسـطة كتب لأرسطو لا سيما بعض كتبه في المنطق . ويبدو أثرُ النقلِ من الفارسية إلى العربية واضحاً في الاختلاف حول المصـطلحات المنطقية مثلَ اصطلاحات المقولات مثلاً . فالناقل الفارسي كان يستعمـل كلمـةَ العـين بدل الجوهر . ومن الطريف أن العرب كانوا يفضلون استعمال كلمة الجوهر الفارسية بينما يفضل الفرس كلمة العين العربية . ويبدو أن السبب في ذلك أن العرب لم ترقهم كلمة عين لأنها من الألفاظ المشتركة ، فتقال على العين المبصرة وعلى البئر وعلى وجيه القوم وعلى الجاسوس ، وبذلك لا تدل نصاً على معنى معين ففضلوا استخدام كلمة جوهر الفارسية . على أن كلمة العين قد تسللت من المنطق إلى علم الكلام وظلت هي المصطلح المفضل لدى

علماء ما وراء النهر من أهل السنة من الماتريدية أصحاب الإمام أبي منصور الماتريدي[١٠] .

كذلك كان الناقل الفارسي يستعمل كملة الجِدَة بدل المِلْك أو مقولة له أي Avoir . وقد ظلت كلمة الجدة هي المفضلة لدى المناطقة العرب الذين اشتغلوا بالتأليف في المنطق الأرسطي من أمثال الإمام أبو حامد الغزالي ، فهو يستخدم الجدة للدلالة على مقولة الملك في كتابه معيار العلم في فن المنطق .

ومن المؤسف أن بعض المناطقة الذين يكتبون في المنطق ويشتغلون به اليوم تغيب عنهم هذه المصطلحات ، مع أن المصطلحات والصيغ جزء من المنهج العلمي ، ومن تاريخ العلم .

إذن فاللغة السريانية واللغة الفارسية من أهم وسائط النقل عن اليونانية إلى العربية . وهناك لغات أخرى أقل شأناً من السريانية والفارسية مثل اللغة القبطية إذ يقال أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان ببعض رهبان القِبْط في نقل كتب الصنعة أي الكيمياء من اللغة القبطية إلى اللغة العربية .

هؤلاء المترجمون لم يكونوا مجرد نقلة ، وإنما كانوا على علم بما ينقلون فابن النديم يسميهم بالعلماء المترجمين ، ويدخل الشهرستاني طائفةً منهم في زمرة الفلاسفة ، كما أطلق عليهم في العصر الحديث البارون كارا دي ڤو لقب الموسوعيين . وإن كنا نلحظ ميلاً خاصاً لكل واحد من المترجمين نحو لون من ألوان المعرفة . فحنين ابن اسحق مثلاً كان له شغفٌ خاص بالطب وبوجه أخص بمؤلفات جالينوس . وبلغ شغفُه بجالينوس ومؤلفاته إلى الحد الذي جعله يألف الأسلوب الجالينوسي في الكتابة ، بحيث كان يستطيع الحكم على مخطوط طبي ما بمجرد قراءته أهو من وضع جالينوس أم لا . أما ابنُه اسحق ابن حنين فقد

انصرف إلى الفلسفة وبالذات كتب أرسطو وشروحها ، فترجم ما يزيد على نصف ما عرف منها في العربية ، وأصبح حجة في هذا الميدان . وكان حنين وابنه اسحق من أكبر المترجمين في الدولة الإسلامية . أما ثابت ابن قرة فقد اتجه إلى العلوم الرياضية وترجم لاقليدس كتاب العناصر(١١) .

وكذلك كان المترجمون على معرفة تامة باللغات التي يترجمون منها وإليها . فمن المعروف أن حنين ابن اسحق مثلاً الذي تخرج على يديه أجيال عديدة من المترجمين سافر إلى بلاد الفرس لتعلم اللغة العربية على يد الخليل بن أحمد ثم عاد ليقرأ كتب الخليل على يد تلاميذ الخليل من أمثال سيبويه ليتمكن من اللغة العربية تمكناً لا مزيد عليه . فكان للترجمة شأن كبير في وضع المصطلحات الفلسفية والعلمية بلغتنا العربية . وطُوّعت هذه اللغة للتعبير عن أدق مصطلحات «علوم الأوائل» . «وإذا لم يجد المترجمون في العربية اللفظ الملائم مباشرة استعانوا بالنحت والاشتقاق لخلق ألفاظ تؤدي المعاني الجديدة . وكان لهم في المصادر الصناعية فسحة كبيرة ، فيُزاد على الكلمة ياء مشددة وتاء التأنيث كالهوية والماهية . وقد ساعد هذا المصدر على أداء بعض الحقائق العلمية والفلسفية ، وبخاصة في التعبير عن أسماء النظريات والمذاهب المنتهية بـ 'ism' في الفكر الأوروبي الحديث مثل Socialism اشتراكية ، Capitalism رأسمالية ، existentialism وجودية ، وغيرها . وقد يضمون «لا» النافية إلى كلمة ما ليكوّنوا منها لفظاً جديداً كاللا أدرية ، واللانهائية ، وهذا تركيب غير مألوف في اللغة العربية . فإن أعوزتهم الألفاظ العربية لجأوا إلى اللغات الأجنبية فعربوا بعض كلماتها . وكان نصيب الفلسفة من هذه الألفاظ غير قليل . فعن اليونانية أخذوا مثلاً هيولي ، اسطقس ، فنطاسيا ، ناموس . ومن السريانية نجد كلمة ميمر بمعنى باب أو فصل ، وسمع الكيان أو شمعاً كياناً ترجمة لعنوان كتاب الطبيعة لأرسطو ، وأما الألفاظ الفارسية المعربة فقد استُعمل منها كثير كالهندسة والجوهر . يقول الخوارَزْمي : إن أكثر هذه الأوضاع أي المصطلحات أسام

وألقاب اختُرِعت ، أو ألفاظ مَن كلام العجم عربت»[١٢] .

وقـد حرص المترجمون على أن يكون المصطلح أدخل في المعنى وأكمل في الأداء بصرف النظر عن كونه عربياً أو مُعرّباً[١٣] .

وما أن حل القرن الرابع الهجري حتى اكتملت لغة العلم في الإسلام ، واستقرت مصطلحاتها ، وتداولها الباحثون في المشرق والمغرب ، لا تختلف من قطر إلى قطر ، فكـانت لغـةُ العلمِ واحـدةً في قرطبـة والقيروان ، والفسطاط ودمشق ، وبغـداد وأصفهـان ، وبخـاري وسمـرقنـد . ويـدأ تسجيل هذه المصطلحات في معجمات خاصة مِثل «مفاتيح العلوم» للخوارزمي ، «وكشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي .

ويوم أن ركد البحث العلمي في الإسلام ركدت لغتُه معه[١٤] . فنحن في حاجة إلى حصر المصطلحات القديمة ، والعلوم العربية ملأى بالمصطلحات التي لم تنشر ولم تعرف بعد على وجهها . وهذا تراثٌ لا يصح أن نهملَه أو نضيعَه . . . . فعنـد دراسـة عالِم أو فيلسـوف إسلامي نعني بمصطلحاته بقدر ما نعني بآرائه ونظرياته . وعند نشر مخطوط أو إعادة طبع كتاب قديم نأخذ أنفسنا بإبراز ما فيه من ألفاظ فنية ، ومصطلحات . إنا إذا فعلنا أحيينا معالم تراثنا القديم وكشفنا عما فيه من ثروة ويسرنا على المشتغلين بالعلوم الحديثة تخير ما يلائمها من مصطلحات[١٥] .

ترجمت الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية كما ترجم العلم اليوناني من طب وهنـدسـة وفلك وكيمياء ، فكـانتِ الفلسفـة اليونانية والعلم اليوناني هما عماد الفلسفـة الإسلامية والعلم الإسلامي . وقام فلاسفةُ المسلمين بشرح الفلسفة اليونانية وتفسيرها والتعليق عليها والتأليف في المسائل الخاصة بها ، وتركوا لنا آثاراً يحق لنا أن نعتز بها اليوم ونوليها أكبرَ الاهتمام ؛ لأن فلاسفةَ الإسلام لم يكونوا مجرد قارئـين للفلسفـة اليونانية وناقدين لها ومحتذين حذوها فحسب بل إنهم عالجوا

المسائل التي شُغِل بها اليونانيون في فلسفتهم ، وحاولوا أن يجدوا لها حلولاً بحسب اجتهادهم . وهؤلاء الفلاسفةُ كثيرون في المشرق والمغرب جميعاً .

كما تدارس المسلمونَ علومَ الطب والكيمياء والفلك والهندسة وأقاموا المعامل والمراصد وانتهوا إلى كشوف لم يُسبقوا إليها .

وعبرت الفلسفةُ الإسلاميةُ والعلمُ الإسلامي إلى أوروبا في العصر الوسيط فكانت عمادَ الفكرِ الغربي حتى بداية العصر الحديث .

وإلى جانب هذه العلوم التي قامت على أصول يونانية صرفة وجدت علومٌ أخرى في الملة الإسلامية بعيدة في نشأتها عن أي تأثير أجنبي كعلم الكلام والعلوم الدينية من فقه وأصول وتفسير، وإن كانت هذه العلوم قد اصطبغت بصبغة فلسفية في القرنين السادس والسابع للهجرة . فالإمام فخر الدين الرازي المتوفي عام ٦٠٦هـ والذي تفقه على مذهب الإمام الشافعي يعالج مسائل الفقه البسيطة الواضحة بروح المجادل الفيلسوف ، ويسلط عليها المنطق الأرسطي ومصطلحاته ، فتتحول مسائلُ الفقهِ العملية إلى مسائل نظرية معقدة تدق على فهم المسلم العادي الذي ينبغي عليه التفقه في أمر دينه . ولعل ذلك يفسر لنا لِمَ لم يأخذ فقهاء الشافعية بتفسير الرازي للآيات التي تتعلق بمسائل الفقه والتي عالجها في تفسيره الكبير المسمى بمفاتيح الغيب . بل إن تفسير الرازي للقرآن الكريم يعتبر موسوعة فلسفية وكلامية بأدق معاني الكلمة[١٦] .

أما علمُ الكلام أو علمُ أصول الدين أو علمُ التوحيد فقد ظهر بين المسلمين في نفس الوقت الذي ظهرت فيه الفلسفة ، ولم يكن بحال من الأحوال ناتجاً عنها ولا ثمرةً من ثمراتها . بل كان المسلمون في باديء الأمر يتكلمون في موضوعات فكرية انبثقت من صميم الديانةِ الإسلامية . فعند مقتل عثمان مثلاً أثيرت مسألة مرتكب الكبيرة ، أي القتل ، فذهبت الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة كافر ،

وقالت المعتزلة بأن مرتكب الكبيرة فاسق ، لا مؤمن ولا كافر ، بل هو في منزلة بين المنزلتين . أما أهل السنة فالمؤمن عندهم لا يخرج عن الإسلام بكبيرة يرتكبها من زنى أو قتل ، وليس بين الإيمان والكفر منزلةٌ بين المنزلتين ولا اسم بين الإسمين ، فإما مؤمنٌ وإما كافرٌ ، لقوله تعالى «هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» (سورة التغابن ٦٤ آية ٢) . ثم إن مرتكب الكبيرة وقت ارتكابها مصدّقٌ غيرَ مكذّبٍ ، يرجو عفوه ويخاف عذابه . وهذه مسائل انبثقت من واقع المسلمين وإن كانوا قد استعانون في تفكيرهم بالمنطق . ثم اتسعت هذه الثقافة الكلامية بدخول الفلسفة في العالم الإسلامي فاتسع بهذا علم الكلام حتى اضطر أصحابه في القرن الرابع للهجرة أن يدرسوا الفلسفة دراسة كافية فتغير بذلك منهجهم في علم الكلام . ثم غلبت الفلسفة بعد ذلك على مناهجهم فأصبح علم الكلام أشبه ما يكون بقسم الإلهيات من الفلسفة . على أنه مقيد بقيد مهم هو مطابقة الشرع والوحي . والواقع أن الفرق بين الفلسفة وعلم الكلام حين تصور بصورته النهائية هو في المنهج فقط ؛ إذ المتكلم يبدأ بالتسليم بالعقائد الإيمانية كوجود الله ووحدانيته وصفاته وأفعاله صحيحة من الشرع ثم ينادي الأدلة العقلية للبرهنة على ما جاء به الشرع ، بينما الفلسفة لا تسلم مقدماً بصحة قضية ما قبل أن يبرهن العقل عليها . وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : «إن نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث أنه يدل على الموجد . وبالجملة فموضوع الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية»[١٧] .

فعلم الكلام إذن يحتوي على الفلسفة الحقيقية للمسلمين . ولم يستطع مفكرو الغرب أن ينكروا على المسلمين فلسفتهم الكلامية . فأولُ كتاب في تاريخ الفلسفة العربية كما كانت تسمى في الغرب وقتئذ ظهر في أوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر بعنوان : رسالة في المذاهب الفلسفية للعالم الألماني

شمولدرز Schmolders ينتهي فيه المؤلف إلى أن الذي يحاول أن يبحث عن فلسفة حقيقية للعرب عليه أن لا يفتش عنها عند المشهورين من الفلاسفة الإسلاميين أمثال ابن سينا وابن رشد وغيرهما ، بل عليه أن يبحث عن هذه الفلسفة عند مفكرين آخرين غير معروفين في الغرب وهم المتكلمون . أما الفلسفة المسماه بهذا الإسم -أي الفلسفة الإسلامية- فهي ليست من خواص الإنتاج الفكري للمسلمين وإنما هي مسايرة للتفكير الفلسفي اليوناني تكاد تكون دون انحراف ولا اجتهاد .

هذه النتيجة التي خرج بها شمولدرز من دراسته لفتت أنظارَ فلاسفة الغرب المهتمين بالفلسفة الإسلامية إلى علم الكلام فبدأوا بنشر التراث في هذا الميدان . فنُشرت بعض أجزاء من كتاب المواقف للايجي ، ونُشر كتاب الملل والنحل للشهرستاني وترجم إلى اللغة الألمانية ، كما نشر نيبرج العالم السويدي بجامعة أبسالة كتاب الانتصار للخياط المعتزلي وهو أول كتاب يظهر ويحتوي على أقدم نصوص للمعتزلة . ويلي كتاب الانتصار في الأهمية كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري الذي نشره المستشرق الألماني ريتر. ثم توالى الاهتمام بنشر كتب علم الكلام إلى يومنا هذا في الغرب والشرق على السواء . ولعل من أعظم منجزات وزارة الثقافة في مصر نشر الموسوعة الفلسفية الكلامية للمعتزلة وهي كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضى عبد الجبار تحت إشراف الدكتور طه حسين . ومازال في تراثنا في هذا الميدان متسع لأجيال وأجيال لإحياء هذا التراث الأصيل . ولا شك أن إحياء التراث هو بداية النهضة الحقيقية للعرب ، تماماً كما كانت عودة الأوروبيين لإحياء التراث اليوناني والروماني هي بداية نهضتهم في العصر الحديث .

أما الشق الآخر من النتيجة التي انتهى إليها شمولدرز من دراسته وهي أن الفلسفةَ الإسلامية ليست من خواص الإنتاج الفكري للمسلمين وإنما هي مسايرةٌ للتفكير الفلسفي اليوناني تكاد تكون دون انحراف ولا اجتهاد ، فقد أخذ

بها من بعده غالبيةُ المستشرقين في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن . لكن هذه النظرة بدأت تخف رويداً رويداً مع تزايد أعداد الباحثين العرب في جامعات الغرب وكشفهم لمكنونات الفلسفة الإسلامية وما تنطوي عليه من أصالة وابتكار . ويأتي في مقدمة الرعيل الأولى في هذا الميدان مصطفى عبدالرازق وإبراهيم مدكور وأبو العلا عفيفي . هذا الجيل من الرواد الأوائل للجامعة المصرية عالج هذه النتيجة بحذر شديد وموضوعية تامة ووقف عند الحد الذي قام عليه دليل واقعي مباشر على أن الفلسفة الإسلامية ليست مجرد ترجمة للفلسفة اليونانية أو حلقة منفصلة في تاريخ الفكر الفلسفي . ولكنها فلسفةٌ التأمت فيها عناصرُ الفكر الشرقي والغربي القديم مع الوحي ، وتمثلت كل هذه العناصر وأضافت إليها أفكاراً جديدة لم تكن معروفة في العالم القديم شرقياً كان أم غربياً ، تقربها كل القرب من الفلسفة الحديثة والمعاصرة بقدر ما تباعد بينها وبين الفلسفة القديمة ، فمهدت بذلك للفلسفة الحديثة والمعاصرة وأمدتها بعناصر كثيرة أفاد منها الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين والمعاصرين[١٨] . فلم يقل ديفيد هيوم David Hume مثلاً في نقد مبدأ العلية كمبدأ أولي في الذهن شيئاً أكثر مما قاله من قبله بمئات السنين القاضي أبو بكر الباقلاني المتكلم الأشعري والإمام أبو حامد الغزالي . ومع ذلك فقد عُرِف هيوم واشتهر في تاريخ الفلسفة بمذهبه في نقد مبدأ العلية الذي أيقظ كنط Kant من ثُباته الاعتقادي وحفزه إلى نقد العقل .

وليس اللُوم على طالعنا بل على أنفسنا لأن مفكري الإسلام لما يأخذوا مكانتَهم اللائقةَ بهم في تاريخ الفكر الفلسفي . يخفف من أثر هذا اللوم تلك الهمة الصادقة التي نشهدها اليوم للكشف عن مكنونات تراثنا . فلقد ظهرت دراسات وأبحاث متعددة حول مشاكل الفكر الإسلامي ومناهجه في علم الكلام والفلسفة والتصوف والأخلاق والمنطق في مختلف أرجاء العالم العربي ، وفطن المستشرقون إلى ما تنطوي عليه هذه الأبحاث -وبعضها تم تحت إشرافهم ونال درجات علمية رفيعة من أرقى جامعات الغرب- من أصالة وابتكار وإضافات

حقيقية إلى الفكر الإنساني فعدلوا من نظرتهم إلى تراثنا ، وظهر أثر ذلك في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية . وبدأ نوع من التلاحم الفكري والتقدير المتبادل بين الشرق والغرب فنظمت جامعة لندن عام ١٩٦٤ سلسلة من حلقات البحث تحت عنوان : The meeting of East and West أي التقاء الشرق والغرب .

ولم تكن الحضارة الإسلامية في نشأتها الأولى إلا ثمرة لهذا اللقاء وذلك عندما فتح المسلمون نوافذهم على العالم ونقلوا إلى لغتهم ثمرات الفكر اليوناني والفارسي والهندي .

ولم يتعصبوا ضد فكر غريب أو يرفعوا شعارات زائفة ولكنهم أخذوا من كل فكر ما ينفع الناس ، وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه الكريم «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»[١٩] .

مراجع البحث ومصادره

(١) ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص٤٣٨ ، تحقيق نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥ .

- البيهقي ، ظهير الدين ، تاريخ حكماء الإسلام ، ص٥٥ ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، حققه ونشره محمد كرد علي ، دمشق ١٩٤٦ .
- القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ، تاريخ الحكماء ص٤١٥ ، طبعة المثني ببغداد .
- إبن النديم ، الفهرست ، ص٣٣٥ ، المكتبة التجارية ، القاهرة .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٣) الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد ، إحياء علوم الدين جـ١ ص٧١ ، كتاب الشعب ، القاهرة .

(٤) مدكور ، إبراهيم بيومي ، في اللغة والأدب ، ص٨٥ ، بحث في «نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام» سلسلة «إقرأ» رقم ٣٣٧ ، دار المعارف ، ١٩٧١ ، القاهرة .

(٥) المرجع السابق ، ص٨٥ .

(٦) الرازي ، الإمام فخر الدين ، أساس التقديس ، ص٢١٠ - ٢٢١ ، طبعة القاهرة .

(٧) ابن حزم ، أبو محمد علي الأندلسي ، الفِصَل في الملل والأهواء والنحل ، جـ٤ ، ص٣٥ ، طبعة المثني ببغداد .

(٨) ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن ، نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس ص٧٩ ، طبعة القاهرة .

(٩) الفهرست ص٤١٣ .

(١٠) أنظر مثلاً كتاب البداية من الكفاية في الهداية للإمام نور الدين الصابوني ، تحقيق الباحث ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .
- مدكور ، في اللغة والأدب ، ص٩١ ، بحث في «نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام» .

(١١) المرجع السابق ، ص٨٨ .

(١٢) مدكور ، في اللغة والأدب ، ص٩٠ .

(١٣) المرجع السابق ، ص٦٦ .

(١٤) المرجع السابق ، ص٦٦ ، أبحاث في : «لغة العلم» ، «مدى حق العلماء في التصرف في اللغة» ، «نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام» ، المصطلحات العلمية المعاصرة .

(١٥) المرجع السابق ، ص٩٢ .

(١٦) فتح الله خليف ، فلاسفة الإسلام ، ص٣٠٠ وما قبلها ، دار الجامعات المصرية ، الأسكندرية .

(١٧) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد ، المقدمة ص٤٦٦ ، طبعة دار الفكر .

(١٨) مدكور ، في الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيقه ، ص١٧٢ - ١٩٤ ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

(١٩) آية رقم ١٧ سورة الرعد رقم ١٣ .

مرفولوجية مدينة العين
والعوامل المؤثرة في ذلك

الدكتور فوزي عبدالمجيد الأسدي
أستاذ مساعد - قسم الجغرافيا
جامعة الإمارات العربية المتحدة

مقدمة :

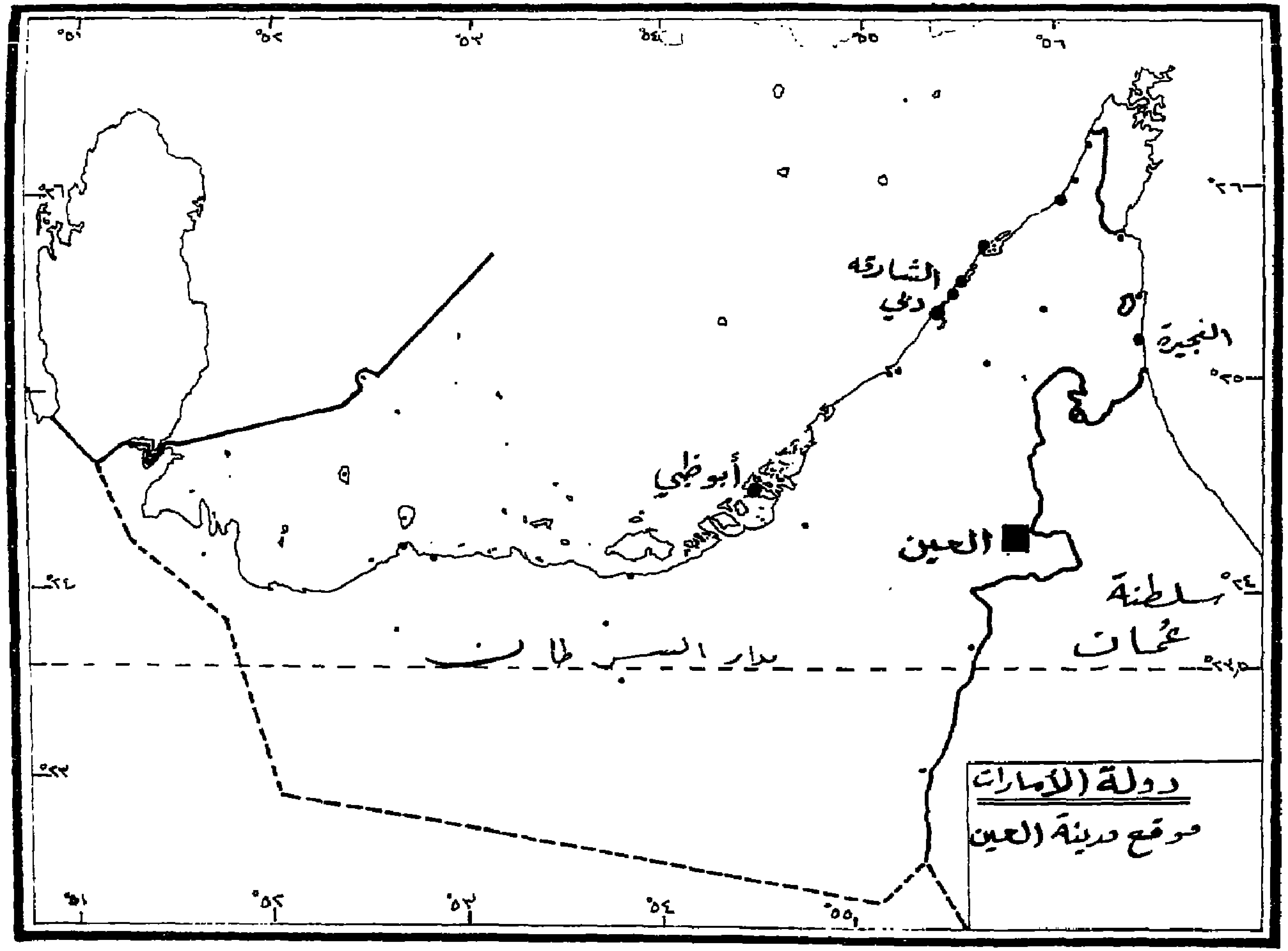
لقد شهدت معظم مدن دولة الإمارات العربية المتحدة نهضة عمرانية واسعة خلال الخمسة عشر عاماً الماضية وذلك نتيجة لتزايد دخل الدولة من تصدير النفط الخام ، وبسبب تصميم المسئولين في هذه الدولة على إعادة بناء مدن الدولة على أسس حديثة وعلمية - بعد أن كانت تلك «المدن» لا تختلف كثيراً في مظهرها عن قرى كبيرة ، ومعظم مبانيها كانت من الطين المجفف أو من سعف النخيل . كما كانت تلك المراكز تفتقر إلى الكثير من الخدمات والمرافق العامة والشوارع المعبدة . ومن بين مراكز الاستقرار التي شاهدت تغيرات كبيرة -بل قد تكاد تكون جذرية- هي واحة العين ، التي تحولت قراها إلى مدينة عصرية - تعد المدينة الثانية في إمارة أبـو ظبي ، والرابعة في دولة الإمارات العربية المتحدة . ونتيجة لهذا التغير فقد أصبح من الصعب على المرء أن يجد مبنى واحداً قديماً (عدا بعض القصور والقلاع) يعكس الحياة السابقة في هذه المنطقة . (شكل رقم - ١) .

وقد كان التغير في مورفولوجية المدينة ووظيفتها سريعاً بحيث أن الكثيرين من سكان هذه المنطقة لا يستطيعون بعد استيعاب هذا التغير أو فهم إلى أين يتجه هذا التحول وعند أي حد يجب أن يقف . فهناك جزء من سكان هذه المدينة كان يقيم في هذه المنطقة من قبل ، ولكن الجزء الأكبر قد وفد إلى المدينة للعمل فيها . فبعد أن كان عدد سكان هذا التجمع السكاني حوالي (١٣) ألف نسمة في عام

١٩٦٨ ، نجد أن حجمها قد تضخم بأكثر من عشرة أضعاف - ليصل إلى حوالي (١٤٢) ألف نسمة في عام ١٩٨٥م .

وإن الهدف من هذا البحث هو محاولة إظهار أهم معالم هذا التغير الكبير - مركزين اهتمامنا على أهم التغيرات التي طرأت على شكل المدينة وتركيبها الداخلي ومدى تأثير هذا التركيب بالتغيرات التي أصابت وظيفة / وظائف المدينة منذ عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٨٧ . وسأحاول إعطاء بعض الآراء أو التوقعات لمستقبل هذه المدينة - معتمداً في ذلك على ما قمت به أنا وطلابي في جامعة الإمارات العربية المتحدة من دراسات ميدانية ومقابلات للعديد من المسئولين والمواطنين في هذه المدينة(**) .

(**) لقد عايش الباحث أهم معالم هذا التغير منذ عام ١٩٧٩ إلى الآن .


دولة الإمارات
موقع مدينة العين
الشارقة
دبي
أبوظبي
العين
الفجيرة
سلطنة عمان
مدار السرطان

شكل رقم (١)

دراسة لمورفولوجية مدينة العين :

بعد مراجعة العديد من المصادر العربية والأجنبية في جغرافية المدن ، لم أجد اتفاقاً عاماً أو شاملاً لاصطلاح «مورفولوجية المدينة» (TOWN - MORPHOLOGY) - مع أن المعنى الدقيق لهذا الاصطلاح يشمل «دراسة للشكل والتركيب» .

فهناك بعض المصادر العربية لا تعطي اهتماماً كبيراً لهذه الناحية(١) ، وهناك من يلمح إليها دون أن يحدد معناها أو العناصر التي يجب أن تدخل ضمن دراسة مورفـولوجية المدينة ، وتُترك كدراسة تحليلية للبيئة الحضرية ، أو ضمن دراسة التركيب الداخلي للمدينة(٢) . وهناك مصدر غربي يذكر تحت دراسة مورفولوجية المدينـة : «الخطة ، أشكـال النمـو ، التركيب الداخلي للمدينة ، التجمع المـدني»(٣) . ورغم أن هذا التعـريف مقبـول نوعاً ما ، إلا أنه أدخل في هذه الـدراسـة تحليلاً للمجتمـع المـدني الذي سيضيف بعداً جديداً قد يكون من الأفضل دراسته تحت موضوع «سكان أو مجتمع المدينة» .

وازاء ذلك وجدت أن الرجوع إلى المصادر الأجنبية قد يكون أكثر إيضاحاً . فالأستاذ «كارتر» (H. Carter) يذكر أن دراسة مورفولوجية المدينة تشمل(٤) :

(أ) دراسة المخطط العام للشوارع أو لشكل المدينة (Plan or Lay-out) .

(ب) دراسة استخدام الأراضي داخل المدينة (Architecture of The Buildings) .

كما أن الأستـاذ «مـيرفي» (R. Murphy) يذكـر تحت هذا المـوضـوع «أن الدراسات المورفولوجية تهتم بشكل كبير بدارسة عناصر الشكل : كدراسة تنـظيم الشـوارع وخطوط السكك ، وأشكال الأبنية ، وبالحقيقة مجمل اللاندسكيب -المظهر- الحضري»(٥) . كما أن الأستاذ «ميرفي» يضيف أن دراسة مورفولوجية المدينة ووظيفتها وتطورها هي أمور لا يمكن فصلها عن بعضها البعض .

وأمـام هذه الاختلافات في الرأي -ولو أنها بسيطة- سأقتصر في تعريفي ودراستي لمورفولوجية مدينة العين على دراسة «شكل المدينة» (أو مخططها العام)

«والتركيب الداخلي» لأنماط استخدام الأراضي ، مع متابعة تطور هذين العنصرين منذ نشأة المدينة (حوالي عام ١٩٦٤) إلى عام ١٩٨٧ . وهكذا فسأقسم البحث إلى جزأين : الأول يتعلق بدراسة تطور شكل المدينة ومخططها ، والثاني يشمل دراسة التركيب الداخلي لاستخدام الأرض وتطوره في المدينة ، واتبعه بتحليل لمستقبل المدينة على ضوء المعطيات الراهنة ، مع إعطاء شرح للعوامل التي تؤثر في ذلك .

أولاً : تطور شكل المدينة ومخططها :

لا شك أن شكل المدينة ومخططها قد تأثر بعناصر الموضع وخصائصه والبعض يتعلق بموقع المدينة بالنسبة للمناطق المحيطة به ، والبعض الآخر يتعلق بأمور بشرية / سياسية .

١ - عناصر الموضع :

ان اصطلاح «الموضع» في جغرافية المدن يقصد منه المكان أو البقعة التي تقوم عليها المدينة - بالمقارنة «بالموقع» الذي يشمل إقليم (أو ظهير) المدينة عادة . ومن أهم العناصر الموضعية التي تؤثر على شكل ومخطط المدينة طبوغرافية سطح الأرض ، والتركيب الجيولوجي ، والعوامل المناخية ، وأنواع التربة وتصريف المياه والموارد الطبيعية (خاصة موارد المياه العذبة) ، وطبيعة المواصلات المتوفرة في ذلك الموضع .

وسأحاول هنا دراسة أهم هذه العناصر بصورة موجزة لكي نترك مجالاً وافياً لبقية عناصر هذا البحث .

(أ) طبوغرافية السطح وتركيبه الجيولوجي :

تقع مدينة العين في الجزء الشرقي من إمارة أبو ظبي (ما بين خطي عرض ٤٥ ٢٣° و ٤٠ ٢٤°ش) محتلة جزءاً كبيراً من واحة واسعة تدعى «واحة

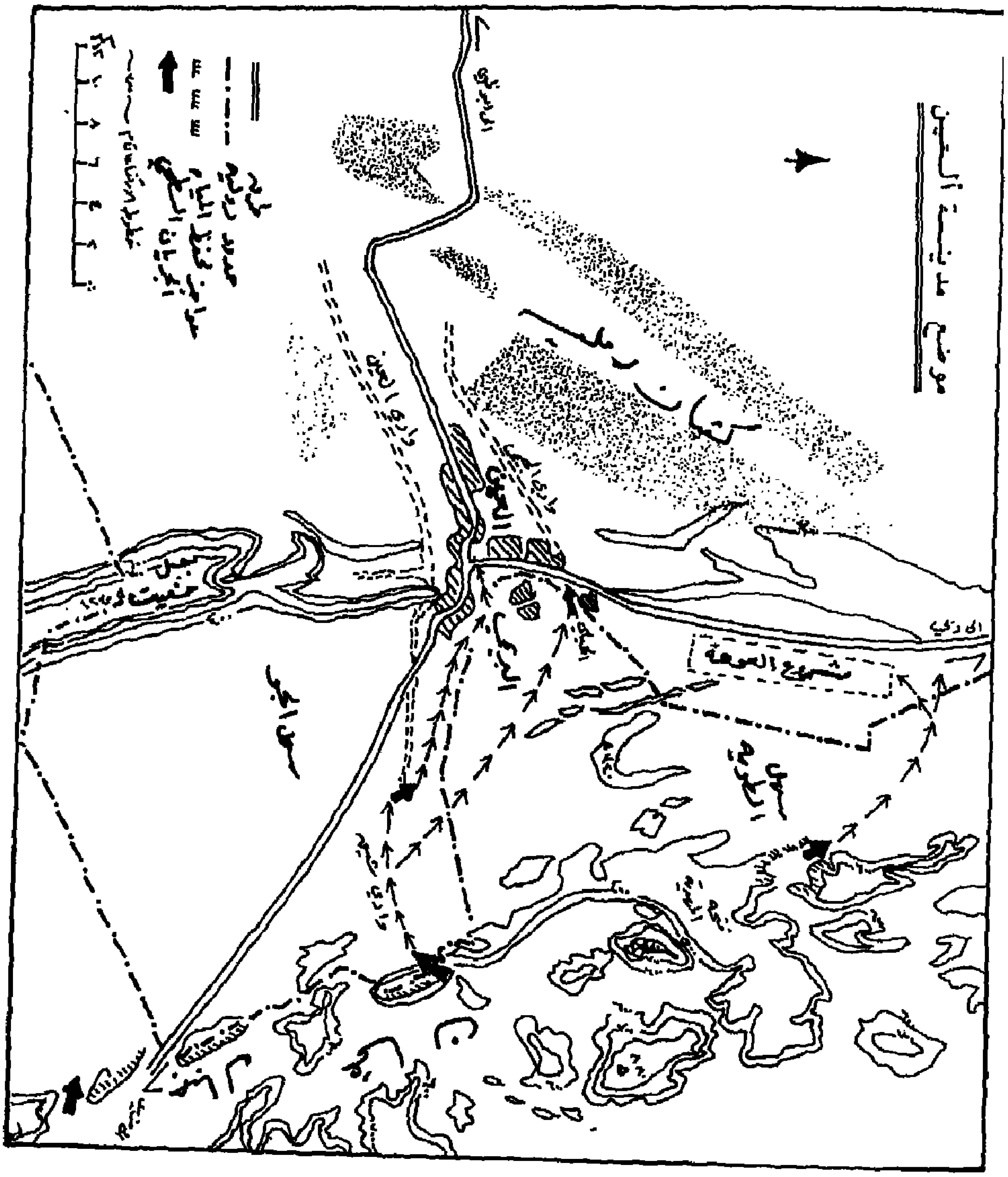
البريمي – العين» . ويحدها من الشرق حدود سلطنة عُمان ، ومن الجنوب جبل حفيت والتـلال المتفـرعـة عنـه ، كما يحد من اتساعها غرباً تلال وكثبان رملية عديدة . ويمكننـا أن نميز في هذا الموضع أربعة أقسام فيزيوغرافية ، وهي : (شكل رقم – ٢) .

(١) سـهـل الجـو :

يتألف هذا السهل بوجه عام من عدة مخاريط انصبابية اتحدت مع بعضها البعض لتغطي معظم سطح هذا السهل بترسبات رملية / صلصالية وحصوية - يتراوح سمكها ما بين ٢٠ – ٤٠م . ويخترقه عدة وديان جافة تنحدر من سلاسل جبال عُمان (مثل وديان العين والشيك والميخات) . ويلاحظ تكاثر التجمعات الحصوية / اللحقية المتماسكة (الكونغلوميرا) عند أطراف هذا السهل وبالقرب من التلال المحيطة بالمنطقة . كما نجد بعض الكثبان الرملية المنخفضة الارتفاع عنـد الأجـزاء الجنوبية والغربية من هذا السهل (وقد أنشئت على أطراف هذا السهل من جهة الشرق أحياء النيادات والكويتات ومنطقة الدفاع ، كما أقيم عند أطرافه الشمالية أحياء مديرية العين والمعترض والجاهلي) .

(٢) مقدمات جبل حفيت :

تقع هذه المقدمات إلى الجنوب من المدينة ، وتتألف من تلتين رئيستين وشبه متـوازيتـين ، ذات صخـور رملية وكلسية – تعود للعصر الجيولوجي الرابع – وتأخذان الاتجاه العام من الشمال إلى الجنوب ، وتحيطان بواد واسع تتخلله بعض التلال الصغيرة والكثبان الرملية التي تنتشر فوقها بعض النباتات الطبيعية . ونظراً لبروز الـطبقـات الصخـرية على سطح الأرض ، فقـد صُممت هذه المنـطقة للصناعة وموقع لحديقة الحيوانات .



شكل رقم (٣)

(٣) منطقة الواحة :

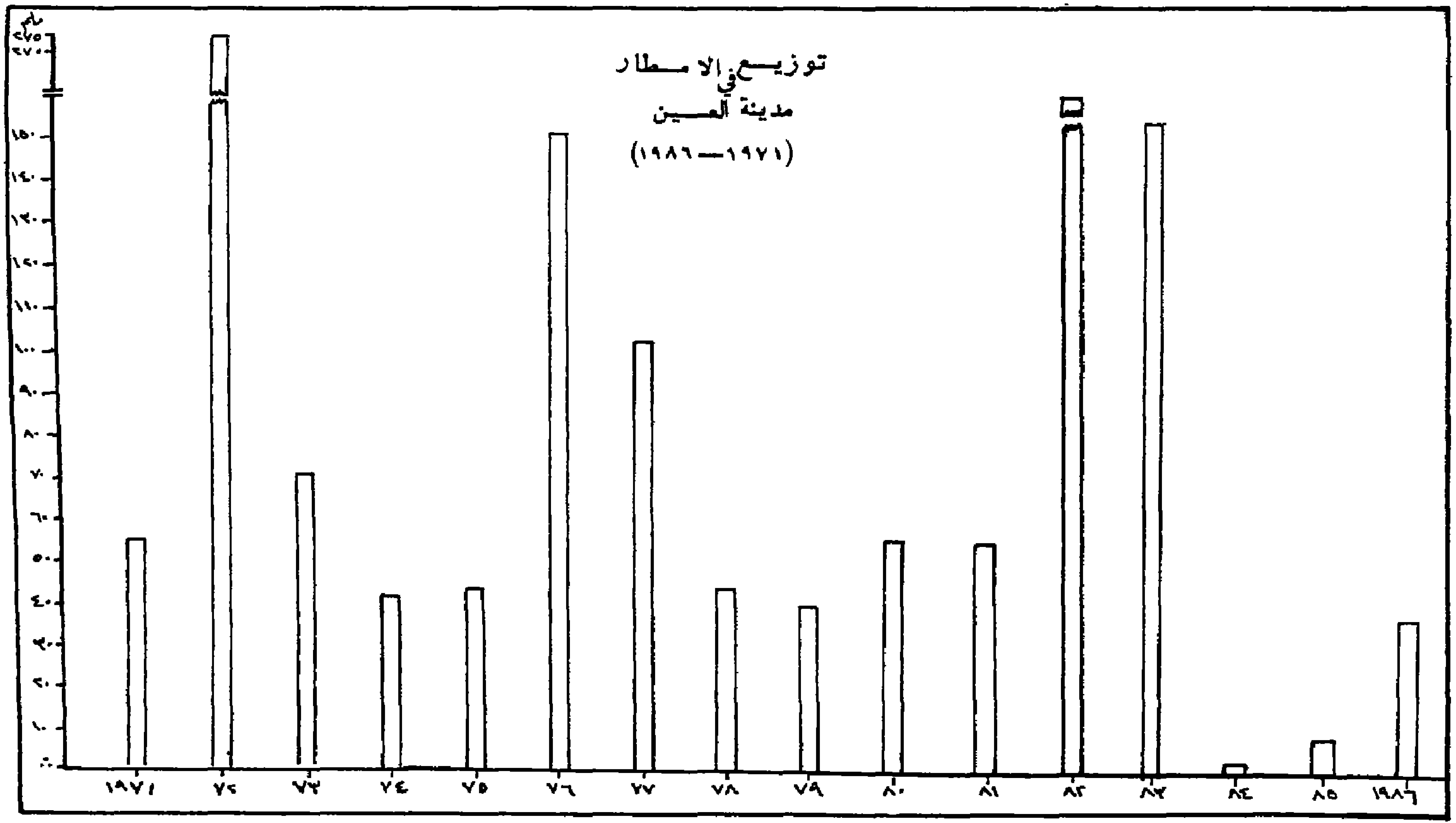
تقع هذه المنطقة على سهل منبسط بشكل عام يمتد من الشمال إلى الجنوب (كجزء من سهل واسع يعرف محلياً بسهل الطوية) . ويتألف من الصلصال وبعض التلال المجّزأة بالوديان . وقد نجد أحياناً تحت سطح هذا السهل (على بعد ٥ - ١٠ أمتار) طبقات صخرية من أصل رباعي وثلاثي ذات تركيب كلسي - يمنع تراكم المياه الجوفية فيها ، مما يدفع المزارعين إلى الابتعاد عنها أو الاضطرار لحفر آبار عميقة تحتها . إلا أن غالبية أراضي الواحة مستغلة بشكل كثيف بمزارع النخيل والخضروات . ولـذلـك فإن الأراضي غير الصـالحة للزراعة هي التي استغلت للأعمال العمرانية - خاصة أحياء الجيمي والقطارة والمسعودي والخبيصي .

(٤) المنطقة السهلية الغربية :

تتألف هذه المنطقة في الغالب من أراض منبسطة مغطاة بالحصى والرمال وبعض النباتات الطبيعية المتفرقة . إلا أن الأطراف الغربية لهذا السهل تعلوه كثبان رملية عالية وعديدة ، تمنع التوسع العمراني عليها - ما لم تحصل عمليات تسوية باهظة التكاليف . وقد استغل جزء من هذه الترسبات الرملية لإنشاء المطار الجديد لمدينة العين (لقد انتهت المرحلة الأولى منه بعد عمل امتد من عامين إلى ثلاثة) .

(ب) المميزات المناخية لمنطقة العين : (شكل رقم - ٣) :

تقع منطقة العين ضمن المناخ المداري - الجاف ، حيث يكون فصل الشتاء معتدلاً (معدل شهر يناير ما بين ٥ - ١٨°م) ، بينما يمتاز فصل الصيف بكونه حاراً جداً (يتراوح معـدل يولية ما بين ٣٣ - ٣٧°م) ، مع أن درجات الحرارة القصـوى في فصل الصيف قد تصل إلى ما فوق ٤٥°م . أما الأمطار في هذه المنطقة فهي قليلة ومتذبذبة في كمياتها السنوية وبمواعيد سقوطها ، وهي تتراوح ما بين ٥٠ - ١٢٠ ملم سنـوياً - يسقط معـظمها في فصل الشتاء (خاصة في


توزيع الامطار في
مدينة العين
(١٩٧١—١٩٨٦)
ملم
١٩٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
١٩٨٦

شكل رقم (٣)

شهري فبراير / شباط ومارس / أدار) . كما أن الرطوبة النسبية تكون مرتفعة نوعاً ما خلال فصل الشتاء (إذ تتراوح ما بين ٥٠ - ٦٥ في المائة) ، بينما نجدها تنخفض قليلاً في فصل الصيف ، (حيث يصل معدلها إلى حوالي ٤٠ - ٤٥ في المائة) . ولكن التبخر يكون شديداً خلال فصل الصيف إذ يصل معدله إلى حوالي (٥٥٠) ملم في شهر يونية[٦] . ولهذا فإن الزراعة في هذه المنطقة تعتمد اعتماداً كلياً على الري .

وحيث أن نظام الأمطار هنا متذبذب ، فقد تمر عدة سنوات دون أن تسقط على هذه المنطقة كميات من الأمطار تستحق الذكر (كما حصل مابين عامي ٨٣ - ١٩٨٧) ، ولذلك فإن المدينة تضطر لسحب كميات كبيرة من مخزون مياهها الجوفية لتلبي احتياجات السكان : المنزلية والصناعة/ التجارية والزراعية . وسيبقى هذا العامل متحكماً في قضية نمو المدينة وتطورها - كما سنبين أدناه .

هذا ويمكننا أن نضيف عاملاً مناخياً آخر مهما في تخطيط المدينة ، ألا وهو هبوب الرياح . فإن الرياح السائدة في هذه المنطقة هي الرياح الشمالية الغربية ، ولذلك فقد أنشئت الصناعات الثقيلة (الأسمنت والسماد) في الجزء الجنوبي من المدينة (أي بعكس هبوب الرياح) . كذلك هناك رياح جنوبية تهب أحياناً على المنطقة قادمة من الصحراء ، محملة بالغبار وهي حارة ، فترفع درجات الحرارة فوق معدلاتها كثيراً وتضر بالمزروعات وتسبب زحفاً للرمال على المزروعات والشوارع الرئيسية (فيضطر المزارعون لزراعة مصدات رياح حول مزارعهم ومساكنهم - مما يزيد في استهلاك المياه في المدينة) .

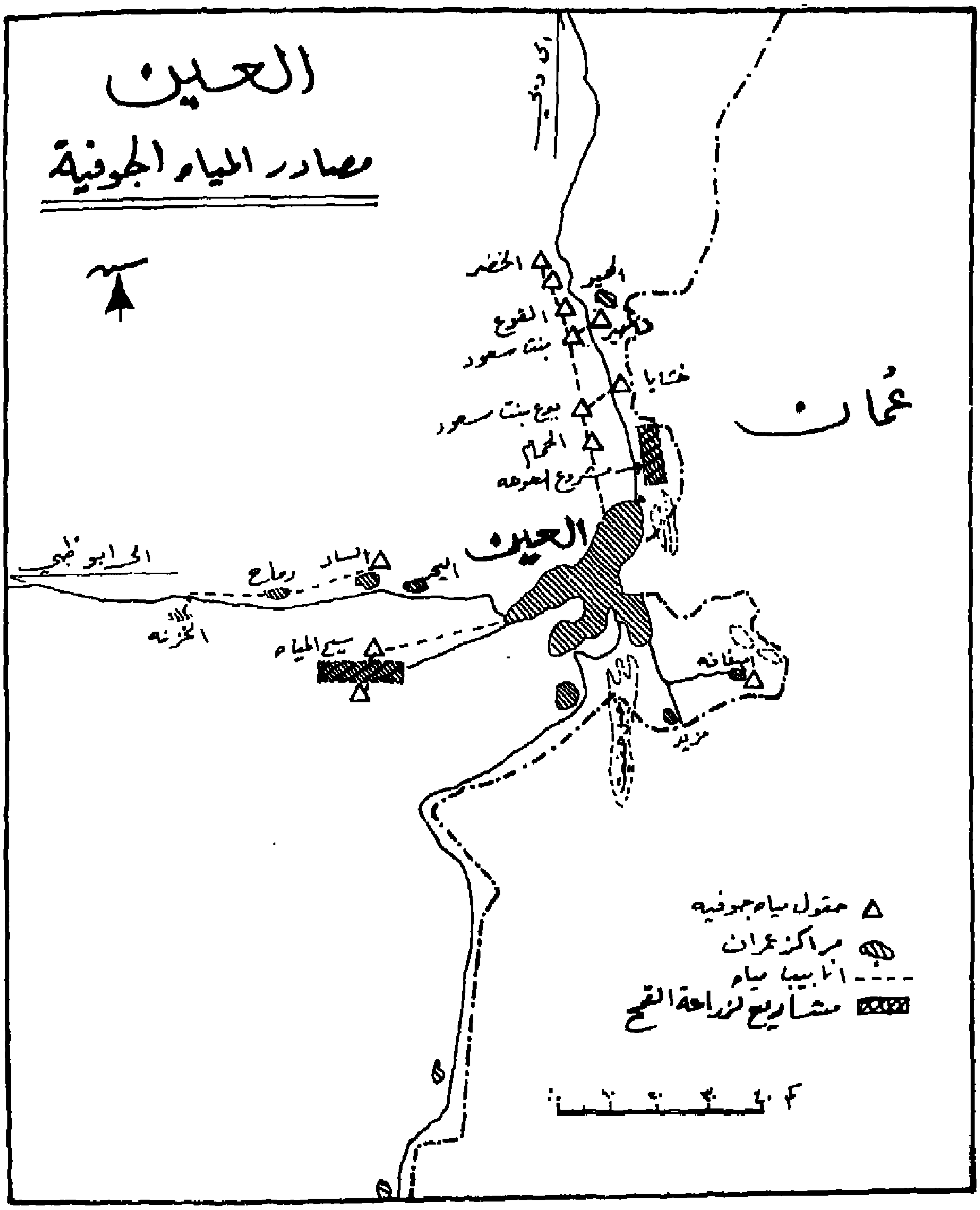
مع ذلك نجد أن مناخ منطقة العين يبقى مفضلاً لكثير من مواطني هذه الدولة ، ولذلك فإننا نجد أعداداً كبيرة منهم تأتي خلال فصل الصيف لقضاء عطلهم هنا ، فتزدهر بعض الأنشطة الاقتصاديةالمتعلقة بالسياحة والترفيه - كما سنبين فيما بعد .

(ج) مصادر المياه في مدينة العين :

كانت هذه المنطقة تعتمد في الماضي على نظام الأفلاج (القنوات الجبلية للمياه الباطنية) ، وعلى سحب المياه من آبار «تقليدية» - قليلة العمق . ولكن مع تطور نمو المدينة أصبحت هذه المصادر غير كافية لاحتياجات السكان الآخذة بالتزايد . لذلك قامت دائرة المياه الجوفية في المدينة بالتنقيب عن مصادر مياه جوفية ، واضطرت إلى حفر العديد من الآبار العميقة ثم ضخ مياهها إلى أحياء المدينة . وقد بقيت حقول الآبار التي وجدت خارج حدود المدينة - في مناطق الخضر ، الهير ، والكراع وبدع بنت أحمد ، وغاشياً ، الساد ، وسويحان (شكل رقم - ٤) ، أهم مصادر المياه الجوفية لمدينة العين حتى عام ١٩٧٦ ، حيث وصل عدد الآبار إلى حوالي (٧٦) بئراً ، بلغ إنتاجها حوالي أربعة ملايين جالون يومياً .

ولكن نتيجة لزيادة الاستهلاك وزيادة السحب من هذه الآبار فقد تناقص معدل إنتاجها ، ولذلك اضطرت دائرة المياه لحفر آبار جديدة وصل عددها في عام ١٩٨٠ حوالي (٩٧) بئراً ، بلغ إنتاجها الكلي حوالي (١٦,٥) مليون جالون في اليوم . وبعد استحداث حقول آبار المياه الجديدة في مناطق بدع بنت سعود والحمام وشمال الهير وام غافا وبعض قرى العين ، فقد وصل عدد الآبار في نهاية عام ١٩٨٢ حوالي (٢٧٣) بئراً بلغ معدل إنتاجها حوالي (٢٤,٣) مليون جالون يومياً[٧] .

هذا وقد تم ربط مدينة العين ومدينة أبو ظبي بشبكة لنقل ما يقارب من خمسة ملايين جالون في اليوم وذلك من محطات تحلية مياه مدينة أبو ظبي (ويتوقع زيادة هذه الكمية في المستقبل القريب - بعد إنهاء مشروع محطة الطويلة) . وأمام هذا التزايد في استهلاك المياه في مدينة العين وسحب كميات ضخمة من مخزونها الجوفي - دون هطول كميات غزيرة من الأمطار في السنوات الخمس الماضية لتعويض هذا الضخ ، فإن تطور المدينة ونموها مرتبط بتوفر هذا «العنصر النادر» ، فلا يعقل أن يستمر استهلاك المياه بنفس المستوى الذي حصل في



العين
مصادر المياه الجوفية
عمان
الخضر
القوع
بنتا سعود
خشابا
بيع بنت سعود
الجمام
مشروع العوهه
العين
الساد
رماح
سيح المياه
حقول مياه جوفيه
مراكز عمران
انابيب مياه
مشاريع لزراعة القمح

شكل رقم (٤)

السنوات العشر السابقة - إذ أن نسبة الزيادة في استهلاك المياه ما بين عامي ١٩٧٥ - ١٩٨٢ قد بلغت حوالي (٢,٧٦٨) في المائة ، كما يظهر من جدول رقم - ١ .

جدول رقم (١)

السنة	معدل الاستهلاك اليومي	الزيادة(*) ٪
١٩٧٥	٨٥٠	—
١٩٧٦	١,٨٢٥	١١٧
١٩٧٧	٣,١٠٠	٧٠
١٩٧٨	٥,٩٩٠	٩٣
١٩٧٩	٩,٨٠٨	٦٤
١٩٨٠	١٢,٧٩٣	٣٠
١٩٨١	١٥,٤٦٠	٢١
١٩٨٢	٢٤,٣٨٣	٥٨
١٩٨٤	٢٩,١٠٠	١٩

(**) المصدر : دائرة الماء والكهرباء - إمارة أبو ظبي ، الكتاب السنوي السادس ١٩٨٢ ، ص١٤٧ .

(*) المصدر : دائرة تخطيط مدينة العين ، ١٩٨٥ .

(*) من عمل الباحث .

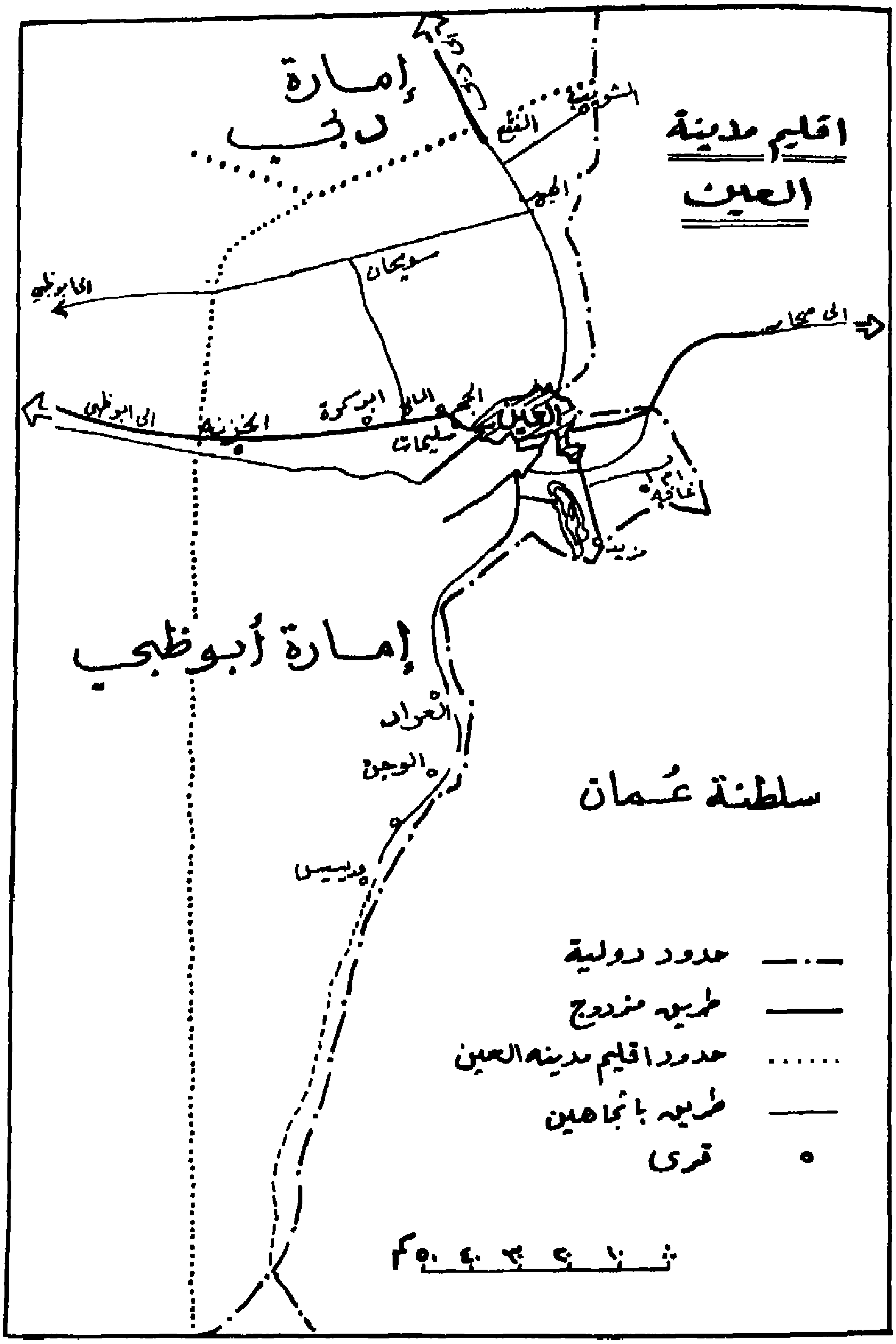
ومن جدول رقم - ١ نلاحظ أن معدلات استهلاك المياه في مدينة العين آخذة بالتزايد عاماً بعد عام -ولو بنسب أقل- وإن هذه الكمية المستهلكة سنوياً تعادل أضعاف كميات الأمطار التي تسقط على هذه المنطقة (تقدر نسبة الأمطار التي تتسرب إلى الخزانات الجوفية لمنطقة العين بحوالي ١٠ - ١٥ في المائة) ، لذا يخشى من حصول نضوب لهذه الخزانات الجوفية في المستقبل القريب - ما لم

تسقط على المنطقة كميات كبيرة من الأمطار خلال السنوات القريبة المقبلة لتغذي هذه الخزانات الجوفية - وبالطبع سيتأثر نمو المدينة بتوفر هذا المصدر الهام كثيراً ، فحوالي ثلث الكمية المستهلكة تذهب للمساكن والمتاجر(٨) .

٢ - إقليم (ظهير) مدينة العين : (شكل رقم - ٥)

يقصد بإقليم المدينة في جغرافية المدن المنطقة المحيطة بالمدينة والتي تعتمد كثيراً على الخدمات التي تقدمها المدينة . فمدينة العين تقدم خدمات عديدة لإقليمها ، ففيها نجد أولاً مقر حاكم المنطقة الشرقية وجميع الدوائر الحكومية المتعلقة بإدارة هذه المنطقة - والتي تمتد إدارياً من حدود سلطنة عُمان من الشرق إلى بلدة الخزنة في الغرب (التي تبعد حوالي ٨٠ كم عن مدينة العين) ، كما تمتد المنطقة الإدارية للعين شمالاً إلى بلدة الفقع ، وجنوباً إلى بلدة أم الزمول - عند التقاء الحدود السعودية مع حدود دولة الإمارات . وتقدر مساحة هذا الإقليم بحوالي (٢٣) ألف كم٢ ، كما يقدر عدد سكانه بحوالي (١٧٢) ألف نسمة .

هذا وقد تم ربط هذه المدينة بجميع القرى الرئيسية المحيطة بها بطرق معبدة وجيدة ، كذلك تم ربط المدينة بكل من مدينة أبو ظبي ومدينة دبي بطرق من الدرجة الأولى ، كما ترتبط ببقية مدن الإمارات ببلدة الذيد . وهناك طرق أخرى تربطها بسلطنة عُمان وساحلها الشرقي أيضاً . وبذلك تعتبر مدينة العين «مركزاً متوسطاً» لهذا الإقليم الشرقي من الإمارة . ومن الاستبيانات العديدة التي جمعتها أثناء الدراسات الميدانية التي قمت بها برفقة طلابي ، تبين لنا أن معظم أهالي القرى المحيطة بالمدينة يأتون إلى مدينة العين للتسوق بشكل مستمر من مرتين إلى ثلاث مرات في الأسبوع - عدا المزارعين الذين يأتون إلى أسواق مدينة العين مرة كل يومين وذلك لنقل منتوجاتهم الزراعية - خاصة الخضار في فصل الشتاء والتمور في فصل الصيف . أما السكان الذين يقطنون القرى التي تقع بالقرب من إقليمي أبو ظبي أو دبي فإنهم يذهبون إلى أحد المركزين مرة أو مرتين في الشهر لشراء بعض الأشياء الثمينة (كالمعدات الزراعية ، أو الأجهزة الكهربائية ، أو ملابس للسيدات أو المجوهرات أو الأثاث الثمين) .


إمارة دبي
اقليم مدينة العين
العين
إمارة أبوظبي
سلطنة عمان
حدود دولية
طريق مزدوج
حدود اقليم مدينة العين
طريق باتجاهين
قرى

شكل رقم (٥)

هذا وهناك خدمات مركزية أخرى تقدمها مدينة العين لسكان دولة الإمارات بشكل عام ، ألا وهي الناحية التعليمية أو الثقافية . فنظراً لتمركز جامعة الإمارات العربية المتحدة في هذه المدينة ، فإنه يأتيها طلاب وطالبات من جميع أنحاء الدولة (وبعض الوافدين أيضاً) . كذلك فإن الجامعة تزوّد مراكز الانتساب الموجه في بقية مدن الدولة بالأساتذة والكتب والنشرات التعليمية . ويوجد في مدينة العين مستشفى «توام» المشهور بخدماته الطبية الواسعة التي يقدمها مجاناً . فيقصده العديد من سكان الدولة للاستشارات الطبية أو للمعالجة (يدار هذا المستشفى من قبل شركة أجنبية ومعظم أطبائه من المتخصصين الأجانب)(**) .

كذلك أخذت مدينة العين تقدم خدمات سياحية – خاصة بعد إنشاء «مدينة اللهو والألعاب» ، واستراحات عديدة لجذب السوّاح للمدينة – كما سنبين فيما بعد .

٣ – تطور نمو سكان مدينة العين : (شكل رقم – ٦)

لقد كانت واحة العين حتى أوائل الستينات من هذا القرن (كما ذكرنا من قبل) مؤلفة من عدة قرى متجاورة يعمل معظم أهلها بالزراعة و/أو الرعي . ولكن خلال وجود الشيخ زايد حاكماً للمنطقة الشرقية من إمارة أبو ظبي عمل على دمج هذه القرى مع بعضها البعض لتشكل مركز استقراري واحد . وقد كانت أول خطوة قام بها بعد تحقيق هذا العمل هي ربط نواة كل قرية بالأخرى (وتلك القرى هي : الهيلي ، الجيمي ، المسعودي ، القطارة ، مريجب ، السليمي ، المويجعي ، المعترض والجاهلي) . ثم أمر الشيخ زايد باستبدال بيوت المواطنين القديمة بمساكن حديثة تبنى على نفقة حكومة إمارة أبو ظبي . وقد عرفت مثل هذه المساكن فيما بعد «بالمساكن الشعبية» وسمى هذا التجمع «بمدينة العين» .

(**) لقد وضع هذا المستشفى مؤخراً تحت إشراف دائرة الصحة ، إلا أن الإدارة بقيت كما هي .

وهكـذا مع ظهـور نتائج أول إحصاء عام لسكان إمارة أبو ظبي تبين أن سكان هذه «المدينة» قد بلغ حوالي (١٣) ألف نسمة - وذلك في عام ١٩٦٨[٩] . ومـع تزايد دخل الإمارة من تصدير النفط ، أخذت هذه المدينة تشهد نشاطاً عمرانياً كبيراً - خاصة بعد انتقال الشيخ زايد إلى مدينة أبو ظبي ليصبح حاكماً للإمارة (في عام ١٩٦٦) ، وبعد أن أصبح رئيساً لدولة الإمارات العربية المتحدة (في ٢ ديسمـبر عام ١٩٧١) وتصميمـه على خلق مدينـة ثانية مهمـة في إمارة أبوظبي . ولذلك فقد أخذ يفد إلى هذه المدينة أعداد كبيرة من الموظفين والعمال للمساهمة في أعمال التشييد والبناء . كما قدم إلى المدينة أعداد كبيرة أخرى من أبناء القبائل التي كانت تقيم خارج حدود هذه القرى التسع باحثين عن أعمال مناسبة ومطالبين بنفس الوقت بمساكن شعبية لهم .

وبعد إجراء الإحصاء العام الثاني للسكان في عام ١٩٧٥ ، تبين أن عدد سكان مدينة العين قد تضاعف حوالي أربع مرات - إذ وصل إلى (٥١) ألف نسمـة - أي بزيادة سنوية تقارب من (٤٢) في المائة خلال هذه الفترة ما بين التعدادين الأوليين . وقد بلغ عدد المواطنين في هذا التعداد حوالي (١٦,٥) ألف نسمة ، وأعداد الوافدين أكثر من ضعفهم (أي حوالي ٣٤,٢ ألف نسمة)[١٠] . ويعتقد أن معظم هؤلاء الوافدين قد جاءوا إلى المدينة بعد عام ١٩٦٨ - وبذلك أصبحت تحتل المرتبة الرابعة بين مدن الدولة .

ومـع تضـاعف دخـل الدولة من ارتفاع أسعار النفط بعد عام ١٩٧٣ ، أخـذت المدينة تشهد نهضة عمرانية ثالثة - خاصة بعد أن تقرر إنشاء جامعة الإمارات في هذه المدينة وتم افتتاحها في عام ١٩٧٧ . فبدأ يفد إلى المدينة أعداد متـزايدة كل عام من الأسـاتذة والإداريين والطلاب ، كما تقرر التوسع بإنشاء المـرافق العـامـة وبقية الخـدمـات التي لم يكن قد تم توفـيرهـا لجميع السكان (كـالمـدارس والمستـوصفات والشرطة ومكافحة الحرائق وشق الطرقات) . وقد ساهم كل ذلك في إعادة مضاعفة سكان المدينة ، حيث وصل عددهم إلى أكثر من (١٠٢) ألف نسمة في عام ١٩٨٠ - بلغ عدد المواطنين بينهم حوالي (٢٩,٥)

ألف نسمة وأعداد الوافدين حوالي (٧٢,٨) ألف وافد[١١] . وبهذا تكون نسبة عدد المواطنين قد ازدادت حوالي (٧٩) في المائة بينما أعداد الوافدين حوالي الضعف تقريباً (أي ١٥٩ في المائة) . ثم عاد عدد السكان فازداد حوالي (٤١) في المائة في تعداد عام ١٩٨٥ ، كما يظهر من جدول رقم - ٢ .

جدول رقم - ٢

تطور أعداد سكان مدينة العدين ما بين ١٩٦٨ - ١٩٨٥ ونسبة الزيادة السنوية(**)

السنة	عدد السكان (بالألف)	الزيادة السكانية		الزيادة السنوية (في المائة)
		العدد (بالألف)	النسبة (في المائة)	
١٩٦٨	١٢,٩	(غ . م)		
١٩٧٥	٥٠,٧	٣٧,٨	٢٩٣,٠	٤١,٩
١٩٨٠	١٠٢,٣	٥١,٦	١٠١,٨	٢٠,٤
١٩٨٥	١٤٢,٠	٤١,٧	٤٠,٨	٨,٢

غ . م = غير متوفرة

(**) المصدر : التعداد العام للسكان : أعوام ١٩٦٨ و١٩٧٥ و١٩٨٠ - وزارة التخطيط ، أبو ظبي .

(*) المصدر : نتائج أولية لتعداد عام ١٩٨٥ - دائرة تخطيط مدينة العين ، ١٩٨٦ .

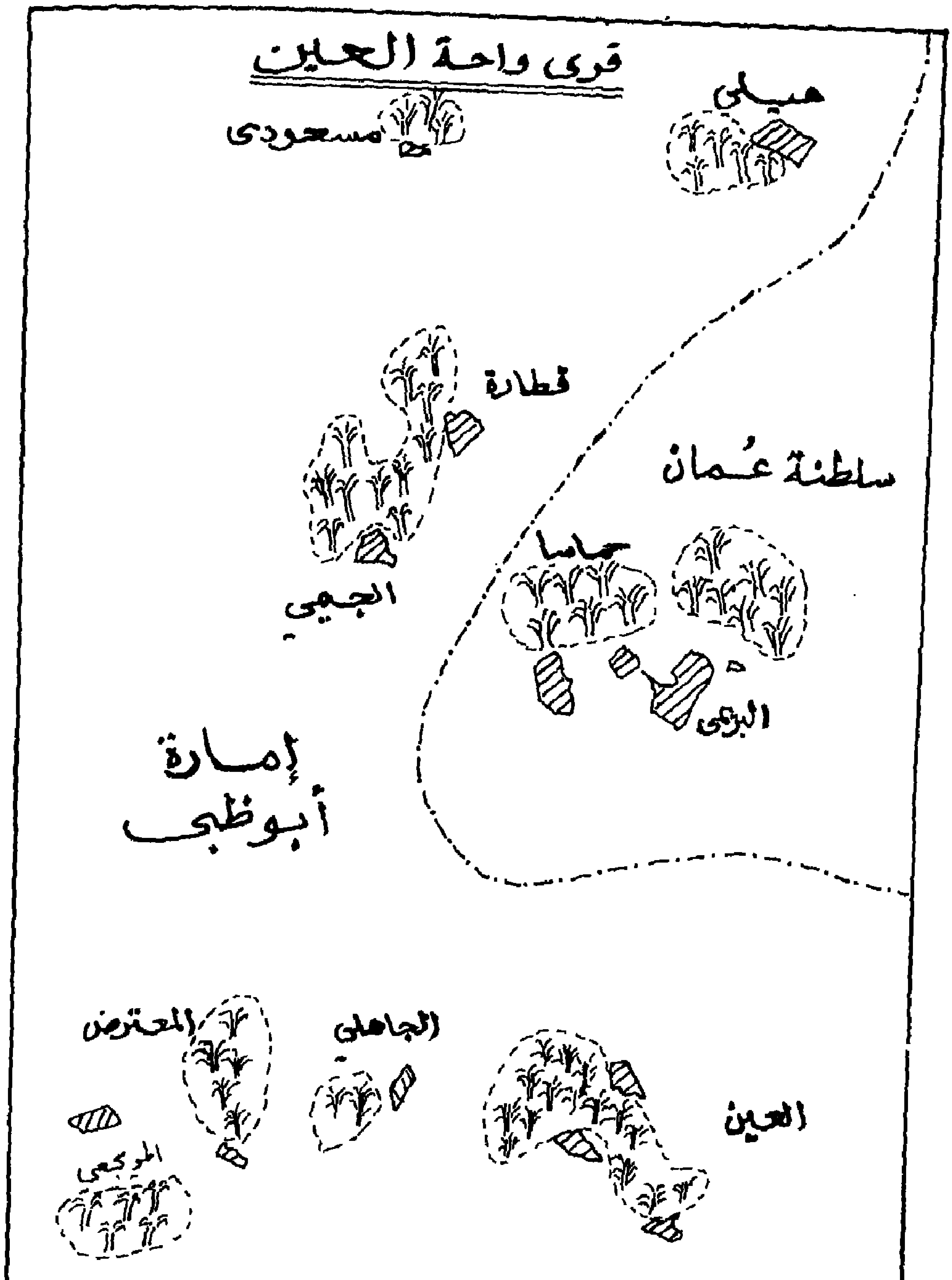
ويلاحظ من جدول رقم - ٢ ، أن نسبة تزايد السكان ما بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٥ في مدينة العين كانت حوالي (٤٢) في المائة ، ولكنها انخفضت إلى النصف بين ٧٥ - ١٩٨٠ ، رغم أن العدد الإجمالي للسكان قد ازداد حوالي (١٠٢) في المائة في هذه الفترة . ثم عادت نسبة النمو السكاني السنوية فانخفضت إلى أقل من النصف ثانية خلال خمسة أعوام ، رغم أن المجموع الكلي

للسكان قد ارتفع حوالي (٤١) في المائة . أي أن حجم المدينة آخذ بالتزايد ولكن بنسب أقل مما كان عليه الوضع في بداية نشأة المدينة . مع ذلك تبقى نسبة النمو عالية تفوق نسبة النمو الطبيعي في المدينة ، إذ يدخل في ذلك الهجرة الداخلية (من المواطنين والوافدين)[١٢] . ولا شك أن مثل هذا التزايد الكبير للسكان قد أثّر كثيراً على مخطط المدينة وتركيبها الداخلي كما سنرى فيما بعد .

٥ - مراحل التطور العمراني لمدينة العين :

ان عمر هذا التجمع الحضري - كما ذكرنا من قبل - حديث ، ولا يزيد عن ربع قرن من الزمن ، إذ كان يحتل موضع هذه المدينة أراض تابعة لتسع قرى متفرقة وهي : الهيلي ، المسعودي ، القطارة ، الجيمي ، مريجب السليمي ، الجاهلي ، العين والمعترض . (شكل رقم - ٦) وحيث أن أراضى الواحة التي تضم هذه القرى غنية بالمياه الجوفية والتربة الخصبة ، فقد كان يعمل غالبية السكان الأصليين في الزراعة المروية التقليدية (زراعة أشجار النخيل وبينها تزرع بعض الخضروات) ، والبعض الآخر كان يعمل بالرعي ويعود إلى الواحة في فصل الصيف لجني محصول التمور - كما كان يفد إليها سكان المدن الساحلية خلال فصل الصيف للاستجمام نظراً لاعتدال جوها بالمقارنة بطقس المناطق الساحلية على خليج العرب . وقد كان الاتصال مع الجزء الشرقي من الواحة الكبرى (واحة البريمي) قوياً ومرتبطاً باقتصاد يعتمد على الاكتفاء الذاتي (إذ أن الحدود السياسية قد سويت وثبتت في عام ١٩٧٤) .

وقد دلت الحفريات الأثرية التي أجريت في هذه المنطقة على وجود آثار يعود تاريخها إلى ما بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ سنة ق . م . وقد اكتشفت آثار أساسات ثابتة لمساكن ريفية قديمة تقع في منطقة الهيلي - حيث كانت الرمال قد غطتها بالكامل[١٣] . كما وجد في تلك المواضع أوان خزفية وحلي وبعض الأدوات المعدنية التي تشير إلى نوع من الاتصال (التجارة) مع مجتمعات أخرى تقيم حول الخليج العربي . وكذلك فقد عثر على أوان خزفية في كل من قرى العوهة والمسعودي والقطارة تعود إلى العصور الإسلامية - مما يشير إلى استمرار


قرى واحة العين
مسعودي
هيلي
قطارة
سلطنة عُمان
حماسا
الجيمي
البريمي
إمارة
أبوظبي
المعترض
الجاهلي
العين
الموكعي

شكل رقم (٦)

الاستيطان البشري في هذه المنطقة إلى ما بعد الفتوحات الإسلامية في شرقي شبه جزيرة العرب . ويعتقد رجال الآثار الذين نقّبوا في هذه المنطقة أن واحة البريمي - العين كانت تحوي مجتمعات تعتمد على اقتصاد زراعي / رعوي معتمدين على المياه الجوفية التي يستحصل عليها من الأفلاج أو الآبار الضحلة .

ويعتقد أن هذه الواحة الكبيرة كانت تشكل ملتقى طرق للقوافل التي كانت تعبر جنوب شرقي شبه جزيرة العرب وسواحل الخليج وبحر عُمان . إلا أن تلك الحفريات لم تتوصل بعد إلى تحديد حجم تلك التجمعات الريفية ، غير أنه يعتقد أن أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية بقيت سائدة إلى وقت قريب جداً - يمكننا أن نطلق عليه «عهد النـزاع السياسي» على هذه المنطقة . وقد صادف ذلك ابتداء ، اكتشاف النفط في إمارة أبوظبي مما أدى إلى زيادة الاهتمام بهذه المنطقة (إلا أن الخلافات على الحدود قد حُلّت فيما بعد سلمياً بين إمارة أبوظبي من جهة وكل من السعودية وسلطنة عُمان من جهة أخرى وذلك عام ١٩٧٤) .

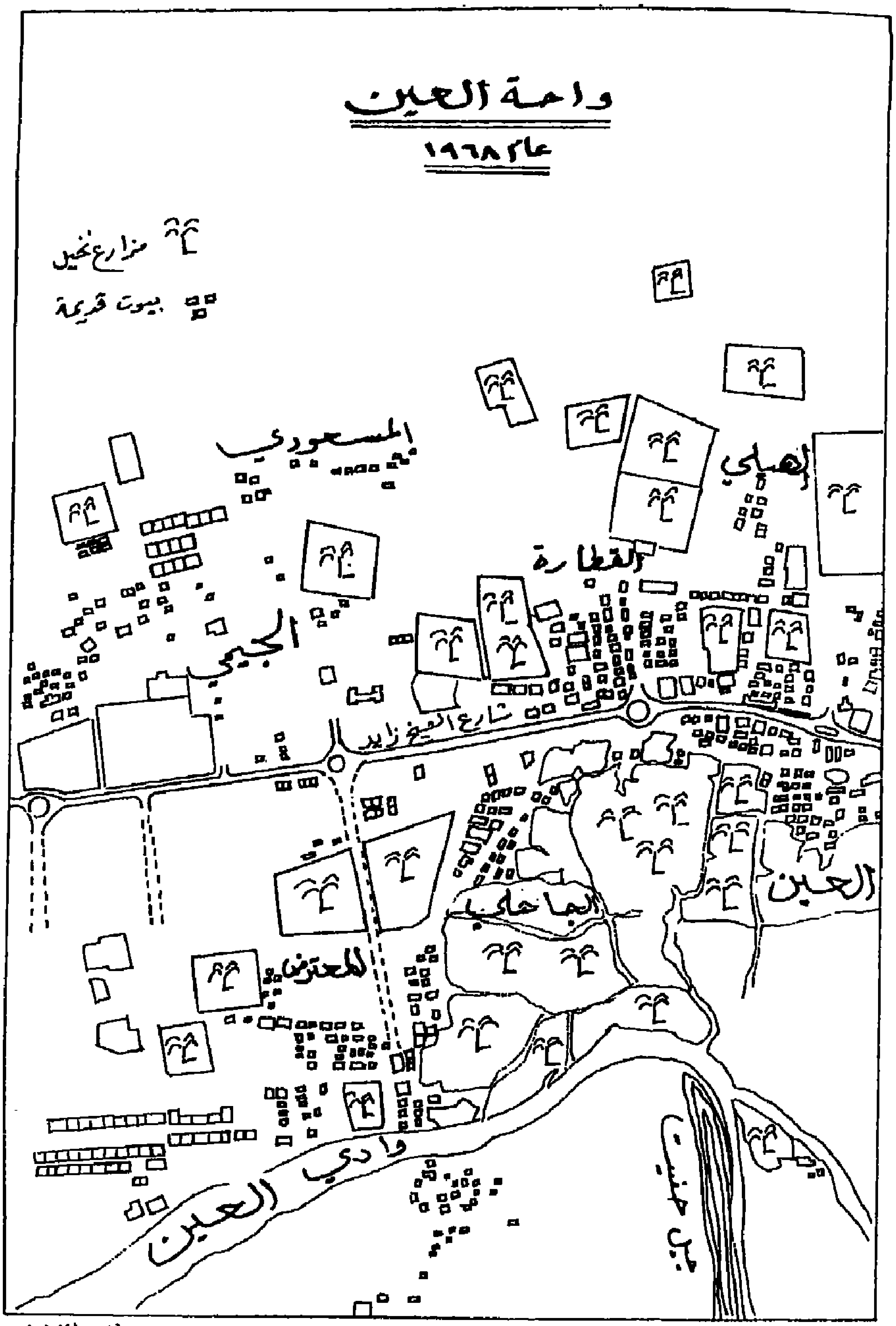
وهكذا مع اكتشاف النفط في هذه الإمارة وبداية تحسين دخلها العام من تصديره ، أخذت المظاهر العمرانية تتغير بشكل سريع لم تشهده المنطقة من قبل - حتى أصبح إيجاد بيوت قديمة تعود لسكان هذه المنطقة - عدا بعض القصور والقلاع - أمراً صعباً . وليسهل دراسة هذا التحول الكبير (أو الجذري) يمكننا أن نقسمه إلى ثلاث مراحل :

(أ) مرحلة النشأة والتكوين كمركز حضري : (ما بين ٦٤ - ١٩٧٤)

خلال الفترة التي كان يقيم فيها الشيخ زايد آل نهيان حاكماً للمنطقة الشرقية من إمارة أبوظبي (ما بين عامي ٤٦ - ١٩٦٦) أخذ الشيخ زايد يفكر في تحسين أوضاع معيشة سكان هذه المنطقة . ومع تحسن دخل الدولة من تصدير النفط ، استطاع أن يدمج هذه القرى معاً ويشكل منها مدينة حديثة تكون «القطب» الثاني في الإمارة . فأمر أولاً بشق الطرق لربط هذه القرى مع أكبر واحة وهي «العين» ، ثم أمر بإنشاء مساكن حديثة (أخذت تعرف فيما بعد بالمساكن الشعبية) لمواطني هذه القرى بالقرب من أماكن إقامتهم السابقة ومزارعهم .

ومع انتقال سموه ليصبح حاكماً لإمارة أبوظبي (في عام ١٩٦٦) واستلام الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان مقاليد إدارة المنطقة الشرقية أخذت عملية إنشاء المساكن الشعبية والمرافق العامة التي تخدم المواطنين تسير بخطى سريعة - إلا أن المظهر العام للمدينة بقي قريباً من الريفي حتى أواخر الستينات من هذا القرن . وكان المخطط العام للمدينة بسيطاً - يتألف من شارعين أو ثلاثة تربط القرى بمركز المدينة ، وتحيط بها بعض الأبنية الحديثة (يشبه شكل رقم - ٧) . وقد كان لانتقال الشيخ زايد إلى مدينة أبوظبي - التي كانت تمر بمرحلة تغير عمراني كبير أيضاً - حسنة أخرى ، إذ استطاع بمساعدة دائرة تخطيط مدينة أبوظبي وضع مخطط (أو تصور معقول) لمدينة العين ، كما كُلفت دائرة تخطيط أبوظبي بالإشراف على تنفيذ هذا المخطط (إذ أنه لم يكن قد أنشيء بعد مكتب للتخطيط في مدينة العين) . وقد روعي في هذا المخطط الأولي أن تكون الشوارع عريضة ، واتجاه السير مفصولاً بالأشجار والحدائق ، وأن تزوّد الشوارع العامة الرئيسية - خاصة تلك التي تحاذي الشارع الرئيسي لنواة المدينة - بمداخل ومخارج خاصة لتسهيل عمليات اصطفاف السيارات وحركة المرور في المدينة . كما روعي أن تساير الأبنية المقامة العادات والتقاليد العربية / الإسلامية للسكان .

وقد خططت المنطقة الوسطى (التي تحاذي قرية العين) منطقة أعمال مركزية ، وأقيم على جانبي الشارع الرئيس الذي يخترق هذه النواة (شارع الشيخ زايد) دائرة بلدية العين والمحاكم المدنية والشرعية ودائرة الماء والكهرباء ، وعلى الجانب الآخر أقيم قصر الحاكم . كما أقيمت بعض البنوك ومكاتب للشركات التي أخذت تفد إلى هذه المدينة لتساهم في هذه النهضة العمرانية الكبيرة . وقد أقيم هنا - وعلى امتداد هذه النواة نحو الشرق أيضاً - عمارات مؤلفة من ثلاثة طوابق إلى أربعة للأغراض التجارية - السكنية . ثم أقيم سوق مؤقت للخضار والفواكه واللحوم إلى الجنوب قليلاً من هذا الشارع الرئيسي ، واعتبر جزء من منطقة الأعمال المركزية .



(اعتمادا على مصادر دائرة التخطيط)

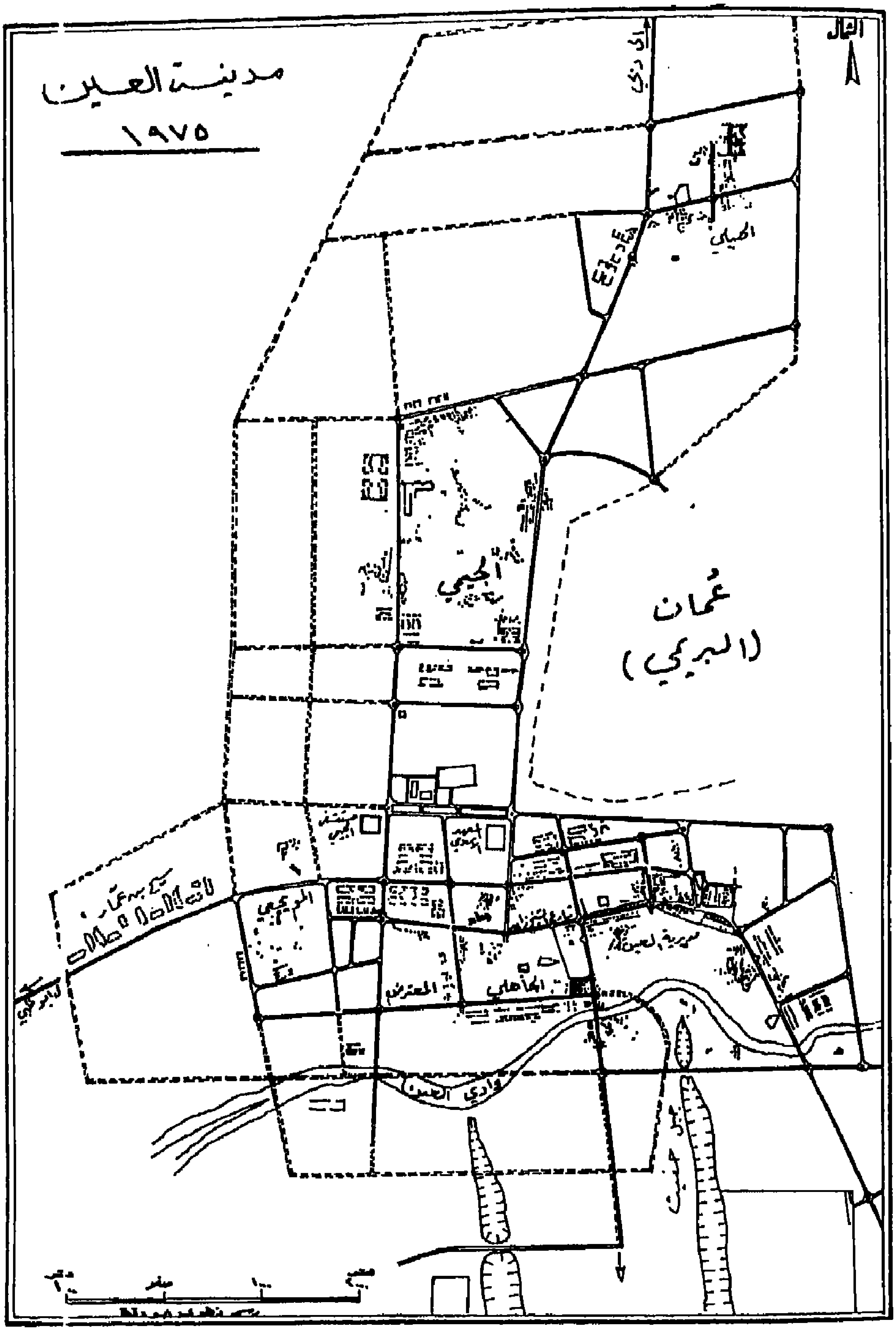
شكل رقم (٧)

وهكذا مع حلول عام ١٩٧٤ (عندما استلمت دائرة بلدية العين وتخطيط المدن قضايا تخطيط المدينة بدلاً من دائرة تخطيط مدينة أبوظبي) كانت نواة المدينة قد ثبتت وتم ربط الأحياء السكنية (القرى السابقة) بهذه النواة مع بعضها البعض بطريق جيدة - كما أقيمت نواة «للمنطقة الصناعية» عند الأطراف الجنوبية لحدود المدينة . وبذلك أصبح المخطط العام للمدينة يتألف من شارعين رئيسيين يمتدان من الجنوب إلى الشمال (حيث يلتقيان بطريق دبي - العين) ومن ثلاثة شوارع شبه متوازية ، تمتد من الشرق إلى الغرب (حيث يرتبط أطولها بطريق العين - أبوظبي) . وقد ربطت هذه الشوارع بشوارع أخرى متعامدة معها (وحيث شكلت نقاط التقاطع دوائر خضراء كبيرة تفصل حركات المرور عبر نقاط التقاطع) . ولذلك يمكننا أن نعتبر المخطط العام للمدينة بأنه قريب من المخطط «الشطرنجي» (مع وجود ثغرة في الجانب الشرقي منه) شكل رقم - ٨ .

(ب) مرحلة الشباب (٧٤ - ٨١/ ١٩٨٢) :

لقد كان النمو العمراني في مدينة العين مركزاً خلال المرحلة السابقة على المساكن «الشعبية» للمواطنين وتزويدها بالمرافق والخدمات العامة الضرورية للسكان - خاصة في المناطق التي كانوا يقيمون فيها من قبل . ولكن مع تضاعف دخل الدولة من ارتفاع أسعار النفط بعد عام ١٩٧٣ ، أخذت المدينة تشهد توسعاً عمرانياً كبيراً في كثير من أنواع العمران . فكما ذكرنا من قبل ، لقد تضاعف عدد سكان المدينة حوالي أربعة أضعاف ما بين عامي ٦٨ - ١٩٧٥ . وقد انعكس ذلك على عدد المباني التي أنشئت في هذه الفترة . فقد أنشيء في مدينة العين ما بين عامي ٦٠ - ١٩٧٠ حوالي (٣٤٨) مسكناً شعبياً ، ولكن هذا العدد تضاعف أيضاً بحوالي أربعة أضعاف ما بين عامي ٧١ - ١٩٧٧ ، حيث وصل عدد المساكن الشعبية التي أقيمت إلى حوالي (١,٢٣٤) مسكناً[١٤] .

أما التوسع في المساكن الخاصة (الفيلات) فقد كان بطيئاً خلال هذه المرحلة ، فقد أقيم ما بين عامي ٧٠ - ١٩٧٧ حوالي (٣٠٠) فيلا - أجّر منها حوالي (٩٩) فيلا[١٥] . ومع افتتاح جامعة الإمارات في هذه المدينة في عام



مدينة العين
١٩٧٥
الشمال
الجيمي
عُمان
(البريمي)
المويجعي
الجاهلي
المعترض
وادي العين

شكل رقم (٨)

١٩٧٧ ، أخذت المدينة تشهد نهضة عمرانية جديدة - تساير الوظيفة الجديدة التي أدخلت على هذه المدينة . فازداد الطلب على الفيلات والشقق لتسكين أساتذة الجامعة وموظفيها ، وإقامة مساكن خاصة لسكن كل من الطالبات والطلاب . فمع حلول عام ١٩٨٠ تضاعف عدد الفيلات السكنية بأكثر من ثلاث مرات - إذ وصل إلى حوالي (٩٥٣) فيلا - وارتفع عدد العمارات إلى (٣١٠) عمارة[١٦] .

وازاء التزايد في هجرة المواطنين إلى المدينة ، ازدادت أيضاً طلبات المواطنين للحصول على مساكن شعبية ، مما دفع دائرة التخطيط إلى إنشاء أحياء سكنية جديدة ، مثل شعبيات المقام ، والمرخانية وشعبيات زاخرة ، والنياذات والصاروج وغيرها (شكل رقم - ٩) . وبالطبع فقد تبع ذلك شق شوارع ثانوية وفرعية لربط هذه الأحياء الجديدة بالشوارع الرئيسية ونواة المدينة .

ولذلك فقد أخذ المخطط الجديد للمدينة ينتشر بشكل أفقي نحو الأطراف الغربية والجنوبية الشرقية والشمالية الغربية ، ومحتفظاً بشكله الشطرنجي السابق . وقد حاولت دائرة تخطيط مدينة العين تعبئة الأراضى غير المتطورة بين تلك الأحياء السكنية بمبان للخدمات والمرافق العامة ، والبعض منها أقيمت عليه حدائق عامة للسكان . ومع نمو الجامعة في أوائل الثمانينات ، أخذت تظهر أبنية جديدة تخدم الجامعة وطلابها ، مثل مساكن للطالبات وأخرى للطلاب ، ومراكز - لدمات وعلاقات عامة ومكتبات ومستودعات وفيلات خاصة لإقامة أساتذة الجامعة - خاصة المائة فيلا التي أقيمت في منطقة المرخانية - على جانبي الطريق الجديد الذي يربط منطقة الجيمي بطريق العين - أبو ظبي . وقد ساعد هذا المحور الجديد على خلق مناطق سكنية جديدة - يمكن اعتبارها من الدرجة الأولى كما سيظهر فيما بعد .

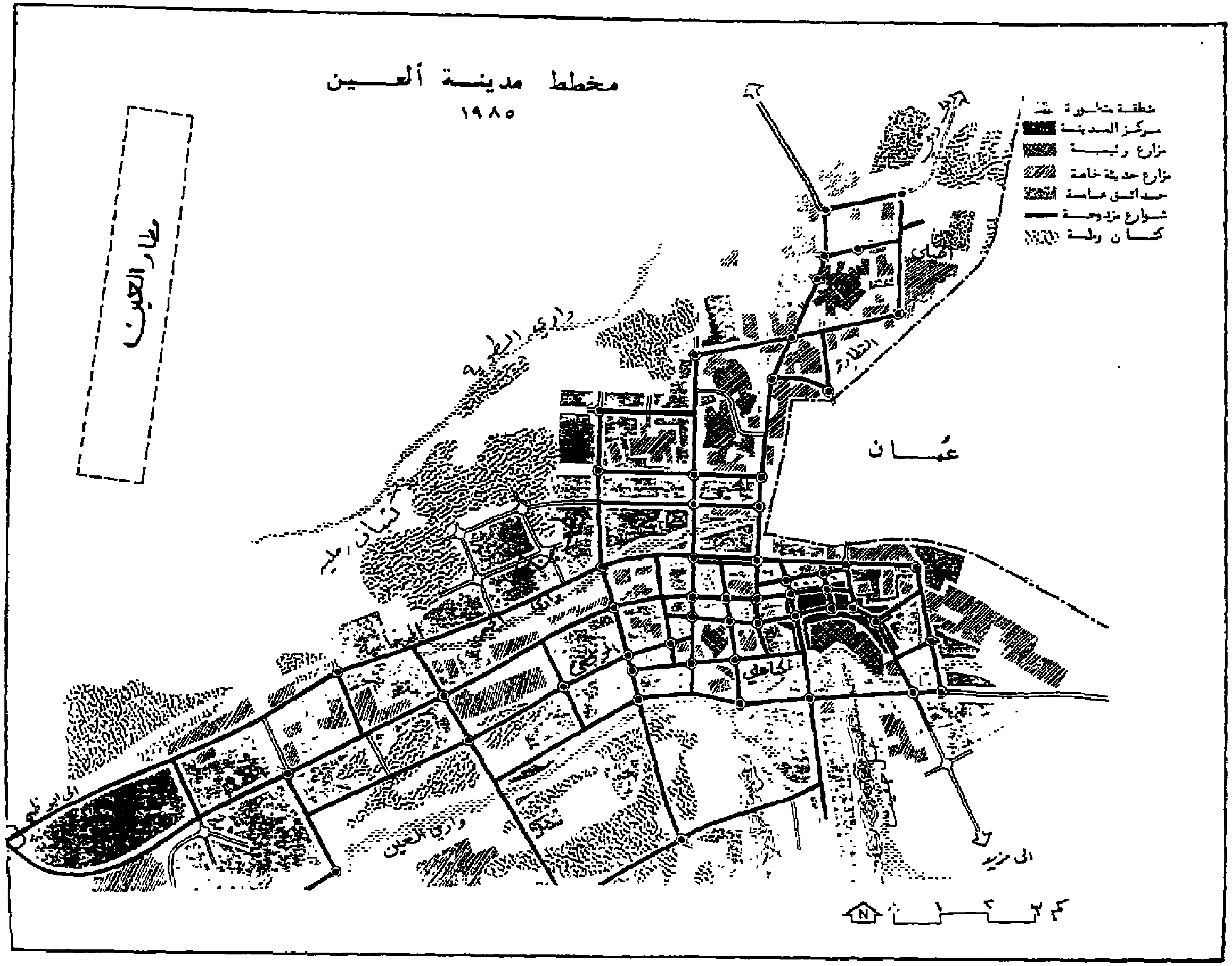
ومن الأمور أو التطورات التي حصلت خلال هذه الفترة أيضاً توجه بعض المواطنين إلى الاستثمار في إنشاء مبان سكنية - تجارية ، تتولى الإشراف عليها لجنة

خاصـة - تعـرف «بلجنـة الشيخ خليفـة للاستثمار» - فقد وزعت على بعض المواطنين قسائم أرض في مناطق معينة في المدينة لإنشاء وحدات سكنية ، من نوع «الفيلات المتـلاصقة / المتجاورة» (Duplexes) ، وعلى أن تسدد القروض التي يستلفها المواطنون من إيجارات هذه الفيلات في المستقبل . فقد كان في مدينة العـين في عام ١٩٧٧ حوالي (٧٧) مسكناً - تجارياً ، ولكن عددها ارتفع إلى حوالي (١٦٥) مسكناً في عام ١٩٨١ ، ومعظمها من طابقين[١٧] .

٣ - مرحلة النضج والتخطيط المنتظم : (٨٢ - ١٩٨٧)

نتيجة للتطورات السريعة التي شاهدتها المدينة خلال المرحلتين السابقتين ، فقد أخذت طلبات المواطنين تتزايد لإنشاء مساكن جديدة خاصة بهم - خاصة بعد تحسن أوضاعهم الاقتصادية في أوائل الثمانينات - إلا أن دائرة تخطيط مدينة العين لم تستطع استيعاب هذا الضغط ، وأخذت في بداية الأمر تعد مخططات آنية لا تراعي فيهـا الكثير من المباديء التخطيطية السليمة - سواء من حيث الشـوارع أو قضية ربـطها بمناطق العمرانالقائمة أو بمناطق العمل والأسواق والخـدمات . وبعد تفاقم الأوضاع في المدينة فقد اضطرت دائرة تخطيط مدينة العـين للاستعـانـة بإحدى شركات تخطيط المدن العالمية المشهورة (وهي شركة شاكلاند كوكس (Shakland Cox, Co.) . وقد كلفت هذه الشركة بدارسة تطور مدينة العين خلال العقدين السابقين ودراسة موارد المدينة ثم وضع «خطة شاملة» "The Master Plan" تنظم عمليات نمو المدينة حتى عام ٢٠٠٠م ، بحيث يحفظ للمدينة جمال منظرها ووظائفها الحالية ضمن العادات والتقاليد العربية الإسلامية .

وهكذا فقد قامت هذه الشركة بإجراء دراسات مفصلة لما يتطلبه مثل هذا العمـل (منـذ عام ١٩٨٢) مستعينـة ببعض الاستشـاريين المحليين لجمـع الإحصـائيات والمعلومات الضرورية عن سكان المدينة وعن توظيفهم ومهنهم والموارد الطبيعية المتوفرة في إقليم العين - خاصة ما يتعلق بالموارد المائية . وبعد تجميع كل هذه المعلومات وتحليلها ، تقدمت بخطتها الشاملة في عام ١٩٨٥ .


مخطط مدينة العين
١٩٨٥
مطار العين
منطقة متطورة
مركز المدينة
مزارع رئيسية
مزارع حديثة خاصة
حدائق عامة
شوارع مزدوجة
كثبان رملية
عُمان
وادي العين
الى مزيد
كم

شكل رقم (٩)

وبعد الموافقة عليه رسمياً من قبل دائرة تخطيط مدينة العين ومجلس بلديتها ، ارتبط تخطيط ونمو المدينة بهذه «الخطة الشاملة» إلى عام ٢٠٠٠ . وقد كان من أهم توصيات هذه الخطة ضرورة استغلال الفراغات الموجودة ضمن الحدود التي وضعت للمدينة ، وعدم السماح بالتوسع خارج تلك الحدود . (شكل رقم - ٩) .

مع ذلك فقد كان من أهم معالم النمو أو التغير خلال هذه الفترة هو «زحزحة» نواة المدينة بحوالي ثلاثة كيلومترات إلى الشمال الغربي من منطقة الأعمال المركزية السابقة . فبعد توسع المدينة ازدادات أعمال بلدية العين وبقية دوائر الحكومة ، مما دفع دائرة البلدية إلى إنشاء مبنى ضخم في منطقة تقع بين حييّ الجيمي والمعترض - وقد تم الانتقال إليه رسمياً في عام ١٩٨٤ ، حيث خصص الجزء الجنوبي من ذلك المبنى لدائرة تخطيط المدينة (بشكل مؤقت) - إلى أن يتم المبنى الخاص بتلك الدائرة إلى الجنوب قليلاً من مبنى البلدية . ولقد تبع هذا التشييد بناء عدة مبان أخرى حديثة بقية دوائر الحكومة إلى الغرب من مبنى البلدية - وبذلك فقد تم انتقال معظم دوائر الحكومة إلى هذا الموقع الجديد .

وقد لحقت بعض الأنشطة التجارية بهذا الموقع الجديد كافتتاح «سوق مركزي كبير» - من النوع الشامل (Dept. Store) ، كما أقيم مؤخراً سوق حديث مكيّف للخضار والفواكه واللحوم (يعرف بمركز المنطقة التجاري) وذلك إلى الغرب قليلاً من موقع دوائر الحكومة . ومما لا شك فيه أن أعداداً كبيرة من السكان (خاصة من ذوي الدخل المتوسط والعالي) سيتوجهون إلى هذه المراكز الجديدة وبذلك يخففون الضغط (أو العمل) عن منطقة الأعمال المركزية في وسط المدينة .

كذلك فقد انتقل قصر حاكم المنطقة الشرقية (قصر سمو الشيخ طحنون) بضعة كيلومترات إلى الغرب من موقعه السابق في وسط المدينة (وتحويل موقعه السابق إلى مصرف ضخم - مما يؤكد تمسك رجال الأعمال والتّجار بالنواة الأولى للمدينة) . كما أن دوائر المرور والتراخيص وفحص السيارات والسجن المركزي

قد انتقلت إلى الأطراف الجنوبية للمدينة - بالقرب من المنطقة الصناعية (إلا أن مديرية الشرطة ودائرة الكهرباء قد حافظتا على موقعهما السابقين في منطقة السليمي) .

ومن التطورات المهمة خلال هذه الفترة تزايد الطلب على بناء فيلات للمواطنين بالمقارنة إلى بناء المساكن الشعبية . فحتى عام ١٩٨٠ كان مجموع الفيلات التي شيّدت في مدينة العين قد وصل إلى حوالي (٩٥٣) فيلا ، ولكن بلغ مجموع الرخص التي منحتها دائرة التخطيط لإنشاء فيلات ما بين عامي ١٩٨١ - ١٩٨٥ حوالي (١,٢١٣) فيلا سكنية وحوالي (١٢٤) فيلا تجارية[١٨] . وقد أنشيء معظم هذه الفيلات على الأطراف الغربية من المدينة - كما سنبين فيما بعد .

وهكذا فقد أصبح شكل المدينة في الوقت الراهن قريباً من شكل المثلث المتساوي الساقين ، قاعدته تحاذي الحدود الشرقية للمدينة (مع وجود نتوء من سلطنة عمان متوغل فيها) ورأس المثلث عند مفترق طريق العين - أبوظبي . وبالطبع يتخلل هذا الامتداد أراض زراعية واسعة وعدة منتزهات عامة وبعض الأراضي غير المستغلة . مع ذلك يبقى المخطط العام للمدينة شبكياً (أو شبه شطرنجي) خاصة في القسمين الشرقي ووسط المدينة - حيث نجد أن معظم الشوارع الرئيسية تتعامد مع بعضها البعض - غير أن معظم نقاط التقاطع تتمثل بدوائر واسعة خضراء تبعد عن بعضها البعض بحوالي ٢ كيلومتر ، عدا في وسط المدينة حيث تكون المسافات أقل من ذلك . (راجع شكل رقم - ٩) .

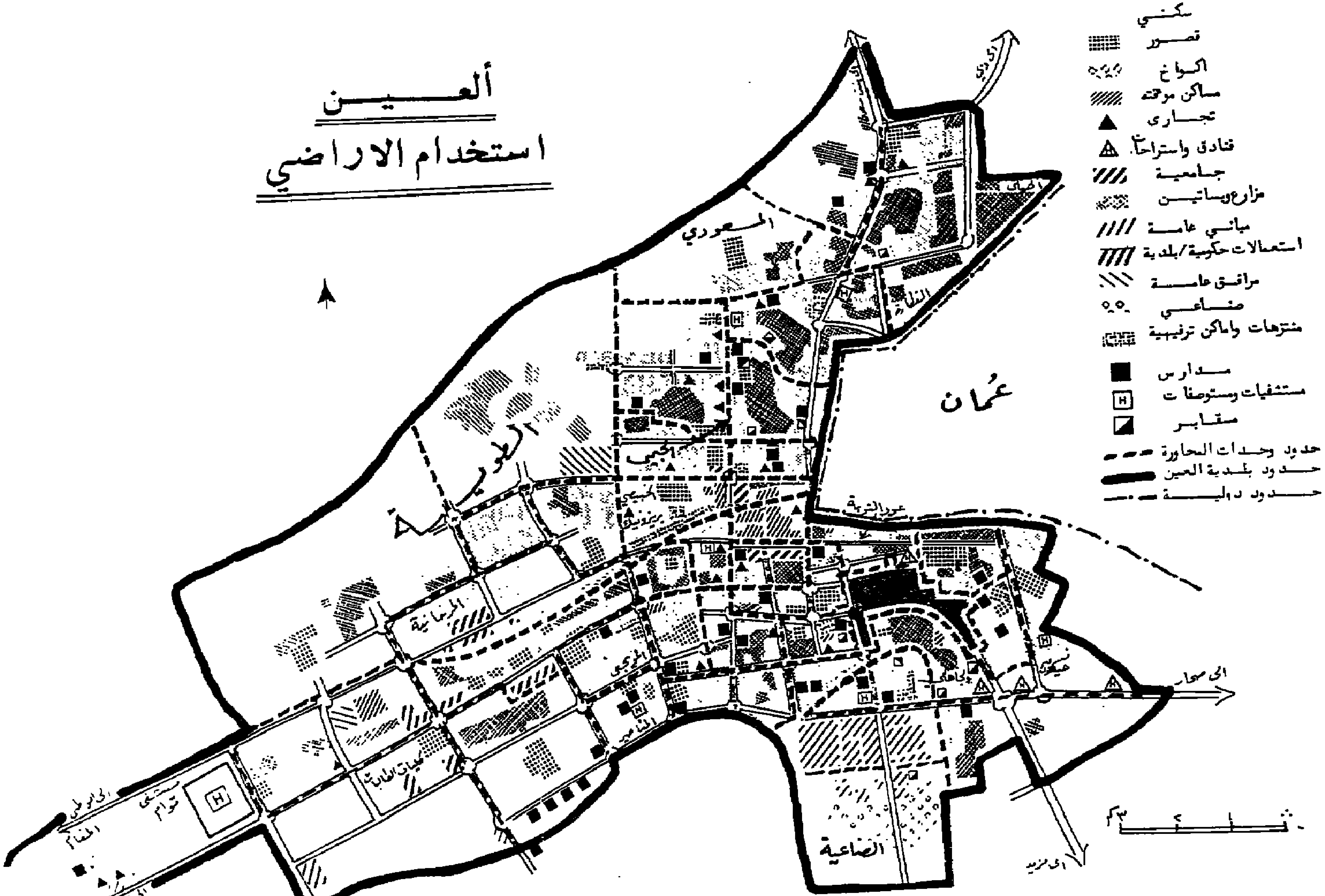
ثانياً : التركيب الداخلي وأنماط استخدام الأرض في مدينة العين : (شكل رقم - ١٠)

إذا حاولنا تحليل التركيب الداخلي لمدينة العين ومقارنته بإحدى نظريات تركيب المدن المعروفة في جغرافية المدن ، فإننا نجد أن هذه المدينة قد نمت بصورة «غير طبيعية» - خلافاً لمعظم المدن ، إذ أن التركيز الأولي لإجمالي بناء

مساكن للمواطنين بالقرب من أماكن إقامتهم السابقة أو من زارعهم . ولذلك فقد نشأت المدينة على شكل «نويات» حول هذه القرى ثم حاولت دوائر التخطيط ربطها بنواة إقامتها في مكان متطرف نوعاً ما - ولكنه يقع بالقرب من أكبر قرية آنذاك . وقد لعب عامل آخر في تركيب المدينة وهو ان معظم أراضي المدينة تعود لإمارة أبوظبي وهي التي تقوم بتوزيعها على المواطنين وتحدد نوع استخدام (استعمال) الأرض على تلك القسائم . (خاصة بعد أن دفعت الحكومة تعويضات سخية للمواطنين عن عقاراتهم السابقة) .

لذلك فقد خُططت تلك النواة لتشمل معظم دوائر الحكومة والمتاجر ومكاتب الشركات والأعمال - فأصبحت «منطقة الأعمال المركزية» في المدينة (Central - Business District) ثم تبع ذلك (أو صحبه) إنشاء العديد من المساكن (أغلبها من النوع الشعبي - المتشابه تقريباً) للمواطنين . ولم تراع السلطات المحلية إنشاء مناطق سكنية خاصة بالعمال أو صغار الموظفين (مع العلم أنها طلبت من المقاولين الذين يجلبون أعداداً كبيرة من العمال أن يبنوا لهم مساكن مؤقتة خارج حدود المدينة) . لكن سرعان ما ظهر العديد من العمال الوافدين الذين يعملون في منطقة الأعمال المركزية أو في دوائر الحكومة بدون أماكن لسكنهم ، مما ساعد بعض المواطنين على إجراء بعض التعديلات على مساكنهم الشعبية وتأجير قسم منها لهؤلاء العمال / الموظفين الصغار - في باديء الأمر . وبعد أن تزايد عدد مثل هذه الحالات وظهرت مشكلة اجتماعية في المدينة - وهي إقامة العديد من العمال الآسيويين بين المواطنين ، قامت دائرة التخطيط بإنشاء حوالي (١,٢٠٠) مسكن خاص لذوي الدخل المحدود من هؤلاء العمال الآسيويين ، وذلك عند الأطراف الغربية من المدينة ، بعيداً عن مساكن المواطنين وعن المنطقة الصناعية والمركزية .

كذلك فقد أقام بعض المواطنين الميسوري الحال فيلات كبيرة في «ضواحي» المدينة وذلك في أوائل الثمانينات ، ولكن مع نمو المدينة زحفت مناطق المساكن الشعبية إلى هذه الضواحي وأحاطت بمناطق الفيلات (مساكن من الدرجة


ألعين
استخدام الاراضي
سكني
قصور
اكواخ
مساكن موقتة
تجارى
فنادق واستراحات
جامعية
مزارع وبساتين
مباني عامة
استعمالات حكومية/بلدية
مرافق عامة
صناعي
منتزهات واماكن ترفيهية
مدارس
مستشفيات ومستوصفات
مقابر
حدود وحدات المجاورة
حدود بلدية العين
حدود دولية
عُمان
المعودي
الجيمي
المرباعية
الصناعية
مستشفى توام
الى صحار
الى مزيد

شكل رقم (١٠)

الأولى) ، فأصبحت تلك الضواحي أحياء جديدة ضمن حدود المدينة ذات مساكن مختلطة (خاصة في أحياء الجاهلي والمرخانية والخبيصي) . ثم عاود المواطنون الميسورو الحال فأخذوا يقيمون فيلات ضخمة خارج حدود هذه المناطق «المختلطة الاستعمالات» ، مما دفع دائرة تخطيط المدينة إلى وضع حدود ثابتة للمدينة لا يجوز البناء خارجها - في الوقت الراهن - أو إلى عام ٢٠٠٠م ، حسب توصيات الخطة الشاملة الموضوعة للمدينة . (شكل رقم - ١٠) .

هذا وقد كانت دائرة تخطيط مدينة أبوظبي قد أوصت - منذ نشأة المدينة - أن تخصص المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي من المدينة للأعمال الصناعية . فأصبحت «نواة» أخرى تجذب إليها العديد من الورش والصناعات ، فاتسع نطاقها وامتدت حالياً إلى مقدمة سفوح جبل حفيت . وقد أقام الكثير من أصحاب تلك الورش وعمالها في تلك المنطقة - لعدم توفر أماكن سكنية رخيصة قريبة من أماكن عملهم . ثم جاءت أعداد جديدة من الوافدين الآسيويين (خاصة من الباتان والبالوش) فأقامت «أكواخاً» لهم خارج حدود هذه المنطقة الصناعية وفي موقع جبلي معزول نسبياً .

كما أن لتدخل السلطات المحلية في نقل معظم دوائر الحكومة إلى موقع آخر خارج منطقة الأعمال المركزية قد ساعد على خلق «نواة» جديدة للأعمال الإدارية والرسمية - مع دفع بعض الأنشطة التجارية في ذلك الاتجاه (والتي يمكن اعتبارها تخدم ذوي الدخول المتوسطة والمرتفعة) . ويمكننا أن نضيف أن إنشاء مستشفى «توام» عند الأطراف الغربية للمدينة قد عمل على جذب استغلال معين إلى تلك المنطقة وهو إقامة فيلات متوسطة الحجم لإسكان أطباء المستشفى وبعض الإداريين الكبار العاملين فيه .

وهكذا فإن مثل هذه العوامل قد ساعدت على جعل نموذج تركيب مدينة العين قريباً كثيراً من نموذج «النويات المتعددة» (أو ما يعرف بنظرية العالمين أولمان وهاريس) ، وسيظهر ذلك بشكل أوضح عند دراستنا لأهم خصائص أنماط

استخدام الأراضي في مدينة العين وما طرأ عليها من تغيرات منذ عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٨٧ ، حسب توفر المعلومات . ومما تجدر الإشارة إليه قبل تحليل أنماط استخدام الأراضي في المدينة أن هناك مزارع عديدة تقع ضمن حدود المدينة ، وقد أصاب العديد منها التغير من حيث نوع الاستغلال الزراعي أو الإسلوب المتبع في الزراعة . ولذلك سوف لا نتعرض لخصائص تلك المزارع أو ما طرأ عليها من تغير -ما لم يؤثر ذلك على الاستغلالات الأخرى القريبة منها- مع العلم أنه لا يجوز قطع الأشجار المثمرة من أجل التوسعات العمرانية في هذه المدينة ، بل على العكس من ذلك فإن السلطات المحلية تشجع المواطنين على غرس الأشجار المثمرة حول مساكنهم أو على الأراضي الزراعية الجديدة التي يستصلحونها .

أنماط استخدام الأراضي في مدينة العين : (راجع شكل رقم - ١٠)

لقد كانت مساحة المدينة صغيرة جداً في الستينات من هذا القرن ، ولكنها قاربت من حوالي (٤٠) كم٢ في أواسط السبعينات ، ثم عاودت التوسع في أواسط الثمانينات ، حيث تضاعفت مساحتها بحوالي أربعة أضعاف لتصل إلى حوالي (١٣٣) كم٢ .[١٩] .

وقد كانت مساحات استخدام الإراضي ونسبها في عام ١٩٨٤ كما يظهر من جدول رقم - ٣ :

جدول رقم - ٣
أنواع استخدام الأراضي ومساحاتها ونسبها المئوية
في مدينة العين
(في عام ١٩٨٤)(*)

الاستعمال	المساحة (هكتار)	النسبة المئوية من مساحة الأراضي المتطورة
١ - مركز المدينة (تجاري واستعمالات متنوعة)	١٢٦	١,٠
٢ - سكـنى	٣,٣٨٩	٢٥,٥
٣ - صناعي	٢٤٥	٢,٠
٤ - بنايات عامة ومجتمعية	١٩٢	١,٥
٥ - «المدينة الجامعية» (الموقع)	١,٢٥٠	٩,٥
٦ - مناطق مفتوحة وترفيهية(١)	٢٧٠	٢,٠
٧ - خدمات مجتمعية	٥١٩	٤,٠
٨ - زراعة وغابات (أحراش)	٤,٩٩٨	٣٧,٥
٩ - استعمالات أخرى (عدا الأراضي الخالية)	٢,٢٨٩	١٧,٠
المجموع	١٣,٢٧٨ (=١٣٣كم٢)	١٠٠,٠

(*) المصدر : الخطة الشاملة لمدينة العين - ١٩٨٥ .

(١) بما في ذلك حديقة الحيوانات ومدينة الملاهي والملاعب الرياضية .

فنلاحظ من جدول رقم - ٣ ، أن مساحة منطقة الأعمال المركزية مازالت صغـيرة ، لا تزيد عن واحـد في المائة (بالمقارنة مع حوالي ٨,٥ في المائة لمدينة أبوظبي ، وحوالي ٤ في المائة لمدينة دبي)(٢٠) ، مما يدل على حداثة هذه النواة بعد . وعلى الجانب الآخر ، نجد أن مساحة الأراضي الزراعية والغابية تحتل أكثر من ثلث المساحة المتطورة في المدينة ، وهذا يدل على أهمية الزراعة في هذه المدينة ،

فهي تشكل مورد رزق لكثير من مواطني هذه المدينة - وقلما نجد مثل هذا الاهتمام في الزراعة في المدن الحديثة في العالم - ما لم تكن مدن واحات سابقة .

وتأتي بعد مساحة الأراضي الزراعية في الأهمية ، مساحة الأراضي المخصصة للسكن ، والتي تمثل حوالي ربع مساحة الأراضي المتطورة في المدينة (وهذه النسبة قريبة من مثيلاتها في كل من مدينتي أبوظبي ودبي ، إلا أن ذلك أقل مما هو عليه الحال لمتوسط المدن الأمريكية)[٢١] . كذلك فإننا نلاحظ أن المساحة المخصصة لموقع «المدينة الجامعية» تحتل المرتبة الثالثة بين الاستعمالات المختلفة في المدينة . ولا شك أنه بعد بناء هذه الجامعة الكبيرة سيزيد من أهمية هذه الوظيفة للمدينة ، وسيظهر عندئذ تأثيرها على استغلال الأراضي حولها - أكثر مما هو عليه الحال في الوقت الراهن نظراً لعدم تجمع مباني كليات الجامعة في موقع واحد .

وسنحاول في الصفحات التالية إعطاء تحليل موجز لأهم هذه الاستعمالات في مدينة العين .

(١) الاستعمالات التجارية :

يمكننا أن نميز ثلاثة أنماط من الاستعمالات التجارية في المدينة ، وهي :

(أ) منطقة الأعمال المركزية Central Business District أو (C.B.D.) .

تعرف هذه المنطقة عادة «بقلب المدينة» حيث تتركز معظم محلات تجارة الجملة والتجزئة ، بالإضافة إلى العديد من مكاتب الشركات المتنوعة الاختصاصات والأعمال ، والمصارف والمطاعم المشهورة والمسارح والنوادي ، وغير ذلك من الأنشطة الحضرية الهامة . وان أول مشكلة تجابه الجغرافي أثناء دراسته لتركيب المدينة هي قضية وضع حدود لهذه المنطقة . فقد قامت عدة دراسات حول هذه المشكلة ، كانت تعتمد في البداية على دراسة نظرية لخرائط استعمالات الأراضي في «قلب» المدينة ، ثم محاولة وضع حدود للمناطق التي تسود فيها محلات تجارة الجملة والتجزئة والمناطق التي لا توجد فيها مثل تلك التخصصات -أو المناطق التي يتوقف عندها ذلك النشاط التجاري[٢٢] . إلا أن

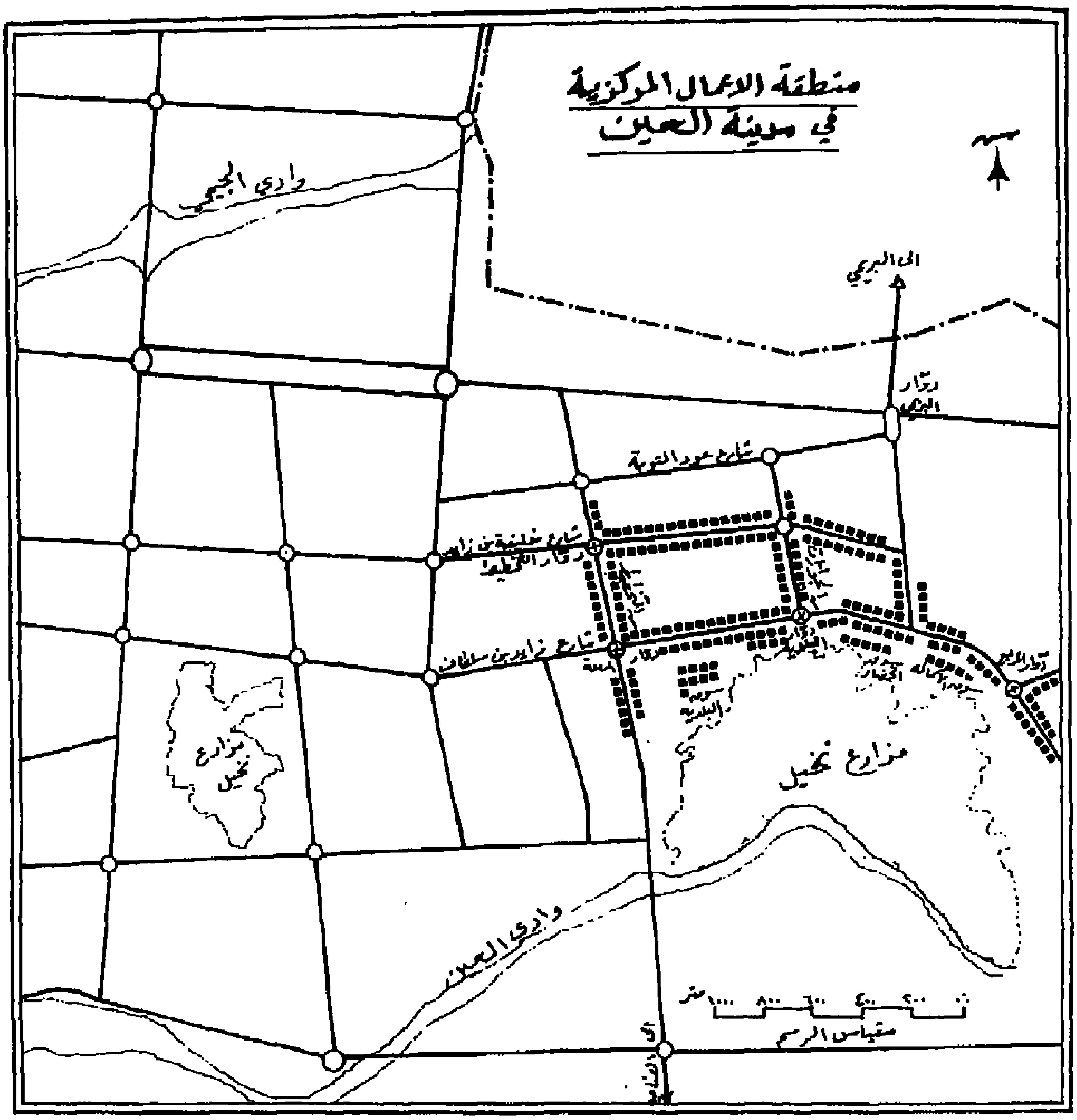
عامل التغير كان يلعب دوره كثيراً في التركيب الداخلي للمدن - خاصة الكبيرة منها - فتأخذ المحلات التجارية «بالزحف» نحو الأطراف ، معتدية على مناطق الاستعمالات الأخرى .

وقد أضاف ظهور العمارات المتعددة الطوابق في مركز المدينة أبعاداً جديدة ، إذ لم يُعرف فيما إذا كان من الضروري على الجغرافي أن يقوم بتصنيف استعمالات الأراضي على مستوى «الشارع» (أي الطابق الأول من العمارة) أم يأخذ بعين الاعتبار التخصصات الأخرى الموجودة على المستوى الشاقولي . وقد استعمل بعض الباحثين أسعار الأراضي ضمن الجزء الأوسط من المدينة لتحديد نواة المدينة ، والبعض الآخر استعمل الإيجارات المرتفعة للمحلات التجارية (أو لوحدة المساحة على الشوارع الرئيسية) ، أو عن طريق استبعاد الاستخدامات الأخرى التي لا يمكن عادة أن تتوطن في قلب المدينة (لوجود عوامل طرد معينة) . ومن أشهر الدراسات في هذا الخصوص ، الدراسات التي قام بها الباحثان «ميرفي وفانس» (Murphy & Vance) [٢٢] -اللذان اعتمدا على مؤشرات خاصة تربط بين مساحة الاستخدام وارتفاع البنايات ، أو مساحة الاستخدام ومساحة «البلوك» في المنطقة المركزية ، وغير ذلك من المؤشرات .

وقد لا تكون قضية تحديد منطقة الأعمال المركزية (C.B.D.) في مدينة العين تحتاج إلى كل هذا التعقيد - خاصة وإن الإحصائيات التي تحتاجها دراسةمثل دراسة «ميرفي وفانس» ، مثلاً ، غير متوفرة عندنا بعد ، كما أن كثيراً من الإحصائيات ما زالت غير متوفرة على مستوى «المخفر» أو المنطقة الإحصائية لمدينة العين (بما في ذلك الكثافة السكانية) . إلا أن دائرة تخطيط مدينة العين قد ساعدتنا من جهة أخرى إذ أنها حددت ارتفاع المباني داخل «نواة» المدينة بثلاثة طوابق أو أربعة فقط . أما في المناطق السكنية فلا يجوز أن تكون المباني أكثر من طابقين (عدا مساكن طالبات الجامعة ، التي تقع عند أطراف المدينة) كما سنرى فيما بعد .

وبناء على ذلك فإن منطقة الأعمال المركزية في العين تمتد من شارع التخطيط غرباً إلى دوّار المربع وطريق فندق «هيلتون» شرقاً ، ومن شارع الشيخ خليفة شمالاً إلى سوقي البلدية والخضار / اللحوم من جهة الجنوب . (شكل رقم - ١١) فهي إذن تتألف من محورين رئيسيين : الأول هو شارع الشيخ زايد والآخر شارع الشيخ خليفة ، ويتبع لهذه المنطقة الشوارع الثانوية التي تتعامد معهما ، وهي الشوارع التي تعتبر امتداداً حديثاً لهذه المنطقة . فالبنايات التي أقيمت على جانبي شارع الشيخ زايد قديمة - خاصة التي تقع ما بين دوّاري الساعة والمربع - حيث نجد أن معظمها مؤلف من بنايات ذات طابقين ونصف (أو ما يعرف بالمازانين - أو المخزن) أو ثلاثة طوابق . بينما البنايات التي تقع على جانبي شارع الشيخ خليفة وشارع التخطيط فهي أحدث ، ومعظمها مؤلف من أربعة طوابق ، حيث نجد الطابق الأول تجاري ، والثاني وأحياناً الثالث مكاتب لشركات ، أما الطابق الرابع فهو عادة سكنى (لبعض كبار الموظفين في دوائر الحكومة أو الشركات) .

وتحتل تجارة الجملة المحلات التي تحيط بأطراف هذه المنطقة - خاصة بين دوّاري البلدية والمربع ، بينما تحتل العديد من محلات التجزئة الحديثة كلا جانبي شارعي الشيخ خليفة والتخطيط (وامتداده نحو المنطقة الصناعية) . وقلما نجد أيةصناعة خفيفة في هذه المنطقة أو عند أطرافها - سوى بعض مكاتب الطباعة والنشر - والتي تحتفظ بآلاتها في المنطقة الصناعي . ومن الصعب على هذه المنطقة أن تتوسع شمالاً أو غرباً نظراً لمجاورتها لمناطق سكنية - شعبية ، حيث لا يسمح فيها بتأجير تلك المساكن للأعمال التجارية ، أو مستودعات (كما نجد في بقية المدن عادة) . كما أن التوسع جنوباً غير ممكن بسبب وجود «واحة العين» - عدا عند أطرافها الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية . وهذا ما دفع دوائر الحكومة إلى «هجرة» هذه النواة إلى «النواة الجديدة» ما بين الجيمي والمعترض - كما ذكرنا من قبل .


منطقة الأعمال المركزية
في مدينة العين
وادي الجيمي
إلى البريمي
شارع زايد بن سلطان
مزارع نخيل
مزارع نخيل
وادي العين
مقياس الرسم

شكل رقم (١١)

(ب) المناطق التجارية الثانوية :

تقع هذه المناطق خارج حدود منطقة الأعمال المركزية . فهناك بعض الأحياء السكنية في المدينة بنيت على أساس «وحدات المجاورة» وقد زودت ببعض المحلات التجارية - على هيئة أسواق محلية - لتلبية احتياجات السكان الآنية (كالبقاليات والمطاعم البسيطة والمخابز ، ومحلات الخياطة وبيع لوازم طلبة المدارس ، ومحلات بيع بعض الأدوات المنزلية / الكهربائية البسيطة) . ونجد مثل هذه التجمعات في أحياء الجيمي والمعترض والجاهلي والمقام . وقد استفادت بعض هذه المناطق من «السابلة» التي تقف عند هذه المحلات وتشتري منها لوازمها قبل مغادرتها لمدينة العين - خاصة المحلات التي تقع عند الأطراف الشمالية والأطراف الغربية للمدينة . ولقد أوصت «الخطة الشاملة» للمدينة بتزويد كل حي «بسوق محلي» وذلك من أجل تخفيف الضغط عن منطقة الأعمال المركزية .

(ج) الأسواق المتخصصة :

في نفس الوقت الذي أخذت فيه دوائر الحكومة «تهجر» النواة القديمة (المركزية) سُمح بإنشاء سوق «مؤقت» لبيع الخضار والفواكه بالتجزئة والجملة إلى الغرب قليلاً من «النواة» الجديدة للمدينة - أي في منطقة الخبيصي (أو الطوية) . وقد أخذ هذا السوق يخدم معظم سكان الأحياء الشمالية والغربية من المدينة . وإن الاستعدادات جارية حالياً لافتتاح سوق اخر (أو بديل) على نمط حديث - يبعد حوالي ٦٠٠ متر إلى الشمال من «سوق الجملة» - والذي سيدعى «سوق المنطقة» ، وسيحوي محلات لبيع الخضار والفواكه واللحوم ، وسيحوى أيضاً بعض البقاليات ، ومحلات لبيع المرطبات والمياه المعبأة والقرطاسية . هذا وكان قد أنشيء إلى الجنوب قليلاً من «سوق الجملة» مركز تجاري من النوع الضخم ذي الطراز الأوروبي / الأمريكي (Dept. Stores) ، يدعي «مركز بريزونيك الأهلية» . وهو محاط بساحات واسعة لاصطفاف سيارات المترددين ، وأخذ يجذب إليه شريحة معينة من المجتمع - يمكن اعتبارها من ذوي الدخل المتوسط والمرتفع .

وبالإضافة إلى هذه «الأسواق» فقد أخذت الجمعية التعاونية لمدينة العين تفتتح لها فروعاً جديدة في بعض أحياء المدينة - خاصة تلك التي تعرض الخضار المحلية ، وذلك لتخفيف الضغط عن مركزها الرئيسي في النواة القديمة للمدينة . كما يوجد للجمعية التعاونية سوق واسع يعرض سلعاً متنوعة ويقع هذا السوق تحت الجسر الذي يخترق وسط منطقة الأعمال المركزية ، وإن الجمعية على وشك افتتاح مركز آخر حديث على مقربة من الأول (ويتوقع أن يعرض سلعاً أخرى غير المعروضة في المركز الرئيسي) .

وان هذا التوسع التجاري في المدينة برز في السنوات العشر الأخيرة ، كما نلاحظ من مراجعة أعداد الرخص التي منحتها بلدية العين . ففي عام ١٩٧٥ كان في المدينة حوالي (٢,٢٠٥) محلاً تجارياً مرخصاً ، أما في عام ١٩٨٠ فقد تضاعف عدد الرخص التي منحتها بلدية العين حوالي ثلاثة أضعاف - إذ وصل العدد إلى (٣,٥٣٥) رخصة . وفي عام ١٩٨٥ عاد عدد الرخص فارتفع أكثر من (٣٨) في المائة - حيث وصل إلى (٤,٩٠١) رخصة[٢٤] . أي أن أعداد الرخص الممنوحة ما بين عامي ٧٥ - ١٩٨٥ قد تضاعف حوالي أربع مرات . ولا وشك أن هذا التوسع قد عكس التزايد الذي شاهدناه بالنسبة لازدياد أعداد سكان مدينة العين خلال هذه الفترة .

ومن تحليل أنواع تلك الرخص التجارية ، تبين أن حوالي (٤٣) في المائة من تلك الرخص كانت للحرف المهنية ، ثم جاء بعدها رخص المحلات التجارية (تجزئة) ، التي بلغت نسبتها حوالي (٢٨) في المائة ، ثم تلتها الرخص الممنوحة للمقاولين والمتعهدين ، والتي بلغت نسبتها حوالي (١٤) في المائة ، وجاء بعدها في المرتبة الرابعة تجارة الجملة ، التي بلغت نسبتها حوالي (١٢) في المائة . أي أن أعداد المحلات التجارية وحدها قد بلغ حوالي (١,٩٦٦) محلاً في عام ١٩٨٥ ، ويقع معظمها في منطقة الأعمال المركزية ، كما يتمركز حوالي (١٥) مصرفاً مختلفاً في هذه المنطقة والعديد من مكاتب المقاولين / الهندسة والشركات الأخرى . بينما نجد معظم محلات الحرف المهنية (عدا محلات تصليح الأدوات الكهربائية / الاليكترونية) تتوزع في المنطقة الصناعية جنوبي المدينة .

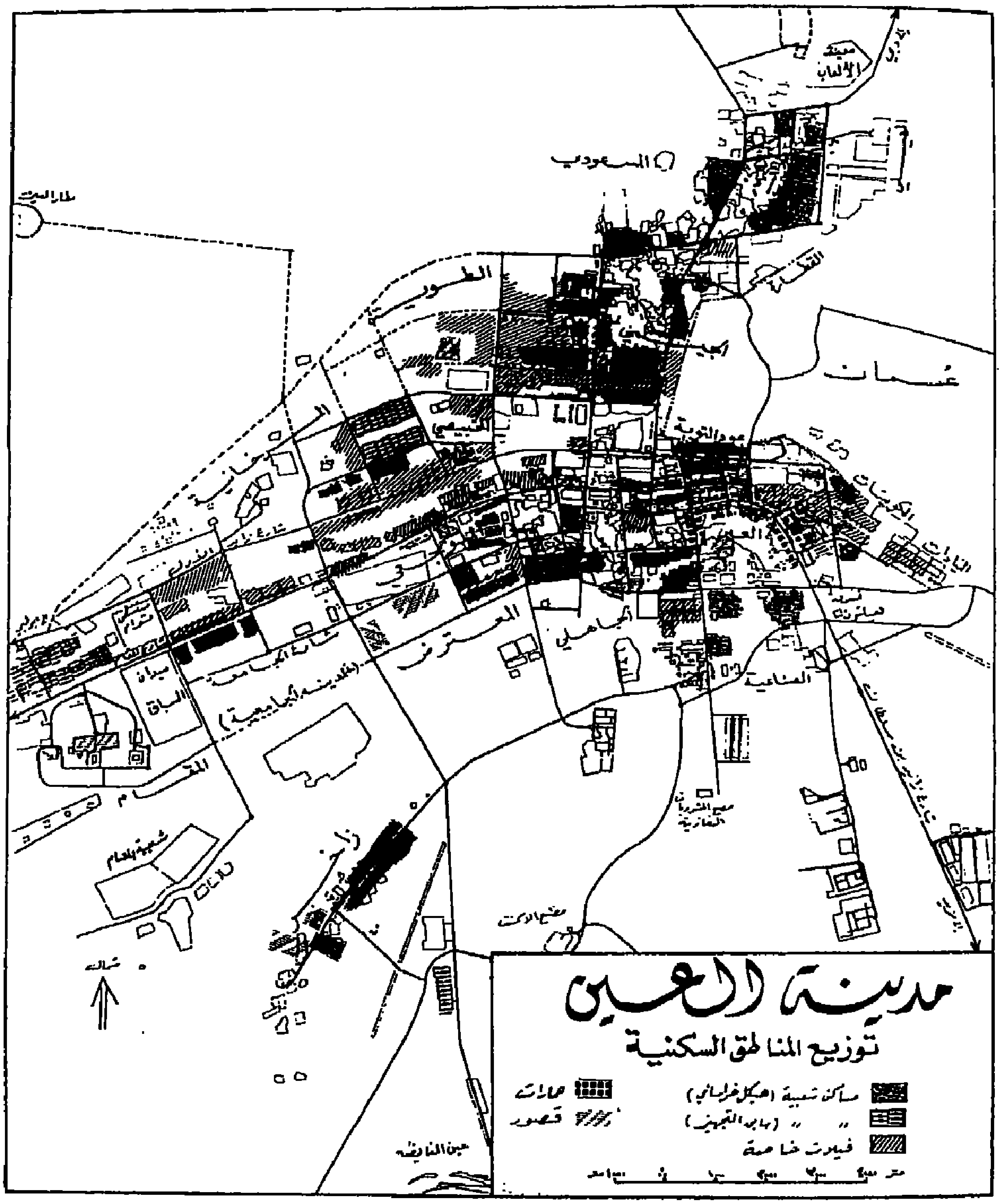
٢ - المناطق السكنية : (شكل رقم - ١٢)

تحتل المناطق السكنية حوالي ربع مساحة الأراضي المتطورة في مدينة العين ، ويشمل ذلك حوالي (١٥) ألف مبنى سكني وسكني - مع - عمل ، بني معظمها بعد عام ١٩٦٤[٢٥] . ويمكننا أن نميز في المدينة أربعة أنواع من المناطق السكنية وهي :

(أ) مناطق المساكن الشعبية ،
(ب) مناطق تحوي فيلات خاصة ،
(جـ)ب مناطق تحوي أماكن «استثمار خاص» ،
(د) عمارات سكنية - تجارية .

(أ) مناطق المساكن الشعبية :

يعرف «المسكن الشعبي» بأنه «المسكن الذي تم بناؤه على نفقة الحكومة وتم توزيعه على ذوي الدخل المحدود من المواطنين» . ولقد قامت بلدية العين بجهود جبارة لتحقيق المسكن المناسب لأعداد كبيرة من مواطني هذه المنطقة ، ابتدأت في مواقع «القرى» الأساسية في هذه المنطقة ، ثم امتدت الحركة إلى مناطق أخرى موزعة في أرجاء مختلفة من المدينة - حتى أن مشاهدة بيت قديم أصبح نادراً في هذه المدينة . ولذلك تعتبر المدينة حديثة بالكامل ، كما أن هندستها وتخطيطها قد جمعا بين العادات والتقاليد العربية / الإسلامية من جهة وبين التخطيط الحديث من جهة أخرى . فقد بني معظم مساكنها متصلاً بسور المسكن الآخر ، والبعض بني منفصلاً . لكن يحيط بكل مسكن سور مرتفع لكي يعطي المواطن الأمان والحرية الفردية ، كما جعل في كل مسكن مجلس خاص للرجال وآخر للنساء ، وتركت داخل الأسوار ساحة خاصة لحفظ بعض الحيوانات (ولكن تربيتها داخل المساكن أو خارجها قد منعت مؤخراً) - كما جعلت النوافذ التي تطل على الطرق مرتفعة ، ولكن معظمها صُمم ليطل على تلك الباحة - تمشياً مع التقاليد الإسلامية . وحيث تظهر المساكن متشابهة تقريباً من حيث هندسة البناء ، فقد قام كل مواطن بطلاء مدخل منزله بألوان مختلفة (لكي يتعرف الأولاد الصغار على مساكن ذويهم - أو لأنها عادة محلية) .



شكل رقم (١٢)

وقد بنيت معظم المساكن في السنوات العشر الأولى لهذه النهضة العمرانية من الطوب الأسمنتي والأسقف الأسمنتية المسلحة المستوية - ولكن بعد التزايد الكبير على طلب هذه المساكن أنشأت الدولة مصنعاً قريباً من المدينة لإنتاج «المساكن الجاهزة» (أو ما يعرف ببريفاب Prefab) ، والتي أقيم معظمها في الأحياء الحديثة من المدينة - مثل أحياء المقام والمرخانية وزاخر . وتتفاوت مساحة المسكن حسب حجم العائلة والمنطقة التي أقيمت فيها تلك المساكن ، وقد أخذت معظم تلك المساكن الأبعاد التالية :

٨٠ × ٨٠ قدماً

٨٠ × ٦٠ قدماً

٨٠ × ١٠٠ قدم (مضافاً إليها ٢٠ قدماً للكراج والحديقة)

٨٠ × ١٠٠ قدم سابق التجهيز (Prefab)

وقد كان تشييد هذه المساكن بطيئاً في الستينات وأوائل السبعينات ، ثم أخذت أعمال الإنشاء تتزايد بسرعة إلى أن وصلت أعداد المساكن الشعبية التي وزعت حوالي (٢,٠٧٣) مسكناً - وهو ما يعادل (١٦) في المائة من مجموع الوحدات السكنية الموجودة في مدينة العين - وذلك في عام ١٩٧٨ . ثم ارتفع عددها إلى حوالي (٤,٢٩٨) مسكناً في عام ١٩٨٠ - وهو ما يعادل (٢٤) في المائة من الوحدات السكنية . وفي عام ١٩٨٣ وصل عدد المساكن الشعبية الموزعة على المواطنين حوالي (٤,٩١٤) مسكناً (تعادل حوالي ٢٤,٥ في المائة من مجموع الوحدات السكنية في المدينة)[٢٦] . وبذلك تكون أعداد المساكن الشعبية الموزعة قد ازدادت حوالي (١٣٧) في المائة عن عام ١٩٧٨ . وفي عام ١٩٨٤ بلغ عدد المساكن الشعبية التي تم توزيعها على المواطنين حوالي (٤,٩٥٢) مسكناً - يضاف إلى ذلك حوالي (٩٠٠) مسكن كانت قد وزعت على الموظفين غير المواطنين (برسم التأجير)[٢٧] ، وقد كان توزيع تلك المساكن على مختلف أحياء المدينة متبايناً ويعكس مدى تركز المواطنين في تلك الأحياء ، وقد كان التوسع أيضاً في المناطق التي لا تحوي أراضي زراعية أكثر من الأخرى التي تحوي أراضي زراعية - أو التي تحوي مجالاً للتوسع الزراعي فيها في المستقبل ، كما يظهر من

جدول رقم - ٤ . فالأحياء الثمانية الأولى في الجدول تحوي أراضي زراعية مستغلة ، أما بقية الأحياء فإن الأراضي الزراعية قليلة أو معدومة فيها . (أنظر شكل رقم - ١٥) .

جدول رقم - ٤

توزيع المساكن الشعبية المنجزة والتي هي في دور الإنجاز على أحياء العين

(حتى عام ١٩٨٤)(*)

المنطقة	عدد المساكن	المنطقة	عدد المساكن
١ - القطارة	١٣٨	٩ - الهيلي	٤٥٠
٢ - المسعودي	١٩٠	١٠ - عود التوبة	٢٥٩
٣ - الجيمي	٤٤٩	١١ - الصاروج وشرقه	٣٨٦
٤ - المعترض	٢٦٢	١٢ - النيادات	٢٠٠
٥ - الجاهلي	١٩٦	١٣ - الكويتات	١٣٣
٦ - المويجعي	٣٧٥	١٤ - المقام	٨٤٤
٧ - العوهة	٦٠	١٥ - المرخانية	١٢٠٠
٨ - زاخر	٤٥٧	١٦ - البصرة	٢٥٩
		المجموع	٥٨٥٨

(*) المصدر : دائرة تخطيط مدينة العين - مارس ١٩٨٦ .

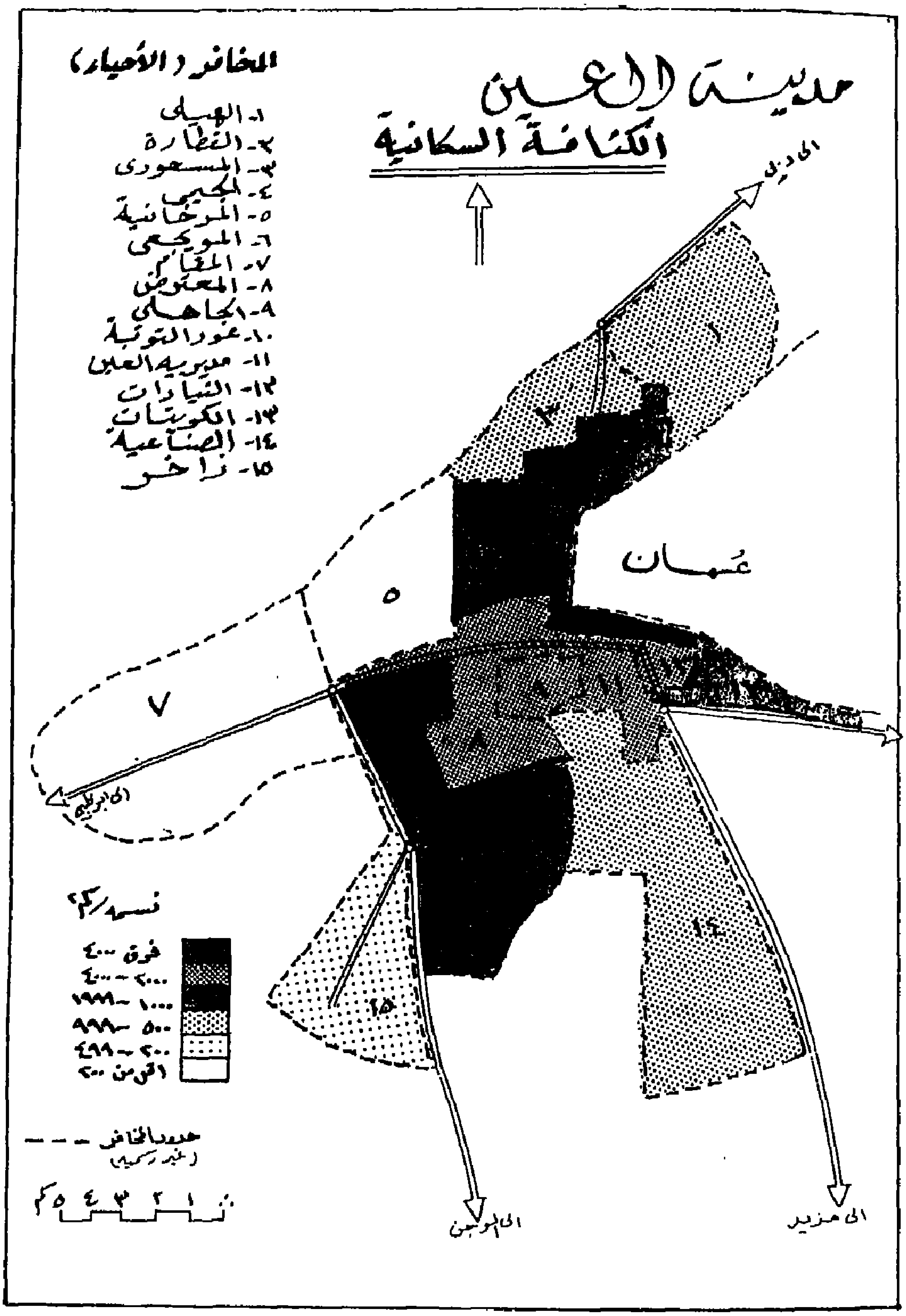
وحيث أن السلطات المحلية كانت تهتم في بداية الأمر بتوفير المسكن المناسب للمواطنين ، فإنها لم تخصص بعض المساكن لسكن صغار الموظفين الآسيويين العزّاب - الذين كانوا يطرقون مساكن بعض المواطنين لاستئجار غرف عندهم ، خاصة في الأحياء السكنية المحيطة بمنطقة الأعمال المركزية - وبعد أن أصبحت إقامة مثل هؤلاء المتسأجرين بين المواطنين تسبب مشاكل اجتماعية ، فقد عملت البلدية على توفير حي خاص بهم . وقد كان اختياره عند الأطراف الغربية للمدينة في حي المرخانية ، حيث أقامت لهم حوالي (١,٢٠٠) مسكن ، من

النـوع الجاهز التركيب (Prefab) والمصغر (أي الذي يحوي غرفة نوم وصالة) . ولكن قبـل الإنتهاء من المشروع (في عام ١٩٨٤) استطاع بعض المواطنين أن يحجـزوا لهم حوالي (٣٠٠) مسكن - بعـد إجـراء بعض التعديلات عليها . وبذلك فقد عادت نفس المشكلة إلى الظهور نوعاً ما ، وهي وجود أُسر مواطنة بين وافـدين آسيويين عزّاب . كما أنه سُمح مؤخراً بإنشاء بعض الفيلات على الجانب الآخر من ذلك الحي - بعد أن كان يُعتقد أن ذلك الحي سيبقى عند أطراف المدينة لمنع الاختلاط[٢٨] .

هذا وقد لوحظ مؤخراً ان هناك «هجرة» خارجية من منطقة عود التوبة من قبل الأسر المواطنة نظراً لأن أعداد الوافدين الآسيويين قد أخذت بالتزايد هناك ، فيخشى المواطنون تحول ذلك إلى مشاكل اجتماعية خطيرة . وقد أخذت دائرة تخطيط مدينـة العـين إعادة النظر في تخطيط هذا الحي لكي تعمل على تجميله وتحسين تخطيطه لتعيد المواطنين إليه[٢٩] ، فقد بلغت الكثافة السكانية في ذلك الحي معدلات عالية (فوق ٤,٠٠٠ نسمة / كم٢) ، كما يظهر من شكل رقم - ١٣ .

(٢) **الفيلات الخاصة :**

وهي المساكن التي يقوم المواطنون بتمويل بنائها بأنفسهم وحسب أذواقهم لكي يسكنوا فيها هم وأفراد عائلاتهم وذلك بعد تمكنهم من الحصول على إحدى القسائم الأرضية المسموح إقامة فيلات عليها . وعاد ما تكون هذه المساكن أكبر حجماً من المساكن الشعبية وأحسن تصميماً وتشييداً . وقد تكون ما تكون هذه المساكن أكبر حجماً من المساكن الشعبية وأحسن تصميماً وتشييداً . وقد تكون مبنية من الأسمنت أو الطابوق «الأبيض أو من الحجارة (الصخر) المستوردة . وان مساحاتها تختلف حسب حجم العائلة أو المنطقة التي ستقام عليها الفيلا . ففي المناطق الداخلية من المدينة ، عادة ما تكون المساحات صغيرة نسبياً . ولكن كلما ابتعدنا نحو أطراف المدينة تأخذ المساحات بالتزايد (البعض يزيد عن ١٠٠ × ١٠٠م) . وقد انتشرت هذه الظاهرة في بداية الأمر في مخفري الجيمي والجاهلي



مدينة العين
الكثافة السكانية
المخافر (الأحياء)
١- الهيلي
٢- القطارة
٣- المسعودي
٤- الجيمي
٥- المرخانية
٧- المقام
٨- المعترض
٩- الجاهلي
١٠- عود التوبة
١١- مديرية العين
١٣- الكويتات
١٤- الصناعية
١٥- زاخر
عُمان
نسمة/كم٢
أقل من ٢٠٠
حدود المخافر

شكل رقم (١٣)

بشكل خاص وذلك في أوائل السبعينات ، ثم أخذت هذه الظاهرة تمتد إلى المناطق الأخرى . ففي أواخر السبعينات أقيم حوالي (٥٠) فيلا في سيج إبن عمّار لإقامة أساتذة جامعة الإمارات وبعض الأطباء . كما أقيم عدد آخر في كل من حيي المعترض والنيادات لإقامة الموظفين الكبار في المدينة ، ومنذ عام ١٩٧٧ حتى عام ١٩٨٠ كان هناك حوالي (٩٥٣) فيلا سكنية في مدينة العين (بالمقارنة بحوالي ٣,٢٣٦ مسكناً شعبياً) . ولكن بلغ عدد الرخص التي منحتها بلدية العين لإنشاء الفيلات ما بين عامي ١٩٨١ إلى ١٩٨٥ حوالي (١,٢١٣) ترخيصاً ، أي بزيادة تقدر بحوالي (١٢٧) في المائة عن إعداد فيلات عام ١٩٨٠[٣٠] . وتعود أسباب هذا الازدياد إلى أن كثيراً من المواطنين قد استلموا تعويضات عن مساكنهم (أو عقاراتهم) السابقة وأصبحوا الآن في وضع مادي أفضل فأخذوا يقيمون فيلات بدلاً من المطالبة بمساكن شعبية . وقد انتشرت معظم تلك الفيلات عند الأطراف الغربية للمدينة (أحياء المرخانية والخبيصي - أو حي الطوية حالياً - وفي المقام) . وقد يكون من أهم المشاريع التي أقيمت بعد عام ١٩٨١ هو إنشاء حوالي ١٠٠ فيلا في منطقة المرخانية وذلك لإقامة أساتذة الجامعة ، بعد أن تزايد عددهم على اثر التوسعات الكبيرة التي حصلت في الجامعة منذ ذلك العام - كما ذكرنا من قبل .

كما أنشيء مؤخراً حوالي (٢٠٠) فيلا حديثة بالقرب من مستشفى توام (منطقة المقام) ، وكان من المقرر أن يقيم فيها أساتذة كلية الطب وطلابها ، ولكن بعد حصول ضائقة في سكن طلبة الجامعة ، تقرر تحويل معظم تلك الفيلات لإقامة الطلبة ، كما ترك جزء بسيط منها لإقامة بعض الأساتذة وموظفي الدولة . ولا شك أن هذا المشروع قد ساعد على توجيه نمو المدينة نحو الغرب أكثر من ذي قبل وبذلك يكون قد ربط «ضاحية شعبيات المقام» بمدينة العين وسد ذلك الفراغ الذي كان موجوداً من قبل . وهكذا يمكننا أن نعتبر أن معظم الفيلات التي تقع على جانبي شارع المرخانية - المقام هي من الدرجة الأولى . وقد أخذت تظهر مجموعات أخرى من الفيلات الحديثة (درجة أولى) على الجانب الغربي من

شارع الخبيصي ، وبالقرب من مركز اللغات - في حي الجاهلي . ويظهران المواطنين قد أخذوا يبتعدون عن المناطق الكثيفة بالسكان كي يستطيعوا الإقامة بالقرب من أماكن حفظ ماشيتهم (خاصة هجن السباق ، إذ صدر قرار من البلدية مؤخراً بمنع تربية الماشية بين الأحياء السكنية لمدينة العين) أو ليتمكنوا من الحصول على قسائم - أرض واسعة لإقامة فيلاتهم الضخمة .

(٣) مساكن «الاستثمار الخاص» :

لقد سُمح في أوائل الثمانينات من هذا القرن لبعض المواطنين باستلاف قروض من المصرف العقاري أو بقية المصارف الخاصة في الدولة أو - وهو الأعم - من «إدارة المباني التجارية» (لجنة الشيخ خليفة) من أجل إنشاء مساكن للإيجار - على أن يسدد القرض من الإيجار السنوي لهذه المساكن (أو العمارات) . وبالطبع تعود ملكية هذه العقارات إلى المالك بعد تسديد هذه القروض . ورغم أن بعض الفيلات الخاصة التي كانت قد أنشئت لسكن المواطنين قد تحولت إلى «فيلات للإيجار» ، إلا أن غالبية المساكن التي بنيت للإيجار هي من النوع «الفيلات المزدوجة» (Duplexes) ، والتي حددت لها مناطق معينة في المدينة . فأكبر مشروع من هذاالنوع يوجد في حي المناصير - حيث نجد أكثر من مائة فيلا من هذا النوع ، كما نجد عدداً آخر يقع في الجزء الغربي من حي الجيمي ، والبعض الآخر يقع في حي الجاهلي . وقد جرى تأجير معظم هذه الفيلات إلى موظفي الدولة أو إمارة أبو ظبي (بدلاً من استلام بدل سكن) .

ونجد أن الصفة الغالبة على هذا النوع من المباني هي أن قسائم الأرض تبقى صغيرة بالمقارنة بمساحات الفيلات الخاصة بالمواطنين (أو الفيلات المفصولة) ، إلا أن غالبيتها قد صممت وشيدت على أحسن النظم المتبعة في المنطقة ، وبذلك يمكن اعتبارها بانها من الدرجة الأولى أيضاً من حيث هندسة البناء والمواد المستعملة ، إلا أنه يمكن اعتبارها من الدرجة الثانية بالنسبة للموقع وللراحة العامة أو الحجم - عدا تلك التي تقع في غرب حي الجيمي ، إذ أن غالبيتها تحوي أكثر من ثلاث غرف وصالة .

لقد بلغ عدد الرخص التي صدرت عن بلدية العين للمباني التجارية ما بين عامي ٧٧ - ١٩٨٠ حوالي (١٣٢) مبنى[٣١] ، ولكن تضاعف عددها ما بين ١٩٨٠ - ١٩٨٥ (حيث وصل عدد الرخص إلى ٢٦٦ رخصة)[٣٢] .

(٤) عمارات تجارية - سكنية :

لقد بنيت عدة بنايات متعددة الطوابق في منطقة الأعمال المركزية - كما ذكرنا من قبل - حيث خصصت الطوابق الأرضية منها للأعمال التجارية ، بينما استغلت الطوابق العلوية مكاتب للشركات أو عيادات طبية ، أو اجّرت شقق سكنية . وكانت غالبية العمارات التي أنشئت في باديء الأمر مؤلفة من طابقين ونصف (بما في ذلك المازانين) إلى ثلاثة طوابق . ثم سمح فيها بعد ببناء عمارات مؤلفة من أربعة وخمسة طوابق . وقد بنيت المجموعة الأولى على جانبي شارع الشيخ زايد - ما بين دوّاري الساعة والمربع - أما البنايات الحديثة فقد أنشئت على جانبي شارع الشيخ خليفة وشارع التخطيط ، ثم امتدت هذه الظاهرة على جانبي الجزء الجنوبي من شارع الشيخ زايد - باتجاه فندق هيلتون . ويوجد في مدينة العين حوالي (٣١٠) عمارة ، منها حوالي (١٧٤) عمارة مؤلفة من ثلاثة طوابق ، وحوالي (١٢٤) تحوي أربعة طوابق ، وحوالي (١٠) تحوي خمسة طوابق ، كما بلغت أعدا د الشقق حوالي (٣,١٣٧) شقة[٣٣] .

فمنذ نشأة المدينة روعي المظهر العام للمدينة (General Landscaper) بحيث تكون الأبنية العالية مركّزة في وسط المدينة ، ثم يأخذ ارتفاع الأبنية بالإنحدار تدريجياً نحو أطراف المدينة - رغم أنه سمح مؤخراً ببناء فيلات من طابقين عند أطراف المدينة - عدا مساكن طالبات الجامعة التي بنيت من أربعة طوابق في الغالب . وكذلك الحال بالنسبة لكل من فندق «هيلتون» وفندق «انتركونتيتال العين» ، فقد بنيت بأكثرة من خمسة طوابق - لكن هذين الفندقين يقعان عند أطراف المدينة أيضاً ، ولا يؤثران على المظهر العام للمدينة .

٣ - المناطق الصناعية : (راجع شكل رقم - ١٠)

منذ أن وضع «التصور الأول» لمدينة العين ، روعيت قضيتا المظهر العام للمدينة ونظافتها . ولذلك فقد خصصت المنطقة التي تقع عند أقدام جبل حفيت «كمنطقة صناعية» . فهي تحوي جميع الورش وأعمال الميكانيكا والحدادة والسباكة والنجارة وما أشبه ذلك من الأعمال الحرفية التي قد تسبب «تلوثاً» للبيئة الحضرية في هذه المدينة . وقد أنشيء فيها فيها بعد معامل الطابوق والبلاط وما يسمى «بمعامل الألومونيوم» (التي تختص بعمل الأبواب والنوافذ المصنوعة من الألمونيوم المستورد) . كما أقيم إلى الجنوب من هذه المنطقة (ذات الصناعات الخفيفة أو الورش) مصنع للأسمنت وآخر للسماد . وحيث أن الرياح السائدة في هذه المنطقة هي الرياح الشمالية الغربية ، فإن هذا الاختيار لموقع المصنعين كان جيداً إذ أن هذه الرياح تحمل عناصر التلوث بعيداً عن المدينة .

وللأسف فإن معظم هذه المنطقة لم تصلها يد التخطيط بعد بشكل ينظم حركة المرور فيها أو قضية استخدام الأراضي داخلها . فمعظم المباني الموجودة فيها قد بنيت على أسس مؤقتة ودون مراعاة للتخصصات أو للصحة العامة - من حيث التمديدات الكهربائية والصحية - فتبدو وكأنها قد نمت بشكل عشوائي ، وتزايد عدد محلاتها مع تزايد نمو المدينة وازدهار حركة البناء والتشييد فيها . فهي تحوي الآن العديد من مكاتب شركات المقاولين وكراجات للشركات ولحافلات البلدية والجامعة والمياه الجوفية وغيرها من الدوائر الحكومية .

ففي عام ١٩٧٦ صدر عن بلدية العين (٢٩) ترخيصاً صناعياً ، ولكن سرعان ما أخذت أعداد الرخص تتزايد ، حيث وصل عددها عام ١٩٧٨ حوالي (٣٣٩) ترخيصاً ، وفي عام ١٩٨٣ تضاعف العدد حوالي ست مرات ، إذ وصل إلى حوالي (١,٩٣٥) ترخيصاً[٣٤] . ثم عاد العدد فازداد في عام ١٩٨٥ إلى أن وصل حوالي (٢,١٢٧) ترخيصاً - أي بزيادة تبلغ حوالي (٥٢٧) في المائة عن أعداد عام ١٩٧٨[٣٥] .

هذا ويمكننا أن نضيف إلى هذه المنطقة ، إنشاء ثلاثة مصانع أخرى حول المدينة : الأول معمل لإنتاج الألبان - ويبعد حوالي ١٥كم شمالي المدينة (على طريق العين - دبي) ويأتيه الحليب الخام من مزرعة أبقار مجاورة (تحوي حوالي ٢٠٠ بقرة حلوب) . ويسوّق معظم إنتاجه في أسواق مدينتي العين وأبوظبي . والمصنع الثاني هو معمل لإنتاج معجون الطماطم وتعليب الخضار . ويقع هذا المصنع على بعد ٢٠كم غرب مدينة العين (على طريق العين - أبوظبي) . وتأتي إليه الطماطم وبعض الخضراوات من المزارع العديدة الموجودة في إقليم مدينة العين . فهو يعمل بطاقة كاملة خلال فصل الشتاء - عندما تكثر الخضراوات في هذه المنطقة ، ويستغل خلال فصل الصيف لإنتاج المرطبات . وتسّوق منتوجاته في معظم أسواق الدولة نظراً لجودتها ورخصها النسبي .

أما المصنع الثالث فهو لإنتاج الطابوق الجيري وأنابيب المجاري الفخارية . وقد أنشيء هذا المعمل حوالي ١٥كم غربي مدينة العين أيضاً . وقد توطن هذا المعمل في هذا الموقع بسبب وجود تربة رملية ناعمة تصلح لعمل الطابوق والأنابيب ولوجود طلب كبير على مواد البناء هذه في منطقة العين وأبوظبي . (ويقع بالقرب من هذا المعمل مزرعة دواجن العين ، التي تنتج حوالي ٦١ مليون بيضة و٢,٢٠٠ مليون دجاجة سنوياً (يباع اللحم طازجاً في مدينتي العين وأبو ظبي ويذبح الدجاج على الطريقة الإسلامية في المسلخ الأوتوماتيكي الحديث الموجود في نفس المزرعة)[٣٦] .

٤ - دوائر الحكومة :

كما ذكرنا من قبل ، لقد أقيمت معظم الدوائر الأولى للحكومة في منطقة الأعمال المركزية - وبشكل خاص على جانبي شارع الشيخ زايد ما بين دوّاري الساعة والمربع . وفي أوائل السبعينات أنشئت مبان أخرى لمديرية الشرطة والكهرباء والماء في منطقة السلمي . كما احتلت دائرة تخطيط مدينة العين في عام ١٩٧٤ بناية تقع في الجزء الغربي من منطقة الأعمال المركزية . ولكن بعد نمو المدينة أخذت بلدية العين قراراً بإنشاء «نواة» جديدة تقع ما بين مخفري الجيمي

والمعترض لتحوي جميع دوائر الحكومة ولتكون قريبة من بعضها البعض وتسهل عمليات مراجعات المواطنين . فأقيم أولاً بناء ضخم لبلدية العين ودائرة تخطيط المدن (الذي افتتح رسمياً في عام ١٩٨٤) ، ثم أعقب ذلك إنشاء مبان أخرى لبقية دوائر الحكومة . وإننا نرى الآن أن معظم تلك الدوائر قد انتقل إلى هذا الموقع الجديد ، وبذلك بدأت تظهر هذه النواة مكان جذب جديد للعديد من الأنشطة المتعلقة بدوائر الحكومة . (راجع شكل رقم - ١٠) .

هذا وقد كان قصر حاكم المنطقة الشرقية لإمارة أبوظبي (سمو الشيخ طحنون) قد نقل إلى مكان آخر خارج منطقة الأعمال المركزية وأصبح موقعه بالقرب من قصر المقام (قصر صاحب السمو الشيخ زايد آل نهيان) . كما نقلت دائرة المرور والتراخيص للسيارات والسائقين إلى مبنى جديد يقع إلى الجنوب من حي المعترض - بعيداً عن المنطقة المركزية . ولم يبق في مركز المدينة سوى دائرة الجوازات والمهاجرة ، وهي تنتظر الإنتهاء من تشييد مبناها في «النواة الجديدة» بالقرب من بقية الدوائر .

٥ - مباني جامعة الامارات العربية : (شكل رقم - ١٤) :

يمكننا أن نقسم هذه المباني إلى ثلاث مجموعات رئيسية ، وهي :

(أ) مباني الإدارة والخدمات - (ب) مباني الكليات (ح) مباني مساكن الطلبة .

(أ) مباني الإدارة والخدمات :

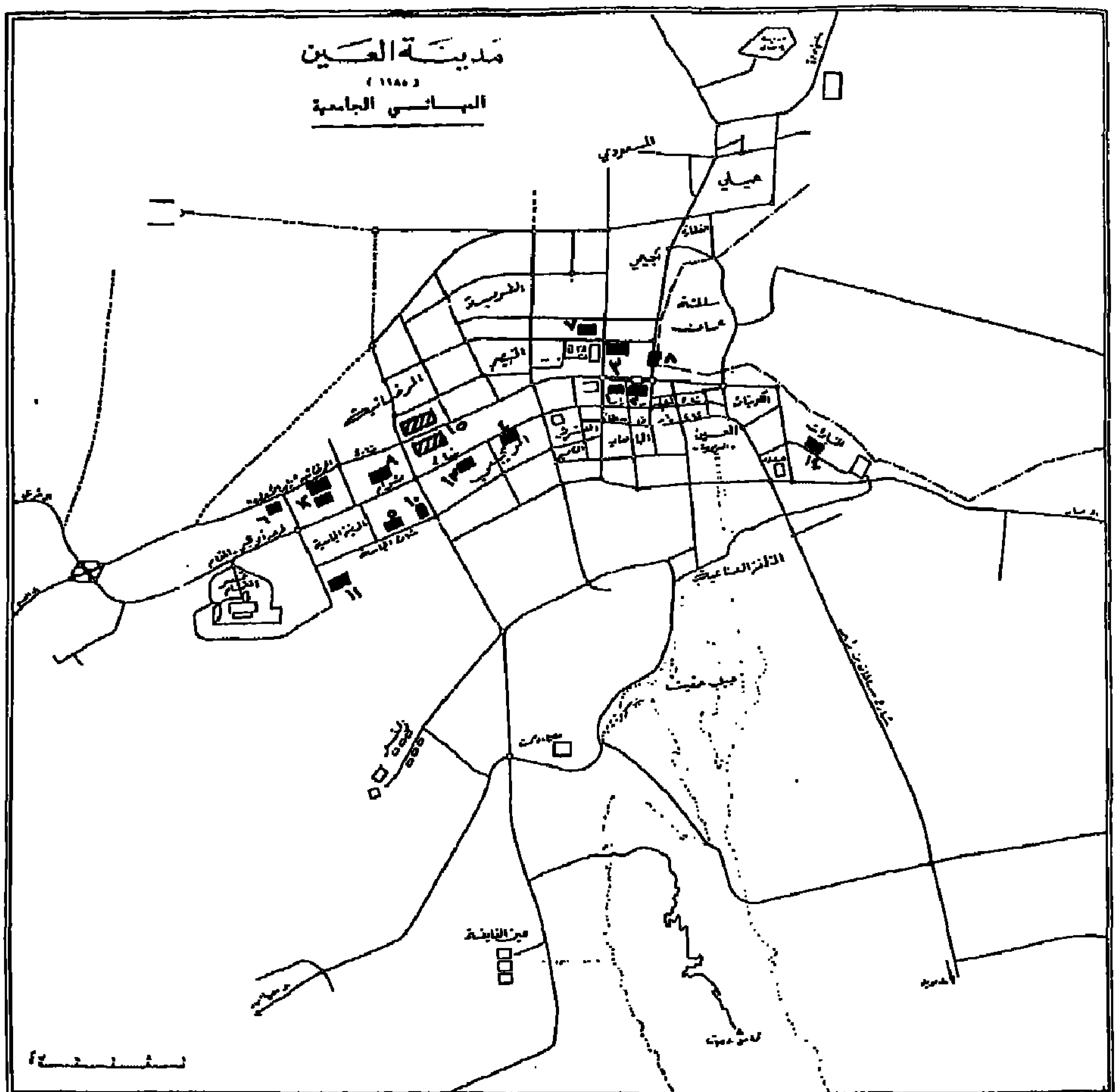
لقد ابتدأت نواة الجامعة في مبنى كبير كان قد أنشيء ليكون «معهداً إسلامياً» ، ولهذا فقد بنيت إدارة الجامعة على مقربة من هذا المبنى ، إلا أن بعض الدوائر قد بقيت تمارس أعمالها في أحد أجنحة ذلك المبنى (مثل المالية والمشتريات وخدمات الطلاب) . وقد كان مبنى المعهد يحوي حتى وقت قريب مركز الحاسب الآلي ومكتبة للطلاب ، إلا أنهما نقلا إلى مبنى جديد يقع إلى

الشرق قليلاً من مبنى المعهد (والذي يعرف الآن بمبنى المكتبة المركزية للجامعة وصالات الاحتفالات والعروض ، في حي السليمي) . وقد كانت مكاتب العلاقات العامة والخدمات تحتل مبنى في منطقة الأعمال المركزية ، ولكن بعد توسع الجامعة نقلت تلك الدوائر إلى مبنى آخر قريب من مبنى الإدارة العامة . وهكذا فقد أصبحت معظم مباني إدارة الجامعة قريبة من بعضها البعض نسبياً .

(ب) مباني كليات الجامعة :

نظراً لعدم التخطيط مسبقاً لإنشاء «مدينة جامعية» في مدينة العين ، فأننا نجد أن مباني كليات الجامعة تنتشر بعدة مواقع من المدينة . فقد خصص جزء من مبنى المعهد الإسلامي ليشمل كلية الشريعة والقانون ، وخصص جزء آخر لمختبرات كلية العلوم - بنين . كما استغلت بعض المدرجات في هذا المبنى لتدريس مساقات متطلبات الجامعة والكليات - بنين ، بسبب الأعداد الكبيرة التي تأخذ هذه المساقات . أما باقي الكليات فقد وزعت على مبنيين كانا مصممين ليكونا مدارس ثانوية . فاحتلت كليات الآداب والعلوم والعلوم الإدارية والسياسية والتربية - للبنين مبنى في حي الجيمي ، وتركزت كليات الطالبات في مبنى آخر في المويجعي . ولكن بعد تزايد أعداد الطالبات اضطرت الجامعة لتشييد مجمع من المباني في حي المقام يحوي كل كليات الطالبات - وتم الانتقال إليه في عام ١٩٨٢/٨١ . فانتقلت بعدئذ كليات الآداب والعلوم والتربية - بنين - إلى المبنى القديم لكليات الطالبات ، كما أضيف إلى مبنى كليات الجيمي كليات الهندسة والزراعة والانتساب الموجه - بالإضافة إلى إدارة التسجيل والقبول - بنين . وقد ألحق بهذا المبنى مؤخراً مركز لأبحاث البيئة ومختبرات كلية الهندسة .

وتقوم الجامعة حالياً في تحضير الدراسات والتصاميم الضرورية لإنشاء «مدينة جامعية» متكاملة - على مساحة تقدر بحوالي (١,٢٥٠) هكتاراً ، وذلك إلى الغرب قليلاً من كليات الطالبات . ويتوقع أن يتم تشييدها قبل حلول عام ٢٠٠٠م وستتسع إلى حوالي (٣٠) ألف طالب وطالبة .



١ـ الامانة العامة للجامعة ٢ـ مبنى المعهد الاسلامي سابقا (كلية الشريعة والقانون) ٣ـ كليات البنين (الجيمي)
٤ـ كليات البنين (المويجعي) ٥ـ كليات الطالبات ٦ـ مستشفى توام (تابع كلية الطب) ٧ـ مكتبة الدراسات العليا
٨ـ المكتبة المركزية وادارة الحاسب الالي . ٩ـ سكن الطالبات القديم (توام) ١٠ـ سكن الطالبات الجديد (المقام ـ ١)
١١ـ سكن الطالبات الجديد (المقام ـ ٢) ١٢ـ سكن الطلاب (فيلات المرخانية) ١٣ـ سكن الطلاب (المويجعي)
١٤ـ سكن الطلاب (النيادات) . ١٥ـ فيلات اساتذة الجامعة ـ المرخانية .

شكل رقم (١٤)

(ج) **مساكن طلبة الجامعة :**

(١) مساكن الطالبات :

عقب افتتاح الجامعة ، أقيمت عدة أبنية متعددة الطوابق – في منطقة توام – لسكن الطالبات . وبعد تزايد أعداد الطالبات في السنتين التاليتين وضع عدد كبير منهن في مجمع من الأبنية إلى الغرب قليلاً من كليتهن السابقة في المويجعي . ولكن أعدادهن قفزت من حوالي (٤٢٧) طالبة في عام ١٩٧٩/٧٨ إلى حوالي (١,١٢٦) طالبة في عام ١٩٨١/٨٠[٣٧] ، مما دفع الجامعة إلى إنشاء مجمع آخر لإقامة الطالبات يقع بالقرب من مركز كلياتهن الجديد في المقام . فأصبح هناك مجمعان لسكن الطالبات يقعان على مقربة من مجمع كلياتهن – حيث ينقلن بحافلات خاصة بين مساكنهن وكلياتهن – إلا أن أعداد الطالبات عادت فتضاعفت ثانية في العام الدراسي ٨٥/٨٤ ، إذ وصل عددهن إلى حوالي (٢,٧٧٩)[٣٨] . ولذلك فقد اضطرت إدارة إسكان الطالبات إلى «الزحف» غرباً واحتلال مجمع كان قد أقيم لإسكان الطلاب .

(٢) مساكن البنين :

لم يكن الطلاب محظوظين كالطالبات في توفر السكن الجامعي في مكان واحد . فما زالت أماكن سكنهم موزعة على عدة مواقع . فهناك عدد منهم يقيم في الطوابق العلوية لمبنى المعهد الإسلامي ، ومجموعة أخرى تقيم في المجمع الذي كانت تقيم فيه الطالبات في المويجعي . ولكن بعد ازدياد أعدادهم من حوالي (١,٨١٢) طالباً في عام ٨٢/٨١ إلى حوالي (٢,٢٧٦) طالباً في عام ١٩٨٤/٨٣ ، فقد أقيم لهم مجمع سكني كبير يقع على بعد ٢كم إلى الغرب من مجمع كليات الطالبات – وقريباً من موقع «المدينة الجامعية المستقبلية» . لكن أعداد الطالبات تزايدت بشكل أسرع في العامين الماضيين مما دفع إدارة الجامعة إلى تخصيص هذا المجمع للطالبات ونقل الطلاب إلى مجموعات من الفيلات الحديثة التي كانت قد بنيت بالقرب من مستشفى «توام» لاسكان طلاب كلية الطب وأساتذتها . وقد أضيفت لهم بين هذه الفيلات مراكز خدمات ، وأصبحت المنطقة كأنها «حي للطلاب» .

هذا ويمكننا أن نضيف إلى مباني الجامعة أماكن سكن أساتذة الجامعة . ففي بداية افتتاح الجامعة أقيمت حوالي (٥٠) فيلا حديثة من طابقين في منطقة سيح ابن عمّار لإقامةمعظم أساتذة الجامعة المتزوجين ، وسمح للعزّاب الإقامة في شقق داخل المدينة . ومع توسع كليات الجامعة وارتفاع أعداد الأساتذة فقد أقيم لهم حوالي (١٠٠) فيلا جديدة على جانبي طريق المقام - المرخانية ، وأصبحت «الحي الجديد» لأساتذة الجامعة . وما زال أكبر عدد منهم يقيم في هذه المنطقة ، إلا أن معظم فيلات سيح ابن عمار قد أصبحت قديمة ، ولذلك فقد نقل كثير من الأساتذة الذين كانوا يقيمون هناك إلى فيلات توام - بجانب مساكن الطلاب . ومع تزايد أعداد الطلاب ثانية - حيث وصل عددهم في عام ١٩٨٦/٨٥ إلى حوالي (٢,٨٥١) طالباً - طُلب من الأساتذة الانتقال إلى مناطق أخرى - في حي المناصير أو الخبيصي أو الجاهلي (وقد بلغ عدد أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة حوالي ٤٦٩ عضواً وذلك في العام الدراسي ١٩٨٥/٨٤)[٣٩] .

٦ - الخدمات والمرافق العامة :

يضم هذا الاستخدام جميع الأراضي المخصصة للخدمات العامة للسكان أو لزوار المدينة ، وتشمل عادة أنشطة ثقافية وتعليمية (غير جامعية) ومراكز صحية وترفيهية .

(أ) الخدمات الثقافية والتعليمية :

لقد كان من أهم نتائج التطور العمراني الذي شاهدته مدينة العين هو الإنتشار الواسع للخدمات التعليمية (غير الجامعية) في معظم أنحاء المدينة . فقبل عهد النفط كان في هذه المناطق مدرستان فقط . ولكن مع دخول المنطقة عهد النفط أخذت أعداد المدارس والمعاهد الحكومية تتزايد سنوياً بشكل كبير . ففي عام ١٩٧٤/٧٣ بلغ عدد المدارس في المدينة حوالي (١٧) مدرسة ، ولكن مع حلول عام ١٩٨٦/٨٥ تضاعف عددها حوالي أربع مرات ليصل إلى حوالي

(٦٤) مدرسة ، تشتمل على ثلاث مدارس ثانوية و١٢ مدرسة إعدادية و٣١ مدرسة ابتدائية وحوالي (١٠) رياض أطفال ، ومعهد ديني واحد ، بالإضافة إلى سبع مدارس خاصة[٤٠] .

وبالنسبة للتوزيع الجغرافي لهذه المدارس فإننا نجد أن معظم الأحياء تحوي مدرستين على الأقل لكل من الجنسين ، عدا بعض الأحياء الحديثة (كالمقام والمرخانية) فما زالت أعداد المدارس قليلة فيها ، مع ذلك يجري نقل طلاب تلك الأحياء بالحافلات إلى مراكز المدارس الأخرى القريبة من المحرومة مؤقتاً . إلا أن المدارس الثانوية ما زالت قليلة العدد في المدينة حيث تحوي المدينة ثلاث ، اثنتان للبنات وواحدة للبنين - تحتل مركزاً متوسطاً في المدينة . لكن يلاحظ وجود عدد كبير من المدارس (شكل رقم - ١٠) غربي حي المناصير ، وهذا يرجع إلى وجود عدد من المدارس الخاصة والتي منحت لهم هذه المواقع من قبل بلدية المدينة (مساعدة في إنشاء تلك المدارس) - كما أقيمت بجانب هذه المدارس «كلية علمية» متخصصة بالعلوم - لكن مستوها يصل إلى سنتين بعد الثانوي ، ومعظم طلابها من المواطنين الذين يستطيعون دفع رسوم تدريس مرتفعة .

(ب) الخدمات الصحية :

لقد أولت الحكومة عناية كبيرة للأمور الصحية في مدينة العين . فمنذ نشأة المدينة أسس فيها مستشفى حكومي (مستشفى الجيمي أو العين) ، وقد كانت معظم أبنيته مؤقتة ، ولكن أقيمت مؤخراً عدة أبنية حديثة في نفس الموقع تحوي حالياً معظم أنواع العيادات وأجنحة للمرضى والولادات . كما زوّد هذا المستشفى بأحدث الأجهزة الطبية وأحضر لها العديد من الأطباء المتخصصين والفنيين . وان موقعه المتوسط بين حيّي الجيمي والمعترض يجعل تردد المواطنين عليه كثيراً ، مما دفع وزارة الصحة إلى افتتاح عدة مستوصفات ومراكز أمومة وطفولة في الأحياء السكنية (راجع شكل رقم - ١٠) .

وبالإضافة إلى هذا المستشفى الحكومي ، فقد أقيم مركز صحي ضخم في حي المقام يعرف «بمستشفى توام» - يدار من قبل شركة أجنبية(*) ومعظم الأطباء العاملين فيه هم أجانب غربيون ، وتحال إليه الحالات الطبية المستعضية والتي لا يمكن معالجتها في مستشفى الجيمي - أو غيره من مستشفيات الدولة خارج العين - إذ أنه مزّود بأحدث الأجهزة الطبية والتشخيصية ، كما تجرى فيه العمليات الجراحية الدقيقة والخطرة (ويحوي جناحاً أميرياً أيضاً) . ويلاحظ عادة ازدحام هذا المستشفى بالمترددين عليه من معظم أنحاء الدولة ، مما يضيف وظيفة جديدة لمدينة العين وهي تقديم خدمات صحية ممتازة (بالإضافة إلى وظيفتها الجامعية) . وان موقع هذا المستشفى في غربي المدينة يكسبه الهدوء الذي يحتاجه المرضى وإمكانية وصول المترددين عليه من مدينة أبوظبي أو من منطقة العين الغربية ، كما يسّهل على المستشفى إمكانية التوسع في المستقبل . ونجد أن معظم الأطباء والممرضات والاخصائيين / الفنيين وبعض الإداريين يقيمون في أبنية خاصة حول المستشفى - إلا أن معظم الممرضات الأجنبيات تقيم داخل أسوار المستشفى .

هذا ويوجد مستشفى آخر في مدينة العين ، ولكنه خاص ويدار من قبل كنيسة تبشيرية - يدعى مستشفى الواحدة ، ويقع جنوبي حي الجاهلي . وهذا المستشفى صغير الحجم ومعظم أبنيته من نوع «بريفاب Prefab » أي المؤقت ، كما أنه يعالج الحالات المرضية البسيطة ، وعمليات الولادة ومعالجة أمراض الأطفال . وقد كان موقعه عند أطراف المدينة ، إلا أن التوسع العمراني قد أحاط به ومنعه من التوسع - خاصة بالنسبة للتخصصات الصناعية التي تقع إلى الجنوب منه وتعتبر مصدراً «للإزعاج» ، كما أن موقعه قريب جداً من الطريق العام (ما بين العين والمنطقة الصناعية) لا يكسبه الهدوء المطلوب ، حتى أن دخول سيارات الزائرين أو خروجها من أماكن اصطفاف السيارات تعتبر خطرة وصعبة .

(*) لقد ألحق الإشراف على إدارة هذا المستشفى مؤخراً بوزارة الصحة .

(ح) الخدمات الترفيهية : (شكل رقم - ١٥)

يوجد في مدينة العين عدة أماكن ترفيهية وسياحية زادت من أهمية منطقة العين «كواحة للاستجمام والاصطياف» . ومن أهم هذه الخدمات ما يلي :

(١) المتنزهات والحدائق :

تحوي مدينة العين حوالي ٨ منتزهات/حدائق عامة (البعض منها للعائلات والأطفال والبعض الآخر مختلط) تكسب المدينة جمالاً خلاباً لكثرة الاعتناء بها ولتنوع زهورها وأشجارها ، وقلما نجد من مثيلاتها في أية مدينة عربية - صحراوية بهذا الحجم . وان توزيعها الجغرافي حسن ، ويستطيع معظم سكان المدينة والوصول إلى أي منها بسهولة وخلال وقت قصير . ومن أجملها الحديقة التي تقع جنوب منطقة الأعمال المركزية . فهي قريبة من وسط المدينة وبقية الأحياء السكنية الكثيفة بالسكان ، وتحتل مساحة واسعة وباستطاعتها استيعاب أعداد كبيرة من السكان . وفي أقصى شمال المدينة توجد حديقة واسعة أخرى (حديقة الهيلي) تخدم معظم الأحياء الشمالية ، ولحسن تنسيقها وكثرة الخدمات التي تقدمها تجعل العديد من سكان الأحياء الأخرى يقصدونها خلال العطل .

ومن المنتزهات الحديثة التي ساعدت على توسيع عمليات الترفيه والسياحة في مدينة العين ، توسيع وتحديث منتزه «العين الفايضة» - الذي يبعد حوالي عشرة كيلومترات جنوبي المدينة . فقد أقيم في هذا المنتزه مطاعم واستراحة حديثة للمصطافين وبركة للسباحة مغطاة (أو مسقوفة) يمكن استعمالها طيلة أيام السنة ، بالإضافة إلى شق قنوات مائية حول المنتزه الواسع المتنوع الخدمات . (شكل رقم - ١٥) كما يحوي هذا المنتزع بحيرة تتغذى من ينبوع من المياه المعدنية (يفيض من قاعها) . وتنار هذه البحيرة مساءاً بالأنوار الزاهية المختلفة الألوان تكسب الجو جمالاً وهدوءاً ، فيقصدها الكثيرون في الليالي المعتدلة الحرارة للاستمتاع بهذه المناظر الجميلة .

(٢) «مدينة الملاهي والألعاب» :

رغبة في زيادة مجالات الاستجمام والراحة في مدينة العين ، فقد أقيمت حديقة ترفيهية للأطفال - على نمط مدينة «دزني لاند» في أمريكا ، تحوي العديد من ألعاب التسلية والترفيه ، كما ألحقت بها مؤخراً صالة خاصة للتزلج . وقد أقيمت هذه «المدينة» على مساحة تقارب من (٨٥) هكتاراً واستمر العمل بها ٣ سنوات وافتتحت في عام ١٩٨٥ (بتكلفة أولية تقدر بحوالي ١٢٠ مليون درهم)[٤١] . ويقصد هذه «المدينة» أعداد كبيرة من الزوار الذين يأتون إليها خلال عطلة نهاية الأسبوع أو العطل العادية (قادمين من معظم أنحاء الدولة) . وان موقعها في الطرف الشمالي للمدينة قد ساعد عمليات وصول أبناء الإمارات الشمالية إليها ، (زودت بمساحات واسعة لاصطفاف السيارات قريبة من مداخلها ومخارجها الخاصة) كما تحوي في داخلها مطاعم لتناول وجبات خفيفة تسد احتياجات الزوّار بدلاً من التوجه إلى المطاعم الموجودة في وسط المدينة . وهناك خطط عديدة لتطوير خدمات الحديقة . ونظراً لحداثتها فإنها لم تجذب إليها بعد بعض الخدمات الأخرى المتعلقة بالسياحة ، مثل الفنادق والمطاعم والمحلات التجارية التي عادة ما تتجمع حول مثل هذه الأنشطة السياحية .

(٣) حديقة الحيوانات :

تقع هذه الحديقة إلى الجنوب من المدينة - قريباً من سفوح جبل حفيت . فهو موقع متطرف عن المناطق السكنية أو الصناعية ، ويمكن التوسع فيه بشكل سهل - إذا دعا الأمر إلى ذلك . كما أنها أقيمت قديماً على منطقة صعبة التضاريس ولا تصلح للاستخدامات السكنية . وقد زوّدت الحديقة بالعديد من الحيوانات الصغيرة والكبيرة والأسماك والطيور المختلفة الأنواع والزواحف . ويقصد الأطفال مع ذويهم كثيراً خلال عطلة نهاية الأسبوع أو العطل الرسمية ويمكنهم أن يقضوا بها وقتاً ممتعاً لاتساع الحديقة وكثرة الحيوانات الموجودة فيها ولوجود منتزه جميل خارجها يمكن الاستراحة فيه خلال أوقات الزيارات . وان وقوعها بالقرب من طريق «العين الفايضة» والطريق السياحي إلى قمة جبل

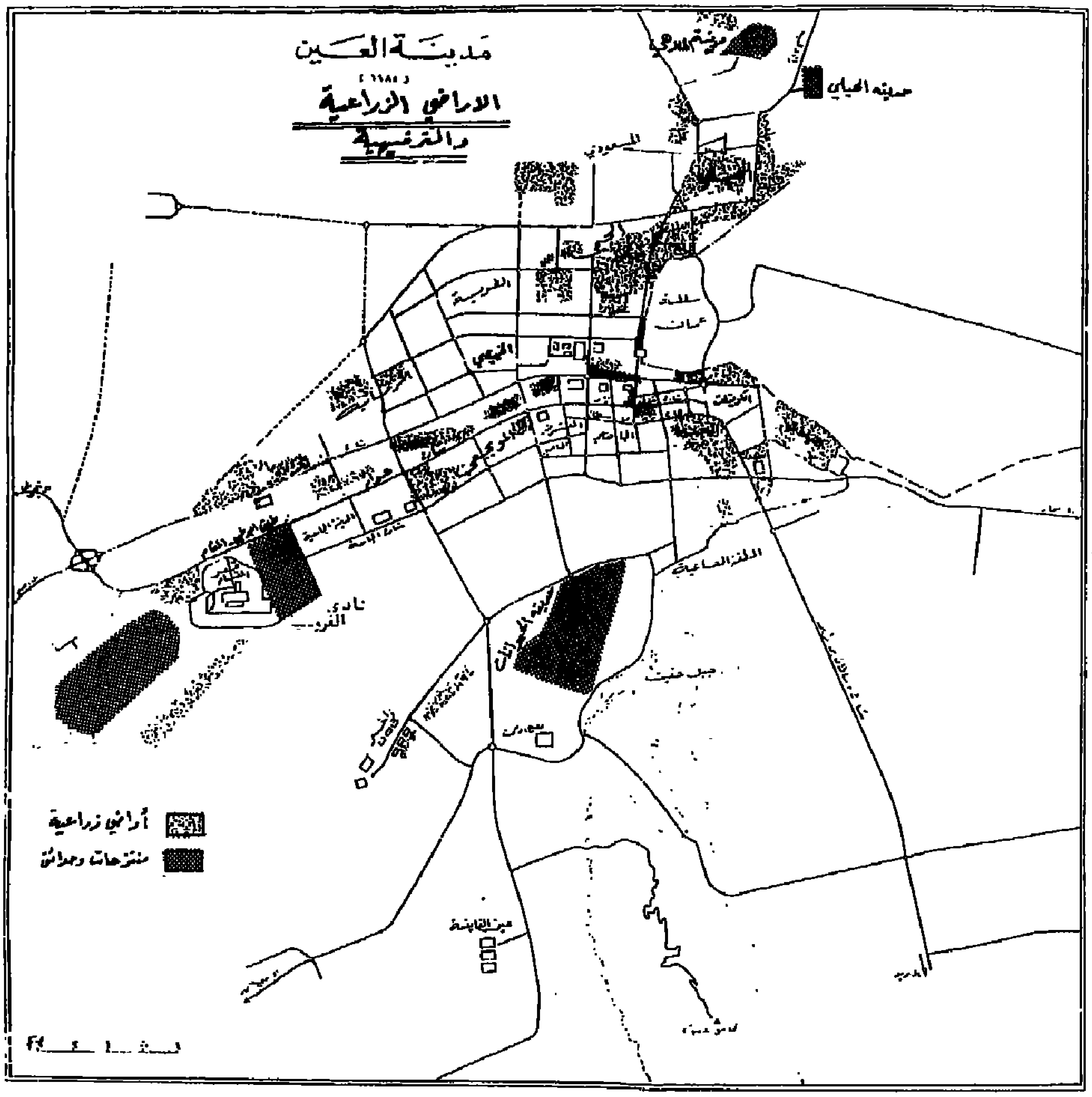
حفيت قد ساعد على تطوير خدماتها وتوسيع مجال الوصول إليها أو زيارتها من قبل سكان المدن الأخرى الذين يأتون إلى هذه المدينة للاستجمام والراحة .

هذا ويمكننا أن نضيف للاستخدامات الترفيهية في المدينة ملاعب نادي العين الرياضي جنوب المدينة وصالته الحديثة في منطقة القطارة . وكذلك نادي الفروسية وميدان سباق الهجن في منطقة المقام ، التي تستقطب أعداداً كبيرة من الزائرين والمساهمين في هذه الأنشطة الرياضية .

(٧) الاستخدامات الزراعية : (شكل رقم - ١٥) :

تحتل الأراضي المستغلة للأغراض الزراعية والغابية حوالي خمسة آلاف هكتار أو ما يعادل ٣٧,٥ في المائة من مجموع الأراضي المتطورة في المدينة . وهذه نسبة عالية إذا ما قيست باستخدمات الأراضي في بقية مدن الدولة . لذلك فإن النشاط الزراعي يعطي المدينة وظيفة مهمة يعمل فيها أعداد كبيرة من المواطنين . فهناك المزارع «التقليدية» التي كانت تشتهر بها قرى هذه المنطقة ، بالإضافة إلى المزارع الحديثة التي وزعت على مزارعين جدد في المدينة . ومن الخريطة نلاحظ أن أوسع تركز لهذه الأراضي الزراعية يقع في الأجزاء الشمالية من المدينة - خاصة في أحياء الجيمي ، القطارة ، المسعودي والهيلي . كما نجد مناطق زراعية أخرى في جنوبي المدينة (في المذيرية والمويجعي) . وهناك مزارع حديثة افتتحت في غربي المدينة وفي منطقة زاخر . (راجع أيضاً شكل رقم - ٩) .

هذا ومما يجدر ذكره هنا أنه رغم هذا التوسع العمراني الضخم في المدينة ، إلا أن السلطات المحلية لا تسمح بالتوسع على حساب الأراضي الزراعية ، ولا تسمح بقطع أية شجرة من أجل العمران ، بل تعمل جاهدة على زيادة عدد أشجار النخيل -بشكل خاص- التي نجدها تحف بجانبي معظم شوارع المدينة بالحدائق العامة والمزارع الحديثة ، مما يكسب المدينة منظراً خلاباً ويجعلها مكان استجمام واصطياف لسكان بقية مدن الدولة . كما نجد أن مزارع الخضار تجعل المدينة مكتفية ذاتياً بالنسبة لاحتياجاتها من الخضار - بل وتصدر جزءاً كبيراً من



٣٢٧ م

شكل رقم (١٥)

الخضار إلى أسواق مدينتي أبوظبي ودبي وذلك خلال فصل الشتاء . كما أن التمور تعتبر مورد رزق مهم لغالبية مواطني هذه المدينة ، فيصدر جزء منه إلى مدينة أبوظبي .

ولذلك فإن لتوزيع الأراضى الزراعية في المدينة بهذا النمط تأثيره على أي توسع عمراني نحوها ، بل ستدفع نمو المدينة نحو المناطق التي لا تصلح للزراعة - خاصة الأطراف الشمالية الغربية والجنوبية الغربية - التي تغطيهما كثبان رملية عالية . كما أن لوجود بعض المشاريع الزراعية المهمة خارج حدود المدينة مباشرة - كمشروع العوهة لإنتاج الحبوب ، الذي يقع شمال المدينة مباشرة - أثره على أي توسع بذلك الاتجاه نظراً لأهميته الكبرى في مشاريع «قهر الصحراء» في الدولة ، وعلى عمليات الحصول على مياه الري من خزاناته الجوفية الغنية[٤٢] .

الخلاصة :

بعد هذا التحليل «الموجز» ، نلاحظ أن مورفولوجية مدينة العين قد مرت بعدة مراحل ، كما أنها تأثرت بعدة عوامل ، البعض منها «موروث» في هذه المنطقة ، والبعض الآخر «مفروض أو دخيل» عليها ومتعلق بظروف التخطيط الحديث ومتطلباته . فإن لتمسك مواطني هذه المنطقة بالأماكن الأصلية لموارد رزقهم قد فرض إقامة مساكن خاصة بهم في تلك الأماكن ، مما جعل الخطة الأولى للمدينة ترتبط بتوزيع تلك القرى (التي أصبحت فيما بعد ضواحي للمدينة ثم جزءاً من أحيائها الرئيسية) . ثم أخذ التخطيط اللاحق يتوافق مع هذه «النويات» ويحاول ربطها معاً بخطة متكاملة ومستغلاً الأراضى غير الزراعية التي كانت تفصل تلك القرى نحو استخدامات مختلفة تلائم متطلبات التحضر الواسع الذي حصل في هذه المنطقة . وقد بقيت أكبر «نواة» (واحة أو مديرية العين) تجذب إليها أهم الأنشطة الحضرية - وهي الحكومية والتجارية والأعمال ، إلى أن ضاقت هذه النواة بتلك الأنشطة المتزايدة ، مما أدى إلى خلق نواة جديدة

تقع في مكان أكثر توسطاً للمدينة من ذي قبل . ورغم أن هذه النواة الجديدة قد اقتصرت حالياً على تجميع لدوائر الحكومة ، إلا أن بعض المراكز التجارية قد أخذت تشق طريقها نحو تلك النواة .

وإن هذه النواة الجديدة قد دفعت حركة عمرانية واسعة لفيلات من درجة أولى لسكن موظفي الدولة وبعض أساتذة الجامعة . كما أن بعض المساكن الشعبية القريبة من هذه النواة قد أخذت ترى تعديلات كبيرة لكي يتسطيع أصحابها تأجير جزء منها إلى صغار موظفي تلك الدوائر الحكومية . كذلك فإن لتركز جامعة الإمارات في هذه المدينة قد أدخل وظيفة جديدة على هذا التجمع السكاني وأثّر كثيراً على تركيب المدينة . فنظراً لانتشار مباني الجامعة المختلفة الوظائف في كثير من أنحاء المدينة ، نجد البعض منها قد أخذ يشكل «نويات» جديدة تجذب إليها استغلالات جديدة في المدينة ، وسيكون هذا التأثير أكبر بعد الإنتهاء من بناء «المدينة الجامعية» في غرب المدينة .

وان للعامل «السياسي» أثره الكبير على تركيب المدينة وتطورها . فإن جميع الأراضي غير المستغلة تملكها حكومة إمارة أبوظبي ، وهي التي توزع قطع الأراضي داخل المدينة على المواطنين – وتحدد نوع الاستخدام المسموح لتلك القطع ، حسب الخطة الموضوعة لتخطيط المدينة . لذلك فإن «التنافس الحر» لاستغلال الأراضي لا يسير بشكل طبيعي كمانجده في كثير من مدن العالم . فليس من حق المواطنين الذين يستلمون مساكن شعبية ، مثلاً ، أن يبيعوها – أو حتى يؤجروها ، أو يستعملوها لأي استخدام آخر غير السكنى . وهناك العادات والتقاليد أيضاً التي تمنع وجود مبان عالية مطلة على المساكن الشعبية المجاورة . كذلك فإن «لتوغل» بلدة البريمي (التابعة لسلطنة عمان) تأثيره على تطور مخطط العين (فهو يعرقل عملية تشكيل حلقات أو قطاعات متمركزة) . ولذلك نجد تركيبها قريب من «موديل النويات المتعددة» – التي كان قد اقترحها العالمان «أولمان وهاريس» (Ullman & Harris) .

الحواشي والمراجع

١ - جمال حمدان : جغرافية المدن ، الطبعة الثانية - عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٢ - السيد غلاب ويسري الجوهري : جغرافية الحضر ، منشأة المعارف ، الأسكندرية (بدون تاريخ) .

٣ - أحمد إسماعيل : دراسات في جغرافية المدن ، الطبعة الثالثة (بدون ناشر) ، ١٩٨٣ ، ص٢٤٨ - ٢٥٧ . وعبدالفتاح وهيبة : جغرافية العمران ، منشأة المعارف ، الأسكندرية - حيث يوجز الدكتور وهيبة تحت «مورفولوجية المدن» : دراسة الخطة ، أشكال النمو ، التركيب الداخلي ، التجأمع المدني . (ص١٣٩ - ١٦٤) .

٤ - H. Carter, The Study of Urban Geography, (London: Edward Arnold), 2nd. Edition, 1977, p.8.

٥ - R.E. Murphy, TheAmerican City; An Introduction in Urban Geography, (New York, Mc Graw Hill), 1966, pp. 4–5.

٦ - النشرة الإحصائية السنوية - دائرة الزراعة ، العين ، ١٩٨٣ .

٧ - دائرة الماء والكهرباء - إمارة أبوظبي ، الكتاب السنوي السادس - ١٩٨٢ ، ص١١٧ .

٨ - فوزي الأسدي : «مشكلة المياه في دولة الإمارات العربية المتحدة والترشيد في استغلالها ، جامعة الإمارات العربية المتحدة - مجلة كلية الآداب ، العدد الثاني ، (١٩٨٦) ، ص٢٥٣ - ٣٠٣ .

٩ - التعداد العام الأول للسكان - ١٩٦٨ ، الجزء الأول - وزارة التخطيط ، أبو صبي ، ١٩٧٢ . (لم يرد في هذا التعداد أي تعريف رسمي للمراكز الحضرية في الدولة ، ولا أي تصنيف للسكان حسب الجنسية) .

١٠ - التعداد العام الثاني للسكان - ١٩٧٥ ، وزارة التخطيط ، أبوظبي ، ١٩٧٧ .

١١ - يعتقد أن جزءاً كبيراً من تزايد المواطنين يعود إلى هجرة أعدد كبيرة من السكان البدو الذين كانوا يقيمون حول هذه الواحة ، وقد دخلوا ضمن حدود دولة الإمارات بعد أن سويت قضية الحدود المتنازع عليها بين كل من سلطنة عُمان وإمارة أبوظبي والسعودية ، وذلك في عام ١٩٧٤ . فقد ضمت القرى التسع الآنفة الذكر إلى إمارة أبوظبي بينما ضمت كل من بلدتي حماسة والبريمي إلى سلطنة عُمان .

يمكن مراجعة أيضاً التعداد الثالث للسكان - عام ١٩٨٠ ، وزارة التخطيط ، ١٩٨٣ .

١٢ - تقدر نسبة التزايد الطبيعي لدولة الإمارات العربية المتحدة حوالي ٣,١ في المائة ، وذلك حسب مصادر هيئة الأمم المتحدة ، لعام ١٩٨٣ .

١٣ - الآثار في دولة الإمارات العربية المتحدة - دائرة الآثار والسياحة ، العين ، ١٩٧٧/٧٦ .

١٤ - فوزي الأسدي : «النمو الحضري وسياسة الإسكان في دولة الإمارات العربية المتحدة» ، مجلد «ندوة عن التخطيط العمراني وسياسة الإسكان في دولة الإمارات» ، كلية الهندسة - جامعة الإمارات ، مارس ١٩٨٦ ص٣١٣ - ٣٣٨ .

١٥ - حصر المباني والوحدات السكنية - إمارة أبوظبي - دائرة التخطيط ، مارس ، ١٩٧٨ ، ص٢٩٥ - ٢٩٦ ، ٣٣٧ .

١٦ - الكتاب الإحصائي السنوي - إمارة أبوظبي - دائرة التخطيط - أبوظبي ، ١٩٨٣ ، ص١٤٧ .

١٧ - نفس المرجع ، ص١٤٧ .

١٨ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٥ ، ص٢٤١ .

١٩ - مقابلة مع مهندسي دائرة تخطيط مدينة العين ، فبراير ، ١٩٨٦ .

٢٠ - مصادر دائرتي تخطيط مدينتي أبوظبي ودبي .

٢١ - J. Kolars & J. Nysteun, Human Geography, McGraw Hill, New York, 1974, p. 50.

٢٢ - H. Carter, The Study of Urban Geography, 2nd. Edition, Arnold, Lonton, 1977, pp. 204–247.

٢٣ - R. Murphy, & J.B. Vance, "Delimiting the C.B.D.," Econ. Geog. Vol. 30, pp. 301–336.

٢٤ - دائرة بلدية العين - قسم الرخص التجارية ، التقرير السنوي - ١٩٨٦ ، ص١١ .

٢٥ - الكتاب الإحصائي السنوي - إمارة أبوظبي - ١٩٨٥ ، ص ٢٤٧ .

٢٦ - دراسة خاصة عن بعض نواحي الوضع العقاري في إمارة أبوظبي : ٧٥ - ١٩٨٣ . دائرة التخطيط ، الشعبة الاقتصادية ، أبوظبي ، ١٩٨٤ ، ص١٣٥ - ١٧٥ .

٢٧ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٥ ، ص٢٥٣ .

٢٨ - يمكن مراجعة بحث طلال محمد عبدالله : «تقييم ما بعد الأشغال لمشروع الـ١٢٠٠ مسكن شعبي سابقة التجهيز في المرخانية - العين ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، مجلد خاص عن «ندوة التخطيط وسياسة الإسكان ، مرجع سابق ، ص١٣٥ - ١٧٥ .

٢٩ - بحث عبدالله نصيب : «تطوير منطقة عودة التوبة - مدينة العين ، بحث مقدم إلى «ندوة التخطيط العمراني وسياسة الإسكان» ، مرجع سابق ، ص٢٣٤ - ٢٤٦ .

٣٠ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٥ ، ص٢٤١ - ٢٤٣ .

٣١ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٣ ، ص١٥٩ .

٣٢ - المرجع الأسبق ، ص٢٤١ .

٣٣ - التعداد (الحصر) العام للمباني والوحدات السكنية ، وزارة التخطيط ، أبوظبي - ١٩٨١ .

٣٤ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٣ ، ص١٦٦ .

٣٥ - دائرة بلدية العين ، قسم التراخيص التجارية ، التقرير السنوي - ١٩٨٥ ، ص١٧ .

٣٦ - مدينة العين واحة الإمارات - ملحق خاص - جريدة الاتحاد ، أبوظبي ، مارس ، ١٩٨٧ .

٣٧ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٣ ، ص٢٣١ .

٣٨ - الكتاب الإحصائي السنوي - ١٩٨٥ ، ص٢٣١ .

٣٩ - نفس المرجع ، ص٢٣٤ .

٤٠ - النشرة الإحصـائية السنـوية للتعليم في منطقة العين التعليمية - قسم الإحصاء ، العين - ١٩٨٥ ، ١٩٨٦ ، ص٢٨ - ٣٠ .

٤١ - دائرة زراعة العين ، النشرة الإحصائية السنوية ، العين ، جدول رقم ٣ .

٤٢ - راجع

Fawzi Asadi, "The Possibilities of Growing Wheat Economically at Al-Oha Project, U.A.E.," Dirasat-The University of Jordan, Amman, Vol. XII, 1985, // 5, pp. 85–105.

ظاهرة تغريب الأسماء التجارية بالشارع المصري
«دراسة مسحية على القاهرة الكبرى»

الدكتورة وفاء كامل فايد
مدرسة بكلية التربية الأساسية بالكويت

مقدمة البحث ومشكلته :

في الشارع التجاري المصري ظاهرة بدأت على استحياء منذ فترة ، ثم شاعت واستفحل أمرها في السنوات الأخيرة ، أعني بها ظاهرة التغريب . ويقصد به الاتجاه إلى الأجنبي من الكلمات والتراكيب الغريبة عن لغتنا العربية ، واستخدامه بديلاً عن نظيره العربي ، أي نقل الأجنبي من لغته - كما ينطق - وكتابته بحروف عربية ، على واجهات المتاجر ولافتاتها .

وهذه الظاهرة تمسخ وجه الشارع المصري ، وتضفي عليه مسحة أجنبية ليست من معالمه الأساسية ، تشوه لغتنا الأم ، مما يسيء إلى الشخصية المصرية الأصيلة ، ويجعل الأسماء التجارية خليطاً غريباً غير متجانس من اللغات الأجنبية المتباينة ، والتراكيب المختلفة غير العربية ، على الرغم من كتابتها بالحروف العربية ، فهذا لا يضفي عليها الطابع العربي أو الهوية العربية ، شأنها في ذلك شأن الفارسية والأردية : فهما لغتان غير عربيتين ، وتكتبان بحروف عربية .

وعلى الرغم من خطورة الظاهرة على اللغة العربية لم تحظ الظاهرة باهتمام كاف من اللغويين العرب ، فقد أشار إليها ثلاثة من علمائنا اللغويين : أحدهم أ. د. عبد العزيز مطر ، فقد كتب منبهاً إلى خطرها في مقال بجريدة الأخبار المصرية الصادرة في ٣٠/١٠/١٩٨٦ ، تحت عنوان «رياح التغريب تهب على الشارع

المصري «كما صدر له أيضاً كتاب » في النقد اللغوي» وبه فصل يتحدث عن التغريب ، ضمنه معظم ما جاء في مقاله السابق .

والثاني هو أ. د. حسين نصار ، وقد كتب منادياً بالحفاظ على لغتنا العربية ، وحمايتها من مخاطر هذه الظاهرة ، في مقال له بجريدة الأهرام المصرية الصادرة في ١٤/١١/١٩٨٦م ، تحت عنوان : «العربية لغتنا» .

والثالث هو د. كمال بشر ، وقد تناول جانباً من الظاهرة في محاضرة ألقاها بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في ٢/٣/١٩٨٧م ، بعنوان.... «التغريب في اللغة والثقافة» .

وانتشار الظاهرة في حقل الأسماء التجارية ، إلى جانب خطورتها على اللغة العربية ، وندرة معالجتها ، كل ذلك دعا الباحثة إلى محاولة إلقاء الضوء عليها من خلال هذه الدراسة .

عرض لأهم الحقائق النظرية :

التغريب شكل من أشكال الاقتراض اللغوي ، والاقتراض ظاهرة معروفة في اللغات على مدى العصور ، فمعظم اللغات يتفاعل بعضها وبعض وتتبادل الاقتراض . تستقر فيها ، وتصبح جزءاً منها[١] . ولا يعني ذلك ضعف مكانة اللغة الآخذة ، فالاقتراض يثري اللغة المقترضة بما تحتاجه من الألفاظ والأساليب ، وهو بذلك من وسائل تنمية الثروة اللغوية .

والألفاظ المستعارة نوعان : أحدهما تدعو إليه الضرورة ، حين تفتقد اللغة إسماً لشيء معين ، فتأخذه من لغة أخرى باسمه المتعارف عليه . والنوع الآخر ليس له ما يسوغه سوى رغبة الأفراد في الظهور ، ويحدث نتيجة إعجاب أمة بأخرى ، والميل إلى تقليدها[٢] . وهذا ما يحدث الآن في التغريب .

---

(١) Said Majed: Lexical Innovation: p. 30–33.

(٢) أنيس ، إبراهيم : من أسرار اللغة ص ١٢٠ - ١٢٢

وقد اقترضت اللغة العربية - شأنها شأن اللغات الأخرى - ألفاظاً أجنبية كثيرة . وكان العرب يلجأون إلى الاستعارة الضرورية : فيقترضون الألفاظ التي تعبر عن أشياء غير مألوفة في شبه الجزيرة العربية ، وكلمات تتطلبها مظاهر الحضارة والمدنية لدى الأمم العريقة التي كانت تتاخم الحدود العربية[1] .

وكانت الكلمة الأعجمية التي يشيع استعمالها لدى العرب تأخذ القالب العربي : فتذهب أطرافها ، وتبدل بعض حروفها ، ويغير موضع النبر منها ، حتى تصبح على صورة شبيهة بالكلمات العربية[2] . وقد سمى علماء العربية ذلك تعريباً . فالتعريب هو اقتراض اللفظ الأجنبي ، ثم إخضاعه لنمط الكلمات العربية ونسيجها .

والتعريب قديم في اللغة : فقد وقع المعرب في لغة العصر الجاهلي ، كما ورد بالقرآن الكريم كلمات أعجمية الأصل . وقد أشار سيبويه في (الكتاب) إلى بعض الكلمات الأعجمية ، وإلى حدوثها في اللغة العربية قبل الإسلام[3] .

وحين انتشر الإسلام بالفتوحات كثر احتكاك العرب بغيرهم من أبناء الأمصار ، وأدخل هذا الاختلاط كثيراً من الكلمات الأعجمية في اللغة العربية ، وخاصة في مجال المحسّات ، مثل : الأطعمة والملابس والآنية والرياحين .

وفي عصر الدولة العباسية ازدهرت الثقافة واتسع شأنها ، وكثر تشجيع الخلفاء للعلماء والمترجمين على التأليف والترجمة ، فدخلت إلى اللغة العربية كلمات ومصطلحات جديدة على أيدي النقلة والمترجمين ، وشاعت في اللغة . وبذلك ازدادت حركة التعريب في ذلك العصر . وقد نبه علماء اللغة إلى الكلمات ذات الأصل الأعجمي ، وأشاروا إلى أنها دخيلة على اللغة .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٢٤ .

(٢) أنيس ، إبراهيم : من أسرار اللغة ص ١٢٥ .

(٣) سيبويه ، أبو بشر عمرو : الكتاب جـ٣ ص٢٣٤ - ٢٣٥ ، ص٢٥١ - ٢٥٤ .

وفي العصر الحديث رأى بعض العلماء أن التعريب مقصور على ما ورد في عصور الاستشهاد اللغوي ، وما ورد بعد عصر الاحتجاج من الكلمات ذات الأصل الأعجمي يسمى مولداً . وذكر أن المعرب الصحيح لا يزيد عدده في اللغة على ألف كلمة ، وقلته بالنسبة إلى عدد الألفاظ العربية دليل على اقتصاره على السماع[1] . كما ذكر أنه لا يجوز لنا -نحن المولدين- أن نعرب كما عرب القدماء . وقد يرجع السبب في هذا الموقف إلى خشيتهم طغيان الكلمات الأعجمية على الفصحى .

وقد بحث مجمع اللغة العربية بالقاهرة التعريب والمعرب منذ دور انعقاده الأول ، وأصدر قراراً ينص على ما يأتي :

«يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية -عند الضرورة- على طريقة العرب في تعريبهم»[2] .

وأقر المجمع الحاجة المساة إلى التعريب -بالإضافة إلى غيره من وسائل تنمية الثروة اللغوية- عند نقل المصطلحات والألفاظ العلمية إلى اللغة العربية ، أي عند الضرورة العلمية . وقد قيده بالضرورة ، خشية أن تغمر لغتنا العربية بطوفان من الألفاظ الأجنبية التي قد تفقدها طابعها وخصائصها التي يعتز بها أبناء العرب ، حرصاً على تراثهم الأدبي ، وكتابهم المقدس الذي أنزل بلسان عربي مبين .

والتعريب -الذي حدث في اللغة العربية منذ القدم- يختلف عن التغريب الذي يحدث الآن : فكلاهما اقتراض من اللغات الأجنبية ، ولكن التعريب يأخذ ما تفتقر إليه اللغة من الكلمات الأجنبية ، ويطوع الكلمة الأجنبية للصيغ العربية ، أو يقربها من الذوق اللغوي العربي ، فيضيف إلى المحصول اللغوي العربي ما ينقص اللغة من ألفاظ . والتغريب يحدث الآن بنقل الكلمة -أو التعبير- من اللغة

---

(١) مجمع اللغة العربية : محاضر الجلسات ، دور الانعقاد الأول : ص ٣٠٢ .

(٢) صدر هذا القرار في الجلسة ٣١ من الدورة الأولى ، المرجع السابق ص٤٢٢ ، جهود مجامع اللغة العربية : ص٣٦١ .

الأجنبية ، دون أن تعدم اللغة العربية الكلمات التي تعبر عن المعنى نفسه . فهو يضع الأجنبي من الكلمات جنباً إلى جنب مع نظيره العربي . ويظل اللفظ -أو التعبير- المستعار على حاله في اللغة الأجنبية تماماً ، مع كتابته بالحروف العربية ، فيحمل النطق والنبر الأجنبي ، ولذلك سمى تغريباً ، أي اتجاهاً إلى الغرب .

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى :

(١) التعرف على حجم ظاهرة تغريب الأسماء التجارية بالشارع المصري .

(٢) توضيح مدى انتشار الظاهرة بكل من : الأنشطة التجارية المختلفة ، والأحياء السكنية بالقاهرة .

(٣) تحليل أنواع التغريب وتصنيفه .

عينة الدراسة :

استخدمت الأسماء التجارية الواردة بدليل الهاتف الخاص بمدينة القاهرة لعام ١٩٨٣ ، بوصفها عينة عشوائية للدراسة ، بعد استبعاد ما يخرج عن أهدافها . وقد شملت العينة ٢٠٠٤٣ إسماً لعدد ١٠٤ (أربعة ومائة) نشاط ، تمثل مجموع ما يدخل في نطاق الدراسة .

وتنقسم هذه العينة الرئيسية إلى عينتين فرعيتين كالتالي :

(أ) عينة الأنشطة التي تتضمن أسماء مغربة ، وعددها ١٧٦٥٢ إسماً .

(ب) عينة الأنشطة التي لا تحتوي أسماء مغرَّبة ، ٢٣٩١ إسماً .

كيفية معالجة الدراسة :

في محاولة للكشف عن مدى انتشار هذه الظاهرة بدأت الباحثة بالجمع الميداني المباشر . فلما لاحظت شيوعها بدرجة واضحة رأت أن تستند إلى الدراسة

الإحصـائية ، لتكشف بدقـة عن نسب شيوع الأسـماء المغـربة مقارنة بالعدد الكلي للأسماء التجارية .

وطـرقت باب إدارة السجـل التجـاري ؛ لتحصل على كل الأسماء الموجودة في سجلاتها ، فتعذر ذلك ، نظراً لسرية البيانات .

وحصلت الباحثة على خطاب إداري من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، تدعيماً لموقفهـا ، يحدد طبيعـة مهمتها ، وكذلك البيانات التي تحتاج إليها . وذهبت به إلى إدارة الحـاسب الآلي الخـاص بوزارة المـالية ، وقـابلت المسئولين هناك ، واعتذر لها برفق ، لأنـه من المستحيل السماح بالحصول على آية معلومات من الحاسب الآلي ، نظراً للسرية أيضاً .

ثم فكرت الباحثة في الاعتماد على مطبوعات الغرفة التجارية المصرية ودورياتها في رصد هذه الظاهرة . واتضح لها أن هذه المطبوعات غير منتظمة ، كما أن معلوماتها لا تحقق الهدف من البحث .

وأخيراً لجأت إلى دليل الهاتف ، ورأت أن تعتمد عليه في الدراسة ، بوصفه عينة عشوائية تعطي مؤشراً صادقاً -إلى حد كبير- للظاهرة . وان كان هناك بعض الاحتراز في استخدامه مثل :

(١) الدليل لا يسجل إلا أسماء الشركات والمتاجر التي يوجد لديها هاتف ونحن نعلم أنـه ليس من الميسـور -لسبب أو لآخـر- الحصول على الهاتف وإن كان ذلك يقـابله إمكـانية الحصـول على (الهـاتف الفـوري) مع دفع رسوم أكثر ، مما لا يصعب على أصحاب الشركات والمتاجر الكبرى .

(٢) آخـر دليل مطبـوع للهاتف بين أيدينا -الآن- هو الخاص بعام ١٩٨٣ . وقد طبـع في منتصف عام ١٩٨٢ . ومعنى هذا أن الـدراسـة توقفت ، في رصـد الـظاهرة ، عند عام ١٩٨٢ ؛ مما يشير إلى عدم مطابقة نتائج هذه الدراسة مع

نسب شيوع الظاهرة في الشارع المصري الآن . وعلى هذا فالباحثة تسلم -بداية- بأن لافتات الشارع المصري تعطي انطباعاً تغريبياً أكثر من المرصود في هذه الدراسة ، وذلك وفقاً لما أسفرت عنه الملاحظة الميدانية المباشرة .

وبعد الحصول على دليل الهاتف قامت الباحثة بحصر الأنشطة التي تدخل في دائرة اهتمام الدراسة . وواجهتها نوعيات مختلفة من الأسماء تقع أحياناً ضمن هذه الأنشطة ، ولا تقع أحياناً أخرى في اطارها . فرأت -حرصاً على الموضوعية ، وعلى ضوء أهداف الدراسة- أن تأخذ بعين الاعتبار .

الضوابط الآتية :

١ - استبعاد الأسماء التالية من العينة الكلية للدراسة :

(أ) أسماء شركات القطاع العام ومتاجره .

(ب) أسماء المراكز الثقافية والعلمية والرياضية والتجارية ، وكذلك مراكز رعاية الشباب ، والغرف التجارية ، والمراكز الثقافية والتجارية الدولية . ومن أمثلة ذلك :

مركز الحسابات العلمية - المركز الديموجرافي - المركز الدولي للتربية الإسلامية - المركز التجاري السوفييتي . . . إلخ .

(جـ) أسماء المكاتب الاستشارية ، والعلمية ، والهندسية ، والاجتماعية ، ومكاتب التمثيل التجاري للدول المختلفة ، ومكاتب التخليص الجمركي .

(د) مراكز الخدمة والإصلاح والورش ، وكذلك المصانع بأنواعها ، لعدم ارتباطها بالشارع التجاري .

(هـ) الأنشطة التي لا يزيد العدد الكلي للأسماء بها عن خمسة أسماء .

٢ - استبعاد الفئات التالية من الحصر الخاص بالأسماء المغربة :

(أ) أسماء الشركات الدولية ، مثل :
باير - رولــز رويس - خوختيف - لوبيتي - لوكهيد - هيلتــون - شيراتــون - وستنجهاوس - وإن لم تستبعد التراكيب التي دخلت فيها هذه الأسماء ، مثل : النيل هيلتون - الجزيرة شيراتون .

(ب) أسماء الاعلام الأجنبية ، مثل : شامبليون - فيكتوريا - طومسون - فينوس - نابليون .

(جـ) العلامات التجارية المسجلة ، مثل : ريجوا - ستيا - راكتا - كيما - كيمي .

(د) الأسماء الأجنبية التي اكتسبت الطابع العربي ، وشاعت في العامية المصرية ، مثل : اتوبيس - بوتاجاز - اكسبريس - بلاستيك .

(هـ) الأسماء العربية التي وردت - بالدليل - تحت عنوان أجنبي للنشاط ، مثل : الكترو - بار - بازار - بوتيك - بوفيه - ديكور - سوبر ماركت .

٣ - احتساب الأسماء التالية ضمن الحصر الخاص بالأسماء المغربة :

(أ) الأسماء الأجنبية التي صارت أعلاماً لمناطق ، مثل :
جاردن سيتي - تريومف - هليوبوليس - روكسي .

(ب) أسماء الأماكن والمدن الأجنبية ، مثل :
بيكاديللي - هونولولو - فيينا - هوليود .

٤ - احتساب الأسماء التي تتعدد فروعها - في المناطق المختلفة - مرة واحدة مثل : صيدلية الجمهورية - محلات الغندور - بقالة سعودي .

٥ - احتســاب مصــانـع الملبـوســات (الـتريكو والجوارب والملابس) ضمن نطاق الدراسة ، لأنها تقع في الشارع التجاري عادة ، بحكم صغر حيزها ، وعدم تسببها في إحداث ضوضاء أو تلوث للبيئة .

٦ - رصد الأسماء المتفرقة - بين العناوين المختلفة بالدليل - ووضعها في قائمة نشاط مستقل .

٧ - الالتزام بأسماء الأنشطة وتصنيفها حسب ما ورد بدليل الهاتف .

٨ - ضم الأسماء موحدة النشاط ، التي وجدت في أكثر من موضع بالدليل تحت أسماء مختلفة ، مثل :

بقالة وسوبر ماركت - أفلام وشركة أفلام - جلود ومصنوعات جلدية - معرض وصالة عرض - معرض سيارات وشركة سيارات . وكذلك مثل النشاط (ديكور) الذي أضافته الباحثة إلى موضعه بالجداول - حسب الترتيب الهجائي - بعد ضم مفرداته من مواضع متفرقة .

٩ - فصل أسماء الشركات السياحية على حدة ، نظراً لوضوح ظاهرة التغريب فيها - بعد جمع أسمائها التي اندرجت تحت عنواني : شركة ووكالة - حتى يبرز الفرق في نسبة التغريب بين أسماء هذه الشركات وبين غيرها من الشركات الواردة بالدليل .

نتائج الدراسة :

من واقع ما أسفرت عنه المعالجة المبدئية للبيانات المتعلقة بالدراسة ، أمكن جدولة النتائج بالأسلوب الذي يساعد على عرضها ، وفقاً للأهداف الموضوعة . وتستعرض الجداول من (١) إلى (٥) هذه النتائج .

جدول رقم (١)

حجم ظاهرة التغريب في الأسماء التجارية بعينة الدراسة

العينات / البيان	عينة الأنشطة التي تتضمن التغريب	عينة الأنشطة الخالية من التغريب	العينة الكلية الدراسة
العدد الكلي للأسماء	١٧٦٥٢	٢٣٩١	٢٠٠٤٣
عدد الأسماء المغربة	٢٢١٣	—	٢٢١٣
النسبة المئوية للتغريب	١٢,٥٣٦٪	صفر٪	١١,٠٤١٪

ويوضح الجدول رقم (١) حجم ظاهرة التغريب في الأسماء التجارية بالعينة قيد الدراسة . ويظهر من هذا الجدول ما يأتي :

(١) تشكل العينة الفرعية التي تشتمل على الأنشطة التي ظهر بها التغريب ٨٨,٠٧١٪ من العينة الكلية للدراسة .

(٢) تشكل العينة الفرعية للأنشطة الخالية من التغريب ١٢,٩٢٩٪ من العينة الكلية .

(٣) النسبة المئوية للأسماء المغربة بعينة الأنشطة المتضمنة للتغريب هي ١٢,٥٣٦٪ من مجموع أسماء هذه العينة .

(٤) النسبة المئوية للأسماء المغربة في العينة الكلية للدراسة هي ١١,٠٤١٪ ، وهو ما يعبر عن الحجم الكلي للظاهرة .

ويعرض الجدول رقم (٢) تحليلاً للعينة الفرعية الأولى ، وهي عينة الأنشطة التجارية التي خلت من الأسماء المغربة ، وعدد الأسماء بكل نشاط فيها ، وقد بلغ عدد هذه الأنشطة واحداً وأربعين نشاطاً . ولوحظ أن هذه الأنشطة لا تتجه إلى اتخاذ أسماء أو عناوين جذابة ، بل يحمل النشاط عادة إسم صاحبه ، وربما حمل إسم المكان الذي يقع فيه كالحي أو الشارع ، وقد يحمل صفة لقيمة أخلاقية كالصدق والأمانة .

ويوضح الجدول -من خلال العينة- أن عدد الأسماء التجارية التي حمل فيها النشاط إسم صاحبه تمثل أغلبية مطلقة : فقد بلغ هذا العدد ٢٣٤٣ إسماً من مجموع الأسماء البالغ عددها ٢٣٩١ إسماً ، أي بنسبة ٩٧,٩٩٪ بينما حمل ٤٨ إسماً فقط (بنسبة ٢٪) من مختلف الأنشطة عناوين أخرى .

كما يلاحظ من الجدول أيضاً أن ٢٣ نشاطاً -أي أكثر من نصف عدد الأنشطة- تبلغ فيها النسبة المئوية للأسماء التي تحمل أسماء أصحابها ١٠٠٪ .

جدول رقم (٢)

توزيع الأنشطة التجارية التي خلت من ظاهرة التغريب ، وعدد الأسماء التي حملت الأنشطة فيها أسماء أصحابها ، ونسبتها المئوية

م	عنوان النشاط (كما ورد بالدليل)	عدد الأسماء التي حمل فيها النشاط إسم صاحبه	العدد الكلي للأسماء بالنشاط	النسبة المئوية للأسماء التي حمل فيها النشاط إسم صاحبه
١	أخـشـــــاب	١٦٥	١٦٥	٪١٠٠
٢	أدوات صـحـية	٩٦	٩٦	٪١٠٠
٣	أدوات كهربائية	١١٥	١١٨	٪ ٩٧,٤٥
٤	أسماك طازجة ومملحة	٦٣	٦٧	٪ ٩٤,١٨
٥	أطراف صناعية	٩	٩	٪١٠٠
٦	زجاج وبلور	١١٥	١١٧	٪ ٩٨,٢٩
٧	سجاد وكليم	١٤٨	١٥١	٪ ٩٨
٨	عـطــارة	١١٢	١١٦	٪ ٩٦,٥٥
٩	كــرسـي	٨	٨	٪١٠٠
١٠	لوازم الخياطين	٢٨	٣٠	٪ ٩٣,٣٣
١١	محل أجهزة مكافحة الحريق	٦	٦	٪١٠٠
١٢	محل أدوات مواقف الغاز	٦	٧	٪ ٨٥,٧١
١٣	محل أسلحة وذخائر	١٢	١٣	٪ ٩٢,٣
١٤	محل عدد صناعية يدوية وميكانيكية	٤٣	٤٤	٪ ٩٧,٧٢
١٥	محل بن وشاي	٢١	٢٨	٪ ٧٥
١٦	محل بيض	٥٣	٥٤	٪ ٩٨,١٤
١٧	محل حاصلات زراعية	٣٠٤	٣٠٦	٪ ٩٦,٤
١٨	محل حبال ودوبارة	٧	٨	٪ ٩٩,١
١٩	محل حدايد وبويات	٢٤٢	٢٤٤	٪ ٩٩
٢٠	محل حديد تسليح وخام	٥٧	٥٧	٪١٠٠
٢١	محل خردة ومخلفات	٣٦	٣٦	٪١٠٠
٢٢	محل خيش	٣٧	٣٧	٪١٠٠

تابع جدول رقم (٢)

توزيع الأنشطة التجارية التي خلت من ظاهرة التغريب ، وعدد الأسماء التي حملت الأنشطة فيها أسماء أصحابها ، ونسبتها المئوية

م	عنوان النشاط (كما ورد بالدليل)	عدد الأسماء التي حمل فيها النشاط إسم صاحبه	العدد الكلي للأسماء بالنشاط	النسبة المئوية للأسماء التي حمل فيها النشاط إسم صاحبه
٢٣	محل دراجات	٣٢	٣٣	٪ ٩٦,٩٦
٢٤	محل دقيق	٢٤	٢٤	٪١٠٠
٢٥	محل دواجن وطيور زينة	٤٩	٤٩	٪١٠٠
٢٦	محل صابون	٣٨	٤٣	٪ ٨٨ ٣٧
٢٧	محل عسل	٨	٨	٪١٠٠
٢٨	محل عقادة	١٩	١٩	٪١٠٠
٢٩	محل فحم	٢٦	٢٦	٪١٠٠
٣٠	محل كاوتشوك	٣٨	٣٨	٪١٠٠
٣١	محل لوازم الرحلات	١١	١١	٪١٠٠
٣٢	محل مسلى وزيوت	١٨	١٨	٪١٠٠
٣٣	محل معادن	٨٢	٨٤	٪ ٩٧ ٦١
٣٤	محل مواد بترولية	١٣	١٣	٪١٠٠
٣٥	محل مواد بناء	٨٣	٨٣	٪١٠٠
٣٦	محل مواد صباغة وكيماويات	٢٣	٢٣	٪١٠٠
٣٧	محل مواسير	١٧	١٧	٪١٠٠
٣٨	محل موازين	١٣	١٣	٪١٠٠
٣٩	معمل خضروات (طرشي)	١٠	١٠	٪١٠٠
٤٠	مقلة وتسالي	٤٥	٥١	٪ ٨٨,٢٣
٤١	ورق وكرتون	١١١	١١١	٪١٠٠
	مجموع الأسماء الخالية من التغريب	٢٣٤٣	٢٣٩١	٪٩٧,٩٩

أمـا الجـدولان رقم (٣) ، (٤) فيتضمنان تحليلاً للعينة الفرعية الثانية ، وهي عينة الأنشطة التي وجدت بها أسماء مغربة . ويبلغ عدد تلك الأنشطة ٦٣ نشاطاً . وقـد صنفت ، وتم في الجـدول رقم (٣) حصر العـدد الكـلي للأسماء بكل نشاط ، كذلـك عدد الأسـماء المغربة التي وجدت فيه ، والنسبة المئوية لهذه الأسماء ، وأيضاً اللغة الأجنبية السائدة في الأسماء المغربة بكل نشاط .

وفي الجدول رقم (٤) تم تصنيف الأنشطة التجارية ، مع ترتيبها تصاعدياً تبعاً لنسبة انتشار الأسماء المغربة بكل منها .

جدول رقم (٣)
عدد الأسماء المغربة ونسبتها المئوية إلى مجموع الأسماء بكل نشاط وجدت به الظاهرة

م	عنوان النشاط كما ورد بالدليل	العدد الكلي للأسماء بالنشاط	عدد الأسماء المغربة بالنشاط	النسبة المئوية للأسماء المغربة	اللغة السائدة في التغريب
١	الصيدليات	٩١٦	٤٤	٤,٨٠٣ ٪	الإنجليزية
٢	أجهزة وأدوات منزلية	١٥٥	٣	١,٩٣٥ ٪	—
٣	أحذية ولوازمها	٦٥٠	٧٢	١١,٠٧٧ ٪	الإنجليزية
٤	أزياء وتصميمها	١٥٠	٢٠	١٣,٣٣٣ ٪	الفرنسية
٥	أصواف	٥١	٢	٣,٩٢١ ٪	الإنجليزية والفرنسية
٦	أفلام (شركات إنتاج وتوزيع)	٥٩	٢٤	٤٠,٦٧٨ ٪	الإنجليزية
٧	ألبان ومنتجاتها	١٩١	٢	١,٠٤٧ ٪	—
٨	الكترو (أعمال الكهرباء والالكترونيات)	١٥	١٣	٨٦,٦٦٦ ٪	الإنجليزية
٩	بـــار	١١	٨	٧٢,٧٢٧ ٪	الفرنسية
١٠	بازار	٧١	٢١	٢٩,٥٧٧ ٪	الإنجليزية
١١	بقالة وسوبر ماركت	١٨٥٦	٣١	١,٦٧ ٪	الإنجليزية
١٢	بنسيون	٢٩	١٨	٦٢,٠٦٩ ٪	الإنجليزية
١٣	بوتيك	٥٧	٢٤	٤٢,١٠٥ ٪	الإنجليزية
١٤	بوفيه	٣١	٥	١٦,١٢٩ ٪	—
١٥	ترزي	١١٦٩	٥	٠,٤٢٨ ٪	الإنجليزية
١٦	جراج	١٦٥	١٥	٩,٠٩١ ٪	الإنجليزية
١٧	جزارة	٣٤٤	٨	٢,٣٢٥ ٪	الإنجليزية
١٨	جلود ومصنوعات جلدية	١٦٣	٣	١,٨٤ ٪	—
١٩	حلواني وفطاطري	٣٣١	١٩	٥,٧٤ ٪	الإنجليزية ثم الفرنسية
٢٠	خردوات	٦٠٣	١٦	٢,٦٥٣ ٪	الفرنسية
٢١	ديكور	٩	٤	٤٤,٤٤٤ ٪	الإنجليزية
٢٢	زنكوغراف	٢٢	١	٤,٥٤٥ ٪	—

تابع جدول رقم (٣)
عدد الأسماء المغربة ونسبتها المئوية إلى مجموع الأسماء بكل نشاط وجدت به الظاهرة

م	عنوان النشاط كما ورد بالدليل	العدد الكلي للأسماء بالنشاط	عدد الأسماء المغربة بالنشاط	النسبة المئوية للأسماء المغربة	اللغة السائدة في التغريب
٢٣	زهور	٧٤	١٨	٪٢٤,٣٢٤	الإنجليزية
٢٤	ساعات وساعاتي	١٣١	٣	٪ ٢,٢٩	الإنجليزية
٢٥	ستوديو (تصوير)	٢٠٥	٥٥	٪٢٦,٨٢٩	الإنجليزية
٢٦	سجاير وحلويات	٣٧٧	١	٪ ٠,٢٦٥	—
٢٧	سينما	٦٠	٢٨	٪٤٦,٦٦٦	الإنجليزية
٢٨	شركة (شركات متنوعة)	٣٢٢١	٨٨٠	٪٢٧,٣٢١	الإنجليزية
٢٩	شركة سياحية	١٨٣	١٣٣	٪٧٢,٦٧٨	الإنجليزية
٣٠	شنط سيدات	٦٠	٥	٪ ٨,٣٣٣	الفرنسية
٣١	صالون حلاقة	٤٦٧	٦٧	٪١٤,٣٤٧	الإنجليزية
٣٢	عصير	٤٥	٣	٪ ٦,٦٦٦	—
٣٣	فندق	٣٠٠	١٣٧	٪٤٥,٦٦٦	الإنجليزية
٣٤	قطع غيار سيارات	٣٦٧	٨	٪ ٢,١٨	الإنجليزية
٣٥	قمصانجي (خياط القمصان)	١٤٦	٧	٪ ٤,٧٩٥	الفرنسية ثم* الإنجليزية
٣٦	قهوة	٢٤٣	١٥	٪ ٦,١٧٣	الإنجليزية
٣٧	كازينو	٧٨	٢٣	٪٢٩,٤٨٧	الإنجليزية
٣٨	كافيتريا	٤٥	٩	٪٢٠	الإنجليزية
٣٩	محل (محلات متنوعة أجهزة/أدوات رياضية/بلاستيك/راديو/روائح)	٣٦٢	٨٢	٪٢٢,٦٥٢	الإنجليزية
٤٠	مخبز	٣٨٨	١٣	٪ ٣,٣٥١	الإنجليزية
٤١	مسرح	٢٨	٢	٪ ٧,١٤٣	—
٤٢	مشغل (بروردي/تطريز/ملابس)	٧٣	٥	٪ ٦,٨٤٩	الفرنسية ثم* الإنجليزية
٤٣	مصبغة	٨٠	٨	٪١٠	الإنجليزية

تابع جدول رقم (٣)

عدد الأسماء المغربة ونسبتها المئويه إلى مجموع الأسماء بكل نشاط وجدت به الظاهرة

م	عنوان النشاط كما ورد بالدليل	العدد الكلي للأسماء بالنشاط	عدد الأسماء المغربة بالنشاط	النسبة المئوية للأسماء المغربة	اللغة السائدة في التغريب
٤٤	مصنع تريكو	١٥٦	٤٠	٪ ٢٥,٦٤١	الإنجليزية
٤٥	مصنع جوارب	٥٩	١٢	٪ ٢٠,٣٣٩	الإنجليزية
٤٦	مصنع ملابس	٨٧	١٥	٪ ١٧,٢٤١	الإنجليزية
٤٧	مصوغات ومجوهرات	٥٢٨	٥	٪ ٠,٩٤٧	الإنجليزية
٤٨	مطبعة	٣٣٥	١٧	٪ ٥,٠٧٥	الإنجليزية
٤٩	مطحن	٦٠	١	٪ ١,٦٦٦	—
٥٠	مطعم	٢٦٠	٣٨	٪ ١٤,٦١٥	الإنجليزية
٥١	معرض (متنوع النشاط)	٨٣	١٠	٪ ١٢,٠٤٨	الإنجليزية والفرنسية
٥٢	معرض سيارات	١٢١	٢٦	٪ ٢١,٤٨٨	الإنجليزية
٥٣	معمل (متنوع النشاط)	٣١	٥	٪ ١٦,١٢٩	الإنجليزية
٥٤	معمل ألبان ومنتجاتها	١٦	٤	٪ ٢٥	الإنجليزية
٥٥	مكتبة وأدوات مدرسية (قرطاسية)	٣٦٣	١٧	٪ ٤,٦٨٣	الإنجليزية
٥٦	ملابس جاهزة	١٦٣	٣٨	٪ ٢٣,٣١٣	الإنجليزية والفرنسية
٥٧	ملهى	٩	٨	٪ ٨٨,٨٨٨	الإنجليزية
٥٨	منتجات خان الخليلي	٧٠	٤	٪ ٥,٧١٤	الإنجليزية
٥٩	مني فاتورة	٤١٠	١١	٪ ٢,٦٨٣	الإنجليزية
٦٠	موبليات وأثاثات معدنية	٤٣٢	٢٣	٪ ٥,٣٢٤	الفرنسية ثم* الإنجليزية
٦١	مؤسسات القطاع الخاص	٤١٠	٦٢	٪ ١٥,١٢٢	الإنجليزية
٦٢	نظارات طبية	٥١	٩	٪ ١٧,٦٤٧	الإنجليزية
٦٣	وكالة	٢٧	٨	٪ ٢٩,٦٢٩	الإنجليزية
	مجموع الأسماء بالأنشطة التي ظهر بها التغريب	١٧٦٥٢	٢٢١٣	٪ ١٢,٥٣٦	الأنجليزية

* عند وجود تقارب كبير في عدد الأسماء المغربة باللغتين ذكرت اللغتان تحت عنوان : اللغة السائدة في التغريب .

جدول رقم (٤)

تصنيف الأنشطة ، وترتيبها تصاعدياً حسب النسبة المئوية لانتشار ظاهرة التغريب بين أسمائها

أقل من ٥٪	من ٥٪ إلى أقل من ١٠٪	من ١٠٪ إلى أقل من ١٥٪	من ١٥٪ إلى أقل من ٢٠٪	من ٢٠٪ إلى أقل من ٢٥٪	من ٢٥٪ إلى أقل من ٣٠٪	من ٣٠٪ إلى أقل من ٤٠٪	من ٤٠٪ إلى أقل من ٥٠٪	من ٥٠٪ إلى أقل من ٦٠٪	من ٦٠٪ إلى أقل من ٧٠٪	من ٧٠٪ إلى أقل من ٨٠٪	٨٠٪ فأكثر
سجاير ٠,٦٥ ترزي ٠,٤٢٨ مصوغات ٠,٩٤٧ ألبان ١,٠٤٧ مطحن ١,٦٦٦ بقالة ١,٦٧ جلود ١,٨٤ أجهزة منزلية ١,٩٣٥ قطع غيار ٢,١٨ ساعاتي ٢,٢٩ جزارة ٢,٣٢٥ خردوات ٢,٦٥٣ منيفاتورة ٢,٦٨٣ مخبز ٣,٣٥١ أصواف ٣,٩٢١ زنكوغراف ٤,٥٤٥ مكتبة ٤,٦٨٣ قمصانجي ٤,٧٩٥ صيدلية ٤,٨٠٣	مطبعة ٥,٠٧٥ موبليات ٥,٣٢٤ منتجات خان الخليلي ٥,٧١٤ حلواني ٥,٧٤ قهوة ٦,١٧٣ عصير ٦,٦٦٦ مشغل ٦,٨٤٩ مسرح ٧,١٤٣ شنط ٨,٣٣٣ جراح ٩,٠٩١	مصبغة ١٠٪ أحذية ١١,٠٧٧ معارض متنوعة ١٢,٣٤٦ أزياء ١٣,٣٣٣ صالون حلاقة ١٤,٣٤٧ مطعم ١٤,٦١٥	مؤسسات ١٥,١٢٢ بوفيه ١٦,١٢٩ معامل متنوعة ١٦,١٢٩ مصنع ملابس ١٧,٢٤١ محلات متنوعة ١٧,٤١ نظارات ١٧,٦٤٧	كافيتريا ٢٠٪ مصنع جوارب ٢٠,٣٣٩ معرض سيارات ٢١,٤٨٨ ملابس جاهزة ٢٣,٣١٣ زهور ٢٤,٣٢٤	معمل ألبان ٢٥٪ مصنع تريكو ٢٥,٦٤١ ستوديو ٢٦,٨٢٩ شركة ٢٧,٣٢١ كازينو ٢٩,٤٨٧ بازار ٢٩,٥٧٧ وكالة ٢٩,٦٢٩	—	أفلام ٤٠,٦٧٨ بوتيك ٤٢,١٠٥ ديكور ٤٤,٤٤٤ فندق ٤٥,٦٦٦ سينما ٤٦,٦٦٦	—	بنسيون ٦٢,٠٦٩	شركات سياحة ٧٢,٧٨ بار ٧٢,٧٢٧	الكترو ٨٦,٦٦٦ ملهى ٨٨,٨٨٨

مدى ارتباط الأنشطة المختلفة باللغات الأجنبية في التغريب :

من الجدول رقم (٣) يمكننا أن نلاحظ ما يأتي :

(١) شيوع اللغة الإنجليزية ، بوصفها لغة سائدة ، بين الأسماء المغربة في معظم الأنشطة التي ظهر بها التغريب .

(٢) تسود اللغة الفرنسية بين الأسماء المغربة في مجالات الأنشطة التالية :
أزياء - بوتيك - حقائب - خردوات - قمصانجي - مشغل . وقد يرجع ذلك إلى ارتباط هذه الأنشطة بالمظهر الخارجي ، وعلاقة ذلك بالأناقة ، ومحاولة ربطها بفرنسا ، مما قد يضفي على منتجاتها طابع الجدة والحداثة والتطور ، إلى جانب الذوق الرفيع .

كما تسود الفرنسية أيضاً في نشاطي : بار وموبيليات .

(٣) لم تسد لغة بعينها في المجالات الآتية : أجهزة منزلية - أصواف - ألبان - بوفيه - جلود - زنكوغراف - سجاير - عصير - قهوة - مسرح - مطحن - معرض ملابس جاهزة . وقد ظهر ذلك - بعد إخضاع الأسماء لضوابط البحث ، واستبعاد اللغات الأخرى ، والمختصرات ، والأسماء المنحوتة ، وأسماء الأماكن - في الحالات التالية :

(أ) أن لا يحتوي النشاط على أي من اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية ، ولا تسود لغة أخرى بذاتها فيه ، وذلك كما في نشاط (جلود ومصنوعات جلدية) .

(ب) أن يتساوى عدد أسماء اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وهذا واضح في أنشطة : بوفيه - قهوة - معرض - ملابس جاهزة .

(جـ) أن يحتوي النشاط على إسم واحد ، بإحدى اللغتين المذكورتين ، كما جاء في (مطحن) : فقد استخدمت فيه اللغة الفرنسية في إسم (بون

مارشيه) ، كما استخدمت اللغة الإنجليزية في كل من أجهزة (روبرت هاوس) ، وزنكـوغراف (رويال) ، وألبان (هاي لايف) . ولا يمكن القول أن اللغة سائدة في مجال لم يتضمن سوى كلمة أجنبية واحدة .

(د) أن يحتـوي النشاط على إسم -أو أكثر- تشترك فيه أكثر من لغة ، كما في سجاير (لوكس) ، ومسرح (متروبـول) وهما إسمان مشتركـان في الإنجليزية والفرنسية ، و(أصواف) : (مودرن) و(أوريجينال) ، وهما كلمتان مشتركتان في الإنجليزية والفرنسية أيضاً ، وكذلك في (عصير) (جوس) : وهي كلمة مشتركة في الإنجليزية والألمانية .

مدى ارتباط التغريب بالأنشطة والتخصصات المختلفة :

يلاحظ من الجدولين السابقين (٣) ، (٤) ما يأتي :

(١) تقل نسبة شيوع ظاهرة التغريب في النشاط الحرفي ، مثل : ترزي ، جلود ومصنوعات جلدية ، ساعاتي ، زنكوغراف ، قمصانجي ، مطبعة ، أثاث (موبيليات) ، منتجات خان الخليلي ، مشغل .

(٢) يقل شيوع الظاهرة أيضاً في مجال تجارة المواد الغذائية ، والاستهلاكية ، وكذلك في أنشطة الخدمات ، مثل : سجاير – ألبان – مطحن – بقالة – أجهزة وأدوات منزلية – قطع غيار سيارات – جزارة – خردوات – مخبز – مكتبة – صيدلية – حلواني .

(٣) كما تقل نسبة شيوع الظاهرة أيضاً في مجالي تجارة المصوغات وتجارة الأقمشة (منيفاتورة وأصواف) ، في حين تزداد النسبة شيوعاً في تجارة الملابس الجاهزة ، وكذلك في مصانع الملبوسات (الملابس فالجوارب فالتريكو) .

(٤) يبـدو مدى اختلاف شيوع الظاهرة في المجالات المتقاربة إذا قارنا نسبة انتشارها بين الأنشطة التالية : (حلواني وفطاطري ، قهوة[1] ، عصير) من جانب وبين (مطعم ، بوفيه ، كافيتريا ، كازينو) من جانب آخر ، وطبيعة

(١) أقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة إسم (القهوة) بمعنى المكان الذي تشرب فيه : مجلة مجمع اللغة العربية جـ٩ – ص١٢٩ ، جهود مجامع اللغة العربية : ص٣١٩ .

النشاط متقاربة في الجانبين . وكذلك إذا قارنا مدى شيوعها في كل من : (محلات متنوعة) ، و(بوتيك) ومعناهما ونشاطهما متقارب أيضاً .

(٥) يلاحظ أن أعلى نسبة للتغريب تبدو في نشاط (ملهى) ، وكذلك في (بار) وفي نشاط شركات السياحة ، وفي (بنسيون) وفندق . ولا يخفى ما لأماكن اللهـو والإقامة في تلك النزل من ارتباط بالأجانب ، وكذلك ما لتعامل شركات السياحة معهم . ومن ثم كان هناك سبب مفهوم لانتشار الظاهرة بنسبة كبيرة في تلك المجالات .

(٦) أما عن انتشار الظاهرة بوضوح في مجال أعمال الكهرباء والالكترونيات ، وفي مجال الـديكـور ، والمحـال الصغـيرة (بوتيك) ، والشركات بأنواعها المختلفة وشركات الأفلام : (شركات متنوعة النشاط) ، وكذلك الوكالة ، والبازار ، ومحال التصوير (ستوديو) ، والزهور ، فهذا يعطينا مؤشراً واضحاً لهبوب رياح هذه الظاهرة على الشارع التجاري المصري .

ويستعرض الجدول رقم (٥) مدى انتشار الأسماء المغربة في الأحياء السكنية بالقاهرة . وقد وزعت الأحياء السكنية بالقاهرة الكبرى على تسع مناطق هي :

(١) منطقة وسط القاهرة ، وتشمل أحياء العتبة - قصر العيني - جاردن سيتي - التحـرير - رمسيس - باب اللوق - الفجالة - عابدين ، إلى جانب شوارع وسط القاهرة .

(٢) منطقة مصر الجديدة ، وينضم إليها مدينة نصر - المقطَّم - الدراسة - جسر السويس - ألماظة - الخانكة - أول طريق الاسماعيلية .

(٣) منطقة الزمالك ، وينضم إليها الدقّي - العجوزة - مِيتْ عُقْبة - مدينة الأوقاف - مدينة الأعلام - مدينة الصحفيين - مدينة المهندسين .

(٤) منطقة الجيزة ، وتضم إلى جانبها الهرم - المنْيل - إمبابة - بين السَّرايات - بولاق الدكرور - كفر الجبل - نزلة السَّمان - أول طريق القاهرة الأسكندرية الصحراوي .

(٥) منطقة حدائق القبة ، ويضم إليها العبَّاسية - الظاهر السَّكاكِيني - الزيتون - غَمرة - الشَّرابيّة - عين شمس - المَطَرية .

(٦) منطقة القلعة ، وتضم إلى جانبها الحِلْمية الجديدة ، باب الخَلْق - الجمالية - المغربلين - الخليفة - الموسكي - المنيرة - لاظوغلي - السيدة زينب - مصر القديمة .

(٧) منطقة شبرا ، وينضم إليها السَّبتية - روض الفرَج - الساحل - بُولاق - الأميرية - السوَّاح - أول طريق القاهرة الأسكندرية الزراعي .

(٨) منطقة حلوان ، وتشمل أيضاً المعادي - البساتين - طُرَة - دار السلام - مار جرجس - كوتسيكا - والمناطق الواقعة على طريق القاهرة حلوان .

(٩) مناطق أخرى ، وهي ما تشتمل عليه القاهرة الكبرى ، خارج المناطق السابقة ، مثل : قليوب - أوسِيم .

جدول رقم (٥)
توزيع الأسماء المغربية بكل نشاط على الأحياء السكنية بالقاهرة الكبرى

نوع النشاط	عدد الأسماء المغربية بالأحياء السكنية									مجموع الأسماء المغربية بالنشاط	العدد الكلي للأسماء بالنشاط
	وسط القاهرة	مصر الجديدة	الزمالك	الجيزة	حدائق القبة	القلعة	شبرا	حلوان	مناطق أخرى		
الصيدليات	١١	١٣	٨	٥	٤	١	٢	–	–	٤٤	٩١٦
أجهزة وأدوات منزلية	٣	–	–	–	–	–	–	–	–	٣	١٥٥
أحذية ولوازمها	٥٤	٤	–	٢	١	٥	٣	–	٣	٧٢	٦٥٠
أزياء وتصميمها	١٢	٢	–	٢	٢	–	١	–	١	٢٠	١٥٠
أصواف	٢	–	–	–	–	–	–	–	–	٢	٥١
أفلام (إنتاج وتوزيع)	١٦	٢	١	٤	–	–	–	–	١	٢٤	٥٩
ألبان ومنتجاتها	١	–	–	–	–	١	–	–	–	٢	١٩١
الكترو	٧	–	٢	–	–	–	٣	–	١	١٣	١٥
بار	٧	١	–	–	–	–	–	–	–	٨	١١
بازار	١٥	٢	٢	١	–	١	–	–	–	٢١	٧١
بقالة وسوبر ماركت	٧	٩	٣	–	–	٢	٢	٦	٢	٣١	١٨٥٦
بنسيون	١٥	–	٢	–	–	–	–	١	–	١٨	٢٩
بوتيك	١٥	٢	٦	–	–	–	١	–	–	٢٤	٥٧
بوفيه	٥	–	–	–	–	–	–	–	–	٥	٣١
ترزي	١	١	١	١	–	–	١	–	–	٥	١١٦٩
جراج	٨	١	–	–	١	–	٣	–	٢	١٥	١٦٥
جزارة	٧	–	١	–	–	–	–	–	–	٨	٣٤٤
جلود ومصنوعات جلدية	٢	–	–	–	–	١	–	–	–	٣	١٦٣
حلواني وفطاطري	١٠	٢	٢	–	–	١	٣	١	–	١٩	٣٣١
خردوات	٧	–	٣	–	١	١	١	١	٢	١٦	٦٠٣
ديكور	١	١	١	–	–	–	–	١	–	٤	٩
زنكوغراف	١	–	–	–	–	–	–	–	–	١	٢٢

تابع جدول رقم (٥)

توزيع الأسماء المغربة بكل نشاط على الأحياء السكنية بالقاهرة الكبرى

نوع النشاط	عدد الأسماء المغربة بالأحياء السكنية									مجموع الأسماء المغربة بالنشاط	العدد الكلي للأسماء بالنشاط
	وسط القاهرة	مصر الجديدة	الزمالك	الجيزة	حدائق القبة	القلعة	شبرا	حلوان	مناطق أخرى		
زهور	٩	٥	٣	١	–	–	–	–	–	١٨	٧٤
ساعات وساعاتي	٢	١	–	–	–	–	–	–	–	٣	١٣١
ستوديو	٣١	٦	٤	٢	٦	١	٥	–	–	٥٥	٢٠٥
سجاير وحلويات	–	–	–	–	–	–	–	١	–	١	٣٧٧
سينما	١٤	٦	١	٣	٢	–	٢	–	–	٢٨	٦٠
شركة متنوعة النشاط	٣٧٨	١٠٤	١٨٥	٥٦	٣٦	٢٩	٣٨	٤١	١٣	٨٨٠	٣٢٢١
شركة سياحية	٨٥	٥	٢٦	١١	–	٢	–	٢	٢	١١٣	١٨٣
شنط سيدات	٥	–	–	–	–	–	–	–	–	٥	٦٠
صالون حلاقة	٢٤	١١	٩	٢	١٠	٢	٣	٤	٢	٦٧	٤٦٧
عصير	١	–	٢	–	–	–	–	–	–	٣	٤٥
فندق	٦٠	١٧	٢٨	١٦	١	٤	٢	–	٩	١٣٧	٣٠٠
قطع غيار سيارات	٣	–	–	١	–	–	٣	–	١	٨	٣٦٧
قمصانجي	٣	١	–	–	١	١	١	–	–	٧	١٤٦
قهوة	١٠	٢	–	١	–	١	١	–	–	١٥	٢٤٣
كازينو	٣	٣	٤	٩	–	–	٣	١	–	٢٣	٧٨
كافيتريا	٦	–	٢	١	–	–	–	–	–	٩	٤٥
محل (متنوع النشاط)	٤٩	١٣	٨	٢	٣	٢	٣	–	٢	٨٢	٣٦٢
مخبز	٦	٢	–	–	٢	–	١	١	١	١٣	٣٨٨
مسرح	٢	–	–	–	–	–	–	–	–	٢	٢٨
مشغل	١	–	١	١	١	١	–	–	–	٥	٧٣
مصبغة	٢	١	١	–	١	٣	–	–	–	٨	٨٠
مصنع تريكو	١٧	١	–	٢	٩	٥	٤	–	٢	٤٠	١٥٦
مصنع جوارب	٤	–	–	–	٣	٤	١	–	–	١٢	٥٩

تابع جدول رقم (٥)

توزيع الأسماء المغربية بكل نشاط على الأحياء السكنية بالقاهرة الكبرى

نوع النشاط	عدد الأسماء المغربية بالأحياء السكنية									مجموع الأسماء المغربية بالنشاط	العدد الكلي للأسماء بالنشاط
	وسط القاهرة	مصر الجديدة	الزمالك	الجيزة	حدائق القبة	القلعة	شبرا	حلوان	مناطق أخرى		
مصنع ملابس	٥	–	–	–	٢	٤	١	–	٣	١٥	٨٧
مصوغات ومجوهرات	٢	٣	–	–	–	–	–	–	–	٥	٥٢٨
مطبعة	١٣	–	–	–	١	١	١	–	١	١٧	٣٣٥
مطحن	–	–	–	١	–	–	–	–	–	١	٦٠
مطعم	٢١	٣	٧	٥	–	–	١	١	–	٣٨	٢٤٠
معرض (متنوع النشاط)	٧	–	–	١	٢	–	–	–	–	١٠	٨٣
معرض سيارات	٩	–	١٢	١	١	–	١	١	١	٢٦	١٢١
معمل (متنوع النشاط)	–	–	–	٢	١	–	١	–	١	٥	٣١
معمل ألبان ومنتجاتها	٢	١	–	–	–	–	١	–	–	٤	١٦
مكتبة وأدوات مدرسية	٧	٥	١	–	١	٢	–	١	–	١٧	٣٦٣
ملابس جاهزة	٣٢	٢	–	–	١	١	١	–	١	٣٨	١٦٣
ملبس	٤	١	–	٣	–	–	١	–	–	٨	٩
منتجات خان الخليلي	١	–	٢	١	–	–	–	–	–	٤	٧٠
منيفاتورة	٩	–	–	١	–	١	–	–	–	١١	٤١٠
موبليات وأثاثات معدنية	٩	٣	٤	١	٣	٢	١	–	–	٢٣	٤٣٢
مؤسسات القطاع الخاص	٤٠	٣	١٠	٥	–	١	١	١	١	٦٢	٤١٠
نظارات طبية	٨	–	–	–	–	–	١	–	–	٩	٥١
وكالة	٤	–	٢	٢	–	–	–	–	–	٨	٢٧
مجموع الأسماء المغربية بكل منطقة سكنية	١٠٩٤	٢٣٩	٣٤٤	١٤٦	٩٧	٧٩	٩٨	٦٤	٥٢	٢٢١٣	المجموع الكلي للمغربي

مدى ارتباط ظاهرة التغريب بالتوزيع الجغرافي :

من الجدول رقم (٥) نلاحظ ما يأتي :

(١) تسود الظاهرة منطقة وسط القاهرة . ويبلغ عدد الأسماء المغربة بها ١٠٩٤ إسماً ، من مجموع الأسماء المغربة الذي يبلغ ٢٢١٣ إسماً ، أي بنسبة ٤٣٥ , ٤٩٪ من مجموع الأسماء المغربة بالعينة .

(٢) ويليها منطقة الزمالك وما ضم إليها ، حيث وجدت بها الظاهرة في ٣٤٤ إسماً ، أي بنسبة ٥٤٤ , ١٥٪ من العدد الكلي للأسماء المغربة بالعينة .

(٣) وتأتي منطقة مصر الجديدة -وما ينضم إليها- في المرتبة الثالثة وقد بلغ عدد الأسماء المغربة بها -كما ظهر بالعينة- ٢٣٩ إسماً ، أي بنسبة قدرها ٧٩٩ , ١٠٪ من مجموع الأسماء المغربة الواردة بالعينة .

(٤) أما منطقة الجيزة وما ضم إليها ، فقد ظهر بها ١٤٦ إسماً مغرباً ، أي بنسبة قدرها ٥٩٧ , ٦٪ من مجموع الأسماء المغربة بالعينة .

(٥) وقد تقاربت أعداد الأسماء المغربة في منطقتي شبرا وحدائق القبة ، وما ضم إليهما ، ويبلغ عدد الأسماء المغربة في المنطقة الأولى منهما ٩٨ إسماً ، أي بنسبة قدرها ٤٢٨ , ٤٪ ، كما بلغ عدد الأسماء المغربة في المنطقة الثانية منهما ٩٧ إسماً ، أي بنسبة ٣٨٣ , ٤٪ من مجموع الأسماء المغربة بالعينة .

(٦) كانت مناطق القلعة وحلوان -وما ضم إليهما- ثم المنطقة الأخيرة ، أقل المناطق استخداماً للكلمات المغربة : فقد بلغ عدد الأسماء المغربة في القلعة ٧٩ إسماً ، وفي حلوان ٦٤ إسماً ، أما المنطقة الأخيرة فقد بلغ العدد بها ٥٢ إسماً ، أي بنسب قدرها ٥٧ , ٣٪ ، ٨٩٢ , ٢٪ ، ٣٥ , ٢٪ على التوالي ، من مجموع الأسماء المغربة الواردة بالعينة .

ويبدو أن الزيادة الكبيرة في نسبة شيوع الظاهرة في المناطق الثلاث الأولى ترتبط بكثافة المحالّ التجارية في تلك المناطق .

كيفية تدوين الألفاظ المغربة :

لم تقع كيفية تدوين الألفاظ المغربة ضمن أهداف الدراسة ، نظراً لأنها اعتمدت دليل الهاتف مصدراً لها . ولا يخفى ما يشوب الكلمات المغربة -أحياناً- من تصحيف عند تدوينها به ، لصعوبة قراءتها باللغة الأجنبية أثناء تدوين الدليل تارة ، ولحدوث أخطاء مطبعية أثناء الطباعة تارة أخرى ، مما لا يسمح بدراسة تدوين الكلمات المغربة بدقة .

أنواع التغريب

بعد استقراء الأسماء التي رصدت بالدليل ، ومحاولة تصنيفها ، لاحظت الباحثة أن الأسماء المغربة يمكن تقسيمها إلى قسمين :

أولهما : ما إندمجت فيه الكلمة الأجنبية في اللغة العربية(*) ، بعد أن اكتسبت الطابع العربي ، وازداد شيوعها في اللهجة العامية بعد أن تبنتها هذه اللهجة ، وأكسبتها القوالب العربية ، وأخضعتها للذوق اللغوي العربي .

مثال ذلك الكلمات : موبليا - موتور - ديكور- أوتومبيل - كونتيننتال - أوتوبيس - إكسبريس - بلاستيك - ماكينة - برودري - تريكو - كريستال - كرنفال - منيفاتورة - فوتوكوبيا - فابريكة - تكنولوجيا - بازار - سنترال - مترو - فيلم - بوتاجاز - فيديو - ستوديو - سينما - تلفزيون . فنحن - حين ننظر إلى التراكيب التالية - نجد بعض الأسماء السابقة استخدمت فيها مضافة إلى غيرها : (أوتوبيس الوادي - إكسبريس الصعيد - بازار الموسكي - تكنولوجيا العصر الحديث - فوتوكوبيا الشرق - صيدلية سنترال الروضة - الشركة العامة لاستوديوهات السينما - منيفاتورة كرنفال الموسكي - برودري سلطان - مترو الأنفاق) .

كما نجد أن الإسم الدخيل وقع مضافًا إليه في التراكيب التالية : (بقالة السنترال - بازار الكونتننتال - الشركة المصرية لأعمال البوتاجاز - صناعات البلاستيك - عصفور لصناعة الكريستال - شركة المنيفاتورة) .

ونجد أن الإسم الدخيل مجموع جمع مؤنث سالماً ، أو جمع تكسير ، في التراكيب التالية : (أوتومبيلات الغربية - الشركة المتحدة للاستوديوهات

(*) ذكر في ضوابط الدراسة أن هذا القسم لم يدخل ضمن الحصر الخاص بعدد الأسماء المغربة بالعينة .

- العروبة للموبيليات - الوادي لماكينات الخياطة - الشرق لتوزيع الأفلام) .

ونجد أن الإسم الدخيل قد اتصلت به أداة التعريف العربية (أل) في بعض التراكيب السابقة ، وكذلك في التراكيب التالية : (العربية للتكنولوجيا - الأهلية للفوتوكوبيا - النصر للتليفزيون - السويس لتوزيع البوتاجاز - الشركة العربية للسينما - القاهرة للتريكو - المتحدة للديكور - النيل للبلاستيك) .

ونجد أيضاً أن الإسم الدخيل قد وقع موصوفاً أو صفة في التراكيب التالية :

(الفابريكات المصرية - معرض بيع موتورات كهربائية - البازار النوبي - مصر للموبيليات الذهبية - الفنية للإنتاج السينمائي) .

ونلحظ في التركيب الأخير أن الإسم الدخيل قد إتصلت به ياءالنسبة ، كما نلحظ أنه عطف على غيره في التركيب الآتي : (العربية للنسيج والتريكو) . كل هذا يدلنا على أن لغتنا قد استوعبت تلك الكلمات ، وتمثلتها ، وعاملتها معاملة الأسماء العربية ، مما فرض على الباحثة أن تنظر إليها نظرة الكلمات المعربة التي دخلت في نسيج اللغة العربية وصارت منها ، فلم تدرجها ضمن الدخيل الذي تم إحصاؤه أثناء الدراسة .

وثانيهما : ما جاءت فيه الكلمة ، أو التركيب الأجنبي تماماً كما هوبلغته الأصلية ، ولكنه كتب بحروف عربية . وينقسم - كما ظهر بالعينة إلى خمسة أنواع :

(أ) حروف هجائية أجنبية - ومنها ما يكون اختصاراً أو رموزاً لكلمات - أو أرقام أجنبية فقط ، أو أرقام وحروف . فمثال الحروف التي قد يرمز بعضها إلى كلمات : (مؤسسة إِنْ - تي تي للسياحة - إِنْ إن - آر إِن للتجارة الدولية - في آيْ بي للسياحة - إِنْ تي تي في - إيه يُو سي للاستثمار - في إِسْ كيه جروب - إِنْ سي إن كُورْبُورِيشَن) .

ومثال الأرقام : (وَانْ تُو) ، ومثال الأرقام والحروف : (دَبل إِمْ - فور إم - نَاينْ إِم للإسكان) .

(ب) نقل الكلمة الواحدة كاملة من لغتها الأصلية ، وكتابتها بالحروف العربية . مثل الكلمات الفرنسية (كادو - سواريه - لافي - لامور - نوفو - إيجيبسيان) ، والكلمات الإنجليزية : (ستاندارد - رويال - ليكس - سوان - بيراميدز - سِفِنْكس - ناشيونال - أورْيَنت - بيكنْك - دياموند - انجينير - اكسبورت - مَاذَرْهُود - فالي - إمبريال - تُوب - كايرو - مون - سِلّكت - لَكِي - ستار - ستي) ومن اللغات الأخرى اليونانية والإيطالية- : (تاقِرْنا - سِنْيوريتا) .

(جـ) نحت كلمة من كلمتين أجنبيتين أو أكثر . والنحت مصطلح لغوي يعني استخلاص كلمة واحدة من أكثر من أصل[1] ، ومن أمثلة النحت الذي ورد بالعينة :

---

(١) قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ما يأتي : «النحت ظاهرة لغوية احتاجت إليها اللغة قديمة وحديثاً . ولم يلتزم فيه الأخذ من كل الكلمات ولا موافقة الحركات والسكنات . وقد وردت من هذا النوع كثرة تجهيز قياسيته ، ومن ثم يجوز أن ينحت من كلمتين أو أكثر إسم أو فعل ، على أن يراعى - ما أمكن - استخدام الأصلي من الحروف دون الزوائد . فإن كان المنحوت إسماً اشترط أن يكون على وزن عربي ، والوصف منه بإضافة ياء النسب ، وإن كان فعلاً كان على وزن فعلل أو تفعلل ، إلا إذا اقتضت غير ذلك الضرورة . وذلك جرياً على ما ورد من الكلمات المنحوتة» .

- البحوث والمحاضرات : الدورة ٣١ ، ص٢٠١ ، جهود مجامع اللغة العربية ص٣٤٠ .

(اجيبكو) و (جبشكو) ، وهما كلمتان منحوتتان من الإنجليزية .

	Egyptian Company
(ارتكس) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Arabic Textile
(ألبرو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Aluminum Products
(الوكول) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Aluminum Colours
(انجيكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Engineering Company
(انفودكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	International Food Company
(انكون) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Engineering Construction
(بارفيكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Perfume Company
(باريفابكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Pre-Fabrication Company
(ترافكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Travel Company
(كيمكو) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Chemical Company
(ماك) كلمة منحوتة من الإنجليزية	Misr America Carpets

ويندرج تحت هذا النوع ما كانت إحدى الكلمات المنحوت منها إسماً لشخص ، مثل : (فارولكس) فهي منحوتة من (فاروق + لوكس) ، وكذلك (جنيكو) منحوتة من (جنينة + كو) ، والمقطع (كو) يمكن أن يكون اختصاراً للكلمة الإنجليزية (Company) ، أي : شركة جنينة - إسم الشخص - كما يعطي المقطع (كو) أيضاً إيحاء بالإضافة إلى ضمير الجمع في العامية المصرية ، أي : الخاص بكم . وأيضاً (شيمكو) منحوتة من (الشيمي + كو) و (أسامكو) من (أسامة + كو) ، و (آيوبكو) و (منيركو) و (سليمكو) و (حنانكو) ، (جمالكو) و (مطركو) .

(د) تركيب أجنبي من كلمتين أو أكثر ، وتكون كل كلماته أجنبية ، إلى جانب خضوعه لأنماط التراكيب الأجنبية ، وأمثلته من الإنجليزية (سيرنج تورز - تريبل بي - أوفر سيز - ترافيل اكسبريس أوف ايجيبت - انجلو اجيشيان

بروفشن ستورز - سوبر ترانزيت - ووش ماتيك - الكترو موتورز - فوتو شوب - سنترال موتور هاوس - انتر ماركتيس - كير سيرفيس - نيو جنرال فارم - فيرست كايرو تريدنج - سبورت جروب - جولدن شوب - هابي سويت - ديكـر بوي - جيو فيزيكال سرفيس - كومنتور انفستمنت - جنرال تريد كومباني - تكني تريد سنتر) ، وأمثلته من الفرنسية : (لادام شي - باري مود - فيلا دي بارك - جولي فيل) .

(هـ) تركيب مشـوه غريب على العـربية ، لا يدخل ضمن التراكيب اللغوية العـربية ، أو هو تشـويه للتركيب اللغوي العربي ، ويكون من مكوناته كلمات عربية ، مثل : (دنيا موتورز - جزيرة بالاس - طاهر فيلم - عبيد هاوس - مروة بالاس - فلفل بازار - الاتحاد بالاس - عيد هاوس - عنتر فوتو ستورز - الدقي فيديو فيلم - النيل إكسبريس - الشمس بيراميدز - سريع فوتو ستورز - شركة المصرية أتوموتيف - النيل هيلتون - نورا أوتيل - النيل جاردن - الجـزيرة شيراتـون - النيل زمـالـك - النيل سافوي ا لسـلام هيات - رمسيس هيلتون)[1] . فنحن نلاحظ - في التراكيب السـابقـة - أن المضـاف إليه قد سبق المضاف ، أو أن الصفة سبقت الموصوف ، وأن المضاف تتصل به أداة التعريف العربية أحياناً ، وهذا لا يتفق هو والتراكيب الصحيحة للغتنا العربية .

وهذا النوع هو أخطر الأنواع على لغتنا العربية ، لأنه يقلب أوضاعها ويشوه تراكيبها ، ويخل ببنائها ، مما يفسد الحس اللغوي ، ويؤثر على تذوق اللغة عند أبناء العربية . ولهذا يجب علينا التصدي بشدة لوقفه ومقاومته ، حتى لا يشيع فيضعف الذوق اللغوي عند النشئ .

وقد يكون التركيب الغريب خاضعاً لنمط العربية في الرصف ، ولكن مكوناته

---

(١) د. نصار : (العربية لغتنا) .

تعـطيك إحساساً بالرطانة والغربة عن العربية ، مثل : (تورز زمالك) : فهو يخضع لنمط التركيب العربي ، ويعني (رحلات الزمالك) ، ولكن إحدى كلماته إنجليزية ، ولو قلب التركيب إلى (زمالك تورز) لخضع لنمط التركيب العربي ، ويعني (رحلات الزمالك) ، ولكن إحدى كلماته إنجليزية ، ولو قلب التركيب إلى (زمالك تورز) لخضع لنمط التركيب الإضافي - المضاف والمضاف إليه - في اللغة الإنجليزية . ولكن وضعه بهذه الكيفية حقق تشويهاً لكل من اللغتين العربية والإنجليزية . وكذلك فندق (بيراميدز الأهرام) يخضع لنمط التركيب العربي ، ولكن الكلمتين معناهما واحد ، والأولى بالإنجليزية والثانية بالعربية ، والأولى تعرب مضافاً والثانية تعرب مضافاً إليه ، فكيف يضاف الشيء إلى نفسه من غير سماع أو تأويل ؟ ولا يشفع في ذلك أن كلمة (الأهرام) هنا يقصد بها شارع الأهرام في مصر الجديدة .

العوامل التي ساعدت على انتشار ظاهرة التغريب في الشارع المصري :

لعل ما أبرزته نتائج الدراسة -في حدود عينتها- حول حجم ظاهرة التغريب ، ونسب انتشارها في مختلف الأنشطة والأحياء السكنية ، يؤكد ما تحمله الظاهرة من مخاطر تهدد لغتنا القومية . فإذا أخذنا في الاعتبار أن هذه الدراسة توقفت في رصد الظاهرة عند منتصف ١٩٨٢ ، واستبعدت الكثير من الأسماء المغربة وفقاً للضوابط التي وضعتها ، إلى جانب الشواهد العديدة التي نلحظها بالشارع المصري الآن ، وتشير إلى تزايد الظاهرة عن ذي قبل . فإن الأمر يستدعي ضرورة العمل على سرعة التصدي لها ، ويطرح في ذلك الوقت تساؤلاً حول الأسباب التي أدت إلى انتشار الظاهرة على هذا النحو .

وفي محاولة للرد على هذا التساؤل ، مع مراعاة مختلف العوامل والظروف التي صاحبت الظاهرة ، فإن التحليل الموضوعي يمكن أن يعزي انتشارها إلى الأسباب التالية :

(١) قصـور الـوعي اللغوي لدى غالبية أفراد الشعب ، وعدم حرصهم على التمسك بلغتهم القومية ، على الرغم من أنها تأتي على رأس عوامل القومية في الأمة ، وتعد سمة هامة تميز الشخصية العربية ، وركناً بارزاً من أركان الكيان العربي ، وتتفق الباحثة في هذا الرأي مع د. مطر[١] .

(٢) شيوع الدراسة باللغات الأجنبية ، وإقبال الأعداد الهائلة من أفراد الشعب على إلحاق أبنائهم بمدارس اللغات ، التي تكون لغة التخاطب فيها داخل قاعات الدروس وخارجه هي اللغة الأجنبية ، فتخلق بذلك جيلاً يشعر بالإنتماء إلى البلد الأجنبي ويجري على لسانه نطق اللغات الأجنبية بصورة أسلس من لغته العربية .

(٣) ما يسـود المنـاخ العـربي -الآن- من الانبهار بالغريب[٢]، وبكل ما هو مستـورد ، والنظر إليه نظرة الإعجاب بتميزه ، والإحساس بتفرده وعلوه على نظيره الـوطني ، وبـأنه الأجود ، والأقوى تحملاً ، والأجمل شكلاً ، والأكثر أناقة وذوقاً ، والأعلى كفاءة[٣].

وقد يكون ذلك راجعاً إلى الرواسب القديمة التي تعود جذورها في مصر إلى أيام الاحتلال ، وما غرسه المستعمر من الشعور بتفوق الأجنبي وتميزه ، (عقدة الخواجة) التي طفت على السطح الآن ، وأدت إلى إطلاق الأسماء الأجنبية على أنواع النشاط المختلفة ، لتعطي انطباعاً بأنها تقدم سلعة أجنبية ، أو خدمة متميزة . وقد انسحبت هذه التسميات على أنواع الأنشـطة المختلفـة مثل : صالون (ديبوتييه - دي لوكس - اليجانت - مودرن) وشركة (توب آرت - سي هورس - لايتهاوس - جود كار - هابي اكسبورت) وزهور (فريش فلاورز) ، وأحذية (سيلفر شوز وآرت شوز) ، بل ان تأثـيرهـا امتـد إلى أسـماء الأماكن الترفيهية أيضاً ، مثل : كازينو

(١) د. مطر : (رياح التغريب) ، في النقد اللغوي ص٢٣٦ .
(٢) د. بشر : (التغريب في اللغة والثقافة) ص٢٠ . (٣) د. مطر : في النقد اللغوي ص ٢٣٥

(ميرلاند - هابي لاند - سولت آند بيبر - باراداي) ، وكافيتريا (نيوستار - توت اكسبريس - بوسي كات) .

ويتصل بالعامل السابق أن يتصور بعض أصحاب الأنشطة أن الإسم الأجنبي يوحي للجمهور أن يقدم شيئاً ذا مستوى رفيع ، وللفئات المتميزة الراقية ، مثل : جزارة (هاي لايف - بون فياند) وترزي (لارج - كلارك) ، أحذية (جرين شوز - ليدر فارن - وتعني بالألمانية المصنوعات الجلدية) ، صالون (دي باري - تريه شيك - هاي آرت) ، ساعات (جوست - جولد ووتش) ، ومن الأنشطة الأخرى : (انترناشيونال ماركت - كراون كيميكال - مودرن موتورز - جولدن فارم - ريش جاليري - اتيلييه مودرن - سوبر هيت - تستي فودز - برفكت - بريليانت) .

(٤) تشجيع الحركة السياحية ، والعمل على إنعاشها - بوصفها أحد مصادر الدخل القومي - أدى إلى افتتاح فروع للفنادق العالمية الشهيرة ، وإلى تكرارها أحياناً ، بحيث يتحدد الإسم بموقعه ، مثل : (النيل هيلتون - رمسيس هيلتون - الجزيرة شيراتون - سونستا / كايرو) . ولما كانت إداراتها أجنبية - في الغالب - فقد استخدمت التراكيب الأجنبية فيها .

كما أدى تشجيع السياحة إلى زيادة عدد الفنادق والمنشآت السياحية ، واتخاذ أسماء أجنبية لها ، وكتابتها بالحروف العربية والأجنبية ، تسهيلاً على السائحين العرب والأجانب ، لكي يقرأها كل بلغته ، مثل : (سويس كوتاج - توريست بالاس - برزدنت - دريمرز - هورس هاوس - جران أوتيل - نيو وولد) .

(٥) ويتصل بالعامل السابق زيادة عدد الشركات السياحية بصورة كبيرة لمواكبة الزيادة الواضحة في نشاط السياحة الداخلية والخارجية واتخاذ معظم هذه

الشركـات أسـماء أجنبية براقـة ، وكتـابتهـا باللغة الأجنبية ، إلى جانب الحروف العربية ، لكي تخدم قارىء كل لغة من الأجانب والعرب ، إلى جانـب المصريين . ومـن أمثلة أسـماء تلك الشركـات : (بست تورز انترناشيونال سان تورز - جودلن تورز - جراند تورز - توب تورز - زد تورز - فلاينج كاربت - فلاينج ايجيل - صاني لاند - صحاري ترافيل - جرين فالي - هاف مون - هني مون - هوليداي دريمز -هولي لاند) .

(٦) الهجـرة المؤقتة والدائمة ، وتشجيعها من قبل الدولة ، وإنشاء وزارة خاصة بها ، تهتم بالمهاجرين ، وتعمل على حل مشكلاتهم من خلال اللقاءات الدورية التي تنظمها لهم مع المسئولين ، وتحاول جذب مدخراتهم لاستثمارها داخل بلدهم . وقد أدى ذلك إلى الزيادة الكبيرة في أعداد المهاجرين ، كما ساعد الاغتراب على تغيير أنماط تفكيرهم ، مما يؤدي بهم - عند عودتهم - إلى إنشـاء أنشـطة خاصة بهم ، أو الإسهام في الأنشطة التي تشبعوا بها وشاهدوها عن قرب ، واختيار أسماء تعكس صلتهم بالعالم الخارجي .

(٧) التقـليـد : فقـد يعجب أحـدهم بإسم أجنبي لمكـان أو متجـر زاره أثناء سياحة ، أو سمع عنه لشهرته ، فيكتبه على واجهة متجره ، ثم يأتي آخر ليقلده[١] . وهكذا نقرأ أسماء مثل : (اكسفورد هاوس - ريجنت هاوس - بيج بن - بيكاديللي - مونت كارلو - مونتريال - هامبورج - انديانا - ميامي - شانزليزيه - قصر الاليزيه - ستانلي باي) .

(٨) سياسة الانفتاح بمصر ، وما صاحبها وأدت إليه من :

(أ) سهولة الانتقال إلى البلاد الأجنبية والاتصال بها ، والتعامل معها في التجارة والسياحة ، مما أدى إلى الاحتكاك الكبير بالعالم الغربي .

---

(١) د. مطر : (رياح التغريب) في النقد اللغوي ص٢٣٥ .

(ب) إنشاء البنوك الأجنبية المشتركة التي تحمل أسماءها الأجنبية إلى جانب الإسم العربي .

(جـ) فتح السبيل أمام شركات الاستثمار - في ضوء الانفتاح الاقتصادي - لاتخاذ أسماء أجنبية ، مما يوحي أن منتجاتها ذات مستوى متميز[٢] عن منتجات الشركات الحكومية الوطنية وعلى مستوى مثيلتها الأجنبية .

(د) استثمار رأس المال الأجنبي - إلى جانب الوطني - شجع المستثمر المصري على إبراز الهوية الأجنبية[٢] لشركته ، استغلالاً لعقدة (الخواجة)

(هـ) فتح الباب على مصراعيه للشركات التجارية العالمية ، لاتخاذ وكلاء لها لبيع منتجاتها بمصر ، مما أبرز الأسماء والعلامات التجارية العالمية في الشارع المصري .

(و) إنشاء المناطق الحرة ، التي تحرص على إبراز صلتها بالمؤسسات والشركات الأجنبية التي تتعامل معها ، وتستخدم لغات غير العربية[٣] .

(ز) تيسير السبل من جانب الدولة ، والعمل على إنعاش الاستيراد في مجال السلع الاستهلاكية والكمالية[٤] ، إلى جانب ارتفاع مستوى دخول شريحة عريضة من المجتمع ، نتيجة لزيادة عدد العاملين في الخارج برواتب مغرية ، وكذلك زيادة عدد العاملين بالشركات والهيئات والبنوك الأجنبية والاستثمارية داخل مصر . وقد ضاعف

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٥ . (٣) المرجع السابق ص٢٣٦ .

(٤) صدر مؤخراً قانون يوقف استيراد الكماليات والسلع الاستهلاكية غير الغذائية .

ذلك من القدرة الشرائية لهذه الفئات ، وجعل التاجر يحاول إلقاء الضـوء على سلعتـه المستوردة من خلال واجهته ، فطالعتنا أسماء مثل : ملابس (نيولندن هاوس – مس موند – مس ايجيبت – هاي دام – لامود – بيلا دونا – اورجينال لاجولي – مانيكان – لاجراند دموازيل – هاي بيبي – جنتلمان سبورتسمان) .

(ح) ظهـور شريحـة من شرائح المجتمع أثرت ثراء فاحشاً وكبيراً بصورة سريعـة – نتيجـة للانفتاح – ومعـظمها من الطبقة غير المثقفة ، أصحاب الدخول الطفيلية ، مما أفقدها اتزانها وجعلها تحاول تعويض النقص الثقافي ، إلى جانب ضآلة المكانة الاجتماعية التي تحسها ، بمزيد من المظاهر البراقة ، مهما كلفها ذلك ، مما شجع المستثمر أو التـاجـر الـذكي على استغلال هذاالشعور ، لاجتذاب هذه الفئة القادرة مادياً ، وذلك من خلال الأسماء الأجنبية لمتاجره ، تلك التي يسعـدهم التشـدق بأسـمائهـا ، لإظهـار تفـرنجهم ، ومحـاولتهم الالتصاق بالمجتمع الأجنبي .

ويبدو أن التغريب أصبح لوثة تسيطر على عقول أصحاب المتاجر ، وموجة يحسون أنهم لابد أن يركبوها لكي يلحقوا بركب التطور ، حتى أن أحدهم – ويدعي العجاتي – طور إسمه على اللافتة ، حتى يبدو أجنبياً ، لئلا يفوته قطار التغريب ، فسمى متجره (بوتيك جاتي) ، وآخر وإسمه فاروق – ويعمل مصوراً – سمى محله (ستوديو فارو) .

(*) الأمثلة الواردة في تفسير ظاهرة التغريب في الصفحات السابقة ، ليست كلها من العينة موضع الدراسة ، بل بعضها أسماء لوحظت حديثاً أو نقلت من بحوث في الموضوع ، وأشير إليها في الهوامش السابقة .

الاستخلاصات :

من العرض السابق لمشكلة الدراسة ، والنتائج التي أسفرت عنها ، يمكن الخروج بالاستخلاصات التالية :

(١) يشكل التغريب ظاهرة تبدو واضحة في الشارع المصري ، وقد بلغت نسبة الأسماء المغربة في عينة الدراسة ١١,٠٤١٪ من المجموع الكلي للأسماء بالعينة .

(٢) تتفاوت درجة انتشار التغريب من نشاط إلى آخر ، ومن حي سكني إلى آخر .

(٣) تبدو أعلى نسب التغريب في الأنشطة السياحية والترفيهية ، والمتصلة بالأجانب في تعاملاتهم المختلفة ، وأقل نسبة في الأنشطة الحرفية ، وأنشطة الخدمات ، وتجارة المواد الغذائية والاستهلاكية .

(٤) تسود الظاهرة في المناطق التجارية مثل منطقة وسط القاهرة ، يليها الزمالك ثم مصر الجديدة ، ويقل انتشارها في المناطق الأخرى غير التجارية ، أو المناطق الشعبية كالقلعة وحلوان وغيرها .

(٥) أكثر اللغات شيوعاً - بالنسبة لهذه الظاهرة - اللغة الإنجليزية ، وتسود في الأغلبية المطلقة للأسماء في مختلف الأنشطة ، بينما تسود اللغة الفرنسية - بصفة خاصة - في مجالات الأنشطة المرتبطة بالأناقة والمظهر الخارجي .

(٦) يظهر التغريب في خمس صور ، وهي : استخدام الحروف والأرقام الأجنبية ، ونقل الكلمة الأجنبية بحروف عربية ، ونحت كلمة من كلمتين أجنبيتين أو أكثر ، وتركيب أجنبي من كلمتين أو أكثر ، وتركيب لغوي عربي مشوه .

(٧) يعد تشويه التركيب العربي أخطر أنواع التغريب على لغتنا العربية المعاصرة ، لأنه يخل بالأبنية اللغوية العربية ، ويفسد نظامها النحوي .

خـاتـمـة :

أبـرزت نتـائـج الـدراسـة تفشي التغريب بين الأسماء التجارية في مدينة القاهرة ، بصورة واضحة أصبحت تشكل ظاهرة تلفت النظر في الشارع المصري .

ولنا أن نتخيل خطر هذه الظاهرة - إذا استمرت في الانتشار على هذا النحو الكبير من النمو - حين يأتي اليوم الذي نجد أنفسنا فيه لا نستخدم سوى اللغات الأجنبية في أسماء متاجرنا العربية . وهذا يشكل خطورة بالغة على لغتنا الأم ، ويجعلها غريبة في وطنها .

ولا شك أن صمت وسـائل الاعلام عن نقد هذه الظاهرة قد ساعد على استفحالها ، بل تعدى الأمر حدود الصمت إلى المشاركة في ترويجها بطريق غير مبـاشر ، عن طريق الـدعـاية بوسائل الاعلان المختلفة في الصحف والإذاعة المرئية . كما ضاعف من تفاقمها عدم تصدي الجهات الحكومية المسئولة بصورة حاسمـة لوقف هذا السيل الجـارف من المسميات الأجنبية ، باستثنـاء قانـون أصدرته وزارة التموين ، ويقتصر على ضرورة كتابة الإسم التجاري بالحروف العربية ، إلى جانب الإسم الأصلي بالحروف الأجنبية[١] . وعلى الرغم من أن هذا القانون لا يفي بالغرض ، ولا يتناسب مع حاجة المشكلة إلى حلول شاملة ، فإنه لم يتضح -حتى الآن- أي أثر لتطبيقه ، وهو ما يعني أن ظاهرة التغريب ، بالشارع المصري ، مازالت مشكلة قائمة تستصرخ ضمير كل وطني غيور على لغته القومية ، وتراثه الأدبي ، لكي تتحرك الدولة -بأجهزتها المعنية- للتصدي بقوة وحزم ، من خلال خطة واعية ، لكل ما من شأنه أن يعبث أو ينال من سيادة اللغة العربية - لغتنا الجميلة - على أرضها وبين أبنائها .

---

(١) د. مطر : (رياح التغريب) .

التوصيــات :

في ضوء ما أسفـرت عنه نتائج الدراسة حول حجم ظاهرة التغريب ، ومدى انتشارها -في حدود العينة- توصي الباحثة بما يأتي :

(١) ضرورة العمل على إصدار قانون يجرم استخدام الأسماء المغربة في الأنشطة التجارية العربية ، ويمنع الترخيص لها تحت هذه المسميات .

(٢) وضع القانون السابق إصداره -من وزارة التموين- بهذا الصدد موضع التنفيذ .

(٣) اقتراح العقوبات المناسبة والرادعة لمن يخالف هذين القانونين .

(٤) دعوة أجهزة الاعلام إلى التصدي لهذه الظاهرة ، وذلك عن طريقين :

(أ) تبني حملات منـظمـة للتوعية بخطورة هذه الظاهرة ، والحث على مواجهتها ، حرصاً على لغتنا القومية ، وهويتنا العربية .

(ب) رفض إعلانات الدعاية للأنشطة التي لا تحمل أسماء عربية .

المـراجـع :

أولاً - المراجع العربية :

(١) أنيس ، د. إبراهيم : ١٩٧٢ من أسرار اللغة . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الرابعة .

(٢) بشر ، د. كمال : ١٩٨٧ «التغريب في اللغة والثقافة» . القاهرة : محاضرة في مجمع اللغة العربية في ١٩٨٧/٣/٢م .

(٣) سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان : ١٩٧٣ الكتاب (تحقيق عبدالسلام هارون) . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب - الجزء الثالث .

(٤) كامل ، د. وفاء : ١٩٨٠ جهود مجامع اللغة العربية في القضايا اللغوية . القاهرة : رسالة دكتوراه (غير منشورة) بكلية آداب القاهرة .

(٥) مجمع اللغة العربية بالقاهرة : بدون تاريخ ، البحوث والمحاضرات . مؤتمر الدورة الحادية والثلاثين ، القاهرة : دار مطابع الشعب .

١٩٣٦ ، محاضر الجلسات . دور الانعقاد الأول . القاهرة : المطبعة الأميرية .

١٩٥٧ ، مجلة مجمع اللغة العربية . الجزء التاسع . القاهرة : المطبعة الأميرية .

(٦) مطر ، د. عبدالعزيز : ١٩٨٦ ، «رياح التغريب تهب على الشارع المصري» . القاهرة : مقال منشور في جريدة الأخبار المصرية في ١٩٨٦/١٠/٣٠م .

١٩٨٧ ، في النقد اللغوي . الدوحة (قطر) : دار قطري بن الفجاءة - الطبعة الأولى .

(٧) نصار ، د. حسين : ١٩٨٦ ، «العربية لغتنا» . القاهرة : مقال منشور في جريدة الأهرام المصرية ، في ١٤/١١/١٩٨٦ ، ص٩ عمود : أسبوعيات .

ثانياً - المراجع الأجنبية :

Sa'id, Majed : 1967 "Lexical innovation through borrowing in modern Standard Arabic" Princeton near East Papers No. 6. Princeton University.

ملخص البحث

تشيع في الشارع التجاري المصري ظاهرة التغريب ، ويقصد به نقل الأجنبي -كما ينطق بلغته- وكتابته بحروف عربية ، على لافتات المتاجر . وهي ظاهرة تمسخ وجه الشارع المصري ، وتضفي عليه مسحة أجنبية تشوه لغتنا الأم .

وهدف الدراسة هو :

(١) التعرف على حجم ظاهرة تغريب الأسماء التجارية بالشارع المصري .

(٢) توضيح مدى انتشار الظاهرة بكل من الأنشطة التجارية المختلفة ، والأحياء السكنية بالقاهرة الكبرى .

(٣) تحليل أنواع التغريب وتصنيفه .

وخلصت الدراسة إلى النتائج التالية :

(١) يشكل التغريب ظاهرة واضحة في الشارع المصري ، وقد بلغت نسبة الأسماء المغربة بالعينة ١١,٠٤١٪ من المجموع الكلي لأسمائها .

(٢) تتفاوت درجة انتشار التغريب بين نشاط وآخر ، ومن حي سكني إلى آخر .

(٣) تبدو أعلى نسب التغريب في الأنشطة السياحية والترفيهية ، والمتصلة بالأجانب ، وتبدو أقل نسبة في الأنشطة الحرفية ، وأنشطة الخدمات وتجارة المواد الغذائية والاستهلاكية .

(٤) تسود الظاهرة في المناطق التجارية ، وهي : وسط القاهرة ، يليها الزمالك ثم مصر الجديدة ، ويقل انتشارها في المناطق الشعبية وغير التجارية كالقلعة وحلوان .

(٥) تسود اللغة الإنجليزية في التغريب في الأغلبية المطلقة للأسماء في مختلف الأنشطة ، بينما تسود الفرنسية بصفة خاصة في الأنشطة المرتبطة بالأناقة والمظهر الخارجي .

(٦) أنواع التغريب خمسة :

(أ) استخدام الحروف أو الأرقام الأجنبية .

(ب) نقل الكلمة الأجنبية بحروف عربية .

(جـ) نحت كلمة من كلمتين أجنبيتين .

(د) تركيب أجنبي من كلمتين أو أكثر .

(هـ) تركيب عربي مشوه .

(٧) يعد تشويه التركيب العربي أخطر أنواع التغريب على لغتنا العربية المعاصرة .

Westernization Phenomenon of the Commercial titles in the Egyptian Streets. "A Survey study of Cairo".

Abstract :

The Commercial Titles in Cairo Streets are tending to Westernization, which means lexical borrowing from western languages. This phenomenon adds a strange touch to the streets.

The Study aimed to:

1. Define the size of this phenomenon in the commercial field.
2. Clarify the range of its extension in different commercial activities and resident distics.
3. Analyse and classify its types.

Conclusions :

1. Westernization is an obvious phenomenon in Cairo Commercial streets. The percentage of the westernized names is 11,041% of the sample.
2. The phenomenon spreads differently from a commercial activity to another and from one resident district to another.
3. The highest percentate of the phenomenon can be noticed in the tourism and amusement activities. The lowest percentage can be seen in the hand-iwork والأنشطة الحرفية sevring, food and consuming commerce activities.
4. The phenomenon dominates the commercial areas: down town, Zamalek and Heliopolis. It is recessive in the public and non-commercial areas.
5. English language dominates borrowing of most activities, while French Language dominates, especially, the activities related to external appearance and fashion.

6. There are five types of westernization:
   - (a) Using foreign letters as abreviations.
   - (b) Writing a foreign word using Arabic Letters.
   - (c) Forming a new word from two or more foreign words.
   - (d) A foreign structure consisting of two or more words.
   - (e) A distorted Arabic structure.

7. The most dangerous type of westernization is the distortion of Arabic structure.

13. USA Today (February, 1987).

14. "Our Town - From Stage to Screen, " Anon., Theatre Arts, XXIV (Nov., 1940) p. 824.

15. Malcolm Cowley, ed., Writers at Work: The Paris Review Interviews (New York, 1952), p. 113.

16. Thornton Wilder, Three Plays (New York, 1961), p. XI. Subsequent references from Our Town and The Skin of Our Teeth are from this edition and will appear in the text.

17. Walther Tritsch, "Thornton Wilder in Berlin," Living Age, CCCXIIV (September, 1931), p. 45.

18. "Our Town - From Stage to Screen," p. 824.

19. Cowley, Writers at Work, p. 114.

20. Harrison Smith, "The Skin of Whose Teeth?" Part II, SRL, XXV (December 26, 1942), p. 12.

Unitarianism, or ethical culture." (p. 51) On the other hand, Robert W. Corrigan, dismisses the notion of Wilder as a religious writer. Wilder, he argues, lacks "the backdrops of religious belief". ["Thornton Wilder and the Tragic sense of Life," Educational Theatre Journal, XIII (1961), 171]. He adds that Wilder has a tragic view that sees life as a "cheat and its conditions those of defeat". (p. 169) Furthermore, he stresses that Wilder's themes are life, love and earth and that, "Each of his plays is a hymn in dramatic form affirming life". An affirmation that Corrigan claims not to be Christian. "Wilder has no belief in religion that is revealed or historical. These are basic premises of Christianity. To be sure Wilder is deistic, but . . . he is essentially a religious Platonist: and this position must ultimately reject the historic dimension as meaningful".(p. 167) One critic describes Wilder as "resolutely unfashionable," [Elmer Davis, "Caeser's Last Month", Saturday Review of Literature, XXXI (February 21, 1948), 11]. While another critic calls him a "folk author". [Malcolm Cowley, Exile's Return, p. 3.] While one critic considers Wilder's work singular and standing apart from the main stream of the American literary tradition, [Harold Clurman, "Theatre," Nation, CLXXXI (September 3, 1955), 210] another sees it as representing "continuity and tradition, [Malcolm Cowley, "The Man" .., 14.]

5. Amos Niven Wilder, Thornton Wilder And His Public (Philadelphia, 1980), p. 29.

6. Bamber Gascoigne, Twentieth Century Drama (New York, 1966), p. 24.

7. Ibid., p. 24.

8. Ibid., p. 36.

9. Thornton Wilder, "Preface" in Our Town, The Skin of Our Teeth, The Matchmaker (London, 1975) p. 8.

10. See my "Man and the Divine: Religious Concerns in Wilder's Early Dramatic Works," Bulletin of the Faculty Of Humanities And Social Sciences, Volume 10 (1987).

11. Gertrude Stein, Four in America (New Haven, 1947), p. XVI.

12. Rex Burbank, Thornton Wilder (New York, 1961), p. 87.

The common occurrences of daily life are robbed of their significance when Wilder plays them against the vast stretches of time. But this juxtaposition, however, shows the cyclical pattern of life which in turn shows that the sum of existence can be explain only by the assumption that there exist a definite design in the microcosm. Wilder implies that we cannot know more about this design and we cannot explain the riddles of the universe. Consequently, Wilder agrees with Spinoza that we can give life the meaning our minds choose to give it; with Plato, that each person must be morally responsible in order to give his life significance; with Aristotle, in a belief that man can be divine and can be part of God, the beginning and the end of all things.

Wilder insists in this play that a man should be emphatically alive enjoying his existence, that a man becomes what he makes of himself, that man should have discipline because he is responsible for his fellow man, and finally that man should be committed to action. But it is belief in God, the Alpha and the Omega, that informs Wilder's position and gives ultimate meaning to a world that otherwise seems meaningless.

NOTES

1. Michael Gold. "Wilder: Prophet of the Genteel Christ," New Republic, LXIV (October 22, 1930), 267.

2. Malcolm Cowley, Exile's Return (New York, 1951), p. 304.

3. Malcolm Cowley, "The Man Who Abolished Time," SRL XXXIX (October 6, 1956), 52.

4. Edmund Fuller, Books With Men Behind Them (New York, 1962), p. 42. Other scholars had conflicting opinions also. Francis Fergusson, for instance, places Wilder in the company of Elliot and Brecht, then treats the three writers as allegorists who used the theater "in the service of their consciously worked out moral or philosophical ideas . . . Their aim is not discussion in any sense, but teaching . . ." [Francis Fergusson, "Three Allegorist: Brecht, Wilder and Elliot," The Sewanee Review, LXIV (Fall, 1956), 41]. In discussing Wilder's philosophy, Fergusson describes it as a sort of religious Platonism: deistic, but not more Christian than

Instead of a new world, the third act presents a world that has suffered from a war that has just ended. Antrobus who was fighting Henry-Cain comes back home hopeless. But he recovers his hope when he remembers that living means struggle and that everything must be fought for. "All I ask is the chance to build worlds and new Gods has always given us that. And has given us new voices to guide us; and the memory of our mistakes to warn us . . . We've come a long ways. We're learning." (p 136) voices Antrobus refers to are personified as hours that recite passage from, Spinoza.

> After experience had taught me that the common occurrences of daily life are vain and futile; and I saw the objects of my desire and fear were in themselves nothing good or bad save insofar as the mind was affected by them; I at length determined to search out whether there was something truly communicable to man.

Plato,

> Then tell me, O Cristias, how will a man choose the ruler that shall rule over him? Will he not choose a man who has first established order in himself, knowing that any decision that has its spring from anger or pride or vanity can be multiplied a thousand fold in its effects upon the citizens?

Aristotle,

> This good estate of the mind possessing its object in energy we call divine. This we have occasionally and it is this energy which is pleasantest and best. But God has it always. It is wonderful in use; but in Him how much more wonderful.

And lastly from the Bible,

> In the beginning, God created the Heavens and the Earth; and the Earth was waste and void; And the darkness was upon the face of the deep . . . And God said, Let there be the light and there was light. (pp. 136-137)

Sabina, ending the play in a scene that is similar to the opening scene says, "This is where you came in. We have to go on for ages and ages yet. 'You go home. The end of this play isn't written yet," (p.137)

In the Skin Wilder fuses the homely daily life events of a family (the Antrobuses), with the history of mankind in its development through time. In each of the three acts, the family faces a major crisis: the ice age, the flood, and war. A microcosm, the Antrobuses are described as a "typical American family," yet they are rather a-typical human family, The action takes place in a perpetual present suffused with a geological, Biblical and then historical chronology.

In the first act of the allegory, Antrobus, who stands for Adam and the eternal male, has just finished the alphabet and has invented the wheel. He is described as a fine man, husband and father and "a pillar of the church and has all the best interest of the community at heart". His wife Eve, the eternal female and mother, comes across as a fine woman who "lives only for her children". (p. 71) There are two children in the family, Henry-Cain and the eternal evil and Gladys, hope and goodness. The family has a maid, Sabina, an eternal Lillith.

The family indulges in everyday ordinary action that compresses, at the same time, the progress of mankind in thousands of years. A crisis threatens the house: ice pushes south and freezes everything. The Antrobuses give shelter to Homer, Moses and the Muses and fight the ice with fire they build as Henry learns the multiplication table and Gladys learns the alphabet and the Bible. The act ends with Sabina asking the audience to pass their chairs to feed the fire and save the human race. The whole act stresses the fact that faith in religious and human values will save the world.

The second act takes place in Atlantic City where the "ancient and honorable order of mammals, subdivision humans" hold their convention. The situation of the world seems to be like that before the Flood. Gambling and seduction prevail. Antrobus - Noah - who gives the watchword for the future as "Enjoy Yourselves", succumbs to the seduction of Sabina, who has won a beauty contest. Henry kills a Black man with a stone. A fortune teller warns of the coming deluge and predicts a narrow escape. Mrs. Antrobus refuses to grant her husband a divorce and by this action she saves the marriage and the family from the deluge. The last words of the act are addressed to the Antrobuses by the fortune teller, "Think it over! A new world to make. - Think it over!" Thus, the affirmation in this act follows primarily the Judaic-Christian tradition.

rapidly. Emily notices this from her vantage point after her death and sees the blindness of human beings because they do not notice all the "wonderful things" that happen around and to them. She asks the stage manager if there were human beings who realize every minute of life while they live, and he answers that only "the saints and poets" do. (p. 62) To establish the significance of the little things of life, Wilder manages rather successfully to make the homely sublime and the everyday event integrated with the eternal and gives these events the tint of the enigmatic and the reverent.

By presenting the entirety of existence, Our Town tries to present the truth. It transmits a sense of human limitations. A hero should assert his will and should give life meaning by living fully. Death, which must be accepted with stoical resignation, will cut man's part of living. Human reason would do best to accept the will of the divine. Wilder accepts this will, affirms the goodness and justice of the system he portrays and sends his audience away exalted in spirit and with a deep sense belonging to the system portrayed in the play. This view of existence implicity relates to Christianity, but Wilder's beliefs on this point remain unstated although the relationship seems clear and becomes clearer in The Skin of Our Teeth (1942) where Wilder seeks the vision of a unity in the universe through combining Biblical and evolutionary history.

Although The Skin won for Wilder his third Pulitzer Prize, it did not win unanimous approval, for the play was received with a mixture of praise and condemnation. Both Bernard Grebanier and John Gassner rated the play as one of the best plays in the history of the American theater, while Joseph Campbell and H.M. Robinson accused Wilder of plagiarizing Finnigan's Wake.

Wilder, who professed the deep indebtedness of the play to James Joyce's work, was concerned mainly in "trying to make some sense out of the multiplicity of the human race and its affections".[19] He was fascinated with Joyce's book because it presented a pattern similar to the one he himself used in "The Long Christmas Dinner," where a cyclical concept of history was adopted. The morality play structure in The Skin was not noticed when the play was first produced. Harrison Smith, in a short review of the first production, saw the play as "a morality play, its theme as ancient as time - a morality play without the moral ardor which could have captured the imagination of the audience with its recital of mankind's long agony, his indomitable hope."[20]

then the young wife; and so on. The elements of make-believe in the presentation are stressed throughout the play helping thus to establish the allegory and to force the audience to remain aware that the action on stage must be thought about and interpreted.

The deities of Greek Drama and the God of the morality play are replaced by a "cosmic spirit" that permeates the whole play. Rebecca, George's sister, identifies this "cosmic spirit" at the end of the first act as the Mind of God. She tells her brother,

> I never told you about that letter Jane Croft got from her minister when she was sick. He wrote Jane a letter and on the envelope the address was like this: It said: Jane Croft; the Croft Farm; Grover's Corners; Stutton Country; New Hampshire; United States of America . . . Continent of North America; Western Hemisphere; The Earth; the Solar System; the Universe; the Mind of God - that's what it said on the envelope. (p. 28)

Wilder finishes his parable by reporting and presenting the highlights of the lives of his characters in their existence in the Mind of God. At the very end, the stage manager assures everyone that "There's something waydown deep that's eternal about every human being". (p. 52) Through the elevation of his characters to the realm of idea and type, and by compressing the life of every man and playing against the stretches of time, Wilder manages to evoke in his audience belief in what they see, and experience the revelation he wants them to have.

When he presents the humdrum of daily life of every man, Wilder shows the truth about life, shows the insignificance of this life in relation to the broad framework of the universe he presents which he broadens with every act. But by investing the play with the cosmic spirit, by suggesting that human beings live in the Mind of God, Wilder gives the life of every man a significance and by that he shows himself as a religious person, for in this attitude toward life, the universe and God, Wilder attempts to effect an adjustment between man and "the existence he finds himself in", a framework of personal security. A short leap of faith and the nature of the world is revealed in personal premonition, so one would know beyond the ability of anyone to teach him that the universe has a design. Consequently, every minute of life becomes valuable; man should take everything life offers with gratitude, not for granted. But people walk in self-centered dreams while their lives are running out

The second statement appears in the intoduction of his Three Plays.

> Our Town is not offered as a picture of life in a New Hampshire Village; or as a speculation about the condition of life after death . . . It is an attempt to find events in our daily life. I have made the claims as preposterous as possible, for I have set the village against the largest dimensions of time and place . . . Emily's joys and griefs, her algebra lessons and her birthday presents - what are they when we consider all the billions of girls who have lived, who are living, and who will live? Each individual's assertion to an absolute reality can only be inner, very inner . . . Our claim, our hope, our despair are in the mind.[16]

Instead of Shakespeare's seven ages of man, Wilder selects three periods to present in three acts: "Daily Life," "Love and Marriage," and "Death." The selection itself is significant in its emphasis on human interaction and the chain that binds people together. One can restate the titles of the acts as: the state of the chain of being, how new links are forged, how these links end. The "moral" is conveniently conveyed in this last part through the classical device of a visit to the underworld. Wilder introduces a stage manager who serves many purposes including initiating the audience to "secrets" and facts and commenting on the main action of the play: life and how it should be lived. He serves to keep the dramatic illusion from getting too realistic thus allowing the audience to think and feel with the characters on stage yet at the same time keep the action flowing smoothly thus enhancing the theatricality of the play.

Wilder was proclaiming as early as 1931 the importance of believing in the "Significance and even in the concealed implication of every event".[17] Our Town presents exactly such a concept of life. The play tells a very simple and well known story. The first act presents the "Daily Life" of two families. The second act deals with "Love and Marriage" of the son and daughter of the two families. The last act presents the last stage of man's life, "Death". Two tables and some chairs serve as scenery and are arranged by the stage manager, who serving as the counterpart of the Greek Chorus, introduces the play, narrates some of the incidents, plays some of the minor parts and comments on the action. The characters, although somewhat individualized by their speech, remain as Wilder described them, "Halfway abstractions in an allegory".[18] They come close to being types, cliches of small-town life, and thus become symbols easily. George must be seen not as a particular person but rather the son and then the husband; Emily is the daughter and

> Religion . . . has very little to do with cult and dogma . . . Religion is what a person knows - knows beyond knowing, knows beyond anyone's power to teach him - about his relation to the existence in which he finds himself.[11]

He also formulated a theory about the theater which owes a lot to Stein. He became convinced that the theater was better than the other arts because the viewers in a theater could see pure existence, could know the pretense involved and consequently interpret it for themselves. He wanted such kind of drama to restore to the theater what it had at one time. To Wilder, a play came to mean a religious ceremony of some sort where the audience would muse on the ritualistic interpretation of life, the human condition and the position of man in relation to humanity and the universe. By producing such a play Wilder was hoping to revive the "elements of mystery and love that are the basis for the affirmation of a higher presence".[12]

Our Town was first produced in 1938 and since then it has been produced very frequently in some town or another in the United States and other countries all over the world. Almost fifty years after its initial production, the play in 1986 held second place in the list of plays produced most often in the U.S.[13] The play won for Wilder his fame as playwright and is considered one of the best American plays. Critics, almost unanimously, compliment his for this "masterpiece" considered by many to be a classic.

In Our Town, Wilder chooses to relate a parable, a "generalized allegory,"[14] following the structural formula of morality plays. He aims to discover the truth if ordinary life and the human experience and to dramatically express this truth in a show that would hold the "unified crowd". Two statements of Wilder about Our Town can help us understand the play. In the first statement, Wilder talks about his

> Unresting preoccupation with the surprise of the gulf between each tiny occasion of the daily life and the vast stretches of time and place in which every individual plays his role. By that I mean the absurdity of any single person's claim to the importance of his saying, "I love!" "I suffer!" when one thinks of the background of the billions who have lived and died, who are living and dying, and presumably will live and die.[15]

was different from his contemporaries by having a direction and ideals, a fact that made him suspect to the social critics who saw ills associated with religion and saw writers they did not agree with as religious (i.e. comformist), defensive, foolishly sanguine and hence indirectly endorsing the social structures around them.

Wilder had a "religious" background. But more importantly his background included, among other things, classical education-reading of the Greek and Roman writers, foreign travel, and exposure to the theater at an early age. All contributed to shape his theater and his themes. Wilder was dissatisfied with both the tragic and the comic theater of his time for he perceived it to be inadequate, evasive, and aiming to be "soothing".[9] His early dramatic works showed him attempting to experiment in form yet many of these works had traditional themes.[10] These plays were electric in nature, reflecting Wilder's reading in the classics, in the Romantic and Victorian poets and the Bible. These plays appeared as The Angel That Troubled the Waters and Other Plays (1928). Of them, Centurus seems to be a dramatization of Plato's theory of "ideas". The Penny That Beauty Spent, The Message and Jehanne, and Fanny Otcott have love as the basic system of faith. Leviathan, and And the Sea Shall Give Up Its Dead, Nascunter Poetae among others, seem to be concepts that Wilder wants to dramatize. But, the ideas in these plays remain essentially unembodied. Some of these plays like The Servant's Name was Malchus, Hast Thou Considered My Servant Job, and The Flight from Egypt, present Christian ideas in a format influenced by the form of the medieval religious drama. Wilder's craft improves in his second collection of plays, The Long Christmas Dinner and Other One Act Plays. In some of these plays, especially The Long Christmas Dinner and The Happy Journey to Trenton and Camden, Wilder displays new perceptions of the dramatic art and a deft manipulation of the dramatic conventions of time, place and the box-set.

Wilder's Our Town and The Skin of Our Teeth were produced within a span of four years. Both retain elements from his earlier plays but they display the subtlety of a writer in complete control of his material. In the early plays, he was learning his craft and attempting new techniques and concerning himself mainly with the mastery of his form.

When Wilder was teaching at the University of Chicago he met Gertrude Stein and they began a long friendship. From Stein, Wilder learned many things, one of which was her definition of the religion which he explains in an introduction he wrote for her book Four in America:

Most of the literature written about Wilder prepares one to understand the summation of the critics' treatment of Thornton's work offered by Amos Wilder, the playwright's senior brother:

> Wilder, they agree, is indeed somewhat anomalous and hard to pigeonhole, but he falls outside the main line of advance of the novel or the drama. His work has been on the margin of those explorations and engagements so essential to our twentieth-century experience. Worst of all, he smacks of Middle America and even a disguised religiosity. Thus all across the board - subject matter, outlook, style - he does not fit the common premise or lend himself to the central debate.[5]

When Wilder began publishing in the twenties, the cruelties and harsh realities of World War I had generated spiritual emptiness and lack of direction. Many of Wilder's contemporaries, influenced by the European realists like Ibsen and Strindberg, either satirized what they saw - one can take Elmer Rice's The Adding Machine as a representative example - or hated it completely. Moreover, they saw no form of idealism that was acceptable to them and their plays were marked with the absence of a specific course of action, prompting one critic to dub the theater of the twenties a "Theater of inaction, a negative theater".[6] In contrast, the onslaught of the devastating economic depression of the thirties brought on a social and political theater. Wilder's contemporaries wrote about the masses, their struggle and their pain. Some of them saw a chance to examine and reject the accepted values of previous generations and present solutions to the ills they perceived.[7] Brecht, for instance, wrote didactic plays to teach people about specific problems. Elmer Rice wrote We, the People (1933) to expose corruption. Odets' Waiting for Lefty (1935) called for strikes to protest economic conditions. In general, the theater of the thirties was political theater about the necessity for "action" to solve social problems.[8]

Wilder's plays do not fall into the general trend of the twenties or the thirties. In fact, at a time when idealism was lacking, Wilder presented a theater that has ideals. When the rejection of traditional values was the trend among writers, he presented a theater that affirms the bedrock of traditional values. This is not to say he did not reject anything, for he did reject the traditional format of the theater of the previous generation. One can argue that he followed the general trend of his contemporaries by rejecting not what they rejected but the forms of the theater that he saw. In content he

"Thornton Wilder's Our Town and The Skin of Our Teeth"

Dr. Ahmad Ramez Kutrieh

A preoccupation with explaining life marks Thornton Wilder's two major plays : Our Town and The Skin of Our Teeth. He develops in these plays a vision that focuses on what he considers to be the essence of all that life has to offer. The plays aim to produce in the audience a sense of unity in the universe, of harmony between the physical and the transcendent worlds, of a conciliation between the here and the hereafter, and of an enchancement of the relationship of man with the divine.

Wilder's plays have been attacked and defended with labels such as "humanism," "mysticism," "didacticism," and "religious Platonism". Michael Gold, for instance, charges Wilder of presenting what he termed a "dilettante religion".[1] On the other hand, Malcolm Cowley, a critic who describes Wilder as "serious writer" absorbed with "moral problems"[2] - defends him against Gold's charge and points out the similarities between Wilder's work and that of the transcendentalists.

Wilder's work, he says,

> Has more than a little of the moral distinction they tried to achieve, and like their work it deals with the relation of one to one, or of anyone to the All, the Everywhere and the Always. Like theirs, it looks toward the future with confidence.[3]

Edmund Fuller, evaluating the work of Wilder, joins Cowley in defending Wilder's work by declaring it

> Permeated by a profound mystical and religious sensibility - too mature to war upon or sneer at orthodoxy, too creative to fit snugly in its confines. His vision and celebration of man are harmonious with Christian humanism.[4]

2. Beneke, Jurgon. (1981). Cultural Monsters, Mimicry and English As An International Language. In Language Incorporated, Teaching Foreign Language in Industries, Pergamon Press. 1981.

3. Davies, Eirlys. (1987). A Contrastive Approach To The Analysis Of Politeness Formulas. Applied Linguistics, Vol. 8, No. 1, Oxford University Press, 1987, pp. 75-88.

4. El-Sayed, Ali M. (1986). Varieties Of Today's English: Implications For Teaching English As A Foreign Language In The Arab World. ITL, Review of Applied Linguistics, 76, 1987.

5. El-Sayed, Ali M. (1986). Native Speakers of English and EFL Teaching In The Arab World. Lexis, Winter Issue, No. 5, 1985/86, Kuwait University Publications, Kuwait.

6. Kachru, Brj B. (1981). The Pragmatics Of Non-Native Varieties Of English. In English For Cross-Cultural Communication. New York: St. Martin's Press

7. Schon, Catherine. (1987). The Question Of Pronunciation. Forum, Vol. XXV, No. 4, pp. 22-27.

8. Selinker, Larry. (1972). Interlanguage. IRAL, IO, 3, pp. 409-27.

9. Smith L. and K. Rafiqzad. (1979). English For Cross Cultural Communication: The Question Of Intelligibility. TESOL Quarterly, 13, 3, 1979.

10. Strevens, Peter. (1987). English As An International Language. Forum, Vol. XXV, No. 4, pp. 56-64.

11. Wilkins, David. (1975). Second Language Learning and Teaching.

12. Zoughoul, Mohammed Raji. (1980). Diglossia In Arabic: Investigating Solutions: Anthropological Linguistics, Vol. 1, 22, No. 1, 1980, pp. 201-17.

It has been proved, for instance, that the motivation of Hispanic students studying in the U.S. schools has increased substantially when the reading matter in English textbooks reflected their preferred cultural context. The reading comprehension of those students also improved with the use of translated readres from the Spanish language.

There is no harm in preserving the culture of Arab students when learning English. Arab learners should also be given the chance to comment on the sociocultural norms of their own culture and compare and contrast them with the socio-cultural norms of the native English speaking countries and in this way their own cultural identities could be asserted. In feeling that they are compelled to acquire English as an international language, Arab students (especially the young) resign to a status of subordination as a result of the cultural and ideological dominance of the native speakers of English. In always reffering in learning English to the familiar topics and issues that are related to the immediate milieu of the students, Arab's cultural identities are asserted.

There is no harm, too, in encouraging Arab students who learn English as an international language to colour their English with renderings from their language. This is acceptable as long as they are aware that the form is not an authentic English form and should therefore be used only for the particular occasion, a communicative variety created for the time being. The result will be an occasional focus on 'poetic' functions of language (in Roman Jakobson's sense), language that draws attention to itself. This should help to solve the problem of the 'flatness', the expressive poverty of the stylistically unmarked, neutralized foreign use of English. For instance, Arab users of English could refer to idiomatic expressions of their own langauge and enrich the communication dialect of English with exotic and poetic elements that could be introduced or commented on by 'as we say in Arabic' or 'in Arabic, we have an expression', so that the Arab user can add something from his own langauge to the variety of English as an international langauge.

The above are only some of the problems that need to be dealt with in discussing English as an international dialect of communication in the Arab World. More research needs to be done in how to deal with such problems.

BIBLIOGRAPHY

1. Abuhamdia, Zakaria, A. (1984). English Departments at Arab Universities: Towards A Planning Based Model. In Language Problems and Langauge Planning, Vol. 8, pp. 201-217.

langauge learning group should be equivalent to the target language speaking group), which is one of the vital parameters of a successful language learning situation, is, unfortunately superseded by one of cultural and ideological dominance. What ought to be done, then, is the development (at least for older students and adults) of a set of 'intercultural gambits' that are not ethnocentric but are metacommunicative, gambits that must be 'structurally and psycho-socially within the learners' range and at the same time suited to fulfilling the regulatory functions in interactions. These gambits have to be empirically tested with Arab users of English as to their structural manageability for a variety of communicative settings.

The arguement is not for a new brand of English in international settings. If the speakers of Arabic are to be permitted their own brand of English, then the speakers of all other langauges should be permitted their own brand and that means there should be no international standard English for communicative purposes. We should not isolate the Arabs from that portion of the world that uses English in international communication. As non-native speakers of English, emphasis in learning English for international communication should be laid on the 'non-ethnocentred use' of the langauge since such use is determined by the job, hobby, or field of study of students.

We are not arguing that Arabs should acculturate International English to their own language/culture, otherwise there could never be an international standard. Some materials that are taught in the Arab World are not related to the students local values, culture, customs and traditions. Alptekin (See Alptekin 1984) subscribes to the view that native speakers of English in the Third World who work as teachers attempt, in their teaching the language, to modify the students' cognitive and affective behaviour so as to concentrate on western values and ideas of the western culture. Such attempts make students (in our case Arab students) hesitate to accept those values and ideas and even to resist them.

Wilkins, too, subscribes (See Wilkins 1975) to the view that the values and cultural traditions which accompany the process of cultural transfer from English speaking countries are often considered alien and thus, considered unacceptable to the indigenous culture of the students. That is why it has been increasingly recognized in contemporary reading texts that the cultural characteristics of the learner should be considered in the development of reading materials and instructional metnods.

or thanking, but also the kinds of context where such acts can be appropriately performed: the kinds of behaviour felt to call for thanks, the circumstances of meeting where a greeting is appropriate, and so on.

Conclusion:

We should make users of English as an international variety in the Arab World aware of all the problems touched upon briefly in this paper. The acceptance of English as an international communication dialect poses a serious problem, i.e. the problem of uncontrolled grammatical and stylistic degeneration. This communication dialect of English will have to be reauthenticated by a steady inflow of authentic English. Our model is the educated native speaker of English and we have to resort to the lexico-grammar of educated English. As for the native speaker accent, teachers should encourage students to strive very hard to emulate it and if some cannot reach that goal, they should not worry. Smith and Rafiqzad (See Smith and Rafiqzad 1979) question the validity of native accent and native speaking patterns as English models to be emulated by non-natives who are speakers of other langauges.

Acculturation is not a realistic aim with regard to the 'lingua franca' use of English and is no longer required by the foreign user. To guarantee the assertion of the sociocultural identity of the Arab learner of English, some existing materials have to be rigorously scanned as to ethnocentricity in content and linguistic features. Some forms in those materials are apparently ethnocentric and will not be accepted especially by older students and adult learners who still view English as the language of the old colonizer of most of the Arab World. With those students questions should be asked : Does the material presented to such adults invite the learner's identification? Does it show consideration of the use of the language by non-natives or does it expect them to take over roles alien to them? Are the paralinguistic aspects of the materials culturally neutral or culture-specific? The solution to such a problem is to develop and empirically validate a set of forms that are not ethnocentric and that learners can manage and accept. There is, indeed, no reason why anyone, because he speaks English, should not follow his own cultural traditions.

Given the massive exposure of the Arab World to the institutions and patterns of the Anglo-American system, the status of equivalence (the target

users. For instance, acknowledging a compliment, reciprocating casual remarks beyond comments on the weather are felt to be difficult, just as are commenting on aesthetic or emotional qualities or trying to be witty, sarcastic or comforting. There are, for example, typical comments one has to make as a listener to a story, to show interest or surprise, to encourage the narrator to continue.

A listener not producing responses such as 'oh really'; 'oh no'; 'oh dear'; 'that can't be true' appears to be inattentive or, worse, hostile, again without being aware of it and without a chance of remedying it. A great many of these responses, especially in connection with the authentic intonation, are so culture specific that they are not readily mastered.

Other problems that Arab users of English encounter in the conduct of conversation are turn-taking, 'opening gambits' and 'closing gambits'. Unfortunately, very little is known about the rules governing such encounters. 'Closing gambits' or 'conversational terminators', are on the other hand, of great importance for the presentation of self and the awareness of the other in face-to-face interactions.

Those gambits are a problem because they are indirect means of expression. For instance, the 'lubrication' of conversation gambits are full of concealed cultural values which make them difficult to see through, sometimes antagonistic to the foreign user's system of values, and difficult to memorize because of their complex structure. Politeness formulas, too, are a problem for young users of English simply because they tend to meomorize a few widely used phrases and trot them out on all the occassions on which corresponding formulas in their first language would be appropriate.

The problem is that a pair of similar politeness formulas in two languages rarely turn out to be completely equivalent in all respects, while the foreign language learner groping for words is only too happy to assume that they are. A thoughtful discussion of some contrasts between the formulas used by two cultures can show that the true significance of a formula is determined by a complex of cultural and social conventions. (Davies, 1987:77)

The successful language learner must not only know which formulas can be used for the performance of particular illocutionary acts such as greeting

non-native speech (if we disregard true bilingualism). Rather there are isolated linguistic feartures whose social significance is doubtful at best. For instance, the Arab user of English does not have the linguistic competence to react to new social settings within which he can adjust and differentiate, for example, between degrees of intimacy (e.g. friends-acquiantances-strangers) that presuppose different styles.

In English as a foreign language, slang is usually not recommended; but then very informal or slangy variants are very unlikely in non-native speech, just as unlikely as very formal variants. All lof these variants presuppose a dgree of flexibility on the part of the learner which would be Utopian to strive for among Arab users of Enlgish as an international language.

In English, too, there exists phrases meant mainly for the regulation of social relationship and the structuring of discourse. They 'take the edge off' what is being said, soften the blow' of critical remarks or 'lubricate' the conversation. The listener has to have a system of 'translating' these highly conventionalized forms, e.g. into degrees of politeness. More than anything else in language such forms are embedded in the cultural tradition of a society. They are of high importance for communicative competence since society holds them in store for ritualized exchanges, the sociolinguistic do's and don't 's.

English has, also, a high degree of explicit, elaborate downtoners. For example, phrases such as 'well', 'I'm afraid I've got a bit of a problem' are used as introduction to confessing that one can't keep a promise or commitment. In other languages different grammatical feaures to tone utterances down are used. It, thus, seems that it is not the communicative competence that is deficient in speakers of English as an international language, but the linguistic means to express it.

Indeed, Arab users of English apply their cultural norms wrongly to the English setting and infer a degree of intimacy, for example, fron the use of first names which frequently is not meant to be implied. For example, English generally uses first names among peers, which is not, however, distinctive as to familiarity. In Arabic, as in French, specific forms are used to express degrees of familiarity linguistically. Arab users of English, and I believe other foreign language users too, regularly identify phatic communion as a major problem area. It is the social uses of the language that are difficult for these

the message includes a sense of personal identity. It is, in other words, not only the referential function of language that is required, but also its expressive function. It would be interesting to see how foreign language users could be encouraged to 'colour' their English with renderings from their own language so as to assert their own cultural identity. It would be a very limited view to expect the foreigner to forget his identity the moment he speaks English.

To express oneself in a foreign language in an international setting is an extremely difficult task. In order to function as signs, linguistic and paralinguistic/non-verbal features have to be used intentionally, consistently and arbitrarily. In foreign language, there is always an element of doubt about this. The question that is frequently asked by the foreign language user is: does the speaker mean what he says, and on his part as a speaker, does this particular linguistic form precisely reflect his intention? Is the use of one variant instead of another really a matter of choice, deliberate and therefore significant? Is the speaker silent because he lacks the words or is his silence intentional?

The linguistic competence of the foreign language user (especially in the area of grammar and vocabulary among Arab learners of English) is limited. Using English as an international language invites the foreign language user to select (if he can selct at all) from a small range of linguistic features. Use of features is neither deliberate nor consistent. There is uncertainty, too, if not, conflict as to the social norms governing behaviour. He has to select from the totality of grammatical expressions available to him forms which appropriately reflect the social norms governing behaviour in specific encounters. (Gumpers).

The foreign language user is at a loss as to which norms he should follow: the norms of the non-native speaker (i.e. Italian, Japanese, French, Arab) or the norms of the native speaker of English: Does he have to adopt totally the norms of the culture whose language he speaks as a foreign language?

Linguistic features, innocent in themselves, become socially significant only if they hold clearly defined positions within a field of related features. To give an example from British English: the phonological feature of dropping the 'h' co-occurs regularly with such features as informal, colloquial style. Strictly speaking, there are no variants (in the sociolinguistic sense) at all in

impede comprehension among Indians themselves, but a particular variety of Indian English spoken with an uneducated accent outside India might not be intelligible because it is spoken by an uneducated Indian.

The development towards a variety of English that is called 'English as a communication dialect' (Beneka, 1981:65) is well under way in Europe. In the Arab World we are constantly in need of English as a means of communication at the international level. Among users of English in international contexts there is a widespread readiness to tolerate a non-authentic (neither British nor American) 'international variety' which is clearly seen not as an 'interlanguage', a waystage on the road to perfection, but as a tool for communication in its own right, a final state.

It is necessary for a speaker of English as an international dialect to acquire a fully native control of the phonological system. The standardness of an international variety should relate to grammar first, then vocabulary and finally pronunciation. This does not mean that English as a communication dialect does not reflect the native language phonological systems of its speakers. What we are against here is basing standardness on pronunciation. Some non-native accents should be considered in the positive light. Distinctive foreign accents are associated with some non-native groups.

What Arab speakers of English need is to view English, too, in a positive manner. If they fail to acquire a fully native control of the phonological system of English, they should not feel frustrated and tolerate the linguistic disorientation which occur in the early stages of learning a new langauge. An attitude of loutgoingness toward English is required since success in learning a language depends very much on that attitude.

Foreign language users interviewed within international companies said great demands were made on their ability and willingness to adopt British or American cultural norms when it came to questions of using (and even) understanding conversational routines and specimens of written style that contained a pronounced culture-specific element.

The writer subscribes to the view that with English as an international languiage, the goal in teaching it to Arabs (and this applies, too, to other groups from other nationalities wishing to learn English as an international language) should not be acculturation, but getting the message across and

the sole pronunciation model taught in schools. Nevertheless, some schools teach the American English pronuciation model. In many Arab countries those who do not know English are trying to either learn the British variety or the Amnerican variety. American English is taught in institutions such as the American University of Cairo or the American University of Beiruit or other American centres established to teach U.S. bound adult students. There are also some other American private colleges and high schools established to serve the needs of the American community in the Arab World and the Arabs themselves who are interested in giving their childred American education.

If our students fail to achieve native pronunciation but they are understood when they communicate with others, we should not worry much about their inability to reach that goal. Even if our students, come very close to use an international variety such as the one used.in Europe that is neither pure American nor British English, we should accept it as a legitimate one.

Towards An Internaional Dialect of English in the Arab World: Some Problems:

What we need to adopt, then, is an international kind of English with international standard in grammar and vocabulary, an English that is understood by multi-lingual audience and comprehensible outside the Arab World. For example, a German English, a Japanese English, or even a Russian English are not acceptable simply because those Englishes are not dialects spoken in normal everyday life, but incomplete attempts to learn American English or British English or some other variety . We are not in need of a locally intelligible English at the national level such as the English spoken by Iraqis, Egyptians, or Palestinians. This kind of English is useless at the international level. We need to adopt and teach a kind of English (British or American) which is completely comprehensible outside the Arab World.

Kachru (See Kachru, 1981) emphasises that there is a crucial distinction between national and international English. He speaks of the "cline" of intelligibility. For instance, a minority of educated Indians (like Kachru himself) who have occasion to communicate on the international level are at one end of the cline, with Butler English and Boxwallah English (pedlar English) at the other end. Let the Indian pedlar, Kachru argues, use his Boxwallah English in the Indian villages, but let us all try to approach some major national standard when we talk to foreigners. What kachru aims at is a natioanl standard of Indian English as a necessary tool to communicate with foreigners outside India. For instance, the subdivisions of English and the greater variety do not

Understandably, then, to the Arabs, English does have an essential instrumental value at both the individual and national levels. This utilitarian value appears particularly at the higher educational level, for which it has been imperative. (Abuhamdia, 1984:214). Thus, the field of lstudy and sometimes the job determine the use of English by Arabs and its importance as an instrument for survival becomes apparent.

Since the Arabs are in need of technology, we assume it (as opposed to politics) provides the ground for a cultural neutrality (taking into consideration the negative attitudes of the Arabs to British English as the language of the colonizer) on which the acquisition and the use of English can be promoted rather easily. (El-Sayed, 1987:75).

"The fact is that English can be deculturized, can be learned and used for purely instrumental purposes and can be separated from the value systems and the literary culture of any society of native speakers". (Strevens, 1987:60).

Although English is still remembered as the langauge of the colonizer and negative attitudes are associated with it, it is taught in Arab schools because of its utilitarian value. Because English is not the langauge of just one country (England originally, but now U.S., Canada, Australia, New Zealand, the Caribean) there is already some neutrality in international English which has evolved naturally, but this neutrality may involve the use of lexical items and of auxillary verbs, but definitely not pronunciation and probably not grammar since all the Englishes, except the pidgins and Creoles, share essentially the same grammar with only surface level differences.

If Arab students view English neutrally as a subject of utilitarian value at present, they may not view western culture positively because it is difficult to separate western culture from western governmental policies in the area which can account for suspicion and sometimes hostility on the part of EFL students (Zughoul, 1980:203). Indeed, language is a very emotional matter and the attitudinal factor is of utmost importance since positive attitudes towards the target language and its speakers results in motivation for learning the language.

The third criterion one may follow to choose a pronunciation model is the attitude of the school or university administration. In the Arab countries except for former French colonies, the British English pronunciation model is almost

As for the set of criteria selected for the choice of a pronunciation model, Schon (Schon, 1987:22-27) suggests three criteria. One : Teachers may go along with the prevailing opinion in their area and teach the model that is most admired in that part of the world.

Since the British were in the Arab World for a number of years as a colonizing power, British English would be the type of English that is most suitable as a model. There is no inherent superiority of the British pronunciation model, our choice stems from the fact that the British English variety was the variety that was naturally imposed and taught in the Arab World schools for a long time. There was no other choice for the Arabs. It was out of necessity, then, that the Arabs used the British pronunciation model in their schools.

As other parts of the world that were former colonies in the British empire, the Arab countries maintained greater contact with Britain than with other English speaking countries, and as a result, the tradition of teaching British English continued in Arab schools.

The second criterion one might look at is the use the students will make of their English. An examination of any Arab country's x-year plan or a survey of university mission statements show a strong movement in the direction of development and modernization. The gates to development and modernization happen to be science and technology, which are seen as English-dependent. As a consequence of this dependency, the status of English vis-a-vis other languages has become a foregone conclusion: English is more useful (and in some ways more prestigious) than other languages including the native language. (Abuhamdia, 1984:211).

In Arab countries, the situation, however, is compounded by the sentimental and ideological attachments of Arabs to Arabic, resulting in the current call and campaign to have Arabic replace foreign langauges in the teaching of content subjects such as medicine and engineering. (At Syrian universities, for instance, Medicine is currently taught in Arabic). Consequently, the Arabs find themselves caught in a dilemma, torn between loyalty to Arabic, out of Islamic, ideological, cultural and nationalistic values, on the one hand, and the linguistic concomitants of importing and adopting technology from English based sources, on the other.

Striving for good and correct pronunciation should be taken into consideration since students' accent counts for very much if it interferes with the communication of the intended message. Some thought must be given, then, to the choice of a pronunciation model. We cannot allow our students to speak English with whatever accent they wish to have because this might threaten and lead to less than adequate standards for our English as an international variety. Whatever pronunciation model we opt for, we have to strive to make our students achieve native pronunciation. And unless they achieve that native pronunciation they will have an accent that is determined in large measure by the phonological patterns of Arabic, even at the level of 'inter-lnaguage fossilization'. A pronunciation model is necessary and the language laboratory helps the students a great deal in making the students rely on a model of pronunciation (British or American).

Of course, we have to set a number of criteria for the choice of a pronunciation model. But before we discuss the criteria, the characterictics of a standard for English as an international langauge must be given some thought.

For English as an international language, an international standard does exist in vocabulary and grammar. No such standard exists for pronunciation. For instance, there is a new trend in Europe to use an international variety of English that is neither pure American nor British English, but a variety that is suitable for use for communication anywhere and intelligible and international enough to be accepted by everyone (El-Sayed, 1987:78). The so-called "Educated European English" is a new local form of English that has emerged and is used by business people, professional administrators from France, Germany, Holland, Italy, etc., to communicate together, and in which they recognize each other as European by performing in an English with common features, but each with his/her own accent. (Schon, 1987:24).

What is more important in this respect to be emphasized is that as long as teachers in the Arab World, and other parts of the world as well, continue to teach the lexico-grammar of educated English, the unity of the langauge will transcend its immense diversity. This one set of grammatical patterns and core vocabulary has two absolutely crucial characterictics. First, it is accepted everywhere throughout the English using world, not just in one single locality. And second, it has, in Strevens, words, no 'twinned accent': it is spoken with any and every accent in the world. (Strevens, 1987:62).

another thing to accept a model with a heavy accent such as Japanese (or for that matter) Russian English, (Schon, 1987:25). There is great value in consistency. Imagine how confused the school or university students would be if they get American English the first year, British English the second and third year. Indeed, it is not recommended to shift the whole emphasis of the course too soon.

Tolerance towards the varieties of English in its spoken form and the idioms used in these varieties is acceptable on the part of teachers as specialists in teaching English because their ears should be tuned to different kinds of pronunciation whether it is British English, American English, or even Indian English. However, they should insist (on the part of their students) on a particular correct pronunciation of a native speaker model.

The question the teacher should always ask is "does my student sound like a native speaker of English?" Of course a perfect pronunciation of English is almost impossible to achieve with all students. Indeed, the students who have the ability to achieve a near-native accent (especially those who have lived in the native speaker country) should not be denied the opportunity.

However, striving for adequate intelliginility rather than native-like perfection should be taken into consideration. We use English as an international variety to communicate. Students who can not achieve near-native pronunciation should not be denied the opportunity to communicate in the language. Again, perfect pronunciation of all sounds is not necessary to communicate. It is quite common to communicate well at the international level with someone who has a noticeable accent. Of the two, pronunciation and communication, communication is the more important. Usually, our Arab students who do not acquire a native-like pronunciation, can acquire intelligibility and this is a reasonable goal.

Part of the difficulty of acquiring good pronunciation among Arab students is due to the failure of schools in the Arab World to emphasize the speaking and listening skills. In Arab schools, teachers of English are constrained by prescribed text books, prescribed methods, and the overpresent threat of examinations based on reading and writing skills alone rather than on oral ability.

Strevens argues that native speakers of English especially of British English, should come to terms with the variations that occur among non-native speakers use of the language and should develop the feeling that English is no longer their own language but a language for world communication (Strevens, 1987:56).

In the first part of this paper the writer argues the need for an international variety of English to be taught in schools and universities in the Arab World. The international variety is defined as English that is understood by multi-lingual audience. It is a kind of Englsih that is comprehensible outside the Arab World. For instance, the local Egyptian English spoken by the majority of Egyptians at the national level is both undersirable and useless at the international level because of problems of intelligibility.

In the second part of the paper the writer discusses the problems posed in adopting such a variety. The writer argues that what determines the use of English in Arab schools and universities should be the job, the hobby, or the field of study of students. English should be looked upon as a means of communication and understanding each other in fields that require the uses of a language other than Arabic. The writer argues that the goal of teaching an international variety should not be acculturation so as to preserve the cultural identity of Arab speakers of English.

Selinker (see Selinker 1972) points out that a perfect pronunciation is almost impossible to achieve. This is due to the fact that for most students (as Selinker cliams) an interlangauge pronunciation (foreign accent) tends to fossilize at some point and such a fossilized foreign accent is very resistant to change. However, we should not accept such interlanguages (if they really exist) as models in our search for an international variety lof English to be instituted and taught in our schools.

It is legitimate to opt for an international variety of English in our schools, but some thought must be given to the characteristics of such a variety. We should have native speaker Egnlish as a model to follow and imitate. If we abandon the attempt to teach Arab students native speaker English and give them only a model with a heavy accent, such as Japanese English, the students can not possibly achieve anything but a heavy accent. Of course, it is one thing to accept the probability that most Arab students' pronunciation will fossilize at some point short of their native speaker model, but it is quite

"Towards English As An International Dialect Of Communication In The Arab World"

Dr. Ali M. El-Sayed

Introduction:

In Charles Dickens's time, young students were "provided with all necessaries and instructed in all languages living and dead". (Nicholas Nickleby, Ch. 3). It is of great importance that the peoples of the Arab World have a reasonable knowledge of English since it has become an international language. The number of people who understand, let alone speak, Arabic is small and the Arab peoples are obliged to make use of English if they want to make contact with their friends abroad.

Today, English has been carried around the world and has grown in use until it has become the second most widely spoken language of the world after Chinese and the first language in international use. Interestingly, while English is predominantly used by more people than any other language on earth, its mother tongue speakers make up only a quarter or a fifth of the total.

The use of English falls into two major types: the "ethnocentred" and the "non-ethnocentred". Native speakers live in nations and communities in which English has an established role and thus have an ethnocentred use of the language. Non-native speakers have a "non-ethnocentred" use since their nationalities and the linguistic histories of their countries are equally irrelevant. Their use of the language is determined by job, hobby, or field of study (Strevens, 1987:57-58). Indeed the accident of historical events has largely determined where English is used for ethnocentred purposes. But the borrowing and anglicising characteristic of English has made the process easier and has contributed to a vast increase in the non-ethnocentred uses.

18. Smith, P.M. (1979) : "Sex Markers in Speech". In K.R. Scherer and H. Giles (eds) : Social Markers in Speech. Cambridge : CUP, pp. 109-146.

19. ——————— (1985) : "Langauge, The Sexes and Society". Oxford : Basil Blackwell.

20. Trudgill, P. (1974) : "The Social Differentiation of English in Norwich". Cambridge : CUP.

21. Van Alphen, I. (1987) : "Learning From Our Peers : The Acquisition of Gender - Specific Speech Styles". In Brouwer and De Haan (eds), pp. 58-75.

22. Wardhaugh, R. (1986) : "An Introduction to Sociolinguishtics". Oxford : Basil Blackwell.

23. Zimmerman, D.H. and West, C. (1975) : "Sex Roles, Interrruptions and Silence in Conversation". In B. Thorne and N. Henley (eds) : Language and Sex : Difference and Dominance. Rowley, Mass : Newbury House.

المراجع العربية :

١ – أحمد جمال ظاهر : المرأة في دول الخليج العربي – دراسة ميدانية – منشورات ذات السلاسل – الكويت – ١٩٨٣م .

٢ – السيد عبدالعاطي السيد : صراع الأجيال – دراسة في ثقافة الشباب ، دار المعرفة الجامعية – الأسكندرية – ١٩٨٧م .

٣ – جابر عبدالحميد جابر و سليمان الخضري الشيخ : دراسات نفسية في الشخصية العربية ، عالم الكتب – القاهرة – ١٩٧٨م .

٤ – محمد علي محمد : الشباب العربي والتغيير الاجتماعي ، دار النهضة العربية – بيروت – ١٩٨٥م .

5. Coates, J. (1986) : Women, Men and Language. New York-London : Longman.

6. Ervin-Tripp, S. (1987) : "About, To and By Women". In Brouwer and De Hann (eds) 1987, pp. 16-26.

7. Kramarae, C. (1982) : "How She Speaks" In Ryan, E.B. and Giles, H. (eds) 1982. Attitudess Towards Language Variation. London : Arnold.

8. Labov, W. (1966) : "The Social Stratification of of English in New York City". Washington, D.C. : Center for Applied Linguishtics.

9. Lakoff, R. (1975) : Langauge ad Women's Place". New York : Harper and Row.

10. Macualay, R.K.S. (1976) : Langauge, Social Class and Education". Edinburgh : Edinburgh University Press.

11. Maltz, D.N. and Borker, R.A. (1982) : "A Cultural approach to Male-Female Communication". In J.J. Gumperz (ed) : Language and Social Identity". Cambridge : CUP.

12. Middle East Education and Training (1988) : 11.1.8.

13. Mills, S. (1987) : "The Male Sence". Language and Communication, Vol. 7, Number 3.

14. Milroy, L. (1980) : "Language and Social Network". Owford : Basil Blackwell.

15. Nilsen, A.P. (1977) : "Sexism As Shown Throuhg the English Vocabulary". In A.P. Nilsen, H. Bosmajian, H.L. Gershuny and J.P. Stanley (eds) Sexism and Language. Urbana, Illinois : National Council of Teachers of English, pp. 27-42.

16. Romaine, S. (1978) : "Post Vocalic /r/ in Scottish English : Sound Change in Progress? In P. Trudgill (ed) 1978 : Sociolinguistic Pattern in British English. London : Arnold, pp. 144-157.

17. Sherzen, J. (1987) : "A Diversity of Voices: Men's and Women's Speech in Ethnographic Perspective". In S.U. Philips, S. Steele and C. Tanz (eds) 1987 : Langauge, Gender and Sex in Comparative Perspective. Cambridge : CUP.

Secondly, very limited senior posts in any country are held be females whereas the majority of such posts are monopolized by men. Finally, we must remember that not long ago female were paid less for carrying out the same duties. Thus we see that the difference between the two societies as just matter of degree and not of principle, as far as the subjogation of women goes.

Power is obviously related to responsibilities. One becomes more influencial as one's responsibilities increase. In most communities men fulfill more obligations than women do; thus they dominate and dictate the norms of the society. Therefore, we may say that bias use of language is a reclection of men's dominance and women's subordination. It is also a way of constructing the social reality. In this event, contribute to the inequal distribution of power (Appleman et al 1987). This is because "language is man-made product, designed by and for the male half of the species to the neglect and exclusion of women". Smith 1985:1). Men's dominance in conversation, for example, parallels their dominance in society. The two levels are really parts of the same social system. Likewise, interruptions and topic control are synptoms of male display of power which is in the large social structure but reinforced and spelled out in direct interactions with women (Maltz and Borker 1982).

The evidence from the areas of naming, world order, and in conjunction with other asymmetried, shows quite clearly that the overall picture of the ways in which the two sexes are represented in the British and Qatari cultures, as being different not just descriptively but also evaluatively. In other words, not only men and women use different strategies and forms in language, but that the form used by men are always more prestigeous than the ones by women.

References:

1. Appleman, S., Heijerman, A., Van Puijenbroek M. and Schreuder, K. (1987) : "How To Take Floor Without Being Floored". In Brouwer, and De Haan, (eds) pp. 164-175.
2. Bolinger, D. (1980) : Language the Loaded Weapon. U.K. : Longman.
3. Brouwer D., and De Haan, D. (eds) 1987 : "Women's Language, Socialization and Self-image". Foris Publicationss, Holland / USA.
4. Chaika, E. (1982) : Langauge the Social Mirror. Newbury House Publishers, Inc., Rowley, Mass.

Similar thing is evident in Qatari Arabic as well :

	lit. "the woman is walking"
حرمة ماشية	= "the woman is a prostitute"
ريال ماشي	= "The man is walking"

Other examples include :

loose woman	=	tramp
loose man	=	casual

The word beast when applied to males, it means strong, but to the females, it means sexually unattractive.

Discussion:

In the previous pages we have examined evidence from English and Qatari dialect which clearly shows the sex bias in language use. But why is it the case that the two societies subjogate women through language use, more or less in the same way, although they have very little in common in terms of language, religion, tradition, social structure . . . etc.?

The answer to this question lies in the relative position of women in the British society, and the west, and their psoiton in the Qatari society, and other Arab states. In the study by جابر عبد الحميد والخضري (Jaber and Al-Khodhari 1978) on population of Qatari female and male students at the University of Qatar, it was found that the informants (50% of women, 75% of men) believed that a woman is weak character and was created to provide comport to a man. Similar results were also obtained in other Arab countries e.g. Iraq جابر عبد الحميد جابر والخضري (Jaber جابر and Al-Khodahari 1978), Egypt السيد عبد العاطي السيد (Al-Sayed 1987) and محمد علي محمد (Mohammad 1985).

This is also true of western culture. For example Augste Comte (1968) and Herbert Spencer (1954) (quoted in احمد جمال ظاهر Chahin 1983), clearly put forward the idea of superiority of men and the subordination of women. Such attitudes are also evident in many aspects of contemporary conduct and events in the west. Firstly, we have, in Europe and North America, women liberation movements. Are there equivalent movements for men? None.

Male and female sides of the opponent are attacked in the event of swearing, but they are treated differently. It seems that in all societies more female parties are involved or being attacked in the event. For example, in English, the insult is always directed at the mother but never the father. We may see this very clearly in the phrase "son of a bitch". In the Qatari society the father is attacked as in ابن الكلب "son of a dog" "your father is a dog". Obviously the mother is involved too. But in this society, the opponents sisters are brought in as well, but not his brothers. Moreover, the types of insult directed at each sex is quite different. Swearing aimed at the father attempt to equate him with a particular animal e.g. dog, donkey, etc., whereas those directed at the mother and sisters have clear sexual components, e.g. "whore".

Moreover, it seems that feminine words with negative, obscene and dirty connotaitions outnumber male counterparts. In an interesting study Nilsen (1977) analysed 517 words chosen from a dictionary. The choice was done on the basis of their masculine or feminine semantic marker such as son, girl, host, hostess, etc. Words were also analysed according to their prestige or negative connotations. Overall, masculine words were three times as frequent as the feminine ones. The masculine words which had positive or prestigious connotations outnumbered the feminine words by ratio 6:1, (e.g. crafstman, first lady, etc), But feminine words with negative connontations (e.g. old maid, fish wife, etc.) outnumbered the masculine one with similar connotations (e.g. madman) by about 20 percent, despite the massive overall dominance of masculine items. Ervin-Tripp (1987:19) explains this point by stating that

> "that lower public prestige or ridcule of womenin modern western societies shows up symbolically in many ways. Words that refer to women tend to get lower prestige meanings or have secondary meanings than their male cognates".

Perhaps the most revealing aspect of sex bias are words that have different connotations when applied to each gender. Many adjectives take on an additional sexual meaning, when attached to a female. But no such connotation is implied when the same words are used to refer to men. Here are some examples :

She is a professional = "prostitute"
He is a professional = "skillful"

Master/Mistress:

The male word remained as intended : "a man who has others working under him or a male head of a household, great artist . . . etc.". But the female word became to mean, in addition to the original meaning which is equivalent to that of men's, "a woman who has regular sexual intercourse with one man to whom she is not married".

Sir/Madam:

The fate of the female term was not different from the fate of the previous female word. It has taken on a new meaning: "a keeper and procurer of women for men to use for sexual purposes". Thus, Madam is mistress of a house of ill repute.

King/Queen:

In addition to the original meaning. the female term has come to refer to "a male homosexual who acts like a woman". However, a female homosexual who acts like a man is not called a king, but a butch which is an older nick-name for tough, lower-class boy.

> It is not wrong to claim that the
>
> "terms for females in authority have taken on sexual meanings. Worse, these terms originally denoting high female position have been demeaned to refer to women with the least admirable feminine sexual behaviour. The lofty mistress and madam have been lowered to porvide elevated terms for those held in contempt: whores and procurers. A mistress is one better than the prostitute on the street ... but still she is a whore" (Chaika 1982:206).

But do we use Sit to refer to a pimp? Never! Men's term do not suffer the same fate.

Women also suffer more that men in the process of swearing. Moreover, they are always attacked on sexual basis. Swearing is an act of revenge that one seeks as a response to an outside stimula. It varies from one country to another. For example, it is very harsh insult to call someone a guy in the Qatari society, but this is not the case in England.

The presentation of women as sex objects:

A further aspect of sex bias in language is the fact that women are generally presented and seen as sex objects. Many of the terms refer to females carry sexual connotations to suite the taste of dominant males, whereas the equivalent masculine terms carry no such connotations. We may see this in the use of the titles Mr. and Mrs./Miss. Similar distinctions has recently been introduced in Qatari Arabic a السيد / السيدة – آنسة . The important point is that in the case of women a distinction is maae between a married and unmarried person, thus we have Mrs./Miss. But the distinction does not apply to men. Thus, the sexual availability of the woman is being pointed out.

However, the Mrs./Miss distinction is not very old. Prior to early 19th century Mrs. was applied to all adult women and Miss to female children. But,

> "the change in the use of these forms to denote married status arose as a consequence of women's changing role during the Industrial Revolution. To the extent that wage labour enabled more women to achieve an identity and means of existence independent of men, the use of the titles Mrs./Miss became popular as a means of communicating information about a woman's sexual availability" (Smith 1985:4).

In Qatari Arabic we have the word عانس bachelor/spinster. This word is supposed to refer to both males and females who reach a certain age without being married at all. Buit in real usage of the term, it is only applied to women whereas for men another term is used i.e. عازب / "bachelor". When the two terms are considered carefully we realize that the meaning of the female term عانس is "a female who is not married <u>but who is not attractive and who has passed the age of marriage</u> i.e. not useful for men. But the male term عازب indicates that the person is not married, nothing else.

It also seems that most of the titlies that refer to women "degrade" in the course of history whereas men's equivalent terms remain intact (Chaika 1982). Here are some examples from English.

talk more than men. On the contrary many studies have shown the opposite i.e. that men talk more than women in various diversified settings "such as staff meetings (Eakins and Eakins 1978), T.V. panel discussion (Bernard 1972), experimental pairs (Argyle et al 1968) and husband and wife in spontaneous conversaation (Soskin and John 1963)" Coates 1986:103).

The verbosity of women has obviously been gauged in comparison, not with men, but with silence. Women are supposed to be silent in front of men. When silence is the desired behaviour, then any talk, no matter how much, can be labelled too much. Coates (1986:37) writes that "there is evidence that silence is an ideal that has been held up to women for many centuries". The same idea is also evident in the Estern cultures. Women are to keep quiet in the presence of their husbands or other male speakers.

This may be due to the fact women are considered weak creatures. Thus, in the Qatari dialet, a male person who is afraid or reluctant to do what is asked to do is labelled " حرمة " "/" a woman". The expression that is normally used is

ايش دعوى انت حرمة ؟

What's the matter, are you a woman (coward).

On the other hand, a woman who fights for her rights is seen, not as a female, but as a man. In such case the expression that is used is

هاي ريال ماتقول عنها حرمة

She is a man. You would not call her a woman.

The reason is that women are supposed to take what they are given, but never fight for it. Thus, weak frightened women are not equated with men, while strong women are, because only men are seen as strong and dominant whereas women are by definition weak.

The problem here is not so much a linguistic one as much as it is a cultural one. Perhaphs as Lakoff (1975) points out the distinction between men's and women's language is a reflection of the fact that men and women are expected to have different interests and roles and to held different types of conversations.

surprised to find that the two entries were dealt with differently. Man talked about the evolution of mankind whereas the other heading: woman talked about various things such as women's status, women's liberation movements, jobs that women held . . . etc. No such topics were discussed under the heading man simply because it is a man's world. He dictates the world. Thus, we look at some of aspects of the partner's life in the light of his standard.

Moreover, men's speech is stereotypically logical, concise and dealing with highly important topics, whereas women's speech is pictured as trivial and emotional. Thus in Qatari dialet we have the cliche.:

a. كــلام حــريـم women's talk

b. كلام رجاجيل (ريابيل) men's talk

(a) is used to refer to a speech that is considered to lack seriousness and is worthless, but (b) is considered more like a promise. It is seen as very serious and important.

In Qatari society, as in Western societies, stupid comments are seen as part of women's language but not of men's. Moreover, women as a group are characterized as silly speakers."The idea that women discuss topics which are essebtially trival has contributed to the myth of women's verbosity, since talk on trival topics can more easily be labelled "too much" (Coates 1986:103).

English is full of sayings of "women's verbosity".

Here are some proverbs :

a. Foxes are all tail and women are all tongue.
b. A women's tongue wags like a lamb's tail.
c. Many women, many words, many geese, many turds.

The same is equally trur in Arabic. In fact the term الثرثــرة "talkativeness" is normally associated with women.

Such widespread belief that women talk more than men is regularly contradicted by research findings. No single study has shown that women

The naming process and the order of presentation reflects the dominant social values. The attitudes transmitted help to reinforce the status·quo: the subjugation of women and the dominance of men. (Smith 1985).

Deviation of Women's Language:

Many people working in the field of linguistic have attempted to show that women's langauge has certain characteristics which make it different from that of men. However, in all cases men's language is seen as the standard norm whereas women's language is regarded as deviation from that norm (Hills 1987, Bolinger 1980). Thus, when linguists talk about sex-related differences in the language of men and women, they always look for distinctive female pattern of speech. For example, Otto Jasperson, the famous Danish linguist, in his book Language, devoted a chapter to female speech and called it "the women's" but had no equivalent male one "the men's".

> "So at the outset we are equating male langauge to the norm. Since male and female devide the species evenly, the comparison might as well be in the other direction, but even linguistics has been till now so dominated by men that female speech has always been regarded as the marked or supposedly exceptional form" (Bolinger 1980:91).

In other words, female's speech is seen as deviation from the norm: the male's.

For example the notion of hypercorrection introduced by Labov (1966) and copied by many linguists later on, e.g. Trudgill (1974), is s clear case of such conception. Labov showed that lower class speakers aim towards the standard norm of speech of people directly above them in term of the class hierarchy. Thus, lower-middle class speakers try to elevate their speech to match the standard norm of the midle-midle class speakers as the speech event becomes more formal. However, in the two most formal styles of speech: word list and minimal pairs, the lower-midle class speakers even shoot ahead of midle-midle class speakers. Thus, we get the hypercorrection phenomenon. Labov concludes that this hypercorrection practice is more evident in the speech of females from the lower-midle class than in the speech of males.

However, one must point out that such treatment of females aspects is not confined to language but is found in other domains as well. For example, checking the encyclopedia Britanica for the headings man and woman, I was

and lacking any sex bias. On the other hand the whole book centres around two main characters:

سحر Sahar : "a girl" and حمد Hamad : "a boy".

The first lesson starts with حمد Hammad and a photographs of a small boy while on the second page سحر Sahar is introduced with a photograph of a girl. Lesson two is quite interesting. It reads:

حمد مع سحر

Hamad and Sahar = male and female

If we compare the photographs which appears at the top of the page of the lesson, with the order of presentation of the two characters, we notice clear discripancies. Sahar, the female character is on the right. She is much bigger in size and much older than Hamad, the male character. Bearing in mind that in Arabic we write from right to left, the natural order should be:

سحر مع حمد

Sahar and Hamad

But because the influence of male-female pole is so strong we end up with

حمد مع سحر Hamad and Sahar = male and female

Lesson three reads :

حمد أخو سحر Hamad is Sahar's brother

سحر أخت حمد Sahar is Hamad's sister

Here the two new words are أخ "brother" and أخت "sister". As expected the male term is presented first followed by the female equivalent. In fact this pattern of male first female second is so evident throughout the whole book to the extent that every activity is first executed by حمد Hamad: the male character and later by سحر Sahar: the female character.

wives, children and servants were historically part of male's property and were actually inherited. (Smith 1985).

Another asymmetry in the treatment of women and men in language is seen in the order of precedence and preference that is given to men when females and males are points of reference.

Here are some examples from English and Arabic :

a. English :

husband and wife
son and daughter
king and queen
Adam amd Eve
brother and sister
John and Mary

b. Arabic :

ولد و بنت	a boy and a girl
آدم و حواء	Adam and Eve
رجل و امرأة	male and female
العاملين و العاملات	male employees and female employees
الطلاب و الطالبات	male students and female students

In fact we are so accustomed to this order of presentation that if we attempt to reverse the order at presentation it will be odd and very much out of tune. Thus, the cliche "Ladies before gentlemen" is mere rhetoric that is never observed in practice. Even this cliche reinforces the strenght of men. The cliche means "let the women, the weak ones go first, we men can look after ourselves".

This order of precedence and preference of males over females is evident at all levels including academic and school books. To illustrate this let's take the reading book for the first primary level at schools in Qatar as an example. This book is chosen for different reasons. On the one hand it is children's first encounter with the academic world which is supposed to be authentic

names, for example, are not known by their peers, for if they do, they can be used as a source of embarrassment.

It seems that the agnomens أم "umm . . . " "mother of . . . " and أبو "Abu.." father of . . . are used for different purposes. In the case of males, it is used o elevate the stature of the person and to grant him respect and honour. But in the case of females, agnomens are used to conceal their names which are considered taboo. Moreover, male first names such as علي Ali and محمد Mohammed are used far more often to address a married man than female names, like فاطمة Fatma and مريم Maryam, are employed to addressed married women.

It seems that women both in the West and the East alike take part of their identity by relating to a man.

> "Lakoff 1975 argues that men are defined in terms of what they do in the world while women are defined in terms of the men with whom they are associated . . . the owner and the owned . . . Women more often than men are reffered to in terms of their partners: "John's wife" "Harry's daughter" "Bill's girlfriend". It becomes most acute in the event of a spouse's death" "A women whose husband dies is "Ed's widow". But the man whose wife is deceased is not commonly reffered to as "Vera's widower". (Smith 1985: 46-7)

Similar approach is also evident in Qatari Arabic. Here are some examples:

زوجة علي	Ali's wife
خطيبة علي	Ali's fiance

However, we must remember that a great degree of flexibility is attached to this point. So it is not the case that females are always attached to men, but the matter depends on the degree of acquaintance between the speaker and the male and female to whom he refers. Thus, if he is familiar with the man but not the woman the male will be the centre to which the female is attached. The reverse is true if he is acquainted with the female but not the male. But when the speaker knows the two parties to a similar extent, then women are more often than men are reffered to in terms of their male partners.

Moreover, the term "family" which is derived from the Latin word "famulus" which means a slave or servant, is itself a constant reminder that

However, it is also possible to use a person's father's name to construct his agnomen. Thus, if one's name was جاسم علي Jassim Ali, one may have any of the following agnomen:

أبو محمد	Abu Mohammed father of Mohammed

or

أبو علي	Abu Ali father of Ali

Normally the father's name is chosen to make up an agnomen if the person's given name does not have a fixed counterpart in the agnomen system, since some names like ناصر Nassir, as سيف Saif etc. have no fixed or agreed upon agnomen.

Females, on the other hand, are not given equivalent agnomen أم mother of . . . until they are married. Thus, males are regarded as full adults long before their marriage takes place, whereas for the females this is not the case.

But after marriage the females lose their name almost completely. They are no longer reffered to as فاطمة Fatma or مريم Maryam but addressed, in the presence of others, in term of female agnomen أم umm/ "mother of . . . " and the name that follows is always that of a male.

In fact the parent's agnomen أبو Abu " father of" and أم umm "mother of" are always followed by the son's (male) name, even if the eldest child of the family is a female and even if a male child doesn't exist in the family. But some people, though very rarely, use the name of their eldest daughter to construct their agnomen, such as أبو فاطمة Abu Fatma/lit. father of Fatma. "Fatma's father". They may go on using them for years before a boy arrives in the family. Once he arrives, the female name is abandoned and the masculine name is used instead.

Avoidance of female names is so evident and forceful that many people do not know their grandmothers' names. Mothers' names and sisters' names are considered taboo. Children 12 and over make sure that their mothers'

adapting their husbands' family names when they marry. Thus women are said to marry into a family and families die out if an all-female generation occurs.

We may want to think that women are better off in the Eastern societies (like Qatar) where females retain their family names after marriage. But this is not the case. Before going into details, I would like to describe the naming system in Qatar (which is true for many other Arab societies).

Children are usually addressed by nik-names. These names are usually abbreviations of or derived from their given names. The system is applied to both sexes. Here are some examples:

محمد	Mohammed	حمود	Hammoud
علي	Ali	علوي	Alloy
فاطمة	Fatma	فطوم	Fattoom, Fitami
خالد	Khalid	خلود	Khalloud
مريم	Maryam	مريوم	Maryoum, Miureim

An important process pf change takes place during adolescence. Men are no longer, or very rarely, addressed by their nik-names. Instead they are given an agnomen which consisits of abu أبـو father of and another name. The agnomen or kunya كنية names have historical roots and they are in a kind of fixed relation with a person's given name. Here are some examples.

محمد	Mohammed	أبو جاسم	Abu Jassim lit "father of Jassim" or Jassim's father
جاسم	Jassim	أبو محمد	Abu Mohammed lit "father of Mohammed" or Mohammed's father
علي	Ali	أبو حسن – حسين	Abu Hussein/Hassan lit father of Hussein or Hassan's father
حسن/حسين	Hassan/Hussein	أبو علي	Abu Ali "lit father of Ali" or Ali's father

a name is much more than a label or a tag. It is a symbol which stands for the unique combination of characteristics and attributes that define them as individuals. Probably it is justifiable to claim that it is the closest thing that we have to a shorthand for the self-concept (Smith 1985).

Parents usually think of a name for their baby long before s/he is due. Sometimes this is done as early as the first month of the pregnancy. In most societies two names are chosen: one for girls and the other one for boys. The reason for that is the perception of sexes as a binary system: whoever is not a member of one sex is by definition a member of the opposite sex. People who don't see themselves as members of a particular sex to which they are attached are looked upon as misfits. In our societies, British and Arab, for example, they are reffered to as gays and lizbians, a-sexuals, etc.

However, the Navajo, for example,

> "recognize a separate sex class for individuals who are anatomically distinct from females and males whom they call "real nadle". This sex class corresponds to a gender formular for nadle . . . Inother words "real nadle: are not forced into male or female gender pattern as they would be in our society. Furthermore, the nadle gender category constitutes a real third gender-option and not just a misfit category" (Smith 1985:24).

Such communities are really rare. Most societies follow the binary system of female and male.

Names are usually marked for gender. Im other words, we can in most cases define the person's sex on the basis of his/her name (given name). For example names like John, Joseph (English) and Mohammed, Ali (Arabic) are unambiguously masculine, whereas Mary, Josephine (English) and Fatma, Mariam (Arabic) are clear feminine names. Names like Lee and Dale (Enflish) and Sabah, Nour (Arabic) which are acceptable for both sexes are really rare. Other familiar names which seems to suit both sexes such as Jo, Chris and Pat are usually abbreviations of longer unambiguous forms such as Joseph or Joanne, Christopher of Christine and Patricia or Patrick.

The assumptions which underline the customs regarding female names after marriage is quite interesting, and the whole process reflects a sexism strategy. It is very common in Europe and North America to see women

Women display a greater tendency to ask questions (Maltz and Borker 1982). Women are interrupted more often by the opposite sex in mixed discussions (Zimmerman and West 1975). In fact the interruption policy that is regularly practiced by men in mixed conversations shows how language reflects the structural position of inequality of females and males. Thus in an interactional activities:

> "Men and women exhibit the normal power relationship that exists in society, with men dominant and women subservient. They also behave in this way because that is how they have been brought up to behave" (Wardhaugh 1986:309).

Therefore, "Men dominate women by interrupting them and by neglecting topics they raise while women exhibit their supportiveness . . . by using positive politeness strategies" (Brouwer and de Haan 1987:4).

On the whole, features that are generally associated with women's speech were renamed by O'Barr and Atkins as Powerless Language. They argue that similar speech symptoms occur in the speech of powerless people i.e. who held subordinate, lower-status jobs or were unemployed. However, powerless language has been confused with women's language because in most societies women are usually weaker than men (Kramarae 1982).

Women acquire a speech style which is more appropriate for the domestic sphere; it is supportive, harmonizing, open-hearted and cooperative. Men, on the other hand, learn a speech style appropriate for the domain of public discussion: it is forceful, fast, loud, competitive and dominant. These differences in speech styles reinforce and suit the division of labour, between men and women, found in most societies: women take care of the domestic sphere and men are visible only in the public sphere. (Van Alphen 1987).

Those were some characteristics of the language of each sex, but there are other types of sex-related language prejudices that can be observed community wide. In other words the community as whole uses certain forms of langauge that give an edge to the males over the females. Here are some of those aspects.

Names:

Names are important. It is hard to think of anything in the universe which does not have a name. For non-humans names may just serve as a tag reference; they facilitate communication among people. But for most people

more salient social distinctions in our society, therefore we will always expect and indeed find some reflections of the gender identity in the sociolinguistic system of the society under investigation, whether in its phonology, morphology, syntax, sematics or discourse.

The linguishtic differences between the two sexes are evident in most languages of the world, but as expected such diversities are more salient in some communities than others. The most often mentioned example of sex-related language difference is probably the Malagasy speech community in wich there is a fundamental contrast between the patterns of speaking of the two sexes. Direct speech is associated with women while indirect speech is related to men. Indirect speech is the style used in public and political speeches. It is the one that is positively valued in society as a whole. The other form of speech i.e. direct, although discredited in general, is used sometimes such as in bargaining which comes within the domain of women. (Sherzen 1987).

> "Pitch and intonation phenomena figure prominantly in impressionistic accounts of male-female speech differences from the earliest writing. At the empirical level, acoustical analysis of adult speakers in the United States and Germany has demonstrated that women have both a higher fundamental frequency - - - and greater pitch variability than men". (Smith 1979:123).

Various studies have shown that in the same context women use more standard forms than men (Labov 1966, New York City; Trudgill 1975, Norwich; MaCaulay 1976, Glassgow, Romaine 1978, Edinburgh). For example Labov (1966) reports that women in New York lead the way in the sound change that is taking place in the pronunciation of (r), as they adopt the hypercorrection form in most formal styles.

But women use the standard form of the language more frequently not because they belong to the less tightly-knit networks which in turn are less efficient at enforcing vernacular norms. Milroy (1980) reports that the use of non-standard forms seems to be associated not only with working class speakers, but also with men, because their networks are denser and more multiplex than the women's. This difference in strength of the networks is matched by linguishtic differences. In other words, women use more standard English forms because they are relatively less exposed to the vernacular speech. (Coates 1986).

old, female and male vote these activities as important and value them positively. But when the same occupations are done by woman they are regarded as less important (Sherzen 1987). For example, looking at the Qatari society where women's participation in public occupations is quite limited, we may notice that occupations traditionally done by females such as house work, rearing of children and baby care are appreciated far less than office work, although very often such activities are extolled in lectures that emphasize their value. Those lectures, however, remain part of the social rhetoric that is not practiced by the society. Thus a female who seeks a job such as in teaching, or nursing etc., is always valued far more positively than a woman who takes care of her children. But then the former is voted less efficient when compared to men, even if both parties carry out the same job.

In a recent study carried out at the King Fahad University of Petroleum and Minerals, Saudis and Asian expatriates, and to a lesser degree Western expatriates, believed that women were neither ambitious nor competitive enough for their work as managers, for it to be considered as valuable as that done by men. (Middle East Education and Training 1988).

The other issue that is closely related to prejudice is the question of identity. We live in a multi-dimensional social space. We identify ourselves with numerous groups or sub-groups. Language is just one of the means by which individuals locate themselves in the multi-dimensional social space. Speech is in fact an act of identity. When we speak, one of the things we do is identify ourselves as females or males. During our childhood we are trained indirectly to acquire linguishtic behaviour appropriate to our sex, and this becomes part of our identity. In fact the acquisition of sex-related aspects of language is essential in developing and acquiring native competence in any language. Competence relates not only to the rules of grammar but also includes rules of appropriateness.

> "A person's knowledge of his language includes more than knowledge of syntactic, semantic and phonological rules. Even if his knowledge of these is complete he must also acquire communicative competence - of when to speak or be silent, how to speak on each occasion; how to communicate and interpret meanings of respect, seriousness, humour, politeness or intimacy". (Milroy 1980/85).

However, we expect distinct social groups to develop certain characteristics which differentiate them from others. Gender is one of the

"Language Mirrors Gender Preference"

Dr. Darwish Al - Amadidhi

Introduction:

The following piece of research will look at certain aspects of contemporary usage of Arabic and English. The aim is to reveal prejudicial attitudes in the language use that demean women while on the other hand glority and honour men. The paper will not only try to describe a linguistic phenomenon and its social context, but will also attempt to show how linguishtic differentiantion and usage reflect social structure i.e. it is a direct consequence of the structural social inequality found in the community. Data from Arabic, mainly Qatari Arabic, and English in the fields of names, insults, word ordering and titles is presented to provide evidece that sex-related bias in language usage is evident everywhere, albiet in different forms and fashions, and to different degrees.

Everyone has prejudice of one sort or another, and it is reflected in one's behaviour, attitudes, manners, etc. Language is a vehilcle through which all kinds of prejudice are materialized. Therefore we may look at language as a carrier of societal attitudes and stereotypes. Normally it takes a considerably long time and hard effort to change linguistic prejudice for it is the result of accumulations of societal behaviour and attitudes over generations. However, linguistic prejudice is largely responsible for reinforcing stereotype images found inthe society and which are in mnany cases totally unfounded and unproved.

Sexism is one type of prejudice. It is the preference of one sex, maily males, over the other. Such sexist attitude is not related only to the linguishtic aspect but is quite evident in all other domains of human behaviour.

Almost in all societies men's need for achievement and success is recognized. Men have the freedom to do what they like. They may cook, drive, dress dolls, hunt or do office work, and when society perceives such activities as part of the male domain, then the whole community: young and

17. G. Jean-Aubry, Joseph Conrad: Life and Letters, Doubleday, Garden City, N.Y., 1927, vol. 1, p. 260.

18. Thomas Moser, Joseph Conrad: Achievement and Decline, Harvard University Press, Cambridge, USA 1957, p. 179.

19. Baines, op. cit., p. 324.

20. William Blackburn, ed.: Joseph Conrad: Letters to William Blackwood and David S. Meldrum, Duke University Press, Durham, N.C.: 1958, p. 47.

22. Joseph Conrad, Youth, a Narrative, and Two Other Stories, Dent, London, 1950, p. 203.

23. Ibid., p. 204.

24. Leavis, op. cit., p. 177.

NOTES

1. Jocelyn Baines, Joseph Conrad, Weidenfeld and Nicolson, London, 1960. p. 275.

2. F.R. Leavis, The Great Tradition, Chatto and Windus, London, 1948. p. 187.

3. Edward Garnett, Letters from Joseph Conrad, 1895 - 1924, Edited with introduction and notes; Nonesuch Press, London, 1928, p.113.

4. Merrell R. Davis and William H. Silman, The Letters of Herman Melville, New Haven: Yale University Press, 1960 p. 167.

5. Baines, op. cit., p. 209.

6. Ibid., p. 321.

7. C.T. Watts, ed., Joseph Conrad's Letters to Cunninghame Graham, Cambridge University Press, 1969. p. 215.

8. Garnett, op. cit., p. 124.

9. Frederick R. Karl, Joseph Conrad: The Three Lives, Faber and Faber, London, 1979, p. 451

10. Davis and Silman, op. cit., p. 133.

11. Adam Gillon, The Eternal Solidarity: A Study of Joseph Conrad, Bookman, New York, 1960. p. 206.

12. Baines, op. cit., p. 311.

13. Gillon, op. cit., p. 67.

14. Ibid., p. 163.

15. C.T. Watts. ed., op. cit., p. 233.

16. Baines, op. cit., p. 199.

1. The instinctively good, who are unreflecting men of simple virtue (e.g., Singleton, MacWhirr, and Captain Whalley), and whom Conrad renders in imagery that is uniformly light or white;

2. The bulk of mankind which goes its way unheedingly, in connection with whom there is a neutral rendering, a mixture of light and dark;

3. The instinctively evil, who are virtually agents for the force of darkness, and who are always rendered in dark or black imagery (e.g., Heemskirk, Gentleman Brown, Kurtz), both in its physical and psychological aspects.

Finally, isolation is a natural condition of existence, both in its physical and psychological aspects.

Thus Conrad's pessimism, founded on the doctrine that reality is essentially evil, is far more thorough-going than the pessimism of Hardy or de Maupassant. The course of action he seems to advocate, while having much in common with the Cynical–Stoic tradition, differs from that advocated by Voltaire or Ibsen in its defensive character, and in its mocking of any possibility of transcending the difficulties of life. His dualism is pagan and absolute, thus separating him from the Christian Dualist writers, such as Dostoevsky, Melville and Hawthorne.

This is, it must be said, a different Joseph Conrad from the writer we have long been familiar with. In this view, it is no longer tenable to dismiss the descriptions of nature as 'purple patches,' or to sidestep the issue of his 'adjectival insistence' as his narrative becomes ever more densely philosophical. The Conrad that emerges when we recognise the uncompromising, and unique, form of his pessimism may prove to be less congenial than the Conrad we thought we knew. There are indeed elements in his outlook which are profoundly antisocial and even anti-life, but we should recognise that they spring fron venerable sources. They have none of that taint that attaches to the works of, say, Céline and Genet, whose anti-humanity was the expression of active rebellion against the very society that produced them. At the very least, we may be able at last to use "that portentous term, philosophy"[24] of Conrad, as it always deserved to be used, in our continuing attempt to unravel the meaning of his works.

of Darkness," when Kurtz is brought aboard the steamer, Marlow says, "His was an impenetrable darkness . . . one evening coming in with a candle I was startled to hear him say a little tremulously, 'I am lying here in the dark waiting ffor death.' The light was within a foot of his eyes."[22] This is followed several paragraphs later, after the announcement of "Mistah Kurtz - he dead," with the puzzling summation of Marlow's feeling: he says, a propos of nothing and immediately after a remarkon his loss of appetite, "There was a lamp in there - light, don't you know - and outside it was so beastly, beastly dark."[23] We can make nothing of such passages as these, and they are many, if we maintain a sophisticated literary distance from what Conrad seems to be saying, if we search pedantically for what the symbolic representations of light and darkness "stand for." In short, they may not symbolise, but be Good and Evil, and in such a Manichaen reading of the text the difficulty vanishes.

To return in this brief overview of Conrad's outlook to the nature of his absolute and cosmic pessimism, we may summarise his attitudes as follows:

Conrad seems to have viewed the world as composed of two elements: (1) Reality, or evil, as expressed in materiality, nature, and human fallibility; (2) Illusion - the 'dream' of life, as manifested in (a) the surface illusions of happiness, pleasure, success, and (b) the enfeebling illusions of love, sympathy, intellectualisation, and imagination.

Perched on the horms of his fate, man's life is a continual struggle against catastrophic annihilation that may come from within (Illusion) or without (Reality).

The end of life for men of 'fine conscience' is an ascetic detachment from it, and an attitude towards it of 'cold unconcern.' For such men, the only lasting satisfaction is that of having enjoyed the spectacle of existence while defending oneself: the simple enjoyment of the exhilaration of the chase that is life. The ideal state of perception or true gnosis is never fully attainable, but remains fixed as a goal in the minds of the elect and the potentially elect; the path towards it is singleminded attention to honour, fidelity and the practice of 'simple virtue.'

At the lowest level of this ethical hierarchy is the mass of humanity, which has neither the ambition nor the natural equipment for spiritual quest. But Conrad distinguishes three categories of ordinary (non-elect) mankind:

says the Athenian stranger in The Laws of Plato, "are not these two opposed in respect to ease and difficulty?" What is remarkable about the elect in Conrad's work is that their achievement is always a heightened perception, whereas other more worldly men seek only power. Perception of the true nature of reality , and oneself, leads Conrad's elect to a faith in the necessity of a few simple truths: man must be faithful above all to himself, and to the ideal standard that he sets up for himself. If that standard requires him also to be faithful to one or more others, then it is also part of his moral obligation to be so. The elect are armed with an instinctive sense of honour, and with the practical ability to devote themselves to particular tasks. In "Heart of Darkness," what prevents Marlow from succumbing to the evil projected by the dying Kurtz is his determined hard work in repairing and piloting the steamer. Thus the practical code of behaviour advocated by Conrad combines some of the elements of medieval chivalry with others of a Calvinist hue. Both the code itself, and the system of its transmission from gnostic elect to auditor, derive mainly from Conrad's uncle Tadeusz Bobrowski. In Bobrowski's letters, and especially in those addressed to "My Dear Pessimist," one finds a distillation of the philosophy of Stein in Lord Jim, culminating in the Bobrowşki-Stein motto "Usque ad finem."

The 'answer' that Conrad provides implies always the question, "Why should men behave like this?" And that question is answerable only in terms of Conrad's own, highly individual perception of the visible world. Unless we are to hold that Conrad's vocabulary was very limited, we must concede that his insistence on images of light and darkness was intentional, and that his choice of imagery expressed (whether consciously or unconsciously) his view of the world. Many other writers have seemed also to view the world in light and dark terms, and many have employed such a symbolism in their works. But few have done this so obsessively, or at the apparent expense of style, or so consistently as Conrad does. His association of light and white images with Good, and dark and black images with Evil, amounts to a step well beyond the device of symbolic language: it indicates a possible conviction that they are literally the same - that light is Good, and darkness is Evil, rather than their being only representational.

It might be maintained that Conrad, as a result of his long years at sea and in the tropics, was morbidly sensitve to effects of gradations of light (as apparently the painter Daumier was), but this would scarcely account for the obvious ethical significance of light and dark imagery in his works. In "Heart

Conrad's attitude as springing from a reticence compounded of prudishness and a distaste for the vulgar. Thomas Moser, however, believes that to Conrad love was the 'uncongenial subject,' and the bête noire of his artistic struggle. Moser notices that Conrad, particularly in the early works, sets his love scenes in natural backgrounds that exude either death and decay or sinister growth. Moser does not relate the association of passion and repellent nature to Conrad's outlook on life - rather, he sees the symptoms of a troubled psyche, and claims that "the inappropriate imagery used in connection with lovers suggests that their creator is so seriously confused that he cannot carry out his artistic intentions."[18]

One doubts that Conrad would have agreed that his imagery was "inappropriate." On the contrary, it was highly appropriate to his view of reality as essentially evil, and love as an illusory condition leading in its sexual aspect to a multiplication of earthly materia. This attitude is also not confined to the early works, or to those set in the tropics: in The Secret Agent the natural background is uniformly sinister and squalid, and in "The Sisters" manuscript, when Conrad describes in detail Stephen's retreat in Passy he speaks of the trees in the garden growing "as if in a dungeon . . . fragile and menaced by fertile grass which sprang up vigorous and conquering over the desolate remnant of beauty."[19]

Given that "impassable walls" exist between people, and that love is an illusion, and that this illusion is in fact enfeebling, it follows that sensual passion will be viewed as corrupting, and relegated to the order of things to be avoided. Both nature and love are treated as acceptable by Conrad only when they are passive. Activity signifies the presence of a malevolent force.

But if Conrad's outlook was made up of the above attitudes, his was nevertheless not a counsel of despair. Some few men, the Marlows and Steins of this world, achieve a level of perception that finally allows them to enjoy their passage on earth: they manage to come to terms with "a universe whose amazing spectacle is a moral end in itself."[20]

Such men stand in Conrad's books at the top of an ethical hierarchy. Baines writes of this fact with some degree of bafflement, "It is a strange theory that destiny should be reserved only for the elect . . . but that seems to be Conrad's contention in Lord Jim."[21] The elect can, as in Lord Jim, serve as instruction to other men of 'fine conscience.' "Perception and power,"

time when most writers, and many of his friends, believed ardently in one political creed or another, Conrad adopted an attitude of aloofness. That the reasons for this attitude were moral rather than artistic is obvious from his letters to Cunninghame Graham and Wells. To Wells the social reformer Conrad wrote, "You don't care for humanity but think they are to be improved. I love humanity but know they are not."[16] His pessimism prevented him from believing in social or political improvement. To those critics who nevertheless insist on reading into Conrad's works a political message, a suitable caution is provided by Joseph Retinger, a fellow Pole living in England, who wrote:

> When it came to the principles of governing mankind he was not a very moral person, I am afraid, and with Montesquieu he shrugged his shoulders at the thought of a Chinese Mandarin killed thousands of miles away . . . he had no faith in politics as a factor which might bring any substantial reward to suffering humanity, because, he reasoned, politics cannot change human nature, which alone is the origin of good and evil.[17]

If we exclude the non-fictional pieces Conrad was pressed into writing, such as "Autocracy and War," the prevalent note in the "political" works, Under Western Eyes, and The Secret Agent, and the short stories "Heart of Darkness" and "An Outpost of Progress," is one of unfailing scepticism: human, social and political perfectability are treated ironically as illusions: ridiculous at best and dangerous, as in The Secret Agent, at worst.

As an extension of such scepticism, Conrad also clearly questioned man's passionate attachment to life itself. Eighteen of his characters, most of them major, commit suicide: either out out of despair when faced by the true nature of reality, or in offering themselves as a sacrifice to an ethical ideal, or simply by choosing to stop living. Conrad himself, as we now know, attempted suicide in Marseilles in 1878, and he is rivalled only by Ibsen in the number of suicides in his works. Never is there any hint of condemnation of suicides in Conrad; rather, one may easily see in his attitudes towards it a positive attraction, and there is in this none of the careless disdain for life that one finds in Sartre and Camus. The suicide of Axel Heyst is born of a repugnance for life, and a desire to end the illusions of living.

Few Conrad scholars have failed to notice the strangeness of his attitudes towards nature and physical love. In treating of the latter, most have analysed

It is too often overlooked when dealing with the isolated condition of Conrad's characters that none of any importance complains of his condition; indeed, some of the noblest , like Lord Jim, who "had no dealings but with himself," are loftily above such a concern. Conrad accepts the walls that separate people as natural, and at times of benefit. In particular, it is noticeable that 'pairs' of characters never break through to one another. Jim remains "inscrutable at heart" even to Marlow. Impenetrable barriers separate Alan Harvey and his wife in "The Return," and other couples are similarly alienated from each other: Yanko Goorall and Amy Foster, the Goulds, Heyst and Lena, the Verlocs, and Captain Anthony and Flora. But such isolation, however tragic, is inevitable. It is this theme of 'unconnectedness' that is at the centre of E.M. Forster's novels, but with Forster isolation is far from inevitable, provided there is a willingness to commune between people with "developed hearts." No such communion, or even communication, is allowed for by Conrad. When it appears to exist, as in Nostromo between Emilia and Charles Gould, it is proved to be merely an illusion, a self-deception.

Adam Gillon claims further that "Conrad's lonely heroes are an affirmation of human solidarity . . . man's isolation proves that no person with a conscience can live by himself."[13] What Gillon does not notice is that having a conscience – in the sense that Heyst and Razumov exercised theirs so fatally – is not a necessary requirement of the Conrad hero. When Jim allows Gentleman Brown to escape he has no thought of what may follow that decision, if not in Patusan then in the world outside Patusan. There is no evidence to support the view of Conrad's heroes as affirmations of human solidarity, for it is plain that the isolated, the men of conscience, and the men of no conscience, all are made to perish without reward. Although Conrad claimed to hope in his work to ". . . awaken that feeling of unavoidable solidarity,"[14] in practice he proclaimed the fact of isolation as inevitable. His wish was at odds with his outlook. And even the wish may be doubted in view of Conrad's picture of his fellow man:

> L'homme est un animal méchant. Sa méchanceté doit être organisée. Le crime est une condition nécessaire de l'existence organisée. La société est essentiellement criminelle, – ou elle n'existerait pas. C'est l'égoisme qui sauve tout, – absolument tout, – tout ce que nous abhorrons, tout ce que nous aimons.[15]

By its very nature, Conrad's outlook required him to be suspicious of all human progress, and especially of political or social progress. Living at a

man–inhabited world."[9] Evil existed as a force in the world, and Conrad plainly believed both in its power and in the necessity for man to oppose it in his own interest. His conception of man's 'religious duty' was simply the awareness of and opposition to evil.

Against man in his deadly struggle is the fact of his isolation. Most of Conrad's characters are what Melville, in describing th crew of the 'Pequod,' called "isolatoes ... not acknowledging the common continent of men, but each isolate living on the separate continent of his own."[10] Such a state is the antithesis of Donne's 'No man is an island.' Adam Gillon, in his study of isolation in Conrad's novels, says: "Thrown upon himself, the isolated man forever faces an impassable wall that separates him even from the people who stand closest to him."[11] And Baines agrees that "... there is no invariable element that is either the cause of misfortune or else an essential ingredient of the tragedy: the emotional and moral isolation of the individual."[12]

However, it is possible to agree that isolation is "an essential ingredient of the tragedy" while vehemently disagreeing that it is ever "the cause of misfortune" in Conrad. As a fact of the human condition, isolation may contribute to misfortune, but when Baines and Gillon insist on the importance of the theme of isolation they fail to see the larger picture: isolation may be a regrettable condition, but it is one that is incapable of alteration.

Of all Conrad's protagonists, only Axel Heyst in Victory intentionally isolates himself. In all other cases the characters are isolated by the nature of their circumstances, either physically or psychologically. Heyst's total and voluntary withdrawal from the world to a life of solitary asceticism is not the cause of his destruction. His doubt about the correctness of his action contributes to his unease, but it is his brief surrender of isolation that destroys him. His moment of weakness in sympathising with and then rescuing Lena brings as a direct consequence all the evils that befall him, and it is clear that had he continued to heed his father's advice he might well have survived. That this has been so seldom perceived in Conrad criticism is due to a reluctance to admit to so deeply anti–social a conclusion. The point is reinforced by the example of Razumov, in Under Western Eyes, whose isolation is shattered by Victor Haldin. All Razumov, like Heyst, had wanted was to be left alone. The consequence of his fatal weakness in sympathising with Haldin is suffering and death.

Having weighed these possibilities in Moby Dick, Melville appears to waver between the second and the sixth, whereas Conrad's view was essentially the third, which is not incompatible with any of the final three. Melville put his fears about the truth of the sixth possibility most clearly in a letter to Hawthorne: "The reason the mass of men fear God, and at bottom dislike Him, is because they rather distrust His heart, and fancy Him all brain like a watch."[4] Similar suspicions of a mechanistic deity appear later in the writings of G.B. Shaw and W.B. Yeats, as well as Conrad. The letter to Hawthorne was written in 1851, the year Moby Dick was published. Forty years later, with Billy Budd, it became clear that Melville's early pessimism had turned into tragic optimism. In that work Claggart, the personification of evil, triumphs but his death is sudden and he is forgotten; Captain Vere similarly dies and is forgotten, but Billy continues to be remembered. Melville seems to be saying that neither man nor nature can completely destroy the good, so the existence of good and evil can be accepted in the confidence that only the good is immortal.

Conrad's conclusions are uniformly the reverse of Melville's in Billy Budd. Indeed, it is those characters who are most good, or most innocent, who are most quickly forgotten. Stevie, Freya, Lena, Captain Anthony, Mrs. Gould, Antonia, Captain Mitchell, Singleton, all are rewarded by being forgotten. They meet the fate of Mr. Baker, the "model chief mate," who returns to find that "no one waited for him ashore . . . mother dead, father and two brothers drowned . . . sister married and unfriendly."[5] Evil wins, in this world and forever. As Jocelyn Baines remarks, ". . . it is useless to look for consolation in his work. It concedes no hope; the fate of those undisdained by destiny . . . is tragic, and triumph inevitably brings death."[6]

In comparing Conrad with Melville, one must acknowledge Melville's great reluctance to disbelieve in God and the truth of Christian doctrines. Conrad had no such difficulty. Christianity was "distasteful" to him: "I am not blind to its services, but the absurd oriental fable from which it starts irritates me. Great, improving, softening, compasionate it may be but it has lent itself with amazing facility to cruel distortion and is the only religion which, with its impossible standards, has brought an infinity of anguish to innumerable souls – on this earth."[7] On another occasion he wrote, "It's strange how I always, from the age of fourteen, disliked the Christian religion, its doctrines, ceremonies and festivals."[8] But such disbelief was not wholly negative, for Conrad confessed to a "deep–seated sense of fatality governing this

The strict definition, in both philosophical and literary usage, is absolute, constant, and cosmic: the universe is seen as being at the mercy of a malignant – or at least uncaring – force (cf, Gloucester's speech in King Lear, IV.1.37: "As flies to wanton boys are we to the gods; They kill us for their sport.") Alternatively, it is seen as being driven by a blind, directionless, and irrational will, as in the writings of Von Hartman and Schopenhauer. Of these two views, it might be said that Thomas Hardy held the latter view and Conrad the former. In Conrad's view there is an acceptance of the active power of evil: it supposes a malevolent direction which at its worst is far from blind.

"Retrogressive pessimism" – the doctrine that the world is undergoing an inevitible process of degeneration (cf. Spengler) – while far more common in literature than either of the forms of absolute cosmic pessimism, should not concern us but for the fact that it is held to be applicable to Conrad by those critics who feel that he was motivated by a nostalgic yearning for the past.

Closest to Conrad's view are the 'melancholy romantics,' such as Baudelaire and De Vigny. Hardy, on the other hand, adhered to a type of stoicism which emphasised the irony of human fate, and, unlike Conrad, he indicates a measure of benefit, pride or satisfaction in suffering.

Melville is sometimes linked with Conrad as a cosmic pessimist, and a comparison of their views may help to distinguish the nature of Conrad's pessimism. Like Conrad, Melville, "was concerned because he was unable to express all he meant, or even to bare all his deepest thoughts."[3] But his method of resolving this difficulty was as different from Conrad's as was the essential nature of his early pessimism. Conrad never hesitated over choosing a view of life, while in Moby Dick Melville surveys six possible conceptions of the nature of evil and the universe:

1. The transcendental view uniting God, man and nature in mutual perfection in a benevolent universe;
2. The Christian Dualist view that the universe is controlled by a benevolent God or force that permits evil in man and nature;
3. The Manichaean view that good and evil forces are at war perpetually for universal control, with evil the more powerful;
4. The view that the universe or God is essentially evil;
5. The view that the universe is chaotic;
6. The view that the universe is orderly but godless, and is therefore indifferent to man.

It will readily be seen that, in view of these attitudes, Conrad's general outlook as thus described was absurdly out of line with the thinking and beliefs of his contemporaries. Indeed, one is hard pressed to think of any writer with whom he bears comparison, although there is close proximity to (and an undoubted influence from) the views of Schopenhauer. Such views are particularly inimical to those schooled in the Greek Hellenistic philosophical, or the Judaeo–Christian religious, tradition. Nevertheless, one reçognises that the elements of such an outlook are rooted in this very tradition, even though their fusion would seem to be unique to Conrad.

That Conrad was a pessimist is not always agreed. There exists a group of critics who see him in romantic terms, and persist in finding in his works a note of romantic optimism. Even F.R. Leavis finds the end of Victory "unequivocally – a victory of life."[2] But the majority of modern critics do agree on Conrad's pessimism while disagreeing on the nature and sources of it. Interpretations depend on a bewildering variety of theories, ranging from the Freudian–Jungian to the socio–political. What they do not do, however, is attempt to explain the nature of Conrad's pessimism.

To label a writer a pessimist is usually to use the word in its loose, everyday sense: to say that he looks consistently on the dark or gloomy side of life. And such usage, even implying as it does a simplistic reversal of optimism, is normally adequate. But when we examine in detail a writer's basic philosophy of life some stricter definition is obviously required.

In its philosophical definition, pessimism is primarily the belief that reality is essentially evil. That is the extreme position of a pessimist, and the one which I believe Conrad held. The less extreme philosophical doctrine is that the 'evils' of life outweigh the happiness it affords. That is the more popular sense of the word when it is used of Conrad, and in this definition what is meant by 'evils' is in truth unhappiness rather than evil; thus there is implied no view of the universe as having a 'character' at all.

In literature, pessimism is primarily the view that the universe is intrinsically either evil or indifferent, and that life is consequently futile. This view is closely related to the primary philosophical definition given above. Related to the less extreme philosophical definition is the view that there is an inevitable preponderance of unhappiness over happiness in life.

To Conrad, the difference between appearance and reality was that the former represents man's false view of the world as benevolent, such a view being born of and sustained by human weakness: sympathy, imagination, intellectualisation. Thus man fabricates an unreal world of appearances and is trapped within that world by his own illusions and pretences, whereas in reality there is no benevolent force operating. In the real world – the "destructive element," as Stein terms it in Lord Jim – the forces that exist are evil. The little good that exists is the goodness of simple human virtue, but by the exercise of such virtue man can expect no reward. Love, friendship, happiness, pleasure, success, are all illusions man has constructed to mask the ugly reality of existence. In the end there is no loving God, no ultimate God, no salvation, no redemption, no perfectibility, no real progress, but only surcease into death. Most weakening is the practice of the Christian virtues of love, faith,hope and charity: man lives perpetually in a state of moral isolation.

Against the evil forces of the universe man has few weapons, and these are only defensive, less weapons than armour. Solidarity is one, and others are fidelity, hard work and honour. But the chief protection against evil is knowledge (gnosis), which is achieved through the successful passing of tests. Men can be ranked in a gnostic hierarchy by the measure of knowledge they display of the true nature of the universe and human illusion. Also operating in man's favour, for his guidance, is an ethical coding of light and dark elements which sometimes in Conrad seems more than merely symbolic.

The simple and unreflective man has the best chance of survival in this hostile world, but his is a triumph of ignorance. For the perceptive man, who must always be on his guard, nature is at best indifferent (and when it is passive it is only resting), but more often actively malevolent. As such, nature is the principal instrument of evil against mankind, and part of it is the process of reproduction itself (perpetuated by the enervating illusion of love), which increases the tormenting materiality of life.

Because every man is in reality isolated, and because human contact only breeds as well as feeds on illusion, man's best policy – if he is perceptive – is to live ascetically. The perceptive onlooker's only reasonable position is to derive some ironic pleasure from the mere spectacle before him.

"The Nature of Conrad's Pessimism"

Dr. Leighton Pratt

In all of his major works, Conrad places his characters in ethical dilemmas and then stands back and says, "Look! Why did this happen? What should be done?" It is primarily in this deliberate arrangement of ethical problems and their outcome that Conrad most clearly displays his view of life.

Jocelyn Baines remarks, "The essence of his art lies in the construction of a setting where a complex state of mind can be presented with the fullest emotional and dramatic effect."[1] If this presentation were accompanied by analysis, one might conclude that Conrad's interest was psychological rather than philosophical. But there is little analysis; rather the emphasis is on the "construction" and the presentation. For example, in "Heart of Darkness" no explanation is offered for the evil that enters Kurtz other than that he provided a suitably hollow receptacle for it, so that we are led to consider the nature of evil in the universe rather than the psychology or circumstances peculiar to one man.

In Victory, Conrad shows us Heyst's stubborn scepticism invaded by love, but then followed by murder, suicide and chaos. We are prevented by Conrad's deliberate arrangement of events from holding to traditional moral values: even those characters who are faithful and hardworking come to catastrophic ends. Such a manipulation of destiny implies a fixed set of attitudes on the part of the writer.

It may be worthwhile at the outset to describe in general terms what I believe that outlook was. I shall then go on to treat of the elements that comprise that outlook, and in the concluding section summarise my view of his attitudes.

In order broadly to relate Conrad's views to those of established modes of thought, we may say that he was a pessimist with a catastrophic view of the universe, whose philosophy of action (or more accurately, defence) partook of Cynicism and Stoicism. His ethical views bear some resemblance to those of certain Christian–dualist writers (e.g., Dostoevsky, Melville, Hawthorne), and his perception of the visible world, and of Man, was deeply Manichaean.

CONTENTS

10. Typescripts and accompanying materials (whether or not accepted for publication) will not be returned to the authors.

11. Opinions expressed in an article are those of the author and do not necessarily represent the views of the Editorial Board.

12. Order of articles published within each issue of the *Bulletin* is based on technical considerations and bears no relation either to their relative importance or to the author's academic status.

13. All correspondence should be addressed to the Editor:

Professor Fathalla Kholeif
Chairman of the Editorial Board
University of Qatar
P.O. Box 2713
Doha, State of Qatar
Arabian Gulf

PUBLICATION OF RESEARCH IN THE *BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES*

1. The Editorial Board invites contributions based on research within the areas covered by the *Bulletin of The Faculty of Humanities*. Articles on topics relating to the Gulf and the Arabian Peninsula are particularly welcome, but the results of research in other fields of specialization may also qualify for acceptance.

2. To be accepted an article must fulfil the normal requirements for contributions to learning. (e.g. sound knowledge, accuracy, originality) and include full references to sources and other material used. Articles containing descriptive work only will not be accepted. Footnotes and other annotations and references must follow international rules.

3. Contributions which have already appeared in print are not acceptable. After an article has been approved for publication in the *Bulletin*, the author is required to sign an undertaking not to publish it elsewhere.

4. The *Bulletin* is open to contributors not only from the University of Qatar but also from universities and institutions of higher learning in other countries. Articles should normally be written either in Arabic or in English.

5. Articles should be typed in double spacing and submitted in two copies. The length of an article should not exceed thirty quarto (27 by 21 cm) or twenty-five foolscap (32 by 21 cm) pages (= about 10,000 words) and not be less than fifteen pages of similar dimensions.

6. Diagrams, figures and maps should be drawn in Indian ink on transparent or glossy paper of the same size or less than a page of the *Bulletin*. Photographs should be clear and printed on glossy paper no larger than postcard size.

7. The author of an article published in the *Bulletin* will receive twenty offprints, together with an honorarium fixed by the University of Qatar.

8. An article approved for publication may not necessarily appear in the issue of the *Bulletin* next following.

9. Contributions are considered by assessors from the University of Qatar or elsewhere, and in each case the assessor's verdict is binding and final. The author's and the assessor's identities will not be disclosed.

The Bulletin is issued annually by the Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Qatar.

UNIVERSITY OF QATAR

BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 12

1989

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٤٧٢ لسـنة ١٩٨٩

طبع في المطبعة الأهلية
AL-AHLEIA P. PRESS Doha - Qatar

UNIVERSITY OF QATAR

BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 12

1989

جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الرابع عشر

١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م

حَوْلِيّة كلِيّة الإنسَانيَات وَالعُلوم الاجتماعِيّة

العدد الرابع عشر

١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م

حولية تصدر عن
كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية
بجامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي
ومماتي لله رب العالمين

صدق الله العظيم

بيانات حول النشر في حولية كلية الانسانيات

١ - ترحب الحولية بالأبحاث التي لها صلة بتخصص كلية الإنسانيات وتولي الاهتمام بالموضوعات التي لها صلة بالخليج والجزيرة العربية ، وقد يقع الاختيار على أبحاث في تخصصات أخرى لها صلة بتخصصات المجلة .

٢ - تنشر حولية كلية الإنسانيات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوافر فيها شروط البحث ، في الإحاطة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي وخطواته ، والأمانة العلمية ، في الإشارة إلى الأفكار وذكر المراجع والمصادر ، ولا يلتفت إلى المقالات الوصفية والإنشائية ، ويتقيد مقدمو البحوث بالتسميات والحواشي والمراجع والرموز ، وذلك بالطريقة المتعارف عليها عربياً وعالمياً .

٣ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر ولا يكون جزءاً من كتاب منشور . والبحث المقبول للنشر يرفق بوثيقة تعهد من صاحب البحث بعدم نشره في مكان آخر .

٤ - تتلقى الحولية البحوث للنشر من داخل جامعة قطر ومن خارجها من الجامعات والمؤسسات العلمية الشقيقة والصديقة باللغة العربية والإنجليزية .

٥ - يقدم البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة بنسختين وألا يقل حجم البحث عن ١٥ صفحة وألا يزيد عن أربعين صفحة كوارتر (٢٧×٢١سم) أو ثلاثين صفحة فلوسكاب (٣٢×٢١سم) .

٦ - تقدم الرسوم والأشكال والخرائط مرسومة بالحبر (الصيني) على ورق مصقول أو ورق شفاف Tracing Paper ويراعى في مساحتها ألا تزيد على مساحة المجلة طولاً وعرضاً .

أما الصور الفوتوغرافية فتكون واضحة المعالم ومقدمة على ورق مصقول وبحجم البطاقة البريدية .

٧ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية تحددها جامعة قطر مع ٢٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور .

٨ - البحث المقبـول للنشـر يأخذ دوره للنشر سواء في أول عدد يصدر أو الأعداد التي تليه .

٩ - تعرض البحوث المقدمة على خبير متخصص سواء من داخل جامعة قطر أو من خارجهـا ويكون رأي الخبير ملزماً كما يبقى إسم الباحث وإسم الخبير مكتومين .

١٠ - الأبحاث والمواد التي ترسل إلى الحولية لا تعاد ولا تسترد سواء أنشرت أم لـم تنشر .

١١ - ما ينشر في الحولية يعبر عن وجهة نظر صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر الحولية .

١٢ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .

١٣ - توجـه الخـطابـات والمراسلات باسم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور - فتح الله خليف رئيس قسم الفلسفة - جامعة قطر ص . ب : ٢٧١٣ - الدوحة - دولـة قـطـر .

فهــرس الحوليــة

القضايا العربية
لدى
شعراء الإحياء في الخليج العربي

الدكتور محمد عبدالرحيم كافود

عميد كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية

مقـدمـة :

هذا البحث يهدف إلى رصد أو معالجة غرض من أغراض الشعر العربي في الخليج في طور الاحياء عند الرعيل الأول من شعراء الخليج العربي، وهو مدى التفاعل والوعي لدى هؤلاء الشعراء بالقضايا العربية، رغم ضعف التواصل بين أبناء المنطقة، وبقية الوطن العربي آنذاك.

فالعزلة الثقافية التي كانت تعيشها المنطقة بسبب السيطرة الغربية، والتخلف الاقتصادي حتى منتصف القرن العشرين. . كان له أثره على الحياة العامة في المجتمعات الخليجية.

ولكن رغم العزلة السياسية والثقافية التي عاشتها منطقة الخليج لأسباب معروفة، إلا أن الحس القومي، والتجاوب الوحدوي في الآلام والمعاناة، والآمال والطموحات كانت تنعكس في شعر الكثير من الشعراء الخليجيين. فصدى وجدان الانسان الخليجي ووحدة المصير التي تربطه بأمته تعكسها تلك النماذج الشعرية.

وهذا ما حاول هذا البحث أن يرصده، ومن خلال تتبعي لدواوين هؤلاء الشعراء، وجدت أن هناك ثلاث قضايا قد شغلت الشعراء أو برزت عندهم بصورة واضحة وهي: قضية التحرر والكفاح ـ وقضية الوحدة العربية ـ وقضية فلسطين. حيث كان لهذه القضايا مساحة واسعة في ساحة الشعر التقليدي في الخليج.

تمهـــيد :

من المعروف أن لمنطقة الخليج العربي تاريخها العريق منذ القدم فهذه المنطقـة كـانت تشكل حلقة وصل بين الشرق الأقصى والغرب في التبادل التجـاري بينهما. ولكن رغم هذا التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب، فهي في الوقت نفسه منطقـة حـافظت على أصالتها العربية الاسلامية العريقة. أو كما يقول الدكتور محمد متولي: انها «بحيرة ثقافية جمعت حول شواطئها وحدة اللغة، والدين، والجنس، وانصهـرت في بـوتقتهـا مختلف المذاهب والآراء، حتى صارت كـلا متجـانسـاً، ووحـدة لا تتجـزأ، رغم مـا يبـدو في ظاهرها من تباين واختلاف..»(١).

وقد عرفت المنطقة العديد من الحركات السياسية، والفكرية، كالخوارج والقرامطة، والزنج، ورغم امتداد الحكم العثماني إلى مناطق عديـدة في الخليج إلا أن هـذا النفـوذ لم يكن له تأثير يذكر في نمط الحياة الاجتماعية، والثقافية المحافظة على أصـالتهـا العـربيـة الاسلامية.

وفي أواخر القرن الخامس عشر بـدأ الاستعمار الغـربي، والقـوى الأجنبيـة تتسلل إلى المنطقة حيث دخل البرتغاليون، والهولنديـون، والانجليـز والفـرنسيـون، والـروس.. الخ(٢).

وبعد صراع بين هذه القوى الاستعمـاريـة طـال أو قصر، تقلص نفـوذ هـذه الـدول وانتهت من المنطقة باستثناء الهيمنة البريطـانيـة حيث ظل الانجليـز في سيطـرتهم على المنطقة حتى بداية ١٩٧٠م.. حيث قررت بريطانيا في أواخـر الستينيـات الجلاء عن المنطقـة. وطبعي في ظل هـذه الهيمنـة الأجنبيـة على المنطقـة وتحكم هـذه القـوى على مقدرات بلدان الخليج أن تتنامى القوى الوطنية، وتتبلور النـزعـة القـوميـة للتعبير عن الرفض، وتأكيد الهوية والانتماء العربي. وقد قام الشعـر بهذا الـدور خير قيـام، حيث تمثل ذلك الحس القومي، والانتماء العربي لدى شعراء المنطقـة من الـرعيل الأول وأعني بهم شعراء الاحياء من ذوي النزعة الاصـلاحيـة، فكـان شعـرهـم صـدى للعـديـد من

(١) حوض الخليج العربي، د. محمد متولي ص-١.

(٢) الخليج العربي في ماضيه وحاضره، د. خالد العزي، ص ١٩.

القضايا العربية، والمناسبات القومية. رغم أن المنطقة كانت تعاني من شبه عزلة عن بقية أقطار الوطن العربي، حتى منتصف القرن العشرين بسبب الظروف الاستعمارية، والاقتصادية، والثقافية. فقبل استغلال الثروة النفطية التي بدأت في - أغلب بلدان المنطقة - في نهاية العقد الرابع من القرن العشرين، كانت هذه المنطقة تعاني من تدهور الحياة الاقتصادية مما انعكس أثره على الحياة الثقافية والفكرية بصفة خاصة، فمن المعروف أن نظام التعليم في المنطقة ظل يسير على النمط التقليدي حتى العقد الرابع من القرن الحالي، وإذا كانت هناك بعض المحاولات في التحديث منذ العشرينيات كما هو الحال بالنسبة للكويت، والبحرين، فإن هذه المدارس الحديثة كانت محدودة في امكانياتها وبرامجها التعليمية، ونجد أن بعضاً من الشعراء الذين أطلقنا عليهم شعراء الاحياء في المنطقة قد تلقوا تعليمهم في مثل هذه المدارس، مما كان له أثره في بروز الوعي القومي عندهم. (٣)

أما جل الشعراء الذين سوف نتناول نتاجهم الشعري في إطار الوعي القومي والهم العربي، فإننا نجد أن ثقافتهم تنبع من مصادر الثقافة التقليدية في إطار التعليم السائد آنذاك، ويتمثل في العلوم الدينية، ودراسة بعض الكتب العربية من أدب ولغة، وبلاغة، وحفظ بعض الاشعار. (٤)

وربما كان للصحافة - رغم محدوديتها - دور في بث الوعي القومي بالقضايا العربية لدى بعض الشعراء والمثقفين من أبناء المنطقة، مما انعكس أثره في الشعر بصورة واضحة، رغم صعوبة الاتصال آنذاك. فأول صحيفة محلية صدرت في المنطقة هي «مجلة الكويت» التي أصدرها المؤرخ والمصلح الكويتي عبدالعزيز الرشيد عام ١٩٢٨م، وهذه المجلة كانت ذات طابع ديني اصلاحي، بالاضافة إلى اهتماماتها الأدبية والاجتماعية. (٥)

وثاني صحيفة صدرت في المنطقة بعد مجلة الكويت هي «جريدة البحرين» التي

---

(٣) الشعر الكويتي الحديث، عواطف الصباح، ص ٢٥ وأنظر الشعر الحديث في الكويت، مشاري عبدالله، ص ٤٨

(٤) الأدب القطري الحديث، صاحب هذا البحث، ص ٦٤ وانظر الأدب المعاصر في الخليج العربي، عبدالله الطائي، ص ١٣.

(٥) الحركة الأدبية والفكرية في الكويت، د. محمد حسن عبدالله، ص ٦٦

أصدرها الأديب البحريني عبدالله الـزائد عـام ١٩٣٩م (٦). ورغم أن الطابع العـام للجريدة سياسي إلا أن صدى المعارك الأدبية والنقدية كـان واضحـاً فيهـا، كما كـانت صدى للمعـارك الأدبيـة والنقـديـة التي تجري في مصر بين مجمـوعـة من اعـلام الأدب العربي، مثل أحمد أمين، وزكي مبارك وغيرهما، مما يدل على التواصل الثقافي، ومتابعـة الادباء والمثقفين لما يجري في وطنهم العربي الكبير. (٧)

ثم تلا ذلك صدور العديد من الصحف والمجلات المحلية في المنطقة مما كان له أثره في بث الوعي الوطني وايقاظ الشعور القومي بين أبناء المنطقة. (٨)

ثم كان للصحافة العربية أثرها الواضح في هذا المجال. فقد عرف المثقفون والشعراء العديد من الصحف العربيـة التي كـانت تصـدر في مصر والشـام منـذ بـدايـة القـرن العشرين مثل مجلة الرسالة التي كان يصدرها الأديب أحمد حسن الزيـات، حيث كـان لها صدى واسع بين الأدباء في المنطقة(٩).

ومن الصحف المصرية التي كانت منتشرة أو متداولة بين أبناء المنطقـة مجلـة «المنـار» التي كان يصدرهـا الشيخ رشيـد رضـا، و«المقتطف» و«الهلال»، و«الانصـار» وغيرهـا (١٠) فكانت القضايا الوطنية والقوميـة تشغل المثقفين من أبنـاء المنطقـة ويتحـدث مبارك الخاطر عن مجلس أحد شعراء البحرين فيقول: (كان هذا المجلس ملتقى العلماء والأدباء والشعراء وعلية القوم باستمرار فيه يتطارحون الشعر بنوعيـه العـربي والشعبي، ويطالعون باستمرار ما استجد من الصحف أمثـال: اللـواء لمصطفى كـامل، والمؤيـد للشيخ علي يـوسف، والمنـار للشيخ رشيـد رضـا، والأهـرام، والمقتطف، وغيرهـا من الصحف العربية، التي كانت تصدر في ذلك الـوقت، وتـرد إلى البحـرين عن طـريق بومبي بالهند..). (١١)

---

(٦) أدب النثر المعاصر في شرق الجزيرة، د. عبدالله المبارك، ص ٦٦.

(٧) النقد الأدبي الحديث في الخليج العربي، صاحب هذا البحث، ص ٥٤

(٨) فصول من صحافة الخليج، مجلة الدوحة ديسمبر ١٩٧٦م، د. محمد جابر الانصاري.

(٩) في الدب والحياة، فاضل خلف، ص ٢٢.

(١٠) الأدب المعاصر في الخليج، عبدالله الطائي، ص ١٦

(١١) نابغة البحرين، عبدالله الزائد، مبارك الخاطر، ص ٢٤.

وكما نلاحظ أن وصول هذه الصحف عن طريق الهند يوحي بصعوبة الاتصال بين أقطار العالم العربي آنذاك، ولكن رغم ذلك فقد كان الوعي الوطني، والحضور القومي يسيطران على مشاعر المثقفين وتعطشهم لمتابعة ما يحدث في الوطن العربي، والتفاعل مع الأحداث.

ولا شك أن العاطفة الدينية التي تسيطر على الأفهام والعواطف للانسان الخليجي قد ارتبطت بالعاطفة القومية لأبناء هذه الأمة، فالعقيدة الاسلامية متأصلة لدى أبناء هذه المنطقة ولذلك فالقضايا العربية هي قضايا اسلامية، والإستجابة لأية قضية عربية قومية تكون ملونة بالشعور الاسلامي، وهي استجابة صادقة تتفق مع روح المجتمع العربي الاسلامي وما يتسم به من خصائص وحدة المشاعر، والمصير والترابط والمصالح المشتركة التي تربط بين أبناء الأمة، بحيث يترابط الاسلام والعروبة ترابطاً عضوياً.

وهناك مجموعة من المؤثرات قد أسهمت بصورة واضحة في تأجج المشاعر الوطنية والاهتمام بالقضايا العربية لدى الشعراء في منطقة الخليج، رغم العزلة السياسية والثقافية التي أحاطت بالمنطقة بسبب الاحتلال الأجنبي. وفي مقدمة هذه العوامل السيطرة الأجنبية على المنطقة حيث خلق ردة فعل قوية بتأكيد الانتماء العربي ووحدة المصير. وهو في الوقت نفسه رفض لتلك السيطرة الأجنبية.

ثم هناك عامل آخر وهو ظهور القوميات وبروزها بصورة واضحة في الوطن العربي مع نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي. فالحركات الاسلامية العربية أعطت الانسان العربي زخماً من الشعور الاسلامي والوطني لمواجهة الوضع القائم آنذاك بعد تدهور الخلافة الاسلامية وما صحبها من الاستبداد العثماني في العالم العربي وبداية التغلغل الأجنبي في العالم العربي.

ففكرة (الجامعة الاسلامية) التي دعا إليها ـ جمال الدين الأفغاني ـ، وتلامذته، كان لها أثرها في بعض الأوساط العربية والاسلامية، حيث أجججت روح الحماسة والمشاعر الدينية في مواجهة المد الغربي [١٢]. ولكن مظاهر الاستبداد العثماني للعرب قد دفع في

---

(١٢) الاتجاهات الفكرية عند العرب، على المحافظة، ص ١٠٩.

الوقت نفسه بعض المثقفين العرب إلى الدعوة إلى القومية العربية، وبدأت تظهر الجمعيات، والتجمعات العربية منادية ومطالبة بالحقوق القومية للعرب، مثل (الجمعية العلمية السورية)، و(جمعية حفظ الملة العربية)، وغيرها من الجمعيات العلمية والسياسية . (١٣)

وقد كان لظهور القوميات، وانتشارها خاصة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أثرها الواضح في بروز الشعور القومي لدى العرب . (١٤)

وعلى يد العرب المسيحيين نشأت العديد من الجمعيات العربية، وأسهمت في بلورة التيار القومي، وطالبت باستقلالية الولايات العربية عن دولة الخلافة العثمانية . (١٥)

ثم كان للحركات الدينيةوالدعوات الاصلاحية أثرها أيضاً في بروز الوعي الوطني، وظهور النزعة الاصلاحية الشاملة في مختلف جوانب الحياة، فهناك دعاة الاصلاح الديني، والاصلاح السياسي، والاصلاح الاجتماعي، وكان في طليعة تلك الحركات الاصلاحية، الدعوة الوهابية نسبة إلى الشيخ ـ محمد بن عبدالوهاب، وهي دعوة دينية سلفية ظهرت في الجزيرة العربية، تهدف إلى اصلاح وتصحيح المفاهيم الاسلامية مما أصابها من خلط، والعودة بالاسلام إلى منبعه الصافي والعقيدة الاسلامية الصحيحة(١٦)، ونجد أن لهذه الحركة الاصلاحية أثرها الواضح على الشعراء في المنطقة بحكم صلتها وبزوغها من قلب الجزيرة العربية؛ كما سوف نلاحظه عند العديد من الشعراء الخليجيين.

وهناك العديد من الحركات الاصلاحية التي أسهمت في اليقظة العربية، وايقاظ النزعة الإصلاحية الشاملة مثل: الحركة السنوسية في المغرب العربي، والحركة المهدية في السودان (١٧)، وغيرها من الحركات الدينية الاصلاحية، والحركات التحررية التي

---

(١٣) حركة البعث في الشعر العربي، د. ماهر حسن، ص ١٣ .

(١٤) تاريخ الحركات القومية، د. نور الدين حاطوم، حـ١ ، ص ١٥ .

(١٥) أنظر الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة.

(١٦) الاتجاهات الفكرية عند العرب، على المحافظة، ص ٤٠ .

(١٧) المصدر السابق، ص ٦٤ .

عاشها العالم العربي منذ بداية القرن العشرين، هذه الحركات والجمعيات كان لها أثرها وصداها في الشعر والشعراء، ولم يكن أبناء المنطقة في معزل عن تلك الصحوة، بل إنهم تفاعلوا مع قضايا أمتهم، وشاركوا في العديد من قضايا وطنهم. فقضية التحرر، وقضية الوحدة العربية، وقضية الاصلاح والتنمية، وقضية اغتصاب فلسطين كانت من أبرز القضايا التي شغلت شعراء الرعيل الأول من أبناء المنطقة وانعكس في شعر العديد من شعرائها.

الفصل الأول
قضية التحرر

لقد عايش الكثيرون من شعراء الخليج بشعرهم حركات التحرر في الوطن العربي وعبروا بأشعارهم عن هذه القضية مصورين، ومناصرين لكفاح اخوانهم في أرجاء الوطن العربي من أجل التحرر والاستقلال. فالكفاح المرير الذي مر به الوطن العربي من مشرقه حتى مغربه في سبيل نيل حريته واستقلاله، كان محوراً بارزاً من محاور الشعر لدى الشعراء في الخليج. فقد تفاعل العديد من الشعراء مع المد التحرري في الوطن العربي رغم أن التواصل الثقافي آنذاك كان محدوداً، وثقافة هؤلاء الشعراء كانت محدودة. ولكن الواقع التاريخي، وصدق المعاناة، ووحدة المشاعر تجاوزت ذلك، وكان صدى معارك التحرر والنضال العربي يظهر جلياً مدوياً في شعر هؤلاء الشعراء، في تلك المراحل المتقدمة بالنسبة لأبناء المنطقة. ومن هذا المنطلق نجد أن معظم القصائد كانت تتسم بالتلقائية والعفوية حيث تكون استجابة مباشرة لأي حدث أو معركة، أو استشهاد بطل ثائر، أو زعيم وطني.

فكانت مثل هذه المناسبات وسيلة لدعوة هؤلاء الشعراء إلى التحرر والثورة ضد الطغيان والتخلف. فها هو الشاعر ـ صقر القاسمي ـ من دولة الامارات العربية في ندائه للشباب العربي يدعوهم إلى البذل والفداء لكي يستعيدوا مجد الأمة وتتحرر بلادهم من السيطرة الأجنبية يقول فيها (١٨):

رايـــة الحق يـــا شبـــاب البـــلاد ... مـــزقتهـــا بـــالغـــدر كـف الأعـــادي

والفخـــار العظيـم بكفيـــه ذلاً ... أن تـــوالـت على عـــلاه الأيـــادي

سنحت فـرصـــة الـــوثـــوب وحـــانت ... ســـاعـــة الفتـك بـــالظلـــوم المعـــادي

(١٨) ديوان صقر القاسمي، ص ١٢٤.

وأنـــارت كتـــائب الحق تـــدعـــو ولها في الفضـــاء زجـل الفـــوادي
أمكنـوا السيف، مـزقـوا الظلم، ذودوا عـن حمى الحق بــالسيـــوف الحداد
وردوا الموت، وارشفــــــوه زلالاً وابـــذلـــوا النفس في مجال الطـــراد
خـــاطبـــوا الخصـم إن أراد خطـــاب بمـــــواضي الاخـــــلاص والاتحاد

ويستثمر الشاعر تاريخ الأمة فيذكر الشباب بأمجاد أسلافهم، وبطولاتهم وسيادتهم على الأمم، لكي يستثير هممهم. فمن قصيدة يتحدث فيها عن حال الأمة وتقاعسها، وخضوعها للسيطرة الأجنبية، وانشغال بعض أبنائها بحياة اللهـو والترف، في حين أن أوطانهم نهبا للمستعمر:

وســاءني أن أرى قــومـي نفــوسهـم عـن مطلـب الحق لفـت بــاحقـــاد
واشغـل الترف المعتــــوه قـــادتنـــا وغـــرهـم لـــؤلـــؤ في كـف صيـــاد
لــو في الأكـف سيـوف الهنـد لحن لما كـــان ابـن آوى مهيبـــا بين آســـاد
ولـــو حملنـــا التـــآخي في ضمائرنـــا مـا كـان عـرض العلى طـوعــا لأوغـاد
أواه أيـن حماة الـــديـن عـن (يمـنٍ) وقيـل عـــدنــان مـن صيـــد وأمجاد
فما لا حفـــادكـم ظلـت تســـومهـم أيـــدي التفـرق حتـى أقفـر النـادي
لهفـي على عـــزة بـــالأمـــس دان لها عـز الممالك من حضر ومن بـادى (١٩)

ويطول بنا المقام لو أردنا الوقوف على أبعاد معاناة الشاعـر القـاسمي ومعـايشتـه لمشاكل وهموم أمته. ونزعته التحررية في شعره فمعظم أشعاره تصور موقفه من الاستعمار وتطلعاته التحررية آنذاك خاصة وأن الشاعر كان يعبر عن تجربة حقيقية في هذا المجـال عاشها بصورة مباشرة حيث كان الشاعر حاكما لأمارة الشارقة، ولكن سـاءت عـلاقتـه

(١٩) ديوان وحي الحق، صقر القاسمي، ص ٤٣.

بالحكومة البريطانية آنذاك فتم نفيه إلى مصر.

ويرتفع صوت الشاعر الاماراتي ـ سالم العويس ـ من امارة الشارقة في دعوته التحررية، ومعاناته القومية، وثورته ضد التقاعس والتخلف الذي تعيشه الأمة العربية، فالشاعر رغم ثقافته التقليدية، والعزلة التي عاشها مجتمعه آنذاك ـ أوائل القرن الحالي ـ إلا أنه كان يواكب قضايا التحرر والثورات التي كانت تتفجر في مختلف المناطق من الوطن العربي.

ففي قصيدته «الحرب الصليبية الجديدة» تتوقد عاطفة الشاعر بتلقائية مباشرة لتعبر عن روح ثائرة ضد الواقع المؤلم:

يا من غزانا أتنجو من أراضينا ... فإن نجوت فما تدري بما ضينا
قتل النبيين لن ينساه غابرنا ... وما نسيناه فادروا كيف تبنونا
كنا على الروم قمنا يوم ثورتنا ... وما علمنا لكم إذ ذاك ملعونا

....

هذا العراق يرى ما لا تراه لها ... وقوم لبنان والاردن تشجينا
ولا الجزائر في سلم وان قتلت ... في حربها بشراً خمسين مليونا
من ذاك أصلب عوداً من جزائرنا ... إن العروبة عود يأنف اللينا
وأن تملكها الاتراك في زمن ... جهلاً وما زعموا من ظله دينا
من ذا معي في رجال الغرب نعرفهم ... ونجعل البحث ما فيهم وما فينا
فالقوم منهم عيون العلم نافذة ... لا يدفع العلم منهم من يريدونا
أما السياسة إن الله حرمها ... إلا على نخبة النور المحقينا[٢٠]

والحقيقة أن القصيدة كمعظم شعر العويس تتسم بالبساطة وقرب التناول والتقريرية المباشرة لأفكار الشاعر. ولغته ليست لغة شاعرية أعنى أنها تفتقر إلى الصورة الشعرية

---

(٢٠) نداء الخليج، سالم بن علي العويس، جـ١، ص ١١٣.

بحيث تتجاوز المفردات دلالتها القاموسية، ولسنا بحاجة إلى التدليل على هذ اللغة النثرية المنظومة فمعظم شعر العويس من هذا النوع، ولكن مع ذلك يبقى أن لا ننسى للشاعر - رغم الفقر الثقافي - أنه استطاع أن يكون نفسه تكوينا فكرياً، وثقافياً مع وعي تجاوز به حدود محيطه، وخرج به من نطاق تلك العزلة الثقافية التي كانت تعيشها المنطقة. بالاضافة إلى التزامه اللغة العربية الفصحى في شعره. ولعل الوعي الوطني والقومي في شعره هو الذي أعطاه مكانة بين معاصريه، ولفت الأنظار إليه.

ومن البحرين ينطلق صوت الشاعر - أحمد محمد الخليفة - متغنياً بأمجاد الشرق، داعياً اياه إلى الثورة على الظلم والاضطهاد، وإن ذلك لن يتحقق إلا برفع راية الجهاد والكفاح.

صرخـة دمـدمـت على الغبراء   خضبت جبهة السنى بـالـدمـاء
دكـت السهل بـالـدوى وهـزت   فجـوات الجبـال بـالأصـداء
فتمشى هزيمها في رحاب الكون   يـرمـى الاشـلاء بـالاشـلاء
قيل مـا ذلك الـدوي فقـالـوا   ثـورة الحق وانبثـاق الـرجـاء
إنـه الشرق هب في مـوكب الأمجاد   بـاسم البطـولـة السمحـاء

. . . .

سئم الضيم والتخـاذل فـارتـد   غضـوبـاً للـوثبـة الهوجـاء
وانبرى في ضراوة يقهـر   الظلم بكف مخضـوبـة بـالـدمـاء
شـد مـا كـابـد الهوان وأمسى   هـدفـا للمطـامـع الشنعـاء (٢١)

وشعر أحمد الخليفة يمتاز بالوضوح، وسلاسة التركيب، ومفرداته تدور بين ديوان الشعر العربي، اسلوباً، ولغة، وأحياناً مضموناً، كما سيتضح في رثائه للبطل عبدالكريم الخطابي.

---

(٢١) العناقيد الأربعة، أحمد محمد الخليفة، ص ٢٦.

وقضية التحرر والنهضة هم وطموح راود الانسان العربي، وارتبطت عند الكثير من الادباء والشعراء بقضية التخلف الثقافي. ومن هنا اقترنت عند الكثيرين منهم بالدعوة إلى الأخذ بأسباب العلم لأنه أهم عامل في بناء النهضة والقدرة على مواجهة التحدي، ولذا نجد الشاعر العماني ـ عبدالله بن علي الخليلي ـ يربط بين النهضة والتحرر وبين الأخذ بأسباب العلم لأنه الوسيلة للنهوض ومواجهة التحدي الحضاري.

يقول الشاعر:

ركب الحضارة في الحياة يسير ... والوعي مزدهر الجناب مطير

والعلم يرفده بأنهار الحجا ... ريا ويلقح نبته التفكير

وترى الشعوب على مواكب نبلها ... فيه بالوية الطموح تسير

وترى المواكب فيه يصدها ... عن سيرها كيد هناك خطير(٢٢)

....

ثم يناجي شاعرنا الخليلي، أمير الشعراء ـ أحمد شوقي ـ متمنياً لو أن الأجل قد أمهله ليشهد مظاهر التطور والتغيير بعد الأخذ بأسباب العلم وتلك كانت قضية تشغل أمير الشعراء أحمد شوقي في دعوته إلى الأخذ بأسباب العلم لأنه أساس البناء والنهضة:

يا ليت شوقي أغفلته يومه ... ليرى مناه تحققت فيطير

بالله أحمد قم فقد نضح الحجا ... في ذا الزمان وانجب التطوير

واقبض يراعك لا يرعك فإنه ... طرف بميدان السباق شهير

عصر التيقظ قد خلقت من النهى ... وعيا فكان لخلقك التأثير

نجم التحرر والتكاتف والاخا ... في طالعيك وأخلق التسطير

ومشى السلام عليك غير مهدد ... وبدا التعاون فيك وهو أمير(٢٣)

---

(٢٢) ديوان الخليلي، عبدالله بن علي الخليلي، ص ١٨٤.

(٢٣) المصدر السابق، ص ١٨٤.

والحث على العلم والأخذ بأسبابه، وبيان أثره في المجتمعات الغربية من الموضوعات الأساسية لدى شعراء الاصلاح ودعاة النهضة. ولكن إرتبطت عند الكثيرين منهم بقضية التحرر. وهذا حق فالصراع بين الغرب والشرق ليس صراعاً عسكرياً فحسب، وانما هو في الأساس صراع حضاري. يسعى الغرب إلى فرض هيمنته حضاريا على الشرق، ومن هنا تصبح المواجهة مواجهة حضارية، والعلم والفكر هو السلاح الأساسي في هذه المواجهة.

فالشاعر القطري ـ عبدالرحمن المعاودة ـ يؤكد في الكثير من أشعاره على هذه القضية نستمع إليه في قصيدة يمدح فيها الملك سعود بن عبدالعزيز عندما زار دولة قطر:

يـأيها الملـك الميمـون طـالعـه	إن المطـامـع حـول العـرب تشتجـر
للـذرة اليـوم في الـدنيـا مكـانتهـا	فقـولها الفصـل أمـا غيره هـذر
هم طـوعـوهـا سـلاحـاً في يمينهم	وهـم لأسرارهـا مـن دوننـا احتكـروا
فهـل يجيء لنـا يـوم نقـول لهم	هـذى هي الـذرة النكـراءُ فـانـدحـروا
بـالعلم تجلى عـويصـات الأمـور ومـا	شيء عن العقل في الألـوان يستتر (٢٤)

ويواكب الشاعر الكويتي ـ عبدالله زكريا الأنصاري ـ تطلعات هذه الأمة، وطموحاتها فيتخذ من شعره وسيلة في الكثير من المناسبات للتغني بآمالها، وتطلعاتها، حاثا اياها على الصحوة، والأخذ بأسباب النهضة، وله العديد من القصائد في هذا المجال ونقف عند نموذج منها وهي قصيدة نشرها عام ١٩٤٨م بمجلة «كاظمة». ويتخذ من مأساة فلسطين مناسبة للدعوة إلى الثورة، واعلان الجهاد والكفاح فالحقوق لن تصان إلا بالجهاد والدفاع عنها:

يـا بنـي العـرب والعـدو مجد	ليـس تنجـو أوطـاننـا بـالنـواح
مـا عليـه إذا استبـاح ضرامـا	أي لـوم، ومـا لـه مـن جنـاح

(٢٤) القطريات، عبدالرحمن المعاودة، ص ٣٤.

إنما اللـوم أن تـرانـا قعـوداً — وسـوانـا يسير نحـو النجـاح
إنما اللـوم أن نظـل بقفـر — وسـوانـا بـبـاسـق الأدواح
فـاطلبـوا الموت بـالجهـاد لتحيـوا — وانشـدوا العـز فـوق هـام الأضـاحي
قـد أتـت سـاعـة الجهـاد وقـد — دقـت فحيـوا على العـلا والفـلاح
فحيـاة الفتـى على الشـوك أحلى — في ذرى العز من خـدود الأقـاحي(٢٥)

فـالحريـة لا تعطى وإنما تنتزع بـالقـوة والتضحيـة والكفـاح، وهي السبيل لبلـوغ الغاية، وأنه لا قيمة للحياة في ظل الاستعباد.

واستغل بعض الشعراء المناسبات الدينية والوطنية ليبثوا من خـلالها الـوعي القـومي والوطني بين الجماهير في دعوتها للتحرر، والثورة ضد الظلم والطغيان. فها هو الشاعـر القطري ـ عبدالرحمن المعاودة ـ عندما كان يقطن البحرين ـ يتخذ من مناسبة الاحتفـال بذكرى وفاة الحسين بن علي منطلقاً في الدعوة إلى التحرر، ولاستعـادة العـرب لحقـوقهم المسلوبة.

عـاث الأجـانب في هـذي البـلاد ولم — يـروا أمـامهـم في القـوم مـن رجـل
إذا الطغـاة تمادوا في ظـلالهم — يقـومـون بحـد السيـف والأسـل
عهـد لنـا كـان بـالأسـلاف مـزدهـرا — فهـل يكـون لعـود منـه مـن أمـل

.... — ....

إن الامـام الحسين السبـط وهـو كما — في علمكم نسل خير الخلق والـرسـل
ضحـى وقـاوم عـدوان الطغـاة ولم — يلحقـه في اللـه من وهـن ومـن كلـل
حتـى غـدا علما في كـل مكـرمـة — وكـان في زمـرة الأبـرار في الأول
والمجـد لا يشترى إلا بعـاصفـة — تجتـث كـل غشـوم جـائر نـذل
والعـز في قبـة الافـلاك مـربعـه — يـرقى لـه غير ذي ضعف وذي كسل(٢٦)

---

(٢٥) ديوان الشعر الكويتي، د. محمد حسن عبدالله، ص ٢٢٨.
(٢٦) القطريات، عبدالرحمن قاسم المعاودة، ص ١٣٢.

والمعاودة كغيره من شعراء الاحياء في المنطقة غالباً ما يربط ويوازن بين واقع الأمة وتخلفها، وبين ماضيها المجيد. لكي يستثير أبناءها، ويدفعهم إلى الأخذ بأسباب النهضة، وطريق التحرر.

وكان للثورات العربية كالثورة المصرية، والثورة الجزائرية وغيرها من الثورات والحركات التحررية صداها لدى شعراء المنطقة. وكان لثورة ٢٣ يوليو المصرية أثرها الواضح، وصداها السياسي البارز على الانسان العربي بصفة عامة وعلى الشعراء بصفة خاصة، فقد تجاوب معها هؤلاء الشعراء في الخليج رغم فتور التواصل الثقافي آنذاك بسبب العزلة السياسية كما ذكرنا، إلا أن الاحساس القومي كان أقوى من تلك العزلة. حيث تغنى الكثير من الشعراء بهذه الثورة، واعتبروها فاتحة خير لانطلاق الأمة من جديد في أخذ مكانتها بين الأمم.

يقول الشاعر البحراني ـ أحمد محمد الخليفة ـ معبراً عن بهجته وفرحته بهذه الثورة:

فجر يطل على الحياة ويشرق	والنصر في أوضاحه يتألق
اليوم ضوأت الليالي وانمحى	ليل تردى في دجاه المشرق
هذى بلاد النيل عالية الذرى	علم الجهاد على رباها يخفق
نادت إلى الهيجاء أبطال الوغى	والمجد يحدو والفخار يصفق
أحيت بوثبتها أماني أمة	ترنو إليها في الحياة وترمق
يا مصر انك للعروبة منبر	بالمكرمات وبالحضارة ينطق(٢٧)

ويسترسل الشاعر في وصف هذه الثورة وأثرها على مسيرة الأمة العربية وإنها بداية ليقظة العرب، وتحقيق أمانيهم.

ويكاد يكون الشاعر الإماراتي ـ صقر بن سلطان القاسمي ـ من أكثر شعراء المنطقة تفاعلاً مع الثورة المصرية، وحماساً لها، ولقائدها جمال عبدالناصر.

(٢٧) العناقيد الأربعة، أحمد محمد الخليفة، ص ١٩.

يقول الشاعر في احدى قصائده بمناسبة قيام الثورة:

يـا شرق بشراك هــذا اليمـن طـائره ... بــدت تهنّيك مـن مصر بشـائره
لاحـت بـوجـه (أبي) مـا دعتـه إلى ... غير المكـارم والتقـوى مشـاعـره
في ظلمــة اليـأس والأرواح زائغــة ... ومـرجـل الحقـد يشـوى الحق فـائره

....

فقيـض اللـه للـوادي أخـا سهــر ... مـوفـق الـرأي نحـو المجـد طـائره
«جمال» يـا بلسـم الأرواح فـاغـرة ... جـراحهـا دمـت للـوادي تـؤازره
بعثـت في فترة بـالجهـل مظلمـة ... فـانجـاب عنك بحـول اللـه قـاهـره
دع الطغـاة بما قـالـوا ومـا أتمروا ... لا يصلح الأمـر مـا لانت بـوادره(٢٨)

وفي قصيدة أخرى يدعو ويتمنى الشاعر من الجيش المصري أن يكون بـارقـة أمل في تحرر الشرق، وخلاصه من ظلم الاحتلال، والسيطرة الاجنبية.

يـا جيش قـدنـا إلى نـور الهدى فلقـد ... طـال الظـلام وحـارت فيـه أبصـار
وانــزع مـن الشرق أقصـاه وابعـده ... مـا لــوثتــه، فقــد حفتــه أسرار
جمال حقـق أمـاني العـرب قـاطبـة ... في مصرها، يشدو للسودان قيثـار(٢٩)

والشاعر الكويتي ـ صقر الشبيب ـ في مطولته عن الثورة المصرية ودورها وأثـرهـا في الأمة العربية، يوضح لنا هذا التلاحم والترابط ووحدة المشاعر والآمال.

((٢٨) ديوان القاسمي، صقر بن سلطان القاسمي، ص ١٨٦.
(٢٩) المصدر السابق، ص ١٩٦.

يقول صقر الشبيب :

لقد انعشت مصر رجاء بني العرب ... فأثنى عليها منهم كل ذي لبّ
غدت من بني العرب الكرام جميعهم ... مناط عرى الآمال في السلم والحرب
....
فلا برحت مصر بهم وهي مصدرٌ ... لفرحة أسلاف العروبة والعقب
فأي كرام العرب ماسر قلبه ... ودستورها الشعبيُّ يعلن للشعب
وما الشعب إلا بعض أمة يعربٍ ... على حالتي رهب الحوادث والرّغبِ
تبسم عنهم ثائرين فحققوا ... بثورتهم آمالنا مَبْسِمُ الغيبِ
....

ويبين الشاعر أثر هذه الثورة، وتطلعاته في أن يتحقق عن طريقها التحرر لبقية الوطن العربي.

وإنا لنرجو أن يتوجّ سعيهم ... بنزعهم م جنبنا شوكة الجنب
فقد كربت منا القلوب ولم يكن ... سوى نزعها يشفى القلوب من الكرب
تأذى بنو قومي فسرّ أذاهم ... أناساً أقاموها طريقاً إلى السلب[٣٠]

ولم يتوقف تفاعل هؤلاء الشعراء عند الثورة المصرية فحسب بل نجد أن هذا الشعور القومي، والحس الوطني، ونزعة التحرر تجعل هؤلاء الشعراء يتابعون حركات التحرر ويتفاعلون معها حتى في أقصى المغرب العربي، فكان للثورة الجزائرية صدى واسع لدى هؤلاء الشعراء فها هو الشاعر ـ أحمد محمد الخليفة ـ من البحرين يتغنى ببطولة الشعب الجزائري مباركا ثورته ضد الظلم والاحتلال :

---

(٣٠) ديوان صق الشبيب، ص ١٠٩ .

هـذي الجزائر يـا لـوثبـة أمـة ... فيهـا تـرد الغـاصبين وتعـدم
تهتـز في وادي اللهيـب كـأنها ... قـدر يسيره القضـاء المبرم
تجتـاحهـا نـار الطغـاة وإنها ... بـالنـار تهزأ والحتـوف تحوم
اللـه أكبر يـوم هـب كميهـا ... ليقـاوم الخطـر المهـول ويهدم
مـن كـل محترب كـأن سـلاحـه ... في الليـل بـرق بـاللظى يتبسـم (٣١)

ويبلغ الحماسة والانفعال بالشاعر الكويتي - صقر الشبيب - مبلغه متعاطفاً مع الثورة الجزائرية فيتحامل على العرب لائماً معاتباً، لتقاعسهم وعدم مشاركتهم الفعلية لاخوتهم في الجزائر في هذه الثورة، فها هو يكاد يشك في صدق عروبة قومه، وانتسابهم إلى تلك الأصول التي كانت تأبى الضيم، وتهب لنجدة المحتاج.

دعـوا الجزائر تلقـى الـويـل والحربـا ... ثـم ادعـوا أنكـم مـا زلتـم عـربـا
لـو لم نـزل عـربـا لم تلق اخـوتنـا ... من دوننـا كـل مـا قـد آد أو كـربـا
ولم نجـد بينهـم مـن عـن معـونتهـم ... بـالنفس والمال لا بـالقـول قـد هـربـا
وأصبـح الكـل منـا جهـد طـاقتـه ... مخففـاً عنهـم الأشجـان والتعبـا
مشـاركـا لهم في كـل نـازلـة ... تستبـذل الجهـد منـه صـال أو وهبـا
أمـا ويعـرب لـو ظلنـا بنيـه رأت ... منـا فـرنسـا شجـاً في حلقهـا نشبـا
ومـا أحسّت وقـد جـاءت بفعلتهـا ... فينـا فتـى ضـدهـا لم يستحـل لهبـا
أيعـربيـون مـن أفعـالهم بعـدت ... عن فعـل يعـرب فيما جـل أو حـزبـا
ظننـت ظنـا شجـاني أن رابطنـا ... بيعـرب المعتلي قـدراً قـد انقضبـا (٣٢)

---

(٣١) هجر وسراب (من العناقيد الأربعة)، أحمد الخليفة، ص ١٤
(٣٢) ديوان صقر الشبيب، ص ١٥١.

ومن قطر يرتفع صوت الشاعر ـ عبدالرحمن المعاودة ـ داعياً العرب إلى مناصرة اخوتهم في الجزائر. وان كنا نستغرب من موقف المعاودة حيث لم تأت هذه القضية عنده إلا عرضا في أبيات من قصيدة يمدح فيها الشيخ أحمد بن علي ـ حاكم قطر آنذاك، وإن كنا نعرف عن المعاودة أنه شاعر له حضوره العربي في قضايا أمته خاصة في المرحلة الأولى من شعره عندما كان يقطن البحرين، فكانت أشعاره صدى للقضايا العربية. (٣٣)

يقول المعاودة:

بني قومنا يا بارك الله فيكم	بكم عزة الاسلام والشرف السعد
ألا فاذكروا شعب الجزائر إنه	لشعب شقيق ليس عن نصره بد
يعيشون في ظل البنادق ما ونى	جهادهم أو فل من عزمهم كد
مشى الكهل جنب اليافع الصلب معلنا	مهنده والموت في فمهم شهد
وسارت كرام الآنسات تحثهم	وتقدمهم والجو بالنقع مربد
يذودون عن حوض العروبة والعلا	فما صدهم زجر ولا غرهم وعد
ألا فاذكروهم واعرفوا حقهم لهم	فما هان شعب في الشدائد يشتد(٣٤)

وهكذا نجد الكثير من القصائد تسجل مآثر الثورة الجزائرية، وتحث أبناءها على الكفاح والنضال، وتلهب مشاعر اخوتهم في الخليج للوقوف معهم. وكان للشعراء في الخليج أثر واضح في تعميق الوعي القومي بين أبناء المنطقة وبين اخوانهم في المغرب العربي، إلى جانب فضح أساليب الاستعمار، واستنهاض الأمة لمقاومته.

ومن هنا نجد أن بعض الشعراء قد استغل المناسبات المختلفة لكي يوقظ الاحساس الوطني، ويحاول الربط باستمرار بين أبناء الأمة الواحدة، فها هي جريمة العدوان الثلاثي على مصر تهز الانسان العربي هزاً عنيفاً، ويقف الشعراء الخليجيون ـ رغم وقوع

(٣٣) شعر المعاودة بين معاناة الحاضر واستلهام الماضي، د. محمد كافود حولية كلية الانسانيات ـ جامعة قطر ـ العدد العاشر ١٩٨٦م.

(٣٤) دوحة البلابل، عبدالرحمن المعاودة، ص ٤١.

بلدانهم تحت نير الاستعمار آنذاك ـ منددين بالاستعمار الغربي، داعين إلى مساندة مصر والوقوف معها. فالشاعر الكويتي ـ عبدالله سنان محمد ـ يرتفع صوته بهذه المناسبة مشيداً بالبطولة والبسالة التي أبداها أبناء مصر:

اليوم يومك بور سعيد	يوم تمثل في الوجود
يوم على صفحاته	نقشت علاه يد الخلود
....	....
شعب سقى الاعداء كأ	س الموت بالسيف الصليت
شعب يقاتل وهو ملـ	ـتزم التوازن والثبوت
....	....
سقطت فرنسا تحت أقـ	ـدام الأشاوسة الأماجد
وتحطمت انجلترا	إذ جن (ايدنها) المعاند
والمسخ ثالثة الأثا	في إنها رغم المكائد
قد زعزعت أركانها	وتصاعدت بيد وساعد
هن الثلاث الغادرا	ت نصبن أشواك المصائد
لكن أبناء العرو	بة للثعالب بالمراصد [35]

والقصيدة كمعظم النماذج الشعرية للشعراء المحافظين أو من أطلقنا عليهم بشعراء الإحياء يتسم شعرهم بالبساطة، والتقريرية والتعبير المباشر، ويفتقد في أغلبه الصور الشعرية، والعاطفة المتدفقة، وإذا جاز لنا التعبير فيمكن القول إن بعض هذه النماذج يصل كما يقول أصحاب المنهج الأسلوبي، إلى درجة الصفر في الكتابة واستخدام اللغة الاصطلاحية التي لا تسمو إلى اللغة الفنية إلا من حيث إقامة الوزن.

(٣٥) نفحات الخليج، عبدالله سنان، ص ٥٩.

ولكن هناك بعض النماذج الشعرية التي تتجاوز الاسلوب التقريري فتتسم بسلاسة الاسلوب والقرب من التصوير، وهذا ما يتمثل في قصيدة الشاعر الاماراتي ـ صقر بن سلطان القاسمي ـ في المناسبة نفسها وهي العدوان الثلاثي.

يقول الشاعر:

مــا رد هــبّ مـن عميـق سبــاتــه	يتحــدى الخطــوب في وثبـــاتــه
جــاوز النجــم رفعـــة وسنـــاء	والمنى الــرحـب في سمـــو سماتــه
يلهـث الفكــر حين يسمـــو إليــه	فسل الــوهم هـل درى عـن شيـاتـه
مـــلأ الشرق عـــزة فــإذا في	كبـد الغــرب طعنــة مـن قنــاتــه
أذهلتـــه وحطمــت كبريـــاءَ	طــالما أرهـب الــورى بــدعــاتــه
فــإذا بـــالعظيـم أحقــر وغـــدٍ	تتعـــالى العيـــون عـن نظـــراتـــه
وإذا ألحق وهـــو مـــا يـــدعيـــه	يتـلاشى بـالسخف من كلماتـه (٣٦)

ويتناول الموقف من القاسمي الشاعر العماني ـ عبدالله الطائي ـ وهـو من الشعـراء المثقفين ومن الرعيل الأول الذين حملوا هم المعاناة القوميـة فهـو من الشعـراء المخضرمين وإن كان تعليمه، ورحلاته وتنقـلاتـه جعلتـه يعـايش قضـايـا أمتـه عن قـرب، وربما استشهدنا بنماذج من شعره، مع أن توجهنا في هذا البحث كان الهدف منه هو الوقـوف عند شعراء الاحياء من ذوى الثقافـة التقليـديـة لنـدلل على أنـه رغم العـزلـة الثقـافيـة والاعـلاميـة ومحدوديـة الاتصـال الجماهيري، لأسبـاب أسلفنـا ذكـرهـا، إلا أن الحس القومي، والتفاعل بالقضايا العربية كان لـه حضـوره الـواضح لـدى الشعـراء في تلك الفترة.

---

(٣٦) ديوان القاسمي، صقر القاسمي، ص ١٠٠.

أما بالنسبة ـ للطائي ـ فإن هذا الاتجاه كان أكثر وضوحاً عنده نتيجة لمعايشته المباشرة لهذه القضايا، حيث درس في العراق، وتنقل كثيراً آنذاك بين أقطار الوطن العربي.

يقول الشاعر: واصفا العدوان الغاشم، بتحالفه، الثلاثي وموقف أبناء مصر ونضالهم لهذا العدوان:

أتوا والبغي رائدهم	فلم نحفل ببغيهم
وصهيون تؤازرهم	فلم نجزع ولم نلم
وخضنا الحرب موقدة	تعج بأفضع الحمم
فقابلنا تحالفهم	بقلب للعدى قرم
فأضحى جيشهم لحما	و(بورسعيد) كالوضم
....	....
بني الأعمام في مصر	جزاكم مجزل النعم
لقد شيدتم مجداً	ليعرب عالى القمم
بكم قويت اخوتنا	وأنف الخصم في رغم (٣٧)

وتتجلى وحدة المشاعر، ووحدة الآمال والتطلع للتحرر، في مظاهر عديدة من المناسبات التي سجلها شعراء الخليج بالنسبة لتفاعلهم مع قضايا أمتهم، فاستشهاد بعض المناضلين، أو سجنه، أو نفيه، نجد صداه واضحاً في شعر هؤلاء الشعراء: فوفاة الزعيم العربي المناضل سعد زغلول تهز وجدان الشاعر العربي الاماراتي ـ سالم بن علي العويس ـ فيتخذ من رثائه منطلقا للدعوة إلى مواصلة الكفاح والنضال على طريقه لتحقيق آمال الأمة في تحررها:

---

(٣٧) لفجر الزاحف، عبدالله محمد الطائي، ٣٧.

لم تأت ظلماً وما أحدثت تبديلاً … فارزق عبادك تفويضاً وتبديلا

ما فقد زغلول خطب يستهان به … بعث بكل بلادٍ منك زغلولا

رعى المهيمن روحاً رفرفرت ومضت … وحاط نعشا على الأعناق محمولا

أين الذي في سكون الليل يكلأكم … وكلكم في ثياب النوم مجدولا

حامت عليه ليالي الحرب كالحة … فقارع الشر اجمالا وتفصيلا

لاحت له مصر أحزابا مقطعةً … فضمها قوةً واستأصل القيلا

لا يوقظ الشعب إلا ما جد ثقة … فتىً يعد قرين الظلم مسؤولا

.... … ....

هيا اخلفوه وإلا فاعبدوا صنما … من المخاوف مملوءاً تهاويلا

ليس الزمان وإن عاتبت معتذراً … فاجعل زمانك أعمالاً وتأميلا

حياة سعد لأهل الشرق موعظةً … إن كان فيهم لثوب الرقّ تبديلا (٣٨)

وهي قصيدة تمتاز بصدق العاطفة، وسلاسة الاسلوب، والنقلة من التعبير المباشر إلى اللغة التصويرية، وتعد من القصائد الجيدة في شعر العويس.

والشاعر البحراني ـ أحمد محمد الخليفة ـ يمتد بحسه القومي إلى أقصى المغرب العربي فيهزه حدث وفاة البطل العربي المناضل عبدالكريم الخطابي فيرثيه قائلاً:

نعتك العُلى لما بكتك النوادب … وكادت من الناعي تخر الكواكب

فخطبك خطب المكرمات وطالما … بموت فتى فرد تموت المناقب

سرى البرق في الآفاق ينعى مجاهداً … قضى بعد ما هانت لديه المصائب

أحقا قضى عبدالكريم وأصبحت … كتائبه محزونة والمضارب

---

(٣٨) نداء الخليج، سالم بن علي العويس، ١٢٠.

بكتـه السيـوف المرهفـات وحمحمت	من الحزن في البيـد العتـاق السـلاهبُ
ونـاحـت أسـاطير الجهـاد على فتـى	بــه للعلى كـــانـت تسير المواكــب
فقل لـرفـاق السيف من بعـد مـوتـه	رويـدكم فـالخطـب للصبر غـالـبُ
دعـوا السيف يغفـوا في القـراب فإنما	قضـى فجـأة عنـه الكمـى المحـارب
ولا تسرجـوا من بعـده الخيل للـوغى	فما أحـد من بعـده اليـوم راكبُ(٣٩)

والحقيقة أن القارىء لهذه القصيدة يظنها بل قد لا يتردد في أن ينسبهـا لشـاعـر من شعراء العصر العباسي، بإسلوبها، وصورها، وأفكارها. فالشاعر هنا ينهل من ثقـافـة شعرية تراثية، لم يستطع أن يتجاوزها حتى في موقف الرثاء الذي هو أكثر ما يكون فيـه الشاعر صدقا في التعبير، فبكاء النوادب، وخرور الكـواكب، وسريـان البرق، وبكـاء السيوف وحمحمت الخيل.. الخ كلها صور وأسـاليب تقليـديـة من قـامـوس الشعـر العربي. في حين أننا نجد في القصيدة السـابقـة للشـاعـر سـالم العـويس رغم ثقـافتـه التقليدية، إلا أنه في رثـائه لسعـد زغلـول قـد استطـاع، أن يعبر عن الموقف بأسلـوب معاصر يتسم بالسلاسة، والحداثة، وسهـولـة التعبير مع جـزالـة اللغـة وفصـاحتهـا، وبساطة الصور عنده.

وحادثة نفي الملك محمد الخامس ملك المغرب تهز الشاعر العماني ـ عبـدالله محمـد الطائي ـ فينبرى لهجاء فرنسا، والاشادة بموقف الملك وبطولاته، مذكرا الغرب ببسالـة العرب ومواقفهم، وإبائهم للضيم واصرارهم على نيل حقوقهم:

قـد نـذرنـا للغـد الحر دمـانـا	ومشينـا لا نبـالي بعـدانـا
أمــــــةٌ نحـــن رأت أنّ لها	في سعير الحرب اجـلالا وشـأنـا
صحـت الـدنيـا على عـزمتنـا	مـذ تمادى خصمنـا فيا سقـانـا
. . . .	. . . .

(٣٩) بقايا الغدران، أحمد محمد الخليفة، ص ١٠٧.

هكـــــذا نحـــن كـــــرام فـــإذا	مسنـا الضر اعتصمنـا بـــابـــانـــا
وبعثنـــاه كفـــاحــــاً صـــارمـــا	واقتحمنـــا الهول والموت هـــوانـــا
روعـــت مـــراكـــشٌ فـــانتفضـــت	تعقــد العــزم وهــاجـت بـــركـــانـــا
وانضـــوت حـــول لـــواء ظـــافـــر	بـــالبطــولات سماهــا بـــالعــزّ زانـــا
قـــادهـــا نحـــو منـــاهـــا ملـكٌ	فهـم الملك جهـاداً وصيـانـــا (٤٠)

والحقيقة أننا لا نجد مناسبة من المناسبات القومية أو حدثا من الاحداث، إلا ونجد أن شاعراً أو أكثر من شعراء المنطقة قد تناوله، وتفاعل معه ويطول بنا المقام لو تنـاولنا كل هذه المواقف، ولكن يكفي أن أشرنا إلى أهم المعالم البـارزة عنـد هـؤلاء الشعـراء فيما يتصل بقضية التحرر والكفاح في الوطن العربي منذ مطلع القرن الحالي، ومدى انعكاس هذه القضية في شعرهم.

---

(٤٠) الفجر الزاحف، عبدالله الطائي، ص ٤٧.

الفصل الثاني
قضية الوحدة العربية

ظلت قضية الوحدة العربية أمنية الانسان العربي على امتداد الخارطة العربية، بل تحولت الأمنية إلى حلم من الأحلام لدى المواطن العربي.

فها هي السنون تمر والعالم بأسره يزداد تعقيدا بتكتلاته، القومية، أو العسكرية أو الاقتصادية، أو الاقليمية، وما زالت الدول العربية وأمنيات الوحدة تراوح في مكانها.

وكما أشرنا سابقاً في المقدمة إلى أن فكرة الوحدة فكرة قديمة، قد تتجاوز بداية القرن الحالي، إلى قرون خلت عندما تفسخت الدولة العربية الاسلامية إلى دويلات، وإمارات صغيرة بعد سقوط الدولة العباسية ثم كانت وحدة شكلية تحت مظلة الحكم العثماني. ولكن أصبحت هذه الوحدة قضية ملحة بعد سقوط الخلافة العثمانية، وبداية الزحف الاستعماري الغربي على الوطن العربي، وتكريس الاقليمية والتجزئة في الوطن العربي. من هنا بدأ المثقفون والمصلحون والأدباء في الدعوة إلى الوحدة، وأن نهضة العرب، وقوتهم مرتبطة بوحدتهم، وإنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالوحدة الشاملة. وقد حمل الشعر العربي عبء هذه القضية، وتعالت أصوات الشعراء على امتداد الوطن العربي تنادي بهذه الوحدة. (٤١)

وكان للشعراء في الخليج وفي فترة مبكرة دور واضح في دعوتهم لهذه الوحدة، فها هو شاعر الخليج - خالد الفرج - تؤرقه أحلام الوحدة ويتغنى بها ويدعو إلى هذه الوحدة، ويتمنى لو أن (بسمرك) قد ظهر في هذه الأمة ووحدها، كما وحد الأمة الالمانية، يقول في قصيدة نظمها عام ١٩٢٦م وبعث بها إلى أحد أصدقائه:

عرج بنا نحو الخيال فإنه ... رحب المجال لذيذة خطراته
هل في الجزيرة غير شعب واحد ... قد مزقت بيد العدا وحداته

---

(٤١) دور الأدب في الوعي القومي العربي (بحوث في ندوة) د. علي عباس علوان، ص ٢٤٩.

من لي ببسمرك يضم صفوفه ... وعليه تجمع نفسها أشتاته
فيعيد من هذه الممالك وحدة ... والعلم تخفق فوقها راياته
شعب بنو قحطان ركن أساسه ... وبنو نزار في العلى شرفاته (٤٢)

....

ويصور الشاعر هذا التفكك والضعف الذي تعيشه هذه الأمة بسبب التجزئة، والخلافات، ويرى أنها لو تجمعت في وحدة واحدة لقويت شوكتها، وصعب على الأعداء النيل منها:

هذي بلاد العرب في ضعفها ... لا يعطف الجار على جيرته
في كل شبر دولة تاجها ... كصاحب التمثيل في جوقته
وهذه الدولات مجموعها ... أحقر أن يعتد في كثرته
لكنها لو جمعت لقمة ... قد تتعب الماضغ في مضغته (٤٣)

ووحدة الأمة كان هاجساً عاشه الشاعر - خالد الفرج - ولذلك كان معجباً بالملك عبدالعزيز آل سعود لأنه استطاع توحيد الجزيرة العربية . (٤٤)

وكانت الأزمات، والمصائب التي تمر بها الأمة مدعاة لأن يتخذ منها الشعراء مناسبة في دعوتهم للوحدة والتكتل ضد الأطماع الأجنبية. فها هو الشاعر - صقر الشبيب - يرى أن مصير الأمة مرتبط بوحدتها، وانها بلا وحدة ضياع كما يقول في قصيدة نشرها عام ١٩٣٨م، يقول فيها:

---

(٤٢) ادباء الكويت في قرنين، خالد سعود الزيد، ص ١٦٢ .
(٤٣) المصدر السابق، ص ١٦٧ .
(٤٤) خالد الفرج حياته وآثاره، خالد سعود الزيد، ص ١١٣ .

سنبقى على الأحقاب حقباً إلى حقب خيالاً على رغم المنى وحدةُ العُرْب

وأيُّ أمور الناس وحدَّ بينهم إذا لم توحد بينهم شدة الخطب

ولا خطبَ يبلي صبر كل أخي نهى كريم ويطوى القلب منه على ندبِ

كهذا الذي يضحى ويمسى محولا فلسطين من كرب شديد إلى كربِ

ولو ألقت ما بيننا يد خطبا كتأليف كفْيَ مِثله الشعب ذا الإربِ

. . . .

ولو تم من قبل اتحاد بني أبي أخاف العدى منها المحيّا الذي يصبي(٤٥)

ويتبلور مفهوم الوحدة عند ـ صقر الشبيب ـ في رؤية واقعية ملموسة يعتبر أن أي قطر عربي موطنه الذي يستطيع العيش فيه، فإذا ضاقت الكويت عليه فإن الوطن العربي كله موطن ومقام له يستطيع العيش فيه بسعادة دون احساس بالغربة، ففي مقطوعة من قصائده تحت عنوان «قومي العرب» يؤكد معاني وصدق احساسه بهذه الوحدة في قوله:

فإن تضق الكويتُ اليوم عني وما ضاقتْ بأمثالي الديارُ

فكم بلد لقومي العَرب فيه سيحلو لي من السعة القرار

وليس بموت من ظمأ وجوعٍ بمربط ظالم إلا الحمارُ(٤٦)

أما الشاعر ـ سلطان بن صقر القاسمي ـ فهو من أكثر شعراء المنطقة حماساً للوحدة العربية وهي هاجس يلازمه، فلا يكاد يعرض في شعره لقضية أو موضوع من الموضوعات التي تتصل بمشاكل الوطن العربي ـ وما أكثر ما يتناولها ـ إلا ونجده يلح الحاحاً على قضية الوحدة العربية، ويرى أن الفرقة هي سبب الضعف والضياع، وهي

(٤٥) ديوان صقر الشبيب، ص ١٠٥.

(٤٦) المصدر السابق، ص ٢٤٧.

الداء الذي يمخر في جسم هذه الأمة. ففي قصيدة تحت عنوان «ما نحن فيه» يصف حال الأمة وما آلت إليه من ضعف وتخاذل، ويرجعه إلى سبب التفكك والفرقة التي تعيشها، يقول:

ونحن كما يهوى أخو البغي أمة	مفككة حيرى وإن حازها شرق
فأهواؤنا شتى وأفكارنا سدى	إذا لم يكن رأي الدخيل لها أفق
ومن عجب نشكو من الجوع والظمأ	واقطارنا خيراتها للعدى دفق
تباع وتعطى كالرقيق بلادنا	فلا قوة منا ولا منهم رفق
فيا أمة الاسلام ماذا غدا بنا	نهان فلم ينبض بأجسامنا عرق
إلام مُقام الذل يا شعب (أحمد)	تعاجزتم والدهر يدعوكم شقوا
....	....
أفيقوا فقد طال الرقاد وأوشكت	كرامتكم أن لا يخاط لها فتق
أفيقوا فما داع أحق اجابة	من الوطن الغالي ففي حقه فاشقوا(٤٧)

والقاسمي شاعر عربي يحمل معاناة أمته، من خلال عاطفة شاعرية ينبعث منها الأسى والحزن، للواقع الذي يعيشه بني قومه، وكيف يعشش فيهم داء الفرقة، والجهل، واللهو، ولذلك نجده دائما يدعو إلى الأخذ بالعلم، والوحدة، والجد لأنها السبيل لكي تعود هذه الأمة إلى مكانتها بين الأمم، وتستعيد ماضيها المشرق:

لهفي على الشرق ما للجهل يقعده	عن نيل ما خطه في لوحه القلم
عدت عليه عوادي السوء فانخذلت	أنصاره مذ زلت به القدم
ولو إلى وحدة شمّاء راسخة	أوتادها لجأوا، أو حبلها اعتصموا

---

(٤٧) ديوان صقر القاسمي، ص ٣٢٨.

قـومي ! ! ويـا أسفـا إن قلتهـا وبـدت　　خليــة لي مـن آســادهــا الأجـم
هبــوا سراعــا كفتكم نــومــةٍ نــزعت　　مــا شــدتـم فــالام النــوم ويلكـم
فشيــدوا ببنـــاء العلــم مملكـــة　　أساسها الدين والأخلاق والكـرم (٤٨)

وها هو الشاعر ـ عبدالرحمن المعاودة ـ يقارن بين ماضي العرب وماكانوا فيـه من عـزة وقوة ، وكيف سادوا العالم ، وبين واقعهم الحالي وما هم فيه من ضعف وتخاذل . ويرجعه إلى فرقتهم ، والضغائن ، والتباغض ، فيما بينهم ، يقـول المعـاودة من قصيـدة لـه تحت عنوان «الوحدة الكبرى» :

مجد لنــا قـــد نـــاطــح الجوزاء　　فــزكـى وطــاب وعطــر الأرجــاء
تلــك المآثـــر للجـــدود وإنها　　تجلــو عـن الماضي السعيــد غشــاء
سـل عنـه بغـداد الـرشيـد وجلقـا　　والقيروان وســائل الـــزهـــراء
اسـلافنـا عـرفـوا الـوفـاء ووحـدوا　　بـاسـم العـــروبــة والحنيف لــواء
وبنــوا صروح المكـــرمـــات عتيـــدة　　وسمـــوا ونـالـــوا العـــزة القعســاء
يـــا ليـت شعـــري والأمـــاني جمة　　هــل يستجيـب لنــا الــزمـان نـــداء
فنـرى بـلاد العـرب كـلا شـامـلا　　من فـاس حتى القــدس فـالـزوراء
الــوحـدة الكبرى هـي الهدف الــذي　　نسعـى لنبلغـــه صبـــاح مســـاء
. . . .　　. . . . .
تسعــون مليــونــا إذا مــا وحــدت　　وتنكبـت في سيرهــا الأعـــداء (٤٩)

---

(٤٨) ديوان صقر القاسمي ، ص ٣٢٨ .

(٤٩) ديوان المعاودة ، عبدالرحمن المعاودة ، ص ٣٩ .

وربما يكون للعزلة السياسية التي عاشتها منطقة الخليج بسبب السيطرة الأجنبية أثرها في كثرة اهتمام شعراء المنطقة بقضية الوحدة، وتركيزهم عليها. ولقد كان للوحدة المصرية السورية، واعلان الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨م أثره الواضح على نفوس هؤلاء الشعراء فأشاد الكثيرون منهم بهذه الوحدة ودبجوا الكثير من أشعارهم في مدح الزعيمين ـ جمال عبدالناصر، وشكري القوتلي ـ لدورهم في بزوغ هذه الوحدة، التي كانت حلماً فأصبحت حقيقة، يقول الشاعر ـ صقر بن سلطان القاسمي:

قف واحن رأسك هيبة وجلالا ... حي الذي بالأمس كان محالا
أشرقت يا فجر الجهاد ولم تعد ... تلقى لديك الحادثات مجالا
وتحققت أحلامنا فإذا بنا ... عبر الزمان نسابق الأجيالا
أمتوجا هام الجهاد بوثبة ... سجد الجهاد لعزها إجلالا
ما زلت شكري في الطليعة دائما ... تعلى البنا وتحطم الأغلالا

....

أرجعت ماضينا أعدت شبابه ... فغدا توثبه ظبأ ونصالا
وإذا آمال العروبة تلتقي ... أهدافها لما غدون نضالا
وإذا (الشام) و(مصر) قلب واحد ... والكل يصبح في الجهاد (جمالا) (٥٠)

والشاعر ـ سالم بن علي العويس ـ تغمره فرحة اعلان الوحدة المصرية السورية فيعبر عنها في أكثر من قصيدة مبتهجا بهذه الوحدة، ومحذرا من كيد الأعداء وتربصهم للايقاع بين أبناء الأمة الواحدة، لأن الأعداء يخافون من هذه الوحدة، يقول العويس:

عراك لأخرى خطوة بالمخالب ... واخواننا شمٌ كرامُ المناقب
هي الوحدة الكبرى أباحت صراعهم ... وأوحت لأمريكا قباح المغارب

---

(٥٠) ديوان القاسمي، ص ٣٧٣.

فما بـالها تـرضى لها كل صالح … وتأبى لنا إلا جسام المعاطب

. . . .

ووحدتنا الكبرى أثارت وساوسا … لدى الغرب إن الغرب أظلم غالب

رمى المغرب الأقصى بهم مكيدة … إذا ما رمى زهر النجوم الشواقب

. . . .

فما هي إلا وحدة عربية … تجابهكم بالجد فوق الحواجب (٥١)

ويهز اعلان الوحدة بين مصر وسوريا شاعر الكويت ـ صقر الشبيب ـ فيعتبرها المنجى والمنقذ لهذه الأمة، وأنها الخطوة الصحيحة التي بدأت بها أمة العرب للحفاظ على وجودها، وتقرير مصيرها، وحماية حقوقها من الأطماع:

بين شكري وجمال العرب … خير حلف موصل للأرب

أتبعاه باتحاد صارف … ـ مثل ما نهوى ـ صروف النوب

اتحاد سر جدا كل من … قد نهاهم يعرب الحر أبي

اتحاد مجد أقوامي رأى … لرحاه منه أزكى قصب

اتحاد حين بشرت به … قلت للقلب الحزين الحرب

يا حزينا للتنائي بيننا … قد تدانينا فصفق واطرب

. . . .

وحدة لا نتمنى فوقها … غير أن تبقى بقاء الشهب

مشرقيُّ العُرب يلقى مُسهلا … مثله فيها أخاه المغربي (٥٢)

---

(٥١) نداء الخليج، سالم بن علي العويس، حـ١، ص ٢٥.

(٥٢) ديوان صقر الشبيب، ص ١٢٣.

ويستقبل الشاعر ـ عبدالرحمن المعاودة ـ اعلان الوحدة بين مصر وسوريا بـالفـرحـة والبهجة فهي الحلم العظيم الذي تحقق. وها هو مجد الأمة يعود بوحـدتها وتكـاتفهـا، يقول المعاودة:

يــوم أغــر ووحــدة تتــأكــد ... غنـى الـزمـان لها وتــاه الفــرقــد

علما العــروبــة أقسما وتعــاهــدا ... والله بــالعهــد المؤكــد يشهــد

مــا الشــام إلا مصر في تــاريخهــا ... فيها بــه تشقى الشعــوب وتسعــد

....

عــد يــا زمــان الســالفين وعهــدهم ... فــالعــود يــا زمـن المفــاخــر أحمد

فلقــد نفضنــا الــذل عـن أوطــاننــا ... ولقــد فضحنــا الظــالمين فهــددوا

وإذا الشعــوب وعت فليـس لنــارهــا ... يـوم التفـاخـر والعـلا من يخمـدُ (٥٣)

وبقدر ما تركته الوحدة بين مصر وسوريا من بهجة وفرحة لدى الشعراء آنذاك ظهـر أثره واضحاً في أشعارهم، نجد أيضا أن هؤلاء الشعراء من أبنـاء المنطقـة، قـد تجاوبـوا وتفاعلوا مع أحداث وطنهم العربي في كل مناسبة قومية. فإنشاء الجامعة العربيـة عـام ١٩٤٥م كان له أثره في نفوس الشعراء، وهم يرونها دعـامـة وأسـاسـا لـوحـدة عـربيـة منشودة، فها هو الشاعر ـ سالم بن علي العويس ـ يرى أن الجامعة بـارقـة أمل في زمـان مظلم، ضاع فيه العالم العربي بين التمزق، ونزوات الحاكم الفرد، فتقاسمتـه الأهـواء، والأنانية، وغزته المطامع الاستعمارية، وإن انشاء هذه الجامعة بارقة أمل:

حيــوا «الجامعــة العــروبــة» مجدهــا ... وبــريقهــا بين الــزمــان المظلـم

بــرق يســوق إلى «مــراكـش» غيثــه ... ليشــد مــن ذود الشقيــق المرغـم

فيلحيي مــا طمـس العفــا آثــاره ... مـن «طــارق حتـى خليج القلــزم»

ذكــر بنــا «قبـس العــروبــة» إننــا ... شعب نســاس بكل فــرد ملجم (٥٤)

---

(٥٣) دوحة البلابل، عبدالرحمن قاسم المعاودة، ص ٤٣.

(٥٤) نداء الخليج، سالم العويس، حـ٢ ٥٤.

وفي موقف آخر يصور ـ العويس ـ دور الجامعة العربية، منطلقاً من الواقع العربي الرديء، وما يعانيه من تمزق، وتخلف. يمزج بين الخطاب المباشر لإيقاظ الهمم ووحدة الصف، وبين اتخاذ الماضي والتذكير به عبرة ودرساً للافادة منه في بناء الحاضر والمستقبل.

شعب عليه تحية وسلام ... إن لم ينادِ ببعثه عزام
لا الحاضر الجاري يروق ولا بذى ... الجيل العزيز تبشر الأيام
. . . .
لا مصر مصر ولا الرياض بروضة ... للمقتفين ولا بجلق شام
كلا ولا بلد الرشيد رشيدةٌ ... إن أهملوا اليمن السعيد وناموا
و أخلفوا من حضرموت ومسقط ... بلداً أو استثنى الخليج نظام (٥٥)

ويعود العويس ليذكر العرب أن قوتهم وتقدمهم مرتبط بوحدتهم وبالعودة إلى الاسلام والاقتداء بسيرة نبيهم محمد (ص) في توحيد هذه الأمة (٥٦).

ولكن رغم فرحة الشعراء والأدباء وسعادتهم بانشاء الجامعة العربية إلا أن البعض رأى أن هذه الجامعة لم تستطع تحقيق آمال وأحلام هذه الأمة، ولم تؤد الدور الذي كان يتوقعه هؤلاء الشعراء والمثقفون منها، لذا نجد أن هذا البعض قد اتخذ موقفاً فيه التهكم والعتاب على الجامعة التي وقفت عاجزة عن تأدية رسالتها.

فها هو الشاعر الكويتي ـ خالد الفرج ـ يوجه خطابه إلى الجامعة العربية في صورة تهكمية يصف فيها وضع الجامعة وما يدور فيها من اجتماعات وحفلات رسمية، وخطب، ولكنها لا تؤدي إلى نتيجة:

---

(٥٥) المصدر السابق، ص ٩٤.
(٥٦) المصدر السابق، ص ٩٥

عقدت اجتماعك يا جامعة ... فهل أنت مبصرة سامعة
سئمنا الكلام فهل من فعال ... فإن الأعادي بنا طامعة
أسبعٌ عجائب هذا الزمان ... نزلنا إلى درك السابعة
كفانا ولائم فيها الدسوم ... تمص عن الأمة الجائعة
كفانا أحاديث لا تنتهي ... كفانا وعودكم المائعة
كفانا خنوع وها أنتم ... ملايين في رقعة واسعة
كثيرون في قلة من خلاف ... غنيون في أنفس قانعة (٥٧)

ويتخذ الموقف نفسه الشاعر ـ عبدالرحمن المعاودة ـ حيث يرى أن الجامعة العربية عجزت عن تأدية رسالتها، وأنها شغلت عن العمل الجاد بالخطب والمظاهر، وظل الوطن العربي يتخبط في خضم السياسة دون وعي أو إرادة يقرر فيها ساسته مصير هذه الأمة:

تمخضت عن فأر فلا كنت يا جبل ... ولا جادك الغيث الهتون إذا هطل
بني العرب ما قول لديهم بنافع ... اذا لم يؤد منكم بعد بالعمل
وليس الأناني بالزعيم وان غدا ... بألقابه يزهو ويختال بالحلل
وجامعة في مصر للعرب أصبحت ... لها صوتها الداوي ولكن بلا عمل

....

وفي كل يوم خطبة بعد خطبة ... لعزام في جمع بعزام يحتفل
وفي كل قطر للعروبة مشكل ... وجيش ولكن دهره يشتكى الشلل
ويفرض «برنادوت» في الشرق حكمه ... ولا ناقة كانت له فيه أو جمل
وما كان (برنادوت) إلا صنيعة ... فكيف على أمثاله يعقد الأمل
ويخلفه الزنجي من بعد قتله ... وعمن تسود (الزنج) أنت فلا تسل (٥٨)

---

(٥٧) ديوان الشعر الكويتي، د. محمد حسن عبدالله، ص ١٤٣.

(٥٨) لسان الحال، عبدالرحمن المعاودة، ص ٧٤

والحقيقة أن المعاناة الوطنية، والوعي القومي لأبعاد الموقف بالنسبة للوضع العربي، قد خلق لدى الشعراء جواً من التوتر والحماسة والتطلع للوحدة، ولكن عدم تحقيق الجامعة العربية لأحلام وتطلعات المواطن العربي، قد خلق لدى الكثيرين ردة فعل بخيبة الأمل. إلى جانب بروز الخلافات السياسية التي ظهرت على السطح بصورة واضحة، وعدم قدرة الجامعة على الخروج بعمل جماعي ذي بعد قومي مستقبلي.

والذي أريد أن أشير إليه في هذا الصدد أن منظور الوحدة العربية عند هؤلاء الشعراء ينطلق من مفهوم اسلامي بالدرجة الأولى، وإن وحدة العرب هي عزة للاسلام والمسلمين. ولسنا بحاجة إلى التدليل على ذلك فكل النماذج الشعرية التي تتناول قضية الوحدة أو قضية التحرر، تتخذ من تاريخ الاسلام، ودور الرسول (ص) في توحيد الأمة منطلقاً لمعالجة الحاضر، واستثارة المشاعر، وبث الوعي بين أبناء الأمة لكي تسترد حقوقها، وتحافظ على شخصيتها الاسلامية العربية.

الفصل الثالث
قضية فلسطين

تعد قضية الاغتصاب الصهيوني لفلسطين من أهم وأعقد القضايا العربية في العصر الحديث. وتشكل لدى الانسان العربي محور الصراع القومي الحضاري الذي يرتبط به مصير الأمة، حيث تحول هذا الصراع من نطاق الإقليمية والعقائدية في بداية نشأته، إلى صراع دولي حيث تبنت قوى استعمارية الدولة الصهيونية وساندتها في مواقفها سياسياً وعسكرياً. ومن هنا تعقدت القضية، وخاضت الأمة العربية ثلاث معارك في أقل من نصف قرن مع العدو الاسرائيلي كانت الحرب سجالاً بينهما ففي عام ١٩٤٨م خرجت القوات البريطانية من فلسطين بعد أن مكنت اليهود من الوصول إليها وتوطينهم من خلال مجموعة من الاجراءات والمساعدات التي قدمتها دولة الانتداب بدءً بوعد بلفور عام ١٩١٧م، ثم تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، إلى قضية تزويد اليهود بالسلاح بطرقها المختلفة مما مكن اليهود في أجزاء كبيرة من الأراضي الفلسطينية وعندما أحس العرب بالخطر بدأت الثورات الداخلية مثل: ثورة ١٩٣٦م وغيرها من الثورات الداخلية، وفي عام ١٩٤٨م تحركت الجيوش العربية ودخلت الأراضي الفلسطينية وحررت بعض المناطق ولكن بسبب الضغوط السياسية من قبل الدول الغربية عن طريق الأمم المتحدة عقدت الهدنة، ومفاوضات التقسيم، وظلت الدولة الصهيونية تبنى نفسها وتعد العدة، وشغل العرب بقضايا التحرر والخلافات الجانبية. وكانت حرب ١٩٦٧م، واستطاعت اسرائيل أن تحتل جميع الأراضي الفلسطينية بالاضافة إلى بعض الأراضي العربية الأخرى من مصر، وسوريا، ولبنان أخيراً، ثم كانت حرب ١٩٧٣م واستطاعت الجيوش العربية أن تحقق بعض الانتصارات على العدو الاسرائيلي، ولكن كان للدعم الغربي وخاصة أمريكا التي نزلت بكل ثقلها إلى جانب اسرائيل أثره في فرض وقف المعارك وفرض الأمر الواقع على الأمة العربية.

ولكن وعي المواطن العربي في الخليج كان مبكراً بالنسبة لأبعاد القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ومن هنا نجد أن الشعراء العرب في الخليج قد شغلوا بهذه القضية

على الرغم من البعد المكاني، وضعف الاعلام العربي أنذاك، ولكن صدى هذه القضية وتفاعلهم معها كان بارزاً لدى الكثير منهم. فالشاعر الكويتي - صقر الشبيب - يخاطب أبناء وطنه وبنى قومه يحثهم على التبرع بالمال لمساعدة أخوتهم في فلسطين بعد أن فاتهم شرف المشاركة في النضال. وذلك بعد انهاء الاضراب العام الذي أعلنه الفلسطينيون عام ١٩٣٦م:

بنى يعُرب من فاته أمس سلّهُ حساماً به عن قومه يحسن الذّبا
فما فاته أن تمنح اليوم كفُّهُ فلسطين ما يمحو به ذلك الذنبا
فجودوا بكثر المال والقل واذكروا هنالك أرحام العروبة والقربى

ويؤكد الشاعر على العرب ضرورة الوقوف إلى جانب اخوانهم في فلسطين وإن من لم يتبرع طوعاً فيجب أن يدفع دفعاً إلى التبرع بالمال لأن ذلك واجبٌ على كل العرب:

وشُنوا على المثرى البخيل مفاركم بكل مقال واملَؤوا قلبَهُ رُعبا
فمن لم يكن في فعله الخيرراغباً فلا بأس أن تلقاه يفعلُهُ رهبا
....
فلسطين من لم يعترف طائعا بها علينا لها من منة يعترف غصبا
فقد أثبتت أن العروبة لم تزل تطيق على الأعداء - مهما قووا - وثبا(٥٩)

وفي قصيدة مطولة تزيد على التسعين بيتا تحت عنوان «الأعمال لا الأقوال» يتناول الشاعر مأساة أبناء فلسطين وتضحياتهم، وما لاقوه من قتل وتعذيب وتشريد، ثم يصب جام غضبه على العرب، ويرى أن عرب اليوم ليسوا من أولئك العرب الذين عرفهم وسمع عنهم:

---

(٥٩) ديوان صقر الشبيب، ص ١٣٧

فلـــو كنـــا بنيــه أبصرتنـــا   فلسطين نـــواسي أو نـــذود
أيعــرب مـن بنيــه عُرْبُ يــومي   لعمـــر أبيــك ذا شيءٌ بعيـــد

وترتفع عند الشاعر حدة الانفعال العاطفي والثورة والغضب وهو يشهد ما يحدث لأبناء فلسطين، والعرب في غفلة عنهم، كلا لستم بعرب:

فـإن نمـت القـرود شكـول نـاسٍ   فعـربُ اليـوم نـامـوهـا القـرود
أقـول مقــالتـي هــذي وإني   لعُرب اليـوم في الـدعـوى نـديـد
فلـو صـدق ادعـائي مـت ممـا   روى لي عـن فلسطين البريـد
أحـــاديـث لها تنشـق ممـن   لهم رويـت قلـوب أو كبـد (٦٠)

ومصر تمثل قلب العروبة النابض، ومركز الثقل في العالم العربي ولها دورها الريادي، ولذلك تتجه إليها أنظار العرب في كل موقف يتصل بقضاياهم. ولذلك يعاتب الشاعر - صقر الشبيب - مصر على موقفها الصامت من أحداث فلسطين عام ١٩٣٧م:

لـومي فلسطينُ العـزيـزة أو ذرى   مصراً على هـذا السكـوت المنكـر
سكتت وصـوت الظلم يـدوى معلنـا   تقسيمـك المشجـى كـأن لم تشعـر
....
أتنـام عينـا مصر في الليـل الـذي   وافى محبيهـا بـأنكـد مسهـر
ولقـد ظننـاهـا تبـادلنـا الهوى   فـإذا الظنـون كـواذبٌ في المخبر (٦١)

ثم ينتقل الشاعر إلى عتاب الأزهر الشريف على سكوته هو الآخر وعدم تصدى رجاله إلى مؤامرة التقسيم، وكيف أنهم لم يعلنوا الجهاد لنصرة اخوانهم المسلمين في

---

(٦٠) المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٦١) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

فلسطين، والأزهر كما يرى الشاعر له دوره وزعامته الدينية، ولكن الشاعر يعاتب الأزهر، ويطلب منه أن يعطى الزعامة حقها أو يتركها:

وأحق من مصر بكل ملامة ... ذاك الذي يدعونه بالأزهر
كنا نؤمِّلُ أن يقيم قيامة ... إن لم ترق مهج الأعادي تذعر
فإذا تثاقلُهُ يطول كأنما ... دهن العدى أعصابه بمخدر
....
أزعيمنا الديني إن زعيمنا ... بالحق منْ لذمامنا لم يخفر
أتظن أن يرضىَ زعامتك الألى ... مهما دعاهم واجب تتأخر (٦٢)

وينتهي الشاعر في مطولته إلى أن مصر لم تكن لتتقاعس لو أن سعداً كان على رأسها ويقصد به - سعد زغلول، ولكن نحاسها هو الذي ارتضى هذا الموقف لها ويقصد به - مصطفى النحاس - رئيس وزراء مصر آنذاك:

يا ليت غائب مصرعنا لم يغب ... أو ليت حاضرها لنا لم يحضر
لو لم يغب يا مصر (سعدك) ما أتى ... «نحاسك» الأمر الذي لم يشكر
أيرى فلسطين العزيزة تشتكي ... ظلم الطغاة ولم يعن أو ينَصر
هيهات ما سعد بتارك مثلها ... في كفّ وحشي السياسة بربري (٦٣)

وتتجسد القضية الفلسطينية عند الشاعر - سالم العويس - من دولة الامارات العربية في رسم صورة اليهودي الذي جبل على الغدر والخيانة منذ القدم، والشاعر يمزج موقفه السياسي في الطرح ببعض الحكم التي تثير الهمم وتحيي الآمال في استعادة الحق لأصحابه:

---

(٦٢) المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(٦٣) المصدر السابق، ص ٢٨١.

خـذ بـالهوى والحق أخـذة مـؤمـن واتـرك هـدايـة من يقيس ويحسب

ظـل اليهـود عـن الصراط وأدبـروا إن اليهـود إلى الخيـانـة أقـرب

قـل لليهـود دخلتمـوا في مـأزق لن تـربحـوه ومـا تسـامح يعـرب

حلفـاؤكـم حلفـاؤهـم مـن قبلكـم ولهم إلى رد الصـداقـة منكبُ (٦٤)

أما الشاعر ـ صقر بن سلطان القاسمي ـ فإن اغتصاب فلسطين وتشريـد شعبهـا، واضطهاد أهلها، كان يمثل عنده قمة المأساة في تاريخ العـرب، ولـذلك حفل ديـوان القاسمي بالعديد من القصائد التي تصور هذه المأسـاة وتستحث العـرب على الثـورة، واعلان الجهاد لتحرير فلسطين، وغالباً ما يربط القاسمي موقفه من الواقع بذكـريـات الماضي المجيد ودور البطولات العربية فها هـو في احـدى قصـائده يتنـاول فيهـا مأسـاة فلسطين منطلقاً من معركة اليرموك الخالدة مخاطباً فيها خالد بن الوليد ومتمنياً لـو يعـود مرة أخرى ليقود جحافل المسلمين لإنقاذ فلسطين :

رهين البلى قُم وانفـض الترب إننـا بـأرواحنـا جـدنـا فهـل أنـت قـائدُ

فلو شاهدت عيناك في القدس خصمنـا وفي «دير يـاسين» تـروع المشـاهـدُ

لعـز عليك العـربُ تسبى نسـاؤهـم ويـوأد مـولـود ويقتـل والـدُ

وتهتـك أحـرام ويـزهـق آمـن تقسـم أوطـانٌ تهد مسـاجـدُ

فكم مـن شريـد ظـل مـن غير ملجـأ يقضي الليالي وهو بالـذل سـاهـد (٦٥)

وفي قصيدته «عتاب» نجد الشاعر ـ القاسمي ـ يبكي واقع أمته، واضاعتها لقطعـة غالية من أرضها، وبؤس أهلها. ويعاتب العـرب على خنـوعهم وسكـوتهم. ويخاطب النبي محمـد (ص) ويتمنى لـو أنـه يطل على واقع أمتـه فيرى مـا هي عليـه من ضيـاع وفرقة :

---

(٦٤) نداء الخليج، سالم العويس، جـ ٢، ٣٢.

(٦٥) ديوان صقر بن سلطان القاسمي، ص ١٥٦ .

طـــه فـــداك أبي وأمـي كلهـم أو لا تطـل على ســـواد الحاضر
القـــدس أولى القبلتين سليبـــة وعمان بين مغـامـر ومهـاجـر
وعلى ربى القـدس الشريـف قـذائف تـردى الأبـى بكلمـة مـن غـادر
ربـاه تضحيـة كثـورة (خـالـد) أو (طـارق) تحيـى تـراث الغـابـر
إنـى لأغضـى الطـرف مـن خجـل إذا شـاهـدت مـا بين الخيـام حـرائرى
يمشين في قـر الشتـاء عـواريـا ولكـم درجـن على الحريـر الفـاخـر
والعـرب في شرق البـلاد وغـربها لاهـون بين تنـاحـر وتـدابـر (٦٦)

أما الشاعر العُماني ـ السيد هلال بن بـدر البـوسعيـدي ـ فإنـه تهزه مأسـاة فلسطين وضياعها فيستصرخ بني قومه، ويدعوهم إلى انقـاذهـا، ويعـاتب العـرب على قبـولهم بالهدنة بعد أن شحذوا الهمم واستعدوا لاسترداد الحق. ولكنهم تراجعوا واختلفوا وقـد نظم هذه القصيدة على ما يبدو أثناء حرب ١٩٤٨م لأن الشـاعـر يصف فيهـا التراجع العـربي في الحرب، وقبـول الهدنـة. ثم مخاطبـة الملك عبـدالعـزيـز بن سعـود، والملك فـاروق، والملك فيصل في العـراق ويستحثهم على تحريـر فلسطين واستعـادتها من المغتصب الصهيوني:

أكثرت في القـول بل أكثـرت في الخطب اقلل ـ فديتك ـ واعمل يا أخـا العـرب
جـردت سيفـا ولكـن لا مضـاء لـه كـأنها السيـف منســوب إلى الخشـب
بنى العـروبـة هل طـاب المقـام لكم وفي فلسطين أشـــلاء على لهب
. . . .
تهادنـــون ولم تفلـل مضـاربكـم يـا للـرجـال لأمـر غير مـرتقب
شيخ الملـوك وعـود منك قـد سبقت تفـدى فلسطين بـالأرواح والنشب
فـأيـن ابطـال نجـد أيـن ذادتها وأيـن فـرسـانها مـن صفـوة العـرب
فـاروق حقق رجـاء العـرب فيك وقم وانشر كنـانـة مصر المجـد في الكتب (٦٧)

---

(٦٦) المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٦٧) ديوان السيد هلال بن بدر البوسعيدي، ص ١٠٥.

ويسترسل الشاعر في وصف مصر ودورها، وقدرتها على مواجهة الخطر الذي يهدد كيان الأمة. ثم يستنهض الشاعر أبناء العراق، ويخاطب الملك فيصل في أن يؤدي دوره لنصرة فلسطين واستعادة حقوق أبنائها. . وما دام الشعر والشاعر في عمان فإننا نقف عند شاعر عماني آخر كان شعره صدى لمعاناة أمته، وصورة لواقعها المؤلم، إنه الشاعر ـ عبدالله الطائي ـ فله العديد من القصائد التي يتناول فيها القضية الفلسطينية ويصور فيها مأساة شعبها.

كما أنه يصور بأسلوب درامي. ثورة الانسان الفلسطيني وروح الفداء، ويمكننا القول أن ـ الطائي ـ في قصيدته هذه قد لجأ إلى الاسلوب الدرامي القصصي من خلال علاقة حب تنشأ بين المناضل الفلسطيني (وليد) وبين فتاة فلسطينية تدعى (فوز) يلتقيان على طريق النضال والمهر هو طريق التحرير والكفاح، وهنا نجد أن الشاعر بنموذجه الشعري هذا قد خرج عن النماذج التي عهدناها عند الشعراء الذين استشهدنا بأشعارهم بأسلوبها التقريري المباشر، ونبرتها الخطابية الوعظية التي تغلب على نماذجهم الشعرية:

وأرهفتْ فوزُ نحو الصوت مسمعها ... تقول هذا وليد بالندا حادي
لبيك يا دعوة ما زلت أرقبها ... الله يحفظها من صولة العادي
وفي الصباح أتته فوز شاكرة ... تقول مثلك من يدعى لانجاد
مال الجميع إلى الشكوى على ضعف ... وقد ركنت على شكوى واعداد
بعثت في النشىء حب الثأر فانتفضت ... فيه مآثر قُواد واجناد
عاهدتك اليوم أن أفنى الحياة على ... أن أدعو القوم نحو العود للدار

. . . .

وكان في قلبه من حبها قبسٌ ... أورى به نار آمال وأشواق
ريح الهوى ما عصا سلطانه أحدٌ ... كأنه سوط موسى في النسا باقي
هذا وليد يبيع العمر محتسباً ... لقدس مدخلها شذاذ آفاق
قد ناله السهم حتى كاد يأسره ... وما سوى فوز من آثاره راقي (٦٨)

(٦٨) الفجر الزاحف، عبدالله محمد الطائي، ص ٥١.

ونقف عند شاعر كان لقضية فلسطين صدى في شعره وأعنى به الشاعر ـ أحمد محمد الخليفة ـ فالشاعر أحمد الخليفة يخاطب أبناء الأمة العربية طالباً منهم أن يصدقوا الوعد، ويوفوا بالعهد ويسارعوا إلى حمل السلاح في سبيل تحرير فلسطين:

بشرونا هل ليوم الزحف نية ... يا دعاة الحق يا أهل الحمية

ومتى الميعاد حتى تلتقي ... في فلسطين الجيوش العربية

قد سئمنا الصبر حتى اننا ... لم تعد فينا من الصبر بقية

وكرهنا كل قول بعده ... لم تنفذ خطوات عملية

وإذا المغبون داسوا حقه ... ثار في وجه العوادي والرزية

يا دعاة الحق آن الملتقى ... بشرونا هل ليوم الزحف نية

جددوا الميثاق حتى نلتقي ... في روابيها صباحا أو عشية (٦٩)

وقصائد ـ أحمد خليفة ـ تتسم ببساطة، وعفوية وتلقائية تصل بها أحيانا إلى حد نظم الأفكار والمعاني القريبة وما يتداوله الانسان العادي في الحياة اليومية، وبلغة تقريرية مباشرة. وتفتقر إلى الصور الشعرية. وإن كانت بساطة اللغة وسلاسة الاسلوب تسمو ببعض قصائده إلى حد ما.

وقد يكون الشاعر الكويتي ـ خالد الفرج ـ من أكثر الشعراء في هذه المنطقة منذ الأربعينيات وعياً بالقضايا العربية، وتفاعلاً معها، وقضية فلسطين تأخذ حيزاً كبيراً في شعره، ويتدفق شعره السياسي والوطني بعاطفة متأججة وثورة على الواقع الذي تعيشه أمته، ويتميز اسلوب الشاعر خالد الفرج في معالجته لمثل هذه القضايا بالتهكم والسخرية، كما أشرنا إلى بعض نماذجه وموقفه من جامعة الدول العربية. ها هو يتناول «وعد بلفور» وزير خارجية بريطانيا آنذاك والذي أعطى بموجبه وطن قومي لليهود في فلسطين حيث كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني فيخاطب الشاعر بلفور بأسلوب ساخر:

---

(٦٩) العناقيد الاربعة (بقايا الغدران)، أحمد الخليفة، ص ١٩.

بلفـــور إن اليـــوم عيـــدْ ... فـــالبس لـــه الثـــوب الجديـــدْ
وعليـــك أكليـــل السعـــادة ... في أكـــاليـــل الـــورود
. . . .
هـــل كـــان وعـــدُك منـــزلاً ... بـــالـــوحـــي مـــن رب حميـــدْ
أم أنـــت تمثـــال الـــوفـــاء ... فـــلا تحول ولا تحيـــد
جـــازيـــت أخـــوانَ السمـــوأل ... في وفـــائهـــم المجيـــد
هـــم آزروك فجـــازهـــمْ ... ممـــا لـــديـــك بما تـــريـــد

ويصور موقف العرب من الهدنة بأسلوبه الساخر، وتهكمه المرير على حال أمته، وما آلت إليه من تخاذل، وتراجع، ونكوص عن العمل الجاد وانشغالها بالخطب الجوفاء الرنانة، فيقول من قصيدة تحت عنوان «الهدنة»:

بين اليهـود وبين قـومي هـدنـة ... قـد خُرِّقت حتى غـدت غـربـالا
فيـه النصـال على النصـال تكسرتْ ... وبـه نخلنـا للخطـوب رجـالا
لم يمسك الغـربـال منهـم واحـدا ... حتـى ولا وعـداً ولا أقـوالا
صورٌ تـراءت فـوق شـاشـة مسرح ... ومتى لمست لمست ثـم خيـالا (٧٠)
. . . .
وإذا الموائد في الـــولائم صففـت ... فـاسمـع عـراضـا نُمّقـتْ وطـوالا
هـي مـن كـلام الليـل لما أشرقـت ... شمـس «الحقيقـة» ذوبتـه فسـالا
وإذا اليهـود بغـوا رأيـت كفـاحهـم ... بـالاحتجـاج صيـاحهـم يتعـالى
الطبـل يـدوي حين يقـرع بـالعصـا ... والقـوم ليسـوا منـه أحسن حـالا (٧١)

---

(٧٠) خالد الفرج، حياته وآثاره، خالد سعود الزيد، ص ٤٧.
(٧١) المصدر السابق، ص ٥٣.

وفي قطر نقف عند الشاعر ـ عبدالرحمن المعاودة ـ فقد تناول القضية الفلسطينية في شعره، وصور مأساة الشعب المشرد، وناشد العرب الوقوف في وجه الخطر الصهيوني، وقد تناول هذه القضية في أكثر من مناسبة ففي احدى قصائده التي نظمها بمناسبة جمع التبرعات لفلسطين يرثى فيها الشاعر حال الأمة وضياع أوطانها، ونهب العدو لخيراتها: (٧٢)

إلهي أذل الـدين في عقـر داره ... وهـدم صرح للحنيفـة قـائم
وروع أول القبلتين وأهلـه ... ونـال من الاسـلام من هـو نـاقم

ثم يناجي الشاعر الماضي ويستعيد ذكرياته المجيدة، وكيف بنى أولئك الأبطال مجد هذه الأمة في عهد الراشدين وبني أمية، والعباسيين. وينتقل الشاعر إلى مناشدة العرب إلى الوقوف في وجه العدو، والمحافظة على أمجاد الأمة، وصيانة أوطانها:

بني الملـة الفضلى ويـا خير أمـة ... إلى سـاحها تعـزى العلى والمكـارم
أغيثـوا فلسطين الشهيـدة أنها ... مـآسي تتـارى كلهـا ومـآتم
أغيثـوا يتـامى مـا لها من يعيلهـا ... وأشتات قوم قد أهينوا فقاوموا (٧٣)

وعندما أعلنت هيئة الأمم قرار التقسيم عمت الإحتجاجات والمظاهرات أرجاء الوطن العربي معلنة رفضها لهذا القرار الجائر، وتعالت أصوات الشعراء في كل مكان تصور حجم المأساة وتحمس الجماهير العربية للثورة ومقاومة هذه المؤامرة.

ويرتفع صوت الشاعر ـ المعاودة ـ في قصيدة حماسية بهذه المناسبة داعياً الشباب العربي إلى الثورة وحمل السلاح للدفاع عن الوطن السليب فمن قصيدة تحت عنوان «يا لثارات قومنا» ألقاها في البحرين آنذاك أمام تظاهرة شعبية يقول فيها:

---

(٧٢) ديوان المعاودة، ص ٣٠.

(٧٣) المصدر السابق، ص ٣١.

حبــذا الموت في ظــلال البنــود — حبــذا حـامي الحي من شهيــد

هـا هي العـرب قـد تنـادت إلى الموت — تلبــي نـــداء رب حميــد

حكمـت هيئـة اللصـوص علينــا — حكـم ابليـس اللعين المريــد

لكـن الحق فـوق حكمكـم اليــوم — بـرغـم الـوعيـد والتهـديـد

يــا لثــارات قــومنــا في فلسطين — فقـــد دوهموا بشر اليهـــود (٧٤)

ويستثمر الشاعـر ـ كعـادتـه ـ الماضي وأمجاده لإثـارة مشـاعـر أبنـاء الأمـة وايقـاظ ضمائرهم، وحثهم على العمل والجهـاد في سبيل مـواجهــة الأخطــار التي تحيق بهم، ويمتاز المعاودة باسلوبه الخطابي الحماسي، وقرب معانيه وان كان هذا له جانبـه السلبي من الناحية الفنية في مجال الشعر. حيث تطغى النبرة الخطابيـة والأسلـوب المبـاشر على الصور الفنية، والايحاء والظلال التي تسمو بفن الشعر.

والحقيقة أن النزعة الاصلاحية، والتوجه المباشر للجماهير ظاهرة واضحة عند معظم الشعراء الذين أطلقنا عليهم شعراء الإحياء. وذلك يرجع إلى تأثـرهم بـالشعـر العـربي التقليدي الذي بطبيعته يميل إلى الوضوح، ويخلـو من الخصـائص الـدراميـة، وتغلب عليه النبرة الخطابية، وتتراجع فيـه الصـور والاخيلـة، ليحل محلهـا في الغـالب الصفـة التقريرية الواضحة. ويقترب من اسلوب الوعظ والإرشاد، ومعظم الشعر الاصـلاحي ينهج هذا النهج، ولذا نجد هذه الظاهرة في شعر العديد من الشعراء الـذين مثلـوا دور الإحياء والاصلاح في الأدب العربي الحديث من أمثال: شوقي(٧٥)، وحافظ إبـراهيم في مصر، ومحمـد مهـدي الجواهـري، والـزهـاوي في العـراق، وغيرهم من الشعــراء. فبالاضافة إلى ما ذكرناه من أن طبيعة الشعر العربي الكلاسيكي تميل إلى الوضـوح والنبرة الخطابية، فإن الواقع العربي وتصور هـؤلاء الشعـراء لـدورهم الاصـلاحي لاستنهـاض

---

(٧٤) لسان الحال، عبدالرحمن المعاودة، ص ٤٤.

(٧٥) الحقيقة أن شوقي يمزج بين التقرير والايحاء بمقدرة عجيبة ولذا فشعره أبقى وأدوم من شعـر المنـاسبـة ويكفي أن نثل لذلك هنا بقصيدته في ضرب الفرنسيين لدمشق:

ففي القتلى لأجيـال حياة — وفي الأسرى فدى لهم وعتق

وللراية الحمـــراء باب — بكـل يد مضـرجـة يـــدق

الأمة، وحفز الهمم لدى الشعب العربي، قد جعل هؤلاء الشعراء يتجهون إلى الاسلوب المباشر، ولسنا بحاجة إلى تكرار ذكر النصوص التي تدعم رأينا، فمعظم النماذج التي أوردناها تسير في هذا الاتجاه، لأن الشعراء في المنطقة إلى جانب ثقافتهم التقليدية، ونهلهم من منابع الشعر العربي القديم، كانت رؤيتهم لوظيفة الشعر والشاعر قد جعلتهم يتجهون إلى الجماهير مباشرة، وبعفوية وتلقائية لأن الهدف الأساسي عندهم هو استثارة الجمهور وشحذ الهمم، ولأن الغاية عندهم هي التوجه للجمهور والتأثير عليه ومن هنا كانت التضحية بالجانب الفني. بالاضافة إلى ذلك فإن غياب النقد، وعدم تغلغل المفهوم الحديث للأدب في ثقافة هؤلاء الشعراء كلها أمور قد جعلت الشعراء في هذه المرحلة يتجهون إلى الاسلوب الخطابي المباشر، ويطغى اسلوب الأمر، والاستغاثة في شعرهم.

أما لغة الشعر فكانت في الغالب تميل إلى استخدام المفردات الشائعة القريبة من الجمهور ولكنها اللغة الفصيحة، فالمفردات عندهم مألوفة وعادية. وهذه الظاهرة نجدها في شعر عبدالرحمن المعاودة، وعبدالله الطائي، وسلطان بن صقر القاسمي، وأحمد محمد الخليفة، فهؤلاء الشعراء تتمثل في شعرهم تلك اللغة السهلة المألوفة، القريبة في معانيها كقول الشاعر ـ سلطان القاسمي :

راية الحق يا شباب البلاد مزقتها بالغدر كف الأعادي
والفخار العظيم بكفيه ذلاً أن توالت على علاه الأيادي

واللغة نفسها نجدها عند الشاعر ـ سالم العويس ـ الذي يخاطب الاستعمار مهدداً متوعداً بأسلوب تلقائي عفوي مباشر:

يا من غزانا أتنجو من أراضينا فإن نجوت فما تدري بماضينا
قتل النبيين لن ينساه غابرنا وما نسيناه فادروا كيف تبنونا

فهذه النماذج الشعرية تفتقر إلى الصور الشعرية، والخيال المجنح، الذي يسمو بالاسلوب من التعبير المباشر إلى الاسلوب التصويري الايحائي. وإن كنا لا ننكر أن لغة هؤلاء الشعراء كانت مشحونة بثورة عاطفية صادقة في التعبير عن نفسها، ولكن الاسلوب لم يتجاوز في أحيان كثيرة اللغة النثرية المنظومة.

ولكن ليست كل النماذج الشعرية التي سقناها تسير في هذا الاتجاه، أو تتسم بمثل تلك الخصائص، بل هناك بعض الشعراء الذين يتسم شعرهم من حيث اللغة أو المفردات بشيء من الجزالة، والعودة إلى اللغة القاموسية في شعرنا العربي القديم، ويمكن أن نلحظ هذه النماذج في شعر ـ صقر الشبيب، والشاعر ـ أحمد بن يوسف الجابر، وعبدالله بن علي الخليلي، والسيد هلال بن بدر البوسعيدي، فهؤلاء الشعراء تتمثل في شعرهم التراكيب والصور، والمفردات التي تقترب من لغة الشعر القديم، كقول الشاعر ـ هلال البوسعيدي:

يا للرجال لأمر غير مرتقب	تهادنون ولم تفلل مضاربكم
....	....
كأنما السيف منسوب إلى الخشب	جردت سيفا ولكن لا مضاء له

ولا شك أن الصلة القريبة بين هؤلاء الشعراء، وبين التراث العربي في الشعر قد جعلهم يستعيدون الكثير من التراكيب والمفردات، والصور، كقول صقر الشبيب: (٧٦)

وإلا أتوا منكم على الشخت والجأب(٧٧)	فإن تصدموهم كفكوا من شرورهم
....	....
ولا ريَّ ما شاموا الثمالة في القعب(٧٨)	تحسّوكُمُ حتى يروا أنهم رووا

ولكن رغم ذلك نقول أن لغة الشعر عند هذا الفريق كانت تمثل في الغالب لغة الوسط بين الصعوبة، والسهولة، ولكن الالفاظ المعجمية أكثر بروزا عند هؤلاء، من الفريق الأول حيث وجدنا أن اللغة السهلة المتداولة هي السمة البارزة في شعرهم.

---

(٧٦) ديوان صقر الشبيب، ص ١٠٧

(٧٧) الشخت: الدقيق

الجأب: الغليظ

(٧٨) شاموا: أبصروا

الثمالة: البقية من الطعام أو الشراب

والقعب: القدح الضخم.

القضايا العربية
لدى شعراء الاحياء

المصادر والمراجع

١ـ حركة البعث في الشعر العربي ـ د. ماهر حسن فهمي / مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٢ـ الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ـ علي المحافظة / الاهلية للنشر والتوزيع ـ ط (٣) بيروت، ١٩٨٠م.

٣ـ العرب ـ ادوارد عطية / الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.

٤ـ الحركات القومية، حـ ١ ـ د. نور الدين حاطوم ـ ط (٢) دار الفكر.

٥ـ الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ـ د. محمد محمد حسين ط (٢) مكتبة الآداب بالجاميز، القاهرة، ١٣٨٢هـ.

٦ـ دور الادب في الوعي القومي العربي (بحوث ـ ندوة) / مركز دراسات الوحدة العربية ـ ط (٣) بيروت، ١٩٨٤م.

٧ـ نداء الخليج، (ديوان) ـ سالم بن علي العويس (جزءان) / ط (١) مطابع دار الشعب، عمان ـ الاردن، ١٩٧٩م.

٨ـ نفحات الخليج ـ عبدالله سنان محمد ـ ط (١) الكويت، ١٩٦٤م.

٩ـ ديوان العريض ـ ابراهيم العريض ط (١) الكويت، ١٩٧٩م.

١٠ـ ديوان العناقيد الأربعة ـ أحمد محمد آل خليفة ـ حـ ١ البحرين بدون.

١١ـ ديوان الستالي ـ أبوبكر أحمد بن سعيد الخروصي، سلطنة عمان، ١٩٨٠م.

١٢ـ ديوان الشعر الكويتي ـ د. محمد حسن عبدالله / وكالة المطبوعات، الكويت.

١٣ـ ديوان صقر الشبيب ـ جمعه أحمد البشر الرومي / / مكتبة الأمل، الكويت بدون.

١٤ـ ديوان الخليلي ـ عبدالله بن علي الخليلي ـ سلطنة عمان، ١٩٧٨م.

١٥ـ ديوان صقر القاسمي ـ صقر بن سلطان القاسمي / دار العودة ـ بيروت، ١٩٨٩م.

١٦ـ الفجر الزاحف ـ عبدالله محمد الطائي / مطبعة الضاد، حلب ـ سوريا، ١٩٦٦م.

١٧ـ وداعاً أيها الليل الطويل ـ عبدالله محمد الطائي، بيروت، ١٩٧٤م.

١٨ـ ديوان أحمد يوسف الجابر ـ جمع وتحقيق د. يحيى الجبوري ـ د. محمد كافود، الدوحة ـ قطر، ١٩٨٣م.

١٩ـ لسان الحال عبدالرحمن المعاودة، البحرين، ١٣٧٣هـ.

٢٠ـ ديوان المعاودة ـ عبدالرحمن قاسم المعاودة ـ ط ١ البحرين، ١٩٤٢م.

٢١ـ القطريات ـ ظ عبدالرحمن قاسم المعاودة، قطر، ١٣٧٧هـ.

٢٢ـ دوحة البلابل ـ عبدالرحمن قاسم المعاودة، قطر، ١٩٦٠م.

٢٣ـ القومية العربية في الأدب الحديث ـ د. محمد زغلول سلام / دار المعارف، القاهر، ١٩٥٩م.

٢٤ـ أدباء الكويت في قرنين، خالد سعود الزيد ـ حـ ١ ط ٢ المطبعة العرية، الكويت، ١٩٦٧م.

٢٥ـ ديوان هلال بدر البوسعيدي ـ تحقيق محمد علي الصليبي، عمان، ١٩٨٥م.

٢٦ـ الشعر المعاصر في البحرين ـ علوي الهاشمي ـ بغداد، ١٩٨١م.

٢٧ـ خالد الفرج حياته وآثاره ـ خالد سعود الزيد ـ ط ٢ الكويت، ١٩٨٠م.

«معجم أسماء العرب»: إضاءة ونقد(١) *

أ. د. عبدالعزيز مطر
أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية

أولا : تعريف بالمعجم

فتحت المكتبة العربية ذراعيها، وبسطت أساريرها، هذا العام، مرحبة بالقادم الجديد من عُمان. . ليهدي إلى العرب ثمرة يانعة من ثمار بحث ميداني لغوي اجتماعي ثقافي، أسهمت في إعداده، وتولت إخراجه صفوة مصطفاة من الأساتذة والباحثين العرب. . هذا القادم الجديد من عُمان هو «معجم أسماء العرب» الذي يبشر بصدور «سجل أسماء العرب» و«دليل أعلام عُمان» و«منهج البحث في أسماء العرب»، ومنها جميعاً تتألف «موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب».

يقع المعجم في مجلدين، وعدد صفحاتها: ١٩٠٠، ويضم : ٩٩٤٠ مدخلاً تحتها: ١٨٥٠٩ من الأسماء التي تمثل أكثر أسماء الناس شيوعاً في العالم العربي. ويبين نسبة شيوع كل اسم طبقاً لما جمع من أسماء اثنى عشر بلداً عربياً. ويحقق ـ اجتهاداً ـ الأصول اللغوية لهذه الأسماء، ويحدد المعنى الذي روعي في الاسم عند التسمية، ويختار من الشخصيات التاريخية بعض من سموا بهذا الاسم. . وقد رتب ترتيباً ألفبائياً حسب نطق الاسم، فهو أشبه بدليل الهاتف وبمعجم «المنجد الأبجدي» و«الرائد» و«لاروس ـ المعجم العربي الحديث»!.

اختيرت الأسماء التي اعتمدت للدراسة وعددها: ٤,١٩٧,٠٠٤ من أدلة الهاتف، وسجل المشتركين في خدمات الكهرباء والمياه، ونتائج الامتحان في المراحل التعليمية المختلفة، وسجلات المدارس والمعاهد، ونتائج الانتخابات في الوحدات المحلية والبلدية.

يتألف كل مدخل في المعجم من خمسة مكونات هي: العنوان أي الاسم الذي تتناوله الدراسة، وتحت هذا العنوان أربع فقرات متكاملة ومرتبة على هذا النحو (١) الاسم (٢) المعلومات الإحصائية (٣) المعلومات اللغوية (٤) المعلومات الاجتماعية (٥)

المعلومات الموسوعية(٦). ويرمز لكل فقرة من هذه الفقرات برمز خاص كما يتبين من المثال الآتي:

المدخل: صقر (الصقر، باصقر، بن صقر) ويكتب بالحبر الأسود وببنط أكبر، وهذا هو العنوان.

□ هذا المربع للفقرة الإحصائية، وتحتها ما يلي:

إحصائيات الاسم في العينة (١٠٣٩١٦ اسما): صقر: أول (١٤٤) [أي ورد صقر اسما أول ١٤٤ مرة في العينة]. ثان (٢٠٩) [أي ورد في اسم الأب بهذا العدد]. أخير (٦٦٧) وهو اللقب.

⊖ هذه الدائرة رمز للفقرة اللغوية، وتحتها ما يلي:

من (ص ق ر) وزن فَعْل: وهو: نوع من جوارح الطير، يستخدم في الصيد، واللبنُ الشديد الحموضة. وشدةُ وقع الشمس وحدة حرّها.

△ مثلث متساوي الساقين، ويرمز إلى النطق المحلي (اللهجة) وتحته ما يلي:

من صور النطق المحلي: صأر، صكَر، يستخدم للذكور، ويملّح بـ: صقُّور.

من صور استخدامه اسماً أخيراً أنه اسم عائلي في السعودية والكويت ومصر [ملحوظة: نسي كاتب مادة (صقر) أن من صور النطق المحلي لصقر (صكَر بكسر الكَاف) كما هو في الخليج العربي وبلدان أخرى. وكتب صورة التمليح بالقاف الفصحى دون ضبط، وصيغة التمليح في الخليج العربي: صَكُّور، مثل: خلّود).

▽ مثلث قاعدته إلى أعلى، ويرمز إلى بعض من سمّوا بهذا الاسم من العرب القدامى والمحدثين، وتحته: عبدالرحمن بن معاوية بن هشام الأموي، صقر قريش، الداخل... ويعرف المعجم به في ستة أسطر، وبعده: صقر بن سالم الشبيب الشاعر الكويتي (في سطرين) وصقر الرشود من رواد المسرح في الكويت (في سطرين) ومحمد عزت صقر (زجّال مصري) في سطر.

***

هذه إضاءة خاطفة، تكشف في سرعة أبعاد معجم متميز، صدر عن فكر سديد وجهد جهيد، معجم يقول لأبناء العروبة: هذه أسماؤكم وسماتكم، وهذه فلسفة تسمياتكم، وهذه أصول ألفاظها ودلالاتها. . فتخيروا منها لأبنائكم، وحافظوا على هويتكم وشخصيتكم ولغتكم وتاريخكم. .

ثانيا: ملاحظات في المنهج

الـترتـيـب

جنح واضعو المعجم إلى ترتيب الأسماء فيه كما يرتب دليل الهاتف، وكما رتبت بعض المعاجم اللبنانية المتطرفة، وهذا يهدم أساساً من أسس اللغة العربية، وهو أنها لغة اشتقاقية تنتظم كلماتها في أسر، وتربط فروعها بأصولها. . وهذا الترتيب الشكلي الذي جنحوا إليه يفرق شمل هذه الأسر، ويمزق وحدة المادة، ويحطم أصول الدلالات، ويلجىء إلى التكرار كلّما بيّن واضع المعجم معنى اسم من الأسماء.

انظر مثلاً إلى الأسماء المشتقة من الأصل (ح م د) فستجدها مبعثرة في أرجاء المعجم، فالاسم (أحمد) في صفحة: ٥٦ والاسم (حَمَد) في صفحة ٤٥٤ والاسم (محمود) في صفحة ١٥٤٢ والاسم (محمد) في صفحة ١٥٥٠ والاسم (نحمده) في صفحة ١٧٤٩ وهكذا. .

من أثر لجوئهم إلى هذا الترتيب الألفبائي الشكلي اضطرابهم أحياناً في بيان أصل الكلمة ووزنها، كما حدث في اسم (مكيوي) في صفحة ١٦٦١ فقالوا إنه من (كوى) فلما وزنوه قالوا (فُعَيْلِيّ) أي أنهم اعتبروا الميم أصلية فهي فاء الكلمة على هذا، على حين أن فاء الكلمة حسب الاشتقاق هي الكاف!! وزاد اضطرابهم في قولهم: نسبة إلى (مُكَيو) تصغير المكاء. وعلى هذا تكون الميم أصلية. وزادوا على اضطرابهم اضطراباً ثالثاً فشرحوا (المكاء) بأنه حِجْر الثعلب والأرنب ونحوهما (١٦٦٢) والصواب: جُحْر بتقديم الجيم المضمومة على الحاء لا العكس!!

في تفسير الأسماء

● من التفسيرات المضحكة لأصول الأسماء قولهم في تفسير اسم (مَيْلود) بأنه مأخوذ عن الكلمة اليونانية (ميلوديا) بمعنى: لحن وغناء، صفحة ١٧١١ ولو درسوا االلهجات العربية المعاصرة لعلموا أن (المَيْلود) هو المولود. وقد سجلت ذلك في دراستي للهجة البدو في صحراء مصر الغربية، ويوم (الميلود) عندهم هو يوم المولد..

لقد شطح الخيال شطحة دفعت بالاسم العربي إلى أن ينتمي إلى جمهورية أفلاطون، ولو صح تفسير المعجم لكان هذا الاسم جديراً بأن يكون اسماً لأنثى، وقد بين المعجم أنه اسم للذكور.

● المحررون الذين عهد إليهم التفسير اللغوي للأسماء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء، وعلى سبيل المثال: قدموا في تفسير اسم (نافجة) وهي من أسماء الإناث بعض المعاني ونسوا معنيين مهمين هما: النافجة، وعاء المسك وهي معربة عن (نافة) وجاء في (المصباح المنير) أنها عربية سميت لنفاستها، من نفجته إذا عظمته. والمعنى الثاني الذي نسوه أن العرب في الجاهلية كانوا يسمون البنت (النافجة) ويقولون للرجل إذا ولدت له بنت: «هنيئاً لك النافجة» أي البنت، لأنها تعظم مال أبيها حيث يزوجها ويأخذ مهرها ويضمه إلى إبله فينفجها أي يرفعها. وهذان المعنيان اللذان أوردناهما هما الأنسب في تسمية البنت.

ليس المهم في تفسير الأسماء أن تورد لفظ المعجم اللغوي، بل المهم أن تربط بين اللفظ والمعنى، وأن تتخير ما يناسب التسمية!!

● المعروف أن الاسم العربي القديم (البحرين) كان يطلق على المناطق الممتدة من (عُمان) إلى (البصرة) وأن اسم (البحرين) الذي يطلق على الدولة يختلف عن المعنى التاريخي، فقد كانت (البحرين) الحالية تسمى باسم: (دلمون) و(تيلوس) و(أوال).

هذه حقيقة لدى دارسي تاريخ شرقي شبه الجزيرة العربية والخليج، وقد اختلط هذان المدلولان عند محرر مادة (البحراني) في المعجم حيث قال: (وزن الفَعْلاني نسبة إلى البحرين دولة عربية) وكان الأدق أن يذكر المدلولين حتى لا تختلط الأوراق، ويلتبس

من ينسب إلى (البحرين) بالمعنى الجديد، والمعنى القديم، وقد أورد المعجم أسماء أربعة بحرانيين دون تحديد.

غياب التنسيق

● في الأعمال الموسوعية يناط بلجنة التنسيق القيام بالربط، والحيلولة دون التكرار والتناقض، والتأكد من الإحالات وذكرها في مواطنها، وتحقيق المواءمة بين الأساليب المختلفة، والتثبت من التزام المنهج.

ولكن الأمثلة الآتية تدل على خلل في التنسيق في «معجم أسماء العرب»:

- المصادر التي اختيرت منها عينة البحث (١٠٣٩١٦) ينبغي أن تكون معينة ومحددة، وإذا تكررت في المقدمة يجب أن تعاد بنصها دون زيادة أو نقصان.

ولكن الذي حدث في هذا المعجم يدل على غيبة التنسيق، ففي صفحة (هذه الموسوعة) ذكر: دليل التليفون، ونتائج الناجحين وشهادات الميلاد، وسجلات أعضاء النوادي وقوائم العاملين وغيرها من المصادر.

وفي صفحة ١٨ لم تذكر شهادات الميلاد مع أهميتها. وذكرت أسماء الفائزين في انتخابات الوحدات المحلية والبلدية، وأسماء المشتركين في خدمات الكهرباء والمياه، وأسماء تلاميذ المدارس الابتدائية والإعدادية، وأسماء طلاب الشهادة الثانوية ونتائج امتحاناتها.

ويتضح من المقارنة اختلاف المحررين وغياب التنسيق. ونظراً لأن مصدر العينة من أهم مقومات المنهج كان الواجب توحيد هذه المصادر وجمعها وذكرها محددة دون اختلاف.

- من أمثلة غياب التنسيق أيضا: في صفحة ٢٨٢ ذكر اسم (جاسب) دون ذكر معناه اللغوي. وأحيل إلى اسم (قاسب) وكان المفروض أن يذكر في صفحة ١٣٦٢ ولكن لم يذكر!

- في تفسير اسم (مريم) في صفحة ١٥٨٩ قيل: إنها في العبرية «مريام» بمعنى

«البدينة» السمينة. والصيغة اللاتينية منه: ماريا، وجاءت منه صيغ ماريان وماري وللتمليح: ماريتا.

ولكن محرر مادة (ماري) في صفحة ١٥١٧ ـ وهي الصيغة الإنجليزية لمريم ـ قال: معناه: السيدة أو «بحر الآلام أو الأحزان»!

فأي التفسيرين نصدق: البدينة كما جاءت في مادة (مريم) أو السيدة كما في مادة (ماري)؟ وأين التنسيق؟!

أيهما المخزنجي؟!

● من الشخصيات المعروفة في مصر: أديبان يتفقان في اللقب العلمي وفي الاسم الثلاثي، فكلاهما يسمى: الدكتور محمد كامل حسين..

واعتاد المثقفون أن يميزوا بينهما بأن يقولوا عن الأول: الطبيب أو مدير جامعة عين شمس، وهو مؤلف (قرية ظالمة) أو عضو مجمع اللغة العربية. وعن الثاني: أستاذ الأدب المصري، أو الأستاذ بكلية الآداب، أو الباحث في الطائفة الإسماعيلية..

ولكن هناك لقباً يعرفه القلائل يميز أحدهما عن الآخر، فالدكتور الطبيب مدير جامعة عين شمس ينتسب إلى أسرة «المخزنجي» وهي عائلة معروفة بهذا الاسم في «سُبْك» بمحافظة المنوفية.

فماذا حدث في «معجم أسماء العرب» ؟ حدث خلط للأوراق، فوضع أستاذ الأدب في كلية الآداب تحت اسم: (المخزنجي) في صفحة ١٥٥٧، ووضع (المخزنجي) الحقيقي تحت اسم: (كامل) في صفحة ١٤٣٦ حيث قالوا: محمد كامل حسين، طبيب ولغوي.. إلخ. فأين التنسيق.

النطق المحلي

● يهتم المعجم بنطق الاسم باللهجة المحلية. وقد نص على ذلك في مقدمته وطبقته اللجنة واضعة المعجم. ولكن دون نص على اللهجة أو المكان الذي تغير فيه الاسم

الفصيح، فضاعت عائشة في سوق الغزل ـ كما يقول المثل ـ!! ويبدو أنهم اصطدموا بعدم معرفة اللهجات المعاصرة فاكتفوا بعبارة: «من صور النطق المحلي» وقد ترتب على ذلك نسيانهم صوراً من النطق المحلي في بعض الأسماء، ومن ذلك:

ـ في مادة (المهنَّدي) في صفحة ١٦٩٥ قال المعجم: «من صور النطق المحلي: المهَنّدي». ولم يذكر النطق المحلي (في قطر) وهو: «لْمهنَّدي. وقد يحتج واضعو المعجم بأنهم لم يذكروا جميع صور النطق. والرد عليهم: أنهم نصوا على أن المهنَّدِي اسم عائلي في قطر..

ـ في مادة (هيا) في صفحة ١٨٣٧ ضبط اسم هيا بتشديد الياء، ولو رجعوا إلى النطق المحلي في الخليج لوجدوا الياء مخففة.

ـ في مادة (اللُّومِي) في صفحة ١٥٠٥ ذكر من صور النطق المحلى (اللُّومِي) وعد أصلها الفصيح: اللوم أي العتاب والتأنيب.

وقد فات المحرر أن يكون اسم «اللُّومِي) صورة من النطق المحلي للَّيْمُون، فقد كان العامة من أهل صقلية وأهل تونس (ويوجد بها لقب اللومي) في القرن الخامس الهجري يقولون: لُومِيّة وجمعها لُومِي، بدلاً من لَيْمُونة وجمعها لَيْمون. ولا يزال اللُّومي دالاً في الخليج العربي على الليمون المجفف. ويتردد في بعض الأغاني الخليجية.

ـ في مادة (الكَوَّاري) في صفحة ١٤٧٦ قال المحرر: «من صور النطق المحلي: لِكْواري، لِتْشواري، لتْسواري» وأسأل واضعي المعجم، وأسأل أهل قطر جميعاً: هل سمعوا من يقول: لِكْواري بدل الكَوَّارِي؟ يقولون في المهنّدي: لِمْهندي. نعم، ولكن في الكواري: لا. إن لهذا النطق قاعدة صوتية يعرفها من درس لهجة الخليج. وذلك فضلاً عن نطق لِتْشواري ولِتْسواري!!!

الخيل أو الطير؟

● إذا كان اللقب قد التبس على بعض محرري المعجم فأعطى اللقب لغير أهله، فإن كلمتين في بيت من الشعر قد التبستا على بعضهم، ربما لاعتمادهم على ذواكرهم في

رواية الشعر. . في مادة (اللِّهْبِيّ) في صفحة ١٥٠٠ جاء هذا البيت هكذا:

خَبيرٌ بنو لِهْبٍ فلا تكُ مُلغياً   مقالة لِهبٍ إذا الخَيلُ كَرَّتِ

ونلحظ على هذا البيت ما يلي:

أولاً ـ قولهم: مقالة لِهبٍ، صوابها: مقالة لِهْبِيّ

ثانياً ـ قولهم: إذا الخيل كرت، صوابها: إذا الطير مرّت.

وإنما قلنا: إذا الطير مرت، مع احتمال أن تكون (الخيل كرت) رواية ولو ضعيفة، لأن المعنى يقتضي «الطير» لا «الخيل» حيث اشتهر عن بني لِهْب، وهم جماعة من بني نصر بن الأزد، أنهم أزجرُ الناس للطير وأعلمهم بالعِيافة، وفيهم يقول كثيرٌ عزة:

تيمَّمْتُ لِهباً أبتغي العلمَ عندهُمْ   وقد صار عِلمُ العائفينَ إلى لِهْبِ

والزجر والعيافة إنما هما للطير، أي الاعتبار بأسمائها وأصواتها وممرها وأنوائها، ويتسعد أو يتشاءم بها. فورود الخيل هنا مفسد للمعنى المراد. ويبدو أن المحرر اختلط عليه الشطر الثاني من البيت، فوضع: الخيل كرّت بدل: الطير مرّت.

الكويتي

● في التفسير اللغوي للأسماء، وبخاصة في معجم كهذا، لابد من ذكر أصل الاسم ومعناه موثقين. . ولكن جاء في تفسير (الكويتي) صفحة ١٤٨٠: نسبة إلى الكويت تصغير الكوت بمعنى المدينة، وفي تفسير (الكوتي) صفحة ١٤٧٧: «نسبة إلى كوت بمعنى المدينة أو الحصن».

وأقول:

١ـ من أية لغة جاءت كلمة كوت؟ إن تحريرها بهذا الأسلوب يوحي بأنها عربية وهل هي كذلك؟

٢ـ لم تذكروا أنها هندية الأصل وهي في الهندية (KOTA) ويرى بعضهم أنها برتغالية.

٣ـ ليس معنى (الكوت) المدينة، بل معناه في الأصل: القلعة أو الحصن وإن كان المعنى قد تطور لتصبح الكويت علماً على المدينة وعلى الدولة.

٤ـ قلتم في صفحة ١٤٧٧ كوت بمعنى المدينة أو الحصن وفي صفحة ١٤٨٠: بمعنى المدينة فأين الدقة؟!

عائلة الأستاذ شَلَش

● يتضح من المعجم أن اسم (شَلَش) من الأسماء العائلية في السعودية والعراق والأردن ومصر. وفي هذا الانتشار مؤشر على أن هذا الاسم عربي.. وإن لم يوجد نصاً في المعجمات اللغوية.

ولكن مفسر الأسماء في المعجم رجح أن أصل هذا الاسم عبري، من الفعل شيلاش أي يثلث أو من الاسم العبري شلولش وقال: انظر شلاش (صفحة: ٩٤٠).

وأقول له: إذا كنت تستخدم الحرف (لعل) فلماذا لم تقل: لعلها (سَلَس) بالسين في اللغة العربية، من الفعل: سلس الشيء: سَهُل ولان وانقاد سَلَساً (بفتحتين) فهو سَلِس (بفتح فكسر) وأنت تعلم ـ يا سيدي ـ أن الشين في العربية ولهجاتها تكون صورة من نطق السين في اللهجات مثل شمش أي شمس، وفي المعرب من الفارسية مثل: شلجم وسلجم، وأنت تعلم أيضا أن الشين العبرية تقابل السين في العربية مثل (إيش) أي إنس (رجل).

أو لماذا لم تتوقع أن تكون كلمة (شلش) صورة من صور نطق (شلشل) أي خفيف سريع في عمله، والطيب النفس، وقد جاء السلسل بالسين والشين في معنى الخفة. وألاحظ أن مفسر هذا الاسم أحال على مادة (شلاش) وعندما رجعت إليها في صفحة ٩٤٠ لم أجد لها تفسيراً؟!

الفَرْدان

● إذا كان اللجوء إلى لغة أجنبية في تفسير اسم عربي دون دليل أمراً يؤخذ على

المعجم، فإن اللجوء إلى اللغة العربية في تفسير اسم غير عربي مما يؤخذ عليه أيضاً.
ومن ذلك اسم: الفَرْدان (١٣٢٣) فقد قال مفسر الأسماء في المعجم «وزن فَعْلان: وصف من (فَرْد) يقال: فرد فروداً: انفرد وتوحّد وفرد بالأمر والرأي: انفرد. وفردان: مثنى فرد».

والحقيقة: أن هذا الاسم فارسي. وأصله: باردان (بالباء المهموسة) ومعناها: الخمر، والكأس. وهذه الباء الثقيلة المهموسة تقلب في اللغة العربية فاء. ويحتمل أن تكون كلمة (فَرْدان) مركبة من (فَرْ) بمعنى نور أو مكانة، أو حسن. و(دان) بمعنى مكان أو زمان، فكان عليهم البحث والنظر قبل أن يقولوا إن اسم (فردان) مثنى فرد، أو أن يصوغوا منه على فعلان أي متوحد..!!

السيدة تفيدة

● خرّج مفسر الأسماء اسم (تفيدة) تخريجاً غريباً، ولكنه ـ للحق ـ بدأ بالحرف (قد) حيث قال (صفحة: ٢٤٦) قد يكون الاسم مأخوذاً عن الاستخدام التركي للاسم (توحيدة) أي أن الترك نطقوا توحيدة هكذا: تفحيدة ثم تطورت إلى (تفهيدة) ثم إلى (تفيدة).

وأقول: إذا لم يكن بأيديكم دليل على ذلك فاسمعوا هذا التخريج لاسم (تفيدة):

ـ أليس من المحتمل أن يكون أصلها العربي الصميم: تَوْفيدة، مثل: تَوْحيدة؟ وما التوفيدة على هذا؟ «التَّوفِيد مصدر للفعل وفَّده الأمير إلى الأمير، والتوفيدة المرة من التوفيد. وقد يكون الأصل: تَفْييدة، من الفعل فيَّد أي تبختر. والفيّاد: المتبختر.

ـ ثم أليس من المحتمل أن تكون تفيدة فارسية الأصل، من (تَفِيدن) أي إضاءة وضياء؟ وقد جرى المعجم الذي ننقده على ذكر الاحتمالات في أصول الأسماء، فلماذا لم يصنع ذلك مع السيدة (تفيدة)؟!

العم بَيُّومي!

● إذا بحث بَيُّوميّ عن اسمه فسيجده في المعجم (صفحة: ٢٣١) ولكن إذا رغب في معرفة معنى اسمه فلن يجده في المعجم لأن المحرر قد هرب بصنعة لطافة!

فقد قال: البيُّومي: يطلق على المتمسك بالطريقة البيُّومية، إحدى الطرق الصوفية المعروفة، ونسبة إلى (البيّوم) قرية في محافظة الشرقية بمصر. فما معنى اسم هذه القرية؟ وما أصل (البيوم) هل هو اسم مصري قديم؛ هل هو عربي محرف؟ هل هو فارسي وأصله (بيو) أي عروس و(مي) بمعنى شراب أو خمر؟

لقد قلت إن المحرر (هرب) بصنعة لطافة!

ثابت قُطْنة

● ضربت كفاً بكف عندما قرأت في صفحة: ٢٦٥ اسم شاعر عربي معروف، جاء اسمه في المعجم هكذا (ثابت بن قُطنة) أي أن اسم أبيه (قطنة) وهذا خطأ كبير.

فاسم الشاعر: ثابت قُطْنة، بإضافة (ثابت) إلى (قُطنة) وتذكر المصادر أنه أصيبت عينه يوم سمرقند، فكان يحشوها بقُطنة فأضيف إليها!

ولو أن المحرر ذكر هذه الحادثة في ترجمته لقلنا إن ذكر (ابن) خطأ مطبعي!!

أين الحاسوب؟

● في معجم يضم تسعة وخمسمئة (خمسمائة) وثمانية عشر ألف مدخل، لا مناص من الاعتماد على الحاسوب (الحاسب الآلي ـ الكمبيوتر) وهذا ما حدث فعلاً..

ومع ذلك فقد وجدنا في الفقرات الموسوعية أسماء كررت، مما يدل على غياب الدقة في اختيار اسم الشهرة الذي يعتمد عليه في وضع الاسم في مكان لا يتكرر. ومن

ذلك:

ـ الكاتب عبدالحميد جودة السحّار: له ترجمتان مختلفتان، أولاهما تحت اسم (جودة) في صفحة ٣٥٩ والأخرى في صفحة ٧٨٥ تحت اسم (السحّار) وفي الترجمة الأولى لم يذكر تاريخ ميلاده. ولم يذكر محمد عبدالحليم عبدالله من الأدباء الذين نشر لهم السحار كتبهم، على حين ذكر في الترجمة الثانية. ولم يذكر في الترجمة الأولى أيُّ عنوان من كتب السحار، على حين ذكرت ثلاث روايات تاريخية من أعماله.

ـ الشاعر علي محمود طه: له ترجمتان مختلفتان، أولاهما تحت اسم (طه) في صفحة: ١٠٧٢ والأخرى تحت اسم (علي) في صفحة: ١٢١١ مع الاختلاف في تحرير كل من الترجمتين والمعلومات المذكورة في كلتيهما!!

إنني لا أطلب من المنسق العام أن تكون ذاكرته حاسوباً.. ولكن أطلب منه ضبط الحاسوب، وقد كان يمكنه أن يحيل في إحدى الترجمتين على مكان الأخرى، فيقول مثلاً في اسم (جودة) انظر (السحار: عبدالحميد جودة) وفي (علي): انظر (طه: علي محمود).

الميزان الصرفي

تحت اسم (ثُوَيْني) في صفحة: ٢٧٣ قال المحرر عن وزنه إنه فُعَيلي، مع أنه يعلم أن أصله (ثنى). والصحيح أنه على وزن فُوَيْعل، فالواو المنقلبة عن الألف في ثاني زائدة، ولهذا وجب أن تذكر في الميزان!

وتحت اسم (سوسن) في صفحة ٨٦٢ قال المحرر: وزن فَعْلَل مع أنه قال إنها (س س ن)! والصحيح أنها على وزن فوعل مثل كوثر وجوهر..

تِمْــــراز

● في تخريج أصل اسم (تمراز) ومعناه (ص: ٢٥١) قال المحرر الذي وكل إليه

تحرير هذه المادة: «لعلها صورة كتابية صوتية عن الاسم الفارسي ثِمْراد بمعنى موضع الحمّام».

وفي هذا النص غلطتان نذكر صوابهما أولا، ثم نذكر التخريج السليم لاسم (تمراز):

ـ قولهم: ثمراد خطأ. والصواب: تِمْراد، بالتاء المثناة.

ـ قولهم: «موضع الحمّام (بتشديد الميم)» خطأ. والصواب: الحمام (بالميم المخففة، أي جنس الطير المعروف).

فالتمراد (بالتاء المكسورة): بيت صغير يجعل في بيت الحمام لمبيضه، فإذا جعلت نسقاً بعضها فوق بعض فهي التماريد. هذا ما جاء في الأصول اللغوية العربية، وجاء التمراد مما أملاه أبوالعلاء المعريّ على أبي زكريا التِبريزي. فإذا ثبت ما قاله المحرر بأسلوب (لعلها . .) فهو اسم عربي لا فارسي، وهو تمراد (بالتاء المثناة) لا ثمراد (بالثاء المثلثة) وهو موضع لبيض الحمام وليس موضعاً للحمّام الذي يغتسل فيه!

ـ التخريج الصحيح لاسم (تمراز) أنه من اللغة الفارسية، ومركب من كلمتين هما (تم) ومعناها: سواد. ظلمة (+ راز) ومعناها: لون، سر، رمز. . . فمعنى (تمراز): سواد اللون أو لون أسود.

الآنسة نوران

● في بيان أصل اسم (نوران) ومعناه (ص: ١٧٩٠) قال المحرر الذي وكل إليه تحرير هذه المادة: «من (ن و ر) وزن فُعْلان: مثنى نُور، انظر نور». . وفي مادة (نور) قال: «هو الضوء وسطوعه، وما يبين الأشياء ويرى الأبصار حقيقتها، وحسن النبات وطوله. ونور: من قرى بخاري».

يبدو أن الوالد الذي سمى ابنته (نوران) على هذا التأويل من رجال اللغة العربية حيث جعلها مثنى مرفوعاً بالألف! وإلا فقد كان من المنتظر أن يسميها (نورين) مثل دورين. وفي نيته أنها «نور على نور».

والأرجح عندي أنه اسم فارسي مركب من (نور) وهي كلمة عربية + آن وهي في

اللغة الفارسية لاحقة في آخر الكلمة تدل على الكثرة والاستمرار، وهي أيضاً علامة جمع، وضمير إشارة للشخص البعيد.

وقد تكون صورة من اسم (نورهان) أي هدية، أو هدية المسافر، وهي الصُّوغة باللهجة الخليجية.

السيدة مريم

● ضربنا مثلاً على غيبة التنسيق الواعي في المعجم: اسم (مريم) آخذين على المحررين ذكر معنى (مريم) أي البدينة في مكان، وذكر معنى (ماري) وهي إحدى صور (مريم) في مكان، قائلين: السيدة أو بحر الآلام أو الأحزان.

ولدينا تخريج آخر لهذا الاسم:

ـ اسم (مريم) في هذا المعجم وغيره اسم سامي قديم، مشترك بين اللغات السامية ومنها العربية، وهو وارد في القرآن الكريم ٣٤ مرة وسميت إحدى سوره باسمها. . وإلى جانب المعاني الواردة في اللغات السامية لاسم (مريم) ذهب أبوعمرو بن العلاء إلى أن (مريم) في اللغة العربية على وزن مَفْعَل من الرَّيْم وهو الزيادة والفضل، أو من رام يَرِيم إذا برح المكان، يقال: ما يريم أي ما يبرَح. وجاء أيضاً: ريَّم بالمكان أقام به. وقد جاءت (مريم) في المعاجم في مادة (ريم) وعلى هذا المعنى تكون الكلمة عربية فيما روي عن أبي عمرو بن العلاء. وهذا لا يمنع أن يكون لها أصل سامي كما بينا. فمعنى (مريم) على هذا: ذات الفضل أو المقيمة على الخير.

الصُّورِي

● في تخريج اسم (الصُّوري) ص: ١٠٢٦ قال المحرر: «نسبة إلى صُور، وهو شيء كالقرن ينفخ فيه، وصُور: مدينة ساحلية مشهورة بلبنان، ومدينة ساحلية في المنطقة الشرقية من عُمان، أو نسبة إلى الصورة، وهي الشكل والتمثال المجسم، والصفة والنوع»، ولم يبين المحرر أصل كلمة (صور) التي سميت بها المدينتان ولا معناها!

إن اسم (صور) من اللغة الفينيقية، ومعناه: الصخرة. وكانت مدينة (صور) اللبنانية واقعة على جزيرة صخرية فسميت بهذا الاسم.

قُماشة

● في تفسير اسم (قُماشة) في صفحة ١٤١٥ قال المحرر: «هي اللؤلؤة والدرة الثمينة». والمفروض أن المعجم يعتمد في التفسير اللغوي على النصوص العربية التي تؤصل هذه الأسماء، فإذا كان المعنى في إحدى اللهجات فلينص على ذلك. فأين وجد المحرر القماشة بمعنى اللؤلؤة والدرة الثمينة.

أما أن اسم (قُماشة) في الخليج العربي منقول عن اسم (اللؤلؤة) فهذا لا شك فيه.

وأما أن (القُماشة) هي الدرة الثمينة فذلك غير معروف، صحيح أنها لؤلؤة ولكنها غير ثمينة بل هي اللؤلؤة الصغيرة. وهي بهذا المعنى مولّدة عن المعنى الفصيح للقماش وهو ما كان على وجه الأرض من فتات الأشياء، يقال: ما أعطاني إلا قماشاً أي أردأ الأشياء، والقماش: رُذالة الناس.

وأعود لأقول للمحرر: أين وجدت وصف القماشة بأنها ثمينة؟ إنها لا توجد بهذا المعنى، لا في كتاب العين للخليل، ولا في الصحاح للجوهري، ولا في القاموس المحيط، ولا في تاج العروس، ولا في المعجم الوسيط.. وهي ليست ثمينة عند أهل الخليج!

الهيل

● من النقص في التعريف بأصول الأسماء أن يفسر الاسم بتفسير يحتاج إلى توضيح، وهذا ما حدث في تفسير اسم (الهيل) في صفحة: ١٨٤١ حيث قال بعد أن ذكر اشتقاق (هـ ي ل): والهيل: الحبّهان.

وأقول له:

أولا ـ الهيل نطق عامي لكلمة (الهال) .

ثانياً ـ الحبّهان : نطق محرف عن (حب الهال) .

ثالثاً ـ لا يعرف (الهيل) باسم يحتاج إلى تعريف . وكان ينبغي أن يقال : «فُوهٌ من أفواه الطيب» وينص على أنه دخيل على اللغة العربية .

هل العَنُود رَجُل ؟!

● في شرح معنى اسم (العَنُود) في صفحة ١٢٣٠ وأنه «فَعُول : مبالغة من عَنَد ، يقال : عقبةٌ عَنُود ، أي صعبة المرتقى ، وسحابة عَنُود : كثيرة المطر لا تكاد تُقلع ، وناقة عَنود تنكّب (أي تتنكّب وتحيد عن) الطريق من نشاطها وقوتها ، والقدح العنود (في الميسر) قدح يخرج فائزاً على غير جهة سائر القداح والعنود من الدواب : المتقدمة في السير» .

بعد هذا الشرح المنقول من المعجم اللغوي يقول محرر المادة : يستخدم للذكور . . ! والمعروف أن من منهج معجم الأسماء أن يبين في تفسير كل اسم نوعه من حيث استخدامه : للذكور والإناث ، مثل اسم : نجاح ، أو للذكور فقط ، مثل : نجا ، أو للإناث فقط ، مثل : نجاة . وقد خانهم التوفيق في اسم العنود الذي هو للإناث فقط ، فقالوا : يستخدم للذكور . . وأقول لمحرري شهادات الميلاد في إدارات السجل المدني : هل سجلتم رجلاً اسمه العنود؟!

الكَنّة

● في تفسير اسم (كنّة) في صفحة ١٥٧٥ قيل : إنها المرّة من «كنّ» يقال : كَنَّ الشيءُ : استتر ، وكنّ الشيءَ : ستره .

وغفل المعجم عن تفسير مهم يعرفه الخليجي لأول وهلة ، وهو عربي فصيح مستقر

في لهجاتهم، وهو «الكَنّة امرأة الابن والأخ». وجمعها: كنائن وكنّات . .

ويدل وصف طريقة نطق الكاف في هـذا المعجم، وهـو نطق الكشكشـة، بـالجيم المهموسـة (جنّة) على أن هـذا الاسم خليجي، وأهل الخليج يعـرفـون (الكنّة) بـالمعنى الذي وضحناه.

السيدة ثاجبة

● ورد في المعجم اسم (ثاقب) في صفحـة: ٢٢٦ وهـو النـافـذ والمضيء المتقـد . . ولكن لم يرد اسم (ثاجبة) التي هي صورة من صور نطق (ثاقبة) في الخليج العربي.

الجِيدَة

● من الأسماء العائليـة في الخليج، كما هـو معـروف ومـا نص عليـه المعجم: اسم (الجيـدة) وقـد فسره محرر المعجم (في صفحـة ٣٦٧) على أنـه من (ج ي د) والجيَد (بفتحتين): طول العنق. وضبط على هـذا بفتح الجيم. وبين المعجم نطقاً آخـر هـو (جِيدة) بكسر الجيم وفسره بأنه وزن فِعْلة بمعنى الجود . .

والرأي عندي: أن لفظ الجِيدة (بـالجيم المعطشـة المكسـورة) لفظ فـارسي الأصل، ومعناه في الفارسية: المنتخب، الفاكهة المقطـوفـة، والمبسـوط، فهـو اسم مفعـول من المصدر (جيدن) أي قطف الفواكه، الانتخاب، البسط . .

بنت اسمها نَيْماء

● اسم فريد في العينـة التي قـام عليهـا البحث، ينطقـه أصحـاب التسميـة (نَيْما) ويفصّحه محرر المعجم (نَيْماء) في صفحة: ١٧٩٧ ويفسره بأنـه من (ن و م) وزن فَعْلاء من النوم أي النعاس ونوم الريح والنار والسوق!

ولا أدري لماذا اتجه تفسير المحرر لهذا الاسم الفريد إلى النوم ولم يتجه إلى معنى جميل في مجال مختلف تماماً. وهو : النِيم (بكسر النون) كل ليّن من الثياب أو العيش، وهو أيضاً الفَرْو القصير الذي يصنع من جلود الأرانب، والنِيم أيضاً: عنب الثعلب.

الممثلة كوكا

● توقف محرر اسم (كوكا) في صفحة ١٤٧٨ قائلا: «لعله صيغة تمليح لعدد من أسماء الإناث التي تبدأ بحرف الكاف مثل كوكب وكوثر. يستخدم للإناث واسماً عائلياً».

والحقيقة غير ذلك، فلفظ (كوكا) فارسي، معناه: صوت مرتفع جداً، أو صياح. و(كوك) بغير ألف معناه: تسريح، خياطة.

أبو نواس

● في تفسير اسم (بانواس) في صفحة ١٧٨٧، قالوا: نوّاس وزن فعّال من (ن و س) وهو المضطرب المسترخي. أما نُواس (بضم النون وتخفيف الواو) فهو ما تعلق وتدلّى من السقف من خيوط سود ونحوها، يقال: نُواس العنكبوت أي نسجه.

وأقول لهم: ما دمتم نقلتم معنى لغوياً فالتفسير نظرياً محتمل الصحة. ولكن إذا وجدت رواية موثقة فإنها أحق أن يؤخذ بها. والذي روي في تفسير اسم الملك الحميري الذي هو «ذو نُواس» أنه سمي بذلك لذؤابة (شعر مقدم الرأس) كانت تنوس أي تتحرك وتتذبذب متدلية. ونص (الصحاح): «الذؤابتين كانتا تنوسان على ظهره. وفي رواية: على عاتقيه».

فهذا التفسير هو الأحق بالاتباع، وهو راجع إلى معنى التدلي وإن لم يكن من السقف!!

لقب الشاوِي

● في بيان اسم «شـاوِي» ولقب «الشـاوي» في صفحـة: ٨٩٣ قـال محرر المعجم: «من (ش و ي) وزن الفاعليّ نسبة إلى «الشاوي» وهو من ينضج اللحم بمباشرة النـار، وشاوي الماء مُسَخِّنه، ومن أصاب الشيء في مقتل، والشاوي تـلال بـالسعـوديـة، أو نسبة إلى «شاوة قرية في محافظة الدقهلية بمصر». وأقول للمحرر: هذا اللقب خليجي، ولا يريدون به أيَّ معنى من المعاني السـابقـة، لا شـاوي اللحم، ولا مسخن الماء، ولا من أصاب الشيء في مقتل.. ولم يكونوا من سكـان «شـاوة» في مصر..! بل الشـاوي عند أهل الخليج: صاحبُ الشاء، وراعي الشاة، والشياه «جمع شاة وهي الواحـدة من الضأن والمعـز والظبـاء» وهـذا المعنى فصيح لـو بحثت عنـه في «القـامـوس المحيط» لوجدته، حيث جاء فيه (٤/ ٢٨٩): «ورجل شاوِيّ وشاهِيّ: صاحب شاء»!

الساس

● وهذا اسم آخر، فسره المحرر بتفسير جانبه الصواب، ولو عرف شيئاً من لهجات الخليج ولهجات البدو لاهتدى إلى المعنى الصحيح.

يقول محرر مادة «السـاس»: «من (س و س) وزن الفَعْل وهـو العُثّ الـذي يقع في الحبوب والطعام والصوف والثيـاب والخشب فيأكلهـا، وكل شيء تـآكل بفعل عـوامل طبيعية أو كيميائية والسوس القـادح في الأسنـان» (ص ٧٦). ألم يكن أكثـر مـلاءمـة للاسم من العُثَّة أن تقـول نقـلاً عن «تـاج العـروس»: «رجل سـاسٌ من قـوم سـاسـةٍ وسُوَّاس»؟ و«السُّوس» هو الطبيعة والأصل والخلق والسجية؟!

ولكن سأختار لك أصلاً آخر من لهجات الخليج ولهجات البدو في مصر، وهـو من مادة «أ س س» فالساس عندهم هو الأصل والسلالة، والساس هو الصخر أو الحجر الذي يجعل أساساً للبيوت، وحذفت همزة (أساس)، واقرأ معي قول الشاعـر الخليجي مادحاً:

شِيخٍ وله تُوريخ سايِن على ساسْ   أصـــل من ســـابق وجوهٍ مسافير

يا عزيزي المحرر: إن المعجم وحـده لا يفسر الأسماء، بل لابـد لك من الـرجـوع إلى المجتمع!!

دُعبس ودِعبيس

● يتصل بما قلته آنفاً من ضرورة الرجوع إلى المجتمع ولهجته عند تفسير الأسماء، ما ذهب إليه المعجم في تفسير اسمي «دُعبس» و«دِعْبيس» في صفحـة: ٥٨٣ فقـد ذهب المحرر إلى تفسير يعاقب عليه القانون حيث قال عن دعبس: «صورة كتابية صوتيـة عن «دُعُبوث»: «من (د ع ب ث) وزن فُعلول، وهو المخنّث، وقيل: الأحمق قليل الثبات» وفي «دِعبيس» قال: لعله تصغير «دُعبس».

وأقول للمحـرر: لماذا لم «تُدَعِبس» في المراجع عن معنى أصح وأرقى من «دُعبـوث» الذي أهمله صاحب الصحاح، و«دُعبوس» الذي أهمله الصحاح واللسان؟!

الآنسة نِيبال

● في تفسير اسم (نيبال) في صفحة: ١٧٩٥ قال محرر المعجم: «اسم دولة تقع بين الهند والصين».

وأقول له: لو كان اسماً لبنت واحدة لقلت إن أمهـا ولـدتها في دولـة (نيبـال) ولكن العينة اشتملت على عشرين اسماً.

لماذا لا تكون نيبال صورة من كلمـة «نِبـال» جمع نَبْل مثل: سِهـام جمع سَهْم، وقـد زيدت الياء مثل (رِيهام) أي رِهام. و«نِيهال» أي نِهال!

تعريف غير علمي

● في تفسير اسم «كَمُّون» و «كَمُّونة» عرف المحرر «الكَمُّون» بأنه: «نبات يستخدم في عمل نوع من الشراب» (صفحة: ١٤٧٢).

وأقول للمحرر: من شروط التعريف العلمي المنطقي أن يكون جامعاً لأفراد الجنس، مانعاً من دخول غيره فيه..

وهذا التعريف الذي قدمته للكَمُّون لم يتحقق فيه الشرط، فما أكثر أنواع النبات التي يصنع منها الشراب. وما هذا الأسلوب الذي صيغ به التعريف: (عمل نوع)! وهل الكمّون نوع واحد؟ لا: فهناك الكمون الحلو وهو الآنسون، وهناك الكمون الأرمني وهو الكرويا، وهناك الحبشي والبري..

لم أطلب منك أن تتوسع وتذكر كل هذا في تفسير الاسم، بل أردت البرهنة على أن تعريفك غير جامع وغير مانع!!

لماذا الأردن

● في تفسير «الشَّلِيل» وأنه الثوب المخيط، وحِجْر الثوب، نسب محرر المعجم (ص: ٩٤٣) هذا المعنى الأخير إلى اللهجة الأردنية، وقال: «يقول الأردني إذا أراد إعطاء شخص شيئاً: افتح شليلك».

وأقول له: كان ينبغي عليك ـ وأنت تكتب في موسوعة ـ أن تسلك سبيل الاستقراء العلمي ولا تقصر الكلمة على لهجة واحدة.

والحقيقة أن (الشَلِيل) بمعنى حجر الثوب موجود في لهجات الخليج العربي، وفي المثل الخليجي: (إذا عَطُوك الشيوخ مَرَق حِطّه في شِلِيلِك» فلماذا لهجة الأردن وحدها؟!

الاستقراء الناقص

من الاتجاه الموسوعي في المعجم أن يبين الأقطار التي تستعمل فيها بعض الأسماء للقبيلة أو العائلة، ولكن تبين لنا أن الاستقراء في هذه الناحية ناقص. وفيما يلي أمثلة من عائلات أو قبائل لم تذكر كل مواطنها:

- الخُليفيّ والخليفات (ص: ٥٣٦) قال المعجم: «من صور استخدامه أخيراً أنه اسم عائلي في السعودية والكويت وتونس ومصر» وقد نسي المؤلفون أن الخليفات من قبائل قطر.
- المسند (ص: ١٦٠٣) لم يذكروا أنه اسم عائلي في قطر.
- آل شافي (ص: ٨٨٦) قال المعجم: «من صور استخدامه أخيراً أنه اسم عائلي في السعودية ومصر» ولم يذكر المؤلفون أنه اسم عائلي في قطر.
- النّعيمي (ص: ١٧٧٣) قال المعجم: «اسم عائلي في السعودية وعُمان والإمارات وقطر» وفاتهم أن يذكروا: البحرين أيضاً.
- السّبيعي (ص: ٧٨٠) قال المعجم: «من صور استخدامه أخيراً أنه اسم عائلي في عُمان والسعودية والكويت» وفاتهم أن يقولوا: وقطر.
- الجفَّالي (ص: ٣٢٤) قال المعجم: «اسم عائلي في السعودية» ولم يذكروا: قطر.
- الغانم (ص: ١٢٥٨) قال المعجم: «اسم عائلي في مصر» ولم يذكروا: الكويت وقطر.
- المنصوري (ص: ١٦٨١) قالوا: «اسم عائلي في مصر». ولم يذكروا: قطر.
- الماجد (ص: ١٥١٤) قال المعجم: «اسم عائلي في السعودية ومصر وتونس» وأضيف إلى ذلك: وقطر.
- المانع (ص: ١٥٢٢) قال المعجم: «اسم عائلي في السعودية والكويت» وأضيف إلى ذلك: وقطر.

ـ المالكي (ص: ١٥٢٢) قال المعجم: «اسم عائلي في مصر وتونس وعُمان» وأقول لهم: نسيتم قطر والبحرين.

ـ الخاطر (ص: ٤٩٥) قال المعجم: «اسم عائلي في مصر» ونسوا أن عائلة الخاطر موجودة في قطر.

ـ الملاّ (ص: ١٦٦٢) قال المعجم: «اسم عائلي في مصر والكويت والسعودية» وأقول لهم. فأين قطر والبحرين والإمارات؟

إلى هنا تنتهي الملاحظات التي لم نجد بداً من إبدائها.. والله ولي التوفيق.

* * *

الشعر العربي في أزمة الخليج *

أ. د. ماهر حسن فهمي
استاذ بقسم اللغة العربية

ـ هل يمكن أن نستبعد من دائرة الفن الخالد كل أشعار المناسبات؟ وهل نعتبر ما يقال في أزمة الخليج هو من شعر المناسبات؟

ـ لماذا يلجأ شعراء الشعر الحر الى الاتجاه العمودي في المناسبات، ولماذا لا يلجأ شعراء الشعر العمودي إلى الشعر الحر؟

ـ هل يمكن للشعر أن يعرض لقضايا الفكر في وطننا العربي وهو ما يزال مغروسا في الأزمة؟ وأي طريق يسلك؟

ـ وهل يمكن أن نساوي بين الأديب المناضل والأديب المشاهد؟ وبعبارة أخرى هل يمكن أن نساوي على سبيل المثال بين المتنبي وأبي تمام في وصف المعارك؟ لقد كان المتنبي يشارك في معارك سيف الدولة بسلاحه ثم يصف المعركة ولم يكن أبوتمام يشترك فيها، وكلاهما شاعر كبير. ولذلك يمكن أن نتساءل: أين الصدق الفني في شعر اليوم؟

يعتبر الشعر الذي قيل في أزمة الخليج حتى الآن، من «شعر المناسبات»، فالأزمة ما زالت على أشدها، وأغلب الذين كتبوا، كتبوا أكثر من قصيدة في أوقات متقاربة مثل سعاد الصباح وغازي القصيبي وعلي بن سعود آل ثاني وسواهم. على أن قضية شعر المناسبات قد تراجعت منذ فترة حين ناقشها د. مندور في كتابه «في الميزان الجديد»، وكان العقاد يصف شعر شوقي بأنه شعر مناسبات ولذلك فهو شعر لا يبقى إلا ببقاء المناسبة، وناقش مندور أبعاد القضية وخرج بأن القضية ليست قضية شعر مناسبات، ولكنها قضية الشاعر الكبير الذي يستطيع أن يخرج من إطار المناسبة الضيق إلى رحابة الموقف الانساني مثلما صنع ميخائيل نعيمة في قصيدته «أخي» التي قالها بمناسبة انتهاء الحرب العالمية الأولى ويقول فيها[(١)]:

(*) كتب هذا البحث في فبراير ١٩٩١.

(١) في الميزان الجديد ص ٥٠.

أخي ان ضج بعد الحرب غربي بأعماله
وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ولا تهزأ بمن دانا
بل اركع صامتا مثلي بقلب خاشع دام
لنبكي حظ موتانا

فلا نحن من المنتصرين ولا من المنهزمين، لسنا في العير ولا في النفير، فليس لنا أن نفرح ولا أن نحزن، وإنما لنا أن نخشع أمام الموت من الطرفين ومنا أيضا، لأن الموت ارتوى من دماء البشر جميعا، ولذلك بدأ بكلمة «أخي»، فالأخوة في الإنسانية هي ما يجمعنا، على الرغم مما بيننا من فروق في اللون، والدين، والقوة، والضعف. وتستمر القصيدة على هذا النحو تتخطى حدود المناسبة إلى الموقف الإنساني العام.

وكذلك كان الشأن في شعر الحرب عند المتنبي، فقد حول القصيدة من وصف المعركة إلى موقف عربي، موقف الفارس الذي يذود عن العرب اللاهين، ولو انحرف عن طريق الروم قليلا لوصلوا إلى كل مكان، بل إن جزءا من الأمة نفسها يكيد لبطلها كما يكيد له الروم:

ما الذي عنده تدور المنايا	كالذي عنده تدار الشمول
وسوى الروم خلف ظهرك روم	فعلى اي جانبيك تميل
لو تحرفت عن طريق الأعادي	ربط السد خيلهم والنخيل

وقضية الشعر الحر والشعر العمودي تعتبر أيضا من القضايا التي أغلقت ملفاتها، فنحن نستحسن الشعر الجيد من كلا اللونين، والمقصود بالشعر الجيد، الشعر الذي يستجيده المتذوق على ضوء امتلاك الشاعر لادواته الفنية، وتعبيره عن الصراع الداخلي من أجل اعادة تكوين الحياة بصورة أسمى، واذا كان النقاد يضيفون قيما أخرى كالبنية العضوية والصورة الشعرية، فإن المتذوق عادة ما يكتفي بالصدق الفني الذي ينتقل من المبدع إلى المتلقي عن طريق ما يسمى أحيانا بنظرية العدوى، فيؤثر في السامع تأثيرا

انفعاليا من غير روية كما يقول عبدالقاهر الجرجاني.

وهذه الفقرة المركزة ربما تحتاج إلى شيء من التفصيل في بعض الجوانب، فالمقصود بالأدوات الفنية هي اللغة ودلالاتها واكتنازها وإيحاءاتها او رمزيتها، وفي المقابل المباشرة والتقرير والنثرية.

فمن الواضح أن قول الشاعر الهذلي (وإذا المنية أنشبت أظفارها، ألفيت كل تميمة لا تنفع) يختلف عن قول أبي العتاهية (مات والله سعيد بن وهب، رحم الله سعيدا بن وهب) فالخيال المتوهج في البيت الأول يختلف عن التعبير التقريري في البيت الثاني وهذا يقودنا إلى قيمة الاستعارة في الشعر، بل قد يقودنا إلى نظرية النظم كلها.

ومن الواضح أن قول الرصافي في الفتاة البائسة:

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها

يختلف عن قول بدر شاكر السياب في «العمياء»[(١)]:

ويح العراق، أكان عدلا فيه أنك تدفعين

سهاد مقلتك الضريرة

ثمنا لملء يديك زيتا من منابعه الغزيرة

كي يبصر المصباح بالنور الذي لا تنظرين

الأول حكاية، والثاني بناء درامي فيه الصراع وإن كان لا يتطور، وفيه السؤال الذي يدفعنا إلى التفكير بعد أن تهدأ انفعالاتنا، وفيه الموسيقى التعبيرية بدلا من الموسيقى التطريبية. وإذا كنا نستجيد مطولة «العمياء» لبدر شاكر السياب، فإنا نستجيد أيضا من الشعر الحر مطولات أخرى مثل «رسالة من أب مصري إلى الرئيس ترومان» لعبدالرحمن الشرقاوي ومطولة «لا تصالح» لأمل دنقل، و«هوامش على دفتر النكسة» لنزار قباني، و«بعد سنة» لغازي القصيبي وهي في النكسة أيضا، وربما كان نزار أكثرهم

---

(١) الديوان، ص ٥٠٩.

مطولات مثل «ملاحظات في زمن الحب والحرب» و«منشورات فدائية على جدران اسرائيل» و«الخطاب» و«قصيدة اعتذار لابي تمام» وسواها .

وليس معنى ذلك أن الشعر الحر كله على هذا النحو، فيكفي أن نقرأ شيئا من «التصريح الأخير للناطق الرسمي باسم نفسه «لحبيب الصايغ» حين يقول في القصيدة الأولى: «هو لا يختفي في الأنا، ونحيط به نحن، نمسك أطراف أسمائه، خلسة، فجأة، صدفة، لفظة، حولنا، حوله نحن والامتدادات تبدأ في الانحناءات، تبدأ فيها ولا تنتهي». حتى ندرك أن خللا ما يصيب القصيدة الحرة، سببه الاستغلاق لا الغموض، كما أن خللا ما يمكن أن يصيب القصيدة العمودية يرجع إلى المباشرة.

ويتصل بموضوعنا مفهوم الاديب المناضل والاديب المشاهد. إن التاريخ يمنحنا هذا المثال، حين كان المتنبي يحارب الروم إلى جوار سيف الدولة بسيفه، ثم يعود ليحاربهم بقلمه فيتناول المعركة، ويصور النصر أو يعتذر عن الهزيمة، ورومياته في مجموعها تعتبر أروع شعر عربي خلد بطولة المعارك مع الدولة الرومانية كما يقول زكي المحاسني في دراسته عن «شعر الحرب في الادب العربي». ولم يكن أبوتمام رجل سيف، ولم يكن يشترك في المعارك الحربية، بل كان شاعرا ورجل قلم. وإذا كان المتنبي قد عاش في القرن الرابع، فقد عاش أبوتمام في القرن الثالث، وكانت معارك العرب والروم مشهورة أيضا، وكلنا نعرف قصيدة أبي تمام التي قالها في فتح «عمورية» حين صاحت امرأة من العرب «وامعتصماه» في مدينة زبطرة في الثغور، فقام المعتصم قائلا: لبيك، وجهز جيشه على وجه السرعة واندفع يقوده حتى كانت المعركة التي تحدث عنها أبوتمام في قصيدته التي تقع في سبعين بيتا ويقول فيها:

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	عنك المنى حفلا معسولة الحلب
غادرت فيها بهيم الليل وهو وضحى	يقله وسطها صبح من اللهب
لبيت صوتا زبطريا هرقت له	كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت	جلودهم قبل نضج التين والعنب

وقد حاولت الموازنة بينها وبين قصيدة المتنبي في موقف مشابه وهو معركة «الحدث»[1] وعلى الرغم من إعجابي الشديد بالمتنبي وعلى الأخص في هذه القصيدة التي أراها حققت الوحدة الضوية المركبة ببداية كالنشيد، ثم المعركة كأنك تراها، ثم تعقيب كترديد الجوقة، كأنها تأثر بتلخيص الفارابي لفن الشعر لأرسطو، والتي يقول المتنبي فيها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم	وتأتي على قدر الكرام المكارم
هل الحدث الحمراء تعرف لونها	وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله	فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا	وموج المنايا حولها متلاطم
أتوك يجرون الحديد كأنما	سروا بجياد ما لهن قوائم
فلله وقت ذوب الغش ناره	فلم يبق إلا صارم أو ضبارم
وقفت وما في الموت شك لواقف	كأنك في جفن الردى وهو نائم

لم أستطع أن أحكم لأحدهما على الآخر، لأن قصيدة أبي تمام بما فيها من صدق فني استطاعت أن تعوض صدق الواقع، والصدق الفني بتعبير مختصر هو صدق الانفعال الذي يحرك الخيال، ويدفعه إلى تركيب الصور، وغالبا ما تقوم صورة بالسيطرة على بقية الصور وصهرها حتى تخرج قادرة على التأثير والبقاء من غربال الزمن في ضوء إمكانات الشاعر وقدراته الفنية، فنرى النضال بالكلمة مساويا للنضال بالسيف.

كان الهم العربي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية هو البحث عن المخلص، فكل الدول العربية ـ مع استثناءات قليلة ـ لا تزال محتلة، سواء أكان هذا المخلص في صورة فرد أو في صورة دولة عربية.

وكان عبدالناصر منذ كسر احتكار السلاح ووقع وثيقة جلاء البريطانيين عن مصر

---

(١) الديوان، ص ٢٩٠.

وأمم قناة السويس وأنشأ السد العالي، وتصدى للعدوان الثلاثي، ودعم الثورة الجزائرية، وأقام الوحدة مع سوريا، هو المخلص في نظر الجموع العربية. لم تلتف الأمة حول شخص كما التفت حوله، كأنما جسم طموحات عربية موءودة، ولذلك عندما مات لم يرثه الشعراء رثاء كبير مات، ولكنه رثاء أمل لمع ثم انطفأ. يقول نزار قباني:

«قتلناك ليس جديدا علينا اغتيال الصحابة والأولياء، فتاريخنا كله محنة، وأيامنا كلها كربلا. نزلت علينا كتابا جميلا، ولكننا لا نجيد القراءة، تركناك في شمس سيناء وحدك، تكلم ربك في الطور وحدك. قتلناك نحن بكلتا يدينا وقلنا المنية. لماذا قبلت المجيء إلينا، فمثلك كان كثيرا علينا. سقيناك سم العروبة حتى شبعت، رميناك في نار عمان حتى احترقت، لماذا ظهرت بأرض النفاق لماذا ظهرت؟ ووراء الجنازة سارت قريش، فهذا هشام وهذا زياد، وهذا يريق الدموع عليك وخنجره تحت ثوب الحداد».

ثم توالت الأحداث بعد حرب ١٩٧٣ فوقعت معاهدة «كامب ديفيد» وأبعدت مصر عن الساحة العربية، وكأنما حدث خلل في توازن القوى، حرب بين العراق وايران في المشرق، وحرب الصحراء في المغرب، وحرب بين ليبيا وتشاد، وحرب في جنوب السودان والحرب الاهلية في لبنان تزداد ضراوة فكل القوى تحارب كل القوى، وخرجت المنظمة من لبنان كما خرجت من قبل من الاردن، خرجت إلى تونس حيث نقلت إليها الجامعة العربية. ولكن اكبر هذه المعارك كانت بين العراق وايران، فالعراق يمثل البوابة الشرقية للوطن العربي، ولذلك عندما طلب العراق السلاح والرجال سارعت مصر برغم القطيعة السياسية إلى مده بما يريد، كما أمدته دول الخليج بالمال ليصمد. وصمد العراق في حرب استمرت ثماني سنوات، عرض الصلح خلالها على إيران أكثر من مرة فأبت لأنه البادىء بالعدوان، حتى إذا يئست ايران من النصر، أعلنت قبولها للصلح. وخرج العراق قويا عسكريا، ضعيفا اقتصاديا، ولكنه كان في نظر الانسان العربي، حين هدد اسرائيل بحرق نصفها، المخلص الجديد.

كان العراق في نظر الكثيرين، مهيأ لدور الريادة فهو يملك البترول ويملك الثروة المائية والأراضي الزراعية، ويملك القوة العسكرية، ولكنه استنزف موارده في حرب السنوات الثماني دون طائل، فلم يكن توازن القوى يسمح بأن ينتصر أحد الطرفين على

الآخر انتصارا حاسما، حتى لا يهدد الخليج الذي يمثل بتروله للغرب عصب الصناعة ودماء الحياة التي ينبغي ان تتدفق إلى شرايين الغرب بأسعار تدور حول المعدل الموجود اليوم، وأمامه نصف قرن حتى يأخذ في النضوب أو يصل العلماء إلى البديل في صورة الطاقة الذرية بأسلوب مأمون. ولكن العراق لم يكد يخرج من مغامرته الأولى قويا عسكريا ضعيفا اقتصاديا، حتى دخل مغامرة أخرى غير محسوبة ظنا منه أنها الحل الأمثل للمشكلة الاقتصادية فاحتل الكويت، وهنا قامت الدنيا ولم تقعد لا لأنه ابتلع دولة في الجامعة العربية وعضوا في الأمم المتحدة وحسب، ولا لأنه ارتكب من الأهوال في الكويت ما فاق كل حد دون مبرر فقط، ولكن لأنه أخل بالتوازن الدولي مرة أخرى وأصبح يسيطر على ربع احتياطي بترول العالم من ناحية، ويهدد أمن الخليج كله من ناحية أخرى.

وإذا كان هم المثقف هو صناعة المواقف في صفوف الرأي العام، فيحسن الوقوف، امام بعض المحاور. عام ١٩٨١ صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية دراسة ميدانية عنوانها «اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة». والخلاصة التي وصلت إليها الدراسة الميدانية بعد تحديد المفاهيم الإحصائية، وموضواع العينات والرأي العام والبعد الطبقي في الدراسة، ثم رؤساء الفرق القطرية الميدانية وكلهم أساتذة في الجامعات، ثم تحديد فريق تحليل المضمون باشراف سيد يس مدير مركز الدراسات السياسية بالأهرام، وتصوير المصاعب الهائلة التي اعترت صدور الدراسة المليئة بالإحصائيات والرسوم البيانية، عام واحد وثمانين وتسعمائة وألف.

«يظل أمل الوحدة العربية قويا عارما بين الأغلبية العظمى، ولكن هذا المطلب يتصف في الوقت الحاضر بكثير من الواقعية والعقلانية. وقد عبرت أغلبية الرأي العام العربي عن تفضيلها لتوحيد سياسي فيدرالي، يحتفظ فيه كل قطر باستقلاله الداخلي، وتصريف شؤونه المحلية، مع وجود حكومة مركزية تضطلع بمهام الدفاع والسياسة الخارجية والتنسيق بين الاقطار في مجالات التنمية الاجتماعية والاقتصادية. وقد أظهرت الأغلبية الساحقة تفضيلها لاتمام الوحدة بالطرق السلمية الديمقراطية، سواء أكانت وحدة جزئية بين قطرين أو أكثر أم وحدة شاملة، وكان رفضها لاستخدام العنف

العسكري لتحقيق الوحدة رفضا جازما. والرأي العام العربي يدرك الوحدة الآن ليس فقط كسبيل للقوة والمنعة ضد محاولات الهيمن، وإنما ايضا كوسيلة لخدمة كل قطر ولخدمة الفرد، ولخدمة أبنائه في المستقبل [1]».

مرة ثانية يعود مركز دراسات الوحدة العربية لدراسة النظام الاجتماعي العربي الجديد (دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية) وهو جزء من مشروع حول الدول العربية الفقيرة والغنية عام ١٩٨٢ يتولى تنسيقه السيد يس مدير مركز الدراسات السياسية في مؤسسة الأهرام مع جامعة كاليفورنيا بلوس انجلوس. ويحتوي هذا المجلد على ما يقرب من إربعين جدولا إحصائيا ويركز بدرجة أكبر على كل من مصر والسعودية. وجوهر التفاضل والتكامل الجديد، بين مصدري اليد العاملة وبين مستورديها قد ينطوي على أكثر من وجه للتشوه في تطور الهياكل الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي. ومع هذا كله فإن هذا الاعتماد العربي المتبادل الجديد هو نسيج صنعته أيادي الملايين من العاملين، وملايين أخرى من الذين يعولونهم على جانبي خط الثروة في الوطن العربي. إنه ارتباط متبادل عجلت بمولده حرب تشرين ١٩٧٣. إن الاغنياء من حيث الثروة على صعيد الوطن العربي الكبير هم فقراء في كل شيء آخر تقريبا. في القوى العاملة والتطور الاجتماعي وتنويع القاعدة الاقتصادية والقدرات العسكرية، ومن ناحية اخرى هناك بعض البلدان المتوسطة بل والفقيرة (مصر مثلا) تملك برغم تواضع ثروتها، وبرغ قسوة مشاكلها الاقتصادية، مزيدا من امكانات قوة العمل، والتكوينات الاجتماعية والاقتصادية، وسبل التنويع، الاقتصادي والقدرات العسكرية. هذه التشوهات ينبثق عنها نظام عربي بمصادر التوتر السافر والمحتمل. لقد تغاضت قطاعات رئيسية من المجتمع العربي عن حقها في المشاركة السياسية ومطالبتها بها رغم كون هذه المشاركة عنصرا مهما من عناصر التنمية. لقد كان التغاضي المؤقت نتيجة الاعتقاد بأن بعضا من النظم الحاكمة كان مشغولا في مهام رئيسية كبرى في بناء الدولة الحديثة، والسعي نحو تحقيق الوحدة العربية وتأكيد الاستقلال الاقتصادي والسياسي والأخذ بأسباب التصنيع وإرساء قواعد العدالة الاجتماعية وبناء الجيوش. والخلاصة أن

---

(١) اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة، ص ٣٣٨/ ٣٣٩.

النظام الاجتماعي الجديد الذي كان النفط هو المحرك الأول له نتجت عنه توترات جديدة، وكشف مدى عجز النخب الحاكمة في الوطن العربي عن معالجة التوترات القديمة والجديدة، وزاد الأمر سوءا أن هذه النخب قد دخلت في غمار صراع داخلي فيما بينها، فأبواق الدعاية التي يتحكم فيها كل بلد، لا تكف عن تعرية البلد الآخر والتشهير بالنخبة الحاكمة فيه. وفي ضوء هذا انتشرت في صفوف القواعد الجماهيرية العربية مشاعر الشك واللامبالاة والمرارة والسخط.

إن المفارقة في هذا كله تتمثل في أن النمو الاقتصادي للوطن العربي قد أدى الى نمو الطبقة الوسطى، والطبقة العمالية، لكن هذا لم يصحبه قدر من العدالة الاجتماعية والديمقراطية السياسية، ومن هنا فإن هذه الطبقات المتنامية، قد يتضاعف استعدادها لتقويض أركان النظام الاجتماعي العربي الراهن من الأساس [(1)].

ثم عاد مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام عام ١٩٨٧ لعقد مؤتمر عن «النظام الاقليمي العربي» حضره ستون مثقفا عربيا من مختلف الأقطار، وأكد نفس النتائج السابقة عن فقدان الاستراتيجية العربية الشاملة للتنمية وتجاهل العدالة الاجتماعية والتحدي الديمقراطي والوصول الى لغة مشتركة بين الأنظمة العربية بعد أن استولت الثروة على زمام المبادرة في صياغة النظام الجديد للمنطقة.

وهكذا دق المثقفون العرب من الخبراء وأساتذة الجامعات والمفكرين ناقوس الخطر قبل وقوعه بسنوات.

في ضوء هذه الاعتبارات ننظر الى شعرنا العربي الذي قيل في «أزمة الخليج» ويمكن أن نقسمه الى عدة أقسام:

أ ـ البكاء والهجاء وهي قصائد انفعالية خالصة.

ب ـ الإدانة وفيها حكم بطبيعة الحال بمعنى أن العقل يتدخل بصورة من الصور.

ج ـ الصمود وهي قصائد المواقف التي تقبل التحدي.

د ـ التحليل وهذا آخر الأقسام ظهورا لانه يخرج عن أدب المناسبات أصلا الى لون من

---

(١) النظام الاجتماعي العربي الجديد، ص ٢٥٢ ـ ٢٧٤.

التأمل الذي يوصل إلى التحليل من ناحية، والعرض الدرامي من ناحية أخرى ليشكل التجربة الناضجة.

والبكاء قليل كأنما جفت عيوننا من كثرة ما بكينا، وكما يقول نزار قباني «فأيامنا كلها محنة، وتاريخنا كله كربلاء» ولعله الإحساس بأن الموقف ليس موقف بكاء، أو كما يقول أحد الشعراء العرب: «بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي». ففي ٢٧ أغسطس نشر غازي القصيبي قصيدته «بغداد» والكارثة في بدايتها:

سترت وجهي يا بغداد من خجلي   وصحت قل يا فمي شعرا فلم يقل
أين القصائد غراء مجنحة   عن الصبا والظبى واليأس والأمل
فأعول الشعر يا بغداد في قلمي   وأنشد الدمع يا بغداد في مقلي

ويشاركه الدكتور حجر أحمد حجر إحساسه بالفيجعة فيقول في قصيدة نشرتها جريدة الراية بعنوان «الكويت»:

اسم الكويت يثير اليوم أشجاني   تلك الكويت بلادي موطني الثاني
أبكي عليها وهذا الخطب مزقها   ولست أنكر أن الخطب أبكاني
هل وحدة العرب «بالرشاش» تصنعها   ويقتل العرب باسم الوحدة الجاني

وفي ٧/ ١٠/ ١٩٩٠ نشر فاروق جويدة قصيدة في «الأهرام» بعنوان (مرثية ما قبل الغروب) وما دامت مرثية فمن المتوقع أن نجد بكاء:

في أي شيء أمام الله قد عدلوا   تاريخنا القتل والإرهاب والدجل
نبكي على أمة ماتت عزائمها   وفوق أشلائها تساقط الهمم
هل ينفع الدمع بعد اليوم في وطن   من حرقة الدمع ما عادت له مقل؟

وفي الوقت نفسه نشرت الصحف مجموعة أخرى من القصائد لغازي القصيبي وغيره مليئة بالهجاء، الذي يبين أن الموقف ما زال موقفا انفعاليا، لأن رد الفعل المباشر إما أن

يكون بكاء أو سبابا ماد منا لا نقوى على الردع. يقول عبدالرحمن عبدالله الواصل من قصيدة نشرتها جريدة الشرق في ٢٢ اكتوبر ١٩٩٠، وهي قصيدة تصور حلما تحول إلى كابوس ولذلك يلعن الشاعر الشيطان الذي تسبب في هذا الكابوس وأضاع الحلم، وهي حوار بين الشاعر وابنته الصغيرة ولكن نهايتها هجاء انفعالي:

أملت فيك وأمل العرب ... وحلمت حيث سما بي الأدب

فرسمت منك لطفلتي بطلا ... شهما يكاد إلى العلا يثب

أو لست من بالقادسية قد ... حققت نصرا دونه الريب

فحدودنا الشرقية امتنعت ... عن فارس وأصابها الوصب

قالت تؤنبني وما علمت ... أني مصاب مثلها كرب

أبتاه ما قد قلت لي سلفا ... اليوم أعلم أنه كذب

شاهدت بالرائي الكويت غدت ... طللا به الأشباح واللهب

فمساكن منهوبة علنا ... وحرائر تسبى وتغتصب...

فاسمع عويل نسائها ولكم ... هتفت بنصرك أيها الكلب

يا خائنا عد خاسئا فغدا ... ستري بخزي الدهر تنسحب

أما غازي القصيبي ففجيعته بلا حدود، ولذلك يكتب ثلاث قصائد[1]، الأولى يحاول فيها أن ينكر ما رأت عينه وما سمعت أذنه ولكن الحقيقة تدهمه، فتبدأ القصيدة هامسة، ثم يشتد وقعها ونبرتها (قولي له بغداد):

قولي له: «ما زلت عاصمة السنا ... يأوي إلى جفني وحاضرة السنى»

قولي له: «إن أنت خنت فلم أخن ... أو كنت أنت غدرت لم أغدر أنا»..

أرأيت يا بغداد لصك مجرما ... متكبرا متجبرا متفرعنا

هو دمل التاريخ لم يعبر على ... يوم به إلا ذوى وتعفنا

صبي على الوثن الذليل من اللظى ... ما يمسح الوثن الذليل من الدنا

---

(١) أحاسيس اللظى جدة - ١٩٩٠

والثانية (ونحن فهد) يتوازن فيها التحدي والهجاء:

أجل نحن الحجاز ونحن نجد ... هنا مجد لنا وهناك مجد
ونحن عسير مطلبها عسير ... ودون جبالها برق ورعد
ونحن الشاطىء الشرقي بحر ... وأصداف وأسياف وحشد
قذى تكريت يلعنك اليتامى ... فيرجف بالصدى لحد ولحد
وتزعم أنك القرشي جدا ... خسئت فما لهذا العار جد

أما الثالثة (شرف الشبيبة) فهي مهداة من شاعر كهل إلى آلاف المتطوعين للدفاع عن الكويت.

حي الشباب كتائبا وطلائعا ... يتدفقون بنادقا ومدافعا
عذري وفي الخمسين عذر للفتى ... أني وراءكم أسوق زوابعا
وأصك سفاح العراق بكلمة ... لم تتخذ خوفا الحمام براقعا
بصقت عليه وزلزلته ومزقت ... عن وجهه ذاك القناع الخادعا

وتتوالى ألفاظ الهجاء عند عبدالرحمن المعاودة وعلي بن سعود آل ثاني ومحمد ابن خليفة العطية ويحيى محمود وسواهم، معجمنا العربي مليء بهذه الألفاظ، فالنظام العراقي ملتقط من المستنقع ومن أهل النذالة ومن أراذل أمتنا وهو سفيه رديء الأصل جاهل خسيس، وكلب الشر إلى آخر هذا المعجم. ومن الطبيعي أن نستمع إلى هذا اللون من الطرف الآخر، فهو اكثر الألوان وضوحاً.

ثم نرى القسم الثاني، وهو الإدانة، ولغازي القصيبي قصيدتان وثالثة لتوفيق الفيل. والملاحظ أن كل شعر غازي القصيبي في هذه المحنة التزم عمود الشعر وابتعد عن الشعر الحر، ومن الواضح أن الإدانة تعقب البكاء والسباب، لكنها هي الاخرى مرحلة قريبة من الحدث، هي رد فعل للحدث، لكنها رد فعل هادىء، ولذلك غلب عليها التساؤل، وخطاب الجماهير أصلح له هذا اللون الذي تعودنا أن نسمعه في

المحافل لكثافة أنغامه من ناحيـة، وغلبـة النبرة الخطـابيـة من نـاحيـة أخـرى، يقـول القصيبي في (مرثية فارس سابق):

عجبـا كيـف اتخذنـاك صـديقـا؟ وحسبنـاك أخـا بـرا شقيقـا
واقتسمنـا كسرة الخبـز معـا وكتبنـا بـالـدمـا عهـدا وثيقـا
جيشنـا كنت أجب يـا جيشنـا كيف ضيعت إلى القـدس طـريقـا؟

والقصيدة الثانية عنوانها (يا أبا فيصل) وهي من نفس النغم الموسيقي (الرمل):

يـا أخـا المليـون جنـدي أمـا يستحـي المليـون مـن ذبـح متين؟
يـا أخـا المليـون جنـدي أمـا عـدت من طهـران عـود الصـاغـرين؟
فيـم هـذي الحرب يـا مشعلهـا ولم الأهـوال مـن عشر سنين
يـا أخـا المليـون جنـدي ألا قـدتهم للمسجـد الأقصـى الحزيـن
أو لم يـأتـك مـن أخبـاره أنـه في قبضـة القيـد رهين؟

وهكذا صنع توفيق الفيل في تساؤلاته الحائرة، وان كـان لقصيـدتـه نغمهـا الخاص (البسيط):

أيـان يـا ليـل عـن وادي تـرتحل زلت بك الـرجل أم تـاهت بك السبل
يـا أيها الليل هـل تـاهـت مـرابعنـا وهل يمثل فينـا (الـذئب والحمـل)؟
قـالـوا عـرفنـا طـريق القـدس نسلكـه فهل مع الفجـر ضلـوا؟ ليتهم سألـوا
سلـوا المسـاجـد هل هـدوا مـآذنها وروعـوا جمعهـا يـا بئس مـا فعلـوا
يـا أيها الـوثـن البـاغـي بقـوتـه هـل مـا تـزال شعـوب ربها هبـل
ألا تـزال بسـوس بين أظهـركـم في عـرض بـاديـة تـرغـو بها الإبـل
هذي هي القدس قـد ديست كـرامتهـا فنفـذ العهـد أو فليبطـل الـدجـل

وهناك مجموعة أخرى من قصائد الإدانة اتخذت الشعر الحر شكلا لها، ولكن الواقع أنها برغم تفاوت تواريخها من أغسطس إلى نوفمبر، يبدو فيها التأمل ومحاولة التحليل للموقف ورؤية الشاعر.

كتب حامد طاهر وأحمد سويلم وصلاح أحمد ابراهيم وممدوح عزوز وكمال عرفات وسواهم وكل قصيدة لها مذاقها الخاص، فقصيدة حامد طاهر (الأحضان العربية) تسخر من كل الأحضان العربية التي يلقى بها بعضنا بعضا، بينما يخفي ما في الصدر، ولذلك كان «الجراد العربي» الزاحف، صورة للحقد الذي في الصدور أكثر فما هي صورة للغدر المفاجىء. ولكن بعض الشعراء الآخرين مثل «ممدوح عزوز» يتناولون القضية برؤية مختلفة، فرأس النظام في بغداد «تترى يتخفى بزي العروبة» ولذلك ذبح العروبة ليصنع لنفسه أمجادا شخصية:

أمس كان العراق حبيبي،
كنت فداء لعينيه، كان العراق
كنت أعشقه أملا عربيا،
وكنا نذوب معا في عناق
شرعة الله تجمعنا أخوين،
دما يتوحد، لا يستباح، دما لا يراق
آه ماذا جرى لدعاة العروبة،
ماذا جرى كي يخون الرفاق؟
كنت أحسبهم ذات يوم حماتي،
إذا هم غزاتي.
لو دفعت جنودك صوب فلسطين
حررت شبرا من القدس

كنا جميعا ذهبنا وراءك

واصطفيناك سيد كل السلاطين ،

كنا حملناك فوق الجبين ،

وفوق النجوم رفعنا لواءك ،

كنت في فرحة النصر أعطيتك الروح زادا لعينيك

يا فارس العصر ، قبلت كفيك ، «شلت حذاءك» .

لم تغدر بي وأنا في حماك؟

أيها المدعي أنك العربي الذي لا يخون ، تخون أخاك؟

هاك خنجرك الآن يقطر مني دما مسلما ، فتبت يداك .

سوف تسأل عنه ، وتسأل عني ، وعن أمة سقتها للهلاك

لم أعماك حقدك فاجتحت في لحظة من جنون ،

بلدا كان يعطيك ضوء العيون

لم أطلقت قطعانك الغازية

تحت جنح الظلام

دفعت ذئابك للهاوية

أيها الطاغية

كيف تجهل ما يعرف الطفل في البادية

حرمة الجار ، والذود عنه إذا ما استجار

أي إثم جنيت؟ أيها الفزع الجاثم الآن في كل بيت

لم قدت الوحوش الصناديد نحو الكويت؟

تستبيح النساء ، تروع أطفاله الآمنين

تشرد شعبا صغيرا ، يراك نصيرا

وبين حناياه كنت الرجاء،

غدوت حريقا على الشرفاء.

فواحسرتاه على الرافدين

جاوز الحد نيرون، يختال في كربلاء

يعد الصواريخ والكيمياء

ليصعد فوق ضحاياه يستقبل الشعراء،

ويلهو سعيدا برأس الحسين

أيها التترى الذي يتخفى بزي العروبة

أغرقتنا بالوعود الكذوبة

إنا كفرنا بكل مزاعمك الهتلرية

فارحل الى زمن البربرية

واترك لنا زمنا للوئام، لفجر جديد.

إيه بغداد يا واحة للسلام

سألتك بالله أين الرشيد؟

لقد بدأ الأمل والفجر ليس فقط فجر الكويت، ولكنه فجر جديد ربما للأمة العربية كلها. وهناك قصيدة عنوانها «صمود شعب» بالفاكس إلى صدام، شعر أحمد السقاف:

معذرة يا حضرة الرئيس

يا من يسوق جيشه إلى الكويت

والقدس يعلو كربها في كل بيت

إن خانني الكلام

ففكري المفجوع في ذهول

من أين لي التعبير يا رئيس هل تبقى ما يصح أن يقال . . .

انظر إلى جزيرة العرب

وأنشر خريطة الخليج

تجد كويتنا ليست من العراق

وليس بينها وبينكم شقاق

كانت لكمْ في الحرب أقوى من سند

وما لها نعم المدد

فما الذي غيركم

وما الذي سيركم

لتسحقوا معاني الإخاء

وتنسفوا ما قد صنعنا من بناء

فجيعة والله يا رئيس

صبرا ـ رجاء ـ أيها المشردون

في مصر أو لندن أو جنيف

وفي بلاد المغرب ،

وتحت كل كوكب

يا أيها المبعثرون في الخليج

صبرا فإن الفجر يقترب

وكل شيء راجع كما نحب

لن يهزم الغزو عزائم الرجال

ولن يضيع في شفاهنا السؤال

أتسلب الأوطان باجتياح؟ ويعبد المخلوق بالسلاح؟
هيهات نرضى أن نبارك الخضوع، فالله وحده له الخشوع.

وهكذا صنع مبارك بن سيف في قصيدته «سارة» شهيدة الكويت، وعندما يقول: «الفجر آت يا كويت الفجر آت» أشعر أنه يحدو القافلة حتى لا تهن عزائمها. وسعاد الصباح لها أكثر من قصيدة «سيرحل المغول» و«سوف نبقى واقفين». ولكن سعاد الصباح هنا غير سعاد الصباح التي عرفناها في ديوانها الأخير وفي المهرجانات الادبية.

سعاد الصباح التي عرفناها شاعرة الحب، وهي هنا تحاول أن تكون شاعرة المقاومة، لكنها تبدأ حماسية ثم ترق، مثلما حدث في قصيدتها «سيرحل المغول» (٢٠ سبتمبر ١٩٩٠):

(سيرحل المغول، ويرجع البحر إلى مكانه، ويرجع الشعب الكويتي إلى عنوانه، وترجع الشطآن والأمواج والحقول، وتشرق الشمس بكل بيت، وترجع الكويت للكويت) ثم ترق فتقول: (سوف نظل دائما وراءهم نقذفهم بالنار والبروق والزوابع، سوف نظل دائما وراءهم، نضربهم بالغضب الكبير بالقضبان بالأمواس بالفؤوس بالكؤوس، بالكعوب بالبراقع) وهكذا الشأن في قصيدتها «سوف نبقى واقفين» لندن ١٠/٨/ ١٩٩٠ (سوف نبقى واقفين، مثل كل الشجر العالي سنبقى واقفين، سوف نبقى غاضبين، أبدا لن تسرقوا منا النهارا، أيها الآتون في الفجر على دبابة، من رأى دبابة تجري حوارا؟) لكنها مرة ثانية ترق، فتقول: (يا الذي أهديته الماء وأهداني الصحارى، يا الذي أحرق أسراب العصافير وما قدم للريش اعتذارا) ورأيتها تلقى قصيدتها هذه وتتوقف عند الذي لم يقدم للريش اعتذارا، والبعض يصفق، فعجبت، ولم أتهم ذوقي ولا اتهمت ذوق الناس.

إنها تختلف عن مطولتها إلى «جمال عبدالناصر» ومطولتها إلى «وردة البحر» تقصد الكويت فهما من القصائد التي بقيت وتبقى تتردد لأن قضية الإنسان العربي تعيش فيها.

ففي قصيدة «وردة البحر» تقول: (كويت كويت، أحبك رغم حراب المغول ورغم

جيوش التتر، احبك حين تكون السماء مطرزة بالرعود، ومثقوبة بالشرر، فكيف تصيرين أجمل عند اشتداد الخطر؟ كويت كويت، لقد قرر العالم العربي اغتيال الكلام، وقرر أيضا، إبادة كل الطيور الجميلة، كل الحمام، ونحن طيور مشردة لا تريد سوى حقها بالكلام. ونحن طيور مثقفة لا تطيق غسيل الدماغ وكسر العظام. ونحن حروف مقاتلة سوف تهزم بالشعر كل عصور الظلام، ويسعدني أن تظل بلادي ملاذ العصافير من كل جنس، وبيت المغنين والشعراء، ويسعدني أن يكون تراب بلادي مزار البنفسج والشهداء، وسقفا لمن تركتهم حروب العروبة دون غطاء).

وفي قصيدة «إلى جمال عبدالناصر» تقول: «يا ناصر العظيم أين أنت أين أنت، بعدك لا شعر ولا نثر ولا فكر ولا كتاب، بعدك نام السيف في قرابه واستنسر الذباب. يا ناصر العظيم هل تقرأ في منفاك أخبار الوطن؟ فبعضه مغتصب وبعضه مؤجر وبعضه مقطع وبعضه مرقع وبعضه مطبع وبعضه منغلق وبعضه منفتح وبعضه مسالم وبعضه مستسلم، وبعضه ليس له سقف ولا أبواب، يا ناصر العظيم لا تسأل عن الأعراب، فإنهم قد اتقنوا صناعة السباب، وواصلوا الحوار بالظفر وبالأنياب، وحاصروا شعوبهم بالنار والحراب»[١].

هاتان المطولتان نشرتا عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف والذي يقرأهما اليوم يشعر أنهما كتبتا الآن لما فيهما من صدق وتحليل للصورة العربية التي لا تتبدل ملامحها و إن تبدل الإطار.

إن كان الشعر الذي قيل في العدوان الثلاثي على سبيل المثال قد سقط من غربال الزمن، لأنه لم يوجد شاعر كبير يتناول هذه الملحمة البطولية، في حين وجد الشاعر الذي سجل «نكسة حزيران» مثل غازي القصيبي ووجد الشاعر الذي سجل نصر اكتوبر كنزار قباني في «ملاحظات في زمن الحب والحرب» ووجد الشاعر الذي رفض كامب ديفيد مثل «أمل دنقل» في قصيدته المشهورة «لا تصالح». وظل نزار قباني منذ مطولته «هوامش على دفتر النكسة» يصور في كل مطولة جديدة الإنسان العربي المنخوب، فنحن نبني العمائر ونهدم الإنسان، رؤوسنا جوفاء فنحن لا نقرأ، أو لا نقرأ

---

(١) راجع القصيدتين في ديوانها «قنافيت امرأة».

إلا ما يسمح لنا به الرقيب ولا نتكلم إلا بما يملى علينا ولا نتحرك إلا في دائرة مرسومة (لو أحد يمنحني الأمان، لو كنت أستطيع أن أقابل السلطان، قلت له يا سيدي السلطان، كلابك المفترسات مزقت ردائي، ومخبروك دائما ورائي، كالقدر المحتوم كالقضاء) وفي مطولته «الممثلون والاستجواب» ما يزال يركز على حرية الفكر وحرية التعبير والرأي الآخر، ثم يشتد تمزقه ويعري أخطاءنا علنا نستر عرينا (حرب حزيران انتهت، جرائد الصباح ما تغيرت، والصور العارية النكراء ما تغيرت، والناس يلهثون ضاع كل شيء، لكننا باقون في محطة الإذاعة، خالد يسأل عن أعمامه وأين يقطنون، عنواننا: المخيم التسعون) ثم يكتب مطولته «شعراء الأرض المحتلة» وتراتيله في «القدس» التي أصبحت مدينة الاحزان (صليت حتى ذابت الشموع، ركعت حتى ملني الركوع، سألت عن محمد فيك وعن يسوع، يا قدس يا مدينة تفوح أنبياء، يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء، يا قدس يا مدينة الشرائع، يا طفلة جميلة محروقة الأصابع، حزينة عيناك يا مدينة البتول، يا واحة ظليلة مر بها الرسول، غدا غدا سيزهو الليمون، وتضحك العيون).

ثم تصدر له «منشورات فدائية على جدران اسرائيل» و«إفادة في محكمة الشعر» «فقراءة أخيرة على أضرحة المجاذيب» (أنظر كالمشدوه في خريطة العروبة، في كل شبر أعلنت خلافه وحاكم بأمره وخيمة منصوبة، أمشي غريب الوجه في غرناطة، أحتضن الأطفال والأشجار والمآذن المقلوبة، تناثري كالورق اليابس يا قبائل العروبة، اقتتلي واختصمي يا طبعة ثانية من سيرة الأندلس المغلوبة).

إن وظيفة الفن - كما يقول - هي تسليط الضوء على المشكلة وفتح الستارة عن المأساة وحسب، وإذا صح ذلك وهو لا شك صحيح فما هي المشكلة؟

يقول الشاعر العراقي الراحل احمد الصافي النجفي الذي توفي منذ سنوات قليلة:

والنفط يجري في العراق وما لنا ... ليلا سوى ضوء النجوم سراج

لا تحسب الحجاج مات ولم يعد ... فلكل عصر عندنا حجاج

وتتسع القضية عند نزار فلا يعود الاستبداد مقصورا على بلد وإنما هو سمة الحياة السياسية في الوطن العربي، لذلك يقول من مطولة عنوانها «هولاكو» عام ١٩٨٧:

(كلما فكرت أن أعتزل السلطة ينهاني ضميري، من ترى يحكم بعدي هؤلاء الطيبين؟ من سيشفي بعدي الأعرج والأبرص والأعمى، ومن يحيي عظام الميتين؟ فأنا المخزون في ذاكرة التاريخ والناي وزرق الأغنيات. إرفعوا فوق الميادين تصاويري وغطوني بغيم الكلمات. يا جماهير بلادي: يا جماهير الشعوب العربية، صوروني بوقاري وجلالي وعصاي العسكرية. منذ أن جئت إلى السلطة طفلا ورجال السيرك يلتفون حولي، واحد ينفخ نايا واحد يضرب طبلا، واحد يمسح جوخا واحد يمسح نعلا، إنهم قد علموني أن أرى نفسي كبيرا وأرى الشعب من الشرفة رملا، فاعذروني إن تحولت لهولاكو جديد).

ولذلك «قمرئية ما قبل الغروب» لفاروق جويدة التي نشرها بالأهرام في ٧ أكتوبر ١٩٩٠ ليست جديدة حين يردد:

وأمة في ضلال القهر قد ركعت   محنية الرأس للسياف تمتثل
يا وصمة العار هزي جزع نخلتنا   يساقط القهر والإرهاب والدجل

على أن الدكتور أحمد بن محمد الأهدل في قصيدته «كيف استباح لهم صدام غزوهم» يرى الموقف من زاوية أخرى:

يا أمة العرب إن القلب ينفطر   كيف التمزق في الأرجاء ينتشر
هلا رجعنا لشرع الله ينقذنا   وتستنير به الدنيا وتزدهر

بينما يرى مانع سعيد العتيبة رأيا ثالثا في قصيدته «ضاع الأمل» بتاريخ ٢٧/٩/١٩٩٠:

بدأوا معركة الكل على الكل إذا زمر هذا طبلا

عزفوا الفتنة لحنا بينهم   والذي كان حراما حللا
طعنوا قوميتي في عرضها   وتباكوا بـرياء دجلا
أكلوا لحم أخيهم ميتا   جعلوا من دمه كأس الطلا
فتن نشعلها من جهلنا   وهي لولا الجهل لن تشتعلا

ومن الواضح أن القصيدة الدرامية لم تكتب بعد، ولكن من الواضح أيضا أن هناك ثلاث دوائر قد تداخلت في هذا الطرح الأخير: الاستبداد السياسي وعدم وجود الرأي الآخر، البعد عن تعاليم الإسلام، الجهل. وهذه مجتمعة أو متفرقة كانت وما تزال سبب كوارث الوطن العربي وأمتنا الإسلامية منذ قرن من الزمان، وما زلنا نناقشها كأن الزمن لم يمر، وكأنه قد توقف عند هذه المنطقة من العالم. ومن الحق أننا قد تخلصنا من الاستعمار الأجنبي بعد الحرب العالمية الثانية، وأن البترول قد ظهر ثم أصبح سلعة استراتيجية، ولكن مشاكلنا الأساسية بقيت كما هي.

كانت الأحداث السياسية تجري مسرعة منذ أواخر القرن الماضي، وكان الوعي السياسي قد ظهر محاولا أن يساير تلك الاحداث في العالم الإسلامي. ولم يكن جمال الدين أو محمد عبده أو الكواكبي وحدهم من المثقفين الذين يدرسون أوضاع أمتنا، وإن كانوا أعلاما على الطريق.

ففي كتاب «أم القرى» للكواكبي مؤتمر في مكة يجمع ممثلين من مختلف الأقطار الإسلامية، يرسمون سبل الإصلاح، ويهزون هذا العالم لتسري فيه رعشة الحياة، كان ذلك عام ١٨٩٩، وقد رد الكتاب علل الأمة الإسلامية إلى البعد عن تعاليم الدين، وانحراف علماء الإسلام أولا كان السبيل إلى انحراف التعاليم وفي ذلك يقول: «فهؤلاء قد نالوا بسحرهم نفوذا عظيما أفسدوا به كثيرا في الدين، وجعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقا لهم»(١). ونفس هذه الصيحة كان يرددها محمد عبده في جريدة العروة الوثقى: «فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه يكون برأسه»(٢).

وبدأ الرأي العام يشارك بفكره، ورواية «السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين» لمحمد كاظم تتناول القضية من خلال أفراد المجتمع العاديين، في روايته التفكك الموجود بين المسلمين، وانتشار البدع والبعد عن تعاليم الدين، فنحن ننشغل بشكليات ألف سنة ولا نمل، والمسلمون في كل مكان يرون جنود الانجليز تضرب

(١) أم القرى، ص ٣١.
(٢) تاريخ الشيخ محمد عبده ص ٢٤٥/ ٢٤٧.

الأراضي المصرية تقتل وتفتك ولا ترى نجدة في نفوسهم.

وكان السؤال هل الإصلاح الديني أولا أم الإصلاح السياسي؟ ويتذاكر الناس الخطاب الذي رفعه مصطفى فاضل إلى الخليفة مصورا فيه حالة المسلمين المؤسفة التي قد تكون باعثا على الثورة واتهامات الأوروبيين للإسلام بأنه سبب الضعف، ومطالبا فيه بالحرية وبالدستور، وهو خطاب جريء جرأة تصور حقيقة الوعي السياسي عند طبقة المثقفين: «لكن اسمح يا ذا الجلالة لخادم أخلص لك الولاء أن أقول: لم يبق في قوس صبر المسلمين منزع، فقد بلغ بهم الضر نهايته، وأكلت أجسامهم الآلام، وأمسوا لا قدرة لهم على كتمان ما فاض عن نفوسهم من الضجر والرزايا، ومن الخطر على أسرتك وعلى أمتك أن تترك اليأس يتولى الرعايا... إني أعيذ مولاي أن يظن الإكثار من المدارس كافيا لنشر التعليم، فماذا تنفع، المنازل ولا سكان فيها، وما الذي يرجى من مدارس أولادها أبناء ذل خاملون؟... خذ بيد الأمة فجدد شبابها، وامدد إليها يد الدستور تنتشلها من الفوضى. هب الأمة دستورا صحيح الجسم رحيب الصدر خصيب التربة، وحفه بالأمان، وخطه بما يضمن الإخلاص في إنفاذه، والأمانة في الجري عليه، وبما يصونه من العبث به مدى الأيام... أرى المنافقين أو الجاهلين من ذوي الرأي فينا يسارعون إلى الاستفادة حتى من كلمة الدستور. يقولون لجلالتكم: الدستور يصير الملك آلة لا روح فيها، يسلبه اختياره وينزع عنه شعاره، وللأمة: الدستور يريد المسلمين على ترك ما عز لديهم: دينهم ولباسهم وما ألفوا. أولئك قوم ماكرون، أو هم قوم جاهلون. مولاي: انبذ مشورتهم، أمتي: خل عنك سعايتهم، ما قيد الدستور غير الهوى، وما نزع من الملك إلا حرية الخطأ في سياسة الرعية، وإلا اختيار الشر في حكمها. إنه يكفل الدين ويصون الملك، ويحفظ الأموال على أهلها، وينزل السكينة في قلوب الأمة، ويصير المرء حرا كريما».

وكان كتاب «طبائع الاستبداد» للكواكبي الذي صدر عام ١٩٩٠ أجرأ ما كتب في الدعوة إلى الحرية ومحاربة الاستبداد وبيان أثره السيء في شتى نواحي المجتمع، علمية وخلقية ودينية واقتصادية وعمرانية «فالاستبداد مفسد للدين في أهم قسميه أي الأخلاق، وأما العبادات منه، فلا يمسها لأنها تلائمه في الأكثر، ولهذا تبقى الأديان في

الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة. . . والاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والخداع والنفاق والتذلل وإماتة النفس ويتيح من ذلك أن يربي الناس على هذه الخصال، يربون أنعاما للمستبدين، فهم محرومون من كل الملذات الحقيقية كلذة العلم وتعليمه والمجد والحماية والإثراء والبذل وإحراز مقام في القلوب ولذة نفوذ الرأي الصائب إلى غير ذلك من الملذات الروحية، أما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت وإلا فمزابل للنباتات، ومنحصرة في استفراغهم شهواتهم كأن أجسامهم خلقت دملا وظيفتها توليد الصديد ودفعه، والعرض كسائر الحقوق غير مصون زمن الاستبداد. الاستبداد يجعل الإنسان فاقدا حب وطنه لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويود لو انتقل منه، مختل الثقة في صداقة أحبابه لأنه يعلم أنهم مثله قد يضطرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون. . إن الأمة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم أو دون البهائم لا تسأل قط عن الحرية وقد تنقم على المستبد، ولكن طلبا للانتقام من شخصه، لا طلبا للخلاص من الاستبداد فستبدل مرضا بمرض كمغص بصداع. . . إن الوسيلة الوحيدة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم» . (١)

وهكذا نرى أن الكواكبي عاد بعد هذه الجولة إلى أصل البلاء وهو الجهل، لأن التعليم والتوعية كفيلان بنقاش علماء الدين في وجهات نظرهم وقديما قال عمر بن الخطاب: أصابت امرأة واخطأ عمر حين ناقشته في المهور، بل إن الثقافة كفيلة بأن تجعل المسلم يفهم دينه فهما صحيحا فلا يضيع مئات السنين في نقاش قضايا جزئية. والوعي الثقافي هو الذي يدفع الأمة إلى رفض الاستبداد، والإصرار على وجود الرأي الآخر، لأن الحاكم مهما كان مخلصا هو إنسان يمكن أن يخطىء، وخطأ الحاكمَ يصيب الأمة كلها.

مرة أخرى عدنا إلى العلم والجهل، فنسبة الأمية في الوطن العربي خمسون في المائة، ومعنى هذا أننا محونا خلال قرن من الزمان ثلث أمية الأمة وسوف نعبر إلى القرن الحادي والعشرين نحمل على كاهلنا وصمة الأمية وهي تعني تخلفا في التنمية بكل فروعها.

---

(١) طبائع الاستبداد ص ٨٠ وما بعدها.

لقد استمعت في إحدى المحاضرات عن «الجيوبولوتيكا في الشرق الأوسط» للدكتور محمد رياض لآراء الباحثين الذين يقومون بدراسات عن مراكز القوة المستقبلية في الكرة الأرضية، فلم يلتفت أحد منهم إلى الوطن العربي ولا إلى الأمة الإسلامية، وإن كانوا قد ذكروا أندونيسيا في آسيا ونيجيريا في افريقيا في مجال الاحتمالات ومن الواضح أن الأساس هنا هو الرصيد السكاني والثروة البترولية. فلا أمل للوطن العربي إلا في وحدته لأننا في عصر التكتلات الكبيرة، فالوطن العربي يملك الرصيد السكاني، والكفاءات البشرية، والثروة البترولية، والأراضي الزراعية، وقاعدة صناعية. إن التنمية الشاملة يمكن أن تقوم على أساس إعادة النظر في برامج التعليم لتكوين العقلية المفكرة بدلا من العقلية الحافظة وإعادة النظر في برامج محو الأمية البطيء الحركة. وإعادة النظر في مساهمة الحرية السياسية والرأي الآخر، لتكوين سياج يمنع حرية الخطأ، خطأ الفرد الذي يدمر المجموع، وهي قضية تطرح الآن جهرا بعد أن كانت تطرح سرا، وفي دراسة السوق العربية المشتركة على غرار السوق الأوروبية المشتركة، التي سوف توحد أوروبا بعد عام، حتى يتراجع الحديث عن دول الثروة ودول الثورة ما دامت هناك مشروعات مشتركة لصالح الوطن كله، تمهيدا لوحدة تهيىء لها المناهج الدراسية ووسائل الإعلام ما دامت قناعات المثقفين يقينية، من أجل المستقبل، ومن أجل صالح الأمة كلها. وتستطيع الجامعة العربية أن تقوم بدور هام في رسم خريطة هذا المستقبل.

إن الشعر في النهاية يمنحنا قناعة فنية وجدانية تتكامل مع القناعة العقلية لتتوحد التجارب فتكون أكثر ديمومة لأن الإنسان عقل وقلب، يفكر ويشعر ويغذي الفكر الشعور، كما يمهد الشعور للقناعة الفكرية، وبعبارة أخرى فإن الفن له أسلوبه في التأثير وهو لا يقل عن منطق العقل في الإقناع.

المراجـــع

١ـ اتجاهات الرأي العام نحو مسألة الوحدة

سعد الدين ابراهيم — بيروت ـ ١٩٨١

٢ـ النظام الاجتماعي العربي الجديد

سعد الدين ابراهيم — بيروت ـ ١٩٨٢

٣ـ أم القرى الكواكبي القاهرة ـ ١٣١٦

٤ـ تاريخ الشيخ محمد عبده، محمد رشيد رضا — القاهرة ـ ١٩٣١

٥ـ طبائع الاستبداد الكواكبي — القاهرة ـ الطبعة الاولى

٦ـ في الميزان الجديد محمد مندور — القاهرة ـ الطبعة الثانية

٧ـ أحاسيس اللظى (مجموعة شعرية في أزمة الخليج) — جدة ـ ١٩٩٠

٨ـ ديوان المتنبي — القاهرة ـ ١٩٨٠

٩ـ ديوان بدر شاك السياب — بيروت ـ ١٩٧١

١٠ـ قتافت امرأة — بغداد ـ ١٩٨٦

١١ـ دوريات (الأهرام ـ الراية ـ الشرق)

سقراط ومنزلته في الفكر الفلسفي *

أ. د. فتح الله خليف

استاذ ورئيس قسم الفلسفة

كانت ندوة العام الماضي عن السوفسطائيين، وعن روح القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا، قرن التنوير في الأدب والفلسفة، قرن يوربيدس، وسوفوكليس، والسوفسطائيين.

وأستأذنكم في أن نبقى ايضا هذا العام في هذا القرن مع سقراط، فمن غير المعقول أن نتحدث عن السوفسطائيين ونترك الرجل الذي تعتبر شخصيته، وفلسفته، ومناظراته مع السوفسطائيين علامة من علامات هذا القرن.

ونحن نقدم لكم سقراط هذه الليلة ينبغي أن نبدأ بالتسليم بأن هناك ـ وسوف يظل دائما هناك ـ ما يسميه مؤرخو الفلسفة بمشكلة سقراط. فالرجل لم يكتب شيئا، وتلميذه الذي كتب عنه، أعنى أفلاطون، لم يكتب أبحاثا، ولكنه كتب سلسلة من المحاورات في شكل دراما، يعين فيها الزمان والمكان، وسائر الظروف، ويعرض فيها أصنافا من الأشخاص يصورهم أدق تصوير، ويدمجهم في حوادث تستحق اهتمام القارىء، وتستبقي انتباهه إلى النهاية. وأهم الأشخاص في المحاورات الأفلاطونية هو سقراط.

ومن هنا انبثقت مناقشات لا نهاية لها للتساؤل عن أقوال وآراء سقراط وتمييزها عن آراء أفلاطون.

فمن جهة لو اعتقدنا أن كل ما جاء على لسان سقراط في محاورات أفلاطون هي آراء سقراط؛ فحينئذ لا يبقى لأفلاطون شيء.

---

* الندوة العلمية لكلية الانسانيات الساعة السادسة من مساء الثلاثاء ١١/١١/٨٦ بقاعة المحاضرات العامة بمبنى تكنولوجيا التعليم.

ومن جهة أخرى لو اعتقدنا بأن كل ما جاء على لسان سقراط في محاورات أفلاطون هي آراء أفلاطون، فحينئذ يصبح سقراط وهما وبطلا أسطوريا للمحاورات الأفلاطونية من اختراع أفلاطون (١).

تلك هي مشكلة سقراط التي لم تحسم حتى اليوم بين مؤرخي الفلسفة. ففي عام ١٩٥٥ كتب أولوف جيجون Olof Gigon يقول: لقد مضى أكثر من ألفي عام في البحث في مشكلة سقراط، ومع ذلك فما زالت المشكلة بعيدة عن التناول المنهجي الصحيح. (٢)

والإجماع منعقد بين مؤرخي الفلسفة على أن الوقائع التاريخية وحدها لا تكفي لفهم سقراط، لأن تاريخ حياته مر بمراحل كثيرة من التنقيح والتعديل، والتحريف والتشويه، خلال عقول تلاميذه وخصومه إلى الحد الذي دعا بعض الفلاسفة إلى الشك في شخصية سقراط التاريخية.

إن كل ما نعرفه عن سقراط جاءنا من رجال مختلفي المشارب والأهواء: هم أرسطوفان، واكسانوفون، وأفلاطون، وأرسطو. من هؤلاء الأربعة اثنان فيلسوفان، وجنرال متقاعد، وكاتب مسرحي هزلي. هؤلاء الأربعة أصحاب المواهب المتعارضة والمشارب المختلفة، من الطبيعي أن يرى كل واحد منهم سقراط بطريقة مختلفة، ويتركوا لنا انطباعات مختلفة عنه.

فشخصية سقراط التاريخية هي أيضا مشكلة معقدة لا حل لها حتى اليوم. هي مشكلة أكثر تعقيدا من مشكلة شخصية المسيح التاريخية كما يقول: Albert Schweitzer؛ ألبرت شفيتزر لأن المسيح صوّره اشخاص من العوام لا حظ لهم من ثقافة أو علم، أما سقراط فقدّمه لنا مثقفون من الفلاسفة والأدباء، على درجة عالية من الثقافة والفهم، مارسوا قدراتهم الخلاقة في تصويره. (٣)

كل هذه المشاكل السقراطية تعني أن باب الاجتهاد ما زال مفتوحا على مصراعيه أمام الباحثين والدارسين لسقراط.

لكن هذه المشاكل لا تمنعنا من أن نتعرف على الأقل على معنى سقراط عند كثير من الناس، وأثره العميق على تاريخ الفكر.

الكوميديا أو الملهاة الأثينية واحدة من أهم مصادرنا عن فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد، عن عاداتهم، وسلوكهم، وأوصافهم. جاء في رسم شخصية سقراط في واحدة من الدراما أنه شخص أحمق، جائع، حافي القدمين، رث الملبس، قدرته فائقة على التحمل والمعاناة، لا ينافق أبدا. وفي واحدة أخرى يذكر المؤلف ان سقراط لا يعرف من أين تأتيه الوجبة التالية، وهو دائما في غاية القذارة، لا يغتسل أبدا، ويضيع الوقت في جدل عقيم. (٤)

لكن مسرحية السحب لأرستوفان هي المرجع الأساسي في سقراط. فسقراط هو بطل الرواية، والشخصية الرئيسية فيها. تصوّر المسرحية سقراط معلما يأتي له تلميذ يطلب منه أن يعلمه الغش والخداع، ويشجعه الكورس على تعليم التلميذ ما يريد. ولكن سقراط لا يلتفت إلى ذلك، ويأخذ في تعليم التلميذ أمورا غير عملية وغير نافعة. فسقراط متهم في مسرحية السحب بأنه يهدر الوقت في جدل عقيم، وكثير التدقيق في كل ما يقال.

ويمثله أرستوفان في المسرحية جالسا في سلة مرفوعة في الفضاء، يناجي السحب، مأوى المفكرين الخياليين، ويتهمه بالكفر بآلهة المدينة، وبتعليم التلاميذ تغليب الباطل على الحق. ويعلن أن القصاص العادل هو قتل سقراط وتلاميذه (٥). وهكذا يصب أرستوفان على رأس سقراط كل الاتهامات والأوصاف التي نسبها أفلاطون وأرسطو بعد ذلك للسوفسطائيين. وقد ظلت هذه الاتهامات معلقة في عنق سقراط أكثر من عشرين عاما، ثم بعث بها الاثينيون إلى القضاء، فحوكم سقراط، وحكم عليه بالاعدام، وأعدم عام ٣٩٩ ق. م. وهو في سن السبعين.

أمر معلوم أن سقراط كان دميم الخلقة، كان أفطس الأنف، جاحظ العينين، منتفخ البطن، كان أقبح من كل المسوخ التي ورد وصفها في الدراما اليونانية (٦)، ولكنه كان نوعاً من القبح يدعو للعجب. فعلى الرغم من هذا القبح كان سقراط يتمتع بجاذبية شخصية طاغية، وكان تأثيره على سامعيه ومحدثيه تأثيرا فريدا. فلننظر كيف كان يقارنه أصحابه بمارسياس الذي كان ينافس الإله أبولو في العزف على الناي:

جاء على لسان واحد من تلاميذه في محاورة سيمبوزيم الأفلاطونية: «ولكنك

يا سقراط لا تعـزف على النـاي، وإن كـان العـرض الـذي تقـدمـه أعظم دلالـة، فإن مارسياس قد احتاج إلى آلة ليبهر الناس بالقوة التي تنبعث من فمه في الناي. ولكنك يا سقراط قد تفوقت على مارسياس، لأنك عملت نفس الأثر بمجرد الكلمات، وبـدون استخدام آلة. . . انني أنا نفسي أيها السادة، وأنا في كـامل وعيي، ولست سكـرانـا، أقسم بأيمان مغلظة بالأثر البالغ لكلمات سقراط عليّ. فكلما أنصت إليـه فإن نبضـات قلبي تدق مسرعة، أسرع مما يحدث لي في حفل ديني، وتنسـاب الـدمـوع على وجهي، وألاحظ أن هذا الأثر يمتد إلى كل السامعين الآخرين».

ويصف تلميذٌ آخر حاله مع سقـراط فيقـول: «يبـدو لي أنك تـزاول معي السحـر والعرافة والتعاويذ، حتى أُصبح وكأني كتلة لا حول لها ولا قـوة. إنك تبـدو تمامـا مثل عقرب البحر الذي يلدغ. إنك تلدغني فتخدر عقلي وشفتاي» (٧).

ممـا لا شك فيـه أن هـذه الأوصـاف أعمق من مجرد الانبهـار بمنـاظـرات سقـراط وأحاديثه، وتدق على الشرح، كما أنها تدعو إلى اعتبار أمر آخر أبعد من مجرد الاستدلال العقلي. ونعني بهذا الأمر علامات النبوّة التي ظهرت على سقـراط والهدايـة الإلهيـة التي يصفها أفلاطون على هذا النحو في محاورة احتجاج سقراط، يقول سقراط «انني مـررت بتجربة إلهية، بدأت في طفولتي، وظلت معي دائما، نوع من النداء، كلما سمعتـه ردني عما كنت أود أن أفعله، وأقعدني عنه، ولكنه لم يأمـرني أبـدا بعمل شيء». وفي مـوضع آخر يقول بعد صدور الحكم بإعدامه: «في الأيـام الخاليـة كـانت عـلامـة النبـوّة التي اعتدتها تمنعني من فعل أبسط الأمور، إن كنت أروم شيئا غير مناسب، واليوم نجدهـ لا تحول بيني وبين الخروج من بيتي إلى المحكمـة، ولا بيني وبين أي كلمـة قلتهـا في دفاعي. إنها لم تعترض على أمر من هذه الأمور المهلكة. وفي منـاسبـات أخـرى كـانت تحول بيني وبين أن أكمل جملة بدأتها».

وقد أصبحت علامة النبوّة علامة معتادة، تحدث دائما، وتبدو وكأن سقـراط يسمع صوتا، وكان هذا الصوت يمنعه من قبول التـلاميـذ الـذين لا يستطيعـون الإفـادة من تعاليمه، كما كان يمنعه من الاشتغال بالسياسة.

كان سقراط يستمع إلى هذا الوحي، وكان هذا الوحي هو حافظه وموجهـه، وكـاد

يصدر في أفعاله وسلوكه بما يوحى له، ويؤمن بأن الآلهة بعثته معلماً مجانياً هادياً للبشر. (٨)

إننا كفلاسفة لا نستطيع إلا أن نترك طبيعة هذا الوحي لعلماء النفس؛ فإن هذه التجربة الدينية تستلزم التفسير السيكولوجي. وهذا أمر لا يمكن القطع به على وجه اليقين، ولكننا مقتنعون بأن سقراط كان يأخذ هذا الوحي مأخذ الجد، ومن ثمة كان يؤمن بأن أنشطته التعليمية مصدرها هذا الوحي، والأمر متروك لمن يؤمن بمثل هذه النبوّات والهداية الروحية. على أننا ينبغي أن نتذكر أننا نتحدث عن العالم اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد، أي عن عالم مليء بالأساطير والنحل والآلهة الذين يسخرون كل شيء. وإن كنا نحن اليوم، بعد أكثر من ألفي عام، وبعد التقدم العلمي والتكنولوجي الذي نشهده اليوم، ما زالت الأساطير والخرافات والمعتقدات الغيبية تشغل المساحة الكبرى من التفكير الذي يوجه حياتنا.

قبل أن نستعرض الخطوط الرئيسية لتعاليم سقراط وفلسفته نقف وقفة قصيرة عند مسألتين هامتين: المسألة الأولى هي ارتباط تعاليم سقراط بملامح شخصيته وقبح خلقته. والمسألة الثانية هي المنهج السقراطي المثير القائم على إقناع الناس بجهلهم وحماقتهم.

أما المسألة الأولى فتتضح من محاورة سقراط لكريتو حول مفهوم الجمال. يدور الحوار بين الرجلين على هذا النحو:

يسأل سقراط: هل تعتقد أن الجمال يُوجد في الانسان وحده أم يُوجد في أشياء أخرى؟

كريتو: اعتقد أنه يوجد في الحصان وفي الدرع والرمح والسيف، كما يوجد في كثير من أشياء أخرى غير حيوانية.

سقراط: كيف تكون هذه الأشياء جميلة طالما لا تشبه بعضها بعضاً؟

كريتو: إن كانت هذه الأشياء مصنوعة صناعة جيدة لتؤدي الغرض الذي نرجوه منها على أكمل وجه، أو كانت ملائمة بالطبيعة لاحتياجاتنا، إذن ففي كل حالة من هاتين الحالتين نسمي الأشياء جميلة.

سقراط: حسنا، ما هي حاجتنا إلى العينين؟

كريتو: لنرى بهما طبعا .

سقراط : في هذه الحالة تجد عينيّ أجمل من عينيك ، فإن عينيك لا ترى إلا أمامك بينما عينيّ ترى أمامي وترى على الجانبين ، وكان سقراط أحول العينين .

كريتو: معنى ذلك ان سرطان البحر*، له أجمل عينين من أي حيوان .

سقراط : تماما ، لأن الطبيعة هي التي زودته بهذه القوة الرائية من كل صوب .

كريتو: سلمنا ذلك ، أي أنف أجمل ، أنفي أم أنفك؟

سقراط : أنفي طبعا ، إن كانت الآلهة وهبتنا الأنوف للشم ، فإن فتحتي أنفك متجهة إلى أسفل ، بينما تشرئب فتحتا أنفي إلى أعلى لتلقيّ الروائح من كل اتجاه .

كريتو: أما بالنسبة للفم ، فأنا أسلم بأن فمك أجمل ، لأن الفم إن كان للقضم ، فإنك تستطيع أن تأخذ قضمة أكبر مني .

سقراط : أما بالنسبة لغلظة شفتيّ ألا تعتقد أنهما تمكنانِي من قبلة أرق وأجمل وأمتع واكثر دفئا !

كريتو: أعلن استسلامي.(٩)

لنتأمل المسلمة التي تنبني عليها تلك المناقشة البسيطة :

هذه المسلمة هي : كل ما هو نافع فهو جميل .

فنحن لا نقول إن العيون جميلة عندما لا تكون حاصلة على قوة الابصار، ولكن فقط عندما تكون لها هذه القوة ، ومن ثمة تكون نافعة في الرؤية . وكذلك نقول عن الجسم كله أنه جميل : تارة من أجل الجري ، وتارة في المصارعة ، ونقول ذلك على كل الكائنات الحية ، عن الحصان الجميل ، وعن الديك الجميل ، ونقول ذلك أيضا على كل الآلات والأدوات . فالسكين جميلة عندما تقطع ، والباخرة جميلة عندما تبحر، وهكذا في كل الفنون والصناعات والممارسات العملية والقوانين ، فإننا نصف كل هذه الأمور بأنها جميلة على نفس النحو. هذه النظرة للجمال هي التي نجدها في انجلترا في القرن الثامن

---

* المعروف في مصر بأبو جلمبو .

عشر. كتب هوجارث Hogarth في تحليله للجمال في مقالته عن نظرية الفن يقول: في صناعة السفن، فإن أبعاد كل جزء قد أعدت ووضعت بحيث تلائم وتسهل الإبحار، وعندما تبحر السفينة بطريقة ملائمة، فإن البحارة يقولون إنها جميلة. فبين الفكرتين ارتباط وثيق. (١٠)

أما المسألة الثانية فهي المنهج السقراطي القائم على توجيه السؤال من غير إعطاء إجابة، لأنه اعترف بأنه لا يعرف شيئا. يقول سقراط في محاورة تيتياتوس: «إنني مثل القابلة، لا ألد حكمة؛ لأنه لا حكمة عندي، إن مهمتي هي مساعدة الآخرين على الانجاب. فقد اختارتني الآلهة لأقوم بمهنة مثل مهنة القابلة، ولكنها حرمتني الخلفة. فليس عندي أي نوع من الحكمة، وإنما كل صناعتي هي توليد الأفكار من الرجال. إن أسئلتي ساعدت الناس الذين أجادلهم ـ رغم أنهم لم يستفيدوا مني شيئا ـ أن يكتشفوا بأنفسهم كثيراً من الحقائق الرائعة التي تولدت منهم، واستخلصت من أنفسهم وأعماقهم». (١١)

نلاحظ على هذا النص أن سقراط يتحدث عن ميلاد الأفكار في النفس ويصوغها في عبارات مليئة بالإيروس الذي كان يهيمن عليه. وفي اللغة الانجليزية عبارة بالغة الدلالة، فنقرأ قول سقراط مترجما إلى اللغة الانجليزي: The lover of Knowledge is said to have intercourse with realty to bring forth intellgence and truth, and so to find release from "Travail" (12). «ان محب المعرفة يمارس الحب مع الحقيقة لانجاب العقل والصدق، ومن ثمة يجد الراحة بعد أن يفرغ من الشغل».

ونلاحظ ثانيا أن الغرض من البحث عن طريق الجدل بإثارة السؤال والجواب هو تصفية العقول من الكدورات التي تعوق العقل من الوصول إلى المعرفة الحقة، مثل اختلاط المعاني، وابهام الألفاظ، وتمويهات البلاغيين. فغاية سقراط من الجدل هي إعادة نور العقل إلى الناس، وذلك هو الهدف الرئيسي للفلسفة.

فإذا أردت أن تكون سقراطيا فليس عليك أن تتبع أي مذهب أو نظرية فلسفية، إنما عليك أن تكون صاحب موقف من العقل، موقف شديد التواضع العقلي لدرجة الاعتراف بالجهل. فإن السقراطي الحقيقي هو الذي يقتنع بجهله، وجهل النوع

الانساني كله .

لكن اقناع الناس بجهلهم ليس أمرا سارا ولا مريحا، يقول سقراط : عندما كنت أقنع الناس بجهلهم وحماقتهم تنتابهم حالة من الغضب، مني ومن أنفسهم. ومعظم هؤلاء الناس كانوا مستعدين لضربي عندما يرون أن ذهنهم الطفلي قد اختفى كما يختفي الشبح .

بعد المنهج يأتي المذهب . معلوم أن سقراط لعب دورا مزدوجا في تاريخ الفلسفة . فمن ناحية يرجع إليه الفضل في توجيه الفكر إلى مبادىء منهج علمي لدراسة الطبيعة والظاهرات الطبيعية، يقوم على تقسيم وتصنيف الظواهر بقصد معرفتها وتحديدها، أي يقوم على دعامتين هما الاستقراء والتعريف .

ومن ناحية أخرى فإن المنهج السقراطي وضع حدا ونهاية لتوجيه الفكر نحو العلم الطبيعي وبداية مرحلة الاهتمام بالأخلاق في ميدان الفلسفة . ولذلك بدأ الفكر الهلنستي يهمس بأن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، وأصبح هذا القول مألوفا في تاريخ الفلسفة من عهد شيشرون . ومعنى هذا أن سقراط لعب دورا حاسما في توجيه الفكر من النظر في المادة والعالم والظواهر الكونية والفلكية إلى النظر في الانسان وواقعه المعاش وحياته العادية .

لكن الأمر المدهش حقا هو أن سقراط الذي اكتشف أهمية الاستقراء والتعريف، أي طرائق العلم، هو نفسه الذي ترك العلم إلى الأخلاق التي لا يستقيم معها تعريف ولا استقراء، ولا تتطلب دقة علمية .

كلنا نعلم أن الفكر يسير في الاستقراء من ملاحظة الوقائع الجزئية ليقبض على الخصائص الكلية التي تشترك فيها جميع الوقائع الفردية لفئة ما من الموجودات، يمكن أن تكون فئة من البشر أو الأشياء أو الحوادث .

هذا الاستدلال الاستقرائي يمكن أن يختل في أي لحظة لو استحدثت وقائع جديدة، ذلك لأن معرفتنا بكافة الظروف التي تحدث الظاهرة قد لا تكون كافية، وقد لا نستطيع الإحاطة بها جميعا . ومن هنا فالخطأ في الاستدلال الاستقرائي أمر وارد دائما، أو كما يقول المناطقة إن نتيجة الاستدلال الاستقرائي دائما احتمالية، وخاضعة لإعادة النظر.

لكن المشكلة هي أن تقدم العقل من الجزئي إلى الكلي خطوة غير مفسرة، لا تفسرها ملاحظة الوقائع، لكنها تتعداها، لذلك وجب أن يستقر في نفوسنا اعتقاد بأن العقل الانساني لديه ملكة حدسية Faculfy of Intuition تمكنه من رؤية المعنى الكلي بعد تفحص عدد كاف من الوقائع الجزئية.

والاستقراء يقود إلى التعريف، لأن التعريف يتألف من مجموعة الخصائص العامة المشتركة، أنتخبت بطريقة معينة بالعقل، طريقة يلتفت فيها العقل إلى الخصائص الذاتية، ويهمل الخصائص العرضية. مثلا كثير من الناس زرق العيون، يدخنون، لكن تلك خصائص لا مكان لها في تعريف النوع الإنساني.

إنه لمن الخطأ أن نقول إن سقراط اكتشف الاستقراء بمعناه العلمي، لقد كانت عين سقراط دائما ـ وهو يتكلم في الاستقراء ـ على حياتنا اليومية، ولم يرتفع عنها إلى المنطق أو الطرق العلمية، وأهمية الاستقراء. إن هذا الأمر سيقع على عاتق أرسطو.

وكذلك لم يكن هدف سقراط من الاهتمام بالتعريف هدفا علميا، أي بقصد معرفة الاشياء بخصائصها الذاتية، لكن غاية سقراط انصبت فقط على تحديد معاني الأفكار الخلقية والسياسية التي توجه سلوك الناس ويستخدمها الأثينيون من سوفسطائيين وشعراء وأدباء وخطباء ومشرعين في حياتهم اليومية في الأسواق والنوادي والجمعية التشريعية. فالكل يستخدم اصطلاحات عامة لوصف أفكار خلقية مثل العدل والاعتدال والشجاعة والقوة والتقوى والخير. وكان السوفسطائيون يقولون إن مثل هذه التصورات ليس لها أساس يقيني تقوم عليه، وكل هذه الأشياء فضائل لم توهب لنا من السماء، لكنها من فعلنا نحن، تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ومن عصر إلى عصر. وهكذا بدأ التفكير الجاد حول القوانين التي تحكم السلوك الانساني بالشك في وجود أرضية ثابتة لتلك القوانين.

أما سقراط فقد تصور أن هذه المعاني لو كانت ترجع إلى مبادىء عليا تقوم عليها، فلابد أن هناك لكل لفظ معنى صحيح، وبقية المعاني باطلة. ومن جهة أخرى لو كان السوفسطائيون على حق، وأن قناعتهم صحيحة بأن هذه أمور نسبية خالصة، فإنه من الخطأ أن نستخدم نفس الألفاظ للتعبير عن أشياء مختلفة. فإن لم نتفق على تحديد معاني

ألفاظ مثل الحكمة والعدل والخير ما هي، فإننا سوف لا نستطيع أن نتقابل معا في فكر واحد، أو نتفق على شيء بالمرة.

إن أول الواجبات أن نحدد معاني العدل والحق والخير وكل الفضائل. والطريق إلى ذلك يتألف من مرحلتين: في المرحلة الأولى نجمع أمثلة تطبيقية يتفق المتحاوران على مجال تطبيق اللفظ محل النظر والبحث. فمثلا لو كنا نبحث في التقوى، فيجب أن نجمع أمثلة على الافعال التي توصف بالتقوى، ويتفق عليها الطرفان. وفي المرحلة الثانية نختبر الأمثلة التي جمعناها لنكشف الخصائص المشتركة بينها، والتي من أجلها وصفت الأفعال بالتقوى. فإذا لم يقم بينها خصائص مشتركة، فلا يمكن ولا يصح أن نطلق عليها وصفا مشتركا.

هذه الخاصية المشتركة هي طبيعة الحد أو المعنى الذي نطلق عليه لفظ تقوى. وسوف يعطينا ذلك ـ لو أمكن الكشف عن هذا المعنى ـ تعريف التقوى، مجردة عن الخصائص العرضية للزمان والظروف التي تختلف فيها الأمثلة والأفراد، والتي تندرج تحتها مهما كان الخلاف بينها.

وهذا هو عين المنهج العلمي المستخدم في أي دراسة علمية وفي أي ميدان علمي، كدراسة الحيوان والنبات حيث ينحصر العمل الأساسي لعلماء النبات والحيوان في التصنيف. فالكائنات الحية من نبات وحيوان تندرج تحت اجناس وأنواع genera and species وفقا للصفات المشتركة بينها التي تقع تحت عين الباحث المدقق كخصائص أساسية، برغم أنها تختلف تماما عما تقع عليه عين الرجل العادي.

لم يهتم سقراط بالحيوان أو النبات ولكن اهتمامه انصب على تصنيف وتعريف أفعال الانسان، والمعاني التي نستخدمها كمقياس نقيس به هذه الأفعال.

ويرى سقراط أننا لا نستطيع أن نبحث في معاني الحق والخير والجمال والعفة والشجاعة والتقوى إلا إذا كان قد وقر في ذهننا من قبل معنى هذه القيم والفضائل. فحين تتحدد معاني هذه القيم والفضائل وتستقر في نفوسنا، يصبح لدينا مقياس نقيس به الأشياء والأفعال، وإلا فسوف لا نعرف عما نتحدث، ولا يتفق متحاوران على معنى. فقبل أن نقول: هذا الشيء جميل، يجب أن نعرف أولا ما هو الجمال. ويجب أن

نؤمن ثانيا بأن هذا الجمال الذي يقال على أشياء معنى موجود وجودا حقيقيا؛ لأنه من غير المعقول أن يكون المقياس الذي نقيس به الجمال أو العدل أو أي فضيلة مجرد تخيل. ولذلك فإن لهذه المعاني وجودا مستقلا عن التصور الذهني، وجودا أزليا ثابتا دائما لا يتغير ولا يتبدل، ومستقلا عن كل فكر بشري، وعن كل مكان وزمان.

فالجمال الحقيقي نموذج في ذهننا، وكذلك الخير والعدل كلها نماذج نقيس بها الأشياء الجميلة والأفعال التي تتسم بالخير أو العدل أو الشجاعة أو التقوى. الجمال بالذات، والخير بالذات، والعدل بالذات نماذج patterns أو مُثُل ideals، او معاني ideas أو صور forms أو أصول Origins للسلوك والواقع المعاش. (١٣)

وهذا هو أساس نظرية المُثُل الأفلاطونية الشهيرة التي انبثقت قسماتها الأولى من رغبة وسقراط وبحثه في تحديد معاني اصطلاحات الأخلاق والسياسة، والتماس مبادىء عليا تقوم عليها، وحينئذ يصبح لكل لفظ معنى صحيح، وبقية المعاني باطلة.

كان أفلاطون يؤمن بأن النفس حاصلة في الأصل، وقبل وجودها في هذا العالم، على المعارف، على المعاني الثابتة الدائمة للوجود، وأن مهمتنا هي مساعدة النفس على تذكر تلك المعارف التي نسيتها بعد أن هبطت إلى هذا العالم وتلبست بالجسد واشتغلت بمطالبه ولذاته. فالمعرفة عند أفلاطون ذِكْر، أي ذِكْر لما كانت النفس تعرفه من قبل، والجهل نسيان، أي نسيان لتلك المعارف السابقة.

فسقراط وأفلاطون يؤمنان بوجود معرفة كامنة في النفس يمكن الوصول إليها ومساعدة النفس والناس إما على استخراجها من أنفسهم كما هو الحال عند سقراط، وإما على تذكرها كما هو الحال عند أفلاطون.

لكن ينبغي أن لا يغيب عن ذهننا أن أفلاطون وسقراط يتحدثان هنا عن نوع خاص من المعارف الأخلاقية والميتافيزيقية، كالفضائل والمُثُل، لكن هناك أنواعا من المعارف العلمية كانتشار الأمراض بسبب نوع من الجراثيم أو البكتريا التي لا ترى إلا بالمجهر، مثل هذه المعارف التي تكتشف داخل المعامل والمختبرات لا يمكن أن نكشف عنها بالحوار السقراطي، ونستخلصها من نفوس الرجال.

إن المنهج السقراطي لا يكشف عن معارف جديدة، ولكنه فقط ينفع في تحديد

المعاني التي نعرفها فعلا، وإزالـة مـا يكتنفهـا من اختـلاف، بسبب غمـوض الفكـر، وغياب التحليل المنطقي.

فكل واحد منا عندما نسأله: ما العدل؟ نجد لديه شيئـا مـا يقـولـه أو يعـرفـه عن العدل. ومهمتنا كفلاسفة هي امتحان كل هذه الأقوال والمعارف التي يقولها الناس عن العدل، واستخداماتهم المختلفـة لهذه الكلمـة. والنتيجـة التي نخلص منهـا دائما هي كشف لغـوي، أو بمعنى آخـر تحديـد مفهـوم لفظ عـدل، وليس كشفـا في علم الأخلاق. (١٤)

وكذلك ينبغي أن لا يغيب عن ذهننا أيضا أنه من الصعب أن نلزم أنفسنا الموضوعية في تحليل وتحديد المعاني القيمية، أي المعاني التي تعبر عن قيمة كالخير والعـدل والجمال والتقوى. فعندما نسأل: مـا العـدل؟ تجد النـاس في الحال تأخـذ مـوقفـا من الصراع الاجتماعي: فمن قائل: إن العدل هو طاعة قـوانين البـلاد، ومن قـائل: العـدل هـو طاعة قوانين الطبيعة التي هي دائما ضد قوانين البلاد، أو العدل هو ما يراه الأقوى، أو العدل هو حيلة الضعيف لقهر القوي. وكلها تعاريف لا تلتزم التحليل العقلي المنطقي الخالص للفظ. (١٥)

والفضيلة علم، والرذيلة جهل، هذا قول مشهور عن سقراط يـدل على مبلغ ايمانـه بالعقل وحبه للخير. والانسان يـريـد الخير دائما، وينأى عن الشر. فمتى علمنـا الخير أردناه حتما، فالعلم هنا قوة دافعة للعمل. أما الشر فلا يصدر منـا إلا بسبب جهلنـا، ولو علمنا حقا أنه شر ما اخترناه وما فعلناه، فلا أحد باختياره شرير، ولا يوجد إنسـان يلحق الضرر مختارا بأغلى ما يملكه، ونعني به نفسه. فالانسان العاقل لا يرتكب الآثام والذنوب عامدا. نحن نعلم أن كل الدنايا والأفعال الشريـرة والـوضيعـة تـرتكب دون اختيار. إن اختيار الشر وارتكابـه طـريق إلى التعـاسـة والشقـاوة. وعلى ذلك فكل من يرغب الشر عامدا يجب أن نعتبره جاهلا، يجهل حقيقة فعله، ويجهل أنه شر. مثل هذا الانسان يجب أن نساعده برفق؛ لأن خطأه غير مقصود.

إننا لو استطعنا أن نعلم حقيقة طبيعتنا البشريـة، ونعلم الهدف الحقيقي لحيـاتنـا، فإن هذا العلم هو الذي يمنحنا الـرضى والسعـادة ويـدلنـا على الخير الملائم لطبيعتنـا

دائما.

هذه العلاقة الحميمة بين الفضيلة والعلم خاصية من خصائص الفكر الفلسفي عند سقراط وأفلاطون، وإلى حد ما توجد في كل الفكر اليوناني الذي يختلف تماما في هذه المسألة عن مفهوم الديانات السماوية الثلاث من يهودية ومسيحية وإسلام. ففي هذه الديانات تستلزم الأخلاق القلوب النقية التقية، وهي موجودة عند العالم والجاهل على السواء. فليست القلوب الطاهرة وقفا على العلماء، بل هي أيضا عند الأميين سواء بسواء، يستوي فيها العالم والجاهل. (١٦)

«اعرف نفسك» قول مشهور لإلهة دلفي، وواجبنا الأول هو طاعة الآلهة. وفور أن نعرف أنفسنا ندرك الطريق الصحيح للعناية بها، وبغير ذلك، يستحيل علينا أن نفعل. يتساءل سقراط: كيف يمكن أن نعرف أنفسنا على حقيقتها؟ علينا أن ننظر في الجانب الذي يكمن فيه فضيلتها. وفضيلة النفس عند سقراط هي الحكمة، أو أل Sophia أي الفلسفة، أو المعرفة.

المعرفة فضيلة الفضائل، وهي فضيلة مشتركة بين الناس جميعا. ففضيلة الإسكافي هي المعرفة، معرفة الغرض من الحذاء، ومعرفة صنع الحذاء. وفضيلة الطبيب هي المعرفة، معرفة الجسم وأمراضه، ومعرفة طرق العلاج. وهكذا في سائر الصناعات والفنون. أما فضيلة الانسان من حيث هو إنسان ـ لا من حيث هو صاحب فن أو صناعة ـ فهي المعرفة ايضا، لكنها معرفة الحق والخير والجمال والتقوى وكافة القيم والفضائل التي توجه سلوك الانسان، والتي يهمل الأثينيون العناية بفهمها ومعرفتها.

وكان على سقراط مهمة قاسية: هي أن يعرّف الأثينيين بجهلهم بتلك الفضائل، وبالتالي بجهلهم بأنفسهم على حقيقتها، وبأن عنايتهم بالمال والشهرة تؤكد هذا الجهل. (١٧)

والنفس باقية بعد الموت، تعود إلى بارئها وعالمها الذي جاءت منه. ولا ينبغي أن نخاف الموت. فالخوف من الموت في معركة أرادتها الدولة عار، وأشد من هذا العار الخوف من الموت الذي أراده الله لنا. فإن هذا الخوف يعني عدم الرضا بإرادة الله، تلك التي وهبتنا الحياة والنَّفْس والنَّفَس.

وقد يكون الخوف من الموت دلالة على حكمة، ولكنه ليس كذلك؛ فإن هذا الخوف يعني أننا نعلم حقيقة الموت، في حين أننا لا نعلمها. فلا أحد يعلم ما إذا كان الموت هو أعظم الخيرات للإنسان أم هو شرا مستطيرا. ومع ذلك فالناس تخاف الموت وكأنهم يعلمون تماما أنه أعظم الشرور.

إن أولئك الذين يعتقدون أن الموت شر مخطئون. فلننظر إلى الموت بطريقة أخرى؛ فربما نشعر شعورا قويا بأنه خير.

الموت واحد من أمرين: إما أن يكون الموت عدما محضا، فلا يعد للميت وجود ولا إحساس، وإما أن يكون هجرة للنفس من هذا العالم إلى عالم آخر.

فلو كان الموت فقدانا تاما للاحساس، ونوما هادئا لا يعكره حلم، فلابد أن يكون الموت نعمة كبرى، وبركة عظيمة. إن مثل هذا النوم الهادىء الذي لا يعكر صفوه حلم قلما يتوفر في حياتنا لأحد. حتى الملوك المنعمين تعد لياليهم الهانئة في النوم على أصابع اليد لو قيست بلياليهم المزعجة.

فلو كان هذا هو الموت فأنا اعتبره ربحا عظيما. في هذه الحالة فإن الزمان كله سوف يبدو وكأنه ليلة واحدة.

أما لو كان الموت نوعا من الهجرة لمكان آخر، وأن الأقاصيص الشائعة صادقة بأن كل الأموات هناك، فماذا يمكن أن يكون هناك شيء أبدع من هذا وأجمل. سوف تكون رحلة جميلة ممتعة، تلك التي تأخذ الإنسان إلى الجنة حيث نجد القضاة الذين اشتهروا بالنزاهة والعدل في حياتهم، والشعراء والأنبياء والحكماء الذين ملأوا الدنيا بأعمالهم الخالدة من أمثال أورفيوس، وهوميروس، وهزيود.

فأنا نفسي سوف أجد أمتع الأوقات هناك، وألتقي بالمظلومين الذين دفعوا حياتهم في هذه الدنيا ثمنا لاتهام باطل مثلي، لأقارن بين تجربتهم وتجربتي. وفوق ذلك كله فسوف امتحن الناس في الجنة مثلما أمتحنهم هنا؛ لأتبين من هم الحكماء، ومن هم الأدعياء، واستجوب كبار قادة الحروب الماضية، وأعرف وقائع المعارك الحربية التي مرت عليها آلاف السنين.

إنها سوف تكون سعادة غامرة أن أناظر هؤلاء الناس وامتحنهم. وسوف لا يكون في

مقدورهم الحكم بإعدامي مرة أخرى. فميزة سكان الجنة علينا أنهم خالدون أبد الدهر إن كان ما يقال لنا حق.

ثم كانت عبارة سقراط الأخيرة لتلاميذه قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام بشرب السم:

«الآن حان الوقت، لابد أن نذهب: أنا إلى الموت، وأنتم إلى الحياة، لكن أينا ذاهب إلى مصير أفضل، أمر غير معلوم لأحد إلا الله»(١٨).

إن قراءة هذه الفقرة تدلنا على طعم هذا الرجل الذي حيّاه كل الناس.

حيّاه الملحدون لأنه قرر بأن ادعاء معرفة ما بعد الموت ادعاء لشيء غير معلوم لنا.

أما المؤمنون فقد تأثروا دائما به، وتعاطفوا معه؛ لأنه كلما يتحدث عن الموت يقول إنه خير.

تلك هي القسمات الرئيسية لفلسفة سقراط تبدو لنا نوعا من الرؤى، وبعثا للنشاط والحيوية الفكرية في الناس. ثم جاء أفلاطون ليبني السقراطية كمذهب، ويقيمها فلسفة رفيعة العماد.

ومع ذلك فإن تلك الرؤى تعكس تفكيرا رائدا. فقد كان سقراط أول من نبه إلى ضرورة الاشتغال بضبط الفكر الأمر الذي جعل أرسطو يلتفت إلى أهمية قيام علم يقنن الفكر ويميز صحيح الفكر من فاسده، فكان أن اكتشف أرسطو علم المنطق.

كذلك كان تفكير سقراط أول محاولة لإرساء قواعد منهج فلسفي للأخلاق. أن سقراط قدم للأخلاق بقوله: «الفضيلة علم» ما قدمه بارمنيدس للأونتولوجيا بقوله: «الوجود موجود». فكل منهما حول الفلسفة إلى وجهة جديدة، وكل منهما ترك للخلف العمل على تحليل القضية البسيطة واختبارها لإظهار ما تنطوي عليه من تصورات، واستخدام اللفظ الواحد لمعاني متعددة، وكل منهما أكد المطلق والعام بنوع من اليقين ظلت الفلسفة لا تستطيع له ردا إلى يومنا هذا.

مراجع البحث ومصادره:

1- Burnet, *J. Greek Philosophy,* Thales to Plato, pp. 126-150, Macmillan, 1962.

Juthrie, W.KC., *A History of Greek Philosophy,* V.3 pp.325-376. Cambridge University Press, 1975.

Russel, *B., History of Western PHilosophy,* p.104, George Allen and Unwin, First Published in 1946.

2. Gigon, O., Review of Magathaes – Vilhena, *le probleme de Socrate,* Gnomon, 1955, pp. 259-66.

3. Schweitzer, *A., The Quest of the Historical Jesus,* 3rd ed. London 1954.

4. Gethrie, pp. 359-375

5. Ibid, pp. 359-375

6.Russel, P.110

7. Guthrie, pp.398-402.

8. Ibid, pp. 402-405.

9. Ibid, pp. 386-390.

10. Hogarth, W., *The Analysis of Beauty,* ed. Bruke, Oxford, 1955.

11. Plato, *Theatetus,* 150c-d, Tras. Cornford.

12. Guthrie, p.444

13. Burnet, pp. 154-170.

14. Russel, pp. 112-113

15. Guthrie, pp. 430-442

16. Russel, p.111

17. Guthrie, pp. 467-473.

18. Ibid, pp. 473-484.

الثقافة الشعبية والوعي التاريخي

الاستاذ الدكتور عبدالباسط عبدالمعطي

استاذ ورئيس قسم الاجتماع

أولا: فكرة الدراسة والهدف منها:

تعرضت ممارسات العلوم الاجتماعية في الجامعات والمراكز البحثية العربية لعدة انتقادات، قدمها مشتغلون بالعمل العام ومساهمون في صناعة القرارات التنموية، ومشتغلون بهذه العلوم. وكان من بين أبرز هذه الانتقادات، إغتراب بعض هذه الممارسات عن التاريخ والواقع العربي المعاصر، وتعثر تبلور مدارس عربية في هذه العلوم، والميل للنقل وإتباع المدارس الغربية، أكثر من استخدام العقل وإبداع أدوات تحليلية تتسق والتاريخ النوعي للمجتمع العربي. لقد صاحب هذه الممارسات في ظل السياق المجتمعي العام، وما يحويه من ظواهر اقتصادية وسياسية وثقافية تقصير العلوم الاجتماعية عن القيام بأدوار أكثر فاعلية في مسيرة التنمية العربية، فكرا وتخطيطا وتقويما للآثار والتبعات (١).

وترتب على هذه الانتقادات، ظهور محاولات جادة لإعادة النظر في مسيرة العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، أسهمت فيها مراكز بحثية وجمعيات ومؤسسات علمية وفكرية وأيضا بعض المشتغلين بهذه العلوم (٢). وتوجهت هذه المحاولات نحو موضوعات وقضايا ومهام فكرية وبحثية متعددة ومتداخلة يصعب حصرها في الدراسة الراهنة. لكن ما يهمنا منها في سياق دراستنا الراهنة وجود شبه اجماع على ضرورة إعادة تقويم الوعي التاريخي لدى المشتغلين بالعلوم الاجتماعية. ذلك التقويم الذي يشتمل، من بين ما يشتمل، على إعادة دراسة التاريخ العربي وتحليله، بالاستناد إلى أدوات بحثية نوعية، وإعادة النظر في المفاهيم والأساليب البحثية، وفي أدوار العلوم الاجتماعية والعلاقات العلمية بينها. وكان من بين الأهداف الكبرى لهذا التقويم تخصيص نشاط

بحثي مكثف لدراسة حركة المجتمع العربي، وصولا الى الثوابت والمتغيرات النسبية لتغيره وتطوره. وبالتركيز على دور المواطن العربي في هذا التطور، وتحديد أهم خصائصه المواتية لذلك عبر المراحل التاريخية، هذا بجانب دراسة طموحاته وتطلعاته في المراحل المختلفة (٣).

وكمحاولة محددة للمساهمة في هذه المهام العلمية والفكرية، تأتي الدراسة الراهنة لتستطلع إمكانات الإفادة من الثقافة الشعبية العربية في إثراء الوعي التاريخي، بالمجتمع العربي، وبخصائص المواطن العربي، بالاضافة الى إمكانات الافادة من تلك الثقافة الشعبية، في تطوير بعض الممارسات وبعض أدوات البحث ومصادر جمع المعلومات داخل مجالات العلوم الاجتماعية.

ولقد دفع إلى إختيار الثقافة الشعبية مجالا للدراسة الراهنة مبررات ودوافع علمية متنوعة. من بينها ذلك النمط السائد في التعامل مع هذه الثقافة، والذي حبسها تقريبا داخل نطاق الأعمال الأدبية والفنية، وداخل نطاق الأنثروبولوجيا. بالاضافة الى تلك التغيرات التي طرأت على بعض توجهات وممارسات علوم اجتماعية اخرى، وبخاصة علم التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع. وهي توجهات بينت أن الفصل بين العلوم الاجتماعية، وإن حمل في طياته قدرا من التعسف، فإنه أعاق في الوقت نفسه تفاعل هذه العلوم، ومن ثم تطورها فرادى ومجتمعة. لقد أدرك مشتغلون بالبحث التاريخي وبعلم الاجتماع وعلم النفس حاجتهم إلى مصادر معرفية جديدة لتطوير فهمهم وتفسيرهم لتطور المجتمع الانساني. (٤) ومنهم من أكد أهمية التعامل مع الثقافة الشعبية كمصدر، بين مصادر أخرى، لتطوير المعلومات المطلوبة لدراسة التاريخ الاجتماعي. ومن المحاولات الرائدة في هذا الصدد ما أنجزه وبستر J. B. Webster، الذي إستخدم المصادر الشفاهية في دراسة تاريخ أوغندا، وأيضا الدراسة الهامة الأخاذة التي قام بها يان فانسينا J.Vansina لإختبار جدوى المأثورات الشفاهية كمصدر للدراسة التاريخية، بدراسته مأثورات شفاهية إفريقية غير قليلة، وبالتركيز على المستعمرات البرتغالية بين الكوبا Kuba في كاساي بالكونغو وفي رواندا وبوروندي إمتدت إلى ما يقرب من ثمان سنوات (٥). ولقد ترتب على هاتين الدراستين وغيرهما تراكم أعمال غير قليلة اعتمدت على بعض عناصر الثقافة الشعبية كمصادر معرفية في

دراسة التاريخ الاجتماعي، وبخاصة تاريخ افريقيا، الذي عنيت مجلة تاريخ إفريقيا بنشر الكثير منها، فضلا عن تلك الدراسات الهامة التي ناقشتها المؤتمر العام لليونسكو الذي عقد في باريس في سبتمبر ١٩٧٣ (٦).

ثانيا: تمهيد نظري:

فرض تناول موضوع الدراسة، إرتيادا لطريق علمي نحو هدفها، مناقشة عدد من المفهومات والقضايا النظرية ذات الصلة، والتي من شأنها مساعدة الباحث والقارىء معا، على متابعة موضوع الدراسة والتواصل معه علميا. وكان من أهم هذه المفهومات: مفهوم الثقافة بعامة ومفهوم الثقافة الشعبية تحديدا، ومفهوم الوعي التاريخي. فضلا عن عدد من القضايا النظرية حول انتاج الثقافة الشعبية ومدلولاتها وعلاقتها بالحركة والوعي الاجتماعيين لمنتجيها.

١ ـ مفهوم الثقافة:

يندر ألا تجد بالمصادر الاعلامية والانتاج العلمي في مجالات علوم الانسان والمجتمع بعامة، والانثروبولجيا والاجتماع والفولكلور تحديدا، إشارة من مستوى أو آخر إلى كلمة «الثقافة». ومع هذا يصعب أن تجد إتفاقا بيّنا على مضمونها، وإلماما بأبعادها ـ أي أبعاد الثقافة ـ إنتاجا وتغيرا وتغايرا عبر الزمان والمكان. ولكي لا نضع القارىء في زحام العرض المدرسي لمحاولات تعريف الثقافة، سنوافيه بما أمكن لنا ـ في حدود متابعتنا ـ استخلاصه من ملاحظات على هذه المحاولات، كمقدمة لا غنى عنها لتقديم تعريف يخدم هدف الدراسة الراهنة.

أ) لعل أول ما يلفت النظر في أمر محاولات تعريف الثقافة، أن الكم الأكبر منها تعامل مع الثقافة كمعطى، حيث كان الاهتمام الأكبر بوظائف الثقافة وما يترتب عليها من تأثير في أفكار وقيم وسلوك أعضاء الجماعة، ومن ثم تأثيرها في خصالهم وأفعالهم. (٧)

ب) في سياق وصف خصائص الثقافة أتت خصائص أكثر تكرارا من غيرها، في مقدمتها الاستمرار والتكامل والتمايز. ومع أن هذه الخصائص كانت وفيرة الحظ عند الوصف، فقد كان نصيبها منه قليل عند التفسير. هذا بالاضافة إلى أن تكرار هذه الخصائص هيأ بعض الاذهان لقبول فكرة سكونية الثقافة، التي تنفي بعض دينامياتها وتناقضات بعض مكوناتها مع البعض الآخر.(٨)

ج) إختلفت محاولات كثيرة لتعريف الثقافة بشأن عناصرها ومكوناتها. فثمة محاولات وسعت من نطاق التعريف فجعلته شاملا على عناصر ومكونات مادية وأخلاقية وروحية وفكرية وسلوكية، كما فعل كلارك ويزلر C. Wissler عام ١٩٣٣ بتعريفه الذي ضم تحته، الخصائص والسمات المادية والنشاطات الاجتماعية S. Activities والأفكار. وهي حاولة تأثرت كسابقات لها، ولا حقات عليها بتعريف تايلور Taylor الكلاسيكي ام ١٨٧١ (٩). وهناك محاولات استبعدت من الثقافة العناصر المادية ومن ثم ركزت فيها على ما هو سلوكي ومعرفي. ومثال ذلك محاولة هاريس M. Harries الذي جعل الثقافة تعبيرا عن طريقة الحياة Way of life. وهناك نمط من المحاولات جعل مفهوم الثقافة قاصراً على ما هو معرفي فقط واقترب بها من معاني قريبة من الإدراك والوعي. باعتبارها أشكال الأشياء والناس والسلوك والمشاعر كما يعيها الناس في عقولهم، ومن ثم فهي أساليبهم في إدراك العلاقات وتفسيرها وتقويمها (١٠).

د) إنه رغم الخلافات المشار إلى بعض منها، حول تحديد مكونات الثقافة، فإن معظم المحاوملات: القديم منها والأحدث، لم يستبعد العنصر أو البعد المعرفي، كأحد المكونات الهامة للثقافة (١١).

في ضوء ما سبق وغيره من محاولات لتحديد المفهوم، ننظر للثقافة في هذه الدراسة بوصفها منتجا إنسانيا، اجتماعيا وتاريخيا، يأتي حصاد لتفاعلات إجتماعية متعددة ومختلفة داخل البنية الاجتماعية لهذا المجتمع أو ذاك، وبين هذه البنية وبيئتها الطبيعية والبناءات الاجتماعية الأخرى والعوالم المحيطة بالبشر وبمجتمعهم. وهي ـ الثقافة ـ

تشتمل على الفلسفة والطرائق التي تبدعها الجماعة للتعامل مع الامكانات والعوالم المحيطة بها، قصد وصفها والتعبير عنها والرمز بشأنها، وتفسيرها وتقويمها، لإنتاج أساليب وضوابط تيسير هذه الامكانات لاشباع الحاجات الروحية والمعرفية والفنية والفكريةوالاجتماعية إشباعاً يضمن تفاعل الجماعة لتجددها و إطراد مجتمعها عبر المراحل والحقب. وهي ـ الثقافة ـ و إن انفعلت بالمرحلة التاريخية المعينة وتذوقتها وتعقلتها، فلها جذور وأركان تاريخية رئيسية، بدونها تفقد هويتها. وفي مقدمة هذه الأركان اللغة والدين، ولهذا تشتمل كل ثقافة على عناصر أو بنود عامة مشتركة بين بني البشر، وعناصر وبنود نوعية ناتجة عن تفاعل حضارة الجماعة المحددة مع تاريخها وهويتها. كما أنها تتباين على مستوى المجتمع الواحد، بتباين قطاعاته، البدوية والريفية والحضرية، وبتباين جماعاته وشرائحه الاجتماعية. إن هذه التباينات، هي التي تنتج ثراء وحدة الثقافة، وتضمن وجود ديناميات تجددها وإطرادها. وهي و إن اشتملت على عناصر ثابتة نسبيا، فلها أيضا عناصرها المتغيرة نسبيا، لتلاقي ما يطرأ على المجتمع من تغيرات، وما تستجد عليه من مهام وتحديات. و إذا كانت بعض عناصر الثقافة تبدو أكثر سطوة عن غيرها في مراحل بعينها، فإن ذلك يرجع إلى طبيعة المرحلة المحددة، ونظامها الاجتماعي العام، وأوضاعه وعلاقاته وأهدافه.

٢ـ الثقافة الشعبية:

حفلت مؤلفات وبحوث الانثروبولوجيا الثقافية، وعلم الاجتماع الثقافي ودراسات التراث الشعبي، بعدة خصائص للثقافة الشعبية، حاز بعضها مقادير من الاتفاق اكثر من غيره. لكن القليل من هذه المحاولات هو الذي التفت إلى جذور هذه الثقافة وتطوراتها، وما يطرأ عليها من تبدلات. أما أكثر هذه المحاولات والذي إستند إلى الاتجاهات الوظيفية في الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع، فقد ركز على التعريفات الوصفية، وعلى الوظائف الاجتماعية للثقافة: الواضحة والكامنة، والميسرة أو المعوقة، لتوازن النسق الاجتماعي وتكامله. في ضوء حصاد هذه المحاولات يمكن رصد الملاحظات التالية:

أ) حاولت بعض الدراسات تتبع صفة «الشعبي» الملحقة بالثقافة، وتوصلت الى أن

هذه الصفة حديثة نسبيا لغة واصطلاحا، فالاستعمالات القديمة تخلو من ثلاثة أبعاث حول معنى الشعبي هي: الشعب بمعنى الدولة أو الأمة بالمعنى السياسي، والشعب بمعنى المحكوم خلافا للحاكم، والشعب بمعنى المضطهد والمحروم. (١٢) على أن عدم وجود الصفة لغة واصطلاحا لا يقيم شاهدا على عدم استخدام مضمونها، تحت مسميات وصفات أخرى، كالعامة والعوام والدهماء وغيرها من المسميات.

ب) يشيع بين معظم المحاولات صفات للثقافة الشعبية كانت أكثر تكرارا من غيرها. في مقدمتها: التداول وسعة الإنتشار وانتقالها شفاهة وعاميتها لغة ورواية، وإرتباطها إيكولوجيا بالريف، واجتماعيا بالمجموعات الأولية والعامة من القوم. وانها تعبير عن بساطة الحياة إنتاجا واستهلاكا وأن مبدعيها غالبا مجهولون(١٣).

ج) وإذا كانت الصفات والخصائص السابقة بدت أكثر انتشارا في المحاولات التي اتخذت من التيارات المثالية والرومانسية في الفكر والعلم الاجتماعي إطارا مرجعيا لها. فقد بين أنصار التيار النقدي أن بعضا من هذه الخصائص ليس مطلقا. وأن ثمة خصائص أخرى ألقت أضواء على إنتاج الثقافة الشعبية ومدلولات تغيرها. فإذا أتينا إلى بعض الخصائص التي وردت لدى الكتاب الرومانسيين نلاحظ أن بعضا منها على الأقل بحاجة لقدر من التحفظ. فبعض بنود الثقافة الشعبية كالأدب الشعبي مدون في كناكيش (كناشات) ومجموعات، وأنه لم يكن دوما مرتبط بالعوام. فهو يقتبس من اللغة العربية الفصحى بعض المفردات والتركيبات، ولا يخلو من ألوان البلاغة وفنية الأسلوب. كما أن الثقافة الشعبية قدمت أحيانا بعض المعلومات الفقهية والتاريخية التي تدلل على سعة ثقافة مبدعيها (١٤). وأن القول بأن منتجها هو الشعب وأنها مجهولة المؤلف، هو قول يوجد من الشواهد ما يحدد اطلاقه ويحاصره الى حد ما. فكم من مقولة وفكرة وشعار صنعته السلطة ووسائل الإعلام، ثم أصبح شعبيا. فضلا عن أن كثرة من الملاحم والسير الشعبية الرائجة عند العامة، تركز على، وتهتم بشخصيات

دينية وسياسية، كانت لها مكانتها في بنية القوة الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية . . . الخ . وأما عن الخصائص الأخرى، ذات الصلة بانتاج الثقافة وتداولها وتغيرها، والتي ركز عليها أنصار التيار النقدي أكثر من غيرهم، فكان من بينها، تحول الإبداع الشعبي الى الخاصة وتوظيفه في إبداعهم كما في ملحمة «أيوب المصري» و«يس وبهية» و«أدهم الشرقاوي» وهي من السير والملاحم الشعبية، وأيضا تحول بعض من انتاج الخاصة الى العامة التي استقبلته وتداولته، ومن أمثلة ذلك سيرتي «عنترة» و«المهلهل» (١٥)، ولعله من الأفكار التي بحاجة إلى تأمل وتدقيق الفكرة التي تذهب الى أن الخاص والعامة اجتماعيا قد لا يتطابقان ثقافيا إلا في مراحل تاريخية كبرى ذات خصائص نوعية، كالتحولات الاجتماعية العامة في بعض العصور التاريخية. ففي العصر الجاهلي كانت الأمية تسود بين العامة والخاصة، وكانا يشتركان في مصادر معرفية وأدبية وفنية متقاربة، تقوم على النقل والتداول الشفهي. كما أن المؤسسات الدينية والاجتماعية والتربوية، لعبت دورا واضحا في تداخل وتفاعل ثقافتي الخاصة والعامة، وثمة نقطة أخرى ناقشها أنصار التيار النقدي في العلوم الاجتماعية، ذات صلة بعلاقة الثقافة الشعبية بتوزيع السلطة السياسيةPolitical Authority . لقد ذهب البعض الى أن الثقافة الشعبية، هي التعبير المكثف عن طموحات وآلام الناس، التي أسهم وجودهم الاجتماعي في صياغتها، والتي لا يجدون قنوات متاحة ومشروعة للتعبير عنها عبر أجهزة ومؤسسات الثقافة والإعلام والإتصال الرسمي، ومن ثم فهي ثقافة محجورة أو تكاد، سعى الناس للحفاظ عليها في الصدور والذاكرة، حتى لا تتعرض للتشويه، وخشية التعرض للعقاب، حال إتيانها بإشارات ورموز وتعبيرات موجهة نحو السلطة الرسمية. وفي هذا السياق ذهب بعض أنصار هذا التيار الى القول بأن هذه الثقافة المحجورة عبرت، في أحوال غير قليلة عددا، عن غياب الحاكم، أي قصور دوره عن نهضة الناس وتلبية تطلعاتهم وطموحاتهم أكثر منها تعبيرا عن حضور المحكومين. وفي أحوال أخرى عبرت عن حضور المحكومين، أكثر من غياب الحاكم، وبخاصة في فترات الإحتلال الأجنبي، ووجود حاكم، يتطابق

خطابه السياسي وممارساته الفعلية مع آمال وتطلعات المحكـومين [١٦]، كما في حال صلاح الدين الايوبي مثلا .

د) بالرغم من أن صفة «الشعبيـة» كـانت صفـة حـاضرة في العـدد الأكبر من محاولات تعـريف الثقـافـة الشعبيـة ، فإن أهم مـا يلفت النظـر بشأنها ليس فقط تحديـد مضمونها الايكولوجي ، الذي ربطها غالبا بالريف وبالمجتمعات الـزراعيـة . أو الاجتماعي ، الذي ربطها بالعامة من الناس أو بالطبقات الـدنيـا ، أو بـالتطـور المجتمعي ، الذي اعتبرها نتاجا لمراحل سابقة أولية أو أدنى تطـورا من النـاحيـة الحضارية أو أكثر تقليدية من الناحية الثقافية . وإنما أيضا تلك الاحكام القيمية التي حفلت بها محاولات تحديد مضمـون «الشعبيـة» والتي تكشف عن مـوقف متعال متحيز ضد مبدعي هذه الثقافة وحـافظيهـا ، والتي تجلت فيما أطلق على هذه الثقافة من أوصاف ، باعتبارها أمية جاهلة وأقل علما ومعرفة ، وما إلى ذلك من نعوت حفلت بها التعريفات الأوروبيـة للتراث الشعبي والثقـافـة الشعبيـة ، ورددتها بحوث ومؤلفات عربية دون تأمل وتبصر كافيين . [١٧]

هـ) وأما عن مكونات الثقافة الشعبية وبنـودهـا فثمـة اجماع أو يكـاد ، على أنها تشتمل على المعتقدات والمعارف الشعبيـة والعـادات والتقـاليـد والصنـاعـات الشعبيـة والأدب الشعبي والموسيقى والفنون الشعبية ، قولا ورمزا ولونـا وصـوتـا ، والطب الشعبي . وأن جل الخلاف كان حول مقادير التفصيل في هذا البنـد أو ذاك ، أو تصنيف أحد العناصر تحت هذه الفئة أو تلك [١٨] .

في ضوء ما سبق من مناقشة وتحليل ، نرى الثقافة الشعبية ونتعامل معها في الدراسـة الراهنة ، بوصفها مستوى نوعيا لمفهوم الثقافـة ، لـه خصـائصـه التي تميـزه عن غيره من مستويات كالثقافة الرسمية التي تصدر عن الاجهـزة الحكـوميـة والـرسميـة ، وثقـافـة الصفوة او الخاصة التي تعبر عن خصائص هذه الصفوة أو الخاصة . إن الثقافة الشعبية منتج مكثف ومتنوع في صيغه وأشكاله وأدواته . أنتج عبر مراحل وتـراكمات تـاريخيـة ، للتعبير عن قـوى وجماعـات اجتماعيـة ، لها خصـائص مشتركـة مع غيرهـا من القـوى والجماعـات التي عـاشت المراحل التـاريخيـة معهـا ، وتفـاعلت معهـا اجتماعيـا بفعل

الضرورة. وهي مراحل ذات ارتباط بأنماط الانتاج البسيطة في تقنيتها وتنظيماتها وعلاقاتها والأكثر اعتمادا على الطبيعة وموادها، وحالتها البكر. إن لهذه القوى والجماعات خصائصها النوعية التي تميزها عن غيرها: فهي الأكثر إلتصاقا بالانتاج الاجتماعي، وذات الدور الأكثر فاعلية فيه، ويعد وعيها اكثر مباشرة وتفصيلا، وأكثر تعبيرا عن الوجدان والمشاعر والعواطف والعلاقة بالعوالم المحيطة بها، وما ترتب عليها من تفاعلات. لقد كان لموقع هذه القوى في بنية مجتمعها بجانب خصائصها المشار إليها، تأثيره في شيوع الشفاهة والتعبيرات الدارجة، وهما صفتان نتجتا عن فرص هذه الجماعة في التعليم والمشاركة في التنظيمات الاجتماعية. وهي تشتمل على العناصر والمكونات ـ التي تشتمل عليها الثقافة بعامة ـ الروحية والاجتماعية والفنية والمادية، ولها الغايات نفسها، الساعية لإشباع الحاجات الاساسية والتعبير عن الأفراح والأتراح، وتنظيم العلاقات والتفاعلات وتسجيل الخبرة والممارسة التاريخيتين لمن تعبر عنهم، كما تصور واقعهم للحفاظ عليه واعادة إنتاجه، أو بالحلم المستقبلي بشأنه.

والذي تجدر الاشارة إليه أن المكونات الآنفة الذكر للثقافة الشعبية، وبغض النظر عن تقسيماتها وتفصيلاتها في هذه المحاولات أو تلك، يمكن تصنيفها عمدا لبعض أغراض التحليل الى مجموعتين: الأولى مسجلة منظورة، وهي غالبا ما تغطي ما يسمى بالعناصر المادية: كالمسكن والملبس والمشرب وأدوات العمل والفن وما شابه ذلك. والثانية متداولة شفاهة وتشتمل على عناصر لا مادية كالمعتقدات والمعارف والتقاليد والعادات والأدب والفن الشعبيين. فضلا عن العناصر اللامادية الكامنة وراء ما هو مادي، أي الأفكار والقيم والمعارف التي نهضت عليها العناصر المادية.

٣ـ الوعي التاريخي:

الوعي كما بين «ابن منظور» في لسان العرب، هو في معناه المكثف، عقيدة وعقل ووجدان (١٩). وهي الأبعاد تقريبا التي انشغلت بها محاولات تعريف الوعي، رغم منطلقاتها الفكرية المتغايرة والمتمايزة، والتي أتى إختلافها أكثر وضوحا في تعيين محددات الوعي، وعوامل تغيره وتباينه بين مرحلة وأخرى، وبين جماعة أو شريحة اجتماعية وأخرى. إن التدقيق في البعدين ـ العقل والوجدان ـ يظهر أنهما تعبير عن الادراك

والتصور Perception & conception والذي يشمل كل منهما مكونات وعناصر بداخله. فالإدراك يشتمل على المشاعر والاتجاهات، والموقف من الظواهر والعلاقات، وتفسير أوضاعها. أما التصور فهو يعني في عمقه ببدائل الظواهر والعلاقات والمستقبلات المرغوبة لها (٢٠).

ان الوعي التاريخي كما ساعدتنا على فهمه الكتابات المتاحة، وعي تشكل تاريخيا، بفعل عوامل داخلية وخارجية. قوامه إدراك تطور المجتمع العربي، إدراكا علميا، يقربنا من تحديد عوامل هذا التطور، وأطرافه، ونتائجه. وذلك لاستخلاص الدروس والعبر التي تعد زادا ضروريا لادراك بدائل المستقبل، وشروط كل بديل وتكلفته الاجتماعية والسياسية والحضارية.

هذا ولقد لفت المهتمون بدراسات الوعي التاريخي العربي، وبالدراسات المستقبلية، الانتباه، إلى نقطة منهجية تحليلية ذات صلة بتنمية الوعي التاريخي وإثرائه. تذهب هذه النقطة الى أن قراءة التاريخ العربي قراءة مستهدفة، في ضوء بدائل مستقبلية مرغوبة، تجعلنا نلاحظ في هذا التاريخ ووقائعه ظواهر وعمليات اجتماعية وسياسية لم يكن بمقدورنا ملاحظتها من قبل. فإذا كان أحد المستقبلات المرغوبة للوطن العربي، يرى في الاعتماد الجماعي على الذات، قطريا وقوميا، وفي الإبداع الفردي والجماعي، أهدافا من بين أهداف هذا المستقبل، فإن ذلك يجعلنا نبحث ونستكشف صيغ هذا الاعتماد على الذات وذلك الإبداع، لتدارس حالاته وشروطها ونتائجها. إن هذه الوجهة من القراءة للتاريخ، تغاير في بعض منطلقاتها وأهدافها تلك القراءات التتبعية السردية، التي تركز غالبا على العموميات وعلى مراحل الانكسار العربي غالبا. (٢١)

لقد قصدنا وللأهداف البحثية أن نستقطع من هذا الفهم للوعي التاريخي، أحد مستوياته، المتعلقة بالفهم العلمي للتاريخ العربي، والمطالبة بإعادة دراسته وتحليله على أسس جديدة، تشمل إعادة النظر في بعض من حقبه ومراحله، وصولا إلى تحقيب آخر، يضع المعايير الحضارية والاجتماعية في الحسبان. والاجتهاد وصولاً إلى مصادر وأدوات تحليلية إضافية وغير تقليدية، توسع من دوائر المعطيات والمعلومات التاريخية، وتسهم في الوصول الى استخلاصات مبرهنة، حول الجوهري والمشترك بين حقبه

ومراحله، والنوعي الخاص بكل حقبة أو مرحلة. وفي تقديرنا أن من شأن هذا المساهمة في التخطيط المستقبلي، والاختيارات المستقبلية المعتمدة على إمكانات المجتمع العربي، الحضارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، بدلا من تلك الاختيارات المتعسفة، التي تكون أكثر تعرضا للإخفاق.

ثالثا: الثقافة الشعبية وتطوير المعرفة التاريخية:

من المسلم به أن معرفة المؤرخ وباحث التاريخ عن الماضي تتحدد بكم وكيف المعلومات التي يحصل عليها من المصادر المتاحة له، والتي يمكن أن يتيحها هو بخبرته وبصيرته العلمية، بتوسيع مجال مصادر المعلومات، وتنويع أدوات الحصول عليها. ومن المعروف أيضا أن كل مصدر من المصادر له رؤيته الخاصة في وصف الأشياء، كما أن له حدوده، التي تجعل له فوائد نوعية محددة، في الوقت الذي يكون فيه هذا المصدر قاصرا عن رؤية أشياء ووضعها خارج حدود إمكاناته وخصائصه. (٢٢)

في ضوء هذا سنحاول توضيح بعض امكانات توظيف الثقافة الشعبية كمصدر معرفي، يحوي معلومات حول التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي العربي، لتوضيح جدواه وحدود إستخدامه، والمتطلبات المنهجية لهذا الاستخدام في عمليات البحث التاريخي والاجتماعي والحضاري:

١ـ الدلالات المعرفية للثقافة الشعبية المادية:

تعد الثقافة المادية بعناصرها ومركباتها، إنعكاسا لتقنيات ومهارات ووصفات وقيم ومن ثم تعبيرا عن الفن الانتاجي، أدوات العمل وتنظيمه الاجتماعي. إنها توضح الكيفية التي يبني بها الناس بيوتهم ويصنعون ملابسهم، ويعدون طعامهم، ويفلحون أرضهم، ويصيدون الأسماك، ويرعون الماشية والإبل، ويحفظون ما تجود به الأرض والماشية وغيرها من طيبات الطبيعة، ويشكلون أدواتهم ومعداتهم، ويصممون أثاثهم وأدواتهم المنزلية (٢٣). إن الاجابة على السؤال «كيف؟» تمت هذه الأشياء وأنجزت،

يحمل دلالات ذات معنى بالنسبة لمستويات المعيشة، وتطور الانتاج، وأنماط الاستهلاك، وعلاقات العمل. كما أن المواد الخام المستخدمة في الإعداد والانتاج، توضح بعض أبعاد حالة تطور الفن الانتاجي. فإستخدام المعادن مثلا، يشير الى مرحلة تطور تقني، وصناعات مساعدة، غير تلك التي يشير اليها استخدام الاحجار والاخشاب. كما أن محتويات ومضامين أي من الأشياء السابقة، مسكنا أو ملبسا، تشير الى أحوال الناس الاقتصادية، ومهنهم، وقيمهم. فإذا كان الانسان هو الأصل والأساس وراء كل هذا، فنحن إذن بصدد أحوال اجتماعية وإقتصادية وفنية وقيمية... الخ).

إن ملاحظة بيوت سكان القرى العربية، في المراحل التاريخية المختلفة يمكن ان توفر للباحث معلومات تساعده في فهم الخريطة الاجتماعية لسكان القرية، وشرائحهم وتراتبهم الاجتماعي. إن بيت العامل الزراعي الأجير له ملامحه التي تميزه عن بيت المزارع الكبير أو مختار القرية أي عمدتها. فبيت العامل كان يبنى غالبا من مواد أكثر تواضعا، هي من الطوب اللبن، وبقايا المنتجات الزراعية البسيطة، من المحاصيل أو الأشجار، بابه صغير نسبيا، ومنافذه ـ أو ما يشابهها ـ محدودة صغيرة فقيرة في موادها. اما المزارع صاحب الأرض الذي يمتلك بعض أدوات الحقل والماشية، فغالبا ما تجد «داره» أكبر حجما، وحجراته أكثر عددا وتخصصا، حجرة للضيوف، وأخرى لمخزونات الأسرة من الطعام والغلال، ومكان مخصص للماشية. باب الدار كبير، يسمح بدخول وخروج أدوات الحقل والماشية، الأثاث يختلف كما وكيفا، عن أثاث العامل الاجير البسيط. يحافظ المزارع على بعض وسائل الامان وحماية الدار ومحتوياته، لأن لديه ما يخشى عليه، في حين أن العامل الأجير، ليس لديه ما يخشى عليه، ولذلك كنت تجده نائما أمام داره، أو تاركا بابه مواربا أو مفتوحا.

لقد بينت دراسات غير قليلة، كيف أن تصميم المنزل الريفي يعكس بعض القيم السائدة. فنوافذ الدار المطلة على الطرق المحيطة بهذا الدار، غالبا ما كانت تصمم، سعة وارتفاعا، حتى تحجب عن المارة على أقدامهم، أو الممتطين دوابهم، رؤية من داخل الدار، نساء وأطفالاً. (٢٤)

وفي هذا الصدد يحدثنا أحد كتب الثقافة الشعبية المصرية عن بيوت الأغنياء والفقراء فيقول «كان للأغنياء عادة منزل فسيح يبنى أساسه بالحجر والجير من الجبال المجاورة ثم من الآجر المطبوخ بالنار. وكانت هذه المنازل لا تتعدى الدور الأول إلا بالدور الثاني . . . كان الأغنياء يتفننون في تزيين البيوت لأذواقهم الخاصة، وفي زخرفتها زخرفة توفر الهناء . . . وللبيت باب يفتح غالبا الى الداخل، وأحيانا إذا كان الباب كبيرا عمل في وسطه باب صغير للدخول والخروج العاديين . . وعادة كانوا يبنون جدارا أمام الباب حتى أذا فتح لا يرى المارة من بداخل البيت . . وواجهة المنزل عليها شبابيك ركبت فيها قضب حديدية خوفا من اللصوص، وهذه القضب متشابكة ضيقة المنافذ لا تمنع الضوء والهواء من الدخول وتمنع الجار من رؤية ما يجري في البيت . . . وتسور عادة بسور نحو القامة . . . وفي داخل الدار صحن يمد البيت بالضوء والهواء، وحوله غرف يتخذ بعضها للخدم وبعضها للحيوانات ومنظرة للرجال» . أما بيوت الفقراء، فقد كانت تتكون عادة من حجرة واحدة للنوم ومكان للبهائم وفناء صغير وقل أن يكون فيها شبابيك . . . كما كانت هناك آلاف البيوت تتكون من مكان واحد دون أفنية أو حظائر(٢٥) وبالمثل أكدت الدراسات المتاحة حول بيوت أهل الخليج العربي كيف انها تجسد التباينات الاجتماعية والمهنية بين السكان، ومن ثم تساعد على استنتاج بعض المعلومات حول الأوضاع والاحوال الاجتماعية للسكان. فلقد كان للثروة أثرها على حجم المنزل من حيث عدد الحجرات وحجمها والمظهر الشكلي للبناء ونوعية المواد والخامات المستخدمة في التشييد. فبيت «سيادي» أحد تجار اللؤلؤ في البحرين، يعكس سعة وارتفاعا ونقوشا، المستوى المعيشي لشريحة تجار اللؤلؤ. كما كان تصميم البيوت في الفريق وتشابكها يعكس جماعية العلاقات الانسانية بين الأسر في محيط الجوار وما بينها من تكافل اجتماعي. (٢٦)

وإذا كان التوزيع النسبي لأنماط السكن الريفي، يساعد في تحديد التوزيع النسبي للشرائح والمجموعات الاجتماعية، فإن أساليب إشباع الحاجات الأساسية، الغذاء، والملبس، تدعم هي الأخرى تصنيف الناس وفق مستويات معيشتهم. لقد أكدت دراسات انثروبولوجية وسوسيولوجية غير قليلة في كثير من مجتمعات العالم الثالث، وفي عالمنا العربي، أن محتويات الوجبات الغذائية، ومصادر الحصول عليها، وبعض

العادات النوعية للغذاء، تعد من بين المؤشرات الدالة على مستويات المعيشة والاحوال الاجتماعية لسكان المجتمع.

ولعل من أمثلة عناصر الثقافة المادية ذات الصلة بفهم التطور الاقتصادي عامة، وفنون الانتاج بخاصة، دراسة أدوات العمل والحرف والصناعات في المراحل التاريخية المختلفة، والتي يستدل منها على المواد الخام المستخدمة في هذه الأدوات وطبيعة العمل سواء كان فرديا أو جماعيا. وفي هذا تفيد مثلا المعلومات المتوفرة عن صناعة سفن الصيد وأدواتها والخيام ومكوناتها وتقسيمها في توفير قدر من المعلومات حول فنون الانتاج والعلاقات الاسرية.(٢٧)

هذا ولقد توصلت بعض دراسات التراث الشعبي، وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى استنتاجات ذات دلالة حول ألعاب الأطفال وأدواتها في عصور مختلفة. فقد بينت العلاقة الحميمة بين اللعب والانتاج، وارتباطهما بإعتبار كل امتداداً للآخر. فأدوات اللعب في كثير من القرى العربية كانت من انتاج الأرض الزراعية، وكانت الألعاب تعد الطفل أو الطفلة للأدوار الانتاجية والاسرية.(٢٨)

كما تسهم دراسة «الاسواق الشعبية»، أماكنها وتنظيمها، وما تعرضه من سلع وخدمات أخرى، وأيام انعقادها، وما تسودها من أعراف، في دراسة الأحوال الاقتصادية. فالسلع المعروضة، ومصادر استجلابها من داخل البلد أو خارجه، وأسعارها، وخصائص من يشترون ومن يبيعون، تساعد في فهم حالة الانتاج والاستيراد، أي الاعتماد على الذات أو على السوق الخارجي. وبعض أبعاد أنماط الاستهلاك(٢٩).

٢ـ الدلالات المعرفية للثقافة الشفاهية:

تعد الثقافة الشعبية الشفاهية، من أدق وأكثر عناصر الثقافة الشعبية حساسية عند التعامل معها كمصادر معرفية حول التطور الاجتماعي والاقتصادي لأي مجتمع من المجتمعات. فإذا كانت العناصر المادية مسجلة ومدونة، يمكن الرجوع والاحتكام اليها، لأنها مجسدة ملموسة، فإن العناصر الشفاهية، تحفل بالتداخل والاختلاط والتعديل تبعا لسياق الانتقال والتواصل من جيل لآخر. ويكاد يتفق الباحثون المعنيون

بالثقافة الشفاهية وبأنماطها الفرعية، على أن ثمة تحديات غير قليلة تواجه الباحث التاريخي والاجتماعي عند محاولته الافادة منها. وهي تحديات سنشير اليها في فقرات قادمة. لكن من بين أهم هذه التحديات، ذات الصلة بتحديد الجدوى المعرفية لهذا النمط من الثقافة، هو ذلك المتعلق بتنميطها، وما يكتنفه من صعوبات ومشكلات منهجية بسبب نقص بعض البيانات، ومحدودية جهود هذا التنميط على المستويين العالمي والعربي. لقد اقترح «يان فانسينا» معايير لتنميط المأثورات الشفاهية، رآها أكثر ملاءمة للبحث التاريخي هي: الغرض من المأثور الشفاهي، وشكله وطريقة تناقله. ولم يستند هذا الباحث عمدا على الموقف النفسي للمأثور أو الفئة الأدبية التي ينتهي اليها كمعايير للتنميط، لأنهما يلفتان النظر الى أبعاد، وإغفال أخرى. ومع ذلك يرى بضرورة عدم استبعادهما نهائيا. لقد صنف المأثورات وفق فئات أساسية، يحتوي كل منها أقساما فرعية، لتوضيح فائدة كل منها للبحث التاريخي. وفيما يلي اشارة إلى عدد منها القصد منه توضيح إمكان الافادة منه كمصدر لفهم التاريخ.[٣٠]

أ) الصيغ:

ومن أنماطها الألقاب والشعارات والصيغ التعليمية والصيغ الطقسية. وتتكون الصيغة من عبارات متكررة على نحو لا يتغير وتستخدم في ظروف خاصة. ومع أنه لا يستهدف منها تسجيل التاريخ، لأنها بمثابة مصدر مساعد ذا طبيعة أرشيفية فإن فائدتها للمؤرخ تكمن فيما يمكن ان تلقيه من أضواء على تاريخ الأفكار، وعلاقتها بالأطر الاجتماعية التي تنشأ فيها وتتناقل وتستخدم عبرها. مع ملاحظة أنه من الصعوبة تحديد الفترة التي تنتمي اليها وتنشأ فيها. فالألقاب كنمط فرعي داخل الصيغ، تصف الأوضاع الاجتماعية والسياسية مثل ألقاب الزعيم والباشا والبيك والمعلم... الخ.

ومع أن الألقاب بذاتها لا تحمل معلومات تاريخية، إلا أنها تعد مصادر إضافية باعتبار ما تحمله من دلالات. أما الشعارات والتي غالبا ما تصف طابع جماعة معينة أو تلخص فلسفتها وايديولوجيتها، فإنها كثيرا ما تحتوي على ملامح لمديح الجماعة ـ عائلة أو قبيلة ـ أو جماعة سياسية. وتتوقف قيمة الشعارات بالنسبة للمؤرخ على مدى الحفاظ

فيهـا على الكلمات الأصليـة . ويمكن استخـلاص معلـومـات منهـا عن الأوضـاع الاجتماعيـة للجماعـة التي تطلق هـذا الشعـار أو ذاك . إن الشعـارات التي تطلق في التظاهرات والاحتجاجات والتمردات الاجتماعية والسياسيـة ، تصف غـالبـا الأوضـاع والأشخاص التي تتناولها ، ببعض الصفـات والتصرفـات ، التي تسـاعـد في فهم هـذه الأوضاع . كما ان بعضا من هذه الشعارات يحمل مطـالب أو طمـوحـات ، تعمق فهم الواقع الذي تشير إليه ، وتعبر عن بعض أبعاد الآمال المستقبلية . لقد عبرت الشعـارات التي حملها الطلاب في احتجاجاتهم عام ١٩٦٨ في فرنسا ، وأيضـا في المظـاهـرات التي قام بها الطلاب في بعض الأقطار العـربيـة ، عن رفض بعض أبعـاد الـواقع ، وقـدمت بعض التعليلات لرفضهـا ، كما أنها حملت مطـالب تجاه الاشخـاص والتصرفـات التي كانت قائمة آنذاك . (٣١)

وبـالنسبـة للصيغ التعليميـة فهي تشتمل على الحكم والأمثـال والأقـوال المأثـورة . وتعتبر رصيد حكمة الجماعة التي أبدعتها . وتعبر عن مواقف واتجاهـات من يعتقـدون فيها ، ويلتزمون بها . وإذا كان القليل من هذه المركبات الثقافية الفرعية هو الذي يحمل في طياته معلومـات تـاريخيـة دقيقـة ، فإنها لا تخلـو من معلـومـات عـامـة عن الماضي وبخاصة عن المعايير السائدة ، والتقويمات الاخلاقية والاجتماعية لبعض أنواع السلـوك المرغوب فيها أو المرغوب عنها . إن بعض الأمثال الشعبية الشائعة في الأقطـار العـربيـة يمكن لنا تحديد نشأته التاريخية تحديدا ولو تقريبيا . كما يمكن معرفة دلالة إرسـال المثل واستقباله ، وما يكشف عنه من أهداف ومرام ، فالمثل الذي يقول «إن طلع من الخشب ماشه يطلع من الفلاح باشا» يمكن القول انـه ارتبط بظهـور القـاب بعينهـا في المجتمع العربي ، وبخاصة لقبي «الباشا والبيك» واللذين ارتبطـا بـالعصر العثماني . كما أن المثل المذكور يتضمن محاولة لاقناع الفلاح بـاستحـالـة صعـوده أو حـراكـه في سلم التراتب الاجتماعي . (٣٢)

ب) الأشعار :

تضم الأشعار مأثورات وأقوال ذات شكل ثابت . وهي وإن تشـابهت مع الصيغ في بعض القواعد ، إلا أنها تتميز عنها من حيث التزام شكلها ومضمونها بقـواعـد وأسس

فنية وجمالية. وتحتوي الأشعار على فئتين فرعيتين: الأولى فئة الشعر الرسمي والذي يسوده نمطان هما: شعر المديح والشعر الديني. والثانية فئة الأشعار الخاصة التي يسودها نمطان هما: الشعر الديني والشعر المعبر عن أمور خاصة بالأفراد والجماعات غير الرسمية (٣٣). وباعتبار الأشعار الشعبية أحد العناصر البارزة في الأدب الشعبي، فإنها تتحدد وتتأثر بما يتأثر به هذا الأدب من تغيرات اجتماعية وثقافية، ومن ثم يرى عدد من دارسي الثقافة الشعبية، أنها من أكثر عناصر الثقافة الشعبية ارتباطا بالبيئة والتاريخ الاجتماعيين للجماعة أو الجماعات التي تنتجها وتتبناها وتحافظ عليها. ومع التسليم بوجود بعض الثوابت النسبية العالمية في الآداب الشعبية، وبخاصة تلك التي تجري في أطر وسياقات اجتماعية اقتصادية متشابهة، نتيجة لتقارب وتشابه مراحل تطور بعض المجتمعات (٣٤)، فإن دراسة الشعر الشعبي تساعد في الحصول على بعض المعلومات عن أحوال المجتمع الذي تسود فيه. فالشعر الرسمي والذي يهتم أكثر بالمديح وبما تريده السلطة من الناس، يعكس بعض خصائص هذه السلطة، وما ترغب من الناس أن يتمسكوا به. أما الشعر الخاص فيعبر عن بعض الخصائص المزاجية والاتجاهات النفسية نحو الآخر، سواء كان مواطنا أو حاكما، أو رموزا للطبيعة. ومع أن بعض القصائد الشعبية التاريخية لا تخلو من مديح، فإنها تحتوي وصفا لبعض الأحداث والوقائع التاريخية، وبعض القرارات الرسمية والشعبية ذات الصلة بهذه الأحداث وتلك الوقائع. (٣٥)

ج) القــوائـم :

تحتوي القوائم على أسماء أشخاص أو أماكن. ويفيد بعض هذه القوائم في دراسة سلاسل الأنساب، وشاغلي بناءات القوة الرسمية وغير الرسمية. إن القوائم الشعبية بأسماء المشاركين في الإجتماعات والتظاهرات وبعض الأعمال الهامة الاقتصادية والانسانية في المجتمعات المحلية، تقدم معلومات تاريخية حول أدوار بعض الأشخاص في مجتمعاتهم. كما أن بعض التغيرات التي تحدث في القوائم الشعبية مقارنة بالقوائم الرسمية مثلا، تحفل ببعض الدلالات الاجتماعية حول تقويم الناس أنفسهم لهذه الأدوار. أحيانا تعطى بعض القوائم الرسمية أولويات لأسماء قبل غيرها كما حدث في

انتفاضات الطلاب والحروب والثورات ، في حين أن القوائم الشعبية تدخل بعض التعديلات على هذه الأولويات ، وبالتالي تلفت انتباه المؤرخ للبحث في أمور والتدقيق في أخرى . وهي إجراءات من شأنها الوصول الى مستويات أفضل من دقة المعلومات التاريخية ، وتحديد الأوزان النسبية لمصادرها .

ذ) الحكايات والقصص الشعبي :

هي شواهد متنوعة الفئات ـ تاريخية وتعليمية وفنية وشخصية ـ والانماط ـ العامة والمحلية والعائلية أو القبلية والتعليلية التي تفسر بعض الظواهر الفنية ـ، تلتزم بالشكل القصصي الذي يقتضي ترتيبا معينا لموضوعها ، وبنية داخلية لعناصرها وما بين تلك العناصر من علاقات . وتحتوي وإن بدرجات متفاوتة على رؤى حول التاريخ وأحداثه . فالحكايات التاريخية التي تتقدم غيرها من حيث وزنها النسبي في تقديم معلومات تاريخية ، تحفل بمعلومات عن التاريخ العسكري والاجتماعي والسياسي وعن بعض التشريعات والتنظيمات . كما أن الحكايات التعليمية تحفل بمعلومات حول القيم الاجتماعية والثقافية وبعض موجهات السلوك . باختصار تقدم معلومات عن بعض مضامين التنشئة الاجتماعية ، التي تعكس بدورها أدوار الاسرة في المراحل التاريخية المختلفة (٣٦). وبالنسبة للحكايات التي تعنى بالتاريخ المحلي (جماعة أو مجتمعا محليا كالقرى والمناطق الشعبية القديمة) فهي تقدم معلومات ، لا تنال اهتمام الكثير من المعنيين بالتاريخ العام ، الذي يتجاوز بعض تفصيلات المجتمعات المحلية . لقد نالت بعض العواصم العربية ، دمشق وبغداد والقاهرة على سبيل المثال ، إهتماما كبيرا نسبيا من المؤرخين ، مقارنا باهتمامهم بالمدن الصغيرة والقرى . ومن ثم فالحكايات المهتمة بهذا المستوى في المجتمعات ، تقدم بعض الشواهد التي تساعد على فحص بعض مفردات التاريخ العام من خلال دراسة التشابه والعلاقات بين هذا التاريخ العام للمجتمع ، والتاريخ النوعي لمجتمعاته المحلية الفرعية . ويثير بعض المهتمين بالقصص الشعبية نقطة ذات دلالة منهجية حول الدور المعرفي لتلك القصص كمصادر تاريخية ، مؤداها ، أن بعض هذه القصص يعاد انتاجه في مراحل تاريخية مختلفة ، وفي اعادة الانتاج هذه تجري بعض التعديلات على بعض المواقف

والشخصيات، كما حدث في سيرة «الظاهر بيبرس» على سبيل المثال. مما قد يقلل من مصداقية ما تحتوي عليه هذه القصص والملاحم والسير الشعبية من معلومات. غير أن بعض الباحثين يرى أن التعديل منطقا وشكلا ومضمونا، يمكن أن يعكس التغيرات التي تجري في المجتمع، من ناحية، وقد يتضمن خطابا شعبيا للسلطة، إن نقدا ـ مواربا ـ أو طرحا لمطالب شعبية تُحَمَّل للشخصية او الموقف، عبر التعديلات التي تجري عليهما. (٣٧)

٣ـ الثقافة الشعبية والوعي بتاريخ الجماعة:

إذا كانت الفقرة السابقة قد حاولت إبراز إمكان الافادة من الثقافة الشعبية، كمصادر لمعلومات تاريخية، أو موحية بمعلومات أخرى، أو منبهة لاعادة النظر في معلومات ثالثة، أضحت كالمسلمات. فإن الفقرة الراهنة لا تهتم بتفصيلات هذه المرحلة أو تلك، والمتغير نسبيا في كل، وإنما بالمطرد والمتكرر متجددا من خصائص الجماعة المعينة التي انتجت عناصر بعينها من الثقافة الشعبية أو اعادت انتاجها بعد استعارتها بإدخال تعديلات عليها، أو تبنتها وحافظت على تواصلها من جيل إلى جيل. إن البحث في هذا البعد المتكرر نسبيا، يمكن أن يقدم فرضيات حول شخصية الجماعة، وبخاصة إيجابيتها أو سلبيتها في المشاركة الاجتماعية، وآمالها وطموحاتها المستقبلية. وهي فرضيات يفضي إختبارها العلمي، وما يثبت صحته منها، الى المساهمة الفعالة، في انتقاء المشروعات الاجتماعية والسياسية والتخطيط لها، لضمان نجاحها واضطرادها. وفي مقدمة هذا صيغ المشاركة الاجتماعية والسياسية والتنظيمات الديمقراطية.

هذا ويمكن الافادة من التركيز على المطرد في مضامين بعض عناصر الثقافة الشعبية في أمرين على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لاستشراف مستقبل الوطن العربي، وبخاصة أي مستقبل مرغوب فيه، يحقق طموحات وتطلعات الأمة، ذلك المستقبل الذي لن يحدث إلا عندما يكون الإنسان العربي فاعلا ومبدعا. يتمثل الأمر الأولي في دراسة الملامح العامة والنوعية للطابع القومي للشخصية العربية دراسة موضوعية تكشف الايجابي والسلبي من الخصائص. ويتمثل الثاني في فهم أهم المحددات

الخارجية والداخلية التي أثرت في تطور المجتمع العربي، إن انكسارا أو نهضة.

ولعله مما يلفت الانتباه في هذا الصدد ما استخلصه ووعاه الضمير الشعبي العربي، وسجله، من خلال سيره وملاحمه الشعبية حول الأخطار الخارجية التي أثرت وما تزال تؤثر في مصير المجتمع العربي. لقد حفلت السير والملاحم الشهيرة من أمثال سيرة «عنترة بن شداد» و«حسان اليماني» و«حمزة العرب» و«الزير سالم» و«سيرة بني هلال» و«الأميرة ذات الهمة» وغيرها، بحروب وصراعات مع مجتمعات أخرى كالفرس والروم، ترتبت عليها آثار اجتماعية واقتصادية وسياسية في المجتمع العربي. كما تكرر في الملاحم والسير المذكورة، فكرة أن انتصار العرب في حروبهم مع عدوهم الخارجي. غالبا ما ارتبط بصيغ للتكاتف والتضامن بين شعوب المناطق العربية. وأن هذه الحروب إمتدت واتسعت ولم يقتصر نطاقها على مجموعة عربية محددة. فالسيرة الهلالية على سبيل المثال تبدأ بتحالف عرب الجزيرة العربية، شمالا وجنوبا، تحت شارة «الهلال»، مرورا بالشام وفلسطين ولبنان ومصر وليبيا، حتى انتهى الترحال بتلك القبائل في تونس «قرطاج»، مواصلة حروبها على طول الساحل الافريقي، وفي اليمن والجنوب العربي، وشمالا حتى العراق ومملكة النعمان، فبلاد الفرس. ونلاحظ الأمر نفسه في سيرة «حمزة العرب» الذي بدأ حروبه من أم القرى، مرورا بالعراق ثم إمتدت إمبراطوريته على طول غرب آسيا وآسيا الصغرى واليونان وروما ومصر. وتجدر الاشارة الى أن سيرة «حمزة» هذه حفلت إلى حد الرصد الإثنوجرافي، بتوصيف أحوال البلدان التي مرت بها جيوشه، في مصر والسودان وأثينا وروما. وورد بهذه السيرة وصف للشوارع وعلاقات البيع والشراء والأزياء والطعام. وفضلا عن ذلك بينت هذه السير وبجلاء كيف ارتبطت معظم الحروب التي تحكي عنها بمصادر الثروة المتاحة حسب الأزمان المختلفة، وفي مقدمتها الماء. هي فكرة ستتكرر في التاريخ العربي الحديث والمعاصر حول ثروات العرب، سواء كانت ثروات طبيعية كالزراعة وبخاصة القطن والقمح أو النفط أو موقعا جغرافيا سياسيا هاما كما هو الحال في موقف الغرب من بعض المناطق العربية، مصر وفلسطين ومدخل البحر الأحمر والخليج العربي. (٣٨)

وثمة سير بعينها ركزت أكثر من غيرها على بعض متطلبات النهضة والصمود

العربيين، من بينها طبيعة الشخصية القيادية وخصائصها، وتصرفاتها التي جسدت تطلعات الشعب العربي، فاستطاعت تعبئة الشعوب العربية تحت لواء واحد. فخصائص أبطال هذه السير فضلا عن تميزها بالجسارة والتحدي، أتت أيضا حافلة بكثير من صيغ العدل وتوظيف الامكانات المتاحة. ولعله مما يلفت النظر في هذه السير إهتمام بعضها بقضية التقنية وامتلاكها عربيا. ففي سيرة «ذات الهمة» فقرات ليست قليلة، تحدثت عن تفوق الروم البيزنطيين على العرب بسبب امتلاكهم لتقنية التحكم في خزانات المياه، وللقنابل البترولية، والذي كان حافزا للعرب لفهم علوم هذه التقنية والافادة منها وتطويرها للأغراض السلمية والحربية. وهو أمر ظهرت نتائجه في هذه السيرة عندما هزم العرب الامبراطورة البيزنطية «إيرين» في موقعة «آمن» عام ٧٧٥ ميلادية (٣٩). ولعله مما يدعم الوعي التاريخي للذاكرة الشعبية بقضية التقنية وأهميتها في مسيرة المجتمع العربي ما حملته الثقافة الشعبية من انتاج حولها. فثمة بعض المأثورات الشعبية العربية تروي حكاية شبيهة بالأسطورة، عن حرفي عربي اخترع قطارا ابان الاحتلال البريطاني، فقامت سلطات الإحتلال بإلقاء القبض عليه وقطع يديه. وتنتشر هذه الحكاية في عدة مناطق عربية، ولكن مع تغير عناصرها، واختلاف بعض صورها. ففي مرة يصور الحرفي العربي كمخترع لآلة حصاد، وفي ثانية كمخترع لدواء. ولعل الملفت للانتباه في هذه الحكايات رغم ما يطرأ عليها من تعديلات، هو حفاظها على وجود سلطة الإحتلال الاجنبي في الحكاية، وحفاظها على قطع اليدين كعقاب تاريخي على الإبداع. (٤٠)

رابعا: بعض الأسس المنهجية للتعامل مع الثقافة الشعبية:

ثمة عدة أسس ومتطلبات وجب أن يحوزها ويلم بها الباحث المعني بالتعامل مع الثقافة الشعبية كمصدر معرفي لفهم التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والحضاري لجماعة محددة أو مجتمع بعينه، نوجز أهمها على النحو التالي:

١ـ إن أول المتطلبات لتأسيس خبرات الباحث، أن يعبر تلك الحواجز المصطنعة بين علوم كثيرة موضوعها المشترك هو الانسان والمجتمع. فثمة عدة علوم لابد له من

الاطلاع على دراساتها وبحوثها حول المجتمع المراد توظيف ثقافته الشعبية في فهم تاريخه. ومن بين هذه العلوم: الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والاجتماع والانثروبولوجيا والآثار واللغة ودراسات اللهجات المحلية وعلم النفس الاجتماعي ودراسات الأدب الشعبي. إن الحصيلة المعرفية التي يوفرها الباحث لنفسه، تعمق وعيه العلمي والاجتماعي بالمجتمعات التي سيدرسها، وتجعله في موقف علمي أكثر تمكنا من فهم وتأويل وترجمة ومقارنة وتحقيق المعلومات التي سيصل اليها. (٤١)

٢ـ أكدت الدراسات والتحليلات المختلفة التي قصدت توظيف الثقافة الشعبية كمصدر تاريخ على قاعدة هامة مؤداها: ان ثمة مصادر متنوعة لظواهر وعمليات الثقافة الشعبية، بعضها مسجل ومكتوب، وبعضها شفاهي، وأن داخل كل مصدر من هذين المصدرين العامين مصادر كثيرة فرعية متعددة، بتعدد جوانب وأبعاد الثقافة الشعبية. وأكدت تلك الدراسات والتحليلات أن هذه المصادر ذات أهمية نسبية وأوزان مختلفة من حيث دورها في توفير المعلومات والبيانات حول الأبعاد المختلفة للمجتمع. ففي بعض الأبعاد تكون الشواهد المسجلة أكثر أهمية من غيرها كما في بعض جوانب الاقتصاد. في حين يكون للممارسات السلوكية الملموسة دورا أكبر في دراسة العادات والتقاليد. في الوقت الذي تلعب فيه الحكم والأمثال والسير الشعبية دورا أكثر أهمية في دراسة الوجدان الشعبي، بأبعاده النفسية والمعرفية (٤٢)؛ كما نبهت على أن التعامل مع المصادر الأكثر أهمية عن غيرها، لا يلغي دور المصادر الأقل أهمية في إستكمال الفهم والتوثيق، والافادة من بعض التفصيلات.

٣ـ بالرغم من التسليم بأن الباحث التاريخي أو الاجتماعي، ليس مطلوبا منه أن يكون متخصصاً في الثقافة الشعبية، لأنه من المفروض أن يبدأ من حيث إنتهى المتخصصون في دراسة التراث الشعبي. بالرغم من هذا فإن المام الباحث ببعض خصائص المصادر التي سيعتمد عليها، يجعله في موقف أفضل علميا، لتقييم ما تتضمنه هذه المصادر من معلومات وبيانات. ولعل من أهم ما يجب فهمه

بشأن هذه المصادر (٤٣):

أ) فهم الشاهد Testimony الذي سيعتمد عليه، ومعرفة ما إذا كان يتضمن معلومات تاريخية أم لا. وهو ما يسمى بتحديد المضمون التاريخي للشاهد. ولابد هنا من الاشارة الى أن لكل نوع من أنواع المأثورات الشفاهية خصائصه كما أن لكل نوع من الشواهد اللفظية ملامحه الخاصة التي تؤثر في الشاهد وفي قيمته المعرفية. ومما يساعد على عملية الفهم هذه التمييز بين الشواهد التي قصدت تسجيل وقائع تاريخية، وتلك التي لم تقصدها مباشرة. وتحديد مغزى مضمون الشاهد، وما إذا كان رسميا (من قبل التنظيمات الرسمية) أو خاصا غير رسمي.

ب) تحليل بنية الشاهد الظاهرية الخارجية والداخلية لأنها تضفي على هذا الشاهد أو ذاك أهميته الخاصة. إنه من الضروري التمييز بين النصوص الثابتة والنصوص المتغيرة، لم لذلك من تأثير على الصدق النسبي لما يحتوي الشاهد من معلومات وبيانات.

ج) تحديد طريقة تناقل المأثور. ذلك لأن بعض المأثورات يتم تناقله من جيل لآخر بشكل عشوائي. في حين أن بعضا آخر يتم تناقله وفقا لقواعد معينة. ومن ثم قد يخضع لرقابة من نوع أو آخر، فيتم التقليل من أو المبالغة في بعض الاحداث والتفصيلات.

د) تحديد طريقة تقديم الشاهد، لمعرفة ما إذا كانت فردية أو جماعية. ذلك لأن طريقة التقديم تؤثر في المضمون وفيما يحتويه هذا المضمون من تفصيلات، فضلا عن التأثير في مستوى صدق هذا المضمون. فطريقة التقديم الجماعية قد تكون أكثر صدقا لأنها لابد وأن تحظى بقدر مبن القبول من قبل الجماعة التي تقوم بالتقديم.

هـ) من المسلم به أن الشواهد التي يتم الحصول عليها تخضع للتحريف، لأسباب موضوعية تتعلق بالفترات الزمنية التي ينتقل عبرها الشاهد، ولأسباب ذاتية تتعلق بوعي ومقاصد حملة الشواهد كالرواة على سبيل المثال،

الذين يقصد بعضهم تحقيق أغراض محددة. ومن الممكن اكتشاف بعض التحريفات في معرفة المقاصد المرجوة من وراء التحريف. فبمقارنة ما يرويه الراوي الأخير، بالروايات المتنوعة وبدراسة سلسلة التناقل، وبمقارنة الشواهد المتنوعة التي إنحدرت من الشاهد الأول، يمكن اكتشاف التحريف وبعض حدوده. هذا فضلا عن أن التحريف يمكن أن يكون دليلا على بعض الأوضاع والظروف الموضوعية التي أفضت إليه.

و) ضرورة مقارنة الشواهد ببعضها لمعرفة المتكرر والمتفرد من الأحداث والوقائع. ويلزم هنا الجمع بين المقارنة النصية ومقارنة التفاصيل، لأن من شأن ذلك أن يساعد الباحث على ترجيح الأقرب إلى الصدق من الوقائع والحوادث(٤٤).

ز) يتعين على البحث التاريخي عند تعامله مع الثقافة الشعبية أن يسير في تحليله من الخاص للعام، أي من الوحدات (أو الموتيفات) إلى تحليل المركبات الكاملة المعقدة. ذلك لأن الظاهرة الشعبية الواحدة معقدة في تركيبها ومتنوعة في مستوياتها، وأن عناصرها تعود إلى فترات زمنية متفاوتة، وأنها دائمة التفاعل الحي مع كل مرحلة(٤٥). إن دراسة هذه الوحدات يساعد في إعادة تركيب العام، وفهمه في إطار أكثر إبرازا للجوهري والمشترك، داخل وبين الوحدات الصغرى للتحليل.

خامسا: بعض مصادر الثقافة الشعبية (٤٦):

بالاضافة الى المصادر التاريخية المعروفة والمألوفة مثل حوليات المؤرخين وكتب التراجم والطبقات، هناك مصادر أخرى منها مثلا لا حصرا:

١) المؤلفات الجغرافية ومن أمثلتها «كتاب البلدان» لليعقوبي.

٢) الكتب الأدبية والأعمال الأدبية الشعبية ومنها على سبيل المثال كتاب «الأغاني» للأصفهاني، وكتاب «المخصص» لابن سيده، أبو الحسن علي بن اسماعيل،

و«عيون الأخبار» لابن قتيبة، و«مجمع الأمثال» للميداني، أبو الفضل ابن محمد بن أحمد النيسابوري، وكتب السير والملاحم الشعبية.

٣) الكتب الاجتماعية والفكرية، ومن أمثلتها كتاب «لسان الحكام في معرفة الأحكام «لابن الشحنة، أبو الوليد ابراهيم بن محمد» ومؤلفات رفاعة رافع الطهطاوي.

٤) كتب الرحلات وأدبه ومن أمثلتها أعمال ابن بطوطة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار».

٥) مصادر التراث الشعبي الثقافي، سواء ما تم جمعه، أو ما ينقله الرواة، وغير ذلك من المصادر الميدانية التي يلجأ إليها دارسو الثقافة الشعبية، بالاضافة الى الاراشيف الخاصة بالفولكلور.

٦) ما يحفظه ويتناقله الناس من مأثورات، والتي يمكن الحصول عليها من إخباريين شاركوا في أحداث وعايشوها، ولديهم إلماما بما يحفظه الناس ويرددونه ويعتقدون فيه.

سادسا: حدود الثقافة الشعبية كمصدر معرفي لدراسة التاريخ:

من المسلم به في البحوث الاجتماعية، ومنها بالطبع البحث التاريخي، أن كل مصدر من مصادر البيانات، لا يخلو بذاته من قصور وأنه من الضروري الاستعانة بعدة مصادر لتعويض نقص وقصور بعضها البعض. إن هذه المسلمة تنطبق بالتالي على الثقافة الشعبية كمصدر من مصادر المعلومات التاريخية. ولذلك لابد من السعي لتلافي بعض ما بها من أوجه قصور على الاقل، بالاستعانة بالمصادر التاريخية الأخرى. وبخاصة الوثائق المدونة وعلوم الآثار والتاريخ الثقافي واللغويات والانثروبولوجيا الطبيعية. إنه إذا كان كل مصدر يمدنا ببيانات محدودة في ذاتها، فإن تكامل المصادر يوسع من دائرة معرفتنا باحداث الماضي. كما أن الاختيار النظري للباحث يمكن أن يقربه أو يبعده عن الاحتمالات الأكثر دقة والأكثر قربا من الحقيقة التاريخية. إن تفسير التاريخ، وتفسير مصادره هو عملية اختيار بين فرضيات تطرحها توجهات نظرية

مختلفة، ومن ثم يأتي بعض الفرق بين تفسير وآخر، من سلامة الاختيار واستناده الى أسس وشواهد وبراهين علمية . (٤٧)

ولقد وجه الى توظيف الثقافة الشعبية كمصدر معرفي لدراسة التاريخ عدة انتقادات وملاحظات منهجية، كان من أهمها ما يلي :

١ ـ أنه يصعب تحديد النشأة التاريخية، لبعض عناصر الثقافة الشعبية . وبالتالي يصعب ايجاد ربط منطقي مقبول بينها وبين فترات أو مراحل تاريخية محددة يمكن اعتبار هذه العناصر انعكاسا وتصويرا لبعض أبعادها الاجتماعية والحضارية . ومع أن مثل هذه الملاحظة تنطبق على بعض عناصر الثقافة الشعبية، إلا أن ثمة بعضا آخر يمكن تحديد الحقب التاريخية لإنتاجه . فثمة عناصر ونصوص ثابتة أو متغيرة نسبيا يمكن إرجاعها إلى مراحل تاريخية بعينها كالعصر الفاطمي أو العثماني أو الاستعماري الأوروبي مثلا . إن مضامين النصوص وبنيتها الداخلية والخارجية وما تركز عليه من تصرفات وأطراف وعلاقات يمكن أن تساعد الباحث على التحديد ولو التقريبي لزمن انتاجها أو اعادة انتاجها . كما أن العناصر الثقافية المتغيرة، يمكن في ضوء نمط تغيرها وموضوعاتها أن تساعد الباحث على استنتاج الحقب التي يحدث هذا التغير فيها، بالتركيز على دلالة التغير وموضوعاته . ويقترح بعض الدارسين قاعدة منهجية إضافية تساعد في التتبع التاريخي لنشأة وتطور بعض العناصر الثقافية . تذهب هذه القاعدة الى ضرورة البدء بدراسة العنصر الثقافي المحدد في الحاضر، دراسة وافية توظف فيها مختلف المصادر المتاحة، المدونة والشفاهية، والرواة والاخباريين، ثم الرجوع من الحاضر الى الفترة السابقة عليه، ثم إلى التي تسبقها وهكذا، حتى يتعذر وجود الشواهد والأدلة على وجود العنصر الثقافي المدروس . إن هذه القاعدة تساعد الباحث في الربط بين العنصر الثقافي المحدد وسياقه الاجتماعي والاقتصادي، مما يفتح بابا امام مزيد من المعرفة بالحقب أو المراحل التاريخية المحددة . ويقترح هؤلاء الدارسون عدم التقيد بالتحديدات الزمانية التعسفية أو الارتباط بسنوات معينة كما يؤرخ للحكم أو الحروب أو ما على شاكلتها من أحداث ووقائع . ولهذا يجب تحقيب التاريخ وفق معايير كيفية، تعبر عن انتقال المجتمعات من مرحلة

أو مراحل إلى أخرى مغايرة لها نسبيا .

٢ـ تتعلق الملاحظة المنهجية الثانية بحدود صدق وموضوعية البيانات التي يمكن الحصول عليها من مكونات الثقافة الشعبية وعناصرها . يذهب البعض إلى أن هذه البيانات تعاني من التداخل والتأثير الذاتي لرواتها ومدونيها وناقليها . ومع التسليم بوجود هذا التأثير بدرجات متفاوتة في بعض العناصر الثقافية ، إلا أنه تأثير ليس قاصرا على الثقافة الشعبية . فلو قابلنا بين المؤرخ والباحث من ناحية ، وبين المبدع الشعبي ، فردا كان أو جماعة من حيث وعي كل ، ومحددات هذا الوعي ، سنجد نقاط التقاء وتشابه غير قليلة . فوعي الباحث والمؤرخ يتحدد بأن كل منهما إنسان له مصالحه وخبراته وتجاربه ، وله موقعه من جماعات القوة . وكلها محددات تؤثر في الوعي العلمي للباحث والمؤرخ ، وبالتالي تؤثر في ممارسته البحثية والتأريخية ، من حيث رؤية الوقائع وإنتقائها وترتيبها وتأويلها وتفسيرها . ولذلك يطالب المعنيون بالبحث التاريخي بضرورة الالتزام بشروط التحقيق الداخلية والخارجية للوثائق والبيانات ، وبضرورة مضاهاتها بمصادر أخرى لتحديد تأثير ما هو ذاتي فيها . إن المسلك المنهجي نفسه يجب الالتزام به عند التعامل مع عناصر الثقافة الشعبية ومضامينها . فالمقارنة بين مضامين المصادر وبين الرواة مثلا ، يساعدنا في الوصول الى مواقع أكثر قربا من الموضوعية . هذا فضلا عن ان الاتفاق بين الرواة ، وتكرار بعض المضامين ، عبر المراحل التاريخية ، والأماكن الجغرافية ، يمكن ان يوفر فرصا اكبر للاتفاق على المعلومات ، ومن ثم درجة أكبر من الموضوعية . وإذا كان المؤرخ في رصده وتفسيره يتحدد أكثر بالذي كان ، فإن المبدع الشعبي ، يحمل وعيا ممكنا مستقبليا ، يمكن أن يفتح بابا أمام الخيال العلمي والاستشراف المستقبلي . بعبارة أخرى يسهم المبدع في التأريخ للمستقبل ، إضافة الى جهده في رصد الماضي ، وهي عملية ـ التأريخ للمستقبل ـ تسهم لو أحسن إنجازها في إثراء وعينا المستقبلي بمجتمعنا وما يطرح عليه من مهام للنهضة والتقدم .

خاتمة واستخلاصات

من العرض السابق تبين أن الثقافة الشعبية، بخصائصها وانتاجها أو إعادة هذا الانتاج، وبما تحمله مضامينها من معلومات اجتماعية وسياسية وحضارية واقتصادية، حول الجماعة التي انتجتها أو تبنتها، يمكن أن تثري وعينا التاريخي عبر عدة مستويات هي:

١ـ انها يمكن أن توفر معلومات وبيانات تعين في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والحضاري للمجتمع العربي، بأقطاره وشرائحه وجماعاته الاجتماعية ومجتمعاته المحلية.

٢ـ انها يمكن أن تساهم في صياغة فرضيات علمية حول الشخصية الجماعية العربية، يساعد اختبارها علميا، خاصة ما يصدق منها، في توفير معلومات واستخلاصات ضرورية لفهم التاريخ العربي، خاصة تاريخ البشر وتفاعلاتهم من ناحية. وتقدم مادة علمية لمتخذ القرار والمنفذ، من شأنها ان تفيد من ناحية أخرى، في تحديد بعض أهداف المستقبل المرغوب وما يقتضيه من أهداف مرحلية، ومطردة متجددة. فشخصية الابطال التي حفلت بها السير والملاحم الشعبية، وما حملته من خصائص، وما أتت به من تصرفات وأفعال، وإلتفاف الناس حولها، وتفاعلهم معها، يمكن أن تؤثر في تحديد بعض صيغ الحكم والممارسة والادارة السياسية، وصيغ وتنظيمات المشاركة الاجتماعية والسياسية. كما أن الفرضيات التي يمكن صوغها حول الحروب والمنازعات الداخلية والخارجية تفيد حال إختبارها علميا، في توفير رصيد علمي يسهم في تحديد الأوزان النسبية لدور العوامل الداخلية والخارجية في حركة المجتمع العربي وتطوره.

٣ـ ان الدراسات المسحية المتعمقة حول الثقافة الشعبية، وبخاصة الدراسات المقارنة على مستوى الأقطار العربية، تساعد في استخلاص بعض العناصر والخصائص المشتركة وتلك النوعية، المتعلقة بكل قطر عربي، وبخاصة ما

يتعلق منها بالخبرات التاريخية وبالوجدان الشعبي. وهي استخلاصات تفيد في اختيار وتصميم المشروعات العربية المشتركة، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٤ـ ان الثقافة الشعبية كمصدر للمعلومات والبيانات التاريخية لها فوائدها وحدودها العلمية، شأنها في ذلك شأن أي مصدر علمي آخر للبحوث الاجتماعية والتاريخية. وعليه فهي لا تقدم بمفردها قاعدة بيانات يمكن توظيفها في البحوث، إذ من الضروري مساهمتها مع غيرها من المصادر في توفير المعلومات والبيانات، واختبار مصداقيتها.

٥ـ ان التعامل مع الثقافة الشعبية كمصدر للمعلومات والبيانات له متطلبات وأسس، واجراءات منهجية، يساعد الالتزام بها على تقوية فرص الإعتماد عليها كمصدر علمي. ولعل من بين أهم تلك المتطلبات:

أ) ان يكون الباحث الذي سيوظفها على اطلاع ودراية بنتائج دراسات وبحوث تنتمي الى تخصصات أخرى، كالاقتصاد والاجتماع والآثار وعلم النفس والسياسة واللغويات وبخاصة اللهجات المحلية ودراسات الجغرافيا والايكولوجيا البشرية والانثروبولوجيا بفروعها. إن توفر هذا الرصيد العلمي لدى الباحث يجعله في موقف علمي أكثر تفهما ووعيا بما يدرس، شكلا ومضمونا وتطورا.

ب) ان كثيرا من الأساليب المنهجية للبحث التاريخي، كالملاحظة العقلية كما ذهب ابن خلدون، والمقارنة، والتحقيب التاريخي، أي تصنيف مراحل التاريخ وفق أسس علمية متنوعة، والتحقيق التاريخي للمصادر، واجراء المقابلات مع الرواة وحملة الثقافة الشعبية والتاريخ الشفاهي الذي لم يسجل بعد، كلها أدوات واجراءات تعلي من شأن رصيد صدق هذه الثقافة كمصدر للمعلومات.

اهم المصادر والحواشي:

١) عبدالباسط عبدالمعطي، الوعي التنموي العربي، ممارسة بحثية، معهد الانماء العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

٢) الجمعية العربية لعلم الاجتماع، ومركز دراسات الوحدة العربية، ندوة «نحو علم اجتماع عربي»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦ . وأيضا المركز العربي للبحوث والدراسات والتوثيق (القاهرة) والمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ندوة «إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي»، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٤ .

٣) المصدر السابق.

٤) إدوار كار، ما هو التاريخ؟، ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٦، ص ١٨ ـ ١٠، ص ٦١ .

هذا وقد ألح على هذه النقطة عدد من الباحثين الجادين في التاريخ، في أعمال منشورة لهم منها:

ـ عبدالله العروى، العرب والفكر التاريخي، دار الحقيقة بيروت، ١٩٧٣ .

ـ عاصم الدسوقي «نحو منهج لكتابة تاريخ مصر الاجتماعي»، ندوة مجلة فكر، وموضوعها «إشكالية الكتابة التاريخية»، القاهرة، ابريل ١٩٨٦ .

كما برز اهتمام بهذا في ندوة الثقافة الشعبية في الوطن التي عقدها مهرجان قابس الدولي بتونس بالتعاون مع الجمعية العربية لعلم الاجتماع، خلال الفترة من ١١ ـ ١٣ يوليو ١٩٨٦ .

٥) يان فانسينا، المأثورات الشفاهية، ترجمة وتقديم أحمد مرسي، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٠، ص ٨٢.

٦) المصدر السابق، ص ٥٢ .

٧) فاروق مصطفى اسماعيل، الانثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص ص ١٠١ـ١١٠.

٨) المصدر السابق، ص ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

٩) HARRES, M., "HISTORY AND IDEOLOGICAL SIGNIFFICANCE OF THE SEPARATION OF SOCIAL AND CULTURAL ANTHROPOLOGY "IN BEYOND THE MYTHS OF CULTURAL, ed. Iy Ross, E. ACADEMIC PRESS. LONDON, 1980, pp. 391 - 407.

١٠) ibid, p. 399.

١١) SPRADLEY, J., "FOUNDATION OF CULTURAL KNOWLEDGE" in CULTURE AND COGNITION, Ed by : SPRADLEY, J; CHANDLER PUBLICATION COMPANY, LONDON, 1972, pp. 3-38.

١٢) الطاهر لبيب «هل هناك ثقافة شعبية ـ فرضيات للبحث»، دراسة قدمت لل ندوة الثقافة الشعبية في المجتمع العربي»، مهرجان قابس الدولي، بالتعاون مع الجمعية العربية لعلم الاجتماع، قابس تونس ـ ١١ ـ ١٣ يوليو ١٩٨٦م.

١٣) عباس الجراري، «المبدع بين الفردية والجماعية»، مجلة المأثورات الشعبية، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة ـ قطر، السنة الأولى، العدد الثالث، يوليو ١٩٨٦، ص ص ٣٧ ـ ٤٢. وسيد حامد حريز «تحديد مفهوم الأدب الشعبي»، المصدر السابق، ص ص ٢٨ ـ ٣٤.

١٤) عباس الجراري، المصدر المذكور، ص ٣٨.

١٥) الطاهر لبيب، مصدر مذكور، ص ص ٣ ـ ٧.

١٦) المصدر السابق، الموضع نفسه.

١٧) محمد الجوهري، علم الفولكلور، ج ١، دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨، ص ص ٣٦ ـ ٥٣، ومن أمثلة بعض هذه التعريفات التي أرادت توضيح معنى الفولكلور ما ذهب إليه فرانسيس بوتر F. Botter حين ذهب إلى أن الفولكلور هو نتاج آلاف السنين من التخلف العلمي والثقافي. وتوضيح روبرت ردفيلد لمعنى الشعبي بقوله أنه يشمل الفلاحين والأجلاف الذين لا يعتمدون على المدنية اعتمادا كاملا. أنظر أحمد مرسي، مقدمة في الفولكلور، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨١، ص ٦٧، ص ١٠٠.

١٨) هاني العمد، «في التراث الشعبي وإشكالية تصنيفه»، مجلة المأثورات الشعبية، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، السنة الأولى، العدد الثاني، ابريل ١٩٨٦، ص ص ٣٨ ـ ٤٩. وقد اتفق على هذا المضمون للثقافة الشعبية أيضا كل من محمد الجوهري، مصدر مذكور، ص ص ٥٦ ـ ٦١.

١٩) في هذا الصدد يذهب ابن منظور إلى أن الوعي هو حفظ القلب الشيء وفهمه واستيعابه وقبوله والتمسك به والعمل من أجله. ويشمل الوعي عنده العقيدة والفكر والمحسوسات.

٢٠) LICHIMAN, R; "SOCIAL REALITY AND CONSIOUSNESS" in D. COLFAX & J. ROACH, (eds) RADICAL SOCIOLOGY, BASIC BOOKS. N. Y. 1971, PP. 149 - 170

أيضا: ف. أ. فومينا، الوعي الاجتماعي، ترجمة فؤاد المرعي، دار الفجر، حلب، د. ت، ص ص ١٣ ـ ٢٠.

٢١) عبدالله العروى، العرب والفكر التاريخي، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٠ وما بعدها.

وأيضا: عبدالله العروى، ثقافتنا في ضوء التاريخ: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٣.

٢٢) بان فانسينا، مصدر مذكور، ص ٢٨٦.

٢٣) محمد الجوهري، مصدر مذكور، ص ٧٦.

٢٤) عبدالباسط عبدالمعطي، صراع القيم وآثاره في بناء الأسرة ووظائفها، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٦٩.

٢٥) نقلا عن محمد الجوهري، مصدر مذكور، ص ٣٠١.

٢٦) أحمد باقر، «بيت سيادي» ـ من المعالم التراثية الخليجية»، مجلة المأثورات الشعبية. مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، السنة الاولى، العدد الثالث، يوليو ١٩٨٦، ص ص ٧٣ ـ ٧٨.

وأيضا: حامد عمار، التنشئة الاجتماعية في قرية مصرية ـ سلوا محافظة أسوان، ترجمة عبدالباسط عبدالمعطي وآخرون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٧.

٢٧) صلاح العبيدي، «أدوات وآلات أصحاب الحرف في العصر العباسي»، مجلة المأثورات الشعبية، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، السنة الأولى، العدد الثالث، يوليو ١٩٨٦، ص ص ٨٠ ـ ٨٩.

وأكد هذه الفكرة أيضا روبرت تايلور في عمله الكلاسيكي الموسوم الطرائق الثقافية: انظر:

Taylor, R. : Cultural Ways, Third Ed. Allyn and Bacon, Inc., Boston, 1926, pp. 93- 98.

٢٨) حامد عمار، مصدر مذكور.

٢٩) حمود العودي، التراث الشعبي وعلاقته بالتنمية في البلاد النامية، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمني، عالم الكتب، صنعاء، (١٩٨١، ص ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

٣٠) فانسينا، مصدر مذكور، ص ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩، وقد اعتمدنا على تعريفاته والهيكل الأساسي لتصنيفه وأضفنا بعض الأمثلة التوضيحية من الواقع العربي.

٣١) لقد حفلت الشعارات والهتافات التي أطلقها الطلبة المصريون عام ١٩٧٧ بمضامين تفيد في تفهم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. فالهتاف القائل «همه يلبسوا آخر موضة واحنا نسكن عشرة في أوضه (غرفة)». يثير تساؤلات حول قضية السكن في مصر كمطلب لفئات واسعة، كما يعكس خلل بعض الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. ولقد حدث الشيء نفسه في مظاهرات الطلاب بعد محاكمة الطيران الشهيرة في أعقاب نكسة ١٩٦٧.

٣٢) عبدالباسط عبدالمعطي، «المثل الشعبي وتشكيل وعي الفلاح في مصر العثمانية»، ندوة الثقافة الشعبية في الوطن العربي، مصر مذكور.

٣٣) فانسينا، مصدر مذكور، ص ص ٢٩٤ ـ ٣٠٠.

٣٤) سيد حامد حريز، مصدر مذكور، الموضع نفسه.

٣٥) فانسينا، مصدر مذكور، ص ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

٣٦) المصدر السابق، ص ص ٣٠٤، وأيضا: نبيلة ابراهيم، قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار العودة، بيروت، ١٩٧٤، مواضع متفرقة.

٣٧) علي فهمي، «السيرة الشعبية والتاريخ في مصر ـ الحلم والواقع»، ندوة الثقافة الشعبية في الوطن العربي، مصدر مذكور.

٣٨) شوقي عبدالحكيم، السير والملاحم الشعبية العربية، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٤، ص ص ٥ ـ ١٢.

٣٩) المصدر السابق، ص ٦٠.

٤٠) محمد الأسعد، «تأملات في الذاكرة الشعبية»، مجلة المأثورات الشعبية، مصدر مذكور، يوليو ١٩٨٦، ص ص ١٣١ ـ ٨١٣٧

٤١) يتفق على هذا كل من: محمد الجوهري، مصدر مذكور، ص ٢٣٠، وفانسينا، مصدر مذكور، ص ٤٨، ٣٢٠، ٣٤٦.

٤٢) محمد الجوهري، المصدر السابق، ٣١٩.

٤٣) فانسينا، المصدر المذكور، ص ١٥٥، وما بعدها.

٤٤) المصدر السابق، ص ص ٢٥٧ـ٢٥٨.

٤٥) محمد الجوهري، المصدر المذكور، ص ٢١٨.

٤٦) المصدر السابق، ص ص ٤٥٢ ـ ٤٧٠.

٤٧) فانسينا، المصدر المذكور، ص ص ٣٤٧ـ٣٤٩.

البلاغة العربية بين القصور والتقصير
دراسة في النشأة والتطور

الاستاذ الدكتـور توفيـق الفيل

استاذ بقسـم اللـغة العـربية

يعد علم البلاغة من حيث النشأة متأخراً عن غيره من علوم العربية الأخـرى ، ذلك لأنـه علم كمالي في اللسـان ، ولم تكن الحاجـة تقتضيـه كـا اقتضت غيره من العلــوم الأخرى . فقـد سبقـه في النشأة بعض علـوم اللغـة ، كتلك التي يحتـاج اليهـا في تحقيق الصحة اللغوية كعلم النحو مثلا . . فمن المعروف في نشأة هذا العلم أن بعض الخلفاء لاحظ أن اللحن قـد بـدأ يشيع لاختـلاط العـرب بغيرهم من الشعـوب التي دخلت الاسلام ، وتعلمت لغته ، وحاولت أن تتخذ منها لسانا .

وقد روى أن الامام عليا ـ كرم الله وجهه ـ أمـر أبـا الأسـود الـدؤلي بأن يضع بعض القواعد التي تحفظ الألسنة من الخطأ ـ وبخاصة في كتاب الله ـ ويقـال إنّ أبـا الأسـود وضع بعض الأبواب في علم النحو، ثم توالى الأمر بعد ذلك .

لكن علم البلاغة لا تنحصر وظيفته في الصحة اللغوية ، ومن هنا تأخـر في النشأة ، صحيح أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ صحح للرجل عبارته حين قال له : لا عافاك الله ، وقال : قل لا ، وعافاك الله . وذلك التصويب مما يدخل في صميم البلاغـة ، وفي بـاب الفصل والوصل . وقد ذكر لنا الجاحظ هذا في البيان والتبيين فقال : «ومر رجل بأبي بكر ومعه ثوب ، فقال : أتبيع الثوب؟ فقال : لا عافاك الله ، فقال أبوبكر ـ رضي الله عنه : لقد علمتم لو كنتم تعلمون . قل : لا ، وعافاك اللـه» (١)، كما روى الجاحظ نقلا عن الفارسي ، أن البلاغة معرفـة الفصل من الـوصل (٢)، لكن ذلك لا يعني أن البـلاغـة كانت أسبق من غيرها في النشأة ، ووضع الأصول العلمية .

وليس معنى ذلك أن البلاغة لا تتمتع بما تتمتع به علوم العربية الأخرى من المنزلـة ،

لكن الحاجة الى الصحة تكون أسبق من الحاجة الى التنوع في طرق الأداء، والسمو بالعبارة التي تعبر عن المعني، وغير ذلك من الأمور التي تهتم بها البلاغة من حسن الدلالة ووضوحها.

إن بعض العبارات تأتي متناثرة هنا وهناك تتحدث عن البلاغة، أو تتحدث عن قيمة البيان ومنزلته، أو تسوق حديثا عن البديع الذي اشتهرت به لغة العرب، لكن لا يدل ذلك على أن أسس العلم وأصوله قد بدأت في الظهور. ومن هنا يمكننا أن نزعم أن البلاغة نشأت متأخرة عن غيرها، إذ لم تكن الحاجة قد دعت إلى ظهور هذا العلم الكمالي في اللسان، كما لم تكن الدواعي الأخرى التي اقتضت التمييز بين قول وآخر، قد بدأت تفرض نفسها على العقول والأذواق. وذلك ما حدث بعد أن ثار الجدل حول قضية الإعجاز في القرآن الكريم التي كانت أهم الأمور التي دفعت إلى البحث في البلاغة وتحديد مسائلها، ومناقشة قضاياها، فقد كان من بين الآراء في قضية الاعجاز أن القرآن معجز ببلاغته ونظمه.

ويضاف إلى ذلك أن البلاغة تتصف مباحثها بالدقة، وهي تحتاج إلى غيرها من العلوم وبخاصة تلك التي تتوقف عليها الصحة، وتبين الآفاق التي يمكن أن تتوفر لصحة العبارة، وعلى سبيل المثال لا يمكن ان نحيط بمثل قضية الفصل والوصل، تلك التي قيل إن معرفة البلاغة تتوقف عليها ما لم نعرف مواضع الجمل، وصلة بعضها ببعض، كما لا يمكننا أن نعرف المقدم من المتأخر، والمحذوف والمذكور، ما لم نعرف مواقع الجملة.

وابن خلدون يحدثنا عن نشأة علم البيان [٣]، فيقول: «علم البيان هذا علم حادث في الملة، بعد علم العربية واللغة، وهو من العلوم اللسانية، لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني» [٤].

كما أن ابن خلدون يحدثنا عن مجال اهتمام علم البلاغة، والقيمة التي يراها لهذا العلم في الأداء، فهذا العلم هو الذي يعبر عن كلام العرب، لأن كلام العرب عنده لا يتوقف عند مجرد الصحة اللغوية، التي لا تحقق إلا مجرد الافادة، وهي القدر الذي تحققه علوم اللغة الأخرى. يقول ابن خلدون في ذلك: «إن من الأمور المكتنفة

بالواقعات المحتاجة إلى الدلالة، أحوال المخاطبين أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج للدلالة عليه؛ لأنه من تمام الإفادة، فإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة في كلامه، واذا لم تشتمل على شيء منها، فليس من جنس كلام العرب، فان كلامهم بعد كمال الاعراب والابانة» . (٥)

وهذه العبارة تسلمنا عند تحليلها الى أمر له أهميته، هو أن كلام العرب لا يتوقف عند مجرد الصحة اللغوية ـ رغم أهميتها ـ فلا يكفي أن تتوفر للكلمات دلالتها المعجمية، بمعنى أن تكون معبرة عما وضعت له، ما لم تنقل الى غير ذلك بطريق من الطرق التي أقرتها اللغة في النقل.

كما لايكفي أن تتحقق للكلمات صحة وسلامة أبنيتها الصرفية والاشتقاقية، ومثل ذلك يقال في التراكيب وما تكون عليه، فليس يكفي أن تتحقق للتراكيب صحتها اللغوية، وتحقق قوانين النحو فيها لتكون ممثلة لكلام العرب في الصورة التي يقبلها ابن خلدون، لأن الفيلسوف العربي يرى الكلام محتاجا بعد ذلك الى التعبير عن دلالة أخرى. انه يحتاج الى التعبير عن المقام الذي حدث فيه الخطاب، والتعبير عن حال المتكلم والمخاطب، وموضوع الخطاب، وهذا ما تضطلع به البلاغة، أو تلك هي الحلقة في الدراسة اللغوية التي يناط بعلم البلاغة القيام بها.

ولم يكن كلام ابن خلدون في حقيقة الأمر أول اشارة الى أنواع الدلالة، ومستوى التعبير، فالحق أن البلاغيين قبل ابن خلدون قد أشاروا الى هذه الحقيقة، وأكدوا أن اللفظ له دلالة، لكن هناك دلالة أخرى أبعد وأعمق لا يحققها اللفظ من حيث هو أصوات، ولا يفيدها التركيب بما له من المعاني المعجمية. ويحدثنا عبدالقاهر الجرجاني عن دلالات الكلام، ويجعلها على نوعين: نوع منها يمكن أن نصل الى الغرض منه من اللفظ وحده، كأن نخبر عن خروج محمد على الحقيقة فنقول: «خرج محمد»، لكن هناك دلالة ثانية لا يدل عليها اللفظ. يقول عبدالقاهر: «الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك اذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق، وعلى هذا القياس.

وضرب آخر أنت لا تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يـدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها الى الغرض [٦]، ويجعل عبدالقاهر مدار ذلك على الكناية، والاستعـارة والتمثيل، فحين نسلك طريق التعبير بواحد من هذه الأمور، لا نقصد الدلالة الأولى المباشرة التي يعطيها اللفظ، والتي تفهم من معناه المعجمي. فاذا قلنا مثلا: شمر عن ساعده، فمن المؤكد أننا لا نريد ما تعنيه هذه الكلمات من حيث الظاهر، لكننا نريد أنـه أخـذ يعمل بهمـة ونشاط، ويبذل الجهد سخيا من أجل انجاز ما وكل اليه، وقد توصلنا الى هذه الدلالة من خـلال المعنى الأصلي لهذا التعبير، اذ أن من يقـدم على عمل من الأعمال يتصـف بمثل هذه الصفة، وكذلك اذا قرأنا قول الشاعر يتحدث عن امرأة قتل زوجها:

تـركـت لهـا مـن زوجـها عـدد الحـصـى

فهو لا يريد أنه بقتل الزوج قد جعلها تعد الحصى، بل كان بـذلك يكنى عن الحيرة التي تركها عليها لا تدري من أمرها شيئا، ويمكن أن يتحقق هذا في كل مثال من أمثلة الكناية. وحين نقرأ قول ابن هرمـة الشـاعـر الأمـوي، وهـو يحدثنـا عن أولئك الـذين يتحدثون عن حماية الذمار، والدفاع عن الحرم والديار، ثم لا يفعلون شيئا، فيقول:

رأيتكـم تبـدون للحـرب عـدة ولا يمنـع الأسـلاب منكـم مقـاتـل
فـأنتـم كمثـل النخـل يشرع شـوكـه ولا يمنـع الخراف مـا هـو حـامـل

يمثل بهذا القول حالة بأخرى، ولا يريد ما يدل عليه ظاهر الألفاظ، بل يريد شيئـا آخر يدل عليه المعنى الأول، يسمى المعنى الثاني، وهذا المعني الثاني يدل على الغرض.

وحين قال الخليفة لعامله، بلغني أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، لم يكن يريـد أنـه يقوم بهذا الفعل، بل أراد أنه يتأخر في أمر البيعـة، ويختلف عـزمـه في الفعل وتـركـه، وبعد أن يسوق عبدالقاهـر الأمثلـة، يلخص القضيـة بقـولـه: «واذ قـد عـرفت هـذه الجملة، فها هنا عبـارة مختصرة، هي أن تقـول: المعنى، ومعنى المعنى، تعني بـالمعني المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل اليـه بغير واسطـة، وبمعنى المعنى أن تعقل من

اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى الى معنى آخر، كالـذي فسرت لك»، ويمكن تصور هذه القضية على هذا النحو:

لفظ

|

المعنى المفهوم من ظاهر اللفظ

|

المعنى الثاني المفهوم من المعنى الأول

|

الغـرض المستفـاد من المعـنى الثـاني

وتجدر الاشارة هنا الى أمرين: الأول: أن عبدالقاهر يوجـه اهتمامـه الى دلالـة المعنى على المعنى، وأن المراد عند العلماء حين يتحدثـون عن دلالـة اللفظ على المعنى، دلالـة المعنى الأول على المعنى الثاني. فهم لا يريدن بقولهم: «لا يكـون الكـلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معنـاه، ولا يكـون لفظـه أسبق الى سـمعك من معناه الى قلبك، وقولهم يدخل في القلوب بلا استئذان، فهذا مما لا يشك العاقل في أنه يرجع الى دلالة المعنى على المعنى، وأنه لا يتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة» .(٧)

ولا يكتفي عبدالقاهر بهذا التوضيح، بل يزيد في تجلية الفكرة، وازالـة أي غمـوض حولها، فيقول: «واذا كان الأمـر كـذلك علم علم الضرورة أن مصرف ذلك الى دلالات المعاني على المعاني، وأنهم أرادوا أن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الـذي تجعلـه دليلا على المعنى الثاني، ووسيطا بينك وبينه متمكنا في دلالتـه، مستقـلا بـوسـاطتـه، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك أبين إشـارة، حتى يخيل اليك أنك فهمتـه من حاقّ اللفظ، وذلك لقلة الكلفة فيه عليك، وسرعة وصوله اليك» .(٨)

الثاني أن عبدالقاهر لا يريد باللفظ، اللفظ المفرد، بل ذلك الذي ينتظم مع غيره في سياق، لأن الأخير هو مناط البلاغة عنده، وبالتراكيب يكون التفـاوت والتفـاضل بين

كلام وكلام، وأسلوب وأسلوب. إن ميزة الكلام عنده لا تظهر فيه من حيث هو أصوات وحروف، بل يتم ذلك عندما يتم نظمها على نحو خاص، ويعمد بها إلى وجه من التركيب دون وجه. (٩)

ويعالج السكاكي أيضا مستوى المعنى في الكلام، وهو يذكر لنا أن للغة غاية نفعية، لا تتطلب من الألفاظ سوى دلالتها الوضعية، كما أنها لا تقتضي منها غير مجرد النظم الذي يمكنها من إفادة المعنى الأساسي. كما أن للغة غاية أخرى أوسع مدى، وأرحب أفقا من المعنى السابق، وتلك الغاية لا يمكن أن تتحقق ما لم يتوفر للكلام مواصفات خاصة، ويتوخى بالألفاظ أوضاعا تفيد دلالات ومعاني لا تتوفر لها في وضعها الأول. يقول السكاكي في تعريفه لعلم المعاني: «انه العلم الذي يتتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان، وذلك ليطابق الكلام مقتضى الحال»، والتراكيب التي يقصدها هي التراكيب التي تصدر عن البليغ، الذي له فضل تمييز. وهو لا يعتد بالتراكيب التي تصدر عن سواه، لأن الأخيرة لا قيمة لها في البلاغة، ثم يمضي الى بيان مستوى المعنى أو ما يتطلبه مقتضى الحال، الذي لا يحتاج في بعض الأوقات في تأديته «الى أزيد من دلالات وضعية، وألفاظ كيف كانت، ونظم لها لمجرد التأليف بينها يخرجها عن حكم النعيق، وهو الذي سميناه في النحو أصل المعنى، ونزلناه هنا منزلة أصوات الحيوانات، وأخرى تقتضي ما تفتقر في تأديته الى أزيد» (١٠).

ونخلص مما سبق الى أن علم البلاغة، قد تأخر في النشأة عن غيره من علوم العربية، وذلك لحاجته الى هذه العلوم، التي تعد بمثابة متطلبات ضرورية لتحققه، فلا يمكن أن نطلب من الكلام دلالة أوسع من دلالته الوضعية، قبل أن تتحقق هذه الدلالة لسبب ما، كخطأ في الاستخدام، أو وضع لفظ في غير موضعه، أو التعبير به عن غير معناه، أو نحو ذلك مما يخل بالفصاحة على نحو ما قرر علماء البلاغة (١١).

كما أن المناخ الثقافي لم يكن قد اكتمل، وجدَّ فيه من القضايا ما يستدعي ظهور هذا العلم على نحو ما ظهر بعد ذلك من الجدل حول قضية الاعجاز في القرآن الكريم.

وقد أشار ابن خلدون الى أمر له أهميته في نشأة البلاغة، وعلم المعاني والبيان من بين علومها بصفة خاصة. فقد ذكر أن هذين العلمين، أو القسمين يحتاجان الى عمق

النظر، وذلك لدقة مباحثهما، وذلك لا يتوفر الا بالحضارة والعمران. . انهما يحتاجان الى تعمق الحضارة واستقرارها، وقد علل ابن خلدون لسبق المشارقة في هذين العلمين لأهل الأندلس، واتساع أهل الأندلس في البديع، لأن البديع لا يحتاج الى ما يحتاج اليه المعاني والبيان. ان المشارقة أرسخ قدما في الحضارة، لهذا كانوا أقدر على تشقيق المعاني، والتعمق في مسائله على نحو لم يكن ليتاح الى غيرهم.

وحتى نهاية القرن الثالث الهجري، وهي الفترة التي وصلت فيها مجموعة العلوم العربية ـ غير البلاغة ـ الى درجة كبيرة من النضج، وتم التأليف في النحو والمعاجم وغيرهما من العلوم، كانت البلاغة لا تزال مسائل متفرقة، تكاد تكون نتاجا للذوق الفردي، والاجتهاد الشخصي، فالجاحظ (ت ٢٥٥) لم تكن مسائل البلاغة أو حتى مفهومها واضحا عنده. فلا يزال البديع مثلا يندرج تحت معناه اللغوي، الذي يعني الطريف والجديد (١٢)، ونجد خلطا بين الاستعارة والمجاز المرسل. وابن المعتز، صاحب كتاب (البديع) (ت ٢٩٦) لا يقدم مفهوما واضحا لما أطلق عليه البديع، ولا يزال يساير الاتجاه الذي كان عند الجاحظ، فالاستعارة من البديع، وحسن التشبيه من البديع، وهذا يعني أن مفهوم البديع عنده لا يخرج عن المعنى اللغوي، أي الطريف والجديد. وقبل ابن المعتز نجد المصطلح عند ابن قتيبة (ت ٢٧٦) غير محدد.

وهكذا ينتهي القرن الثالث الهجري، ولا نجد اهتماما بعلم المعاني، أو حديثا في مسائله، اللهم الا فيما يعرضه النحاة من مسائل جواز الحذف، أو التقديم والتأخير أو نحو ذلك. وقد أكثر سيبويه من الحديث عن الحذف، كما بين ما يمكن أن يحذف، وربما أشار الى شيء من بلاغته، لكن سيبويه كان معنيا بالنحو، مما جعل مباحثه تصبغ بصبغته. (١٣)

***

وفي القرن الرابع الهجري، يظهر القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني (ت ٣٦٦) صاحب كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه). ويتناول في كتابه بعض مسائل البلاغة، ونجد عنده لأول مرة تحديدا علميا واضحا لبعض مسائل البيان، لكن هذه المسائل لم تكن الأساس الذي أقام كتابه من أجله، لأن الكتاب كما هو معروف كان

محاولة منه لانصاف المتنبي من خصومه وأنصاره على السواء، فقد بالغ الخصوم في مؤاخذته، وسلبوه كل فضل، وبالغ الأنصار في مدحه، ونسبوا اليه كل فضل، ولهذا جاءت الوساطة لتحكم بين الطرفين.

ولما كانت بعض مسائل البيان مما عده الخصوم من العيوب كان لابد للقاضي من تناولها، فاذا كان الخصوم قد سلكوا أبا الطيب مع الشعراء الذين غالوا في استخدامها وأخفقوا في بناء صورها، فانه يتعين على القاضي بيان الاستعارة، والفرق بينها وبين غيرها من فنون البيان، والأمور التي تحسن بها، يقول القاضي: «انما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت مكان غيرها، وملاكها تقريب الشبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى، حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما اعراض عن الآخر»(١٤) كما يبين ما يحدث للناس من اللبس، والخلط بين الفنون البيانية المختلفة، فيجعلون من الاستعارة ما ليس منها. يقول: «وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة، وهو تشبيه أو مثل، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس:

والحب ظهر أنت راكبه فاذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة، وانما معنى البيت أن الحب مثل ظهر، أو الحب كظهر تديره كيف شئت اذا ملكت عنانه، فهو اما ضرب مثل، أو تشبيه شيء بشيء»(١٥) وحين يعمد القاضي الجرجاني الى تفسير بعض الاستعارات التي اتهم بأنه غالى فيها، وتجاوز الحد المقبول، نرى القاضي يحيل قضية قبول الاستعارة أوردها الى قبول النفس لها، او نفورها منها، فاذا كان الأدب ينبثق من النفس الى النفس، فان ما تقبله النفس يكون مقبولا وما ترده يكون مردودا، حتى وان جاءت على مثال ما جاء عن العرب.

ومما يعد للقاضي في مجال البحث البلاغي فصله للخلاف الذي نشأ حول بناء بعض الصور الاستعارية التي يجسم فيها المنشىء المعنويات على نحو ما فعل أبوتمام ومن بعده أبوالطيب المتنبي، فقد ذهب القاضي الى أن العبرة ليست بعد الاستخدام أو قربه، وليس ـ كما فهم بعض النقاد ـ الاغراق في تجسيم المعنويات، لأن مثل ذلك قد حدث

من قدامى الشعراء، ولم يعد عيبا يوجه الى شعرهم، بل العلة تكمن في عدم توطئة الأسلوب، وتهيئته لتقبل الصورة المجازية.

وعلى الجملة كان القاضي الجرجاني أول من وضع للاستعارة تحديدا علميا دقيقا، وأشار الى ما يحسن منها وما لا يحسن، كما أشار الى أن لغة الشعر تميل الى التوسع ولابد أن يكون فيها شيء من التسامح، لأن بناءها على التحقيق يفسد الشعر ويذهب برونقه، لكنه على الرغم من هذا الجهد الذي يحسب له لم يتطرق الى كثير من مسائل علم المعاني، وبقيت جهوده في نطاق الجزئيات، وتتناول مسائل متفرقة.

واذا ألقينا نظرة على علماء القرن الرابع، نجد أكثرهم تناولا لمسائل البلاغة، صاحب كتاب (سر الصناعتين)، لكن أبا هلال لم يتجاوز نطاق البيان والبديع، كما أن أبا هلال كان ناقدا يحاول بيان وجوه الحسن أو القبح في الكلام معتمدا على بعض الأسس التي وضحت في علم البلاغة.

كما نجد من علماء القرن الرابع الذين كان لهم اسهامهم في نمو علم البلاغة، وبخاصة ما يتعلق بمسائل البيان، أبوالحسن الرماني (ت ٣٨٦هـ) خطيب أهل السنة وإمامهم، والذي كان يمثل بين أهل السنة، ما يمثله الجاحظ في طائفة المعتزلة.

لقد كان الرماني معنيا بالبحث في اعجاز القرآن الكريم، وفي رسالته التي وضعها لذلك، والتي وسمها (النكت في اعجاز القرآن)، تحدث عن التشبيه، وأقسامه، والدور الذي يراد منه. ويعد جهد الرماني خطوة لها قيمتها في نمو علم البيان ووضوح مسائله.

***

وفي النصف الثاني من القرن الخامس، يتقدم البحث البلاغي خطوات على يد ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ)، ففي كتابه (سر الفصاحة) نجد اشارات جمالية، على نحو ما نرى في حديثه عن التناسب (١٦)، وارجاع بعض أبواب البديع اليه، مثل (الترصيع والجناس، والسجع، والازدواج). كما نجد له حديثا عن الحسن من الاستعارة والقبيح منها، لكننا لا نجد في الكتاب التفاتا الى علم المعاني (١٧). كما أن بعض المصطلحات لم تأخذ شكلها النهائي. (١٨)

***

عبدالقاهر والحديث عن المعاني

واذا كان العلماء الذين تناولوا بعض مسائل البلاغة لم ينظروا الى ما أطلق عليه - فيما بعد - علم المعاني. فان عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) يعد المؤسس الأول لهذا العلم، وواضع أصوله ومفصل القول في كثير من قضاياه. والحق أن جهود عبدالقاهر لا تقف عند تأسيس علم المعاني الذي قام به في كتابه (دلائل الاعجاز) إذ اكتمل علم البيان على يديه في كتابه (أسرار البلاغة)، فقد تناول عبدالقاهر في الكتاب الأخير مسائل علم البيان، والتي استقرت في التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية. وكما هو معروف يجعل التشبيه والتمثيل والاستعارة أصولا يرجع اليها أكثر محاسن الكلام، انها كما يقول: «أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها» (١٩). ولما كانت هذه الأبواب من علم البيان بهذه الأهمية عنده، فصل القول فيها وبين ما بينها من الشبه والاختلاف، كما بين التفاوت الذي يحدث للمعنى من جهة اثباته حين يصور عن طريق هذه الأداة أو تلك.

لقد وضع عبدالقاهر في كتابه (أسرار البلاغة) نظرية علم البيان، وقد أحكم في هذا الكتاب الربط بين المعاني والبيان، وجعل السياق ينتظمها، وأكد على أن البلاغة لا تكون في تلك الوسيلة أو تلك مجردة من سياقها، ومعزولة عن غيرها، بل تتحقق البلاغة حين تتناغم الأدوات، وتنسجم وتعبر عن المعنى الذي يريد البليغ التعبير عنه. وحتى يزيد الأمر وضوحا قدم نظريته في النظم، وأفرد لبيان النظم والتطبيق عليه كتابه (دلائل الاعجاز) الذي يعد أول تأصيل لنظرية المعاني، أو ما عرف بعد ذلك بعلم المعاني.

ومن العسير أن يحيط مثل هذا العرض بالجهد الذي قام به عبدالقاهر في كتابيه، وأقام به كيان علم البلاغة، مما يرد زعم أحد الباحثين بأن عبدالقاهر لا يعد من البلاغيين اذا كانت البلاغة عند هؤلاء دراسة الأسلوب، لأن عبدالقاهر - حسب زعمهم - «يناوىء هذا الاتجاه، ويسير في اتجاه مضاد لاتجاه سير البلاغة، ذلك لأن البلاغة تفرض أن الأديب لديه ما يقول، وهي توقفه على الوسائل الجيدة التي تمكنه من

القول على نحو مخصوص معجب بديع يستطيع به الابانة والتأثير»[٢٠]. ان «نظرية النظم» بالأسس التي بينها عبدالقاهر، والتطبيقات المتنوعة عليها، والتأكيد على أن البلاغة لا تتعلق بهذه الوسيلة الفنية أو تلك، وانما ترتبط بالكلام، ومدى تأديته للغرض الذي سيق له ليست الا دراسة للأسلوب.

لقد وقف عبدالقاهر بشدة أمام أولئك الذين ظنوا أن معرفتهم بأوضاع اللغة، ودلالة الألفاظ تكفيهم في معرفة الأدب، فكل من عرف مواضع الخبر عندهم ووقف على الأمر والنهي تم له ما أراد، فالبيان ليس على هذا النحو الضيق، لأنه لا يقف عند مجرد الافهام، ولهذا جعل البلاغة والفصاحة لا تقف عند اللفظ، لأنها عنده ـ حسن الدلالة وتمامها في كل ما له دلالة، وتصويرها على نحو يستهوي النفس، ويستولي على القلب، وذلك لا يتم الا بتناول المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، واختيار اللفظ الذي هو أخص به، وأشف عنه، وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلا، ويظهر فيه مزية»[٢١] لكن اللفظين لا يوجد بينهما تفاضل في دلالتهما على ما وضعا له من معنى، ولا يتم هذا التفاضل إلا حين ينتظمهما سياق: «وهل يقع في وهم ـ وان جهد ـ أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر الى مكان تقعان فيه، من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن؟ وعما يكد اللسان أبعد؟ وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة، الا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا: لفظة متمكنة، ومقبولة، وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة، الا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلتق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها؟»[٢٢].

ويمضي عبدالقاهر في التطبيق على ذلك من خلال العديد من الأمثلة التي تكشف عن مراده، وينتهي الى القول: «فقد اتضح اذن اتضاحا لا يقبل للشك مجالا، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه

ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ» . (٢٣)

ان دراسة عبدالقاهر لمواقع الألفاظ ، والربط بينها وبين المعاني والأغراض التي جاءت لتعبر عنها ، ودراسته للتقديم والتأخير، والحذف والذكر وبيان ما يكون للحذف من القيمة في إحكام الأسلوب وقوته ، ودراسته للأدوات وما بنيها من فروق والوضع الذي يحسن أن تستخدم فيه تلك الأداة ويقبح استعمال غيرها ، واعتداده بمثل هذه الدقائق في الحكم على بلاغة الكلام ، وتأكيده على أن المزية لا تكون في الكلام لاستخدام هذه الوسيلة أو تلك ، أو بعبارة أخرى اذا حسن الكلام لاستخدام وسيلة ما . فليس هذا الحسن لازم لهذه الوسيلة دائما ، ولا هو واجب لها في نفسها من حيث هي على الاطلاق ، ولكن هذه المزية : «تعرض بسبب الأغراض والمعاني التي يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض» (٢٤) .

إن هذه الدراسة ، تدفعنا إلى القول بأن عبدالقاهر كان معنيا بدراسة الأسلوب ، وأنه ينتقل بالبلاغة من الوقوف عند الألفاظ المفردة ، وما يكون لها من دلالة إلى ما يتولد عنها من معان أخر عندما ينضم إليها غيرها ، ويحدث بينها ربط ، وتقوم بينها علاقات ، بل ان الأسلوب لا ينسب لصاحبه عنده إلا بنوع من النظم . إن التباين بين الأقوال لا يكون بمجرد اللفظ ، لأن الألفاظ «لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب . فلو أنك عمدت إلى بيت شعر، أو فصل نثر، فعددت كلماته عدا ، كيف جاء واتفق ، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني ، وفيه أفرغ المعنى وأجرى ، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد ، نحو أن تقول في :

«قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»

«منزل قفا ذكرى من نبك حبيب»

أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان ، نعم وأسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وين منشئه ، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل ، ونسب يختص بمتكلم»(٢٥) . ومعنى هذا أن ترتيب الكلام على نحو مخصوص ، وتأليفه على طريقة بعينها ، واقامة العلاقات المختلفة بين مفرداته هي التي تحدد الاطار الفني الذي ينسب

اليه، وما اذا كان هذا الاطار شعرا، أو خطابة أو غيرهما. ووضع الكلام على هذا النحو هو الذي يجعله ينتسب لصاحبه، ويكشف عن شخص مبدعه ومنشئه، وهذا الفهم يؤيد ما يذهب إليه النقاد المحدثون حين يقولون ان الأسلوب هو الرجل.

لقد كان عبدالقاهر الجرجاني يدرك قيمة العلم الذي يخوض غماره، والأهمية الكبرى التي يعلقها عليه في المهمة التي يسعى اليها، وهي بيان الاعجاز في الكتاب الكريم، وكيف أنه فاق كل كلام، وأعجز العرب الفصحاء، وأخرس ألسنتهم التي كانت لها القدرة الواسعة في البيان. كما كان عبدالقاهر يعاني من أهل زمانه الذين قعدت بهم الهمة عن بذل الجهد في هذا العلم. يقول في هذا: «نحن في زمان هو على ما هو عليه من احالة الأمور عن جهاتها، وتحويل الأشياء عن حالاتها، ونقل النفوس عن طبائعها، وقلب الخلائق المحمودة الى أضدادها، ودهر ليس للفضل وأهله لديه إلا الشر صرفا، والغيظ بحتا، والا ما يَدْهَشُ عقولهم. ويسلب معقولهم، حتى صار أعجز الناس رأيا عند الجميع ـ من كانت له همة في أن يستفيد علما، أو يزداد فهما، أو يكتشف فضلا» (٢٦) واذا كان العلم بجميع صنوفه وأنواعه يحتل مكانة عالية في نفس عبدالقاهر، ويستحق أن يبذل في سبيل تحصيله كل شيء، وأنه لا يليق بعاقل أن يقلل من قدر علم، أو يحط من شأنه، أو يثبط الهمم عن جمعه وتحصيله، فإن علم البلاغة عنده له المنزلة التي لا تدانيها منزلة. «فإنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا، وأبسق فرعا، وأحلى جنى، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجا، وأنور سراجا، من علم البيان» (٢٧)، وهذا العلم يستمد هذه القيمة من أنه أداة الكشف عن الحقائق والوسيلة التي تمكن المبدعين من التعبير عن عواطفهم وأفكارهم، فبدونه «لا ترى لسانا يحوك الوشي، ويصوغ الحَلْيَ، ويلفظ الدر، وينفث السحر»، وهو الذي يصور العلوم ويبرزها في أحلى المعارض وأجملها، ولولا هذه العناية «لبقيت كامنة مستورة، ولما استبنت لها يد الدهر صورة، ولاستمر السرار بأهلتها، واستولى الخفاء على جملتها» (٢٨) لكن هذا العلم على الرغم من تلك الأهمية العظمى، والقيمة الكبيرة، قد وقع عليه ظلم كبير، واستهان بعض الناس بأمره، وهونوا من شأنه، وامتلأت نفوسهم بتلك الاعتقادات الردية، واستولى عليهم فيه جهل عظيم وخطأ فاحش (٢٩). فمن هؤلاء من ظن أنه لا يزيد عن طرق الدلالة الأخرى التي أشار اليها الجاحظ كالاشارة والخط والعقد (٣٠)

ثم يحشر البلاغة في أمور قليلة يمكن تحصيلها والوقوف عليها بأقل جهد، انها في نظر أولئك تتم لمن عرف أوضاع لغة من اللغات، وعرف المغزى من كل لفظة، ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجراسها وحروفها» وأن كل من تم له هذا القدر فهو بيّن في هذه اللغة. (٣١)

ان مثل هؤلاء تختلط عليهم المفاهيم، فلا يعرفون للفصاحة أو البلاغة معنى سوى الاطناب في القول، والتشدق بالعبارة، أليس الى مثل هذا ذهب سلامة موسى في كتابه (البلاغة العصرية) حين حمل على بلاغة العرب، وزعم أنها بلاغة الانفعال، واتهمها بالقصور، بل وزعم أنها السبب في تأخر الأمة، لأنها لا تساعد على تكوين الفكر أو تعمل على استقامته، وطالب في هذا الكتاب بالتخلّي عنها واللجوء الى منطق اليونان لانتشال الأمة من وهدتها. (٣٢)

وقد سار خلف سلامة موسى رهط من الدارسين آثروا السلامة، وخلدوا الى الراحة، ورددوا ما قال بغير حق، ولم يعودوا الى ما خلف البلاغيون من تراث عظيم، توصلوا فيه الى مجموعة من الحقائق والمفاهيم يقدر قيمتها الباحثون المنصفون الذين لم تُعَمَّ عليهم الحقائق.

يقول أحد علماء اللغة البارزين: «إن علماء البلاغة قدموا للمعنى الدلالي فكرتين تعتبران من أنبل ما وصل اليه علم اللغة الحديث في بحثه عن المعنى الاجتماعي الدلالي، وأولى هاتين الفكرتين فكرة «المقال» والثانية فكرة «المقام»، وأنبل من ذلك أن علماء البلاغة ربطوا هاتين الفكرتين بعبارتين شهيرتين أصبحتا شعارا يهتف به كل ناظر في المعنى. العبارة الأولى قولهم: «لكل مقام مقال»، والعبارة الثانية: «لكل كلمة مع صاحبتها مقام». فأما العبارة الأولى فتؤكد أن استخراج المعنى من المقال فحسب لابد أن يشتمل على اغفال معيب لأهم عنصر من عناصر المعنى، وهو المقام أو الظرف الذي حدث فيه «المقال». وأما العبارة الثانية فتلخص الصلة بين ظاهرة «التضام» في اللغة العربية والمعنى اللغوي الدلالي الاجتماعي، ثم ينتهي الباحث الى القول: «فهاتان العبارتان مما خلفه البلاغيون في تراثهم الثمين تعتبران من نتائج المغامرات الفكرية في دراسة اللغة في الغرب الحديث» (٣٣)، ونضيف الى ما ذكره الباحث ما قدمه علماء

البلاغة من ربط محكم بين حلقات الدراسات اللغوية، وما قرروه من أن كل علم من علوم اللغة يرتبط بالآخر ويسلم اليه، وبخاصة حين يتحدثون عن الثقافة التي يجب أن يكون عليها الناظر في الأدب. (٣٤)

وكان من أبرز البلاغيين الذين نهجوا نهج عبدالقاهر، وكانوا امتدادا لمنهجه في دراسة البلاغة بوصفها دراسة تطبيقية تتخذ من الأدب موضوعا لها، وتبحث عن مواطن الجمال فيه من خلال ما أسماه عبدالقاهر بالنظم صاحب كتاب الكشاف، جار الله الزمخشري (٥٣٨ هـ). لقدكان جار الله أديبا يحسن النظم، ويستطيع الوقوف على موضع الجمال في الشعر، ولئن كان عبدالقاهر الجرجاني يبذل كل جهوده من أجل أن يكشف عن بلاغة النظم في القرآن الكريم، ويوقف غيره على مواضع الاعجاز فيه، وكانت تلك الغاية هي محور دراسته. وقد عمد إلى إرساء الأصول ووضع المقدمات التي تسلم اليها، وصادف في سبيل ترسيخ هذه الأصول في أذهان الناس في وقته عنتا شديدا، ومشقة بالغة، واقتضاه ذلك أن يعيد القول في بعض المسائل ويزيد، ليدفع الجهل الذي سيطر على العقول ويزيل الغشاوة التي حجبت الرؤية عن العيون، إذا كان عبدالقاهر قد فعل ذلك، فقد أمسك بطرف الخيط بعده جار الله، واتخذ من تفسيره للكتاب الكريم مجالا للتطبيق. ولهذا بنى تفسيره عليه، ولم يكن أحد من المفسرين قبله قد التفت إلى هذه الناحية التي تشكل الأساس في الاعجاز. وقد لاحظ ذلك ابن خلدن، وقدر الدور الذي قام به الزمخشري، وعرف له فضله وريادته في هذا الميدان، وبين أن كتابه كله مبني على أصول علم البيان (٣٥). ويقول: «وهو مبني على هذا الفن، وهو أصله». كما يبين أن تفاسير العلماء الذين سبقوا جار الله كانت غفلا منه، وظلت كذلك حتى جاء جار الله، وجبر ما فيها من النقص، يقول: «وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه، حتى ظهر جار الله الزمخشري، ووضع كتابه في التفسير، وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من اعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير» (٣٦). وقد كان صنيع الزمخشري حافزا لبعض العلماء، فصنع تصنيفا للعلم حتى يتمكن الدارس لكتاب الكشاف من الالمام بحقائق الاعجاز، ويصل الى ما أراد جار الله الزمخشري، ويحدثنا يحيى بن حمزة العلوي عن السبب الذي دفعه الى تأليف كتاب الطراز، فيقول: «ثم ان الباعث على تأليف هذا

الكتاب هو أن جاعة من الاخوان شرعوا علي في قراءة كتا ب(الكشاف) تفسير الشيخ المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري، فانه أسسه على قواعد هذا العلم، فاتضح عند ذلك وجه الاعجاز من التنزيل، وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل، وتحققوا أنه لا سبيل الى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بادراكه، والوقوف على أسراره وأغواره. ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير، لأني لم أعلم تفسيرا مؤسسا على علمي المعاني والبيان سواه، فسألني بعضهم أن أملي كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق:

فالتهذيب يرجع الى اللفظ، والتحقيق يرجع الى المعنى، اذ كان لا مندوحة لأحدهما عن الثاني» (٣٧). ويهمنا من عبارة العلوي، ومن قبله ما ذكره ابن خلدون واقرار كل منهما بتميز كتاب الكشاف في بابه، بوصفه مؤسسا على أصول علمي المعاني والبيان، وهما العلمان اللذان يشكلان لحمة البلاغة. ولعل ما تجدر الإشارة إليه أن أحدا من البلاغيين الذين جاءوا بعد عبدالقاهر، لم يعمل على تنمية الاتجاه الذي راده الشيخ على نحو ما فعل الزمخشري، بالإضافة الى أن صاحب الكشاف قد أضاف إلى هذا الاتجاه.

ويرى أحد الباحثين المحدثين أن بلاغة الكشاف كانت نهاية لمرحلة متميزة في الدراسة البلاغية. فقد كانت امتدادا حقيقيا لدراسة عبدالقاهر، كما يرى الباحث أن هذا الاتجاه كان «في حاجة إلى كثير من الحواريين ينهضون لتثبيته وتمكينه واتمامه حتى يكتمل بناءً متناقسا يمهد سابقه للاحقه، لكن القدر لم يهيىء لهذا العالم السني الا فتي من فتيان المعتزلة أنبتته أرضه، فهضم تراثه، وارتضى منهجه، ونسج على منواله، وأضاف لبنات في هذا البناء لا تختلف في نسقها ونوعها عما بدأه الأستاذ. ولو قدر لهذا الاتجاه أن تتأصَّل حلقاته لكان بين أيدينا منه الخير الكثير». (٣٨)

ولعل من أهم الأمور التي تلفت النظر في بلاغة الزمخشري دراسته للمعاني والقول بصحتها أو تناقضها وأنواعها وأجناسها، وما يكون بين بعضها من التآخي، وقد كانت هذه الدراسة نتيجة نظرة شاملة للنص، وعدم الوقوف عند الجملة، مما يدحض المزاعم التي ذهب أصحابها إلى أن البلاغة العربية وقفت عند الجملة ولم تنظر وراء ذلك (٣٩)

كما يلفت النظر حديثه عن الفكرة ونموها وتصاعدها، ويبين «كيف تتولد المعاني بعضها من بعض، ويهيىء بعضها لبعض، حتى كأن السابق منها بساط للاحقه، ووطاد لذكره» . (٤٠)

ويذكر للزمخشري حديثه عن تأثير الكلام في النفس وما يكون له فيها من الأثر. والتأثير في النفس هو وظيفة الأدب كما نعرف، والإشارة إلى التأثير في النفس، والتعبير عنها مما نجده كثيرا عند الزمخشري ـ صحيح كان عبدالقاهر يذكر ذلك، وينص عليه في مواضع من كتبه. لكننا نجده أيضا عند جار الله، الذي قلنا إنه يسير في بعض القضايا على طريق عبدالقاهر.

ولعل حديث الزمخشري في أثر ما أطلق عليه البلاغيون مصطلح «الالتفات» ما يؤيد ما أشرنا اليه من الاعتداد بالأثر النفسي للأسلوب. والالتفات هو الانتقال بالكلام من حال لآخر، كأن يكون مثلا من الغيبة الى الخطاب أو التكلم أو العكس على نحو ما جاء في قوله تعالى: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف)، فقد انتقلت الآية من طريقة الخطاب «كنتم» الى الغيبة «وجرين بهم»، وكما جاء في قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) فقد كان الحديث في أول الأمر الى الغائب (الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين)، ثم انتقل الى الخطاب «إياك نعبد» وصور الالتفات كثيرة في القرآن الكريم، وفي الشعر على نحو ما نجد في قول امرىء القيس:

تطاول ليلك بالاثمد	وبات الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة	كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني	وخبرته عن أبي الأسود

فقد التفت فيها ثلاث مرات، ويشير الزمخشري الى أن هذا نوع من الافتنان في الكلام وتنويع في الأسلوب، وتصرف فيه، ينشط النفس المتلقية، «ولأن الكلام اذا نقل من أسلوب الى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وايقاظا للاصغاء إليه من إجرائه

على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل إياك نعبد يا من هذه صفاته نُخَصّ بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به» . (٤١)

ويؤكد الزمخشري على أثر الالتفات، وما يحدثه من هزة في النفس ونشاط لها، واستمالة إلى قبول ما يلقي عليها، وذلك حين يتناوله في قوله تعالى: «ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. . . إلى قوله تعالى: «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)، لما عدد الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكافرين والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم، ومصارف أمورهم، وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها، ويحظيها عند الله ويرديها، أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور عند قوله تعالى: (إياك نعبد) ـ أي الالتفات من الغيبة الى الخطاب ـ «وهو فن من الكلام جزل، فيه هز وتحريك من السامع، كما أنك اذا قلت لصاحبك حاكيا عن ثالث لكما، إن فلانا من قصته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه، ثم عدلت بخطابك إلى الثالث، فقلت يا فلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك، وتستوي على جادة السداد في مصادرك ومواردك، نبهته بالتفاتك نحوه أفضل تنبه، واستدعيت إصغاءه إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالالتفات من الغيبة إلى المواجهة، هازا من طبعه ما لا يجده اذا استمررت على لفظ الغيبة. وهكذا الافتنان في الحديث، والخروج منه من صنف إلى صنف يستفتح الآذان للاستماع، ويستهش النفس للقبول» . (٤٢)

ونوجه النظر إلى فطنة الزمخشري التي جعلته يدرك اختلاف المقامات من جهة، وما يؤدي إليه ذلك من أثر في الأسلوب، واختلاف الأثر الفني في كل حالة من حالات الالتفات، فاذا كان لهذا الفن أثر عام هو ما سبقت الإشارة إليه، وهو تحريك النفس،

وإثارة انتباه المستمع والعمل على قوة إصغائه للمتحدث، وتمكن الحديث من نفسه. فإن الالتفات من الغيبة الى الخطاب له خاصية، والالتفات إلى الغيبة له خاصية أخرى تختلف عن السابقة.

لقد بيّن الزمخشري النكتة في الالتفات في قوله تعالى: (إياك نعبد)، وهو يبين لنا أثر الالتفات من الخطاب إلى الغيبة والنكتة فيه حين يتناول قوله تعالى: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها)، فهذه النكتة تتمثل في المبالغة «كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح». (٤٣)

وتحريك النفس، والتأثير فيها واضح في بلاغة الزمخشري، كما نجد واضحا فيها أيضا اعتداده بالذوق، وتعويله عليه ـ على نحو ما نجد عند عبدالقاهر الجرجاني ـ فإذا كان الأخير يحيل إلى الذوق بعض الأحكام التي لا يجد لها علة ظاهرة، فإن الزمخشري يفعل هذا.

وعلى الرغم من خصوبة الدراسة البلاغية عند جار الله الزمخشري، لم تحقق. الهدف منها، ولم يكتب لها الذيوع والانتشار، كما لم تحظ باهتمام الدارسين لسببين أساسيين: أولهما: أنها جاءت متفرقة في تفسيره، وثانيهما: المذهب الاعتزالي الذي كان الزمخشري ينتسب إليه.. صحيح تابعه في بلاغته ـ إلى حد كبير ـ ضياء الدين بن الأثير، في كتابه (المثل السائر)، وقد أشار ابن الأثير كثيرا إلى آراء للزمخشري، وان حاول أن يجد عليها مآخذ، ونشير في هذا الصدد إلى ما صنعه في «الالتفات» حيث يقول: «وقال الزمخشري ـ رحمه الله: ان الرجوع من الغيبة الى الخطاب، إما يستعمل للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب الى أسلوب، تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه، وليس الأمر كما ذكره، لأن الإنتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه، فان ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد، فينتقل إلى غيره، ليجد نشاطا للاستماع، وهذا قدح في الكلام، لا وصف له» (٤٤).

وابن الأثير ـ عندي ـ يوجه كلام الزمخشري على غير ما قصد، ويفترض أمورا لم تدر بخلد الزمخشري، ويرد عليها، ويوجه له اللوم بسببها. يقول ابن الأثير معلقا على موقف الزمخشري من «الالتفات»: ومفهوم قول الزمخشري في الانتقال من أسلوب الى

أسلوب، إنما يستعمل قصدا للمخالفة بين المنتقل عنه، والمنتقل إليه، لا قصدا الى استعمال الأحسن، وعلى هذا فإذا وجدنا كلاما قد استعمل في جميعه الايجاز، ولم ينتقل عنه، أو استعمل فيه الاطناب ولم ينتقل عنه، وكان كلا الطرفين واقعا في موقعه قلنا: هذا ليس بحسن، إذ لم ينتقل فيه من أسلوب إلى أسلوب. وهذا قول فيه ما فيه»، ثم يتساءل: «ولم أعلم كيف ذهب هذا على مثل الزمخشري مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة؟» . (٤٥)

وعندنا أن الفرض الذي فرضه ابن الأثير غير صحيح، فلم يقصر الزمخشري البلاغة على الانتقال من أسلوب الى أسلوب، لكنه وجد بعض الأساليب حدث فيها هذا التحول، فبحث عن العلة الجمالية التي دعت الى هذا الأمر، وقد اهتدى ـ بحسه الفني، وذوقه المرهف الى أساس عام يوجد في كل نوع من أنواع «الالتفات» صادف محله، ثم وجد لكل انتقال علة خاصة توجد فيه، فالانتقال من الغيبة الى الخطاب له علته، والانتقال من الخطاب الى الغيبة له أيضا علته التي تختلف عن الأخرى، وهكذا.

وقد أشرت الى ما ذكره الزمخشري في قوله تعالى: (إياك نعبد واياك نستعين)، وما ذكره في قوله تعالى: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها)، وقد ذكر أحد الباحثين المحدثين أقوال الزمخشري في هذا الأمر، ونحيل إليها حتى لا تتكرر الجهود . (٤٦)

إن ما ذكره ابن الأثير من بلاغة «الالتفات» حين قال: «والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب الى الغيبة أو من الغيبة الى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب الى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولا تضبط بضابط، ولكن يشار الى مواضع منها، ليقاس عليها غيرها، فانا قد رأينا أن الانتقال من الغيبة الى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب، ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الأول ـ قد استعمل في الانتقال من الخطاب الى الغيبة. فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وانما هو مقصور على المعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر، وانا يؤتى بها

على حسب الموضع الذي ترد فيه»(٤٧)؛ لا يبعد عما ذكره الزمخشري على نحو ما سبقت الاشارة اليه .

جهود ابن الأثير

وقد سار في اتجاه هذين العالمين ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب المثل السائر. كما أفاد من غيرهما .

وكان ابن الأثير واحدا من الكتاب الذين يتمتعون بملكة الانشاء، كما أنه من ذوي البصر بالنقد. وقد حدثنا الجاحظ أنه لم يجد ما يرجوه من حسن النظر في الشعر والتمييز بين جيده ورديئه الا عند الأدباء من الكتاب، كما هو مشهور.

ولهذا لا نعجب إذا رأينا ابن الأثير لا يكتفي بالحديث عن فن من فنون البلاغة، بل يحاول أن يوقفنا على ما فيه من حسن. ولعل حديثه الذي سبقت الاشارة اليه في بلاغة «الالتفات» يدلنا على ذلك، ويضاف اليه حديثه عن الطبع والحاجة اليه في تذوق الشعر، وبصرف النظر عن أنه من أولئك النقاد الذين فرقوا بين اللفظ والمعنى، وانحاز الى جانب المعنى، وجعل كل حسن في اللفظ انما هو من أجل المعنى فاننا نجده يرد على الذين ذهبوا الى أن قول كثير:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهاري رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

تحسن ألفاظه، ولكن ليس فيه كبير معنى، بأن الذين ذهبوا الى هذا لم ينعموا النظر فيه، وأنهم لم يصلوا الى ما فيه لجفاء الطبع، وعدم المعرفة، ثم يأخذ في بيان ما وقف عليه من خلال الأبيات. فقول الشاعر «كل حاجة» مما يستفيد منه أهل النسيب والرقة [وذو] الأهواء والمقة ما لا يستفيده غيرهم، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم. ألا ترى أن حوائج مني أشياء كثيرة؟ فمنها التلاقي، ومنها التشاكي، ومنها التخلي للاجتماع، الى غير ذلك مما هو تال له، ومعقود الكون به(٤٨) ويمضي ابن الأثير في بيان ما تضمنته هذه الألابيات من خلال ما توحي به الألفاظ، وما ترمز اليه الكلمات.

وعلى الرغم من قيمة آراء ابن الأثير، فإننا نجده يخلط بين الاستعارة والتشبيه، وينتكس في هذه القضية بالجهود التي بذلها عبدالقاهر الجرجاني. . لقد فرق الأخير تفريقا واضحا بين صور التشبيه وصور الاستعارة. بل إن القاضي الجرجاني قبل عبدالقاهر، حدد مفهوم الاستعارة، فهي ما يكتفي فيها بالاسم المستعار، وتنقل العبارة فتجعل في مكان غيرها، ولابد من وجود مناسبة بين المستعار منه والمستعار له، وهي «إنما تصح وتحسن على وجه من المناسبة، وطرف من التشبيه المقاربة» (٤٩). وعلى هذا يخرج من الاستعارة ما توهمه غيره منها من مثل قول الشاعر:

والحب ظهر أنت راكبه فاذا صرفت عنانه انصرفا

ويرى أنه ليس من الاستعارة، وانما هو تشبيه أو ضرب مثل. (٥٠)

أما عبدالقاهر، فيتخذ من قول القاضي الجرجاني منطلقا له في تحديد هذه القضية تحديدا لا لبس فيه ولا غموض. وأول ما نجد من كلامه، هو أنه يمكن أن يطلق على الاستعارة اسم التشبيه، لأنها تقوم عليه، وهو أساس فيها، لكن لا يمكن أن نطلق على التشبيه اسم الاستعارة، كما أن من الصور ما لا يمكن أن يكون الا استعارة كأن يقع المشبه به فاعلا أو مفعولا به، نحو قولنا «غنت لنا ظبية» ووردنا بحراء نريد بالأول امرأة، وبالثاني رجلا كريما. ونحو قول الشاعر:

ترنح الشرب واغتالت حلومهم شمس ترجل فيهم ثم ترحل

لكن اذا كان مثل هذا لا تدخل الشبهة في كونه من الاستعارة. . فان الصورة التي يذكر فيها المشبه والمشبه به على صورة المبتدأ والخبر، ويكون المشبه به خبرا أو ما في حكم الخبر، نحو قولنا محمد الأسد، أو كأن محمداً الأسد، فان ذلك من التشبيه، ذلك لأن وقوع الخبر معرفة يجعله يقبل دخول الكاف عليه دون إخلال بالأسلوب، أو نزول بالكلام عن مرتبة البلاغة. واذا كان الخبر نكرة، احتكم عبدالقاهر الى حسن دخول حرف التشبيه عليه دون اخلال بالأسلوب أو نزول بدرجته، فان تم ذلك ـ بهذا الشرط ـ كان من التشبيه، وان لم يتم كان من الاستعارة. (٥١)

ويولي ابن الأثير الناحية الجمالية عنايته حين يذهب إلى أن كثيرا من صور التقديم، إنما تتم لملاحظة هذا الجانب، وقد اختلف في ذلك مع جار الله الزمخشري حول سبب تقديم المفعول به على الفعل في قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين)، ففي حين ذكر الزمخشري أن التقديم يفيد الاختصاص، قال ابن الأثير: ان التقديم هنا إنما «كان لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون، ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة، وزال ذلك الحسن» (٥٢) ولا يقف ابن الأثير عند هذه الآية، بل يرجع التقديم في كثير من آي القرآن الكريم الى حسن النظم، ومراعاة ما يكون من التناسب بين أواخر الآيات، على نحو ما نجد في قوله تعالى: (فأوجس في نفسه خيفة موسى)، وقوله تعالى: (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر) فإن المفعول فيها «انما قدم لمكان النظم السجعي» وعلى الرغم من اعتدادنا بما أطلق عليه التناسب، وذهابنا إلى مراعاته في القرآن الكريم (٥٣) لا نوافق ابن الأثير على أن التقديم في مثل هذه الآيات لا يفيد غير حسن النظم، بل التقديم يفيد بالإضافة إلى هذا الاختصاص، وهو جانب له أهميته، ولا ندري كيف يقدم ابن الأثير الجانب اللفظي المتمثل في حسن النظم، والتوافق السجعي على الجانب المعنوي، وهو الذي يجعل الألفاظ خدم للمعاني - حسب تعبيره - حين قال وهو بصدد الحديث عن قول الشاعر:

وسألت بأعناق المطي الأباطح

«والذي لا ينعم نظره فيه لا يعلم ما اشتمل عليه من المعنى، فالعرب إنما تحسن ألفاظها، وتزخرفها عناية منها بالمعاني التي تحتها، فالألفاظ إذاً خدم المعاني، والمخدوم لا شك أشرف من الخادم، فاعرف ذلك وقس عليه» (٥٤).

وعلى أية حال، فان ابن الأثير يقصر صور تقدم المفعول به على الناحية الجمالية ودراسته في هذا الموضع لا ترقى الى الدراسة التي قدمها عبدالقاهر الجرجاني للتقديم والتأخير، وقد عرضنا لذلك في الدراسة التي قدمتها «في بلاغة التراكيب». (٥٥)

«أبو يعقوب السكاكي»

ومن العلماء الذين كان لهم دور بارز في علوم البلاغة، وأحدثوا فيها أثرا، أبو يعقوب السكاكي المتوفي ٦٢٦هـ، لكنه سلك طريقا غير الذي سلكه عبدالقاهر الجرجاني،

ومن بعده جار الله الزمخشري وابن الأثير. كما أنه لم يكن يتمتع بالحس الفني، والذوق الجمالي الذي يتمتع به أولئك العلماء الكبار، فالسكاكي لم تتح له ظروف طلب العلم الا وقد جاوز الثلاثين من عمره، ولم يصقل مواهبه الفنية والأدبية بدراسة الأدب، وكانت كل غايته أن يجمع قواعد العلم ويسهل الاحاطة بها لمن يريد أن يتعلمه.

وحين نقرأ مقدمة كتاب «مفتاح العلوم» نقف على مجموعة من الحقائق تمكننا من وضع جهود السكاكي في إطارها الصحيح. وأول هذه الحقائق أنه لم يكن أديبا يريد أن يكشف عن جوانب فنية في نص من النصوص الأدبية، وثانيها أن أصول العلم كادت تصل الى شكلها النهائي، ولم يبق غير وضعها في قواعد، وتحديد أقسامها تحديدا لا يسمح باختلاط بعضها ببعض، وثالثها أنه لم يوجه للبلاغة من العناية أكثر مما وجه الى مجموعة من العلوم الأخرى التي درسها في كتابه المشار اليه.

ان الغاية التي سعى اليها أبو يعقوب السكاكي كانت أن يقدم لناقد الأدب العدة التي تمكنه من النظر في الأدب نظرا صحيحا. وكأني به قد وجد في عصره أناسا يتحدثون في الأدب، ويحكمون عليه، وهم غير مؤهلين لهذا العمل، لأن ثقافتهم قاصرة ومعارفهم محدودة. ولهذا تأتي أحكامهم مبتورة وخالية من التحليل والتعليل. وناقد الأدب، الذي يستحق أن يتبوأ هذه المكانة، ويحكم على إبداع المبدعين، ويقوّم عمل المنشئين، هو من اكتملت عدته، وصفا حسه، وتعمقت نظرته من خلال الممارسات الطويلة، والدربة المستمرة، بالاضافة الى ما حباه الله من الموهبة.

إن ثقافة الناقد ومعارفه أمر ضروري، لأنها صقال الموهبة، وهذه الثقافة يجب أن تشتمل على أمور كثيرة، فلا تقتصر على نوع دون نوع، ذلك لأن مثل هذه الثقافة المتنوعة التي تأخذ جليل الأمور وهينها ضرورية في الأصل للشاعر، وهي من أسباب التفاوت بين الشعراء في أشعارهم.

ومن أهم أنواع الثقافة التي يراها السكاكي ضرورية للشاعر والناقد، الثقافة اللغوية التي تعد وسيلة الابداع. ومن أجل ذلك يقدم السكاكي للناقد التصور الذي يراه للشعر، ويرسم له الطريق الذي يجعله يقف على أسراره. فمن الشعر ما يكون سهلا، واضح المعنى، ظاهر الغرض، لا يحتاج الى بذل الجهد، وإنعام النظر، إذ هو يظهر

للرائي منذ النظرة الأولى، ويكشف له عن نفسه دون عناء. لكن من الشعر ما يصعب تناوله، وينـد عن الفهم السريع، وهـو يتـدرج في ذلك حتى يصل الى المرحلة التي تستدعي تضافر العدد، وتنوع الثقافة، وتستعين بقـوة الطبع وشـدة الـذكـاء، ودوام الدربة. يقـول السكـاكي في ذلك: «ان نـوع الأدب نـوع يتفـاوت كثـرة شعب وقلـة، وصعوبة فنون وسهولة، وتباعد طرفين وتدانيا، بحسب حظ متـوليـه من سـائر العلـوم كمالا ونقصانا، وكفاء منزلته هنالك ارتفاعا وانحطاطا، وقدر مجاله فيها سعة وضيقـا. ولذلك ترى المعتنين بشأنه على مراتب مختلفة، فمن صاحب أدب تراه يرجع منه الى نوع أو نـوعين لا يستطيع أن يتخطى ذلك، ومن آخـر تـراه يـرجع الى مـا شئت من أنـواع مربوطة في مضمار اختلاف. فمن ليِّـن الشكيمة سلس المقاد، يكفي في اقتيـاده بعض قوة، وأدنى تمييز، ومن آخر بعيد المأخذ، نائي المطلب، رهين الارتيـاد بمـزيـد ذكـاء، وفضل قوة طبع، ومن آخر هو كالملزوز في قرن، ومن رابع لا يملك الا بِعُدَدٍ متكاثـرة، وأوهاق متظافرة مع فضل الهي، في ضمن ممارسات كثيرة ومراجعات طويلة، لاشتمالـه على فنون متنافية الأصول، متبـاينـة الفـروع، متغـايـرة الجني، تـرى مبنى البعض على لطائف المناسبات المستخرجة بقوة القرائح والأذهان، وتـرى مبنى البعض على التحقيق البحت، وتحكيم العقل.. الخ.

وفي هذه العبارة التي سقناها من كتاب أبي يعقوب، والتي وضعها في مقدمة كتابه، ليبين فيها غايته من هذا الكتاب، يظهر لنا أمر يكاد يكون من بين المسلمات، هـو أن أنواع الأدب تتفاوت فيما بينها، وأن هذا التفـاوت مـرده الى مـا يكـون من التفـاوت بين المبدعين بسبب قوة الموهبة أو ضعفها، وعمق الثقافة وتنوعها، أو ضيقها وبساطتهـا، وكثرة الدربة وقلتها.. وغير ذلك من المكونات التي يكون لها أكبر الآثار في تشكيل فن المبدع وعمقه.

ولقد أشار الآمدي الى هذا عند حديثه عن مذهب كل من أبي تمام والبحتري، فقـد ذكر لنا أن ابا تمام من أصحاب الصنعـة، وأنـه يميل الى التـدقيق والتعمق في المعـاني، وكثير من معانيه يحتاج الى استنبـاط وشرح. ولهذا يميل اليـه أصحـاب الصنعـة، ومن يفضلون المعاني الغامضة التي تستخـرج بـالغـوص، ولا يعنيهـا غير هـذا من جـوانب

الفن. أما البحتري فانـه يفضل سهل الكـلام، وقـرب المعنى، ويـؤثـر جمال السبك، وحسن الصيـاغـة، ويختـار من الألفـاظ أحـلاهـا في السمع، وأكثـرهـا وقعـا في النفس. (٥٦)

كما يبين لنا أن من الشعر والأدب ما تستعصي الغاية منه، وتحتاج في الكشف عنها، الى الثقافة الواسعة، والذكاء الحاد وطول الممارسة والـدربـة، وقـوة الحدس. ولهذا فـان السكاكي يقدم للناقد الثقافة الضرورية التي تمكنه من الوقوف على بعض غايات الأدب وأسراره. «وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة مـا رأيتـه لابـد منـه. وهي عدة أنواع متآخذة، فأودعته علم الصرف بتمامه، وأنـه لا يتم الا بعلم الاشتقـاق المنوع الى أنواعه الثلاثة، وقد كشفت عنها القناع، وأوردت علم النحو بتمامـه، وتمامـه بعلمي المعاني والبيان. وقد قضيت بتوفيق الله منهما الوطـر، ولما كـان تمام علم المعـاني بعلمي الحد والاستـدلال، لم أر بـدا من التسمح بهما. وحين كـان التـدرب في علمي المعاني والبيان موقوفا على ممارسة باب النظم، وباب النثر، ورأيت باب النظم يفتقـر الى علمي العروض والقوافي، ثنيت عنان القلم الى ايرادها» . (٥٧)

ان علوم اللغة المختلفة وعلـوم البـلاغـة، وعلمي العـروض والقـافيـة، وعلم الحد والاستدلال من الأساسيات التي يجب على من ينظر في الأدب أن يحيط بها. وقد تضمن كتاب السكاكي هذه الأمور، لكن بعض الدارسين لم ينظر في هذا الكتـاب على النحـو المرجو، ولم يقف على الحقائق العلمية التي تضمنها، والتي نوافق صاحب الكتاب على أهميتها لمن يريد أن تكون نظريته النقدية شاملة، لكن صعوبـة تحصيل هـذه العلـوم، ضعفت أمامها همة البعض، فقد حوا في الكتاب وصاحبه، ورددوا مقولة غير صحيحة تهون من شأن الكتاب، وتصرف الدارسين عنه.

وقد لقي كتاب مفتاح العلوم اهتمام الـدارسين في عصره، وبعـد عصره، وتمحـورت الدراسات البلاغية حوله، وأهملت العلوم الأخرى التي اشتمل عليهـا الكتـاب. ولعل الخطأ الذي وقع فيه الدارسون أنهم حسبوا الوقوف على القواعـد في البـلاغـة يمكن من الاحاطة بها، وأنه يكفي الاتيان ببعض الأمثلة للتطبيق على القاعدة، ولم يعلم هؤلاء أن التحليل البلاغي يحتاج الى الحس المرهف.

ولقد كان عبدالقاهر الجرجاني مدركا لهذا الخطأ، ونبه عليه صراحة، حين ذكر أن هذا العلم الجليل وقع عليه حيف كبير، ودخل على الناس من الخطأ فيه ما جعلهم يهونون من أمره، ويقللون من قيمته، ويحسبون الوقوف عليه من الأمور الهينة التي يمكن لمن وقف على أوضاع اللغة، وعرف معاني الألفاظ، أن يحيط بأطرافه، وأنه وصل فيه الى الغاية التي لا حاجة بعدها، فالفصاحة والبلاغة المتداولة، أو كما يقول: «وجملة الأمر أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك الا من جهة نقصه في علم اللغة، لا يعلم أن ها هنا دقائق وأسرارا، طريق العلم بها الروية والفكر، ولطائف مستقاها العقل، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هُدُوا اليها، ودلوا عليها، وكشف لهم عنها، ورفعت الحجب بينهم وبينها، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضا، وأن يبعد الشأو وتمتد الغاية، ويعلو المرتقى، ويعز المطلب، حتى ينتهي الأمر الى الاعجاز، والى أن يخرج من طوق البشر» (٥٨).

ان أهم ما يحسب للسكاكي ما قام به من ربط بين علوم اللغة المختلفة، ووجوب الاحاطة بها لمن ينظر في الأدب، ويطمح الى الحكم الصائب عليه، ولعل أهمية ذلك تظهر في وقتنا هذا الذي أهمل فيه النقاد الجانب اللغوي، وصرفوا كل اهتمامهم الى القيم الموضوعية.

* * *

ومما سبق يتضح لنا أن علوم البلاغة لم يتح لها من الوقت، ولم يتهيأ لها من العلماء ما أتيح لغيرها من علوم العربية، التي بدأ الاشتغال بها منذ القرن الأول، وتوالى فيها العلماء طبقة بعد أخرى، وكل واحدة تضيف لبنة في البناء، ولهذا آتت الجهود أكلها وربما تجاوزت الواقع، وراحت تضع الفروض التي لا وجود لها وتجيب عليها. وشيء من ذلك لم نجد في علوم البلاغة على نحو ما سبقت الاشارة اليه. فلم نجد من يستثمر جهود عبدالقاهر ويضيف اليها غير عدد محدود من العلماء في مقدمتهم الزمخشري، كما أن الأخير لم يُنْتَفَعُ بما قدم للأسباب التي ذكرتها. ولسوء الحظ بدأت بعد ذلك شمس الحضارة العربية في المغيب، وأصبح العلماء الذين جاءوا بعد ذلك يدورون في فلك كتاب المفتاح، لأنهم لا يريدون غير القاعدة. لقد ضعفت ملكتهم الفنية، وفقدوا

الحس المرهف الـذي يفيـد في التحليل الأدبي، ومن ثم تـوقف أو كـاد، ذلك الاتجاه الخصب الذي كان عند عبدالقاهر والزمخشري. اللهم إلا ما نجده في كتـاب (التبيـان) لشرف الدين الطيبي.(٥٩)

وفي العصر الحديث، حيث بدأت الصحوة تنبه بعض الباحثين الى ضرورة العودة الى هذا التراث، واستقراء ما فيه، والافادة بها يمكن الافادة بـه منـه. وقـد تنـوعت جهـود الباحثين، فمنهم من عمد الى الكشف عن الأسباب التي أثـرت في مسيرة هـذا العلم، وحالت بينه وبين الوصول الى الغايات المرجوة منه. فوجدنا من يبحث عن الأثر الهليني في البلاغة العربية، كما فعل الـدكتـور طـه حسين(٦٠)، والدكتور ابراهيم سلامـة، والدكتور شكري عياد. ومنهم من دعا الى تجديد مناهج الدرس، واعـادة البـلاغـة الى مجال الأدب بوصفها فنا للقول، على نحو ما فعل الأستاذ أمين الخولي.

ومنهم عن عني بتاريخ البلاغة ونشأتها وما أصابها من التطـور، على نحـو مـا فعل الدكتور شوقي ضيف. ووجـد في العصر الحديث من حـاول أن يكثـر من الأمثلـة على قواعد البلاغة، معتقدا أن مثل هذه التطبيقـات التي تفيـد في درس النحـو، يمكن أن تقوم بنفس العمل في ميدان البلاغة.

وغير هؤلاء وأولئك، وجد من وضع يده على البداية الصحيحة، وعاد بالبـلاغـة الى النقطـة التي عنـدهـا تـوقفت، وراح يفتش عن المعطيـات المفيـدة التي تـوصل اليهـا الأسلاف في بحثهم الدؤوب، متخذا من النص الأدبي منطلقا له لدراسـة الأسـاليب، وما يعتورها من أسباب القوة والضعف، وكاشفا عما يكون فيها من ألـوان الحسن، ولا يتسع المقام للحديث المفصل ن ذلك. ونأمل أن نعود اليه في القريب ان شاء الله.

* * *

ان في التراث البـلاغي ومضـات مشرقـة يمكن الافـادة منهـا، وعلى الأخص في دراسات عبدالقاهر الجرجاني، وجار الله الـزمخشري، ومن بعـدهم ابن الأثير، وحـازم القرطاجني، وابن رشيق القيرواني.

وليس صحيحا ما ذهب اليه بعض الدارسين، حين حاول التقليل من قيمة بـلاغـة العرب، ودعا الى صرف الأنظار عنها. ففي بلاغة العرب كثير من حقائق العلم التي لا يملك أحد الا التسليم بها مهما بالغ في الجحود والانكار.

هوامش البحث

(١) البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٦١.

(٢) السابق، ج، ص ٧٩.

(٣) وكان يطلق على البلاغة «البيان»، وأحيانا كان يطلق عليها المعاني، فهو من اطلاق اسم الجزء على الكل.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص ٥١٩.

(٥) السابق، ص ٥١٩.

(٦) دلائل الاعجاز، ص ٢٦٢.

(٧) السابق، ص ٢٦٢، ٢٦٣.

(٨) السابق، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٩) أسرار البلاغة، ص ١٤.

(١٠) مفتاح العلوم، ص ٧٠.

(١١) راجع: الفصاحة، مفهومها، بم تتحقق؟

(١٢) من قضايا النقد والبلاغة.

(١٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص ١١٣.

(١٤) الوساطة، ص ٤١.

(١٥) السابق، ص ٨٤١

(١٦) سر الفصاحة، ص ٢٠٠.

(١٧) يفهم من كلامه أنه لا يعتد بما أطلق عليه البلاغيون مقتضى الحال، وهذا اعتبار له أهميته عند غيره من البلاغيين.

(١٨) يسمى المتضاد، والمخالف، والمقابل، والسلب والايجاب (المطابق)، انظر سر الفصاحة، ص ٢٣٤.

(١٩) أسرار البلاغة، ص ٣٤.

(٢٠) البيان العربي، د. طبانة، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢١) دلائل الاعجاز، ص ٨٧.

(٢٢) السابق، ص ٨٨.

(٢٣) السابق، ص ٩٠.

(٢٤) السابق، ص ١٢٣ .

(٢٥) أسرار البلاغة، ص ١٤ .

(٢٦) دلائل الاعجاز، ص ٧٩ .

(٢٧) يعبر عبدالقاهر عن البلاغة بالبيان، ونجد مثل هذه التسمية عند غيره، وأحيانا يطلقون عليها المعاني، وأخرى البديع .

(٢٨) دلائل الإعجاز، ص ٥٤ .

(٢٩) السابق،

(٣٠) البيان والتبيين، ج ١، ص ٧٦. ونسمع لمثل هذه الدعاوى في أيامنا هـذه، فكثير من أهل العلم أو ممن ينسبون اليه لا يرون في اللغة الا أنها مجرد وسيلة للافهام أيا كانت الطريقة التي تتم بها .

(٣١) دلائل الاعجاز، ص ٥٤، ٥٥ .

(٣٢) البلاغة العصرية .

(٣٣) دكتور تمام حسان: اللغة، معناها ومبناها، ص ٢٠، ٢١ .

(٣٤) مفتاح العلوم، المقدمة .

(٣٥) يطلق ابن خلدون البيان على المعاني والبيان .

(٣٦) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٢١ .

(٣٧) الطراز، ص ٥ .

(٣٨)(البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، المقدمة .

(٣٩) السابق، ص ١٣ ـ ١٤ .

(٤٠) السابق، ص ١٤ .

(٤١) السابق، ص ٣٧١، وانظر الكشاف، ج ١، ص ١١ .

(٤٢) الكشاف، ج ١، ص ٦٧ .

(٤٣) السابق، ج ٢، ص ٢٦٦ .

(٤٤) المثل السابر، ج ٢، ص ١٦٨، ١٦٩ .

(٤٥) السابق، ص ١٦٩ .

(٤٦) د. محمد أبوموسى: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري .

(٤٧) المثل السابر، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

(٤٨) السابق، ج ٢، ص ٦٦، ٦٧ .

(٤٩) الوساطة، ص ٤٢٩ .

(٥٠) السابق، ص ٤٩ .

(٥١) انظر في هذا فنون التصوير البياني، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٥٢) المثل الساير، ج ٢، ص ٢١٢ .

(٥٣) الفصاحة: مفهومها، بم تتحقق، قيمها الجمالية .

(٥٤) المثل الساير، ج ٢، ص ٦٩ .

(٥٥) بلاغة التراكيب ـ دراسة في علم المعاني .

(٥٦) مفتاح العلوم ـ المقدمة .

(٥٧) السابق،

(٥٨) دلائل الاعجاز، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٥٩) انظر مقدمة التحقيق. وقد حقق الأثر كاتب المقال، بالاشتراك مع الأستاذ عبداللطيف لطف الله .

(٦٠) تناولنا جهود طه حسين وغيره في البحث الذي وسمناه «طه حسين وقضية الأثر الهليني في البلاغة العربية. وانظر في هذا الاتجاه: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، وترجمة الدكتور شكري عياد لكتاب الشعر لأرسطو .

* * *

المراجع والمصادر

(١) أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، ت محمد عبدالعزيز النجار، ١٩٧٧م.

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، د. ابراهيم سلامة، الأنجلو، ١٩٥٢م.

(٣) بلاغة التراكيب، دراسة في لم المعاني، د. توفيق الفيل.

(٤) البلاغة، تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٦.

(٥) البلاغة العصرية، سلامة موسى.

(٦) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد أبوموسى، دار الفكر العربي.

(٧) البيان والتبيين، أبوعثمان الجاحظ، ت عبدالسلام هارون.

(٨) البيان العربي، د. بدوي طبانة، الأنجلو، ١٩٦٢م.

(٩) التبيان في البيان، شرف الدين الطيبي، ت د. توفيق الفيل، عبداللطيف لطف الله.

(١٠) دلائل الاعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، ت محمد عبدالمنعم خفاجي، ط ١، ١٩٦٩.

(١١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ت عبدالمتعال الصعيدي، ١٩٥٣م.

(١٢) طه حسين وقضية الأثر الهليني في البلاغة العربية، د. توفيق الفيل، المجلة العربية للعلوم الانسانية.

(١٣) الفصاحة: مفهومها، بم تتحقق، قيمها الجمالية، د. توفيق الفيل، حوليات كلية الآداب، الكويت.

(١٤) فن القول: أمين الخولي، الفكر العربي، ١٩٤٧م.

(١٥) فنون التصوير البياني: د. توفيق الفيل، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٥م.

(١٦) الكشاف، جار الله الزمخشري،

(١٧) اللغة، معناها ومبناها، د. تمام حسان.

(١٨) مقدمة ابن خلدون، ط دار الشعب.

(١٩) مفتاح العلوم، أبويعقوب السكاكي.

(٢٠) مناهج تجديد، أمين الخولي، دار المعرفة.

(٢١) من قضايا النقد والبلاغة، د. توفيق الفيل، الشباب، ١٩٨٠م، القاهرة.

(٢٢) الموازنة بين أبي تمام والبحتري ـ الآمدي، ت سيد صقر.

(٢٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، ت د. احمد الحوفي.

(٢٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه، محمد أبوالفضل، الحلبي.

سير أندرو ريان
وأزمة التمثيل الدبلوماسي البريطاني في جدة
(١٩٣٠ ـ ١٩٣١)

الدكتور جمال محمود حجر

استاذ مساعد بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

حين وافقت الحكومة البريطانية على رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي لها في جدة إلى مستوى المفوضية في ديسمبر ١٩٢٩، لم يكن قد تيسر لها اختيار الشخص المناسب الذي يقيم إقامة دائمة في جدة، العاصمة الدبلوماسية لمملكة الحجاز ـ نجد. وقد كانت حريصة على أن يكون ممثلها الدبلوماسي هناك من بين العارفين بشؤون الشرق الأوسط، القادرين على العيش والتكيف مع البيئة المناخية الحارة لشبه الجزيرة العربية في فصل الصيف. وبعد استعراض للكفاءات العاملة في الشرق، وقع الاختيار، في أبريل ١٩٣٠، على سير أندرو ريان Sir Andrew Ryan، قنصل بريطانيا العام في المغرب، ليكون أول وزير بريطاني مفوض في جدة. وفي ٦ مايو وصل سير أندرو ريان إلى مقر عمله الجديد، واستقبله الملك عبدالعزيز في ١٧ مايو استقبالا رسميا. ومنذئذ بدأت مرحلة جديدة في مجال الاتصالات الدبلوماسية بين جدة ولندن، تختلف في طبيعتها ومظهرها عن المراحل السابقة[1] فيما يتعلق بتطور قنوات الإتصال بين الطرفين.

وهذه الدراسة تسعى إلى رصد طبيعة التغير الذي طرأ على قنوات الإتصال بين البلدين وظروفه التاريخية، في محاولة لتقويم التجربة وصولا إلى ما بها من إيجابيات وسلبيات، يمكن أن تساعد في تفسير التردي الذي جرى للعلاقات البريطانية ـ السعودية، في أعقاب تبادل التمثيل الدبلوماسي بين الطرفين لأول مرة في عام ١٩٣٠، وذلك على خلاف كل التوقعات التي كان يسعى إلى تحقيقها كلا الطرفين. وتحاول هذه

الدراسة أن تجد في الجوانب الشخصية للأفراد تفسيرا لـذلك التردي، من خـلال الإلمام بأساليب ممارساتهم لوظائفهم الرسمية، وأثر ذلك على القضايا العامة في العلاقات بين الدول. ولهذا ستركز الدراسـة على بعض الجوانب في شخص سير أنـدرو ريـان، وهـو يتعامل مع الشخصية العربية والبيئة العربية.

***

استطاع سير أندرو ريان بعد شهرين من شغله لوظيفة الـوزيـر المفـوض البريطـاني بجدة، أن يضع كلتي يديه على حقيقـة العمل الـذي تمارسـه المفـوضيـة البريطـانيـة، وأسلوب الأداء فيها، وطرق الإتصال بالملك عبدالعزيز وحكـومتـه في كل من الحجـاز ونجد. وأدرك أن المهمة الملقاة على عاتقـه جـد ثقيلـة، وأن إيقـاع العمل بطيء، وأن محاولة تطوير تمثيل دبلوماسي بريطاني، أقوى مما كان قائما في السابق، تـواجـه مشـاكل كثيرة.

وراح ريان يصوغ تلك المشاكل والصعـوبـات، التي تـواجهـه في جـدة، إلى وزيـر الخارجية البريطاني (جون هندرسـون) لأول مـرة في ٢٢ يـوليـو ١٩٣٠ (٢)، وأولها أن المفوضية البريطانية مقرها جدة، بينما تعمل الإدارات الحكوميـة في الحجـاز من خـلال مكاتب قائمـة في منـاطق يحظـر على غير المسلمين دخـولها، فـوزارة الخارجيـة ـ جهـة الاتصال الرئيسية في العمل الدبلوماسي ـ مقرها مكة، وفي ظل غيـاب وسـائل اتصـال حديثة، كان من المستحيل على ريان أن يمارس عمله بصورة طبيعيـة. صحيح أن هـذا الوضع ليس جديدا، ولكن ريان الذي خدم في استانبول وفي المغـرب من قبل، في ظل ظروف تفضل ظروف الحجاز كثيرا، لم يكن قادرا على التكيف مع أوضاعه الجديـدة كما كان أسلافه.

ومن جهة أخرى كانت اتصالات المفـوضيـة تتم في الغـالب بحكـومـة الحجـاز من خلال القائم بأعمال وزارة الخارجية (فؤاد حمزة) الذي كانت لديه صلاحيـات منـاقشـة الموضوعات المشتركة دون صلاحية اتخاذ القـرار. وكـان عليـه أن يعلق المنـاقشـات كلما اقتضى الأمر ذلك، لاستشـارة الملك شخصيـا، حيث لم يكن الأمير فيصل قـد صـار وزيرا للخارجية بعد. ولم تكن مثل هذه الاستشارة تتم بغير مثول فـؤاد حمزة أمـام الملك

شخصيا، في حالة إقامته في الطـائف أو في مكـة أو في المدينـة. وفي معظم الأحـوال لم يكن من اليسير الوصول إليه، إذا كان مقيما خارج الحجاز.

ومع شكواه من صعوبة الاتصال بالمسؤولين، يعبر ريـان عن انـزعـاجـه الشـديـد للزيارات المفاجئة التي يقوم بها المسؤولون السعـوديـون للمفـوضيـة التي لا تكـون ـ في معظم الأحوال ـ مهيأة لمناقشة ما لديها من قضايا تهم العـلاقـات بين البلـدين. وتمنى ريان لو أن مثل هذه الزيارات تمت في أوقات منتظمة. ويضرب ريان لذلك مثـلا حين يحصي عدد المرات التي زاره فيها فؤاد حمزة خلال شهرين، ويعدها خمسا. الأولى كانت في ٨ مايو ١٩٣٠، أي بعد تسلم ريان لعمله بيومين اثنين. والثـانيـة كـانت في يـومي ١٧، ١٨ مايو ١٩٣١، عنـدمـا صـاحب حمزة الملك اثنـاء استقبـال ريـان رسميـا في الحجاز. والثالثة كانت فيها بين ٢٧ و٣٠ مايو، وكانت زيارة عاجلة. والرابعة كانت فيها بين ٧ و١٢ يونيو بصحبة الملك. والخامسة كانت في الفترة من ١١ الى ١٨ يوليـو بـدون الملك. وهذه المرات الخمس كانت بمثابة فرص العمل الوحيـدة بين الجانبين، إن صح أن نعتبرهـا كـذلك. فإذا علمنـا أن بعضـا منهـا لم يخصص للعمل أصـلا، وبعضهـا حكمته الصدفة المحضة، وتذكرنا أن فؤاد حمزة لا يملك حق صناعة القرار، لوقفنا على بعض أسباب شكوى ريان من إيقاع العمل الدبلوماسي البطيء في الحجاز.

ولا شك في أن الظروف التي كانت تواجه الملك عبدالعزيز قد شغلته كثيرا عن إقامة اتصالات مباشرة بالمفوضية، ويلتمس ريان نفسه العذر للملك الذي كان «منهمكا في قضاياه السياسية، حتى أن مجرد وجوده الآن في الطائف ومكة يعد قضية سياسيـة، ولا يستطيع أحد أن يتكهن الآن متى يمكننا معاودة الاتصالات السياسية بصورة شخصيـة إلا من خلال التليفون»، هذا مع العلم أن الخدمة التليفونية «متواضعة للغايـة». كـان الملك ـ وقتئذ ـ يواجه انعكاسات الأزمة المالية العالمية على اقتصـاديـات الحجـاز (٣)، فضـلا عن مشـاكل الأمن الـداخليـة، واضطـرابـات الحدود، التي لم تستقـر بعـد، وبخاصة الحدود الشماليـة. وهنـاك كثير من الأمـور المعلقـة في العـلاقـات بينـه وبين بريطانيا، كقضية أوقاف الحرمين في البلدان الاسلامية الواقعة تحت النفـوذ البريطـاني، وقضية إعادة تشغيل سكة حديد الحجاز، وقضية العقبة ومعان، وقضية الملاحة الجوية

فوق شبه الجزيرة العربية، وقضية الرق، وقضايا الديون المستحقة عليه لحكومة الهند، وهذه القضايا الكبرى جميعها، «لا تهيء لأحد الفرصة على الإطلاق لمناقشة العديد من المسائل الصغيرة» .(٤)

لم تقتصر شكوى ريان على تلك الصعوبات التي واجهها في التعامل مع الجانب السعودي. فهو يقر بأن المفوضية ذاتها كانت تعاني من سوى التنظيم، ويقول: «هذه مشكلتنا نحن»، وأنه سيتولى علاجها بنفسه. ولكن أخطر مشاكل ريان في ممارسته العمل الدبلوماسي بجدة كانت ذات طبيعة شخصية، فهو يشير على استحياء إلى شيء من ذلك حين يكتب إلى هندرسون قائلا: «لا داعي الآن للشكوى من المعاملة السيئة التي إمتدت إليّ شخصيا». ويتحول ريان بهذه العبارة عن طرح مشكلته مع البيئة الاجتماعية إلى الشكوى من البيئة الطبيعية، فقد أثارت قسوة المناخ في جدة فضوله وغيرته من حافظ وهبة، الذي كان يتحدث بسرور وانشراح عن كيف أنه كان يتنقل بين لندن واسكتنلندة ليستمتع بالطبيعة. وكان يضايق ريان كذلك أن الطائف ذات الطقس اللطيف غير مفتوحة أمام غير المسلمين، وكان يأمل في أن يسمح له بالتريض فيها. وقد وعده فؤاد حمزة بالعمل على تيسير دخول الأوروبيين إلى الطائف .(٥)

ولم يتردد ريان في أن يطرح مسألة الطبيعة الخاصة للأراضي المقدسة على أنها من المشاكل التي تواجهه هو شخصيا، ويحاول إبراز ذلك حين يعرض التصور التالي على وزارة الخارجية البريطانية، فيقول: «لنفترض أن الملك جورج (الخامس) أدار الشؤون الخارجية بنفس الأسلوب (الذي يديرها به الملك عبدالعزيز) ونقل وزارة الخارجية إلى أكسفورد، باعتباره تصرفا ضروريا ينسجم والتقاليد المسيحية القديمة، ليستثني منها المسلمين، وأن حافظ وهبة (الوزير المفوض السعودي في لندن) كان مسموحا له بالإقامة في لندن وضواحيها فقط، ترى هل كانت حكومة الحجاز ستجد ضرورة لإقامة مفوضية لها في بريطانيا؟».

لقد أراد ريان أن يقول لحكومته: أنه ـ في ظل هذه القيود التي تضعها حكومة الحجاز ـ ليس هناك ضرورة لإقامة مفوضية بريطانية في جدة، خاصة وأنها تمارس نشاطا متواضعا، ولا يلقى فيها ممثل بريطانيا العظمى تقديرا من المسؤولين الحجازيين،

مع أن وجود مفوضية بريطانية في جدة كان أحد أماني الملك عبدالعزيز. يقول ريان «أخبرني (الملك) نفسه أن أحد أهدافه هو أن يكون قادرا على أن يتحدث بصراحة ووضوح مع مسؤول بريطاني كبير في المفوضية». وبعد أن تحقق للملك ما أراد، يشكو ريان من أن الملك لا يهتم به، ولا يتحدث إليه في القضايا المشتركة، وأنه اكتشف ألا دور له، بالرغم من أنه هو ذلك المسؤول الكبير الذي كان الملك عبدالعزيز يتمنى أن يراه في المفوضية.

هكذا أراد ريان أن يعرض مشكلته الشخصية على أنها قضية عامة، في العلاقات بين البلدين. ويبدو أنه كان مصرا على إحداث تغييرات فجائية على نظام الحياة الدبلوماسية في الحجاز، حين رفض التسليم بطبيعة هذه البلاد المقدسة، وأشار إلى أنه سوف يطلب لقاء الملك في الطائف، على أساس أنه ليس لديه علم رسمي بأنها محظورة على الأجانب. لقد سعى ريان إلى فؤاد حمزة كي يساعده في هذا السبيل، محاولا إقناعه أن مثل هذا المطلب سيحقق له فوائد كثيرة، وسيريحه من كثرة التنقل بين الطائف وجدة. وذكّره بما سبق أن قال حول النتائج التي يمكن ان تترتب على تشكيك الحكومة البريطانية في أهمية وجود مفوضية لها في الحجاز.

لقد خيب فؤاد حمزة آمال ريان بأسلوب هادىء. ذلك نه أبدى تعاطفا «جاء مفاجأة لكل توقعاتي (ريان) فقد استمع إليّ باهتمام، ورحب بكل ما قلت». وأقر بأن نقده للجهاز الإداري في الحجاز له ما يبرره، وأنه هو نفسه يدرك جيدا معوقات العمل في وزارة الخارجية، ولكنه يؤثر ألا يضايق الملك في وقت تطارده فيه مشاكل عديدة، فالوقت غير مناسب لإضافة مزيد من الأعباء على كتفيه. ولكنه طمأن ريان إلى أنه يخطط لمشروع كبير، يعتزم عرضه على الملك في الوقت المناسب، يتعلق بضرورة نقل وزارة الخارجية من مكة إلى جدة. بالطبع كان أهون على حكومة الحجاز أن تنقل وزارة الخارجية إلى جدة من أن تفتح الحجاز بالتدريج أمام غير المسلمين. وما يعنينا الآن هو أن ضيق ريان من العمل في الحجاز قد صار ظاهرا للعيان أمام حكومته في لندن، وأمام حكومة الحجاز في مكة.

ويحاول ريان ألا تُفهم ملاحظاته على أنها تذمر من جانبه تجاه الأوضاع المضطربة في

الحجاز، أو أنها تعكس مسألة خاصة به، ويذكر في رسالة أخرى إلى هندرسون ـ دونما تحديد لمصدر معلومته ـ أن الملك عبدالعزيز جاد في إعادة تنظيم إدارة الحجاز.(٦) ومع أن المعلومات المتوفرة لديه حول برنامج الملك الاصلاحي ليست كافية لتكوين صورة واضحة عما كان يدور في رأس الملك، إلا أن الحوار الذي أجراه قبل أسبوعين مع فؤاد حمزة، كان يهدف إلى توجيه أنظار الملك إلى بعض الجوانب المهمة، التي يجب أن تراعى في عملية الاصلاح، أو في إعادة تنظيم الإدارة في الحجاز. ومهما يكن من أمر تطلعات ريان نحو تخطي الظروف الصعبة التي تواجه عمله الدبلوماسي في الحجاز، فإن إقامة مقر دائم لوزارة الخارجية في جدة لم يتحقق قبل عام ١٩٣٢.(٧)

كان فؤاد حمزة هو مصدر إمداد ريان بالمعلومات المتعلقة بالنشاط السياسي والدبلوماسي للملك عبدالعزيز، باعتبار أن حمزة كان يقف ـ أكثر من غيره باستثناء يوسف ياسين ـ على أسلوب الملك في التفكير في هذا المجال. ويبدو أن علامات الود والارتياح التي نشأت بين ريان وحمزة نمت وتطورت، وربما كان ريان حريصا على الإبقاء على فؤاد حمزة مقربا إليه، لأنه لم يجد عنه بديلا مريحا بين مستشاري الملك.

وحين التقى فؤاد حمزة بريان في ٣ أغسطس ١٩٣٠(٨)، فاتحه في موضوع تطوير وزارة الخارجية، وكشف له عن «أن الملك صار متعبا للغاية»، وأنه بعد أن سمع لنصح الأطباء «يؤثر أن يملك على أن يحكم to reign rather than to rule» ولهذا فهو يرى أن يسند إلى الأمير فيصل، نائبه في الحجاز، مسؤولية إدارة الشؤون الخارجية إلى جانب منصبه الأصلي. ولم تكن هذه الخطوة مفاجأة لريان. ويرى الملك كذلك أن يبقى فؤاد حمزة في منصبه نائبا لمدير (وزير) الشؤون الخارجية. ولا شك في أن هذه الخطوة الأخيرة قد أراحت ريان كثيرا.

وكشف فؤاد حمزة عن أن الترتيبات الجديدة في وزارة الخارجية تقضي بتقسيم أعمال الوزارة ـ فيما يتعلق بالاتصال بالبعثات الدبلوماسية في جدة ـ إلى أربعة أقسام، ولكن تنفيذ هذه الخطوة سيبقى رهن توفر العناصر المناسبة لرئاسة هذه الأقسام الأربعة، ويفترض أن يقيم هؤلاء الأربعة في جدة، أو على الأقل يداومون على الاتصال بها، إلى حين تدبير مقر دائم للوزارة فيها. لم تقابل هذه الخطوة بارتياح من ريان، الذي أزعجه

أن يختفي فؤاد حمزة عن أداء دوره كقناة إتصال ناسبة مع الملك. ولكن حمزة أراحه كثيرا، حينما أحاطه علما بأنه سيتولى الشؤون الخارجية إلى حين تدبير عناصر ذات كفاية، وإعلان التنظيم النهائي لوزارة الخارجية.

وكانت «أم القرى» قد نشرت في ١٨ يوليو ١٩٣٠ أن إنشاء قسم سياسي في ديوان الملك، تحت إشراف الشيخ يوسف ياسين، هو أمر قيد الدراسة. ولكن حمزة بين لريان أن الهدف من إنشاء هذا القسم هو أن يكون قناة إتصال بين الملك ووزارة الخارجية. وتعني هذه الخطوة أن فؤاد حمزة قد أبعد عن الملك عبدالعزيز خطوة، فقد صار عليه أن يتلقى تعليمات الملك من خلال يوسف ياسين. صحيح أن الإثنين كانا من بين العناصر السورية التي عملت في خدمة الملك، إلا أن الملك ـ فيما يبدو ـ أراد أن يضع الواحد منهما في مواجهة الآخر، حتى لا يترك الأمر كله بيد شخص واحد. ومع ذلك فمما لا شك فيه أن أعباء الملك قد تضاعفت وأن هذه الخطوة إنما كانت تهدف إلى التخفيف منها.

ومهما يكن من أمر، فقد تم انجاز خطوة كبيرة ذات معنى فيما يتصل بقضية التمثيل الدبلوماسي، ففي أواخر عام ١٩٣٠ صدرت الأوامر الملكية بتغيير اسم «مديرية الشؤون الخارجية» إلى «وزارة الخارجية»، ليكون الأمير فيصل أول وزير لها، إلى جانب كونه نائبا للملك في الحجاز، وليكون فؤاد حمزة وكيلا للشؤون الخارجية اعتبارا من ١٦ ديسمبر ١٩٣٠.(٩) وكانت هذه أول وزارة استحدثت في الحكومة بصفة رسمية.(١٠)

ولكن اضطراب أحوال فؤاد حمزة الصحية لم تمكنه من مواصلة العمل بانتظام في وزارة الخارجية، وبالتالي وجد ريان نفسه يتعامل مع طاقم جديد لم يألف التعامل معه من قبل، خاصة وأن الأمور تركزت في يدي يوسف ياسين، بعد سفر فؤاد حمزة إلى مصر للعلاج. ووجد ريان بعد ذلك أن من المناسب تحويل المسائل المعلقة بين البلدين إلى لندن لتناقش هناك بين حافظ وهبة وجورج رندل، وذلك إلى أن يستقر النظام في وزارة الخارجية الناشئة.(١١) وما أن أقبل فبراير ١٩٣١ حتى كان الأمير فيصل مريضا هو الآخر، وبذلك تركت الشؤون الخارجية في يدي يوسف ياسين.

ولم يكن يوسف ياسين بعيدا عن قضايا الملك عبدالعزيز السياسية، فقد عمل معه منذ عام ١٩٢٣، وأسس جريدة «أم القرى» في العام التالي مباشرة، وتحمل مسؤولية الشؤون الخارجية أثناء غياب عبدالله الدملوجي، الذي كان أول من شغل منصب مدير الشؤون الخارجية في عهد الملك عبدالعزيز في الحجاز. ولم تفت يوسف ياسين فرصة المشاركة في أية مفاوضات أو مناقشات بين الملك وبريطانيا، ولكن الانجليز لم يروا فيه خفة الظل التي رأوها في فؤاد حمزة. وبالطبع انعكس ذلك على أسلوب عمل ريان ومعاونيه في المفوضية البريطانية.

***

كان صيف عام ١٩٣١ ساخنا للغاية على المستوى الدبلوماسي في الحجاز. فالأزمة المالية قد أحكمت قبضتها على البلاد، والأزمة السياسية قد وترت العلاقات البريطانية ـ السعودية بسبب الخلافات السعودية مع شرق الأردن، وقد انعكست آثار الأزمة الأولى على إمكانية تسوية الأزمة الثانية، فلم يكن لدى الحكومة السعودية سيارات لنقل المسؤولين في رحلتهم إلى الحدود الشمالية، لتسوية الأمور على الطبيعة. واعتقد ريان أن الملك عبدالعزيز يتخلى عن مسؤولياته، بحجة الأزمة المالية. ولم يتردد ريان في مقابلة الملك ومصارحته بالتخلي عن التزامات وتعهدات قطعها على نفسه تجاه الحكومة البريطانية. ولم يكن الملك مستريحا لهذا الأسلوب غير اللائق في التحاور معه، «وغضب لتكرار الإهانات من ريان». وقدم حافظ وهبة احتجاجا للحكومة البريطانية حول هذه المسألة، وأبدى نصحه للملك بعدم الاتصال بريان في جدة. وكان ريان هو الآخر قد توقف عن مناقشة القضايا المعلقة بين البلدين، بحجة أن وزارة الخارجية السعودية كانت في مرحلة التكوين، مؤثرا أن تتم مناقشتها بين الحكومتين من خلال لندن.

لم يكن الإتهام السابق الموجه من ريان إلى الملك عبدالعزيز هو الأول من نوعه خلال فترة عمله القصيرة في جدة، فبعد تسلمه العمل بفترة وجيزة، وفي اجتماع مع الملك لمناقشة القضايا المتعلقة بالحدود النجدية ـ العراقية، قال الملك لريان، الذي كان يتحدث باسم الملك فيصل والعراق: «إنني لا أعرف فيصلا ولا غيره، أنتم (الانجليز)

الذين تفاوضتم واتفقتم معي، فلا أعرف غيركم». ويبدو أنه عز على ريان أن يقلل الملك عبدالعزيز من شأن الملك فيصل. فأجابه ريان بعجرفة «إذا كنت لا تعرف الملك فيصلا الذي أتكلم أنا الآن باسمه، فأنت تعيش في عالم من الخيال». وهكذا تخطى ريان حدود أدب الحوار مع الملك، الذي قطع الحديث وعلق المناقشات. يقول حافظ وهبة أن الملك قال لنا بعد ذلك «لولا أني أخشى المشاكل لقطعت رأس الملعون». (١٢) يبدو أن ريان لم يكن يعرف طبيعة العرب أو أنه تجاهل معرفته بها. ومهما يكن من أمر، فقد كان ما جرى شرخا صعب التئامه، وكانت له انعكاسات سلبية في العلاقات البريطانية ـ السعودية طيلة وجود ريان في جدة.

وفي ١٢ و١٣ يونيو ١٩٣١، إلتقى فؤاد حمزة بريان في جدة، لمناقشة الأزمة الناجمة عن خروجه على عن السلوك الدبلوماسي اللائق (١٣)، «الأمر الذي صار (كما يري ريان نفسه) عاملا هاما في الموقف بصفة عامة. لأن الملك يعتقد منذ وقت مضى أنني معاد له، وأنني أسخّر سياسة الحكومة البريطانية لتحقيق أهدافي. وأن كلا من الملك وفؤاد حمزة يبالغ في قوة نفوذي».

كان ريان يدرك جيدا أن الملك غير مستريح لوجوده كممثل دبلوماسي لأكبر دولة تمنى ذات يوم أن يكون لها تمثيل قوي في بلاده، ومع ذلك قد شهد بقدرات الملك وذكائه، فوصفه بأنه كان «يلعب دورا ملكيا ممتازا». ويعترف ريان لفؤاد حمزة بالفضل، لأنه كان يلفت نظره إلى المسائل ذات الحساسية الخاصة بالنسبة للملك.

ويعتذر ريان لوزير خارجية بلاده، لأنه كان يقحم مسألة العلاقات الشخصية في مراسلاته، ويفسر ذلك بقوله «ولكنني أفعل ذلك لأنها مسألةغاية في الأهمية في نظر الحجازيين». ويحاول ريان أن يشرك وزارة الخارجية معه في تحمل مسؤولياتها فيخاطب هندرسون بقوله: «... بالرغم من أنني كنت أتكلم بصراحة في مناسبات عدة، وسببت كلماتي... عدم ارتياح شديد، لكنني على كل حال كنت أنفذ التعليمات الصادرة منكم». وهذا يعني أن حكومة لندن كانت على علم بخطى ريان أولا بأول، وأكثر من ذلك أن جانبا من سلوكياته الدبلوماسية كانت تنفيذا لتعليمات منها، وبالتالي فإنه لا يتحمل وحده المسؤولية فيما بدر منه من سلوك سلبي.

ولكنه يعود في نفس الرسالة ويعلن تحمله لمسؤولياته بقوله «لقد كنت أعاني كثيرا كي أوضح للملك أنني لست معاديا له. وكنت أستخدم لغتي الخاصة في مناقشاتي معه، وهو ما قد يبدو زائدا عن الحد. . . إنني أؤكد بأن آرائي كانت شخصية محضة». وعندئذ وضع ريان سجلا كاملا لوقائع الحوار الذي دار بينه وبين كل من الملك وفؤاد حمزة في أيام ١٣، ١٤، ١٦، ١٧ يونيو ١٩٣١ (١٤)، أي فور فراغ الملك من موسم الحج.

لم يكن لقاء ١٤ يونيو مع الملك لقاء عمل ونقاش، فقد كان الملك لا يزال متعبا من رحلة الحج، وما صاحبها من مناقشات مع الوفود الاسلامية بمكة. لذا اقتصر اللقاء على استقبال الدبلوماسيين الاجانب في جدة. وحين جاء دور ريان لم يكن هناك ما يناقشه مع الملك، لأنه ناقش في اليوم السابق مع فؤاد حمزة القضايا المعلقة بين البلدين. واكتفى ريان بتهنئة الملك بنجاح المفاوضات مع العراق حول الحدود، وطلب أن يلقاه في موعد آخر قبل سفره إلى الرياض، وقبل أن يغادر ريان نفسه إلى لندن، وتحدد لذلك اللقاء يوم ١٧ يونيو ١٩٣١.

وكان حمزة قد عرض على ريان في لقائهما في ١٣ يونيو، تصوره للعلاقات البريطانية ـ السعودية بصفة عامة، وركز اهتمامه على موقف ريان الشخصي من الملك، وذكّره بالآمال التي كان الملك يعلقها على ذلك الشخص الذي يمكنه نقل آرائه إلى الحكومة البريطانية، متحملا كامل المسؤولية، ومتمتعا بحرية واسعة في إجراء المناقشات مع الملك، بطريقة تفضل ما كان يجري مع صغار المسؤولين البريطانيين في المنطقة قبل وصول ريان إلى جدة. ووعد فؤاد حمزة ريان بالعمل على تسوية الخلافات بينه وبين الملك، وإعادة العلاقات بينهما إلى المستوى اللائق. (١٥)

وفي هذا السبيل أخذ فؤاد حمزة بيد ريان وعاد به إلى الوراء. مسترجعا تطور العلاقات السعودية ـ البريطانية، التي كانت تنمو بغير تمثيل دبلوماسي، معتمدة فقط على الزيارات الطارئة، التي كان يقوم بها ضباط بريطانيون للملك وإلى ذلك العهد القريب، الذي كان فيه التمثيل البريطاني يدار من قبل موظفين أقل شأنا من ريان. وعلى طول تلك المراحل كانت العلاقات البريطانية السعودية تمر بنوبات من البرود

وأخرى من العداء، فالملك لا ينسى للانجليز موقفهم منه في خورمة وتربة، وقت نزاعه مع الشريف حسين في عامي ١٩١٨ و١٩١٩. (١٦) كما انه لا ينسى العون الذي قدمه الجانب العراقي لابن الرشيد قبل مقتله في عام ١٩٢١، ولا النشاط المعادي الذي استخدمت فيه قبائل شمر ضد نجد بعد ذلك. وهو لا يزال يذكر بأسى موقف الحصار الذي فرضته بريطانيا عليه حين أحاطته بأبناء الشريف حسين، فوضعت فيصلا ملكا على العراق، وعبدالله أميرا على شرق الأردن. وظلت قبائل العراق وشرق الأردن تعمل ضده، إلى أن سقط الحجاز في يديه، فخف نشاطها المعادي، بينما بقي الحصار البريطاني ضده من مناطق الانتداب الواقعة إلى الشمال من بلاده. وأشار فؤاد حمزة إلى بعض التصريحات التي أعلنها مسؤولون بريطانيون مثل سير برسي كوكس، وسير هنري دوبس Sir H. Dobb,s بما يفيد أن انجلترا كانت تتمنى «لو نظرت عبر الحدود فوجدت ابن سعود وقد صار ضعيفا».

ثم انتقل فؤاد حمزة إلى عرض المساعدات والخدمات التي قدمها الملك لانجلترا من خلال ثقته فيها واعتماده على نصحها، ومن خلال إلتزامه بعدم إزعاج حلفائها في المنطقة، ووصل الأمر إلى حد «إعلان الحرب على شعبه من أجل خاطر بريطانيا والعراق» (إشارة إلى ضرب الإخوان في عام ١٩٢٩)، ومن خلال وقوفه الى جانبها في الحرب العالمية الأولى، ومهادنة الحسين أثناءها، ومن خلال سياسة معتدلة في فلسطين والهند. وأخيرا من خلال وقوفه ضد السوفييت حماية لمصالح بريطانيا. في مقابل ذلك كله كان الثمن الذي دفعته بريطانيا للملك هو «صورة جديدة من صور البرود الانجليزي». (١٧) لقد كان حمزة يتحسر على كرم الملك الذي قوبل بجفاء، ويحاول أن يستحث ريان ليكون أكثر نشاطا وحيوية في خدمة تنمية العلاقات بين البلدين.

أكد ريان في تقويمه للموقف على أن فؤاد حمزة في عرضه لعلاقات الملك ببريطانيا، إنما وضع مصالحه الخاصة فوق كل اعتبار. «وأن الصداقة بين ابن سعود وبريطانيا (طبقا لكلمات حمزة) ترتكز على قواعد معروفة، على العكس من صداقتها مع الملك فيصل والأمير عبدالله، وهي صداقة لا يمكن أن تكون صادقة من جانب هذين الحاكمين. إن لبريطانيا في العراق وشرق الأردن مركزا متميزا من مصلحتها أن تبقي

عليه، ولن يتم ذلك إلا على حساب شعبي هذين البلدين. إن هناك صراعا شديدا بين المصالح البريطانية والطموحات القومية، ولهذا فان الصداقة بينها مستحيلة. وفي المقابل فليس هناك شيء من هذا يعكر صفو العلاقات البريطانية ـ السعودية، فيما عدا مسألة الرق» . (١٨)

كان فؤاد حمزة يعلم جيدا طبيعة العلاقات السعودية ـ البريطانية، ومجالات اهتمام بريطانيا في المنطقة، ونبه ريان إلى أن الملك عبدالعزيز قد حقق لبريطانيا كل ما أرادت منه، وعلى العكس من ذلك لم تحقق هي للملك كثيرا مما أراد منها، وأن مسألة العقبة ومعان، وغيرها من قضايا الخليج لم تسو كما أراد الملك. ومع ذلك فهذه القضايا لا يجب أن تفسد العلاقات بين البلدين. وأضاف حمزة «إن مهمتي أن أيسر وأن أبقي على مصالح كلا الطرفين السعودي والبريطاني اللذين لا تصطدم مصالحهما».

لاحظ ريان أن فؤاد حمزة قد أسهب في الإشارة إلى الأمور التي تنظر بريطانيا من خلالها إلى الملك عبدالعزيز، بينما اقتضب في عبارة واحدة كل الأشياء التي ينظر الملك من خلالها إلى بريطانيا، فالصداقة مع بريطانيا ـ في نظر الملك ـ هي المطلب الذي إذا ما تحقق تبعه تحقيق كل شيء. وبينما كان مطلب الملك عاما على هذا النحو، مما لم يمكنه من تحقيق ما أراد، كانت المطالب البريطانية محددة وواضحة، فقد كانت تتمثل في تحقيق السلام مع بريطانيا وأصدقائها في المنطقة، وفي تحقيق الأمن الداخلي الذي يضمن السلامة للحجاج البريطانيين، كما يضمن سلامة الملاحة البحرية البريطانية عبر الخليج والبحر الأحمر، وسلامة الملاحة الجوية على السواحل الغربية للخليج، ويساعد في التصدي للخطر الشيوعي (١٩) على المنطقة كلها.

كان فؤاد حمزة يتناقش مع ريان في ١٣ يونيو ١٩٣١ من منطلق أنه مجرد قناة إتصال؛ ولا يملك حق تقرير أمر من الأمور، وأن أية مساهمة من جانبه بإبداء الرأي إنما يجب أن ينظر إليها على أنها وجهة نظر خاصة لا تحمل بالضرورة صفة رسمية، ومن هذا المنطلق فقد كشف فؤاد حمزة عن الموضوعات التي تؤرق الملك عبدالعزيز وتقف بريطانيا منها موقفا مضادا. إنها تتمثل فيما يلي:

١ـ مسألة سكة حديد الحجاز التي سيفيد الملك منها سياسيا بربط أجزاء بلاده

المترامية الأطراف، واقتصاديا بالاستفادة من عوائدها في نقل الحجاج والبضائع.

٢ـ مسألة العقبة ومعان.

٣ـ مسألة أوقاف الحرمين الكائنة في البلاد الواقعة تحت الحكم البريطاني.

٤ـ مسألة الأزمة المالية وعزوف بريطانيا عن المساعدة فيها.

٥ـ مسألة الأمن الداخلي وأهمية المال في تدعيمه. وأشار فؤاد حمزة إلى أن الاتراك العثمانيين كانوا ينفقون على حامية تبلغ ٣٠ ألف جندي في الحجاز، وكانوا يقدمون العون المالي للقبائل، أما الملك عبدالعزيز فإنه يفكر في أن ينفق ما بين مليون ومليوني جنيه استرليني في الحجاز على الأمن وحده. ولو أن بريطانيا دفعت عنه خطر جيرانه لقدمت له خدمات جليلة.

يرى ريان أنه إذا استطاعت بريطانيا أن تتفاهم مع الملك من خلال هذه النقاط وعن طريق الصداقة الحقة، «عندئذ يكون الملك مستعدا للقاء معنا (بريطانيا) في كل النقاط ذات الأهمية لنا».

وفي ١٦ يونيو اجتمع فؤاد حمزة بريان [٢٠] الذي كان يستعد للاجتماع بالملك في اليوم التالي. وأكد فؤاد حمزة على نقطتين أساسيتين، طلب إلى ريان أن يسجلهما في الحديث غير الرسمي الذي جرى بينهما في ١٣ يونيو. تتعلق النقطة الأولى بأن الحوار الذي جرى بينهما تم بدون تعليمات رسمية من الملك، وتؤكد على أن الملك كان حريصا على تحقيق تفاهم واضح مع بريطانيا. وتتعلق النقطة الثانية بإظهار نوايا الملك الطيبة تجاه بريطانيا.

وبعد أن استبعد حمزة أي دخل للملك، الذي آثر أن يتم كل شيء في هذه الفترة بطريقة غير مباشرة، قال: «إن هدفه الآن هو الوصول معي (ريان) إلى تفاهم حول الموضوعات التي سنتناولها معا، مستخدمين نفوذنا الشخصي، مع احترام التعليمات الموجهة إلينا من حكومتينا، فأبديت لهم موافقتي على العمل معه من أجل (استمرار) العلاقات الطيبة بين البلدين، ولكنني قلت له أن مواقفنا صعبة». حرص ريان على ضمان تحقيق الإجراءات القانونية في الحوار، قبل تناول الموضوعات المطروحة، بينما كان

حمزة يرى أن من الضروري الوصول بالعلاقات إلى المستوى اللائق، بصرف النظر عن الطريق الذي يؤدي إلى هذه النتيجة.

كان ريان يرى أن فؤاد حمزة «هو مستشار الملك للشؤون الخارجية، والوزير الفعلي للخارجية، بالرغم من تحمل الملك المسؤولية الفعلية في الشؤون الخارجية، وبالرغم من تحمل الأمير فيصل المسؤولية من الناحية الشكلية... حتى ذلك الوقت. ومن هنا، فإن فؤاد حمزة يقف في موقع رجل الدولة، بينما أنا نفسي مجرد موظف مدني. قد يكون في إمكاني أن أنصح حكومتي في بعض القضايا، ولكن الممثل الدبلوماسي لا يستطيع - بصفة عامة - أن يشكل سياسة بلاده الخارجية، ومن الصعب أن أدخل في عملية سياسية لمتابعة التعليمات الصادرة إليّ».

كان ريان يدرك أن الصلاحيات التي يتمتع بها فؤاد حمزة - بالرغم من كل الاعتبارات - تجعله يتفوق عليه، ولا يرى في نفسه أكثر من «مجرد موظف مدني». ولهذا فلم يكن ريان جادا في توصيل الحوار مع فؤاد حمزة إلى مستوى مناقشة القضايا المهمة، بل حرص على أن يبقى عليه دائما في شكل الحوار الذي يمكن كلاهما من استكشاف وجهة نظر الآخر، دون التوصية بصياغة قرار معين، أو حتى توجيه السياسة الرسمية لحكومتيهما.

وعندئذ واتت ريان الفرصة لكي يرد على الطرح السياسي الذي قدمه فؤاد حمزة حول العلاقات البريطانية - السعودية في لقائهما في ١٣ يونيو. قال ريان: «إن العرض الذي قدمه (فؤاد حمزة) يشكل جانبا واحدا من مسألة كبرى شغلت السياسة البريطانية في تسويات ما بعد الحرب (العالمية الأولى) فيما يتصل بالدولة العثمانية. كانت هناك أجزاء من شبه الجزيرة العربية لنا فيها مسؤوليات خاصة، وأخرى لنا فيها مصالح أقل شأنا، ومنطقتان مستقلتان تماما (الحجاز ونجد) ويحكمها صديقان لنا. إننا مدينون إلى الملك حسين بنفس القدر الذي ندين به لابن سعود، لقد كنا نعمل من أجل استقرار الأمور في شبه الجزيرة العربية، لقد خرج ابن سعود من هذه العملية منتصرا، لا شكر لنا ولكن الشكر له على ما أنجزه».

وتعقيبا على شكوى فؤاد حمزة من أن السياسة البريطانية قد أحاطت الملك عبدالعزيز بوجود بريطاني متعدد الأشكال على حواف شبه الجزيرة العربية والمناطق

المجاورة لها، قال ريان، ولعله أول من أشار إلى ذلك: «يبدو الأمر لي أننا كنا على حافة الدائرة قبل ذلك، وأن ابن سعود هو الذي وسع ممتلكاته حتى ملأها». ويعتبر هذا اعترافا بريطانيا بأن بريطانيا ليس لها فضل في نشأة المملكة العربية السعودية، وأن معاهدتي حدا وبحره قد وقعتا في إطار التزامات بريطانيا تجاه العراق وشرق الأردن في عام ١٩٢٥. أما العلاقات الحقيقية بين عبدالعزيز وبريطانيا فتبدأ بمعاهدة جدة عام ١٩٢٧، وما قبل ذلك يدخل في تقديره ضمن مرحلة «ما قبل التاريخ».

لم يكن حمزة مقتنعا بمحاورة ريان له، وأكد على أن كل شيء كان يمكن ان يسير على ما يرام لو أن بريطانيا أحكمت سيطرتها على البلاد المجاورة للأراضي الواقعة تحت حكم الملك عبدالعزيز، أو لو أن حكامها لم يكونوا أعداء له. وهذا يعني أن يكون الحضور البريطاني في مناطق الانتداب حضورا كاملا وشاملا، وليس مجرد إشراف رسمي من بعيد على أنظمة عربية معادية للملك. ومع أن هذا الاقتراح من فؤاد حمزة لم يكن واردا للمناقشة، إلا أن ريان كان حريصا على التأكيد على سمو أهداف بريطانيا، حين قال: إن الرأي العام في بريطانيا «لا يسعى لتوسيع التزاماتنا في الشرق، بل إلى تخفيفها، خاصة وأن هناك حركات قومية في هذه البلاد يجب أن توضع في الاعتبار. وهذه المشاعر كانت قوية في العراق، كما أنها ظهرت في شرق الأردن، بالرغم من أن الوضع فيها مختلف...».

ونفى ريان أن تكون هناك «صداقة» بين بريطانيا والعراق أو بين بريطانيا وشرق الأردن، «لأننا حريصون على أن نبقى على وضع متميز فيهما». وفي حالة العراق فقد انخفض مركز بريطانيا المتميز إلى أقل مستوى ممكن بعد توقيع معاهدة ١٩٣٠، «إننا نرغب بل ونسعى لأن نكون أصدقاء لكل الناس. إن هدفنا أن نرى دولا مستقلة في شبه الجزيرة العربية على علاقة صداقة معنا ومع بعضها. وهناك الآن دول ذات حدود واضحة. أما حدود شرق الأردن... لا تزال موضوعا معلقا بيننا... وأنا أفضل استمرار الوضع الراهن.. كانت رغبتنا أن نجري حوارا مع الملك حول سلامة جميع الحدود فيما عدا تلك التي لم يحدثنا فيها (الحدود مع اليمن)».

أما القضايا التي أقلقت بال الملك عبدالعزيز، والتي أثارها مع ريان في لقائهما في

١٣ يونيو، فلم يعطها ريان ذات الاهتمام الذي أعطاه لقضية «الصداقة»، باعتبارها قضية محورية للعلاقة بين الطرفين. وأما القضايا الأخرى، فكان بعضها يتعلق بأمور داخلية بها لا يعني بريطانيا، وبعضها لا يدخل في إطار صلاحيات ريان، والبعض الآخر ليس لديه تعليمات بالخوض فيه، وهكذا تمكن ريان من الإفلات من ضغوط فؤاد حمزة حرصا على تأكيد الثوابت في السياسة البريطانية.

لم يثر فؤاد حمزة في لقائه الثاني بريان يوم ١٦ يونيو مسألة العلاقات الشخصية المتردية بين الملك عبدالعزيز وريان، ذلك أنهما تناولا الموضوع باستفاضة في لقائهما الاول قبل ذلك بثلاثة أيام [(٢١)]، حين جرى حديث «طويل وودي ركزناه على مسألة علاقتي (ريان) الشخصية بابن سعود... التي كانت في حاجة إلى الإصلاح... وقلت إنني مستعد...». وفي عرضه لتطور علاقته بالملك، اعترف ريان بأنه كان «حادا في الحوار» مع الملك حول القضايا المتعلقة بشرق الأردن. وحين راح فؤاد حمزة يؤكد على الدور الذي يلعبه الممثل الدبلوماسي، وعلى آرائه الشخصية، وسلوكه المرن، راح ريان يجاريه فيما ذهب إليه، وحتى وقف على هدف حمزة، الذي طالبه بضرورة أن تكون لديه مرونة دبلوماسية، أشار إليه بأن الممثل الدبلوماسي ليس كما يتصور الشرقيون، متمتعا بحرية كاملة بعيدا عن الأطر التي تفرضها عليه حكومته، من خلال القرارات التي يبلغ بها في كل مناسبة، فهو ملتزم بها، ويترك له فقط أسلوب تناولها دن مساس بجوهر التعليمات.

وانطلاقا من فهم ريان لطبيعة عمله، أخذ يوضح موقفه، دون اعتذار أو أسف عما بدر منه تجاه الملك، رغم إقراره به، وقال: «إذا كنت قد تحدثت بصراحة أو كتبت بوضوح ذات مرة، فقد تم ذلك بناء على تعليمات صريحة من حكومتي إلي... وربما لأنني رغبت في تسوية بعض المسائل، دون إعطاء أهمية خاصة لها، حتى لا أقحم الحكومة البريطانية في اتخاذ قرار حاسم بشأنها» مما قد يؤدي إلى تحميل الحكومة أعباء إضافية دون حاجة إلى ذلك. ومهما يكن من أمر، فإن الصيغ النهائية للتعليمات الصادرة إلى ريان تختلف - في الغالب - عن صيغها الأولية، وذلك نتيجة للتشاور معه مسبقا. وهذا يعني أن ريان قد شارك في صياغة هذه التعليمات الصادرة من لندن،

وبالتالي فهو أكثر التزاما بها وحرصا على تنفيذها، ويصعب عليه الفكاك منها. وهو يعترف بأن موقف حكومته من مسألة الحدود مع شرق الأردن، والذي أغضب الملك عبدالعزيز كثيرة، كان قد «تم الايعاز به مني (ريان) في محاولة لانقاد الحكومة البريطانية من التورط في موقف صعب».

وفوق ذلك، كانت هناك صعوبات خاصة بمن هو في مثل ظروف ريان، فهو وزير مفوض يتعامل مع ملك، يعد من الناحية العملية وزيرا للخارجية، ولا يترك لمستشاريه إلا قليلا من الصلاحيات وفرص صناعة القرار، مؤثرا أن يتناول بنفسه شؤونه الخارجية، ليس فقط من خلال سياسة عامة موجهة، وإنما بالاطلاع على كل صغيرة وكبيرة. وعندما يكتب ريان إلى الملك مباشرة حول أمر مرفوض من جانب الحكومة البريطانية فلابد أن ذلك يسبب كثيرا من الحرج والإزعاج، وعلى ريان في مثل هذه الحالة ضرورة احترام الملك، بصفته ملكا أصلا وليس بصفته وزيرا للخارجية، وهذا الوضع نادرا ما يحدث، بل هو غير وارد في دول أخرى، فالوزير المفوض يتعامل عادة مع وزير الخارجية. عندئذ أشفق فؤاد حمزة على ريان، ووعده باستخدام نفوذه لدى الملك، لاقناعه بأن ريان ليس معاديا له، وفي نفس الوقت نصح حمزة ريان بأن تتواصل الإتصالات بينهما لتخفيف حدة الحرج في الأمور الدبلوماسية وممارستها من خلال قنواتها الطبيعية.

وبعد هذه اللقاءات الثلاثة بين ريان والملك في ١٤ يونيو، وبين ريان وفؤاد حمزة في ١٣ و١٦ يونيو، وبناء على ترتيبات سابقة، ثم لقاء آخر بين الملك وريان في ١٧ يونيو[٢٢]، يصفه ريان بقوله: «أجلسني الملك معه ساعتين، وكان فؤاد بك (حمزة) مترجما، بينما كان يوسف ياسين جالسا بالقرب منا طول الوقت». كان موضوع الحديث عاما، ولكن الملك ركز فيه على سيادته على بلاده، واعتزازه بذلك، ومعاناته في الحفاظ على تلك السيادة. وانتقد الملك بعض المسؤولين البريطانيين الذين لم يمكنوه من نقل أفكاره واهتماماته إلى الحكومة البريطانية، وذكر الملك على وجه التحديد ثلاثة، هم: سير بيرسي كوكس (المندوب السامي بالعراق) وسير جلبرت كلايتون (الوزير المفوض والمندوب فوق العادة) وسير أندرو ريان نفسه، الوزير المفوض بجدة.

كان الملك ـ بناء على رواية ريان ـ يتوقع الكثير من كوكس، الذي لم يوف بها وعد. أما المسائل التي أسندها الملك إلى كلايتون فلم يسمع عنها شيئا. وأما ريان فقد وقع فيها وقع فيه كلايتون من عدم تبليغ رسائل الملك للحكومة البريطانية في موضوعات محددة، مما اضطر الملك إلى تكليف وزيره المفوض بلندن (حافظ وهبة) بعرض تلك القضايا على الحكومة البريطانية. وحين علم ريان من الملك أن وهبة لم يوفق فيها كلف به، عرض عليه إستعداده لرفع ما يرى من أمور إلى لندن.

عندئذ وجد الملك الفرصة مناسبة لعرض القضية الرئيسية التي قصد إثارتها. وطبقا لرواية ريان، قال الملك: إنه صديق دائم لبريطانيا، وطالما أن الأمور مستقرة من حوله فليست هناك مشكلة، أما إذا تبدلت الأحوال في البلاد المجاورة، فإن الملك يريد أن يعرف أين يقف، وما الذي تريده بريطانيا منه، وما الذي لا تريده؟ هذه الأسئلة بعينها سبق أن طرحها الملك على كوكس، ثم على كلايتون، «وهو يريد مني الآن إجابة عليها». ويستدرك الملك بقوله: إن الاجابة على تلك الأسئلة، مهما كانت طبيعتها، لن تؤثر على صداقته ببريطانيا؛ لأنه صديق دائم لها، وهذه الصداقة لا يجب أن تدخل في دور المساومة. صحيح أن ريان لم يجب على هذه الأسئلة، وإنما وعد بنقلها إلى لندن، دون أن يعطي التزاما بأي شيء. ولكن الملك حاول أن يستقطب ريان حين طلب إليه أن يعطيه رأيه الشخصي بصرف النظر عن الموقف الرسمي.

أكد ريان للملك أن موقف بريطانيا لم يتغير تجاهه، وأنه باق على ما كان عليه منذ أول أبريل، كما أكد ذلك ليوسف ياسين. أما رسائله التي ذكرها، فقد كانت في نظر ريان تتناول قضايا «إفتراضية»، وهناك مبدأ عام في الحكومة البريطانية الا يناقش المسؤولون قضايا «غير واقعية». ومع أن ممثل الحكومة يتمتع بحرية محدودة في تناول القضايا، إلا أنها تستنير برأيه في المجال الدبلوماسي، وقد يتدخل في تطوير شكل وصياغة القرار السياسي، قال ريان: «إن ممثل الحكومة الدبلوماسي يشبه أزميل النجار، آلة أساسية، ولكنها لا تعمل إلا بيديه» وكأنه أراد أن يقول إنه لا يعمل إلا طبقا لتوجيه حكومته، فلا دخل له بشكاوى الملك.

ولكن ريان ـ بالرغم من كل ذلك ـ كان يعلم جيد أن الملك عبدالعزيز راغب في

التفاهم مع بريطانيا، ويتصور أن ذلك يمكن أن يتم عن طريق وضع أطر نظرية لتلك السياسة، تكون ملزمة للطرفين، بينما كان ريان يرى أن العمل الدبلوماسي لا يتم إلا إذا كانت هناك قضية حقيقية قائمة بالفعل، يمكن التحاور والتشاور حولها. ويبدو أن هذه السياسة من جانب الملك كانت مبنية على شيء من عدم الثقة في السياسة البريطانية، التي يمكن أن تخدعه في أي وقت، ولهذا بدا الملك حذرا للغاية من الوقوع في شراك الدبلوماسية البريطانية، إلى درجة الحرص على تقنين علاقاته ببريطانيا، تفاديا لتقلبات سياستها. ولم تقلل الأزمة المالية ـ بما فرضته قسوتها على الملك من التزامات ـ من إصراره وحرصه على مبادئه العامة التي تشكل أساسيات موقفه السياسي.

يقول ريان تأكيدا على المعنى السابق: إن الملك «يحاول أن يضخم قوته ونفوذه، وحتى وهو وسط المحنة التي يمر بها الآن، فهو يريد تفاهما ذا طبيعة دائمة، يشبه التحالف في الغالب، وهذا التحالف موجه ضد الهاشميين، لأن ذلك سيكون مفيدا له، وهو يرى أنه يستحق أن تلتفت الحكومة البريطانية لمساعدته». ويضيف ريان: إن الملك «يكن لبريطانيا حبا عذريا نقيا. . .». لقد نجح الملك بدبلوماسيته في أن يجعل ريان يعتقد في صدق مشاعره تجاه بريطانيا إلى هذا الحد. ولكن ريان كان يرى أن هذا الأسلوب من جانب الملك ليس أسلوب عمليا. ويدلل على ذلك بأن الملك أقر في نهاية حديثه في ١٧ يونيو أن «الأسئلة التي طرحها على الحكومة البريطانية ليس من الميسور الإجابة عليها، ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يتوقع إجابة لها». (٢٣)

لم يكن ريان متفائلا بشأن إمكانية إعطاء الملك ردودا إيجابية، «فأنا لا أقدر على رؤية ما تستطيع الحكومة البريطانية تقديمه له، والالتزامات السياسية (البريطانية) نحوه. . . تبدو خارج المناقشة. . . ومنذ عامين تقرر عدم تقديم أية مساعدات مالية مباشرة له. . .». وبعد أن لمح ريان لاتجاهاته وميوله السلبية تجاه الملك، قال موجها الحديث إلى حكومات لندن: «سوف أترك لكم دراسة إمكانية إظهار اللطف معه».

لم تسفر اللقاءات التي جرت بين الملك عبدالعزيز وريان عن تصفية كاملة لأجواء الخلافات بينهما، سواء أكان ذلك على المستوى الشخصي أو الرسمي، فسرعان ما تهيأت الظروف لاشتعال أزمة جديدة.

ولعل أول الأزمات الحادة بين الملك عبدالعزيز وبريطانيا جرت في عام ١٩٣٢ حول موضوع الرقيق، وهو موضوع ذو حساسية خاصة في العلاقات الدبلوماسية بينهما، ذلك أن بريطانيا كانت تعتبر نفسها رائدة حركة تحرير العبيد في العالم. وقد مضى على بداية نشاطها هذا قرن كامل من الزمان حتى عام ١٩٣٢. ففي عام ١٨٣٣ وافق البرلمان (مجلس العموم) على طلب الحكومة إلغاء الرق في جميع صوره وأشكاله. وبعد مائة عام من هذا التاريخ، بدأت عصبة الأمم نشاطا جادا لالزام جميع أعضائها بإلغاء الرق، وتزعمت بريطانيا هذا الدور في العصبة. ذلك أن البرلمان (مجلس اللوردات) أصدر في يوليو ١٩٣١، هذه التوصية: «في رأي المجلس، إن إلغاء تملك الرقيق، وتجارة الرقيق، وجميع أشكال الرق، هو واجب عالمي...» (٢٤).

من هذا المنطلق، واستنادا إلى المادة السابعة من المعاهدة الأنجلو - سعودية، المعروفة بمعاهدة جدة لعام ١٩٢٧، والتي تقضي بأن «يلتزم الملك بالتعاون مع بريطانيا في مقاومة تجارة الرقيق»، تدخل ريان وآوى أحد عبيد الملك، الذي عرفت قضيته - فيما بعد - بقضية العبد بخيت. ولا شك في أن ريان قد أساء التصرف حين أقدم على خطوة كهذه. وبصرف النظر عما اتخذه البرلمان بمجلسيه من قرارات تهم بريطانيا وحدها، فإن المادة السابعة من معاهدة جدة لا تسمح لريان بفعلته، لأنها تتعلق «بتجارة الرقيق»، ولا صلة لها «بامتلاك الرقيق»، ولم يكن العبد بخيت معروضا للبيع. ومن جهة أخرى، فلعل ريان يعلم جيدا أن إعداد وصياغة المادة السابعة من معاهدة جدة مرت بأزمات حادة كادت أن تجهض المعاهدة بجميع موادها قبل ولادتها، بسبب بعض القضايا المهمة، كانت قضية الرقيق إحداها. ولم تبد وزارة الخارجية البريطانية مرونة حول الموضوع إلا بعد أن وقفت على حجم الصعوبات التي تواجه الملك عبدالعزيز في مجال امتلاك الرقيق والاتجار فيه. فعبرت عن أملها في أن ينهى الملك تجارة الرقيق، تاركة مسألة امتلاك الرقيق لمرحلة تالية. ولكنها أخطرته بعد ذلك بأنها لن تستطيع أن تتخلى عن حقها في تحرير العبيد، الذين يلجأون إلى أحد مسؤوليها في بلاده. ورد الملك على ذلك في حينه - وقد كان حريصا على إلغاء جميع أشكال الامتيازات الاجنبية في بلاده - بأنه لن يتعاون مع بريطانيا في هذا المجال، وتم تبادل الخطابات بين الطرفين حول هذا المعنى. (٢٥).

رأى الملك عبدالعزيز أن السكوت على تصرفات ريان غير اللائقة لم يعد ممكنا، خاصة بعد إيوائه للعبد بخيت بهدف تحريره دون إذن. وفي ٥ فبراير ١٩٣٢ بعث الأمير فيصل - بصفته وزير الخارجية - برقية إلى حافظ وهبة (الوزير السعودي المفوض في لندن) يطلب إليه فيها الاحتجاج لدى وزير الخارجية البريطاني (سير جون سايمون) بشأن تصرفات ريان المخلة بالتقاليد الدبلوماسية المعروفة، لأنه «بالرغم من الغاية النبيلة التي دعت حكومتينا إلى تبادل التمثيل السياسي المعتاد بينهما، فإن حكومتي تأسف لأن سير أندرو ريان شرع - منذ قدومه إلى الحجاز - في وضع العراقيل في سبيل بناء علاقات حسنة بين البلدين. . .» . (٢٦)

وتضيف البرقية إتهاما آخر لريان، الذي «تجاوز حدوده في التصرف مع شخص جلالة الملك، وفي التكلم مع جلالته بلهجة غير مألوفة». وكان ريان، وهو لا يزال حديث العهد بالعمل في الحجاز، وبعد تقديم أوراق اعتماده ببضعة أيام، قد اتهم الملك في حضور بعض وزرائه «بأنه يعيش في عالم الأوهام والخيال». ثم اتهمه مرة اخرى في مارس ١٩٣١ بأنه «يعكر صفو السلام على الحدود (مع شرق الأردن) ويشجع الغزو والقلق». وفي مناسبة أخرى، أثناء مناقشة موضوع الرقيق، اتهم الملك بالمغالطة حين قال: «إنه يحمد الله أن مستر هوب - جيل كان معه في الجلسة ليشهد على ما يدور من الحديث، خوفا من أنه في حالة موته تزور على لسانه أشياء لم يقلها، كما تزور الآن على لسان كلايتون المتوفى. . . وآخر أعماله السيئة (موقفه من) قضية عبد لجلالة الملك التجأ إلى المفوضية (ورفض إعادته)».

لم يعد بإمكان حكومة الحجاز - نجد أن تصبر على سلوك سير أندرو ريان، الذي «لم يخدم حسن العلاقات، بل إنه على العكس لم يزد العلاقات الحسنة إلا تباعدا. . . وأصبحنا في شك من حقيقة الموقف، وهل هو يعمل كل ذلك من تلقاء نفسه، أو بموافقة حكومته؟ . . . إن حكومة صاحب الجلالة الملك (عبدالعزيز) تحتج على تصرف سير أندرو ريان غير اللائق، وترى أن بقاءه واسطة بينها وبين الحكومة البريطانية لا يكون منه إلا تفاقم المشاكل بين الجانبين. . . إن حكومة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز تنتظر الجواب السريع، الحاسم لكيلا يتسع الخلاف وتتورط

الحكومتان في مشاكل . . . هما في غنى عنها».

يقول حافظ وهبة إنه لم ير من المناسب تقديم مذكرة بشأ ما ورد إليه في برقية الأمير فيصل ، لأن ذلك سوف يسيء إلى العلاقات بين البلدين أكثر مما سيفيدها . ولم يكن في البرقية من جديد سوى أمر العبد بخيت . وإذا كان لابد من طرح الأمر، فقد يكون من المناسب عمل ذلك بعيدا عن القنوات الدبلوماسية ، كتأجيله مثلا لحين زيارة أحد الأمراء السعوديين للندن . ولكن الحكومة أصرت على موقفها ، ورأى حافظ وهبة أن سفره إلى جنيف لحضور مؤتمر نزع السلاح قد يكون فرصة للهروب من طرح الموضوع على وزارة الخارجية البريطانية ، تاركا الأمر برمته للقائم بالأعمال بعد سفره في ٨ فبراير ١٩٣٢ . وكما توقع حافظ وهبة كان لإثارة الموضوع أثر سيء على وزارة الخارجية البريطانية ، التي أصيبت بصدمة لم تكن تتوقعها . (٢٧)

***

وحين عاد حافظ وهبة من جنيف إلى لندن ، وجد الجو العام في لندن متوترا ، فقرر زيارة وزارة الخارجية البريطانية ، في ١٥ فبراير، للتخفيف من الايقاعات السلبية الناجمة عن المذكرة السعودية ، التي قدمتها المفوضية أثناء غيابه . والتقى بأوليفانت L. Oliphant(وكيل وزارة الخارجية) صديقه الشخصي ، وأظهر تعاطفا معه حتى بدا وكأنه غير متعاطف مع موقف حكومة بلاده . ويتضح ذلك من قوله ـ طبقا لما أورده أوليفانت : «إن ابن سعود سوف يدرك خطأه في النهاية» . ونسب حافظ وهبة إعداد المذكرة السعودية إلى مستشاري الملك عبدالعزيز «غير الاكفياء» . وكان يقصد فؤاد حمزة ، الذي لم يكن يكن له وداً . وذهب حافظ وهبة إلى أبعد من ذلك حين أعلن أنه سيتمكن من إصلاح هذا الأمر. وفي نفس الوقت عاب أوليفانت على المسؤولين البريطانيين تسلم مثل هذه المذكرة . (٢٨)

يبدو أن حافظ وهبة قد تجاوز ـ هو الآخر ـ حدود صلاحياته الدبلوماسية ، حين خاطب أوليفانت بلغة هي أقرب ما تكون إلى الاعتذار، وليس بها شبهة احتجاج ، على غير ما كان ينبغي عليه أن يفعل . وليس هناك من تفسير لسلوك حافظ وهبة ، غير أنه ربما كان أقدر على الإحساس ـ بحكم موقعه ـ بالسلبيات الناتجة عن إبقاء العلاقات

البريطانية ـ السعودية في حالة أزمة. فمع أن المذكرة السعودية كانت رسمية، إلا أن موقف حافظ وهبة من إعادة عرضها ومناقشتها كان وديا، ولم يسلم أوليفانت تماما بالتناول الودي للقضية، وسجل حواره مع وهبة في أجندة وزارة الخارجية، ووضع الأزمة في حجمها الطبيعي أمام جميع المسؤولين.

ومهما يكن من أمر، فقد قررت الحكومة البريطانية التحقيق في صحة التهم المنسوبة إلى وزيرها المفوض في جدة، الذي كان قد غادرها في زيارة للقدس. وحين علم ريان بشكوى حكومة الحجاز، قرر أن يتوجه من القدس إلى لندن مباشرة، حيث قدم لحكومته، في ٢٩ فبراير، مذكرة دفاع عن نفسه. (٢٩)

وفي ٢١ مارس ١٩٣٢، اكتملت دراسة وزارة الخارجية البريطانية للشكوى المقدمة من الحكومة السعودية ضد سلوكيات ريان الدبلوماسية، ثم أعدت مذكرة دفاع عن ريان موجهة إلى حافظ وهبة، تقول فيها: (٣٠)

«إن خبرة ريان في الوظائف الرسمية عمرها ٣٠ عاما، نال خلالها رضا الحكومة (البريطانية) واحترامها، كما نال رضا وزارة الخارجية، واختير لمنصب وزير صاحب الجلالة المفوض بجدة، لأنه كان أنسب العناصر لتوثيق العلاقات بين الحكومتين. . . ». لذلك كله أبدى وزير الخارجية دهشته لإقدام الحكومة السعودية على تقديم شكوى كهذه » ضد شخص موثوق به من قبل حكومته». وفندت وزاةر الخارجية التهم المنسوبة لريان على النحو التالي:

أولا: لا يذكر ريان أنه قال ذات مرة أن الملك عبدالعزيز «يعيش في عالم الأوهام والخيال»، وأن ريان حريص على احترام الملك والالتزام بذلك عند مناقشة أصعب المسائل وأدقها وأكثرها حساسية.

ثانيا: أن ريان حينما ذكر، أثناء مناقشة مسألة الحدود مع شرق الأردن في مارس ١٩٣١، أن الغارات كانت تتم من نجد بموافقة الملك عبدالعزيز ورضاه، إنما كان يقصد التأكيد على خطورة الموقف، بناء على الشائعات المنتشرة على الجانبين. ومع ذلك قال ريان إنه لا يشارك، ولا حكومته، في تعزيز هذه الشائعات.

ثالثا: فيما يتعلق بمسألة اتهام ريان للملك بتغيير أقوال المسؤولين البريطانيين بعد

مماتهم، نفى ريان أن يكون قد اتهم حكومة الحجاز بتزوير شيء ونسبته إلى كلايتون.

رابعا: أما مسألة العبد المحرر بخيت، فقد كان تصرفه فيها يتم طبقا للتعليمات التي تلقاها من أوليفانت في وزارة الخارجية. وأن لك شيء تم بناء على تعليمات مباشرة من وزير الخارجية سايمون.

خامسا: أن وزير الخارجية يثق في أقوال ريان لأنها لا تتعارض والتقارير التي كان يبعثها من جدة في حينه.

سادسا: أن اتهام ريان بالاساءة إلى العلاقات بين البلدين غير قائم على أساس صحيح، لأن ذلك يتعارض وطبيعة دوره.

سابعا: أنه من المناسب لحكومة الحجاز أن تسحب المذكرة التي قدمتها، وإلا فلن يعود ريان إلى عمله، ولن تعين الحكومة البريطانية وزيرا آخر مكانه في جدة.

لا شك في أن سايمون كان عنيدا، لأنه كان أسير أفكار زوجته عن شبه الجزيرة العربية، وهي التي فرغت لتوها، في عام ١٩٣٩، منن تأليف كتاب حول «الرق»(٣١)، تحدثت فيه عن الرق في شبه الجزيرة العربية، ورسمت صورة قاتمة لأحوال الرقيق هناك، واستبعدت إنهاء تجارة الرقيق أو امتلاكه في المستقبل المرئي. ولم تكن السيدة سايمون غير أحد الأصوات العديدة التي راحت تدعم الحملة على الرقيق، التي تزعمتها بريطانيا بحماس في ذلك الوقت. هكذا انعكست ميول سايمون على وزارة الخارجية، التي كانت مهيأة أصلا لوضع اهتمامات الحكومة البريطانية موضع التنفيذ فيما يتعلق بالبلاد التي تمارس الاتجار في الرقيق، أو تعتمد عليه في اقتصادياتها. وكان وزير الخارجية يتلقى تقارير شهرية من المفوضية البريطانية في جدة حول أعداد الرقيق الذين تمكنت المفوضية من إطلاق سراحهم. ولعل هذا يفسر لنا لماذا وقع طرح حكومة الحجاز لقضية العبد بخيت أو غيره على أذان صماء في لندن. كما يفسر لماذا كان سايمون عنيفا في رده على مذكرة حكومة الحجاز، فوقعت كلمات مذكرته وقع الصدمة على الملك عبدالعزيز، الذي تزايدت شكوكه في صداقة بريطانيا، وأدرك أنها أخذت بالفعل تضعف وتفتر.

لقد جرى ذلك كله في لندن في وقت ازدادت فيه مخاوف الملك عبدالعزيز من

خصومه في العراق وشرق الأردن. وكان قبول كلا الخيارين المطروحين من وزارة الخارجية البريطانية: الاعتذار عن المذكرة، أو سحبها، صعبا. ولذا رأى حافظ وهبة أن عبور هذه الأزمة لن يتم إلا بالاتصالات المباشرة مع المسؤولين، وبخاصة مع أوليفانت (وكيل وزارة الخارجية) باعتبار أن ذلك ضرورة «لإزالة الجفاء بين الحكومتين». وحين التقيا أكد وهبة أنه قادم لإنهاء الموضوع بما يرضي الحكومتين». (٣٢)

وفي خطابه إلى سايمون بتاريخ ٥ أبريل ١٩٣٢، طرح حافظ وهبة النقاط الأربع التالية:

١ـ إن المذكرة التي قدمتها الحكومة السعودية، في ٨ فبراير، إنما كانت تهدف إلى زيادة توثيق العلاقات الطيبة مع الحكومة البريطانية، وإزالة معوقات تلك الصداقة عن الطريق.

٢ـ إن الملك عبدالعزيز حريص على علاقاته مع بريطانيا، حيث يوجد في لندن الوزير المفوض الوحيد لبلاده في أي مكان في العالم.

٣ـ ليست هذه هي المرة الوحيدة التي جرى فيها خلاف بين المسؤولين في البلدين، وأن الخلافات كانت تسوى في السابق بغير مشاكل.

٤ـ أما ريان «فليس لنا غرض في شخصه، وليس بيننا وبينه إلا ما أخبرنا به حكومة بريطانيا، وأن ما ورد في مذكرتنا هو من باب شكوى الصديق لصديقه، وأن عودة ريان كممثل لدى حكومته أمر يرجع إلى الحكومة البريطانية، ونحن لا نمانع فيه ونقبله».

وأضاف حافظ وهبة: «ليس لنا قصد إلا (تحقيق) ثلاثة أمور: أولها حفظ شرفنا، وثانيها صيانة استقلالنا، وثالثها توثيق العلاقات الطيبة مع الحكومة البريطانية»(٣٣). وفي رده على حافظ وهبة، في ١٢ أبريل، أكد رندل (نيابة عن وزير الخارجية سايمون) على ضرورة احترام مطالب حافظ وهبة جميعها، ووعد بأنه سيكون أول من يحترمها، وأول من يعمل على توطيد أواصر الصداقة بين البلدين، بنفس الروح التي أظهرتها حكومة الملك عبدالعزيز (٣٤). وبتبادل الرسائل بين حافظ وهبة ورندل، انتهت الأزمة الدبلوماسية بين البلدين.

هكذا بدأ العمل من أجل الإصلاح وإعادة العلاقات الشخصية بين الملك وريان إلى حالتها الطبيعية، وعندئذ تقرر أن يعود ريان لعمله في جدة، في أعقاب انتهاء زيارة الأمير فيصل وبعثته إلى لندن، على أن يغلق الموضوع نهائيا، وقد صدرت التعليمات بهذا الشأن إلى هوب ـ جيل (القائم بالأعمال في جدة). (٣٥)

ويوضح الإيقاع السريع للطريقة التي تم بها التغلب على الأزمة الدبلوماسية، أن الطرفين كانا غير راغبين في استمرارها، وأن مستقبل العلاقات بينهما كان يعتمد ـ إلى حد كبير ـ على سرعة العبور فوق هذه الأزمة العارضة. ولذلك سارع الملك عبدالعزيز بالتعبير عن حسن النية ـ دون التفريط في حق ـ تجاه الحكومة البريطانية، آملا أن تقابل مبادرته بمبادرة مماثلة من أجل توطيد أواصر العلاقات الناشئة بينهما، وإلا فإن الحكومة السعودية ستكون في حل من تفضيل بريطانيا على غيرها من الدول الكبرى، ولعل زيارة الأمير فيصل للندن، في صيف عام ١٩٣٢، كانت تهدف ـ فضلا عن أمور أخرى ـ إلى إبلاغ هذه الرسالة إلى الحكومة البريطانية. من هذا المنطلق لا يجب أن تفهم المرونة التي أبدتها الحكومة السعودية تجاه الأزمة على أنها كانت تنازلا من جانب واحد، بل لعلها كانت مناورة دبلوماسية واعية، تسعى إلى تحجيم النفوذ البريطاني في شبه الجزيرة العربية دون الإفصاح عن ذلك.

***

في هذه الظروف وجدت الحكومة السعودية أنه قد يكون من المناسب الإعلان عن جولة الأمير فيصل والبعثة المرافقة له إلى عدد من الدول الأوروبية، تشمل لندن وبعض عواصم الدول الصديقة هي: إيطاليا، هولندا، سويسرا، بولندا، المانيا، والاتحاد السوفييتي. ويهدف الإعلان عن هذه الزيارة ـ على هذا النحو ـ إلى إقناع بريطانيا أنها لم تعد وحدها في الميدان، وأن الملك عبدالعزيز له الآن أصدقاء عديدون، ولا شك في أنها كانت خطة سياسية ناجحة وخطوة دبلوماسية جيدة، خاصة وأن البعثة كانت برئاسة وزير الخارجية السعودي (الأمير فيصل).

وفي ٢٤ مارس ١٩٣٢ استطلع حافظ وهبة رأي الحكومة البريطانية حول إمكانية استقبال الأمير فيصل وفؤاد حمزة استقبالا رسميا. فاشترطت وزارة الخارجية البريطانية

في ٢٤ ابـريل، أن يكـون استقبـال الأمير فيصل في لنـدن مـرتبطـاً بسحب الحكـومـة السعودية للمذكرة المقدمة ضد ريان. (٣٦)

وفي ٨ أبريل أبلغ هوب ـ جيل الحكومة السعودية أن لندن على استعـداد لاستقبـال الأمير فيصل وبعثته. وبعد أربعة أيام أبحـرت البعثـة من جـدة لـزيـارة رومـا وجنيف وباريس ولندن وهولندا وبرلين وموسكو ووارسو وأنقرة وطهران وبغـداد. وقبل مغـادرة الـرحلـة، أطلع فـؤاد حمزة هـوب ـ جيل على بـرنـامجهـا (٣٧). وفي لنـدن كـانت الاستعـدادات قـد اكتملت لاستقبـال الأمير فيصل في مينـاء الـوصـول، بينما كـان في استقباله بمحطة فيكتوريا مندوبون عن الملك جورج، وعن وزير الخارجية، فضلا عن ريان نفسه. أما برنامج الزيارة فقد وزع على مدى اسبوع كامل في الفترة مـا بين ٧ و١٤ مايو. وكان من بين فقرات البرنامج لقاء مع الملك جورج في صبـاح يـوم ٩ مـايـو، وفي هذه المناسبة تلقى الملك جورج خطابا من الملك عبدالعزيز يؤكـد فيـه على العـلاقـات الطيبة بين بلديهما. (٣٨)

وحين التقى فؤاد حمزة بالمسؤولين في وزارة الخارجية في ٩ مايو ١٩٣٢ (٣٩)، كشف عن أحد الأهداف الأصلية للبعثة السعودية بقولـه: «إن الغـرض من هـذه البعثـة هـو التأكد من أن الحكومة البريطانية لا تزال تشعر بارتياح تجاه حكومة الحجـاز ـ نجـد كما كانت في الماضي، ومن أن لندن لا تزال ترغب في تكوين علاقات قوية وصداقة متينة، لأن الملك عبدالعزيز يشعر بأن مواقف الحكومة البريطانية قد تغيرت نحـوه». وكـانت هذه الأفكار قد نقلت إلى سير أندرو ريان في يونيـو السـابق، ولابـد أنـه قـد بلغهـا إلى لندن، وأضاف فؤاد حمزة:

«إن حكومة الملك عبدالعزيز تأمل في أن تسمع رد الحكومة البريطـانيـة، ليس فقط في شكله الرسمي، ولكن في صوره المادية والمعنوية، إنه لا يريد تلك الـردود التي كـان يتلقاها في الماضي. والملك يؤكد على هذه النقطة، وفي نفس الوقت فهـو على استعـداد للإصغاء لتوجيهات بريطانيا عند الحاجة إليها. كذلك يريد الملك عبدالعزيز أن يعرف الأسلوب الذي يدير به شؤونه ويلبي طلبات حكومة صاحب الجلالة البريطانية. وهذا هو السبب الرئيسي لحضور هذه البعثة».

لا يجب أن تخدعنا عبارات فؤاد حمزة، التي كانت في الواقع تحذيرا للندن بهدف مساعدتها في الخروج من الأزمة، ويتضح ذلك من ردود أوليفانت عليه، وهي ردود تعكس حيرة الحكومة البريطانية تجاه سياستها في شبه الجزيرة العربية. قال أوليفانت: «إنه متحير مما كان يسمع بين الحين والحين أن الملك عبدالعزيز يشك في استمرار الصداقة بيننا وبينه». ولكنه لم يستسلم لما كان يسمع بعدما رأى من مرونة الحكومة السعودية، وأكد لفؤاد حمزة «أن العلاقات الودية قائمة كما كانت تماما فيما يتعلق بالموضوعات الجوهرية» وكرر كلمة «جوهرية». وأخذ أوليفانت يفصح عن شيء من تحفظاته حين قال: «إن الموضوعات التي بيننا تضاعفت عن ذي قبل، وأن علينا التزامات نحو المناطق الواقعة تحت الانتداب، وهي ليست مستعمرات لنا». واستدرك أوليفانت الموقف لينهيه بما يريح فؤاد حمزة، وقال «إن ما يعجبه في الملك عبدالعزيز هو الصراحة، وهو يريد أن تقوم العلاقات بين الأصدقاء على الصراحة».

في اجتماع آخر بفؤاد حمزة في ١٣ مايو ١٩٣٢، أكد أوليفانت على المعاني السابقة، ولكنه لم يستطع أن يترجم ذلك إلى سلوك عملي حين رفض مساعدة الملك عبدالعزيز ماليا، مما دفع فؤاد حمزة الى التعبير عن أسفه لعدم تعاون لندن مع حكومته في الضائقة المالية، ولم يخف أن حكومته ستسلك طريقها بنفسها لدى أصدقاء آخرين في أوروبا. على كل حال، كان لمشوار البعثة السعودية بقية في دول اوروبية اخرى. ولكن هذه اللقاءات، مع كونها ودية النغمة في إطارها العام، إلا أنها كشفت عن كثير مما كان يخفيه الطرفان عن بعضهما.

***

وبزيارة الأمير فيصل للندن، تحسنت العلاقات البريطانية ـ السعودية، وغادر ريان إلى مقر عمله في جدة، فوصلها في ٣٠ مايو ١٩٣٢، أي بعد فترة انقطاع تزيد على الثلاثة شهور. وبعد أن قضى أسبوعا في جدة، أعد تقريرا مختصرا سجل فيه ملاحظاته عن بعض الأمور المتعلقة بعودته (٤٠) منها قوله: «استقبلني على ظهر المركب حمدي بك، المدير العام للشؤون العسكرية، الذي جاء خصيصا من مكة لهذا الغرض بصحبة ضابط صغير، وقد حمل تحيات الملك إليّ. واستقبلني على رصيف الميناء حاكم جدة

شخصيا ومعه كل المسؤولين المحليين. ولما كانت هذه هي أول مرة أنزل فيها من مركب حربية، منذ وصولي إلى هنا في بادىء الأمر، فإنني لست متأكدا مما اذا كان استقبال حمدي بك لي يعني مزيدا من الحفاوة. ومع ذلك فلدي انطباع بأن الحكومة هنا تظهر أقصى ما في وسعها من حفاوة بهذه المناسبة».

وفي مساء ٣ يونيو زار الشيخ يوسف ياسين ريان، وتصف كلمات ريان ما في هذه الزيارة من مودة، بقوله أن ياسين «. . . أبدى سعادة الملك (عبدالعزيز) وسعادته لعودتي سالما. وهنأني بعيد ميلاد الملك جورج (الخامس) وشارك في احتفال أقمته وزوجتي بهذه المناسبة، حضره جمع أوروبي، وبعض الأمراء والهنود، وكان الشيخ يوسف وحاكم جدة من بين العناصر المحبوبة».

أما مسألة العبد بخيت التي كانت السبب المباشر وراء تفجر أزمة ريان، فقد علم ريان أنها أصبحت منتهية في نظر الملك، وكأن العبد قد «مات ودفن». ويضيف ريان: «في اعتقادي أن سبب ذلك الانطباع الطيب لدى السعوديين هو الاستقبال الحسن الذي استقبل به الأمير فيصل في لندن، والبرقية التي بعث بها الملك جورج إلى الملك عبدالعزيز بمناسبة رحيل بعثة الأمير (فيصل) من لندن».

كان ريان قلقا، فهو لا يصدق ما يجري أمام عينيه من كرم وسماحة وعفو، ويخشى أن ينقلب الجو ضده ثانية ببرقه ورعده، حين يأتي وقت العمل وإثارة الموضوعات المشتركة، أو على حد تعبيره: «أنا لا أعلم إلى متى سيظل هذا الجو اللطيف، وما مدى تأثيره على الموضوعات التي قد تثار في المستقبل».

إن الإجابة على السؤال السابق متروكة بالطبع لاختبار حسن النوايا في ميدان التطبيق الفعلي عندما تثار قضايا مشتركة تهم البلدين في المستقبل. لقد كان الجميع مهتما بإظهار النوايا الحسنة، وصياغة العبارات الرقيقة والمريحة، ولكن أحدا من الطرفين لم يعمل الفكر جيدا في وجهة نظر الطرف الآخر، أو أن كل طرف كان يرى كل شيء من وجهة نظره هو، دون اعتبار لوجهة نظر الطرف الآخر، حتى بدا أن الزواج الدبلوماسي بين الطرفين، والذي لم يمض عليه غير ثلاثة أعوام، لم يكن ناضجا. ويشهد على

صحة هذه النتيجة ما جرى خلال السنوات السبع التـاليـة لهذه الفترة، والسـابقـة على الحرب العالمية الثانية، والتي يمكن وصفها بأنها كانت «سبع سنوات عجـاف»، وهـذا ما سنفصله في دراسة تالية.

***

**

*

الحــواشـــي

١ـ هذه الدراسة هي المرحلة الخامسة من مراحل تاريخ نشأة قنوات الإتصال وتطورها بين بريطانيا وعبدالعزيز آل سعود، أما المراحل الأربع السابقة فقد تناولناها في دراسات مستقلة.

تعالج المرحلة الأولى قنوات الاتصال بين بريطانيا والملك عبدالعزيز في الفترة من ١٩٠٣ إلى ١٩١٣. وتعالج المرحلة الثانية التطور الجديد على قنوات الاتصال في الفترة من ١٩١٤ إلى ١٩٢٥. أما المرحلة الثالثة فتعالج خطوة أكثر تقدما في التمثيل السياسي والقنصلي بين الطرفين في الفترة من ١٩٢٦ إلى ١٩٢٨؛

والمرحلة الرابعة تعالج تبادل التمثيل الدبلوماسي بين الطرفين خلال عامي ١٩٢٩، ١٩٣٠، وهي دراسة منشورة في: حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد ١٢ (١٩٨٩).

2 - Rayan to Henderson, 22 July 1930, E4309/4309/91,

F. O. 371 / 14483.

٣ـ جمال محمود حجر، بريطانيا والأزمة المالية في الحجاز ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣ (الدوحة: دار الثقافة، ١٩٨٧).

4 - Memo. by Ryan on the Situation in the Hejaz - Najd as it affects H.M. G., 23 Feb. 1932, E1010/640/25, F. O. 371/16022.

5 - Ryan to henderson, 22 July 1930, op. cit.

6 - Ryan to Henderson, 11 Aug. 1930, E4657/4309/91,

F. O. 371 / 14483.

7 - Jeddah Report , May and June 1932, E 3903/1197/25,

. O. 371/16024. F

8 - Ryan to henderson, 11 Aug. 1930, op. cit.

9 - Fuad Hamza to Hope - Gill, 16 Dec. 1930;

Faisl to Ryan, 18 Dec. 1930, E282/282/25,

F. O. 371/15292.

١٠ـ كانت مديرية الشؤون الخارجية قد تأسست في عام ١٩٢٦ بعد ضم الحجاز. وكان أول من تولى إدارة الشؤون الخارجية هو الدكتور عبدالله الدملوجي وهو من أصل عراقي عمل إلى جانب الاتراك، وحين ضم عبدالعزيز آل سعود الاحساء، دخل في خدمته، وساهم في كثير من المفاوضات التي

أجراها عبدالعزيز مع البريطانيين منذ ذلك الوقت وحتى عام ١٩٣٨ حين اعتزل الخدمة. وقد شغل الشيخ يوسف ياسين وهو من أصل سوري إدارة الشؤون الخارجية بعد اعتزال الدملوجي، وبالتالي فهو لم يكن بعيدا عن الشؤون الخارجية. أنظر فؤاد حمزة، البلاد العربية السعودية (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٩٣٦)، ص ١١٨.

11 - Ryan to Rendel, 2 Nov. 1930, E. 545/282/25;
Ryan to F. O., 31 Jan. 1931, E1057/282/25,
F. O. 371/15292.

١٢ـ حافظ وهبة، خمسون عاما في جزيرة العرب (القاهرة، ١٩٦٠)، ص ٩٥، ٩٦.

13 - Ryan to Henderson, 20 June 1931, E3542/2237/25,
F. O. 371/15292

14 - Record of Audiences with Ibn Saud on 14 and
17 June 1931, Enclosure III, Ryan to Henderson,
20 June 1031, op. cit.

15 - Coversation with Fuad Bey Hamza on June 13,
1931, Enclosure I, Ryan to Henderson, 20 June 1931,
op. cit.

16 - Silverfarb, D., "The British Government and
the Khurmah Dispute, 1918-1919". Arabian Studies,
V (1979) pp. 37-60.

17 - Conversation with Fuad Bey Hamza on June 13,
1931, op. cit.

١٨ـ وكانت مسألة الرق من بين المسائل الشائكة التي عكرت صفو العلاقات البريطانية السعودية، فبريطانيا كانت ترى أنها في سبيل تحرير العبيد إنما تقوم بدور حضاري، بينما يرى الملك عبدالعزيز أن الأسلوب الذي تريد بريطانيا اتباعه في هذا المجال فيه شبح الامتيازات الأجنبية في الأراضي المقدسة، وفيه انتقاص من سيادة بلاده وحريتها.

١٩ـ جمال محمود حجر، بريطانيا والنشاط السوفييتي في الحجاز، ١٩٢٤ ـ ١٩٣٨ (الدوحة: دار

الثقافة، ١٩٨٨).

20 - Further Conversation with Fuad Bey Hamza on June 16, 1931, Enclosure II, Ryan to Henderson. 20 June 1931, E5342/2237/25, F. O. 371/15299.

21 - Conversation with Fuad Bey Hamza on June 13, 1931. op. cit.

22 - Record of Audiences with Ibn Saud on June 14 and 17, 1931, Enclose III, Ryan to Henderson, 20 June 1931, E3542/2237/25, F. O. 371/15299.

23 - Ryan to Henderson, 20 June 1931, E5342/2237/25, F. O. 371/15292.

24 - Harris, J. H., "Slavery, World Abolition", The Contemporary Review, cxlii (1932) p. 309.

٢٥ـ جمال محمود حجر، «نهاية الامتيازات الأجنبية في الحجاز ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧»، في كتاب المؤلف: القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين. الفصل السابع.

٢٦ـ برقية من الأمير فيصل إلى حافظ وهبة في ٥ فبراير ١٩٣٣، منشورة في: حافظ وهبة، خمسون عاما في جزيرة العرب، ص ٩٦.

٢٧ـ المرجع السابق، ص ٩٨، ٩٩.

28 - Memo. On Conversations between Oliphant and Wahba, 15 Feb. 1932, E888/640/15, F. O. 371/16022.

29 - Memo. by Ryan, 29 Feb. 1932, E1038/640/25, F. O. 371/16022

٣٠ـ انظر: النص الانجليزي لمذكرة وزير الخارجية في:

Simon to Wahba, 21 March 1932, E 1038/640/25. F. O. 371/16022;

وانظر الترجمة العربية لذات المذكرة منشورة في: حافظ وهبة، مرجع سابق، ص ١٠٠.

31 - Simon, Kathleen, Slavery (London, 1930).

٣٢ـ حافظ وهبة، مرجع سابق، ص ١٠٣ .

33 - Whaba to Simon, 5 April 1932, Ryan's Private Papers, VI/8 St. Antony's College, Oxford University.

34 - Rendel to Wahba, 12 April 1932, Ryan's Private Papers, VI/8 St. Antony's College, Oxford University.

35 - Memo. by Oliphant on conversation with Hafez Wahba, 21 March, E1422/640/25, F. O. 371/16022; F . O. to Hope - Gill, 8 April 1932, E1686/640/25, F. O. 371/16022.

36 - F. O. to Hope - Gill, 2 April 1932, E1494/1494/15, F. O. 371/16026.

37 - Jeddah Report , Jan., Feb. and March, 1932, F. O. 371/16024

38 - Minute by Warner (F. O.) 21 April 1932. Minute by Warner (F. O.) 9 May 1932, E 2216/1494/25, F. O. 371/16026.

39 - Meeting with the Hejaz-Najd delagation held at the F. O. on 9 May 1932, E 2403/1494/25, F. O. 371/16026.

40 - Ryan to Henderson, 7 June 1932, E3216/640/25, F. O. 371/16022.

الهرمنيوطيقا واشكاليات التأويل
والفهم في العلوم الاجتماعية

الدكـتـور احمـد زايــد

استاذ بقسم الاجتماع

مقـدمــة:

بالرغم من أن الاهتمام الفلسفي بالهرمنيوطيقا (أو منهجية التأويل) hermeneutics يرجع الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، إلا أنها أصبحت ـ في العقدين الماضيين ـ في مكان الصدارة بين العلوم الاجتماعية والانسانية. فقد أضحت مجال اهتمام لنظم علمية متعددة من بينها النقد الأدبي وعلم الاجتماع والتاريخ والأنثروبولوجيا. وأدى الاهتمام المعاصر بالهرمنيوطيقا الى ضروب من التطور في مناهج ونظريات هذه العلوم. فقد ظهرت نظريات جديدة حول السلوك الانساني طرقت أبعادا وآفاقا جديدة لم تكن تصل اليها من قبل، خاصة فيما يتصل بمكونات الأبنية الداخلية غير المنظورة التي تكمن خلف العلاقات والمصالح والتجمعات الظاهرة للبشر. ومن ضروب التطور ما طرأ من تطورات على دراسة ابستومولوجيا اللغة وفلسفتها حيث اعتبرت التجليات الثقافية الظاهرة دالة على أبنية لغوية تضرب بجذورها في أعماق الخبرة البشرية. ومن أشكال التطور الأخرى ما طرأ على امكانيات التفسير وحدوده ووظائفه والعوامل المؤثرة عليه، وهو تطور يتصل بشكل مباشر بخصوصيةمنهج البحث في العلوم الاجتماعية وامكانية تأسس هذا المنهج وفق مستويات خاصة من الموضوعية. ومن المنطقي أن تستوعب الفروع المختلفة للعلوم الاجتماعية ضروب التطور هذه طالما أن انساقها الفكرية ما تزال انساقا مفتوحة قابلة للتشكل وفقا لمتغيرات البيئة الاجتماعية المتغيرة من ناحية والتطورات المنهجية والفكرية التي يفرزها العصر من ناحية أخرى.

وبالرغم من أن العلوم الاجتمايعة [1] قد نحت ـ منذ تبلورها كعلوم معترف بها ـ منحى وضعيا وسلوكيا ظاهرا، إلا أنها لم تستطع أن تنفض يدها كلية من الهموم

والهواجس التي يثيرها الفلاسفة بعامة وفلاسفة العلم بخاصة حول امكانيات التفسير وحدوده في العلوم الاجتماعية. ويمكن القول بأنه اذا كانت العلوم الاجتماعية قد اكتشفت ـ من خلال تأثرها بالمنهج التجريبي في العلوم الطبيعية ـ طريقا مغايرا للفلسفة، فإن المشكلات والعثرات التي اكتنفت هذا الطريق تعيدها دائما الى التحاور مع الفكر الأم (نعني الفلسفة).

ولقد عبر عن ذلك فيلسوف العلم توماس كون T. Kuhn بقوله «... يبدو لي بالأخص أنه في مراحل الازمة الكامنة يتوجه العلميون نحو التحليل الفلسفي لكي يبحثوا. عن أسلوب يحل مشاكل ميدانهم الخاص» (٢). واذا كان «كون» قد أطلق هذا الحكم على العلم بعامة، فانه يصدق بشكل أكبر على العلوم الاجتماعية. وبالرغم من أن حوار العلوم الاجتماعية والفلسفة يأخذ ابعادا مختلفة (٣)، إلا أن أهم جوانبه اثارة وخصوبة هو ذلك المرتبط باشكالية التأويل interpretation والفهم under-standing في العلوم الاجتماعية، وهو الحوار الذي يعرف في تراث العلم بالجدل الهرمنيوطيقي.

ونحاول في هذا البحث أن نعرض لبعض معالم هذا الجدل وأبعاد تأثيره في العلوم الاجتماعية. ويدور حديثنا حول مجموعة من الأسئلة التي تكشف عن جوانب من اشكاليات التأويل والفهم في العلوم الاجتماعية: ما التأويل وما أبعاده؟ وما وظيفته؟ وكيف السبيل اليه؟ وما هي الآفاق التي فتحتها فلسفة التأويل بالنسبة لنظرية ومنهج العلوم الاجتماعية؟ وتثير هذه الاسئلة اشكاليات أساسية في فلسفة التأويل. فالسؤال عن معنى التأويل يثير السؤال حول تاريخ التأويل وموضوعه. أما السؤال عن وظيفة التأويل فانه يثير قضية العلاقة بين التأويل والتفسير (الشرح) explana-tion وامكانية الالتقاء بينهما، كما يثير قضية موضوعية أو ذاتية المعرفة المكتسبة من عملية التأويل ودور هذه المعرفة في الرقي بالوجود الانساني. أما السؤال عن مسلك التأويل فانه يثير مشكلة العلاقة بين الباحث وموضوع بحثه. وأخيرا فان السؤال عن الآفاق التي فتحها التأويل أمام العلوم الاجتماعية يثير قضية العلاقة بين العلوم الاجتماعية ومصدرها المعرفي الأول، ونعني به الفلسفة.

وسبيلنا في تناول هذه الاشكاليات هو البحث في الأفكار الأساسية للجدل الهرمنيوطيقي، متخذين من هذه الأسئلة التي طرحناها محاور لتحليل هذه الافكار والمقارنة بينها. ولعل تلك المحاولة تمكنا من أن نضع ايدينا على بعض جوانب التواصل والانقطاع بين المنحى التأويلي والمنحى التجريبي التفسيري في العلوم الاجتماعية، وأن نتعرف على طبيعة التماوج بين الفكر الفلسفي الاجتماعي وبين النسق المعرفي والمنهجي للعلوم الاجتماعية في أحد جوانبه الهامة.

أولا - الهرمنيوطيقا (منهجية التاويل):

يشتق لفظ الهرمنيوطيقا hermeneutics من الفعل الاغريقي hermeneuein وهو فعل يدل على عملية كشف الغموض الذي يكتنف شيئا ما، أو اعلان رسالة وكشف النقاب عنها [٤]. ويشتق الفعل من اسم الاله الأغريقي هرمس Hermes وهو إله متعدد المواهب: فهو رسول الالهة، واله الحدود، واله التجارة، وصانع القيثارة والمصفار [٥]. وتجتمع مواهب هرمس في سمتين اثنتين: الأولى: هي الوساطة بين طرفين، والثانية: هي القدرة على استخدام الحيلة في الوصول الى الهدف. وكلاهما ضروري في عملية كشف الغموض التي يدل عليها اللفظ الاغريقي Hermeneuein. فالغموض لابد وأن يكشف من خلال وسيط، وهو يتطلب استخدام أدوات غير مألوفة كتلك التي يستخدمها هرمس. ومن اللفظ الأغريقي اشتقت الكلمة الانجليزية hermeneutics، والتي درج الباحثون العرب على ترجمتها بالهرمنيوطيقا أو الهرمنيطيقيا. وهي وصف للجهود الفلسفية والتحليلية التي تهتم بمشكلات الفهم والتأويل. وتقوم الهرمنيوطيقا على فلسفة التعمق خلف ما هو ظاهر من تعبيرات وعلامات ورموز للكشف عن المعاني الكامنة والجوانب غير المتعينة من الخبرة أو التجربة في محاولة لفهم المجهول بالمعلوم حيث تبدأ عملية الفهم دائما من «المعلوم في تجربتنا لتنفذ الى المجهول»، في محاولة لفهم التجربة التاريخية [٦]. فجوهر عملية التأويل هو الكشف عن ما يكمن خلف الأشياء الظاهرة من دلالات ومعاني، ومحاولة

كشف الغموض البادي في الظاهر بالتعمق خلفه والكشف عن آفاق للمعاني لا ندركها من مجرد النظرة الظاهرية الخارجية.

ولقد انشغلت الهرمنيوطيقا لفترة طويلة من الوقت بتحليل النصوص المكتوبة وبذلك فانها كانت تعرف «بفن ادراك وتحديد المعنى المختبىء في النصوص» (٧). فقد انصبت التحليلات التأويلية القديمة على النصوص الشعرية (مثل الالياذة والاوديسا) وعلى النصوص الدينية (كالكتاب المقدس). ومنذ أن نشر شلايرماخر Schleir-macher (١٧٦٨ ـ ١٨٣٤) كتابه بعنوان Hermeneutik تحولت اشكاليات التأويل من نطاق البحث الديني الى نطاق البحث الفلسفي واللغوي. إلا أن هذا التحول لم يصاحبه تحول عن الانشغال بتأويل النصوص المكتوبة. فقدظل الانشغال بتأويل النصوص الدينية قائما، وصاحبه اهتمام جديد بدراسة وتأويل النصوص الأدبية. وهذا موقف منطقي طالما أن اللغة كانت وما تزال محور التحليل الهرمنيوطيقي. فقد اعتقد كل فلاسفة التأويل في عمومية اللغة أو مركزيتها. أنهم أقروا فكرة فيتجنشتاين القائلة بأن الأحداث والأفعال وأشكال التواصل لا يمكن الوصول اليها إلا من خلال التضمين العملي للاستخدامات اللغوية (٨). وأدت هذه الفكرة بفلاسفة التأويل اما الى النظر الى اللغة باعتبارها مؤشرات موضوعية دالة على الخبرة، واما النظر اليها باعتبارها أداة تواصل وجودي. من الطبيعي أذن أن تكون النصوص المكتوبة (وهي تعبيرات لغوية) هي وحدة التحليل الرئيسية في الهرمنيوطيقا. بل أنها اتخذت من الاعتماد على تحليل اللغة اساسا للبحث عن معرفة ذات طابع عالمي.

فبالرغم من أن أعمال فلاسفة التأويل المحدثين من أمثال هيدجر، وجادامر، وهبرماس، وريكور قد فتحت ـ على ما سنرى في نهاية بحثنا هذا ـ آفاقا نحو الامتداد بالتأويل الى عوالم اكثر اتساعا من دائرة النصوص المكتوبة، إلا أن الانشغال بتحليل اللغة بعامة والنصوص المكتوبة بخاصة قد أصبح سمة لصيقة بفلسفة التأويل. حقيقة أن النصوص المكتوبة لها متغيراتها التاريخية التي تؤثر على طبيعة كتابة النص أو حتى تأويله، إلا أن فلاسفة التأويل قد اعتقدوا أن للنصوص المكتوبة ثوابت خاصة «فالنصوص لها معنى عام وشامل وثابت مطرد في الطبيعة البشرية، يدركه كل انسان

بداهته العقلية، ويظهر في كل موقف، ويوجد في كل حضارة»[٩]، وتكتسب النصوص هذا المعنى العام من اعتبارات عدة من أهمها: ١ـ بداهة العقل التي تؤدي الى ظهور حدس عقلي عند العديد من الأفراد في الحضارات المختلفة. ٢ـ اطراد التجربة البشرية وتكرارها من عصر الى عصر الأمر الذي يؤدي الى ظهور قراءات متشابهةللنصوص في كل عصر، ٣ـ ثم أخيرا منطق اللغة، حيث تؤدي المعرفة الجيدة بفقه اللغة التي كتب بها النص الى فهم معانيه العامة بطريقة واحدة[١٠]. ولقد أدى الاهتمام بتأويل النصوص ـ في ضوء هذا المعنى ـ الى تبني بعض فلاسفة التأويل موقفا يعتقد في امكانية تحقيق ضرب من المعرفة العالمية العامة.

على أن الاهتمام بتحليل النصوص المكتوبة لم يستمر الى مداه، فقد تطور على ما ذكرنا ليفتح آفاقا جديدة في موضوعات التأويل. فقد رفض البعض فكرة تحليل النصوص المكتوبة فقط، لأن ذلك يجعلنا نهمل اللغة في سياقها اليومي. ومن هنا جاء الاهتمام باللغة ـ أو «بالكلام» ـ كما تمارس في الحياة متقدما على الاهتمام بالنصوص المكتوبة[١١] كما وسع البعض من مفهوم النص ليشمل الأفعال ذات المعنى التي تشكل عالم الحياة اليومية: الأمر الذي فتح الطريق نحو تطبيق أفضل لمناهج التأويل في العلوم الاجتماعية.[١٢]

ومهما كانت الاختلافات بين فلاسفة التأويل، فانهم يجمعون على موضوع واحد هو أن التأويل محاولة للفهم understanding. ورغم اختلافهم في الاسلوب الذي يتم به الفهم، إلا أنهم جميعا يؤكدون على أن الفهم هو محاولة لكشف المعاني واستجلاء الغموض، أو هو محاولة للتوصل الى جوهر الأشياء وحقيقتها اللذين لا يبدوان مما يظهر منها، وانما يحتاج كشفهما الى جهد تأويلي. والفهم ليس هدفا في حد ذاته. انه ليس مجرد طريق لاكتساب معرفة موضوعية كما ذهب ديلثي ـ الأب المؤسس لفلسفة التأويل ـ بل أنه يسهم بدور فعال في تحسين الوجود الانساني. فقد اكد هيدجر على دور الفهم في «تأصيل الوجود في العالم» وأكد هبرماس على دور الفهم في نقد الايديولوجيا، كما أكد ريكور على دور الفهم في كشف أستار الغموض والتجهيل واماطة اللثام عن أشكال الوهم الكامنة في المعرفة. الفهم بهذه الطريقة هو هدف يوصلنا الى هدف أكبر

منه هو تغيير الحياة الى الأفضل على اختلاف في طرق هذا التغيير وأدواته . وتلك قضية سوف تتضح لنا فيما يلي من بحثنا هذا .

ثانيا ـ وظيفة التأويل: بين المعرفة الموضوعية والذاتية:

تأسست العلوم الاجتماعية منذ بواكيرها الأولى على نموذج مستعار من العلوم الطبيعية ، وذلك لكي تخلق لنفسها قاعدة صلبة من المنهج العلمي ورصيدا وافرا من الاحترام الاكاديمي . ومن ثم فقد اكد المؤسسون الأوائل لهذه العلوم على أهمية التوصل الى القوانين العامة ، وعلى تحقيق درجة عالية من الضبط اوالتحكم في العالم الاجتماعي على غرار ما يحدث في العالم الطبيعي ، وعلى دراسة الوقائع الاجتماعية بوصفها وقائع طبيعية . واذ سعت العلوم الاجتماعية هذا المسعى فانها تبنت نموذجا يقوم على التفسير السببي (erklaren) causal explanation وليس على الفهم understanding (verstehn)هذا اذا استخدمنا التفرقة التي طرحها دراوزن Droysen عام ١٨٥١ . ويعني التفسير محاولة اكتشاف العلاقات السببية بين الظواهر باستخدام منهج يقوم على مراوحة بين الاستدلال العقلي والاستقراء العلمي للظواهر. أما الفهم فانه يسعى لكشف المعنى الكامن خلف الظواهر باستخدام منهج اقرب الى الاستبطان والحدس[١٣]. ولقد انحازت العلوم الاجتماعية الى المنحى العلمي التفسيري الذي ارسيت دعائمه من خلال تضافر جهود فلاسفة العقل (ديكارت وكنط) وفلاسفة التجريب (مل وهيوم). ولا شك انها اعتبرت محاولات الفهم الذاتي الحدسي والاستبطاني محاولات خارجة عن نطاق العلم أو هي على أقل تقدير غير قادرة على كشف المعرفة الموضوعية التي هي مطلب البحث العلمي . ولقد أدى هذا الموقف من جانب العلوم الوليدة الى احتدام الجدل حول ثنائية التفسير ـ الفهم وحول ثنائية المعرفة الموضوعية ـ المعرفة الذاتية . وهو جدل ساهم فيه الفلاسفة والمفكرون من ذوي الميول التأويلية . وانحصر هذا الجدل في الاجابة على السؤال التالي : ما هي طبيعة المعرفة التي يكشف عنها التأويل؟ هل هي معرفة ذاتية أم موضوعية؟ وهو سؤال يثير تساؤلات

ضمنية ـ أو صريحة ـ حول علاقة العلوم الاجتماعية بالعلوم الطبيعية.

لم تكن وظيفة التأويل قبل شليرماخر تحمل أي معنى منهجي. فقد كانت وظيفة التأويل تنحصر في المساعدة في الكشف عن طبيعة مفردات النص وقواعده أو المساعدة في فهم النصوص الدينية (١٤). لقد كانت الهرمنيوطيقا حينئذ لا تتعدى الانطباعات العابرة. أما شليرماخر فقد حول الهرمنيوطيقا الى منهج عام. فالتأويل ليس انطباعا عابرا، وانما هو منهج يخضع لقانون عام يقوم على العلاقة بين الجزء والكل، أو بين الفردية والكلية أو بين الذات والموضوع. ويقوم هذا المنهج على فرضية بسيطة هي أن شكل التعبير يعكس بالضرورة الروح العامة للثقافة (١٥). وبذلك فقد أضحت الهرمنيوطيقا منهجا مستقلا هذا ان لم تكن قد تحولت الى علم مستقل بذاته.

ومع ذلك فلم تحقق هرمنيوطيقا شليرماخر الحلم الذي كان يراود فيلهلم ديلثي Dilthey. (١٨٣٣ ـ ١٩١١) الذي كان يحلم باقامة نظام علمي لا ينتمي الى مجال بعينه من مجالات العلوم الاجتماعية ولكنه يحتويها جميعا في منهج واحد يميزها كنظام علمي مستقل بذاته أطلق عليه ديلثي علوم الروح Geisteswissenschaften. فهذه العلوم الروحية تتميز عن العلوم الطبيعية بموضوعها «فهي هيكل من المعرفة تطور متوازيا مع العلوم الطبيعية... بموضوع متميز. ويضم هذا الهيكل علوما كالتاريخ والاقتصاد والسياسة والدراسات القانونية والدينية ودراسات الأدب والشعر والموسيقى والفلسفة وعلم النفس. فكل هذه النظم المعرفية تشترك في حقيقة هامة هي أنها تدرس الجنس البشري. أنها تصف هذه الحقيقة وتحكم عليها وتتوصل بشأنها الى مفاهيم ونظريات... ومن ثم فإن امكانية تعريف هذه المجموعة من العلوم تتحقق من خلال اشتراكها في موضوع واحد هو دراسة الانسانية. وهذا هو ما يفرقها عن العلوم الطبيعية» (١٦). وجوهر الاختلاف في موضوع العلوم الروحية يكمن في أنه ليس مجرد انعكاس للأشياء الخارجية ـ الواقعية ـ في الوعي كما هو الحال في العلوم الطبيعية، ولكنه هو نفسه واقع داخلي، أي أنه يتشكل في نطاق الوعي. ولذلك فان انعكاس الأشياء الخارجية في الوعي فيما يتصل بالعلوم الطبيعية (انطباعاتنا عن الطبيعةوشعورنا بجمالها) يمكن ضبطها والتحكم فيها من خلال التجربة واستخدام النماذج الرياضية.

ان الخبرة هنا خبرة محدودة، ويمكن الحد منها بشكل أكبر من خلال تطبيق شروط التجربة. ويختلف الأمر في العلوم الروحية. فالخبرة فيها لا تحدها حدود، ولا يمكن ضبطها من خلال التجريب. بل أن الخبرة experience (erlebins) هي مفتاح فهم موضوع العلوم الروحية. ان الواقع الذي تدرسه العلوم الروحية - كما يقول ديلثي قائم في الخبرة الداخلية، فهو في جوهره واقع داخلي، أو أنه مفتوح على الخبرة من الداخل (١٧). وبناء على ذلك فان منهج العلوم الروحية يجب أن يختلف عن منهج العلوم الطبيعية، أنه منهج يقوم على الفهم والتأويل. وسنعود الى توضيح اسس هذا المنهج فيما بعد، وحسبنا هنا أن نكشف عن نوعية المعرفة التي كان يسعى ديلثي الى اقامتها من خلال هذا المنهج.

قد يبدو لنا من ظاهر الأمر أن ديلثي، يسعى الى أن الوصول الى معرفة ذاتية من خلال منهج الفهم. والحقيقة أن ذلك لم يكن هدف ديلثي. لقد بدأنا حديثنا عن وظيفة التأويل عنده بتوضيح رأيه في الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الروحية لكي نؤكد حقيقة جوهرية في سعي ديلثي نحو اقامة علم للتأويل. هذه الحقيقة هي أنه كان يعتقد أن التأويل في العلوم الروحية هو الطريق نحو اقامة معرفة موضوعية ذات اسس مختلفة عن تلك القائمة في العلوم الطبيعية. فبالرغم من أن موضوع العلوم الروحية كامن في الخبرة الداخلية، الا أن هذه الخبرة يمكن أن تتموضع (أو تتشكل على نحو موضوعي) في التعبيرات البشرية التي تتجلى في النصوص المكتوبة أو الكلام. ان دراسة هذه التعبيرات تكسبنا معرفة موضوعية لها بعد تاريخي. ذلك أن علم التأويل لا يسعى الى دراسة التعبيرات البشرية في الآن بقدر ما يسعى الى دراسة الصور المتموضعة التي عبرت بها البشرية عن خبرتها عبر الزمن (والتي يعتبر الأدب والفنون المختلفة خير ممثل لها).

ان هذا الموقف يكشف بجلاء عن أن ديلثي قد اعتبر التأويل في العلوم الروحية منهجا بديلا للتفسير في العلوم الطبيعية. بل أن ديلثي قد ذهب الى أبعد من ذلك عندما اعتقد أن التأويل القائم على الفهم (كمنهج للعلوم الروحية) يجب أن يتسم بالعالمية كمنهج العلوم الطبيعية تماما. فالمبادىء الابستمولوجية التي يتأسس عليها

علم التأويل يجب أن تخدم العلوم الروحية بنفس الطريقة التي خدمت بها مبادىء كنط فيزياء نيوتن. ولذلك يقال دائما أنه اذا كان كنط قد طور «نقداً للعقل النظري» فان ديلثي قد طور «نقدا للعقل التاريخي»[١٨]. واشتمل تطوير ديلثي لمقولة «التاريخي» في مقابل مقولة «العقل» عند كنط على نقد لفلسفة كنط التي جعلت المقاولات العقلية سابقة منطقيا على المعطيات الحسية، فأهملت بذلك جانبين هامين من وجود الانسان وهما: الشعور والرغبة. وفي مقابل هذا النقد انطلق ديلثي من مقولة «التاريخي»، واعتبر أن الاقلاع من مقولة التاريخ يحقق فهما أشمل وأعمق، بل أنه يؤدي الى أن يصبح العقل ذاته جزءا من الحياة، بل أنه يحقق هدفا أشمل من ذلك هو أن يقيم للعلوم الروحية (التاريخية) موضوعا متميزا ومنهجا متميزا. ونسارع هنا بالاحتراز لكي لا يفهم من تحليلنا أن ديلثي كان معاديا للنزعة العقلية، لم يكن ديلثي معاديا للنزعة العلمية التي قادتها مبادىء كنط. بقدر ما كان باحثا عن خصوصية للعلوم التي تدرس المجتمع وتاريخه وثقافته، خصوصية تكسبها تميزها وتفردها ولكنها لا تخل بمنطق العلم وروحه. ولم يكن بمقدور ديلثي أن يعادي النزعة العقلية في عصر ضرب فيه العقل بجدوره في أرض كل معرفة. فليس هناك من شك - كما يؤكد انطوني جيندنز - في أن أراء «جون ستورت مل» و«اوجست كونت» قد تركت اثرا عليه بالرغم من انه كان ناقدا عنيدا لأرائهما في «وحدة العلوم»[١٩]. وفي ضوء هذا التأثير فقد سعى الى أن يقيم من الهرمنيوطيقيا منهجا علميا متميزا، يحقق نفس درجة الدقة والاحكام التي يحققها المنهج العلمي الذي دعا اليه ستورت مل وكنط، ويحقق شروط الموضوعية على اسس جديدة.

ويبدو أن الافراط في الدعوة الى الموضوعية لم تلاق قبولا من جانب فلاسفة التأويل ممن جاءوا بعد ديلثي. لقد انشغل ديلثي بامكانية أن يحقق الفهم التأويلي التوصل الى معرفة موضوعية بحتة بحيث ترقى العلوم الروحية الى مرتبة العلم. لقد أدى ذلك - على ما يبدو - الى موقف متناقض لم يستطع ديلثي نفسه حله: إذ كيف يمكن التوصل الى المعرفة الموضوعية بمنهج أقرب الى المسلك الصوفي المستغرق في الذاتية. وفرض تأمل هذا التناقض موقفا جديدا ولقد وجد فلاسفة الهرمنيوطيقا ضالتهم في مفهوم عالم الحياة Life - Worldعند فيلسوف الفينومينولوجيا الشهير هوسرل Hursserl . ويشير هذا المفهوم الى الاتجاه الطبيعي للخبرة بشكل عام وللخبرة العلمية بشكل خاص.

فخبرة الوجـود في عـالم الحيـاة هي التي تشكل أي مستـوى للفهم، سـواء أكـان الفهم داخل عالم الحياة ذاته أو الفهم العلمي. لقد أدى الانطلاق من مفهوم الخبرة الوجوديـة الى أن ينحو التأويل منحا مغايرا لذلك المنحى الـذي سلكـه ديلثي، فلم يعـد التأويل هنا طريقا لاكتساب معرفة موضوعية، بل أصبح طريقا لاكتساب معرفة ملائمة تعمق فهمنا لوجودنا. ولقد اتضحت هذه الرؤية لـوظيفـة التأويل عنـد هيـدجـر (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦) ومن بعده جادامر (١٩٠٠ ـ).

لقد أكد هيدجر في كتابه الوجود والزمن Being and Time (٢٠) الصادر عام ١٩٤٩ على أن التأويل لا يجب أن يتجه نحو الكشف عن المعرفـة الموضـوعيـة، فهـذه المعرفة الموضوعية لن يكون لها من قيمـة، إلا اذا كـانت معـرفـة مفيـدة (أو ذات معنى لوجودنا). ولعلنا نفهم الاطروحات التأويلية التي قدمها هيدجر إذا بدأنا من تفرقته بين نوعين من الوجود، ١ـ الوجود في العالم أو الانغراس في العالم (وهو ما تعبر عنه الكلمـة الالمانية Dasein والتي ترجمها البعض الى العربية بالآنية أو الـوجـود المتعين) (٢١)، ٢ـ والوجود مع الآخرين، ويشير الأول الى الوجود الانساني بعامة، أما الثـاني فيشير الى الوجود الفردي في تفاعله مع العالم. ويحمل الوجود الانساني تأويلـه الخاص، فـالفهم عنصر مؤسس لهذا الوجود «فالانسان الموجود هناك (الآنيـة) هـو وحـده من بين سـائر الموجودات القادر عن التساؤل حول وجوده ومن ثم فهو الوحيد القادر على الفهم. فلا يكفي أن نقول عنه أنه يكون وحسب بل ينبغي أن ننتبه دائما الى أنه هـو الموجـود الـذي يهتم بوجوده». (٢٢) فكأن هيدجر هنا يحاول أن يؤكد أن العالم ذاته يتأسس على ضرب من الفهم، أنه يحمل تأويلاته الخاصة. ولذلك فان أي فهم علمي له لابـد وأن ينطلق من هذا المستوى الأول من الفهم.

ويأتي المستوى الثاني من الفهم عندما تتدخل الذات لفهم الوجود وتأويله. فالذات في وجودها مع الآخرين تسعى الى تحقيق مستوى أفضل لهذا الوجود، ولذلك فانها تتجه نحوه بالفهم والتأويل. وعندمـا تتجـه نحـوه بـالفهم والتأويل فـانها لا تحقق ذلك من خلال تعابير موضوعية منفصلة عنهـا، وانما تحقق ذلك من خـلال خبرتها بعـالم الحيـاة الذي يتشكل فيه وجودهـا. أن أي فهم للـوجـود (الآنيـة) لابـد ـ إذن ـ أن ينطلق من

مجموعة الافتراضات والمقولات القبلية التي تشكل ما اطلق عليه هيدجر افق الفهم ho-rizon. فكل فهم ـ ومن ثم كل تأويل ـ لابـد وأن ينطلق من بنـاء مسبق يحدد الافق الذي تتجه نحوه عمليـة الفهم(٢٣). وتلك أهم نقطة خـلافيـة مع ديلثي. فـالفهم التأويلي ليس عملية موضوعية، بل أنها عملية ذاتية بحكم تعريفها ومنطلقـاتها. تبـدأ من الذات الفاهمة التي لها بناؤها التأويلي الخاص وتنتهي الى الوجود لوصفه، والكشف عن الأسس التي يقوم عليها.

والفهم هنا ليس غاية في حد ذاته بقدر ما هو وسيلة لتحسين الوجـود وتخليصـه من مكبلاته. لم تعد الهرمنيوطيقا هنا منهجا لتكوين معرفة موضوعية، وانما اضحت منهجا لتعميق الوجود الانساني والوصول به الى مستوى أفضل. أن الوجود الانساني يستغرق في زمانه الخاص، أو في تاريخية، فالوجود (الآنية) هـو وجـود تـاريخي «ان الماضي لا يسير وراء الوجود ويتبعه فقط، بل يسبقه في كل حين» (٢٤). ومن ثم فان الوظيفة الأساسية للفهم التأويلي هي وصف الـوجـود من أجل الكشف عن هـذه التـاريخيـة التي تكبل الوجود. فالفهم هنا ليس وسيلة منهجية بقدر ما هو وسيلة وجودية. بل أن جادامـر ـ الذي طور أراء هيدجر في هذا الصدد ـ قد ذهب الى أبعد من ذلك عندما أعتبر المنهج ـ بالمعنى الذي حددته قـواعـد ديكـارت وكنط ـ وهـو وسيلـة تكبل عمليـة البحث عن الحقيقة اكبر مما توصل اليهـا. (٢٥) ومن ثم فان الفهم التأويلي ليس مقـولـة منهجيـة بقدر ما هو وسيلة لفهم معنى الوجود في العالم. يقول جـادامـر «لم يعـد مفهـوم الفهم مفهوما منهجيا، كما لم تعد عملية الفهم ـ خلافا لمحاولة ديلثي تأسيس العلوم الانسانية على اسـاس هـرمنيـوطيقي ـ عمليـة معـاكسـة تتبع مجرى الحيـاة من أجل البحث عن المثالية، انما الفهم هو الطابع الأصلي لوجود الحياة ذاتها». (٢٦)

ان جادامر لا يسعى الى رفض العلم والموضوعية العلمية ولكنه يؤكد على أن الطريق الذي نألفه في المنهج العلمي الصارم في موضوعيته ليس هـو الطـريق الـوحيـد لكشف الحقيقة. ليست هناك ـ من ثم ـ علاقة بين المنهج بقواعـده الصـارمـة وبين الحقيقـة. ولذلك فان عدم الاعتماد على قواعد المنهج العلمي لا تعني عدم القدرة على التوصل الى الحقيقة. ويكون لذلك أهمية خاصة عندما يتصل الأمر بطبيعة الوجود الانساني فالمنهج

لا يكشف حقيقة هذا الوجود بقدر ما يخلق هوة بين الذات الفاهمة والعالم، أو أنـه ـ اذا استخدمنا لغة جادامر ـ يخلق تبعيدا بين الذات والموضوع. ان الطبيعة الخاصة للوجـود الأنساني تجعل التنظير في العلوم الانسانية ضربا من اعـادة صيـاغـة الخبرة، أي اعـادة صياغة ما هو قائم بالفعل على مستوى الخبرة في عالم الحياة. ولا يتنافى هذا مع امكانيـة التوصل الى معرفة عامة أو عالمية، ذلك أن الفهم اذا نجح في أن يتعرف على الخصائص العامة للخبرة العالمية فان بامكانه أن يتوصل الى معرفة لها طابع العموميـة. ولكن الأهم من ذلك ـ في البحـث الهرمنيـوطيقـي ـ أن المعـرفـة التـي يكشـف عنهـا التحليـل الهرمنيوطيقي هي معرفة لها أهمية وجدوى في حياتنا المعاصرة المثقلة بالمشكلات، والتي غلب عليها الطابع العقلاني والتكنولوجي، ان الهرمنيوطيقا لا تنـاوىء العقل، ولكنهـا تبحث عن نوع جديد من العقل يخالف العقل التكنولوجي والميكـانيكي الـذي سيطـر على مقدرات الحضارة. انها تدافع ـ كما يقـول جـادامـر ـ عن العقل السيـاسي والعملي ضد سيطرة العقل التكنولوجي القائم على العلم». (٢٧)

ويكاد تترادف عملية الفهم التأويلي هنـا مع مفهـوم الـوعي، حيث تكـون الغـايـة العظمى للهرمنيـوطيقـا هي تعميق فهمنـا (أو لنقل بتحفظ وعينـا) بـالطـابع الحدسي للأشياء الداخلة في حدود خبرتنا، ومن ثم خلق ضرب من العقل الفاهم (أو الـواعي) ازاء عالم التكنولوجيا. في هذه الحالة تكون الغاية العظمى للهـرمنيـوطيقـا هي أن يفهم الانسان ذاته ووجوده، وهو لن يكون قادرا على تكوين أية معرفة ذات معنى الا اذا فهم ذاته أولا. وتلك هي القضية التي أكدها الفيلسوف الفرنسي المعاصر بول ريكور paul Ricoeur عنـدمـا قـال «اذا لم أتمكن أن أفهم نفسي بشكل أفضل من خـلال فهمي لـلآخـرين، فـانني لن أتـوصل الى شيء ذي معنى. فـاذا لم يكن المعنى جـزءا من فهم الذات فانني لن أعرف ما هـو المعنى» (٢٨). وهذه صياغة تدمج الذات في الموضـوع دمجا، وتضعها في عملية حوارية (أو جدلية) بحيث لا تستطيع الذات أن تفهم نفسها الا بفهمها للموضـوع، ويظل الموضـوع غير ذي معنى اذا لم تـذوب الـذات في داخلـه بالفهم، ان مهمة الهرمنيوطيقا هنا تتجاوز تشييد المعرفة العلمية الى السعي نحـو تحقيق وجود أفضل للانسان في هذا العالم.

ومع أن هذا التحديد لوظيفة الهرمنيوطيقا قد أخرجها من دائرة البحث عن المعرفة الموضوعية الى دائرة أوسع تتصل بتجويد نوعية الحياة، إلا أن هذا الهدف لم يرق لانصار الاتجاه النقدي من أمثال هبرماس Habermas، الذي كان يرى في هذه الصياغة جنوحا مثاليا يهمل العوامل المادية التي تشكل الوجود (٢٩). فربط التأويل بالبحث عن نوعية أفضل من الوجود يفترض أن الانسان حر يمتلك وعيه بنفسه ويحدد مصيره بنفسه. ان الانسان على العكس من ذلك مكبل لا بقيود الطبيعة فحسب بل بقيود البيئة التي يخلقها الانسان بنفسه. ان الحضارة الرأسمالية تفرض على الانسان أغلالا تضرب حوله حصارا، وتكبل قدراته الابداعية. وفي هذه الظروف فان مهمة العلوم الانسانية تتحول الى مهمة نقدية، حيث تتجه نحو نقد الايديولوجيا وكشف استارها في محاولة لمساعدة الانسان على تحديد مصيره بنفسه. ولتحقيق هذه المهمة، فاننا لا يجب أن نهمل في فهمنا للعالم جوانبه الموضوعية. فالوجود البشري لا يفهم فقط من خلال بنائه الداخلي، أو من خلال فهم نوايا الفاعلين فيه، وانما من خلال فهم السياق الموضوعي الذي يحوي هذه الأبنية الداخلية. فالوجود بناء كلي لا يمكن أن نفهم منه جزءاً دون الآخر. ولذلك فإن فهمه على هذا النحو الكلي يتطلب حل هذا التوتر بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية.

ويطرح هبرماس لحل هذه المشكلة ما اسماه العلم الاجتماعي الجدلي الذي يسمح لنا بفهم موضوعي للمعنى الذاتي. ويتخذ هذا العلم الجدلي موقفا وسطا بين موضوعية العمليات التاريخية والدوافع الذاتية الكامنة خلفها. ومن ثم فانه يقوم على الجمع بين أدوات البحث الامبيريقي الذي يحاول أن يكشف عن القواعد الخارجية المنظمة للسلوك وبين الفهم أو التأويل الذي يسعى الى الكشف عن الأبنية الداخلية التي تعمل هذه القواعد الخارجية على ضبطها، وذلك بهدف اكتساب معرفة تسعى الى تحرير الانسان وتخليصه من مكبلات عالمه المادي. أن هبرماس هنا يعترف بمقولة ديلثي في البحث عن المعرفة الموضوعية، ولكنه يختلف معه في طريق الوصول اليها وفي هدفها. انه لا ينكر امكانية الاستفادة من مناهج التفسير في العلوم الطبيعية في فهم جوانب من السلوك الانساني. إن هذه المناهج تمكننا من الكشف عن الضوابط الموضوعية في الطبيعة. في حين تسعى الهرمنيوطيقا الى فهم الأبنية الذاتية الداخلية. وهذه المعرفة

بجوانبها الذاتية والموضوعية ليست غاية في حد ذاتها، بل هي وسيلة نحو تحرير الانسان وتقدمه.

ان هبرماس هنا لا يقدم توفيقا بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية، ولكنه يطرح اطارا لعلم مختلف عن كليهما ولكنه يستفيد من كليهما. انه العلم النقدي التي تتمحور المعرفة فيه حول «مصلحة الانعتاق» من مكبلات السلطة. فاذا كانت العلوم التجريبية التحليلية تهتم بالجوانب الموضوعية للذات كما تتجسد في العمل ويقوم منهجها على التنبؤ والتنظيم، واذا كانت العلوم التاريخية تسعى الى دراسة الجوانب التفاعلية للذات عن طريق الفهم، فان العلم النقدي الجدلي يسعى الى تحقيق انعتاق الذات من قيود السلطة مستعينا بما تتيحه العلوم التجريبية والعلوم التاريخية من أساليب.

تناولنا حتى الآن معنى التأويل ووظائفه، وننتقل الآن الى التعرف على مسلك التأويل، أو الطريق الى اكتساب المعرفة في عملية التأويل.

ثالثا ـ الطريق الى الفهم: دائرة التأويل:

ما هو السبيل الى فهم العالم؟ أو كيف يتصل الباحث بموضوع بحثه؟ أن الاجابة على هذين السؤالين لا تكشف فقط عن تميز منهج التأويل عن المنهج الوضعي التفسيري، بل تكشف أيضا عن تطور منهج التأويل نفسه بدءا من ديلثي وحتى المدرسة الفرنسية المعاصرة. لا شك أن منهج التأويل ينظر الى موضوع دراسته نظرة تختلف عن المنهج التفسيري الوضعي الذي يدعو الى الدراسة الخارجية للمعطيات الاجتماعية. والذي يميز هذا المعطى الاجتماعي بقابليته للملاحظة وبكشفه عن مؤشرات خارجية قابلة للقياس. انه المنهج الذي عبرت عنه بجلاء اطروحة دوركايم المنهجية حول «دراسة الظواهر الاجتماعية بوصفها أشياء أو كأنها أشياء»(٣٠) لقد نحا المنهج التأويلي منحى مغايرا، فلم يفترض انفصالا بين الباحث وموضوع بحثه، ومن ثم فقد عرف هذا الموضوع من خلال ماهيته الداخلية، وقدم اسلوبا منهجيا تنصهر فيه الذات الباحثة في موضوع بحثها بدلا من النظر اليه من الخارج باعتباره «شيئا

خارجيا». على أن الموقف الهرمينوطيقي لا يتلخص بهذه الدرجة من البساطة. فبالرغم من اتفاق فلاسفة التأويل على أمور عديدة إلا أن موقفهم يكشف عن قدر من الخلاف يعكس تتبعه تطور فكرة التأويل وامكانياتها المنهجية.

لقد اعتبر ديلثي أن الواقع الذي تدرسه العلوم الروحية قائم في الخبرة الداخلية، وهي لا تكتشف الا من خلال الفهم التأويلي. ويعرف ديلثي الفهم التأويلي بأنه «العملية التي نتعرف من خلالها على صورة داخلية من خلال العلاقات التي تأتي الى الخارج عبر الاحاسيس» أو هو «العملية التي من خلالها يستوعب بنية نفسية من خلال الاشارات التي تشكل مادة حسية وتعبر عن هذه البنية النفسية»(٣١). ويعني هذا التعريف أن الفهم هو محاولة لتجاوز الأشياء الظاهرة التي يمكن ملاحظتها، والتعمق خلفها. وتتحقق هذه العملية اذا ما تمكن الباحث من شيئين: الاول، اعادة معايشة الخبرة، فالخبرة لا تفهم فهما داخليا إلا باعادة تصورها وتصور ما تحمله من افكار ومشاعر. ويتم ذلك عن طريق عملية تقمص وجداني يستدمج فيه الباحث خبرة الآخرين ويستوعبها في داخله. والثاني، العثور على الاشارات أو العلامات التي تنتجها الخبرة، والتي تعمل بمثابة الظواهر المشيئة الكاشفة عنها والمجسدة لتاريخيتها. وتلك التعبيرات تمكن من التقمص الوجداني للخبرة. وتتمثل هذه التعبيرات في النصوص المكتوبة (النصوص الأدبية والأعمال الفنية). ولا شك أن هذين العنصرين في عملية الفهم متكاملان. فلن تستطيع الذات الفاهمة أن تقوم بعملية التقمص الوجداني إلا اذا عثرت على التعبيرات الملائمة، والا اذا استدمجت هذه التعبيرات بشكل يمكنها من اعادة انتاج الخبرة مرة أخرى.

وبالرغم من أن رؤية ديلثي هذه تقوم على افتراض أن المعرفة التي تنتج هنا تحقق درجة من الموضوعية، إلا أن عملية الفهم تدمج الذات في الموضوع دمجا، وتخلق علاقة «ذوبان» بين الباحث وموضوع بحثه. فذات الباحث هنا تعمل بمثابة مصفاة تعبرها التعبيرات في عملية انتاج الخبرة. ولا تتم عملية الفهم بشكل واحد، أو بطريقة واحدة في كل الظروف. فدرجة الفهم تتحدد دائما وفقا لدرجة الاهتمام، أو قل درجة الاستغراق في الموضوع. فكلما كان الاهتمام قويا كلما دخل الباحث الى أعماق الموضوع

وعـايش الخبرة معـايشـة كـاملـة، وهـذه هي اقصى درجـات الموضـوعيـة. ان تحقيق الموضوعية هنا تعني ايجاد حالة تطابق تام بين الخبرة كما ظهرت في الواقع وبين الخبرة كما اعيد انتاجها من خـلال البـاحث، وتلك حـالـة يصعب تحقيقهـا ان لم يكن تحقيقهـا مستحيلا. ولذلك فان عملية الفهم عند ديلثي هي عملية ذاتية. فـالبـاحث لا يمكن مطلقا ان يتحول الى وسيط محايد في عملية الفهم. فالخبرة التي يعيد انتـاجهـا او يعيـد تقمصها سوف تخرج بالضرورة وهي مثقلة برؤيته الخاصة.

وربما يكون هذا هو السبب في افتراض الـذاتيـة في دائرة التأويل من قبل الفـلاسفـة الذين جاءوا بعد ديلثي. فالفهم عند هيدجر عنصر مؤسس للوجود ذاته، ومن ثم فان أية محاولة للتعمق في فهم الوجود لابد وأن تبدأ الأبنيـة السـابقـة على الفهم Forest-ructure of understanding التي تشكل أفقه. وتسير عمليـة الفهم التأويلي في خط دائري يبدأ من الذات (التي تمثل مستوى من الـوجـود) وينتهي الى العـالم (الـذي يمثل مستوى آخر للوجود) ويرتد الى الذات مرة أخرى. ويبدأ التأويل عندمـا يتكشف الوجود الخارجي للذات المدركة أو الفاهمة. فلم ينكر هيدجر امكانية أن يتجلى الوجود في تعبيرات خارجية. فقد كان يعتقد فيما اعتقد فيه فلاسفـة الفينـومينـولـوجيـا من أن الموجودات تكشف عن نفسها أو تظهر: وان كل «اتصال أو تعـامل مع الموجـودات لا يتم الا اذا خرج الموجود من تحجبه وتكشف وظهر بنفسه... وأن كل قول نعبر بـه عن الموجود لا يكون ممكنا الا اذا سبقه ظهور هذا الموجود نفسه (أو لا تحجبـه) الـذي يعـد خاصية اساسية فيه». (٣٢) ويكشف الوجود عن نفسه من خلال وسائط أو تعبيرات، تشكل اللغة. واللغة ليست مجرد تعابير صماء وقواعد جامدة وانما هي طـاقـة وجـوديـة تنظم العالم والانسان معا. فالمشاركة في اللغة هي التي تمنح الوجـود معنـاه، وهي التي تعبر عنه. واللغة كطاقة وجودية تصبح مصدرا للمعرفة، وهي مرآة كـاشفـة يمكن من خلالها الانفتاح على المعنى الكامن لا في الوجود الحاضر فقط بل في الـوجـود التـاريخي أيضا. فالتأويل لا يكتمل الا بالانفتاح على الزمن كبعد مؤسس للوجود. (٣٣).

وعندما يتكشف الوجود للذات المدركة، فان فهمها له ينحصر في القدرة على ادراك الاحتمالات الوجودية للفـرد (للـذات) في سيـاق وجـوده في العـالم. وهـو ادراك مشبع

بالذاتية طالما أنه يبدأ من المسلمات القبلية للوجود الذاتي. وعندما يتحقق قدر من الفهم للوجود في العالم، فان الذات الفاهمة تحقق وجودا أفضل، أو هي تدرك أفضل الاحتمالات الوجودية لها. ان عملية الفهم ـ بهذه الصياغة ـ هي حوار بين الذات والموضوع.

ولقد اتضحت فكرة الحوار بين الذات والموضوع في الصياغة التي قدمها جادامر. لقد أكد جادامر على أن خبرة الفهم ليست خبرة احادية كما في العلم (حيث يتحول الموضوع الى كيان صامت لا يخاطب الذات المتفاعلة معه)، كما أنها ليست خبرة جدلية بمفهوم هيجل (حيث تدخل الذات في تناقض جدلي مع الموضوع)، وانما هي خبرة حوارية dialogical. فعندما نتعامل مع موضوعات الفهم ـ وهي غالبا ما تكون نصوصا مكتوبة ـ فاننا ندخل معها في حوار ينتهي الى ذوبان الذات في الموضوع والعكس. ان الموضوع ليس كيانا جامدا، وانما هو طاقة وجودية. ولذلك فان النصوص التي نفسرها تتحدث الينا بوصفها اشكالا لغوية وجودية، ونحن لا نتعامل معها من فراغ بل ننظر اليها خلال تحيزاتنا وخبراتنا السابقة. ان اللغة تتحدث عن وجودها الخاص. ومن ثم فان لها وجود مستقل عن الأفراد، ولذلك فان النصوص يمكن أن تفهم كمنتجات ذات معنى دون تكوين معرفة خاصة عن مؤلفيها. فاللغة لا تخلق بشكل قصدي من جانب متحدثيها ولكنها وسيط عام للوجود الاجتماعي. (٣٤)

ان الفهم التأويلي هنا هو حوار متصل بين الذات والموضوع. واذا كان المرء منا يعدل من طرائقه واستراتيجياته في الحوار، فان عملية الفهم تتطلب هذه المراجعة. فكلما راجعنا انفسنا كلما تكشف لنا النص بشكل أفضل، وكلما تجلت لنا طاقته الوجودية. ولقد أطلق جادامر على دائرة التأويل هذه عملية انصهار الافق Fusion of horizon، وهو تعبير يدل على هذه اللغة الحوارية بين المفسر وبين النصوص التي يفسرها. انها لغة يتحول فيها النص الى كائن وجودي حي، له أفقه الخاص، ويتحول فيها المفسر الى محاور من الطراز الأول والى لاعب من الطراز الأول، فهو يغير دائما من استراتيجياته واساليبه الحوارية. وجوهر الانصهار التأويلي هذا، هو انصهار بين الماضي والحاضر، أو قل تواصل وجودي بينهما. فالأفق الذي تنطلق منه الذات الفاهمة

يرتبط بوجود الحاضر، أما النصوص التي تتجه هذه الذات الى تأويلها فتشتمل على أفق (أو آفاق الماضي). والهدف في النهاية هو تعميق وجودنا بالحاضر وفهمنا له. والمحقق أن جادامر قد اعتبر أن «الوعي التاريخي» الذي ينتج عن خبرة الفهم هو المشكلة الرئيسية في البحث الهرمنيوطيقي. (٣٥)

والمحقق أن هذا الوعي التاريخي لا يمكن أن يصل الى مداه، طالما أنه مقيد بحدود الفهم. فالفهم عملية متصلة لا تنتهي، طالما أنها حوار بين آفاق التراث في الماضي وبين الرؤى المعاصرة لأفق الحاضر. ان هذا الحوار لا ينقطع، بل أن كل محاولة جديدة للفهم تنضاف الى التراث وتفتح فيه آفاقا جديدة ـ تشارك في حوار الفهم المستمر. ان الفهم هنا عملية متصلة لا تكتمل. فكشف الحقيقة يرتبط دائما بتواصل الحوار وتبادل التقاليد. ماذا عسى اذن ان يكون الوعي الناتج عن هذه العملية غير المكتملة للفهم؟ لا شك أنه وعي تاريخي ناقص، لا يتشكل على نحو مطلق، وانما يرتبط بشروط موضوعية لا تضع حدودا على امكانياته فقط، بل يمكن أن تكبله وتتركه عند مستوى معين. وذلك هو جوهر الخلاف بين جادامر وبين هبرماس، ذلك الذي كشفت عنه المناظرة المشهورة بينهما والتي اشتهرت في تاريخ الدراسات النظرية «بمناظرة هبرماس وجادامر». (٣٦)

لقد نقد هبرماس هرمنيوطيقا جادامر لأنها جنحت نحو المثالية، فوقعت في نفس الخطأ الذي وقعت فيه الوضعية عندما فصلت المعرفة عن المصلحة، ومن ثم فقد فصلتها (أي المصلحة) عن الوعي التاريخي (٣٧). لقد وافق هبرماس على أن نتخذ من اللغة مادة للدراسة والبحث في عملية الفهم، ولكنه لم يفعل ذلك بطريقة صورية مثالية. ان الذات التي تتفاعل وتتواصل عن طريق اللغة، لا تتحرك في عالم رمزي صوري قدر تحركها في اطر واقعية. ان التفاعل الاجتماعي لا يمكن فهمه بمعزل عن مقولتي العمل والسلطة. فالعمل هو شرط من الشروط الموضوعية التي تحدد مجال حركة الذات ونطاق نشاطها، كما أن السلطة تشكل اطار ضابطا لهذه الحركة. ان هذه الظروف لا تترك الذات تتفاعل بتدفق وتلقائية، ومن ثم فانها لا تتركها سوية، بل تؤثر تأثيرا بالغا على بنيتها الايديولوجية فتصيبها بتشوهات تشبه تلك التشوهات التي كان

فرويد يحاول اكتشافها في البناء اللاشعوري للمريض. ولقد كرس هبرماس جهـدا كبيرا لشكل هـام من أشكـال هـذا التشـوه في البنـاء الايـديـولـوجي، ذلك هـو الاتصـال (التـواصل) المشـوه Distorted Communication والـذي يحدث في البنـاء اللغوي.

ان اللغة هي اسلوب عام من أسـاليب التـواصل مع الآخـرين، ولكن الشروط التي يتم فيها هذا التواصل (ظروف العمل والسلطة) يفتت من عضد المقدرة اللغوية، فيأتي الأداء اللغوي للذات الفاعلة مشوها ومبتورا. ان عملية التواصل اللغوي قـد تخلـو من التشوهات لو أنـه يتم وفقـا لشروط صحيـة. ولقـد حصر هبرمـاس الشروط الصحيـة للتفاعل في ثـلاثـة هي: ١ـ تحقيق اجماع عـام من خـلال النقـاش العقلي، ٢ـ التفهم العميق المتبادل من جانب المشاركين في التفاعل، ٣ـ الاعتراف المتبـادل بـالحق المشروع في النقاش. ان الشروط الواقعية التي يتم فيهـا الاداء اللغـوي تختلف عن هـذه الشروط الافتراضية، ومن ثم يأتي الأداء اللغوي مثقـلا بـالتشـوهـات، هي تشـوهـات تنـاظـر التشوهات المرضية التي تهتم بها مدرسـة التحليل النفسي (على المستـوى الفـردي). ان المحادثة العملية التي تتم بين فـردين مثـلا تختلف عن المحـادثـة النظـريـة التي يمكن تصورها وفقا لمثاليات التفاعل. فـالتفـاعـلات اليـوميـة التي تقـوم على عمليـة التفهم المتبادل للأدوار والمكانات والقواعد (وهو ما يطلق عليه هبرماس الذاتية المتبـادلـة in-ter - Subjectivity تـرتبط بأشكـال مـن الحوار (التخـاطـب) ذي بنيـة مزدوجة double Structure. ويشير هذا المفهوم الى الازدواجية الكامنـة في الحوار اللغوي (الكلام) بين المحتـوى الافتراضي لـه وبين مـا يتم التعبير بـه في الـواقع. فهـذا المحتوى الافتراضي يتم التعبير عنه بأساليب مختلفة من الكلام، فيأتي هذا الأخير مثقـلا بالتأكيدات أو الأوامر أو التبريـرات النظـريـة، أو التأكيـد على المحـرمـات، او ابـراز الجماليات الفوقية. وكأن هبرماس يريد أن يقول هنا أن مكبلات الحياة الاجتماعية تكـاد تكبل التواصل اللغوي، فتخرجه عن طابعه الافتراضي، وتحيله الى تواصل مشوه به كثير من اساليب الالتواء أو القهر أو غيرهما التي يستخدمها الفاعلـون لتحقيق أهـدافهم في ضوء الظروف التي يتفاعلون فيها.

ماذا عسى أن يكون الفهم هنا؟ ليس الفهم وحده، بل الفهم الهرمنيوطيقي، والعلم الوضعي كلاهما يستخدم لتحقيق مهمة النوع الثالث من المعرفة التي اسماها هبرماس بالمعرفة النقدية. ليست المهمة هنا مهمة فهم، بقدر ما هي مهمة نقدية لكشف أستار هذا التشوه الايديولوجي. وما أشبه المهمة النقدية هذه بمهمة المحلل النفسي، الذي عليه ان يتعمق في أغوار اللاشعور لينقيه من شوائبه وتشوهاته. أن الذات الناقدة عليها أن تنقد البناء الايديولوجي الذي يخلق هذه التشوهات ويعمل على استمرارها. ان مهمته هنا مهمة تحليلية وتركيبية في آن. ان عليه ان يفكك هذه البنية ويعيد تركيبها وفقا لأطر افتراضية، وما هذه الأطر الا البحث عن الحالة الافتراضية للتواصل الانساني السليم. ولهذه العملية بعد تاريخي، ذلك أن أشكال التشوه في البناء الايديولوجي الراهن لا تكتشف الا من خلال تكويناتها التاريخية، تماما كما يفحص المحلل النفسي تاريخ المريض. ومن ثم فان الوعي الذي يتشكل من خلال الجدل النقدي هو وعي تاريخي بالضرورة.

ويتضح من العرض السابق أنه بالرغم من الاختلاف بين فلاسفة التأويل حول مسلك التأويل ومجراه، الا أنهم يتفقون على أن اللغة هي محور أساسي لعملية التأويل، وأن الفهم التأويلي هو عملية أبعد من فهم ما هو ظاهر من الأشياء من حيث أنها عملية موجهة الى الأبنية الداخلية غير المرئية حتى وان كانت تكشف عن نفسها في اشارات اللغة، وأن الفهم عملية ذاتية يصعب على المرء فيها أن يتخلص من آفاق عقله وتراثه، وأن الفهم عملية تتجه نحو تجويد الوجود بما فيها وجود الباحث ذاته، وان العلاقة بين الباحث وموضوع بحثه ليست علاقة انفصام وتباعد بقدر ما هي علاقة توحد وتقارب وأن أي تباعد للباحث في عملية الفهم يبعده عن الحقيقة. ولسنا هنا في معرض البحث عن أوجه الاختلاف والتشابه بين فلاسفة التأويل، ولكننا نمهد للاجابة على سؤال هام وجوهري في بحثنا هذا: الى أي مدى ترك هذا الجدل حول التأويل آثاره على علم الاجتماع؟ ذلك هو السؤال الذي نعرض له فيما تبقى من هذا المقال.

رابعا ـ علم الاجتماع واشكاليات التاويل

الشيء المحقق أن علم الاجتماع لم يكن على وفاق مع النظرة التأويلية في بداية نشأته. فقد اتهم اصحاب نظريـة التأويل علماء الاجتماع الأوائل ـ خـاصـة من أنصـار المذهب الوضعي ـ بأنهم غير قادرين على تخطي المشاهدات المنظورة الى ما ورائها، وأنهم أضفـوا طابع الشيئية والخارجية على موضوع دراستهم. وهم بذلك الغوا أية امكـانيـة للفهم أو التأويل خارج حدود ما هـو منظـور. ولعل ذلك هـو السبب في اتخاذ مـوقف منـاوىء لعلم الاجتماع وتفسيراته من جانب اكثر رواد الهرمنيوطيقا شهـرة، وهـو فيلهلم ديلثي. ولقد تبـدى هـذا الموقف في الـوصف الـذي أطلقـه ديلثي على تفسير اوجست كـونت للتاريخ. فقد وسم هذا التفسير بأنـه ضرب من الميتـافيـزيقـا النـابعـة من تبني المنهج الطبيعي في العلم وتطبيقه على ظواهر غير طبيعية. ولقد كتب ديلثي حـول هـذا يقـول «ان اعتراضي على علم الاجتماع يتعلق بأنه فرع من فروع المعرفة يحاول ان يستوعب تحت مسمى علمي واحد كل ما يحدث في المجتمع البشري». أنه علم يحاول أن يفرض اطارا تفسيريا تماما على الواقع التاريخي ككل، فيأتي تفسيره مفارقا للواقع، أو ميتافيـزيقيـا، وتنبع الميتـافيـزيقـا في علم الاجتماع من أنـه يحاول أن «يفسر الـدين والأخـلاق والفن والقانون من وجهة نظر المجتمع، وأن يكشف عن التضامن والتباين والتكامل داخله، وأن يدرس تضامن المصالح وتقدمها نحو نظام عام يقـوم على مبـدأ المصلحـة العـامـة المشتركة». (٣٨)

لقد كان من الطبيعي أن يعاند ديلثي منهج علم الاجتماع في صياغته الوضعية طـالما أنه كان يبحث «للعلوم الروحية» عن صياغة منهجية خاصـة تختلف عن منهج العلـوم الطبيعية الذي تبنـاه الآبـاء المؤسسـون لعلم الاجتماع. ومع ذلك فـان هـذا الجفـاء بين الهرمنيوطيقا وعلم الاجتماع لم يستمر طويلا. ولقد جاءت همزة الوصل من أحد تلاميـذ ديلثي المخلصين، وهو ماكس فيبر. ويتمثل الاسهام الذي حققه فيبر في هـذا الصـدد في أنه لم ينجح فقط في تقريب شقة الخلاف بين التفسير السببي للظواهـر (الـذي تبنـاه علماء الاجتماع الاوائل) وبين الفهـم التـأويلي (الـذي تبنـاه ديلثـي كمنهـج للعلـوم

الروحية)، بل نجح أيضا في أن يدخل منهج الفهم الى دائرة الأفعال الاجتماعية بعد أن كان حكرا على تأويل النصوص الدينية والفنية. لقد عرف فيبر علم الاجتماع بأنه محاولة «الفهم التأويلي للفعل الاجتماعي الذي توصلنا الى التفسير السببي لمجراه ونتائجه»(٣٩). ان اتخاذ الفعل وحده للتحليل يكشف عن موقف مغاير للموقف الوضعي الذي يتخذ من الحقيقة الاجتماعية وحدة للتحليل. ويدرس الفعل من خلال الفهم الذي لم يختلف كثيرا في معناه الفيبري عن معناه عند ديلثي (الرؤية التعاطفية أو التقمص الوجداني للموقف الذي يوجد فيه الفعل). ولكن الفهم عند فيبر يمكن أن يكشف عن العلاقات السببية، ومن ثم فانه ينتهي الى نفس نوع المعرفة الذي تقدمه العلوم الطبيعية. ان عملية تفسير معنى الفعل الاجتماعي تهدف الى نفس مستويات الدقة والتحقق التي تسعى الى تحقيقها العلوم الطبيعية. ان عملية الفهم التأويلي لمعاني الأفعال لا تقف عند المستوى السطحي البسيط، وانما تحاول أن تسعى الى ما أسماه فيبر بالكفاية السببية للفهم، والتي تعني أن الفعل يحتمل أن يظهر على هذا النحو وفقا للأطر المعروفة للخبرة (٤٠). وهكذا يوصلنا الفهم الى مقولات نظرية عامة تماما كمنهج العلوم الطبيعية، فالغاية هنا وهناك واحدة وهي التوصل الى علاقات سببية.

لقد انشغل فيبر اذن بالربط المنطقي بين «الفهم» و«التفسير». فبالرغم من أنه كان متعاطفا مع طموح ديلثي في تأسيس منهج مستقل للفهم، إلا أنه كان يهتم أيضا باقامة تعميمات عن الأفعال الجمعية تتصف بالموضوعية والدقة كما هو الحال في العلوم الطبيعية. وأدى الجهد الذي بذله فيبر في هذا المجال الى فتح علم الاجتماع على عالم التأويل. وبالرغم من أن المنهج الوضعي الذي تبناه كونت ظل اساس صلبا لتطور المناحي النظرية والمنهجية الاكثر سيطرة في عالم السوسيولوجيا، إلا أن الطريق الذي سلكه فيبر قد خلق داخل علم الاجتماع تيارا نظريا ومنهجيا (٤١)، توازى مع تيارات مختلفة في علوم اجتماعية اخرى نبعت هي الأخرى من الانفتاح على عالم التأويل (ونذكر في هذا السياق الصور المختلفة لمدرسة التحليل النفسي في علم النفس، والصور المختلفة من المدرسة البنيوية في الانثروبولوجيا، والصور المختلفة للماركسية في الاقتصاد السياسي). لقد توازت هذه التيارات مع التيار الذي بدأه فيبر، ولكنها التقت عند نقاط معينة، وكلما التقت أفرزت اشكالا جديدة من الفكر، وفتحت الآفاق نحو

استكشاف عوامل ارحب في مجال العلوم الانسانية. ولعل السبب في ذلك يرجع الى الانفتاح على فلسفة التأويل. لقد أدى الانفتاح على فلسفة التأويل والاستفادة من امكانياتها المنهجية، أدى بواحد من أكثر علماء الاجتماع المعاصرين شهرة وأغزرهم انتاجا ـ وهو الانجليزي انتوني جيدنز ـ الى القول بأن النظرية الاجتماعية ـ ويعني بها نظرية العلوم الاجتماعية كلها وليس علم الاجتماع فحسب ـ يجب أن تتخذ من فلسفة التأويل اطارا موجها لها. فالتأويل يدخل الى مجال النظرية الاجتماعية من طريقين: الأول، أن النظرية الاجتماعية تدرس عالما اجتماعيا يحمل تأويله الخاص بالنسبة للمشاركين فيه، والثاني، ان المنظر يجب عليه أن يشارك في هذا العالم الاجتماعي ليتمكن من وصفه وصفا صادقا، فالعلم الاجتماعي نفسه ما هو إلا شكل من اشكال الحياة. وهكذا فان النظرية الاجتماعية لا يمكن إلا أن تتخذ من فلسفة التأويل اطارا موجها لها. (٤٢)

ويدعونا ذلك الى أن نحاول استقصاء تأثير الهرمنيوطيقا على علم الاجتماع بخاصة والعلوم الاجتماعية بعامة، أو بمعنى آخر أن نتتبع بعض الآفاق التي فتحتها الهرمنيوطيقا للعلوم الاجتماعية. ولن نستطيع في هذا السياق أن نغطي كافة هذه الآفاق في هذه العلاقة المعقدة، فذلك يحتاج الى دراسة مستقلة. ولذلك فاننا سوف نكتفي بالاشارة الى قضيتين تكشفان بجلاء عن مدى الاستفادة التي حققها علم الاجتماع من انفتاحه على فلسفة التأويل، أو تكشفه لها اذا استخدمنا لغة تأويلية.

١ ـ المجتمع كنص:

انشغلت فلسفة التأويل بتحليل النصوص بدءا من النصوص الدينية وانتهاء بالنصوص الأدبية كلاسيكية كانت أم معاصرة. وجاء هذا الاهتمام بتحليل النصوص، أو قل تأويلها، انطلاقا من مسلمتين اتفق عليهما كل فلاسفة التأويل تقريبا. المسلمة الأولى: انشغال فلاسفة التأويل باللغة على اعتبار انها تعبيرات موضوعية كاشفة عن الخبرة (ديلثي) أو أنها طاقة وجودية تكشف عن معنى الوجود ومستواه (هيدجر وجادامر) أو أنها وسيط اتصالي يتعرض لتشوهات تحت وطأة كوابح السلطة والمجتمع (هبرماس). والمسلمة الثانية: النظر الى النصوص المكتوبة على أنها تجسيد حي للخبرة

التاريخية وتراكمها عبر الزمن، ومن ثم فان النظر فيها بالتأويل يكشف عن هـذه الخبرة التاريخية (ديلثي) او التواصل الوجودي عبر الزمن (هيدجر) أو التـوصل الى ضرب من الفكر العالمي العام (جادمر). ولقد أدى هذا الانشغال باللغة والنصوص المكتوبـة على تنويعها الى تطور هام في علوم المجتمع يكشف عنه العنوان الذي اتخذناه لهذه الفقرة فقد اتسع مفهوم النص ليصبح المجتمع ذاته نصا يمكن أن يقرأ، ولقد أدى هذا التطـور الى امكانية بلورة رؤية جديدة لطبيعة العلاقة بين المادة الميدانيـة والمادة المكتـوبـة. وسـوف نوضح هذه الامكانية للتو، بعد أن نوضح باختصار طبيعة هذا التطور.

وربما يكون توسيع مفهوم النص لينطبق على المجتمع قد بدأ من الفيلسوف الفـرنسي بول ريكور الذي نظر الى الأفعال ذات المعاني باعتبارهـا نصـا. فـاذا كـان النص يتمتع بخصائص تجعل له معاني محددة ومستقلة وذات طابع موضوعي، تخلق من النص شيئا محددا وثابتا يمكن اخضاعه للدراسة، فان الفعل الاجتماعي ذا المعنى يمكن أن يأخـذ شكلا محددا وثابتا ومستقلا عن الحدث الـذي يظهـر فيـه. وهـو بـذلك يتسـامى على السياق الاجتماعي الذي نشأ فيه مثله مثل النص المكتوب تمامـا، ويفتح عـالما جـديـدا لمزيد من المعاني مثلما يفتح النص عالما جـديـدا لمزيـد من التأويل والقـراءة (٤٣). ان العلاقات الاجتماعية تتأسس على نسق من المعاني الـداخليـة والقيم الجوانيـة، ومن ثم فان كل التعبيرات الخارجية (الأفعال البشرية وما يصاحبهـا من رمـوز لغـويـة أو حتى حركات جسمانية) لها معاني تكمن خلفها ويـدركهـا الأفـراد من خـلال فهم متبـادل. وهذه المعاني تأخذ شكلا ثابتا يتجاوز الأفعال الفردية المتنوعـة والـلامتنـاهيـة، ومن ثم فانها لها خصائص اشبه بخصائص النصوص المكتوبة. وتنحصر مشكلـة التأويل هنـا في التعرف على المعاني الداخلية بالغوص خلف الأفعال والأنشطة المرئية. وقـد لا تبـدو هذه الصياغة جديدة، فهي نفسها صياغة ماكس فيبر للفهم، ولكن الجديد فيهـا هي تلك المماثلة بين النص المكتوب والمعاني التي تقف خلف الأفعال الاجتماعية وهي مقولة لم يلتفت اليها فيبر بحال.

ويبدو أن هذه المناظرة قد ظهرت من خـلال التعمق في تأويل النصـوص الى درجـة اكتشاف المجتمع داخلهـا. فإذا كـانت الهرمنيـوطيقـا قـد انشغلت بـاكتشـاف مجاهل

النصوص وغوامضها، فإن هذا الانشغال كثيرا ما ينتهي باكتشاف عالم الحياة الاجتماعية في داخل النصوص. وقد كتب حسن حنفي معالجا مفهوم قراءة النص من هذا المنظور يقول «فقد تكون القراءة تفسيرا للنصوص ولكن قد تكون أيضا تفسيرا للظواهر الاجتماعية والطبيعية. . . هنا تحيل اللغة الى المجتمع والى الوجود ويتحول النص من منطوق مدون الى واقع مرئي» (٤٤) ويشير النص الى أن عملية التأويل هي مراوحة بالعقل بين مجتمعين: مجتمع النص والمجتمع الواقعي. فمجتمع النص ينقل المفسر من جمود النص الى عالم المجتمع (تاريخه وأبنيته الاجتماعية وطبقاته وتفاعلاته الاجتماعية)، كما أن عالم المجتمع ـ الذي يعيش فيه كاتب النص ومفسره ـ يترك بصماته لا على كتابة النصوص فحسب بل على تأويلها أيضا.

ولقد أدى هذا الفهم ـ في تطور لاحق ـ الى أن يتسع مفهوم التأويل ليعتبر المجتمع ذاته نصا Text. فالنص لا يشير فحسب الى المدون اللغوي وانما يشير الى «كل بناء للمعنى يرتبط بعلامة أو اشارة (أو بناء المعنى السميوطيقي) Semiotic meaning Structure كاللغة والموسيقى وفنون العمارة والتصوير والاحداث والأفعال الاجتماعية»(٤٥) ويقوم مثل هذا التعريف على توسيع دائرة التحليل الهرمنيوطيقي مطبقا نفس الأدوات التي تستخدم في تحليل النصوص على تحليل عالم الحياة الاجتماعية. ولقد عبر أحد الباحثين في الانثروبولوجيا عن هذا الاتجاه بقوله «لا توجد في المجتمعات الأمية نصوصا مكتوبة. ومع ذلك فإن الانثروبولوجيين يقرأون هذه المجتمعات بنفس الطريقة التي يقرأ بها نظراؤهم الكتب. . . فنحن نؤول ما نشاهده ونخبره في هذه المجتمعات الغريبة في ضوء الايديولوجيات التي تسيطر علينا في محاولة لكشف الجوانب الثابتة والمتغيرة للأبنية الانسانية» (٤٦) ولا يقتصر الأمر بطبيعة الحال على المجتمعات الأمية، فالحديث يمكن أن ينسحب على كل أشكال المجتمعات، التي تتحول أمام الباحث الذي يسعى الى الفهم التأويلي الى صفحة مكتوبة تنطق بالحياة وتنبض بها نبض النص المكتوب. وهكذا يتحول المجتمع ذاته الى «نص». ولقد استخدم احد الباحثين المعاصرين المناصرين لهذا الفهم الواسع النطاق لمفهوم التأويل، استخدم لوصف شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع مصطلحا وثيق الصلة بمصطلح Text (الذي يعني النص)، ذلك هو مصطلح Texture ويعني النسيج

المتداخل في لحمته وسداه. واستخدم هـذا المصطلح لـوصف عـالم الخبرة المعـاشـة في الحياة اليومية. وكتب في هذا الصدد يقـول «يتحـول نسيج الحيـاة اليـوميـة ـ في فهمنـا التأويلي الواسع ـ الى «نص». ويجب أن ننظر الى هذا النص ـ في استخـدامنـا المجـازي للمصطلح ـ على أنه بيئة أو سياق Con - Text (التشديد موجود في الأصل) يتكون من نسيج مترابط . . . فالحياة الاجتماعية هي سيـاق من الترابطـات والصـلات التي لا تتبدى فحسب في الفكر ذي الطبيعة القصدية بل تتبدى أيضا في الـوعي بـالعـلاقـات الواقعية داخل النظـام الاجتماعي والاقتصـادي» (٤٧). وينهض هـذا الفهم الـواسع النطـاق للتأويل على قضيـة محوريـة مفـادهـا أن حصر عمليـة التأويل في النصـوص المكتوبة قد يوصلنا بحق الى جوانب من حياتنا الاجتماعية. ولكنه يوصلنـا فقط الى تلك الجوانب الواعية والعقلانية منها دون أن يمس الجوانب اللاعقلانيـة. ان هـذا التـوسيع لمفهوم النص ينقلنا من تحليل اللغة المكتوبة الى تحليل لغة الحياة اليومية، وبالتالي فـانـه يكشف عن جوهر نسيج الحياة اليومية وتفاعلاتها.

ان هـذا المنحى المنهجي لا يفتح فحسب آفـاقـا رحبـة نحـو فهم المجتمع، ولكنـه يدفعنا الى أن نراجع طبيعة العـلاقـة التقليـديـة بين المادة التـاريخيـة والأدبيـة (او المادة المكتوبة بشكل عام) وبين المادة الميـدانيـة التي نحصل عليهـا من خـلال الملاحظـة أو المقابلـة أو غيرهما من الأدوات. ان هـذين النـوعين من المادة ليستـا ـ وفقـا لهذا المنحى الجديد ـ من طبيعة مختلفة، فكلاهما يمكن أن يندمج في الآخر وكلاهما يمكن أن يطبق عليه نفس المبادىء التحليلية. فالمجتمع هو تاريخ يصنع في الواقع وفي النصوص في آن واحد، وكلاهما يمكن أن يؤدي الى الآخر. وفضلا عن ذلك فـان هـذا الاتجاه يمكن أن يسـاهم في حل بعض المشكـلات المعضلـة في البحث العلمي الاجتماعي مثل مشكلـة الانفصـال بين التحليل الكمي والكيفي، ومشكلـة الانفصـال بين التحليل النظـري والبحث الامبيريقي وغيرهما من المشكلات.

٢ ـ نحو فهم جديد للموضوعية:

وكما فتح منهج تأويل النصوص آفاقا في دراسة المجتمع، فقد فتح آفـاقـا جـديـدة أيضا امام فهم جديد للموضوعية في العلـوم الاجتماعيـة. لقـد درج الاتجاه الغـالـب في

العلوم الاجتماعية على تبني نظرة للموضوعية تناظر تلك السائدة في العلوم الطبيعية. ونهضت هذه النظرة على تبني موقف محايد ومستقل تجاه الحقيقة الاجتماعية. فالحقيقة يفترض أن لها سمات موضوعية مستقلة عن ذات الباحث. وهذا هو الموقف الذي تبناه دوركايم الذي أكد على وحدة المنهج في العلوم جميعا، وعلى أن الظواهر الاجتماعية جزء لا يتجزأ من العالم الموضوعي للطبيعة، وأن للظواهر الاجتماعية قوانينها العامة التي يجب على الباحث أن يكتشفها بنفس أساليب منهج العلوم الطبيعية (٤٨). ولم يقبل فلاسفة الهرمنيوطيقا هذا الموقف. لقد حاول ديلثي ان يؤسس العلوم الروحية على اسس جديدة، ولذلك فانه سعى الى تحقيق مستوى من الموضوعية لهذه العلوم تناظر موضوعية العلوم الطبيعية ولكنها تختلف عنها. لقد اعتبر ديلثي أن الخبرة الداخلية يمكن أن تنعكس في تعبيرات خارجية ـ اللغة والرموز ـ يمكن أذا درست أن تقدم اساسا جديدا للموضوعية في العلوم الروحية. ولكن دعوة ديلثي لم تصل الى مداها، وكذلك صياغة فيبر التوفيقية التي حاول فيها أن يوفق بين موضوعية العلوم الطبيعية ومنهجية الفهم الذاتي في العلوم الاجتماعية.

لقد اتجهت فلسفة التأويل الى تبني المقولة التي تذهب الى أن منهج التأويل ـ بطبيعته ـ منهج ذاتي، وهو لا يستطيع أن يتخلى عن هذه الذاتية بالبحث عن موضوعية زائفة، واذا كان لمنهج التأويل أن يبحث عن «موضوعية» فان عليه أن يبحث عنها في «الذاتية» وليس في أي مكان آخر. ولقد بدأت هذه الفكرة من الفينومينولوجيا حيث اكد هوسرل على أن اكتساب المعرفة الاصيلة لا يتم الا بالاتجاه نحو الباطن في تأمل انعكاس خالص. (٤٩) وهكذا تساوت الحقيقة الخالصة بالحدس الخالص أو الاستبطان الخالص، وأصبح الجهد البحثي الموجه نحو فهم التجربة الذاتية هو جهد يوجه الى ذات الباحث بنفس القدر، واندمجت الذات في الموضوع اندماجا لا يفصم عراه. ولقد طورت فلسفة التأويل الوجودية هذه المقولة حيث جاء تأكيد هيدجر على أن المعرفة جزء مؤسس في الوجود، ولذلك فإن الباحث لا يستطيع أن يذهب الى الوجود دارسا بعقل أشبه بالصفحة البيضاء. ان الباحث يذهب الى دراسة الوجود بوجوده هو ـ بتاريخيته وافق فهمه ـ الذي يحدد رؤيته في فهم هذا الوجود. ان الموضوعية هنا ليست قدرة الباحث على أن يفصل ذاته عن الموضوع، بل هي قدرة

الباحث على أن يتمكن ـ بالفهم ـ من أن يصل الى جوهر الوجود الذي يعد بطبيعته وجودا غامضا غير قابل للفهم.[٥٠] فكلما حقق الدارس انصهارا بين وجوده وبين الآنية (أو الوجود المتعين) كلما وصل ـ بالفهم ـ الى كشف غموض هذا الوجود، وبالتالي كلما حقق درجة عالية من الموضوعية.

ولقد انعكست هذه الرؤية للموضوعية على قراءة النصوص، التي شكلت الشغل الشاغل لفلاسفة التأويل. فقد اصبحت قراءة النص عملية ذاتية بحتة، وأصبح الاندماج في النص وسيلة لتوالد المزيد من القراءات التي تشكل بدورها نصوصا جديدة. لم تعد القراءة شرحا على المتون بل أصبحت اعادة تصور للنص أو اعادة بناء له وفقا لرؤية القارىء وافق تأويله. في هذه الحالة يتحول النص ـ كما ذهب جادامر ـ الى خبرة مشتركة أو عمل جماعي حيث تساهم التأميلات الجديدة له الى اضافة ابعاد جديدة لم تكن موجودة من قبل. ومن ثم فإن القراءة هي شكل من أشكال التراكم المعرفي على النواة الأولى للنص.[٥١] وهكذا فإن تأويل النص يفتح المجال لتوالد آلاف من النصوص ـ الرؤى ـ التي يعكس كل منها تفاعلا بين معطيات وجود اجتماعي وآخر ذاتي. وتفترض هذه الرؤية أن الحقيقة لابد وأن تظهر جلية من بين كل هذا الكم الهائل من القراءات. فليس هناك معيار واحد للحكم على الأشياء، كما أن الحقيقة ليس لها وجه واحد. ان الحقيقة تستعصي على الفهم بمنظور واحد أو بمعيار واحد. ومن ثم فإن تعدد الرؤى ـ حتى وان كانت ذاتية ـ للموضوع الواحد حري بأن يكشف جوهر الحقيقة ويميط اللثام عن معدنها الأصيل. والباحث ـ أو القارىء ـ اذ يحاول أن يقوم بهذه المهمة فانه يقوم بها بذات منعكسة، أي أنه يقوم بها في ذاته أيضا. فبقدر فهمه للواقع فانه يفهم ذاته ويخلصها من أشكال الوعي الزائف وينطلق بها نحو آفاق أرحب، وبقدر فهمه لذاته يصبح قادرا على كشف الحقيقة.

والمحقق أن الحركة النقدية في علم الاجتماع ـ وعلوم اجتماعية اخرى ـ قد أفادت من هذه الصياغة الجديدة للموضوعية. لقد حاولت الاتجاهات النقدية في علم الاجتماع ـ بصياغاتها المبكرة والمعاصرة ـ أن تفيد من هذه الصياغة الجديدة للموضوعية. لقد حاولت الاتجاهات في هذه الحركة أن تشكك في أسس الموضوعية الدوركايمية التي

تؤسس صدق الحقيقة على طريقة قياسها وعلى الحيدة تجاهها. وفي مقابل ذلك أصبح صدق الحقيقة يرتبط بالولوج الى داخلها من خلال منهج الفهم. فقد تأسست معظم هذه الاتجاهات على قضية محورية مفادها أن الحياة الاجتماعية لها قانون داخلي يدركه الفاعلون فيها أو يتفقون عليه ضمنا. ومن ثم فان للفاعلين في مواقف الحياة رؤاهم الخاصة ونظرياتهم الخاصة. وما على الباحث في علم الاجتماع الا أن يخترق هذه النظريات من الداخل ويحاول أن ينظمها ليصنع نظريته الخاصة، التي لا تعدو أن تكون اعادة بناء لنظرية قائمة بالفعل، أو كما يقول أنصار الفينومينولوجيا الاجتماعية انها لا تعدو أن تكون «بناء من الدرجة الثانية» لأنها تتأسس على بناء نظري أول كامن في طبيعة الحياة ذاتها. (٥٢)

تفترض هذه النظرة ان الباحث جزء لا يتجزأ من موضوع بحثه، وأن المعرفة التي يستخلصها ليست إلا اعادة بناء لمعرفة سابقة. ليس هناك من معيار لصدق هذه المعرفة الا قدرة الباحث على أن يغوص في البناء المعرفي القائم ـ بناء المعاني والرموز ـ بما فيه البناء المعرفي للباحث نفسه. ولقد كتبت واحدة من علماء الانثروبولوجيا المعاصرين عن جوهر الصدق في المعرفة البحثية من هذا المنظور قائلة «إن المعرفة الانثروبولوجية وأسلوب البحث الذي تتوخاه لا ترتبطان بالاتساق المنطقي للنظرية ولا بسلامة المعطيات الواقعية، ولكنهما يرتبطان بتأسيس الذاتية الداخلية الانسانية كما يعرفها الموقف الثقافي. والبحث الانثروبولوجي ـ إذ يفعل ذلك ـ فانه لا ينقل الاستقصاء الفينومينولوجي ذا الابعاد المتعددة الى المجال الامبيريقي فحسب. بل أنه يسهم في تقديم نقد لاسلوب الباحث الانثروبولوجي وافتراضاته المسبقة وطرائقه في البحث. وبذلك فإن البحث الانثروبولوجي يثير الكثير من المسائل المتعلقة بابستومولوجيا الذات بنفس القدر الذي يثير به مسائل تتعلق بخبرة الآخرين» (٥٣). ان هذا الاسلوب وان بدا ذاتيا الا أنه لا يخلو من معيار للصدق. أنه معيار ذاتي ولكنه يؤدي الى أقصى درجات الموضوعية. فالبحث العلمي في الواقع يناظره بحث في قاع الذات لتحقق أقصى درجات صدقها.

ان هذا المعيار هو الذي أكده عالم الاجتماع الشهير الفن جولدنر عندما نادى

بامكانية قيام نوع من السوسيولوجيا المتأملة لـذاتها Refexive sociology يتجه فيها الباحث الى ذاته دارسا وناقدا قدر اتجاهه الى المجتمع دارسا ونـاقـدا (٥٤) . وتكون النتيجة هنا ذات «صافية» و«رائقة» قادرة على ان تلمس الظواهر دون حواجب الادوات المقننة، ان قل أو الظواهر تتداعى لها وتنكشف لها دونها حجب . وتتحول الموضوعية في هذه الحالة الى ضرب من الصدق الذاتي أو الأصالة الشخصيـة-personal authen ticity . (٥٥)وعودة الى الهرمنيوطيقـا ، فإن اعتماد هـذا المفهـوم للمـوضـوعيـة يجعل البحث الاجتماعي ـ مثل قراءة النص ـ عملية ذاتية ، يدرك الباحث فيها تحيزاته وقيمـه الخاصـة فيصبح قـادرا على أن يستقل عنهـا أو ينقـدهـا ويصححهـا أو يتمسك بها ، وبذلك يصبح اكثر موضوعيـة من شخص يـدعى الحيـدة سلفـا ولكنـه يـوجـه الأداة والنتائج الوجهة التي يبغي . ويتحول التراكم في العلم هنا الى ما يشبه القراءات المتعددة للنصوص التي تنتج افكارا مختلفة يكون هدفها في النهاية تجويد فهم الحقيقة من ناحيـة وتجويد الحياة الاجتماعية من ناحية . ان المعرفة الاجتماعية ليست معرفة تكتسب في حـد ذاتها ، ولكنها معرفة يجب أن تساعد الانسـان على تحقيق حيـاة أفضل واكثـر سعـادة ، وتلك مهمة أولى لعلوم المجتمع .

خـاتـمـة

حاولنا في هذه الـدراسـة ان نتعـرف على أهم اشكـاليـات التأويل والفهم في الجدل الهرمنيـوطيقي ، وان نكشف عن جـانب من الفـائدة التي يمكن أن تجنيهـا العلـوم الاجتماعية بعامة وعلم الاجتماع بخاصة من هذه الاشكاليـات . ولسنـا هنـا في معـرض الدفاع عن منهج الفهم والتأويل في مقابل المنهج الوضعي التجريبي . فمن الواضح أن المنهج التأويلي نفسه قد استوعب هذه الثنائيـة وتجاوزهـا . وحسبنـا هنـا أن نـؤكـد على قضيتين نستخلص منهما اثنتين أخـريين . الاولى : أن العـلاقـة بين العلـوم الاجتماعيـة والفلسفـة لا يمكن أن تنفصم ، والثـانيـة : ان الاشكـاليـات التي تثـار على المستـوى الفلسفي تفتح دائما أبوابا جـديـدة أمـام تطـويـر منهج ونظـريـة العلـوم الاجتماعيـة . ونستخلص من هـاتين القضيتين قضيتين نحسب أنهما يفتحـان أمـامنـا مجالا للبحث المستقبلي . الأولى : أن امكـانيـة تحقيق علم تجريبي تطـابق منـاهجـه منـاهج العلـوم الطبيعية قد تبدو امكانية صعبة التحقيق ، والثانية : ان العلوم الاجتماعية يمكن أن تظل لفترة طويلة في المستقبل أسيرة التعدد في المناهج والمداخل النظرية .

الهوامش

١ـ نهتم هنا على وجه خاص بعلوم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس، وأن كان الحديث يمس علوما أخرى بطبيعة الحال.

٢ـ توماس. س. كوهن (كون)، بنية الثورات العلمية، ترجمة علي نعمة، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٦، ص ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

٣ـ تجلى ذلك في مظاهر عديدة منها محاولة البحث في الوجودية عن عبثية الحياة الاجتماعية، والبحث في الفينومينولوجيا عن جهد الانسان في تشكيل «عالم الحياة» وبنائه. انظر حول علاقة العلوم الاجتماعية بالفلسفة الفصل الذي كتبه «انتوني جيدنز Giddens» بعنوان «العلوم الاجتماعية والفلسفة» والمنشور في مؤلفه التالي:

A. Giddens, Social Theory and Modern Sociology, Polity Press, Oxford, 1987. PP. 52 - 73.

4- A and J. Kuper, The Social Science Encyclopedia, Routledge and Kegan Paul, London, 1985, P. 354.

٥ـ انظر: بيار غريمال، الميثولوجيا اليونانية، ترجمة هنري زغيب، منشورات عويدات، باريس، ١٩٨٢، ص ص ٥٠ ـ ٥١.

٦ـ نصر ابوزيد، «الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص»، مجلة فصول، المجلد الاول، العدد الثالث، ابريل ١٩٨١، ص ١٤٨.

٧ـ لانجلو اوسينوبوس، «المدخل الى الدراسات التاريخية»، في عبدالرحمن بدوي (مترجم)، النقد التاريخي، الطبعة الرابعة، وكالة المطبوعات، الكويت، ص ١١٨.

8- A.Giddens , Studies in Social and Political Theory, Huctchinson of London, 1979, P. 176.

٩ـ حسن حنفي، «قراءة النص»، مجلة الف، العدد الثالث، ربيع ١٩٨٨م، ص ١٨.

١٠ـ المرجع السابق، ص ١٩.

١١ـ مثل هذا الموقف المفكر الالماني هبرماس، وطوره المفكر الفرنسي المعاصر جاك دريدا في نقده للمدرسة البنيوية بزعامة كلود ليفي شتراوس.

١٢ـ ربما يكون الاسهام الذي قدمه الفرنسي بول ريكور هو الذي شكل حلقة الوصل هذه.

١٣ـ انظر حول تفرقة دراوزن المرجع التالي:

علي سالم، «قراءة في نظرية المعرفة عند ماكس فيبر»، الفكر العربي المعاصر، مركز الانماء القومي، بيروت، العدد ٤١، ايلول ـ تشرين الأول، ١٩٨٦، وانظر حول الفرق بين التفسير والفهم:

A. Giddens, Profiles and Critiques in Social Theory, the Macmillan Press LTD., 1982. PP. 4 -5.

١٤ـ ولقد أدى الطريق الأول الى ظهور الفليولوجيا philology وأدى الثاني الى ظهور النصوص التشريعية Jurisdiction.

15- J. Bleicher, Contemporay Hemenentics, Routhedge Kegen paul, London, 1980. p 11.

16- J. Habermas, Knowledge and Human Interest, Heinmann, London, 1972, P. 141.

ولقد أطلق جون ستيوات ميل على هذه العلوم «العلوم الاخلاقية» وهي التي تسمى الآن «بالعلوم الانسانية» انظر:

هـ. ن. ريكمان، منهج جديد للدراسات الانسانية، ترجمة علي عبدالمعطي ومحمد علي محمد، مكتبة مكاوي، بيروت، ١٩٨٩، ص ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

17 - W. Delthy, "The Rise of Hermineutics", in : P. Conerton (ed.) Critical Sociology, Penguin Books, 1970. P. 105.

18 - J. Bleicher, OP. Cit. P. 19.

19 - A. Giddens. Studies in Social and Political Theory, Hutchinson of London, 1977. PP. 80 - 81.

وجدير بالذكر أن كلا من كونت وستيوارت ميل وكل أنصار الاتجاه الوضعي والامبريقي قد دافعوا عن وجهة النظر التي تنطلق من أن المنهج في العلم واحد سواء كان علما طبيعيا أم علما أخلاقيا (انسانيا).

٢٠ـ صدر هذا الكتاب بالالمانية عام ١٩٤٩، وترجم الى الانجليزية عام ١٩٦٢، انظر:

M. Heidegger, Being and Time, Harper and Row, New York, 1962.

٢١ـ انظر مقدمة ترجمة عبدالغفار مكاوي لكتاب مارتن هيدجر، نداء الحقيقة، الصادر عن دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٣٦.

٢٢ـ المراجع السابق، ص ٤٢.

23 - J. Bleicher, Op. Cit, P.99.

24 - M. Heidgger, Being and Time, Op.Cit, P. 20.

٢٥ـ وهذه هي الأطروحة الرئيسية في كتابه «الحقيقة والمنهج»، الصادر بالالمانية عام ١٩٦٠، وصدرت ترجمته الانجليزية عام ١٩٨١.

انظر:

Hans - George Cadamer, Truth and Method, Seabury Press, New York, 1981.

٢٦ـ المرجع السابق، ص ٢٣٠.

27 - A. Erguden, "The Truth and Method in Gadamer Hermeneutic Philosophy", Journal of Comparative Poetics (Alif), No. 8. Spring, 1988. P. 14.

28 - As quoted in : Cynthia Nelson, "An Anthropologist's Dilemma: Feild Work and Interpertive Inquiry", in : Ibid , P. 53.

٢٩ـ اعتمدنا في عرضنا لرأي هبرماس على مؤلفه التالي:

J. Habermas, Knowledge and Human Interests, Trans by J. Shapiro, Heinmann, London, 1972.

٣٠ـ انظر كتابه قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.

31 - W. Delthy, Op. Cit., P. 106.

٣٢ـ عبدالغفار مكاوي، مرجع سابق، ص ٣٤،

33 - Blieicher, Op. Cit., P. 117.

٣٤ـ وتلك هي الحجة التي يستند اليها بعض فلاسفة التأويل ومنهم جادامر في الحديث عن امكانية تحقيق معرفة عالمية . فاللغة كوسيط وجودي لها طابع عام وعالمي ، ولذلك فاننا اذا اعتبرنا أن الصفات العقلية للجنس البشري متشابهة ، فان اللغة تصبح أكثر الوسائط الوجودية تعبيرا عن عالمية الفكر وعالمية المعرفة .

٣٥ـ انظر كتابه الحقيقة والمنهج ، ص ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

٣٦ـ انظر تلخيصا لهذه المناظرة في المصدرين التاليين :

Bleicher, Op. Cit., PP. 152 - 158, and John O'Neill (ed.)

On Critical Theory, Heinmann, London, 1977 . PP. 164 - 183.

٣٧ـ تلك كانت اهم القضايا التي طرحها هبرماس في كتابه عن «المعرفة والمصلحة» السابق الاشارة اليه ، وانظر على وجه الخصوص الفصلين الحادي عشر والثاني عر حول الأفكار التي نطرحها هنا .

٣٨ـ انظر كتاب بلاشير ، ص ٢٥ ، حيث اقتبسنا النصين لديلثي .

39 - M. Weber, Econamy and Scciety, Bedminster Press, 1968, Vol. 1. p. 4 .

40 - Ibid, PP. 8 - 11.

٤١ـ لن يتسع المجال هنا لعرض هذا التيار وتشعباته ، ويمكن للقارىء الرجوع الى المصدر التالي لتتبع هذا التيار : احمد زايد ، علم الاجتماع بين النظريات الكلاسيكية والنقدية ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ ، الفصل العاشر .

42 - A. Giddens, Profiles and Critiques in Social Theory, The Macmillan Press, London, 1982. P. 11.

43 - J. Bleicher, Op. Cit., P. 231.

٤٤ـ حسن حنفي ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

45 - Kent Lindkvist, Advances in Content Analysis, Sage Publications, London, 1981. PP. 26 - 27.

46 - Pierre Maranda, "The Dialectic of Metaphor : An Anthropological Essay on Hermeneutics", in : S.R. Suleiman and I. Crosman (eds.) The Reader in the Text, Priceton Universtiy Press, 1980, P. 183.

47 - C . O. Scharg, Radical Reflection and The Origin of Human Sciences, Purdue University Press, Indiana, 1980, PP . 98 - 99.

٤٨ـ انظر حول وجهة نظر دوركايم في الموضوعية، صلاح قنصوة، الموضوعية في العلوم الاجتماعية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠١ .

٤٩ـ انظر حول افكار هوسرل في علاقتها بالموضوعية، المرجع السابق، ص ٢٣٦ .

٥٠ـ انظر كتابه الوجود والزمن، السابق الاشارة اليه، ص ١٥٣ .

٥١ـ حسن حنفي، مرجع سابق، ص ١١ .

٥٢ـ هذه مسلمة اساسية لكثير من الاتجاهات النظرية المعاصرة في علم الاجتماع . انظر حول هذه الاتجاهات : احمد زايد، مرجع سابق، ص ص ٤١١ ـ ٤٥٩ .

53- Cynthia Nelson, op. cit, p. 55.

٥٤ـ انظر حول مفهوم جولدنر، احمد زايد، مرجع سابق، ص ص ٣٣٧ .

٥٥ـ قدم هذا المفهوم الفن جولدنر في احدى دراساته حول «التحيز في علم الاجتماع»، انظر عرضا لهذه الدراسة في المرجع السابق، ص ص ٣١٩ ـ ٣٢٤ .

نباتات السبخة في دولة قطر
ظروفها البيئية، تصنيفها، وامكاناتها الاقتصادية

الدكتور بسام أحمد النصر

مدرس بقسم الجغرافيا

١ ـ مقدمـــة

لم تنل دراسة النباتات الملحية التي تنمو في تربة السبخة بشبه جزيرة قطر قدرا كافيا من البحث الأكاديمي للتعرف عليها واستكشاف ما قد تحتويه من امكانات كامنة يمكن الاستفادة منها في مثل هذه البيئة الجافة. ومن أهم الأعمال السابقة التي تضمنت بعض الدراسات عن هذه النباتات كتابي كمال الدين البتانوني صدر أولهما بالانجليزي في اطار مشروع بحثي عن مركز البحوث العلمية والتطبيقية بجامعة قطر (Batanouny, 1981) بينما صدر الثاني باللغة العربية ككتاب تعليمي عن كلية العلوم بالجامعة (كمال الدين البتانوني، ١٩٨٦) وكلاهما يعنى بالبيئة وحياة النباتات في دولة قطر. كما قامت المنظمة العربية للتنمية الزراعية باعداد دراسة لحصر وتصنيف النباتات البرية في شبه جزيرة قطر وذلك لحساب وزارة الصناعة والزراعة بدولة قطر (A.O.A.D., 1983) وفي مرحلة تالية للمشروع البحثي بمركز البحوث العلمية والتطبيقية بجامعة قطر، قام عبدالفتاح رزق (Rizk, 1986) باجراء دراسة تحليلية كيميائية للنباتات البرية التي سبق حصرها في المرحلة السابقة من المشروع وذلك بهدف التعرف على مكوناتها الأساسية وتركيبها الكيميائي العضوي. وقد نشرت مؤخرا دراسة عن تأثير بعض الظروف البيئية في انبات أنواع معينة من نبات الهرم القطري Zygophyllum gatarense Hadidi حيث توجد منه في قطر أنواع ملحية وأخرى غير ملحية (Ismail, 1990). كما أجريت دراسة حديثة أخرى عن الخصائص التركيبية المميزة لحبوب اللقاح الخاصة بهذا النبات القطري والتي تتواجد في بيئات متابنية (Ismail & El - Ghazaly, 1990).

ويختص البحث الحالي بدراسة علمية للنباتات الملحية (Halophytes) التي تنمو في تربة السبخة بشبه جزيرة قطر. ويتضمن أساسا ثلاثة جوانب رئيسية وهي:

(أ) تأثير الظروف البيئية على نمو وتوزيع الأنواع المختلفة من النباتات الملحية في تربة السبخة.

(ب) الخصائص النباتية وتركيب الأنواع الرئيسية لهذه النباتات.

(ج) الامكانات الاقتصادية لبعض النباتات الملحية ومدى الاستفادة منها في عدة مجالات.

ونظرا لتعدد الطرق المتبعة في تصنيف النباتات والاختلاف في وضع النباتات الملحية فسوف تقتصر هذه الدراسة على الأنواع النباتية التي تنمو وتكمل دورة حياتها في بيئة السبخات؟

ولتحقيق أهداف هذه الدراسة كان لابد من اجراء اعمال حقلية من خلال زيارات ميدانية في مواسم مختلفة على مدى ثلاث سنوات متتالية لتسجيل الملاحظات على الطبيعة وجمع العينات الممثلة لمختلف أنواع النباتات التي تم التعرف عليها بالاضافة الى العديد من المقابلات مع بعض الافراد البدو الذين يعيشون بمناطق الدراسة.

والمناطق التي قام الباحث بزيارتها واجراء اعمال حقلية بها هي:

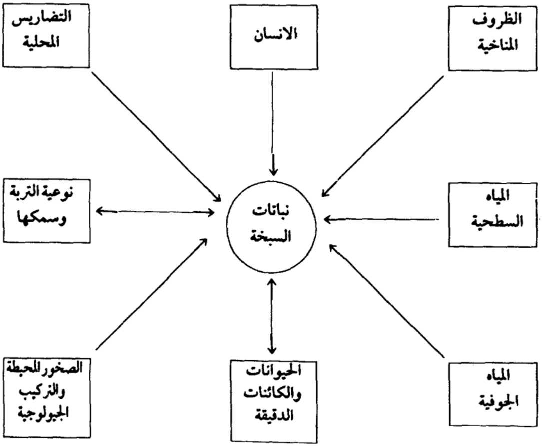
١) سباخ جوب السلامة، أبوسمره، وادي العريق، شاطىء خليج سلوى، الهملة، أم باب، دخان، الزبارة، فيشاخ، رأس عشيرج وذلك خلال فصلي الخريف والشتاء من عام ١٩٨٨م وكذلك زيارة هذه السباخ مرة أخرى خلال فصلي الربيع والصيف من عام ١٩٨٩م.

٢) سبخة سودانثيل مرة واحدة فقط في صيف عام ١٩٨٩م وقد تطلب ذلك الحصول على تصريح بالسماح للوصول لهذه المنطقة الحدودية.

٣) سباخ الوسيل، الخور والذخيرة والمنطقة المحصورة بينهما، الجساسية فويرط، الغارية، الوكرة، شمال الدوحة، امسعيد وخور العديد وذلك خلال فصلي الخريف والشتاء من عام ١٩٨٩ وكذلك زيارة هذه السباخ مرة أخرى خلال فصلي الربيع والصيف من عام ١٩٩٠م.

٢ـ الظروف البيئية المؤثرة في نمو نباتات السبخة

يؤثر في نمو نباتات السبخة ونوعها وكثافتها وتوزيعها مجموعة من العوامل البيئية الفيزيائية والحيوية والتي تتضافر مع بعضها في تشكيل صورة الغطاء النباتي. وتتضمن هذه العوامل: الظروف المناخية، التضاريس، التربة، المياه، الصخور المحيطة والتراكيب الجيولوجية، الانسان والكائنات الحية (شكل ١). وقد يكون لأحد هذه العوامل تأثيرا خاصا على نباتات السبخة اما بطريقة مباشرة أو بالمشاركة مع احد او مجموعة هذه العوامل. كما تؤثر نباتات السبخة بدورها على هذه العوامل.



شكل (١) العوامل البيئية التي تؤثر على الحياة النباتية في السبخات بشبه جزيرة قطر.

٢ـ١ الظروف المناخية

نظرا للموقع الجغرافي لشبه جزيرة قطر في نطاق الأقليم الحار للحزام الصحراوي في النصف الشمالي من الكرة الأرضية بين خطي عرض ٢٧ ـ ٣٤°، ١٠ ـ ٢٦° شمالا وبين خطي طول ٤٥ ـ ٥٠°، ٤٠ ـ ٥١° شرقاً، فان المناخ السائد بها يتميز بصفة عامة بأنه حار صحراوي وبقلة الأمطار وتذبذبها. ويمكن تقسيم السنة الى أربعة فصول رئيسية تمتاز بالصفات التالية (عيسى حسين الماجد، ١٩٨٣):

(أ) فصل الشتاء: وتسقط معظم الأمطار في هذا الفصل ويبلغ معدلها السنوي ٥٠ ـ ٧٠مم. الا أن هطول هذه الكميات القليلة من الأمطار له أثر كبير على نو نباتات السبخات الداخلية حيث تعمل مياه الأمطار هذه على تخفيف ملوحة الطبقة السطحية للتربة بالاضافة الى أن تزامن هطول هذه الأمطار مع انخفاض درجة حرارة الجو نسبيا في هذا الفصل يعطي نباتات السبخة زخما لنمو وتطور المجوع الخضري والجذري.

(ب) فصل الربيع: وتمتاز درجات حرارته بالاعتدال وسقوط كميات متفاوتة من الأمطار أحيانا. وتدخل النباتات خلال هذا الفصل في طور التزهير حيث أن عدد ساعات الضوء في أيام هذا الفصل تبدأ بالزيادة تدريجيا حتى يبلغ متوسطها في شهر أبريل ١٢ ساعة، ٤٦ دقيقة (ادارة الأرصاد الجوية، ١٩٨٩).

(ج) فصل الصيف: وتستمر فيه الزيادة التدريجية لعدد ساعات الضوء والتي تبلغ أقصاها خلال شهر يونيو بمتوسط حوالي ١٣ ساعة، ٤٢ دقيقة. ويمتاز هذا الفصل بارتفاع عام في درجات الحرارة التي تؤثر على عمليتي التنفس والبناء الضوئي بالنباتات، حيث أنه بارتفاع درجة الحرار تزداد سرعة تنفس النباتات وبالتالي يزداد استهلاك الكوبوهيدرات المتكونة وتقل فرصة استغلال النباتات لها في نمو وتطوير خلال الأنسجة المكونة لأعضاء النبات (بسام النصر، ١٩٨٨). كما أن لارتفاع درجة الحرارة تأثير اتلافي على معظم الأنزيمات النباتية خاصة عندما تتعدى ٤٠°م. كما يمتاز هدا الفصل أيضا بارتفاع نسبة التبخر مما يؤدي بدوره الى ترسيب الأملاح على سطح التربة ملحقة اضرارا بالنباتات ونظرا لقلة المياه مصحوبا بزيادة معدل التبخر فان النباتات تتعرض لما يسمى بالجفاف الطبيعي.

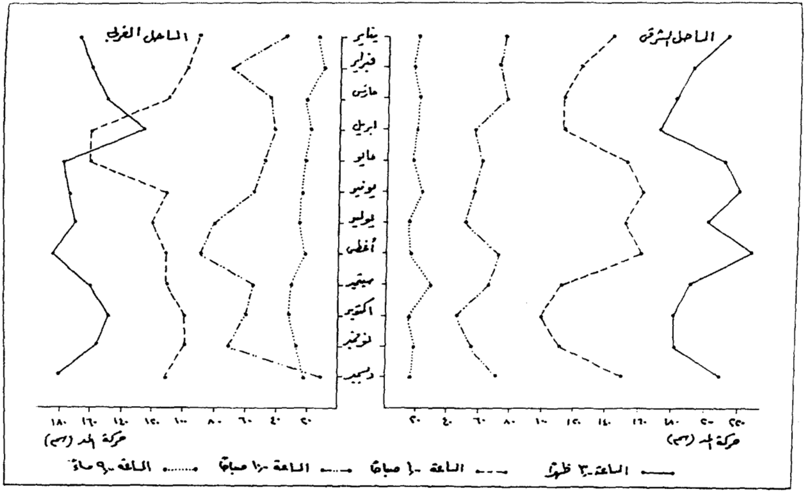
ويزيد معدل التبخر هبوب الرياح الجافة الحارة في هذا الفصل والتي تؤدي أيضا الى زيادة النتح في النبات. أما بالنسبة للرطوبة النسبية فان تأثيرها على نباتات السبخة سلبي حيث أنها تنخفض نسبيا في فصل الصيف وهذا يعني زيادة قدرة الهواء على حمل بخار الماء من الأجسام التي يمر عليها سواء كانت نباتات (من النتح) أو سطح التربة (عن طريق التبخر)(Batanouny, 1981)

(د) فصل الخريف: وتبدأ درجات الحرارة في هذا الفصل بالانخفاض ويرجع ذلك الى هبوب الرياح الشمالية. ويمثل هذا الفصل بالنسبة لنباتات السبخة مرحلة انتقال موسمي مع التغير المناخي بين فصلي الصيف والشتاء.

وقد وجد أن النباتات التي تنمو في بعض السبخات الساحلية تتأثر الى حد ما بحركة المد والجزر حول سواحل قطر التي تتميز بعدم انتظامها، حيث أن التيارات المائية وقت المد غالبا ما تكون أقوى منها في وقت الجزر. وتشير سجلات الأرصاد البحرية الى أن ارتفاع مياه البحر قد يصل الى اكثر من مترين خاصة على الساحل الشرقي بينما ينخفض أدنى منسوب للمياه الى أقل من ٢٠ سم في بعض المواقع على الساحل الغربي (شكل ٢) وفي أثناء فترات المد العالي فان مياه البحر تغطي مساحات من الساحل تختلف حسب ارتفاعها عن متوسط منسوب سطح البحر، وهذا يؤدي الى غمر بعض السبخات بما تنمو فيها من نباتات بصورة مؤقتة حيث تحل مياه الغمر محل الهواء الموجود في المسافات البينية بجيبات التربة. وتحت هذه الظروف فان بعض نباتات السبخة مثل القرم أو الشورة Avicennia marina تتغلب على ذلك بتكوين جذور تنفسية تنتشر حولها لتمتص الاكسجين اللازم لها من طبقة الهواء الملامسة لسطح الماء. كما وجد أن لعملية الغمر هذه أهمية خاصة في حياة النباتات الملحية حيث لا تساعد على تراكم الأملاح الناتجة عن عملية التبخر، وتتميز السبخات الساحلية بتأثرها بنسيم البر والبحر حيث أن قربها من الساحل يساعد على ترطيب الجو وتقليل درجة حرارة الهواء حولها، فقد وجد أن درجة الحرارة تنخفض بواقع ٥ , ٢°م مقارنة بمنطقة تبعد حوالي ١٠ كم عن الساحل (Eccleston etal, 1981). ونتيجة لذلك فان نباتات معظم السبخات الساحلية غالبا ما تكون اكثر كثافة وخضرة وأكبر حجما مما هي عليه في السبخات الداخلية.

٢-٢-التضاريس:

يتكون سطح شبه جزيرة قطر من سهل تحاتي منبسط بوجه عام باستثناء بعض الهضاب والتلال المرتفعة نسبيا في الغرب والجنوب الغربي الا أن هذا الارتفاع لا يزيد عن ١٠٣م عن منسوب سطح البحر، وبذلك فليس للارتفاع تأثير يذكر على تنوع النباتات الطبيعية في قطر بصفة عامة. ويتميز ساحل قطر بأنه كثير التعاريج وتنتشر به الرؤوس البارزة والخلجان والدوحات والسهل الساحلي منخفض بصفة عامة حيث تتواجد المياه البحرية المالحة على مقربة من الشواطىء مما ينتج عنه انتشار الملاحات الطبيعية ورواسب السبخة في اماكن عديدة على امتداد الساحل القطري (شكل ٣). وتتكون أرض شبه جزيرة قطر من أحجار جيرية تنتمي معظمها الى تكوين الدمام العلوي التابع لعصر الايوسين الأوسط، ويغطي الطبقات الصخرية فتات حجري من أحجام مختلفة تتراوح بين الرمال الناعمة والحصاة الرفيعة الى الكتل الصخرية الكبيرة. وتتدرج تضاريس شبه الجزيرة القطرية من السهل الساحلي المنخفض في الشرق ليصل الى هضاب الحمادا في الوسط ثم ترتفع الى مجموعة التلال الغربية والجنوبية الغربية التي تكون سلسلة جبال دخان والطوار والتي تتضمن أعلى نقطة ارتفاع (طوير الحمير). وتمتد هذه السلسلة الى مسافة حوالي ٥٦ كيلومترا بمحاذاة شاطىء خليج سلوى في غربي البلاد. وتعمل هذه السلسلة الجبلية على منع وصول تأثير التيارات البحرية وحركات المد والجزر الى سبخة دخان التي تقع شرقي هذه الجبال، وهذا يؤثر على نوعية وكثافة النباتات السائدة في هذه السبخة. وفي جنوب وسط البلاد تنخفض التضاريس الى ما دون مستوى سطح البحر في منطقة سودانثيل التي تحتلها حاليا سبخة داخلية كبيرة. اما المنطقة الجنوبية الشرقية التي توجد فيها أكبر السبخات الساحلية والتي تمد من أمسيعيد الى خور العديد فان جزءا كبيرا من سطحها تكسوه الرمال السافية مكونة تجمعات كبيرة من الكثبان الرملية التي يصل ارتفاع بعضها الى اكثر من ٤٠ مترا فوق مستوى سطح البحر والتي تتكون بتأثير الرياح الشمالية الغربية السائدة (رياح الشمال). وسوف نلاحظ فيما بعد أن لنباتات السبخة أثر كبير في تحديد شكل سطح السبخات وذلك عند دراستنا لظاهرة تكون الأكمات.



شكل (٢) تغير المتوسط الشهري لحركة المد حول شبه جزيرة قطر

المصدر : إدارة الأرصاد الجوية - دولة قطر - ١٩٨٦م

٢ـ٣ ـ تربة السبخة:

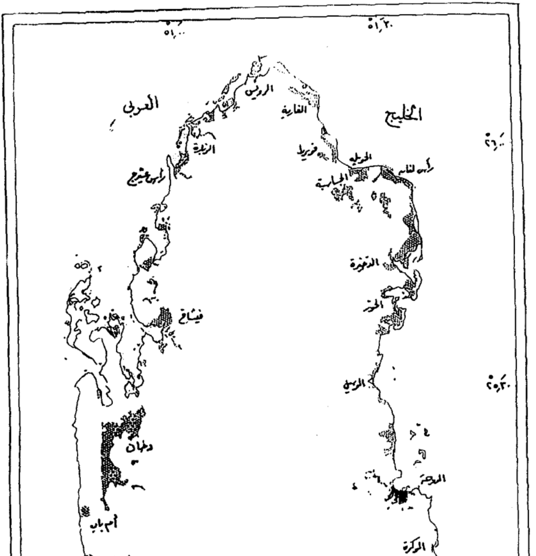
تطلق كلمة سبخة على الأراضي أو المسطحات الساحلية الملحية أو رواسب البحيرات التي تتكون من الغرين والرمال الكلسية دقيقة الحبيبات المختلطة بالأملاح التبخرية. وتنتشر رواسب السبخة في أنحاء متفرقة من شبه جزيرة قطر حيث تغطي مساحة تبلغ ٧٠١ كيلومتر مربع (جدول رقم ١، شكل ٣). وتقسم عادة الى نوعين رئيسيين وهما:

جدول (١) مناطق تواجد رواسب السبخة الرئيسية في
شبه جزيرة قطر

رقم	اسم المنطقة	المساحة (كم ٢)	النسبة المئوية
١	سبخة امسيعيد ـ خور العديد	٣٧٠	٥٢,٨٨
٢	سبخة دخان وأم باب	٩٠	١٢,٨٤
٣	سبخة الخور ـ الذخيرة	٧٠	٩,٩٩
٤	سبخة سودانثيل	٤٠	٥,٧١
٥	سبخة أبوسمرة	٥٣	٧,٥٦
٦	سبخة الغارية ـ فويرط	٢٨	٣,٩٩
٧	سبخة دوحة الفيشاخ	٢٠	٢,٨٥
٨	سبخة شمال الدوحة	١٧	٢,٤٣
٩	سبخة الرويس	١٣	١,٨٥
	المساحة الرويس	٧٠١	٪١٠٠,٠٠

المصادر: ١ ـ حسبت من خارطة دولة قطر (مقياس رسم ١ : ٢٠٠,٠٠٠).

٢ ـ محمد عبدالله دياب (١٩٧٩).



المصدر : دولة قطر - وزارة الصناعة والزراعة ١٩٨٣ م

شكل (٣) التوزيع الجغرافي لرواسب السبخات في قطر

(أ) **سبخات ساحلية**: وتنتشر على سواحل قطر خاصة على الساحل الشرقي حيث تغطي مساحات شاسعة نسبيا جنوب أمسيعيد حتى خور العديد. ورغم أن معظم هذه السبخات الساحلية توجد عموما أعلى من مستوى سطح البحر حاليا، الا أنها تمثل تقدم البحر وغمره للمناطق الساحلية في عصر الهولوسين الحديث.

(ب) **سبخات داخلية**: بعيدة عن الساحل وتقع احداها في الجنوب (سودانثيل) بينما تقع الأخرى الى الشرق من مدينة دخان وهي تمثل أكبر السبخات الداخلية ويصل منسوب أعمق نقطة فيها الى حوالي ستة أمتار تحت متوسط منسوب سطح البحر الحالي.

وتنتج رواسب السبخة من الترسيب عن طريق أذرع بحرية تمتد من الخليج الى شبه الجزيرة أو عن طريق تسرب المياه الجوفية من بعض الطبقات الحاملة للمياه قرب السطح، وتحت الظروف المناخية الحارة التي تسود قطر فان المواد المترسبة تصبح غنية ببعض الأملاح المتبلورة مثل الهاليت (ملح الطعام) والجبس والانهيدريت وذلك نتيجة لتعرض المياه المالحة للتبخر المستمر. وتعمل هذه الأملاح على تماسك سطح المواد المترسبة معها وبالتالي تقلل تعرضها للتعرية بفعل الرياح والعوامل السطحية الأخرى.

وعادة ما تتجمع كميات كبيرة من الأملاح على سطح رواسب السبخة مكونة قشرة ملحية صلبة. ولنباتات السبخة تأثيرا على تحديد نوعية التربة المنقولة الى السباخ وكذلك سمك هذه التربة وخصوصا في السباخ ذات الكثافة النباتية العالية حيث تعمل هذه النباتات على تقليل سرعة الرياح وأرسابها لما قد تحمله من حبيبات التربة.

وقد قسمت التربة(١) التي تغطي شبه جزيرة قطر الى أربع مجاميع (Soil Associa- tions) تتضمن ثمانية أنساق (Soil Series) (جدول رقم ٢). وقد أوضحت هذه الدراسة أن أراضي المجموعة (ب) عبارة عن أراضي شديدة الملوحة تتكون من رواسب السبخة التي تغطي مساحة اجمالية تمثل ٦,٠٦٪ من المساحة الكلية لشبه جزيرة قطر. وتوجد هذه الأراضي عادة ملاصقة أو بالقرب من الساحل، وتتميز بأنها أراضي ملحية جيرية ثقيلة أو خفيفة ومياهها الأرضية شديدة الملوحة، كما أن بعض هذه الأراضي

تتميز بوجود قشرة سطحية من الأملاح، وتنمو في بعضها أنواع من الحشائش والنباتات الطبيعية المقاومة للأملاح (Halophytes). وتنتشر على سطح بعض هذه السبخات أنواع مختلفة من القواقع والأصداف البحرية الحديثة. وقد وجد أن قطاع التربة في رواسب السبخات يختلف من منطقة الى اخرى وذلك من حيث سمك طبقات المقطع واللون وحجم الحبيبات ونوع الأملاح السائدة وكلها مجتمعة تؤثر على نوعية النباتات السائدة. وبناء على ذلك فقد تم تقسيم هذه المجموعة (Association)من تربة السبخات الى نسقين (Series) كالتالي:

النسق (ب ـ ١): وهي أراضي ملحية وتربتها ذات قوام طمي طيني جيري الى طمي طيني رملي جيري ويتراوح عمق قطاعها بين ٣٠ سم، ١٥٠٠ سم فوق طبقة من الحجر الجيري، وتوجد بينها طبقات رقيقة من كسر الحجر الجيري والتربة الرمادية وبعض التجمعات الجبسية قريبا من السطح. وعادة ما تتواجد على سطحها قشرة جيرية صلبة تؤثر سلبيا على نمو النباتات بها حيث أنها تعيق اختراق البادرات الصغيرة (بسام النصر ١٩٨٦). وقد يحدث في فصل الصيف أن تتشقق هذه القشرة الصلبة مكونة اشكالا متعددة الأضلاع (polygons) غير منتظمة الشكل. ويشغل هذا النسق من تربة السبخة مساحة تمثل ٥٨, ٠٪ فقط من المساحة الكلية لأراضي شبه جزيرة قطر.

جدول رقم (٢) مساحات ونسبة أنواع التربة في دولة قطر

المجموعـــة	النسق	المساحة (هكتار)	النسبة المئوية
(أ) تربة الروضات	أ ـ ١	٢٣١٠٠	٢,٠٥
	أ ـ ٢	٤٥٢٠	٠,٣٩
(ب) تربة ملحية (السبخات)	ب ـ ١	٦٥١٧	٠,٥٨
	ب ـ ٢	٦٣٦٠٧	٥,٤٨
(ج) تربة حجرية	ج ـ ١	٩٥٨٠٧٢	٨٢,٤٤
	ج ـ ٢	٦٢٩٢٥	٥,٤٢
(د) تربة رملية	د ـ ١	٤٧٧٥	٠,٤٢
	د ـ ٢	٣١٣٩٢	٢,٧٠
مناطق مزروعة		٦٠٥٧	٠,٥٢
اجمالي		١١٦٠٩٦٥	١٠٠,٠٠

المصدر محمد حسين مذكور، سعودي مصطفى الشيخ (١٩٧٣).

النسق (ب ـ ٢): وهي أراضي ملحية أيضا لكن تـربتهـا ذات قـوام رملي جيري أو رملي طمي جيري ولا توجد تحتها تجمعات جبسية، ونتيجة لـذلك فـان سرعـة اختراق المياه لها عالية نسبيا وبالتالي فان هطول الأمطار في مناطق هذه السبخات يكون فعالا في تخفيف ملوحتها. وتبلغ المساحة التي تغطيها تربة هذا النسق ٥,٤٨٪ من مساحة شبه جزيرة قطر.

وبصورة عامة فان سمك قطاع التربة في رواسب السبخة له أثر كبير على نوع وتوزيع وكثافة النباتات الملحية التي تنمو فيها. وتفتقر هذه التربة الى المواد العضوية، كما أنها تحتوي على نسبة عالية من الأملاح وتزداد نسبة الملوحة نتيجة للتبخر المستمر بفعل الحرارة العالية وتحت تأثير الخاصة الشعرية (capilarity) مما يتسبب في زيادة تركيز الأملاح في طبقات التربة السطحية. وتبعا لقوام التربة فان حركة المياه المالحة بالخاصة الشعرية في النسق ب ـ ١ تكون عادة أسرع من حركتها في النسق ب ـ ٢، وبالتالي فان تركيز الأملاح في النسق الأول يكون اكثر منه في النسق الثاني.

أما بالنسبة للحياة النباتية في هذه التربة فانه نظرا لارتفاع نسبة الملوحة بها وقرب مستوى المياه الأرضية منها فان النباتات التي تنمو بها قليلة وتكون من الأنواع المقاومة للأملاح نظرا لتأثيرها على معدل امتصاص الماء بواسطة النباتات، فكلما زاد تركيز الأملاح بالتربة كلما صعب امتصاص الماء وهذا يؤدي الى ما يعرف باسم الجفاف الفسيولوجي للنبات.

٢ـ٤ المـيـاه:

تحتوي تربة السبخات على مياه أرضية يتراوح عمقها بين ٢٠ سم وحوالي مترين من سطح الأرض، ويتوقف ذلك على سمك طبقة التربة ومسامية الطبقة الحاملة للمياه وكذلك على مصدر المياه. وتتصف مياه السبخة عموما بأنها شديدة الملوحة حيث تتعدى في بعض الأحيان ٣٠٠ ألف جزء في المليون فعلى سبيل المثال وصلت في بعض المواقع بسبخة دخان الى ٣٠٦,٦٩٠ جزء في المليون ـ اذا ما قورنت بمياه الخليج العربي التي تبلغ نسبة ملوحتها ٤٠,٩٩٨ جزء في المليون بينما ملوحة المياه الجوفية بالمنطقة المحيطة ٣٥,٣٤٥ جزء في المليون. أما مصدر مياه السبخة فيشمل:

(أ) المياه الجوفية الموجودة في بعض الطبقات الحاملة لها تحت سطح شبه الجزيرة القطرية.

(ب) مياه البحر التي تتسرب الى السبخات عبر بعض الشقوق والفواصل في المناطق الساحلية، كما أنها تتداخل خلال فترات المد العالي. وتعتبر مياه البحر مصدرا مستديما خاصة للسبخات الساحلية المنخفضة.

(ج) مياه الأمطار والجريان السطحي التي تصلها عن طريق السيول والمجاري السطحية.

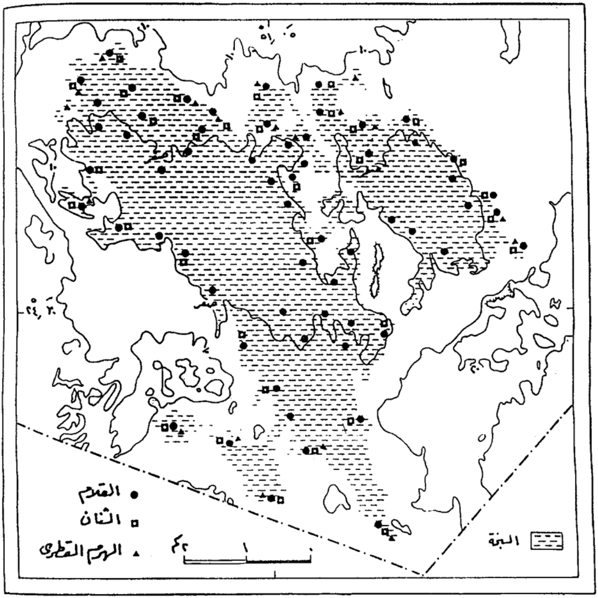
(د) الرطوبة الجوية والضباب والندى والتي تمتصها بعض الأملاح الموجودة في السبخة مثل كلوريد الصوديوم وكبريتات وكربونات الكالسيوم وهي أملاح متميئة لها القدرة على امتصاص بخار الماء من الهواء المحيط بها ورفع نسبة الرطوبة بالتربة.

ومما لا شك فيه أن لكل من عمق هذه المياه الأرضية برواسب السبخة ودرجة ملوحتها أثر كبير على نوعية النباتات التي تنمو في هذه الظروف وكذلك كثافتها ونمط توزيعها. وقد لاحظ الباحث خلال العمل الحقلي بسبخة سودانثيل انه تنمو في اطرافها ثلاثة أنواع من النباتات الملحية وهي القلام (Arthrocnumem glaucum) وشنان (Seiditzia rosmarinus) والهرم القطري (Zygophyllum quatarense) ثم بدأت كثافة النوع الثالث (الهرم القطري) تقل تدريجيا الى الداخل من أطراف رواسب السبخة، ومع الاقتراب من مركز السبخة اختفى النوع الثاني (شنان) أيضا ولم يتواجد الا النوع الأول فقط (القلام) الذي اختفى هو الآخر من وسط المنخفض التي تحتله هذه السبخة (شكل ٤). وقد وجد الباحث ان هذه النطاقات الواضحة في توزيع الأنواع السائدة للنباتات الملحية في سبخة سودانثيل مرتبطة ارتباطا وثيقا بعمق المياه الأرضية بتربة هذه السبخة ودرجة ملوحتها.

٢ـ٥ الكائنات الحية :

تلعب الكائنات الحية دورا مؤثرا في الحياة النباتية بتربة السبخة، وتشمل الكائنات الحية كلا من الانسان والحيوان والنباتات الأخرى وكذلك الحشرات وبعض الطحالب. فالانسان ـ مثلا ـ يقوم بقطع بعض النباتات خاصة التي تكون اشجارا ذات سيقان وفروع كبيرة مثل المانجروف وذلك لاستعمالها كوقود أو كمصدر للأخشاب، ومن ناحية اخرى تتغذى الجمال والابل على أنواع مختلفة من النباتات التي تنمو في تربة السبخة. وبذلك فان دور الانسان والحيوان سلبي على نمو وانتشار نباتات السبخة وقد لوحظ ذلك بوضوح في كل من سبخة الذخيرة التي استقطع منها سكان قطر القدامى كثيرا من أشجار القرم أو الشورة (Avicennia marina)

وسبخة دخان الداخلية التي يرعى فيها البدو ابلهم وماشيتهم في وقت ازدهار النباتات بها. ومن ناحية أخرى فان الجمال والابل تقوم بدور آخر ذو اهمية بالغة من خلال نقل بذور نباتات السبخة عند تحركها من منطقة الى أخرى بواسطة أقدامها العريضة أو عن طريق برازها، كما وجد ايضا ان بعض النباتات الملحية تنمو متطفلة على أحد النباتات الأخرى وبذلك فان وجود بعض نباتات السبخة يرتبط بوجود عائلها النباتي في المنطقة، مثال ذلك تطفل كل من نباتي الذنون والطرثوث على نباتات القلام والثيلوث والقطف في سبخة أمسيعيد وبعض السبخات الساحلية بشبه جزيرة قطر. أما بالنسبة للحشرات والآفات المتطفلة فلم يلاحظ الباحث تأثيرا واضحا لها على النباتات التي تنمو في رواسب السبخة بشبه جزيرة قطر، وقد يرجع ذلك الى قسوة الظروف البيئية من حرارة مرتفعة وملوحة عالية. بالاضافة الى هذا فانه تنمو في بعض ا مناطق السبخة خاصة السبخات الساحلية التي تغمرها المياه البحرية بعض أنواع من الطحالب الخضراء المزقة المنتشرة في مياه الخليج العربي أمام الشواطىء القطري وأهم الأنواع التي تم التعرف عليها. .Trichodesmium sp. anabaena sp (El-Samra, etal, 1988) وتتميز هذه الطحالب بأنها تقوم بتثبيت النيتروجين في المياه الموجودة حولها، وعندما تنحسر عنها المياه أو ينخفض مستواها تحت سطح التربة فان هذه الطحالب تموت وتتحول الى مواد عضوية سوداء اللون. وقد لاحظ الباحث ان وجود طبقة من هذه الطحالب ممتدة على سطح سبخة الفيشاخ، كما تم تسجيل عدة راقات سوداء من بعض الطحالب المدفونة بين طبقات الطين والغرين والرمال الناعمة في بعض قطاعات التربة بكل من السبخات الساحلية والداخلية مثل أمسيعيد والخور ودخان.



شكل (٤) تأثير الملوحة على نوع النباتات وتوزيعها .

المصدر : الدراسات الميدانية

٣ـ التصنيف والوصف النباتي

لقد كانت محصلة تأثير العوامل البيئية السائدة في سبخات شبه جزيرة قطر نمو أنواع خاصة من النباتات الملحية المتباينة في صفاتها النباتية والفسيولوجية والمتباينة كذلك في كثافتها ونظام توزيعها . والجدول رقم (٣) يبين الأسماء اللاتينية لانواع هذه النباتات وفصائلها كما يبين اسمائها باللغة العربية كما هي معروفة محليا .

ولقد امكن في هذا البحث على أثر الزيارات والاعمال الحقلية من حصر هذه الانواع النباتية الملحية حيث وصل عددها الى ثلاثين نوعا نسبت لثلاثة عشر فصيلة نباتية (انظر جدول رقم ٣) وذلك خلافا لما ورد في دراسة (كمال الدين البتانوني ١٩٨٦م صفحة ٣٠٤) بأن الفلورا القطرية تضم سبعة وعشرون نوعا من النباتات الملحية تنتمي لعشر فصائل نباتية ، وهذا يعني ان هذه الدراسة اضافت ثلاثة أنواع نباتية ملحية . والجدول رقم (٤) يبين هذه الثلاثة أنواع النباتية والفصائل النباتية التي تنتمي اليها والمواقع الجغرافية التي شوهدت فيها .

جدول رقم (٤)

نوع النبات	الفصيلة	مكان يشاهد النبات
Cistanche phallypaea دنون	Orobanchaceae الهالوكية	سبخة امسيعيد
Zygophyllum qatarense هرم	Zygophyllaceae الرطرطية	اطراف سبخة دخان
Launaea indicaulis حوه	Compositeae المركبة	شواطىء الوكرة

ويختص هذا الجزء من البحث بدراسة الخصائص النباتية لرواسب السبخة وكذلك تصنيف هذه النباتات حيث أن دراسة مدى امكانية الاستفادة منها سيكون يسيرا بتوضيح هذا الوصف النباتي بشيء من التفصيل وتشكل دراستي (كمال الدين البتانوني

١٩٨٦ (Batanouny, 1981)، وكـذلك دراسـة 1983 ,AODA) والصور الفوتوغرافية(٣). الركائز الأساسية لهذا الوصف والتصنيف النباتي.

٣ـ١ الفصيلة النجيلية Gramineae وتضم هذه الفصيلة الأنواع الآتية:

آ ـ العكرش Aeluropus Lagopoides ويتصف هذا النوع بأنه نبـات نجيلي ويكون شجيرات يصل ارتفاعها الى حوالي ٥٠ سم ذات جذور عرضية وسيقـان رفيعة ذات أوراق طويلة عليها شعيرات أو ابريـة لا يتعـدى طـولها عن ٤ سم. ويزهر هذا النبات خلال الفترة من شهر مارس الى مايو (انظر صورة رقم ١).

ب ـ الهالـــوبيرم Halopyrum mucronatum نبـات نجيلي معمـر يكـون شجيرات يتراوح ارتفاعها بين ٥٠ ـ ١٠٠ سم وتفـرعـاتـه مستقيمـة ذات الـوان خضراء الى وردية وأوراقه رفيعة خطية مقعرة ويزهر هـذا النبـات في شهـر ابـريل مكونا ازهارا صغيرة.

ج ـ الصخام Sporobolus arabicus نبات نجيلي حولي يبلغ ارتفاعـه حـوالي ٤٠ ـ ٥٠ سم حيث تمتد فروعها مفترشة سطح الأرض، وأوراقها طويلـة حـادة الأطراف، ويزهر في شهر ابريل.

د ـ الصخام Sporobolus arabicus نبات نجيلي معمر يفترش على الأرض ولا يتعدى ارتفاعه ٤٠ سم وهو كثير التفرع وأوراقه خطية ومتعرجة ويزهـر في شهـر ابريل.

٣ـ ٢ الفصيلة الرمرامية : Chenopodiaceae وتضم هذه الفصيلة الأنواع الآتية:

أ ـ الشعيران Anabasis setifera ويسمى هذا النبات كذلك بحمض الأرنب، وهو نبات معمر يكـون شجيرات يتراوح ارتفـاعهـا بين ٣٠ ـ ٦٠سم ولـه فـروع مجوفة واوراق، مستطيلة لونها محمر وله قشرة عصيرية وفي موسم الجفـاف ينفض النبات هذه القشرة ويحل محلها طبقات من الخلايا الفلينيـة وذلك للتخلص من الاملاح الموجودة في خلاياه، ويزهر هذا النبات بين شهري نوفمبر ويناير.

ب ـ اجروفلم Agriophyllum minus عشب شوكي معمر، ويبلغ ارتفاعـه

حوالي ٢٠ ـ ٣٠ سم مكونا فروعا خضراء اللون مخطط طوليا وتنتشر عليها الاوراق بطريقة تبادلية وعادة ما تكون الأوراق السفلى أكبر من الأوراق العليا في الاطراف التي يكون اصغرها على هيئة أشواك ابرية الاطراف، ويزهر النبات في شهر ابريل.

ج ـ القلام Arthrocnemum glaucum ويسمى كذلك بالعجرم ويكون هذا النبات شجيرات قائمة ترتفع عن سطح الأرض ١ ـ ١,٥ مترا ذات فروع خضراء كثيفة، وهو من النباتات العصيرية التي تفصل قشرتها عن الساق لتكون بدلا منها طبقا فلينية للتخلص من الأملاح الزائدة في عصرها الخلوي. ويزهر هذا النبات خلال الفترة بين مارس ومايو حيث يكون ازهارا كثيفة تنتهي باشواك (انظر صورة رقم ٢).

د ـ الرغل Atriplex leucoclada وهو من النباتات المعمرة التي تقاوم الجفاف والملوحة، ويكون شجيرات ذات سيقان خشبية ملساء لونها أبيض يبلغ طولها في بعض الأحيان حوالي متر ولكن نتيجة لرعي الحيوانات لها فانها غالبا ما لا تزيد عن ٥٠ سم، وتنتشر الأوراق بطريقة معاكسة على الفروع وهي اوراق رقيقة خضراء رمادية أو خضراء باهتة وشكلها بيضاوي حادة الأطراف او مثلثة وحوافها متعرجة أو مسننة. ويزهر هذا النبات خلال الفترة من شهر مارس ـ مايو مكونا ازهارا بيضاء مخضرة ذات نهايات شوكية. (انظر صورة رقم ٣).

هـ ـ الثيلوث Halocenmum strobilaceum يكون هذا النبات شجيرات قصيرة يتراوح ارتفاعها ٣٠ ـ ٦٠ سم وينمو بكثافة عالية مكونا فروعا كثيرة توجد عليها بعض العقد وساقة عصيري، ويزهر هذا النبات في شهري مارس وأبريل مكونا ازهارا صغيرة صفراء اللون.

و ـ الخريز Halopeplis perfoliata وهو من النباتات العصيرية المعمرة التي تكون شجيرات قصيرة يتراوح طولها بين ٢٠ ـ ٤٠ سم وفروعه السفلى خشبية، وتتحور أوراقه على هيئة خرز مستدير تنتشر حول الساق بالتبادل كالعقد وتتميز بألوان خضراء ناصعة أو خضراء محمرة. ويزهر هذا النبات في شهر مارس مكونا

ازهارا صغيرة كثيفة في تجمعات ثلاثية (انظر صورة رقم ٤).

ز ـ الرمث Hammad elegans وهو من نباتات الحمض العصيرية المعمرة ويكون شجيرات صغيرة يتراوح ارتفاعها ٤٠ ـ ٩٠ سم، وهي عديمة الأوراق وتكون سيقان رفيعة مقسمة الى عقد وسلاميات. ويكون هذا النبات حوله اكمات رملية يصل ارتفاعها اكثر من ٥٠ سم. يزهر هذا النبات في شهر ابريل ومايو.

ح ـ الجلهان Schanginia aegyptiaca وهو من نباتات الحمض العصيرية وهو نبات عشبي وأوراقه سميكة طولها ٢ سم، ويزهر فيها بين أواخر الربيع وأوائل الصيف.

ط ـ الشنان Seidlitzia romarinus من نباتات الحمض العصيرية ويكون شجيرات معمرة كثيرة التفرع يتراوح ارتفاعها بين ٦٠ ـ ٩٠ سم، الاوراق عصيرية اسطوانية الشكل ذات اطراف مدببة، يزهر هذا النبات في شهري مارس وأبريل. (انظر صورة رقم٥).

ي ـ السويد Suaed vermiculata وهو من نباتات الحمض العصيرية ويكون شجيرات قصيرة التفرع لا يتعدى ارتفاعها مترا. وتنكمش اوراق هذا النبات القديمة ويسود لونها وتتساقط على الأرض حيث يتخلص النبات بذلك من الأملاح الزائدة. ويكون هذا النبات حوله أكمات مرتفعة من التربة الناعمة، ويزهر هذا النبات في الفترة بين شهري فبراير وأبريل.

ك ـ الاخريط Salsola baryosoma من نباتات الحمض العصيرية، يكون شجيرات يبلغ ارتفاعها ٤٠ ـ ٥٠سم، والأراق عصيرية خضراء تنمو بكثافة عالية وبطريقة متبادلة على الفروع، ويزهر هذا النبات في شهر ابريل.

ل ـ الفريط Salsola cyclophla من الأعشاب العصيرية التي تفترش على الأرض ولا يتعدى ارتفاعها ١٠ سم ذات اوراق صغيرة. ويزهر هذا النبات في شهر مارس.

م ـ السالسولا Salsola soda وهو نبات حولي ساقه شبه اسطوانية ويتراوح طول اوراقه من ١ ـ ٦ سم، يزهر هذا النبات في شهري مارس وأبريل.

٣ـ٣ الفصيلة القرمية: Avicenniaceae وتضم هذه الصيلة الأنواع الآتية:

أ ـ القرم Avicennia marina ويسمى كذلك بالشورة وهو من نباتات المستنقعات البحرية المعروفة باسم «المانجروف التي تنمو في الأراضي الطينية التي تغمرها المياه المالحة للبحار. ويكون نبات القرم شجيرات أو أشجار صغيرة يتراوح ارتفاعها بين ١ ـ ٣ مترا (انظر صورة رقم ٦). وسيقان هذا النبات خضراء لينة، اما جذوره فهي من النوع التنفسي التي تظهر على السطح فوق مستوى الماء والطين وتوجد بها فتحات كثيرة يتم من خلالها تبادل الغازات بين النبات والهواء الخارجي. وتنمو الأوراق بطريقة متبادلة على السيقان وهي أوراق بيضاوية الشكل تنتشر عليها غدد ملحية تفرز الأملاح الزائدة عن حاجة النبات ويزهر هذا النبات خلال شهر مارس مكونا ازهارا صغيرة صفراء اللون.

٣ـ٤ الفصيلة العليقية: Convolbulaceae وتضم هذه الفصيلة الأنواع الآتية:

أ ـ النديوه Cressa cretica من النباتات المعمرة التي تفترش الأرض عادة ويتراوح ارتفاعه بين ١٠ ـ ٣٠ سم، وأوراقه صغيرة قصيرة أطرافها حادة وتنتشر بكثافة عالية في كل الاتجاهات. ويزهر هذا النبات في فصل الربيع بين شهري مارس ومايو مكونا ازهارا صغيرة بيضاء اللون كثيفة الانتشار. (انظر صورة رقم٧).

٣ـ٥ الفصيلة الطرثوثية: Cynomoriaceae وتضم هذه الفصيلة الأنواع الآتية:

أ ـ الطرثوث Cynomorium coccineum وهو نبات عصيري معمر يبلغ ارتفاعه حوالي ٣٠ سم وسيقانه قائمة بدون تفرعات تنمو عليها اوراق متحورة الى حراشيف صغيرة. ويتطفل هذا النبات على بعض النباتات الأخرى مثل القلام والقطف والثيلوث، ويزهر هذا النبات في شهري مارس وابريل.

٣ـ٦ الفصيلة السعدية Cyperaceae وتضم هذه الفصيلة الأنواع الآتية:

أ ـ الثنده Cyperus conglomeratus ويسمى كذلك بالرشا أو العنـدب، وهو من النباتات المعمرة ويبلغ طول شجيراته حـوالي ٣٠ ـ ٥٠ سم وجـذوره بها شعيرات وسيقانه سميكة مضغوطة، ويزهر هذا النبات طوال العام.

ب ـ الثنده Cyperus laevigatus ويسمى كذلك بالرشا أو العندب، وهـو نبات عصيري له ساق يتراوح طولها ٣٠ ـ ٤٠ سم ويزهر هذا النبات في شهـري مارس وأبريل.

٣ـ٧ الفصيلة الفرانكنية Frankeniaceae وتشمل هذه الفصيلة الأنواع الآتية:

المليح: Frankenia pulverulanta وهـو نبـات معمـر يفترش على الأرض ويتراوح طوله بين ١٠ ـ ٣٠ سم ويتميز بفروعه المتشعبة وتنتشر أوراقه الحمراء في تجمعات رباعية وهي أوراق صغيرة بيضاوية الشكل، ويـزهـر هـذا النبـات في الفترة بين شهري فبراير ومايو.

٣ـ٨ الفصيلة السمارية Juncaceae وتضم هذه الفصيلة نوعا واحدا:

السمار Juncus rigidus وهو من النباتات المعمرة وساقه قـائمـة خضراء يتراوح ارتفـاعهـا ٣٠ ـ ٧٠ سم ولـه أغصـان كثيرة تنتهي بأطـراف شـوكيـة مـدببـة. ويستبدل هذا النبات أوراقه المتحورة (أشواك) نتيجة تأثر القديم منها بـالامـلاح وتعرضها للجفاف. ويزهر هذا النبات في شهر مايو.

٣ـ٩ الفصيلة البلامباجية Plumbaginaceae وتشمل هذه الفصيلة نوعا واحدا:

القطف Limonium axillare وهو نبات معمر ساقه قصيرة يتراوح ارتفاعه بين ٢٠ ـ ٣٠سم. ويوجد على ساقه وأوراقه غدد ملحية تفـرز الأمـلاح الـزائدة كما توجد عند قواعد أوراقه غدد مخاطيـة لـلاحتفـاظ بـالماء حـول البراعم الصغيرة. ويزهر هذا النبات في شهري مارس وأبريل.

٣ـ١٠ الفصيلة الاثلية: Tamaricaceae وتضم هذه الفصيلة الأنواع الآتية:

أ ـ الاثل Tamarix aphylla وهو نبات شجري ويبلغ ارتفاعـه ١ـ ٥ , ١ متر، وتنمو على فروعه أوراق حرشفية صغيرة ذات اشكال ابرية ومثلثة حادة الاطراف

عليها فتحات كثيرة تمثل غددا ملحية تقوم بافراز الأملاح الزائدة عن حاجة النبات. يزهر النبات في الفترة بين شهري ابريل وأغسطس.

ب ـ الطرفه Tamarix rosmarinus وهو نبات شجري يتحمل الجفاف والملوحة ويصل ارتفاعه الى مترين أو أكثر والساق خشبية وتمتد فروعه مستقيمة تغطيها أوراق حرشفية. وينمو على الساق والفروع والأوراق الخضراء غدد ملحية تفرز الأملاح الزائدة عن حاجة النبات. يزهر هذا النبات خلال شهري ابريل ومايو.

٣ـ١١ الفصيلة الهالوكية Orobancheae وتضم هذه الفصيلة نوعا واحدا:

الذنون Cistanche phelypaea وهو نبات عصيري يبلغ طوله حوالي ٣٠ ـ ٦٠ سم سيقانه سميكة تنتشر عليها بطريقة متبادلة أوراق متحورة الى حراشيف مستطيلة الشكل ذات أطراف ابرية. وينمو هذا النبات متطفلا على نبات القرم والثيلوت والقطف. ويزهر هذا النبات في شهري مارس وأبريل.

٣ـ١٢ الفصيلة الرطرطية: Zygophyllaceae وتضم هذه الفصيلة:

ـ الهرم القطري Zygophyllum qatarense نظرا لأنه تم التعرف على هذا النبات وجمع عينات منه لأول مرة من دولة قطر فأنه أطلق عليه اسم الهرم القطري كما هو واضح من الاسم اللاتيني. وهو نبات عصيري يتحمل جفاف الجو وملحوة التربة. وهو نبات معمر يكون شجيرات يتراوح ارتفاعها بين ٤٠ ـ ٦٠ سم وفروعه قائمة وأوراقه صغيرة وهي لحمية سميكة تختزن الماء وتتوزع بانتظام على الفروع مكونة عناقيد اسطوانية. وعادة ما يتكون حول هذا النبات أكمات ترابية. ويزهر هذا النبات في شهري مارس وأبريل (انظر صورة رقم٨).

٣ـ١٣ الفصيلة المركبة Compositae وتضم هذه الفصيلة نوعا واحدا:

ـ الحوه Launaea nudicaulis وهو نبات عشبي حولي ينمو مفترشا على الارض برارتفاع لا يتعدى ٢٠ سم، ساقه خشبية قصيرة تخرج منها الفروع حاملة أوراقا خضراء متعرجة الأطراف. يزهر هذا النبات بين شهري فبراير وأبريل.

جدول رقم (٣) اسماء أنواع النباتات التي
تنمو بالسبخات وفصائلها

ملاحظـــات	الاسم بالعربية كما يدعى محليا	نـــوع النبـــات	الفصيلـــة النبـــاتيـــة
يدعى كذلك بحمض الارنب .	عكرش	Aeluropus lagopoides	1) Gramineae النجيلية
	هالوبيرم	Halopyrum mucronatum	
	صخام	Sporobolus arablicus	
	صخام	Sporobolus spicatus	
	شعيران	Anabasis setifera	2) Chenopodiaceae الرمراميـــه
	اجروفلم	Agriophyllum minus	
يدعى كذلك بالعجرم	قلام	Arthrocnemum glaucum	
	رغل	Atriplex leucoclada	
يدعى كذلك سبت أو حضادى	ثيلوث	Halocnemum strobilaceum	
	حريز	Halopeplis perfoliata	
	رمث	Hammada elegens	
	جلهان	Schanginia aegyptiaca	
	شنان	*Seidlitzia rosmarinus*	
	السويد	Suaeda vermiculaty	
	خريط	Salsola baryosoma	
	خريط	Salsola cyclophylla	
	سالسولا	Salsola soda	
يدعى كذلك بالشورة	قرم	Avicennia marina	3) Avicenniaceae القرمية
	نديوه	Cressa cretica	4) Convolvulaceae العليقيـــه
	طرثوث	Cynomorium coccineum	5) Cynomoriaceae الطرثوثيـــه
يدعى كذلك رشا أو عندب	تنده	Cyperus conglomeratus	6) Cyperaceae السعديـــه

الفصيلة النباتية	نوع النبات	الاسم بالعربية كما يدعى محليا	ملاحظات
	Cyperus laevigatus	تنده	
7) Frankeniaceae الفرانكينيه	Frankenia pulverulenta	مليح	
8) Juncaceae السهاريه	Juncus rigidus	سهار	
9) Plumbaginaceae البلامباجيه	Limonium axillare	قطف	
10) Tamaricaceae الأثيله	Tamarix aphylla Tamarix rosmarinus	اثل طرفه	
11) Orobanchaceae الهالوكيه	Cistanche phalypaea	دنون	
12) Zygophyllaccae الرطرطيه	Zygophyllum qatarense	هرم	
13) Compositeae المركبه	Launaea nudicaulis	حوه	

٤ـ خصائص الغطاء النباتي في السبخات

كان نتيجة تأثير الظروف البيئية منفردة ومتكالبة ظهور غطاء نباتي ذات ميزات خاصة في هذه السبخات. فالظروف المؤثرة متطرفة في قسوتها وقد انعكس هذا على خصائص نباتات السبخة، وأهم الخصائص التي تتصف بها هذه النباتات هي:

٤ـ١ـ كيفية التوزيع والكثافة:

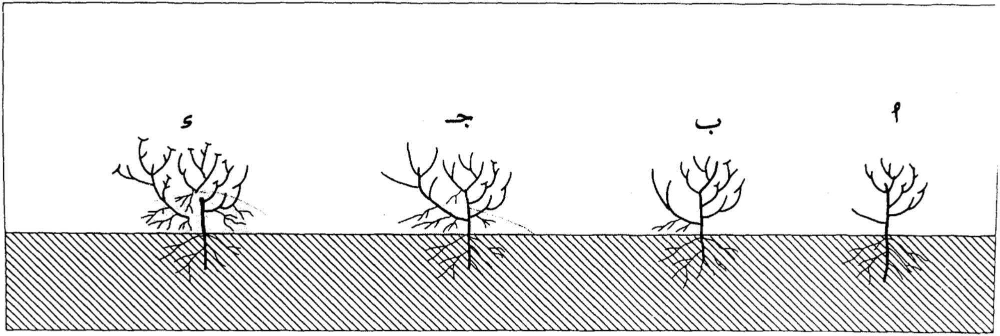
(١) التباين في كثافة النباتات من سبخة الى أخرى فقد تنعدم الحياة النباتية في بعض السبخات مثل بعض مناطق سبخة أمسيعيد وخور العديد بينما تتواجد بكثافة عالية في بعض المناطق الأخرى مثل السبخات الساحلية بين الخور والذخيرة حيث تتكون المانجروف.

(٢) التوزيع غير المنتظم للحياة النباتية في نفس المنطقة، حيث تنتشر النباتات بكثافة متفاوتة في أجزاء مختلفة من نفس السبخة كما هو موجود في سبخة دخان.

(٣) الاختلاف في توزيع أنواع النباتات والمجتمعات النباتية في رواسب السبخة ففي حين تقتصر السيادة على نوع نباتي واحد في احدى السبخات فاننا نلاحظ وجود نوعين أو أكثر من النباتات على هيئة نطاقات محددة.

٤ـ٢ـ ظاهرة تكون أكمات Hummocks في السبخات:

لا يقتصر تكون هذه الظاهرة على النباتات الملحية وانما يمكن أن تحدث في المناطق الواسعة المكشوفة الجافة. وقد لوحظ تكون هذه الظاهرة بكثرة في السبخات الداخلية. وبعد دراسة ظاهرة تكوين الأكمات تبين أنها تتكون على عدة مراحل متتالية يمكن تلخيصها كما يلي:



شكل (٥) تصور نظري لخطوات تكوين ظاهرة الأكمات

(١) تخفف النبتة من سرعة الرياح مما يؤدي الى ترسيب حملوتها من الرمال (انظر صورة رقم ٩).

(٢) مع زيادة كميات الرمال المترسبة فانها تبدأ بتغطية أجزاء من فروع هذه النبتة، ومع توفر الرطوبة فان هذا يشجع ريزومات أو عقد هذه الفروع على تكوين الجذور.

(٣) ومع الزياةدة التدريجية للرمال المترسبة حول النبتة فانه يغطي مزيدا من اجزاء فر وع جديدة التي تبدأ هي الأخرى بتكوين الجذور.

(٤) تقوم هذه الجذور المتكونة بتغذية كل فرع خاص بها، مما يؤدي الى استقلال (تقريبا) كل فرع عن النبتة الأم حيث يكون كل فرع نبتة مستقلة بحد ذاتها.

وهكذا تتكون ثلاث أو أربع نباتات على قمة وسفوح كوم الرمل الدي يطلق عليه اسم «أكمة». ويبين الشكل رقم (٥) خطوات تكوين الأكمات. ومن الجدير بالذكر أن هذه الأكمات متباينة في الحجم والارتفاع فقط لوحظ في سبخة دخان أن بعض الأكمات لا يزيد ارتفاعها عن ٣٠ ـ ٥٠ سم في حين لوحظ وجود كدوات بارتفاع حوالي مترين في سبخة سودانثيل، وبذلك يمكننا القول أن لنباتات السبخة أثر كبير على تحديد شكل سطح السبخات حيث أن حجم وارتفاع هذه الاكمات يحددها نوع وحجم وكثافة هذه النباتات كما أن سرعة الهواء واتجاها لها أثر كبير على تكون هذه الأكمات.

٤ـ٣ـ الصفات الفسيولوجية:

تتصف النباتات الملحية بصفات تساعدها على تحمل ومقاومة الملوحة ومما لا شك فيه ان النباتات الملحية تشترك في خاصية واحدة هي مقدرة البروتوبلازم فيها على تحمل وجود كمية كبيرة من الأملاح في الخلية، وهناك ثلاث صفات لهذه النباتات تجعلها قادرة على تحمل الأملاح الذائبة:

١ـ العصيرية: يقصد بالعصيرية في النباتات الملحية قدرتها على الاحتفاظ بكمية كبيرة من الماء في أوراقها أو سيقانها. ويمكن تعليل هذه الظاهرة

لمحاولة هذه النباتات تخفيف العصير الخلوي الذي يزداد تـركيـزه في انسجـة النباتات بسبب امتصاص الكوريدات كنبات القلام، الخريـزة، الشعيران، الثيلوت، الجلهان، . . . . . الخ. وتجدر الاشارة أن هناك حدا لمقـدار الماء الذي تستطيع هذه النباتات اختزانها حيث أنه قد يرتفع الضغط الاسمـوزي للعصير الخلوي الى حد حرج في النبات وخصوصا نهاية مـوسم النمـو وربما يكون ذلك تعليلا لموت بعض أجزاء النبات في النباتـات الملحيـة العصيريـة المعمرة (كمال الدين البتانوني، ١٩٨٦).

٢ـ افراز الأملاح: تقوم بعض النباتات الملحية بافراز الاملاح عن طـريق غـدد ملحية توجد على أوراقها أو سيقانها، وداخل هذه الغـدد عـدد من الخلايـا النشطة التي تعمل على ضخ المحلـول الملحي المركـز من خـلايـا النبـات الى الخارج وتمثل الكوريـدات النسبـة الكبيرة من الأمـلاح المفـرزة (كمال الـدين البتانوني ١٩٨٦).

ومن أمثلـة هـذه النبـاتـات هي العكـرش، الأثل، النـديـوه، القطف، الفرانكينيا. . . الخ.

وهناك نباتات ملحية تفرز الكربونات عن طريق غدد تسمى بالغدد الكلسية اضافة الى ذلك هناك بعض النباتات الملحية مثل القطف، لها غـدد مخاطيـة عند قواعد الاوراق حيث أن افراز المواد المخاطية يساعد على الاحتفاظ بـالماء حو ل البراعم الغضة الصغيرة التي توجد في باطن هذه الأوراق. وأخيرا هناك نباتات ملحية مثل الرغل تتخلص من الأملاح الزائدة عن طـريق المثـانـات الموجودة على بشرتها التي تمتلىء بالمحلول الملحي المركز الذي يضخ اليهـا من أنسجة الورقة وعندما يزداد تركيز الأملاح في هذه المثانات الملحية فأنها تنفجر وينتج عن ذلك تخلص النبات من بعض أملاحـه (كمال الـدين البتـانـوني، ١٩٨٦).

٣ـ التخلص من بعض أعضـاء النبـات: وهي ظـاهـرة مـوت جـزئي من اجل استمرار الحياة، وسبب هذه الظاهرة هـو تـركيـز الأمـلاح في بعض أعضـاء

النبات طوال موسم نمو النبات وعندما يصل تركيز الأملاح الى المستوى الحرج فان أعضاء هذه النبات تموت وتتساقط وهذا يعني تخلص النبات من قدر كبير من الاملاح (كمال الدين البتانوني، ١٩٨٦)، والأمثلة على هذه النباتات كثيرة ففي نبات السويد تتجمع الاملاح في الاوراق المسنة، ونبات القلام يجمع الأملاح في قشرة الساق العصيرية، ونبات السمار يجمع الاملاح في قمم الأوراق الشوكية.

٥ـ التوزيع الجغرافي

مما لا شك فيه أن رسم صورة التوزيع الجغرافي لهذه النباتات على شبه جزيرة قطر كان نتيجة لتضافر العوامل المؤثرة في نمو هذه النباتات والشكل رقم (٦) يبين التوزيع الجغرافي لهذه النباتات وذلك بناء على فصائلها وأنواعها، وقد رمز لكل فصيلة نباتية بشكل هندسي في حين رمز لكل نبات بالأحرف الأولى من أسم الجنس والنوع (حرفا كبيرا وحرفا صغيرا على التوالي)، وفي حالة تشابه هذه الرموز لنباتين فأنه يستخدم الحرفين الأول والثاني من النوع فاذا تكرر التشابه فانه يؤخذ الحرف الثالث من النوع (انظر الجدول ٥). وفيما يلي وصفا للتوزيع الجغرافي لهذه النباتات:

٥ـ١ الفصيلة النجيلية: وتضم الأنواع النباتية الآتية:

أـ Aeluropus lagopides

ينمو هذا النبات في الأراضي الملحية ذات التربة الناعمة وينتشر في مناطق السبخات خاصة بالأجزاء الجنوبية من قطر.

ب ـ Halopyrum mucronatum

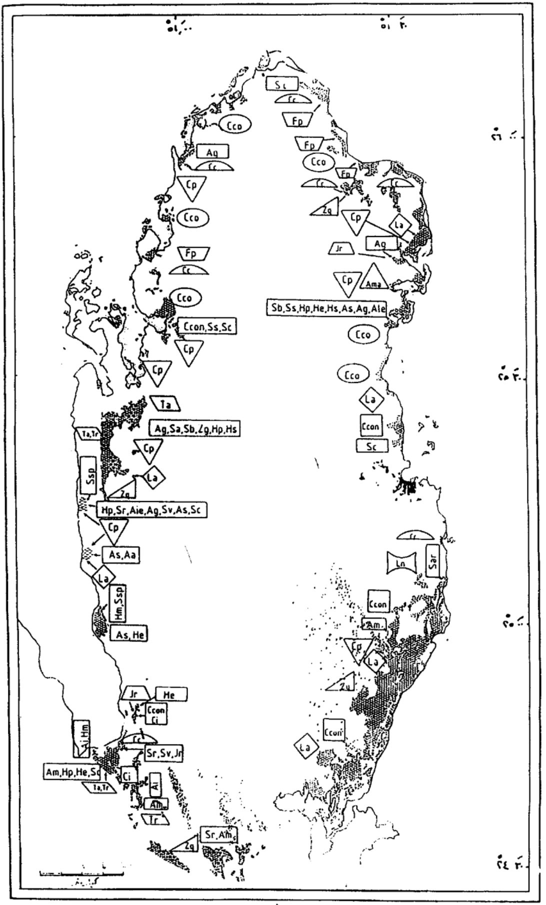
ينمو هذا النبات في التربة الرملية والكلسية الملحية خشنة القوام وكذلك في السبخات الساحلية والشواطىء الرملية وتواجده في قطر محدود في الجنوب الغربي خاصة على شاطىء خليج سوى.

ج ـ Sporobolus arabicus

ينمو هذا النبات في وسط قطر خاصة على شواطىء الوكرة.

د ـ Sporobolus Spicatus

وينمو نبات الصخام في التربة الرملية الملحية ويوجد في جنوب قطر على الساحل الشرقي لخليج سلوى وفي سبخة أم باب.

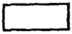


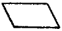
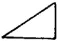
شكل (٦) التوزيع الجغرافي لفصائل وأنواع النباتات الملحية في سباخ قطر

المصدر : الدراسات الميدانية

جدول رقم (٥)

فصائل وأنواع نباتات السبخة ورموزهـــا

نـــوع النبـــات		الفصيلـــة النبـــاتيـــة	
الرمـــز	الاســـم	الرمـــز	الاســـم
Al	Aeluropus lagopoides		1) Gramineae النجيليـــة
Hm	Halopyrum mucronatum		
Sar	Sporobolus arablicus		
Ssp	Sporobolus spicatus		
As	Anabasis setifera		2) Chenopodiaceae الرمراميـــــــــه
Am	Agriophyllum minus		
Ag	Arthrocnemum glaucum		
A le	Atriplex leucoclada		
Hs	Halocnemum strobilaceum		
Hp	Halopeplis perfoliata		
He	Hammada elegens		
Sa	Schanginia aegyptiaca		
Sr	Seidlitzia rosmarinus		
Sv	Suaeda vermiculaty		
Sb	Salsola baryosoma		
Sc	Salsola cyclophylla		
Ss	Salsola soda		
Ame	Avicennia marina		3) Avicenniaceae
Cc	Cressa cretica		4) Convolvulaceae

الفصيلة النباتية		نوع النبات	
الاسم	الرمز	الاسم	الرمز
5) Cynomoriaceae الطرثوثيه		Cynomorium coccineum	C co
6) Cyperaceae السعديه		Cyperrus conglomeratus Cyperus laevigatus	C con CI
7) Frankeniaceae الفرانكينيه		Frankenia pulverulenta	Fp
8) Juncaceae السماريه		Juncus rigidus	Jr
9) Plumbaginaceae البلامباجيه		Limonium axillare	La
10) Tamaricaceae الأثيله		Tamarix aphylla Tamarix rosmarinus	Ta Tr
11) Orobanchaceae الهالوكيه		Cistanche phalypaea	Cp
12) Zygophyllaccae الرطرطيه		Zygophyllum qatarense	Zq
13) Compositeae المركبه		Launaea nudicaulis	Ln

٥ـ٢ **الفصيلة الرمرامية:** وتضم الأنواع النباتية الآتية:

أ ـ Anabasis setifera

وينمو هذا النبات في مناطق تجمع الفتات الصخري والرمال السافيه والحصباء في الأماكن المرتفعة نسبيا من سواحل الخليج خاصة في السبخات الموجودة عند الخور وسلوى وأم باب والهملة.

ب ـ Agriophyllum minus

ويسنمو هذا النبات في مناطق الشواطىء الرملية والكثبات الرملية القريبة من السبخات الساحلية خاصة في المناطق الجنوبية من خليج سلوى.

ج ـ Arthrocnemum glaucum

وينمو هذا النبات في مناطق التداخلات الساحلية المالحة والسبخات الساحلية التي تغمرها مياه المد العالي للخليج في النصف الشمالي من قطر خاصة في مناطق الخور والذخيرة ورأس عشيرج ودخان وأم باب.

د ـ Atriplex leucoclada

ينمو هذا النبات في التربة الرملية والحصوية الملحية بمناطق الشواطىء المرتفعة بمناطق سبخات الخور وأم باب.

هـ ـ Halocenmum strobilaceum

ينمو هذا النبات في رمال الشواطىء البحرية وفي الأكمات الرملية بمناطق السبخات الساحلية خاصة على الساحل الشرقي لشبه جزيرة قطر في سبخة الخور وكذلك في سبخة دخان.

و ـ Halopeplis perfoliata

ينمو هذا النبات في مناطق السبخات الساحلية وعلى الشواطىء البحرية خاصة جنوب غربي قطر على خليج سلوى كما يوجد على شواطىء أم باب والخور ودخان.

ز - Hammada elegans

ينمو هذا النبات في التربة الرملية ويوجد في جنوب غربي قطر بمنطقة وادي العريق وعلى شاطىء خليج سلوى.

ح - Schanginia aegyptiaca

ينمو هذا النبات في التربة الرملية الناعمة الملحية ويتواجد في المنخفضات بالقرب من الساحل وفي سبخة دخان كما ينمو أيضا في بعض المزارع المهجورة والروضات التي تدهورت تربتها لارتفاع نسبة الملوحة بها.

ط - Seidlitsia rosmarinus

ينمو هذا النبات في التربة الرملية الخشنة الملحية وفي الأراضي الصخرية جنوب قطر بالقرب من سبخة سودانثيل وفي السبخات الساحلية عند أبوسمره وأم باب.

ك - Suaeda vermiculata

ينمو في السبخات الساحلية في جنوب غربي قطر على خليج سلوى خاصة عند أبوسمرة وأم باب.

ل - Salsola cyclophlla

ينمو هذا النبات في التربة الرملية الخشنة والحجرية الملحية بالقرب من شواطىء الخليج خاصة في سبخات الخور ودخان.

م - Salsola cyclophylla

ينمو هذا النبات في التربة الرملية والحجرية الملحية بالقرب من السواحل في الغارية والفيشاخ وشمال الدوحة، وأم باب وأبوسمرة.

ن - Salsola Soda

ينمو في السبخات الساحلية بالقرب من الخور كما تنمو بغزارة في المناطق المستوية التي تغمرها مياه البحر أثناء المد في الخور وسبخة الفيشاخ.

٥ـ٣ الفصيلة القرمية: وتضم هذه نوعا واحدا.

أ ـ Avicennie marina

ينمو هذا النبات في المنطقة المحصورة بين الخور والذخيرة على الساحل الشرقي لقطر حيث ينمو في المسطحات الطينية التي تغمرها مياه الخليج الضحلة التي لا تحدث بها أمواج قوية مكونة مانجروف. وخصوصا ما بين الخور والذخيرة.

٥ـ٤ الفصيلة العليقية: وتضم هذه نوعا واحدا.

ـ Cressa cretica

ينمو هذا النبات على امتداد السواحل القطرية خاصة في الأجزاء في سبخة الغارية وبالقرب من الجاسية وفي رأس عشيرج.

٥ـ٥ الفصيلة الطرثوثية: وتضم نوعا واحدا:

ـ Cynomorium coccineum

ينمو هذا النبات في مناطق السبخات الساحلية والأراضي الرملية بالخلجان في الوسيل وفويرط وسبخة الفيشاخ وشمال الزبارة.

٥ـ٦ الفصيلة السعدية: وتضم الأنواع النباتية الآتية:

أ ـ Cyperus conglomeratus

ينمو هذا النبات في بيئة رملية ملحية تتوفر حولها الرطوبة الأرضية خاصة بوسط وجنوب قطر في شمال الدوحة وأمسعيد وسبخة وادي العريق.

ب ـ Cyperus laevigatus

ينمو هذا النبات في المستنقعات البحرية والمنخفضات الساحلية المالحة وفوق رواسب السبخة الساحلية خاصة في نطقة أبوسمرة جنوب غرب قطر وفي وادي العريق.

٥ـ٧ الفصيلة الفرانكنية: وتضم هذه نوعا واحدا.

- Frankenia pulverulenta

وينمو هذا النبات في التربة الرملية الخفيفة والملحية التي تتواجد في المناطق الصخرية او في المنخفضات وبالقرب من السواحل.

٥ـ٨ الفصيلة السمارية: وتضم هذه الفصيلة نوعا واحدا:

- Juncus rigidus

ينمو هذا النبات في منطقة الذخيرة وكذلك في الجنوب الغربي عند أبوسمره ووادي العريق.

٥ـ٩ الفصيلة البلامباجية: وتضم هذه نوعا واحدا:

- Limonium axillare

ينمو هذا النبات في الرمال الشاطئية الملحية الخشنة والقوام التي لا تغمرها مياه المد العالي، ينتشر هذا النبات في الخور والوسيل ودخان وأم باب وكذلك في منطقة النقيان على الساحل الجنوبي الشرقي وسبخة الهملة.

٥ـ١٠ الفصيلة الآثلية: وتضم الأنواع النباتية الآتية:

أـ Tamarix aphylla

ينمو هذا النبات في التربة الرملية الملحية ويوجد في جنوب غرب قطر كما ينمو على أطراف سبخة دخان.

ب ـ Tamarix rosmarinus

ينمو في المناطق الرملية والأراضي الصخرية الملحية وينمو على أطراف الكثبان الرملية أو الأكمات الرملية بمناطق السبخات في جنوب غربي قطر وفي أطراف سبخة دخان.

٥ـ١١ الفصيلة الهالوكية : وتضم نوعا واحدا :

- Cistanche phalypaea

ينمو هذا النبات في السبخات الداخلية والأراضي الرملية في مناطق المستنقعات البحرية خاصة الخلجان وكذلك في سبخة الهملة وامسيعيد.

٥ـ١٢ الفصيلة الرطرطية : وتضم نوعا واحدا :

- Zygophyllum qatarnese

ينمو في التربة الرملية والحصوية في الأراضي الملحية وكذلك في المنخفضات كما ينمو بين الكثبان الرملية في جنوب شرق قطر وغربي سلسلة جبل دخان ومودانثيل، ونظرا لاتساع المدى البيئي والجغرافي الذي ينمو فيه هذا النبات فأنه يتواجد مع أنواع اخرى مع النباتات في جنوب وشمال شبه جزيرة قطر.

٥ـ١٣ الفصيلة المركبة : وتضم نوعا واحدا :

- Launaea nudicaulis ينمو في السباخ على شواطىء الوكره.

٦ـ الامكانات الاقتصادية لنباتات السبخة في قطر

لقد فرضت مهنة الرعي في البيئة الصحراوية على الرعاة ـ عبر العصور ـ التعرف على أنواع النباتات الطبيعية التي تنمو في أرجاء المناطق الصحراوية، وما قد يستفيدون منه لأنفسهم أو لحيواناتهم التي يرعونها ومع تعدد وتطور وسائل الدراسة وتطبيق أساليب البحث العلمي للتعرف على هذه النباتات وتركيبها الكيميائي فقد ظهر العديد من المجالات التي يمكن للانسان الاستفادة فيها من بعض هذه النباتات. وسنتناول هنا بعض الاستعمالات الاقتصادية الممكنة للاستفادة من النباتات التي تنمو في رواسب السبخة بشبه جزيرة قطر والتي تتلخص فيما يلي:

٦ـ١ غذاء للانسان: حيث توجد بعض النباتات ذات قيمة غذائية جيدة ومفيدة ويتناولها البدو عند مرورهم بالمناطق التي تنمو بها، ومن هذه النباتات الجلمان والطرثوث والسمار، وقد أوضح عبدالفتاح رزق في دراسته عن التحليل الكيميائي لهذه النباتات (Rizk, 1986) أن الجلمان يحتوي على نسبة عالية من البروتين تصل الى حوالي ٥ , ١٠٪ أي تقارب النسب الموجودة في حبوب بعض المحاصيل الزراعية مثل الذرة والأرز، بالاضافة الى احتوائه على نسبة عالية من الأملاح المعدنية. اما نبات الطرثوث فهو يحتوي على فوسفور وبوتاسيوم ومواد نيتروجينية وكذلك السمار الذي يعطي بذورا غنية بالزيت والبروتين والأحماض الآمينية والكربوهيدرات.

٦ـ٢ علف للحيوان: يمكن الاستفادة من أنواع كثيرة من نباتات السبخة كأعلاف للحيوانات نظرا لاحتوائها على نسب عالية من بعض المركبات المعدنية المفيدة. وهناك عدة أنواع من النباتات التي ترعاها الجمال والابل في مناطق السبخة بشبه جزيرة قطر، (انظر الصورة رقم ١٠) وأهم هذه النباتات هي العكرش الذي يحتوي على بعض العناصر النادرة مثل الكوبلت والمنجنيز والزنك وكذلك نباتات الشعيران والأجروفلم والرمث والسويده والقرم والنديوه والآثل والصخام والرغل الذي يوجد منه حوالي ١٥٠ نوعا وقد نجحت بعض الدول في استزراعه

بطريقة اقتصادية مثل الأرجنتين واستراليا وامريكا الشمالية كما نجحت زراعته في منطقة القطيف بالمملكة العربية السعودية تحت ظروف مناخية مشابهة لظروف قطر.

٦ـ٣ مصدر للوقود: يقوم بعض البدو باستخدام سيقان فروع بعض نباتات السبخة كوقود وذلك بعد تقطيعها وتجفيفها في الشمس، ومن أمثلة هذه النباتات الشنان والرمث والقرم والآثل والطرفه. الا أن هذا الاستخدام يترتب عليه الحاق اضرار بيئية على كل من النباتات والتربة ويجب منع ذلك تماما.

٦ـ٤ حماية الشواطىء: ان نمو بعض النباتات في السبخات الساحلية يساعد على تماسك التربة الرملية المفككة وبالتالي تعمل على حماية الشواطىء الرملية من الانجراف، حيث تعمل سيقان النباتات على كسر حدة الأمواج البحرية على الساحل وتضعف حركة المياه أثناء المد والجزر وبذلك تساعد على ارساب حبيبات الرمال والغرين التي تحملها المياه وتثبت فيها جذورها. ومن أمثلة هذه النباتات العكرش الذي يتميز بصلابة سيقانه وخصلاتها المتشعبة، وهناك نباتات أخرى مثل الهالوبيرم والرمث والأشنان والسويد والآثل والقرم وتجدر الاشارة هنا الى أن وزارة الصناعة والزراعة (حاليا وزارة الشؤون البلدية والزراعة) بدولة قطر قد أولت هذا الموضوع اهتماما بالغا منذ عدة سنوات حيث بدأت مشروعا لتنمية نبات القرم الذي ينمو بالسبخة الساحلية على امتداد المنطقة بين الخور والذخيرة شمال شرقي شبه الجزيرة القطرية، الهدف منها الحفاظ على الشاطىء في هذه المنطقة وحمايته من التآكل والانجراف. كما تقوم اللجنة الدائمة لحماية البيئة في دولة قطر بدراسة كاملة عن هذه المنطقة لاعتبارها محمية طبيعية يحظر استقطاع أي نباتات منها أو صيد الاسماك فيها مع المحافظة عليها من أي تلوث بحري محتمل.

٦ـ٥ تقليل ملوحة التربة: يمكن استزراع بعض النباتات الملحية مثل السمار في تربة السبخات حيث تعمل هذه النباتات على تقليل نسبة الأملاح الموجودة في هذه التربة وبالتالي يمكن الاستفادة من أراضيها في اطار التوسع الزراعي بزراعة

بعض النباتات المناسبة. وقد تم تنفيذ هـذه الفكـرة بنجـاح في بعض المنـاطق الجافة بصحراء أريزونا بالولايات المتحـدة الأمـريكيـة ويجري حـاليـا تجربتهـا في بعض مناطق السبخة بدولة الامارات العربية المتحدة.

٦ـ٦ تحسين السلالات النباتية: نظرا للظروف البيئيـة القـاسيـة التي تعيشهـا نبـاتـات السبخة فقد اكتسب بعضها عدة صفات بيئية جيدة يمكن استثمارهـا في تحسين سلالات نباتية ذات مقاومـة ضعيفـة لظـروف البيئـة الجافـة. ومن أمثلـة هـذه النباتات السمار الذي زادت قدرته على مقاومة الأمـراض الفطـريـة والملـوحـة. ويمكن نقل هذه الصفات الى بعض النباتات الاقتصادية التقليـديـة وذلك عن طريق التهجين أو بالتركيب او بالتطعيم.

٧ـ٦ استخراج مواد تنظيف: تحتوي بعض النباتات التي تنمو في تربة السبخة بالأراضي القطرية على مواد صـابـونيـة يمكن استعمالها في أغـراض التنظيف. وأهم هـذه النباتات الشعيران والأشنان والرمث حيث يقوم بعض البدو بخض فروع النبات الأخير مع الماء لفترة من الـوقت لانتـاج سـائل منظف للمــلابس والأواني، كما يستخدم البدو أيضا الأوراق الجافة المطحونة من نبات الأشنان في غسل الملابس والشعر.

٨ـ٦ استخلاص مواد دوائية: تحتوي بعض نباتـات السبخـة على مـركبـات كيميـائيـة معقدة ذات قيمة دوائية منها ستيرويدات وتربينـات وجليكـوزيـدات عـديـدة تتواجد في نبات القرم (Rizk, 1986). كما تحتوي نباتات أخرى مثل الشنـوة والمليح والحوة والقطف والآثل على مواد فلافونيديه التي تفيـد في عـلاج بعض الأمراض الجلدية. وهناك نباتات أخرى مثل الجلمان تحتوي على نسبة عالية من الحديد تسمح باستخدامه في عـلاج بعض حـالات الأنيميـا النـاتجة عن نقص الحديد.

٩ـ٦ انتاج مواد صبغية: تحتوي بعض نباتات السبخة على مواد عفصية قابضـة تصلح لاستخدامها في صناعة الأصباغ مثل نبات الآثل الذي يحتوي على نسبـة عـاليـة من العفصيات تصل الى حوالي ٤٨٪ (Rizk, 1986).

٦ـ١٠ صناعة الأخشاب: تكون بعض نباتات السبخة مثل القرم سيقانا وفرعا كبيرة يمكن الاستفادة منها في بعض الصناعات الخشبية وغيرها من مستلزمات اقامة المباني الساحلية البسيطة، ويجري حاليا في بعض دول شرقي آسيا (مثل تايلاند وأندونيسيا) الاستفادة من أخشاب هذه النباتات في صناعة الكراسي وغيرها من الصناعات الخشبية.

٦ـ١١ صناعة الورق: تحتوي بعض نباتات السبخة على نسبة عالية من السليولوز مثل نبات السمار الذي يحتوي على ٩٠ـ٩٢٪ سليولوز، تشجع على امكانية استخدامها في صناعة الورق.

٦ـ١٢ فوائد أخرى: يمكن الاستفادة من نباتات السبخة في عدة مجالات أخرى منها على سبيل المثال استخدام نبات الأشنان كمؤشر لملوحة التربة وكذلك للنسبة العالية من الأملاح المعدنية في المياه الجوفية. وهناك امكانية استخلاص بعض الزيوت من نبات السالسولا. كما يمكن الاستفادة من بعضها في المسح الجيونباتي (Geobotany) للكشف عن توزيع بعض العناصر النادرة مثل الكوبالت واليورانيوم في المناطق التي تنمو بها هذه النباتات والتعرف على مصدرها (El - Kassas, 1990).

٧ـ خلاصة واستنتاجات

أوضحت الدراسة الحالية أن لمختلف الظروف البيئية تأثير واضح على نباتات السبخة، خصوصا ارتفاع درجات الحرارة والتباين الكبير بينها وارتفاع نسبة الملوحة في التربة والمياه وكذلك ارتفاع منسوب المياه الجوفية، هذا علاوة على التأثير السلبي للكائنات الحية على هذه النباتات، وقد نتج عن تأثير هذه الظروف مجتمعة نمو نباتات ذات خصائص مميزة في أنواعها وكثافتها وتوزيعها، وقد اكتسب بعض أنواع النباتات صفات فسيولوجية تمكنها من تحمل قسوة هذه الظروف وأهم هذه الصفات هي تحور الأوراق الى اشواك وحرائف وتكوين أوراق عصيرية وغدد ملحية وكلسية ومخاطية وكذلك ظاهرة الموت الجزئي في النبات والتخلص من بعض أعضائه وقد تباينت النباتات الملحية التي تنمو في تربة السبخة بشبه جزيرة قطر ما بين أعشاب ونباتات شجيرات وأشجار مختلفة في كثافتها من سبخة لأخرى فقد تنعدم او تكاد في بعض السبخات في حين تشكل تجمعات\كثيفة في سبخات أخرى كما أن توزيع النباتات غير منتظم في السبخة الواحدة وكذلك قد يسود أحد أنواع النباتات في مناطق محددة أو تتواجد بعض أنواع قليلة على هيئة نطاقات متباينة.

ويمكن اعتبار أن الدراسة الحالية قد أضافت بالتحديد وضع ثمانية أنواع من النباتات الملحية التي تنمو في سبخات شبه جزيرة قطر، كما تمكنت من تصنيفها ضمن ستة فصائل نباتية تنتمي اليها طبقا لنظام التصنيف المتبع، وبذلك يمكن القول أن عدد أنواع النباتات التي تنو وتكمل دورة حياتها في بيئة السبخات بشبه جزيرة قطر تبلغ ثلاثون نوعا تنتمي الى ثلاثة عشر فصيلة نباتية تعديلا لما ذكرته الدراسات السابقة في هذا الشأن (كمال الدين البتانوني، ١٩٨٦ . صفحة ٣٤) حيث ذكر بأن الفلورا القطرية تضم سبعة وعشر ونوعاً من النباتات الملحية تنتمي لعشر فصائل نباتية ويعتقد الباحث بأمكانية وجود أنواع أخرى من هذه النباتات الملحية في بيئة السبخات وهذا ما يحتاج الى دراسة تفصيلية لكل سبخة على حدة في ظل الظروف البيئية المتغيرة على مدار السنة.

ويتضح لنا من خلال دراسة خصائص هذه النباتات ودراسة مدى امكانية الاستفادة منها بتوفر فرص متعددة ومدى واسع لاستغلال هذه النباتات، ليشمل امكانية توفير بعض المواد الغذائية والدوائية ومواد التنظيف وكذلك الاستفادة من قدرتها على تخفيف ملوحة التربة وحمايتها من الانجراف وامكانية تحسين الصفات الوراثية لبعض النباتات التقليدية ويتسع هذا المدى أيضا ليشمل امكانية توفير بعض الاعلاف للحيوانات .

ولا يخفى علينا بأن معظم الأصناف النباتية التي يتغذى عليها الانسان كانت في يوم ما نباتات برية لا يعرفها الانسان وبعد أن عرف ما يفيده منها ومع تزايد حاجته لثمارها بدأ الانسان بزراعتها وأخذ يوليها الاهتمام والعناية والرعاية بالزراعة والري والتسميد وحمايتها من الآفات والحشرات ويمكن أن ينطبق ذلك على النباتات الملحية بصدد الدراسة ومما يشجع في سرعة اتخاذ خطوات عملية حيال ذلك هو توفر شروط اساسية ايجابية في هذه النباتات الملحية. فاذا علمنا أن الانتاج الزراعي في دولة قطر يعاني من عدة مشاكل أهمها ارتفاع درجات الحرارة وملوحة التربة وقلة مياه الري (بسام النصر، ١٩٨٦) فان النباتات الملحية تتحمل هذه الحرارة وتتكيف مع الملوحة وتقاوم الجفاف، ومن ناحية أخرى فان بعض هذه النباتات الملحية ذات قيمة اقتصادية عالية تستحق الاهتمام وتشجيع على سرعة القيام بتجارب زراعية لمعرفة سبل تنميتها ودراسة الجدوى الفنية والاقتصادية لها .

واذا علمنا أيضا أن بعض الروضات، وهي المنخفضات التي تتضمن جميع المزارع والأراضي القابلة للاستزراع بشبه جزيرة قطر، هجرها اصحابها بسبب ارتفاع ملوحة تربتها لادركنا مدى أهمية تقديم النصح والارشاد للمزارعين بزراعة نبات السمار وخصوصا في فصل الصيف حيث تترك الارض بورا .

ولابد من استغلال النباتات الملحية بزراعتها على الشواطىء المعرضة للانجراف وكذلك التفكير في تحويل بعض المنخفضات القريبة من التفكير في تحويل بعض المنخفضات القريبة من الساحل والتي تحتلها رواسب السبخة الى بحيرات مائية تصلح لتربية أنواع مناسبة من الأسماك البحرية .

وأخيرا أسأل الله أن أكون قد وفقت في اضافة ما يفيد ويزيد معرفتنا عن النباتات الملحية وأأمل أن تكون نتائج هذا البحث نقاط بداية لبحوث علمية أخرى.

ولنعمل بقول الله تعالى... «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور». «صدق الله العظيم»

الهوامش:

(١) من الدراسات الاقليمية الهامة التي تمت بدولة قطر وتضمنت دراسة لتربة السبخة «الحصر الاستكشافي للتربة وتقسيم الاراضي وتحديد مدى صلاحيتها للاستغلال» والتي تمت خلال عامي ١٩٧١، ١٩٧٢م وذلك في اطار مشروع حصر الموارد المائية الزراعية بدولة قطر، الذي قامت بتنفيذه منظمة الأغذية والزراعة ـ الصندوق الخاص للأمم المتحدة ـ بالتعاون مع وزارة الصناعة والزراعة في قطر (FAQ, 1973) محمد حسين مدكور وسعودي مصطفى الشيخ ١٩٧٣م).

(٢) ان هذا لا يعني أن هذه الثلاث أنواع ليست معروفة لدى كمال الدين البتانوني من قبل فلقد ذكرها في كتابه (Batanouny, 1981) وكذلك في كتابه (كمال الدين البتانوني ١٩٨٦م) الا أنه لم يسردها تحت النباتات الملحية عندما تناول تصنيفها في هذا الكتاب الأخير صفحة ٣٠٢ـ٣٠٥.

(٣) اخذت الصور الفوتوغرافية ارقام (١ـ٨) من (Batanouny, 1981) اما الصور ارقام ٩، ١٠ فقد التقطها الباحث في احدى الزيارات الحقلية.

المراجع

أولا: مراجع باللغة العربية:

(١) ادارة الارصاد الجوية (١٩٨٦): تقويم الدوحة لعام ١٩٨٥م. وزارة المواصلات والنقل، الدوحة، قطر.

(٢) بسام احمد النصر (١٩٨٦): مقومات ومشاكل التنمية الزراعية في قطر. بحث منشور في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية من ص ١٤٥ ـ ص ١٨٦، العدد ٤٨ ـ جامعة الكويت ـ الكويت.

(٣) بسام احمد النصر (١٩٨٨): التنمية الزراعية في قطر ـ نموذج من البرسيم الحجازي «الجت». وحدة البحوث والترجمة، ٦٤ صفحة العدد ١١٨ ـ جامعة الكويت، الكويت.

(٤) سعودي مصطفى الشيخ (١٩٧٤): الموارد الأرضية في قطر. وزارة الصناعة والزراعة، الدوحة ـ قطر.

(٥) صلاح بحيري (١٩٧٧): وجه قطر ـ معالم السطح. دراسات، مجلة علمية تصدر عن الجامعة الأردنية، عمان، المجلد ٤، العدد ١/٢، ص ١٦ ـ ٥١.

(٦) صلاح بحيري ومضيوف الفرا (١٩٧٧)، جوانب من جغرافية قطر. الجمعية العلمية الملكية، عمان، الأردن، ١٢٥ صفحة.

(٧) عيسى حسين الماجد (١٩٨٣): مناخ دولة قطر. ادارة الأرصاد الجوية وزارة المواصلات والنقل، الدوحة، قطر.

(٨) كمال الدين حسن البتانوني (١٩٨٦): البيئة وحياة النبات في دولة قطر. الطبعة الأولى، جامعة قطر، الدوحة ـ قطر، ٤١٤ صفحة.

(٩) محمد حسين مدكور وسعودي مصطفى الشيخ (١٩٧٣): تقرير عن الحصر الاستكشافي للتربة وتقسيم الأراضي (١٩٧١ ـ ١٩٧٢). مشروع حصر المصادر المائية والزراعية بدولة قطر، منظمة الأغذية والزراعة ـ الصندوق الخاص للأمم المتحدة ـ وزارة الصناعة والزراعة، الدوحة، قطر، ٦ صفحات.

(١٠) محمد عبدالله دياب (١٩٧٩)، الجغرافيا الطبيعية لقطر. رسالة ماجستير قدمت الى قسم الجغرافيا، كلية الآداب جامعة القاهرة.

(١١) ياسين ابراهيم ياسين طه (١٩٨٠): سواحل قطر ـ دراسة جيومورفولوجية رسالة ماجستير قدمت الى قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

ثانيا: مراجع باللغات الأجنبية:

(1) Arab Organization for Agriculture Development (1983) : Wild Plants of Qatar, Study for behalf of Ministry of Industry and Agriculture – Qatar, 161 P.

(2) Batanony, K.H. (1981) : Ecology and Flora of Qatar. Alden Press, Oxford, 245 P.

(3) Cavelier, C. (1970) : Goelogical Description of the Qatar Peninsula (Arabian Gulf). Department of Petroleum Affairs, Doha, Qatar, B.R.G.M., Paris. 39 P.

(4) Eccleston, B.L., Pike, G. and Harhash, I.E. (1981) : The Water Resources of Qatar and Their Development. Technical Report NO. 5, Vol.1. FAO Project, Department of Agricultural and Water Research, Doha, Qatar. P.5/3

(5) El-Kassas, I.A. (1990) : Uranium in Sabkha Deposits of Qatar Peninsula, The Arabian Gulf Under Publication. Dorgham, M.M.,

(6) El-Samra, M.L., Muftah, A. and (1988), Algal Nitrogen Fixation in the Northwestern Part of the Arabian Gulf. Qatar University, Science Bulletin, Vol.8, PP. 321 - 328.

(7) FAO (1973): Qatar-Reconnaissance Soil Survey and Land CLassification. Hydro-Agricultural Resopurces Survey Project, AGL: DP/QAT/71/501, Technical Report 1, FAO, ROme 52 P.

(8) Focke, J.W. (1986) : Recent Environment in Qatar. In : Petrographic Atlas of Rock Types Common in the Subsurface of Qatar and Some Recent Equivalents , edited by J.W. Focke et al. QGPC, offshore Operations, Doha, Qatar, PP.1-24.

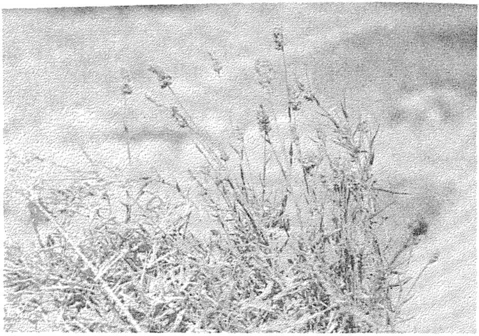
(9) Ismail, A.M.A. (1990), Germination Ecophysiology in Population of Zygophyllum qatarense Haidi From Contrasting Habitats,

Effect of Temperature, Salinity and Growth Regulators With Special Reference to Fusicoccin. Journal of Arid Environment, 18: 185-194.

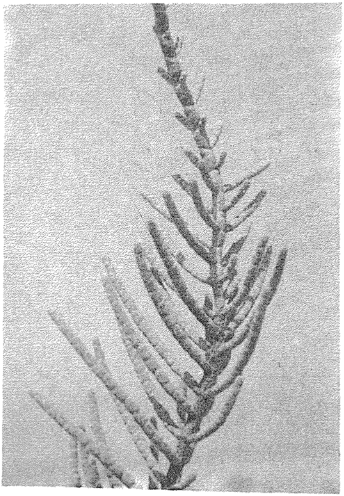
(10) Ismail, A.M.A. and El-Ghazaly, G.A. (1990), Phenological Studies on Zygophyllum qatarense Haidi From Contrasting habitats Journal of Arid Environments 18; 195 - 205.

(11) Rizk, A.M. (1986) : The Phytochemistry of the Flora of Qatar. Scientific and Applied Research Centre, University of Qatar.

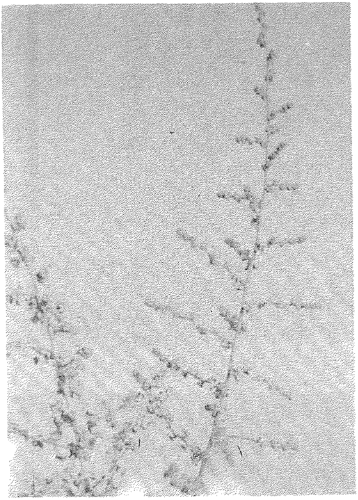
(12) Rizk, A.M. and El-Nowaihi, A. (1989) : The Phytochemistry of the Horticulatural Plants of Qatar, Scientific and Applied Research Centre, University of Qatar, Doha, Qatar.



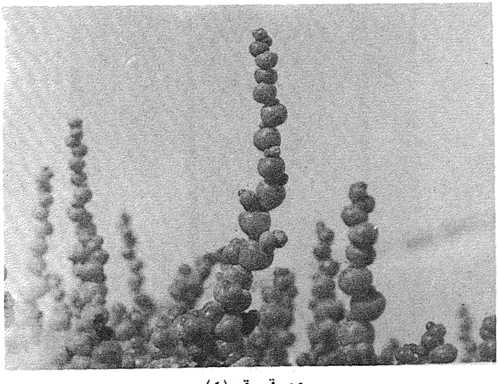
صورة رقم (١)



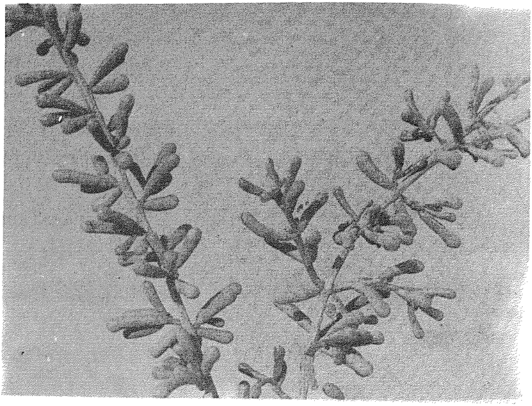
صورة رقم(٢)



صورة رقم (٣)



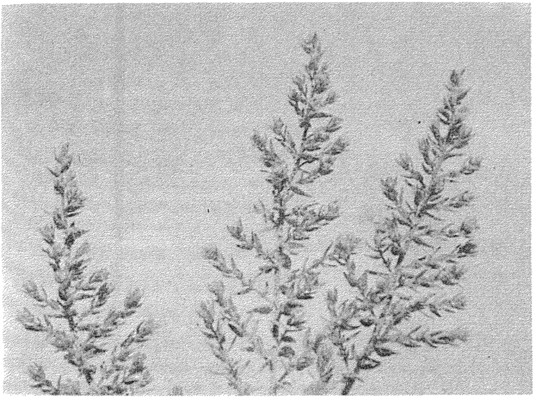
صورة رقم (٤)



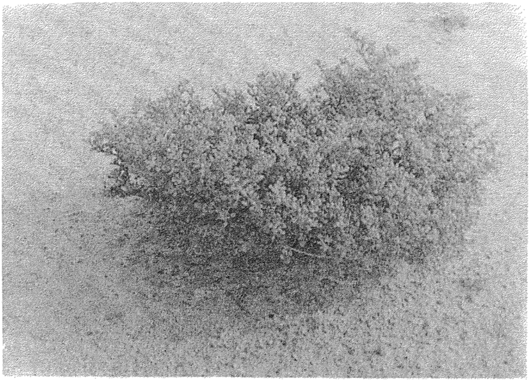
صورة رقم (٥)



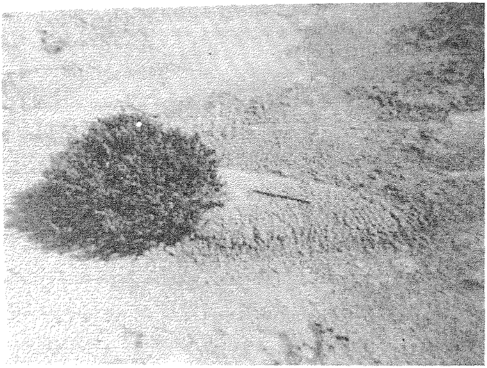
صورة رقم (٦)



صورة رقم (٧)

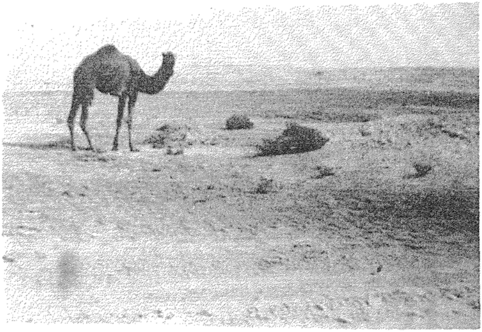


صورة رقم (٨)



صورة رقـــــم (٩)

بداية ترسيب الرياح للرمال أمام نبتة الهرم Zygophyllum quatarense في اطراف سبخة دخـــان ٠



صورة رقم (١٠)

جمل يرعى نباتات الخريـــز Halopeplis perfoliata فى سبخة دخان ٠

المدخل الرمزي لدراسة المجتمع

الدكتور / السيد حافظ الاسود

مدرس بقسم الاجتماع

كلية الآداب جامعة طنطا

بالرغم من ان اهتمام علم الانثروبولوجيا بالرموز والسلوك الرمزي في دراسة الثقافة والمجتمع يرجع الى مائة سنة على الاقل الا ان هذا الاهتمام وخاصة في فترة ما قبل الستينات من هذا القرن لم يتصف بالاتساق والتركيز ولم ينتج عنه دراسة رمزية او منهجا رمزيا متكاملا في دراسة الظواهر الاجتماعية. وفي الستينات والسبعينات من هذا القرن الى الوقت الحاضر شهدت العلوم الانثروبولوجية والاجتماعية تطورا ملحوظا اتسم بالسرعة والتركيز في تأسيس وتطبيق المناهج والنظريات التي تتخذ من الرموز في اي شكل لها محاورا اساسية في دراسة وتحليل المجتمعات والثقافات.

وفي حقيقة الامر لا تقتصر دراسة الرموز على العلوم الانثروبولوجية والاجتماعية بل انها تحتل مكانا متميزا في الدراسات الفلسفية واللغوية والادبية والفولكلورية والسيكولوجية وغيرها من الدراسات. وكل دراسة من هذه الدراسات تتناول الرموز بالبحث طبقا لمنهج او مدخل معين يميزها دون سائر الدراسات الاخرى بالرغم من وجود نوع من التداخل والاعتماد المتبادل فيما بينها. وفي هذه الدراسة التي نحن بصددها سوف لا تتناول الاختلافات والفروق المنهجية بين تلك العلوم المختلفة، اذ ان ذلك يحتاج لدراسة مستقلة، بل سوف نستعرض اهم المناهج والنظريات او المداخل الرمزية داخل علم الانثروبولوجيا ذاته، وبعبارة اخرى سوف تتعرض الدراسة للنقاط التالية:

اولا: اهم التعريفات والاستخدامات المختلفة للرمز.

ثانيا: اهم خصائص ووظائف الرموز المتميزة والتي جذبت انتباه واهتمام المشتغلين بالدراسات الرمزية.

ثالثا: التصنيف الانثروبولوجي للرموز.

رابعا: دراسة تحليلية مقارنة لاهم المداخل او المناهج والنظريات الرمزية في دراسة المجتمع والتي تشكل في مجموعها ما يعرف الآن بالانثروبولوجيا الرمزية. Symblic Anthropology

مشكلة التعريف:

ان مشكلة تعريف كلمة او تصور «رمز» لا زالت موضع الاعتبار والنظر من قبل علماء الانثروبولوجيا. ويتساءل بعض هؤلاء العلماء مثل ملفورد سبيرو Melford Spire «ما هو الرمز. . . ؟ وبصورة اكثر تحديدا ما هو الرمز الثقافي» (١). بينما يذهب ريموند فيرث Raymond Firth قائلا «اننا نحتاج لفحص ماذا يقصد بكلمة رمز» (٢). ويؤكد كذلك جيمس فيرناندز James Fernandez ذاهبا الى ان مصطلح او تصور «رمز» هو تصور له معان وتعريفات متعددة وكثيرة بشكل يستلزم اعادة فحصه (٣).

يمكن القول ان هناك اربعة اتجاهات رئيسية في استخدام تصور «رمز»، ويمكن اجمال المبادىء الاساسية لهذه الاتجاهات فيما يلي:

اولا: اصحاب الاتجاه الاول لا يتقيدون في دراساتهم بمشكلة تعريف الرمز معتقدين ان معناه من البداهة والوضوح بحيث لا يحتاج الى تعريف محدد بالذات. ويتزعم هذا الاتجاه جود فري لينهارت Godfrey Lienhardt الذي لم يقدم تعريفا واحدا للرمز في دراسته عن الدنكا The Dinka والذي خصص فيها فصلا كاملا عن الفعل الرمزي Symbolic action بالاضافة الى الاستخدامات المتعددة لمصطلح «الرمز» في تلك الدراسة. ويذهب لينهارت الى انه يمكن النظر الى الرموز من جانبين. فمن ناحية يمكن اعتبارها شكلا من اشكال التشبيه او المجاز metaphor، ومن ناحية اخرى يمكن اعتبارها فعلا من الافعال الرمزية. فالماشية في مجتمع الدنكا تعتبر مصدرا غنيا لكثير من التشبيهات والمجازات الجوهرية ذات التأثير الكبير على مدركات الافراد الحسية وتفكيرهم ومشاعرهم وسلوكهم، وهي باختصار المجاز الجوهري root mata-

phor فالادراك الحسي للون والضوء والظل الذي يدركه افراد مجتمع الدنكا عن العالم المحيط بهم يكون مرتبطا بصورة جوهرية ومتأثرا بادراكاتهم ومعرفتهم لتشكيلات الالوان المميزة للماشية والتي اختبروها منذ طفولتهم المبكرة. واذا ما استبعدت مفردات الوان الماشية من لغة وحياة افراد مجتمع الدنكا ـ كما يذهب لينهارت ـ فانه من الصعب عليهم وصف الخبرة البصرية في حدود من اللون والضوء والظلام. ويرتبط الرمز بمفهوم الهوية فعندما يصل الصبية في مجتمع الدنكا الى مرحلة الرجولة فانهم ينتقون اسماء الوان الثور بالاضافة الى الاسماء الشخصية الخاصة بهم والمعروفين بها. ويلقب الرجل باسم الثور ولونه الذي انتقاه خلال شعائر التكريس. وبذلك يصبح كل فرد متوحدا مع ثور معين ومتميزا عن اقرانه بلون محدد.

ويقصد لينهارت بالفعل الرمزي ذلك الفعل الذي يستخدم في مواقف وحالات لا يصلح فيها استخدام الفعل العملي او التقني. فالفعل الرمزي يستهدف السيطرة على الاتجاهات العقلية والاخلاقية من خلال اقامة طقوس وشعائر معينة.

وعلى سبيل المثال يتمثل الفعل الرمزي الذي يستخدمه افراد مجتمع الدنكا بغرض تطهير من انتهك الزنا بالمحارم في ان يؤخذ مقترف هذا الاثم برفقة بعض الاصدقاء الى بركة ماء حيث يقوم الاهل (بتوجيه من زعيم رمح الصيد) بتغطيسه في الماء ثم يؤخذ كبش (خروف) ويغطس ايضا في الماء. وبهذا الفعل الرمزي تنقل الخطيئة الى الكبش الذي يؤخذ بعد ذلك ويشطر حيا الى نصفين على ان يكون الشطر طوليا، ثم يوضع عضو التناسل ويشطر ايضا طوليا الى نصفين بعد فصلة عن الاجزاء الاخرى من الكبش. ثم بعد ذلك توزع الاجزاء على الحاضرين وتؤكل. (٤)

ثانيا: اصحاب الاتجاه الثاني في استخدام الرمز يعتمدون على التعريفات اللغوية المستمدة من المعاجم. وعادة ما يلجأ العلماء الى ذلك اما لعدم وجود تعريف جامع مانع مقبول او لاجل تدعيم وجهة نظر معينة تتفق وذلك التعريف اللغوي، ولقد استخدم فيكتور تيرنر Victor Turner الذي يعد من احد رواد المدخل الرمزي والذي سنعرض له بالتفصيل فيما بعد ـ التعريف اللغوي

للرمز مقتبسا اياه من قاموس اكستورد الموجز. وطبقا لهذا التعريف فان الرمز هو «شيء متفق عليه بالاجماع العام على انه يمثل او يستدعي شيء آخر بصورة طبيعية عن طريق امتلاك صفات مماثلة او عن طريق الارتباط في الواقع او الفكر» (٥).

ثالثا: يميل اصحاب الاتجاه الثالث الى استخدام مفهوم «الرمز» طبقا لتعريفات وضعت بواسطتهم او بواسطة مفكرين وعلماء آخرين. والغالبية العظمى من علماء الانثروبولوجيا يتبعون هذا الاتجاه. ومن اهم التعريفات المستخدمة تلك التعريفات التي ترجع في اساسها الى اعمال الفلاسفة وعلماء اللغة امثال تشارلز بيرس Charles Peirce ودي سوسير De Saussure

والرمز عند بيرس Peirce يندرج تحت مفهوم الاشارة Sign التي يقسمها الى ثلاثة أنواع هي الصورة Icon والدليل Index والرمز Synbol. والصورة icon عبارة عن صورة شيء او موضوع تقوم على اساس وجود تشابه بينها وبين الموضوع المشار اليه. ومن الامثلة على هذا النوع من الاشارة الصور الفوتوغرافية، والتماثيل والخرائط والرسوم البيانية. والنوع الثاني من الاشارة هو الدليل index ومن اهم خصائصه هو انه يشير الى الموضوع المشار اليه بسبب تأثره بذلك الموضوع. فالعلاقة بين الدليل والموضوع المشار اليه تقوم على الاتصال وليس على التشابه. فالدليل جزء من الموضوع المشار اليه ويتأثر به وذلك مثل اعراض المرض (التي تشير الى وجود مرض معين) والسحب الداكنة (التي تشير الى وقوع او اقتراب هطول المطر)، والطرق على الباب (الذي يشير الى هناك شخصا يطرق الباب). ويمثل الرمز Symbol النوع الثالث من الاشارات. ويشير الرمز الى الموضوع المشار اليه بفضل قانون أو عادة او اتفاق أو ارتباط في الافكار من حيث انه يعني ذلك الموضوع. وفي هذا المعنى تعتبر الكلمات والجمل او العبارات والكتب وسائر الاشارات المتفق عليها رموزا ويلعب المفسر او الشخص الذي يقوم بتفسير الرمز دورا اساسيا في اعطاء الرمز خاصيته الرمزية (٦).

ولقد طبق كثير من علماء الانثروبولوجيا تعريف او تصنيف بيرس Peirce للرموز في دراساتهم. وهذا ما فعله، على سبيل المثال، روى رابابورت Roy Rappaport في

دراسته عن الشعائر في سيمباجا Tsembaga (احدى الجماعات التي تتحدث لغة ماريخ Maring بغينيا الجديدة .(٧)

الرمز عند دي سوسير De Saussure هو نوع من الاشارة Sign يطلق عليه اسم المشير او الدالة Signifier. والاشارة تعني ارتباط كلي بين تصور ما Concept وصورة صوتية sound image محددة. وعلى سبيل المثال كلمة «شجرة» هي عبارة عن صوت مرتبط به تصور معين والعلاقة بينهما اي بين الصورة الصوتية والتصور هي علاقة تعسفية. ونفس الخاصية تنطبق على الرمز Symbol الذي هو اشارة او دالة Signifier للمعنى او التصور المرموز اليه Signified، فالرمز هو حامل التصور او المعنى. وبالرغم من اشتراك الرمز مع الاشارة في صفة التعسف القائمة بينه وبين التصور المرموز اليه، الا ان دي سوسير يذهب الى ان الرمز ليس تعسفيا بصورة كاملة او مطلقة كما انه ليس فارغا من المعنى حيث توجد رابطة طبيعية بين الرمز والمرموز اليه. وعلى سبيل المثال الميزان هو رمز العدالة ولا يمكن استبداله برمز آخر مثل المركبة او العربة .(٨)

استخدم كليفورد جيرتز Clifiord Geertz ـ الذي سوف نعرض له بالتفصيل فيما بعد ـ مفهوم الرمز عند دي سوسير. والرمز عند جيرتز هو اي شيء يدل على شيء آخر لشخص ما، ويمكن لاي موضوع او فعل او حدث او علاقة ان يصلح كحامل لتصور ما، فالتصور هو معنى الرمز. فالرمز هو حامل للتصور او المعنى سواء اكان ذلك الحامل موضوعا ماديا او فعلا او حادثة او صفة او علاقة.

ويعتبر ادوارد سابير Edward Sapir من علماء الانثروبولوجيا الذين اهتموا بتقديم تعريفات للرموز من خلال دراساتهم في علم اللغة Linguistics ويقصد سابير بالرمز موضوع او علامة او اشارة الهدف منها استدعاء وتوجيه الاهتمام الخاص نحو شخص او موضوع او فكرة او نشاط مرتبط بصورة مبهمة او غير مرتبط على الاطلاق على اساس طبيعي بذلك الرمز. ويذهب الى ان كثيرا من الاشياء والموضوعات التي لا تعتبر هامة في حد ذاتها مثل الاعلام واشارات المرور تكتسب الصفة الرمزية على اساس انها تشير الى افكار وافعال ذات أهمية كبيرة في المجتمع .(٩)

ويقدم ديفيد شنايدر David Schneider احد رواد الانثروبولوجيا الرمـزيـة ـ تعريفا للرمز يقترب من تعريف دي سوسير De Saussure وسابير Sapir حيث يقول ان الرمز هو شيء يمثل او يصور شيء آخر على اساس من العـلاقـة التعسفيـة لا الضرورية. فالرمز بعبارة اخـرى هـو «شيء يمثل او يحل محل شيء آخـر لا تـربطـه بـه علاقة جوهرية او ضرورية بل ان العلاقة بين الرمز والمرموز اليه علاقة تعسفية» (١٠).

رابعا: يهتم اصحاب هذا الاتجاه الاخير بدراسة الرموز دون تقديم تعريفـات مسبقـة بل يركزون على التعريفـات والاستخـدامـات المحليـة التي يقـدمهـا افـراد المجتمع المدروس. وهذا الاتجاه نجده متمثلا في دراسة ايفانز بريتشـارد -Evans pritd hardلديانة النوير Nuer وبعض علماء الانثرولوجيا الآخرين الـذين يهتمـون بتعريفات المواطنين للرمـوز بـالـرغم من ان لـديهم تعـريفـاتهم الخاصـة بهم. ويوضح ايفانز بريتشارد كيف ان الرمز لدى افراد مجتمع النويـر لا يشير الى شيء مادي يرمـز الى فكـرة او تصـور مـا بل يعني ان فكـرة تـرمـز الى فكـرة اخـرى. وبالاضافة الى ذلك لا يقتصر معنى الرمز ومفهومـه في ذلك المجتمع على وجـود تصـورين او فكـرتين بمعنى ان فكـرة تحل محل (او تشير الى) فكـرة اخـرى، بل يتطلب الرمز ثلاثة تصورات او افكار. ويفسر ايفانز بريتشارد ذلك بقوله انـه في مجتمع النوير هناك اعتقاد لدى الافراد ان «التـوأمين هما طـائران» والعـلاقـة بين التوام والطائر هنا ليست علاقة ثنائية بين شئين او تصورين بل هي علاقة ثلاثية بمعنى ان الاعتقاد ان «التوام طائر» لا يفهم الا بـوجـود تصـور ثـالث مستتر في نسق تفكير افراد مجتمع النوير. وهذا التصور الثالث هو «الله». فـافـراد مجتمع النوير يعتقدون ان التـوام يشبـه الطـائر من حيث هـو مخلـوق علـوي يعيش في السماء كمانه طبقا لهذا المعنى هو احـد ابنـاء اللـه. ويضرب ايفـانـز بـريتشـارد Evans - Pritchardمثالا آخر من مجتمع النوير ايضا. فعندما يقـول افـراد ذلك المجتمع ان «الخيارة ثور» فان ذلك القول لا يمكن فهمـه بـوضـوح، ولكن العلاقة بين (الخيارة) كرمز وبين الثور تفهم في مضمون الشعيرة او القربان حيث يظهر التصور الثالث وهو «الله»، فالخيارة في القربان او الاضحيـة يقبلهـا اللـه لتحل محل الثور. (١١)

ويجب ان نؤكد هنا ان كثير من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع لا يتقيدون باتجاه واحد محدد في استخدام وتعريف الرموز، حيث توجد الشواهد على وجود دراسات استخدم فيها بعض علماء الانثروبولوجيا اكثر من تعريف واحد وعلى سبيل المثال يستخدم فيكتور تيرنر Vicotr Turner تعريف المعجم اللغوي للرمز

- كما سبقت الاشارة الى ذلك - بالاضافة الى اهتمامه بتعريفات اخرى قدمها علماء اخرون مثل ذلك التعريف الذي اقتبسه من كارل يونج Carl Young الذي يميز فيه بين الاشارة والرمز، وطبقا لهذا التمييز فان الاشارة هي تعبير مشابها، ومختصر لشيء معروف. لكن الرمز فهو دائما افضل تعبير ممكن عن حقيقة مجهولة او غير معروفة نسبيا، لكن وجود هذه الحقيقة مدرك او مسلم به.

الرموز : خصائصها ووظائفها

تلعب الرموز دورا هاما في فهم المجتمعات البشرية اذ أن المجتمع والثقافة ينظر اليهما على انهما انساق اجتماعية وثقافية او رمزية. فالثقافة تعرف على أنها نسق معنوى أو رمزي أو على حد تعبير جيرتز Geertz هي «نمط من المعاني المتضمنة في رموز، والمنقولة تاريخيا، وهي نسق من التصورات المتوارثة المعبر عنها في اشكال رمزية عن طريقها يتصل الناس بعضهم ببعض ويواصلون وينمون معرفتهم واتجاهاتهم نحو الحياة [١٢] وإذا كانت الثقافة تتألف من انماط ثقافية مثل الدين والايدولوجيا والحس العام والفن ونحو ذلك فإن هذه الانماط هي الاخرى أنساق من الرموز تتحد وتتكامل كل منها مع الاخرى.

وسوف نجمل فيما يلي أهم الخصائص والوظائف المميزة والتي جذبت علماء الانثروبولوجيا والاجتماع لدراستها من ناحية، والاعتماد عليها في دراسة المجتمع والثقافة من ناحية اخرى.

أولا : تتصف الرموز بأنها جمعية. فالرموز على حد تعبير دوركيم Durkheim هي ظواهر جمعية بمعنى انها سابقة على وجود الافراد، وأنها في متناول الجميع

بالاضافة الى أنها تكون متضمنة في سلوك هؤلاء الافراد وافعالهم. وبأختصار شديد التصورات الجمعية Collective Representations عند دوركيم تعنى الرموز. وبالرغم من أن الرموز بهذا المعنى ليست من خلق شخص أو فرد بعينه الا انها تتصف بالخصوصية بمعنى أن شخصا واحدا قد يعتنقها ويؤمن باهميتها في حياته الخاصة بحيث يصبح الرموز الجمعي العام رمزيا شخصيا خاصا بفرد معين. ولكن هذه الخصوصية لا تتعارض مغ الصفة الاساسية للرموز وهي كونها عامة وجمعية ومتفق عليها او يشترك فيها افراد مجتمع معين. وباختصار تتأسس الرموز تاريخيا وتستخدم بصورة فردية او خاصة وتبقى وتستمر اجتماعيا. (١٣)

واهمية الرموز الجمعية العامة تظهر في حقيقة أن الافراد يشتركون فيها ويستخدمونها في حياتهم اليومية. فبدون الرموز المشتركة ـ الجمعية والعامة ـ لا يمكن أن توجد مفاهيم أو معان وبالتالي لا يمكن أن توجد الجماعة اساسا.

ثانيا: الرموز شكل من اشكال التعبير. تبدو خاصية الرموز من حيث هي شكل متميز من اشكال التعبير في الرموز الدينية والسياسية والملابس القومية والاعلام والنصوص المكتوبة والرسوم والنقوش، التي تستثير الانفعالات القوية حول التوحد مع المجتمع أو الجماعة. فالرموز تدفع الناس للتفكير والتعبير عن فكرهم ذلك لأنها دائما تحمل معان كثيرة، وتتميز بالمرونة وسهولة التشكل والحضور في اكثر من شكل تعبيري واحد. وتظهر هذه الخاصية بأجلى صورها في الرموز التي تحملها عناصر التراث الشفاهي أو الشعبي من اساطير وحكايات واغان وامثال شعبية (١٤) وكذلك في لغة الجسد او البدن والفنون الشعبية وسائر اشكال اللغة والشعائر والموسيقى.

ثالثا: الرموز وسائل هامة في عملية الاتصال والتفاعل الاجتماعي. من حيث هي شكل من اشكال التعبير ومن حيث هي قوالب حاملة للمعاني والمفاهيم تقوم الرموز بمساعدة الافراد على تحقيق الاتصال بعضهم ببعض. واهمية الرموز في عملية الاتصال والتفاعل الاجتماعي تتضح في حقيقة انها تحل محل الاشياء

المرموز اليها، فـالافـراد يفكـرون ويعبرون عن تفكيرهـم بكلمات التي هي رمـوز وتصـورات تسهل عمليـة الاتصـال والتفـاعل الاجتماعي فيما بينهم وعلى سبيل المثـال يمكن لشخصين مختلفين تمامـا في حـواسهم العضـويـة واهتمامـاتهم ومشاعرهـم ان يفهم كل منهما الآخر اذا كانت تصوراتهم عن موضـوع أو شيء أو شخص متطابقة أو متشابهة إذا كانت هـذه التصـورات المشتركـة معبر عنهـا في رموز متفق عليها (١٥). فالرمو ذاتها تكون موضوع التفكير ذلك لانها تحل محل أو تمثل الاشياء او التصورات او الافكار المرموز اليها.

وبالاضافة الى ذلك تستخدم الرموز او تكون متضمنـة في الافعـال الـرمـزيـة وانماط السلوك الـرمـزي السـائدة في مجتمع معين. ان اداء شعيرة معينـة او فعل رمـزي يسمح بتوصيل الافكار واعادة صياغتها بالاستعانة بحد أدنى من الكلمات أو بدون استخـدام الكلمات على الاطلاق.

رابعا: الرموز وسـائل لتحصيل وتخزين المعـرفـة. ان الادراك وانـواع المعـرفـة المختلفـة العلمية وغير العلمية، كما يذهب بارسونـز T. Parsons تتأسس على الرموز وهناك اختلاف بسيط بين استخدام العلم للرموز والاستخدامات الاخـرى لها. ففي العلم هناك علاقة بسيطة بين الرموز المرموز اليه، حيث يشير الرمز مبـاشرة الى الموضوع الطبيعي المادي. بينما في الدين على سبيل المثال يتصف الرمز بقدرته على الاشارة الرمزية المزدوجة أو المتعـددة بمعنى أنـه يشير إلى اكثـر من معنى في وقت واحد ومن حيث هي حامـلات للتصـورات بمعنى أنـه يشير الى اكثـر من معنى في وقت واحد ومن حيث هي حاملات للتصورات والافكار تتسم الرمـوز بقدرتها على توضيح المعاني المجردة بعد لن تجعلهـا مشخصـة. وهـذه الخاصيـة جعلت فيكتور تيرنر V. Turner يذهب الى أن الرموز عوامل ووسائل هامة في عملية الاتصال وتحصيل المعرفة في المجتمعات غير المتأدبة ويقول تيرنر ايضـا ان الـرمـوز تمثل مخزونـا للمعـرفـة لكل من الفـاعل او المبحـوث والبـاحث او الانثروبولوجي نفسه. ان عملية التصور الرمزي -symbolic representa

tionهي عبارة عن تجريد صفة عامة دون الدخول في تفـاصيل دقيقـة وكثيرة، وهذا يعني ان المعلومات او المعاني المتعلقة بموضوع أو موضوعات معينـة يمكن تمثيلها وتخزينها في رمـز واحـد سـواء أكـان هـذا الـرمـز كلمـة أو شيء أو فعل وبالاضافة الى ذلك يشير الرمز الى تصور معقد مرتبط بقيمة معينة ويستثير لـدى مدركة تركيبا معقدا من التصورات والافكـار والانفعـالات التي تتحـول بعضهـا لتصبح رموزا . (١٦)

خامسا : الرموز وسائل فعالة في الضبط الاجتماعي ، ان ما يشير اليه الرمز يكون له قيمة في حد ذاته ، وهذه القيمة تجعل من الرمز والمرموز اليـه ـ مثل الطـوطم أو العلم والوطن ـ محل تقدير واحترام ، وتجعل أعضـاء المجتمع يسلكـون بصـورة لا تخل من توازن ذلك المجتمع . وبعبـارة اخـرى تلعب الـرمـوز دورا هـامـا في الضبط الاجتماع بمعناه الـواسع بما يتضمنـه من جـوانب رسميـة شرعيـة وجـوانب غير رسمية ترتبط بالعرف والتقاليد والرأي العام . وفي هذا المضمون تستخدم الرمـوز كميكانيزمات في الضبط الاجتماعي في اكثر من مجال . فمن ناحية تستخدم ، اي الرموز ـ كمرجع ودليل أو سند قبل ان يصبح السلوك مشكلة ، ويكـون اللجـوء الى الرموز في هـذه الحالـة ضروريـا على أسـاس أنها تمثل قيما معينـة على الافـراد الالتزام بها وعدم انتهاكها . اي ان وظيفة الرمـوز هنـا هي انها تمنع المشكلـة من الوقوع . والرموز بهذا المعنى تختلف عن استخدام القوة الفيـزيقيـة كأداة لغـرض النظـام او الضبط الاجتماعي . ويعتبر الاسـلاف والاجـداد من حيث هم رمـوز لانماط سلوكية معينة ، وكذلك الحكم والمأثـورات المستمـدة من التراث مـراجع رمزية يرجع اليها الافراد للتأكد من تطابق سلوكهم مع قوانين ومعايير المجتمع ، ومن ناحية اخرى تستخدم الرموز كوسيلة للضبط عندمـا تكـون تحت السيطـرة المباشرة لهؤلاء الذين يرغبون في التأثير على سلوك الآخرين وضبطه . وكما يـذهب رايت ميلز right Mills يحاول الذين في السلطـة تبريـر سيطـرتهم على النظم بربط سلطتهم برموز اخلاقية تكون محل الاعتقـاد من الجميع . مثل الشعـارات المقدسة والقواعد القانونية المستمدة شرعيا من الدين . (١٧)

تصنيف الرموز

كان من نتيجة اهتمام علماء الانثروبولوجيا بالرموز كمدخل لدراسة المجتمع والثقافة أن ظهرت المناهج والنظريات المختلفة التي تركز على جوانب معينة من الرموز من حيث صلاحيتها في الدراسة وبالتالي ظهرت تصنيفات متعـددة للـرمـوز استهـدفت تأسيس اطار تصنيفي علمي لأهم الرموز التي تساعد على تحقيق فهم اوضح وادق للمجتمع أو الثقافة المدروسة. ومن اكثر التصنيفات ذيوعا تلك التي قدسها ادوارد سابير Edward Sapir وفيكتور تيرنر Victor Turner وشاري اورتنر Sherry Ortner يضع سابير Sapir تمييـزا بين صنفين من الـرمـوز الصنف الاول يطلق عليـه الـرمـوز المرجعية Referential Symbols وهي تشير الى تلك الاشكـال التي تشمل اللغـة الشفاهية (الكلام) والكتابة، وشفـرة التلغـراف، والاعـلام القـوميـة وسـائر التنظيمات الاخرى من الرموز المتفق عليها والتي تعتبر وسائل اقتصادية صالحة لأغراض مـرجعيـة والنوع الثاني من الرمـوز الـذي يتميـز ايضـا بـالاقتصـاد يطلق عليـه سـابير الـرمـزيـة المكثفة Consendation symbolism المشبعة بـالانفعـالات. وهـذا النـوع من الرموز يوصف بأنه شكل مكثف جـدا من السلـوك الاستبـدالي للتعبير المبـاشر الـذي يسمح باطلاق التوتر الانفعالي في صورة شعورية او لا شعورية ومثال على هذا النوع من الرموز المكثفة او التي تتصف بالتكثيف Condensation شعيرة التطهر او الاغتسال التي يقـوم بها شخص عصـابي مـريض بـالاستحـواذ طبقـا لتفسير التحليل النفسي. ويذهب سابير الى أنه في السلوك الفعلي الواقعي يمتـزج ويتـداخل هـذين النـوعين من الرموز فيما بينهما. وعلى سبيل المثال يمكن لانواع معينة من الكتابة والشعارات اللفظية - التي هي رموز مرجعية - أن تأخذ بسهولة صفة أو خـاصيـة الشعـائر الانفعـاليـة (او الرمـوز المكثفـة) وتصبح ذات اهميـة بـالنسبـة للفـرد والمجتمع من حيث هي اشكـال استبدالية للتعبير الانفعالي.(١٨)

وعلى ما يقول سـابير Sapir تكون الرموز المرجعية متأخرة في تطورهـا عن الـرمـوز المكثفة. فمعظم الرموز المرجعية يمكن ردها الى رموز ظهرت بشكل لا شعوري مشبعة

بخاصية انفعالية والتي اخذت بالتدريج شكل الرموز المرجعية عندما اختفت من السلوك الانفعالات المرتبطة بها، ويضرب سابير مثالا على ذلك قائلا ان هز قبضة اليد في مواجهة عدو متخيل (التي هي رمز مكثف انفعالي) تصبح رمزا مرجعيا للغضب عندما لا يقصد بذلك الفعل اي عدو سواء أكان حقيقيا أم متخيلا.

بالرغم من بساطة التصنيف الذي قدمه سابير إلا أنه اثبت قيمته وفائدة في عملية التمييز بين موضوعات العالم الخارجي (او الرموز المرجعية) وبين الحالات النفسية المتعلقة بالعالم الداخلي للفرد أو الذات (الرموز المكثفة المشبعة بالانفعالات). لكن ما يؤخذ على هذا التصنيف ذلك الاعتماد على التحليل النفسي في دراسة الرموز، وخاصة الرموز المكثفة الانفعالية، بشكل يؤثر على طبيعة التحليل الاجتماعي والثقافي، لكن هذا النقد، لا يقلل من شأن اهمية بعض التصورات التي قدمها سابير Sapir وعلى وجه التحديد خاصية التكثيف Condensation التي اخذها وطورها تيرنر Turner في دراساته الرمزية.

يميز تيرنير Turner بين نوعين من الرموز، أولا الرموز المهيمنة Dominant symbols وهي تعتبر اهدافا في حد ذاتها سواء أكانت هذه الرموز متضمنة في الشعائر او مستخدمة في التفاعل الاجتماعي. ثانيا، الرموز الوسيلية Instrumental symbolsوهي رموز تستخدم كوسائل لتحقيق الأغراض أو الأهداف الاساسية في شعيرة معينة أو في التفاعل الاجتماعي.

تتسم الرموز المهيمنة بالخصائص التالية:

١ـ التكثيف Condensation بمعنى أن عدة أفكار وتصورات وانفعالات وافعال تتبلور وتتمثل في رمز واحد أو صياغة رمزية واحدة، وفي هذا المعنى يجمع تيرنر Turner بين مفهوم الرموز المرجعية ومفهوم الرموز المكثفة التي أشار اليها سابير Sapir فالرموز المهيمنة عند تيرنر هي رموز مرجعية وتكثيفية او مكثفة في نفس الوقت. واذا كان سابير ـ كما يقول تيرنر ـ ركز على الجانب الانفعالي من الرموز المكثفة، فان الرموز المهيمنة تتصف باتحاد الجانب الفكري او المعرفي والجانب الوجداني الانفعالي في وحدة واحدة.

٢ـ الوحدة Unirication او وحدة الرموز والمعاني المختلفة في صياغة رمزية واحـدة. ولتوضيح هذه الخاصية يضرب تيرنر Turner مثالا من مجتمع ديمبو N dembu (شمال غرب زامبيا Zambia أو روديسيا الشحانية أثناء دراسة تيرنر الميدانية للقبيلة او المجتمع). ففي هذا المجتمع توجد شجر لبن milk (Mudyi Tree) tree تستخدم كرمز أساسي تستخدم كرمز أساسي أو مهيمن يحتوي في مضمونه عدة معان مختلفة. فهذه الشجرة تعني الامومة، ومبدأ الانتساب إلى الأم، كما أنها تعني أيضا صدر المرأة (وذلك الوجود المادة البيضاء التي تشبه اللبن)، ووحدة واستمرارية مجتمع ديمبو ككل. لكن كل هذه المعاني يمكن توحيدها وربطها فيما بينها داخل إطار معنى واحد وهو التغذية nourishment والاعتماد dependence.

٣ـ قطبية المعنى Polarization of meaning وهذه الخاصية تعني أن الرموز المهيمنة تحتوي على أبعاد أو أقطاب متقابلة ويميز تيرنر Turner بين قطبين. اولا القطب الحسي Sensory او الفسيولوجي الذي يرتبط بالشكل الخارجي للرمز ويرتبط ايضا بوجدان ومشاعر ورغبات الناس. ثانيا، القطب الايديولوجي Ideological او المعرفي والمعياري. ويرتبط هذا القطب بالافكار والمعايير والقيم التي يتوجه وتحكم اعضاء المجتمع في تفاعلهم وسلوكهم. وبالاشارة الى المثال السابق المتعلق بشجرة اللبن التي تستخدم في شعيرة نضج الفتاة في مجتمع ديمبو، يذهب تيرنر إلى أن الجانب او القطب الحسي (الفسيولوجي الخارجي) يتمثل في علاقة التشابه الموجودة بين لبن صدر المرأة والمادة اللزجة البيضاء التي تفرزها شجرة اللبن. وعلى مستوى القطب الايديولوجي أو الفكري فإن شجرة اللبن ترمز الى معاني الانوثة والامومة ووحدة واستمرارية الجماعات المؤلفة لمجتع ديمبو.

بالنسبة للنوع الثاني من الرموز وهو الرموز الوسيلية instrumental symbols يقول تيرنر Turner انها لا تكتسب اهميتها من حيث هي رموز في حد ذاتها بل من حيث هي وسائل لاغراض واهداف محددة، ففي مجتمع ديمبو N dembu هناك

شعيرة تستهدف تخصيب النساء وفي هذه الشعيرة تستخدم أجزاء من اشجار محملة بالثمار كوسيلة لتخصيب النساء. ويعتقد اهالي مجتمع ديمبو أن الثمار هنا تمثل (أو ترمز الى) الى الاطفال. كما ان هذه الثمار لها تأثير ايجابي في عملية التخصيب كما يعتقد افراد ذلك المجتمع. وعلى هذا الاساس ينظر تيرنر Turner لهذه الثمار على أنها رموز وسيلية تستخدم لتحقيق هدف أساسي للشعيرة وهو تخصيب النساء. (١٩)

هناك تصنيف آخر للرموز وضعه تيرنر. وهذا التصنيف يتعلق بالأسس التي تقوم عليها معاني الرموز. ويشير تيرنر الى ثلاثة أسس ترتبط بها ثلاثة انواع من معاني الرموز.

١ ـ الأساس الاسمى Nominal ويتعلق باسم الرمز.

٢ ـ الأساس المادي او الجوهري substantial ويشير الى الخصائص الفيزيقية والكيمائية للرمز الذي تخضع للادراك الحسي والتي تدرك ثقافيا.

٣ـ الأساس الفني الصناعي Artifactual ويرتبط بالتغير التقني Techinical لموضوع يستخدم في الشعيرة بواسطة نشاط بشري هادف.

ولتوضيح هذه الاسس الثلاثة نشير الى المثال الذي استخدمه تيرنر. ففي نياقوسا Nyakyusa بتنزانيا Tanzania يوجد دواء يسمى اندوميلا Undumila يستخدم في شعائر بلوغ ونضج الفتاة والأساس الاسمى لهذا الدواء مشتق من كلمة يوكولوميلا Ukulumila التي تعني «يعض أو مؤلما». أما الأساس المادي الجوهرى فيتمثل في الخاصية الطبيعية للجذر النباتي المستخدم في الدواء والتي تجذبه الفتاة بأسنانها بعد وضعه في كوب. بينما يتمثل الأساس الفني الصناعي في المواد الرمزية المتعددة المؤلفة لذلك الدواء الذي يعتبر في حد ذاته رمزا أساسيا. وطبقا للتفسيرات المحلية التي يقدمها المواطنون ـ كما يقول تيرنر Turner ـ فإن هذا الدواء هو رمز وقائي ضد آلام الدورة الشهرية والجماع الجنسي بين الفتاة أو المرأة وزوجها وهذه الآلام يرمز اليها بتلك الألام التي تختبرها الفتاة عندما تأكل جذور النبات والملح المضاف اليها. بالاضافة الى ذلك فان عملية تناول الجذور النباتية لاذعة المذاق هي تمثيل رمزي لعملية الجماع ذاتها. (٢٠)

إن محاولة تيرنر لتصنيف الرموز وربطها بالمجتمع والثقافة هي محاولة مثمرة يمكن

الاستفادة منها وتطبيقها في مجالات الدراسات الرمـزيـة المتعـددة. لكن تيرنـر لم يصب عندما أراد أن يضفي على الرموز المهيمنة خصائص وصفات متعددة لا تعدو في الـواقع الا أن تكون مجرد تكرار أو صياغة مختلفة لخاصية أسـاسيـة واحـدة. وهـذا المشكلـة في حقيقة الأمر متعلقة بمشكلة اختيار المصطلحات والتصورات المناسبة. فبالـرغم من أن تيرنر حاول أن يؤسس مصطلحات دقيقة لتحديد أهم الخصائص الرمـزيـة الا أن كثيرا من هذه المصطلحات او الصفـات تتـداخل فيما بينهـا ويختلط بعضهـا ببعض بصـورة تجعل من متابعة ما يعنية تيرنر بها أمرا صعبا. فعلى سبيل المثال توصف الرمـوز المهيمنـة على أنها تحتوي على معان كثيرة في وقت واحـد، وأنها تختص بصفـة التكثيف التي تعني أن مجموعة مختلفة من الافكار والاشياء والافعال تكون متمثلـة في رمـز واحـد، ثم انها ـ اي الرموز المهيمنة ـ تمتاز بخاصية توحيد المعاني المختلفة في صيـاغـة رمـزيـة واحـدة. وبالاضافة الى ذلك توصف الرموز المهيمنة على انها دائما متعددة المعانيPolesemous and multivocal ولا يخفى على القارىء التداخل الملحوظ في معاني تلك المصطلحات او التصورات التي هي في الواقع عبارات مختلفـة لخاصيـة التكثيف. لكن هذا النقد لا يقلل من قيمة واهمية التصنيف الر ئيسي الذي وضعه تيرنر للرموز المهيمنـة والرموز الوسيلية. وسوف نتعرض لذلك الجانب بالتفصيل فيما بعد، وبصفـة خـاصـة عند مناقشة المنهج والنظرية.

نأتي الان الى التصنيف الذي وضعته شاري اورتنر Sherry Ortner تميز اورتنر بين نوعين من الرمـوز هما الـرمـوز التلخيصيـة Summarizing symbols والرموز التفسيرية (التفصيلية) Elaborating symbols وتصف هذين النوعين من الرموز بانهما رموز أساسية محورية Key symbols.

النوع الأول من الرموز ـ الـرمـوز التلخيصيـة ـ يلخص ويمثل بصـورة يغلب عليهـا الطابق الانفعـالي المعني الكـامل لنسق رمـزي او ثقـافي. وتتميـز الـرمـوز التلخيصيـة بخواص التكثيف والاختصار والتركيز. وهي تشمل الرموز المقدسة وكل العناصر التي تكون موضع التقدير والاحترام والا عتزاز والمشبعة بـالانفعـالات مثل العلم والصليب، على سبيل المثال. فهذه الرموز ترتبط ارتباطا قـويـا بـاتجاهـات النـاس وتفـرض عليهم

التزامات معينة كما انها تشير الى اشياء ومعان مختلفة في وقت واحد. وهذه الخاصية تكون مماثلة او مطابقة لخاصية التكثيف عند كل من ادوارد سابير E. Sapir وفيكتور تيرنر V. Turner

النوع الثاني من الرموز يشمل الرموز التفسيرية (التفصيلية)-Elaborating symbols وهذه الرموز، على عكس الرموز التلخيصية، تقدم الأطر لتمييز المشاعر والأفكار المركبة غير المتميزة، بحيث تجعلها مفهومة وسهلة التناول، وبالاضافة الى ذلك فإن الرموز التفسيرية التفصيلية تترجم الافكار الى افعال ذلك لأنها تتمتع بالقدرة على تنظيم الخبرة أو التجربة بفضل خاصيتها التحليلية، وهي من النادر أن تكون رموزا مقدسة أو موضع انفعالات قوية لكنها تكتسب مكانتها بفضل وجودها المنتظم والمتكرر في السلوك الرمزي والانساق الثقافية. (٢١)

وطبقا لتصنيف اورتنر تنقسم الرموز التفسيرية التفصيلية الى صنفين:

١ـ المجاز الجوهري Root metaphor

٢ـ السيناريو الأساس Key Scenario

المجاز الجوهري هو رمز اساسي يتميز بقوة تصورية هي منبع ومصدر كل التوجهات المعرفية والوجدانية. وهو ايضا رمز يعمل كي يميز الخبرة ويضعها في مقولات ثقافية محددة مما يساعد التفكير على تتبع العلاقة بين هذه المقولات، فمن وظيفة المجاز الجوهري هي انه يكشف عن وحدة التوجيه الثقافي الكامن تحت الجوانب المتعددة من الخبرة، وتذهب اورتنر الى ان «الماشية» في مجتمع الدنكا التي درسها لينهارت Linhardt والتي عرضنا لها فيما سبق ـ يمكن النظر اليها على أنها مجاز جوهري ومنبع لكثير من الصور التشبيهية والذهنية ذات التأثير القوي على تفكير ووجدان الافراد. ويظهر ذلك جليا في تصور افراد مجتمع الدنكا عن بناء مجتمعهم في ضوء المجاز او تشبيهه بالتكوين الفيزيقي للثور.

وإذا كان المجاز الجوهري يقدم المقولات لتنظيم الخبرة التصورية، فان النوع الثاني من الرموز التفسيرية التفصيلية وهو السيناريو الأساسي يقدم الاستراتيجيات لتنظيم خبرة الفعل action experience كما أنه يقدم ميكانيزمات الفعل الاجتماعي،

ومعنى أن رموز السيناريو الاساسي تمتلك قوة تنظيم الفعل هو أنها تقدم الاساليب الهامة في توجيه أفعال وخبرات الأفراد في حياتهم اليومية العادية. فالسيناريو الأساسي يدور حول الوسيلة في علاقتها بالفعل في ثقافة معينة. ويشمل السيناريو الاساسي الشعائر والافعال والممارسات وانماط السلوك السائدة في ثقافة معينة، ففي المجتمع الامريكي ـ كما تذهب اورتنر ـ تمثل قيمة «العمل الجاد» سيناريو اساسي في حياة افراد ذلك المجتمع لتحقيق الثراء والقوة. وهذا المعني المتعلق بالسيناريو الأساسي كرمز يشير الى الفعل والغاية والوسيلة يقترب الى حد كبير من معنى الرموز الوسيلية التي أشار اليها تيرنر Turner والتي ترتبط بالفعل والعملية الاجتماعية لتحقيق هدف معين.

إن الرمز الأساسي المحوري سواء أكان رمزا تلخيصيا أم تفسيريا تفصيليا له علاقة بالتنظيم الداخلي لنسق المعنى الثقافي طالما أن ذلك النسق يقوم بوظيفة للافراد الفاعلين وهي توجيه حياتهم الاجتماعية. وبالرغم من أن اورتنر Ortner تضع كل من الرموز التلخيصية والتفسيرية التفصيلية تحت صنف واحد وهو الرموز الأساسية-Key sym-bols إلا أنها تقارن بينهما على أساس اختلاف صفة الأساسية Keyness في كل منهما. وسوف نشير الى ذلك التمييز باختصار شديد في النقاط التالية:

١ـ المضمون في مقابل الشكل. إن صفة «الاساسية» المرتبطة بالرمز التلخيصي تنبع من المعاني الجوهرية المتعلقة بمضمون ذلك الرمز وأولوياتها المنطقية في علاقتها بمعان أخرى في النسق. أما صفة «الأساسية» المرتبطة بالرمز التفسيري التفصيلي فتنبع من الخصائص الصورية الشكلية وتأثيرها المسلم به ثقافيا على صياغة انماط من الظواهر الثقافية التنظيمية القابلة للتطبيق على نطاق واسع.

٢ـ الكيف في مقابل الكم. إن «أساسية» الرمز التلخيصي ترتبط بجوهرية وأهمية واطلاقية المعاني التي يصيغها في علاقتها بمعان أخرى في النسق، بينما «أساسية» الرمز التفسيري التفصيلي تنبع من اتساع مجاله الى الدرجة التي يقيم أو يؤسس فيها وبصورة متسقة علاقات بين عناصر ثقافية متنوعة ومختلفة.

٣ـ الرأسي في مقابل الأفقي. إن صفة «الأساسية» المرتبطة بالرمز التلخيصي تعتمد على قدرته على ربط المعاني ذات المستوى الأدنى بإفتراضات ومعان ذات مستوى أعلى

بالاضافة الى انه يحول المعاني السطحية إلى معان عميقة. أما بالنسبة لصفة «الأساسية» المرتبطة بالرمز التفسيري التفصيلي فتنبع من قدرته على الربط الداخلي للعناصر المختلفة على نفس المستوى وذلك بفضل قدرته على ان يظهر التشابهات او المماثلات الصورة بينهما ولقد طبقت شاري اورتنر Ortner هذا التصنيف للرموز في عدة دراسات قامت بها على مجتمع شربا Sherpa (بجبال الهيمالايا)، لكن يجب ان نذكر هنا ان التصنيف الذي وضعته اورتنر هو تصنيف أولي أو مبدأي يمثل مرحلة أولى نحو وضع تصنيف أكثر اتساقا وتفصيلا.

ولعل إسهام اورتنر في الدراسة الرمزية يتمثل في انها حاولت الاجابة على سؤال يتعلق بكيفية ادراك ان موضوع او شيء ما يمثل رموزا في مجتمع او ثقافة معينة، وتذهب الى ان هناك ادلة وشواهد تشير الى وجود رمز معين في المجتمع. ومن هذه الأدلة ما يلي:

١ـ أن يكون موضوع أو رمز معين (× على سبيل المثال) له أهمية كبيرة في آراء وأحاديث أفراد المجتمع.

٢ـ أن يكون لدى هؤلاء الأفراد اتجاهات ايجابية أو سلبية نحو ذلك الموضوع (×).

٣ـ حدوث أو تكرار وقوع (×) في اكثر من فعل ومضمون مثل الشعائر والفن والاساطير ونحو ذلك.

٤ـ أن يكون (×) مركزا للتوضيحات والتفسيرات الثقافية.

٥ـ أن يكون (×) محاطا بقواعد وجزاءات ثقافية. (٢٢)

المنهج والنظرية

ظهرت المناهج والنظريات الرمزية في الستينات وتبلورت في السبعينات والثمانينات من هذا القرن. ولقد كان ظهور المناهج والنظريات الرمزية في مجال الدراسات الانثروبولوجية ردا على الاتجاهات السائدة في ذلك الوقت. ويتزعم هذه الاتجاهات

ثلاثة مدارس أو مداخل كبرى.

١ـ المدخل الوظيفي بزعامة كل من برونسلاف مالينوسكي Bronislaw Malinowski ورادكليف براون Radcliffe - Brown مؤسس المدرسة البنائية الوظيفية Structural Functional والذي أراد أن يجعل من علم الانثروبولوجيا فرعا من فروع العلوم الطبيعية. ويهتم هذا المدخل بوظيفة النظم والانساق الاجتماعية في حفظ البناء الاجتماعي واستمراره.

٢ـ المدخل المادي الثقافي الذي يعرف بالمادية الثقافية Cultural Materialism المرتبطة بالمادية التاريخية عند كارل ماركس Marx والتي ترد الظواهر الثقافية الى اسس مادية واقتصادية. ويرتبط بهذا المدخل ايضا التفسيرات الايكولوجية المادية متمثلة في كتابات ودراسات مارفن هاريس Harris واندروفايدا Vayda وغيرهم.

٣ـ المدرسة البنيوية Structuralism التي يتزعمها عالم الانثروبولوجيا الشهير ليفي ستروس Livi - Strauss وهذه المدرسة ترد الظواهر الاجتماعية والثقافية التي هي أبنية ظاهرة وسطحية ـ بحسب تعبير ليفي ستروس ـ الى ابنية عميقة ومستترة (بل ولا شعورية) تتألف من مبادىء وتصورات تكتسب معناها من خلال علاقات الضد أو التقابل الثنائية القائمة بينها بحيث ان اي تغيير في تلك العلاقات ينتج عنه تغيير في البناء ككل.

والمشاكل المنهجية والنظرية التي تعاني منها تلك المداخل الثلاثة هي أن كلا منها يركز على جانب واحد من الظواهر الاجتماعية والثقافية غافلا الجوانب الاخرى، وبعبارة اخرى يحاول كل مدخل ان يرد تلك الظواهر إلى مبدأ أو أساس واحد لا يقبل النقد او النقاش. وهذا الاساس اما ان يكون ماديا صرفا او عقليا (فكريا) محضا. وبالتالي انقسمت تلك المداخل والنظريات إلى إتجاهين رئيسيين هما الاتجاه التجريبي السلوكي (الوسيلي او الوظيفي) الذي ينعته سكوربسكي Skorupski بأنه مدخل اصحاب التفسيرات الحرفية (او الحرفيون) Literalists [٢٣] والاتجاه العقلي الفكري.

وأصحاب الاتجاه التجريبي السلوكي أو الوظيفي يعتقدون ان الفعل او السلوك

الذي يمكن ملاحظته هو الموضوع الذي يستحق الدراسة. وبالتالي فانهم يعطون للافعال أولية وأهمية على الأبنية التصورية ويذهبون إلى أن بناء الافكار ـ على عكس بناء الفعل من الصعب ملاحظته ودراسته بالاسلوب العلمي، بينما يذهب اصحاب المدخل العقلي الى ان البناء العميق (اللاشعوري) للأفكار والتصورات هو المجال الاساسي للدراسة الانثروبولوجية.

وبظهور المناهج والنظريات الرمزية حدث تحول من دراسة السلوك والبناء الاجتماعي والنسق الفكري المجرد أو المنعزل عن واقع الحياة الاجتماعية إلى الاهتمام بدراسة المعاني والرموز واللغة والادراك، واصبحت الحياة الاجتماعية تدرك وتفهم على انها تؤلف حوار أو نص Text أو نسيج من المعاني. ومن مميزات المدخل الرمزي هو انه لا يهتم بالمعنى الحرفي للسلوك أو الفعل او الظواهر الثقافية بصفة عامة بل يركز على المعنى والمغزي الكامن فيها. فالمدخل الرمزي يميز بين المعنى الحرفي أو السطحي لتلك الظواهر وبين معانيها الرمزية التي تجعلها تتسم بالاهمية والقيمة في نظر افراد المجتمع. ويهتم المدخل الرمزي بالمضمون والمحتوى، وهدفه الرئيسي هو تقديم وصف تفسيري شامل (من وجهة نظر الافراد المدروسين) لمعنى ومغزى بناء النص او الشعيرة مع الاهتمام الخاص باظهار الروابط والعلاقات الداخلية المجازية او التشبيهية داخل النص او الشعيرة او النسق الثقافي ككل. والمدخل الرمزي يدرس الجوانب المعرفية والوجدانية الانفعالية والادائية والتعبيرية لظاهرة معينة مع التركيز على الأبنية الايديولوجية العريضة الواسعة وعلى روح الثقافة Ethos داخل تلك الابنية، ولا يهتم المدخل الرمزي تأسيس نظرية عن أسباب الظواهر الثقافية والاجتماعية بل يهتم في المحل الاول بتقديم وصف تفسيري Hermeneutic لتلك الظواهر كما يفهمها أفراد المجتمع المدروس.

مع توسع وانتشار الدراسات الرمزية تعددت وتشعبت المناهج والنظريات، لكن يمكن اجمال أكثر تلك المناهج والنظريات شيوعا أو انتشارا وتأثيرا في مدخلين رئيسين.

اولا: المدخل البنيوي الرمزي ويمثله ديفيد شنايدر David Schneider وثانيا: المدخل الرمزي الوصفي التفسيري hermeneutic أو الاثنوجرافي. وهذا المدخل

ينقسم الى قسمين كبيرين احدهما بزعامة فيكتور تيرنر Turner ويهتم بالشعائر والعمليات الاجتماعية والرموز المتضمنة فيها، والثاني بزعامة كليفورد جيرتز Clifford Geertz ويهتم بالوصف الانثوجرافي المكثف Thick Descrption ومعالجة الثقافة والمجتمع على أنهما نصوص Texts يمكن قراءتها وفهمها. وسوف نتناول كل مدخل من هذه المداخل على حدة مع عقد مقارنة بين كل منها بالاخرى.

اولا: المدخل البنيوي الرمزي

يتزعم هذا المدخل، كما سبقت الاشارة ـ ديفيد شنايدر D. Schneider الذي تأثر بمفهوم الثقافة عند استاذه تالكوت بارسونز Talcott Parsons وبمفهوم البناء كما يستخدمه ليفي ستروس Livi - Strauss والثقافة عند شنايدر هي نسق او بناء رمزي يمكن تعريفه من خلال العلاقة الموجودة او القائمة بين عناصره، والمنهج البنائي الرمزي يركز على العلاقات الداخلية بين عناصر النسق الرمزي مستهدفا تحديد الرموز الاساسية والبناء العميق للنسق ككل. فالثقافة يجب أن تدرس من خلال الحدود والمصطلحات الخاصة بها ويجب الا ترد إلى أي نسق آخر غير ثقافي.

يرجع الفضل إلى ديفيد شنايدر ـ كما تقول شاري اورتنر Ortner ـ في انه (على عكس جيرتز Geertz الذي لم يهتم بالجوانب البنائية المتسقة من الثقافة) قدم دراسة متكاملة عن النسق الرمزي الثقافي، ولكن كان ذلك على حساب مفهوم الفعل الاجتماعي فقد عزل شنايدر النسق او البناء الرمزي وفصله عن الواقع الاجتماعي متمثلا في سلوك وافعال الافراد. ويقول شنايدر مؤكدا على الاتجاه البنيوي التجريدي «انني لست مهتما بوصف الانماط الفعلية للسلوك او الفعل، او بما يفعله الناس في الواقع عندما يقومون بأدوارهم، أو بالادوار التي يلعبها الناس او بالترتيبات والتنظيمات العامة في سلوك او فعل السكان موضع الدراسة.

انني اهتم بنسق الرموز والمعاني وليس بالوصف description على اي مستوى إن عناصر الثقافة تكتسب معناها من علاقة كل عنصر بالعناصر الأخرى المؤلفة لنسق

قائم على الاضداد والتقابل الثنائي . وفي هذا المعنى يقترب موقف شنايدر من آراء كل من ليفي ستروس Levi - Strauss ودي سوسير De Saussur على أساس أن المعنى عندهما يعتمد على فكرة الرمز أو تصور الاشارة Sign في علاقتها بسائر الاشارات أو الرموز الاخرى داخل نسق واحد، بمعنى أنها إشارات لا تشير الى واقع خارجي بل إلى علاقات مع رموز أو اشارات اخرى .

وفي دراسته الرمزية للنسق القرابى في المجتمع الامريكي يهتم شنايدر بالتعريف الثقافي لقواعد القرابة الامريكية وبالاشكال الرمزية التي تنعكس فيها العلاقات والمعاني المرتبطة بالرموز المستخدمة . ولقد اسس شنايدر تحليله البنائي لنسق القرابة في المجتمع الامريكي على مفهوم علاقات التقابل والاضواء الثنائية مع ربط ذلك النسق بالقواعد والمعايير الثقافية السائدة في ذلك المجتمع . ويذهب شنايدر الى ان الحب يمثل الرمز الاساسي Core symbol المحوري في نسق القرابة الامريكي . ويوضح ذلك بقوله ان هناك علاقة تقابل بين الطبيعة والثقافة (متمثلة في القانون) . فالنسق القرابي الامريكي يقوم على ذلك النوع من التقابل بين الطبيعة والقانون . او بعبارة اخرى النسق القرابي كما يفهمه افراد المجتمع الامريكي يؤسس على عنصرين أساسيين هما الطبيعة والقانون وذلك من خلال مفهوم الحب المرتبط بهذين العنصرين . ويتمثل العنصر الطبيعي في الحب القرابي Cognatic المؤسس على علاقة الدم Blood rela tionship كما يظهر في علاقة الآباء والأبناء، أما العنصر القانوني (الثقافي) فيتمثل في علاقة الزواج أو المصاهرة المحكومة بقواعد وقوانين منظمة للعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة . وكما يشير شنايدر تستخدم في اللغة الانجليزية عبارة "in law" التي تعني علاقة المصاهرة او النسب بين اهل الزوجين والمحكومة بالقانون . ان الحب يربط علاقة الزواج (او المصاهرة) وعلاقة الدم (او القرابة) من خلال العلاقات الجنسية . فالحب بمعنى العلاقة الجنسية هو فعل طبيعي ينتج عنه نتائج طبيعية (التكاثر والاعجاب) . ومن حيث هو رمز للوحدة فان الحب هو اتحاد اللحم واتحاد الاضداد (الرجل والمرأة) . ولكن وحدة الاضداد لا تكون مؤكدة من خلال الاحتواء فقط بل ايضا من خلال نتاج الاتحاد المتمثل في وحدة الدم، أي الطفل . فالطفل يجمع ويوحد في شخص واحد مكونات وعناصر بيولوجية وراثية لكل من الاب والام . وهو بذلك يؤكد وحدة الدم في

علاقته بالوالدين والاخوة والاخوات وهذه الوحدة تمثل وحدة الحب القرابي cognatic المرتبطة اشد الارتباط بالحب الجنسي conjugal بين الاب والام او الزوج والزوجة. (٢٤)

بالرغم من ان التحليل البنائي الرمزي الذي قام به شنايدر لنسق القرابة في المجتمع الامريكي يعد تحولا عن الدراسات الانثروبولوجية التقليدية وخاصة تلك المتعلقة بالدراسة البنائية الوظيفية للنسق القرابي بشكل عام، إلا أن هذا التحليل الرمزي قد عزل الجوانب الثقافية أو الرمزية عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية. إن اغفال المضمون الاجتماعي والتركيز على العلاقات الشكلية الصورية بين الرموز المحورية أو الاساسية لا يحل مشكلة التنوع في الرموز الثقافية المرتبطة بالتنوع والاختلاف في الطبقة الاجتماعية والعمر والجنس. كما ان اهمال الجانب التاريخي ترك مشكلة ظهور ونمو وتغير الرموز عبر الزمن بدون حل.

ثانيا: المدخل الوصفي الاثنوجرافي

ويسمى هذا المدخل ايضا باسم المدخل الوصفي الرمزي التفسيري Hermeneutic ويتزعمه كل من فيكتور تيرنر V. Turner وكليفورد جيرتز G. Geertz ويتفق هذين العالمين على الاهتمام بدراسة مشكلة «المعنى» وعلى اهمية الوصف او التفسير الذي يقدمه افراد المجتمع المدروس الذي يكشف ليس فقط عن نظرتهم لانفسهم بل ايضا عن رؤيتهم للكون والآخرين والبيئة المحيطة بهم. لكنهما يختلفان من حيث الأطر النظرية في معالجة الوصف او التفسير (الشرح) الذي يقدمه الاخباريون او افراد المجتمع المحلي موضوع الدراسة، وسوف نعرض لآراء كل من هذين العالمين موضحين أوجه التشابه والاختلاف بينهما.

١ـ فيكتور تيرنر Victor Turner

استخدم فيكتور تيرنر طرق واساليب متعددة ومختلفة في جمع المادة العلمية المتعلقة بالرموز والشعائر، كما انه استخدم مناهج ونظريات متنوعة في تحليل الرموز. ويرجع

ذلك الى ان الرموز وخاصة الرموز الاساسية او المهيمنة Dominant Symbols تمثل مجموعة من المبادىء والموضوعات الثقافية المختلفة. فالرمز المهيمن يمكن ان يظهـر في اكثر من جانب من جوانب الحياة الاجتماعيـة او في اكثـر من شعيرة. فعلى سبيل المثـال توجد شجرة اللبن milk tree (mudyi) التي هي رمز اساسي في مجتمع ديمبـوN dembu بزامبيا ـ في اكثر من شعيرة حيث تظهر في شعائر تكريس الـذكـور والانـاث من الاطفال، مثلما تظهر في خمسة شعائر مختلفة متعلقة بخصـوبـة المرأة ونضج الفتـاة ومشاكل الانجاب وعسر الولادة.

إعتمد تيرنر في دراسته للمجتمع من خلال المدخل الرمـزي على عـدة اطر نظـريـة استخدمها في وحدة واحدة، وهذه الاطر النظرية تستند إلى آراء دوركيم Durkheim وماكس جلكمان Max Gluckman في التماسك الاجتماعي، وتستنـد ايضـا على افكار كارل ماركس Karl Marx وخاصة تلك التي تتعلق بعدم الانسجـام وعـدم الاتساق في العلاقات الاجتماعيـة والمتمثلـة في وجـود الصراع بين مكـونـات المجتمع. ومحور إهتمام تيرنر هنا هو الكشف عن العوامل التي تحقق تماسك المجتمع بـالـرغم من وجود الصراع والتناقض الذي هو حالة طبيعية مألوفة في الحياة الاجتماعيـة. اهتم تيرنـر ايضا بنظرية فان جنب Van Gennep عن شعائر المرور Rites of passages التي يقسمها الى ثلاثة مراحل هي الانفصال Separation والانتقال transition والاندماج او الاتحاد incorporation. ويرجع الفضل لفيكتور تيرنر في أنه ركز على المرحلة الثانية (الانتقالية أو التحويليـة) بحيث أن مصطلح الهامشيـة marginality او الانتقال Liminality أصبح مرتبطـا بـه بصـورة كبيرة كما سيتضح بـالتفصيل فيما بعد.

يمكن اجمال الطرق او الاساليب والمناهج التي اتبعها تيرنر في دراسته للرمـوز (والتي يبدو واضحا فيها تأثير النظريات التي استخدمها) فيما يلي:

١ ـ المعلومات والمعطيات المتعلقة بالرموز والشعـائر المتضمنـة للـرمـوز يمكن الحصـول عليهـا عن طـريق التركيـز على الخصـائص والصفـات الخارجيـة التي يمكن ملاحظتها. ويضرب تيرنر مثالا على ذلك بشعيرة نضج الفتاة girl's puberty

في مجتمع ديمبو، حيث أن الخصائص والصفات الخارجية تتمثل أو تظهر في الطريقة التي تلف بها الفتاة في رداء ثم تستلقي عند جذع شجرة اللبن التي هي ايضا تعتبر رمزا مهيمنا. كما ان الجانب الحسي من شجرة اللبن يظهر في تلك المادة اللزجة البيضاء التي تشبه اللبن والتي تخرج من تلك الشجرة.

٢ـ ان معاني الرموز المهيمنة والرموز الشعائر، يمكن استنتاجها أو استخلاصها عن طريق التفسيرات أو الشروح التي يقدمها الاخباريون او المواطنون محل الدراسة. ويميز تيرنر بين نوعين من التفسيرات. فمن ناحية هناك تفسيرات الاخصائيين الذين لديهم معرفة خاصة بالشعيرة الرمزية والذين يقودون الجماعة في ادائها. ومن ناحية اخرى هناك التفسيرات التي يقدمها الافراد غير المتخصصين والذين يشتركون في أداء الشعيرة. ففي شعيرة بلوغ او نضج الفتاة على سبيل المثال يذهب المتخصصون الذين يقودون تلك الشعيرة إلى أن شجرة اللبن هي الشجرة القديمة التي هي في نفس الوقت رمز للامومة أو الانتساب إلى الأم في ذلك المجتمع الاموي matrilineal ويشير هذا التفسير الى المبدأ الذي يقوم على المجتمع. أما غير المتخصصين والذين يشتركون في آداء الشعيرة يفسرون شجرة اللبن على أنها رمز يشير إلى وحدة وإستمرارية مجتمع ديمبو فشجرة اللبن بالنسبة لاحدى الاخباريين هي بمثابة الرمز أو العلم المميز لذلك المجتمع.

٣ـ الفهم الاجرائي Operational understanding للرموز. ويتحقق ذلك النوع من الفهم عن طريق ملاحظة ليس فقط ما يقوله الافراد بل ايضا ما يفعلونه سواء في مواقف أو شعائر معينة.

وعلى عكس شنايدر Schneider يولي تيرنر Turner اهتماما كبيرا بالفعل action في المضمون الاجتماعي والشعائري. والمعنى الاجرائي للرموز عامل له اهميته الخاصة في الديناميات الاجتماعية أو التغير الاجتماعي. فالرموز بعبارة اخرى تستوجب (أو ينتج عنها) الافعال.

وهذا الفهم الاجرائي يتطلب من عالم الانثروبولوجيا ان يهتم ببناء وتكوين الجماعة التي يؤدي او يمارس افرادها أفعالا معينة مرتبطة برموز محددة. والفهم الاجرائي يتطلب

أيضا الاهتمام بالجوانب الانفعالية الوجدانية للفاعلين.

٤ـ تحليل العلاقات والمضمون. ويقصد تيرنر بمفهوم العلاقات هنا ان معنى الرمز ينبع من علاقته بالرموز الاخرى في مضمون كلي محدد.

وهذا النوع من التحليل يعد العمل النهائي والاساسي للباحث الذي يهتم بدراسة المجتمع والثقافة ليس فقط من خلال مفهوم الفعل الاجتماعي والشعائر بل ايضا من خلا ل مفهوم النسق الرمزي وعلاقة كل رمز بالرموز الاخرى المؤلفة لذلك النسق. ومفهوم الرمز بهذا المعنى يرتبط بخاصية تعد من اهم خصائصه المميزة وهي ان لـه ـ اي الرمز ـ معاني متعددة ومتمايزة تظهر في مضمونات مختلفة وفي علاقات متنوعة مع رموز اخرى. (٢٥)

ان تحليل العلاقات جعل تيرنر يستعين بأفكار ليفي ستروس Levi - Strauss البنيوية وخاصة علاقة التقابل والاضداد الثنائية binary oppositions ولكن تيرنر يذهب خطوة ابعد من ليفي ستروس في توظيفه لعلاقات التقابل أو الاضداد الثنائية ليدرس الصراع والانقسام داخل المجتمع الذي يبدو متحدا ومتماسكا. ويعتمد تيرنر في ذلك على تحليل الرموز المستخدمة في ذلك المجتمع والتي تكشف عن الانقسام والصراع وعن الوحدة والتماسك في صورة متزامنة.

ويشير تيرنر Turner الى انه يوجد في مجتمع Ndembu نوعين من الاخشاب المستخدمة في بناء الاساس الذي يشيد عليه المنزل أو الكوخ. والاشجار التي يصنع منها هذين النوعين من الاخشاب لها دلالة رمزية، فالنوع الاول من الخشب هو خشب شجرة اللبن milk tree والنوع الثاني هو خشب شجرة الدمblood (mukula) tree وشجرة الدم هذه هي رمز للزوج او الرجل الذي سوف يتزوج بالفتاة التي تمر بشعيرة النضج، اي نضج الفتاة، بينما شجرة اللبن فانها ترمز الى الزوجة او الفتاة التي مرت بالفعل بتلك الشعيرة، ويذهب تيرنر في البحث عن مغزى ومعنى هذه الرموز المرتبطة بالاشجار.

ان معنى كلمة Mukula لدى افراد مجتمع ديمبو هو الدم المقترن بالمادة الحمراء التي تخرج من مسام او فتحات شجرة الدم. وطبقا لتفسير المواطنين هناك صنفان من

الدم (المادة الحمراء). فمن ناحية هناك دم الذكور (الرجال) ومن ناحية اخرى هناك دم الاناث (النساء) وفي وحدة هذين النوعين من الدم تكمن وحدة المجتمع. وبالنسبة لشجرة اللبن في نفس المجتمع (ديمبو) فانها ترمز الى جوانب اجتماعية متعددة مرتبطة بالتمايز والصراع بين اعضاء ذلك المجتمع. ففي شعيرة نضج الفتاة - التي تكون شجرة اللبن فيها رمزا اساسيا - يوجد تقابل بين النساء اللائي يرقصن ويؤدين الشعيرة، وبين الرجال الذين لا ينخرطون في تلك الشعيرة بل ان داخل الشعيرة ذاتها هناك صراع بين الام والابنة مثلما يوجد صراع بين جماعات مختلفة، ويقول تيرنر مستندا الى منهج العلاقات الضدية او المتقابلة، قيل لنا ان شجرة اللبن تمثل الرابطة بين الابنة والام، إلا أن شجرة اللبن تعزل الابنة عن الام. قيل لنا ان شجرة اللبن تشير الى وحدة مجتمع ديمبو، لكن نجد في الواقع أنها تفصل النساء عن الرجال، وانواع معينة من جماعات النساء عن جماعات أخرى من النساء. وفي هذا النص نجد التقابل أو التضاد القائم بين الرجال والنساء من ناحية، وبين الاجيال داخل الجنس الواحد (مثلما هو الحال بين الابنة والام) من ناحية اخرى. فمن خلال المدخل الرمزي يركز تيرنر على الرموز كأداة حيوية لفهم المجتمع. فشجرة الدم وشجرة اللبن هما رمزان أساسيان يمثل الأول (شجرة الدم) الرجل بينما تمثل شجرة اللبن الانثى أو الزوجة. والرابطة بين هذين الرمزين تتبلور في الجانب الحسي الذي يعني العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، ويتبلور ايضا في الجانب الفكري المعياري متمثلا في فكرة الزواج الذي يوحد الاضداد في وحدة واحدة والذي هو أساس الأسرة (المنزل أو الكوخ) نواة المجتمع.

ان اهمية الاسهام الذي قدمه تيرنر يتمثل في اهتمامه بمضمون العلاقة البنائية بين الرمز والمرموز اليه او بين الرمز والمعنى المرتبط به من خلال علاقته بالرموز الاخرى في المضمون الاجتماعي. وبهذا المفهوم استطاع تيرنر ان يتغلب على مشكلة الجوانب الصورية الشكلية المجردة التي يعاني منها المنهج البنيوي Structuralist الذي يعتمد على مجرد العلاقات القائمة بين وحدات النسق بالمفهوم الذي يستخدمه ليفي ستروس Levi - Strauss فعن طريق الجمع بين المضمون الاجتماعي للرموز وبين العلاقة البنائية بين الرمز والرموز الاخرى في اكثر من مضمون قدم تيرنر بعدا جديدا لعملية الوصف والتفسير التي يقوم بها الانثروبولوجي بالمقارنة بالوصف او التفسير

الذي يقدمه الاخباريون او المواطنون. وعلى عكس اصحاب المدرسة البنائية الـوظيفيـة التقليدية (دوركيم، ورداكليف براون على سبيل المثال) الذين يهتمون بحالـة التضـامن الاجتماعي ووحدة المجتمع اهتم تيرنر بمقولة الصراع وعدم التجانس او اللابناء- anti structures وبعمليات التغير والانتقـال والتحـول وان لم يغفل مفهـوم التضـامن او وحدة المجتمع.

ويقصد تيرنر بمفهوم اللابناء تلك الحالة او المرحلة الانتقالية التي يتصف بها الافراد عند انتقالهم من حالة الى حالة اخرى betwix and between ولقد سبق ان ذكرنا ان تيرنر استخدم نظريـة فـان جنب Van Gennep عن شعـائر المرور التي تشمل شعائر الانفصال، وشعائر الانتقال ثم شعائر الاتحاد. اهتم تيرنر بصفة خاصة بمرحلة الانتقال على انها تمثل مـرحلـة تحويليـة Transitional ينتقل فيها الافراد وخـاصـة الاطفال والمراهقين من حالة عدم النضج والاكتمال الى حالـة أخـرى وهي النضج. وفي هذه المرحلة الانتقالية تستخدم الرموز والشعائر الرمزية لتحويل الافراد او الشخصيات غير محددة المعـالم والأدوار الى شخصيـات لها أدوار ووظـائف في المجتمع. وعلى سبيل المثال، الافراد الذين يمرون بالمرحلة الانتقالية التمويلية لا يتميزون بمكانة محددة وليس لديهم هوية أو يمتلكون شيئا أو خاصية معينة ـ ملبس أو رتبة أو وضع قرابي ـ يميـزهم عن رفاقهم الذين يمرون بنفس المرحلة. لكن بالرغم من أن تيرنـر يصف هـذه المرحلـة الانتقالية Transitional او الهامشية بأنها مرحلة لا بنائيـة anti - structural الا أنه يذهب إلى أن هذه المرحلة تتميز بنوع معين من البناء الاجتماعي (بمعنى العـلاقـات الاجتماعية) يتمثل في العلاقة بين الصغار والكبـار، حيث يخضع الاطفـال او الصغـار لسلطة واوامر الكبار (الاساتذة والآباء وأوليـاء الامـور وكل من لـه دور قيـادي). لكن هناك مساواة كاملة بين الصغار أو الاطفال من حيث انهم يشتركون معا في صفـة عـدم النضج وما تقوم به الرموز من حيث هي قوى اجتماعيـة Social forces هو تحويل الافراد من هذه المرحلة الهامشية الانتقـاليـة الى مـرحلـة التكـامل والنضج والتكيف مع المجتمع. (٢٦)

٢ـ كليفورد جيرتز Clifford Geertz

يعد جيرتز من ابرز رواد المدخل الرمزي (الاثنوجرافي) في دراسة المجتمع والثقافة. وهو وإن كان يميل الى التركيز على الثقافة بشكل ملحوظ إلا أنه ـ على عكس ديفيد شنايدر ـ لا يعزلها او يفصلها ورموزها عن واقعها الاجتماعي. ومن اجل ان نتعرف على الاطار النظري الرمزي لدى جيرتز نشير الى المحاور الاساسية التي اسس عليها تحليله الرمزي للثقافة. ويمكن اجمال هذه المحاور في ثلاث نقاط اساسية.

اولا : الثقافة عند جيرتز ليست مجرد معتقدات وافكار وتصورات محبوسة داخل عقول الافراد بل هي خارجية وعامة وقابلة للملاحظة والدراسة العلمية. وهي كذلك لانها تكون متضمنة في رموز عامة Public symbols التي من خلالها يعبر افراد المجتمع عن رؤى العالم World views وتوجيهات القيمة التي لديهم، وروح الثقافة ethos المميزة لهم. وهي أيضا الرموز التي عن طريقها يستطيع الافراد ان ينقلوا تلك الرؤى والقيم الى الناس الاخرين والى اجيال المستقبل بل وايضا الى علماء الانثروبولوجيا انفسهم.

ثانيا : الثقافة والرموز التي تستخدم للدلالة عليها يجب ان تدرس وتفهم من خلال وجهة نظرا الفاعل او المواطن Native's point of view. وهذه النقطة مرتبطة بالنقطة السابقة بمعنى ان الانثروبولوجي لا يدخل عقول الافراد كي يتعرف على وجهات النظر التي لديهم، بل بمعنى أن الثقافة من حيث هي نسيج من الرموز هي نتاج الكائنات الاجتماعية او الفاعلين الافراد في تفاعلهم الاجتماعي وفي محاولتهم اضفاء معنى على العالم الذي وجدوا أنفسهم فيه. وبالتالي يجب الاهتمام بهؤلاء الفاعلين الافراد من خلال التركيز على انماط الفعل الرمزي Symobolic action سواء اخذ الشكل القولي أو غير القولي.

ثالثا : ان المجتمع والثقافة او الانماط الثقافية وكذلك انماط الفعل يمكن النظر اليها على انها نصوص Texts يمكن قرائتها وتحليلها وفهمها.

ان جيرتز يهتم من ناحية بتحليل أنساق المعنى المتضمنة في الرموز، ومن ناحية اخرى بربط انساق المعنى بالعمليات الاجتماعية البنائية والسيكولوجية. والمنهج الذي

يتبعه جيرتز Geertz في الدراسة الرمزية يرتبط اشد الارتباط بمفهوم الثقافة عنده والتي هي نسيج من المعاني والتي تتطلب ليس العلم التجريبي الذي يبحث عن القانون Law بل التحليل الوصفي descriptive analysis الذي يبحث عن المعنى meaning. فالثقافة عند جيرترز هي نمط من المعاني المتضمنة في الرموز والمنقولة تاريخيا، وهي نسق من التصورات المتورثة التي يعبر عنا في اشكال رمزية من خلالها يوصل وينمي الناس معرفتهم بالحياة واتجاهاتهم نحوها.

والمعنى كما يستخدمه جيرتز يرتبط بمفهوم «علم حياة الاشارات في المجتمع» The Science of the life of signs in society الذي يهتم بتفسير الرموز في البيئة الاجتماعية، فالمعنى هنا ليست جزءا جوهريا من العمليات والافعال او الموضوعات التي تحمله بل يكون مفروضا عليها ويتفق جيرتز هنا مع دي سوسير De Saussure ودوركيم Durkheim وماكس فيبر Max weber وباسونز Parsons ومن اجل تفسير المعنى فأن الانثروبولوجي يبحث عنه لدى الناس في تفاعلهم الاجتماعي حيث أن هؤلاء الناس هم الذين فرضوا ذلك المعنى على الظواهر والافعال.

يتفق جيرتز مع فيكتور تيرنر Turner في تقد المنهج البنائي الرمزي الذي استخدمه ديفيد شنايدر Schneider. وكما يقول جيرتز عالج شنايدر الثقافة على انها بناء او نسق رمزي مستقل بذاته وذلك عن طريق عزل العناصر والرموز المؤلفة البنائي الرمزي المجرد كما يذهب جيرتز لغفل العوامل الخارجية والبيئة الاجتماعية لها والكشف عن العلاقات الداخلية بين تلك العناصر او الرموز. وهذا المنهج البنائي الرمزي المجرد كما يذهب جيرتز يغفل العوامل الخارجية والبيئة الاجتماعية وافعال الافراد في حياتهم الواقعية. وعلى عكس شنايدر اذن ركز جيرتز على الفعل الاجتماعي للافراد ذاهبا الى انه من خلال ذلك الفعل الاجتماعي فان الاشكال الثقافية والرمزية تظهر وتتبلور في صورة واضحة بحيث يمكن النظر اليها على انها نصوص Texts.

يتفق جيرتز مع كل من شنايدر وتيرنر Turner في استخدام نظرية الاشاراتsings (او الدالات والرمز) كما وضعها دي سوسير De Saussure، لكنه يختلف عنهما في انه لم يستخدم المنهج البنيوي Structuralist سواء بمعنى العلاقات

الداخلية (القائمة على التضاد والتقابل) بين الوحدات (الرموز) المؤلفة للنسق ـ كما فعل شنايدر ـ أو بمعنى الأضداد الثنائية في المضمون او الواقع الاجتماعي ـ كما فعل تيرنر. التزم جيرتز بمفهوم الرمز كنوع من الاشارة حاملة المعنى دون ان يقدم تضنيفا للرموز كما فعل تيرنرو سابير واورتنر، وهو في هذا الصدد يتفق مع شنايدر الذي لم يضع هو الاخر تصنيفا للرموز او الاشارات . وما نقصده هو ان جيرتز Geertz استخدم الرموز على انها تندرج تحت علم الاشارات Semiotics دون الالتزام بالابعاد الصورية الشكلية Formalistic متمثلة في المدخل البنيوي او الجوانب المدرسية Scholastical التقليدية متمثلة في كتابات بيرس Peirce .

ان اهتمام جيرتز بدراسة المعاني المتضمنة في الرموز او الموضوعات والاحداث التي تقع في الحياة اليومية للافراد جعلته يولي اهتماما كبيرا بالدراسة الاثنوجرافية التي يصفها بالدراسة الوصفية المكثفة Thick description التي تحتاج الى تفسير رمزي her-meneutic - interpretive فالدراسة الاثنوجرافية لثقافة او مجتمع معين تفسر سلوك وافعال الافراد على انها أنماط ثقافية مألوفة في المضمون الاجتماعي التي وجدت فيه ومن وجهة نظر الافراد الذين يقومون بتلك الافعال . فالاثنوجرافيا هنا ـ كما يقول جيرتز Geertz ـ تشبه قراءة النص manuscript أو هي تحليل نصي Textual analysis ذلك لان المادة التي يتعامل معها الانثروبولوجي هي عبارة عن أبنية تصورية متعددة ومتنوعة وبعبارة اخرى الاشكال او الانماط الثقافية يمكن دراستها على أنها نصوص Text وعلى أنها اعمال خيالية تألفت من مواد اجتماعية . واذا كان التفسير او الوصف الاثنوجرافي هو عبارة عن قراءة، الأحداث والافعال، فان ذلك لا يعني ان نفصل هذه القراءة عن تلك الاحداث والافعال وإلا أصبحت (أي الافعال والاحداث) خاوية من المعنى، فالاحداث الاجتماعية وأفعال الافراد تعامل على انها نصوص قابلة للقراءة وقراءة النص هنا تعني العملية التي من خلالها تصبح الانماط غير المكتوبة من السلوك والكلام (اللغة) والمعتقدات والتراث الشفاهي والشعيرة مؤلفة لنص متناسق ذي معنى . وهذا النص ذو المعنى يمكن عزله عن الموقف الحالي الذي حدث فيه مع ربطه بمضمون ذلك الموقف بحيث يمكن قراءة وفهم ذلك النص فيما بعد وفي غياب

الموقف ذاته ولكن ليس منفصلا عن المضمون.

إن الاسهام الحقيقي الذي قدمه جيرتز Geertz للانثروبولوجيا الرمزية يتمثل في إهتمامه بالرموز الثقافية وبالفاعلين الافراد الذين يستخدمون تلك الرموز في حياتهم الاجتماعية. وهؤلاء الفاعلون الافراد او المواطنون هم الذين يقومون بوصف وتفسير الاحداث اليومية بحيث تصبح حياتهم الاجتماعية جزءا من الواقع الذي يصفونه او يفسرونه. واوصاف وتفسيرات هؤلاء المواطنين هي جزء من علم الانثروبولوجيا بمعنى انها جزء من نسق التحليل العلمي. فتلك الاوصاف او التفسيرات (التي يقدمها افراد المجتمع المدروس) هي التي يقبلها ويستخدمها علماء الانثروبولوجيا. وبعبارة اخرى ان تفسير علم الانثروبولوجيا يأتي بعد تصنيف وترتيب وتنظيم ما يقوله (ويعتقد فيه) الاخباريون. فالتقارير والكتابات التي يقدمها الانثروبولوجي هي عبارة عن تفسيرات ونماذج ثانية وثالثة او رابعة لنفس التفسير الاول الذي قدمه الاخباريون او المواطنون.

ويشير جيرتز الى ان الاوصاف والتفسيرات التي يقدمها المواطن او الاخباري تشبه الروايات Fictions والقصص بمعنى انها شيء تم صياغته وتأليفه (٢٧)، ويعمم جيرتز هذا القول على الثقافة ككل حيث يذهب الى ان ثقافة شعب ما يمكن النظر اليها على انها مجموعة من النصوص ensemble of texts جمعها الشعب نفسه، وهي قصة يحكيها الناس لانفسهم عن انفسهم.

المراجع

1 - Spiro, Meflord E. "Discussion" in Forms of Symobic Action :
Proceedings in the 1969 Annual Spring Meeting of the American Ethnological Society. Robet E. Spencer (edita). The Univ. of Washington Press 1969. P. 313

2 Firth, Raymond. Symbols: Public and Private. (1) Ithaca, New York: Cornell University Press. 1973. P. 27, P 54

3- FDernadez, J.W "On the Concept of the symbol "Current Anthropology 1975. Vol. 16. No. 4 (652-654). P. 653

4- Lienhardt, Godfrey. Divinity and Experience: The Religion of the Dinka. Oxford Univ. Press. 1976 (1961). PP 12-14, P. 285.

5- Turner, Victor. The Forest of Symbols. Itheca, New York: Cornell Univ. Press. 1982 (1967) P.19.

6- Peirce, Charles. "Logic as Semiotic: The Theory of Signs" in J. Buchler (ed.) Philosophical Writings of Peirece. New York: Dover. 1940 (1902) P.102.

7- Rappaport, Roy A. Ecology Meaning and Religion. Berkeley Calefornia: North Atlantic Book. 1979. PP 173-221.

8- De Saussure, Ferdinand, Courses in General LInguistics. Translated with and Intraduction and notes by Wade Baskin New York, Toronto. London: Mc Graw-Hill Book Co. 1966 (1915) P. 66.

9- Saspir, E. "Symbolism" Encyclopedia of the Social Sciences, 1933. Vol. XIV (492-495) P. 492.

10 - Schneider, David, American Kinship : A Cultural Account.
Chicago and fondon : The University of Chicago Press. 1980 (1968) P.1.P. 31.

11 - Evans-Pritchard, E.E. Nuer Religion. Oxford Unviersity Press. 1977 (1956) P. 135, P.142.

12 - Geertz, Clifford. The Interpretation of Caltures. New York. Basic Books. 1973. P. 89, P. 91.

13 - Ibid 363 - 364.

١٤ ـ السيد حافظ الاسود . التراث الشفاهي ودراسة الشخصية القومية ـ مجلة علم الفكر ١٩٨٥ المجلد ١٦ العدد ١ (٢٧١ ـ ٢٩٤) مطبعة حكومة الكويت .

15 - Langer, Susanne, Philosophy in a New Key: A Study of Symbolism of Reason, Rite and Art. Harvard Univ. Press. 1957 (1942) P. 71, P. 102.

16 - Wallace, Anthony. Culture and Personality. New York. Random House, 1961. P. 62.

17 - Firth, R. op. Cit. P. 86.

18 - Ibid., P. 493.

19 - Turner, V. The Forest of Symbols. Op. Cit. P23, P. 32.

20 - Turner, Victor "Symbols in African Rituals" in Science. 1973. Vol. 179. March (1100-1105) P. 1103.

21 - Ortner, Sherry. "On Key Symbols" American Anthropologist. 1973. Vol. 75 No. 5 (1339 - 1345) P. 1340

22 - Ibid, P. 1339.

23 - Skorupski, John. Symbols and Theory: A Philosophical Study of Theories of Religion in Social Anthropology. Cambridge Univ. Press 1976. P. 12 ; P. 123.

24 - Schneider, Dr. American Kinship. Op. Cit. 129.

25 - Turner, V. The Forest of Symbols Op. Cit. P. 20, P. 51, P.94 .

26 - Ibid, P. 99 , P. 100.

27 - Geeertz, Clifford. The Interpretation of Cultures. Op. Cit. P. 15.

18. I am using the term "impasse" in the same sense used by Carol Rosen in Plays of Impasse: Contemprary Drama Set in Confining Institutions (Princeton: Princeton University Press, 1983).

19. Spindler discusses the play in the context of new patterns of economic consumption in America following World War II. See pp. 202-213

20. Using David Riesman's analysis of American social character Willy Loman belongs to an era which has already elapsed. David Riesman, The Lonely Crowd (New Haven and London: Yale University Press, 1961), pp.3-36.

21. Lorraine Hansberry, A Raisin in the Sun in Four Contemporary American Plays, ed., Bennet Cerf (New York: Vintage Books, 1961), p. 113. All other references to this work appear in the text.

22. The corpus of American plays noted for their violence is too large to be discussed here. However, for further elaboration one may add the plays of David Mamet which expose both verbal and physical violence lurking in American cities. These include, as examples, American Buffalo , Duck Variations and Sexual Perversity in Chicago (double-bill) and Glengarry Glen Ross.

23. Edward Albee, The Zoo Story (New York: Signet Books, 1959), p.37. All other references to this work appear in the text.

24. LeRoi Jones, Dutchman (New York: William Morrow and Company. 1964), p.3.

25. Eugene O'Neill, All God's Chillun Got Wings in Nine Plays by Eugene O'Neill, ed. Howard Clurman (New York: The Modern Library, 1959), p.113.

26. Christopher W.C. Bigsby, A Critical Introduction to Twentieth-Century American Drama, I (Cambridge: Cambridge University Press, 1982), pp. 126-129.

Macgowan (New York: Dell Publishing Company, Inc., 1959), p.311. All other references to this work appear in the text.

8. Tennessee Williams, The Glass Menagerie (New York: New Directions Publishing Corporation, 1945), p.29. All other references to this work appear in the text.

9. Brenda Murphy discusses Kingsley's play in comparison with Street Scene, drawing attention to the similarities between the two plays, especially in their depiction of the petty conditions of the city. See Murphy's American Realism and American Drama (London and New York: Cambridge University Press, 1987), pp. 115 - 119

10. Chudacoff, pp. 114-124.

11. Speizman, p.16

12. Bernard F. Dukore, American Dramatists 1918-1945 (London: Macmillan Publishers, Ltd., 1984) pp. 35-45.

13. Mahmoud Al-Shetawi, "The Thirties Revisited: Clifford Odets and the Depression," Arab Journal for the humanities , 8, No. 32 (Autumn 1988), 422-433.

14.Clifford Odets, Awake and Sing! in Six Plays of Clifford Odets , ed. Howard Clurman (New York: Grove Press, Inc., 1979) p.37. All other references to this work appear in the text.

15. To help defray the cost of living and to cope with the economic crisis brought about by the Great Depression it was common to board non-family members – thus privacy was totally abscent. See Chudacoff, pp.123-124.

16. Chudacoff, p.117

17. Arthur Miller, Death of a Salesman (New York: Penguin Books, 1976), p.11. All other references to this work appear in the text.

for American urban progress and industrial civilization. Surprisingly these playwrights have become anti-urban, expressing their fear and anxiety at the deperonalization of the individual and the annihilation of the human spirit under the crushing wheel of material progress. They depict the city as the locus of desperation, violence, crime and pollution and all that negates the freedom of the human spirit.

NOTES

1. Richard Lingeman, "A Consonance of Towns," in Making America: the Society and Culture of the United States, ed. Luther S. Luedtke (Washington D.C. : the United States Information Agency, 1988) pp. 104.

2. See, for instance, Sam Bass Warner, Jr "Urban America," in Making America, pp. 105-130; Howard P. Chudacoff, The Evolution of American Urban Society, 2nd ed. (New Jersey: Prentice-Hall, Inc., 1981); and Milton D. Speizman, ed., Urban American in the Twentieth Century (New York: Thomas Y. Crowell Company, 1968).

3. See Michael Spindler, American Literature and Social Change (London : The Macmillan press, Ltd., 1983) ; Michael C. Jaye and Anne Chalmers Watts, eds., Literature and the American Urban Experience (Manchester: Manchester University Press, 1981); Donald Pizer, Realism and Naturalism in Nineteenth Century American Literature (Carbondale and Edwardsville: Southern Illinois University Press, 1984); and Burton Pike, The Image of the City in Modern Literature (Princeton: Princeton University Press, 1981).

4. Morton White and Lucia White, The Intellectual Versus the City from Thomas Jefferson to Frank Lloyd (New York: New American Library, 1962), pp.13-14.

5. Spindler, p.39.

6. Leslie Fiedler, "Mythicizing the city," in Literature and the American Urban Experience, pp. 113-121.

7. Elmer Rice, Street Scene in Famous American Plays , ed. Kenneth

American dramatists take 'note' of such changes and social upheavals taking place in American society. Perhaps Rice's Street Scene is most representative in this respect, for the play is packed with native-born Americans and an array of immigrants who include Italians, Germans, Jews and Russians. The house becomes a microcosm of American society which hosts all kinds of subcultures.26 Ethnic friction explodes from time to time as in real life. For instance, some of the house residents never hide their animosity toward the Jews. Mrs Jones, a typical American matron, shows no good feelings for her Jewish neighbours. Commenting on the relation between Sam, the Jewish student, and Rose, Mrs Jones derisively notes to Mrs Fiorentino:

> Mrs Fiorentino. I think he is loving the girl.
> Mrs Jones. Yeah? Well, that's all the Maurants need is to have their daughter get hooked up wit' a Jew. It's a fine house to be livin' in' ain't it, between the Maurants upstairs, an' that bunch o'crazy Jews down here. (p.342)

Later Mrs Jones' son, Vincent, beats Sam up and derides him in these words, "Fightin' Kaplan, de pride o' Jerusalem!..." (p.384) These excerpts are only specimens of ethnic prejudice treated in numerous American plays set in the city (e.g. A view from the Bridge, Awake and Sing! and others).

VI

The city! It is certainly more than bricks and cement, skyscrapers, commercial centers and smoggy streets. It is certainly more than slums, ghetto tenements and social prejudice. The negative image of the city should not tarnish its beauty and veil its vital accomplishments. The city is a world teeming with throbbing life. It is the locus of culture where thinkers, artists and writers flourish. It is the center of mass communication, and money and the seat of government. In short, the city is the product of human progress, the reward of man's endeavors to tame the wilderness and the positive image of human civilization. However, despite the postive attributes of the city, Western writers have commonly associated it with death and infernal images. As this paper has shown, a host of American playwrights express their negative attitude toward the city, which they use as a metaphor

The thesis of the play is put forth by Jim's mother who has been against the marriage from the beginning: "De white and de black shouldn't mix dat close. Dere's one road where de white goes on alone; dere's anudder road where de black goes on alone."25 The play reveals that Jim and Ella are victims of a racial complex which cuts deep into their souls. For them racial legacy is a nightmare which they cannot shake off. The play suggests that both races are equally responsible for the tragedy of the protagonists – blacks are no less obstinate than the whites in their prejudice against each other.

LeRoi Jones is more radical in treating the racial issue, pointing at the black boy as a victim murdered by the white woman who will, symbolically speaking, eventually annihilate his race as suggested by the cyclic ending of the play. The murder occurs on a moving subway coach amidst white passengers who express no concern whatsoever for what is happening except throwing the body of the black boy outside the train.

However, Hansberry's A Raisin in the Sun and Les Blancs (completed by her husband after her death) express a rather ameliorating compromise and a call for dialogue. Acknowledging the existence of bad feelings between the two races Hansberry suggests that, with understanding and perseverance on both sides, whites and blacks may live together in the same setting.

America is basically an immigrant society. Since colonial times the country lured immigrants from all over Europe and other parts of the world who emigrated to the New World seeking among other things better life and labor opportunities which the growing industrial cities seemed to offer. This situation created tremendous upheavals in American urban society, for these new comers brought with them their old cultures, traditions, and beliefs and they needed a period of adjustment to the American way of life. Most of these people crowded in cities and looked for work, hence replacing native-bron American workers because of cheap labor. A feeling of animosity gradually developed especially when American workers felt that they had been pushed over by these people. Therefore, ethnic conflict frequently flared up in American cities and urban centers where the immigrants had settled.

Similarly LeRoi Jones' Dutchman coveys a hellish image of the city (here New York). Suggestive of the infernal underground of Ellison's Invisible Man, the play takes place in a subway. Jones describes the setting as follows: "In the flying underbelly of the city. Steaming hot, and summer on top outside. Underground. The sub-way heaped in modern myth."24 Trapped in an inescapable situation the protagonists of the play (a black boy and a white woman) are locked in an existential fight which only ends in death. The play depicts an encounter with death – the white woman kills the black boy for no apparent reason except that he is black (racial conflict). Philosophically the play expresses the victimization of the individual in a deterministic urban context.

V

The preceding pages show that American dramatists associate the city with images of confinement and nightmarish existence and depict the victimization of the individual by the deterministic urban environment which one cannot change. The study thus far focuses on the topic in terms of space and milieu in a way which ostensibly expresses the negative attitude of American playwrights toward their urban society. However, two other points should be mentioned in passing for future consideration: racial violence and ethnic conflict common in American cities.

As mentioned before, O'Neill's All God's Chillun Got Wings, Hansberry's A Raisin in the Sun, and Jones' Dutchman consider the ramifications of the racial issue within an urban context. O'Neill's play is a psychological study of the predicament of an unhappy couple, Jim Harris, a black, and Ella Downey, a white woman. Raised up in the same tenement neighbourhood in New York, Jim falls in love with Ella and eventually they get married. They flee to France for two years to escape from their racial environment but finally decide to return to fight for their marriage. However, Ella has got a nervous breakdown because of 'shame' and Jim always fails his Bar Examination as a result of his feeling of guilt and inferiority. The play ends with their total psychological annihilation – reduced to 'children' playing marble games like they used to do when they were kids.

beings who stand totally powerless and alienated from their society.

Albee's play is widely recognized as an absurdist drama written in line with the theater of the absurd. The play shows two characters, Jerry and Peter. Obviously it is Jerry's play for he develops the action and determines the outcome. Though the stage scene, Central Park, does not suggest hell at all, the play gradually reveals the infernal social and economic circumstances which 'push' Jerry to the brink of despair.

The title of the play conveys the sense of confinement the protagonists find themselves bound to. Like animals kept in small compartments at the zoo, thus losing their freedom, Jerry, who says that he visited a zoo that day, has lost control over his fate to invisible forces which he cannot recognize or see but only alludes to. Jerry who has been wandering aimlessly on the streets of New York talks about his predicament. His living conditions are most inimical to self-fulfilment. He tells Peter that he occupies a room in a dingy tenement which is also inhabited by a medley of people including a next-door queer who wears a kimono and plucks his eyebrows and the landlady who never shies away from trapping him into her lascivious den. Jerry's description of his living quarters connotes the Greek Hades, guarded by a dog: "I am a permanent transient, and my home is the sickening roominghouses on the West Side of New York City, which is the greatest city in the world. Amen."23 Earlier he calls the landlady's dog which he poisons, "a descendant of the puppy that guarded the gates of hell."(p33)

Jerry's social background which is revealed piecemeal in the course of the play indicates his miserable existence. He tells Peter that his mother walked out on his father when he was a kid to become a prostitute, later to be found dead in a dump in Alabama. His father died in a car accident and since then he had to live with an aunt. After her death on his high school graduation day he was left alone. He became homosexual for awhile and eventually drifted on the streets. The only way for Jerry to get out of his infernal existence is to die. For this reason he looks for someone to kill him. Indeed his final speech shows his 'felicity' in dying, "Thank you, Peter. I mean that, now... I was so fraid I'd drive you away. (He laughs as best he can) You don't know how afraid I was you'd go away and leave me." (p.48)

Awake and Sing! Odets says, "She knows that when one lives in the jungle one must look out for the wild life." (.37) Obviously Miller and Odets associate the city with the jungle, suggesting violence which has become a salient aspect of the modern city.

The depiction of the city as jungle is rather common in American drama, especially in plays set in the city. Hansbery's A Rasisn in the Sun , Saroyan's The Time of Your Life, O'Neill's The Iceman Cometh, Le Guare's Landscape of the Body and Michael Gazzo's A Hatful of Rain are examples that expose the violent nature of city life.22 Hansberry opens a window onto the world of the jungle (Chicago) which is totally violent. For example, Walter realizes the gist of Ben's previous statement only after he has been ripped off by his partner, Willy Harris. He desperately cries, "Mama, you know it's all divided up. Life is. Sure enough. Between the takers and the 'tooken.' (He laughs) I've figured it out finally. (He looks around them) Yeah. Some of us always getting 'tooken' (He laughs) People like Willy Harris, they don't never get 'tooken.' And you know why the rest of us do? 'Cause we all mixed up. Mixed up bad." (p.197).

In The Time of Your Life (the play is set in San Francisco), Nick's drinking bar teems with social oucasts who seek refuge from the ouside world which is characteristically violent. Similarly, O'Neill's The Iceman Cometh takes place in an isolated drinking bar in New York where derelicks huddle together feeling safe from the violence of the outside world. Le Guare's play, which is set in New York, unfolds a gruesome murder of a boy in the absence of his mother. The boy's head is decapitated and his body mutilated to hide the crime. The last example is A Hatful of Rain. Set in a New York tenement, the play highlights the world of organized crime and the problems of drug addiction most common nowadays in American cities.

Most of the plays dealt with in this paper associate the city with an infernal experience in the sense that they depict half-lived human beings subjected to a deterministic enslaving environment. In addition, Edward Albee's The Zoo Story and LeRoi Jones' Dutchman stand out for their depiction of the city as hell. Interestingly both plays take place in New York and express urban violence characteristic of modern American society. They also reveal a sense of entrapment and the 'dead end' existence of human

Though the drama of the 1930's is dated in the sense that it is only concerned with the exigencies of the Great Depression, eviction and homelessness are not so. They have become perennial problems besetting American urban society. Many plays written during the booming years which followed the Depression era raise the fear of losing one's home and deal with the problems of homelessness. For example, Death of a Salesman and The Glass Menagerie, both representative of the Post-War drama, raise much concern about having a 'home'– a place to belong to. More recently Elizabeth Swados' musical drama, Runaways (1978) deals with the lives of runaways, those children who for various reasons have quit their homes to tramp the streets. In the long run they fall victims of abuse, drugs, prostitution, and other common city vices.

The issue is still much alive today. For example, the audience of the 1988 Humana Theater Festival, an annual event of new American plays held in Louisville, Kentucky, saw Barbara Damashek's Whereabouts Unknown, a musical play which highlights the problems of homelessness in American cities. The playwright considers the plight of countless American citizens who for different reasons find themselves thrown out to the mercy of the streets. They populate street corners, flyovers, public parks and such like deserted places feeding on garbage and junk.

IV

Like American novelists who commonly treat the industrial city rather negatively equating it with the jungle and hell interchangeably, American dramatists create stage images which denote their negative views on the city and urban society. They use the city setting, putting emphasis on the physical scene where the action takes place, not only to delineate the characters or make thematic statements, but also to depict the milieu which has produced the problems raised in the plays. In other words, by means of the mise-en-scene, the playwrights imprint certain images on the minds of the audience reminding them of the urban environment to which they belong. For example, in two different dramatic works the city is directly equated with the jungle. In a rather revealing statement in Death of a Salesman Ben tells Biff, "Never fight fair with a stranger, boy. You'll never get out of the jungle that way." (p.49) And in describing Bessie Berger of

Mary (chattily, as they reach the sidewalk). We are going to be dispossed today.

Rose. what a shame!

Mary. Yes, ma'am. My father went away and so we couldn't pay the rent.

Charlie (tugging at her arm). Aw, come on, Mary.

Rose. Have you another place to live, Mary ?

Mary. No. ma'am,.... (p.375)

Later the city marshal carries out the eviction order, dumping the furniture on the street sidewalk. Though the neighbours feel sorry for the plight of this family, they are virtually helpless to stop eviction, which is legally carried out by the city authorities.

The 'depression' plays of Odets, particularly Paradise Lost and Awake and Sing! also deal with the plight of evicted families. Set in an American city, Paradise Lost presents the Gordon family which is passing through difficult economic straits caused by the Great Depression. What seems to be a happy and prospering family at the outset of the play becomes lost and displaced at the end. When Leo Gordon's business fails he is forced to go into bankruptcy. The banks foreclose upon his house and his family is therefore forced to vacate the house which is mortgaged to the banks. Despite Leo Gordon's optimistic rhetoric at the end of the play, the fact remains that he is now homeless and his furniture is lying on the streets. Odets' Awake and Sing! also depicts the suffering of the Berger family caused by the economic woes of the Depression, and the constant fear of losing home. Bessie Berger is terribly afraid of this prospect, for she knows that other families have already been evicted: "They threw out a family on Dawson Street today. All the furniture on the sidewalk. A fine old woman with gray hair." (p.43) Later Jacob bitterly comments, "Someone tells a few jokes... and they forget the street is filled with starving beggars." (p.49)

to get out of this slum is to purchase a home in a nice residential suburb. Mama, the redeeming spirit of the play, says, "...Been thinking that we may be could meet the notes on a little old two-storey somewhere, with a yard where Travis could play in the summertime, if we use part of the insurance for a down payment and everybody kind of pitch in." (p.123) This has been an old wish, for since the time Mama and her late husband had landed in the present place they planned to stay for a couple of weeks intending to buy a house of their own. However, they were bogged down and never managed to fulfil their first dream. Finally after years of suffering and waiting the wish comes true, though ironically the money comes from her husband's life insurance. However, despite the opposition of the whites this black family moves to their new house. The play ends with a most effective dramatic image -- the moving men carrying the furniture and Ruth yelling, "Let's Get The Hell Out Of Here!" (p.203)

III

Closely related to the treatment of space in the context of American urban experience is the question of eviction and the plight of the homeless which have become phenomenal in American urban society. The fear to lose one's home and be turned out on the streets is a constant nightmare haunting large sections of city population, especially the poor and the working class. Street Scene depicts also the lives of poor city dwellers who could not cope with their bad economic circumstances and are therefore mercilessly thrown out on the streets. Among the lost lives of the house one finds a poor family consisting of a mother and her two small children. Charity is their source of income. Failing to pay the rent, the family is forced to evict the premises. In fact, besides the murder of Mrs Maurant and her lover by the jealous husband, the moving of the furniture out of the house becomes a significant reminder of the gravity of the problem.

A product of the Depression era, Street Scene suggests that eviction, which is toally caused by economic failures, has become a common eyesore in American cities. By making the children comment on their predicament which they do not understand, Rice wants his audience to realize the consequences of the problem on the human level:

up there, Linda, the trees are so thick, and the sun is so warm." (p14) Still hoping that Biff will eventually make it in the city, Willy plans to 'escape' from the city:

> Willy: You wait, kid, before it's all over we're gonna get a little place out in the country, and I'll raise some vegetables, a couple of chickens,
> Linda: You'll do it yet, dear.
> Willy: And they'll get married, and come for a weekend. I'd build a little guest house. 'Cause I got so many fine tools, all I'd need would be a little lumber and some peace of mind (p.72).

In contrast with this open landscape which Willy Loman envisions is the claustrophobic reality of towering buildings and tenements that surround the salesman's home, and the lack of space for recreation – even the two elm trees (again memories of a more happy past) have been felled to clear space for apartment houses. Willy's suicide shows his desperation and total failure to come to grips with the progressive urbanism of American society.

The protagonists of The Glass Menagerie, Street Scene, and A Raisin in the Sun are no less besieged by their urban environment than Willy Loman. Some succeed to escape, but others are stuck for good. For instance, Tom finally gets out of his enslaving living conditions, though at the cost of leaving his mother and sister floundering all alone in a merciliess urban world. The tenants in Street Scene are also hampered by their petty conditions, like those in Awake and Sing! They can only wish to escape from their confining space. For example, beleagured by her next door neighbours who are always eyeing her and her mother, Mrs Maurant, with suspicion and contempt, Rose tells her mother: "I sometimes wonder if it wouldn't be better for us all, if we moved out to the suburbs somewhere – you know, some place in Jersey or Staten Island." (p.372) However, the play ends with a note of complete desperation – murder, eviction and disintegration.

In A Raisin in the Sun the characters are also tied by their impoverished conditions. Complaining of the narrowness of his space Walter calls it, a "beat-up hole,"21 and Ruth describes it as a 'rat trap." (p.124) The only hope

II

The mode of American plays set in cities is generally one of 'impasse'.18 The protagonists are constantly obsessed with a desire to escape from their living quarters because of their futile existence and frustration. They express this desire in different ways. Some characters feel nostalgic for the past and rural America; others try to move to better residential areas in the suburbs. But for most characters there is 'no exit', to use the title of Sartre's play, No Exit, which is incidentally most pertinent in this context; they can only seek haven in honky-tonks and other isolated places, or perhaps commit suicide.

In this instance, Miller's Death of a Salesman reveals the predicament of the small city dweller, Willy Loman, trapped in the sophisticated commercial society of Post-War America. Not able to keep pace with the urban transformations of American society, he feels alienated from society.19 His alienation is suggested in different ways. From the beginning nostalgia for the past and for the simple life of rural America comes to the fore. For example, the flute music we hear at the outset of the play juxtaposes Willy's loneliness with his reminiscenes of a happy past. Besieged by high-rising towers which make him feel imprisoned within his space, Willy goes into reveries remebering what Ben told him about his father and the freedom of life he had enjoyed: "Father was a very great and a very wild-hearted man. We would start in Boston, and he'd toss the whole family into the wagon, and then he'd drive the team right across the country; .... And we'd stop in the towns and sell the flutes that he'd make on the way." (p.49) But now things have changed and Willy finds himself in a world in which nobody recognises him.20

In Willy's mind the flute music is also associated with rural America, "the grass and trees and the horizon." (p.11) Rural landscape has recuperative therapy on the 'tired' mind of the salesman. For instance, he is delighted whenever he talks about the countryside . Telling Linda about what has happened to him on his way to New England, he says, "You can imagine, me looking at scenery, on the road every week of my life. But it's so beautiful

reflects the depraved lives of the protagonists. The stage directions read: "At the rise of the curtain, the audience is faced with the dark, grim rear wall of the Wingfield tenement. This building is flanked on both sides by dark, narrow alleys which run into murky canyons of tangled clotheslines, garbage cans, and the sinister lattice-work of neighboring fire escapes." (p.21) Williams' description of the setting is historically reminiscent of the dumbell tenement model popular in New York and elsewhere in other American cities. Howard Chudacoff describes this kind of housing accommodation as follows: "The largest room in any dumbell apartment measured only 10 by 11 feet. The narrow air shaft originally designed to provide light and air, acted as a receptacle for garbage, as a breeding place for vermin and insects, and as a duct for fire and noise. The major consequence of the dumbell was not comfort, but more crowding."16 In fact, the Wingfield apartment is so small that a sense of claustrophobia engulfs the entire space. For example, one can only enter the apartment via the fire exit (a symbol of human desperation, as Tom points ou), and because the apartment is so small the living room also serves as Laura's sleeping room.

The number of plays set in tenements is too large to be discussed here, and one has to be eclectic to keep the topic in focus. It suffices to cite a few other salient examples for further elaboration. Lorraine hansberry's A Raisin in the Sun and Eugene O'Neill's All God's Chillun Got Wings (both plays will be later discussed to highlight racial conflict in an urban context) are set in tenements in major cities, and use the urban milieu as an image to indicate the nighmarish existence of the protagonists. By setting her play in a poor residential slum in Chicago, which is commonly populated by blacks, Hansberry shows how setting becomes an element of confinement detrimental to the aspirations of the characters. Similarly, O'Neill's play which is set in a New York slum district inhabited by blacks and whites alike, though segregated by a street, uses setting expressionistically to depict racial conflict. Finally, though Arthur Miller's Death of a Salesman does not take place in a tenement, the playwright makes us aware of the slum area in the background: "We see a solid vault of apartment houses around the small, fragile-seeming home"17 of Willy Loman.

escape." (p.412) However, despite his rhetoric the play ends with the sense of entrapment in full control.

Likewise, Clifford Odets, who came to prominence in the 1930's, is closely related to Rice in his social vision.13 His drama depicts the appalling conditions of the poor crowded in slum tenements which lack basic services. In Awake and Sing! Odets dramatizes the plight of lower-middle class Americans whose lives and dreams have been subverted by their urban environment. Setting his play in a tenement house, the dramatist depicts the Berger family trapped by its setting, exactly like the characters in Street Scene. In his stage-directions Odets indicates: "All of the characters in Awake and Sing! share a fundamental activity: a struggle for life amidst petty conditions".14

Packed in a small living space (an apartment), there live three generations of the Berger family: the grand father, the parents and the children, and also Moe Axle Rod, a boarder.15 The characters are conscious of the narrowness of the space they occupy. For instance, personal privacy is totally absent, which we also observe in Street Scene Ralph moans that he does not have a private room all for himself, and his mother, Bessie, can only comfort him by saying, "...when Hennie here marries you'll have her room-I should only live to see the day." (p42) Space for recreation does not exist; Jacob has to walk the dog on the roof. Moreover, the tenement lacks all civilized amenities – the dumbwaiter, for example, does not work, a fact revealed by Bessie's complaint against the landlord: "For seven years already, he's sending new ropes. No dumbwaiter, no hot water, no steam – In a respectable house they don't allow such conditions".(P.46)

The examples from Street Scene and Awake and Sing! reveal the victimization of city people by a ruthless urban milieu in which, contrary to the optimistic Marxist rhetoric of Jacob of Awake and Sing! and Sam of Street Scene, life is indeed printed on "dollar bills." Ironically Jacob (like Willy Loman of Death of a Salesman) commits suicide to leave the insurance money for his grand children.

The Glass Menagerie is also set in a dreadful physical space which

> beings to exist-crowded together in dark, ill-ventillated rooms, in many of which the sunlight never enters and in most of which fresh air is unknown. They are centres of disease, poverty, vice, and crime, where it is a marvel, not that some children grow up to be thieves, drunkards, and prostitutes, but that so many should ever grow up to be decent and self-repelling.11

The playwrights dealt with in this paper raise the same issues summed up in the above quotation. They highlight, each in his own way, the plight of the common city dweller and his vulnerability to his environment.

Rice's Street Scene, which is a useful starting point, depicts the terrible conditions prevalent in New York tenements and delineates the nightmarish city milieu. The play presents a tenement house packed with all sorts of people: native-born Americans and other immigrants representative of the social structure of middle-class America. The tenants are shaped by their socio-economic environment. Reduced to mere figures more like the ciphers of Rice's other play The Adding Machine these people become victims of a deterministic urban environment which they are helpless to change or surmount.12

Throughout the play the tenement house is described as unsuitable for human habitation. For instance, Rice's characters complain of the heat and the narrowness of their space. They are always seen crowding at the windows and on the porch for fresh air. The examples to be cited here disclose the awful conditions of the tenement. Trying to persuade Rose to leave her living quarters for a better life somewhere else, Easter calls the house a "dirty old tenement" (p.346), unfit for human living. Complaining of the bad living conditions in the house, Sam cries, "Oh, God, why do we go on living in this sewer?" (p.356) Later he complains to Rose saying, "Do you think I can stay here, stifling to death, in this slum,...?" (p.411) And Rose wishes to escape to the suburbs, where "people are much nicer and friendlier, when you get outside of New York." (p.385) One may add other evidence to denote the inhuman living conditions of the tenement and point out the desire of the protagonists to escape from this predicament. As Sam puts it, "It's to escape all that, that we must be together. It's only because we love each other and belong to each other, that we can find the strength to

though, that the city-image a writer creates is not necessarily a true copy of the real one, but only a medium or metaphor which expresses the writer's attitude toward urban environment.

I

In dealing with the negative aspects of the city, a host of American dramatists insistently make us aware of the urban scene by setting their plays in tenements and other cul-de-sacs (e.g. honky-tonks, subways, etc.) which are at odds with human freedom. For instance, Elmer Rice's Street Scene takes place in an ugly brownstone tenement building located in "a mean quarter of New York."7 The Berger family of Clifford Odets' Awake and Sing! lives in a tenement apartment in the Bronx, New York. Set in St. Louis, Missouri, the Wingfield apartment in Tennessee Williams The Glass Menagerie "is in the rear of the building, one of those vast hive-like conglomerations of cellular living-units that flower as warty growths in overcrowded, urban centers...."8 And Sidney Kingsley's Dead End presents an awful naturalistic view of urban poverty and misery in New York. Set at the dead end of a filthy street, the play depicts the squalid conditions of the characters and reveals their total isolation from the urban environment around them.9 These plays clearly reveal the diminished space allowed the individual and convey a sense of menace created by the urban environment.

The tenement house, which is widely used as a scene for many American plays, is a multi-story building inhabited by the poor. Owing to the abject living conditions of the tenement, it has gradually gained negative meanings associated with diseases, sanitation problems, squalor and crime.10 The following excerpt from Milton D. Speizman's Urban America in the Twentieth Century is significant for its bearing on the topic under consideration:

> the tenement house system has become fraught with so much danger to the welfare of the community... . The tenement districts of New York are places in which thousands of people are living in the smallest space in which it is possible for human

Before discussing the image of the city in American drama, let me recapitulate briefly the main points that have been established so far relating to the treatment of the subject in American literature. Generally speaking, American writers have shown serious interest in the urban transformations taking place in their society. They more or less express an ambivalent attitude toward the industrial city which they see as the locus of socio-economic success and labor opportunity, and yet condemn it as inhibitive of the freedom of the human spirit. Commenting on the negative depiction of the city in American letters, Morton and Lucia White point out that:

> the American intellectual has been alienated from the society in which he has lived, that he has been typically in revolt against it. For while our society became more and more urban throughout the nineteenth century, the literary tendency to denigrate the city hardly declined; if anything, its intensity increased. One of the most typical elements in our national life, the growing city, became the bete-noire of our most distinguished intellectuals rather than their favourite.4

In discussing American literature with respect to urban and social change, Michael Spindler observes that the growth of the industrial city has provided writers, especially novelists, with real-life experiences which they use to depict the urbanization of modern American society in a rather negative way. He particularly points out to American novels written in the nineteenth and twentieth centuries (e.g. Sister Carrie, The Jungle, U.S.A. and others) which meticulously portray the industrial city as a pessimistic environment infested with images of death and desperation.5

Let us now consider how American playwrights react to the same phenomenon – the negative portrayal of the city in American belles-lettres. A scrutiny of American drama written in the twentieth century from this perspective reveals that American playwrigthts have also been aware of the exigencies imposed by the urban milieu and looked at the city as a force inimical to the fulfilment of the American Dream. They depict the city as the locus of desperation associating it, as Leslie Fielder suggests, with infernal images which enhance our sense of alienation.6 It should be pointed out,

THE IMAGE OF THE CITY IN AMERICAN DRAMA

Mahmoud F. Al-Shetawi (University of Qatar)

From the beginning, Americans conceived of their society as urban and founded cities in the New World.1 Since most of the early settlers of America originally came from Europe, they brought with them the process of urbanization which took America by storm; thus burgeoing industrial cities systematically mushroomed everywhere in the country. Indeed, through the seventeenth and eighteenth centuries and by the turn of the nineteenth century America was turning into a predominantly urban nation and the majority of Americans were becoming city dwellers. With the advent of the twentieth century the city or urban center became the characteristic landmark of American landscape. The urban development of the United States of America has been exhaustively discussed in different studies, and it is not the concern of this paper to look into this matter again.2 Instead I propose to examine the varied treatment of the city in modern American drama and reveal the attitude of American dramatists toward their urban society. Though the subject has been duly documented with respect to fiction and, to some extent, poetry, its consideration in drama remains yet to be fully investigated.3

The corpus of American drama set in urban milieus is too large to be considered in an article of this length, and perhaps needs to have a full-length book devoted to it. Therefore, the topic will be limited to some selected plays which, in my opinion, highlight the treatment of the city quite significantly and are commonly recognized as major plays. These include, as examples, Street Scene, Awake and Sing! The Glass Menagerie, Death of a Salesman, A Raisin in the Sun and others which will be cited in the course of the paper. Diverse as these plays may be in terms of style and social outlook, they still deal with a common theme: the petty conditions of American cities and the struggle, though mostly futile, of the protagonists to escape from a deterministic urban environment to which they find themselves bound. This negative depiction of the city is mainly conveyed in using the city as mise-en-scene for the plays. Mostly set in urban settings (New York City is the most popular), these plays associate the city with images of entrapment and desperation suggesting the alienation and unfulfilled hopes of the characters.

Ryan, E.B. (1979) "Why Do Low-Prestige Varieties persist?" in Giles & St. Clair (ed.): Language & Social Psychology pp 145-157.

Schmidt, R.W. (1974) "Sociostylistic Variation in Spoken Egyptian Arabic: Examination of the Concept of Diglossia" Ph.D. Dissertation, Brown University.

Scotton, C.M.S. & Wanjin, Z. (1984) "The Multiple Meanings of Shi;fu, Language Change in Progress". Anthropological Linguistics Vol.26, No.3, pp 326-344.

Shorrab, G.A. (1981) "Models of Socially Significant Linguistic Variation: The Case of Palestnian Arabic" Ph.D. Thesis, State University of New York at Buffalo.

Trudgil, P. (1974) "The Social Differentiation of English in Norwich" CUP

Wardhaugh, R. (1986) "An Introduction to Sociolinguistics" Blackwell, Oxford.

Wolfram, W. (1969) "A Sociolinguistic Description of Detroit Negro Speech" Centre for Applied Linguistics, Washington, D.C.

Labov, W. (1966) "The Social Stratification of English In New York City" Centre for Applied Linguistics, Washington, D.C.

(1972a) "Sociolinguistic Patterns" Blackwell, Oxford.

(1972b) "On the Mechanism of Language Change" In Gumperz & Hymes (eds) 1972 Directions in Sociolinguistics pp 512-537

(1972c) "Negative Attraction and Negative Concord in English Grammer Language 48, pp 773-818.

Le Page, R.B. & Tabouret-Keller, A (1985) "Acts of Identity" CUP, London

Lyons, J. (1970) "New Horizon in Linguistics" Harmondsworth, Middlesex, England Penguin.

Milroy, L. (1980) "Language & Social Network" Blackwell, Oxford.

Milroy, L. & Milroy, J. (1977) "Speech and Context in an Urban Setting" Belfast Working Papers in Language and Linguistics Vol. 2, No.4

Romaine, S. (1980) "What is a Speech Community"? Belfast Working Papers in Language and Linguistics Vol.4, pp 41-59

and unattainable as the idealization of the homogenous speech community or the ideal speaker-hearer for the study of linguistic behaviour. (Dua 1981).

References:

Abdul-Jawad, H.R. (1981) "Lexical and Phonological variation in Spoken Arabic in Amman", Ph.D Dissertation, University of Pennysylvania.

Al-Amadidhi, G.G.H. (1985) "Lexical and Sociolinguistic Variation in Qatari Arabic". Phd. Thesis, University of Edinburgh.

Bolinger, D. (1975) Aspects of Language 2nd ed. New York Harcourt Brace.

Braithwaite, C.A. (1985) Toward a Conceptualization of "Speech Community" British Journal of Social and Clinical sychology Vol.9, pp 77-9.

Dorain, N.C. (1982) "Defining the Speech Community". In Romaine 1982 (ed)Sociolinguistic Variation in Speech Communities Arnold pp 25-33.

Dua, H.R. (1981) "Dimensions of Speech Community" International Journal of Sociology of Language 52, pp 85-119.

Gumperz, J.J. (1968) "The Speech Community" in Giglioli (ed) 1972 Language & Social Context PP 219-31.

Holes, C. (1987) "Language Variation and Change in a Modernising Arab State" Keenan paul International, London.

an acceptable member of the community, because in practice people do not define the group with which they identify solely on language grounds. Other factors are equally, if not more, important. These factors include diverse elements such as history, background, customs, habits, rituals, etc.

The inadequacy of most definitions of speech community (including Labov's) is evident when we look at the interesting case of the Gaelic speaking community in Scotland. Dorain (1982) reports on Gaelic-speaking fisherfolk descendants in the Highland district of Scotland. In this community there are three linguistic groups:

a) monolingual English;
b) bilingual English/Gaelic;
c) Semi-speakers and near passive bilinguals in Gaelic/English (their active language is English).

Obviously, most definitions such as Labov's, Lyons (1970); Gumperz (1968), to name a few, may accommodate groups (a) and (b), but fall short of handling the third group. But all these groups regard themselves as part of the same speech community. In fact, all three groups of speakers show similar affiliation with the Gaelic/English speech community, regardless of their actual participation and their active command of the Gaelic language. In other word,s what is important here is social affiliation rather than linguistic ability.

Perhaps what we would like to see is a definition which determines if any given speaker is a member of the speech community or merely a participant in it and whether he is a central member, a peripheral one or totally outside the speech community concerned.

It is tempting to agree with Gumperz who says that a speech community cannot be satisfactorily delimited and defined on the basis of the speaker's reactions to a linguistic variable such as (r) in New York, or [d3] in Bahrain. A competent member of the speech community must also share other things such as knowing how, when, where and what to speak. However, similarity in norms does not necessarily mean uniformity in norms. The concept of a uniform set of norms for the speech community as a whole is as unrealistic

> "without necessarily making any conscious choice, he (the member of a socio-economic class) identifies himself in every utterance by distinguishing himself from other speakers who use contrasting forms." (Braithwaite 1985:17).

This is to say that the realization of any speech community as an entity can only be from the researcher's perspective, regardless of how the speaker actually perceives the speech community.

Such acts may be quite serious for we may end up with an untrue picture of a speech community. Any definition or delimitation of speech community must, somehow, reflect the speaker(s)' perception of the community, because the individual awareness that he belongs to a given group is, for the structuring of his socio-cultural behaviour, more important than any objective ordering in different socio-economic and cultural hierarchies estabished by the researcher.

The final issue in relation to this specific point is the relationship between participating in a speech community and being a fully-fledged member of that community. Can we assume that every participant in the speech community is also a member of it? Obviously, Labov sees no difference between the two. Thus every speaker who participates in the set of shared linguistic norms is also a member of the same speech community. In other words, a recent newcomer to New York, who has the same image of the variable (r) and shares the same pattern of style shifting is a member of New York City speech community.

Many people disagree with such a concept. Common sense dictates that to participate in a speech community is not quite the same as to be a member of it. In fact, any concept of speech community in terms of knowledge alone, even knowledge of grammar as well as knowledge of patterns of speaking falls short. We may go one step further and claim that membership in a community depends upon criteria which in a given case may not even saliently involve language and speaking. (Wardhaugh 1986). For example, a foreigner may learn the language and acquire language skills but still be only a participant in a speech community and not a member, if he does not also fully master receptive skills and sociolinguistic norms that would make him

community or they are not, depending on their reaction to a particular linguistic variable. But in practice any individual may belong to X number of different speech communties. There is simply no limit to the ways and means by which speakers identify themselves with various groups in the society. This is done for different reasons; secutiry, amusement, worship, self-identification, etc. Consequently

> "there is no limit to the number and variety of speech communities that are to be found in a society" (Bolinger 1975:333).

For instance, a Qatari university graduate student may belong to a great number of groups; Muslims, Arabs, Qataris, educated Qataris, young, etc. These are only some of the groups that this individual would be liable to associate with. But on any particular occasion he will identify himself with only one of the groups. The group which he chooses for the identification process depends on the contrastive or important factors in a particular setting. In fact, many studies have found that the relaxed peer-group usage of language is oriented towards some social target, i.e. the establishment of identity with a group; and that target varies from one occasion to another (see Le page and Tabouret-Keller 1985, Milroy 1980 and Labov 1972c).

The process of multi-level identification occurs because the concept of group is relative. Hence speech community must also be relative. The relativity in language use is nicely captured by Le Rage & Tabouret - Keller (1985 : 181) when they state that they see

> "speech acts as acts of projection: the speaker is projecting his inner universe, implicitly with the invitation to others to share it, at least insofar as they recognize his language as an accurate symoblization of the world, and to his attitude towards it. by verbalizing as he does, he is seeking to reinforce his model of the world, and hopes for acts of solidarity from those with whom he wishes to identify."

Moreover, Labov suggests that the factors which identify the speaker with a particular speech community are out of the awareness of the speaker. Thus Labov writes:-

rules to describe the community grammar. This would mean that all speakers do not share the same variable rule, which is a pre-requsite to qualify as members of the same speech community. Thus in a community that is witnessing sound charge in progress, there is more than one variable rule; and likewise we have more than one speech community. However,

> "once we acknowledge the existence of different norms of speaking and prestige attached to them as co-existent within the same speech community, then the notion of the prototype variable rule community described in terms of its usage of a linguistic variable controlled by a single variable rule breaks down" (Romaine 1980:51)

In fact, after a little thought it becomes obvious that if all speakers always shared the same evaluation of variants, it would be difficult to see how a change could take place at all (Scotton & Wanjin 1984).

Moreover, Labov's model of language change suggests an overwhelming tendency for people to adopt the speech features of the socio-economic class above them. This is a unidirectional model of language change towards the prestigious language of the highest socio-economic class. In this model there is no mention of the role of low (negative) prestige varieties.

Many studies have found that low-class people do not adopt the prestigious variety of the higher socio-economic class; moreover, they favoured their native speech habits (see Ryan 1979, Milroy 1980, Cheyne 1970).

Thus it seems quite adequate to say that,

> "in different speech communities social and linguistic factors are linked not only in different ways but to different degrees, so that the imbrication of social and linguistic structure in a given speech community is a matter for investigation and cannot be taken as given" (Romaine 1980:42).

d) Group Identity and Speech Community.

Labov's definition of speech community fails to capture the dynamic aspect of language. According to Labov people are either part of a speech

however, in Qatar, bedouin speakers were moving towards the sedentary norms of speech, thus adopting [j] while the sedentary group were adopting the [d3] variant of the Standard Arabic (Al-Amadidhi 1985).

Abdul-Jawad (1981) reports a somewhat different pattern of change. In his investigation on the position of the variable (q) (voiceless uvular plosive) in the Jordanian dialect, he noticed that some speakers from rural areas showed change in two different directions with regard to the variable. They adopted more of the standard variant [q] because of the increasing influence of the formal educationsl system, and at the same time they adopted the prestigious urban variant [?].

Labov's concept of language change and its mechanism depends very much on the coherent notion of speech community and community grammar. Without such coherence it is impossible for any change to take place (Romaine 1980). Labov implies that in order to identify a specific speech community one must discover the linguistic rules concerning the co-variation between linguistic variables and non-linguistic ones. These rules are presented in the forms of variable rules. Every variable rule is constrained by linguistic as well as non-linguistic factors; and every rule identifies a specific speech community (Braithwaite 1985). Thus, New York City is said to be a single speech community because the variation in the variable (r) is captured by one variable rule which is constrained by linguistic elements, i.e. whether the following segment is a vowel or a consonant, and also constrained by non-linguistic factors, i.e. the socio-economic class of the speaker, sex, style etc. Moreover, it is implied that variable rules work for all sub -groups within the society, albeit to a different degree; and all subgroups share the same constraints and norms of use. Therefore, in the process of style shift, all speakers will shift in the same direction, but not to the same degree.

This concept of language and its relationship to variable rules came under strong attack from Suzanne Romaine. She aruges that changes, using Labov's hypothesis, would involve reordering of the constraints i.e. the reweighting of the constraints' hierarchy in the variable rule. If this is the case, then all the subgroups of the society, at one point in time, do not share the same variable rule. At this point there would be two or more variable

"has little to do with paying more attention to speech during reading... Thus the influence of the written form produces variability which is qualitative rather than quantitative" (Milroy 1980: 103-4).

These findings contradict Labov's claim that it is possible to view styles along a linear continum from casual to formal. In fact, the reading styles and the spoken ones should be represented as different parts of informants' repertoires instead of points on the same linear continuum, since to a certain extent variation in the reading styles depends on skills in reading aloud and on the materials that are read.

c) The Process of Sound Change and Speech Community

Labov's notion of linguistic change is closely tied to the principle of the common evaluation of linguistic variables. Because all members of the speech community evaluate the variants in the same way, changes in the linguistic system of the community can take place only in one direction, which is, in most cases, towards the prestigious variety. Thus, the speech commuity is seen as a physical body which can move as a whole in a certain direction. But such an idea is far too simplistic and uncovincing. In fact:

"even fairly homogenous speech communities may display more than one direction of change and variation, and sub groups within the community can be characterized by bimodal distribution with respect to the use of the same variable; i.e. they use it in different ways" (Romaine 1980:43)

Various studies on Arabic dialects have shown that the same linguistic variable may move in two differnt directions simultaneously. Holes (1987) investigated the variable (d3) in the Bahraini dialect. The variable displayed two variants [d3] and [j]. The two variants were associated with the stigmatized Shi'i group and the prestigious Sunni group respectively. He found that the former group was moving in the direction of the socially prestigious group; and adopting the [j] variant of the Sunni group. But the latter group was moving in the direction of the superposed variety, i.e. Standard Arabic, thus adopting the [d3] variant which coincided with the variant used by the stigmatized group. Similar patterns of change in two opposite directions of the same variable were also evident in Qatari Arabic.

There are a couple of points which I would like to raise in relation to the process of style shift. The first is the effect of reading material on the actual realization of a linguistic variable in reading styles. Labov asserts that the instances of the prestigious (standard) variant increase in the reading styles compared with the spoken styles. The implication is that such an increase will occur regardless of the material which is read.

This, however, is erroneous, as the results of numerous studies show. In my earlier study (1985) informants were given two pieces of poetry to read, each of 12 lines. One poem belonged to Standard Arabic poetry while the other was colloquial poetry. The results showed that informants applied a different set of rules when reading the two poems. When reading the Standard Arabic poetry they increased (almost categorically) their usage of the standard variant. But when reading the vernacular (colloquial) poem there was no increase in the instances of the standard variant. This indicates that the material that is read will somehow influence the actual reading process, the strategies adopted by the informants and the realization of any specific variant.

Other studies have also produced results contrary to the accepted dogma that reading styles show a closer approximation to the standard norms. For example, Milroy & Milroy (1977) found that it is not always the case that reading styles yielded results closer to the standard norms of speech. In their investigation of Belfast speech, they found that the (a) variable did not show the expected directiuon of shift. In fact, all the speakers had a higher percentage of the localized variant in the reading list than in the formal style. This is an indication of a closer approximation to the vernacular norms in the style of reading list. Moreover, the (a) pattern was reproduced in a number of other vowel variables.

The second issue is the relationship between the spoken styles and the reading ones. Are they placed on a single linear continuum, or do they belong to different continua? In other words, are the differences between reading styles and spoken styles quantitative or qualitative? My earlier study (1985) showed that people may utilize a variant in the spoken styles but never use it when reading. This suggests that some kind of dual norm is involved. This

In these communities when people react to a variable it is extremely difficult to decide whether they react to it as a part of the local dialect vis-a-vis the Standard Arabic or as a part of a local variety vis-a-vis another local variety. For example, in my earlier study (1985) many Bedouin speakers reacted positively towards their usage of the [d3] variant . Did they react in that manner because [d3] is part of their dialect; thus emphasizing their identity and showing solidarity with the Bedouin group ? Or were they reacting to the variable as a part of Standard Arabic (the prestigious variety)? Or, were they doing both simultaneously?

This leads to another unresolved question in Labov's definition: do people react to a linguistic variable independently or do they react to it as a part of a complete system? In other words, does the variable alone trigger the informants' reactions, or are their reactions influenced by other features that occur in the sentence?

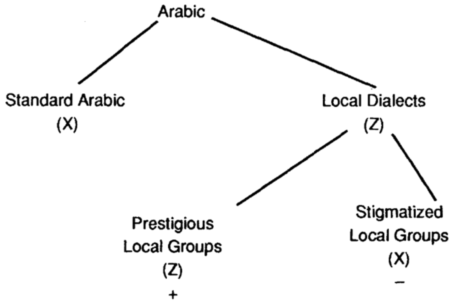
Reading Labov one gets the impression that linguistic variables alone trigger the reactions. However, this is doubtful and it would be interesting to see how people would evaluate a linguistic variable, for example (r), when the variable gives an indication in one direction while other linguistic clues point to the opposite direction. We want to know how speakers rate another speker when his usage of (r), for example, is in accordance with the highest socio-economic class, but other signals in his verbal message such as words, phrases, expressions, other variables etc. put him in a lower socio-economic category.

b) Style Shift and Speech Community.

Another pillar in Labov's definition is the stylistic shift across a continum which has various style levels stretching from casual (informal) style to the most formal styles. Labov distinguished five levels:- informal speech; formal speech; reading; word list and minimal pairs. The first level is the most informal style and the last the most formal. The crucial point is that as one moves in the direction of more formal styles, there is an increase in the instances of the prestigious variant in the speech of all social classes (Labov 1966, Trudgill 1974, Schmidt 1974, Worlfram 1969). In other wrods, the standard variant increases as formality of the style level increases.

Trudgill 1974).

Similar results re also reported in quantitative studies on the Bahraini Arabic dialect and the Palestinian dialect. Holes (1987) investigated the position of the [d3] variable in Bahrain. The variable yielded two variants: [d3] and [j]. The former is associated with the Sunni gorup who occupy a very prestigious position in the social hierarchy. The latter is linked wih the Baharana (Shi'i) group who are socially stigmatized. Shorrab (1981) examined the same variable in a Palestinian community. He separated two variants: [d3] and [3] [3] is associated with town dwellers (Madani speakers) who are the elite of society. [d3] is mainly used by the Bedouin and Fallahin farmer groups who are socially stigmatized.
Schematically, the position of the (d3) variable in these Arabic dialects vis-a-vis the Standard Arabic, can be presented as follows;-



(+ = prestigious
– = stigmatized)

Thus when we compare the local dialect with Standard Arabic the [x] variant i.e. [d3] has prestige, but when various local varieties are compared with each other the [z] variant i.e. [j], [3] has prestige.

we make is arbitrary.

Scotton & Wanjin (1984) investigated the semantic change of the meaning of the Chinese world shi : fu. They found differentiated evaluation as well as differentiated usage of the word within the same speech community. Shi:fu could mean elder or master craftsman (original meaning), comrade or a neutral term of address. Each meaning is associatged with a different group of speakers in Beijing. The investigators found that there was an isomorphic relationship between the subjective evaluation and the actual usage of the word shi : fu. Informants evaluated their own usage of the word most positively, although they are part of the same speech community.

When Labov's notion of speech community is applied to Arabic, different sorts of problems are encountered. Arabic speech communities are diglossic. The language that is used in Arab countries is best described as a continuum which has High Code (H) at one end and Low Code (L) at the other; and in between there are an infinite number of varieties. Some oare close to (H) while others are closer to (L).

In Labov's theory,. the notion of prestige is always tied to the highest socio-economic class, which other speakers try to copy. Various studies on Arabic contradict such a claim. In an earlier study on variations on Qatari Arabic (al Amadidhi 1985) I examined the variable [d3] (voiced alveolar affricate). It shows three variants:-
[d3] – voiced alveolar affricate
[3] – voiced palatal fricative
[J] – voiced palatal glide.

[3] occurred equally in the language of all subgroups and thus is socially insignificant. [j] is used by the prestigious sedentary group while [d3] is employed by the Bedouin group who are socially stigmatized. Considering the dialectal level alone the prestigious form is the [j] variant. However the [d3] variant used by the Bedouin coincides with the form of the Standard Arabic, i.e. the most prestigious variety of Arabic. This is quite different from what has been found in studies on English where the most prestigious variants are used most frequently by the highest socio-economic class. Such a pattern is known as a reflection of social class stratification (Labov 1972a,

the reaction to one linguistic variable shows uniformity across the community while the attitudes to another variable exhibit split reaction? And, finally, what is the relationship between overt and covert prestige (Trudgill 1974)?

In Labov's study (1966) in New York City all the speakers reacted positively to the r-full variety i.e. they all considered retaining (r) as more prestigious than dropping it. Is it not possible that they were reacting to the variable in a particular situation, i.e. formal context, mainly interview? Would they exhibit the same reaction to the same variable in a less formal situation, i.e. everyday casual context? This point invites some thorough investgation. It also leads to the question of appropriateness.

Language takes place in a social context. We cannot assign ± prestige to a linguistic variable regardless of the context or the immediate situation of speech event. A linguistic item may be viewed positively in one situation and negatively in another. For example, to use Standard Arabic in a t.v. interview brings a certain degree of prestige to the speaker; but using the smae form in a friendly setting raises laughter. I think that the situation in the English speaking countries is not very different. It is only a matter of degree, not of principle. Therefore, it is worthwhile to examine the reaction of speakers to linguistic variables in as many different contexts as possible. Certainly, it would be interesting to see how New Yorkers, for example, react to the linguistic variable (r) in a less formal environment.

The other point related to the notion of prestige is the difficulty one encounters when handling more than one variable in the same community. Milroy (1980) gives an example of such cases. She writes:

> "Southern British speakers cannot be said to belong to the same speech community as New Yorkers, since they do not attach the same social meaning to, for example (r): on the contrary, the highest prestige accent in Southern England (RP) is non-rhotic, yet the Southern British speech community may be said to be united by a common evaluation of the variable (h); h-droipping is stigmatized in Southern England" (Milroy 1980:13)

In this case, do we have one speech community or two? Whichever choice

variable, but the shift between contrasting styles follow the same pattern in almost every case." (1966:7).

In another words, New Yorkers form a single speech community because all group exhibit an increase in the variant (r) as the level of formality increases. Labov's study in 1966 showed that every group exhibited a regular style shifting in the same direction. The groups are different in their actual realization of (r); but they shift in the same direction. Since the highest social group is closer to the norm i.e. r-full variety than other groups, the shift towards r-full type of speech is less noticeable in the speech of the highest socio-economic class compared with the lowest social group, which shows a high increase in the realisation of (r) as the situation becomes more formal. But at every style level the highest social group has more cases of the prestigious variant (r) than the rest. In fact, at every style level, each social group shows instances of (r) comparable to its social status. Labov explains the shift toward r-ful variety as being the result of the positive evaluation of (r) by all New Yorkers.

Having presented Labov's theory of speach community I shall examine it from four different axes and the relationship of each to the notion of speech community. The four axes are:-

a) The notion of prestige
b) The process of style shifting
c) The process of sound change
d) The notion of identity.

a) Prestige and Speech Community.

One of the key notions in labov's definition of speech community is the idea of prestige. Thus New Yrok City is a single speech comunity because all the speakers regard r-full variety as prestigious. However, this notion of prestige must be scrutinized carefully. There are a host of questions which must be answered if one wants the definition to be more precise. Probably the very first question is: What do we mean by prestige? Is prestige tied to linguistic variables only or can it be extended to cover language varieties as well? Can we talk about prestige independent from context? What is the relationship between prestige and appropriateness? What happens when

variables such as (r) reflect agreement among speakers despite the fact that each group of speaker uses the variabeles differently.

This notion of common evaluation of the linguistic variable is evident in labov's writing. In fact he insists on such evaluation as the crucial factor in designating any group of speakers as members of the same speech community. For example, he writes: (1972a:158).

> "a speech communiy cannot be conceived as a group of speakers who all use the same forms; it is best defined as a group who share norms in regard to language."

At another point he writes:

> "the linguistic variable became one of the norms which defined the speech community, and all the members of the speech community reacted in a uniform manner to its use" (Ibid: 179).

He also writes that New York City is a single speech community because it is "united by a common evaluation of the same variables" (1966:125).

A similar tone is quite clear when he writes:

> "the speech community is defined not by the presence or absence of a particular dialect or language but by the presence of a common set of normative values in regard to linguistic features" (1972b:513).

Thus Labov's concept of speech community abandons any notion of uniformity in the actual employment of language or linguistic variables but relies on shared evaluation of linguistic variables.

Considering premise (b), Labov writes:

> "that New York is a speech community and not a collection of speakers living side by side, borrowing from each others' dialects. may be demonstrated by many kinds of evidence. Native New Yorkers differ in their usage in terms of absolute values of the

However, the aim of this paper is to examine the definition in the light of numerous studies that have been conducted in the last twenty years, particularly those studies that were carried out on Arabic. The objective is to see how far the definition proves accurate in the light of new information and results which were not available when the definition was first introduced.

I have chosen to comment on Labov's definition because it is quite different from others in the field, and thus invites more discussion. Labov's definition concentrates on shared norms while other definitions emphasize the shared language or variety. For example, Lyons (1970) defines the speech community as "all the people who use a given language." Similar definition is also framed by Charles Hocket (1958:8) " each language defines a speech community: the whole set of people who communicate with each other... via the common language." In fact the emphasis on shared linguistic characteristics is evident in all the definitions except Labov's. One may suggest that Labov's definition is more psychological than linguistic in its orientation. This however, is not to imply that other definitions are not open to examination or criticism. but that Labov's offers more scope for discussion.

Labov's theory of speech community rests on two premises:-

a) that the reaction/attitude to linguistic variables are the same throughou the community despite differences in the actual use of the variables by each group of speakers:

and

b) that various social gorups in the society use the linguistic variables (or language variety) in the same way, although not necessarily to the same level.

On the basis of premise (a) Labov concludes that all New Yorkers from the highest socio-economic class to the lowest on the social hierarchy form a single speech community, because all of them view the retention of (r) positively, i.e. prestigious. In ohter words, he regards New York City as one speech community because the subjective reactions to the linguistic

'SPEECH COMMUNITY: A CRITIQUE OF LABOV'S DEFINITION

Dr. Darwish A-Amadidhi

Speech community is an important notion because language is both an individual possession and a social possession. Certain people have similar linguistic properties. i.e. they speak the same language or the same variety. Thus they can be said to be members of the same speech community. Since language is a social entity and it is always used in a social environment, it is crucial to define the social space in which the language or variety is taking place. Besides speech community is one of those global terms that is widely used in sociolinguistics. Other related concepts such as speech field, speech event, speech network, speech situation etc. are embraced by the larger concept, i.e. speech community. In fact, defining speech community determines, in one way another, the nature of all smaller units of study (Braithwaite 1985). Because of the importance of this unit many different definitions of speech community have been presented by various scholars working in the different branches of sociolinguistics, (Gumperz: Ethnography of Speaking. Le Page: Creole Studies, Fishman: Sociology of Language, Labov: Quantitative Approach; to name some.)

One of these definitions was presented by William Labov in the early seventies. He writes:

> "The speech communities is not defined by any marked agreement in the use of language elements, so much as by participation in a set of shared norms; these norms may be observed in overt type of evaluative patterns of variation which are invariant in respect to particular levels of usage" (1972a: 120-1).

It may come as a surprise to question and examine such a definition of speech community as Labov's since it has been in use for the past two decades and so much has been written about it.

28. Baines, op. cit., p.7
29. Roman Taborski, Apollo Korzeniowski, Wroclaw, 1957.
30. Alfred de Vigny, Collected Poems, Paris 1837.
31. Katherine Haynes Gatch, "Conrad's Axel," Studies in Philology, Jan., 1959.
32. W.B. Yeats, Review of "Axel", The Bookman, April 1894.
33. H.T. Webster, "Conrad's Changes in Narrative Conception in the MSS of Typhoon and Other Stories and Victory", P.M.L.A. Journal, No.64 (1949), pp 953-62
34. Gatch, op. cit., p.98
35. Villiers de l'Isle Adam, Axel, Paris, 1980, Pt.II, III, XII, p.159.
36. Ibid, Pt. I, II, 1, p. 46; and Pt. III, II, i, p. 213
37. Ibid, Pt. IV, II, 1, p. 261.
38. Vicomte Robert du Pontavice de Heussey, Villiers de l'Isle Adam, transl. by Lady Mary Lloyd, London 1894.
39. Villiers de l'Isle Adam, Sardonic Tales, London, 1927.
40. Ibid, p.1.
41. Conrad, Notes on Life & Letters, op. cit., p.8.

3. Joseph Conrad, "A Glance at Two Books", Last Essays, Dent, London 1957, p. 132.
4. Guy de Maupassant, Oeuvres Completes, Paris, 1908, p.277.
5. Kirschner, op. cit., p. 215
6. Guy de Maupassant, op. cit., p. 30
7. Gee and Sturm, Letters of Joseph Conrad to Marguerite Poradowska, 1890-1920, translated from the French and ed. with an introduction, Notes and Appendices, Yale, 1940, p. 72.
8. F. Madox Ford (Hueffer), Joseph Conrad: A Personal Remembrance, London, 1924, p. 195.
9. H.D. Davry, Mercure de France, Paris, July, 1899, p. 266.
10. Letter to Hugh Walpole, 7th June, 1918, Life and Letters (Aubry), op. cit., II, p.206
11. Letter to Marguerite Poradowska, 6th April, 1892, quoted by Gee and Sturm, op. cit., p.44
12. Jocelyn Baines, Joseph Conrad: a Critical Biography, London 19690.
13. Gustave Flaubert, La Tentation de Saint Antoine, Paris, 1954, p. 72.
14. Joseph Conrad, Notes on Life & Letters, Dent, London, 1957, p.37
15. Ibid., p.37.
16. Joseph Conrad, A Personal Record, Dent, London, 1957, p.44.
17. Ivan Turgenev, "Hamlet and Don Quixote – the Two Eternal Human Types", translated by D.A. Model, Current Literature, New York, March 1907, p. 291.
18. Ibid.
19. David Magarshack, Turgenev: A Life, New York, 1954, p.281.
20. Letter to Cunninghame Graham, 8th February 1988, Life and Letters (Aubry), op. cit., pp. 268-70.
21. Kirschner, op. cit., p. 242
22. Ibid., p.246
23. Edward Garnett, Letters from Conrad, 1985 – 1924, Yale, 1940, p. 163.
24. Letters to Galsworthy, 9th April, 1906, Life and Letters, (Aubry), op. cit., II, p.33
25. Baines, op. cit., pp. 144-5
26. Ibid., p. 145
27. Letter from Henry James to Gosse, 26th June, 1902, cited in Baines, op. cit., p.145

Conrad's however, lies in Villiers' notorious snobbishness: his pessimism was retrogressive, looking back to an ideal and feudal world in which the higher social order of society alone could aspire to noble ambitions and ethical goals. Conrad, on the contrary, although somewhat snobbish personally, did not carry this over into his novels. When he wrote "What one feels so hopelessly barren in declared pessimism is its arrogance"(41) he was doubtless thinking of the sort of pessimism exemplified by Villiers. Conrad nowhere refers specifically to having read Villiers de l'Isle Adam, nor acknowledges any influence on himself of Axel, although it may be thought unlikely that he could have missed a major writer whose chief work was a cause celebre in the 1890's, and who was praised so highly by Arthur Symons. It is possible therefore, because of their proximity in certain aspects, that some of Conrad's attitudes received clarification, or appeared to him less unique, as a result of knowledge of Villiers, but it is also highly improbable that he felt a strong or guiding influence from the work of a writer whom he never anywhere mentioned.

In conclusion, then, while it may readily be granted that Conrad's technique and use of language were affected by contact with French literature, it is far from clear that he acquired from any French writers the attitudes towards life which make him seen "exotic" to English readers. It remains true, partly for reasons of style alone, that his work has a "French flavour". Apart from style altogether, this may be traced to the sympathy he felt for French attitudes generally, to the affinity he felt for the craftsmanlike approach to literature of Flaubert and his successors, and to the attraction French post-romantic ideas had for him. As in the case of Villiers de l'Isle Adam, other French authors may have helped him by their handling of ideas to clarify his own, and to organise them into acceptable literary forms. But it is not possible to point to any French writer, or group of writers, or to French literature as a whole as being a formative influence on Conrad's art.

NOTES

1. G.J. Aubry, Joseph Conrad: Life and Letters, 2 Vols., London 1927.
2. Paul Kirschner, Conrad: The Psychologist as Artist, Edinburgh, 1968.

As Miss Gatch observes, "To Villiers' fellow-symbolists Axel's suicide... was an act expressive of enormous scorn of ordinary life and represented a victory over the two illusions, wealth and carnal love."(34) Axel, like Victory, is marked by strongly dualist elements: Count Auersberg has received his education from a "Rosicrucian adept:" (there were close ties between French Rosicrucianism and medaeval French dualism), and in his early years he was "surrounded by strange alembics and by ancient tomes of Hermetic and Kabbalistic lore."(35) Axel and Sara de Maupers are repeatedly asked the question, "Acceptes-tu la Lumiere, l'Esperance et la Vie?"(36) and to this triad, of which they can accept only Light, they reply in dramatic negatives. Axel assigns the "business of living" to the lower orders in his lines, "Nous avons détruit, dans non étranges coeurs, l'amour de la vie... Vivre? – les serviteurs faront cela pour nous."(37) The echoes of ideas and expression are clearly evident in Victory; at the least, we may say that Villiers was a kindred spirit to Conrad.

Unfortunately, it is impossible to gain much insight into the mind behind Axel; after the death of Villiers, his family and aristocratic friends carried out a salvage operation on his reputation, the result of which was an official biography(38) in which he is made to seem the most orthodox and uninteresting of men. The care taken by his biographer, du Pontavice de Heussey, to assert (against the evidence of Axel) Villier's spotless Catholic faith amounts to deliberate concealment of the fact that he underwent a period of deep interest in heretical philosophy which lent a mystical colouring to his pessimism. In his Sardonic Tales(39) a collection of stories equating love with death and exemplifying the fin-de-siecle romantic manner, Villers quotes Goethe's last words ("Light..... light!") below the title of the first tale, "Olympe et Henriette," a story based on Pascal's theory of the relativity of good and evil. In "The Unknown" he writes of the illusion of sensual love: "....... everything on earth is only Illusion; and ..... every passion accepted and conceived in sensuality alone soon becomes more bitter than death to those who have given themselves up to it."(40).

It would appear from Axel and Sardonic Tales that Villiers shared with Conrad strongly anticarnal feelings which were related to a broader revulsion against Nature, and that he rationalised these feelings within a markedly dualist world-view. A principal difference in his outlook and

ideas on Conrad s father, Apollo Korzeniowski. Apollo wrote a preface to his translation of "Chatterton" in which he "extolled Vigny's philosophy of life." (28) According to Roman Taborski's Life of Apollo Korzeniowski,(29) the preface contained a romantic defence of suicide, the very point against which objections had been made in Catholic France and Poland. De Vigny aimed in his work to combine poetry and philosophy in a manner that interested Apollo Korzeniowski, and perhaps also Conrad; in the preface Vigny wrote to his Collected Poems (1837), he claimed that his verses were "the first of their kind in France, in which philosophic thought is clothed in epic or dramatic form."(30) The seeds of Conrad's conception of the role of ideas in literature may therefore possibly be found in Vigny, as also perhaps the germ of his thinking about suicide; but it would be injudicious to emphasise any literary, and especially romantic, influence that might have been passed to Conrad directly from his father. On virtually all such matters Conrad consciously diverged from him.

Finally, Conrad's possible debt to Villiers de l'Isle Adam: a number of critics, following Katherine Haynes Gatch, (31) have pointed to the strong thematic parallels between Victory and Villier's Axel, which was published in 1890 and first produced in Paris in 1894. Reviewing the stage production for "The Bookman", Yeats wrote, "Seldom has utmost pessimism found a more magnificent expression."(32). To those who read Conrad's Victory as also a work of "utmost pessimism", the two works are identical in spirit, and there are many similarities of detail.

The manuscript of Victory shows(33) that Conrad began by calling his hero Augustus Berg (the phonetic relation of the name is remarkably close to that of Axel's hero, Axel Auersberg) and only later changed it to Axel Heyst. Heyst was the son of a baron and philosopher whose nihilism (strongly suggestive of the pessimism which marked the thought of Villiers) led him to instruct his son to practise a life of detachment, and to hold the world and mankind in "full and equable contempt", while Axel Auersberg retreats to his mountain castle for precisely the same reasons, to live a life of contemptuous detachment. Both men were suspected of concealing a "treasure", although the only treasure they have is their solitude, and both fail to attain or retain their ascetic ideals through the intervention of a woman. Both end their lives in self-immolation.

was always attracted by literature which expressed ideas, and occasionally made liberal use of ideas and images from other writers, it cannot be said that they contributed significantly to the formation of his attitudes.

Conrad apparently knew Balzac's work well.(24) Baines believes that he may have learned something of the technique of the time-shift from Balzac: for example, the switches in Amayer's Folly almost exactly parallel those in Le Curé de Tours.(25) But, as is so often the case in attempting to trace technical influences, Baines concludes that "this device.... is too common for it to be possible without concrete evidence to pin it down as an influence." (26) Certainly, the outlook reflected in Balzac's novels make him as different from Conrad as the style of their lives and personalities might suggest.

Conrad was also compared often during his lifetime with Pierre Loti, again chiefly for stylistic reasons. Loti's prose abounds in "Conradese" – "incomprehensible," "Profondeurs cosmiques," "vagues infinies" – that perhaps reveal some similarity of verbal usage; but Loti's novels are empty of all but style beside Conrad's; it must have pained Conrad to have had The Nigger of the Narcissus compared(27) by so usually perceptive a friend as Henry James with Loti's effusions. Of Daudet, on the other hand, Conrad had a high opinion (Hueffer claimed that Almayer's Folly was influenced by Daudet's style. Sometimes one wonders whether there is any French writer who has not been seen as an influence on that book). But, once again, the possibility of influence was purely stylistic.

Conrad's earliest exposure to French literature was through his father's translations of De Vigny and Hugo, and it remains only to examine their possible influence on him before turning to a more likely and important influence from Villiers de l'Isle Adam. It would seem that Conrad's appreciation of Les Travailleure de la Mer was neither literary nor philosophical – he read it for the same vicarious pleasure in travel and adventure that he got from Captain Marryat and the novels of Fenimore Cooper. It might be said that Conrad's novels produce the sense of uneasiness that has been remarked on in Hugo, but in Conrad there are specific and traceable reasons for that feeling, and his social, political and ethical outlook plainly differed widely from Hugo's. De Vigny, however, may have had some effect on Conrad's views indirectly, through the impact of his

contrary of Turgenev's. This is disputed by Kirschner, who claims that their "general philosophical assumptions can sound strikingly close."(21) He later admits that, despite some possible borrowings, "if Rudin stimulated Conrad's imagination in Lord Jim, the difference in outlook is fundamental,"(22) yet he goes on to surmise that Stein's philosophising (in fact so clearly based on Tadeusz Bobrowski's) may owe something to Turgenev's story "Enough", which Conrad read while he was working on the chapter of Lord Jim in which Stein appears.

But "Enough" shows Turgenev as concerned primarily with the artist's view of Nature; he was interested in the aesthetic relationship. Stein (and Conrad), on the other hand, were decidedly not interested in this facet, but solely in the ethical position of man and Nature. Where Turgenev saw in nature life, beauty and goodness Conrad saw death, ugliness and evil. Conrad may have picked up the butterfly image in Lord Jim from Turgenev's "Enough" but he also invented for himself the beetle image in the same passage. There is in Turgenev a deep love of nature, most evident in A Sportsman's Sketches and his autobiographical writings, amounting at times almost to Pantheism, which contrasts completely with Conrad's strange distrust amounting almost to fear.

Also separating him from Conrad is the fact that Turgenev's female characters are almost always stronger, more attractive and more sympathetically drawn than his men – a point of view decidedly alien to Conrad. One feels that Conrad was rather "pushed" into admiring Turgenev, principally by Constance and Edward Garnett (in 1900, Garnett sent his wife's translation of Turgenev stories to Conrad, commenting in his inscription, "Enough" is very like the philosophy of your novels.")(23) and also by Henry James, who had written a preface for a Turgenev translation, and whose critical judgement Conrad valued highly. Because of the Slav background they shared, Conrad and Turgenev were repeatedly compared in terms mutually complimentary. For these reasons, Conrad carefully excepted Turgenev when voicing his dislike of the Russian novelists. Indeed, Turgenev was in some respects more French than Russian. But many of Conrad's remarks against Dostoevsky, for example, nevertheless still might have been applied to Turgenev's writing. In any case, by 1900 Conrad's outlook can be said to have been fully formed, and although he

characters from Anatole France, as Kirschner shows, but he made very different use of them, so that the "influence" of Anatole France on his work was approximately that of Holinshed on Shakepseare.

Conrad also wrote on and professed to admire Turgenev, a writer whose influence may be considered as "French" because of his close literary connections with France and French writers. Turgenev revealed his views on human character in a lecture delivered in 1860 in which he divided men into two basic types who differ by their relation to the idea; he called them the Hamlets and the Don Quixotes. (Conrad felt "vaguely flattered at the name of the immortal knight turning up in connexion with my own folly"(16) when his childhood tutor Pulman called him an incorrigible Don Quixote for wishing to go to sea.) For Turgenev, Don Quixote represented "faith in the truth.... existing outside of the individual... which is attainable only by constant devotion and the power of self-abnegation."(17) Hamlet, on the contrary,"..... is a sceptic, and always pothers about himself; he is ever busy, not with his duty, but with his condition..... he is conscious of his weakness; but even this self-consciousness is power: from it comes his irony, in contrast with the enthusiasm of Don Quixote."(18) Turgenev evidently ranked himself as a Don Quixote (he was obsessed by Cervantes throughout his life – in 1878 he "vowed never to write anything again, and threatened once more to devote himself entirely to a translation of Don Quixote"(19) Conrad, despite his tutor's hasty characterisation, was, in Turgenev's terms, a Hamlet, for he had no belief in the brand of external truth imagined by Turgenev (and Tolstoy), and "of self abnegation" he was exceedingly suspicious: "......... in my opinion, abnegation carried to an extreme... is not only profoundly immoral but dangerous, in that it sharpens the appetite for evil in the malevolent and develops (perhaps unconsciously) that latent tendency towards hypocrisy in the.... let us say benevolent."(2) An example of a "Don Quixote" in Conrad's work is Kurtz in "Heart of Darkness", who is roundly condemned by Marlow/Conrad for his outlook.

The Hamlet-figures in his work (e.g. Lord Jim and Axel Heyst) do indeed fit Turgenev's description; it might be said that in contrasting Jim with Captain Brierly in Lord Jim, for example, Conrad had in mind their superficial resemblance to each other in Turgenev's terms. But despite his interest in one of Turgenev's types, Conrad's outlook was nevertheless almost the

the litterateur, the lie to Walpole amounts only to a repudiation of Flaubertian influence. Although many critics have claimed to perceive "undeniable similarities between Madame Bovary and Almayer's Folly in choice of subject and treatment,"(12) these seem to me less important in comparison with the multitude of differences between the two works.

Certainly, Conrad found Flaubert a congenial writer in many respects, and it is probably that he acquired from the French Realists (though not solely from Flaubert) and Naturalists the technical equipment of narrative exposition, and perhaps also his point of view, of ironic detachment from the fate of his characters. But these debts are of a technical and aesthetic order. His preference for La Tentation de Saint Antoine over Madame Bovary indicates his greater interest in a work of a mystical nature whose central theme is asceticism and the perception of evil. One of the sages whom St. Antoine visits with Hilarion to learn the secrets of Creation holds the view that, "The darkness having advanced as far as his kingdom, God drew from his essence a virtue that produced the first man... But the demons of darkness stole a part of man from Him, and that part is the soul.."(13) In such mystical dualism lay the attraction of Flaubert for Conrad.

One notices similarities between Captain Anthony of Chance and Flaubert's Saint Antoine, and Flaubert's themes are echoed in Victory, but this is not to say that Conrad collected his most deeply felt views from Flaubert.

A number of other, lesser influences from French literature are discernible. Conrad greatly admired the novels of Anatole France, and he was obviously sympathetic to that writer's scepticism, although in his review of Crainquebille he regretted that the novelist was "something of a Socialist", and thus seemed to "depart from his sceptical philosophy/"(14) Conrad went on in the same review to make clear by comparison his own scepticism: "M. Anatole France is humane. He is also human. He may be able to discard his philosophy; to forget that the evils are many and the remedies are few, that there is no universal panacea, that fatality is invincible, that there is an implacable menace of death in the humanitarian idea. He may forget all that because love is stronger than truth."(15) The heavy irony of the last sentence shows the distance Conrad felt between his own and Anatole France's outlook. Conrad did lift whole paragraphs and even the bones of

excluded by virtue of their superiority. The difference between these passages from Conrad and Maupassant, in the scope of their views on isolation is the difference between the Camus of L'Étranger and the Colin Wilson of The Outsider. To say that the former is derivative from the latter is hardly credible. Kirschner, I think, amply provides his case for a stylistic influence on Conrad from Maupassant, but fails to show any derivation of outlook or close similarity.

Of Flaubert's influence on Conrad, Hueffer wrote, "Our chief masters in style were Flaubert and Maupassant: Flaubert in the greater degree, Maupassant in the less."(8) H.-D. Davray, after a visit to Conrad, reported: "He cited passages with a sureness that showed an intimate knowledge of..... Flaubert."(9) Hugh Walpole early pointed out the alleged influence of Madame Bovary on Conrad's early works, but Conrad, who always denied this, replied to Walpole: "You say that I have been under the formative influence of Madame Bovary. In fact, I read it only after finishing Almayer's Folly, as I did all other works of Flaubert, and anyhow, my Flaubert is the Flaubert of St. Antoine and Education Sentimentale and that only from the point of view of the rendering of concrete things and visual impressions. I thought him marvellous in that respect. I don't think I learned anything from him. What he did for me was to open my eyes and arouse my emulation. One can learn something from Balzac, but what could one learn from Flaubert? He compels admiration, – about the greatest service one artist can render to another."(10)

It seems to me that Conrad's denial of Flaubertian influence has not been taken seriously enough; instead, the unimportant white lie has been seized on by several Conradian scholars who quote the letter Conrad wrote to Marguerite Poradowska in 1892 while he was working on Almayer's Folly, in which Conrad says that he had "reread Madame Bovary with respectful admiration", adding, "There you have a man with enough creative imagination for two realists. There are few authors so creative as he. One never questions of a moment either his characters or his episodes; one would doubt rather one's own existence."(11) It seems unlikely that Conrad would have forgotten, or even bothered to lie about, reading Madame Bovary if he had felt its influence while writing Almayer's Folly; assuming that he wrote genuinely to Mme. Poradowska and was not merely playing

therapy" by performing some usually manual task in order to preserve their sanity or their moral balance, in much the same way as Jane Austen's hereoines must, at moments of great crisis, retire alone to their rooms for periods of reflection.)

It is not my purpose here to trace in any detail the stylistic influence of French writers on Conrad. Paul Kirschner's book has done that, although sometimes with rather strained parallels. It will be enough here to indicate broadly Conrad's interest in certain French stylists before looking at the ideas of life these writers held.

Conrad seems to have been most strongly attracted by the style of De Maupassant, but he also found in him a wry, ironic humour verging on the grotesque, and the two writers shared an interest in the "idee fixe". Maupassant's "L'Épreuve", "La Ficelle," and "Madame Hermet" are studies of fixed ideas – their central characters are obsessed by single ideas as are the protagonists of Conrad's Nostromo and Lord Jim. Maupassant wrote, "Fixed ideas have the gnawing tenacity of incurable diseases";(4) both he and Conrad in their works dissected and examined such obsessions as if they were tumours. Nevertheless, their conclusions were very different. Kirschner believes, for example, that Conrad's notions of isolation may derive from reading De Maupassant, but he fails to notice the essential differences in the passages he quotes as parallel:(5) in "L'Inutile Beauté", Maupassant has Roger de Salins say, "Thought, hatched and developed by a miracle of the brain cells of our head, all powerless, ignorant and confused as it is and will remain, makes of all us intellectuals eternal and wretched exiles on this earth."(6) Beside this Kirschner places a passage from one of Conrad's letters to Marguerite Poradowska (an unfair choice to begin with for most of Conrad's letters to her are marked by a self-conscious literary posturing): "It is the price one pays for the devilish and divine privilege of thought; so that in this life it is only the elect who are convicts – a glorious band which comprehends and groans but which treads the earth amidst a multitude of phantoms..."(7) Conrad is here expressing, although rather artificially, an idea that was central to his view of life; it is a purely gnostic idea, of a captive "elect" who suffer for their lack of human illusions. Roger de Salin's words, on the other hand, imply no idea of ethical order, but merely express in romantic terms the frustration felt by intellectuals at being

he left no record of this.

Conrad had a lifelong addiction to tales of travel and adventure, but on his early voyages abroad French ships to the West Indies and South America he may have tried to improve his French by reading some more consciously literary works. His later references to Balzac, Daudet, Anatole France, Maupassant and Flaubert, for example, suggest that he had read them critically during the years he had spent at sea, attending as much or more to points of style than to the stories told. During the five years he was engaged on the composition of his first novel, Almayer's Folly (1889 to 1894), Conrad was absorbed with problems of literary style, and it seems reasonable to assume that much of his reading of French masters of technique took place then.

He also read widely, if not very deeply, in English literature while at sea, but in the English novelists he did not find what he wanted: "The national English novelist seldom regards his work – the exercise of his Art – as an achievement of active life by which he will produce certain definite effects upon the emotions of his readers, but simply as an instinctive, often unreasoned, outpouring of his own emotions. He does not go about building up his book with a precise intention and a steady mind. It never occurs to him that a book is a deed, that the writing of it is an enterprise as much as the conquest of a colony. He has no such clear conception of his craft."(3)

It was precisely the "clear conception of......... craft" in French novelists that attracted Conrad; moreover, the contemporary French attitude towards literary production was in keeping with Conrad's own philosophy of work. The French writers he most admired were men who did not rely on occasional bursts of inspiration, but sat down day after day Trollope-like to compose and refine their prose. In the eleven years between the time Conrad joined an English ship and started writing Almayer's Folly, he completely adopted his uncle Tadeusz Bobrowski's rather Calvinistic ethic of work. In his career, he doggedly studied for and sat successive examinations through to his Master's Certificate. By the time he set out to write, he had formed the idea that hard work was not only necessary, but also in some way a purifying corrective of falsity and illusion. (A remarkable number of Conrad's characters must occasionally undergo "occupational

"FRENCH LITERARY INFLUENCES ON JOSEPH CONRAD"

Dr. Leighton Pratt

Conrad scholars have grown used to looking for influences on his work in his Polish background, or his sea-faring years, or through contemporary English writers – and friends – such as Ford Madox Hueffer and Henry James. These influences have been amply documented in recent years

The once-fashionable area of possible influence from French sources, mined extensively by his first biographer, Jean Aubry(1) in the 1920's, has been ignored in recent criticism. With the notable exception of an important French-oriented study by Paul Kirschner(2) as long ago as 1968, the French side of Conrad's art has been allowed to lie fallow. And yet, no serious attempt that I know of, has been made to collect together, document, and assess, possible French literary influences on Conrad. We know from Kirschner of instances of direct borrowings, (some would say plagiarism in translation) from several French writers, and of their stylistic influence, but of the larger possible influence on his outlook we have little scholarly work that is not simply impressionistic.

Conrad left Poland for Marseilles when he was seventeen years of age. French was his first foreign language; it was not until he was twenty one that he began using English, as a crewman aboard an English vessel. The four year immersion in French life might be taken to correspond with his "university years", and we should seriously ask whether the literary side of that culture did not quite naturally have a formative influence upon him.

It is unlikely that Conrad read widely in French between 1874 and 1878; as a young apprentice seaman he would not have had the leisure time nor indeed perhaps the energy, and his accounts of the period indicate that his attention was wholly concentrated on gaining practical experience. However, it is probably that at the Café Bodoul, or at the "Bohemian" cafe, both of which he patronised in Marseilles, he heard poets reading from their works: members of the "Cercle Artistique" made a point of reading their poetry in the cafes of the port. It is also likely that he read some newly published books as a result of having heard them discussed by his acquaintances, but

CONTENTS

10. Typescripts and accompanying materials (whether or not accepted for publication) will not be returned to the authors.
11. Opinions expressed in an article are those of the author and do not necessarily represent the views of the Editorial Board.
12. Order of articles published within each issue of the Bulletin is based on technical considerations and bears no relation either to their relative importance or to the author's academic status.
13. All Correspondence should be addressed to the Editor.

Professor Fathalla Kholeif
Chirman of the Editorial Board
University or Qatar
P. O. Box 2713
Doha, State of Qatar
Arabian Gulf

PUBLICATION OF RESEARCH IN THE BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES

1. The Editorial Board invites contributions based on research within the areas covered by the Bulletin of The Faculty of Humanities. Articles on topics relating to the Gulf and the Arabian Peninsula are particularly welcome, but the results of research in other fields of specialization may also qualify for acceptance.
2. To be accepted an article must fulfil the normal requirements for contributions to learning. (e.g. sound knowledge, accuracy, originality) and include full references to sources and other material used. Articles containing descriptive work only will not be accepted. Footnotes and other annotations and references must follow international rules.
3. Contributions which have already appeared in print are not acceptable. After an article has been approved for publication in the Bulletin, the author is required to sign an undertaking not to publish it elsewhere.
4. The Bulletin is open to contributors not only from the University of Qatar but also from universities and institutions of higher learning in other countries. Articles should normally be written either in Arabic or in English.
5. Articles should be typed in double spacing and submitted in two copies. The length of an article should not exceed thirty quarto (27 by 21 cm) or twenty-five foolscap (32 by 21 cm) pages (= about 10,000 words) and not be less than fifteen pages of similar dimensions.
6. Diagrams, figures and maps should be drawn in Indian ink on transparent or glossy paper of the same size or less than a page of the Bulletin. Photographs should be clear and printed on glossy paper no larger than postcard size.
7. The author of an article published in the Bulletin will receive twenty offprints, together with an honorarium fixed by the University of Qatar.
8. An Article approved for publication may not necessarily appear in the issue of the Bulletin next following.
9. Contributions are considered by assessors from the University of Qatar or elsewhere, and in each case the assessor's verdict is binding and final. The author's and the assessor's identities will not be disclosed.

The Bulletin is issued annually by the Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Qatar.

EDITORIAL BOARD

UNIVERSITY OF QATAR

BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 14

1991

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٣٩٥ لسنة ١٩٩١ م

طبع بمطابع مؤسسة العهد
الدوحة - قطر

UNIVERSITY OF QATAR

BULLETIN OF THE FACULTY OF HUMANITIES AND SOCIAL SCIENCES

VOLUME 14

1991